

ستيفن رانسيمان

تاريخ

الحملة الصليبية

١ - من كليرمونت إلى اورشليم

ترجمة

نور الدين خليل

الجزء الأول

الطبعة الثانية

ستيفن رانسيمان

تاريخ الحملات الصليبية

١- من كليرمونت إلى أورشليم



الطبعة الثانية

<http://al-maktabeh.com>

الطبعة الأولى: ١٩٩٤ الهيئة المصرية العامة للكتاب

الى الاسكاذيل والحق
والله الغاضب فبعضه
مع فمادى الفاصلة الخالص

نور الدين خليل
يوليو ١٩٠٠

تاريخ الحملات الصليبية

١- من كليرمونت إلى اورشليم

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المحتويات

٩	مقدمة الطبعة الثانية
١١	مقدمة الطبعة الأولى
٢١	مقدمة المؤلف
الباب الأول: أماكن العالم المسيحي المقدسة	
٣١	الفصل الأول: رجسة الخراب
بقاء الامبراطورية في الشرق - النساطرة والوحديطبيعون - تصدع في سوريا - الحرب الفارسية - الجزيرة العربية قبل الإسلام - الفتح العربي لسوريا - فتح مصر	
٥٧	الفصل الثاني: حكم مناهض المسيح
الذميون - الارثوذكس تحت الحكم الإسلامي - الخلافة الأموية - الخلافة العباسية - شارلمان وفلسطين - الامبراطور تسيميسس - السلام بين بيزنطة ومصر - الحاكم بأمر الله - المسيحيون في رخاء	
٨٣	الفصل الثالث: حجاج المسيح
الحجاج الأوائل - حجاج القرنين الثامن والتاسع - عصر عظيم للحج - الحجاج الاسكندنافيون - السفر عبر الحدود	
١٠٥	الفصل الرابع: صوب الكارثة
انهيار الاقتصاد البيزنطي - كومنينوس ودوكاس - أبناء تانكريد دي هوتفيل - الأتراك يتحركون غربا - نهاية أرمنيا - معركة مانزكيرت	
١٢٥	الفصل الخامس: اضطراب في الشرق
دخول الأتراك آسيا الصغرى - روسيل أوف بيلويل - أليكسيوس كومنينوس يعتلي العرش - الامبراطور أليكسيوس - الأرمن في طوروس - الغزو السلجوقي لسوريا - الدانشمند وشاكا - مصاعب الحجاج	

الباب الثاني: التبشير بالحرب الصليبية

الفصل الأول: السلام المقدس والحرب المقدسة ١٤٩

حركات من أجل السلام - الهدنة في الأيام المقدسة - المنصور - الحرب المقدسة في إسبانيا

الفصل الثاني: صخرة القديس بطرس ١٦٧

روما والقسطنطينية - صدع سنة ١٠٥٤ ميلادية - مخطط حريجوري السابع لحرب صليبية - تنصيب البابا ايربان الثاني - المجلس الكنسي في بياتشانزا

الفصل الثالث: الدعوة ١٨٧

مؤتمر كليرمونت - تنظيم الحملة الصليبية - ايربان يعود الى إيطاليا - بطرس الناسك - حماس الرؤيا - استعدادات الإمبراطور

الباب الثالث: الرحلة إلى الحرب

الفصل الأول: حملة الشعب ٢٠٨

والتر (المفلس) - بطرس يدخل الإمبراطورية - وصول بطرس إلى القسطنطينية - غارات الصليبين - كارثة في سفيتوت - فشل حملة الشعب

الفصل الثاني: الحملة الصليبية الألمانية ٢٢٧

الاستيلاء من اليهود - المذابح الأولى - مذابح في ميتر وكولونيا - نهاية حملة لميش

الفصل الثالث: الأمراء والإمبراطور ٢٤١

جودفري أوف لورين - جودفري في المجر - وصول جودفري إلى القسطنطينية - معركة الأسبوع المقدس - احتفال التكريم - مسيرة بوهموند عبر البيندوس - وصول بوهموند إلى القسطنطينية - ريموند أوف تولوز - رحلة ريموند - ريموند والإمبراطور - روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا - بالدوين أوف ألست - نجاح تنظيم الإمبراطور - مصالح الإمبراطور

الباب الرابع: الحرب ضد الأتراك

الفصل الأول: الحملة في آسيا الصغرى ٢٨٣

تجمع الصليبيين أمام نيقية - المعركة خارج نيقية - الاستيلاء على نيقية -
الطرق خلال آسيا الصغرى - معركة دوريليوم - الفرنج والأتراك - عبر
صحراء الأناضول - على حدود الأناضول - الصليبيون ومرشدوهم
اليونانيون

الفصل الثاني: الفاصل الأرميني ٣١١

بالدوين وتانكريد يغزوان كيليكيا - جونيمر أوف بولونيا - بالدوين
وتانكريد يغادران كيليكيا - بالدوين يتقدم إلى الفرات - الحملة على
سميساط - بالدوين وثوروس - زواج بالدوين - المؤامرة ضد بالدوين

الفصل الثالث: أمام أسوار أنطاكية ٣٢٣

ياغي سيان يبحث عن حلفاء - المعسكرات أمام أنطاكية - نفاد إمدادات
الطعام - المجاعة - بطرس الناسك يحاول الهرب - بوهموند يهدد
بالانسحاب - معركة على طريق السويدية - مفاوضات مع الفاطميين -
مؤامرة للاستيلاء على أنطاكية - عشية الهجوم - الاستيلاء على المدينة

الفصل الرابع: الاستيلاء على أنطاكية ٣٦٥

اقترب كربوقا - أليكسيوس في طريقة إلى أنطاكية - تدخل ما وراء الطبيعة
- رؤى بطرس بارثولوميو - اكتشاف الرمح المقدس - سفارة بطرس
الناسك - الانتصار على كربوقا - طباع سيئة - موت أدمار أسقف لوبوي
- مسألة اللادقية - غارات الصليبيين - الهجوم على معرة النعمان - جيش
ريموند ينطلق إلى القدس

الباب الخامس: أرض الميعاد

الفصل الأول: الطريق إلى القدس ٤٠٣

الأمراء السوريون - الصليبيون في حصن الأكراد - حصار أرقا - مسألة
الرمح المقدس - الصليبيون أمام طرابلس - احتلال الرملة

الفصل الثاني: انتصار الصليب ٤٢٣

الدفاع عن القدس - معاناه المحاصرين - ترتيبات الهجوم - المنتصرون
يرتكبون المذابح

الفصل الثالث: أدفوكاتوس سانكتي سيالكري (حامي القبر المقدس) ٤٣٧

مؤامرات من أجل العرش - انتصار جودفري - جودفري ورفاقه - الانتصار
في عسقلان - ديامبرت أوف بيزا - بوهيموند وديامبرت في اللاذقية - حج
بوهيموند في القدس - ديامبرت يصبح بطريقاً - بوهيموند وبالدين يعودان
إلى الشمال - جودفري وأمرأء الساحل - غارات عبر الأردن - جودفري
في مرضه الأخير

الفصل الرابع: مملكة أورشليم ٤٧١

ديامبرت يلجأ إلى بوهيموند - ريموند في زيارة القسطنطينية - بوهيموند في
الأسر - رحلة بالدين إلى القدس - الملك بالدين

المرفق الأول : ٤٨٩

المصادر الرئيسية - لتاريخ الحملة الصليبية الأولى

المصادر اليونانية - المصادر اللاتينية - المصادر العربية - المصادر الأرمنية

المصادر السورية

المرفق الثاني : ٥٠٥

قوة الصليبيين العددية

ثبت المراجع : ٥١٣

ثبت الخرائط

خريطة رقم (١) ضواحي القسطنطينية ونيقية في وقت الحملة الصليبية الأولى ٢١٨

خريطة رقم (٢) شبة جزيرة البلقان في وقت الحملة الصليبية الأولى ٢٣٢

خريطة رقم (٣) آسيا الصغرى في وقت الحملة الصليبية الأولى ٢٤٤

خريطة رقم (٤) أنطاكية سنة ١٠٩٨ ٣٣٩

خريطة رقم (٥) سوريا في وقت الحملة الصليبية الأولى ٤٠٩

مقدمة الطبعة الثانية

تحية وتقدير ..

أولاً : للمؤلف " ستيفن رانسيما " وهو نموذج فريد في عصره ...
كان جزاء كلمة الحق لوم اللائمين من بني جلدته أصحاب الحضارة المدعين !
وقد أشار هو نفسه إلى ذلك في تقديمه للجزء الثالث ...

وثانياً : لرفيق الحياة والدراسة أخي الأستاذ محمود آدم
الذي صاحبني في هذه الرحلة الصليبية من ألفها إلى يائها ...
وكان له من سديد الرأي ، وثاقب النظرة ، وعمق البصيرة ، ما أعان علي هذه الترجمة
ومراجعتها والتقدم لها ...
وصدق أحمد فارس الشيدياق حين قال :
ومن فاته التعريب لم يدر ما العنا
ولم يصل نار الحرب إلا المحارب

وثالثاً : لأهلنا في العراق ...

وهم يواجهون الصليبيين الجدد ، أصحاب الحضارة المدعين !!!
في أحدث وأشرس الحملات الصليبية ... " الحملة الصليبية الأمريكية " ... !!!

ورابعاً : لرجال لم يوجدوا في عالمنا بعد ...
لكنهم قادمون ... والله سوف يجيئون !!
يسمرون علي درب أسلافهم ... نور الدين زنكي ، وشمكوه ، وصلاح الدين ...
وإن طال الزمان ... سيأتون !!

والله سبحانه وتعالى من وراء القصد وهو ولي التوفيق !!!

المترجم

الإسكندرية في ١٠ رمضان ١٤١٩ هـ

٢٩ ديسمبر ١٩٩٨ م

مقدمة الطبعة الأولى

التاريخ والتاريخ

يقصد بالتأريخ على الإجمال تلك الفروع التي تتناول مناهج كتابة التاريخ وطرائق البحث التاريخي التي تنتهي بنا إلى ما يتعارف على تسميته بـ "التاريخ".

وللتاريخ تراث تطور عبر ثقافات متنوعة تسبق عالمنا الحديث. ففي اليونان وروما كانت كتابة التاريخ تعتبر فرعاً من فروع الأدب، وكان تقييم الأعمال التاريخية يعتمد على أسس تولي مزاياها الدرامية والأسلوبية أهمية لا تقل عما توليه للدقة التي يفترض أن تتميز بها تلك الأعمال. وفي العصور الوسطى اهتم التأريخ المسيحي في أوروبا بإضفاء قيمة خاصة على "التأثير الإلهي" في شؤون البشر. وتميز عصر النهضة

بشغفه بالعصور القديمة ووثبيتها، وأدى ذلك فيما بعد إلى تطور الدراسات (التاريخية) القديمة والقائمة على فقه اللغة، وإلى محاولة التركيز على الأسلوب؛ ثم بدأ الوعي يتجه تدريجياً إلى عملية التغير التاريخي. وعند بداية القرن التاسع عشر ظهر التأريخ كفرع مستقل يتناوله الأكاديميون المحترفون.

على أن من يتطلع لما يدور حوله في عالمنا المعاصر يتيسر له أن يستخلص أن التاريخ لا يمكن بأية حال أن يكون سهل المتناول. فعالمنا الحديث، وإن غدا عالماً صغيراً سهل فيه الاتصال، على نحو لم يكن متحققاً فيما مضى، يحار المرء فيه حيال ما يتناهى إلى أسماعه من هنا ومن هناك، ولا يكاد يستطيع أن يفرق بين غث وسمين برغم ما يتاح الآن من أداة علمية لا شك في كونها قادرة. وإن شئنا أن نمثل لذلك فإننا نشير إلى المدرستين اللتين تولتا التأريخ للحرب العالمية الثانية. فالمدرسة الشرقية، ونعني بها المدرسة الروسية، تنحو نحواً؛ والمدرسة الغربية، ونعني بها الاتجاهين السائدين في غرب أوروبا والولايات المتحدة، تنحو نحواً آخر يغيّر الاتجاه الشرقي، وذلك برغم أن الشرق والغرب اللذين نشير إليهما كانا حليفين في الحرب يستجمعان قواهما ضد قوة ثالثة تمثلت في دول المحور التي هُزمت في نهاية المطاف ولم يُقدّر لها أن تؤرخ لنفسها ومن ثم غابت مدرسة ثالثة كان يمكن أن تعطينا تاريخاً يغيّر اتجاهه الاتجاهات التي اتخذتها مدرستا الشرق والغرب. ويُستخلص من ذلك أن اتفاق الهدف بين الشرق والغرب في القضاء على هتلر لم يكن ليؤثر في اختلاف المصالح من ناحية، وفي تباین الانتماء الأيديولوجي من ناحية أخرى.

وليس ثمة شك في أن الشرق والغرب كانا يستهدفان أن يقضي كل منهما على الآخر بأن يحقق أيهما نصراً سياسياً يؤدي إلى تسيّد الأيديولوجية التي ينادي بها. ولعلنا نرى الغرب في هذا العقد الأخير من القرن العشرين وقد أوشك أن يحقق نجاحاً

في إزاحة المذهب الشيوعي الذي ظل أصحابه لما يناهز سبعين عاماً يدعون أنهم أصحاب عقيدة لا بد لها من أن تسيطر على أرجاء العالم كله في نهاية الأمر . ولم تكن النظر فيما سجلته من تاريخ عبر السنوات السبعين التي خلت . ومن ثم نجد المرء نفسه محيراً إزاء "تواريخ" يكتبها الناس عن الناس أو يكتبها الناس عن أنفسهم.

وهذا يعني أن عالماً شَبَّت أداة بحثه عن طرقها، وبلغت قدرته رشدًا، يجاوز في محاولته التأريخ الرشد إلى غي لم يكن ينبغي له إذا التزم الإنسان الأمانة والحيدة وحاول أن ينصف نفسه ويتصف لغيره، ذلك إذا أردنا التعميم. وإن شئنا أن نضيق النظرة فأجلناها فيما يدور في العالم الثالث، أو ما يعن للغرب أن يسميه عالماً ثالثاً، فإننا نرى أن تعاقب أنظمة الحكم في بعض تلك الدول يتيح لنا أن نقرأ تواريخ متباينة تختلف من نظام إلى نظام في الدولة الواحدة.

والغريب في ذلك أن أبناء تلك الدولة يعيشون تاريخها في ظل نظام، وتمتد بهم الأيام ليعيشوا تاريخها في ظل نظام آخر فإذا تعرض عليهم وعلى عقول أبنائهم تاريخاً يختلف أو يكاد يختلف تماماً عما سبق أن رأوه أو عايشوه.

وخلاصة القول في هذه المسألة أن التاريخ الحقيقي على عمومته يكاد يكون مغيباً ولا بد للباحثين، معاصرين كانوا أو لاحقين، من أن يضربوا في تلك المتاهات محاولين أن يخرجوا منها بما يقارب اليقين. وهذا بدوره قريب من المستحيل، فالإنسان هو الإنسان، لا يستطيع في أية حال أن يبلغ كمالاته وإن حاول. فبغرض اكتمال قدرته واستقامة أدواته تبقى حيدته أمراً صعب المنال، فهو ابن حضارته يلتزم بعقيدته ولا يكاد يستطيع أن يغفل انتماءه بالوعي حيناً وباللاوعي حيناً آخر.

على أننا لا نبلغ في ذلك مبلغ اليأس كله، فالإنسانية عبر تاريخها أنجبت قلة من أولئك الأفذاذ الذين ألقاهم عبقريتهم إلى التزام مقتضيات العقل والمنطق وما ينبغي أن يكون فيما يحاولونه من عطاء في شتى أوجه المعرفة. وهناك من المؤرخين الذين اجتهدوا

جهدهم من يصدق عليهم ذلك؛ وإن كان هذا الجانب المشرق الذي تتحقق فيه غاية الرحمن من خلق الإنسان ما يشوبه من مأخذ تفرضها غلبة الكثرة الضالة على القلة الممّزة. ولعلنا نذكر في هذا الصدد واحداً من أعظم المؤرخين، وهو ادوارد جييون، الذي أرّخ للإمبراطورية الرومانية فأعطى للبشرية صورة رائعة لما يمكن أن يبلغه جهد الباحث المدقق، في حيدة وأمانة، من انجاز لا يستطيع أصحاب الهوى التصدي له مهما أوتوا من قدرة. ويكفي أن نشير إلى أنه أنفق ثلاثة وعشرين عاماً مذبذباً يفكر في كتابة تاريخه الشهير "اضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية" وإلى أن انتهى منه، وأن نشير إلى أن هذا "التاريخ" الذي لم يكتب جييون سواه أقام الدنيا وأثار ثورتها ووضعته الكنيسة الكاثوليكية على رأس قائمة الكتب المحظورة، وما يزال باحثوا الغرب حتى يومنا هذا يحاولون النيل من هذا العمل دون طائل.

الحاجة الماسة إلى مدرسة تأريخ عربية

إن للإسلام حضارة عربية المهد عالمية القصد. ودور الحضارة الإسلامية في تاريخ البشرية أخطر من أن يشار إليه في سياق ضيق، لكننا نورد ذكره لأنه يوجب على المسلمين أن يؤرخوا لأنفسهم، وألا يتركوا ذلك لغيرهم، فغيرهم ولا شك قـادرون، ولكنهم غير منصفين يذهب بهم الهوى والمصلحة مذاهب شتى، فلا ينكرون دور الحضارة الإسلامية في قدم العالم وحديثه، ولكنهم ينصرفون بهذا الدور منصرفاً ينجح إلى السلب. وكيف لا والحضارة الإسلامية قلّصت دور حضارتهم وأذنت بانقضائه فيما مضى، وتؤذن بانقضائه فيما هو آت عندما يُقدّر للمسلمين عود إلى ما كانوا وما ينبغي أن يكونوا عليه.

فبعد أن كان المسلمون هم أصحاب المعرفة، بكل جوانبها وفي كل آفاقها، وبعد أن أتاحوا لما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة أسباب وجودها ومقوماتها، تناهوا مع

الأيام عن الجادة التي أبلغتهم وأبلغت غيرهم ما لم يكونوا بالغيه، فآل أمرهم إلى غيرهم، وقصرت أداثهم وضائق آفاقهم فأصبحوا يعولون على من لا يبغون إلاّ مضرتهم وإذلالهم. ولكم تستشعر العقلية العربية والإسلامية القادرة في يومنا هذا الخزي كل الخزي وهي ترى أن علماءنا قد حيل بينهم وبين ينابيع الثقافة الإسلامية الأصيلة، وهي ثروة وفيرة، فاتخذوا في غالب الأمر دروباً غريبة إلى معرفة توشك أن توردهم موارد التهلكة. وربما يبحث المرء عن مرجع عصري في التاريخ الإسلامي على عمومته فلا يكاد يجده متكاملاً، وإن وجدته فهو مبتسر يعول في الغالب على مراجع غريبة فينقل عنها نقلاً مباشراً رديئاً يخلو من إعمال العقل ومن أية قدرة نقدية. وتتواتر بذلك في مراجعنا العربية التي يقدر لأبنائنا أن يدرسوها تلك الأخطاء التي تعمد بها الغربيون في غيهم أو اقترفوها في جهلهم. وينبغي لنا، وتلك هي الحال، أن نعيد تقييم وتقويم الأمر كله، فنصحح النظرة، ونلقن العبرة، ونحاول العود إلى الطريق القويم، والعود إن شاء الله أحمد.

هذه الترجمة

إن إحالة النظر فيما كتبه الغربيون ويكتبونه في تناولهم لحضارتنا وحضارتهم تظهر أن أداثهم البحثية، من الناحية الفنية، متكاملة ومقتدرة، وهم يسخرونها في غالب الأمر في حرب عوان ضدنا. ولكم تحولنا بأنظارنا وجهدنا إلى مراجعنا المعاصرة فلم نجد ما يشفي غلة أو يهدي إلى سواء سبيل. ويصدق ذلك على التاريخ الإسلامي بعامة والتواريخ العربية بخاصة، مما دعانا في نهاية المطاف إلى أن نحاول أن نتقي من بين ما كتب الغربيون في ذلك ما هو أقرب إلى ما ينبغي أن يكون لنقله إلى لغتنا حتى يفيد أبنائنا من شهادة حق تجيء من نطاق الغلبة فيه لغير المنصفين من الدارسين.

وليس ثمة شك في أن الحملات الصليبية، بكل ما تبينه من جوانب، لها بالغ الأثر في مسيرة الصراع بين الحضارة الإسلامية وغيرها من حضارات تنتهي إلى ما يسمى بالحضارة الغربية الحديثة في نطاق ما يسميه رنولد توينبي "التحدي والاستجابة"؛ ومن ثم كان ينبغي أن تتوفر عنها في اللغة العربية مراجع توفيهما ما هي خليفة به من اكتمال الصورة والشمول. بيد أن ذلك لم يتحقق. وبينما نحن نجول في الساحة الغربية وقعنا على مرجع شامل يتناول تلك الحملات مذ بدأت وإلى أن انتهت، ويجاوز ذلك إلى تناول دقيق لما سبق تلك الحملات من ظروف ومقدمات. وما كنا لنقف طويلاً إزاء هذا المرجع إن اقتصر أمره على ذلك، فالشمول والاكتمال يستطيع الباحث أن تنتهي إليهما من مراجع متعددة أو حتى من شذرات متفرقة، وإن استحال ذلك على القارئ العام. غير أن أبين ما يمتاز به هذا المرجع، وهو "الحملات الصليبية" الذي كتبه ستيفن رانسيمن، يتمثل في قدرة فريدة على إضفاء "نبض الحياة" على السرد التاريخي الذي يحيل الصفحات المكتوبة إلى واقع يكاد يكون معاشاً بما فيه من تفصيل يبين اتجاهه ويظهر مغازيه. ويضاف إلى ذلك أننا نجد أنفسنا إزاء عقلية قادرة محققة ومتحقة تلتزم جانب الإنصاف والحيدة التي لا تتأني إلا لتلك القلة من الأفذاذ الذين يتميزون رحابة الأفق وعمق النظرة ونفاذ البصيرة، فضلاً عن حس إنساني يتعاطف مع الإنسان، ويرجو له أن يتأثر القيمة العليا، على اختلاف المكان والزمان.

ولتنظر معنا أيها القارئ إلى ما يقوله رانسيمن وهو يصف دخول الصليبيين بيت المقدس في شهر يولية ١٠٩٩ ميلادية: "...إن الصليبيين وقد جنوا بما أحرزوه من نصر كبير بعد المعاناة، اندفعوا عبر الطرقات والمنازل والمساجد يقتلون كل من صادفهم، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال، واستمرت المذبحة طيلة عصر ذلك اليوم وتلك الليلة. ولم تسبغ راية تانكريد أية حماية على أولئك الذين لاذوا بالمسجد الأقصى، ففي وقت مبكر من صباح اليوم التالي اقتحمت عصابة من الصليبيين المسجد وقتلت كل من فيه. وعندما طاف ريموند أوف أجيليه بالمنطقة التي يقع فيها

المسجد كان عليه أن ينقل الخطي ليجد طريقاً بين الجثث والدماء التي بلغت ركبتيه". ويقول في موضع آخر: "...وكان الجيش في معرة النعمان يعاني الجوع بعد أن نفذت المؤن التي استولى عليها من الجوار، ولم يكن له من سبيل سوى أن يأكل لحوم البشر". ويظهر رانسيمان ذلك المدى البشع الذي وصل إليه الصليبيون في تقتيلهم المسلمين المسلمين في المسجد الأقصى من ناحية، ويبين من ناحية أخرى حقيقة كان لابد لمؤرخ مسيحي أن يواربها، وهي أكلهم لحوم البشر، وهذا دُرْك لا ينحدر إليه الحيوان، ويواصل رانسيمان سرده ليظهر كيف أن صليبياً واحداً، من الذين صاحبوا الحملة وأرخوا لها، هو الذي أنكر على المسيحيين ذلك بعد أن لاحظ كيف ارتاع الأتراك المسلمون من مشاهد أكل لحوم البشر.

وهذان الاستشهادان، على ما فيهما من بشاعة لا يكاد يجلوها بيان، لا يعطيان إلا صورة محدودة للغاية لما نرمي إليه. وتتجلى حيدة رانسيمان في أنه لا يكاد يجد مأخذاً واحداً على سياسة المسلمين. أو عامتهم؛ بل يتجاوز ذلك إلى القول وهو يوضح واحداً من مواقف الإمبراطور البيزنطي الكيسوس: "...وكان الكيسوس على حق في أن يرى أن رعاياه المسيحيين الأرثوذكس سيكونون أحسن حالاً في ظل الحكم الفاطمي المتسامح الذي يتيح لهم ما لم يتحه حكم الفرنجة الذين أظهروا في واقع الحال عداوة واضحة للمسيحية السائدة في أنطاكية". ويقول في موضع آخر: "...ووجدت كنائس الهراطقة أن الغزو اللاتيني يؤذن بفترة أقول لها بعد أن كانت تنعم بالتسامح في ظل الحكم الإسلامي". وتتواتر أمثال هذه الصورة في الأجزاء الثلاثة التي أرخ فيها للحملات الصليبية، ونقدم في هذا المجلد جزءها الأول، والتي بين فيها البواعث الحقيقية لتلك الحملات، وتظهر دون مرأ أن الصليبيين لم يكونوا أصحاب دين يحركهم بقدر ما كانوا طلاب دنيا تجعلهم يذهبون كل مذهب مدفوعين بأهوائهم ومطامعهم؛ ويجلو ذلك ما يورده رانسيمان في مختلف المواضع من تفاصيل لا يكاد يقف عندها غيره ممن أرخوا لأبناء دينهم وعشيرتهم، مثل قوله: "...إن الصليبيين

وهم يحاصرون أنطاكية تركوا المسلمين يتسللون في الليل من المدينة المحاصرة ليدفنوا في المقابر المجاورة موتاهم الذين قتلوا في معركة ذلك اليوم، ولكن الصليبيين نبشوا القبور في صباح اليوم التالي وأخرجوا جثث الموتى ليتزعموا منها حلى الذهب والفضة". ولنتأمل معاً قول رانسيमान: "...من المؤلم أن يتضح أن الأمراء الصليبيين لم يكونوا على استعداد للتعاون من أجل صالح العالم المسيحي عندما تسنح لهم فرصة الاستحواذ على غنائم شخصية؛ وسرعان ما أدرك المسيحيون من أهل البلاد أن مخلصهم الفرنجة لم تكن تحذوهم عاطفة إثارة حقيقي، وعرفوا أن أحسن ما يمكن أن يستفيدوا به من أولئك الأمراء الصليبيين يتمثل في السعي بالوقاية بينهم، وتلك لعبة يسيرة".

وأما تلك الوقائع عديدة عند رانسيमान، ويسترعي النظر فيها أنها تحكم الصلة بين الأحداث التاريخية، حلقة إثر حلقة، وتنتهي إلى بلوغ غاية تجلو اتجاهها عاماً يميز الحملات الصليبية ويضعها في منظور عام متكامل يبين حركة التاريخ وسماته عبر القرون التي وقعت فيها تلك الحملات.

ولعله لا يفوت عيني القارئ وخياله لمسات يضيفها رانسيमान بريشة فنان بارع إلى اللوحة التي يصور فيها جوانب في الحملات الصليبية تضيء على واقعها ألواناً تجلو منظورها وتعين المتلقي على استيعابها واستخلاص مراميها، وإن كانت اللمسات رقيقة رفيقة فهي تنبئ وتعلق دون أن تفصح وتقرر؛ فليس من قبيل خفة الظل، على سبيل المثال، أن يقول رانسيमान في تقديمه للدور البارز الذي قام به بطرس الناسك في النهضة والإعداد لحملة الشعب: "كان بطرس الناسك رجلاً قصير القامة، قائم اللون، ذا وجه طويل نحيل يشبه في صورة مفزعة حماره الذي لا يفارقه والذي كان الناس يولونه من التبجيل ما يقارب تبجيلهم لراكبه". ولا شك أن مثل هذه اللمسة البارة، التي ربما يظن أن لا موضع لها عند مؤرخ جاد كرانسيमान، توحى بتقييم

يكاد يكون شاملا يعكس ما اضطبغت به تلك الحملات الصليبية من قتامة وجهالة. ولسوف يجد القارئ من أمثال هذه اللمسة الشيء الكثير في رحلته مع رانسيما من الصفحة الأولى إلى الصفحة الأخيرة.

ويرتب رانسيما تاريخه ترتيبا عاما يتسق مع ما تهتم به المدرسة الغربية من إيجاد صلة بين الحدث والهدف . فنراه بعد أن استفاض في التقديم للحملات الصليبية يأخذ بما جرى عليه الغربيون من تقسيم للحملات الصليبية فيجعل حملة أمراء الصليبيين التي استطاعت أن تبلغ بيت المقدس الحملة الصليبية الأولى في حين أن تلك الحملة سبقتها حملتان: الأولى هي حملة الشعب التي بدأت في أعقاب الخطاب الذي ألقاه البابا إيربان الثاني في مدينة كليرمونت الفرنسية في يوم الثلاثاء السابع والعشرين من نوفمبر ١٠٩٥ ميلادية، والثانية هي الحملة الصليبية الألمانية، ولم يقدر لكتليهما الوصول إلى فلسطين.

ويلاحظ أن المؤرخين العرب، وهم يتأثرون خطى المؤرخين الغربيين، يتجاهلون أول حملة صليبية، وهي التي تعرف بحملة الشعب بقيادة بطرس الناسك التي احتشد فيها الكثيرون من أبناء الدول الأوروبية على اختلافها نتيجة لمساعي البابا إيربان والحولة الواسعة التي قام بها في أرجاء فرنسا وإيطاليا سنة ١٠٩٥ ميلادية . وتمثل أحداث تلك الحملة أشكال الفوضى العارمة والوحشية المروعة التي سادت بين المشتركين فيها من المسيحيين على نحو لم يسبق إليه البرابرة، والتي تظهر أن العقيدة الدينية وحدها لم تكن هي الدافع وراء تلك الحملة التي جمعت شذاذ الآفاق والقتلة والمجرمين إلى أبناء الأسر الأوروبية النبيلة الذين كانوا يسعون إلى تعويض ما فاتهم نتيجة تطبيق مبدأ حق الابن الأكبر وحده في الميراث على حساب المسلمين في الشرق . وليس ثمة شك في أن الهزيمة الماحقة التي ألحقها السلاجقة بصليبي تلك الحملة والفشل الذي انتهت إليه الحملة الصليبية الألمانية كانا العامل الهام الذي أدى إلى الحملة الصليبية الثالثة والتي يصنفها المؤرخون على أنها الحملة الأولى، في حين أنه لولا حملة الشعب

والحملة الصليبية الألمانية لما كانت هناك حملات أخرى، إذ من الواضح أن الجهود الهائلة التي بذلتها الكنيسة في سبيل القيام بهاتين الحملتين لم تكن لتؤدي إلى شيء ما لم يجد الصليبيون في الهزيمة النكراء التي راح ضحيتها عشرات الألوف من الصليبيين تعة قوية توازرهم في دعواهم إلى الحملة التالية التي يقول مؤرخوا الغرب والمؤرخون العرب إنها الأولى ونقول نحن إنها الثالثة . ويستطيع كل من يرجع إلى المنصفين من مؤرخي الغرب أمثال رانسيما أن يتبين في جلاء لا تشوبه أدنى ريبة حقيقة ذلك. ومن الطريف أن الغربيين ينظرون إلى هرقل الذي حارب الفرس سنة ٦٢٢ ميلادية على أنه أول صليبي برغم أن حربه مع الفرس بدأت قبل الحملات الصليبية بخمسة قرون، ولا يفوت مؤرخهم وليم الصوري ذكر ذلك في كتابه عن الحملات الصليبية الذي سماه "كتاب هرقل".

وإذ أحمد العلي القدير على ما وفقني إليه، أرجو أن يفيد من هذا العمل القارئ العام الذي ينبغي له أن يلم بحلقات بالغة الأهمية من تاريخ حضارته، والباحث الذي لا يجد سبيلا ميسورا إلى ما يكتب في هذا المجال في لغة غير لغته، والله الموفق.

نور الدين خليل

جنيف ١٩٩٣

مقدمة المؤلف

هذا هو المجلد الأول من ثلاثة مجلدات تستهدف تغطية تاريخ الحركة التي نطلق عليها الحروب الصليبية - من بدايتها في القرن الحادي عشر إلى نهايتها في القرن الرابع عشر - وتاريخ الدول التي أوجدتها تلك الحروب في الأراضي المقدسة والبلدان المجاورة. وأرجو أن أعطي في المجلد الثاني تاريخ ووصف مملكة القدس وعلاقتها بشعوب الشرق الأدنى وبالحروب الصليبية في القرن الثاني عشر؛ ثم أعطي في المجلد الثالث تاريخ مملكة عكا والحروب الصليبية وما تلاها.

وإذا كان لنا أن ننظر إلى الحروب الصليبية على أنها أكثر المغامرات المسيحية جسامة ورومانسية ، أو على أنها آخر الغزوات البربرية ، فإنها تشكل حقيقة مركزية في

تاريخ القرون الوسطى. فقبل ابتدائها كان مركز حضارتنا يتخذ مكانه في بيزنطة وأراضي الخلافة العربية، وقبل انقضائها انتقلت الهيمنة على الحضارة إلى أوروبا الغربية، ومن خلال هذا التحول وُلد التاريخ الحديث. غير أنه لا ينبغي لنا، كي نفهم هذا التاريخ، أن نقف عند الظروف التي كانت سائدة في أوروبا الغربية والتي أدت إلى الاندفاع الصليبي، بل علينا أن نجاوز ذلك، على نحو ربما يتطلب مزيداً من الإفاضة، إلى ظروف الشرق التي أتاحت للصليبيين فرصتهم وترتب عليها تقدمهم ثم انسحابهم. ولا بد لنا من أن نُنقل النظرة من الأطلنطي إلى منغوليا. فمغزى القصة يضيع إذا رويت من وجهة نظر الفرنجة وحدهم، أو من وجهة نظر العرب وحدهم، أو كما يراها ضحاياها الرئيسيون — مسيحيو الشرق ذلك أن هذه القصة، كما يرى جيون، مناظرة عالمية.

وقصة الحروب الصليبية لم ترو في غالب الأمر على إجمالها في اللغة الإنجليزية، ولا توجد في هذا البلد مدرسة فعالة تُعنى بالتاريخ الصليبي. والفصول التي كتبها جيون في كتابه إضمحلال وسقوط الإمبراطورية الرومانية — برغم تحامله والتاريخ الذي كان يكتب فيه — جديرة بالدراسة. ثم يأتينا بعد جيون ذلك الموجز الحاذق الذي كتبه سير ارنت باركر عن الحركة الصليبية ونشر في البداية في دائرة المعارف البريطانية، ونضيف إليه تاريخ الممالك الصليبية الذي يثير الإعجاب على ما فيه من اقتضاب والذي كتبه ب. ستيفنسون. بيد أن الإسهام البريطاني في هذا المجال يتشكل في غالبه من مقالات كتبها العلماء، ومن النقل عن المصادر الشرقية ومن عدد قليل مسن التواريخ التي كتبها غير المتخصصين. أما فرنسا وألمانيا فلهما في ذلك تراث يجاوز ما لبريطانيا من حيث الكم والمدى. وتبدأ التواريخ الألمانية العظيمة المتعلقة بالحروب الصليبية بالتاريخ الذي كتبه ويلكين ونشره في مطلع القرن التاسع عشر، ولا يزال تاريخ فون سيبل الذي نشر أول مره سنة ١٨١٤ يحظى بأهمية بالغة؛ ويعقب ذلك في نفس القرن ما قام به اثنان من الدارسين المبرزين — هما روهريشت، هاجنماير — من

عمل بالغ القيمة لا يقتصر على جمع المادة التاريخية من مصادرها ونقدها وحسب، وإنما يجاوز ذلك إلى قيامهما بكتابة تواريخ شاملة. ويتواصل التراث الألماني في السنوات الأخيرة عبر ما قام به اردمان في دراسته الجامعة للحركات الدينية في الغرب التي أدت إلى الحروب الصليبية. وفي فرنسا التي جاء منها في البداية أكبر عدد من الصليبيين، يظهر اهتمام الدارسين بنشر أهم المصادر الغربية والإغريقية والشرقية في العمل الفرنسي الضخم مجموعة تواريخ الحملات الصليبية في منتصف القرن التاسع عشر. وكان تاريخ ميشو المستفيض قد ظهر بالفعل في السنوات التي تلت سنة ١٨١٧؛ وفي أواخر ذلك القرن أخرج ريان وأعوانه في جمعية الشرق اللاتيني كثيراً من الأعمال القيمة. وفي القرن الحالي اهتم اثنان من الدارسين المتميزين في الدراسات البيزنطية هما شالاندون، وبريهير بالحروب الصليبية؛ وقبل الحرب العالمية بقليل أخرج م. جروسميت تاريخه عن الحروب الصليبية في ثلاثة مجلدات، وهو تاريخ يجمع في التراث الفرنسي ما بين العلم الواسع وحسن الكتابة ولمسة من الوطنية الغالية. على أن أكثر مدارس مؤرخي الحروب الصليبية نشاطاً توجد في الولايات المتحدة، وهي مدرسة بدأها د. س. مونرو الذي كان لإنتاجه الأدبي المقل على نحو مؤسف أثره السلبي على أهميته كمعلم. ولا يزال المؤرخون الأمريكيون يركزون حتى الآن على الجوانب التفصيلية، ولم يحاول أيهم بعد أن يضطلع بتقدم تاريخ شامل كامل؛ وإن كانوا قد وعدوا بتقدم عمل جامع يشترك في القيام به بعض الدارسين الأجانب كي يغطوا مجال التاريخ الصليبي بأكمله؛ ويؤسفني أن هذا العمل لم يصدر في وقت يسمح لي بالإفادة منه في كتابة هذا المجلد.

وربما يبدو أن إقدام "قلم" بريطاني واحد على منافسة "أكداش الآلات الكاتبة الأمريكية" عمل لا يتسم بالحكمة، وواقع الحال أن الأمر لا ينطوي على منافسة. ذلك أنه لا يتأتى لكاتب واحد أن يتحدث بمثل ما لجماعة من الخبراء من سلطان كبير، وإن كان يستطيع أن يضفي على عمله صفات تكاملية وملحمة لا يتأتى بلوغها لمجلد

يشارك عديدون في وضعه. فهو ميروس شأنه في ذلك شأن هيودوت، كان أبا التاريخ، وهذا أمر وعاه جيون أعظم مؤرخينا؛ وإنه لمن الصعب، وإن رغم النقاد، أن نعتقد أن هو ميروس لم يكن كاتباً واحداً وإنما مجموعة من الكتاب. وكتابة التاريخ في أيامنا هذه عادت بنا إلى عصر الإسكندرية الذي تفوق فيه النقد على الإبداع. والمؤرخ الحديث — الذي تواجهه أكاداس هائلة من دقائق المعرفة والذي يرهبه تشدد زملائه الذين يترصدون له — غالباً ما يلوذ بكتابة المقالات العلمية أو الأبحاث ضيقة التخصص، وهي قلاع صغيرة يسهل الدفاع عنها عند مهاجمتها. ويمكن لعمل هذا المؤرخ أن يتسم بأعلى قيمة، بيد أنه لا يشكل الغاية المرجوة في حد ذاته. وأحسب أن أسمى واجب للمؤرخ هو أن يتصدى لكتابة التاريخ، أي أن يحاول أن يسجل في تتابع متلاحق كبريات الأحداث والحركات التي وجهت أقدار الإنسان. والكاتب الذي تبلغ به المجازفة محاولة ذلك لا ينبغي أن ينتقد لطموحه، وإن استحق كثيراً من اللوم لقصور أدواته أو خواء نتائجه.

وأورد في حواشي الصفحات المراجع التي اعتمدت عليها فيما خلصت إليه، كما أورد في مسرد مراجعي قائمة بالأعمال التي رجعت إليها. وأنا مدين لكثير منها بفضل كبير، حتى وإن لم أكن قد استشهدت بها في الحواشي. والأصدقاء الذين أعانوني بنقدهم ونصحهم عديدون بحيث لا يتأتى ذكرهم.

ولا يفوتني أن أبدي ملاحظة عن كيفية نقل الأسماء من لغة إلى أخرى. فحيث ترد أسماء مسيحية لها شكل إنجليزي مقبول مثل — جون أو جودفري أو ريموند — فإنني آخذ به اجتناباً للحدقة؛ ولقد حاولت دائماً أن استخدم الشكل الشائع الذي يلقي قبول القارئ الإنجليزي العادي. واستخدمت الحروف اللاتينية في نقل حروف الكلمات الإغريقية وهو النهج المتبع الوحيد الذي يلائم ذلك. وتمثل في الحروف العربية صعوبة أكبر فالنقط وعلامات نطق الحروف الحلقية التي يوصي بها المتخصصون تجعل القراءة صعبة. ومن ثم حذفها، وإن كنت آمل أن يكون النسق الذي اتعته

واضحاً. وفي الأرمينية حيث يصح أن تحل K محل G و B محل P بحسب المكان أو
الفترة الذي أو التي استخدمت فيه الكلمات، فإنني التزمت بما استعمل في القلم
منها. وتشكل الأداة الفرنسية de مشكلة دائمة، وقد ترجمتها في جميع الحالات التي
لم تكن فيها جزءاً من كنية محددة.

وأود في النهاية أن أشكر مسئولني وأمين مطبعة جامعة كمبريدج لفضلهم وعونهم
الدائمين.

ستيفن رانسيمان

لندن ١٩٥٠



الباب الأول :

أماكن العالم المسيحي المقدسة

الفصل الأول :

رجسة الخراب

رجسة الخراب

"فَمَتَى نَظَرْتُمْ رِجْسَةَ الْخَرَابِ الَّتِي قَالَ

عَنْهَا دَانِيَالُ النَّبِيُّ قَائِمَةً فِي الْمَكَانِ

الْمُقَدَّسِ."

(إِنْجِيلُ مَتَّى ٢٤ - ١٥)

دخل الخليفة عمر بن الخطاب مدينة القدس في أحد أيام فبراير (شباط) سنة ٦٣٨ ميلادية على ناقة بيضاء، مرتدياً ثياباً رثة بالية، والجيش من خلفه أشعث أغبر وإن كان نظامه في ذروة الكمال. وكان بجانبه البطريق سوفرونيوس كبير القضاة في المدينة المستسلمة، ومضى عمر مباشرة إلى معبد سليمان الذي عرج منه النبي محمد إلى

السماء، وتمتم البطريق وعبراته تفيض — وهو يرى عمرا واقفا هناك — مرددا: "أنظروا رحسة الخراب التي قال عنها دانيال النبي".

وأبدى الخليفة رغبته في مشاهدة مزارات المسيحيين فصحبه البطريق إلى كنيسة القبر المقدس وأراه كل ما كان هنالك. وعندما حانت ساعة الصلاة استفسر الخليفة عن الموضع الذي يمكن أن ييسط فيه سجادة الصلاة، فرجاه سوفرونيوس أن يبقى حيث هو، لكن عمر خرج إلى رواق الاستشهاد خشية أن يدعي أتباعه الغير حقا للإسلام فيه، كما حدث بعد ذلك إذ استولى المسلمون على الرواق وبقيت الكنيسة كما كانت أقدم حرمت العالم المسيحي. (١)

وتم ذلك طبقا لشروط استسلام المدينة؛ فبينما قضى النبي نفسه بتخيير عباد الأوثان بين الدخول في الإسلام أو الموت، سمح لأهل الكتاب أي المسيحيين واليهود (الذين ألحق بهم الزرادشتيين تلطفا) (٢) بالاحتفاظ بدور عباداتهم يمارسون فيها شعائهم دون قيد، ولم يكن لهم أن يزيدوا من عددها أو يحملوا سلاحا أو يعتلوا جوادا وعليهم أن يدفعوا نوعا من ضريبة الرأس تعرف بالجزية. (٣) ولم يكن سوفرونيوس ليرجو شروطا أفضل من تلك وهو يخرج راكبا حماره — بعد أن منح الأمان — ليقابل الخليفة على جبل الزيتون، إذ رفض أن يسلم المدينة لأي شخص دون الخليفة مترلة. ومضى على حصار القدس مدة تجاوز العام، فلم يكن

(١) Theophanes, ad ann. 6127, p. 333 ; Eutychius, *Annals*, col. 1099; Michael the Syrian, vol. ii, pp. 425-6; Nisibin, p. 64. An excellent summary of the sources is given in Vincent and Abel, *Jérusalem Elias of .Nouvelle*, vol. ii, pp. 930-2

(٢) (المترجم) : ليس هذا صحيحا وإنما يرجع ذلك إلى أباطيل المؤرخين والمستشرقين الذين خلطوا بين أهل الكتاب وغيرهم.

(٣) See the article " Djizya " by Becker in the *Encyclopaedia of Islam*, and Brown, *The Eclipse of Christianity in Asia*, p. 29-31

العرب على خيرة بحروب الحصار ولم يكونوا مجهزين لها كما ينبغي، فوقفوا عاجزين أمام التحصينات التي جددت مؤخرًا. وأخذت المؤن تتناقص داخل المدينة وتبددت الآمال في إنهاء الحصار، فالبلاء كلها في قبضة العرب وقد توالى سقوط المدن السورية والفلسطينية واحدة تلو الأخرى، وكان أقرب جيش مسيحي إليهم هو الذي في مصر، باستثناء حامية صامدة في قيسارية على الساحل تحميها البحرية الإمبراطورية. وكل ما استطاع أن يحصل عليه سوفرونيوس من الفاتحين بالإضافة إلى الشروط المعتادة هو السماح لمستولي الإمبراطورية في المدينة بأن ينسحبوا إلى ساحل قيسارية في أمان ومعهم عائلاتهم وما يمكن أن يحملوه من متاع.

وكان هذا آخر إنجاز عام قام به البطريق. وتلك نهاية مأسوية لحياة طويلة قضاه في دأب كي يستقيم العالم المسيحي ويتحد؛ فمنذ أيام شبابه التي أمضاها في تطواف بأديرة الشرق مع صديقه جون موسكاس، يجمعان غذاءهما الروحي من أقوال القديسين وأقاصيصهم، وإلى آخر أيامه، وبعد أن عينه الإمبراطور بطريقًا لأسقفية القدس الكبرى برغم معارضته لسياسته، وهو يكافح في صلابة الهرطقات والقومية الوليدة التي كان يرى أنها ستقطع أوصال الإمبراطورية. بيد أن ما دعا إليه وقام به هذا البطريق الذي عرف "بالمدافع عن الدين معسول اللسان" ذهب سدى. فالفتح العربي برهن على فشله، ومات كسير القلب بعد وقوعه بأسابيع قليلة. (١)

(١) أنظر : Mansi, *Concilia Nova Collectio*, vol. X, col. 607.

ومن المؤكد الآن أن سوفرونيوس البطريق هو نفسه سوفرونيوس صديق Moschus.

أنظر : Usener, *Der Heilige Tychon*, pp. 85-104.

بقاء الإمبراطورية في الشرق

ولم يكن بوسع بشر، في واقع الحال، أن يوقف حركات التمزق في المقاطعات الشرقية لروما، فبعد تاريخ الإمبراطورية الرومانية كان الصراع كامنا بين الشرق والغرب. وإن كان الغرب قد انتصر في أكتيوم فإن الشرق تغلب على غزاته؛ ومصر وسوريا كانتا أغني أقاليم الإمبراطورية وأكثرها سكانا وفيهما أهم مراكز الصناعة في الإمبراطورية، وتسيطر سفنهما وقوافلهما على تجارة الشرق، وتفوق ثقافتهما الروحية والمادية ثقافة الغرب بكثير، ولا تقتصر علة ذلك التفوق على تراثيهما العريقين وحسب وإنما تنصرف كذلك إلى قربهما من مملكة الساسانيين الفارسية التي كانت تمثل حافزا لهما والتي كانت الند الحضاري الوحيد لروما، ومن ثم لم يكن هناك مناص من أن يتعاضد نفوذ الشرق، وظل الأمر كذلك إلى أن اعتنق الإمبراطور قسطنطين العظيم في نهاية الأمر دينا شرقيا ونقل عاصمته إلى الشرق في بيزنطة على البسفور. وعندما ضعفت الإمبراطورية، في القرن الثاني، لما أصابها من تآكل في الداخل، كان عليها أن تواجه هجمة البرابرة، فهلك الغرب وبقي الشرق، بفضل سياسة قسطنطين في غالب الأمر. وبينما أخذت الممالك البربرية تنشأ في الغال وإسبانيا وأفريقيا وبريطانيا النائية وأخيرا في إيطاليا، كان الإمبراطور الروماني يحكم المقاطعات الشرقية من القسطنطينية. ونادرا ما كانت حكومة روما تحظى بشعبية في مصر وسوريا، وسرعان ما أثارت حكومة القسطنطينية تبرما مريرا أخذ في التزايد، ويرجع ذلك إلى حد كبير إلى ظروف خارجية. فالفقر الذي حل بالغرب كان يعني ضياع أسواق للتاجر السوري والصانع المصري، كما أن الحروب المتصلة مع فارس عرقلت طريق التجارة الذي كان يمضي خلال الصحراء إلى أنطاكية والمدن اللبنانية. وبعد فترة وجيزة سقطت إمبراطورية الحبشة وتفشى الاضطراب في الجزيرة العربية، وأغلق نتيجة لذلك طريق تجارة البحر الأحمر الذي كان يسيطر عليه بحارو مصر وأصحاب القوافل في البتراء والأردن جنوب فلسطين. وأصبحت القسطنطينية السوق الرئيسية للإمبراطورية، وكانت تجارة

الشرق الأقصى، التي شجعتها دبلوماسية الإمبراطور تبحث لها عن طريق مباشر يتجه إلى الشمال عبر سهول أواسط آسيا، فتولدت المرارة بين أبناء الإسكندرية وأنطاكية، ومملكتهم الغيرة من تلك المدينة حديثة النعمة التي كانت تنذر بالسيطرة عليهم. وزادت مرارة السوريين والمصريين من مركزية الحكومة الجديدة، ومن تقلص الحقوق المحلية وحقوق الأقليات على نحو مطرد؛ وكان جابي الضرائب أكثر صرامة وإلحاحاً منه في أيام روما القديمة، فتفشى السخط وأضاف قوة جديدة إلى قومية الشرق التي لا يغلبها النعاس أبداً لوقت طويل.

النساطرة والوحديطبعيون (١)

وتفجر الصراع حول القضايا الدينية علانية. ولا شك في أن الأباطرة الوثنيين كانوا متسامحين حيال العبادات المحلية، إذ يمكن للآلهة المحلية أن تجدد في سر مكانا لها بين الآلهة الرومان، وأما المعاندون من الوحديطبعيين، كالمسيحيين واليهود، فكانوا هم الفئة الوحيدة التي عانت من نوبات اضطهاد بين الحين والآخر. ولم يستطع الأباطرة المسيحيون أن يتحلوا بمثل ذلك التسامح، فالمسيحية لا تقبل آلهة آخرين، وأرادوا استغلالها كقوة موحدة لربط كل رعاياهم بالحكومة. وكان قسطنطين، الذي التبست عليه أمور اللاهوت بعض الشيء، قد سعى من قبل إلى توحيد الكنيسة التي مزقتها

(١) (المترجم) : علينا أن نلاحظ الفارق بين Monophysite التي تعني الواحد بطبعي في العقيدة المسيحية

أي القائل بالطبيعة الواحدة للرب ولا يرى أنه ذو طبيعتين إحداهما إلهية والأخرى بشرية ، وبين

Monotheist أي التوحيدى والتي تعني القائل بالتوحيد أى الذى يؤمن بأن الله واحد لا شريك له

وليس له ثلاثة أقانيم .

الجدل الأريوسي (١) . وبعد مضي نصف قرن جعل ثيودوسيوس العظيم الامتثال لأعراف الكنيسة أمراً ينبغي أن يأخذ به الأباطرة. بيد أن ذلك الامتثال لم يكن سهلاً المنال . فالشرق كان قد أقبل على المسيحية في تلهف، وتناول اليونانيون مشكلاتها بما يستهويهم من الجدل الحاذق الذي أضاف إليه أهل الشرق المتأثرون بالاتجاه اليوناني حدة عاطفية جاثقة سرعان ما ولدت تعصباً وكرهية. وكان الموضوع الرئيسي الذي اختلفوا حوله هو طبيعة المسيح التي تتمثل فيها المشكلة المحورية باللغة الصعوبة في اللاهوت المسيحي كله. ولأن كان هذا الجدل لاهوتياً، فإنه كان يستهوي في تلك الأيام رجل الشارع الذي نظر إليه على أنه ضرب من ضروب التسرية التي لا يفوقها متعة سوى ألعاب السيرك. بيد أن الأمر لم يقتصر على ذلك، فالسوريون والمصريون بعامة كانوا يريدون طقوساً أبسط من تلك التي تمارسها الكنيسة الأرثوذكسية بما فيها من أهمة يؤذيهم بذخها وهم يعانون من فقر متزايد وينظرون إلى أبحار أبحار الكنيسة وقساوستها على أنهم عملاء لحكومة القسطنطينية؛ وانتهى ذلك بكبار رجال الكنيسة إلى معاناة مماثلة للسوريين والمصريين. وكان بطارقة الكراسي الأسقفية القديمة في الإسكندرية وأنطاكية يتميزون غيظاً من إخوانهم حديثي النعمة في القسطنطينية الذين يجاوزونهم في الأسبقية، فليس ثمة بد إذن من أن تظهر الهرطقة وتتخذ شكل حركة قومية انشقاقية.

وسرعان ما خبت جذوة الأريوسية في الشرق، باستثناء الحبشة، بينما بقيت هرطقات القرن الخامس عشر بعد ذلك. ففي بداية القرن أعلن نسطور — بطريرق القسطنطينية السوري المولد — عن مذهب يركز تركيزاً مفرطاً على بشرية المسيح، وجذب ذلك الاتجاه قلوب لاهوتيي المدرسة الأنطاكية، وتبع نسطور أشياع كثيرون في

(١) الأريوسية : مذهب ينسب إلى الكاهن أريوس السكندري المتوفى عام ٣٣٦ ميلادية ، قال أن المسيح الابن

شمال سوريا، بيد أن المجلس المسكوني الذي عُقد في أفسوس سنة ٤٣١ ميلادية أنكر مذهب هذا وأعلن أنه هرطقة، فانشقت مجامع سورية عديدة، وطُرد النساطرة من الإمبراطورية، وأقاموا في المنطقة التابعة لملك فارس في أرض ما بين النهرين، وسرعان ما تحول انتباههم إلى التبشير في أقصى الشرق، في الهند وتركستان بل والصين، إلا أنهم في القرنين السادس والسابع كانوا ما يزالون يحتفظون بكنائس لهم في سوريا ومصر يرتادها في الغالب تجار الشرق الأقصى.

ولم يتوقف الجدل النسطوري عند هذا الحد وإنما أثار جدلاً آخر أشد مرارة، ذلك أن لاهوتّي الإسكندرية، الفرحين بفوزهم المزدوج على المبادئ الأنطاكية وعلى بطريق القسطنطينية، تخطوا حدود الأرثوذكسية في اتجاه مضاد ووضعا مذهباً يبدوا أنه يتضمن إنكاراً لبشرية المسيح، ويطلق على هذه الهرطقة أحياناً (إيوتيكانية) نسبة إلى قسيس مغمر يدعى إيوتيكيوس كان أول من طرحها، وتشيع تسميتها على نطاق أوسع الوَحْدِيَّطَبَعِيَّة، لكن المجلس المسكوني الرابع المنعقد في سنة ٤٥١ ميلادية في خلقدونية أنكر تلك الهرطقة، فاغتاظ الوَحْدِيَّطَبَعِيَّون وانشقوا على الهيئة الرئيسية للعالم المسيحي آخذين معهم أغلب مسيحي مصر وعددا من المجامع السورية.. على أن وفد الكنيسة الأرمنية وصل إلى خلقدونية متأخرا ولم يشهد الحوار ورفض قبول ما توصل إليه المجلس وانضمت الكنيسة الأرمنية إلى الوحديطبعيين. وسعى الأباطرة المتأخرون سعياً حثيثاً كي يوحّدوا صيغة توفيقية ترأب الصدع ويقرها المجلس المسكوني ويمكن أن تقبل على أنها أقرب إلى العقيدة الصحيحة، غير أن تلك المساعي عاقها عاملان ذلك أن الهرطقة لم يكونوا ليعودوا إلى الحظيرة إلا بشروطهم غير المقبولة، فضلاً عن أن موقف روما والكنيسة الغربية كان معادياً لأي حل وسط عداء لا هوادة فيه فالبابا ليو الأول استقر على رأى مؤداه أن خليفة القديس بطرس، وليس أي مجمع كنسي، هو صاحب الحق في تحديد المذهب، وكان يضيق ذرعاً بخفايا الجدل التي لا يفهمها، وأصدر بياناً يحدد فيه الرأي الصحيح في المسألة، ويجيء ذكر ذلك البيان في

التاريخ باسم (توماس أوف بوب ليو) ورغم أن ذلك البيان تجاهل دقائق الجدل فقد قبلته سلطات مجلس خلقدونية وأضافت صيغته إلى ما توصل إليه المجلس من نتائج. وكانت صيغة بيان البابا ليو الأول محددة ومباشرة لا تقبل تمويهها ولا تعديلا، وكان أي حل وسط يسترضي الهراطقة يعتبر إنكارا للبيان ومن ثم يعد صدعا في العلاقة مع روما وهذا ما لم يجرؤ على الإقدام عليه أي إمبراطور له مصالح أو مطامع في إيطاليا والغرب. وهكذا وجدت الحكومة الإمبراطورية نفسها واقعة في هذا المأزق فلم تحاول مطلقا الأخذ بسياسة ثابتة وإنما تذبذبت بين اضطهاد الهراطقة وتهديتهم، وفي نفس الوقت ازدادت قسوة الهراطقة في المقاطعات الشرقية، تشد من أزهرهم قومية الشرق التي كانت تنفض عن نفسها غبار سبائها. (١)

وبخلاف الوجدانيين والنساطرة كانت هناك طائفة في المقاطعات الشرقية تعارض الحكومة الإمبراطورية دائما، هي طائفة اليهود، التي كانت تستقر بأعداد كبيرة في مدن الشرق الكبرى كلها، وتخضع لأوجه من عدم الأهلية القانونية في النواحي المدنية، وتتعرض هي وممتلكاتها بين الحين والآخر للضرر الذي يترتب على ما يثور من شغب، وإزاء ذلك كانت تنتهز كل فرصة لإيذاء المسيحيين، وجعلت منها مواردها المالية واتصالاتها الواسعة خطرا كامنا يتهدد الحكومة. (٢)

(١) أحسن ما كتب عن التاريخ المبكر لكنائس النسطرة والوجدانيين يرد في :

Vacant and Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique*, articles on "Nestorians" , by Amann, and "Monophysitisme" , by Jugie, and in the chapters by Bardy in vol. iv, and by Bréhier in vols. iv and v, of the *Histoire de l'Eglise*, ed. by Fliche and Martin .

For the arbitrary but not very oppressive imperial legislation against the Jews, (٢) see Bury, *Later Roman Empire (A.D.395-565)*, vol.ii,p. 366, and Krauss, *Studien zur byzantinisch-jüdischen Geschichte*, pp. 1-36 .

تصدع في سوريا

وساءت الأمور في القرن السادس عشر، إذ استمرت حروب جستينيان في الغرب وأنفق فيها أموالا كثيرة وزاد الضرائب على رعاياه الشرقيين دون أن يمنحهم مزايا تعوضهم، وغدت سياسته في وضع حرج. وعانت سوريا أسوأ معاناة، فبخلاف عبء الضرائب ابتليت بسيل من غارات الجيوش الفارسية، وسلسلة من الزلازل المدمرة. ولم يزدهر سوى الهراطقة؛ إذ قام يعقوب الأورفي (١) بتنظيم الوحيدطبعيين في سوريا وجعل منهم قوة لها شأنها يدفعه في ذلك عطف الإمبراطورة ثيودورا، ومنذ ذلك الحين أصبحت كنيستهم تعرف عادة (بالكنيسة اليعقوبية). وأما الوحيدطبعيون في مصر، ويسمون الآن الأقباط، فكانوا يشملون كل أبناء مصر تقريبا، وأما النساطرة الآمنون المتحصنون عبر الحدود الفارسية فقد توسعوا توسعا سريعا باتجاه الشرق وعززوا موقفهم مع الإمبراطورية، وأما الأرثوذكس الذين كانوا يمثلون أقلية في غير مدن فلسطين فقد أطلق عليهم اسم "الملكيين" (٢) من قبيل الازدراء، وهي تسمية

(١) (المترجم) : نسبة إلى مدينة أورفا - وتسمى أيضا الرها - في أقصى الجنوب الشرقي من تركيا .

(٢) (المترجم) : الملكيون Melchites أو Melkites : تسمية تطلق علي من أخذوا من ميسحي سوريا ومصر بما انتهى إليه مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ ميلادية من أن للمسيح طبيعتين ، إلهية وبشرية واصطلح علي إطلاق هذه التسمية عليهم من قبيل الازدراء لأنهم أخذوا في ذلك بالموقف اللاهوتي الذي كان يدين به الإمبراطور البيزنطي ومن ثم أصبحوا ملكيين ، أو رجال الإمبراطور اشتقاقا من اللفظة السريانية Malka التي تعني ملك وأطلق عليهم هذه التسمية أولئك الذين رفضوا تعريف مجمع خلقدونية والذين يؤمنون بأن للمسيح طبيعة واحدة وأطلقت هذه التسمية في بادئ الأمر علي من أخذ من المصريين برأي مجمع خلقدونية ثم انصرفت بعد ذلك إلي كل من أخذ بذلك الرأي في الشرق الأوسط وأصبحت في النهاية تدل علي كل من أخذ بمذهب الطبيعتين في بطريركيات الإسكندرية والقدس وأنطاكية ==

لها ما يبررها فبقاؤهم يتوقف على قوة الإدارة الإمبراطورية وهيبتها. (١)

وفي سنة ٦٠٢ ميلادية اغتصب فوكاس قائد المئة (٢) العرش الإمبراطوري، وكان حكمه وحشيًا عاجزًا. وبينما كانت القسطنطينية تعاني من حكم الإرهاب تفشّت في المقاطعات أعمال الشغب والحرب الأهلية بين المتحزبين من رواد السيرك المتحيزين ومن يتصدون لهم من الطوائف الدينية؛ وفي أنطاكية عقد البطارقة اليعقوبيون

=- وانحصرت طائفة الملكيين في المستوطنين اليونانيين والمستعربين من مسيحي مصر وسوريا الذين اتخذوا الشعائر البيزنطية واتبعوا ميخائيل سيربولاريوس بطريق القسطنطينية في انشقاقه عن روما سنة ١٠٥٤ ميلادية . وحاول بطارقة أنطاكية في القرون التالية أن يعودوا إلى الاتحاد مع روما وظهرت أعداد قليلة من الملكيين الكاثوليك ولم يتم ذلك الاتحاد إلا في سنة ١٧٢٤ ميلادية عندما انتخب سيرل السادس الكاثوليكي بطريقا لأنطاكية وتبعه بضعة أساقفة وثلث الملكيين وانتخب الأرثوذكس الذين عارضوا الاتحاد سلفستر بطريقا لهم وحصلوا على اعتراف قانوني بهم من الحكومة العثمانية وبذلك تأكد استقلالهم الذاتي وبعد انقضاء مائة عام من الاضطهاد والصراعات الدينية بين اليسوعيين (Jesuits) والمارونيين اللبنانيين وبين الكاثوليكين منح الأتراك العثمانيون أولئك الكاثوليكين استقلالاً ذاتياً أتاح لهم حرية ممارسة نشاطهم وتزايد عددهم .

(١) See Bréhier, cit. iv, pp. 489-93; Devreesse, *Le Patriarchat d'Antioche*, pp. 77-99

(٢) (المترجم) : المئة : جماعة تتألف من مئة مقاتل حسب تقسيم الجيش الروماني .

والنساطرة مجلسًا مشتركًا علنيًا لمناقشة اتخاذ إجراء ضد الأرثوذكس، فعاقبهم فوكاس بأن أرسل إليهم جيشًا قتل أعدادًا غفيرة من الهراطقة بمساعدة اليهود الذين سرهم ذلك، وبعد ذلك بعامين ثار اليهود أنفسهم وعذبوا بطريق المدينة الأرثوذكسي وقتلوه. (١)

الحرب الفارسية

وفي سنة ٦١٠ ميلادية عزل فوكاس شاب نبيل ينحدر من أصل أرمني هو هرقل ابن حاكم أفريقيا. وفي نفس العام أتم كسرى الثاني استعداداته لغزو الإمبراطورية وتمزيق أوصالها، ودامت الحرب الفارسية تسعة عشر عاما، اتخذت الإمبراطورية في اثني عشر منها موقف الدفاع، واحتل الجيش الفارسي هضبة الأناضول وسوريا، وسقطت أنطاكية سنة ٦١١ ميلادية ودمشق سنة ٦١٣ ميلادية، وفي ربيع ٦١٤ ميلادية غزا القائد شهربراز فلسطين وراح ينهب البلاد ويحرق الكنائس في طريقه ولم تسلم سوى كنيسة الميلاذ في بيت لحم بسبب الفسيفساء التي تصور حكماء الشرق يرتدون ملابس فارسية، وحاصر القدس في الخامس عشر من أبريل (نيسان) وكان البطريق زخارياس مستعدا لتسليم المدينة حقنا للدماء، ولكن سكانها من المسيحيين رفضوا أن يسلموا في حنوع، فافتحمها الفرس في الخامس من مايو (أيار) بعون اليهود الذين كانوا في داخلها، وتبع ذلك مشاهد من الهلع البالغ؛ فبينما كانت النيران تلتهم كنائس ومنازل المسيحيين قتل جنود الفرس بعضهم وقتل اليهود أكثرهم دون تمييز ويقال إن

(١) Theophanes, ad ann. 6101, p. 296; John of Nikiu, p. 166; Sebeos, pp. 113-14; Eutychius, *Annales*, col. 1084 (telling of riots in Tyre); *Chronicon Paschale*, p. 699 (attributing the murder of the Patriarch to rioting soldiers); Kulakovsky, "Criticism of evidence in Theophanes" (in Russian), *Vizantiiski Vremennik*, vol. xxi, pp. 1-14, and *History of Byzantium*, vol. iii (in Russian), pp. 12-15, who collates the evidence and fixes the date.

ستين ألفا أبيعوا آخرين بيوعا عبدا في أسواق الرقيق، وإن
"المخلفات المقدسة" بالمدينة وهي "الصليب المقدس" و"أدوات الآلام" (١) قد اكتشفت
بعد إخفائها وأرسلت مع البطريق شرقا هدية للملكة فارس المسيحية، مريم النسطورية.
وبلغ تخريب المدينة وما حولها ذروته بحيث لم تعد البلاد إلى حالتها الأولى حتى يومنا
هذا. (٢) وبعد ثلاث سنوات تقدم الفرس إلى مصر وسيطروا عليها في غضون عام
واحد، وصلت الجيوش الفارسية إلى البسفور شمالا.

وكان سقوط القدس صدمة مروعة للعالم المسيحي. ولم يكن الدور الذي لعبه
اليهود في ذلك لينسى أو يغتفر في أية حال. وأخذت الحرب ضد الفرس طبيعة الحرب
المقدسة. وعندما استطاع هرقل أخيرا أن يبادر إلى الهجوم سنة ٦٢٢ ميلادية كرس
نفسه وجيشه للرب في خشوع، وانطلق كمحارب مسيحي يتصدى لقوى الظلام،
وصورته الأجيال اللاحقة على أنه أول الصليبيين. فبعد ذلك بخمسة قرون أورد المؤرخ
وليم الصوري قصة الحرب الفارسية ضمن تاريخه عن الحملات الصليبية، وتعرف
الترجمة القديمة لكتابه باسم "كتاب هرقل".

وكانت تلك الحرب الصليبية حربا ناجحة. فبعد كثير من التقلبات ولحظات من
القلق واليأس هزم هرقل الفرس في نينف في ديسمبر (كانون الأول) سنة ٦٢٧ ميلادية،
وفي بداية العام التالي ٦٢٨ ميلادية اغتيل الملك كسرى، وفاوض خليفته على السلام
الذي لم يقر إلا سنة ٦٢٩ ميلادية، واستعادت الإمبراطورية ما فقدته من مقاطعات،
وفي أغسطس (آب) احتفل هرقل بانتصاره في القسطنطينية، وفي الربيع التالي رحل مرة

(١) (المترجم) : يقصد بالآلام ، في العقيدة المسيحية ، معاناة وموت السيد المسيح علي لصليب .

(٢) ; 3. p. Anon. Guidi, pp. 130 - 1; Sebeos, pp. 9 - 15; Antiochus the stratege, pp. 300-1 . The
Chronicon Paschale, pp. 704 - 5; Theophanes, ad ann. 6106, pp. 380-1. The
incident of the mosaics at Bthlehem is given in the letter of the eastern
Patriarch to Theophilus, in Migne, Patrologia Graeco-Latina, vol. xcv, cols. 380-1.

أخرى جنوبا ليستعيد "الصليب المقدس" ويحمله إلى القدس في موكب فخيم. وكان ذلك المشهد مثيرا للعواطف.

على أن مسيحي الشرق لم يكونوا على أية حال سيئة في ظل الحكم الفارسي، فمحاربة كسرى لليهود لم يدم وانتهى به الأمر إلى طردهم من القدس. وبينما كان البلاط الفارسي يحايي النساطرة، كان كسرى يظهر رسميا مشاعر العطف على الوجدية الطبيعيين والأرثوذكس بنفس القدر، فاستعادوا كنائسهم وأعادوا بناء ما تمدم منها وانعقد في العاصمة كسيفون (١) مجلس برعاية كسرى لمناقشة إعادة توحيد الطوائف. على أنه تبين بعد عودة الإدارة الإمبراطورية، وبعد أن خبا ما صاحب ذلك من حماس، أنها تفيد الأرثوذكس دون غيرهم؛ ذلك أن هرقل الذي ورث خزانة خاوية لم يتمكن من تمويل حروبه إلا بقرض ضخيم من الكنيسة، ولم تكف الأسلاب التي أخذها من فارس لسداد الدين، ومرة أخرى وجد السوريون والمصريون أنفسهم تحت وطأة الضرائب الباهظة، وإذا هم يرون أموالهم تضخم خزائن رجال الكنيسة الأرثوذكسية.

وأخفقت سياسة هرقل الدينية في إصلاح الأمور. ذلك أنه بدأ باتخاذ بعض الإجراءات ضد اليهود، وإن لم يكن يضمّر لهم عدااء من قبل، ولكن الذي حدث هو أنه التقى بيهودي أكرم وفادته في طبرية وهو في طريقه إلى القدس وأحاطه علما بالتفاصيل الكاملة للدور الذي قام به اليهود إبان الغزوات الفارسية. وربما تأثر بنبوءة مبهمة مفادها أن جنسا محتونا سيدمر الإمبراطورية، فأمر بتعميد كل اليهود في الإمبراطورية تعميدا قسريا وكتب إلى ملوك الغرب يحثهم على أن يحذوا حذوه. واستحال تنفيذ أمره، على أن الحادثة أتاحت للمسيحيين المتعصبين فرصة نادرة لتقتيل

(١) (الترجم): كسيفون : أو المدائن، تقع حاليا بالقرب من بغداد جنوبا .

ذلك الجنس البغيض، وهكذا ازداد استياء اليهود من الحكم الإمبراطوري. وخاض الإمبراطور في أمواه اللاهوت المسيحي الخطرة؛ ذلك أن سرجيوس بطريق القسطنطينية وهو سوري وَحْدِيّطَبْعِيّ بالمولد تدرج في تطوير عقيدة ظن أنها تحقق المصالحة بين الْوَحْدِيّطَبْعِيّين وبين الأرثوذكس، ووافق هرقل على تلك العقيدة المعروفة تاريخياً باسم المونوإنرجية (١)، وبانتهاء الحروب الفارسية انتشرت العقيدة الجديدة. وبرغم أن الإمبراطور والبطريق تبنياها، وأن الخير الروماني هونوريوس وافق عليها موافقة مشوبة بالحنذر، فإنها لم تلق شعبية تذكر، وأجمع رجال الكنيسة من الْوَحْدِيّطَبْعِيّين على رفضها من فورهم كما رفضتها أغلبية الأرثوذكس التي يتزعمها في القسطنطينية الصوفي الكبير مكسيموس المعترف، وفي الشرق البطريق سوفرونيوس. وحاول هرقل جاهداً أن يفرضها على رعاياه تدفعه الحماسة أكثر مما تدفعه الفطنة، لكنه لم يجد أحداً يؤيده سوى حاشيته وعدد ضئيل من الأرمن واللبنانيين الذين عرفوا فيما بعد بالموارنة. ثم عدل هرقل هذه العقيدة فيما بعد ونشر سنة ٦٣٨ ميلادية عقيدته المسماة اكثيسيس (٢) التي يدافع فيها عن المونوثيليتية (٣)، لكنه أخفق بنفس القدر. ولم يستقر على رأى في هذه المسألة برمتها، وبقيت الحال على ذلك حتى بعد انعقاد المجلس المسكوني

(١) (المترجم): Monoenergism يقصد بهذه اللفظة الواحد يطاقية إذ ذهب سرجيوس بطريق القسطنطينية (٦١٠-٦٣٨) في محاولته التوفيق بين الواحد يطبعين وبين القائلين بأن للمسيح طبيعتين إلى التأكيد على أن للمسيح منبع إلهي واحد للفعل الحيوي Monoenergism وأنه يختص بإرادة واحدة Monothelism وقد حاول سرجيوس بذلك تحقيق الوحدة العقائدية في العالم المسيحي الشرقي، وإن كانت هذه العقيدة قد رفضت بعد ذلك على أنها غير أرثوذكسية .

(٢) (المترجم): اكثيسيس Ekthesis لفظة يونانية تعني: يعرض أو يطرح ، استخدمها أرسطو في علم المنطق ليدلّل بها على صحة فرض أو قياس منطقي معين .

(٣) (المترجم): المونوثيليتية Monothelism معتقد لاهوتي يرى أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين .

السادس سنة ٦٨٠ ميلادية. مما زاد من المرارة والاضطراب الذين كانا يلحقان الخراب بمسيحي الشرق.

الجزيرة العربية قبل الإسلام

كان هرقل يستقبل في القسطنطينية في سنة ٦٢٩ ميلادية السفراء المهنيين القادمين من بلاد بيعة كفرنسا والهند. ويقال أنه في تلك الأثناء جائته رسالة يوجهها إليه سيد عربي يقدم نفسه على أنه نبي الله ويدعوه إلى الدخول في دينه، وتلقى ملكا فارس والحبشة وحاكم مصر رسائل مماثلة. وربما تكون تلك القصة مكذوبة، فمن غير المحتمل ألا يكون هرقل قد علم آنذاك بالأحداث العظام التي كانت آخذة في تغيير الجزيرة العربية تغييرا شاملا. ففي بداية القرن السابع كانت تقيم في شبه الجزيرة بعض القبائل المستقلة التي يصعب قيادها، تقوم حياة بعضها على الرعي والبعض الآخر على الزراعة واستقرت قلة منها في مدن تجارية تقع على امتداد طريق القوافل. وكان شبه الجزيرة وثنياً ولكل منطقة فيه أوثانها. وكانت الكعبة أقدس المقدسات وتقع في مكة وهي المدينة التجارية الرئيسية. على أن عبادة الأثان كانت تتضاءل بسبب ما كان يقوم به المبشرون من اليهود والمسيحيين والزرادشتيين (١). ولم تحقق الزرادشتية نجاحاً إلا في

(١) (المترجم) : الزرادشتيون : نسبة إلى زرادشت (Zoroaster أو Zarathustra) الذي ولد في فارس حوالي سنة ٦٢٨ ق.م وتوفي حوالي سنة ٥٥١ ق.م ، وهو مصلح ديني لا يعرف عن حياته معرفة يقينية إلا القليل . ويقال أنه تلقى رؤيا من أهورا مازدا الرب الحكيم الذي كلفه بالدعوة إلى الحقيقة ولم يتصد زرادشت للقضاء على وثنية الديانة الفارسية وإنما جعل أهورا مازدا علي رأس ملكوت يقوم علي العدل ويعد بالخلود والنعيم فأهورا مازدا هو صاحب المكانة العالية بين الألهة والجدير بأن يعبد ولا يستطيع الدارسون المحدثون أن يثبتوا علي سبيل البقين ما يرد إلي زاردشت وما يرد إلي أتباعه مما جاء في الزرادشتية من توحيدية وإثنية (أي عبادة إلهين) ومما يتعلق بالأخرويات (كالموت والبعث والحساب والخلود) والممارسات الشعائرية . للزراشتية أتباع قلائل منعزلون في إيران ولها أتباع كثيرون في الهند من أخلاف الزرادشتيين الأول الذين هاجروا إلي هناك

المناطق الشمالية الشرقية الخاضعة للنفوذ السياسي الفارسي وفيما بعد في الجنوب. وكان اليهود مجتمعون في كثير من المدن العربية، خاصة في "المدينة"، وتمكنوا من تحويل عدد قليل من العرب إلى دينهم. وأما المسيحيون فكانوا يحققون نجاحا أكبر وأصبح للأرثوذكس أتباع في سيناء والبتراء، ووجد النساطرة حيثما توفرت الحماية الفارسية شأنهم في ذلك شأن الزرادشتيين، وكان للوحديطيين تجمعات عبر طرق القوافل الممتدة إلى اليمن وحضرموت، كما كانت هناك قبائل هامة كثيرة تدين كذلك بالوحديطية كالغساسنة والتغلبة. وأتيحت للتجار العرب الذين كانوا يترددون على مدن سوريا وفلسطين والعراق فرص أكثر للإلام بأديان العالم المتحضر، بينما كان هناك في شبه الجزيرة ذاتها تراث الحنفاء (١) القدم الذي يأخذ بالتوحيد. وفي الوقت نفسه كانت شبه الجزيرة في حاجة إلى التوسع نظرا لمواردها الشحيحة التي كانت تتناقص على نحو مطرد منذ تدمير منشآت الري الخاصة بالحميريين ولم تعد تكفي السكان المتزايدين، فعلى مدى التاريخ المسجل كان سكان الصحراء يتدفقون دائما على الأراضي المزروعة من حولهم، وزادت الحاجة الآن إلحاحا.

ويستطيع مؤرخو الأديان الغربيون أن يقفوا في وضوح على أوجه الصلات أو العلاقات بين العقائد الزرادشتية والعقائد اليهودية والمسيحية، ومن ثم نراهم يحاولون أفعال مزعومة بسين الزرادشتية والإسلام. ذلك أنهم يرون في أباطيلهم أن ثمة علاقة بين الإسلام واليهودية والمسيحية، وبالتالي لابد من أن تكون هناك علاقة بين الإسلام والزرادشتية. على أن بطلان هذا الزعم لا يحتاج إلى تدليل عند المنصفين من دارسي خصائص الأديان الذين يعرفون أن الإسلام وحدة هو الدين الذي يقوم على التوحيد الخالص الذي يتره الله تعزياً مطلقاً عن الشرك أو شبهة الشرك به وعن إشارته لقوم معين دون سائر خلقه.

(١) (الترجم): الحنفاء: جمع حنيف وهو المخلص الذي أسلم لأمر الله فلم يلتزم في شيء من دينه وقد جاء هذا اللفظ في عدة مواضع في القرآن الكريم منها قول الحق عز وجل في سورة البقرة الآية ١٣٥، "قل بل ملة إبراهيم حنيفاً" وفي سورة الحج الآية ٣١، "حنفاء لله غير مشركين به" ولفظ حنيف مشتق من الفعل: حنف يحنف حنفاً أي: مال ويقصد بالميل في هذا السياق: الميل إلى الحق والحنفاء على وجه العموم هم أولئك السابقون على الإسلام الذين اهتموا إلى التوحيد ومن ثم أنكروا اليهودية والمسيحية وعبادة الأوثان.

وجاءت عبقرية محمد العظيمة والمتفردة لتلائم تماماً تلك الظروف. فقد نشأ في مدينة مكة المكرمة واحداً من فقراء قبيلتها العظيمة قريش، وارتحل وشاهد العالم ودرس أديانه (١)، واجتذبتة الوحديطعية بوجه خاص، على أن عقيدة التثليث بدت له متناقضة مع اتجاه التوحيد الخالص الذي أعجب به في تراث الحنفاء. والعقيدة التي جاء بها، وإن لم تكن ترفض المسيحية رفضاً مطلقاً، إن هي إلا شكل من الدين يقوم المفاهيم ويبسطها بحيث تسوغ لقومه في يسر. ويرجع نجاحه كداعية ديني إلى فهمه العميق للعرب، ذلك أنه كان أقدرهم وكان يشاركهم مشاعرهم وميولهم مشاركة أصيلة، فضلاً عن أنه كان يتميز بمهارة سياسية فائقة. واثلفت هذه الصفات فيه لتعينه على أن يقيم من لا شيء في سنوات عشر إمبراطورية تتأهب لفتح العالم. ففي سنة ٦٢٢ ميلادية، وهو عام الهجرة، انحصر أتباعه في آل بيته وجماعة صغيرة من أصدقائه، وعندما مات سنة ٦٣٢ ميلادية كان سيد شبه الجزيرة العربية كلها وكانت جيوشه تجاوز حدودها. وإذا كان من يقدمون على التغيير في الشرق كثيراً ما يتولون زمام الأمور على حين غرة، فإنهم سرعان ما يفقدون سلطانهم فجأة بعد ذلك. بيد أن محمداً ترك من بعده نظاماً باقياً يضمن القرآن دوامه، ذلك الكتاب العظيم الذي جاء به النبي

(١) (المترجم): نحسب أن رانسيما مؤلف هذا الكتاب يأخذ فيما يذهب إليه هنا ومتاح في العرب مما يردده المستشرقون وواقع الحال أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يتح له أن يجوب بقاع العالم على سعته وأن يدرس أديانه على تنوعها ومن البدهي أن وسائل الاتصال وسبل انتشار المعرفة لم تكن لتتيح مهماً أوتي من قدرة الإمام بما كان متوزعاً هنا وهناك من معتقدات.

والدراسة المقارنة والمتعمقة والتي تتميز بالحيدة الموضوعية لتواريخ الأديان السماوى منها والوضعي، تبين دون شك أن المفاهيم الأساسية والتي تمثل في مفهومي الألوهية والنبوة من ناحية بالإضافة إلى شرائعه، والتي تستهدف تنظيم حياة الإنسان تختلف في الدين الإسلامي اختلافاً بيناً وأصيلاً عما عداها في سائر الأديان والعقائد الأخرى. والصلة التي حاول المستشرقون ومحاولون حتى يومنا هذا إيجادها بين الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد تتسم بافتعال وتعمل لا يصمدان للمناقشة المنطقية والحيدة الموضوعية.

وتتمثل فيه كلمة الله، والذي لا ترد فيه جوامع الكلم والقصص وحسب، وإنما يضم كذلك القواعد التي تقوم عليها الحياة وأسس الحكم وشريعة كاملة. ولم يكن القرآن مستغلقا على البسطاء من العرب معاصري النبي، كما أنه يتميز بالشمول الذي يفى باحتياجات الملك العظيم الذي قدر لخلفائه أن يقيموه من بعده. ولا غرو، فإن قوة الإسلام تنبثق من بساطته. ففوق الخلق إله واحد، وعلى الأرض يحكم المؤمنين أمير واحد، بمقتضى شريعة لا ينبغي له أن يحكم بسواها ألا وهى القرآن. وعلى خلاف الحال في المسيحية التي تدعو إلى سلام لم تستطع أبدا تحقيقه، جاء الإسلام بسيف لا يستشعر الحرج في مجاهدة الباطل (١).

(١) (المترجم) : اقتضت الأمانة العلمية أن ننقل إلى العربية بكل دقة ما جاء به رانسيमान في هذا الجزء متأثرا بما ورد في المراجع الغربية من تصور ساذج ينشأ عن الجهل حيناً وعن سوء القصد أحيانا ويتمثل في أن النبي محمدا لم يكن يصدر فيما جاء به عن وحي أنزل عليه من السماء وإنما كان مدفوعا ببواعث مصلح اجتماعي وسياسي توفرت له أسباب القدرة المتفوقة والعبقرية المتفردة وهو في رأيهم إنما جاء بما يناسب بساطة قومه الذين عاش حياتهم وسر أغوارهم . وكأن هؤلاء الكتاب الغربيين لم يحاولوا أن يسائلوا عقولهم المتحيزة عن علة واقع لا يجهلونه يعلمهم أن الإسلام - كعقيدة وشريعة ونظام سياسي اجتماعي - جاوز حدود شبه الجزيرة وبلغ في عقود قليلة أقصى أرجاء العالم المعروف من الصين شرقا إلى الأندلس غربا ودانت به شعوب وأقوام تختلف في كل مقوماتها إنما اختلفت عن بعضها البعض وعما كان عليه العرب الذين بدأ الإسلام مسيرته عندهم.

وثمة حقيقة أخرى أسرف خصوم الإسلام في تجاهلها وعمدوا إلى افتعال ما يناقضها تتمثل في أن الإسلام لم يقم في نشر دعوته على أعمال السيف ، وحسبنا في الرد علي من يزعمون أن للسيف مجالا في نشر الدعوة الإسلامية أن نورد آيتين من القرآن الكريم تقرر أولاها أن " لا إكراه في الدين " (البقرة ٢٥٦) ، وتأمر ثانيتهما المسلمين ألا يلجأوا إلى القتال إلا دفاعا عن أنفسهم : " أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا ... " (الحج ٣٩) ولا يفوتنا هنا أن نلفت نظر القارئ إلى أن الفعل " يقاتلون " مبني للمجهول وذلك يعني أن المسلمين لم يؤذن لهم بقتال إلا بعد أن يبدروا به وأنهم لم يبدأوه . والذي حدا بنا إلى الإشارة إلى ذلك أن مترجمي القرآن الكريم من غير المسلمين عمدوا في ترجماتهم إلى نقل الفعل " يقاتلون " مبنيا للمعلوم كي يوحوا بأن المسلمين هم الذين كانوا يبادرون بالقتال . ولا يتسع هذا المجال الضيق لأن نورد ما يجاور ذلك في دحض أباطيل

الغزو العربي الأول

واتخذ السيف سبيله إلى مقاطعات الإمبراطورية الرومانية والنبي بعد علسى قيد الحياة، وتمثل ذلك في سرايا صغيرة ذهبت إلى فلسطين ولم تحقق الكثير من النجاح. واتسع انتهاج سبيل الفتح في عهد أبي بكر، خليفة محمد، الذي استكمل فتح شبه الجزيرة بطرد الفرس من مستعمراتهم في البحرين، وفي نفس الوقت زحف جيش عربي عبر البتراء على طريق التجارة المؤدي إلى ساحل فلسطين الجنوبي وهزم الحاكم المحلي سرجيوس في مكان ما بالقرب من البحر الميت، ثم تقدم إلى غزة واستولى عليها بعد حصار قصير ولقي سكانها معاملة طيبة منه، وأصبح جنود الحامية أول من استشهد من المسيحيين على أيدي المسلمين.

وفي سنة ٦٣٤ ميلادية خلف عمر أبابكر وورث عنه عزمه على أن يزيد من قوة المسلمين. وفي تلك الأثناء أيقن هرقل، الذي كان ما يزال في شمال سوريا، أنه لا مفر من أخذ الغزو العربي مأخذا جادا، لكنه كان يعاني من نقص الرجال لخسائره الفادحة في الحرب الفارسية خاصة وأنه سرح كتائب كثيرة بعد انتهاء تلك الحرب لأسباب اقتصادية، وتبدد حماس الالتحاق بالجيش، وخيم في أنحاء مملكته شعور التراخي والتشاؤم الذي غالبا ما يحل بالمنتصرين بنفس القدر الذي يحل به على المنهزمين بعد حرب طويلة مريرة. ورغم ذلك، أرسل هرقل أخاه ثيودور على رأس جنود المقاطعة السورية لحفظ النظام في فلسطين. والتقى ثيودور بالجيشين العربيين الرئيسيين معا في جبثا أو أجنادين جنوب غرب القدس وهزم هزيمة ماحقة. وبات العرب آمنين في

-- بيد أنه لا بد لنا من أن نستطيع للمؤرخ رانسيما عذرا فيما يستغل عليه بالعقيدة والشرعة الإسلاميتين فمراجعته فيهما غريبة وتبعة التقصير في نقل إسلامنا على وجهه الصحيح إلى الغرب تقع ولا شك علينا، وحسبنا من رانسيما أنه استطاع أن يبذل جهده ويعمل فكره ويحيى بمعالجة واقعية لما كانت عليه الحملات الصليبية في حيدة علمية لا نكاد نجد مثلها عند غيره .

جنوب فلسطين، فتقدموا على طريق التجارة الذي يمضي شرقي الأردن إلى دمشق ووادي الأردن (نهر العاصي)، وسقطت في أيديهم مدن طبرية وبعبك وحمص دون مقاومة، واستسلمت دمشق في أغسطس (آب) سنة ٦٣٥ ميلادية بعد حصار قصير.

الفتح العربي لسوريا

وهنا شعر هرقل بالخطر الحقيقي فأرسل بشيء من الجهد جيشين جنوباً: الأول يقوده أمير أرميني يدعى فاهان ويتألف من مجندين أرمينيين وعدد كبير من العرب المسيحيين يرأسهم شيخ من بني غسان، والجيش الثاني يقوده ثيودور تريتيوريوس يتألف من أخلاط من الجنود. وحين علم المسلمون بأنباء اقتراحهما انسحبوا من وادي الأردن ودمشق ناحية الأردن، واشتبك معهم تريتيوريوس عند جابيا في الحوران لكنهم هزموه. ورغم ذلك، تمكن من الاحتفاظ بموقع على نهر اليرموك إلى الجنوب الشرقي من الجليل حتى يلحق به فاهان، حيث نشبت المعركة في ٢٠ أغسطس (آب) سنة ٦٣٦ ميلادية في عاصفة رملية تعمي الأبصار، وكان جيش المسيحيين يفوق جيش المسلمين عدداً ولكن المسلمين ناوروهم وهزموهم، ففي خضم القتال انضم الأمير الغساني إلى الأعداء ومعه اثنا عشر ألفاً من العرب المسيحيين من الوجديطبيين الذين كانوا يكرهون هرقل وتأخرت رواتبهم لشهور عديدة، ومن ثم سهلت عليهم خيانتهم بحيث حسمت الموقعة، وبذا اكتمل النصر الإسلامي. وهلك تريتيوريوس وفاهان وجميع رجالهما تقريباً، وأصبحت فلسطين وسوريا مهيأتين للفتح.

وعلم هرقل بالهزيمة وهو في أنطاكية فأخذ منه اليأس كل مأخذ. إنها يد العرب تمتد إليه لتعاقبه على زواجه الآثم من ابنة أخته مارتينا، وليس لديه رجال ولا أموال للدفاع عن المقاطعة أكثر من ذلك. فأقام صلاة شفاعة خاشعة في كاتدرائية أنطاكية، واتجه إلى الشاطئ وركب سفينة إلى القسطنطينية. وأثناء تحرك السفينة

مبتعدة عن الشاطئ صاح في صوت مرير من بين عبراته: "وداعا... وداعا طويلاً
لسوريا". (١)

واكتسح العرب البلاد، واستسلم لهم الهراطقة المسيحيون دون اعتراض وقدم لهم
اليهود عوناً فعالاً إذ عملوا كمرشدين لهم. ولم يجد العرب مقاومة منظمة إلا في أكبر
مدينتين فلسطينيتين: قيسارية والقدس، وفي قلعتي بيلا ودارا على التخوم الفارسية. أما
في القدس، فما أن سمع سوفرونيوس بأخبار اليرموك إلا وحصّن دفاعات المدينة، وفور
سماعه بوصول الأعداء إلى أريحا جمع آثار المسيح المقدسة وأرسلها إلى الساحل بليلاً
لتوصيلها إلى القسطنطينية، فلا ينبغي أن تقع تلك الآثار المقدسة في أيدي الكفرة مرة
أخرى. وصمدت القدس للحصار لما يزيد على عام، وصمدت قيسارية ودارا حتى سنة
٦٣٩ ميلادية، لكنهما كانتا نقطتي حراسة معزولتين، وكانت حاضرة الشرق أنطاكية
قد سقطت في العام المنصرم، وهكذا أمست البلاد كلها من برزخ السويس وحتى
جبال الأناضول في قبضة المسلمين. (٢)

وفي الوقت الذي كانت تجري فيه تلك الأحداث دمر العرب الإمبراطورية
الفارسية ند روما القديم. إذ استولوا على العراق بانتصارهم في القادسية سنة ٦٣٧

(١) يذكر ميخائيل السوري Micael the Syrian, vol. ii, pp. 424 قصة صلاة الشفاعة التي أداها
هرقل ووداعه، وبتهمه خطأ بأنه نهب ثروات المدن السورية قبل رحيله. ويتكرر ذكر هزيمته في *Agapius*
Kitab al-Unvan, p. 471، حيث يقال إنه رفض أن يحارب ضد إرادة الرب. وبحسب ما ذكره
Nicephorus, p. 23، فإن Theodore يعزو الكوارث التي نزلت بالإمبراطور إلى زواجه الباطل بابة أخته.
(٢) أنظر Ceatani, op. cit. vol. iii, pp. 1119 ff. and de Goeje, *Mémoire sur la*
Conquête de la Syrie, Passim; Prince, op. cit. pp. 267-89; Kulakovsky, op. cit. vol.
iii, pp. 152-6 ويتأكد الدور الذي لعبه اليهود في جميع المصادر الأصلية، خاصة Sebeos, pp.
173-4، وفي *Doctrina Jacobi*, pp. 89-8 الذي كتبه أحد يهود القسطنطينية الذي وجد
نفسه آنذاك في قرطاجنة.

ميلادية، وعلى الهضبة الإيرانية بانتصارهم في نهاوند في العام التالي. وقبّع يزدجرد الثالث، آخر الساسانيين، في خراسان متحفزا حتى سنة ٦٥١ ميلادية، وكان العرب قد وصلوا آنذاك إلى حدوده الشرقية على التلال الأفغانية وتلال أكسوس^(١).

فتح مصر

وتقدم القائد المسلم عمرو في ديسمبر (كانون الأول) سنة ٦٣٩ ميلادية بأربعة آلاف رجل لغزو مصر التي كانت إدارتها الرومانية في فوضى عارمة منذ نهاية الاحتلال الفارسي. فكان حاكم مصر، سيروس بطريق الإسكندرية، فاسدا تعوزه الحكمة، فقد تحول عن النسطورية وتزعم مناصري الإمبراطور في تعاليمه المونوثليتيية وعقد العزم على فرضها على الأقباط الرافضين لها، فكانوا يمحّتون حكمه مقتا شديدا، وهكذا لم يجد عمرو مشقة في العثور على حلفاء له من بين رعاياه. وفي بداية سنة ٦٤٠ ميلادية دخل عمرو قلعة الفرما العظيمة على الحدود بعد حصار دام شهرين، وهناك جاءته تعزيزات من الخليفة. وتقدم إلى بليس (القاهرة القديمة) حيث تمركز الحامية الإمبراطورية، وأسفرت المعركة التي نشبت في هليوبوليس في أغسطس (آب) سنة ٦٤٠ ميلادية عن تفهقر الرومان إلى حصن بابليون الذي صمد حتى إبريل (نيسان) سنة ٦٤١ ميلادية. واستولى العرب على مصر العليا، وبعد سقوط بابليون سار عمرو من الفيوم إلى الإسكندرية وأمامه حاكمها وحاميتها يلودون بالفرار. وثار شكوكها ما يبررها حول دخول سيروس في تحالف خائن مع عمرو، فاستدعته القسطنطينية، لكن هرقل مات في فبراير (شباط)، وتنظر أرملة الإمبراطورة الوصية مارتينا فلا تأمن على نفسها في القسطنطينية، فماذا تفعل للدفاع عن مصر؟ لذا أعادت سيروس إلى

(١) Caetani, *op. cit.* vol. iii, pp. 629 ff.; Christensen, *L'Iran sous les Sassanides*, pp. 494-503.

مصر ليصل إلى ما يستطيع الوصول إليه من شروط. فذهب إلى عمرو في نوفمبر (تشرين الثاني) ووقع معه معاهدة تسليم الإسكندرية. وفي تلك الأثناء سقطت مارتينا، وأنكرت الحكومة الجديدة سيروس ومعاهدته، لأن عمرو أدخل بما اتفق عليه وغزا مدن منطقة البنتابولس بفلسطين ومنطقة طرابلس بليبيا (١). وبدأ، مع ذلك، أنه من المستحيل الاحتفاظ بالإسكندرية بينما مصر كلها في قبضة العرب فاستسلمت المدينة في نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ٦٤٢ ميلادية. لكن الأمل لم يتبدد كله بعد، إذ استدعى عمرو إلى "المدينة" في سنة ٦٤٤ ميلادية، وأرسل إلى الإسكندرية جيش جديد عن طريق البحر من القسطنطينية ليجتلبها مرة أخرى في أوائل سنة ٦٤٥ ميلادية، وتقدم إلى القسطنطينية وهي العاصمة التي شيدها عمرو بالقرب من بابليون. ولكن عمرو عاد إلى مصر وهزم القوات الإمبراطورية هزيمة نكراء على مقربة من القسطنطينية، وانسحب قائدها مانويل الأرميني عائداً إلى الإسكندرية وقد أذهله ما أبداه المسيحيون من لا مبالاة مطلقة عند محاولته إعادة البلاد إلى المسيحية، فلم يبذل جهداً للدفاع عن المدينة، ورجع إلى القسطنطينية، وأعاد البطريق القبطي بنيامين الإسكندرية إلى عمرو. (٢)

وضاعت مصر إلى الأبد. وفي سنة ٧٠٠ ميلادية أصبحت أفريقيا الرومانية في قبضة العرب. الذين فتحوا إسبانيا بعد أحد عشر عاماً. وفي سنة ٧١٧ ميلادية امتدت إمبراطوريتهم من جبال البرانس إلى أواسط الهند، بينما محاربوهم يدقون أسوار القسطنطينية.

(١) (المترجم): بنتابوليس Pentapolis : أي المدن الخمس وتضم : غزة وعسقلان وأشدود وجح وعقرون وكلمة طرابلس مأخوذة عن الأصل تريبوليس Tripolis الذي يعني : المدن الثلاث .

(٢) Bréhier, op. Cit. pp. 134-8, 152-5; Amélineau, La Conquête de l'Egyppte par les Arabes in the *Revue Historique*, vol. cxix, pp. 275-301 .
الكاملة الواردة في Butler's *The Arab Conquest of Egypt* ما تزال ذات فائدة رغم أن أسماء الأماكن قديمة.

الفصل الثاني :

حكم مناهض المسيح



حكم مناهض المسيح

"أَمَّا نَحْنُ فَقَدْ كَلَّتْ أَعْيُنُنَا مِنَ النَّظَرِ إِلَى
عَوْنِ الْبَاطِلِ. فِي بَرْحِنَا انتَظَرْنَا أُمَّةً لَا
تُخَلِّصُ."

(مراثيا أرميا: ٤ — ٧)

وارتضى مسيحيو الشرق عن طيب خاطر حكم سادتهم الكفرة، ولم يمن
بوسعهم غير ذلك. وتضاءل الآن احتمال قيام بيزنطة مرة أخرى لإنقاذ الأماكن
المقدسة كما فعلت مع الفرس، وسرعان ما بنى العرب، وهم في ذلك أحكم من
الفرس، أسطولا لهم في الإسكندرية، وانتزعوا من بيزنطة أغلى ما لديها من قوة، ألا
وهي السيطرة على البحار. واحتفظوا على اليابسة بزمام الهجوم لما يقرب من ثلاثة
قرون، وهكذا تبدد الأمل في أن يقوم أمراء العالم المسيحي بذلك الإنقاذ.

ولم يكن مثل هذا الإنقاذ ليلقى ترحيبا من طوائف الهراطقة، فتغيير الحكام يريحهم
ويسرهم. وبعد تلك الأحداث بخمسة قرون كتب بطريق أنطاكية اليعقوبي، ميخائيل
السوري، أيام الممالك اللاتينية، معربا عن تقاليد شعبه القديمة قائلا: "إن رب الانتقام
القدير ... هو الذي بعث بني اسماعيل من الجنوب ليخلصنا هم من أيدي الرومان"،

وأضاف أن هذا الخلاص "ليس شيئا هينا لنا" (١). وردد النساطرة هذه الشاعر، فكتب مؤرخ مجهول من مؤرخيهم "لقد طرِبَت قلوب المسيحيين لحكم العرب لهم — أعزهم الله ووفقهم" (٢). وأما قبط مصر، فكان لديهم ما يثير بعض الانتقاد، بيد أن عداوتهم كانت تتجه إلى عمرو الفاتح القاسي المخادع وما يفرضه عليهم وليس إلى قومه أو دينه (٣). ولم يظهر الأرثوذكس كثيرا من الميل إلى مناقشة مصيرهم بعد أن وجدوا أنفسهم آمنين من الاضطهاد الذي كانوا يخشونه فيما مضى، وأنهم يدفعون ضرائب تقل بكثير — برغم الجزية التي فرضت عليهم كمسيحيين — عما كان يفرضه عليهم البيزنطيون أيام حكمهم. ولم يكن هناك من يقاوم الحكام الجدد سوى قبائل قليلة تعيش في الجبال، مثل قبائل المارديين في لبنان وجبال طوروس، لكنها كانت تقاوم من منطلق الفوضى والكبرياء لا من منطلق العقيدة. (٤)

الذميون

وترتب على الفتح العربي أن بقيت كنائس الشرق كما كانت دون مساس بها. فعلى حين كانت الإمبراطورية المسيحية تتوخى مثلا أعلى يتمثل في أن تفرض على جميع مواطنيها وحدة دينية حال دون بلوغها تعذر تحويل اليهود عن دينهم أو طردهم، كان العرب، كالفرس من قبلهم، مهياين لقبول الأقليات الدينية على أن تكون من أهل الكتاب. وأصبح المسيحيون ومعهم الزرادشتيون واليهود ذميون، أي طوائف تحظى

(١) Michael the Syrian, vol. ii, pp. 412-13 (Syriac text, p. 412)

(٢) *Chronicle of Seert*, pt. ii, xciv, in *Patrologia Orientalis*, vol. xiii, p. 582

(٣) John of Nikiu, pp. 195, 200-1

(٤) Theophanes, أحداث خروج الجراحة على القانون في زمن الخليفة الأموي معاوية يصفها .

Sathas, *Bibliotheca Graeca Medii Aevi*, vol. ii, ad ann 6169, p. 355 وانظر أيضا :

pp. 45 ff

بالحماية، تكفل لهم الجزية حرية العبادة وتعفيهم من الخدمة العسكرية، وألحق بالجزية الخراج وهو ضريبة الأرض. وكانت كل طائفة تعامل على أنها ملة أو جماعة تتمتع بحكم شبه ذاتي في نطاق الدولة، يرأس كلا منها زعيم ديني يعتبر مسئولاً عن حسن سلوك أفرادها أمام حكومة الخليفة. ويحق لكل منها أن تحتفظ بدور عبادتها التي كانت تمتلكها قبل الفتح، وكان هذا الترتيب يلائم الأرثوذكس أكثر مما كان يلائم هراطقة المسيحيين الذين أعطاهم هرقل بآخرة كثيراً من الكنائس ليقيموا فيها شعائهم. ولم يراع الإجراء الأخير مراعاة صارمة، واستولى المسلمون على كنائس مسيحية معينة مثل كاتدرائية القديس جون الكبيرة في دمشق، وأزالوا بين الحين والآخر عدداً من الكنائس، ولم يتوقف في نفس الوقت إقامة العديد من الكنائس والمعابد اليهودية. ولقد أباح فقهاء المسلمين المتأخرون للذميين أن يقيموا أبنيتهم دون أن يتجاوز في ارتفاعها أبنية المسلمين وبحيث لا تبلغ أصوات أجراسها أو الشعائر التي تقام بداخلها آذان المسلمين. بيد أنه لم يكن هناك ثمة تراخ في الالتزام بالقاعدة التي تقضي بأن يرتدي الذميون ملابس مميزة، وألا يحاولوا أن يفتنوا المسلمين عن دينهم، وألا يتزوجوا نساء المسلمين، وألا يستخفوا بالإسلام؛ وينبغي لهم أن يظلوا على ولاء للدولة. (١)

الأرثوذكس تحت الحكم الإسلامي

ورسخ النسق المِلِّي مفهومًا يختلف بعض الشيء عما كان يفهم من الانتماء القومي. ولم تكن القومية في الشرق تقوم لقرون عديدة خلت على العنصر، فيما عدا حالة اليهود الذين حافظ انغلاقهم الديني على نقاء دمهم نسبياً، وإنما كانت تقوم على

(١) *Encyclopaedia of Islam*, articles "Djizya" by Becker and "Kharadj" by Juynboll; Browne, *op. cit.* ch. v; Tritton, *The Caliphs and their non-Muslim Subjects*, ch. xv; Vincent and Abel, *op. cit.* vol. ii, pp.935-44

التراث الثقافي والموضع الجغرافي والصالح الاقتصادي. والآن أصبح الولاء لدين ما بديلاً للولاء الوطني. فالمصري، على سبيل المثال لا يعتبر نفسه مواطناً مصرياً، وإنما مسلماً أو قبطياً أو أرثوذكسياً بحسب حالته. وكان الدين، أو الملة، هو الذي يوجه ولاء الفرد، الأمر الذي أعطى للأرثوذكس امتيازاً على طوائف الهرطقة، إذ كانوا ما يزالون يعرفون بالملكيين ويعتبرون أنفسهم — كما تعني هذه اللفظة — رجال الإمبراطور. وربما تضعهم الضرورة القاسية تحت سيطرة الكافر الذي يجبرهم على إطاعة قوانينه؛ أما الإمبراطور فهو خليفة الرب على الأرض وسيدهم بلا منازع. والقديس جون الدمشقي، الذي كان يعمل في بلاط الخليفة، كان يخاطب الإمبراطور دائماً على أنه مولاه وسيده برغم أنه كان يختلف معه في مسائل اللاهوت، بينما كان يخاطب مخدمه — أي الخليفة — على أنه "الأمير" وحسب. والبطارقة الشرقيون، الذين كانوا يكتبون في القرن التاسع إلى الإمبراطور ثيوفيلوس معترضين على سياسته الدينية، كانوا يخاطبونه بالفاظ مماثلة. وكان الأباطرة يقبلون تلك المسؤولية، ففي جميع حروبهم ومعاملاتهم الدبلوماسية مع الخلفاء، كانوا يضعون في حسابهم صالح الأرثوذكس الذين يوجدون فيما وراء حدودهم. ذلك أن إدارة شؤون هؤلاء الأرثوذكس لم تكن في متناول حكومة الإمبراطور، فالأباطرة لم يكن بوسعهم التدخل في الحكم اليومي في الأراضي الإسلامية، كما لم تكن لطريق القسطنطينية أية ولاية على زملائه من البطارقة الشرقيين. ولم تكن مراعاة الأباطرة لصالح الأرثوذكس إلا تعبيراً، يتسم بعاطفة قوية، عن بقاء فكرة أن العالم المسيحي واحد ولا يقبل التجزئة، وأن الإمبراطور رمز وحدة ذلك العالم. (١)

ولم يكن لكنائس الهرطقة من يسبغ عليها حماية كتلك التي كانت تسبغ على

(١) أنظر Runciman, 'The Byzantine " Protectorate " in the Holy Land', in *Byzantium*, vol. xviii, pp. 207-15.

الأرثوذكس، فلم يكن بوسعهم إلا أن يعتمدوا اعتمادا مطلقا على حسن نية الخليفة، ومن ثم تقلص نفوذهم وتناقصت هيبتهم. زد على ذلك أن هرطقاتهم تعزى أصولها الأولى إلى حد كبير لرغبة أبناء الشرق في تبسيط العقائد والممارسات المسيحية. وكان الإسلام — الذي كان يقارب المسيحية على نحو جعل الكثيرين يعتبرونه شكلا متقدما منها والذي كان يتمتع في ذلك الحين بميزة اجتماعية كبرى تتمثل في كونه دين الطبقة الحاكمة الجديدة — يسهل قبوله لدى الكثيرين منهم (١). وليس ثمة سبيل إلى معرفة عدد الذين تحولوا من المسيحية إلى الإسلام؛ بيد أن الغالبية العظمى منهم كانوا من الهراطقة وليسوا من الأرثوذكس. ففي غضون قرن واحد من الفتح أصبحت سوريا بلدا يسود فيه الإسلام، بعد أن كان سواد سكانها من الهراطقة المسيحيين، بينما نقصت أعداد الأرثوذكس بشكل ضئيل. وفي مصر، فقدت المسيحية مكانتها بشيئ من البطء، ويرجع ذلك إلى ثراء الأقباط الذين كانوا يحاربون معركة خاسرة. ومن ناحية أخرى، ضمن النسق الملي دوام بقاء الهراطقة وعزز وضعهم على نحو يحول دون إعادة توحيد الكنائس.

(١) (المترجم) لا بد لنا من أن نقف مع رانسيما في هذا السياق فهو - رغم الحيدة الموضوعية التي تتميز بها كتاباته - لا يستطيع أن يخلص مما يشيع عند الكتاب الغربيين من أن الإسلام شكل متقدم أو متطور من أشكال المسيحية بالرغم من أن زيف هذا الرأي أحلي من أن يحتمل لُبْسًا. فالمفهوم الإلهي في الدينين الإسلام والمسيحية يختلف اختلافًا بينا يغلق كل أبواب التماثل أو التشابه ويحول دون أي شكل من أشكال التوفيق أو التلفيق وهذه حقيقة راسخة تجلوها المقارنة الموضوعية بين المفهومين وليس ثمة شك في أن المفهوم الإلهي هو المفهوم الأساسي الذي لا ينهض دين إلا به. وليس ثمة شك في أن مفهومي النبوة والوحي في الدينين يتسمان بالاختلاف الجذري ناهيك عن أن مفهوم الخلاص الذي تقوم عليه المسيحية يجري على منطلق يرفضه الإسلام رفضا مطلقا. وإذا انتقلنا إلى ما يستهدفه الدين من تنظيم للمجتمع نجد أن سبل هذا التنظيم وما تنطوي عليه من تشريع تختلف في الإسلام عنها في المسيحية. وإذا كانت هذه الحاشية لا تتيح مزيدا من التوسع فإننا نترك معالجة الأمر كله إلى صفحات كتاب نرجو أن يعين الله على إصداره.

ولم ترجع قوة الإسلام في سوريا وفلسطين إلى تدفق العرب المفاجئ من الصحراء، فلم تكن جيوش الفاتحين من الضخامة بمكان، ولم تكن لتشكل سوى طبقة عسكرية تهيمن على السكان الموجودين في البلاد الذين لم يكذب بتغير تكوينهم العرقي. وسرعان ما اتخذ أبناء المدن والقرى، من أسلم منهم ومن بقى على مسيحيته، اللغة العربية بدلا من لغتهم في شتى مناحي حياتهم، وفي وقتنا الحاضر نسمي خلفهم، في بساطة، عربا. بيد أنهم كانوا يتألفون من خليط من أجناس كثيرة، ومن قبائل كانت تقيم في تلك الأرض قبل خروج بني إسرائيل من مصر، من الأمالكيين أو الجيوسيين أو المؤابيين أو الفينيقيين، ومن قبائل أخرى كالفلسطينيين الذين تقادم بهم العهد هناك كغيرهم، ومن الآراميين الذين انتشروا عبر التاريخ المسجل في بقاء وخفية في الأراضي الزراعية، ومن أولئك اليهود الذين انضموا إلى كنيسة المسيح، كما فعل الرسل الأولون. ولم يبق دون تخطيط سوى اليهود المتدينين، الذين لم يتأثر نقاؤهم العرقي إلا في القليل. وفي مصر كانت سلالة حام أقل تخطيطا، بيد أنها زادت نتيجة للتزاوج مع المهاجرين من سوريا والصحاري والنيل الأعلى وشواطئ حوض البحر المتوسط كله.

وكان لابد للهجرة العربية من أن تبلغ أقصى مداها في المناطق المتاحة للصحراء وفي المدن الواقعة على طريق القوافل الممتدة بطول حوافها. وتدهور التجارة البحرية في البحر المتوسط، الذي حدث على إثر الفتح، أضفى على هذه المدن التي تقطنها أغلبية من المسلمين، أهمية تفوق أهمية المدن الهيلينية (١) القريبة من الساحل. وكانت الإسكندرية هي الميناء الوحيد الكبير الذي احتفظ به العرب على البحر المتوسط. وبقي فيها، وفي مدن سوريا الهيلينية كثير من السكان المسيحيين الذين ربما جاوزوا في العدد السكان المسلمين. وفي الريف السوري كان هناك نفس الاختلاف تقريبا، فأصبحت السهول الداخلية والوديان إسلامية بشكل آخذ في التزايد بينما سادت

(١) (المترجم) : هيلينستي : كل ما يتعلق بالثقافة الإغريقية في عصر ما بعد الإسكندر الأكبر .

الطوائف المسيحية المتنوعة المنطقة الواقعة بين لبنان والبحر. وفي مصر كان الفارق بين الحضر والريف أكبر إذ تحول الفلاحون إلى الإسلام شيئاً فشيئاً بينما كانت المسيحية تغلب على أهل المدن. وفي فلسطين كان توزع المسلمين والمسيحيين مغايراً، فبينما أسلم السكان في مناطق كثيرة من الريف، تمسكت قرى كثيرة بدينها القديم، وأما المدن ذات الأهمية الخاصة عند المسيحيين — مثل الناصرة وبيت لحم — فكانت المسيحية منتشرة فيها تماماً. وفي القدس نفسها، وبرغم تبجيل المسلمين لها، ظل المسيحيون هم الأغلبية، وكان الفلسطينيون المسيحيون كلهم تقريباً من الملة الأرثوذكسية. وبالإضافة إلى ذلك، كانت هناك مستعمرات يهودية هامة في القدس وفي العديد من المدن الأصغر كصفد وطبرية. وكانت المدينة الإسلامية الرئيسية هي العاصمة الإدارية الجديدة في الرملة. وعلى مدى القرون الأربعة التالية ظل سكان سوريا وفلسطين ومصر في تلك المجموعات النمطية التقريبية. (١)

الخلافة الأموية

وكان الخليفة الأموي الخامس، معاوية، حاكماً لسوريا قبل توليه الخلافة، وبعد توليه خلافة المسلمين سنة ٦٦٠ ميلادية نقل عاصمة الخلافة إلى دمشق، وحكم خلفاؤه هناك زهاء قرن من الزمان ازدهرت فيه سوريا وفلسطين. وكان الخلفاء الأمويون يتمتعون — عدا القليل منهم — بمزايا غير عادية من الاقتدار والتسامح وسعة الأفق. وكان وجود بلاطهم في تلك المقاطعة بمثابة ضمان للإدارة الحسنة والنشاط التجاري المتجدد؛ ولقد شجعوا الثقافة التي وجدوها هناك، وهي ثقافة هيلينستية مسيحية تأثرت

(١) للإطلاع على هيكل تكوين المجتمع في فلسطين وسوريا في ظل الخلفاء أنظر :

Le Strange, *Palestine under the Moslems*, passim; Gaudetfroy-Demombynes and Platonov, *Le Monde Musulman*, pp. 233-47; Browne, *op. cit.* ch. v; O'Leary, *How Greek Science passed to the Arabs*, pp. 135-9.

بأذواق وأفكار نعتها نحن بالبيزنطية. والتحق المسيحيون من المتحدثين باليونانية بالوظائف الحكومية؛ وكانت حسابات الدولة تقيد باليونانية لعشرات السنين، كما كان الفنانون والصناع المسيحيون من ذوي المهارات يعملون لدى الخليفة، وستبقى قبة الصخرة في القدس، التي أتم بناءها الخليفة عبد الملك سنة ٦٩١ ميلادية، مثالا رفيعا لنمط البناء الدائري في العمارة البيزنطية، وستبقى فسيفسائها - وأعمال الفسيفساء الأكثر جمالا التي أقامها ابنه الوليد الأول في فناء جامع دمشق الكبير - من أرفع مستويات الفن البيزنطي. فإلى أي مدى تعتبر تلك الأعمال من صنع الحرفيين من أبناء البلاد، وما مدى العون الذي قدمه لهم الفنيون والمواد التي لا بد وأن يكون الوليد قد أحضرها من بيزنطة؟ هذه أمور ماتزال مثار خلاف. ولقد روعي في أعمال الفسيفساء هذه ما ارتآه النبي من اجتناب تصوير الكائنات الحية. ولم يتقيد الأمويون بذلك في قصورهم الريفية المتوارية عن أنظار رجال الدين المتشددين، ومثال ذلك اللوحات المرسومة على جدران استراحة الصيد بقصر الأمراء في السهوب الواقعة وراء نهر الأردن والتي تصور شكل الإنسان وجسده. وواقع الحال أن حكم الأمويين لم يؤد إلى انقطاع تطور الثقافة الهيلينية في الشرق الأدنى والتي كانت قد بلغت في ذلك الوقت ذروة الازدهار الذي لم تبلغها بعد ذلك. (١)

ومن ثم، لم يكن هناك من سبب يؤدي بالمسيحيين إلى الحسرة لما حققه الإسلام من انتصار. فبرغم ما تعرضوا له من اضطهاد لا يذكر، وبرغم القليل من التدابير المهينة، فإنهم كانوا أحسن حالا مما كانوا عليه أيام الأباطرة المسيحيين، فالحفاظة على

(١) عن الحضارة الأموية أنظر :

Diehl and Marçais, *Le Monde Oriental de 395 à 1081*, pp. 335-44, and Lammens, *Etudes sur le Siècle des Ommayyades*. For its art, see Creswell, *Early Muslim Architecture*, especially ch. V, on mosaics, by M. van Berchem. For individual buildings, see Richmond, *The Dome of the Rock*, and the two volumes *Kuseir Amra*, published by the Kaiserliche Akademie der Wissenschaften of Vienna.

النظام كانت أفضل، وتحسنت أحوال التجارة وخفضت الضرائب إلى حد كبير عما كانت عليه. وفضلا عن ذلك، كان الأباطرة المسيحيون هراطقة في الشطر الأكبر من القرن الثامن يحطمون الأيقونات ويضطهدون كل من يبجل الصور المقدسة من الأرثوذكس. وكان المسيحيون المتدينون أسعد حالا في ظل الكافر.

الخلافة العباسية

على أن هذه الفترة السعيدة لم تدم. ذلك أن تدهور حكم الأمويين، واستقرار الخلفاء العباسيين في بغداد سنة ٧٥٠ ميلادية نتيجة للحروب الأهلية، جلبا الفوضى إلى سوريا وفلسطين. فجمع بعض الحكام المحليين ممن لا ضمير لهم ولا ضابط لأفعالهم المال عن طريق مصادرة بعض الكنائس المسيحية التي كان على المسيحيين في ذلك الوقت أن يسترجعوها بأموالهم. وعاود التعصب والاضطهاد والإكراه الديني الظهور بين الحين والحين (١). وأعاد انتصار العباسيين استقرار النظام، مع وجود فارق يتمثل في أن بغداد كانت نائية فقلت الرقابة على الحكم في الأقاليم. وكانت حركة التجارة مازالت نشيطة على طريق القوافل، وإن كانت تفتقد الأسواق الكبرى التي تنهض بها داخل البلاد. وكان العباسيون أكثر تشدداً من الأمويين، فلم يتوسعوا في إفساح المجال للمسيحيين، ذلك أنهم كانوا يعتمدون — شأنهم في ذلك شأن الأمويين — على ثقافة أقدم من الهيلينية ألا وهي الفارسية. وكانت بغداد تقع في نطاق مملكة الساسانيين القديمة. وشغل الفرس مواقع رئيسية في الحكومة، واتبع العباسيون مثل الفن الفارسي والعادات الفارسية في الحياة اليومية. واستعانوا — كالأمويين — بموظفين مسيحيين، بيد أن هؤلاء المسيحيين كانوا — مع بعض الاستثناء — نساطرة ممن يتوجهون إلى الشرق

Diehl and Marçais, *op. cit.* pp. 345-8; Gaudefroy-Demombynes and

(١)

Platonov, *op. cit.* pp. 260-8

وليس إلى الغرب. وكان اهتمام البلاط العباسي بأمور الثقافة يجاوز اهتمام الأمويين على وجه العموم واستعين بالنساطرة في ترجمة الأعمال الفنية والفلسفية عن اليونانية القديمة، وشجع العلماء والرياضيون على المجيء من بيزنطة وغيرها للتدريس في مدارس بغداد. لكن هذا الاهتمام كان سطحيًا، ذلك أن الحضارة العباسية لم تتأثر في أساسها بالفكر الإغريقي وإنما اتجهت إلى اتباع التراث المتوارث من ممالك ما بين النهرين وإيران، ولم يبق أثر للحياة الهيلينية في العالم الإسلامي إلا في إسبانيا التي لاذ بها الأمويون.

على أن حظ المسيحيين في ظل الحكم العباسي لم يكن تيسرًا. وربما تصدى الكتاب المسلمون، من أمثال الجاحظ في القرن التاسع، للهجوم عليهم، ومرجع ذلك أنهم كانوا يتمادون في غطرستهم لفرط ثرائهم ولأنهم لم يعبأوا بالتدابير التي كانت تتخذ من أجلهم (١). وفي ذلك الوقت تقريبًا كتب بطريق القدس لزميله بطريق القسطنطينية يحدثه عن السلطات الإسلامية الحاكمة قائلاً: "إنها عادلة لا تظلمنا شيئاً ولا تظهر نحونا أي شكل من أشكال العنف." (٢) فعدل تلك السلطات واعتدالها كانا في غالب الأحوال متميزين. وفي القرن العاشر، عندما كانت أحوال العرب تسوء في حروبهم مع بيزنطة، ويتألب الغاضبون من المتجهمين على المسيحيين لتعاطفهم المعروف مع أعداء الإسلام، كان الخليفة في كل حال يعرض أولئك المسيحيين عما قد يصيبهم. وربما كان دافعه إلى ذلك خشيته من القوة الوليدة للإمبراطور الذي كان

(١) Al-Jahiz, *Three Essays*, ed. by Finkel, p. 18. Labourt, *De Timotheo I*,

33-4, *Nestorianorum Patriarcha*, pp. 33-4، يوضح Labourt، ما كان يتمتع به النساطرة من نفوذ في بلاط الخليفة.

(٢) رسالة Theodosius of Jerusalem إلى Ignatius of Constantinople الواردة في

.Mansi, *Concilia*, vol. xvi, pp. 26-7

يعيش في أراضيهم مسلمون بوسعه أن يضطهدهم من قبيل الانتقام (١). وحظيت الكنائس الأرثوذكسية، والقوى الأجنبية توازرها، بوضع طيب في كل حال. وفي أوائل القرن العاشر، وأثناء خلاف وقع بين إبراهيم الثالث - كاثوليكوس النسطوري - وبين بطريق أنطاكية الأرثوذكسي، قال الأول للوزير الأكبر "نحن معشر النساطرة أصدقاء للعرب ونبتهل من أجل انتصارهم وأنأى بك أن تساوي في نظرتك بين النساطرة، الذين ليس لهم ملك سوى العرب، وبين اليونانيين الذين لا يتوقف ملوكهم مطلقاً عن قتال العرب" (٢). غير أن منطقهم لم يبلغه مأربه في نهاية المطاف وإنما حققت غايته الهدية التي قدمها وقدرها ألفاً قطعة من العملة الذهبية. وكانت الجماعة المسيحية الوحيدة التي استمرت العداوة تجاهها هي جماعة المسيحيين المنحدرة من أصل عربي خالص، مثل قبائل بني غسان أو بني تنوخ، التي اضطرت أبنائها إلى عبور الحدود لياذا ببيزنطة بعد رفضهم أن يجبروا على التحول عن دينهم. (٣)

شارلمان وفلسطين

واستمرت هجرة المسيحيين إلى أراضي الإمبراطور، ولم يتخذ المسلمون أية خطوات حيال تلك الهجرة. ويبدو أنه لم تكن هناك محاولة في كل حال للحيلولة دون قيام علاقات وثيقة بين المسيحيين داخل الخلافة وخارجها، حتى في أزمنة الحرب.

(١) في عامي ٩٢٣ و ٩٢٤ قام بعض المتظاهرين المسلمين بمهاجمة كنائس مسيحية أرثوذكسية في الرملة وعسقلان وقيسارية ودمشق، وعلي الأثر ساعد الخليفة المقتدر المسيحيين على إعادة بناء تلك الكنائس (Eutychius, co. 1151)

(٢) Bar Hebraeus, quoted in Assemani, *Bibliotheca Orientalis*, vol. ii, pp. 4401

(٣) البلاذري، النص العربي ص ١٤٢ ترجمة Hitti and Murgotten, pp. 208-9. أنظر :

Nau, *Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie*, pp. 106-11.

وخلال الجزء الأكبر من فترة الخلافة العباسية لم يكن الإمبراطور البيزنطي من القوة بحيث يستطيع أن يقدم الكثير لأبناء دينه. وكان فشل العرب في الاستيلاء على القسطنطينية سنة ٧١٨ ميلادية بمثابة ضمان لاستمرار الإمبراطورية، ولكن بيزنطة لم تتمكن من المبادرة إلى الهجوم على العرب على نحو فعال إلا بعد انقضاء قرنين من الزمان. وفي تلك الأثناء كان مسيحيو الشرق الأرثوذكس قد اكتشفوا صديقا أجنبيا جديدا؛ فأتساع إمبراطورية شارلمان الكارولنجية في القرن الثامن لم يمر دون أن تلحظه أنظار الشرق. وفي نهاية القرن أظهر شارلمان العظيم، الذي كان على وشك أن يتوج إمبراطورا في روما، اهتماما خاصا بإصلاح حال الأماكن المقدسة، ولقيت اهتماماته ترحيبا كبيرا؛ إذ أن الخليفة هارون الرشيد، الذي سره أن يجد حليفا ضد بيزنطة، شجعه على إقامة مؤسسات في القدس وإرسال العطايا لكنائسها. ولفترة من الزمان حل شارلمان محل الإمبراطور البيزنطي وكان العاهل الذي تحمي قوته الأرثوذكس في فلسطين، ولقد ردوا على إحسانه بأن بعثوا إليه ما يدل على تبجيلهم له. بيد أن انهيار إمبراطوريته في عهد من خلفوه وبعث بيزنطة مرة أخرى جعل تدخل الفرنجة قصير الأجل ولا يكاد يذكر، لولا تلك النزل التي أنشأها شارلمان، والصلوات اللاتينية التي كانت تقام في كنيسة القديسة ماري الخاصة باللاتينيين، والراهبات اللاتينيات التي كن يخدمن في كنيسة القبر المقدس. لكن الغرب لم ينس أبدا تلك القصة التي بالغت الأساطير والمأثورات في روايتها، وسرعان ما ظن أن شارلمان قد أضفى على الأماكن المقدسة حمايته القانونية، وقيل أنه قام بالحج إلى هناك. وأعلنت أجيال الفرنجة المتأخرة حقها في أن تحكم القدس، وقوبل هذا الإعلان بالتأييد. (١)

(١) أنظر Runciman, "charlemagne and palestine", in *English Historical Review*, vol. I, pp. 606 ff

وكان المسيحيون الشرقيون أكثر اهتماما ببعث قوة بيزنطة. ففي أوائل القرن التاسع كانت الإمبراطورية مازال في موقف الدفاع، واستولى المسلمون على جزيرتي صقلية وكريت، ولم يكدمضي عام دون أن يشن العرب غارة كبرى في قلب آسيا الصغرى. وفي منتصف القرن أعيد تنظيم البحرية البيزنطية وتجهيزها، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى الاقتصاديات الرشيدة للإمبراطورة الوصية على العرش، ثيودورا. وبفضل قوة بيزنطة تأكدت سيادتها على جنوب إيطاليا ودالماتيا (١). وفي بداية القرن العاشر، بدأت الخلافة العباسية تضمحل بسرعة، إذ ظهرت ممالك محلية أهمها مملكة الحمدانيين في الموصل وحلب ومملكة الإخشيد في مصر. وكان الحمدانيون مسلمين غير ذوي براعة كبيرة في القتال وأقاموا خطا دفاعيا لصد العدوان البيزنطي، لكنهم لم يستطيعوا وقف إضمحلال القوة الإسلامية، بل زادوها إضمحلالا بتشجيعهم الحروب الأهلية. وسيطر الإخشيدون إبان تلك الحروب على فلسطين وجنوب سوريا، وسارع البيزنطيون إلى الاستفادة من ذلك الموقف. وكان هجومهم حذرا في بادئ الأمر. ولكن في سنة ٩٤٥ ميلادية استولى القائد البيزنطي جون كركوس — برغم شجاعة وإقدام الأمير سيف الدولة الحمداني — على مدن ومناطق في أعالي أرض ما بين النهرين، لم تكن قد شاهدت جيشا مسيحيا منذ ثلاثة قرون (٢)، وضمها للإمبراطورية. وتزايدت سرعة الأحداث بعد سنة ٩٦٠ ميلادية، على إثر تسلم الجندي العظيم نيسفوراس فوكاس قيادة الجيش الإمبراطوري، وفي سنة ٩٦١ ميلادية استعاد نيسفوراس جزيرة

(١) (المترجم) : دالماتيا : حاليا إقليم في جمهورية كرواتيا الصربية في يوغوسلافيا علي الساحل الأدرياتيكي .

(٢) Vasiliev, *Byzantium and the Arabs* (in Russian), vol. ii, pp. 229 -37; Runciman,

The Emperor Romanus Lecapenus, pp. 135-50

كريت، وفي سنة ٩٦٢ ميلادية جرد حملة على حدود كيليكيا (١) واستولى على أنزاريوس وماراش (جرمانيشيا) وبذلك عزل كيليكيا المسلمة. وفي سنة ٩٦٣ ميلادية كان نيسفوراس مشغولا في وطنه يخطط للانقلاب الذي جاء به إلى العرش بمساعدة الجيش والإمبراطورة الوصية. وفي سنة ٩٦٤ ميلادية عاد إلى الشرق، وفي سنة ٩٦٥ ميلادية أكمل غزو كيليكيا، وأرسل حملة إلى قبرص أعادت السيطرة البيزنطية الكاملة على الجزيرة، وفي سنة ٩٦٦ ميلادية أغار على أواسط الفرات ليقطع خطوط المواصلات بين حلب والموصل (٢). فنهض الشرق المسيحي كله وظن أن الخلاص وشيك، وكتب إليه جون بطريق القدس يحثه على الإسراع إلى فلسطين، بيد أن تلك الخيانة جاوز وقعها قدرة المسلمين على الصبر، فألقت الجماهير الغاضبة القبض على جون وأحرقته. (٣)

لقد كانت آمال جون سابقة لأوانها. ففي عامي ٩٦٧ و ٩٦٨ كان نيسفوراس مشغولا بحدوده الشمالية، لكنه في سنة ٩٦٩ ميلادية قاد جيشه جنوبا مرة أخرى إلى قلب سوريا مباشرة، وتقدم إلى وادي الأردن (العاصي) ليستولي على مدن شيزار وحماة وحمص وينهبها الواحدة تلو الأخرى، ثم سار على الساحل إلى ضواحي طرابلس؛ وعاد إلى الشمال تاركا وراءه طرطوس وجبله واللاذقية تلتهمها النيران، بينما حاصر ضباطه أنطاكية وحلب. واستولى على أنطاكية في أكتوبر (تشرين الأول)، واستسلمت حلب في نهاية السنة. وذابت أنطاكية، التي ربما كان عدد مسيحييها يفوق عدد مسلميها، في

(١) (المترجم) : كيليكيا : الجزء الجنوبي الشرقي من الأناضول (تركيا) المطل على البحر المتوسط .

(٢) Schlumberger, *Un Empereur Byzantin, Nicéphore phocas*, chs. viii and x

(٣) Yachya of Antioch, in P.O. vol. xviii, pp. 799-802. The date is discussed in

Rosen, *Emperor Basil the Bulgar slayer* (in Russian), p. 351

الإمبراطورية، ويبدو أن المسلمين قد أجبروا على الهجرة منها. وأصبحت حلب التي كان المسلمون أغلبية غالبية فيها، ولاية تابعة. ووقع حاكمها معاهدة تحدد بدقة الحدود التي تفصل بين المقاطعة الإمبراطورية الجديدة وبين المدن التابعة. وبمقتضى تلك المعاهدة يقوم الإمبراطور بتعيين حاكم حلب، وفرضت ضرائب باهظة على هذه الولاية التابعة على أن يعفى المسيحيون منها، وتدفع مباشرة إلى الخزانة الإمبراطورية، كما تقضى المعاهدة بمنح تجار الإمبراطورية وقوافلها امتيازات وحماية خاصة. وهكذا آذنت تلك الشروط المهينة بانتهاء قوة المسلمين في سوريا.

الإمبراطور جون تسيميس

وقبل سقوط حلب اغتيل الإمبراطور في القسطنطينية، قتلته الإمبراطورة وعشيقها ابن عم الإمبراطور جون تسيميس، وكان نيسفورس رجلا صارما لا يُحِب، وبرغم انتصاراته كان مكروها في القسطنطينية لاغتصابه الأموال وفساده وخلافه المير مع الكنيسة. واعتلى جون، الذي كان معروفا كقائد بارع، العرش دون صعوبة وسالم الكنيسة بأن تخلى عن خليلته الإمبراطورة، بيد أن الحرب مع بلغاريا أبقت مشغولا في أوروبا طوال السنوات الأربع التالية. وفي تلك الأثناء كان الإسلام ينهض من جديد في ظل الفاطميين الذين عززوا مكانتهم في مصر وجنوب سوريا، وحاولوا استعادة أنطاكية سنة ٩٧١ ميلادية. واستطاع جون أن يلتفت إلى الشرق سنة ٩٧٤ ميلادية، فاتجه في خريف ذلك العام إلى شرق ما بين النهرين واستولى على نصيبين وحول الموصل إلى ولاية تابعة، وفكر في زحف مفاجئ على بغداد، بيد أنه تحقق من أن الفاطميين أعداء يخشى بأسهم أكثر مما يخشى بأس منافسيهم العباسيين، فتقدم في الربيع التالي إلى سوريا واتخذ نفس الطريق الذي اتخذه نيسفوراس قبل ذلك بستة أعوام،

واكتسح وادي الأردن (العاصي) متجاوزا حصص التي استسلمت دون أدنى مقاومة، وبعلبك التي أخذها عنوة، ثم انتهى إلى دمشق التي وعدت بدفع إتاوة وعقدت معه تحالفا مهيئا. ومن هناك انطلق إلى الجليل، واستولى على طبرية والناصرية، ثم اتجه جنوبا إلى قيسارية على الساحل. وجاءته الوفود من القدس متوسلة إليه أن يخف لنجدتها، لكنه شعر بعدم استطاعته التقدم إلى المدينة المقدسة ذاتها دون الاستيلاء على مدن الشاطئ الفينيقي من ورائه والتي لم يكن قد استولى عليها، فعاد أدراجه شمالا وقهرها الواحدة تلو الأخرى فيما عدا ميناء طرابلس الحصين. وكان الشتاء على الأبواب، فاضطر الإمبراطور إلى تأجيل جهوده إلى فصل آخر. وفي طريق عودته إلى أنطاكية استولى على القلعتين الكبيرتين، قلعة بارزويا وقلعة صهيون، الواقعتين في جبال النصيري وترك فيهما حاميتين من رجاله وعاد إلى القسطنطينية، بيد أن حملته لم تستأنف بعد ذلك على الإطلاق، إذ مات على حين غرة في يناير (كانون الثاني) سنة ٩٧٦ ميلادية. (١)

ولقد جعلت هذه الحروب من الإمبراطورية المسيحية القوية العظمى في الشرق مرة أخرى. وبينما كان مسيحيو الشرق ينتظرون مخلصهم كانت تلك الحروب تتخذ سمة دينية، وفي ذلك الحين، كانت الحروب ضد المسلمين تشن بانتظام دفاعا عن الإمبراطورية، وكانت من المسلمات في الحياة اليومية — إذا جاز هذا التعبير. وبرغم أنه ربما كان يعن لأحد المنتصرين المسلمين المتشددين أن يخير أحيانا الأسرى المسيحيين بين الارتداد عن دينهم أو الموت، فإن ذكرى هؤلاء المسيحيين كان يحتفى بها على أنهم شهداء، بيد أن مثل هذه الحالات كانت نادرة الحدوث. ولم يكن هناك فارق كبير عند الرأي العام البيزنطي بين أن يموت المرء في المعركة لحماية الإمبراطورية من عربي كافر أو بلغاري مسيحي، ولم تكن الكنيسة تفرق بين هاتين الحالتين كذلك. غير أن

(١) Schlumberger, *L'Épopée Byzantine*, vol.i, ch. iv

نيسفوراس وجون أعلنوا أن الصراع حين ذاك كان من أجل مجد العالم المسيحي وإنقاذ الأماكن المقدسة والقضاء على الإسلام. وعندما كان أحد الأباطرة يحتفل بانتصار أحرزه على العرب كان المنشدون في الكنائس يتغنون: "المجد للرب، الذي هزم العرب" (١). وكان نيسفوراس يؤكد أن حروبه حروب مسيحية، وربما كان من دوافعه إلى ذلك، محاولة موازنة علاقاته السيئة مع الكنيسة، لكنه فشل في أن يحفز البطريق لإصدار مرسوم كنسي بأن الجنود الصرعى على الجبهة الشرقية ماتوا كشهداء، فالكنيسة الشرقية كانت ترى أن ضرورات الحرب لا تبرر القتل في كل حال (٢). لكنه عندما أرسل بيانه المهين إلى الخليفة قبل أن يبدأ حملته سنة ٩٦٤ ميلادية، صور نفسه على أنه البطل المسيحي، وجاوز ذلك إلى التهديد بالزحف إلى مكة لإقامة عرش المسيح هناك (٣). واستخدم جون تسيميسس نفس اللغة، إذ جاء بخطابه إلى ملك أرمينيا الذي يصف فيه حملته سنة ٩٧٤ ميلادية: "كانت رغبتنا هي تحرير بيت المقدس من انتهاكات المسلمين" وأخبره أنه أنقذ مدن الجليل من النهب، لدورها في تاريخ العقيدة المسيحية، وأضاف أنه لولا امتناع مدينة طرابلس عليه لذهب إلى مدينة القدس وأقام الصلوات في أماكنها المقدسة. (٤)

وكان العرب فيما مضى يميلون دائما إلى النظر إلى الحرب على أنها مسألة دينية ثم قل هذا الميل عندهم، وحاولوا بعد ذلك أن يستعيدوا حُميَّاهم وقد استشعروا الخوف

(١) Constantine Porphyrogennetus, *De Ceremoniis* (Bonn ed.) vol. i, pp. 332-3,

ed by Vogt, vol. ii, pp. 135-6 وتكون الهتافات أولا لانتصار ميخائيل الثالث على العرب

سنة ٨٦٣. أنظر :

Bury, "The Ceremonial Book of Constantine Porphyrogennetos", in *E.H.R.* vol. xxii, pp. 434.

(٢) Zonaras, vol. iii, p. 506

(٣) Schlumberger, *Un Empereur Byzantin*, pp. 427-30 الذي يقتبس من مخطوطة عربية في فيينا.

(٤) Matthew of Edessa, pp. 13-20

من المسيحيين. ففي سنة ٩٧٤ ميلادية حدثت أعمال شغب في بغداد أجبرت الخليفة على إعلان الحرب المقدسة، أي الجهاد، رغم أنه لم يأسف لهزيمة الفاطميين. (١)

السلام بين بيزنطة ومصر

وبدا أن الأراضي المقدسة ستعود أخيرا إلى الحكم المسيحي، لكن الأرثوذكس في فلسطين انتظروا دون طائل، وبرغم أن بازل الثاني، وهو وريث جون الشرعي، أصبح محاربا عظيما فإن الفرصة لم تتح له أبدا ليواصل التقدم نحو الجنوب. فالحروب الأهلية التي أعقبتها حرب طويلة ضد البلغارين استغرقت كل اهتمامه. ولم يستطع زيارة سوريا سوى مرتين: مرة لتأكيد السيادة البيزنطية على حلب سنة ٩٩٥ ميلادية، ومرة أخرى عندما زحف على الساحل حتى بلغ طرابلس سنة ٩٩٩ ميلادية، وقرر في سنة ١٠٠١ ميلادية أن من العبث مواصلة الغزو. وهكذا عقدت هدنة لعشر سنوات مع الخليفة الفاطمي، فكانت فاتحة سلام دام أكثر من نصف قرن دون إخلال خطير بها. وثبتت الحدود بين الإمبراطوريتين وامتدت بين بانياس وطبرطوس إلى الأرند جنوب شيزار، وبقيت حلب رسميا تحت النفوذ البيزنطي. لكن الأسرة الحاكمة المرداسية التي حكمت حلب سنة ١٠٢٣ ميلادية سرعان ما حصلت على استقلال حقيقي، ففي سنة ١٠٣٠ ميلادية هزم أميرها جيشا بيزنطيا هزيمة نكراء. على أن الإمبراطورية البيزنطية عوضت خسارة حلب بضم الرها في العام التالي. (٢)

(١) Miskawaihi, *The Experiences of the Nations*, in Amedroz and Margoliouth. *The Eclipse of the Abbasid Caliphate*, vol. ii, pp. 303-5 (Arabic text) and vol. v, pp. 326-8 (English text)

(٢) يرد وصف أنشطة بازل في سوريا من مصادر عربية (كمال الدين وابن الأثير وأبو المحاسن) وهي واردة في Rosen, *op. cit.* pp. 239-66, 309-11 وفي ٩٨٧-٨ أرسل بازل سفراء إلى القاهرة قدموا الأموال

اللازمة لصيانة كنيسة القبر المقدس في القدس ٢٠٢-٥. *ibid.*، يقتبس نصا من مخطوطة أبي المحاسن ==

وكان السلام ملائماً للإمبراطورية وللفاطميين في آن، فقد كان من المقلق أن يعيد بعث الخلافة في بغداد مغامرون أتراك من أواسط آسيا. ولم يكن بوسع العاهل الفاطمي، الذي كان المسلمون الشيعة يقبلونه على أنه الخليفة الحقيقي، أن يتيح للعباسيين أية فرصة لتعزيز مطالبهم، بينما كانت بيزنطة ترى أن حدودها الشرقية أضعف من حدودها الجنوبية. وبدافع الخوف من الأتراك، اضطر بازل الثاني إلى ضم مقاطعات أرمينيا الأقرب إلى الإمبراطورية، ثم استولى بعد ذلك على المنطقة الواقعة في أقصى الجنوب الشرقي للبلاد، وهي إمارة فاسبوراكان. واستمر خلفاؤه في سياسته، ففي سنة ١٠٤٥ ميلادية، قام ملك آني، وهو الحاكم الرئيسي في أرمينيا، بتسليم أراضي مملكته إلى الإمبراطور، وفي سنة ١٠٤٦ ميلادية ذابت إمارة كارس في الأراضي الإمبراطورية وقد كانت آخر ولاية مستقلة في أرمينيا. (١)

وأملت الاعتبارات العسكرية ضم أرمينيا إلى الإمبراطورية، وبينت التجارب أن أمراء الأرمن ليسوا أهلاً للاعتماد عليهم. وبرغم أنهم كانوا مسيحيين لا يستفيدون شيئاً من الفتح الإسلامي، فلمهم كانوا هراطقة، تجاوز كراهيتهم للأرثوذكس كرههم لأي مسلم ظالم لهم. وبرغم استمرار التجارة والعلاقات الثقافية، وبرغم هجرة أعداد كبيرة من الأرمن إلى الإمبراطورية وشغلهم لأعلى المناصب هناك، لم تنطفئ جذوة العداوة عندهم. ونظراً لسهولة التغلغل في قلب آسيا الصغرى عبر الوديان الأرمينية — كما أظهرت حروب الحدود فيما مضى — رأت السلطات العسكرية أن من الحماقة

== وفيما يتعلق بالحدود أنظر المناقشات الواردة في *Honigmann, Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches*, pp. 106-8, 134 ff., also his article "Shaizar" in the *Encyclopaedia of Islam* وكانت شيزر ما تزال تخضع لإدارة أسقف باسم الإمبراطور حتى سنة ١٠٨١ (Michael the Syrian, vol. ii, p. 178)

(١) يرد موجز كامل بالمراجع عن التاريخ الأرميني في هذه الفترة في *Grousset, Histoire de l'Arménie*, pp. 531 أنظر أدناه ص ١١٩.

ترك تلك المنطقة الخطرة خارج نطاق سيطرتها. وكان ضم أرمينيا — من الناحية السياسية — خطوة تفتقر إلى الحصافة، إذ كان الأرمن يُمقتون الحكم البيزنطي، وبرغم أن الحاميات البيزنطية تحرس الحدود فإن أعدادا كبيرة من الأرمن الساخطين توجد وراءها، وليس هناك من شك في أن غيبة الولاء تعد خطرا كامنا، لا سيما وأنهم الآن لا يدينون بالولاء لأمر محلي وراحوا ينشرون الفوضى في أنحاء الإمبراطورية. على أن الأمر لو ترك لرجال الدولة المتمرسين، الذين لا تشغلهم وجهة النظر العسكرية كما تشغل أباطرة بيزنطة العسكريين، لترددوا في خلق تلك المشكلة الأرمينية التي تقضي على تجانس الإمبراطورية وتدخل أقلية متنافرة في زمرة رعاياها.

الحاكم بأمر الله

وانتقل شمال سوريا إلى الحكم المسيحي، ووجد المسيحيون في جنوب سوريا وفلسطين أن حكم الفاطميين سهل احتماله. ولم يعانون من أي اضطهاد إلا لفترة وجيزة وذلك عندما انقلب الخليفة الحاكم على حين غرة وتصرف على نحو يغير ما ربي عليه، فهو ابن لأم مسيحية وأسهم المسيحيون في تنشئته إلى حد كبير. فلسنوات عشر من ١٠٠٤ إلى ١٠١٤ ميلادية، وبرغم احتجاجات الإمبراطور، أصدر مراسيم ضد المسيحيين، وبدأ بمصادرة ممتلكات الكنيسة، ثم بحرق الصلبان والأمر ببناء مساجد صغيرة على أسطح الكنائس وأخيرا بحرق الكنائس ذاتها. وفي سنة ١٠٠٩ ميلادية أمر بهدم كنيسة القبر المقدس على أساس أن معجزة النار المقدسة التي تحدث في كل سنة، والتي يحتفل بها عشية عيد الفصح، زيف فاجر دون وراء. وبحلول سنة ١٠١٤ ميلادية أحرق أو نهب ما يقارب ثلاثين ألف كنيسة، واعتنق كثيرون من المسيحيين الإسلام في الظاهر لإنقاذ أرواحهم. واتخذت إجراءات مماثلة ضد اليهود. بيد أنه ينبغي لنا أن نلاحظ أن المسلمين كانوا معرضين لنفس القدر من الاضطهاد المتعسف من حاكمهم الذي دأب على تعيين وزراء من المسيحيين. وفي سنة ١٠١٣ ميلادية، وكنازل

للإمبراطور، سمح للمسيحيين بالهجرة إلى الأراضي البيزنطية. ولم يتوقف الاضطهاد إلا عندما انتهى الحاكم إلى الاقتناع بأنه هو نفسه إله. وفي سنة ١٠١٦ ميلادية أعلن صديقه درازي على الملأ هذه الألوهية. وأدى سلوك الحاكم على هذا النحو إلى إحساس عميق بالصدمة في نفوس أقرانه من المسلمين يجاوز ما كان يمكن أن يحس به غيرهم، فبدأ الحاكم يحايي المسيحيين واليهود وعاقب المسلمين بأن منعهم من الصوم في رمضان ومن الحج إلى مكة. وفي سنة ١٠١٧ ميلادية منح المسيحيون واليهود كإكمال الحرية الدينية وسرعان ما عاد حوالي ستة آلاف ممن ارتدوا حديثاً إلى حظيرة المسيحية. وفي سنة ١٠٢٠ ميلادية أعيدت للكنائس ممتلكاتها المصادرة بما في ذلك ما أخذ من مبانيها التي هدمت، بينما ألغى القرار الذي يقضي بارتداء ملابس مميزة. بيد أن المسلمين استثير غضبهم حين ذاك على الخليفة الذي أمر بأن يستبدل اسم الله باسمه في الصلوات في المساجد، وفر درازي إلى لبنان وأنشأ هناك الطائفة التي سميت باسمه وهي طائفة الدروز. وفي سنة ١٠٢١ ميلادية اختفى الحاكم نفسه، وربما قتلته أخته الطموحة ست الملك، لكن مصيره ظل غامضاً حتى الآن. ويعتقد الدروز أنه سيعود مرة أخرى في الوقت الملائم. (١)

المسيحيون في رخاء

وبعد موته، استولى أمير حلب صالح بن مرداس على فلسطين لفترة من الزمن، لكن الفاطميين استعادوها كاملة سنة ١٠٢٩ ميلادية. وكانت هناك معاهدة موقعة بالفعل سنة ١٠٢٧ ميلادية تسمح للإمبراطور قسطنطين الثامن بالاضطلاع بإعادة بناء كنيسة القبر المقدس وتسمح بعودة المرتدين الباقين إلى المسيحية دون عقاب، وتحددت

(١) See the article " Hakim " by Graefe in the *Encyclopaedia of Islam*, also browne, *op. Cit.* pp.60-2

هذه المعاهدة سنة ١٠٣٦ ميلادية، بيد أن إعادة بناء الكنيسة بدأ بالفعل بعد ذلك بحوالي عشر سنوات وقام بتنفيذه الإمبراطور قسطنطين التاسع. وللإشراف على العمل كان مسئولو الإمبراطورية يرتحلون بحرية إلى القدس حيث بدأ أن المسيحيين يسيطرون على كل شيء سيطرة كاملة الأمر الذي أثار استياء المسلمين المقيمين والمرتلين^(١). وكان كثيرون من البيزنطيين يشاهدون في طرقات القدس فأشيع بين المسلمين أن الإمبراطور نفسه قدم إليها^(٢). وكان للتجار الأمالفيين^(٣) مستعمرة مزدهرة يحميها الخليفة، بيد أنهم كانوا يعترضون على تبعية مدينتهم الإيطالية للإمبراطور، مما كان يتيح له مشاركتهم فيما ينالونه من امتيازات^(٤). وكانت الخشية من القوة البيزنطية توفر الأمان للمسيحيين. ويذكر الرحالة الفارسي ناصري خوسرو، الذي زار طرابلس سنة ١٠٤٧ ميلادية، عدد السفن التجارية اليونانية التي تشاهد في الميناء، ويصف خوف

(١) William of Tyre, vol. i , pt. I, pp. 391-3; Schlumberger, *L'Epopée Byzantine*, vol. iii, pp. 23, 131, 203-4 ; Riant , *Donation de Hugues, Marquis de Toscane* , p. 157; Mukaddasi, *Description of Syria*, by Le Strange, p. 37.

ونحننا المقدسي أن الكتاب والأطباء في فلسطين كانوا كلهم تقريبا من المسيحيين بينما كان الدباغون والصباغون والصيارفة من اليهود .

(٢) .Nasir-i -Khusrau, *Diary of a Journey through Syria and palestine*, trans . by Le Strange, p. 59

(٣) (المترجم) : الأمالفيين : نسبة إلى مدينة أمالفي الحالية وتقع إلى الجنوب الشرقي من نابولي في إيطاليا . وهي من أهم الجمهوريات البحرية الإيطالية في القرن التاسع الميلادي وكانت تضاهي بيزا وجنوا وفينيسيا وحاجتا كقوة بحرية في التجارة مع الشرق .

(٤) William of Tyre, vol. 1, 2, pp. 822-6; Aimè, *Chronicon*, p. 320

السكان من هجوم قد تشنه البحرية البيزنطية. (١)

في منتصف القرن الحادي عشر كان من النادر أن يحظى المسيحيون بمثل هذا القدر من الرضا، فأصحاب السلطة من المسلمين كانوا ليني الجانب، وكان الإمبراطور يرعى مصالحهم، وكانت التجارة مع البلدان المسيحية في الخارج تزدهر وتستزايد، ولم يحدث من قبل أن حظيت القدس في أية حال بمثل هذا القدر من التعاطف ومن الثروة التي كان الحجاج يجلبونها إليها من الغرب.

(١) Nasir-i-Khusrau, *op. cit.* pp. 6-7; Mukaddasi, *op. cit.* pp. 3-4 ويقول المقدسي

الذي كان يكتب في حوالي عام ٩٨٣ ، أن الناس في سوريا " يعيشون في رعب دائم من البيزنطيين ... إذ أن مناطق حدودهم كانت تنتهب على الدوام ، وكانت غاباتهم تدمر المرة بعد المرة " .

الفصل الثالث :

حجاج المسيح



المفتدين

حجاج المسيح

"تَقِفُ أَرْجُلُنَا فِي أَبْوَابِكَ يَا أُورُشَلِيمُ"

(المزمير: ١٢٢ - ٢)

إن الرغبة في الحج راسخة الجذور في الطبيعة البشرية. فوقوف المرء في نفس الموقع الذي وقف فيه من يجلبهم ذات مرة، ومشاهدة نفس الأماكن التي ولدوا وكافحوا وماتوا فيها، يبعث في المرء شعورا بالاتصال الروحي بهم، وفي ذلك تعبير عملي عما يشعر به نحوهم من تبجيل. وإذا كان لعظماء رجال العالم مزاراتهم التي يفد إليها المعجبون بهم من بعيد، فإن جماعات الناس تُقبل في تلهف أكبر إلى تلك الأماكن التي يعتقدون أن الرب أكسب الأرض قداسة فيها.

وكان الحج نادرا في أيام المسيحية الأولى. وكان الفكر المسيحي يتجه إلى تأكيد ألوهية المسيح وعموميته أكثر مما يؤكد بشريته، وكانت السلطات الرومانية لا تشجع الارتحال إلى فلسطين. ولم تكن القدس سوى أطلال بعد أن دمرها تيتوس، وبقيت كذلك إلى أن أعاد هادريان بناءها وأصبحت مدينة إيليا الرومانية. غير أن المسيحيين كانوا يتذكرون المكان الذي وقعت فيه أحداث حياة المسيح وبلغ احترامهم لموقع

كالفاري (١) حدا جعل هادريان يعمد إلى إقامة معبد لفينوس كابيتولينا (٢) هناك. وعرف مسيحيو القرن الثالث الكهف الذي ولد فيه المسيح في بيت لحم معرفة جيدة، وراح المسيحيون يرتحلون إلى هناك وإلى جبل الزيتون وحديقة جثمان (٣) ومكان صعود المسيح إلى السماء. وأصبحت زيارة هذه البقع المقدسة للصلاة ولاكتساب الفضائل الروحية جزءا مما يزاوله المسيحيون. (٤)

(١) (المترجم) : كالفاري : اسم المكان الذي صلب فيه المسيح ، بالقرب من القدس .

(٢) (المترجم) : كابيتولينا : اسم تل من تلال روما السبعة على الضفة الشرقية للتيبر ، وهي التلال التي بنيت روما في الأصل عليها أو من حولها.

(٣) (المترجم) : جثمان Gethsemane: هو اسم حديقة كانت تقع عبر وادي كدرون Kidron في جبل الزيتون وهي المكان الذي صلي فيه السيد المسيح عشية صلبه ، والاسم جثمان مأخوذ عن العبرية جات شيمانيم أي معصرة الزيت وهذا الاسم يوحي بأن تلك الحديقة كانت دغلا من أشجار الزيتون توحده معصرة للزيت. وبرغم أنه لا يمكن تحديد موقع حديقة جثمان على سبيل اليقين فإن الكنائس الأرمنية واليونانية واللاتينية والروسية تقبل دغلا من أشجار الزيتون يقع على المنحدر الغربي من جبل الزيتون على أنه الموقع الفعلي الذي أخذت به الإمبراطورة هيلينا ، أم الإمبراطور قسطنطين أول الأباطرة المسيحيين في أوائل القرن الرابع الميلادي. غير أن رواية أخرى من روايات التراث تصور أن صلاة السيد المسيح وخيافته في جثمان وقعتا في مكان يعرف الآن بمغارة العذاب بالقرب من قنطرة تعبر وادي كدرون. ويمكن أن تكون حديقة جثمان في موقع آخر إلى الجنوب من هذا المكان في حديقة تضم أشجار زيتون قديمة ، حيث توجد كنيسة لاتينية أقامها الرهبان الفرنسيسكان على أنقاض كنيسة كانت موجودة في القرن الرابع.

(٤) يشير جيروم Jerome, Epistolae xlv, 9, M.P.L., vol. xxii, col. 489 إلى رحلات الحج

المبكرة إلى فلسطين وكان أول من نعرف اسمه من الحجاج أحد أساقفة قيصرية في آسيا الصغرى في وقت مبكر من القرن الثالث ، وهو المدعو Fermilian

(Jerome, De Viris Illustribus, M.P.L. vol. xxiii, cols. 665-6). وفي وقت لاحق من القرن الثالث

قام Alexander ، وهو أحد أساقفة قبادوقيا ، بزيارة فلسطين (Eusebius, Historia

Ecclesiastica, pp. 185-6) أما المورخ Origen فيتحدث في (In Joannem vi, 29, M.P.G vol. xiv, 269

col. 269) عن " عمة المسيح في اقتناء خطوات المسيح "

واتسع نطاق هذه المزاوولات بانتشار المسيحية. وكان يسر الإمبراطور قسطنطين أن يضيف قوة على الدين الذي اختاره، وانطلقت أمه الإمبراطورة هيلينا، وهى من أنجح علماء الآثار العظام في العالم وأرفعهم شأنًا، إلى فلسطين لتكتشف كالفاري ولتبحث عما تبقى من أدوات صلب المسيح، ودعم الإمبراطور اكتشافها ببناء كنيسة القبر المقدس هناك، وهى الكنيسة التى ظلت الهيكل الرئيسي للعالم المسيحي عبر كل تقلباته. (١)

وبدأ على الفور تيار من الحجاج يتدفق إلى المكان الذي بذلت فيه هيلينا جهودها. ولا نستطيع أن نعرف أعداد هؤلاء الحجاج لأنهم لم يدونوا في الغالب شيئًا عن رحلاتهم، غير أنه في سنة ٣٣٣ ميلادية، وقبل انتهاء حفائر هيلينا، جاء أحد المسافرين من ميناء بوردو الفرنسي إلى فلسطين ودون شيئًا عن رحلته (٢). ونجد بعد ذلك وصفًا لرحلة قامت بها سيدة دعوب تسمى أحيانًا اثيريا وأحيانًا أخرى القديسة سيلفيا قديسة إقليم أكتيان الفرنسي (٣). وعند اقتراب نهاية القرن استقر في فلسطين واحد من عظماء آباء العالم المسيحي اللاتيني، وهو القديس جيروم، وجذب إليه جماعة من نساء الطبقة الراقية ذوات الثراء اللاهني كن يتلقين العلم عنه في إيطاليا. وكان يستقبل في صومعته بيت لحم موكبا لا ينقطع من الزوار الذين كانوا يقدون إليه

(١) Eusebius *Vita Constantini*, chs. xxv-xi, given in *Palestine Pilgrims' Text Society*, vol. 1

(٢) *The Itinerary of the Bordeaux Pilgrim* is published in the *P.P.T.S.* vol. 1, in a trans. by A. Stewart

(٣) The pilgrimage of Aetheria is published in an English trans. by J.H. Bernard in the *P.P.T.S.* vol. 1, under the name of *The Pilgrimage of Saint Silvia of Aquitaine*, with whom the editor identifies her, almost certainly incorrectly

معبرين عن احترامهم له بعد مشاهدة الأماكن المقدسة (١). وكان القديس أوجستين، وهو أشد الآباء الغربيين روحانية، يرى أن القيام بالحج لا محل له وفيه مخاطرة وكان الآباء اليونانيون يميلون إلى الاتفاق معه في هذا الرأي (٢). غير أن القديس جيروم، الذي لم يكن يرى أن للإقامة الفعلية في القدس أية قيمة روحية، أكد أن الصلاة في المكان الذي رطأته أقدام المسيح عمل من أعمال الإيمان (٣)، وكان رأيه أكثر انتشاراً من رأي أوجستين. وتضاعفت رحلات الحج بتشجيع من السلطات ويقال إنه في مطلع القرن التالي بلغ عدد الأديرة والأنزال التي شيدت في القدس أو حولها لاستقبال الحجاج مائتين، تخضع كلها تقريباً لرعاية الإمبراطور. (٤)

(١) يرد خطاب Paula and Eustochion إلى Macella ، وفيه وصف الحياة في فلسطين في مجتمع القديس جيروم منشوراً ضمن خطابات القديس جيروم تحت الرقم .xlvi (cols. 483 ff. in M.P.L. vol. xxii) ويوصى جيروم نفسه في الخطاب الذي يحمل رقم (xlvi col. 493) *ibid.* صديقه Desiderius بزيارة الأماكن المقدسة؛ ويشرح هو نفسه أن زيارته لفلسطين مكنته من أن يفهم الأسفار المقدسة على نحو أفضل. (Liber Paralipumenon, preface, in M.P.L., vol. xxviii, cols. 1325-6). غير أنه في لحظات ضجره، كما يتضح من خطابه الذي يحمل رقم 2, viii إلى Paulinus of Nola (*ibid.* vol. xxii, col. 580) يعرب عن اعتقاده بأنه لا يفتقد شيئاً في حالة عدم زيارة القدس.

(٢) خطاب القديس أوغسطين *Contra Faustum* xx, 21, *ibid.* vol. xlii, cols. 384-5 ويعارض Saint Gregory of Nyssa الحج بشدة (letter no ii, in M.P.G. vol. xlvi, col. 1009). كما يعارض بنفس القدر تقريباً Saint John Chrysostom في (Ad Populum Antiochenum v, 2, in M.P.G. vol. xlix, col. 69) غير أنه يعرب في أماكن أخرى عن رغبته في أن تسمح له واجباته بأن يكون حاجاً (In Ephsianos viii, 2) (*ibid.* vol. lxii, col. 57)

(٣) أنظر ما سبق ص ٨٤ حاشية ٤ .

(٤) Couret, *La Palestine sous les Empereurs grecs*, p. 212

الحجاج الأوائل

وشهد منتصف القرن الخامس ذروة هذا الإقبال المبكر على القدس. واستقرت هناك الإمبراطورة ايودوسيا، وهي ابنة فيلسوف وثني أثيني، بعد حياة تعسة في البلاط، وجاء في ركابها كثيرون من الأرستقراطيين البيزنطيين الوريثين. وفي الوقت الذي أخذ الناس فيه يكتبون الترانيم كانت ترعى الاتجاه إلى جمع الآثار الدينية، التي بدأت في وضع مجموعة منها في القسطنطينية بأن أرسلت إلى هناك لوحة السيدة العذراء التي رسمها القديس لوقا. (١)

وحذا حذوها حجاج من الغرب، ومن القسطنطينية، وبدأ بذلك انتقال بدائع التحف الدينية من الشرق إلى الغرب بعد أن كانت متطلبات الترف المادي في العالم هي التي تأتي من الشرق منذ أقدم العصور. وكانت المسيحية بادئ الأمر ديناً شرقياً، وأغلب القديسين والشهداء المسيحيين الأوائل كانوا شرقيين. وكان هناك ميل متزايد لتبجيل القديسين، وكان الثقة من أمثال برودينيتوس واينوديوس يقولون إن العون الإلهي يمكن أن يستمد من قبورهم وإن أجسادهم قادرة على أن تأتي بالمعجزات (٢). وبدأ الرجال والنساء في قطع مسافات طويلة ليروا أثراً مقدساً، وجاوزوا ذلك إلى

(١) أنظر . Bury, *Later Roman Empire* (A.D. 395-565), vol. 1, pp. 225-31. وفيما يتصل بما قام به Eudocia من صيد الآثار ، أنظر Nicephorus Callistus, *Historia Ecclesiastica*, in *M.P.G.* vol. cxlvi, col. 1061

(٢) uidentius, *Peristephanon* vi, pp. 132; Ennodius, *Libellum pro Synodo*, p. 315 وكان القديس أمبروز يؤمن إيماناً راحساً بما للآثار من أفضال ، وقد جاءه هو نفسه إلهام ليكشف بعض الآثار ، وذلك كما جاء في الرسالة (letter xxii in *M.P.L.* vol. xvi, cols. 1019 ff). ويؤكد القديس Victricius أن للآثار فضل ونعمة وذلك فيما كتبه *Liber de Laude Sanctorum* في (M.P.L.vol. xx, cols. 453-4) ومن الناحية الأخرى فإن Saint Basil أحب أن يكون متيقناً مما ما من أصلاتها . أنظر خطابه إلى القديس Ambrose حول جسد أحد أساقفة ميلانو ، الخطاب الذي يحمل رقم cxcvii في *M.P.G.* vol. xxxii, cols . 109-13

محاولة الحصول على واحد من تلك الآثار وينقلوه إلى موطنهم ويضعوه في كنيستهم. على أن الآثار الرئيسية بقيت في الشرق، فظلت آثار المسيح في القدس حتى نقلت إلى القسطنطينية، وبقيت أغلب آثار القديسين في أماكنها الأصلية. ورغم ذلك بدأت الآثار الأقل شأنًا تتسرب إلى الغرب مع حاج محظوظ أو تاجر مغامر، أو ترسل كهدايا إلى بعض ذوي الشأن، وسرعان ما لحقت بها أجزاء صغيرة من الآثار الرئيسية التي نقلت بكاملها بعد ذلك. وساعد كل ذلك في جذب انتباه الغرب إلى الشرق. فمواطنو لانجر الذين كانوا يفخرون بحيازتهم لأصبع من أصابع القديس ماماس كان لابد لهم من أن يستشعروا الرغبة في زيارة قيصرية في كابادوكيا (١) حيث عاش هذا القديس (٢)، وراهبات شامالير اللاتي كن يحتفظن بعظام ثكلا في كنيستهن، كن يستشعرن اهتماما شخصيا بمسقط رأس تلك القديسة في المنطقة الازورية في سيلوشيا (٣). وعندما (٤) عادت إحدى سيدات مورين من رحلاتها ومعها إمام القديس يوحنا المغتسل دفع ذلك جميع معارفها إلى أن يرتحلوا إلى السامرة ليروا جسده وإلى دمشق ليرؤوا رأسه (٥). وكانت البعثات ترسل على أمل الحصول على شيء من هذه الكنوز ربما يتمثل في قنينة من الدم المقدس أو قطعة من الصليب الحقيقي نفسه. وأقيمت الكنائس في الغرب

(١) (الترجم) : كابادوكيا : مملكة قديمة وفيما بعد إقليم روماني (شرقي آسيا الصغرى) .

(٢) *Historia Translationum Sancti Mamantis vel Mammetis, in Acta Sanctorum, 17 August, vol. iii, pp. 441-3*

(٣) (الترجم) : سيلوشيا : إسم مدينة من عدة مدن قديمة جنوب غرب آسيا شيدها " سيلوسوس

الأول " لاسيما المدينة الرئيسية للإمبراطورية السيلوسية علي نهر دجلة .

(٤) *Mabillon, Annales Ordinis Sancti Benedicti, vol. 1, p. 481*

(٥) *Gregory of Tours, De Gloria Martyrum, in M.P.L. vol. lxxi, cols. 719-20*

See Delehaye, Les Origines du Culte des Martyres, p. 99

وأطلقت عليها أسماء القديسين الشرقيين أو القبر المقدس، وغالبا ما كان يُخصص جزء من عوائدها لإرساله إلى الأماكن المقدسة التي أخذت عنها أسماؤها.

وساعدت التجارة، التي كانت ما تزال قائمة على شواطئ البحر المتوسط، على الترابط بين الشرق والغرب، وإن كانت قد أخذت في الاضمحلال نتيجة للفقر الذي بدأ يتزايد في الغرب، وكانت تنقطع بين الحين والآخر كما هي الحال عندما أحال القراصنة الواندال (١) البحار، في منتصف القرن الخامس، إلى مناطق غير آمنة لا يستطيع أن يجوبها التجار غير المسلحين. كما أسهمت الهرطقة والتدمير في الشرق في إضافة مزيد من الصعوبات. على أن هناك مدونات كتبها حجاج غربيون ارتحلوا شرقا في القرن السادس في سفن تجارية سورية أو يونانية. وكان التجار ينقلون الأخبار والقصص الديني عند نقلهم المسافرين والبضائع. وبفضل المسافرين والتجار، أصبح المؤرخ جريجوري التوري (٢) على دراية جيدة بالشئون الشرقية. ويوجد سجل لمحادثة دارت بين القديس سيميون ستايليتس وتاجر سوري رآه على عموده (٣) بالقرب من

(١) (المترجم) : حاليا الضفة الغربية لنهر الأردن .

(٢) (المترجم) : التوري : نسبة إلى مدينة تور التي تقع غربي وسط فرنسا على نهر اللوار .

(٣) (المترجم) : يعني اسم القديس Symen Stylites : سيميوي العمودي ، من لفظة Stylos اليونانية

أي العمود التي أخذت عنها اللغة الإنجليزية لفظة Stylite .معني الناسك أو الزاهد الذي يعيش على قمة عمود . والقديس سيميون العمودي (حوالي ٣٩١-٤٥٩) هو أول ناسك يتدع فكرة العيش فوق عمود ، وقضى عشرين عاما من شبابه المبكر متقللا بين الصوامع والأديرة في شمال سوريا ثم بدأ سنة ٤٢٣ ميلادية في العيش فوق عمود منخفض ، تزايد ارتفاعه على مر السنين حتى بلغ حوالي ستين قدما، وكانت تعلوه منصة تبلغ مساحتها حوالي اثني عشر قدما مربعا . وقضى فوق ذلك العمود ستة وثلاثين عاما هي بقية عمره ويعلل اتخاذ سيميون هذه الطريقة الغريبة في العيش برغبته في اجتناب

حلب، وسأله القديس سيميون خلالها عن أخبار القديسة جنيفيف الباريسية وأرسل لها رسالة شخصية (١). وبرغم الخلافات الدينية والسياسية بين السلطات الأعلى ظلت العلاقات بين المسيحيين الشرقيين والغربيين ودية ووثيقة للغاية.

وانتهى هذا العصر بمقدم الفتوحات العربية. فلم يعد التجار السوريون يأتون إلى الشواطئ الفرنسية والإيطالية ومعهم البضائع والأخبار، وظهر القراصنة مرة أخرى في البحر المتوسط، وكان الحكام المسلمون يرتابون في المسافرين المسيحيين القادمين من الخارج. وكانت الرحلة شاقة وباهظة التكلفة بعد أن تضاءلت الثروة في الغرب المسيحي، بيد أن الصلة لم تنقطع تماما. فكان المسيحيون الغربيون ما يزالون يفكرون في الأماكن المقدسة في الشرق بتعاطف وحنين، وعندما اتهم البابا مارتين الأول سنة ٦٨٢ ميلادية بالتعامل الودي مع المسلمين، علل ذلك بأنه كان مدفوعا برغبته في الحصول على إذن بإرسال الهبات إلى القدس (٢). وفي سنة ٦٧٠ ميلادية شرع الأسقف الفرنجي أركولف في رحلته إلى الشرق وتمكن من أن يتم جولة شملت مصر وسوريا وفلسطين وأن يعود عن طريق القسطنطينية، ولكن تلك الرحلة استغرقت عدة سنوات قابل خلالها صعوبات كثيرة (٣). ونحن نعرف أسماء حجاج آخرين ينتمون إلى ذلك العصر مثل فالدي أوف روو من بيكاردي أو بيركسير أوف مونتييه — ان —

-- أولئك الذين كانوا يقدون إليه لبصلي من أحلهم ليسدي النصح لهم وحدث عكس ما كان يتوقع ،

إذا زاد عدد الوافدين إليه ، وجاءه الكثيرون من الناس إما حاجين إليه أو متفرجين عليه وتجاوزت

شهرته سوريا ، وكثر مقلدوه في الشرق .

(١) *Vita Genovefae Virginis Parisiensis*, p. 226

(٢) *Martin I, letter to Theodore*, in *M.P.L.* vol. lxxxvii, cols. 199-200

(٣) *Arculf's narrative*, written by Adamnan, is given in the *P.P.T.S.* vol . iii,

دير من برجندي وصديقه وإيمار (١) . غير أن أقاصيصهم تبين أن المغامرين وغير المرفهين من الناس هم وحدهم الذين كان يحدوهم الأمل في بلوغ القدس، وأن النساء فيما يبدو لم يكن يجازفن بالحج.

حجاج القرنين الثامن والتاسع

وزاد عدد الحجاج خلال القرن الثامن. وجاء بعضهم من إنجلترا، أشهرهم ويليبالد الذي مات سنة ٧٨١ ميلادية وهو أسقف إيشستاد في بافاريا وكان قد ذهب إلى فلسطين في شبابه بادئا رحلته من روما سنة ٧٢٢ ميلادية ولم يرجع إليها إلا في سنة ٧٢٩ ميلادية (٢) بعد كثير من المغامرات الكريهة. ويبدو أنه كانت هناك محاولة عند نهاية القرن لتنظيم الحج تحت رعاية شارل العظيم، الذي استعاد النظام وبعض الرخاء إلى الغرب وأقام علاقات حسنة مع الخليفة هارون الرشيد. وتُظهر الأنزال التي شُيّدت بمساعدته في الأراضي المقدسة أنه لا بد وأن يكون عدد كبير من الحجاج قد وصل إلى القدس في عهده ومن بينهم بعض النساء. وأرسلت راهبات من إسبانيا المسيحية للخدمة في القبر المقدس (٣) لكن هذا النشاط لم يدم طويلاً، إذ تدهورت الإمبراطورية الكارولنجية، وعاد قراصنة من المسلمين إلى الظهور في شرق البحر المتوسط، وجاء القراصنة النرويجيون من الغرب. وعندما قام برنارد الحكيم، من

(١) *De Samctp Wlphlagio*, in *As. Ss.* 7 June, June, vol. ii, pp. 30-1

(٢) *Willibald's Hodoeporicon*, trans. By Brownlow, is given in the *P.P.T.S.*

vol. iii

(٣) 'Commemoratorium de Cases Dei vel Monasteriis', in Tobler and Molinier, *Itinera Hierosolymitana* vol. 1, 303

بريتاني (١) ، بزيارة فلسطين سنة ٨٧٠ ميلادية وجد أن المنشآت التي أنشأها شارل ما تزال في حالة تسمح لها بالعمل غير أنها خاوية وآخذة في الانهيار. ولم يستطع برنارد القيام بالرحلة إلا بعد أن حصل على جواز مرور من السلطات الإسلامية التي كانت آنذاك تحكم باري في جنوب إيطاليا وإن لم يمكنه ذلك من التزول في الإسكندرية. (٢)

عصر عظيم للحج

وبدأ العصر العظيم للحج مع القرن العاشر. ففي خلال ذلك القرن فقد العرب آخر أوكار القراصنة في إيطاليا وجنوب فرنسا، وأخذت منهم كريت سنة ٩٦١ ميلادية، وكانت البحرية البيزنطية قبل ذلك ببعض الوقت تسيطر على البحار بالفعل على نحو يكفل اكتمال انتعاش التجارة البحرية في البحر المتوسط؛ فأبحرت السفن التجارية اليونانية والإيطالية دوغما عائق بين موانئ إيطاليا وموانئ الإمبراطورية، وبدأت في فتح مجال التجارة مع سوريا ومصر برضا السلطات الإسلامية. وكان من اليسير على الحاج أن يجد طريقا مباشرا للحج من فينيسيا أو من باري في جنوب إيطاليا إلى طرابلس أو الإسكندرية، رغم أن أغلب المسافرين كانوا يفضلون أن يزورا القسطنطينية ليروا مجموعات الآثار العظيمة الموجودة فيها، ثم يواصلون الرحلة بعد ذلك بالبحر أو بالطريق البري الذي أصبح آنذاك آمنا بفضل النجاح العسكري البيزنطي. وفي فلسطين نفسها، نادرا ما أثارت السلطات الإسلامية، سواء أكانت عباسية أم إخشيدية أم فاطمية أية صعوبات، وإنما كانت تتجه إلى الترحيب بالمرتحلين لما يجلبونه من ثروة إلى المنطقة.

(١) (المترجم) : شبه جزيرة ومقاطعة قدمة تقع في الشمال الغربي من فرنسا بين القناة الإنجليزية (المانش) وخليج بسكاي.

(٢) .The Itinerary of Bernard the Wise, trans. By J. H. Bernard, is given in the P.P.T.S. vol. iii

وكان لتحسن ظروف الحج آثاره على الفكر الديني الغربي. ولسنا نعرف على وجه اليقين التاريخ الذي قضى فيه القانون الكنسي لأول مرة بجعل الحج كفارة. ففي مطلع العصور الوسطى أوصت البينتنشاليا (١) بالحج، دون تحديد هدف له في واقع الحال. بيد أن الناس أخذوا يعتقدون أن لبعض الأماكن المقدسة فضيلة روحية معينة تؤثر في زائريها ويمكن أن تهئ لهم اغتفار خطاياهم. ومن ثم عرف الحاج أنه لم يكن بوسعه أن يبجل ما تركه الرب والقديسون على الأرض والبيئة التي عاشوا فيها بحيث يتصل بهم اتصالاً وجدانياً وحسب، بل ربما جاوز ذلك وحظي بعفو الرب عما أتاه من شرور. وساد الاعتقاد منذ القرن العاشر بأن أربعة مزارات بعينها تتميز بهذه الخاصية: مزار القديس جيمس في كومبوستيللا بإسبانيا، ومزار القديس ميكايل في مونت جارجانو بإيطاليا، والمزارات المقدسة الكثيرة في روما، وفوق ذلك الأماكن المقدسة في فلسطين. وأصبح بلوغ تلك الأماكن أيسر بكثير عن ذي قبل بسبب ابتعاد المسلمين عنها أو سماحهم بزيارتها، بيد أن الرحلة الطويلة إليها كانت ما تزال يعتورها من المشقة ما يجعلها لا تسوغ في فكر إنسان العصر الوسيط أو تستثير شعوره الديني. وكان من الحكمة إبعاد من يقترب جرماً عن المكان الذي ارتكب فيه جريمته لفترة عام أو أكثر بتكليفه بالحج. ذلك أن ما كان يتجشمه من مشقة وتكلفة في تلك الرحلة كان بمثابة عقوبة له فضلاً عن أن قيامه بالحج على هذا النحو وما يحيط بذلك من جو عاطفي يؤدي به إلى إحساس بالطهر والقوة الروحية فيعود وهو إنسان أفضل عن ذي قبل. (٢)

(١) (المترجم) : بينتنشاليا (من اللاتينية Poenitentialia) : قائمة أو كتاب بالقواعد التي تحكم الكفارة الدينية ، أي العقوبة التي يترها الاثم بنفسه تعبيرا عن توبته وخاصة بتوجيه من الكاهن .

(٢) See de Rozière, *Recueil général des Formules usitées dans l'Empire des Francs*, vol. ii, pp. 939-41 وهناك فرنجي يدعي Fromond ذهب مع إخوته إلى فلسطين --

وهناك إشارات عارضة في السجلات التاريخية عن رحلات متعددة للحج، وإن كانت أسماء الحجاج التي في حوزتنا الآن لا تعدو بالضرورة أن تكون أسماء الشخصيات المرموقة دون غيرها. فمن بين كبار النبلاء والنبيلات في الغرب الذين ورد ذكرهم كحجاج نجد هيلدا، كونتيسة سوايا (١) التي ماتت سنة ٩٦٩ ميلادية أثناء رحلتها، وجوديت دوقه بافاريا (٢)، شقيقة زوجة الإمبراطور أوتو الأول، التي قامت برحلتها سنة ٩٧٠ ميلادية، ودوق أرديش، ودوق فيينا، ودوق فردون، ودوق آركي، ودوق أمالت، ودوق جوريزا، وكان كبار رجال الدين أكثر مثابة: إذ قام القديس كونراد أسقف كونستانس بثلاث رحلات منفصلة إلى القدس، وقام القديس جون أسقف بارما بما لا يقل عن ست رحلات، وقام أسقف أوليفولا بالحج سنة ٩٢٠ ميلادية، ومن بين رؤساء الأديرة الذين قاموا بالحج، رئيس دير سانت سيبار، وفلافييني، وأريلاك، وسانت أويين دي آنجر، ومونتير - إن - در. واصطُحبت تلك الشخصيات البارزة معها مجموعات من الرجال والنساء غير ذوي الشأن الذين لم تكن لأسمائهم أهمية عند كتاب ذلك العصر.

ويرجع هذا النشاط في الأساس إلى الجهد الخاص. على أنه كانت هناك قوة جديدة آخذة في الظهور في السياسة الأوروبية وتولت هذه القوة، فيما تولت، البدء في

-- للتكفير عن جريمة وذلك في منتصف القرن التاسع، وهو أول نائب يعرف اسمه. ويرد The

Aa. Ss. 24 October, Oct., vol.x, pp. 847 ff. في *Peregrinatio Frotmundi*

أنظر أيضاً: van Cauwenbergh, *Les Pèlerinages expiatoires et judiciaires, passim*,

and Villezy, *La Croisade : Essai sur la Formation d'une Théorie*

juridique, pp. 141 ff.

(١) (المترجم): إقليم يقع جنوب غرب ألمانيا.

(٢) (المترجم): ولاية تقع جنوب ألمانيا عاصمتها ميونخ كانت دوقية، فمملكة، فجمهورية.

تنظيم نقل الحجاج. وفي سنة ٩١٠ ميلادية أسس الكونت وليم الأول أوف أكتيان الدير المسمى دير كلاني. وفي نهاية القرن أصبحت مدينة كلاني، التي تعاقب في حكمها عدد من رؤساء الأديرة المرموقين، مركزاً لحلقة كنسية واسعة، جيدة التنظيم ومحكمة الترابط وعلى صلة وثيقة بالبابوية. وكان أبناء مدينة كلاني يرون أنهم يتولون الحفاظ على ضمير العالم المسيحي الغربي. وأخذ مذهبهم بالحج، ورغبوا في أن يهيئوا السبل العملية لأدائه، وبحلول القرن التالي كانت بعثات الحج إلى المزارات الإسبانية العظيمة تحت سيطرتهم الكاملة، أو تكاد. وأخذوا في نفس الوقت يرتبون رحلات إلى القدس ويعملون على انتشارها. واستجابة لإقناعهم ارتحل رئيس دير ستافيليون إلى الارس المقدسة سنة ٩٩٠ ميلادية، وكونت فيردون سنة ٩٩٧ ميلادية. ويتبين تأثيرهم، في القرن الحادي عشر، من الزيادة الكبيرة في عدد حجاج فرنسا واللورين والمناطق القريبة من كلاني والأديرة التابعة لها. وبرغم أن الحجاج الألمان كانوا كثيرين بين حجاج القرن الحادي عشر، وكان بينهم رئيس أساقفة ترير وميتر وأسقف بامبرج، وكثيرون من الحجاج الإنجليز، فإن أعداد حجاج فرنسا واللورين فاقت أعداد الحجاج الألمان والإنجليز إلى حد كبير. وكانت الأسرتان الحاكمتان الكبيرتان في شمال فرنسا، من أشرف أنجو ونورماندي على ما بينهما من تنافس، صديقتين حميمتين لمدينة كلاني، وترعيان رحلة الحج إلى الشرق. وذهب فولك نيرا أوف أنجو المرعب إلى القدس سنة ١٠٠٢ ميلادية ثم عاد إليها مرتين فيما بعد. وأرسل الدوق ريتشارد الثالث أوف نورماندي الصدقات إليها، وقاد الدوق روبرت جمعاً غفيراً ذهب به إلى هناك سنة ١٠٣٥ ميلادية، وسجل المؤرخ الكلاني الراهب جلابر بأمانة جميع تلك الرحلات إلى

(١) See Bréhier, *L'Eglise et l'Orient au Moyen Age*, pp. 32-3, and Ebersolt, *Orient et Occident*, vol. 1, pp. 72-3, who gives references for these journeys.

الحج. (١)

الحجاج الاسكندنافيون

وحذا النورمانديون حذو دوقهم، وكانوا يبجلون القديس ميكائيل تبجيلا خاصا، وقامت أعداد كبيرة منهم بالرحلة إلى مونت جرجانو ومن هناك كان المقدم منهم يذهب إلى فلسطين. وفي منتصف القرن، بلغت نسبتهم، بين الحجاج الذاهبين إلى فلسطين، من الكبر والتحمس حدا جعل حكومة القسطنطينية، التي كانت غاضبة من إغارة النورماندين على إيطاليا البيزنطية، تبدي شيئا من عرقلة مرورهم إلى الأراضي المقدسة (٢). وأظهر أبناء عموماتهم من اسكندنافيا حماسا يكاد يبلغ حماسهم، وكان الاسكندنافيون قد اعتادوا زيارة القسطنطينية منذ أمد بعيد وتأثروا بثروتها وعجائبها إلى حد كبير. وكانوا يتحدثون عند عودتهم إلى منازلهم في الشمال عن الحديقة الكبيرة، وذلك هو الاسم الذي أطلقوه على المدينة العظيمة القسطنطينية والتي كانوا يعرفونها

(١) Radulph Glaber in Bouquet, *R.H.F.* vol. x, pp. 20, 32, 25, 74, 106, 108.

See Brèhier, *op. Cit.* pp. 42-5; Ebersolt, *op. Cit.* pp. 75-81

(٢) يفترض Brèhier أن "انشقاق" Michael Cerularius قد أوجد سوء النية بين البيزنطيين

والحجاج. وأما Riant في مؤلفه *Expéditions et Pèlerinages des Scandinaves*, p. 125

فيمضي شأوا بعيدا بحيث يقول إن السلطات البيزنطية تعمدت إغلاق الطريق إلى فلسطين. ومن

الواضح أن ذلك يقوم على أساس تفسيره لتجربة Lietbert of Cambrai (أنظر ص ٧٨ والهامشية

رقم ١)، والظروف التي كانت سائدة في سوريا هي التي تفسر ذلك في واقع الأمر. علي أن

خطاب البابا فيكتور Victor (أنظر ص ٧٨ والهامشية ٣) يروحي بأن مسؤولي الإمبراطورية لم

يكونوا ودودين دائما في معاملتهم للحجاج. إن سبب البرود كان كراهية النورماندين وليس أي

انشقاق.

أحياناً بآسجارد أي بيت الآلهة. وفي سنة ٩٣٠ ميلادية كان جيش الإمبراطور يضم بالفعل جنوداً اسكندنافيين، وفي مطلع القرن الحادي عشر زادت أعدادهم زيادة كبيرة بحيث شكلت منهم فرقة اسكندنافية خاصة اشتهرت باسم الحرس الفارنجي (الاسكندنافي). وسرعان ما اعتاد الفارنجيون أن يقضوا عطلة في رحلة إلى القدس، وأول من جاء ذكرهم من بين هؤلاء شخص يدعى كوليسكسجر كان في فلسطين سنة ٩٩٢ ميلادية، وذهب هارولد هاردرادا، وهو أشهر الفارنجيين، إلى فلسطين سنة ١٠٣٤ ميلادية. وخلال القرن الحادي عشر كان هناك الكثير من النرويجيين والأيسلنديين والدانمركيين ممن قضوا خمس سنوات أو أكثر في الخدمة الإمبراطورية ثم قاموا بالحج قبل أن يعودوا إلى أوطانهم في الشمال ومعهم مدخراتهم بعد أن أثروا. وكانت أقاصيصهم التي يروونها لأصدقائهم تستحث هؤلاء الأصدقاء فيرتحلون جنوباً بقصد الحج. وذهب المصلح الأيسلندي ثورفالد كوردرانرسون فيدفورلي إلى القدس سنة ٩٩٠ ميلادية تقريباً. وزعم حجاج نرويجيون كثيرون أنهم شاهدوا أولاف تريفاس هناك، وهو أول ملك مسيحي نرويجي، بعد اختفائه الغامض سنة ١٠٠٠ ميلادية. ولقد انتوى أولاف الثاني أن يخذو حذوه، بيد أن رحلته لم تتم مطلقاً إلا في الأساطير. وكان هؤلاء الأمراء الشماليون رجالاً يتصفون بالعنف وكثيراً ما يقتربون إثم القتل، ويتناهم شعور دائم بالحاجة إلى التكفير عن آثامهم. فنجد أن سوين جودوينسون، وهو نصف دانماركي، خرج سنة ١٠٥١ ميلادية مع مجموعة من الإنجليز للتكفير عن جريمة قتل ارتكبها، لكنه مات لتعرضه لسوء الأحوال الجوية في جبال الأناضول في الخريف التالي، وكان يرتحل حافي القدمين تكفيراً عن آثامه. ولوهمان جودرودسون، وهو ملك مان النرويجي الذي قتل أخاه، التمس غفراناً من الرب بنفس الطريقة. ومعظم الحجاج الاسكندنافيين كانوا يفضلون الهجيء إلى بيت المقدس عن طريق البحر عبر مضيق جبل طارق ثم يعودون عن طريق البر عبر

روسيا. (١)

وكان حجاج القرن العاشر القادمون من الغرب يضطرون قبل ذلك إلى السفر عن طريق البحر المتوسط إلى القسطنطينية أو إلى سوريا، على أن تكاليف السفر كانت عالية، ولم يكن من اليسير الحصول على أماكن. وفي سنة ٩٧٥ ميلادية تحول حكام المجر إلى المسيحية، وافتتح طريق بري يتجاوز الدانوب ويعبر البلقان إلى القسطنطينية. وبقي ذلك الطريق مخفوفاً بالأخطار إلى أن أحكمت بيزنطة سيطرتها على شبه جزيرة البلقان كلها في سنة ١٠١٩ ميلادية.

السفر عبر الحدود

ومنذ ذلك التاريخ، كان باستطاعة الحاج أن يسافر ماراً بالبحر بأقل قدر من المخاطرة، ويعبر الحدود البيزنطية عند بلجراد ثم يمضي عبر صوفيا وأديانوبل إلى العاصمة. وكان بوسعه عندئذ أن يسلك طريقاً آخر، فيذهب إلى إيطاليا البيزنطية ويقوم برحلة بحرية قصيرة يعبر فيها البحر من باري في جنوب إيطاليا إلى درهاكيوم ثم يسلك الطريق الروماني القديم إلى ثيسالونيكاً ثم البسفور. وكانت هناك ثلاثة طرق رئيسية جيدة يمكنه استخدامها لعبور آسيا الصغرى إلى أنطاكية حيث يمضي جنوباً بمحاذاة الشاطئ إلى اللاذقية ثم ينحرف داخل الأراضي الفاطمية بالقرب من طرطوس وكانت هذه هي الحدود الوحيدة التي كان عليه أن يعبرها بعد وصوله إلى بلجراد أو إلى تيرومولي في إيطاليا، وكان باستطاعته بعدئذ أن يمضي إلى القدس دون عوائق أخرى. وهكذا كان السفر بالطريق البري رغم البطء أقل تكلفة بكثير وأيسر من السفر بحراً، ويناسب الجماعات الكبيرة إلى حد كبير.

(١) بررد Riant, *op. cit.*, pp. 97-129 رواية كاملة عن الحجاج الإسكندنافيين.

وكان الحجاج يلاقون من مزارعي الإمبراطورية معاملة مضيافة إذا التزموا بالنظام. وكان الجزء الأول من رحلة الحج يتم في سر لأن أهل كلاني كانوا يقيمون آنذاك عددا من الأنزال على ذلك الجزء من الطريق، وكان هناك عدد من الأنزال في إيطاليا يقتصر استخدام بعضها على النرويجيين، كما كان هناك نزل ضخم في مدينة ميلك في النمسا (١)، وخصص نزل سامسون في القسطنطينية للحجاج الغربيين، واحتفظ أهل كلاني بمؤسسة في ضواحي رودوستو (٢). وفي القدس نفسها كان بوسع الحجاج أن يقيموا في مضيعة القديس جون التي أسسها تجار أمالفي (٣). ولم يكن ثمة اعتراض على أن يصطحب سادة الغرب العظام حاشية مسلحة على أن تلتزم بالانضباط، وكان معظم الحجاج يحاولون أن يذهبوا في معية أولئك السادة. على أن ارتحال الرجال فرادى أو في مجموعات من رجلين أو ثلاثة رجال لم يكن من غير الشائع أو بالغ الخطورة. وربما حدثت صعاب أحيانا، ولم تكن الإقامة الطويلة في فلسطين مريحة للحجاج إبان اضطهاد الحاكم، بيد أن تدفق الحجاج لم ينقطع كلية في أية حال. وفي سنة ١٠٥٥ ميلادية كان عبور الحدود إلى أراضي المسلمين أمرا خطرا. ولم يوافق حاكم اللاذقية على أن يأذن بالرحيل لأسقف كامباري يتبرت، فأضطر إلى الذهاب إلى قبرص (٤). وفي سنة ١٠٥٦ ميلادية منع المسلمون الغربيين من دخول القبر المقدس

(١) Orderic Vitalis, *Historia Ecclesiastica* iii, 4, vol. ii, p. 64

(٢) See Riant, *op. cit.* p. 60

(٣) William of Tyre, xviii, 4-5, 1, pp. 822-6; Aimé, *Chronicon*, p. 320

(٤) Vita Lietberti', in d'Achéry, *Spicilegium*, vo. Ix, pp. 706-12 وقد وجدت رحلة

الحج الألمانية الكبيرة في الفترة ١٠٦٤-١٠٦٥م، والتي كانت تضم ٧٠٠٠ حاج، ظروفًا غير

مريحة للغاية جنوب الحدود البيزنطية. وترد الرواية في *Annales Altahenses*

Majores, p. 815. See Joranson, "The Great German Pilgrimage of 1064-5

وأخرجوا حوالي ثلاثمائة منهم من القدس وربما تغاضى الإمبراطور عن ذلك (١) . وقد أساء كل من بازل الثاني وابنة أخيه الإمبراطورة ثيودورا عندما أمرا ضباط جماركهما بفرض ضريبة على الحجاج وخيلهم؛ فكتب البابا فيكتور الثاني إلى الإمبراطورة في ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٠٥٦ ميلادية راجيا إلغاء ذلك الأمر، ويوحى خطاباه بأن موظفي الإمبراطورة كانوا يوجدون آنذاك في القدس نفسها. (٢)

على أن هذه المتاعب كانت نادرة. فطوال القرن الحادي عشر وحتى آخر عقدين فيه كان تيار المسافرين إلى الشرق لا ينقطع، وكانوا يرتحلون في جماعات تبلغ الآلاف من الرجال والنساء، من كل الأعمار ومن كل الطبقات، وقد تمهثوا في عصر يتميز بالفراغ لقضاء عام أو أكثر في تلك الرحلة. وكانوا يتوقفون في القسطنطينية إعجابا بتلك المدينة الهائلة التي كانت تجاوز في ضخامتها عشر أمثال أية مدينة أخرى يعرفونها في الغرب، وليبجلوا المخلفات المقدسة الموجودة فيها. فكان بإمكانهم مشاهدة تاج الأشواك والرداء غير المخيط وكل المخلفات الرئيسية التي خلقتها آلام المسيح، وكان هناك نسيج من مدينة الرها طبع المسيح وجهه عليه، ولوحة العذراء التي رسمها القديس لوقا بنفسه، وشعر رأس يوحنا المغطس، ودثار إيليا، وجثث لا حصر لها للقديسين والأنبياء والشهداء، وقدر هائل من أقدم الأشياء في العالم المسيحي. ومن هناك كانوا يذهبون إلى فلسطين، والناصرية وجبل

(١) *Miracula Sancti " Wolframni Senonensis " , in Acto sanctorum Ordinis Sancti Benedicti, saeculum iii, pars I, pp. 381-2.*

وقد قابل Lietbert مسافرين أخرجوا من فلسطين (*'Vita Lietberti' , loc. cit.*)

(٢) خطاب فيكتور الثاني Victor II, in *M.P.L.* vol. cxlix, cols. 961-2 يعزى خطأ إلى

فيكتور الثالث *Riant Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades,*

طابور (١) والأردن وبيت لحم وكل مزارات القدس. وكانوا يحملون في ذلك كله، ويصلّون أمام ذلك كله، ثم يشرعون في رحلة العودة الطويلة إلى الوطن وقد تهذبوا وتطهروا، فيستقبلهم أبناء وطنهم ويحتفون بهم على أنهم حجاج المسيح الذين قاموا بأقدس رحلة.

وكان نجاح الحج يتوقف على شرطين: أولهما، أن تكون الحياة في فلسطين من الانتظام بحيث يستطيع المسافر الذي لا حول له ولا قوة أن يتحرك ويمارس عبادته في أمان. وثانيهما، أن يظل الطريق مفتوحًا وقليل التكاليف. وكان الشرط الأول يقتضي أن يسود السلام وحسن الإدارة الحكومية في العالم الإسلامي، ويستلزم الشرط الثاني أن تكون بيزنطة مزدهرة وخيرة.

(١) (المترجم): جبل طابور، في شمال فلسطين في الجليل الأسفل. وبرغم أنه لم يرد ذكر هذا الجبل في العهد الجديد، فهو الموقع الذي يري التراث الكنسي أن المسيح تجلي فيه.

(٢) Elbersolt, *Les Sanctuaires de Byzance*, pp. 105 ff.

الفصل الرابع :

صوب الكارثة



صوب الكارثة

"في ساعة سلامٍ يَأْتِيهِ الْمُخَرَّبُ"

(أيوب : ١٥ - ٢١)

بدا من المؤكد في منتصف القرن الحادي عشر أن الهدوء سوف يسود منطقة شرق البحر المتوسط لسنوات كثيرة قادمة. ذلك أن القوتين العظيمتين فيها: مصر الفاطمية وبيزنطة كانتا على وفاق فلم تعتد أيهما على الأخرى وكانتا ترغبان في كبح جماح الدول الإسلامية الواقعة إلى الشرق منهما حيث كان المغامرون الأتراك يثيرون المتاعب دون أن يعكروا صفو حكومتي القسطنطينية أو القاهرة على نحو خطير. وكان الفاطميون على ودٍّ مع المسيحيين الذين لم ينلهم اضطهاد منذ موت الخليفة الحاكم.

وكان الفاطميون يفتحون موانئهم للتجار القادمين من بيزنطة ومن إيطاليا، ومن ثم استفاد التجار والحجاج على حد سواء من حسن معاملتهم.

وكانت قوة بيزنطة تكفل هذه المعاملة الحسنة. ويرجع الفضل في امتداد الإمبراطورية آنذاك — من لبنان إلى الدانوب ومن نابولي إلى بحر قزوين — إلى مجموعة من الأباطرة المحاربين العظماء، الذين أديرت الإمبراطورية في ظلهم على نحو يفضل غيرها من الممالك المعاصرة، برغم ما قد يعرض لها من فساد أو شغب. ولم يسبق للقسطنطينية أن حظيت بمثل هذا الثراء من قبل، ذلك أنها أصبحت عاصمة العالم التي لا تبارى في شؤون التجارة والمال. وكان التجار يتوافدون عليها من كل حُدُبِ صُوب، من إيطاليا وألمانيا، ومن روسيا، ومن مصر والشرق، ليتاعوا ما تنتجه مصانعها من أشياء نفيسة وليبادلوا بضائعهم الأقل جودة. وكانت تلك المدينة الشاسعة، التي تفوق القاهرة وبغداد في سعتها وازدحامها وصخب الحياة فيها، تدهش زائرها بمبانيها المزدهم وأسواقها الحافلة وضواحيها الممتدة وكنائسها وقصورها الهائلة. وكان البلاط الإمبراطوري يبدو للزائر وكأنه مركز الكون كله، وإن سيطرت عليه آنذاك أميرتان متقدمتان في العمر جامحتا الطبع.

وإذا كان الفن مرآة الحضارة، فإن الحضارة البيزنطية بلغت مكانة رفيعة فيه. ذلك أن فنانيها، في القرن الحادي عشر، أظهروا ما كان يتصف به أسلافهم الكلاسيكيون من اعتدال واتزان؛ وأضافوا إلى ذلك ميزتين رائعتين من التراث الشرقي وهما الشكلية الزخرفية الثرية عند الإيرانيين، والتركيز الوجداني في الشرق القديم. والأعمال الباقية من ذلك العصر — كقطع العاج الصغيرة أو لوحات الفسيفساء الكبيرة أو الكنائس المحلية ككنيسة دافني أو كنيسة القديس لوقا في اليونان — تُظهر في اقتدار الجمع بين عناصر التراث التي تأتلف في كُلِّ متكامل. وبالرغم من أن أدب ذلك العصر يتوارى وراء ما تعطيه لنا العصور الكلاسيكية السابقة عليه من منجزات، فإنه يعطينا مجموعة متنوعة من الأعمال التي يتصف مستواها جميعاً بالامتياز. فلدينا التاريخ الرائق لجون

دياكوناس، والشعر الغنائي الرقيق لكركستوفر الميثيليني، وملحمة ديجينيس أكريتاس ذات الشعبية المكتسحة، والأقوال الماثورة السائرة للجندي سيكاومينوس، ومذكرات البلاط التي تتسم بالانتقاد والفطنة لميخائيل بسيلوس. ويكاد يتسم الجو العام في بيزنطة آنذاك بالرضا عن النفس الذي كان سائداً في القرن الثامن عشر لولا شئ من الانشغال بالأمور الأخروية وشئ من التشاؤم اللذين لم يخلص منهما البيزنطيون في أية حال.

وللإغريقي شخصية تتسم بخفاء وتعقيد لا نلمسهما في الصورة التي يرسمها في الوقت الحاضر دارسو القرن الخامس السابق على الميلاد. وزادت هذه الشخصية تعقيداً عند البيزنطي بما داخلها من صفات يتسم بها الدم الشرقي الذي خالطها وجعلها تتميز بالتناقض التام. فعلى حين كان البيزنطي عملياً إلى حد بعيد وذا قابلية للعمل وتوافقاً إلى أن يحظى بالأعجاد الدنيوية، فإنه كان على استعداد لأن يهجر الدنيا ويخلو إلى حياة التأمل والرهبة. وكان يؤمن إيماناً حاراً بالرسالة الإلهية للإمبراطورية وبالسلطة الإلهية للإمبراطور، بيد أنه اتسم بالترعة الفردية وبالتمرد على أية حكومة لا ترضيه دون إبطاء. وكان يفرع من الهرطقة، على أن دينه، وهو أشد أشكال المسيحية المستقرة جنوباً إلى الباطنية، أتاح له — سواء أكان رجل دين أو دنيا — رحابة فلسفية كبيرة. واحتقر جيرانه على أنهم برابرة وإن سهل عليه تبني عاداتهم وأفكارهم. وهو متقلب الطبع برغم درايته بشؤون الدنيا وما له من كبرياء. وترعزت ثقته نتيجة لما احتاج بيزنطة من كوارث أو شكت أن تؤدي بها، فالأزمة المباشرة تروعه وتجعله ينجح إلى ضرب من الوحشية يستنكره، هو نفسه، عندما تعاوده لحظات الهدوء. ولربما كان حاضره واعدداً متألقاً، ولكن نبوءات عديدة تنذره بأن مدينته سوف تهلك ذات يوم، ويحسب أن هذه النبوءات صادقة. فالسعادة والدعة لا محل لهما في هذا العالم العابر المعتم وإثما يوجدان في ملكوت السماء وحده.

انهيار الاقتصاد البيزنطي

وكان لمخاوفه ما يبررها. فلم تكن دعائم القوة البيزنطية وطيدة بالقدر الكافي، فتتطلب الإمبراطورية العظيمة قائم على الدفاع، والمسؤولون العسكريون يحكمون المقاطعات ويخضعون هم أنفسهم للإدارة المدنية في القسطنطينية. وهيا هذا النظام رديفًا محليًا قادرًا من الجند يمكنه أن يدافع عن منطقة في أوقات الغزو وأن يعزز الجيش الإمبراطوري الرئيسي في حملاته الكبيرة. وأن يضيف مزيدًا من القوة على حاكم الإقليم عند انتهاء الغزو، خاصة إذا كان هذا الحاكم من الثراء بحيث يستطيع أن يتجاهل من يتولى الإنفاق في العاصمة. فضلًا عن أن الرخاء كان مفسدة لنظام الزراعة في آسيا الصغرى. وكان العمود الفقري لبيزنطة يتمثل في مجتمعات المزارعين الأحرار الذين يحصلون على أراضيهم من الدولة مباشرة في مقابل أداء خدمات عسكرية في أغلب الأمور. على أن الحال هناك لم تكن تختلف عنها في أي مكان آخر في العصور الوسطى، فالأرض هي الاستثمار الوحيد الآمن للثروة، وكان كل غني يسعى للحصول عليها، وحرصت الكنيسة من يتحمسون لها على أن يورثوها الأرض، وكانت الأرض هي الجائزة المعتادة التي تُمنح للقادة العسكريين الأكفاء أو للمستحقين من الوزراء. وبدأت الأمور على ما يرام، فالإمبراطورية ماتزال تستعيد الأراضي التي استولى عليها العدو، أو تعيد إعمار المناطق التي أخلتها الحروب أو خربتها؛ بيد أن النجاح في ذلك في حد ذاته أدى إلى احتدام شهوة تملك الأرض، ولم يكن بوسع الأعيان والقائمين على الأديرة إلا أن يزدوا من ضياعهم بشراء الأرض من الفلاحين الذين كانوا في حاجة إلى المال أو بالاستيلاء على قرى بأكملها إما بأخذها على سبيل الهدية من الدولة أو بتوليهم مسئولية سداد الضرائب المستحقة عليها. وسعى الحكماء من الأباطرة إلى أن يحولوا دون ذلك، لأن المالك الجديد لم يكن ليقاوم الرغبة في تحويل أرضه إلى مزرعة للأغنام إلا فيما ندر، ولأن نقل الحيازات من الفلاحين الذين يؤدون خدمات عسكرية كان يهين للمالك — وذلك هو الأهم — القدرة على أن يجمع جيشًا خاصًا مما يضعف

جيش الدولة. بيد أن ما وضعه أولئك الأباطرة من تشريعات لم يحقق نجاحاً في هذا السبيل، ففي خلال القرن العاشر نشأت في بيزنطة أرستقراطية وراثية تملك الأرض بلغت من الغنى والقوة ما يكفي لتحدي الحكومة المركزية واستطاع الإمبراطور بازل الثاني، أعظم أباطرة العائلة المقدونية، أن يخمد بمشقة ممرداً قام به أولئك الأرستقراطيون في مستهل حكمه. وبانتصار الإمبراطور بازل الثاني ظلت هيئته باقية إلى أن انتهى حكم أسرته في سنة ١٠٥٦ ميلادية بوفاة ابنة أخيه ثيودورا. ولو أن السلالة المقدونية أنجبت ورثة للعرش من الذكور لترسخ مبدأ وراثة العرش الإمبراطوري، ولتوفرت لبيزنطة قوة خليقة بكبح جماح الأرستقراطية. ولكن الولاء للأسرة الحاكمة مكن الأميرة زو وأزواجها المتعاقبين من الاستمرار في حكم يتسم بالفجور والتفريط لما يقرب من ثلاثين عاماً، كما مكن الأميرة العجوز ثيودورا من الحكم بمفردها، وكانت القوى الهدامة تنمو طوال الوقت. وعندما ماتت ثيودورا كانت في بيزنطة قوتان تواجه كل منهما الأخرى في معارضة مريرة، وهما زمرة البلاط التي تسيطر على الإدارة المركزية، وعائلات النبلاء التي تسيطر على الجيش. بينما حاولت الكنيسة - التي كان لها موطئاً في كل من المعسكرين - أن تحافظ على التوازن. (١)

(١) عن الحضارة البيزنطية في هذه الفترة أنظر :

Iorga, *Histoire de la Vie Byzantine*, vol. ii, pp. 230-49 ; Vasiliev, *Histoire de L'Empire Byzantin*, vol. i, pp. 476-92

وعن مشكلة الزراعة في بيزنطة أنظر :

Ostrogorsky , 'Agrarian Conditions in the Byzantine Empire ', in *The Cambridge Economic History of Europe*, vol. 1, pp. 204 ff .

وعن التاريخ السياسي أنظر :

Bury, 'Roman Emperors from Basil II to Isaac Komnenos', in *Selected Essays*, pp. 126-214; Ostrogorsky , *Geschichte des byzantinischen Staates*, pp. 224-40.

كومنينوس ودوكاس

ولم تكد الأميرة — التي بلغت العقد السابع وهي ما تزال تؤمن بنبوذة تقول أنها ستحكم لسنوات عديدة — تروح في غيوبتها الأخيرة حتى دفع البلاط إلى العرش بمسئول مدني متقدم في السن هو ميخائيل ستراتيكيوس. ورفض الجيش أن يقبل الإمبراطور الجديد، فزحف على القسطنطينية عاقدا العزم على تنصيب قائده، فتنحى ميخائيل دون مقاومة وأصبح الجنرال اسحق كومنينوس إمبراطورا، وهكذا كسبت الأرستقراطية العسكرية الجولة الأولى.

وكان اسحق كومنينوس أرستقراطيا من الجيل الثاني وحسب، شأنه في ذلك شأن الكثير من أقرانه نبلاء بيزنطة. فأبوه جندي من تراكييا (١)، أو ربما فلاشي (٢)، استحوذ على رضا الإمبراطور بازل الثاني فأعطاه بعض الأراضي في بافلاجونيا (٣)، حيث شيد حصنا عظيما عرف باسم (كاسترا كومنينون) وما يزال يعرف في أيامنا باسم (كاستاموني). وورث اسحق وأخوه جون أراضي والدهما وجرأته العسكرية. وانتسب كلاهما إلى الأرستقراطية البيزنطية بالزواج، فزوجة اسحق أميرة من أميرات البيت الملكي السابق في بلغاريا، وزوجة جون وريثة عائلة دالاسيني العظيمة. على أن سوء طوينة الإدارة المدنية أدى باستمرار إلى إفشال حكم اسحق برغم ثروته وسيطرته وتأيد الجيش له، فكف عن الصراع بعد عامين وانزوى في أحد الأديرة. ولما لم يكن له ولد، رشح كونستنتين دوكاس خلفا له، ولم تغفر له زوجة أخيه أنا دالاسينا ذلك.

وكان كونستنتين دوكاس رأس أسرة ربما كانت من أعرق أسر الأرستقراطية

(١) (المترجم) : تراكييا : حاليا الجزء الأوربي من تركيا .

(٢) (المترجم) : الفلاشي : أحد أبناء جنوب شرق أوروبا المتحدثين بالرومانية .

(٣) (المترجم) : بافلاجونيا : مقاطعة في الأناضول تطل على البحر الأسود .

البيزنطية وأكثرها ثراء، على أنه هياً لنفسه مكاناً في البلاط، ومن ثم كان اسحق يأمل في أن يقبله الجانيان؛ ولكنه سرعان ما أظهر أن ميوله تنأى عن طبقته. وكانت خزائنه خاوية والجيش بالغ القوة والخطر، فكان الحل الذي ارتآه تمثل في تخفيض القوات المسلحة، وكان من الممكن الدفاع عن هذا التخفيض كإجراء تقتضيه السياسة الداخلية، ولكن لم يحدث في أي وقت في التاريخ البيزنطي أن كان إضعاف القوة الدفاعية للإمبراطورية أمراً مأموناً، وكان الإقدام على ذلك في تلك الآونة وخيم العاقبة، إذ كانت سحب العاصفة تتجمع في الشرق بعد أن هبت عاصفة من الغرب بالفعل. (١)

أبناء تانكريد دي هوتفيل

فلبضعة عقود خلت كانت دولة جنوب إيطاليا مسرحاً للشغب والاضطراب. وكانت الحدود الرسمية للإمبراطورية البيزنطية تمتد من تيراسينا على الساحل التيراني إلى ترمولي على البحر الأدرياتيكي، غير أنه، في نطاق تلك الحدود، لم يخضع لحكم بيزنطة المباشر سوى مقاطعتي أبوليا وكلايريا اللتين كان أغلب سكانهما من اليونانيين، وعلى الشاطئ الغربي تقع ثلاث من دول المدينة التجارية (٢)، هم جايثا ونابولي وأمالفي،

(١) Ostrogorsky, *op. cit.* pp. 238-42; Diehl and Marçais, *Le Monde Oriental de 395 a` 1081*, pp. 523-31

(٢) يعود مصطلح دولة المدينة أو city-state أو polis في الأصل على المدن الإغريقية القديمة التي كانت تمثل في أي منها دولة صغيرة. ويرجع ظهور هذه المدن إلى طبيعة بلاد اليونان الجغرافية، وانقسامها إلى أجزاء تفصل بينها الجبال والبحر من ناحية، وإلى أسباب قبلية وعرقية ودينية من ناحية أخرى. وكانت توجد في القدم بضع مئات من دول المدينة التي لا يكاد يعرف تاريخ معظمها إلا--

التي كانت تتبع الإمبراطور اسميا. ووجد أهل أمالفي، الذين كانت لهم آنذاك تجارة ضخمة مع الشرق المسلم، أن نية الإمبراطور الحسنة تفيدهم في تفاوضهم مع السلطات الفاطمية، وكان للأمالفيينقنصل دائم في القسطنطينية. أما أهل نابولي وجايتا، وبرغم استعدادهم للتجارة مع الكفار، كانوا أقل كياسة تجاه الإمبراطور. وسيطر على داخل البلاد أمراء بنيفنتو وساليرنو اللومبارديون، الذين اعترفوا بسيادة كل من الإمبراطور الشرقي والغربي في آن وإن لم يحترموا أيا منهما، وكانت جزيرة صقلية ما تزال في أيدي المسلمين برغم تعدد محاولات بيزنطة لاستعادتها، وتسببت الغارات التي يشنها المسلمون من صقلية ومن أفريقيا على طول الشواطئ الإيطالية في زيادة اضطراب البلاد.

وجاءت إلى هذه المناطق أعداد غفيرة من المغامرين النورماندين القادمين من شمال فرنسا، في طريقهم إلى بيت المقدس ليحجوا أو ليزوروا ضريح القديس ميكائيل — على جبل جارجانو — الذي كانوا يفضلون زيارته، وكثير منهم جنود مرتزقة

==لما . ومن ثم يروي معظم تاريخ اليونان القديمة من خلال تواريخ أثينا واسبرطه وقليل من دول المدينة الأخرى .

وكانت دولة المدينة تتمركز في مدينة واحدة يضمها سور في العادة ، وإن كانت المناطق المحيطة بها تتبعها . وتضم المدينة قلعة على أرض مرتفعة acropolis وسوقا agora . وكانت حكومة دولة المدينة تتمركز في داخلها ، بينما يعيش مواطنوها في نطاق المدينة وعلى الأراضي التابعة لها . ويشترك المواطنون في الحكم بدرجات مختلفة تتفق وشكل الحكم الذي كان إما أرستقراطيا أو أوليجاركيا (أي حكم قلة) أو ديموقراطيا . ولما كانت درجات المواطنة في كثير من تلك المدن تتنوع اشد الصراع وطال من أجل المساواة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية بين عامة المواطنين على اختلاف أوضاعهم وبين الخاصة من ذوي المكانة المتميزة .

بقوا في تلك المناطق ليعملوا في خدمة الأمراء اللومباردين. ذلك أن الرغبة في تملك الأرض كانت جارفة في نورماندي، التي ضاقت ضياعها بسكانها ولم يعد فيها متسع لصغار أبنائها ذوي الطموح الذين يساورهم القلق أو للفرسان الذين لا يملكون أرضا. وهذا الدافع إلى التوسع — الذي أوشك أن يدفعهم إلى غزو إنجلترا — حول أنظارهم إلى الشرق وكل ثرواته؛ ونظروا إلى جنوب إيطاليا على أنه مفتاح إمبراطورية البحر المتوسط، وأتاح لهم الاضطراب الذي كان سائدا فيه الفرصة التي انتظروها.

في سنة ١٠٤٠ ميلادية استولى ستة أخوه — أبوهم فارس نورماندي مغمور هو تانكريد دي هوتفيل — على مدينة ميلفي في تلال أبوليا وأسسوا إمارة هناك. ولم تعبأ بهم السلطات البيزنطية المحلية؛ ولكن النورماندين وجدوا مساندة من الإمبراطور الغربي هنري الثالث الذي كان تواقا للسيطرة على مقاطعة تصارعت عليها الإمبراطوريتان منذ وقت طويل؛ ومن البابا الألماني الذي عينه ذلك الإمبراطور والذي كان مستاء من أن يرأس بطريق القسطنطينية أي دائرة اختصاص كنسية إيطالية. وخلال اثني عشر عاما تسيد أبناء تانكريد على الإمارات اللومباردية ودفعوا بالبيزنطيين إلى أقصى نقطة في كلايريا وإلى شاطئ أبوليا، واتجهوا إلى الشمال عبر كامبانيا وأوشكوا أن يبلغوا روما، فشعرت الحكومة البيزنطية بالخطر فاستدعت ماريانوس أرجيوس حاكم أبوليا للوقوف على حقيقة الأمر وأعادته مزودا بسلطات أوسع ليعالج الموقف. على أنه لم يحقق شيئا من الناحية العسكرية إذ صد النورمانديون جيشه الصغير، وإن حقق شيئا من النجاح من الناحية الدبلوماسية لأن البابا ليون التاسع، وهو من اللورين، كان متوترا مثله. فنجاح النورماندين كان أعظم مما توقعه البابا وهنري الثالث الذي كان مشغولا بحملة هنغارية، لكنها لم تحل دون إرساله عوناً للبابا الذي اتجه إلى الجنوب في صيف ١٠٥٣ ميلادية مع جيش من الألمان والإيطاليين معلنا أن تلك الحرب حرب مقدسة، وكان على قوة بيزنطية أن تلحق به، وبينما كان ينتظرها خارج مدينة سيفيتات

الصغيرة الواقعة في أبوليا هاجمه النورمانديون وقضوا على جيشه وأخذوه أسيرا. وافتدى نفسه بأن تخلص عن سياسته كلها.

وكانت هذه آخر محاولة جادة لكبح جماح أبناء تانكريد. ومات هنري الثالث سنة ١٠٥٦ ميلادية وخلفه الطفل هنري الرابع، وكان الوصي على العرش أجنس أوف بويتو مشغولا للغاية في ألمانيا فلم يستطع أن يولي الجنب اهتماما. وقررت البابوية أن تنحى منحى واقعيًا، ففي سنة ١٠٥٩ ميلادية اعترف البابا نيكولاس الثاني في مجلس ميلفي بروبرت جيسكارد (روبرت الماكر) أكبر أبناء تانكريد الباقيين على قيد الحياة باعتباره "دوق أبوليا وكلايريا، وبفضل الرب والقديس بطرس، وبعونهما، دوق صقلية". وهذا الاعتراف الذي كان يقتضي، في رأي روما وليس في رأي روبرت، التبعية لوريث القديس بطرس، أي للبابا، مكّن النورمانديين من إتمام غزوهم في يسر، وسرعان ما خضعت لهم الجمهوريات البحرية؛ وبحلول سنة ١٠٦٠ ميلادية كان كل ما تبقي للبيزنطيين في إيطاليا هو عاصمتهم، قلعة باري الساحلية. وفي أثناء ذلك بدأ روجر شقيق روبرت الأصغر يحقق نجاحًا بطيئًا في الاستيلاء على صقلية من العرب. (١)

وصمدت باري إلى حين، واستطاع البيزنطيون بذلك أن يحولوا إلى حد ما دون أن يتوسع النورمانديون في اتجاه الشرق، غير أنه كان من المحتسم أن تؤدي القلاقل السياسية في إيطاليا إلى قلاقل دينية؛ وأدى وجود الغزاة اللاتينيين في جنوب إيطاليا إلى إثارة مسألة الكنيسة اليونانية الموجودة في تلك المنطقة والخلاف القديم بين القسطنطينية

(١) إن أفضل ما كتب عن التغلغل النورماندي في جنوبي إيطاليا وغزو البلد يرد في :

Chalandon, *Histoire de la Domination normande en Italie et en Sicile*, vol 1, chs. ii -vii, and Gay, *L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin*, bk . v, chs. ii-v

وروما حول ولائها الكنسي. وترتب على الإصلاحات التي أجريت في روما أن عازمت البابوية على ألا تسمح بأنصاف الحلول فيما لها من مطالب. وكان يشغل كرسي البطريركية في القسطنطينية آنذاك ميكائيل سريولاريوس، وهو من أكثر ساسة الكنيسة اليونانية طموحاً وأشدّهم عدوانية. إن القصة التعسة للزيارة التي قام بها البابا ليو التاسع إلى القسطنطينية سنة ١٠٥٤ ميلادية ينبغي أن تسرد مع ما ترتب عليها من علاقات بين الكنيستين الغربية والشرقية؛ فلما انتهت بمشاهد من "العزل الكنسي" المتبادل، على الرغم من محاولة الإمبراطور إيجاد نوع من المصالحة؛ كما أنها جعلت أيّ تعاون صادق بين روما والقسطنطينية بشأن حاجات إيطاليا العاجلة، أمراً مستحيلاً. لكنها لم تتسبب في الانقسام النهائي الذي يعزوه المؤرخون المتأخرون إلى هذه الزيارة. وساءت العلاقات السياسية بين البلاطين الإمبراطورين، لكنها لم تنقطع. وسرعان ما فقد سريولاريوس نفوذه. بعد أن ازدرته الإمبراطورة ثيودورا التي حاول أن يقصّيها عما آل إليها، وخلعه الإمبراطور اسحق، فمات منفياً لا حول له ولا قوة. ولكنه انتصر في نهاية الأمر، ذلك أن أجيال بيزنطة اللاحقة رأت فيه بطل استقلالها؛ وعندما عاود الإمبراطور والبابا رسائل الود، استطاعت الإمبراطورة أيودوسيا ماكرمبوليتسا إضافة اسمه إلى قائمة القديسين. (١)

ومن وجهة نظر مؤرخي بيزنطة الذين عاصروا تلك الأحداث، فإن حكام الإمبراطورية لم يكادوا يلاحظون ذلك الخلاف، إذ كانت المشاكل التي تحدث في الشرق تحجب عن عيونهم متاعب الغرب.

إن اضمحلال الخلافة العباسية لم ينطو على نفع كامل لبيزنطة. ذلك أن ما كان يعتبر العراق من فقر بدأ يؤدي إلى تغيير طرق التجارة في العالم، فلم يعد تجار الشرق

(١) انظر ما يلي الصفحات ١٧١ - ١٧٣ .

الأقصى يأتون إلى أسواق بغداد ببضائعهم التي كان الكثير منها ينقل إلى الإمبراطورية كي يعاد شحنه من موانئ آسيا الصغرى أو من القسطنطينية نفسها إلى الغرب؛ وأصبحوا يفضلون آنذاك أن يتخذوا طريق البحر الأحمر إلى مصر، ومن مصر كانت تنتقل بضائعهم إلى أوروبا على السفن التجارية الإيطالية، ومن ثم لم تعد بيزنطة تقع على طريق التجارة، وأدت غيبة القانون في أطراف الإمبراطورية العباسية إلى إغلاق طريق القوافل القديم من الصين والذي كان يمتد عبر تركستان وشمال فارس إلى أرمينيا والبحر عند طربزون (١)، ولم يبق الطريق البديل الممتد إلى شمال بحر قزوين آمناً لفترة طويلة. وبالنسبة لمنطقة البحر المتوسط لم تعد القوة العباسية، كما كانت من قبل، عاملاً من عوامل الدفاع الخارجي ضد برابرة أواسط آسيا من الناحيتين السياسية والعسكرية على السواء.

الأتراك يتحركون غرباً

إن سبل الدفاع انهارت؛ وتمكنت آسيا الوسطى مرة أخرى من أن تتعدى نطاقها إلى أراضي الحضارة القديمة. ولقد لعب الأتراك دوراً هاماً في التاريخ لفترة طويلة، فالإمبراطورية التركية في القرن السادس كانت، على قصر عمرها، قوة استقرار وإشعاع حضاري في آسيا. والشعوب التركية البعيدة — مثل شعوب الخزر (٢) اليهودية على

(١) طربزون : مدينة في الشمال الشرقي من تركيا ، تقع على خليج في الجنوب الشرقي للبحر الأسود وخلفها سلسلة جبال مرتفعة تفصلها عن هضبة الأناضول .

(٢) الخزر : شعب يتألف من اتحاد قبائل تركية إيرانية ، أنشأ في النصف الثاني من القرن السادس الميلادي إمبراطورية تجارية رئيسية في القسم الجنوبي الشرقي لروسيا الأوروبية حالياً .

ضفاف الفولجا (١) أو الـأوجور النساطرة المسيحية، التي استقرت فيما بعد على حدود الصين — أظهرت قدرتها على التكيف والتقدم الحضاري، على أنه لم يكن هناك أي تقدم في تركستان نفسها منذ القرن السابع. ونشأ قليل من المدن على طرق القوافل، ومع ذلك بقي التركمانيون في غالب الأمر رعاة وأشباه بدو، وأدى تزايد عددهم إلى رغبة ملحة في الترحال إلى ما وراء حدودهم. وفي القرن العاشر حكم تركستان أبناء الأسرة السامانية الفارسية (٢) الذين تمثل دورهم في التاريخ في تحويل أتراك أواسط آسيا إلى الإسلام. ومنذ ذلك الوقت تحولت أنظار الترك إلى أراضي جنوب غربي آسيا وشرق المتوسط.

واستولى محمود الغزنوي (٣) — وهو أول عظماء المسلمين الأتراك — على الحكم من السامانيين. وفي العقود الأولى من القرن الحادي عشر أقام إمبراطورية عظيمة امتدت من أصفهان إلى بخارى ولاهور. وفي تلك الأثناء كان المرتزقة الترك يتوغلون في العالم الإسلامي كله، بنفس القدر الذي كان يتوغل به النورمانديون في أوروبا

-
- (١) نهر الفولجا : أو نهر أوروبا : أطول نهر في القارة الأوروبية والبحري المائي الرئيسي في الاتحاد السوفياتي ينبع من تلال فالداي شمال غرب موسكو ويمجرى إلى الجنوب الشرقي ليصب في بحر قزوين .
- (٢) الأسرة الحاكمة السامانية (٨١٩-٩٩٩م) : أول أسرة حاكمة وطنية في إيران بعد الفتح الإسلامي . أسسها سامان خردا ، وحصل أحفاده الأربعة من الخليفة العباسي المأمون في مقابل خدماتهم المخلصة على مقاطعات سمرقند وفرغانة وشاه وخرات .
- (٣) الأسرة الحاكمة الغزنوية (٩٧٧-١١٨٦م) : حكمت خراسان شمال إيران وأفغانستان وشمال الهند . وبلغت القوة الغزنوية ذروتها أثناء حكم محمود الذي أقام إمبراطورية امتدت من نهر جيحون (أموداريا حاليا) إلى وادي أندوس والمحيط الهندي وشرق إيران ، وانتقل بالأسرة من الأصل الوثني إلى العقيدة الإسلامية ووسع الرقعة التي ساد فيها الإسلام .

المسيحية. وكان للخليفة في بغداد، ولكثيرين من الحكام المسلمين، كتاب تركية؛ وكان من بين رعايا الغزنويين عشيرة الغز، وهم أتراك من سهول الآرال الفسيحة، أطلق عليهم السلاجقة، نسبة إلى اسم جددهم شبه الأسطوري. وكان أمراء السلاجقة مجموعة من المغامرين الذين يغارون من بعضهم البعض وإن كانوا يتحدون حفاظا على صالح العائلة، ولا يكادون يختلفون في ذلك عن أبناء تانكريد دي هوتفيل، وإن كانوا أوفر حظا من النورماندين من حيث عدد أشياعهم، ذلك أنه كان بوسعهم أن يعولوا على عون حشود التركمان الهائلة التي لا تكاد تقرر في مكان. وبعد موت محمود سنة ١٠٣٠ ميلادية، ثار السلاجقة على الغزنويين؛ وبحلول سنة ١٠٤٠ ميلادية كانوا قد طردوهم واضطروهم إلى أن يلوذوا بمقاطعاتهم الهندية. وفي سنة ١٠٥٠ ميلادية، دخل طغرلبك (١)، وهو أكبر أمراء البيت السلجوقي، أصفهان وجعلها عاصمة دولة تضم فارس وخراسان، بينما استقر إخوته وأبناء عمومته على حدوده الشمالية في تحالف مفكك يعترف بسلطته العليا، وراحوا يغيرون على البلدان المجاورة كما يحلو لهم. وفي سنة ١٠٥٥ ميلادية كان الخليفة العباسي في حالة من الرعب بسبب المؤامرات التي كان يدبرها وزيره البساسيري مع الفاطميين، فاستنجد بطغرلبك الذي دخل بغداد كبطل سني ومنح لقب ملك الشرق والغرب، وصار صاحب السلطة العليا الدنيوية على كل الأراضي التي تدين للخليفة بالولاء الروحي. (٢)

(١) (المترجم) : طغرلبك : مؤسس الأسرة السلجوقية التي حكمت إيران والعراق وسوريا

والأناضول خلال القرن الحادي عشر وحتى الرابع عشر .

(٢) أفضل مرجع للتاريخ التركي المبكر يرد في مادة "Turks" التي كتبها Barthold

Encyclopaedia of Islam أنظر أيضا مادة " Seljuks " الى كتبها Houtsma في

Encyclopaedia Britannica, 11th ed. وعن محمد الغزنوي ، أنظر : Barthold,

Turkestan down to the Mongol Invasion, pp. 18 ff

نهاية أرمينيا

وكانت هناك غارات تركية داخل أرمينيا ترجع إلى عهد بازل الثاني في الوقت الذي كان فيه السلاجقة ما يزالون تحت الحكم الغزنوي. ولكي يحمي بازل إمبراطوريته من الأتراك، شرع في سياسته ضم أرمينيا قطعة قطعة، وبعد غزو السلاجقة لفارس تكررت الغارات التركية على أرمينيا، واشترك طغرل بك بنفسه مرة واحدة سنة ١٠٥٤ ميلادية وخرب البلاد حول بحيرة فان، ولكنه فشل في الاستيلاء على متريكيرت الحصينة. وكان إبن عمه، حسن وإبراهيم إينال، يتوليان في العادة قيادة الجيوش المغيرة التي هزمها البيزنطيون سنة ١٠٤٧ ميلادية أمام مدينة أرزروم، وخلال الأعوام التالية تركزت جهودهما على مهاجمة حلفاء الإمبراطورية في جورجيا (١)، ففي سنة ١٠٥٢ ميلادية اجتاحت مدينة قرس، وعادا في سنتي ١٠٥٦ و ١٠٥٧ ميلادية إلى أرمينيا مرة أخرى، وفي سنة ١٠٥٧ ميلادية نُهبت مدينة ملطية، وفي سنة ١٠٥٩ ميلادية تقدم الجنود الأتراك للمرة الأولى إلى مدينة سيفاس الواقعة في قلب الأراضي الإمبراطورية. (٢)

ومات طغرل بك سنة ١٠٦٣ ميلادية، ولم يكن يولي اهتماماً كبيراً بحدوده الشمالية الغربية. لكن خليفته وابن أخيه ألب أرسلان سعي إلى حماية نفسه من البيزنطيين، إذ كان في حالة من التوتر من إمكان تحالف البيزنطيين والفاطميين، فقرّر غزو أرمينيا قبل المضي في هدفه الرئيسي ضد الفاطميين. وكُثفت الغارات على الإمبراطورية؛ ففي سنة ١٠٦٤ ميلادية دُمّرت العاصمة القديمة لأرمينيا (مدينة آني)،

(١) (المترجم) : جورجيا : مدينة إلى اتلشرق من القسطنطينية .

(٢) Laurent, *Byzance et les Turcs Seldjoudides*, pp. 16-24; Cahen, 'La première Pénétration turque Asie Mineure', pp. 5-21, in *Byzantion*, vol. xviii. See also Mukrimin Halil, *Türkize Tarihi*, vol. 1, *Anadolum Fethi*, passim .

وأما أمير مدينة قرس الذي كان آخر حكام أرمينيا المستقلين فقد سره أن يسلم أراضيهِ للإمبراطورية في مقابل بعض الضياع في جبال طوروس ورافقته أعداد كبيرة من الأرمن إلى موطنه الجديد. ومنذ سنة ١٠٦٥ ميلادية راح الأتراك يهاجمون قلعة إيديا العظيمة على الحدود كل عام، لكنهم كانوا غير متمرسين في أعمال الحصار الحربي. وفي العام التالي ١٠٦٦ ميلادية احتلوا ممرات جبال أمانوس، وفي الربيع التالي خربوا مدينة قيصرية التي كانت حاضرة كابادوكيا، وفي الشتاء التالي هزموا الجيوش البيزنطية في ملطية وسيفاس. ومكنتهم هذه الانتصارات من السيطرة على أرمينيا سيطرة كاملة. وخلال السنوات التالية أغاروا على أعماق الإمبراطورية: قيصرية الجديدة وعمورية سنة ١٠٦٨ ميلادية، وقونية سنة ١٠٦٩ ميلادية، وخونيا سنة ١٠٧٠ ميلادية، القرية من شواطئ بحر إيجه. (١)

واضطرت الحكومة الإمبراطورية إلى التصرف. وفي سنة ١٠٦٧ ميلادية مات الإمبراطور كونستنتين العاشر، وكانت سياسته في خفض القوات المسلحة مسؤولة بدرجة كبيرة عن هذا الموقف الخطير، وترك ابنه الصغير ميكائيل السابع تحت وصاية أمه الإمبراطورة أيوديسيا التي تزوجت في العام التالي من رومانوس ديوجينسوس القائد العام ورفعته إلى العرش. وكان رومانوس جنديا بارزا ووطنيا مخلصا، غير أن المهمة التي كانت تنتظره تتطلب رجلا ذا عبقرية. ولقد ارتأى أن سلامة الإمبراطورية تستلزم إعادة غزو أرمينيا، لكن الجيش البيزنطي لم تعد له القوة الهائلة التي كان عليها قبل خمسين سنة مضت، ولم تكن قوات المقاطعات تكفي لحماية أراضيها من المغيرين، وإذن لا يمكنها توفير جنود لحماية الإمبراطورية، والعائلات النبيلة القادرة على تجنيد الرجال من ضياعها ساورتها الشكوك فكفت أيديها، وفصائل الفرسان وعددها ستون ألف فارس تفرقت الآن وهي التي كانت دورياتها تحبب الحدود السورية حتى

(١) .Laurent, *op. cit.* pp. 4-6; Cahen, *op. cit.* pp. 21-30

منتصف القرن، والحرس الإمبراطوري المكون من نوعيات منتقاة من الأناضول والمدرّب تدريباً عالياً أقل بكثير مما كانت عليه قوته في الأيام الغابرة. وأصبح سواد الجيش يتكون من مرتزقة أجنبية: ثرويجيين من الحرس الفارنجي، ونورماندين وفرنجية من غرب أوروبا، وسُلافين من الشمال، وأتراك من سهول روسيا الجنوبية، وبتشنج، وكومان، وغُزّ، وانتقى رومانوس من هذه العناصر قوة تقرب من مائة ألف رجل، ربما كان نصفها من مواليد بيزنطة، لكن الجنود المحترفين منهم كانوا قلة ضئيلة ولم يكن أحد منهم مجهزاً تجهيزاً جيداً، وكانت أكبر فصيلة من المرتزقة تتكوّن من الكومان والأتراك يقودها جوزيف تاركانيوت التركي المولد، وكانت الكتيبة الرئيسية تضم أبرز الفرسان النورماندين بقيادة روسيل أوف بيلويل النورماندي، وكان لهذه الكتيبة من قبل قائدان من الفرنج هما هيرفي وكرسين، اللذان خُلعا واحداً بعد الآخر لخياتتهما البينة، ولم يكن الرجال يعملون إلاّ تحت إمرة رجل وطني، أمّا كبير القادة البيزنطيين التابع للإمبراطور مباشرة — وهو أندرونيكوس دوكاس، ابن أخي الإمبراطور المتوفى — فكان كباقي أفراد عائلته عدواً لدوداً لرومانوس الذي لم يجرؤ على تركه في القسطنطينية. وخرج رومانوس في ربيع ١٠٧١ ميلادية على رأس هذا الجيش، الذي لا يعول عليه وإن كان كبيراً، لاستعادة أرمينيا. وبينما هو يغادر العاصمة جاءت الأنباء من إيطاليا بأن باري، وهي آخر ما يملكه البيزنطيون في شبه الجزيرة الإيطالية، سقطت في أيدي النورماندين.

معركة مانزكيرت

ويتناول مؤرخو ذلك العصر بتفصيل مأسوي مسيرة الإمبراطور شرقاً بطول الطريق العسكري الضخم. وكان ينوي الاستيلاء على القلاع الأرمينية ويضع فيها حامياته قبل وصول الجيش التركي من الجنوب. وكان ألب أرسلان في سوريا بالقرب

من حلب حينما سمع بالتقدم البيزنطي، وتحقق من مدى خطورة التحدي، فأسرع شمالاً لمقابلة الإمبراطور. ودخل رومانوس أرمينيا عن طريق الفرع الجنوبي للفرات الأعلى، وقسم قواته بالقرب من مانزكيرت التي ذهب إليها هو نفسه بينما أرسل قواته من الفرنجة والكومان لاحتلال قلعة الأخلاط على شاطئ بحيرة فان. وفي مانزكيرت جاءته الأنباء باقتراب ألب أرسلان، فأنحدر إلى الجنوب الغربي لكي يعيد توحيد الجيش قبل أن ينقض عليه الأتراك، لكنه أهمل إرسال المستكشفين ناسياً بذلك أول مبادئ التكتيكات البيزنطية. وفي يوم الجمعة ١٩ أغسطس (آب)، وبينما كان في أحد الأودية على طريق الأخلاط في انتظار أتباعه من المرتزقة، انقض عليه ألب أرسلان ولم يأت المرتزقة لنجده، وفي الليلة السابقة على المعركة، تذكر الكومان أنهم أتراك وأن رواتبهم قد تأخر دفعها، فتوجهوا جميعاً إلى الأعداء وانضموا إليهم، وقرر روسيل والفرنجة عدم الاشتراك في المعركة، وهكذا لم يطل التنبؤ بنتيجتها. ولقد حارب رومانوس نفسه بشجاعة، وأما أندرونيكوس دوكاس فقد تحقق من الهزيمة ورأى بشاقب نظره أن القسطنطينية ستشهد الفصل الثاني من المسرحية، فسحب القوات الاحتياطية التي كانت تحت إمرته من ساحة القتال وسار بها غرباً تاركاً الإمبراطور لمصيره. وما أن حل المساء حتى كان الجيش البيزنطي قد دمر وجرح رومانس واقتيد في الأسر. (١)

(١) يورد Cahen أكمل الروايات وأفضلها تزويداً بالمراجع في

'La Campagne de Mantzikert d'après les Sources Mussulmanes', in *Byzantion*, vol. ix, pp. 613-42. See also Laurent, *op. cit.* p. 43 and n. 10.

ويرد وصف جيد لاستراتيجية المعركة وتكتيكاتها في Oman, *History of the Art of War*, pp. 217-19 أما Delbrück في *Geschichte der kriegskunst*, vol. iii, p. 206 و Lot في *L'Art Militaire* et les Armées du Moyen Age, vol. 1, pp. 71'2 من Oman لقبوله الأعداد الغفيرة التي أوردتها المؤرخون الشرقيون للدلالة على قوة جيش رومانوس الرابع - بدءاً من مائه ألف رجل وأكثر - على أن الجيش كان بلا شك ضخماً بصورة غير عادية سوى أنه، كما يؤكد Lautrent, *op. Cit.* pp. 45-59 نظراً لإقتصاديات قسطنطين العاشر بشأن الجيش، لم تكن تجهيزاته كافية وكانت نسبة الجنود المدربين ضئيلة جداً.

الفصل الخامس :

اضطراب في الشرق



إضطراب في الشرق

"إِنِّي وَإِنْ كَانُوا يَسْتَأْجِرُونَ بَيْنَ الْأُمَمِ
الآنَ أَجْمَعُهُمْ فَيَنْفَكُونَ قَلِيلاً مِنْ ثِقَلِ
مَلِكِ الرُّؤَسَاءِ"

(هُوشَع : ٨ - ١٠)

كانت معركة متركزت أشد الكوارث الحاسمة في التاريخ البيزنطي، ولم يخالط البيزنطيون أنفسهم أية أوهام في ذلك، وما فتئ مورخوهم يذكرون ذلك اليوم الرهيب. وبدأ للصليبيين المتأخرين أن البيزنطيين خسروا في ساحة القتال لقبهم كحماة للعالم المسيحي، ومن ثم كان لتدخل الغرب بعد متركزت ما يبرره (١).

(١) يعتبر المؤرخ وليم الصوري (William of Tyre) أن تلك الكارثة كانت مبرراً للتحرك الصليبي مادامت بيزنطة لم تستطع حماية العالم المسيحي الشرقي أكثر من ذلك. وأما المؤرخ الألماني (ديليروك) .. فيعتبر أن أهمية المعركة مبالغ فيها علي أنه يتضح من الشواهد أن المعركة أسفرت عن عجز الإمبراطورية عن أن تدفع بجيش هجومي إلي الميدان لسنوات كثيرة بعد ذلك.

ولم يستفد الأتراك استفادة عاجلة كبيرة إثر ذلك النصر. وحقق ألب أرسلان ما كان يهدف إليه، وتوفرت الحماية لجناحه، وأزال خطر التحالف البيزنطي الفاطمي. ولم يطلب من الإمبراطور الأسير سوى إخلاء أرمينيا وفدية كبيرة نظير إطلاق سراحه، ثم سار في حملة إلى بلاد ما وراء النهر حيث مات سنة ١٠٧٢ ميلادية، ولم يدخل ابنه وخليفته ملكشاه — الذي كان لإمبراطوريته أن تمتد من البحر المتوسط إلى تخوم الصين — آسيا الصغرى مطلقاً. لكن أتباعه التركمان اعتادوا على التنقل، ولم يكن يرغب في توطينهم في الأراضي القديمة للخلافة، بيد أن سهول الأناضول الوسطى التي أخلاها وجهاء بيزنطة أنفسهم وحولوها إلى مزارع أغنام كانت تناسبهم تماماً، فعهد إلى ابن عمه سليمان بن قتلمش أمر إخضاع تلك البلاد للشعب التركي. (١)

ويسر البيزنطيون أنفسهم الغزو على الأتراك، إذ انقضت السنوات العشرون التالية من تاريخهم في مضطرب التمرد والتأمر. فعندما وصلت إلى القسطنطينية أنباء الكارثة وأسر الإمبراطور أعلن ميكائيل دو كاس — ابن زوجته — أنه بلغ سن الرشد واستولى على الحكم، وعزز موقفه وصول ابن عمه اندرونيكوس ومعه بقايا الجيش. وكان ميكائيل السابع شاباً مثقفاً ذكياً، وحريراً به أن يكون حاكماً مقتدرًا في زمن أهدأ،

(١) Article 'Suleiman ben Qutulmush' by Zettersteen in *Encyclopaedia of Islam*; Laurent, *op. cit.* pp. 9 - 11; Cahen, 'La première Pénétration turque', in *Byzantion*, vol. xviii, pp. 31-2 See also Wittek, 'Deux Chapitres de l'Histoire des Ramsay, 'Intermixture of Turcs de Roum', in *Byzantion*, vol. xi, pp. 285-319; Races in Asia Minor', in *proc. Brit. Acad.* vol. vii, pp. 23 - 30, and Yakubovsky, 'Seldjuk Invasion and the Turcomans in the Eleventh Century' (in Russian), in *proc. Acad. Sci. U.S.S.R.* 1936.

غير أن المشاكل التي واجهته كانت تتطلب رجلاً أعظم منه بكثير. وعاد رومانوس ديوجينيس من أسره ليجد نفسه مخلوعاً، فحاول أن يحارب دفاعاً عن عرشه السليب لكنه هُزم بسهولة واقتيد سجيناً إلى القسطنطينية حيث اقتلعت عيناه في وحشية أدت إلى موته بعد ذلك بأيام قليلة. ولم يكن بوسع ميكائيل أن يتركه على قيد الحياة، لكن النهاية الوحشية التي انتهت بها حياته صدمت أقاربه الأقوياء وأصدقاءه الذين أسرتهم شهامته وأخذت منهم النعمة كل مأخذ، وسُرعان ما وجد استيائهم متنفساً في الخيانة. (١)

دخول الأتراك آسيا الصغرى

وبدأت الغزوات التركية لآسيا الصغرى بصورة جدية سنة ١٠٧٣ ميلادية دون تناسق أو وحدة. ورغب سليمان في إقامة سلطنة منظمة يحكمها تحت سيادة ملكشاه، ولكن بعض الأمراء الأتراك الأقل شأنًا، مثل دنمشنند و شاكا و منجشك، كانوا يستهدفون الاستيلاء على بعض المدن الصغيرة أو القلاع التي تمكنهم من الإغارة على السكان أيا كانوا وتولى أمرهم، وآزرهم في ذلك، البدو التركمان الذين كانوا يرتحلون على ظهور خيولهم بما خف من السلاح ومعهم خيامهم وعائلاتهم وهم يتقدمون في البراري. وولى المسيحيون الأدبار تاركين الغزاة من ورائهم يحرقون قراهم ويجمعون أسراهم وقطعاتهم. وكان التركمان يتجنبون المدن الكبيرة، ولكن وجودهم وما أحدثوه من دمار قطع الاتصالات في أنحاء البلاد مما فرض العزلة على حكام المقاطعات، وتمكن

(١) إن المصدر الرئيسي الأصلي لهذه الفترة المعقدة من التاريخ البيزنطي هو Nicephorus Bryennius الذي يغطيها تفصيلاً .Modern résumés in Diehl and Marçais, *op.cit.* pp. 554 ff. And Ostrogorsky, *op. cit.* pp. 243-7

زعماء الأتراك من تحقيق رغباتهم، ومن ثم شكلوا عاملاً يحول دون أن يعاود البيزنطيون محاولة الغزو.

وحاول الإمبراطور ميكايل أن يعترض التقدم التركي. وكان لما دبره روسيل أوف بيلويل من خيانة أثره في تمكين الكتيبة الفرنجية النورماندية من الإفلات من كارثة متكررة، وبرغم ما تبين من أن روسيل لا يعتمد عليه اضطر ميكايل إلى الاستفادة به، فعهد إليه بجيش محلي صغير يقوده اسحق كومنينوس، وهو ابن أخي الإمبراطور السابق. وكان اختياراً حكيماً، ذلك أنه وأخوه ألكسيوس الذي صحبه ينتسبان إلى أسرة تكره عشيرة دو كاس كراهية مريرة، غير أنهما، وبرغم إلحاح أمهما ظلّا مخلصين لميكايل ولعهده وأثبتتا جدارتهما في القيادة. ولكن غدر روسيل لم يدع مجالاً لإخلاص اسحق، فقبل أن يقابل الجيش البيزنطي الأتراك، تخلى روسيل وقواته عن ولاءهم. وتعرض اسحق لهجوم الأتراك والفرنجة الذين جاوزت أعدادهم عدد جنوده إلى حد يدفع إلى اليأس، وانتهى به الأمر إلى الوقوع في أسر السلاجقة.

روسيل أوف بيلويل

واتضحت عندئذ نوايا روسيل الذي التهب خياله بما فعله بنو جلدته في جنوب إيطاليا، فوطد نفسه على إرساء دعائم دولة نورماندية له في الأناضول، ولم يكن معه سوى ثلاثة آلاف رجل لكنهم يدينون له بالولاء وكان تسليحهم جيداً، وكذلك تدريبهم، وبإمكان أي منهم أن يغلب أي تركي أو بيزنطي إذا واجهه على حدة. وتحقق الإمبراطور من أن روسيل أصبح آنذاك أشد خطورة من الأتراك، فتدارس مع عمه القيصر جون دو كاس ما يمكن جمعه من الجنود وأرسلهم في نهاية الأمر تحت إمرة عمه بنفسه، وقابلهم روسيل بالقرب من عمورية حيث اجتث شأفتهم بسهولة وأسر القيصر. ولكي يضيفي على ملكه مبرراً شرعياً أعلن تتويج القيصر الأسير إمبراطوراً رغماً عنه وسار إلى القسطنطينية ووصل إلى الشاطئ الآسيوي لمضيق البسفور دون

عائق وأحرق ضاحية كريسوبوليس (سكوتاري) وعسكر بين أطلالها. ولجأ ميكائيل اليائس إلى القوة الوحيدة القادرة على مساعدته فأرسل وفدًا إلى السلطان السلجوقي سليمان الذي وعد بالمساعدة — بموافقة سيده ملكشاه — في مقابل التنازل عن المقاطعات الشرقية للأناضول التي كانت محتلة بالفعل. واستدار روسيل ليواجهه لكن الأتراك أحاطوا بجنوده على جبل سوفون في كابادوكيا، وتمكن روسيل من الهرب مع قلة من رجاله وتحصن في مدينة أماسيا الواقعة في الاتجاه الشمالي الشرقي. وأرسل ميكائيل إليها ألكسيوس كومنينوس الذي نجح في المزايدة لدى الزعيم التركي الرئيسي في المنطقة وفاز بعونه، وأدى ذلك إلى استسلام روسيل. وكانت حكومة روسيل من الكفاءة والشهرة بحيث بذل مواطنو أماسيا جهدهم لإنقاذه ولم يكفوا عن ذلك إلا عندما علموا أن عينيه قد فقئت. وحقيقة الأمر أن ألكسيوس لم يكن ليضع نفسه في موضع التمثيل بروسيل، وفي ذلك سر جاذبيته التي جعلت الإمبراطور يسعد بأن يسمع أن ألكسيوس لم يتدن إلى السماح بمثل هذا الانحطاط. (١)

ويختفي روسيل من التاريخ. ولكن الأحداث تترك أثرها على البيزنطيين وتعلمهم أن النورماندين ليسوا أهل ثقة، وأن طموحهم لا تحده شواطئ إيطاليا الجنوبية، وإنما يرغبون في إقامة إمارات في الشرق. ويمضي أثر هذه الأحداث فيفسر السياسة البيزنطية بعد ذلك بعشرين عامًا. وفي ذات الوقت تثبط همّة النورماندين عن الانخراط في الخدمة الإمبراطورية، ومن ثم يصبح أبناء عموماتهم الاسكندنافيون موضع شك. ومنذئذ يصبح اختيار الحرس الفارنجي من الذين عانوا من النورماندين، وهم الأنجلوسكسون

(١) Roussel's career is told by Bryennius, pp. 73-96, And Attaliates, pp. 183 ff

See Schlumberger, 'Deux Chefs normands', in Revue Historique, vol. xvi

البريطانيون. (١)

وتسبب الخوف من النوماندين والحاجة الدائمة إلى مرتزقة أجنب في أن يسرع ميكائيل إلى اتباع سياسة استرضاء الغرب. ولم يكن هناك من سبيل لاسترجاع جنوب إيطاليا ولم يكن بوسعهم أن يستمر في الحرب هناك، فأرسل جون إيتالوس، الفيلسوف الإيطالي المولد، إلى النوماندين سفيرا للاتفاق على السلام معهم رغم أن الكثير من البيزنطيين يعتبرونه خائنا مُصالح الإمبراطورية، ولكن ميكائيل لم يعبأ بذلك وكان على دراية برغبة آل هوفيل الذين يتطلعون إلى عقد أحلاف كبيرة عن طريق الزواج، فاقترح عليهم إرسال هيلين ابنة جيسكار لتكون عروسا لابنه القاصر قسطنطين، وفي الوقت نفسه سعي إلى التقرب من البابا العظيم جريجوري السابع ونال صداقته الحميمة. وهكذا تحقق السلام على حدوده الغربية بفضل سياسته. (٢)

على أن الاضطراب ازداد سوءا في الأناضول، وفقدت الحكومة الإمبراطورية السيطرة على مجريات الأمور هناك. برغم وجود قليل من القادة المخلصين الذين حافظوا على استبقاء سلطة الإمبراطور، مثل اسحق كومنينوس حاكم أنطاكية آنذاك، فإن انقطاع سبل الاتصال أدى إلى افتقار تنسيق السياسة. وفي نهاية الأمر، تمرد نسفورس بوتنياتس في سنة ١٠٧٨ ميلادية الذي كان محافظا لإحدى المقاطعات الكبرى للأناضول في الجزء الأوسط الجنوبي لآسيا الصغرى، مدفوعا من ناحية بطموح

(١) For the English in the Varangian Guard, see Vasilievsky, *Works* (in Russian), vol. 1, pp. 355-77; Vasiliev, 'Opening Stages of the Anglo- Saxon Immigration to Byzantium', in *Seminarium Kondakovianum* , vol. 39-70 .

(٢) Chalandon, *op. cit.* vol. 1, pp. 264-5; Gay, *Les Papes du Xle Si ècle*, pp. 311-12 .

شخصي، ومن ناحية أخرى بضيق متأصل من ضعف حكم ميكائيل، لكنه كان قائدا بلا جيش، ولذا جند أعدادا كبيرة من الأتراك، واستخدمهم كحاميات للمدن التي كان يستولي عليها وهو في طريقه إلى العاصمة، مثل مدن سيزيكوس، ونيقية، ونيكوميديا، وخلقدونية، وكريسوبوليس. وهكذا وجدت الحشود التركية نفسها لأول مرة داخل المدن العظيمة غربي الأناضول، وربما أصبحت مرتزقة للإمبراطور الجديد، وإن صعب عليه بعد ذلك اقتلاعهم. وعندما دخل نيسفورس العاصمة لم يظهر ميكائيل أي مقاومة، وإنما دخل أحد الأديرة حيث وجد فيه سبيله الحقيقي. وكان أسعد حظا من أغلب الأباطرة المخلوعين: ففي غضون سنوات قليلة اعتلى كرسي رئيس الأساقفة بفضل مزاياه وحدها. وأما زوجته التي هجرها، وهي ماريا القوقازية من ألانيا، والتي كانت أجمل أميرات عصرها، كانت من التعقل بحيث مدت يدها للمغتصب.

ووجد نيسفورس أن حياة المتمرّد أسهل من حياة الحاكم. وحذا قادة آخرون حذوه؛ ففي غرب البلقان أعلن نيسفورس برينيوس، حاكم ديرهاكيوم، نفسه إمبراطورا، واجتذب جنود المقاطعات الأوروبية إلى لوائه، فأرسل الإمبراطور نيسفورس إليه ألكيسوس كومنينوس على رأس قوة صغيرة تتكون من جنود يونانيين غير مدربين وقليل من الفرنج الذين تخلّوا عن مهمتهم كعادتهم. ولم يتأت له هزيمة نيسفورس برينيوس إلا بوصول المرتزقة الأتراك في اللحظة الملائمة. وما أن انتهت هذه الحملة حتى اضطر ألكيسوس إلى الذهاب إلى ثيسالي ليسحق مغتصبا آخر هو بازيلاكوس، وفي نفس الوقت تمردت الحامية التركية في نيقية. وعندما سمع البابا جريجوري بأنباء سقوط حليفه ميكائيل أصدر قرارا بطرد الإمبراطور الجديد من الكنيسة، أما روبرت جيسكار فقد خطط لعبور البحر الأدرياتيكي، مدفوعا بتشجيع من البابوية وبحنقه لفسخ خطوبة ابنته، فترّل إلى البر في شهر مايو (أيار) في مدينة أفلونا بكامل قواته وسار إلى ديرهاكيوم. وتمرد أبرز القادة في آسيا، نيسفورس ميليسينيوس هو الآخر في أوائل فصل الربيع نفسه، وتحالف مع السلطان التركي سليمان الذي استطاع بفضل هذا التحالف

أن يتقدم دون مرد إلى بيثينيا حيث رحبت به الحامية التركية التي تركها بوتينيئاتس، ولما فشل ميليسينيوس في الاستيلاء على القسطنطينية رفض سليمان إعادة المدن التي احتلها، وبدلاً من ذلك نصب نفسه في مدينة نيقية التي كانت أكثر المدن قداسة في العالم المسيحي. وهكذا أصبحت مدينة نيقية، التي تبعد عن القسطنطينية بأقل من مائة ميل، عاصمة للسلطنة التركية.

وفي القسطنطينية أضاع الإمبراطور نيسفورس فرصته الوحيدة في البقاء بتشاجره مع عائلة كومنيكوس بعد أن خدمه اسحق وأليكسيوس كومنينوس بإخلاص، وكانا يأملان في الاحتفاظ بمودته؛ فبينهما وبين الإمبراطورة صداقة وثيقة، لاسيما وأن اسحق تزوج ابنة خالتها، وأنه كان يظن أن أليكسيوس عشيقها. غير أنها لم تستطع شيئاً حيال دسائس البلاط التي دفعت نيسفورس إلى أن ينقلب عليهما. وأضطر الشقيقان إلى التمرد لتأمين نفسيهما، وأعلن أليكسيوس نفسه إمبراطوراً مستنداً إلى اعتراف الأسرة به على أنه أقدر الاثنين. وهكذا سقط نيسفورس بنفس القدر من السهولة التي خلع بها سابقه، وأخذ بنصيحة البطريق فتقاعد منهو كاهناً لينهى أيامه في الرهبنة. (١)

ألكسيوس كومنينوس يعتلي العرش

وقدر لألكسيوس كومنينوس أن يحكم سبعة وثلاثين عاماً، وأن يثبت أنه أعظم رجل دولة في عصره، على الرغم مما بدا سنة ١٠٨١ ميلادية من أنه سيعجز عن البقاء هو وإمبراطوريته؛ وربما كان شاباً لم يجاوز الثلاثين من عمره على أنه خير الحياة لسنوات عدة كقائد عسكري يفتقد القوات الكافية في غالب الأحيان ويتوقف نجاحه

(١) يورد Chalandon أفضل مرجع لحكم Boteniates في *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*, pp. 35-50

على فطنته ودبلوماسيته، وكان لوجوده وقع خاص، ولم يكن طويل القامة، وإنما قوي البنية في مهابة. وكان كيس الطبع بسيطاً بادي القدرة على ضبط النفس، بيد أنه كان يجمع إلى لطف المعشر والاستعداد اليقظ لأن يلجأ إلى الخديعة والإرهاب إذا اقتضت مصلحة البلاد ذلك، ولا تكاد تجاوز مزايه صفاته الشخصية وحب جنده له. ولا شك أن أسرته ذات الصلات المتشعبة في الأرستقراطية البيزنطية أعانته على الوصول إلى السلطة، وعزز مركزه بأن تزوج من سيدة من آل دو كاس وزاد من مشاكله دسائس أقاربه وغيرهم، وخاصة الكراهية التي كانت أمه المسيطرة تكنها لزوجته وكل عشيرتها. وكان البلاط يزخر بأفراد عائلات إمبراطورية سابقة، أو عائلات تفكر في اغتصاب العرش، فعمل أليكسيوس على ربطها به بأواصر الزواج، فهناك الإمبراطورة ماريا التي كانت تنهشها الغيرة من الإمبراطورة الجديدة إيرين، وكذلك ابن ماريا قنسطنطين دو كاس الذي قربه أليكسيوس واتخذه رفيقاً يصغره وعجل خطبته لابنته الكبرى أنا، وهناك أبناء رومانوس ديوجينيس الذي زوج أحدهم من أخته ثيودورا، وهناك ابن نيسفورس برينيوس الذي تزوج بالفعل أنا كومنينا بعد أن مات زوجها قنسطنطين دو كاس في سن مبكرة، وهناك نيسفورس ميليسينوس الذي تزوج من أخته ايودوشيا التي جعلته يتخلى لأخيها عن مطالبته بالإمبراطورية في مقابل لقب قيصر. فكان لزاماً على أليكسيوس أن يداوم مراقبتهم جميعاً بعين يقظة، يهدئ خلافاتهم ويحبط خياناتهم، وابتدع نظام ألقاب وافيا لإرضاء أهوائهم. ولم تكن طبقة النبلاء يعتمد عليها، وكذلك كبار موظفي الدولة على السواء، فكان يكتشف مؤامرات لا تنتهي ضد حكومته، ويتهدده دائماً خطر الاغتيال، لكنه كان رفيقاً في عقابه من منطلق السياسة ومنطلق نزوعه الشخصي معاً (١). وهذا الحلم الذي اتصف به، وبصيرته البعيدة في كل أفعاله،

(١) أوردت المؤرخة أنا كومنينا وصفا للمظهر الشخصي لأبيها بالفاظ الإطراء والمديح في تاريخها

Chalandon, op. cit. pp. 106, 7-III, ii, 5, vol. 1, وأورد -- موجزا --

كانا الميزتين الملحوظتين البارزتين بالنظر إلى الظروف غير المأمونة المحيطة بحياته كلها.

الإمبراطور أليكسيوس

وكانت حالة الإمبراطورية في سنة ١٠٨١ ميلادية هي الحالة التي لا يمكن أن يضطلع بحكومتها سوى رجل فائق الشجاعة أو رجل شديد الغباء. فالخزانة خاوية، وكان الأباطرة الذين سبقوه مسرفين متلافين، وتسببت خسارة الأناضول وحالات التمرد التي حدثت في أوروبا في تقليص عوائد الإمبراطورية على نحو يثير الأسى، وانهار نظام جمع الضرائب القديم. ولم يكن أليكسيوس خبيراً مالياً، لكن رجل الاقتصاد العصري يقف مشدوهاً أمام الطرق التي اتبعها؛ إذ أنه بطريقة أو بأخرى فرض على رعاياه أقصى حد من الضرائب تتسع له مواردهم، وأجبر الأعيان والكنيسة على منحه قروضاً وصادر ممتلكاتهم، واستبدل عقوبة السجن بعقوبة الغرامة المالية، وباع الامتيازات، وطوّر تقاليد القصور وعاداتها، وتمكن بذلك من تحمل تكاليف تنظيم إداري ضخم، وإعادة بناء الجيش والبحرية، وتمكن في ذات الوقت من الاحتفاظ بفخامة البلاط الإمبراطوري، واستطاع أن يخلع الهدايا على رعاياه المخلصين والمبعوثين الزائرين والأمراء، فقد تحقق من أن الهيبة في الشرق تتوقف على العظمة والجلال، وأما الشح فهو الرذيلة التي لا تغتفر. على أن أليكسيوس ارتكب خطأين كبيرين: فقد منح التجار الأجانب امتيازات تجارية في مقابل معونات عاجلة مما أضرب رعاياه؛ كما أنه خفض قيمة العملة الإمبراطورية في إحدى اللحظات الحرجة، وهي العملة التي ظلت وحدها طوال سبعة قرون مستقرة في عالم من الفوضى.

-- لشخصيته . أما التاريخ " Synopsis Chronico " الذي وضعه مؤرخ يوناني مجهول ، والذي يتخذ موقفاً ودياً منه ، فيصفه بأنه " عظيم الإرادة والقدرة في العمل " .

وأما في الشؤون الخارجية فكان الوضع باعثاً على اليأس بصورة أكبر — هذا إذا كانت كلمة "خارجية" لا تزال وصفا قابلاً للتطبيق آنذاك، إذ أن الأعداء توغلوا في داخل الإمبراطورية من كل جانب، ففي أوروبا كانت قبضة الإمبراطورية على شبه جزيرة البلقان مخوفة بالمخاطر، وكان السلافيون في صربيا ودالماتيا في حالة تمرد، وكثيراً ما كانت قبيلة البتشنج التركية المتجولة وراء الدانوب تعبر النهر للإغارة، وفي الغرب احتل روبرت جيسكار والنورمانديون مدينة أفلونا وحاصروا ديرهاكيوم، وأما في آسيا فلم يبق لبيزنطة سوى شواطئ البحر الأسود، والقليل من المدن المعزولة على الشاطئ الجنوبي، وحاضرة أنطاكية العظيمة المحصنة، لكن الاتصالات مع هذه المدن البعيدة كانت نادرة وغير مضمونة، كما بقيت عدة مدن في الداخل في أيدي المسيحيين، لكن الصلة بين حكامها وبين الحكومة المركزية كانت مقطوعة تماماً. وكان سواد البلاد في قبضة السلطان السلجوقي سليمان الذي حكم من نيقية دولة تمتد من البوسفور إلى الحدود السورية، ورغم عدم توفر الإدارة المنظمة لدولته، التي لم تكن لها حدود ثابتة، وكانت هناك مدن أخرى في قبضة أمراء أترك أقل شأنًا، اعترف بعضهم بسيادة سليمان بينما لم يعترف أغلبهم بسيد آخر غير ملكشاه. وكان أكثرهم أهمية آل دانشمند الذين كانوا يمتلكون قيصرية وسافوس وأماسيا، فكان منجشك حاكماً على أرزنكان وكولونيا، وكان أخطرهم جميعاً هو المغامر شاكا الذي استولى على أزمير وساحل بحر إيجه. واستتب الأمر لزعماء الأتراك على نحو أو آخر حول مدتهم الرئيسية، بينما بقي سائر البلاد نهبا لجحافل التركمان الرحل وتسيبت جماعات اللاجئين اليونانيين والأرمن في زيادة اضطراب الأمور. ودخلت أعداد غفيرة من المسيحيين في الإسلام وذابت شيئاً فشيئاً في الجنس التركي، وبقيت جماعات يونانية ضئيلة العدد في مناطق الجبال، أما المسيحيون الأتراك الذين استقروا حول قيصرية في كابادوكيا قبل ذلك ببضعة قرون فقد احتفظوا بهويتهم ودينهم حتى العصور الحديثة، إلا أن أغلب

السكان اليونانيين شقوا طريقهم بقدر الاستطاعة إلى شواطئ البحر الأسود وبحر

إيجة. (١)

الأرمن في طوروس

وكانت هجرة الأرمن مدروسة ومنظمة بشكل أكبر. ذلك أن الأمراء الأرمن الذين جردهم البيزنطيون من ممتلكاتهم حصلوا على ضياع في كابادوكيا، وخاصة في الجنوب ناحية جبال طوروس، وصاحبهم الكثير من أتباعهم. وعندما اتخذت غزوات السلاجقة شكلاً جدياً تركت أعداد كبيرة من الأرمن منازلها لتلحق بهذه المستعمرات الجديدة وأصبح نصف سكان أرمينيا في طريقهم إلى الجنوب الغربي. ودفعهم التغلغل التركي إلى مزيد من التقدم داخل جبال طوروس وجبال طوروس المقابلة، ثم انتشروا في وادي الفرات الأوسط إذ لم يكن الترك قد وصلوا إليه بعد. وسرعان ما امتلأت المقاطعات التي هجروها بالترك وغيرهم من الأكراد المسلمين القادمين من تلال آشور

(١) عن البتشيح أنظر : Vasilievsky , Works (in Russian) , vol . 1 , pp . 38 ff .

و عن سليمان أنظر : art. cit. in the *Encyclopaedia of Islam* , and the article

e 'Izmiq", *ibid.* by Honigmann

و عن الدانشمند أنظر : article ' Danishmend ' by Mukrimin Halil in the Turkish *Islam Ansiklopedisi*, and Cahen, 'La première Pénétration turque ', *op. cit.* pp . 46 -7, 58-60

عن منجوشيك أنظر : article 'Menguchek' by Houtsma in the *Encyclopaedia of*

Islam و عن شاكا الذي لا نعرفه إلا من أنا كومينا فيرد في *Alexiad*, VII, viii, 1-8, vol.ii, pp.

110-16؛ و عن سيرة حياته المبكرة انظر : article 'Izmir' by Mordtmann, vol.1,pt. 1,

passim, and Köprülü, *Les Origines de l'Empire Ottoman*, pp. 48 ff

وشمال غرب إيران. وكان آخر أمير أرميني ينتمي إلى الأسرة البجراتية (١) — وهي الأسرة التي كانت تفخر بادعائها أنها من سلالة داوود وبتشبع (٢) — قد قتل سنة ١٠٧٩ ميلادية بناء على أوامر بيزنطية بعد أن ارتكب جريمته البشعة الشاذة وهي قتل رئيس أساقفة قيصرية. وترتب على مقتل ذلك الأمير أن تمرد أحد أقربائه (روين) على الإمبراطورية ونصب نفسه في التلال الواقعة شمال غرب كيليكيا. وفي نفس الوقت تقريبا أنشأ أوشين — وهو ابن هيثوم — إمارة مشاهمة تبعد قليلا ناحية الغرب، وكان لكل من الأسرتين الحاكميتين الروينية والهيثومية دور تلعبه في التاريخ اللاحق، لولا أن أدى تألق فاهران الأرميني — الذي يسميه اليونانيون فلاريتوس — إلى حجبهما في الظل.

وكان فلاريتوس يعمل في خدمة بيزنطة، وقد عينه رومانوس ديوجينيس حاكما لمدينة كهرمان ماراس (٣). وعندما سقط رومانوس رفض الاعتراف بميكائيل

(١) (المترجم) : الأسرة الحاكمة البجراتية : هي الأسرة التي أسستها عائلة بجاتوني في أرمينيا وجورجيا في القرن التاسع وحافظ ملوكها علي بقاء أرمينيا مستقلة عن كل من الإمبراطورية البيزنطية والخلافة العباسية. ونتيجة لغزوات الأتراك السلاجقة والبيزنطيين في القرن الحادي عشر قضى علي ما تبقي من البجراتيين والمملكة الأرمينية .

(٢) (المترجم) : بتشبع : (أنظر العهد القديم : سفر صموئيل الثاني الإصحاح ١١ و ١٢) : زوجة أوريا الجتي - ابنة أليعام تزوجها داوود بعد أن قتل زوجها وأنجبت له سليمان .

(٣) (المترجم) : كهرمان ماراس : مدينة جنوب تركيا علي حافة سهل خصب جنوب جبال أهير داغي إلي الشمال الشرقي من أدنا . والمدينة قرية من ثلاثة ممرات هامة في جبال طوروس وهي جوكسن، البستان، ملطية . وتعرف المدينة تاريخيا أيضا باسم جرمانيشيا أو كاركاسي ، ويطلق عليها أيضا مرعش .

دوكاس وأعلن استقلاله عنه؛ وأثناء الفوضى التي سادت حكم ميكائيل استولى على المدن الرئيسية في كيليكيا وهي طرسوس ومامسترا وعين زربة (١). وفي سنة ١٠٧٧ ميلادية استولى أحد قاداته على أورفا من البيزنطيين بعد حصار دام ستة أشهر، وفي العام التالي ١٠٨٧ ميلادية توسل إليه أهل أنطاكية أن يستولي على المدينة إنقاذاً لها من الأتراك لاسيما وأنها بلا حاكم، إذ قُتل حديثاً حاكمها وكان خليفة اسحق كومنينوس. وكانت سيطرة فيلاريتوس آنذاك تمتد من طرسوس إلى ما وراء الفرات وأمسي كل من روين وأوشين من أتباعه. لكنه كان يشعر بعدم الأمان، إذ كان أرثوذكسيا على خلاف أغلب معاصريه ولم يرغب في الانفصال تماماً عن الإمبراطورية. وبعد أن اعتزل ميكائيل أعلن ولاءه لنيسفورس بوتينياثس الذي تركه حاكماً على ما استولى عليه من أراض. ومن الواضح أنه اعترف بألكسيوس كذلك، غير أنه اتخذ جانب الحيلة بتقديمه نوعاً من التكريم لعظام الشخصيات العربية في حلب. (٢)

وكان لزاماً على أليكسيوس، بعد توليه السلطة، أن يحدد العدو الذي يجب أن يبدأ بالحرب. وبعد دراسة مستفيضة وجد أنه لا يستطيع أن يرد الأتراك إلا بجهود طويلة متصلة لم يكن قد استعد لها بعد، وفي نفس الوقت كان الأقرب إلى التصور أن

(١) (المترجم): عين زربة : مدينة في كيليكيا في الأناضول تقع في منطقة مقاطعة أدنا . ولا يزال يوجد في موقعها حتى الآن قلعة بيزنطية أرمنية على أطلال الموقع ، وكذلك بقايا كنائس بيزنطية وقوس نصر ومسرح وملعب ومدرج . وتعرف تاريخياً باسم أنازاربوس .

(٢) Laurent, *op. cit.* pp. 81 ff.; *idem*, 'Des Grecs aux Croisés', pp. 368-403; Grousset, *Histoire des Croisades*, pp. xl-xliv.

أما سيرة حياة Philareus فنعرفها من الرواية المعادية التي يرويها متى الأور في الذي كان يكرهه لأنه مسيحي أرثوذكسي. (ii, cvi, ff. pp. 173 ff.) Matthew of Edessa

يتشاحنوا فيما بينهم، ولذلك اعتبر أن التصدي للهجوم النورماندي هو الأكثر إلحاحا. لكن الأمر استغرق أكثر مما كان يقدر؛ ففي صيف سنة ١٠٨١ ميلادية ضرب روبرت جيشكار حصارا حول ديرهاكيوم، وكان بصحبته زوجته المحاربة سيجيلجاتيا أوف ساليرنو وابنه الأكبر بوهيموند، وفي أكتوبر (تشرين أول) (خف أليكسيوس لنجده القلعة ومعه جيش تتكون قوته الأساسية من الحرس الفارانجي الأنجلوساكسوني، لكن حدث هناك ما حدث في هاستنجز قبل ذلك بخمسة عشر عاما — فلم يكن الأنجلوساكسون في كفاءة النورماندين، وهزم أليكسيوس هزيمة حاسمة، وصمدت ديرهاكيوم طوال الشتاء، لكنها سقطت في فبراير (شباط) سنة ١٠٨٢ ميلادية، وهكذا تمكن روبرت من التقدم في الربيع عبر الطريق الرئيسي الكبير فياأجناتيا في طريقه إلى القسطنطينية، ولكن سرعان ما اضطره ما يحدث في إيطاليا إلى العودة إلى موطنه تاركا جيشه تحت إمرة ابنه بوهيموند لتأمين مقدونيا واليونان. وهزم بوهيموند أليكسيوس مرتين فاضطره إلى الاستعانة برجال من الأتراك وسفن من فينيسيا لقطع خطوط مواصلات النورماندين. ومكن الأتراك الإمبراطور من أن يخلص نيسالي. وفي سنة ١٠٨٣ ميلادية تراجع بوهيموند إلى إيطاليا، لكنه عاد مع أبيه في العام التالي ودمرا أسطول فينيسيا على مقربة من ميناء كورفو. ولم تنته الحرب إلا بموت روبرت في سيفالونيا سنة ١٠٨٥ ميلادية، وتناحر أبنائه على الميراث. (١)

الغزو السلجوقي لسوريا

واستقرت سلطة الإمبراطور أخيرا على المقاطعات الأوروبية، لكنه فقد المقاطعات الشرقية أثناء تلك السنوات الأربع. وتورط فيلاريتوس في دسائس تركية مهلكة؛ ففي أوائل سنة ١٠٨٥ ميلادية غدر به ابنه وسلم أنطاكية ومدن كيليكيا إلى السلطان

(١) For the Norman War, see Chalandon, *op. cit.* pp. 58-94

سليمان. وفي سنة ١٠٨٧ ميلادية سقطت أورفا في قبضة بوزان الزعيم التركي، ولكن ثوروس الأرميني، الذي كان من أتباع ملكشاه والذي كانت تكبح جماحه حامية تركية في القلعة بادئ الأمر، استعاد المدينة سنة ١٠٩٤ ميلادية. وفي تلك الأثناء احتل أرميني آخر هو جابريل وهو ثوروس مدينة ملطية، وكان ينتمي إلى عقيدة أرثوذكسية، شأنه شأن ثوروس، وتسببت الخلافات بين الكنائس الأرثوذكسية واليعقوبية والأرمينية في زيادة الفوضى التي سادت سائر أنحاء سوريا الشمالية. وكان اضمحلال القوة البيزنطية أمرا سارا للكنيسة الأرمينية التي كانت تفضل الحكم التركي. (١)

واكتملت حينئذ السيادة السلجوقية على جنوب سوريا، فمنذ أن دخل طغرل بك بغداد سنة ١٠٥٥ ميلادية باتت ممتلكات الفاطميين في سوريا مهددة، ونتج عن تزايد الخطر والترقب هناك أن تفشت الفوضى، كما حدثت حالات تمرد صغيرة. وفي سنة ١٠٥٦ ميلادية رفض موظفو الحدود البيزنطية في اللاذقية السماح لأسقف كمباري وهو في طريقه للحج بالتقدم جنوبًا، ولم يكن السبب — كما تشكك الغربيون — هو مجرد مضايقة أحد اللاتينيين (رغم احتمال وجود حظر على الحجاج النورمانديين)، وإنما أخطروا بأن سوريا غير مأمونة للمسافرين المسيحيين. وأكدت حادثة الأساقفة الألمان، الذين أصرّوا — بعد ذلك بثماني سنوات — على عبور الحدود برغم النصيحة المحلية، أن المسئولين البيزنطيين كانوا على صواب. (٢)

وفي سنة ١٠٧١ ميلادية، وهو عام مانزكرت وسقوط باري، قام المغامر التركي عزيز بن أبق، التابع لألب أرسلان أسما، بالاستيلاء على القدس دون صراع،

(١) Laurent, 'Des Grecs aux Croisés', pp. 403-10. (references); also article 'Malatya' by Honigmann in the *Encyclopaedia of Islam*

(٢) أنظر ما سبق ص ٩٩ الحاشية ٤ و ص ١٠٠ حاشية ١.

وسرعان ما احتل فلسطين كلها حتى قلعة عسقلان على الحدود الجنوبية، وفي سنة ١٠٧٥ ميلادية استولى على دمشق بمن فيها. وفي سنة ١٠٧٦ ميلادية استعاد الفاطميون القدس، ثم أخرجهم عزيز منها مرة أخرى بعد حصار دام عدة أشهر وبعد مذبحه للسكان المسلمين ولم ينج سوى المسيحيين الذين ظلوا آمنين وراء أسوار حيهم. ومع ذلك، استطاع الفاطميون مهاجمة عزيز في دمشق مما اضطره إلى طلب مساعدة الأمير السلجوقي تتش شقيق ملكشاه الذي كان يحاول أن يقيم لنفسه سلطنة في سوريا بموافقة أخيه. وفي سنة ١٠٧٩ ميلادية دبر تتش مقتل عزيز وأصبح الحاكم الوحيد للدولة تمتد من حلب إلى حدود مصر التي ظلت تحت حكم أسرتها الحاكمة العربية. ويبدو أن تتش وضابطه أرتق حاكم القدس أقاما حكومة منظمة، فلم تكن هناك عداوة ضد المسيحيين خاصة، برغم أن بطريق القدس الأرثوذكسي ربما أمضى كثيرا من وقته في القسطنطينية التي بدأ الإقامة فيها آنذاك قرينة بطريق أنطاكية. (١)

وفي سنة ١٠٨٥ ميلادية حول الإمبراطور أليكسيوس انتباهه إلى المشكلة التركية بعد أن تحرر من الخطر النورماندي. وحتى ذلك الحين لم يستطع صدهم إلا بالدسائس

(١) أنظر مادتي 'Tutush' by Houtasma و 'Ortoqids' by Honigmann في *Encyclopaedia of Islam*. ويقارن التاريخ القبطي *History of the Patriarchs of Alexandria* الحكم التركي بصورة محابية جدا للحكم الفرنجي الذي تلى في فلسطين (pp. 181, 207). والسهم الشهير الذي أطلقه أرتق علي سطح كنيسة القبر المقدس لم يكن المقصود منه الإهانة، وإنما كعلامة على السيادة. أنظر . Cahen, La Tughra Seldjucide', in *Journal Asiatique*, vol. cxxxiv, pp. وكان بطريق القدس Euthymius في القسطنطينية في نهاية سنة ١٠٨٢، عندما ذهب إلى نيسالونيكاف في سفارة إلى بوهيموند وكان خليفته Symeon في مجمع سنة ١٠٨٦ الذي لعن Leo of 167-73 Chalcedon (وللاطلاع علي مجمع الكنيسة في ذلك العام انظر *Bibliotheca Coisliniana*, pp. 102 ff Dölger, *Rgesten*, no. 1087, vol. ii, p. 30 and Montfaucon,

عم أنه عاد إلى القدس سنة ٨٩٠، كان بطريق أنطاكية موجودا في هذا المجمع أنظر ما يلي ص ١٨٠ الحاشية ١

المستمرة، وبضرب أمير تركي بآخر. أما الآن فقد جمع بين الدبلوماسية واستعراض القوة، واستطاع التوصل إلى معاهدة تقضي باحتفاظ الإمبراطورية بنيكوميديا وسواحل الأناضول الواقعة على بحر مرمرية. وفي العام التالي ظل يجني ثمار صبره؛ ذلك أن سليمان بن قلمش الذي استولى على أنطاكية سار إلى حلب، فأرسل حاكمها العربي إلى تتش مستنجدا: ودارت معركة خارج المدينة انتصر فيها تتش وقتل سليمان.

الدانشمند وشاكا

تسبب موت سليمان في تفشي الفوضى بين أتراك الأناضول. وأما أليكسيوس، الذي كان في أفضل ظروفه، فكان ما يفتأ يلعب على أحقادهم المتبادلة ويعرض على كل منهم الرشوة ويلمح لهم بالمصاهرة من أجل التحالف. وكان المتمرد التركي أبو القاسم، قد استولى على نيقية لستة أعوام خلت، لكن ملكشاه استطاع في سنة ١٠٩٢ ميلادية أن يستبدله بابن سليمان — قلعج أرسلان الأول. وفي تلك الأثناء استطاع أليكسيوس تعزيز مركزه، ولم يكن ذلك يسيرا؛ فالأراضي الوحيدة التي تمكن من استردادها هي مدينة سيزيكوس، ولم يستطع منع الدانشمند من التوسع غربا والاستيلاء على كستمون وهي موطن عائلته في بافلاجونيا، وكانت دسائس القصر تعوقه. وفي سنة ١٠٨٧ ميلادية كان عليه أن يجابه غزوا خطرا من أعلى الدانوب قاده البتشنج بمساعدة هنغارية، ولم يتحرر نهائيا من تهديد غارات برابرة الشمال إلا في سنة ١٠٩١ ميلادية بفضل دبلوماسيته التي عززها انتصار رائع عليهم.

وظل شاكا، أمير أزمير التركي، يمثل إنذارا أكبر بالخطر، ذلك أنه كان أكثر طموحا من أغلب أبناء جلدته، ولذا كان يسعى إلى الاستيلاء على الإمبراطورية، ولاحتياجه إلى القوة البحرية استخدم اليونانيين بدلا من الأتراك، على أنه حاول في نفس الوقت تنظيم الأتراك في تحالف، فزوج ابنته من قلعج أرسلان الصغير، وفيما بين عامي ١٠٨٠ و ١٠٩٠ ميلادية جعل نفسه سيدا على ساحل بحر إيجه، وجزر لسبوس،

وكايوس، وساموس، ورودس. ولكن أليكسيوس استطاع أخيراً — وكان من أولويات اهتمامه إعادة بناء الأسطول البيزنطي — أن يلحق به الهزيمة بحراً عند مدخل بحر مرمرة. على أن الخطر بقي قائماً حتى سنة ١٠٩٢ ميلادية عندما قتل شاكا بوساطة زوج ابنته قلج أرسلان في وليمة أولمت له في نيقية. وقد تم القتل بناء على نصيحة الإمبراطور للسلطان الذي كان يخشى أن يرى تركيا آخر يعلو نجمه فوقه. (١)

وبموت سليمان وشاكا غدا بإمكان أليكسيوس أن يفكر في سياسة أكثر عدوانية؛ إذ صار هو نفسه آمناً الآن في القسطنطينية، وقد هدأت المقاطعات الأوروبية، وأصبح أسطول له ذا كفاءة، وخزائنه قد امتلأت مؤقتاً، لكن جيشه كان ضئيلاً جداً، وجنوده من المواطنين الذين يمكنه الاعتماد عليهم قليلو العدد بعد أن فقد الأناضول. فكان في حاجة إلى المرتزقة الأجانب المدربين.

وفي حوالي سنة ١٠٩٥ ميلادية بدا مؤكداً أن القوة السلجوقية تنهار أخيراً؛ فقد مات ملكشاه سنة ١٠٩٢ ميلادية، وهو الذي كان مسيطراً على الإمبراطورية التركية كلها، وبعد موته شبت حرب أهلية بين أبنائه الصغار. وطوال السنوات العشر التالية تحول جل اهتمام الأتراك نحو هذا الصراع بعد أن استطاعوا الاتفاق على تقسيم ميراثهم. وفي ذات الوقت برز زعماء العرب والأكراد في العراق. وعندما مات تتش سنة ١٠٩٥ ميلادية، لم يستطع ولداه رضوان ودقاق في كل من حلب ودمشق إثبات القدرة على حفظ النظام في سوريا، وانتقلت القدس إلى أبناء أرتق، وكانت حكومتهم ظالمة غير فعّالة، وعاد البطريق الأرثوذكسي سيمون وكبار قساوسته إلى قبرص، وفي

(١) يرد وصف موت شاكا في تاريخ Anna Comnena, IX, iii, 3, vol. II, pp. 165-6 لكن هناك "شاكا" جديد يظهر في تاريخها (IX, v, 3, vol. III, pp. 24-5). وربما كان ابن شاكا الأول وعرف باسم ابن شاكا وقد بسطته أنا كومنينا على أنه شاكا. وبالمثل يطلق الكتاب الغربيون على قلج أرسلان اسم "سليمان" لأنهم اعتادوا على معرفته باسم "ابن سليمان" وترد حرب شاكا مع ألكسيوس في Chalandon, op. cit. pp. 126 ff.

طرابلس أقامت عشيرة بني عمّار الشيعية إمارة خاصة بها، وبدأ الفاطميون يستعيدون جنوب فلسطين، وفي الشمال بدأ كربوقا، القائد التركي وأتابج الموصل التابع للخليفة العباسي، في التعدي شيئاً فشيئاً على أراضي رضوان في حلب. وبدأ للمرتهلين آنذاك أن لكل مدينة سيّداً مختلفاً. (١)

مصاعب الحجاج

ويلاحظ أن المرتهلين لم يكونوا من المسلمين وحسب، بل كان هناك حجاج مسيحيون قادمون من الغرب، ولم يحدث مطلقاً أن توقفت حركة مرور الحجاج، لكن الرحلة كانت بالغة الصعوبة. ويبدو أن حياة المسيحيين في القدس، وحتى موت أرتق، لم تتأثر إلا في القليل النادر، وكانت فلسطين هادئة دائماً باستثناء الفترة التي شهدت الحرب بين الأتراك والمصريين هناك، في حين أن عبور الأناضول كان عسيراً، وكان على المسافر أن يصطحب معه حرساً مسلحاً، وحتى مع الحرس المسلح كان الطريق محفوفاً بالأخطار، وكانت الحروب، أو السلطات المعادية، دائماً ما تجبره على التوقف. وكانت سوريا أفضل بقليل، وكان قطاع الطرق في كل مكان، وفي كل مدينة صغيرة كان حاكمها يحاول فرض ضريبة على المارين. والحجاج الذين نجحوا في التغلب على كل هذه الصعاب رجعوا إلى الغرب متعبين معدمين ليقصوا أقاصيص رهيبة.

(١) أنظر مادة 'Sukman ibn Ortok' by Zettersteen in the *Encyclopaedia of Islam*

ويصف وليم الصوري William of Tyre, 1, 8, vol. 1, pp. 25-6 انطباعات الحجاج في ذلك الوقت. وقد تقاعد Symeon of Jerusalem في قبرص قبل وقت طويل من بداية الحملات الصليبية ، بيد أن التاريخ الفعلي غير معروف .

الباب الثاني :

التبشير بالحرب الصليبية

الفصل الأول :

السلام المقدس والحرب المقدسة

السلام المقدس والحرب المقدسة

"انْتَظَرْنَا السَّلَامَ وَلَمْ يَكُنْ خَيْرٌ"

(إرميا ٨ - ١٥)

إن المواطن المسيحي يواجه مشكلة أساسية هي: هل يحق له أن يحارب من أجل بلده؟ ودينه دين سلام وليست الحرب إلا القتل والدمار. ولم تكن الشكوك تساور الآباء المسيحيين الأول في عدم مشروعية الحرب، فهي في نظرهم قتل بالجملة. غير أنه بعد انتصار الصليب، أي بعد أن أصبحت الإمبراطورية عالمًا مسيحيًا، ألا ينبغي لمواطنيها أن يكونوا على أهبة الاستعداد لحمل السلاح من أجل رفاقتها؟

لم تكن الكنيسة الشرقية ترى ذلك، فبينما اعترف كبير قساوستها — القديس بازل — بأن على الجندي إطاعة الأوامر فإنه يؤكد، مع ذلك، أنه يجب على مرتكب

إثم القتل في الحرب أن يمتنع عن تناول (١) الذي هو علامة التوبة مدة ثلاث سنوات (٢). وهذا الرأي صارم للغاية؛ فلم يكن الجندي البيزنطي في الواقع يعامل كقاتل، وإن لم تضاف عليه مهنته جاذبية خاصة، فليس الموت في ساحة القتال شيئاً مجيداً، كما أن الموت في معركة مع الكفار ليس استشهاداً، وإنما الشهيد هو من مات وهو مسلح بإيمانه وحسب. وكانت محاربة الكفار شيئاً يبعث على الأسى رغم عدم إمكان تجنبها أحياناً، وأما محاربة الرفاق المسيحيين فكان شراً مضاعفاً. وحقيقة الأمر أن التاريخ البيزنطي كان خلواً من الحروب العدوانية بصورة ملحوظة. فقد انطلقت حملات جستينيان لتحرير الرومان من الحكام البرابرة الهرطقة (٣)، واستهدفت حملات بازل الثاني ضد البلغار استعادة المقاطعات الإمبراطورية وإزالة خطر يهدد القسطنطينية. وغالباً ما كانت الطرق السلمية هي المفضلة حتى وإن كانت تشمل على دبلوماسية ملتوية أو دفع أموال. ويرى المؤرخون الغربيون ممن اعتادوا الإعجاب بالشجاعة العسكرية أن المسالك التي كان يسلكها رجال الدولة البيزنطيون تتصف بالجن أو الخبث، غير أن الدافع كان الرغبة الأصلية في تجنب سفك الدماء. وتوضح الأميرة أنا كومينا — وهي واحدة من أكثر النماذج المعبرة عن الشخصية البيزنطية — في تاريخها أنه بقدر عمق اهتمامها بالمسائل العسكرية، وبقدر تقديرها البالغ لانتصارات والدها في المعارك الحربية، فإنها تعتبر الحرب شيئاً مشيناً، وملاًذاً أخيراً عندما تعجز باقي السبل

(١) (المترجم): تناول أو العشاء الرباني (communion or Eucharist): طقس كنسي يمارس فيه

سر من الأسرار الكنسية السبعة، ويتم فيه تناول الخبز والنبيذ إحياء لذكرى العشاء الرباني وتعبيراً عن التوبة.

(٢) Saint Basil, letter no. 188, in *M.P.G.* vol. xxxii, col. 681.

(٣) (المترجم): الهرطقة Herecy: هي مخالفة، أو الخروج عن، القواعد الدينية الأساسية التي تلتزم

بها كنيسة معينة.

الأخرى، وأنها — أي الحرب — في حد ذاتها اعتراف بالفشل في حقيقة الأمر. (١)

كانت وجهة النظر الغربية أقل استنارة، إذ اعترف القديس أوجاستين نفسه بإمكان شن الحروب بأمر من الرب (٢)، ولم يجد المجتمع العسكري الذي ظهر في الغرب نتيجة للغزوات البربرية بدا من أن يبحث عن مبرر لما اعتاد عليه من تزجية فراغه. وأضفت مبادئ الفروسية المتنامية، والتي عززتها الملاحم الشعبية، هبة على البطل العسكري، وأما المنادي بالسلام فقد نالته سمعة سيئة لم يبرأ منها مطلقاً. ولم تستطع الكنيسة شيئاً حيال تلك العاطفة، وإنما سعت إلى توجيه تلك الطاقة ذات الترة القتالية إلى دروب تفضي إلى المنفعة الخاصة بها؛ فأصبحت الحرب المقدسة — أي الحرب التي تحارب لمصلحة الكنيسة — مسموحاً بها، بل ومرغوباً فيها، وأعلن البابا ليو الرابع في منتصف القرن التاسع أن من يقتل في معركة دفاعاً عن الكنيسة سينال ثوابه من السماء (٣)، وبعد ذلك بسنوات قليلة رفع البابا جون الثامن ضحايا الحرب المقدسة إلى مصاف الشهداء، وإذا ماتوا بسلاحهم في المعركة تغفر لهم خطاياهم، بيد أنه ينبغي للجندي أن يكون نقي القلب (٤). وأعلن نيكولاس الأول أنه لا ينبغي لمن تدينه الكنيسة بسبب خطاياها أن يحمل السلاح إلا لمحاربة الكفار. (٥)

(١) عن موقف أنا كومنا أنظر 97-9. Buckler, *Anna Comnena*, pp.

(٢) Saint Augustine, *De Civitate Dei*, in *M.P.L.* vol. xii, col. 35.

(٣) Mansi, *Concilia*, vol. xiv, p. 888.

(٤) John VIII, letters, in *M.P.L.* vol. cxxvi, cols. 696, 717, 816; Mansi, *Concilia*, vol. xvii, p. 104.

(٥) خطاب Nicholas في *Monumeta Germania Historica, Epistolae*, vol. vi, p. 658.

وقد أرفق هذا الخطاب في مجموعة القوانين الكنسية التي جمعها Burchard and Gratian.

حركات من أجل السلام

بيد أنه برغم أن أعلى السلطات الكنسية لم تعلن إدانتها للقتال على هذا النحو، فإن بعض مفكري الغرب صدموا لذلك؛ إذ أن برونو أوف كويرفورت الألماني، الذي قتله البروسيون الوثنيون شهيداً سنة ١٠٠٩ ميلادية، شعر بمهانة عظيمة من جرّاء الحروب التي شنها أباطرة عصره ضدّ الرفاق المسيحيين: حرب أوتو الثاني ضد الملك الفرنسي، وحرب هنري الثاني ضد البولنديين (١). وبدأت في فرنسا حركة من أجل السلام؛ فأتى انعقاد مجلس شارو سنة ٩٨٩ ميلادية، حيث اجتمع أساقفة أكيّتان لحماية الحصانة الممنوحة لرجال الدين، اقترح المجلس أن تضمن الكنيسة للفقراء حياة سلام (٢)، وفي العام التالي — أثناء انعقاد مجلس لوبوي — أُعيد تأكيد الاقتراح بصرامة أشد، وأعلن أسقف لوبوي، وهو جي أوف أنجو، أنه لن يتأتى لأحد أن يرى الحرب بدون تحقيق السلام، ولذلك حثّ جميع الرجال على أن يصبحوا أبناء السلام (٣)، وبعد ذلك بسنوات قليلة مضى وليم العظيم دوق جوين بالفكرة قُدماً، ذلك أنه في مجلس بُواتيه، الذي دعى إلى انعقاده سنة ١٠٠٠ ميلادية، تقرر الكفّ عن حل الخلافات عن طريق الحرب واللجوء بدلاً من ذلك إلى العدالة، وأن يُطرد من الكنيسة كل من يرفض الإذعان لهذه القاعدة، وتعهد الدوق ونبلاؤه بالالتزام بها، وحذا حذوه روبرت الورع، ملك فرنسا، بالأخذ بقاعدة مماثلة في مملكته (٤). وظلت الكنيسة

(١) أنظر Erdmann, *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens*, p. 97 n. 35 الذي

يورد مراجع للنصوص ذات الصلة .

(٢) Mansi, *Concilia*, vol. xix, p. 89-90.

(٣) *Cartulaire de Saint-Chaffre*, p. 152.

(٤) Mansi, *Concilia*, vol. xix, pp. 267-8; Fulbert of Chartres, letter in

Bouquet, *Historiens de la France*, vol. x, p. 463

مهمة أساسا بهذه الحركة لكي تحافظ على ممتلكاتها من خراب الحرب ومتطلباتها، وعقدت سلسلة من المجالس لتحقيق هذه الغاية. ففي سنة ١٠١٦ ميلادية صدرت في (فيردون سير لو دوب) صيغة أقسم النبلاء بمقتضاها ألا يكرهوا رجال الدين والفلاحين على الانضمام إلى قواتهم وألا يغيروا على محاصيلهم وألا يصادروا ماشيتهم. وشاع القسم في أرجاء فرنسا بينما كان الجمع والقساوسة والمؤتمرون يصيحون: "السلام، السلام، السلام". (١)

ودفع هذا النجاح بعض الأساقفة المتحمسين إلى الماضي أبعد من ذلك. ففي سنة ١٠٣٨ ميلادية أمر أيمون رئيس أساقفة بوج كل مسيحي يزيد عمره على خمس عشرة سنة أن يعلن عداؤه لكل من يعتدي على السلام وأن يكون على استعداد لحمل السلاح لمحاربتهم إذا اقتضى الأمر. ونظمت هيئات للسلام كانت فعالة أول الأمر، غير أن الشق الثاني من أمر رئيس الأساقفة كان أشد جاذبية من الشق الأول، فتزعم رجال الدين جنودا من الفلاحين المسلحين وحطموا قلاعاً للنبلاء المعاندين، وسرعان ما أصبحت هذه الميليشيات المعذمة تتصرف بلا مسئولية وبلغت أعمال التخريب التي اقترفتها الحد الذي اضطر السلطات إلى قمعها. وقامت جماعة السلام الكبرى بحرق قرية بينيس، وطبقا للمعلومات التي نعرفها فإن ما لا يقل عن سبعمائة من رجال الدين لقوا حتفهم في المعركة. (٢)

(١) Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, vol. iv, pt. 2, p. 1409; Radulph

Glaber, in Bouquet, *R.H.F.*, vol. x, pp. 27-8. See Pfister, *Etudes sur le Règne*

de Robert le Pieux, p. lx; Huberti, *Studien zur Rechtsgeschichte der*

Gottesfrieden und Landfrieden, p. 165

Miracles de Saint-Benoît, ed. By de Certain, p. 192 (٢)

الهدنة في الأيام المقدسة

وفي ذات الوقت كانت هناك محاولة أكثر فعالية للتقليل من أعمال الحرب. ففي سنة ١٠٢٧ ميلادية عقد أوليبا أسقف فيش مجمعا كنسيا في تولوج، في روزيلون، أسفر عن فرض حظر على أعمال الحرب في أيام السبت (١). وبتشجيع من رئيس دير رهبان مدينة كلاني العظيم أوديلو قام أساقفة بروفانس — الذين ادعوا أنهم يتحدثون باسم كنائس الغال كلها — بإرسال خطاب في سنة ١٠٤١ ميلادية إلى كنيسة إيطاليا طالبين أن تمتد هدنة الرب لتشمل الجمعة الحزينة (٢) وسبت النور (٣) وعيد الصعود (٤). وهكذا كبرت هذه الفكرة، أي فكرة هدنة تشمل الأيام المقدسة، وحذت كنيسة أكتيان بالفعل حذو كنيسة بروفانس الرائدة، إلا أن دوقية بورجاندي مضت إلى أبعد من ذلك بأن خصصت الهدنة لكامل الأسبوع من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين وأضافت الفترة من عيد المجيء (٥) إلى يوم الأحد الأول بعد عيد الغطاس

(١) Mansi, *Concilia*, vol. xix, pp. 483-8

(٢) (المترجم) الجمعة الحزينة : السابقة علي عيد الفصح ونحى فيه الكنائس ذكرى صلب المسيح .

(٣) *Ibid.* pp. 593-6 (المترجم) سبت النور : السابق علي عيد الفصح .

(٤) (المترجم) عيد الصعود : خميس الصعود الذي يعقب عيد الفصح بأربعين يوما والذي تحيا فيه ذكرى صعود المسيح إلى السماء .

(٥) (المترجم) عيد المجيء : هي الفترة التي تسبق عيد ميلاد المسيح بأربعة أيام أحد وتعتبرها بعض الكنائس فترة صلاة وصوم . وتعني كلمة "المجيء" كذلك : مجيء المسيح متجسدا أي ظهور علي هيئة بشر وتعني كذلك : "المجيء الثاني" ويقصد به مجيء المسيح يوم القيامة .

(أو الظهور) (١) وكذا فترة الصوم الكبير (٢) وأسبوع الآلام واليوم الثامن بعد عيد الفصح (٣). وفي سنة ١٠٤١ ميلادية، عندما كان وليم الغازي يشَرع لنورماندي، أدرج كذلك الفترة من أيام الابتهاال (٤) إلى اليوم الثامن من عيد الخمسين (أو العنصرة) (٥). وفي سنة ١٠٥٠ ميلادية أوصى مجلس عُقد في تولوج بضم عيد الأيام الثلاثة الخاص بالعدراء وأيام القديسين الرئيسيين (٦). وفي منتصف القرن بدت فكرة الهدنة الإلهية وقد ترسخت، وحاول مجمع ناربون الكبير المعقود سنة ١٠٥٤ ميلادية التنسيق بينها وبين فكرة سلام الرب لحماية بضائع الكنيسة والفقراء من ويلات الحرب، وكان من الضروري مراعاة احترام كل من الهدنة الإلهية وسلام الرب خوفاً

(١) الغطاس أو الظهور : أي ظهور المسيح الطفل لمحوس المشرق الذين أتوا إلى القدس . (أنظر إنجيل متى : ٢ - ١) .

(٢) الصوم الكبير : فترة صوم مقدارها أربعون يوماً ، تقع بين أربعاء الرماد (ويطلق عليه هذا الاسم نسبة إلى العادة القديمة التي كانت تقضي بنثر الرماد فوق رءوس التائبين) وعشية عيد الفصح ، مخصصة للصيام والتوبة تخليداً لذكرى صيام المسيح في البرية (يستبعد منها أيام الأحد في الكنيسة الغربية السبت والأحد في الكنيسة الشرقية) .

(٣) M.G.H., *Constitutiones et Acta Publica Imperatorum et Regum*, vol. 1, p. 599. See Huberti, *op. cit.* pp. 296, 303 (المترجم) : عيد الفصح : يحتفل فيه بذكرى قيام المسيح ، ويختلف مواعده بحسب اختلاف التقاويم .

(٤) (المترجم) : أيام الابتهاال : الأيام الثلاثة السابقة على عيد الصعود .

(٥) Mansi, *Concilia*, vol. xix, pp. 597- 600 (المترجم) : عيد الخمسين أو العنصرة : يوم

الأحد السابع بعد عيد الفصح تخليداً لهبوط الروح القدس (أنظر العهد الجديد ، سفر أعمال الرسل الإصحاح الثاني) .

(٦) *Ibid* . p. 1042

من عقوبة الطرد من الكنيسة، وفضلاً عن ذلك، أعلن أنه لا ينبغي للمسيحي أن يقتل مسيحياً آخر، باعتبار أن "من يقتل مسيحياً يسفك دم المسيح". (١)

ويندر أن تكون حركات السلام مؤثرة في عالم الواقع كما هي في عالم النظرية، ولم تشذ حركات السلام في القرن الحادي عشر عن هذه القاعدة، ذلك أن أكثر الأمراء المناصرين لهدنة الرب لم يلتزموا بنصوصها، ففي يوم السبت حارب وليم الغازي رفيقه المسيحي هارولد في هاستر، كما ذكرت أنا كومنيننا وهي فزعة أنه في الوقت الذي حاولت فيه كنيستها أن تتوخى الأمانة في اجتناب أعمال الحرب في الأيام المقدسة هاجم فرسان الغرب القسطنطينية في أسبوع الآلام وقد احتشد في جيوشهم القساوسة المسلحون المحاربون (٢). وعرف البابوات أنفسهم من التجربة أن ممتلكات الكنيسة لم تسلم من هجمات العامة، ولم يكن من اليسير في الغرب إخماد التروع إلى القتال واستمراءها المجد العسكري؛ وكان من الأصوب العودة إلى السياسة القديمة والانتفاع بهذه الطاقة بتحويلها إلى محاربة الوثنيين.

وبالنسبة إلى الغرب، كان الخطر الإسلامي أكثر تهديداً بكثير عما عليه بالنسبة للبيزنطيين إلى وقت الغزوات التركية، وانزعج البيزنطيون من الأتراك على أنهم برابرة وليسو كفاراً. ومنذ أن فشل العرب أمام القسطنطينية في بداية القرن الثامن باتت الحرب داء متوطناً على الحدود الشرقية للعالم المسيحي، بيد أنها لم تكن من الخطورة بحيث تهدد وحدة الإمبراطورية، ولم يحدث مطلقاً أن انقطع التبادل التجاري والفكري لأمد طويل، فكان العربي وريثاً للحضارة اليونانية الرومانية بنفس القدر تقريباً كالبيزنطي، كما لم تكن طريقة حياته تختلف اختلافاً كبيراً. وعندما يزور البيزنطي

(١) Ibid. pp. 827-32

(٢) Anna Comnena, *Alexiad*, x, viii, 8, vol. ii, pp. 218-19; x, ix 5-6, vol. ii, p.

القاهرة أو بغداد كان يشعر بأنه في وطنه على نحو يجاوز كثيراً شعوره وهو في باريس أو جوسلار (١) أو حتى روما. وباستثناء بعض الأزمات النادرة وبعض حالات الثأر، اتفقت السلطات في كل من الإمبراطورية والخلافة على عدم الإكراه في الدين والسماح بحرية العبادة للدين الآخر. وربما كان بعض الخلفاء المفاخرين يتحدثون باستخفاف عن الأباطرة المسيحيين، وربما فرضوا عليهم الإتاوات أحياناً، ولكن باقتراب القرن العاشر من نهايته غدت بيزنطة عدواً مخيفاً حسن التنظيم.

ولم يستطع المسيحي في الغرب مشاركة البيزنطي في التسامح والشعور بالأمان، إذ يفخر الأول بمسيحيته ويظن أنه وريث روما، بيد أنه كان يعي على مضض أن الحضارة الإسلامية تسمو على حضارته في معظم الجوانب. ولقد هيمنت القوة الإسلامية على غرب البحر المتوسط من قطالونيا (٢) إلى تونس، وهاجم قراصنة من المسلمين سفنه، ونهبوا روما، وحصنوا أنفسهم في إيطاليا وبروفانس، وبدأ أنهم يستطيعون أن يخرجوا من معاكلهم في إسبانيا ويعبروا الحدود ويتدفقوا على فرنسا عبر جبال البرانس، ولم يكن للعالم المسيحي تنظيم يمكنه من التصدي لمثل ذلك الهجوم، وإنما كان آحاد الأبطال يصدون غارات العرب منذ أيام تشارل مارتل (٣) وما بعدها، كما كانت الإمبراطورية الكارولنجية (٤) لبعض الوقت بمثابة الحائط الواقى من هذه الغارات. وفي سنة ٩١٥ ميلادية تعاون البابا جون العاشر مع بلاط القسطنطينية في

(١) (المترجم) : جوسلار : مدينة تقع حالياً شمال ألمانيا .

(٢) (المترجم) : قطالونيا : إقليم شمال شرق إسبانيا يطل على البحر المتوسط .

(٣) (المترجم) : تشارل مارتل : جد شارلمان ، حكم ما يعرف الآن بشمال شرق فرنسا وبلجيكا وألمانيا .

(٤) (المترجم) : الإمبراطورية الكارولنجية : أسسها سنة ٧٥١ ميلادية " بيبين " ابن تشارل مارتل .

تكوين تحالف من الأمراء المسيحيين لطرد المسلمين من معقلهم في كاريليانو (١). وفي سنة ٩٤١ ميلادية اشترك البيزنطيون مع هيو أوف بروفانس في الهجوم على قلعتهم في فريجوس، لكن الهجوم فشل بسبب ارتداد هيو في آخر لحظة، غير أنه في سنة ٩٧٢ ميلادية نجح تحالف من البروفنسال والإيطاليين في إتمام المهمة (٢)، وكانت هذه التحالفات محلية متفرقة سريعة الزوال، وكان من الضروري وجود تنسيق أكبر وجهد أكثر تركيزا. ولم تتحقق تلك الضرورة على نحو أفضل مما تحققت في روما التي لا يغيب عن إدراكها مطلقا تخريب كنيسة القديس بطرس سنة ٨٤٦ ميلادية.

المنصور

وكان مسلمو إسبانيا في القرن العاشر يهددون العالم المسيحي تهديدا حقيقيا بالغا، إذ أن المسيحيين كانوا قد فقدوا الأراضي التي حصلوا عليها من قبل، وفي منتصف القرن كان الخليفة العظيم عبد الرحمن الثالث سيد شبه جزيرة أيبيريا بلا منازع، وصاحب موته سنة ٩٦١ ميلادية بعض الشعور بالراحة، إذ كان خليفته الحكم الثاني مسالما وشغله الحروب مع الفاطميين والأدارسة في مراكش، ولكن بعد موت الحكم سنة ٩٧٦ ميلادية سيطر على مسرح الأحداث الوزير المحارب محمد بن أبي أمير الملقب بالمنصور والذي يعرفه الأسبان بالمنظور. وكانت مملكة ليون هي القوة المسيحية الرئيسية في إسبانيا، وهي التي تحملت صدمة هجمات المنصور، وفي سنة ٩٨١ ميلادية استولى على زامورا في جنوب المملكة؛ وفي سنة ٩٩٦ ميلادية دمر ليون نفسها وحرق

(١) Liudprand, *Antapodosis*, pp. 61-2; Leo of Ostia, pp. 50ff. See Gay, *L'Italie*

Méridionale et l'Empire Byzantin, p. 161, who establishes the date 915;

Runciman, *The Emperor Romanus Lecapenus*, pp. 184-5

(٢) Liudprand, *op. cit.* pp. 135, 139; Poupardin, *Le Royaume di Bourgogne*,

pp. 94 ff.

في العام التالي مدينة القديس جيمس في كومبوستيلا التي يأتي ترتيبها ثالث أماكن الحج بعد القدس وروما، ومع ذلك كان حريصاً على احترام المزار نفسه. وكان قد استولى بالفعل على برشلونه سنة ٩٨٦ ميلادية، وبدأ أنه سرعان ما سيعبر البرانس لكنه مات سنة ١٠٠٢ ميلادية (١). وبموته بدأت قوة الإسلام في الاضمحلال، واستطاع القراصنة القادمون من أفريقيا أن ينهبوا أنتيب سنة ١٠٠٣ ميلادية، وبيزا سنة ١٠٠٥ ميلادية، ومرة أخرى سنة ١٠١٦ ميلادية، وناربون سنة ١٠٢٠ ميلادية، في حين أن الهجوم الإسلامي المنظم كان قد انتهى آنذاك وحان الوقت للهجوم مضاد. (٢)

وخطط سانكو الثالث، ملك نافار، الملقب بالعظيم للهجوم المضاد؛ ففي سنة ١٠١٤ ميلادية حاول تنظيم تحالف من الأمراء المسيحيين لمحاربة "الكفرة"، وكان رفاقه في ليون وكاستيل على استعداد للمعاونة، ووجد في سانكو وليم، دوق جاسكوني، حليفاً متلهفاً، ولكن روبير ملك فرنسا لم يرد على ندائه. ولم يتحقق شيء ملموس، بيد أنه في نفس الوقت اجتذب سانكو اهتمام حليف له قيمته البالغة، ألا وهو منظمة كَلاني الهائلة التي حكمها راهبان كبيران امتد حكمهما لمدة ١١٥ عاماً وهما: أوديلو الذي تولى الحكم سنة ٩٩٤ ميلادية ومات سنة ١٠٤٨ ميلادية، وهيو الذي خلفه وعاش حتى سنة ١١٠٩ ميلادية، وبدأت هذه المنظمة تُولي انتباهاً خاصاً للشؤون الإسبانية، فكانت كَلاني دائمة الاهتمام برفاهية الحجاج، وبسعدها أن يكون لها رأي في تدبير طريق الحجاج الذاهبين إلى كومبوستيلا وأن تساعد في حماية العالم المسيحي الإسباني كله. فحينما هدد المسلمون الكونتيسة إيرسلند أوف بارشلونه سنة ١٠١٨ ميلادية، كان نفوذ كَلاني هو الذي جعل روبير أوف توسني يأتي من نورماندي

(١) For Almanzor see Dozy, *Histoire des Musulmanes en Espagne*, rev. vol. ii, pp. 235 ff.

(٢) Ballesteros, *Historia de Espana*, vol. ii, pp. 389 ff.

مدفوعاً بروح المغامرة النورماندية التي ربما حفّزته أيضاً على المجيئ. وقويت قبضة كلاني على الكنيسة الإسبانية أثناء حكم سانكو وخلفائه مما جعلها تنصدر الحركة الإصلاحية، ومن أجل ذلك لم يفت البابوية أن توافق على أية محاولة لتوسيع حدود العالم المسيحي في إسبانيا. وعندما اشترك سانكو وليم أوف جاسكوني مع سانكو أوف نافارو في الهجوم على أمير سرقوسة صاحبتها بركات البابوية وبركات كلاني التي شجعت كذلك ريموند برنجار الأول في برشلونه على دفع المسلمين إلى الجنوب. (١)

الحرب المقدسة في إسبانيا

وهكذا اكتسبت محاربة الكفرة في إسبانيا شكل الحرب المقدسة، وسرعان ما كان للبابوات أنفسهم يد في توجيهها. وفي سنة ١٠٦٣ ميلادية قتل أحد المسلمين راميرو الأول ملك أراجون في بداية هجوم كبير على المسلمين في جرادوس، وألهب مقتله خيال أوروبا كلها، وفي الحال وعد البابا الكسندر الثاني باغتفار خطايا كل من يحارب من أجل الصليب في إسبانيا وشرع في جمع جيش لاستكمال ما بدأه راميرو، وقام وليم أوف مونتروي وهو من الجنود النورماندين العاملين في خدمته بتجنيد الجنود في شمال إيطاليا، وفي شمال فرنسا قام الكونت إيل أوف روسي — وهو شقيق الملكة فيليسيا

(١) Boissonnade, *Du nouveau sur la Chanson de Roland*, pp. 6-22. أما Fliche في مؤلفه *L'Europe Occidentale de 888 à 1125*, pp. 551'3 فإنه يعتبر أن Boissonnade و Hatem يبالغان في دور Cluny في تنظيم حرب مقدسة في أسبانيا حسبما جاء في مؤلفهما *Les Poèmes Épiques de Croisades*, pp. 43-63 وقام Halphen في سلسلة محاضرات ألقاها في مدرسة الدراسات العليا وباريس (Ecole des Hautes Etudes et Paris) لم تنشر بعد - بمناقشة كاملة للمسألة ويعتبر أن دور Cluny كان دوراً هاماً لكنها لم تنظم حملة عسكرية في الواقع أنظر أيضاً Rousset, *Les Origines et les Caractères de la première Croisade*, pp. 31-5

الأراجونية — بجمع جيش، أما أكبر فرقة جمعها جوي — جيوفري كونت أكيثان الذي تم تعيينه أمرا للحملة. ورغم كل ذلك لم يتحقق سوى القليل، فقد تم الاستيلاء على مدينة بارباسترو مع الكثير من الغنائم ولكن سرعان ما ضاعت مرة أخرى (١). وتدفق الفرسان الفرنسيون منذ ذلك الوقت على جبال البرانس لمواصلة تلك المهمة، وفي سنة ١٠٧٣ ميلادية نظم آيبل أوف روسي حملة جديدة دعى البابا جريجوري السابع أمراء العالم المسيحي للانضمام إليها، وبينما كان يذكر العالم بأن مملكة إسبانيا هي من توابع الكرسي الرسولي للقديس بطرس أعلن أن للفرسان المسيحيين الحق في التمتع بالأراضي التي ينتزعونها من "الكفرة" (٢). وفي سنة ١٠٧٨ ميلادية قاد هيو الأول، دوق برجاندني، جيشًا لمساعدة صهره ألفونسو السادس أوف كاستيل (٣)، وفي سنة ١٠٨٠ ميلادية منح جريجوري السابع تشجيعه الشخصي للحملة التي قادها جوي — جيوفري. وسارت الأمور على ما يرام في الأعوام التالية؛ فاستولى الكاستيليون على توليدو سنة ١٠٨٥ ميلادية (٤)، واستتب ذلك بعث إسلامي بقيادة المرابطين (٥) المتعصين. ومنذ سنة ١٠٨٧ ميلادية بدأت الدعوة لاستدعاء الفرسان المسيحيين بشكل ملح لمقاومتهم، وشجع البابا إيربان الثاني ذلك بحماس، بل طلب ممن كانوا ينوون الحج إلى فلسطين أن ينفقوا أموالهم بشكل أكثر نفعًا في إعادة بناء المدن

(١) Boissonnade, *op. cit.* pp. 22-8; Fliche, *op. cit.* pp. 551-2

(٢) Gregory VII, *Registrum*, I, 7, pp. 11-12 See also Villey, *La Croisade : Essai sur la Formation d'une Théorie juridique*, p. 71

(٣) Boissonnade, *op. cit.* pp. 29-31

(٤) *Ibid.* pp. 31-2

(٥) (المترجم) : دولة المرابطين : تأسست في شمال غرب أفريقيا والأندلس واستمرت في القرنين

الإسبانية التي انتزعت من المسلمين بعد أن نهبوها (١). وحتى نهاية القرن استمرت الحملات الإسبانية تجذب المغامرين من فرسان المسيحيين في الشمال إلى أن وصلت سلسلة الحملات إلى زرونها بالاستيلاء على هوسكا سنة ١٠٩٦ وبارباستيرو سنة ١١٠١ ميلادية.

وهكذا، وبانتهاء القرن الحادي عشر، تحولت فكرة الحرب المقدسة إلى ممارسة عملية. وحثت سلطات الكنيسة الفرسان والجنود على أن ينبذوا خلافاتهم التافهة ويرتحلوا إلى حدود العالم المسيحي لمحاربة الكفرة، ولتشجيعهم على أداء خدماتهم سمحت لهم بأن يملكوا الأراضي التي ينتزعونها، كما منحتهم مزايا روحانية، ولكن طبيعة هذه المزايا الروحانية لم تكن معروفة بشكل يقيني. ويبدو أن الكسندر الثاني منح غفراناً للمشاركين في حملات سنة ١٠٦٤ ميلادية (٢)، ولكن جريجوري السابع لم يمنح سوى تبرئة كنسية لكل من مات في القتال من أجل الصليب (٣)، كما أعطى تبرئة كنسية مماثلة لجنود رودلف أوف سوابيا في الحرب ضد هنري الرابع الجرمان (٤) المطرود من الكنيسة. وأصبحت البابوية تتولى توجيه الحروب المقدسة، فغالباً ما كانت تشنها وغالباً ما كانت تعين قادتها، وكان يتعين أن تكون جميع الأراضي المنتزعة تحت السيادة البابوية المطلقة.

ورغم أن كبار الأمراء كانوا يميلون إلى أن يتنحوا جانباً، لبي فرسان الغرب طوعاً نداء الحرب المقدسة، وكانت دوافعهم تصطبغ من ناحية بصبغة دينية، إذ أنهم كانوا يستشعرون الخزي لاستمرار القتال فيما بينهم، وأرادوا أن يقاتلوا من أجل

(١) Riant, *Inventaire critique*, pp. 68-9

(٢) Jaffé-Wattenbach, *Regesta*, no. 4530, vol. I, p. 573

(٣) Gregory VII, *loc. Cit.*

(٤) *Ibid.* vii. 14B, pp. 480 ff.

الصليب، فضلاً عن أنه كان لديهم حافظاً آخر ألا وهو التلهف على امتلاك الأرض وخاصة في شمال فرنسا، حيث ترسخ حق الابن الأكبر وحده في الميراث؛ ذلك أن مالك الأرض لم يكن على استعداد لتقسيم أملاكه ومتعلقاتها التي تتمركز حول قلعة الشائخة، فكان على باقي أبنائه أن يبحثوا عن الثروة في مكان آخر. وشاع بين طبقة الفرسان الفرنسيين نوع من القلق والميل إلى المغامرة الذي يلاحظ أكثر ما يلاحظ بين النورماندين، وهم الذين تركوا منذ عدة أجيال حياة السلب والترحال. وبدأت فرصة الجمع بين الواجب المسيحي واقتناء الأرض في مناخ جنوبي فرصة جذابة للغاية، وكان للكنيسة أسباب تدفعها إلى الابتهاج باستمرار لتلك الحركة: أفليس من الممكن القيام بمثل هذه الحركة عند الحدود الشرقية للعالم المسيحي؟

الفصل الثاني :

صخرة القديس بطرس

صخرة القديس بطرس

"بِي تَمْلِكُ الْمُلُوكُ وَتَقْضِي الْعُظَمَاءُ
عَدْلًا".

(أمثال: ٨ — ١٥)

إن انحصار المد الإسلامي في إسبانيا جعل البابا لا يجد صعوبة تذكر في بسط سلطانه على كنيسة الأراضي المستعادة. وكانت (منحة قسطنطين) (١)، التي قبلها العالم المسيحي الغربي قبولاً واسع الانتشار — وإن كان قبولاً خاطئاً — على أنها شيء أصيل،

(١) (المترجم): منحة قسطنطين: وثيقة تناقش منحة السيادة الروحية التي يفترض أن "قسطنطين العظيم" منحها للبابا "سلفستر الأول" (٣١٤ - ٣٣٥ م) وخلفائه ذوي المكانة الروحية العالية على البطارقة العظام الآخرين، وعلى جميع مسائل العقيدة والعبادة، فضلاً عن السيطرة الدنيوية على روما والإمبراطورية الغربية بأكملها. ويزعم أن قسطنطين كان مدفوعاً بما يفترض فيه من عرفان للبابا "سلفستر" لمعجزته في علاج الإمبراطور من مرض الجذام وتحويله إلى المسيحية. والآن يعترف الجميع بأنها مزورة.

قد ساعدته على بسط سيادته الدنيوية على بلدان كثيرة، أضيفت إليها شبه جزيرة أيريا في غفلة من الزمن، كما لم يكن في إسبانيا أية سلطة كنسية يمكنها أن تتحداه. أما العالم المسيحي الشرقي فكان تنظيمه مختلفاً؛ إذ أن بطريرقية الإسكندرية التي أسسها القديس مارك، وبطريرقية أنطاكية التي أسسها القديس بطرس، كانتا قديمتين قدم كرسي روما الأسقفي. وكان لبطريرقية القدس، وهي كنيسة القديس جيمس، هيبة خليقة بأكثر مدن العالم المسيحي قدسية وإن كانت أصغر من سابقتها. وكانت بطريرقية القسطنطينية فكانت أعظم ند مهيب لتلك الكنائس جميعاً، وإن لم يكن لها من القدم ما يضيف عليها سلطان الزمن برغم ما يُزعم من أن القديس أندرو هو الذي أنشأها. غير أن القسطنطينية أزاحت العاصمة القديمة وأصبحت هي روما الجديدة ومقرّاً لسلسلة متصلة من الأباطرة المسيحيين، فهي أعظم مدن العالم المسيحي، وربما حق لبطريقتها أن يرى أنه يمثل العالم المسيحي كله وأنه أعظم قاض كنسي في العالم المتحضر. وربما كانت المعارضة الدينية في بيزنطة تلجأ أحياناً إلى سلطة روما القديمة كقوة توازن قوة الإمبراطور، بيد أنه لم يكن في الشرق من يأخذ على محمل الجد أن أسقف المدينة الغربية التي تقلص نفوذها — والتي تخضع دائماً لسيطرة صغار النبلاء المشاغبين أو زعماء البرابرة الشماليين — له أية ولاية على الكنائس الشرقية ذات التقاليد الباقية المستقرة على مدى الزمان، ومع ذلك بقي لروما احترامها الخاص. وبرغم تجاهل ادّعائها السيادة، كانت لها أولوية تكاد تكون عامة بين الكراسي الأسقفية للعالم المسيحي، حتى من قبل البطريق الذي يمثل العالم المسيحي كله. وليس هناك من كان على استعداد لتحدي الاعتقاد بأن العالم المسيحي شيء واحد وينبغي أن يكون كذلك.

روما والقسطنطينية

وبعد الفتح العربي فقدت بطريرقيات الجنوب الشرقي كثيراً من قوتها، وبرزت

القسطنطينية كأولى الكنائس الشرقية، وثارَت مجادلات وخلافات كثيرة بين الكنيستين في روما والقسطنطينية حول الشؤون الكنسية وإن لم تشكل أي منها خطورة أو تستغرق وقتا طويلا على خلاف ما يعتقد الجدليون المتأخرون (١)، وإنما ظلت وحدة العالم المسيحي مقبولة على العموم. غير أنه أجري في القرن الحادي عشر فحص دقيق لنظام الكنيسة الرومانية، وترتبت اقتراحات الإصلاح إلى حد كبير على نفوذ رهبان كلاني واللورين، ونفذتها في بادئ الأمر السلطات العلمانية المتسيدة على روما آنذاك، وكان الإمبراطور هنري الثالث نشطا بوجه خاص ومنح تلك الإصلاحات قوة دافعة أتاحت للكنيسة أن تستمر فيها وتطورها بعد موته مستقلة عن الحكومة العلمانية ومضادة لها في نهاية الأمر. وتولد عن الحركة نظريات برزت وأصرت على السيادة الروحانية الشاملة لروما وتسيدها في النهاية على الأمراء الدنيويين، وأثارت هذه النظريات بدورها جدلا جديدا مع الشرق.

وتكمن المسألة الرئيسية في إعادة تأكيد مزاعم روما في السيادة، ولكن الخلافات بدأت حول تفاصيل المعتقد وتفصيلات الأعراف، وانسأقت البابوية وراء رغبتها في ترسيخ سلطاتها، فسعت إلى توحيد أعراف الكنيسة. ولم تتوقف رغبتها عند إلغاء زواج رجال الدين الدنيويين لأسباب سياسية وكذلك روحانية، بل بذلت مساعيها في محاولة وضع معايير للطقوس والشعائر الدينية، وهي إصلاحات ممكنة الحدوث في الغرب، لكن أعراف الكنائس الشرقية شيء آخر، لا سيما وأن هناك كنائس يونانية تقع في النطاق الروماني كلية كما كانت هناك كنائس لاتينية في نطاق القسطنطينية، وكانت الحدود بين النطاقين في جنوب إيطاليا مثار نقاش لوقت طويل. وفي نفس

(١) أفضل ما كتب عموما عن العلاقات بين روما والقسطنطينية يوجد لدى Every في مؤلفه The Byzantine Patriarchate, Passim

الوقت أدى النفوذ الألماني في روما إلى إدخال كلمة (فيليوك) (١) بشأن انبعث الروح القدس، وكان البابوات المهتمون بالإصلاح أقل استعداداً من أسلافهم لقبول الحلول الوسطى، أو للصمت في لباقة، ومن ثم لم يكن من الصدام بد.

وأورد البابا سيرجيوس الرابع كلمة (فيليوك) في خطابه بإعلان الإيمان الذي يرسل عادة من البابا أو البطريق إلى زملائه بمناسبة توليه البابوية، وعلى الأثر رفض بطريق القسطنطينية سرجيوس الثاني تخليد اسمه على اللوح التذكاري المزدوج للكنائس البطريراقية في القسطنطينية، وفهم البيزنطيون ذلك كدلالة على أن البابا نفسه لم يتبع سواء السبيل حول نقطة في المعتقد، وإن لم يكن ذلك طعناً في استقامة الكنيسة الغربية بكاملها. بيد أن ذلك في نظر البابا — فضلاً عن الكنائس الغربية التي تعتبر البابا مصدراً لاستقامة المعتقد — كان إهانة عامة وبعيدة الأثر وواسعة النطاق. وأدرك البطريق أن وضع اسم البابا على اللوح التذكاري المزدوج يتيح له فرصة للمساومة. (٢)

وفي سنة ١٠٢٤ ميلادية تلقى البابا جون التاسع عشر اقتراحاً من القسطنطينية بإمكان تسوية نقاط الخلاف بين الكنائس يقضي بقبول صيغة وضعت ببراعة تمنح روما سيادة اسمية، وترك للقسطنطينية استقلالية شاملة فعلية، وأعلنت هذه الصيغة أنه:

(١) (المترجم): فيليوك: المعنى الحرفي باللاتينية: "ومن الابن"، وهي عبارة أضافتها الكنيسة اللاتينية إلى قانون الإيمان المسيحي في العصور الوسطى، وتعتبر أحد الأسباب الرئيسية التي سببت الصدع بين الكنائس الشرقية والغربية.

(٢) عن هذه الواقعة أنظر، "Michel Humbert und Kerularios pp. 20-40، vol. i. وهناك ما يدل على أن كلمة (فيليوك) (filioque) أدخلت على إعلان الإيمان في روما في وقت هنري الثاني هناك في سنة ١٠١٤ م.

Berno Libellus de Officio Missae in M.P.L. vol. cxlii col. 1061-2

"بموافقة الحبر الروماني تعتبر كنيسة القسطنطينية كنيسة عالمية في نطاقها، كما كانت كنيسة روما في العالم". وكان البابا جون نفسه على استعداد للموافقة، لولا أن أسرع الراهب الكلاني، راهب سانت بنجنوس في ديجون (١) بالكتابة إليه مذكرا إياه في صرامة بأن سلطة الإلزام والإطلاق في السماء وعلى الأرض إنما يختص بها القديس بطرس وخلفاؤه دون غيرهم، وحثه على إظهار المزيد من البأس في إدارة الكنيسة العالمية. وكان على بيزنطة أن تعلم أن البابوية بعد إصلاحها لا تسمح بمثل ذلك الحل الوسط. (٢)

وفي منتصف القرن أسفر الغزو النورماندي لجنوب إيطاليا عن رغبة في تحالف سياسي بين البابا والإمبراطور الشرقي، ولكن البابوية بعد إصلاحها التزمت بسياسة وضع المعايير، ورغبت في إبطال أعراف معينة سائدة في الكنائس اليونانية في جنوب إيطاليا قلدها كنائس إيطالية كثيرة إلى الشمال حتى ميلانو. وفي سنة ١٠٤٣ ميلادية تولى ميكائيل سيربولاريوس بطريرقية القسطنطينية، وكان رجلا طموحا متكبرا، وتواقا بنفس القدر إلى وضع معايير للأعراف داخل حدود نطاقه، وكان دافعه الرئيسي هو أن يستوعب بشكل أيسر كنائس المقاطعات الأرمنية المحتلة حديثا، والتي كانت تمارس أعرافا مختلفة، كاستخدام الخبز غير المخمر. على أن سياسته أثرت أيضا في الكنائس اللاتينية الواقعة في إيطاليا البيزنطية والكنائس اللاتينية في القسطنطينية نفسها، وانتفع بها التجار والحجاج وجنود الحرس الفارانجي. وعندما رفضت تلك الكنائس الأخيرة أن تمثل لذلك أمر البطريق بإغلاقها، وبدأ مجلسه في إصدار كتيبات دينية تنكر أعراف اللاتينيين.

(١) (المترجم) : ديجون : مدينة في وسط فرنسا ناحية الشرق .

(٢) Radulph Glaber in Bouquet R.H.F. vol. x pp. 44-5. ليست هناك مصادر يونانية

تذكر هذه المفاوضات غير أنه ليس هناك من سبب يدعو للشك في حدوثها .

صدع سنة ١٠٥٤ ميلادية

ويبدو أن سيريو لاريوس لم يكن مهتمًا بالمسألة اللاهوتية، وكان على استعداد لأن يضع اسم البابا على اللوح التذكاري المزدوج في مقابل أن تكون المعاملة مع روما على قدم المساواة. وتركز الخلاف حول أعراف الكنيسة، وبذا أثبتت مشكلة الحدود الكنسية في إيطاليا، وزادت حدة المشكلة بالغزو الذي قام به النورمانديون، وهم أنفسهم من أتباع الكنيسة اللاتينية. وتولى حاكم إيطاليا البيزنطية المفاوضات — وهو أرجيرس النورماندي الذي كان من أتباع بيزنطة ويدين بالشعيرة اللاتينية — وقد فاز بثقة الإمبراطور لكنه كان من المحتم أن يرتاب فيه سيريو لاريوس الذي خدمته الظروف؛ ففي سنة ١٠٥٣ ميلادية، وقبل تعيين السفراء الرسولين للذهاب من روما إلى القسطنطينية، اعتقل النورمانديون البابا ليو التاسع، وعندما وصل سفراؤه إلى القسطنطينية سنة ١٠٥٤ ميلادية وعلى رأسهم الكاردينال هومبرت أوف سيلفا كانديرا، استقبلهم الإمبراطور بمظاهر التشريف، ولكن سيريو لاريوس تساءل هل عيّنهم البابا حقًا، وهل بمقدوره وهو رهينة تنفيذ الوعود التي يقطعونها على أنفسهم؟ وقبل أن تتسع المناقشات مات ليو فجأة في إبريل (نيسان)، وهكذا فقد السفراء كل صفة أو موازرة رسمية مُنحت لهم. وانقضى عام بكامله قبل انتخاب البابا التالي، ولم يكن أحد يعلم السياسة التي ستنبئها، ورفض سيريو لاريوس الاستمرار في المفاوضات، وعلى الرغم من رغبة الإمبراطور في التوصل إلى اتفاق، حميت المشاعر وانتهى الأمر بأن رحل السفراء الرسوليون وهم مغضبون وقد تركوا على مذبح القديسة صوفيا أمرًا بابويًا رسميًا مختومًا بالرصاص بطرد البطريرق ومستشاريه من الكنيسة ويعترف في نفس الوقت باستقامة الكنيسة البيزنطية. وحيال ذلك، عقد البطريرق مجمعًا مقدسًا لعن فيه ذلك الأمر البابوي على أنه من عمل ثلاثة أشخاص غير مسئولين، وأعرب عن أسفه لإضافة (فيليك) إلى المذهب، وأدان زواج رجل الدين، لكنه لم يذكر الكنيسة الرومانية

على عمومها ولا الأعراف الأخرى المختلف عليها. وفي واقع الأمر، لم يكن هناك تغيير مطلقا سوى أن المرارة أطلت برأسها.

ولم تشترك كنائس الإسكندرية والقدس في هذه الحادثة، وأيقن بطريق أنطاكية بطرس الثالث أن سيرiolاريوس رجل صعب المراس دون داع، واستمرت كنيسسته في تخليد اسم البابا في اللوح التذكاري المزدوج الموجود لديها، إذ لم يجد سببا يدعو به إلى التخلي عن تلك الممارسة، وربما كان يخشى أن تكون لدى سيرiolاريوس — الذي حامت الشكوك حول طموحاته — مخططات ضد استقلالية كرسيه الأسقفي، وربما كان متعاطفا مع سياسة الإمبراطور. وفضلا عن ذلك، لم يكن بوسع أن يؤيد وضع معايير للطقوس والأعراف الكنسية؛ فكانت أبرشيته تضم كنائس تمارس فيها الطقوس السيريانية، والكثير من تلك الكنائس وراء الحدود السياسية للإمبراطورية، فلا يستطيع فرض أعراف موحدة حتى وإن رغب في ذلك؛ فانتحى بنفسه بعيدا عن الشجار. (١)

مخطط جريجوري السابع لحرب صليبية

وتحسنت العلاقات خلال العقد التالي تحسنا طفيفا؛ إذ خلع ميكائيل سيرiolاريوس سنة ١٠٥٩ ميلادية، وباختفائه عادت الكنائس اللاتينية في

(١) فيما يتعلق بما يسمى "انشقاق" سيرiolاريوس أنظر Michel, *op. cit. passim*, especially vol. 1, pp. 43-65; Jugie, *Le Schisme Byzantin*, especially pp. 187 ff.; Leib, *Rome, Kiev et Byzance*, pp. 27 ff.; Every, *op. cit.* pp. 153-72. ويستنتج Jugie, *op.cit.* 188 أن الطريق كان راغبا في الإبقاء على اسم البابا في اللوح التذكاري المزدوج وذلك من خطاب ليون التاسع إلى سيرiolاريوس في *M.P.L.* vol. cxliii, cols. 773-4 ومن خطاب سيرiolاريوس إلى بطرس الأنطاكي في *M.P.G.* vol. cxx, col. 784 ولا بد أن يبقى الدافع لدى بطري الأنطاكي تخمينيا، بيد أن موقفه واضح من مراسلاته مع سيرiolاريوس. أنظر خطاباتهم في *M.P.G.* vol. cxx, cols. 756-820.

القسطنطينية تفتح أبوابها مرة أخرى. وفي جنوب إيطاليا كان النورمانديون يحققون تقدما متزايدا، وهم الحلفاء المخلصون للبابوية منذ سنة ١٠٥٩ ميلادية، ولذلك وجدت بيزنطة أن ممارسة الضغوط من أجل مطالبها الكنسية هناك أمر غير عملي. وفي سنة ١٠٦١ ميلادية أبحر روجر النورماندي لغزو صقلية وانتزاعها من العرب، فقد شجع البابا الحرب المقدسة. وكان على بيزنطة أيضا أن تواجه انعدام السيطرة على المجامع المسيحية هناك. وفي سنة ١٠٧٣ ميلادية قرر الإمبراطور ميكائيل السابع ضرورة التوصل إلى تفاهم ودي مع روما؛ ذلك أن الإمبراطور — بعد الغزو النورماندي لباري في جنوب إيطاليا سنة ١٠٧١ ميلادية — أصبح يخشى المزيد من العدوان، فرما يمنعه البابا بنفوذه. وبدأ غزو التركمان لآسيا الصغرى، وكان ميكائيل في مسيس الحاجة إلى الجنود، فإذا ما أصبحت العلاقة بالبابوية علاقة ودية، ففي الإمكان تجنيد الجنود من الغرب بسهولة. وفي سنة ١٠٧٣ ميلادية تم انتخاب الكاردينال هيلد براند ليشغل منصب البابا تحت اسم جريجوري السابع الذي كان ذائع الصيت بالفعل لما يتصف به من بأس واستقامة، وكان مقتنعا بسيادة كرسية البابوي ولذا لم يرسل خطاب إعلان الإيمان لأي من بطارقة الشرق، على أن الإمبراطور ميكائيل رأى من الحصافة أن يبادر بإشارة ودية؛ فأرسل إليه خطاب تهنئة أُلح فيه إلى رغبته في توثيق الصلة بينهما؛ فما كان من جريجوري الذي أسعدته تلك المبادرة إلا أن أرسل بطريق فينيسيا دومينيكس في سفارة بابوية إلى القسطنطينية ليستطلع الأحوال هناك. (١)

ومن المعلومات التي أدلى بها البطريق دومينيكس، توصل البابا جريجوري إلى

(١) See Gregory VII's letters in his *Registra*, I, 49, ii, 37, vol. 1, pp. 70, 75, 173

وترد زيارة **Dominicus** إلى القسطنطينية في نفس المرجع *ibid.* I, 18, pp. 31-2. ومن المرجح

أن جريجوري فشل في إرسال خطاب إلى البطارقة الشرقيين بعد توليه. أنظر *Dvornik, The*

Photian Schism, pp. 327-8

إقناع نفسه بأن الإمبراطور ميكايل رجل مخلص، كما علم بالموقف في آسيا الصغرى الذي كان يشكّل خطورة على طريق الحج. ولم تكن فلسطين نفسها قد أُغلقت بعد أمام الحجاج، لكن سرعان ما ستصبح الرحلة عبر الأناضول مستحيلة ما لم تتوقف غزوات التركمان. وبخنكة سياسية خيالية خطط جريجوري سياسة جديدة؛ فالحرب المقدسة التي كانت تحقق نجاحًا في إسبانيا ينبغي أن تمتد حتى آسيا، لاسيما وأنّ أصدقاءه في بيزنطة يفتقرون إلى المساعدة العسكرية، وسوف يحارب جيشه ويدحر الكفار من آسيا الصغرى، وسوف يعقد حينئذ مجلسًا في القسطنطينية حيث يكفّ مسيحيو الشرق عن خلافاتهم وينهونها وهم صاغرون شاكرون، وسوف يعترفون بسيادة روما. (١)

ولا نعرف ما إذا كان الإمبراطور ميكايل على علم بنوايا البابا وما إذا كان سيرحب بها. إذ لم يستطع جريجوري مطلقًا أن يضع خطته موضع التنفيذ؛ وقادته استقامة سياسته التي لا تلين إلى متاعب أكثر فأكثر في الغرب مما اضطره إلى أن يتخلّى عن طموحاته في الشرق وإن لم ينسها أو يفقد اهتمامه بما يجري هناك.

وفي سنة ١٠٧٨ ميلادية خلع الإمبراطور ميكايل السابع. وما أن سمع جريجوري بالنبأ حتى حكم على الغاصب نيسفوراس بوتينيايس بالطرد من الكنيسة. وبعد ذلك بفترة قصيرة ظهر أحد المغامرين في إيطاليا وأعلن أنه هو الإمبراطور المخلوع، وأدعى النورمانديون أنهم يصدقونه لفترة من الزمن، ومدّ له جريجوري يد العون. وجاء الدور على المعتصب نيسفوراس، فأطاح به ألكسيوس كومنينوس سنة ١٠٨١ ميلادية، وامتد قرار الطرد من الكنيسة ليشمل الإمبراطور الجديد. وفي يونيو (حزيران) كتب ألكسيوس إلى البابا في محاولة لاستعادة ودّه وطلب مساعدته في كفّ عدوان روبرت

(١) Jaffé, *Monumenta Gregoriana*, I, 46, 49, ii, 3, 37, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, vol. ii, pp. 64-5, 69-70, 111 112, 150-1

جيسكار، ولكن دون جدوى، ووجد في هنري الرابع الألماني حليفاً يبشر بالخير، وفي ذات الوقت أغلق الكنائس اللاتينية في القسطنطينية. وبدأ واضحاً للبيزنطيين أن البابا كان متحالفاً مع النورماندين الغادرين الملحدون، وراحوا يتناقلون الحكايات الخيالية حول تكبره وافتقاره إلى المحبة المسيحية. وعندما سقط ميتاً في شبكة الكوارث التي نسجتها سياسته تلقوا النبأ بترحاب واعتبروا ذلك حكماً نزل عليه من السماء. (١)

وفي سنة ١٠٨٥ ميلادية، وهو العام الذي مات فيه جريجوري، كانت العلاقات بين العالم المسيحي الشرقي والغربي باردة بصورة لم تحدث أبداً من قبل؛ فالبابا طرد الإمبراطور من الكنيسة، وكان يشجع المغامرين منعدمي الضمير علانية على مهاجمة رفاقهم المسيحيين، بينما كان العدو الرئيسي للبابا، وهو ملك ألمانيا، يتلقى الإعانات من البيزنطيين، فتزايدت مشاعر الاستياء والمرارة بين الجانبين، ولكن لم يكن هناك صدع حقيقي بينهما حتى ذلك الحين، وربما كانت الحنكة السياسية لا تزال تحفظ وحدة العالم المسيحي؛ ففي الشرق رجل دولة يمتاز بالمرونة والحكمة الكافيتين وهو الإمبراطور ألكسيوس، وتصادف أن ظهر في الغرب حينئذ رجل دولة له نفس الوزن.

تنصيب البابا إيربان الثاني

ولد أودودي لاجيري لعائلة نبيلة في شاتيلو — سير — مارن حوالي سنة ١٠٤٢ ميلادية، والتحق بمدرسة الكاتدرائية في ريم لتلقي العلم، وكان ناظر مدرسته القديس

(١) Anna Comnena, *Alexiad*, iii, x, 1-8, vol. I, pp. 132-6; Malaterra, *Historia* op. cit. 1, xiii, 1-10, vol. Sicula, in *M.P.L.* vol. cxlix, 1192 وتورد أنا كومنين
1, pp. 47-51. وصفا عدوانيا تشهرياً للخلاف بين جريجوري وهنري الرابع.

برونو الذي أصبح فيما بعد مؤسس النظام الكارثوزي (١)، وبقي في ريم ليصبح كاهنا ثم رئيسا لشمامسة الكاتدرائية، لكن ذلك لم يرضه، وفجأة قرر الاعتزال والانضمام لجماعة كلاني. وفي سنة ١٠٧٠ ميلادية تم تثبيت إيمانه على يد الراهب هيو الذي تحقق من قدراته، وبعد فترة قام فيها بأعمال رئيس الدير نقل إلى روما التي سرعان ما أصبح فيها متميزا، وفي سنة ١٠٧٨ ميلادية عينه البابا جريجوري السابع (أسقفًا - كاردينالا) في أوستيا، وفي الفترة من ١٠٨٢ إلى ١٠٨٥ ميلادية كان قاصدا رسوليا في فرنسا وألمانيا، ثم عاد ليبقى إلى جوار جريجوري أثناء السنوات الأخيرة التعيسة من فترة بابويته. وعلى أثر موت جريجوري، في المنفى ووجود البابا الزائف جيبرت يحكم في روما، انتخب الكرادلة المخلصون للكرسي البابوي راهب مونت كاسينو الضعيف الذي كان عازفا عن المنصب والذي اتخذ لنفسه اسم فيكتور الثالث. ولم يوافق كاردينال أوستيا على هذا الانتخاب وأظهر عدم موافقته، ولكن فيكتور لم يضر له شرا، بل أنه وهو على فراش الموت في سبتمبر (أيلول) ١٠٨٧ ميلادية أوصى به لدى الكرادلة كخليفة له، كما كان معروفا أن جريجوري السابع قد رغب هو الآخر في استخلافه، ولكن شيئا من ذلك لم يحدث حتى مارس (آذار) ١٠٨٨ ميلادية عندما أمكن عقد مجمع مقدس في تيراسينا لانتخابه تحت اسم إيربان الثاني. (٢)

كان إيربان مناسبا لمهمته؛ فكان يترك انطبعا مؤثرا في غيره، طويل القامة مليح الوجه واللحية، دمث الخلق، مقنع في حديثه. وإذا كان يفتقد ما كان يتميز به

(١) (المترجم): نظام ديني للرهبان، لعب دورا هاما في حركة إصلاح الرهبة في القرنين الحادي عشر والثاني عشر يجمع بين حياة الناسك في عزلة والحياة العامة داخل أسوار الدير وهو الشكل الوحيد، لحياة دينية ذات صبغة اجتماعية بسيطة، ولم يتطلب أي إصلاح مطلقا.

(٢) عن سيرة حياة إيربان المبكرة أنظر Leib, op. cit. pp. 1-4, and Gay, *Les Papes du XIe siècle*, pp. 356-8

جريجوري من حماس ووضوح الهدف، فقد فاقه في سعة النظرة والقدرة على معاملة الرجال، ولم يكن بنفس تكبر جريجوري وعناده، لكنه لم يكن ضعيفاً. ولقد عانى السجن في ألمانيا عندما سجنه هنري الرابع لإخلاصه للبابا وللمعتقداته، وكان بوسعه أن يكون صارماً قاسياً، لكنه فضل أن يكون لطيفاً وأن يتجنب الجدل الذي قد يثير المراهة والصراع.

وقد آلت إليه تركة ثقيلة؛ فهو لا يستطيع أن يعيش آمناً إلا في الأراضي النورماندية دون غيرها، لكن النورماندين حلفاء أنانيون لا يعتمد عليهم، وروما في قبضة البابا الزائف جيبرت، فكان بوسع إيربان أن يتغلغل في الضواحي لكنه لا يستطيع أن يجاوزها دون إراقة الدماء، وهذا ما رفض إثارته. وفي الشمال ساندته ماتيلدا أوف توسكاني مساندة مخلص في سائر أنحاء أراضيها المترامية، وفي سنة ١٠٨٩ ميلادية عززت مركزها بزواج عابث من الأمير الألماني ويلف أوف بافاريا، وهو صبي يصغرها بأكثر من نصف عمرها. على أنه في عام ١٠٩١ ميلادية هزم هنري الألماني جيشها هزيمة منكرة في موقعة تريزونتاي، وكان هنري في أوج قوته بعد أن توجه البابا الزائف إمبراطوراً في سنة ١٠٨٤ ميلادية، فصار الآن سيد ألمانيا والظافر في شمال إيطاليا. ولم يكن في مأمول البابا إيربان أن يأمر فيطاع في تلك الأراضي الشاسعة وهو في ذلك الوضع غير المأمون.

على أن إيربان واصل العمل بثبات ولباقة إلى أن تغير كل شيء سنة ١٠٩٣ ميلادية؛ إذ تمكن بالمال وليس بالسلاح أن يقضي عيد الميلاد من ذلك العام في روما، وفي الربيع التالي اتخذ لاتيران (١) مقراً لإقامته. وضعف الإمبراطور هنري من جراء تمرد ابنه كونراد الذي كان إيربان يشجع سخطه تشجيعاً هادئاً، وأما نجاحه في موطنه

(١) (المترجم) : لاتيران : كنيسة القديس "جون لاتيران" وكندراية البابا باعتباره أسقف روما وملحق بها القصر الذي أصبح الآن متحفاً.

فرنسا فيرجع إلى ملكاته التنظيمية في جمع الهيكل الكنسي كله تحت سيطرته، وبلغ نفوذه في إسبانيا ذروته، وشيئاً فشيئاً توالى اعتراف بلاد الغرب البعيدة بسلطانه الروحاني. ونبذ الإصرار على المطالبة بالسيادة السياسية التي نادى بها جريجوري السابع من قبل، وأظهر للأمرء الدنيويين المنتشرين في كل مكان، باستثناء من جاهره بالعداء، حلماً بالغ المدى. وفي سنة ١٠٩٥ ميلادية أصبح السيد الروحاني للعالم المسيحي الغربي. (١)

وفي تلك الأثناء حوّل انتباهه إلى العالم المسيحي الشرقي. وبعد أن مات روبرت جيسكار برز أخوه روجر الصقليّ معلناً أنه القوة الرئيسية للنورماندين، ولم يكن يرغب في الإساءة إلى بيزنطة أكثر من ذلك. واستغل إيربان انعقاد مؤتمر ملفي في سبتمبر (أيلول) سنة ١٠٨٩ ميلادية — وحضور سفراء الإمبراطور — فرفع إعلان الطرد من الكنيسة الصادر ضد الإمبراطور ألكسيوس. واستجاب ألكسيوس لهذه اللفتة بأن عقد في نفس الشهر مجمّعاً في القسطنطينية انتهى إلى أن اسم البابا حُذف من اللوح التذكاري المزدوج "دون صدور قرار كنسي وإثماً، كما قيل، نتيجة الإهمال"، واقترح في هذا المجمع إعادة وضع الاسم بمجرد استلام خطاب إعلان الإيمان من البابا. واعتبر المجمع أنه ليس ثمة سبب حقيقي لأي خلاف بين الكنائس، وأوصى باستشارة بطريرقي الإسكندرية والقدس، وأما بطريرق أنطاكية فكان حاضراً بنفسه. وكتب بطريرق القسطنطينية نيكولاس الثالث إلى إيربان يخبره بتلك القرارات ويرجوه إرسال خطاب إعلان الإيمان في غضون ثمانية عشر شهراً، وأكد له حرية الكنائس اللاتينية في القسطنطينية في ممارسة أعرافها، ولم يذكر له أية خلافات لاهوتية. ولم يلق ذلك قبولاً حسناً من سفراء الإمبراطور في إيطاليا وهم: بازل مطران تراني، ورومانوس رئيس أساقفة روسانو، ورجال الدين اليونانيين الذين شعروا بالخطر من التعدي البابوي داخل

أراضيهم، وقد صدمتهم ادعاءات البابا بأن أسقفيته — ببعض المبررات التاريخية — يجب أن تشمل في الواقع ثيسالونيكا، وكانوا يفضلون لو أن أليكسيوس ساند البابا الزائف. لكن أليكسيوس استقر رأيه على تفضيل أحد الرجلين، وكان من الواقعية بحيث قبل ضياع الجزء البيزنطي في إيطاليا، بينما أسرع حيرت — البابا الزائف — بالإساءة إلى أصدقائه اليونانيين بأن عقد مجلساً في روما أدان فيه زواج رجل الدين. (١)

وفي واقع الأمر أن إيربان لم يرسل خطاب إعلان الإيمان في أيه حال، وربما كان مرجع ذلك إلى عزوفه عن إثارة أية مسائل لاهوتية؛ كما لم يرد اسمه مطلقاً في اللوح التذكاري المزدوج في القسطنطينية. ولكن العلاقات الحسنة بقيت. وفي سنة ١٠٩٠ ميلادية أرسل أليكسيوس سفارة إلى إيربان تحمل رسالة صداقة ودية. وتنعكس وجهة نظر بيزنطة الرسمية في مقال كتبه ثيوفيلاكس رئيس أساقفة بلغاريا، رجافه القراء ألا يبالغوا في أهمية توحيد الأعراف الكنسية، وتأسى على إضافة كلمة فيليوك إلى قانون الإيمان المسيحي، لكنه فسّر أن الفقر الذي تعانيه اللغة اللاتينية في المصطلحات اللاهوتية خلّيق بأن يسبب سوء الفهم، ولم يتناول بشكل جدي الادعاء البابوي بفرض السلطة على الكنائس الشرقية (٢). ولم يكن هناك في حقيقة الأمر أي سبب يدعو إلى

(١) يرد تقرير المجمع مع الرسائل ذات الصلة في :

Holtzmann, ' Unionsverhandlungen zwischen Kaiser Alexios I und Papst Urban II im Jahre 1089 ', in *Byzantinische Zeitschrift*, vol. xxviii, pp. 60-7.

والصياغة المتصلة بما توصل إليه المجمع المقتبسة أعلاه لا بد أن تعني أن البطريق Sergius II تصرف سنة ١٠٠٩ م دون إحالة الموضوع إلى المجمع أو استشارة رفاقة البطارقة . وعن

مجلس Loewenfeld, Guibert *Regesta*, vol.- Jaffé 1.p. 652

(٢) عن تقرير سفارة أليكسيوس إلى إيربان أنظر- pp.64 in Holtzmann, *op.cit.*

phylact's treatise is published M.P.G. vol. cxxvi, cols. 222-50

أن يتطور الصدع، واستمر لاهوتيون شرقيون آخرون في مناقشة الفروق بين الأعراف بنبرة هادئة. ومن بين هؤلاء الكتاب بطريق القدس سيميون الثاني الذي أدان الاستخدام اللاتيني للخبز غير المخمر في تناول العشاء الرباني، ولكن بالفاظ لا تشوبها الحدة بأي حال. (١)

المجلس الكنسي في بياتشيرا

وفي أوائل سنة ١٠٩٥ ميلادية ارتحل البابا إيربان الثاني من روما باتجاه الشمال، واستدعى ممثلي جميع الكنائس الغربية لمقابلته في المحفل العظيم الأول لبابويته الذي قرر عقده في مارس آذار في بياتشيرا. وفي المحفل أصدر رجال الدين المؤتمرون قرارات تدين السيمونية (٢)، وزواج الكاهن، وتعارض الصدع داخل الكنيسة، كما ناقشوا ما اقترفه ملك فرنسا من الزنا ولكن تقرر عدم اتخاذ أي إجراء حتى يتمكن إيربان من زيارة فرنسا بنفسه. وجاء رسل من كونراد - ابن الإمبراطور هنري - لترتيب لقائه مع البابا في كريمونا، وجاءت الإمبراطورة زوجة هنري بنفسها - براكسيديس الروسية ومن بيت اسكندنافيا حكم في كيف - لتشكو المهنات التي عانتها من زوجها. وكان المحفل بمثابة المحكمة العليا للعالم المسيحي الغربي والبابا بمثابة رئيس للقضاة.

(١) Symeon's treatise is published by Leib, *Deux Inédits Byzantins sur les*

Azymites, pp. 85-107 ويرتاب Leib في أصالة رسالة Symeon إذ يبدو أن هذا الرسالة

تقابل رسالة أخرى كتبها Bruno of Segni حوالي سنة ١١٠٨ م. غير أين Michel, *Amalfi*

und Jersalem im griechischen Kirchenstreit ويظهر أن الرسالة تقابل رسالة أخرى

كتبها من يدعى Laycus ينتحلها برونو.

(٢) (المترجم) السيمونية : بيع المناصب الكهنوتية أو شراؤها.

وكان من بين الحضور في المجلس مبعوثو الإمبراطور ألكسيوس الذي كانت حروبه مع الأتراك تحقق نجاحًا بالنظر إلى التدهور الواضح في القوة السلجوقية، وما هي إلا حملات قليلة محكمة التوقيت وينهزم السلاجقة إلى الأبد. ولكن إمبراطوريته تفتقر إلى الجنود، ولم تكن أماكن تجنيد الجنود في الأناضول منتظمة كما كانت من قبل وقد ضاع الكثير منها؛ ولذا كان أليكسيوس يعتمد بدرجة كبيرة على المرتزقة الأجانب وعلى فصائل تتألف من البتشنج، وقبائل أخرى من السهول استخدمها أساسًا كحرس للحدود وكشرطة عسكرية، والحرس الفارنجي الذي يتألف أساسًا من الأنجلوساكسون الهاربين من إنجلترا النورماندية، وجماعات من مغامري الغرب الذين التحقوا بالخدمة في جيشه بشكل مؤقت، وكان أبرز هؤلاء جميعًا هو الكونت روبرت الأول من فلاندرز الذي حارب من أجله سنة ١٠٩٠ ميلادية. وبرغم قدرة الإمبراطور على تجنيد الجنود من مواطنيه، كانت احتياجاته لا تزال تطلب المزيد؛ إذ كان عليه أن يحرس حدود الدانوب الطويلة من هجمات برابرة الشمال، وفي الشمال الغربي كان الصربيون متململين. ونادرًا ما يهدأ رعاياه البلغاريون لفترة طويلة، ودائمًا ما كان خطر العدوان النورماندي يتهدهده من إيطاليا. وأما في آسيا الصغرى فإن الدفاع عن الحدود غير المحددة بدقة، وعن ثغورها، والحفاظ على النظام العام، والمواصلات، استنفد ما تبقى له من موارد. فإذا كان له أن يأخذ زمام المبادرة فليس هناك بد من تجنيد المزيد من الجنود. ولسوف تثمر سياسته تجاه البابوية إذا تمكن من استخدام النفوذ البابوي لكي يجد له هؤلاء الجنود. وكان إيربان متعاطفًا؛ وكان البرنامج البابوي يشمل تحريض فرسان الغرب المشاكسين على استخدام فصائل جنودهم في قضية بعيدة وأكثر قداسة. ودعى السفراء البيزنطيون لمخاطبة المؤتمر.

وليس لدينا ما ألقوه من خطب. ولكن يبدو أنهم لكي يقنعوا سامعيهم بأن الخدمة مع الإمبراطور جديرة بالتقدير ركزوا تركيزًا خاصًا على الصعاب التي يعانيتها مسيحيو الشرق إلى أن يتم طرد الكفرة. وإذا كان على الكنيسة أن تقوم بتشجيع

تجنيد الجنود، فإن عرضها للأجور العالية وحدها لم يكن كافيا، وكان عليها أن تلجأ إلى الحجة الأقوى التي تتمثل في استشارة الواجب الديني. ولم تكن تلك اللحظة هي التي يمكن فيها تقييم منجزات بيزنطة تقييما دقيقا، وإنما كان لابد من أن يرجع الأساقفة إلى أوطانهم وقد أدخل في روعهم أن سلامة العالم المسيحي ما تزال مهددة، ومن ثم يكونون تواقين إلى إرسال أفراد من رعاياهم إلى الشرق لينضموا إلى الجيش المسيحي.

وتأثر الأساقفة، وكذلك البابا. فعندما كان في طريقه إلى كرىمونا ليلقى تبجيل كونراد الصغير، وبينما هو يعبر ممرات جبال الألب إلى فرنسا، راح يقلب في ذهنه مخططا أوسع وأجعد، متخيلا حربا مقدسة. (١)

(١) Bernold of Constance, ad ann. 1095, p. 161; Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, vol. v, pt. 1, pp. 394-5. See also Munro in *American Historical Review*, vol. xxvii, pp. 731-3



الفصل الثالث :

الدعوة

الدعوة

"اسمعوا لي يا أشدَّاء القلوب البعيدين
عن البر".

(إشعياء: ٤٦ — ١٢)

وصل البابا إيربان إلى فرنسا في أواخر صيف ١٠٩٥ ميلادية، وفي الخامس من أغسطس (آب) كان في فالينس، وفي الحادي عشر وصل إلى لوبوى، ومن هناك أرسل رسائل إلى أساقفة فرنسا والأراضي المجاورة طالبا منهم مقابله في كليرمونت في نوفمبر (تشرين الثاني). وفي تلك الأثناء اتجه جنوبا لقضاء سبتمبر (أيلول) في إقليم بروفانس، في أفينون وسانت جيل، وفي أوائل أكتوبر (تشرين أول) كان في ليون، ومن هناك

واصل رحلته إلى برجاندي. وفي ٢٥ من نفس الشهر كان في كَلاني حيث أضافى القداسة على مذبح الكاتدرائية الكبيرة التي كان الراهب هيو قد بدأ بناءها، ومن كَلاني ذهب إلى سوفيني بالقرب من مولان لتبجيل مقبرة القديس مايولويس أقدس رهبان كَلاني، وهناك لحق به أسقف كليرمونت لمرافقته إلى مدينته الأسقفية استعداداً للمؤتمر. (١)

وكان إيربان أثناء ترحاله منشغلاً بشؤون الكنيسة في فرنسا، ينظم ويصحح، ويمدح ويؤنب، بحسب ما تقضي به الأحوال، ولكن ترحاله مكّنه أيضاً من متابعة مخططة. ولا نعرف ما إذا كان قد قابل وهو في الجنوب ريموند أوف سانت جيل، كونت تولوز، ومركيز إقليم بروفانس، الذي ذاعت شهرته لقيادته الحرب المقدسة في إسبانيا، لكنه كان على اتصال به ولا بد أنه سمع بخبراته. وكان أهل كَلاني من المهتمين بطريق الحج إلى كومبوستيلا أو إلى القدس على السواء، وأخبروه بالصعاب القاهرة التي يعانيتها الحجاج الآن مع تفسخ السلطة التركية هناك، وعلم أن الطرق عبر آسيا الصغرى ليست مغلقة وحسب، بل أن الأراضي المقدسة هي الأخرى موصدة بالفعل.

مؤتمر كليرمونت

وانعقد مؤتمر كليرمونت من ١٨ إلى ٢٨ نوفمبر (تشرين الثاني) ١٠٩٥ ميلادية، وحضر حوالي ثلاثمائة من رجال الدين، وشملت أعمال المؤتمر نطاقاً واسعاً وبوجه عام تكررت المراسيم التي تحظر الاحتفالات بتقليد المناصب الدنيوية، والتي تدين السيمونية

(١) عن تحركات إيربان، أنظر Gay, op. cit. pp. 369-72; Chalandon, *Histoire de la première Croisade*, pp. 19-22

وزواج رجال الدين، وناصر المؤتمرون هدنة الرب (١)؛ وبوجه خاص، طرد الملك فيليب من الكنيسة بسبب الزنا وأسقف كامبراي بسبب السيمونية، وتأسست سيادة كرسي ليون الأسقفي على الكراسي الأسقفية في سين وريم (٢). على أن البابا كان يرغب في استغلال تلك المناسبة لهدف أخطر؛ فأعلن عن عقد اجتماع عام في يوم الثلاثاء ٢٧ نوفمبر (تشرين الثاني) ليذيع إعلاناً هاماً؛ فكانت الحشود من رجال الدين والعوام التي تجمعت من الضخامة بحيث لم تسعها الكاتدرائية التي انعقد فيها المؤتمر، لذا وُضع العرش البابوي على منصة في الخلاء خارج البوابة الشرقية للمدينة، وهناك، وبعد أن تجمعت الحشود، نهض إيربان على قدميه لمخاطبتها.

ولقد دون لنا كلمات البابا أربعة مؤرخين معاصرين له. ويزعم أحدهم، وهو روبرت الراهب أنه شهد الاجتماع، وجاءت رواية كل من بودري أوف دول وفولشر أوف تشارتر كما لو كانا حاضرين الاجتماع، وأما الرابع جيبرت أوف نوجنت فيحتمل أن يكون قد نقل روايته عن غيره، لكن لم يدّع أحد منهم بأنه يسرد سرداً لفظياً دقيقاً، وكتب كل منهم تاريخه بعد ذلك بسنوات قلائل، ولوّّن روايته على ضوء الأحداث التي تلت، وليس بوسعنا أن نعرف حقيقة ما قاله إيربان إلا على وجه التقريب. ويبدو أنه قد بدأ خطبته بأن أخبر سامعيه بضرورة مساعدة إخوانهم في الشرق، فالعالم المسيحي الشرقي يستغيث من أجل المساعدة، والأتراك يتقدمون إلى قلب الأراضي المسيحية، ويُسيثون إلى السكان، ويستبيحون مزاراتهم المقدسة. ولكن حديثه لم يكن منصباً على بيزنطة وحسب، وإنما ركّز على القداسة الخاصة للقدس،

(١) (المترجم) هدنة الرب ، أو الهدنة الإلهية : وقف الحرب أو العداوات الخاصة في أيام معينة تحتفل بها الكنيسة .

(٢) Hefele-Leclercq, *op. cit.* vol. v, pt. 1, pp. 399-403; Mansi, *Concilia*, vol. xx, pp. 695-6, 815 ff.

ووصف ألوان المعاناة التي يعانيها الحجاج في سفرهم إلى هناك. وبعد أن رسم تلك اللوحة الكثيرة أعلن مناشدته العظمى: "فليهب العالم المسيحي الغربي لإنقاذ الشرق، يجب أن يذهب الغني والفقير على السواء، وينبغي لهم أن يكفوا عن ذبح بعضهم البعض، وأن يحاربوا بدلاً من ذلك حرباً مقدسة فيكونوا بذلك فاعلين عمل الرب، وسوف يقودهم الرب، ومن يمت في المعركة يفز بالغفران ومحو الذنوب، وما الحياة على الأرض إلا حياة البؤس والشر، يرهق الناس أنفسهم فيحصدوا دمار أبدانهم وأرواحهم، هنا الناس فقراء تعساء، وهناك متمتعون مزدهرون، وأصدقاء الرب بحق، ولا ينبغي أن يكون هناك تأخير، فليكونوا على أهبة الاستعداد للانطلاق عندما يحل الصيف، وسيكون الرب مرشدهم." (١)

وتحدث إيربان بحمية وبكل فنون الخطيب البارع، وكانت الاستجابة فورية وهائلة؛ فكم من مرة يقاطع الناس الخطبة بصرخات: "الرب يشاؤها!". وقبل أن ينهي

(١) أورد خطبة إيربان خمسة من المؤرخين :

Fulcher of Chartres, 1, iii, pp. 130-8; Robert the Monk, 1, i-ii, pp. 727-9; Budri, Historia Jezosolimitanan, 1, iv, pp. 12-15; Guibert of Nogent, II, iv, pp. 137-40; and William of Malmesbury, *Gesta Regum*, vol. II, pp. 393-8.

وكان ولیم قد كتب بعد ذلك بحوالي ثلاثين سنة ؛ أما الأربعة الباقون فقد كتبوا كما لو كانوا حاضري الخطبة ، ويدعي Baudri في الواقع أنه كان هناك قطعاً . لكن كلا من Baudri و Guibert يعترف بأن النص الخاص به ربما لم يكن صحيحاً تماماً . وتختلف النصوص الأربعة اختلافاً كبيراً . ويحلل Munro في مؤلفه " خطبة البابا إيربان الثاني في كلير مونت The Speech of Pope Urban II at Clermont " الوارد في *American Historical Review*, Vol. xi, pp. 231 ff. الاختلافات بين النصوص ويأمل أن يجد النص الفعلي عن طريق تجميع النقاط التي يتفق عليها هؤلاء المؤرخون. غير أنه من الواضح أن كل مؤرخ كتب الخطبة التي ظن أن البابا لابد وأن ألقاها وأضاف إليها أفانيه البلاغة التي يفضلها.

البابا كلماته أو يكاد، نهض أسقف لوبوي من مقعده، وركع أمام العرش متوسلا
السماح له بالانضمام إلى الحملة المقدسة، وتراحم المئات ليحذوا حذوه، ثم ركع
الكاردينال جريجوري وردد بصوت مرتفع صلاة الاعتراف، ورددتها وراءه الحشود
المحتشدة، وعندما انتهت الصلاة نهض إيربان مرة أخرى ونطق بالغفران الكنسي،
وطلب من الحاضرين الانصراف. (١)

وفاق الحماس كل توقعات إيربان. ولم تكن خططه لتوجيه ذلك الحماس قد
اكتملت بعد، ولم يكن أحد من كبار القوم حاضرا في كليرمونت، إذ كان الحاضرون
كلهم من بسطاء الناس، ومن الضروري ضمان مساندة دنيوية أكثر صلابة. وفي الوقت
نفسه جمع إيربان أساقفته مرة أخرى لإجراء مزيد من المشاورات. وأصدر المؤتمر
بالفعل مرسوما عاما، ربما بناء على طلبه، بالعفو عن الجزاءات الدنيوية لكل من تتوفر
لديه النوايا الورعة للاشتراك في الحرب المقدسة. وأضيف إلى ذلك وضع المتعلقات
الدنيوية للمشاركين تحت حماية الكنيسة أثناء غيبتهم في الحرب، فيكون الأسقف المحلي
مسئولا عن حفظها وإعادة سلميها إلى المحارب حال عودته إلى الوطن. وينبغي لكل
من يشترك في الحملة أن يضع علامة الصليب كرمز لتفانيه، على أن يكون الصليب من
مادة حمراء تحاك على كتف معطفه، وينبغي لكل من يأخذ الصليب أن يقسم على
الذهاب إلى القدس، فإذا ما تعجل العودة، أو فشل في القيام بالرحلة، يكون مصيره
الطرد من الكنيسة. وأما رجال الدين والرهبان فلا يأخذون الصليب دون إذن من
أسقفهم أو راهبهم الذي يرأسهم، ويتعين تثبيط همة كبار السن والضعفاء عن
الانضمام إلى الحملة، ولا يجب أن يذهب أحد مطلقا دون الرجوع إلى مستشاره
الروحاني. ولن تكون الحرب مقصورة على الغزو ففي كل المدن التي يتم الاستيلاء
عليها من الكفرة يتعين استعادة حقوق الكنائس الشرقية وممتلكاتها، وينبغي لكل

(١) Robert the Monk. I ii-iii, pp. 15-16; Baudri, I, v, p. 15

مشارك أن يتأهب لمغادرة منزله بحلول عيد الصعود (١٥ أغسطس/آب) من العام التالي بعد جمع الحصاد، ويجب أن تتجمع الجيوش في القسطنطينية. (١)

تنظيم الحملة الصليبية

وكانت الخطوات التالية هي ضرورة تعيين قائد للحملة، وأراد إيربان أن يوضح أن الحملة تحت سيطرة الكنيسة، ويجب أن يكون رئيسها كنسيًا — قاصده الرسولي — وعيّن أسقف لوبوي رئيسًا للحملة بإجماع المجلس.

وينتمي أسقف لوبوي، وهو أديمار دي مونتي إلى أسرة كونتات فالنتنوا، وهو رجل متوسط العمر، سبق له الحج إلى القدس قبل ذلك بتسع سنين، وقد فاز بقيادة الحملة لأنه كان أول من لبى نداء إيربان، على أنه نظرًا إلى استضافته لإيربان من قبل في لوبوي في أغسطس (آب)، فلا بد وأن يكون قد حادثه هناك عن الشؤون الشرقية، وعلى ذلك من الممكن ألا تكون حركة المبادرة لتلبية نداء إيربان تلقائية تمامًا. ولقد كان تعيينه قائدًا للحملة تعيينًا حكيمًا؛ إذ أثبتت الأحداث التي تلت أنه واعظ بارع، ودبلوماسي لبق، وواسع الأفق وهادئ وشفوق، ورجل يحترمه الجميع، يسعى إلى الإقناع بدلاً من إصدار الأوامر. وقد استعمل نفوذه بشكل لا يعرف الكلل في كبح الأهواء وبث الحماس، على أن نفوذه هذا لم يكن دائمًا من الثبات بحيث يؤثر في

(١) القرارات الكنسية لمجمع كلير مونت يوردها Lambert of Arras في Mansi, *Concilia*, vol. xx, pp. 815-20 ولا يتعلق بالحملة الصليبية بصورة مباشرة سوى القرار الأخير الثالث

والثلاثين، وعلى الرغم من أن Gratian ينسبها إلى المجمع فهو غير موجود في قرارات مجمع Rouen

الذي استنسخ قرارات مجمع كلير مونت. أنظر: Hefele-Leclercq, *op. cit.* vol. v. p. 339.

ويحلل Chalandon, *op. cit.* pp. 44-6 ترتيبات البابا من شتّى المصادر التي تعتبر مشوشة

وجهاء القوم الذين كانوا يتبعونه من الناحية الاسمية فقط. (١)

وكان أول الوجهاء الذين طلبوا الاشتراك في الحملة هو الكونت ريموند أوف تولوز، ففي أول ديسمبر (كانون الأول)، وأثناء وجود إيربان في كليرمونت، جاءته الرسل تخبره بأن الكونت وكثيرا من نبلائه تواقون لأخذ الصليب، ولم يكن ريموند الذي كان في تولوز، قد سمع بأنباء الخطاب العظيم في كليرمونت، فلا بد وأن يكون قد علم به قبل وصول الرسل، ولأنه كان أول من علم بالمشروع، وأول من أقسم القسم، فقد رأى ضرورة توليه القيادة الدنيوية على اللوردات العظام الآخرين، فأراد أن يكون هو موسى وأديمار هو هارون. ولم يكن إيربان ليقبل ذلك الادعاء، لكن ريموند لم يتخل عنه البتة، وفي ذات الوقت خطط للتعاون المخلص مع أديمار.

وفي الثاني من ديسمبر (كانون الأول) غادر إيربان كليرمونت. وبعد زيارته لشتي بيوت كلاني أمضى عيد الميلاد في ليموج حيث قام بالتبشير بالحرب الصليبية في الكاتدرائية، ثم مضى شمالا خلال بواتيه إلى وادي اللوار، وفي مارس (آذار) وصل إلى تور حيث عقد مجلسا، وفي يوم من أيام الأحد دعا إلى عقد مجمع لمقابلته في ناحية من الأراضي الخضراء على ضفاف النهر، ومن فوق منصة متواضعة ألقى موعظة طويلة وقورة حاضا مستمعيه على التوبة والذهاب إلى الحرب الصليبية، ومن تور تحول جنوبا مرة أخرى خلال أكيثان مارا بمدينتي سينت وبوردو إلى تولوز التي كانت مقر رئاسته في مايو (أيار) ويونيه (حزيران)، وأتيحت له مناسبات عديدة لمناقشة الحرب الصليبية مع مضيّفه الكونت ريموند، وفي وقت متأخر من يونيه (حزيران)، انتقل إلى

(١) Robert the Monk, I, iv, p. 731; Guibert, II, v, p. 140 وعن تاريخ

Adhemar السابق أنظر النصوص المجمعة في -*Cartulaire de Saint-Chevalier*

Chaffre, pp. 13-14, 139, 161-3

بروفانس، ورافقه ريموند في رحلته إلى نيم.

إيربان يعود إلى إيطاليا

وفي شهر أغسطس (آب) عبر البابا جبال الألب مرة أخرى إلى لومباردي، ولم تكن رحلته لقضاء عطلة؛ إذ أمضى الوقت كله في مقابلات مع رجال الكنيسة، وفي كتابة الرسائل، ساعياً لإتمام تنظيم الكنيسة في فرنسا، وفوق كل ذلك واصل خطته من أجل الحملة الصليبية، وأرسل إلى كل أساقفة الغرب رسائل مجمعة بالقرارات التي تم اتخاذها في كليرمونت. وفي بعض الحالات عقدت مجالس إقليمية لاستلام تلك الرسائل والنظر فيما يمكن عمله على المستوى المحلي، ومن المحتمل أن تكون القوى الدنيوية الرئيسية قد أخطرت هي الأخرى برغبات البابا (١). وفي نهاية سنة ١٠٩٥ ميلادية كتب إيربان من ليموج إلى جميع المخلصين في فلاندرز مشيراً إلى قرارات مؤتمر كليرمونت، وطالباً موازرتهم، (٢) وكانت الاستجابة التي أتته من فلاندرز والأراضي المجاورة باعثة على الرضا الكامل. وفي يولييه (تموز) سنة ١٠٩٦ ميلادية تلقى وهو في نيم رسالة من الملك فيليب يعلن فيها خضوعه التام في مسألة الزنا الذي اقترفه ،

(١) Orderic Vitalis, *Historia Ecclesiastica*, IX, 3, vol. III, p. 470;.

Inventaire, p. 109 ويقتبس Riant, op. cit. p. 113 نصا كتب في القرن السادس

عشر ، يتركز على مستند ما ضائع فيما يبدو ، يخبر فيه البابا عوام اللوردات برغباته . وترد

تحركاته بالتفصيل لدى Crozet في مؤلفه *Le Voyage*

' d'Urbain II' , in *Revue Historique*, vol. CLXXIX, pp. 271-310

(٢) يرد الخطاب في Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*, pp. 136-7 وفي هذا

الخطاب يحدد إيربان الخامس عشر من أغسطس تاريخاً لرحيل الحملة الصليبية .

وربما أخبره كذلك بانضمام أخيه هيو أوف فرماندوا للحملة الصليبية. (١) وفي نفس الشهر برهن ريموند أوف تولوز على صدق نواياه بتنازله عن الكثير من ممتلكاته لدير سانت جيل. (٢) وربما بناء على نصيحة ريموند قرر إيربان الاستعانة بقوة بحرية للمحافظة على إمدادات الحملة؛ فذهب قاصدان رسوليان برسائل إلى جمهورية جنوا طلبا لتعاونها، ووافقت الجمهورية على تقديم اثني عشر قادسا (٣)، وكذا تقديم تسهيلات النقل، لكنها توخت الحذر وأرسلتها متأخرة إلى أن تيقنت من مدى جدية حركة الحرب الصليبية، ولم يبحر ذلك الأسطول من جنوا إلا في سنة ١٠٩٧ ميلادية، وفي نفس الوقت انضم كثيرون من أهل جنوا وأخذوا الصليب. (٤)

وعند عودة إيربان إلى إيطاليا تأكد من نجاح مخططة؛ فقد قوبلت نداءاته بطاعة وحماس، وأسرع الرجال من كل مكان بعيد كبعد إسكتلندا والدانمرك وإسبانيا إلى أخذ العهد، ورهن البعض ممتلكاتهم وأراضيهم للحصول على المال اللازم للرحلة، ووهب البعض كل ممتلكاتهم للكنيسة لتوقعهم عدم العودة مطلقا، وانضم عدد كبير من عظام النبلاء إلى الحملة الصليبية ليوفروا لها مساندة عسكرية هائلة؛ فبالإضافة إلى ريموند أوف تولوز، وهيو أوف فرماندوا، كان روبرت الثاني (أوف فلاندرز)، وروبرت دوق نورماندي، وستيفن زوج أخته، وكونت بلوا، يعدون العدة للانطلاق، والملفت للنظر على نحو أكبر انضمام رجال يدينون بالولاء للإمبراطور هنري الرابع. وكانت الشخصية الرئيسية من بين هؤلاء هي جودفري أوف بويلون دوق

(١) Jaffé-Loewenfeld, *Regesta*, vol. 1, p. 688 لم يفى Philip برعده بالتوبة .

(٢) Document given in d'Achéry, *Spicilegium*, 2nd ed. Vol. 1, p. 630 , and
Mansi, Concilia, vol.xx, p.938

(٣) Caffaro, *De Liberatione*, pp. 49-50

(٤) (المترجم) ، القادس : نوع من السفن القديمة التي تبحر بالشرائع والمجاديف

اللورين الأسفل الذي أخذ الصليب مع أخويه إيوستاس — كونت بولونيا — وبالدوين. والتف حول هؤلاء القادة كثير من النبلاء الأقل مترلة، والقليل من رجال الكنيسة البارزين مثل أسقف بايو. (١)

ووجد إيربان في إيطاليا تحمسًا مماثلًا. ففي سبتمبر (أيلول) سنة ١٠٩٦ ميلادية كتب إلى مدينة بولونيا شاكرًا مواطنيها على حماسهم، وحذرهم من الارتحال إلى الشرق دون الحصول على إذن من قساوستهم، كما لا ينبغي للمتزوجين حديثًا أن يرحلوا دون موافقة زوجاتهم. وفي تلك الأثناء وصلت أخبار الحملة إلى جنوب إيطاليا، فرحب بها كثير من النورماندين ترحيبًا حارًا، فقد كانوا دائمًا متأهبين لبدء مغامرة جديدة. وفي أول الأمر تمهل الأمراء، ولكن بوهيموند ابن جيسكار وأمير تارانتو — وقد أحبط أخوه روجر بورصا وعمه روجر الصقلي طموحاته في إيطاليا — سرعان ما تحقق من الإمكانيات التي ستفتحها له الحرب الصليبية، فأخذ الصليب مع كثيرين من عائلته وأصدقائه، وجلب اشتراكهم في الحركة العديد من أكثر الجنود تمرسا وإقداما في أوروبا. وعندما عاد إيربان إلى روما في احتفالات أعياد الميلاد سنة ١٠٩٦ ميلادية كان يشعر شعور اليقين بأن الحرب الصليبية قد شنت بالفعل. (٢)

وحقيقة الأمر أن إيربان أطلق العنان لحركة أضخم مما كان يتصور. وربما كان من الأفضل لو استجاب لندائه عدد أقل من عظماء اللوردات؛ فبرغم أن الحمية الدينية الأصلية كانت هي الدافع الأقوى بالنسبة لهم جميعا فيما عدا بوهيموند، فإن مشاريعهم الدنيوية، والخلافات التي سادت بينهم سرعان ما خلقت صعابا تجاوزت سيطرة

(١) للإطلاع على قوائم كاملة للصليبيين، أنظر ما يلي، الجزء الثالث، الفصل الأول.

(٢) Urban II, *Letter to the Bolognese*, in Hagenmeyer, op. cit. pp. 137-8

وعن النورماندين أنظر ما سبق الصفحات ١١٠-١١٣.

القاصد الرسولي البابوي تجاوزا بعيدا، كما كان أكثر عجزا أمام الصعوبات التي خلقها العوام البسطاء الذين أتوا من سائر أنحاء فرنسا وفلاندرز وأراضي نهر الراين الألمانية.

بطرس الناسك

وطلب البابا من أساقفته أن ييسروا بالحرب الصليبية. على أن التبشير الأبلغ أثرا كان تبشير الرجال الأكثر فقرا؛ فقد بشر بالحرب الصليبية أتباع الكنيسة الإنجيلية مثل روبرت أوف آربرسيل، مؤسس دير رهبان وراهبات فونتيفرولت، بل كان الأكثر نجاحا في التبشير راهب متحول يدعى بطرس. وكان بطرس رجلا متقدما في السن، وُلد في ناحية ما قريبة من آميان، ويُحتمل أنه حاول الحج إلى القدس قبل ذلك بسنوات قليلة، لكن الأتراك عاملوه معاملة سيئة وأجبروه على العودة. ويعرفه معاصروه على أنه بطرس الصغير (شتو) أو (كيو كيو) في لهجة بيكار، بيد أنه فيما بعد اشتهر بكُنية "الناسك"، بسبب غطاء الرأس الذي اعتاد أن يرتديه، وهي الكنية التي اشتهر بها تاريخيا. وكان رجلا قصير القامة، أسمر اللون، له وجه طويل نحيل شديد الشبه — على نحو يثير الذعر — بالحمار الذي يركبه دائما، والذي يكاد أن يلقي نفس التبجيل الذي يلقاه راكبه، يمشي حافي القدمين، قذر الثياب، وقد حرّم على نفسه أكل الخبز واللحم، لكنه كان يأكل السمك ويشرب النبيذ. وبرغم مظهره الضيع كانت له قوة تحرك الرجال، وكان هناك جوّ غريب من السلطان يحيط به، ويخبرنا جيبرت أوف نوجنت، الذي كان يعرفه معرفة شخصية: "ما من شيء يقوله أو يفعله إلا ويبدو شيئا شبه إلهي." (١)

(١) Guibert, I, vii, p. 142 وتورد أكثر المناقشات اكتمالا عن أصل بطرس وسيرة حياته المبكرة في :

Hagenmeyer, *Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermite*, trans. By Furcy Raynaud, pp. 17-63. Guibert describes him in II, viii, p. 142; Orderic Vitalis, IX, 4, vol. iii, p. 477 ويحدد العدد بأنه ١٥٠٠٠ من التابعين الذين تبعوه

والأرجح أن بطرس لم يساعد في مؤتمر كليرمونت، لكنه كان يشير بالفعل بالحرب الصليبية قبل انتهاء سنة ١٠٩٥ ميلادية. وبدأ جولاته في بري، ثم تجول أثناء شهري فبراير (شباط) ومارس (آذار) في أنحاء أورليانز وتشامباني إلى اللورين، ومن هناك مر بمدينة ميوس وآشين إلى كولونيا حيث أمضى عيد الفصح. وجمع حوله مجموعة من التلامذة وأرسلهم إلى المناطق التي لم يتمكن من زيارتها بنفسه، وكان من بينهم الفرنسيون: والتر سان - أفوار ورينالد أوف بريز وجيوفري بورييل، والتر أوف بريتول، وكذلك الألمان: أوريل وجوتشوك. وحيثما ذهب هو أو نوابه، ترك الرجال والنساء منازلهم وتبعوه، وعندما وصل إلى كولونيا كانت حاشيته تقدر بحوالي ١٥٠٠٠ شخص، وانضم إليه آخرون كثيرون في ألمانيا. (١)

ويعزى نجاحه غير العادي في التبشير إلى أسباب عديدة. إذ كانت حياة الفلاح في شمال غرب أوروبا حياة قاسية غير آمنة. وأثناء الغزوات البربرية وغارات أهل الشمال، لم تعد أراض كثيرة صالحة للزراعة، فقد تهدمت السدود وطغى البحر والأنهار على الحقول. ودائما ما كان اللوردات يعارضون قطع أشجار الغابات لأنهم يمارسون فيها رياضة الصيد، وكانت القرية التي لا تحميها قلعة أحد اللوردات هدفا لأن يسرقها أو يحرقها الخارجون على القانون أو الجنود المشتركين في الحرب الأهلية المحدودة. وسعت الكنيسة إلى حماية فقراء الفلاحين وإلى إنشاء المدن المسورة (2) bourgs في الأراض بالخالية، إلا أن مساعيها لم تكن منتظمة وغير مجدية. وربما كان

(١) Hagenmeyer, op. cit. pp. 127-51; Chalandon, op. cit. pp. 57-9

(٢) (المترجم)، البورج Bourg : واحدة من المدن المسورة التي نشأت في القرون الوسطى وضمت

أصحاب الحرف المختلفة من غير الفلاحين . وقد أدى تطور هذه المدن فيما بعد إلى ظهور طبقة

أصحاب الأعمال الذين عرفوا بـ (البرجوازيين) نسبة إلى (بورج) ؛ وقد آذن نمو هذه المدن

بأنهيار النظام الإقطاعي .

عظام للوردات يشجعون نمو المدن، وإن كان صغار البارونات يعارضونه. كما كان تملك الأرض في انهيار ولم يكن هناك نظام آخر يحل محله. وعلى الرغم من الاختفاء الفعلي لطبقة عبيد الأرض، كان الناس مرتبطين بالأرض بالتزامات لا سبيل إلى الهرب منها بسهولة، بينما عدد السكان يتزايد، وليس من الممكن تجزئة الحيازات في القرية إلا في حدود معينة. واستنادا لرواية روبرت الراهب، قال إيربان في كليرمونت: "في هذه الأرض تستطيعون بالكاد إطعام السكان، وهذا هو السبب في أنكم تستنفدون نتاجها ثم تثيرون حروبا لا نهاية لها وتقتلون بعضكم البعض." وكانت السنوات الأخيرة تتصف بصعوبة خاصة؛ إذ شهد عام ١٠٩٤ ميلادية فيضانات وأوبئة، أعقبها جفاف ومجاعة، فكانت لحظة بدت فيها الهجرة شيئا جذابا للغاية، وفي إبريل (نيسان) سنة ١٠٩٥ ميلادية سقطت نيازك كثيرة، واعتبر ذلك نذيرا بحدوث تحركات كبيرة للشعوب. (١)

حماس "الرؤيا"

وإلى جانب الدوافع الاقتصادية، أضيفت التعاليم الرؤيوية، فقد كان العصر عصر الرؤى، وظن الناس أن بطرس شخص كثير الرؤى. وكان رجل العصور الوسطى مقتنعا بأن المسيح الثاني للمسيح وشيك الوقوع، فينبغي له أن يتوب وفي الوقت متسع، كما ينبغي له أن يرحل ليفعل الخير، لاسيما وأن الكنيسة قد علمته أن الحج يمحوا الخطيئة، وأعلنت النبوءات ضرورة استعادة الأراضي المقدسة إلى حظيرة الإيمان قبل عودة المسيح مرة أخرى. وفضلا عن ذلك، لم يكن التفريق بين القدس و"القدس

(١) Ekkehard, *Chronicon*, ad ann. 1094, p. 207; Sigebert of Gembloux, *Chronicon*, ad ann. 1095, p. 367; Robert the Monk, I, I, p. 728 وقد فسر

الأسقف Gislebert of Lisieux النيازك الكثيرة علي أنها تنبئ بتحركات ضخمة نحو

الأماكن المقدسة، وقد أورد ذلك Orderic Vitalis, ix, 4, vo. iii, pp. 461-2.

الجديدة" (١) محددًا تحديدًا واضحًا في أذهان الجهلاء، وقد اعتقد الكثير من سامعي بطرس أنه يعدهم بإخراجهم من تعاساتهم الحالية إلى الأرض التي تفيض لبنا وعسلا التي تحدثت عنها الأسفار المقدسة. إن الرحلة شاقة، وهناك الحشود المناهضة للمسيح التي ينبغي التغلب عليها أولاً، لكن الهدف هو "القدس الذهبية." (٢)

ولا يعلم أحد الآن رأي البابا إيربان في بطرس ومدى نجاح تبشيره. ويوحى خطاب البابا إلى أهل بولونيا بأنه كان عصيباً بعض الشيء بسبب حماسهم غير المنضبط، لكنه لم يمنعه، من الانتشار في إيطاليا، أو لم يستطع منعه. وطوال صيف ١٠٩٦ ميلادية بدأ سيل مستمر من الحجاج يتدفق إلى الشرق دون قيادة أو أي شكل من أشكال التنظيم، ولا شك في أنه كان يأمل في وصول الحجاج وأتباع بطرس إلى القسطنطينية بسلام وأن ينتظروا هناك مجيء قاصده الرسولي والقادة العسكريين لتنظيم صفوفهم وتكوين الجيش المسيحي الكبير.

وأصر البابا إيربان على أن تجتمع الحملة في القسطنطينية، وهذا يظهر مدى ثقته البالغة في ترحيب الإمبراطور أليكسيوس بها؛ فقد طلبت بيزنطة جنوداً من الغرب، وها هم الآن يلبون النداء، لا كمرتزقة من أفراد قلائل، وإنما كجيوش قوية كاملة. ولكن ثقته لم تتسم بالحنكة، فالحكومات ترحب في العادة بأن يكون لها حلفاء؛ ولكن حينما يرسل هؤلاء الحلفاء جيوشاً كبيرة لا يمكن السيطرة عليها لتستقر في أراضي تلك

(١) (المترجم)، القدس الجديدة: المدينة المقدسة في السماء: "وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كعروس مزينة لرجلها" (رؤيا يوحنا اللاهوتي ٢: ٢١).

(٢) الرؤيا الإنجيلية لـ Robert of Arbrissel (الذي يورد Baudri سيرة حياته في Aa. Ss. 23) تعتبر مطابقة لروح ذلك العصر.

كما أن Robert كان يشير بالحملة الصليبية February, vol. iii بناء على طلب إيربان . (ibid.p.695)

الحكومات مع ما يتطلبه ذلك من إطعام وإيواء وتوفير كل أسباب الراحة، فإن هذا يشكك في جدوى تحالف من ذلك النوع. ومن ثم، ثارت مشاعر القلق والتوجس عندما بلغت القسطنطينية أنباء التحرك الصليبي.

استعدادات الإمبراطور

في سنة ١٠٩٦ ميلادية أمضت بيزنطة، لبضعة أشهر نادرة من الراحة؛ فقد صد الإمبراطور لتوه غزوا قرميا في البلقان وكانت الهزيمة حاسمة بحيث لم يكن من المحتمل أن تفكر أية قبيلة من برابرة السهول في محاولة عبور الحدود. وفي آسيا الصغرى كانت الإمبراطورية السلجوقية في بداية تفككها بسبب الحروب الأهلية التي نفثت فيها الدبلوماسية البيزنطية. وكان أليكسيوس يأمل في سرعة المبادرة بالهجوم، لكنه شاء أن يختار الوقت الملائم له، وكان ما يزال في حاجة إلى متنفس يستطيع من خلاله أن يصلح موارده المستنفدة. وكانت مشكلة نقص الجنود تؤرقه، فرغب في الحصول على مرتزقة من الغرب، ولا شك في أنه كان يعلق الآمال على نجاح سفرائه في إيطاليا في تجنيد الجنود، والآن علم أنه بدلا من أحاد الفرسان أو المجموعات الصغيرة التي يريد إلحاقها بجيشه، ها هي جيوش فرنجية بكاملها تتحرك، فلم يسعده ذلك لعلمه من واقع التجربة أن الفرنج جنس مزعزع ذو شراهة للمال ولا ضمير له في حفظ العهد. ورغم تميزهم بجسارة الهجوم في الحرب إلا أنها ميزة تحيط بها الريب في مثل هذه الأحوال، وجاء فيما كتبه الأميرة أنا كومنيننا أن البلاط الإمبراطوري عرف بشيء من الخوف أن "الغرب كله وجميع القبائل البربرية من وراء البحر الأدرياتيكي وحتى عمودي هرقل (١) كانوا يتحركون في كيان واحد عبر أوروبا باتجاه آسيا مصطحبين معهم عائلات

(١) (المترجم) : عمودا هرقل : لسانان علي جانبي مضيق جبل طارق : أحدهما عند جبل طارق ،

والثاني عند جبل موسى علي الشاطئ الإفريقي .

بكاملها". ولم يكن الإمبراطور وحده الذي ساوره القلق، إنما شعرت رعيته بالقلق كذلك. وحدث أن اكتسح الإمبراطورية أعداد غفيرة من الجراد التهمت الكروم وتركت الحبوب، فكان ذلك نذير شؤم وتحذير، وكانت السلطات البيزنطية حريصة على ألا يشيع اليأس بين الناس، فاستلهم المنجمون الشعبيون تلميحاً من السلطات، وفسروا هجوم الجراد بأن الفرنجة لن يلحقوا أذى بالمسيحيين الطيبين الذين يرمز لهم بالحبوب التي هي مصدر خبز الحياة، لكنهم سيدمرون العرب وهم أناس لهم رغبات حسية يناسبها ثماما رمز النبيذ، وكانت الأميرة أنا كومنينيا متشككة بعض الشيء في هذا التفسير، لكن من المؤكد أن تشبيه الفرنجة بالجراد كان واضحاً. (١)

وشرع الإمبراطور أليكسيوس في عمل ترتيباته مهدوء، فلا بد من إطعام جيوش الفرنجة أثناء عبورها الإمبراطورية، ويتعين اتخاذ الاحتياطات اللازمة حتى لا ينهبوا الريف ويسلبوا المواطنين، فكدست المون في مخازن في كل مركز رئيسي من المراكز التي سيمرون بها، وخصصت قوة شرطية لمقابلة كل فرقة حال وصولها داخل الإمبراطورية واصطحبها إلى القسطنطينية. وكان هناك طريقان كبيران يعبران شبه جزيرة البلقان: الطريق الشمالي الذي يعبر الحدود عند بلجراد ثم ينحرف إلى الجنوب الشرقي ليمر بمدن نيش، وصوفيا، وفليبوبوليس، وأدريانوبل، والطريق الآخر وهو طريق فياأجناتيا من ديرهاكيوم الذي يعبر أوكريدا، وايديسافودينا إلى ثيسالونيكيا ويمتد ليعبر موسينوبوليس وسيليمبريا إلى العاصمة. ومنذ وقت الحج الألماني الكبير سنة ١٠٦٤ ميلادية، نادراً ما كان مسافرو الغرب يستخدمون الطريق الأول؛ إذ تقلص عدد الحجاج، ومن حاول الرحلة كان يفضل الطريق البديل. وفضلاً عن ذلك، كان

(١) Anna Comnena, *Alexiad*, x, v, 4-7, vol. II, pp. 206-8 تمتدح أنا كومنينيا بطرس لاستطاعته تنظيم الحملة الصليبية، وربما كان ذلك لأن أول اتصال لها بالصليبيين كان مع غوغائي بطرس الذي كانوا يمتدحونه هم أنفسهم.

أليكسيوس قد تلقى المعلومات المتعلقة بالصليبيين من إيطاليا، ولذا توقع أن تعبر جيوش الفرنجة البحر الأدرياتيكي وأن تستخدم طريق فياأجناتيا، فأرسل المؤن إلى ديرهاكيوم والمدن الداخلية على الطريق، وصدرت التعليمات إلى حاكم ديرهاكيوم - وهو جون - بأن يُظهر الود في ترحيبه بقيادة الفرنجة، وأن يتوخى أن يكونوا هم وجيوشهم تحت مراقبة الشرطة العسكرية كومنينوس ابن أخي الإمبراطور طوال الوقت، وسيصل من القسطنطينية مبعوثون على مستوى عالٍ لتحية كل قائد بدوره، وفي نفس الوقت أخذ أمير البحار نيكولاس مافروتاكالون أسطولاً صغيراً إلى مياه الأدرياتيكي ليراقب السواحل ويعطي إشارة الإنذار باقتراب ناقلات الفرنجة.

وبقى الإمبراطور في القسطنطينية منتظراً ما تأتي به الأخبار، ولما كان يعلم أن البابا قد حدد يوم ١٥ أغسطس (آب) لمبارحة الحملة فإنه لم يتعجل ترتيباته. ولكن حضر رسول فجأة في نهاية مايو (أيار) سنة ١٠٩٦ ميلادية من الشمال حاملاً البريد بوصول أول جيش من جيوش الفرنجة من هنجاريا ودخوله الإمبراطورية عند بلجراد.

الباب الثالث :

الرحلة إلى الحرب

الفصل الأول:

حملة الشعب

حملة الشعب

"الرَّبُّ لَمْ يَقْدِرْ أَنْ يُدْخِلَهُمُ الْأَرْضَ
الَّتِي كَلَّمَهُمْ عَنْهَا"

(سفر التثنية ٩ - ٢٨)

وصل بطرس الناسك مع أتباعه إلى كولونيا الألمانية يوم سبت النور ١٢ إبريل
(نيسان) سنة ١٠٩٦ ميلادية (١) وهناك بدأت تتضح له الصعاب التي تزعج قائد حملة

(١) الرواية للوحيدة التفصيلية المتصلة برحلة بطرس وولتر المفلس هي التي أوردها Aibert of Aix

وما يتصف به تأكيد صحة الأحداث كان ولا يزال موضع مساءلة شديدة (أنظر ما يلي المرفق
الأول ص ٣٣٢) ؛ غير أنه يبدو واضحا تماما أنه استقي معلوماته من شاهد عيان ربما كان يدون
ملاحظاته أثناء الأحداث . وبعض أرقامه غير مقنعة ، وتظهر تصرفات بطرس التناقض
في بعض الأحيان ؛ لكن المؤلف ربما كان يريد أن يظهره دائما بـ "ظهر الحسن بغض النظر عن
تناقض التصرفات . ويقدم تاريخ *Chronicle of Zimmern* بعض المعلومات الإضافية ، وإن
بدا أنه يخلط بين الحملات الصليبية في سنة ١٠٩٦ وسنة ١١٠١ وهناك إشارة عابرة في تاريخ
باري *Chronicle of Bari* p 147 ، وقد أورد . *Hagenmeyer op. cit. pp. 151-241*
دراسة تفصيلية للقصة كلها . وأنا أقبل بصورة أساسية ما توصل إليه .

تألف من عوام الناس، فكان ذلك النسيج الكبير من المتحمسين يتألف من رجال من مناطق كثيرة ومن أنواع أكثر، أحضر البعض نساءهم، بل أحضر بعضهم حتى الأطفال. وكان أغلبهم من الفلاحين، كما كان من بينهم أبناء المدن، ومن بينهم شباب ينتمون إلى عائلات الفرسان، ومنهم قطاع طرق سابقون ومجرمون. وكانت الصلة الوحيدة التي تربطهم بعضهم ببعض هي حمية معتقدتهم، وقد تخلوا جميعاً عن كل شيء ليتبعوا بطرس، وأخذ منهم الشوق للاستمرار في طريقهم كل مأخذ. وفضلاً عن ذلك، كان لابد لهم أن يستمروا في الحركة كي يتوفر لهم الطعام؛ ففي أوروبا في العصور الوسطى كان هناك عدد ضئيل من المقاطعات ذات الفائض الغذائي الذي يكفي احتياجات مثل هذا الجمع الغفير لمدة طويلة، لكن كولونيا تقع في بقعة غنية ذات مواصلات نهرية جيدة، فأراد بطرس استغلال هذه التسهيلات ليتوقف فترة من الزمن يمارس فيها التبشير بين الألمان، وربما كان تواقاً لاجتذاب بعض النبلاء المحليين إلى حملته الصليبية، وكان الفرسان في فرنسا وفلاندرز يفضلون الانضمام إلى جماعة تضم عظماء اللوردات، ولم يكن هناك لورد ألماني كبير ذاهب إلى الحرب الصليبية. ولقد نجح تبشيره؛ فمن بين الألمان الذين لبوا دعوته عديد من النبلاء الأقل شأنًا بقيادة الكونت هيو أوف توبنغن والكونت هنري أوف شوارزنبرغ ووالتر أوف تيك، وأبناء كونت زيمرين الثلاثة.^(١)

والتر (المفلس)

وكان الفرنسيون متعجلين، وقرر والتر (المفلس) ألا ينتظر في كولونيا وغادر مع آلاف قليلة من الرفاق عقب انتهاء عيد الفصح، وربما في ثلاثاء الفصح، وانطلق في

(١) عن اللوردات الألمان الذين رافقوا بطرس، أنظر Hagenmeyer, op. cit. pp. 158-60 خاصة

ص ١٦٠ الحاشية ٢، وصفحة ١٦٦ الحاشية ١ ويقول Ekkehard, Hierosolymita, pp. 18-19

إن الحملة الصليبية لم يحدث لها تبشير رسمي باللغة الألمانية بسبب الصدع .

طريق هنجاريا وسار أعلى نهرى الراين ونيكار ثم أسفل الدانوب فوصل إلى الحدود الهنجرية يوم ٨ مارس (آذار)، وهناك أرسل إلى الملك كولومان طالبا الإذن في عبور المملكة وراجيا الحصول على المساعدة في تزويد رجاله بالمؤن. وأجابه الملك كولومان بترحاب ودود. وعبر الجيش هنجاريا دون حادثة سيئة. وفي منتصف الشهر وصل مدينة سيملين على الحدود المقابلة، وعبر نهر ساف، ودخل الأراضي البيزنطية عند بلجراد.

وبوغت القائد العسكري في بلجراد، فلم تكن لديه أية تعليمات عن كيفية التعامل مع مثل هذا الغزو، فأرسل بريدا عاجلا إلى نيش حيث يقيم حاكم المقاطعة البلجارية نيتاس يخبره بوصول والتر، وكان هذا الحاكم رجلا حي الضمير، وليست له ميزة أخرى، كما لم تكن لديه تعليمات هو الآخر، فأرسل بدوره رسولا على وجه السرعة إلى القسطنطينية. وفي تلك الأثناء طلب والتر وهو في بلجراد طعاما لأتباعه، لكن الحصاد لم يكن قد جمع بعد، وليس لدى الحامية فائض تعطيه، فراح والتر وأتباعه ينهبون الريف، وقد وقعت حادثة سيئة في سيملين أشعلت ثورة غضبه، ذلك أن ستة عشر رجلا من رجاله لم يعبروا النهر مع رفاقهم وحاولوا أن ينهبوا السوق، فألقى الهنجاويون القبض عليهم وجردوهم من أسلحتهم، وعلقوا ملابسهم على أسوار مدينة سيملين من قبيل التحذير، وأرسلوهم عرايا إلى بلجراد. وعندما بدأ السلب والنهب حول بلجراد لجأ الحاكم إلى السلاح، وقتل العديد من رجال والتر، وحرق آخرون وهم أحياء في إحدى الكنائس.

واستطاع والتر ورفاقه أن يصلوا أخيرا إلى نيش حيث استقبله نيتاس استقبالا حسنا، وقدم لهم الطعام، واستبقاهم إلى أن يتلقى رد القسطنطينية. واضطر الإمبراطور إلى أن يسرع في ترتيباته بعد أن كان يظن أن الحملة الصليبية لن تبحر الغرب قبل عيد الصعود، وطلب من نيتاس أن يرسلهم مع الحرس، فواصل والتر وجيشه رحلتهم في

سلام، وفي وقت مبكر من يولييه (تموز) وصلوا إلى فيليبوبوليس، حيث مات عم والتر
(والتر أوف بويسي) ، وفي حوالي منتصف الشهر وصلوا إلى القسطنطينية. (١)

ولابد أن نيستاس علم من والتر أن بطرس كان وراءه على مسافة غير بعيدة ومعه
صحبة أكبر بكثير، فذهب إلى بلجراد لمقابلته، وأجرى اتصالا مع حاكم سيملين
الهنجاري.

وغادر بطرس كولونيا في ٢٠ إبريل (نيسان)، وسخر الألمان من تبشيره بآدئ
الأمر، ولكن آلافًا كثيرة التحقت به بعد ذلك، وربما قارب عدد أتباعه عشرين ألفًا من
الرجال والنساء. وأشعلت حميته حماس ألمان آخرين، فخططوا للحاق به فيما بعد تحت
قيادة جوتشوك والكونت إميث أوف ليزنغن. واتخذ بطرس الطريق المعتاد أعلى نهري
الراين ونيكار إلى الدانوب. وهناك قرر بعض أتباعه مواصلة الرحلة بالقوارب أسفل
النهر، ولكن بطرس وجُلُّ أتباعه ساروا في الطريق الذي يمضي جنوب بحيرة فيرتو
ودخلوا هنجاريا عند أويدينبرج. وكان بطرس على ظهر حماره، والفرسان الألمان
على خيولهم، بينما كانت المون التي معهم وصندوق النقود التي جمعها من أجل الرحلة
على عربات مكتظة بالناس، على أن الكثرة الغالبة كانت ترتحل سيرا على الأقدام،
وكانوا يقطعون خمسة وعشرين ميلا في اليوم إذا كانت الطرق جيدة.

واستقبل الملك كولومان رسل بطرس بنفس القدر من الترحاب الذي أظهره
لوالتر، وحذرهم بأن العقاب سيتزل بكل من يحاول السلب والنهب، وعبر الجيش
هنجاريا بسلام في أواخر مايو (أيار) وأوائل يونيه (حزيران). وفي مكان ما، ربما
بالقرب من كارلوفسي ، انضمت إليه الفصائل التي كانت مرتحلة بالنهر، ووصل

(١) ترد رحلة Walter في تاريخ Albert of Aix, I, 6, pp. 274-6 وبصورة أكثر إيجازا في

Orderic Vitalis, IX, 4, vol. iii, pp. 478-9

الجيش إلى سيملين في ٢٠ يونيه (حزيران). (١)

وهناك بدأت المتاعب. وما حدث في حقيقة الأمر يشوبه الغموض؛ فيبدو أن حاكم سيملين، وهو من أصل تركي غزي، شعر بالخطر من حجم الجيش، فاجتمع بنظيره عبر الحدود وحاولا تشديد لوائح الشرطة، مما أثار شكوك جيش بطرس، لاسيما وأنهم قد سمعوا شائعات عن معاناة رجال والتر، وخشوا أن يكون الحاكمان قد تآمرا ضدهم، وصدمتهم رؤية ملابس رجال والتر اللثام الستة عشر التي كانت معلقة على أسوار المدينة. وكان من الممكن أن تسير الأمور على خير ما يرام لولا أن خلافا على بيع زوج من الأحذية أدى إلى شغب، انتهى بدوره إلى معركة تم الإعداد لها سلفا، ربما ضد رغبة بطرس، فقام رجال من أتباع بطرس يقودهم جيوفري بوريل بمهاجمة المدينة ونجحوا في اقتحام القلعة، وقتل في تلك المعركة أربعة آلاف من الهنجارين وتم الاستيلاء على كم هائل من مخزونات المؤن. ثم انتابهم الذعر من انتقام الملك الهنجاري، فهرعوا على جناح السرعة ليعبروا نهر ساف.

وأخذوا كل الأخشاب التي استطاعوا جمعها من المنازل لينوا لأنفسهم أطوافا يعبرون عليها النهر، وحاول نيستاس الذي كان يراقب الأحداث بقلق من بلجراد أن يتحكم في عبور النهر ليجبرهم على استخدام مخاضة واحدة فقط، وكان جنوده يتألفون أساسا من المرتزقة البتشنج الذين يثق في طاعتهم العمياء لأوامره، فأرسلهم على نقالات مائية لمنع أي عبور إلا من المكان المناسب، لكنه تحقق من عدم كفاية جنوده للتعامل مع مثل هذا الحشد الهائل، فانسحب إلى نيش حيث موقع القيادة العليا

(١) Alebert of Aix, I, 7, p.276. Malavilla is certainly to be identified with Semlin (Hagenmeyer, op. cit. p. 169 n.1) Guibert, II, viii, pp. 142-3

يقول إن بطرس لقي مصاعب عند عبوره هنجاريا ويبدو أنه يخلط بينه وبين إيمش . Emich

العسكرية للمقاطعة، وعلى أثر رحيله هجر مواطنو بلجراد المدينة ولاذوا بالجبال. (١)

بطرس يدخل الإمبراطورية

وفي يوم ٢٦ يونيه (حزيران) شق جيش بطرس طريقه بصعوبة عبر نهر ساف. وحينما حاول لبتشنج تقييد عبورهم من معبر واحد هاجمهم، وغرقت عدة قوارب، وألقي القبض على راكبيها من الجنود وقتلوا. ودخل الجيش بلجراد وراح ينهبها بالجملة وأشعل فيها النيران، ثم سار سبعة أيام عبر الغابات ووصل إلى نيش في ٣ يوليه (تموز)، حيث أرسل بطرس على الفور إلى نيستاس طالباً منه إمدادات الطعام. (٢)

وكان نيستاس قد أخبر القسطنطينية باقتراب بطرس، وكان ينتظر حضور المسؤولين والحرس العسكري لمرافقة الغربيين إلى العاصمة، وكانت هناك حامية كبيرة

(١) Albert of Aix, I, 7, 8, pp. 276-8 يجعل المؤرخ ألبرت من بطرس - الذي تظهر شخصيته في التواريخ الأخرى بصورة مسالمة - شخصية متعطشة للإنتقام، ربما لأن من أخبره - أي المؤرخ - كان يظن أن الشراسة تضيف على بطرس مزيداً من الفضائل
The recurrent number 7, in connection with the Petcheneg frontier guards, is equally not to be taken literally
وساف .

(٢) Alebert of Aix, I, 9, 9.278. وأنا أتابع التواريخ التي أوردها Hagenmeyer
(Achronology, p. 30-1).

في نيش، زاد من قوتها بأن استجلب لها عدداً إضافياً من البتشنج والمرزقة الهنجاريين، (١) وربما لم يستطع توفير رجال لمصاحبة بطرس إلى أن يأتي الجنود القادمون من القسطنطينية، ومن الناحية الأخرى كان السماح لمثل هذا الحشد الغفير بالتريث طويلاً في نيش أمراً غير عملي وخطيراً في الوقت نفسه؛ ولذلك طلب نيستاس من بطرس أن يقدم رهائن إلى أن يتم جمع الطعام لرجالهم على أن يواصلوا المسيرة بعد ذلك بأسرع ما يمكن. وسار كل شيء على ما يُرام في أول الأمر،

(١) الحرس المرسل من القسطنطينية لمقابلة بطرس انضم إليه في صوفيا يوم ٩ أو ١٠ يوليو قاطعا مسافة تزيد كثيرا على ٤٠٠ ميل وربما كان من الحرس الخيالة ومن ثم كان سفره أسرع، فلا بد وأنه قد غادر العاصمة قبل أن يتمكن أي مبعوث - مرسل من نيش بعد وصول بطرس إليها يوم ٣ يوليو - من الوصول إلى البلاط الإمبراطوري واستناد لما أورده Jirecek في مؤلفه

Die Heerstrasse von Belgrad nach Cnstantinopel, p. 9 كان التار الذين يحملون البريد الإمبراطوري النمساوي في أوائل القرن التاسع عشر يستغرقون في المرحلة خمسة أيام، منطلقين بأقصى سرعة على ظهور الخيل وباستخدام الجياد البديلة. (المسافة تزيد في الواقع على ٦٥٠ ميلا) وكانت الطرق في العصر البيزنطي أفضل حالا منها في العصر العثماني وإن لم يكن تبديل الجياد منظما تنظيما جيدا؛ وفي ذلك الوقت ربما كان المبعوث الخاص يستطيع أن يستغرق خمسة أو ستة أيام ليقطع المسافة من نيش إلى القسطنطينية في ذلك الوقت. وترتبا على ذلك، لا بد وأن Nicetas قد أرسل مبعوثا لإخطار العاصمة بمجيء بطرس قبل أن يعبر الحدود. ونحن نعرف Nicetas - الذي تطلق عليه المصادر الغربية Nichita - من إحدى الوثائق المسجلة في Schlumberger, *Sigillographie de l'Empire Byzantin*, p. 239 ولا ينبغي الخلط بينه وبين Leo، وهو دوق Paristrum، الذي يذكره شالاندون خطأ في Chalando, *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*, p. 167 n. 4

وتم تسليم جيوفري بوريل وولتر أوف بريتول كرهائن، وسمح السكان المحليون للصليبيين بالحصول على الإمدادات وكل ما يحتاجون إليه، ليس هذا وحسب، وإنما تبرع الكثير منهم بصدقات للحجاج الفقراء، بل طلب البعض الاشتراك في الحج.

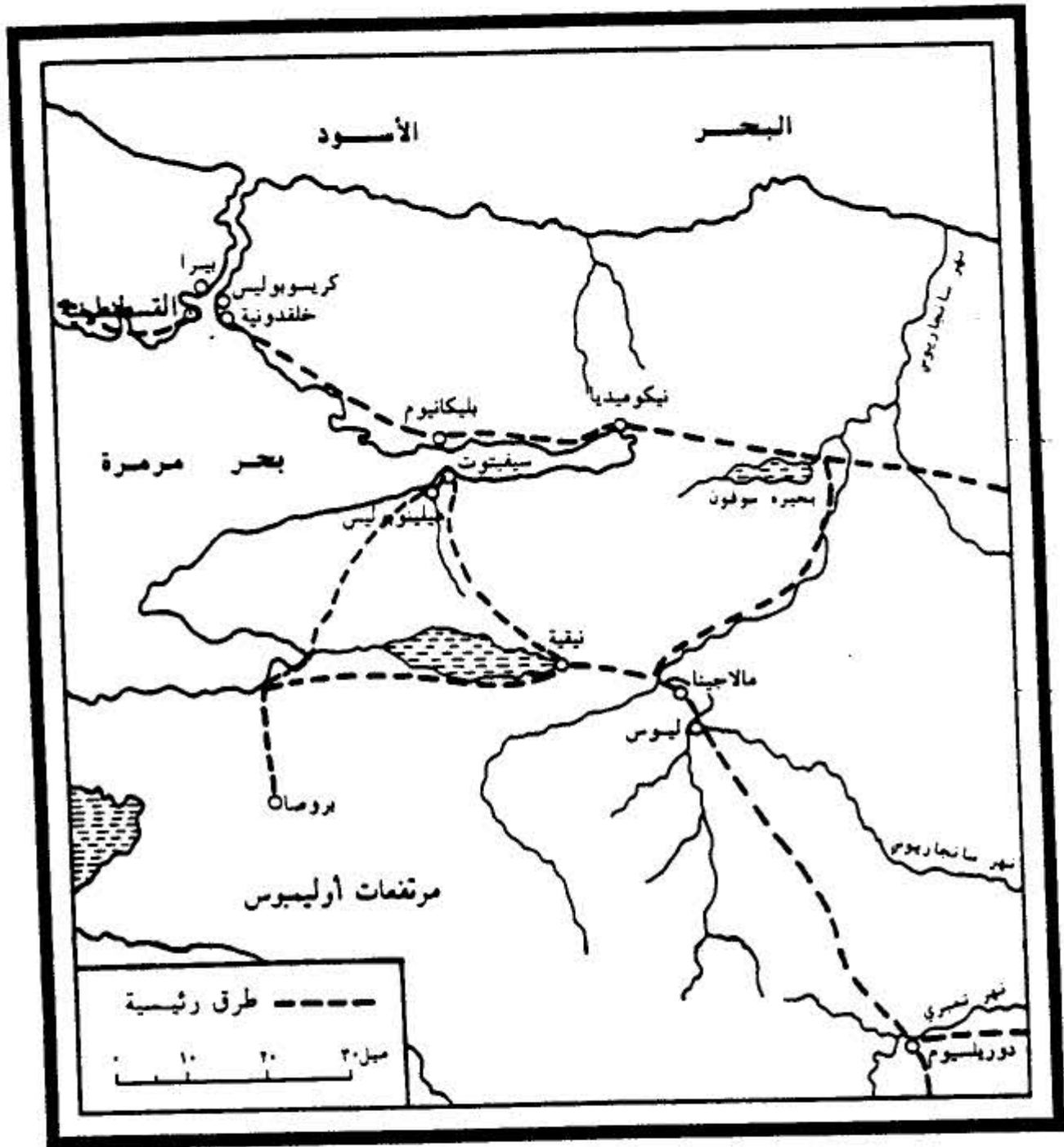
وفي الصباح التالي شرع الصليبيون في مسيرتهم على الطريق الذاهب إلى صوفيا، وبينما كانوا يغادرون المدينة أشعل بعض الألمان العابثين النيران في بعض الطواحين على جانب النهر، وكانوا قد تشاجروا مع أحد المواطنين في الليلة البارحة، وما أن سمع نيسيتاس بذلك حتى وأرسل جنودا ليهاجموا حرس المؤخرة، ويأسروا بعضهم، وكان بطرس على حماره في المقدمة على مسافة ميل تقريبا ولم يعلم بشيء من كل هذا إلى أن أسرع رجل يدعى لامبرت من المؤخرة وأخبره بما حدث، فكر راجعا لمقابلة نيسيتاس ولترتيب فدية الرهائن، بيد أنه حدث أثناء محادثتهما أن انتشرت بين صفوف الجيش شائعات عن القتال والخيانة، فاستدارت جماعة من المتهورين وأغارت على حصون المدينة، فدفعتهم الحامية وشتت عليهم هجوما مضادا، وعندما ذهب بطرس لكبح جماح رجاله ومحاولة إعادة الاتصال بنيسيتاس، أصرت جماعة أخرى على تجديد الهجوم، مما اضطر نيسيتاس إلى إطلاق قواته كلها على الصليبيين، فهزمهم هزيمة نكراء وشتت شملهم. وقتل كثيرون، وأسر آخرون من الرجال والنساء والأطفال، وأنفقوا بقية أيامهم في الأسر في المناطق المجاورة. وفقد بطرس ضمن ما فقد خزانة أمواله، وهرب بطرس نفسه مع رينالد أوف بري ووالتر أوف بريتول وحوالي خمسمائة من رجاله بجانب أحد الجبال وقد ظنوا أنهم هم فقط الباقون على قيد الحياة، ولكن لحق بهم سبعة آلاف آخرون في الصباح التالي وأكملوا مسيرتهم على الطريق. ونفذ منهم الطعام، فتوقفوا في مدينة بيلابالانكا المهجورة لجمع المحصول المحلي وهناك لحق بهم مشردون كثيرون آخرون، ولما عاودوا مسيرتهم اكتشفوا أنهم فقدوا ربع عددهم (١).

(١) . بذكر Albert of Aix, I, 9-12, pp. 278 أن الباقيين كانوا ثلاثين ألفا من أصل أربعين ألفا .

وصول بطرس إلى القسطنطينية

وفي ١٢ يولييه (تموز) وصلوا إلى صوفيا حيث قابلوا المبعوثين والحرس القادمين من القسطنطينية لمرافقتهم، ومعهم تعليمات من الإمبراطور بتزويدهم بكامل ما يلزمهم والعمل على ألا يتأخروا مطلقا لأكثر من ثلاثة أيام في مكان واحد، ومنذ ذلك الحين ورحلتهم تسير سيرا يسيرا. وكان أبناء البلاد المحليون يستقبلونهم بمظاهر السود، وفي مدينة فيليبوبوليس تأثرت مشاعر اليونانيين تأثرا عميقا بأقاصيص معاناتهم حتى أنهم تبرعوا لهم بالمال والخيول والبغال. وقبل وصولهم إلى مدينة أدرينوبل بمسيرة يومين قابلهم مبعوثون آخرون حيوا بطرس برسالة كريمة من الإمبراطور، وتقرر أن يغفر للحملة ما ارتكبته من جرائم، إذ أنها عوقبت بالفعل بما فيه الكفاية، فبكى بطرس فرحا لذلك المعروف الذي أنعم به عليهم عاهل عظيم كهذا. (١)

(٢) *Ibid.* I, 13-15, pp. 282-3; Anna Comnena, *Alexiad*, x, v-vi, vol. II, p. 210



خريطة رقم (١) : ضواحي القسطنطينية ونيقية في وقت الحملة الصليبية الأولى

ولم يتوقف الاهتمام الطيب الذي يكنه الإمبراطور عند وصول الصليبيين إلى القسطنطينية في أول أغسطس (آب). ومملكه الفضول لرؤية قائد الحملة، فاستدعى بطرس لمقابلة حيث منح المال والنصح. وأدرك ألكسيوس بعينه الخبيرة، أن الحملة لم تكن بذات وزن، بل كان يخشى إن عبرت إلى آسيا أن يدمرها الترك على الفور، على أن الفوضى الضاربة بين أفراد الحملة دفعته إلى أن يعجل بمغادرتها القسطنطينية؛ فقد ارتكب الغربيون سرقات لا حصر لها، واقتحموا القصور والدور في الضواحي، بل أنهم سرقوا الرصاص من أسطح الكنائس. وبرغم أن دخولهم القسطنطينية ذاقها سادة الانضباط الصارم، وعلى الرغم من السماح لمجموعة صغيرة فقط بعبور البوابات لمشاهدة المدينة، كان من المستحيل على الشرطة أن تحرس الضواحي كلها.

وبينما كان والتر المفلس ورجاله في القسطنطينية وصلت إلى هناك جماعات شتى من الحجاج الإيطاليين، وانضموا إلى حملة بطرس، وفي ٦ أغسطس (آب) نقلت قواته كلها عبر مضيق البوسفور. وساروا على الشاطئ الآسيوي ينهبون المنازل والكنائس دون أن يكبح شيء جماحهم بطول بحر مرمرية وحتى مدينة نيكوميديا التي كانت مهجورة منذ أن هاجمها الأتراك قبل خمسة عشر عاما. وهناك نشب شجار بين الألمان والإيطاليين من جهة، والفرنسيين من جهة أخرى؛ فقد شق الأولون عصا الطاعة على قيادة بطرس وانتخبوا قائدا لهم لوردا إيطاليا يدعى رينالد. ومن مدينة نيكوميديا تحول الجزءان المكونان للجيش باتجاه الغرب وبطول الساحل الجنوبي للخليج نيكوميديا إلى أن وصلا إلى معسكر حصين يطلق عليه اليونانيون سييوتوس ويسميه الصليبيون سيفيتوت، وكان ألكسيوس قد جهزه لمرتزقته من الإنجليز الموحودين في حوار

هيلينوبوليس، وكان المكان ملائماً لإقامة معسكر لخصب المنطقة ولإمكان إحضار الإمدادات من القسطنطينية بسهولة عن طريق البحر. (١)

غارات الصليبيين

وكان ألكسيوس قد حث بطرس على الانتظار وعدم محاولة الهجوم على الكفرة إلى أن تأتي الجيوش الصليبية الرئيسية، وتأثر بطرس بهذه النصيحة، لكن سلطته كانت تتضاءل، وبدلاً من أن يستجمع الصليبيون قوتهم في هدوء، انقسموا إلى الألمان والإيطاليين برئاسة رينالد من جهة، وأبناء جلدته الفرنسيين، ويبدو أن جيوفري بورييل أصبح صاحب السيطرة الفعلية عليهم من جهة أخرى وراح الفريقان يتنافسان في الإغارة على المناطق الريفية، وبادروا بنهب المنطقة المجاورة مباشرة، ثم توغلوا بحذر في الأراضي التابعة للأتراك، يغيرون على القرى وينهبون القرويين الذين كانوا كلهم مسيحيين يونانيين. وفي منتصف سبتمبر (أيلول) تجاسر عدة آلاف من الفرنسيين بالتوغل حتى بوابات مدينة نيقية وهي عاصمة السلطان السلجوقي قلع أرسلان ابن سليمان، وخربوا القرى الواقعة في الجوار وحاصروا قطعان وأسراب الماشية واستولوا عليها، وعذبوا وقتلوا المواطنين المسيحيين في وحشية مفرغة، وقيل إنهم كانوا يشوون الأطفال على السفود، وأرسلت فصيلة تركية من المدينة لكنها انسحبت بعد قتال مرير.

(١) 4-283, pp. I, 15, Albert of Aix ; ويرد في 6, p. 1, 2, Gesta Francorum ذكر

تصريفات الجيش، الصاحبة ؛ Anna Comnena, loc. cit. Orderic Vitalis. ix. 5. vol.

III, pp. 490-1 ويذكر المؤرخ "أوردريش فيتاليس" أن ألكسيوس أعد سيفيتوت Civetot

لجنوده الإنجليز. أنظر 4-363, pp. 1, Vasilievsky, Works (in Russian), vol.

و عن التواريخ أنظر 32, Hagenmeyer, Chronologie,

ثم عاد الصليبيون إلى سيفيتوت حيث باعوا الأسلاب لرفاقهم وللبحارة اليونانيين الذين كانوا بجوار المعسكر. وثارت نوازع الغيرة لدى الألمان من تلك الغارة الفرنسية الغائمة، فانطلقت في أواخر سبتمبر (أيلول) حملة بقيادة رينالد قوامها ستة آلاف رجل تضم قساوسة بل وأساقفة، وجاوزوا نيقية ناهبين مخربين أينما ذهبوا، لكنهم كانوا أكثر شفقة من الفرنسيين فأبقوا على المسيحيين، إلى أن وصلوا إلى قلعة كسيريجوردون، وتمكنوا من الاستيلاء عليها، ووجدوها مكدسة بالإمدادات من كل نوع، فقرروا أن يتخذوها قاعدة يغيرون منها على داخل البلاد. وما أن سمع السلطان بما اقترفه الصليبيون من فساد حتى أرسل قائدا عسكريا على مستوى عال على رأس قوة كبيرة لاستعادة القلعة التي كانت تقع على تل، وتحصل على إمدادات المياه من بئر خارج الأسوار مباشرة بالإضافة إلى ينبوع أسفل الوادي. وظهر الجيش التركي أمام القلعة في ٢٩ سبتمبر (أيلول)، وهو يوم عيد القديس ميخائيل، وهزم كميننا بقيادة رينالد واستولى على ينبوع وبئر الماء، وبذا أحكم الحصار على الألمان داخل القلعة، وسرعان ما أدى العطش إلى أن يدب اليأس في نفوسهم، وحاولوا امتصاص الرطوبة من الأرض، وقطعوا شرايين وأوردة خيولهم وحميرهم ليشربوا دماءها، بل وشربوا بول بعضهم البعض، وحاول قساوستهم عبثا تهدئتهم وتشجيعهم. وبعد ثمانية أيام من المعاناة قرر رينالد الاستسلام، وفتح البوابات للأعداء بعد أن حصل على وعد بالإبقاء على حياته إذا ما تخلى عن المسيحية، وقتل كل من بقى على دينه. أما رينالد ومن ارتد معه فأرسلوا في الأسر إلى أنطاكية وحلب وبعيدا داخل خراسان.

كارثة في سيفيتوت

وفي أوائل أكتوبر (تشرين الأول) وصلت أنباء استيلاء الألمان على كسيريجوردون إلى المعسكر في سيفيتوت، وأعقبها شائعة أطلقها اثنان من الجواسيس الأتراك بأنهم

استولوا على نيقية نفسها، وغاصوا في الأسلاب يغترفونها. وكما توقع الأتراك تسببت تلك الشائعة في نشوة صاحبة في المعسكر، وتصايح الجنود مطالبين السماح لهم بالإسراع في السير إلى نيقية، في طرق أعد فيها السلطان المكامن بعناية، ولقى قادتهم مشقة كبيرة في كبح جماحهم، إلى أن اكتشفت الحقيقة فجأة حول مصير حملة رينالد، فتحولت النشوة الصاخبة إلى دعر، واجتمع رؤساء الجيش للتشاور فيما يمكن عمله بعد ذلك. وكان بطرس قد ذهب إلى القسطنطينية بعد أن انتهت سلطته على الجيش، وكان يأمل في إحيائها بالحصول على بعض المعونات العينية الهامة من الإمبراطور. وتحرك البعض في الجيش مطالبين بالخروج للثأر من فاجعة كسيريجوردون، لكن والتر المفلس أقنع رفاقه بالتريث حتى عودة بطرس التي يحين موعدها في غضون ثمانية أيام. ومع ذلك لم يرجع بطرس، وفي تلك الأثناء جاءت الأنباء باقتراب قوة من الأتراك باتجاه سيفيتوت، فاجتمع مجلس الجيش مرة أخرى، وظل قادته من ذوي المسؤولية الأكبر — وهم والتر المفلس، ورينالد أوف بري، ووالتر أوف بريتول، وفولك أوف أورليانز، ومن الألمان هيو أوف توبنغن، ووالتر أوف تيك — يقنعون الباقين بألا يفعلوا شيئا إلى أن يعود بطرس، لكن جيوفري بوريل ومن ورائه الرأي العام في الجيش، أصر على أنه من الجبن والحماقة عدم التقدم لملاقاة الأعداء، وتم له ما أراد. وفي فجر الحادي والعشرين من أكتوبر (تشرين الأول) انطلق جيش الصليبيين كله وقد تجاوز عدده عشرين ألف رجل، تاركا وراءه في سيفيتوت المسنين والنساء والأطفال والمرضى.

وعلى بعد ثلاثة أميال تقريبا من المعسكر، حيث يدخل طريق نيقية واديا ضيقا مليئا بالأشجار، وبالقرب من قرية دراكون، كان الأتراك يتربصون في مكانهم. وسار الصليبيون بلا مبالاة يسبقهم صخبهم وقد تقدمهم الفرسان على ظهور خيولهم. وفجأة انهمر سيل السهام من الأشجار وقتل الخيول أو أعجزها، فراحت تكبو مضطربة وهي تقذف راكبيها من فوق ظهورها، وهنا هاجم الأتراك، وتعقبوا الفرسان الذين تقهقروا إلى صفوف المشاة. وحارب فرسان كثيرون بشجاعة، لكنهم لم يستطيعوا إيقاف الدعر

الذي أخذ من الجيش كل مأخذ، وفي دقائق قليلة كان الحشد كله يولسي الأدبار في فرضى عارمة إلى سيفيتوت. وفي المعسكر كانت الأعمال اليومية قد بدأت لتوها، فكان البعض من المسنين ما يزالون نائمين في الفراش، وهنا وهناك كان القساوسة يتسهيأون لإقامة قداس مبكر، واندفعت إلى المعسكر جموع الفارين المذعورين والعدو في أعقابهم. ولم تكن هناك مقاومة حقيقية؛ إذ قتل الجنود والنساء والقساوسة قبل أن يجدوا وقتا ليتحركوا، وهرب البعض في الغابات المحيطة والبعض الآخر في البحر، ولكن القليل منهم هرب لفترة طويلة، ودافع البعض عن أنفسهم للحظات بإشعال النيران التي دفعتها الرياح إلى أوجه الترك، ولم يبق الأتراك على أحد سوى الصبية والبنات حسني المظهر، مع قليل من الأسرى الذين أسروا بعد أن خبت جذوة القتال الأولى، وقد سيقوا كلهم إلى الرق. وكان هناك نحو ثلاثة آلاف أسعد حظا ممن سواهم تمكنوا من الوصول إلى قلعة قديمة مهجورة على البحر، وقد تفككت أبوابها ونوافذها، وعلى عجل تولدت لديهم طاقة دفعها اليأس، فأقاموا تحصينات من الأخشاب الملقاة ودعموها بالعظام واستطاعوا أن يصدوا هجمات الأعداء.

فشل حملة الشعب

وصمدت القلعة، على أنه في منتصف النهار كان كل شيء في الميدان قد انتهى فكانت الجثث تغطي الأرض من ممر دراكون إلى البحر، وكان من بين القتلى والتر المفلس، ورينالد أوف بري، وفولك أوف أورليانز، وهيو أوف توبنغن، والتر أوف تيك، وكونراد أوف زيمرن، وكثيرون من الفرسان الألمان. وكان القادة الوحيدون الذين بقوا على قيد الحياة جيوفري بوريل — الذي كان تهوره سببا في الكارثة — والتر أوف بريتول، ووليم أوف بويزي، وهنري أوف شوارزنبرج، وفريدريك أوف زيمرن، ورودولف أوف برانديس، وقد أصيبوا جميعا تقريبا بجروح خطيرة.

وحينما حلّ الظلام، تمكن يونانيّ كان مع الجيش من العثور على قارب أبحر به إلى القسطنطينية لينقل أخبار المعركة إلى بطرس والإمبراطور. وليس لدينا شيء مكتوب يصور مشاعر بطرس، لكن أليكسيوس أمر في الحال أن تبهر بعض السفن الحربية إلى سيفيتوت ومعها قوات قويّة. وعندما شاهد الأتراك الأسطول البيزنطي الصغير رفعوا الحصار عن القلعة وانسحبوا إلى الداخل، ونُقل الأحياء إلى السفن وأُعيدوا إلى القسطنطينية وخُصص لهم مكان إقامة في الضواحي، لكنهم جُردوا من أسلحتهم. (١)

وانتهت حملة الشعب التي راح ضحيتها ألوف كثيرة واستنفدت صبر الإمبراطور ورعيته، وبيّنت أن الإيمان وحده بلا حكمة ولا نظام لا يفتح الطريق إلى القدس.

(١) Alert of Aix, 1, 16-22, pp. 284-9, and *Gesta Francorum*, I, 2, pp. 6-12 يورد كلا التاريخين روايات عن المهنات والكارثة النهائية لجيش بطرس ويقول صاحب تاريخ *Gesta* -الذي لا بد وأن استقي روايته التاريخية من أحد الباقيين علي قيد الحياة قابله في القسطنطينية - في كل مكان من روايته إن ألكسيوس كان عدائياً إزاء بطرس وأنه ابتهج للمذبحة التي حدثت لرجاله ، رغم أنه يعود ويعترف بأنهم أساءوا التصرفوا وأحرقوا الكنائس أما رواية *Albert* فتظهر الإمتناع للإمبراطور لكرمه ولنصيحته الطيبة ولمبادرته بإنقاذ من بقوا علي قيد الحياة وتورد المؤرخة *Anna Comnena*, X, vi, 1-6 رواية أقصر تشكو فيها من تصرفات الفرنج وتقول إن بطرس - الذي تفترض خطأ أنه كان مع الجيش - ألقى باللوم علي التصرفات الشريرة التي أتاها من كانوا في الجيش ممن لم يطيعونه . ويورد تاريخ *Chronicle of Zimmern* قائمة بالألمان الذي قتلوا في سيفيتوت (p. 29).

الفصل الثانى:

الحملة الصليبية الألمانية

الحملة الصليبية الألمانية

"آه يا سيّد الربُّ، هل أنت مُهلك بقيّة
إِسْرَائِيل كُلِّهَا"

(حزقيال ٩ — ٨)

لم يتوقف الحماس الصليبي في ألمانيا برحيل بطرس الناسك إلى الشرق؛ إذ ترك وراءه حواريه جوتشوك ليجمع جيشًا آخر، وبدأ مبشرون وقادة آخرون كثيرون يتأهبون ليحذوا حذوه، على أنه برغم أن الألمان لبوا النداء بالألوف فقد كانوا أقل تلهفًا من الفرنسيين في الإسراع إلى الأرض المقدسة، فهناك ما يتعين إنجازه في الوطن.

كانت المستعمرات اليهودية قد أنشئت لقرون مضت بطول الطرق التجارية في أوروبا الغربية، وكان قاطنوها من اليهود السفرديم (١) الذين انتشر أسلافهم من حوض البحر المتوسط على مدى العصور المظلمة، وحافظوا على الروابط مع أقرانهم في الدين في بيزنطة والأراضي العربية، الأمر الذي مكّنتهم من أن يلعبوا دوراً كبيراً في التجارة الدولية، لاسيّما التجارة بين البلدان الإسلامية والمسيحية. وأفسح لهم حظر الربا في البلدان المسيحية الغربية، ومراقبته مراقبة صارمة في بيزنطة، المجال لإنشاء بيوت لإقراض النقود في سائر أنحاء العالم المسيحي، كما مكّنتهم مهاراتهم الفنية وتقاليدهم المستقرة من أن يحتلوا مكان الصدارة في ممارسة الطب. ولم يعانون مطلقاً من أي اضطهاد حقيقي في الغرب إلا في إسبانيا القوطية (٢) الغربية منذ أمد بعيد. ولم تكن لهم حقوق مدنية، ولكن السلطات — الدنيوية والدينية على السواء — كان يسرها أن تضفي حماية خاصة على من وراءه نفع من أمثالهم، ودائماً ما كان ملوك فرنسا وألمانيا يصادقونهم، كما كان رؤساء الأساقفة في المدن الكبيرة في أراضي الراين يحابونهم محابة خاصة، على عكس الفلاحين وفقراء المدن الذين تزايدت حاجتهم إلى المال بعد أن حلّ الاقتصاد النقدي محل اقتصاد الخدمات، فغرقوا في الديون أكثر فأكثر، وزاد استيائهم من اليهود أكثر فأكثر، بينما رفع اليهود أسعار الفائدة عوضاً عما يفتقدونه من الأمن القانوني، وكانوا كلما ساندتهم الحكام المحليون يحققون أرباحاً فاحشة.

(١) (المترجم) يهود السفرديم : أو يهود الفرع الغربي الأوروبي الذين استوطنوا إسبانيا والبرتغال ، ثم

اليونان وشرق البحر المتوسط وإنجلترا وهولندا والأمريكتين .

(٢) (المترجم) القوط Goth : شعب جرمني اجتاح الإمبراطورية الرومانية في القرون الأولى للميلاد .

والقوط الغربيون Visigoth : فرع القوط الذي استقر في إسبانيا وفرنسا من القرن الخامس إلى

القرن الثامن الميلادي .

الاستياء من اليهود

وطوال القرن الحادي عشر، وبازدياد طبقات المجتمع التي شرعت في الاقتراض من اليهود، تزايد مقت الشعب لهم. وزادتهم بدايات الحركة الصليبية مقتًا على مقت؛ إذ كان استعداد الفارس للذهاب إلى الحرب الصليبية وتجهيز نفسه أمرًا يتطلب أموالاً كثيرة، فإن لم يكن لديه أراض أو ممتلكات، فلا مفر له من الاقتراض من اليهود. ولكن أمن الصواب، كي يخرج هذا الفارس ليحارب من أجل العالم المسيحي، أن يقع في براثن أبناء الجنس الذي صلب المسيح؟ إن الصليبي الفقير كان دائمًا مدينًا لليهود، فهل من الصواب أن يُعاق واجبه المسيحي بالتزامات نحو واحد من الجنس الذي يفتقر إلى التقوى؟ إن التبشير الإنجيلي بالحرب الصليبية يركز على القدس التي شهدت الصلب، وكان لابد من أن يجذب ذلك التبشير الانتباه إلى من عانى المسيح على أيديهم. والمسلمون هم العدو الآن لأنهم يضطهدون أتباع المسيح، ولكن المؤكد أن اليهود هم الأسوأ لأنهم اضطهدوا المسيح نفسه. (١)

وقد سبق أن كان لدى الجيوش المسيحية إبان الحروب الإسبانية بعض الميل إلى إساءة معاملة اليهود؛ ففي زمن الحملة إلى باباسترو كتب البابا ألكسندر الثاني إلى أساقفة إسبانيا يذكرهم بالفرق الشاسع بين المسلمين واليهود، فالمسلمون أعداء للمسيحيين لا يمكن التصالح معهم، بينما اليهود على استعداد للعمل من أجل المسيحيين. على أن اليهود في إسبانيا كانوا يحظون بما أضفاه عليهم المسلمون من معروف بحيث لا يستطيع الغزاة المسيحيون أن يولوهم ثقتهم. (٢)

في ديسمبر (كانون الأول) سنة ١٠٩٥ ميلادية راسلت الجماعات اليهودية في شمال فرنسا يهود ألمانيا يحذرونهم من أن الحركة الصليبية ربما تسبب المتاعب

(١) عن وضع اليهود في هذه الفترة أنظر pp. 89 ff. Graetz, *Geschichte der Juden*, vol vi, pp.

(٢) Letter in *M.P.L.* vol. clxvi, col. 1387.

لجنسهم. (١) ونقلت روايات عن مذبة لليهود في روين (٢)، ويستبعد أن تكون هذه المذبحة قد حدثت في الواقع. بيد أن اليهود بلغوا من التوحش حدا يتيح لبطرس الناسك أن يحقق مأربا منهم، وألح لهم، دون شك، أنه إذا سارت الأمور على غير ما يرجو فقد يجد صعوبة في السيطرة على أتباعه. وبذا حصل من اليهود الفرنسيين على خطابات تقدم موجهة إلى المجتمعات اليهودية في سائر أنحاء أوروبا تدعوهم إلى الترحيب به، وتقديم كل الإمدادات التي قد يطلبها هو وجيشه. (٣)

وفي تلك الأثناء تقريبا بدأ دوق اللورين الأسفل جودفري أوف بويلون ترتيباته للخروج في الحملة الصليبية. وسرت شائعة في أرجاء المقاطعة بأنه أقسم قبل رحيله أن يثار لموت المسيح بدم اليهود؛ فقام اليهود الفرعين في أراضي الراين بحث حاخامهم الأكبر كالونيموس كي يكتب إلى الإمبراطور هنري الرابع — وهو السيد الإقطاعي الذي يتبعه جودفري، والذي دائما ما كان يظهر الود لجنسهم، ليدعوه إلى منع ذلك الاضطهاد. وفي ذات الوقت، ولكي تكون الجماعات اليهودية في ميستر وكولونيا في جانب الأمان، قدمت كل منها إلى الدوق مبلغ خمسمائة قطعة فضية. وكتب هنري إلى أتباعه الرئيسيين، من الدنيويين والكنسيين، يأمرهم بأن يضمنوا سلامة جميع اليهود في أراضيهم. ولما رأى جودفري أنه نجح بالفعل في ابتزازهم أجاب بأنه لم يفكر في الاضطهاد على الإطلاق، وأعطى الضمان المطلوب عن طيب خاطر. (٤)

(١) Hagenmeyer, *Chronologie*, p. 11; Anonymous of Mainz-Darmstadt, in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. ii, p. 169

(٢) (المترجم) روين : مدينة وميناء شمال شرق فرنسا على نهر السين .

(٣) Salomon bar Simeon, *Relation*, in Neubauer and Stern, *op. cit.* pp. 25, 131

The Notitiae Duae Lemovicenses de praedicatione Crucis in Aquitania, p. 351

وفي هذا التاريخ الأخير إلماع بعبارات غامضة إلى مذابح حدثت في مختلف المدن الفرنسية .

(٤) Salomon bar Simeon, p. 87; Ekkehard, *Chronicon*, ad ann. 1098, p. 208

وإذا كان في مأمول اليهود إنقاذ أنفسهم من تهديدات الحمية المسيحية بمثل هذا الثمن البخس فسرعان ما يكتشفون أنهم قد خدعوا؛ ذلك أنه في نهاية إبريل (نيسان) سنة ١٠٩٦ ميلادية انطلق المدعو فولكمار، الذي لا نعرف شيئا عن أصله، من أراضي الراين وبصحبه ما يزيد على عشرة آلاف رجل ليلحقوا بطرس في الشرق. وسلك الطريق الذاهب إلى المجر عبر بوهيميا^(١)، وبعد ذلك بأيام قليلة رحل تلميذ بطرس القديم جوتشوك مع مجموعة أكبر قليلا عبر الطريق الرئيسي الذي سلكه بطرس أعلى نهر الراين وعبر بافاريا^(٢). وفي نفس الوقت قام لورد صغير في أراضي الراين هو الكونت إيمش أوف ليزنجن بجمع جيش ثالث، وكان قد اكتسب شهرة معينة تتصف بالفوضى وقطع الطرق. على أنه زعم أن الصليب قد طبع على لحمه بمعجزة. وفي ذات الوقت استطاع، وهو الجندي المعروف بخنكته، أن يجتذب إلى لوائه نوعية ضخمة وهائلة من المجندين ويتحكم فيها بشكل يفوق ما يستطيعه الواعظان فولكمار وجوتشوك، وانضم إليه حشد من الحجاج المتحمسين البسطاء، تتبع البعض منهم "أوزة" زعموا أن الوحي هبط عليها من الرب. لكن جيشه كان يضم كذلك بعضا من النبلاء الفرنسيين والألمان مثل لوردات زويبروكن، وسالم، وفيرنبرجر، وهاريمان أوف ديلينجن، ودوجو أوف نيسل، وكلارامبالد أوف فيندويل، وتوماس أوف لافير، ووليم فايكونت أوف ميلون الذي اكتسب لقب النجار بسبب قوته البدنية الهائلة^(٣).

(١) Ekkehard, *Hierosolymita*, p. 20; Cosmas of Prague, *Chronicon*, III, 4, p. 103

(المترجم) : بوهيميا : تشيكوسلوفاكيا الحالية .

(٢) Albert of Aix, I, 23, pp. 289-90; Ekkehard, *op. cit.* p. 20

(٣) Albert of Aix, I, 27, 28, pp. 292-4, 30, p. 295, 31, p. 299; Ekkehard, *op. cit.* p. 20-1

المذابح الأولى

وربما كان صنيع بطرس والدوق جودفري هو الذي أوحى إلى إيميش بمدى سهولة استغلال الحمية الدينية لتحقيق مصلحته الذاتية ومصلحة رفاقه، فتجاهل الأوامر الخاصة التي أصدرها الإمبراطور هنري، وحث أتباعه على الشروع في حملتهم الصليبية في الثالث من مايو (آيار) بهجوم على الأقلية اليهودية في ناحية سباير القريبة من منزله. ولم يكن هجومه مؤثراً، فقد أسبغ أسقف سباير حمايته على اليهود الذين استأثروا بتعاطفه معهم بعد أن قدموا إليه هدية قيمة. ولم يقع في أسر الصليبيين سوى اثني عشر يهودياً ذبحوا بعد رفضهم اعتناق المسيحية. وانتحرت واحدة من اليهوديات لتحافظ على عفتها، وأنقذ الأسقف الباقين، بل واستطاع القبض على عدد من القتلة وقطعت أيديهم جزاء ما فعلوا. (١)

وبرغم ضالة مذبح سباير إلا أنها فتحت الشهية؛ فقد وصل إيميش وجنوده إلى ورمز في الثامن عشر من مايو (أيار)، وسرعان ما انتشرت شائعة بأن اليهود خطفوا مسيحياً وأغرقوه واستخدموا الماء الذي حفظوا فيه جثته في تسميم آبار المدينة. ولم يكن اليهود محبوبين في ورمز ولا في المناطق الريفية المحيطة، وترتب على الشائعة أن انضم أبناء المدينة والفلاحون إلى رجال إيميش في هجومهم على حي اليهود، وقتل كل من ألقى القبض عليه من اليهود. وكما حدث في سباير، تدخل الأسقف وفتح قصره ليلوذ به اليهود، على أن إيميش والجموع الغاضبة اقتحمت البوابات واندفعت إلى

Salomon bar Simeon, Eliezerbar Nathan and Anonymous of Mainz-Darmstadt, in Neubauer and Stern, *op. cit.* vol. ii, pp. 84, 154-6, 171; Bernold, *Chronicon*, p. 465

(١)

الكنيسة حيث قتلوا - رغم اعتراضات الأسقف - كل ضيوفه البالغ عددهم نحو خمسمائة. (١)

مذابح في ميتر وكولونيا

وقعت مذبحه ورمز في العشرين من مايو (أيار)، وفي الخامس والعشرين وصل إيميش أمام مدينة ميتر العظيمة، ووجد بواباتها مغلقة دونه بأوامر من رئيس الأساقفة روثارد، إلا أن أخبار مجيئة أثارت أعمال الشغب المناهضة لليهود داخل المدينة وقتل أثناءها أحد المسيحيين. وهكذا فتح أصدقاء إيميش بوابات المدينة من الداخل في السادس والعشرين من مايو (أيار)، وأرسل اليهود المتجمعين في معبدهم هدايا عبارة عن مائتي مارك فضي لرئيس الأساقفة ورئيس المدينة اللورد الدنيوي متوسلين أخذهم إلى قصرهما. وفي نفس الوقت ذهب مبعوث يهودي إلى إيميش وابتاع منه وعدًا بالإبقاء على حياتهم في مقابل سبعة جنيهات ذهبية. لكن النقود ذهبت هباء؛ فقد هاجم في اليوم التالي قصر رئيس الأساقفة روثارد الذي أسرع بالفرار مع مساعديه كلهم بعد أن استشعر الخطر من حماس المهاجمين الذين اقتحموا المبنى فور رحيله، وحاول اليهود المقاومة لكنهم سرعان ما غلبوا وقتلوا. وربما كان حاميه الدنيوي الذي اندثر اسمه أكثر شجاعة، ولكن إيميش نجح في إشعال النيران في قصره وأجبر نزلاءه على إخلائه، وأنقذ العديد من اليهود أرواحهم بالارتداد عن دينهم وقتل الباقون. واستمرت المذبحة ليومين آخرين، بينما كان يجري جمع الهاربين. وندم بعض المرتدين على ضعفهم فانتحروا، وقام أحدهم قبل أن يقتل نفسه وعائلته بحرق المعبد اليهودي ليدرأ عنه المزيد من التخريب، وهرب الحاخام الأكبر كالونيموس من المدينة ومعه نحو خمسين يهوديًا

(٢) Salmon bar Simeon, p. 84; Eliezer bar Nathan, pp. 155-6; Anonymous of Mainz-Darmstadt, p. 172

إلى مدينة روديشيم، وتوسلوا إلى رئيس الأساقفة — الذي كان في القصر الريفى الخاص به — أن يحميهم، ولما رأى رئيس الأساقفة الفرع بادياً على زائريه بدا له أن اللحظة مواتية ليراودهم عن دينهم، وكان ذلك فوق ما يتحمله كالونيموس، فاختطف سكيناً وانقض على مضيّفه، غير أنه حيل بينه وبين ذلك. ودفع هو ورفاقه أرواحهم ثمناً للتهور. وبلغ عدد الذين قتلوا في ميتر نحو ألف من اليهود. (١)

وتقدم إيمش بعد ذلك باتجاه كولونيا التي حدثت فيها بالفعل أعمال شغب مناهضة لليهود في شهر إبريل (نيسان). وأصيب اليهود بالهلع لدى سماع أنباء ميتر، فتبعثروا في القرى المجاورة وفي منازل أصدقائهم من النصارى الذين أخفوهم يوم عيد العنصرة، أول يونية (حزيران)، واليوم التالي له، أثناء وجود إيمش في الجوار. وقد أحرق المعبد اليهودي وقتل يهودي ويهودية رفضا الارتداد، ولكن نفوذ رئيس الأساقفة حال دون التماذي في الاضطهاد. (٢)

وفي كولونيا قرر إيمش أن مهمته في أراضي الراين قد اكتملت، فانطلق في أوائل يونية (حزيران) مع سواد قواته أعلى نهر مين إلى البحر. ولكن جماعة من أتباعه رأّت أن وادي نهر موسيل ينبغي تطهيره هو الآخر من اليهود، وانفصلوا عن جيشه في مدينة ميتر وواصلوا السير إلى تراير في أول يونية (حزيران)، حيث كان أغلب اليهود آمنين لائذين بقصر رئيس الأساقفة. وما أن اقترب الصليبيون حتى أصيب بعض اليهود بالذعر فشرعوا يتقاتلون فيما بينهم، بينما ألقى آخرون بأنفسهم في نهر موسيل

(١) Salomon bar Simeon, pp. 87-91; Anonymous of Mainz-Darmstadt, pp. 178-80; Albert of Aix, 1, 27, pp. 292-3

كولونيا.

(٢) Salomon bar Simeon, pp. 116-17; Martyrology of Nuremburg, p. 109; Albert of Aix, 1, 26, p. 292

وغرقوا. ثم تحرك مضطهدوهم إلى ميتر حيث قضوا على اثنين وعشرين يهوديًا. ورجعوا إلى كولونيا في حوالي منتصف يونية (حزيران) أملين الانضمام إلى إيميش مرة أخرى، ولما وجدوه قد رحل تقدموا أسفل نهر الراين وراحوا يقتلون اليهود في نيوس، ووفيلنجوفن، وإلار، وكسانتين في الفترة من الرابع والعشرين إلى السابع والعشرين من يونية (حزيران)، ثم تفرقوا فرجع البعض إلى بيوتهم، وربما التحق آخرون بجيش جودفري أوف بويلون. (١)

ووصلت أنباء أعمال القتل المجيدة التي حققها إيميش إلى الجماعات التي كانت قد رحلت بالفعل من ألمانيا إلى الشرق. ووصل فولكمار وأتباعه إلى براغ في نهاية ماير (أيار). وفي الثلاثين من يونية (حزيران) بدأوا في تقتيل اليهود في المدينة، ولم تكن السلطات الدنيوية قادرة على السيطرة عليهم، كما لم يكن لاعتراضات الأسقف كوسماس العنيفة أيّ صدى. وسار فولكمار من براغ إلى داخل المجر، ويبدو أنه حاول في مدينة نيترا، وهي أول مدينة كبيرة عبر الحدود، أن يسير على نفس الدرب، لكن المجريين لم يسمحوا بمثل هذه التصرفات، ولما وجدوا الصليبيين على هذا النحو من المشاكسة التي تستعصي على الإصلاح هاجمهم وشتتوا شملهم، فقتل كثيرون ووقع آخرون في الأسر، ولم يُعرف مصير فولكمار والباقيين على قيد الحياة. (٢)

وأما جوتشوك ورجاله، الذين اتخذوا الطريق الذي يمضي خلال بافاريا، فقد توقفوا في راتيسبونند ليدبحوا اليهود هناك. وبعد ذلك بأيام قليلة دخلوا المجر عند فيسلبورج (موسون)، وأصدر الملك كولومان أوامره بمنحهم تسهيلات لإعادة تموينهم طالما كانوا ملتزمين بالنظام. لكنهم كانوا قد بدعوا نهب البلاد منذ البداية، وراحوا

salomon bar Simeon, pp. 117-37; Eliezer bar Nathan, pp. 160-3

(١)

Cosmas of Prague, *loc. cit.*

(٢)

يسرقون النبلذ والغلال والأغنم والثيران، وقاوم الفلاحون المجرىون هذا النهب. وحدث قتال وسقطت أعداد كثيرة، وقتل الصليبيون صبيًا مجريًا صغيرًا بالخازوق، فأرسل كولومان جنودًا للسيطرة عليهم، وأحاطوا بهم في قرية ستولفيزنبرج الواقعة إلى الشرق قليلًا، وأرغموهم على تسليم أسلحتهم والأمتعة التي سرقوها كلها. ولكن المتاعب استمرت، فرما حاولوا المقاومة، وربما سمع كولومان آنذاك بأحداث نيترا، ومن ثم لم يمكنه أن يثق بهم حتى وإن ألقوا سلاحهم. وانقض عليهم الجيش المجري وهم تحت رحمته وكان جوتشوك أول الهاربين ولكنه سرعان ما وقع في قبضتهم وقتل وتم القضاء على جميع رجاله في المذبحة. (١)

نهاية حملة إيميش

وبعد تلك الأحداث بأسابيع قليلة، اقترب جيش إيميش من الحدود المجرية، وكان أعظم من جيش جوتشوك وأكثر هولاً، واستشعر الملك كولومان الخطر الجسيم بعد تجاربه تلك بالأمس القريب، ولذا رفض السماح بعبور إيميش خلال مملكته حينما طلب الإذن بذلك، وأرسل جنودًا لحماية الجسر الموصل إلى فيسيلبرج فوق رافد لنهر الدانوب. ولم يكن إيميش بالرجل الذي يحيد عن قصده وحارب المجريين على مدى ستة أسابيع في سلسلة من المناوشات الصغيرة أمام الجسر بينما كان يبني جسرًا بديلًا آخرًا، وفي نفس الوقت كان رجال إيميش ينهبون البلاد في ضفة النهر التي في حوزتهم. وأخيرًا تمكن الصليبيون من شق طريقهم عبر الجسر الذي بنوه، وحاصروا قلعة فيسيلبرج ذاتها، وكان جيشهم جيد التجهيز، ولديهم من أسلحة الحصار القوية ما جعل سقوط المدينة يبدو وشيكًا. غير أنه يحتمل أن شائعة انتشرت بأن الملك قادم بكامل قواته،

Ekkehard, *op. cit.* pp. 20-1; Albert of Aix, 1, 23-4, pp. 289-91

(١)

فأصاب الصليبيين دعر مفاجئ تركهم في فوضى عارمة، وعلى الأثر خرجت الحامية وانقضت على معسكرهم، ولم يستطع إيميش أن يعيد تنظيم رجاله، ودارت معركة قصيرة اجثت فيها شأفتهم تماما، وسقط أغلبهم في الميدان، واستطاع إيميش نفسه وقليل من الفرسان الهرب على خيلهم السريعة. وأخيرا عاد إيميش ورفاقه إلى بيوتهم. أما الفرسان الفرنسيون كلارامبالد أوف فيندويل، وتوماس أوف لافير، ووليم النجار فقد التحقوا بحملات أخرى متجهة إلى فلسطين. (١)

وكان لانهيار حملة إيميش الصليبية، في أعقاب انهيار حملتي فولكمار وجوتشوك، اثر عميق في العالم المسيحي الغربي. وبدا الأمر للمسيحيين الطيبين على أنه عقاب نزل عليهم من السماء جزاء قتلهم اليهود. وأما الآخرون الذين كانوا يرون أن الحركة الصليبية كلها حمق وخطأ، فقد رأوا في هذه الكوارث استنكارا صريحا من الرب للحركة الصليبية كلها. ولم يحدث بعد أي شيء يبرر الصيحة التي ترددت أصدائها في كليرمونت "الرب يشاؤها". (٢)

(١) Ekkehard, *op. cit. loc. cit.*; Albert of Aix, 1, 28-9, pp. 293-5

(٢) Albert of Aix, 1, 29, p. 259 ويقول Ekkehard, *Hierosolymita*, p. 21 إن أناسا كثيرين ظنوا أن فكرة الحملة الصليبية فكرة حمقاء لا طائل من ورائها.

الفصل الثالث:

الأمراء والإميراطور



المفتدين

الأمراء والإمبراطور

"أَيُّكُمْ التَّضَرُّعَاتِ إِلَيْكَ أَمْ يَتَكَلَّمُ
مَعَكَ بِاللِّسَنِ، هَلْ يَقْطَعُ مَعَكَ
عَهْدًا"

(سفر أيوب: إصحاح ٤١، ٣ - ٤)

كان الأمراء الغربيون الذين أخذوا الصليب أكثر صبراً من بطرس وأصدقائه. وكانوا على استعداد للالتزام بالجدول الزمني الذي وضعه البابا؛ إذ كان يجب تجميع جنودهم وتجهيزهم ، وينبغي جمع الأموال لهذا الغرض، وعليهم أن يضعوا الترتيبات

لإدارة الحكم في أراضيهم أثناء غيبتهم التي قد تطول لسنوات، ولم يكن أحد منهم على استعداد للرحيل قبل نهاية شهر أغسطس (آب).

وكان أول من غادر موطنه هو هيو، كونت فيرماندوا، المعروف باسم الأصغر. وهو الابن الأصغر للملك هنري الأول الفرنسي، وابن الأميرة آن أوف كييف ذات الأصل الإسكندنافي، وقد جاوز عمره آنذاك الأربعين بقليل. ويتميز بالمتزلة الرفيعة أكثر مما يتميز بالثروة، وقد حصل على مقاطعته الصغيرة بزواجه من وريثتها، ولم يكن له أي دور بارز في السياسة الفرنسية، وكان فخوراً بنسبه، ولم يكن من ذوي القدرة على العمل الفعال. ولا نستطيع أن نستشف دوافعه للانضمام إلى الحملة الصليبية، ولا شك في أنه ورث قلق أسلافه الإسكندنافيين، وربما شعر أن باستطاعته في الشرق الحصول على القوة والثراء الخليقين بمنبته الرفيع. وربما شجعه أخوه الملك فيليب على اتخاذ قراره هذا لتفوز الأسرة بالخطوة لدى البابوية. ولقد ترك أراضيهِ في رعاية الكونتيسة، وانطلق في أواخر أغسطس (آب) إلى إيطاليا على رأس جيش صغير من أتباعه وبعض الفرسان التابعين لأخيه. وقبل رحيله أرسل رسولاً خاصاً يسبقه إلى القسطنطينية يطلب من الإمبراطور أن يتهيأ لاستقباله بمظاهر الحفاوة التي تليق بأمرٍ تجري في عروقه دماء ملكية. وفي طريقه إلى الجنوب انضم إليه دروجو أوف نيسل، وكلامبالد أوف فندويل، ووليم النجار وغيرهم من الفرسان الفرنسيين العائدين من كارثة حملة إيميش.^(١)

ومرّ هيو وصحبته بروما، ووصلوا باري في أوائل أكتوبر (تشرين الأول)، وفي

(١) Anna Comnena, *Alexiad*, x, vii, II, p.213; *Gesta Francorum*, p.14; Fulcher

of Chartres, p. 144-5 وتغيرنا أنا كومنينا أن كوتنا يونانيا صاحب الحملة (x, vii, 3, p.

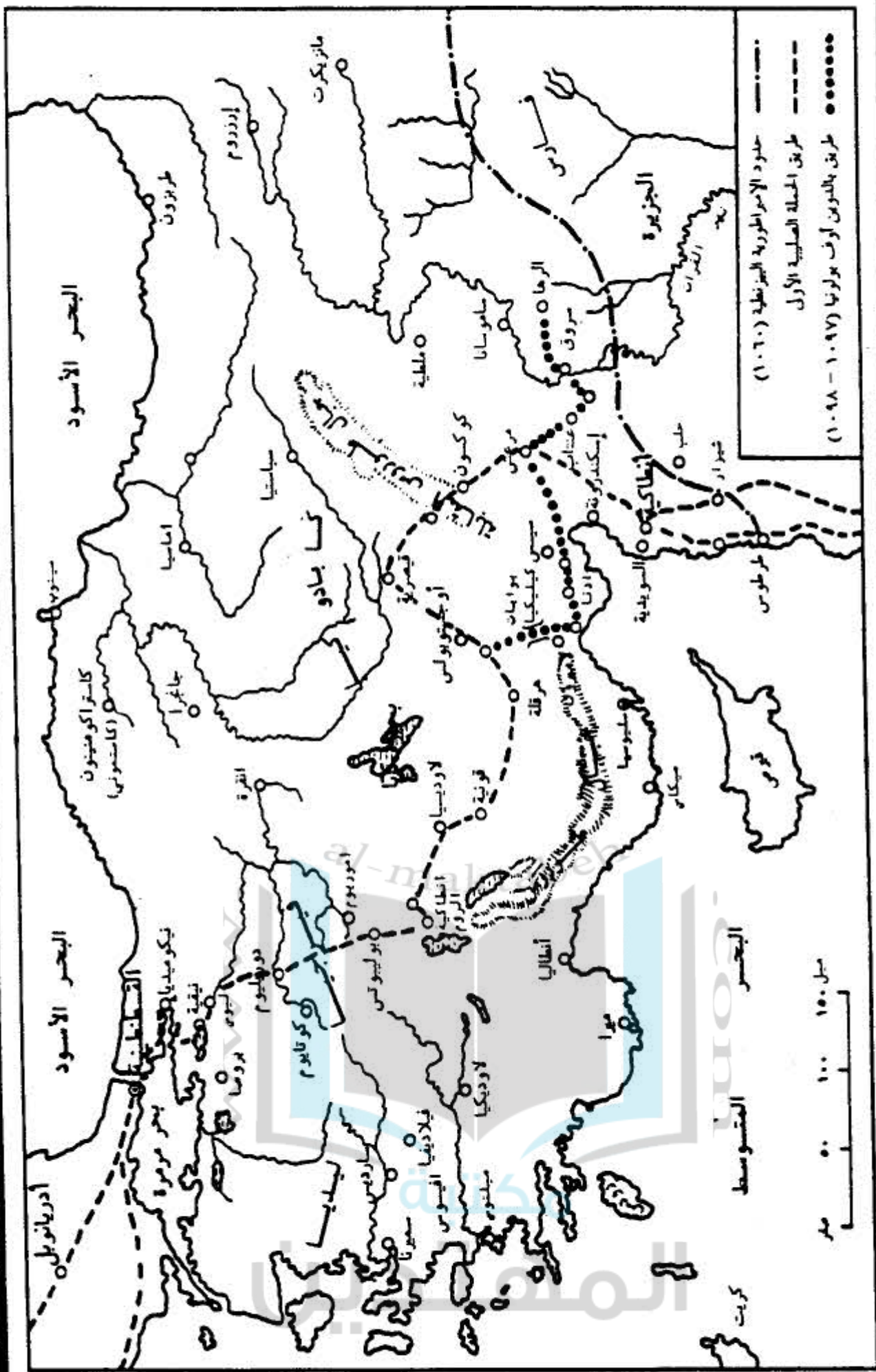
213)، ويقول ألبرت أوف آيكس إن Drogo and Carambald كانا معه. وتطلق أنا

كومنينا على هيو Hugh اسم "أوفوس Uvos"

جنوب إيطاليا وحدوا الأمراء النورماندين يستعدون للحرب الصليبية. وقرر وليم -

ابن أخت بوهيموند - ألا ينتظر أقاربه وأن يعبر البحر مع هيو. ومن باري أرسل هيو سفارة من أربعة وعشرين فارساً بقيادة وليم النجار إلى ديرهاكيوم لإخطار حاكمها بأنه على وشك الوصول، وأعاد طلبه بإعداد استقبال يليق به، وهكذا استطاع الحاكم جون كومنينوس إخطار الإمبراطور بقدومه، واستعد هو نفسه لاستقباله. بيد أن وصول هيو لم يحظ بالتكريم الذي منى نفسه به؛ إذ هبت عاصفة حطمت أسطوله الصغير الذي استأجره للعبور وغرقت بعض سفنه بجميع ركابها، ولفظ اليم هيو على الشاطئ عند كاب بالي إلى الشمال من ديرهاكيوم بأميال قليلة حيث وجده مبعوثو الحاكم ذاهلاً غطاءه الوحل، ورافقوه إلى سيدهم الذي أعاد تجهيزه على الفور وأولم له وأحاطه بكامل الرعاية، لكنه وضعه تحت مراقبة دقيقة. واغتبط هيو لما وجده من رعاية ومثلق، وإن بدا لبعض أتباعه وكأنه سجين. وبقي هيو في ديرهاكيوم إلى أن جاء من قبل الإمبراطور مسئول على مستوى عال هو أمير البحار متنويل بوتوماتيس لمصاحبته إلى القسطنطينية. وكانت رحلته مريحة رغم أنه اضطر إلى أن يسلك طريقاً دائرياً حول فيليبوبوليس؛ إذ لم يشأ الإمبراطور أن يتصل هيو بالحجاج الإيطاليين المتزاحمين على طريق فيا إجناتيا. وفي رحلته مريحة رغم أنه اضطر إلى أن يسلك طريقاً دائرياً حول فيليبوبوليس؛ إذ لم يشأ الإمبراطور أن يتصل هيو بالحجاج الإيطاليين المتزاحمين على طريق فيا إجناتيا. وفي القسطنطينية حياة ألكسيوس بحرارة وأغرقه بالهدايا، لكنه استمر في تقييد حريته . (١)

(١) Anna Comnena, x, vii, 2-5, vol. II, pp. 213-15 ، التي تعترف بأن جون كومنينوس لم يترك هيو في كامل حريته وقصتها كاملة ومقنعة . أما المصادر الغربية - *Gesta Francorum* و Fulcher و Albert - فتعلن أنه احتجز سجيناً سجننا مطلقاً لا حول له ولا قوة . ولا تدل تصرفاته اللاحقة على ذلك .



خريطة رقم (٣) : آسيا الصغرى في وقت الحملة الصليبية الأولى

وعند وصول هيو اضطر ألكسيوس إلى الإعلان عن سياسته تجاه الأمراء الغربيين. فقد اقتنع من المعلومات التي توفرت لديه، وتذكره لمصير روسيل أوف بيلويل، أنه مهما تكن الأسباب الرسمية المعلنة للحرب الصليبية، فإن الهدف الحقيقي للفرنج هو أن يحصلوا على إمارات في الشرق. ولم يكن ليعترض على ذلك. ومادامت الإمبراطورية قد استردت جميع الأراضي التي كانت في حوزتها قبل الغزوات التركية، فهناك تفكير آنذاك في أن تكون تلك الدويلات مستقلة. ذلك أن ألكسيوس أراد التأكد من أنه سيكون من الواضح أنه السيد الأعلى لآية دويلة قد تنشأ. ولعلمه أن الولاء في الغرب يؤخذ بقسم غليظ، فقد قرر أن يطلب من جميع القادة الغربيين أن يقسموا هذا القسم كي يساندهم في غزواتهم المقبلة. ولكي يضمن التزامهم بالقسم كان على استعداد لأن يغمرهم بعطاياه وإعاناته مما يؤكد ثرائه ومجده فلا يشعرون انتقاصاً لكرامتهم إذا ما أصبحوا رجال الإمبراطور. وانبهر هيو بعظمة الإمبراطور وكرمه، فوافق على خططه عن طيب خاطر. على أنه لم يكن من اليسير إقناع من جاء بعده من الغرب بذلك.

جودفري أوف لورين

وأما جودفري أوف بويلون، دوق اللورين الأسفل، فيظهر في الأساطير المتأخرة على أنه الفارس المسيحي المثالي والبطل الفذ في الملحمة الصليبية بكاملها. بيد أن الدراسة المدققة للتاريخ لا بد لها من أن تعدل هذا الحكم. ولد جودفري سنة ١٠٦٠ ميلادية تقريباً وهو الابن الثاني للكونت إيوستاس الثاني أوف بولونيا وإيدا، ابنه جودفري الثاني دوق اللورين الأسفل الذي ينحدر من ناحية أمه من شارلمان. واختير وريثاً لممتلكات عائلة أمه، ولكن بعد موت والدها صادر الإمبراطور هنري الرابع الدوقية، ولم يترك لجودفري سوى كونتيه أنتويرب ولورديه بويلون في آردن(١).

(١) (المترجم) آردن (Ardennes): هضبة مشجرة شمال شرق فرنسا وجنوب بلجيكا ولوكسمبورج.

ومع ذلك كان جودفري مخلصا للإمبراطور في حملته الألمانية والإيطالية سنة ١٠٨٢ ميلادية ، حتى خلع عليه الإمبراطور الدوقيه ولكن كمنصب وليس كإقطاعية موروثه . وكانت اللورين غارقة في النفوذ الكلاي، ومن الجائز أن تكون التعاليم الكلونية بما فيها من تعاطف بابوي قوي، بدأت تسبب الاضطراب في ضمير جودفري، برغم إخلاصه للإمبراطور. ولم تكن إدارته للورين إدارة تتصف بالكفاءة، ويبدو أنه كانت هناك بعض الشكوك فيما إذا كان الإمبراطور هنري الرابع سوف يستمر في استخدامه. وهكذا، فإن تلبيته لنداء الحرب الصليبية تنبع من يأسه من مستقبله في اللورين من ناحية، ومن مشاعر القلق المتعلقة بإخلاصه الديني من ناحية أخرى، ومن حماسه الأصيل من ناحية ثالثة. وأعد ترتيباته إعدادا شاملا؛ فبعد أن جمع الأموال ابتزازا من اليهود باع ضياعه في روزاي وستيناي الواقعة على نهر ميوز^(١)، ورهن قلعته في بويلون لدى أسقف لييج. وبذا تمكن من تجهيز جيش ضخم، فكان ذلك بالإضافة إلى منصبه الرفيع السابق يسبغان عليه هبة زاد منها طبعه اللطيف ومظهره الوسيم، إذ كان طويل القامة، قوي البنية، أشقر اللون، أصفر شعر اللحية والرأس، أي الصورة المثالية للفرس الشمالي. ولكنه كان جنديا غير مكترث، وأما شخصيته فقد توارت في ظل شخصية أخيه الأصغر بالدوين.

وأخذ أخوه الصليب أيضا. فأما الأكبر إيوستاس الثالث كونت بولونيا، فكان صليبيًا غير متحمس، في شوق دائم إلى العودة إلى أراضي الخصبه على جانبي القنال الإنجليزي، وكان عدد الجنود الذين قدمهم يقل بكثير عما أسهم به جودفري، واكتفى بأن يتطلع إلى جودفري على أنه القائد. ربما ارتحل بمفرده عبر إيطاليا. وأما الأخ الأصغر بالدوين الذي صاحب جودفري، فكان من نمط مختلف؛ إذ كان مُقدراً له من قبل أن يصبح قسيساً، ولذا لم يخصص له أي شيء من ممتلكات الأسرة. وعلى الرغم

(١) (المترجم) ميوز Meuse: نهر يتدفق من شمال شرق فرنسا عبر بلجيكا وهولندا إلى بحر الشمال .

من أن تدريبه في المدرسة الكبرى في ريم أكسبه تذوقا للثقافة، فلم تكن طباعه طباع رجل الكنيسة. فعاد إلى الحياة الدنيوية ومن الواضح أنه التحق بالخدمة مع أخيه جودفري في اللورين. وكان الأخوان يشكلان تناقضا مذهلا؛ فكان بالدوين أطول من جودفري، وكان شعره داكنا بقدر ما كان شعر أخيه أشقرا، ولكن جلده أبيض شديد البياض، وبينما نجد جودفري كريم الطبع كان بالدوين متعاليا باردا، وكانت ميول جودفري تتصف بالبساطة على عكس بالدوين الذي يحب الأبهة والترف برغم إمكانه تحمل المشاق الهائلة. وكانت حياة جودفري الخاصة هي حياة العفة، أما بالدوين فكان يطلق لنفسه العنان لتغمس في الملذات الجنسية. ورحب بالدوين بالحرب الصليبية باغتياب؛ فلم يكن له مستقبل في وطنه، أما في الشرق فرما يجد لنفسه مملكة. وعندما شرع في الرحلة إلى الشرق اصطحب معه زوجته النورماندية جودفير أوف توسني وأطفاله الصغار، فلم يكن ينوي العودة.

وانضم إلى جودفري وأخويه الكثير من الفرسان البارزين من أراضي والون ولوثارنج(١): فانضم ابن خالتهم بالدوين أوف ريثيل لورد لوبورج، وبالدوين الثاني كونت هينولت، ورينالد كونت تول، ووارنر أوف جراي، ودودو أوف كـونز -

(١) (المترجم): والون ولوثارنج : جنوب وجنوب شرق بلجيكا بالقرب من فرنسا .

ساربورج وبالدوين أوف ستافيلوت، وبطرس أوف ستيناي، والأخوان هنري وجيوفري أوف إيش. (١)

جودفري في المجر

ولم يشأ جودفري أن يسلك طريق إيطاليا الذي يسلكه القادة الصليبيون الآخرون. ربما لأنه شعر ببعض الحرج من البابوية لما له من مواقف مساندة للإمبراطور، وبدلاً من طريق إيطاليا قرر الذهاب عن طريق المجر، بحيث يسلك الطريق الذي سلكته "حملة الشعب"، ليس ذلك وحسب، وإنما أيضاً — وطبقاً للأسطورة التي كانت تنتشر آنذاك في الغرب كله — الطريق الذي سلكه جده شارلمان نفسه في طريق حجّه إلى القدس. وغادر اللورين في نهاية أغسطس (آب)، وبعد مسيرة أسابيع قليلة أعلى نهر الراين وأسفل نهر الدانوب، وصل في بداية أكتوبر (تشرين الأول) إلى الحدود المجرية على نهر ليثا. ومن هناك أرسل سفارة يرأسها جودفري أوف إيش، الذي كانت له تجارب سابقة في البلاط المجري، إلى الملك كولومان بطلب الإذن لعبور أراضيه.

(١) عن سيرة حياة Godfrey of Lorraine المبكرة، أنظر: Breysig, 'Gottfried von Boullion vor dem Kreuzzuge', in *Westdeutsche Zeitschrift für Geschichte* vol. xvii, pp. 169 ff. ويرد Albert of Aix, II, I, p. 229 قائمة برفاقه. ويرد

وصف مظهره لدى William of Tyre (IX, 5, p. 371) and Baldwin's *ibid.* (X, 2, pp. 401-2) وطبقاً لما أورده المؤرخ Albert (ii, 21, p. 314) خرج Eustace of Boulogne مرتحلاً مع جيش فرنسي شمالي؛ لكن Fulcher، الذي ارتحل مع ذلك الجيش ولديه معلومات كاملة عنه لا يذكر حضوره. وربما كان أحد الفرسان الذين وصلوا بحراً إلى القسطنطينية بعد جودفري مباشرة.

لكن كولومان عانى مؤخرًا أشد المعاناة من الصليبيين بحيث لم يكن بوسعه الترحيب بغزو جديد، فاحتجز السفارة ثمانية أيام، ثم أعلن أنه سيلتقي مع جودفري في أويدينبرج. وجاء جودفري مع بعض فرسانه، ودعاه الملك لقضاء بضعة أيام في البلاط المجري. وتولد لدى كولومان من هذه الزيارة انطباع بالموافقة على مرور جيش جودفري عبر المجر شريطة أن يبقى بالدوين وزوجته وأولاده عنده كرهائن، بعد أن استنتج بفراسته أنه أخطرهم. وعندما عاد جودفري إلى جيشه رفض بالدوين أولاً تسليم نفسه، لكنه رضخ آخر الأمر. ودخل جودفري وجنوده المملكة عند أويدينبرج، ووعد كولومان أن يمدّهم بالمؤن بأسعار معتدلة بينما أرسل جودفري المنادين في أنحاء جيشه معلّين أن الموت سيكون جزاء من يقترب عملاً من أعمال العنف. وبهذه الاحتياطات الأمنية سار الصليبيون بسلام خلال المجر وهم تحت المراقبة الدقيقة من الملك وجيشه طوال الطريق، وتخلّفوا في مانجيلوز بالقرب من الحدود البيزنطية لإعادة تموينهم بالمؤن. وفي أواخر نوفمبر (تشرين الثاني) وصل جودفري إلى سيميلين، واقتاد جنده بنظام عبر نهر ساف إلى بلجراد، وما أن عبروا الحدود عاد الرهائن.

وكانت السلطات الإمبراطورية مهياً للترحيب بالجيش، وربما علمت سلفاً بوصوله من المجرين. وكانت بلجراد ذاتها مهجورة منذ أن انتهبها بطرس قبل ذلك بخمسة أشهر. وأسرع البعض من حرس الحدود إلى نيش حيث يقيم الحاكم نيسيتاس ومعه الحرس في انتظار جودفري، وانطلق الحرس في الحال وقابلوه في الغابة الصربية الواقعة في منتصف الطريق بين نيش وبلجراد. وكانت الترتيبات قد اتخذت بالفعل لتموين الجيش. وهكذا تقدم الصليبيون عبر شبه جزيرة البلقان بلا مشاكل. وفي فيليبوبوليس علم الصليبيون بأنباء وصول هيو أوف فيرمندوا إلى القسطنطينية، وعن الهدايا الرائعة التي تلقاها هو ورفاقه. وكان لتلك الأنباء أعمق الأثر لدى بالدوين أوف هينولت وهنري أوف إيش حتى أنهما قررا الإسراع ليسبقا الجيش إلى العاصمة ليضمنا

نصيبهما من الهدايا قبل وصول رفاقهم، ولكن ترددت شائعة — لا تخلو تماماً من الصحة — بأن هيو محتجز كسجين مما سبب بعض القلق لجودفري. (١)

وصول جودفري إلى القسطنطينية

وفي الثاني عشر من ديسمبر (كانون الأول) توقف جيش جودفري في سيليمريا على بحر مرمرة. وهناك انفرط عقد نظامه فجأة بعد أن ظل منضبطاً تماماً حتى تلك اللحظة. ولثمانية أيام أخذ الجنود يعيشون في الأرض فساداً، وأما سبب هذه الفوضى فليس معروفاً رغم أن جودفري حاول تبريرها كعمل من أعمال الثأر لسجن هيو. وعلى الفور أرسل الإمبراطور ألكسيوس اثنين من الفرنسيين كانوا في خدمته هما رادولف بيلدلو وروجر ابن داجوبرت للاحتجاج لدى جودفري ولحثه على الاستمرار في مسيرته بسلام. ونجحاً في مهمتهما ووصل جيش جودفري إلى القسطنطينية في الثالث والعشرين من ديسمبر (كانون الأول)، وبناء على طلب الإمبراطور عسكر الجيش خارج المدينة أعلى مياه القرن الذهبي (٢).

واعتبرت الحكومة الإمبراطورية أن وصول جودفري على رأس جيش كبير جيد التجهيز يشكل معضلة عسيرة. فسياسة الإمبراطور تقضي بالتأكد من ولاء جودفري وإخراجه على وجه السرعة من العاصمة درءاً للمخاطر، ومن المشكوك فيه ما إذا كان ألكسيوس قد ارتاب حقاً في أن يكون لدى جودفري مطامع في القسطنطينية، لكن

-
- (١) يرد وصف رحلة جودفري وصفاً كاملاً في تاريخ Albert of Aix, II, 1-9, pp. 299-305 ويرد وصف قصير في تاريخ زيمرن The Chronicle of Zimmern, pp. 21-2 ولا ترد الرحلة الفعلية في أية مصادر يونانية .
- (٢) (المترجم) : القرن الذهبي : جزء من اسطنبول يعتبر " اسطنبول الحديثة " ولا يزال يعتبر " حي الأجناب " كما كان منذ القرن العاشر .

ضواحي المدينة سبق وأن عانت الأمرين من أتباع بطرس الناسك المفسدين، ومن الخطورة أن تتعرض تلك الضواحي لجيش لا يقل فوضوية عن سابقه ويفوقه تسليحاً.

وكان على الإمبراطور أن يحصل أولاً على يمين الولاء من جودفري الذي ما أن استقر في معسكره حتى أرسل إليه الإمبراطور هيو أوف فرمندوا يدعوه لمقابلة الإمبراطور، وقد قبل هيو القيام بهذه المهمة وهو أبعد ما يكون عن الاستياء من معاملة الإمبراطور له.

ورفض جودفري دعوة الإمبراطور. لقد استعصت الأمور عليه. إذ شعر بالحيرة من موقف هيو، واتصل جنوده ببقايا قوات بطرس، الذين عزا أغلبهم الكارثة التي لحقت بهم مؤخراً إلى الخيانة الإمبراطورية مما كان له أثر عليه. وقد سبق أن أقسم جودفري قسم ولاء شخصي للإمبراطور هنري الرابع باعتباره دوقاً للورين الأسفل، وربما ظن أن ذلك يحول دون القسم بالولاء للإمبراطور الشرقي الغريم، وفضلاً عن ذلك، فإنه لم يرغب في اتخاذ أية خطوة هامة قبل استشارة القادة الصليبيين الآخرين وهو يعلم أنهم على وشك الوصول، فرجع هيو إلى القصر دون أن يحمل معه رداً لألكسيوس.

وغضب ألكسيوس. وبحركة تخلو من الحكمة أوقف الإمدادات التي سبق أن وعد جودفري بها حتى يمتثل. وبينما تردد جودفري في الإغارة على الضواحي شرع بالدوين على الفور في ذلك إلى أن وعد ألكسيوس برفع الحظر عن الإمدادات، ووافق جودفري على نقل معسكره إلى جنوب الرأس الذهبي عند بيرا حيث المأوى من رياح الشتاء أفضل وحيث تتمكن الشرطة الإمبراطورية من مراقبته عن كثب بشكل أكبر. ولبعض الوقت لم يتخذ أي من الجانبين أي إجراء آخر، وسمح الإمبراطور بتموين جنود الغرب بما يكفيهم من المؤن، وتمكن جودفري من جانبه من أن يحفظ النظام. وفي نهاية يناير (كانون الثاني) أعاد ألكسيوس دعوة جودفري، لكنه كان ما يزال غير راغب في الالتزام قبل أن يشترك معه قادة آخرون من الصليبيين، فأرسل ابن عمه بالدوين أوف

لوبورج ومعه كونون أوف مونتيجو وكذلك جيوفري أوف إتش إلى القصر ليسمعوا مقترحات الإمبراطور، ولكنه بعد عودتهم لم يرسل أي رد إلى الإمبراطور. ولم يكن ألكسيوس راغباً في استشارة جودفري حتى لا يعاود تخريب الضواحي. وبعد أن استيقن من عزلة أهل اللورين عن العالم الخارجي انتظر آملاً أن يفرغ صبر جودفري ويتفسق معه.

معركة الأسبوع المقدس

وفي نهاية مارس (آذار) علم ألكسيوس باقتراب وصول جيوش صليبية أخرى إلى القسطنطينية، فلم يجد مندوحة من تصعيد الموقف، وأمر بتقليل الإمدادات المرسلة إلى معسكر الصليبيين فبدأ بمنع إرسال الأعلاف لخيولهم، وباقتراب أسبوع الآلام منع الأسماك، وأخيراً منع الخبز. ورد الصليبيون بشن غارات يومية على القرى المجاورة، واشتبكوا في نهاية الأمر مع جنود البتشنج الذين كانوا يقومون بدور رجال الشرطة في المنطقة. وانتقم بالدوين بأن نصب كميناً للشرطة أسرف فيه ستين رجلاً وأعدم الكثير منهم، وأما جودفري فقد شجعه ذلك النجاح الضئيل وأحس بأنه ملتزم بالقتال فقرر أن ينقل معسكره وأن يهاجم المدينة نفسها. وبعد أن نهب بيوت بيرا، التي كان يقيم فيها رجاله، نهباً كاملاً وأحرقها، قاد قواته عبر جسر يعلو القرن الذهبي وانتهى بهم إلى أسوار المدينة وبدأ يهاجم الحي الذي يقع فيه قصر بلاتشيني. ومن المشكوك فيه أنه كان يستهدف ما يتجاوز الضغط على الإمبراطور، ولكن اليونانيين ظنوا أنه كان يهدف إلى الاستيلاء على الإمبراطورية.

وكان يوم الخميس من أسبوع الآلام الموافق للثاني من إبريل (نيسان)، ولم تكن القسطنطينية مهيأة لمثل هذا الهجوم، وقد بدت مظاهر الذعر في المدينة ولم يلطف من حدثها سوى وجود الإمبراطور الذي كانت تصرفاته تدل على أنه غير عابئ بذلك

الهجوم. وإثما صدم ألكسيوس صدمة عميقة لاضطراره إلى القتال في مثل هذا اليوم المقدس، فأمر جنوده بالقيام باستعراض عسكري خارج البوابات دون أن يشتبكوا مع العدو بينما أصدر تعليماته إلى الرماة على الأسوار بأن يرموا سهامهم فوق رؤوس الصليبيين. ولم يشدد الصليبيون هجومهم وسرعان ما تراجعوا ولم يقتلوا سوى سبعة من البيزنطيين. وفي اليوم التالي خرج هيو أوف فرمندوا مرة أخرى ليعاتب جودفري الذي رد عليه بأن عيره بالعبودية التي اتسم بها قبوله أن يكون تابعًا للإمبراطور. وأرسل ألكسيوس بعد ذلك مبعوثين إلى المعسكر يقترحون أن تمضي قوات جودفري في طريقها إلى آسيا، حتى قبل أن يقسم جودفري القسم. لكن الصليبيين تقدموا لمهاجمة المبعوثين دون تريث وقبل أن ينصتوا لما جاءوا به. وعلى ذلك قرر ألكسيوس إنهاء الأمر، واندفع بقوات أكبر للتصدي للهجوم، ولم يكن الصليبيون ألدادًا لجنود الإمبراطورية المتمرسين، فبعد قتال قصير استداروا مولين الأدبار، وتحقق جودفري من ضعفه بعد هزيمته، فرضخ للطلبيين: قسم الولاء، وننتقل جيشه عبر البوسفور.

احتفال التكريم

وبعد ذلك بيومين على الأرجح، أي في يوم أحد الفصح، أقيمت احتفالات حلف اليمين، فأقسم جودفري وبالدين ولورداتهم الرئيسيون على الاعتراف بالإمبراطور سيدًا أعلى في جميع غزواتهم، وعلى أن يسلموا إلى مسئول الإمبراطور جميع الأراضي المستردة التي كانت تابعة للإمبراطور فيما سبق، ثم تسلموا هدايا وفيرة من الأموال، وبعد ذلك أولم لهم الإمبراطور وليمة أظهر فيها ضروب الحفاوة، وفرر انتهاء الاحتفالات انتقل جودفري وجنوده في السفن إلى خلقدونية وواصلوا سيرهم إلى

مضرب خيام في بيليكانوم على الطريق إلى نيكوميديا. (١)

ولم يكن لدى ألكسيوس وقت يضيّعه، فقد وصل بالفعل إلى ضواحي المدينة جيش مخلّط يتكون على الأرجح من مختلف أتباع جودفري الذين فضلوا الارتحال عن طريق إيطاليا والأغلب أنهم كانوا تحت إمرة كونت تول، ووصلوا إلى بحر مرمرة بالقرب من سوثنيوم. وأظهروا نفس الشراسة التي أظهرها جنود جودفري، ورجبوا في انتظار بوهيموند والنورماندين الآتين وراءهم، وفي ذات الوقت قرر الإمبراطور منعهم من اللحاق بجودفري، لكنه لم يستطع ضبط تحركاتهم إلا بعد شيء من القتال. وبعدها عبر جودفري البوسفور بسلام نقلهم الإمبراطور بحرًا إلى العاصمة حيث انضموا إلى جماعات أخرى من الصليبيين كانت قد هامت على وجهها عبر البلقان. وكان على

(١) هناك روايتان عن سلوك جودفري في القسطنطينية تعتبران الأكثر اكتمالا وهما الواردتان في تاريخين :

Anna Comnena, *Alexiad*, x, ix, 1 - 11, vol. II, pp. 220-6 and Aibert of Aix, II, *Histoire de la première Croisade*, في تاريخه Chalandon, 16, pp. 305-11. وكما أشار

pp. 119-29 فإن رواية أناكومينا أكثر إقناعا بكثير من رواية ألبرت ، وفي الإمكان

قبولها على أنها رواية حقيقية ، بخلاف مبالغتها في قوة جيش جودفري . وتري رواية أقصر يشوبها

الكثير من التحامل في 14-18, pp. 3, 1 *Gesta Francorum* وموقع بيليكانوم *Pelecanum*

الدقيق غير يقين. ويحدده Leib في طبعته لأنا كومينا (vol. II, p. 226 n. 2) بأنه Herek على

بعد حوالي ستة عشر ميلا غرب نيكوميديا . ويقول Ramsay ضمنا في *Historical Geography*

of *Asia Minor*, p. 185 إنه كان أقرب إلى Chalcedon ويتضح من أنا كومينا (أنظر ما

يلي ص ٢٢٦) أن الموقع كان قريبا من مكان العبور إلى سيفيتوت وأنه مصمم في ذلك المكان

بصورة ملائمة لدوام الاتصال بالقسطنطينية . والمؤرخ الآخر الوحيد الذي ذكره John

Contacuzenus يحدد مكانه شرقي داسيبزا Dacibyza وهي حيز الحديثة (vol. 1, pp. 342 ff) --

الإمبراطور أن يستعمل كل ما أوتى من لباقة إلى جانب الهدايا الكثيرة لإقناع قادهم بأن يقسموا قسم الولاء. وعندما رضخوا في نهاية الأمر زاد ألكسيوس من أهمية المناسبة بأن أحضر جودفري وبالدوين ليشهدا الاحتفال. واللوردات الغربيون أهل غل ومرد، إذ جلس أحدهم على عرش الإمبراطور، فانتهره بالدوين بحدة وذكره بأنه أصبح لتوه من أتباع الإمبراطور ، وطلب منه أن يراعي تقاليد البلاد، فتمتم الغربي حانقا أنه من الخلافة أن يجلس الإمبراطور بينما يقف الكثير من الضباط المغاوير. وسمع ألكسيوس تلك الملاحظة، وبعد أن أمر بترجمتها طلب محادثة الفارس، وعندما بدأ ذلك

Gebze وتغادر العبارة Aegiali الواقعة في منتصف الطريق بين Gebze و Herek على بعد حوالي ستة أميال من كل منهما . وبحسب رواية أنا كومينا (XI, iii, 1, vol. III, p. 16) استقبل ألكسيوس الصليبيين في بيليكانوم بعد سقوط نيقية ؛ غير أن ستيفن (أوف بلوا) يقول (Hagenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe, p. 140) إن ألكسيوس كان على جزيرة عندما قابله في تلك المناسبة . ويتضح أن Pelecanum ، أيا ما كان موقعها ، لم تكن جزيرة ، ولا يمكن أن تكون هي شبه جزيرة أجيالي egiali التي تعطيها أنا كومينا اسمها الصحيح . ويعتبر الدليل الذي ساقه ستيفن في هذه النقطة دليلا يعتمد عليه . ولذلك ، يرجح أن Pelecanum نفسها كانت قرية من Aegiali ، وأن ألكسيوس قد انتقل عائدا إلى إحدى الجزر المقابلة للساحل ، إما الجزيرة المواجهة لـ توزلا Tuzla (على بعد اثني عشر ميلا غرب Aegiali) ، حيث لا تزال توجد بقايا كثيرة يرجع تاريخها إلى العصر البيزنطي ، أو جزيرة القديسين بطرس وبولس المواجهة لـ Pendik التي كانت منتجعا بيزنطيا شهرا .

الفارس يفاخر ببسالته التي لا تقهر في المبارزة الفردية، نصحه ألكسيوس بلطف أن يبحث عن تكتيكات أخرى عندما يقاتل الأتراك. (١)

وتمثل هذه المحادثة غمط العلاقة بين الإمبراطور والفرنجة. ولم يكن ثمة بد من أن يتأثر الفرسان الأجلاف القادمون من الغرب بأبهة القصر ومراسمه التي تؤدي في عناية وسلاسة، وسجايا رجال البلاط المهذبة والهادئة، لكنهم تبرموا من ذلك كله، ودفعهم كبرياؤهم الجريح إلى الصخب والغلظة كالأطفال الأشقياء.

وبعدما أقسم الفرسان قسم الولاء نُقلوا مع رجالهم عبر المضيق ليلحقوا بجيش جودفري على شاطئ آسيا. وهكذا تصرف الإمبراطور في الوقت المناسب تمامًا، إذ وصل بوهيموند أوف تارانتو إلى القسطنطينية في التاسع من إبريل (نيسان).

(١) Anna Comnena, x,x, 1-7, vol. II, pp. 226-30 وهي تطلق على قائد هذه المجموعة

"الكونت راؤل Count Raoul" وهويته غير معروفة إذ لم يذكر في أي مكان آخر. ومن الحقيقة التي مفادها أن الإمبراطور ظن أنه من الأحدي أن يساعده جودفري في حفل أخذ القسم من هذه المجموعة، اعتقد أنها كانت تتألف من رجال من أجزاء من اللورين وليس من فرنسا، لتوليد الانطباع لديهم بأن حضوره كان مناسباً بصورة أفضل. ونحن نعلم أن رينالد (أوف تول) جاء إلى الحملة الصليبية تحت رعاية جودفري. ويذكره ألبرت أوف آيكس على أنه واحد من جماعة جودفري منذ البداية؛ غير أنه ليس من الضروري أن يؤخذ دليله بحذافيره. ولم تكن أنا كومنينيا متمرساً في معرفة الأسماء الفرنجية، وكما في حالة ريموند الذي تطلق عليه "Isangeles" فإنها أحياناً تذكر الكونتات بألقابهم. على أنها ذات خبرة سابقة بالإسم "Raoul" من سفير جيسكار الذي يدعي راؤل كذلك. ولذلك، ربما التقطت عدسة ذاكرتها Rainald de Toul وأحاطته إلي شكل مألوف لديها.

ولم يكن النورمانديون في جنوب إيطاليا قد أولوا بادئ الأمر اهتمامًا كبيرًا لتبشير إيربان بالحرب الصليبية. إذ تواصلت حروب أهلية متقطعة هناك منذ أن مات روبرت جيسكارد الذي كان قد طلق زوجته الأولى، أم بوهيموند، وترك دوقية أبوليا لابنه من زوجته الثانية سيجلجايثا وهو روجر بورصا. فثار بوهيموند على أخيه وتمكن من الاحتفاظ بدوقتي تارانتو وتيرا-دي-أوترانتو الواقعتين في كعب شبه الجزيرة الإيطالية قبل أن يتمكن عمهما روجر الصقلي من عقد هدنة مزعزعة بينهما، ولم يقبل بوهيموند بأية حال تلك الهدنة على أنها نهائية، واستمر خفية في مناوشة أخيه روجر بورصا. على أنه في صيف ١٠٩٦ ميلادية تكاثفت الأسرة كلها لمعاينة مدينة أمالفي المتمردة، وكانت القرارات البابوية المتعلقة بالحرب الصليبية قد أُعلنت بالفعل. كما كانت جماعات صغيرة من الإيطاليين الجنوبيين قد عبرت البحر إلى الشرق، ولكن بوهيموند لم يتحقق من أهمية الحركة إلا عندما وصلت إلى إيطاليا جيوش الصليبيين المتحمسين من فرنسا. وحينئذ أدرك أن بوسعه استغلال الحركة الصليبية لمصلحته، لاسيما وأن عمه روجر الصقلي لم يكن يسمح له البتة بضم دوقية أبوليا كلها. ولسوف يجني ثماراً أفضل إذا ما وجد لنفسه مملكة في المشرق. وكان لحماس الصليبيين الفرنسيين أثره في الجنود النورماندين أمام مدينة أمالفي. وشجعهم بوهيموند بأن أعلن أنه سيأخذ الصليب هو الآخر ودعا جميع المسيحيين الطيبين إلى الانضمام إليه. وأمام جيشه المحتشد خلع رداءه القرمزي ومزقه قطعاً صنع منها صلباناً لضباطه، وأسرع أمراؤه التابعون له فحذوا حذوه ومعهم الكثير من أمراء أخيه وأمراء عمه الصقلي الذي تركوه شاكياً من أن هذه الحركة قد سلبته جيشه. (١)

(١) *Gesta Francorum*, I, 4, pp. 18-20. See Chalandon, *Histoire de la Domination normande en Italie*, vol. II, p. 302

مسيرة بوهيموند عبر البيندوس

وفي الحال انطلق وليم، ابن أخت بوهيموند، مع الصليبيين الفرنسيين ولكن بوهيموند نفسه كان في حاجة إلى بعض الوقت لتجهيز قواته. فترك أراضيه بضمانات في رعاية أخيه وجمع ما يكفي من أموال للإتفاق على كل من صحبه، وأبحرت الحملة من باري في أكتوبر (تشرين الأول). وكان مع بوهيموند تانكريد ابن أخته إما والمركيز أودو وهو الأخ الأكبر لوليم، وأبناء خولته ريتشارد (١) ورينولف أوف ساليرنو وابنه ريتشارد، وجيوفري كونت روسينيولر وإخوته، ومن بين نورمانديي صقلية: روبرت أوف أنسا وهمفري أوف مونت سكايروزو وألفريد أوف كاينانو والأسقف جيرارد أوف أريانو، بينما كان روبرت أوف سيردفال وبويل أوف تشارترز من بين النورماندين القادمين من فرنسا للتحقيق بجيش بوهيموند، وكان جيشه أصغر من جيش جودفري لكنه كان جيد التجهيز والتدريب. (٢)

ونزلت الحملة على الشاطئ في إبيروس على نقاط متفرقة بطول الساحل بين ديرهاكيوم وألونا، ثم تجمعت مرة أخرى في قرية دروبولي الواقعة أعلى وادي نهر فيوسا. ولا شك في أن ترتيبات التزول إلى الشاطئ قد أجريت بعد التشاور مع السلطات البيزنطية في ديرهاكيوم والتي لم ترغب في إجهاد ما تعتمد عليه المدن الواقعة على طول طريق فيا إجناتيا من موارد غذائية أكثر من ذلك. بيد أن الطريق الذي سلكه الجيش كان من اختيار بوهيموند على الأرجح؛ إذ أن حملاته التي قام بها قبل ذلك بخمسة عشر عاما أكسبته بعض الدراية بالبلاد الواقعة إلى الجنوب من الطريق الرئيسي، وربما كان يأمل في تجنب مراقبة البيزنطيين حينما اتخذ طريقا أقل استخداما. ولم

(١) Kown as Richard of the Principate.

(٢) Gesta Francorum, I, 4, p. 20.

يكن بوسع جون كومنينوس الاستغناء عن أي من جنوده، ومن ثم بدأ بوهيموند في رحلته دون مصاحبة الشرطة البيزنطية. ويبدو أنه لم تكن هناك مشاعر سلبية، فقد تلقى النورمانديون إمدادات وفيرة في الوقت الذي شدد بوهيموند على جميع رجاله الامتناع عن النهب والفوضى لأنهم سيعبرون أراض مسيحية.

وبارتحال الجيش فوق ممرات البيندوس مباشرة وصل إلى كاستوريا الواقعة غرب مقدونيا قبل عيد الميلاد بزمان وجيز. وليس في الإمكان تتبع الطريق الذي سلكه، وبالقطع لم يكن طريقا سهلا، ولا بد أن يكون أدى به إلى مرتفعات تزيد على أربعة آلاف قدم فوق مستوى سطح البحر. وفي كاستوريا سعى إلى توفير المؤن، لكن السكان كانوا عازفين عن الاستغناء عن أي شيء من مخازنهم الصغيرة لهؤلاء الزائرين الذين هبطوا عليهم فجأة، وقد تذكروا أنهم هم أنفسهم كانوا أعداءهم الألداء منذ بضع سنوات. وبالنظر إلى أن الكثير من دواب الحمل هلك فوق ممرات البيندوس، فقد استولى الجيش على حاجته من الماشية والخيول والحمير. وأمضى الجيش أعياد الميلاد في كاستوريا، ثم قاد بوهيموند رجاله شرقا باتجاه نهر فاردار، وأثناء مسيرتهم توقفوا قليلاً وهاجموا قرية الهراطقة البوليين (١) القريبة من الطريق، وأشعلوا النار في المنازل وقاطنيها، وأخيراً وصلوا إلى النهر في منتصف فبراير (شباط). وهكذا أمضوا سبعة

(١) الهراطقة البوليون : طائفة مسيحية تؤمن بالثنوية ، نشأت في أرمينيا في القرن السابع ، وأسمها مشتق من اسم بول أو بولس الذي مازال هناك خلاف على شخصيته . ويقوم معتقدها على وجود إله للشر وإله للخير : الأول خلق هذا العالم ويحكمه ، والثاني للحياة الآخرة . ومن ثم استنتجوا أن عيسى ليس ابن مريم حقيقة لأن إله الخير لا يمكن أن يصبح بشرا . وهم يجلسون إنجيل لوقا ورسائل القديس بولس وينكرون العهد القديم ورسائل القديس بطرس كما ينكرون الكنيسة القائمة بأسرارها وعبادتها وهرميتها .

أسابيع تقريباً ليقطعوا مسافة تزيد قليلاً على مائة ميل. (١)

وصول بوهيموند إلى القسطنطينية

وربما أدى الطريق الذي سلكه بوهيموند عبر إيديسا (فودينا) إلى فيلإجناتيا. ومن هذه النقطة صحبه حرس من جنود البتشنج ومعهم أوامر الإمبراطور المعتادة بمنع الإغارة والانتشار والعمل على ألا يبقى الصليبيون في مكان واحد لأكثر من ثلاثة أيام. وعبر القسم الرئيسي من الجيش نهر فاردار دون إبطاء، لكن كرت روزينولو وإخوته تخلفوا على ضفة النهر الغربية ومعهم جماعة صغيرة. لذا هاجمهم البتشنج ليستحثوهم على المضي، وعندما سمع تانكريد بالمعركة عبر النهر راجعاً لإنقاذهم. وطارد البتشنج وأسر بعضهم وأحضرهم أمام بوهيموند الذي استحوهم، وعندما عرف أنهم كانوا ينفذون الأوامر الإمبراطورية أطلق سراحهم على الفور؛ إذ كانت سياسته أن يحسن التصرف تجاه الإمبراطور. (٢)

ورغبة منه في أن تكون تصرفاته سليمة أرسل، عندما نزل إلى الشاطئ في إيروس أول الأمر، سفراء سبقوه إلى الإمبراطور. وعندما كان جيشه ماراً بأسوار ثيسالونيكاً وهو في طريقه إلى سيريس قابله هؤلاء السفراء في طريق عودتهم من القسطنطينية، ومعهم مسئول إمبراطوري على مستوى عال سرعان ما أصبحت علاقته ببوهيموند علاقة ودودة. وقُدّم الطعام للجيش بوفرة، وإزاء ذلك وعد بوهيموند

(١) *Gesta Francorum*, I, 4, pp. 20-2 وربما اتخذ بوهيموند الطريق الذي يخترق الحدود الألبانية

الحالية، من خلال Premeti and Koritsa ثم اتبع منحني شمالاً قبل أن يعبر الحدود ثم هبط باتجاه

الجنوب الشرقي إلى Castoria

(٢) *Ibid.* pp. 22-4

بعدم محاولة دخول آية مدينة في طريقه، ليس هذا وحسب وإنما وافق على إعادة كل الدواب التي استولى عليها رجاله أثناء رحلتهم، وفي أكثر من مرة أظهر أتباعه الرغبة في الإغارة على البلاد لكنه منعهم منعًا صارمًا.

وفي أول إبريل (نيسان) وصل الجيش إلى روسا (وهي كيشان الحديثة) في ثريس. وهنا قرر بوهيموند أن يسرع الخطى إلى القسطنطينية ليعرف ما الذي يتفاوض عليه الإمبراطور مع القادة الغربيين الذين وصلوا إلى هناك بالفعل، فترك رجاله تحت إمرة تانكريد الذي أخذهم إلى وادٍ خصيب يبعد عن الطريق الرئيسي حيث أمضوا نهاية أسبوع الفصح. ووصل بوهيموند إلى القسطنطينية في التاسع من إبريل (نيسان) حيث نزل خارج الأسوار في دير القديسين كوسماس وداميان، وفي اليوم التالي سُمح له بالمثل بين يدي الإمبراطور. (١)

وبدا لألكسيوس أن بوهيموند هو أخطر الصليبيين جميعًا. فقد تعلم البيزنطيون من التجارب السابقة أن النورماندين أعداء أشداء، طموحون، ماكرون، منعدمو الضمير. وقد سبق أن ظهر بوهيموند في حملات سابقة كفائد ذي كفاءة، وكان جنوده منظمين تنظيمًا جيدًا، ومجهزين تجهيزًا حسنًا، وملزمين في تصرفاتهم، وقد استحوذ على ثقتهم الكاملة. وربما كان صاحب إستراتيجية، مفرط الثقة بنفسه، وإن لم يتصف بالحكمة دائمًا، على أنه كان دبلوماسيًا حاذقًا قوي الحجة وسياسيًا بعيد النظر، ذا شخصية قوية التأثير؛ ذلك أن المؤرخة أنا كومينا (٢) التي عرفت كرهته كراهية مريرة لم تملك إلا أن تعترف بجاذبيته، وكتبت بحرارة عن مظهره الخلاب، إذ

(١) *Gesta Francorum*, II, 5, pp. 24-8 ويتأكد تاريخ وصول بوهيموند إلى القسطنطينية في تاريخ

Hagenmeyer, Chronologie de la Première Croisade, p. 64

(٢) أنا كومينا : مؤرخة بيزنطية عاصرت تلك الفترة ، وهي ابنة الإمبراطور " ألكسيوس كومنينوس " .

كان فاره الطول له هيئة الشباب رغم تخطيه الأربعين، عريض المنكبين، نحيل الخصر، ذا بشرة رائقة، وضاح الوجنتين في تورد، وكان شعره أصفر وأقصر مما اعتاده فرسان الغرب، حليق اللحية. واحذودب في طفولته على نحو طفيف دون أن يفقد مسحة الصحة والقوة، وتقول أنا كومنينا إن هناك شيئاً جافاً في ملامحه وبعض الشر في ابتسامته، ولأنها — كشأن اليونانيين منذ القدم — تتأثر بالجمال البشري، لم تستطع أن توارى إعجابها به. (١)

واتخذ ألكسيوس الترتيبات لمقابلة بوهيموند بمفرده أولاً ليتسنى له اكتشاف موقفه. فلما وجده بالغ الود والاستعداد للمساعدة استقبل جودفري وبالدوين، اللذين كانا ما يزالان في القصر، ليشارك في المناقشة. وكان السلوك الحسن لذي أبداه بوهيموند مفتعلاً؛ إذ كان يعرف أكثر من غيره من الصليبيين الآخرين أن بيزنطة لاتزال قوية جداً وأنه لن يتحقق شيء بغير مساعدتها، ولن تؤدي مناطقها إلا إلى كارثة، ولكن حسن استغلالها كحليف يؤدي إلى تحقيق صالحه. وكان يود قيادة الحملة، ولكن البابا لم يخوله ذلك، ويبقى عليه أن يتصدى لمنافسة الأقطاب الصليبيين الآخرين، وإن استطاع الحصول على تكليف رسمي من الإمبراطور يصبح في وضع يمكنه من إدارة العمليات، ويتأتى له أن يتحكم في تعامل الصليبيين مع الإمبراطور فيما بعد، وأن يكون المسئول الذي يتعين على الصليبيين تسليمه الأراضي المستردة للإمبراطورية، ويغدو المحور الذي يدور حوله التحالف المسيحي كله، ومن ثم أقسم قسم الولاء للإمبراطور بلا تردد، واقترح تعيينه في منصب الحاكم المحلي الشرقي، أي القائد العام لجميع القوات الإمبراطورية في آسيا.

وشعر ألكسيوس بالخرج من هذا الطلب، وارتاب في بوهيموند وخشى جانبه،

(١) أنظر Anna Comnena, *Alexiad*, XIII, x, 4-5, vol. III, pp. 122-4 للإطلاع على

غير أنه كان حريصا على الاحتفاظ بحسن نواياه ، وقد سبق أن أولاه كرمه وتشريفه واستمر في إغوائه بالمال. بيد أنه راوغه في مطلبه قائلا إن اللحظة ليست مواتية بعد لمثل هذا التعيين. ولكن لا شك في أن بوهيموند سيناله بجهده وإخلاصه، وكان على بوهيموند أن يرضى بهذا الوعد المبهم الذي شجعه على الاستمرار في سياسة التعاون التي رسمها. وفي ذات الوقت وعد ألكسيوس بإرسال جنوده لمصاحبة الجيوش الصليبية لتسديد ما تتكبده من نفقات، ولتأمين إعادة تموينها واتصالاتها. (١)

واستدعي جيش بوهيموند بعد ذلك إلى القسطنطينية ونقل عبر البوسفور في السادس والعشرين من إبريل (نيسان) ليلحق بجيش جودفري الرابض في بيليكانوم. وأما تانكريد، الذي لم يستسغ سياسة خاله ولم يفهمها، فقد اجتاز المدينة ليلا مع ابن خاله ريشارد أوف ساليرنو كي لا يضطر إلى أن يقسم قسم الولاء (٢)، وفي نفس اليوم وصل الكونت ريموند أوف تولوز إلى القسطنطينية واستقبله الإمبراطور.

(١) *Ibid.* xi, 1-7, vol. II, pp. 230-4 وكالمعتاد يورد تاريخ *Gesta Francorum*, II, 6, pp.

28-32 رواية معادية جداً للإمبراطور. والفقرة التي تذكر معاهدة سرية بين الإمبراطور وبوهيموند

حول أنطاكية (autem ...preteriret p.30, II. 14-20, Fortissimo) عبارة عن حشر لاحق

في النص ، تم بناء على أوامر بوهيموند. أنظر *Krey, A Neglected Passage in the Gesta*

pp. 57-78 ، ويقول ألبرت أوف آيكس II, 18, p. 312 إن بوهيموند أقسم القسم على

مضض ويبدو أن ذلك غير صحيح .

(٢) *Gesta Francorum*, II, 7, pp. 32-4; Albert of Aix, II, 19, p. 313

ريموند أوف تولوز

كان ريموند الرابع — كونت تولوز — الذي يفضل كونتية سان جيل على غيرها من ممتلكاته، ولذلك كان يسمى عادة (كونت أوف سان جيل)، قد بلغ بالفعل سن النضج وربما كان يقارب عامه الستين. وكانت مقاطعته التي ورثها عن أسلافه واحدة من أغني المقاطعات الفرنسية، وقد ورث مؤخرًا ماركيزيته في إقليم بروفانس الفرنسي والتي لا تقل ثراء عن مقاطعته. وبزواجه من الأميرة ألفيرا أوف أراجون انتسب إلى البيوتات الملكية الإسبانية؛ كما اشترك في عدة حروب مقدسة ضد مسلمي إسبانيا. وكان هو الوحيد من بين النبلاء العظام الذي ناقشه البابا إيربان شخصيًا في مخططة عن الحرب الصليبية، وكان أول من أعلن انضمامه لها، ومن ثم فلدیه ما يبرر أهليته لقيادتها غير الدينية. ولكن البابا — الذي كان حريصًا على أن تظل الحركة تحت السيطرة الروحانية — لم يعترف أبدًا بمطلبه هذا، وربما كان ريموند يأمل في أن تتضح الحاجة إلى قائد دينوي، هذا في الوقت الذي تدبر فيه أمره كي يخرج إلى الشرق بصحبة الرئيس الروحاني أسقف لوبوي.

وأخذ ريموند الصليب في وقت انعقاد مؤتمر كليرمونت، في نوفمبر (تشرين الثاني) سنة ١٠٥٩ ميلادية، لكنه لم يتمكن من الانتهاء من استعداداته لمغادرة أراضيه إلا في أكتوبر (تشرين الأول) من العام التالي. وأخذ على نفسه عهدًا بأن يقضي بقية أيامه في الأراضي المقدسة، ويمكن أن يكون قد أخذ ذلك العهد مع تحفظ؛ فبينما ترك أراضيه الفرنسية لابنه غير الشرعي برتراند لإدارتها، كان حريصًا على ألا يتنازل عن حقوقه، وصحبته زوجته ووريثه الشرعي ألفونسو، وباع بعض أراضيه أو رهنها لتوفير المال اللازم لحملته، ولكن يبدو أنه اقتصد في تجهيزها على نحو ما. ومن الصعب تقييم شخصيته؛ ففي أفعاله ما يدل على الغرور والعناد وبعض الجشع، على أن سجاياه المهذبة أحدثت أثرها في البيزنطيين الذين وجدوه أكثر تحضرًا من زملائه، كما أذهلهم أن يجدوه شخصًا يعتمد عليه ويتصف بالأمانة. وامتدحت أنا كومينا سمو طبيعته

وطهارة حياته كما تبين مما تلى من أحداث. واعتبره أديمار أوف لوبوي، الذي كان على خلق رفيع صديقاً جديراً بالصدقة.

وانضم إلى حملة ريموند الصليبية العديد من نبلاء جنوب فرنسا، من بينهم: رامبالد كونت أوف أورانج، وجاستون أوف بيارن، وجيرارد أوف روسيلون، ووليم — هيو أوف مونتيل وكل رجاله، وكانت الشخصية الكنسية الرئيسية بعد أديمار هي وليم أسقف أورانج.(١)

رحلة ريموند

وعبرت الحملة جبال الألب عن طريق كول دي جنيفر وارتحلت عبر شمال إيطاليا إلى رأس البحر الأدرياتيكي. وقرر ريموند عدم السفر بحراً وإنما سار بمحاذاة شاطئه الشرقي عبر إسترية ودالماتيا وربما كان مدفوعاً في ذلك بدوافع اقتصادية. ولم يكن ذلك بالقرار الحكيم؛ إذ كانت طرق دالماتيا غاية في السوء وسكانها غلاظ يفتقرون إلى الكياسة. وعبرت الحملة إسترية دون وقوع حادثة، وتلى ذلك أربعون يوماً من أيام الشتاء كافح فيها الجيش في دروب الماتيا الصخرية وهو في مناوشات مستمرة مع القبائل السلافية التي تعلقت بمؤخرته. وبقي ريموند نفسه مع حرس المؤخرة لحمايتها، وفي إحدى المرات لم يستطع إنقاذ رجاله إلا بإقامة حاجز على الطريق من

(١) عن سيرة حياة Raymond المبكرة، أنظر Vaissète, *Histoire de Languedoc*, vol. III, pp. 466-77 and Manteyer, *La Provence du Ier au XIIe Siècle*, pp. 303 ff. وترد أسماء أهم اللوردات الفرنسيين الجنوبيين الذين رافقوا الحملة الصليبية في قائمة مشوشة نوعاً ما في تاريخ Albert of Aix, II, 22-3, pp. 315-16 وعن Adhemar وأسرته أنظر المراجع المذكورة فيما سبق في الصفحتين ١٩٢ و ١٩٣.

الأسرى السلافيين الذين أسره ثم مزق أوصالهم في قسوة شنعاء. وقد بدأ الرحلة وهو مزود بالطعام الوفير، ولم يهلك أحد من رجاله في الرحلة بسبب الجوع أو القتال. وعندما وصلوا أخيراً إلى سكودورا بدأ تموينهم يتناقص، وتمكن من مقابلة الأمير الصربي المحلي بودين الذي وافق، بعد أن حصل على هدايا ثمينة، على السماح للصليبيين بحرية الشراء من أسواق المدينة، على أنه لم يكن هناك طعام متاح، فاضطر الجيش إلى مواصلة مسيرته وهو في حالة من الجوع والبؤس تتزايد يوماً بعد يوم حتى وصل إلى الحدود الإمبراطورية شمال ديرهاكيوم في وقت مبكر من شهر فبراير (شباط). وعندئذ ودَّ ريموند وأديمار أن تكون متاعبهما قد وصلت إلى نهايتها.

ورحب جون كومنينوس بالصليبيين في ديرهاكيوم حيث كان مبعوثو الإمبراطور وحرس البتشنج في انتظارهم لمصاحبتهم عبر طريق فيا إجناتيا، وأرسل ريموند سفارة سبقته إلى القسطنطينية للإعلان عن وصوله. وبعد أيام قليلة من الراحة في ديرهاكيوم انطلق الجيش مرة أخرى، وتخلف شقيق أديمار — لورد أوف بيران إلى أن يشفى من مرض أصيب به نتيجة لمشاق الرحلة. وكان رجال ريموند مطبوعين على التمرد وعدم الالتزام. وقد شعروا بالاستياء من شرطة البتشنج التي تحيط بهم من كل جانب. وأدى ميلهم العنيد للنهب إلى صدام تكرر مع حراسهم، وقبل انقضاء فترة طويلة قتل إثنان من بارونات بروفانس في إحدى هذه المناوشات. وبعد ذلك مباشرة ضل أسقف لوبوي نفسه الطريق وجرح وأسره البتشنج قبل أن يعرفوا هويته وأعيد على الفور إلى الجيش، ويبدو أنه لم يشعر بالاستياء من الحادثة، غير أن الجنود صدموا صدمة عميقة الأثر. وزادت شراستهم عندما هوجم ريموند نفسه في ظروف مشاهدة بالقرب من إيديسا.

وفي نيسالونكا تخلف أسقف لوبوي عن الجيش كي يجد عناية أفضل بجراحه، وبقي هناك إلى أن تمكن أخوه من اللحاق به من ديرهاكيوم. وفي غيبة الأسقف وما يتمتع به من قدرة على كبح جماح الجنود، تدهور النظام في الجيش وازداد سوءاً،

ولكن لم تقع حوادث خطيرة إلى أن وصل إلى روسا في ثريس. وسبق لرجال بوهيموند أن ابتهجوا للحفاوة التي استقبلتهم بها المدينة قبل ذلك بأسبوعين، أما الآن فرمما لم يكن لدى أهل المدينة مؤن يبيعونها، لذا استاء رجال ريموند، وصاحوا "تولوز... تولوز" وهاجموا الأسوار واقتحموا المدينة ونهبوا البيوت كلها. وبعد ذلك بأيام قليلة قابلهم مبعوثو ريموند في رودوستو في طريق عودتهم من القسطنطينية مع مندوب الإمبراطور ومعه رسائل ودية يستحث فيها ريموند على الإسراع إلى العاصمة، مضيفاً أن بوهيموند وجودفري في شوق للقياء. وربما كان الجزء الأخير من الرسالة، وخشية الغياب أثناء اتخاذ قرارات هامة، هما اللذان دفعا ريموند إلى قبول الدعوة، فترك جيشه وأسرع إلى القسطنطينية التي وصلها في الحادي والعشرين من إبريل (نيسان).

وبرحيله لم يبق أحد لحفظ النظام في الجيش الذي بدأ على الفور في الإغارة على الريف. على أن الأحوال تغيرت الآن وأصبح هناك ما يكفي من شرطة البتشنج للتصدي له وتحركت فصائل من الجيش البيزنطي كانت متمركزة في الجوار لمهاجمة المغيرين. وأسفرت المعركة عن هزيمة رجال ريموند هزيمة نكراء فولوا الأدبار تاركين أسلحتهم وأمتعتهم للبيزنطيين، ولم يعلم ريموند بالكارثة إلا في اللحظة التي كان يتأهب فيها لمقابلة الإمبراطور. (١)

ريموند والإمبراطور

وقد أُستقبل ريموند في القسطنطينية استقبالا حسنا ونزل في قصر خارج الأسوار مباشرة وجاءه من يرجوه الذهاب إلى القصر الإمبراطوري بأسرع ما يمكن ليقسم قسم

(١) يورد Raymond of Aguilers, I-II, pp. 235-8 رحلة Raymond إلى القسطنطينية بإسهاب

في ملحوظة تقطر مرارة من البيزنطيين .

الولاء. بيد أن ما صادفه في الرحلة والأنباء التي تلقاها لساعته جعلته في حالة مزاجية سيئة، وانتابته الحيرة والامتعاض من ذلك الوضع الذي وجدته في قصر الإمبراطور؛ إذ أن الهدف الذي لا يبارح خياله هو الاعتراف به قائداً عسكرياً للحملة الصليبية كلها. على أن سلطته تنبثق من البابا علي النحو الذي حدث، ومن علاقته بالمندوب البابوي أسقف لوبوي، وبغياب الأسقف وجد ريموند نفسه يفتقد العون والمشورة، ولم يكن ريموند راغباً في أن يلزم نفسه في غيابه، زد على ذلك أنه لو أقسم قسم الولاء كما فعل غيره من الصليبيين فإن ذلك يعني تخليه عن علاقته الخاصة بالبابوية، والهبوط إلى مستوى الآخرين. وهناك خطر آخر، فقد كان ريموند من الذكاء بحيث أدرك في الحال أن بوهيموند هو أخطر غريم له، وبدا أن بوهيموند يحظى بود الإمبراطور. وسرت شائعة أنه سيعين في منصب في القيادة الإمبراطورية العليا، فإذا ما أقسم قسم الولاء فإن ذلك لا يعني أن يفقد أولويته وحسب، وإنما سيكون كذلك تحت ولاية بوهيموند باعتباره ممثلاً للإمبراطور. فأعلن أنه إنما جاء إلى الشرق لينفذ عمل الرب، وأن الرب الآن هو سيده الأعلى الوحيد، ملمحاً بذلك أنه المندوب الدنيوي للبابا. على أنه أضاف أنه في حالة ما إذا كان الإمبراطور نفسه سيقود القوات المسيحية المتحدة فإنه يقبل العمل تحت إمرته، وأظهر بهذا التنازل استياءه من بوهيموند وليس الإمبراطور. ولم يسع الإمبراطور إلا أن يجيب بأن حالة الإمبراطورية لا تسمح له — لسوء الحظ — بتركها. وخشى القادة الغربيون الآخرون من أن يتعرض بنجاح الحملة كلها للخطر، فتوسلوا إلى ريموند كي يغير رأيه، ولكن دون جدوى. وأما بوهيموند الذي كان يأمل في القيادة الإمبراطورية والذي كان تواقاً إلى إرضاء الإمبراطور، فقد ذهب إلى حد القول بأنه سوف يؤازر الإمبراطور إذا ما دخل معه ريموند في صراع علني. في حين أشار جودفري إلى الضرر الذي سيلحق بالقضية المسيحية نتيجة لموقفه هذا. وابتعد ألكسيوس عن تلك المناقشات ومنع عن ريموند الهدايا التي سبق أن أهداها للأمرء الآخرين. وأخيراً، وفي اليوم السادس والعشرين من إبريل (نيسان) وافق ريموند على أن

يقسم قسمًا معدلاً وعد فيه بأن يحترم حياة الإمبراطور وشرفه، وأن يراعي هو ورجاله عدم الإضرار به. ولم يكن من غير العادي أن يقسم الأتباع بهذا النوع من القسم لساداتهم في جنوب فرنسا، وقد ارتضاه ألكسيوس.

وبعد انتهاء المفاوضات عبر بوهيموند وجيشه إلى آسيا. وفي تلك الأثناء تجمع جيش ريموند مرة أخرى في رودوستو وقد أمسى مهيبض الجناح، وانتظر وصول أسقف لوبوي الذي كان من المقرر أن يقوده إلى القسطنطينية. ولا ندري شيئاً عن نشاط الأسقف أديمار في القسطنطينية، والمفترض أنه قابل رؤساء الكنائس اليونانية ومن المؤكد أنه قابل الإمبراطور. وكانت هذه المقابلات ودية للغاية وربما أسهم في المصالحة بين ريموند وألكسيوس؛ إذ سرعان ما تحسنت العلاقة بينهما والأغلب أن ترحيل بوهيموند أسهم إسهاماً كبيراً في ذلك، واستطاع الإمبراطور أن يقابل ريموند على انفراد وأن يشرح له أنه هو الآخر لا يحب النورماندين، وأن بوهيموند لن يحصل أبداً على أية قيادة إمبراطورية في واقع الأمر. وعبر ريموند بجيشه مضيق البوسفور بعد يومين من أدائه القسم، لكنه عاد لقضاء أسبوعين في البلاط، ورحل وهو على صلة حميمة بالإمبراطور الذي وجد فيه حليفاً قوياً ضد بوهيموند. وتغير موقفه من الإمبراطور. (١)

(١) ترد مفاوضات Raymond مع الإمبراطور عند Raymond of Aguilers, II, p. 238 and *Gesta Francorum*, II, 6, p. 52 وتتفق الروايتان على أن ريموند كان تواقاً لأن ينتقم لنفسه من هزيمة جيشه في رودوستو، وأن الأمراء الآخرين أقنعوه بصعوبة بأن يقسم قسماً ما. كما تتفق الروايتان على بنود القسم الذي أقسمه. والمؤرخ ريموند أوف أجيلير فقط الذي يذكر المعلومات الهامة التي تفيد بأن الكونت كان على استعداد لأن يعمل في خدمة الإمبراطور شخصياً. وأعتقد أن التفسير اليسير لذلك الدافع هو غيرته من بوهيموند. أما أنا كرومينيا، التي دفعتها الأحداث اللاحقة إلى التحامل لصالح ريموند، فلا تذكر شيئاً قط حول تلك المفاوضات وإنما تقول فقط إن والدها--

روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا

وأما الجيش الكبير الرابع الذاهب إلى الحرب الصليبية فقد رحل من شمال فرنسا في أكتوبر (تشرين الأول) سنة ١٠٩٦ ميلادية بعد رحيل ريموند بفترة وجيزة، تحت القيادة المشتركة لـ روبرت دوق نورماندي - زوج أخت ستيفن كونت أوف بلوا - وابن خاله روبرت الثاني كونت أوف فلاندرز. وروبرت أوف نورماندي هو الابن الأكبر لـ ولیم الغازي، وهو رجل في الأربعين من عمره، ذو طباع هادئة، تعوزه الفعالية بعض الشيء، إلا أنه لا يفتقر إلى الشجاعة والجاذبية. ومنذ أن مات أبوه وهو منشغل في حروب بين الحين والآخر مع أخيه ولیم روفوس في إنجلترا الذي كان يعاود غزو دوقيته مرة بعد مرة. وكان لتبشير إيربان بالحرب الصليبية أثر عميق في نفسه، وسرعان ما أعلن انضمامه لها، وفي مقابل ذلك رتب البابا - بينما كان ما يزال في شمال فرنسا - مصالحة بينه وبين أخيه. على أن الإعداد للرحلة إلى الحرب الصليبية استغرق من روبرت عدة أشهر، ولكي يحصل على المال اللازم لها لم يكن بوسعها إلا أن يرهن دوقيته لدى أخيه ولیم في مقابل عشرة آلاف مارك فضي، وتم توقيع الوثيقة التي

-- كان يعرب عن مشاعر الحب والاحترام لـ 'Isangeles' - أي the Count of Saint-Gilles

لدمائته وأمانته . وتضيف أن ألكسيوس أجري مناقشات مطولة مع الكونت ، وتقتبس خطبة لهذا الأخير يحذر فيها الأمباطور من بوهيمند ويعد بأن يعمل مع البيزنطيين (Alexiad, x, xi, 9, vol. II, pp. 234-5) وليس هناك ما يدعوني لأن أفترض أنها قد خلطت هذه الزيارة مع الزيارة التي قام بها ريموند لألكسيوس سنة ١١٠٠؛ ويوافق ألبرت أوف آيكس - الذي حصل علي معلوماته من أحد جنود Godfrey - علي أن ريموند غادر القسطنطينية وهو علي أتم حالات الود مع ألكسيوس بعد أن تخلف أسبرعين (II, 20, p. 314). وهناك حالات من استخدام قسم عدم الإنحياز في

Languedoc ترد لدي، Vaissète, *Histoire de Languedoc*, vols. V, pp. 372, 381, and VII, pp. 134 ff.

تعتمد الرهن في سبتمبر (أيلول) ١٠٩٦ ميلادية. وبعد أيام قليلة خرج روبرت بجيشه إلى بونتارليه حيث انضم إليه ستيفن أوف بلوا وروبرت أوف فلاندرز، وكان معه أودو أسقف بايو، وولتر كونت أوف سانت فاليري، وورثة كونت مونتجمري وكونت مورتاني وجيرارد أوف جورني، وهيو أوف سانت بول، وأبناء هيو أوف جرانت ميسنيل، وعدد من الفرسان والمشاة، من نورماندي ومن إنجلترا واسكتلندا وبريتاني كذلك؛ رغم أن النبيل الإنجليزي الوحيد الذي كان مقررا أن يصاحب الحملة الصليبية وهو رالف جودير - إيرل أوف نورفوك - كان آنذاك منفيا يعيش في ممتلكات والدته في بريتاني. (١)

وكان ستيفن أوف بلوا عازفا عن الانضمام إلى الحرب الصليبية، لكن زوجته أديلا ابنة وليم الغازي كانت هي صاحبة القرار في بيتها، وأرادته أن يذهب فذهب. وكان معه من أتباعه الرئيسيين: إفيرارد أوف لوبلوا، وجويران جوvironat، وكارو آسيني، وجيوفري حيرن، وواعظ كنيسته ألكسندر. وكان من بين المجموعة القسيس فولشر أوف تشارتر الذي أصبح مؤرخا فيما بعد. ولقد تمكن ستيفن من جمع المال اللازم للرحلة دون صعوبة كبيرة، إذ كان واحدا من أغنى الأثرياء في فرنسا. وقد ترك أراضيه لزوجته لتديرها بما لها من اقتدار. (٢)

بالدوين أوف ألوست

وكان كونت أوف فلاندرز شابا في مقتبل الشباب نوعا ما، وكان ذا شخصية

(١) عن Robert of Normandy أنظر David, Robert Curthose, *passim*. In Appendix D, pp. 221-9, he gives a full list of Robert's companions

(٢) عن Stephen of Blois أنظر Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*, pp. 48-56

مرهوبة على نحو أكبر. وحج أبوه روبرت الأول إلى القدس سنة ١٠٨٦ ميلادية، والتحق في طريق عودته بخدمة الإمبراطور ألكسيوس لفترة من الوقت، وداوم الإمبراطور الاتصال به إلى أن وافته المنية سنة ١٠٩٣ ميلادية، ولذا كان من الطبيعي أن يرغب روبرت الثاني في مواصلة العمل ضد "الكفرة". وكان جيشه أقل حجماً من جيش ريموند أو جيش جودفري وإن كان من نوعية تفوقهما، وصحبه جنود من بربانت تحت إمرة بالدوين أوف ألست كونت جينت، وتقرر أن تقوم زوجته الكونتيسة كليميسيا أوف برجاندي بإدارة أراضيه أثناء غيابه. (١)

وتحرك الجيش المتحد من بونتارلييه جنوباً عبر جبال الألب إلى إيطاليا، وأثناء مروره بمدينة لوكا في نوفمبر (تشرين الثاني) قابل البابا إيربان الذي كان يقضي هناك أياماً قليلة وهو في طريقه من كريمونا إلى روما. واستقبل البابا القادة في اجتماع منحهم فيه بركاته الخاصة. وسار الجيش جنوباً إلى روما لزيارة قبر القديس بطرس، غير أنه رفض التدخل في الصراع القائم بين أتباع البابا إيربان وأتباع البابا الزائف جيبرت، الذين كانوا يسببون الاضطراب في المدينة بسبب ذلك الصراع. ومن روما مرّ الجيش بمدينة مونت كاسينو إلى الدوقية النورماندية في الجنوب حيث لقي استقبلاً حسناً من روجر بورصا، دوق أبوليا الذي كانت زوجته أديلا — ملكة الدانمارك الأرملة — وأخت كونت أوف فلاندرز، وقد اعترف بورصا بدوق نورماندي زعيماً لبني جلدته. وقدم روجر بورصا هدايا ثمينة لأخي زوجته، الذي لم يقبل سوى هدية واحدة وهي

(١) عن Robert and Clementia of Flanders أنظر *ibid.* pp. 247-9. وترد أسماء الفرسان

الفرنسيين الجنوبيين المشتركين في الجيش الصليبي في قائمة Albert of Aix (II, 22-3, pp. 315-16).

البقايا المقدسة: شعر العذراء، وعظام القديس ماثيو والقديس نيكولاس، وأرسلها إلى زوجته لتضعها في دير واتين.^(١)

وقرر روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا قضاء الشتاء في كلابريا للاستحمام، ولكن روبرت أوف فلاندرز تحرك مع رجاله على الفور قاصدا باري حيث عبر البحر إلى إبيروس في وقت مبكر من ديسمبر (كانون الأول)، ووصل القسطنطينية في نفس الوقت الذي وصل فيه بوهيموند تقريبا دون وقوع حادثة سيئة. أما كونت أوف ألوست الذي حاول التزول بالقرب من شيمارا الأبعد إلى الجنوب عن الموانئ المعدة لاستقبال سفن الصليبيين، فقد وجد طريقه مسدودا بأسطول بيزنطي صغير، ونشبت معركة بحرية خفيفة ذكرتها أنا كومينا بإسهاب في تاريخها؛ إذ أن بطل تلك المعركة ماريانوس مافروكاتالكون — ابن الأدميرال البيزنطي — كان صديقا لها. وصدّم البيزنطيون صدمة شديدة لدى رؤيتهم قسيسا لاتينيا محاربا من الصليبيين لا يولي اعتبارا لاثقا لملابسه الدينية، وعلى الرغم من شجاعته وإقدامه تمكن البيزنطيون من الاستيلاء على السفينة الصليبية بربانسون، وأنزلوا الكونت

Fulcher of Chartres, I, vii, pp. 163-8; charter of Clementia, Countess of Flanders, in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 142-3 (١)

ورجاله في ديرهاكيوم. (١) ولم يكن لدى جماعة الفلمنكيين فيما يبدو أية صعوبة في أداء قسم الولاء للإمبراطور، وكان الكونت روبرت من بين الأمراء الذين حثوا ريموند على الاستجابة. (٢)

وتجهل روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا في جنوب إيطاليا إلى أن جاء الربيع، وانتقل فتور حماسهما إلى أتباعهما الذين أخذ كثير منهم يعودون هائمين إلى أوطانهم. وأخيراً، تحرك الجيش إلى برنديزي في شهر مارس (آذار) وفي الخامس من إبريل (نيسان) أخذ يعد العدة لركوب البحر، ولسوء الحظ انقلبت أول سفينة وغاصت في القاع وخسر الجيش نحو أربعمئة راكب بخيلهم وبغالهم وكثير من خزائن الأموال. وحرفت الأمواج الجثث إلى الشاطئ. وببراعة اكتشفوا معجزة ظهور علامة الصليب على عظام الكتف في كل حثة. إذ رفع ذلك الاكتشاف البارع معنويات

(١) Fulcher of Chartres, *loc. cit.* p. 168; Anna Comnena, *Alexiad*, x, viii, 2-10,

vol. II, pp. 215-20 وبصورة مرضية فإن المؤرخ Maricq في مقالته "Un Comte de" the المنشورة في Barabant et des "Brabançons" dans deux textes byzantins vol. xxxiv, pp. 463 ff ، Bulletin de la Classe des Lettres للأكاديمية الملكية بلجيكا ،

يحدد ذلك الذي ذكرته أنا كورميننا علي أنه بلدوين الثاني كونت ألوست ، وبذا يظل افتراض Grégoir السابق بأنه كان Notes sur Anne Comnene, in Byzantion, vol. III, pp.

312-13) Richard of the Principate

التي تتضمن كذلك مناقشة مثيرة حول الكلمة التي ذكرتها أنا (ونظرية Ducange أن الكلمة هي

Mrs Reymond of Toulouse الذي كان أيضا arquis of Provence والتي تأخذها Mrs

Buckler, Anna Comnena, p. 465 إنما هي نظرية مستحيلة إذ دأبت أنا كورميننا علي

تسمية Raymond باسم 'Isangeles' وتحركاته معروفة تمامًا لنا .

Raymond of Aguilers, II, p. 238 (٢)

سواد الجيش ركب السفن بأمان، وبعد أربعة أيام عصيبة في البحر نزل إلى البر في ديرهاكيوم، واستقبلتهم السلطات البيزنطية استقبالا حسنا وأمدتهم بحرس لمصاحبتهم عبر طريق فيا إجناتيا إلى القسطنطينية. وكانت رحلة طيبة لولا حادثة سيئة حدثت حينما كان الجيش يعبر ممراً مائياً في البيندوس وحدث فيضان مفاجئ اكتسح العديد من الحجاج. وبعد تأخير استغرق أربعة أيام أمام أسوار ثيسالونيكا وصل الجيش إلى القسطنطينية في وقت مبكر من مايو (أيار)، وخيم خارج الأسوار مباشرة، وسُمح لمجموعات من خمسة أو ستة أشخاص في المرة الواحدة بالدخول يومياً لمشاهدة معالمها والتعبّد في مزاراتها. وكانت الجيوش الصليبية السابقة في الحضور قد نقلت كلها عبر البوسفور، ولذا لم يكن هناك ساخطون يفسدون العلاقة بين الوافدين الجدد وبين البيزنطيين. ولقد ذهلوا إعجاباً بجمال المدينة وروعته، وتمتعوا بما قدمته لهم من راحة ومتعة، وشعروا بالامتنان للإمبراطور على ما منحهم من عملات نقدية وملابس حريرية وأطعمة وخيول، وعلى الفور أقسم قادتهم قسم الولاء للإمبراطور الذي كافأهم بهدايا رائعة. وفي الشهر التالي كتب ستيفن أوف بلوا لزوجته، وقد كان يراعي واجبه في مراسلتها، يعرب عن نشوته لاستقبال الإمبراطور له؛ إذ بقي في القصر عشرة أيام عاملاً الإمبراطور فيها كما لو كان ابنه، وبذل له من النصيح المفيد الشيء الكثير، ووهبه من الهدايا النفيسة العدد الوفير، وعرض عليه أن يعلم ابنه الأصغر. وتأثر ستيفن بوجه خاص بما أظهره الإمبراطور من كرم نحو جميع جنود الجيش الصليبي، وبما أبداه من كفاءة في تنظيم عمليات إمداد الجنود في الميدان بالمؤن الوفيرة، فكتب مشيراً إلى حمية وليم الغازي: "إنّ أباك، يا حبيبتي، أغدق الكثير من الهدايا العظيمة، لكنه لا يكاد يُذكر بمقارنته بهذا الرجل".

نجاح تنظيم الإمبراطور

وانقضى أسبوعان قبل أن يُنقل الجيش إلى آسيا. وأدخل عبور البوسفور البهجة على ستيفن الذي كان قد سمع أن المضيق خطر، لكنه لم يجده أكثر خطورة من نهر السين أو نهر المارن. وساروا بمحاذاة خليج نيكوميديا، مروراً بنيكوميديا ذاتها، ليلحقوا بالجيش الصليبي الرئيسية التي بدأت بالفعل حصارها لمدينة نيقية. (١)

وتنفس ألكسيوس الصعداء. كان يرغب في مرتزقة من الغرب، ولكن بدلاً من ذلك جاءت جيوش جرارة بقادتها. وواقع الحال أن أية حكومة لا ترغب في وجود أعداد من قوات مستقلة متحالفة معها تغزو أراضيها، لاسيما إذا كانت تلك القوات في مستوى حضاري دون مستواها، إذ يتعين توفير الطعام لها، ومنعها من السلب والنهب. وليس في الإمكان معرفة الحجم الحقيقي للجيش الصليبي إلا تخميناً؛ وتقديرات العصور الوسطى مبالغ فيها دائماً، على أن غوغاء بطرس — بما فيها الكثير من غير المقاتلين — ربما كان عددها يقارب عشرين ألفاً. وأما الجيش الصليبي الرئيسية، وهي جيوش كل من ريموند، وجودفري، والفرنسيين الشماليين، فقد زاد عدد كل منها كثيراً على عشرة آلاف بما فيهم غير المقاتلين، وكان جيش بوهيموند أصغر قليلاً، كما كانت هناك جماعات أخرى أقل. وجملة من دخلوا الإمبراطورية بين صيف ١٠٩٦ ميلادية وربيع ١٠٩٧ ميلادية لابد وأنه يتراوح بين ستين ومائة ألف شخص. (٢) وإجمالاً، كانت ترتيبات الإمبراطور للتعامل معهم ناجحة، فلم يعان أي من

(١) Fulcher of Charetres, II, viii, pp. 168-76 خطاب ستيفن أوف بلوا لزوجته المذكور عند

Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 138-40 وقد كتب هذا الخطاب من نيكوميديا. ولسوء الطالع

ضاع خطاب سابق كتبه من القسطنطينية يصف الرحلة فيها ويشير فيه ستيفن إليها.

(٢) أنظر Appendix II.

الصلبيين من نقص الطعام أثناء عبور البلقان، والغارات الوحيدة التي حدثت من أجل الطعام كانت تلك الغارات التي قام بها والتر المفلس في بلجراد، وبطرس في بيلابالانكا، وقد حدث ذلك في ظروف استثنائية، وغارة بوهيموند في كاستوريا أثناء رحلته عبر طريق غير ملائم في منتصف الشتاء. ولم يكن في الإمكان منع غارات صغيرة على المدن وهجوم عابث أو اثنين عليها؛ فلم يكن لدى ألكسيوس العدد الكافي من الجنود، على أن فصائله من البتشنج، بطاعتهم العمياء الصارمة للأوامر، والتي أثارت سخط الصليبيين، أثبتت كفاءتها كقوة شرطة، بينما كان مبعوثوه الخصوصيون يعاملون الغربيين معاملة تتصف باللباقة. وليس أدلّ على نجاح الأساليب التي اتبعها الإمبراطور من عبور الجيوش الأخيرة عبوراً سلساً، وهي المؤلفة من الفرنسيين الشماليين المفتقرين إلى النظام، وهم تحت إمرة قادتهم الضعفاء العاجزين.

مصالح الإمبراطور

ولقد حصل ألكسيوس في القسطنطينية على قسم الولاء من جميع الأمراء فيما عدا ريموند الذي توصل معه إلى تفاهم خاص؛ ولم ينخدع في قيمة القسم من الناحية العملية، أو في مصداقية الرجال الذين أقسموه وإن كان ذلك القسم قد أعطاه على الأقل شرعية ربما تثبت أهميتها. ولم يكن من اليسير بلوغ الغاية المقصودة بذلك القسم؛ فعلى الرغم من أن القادة الأكثر حكمة مثل وهيموند، والمراقبين الأذكياء من أمثال فولشر أوف تشارترز كانوا يدركون ضرورة التعاون مع بيزنطة، فإن الفرسان الأقل شأناً وعوام الجنود رأوا في القسم إهانة وخيانة للأمانة،^(١) وقد تحاملوا على البيزنطيين لما لقوه من أبناء البلاد من استقبال يتصف بالبرود، بينما كان الصليبيون يظنون

(١) . Fulcher of Chartres, 1, viii, 9, pp. 175-9 1, ix, 3, p. 179

أنهم جاءوا ليخلصوهم. والقسطنطينية مدينة شاسعة رائعة، ثروتها وفيرة، وسكانها من تاجر وصانع في حركة دائبة، ونبلاؤها يتحلون بدمائة الخلق، ويزدانون بأردية المدنية والملابس الفاخرة، والسيدات الفضليات قد تزين وتحمّلن، وفي ركاب كل واحدة منهن حاشيتها من الخصى والعبيد؛ كل ذلك أثار في نفوس الصليبيين احتقاراً يخالطه إحساس مقلق بالنقص، وما كان بمقدورهم أن يفهموا لغة البلاد ولا عاداتها، كما كانت الطقوس الكنسية غريبة عليهم.

وبادهم البيزنطيون نفوراً بنفور. فكان مواطنو العاصمة يعتبرون هؤلاء الجامحين الغلاظ الذين طالت عسكرتهم في الضواحي مصدر إزعاج شديد. بينما ينعكس موقف إبناء البلاد حيالهم في خطاب كتبه ثيوفيلاكس، كبير أساقفة بلغاريا من مقره في أوركريدا على طريق فيا إجناتيا، الذي لا يخفي على أحد سعة أفقه تجاه الغرب، عن المتاعب التي سببها مرور الصليبيين في أراضى أسقفيته، ويضيف أنه ورعيته كانوا يتعلمون كيف يحتملون الصبر. (١) إن افتتاح الحرب الصليبية لم يكن بشيراً بعلاقات حسنة بين الشرق والغرب.

ومع ذلك، ربما كان ألكسيوس راضياً؛ فقد زال الخطر عن القسطنطينية، وانطلق الجيش الصليبي الكبير ليحارب الأتراك، وتوفرت لديه النية الصادقة في التعاون مع الصليبيين، ولكن بشرط واحد: إنه لن يضحى بمصالح الإمبراطورية من أجل مصالح الفرسان الغربيين؛ فواجهه الأول هو واجبه نحو شعبه. وفضلاً عن ذلك، كان يؤمن — كشأن البيزنطيين جميعاً — بأن رفاة العالم المسيحي تتوقف على رفاة الإمبراطورية المسيحية التاريخية. وكان اعتقاده صحيحاً.

(١) . Letter of Theophylact of Bulgaria, in *M.P.G.* vol. cxxvi, cols. 324-5

الباب الرابع :

الحرب ضد الأتراك



المفتدين

الفصل الأول :

الحملة في اسيا الصغرى

الحملة في آسيا الصغرى

"وَتَأْتِي مِنْ مَوْضِعِكَ مِنْ أَقَاصِي الشَّامِ
أَنْتَ وَشُعُوبٌ كَثِيرُونَ مَعَكَ كُلُّهُمْ
رَاكِبُونَ خَيْلاً جَمَاعَةً عَظِيمَةً وَجَيْشٌ
كَثِيرٌ."

(سفر حزقيال، ٣٨ — ١٥)

أيًا ما يكون حجم الخلاف بين الإمبراطور وأمراء الصليبيين على الحقوق النهائية وتوزيع ما سوف يتم الاستيلاء عليه من أراضٍ، فلم يكن هناك خلاف حول المراحل الأولى للحملة ضد الكفرة؛ فإذا أرادت الحملة الصليبية الوصول إلى القدس فينبغي تطهير الطرق التي تمر عبر آسيا الصغرى ومن الناحية الأخرى كان الهدف الرئيسي

للسياسة البيزنطية هو دحر الأتراك خارج آسيا الصغرى، وإذن فهناك اتفاق تام على الإستراتيجية. وحتى ذلك الحين كان الصليبيون على استعداد للإذعان للقادة المحنكين في الجيش البيزنطي القريب منهم في مسائل التكتيك.

وكان الهدف الأول هو العاصمة السلجوقية نيقية الواقعة على شواطئ بحيرة أسكانيا على مسافة غير بعيدة من بحر مرمرة، والتي يمر خلالها الطريق البيزنطي العسكري القديم، برغم وجود طريق بديل يقع إلى الشرق قليلا. ولا شك في أن بقاء هذه القلعة العظيمة في أيدي الأعداء يعرض جميع الاتصالات عبر البلاد للخطر. وكان الكسيوس متلهفا على رحيل الصليبيين بأسرع وقت ممكن خاصة وأن الصيف على الأبواب، والصليبيون أنفسهم قد نفذ صبرهم؛ فصدرت الأوامر في الأيام الأخيرة من إبريل (نيسان) — وقبل وصول جيش الفرنسيين الشماليين إلى القسطنطينية — بالاستعداد لهدم معسكر بيليكانوم والتقدم إلى نيقية (١).

اختيرت اللحظة اختيارا موفقا؛ إذ كان السلطان السلجوقي قلج أرسلان الأول بعيدا على حدوده الشرقية يناضل أمراء الدانشمند من أجل السيادة على ملطية التي كان حاكمها الأرميني جابريل مشغولا بالإفساد بين الأمراء الحكام في المنطقة. ولم يأخذ قلج أرسلان هذا التهديد الجديد القادم من الغرب مأخذا جادا؛ إذ سبق وهزم غوغاء بطرس الناسك بغاية اليسر، فتعلم أن يحتقر الصليبيين، وربما أراد جواسيسه في القسطنطينية أن يدخلوا السرور عليه فبالغوا في تصوير الخلافات بين الإمبراطور

(١) من الصعب اقتفاء أثر الأمراء؛ فقد كان جيش جودفري في بيليكانوم منذ أوائل إبريل (نيسان)، ولحق به جيش بوهيموند هناك وربما تحرك الجيشان: جيش جودفري قبل جيش بوهيموند بثلاثة أيام، وقبل وصول جيش ريموند إلي هناك، يوم ٢٩ أو ٣٠ من إبريل (نيسان) لا جتناب شدة ازدحام المعسكر، وبقي جيش ريموند في بيليكانوم ينتظره أثناء عودته إلى القسطنطينية لزيارة الإمبراطور.

والأمراء الغربيين. واستبعد قلع أرسلان أن يتوغل الصليبيون إلى نيقية استبعاداً تاماً، فترك زوجته وأولاده وجميع أمواله داخل الأسوار، ولم يحرك ساكناً إلا عندما جاءته الأنباء بتمركز الأعداء في بيليكانوم، فأعاد جزءاً من جيشه بسرعة إلى الغرب، على أن يتبعه بنفسه حالما يتمكن من تدبير شؤونه في الشرق، ولكن جنوده وصلوا متأخرين بحيث لم يتمكنوا من التدخل في مسيرة الصليبيين إلى نيقية. (١)

تجمع الصليبيين أمام نيقية

وتحرك جيش جودفري أوف لورين من بيليكانوم في السادس والعشرين من إبريل (نيسان) تقريباً، وسار إلى نيكوميديا حيث انتظر ثلاثة أيام لحق به بعدها جيش بوهيموند بقيادة تانكريد، وكذلك بطرس الناسك وبقايا غوغائه. وكان بوهيموند قد تخلف في القسطنطينية لأيام قلائل ليرتب مع الإمبراطور تمويل الجيش بالإمدادات. وصاحبت الجيش فصيلة بيزنطية صغيرة من المهندسين ومعها آلات الحصار بقيادة مانويل بوتوميتيس، وقاد جودفري الجيش من نيكوميديا إلى سيفيتوت، ثم تحول جنوباً عبر المضيق الذي هلك فيه رجال بطرس، وكانت عظامهم ما تزال تغطي مدخل الممر. وتحرك جودفري بحذر، وقد استعاد في ذهنه مصير رجال بطرس ونصيحة الإمبراطور، فأرسل الكشافين والمهندسين في المقدمة لتطهير الطريق وتوسيعه، ثم وضعت فيه سلسلة من الصلبان الخشبية لإرشاد حجاج المستقبل. وفي السادس من مايو (أيار) وصل إلى مدينة نيقية، المحصنة تحصيناً قوياً منذ القرن الرابع؛ إذ كان البيزنطيون دائبين على صيانة أسوارها التي يبلغ طولها حوالي أربعة أميال بأبراجها البالغ عددها مائتين وأربعين برجاً.

(١) Matthew of Edessa, II, cxlix-cl, pp. 211-12 ، يصف هجوم قلع أرسلان على ملطية

ويقوم إنه كان مشغولاً هناك عندما هاجم الفرنج نيقية .

وتقع المدينة على الطرف الشرقي لبحيرة أسكانيا وتبرز أسوارها الغربية من المياه الضحلة مباشرة، وكان شكلها خماسيا غير منتظم. وعسكر جودفري أمام السور الشمالي، وتانكريد أمام السور الشرقي، وأما السور الجنوبي فقد تركوه لجيش ريموند.

وكانت الحامية التركية كبيرة ولكن في حاجة إلى تعزيزات، فأرسلت الرسل إلى السلطان تستحثه على أن يدفع بالجنود إلى داخل المدينة من البوابات الجنوبية قبل إتمام الإحاطة بها، وأمسك الصليبيون واحداً من هؤلاء الرسل. وعلى أن الجيش التركي كان ما يزال بعيداً للغاية، وقبل أن تتمكن طلائعه من الاقتراب وصل ريموند في السادس عشر من مايو (أيار) وانتشر جيشه أمام السور الجنوبي، وكان بوهيموند قد لحق بجيشه قبل ذلك بيومين أو ثلاثة، وحتى ذلك الوقت كانت الإمدادات القليلة غير الكافية قد أضعفت الصليبيين، ولكن بفضل ترتيبات بوهيموند مع ألكسيوس بدأت الإمدادات تتدفق على المحاصرين براً وبحراً. وبوصول روبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا بقواتهما في الثالث من يونية (حزيران)، يكون الجيش الصليبي كله قد تجمع. وأخذ يعمل كوحدة واحدة برغم عدم وجود قائد أعلى له، وكانت القرارات تصدر من الأمراء أثناء اجتماعهم، وحتى ذلك الحين لم يقع خلاف جدي فيما بينهم، كما انتقل الإمبراطور إلى بيليكانوم حيث يتمكن من الاتصال بكل من عاصمته ونيقية. (١)

(١) يرد في *Gesta Francorum*, II, 7, p. 34 وصف مسيرة جودفري إلى نيقية . وتقول Anna Comnena, XI, I, I, vol.III, p.7 إن جزءا من الجيش ذهب مباشرة بحرا من بيليكانوم إلى سيفيتوت. ويقول ألبرت أوف آيكس إن جودفري وصل " روفينيل " Rufinel " في الليلة التي ترك فيها المعسكر (في بيليكانوم) وتوقف هناك لتسلم رسالة من ريموند في القسطنطينية ولكي ينضم إليه بطرس الناسك (Albert, II, 20, pp. 313-14). وبكلمة " Rufinel " فلا بد وأنه يقصد نيكوميديا التي تبعد عن بيليكانوم بمسافة يوم . ويرد وصول ريموند يوم ١٦ مايو في *Gesta Francorum*, II, 8, p.36 كما يرد وصول فرنسي الشمال في P.38 . وكذلك ibod . الذي يذكر التاريخ . Fulcher of Chartres, I, x, 3, p. 182.

ووصلت أول قوة إغاثة تركية إلى نيقية بعد وصول ريموند مباشرة لتجد المدينة وقد حوصرت تماماً من البر. وبعد مناوشة قصيرة غير ناجحة مع جنود ريموند انسحبت لتنتظر الجيش التركي الرئيسي الذي كان يقترب وعلى رأسه السلطان نفسه. وكان ألكسيوس قد أصدر تعليماته لبوتوميتيس بإجراء اتصال مع الحامية المحاصرة، وعندما رأت الحامية أن قوة الإغاثة تنسحب وجه قادتها الدعوة إلى بوتوميتيس ليدخل المدينة آمناً لمناقشة شروط التسليم، وبعد أن قبل جاءت الأنباء في الحال بأن السلطان ليس بعيداً فاهارت المفاوضات.

المعركة خارج نيقية

وفي حوالي الحادي والعشرين من مايو (أيار) وصل السلطان وجيشه من الجنوب وهاجم الصليبيين على الفور في محاولة لاقتحام المدينة. وتحمل ريموند - الذي كان جناحه الأيمن بقيادة أسقف لوبوى - وطأة الهجوم. إذ لم يكن بوسع أي من جودفري أو بوهيموند المجازفة بترك الجزء الذي يتولاه من الأسوار دون حراسة، على أن روبرت أوف فلاندرز خف مع جنوده لنجدة ريموند، واتقدت المعركة بشراسة طوال اليوم دون أن يحرز الأتراك تقدماً. وعندما حل الظلام قرر السلطان الانسحاب؛ إذ كان الجيش الصليبي أقوى مما يظن وعند مواجهة المقاتلين بعضهم البعض في الميدان أمام المدينة لم يكن رجاله أنداداً للغربيين حسني التسليح. فالإستراتيجية الأفضل، إذن، هي الانسحاب إلى الجبال وترك المدينة لمصيرها. (١)

(١) توضح أناكرومينيا XI, I, 3-4, vol.III, pp. 8-9 أن الأتراك أرسلوا قوتين منفصلتين لإنقاذ نيقية .

ويذكر ألبرت أوف آيكس II, 25-6, pp. 318-19 القبض على جواسيس أتراك قبل الهجوم التركي مباشرة . ويرد وصف المعركة في *Gesta Francorum* II, 8, pp. 36-8 وفي التاريخ Raymond of Aguilers, III, p. 239 وفي تاريخ ألبرت أوف آيكس II, 27, pp. 319-20

وكانت خسائر الصليبيين فادحة، إذ قتل كثيرون من بينهم بالدوين كونت أوف جينت وجرح الناجون من المعركة كلهم تقريباً. غير أن النصر ملأهم زهواً وتيهاً، وأهمجهم أن وجدوا بين موتى الأتراك حبلاً لتقييد الأسرى الذين كان السلطان يأمل في أسرهم، ولكي يثبّطوا من عزيمة الحامية المحاصرة قطعوا رُعوس الكثير من جثث الأتراك وألقوا بها من فوق الأسوار أو ثبّتها في حراب ومشوا بها في استعراض عسكري أمام البوابات. (١) ثم أنهم بعد أن زال ما يخشون من خطر خارجي ركزوا على الحصار، ولكن التحصينات كانت هائلة، وعبثاً حاول ريموند وأدميرال نسف أحد الأبراج الجنوبية بإرسال متسللين للحفر تحت البرج وإشعال نيران كبيرة تحته. فكانت الحامية تصلح الأضرار الصغيرة الناجمة أثناء الليل. وإلى جانب ذلك اتضح أن الحصار لم يكن محكماً؛ إذ كانت الإمدادات تصل باستمرار إلى المدينة عبر البحيرة. (٢) واضطر الصليبيون إلى أن يطلبوا من الإمبراطور الحضور لمساعدتهم وإمدادهم بقوارب كي يعترضوا الطريق المائي. وربما كان ألكسيوس مدركاً للموقف إدراكاً تاماً، لكنه أراد أن يكتشف الأمراء الغربيون مدى أهمية تعاونه بالنسبة لهم. وأجابه إلى طلبهم بأن أمدهم بأسطول صغير في البحيرة تحت قيادة بوتوميتيس. (٣)

(١) *Gesta Francorum, loc. cit.*; Albert of Aix, II, 28, pp. 320-1

بلوا عن موت Baldwin of Ghent، كما يرد في Hagenmeyer, *op. cit.* p. 139

(٢) *Gesta Francorum, loc. Cit.*; Albert of Aix, II, 31, pp. 322-3; Anna Comnena, XI, I, 6-7, vol. III, pp. 9-10

(٣) *Gesta Francorum, ibid.* p.40; Albert of Aix, II, 32, pp. 323-4

XI, ii, 3-4, vol. III, pp. 11-12

وتقول إنه أرسل في ذات الوقت الجنود تحت إمرة تاتيسيوس وتزيتاس لمساعدة الصليبيين على الأرض

الاستيلاء على نيقية

وكان السلطان قد أخبر الحامية قبل انسحابه بأن تفعل ما تظنه الأفضل، إذ ليس بمقدوره تقديم المزيد من العون. فعندما رأت الحامية السفن البيزنطية في البحيرة أدركت أن الإمبراطور يعاون الصليبيين معاونة كاملة وقررت التسليم. وكان ذلك هو ما يأمل فيه ألكسيوس، فلم يكن يرغب في أن يضيف إلى الأراضي الخاضعة لسلطانته مدينة شبة مهدامة، ولا أن يعاني رعاياه الجدد أهوال السلب، لاسيما وأن أغلب المواطنين كانوا مسيحيين، فالأترك في المدينة لا يجاوزون الجنود وطبقة صغيرة من نبلاء البلاط. وعادت الاتصالات بين الحامية وبوتوميتيس ونوقشت شروط التسليم. ولكن الأتراك ظلوا مترددين وربما كانوا يأملون في عودة السلطان، ولم يستسلموا إلا عندما جاءهم الأنباء بأن الصليبيين يعدّون العدة لهجوم عام.

وكانت الأوامر قد صدرت بأن يكون الهجوم في التاسع عشر من يونية (حزيران)، ولكن عند انبلاج الصباح شاهد الصليبيون رايات الإمبراطور ترفرف على أبراج المدينة؛ لقد استسلم الأتراك أثناء الليل ودخل جنود الإمبراطور - وهم أساساً من البتشنج - من البوابات الواقعة في جانب البحيرة. ومن غير المحتمل ألا يكون القادة الصليبيون على علم بالمفاوضات، أو عارضوها، إذ كانوا يعلمون أن لا مغزى من إضاعة الوقت والرجال في الهجوم على مدينة لن تكون لهم، ولكن ألكسيوس تعمّد إخفاء المراحل الأخيرة، وأما باقي الجنود فقد اعتبروا أنهم خدعوا وحيل بينهم وبين فريستهم. إذ كانوا يأملون في نهب ثروات نيقية. وبدلاً من ذلك وجدوا أنفسهم وقد سُمح لهم بمجرد دخول المدينة في جماعات صغيرة وهم تحت المراقبة الشديدة من شرطة الإمبراطور، وكانوا يأملون في احتجاز نبلاء الأتراك للحصول على فدية، وبدلاً من ذلك شاهدوهم وهم يُنقلون تحت الحراسة مع منقولاتهم إلى القسطنطينية أو إلى

الإمبراطور في بيليكانوم. فازدادت مرارة استيائهم من الإمبراطور. (١)

وقد خفف كرم الإمبراطور من حدة هذه المرارة إلى حد ما؛ إذ أمر ألكسيوس على الفور بمنح كل جندي صليبي هدية طعام، بينما استدعى القادة إلى بيليكانوم لإهدائهم ذهباً وجواهر من خزانة السلطان. وأذهل ستيفن أوف بلوا وهو في حضرة الإمبراطور مع ريموند أوف تولوز جبل الذهب الذي كان من نصيبه، وكان يعارض رأي رفاقه من الصليبيين الذين يقولون أنه كان ينبغي للإمبراطور أن يجيء إلى نيقية بنفسه؛ لأنه يعرف أن استقبال المدينة المحررة لسيدها ربما أدى إلى إحراجهم. وفي مقابل الهدايا طلب ألكسيوس من الفرسان الذين لم يقسموا له قسم الولاء بعد أن يقسموه الآن، واستجاب الكثير من اللوردات الأقل شأنًا الذين لم يعبأ ألكسيوس بهم أثناء عبورهم القسطنطينية. ويبدو أنه لم يطلب من ريموند شيئاً غير ما حدث من قبل، على أن حالة تانكريد اتخذت شكلاً أكثر خطورة؛ إذ كان تانكريد بادئ الأمر مشاكساً، فقد أعلن أنه ما لم يأخذ خيمة الإمبراطور الكبيرة مملوءة ذهباً إلى حافتها، فضلاً عن مقدار آخر من الذهب يساوي كل الذهب الذي أخذه الأمراء الآخرون، فإنه لن يقسم على شيء. وعندما اعترض زوج أخت الإمبراطور جورج باليولوجوس على فظاظته

(١) تورد أناكومينا XI, ii, 4-6, vol. III, pp. 12-13 رواية كاملة عن استسلام المدينة، وتعترف صراحة بأن البيزنطيين خدعوا الصليبيين. ولا تزيد المصادر الغربية على أن نيقية استسلمت للإمبراطور.

تحول إليه في خشونة وأمسك بتلابيبه، ونهض الإمبراطور ليتدخل، وراح بوهيموند يوبخ ابن أخته توبينخًا شديدًا، وفي النهاية خضع تانكريد على مضض. (١)

وصدم الصليبيون لمعاملة الإمبراطور لأسراه من الأتراك. إذ سمح لمسثولي البلاط والقادة بأن يشتروا حريتهم، أما السلطنة — وهي ابنة الأمير شاكا — فقد استقبلت بالتشريفات الملكية في القسطنطينية حيث تقرر أن تبقى هناك إلى أن يرسل زوجها رسالة بالمكان الذي يرغب أن تلحق فيه به، وعندئذ سوف ترسل إليه هي وأولادها

(١) يقول Raymond of Aguilers, III, pp. 239-40 إن الإمبراطور كان قد وعد الأمراء بكافة الأسلاب المأخوذة من نيقية وتعهد بإنشاء دير لاتيني ونزل هناك؛ وتسبب عدم تحقيق وعده في الشعور بمرارة بالغة. غير أن هناك من تحدث عن كرمه العظيم في تواريخ Fulcher of Chartres, I, x, 10, و Anselm of Ribemont, pp. 188-9 و op. cit. 145 وستيفن أوف بلوا في هاجنماير op. cit. p. 140 ويقول هذا الأخير إن الإمبراطور قد وزع في الواقع أجود الأسلاب (Gesta Francorum, III, 9, p. 42) وتذكر أناكومينا (XI, III, 1-2, vol. III, p. 16-17) واقعة القسم للمرة الثانية. ويفترض جروسيت في : Histoire des Croisades, vol. I, p. 31 وبدون سبب واضح لافتراضه هذا أن تانكريد كان ما يزال رافضًا لأخذ القسم بل أن Chalandon يستبعد ذلك لأن ألكسيوس لم يتهمه فيما بعد قط بأنه حنث بقسم ما. علي أن قصة أنا كومينا واضحة ومقنعة. ومن الناحية الأخرى تتضح صحة تخيل Radulph of Caen عن الحكاية (XVIII-XIX, pp. 619-20) وتقدم القصة علي أن تانكريد أحب أن يتخيل ذلك. أنظر Nicholson, Tancred, p. 32 n. 5 ويعترف Anselm, loc. cit. بأن بعض الأمراء كانوا مستائين من الإمبراطور. ويورد ألبرت أوف آيكس II, 28, p. 321 توزيع ألكسيوس للهدايا أثناء الحصار. أنظر ما سبق صفحة ٢٠٢ الحاشية ١، فيما يتعلق بمكان الاحتمال.

دون فدية. لقد كان ألكسيوس رجلاً شفوفاً، وكان يعي جيداً قيمة التلطف مع عدو مهزوم، بيد أن موقفه هذا بدا للأمرء الغربيين موقف المنافق الخئون. (١)

ومع ذلك، وبرغم خيبة الأمل التي شعر بها الصليبيون لعدم استيلائهم هم أنفسهم على المدينة، وحرمانهم من ثروتها، فإن تحرير نيقية ملاهم بهجة وأمل في المستقبل. وأرسل البريد إلى الغرب معلناً أن هذا المكان المبجل أصبح مسيحياً مرة أخرى. واستقبل الغرب تلك الأنباء بحماس، فقد أثبتت الحرب الصليبية نجاحها، وزاد استجلاب الجنود، وبدأت المدن الإيطالية، التي كانت تتوخى الحذر وترجئ مساعدتها الموعودة، تأخذ الحركة الصليبية مأخذاً جاداً. وفي معسكر الصليبيين كان الفرسان متلهفين على مواصلة الرحلة، وكان ستيفن أوف بلوا في غاية التفاؤل، وكتب لزوجته: "سنكون في القدس في مدى خمسة أسابيع"، وأضاف في تنبؤ يجاوز معرفته: "ما لم يعوقنا عائق في أنطاكية". (٢)

الطرق خلال آسيا الصغرى

ومن نيقية انطلق الصليبيون في الطريق البيزنطي القديم عبر آسيا الصغرى، وكان الطريق القادم من خلقدونية، ونيكوميديا يلتقي بالطريق القادم من هيلينوبوليس ونيقية على ضفاف نهر سنجاريوس. وسرعان ما يترك النهر ليصعد وادياً آخر لرافد يقع إلى الجنوب، تاركاً وراءه مدينة بيليجيك الحديثة، ثم يلتف فوق أحد الممرات إلى دريليوم

(١) يعلن كاتب تاريخ *Gesta Francorum* (II, 8, pp.40-2) أن الإمبراطور عامل الأسرى معاملة

كرامة، ببساطة لكي يجعلهم يضايقون الصليبيين فيما بعد. وعن تحركات السلطان اللاحقة أنظر ص ٢٤١.

(٢) Stephen of Blois, *loc. cit.* سمح للصليبيين زيارة نيقية في مجموعات من عشرة أشخاص

بالقرب من إسكيشهر الحديثة، وهناك يتفرع إلى ثلاثة طرق: فيمضي الطريق البيزنطي العسكري الكبير باتجاه الشرق، وربما كان يمر بالقرب من أنقرة إلى الجنوب مرة أخرى بعد عبوره نهر هاليس، فيستمر فرع منه عابراً سباستيا (سيفاس) مباشرة إلى داخل أرمينيا، ويلتف الآخر باتجاه قيصرية مازاكا. ومن هناك كانت عدة طرق تمضي عبر ممرات منطقة جبال طوروس المقابلة إلى داخل وادي الفرات، بينما يلتف طريق آخر مرتين عائداً إلى الجنوب الغربي خلال تيانا إلى بوابات كيليكيا. ويمضي الطريق الثاني من دوريليوم مباشرة عبر صحراء الملح الكبرى في وسط آسيا الصغرى، جنوب بحيرة تاتا ومن أموريوم إلى بوابات كيليكيا. ولم يكن هناك من يستخدم ذلك الطريق سوى الجماعات التي تتحرك بسرعة لأنه كان يمر عبر منطقة مقفرة تخلو من الماء تماماً. وكان الطريق الثالث يمر بأطراف صحراء الملح الجنوبية ممتداً من فيلوميليوم، وهي إكسيشهر الحديثة، إلى إيكونيوم وهرقلة وبوابات كيليكيا. وكان هناك طريق فرعي يجري بادئاً على مقربة من فيلوميليوم إلى البحر المتوسط عند أنطاليا، وآخر من مكان عبر إيكونيوم إلى البحر المتوسط عند سيليوشيا. (١)

وأياً ما يكون الطريق الذي كان على القوات الصليبية أن تتخذه، فلا بد لها من الوصول أولاً إلى دوريليوم. وفي السادس والعشرين من يونيو (حزيران)، أي بعد أسبوع من سقوط نيقية، بدأت الطلائع تتحرك وتبعتها في اليومين التاليين فرق الجيش المختلفة ليتجمع الجيش مرة أخرى عند جسر عبر النهر الأزرق حيث يترك الطريق وادي سنجاريوس ليصعد إلى الهضبة. وصاحبت الصليبيين فصيلة بيزنطية صغيرة بقيادة الجنرال المحنك تاتيسيوس، وتخلف عدد من الصليبيين أغلبهم من المصايين في نيقية،

(١) عن الطرق في آسيا الصغرى أنظر Ramsay, *Historical Geography of Asia Minor*,

والتحقوا بخدمة الإمبراطور ووضعوا تحت إمرة بوتوميتس لإصلاح ما تهدم من نيقية والالتحاق بحاميتها. (١)

وعند الجسر، وفي قرية تدعى ليوس، اجتمع الأمراء للتشاور وقرروا تقسيم الجيش إلى قسمين يلحق أحدهما بالآخر بعد مسيرة يوم واحد لتسهيل مشكلة الإمدادات. يتكون الجيش الأول من النورماندين القادمين من جنوب إيطاليا وشمال فرنسا مع جنود كونت أوف فلاندرز وكونت أوف بلوا بالإضافة إلى البيزنطيين الذين كانوا يقومون بدور المرشدين. ويضم الجيش الثاني الفرنسيين الجنوبيين وأبناء اللوريين مع جنود كونت أوف فيرماندوا. وتولى بوهيموند قيادة المجموعة الأولى، وريموند أوف تولوز المجموعة الثانية، ولما تم التقسيم انطلق جيش بوهيموند على الطريق إلى دوريليوم. (٢)

وكان السلطان قلعج أرسلان، بعد أن فشل في إنقاذ نيقية، قد انسحب شرقاً ليجمع قواته ويحقق السلام والتحالف مع أمير الدانشمند ضد هذا التهديد الجديد. فكانت خسارة نيقية إنذاراً له، كما كانت خسارته لخزائنه خسارة فادحة، ولكن الأتراك كانوا ما يزالون بدوا رحلاً بالغريزة. وكانت عاصمة السلطان الحقيقية هي خيمته. وفي أواخر يونية (حزيران) عاد باتجاه الغرب ومعه جميع قواته والأمير حسن

(١) انطلق جيش بوهيموند يوم ٢٦ يونية (*Gesta Francorum*, III, 9, p.44) وانطلق جيش ريموند يوم ٢٨ يونية (*Raymond of Aguilers*, III, p. 240; *Anselm of Ribemont*, loc.cit.) ، وانطلق الجيش الفرنسي الشمالي يوم ٢٩ يونية (*Fulcher of Chartres*, 1, xi, 1, p. 190) وتذكر *Anna Comnena*, XI, iii, 3, vol. III, pp. 16-17 أن بعض الفرنج بقوا مع بوتوميتس *Butumites*.

(٢) *Anna Comnena*, XI, iii, 4, vol. III, p. 18; *Gesta Francorum*, III, 9, p. 44; *Albert of Aix*, II, 38, pp. 328-9

التابع له وهو أمير أتراك كبادوكيا، وجيش الدانشمند وعلى رأسه أميره. وفي الثلاثين من يونية (حزيران) كان ينتظر في أحد الأودية على مقربة من دوريليوم وقد أعدّ عدته لمهاجمة الصليبيين أثناء هبوطهم من الممر.

معركة دوريليوم

وفي ذلك المساء عسكر الجيش الصليبي الأول في سهل غير بعيد عن دوريليوم. وعند شروق الشمس انقضّ الأتراك هابطين جانب التل وهم يصيحون صيحات الحرب. ولم يكن بوهيموند غير مستعد؛ إذ تجمّع غير المحاربين من الحجاج بسرعة في وسط المعسكر حيث ينابيع المياه، وعُهد إلى النساء بمهمة حمل الماء إلى الخط الأمامي، وهُيئت الخيام بسرعة، وطلب من الفرسان الترحّل من على صهوات خيولهم، وفي نفس الوقت أرسل بوهيموند رسولاً على جناح السرعة إلى الجيش الثاني يستحثه على الإسراع، بينما طلب من قاداته أن يستعدوا لمعركة عسيرة وأن يلزموا جانب الدفاع بادئ الأمر. وعصى أوامره واحد منهم فقط هو نفس الفارس الذي تجرأ وجلس على عرش الإمبراطور في القسطنطينية، إذ هاجم العدو في أربعين من رجاله، ليندحروا راجعين يجرون أذيال الخزي تغطيهم الجراح، وسرعان ما أحاط الأتراك بالمعسكر وقد بدت أعدادهم في أعين المسيحيين وكأنها لا نهاية لها. واستخدم الأتراك تكتيكهم المفضّل بأن يدفعوا بالرماة إلى الخط الأول لإطلاق سهامهم، وفي الحال يفسحون المجال لرماة آخرين.

وبارتفاع شمس يوليه (تموز) الحارة بدأ الصليبيون يتشككون في قدرتهم على الصمود أمام سيل القذائف الذي لا يتوقف، ولا سبيل إلى الهرب وهم هكذا محاطون، كما أن الاستسلام يعني تحويلهم إلى رهائن وعبيد، فعزموا أمرهم على تحمل الاستشهاد مجتمعين إذا اقتضى الأمر. وأخيراً، وعند منتصف النهار، شاهدوا رفاق الجيش الثاني

مقبلين، جودفري وهيو في المقدمة مع رجالهما، وريموند برجاله على مقربة خلفهم، ولم يكن الأتراك قد تحققوا من أنهم لم يوقعوا بالقوة الصليبية كلها، ولدى رؤيتهم القادمين الجدد خارت عزيمتهم ولم يتمكنوا من الحيلولة دون اتصال الجيشين. وشدد ذلك من عزم الصليبيين وبدأوا يأخذون زمام الهجوم، وأقاموا جبهة طويلة على مسيرتها بوهيموند وروبرت أوف نورماندي وستيفن أوف بلوا، وعلى ميمنتها جودفري وهيو، وفي القلب ريموند وروبرت أوف فلاندرز، وبدعوا الهجوم وهم يذكرون بعضهم البعض بالثروات التي سيفوزون بها إذا انتصروا. ولم يكن الأتراك مهياين لمواجهة الهجوم، والأغلب أن ذخيرتهم كانت تتناقص، وفجأة ظهر أسقف لوبوي على التلال الواقعة خلفهم ومعه فصيلة من الفرنسيين الجنوبيين، فتحول ترددهم إلى حالة من الذعر. وكان أديمار قد خطط بنفسه هذا التحول عن الطريق، ووجد مرشدين يدلونه عبر ممرات الجبل، وأدى تدخله إلى تأكيد انتصار الصليبيين. وانهارت خطوط الأتراك، وسرعان ما ولوا الأدبار شرقاً تاركين في عجلتهم مضرب خيامهم دون مساس، فوقعت خيمة السلطان وخيام الأمراء بكل ما فيها من كنوز في أيدي المسيحيين. (١)

(١) تذكر Anna Comnena, loc. cit. واقعة الفارس الفرنسي, III, 9, *Gesta francorum*.

pp.44-8 وبصف Raymond of Aguilers, IV, pp. 240-1 دور Albert of Aix, pp. 42.

Adhemar 329-32 Fulcher of Chartres, 1, xi, 3-10, pp. 189-98 II, 39؛ وخطاب من

بعض الأمراء إلى إيربان الثاني، مذكور لدي Hagenmeyer, *Dei Kreuzzugsbriefe*, p.161

وتقع دور يليوم - وعادة تسمى المعركة بأسمها - على مسافة حوالي ميلين شمالي إسكيشهر الحديثة.

ومكان ميدان القتال الدقيق الذي شهد المعركة محل خلاف؛ إذ تطلق عليه أنا كومينا "سهل دور يليوم"

ويطلق عليه الأمراء في خطابهم إلى البابا "وادي Dorotilla" ولا بد أن الاسم يعني دور يليوم؛

ويطلق عليه المؤرخ Raymond of Aguilers اسم "Campus Floridus" وألبرت أوف آيكس-

الفرنج والأتراك

وكان نصرا كبيرا، راحت فيه أرواح الكثير من المسيحيين، من بينهم وليم أخو تانكريد، وهمفري أوف مونت سكايبوزو، وروبرت أوف باريس. وتعلم الفرنج كيف يحترمون الأتراك الاحترام اللائق بهم كجنود. وربما أرادوا أن يرفعوا من شأن إنجازهم فأعربوا طواعية عن إعجابهم بالأتراك، ذلك الإعجاب الذي أنكروه علي البيزنطيين الذين كان لهم من أساليب الحرب العلمية المتقدمة ما يعتبرها الفرنج أساليب بالية، كما أنهم لم يعترفوا بإسهام البيزنطيين في المعركة. ويعتبر المؤرخ النورماندي المجهول مؤلف "جيسا" أن الأتراك خليقون بأن يكونوا أحسن الأجناس البشرية لو أنهم كانوا مسيحيين. واسترجع الأسطورة التي جعلت الفرنج والأتراك ذوي قربي باعتبار أن

Hagenmeyer, ويعتبر Ozellis called the valley of Degorganhi which is now ==

Chronologie de la Première Croisade, pp. 86-7 أن الصليبيين لم يتمكنوا من

الوصول إلي دوريلوم نفسها في ليلة ٣٠ يونية، إذ أنها تبعد عن Leuce مسيرة ٢٢ ساعة

وهو يحدد مكان المعركة بالقرب من Bozuzuk (وهو يقصد Bosoyuk) أو إينونو

Inönü غير أن الطريق البيزنطي المباشر كان يتجنب تلك الأماكن ويمضي خلال Söğüt،

ويدخل السهل الواقع علي مسافة حوالي ثمانية أميال شمال غرب دوريلوم. ولما قام الأتراك

بمجوم مفاجيء فلا بد أنهم كانوا - من ثم - محتبين وراء التلال؛ بينما استخدم Ahemar

هو الآخر بعض التلال لمهاجمة مؤخرة الأتراك. وقبل أن يدخل الطرق إلي السهل فإن

الجبال تستوي الجبال بحيث تسمح بهذه المناورات. علي أن سهل Sari - su الذي يسمى

باليونانية Bathys والذي ينتهي إليه الطريق، تقسمه سلسلة من التلال المنخفضة عند

Parsuk أو يسمى باليونانية Tembris وهي تلال يسهل عبورها وتمتد حتي التقاء

المجاري المائية فوق دوريلوم مباشرة. فإذا كان الصليبيون قد عسكروا في وادي ---

الفريقين من نسل أهل طروادة، وهي أسطورة تقوم على أساس عدائهم المشترك لليونانيين وليس على أساس ديني. (١) بيد أنه مهما كان الإعجاب بالعسكرية التركية فإن هزيمتهم ضمنت مروراً آمناً للصليبيين عبر آسيا الصغرى. وأما السلطان، الذي استُلب أولاً من عاصمته، والآن من خيمته الملكية والقدر الأكبر من كثره، فقد قرر أنه لا طائل من محاولة اعتراض الصليبيين. وقابل أثناء هروبه جماعة من السوريين الأتراك كانوا متأخرين ولم يشتركوا في المعركة، فشرح لهم أن أعداد الفرنجة وقوتهم أكبر مما كان يتوقع، وأنه لا يستطيع الوقوف أمامهم، ثم لجأ هو ومواطنوه إلى الجبال بعد أن هجروا المدن التي كانوا قد استولوا عليها ونهبوها وخربوا داخل البلاد حتى يستحيل على الصليبيين أن يطعموا أنفسهم أثناء تقدمهم. (٢)

-- Porsuk بينما تستطيع نقطة للمراقبة على مرتفعات Karadjashehir الواقعة جنوب Porsuk مباشرة أن تمكنهم من مراقبة تحركات الصليبيين . كما أنه من المرجح أن يكون Adhemar قد عبر إلى وادي Porsuk لمهاجمة الأتراك من خلفهم . ونتيجة لما قمت به شخصياً من تدقيق لتلك المنطقة فإنني أحدد مكان المعركة في سهل Sari-su حيث يدخله الطريق المباشر الآتي من Leuce . وللوصول إلى هذا المكان ، كان علي الطليعة أن تقطع حوالي ٨٥ ميلاً في أربعة أيام ، إذ غادرت نيقية صباح ٢٦ يونية ، وربما توقفت ليوم كامل في Leuce . وقد غادرت المؤخرة نيقيا بعد ذلك بيومين ولكن من الواضح أنها لم تتوقف في Leuce . وبعد غدت السير تمكنت من اللحاق بقوات الطليعة بعد الظهر من يوم المعركة . ولما كان قادة قوات المؤخرة على صهوات جيادهم ، فالراجح أنهم وصلوا Leuce لمناقشة رفاقهم قبل وصول قوات المشاة .

(٢) *Gesta Francorum*, III, 9, pp. 50-2

(٣) *Ibid.* IV, 10, pp. 52-4

وأَمْضَى الصليبيون يومين في دوريليوم للراحة ولإستعادة نشاطهم بعد المعركة وللتخطيط للمراحل التالية من مسيرتهم. ولم يكن من الصعب اختيار الطريق؛ فالطريق العسكري المتجه شرقاً يمضي بعيداً داخل بلاد يسيطر عليها الدانشمند وأمرء لم تكسر شوكتهم، وكان الجيش من الضخامة وثقل الحركة بحيث يتعذر عليه عبور صحراء الملح مباشرة؛ فكان عليه أن يتبع الطريق الأبطأ على جانب الجبال الواقعة جنوب الصحراء. ولا شك في أن هذا الاختيار كان بناء على نصيحة تاتيسيوس والمرشدين الذين أحضرهم، إلا أن الطريق، برغم ذلك، لم يكن مأموناً؛ فبعد غزوات التركمان وعشرين عاماً من الحروب تهدمت القرى، وبقيت الحقول دون زراعة، وتلوثت الآبار أو تُركت لتجف، وسقطت الجسور أو دُمّرت. وليس من الممكن دائماً الحصول على معلومات من سكان مشنتين مرعوبين. وبالإضافة إلى ذلك، وإذا ما حدث أي خطأ، سرعان ما يرتاب الفرنج في المرشدين اليونانيين، بينما كان المرشدون يشعرون بالمرارة من فوضوية الفرنجة وجحودهم، ووجد تاتيسيوس أن دوره يزداد كآبة وصعوبة. (١)

عبر صحراء الأناضول

وفي الثالث من يولية (تموز) تحرك الجيش في كتلة واحدة متصلة ليتجنب المخاطر التي حدثت في دوريليوم، وراح يشق طريقه الصعب باتجاه الجنوب الشرقي عبر هضبة الأناضول، إذ لم يستطع الاستمرار على الطريق الرئيسي القديم. وبعد عبوره بوليوتوس تحول إلى أنطاكية الروم التي أفلتت من تخريب الأتراك على الأرجح، ومن ثمّ يمكن

(١) لم تحدث شكاوي من تاتيسيوس والبيزنطيين إلى أن وصل الجيش إلى أنطاكية، علي أنه بحلول ذلك

الوقت أصبح عدائياً " inimicus " (Gesta Francorum, VI, 16, p. 78). أنظر ما يلي صفحة

٢٧٧، الحاشية ١. ولا بد أن الاستياء منه كان يتزايد بحيث نجحت دعاية بوهيمند من فورها.

الحصول على إمدادات منها . ومن هناك عبر الصليبيون ممرات السلطان داغ المقفرة ليعودوا إلى الطريق الرئيسي الذاهب إلى فيلوميليوم، ومنها امتد الطريق خلال بلاد مقفرة بين الجبال والصحراء. وفي حمارة قيظ الصيف الذي لا يرحم عانى الفرسان بأسلحتهم الثقيلة وحيولهم ومُشاتهم أسوأ معاناة. فليس هناك في الأفق من ماء سوى غياض الصحراء المالحة، ولا خضرة إلا أحراش الشوك التي مضغوا فروعها في محاولة يائسة لامتصاص نداوتها، وكانوا يشاهدون صهاريج المياه البيزنطية على جوانب الطريق وقد دمرها الأتراك كلها؛ فكانت الخيل أول من هلك، واضطر الكثير من الفرسان إلى مواصلة السير راجلين، وامتطى آخرون الثيران، بينما استخدموا الخراف والماعز والكلاب لجر الأمتعة، على أن معنويات الجيش بقيت مرتفعة، وكان فولشر أوف تشارتر يرى أن تزامن الجنود الآتين من شتى البقاع والمتحدثين مختلف اللغات، يبدو وكأنه إلهام من الرب. (١)

وفي منتصف أغسطس (آب) وصل الصليبيون إلى مدينة إيكونيوم. وهي مدينة قونية الحديثة، وقد ظلت في أيدي الأتراك لثلاث عشرة سنة، وأوشك قلعج أرسلان على اختيارها عاصمة جديدة له. وكانت في ذلك الوقت مدينة مهجورة إذ هرب الأتراك إلى الجبال بكل منقولاتهم. ولكنهم لم يستطيعوا تدمير قنوات المياه والبساتين في وادي ميرام البهيج الواقع خلف المدينة. ولقد فتنت خصوبته المسيحيين المتعبين، فاستراحوا هناك ليستردوا قواهم، إذ كانوا جميعاً في حاجة إلى الراحة، وكان القادة منهم منهكين، وقد جرح جودفري قبل ذلك بأيام قليلة، عندما كان يصيد دباً، ووقع ريموند أوف تولوز فريسة مرض خطير وشاع الظن بأنه يحتضر، ومسحه أسقف أورانج مسحة الموتى، غير أن الإقامة في قونية أنقذته، واستطاع بعد ذلك أن يسير

(١) *Gesta Francorum*, IV, 10, p. 55; *Fulcher of Chartres*, I, Xiii, 1-5 pp. 199-203; *Albert of Aix*, III, 1-3, pp. 339-41

بالجيش حينما تحرك. وامتلأ الصليبيون لنصيحة السكان الأرمن القلائل الذين كانوا يعيشون بالقرب من المدينة. فأخذوا معهم من الماء ما يكفيهم للوصول إلى وادي هرقله الخصب. (١)

وفي هرقله وجدوا جيشا تركيا بقيادة الأمير حسن والأمير الدانشمندي، اللذين كانا يشعران بالقلق على أملاكهما في كبادوكيا، فكانا يأملان في أن يتسبب وجودهما في إجبار الصليبيين على محاولة عبور جبال طوروس إلى الساحل؛ ولكن الصليبيين هاجموا الأتراك فور رؤيتهم، وكان قائدهم بوهيموند يجد في طلب الأمير الدانشمندي نفسه، ولم يكن الأتراك يرغبون في خوض معركة كبيرة، فانسحبوا انسحابا خاطفا إلى الشمال تاركين المدن للمسيحيين، وتلأأ مذب في السماء ليتألق النصر. (٢)

وأصبح من الضروري الآن إعادة مناقشة الطريق الواجب اتخاذه. فإلى الشرق من هرقله كان الطريق الرئيسي يمضي عبر جبال طوروس خلال ممر كيليكيا الرائع إلى داخل كيليكيا ذاتها، وكان ذلك هو الطريق المباشر إلى أنطاكية، وإن كانت له بعض المساوئ. فلم يكن من اليسير عبور بوابات كيليكيا حيث يصبح الطريق أحيانا شديد الانحدار وضيقا للغاية بحيث يتسنى لجماعة صغيرة معادية على المرتفعات أن تدمر جيشا بطيء الحركة تدميرا سريعا. وكانت كيليكيا في حوزة الأتراك، وأفاد المرشدون

(١) *Gesta Francorum*, *ibid.* p. 56; Fulcher of Chartres, *ibid.* p. 200 ويذكر

Raymond of Aguilers, IV, p. 241 مرض ريموند الذي لا بد وأن يكون قد وقع له في هذا التاريخ، ويذكر Albert of Aix, III, 4, pp. 341-2 حادثة حودفري.

(٢) *Gesta Francorum*, *loc. cit.*; Anna Comnena, XI, iii, 5, vol. III, pp. 18-19

وتذكر أنا كومنينيا شجاعة بوهيمند في هذه المعركة. ولا بد أن يكون تاتيسيوس هو الذي ويذكر Fulcher of Chartres, 1, xiv, pp. 203-5 المذب.

البيزنطيون بأن مناخها يكون في سبتمبر (أيلول) في أسوأ أحواله. وفضلا عن ذلك، لابد لجيش ذاهب من كيليكيا إلى أنطاكية أن يعبر منطقة جبال أمانوس في الممر الوعر المعروف بالبوابات السورية. ومن ناحية أخرى تسببت هزيمة الأتراك في فتح الطريق إلى قيصرية مازاكا، ومن هناك تؤدي مواصلة السير في الطريق العسكري البيزنطي الكبير إلى عبور جبال طوروس المقابلة إلى مرعش (جيرمانيشيا)، ثم ينحدر فوق ممر بوابات أمانوس العريض والمنخفض إلى داخل سهول أنطاكية وكان هذا هو الطريق الذي يتخذه المرتحلون من أنطاكية إلى القسطنطينية في الغالب في السنوات التي سبقت الغزو التركي. وله الآن ميزة المرور عبر بلاد يسيطر عليها المسيحيون وصغار الأمراء الأرمن، وأغلبهم أتباع معينون من قبل الإمبراطور، وربما يكون موقفهم وديا. وأغلب الظن أن اختيار الطريق الأخير كان بتوصية من تاتيسيوس والبيزنطيين، غير أن هذه التوصية لاقت معارضة من الأمراء المعادين للإمبراطور وعلى رأسهم تانكريد. وقررت الأغلبية الماضي خلال قيصرية، ولكن تانكريد ومعه مجموعة من جنوب إيطاليا وبالديون (أخو جودفري) وبعض الفنلنديين وأبناء اللورين، قرروا الانفصال عن الجيش الرئيسي ليتخذوا الطريق الذي يعبر كيليكيا.

على حدود الأناضول

وفي العاشر من سبتمبر (أيلول) تقريبا انطلق تانكريد وبالديون إلى ممرات جبال طوروس (١) في طريقين منفصلين. وتحرك الجيش الرئيسي باتجاه الشمال الشرقي يريد قيصرية، وعند قرية أوجوستوبوليس أدرك الجيش جنود الأمير حسن وألحق بهم هزيمة أخرى. لكنه لم يحاول الاستيلاء على إحدى قلاع الأمير التي كانت تقع غير بعيد

(١) أنظر ما يلي الصفحتين ٣١٤-٣١٥.

من الطريق، وذلك تجنباً للتأخير برغم احتلال العديد من القرى الصغيرة وتحويل إدارتها إلى اللورد الأرميني المحلي سيميون الذي طلب ذلك على أن يكون تابعاً للإمبراطور. وفي نهاية الشهر وصل الصليبيون إلى قيصرية التي هجرها الأتراك، ولم يتوقفوا فيها وإنما واصلوا سيرهم إلى كوماننا (بلاستيا)، وهي مدينة مزدهرة يسكنها الأرمن، وكان الأتراك الدانشمند يحاصرونها آنذاك، لكنهم اختفوا لدى اقتراب الصليبيين، وانطلق بوهيموند في أثرهم ولكنه لم يلحق بهم. ورحب المواطنون المتهيجون بمخلصيهم، وطلبوا من تاتيسيوس تعيين حاكم للمدينة باسم الإمبراطور، فاختار بطرس أوف أولبس وهو فارس من بروفانس الفرنسية كان قد جاء في بداية الأمر إلى الشرق مع جيشكار، ثم التحق بخدمة الإمبراطور. وكان اختياراً حكيماً؛ فقد أظهرت هذه الحادثة أن الفرنج والبيزنطيين كانوا ما يزالون قادرين على التعاون وعلى أن يشتركا معاً في تنفيذ المعاهدة المعقودة بين الأمراء والإمبراطور. (١)

وتقدم الجيش من كوماننا باتجاه الجنوب الشرقي إلى كوكسون (جوكسون الحديثة) وكانت مدينة مزدهرة مليئة بالأرمن تقع في الوادي الخصيب جنوب منطقة جبال طوروس المقابلة. وبقي الجيش هناك ثلاثة أيام تمتع خلالها بحفاوة السكان الذين أمدوه بالإمدادات الوفيرة استعداداً للمرحلة التالية من مسيرته عبر الجبال. والآن وصلت إلى الجيش شائعة بأن الأتراك هجروا أنطاكية، وكان بوهيموند ما يزال غائباً يطارد الدانشمند؛ ولذا قام ريموند أوف تولوز في الحال، ودون استشارة أحد سوى قواده، بإرسال خمسمائة فارس بقيادة بطرس أوف كاستيلون للإسراع أمام الجيش واحتلال المدينة. وانطلق الفرسان بأقصى سرعتهم، لكنهم عندما وصلوا إلى قلعة يشغلها الهراطقة البوليون غير بعيدة عن وادي الأرند، علموا أنها شائعة زائفة وأنه

(١) *Gesta Francorum*, IV, II, pp.60-2; Stephen of Blois, in Hagenmeyer, *op.cit.* p.150; Baudri, VII, pp.38-9; Anna Comnena, XI, iii, 6, vol. III, p. 19

على العكس تندفق تعزيزات الأتراك على المدينة. ومن الواضح أن بطرس أوف كاستيلون اتخذ طريق العودة لينضم إلى الجيش، غير أن واحداً من فرسانه (بطرس أوف رويكس) انسَلَّ مع قِلَّة من رفاقه، وبعد مناوشة مع الأتراك المحليين استولى على بعض القلاع والقرى في وادي روسيا تجاه حلب بمعاونة الأرمن المحليين الفرحين. وربما لم يكن ريموند يقصد بمناورته تلك أن ينال لنفسه السيادة على أنطاكية، وإثما لمجرد المجد والغنيمة التي تهبط على أول القادمين. ولكن حينما عاد بوهيموند إلى الجيش ساورته الريبة من تلك الحادثة التي أظهرت الانشقاق المتزايد فيما بين الأمراء. (١)

وكانت الرحلة من كوكسون هي أصعب المراحل التي كان على الصليبيين مواجهتها. فالوقت الآن وقت مبكر من أكتوبر (تشرين الأول)، وقد بدأت أمطار الخريف، وكان الطريق فوق جبال طوروس المقابلة في حالة بالغة من التهدم، ولعدة أميال لم يكن هناك سوى ممر صاعد موحل، به الكثير من المنعطفات المنحدرة وتحيط به هاوية من جانبيه. وانزلقت الخيول الواحد تلو الآخر وسقطت من فالق، كما سقطت إلى الهاوية طوابير بأكملها من الحيوانات حاملة الأمتعة وهي مشدودة إلى بعضها البعض. ولم يجرؤ أحد على الركوب، وكان الفرسان الراجلون يناضلون تحت لباسهم العسكري الثقيل، يتلهفون على بيعه لمن كان أخفّ منهم حملاً، أو يلقون به يائسين. وبدت الجبال ملعونة؛ فقد أهلكت أرواحاً أكثر مما أهلك الأتراك. وأخيراً عمّت البهجة عندما برز الجيش في الوادي المحيط بمدينة مرعش.

ومرة أخرى وجدوا في مرعش مظاهر الود من الأرمن، فلبثوا هناك لأيام قليلة. وكان حاكم المدينة أميراً أرمنياً يدعى ثاتول وكان فيما سبق مستولاً بيزنطياً فثبت في

منصبه. وهناك عاد إليهم بوهيموند بعد مطاردته العقيمة للأتراك، كما جاء بالدوين مسرعا من كيليكيا ليرى زوجته جودفير التي كانت تحتضر. وبعد موتها رحل مرة أخرى ولكن إلى الشرق. (١) وفي الخامس عشر من أكتوبر (تشرين الأول) تحرك الجيش الرئيسي بعد أن قوى وانتعش مغادرا مرعش إلى سهل أنطاكية جنوبا. وفي العشرين من نفس الشهر وصل إلى الجسر الحديدي الذي يبعد عن المدينة بمسيرة ثلاث ساعات. (٢)

الصليبيون ومرشدوهم اليونانيون

ومضت أربعة أشهر منذ أن انطلق الصليبيون يريدون نيقية. وبالنسبة لجيش كبير تتبعه أعداد غفيرة من غير المقاتلين، ويرتحل في قيظ الصيف عبر بلاد جرداء في أغلبها، يتعرض دائما لهجوم عدو رهيب سريع الحركة، فإن ما حققه ذلك الجيش يعد إنجازا غير عادي. فقد ساعد الصليبيين إيمانهم ورغبتهم المشتعلة في الوصول إلى الأراضي المقدسة، كما حفزهم الأمل في اغتنام الغنائم، وربما إمارة. على أن بعض الفضل لا بد وأن يعزى أيضا للبيزنطيين الذين صاحبوا الحملة ومكنتهم خبرتهم في محاربة الأتراك من إبداء الرأي السديد، ولأنه من المستحيل المضي عبر آسيا الصغرى دون نصائحهم. وربما ارتكب المرشدون بعض الأخطاء كما حدث عند اختيار الطريق من كوكسون إلى مرعش، إلا أنه بعد عشرين عاما من إهمال الطرق وتعمد تدميرها بين الحين والآخر

(١) أنظر ما يلي الصفحتين ٣١٥-٣١٦

(٢) يرد وصف الرحلة من كوكسون إلى أنطاكية في *Gesta Francorum*, IV, II, p.64 الذي يركز على أهوال الطرق الجبلية، وكذلك *Albert of Aix*, III, 27-9, pp. 358-9 ويرد ذكر تنصيب ثاتول كحاكم لمرعش في تاريخ *Matthew of Edessa*, II, clxvi, pp. 229-30.

كان من المستحيل معرفة الحالة التي كان عليها أيّ طريق. وكان الدور الذي لعبه تاتيسيوس دوراً صعباً، غير أنّ علاقته بالأمرء الغربيين ظلت ودودة إلى أن وصل الجيش إلى أنطاكية. وربما كان الجنود الصليبيون البسطاء يرتابون في اليونانيين، ولكن، وفيما يتعلق باتجاه الحركة الصليبية ذاتها، سار كل شيء سيراً سلساً. وفي تلك الأثناء كان الإمبراطور ألكسيوس يعزز الوضع المسيحي في مؤخرة الصليبيين، وهو المسئول عن الحفاظ على المواصلات عبر آسيا الصغرى. ولقد أدى نجاح الفرنج إلى التصالح بين السلاجقة والدانشمندان. ومن ثمّ، وبعد زوال صدمة الهزيمة الأولى، أمكن أن تبرز قوة تركية شديدة البأس في وسط وشرق شبه الجزيرة، ولذا كانت سياسة الإمبراطور هي استرجاع غرب شبه الجزيرة حتى يتمكن بمساعدة قوته البحرية المتزايدة من أن يفتح طريقاً إلى الساحل الجنوبي يمكن أن يظل تحت سيطرته الدائمة. وبعد إعادة تحصين نيقية، والاستيلاء على القلاع التي تتحكم في الطريق إلى دوريليوم، أرسل زوج أخته القيصر جون دوكاس، يعززه أسطول صغير بقيادة أمير البحر كاسباكس، لاستعادة أيونيا وفريجيا. وكان الهدف الرئيسي هو مدينة سميرنا حيث كان ابن شاكا ما يزال يحكم إمارة ضمت أغلب الخط الساحلي الأيوني وجزر ليسبوس وكايوس وساموس. بينما كان هناك أمرء تابعون لابن شاكا يحكمون إفيسوس ومدن أخرى بالقرب من الساحل. وكانت فريجيا تحت حكم أعيان سلاجقة، قُطع الاتصال بينهم وبين السلطان الآن. وأراد جون دوكاس أن يترك أثراً عميقاً لدى الأتراك، فأخذ معه السلطانة ابنة شاكا التي لم تكن الترتيبات قد تمت بعد لكي تلحق بزوجها. وكان الهجوم المشترك البري والبحري يفوق طاقة أمير سميرنا الذي سلم الولايات التابعة له على الفور في مقابل السماح له بالانسحاب في أمان إلى الشرق. ويبدو أنه أخذ معه أخته إلى بلاط السلطان حيث اختفى من التاريخ. ثم سقطت إفيسوس بعد سميرنا دون قتال يذكر، وبينما استولى كاسباكس وأسطوله على الساحل والجزر، تقدم جون دوكاس في البر مستولياً على المدن الرئيسية في ليديا وهي: سارديس وفيلادلفيا ولاوديسيا الواحدة تلو

الأخرى. وفي نهاية خريف ١٠٩٧ ميلادية كانت المقاطعة في حوزته، وأصبح على أهبة الاستعداد بعد انتهاء الشتاء للتقدم داخل فيريجيا حتى الطريق الرئيسي الذي سلكه الصليبيون. وربما كان هدفه هو إعادة السيطرة البيزنطية على الطريق الموصل من بوليوتس وفيلوميليوم جنوباً إلى أنطاليا، ومن هناك شرقاً بطول الساحل الجنوبي حيث يمكن للقوة البحرية أن توفر الحماية، وحيث يسهل الاتصال بالأمراء الأرمن الذين استقروا الآن في جبال طوروس. وهكذا يصبح في الإمكان تأمين طريق لوصول الإمدادات إلى الصليبيين المحاربين في سوريا، كما يصبح من الميسور استمرار الجهود المتحدة للعالم المسيحي. (١)

الفصل الثاني :

الفاصل الأرميني



المفتدين

الفصل الأرمني

"لا تَأْتَمِنُوا صَاحِبًا لَا تَتَّقُوا بِصَدِيقٍ."

(سفر ميخا: إصحاح ٧ : ٥)

بدأت الهجرة الأرمنية إلى الجنوب الغربي بسبب الغزوات السلجوقية التي جعلت الحياة غير آمنة في وادي أراكسيس وحول بحيرة فان. وتواصلت على مدى السنوات الأخيرة من القرن الحادي عشر. وعندما وصل الصليبيون إلى شرق آسيا الصغرى، كانت هناك سلسلة من الإمارات الأرمنية الصغيرة الممتدة من وراء أواسط الفرات إلى قلب جبال طوروس. وكان فيلاريتوس الأرمني قد أسس دولة قصيرة الأجل سرعان ما تفتت قبل وفاته سنة ١٠٩٠ ميلادية ، لكن ثوروس كان ما يزال يحتفظ بإمارة الرها حيث تمكن قبل ذلك بقليل من طرد الحامية التركية من الحصن ، وكان زوج أمه

جابريل ما يزال يحتفظ بمملطية. (١) وفي مرعش اعترفت السلطات البيزنطية بالمواطن المسيحي البارز ثاتول حاكماً للمدينة، وقد أبقى الصليبيون له على المدينة. (٢) وأما في رعبان وقيسون، الواقعتين بين مرعش والفرات، أنشأ أرمني يدعى كوغ فازيل، وهو المعروف باسم فازيل اللص، إمارة صغيرة، (٣) وكان ثوروس وجابريل ورمما ثاتول أيضاً، ضباطاً لدى فيلاريتوس، بدعوا حياتهم العامة — شأنهم شأن فيلاريتوس نفسه — في الخدمة الإدارية البيزنطية. وكانوا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية وليسوا من أتباع الكنيسة الأرمنية المنفصلة، ليس هذا فحسب، وإنما ظلوا يستخدمون الألقاب التي خلعها عليهم الإمبراطور منذ زمن بعيد، وكلما سنحت لهم الفرصة أعادوا العلاقات مع بلاط القسطنطينية لتأكيد ولائهم، وقد خلع ألكسيوس في الواقع على ثوروس لقب الرفيع (كوروباليت). ونتيجة لهذه الصلة الإمبراطورية اكتسب حكمهم نوعاً من الشرعية، لكن الأساس الأقوى الذي كان حكمهم يرتكز عليه هو استعدادهم لقبول سيادة الزعماء الأتراك في الجوار. وسعى ثوروس بالوقية بين هؤلاء الذين يمكن أن يصبحوا من ذوي الشأن في براعة تبعث على الدهشة، بينما أرسل جابريل زوجته إلى

(١) عن ثوروس، أنظر Laurent, Des Grecs aux Croises, pp. 405-10 وعن جابريل أنظر

ibid. p. 410 وكذلك مادة Malatya by Honigmann in the *Encyclopaedia of*

أنظر ما سبق الصفحتين ١٤٠ و ٢٨٥ .

(٢) أنظر ما سبق الصفحتين ٣٠٢ و ٣٠٤ .

(٣) عن كوغ فازيل، أنظر Chalandon, *Les Comnènes*, pp. 99 ff. ولأن رئيس أمراء الأرمن

ينتمي إلى الكنيسة الأرمنية فقد وفر الملاذ لبطريق الأرمن "كاتولييكوس" جريجوري فاهرام (of Edessa, II, clxxxviii, p.258) وكان هناك بطريق غريم، أو "كاتولييكوس ند"، وهو بازل

الذي كان موجوداً الآن في آني (ibid. II, cxxxiv, pp. 201-2) .

بغداد في بعثة للحصول على اعتراف من أعلى السلطات الإسلامية، بيد أن هؤلاء الأمراء جميعاً كانوا في موقف مزعزع؛ إذ كان اختلاف الدين يفصلهم جميعاً — باستثناء كوغ فازيل — عن أغلب أبناء جلدتهم، ويكرههم المسيحيون السوريون الذين يعيشون في أراضيهم بأعداد كبيرة. ولم يكن هؤلاء جميعاً محل ثقة لدى الأتراك الذين ساعدت فرقتهم وحدها على بقاء الأرمن.

وكان الأرمن المقيمون في منطقة جبال طوروس أقل تعرضاً للخطر؛ إذ كان من الصعب الوصول إلى الأراضي التي استوطنوا فيها، كما كان الدفاع عنها ميسوراً. وسيطر أوشين بن هيثوم على الجبال الواقعة غرب بوابات كيليكيا، واتخذ حصن لامبورن المنيع القائم أعلى الجبل والذي يطل على طرطوس وسهل كيليكيا مقراً لقيادته، وتمكن من الحفاظ على علاقة مقبولة مع القسطنطينية، ومنحه الإمبراطور لقب ستراتوبيدارك أوف كيليكيا. ويبدو أنه كان في خدمة ألكسيوس فيما مضى رغم أنه لم يكن من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية، والأرجح أنه حصل، بموافقة الإمبراطور، على لامبورن من الحامية البيزنطية التي لا تقهر، وقام بغارات متكررة في سهل كيليكيا. وفي سنة ١٠٩٧ ميلادية انتهز انشغال الأتراك بتقدم الصليبيين واستولى على جزء من مدينة أدنا. (١) وكانت الجبال الواقعة إلى الشرق من بوابات كيليكيا تحت سيطرة قسطنطين ابن روبين الذي اتخذ مقر رئاسته قلعة بارتزبرت الواقعة إلى الشمال الغربي من سيس. ومنذ أن مات والده، مد سلطانه شرقاً باتجاه جبال طوروس المقابلة واستولى على قلعة فاكا العظيمة على نهر جوسكو من حاميتها البيزنطية المعزولة. وكان من الأتباع

(١) ترد سيرة حياة أوشين عند Laurent, "Les Arméniens de Cilicie" في *Mélanges Schlumberger*, vol. 1, pp. 159-68 واستناداً إلى ما أورده Mathew كان آخر أوشين - Pazouni - لا يزال علي قيد الحياة. وفي Radulph of Caen, XI, pp. 634-5 فإن أوشين يدعي أورسينوس Ursinus.

الغُيورين للكنيسة الأرمنية المنفصلة، وسيراً على درب أبيه، وكوريث للأسرة المالكة الباجراتية، لم ينس عداً أسرتَه لبيزنطة، وكان يأمل هو الآخر في أن ينتهز ما وقع فيه الأتراك من حرج ليقم لنفسه سلطاناً في سهل كيليكيا حيث أغلب السكان من الأرمن بالفعل. (١)

بالدوين وتانكريد يغزوان كيليكيا

وكان بالدوين أوف بولونيا مهتماً في وقت مضى بالمسألة الأرمنية، وفي نقيصة أقام صداقة وثيقة مع أرميني كان من قبل في خدمة الإمبراطور، وهو باجرات أخى كوغ فازيل، الذي انضم إلى رجاله. وربما كان باجرات يأمل في الحصول على مساعدة بالدوين من أجل الإمارات الأرمنية القريبة من الفرات والتي له فيها صلات عائلية. (٢) غير أنه حينما أعلن تانكريد في هرقله عن نيته في ترك الجيش الرئيسي ليحرب حظه في كيليكيا، رأى بالدوين أنه ليس من الحكمة السماح لأي أمير غربي آخر بأن يكون أول من يبدأ مغامرة أرمنية لأنه أراد أن يجني ثمار كونه الصديق البارز لهذا الجنس من الناس. ومن المستبعد أن يكون هو وتانكريد قد توصلا إلى أي تفاهم، فكلاهما عضو صغير في عائلة من الأمراء وليس لأي منهما أي مستقبل في الوطن، كما أفصح كلاهما عن رغبته في تأسيس لوردية في الشرق. بينما عقد بالدوين العزم بالفعل على أن يقيم دولة أرمنية، كان تانكريد على استعداد لأن يقر في أي مكان يتيح له أكبر قدر من الراحة، وعارض اتخاذ الطريق الدائري إلى قيصرية لأن ذلك كان

(١) عن قسطنطين أنظر *Matthew of Edessa, loc. cit.; Sembat, Chronicle, p. 610*.

(٢) يذكر *Albert of Aix, III, 17, pp. 350-1* سيرة حياة باجرات المبكرة وعلاقته ببالدوين.

ويرد ذكر علاقته بكوغ فازيل لدى *William of Tyre, VII, 5, vol. 1, pp. 383-4*.

اقتراحا بيزنطيا يعود بالفائدة على البيزنطيين. وأتاح له وجود سكان مسيحيين ودودين على مقربة منه فرصة يغتنمها وفي حوالي الخامس عشر من سبتمبر (أيلول) غادر تانكريد معسكر الصليبيين في هرقله ومعه جماعة صغيرة من مئة فارس ومثنيين من المشاة، وتوجه مباشرة إلى بوابات كيليكيا. وانطلق بالدوين بعده على الفور ومعه ابن عمه بالدوين أوف لوبورج ورينالد أوف تول وبطرس أوف ستيناي وخمسمائة فارس وألفين من المشاة. ولم تثقل أي من الحملتين نفسها باصطحاب غير المقاتلين، وبقيت جوديفير زوجة بالدوين وأولادها مع الجيش الرئيسي. ويبدو أن تانكريد اتخذ الطريق المباشر إلى الممر وهو حتى اليوم نفس طريق السكك الحديدية عبر أولوكيشلا، ولكن بالدوين ومعه جيشه الثقيل فضل الطريق الرئيسي القديم الذي كان يمضي جنوبا إلى بوداندوس على رأس الممر من تيانا والواقع إلى الشرق قليلا. ولذلك كان خلف تانكريد بمسيرة ثلاثة أيام في الماضي خلال المضيق.

وعندما هبط تانكريد إلى السهل واصل سيره إلى مدينة طرطوس التي كانت ما تزال المدينة الرئيسية في كيليكيا. وفي نفس الوقت أرسل إلى الجيش الرئيسي طالبا التعزيزات. وكانت هناك حامية تركية تسيطر على طرطوس خرجت على الفور لطرد الغزاة، لكنها ردت على أعقابها، واتصل سكان المدينة المسيحيون من الأرمن واليونانيين بتانكريد متوسلين إليه أن يحتلها ولكن الأتراك صمدوا ثلاثة أيام إلى أن ظهر في الأفق بالدوين وجيشه. فلما وجدوا أن عدوهم يفوقهم عددا انتظروا هبوط الليل وهربوا تحت جناح الظلام، وفي الصباح التالي فتح المسيحيون البوابات لتانكريد، ووصل بالدوين ليجد رايات تانكريد ترفرف على الأبراج. ولم يكن في صحبة تانكريد أي مسئول بيزنطي. وبقينا لم تتوفر لديه النية في تسليم الإمبراطور أية أراض يغزوها، غير أنه اكتشف أن بالدوين منافس أكثر خطورة لا يعبأ، مثله تماما، بالاتفاقية المعقودة في القسطنطينية. وطلب بالدوين أن يكون له السلطان على

طرطوس، وامتلاً تانكريد حنقاً، ولكنه وجد نفسه ضعيفاً أمام غريم يفوقه قوة، فاضطر إلى الموافقة وسحب جنوده وسار شرقاً باتجاه أدنا.

جوينمير أوف بولونيا

ولم يكد بالدوين يستولي على طرطوس حتى وصل ثلاثمائة من النورماندين أمام المدينة مرسلين من الجيش الرئيسي كمدد لتانكريد، ورفض بالدوين السماح لهم بالدخول إلى المدينة برغم توسلهم. وبينما كانوا معسكرين خارج المدينة هاجمتهم الحامية التركية السابقة أثناء الليل التي كانت تجوب المنطقة وقتلتهم عن آخرهم. وصدمت الحادثة الصليبيين، وألقى اللوم على بالدوين لما لاقوه من مصير ولم يعفه حتى جنوده وأوشك موقفه أن يتضعض تماماً لولا أن وصلت أنباء عن ظهور أسطول مسيحي غير متوقع في خليج ميرسن عند مصب نهر سيدنوس أسفل المدينة تماماً بقيادة جوينمير أوف بولونيا.

وكان جوينمير قرصاناً محترفاً، ومن الفطنة بحيث أدرك أن الحرب الصليبية ستكون في حاجة إلى مساعدة بحرية، فجمع رفاقاً له من القراصنة الدانمركيين والفريزين^(١) والبلجيكيين، وأبحر من هولندا في وقت متأخر من الربيع، وحينما وصل إلى بحار الشرق أخذ يسعى في إجراء اتصال بالصليبيين. وكان يحمل عاطفة إخلاص لمدينته، ولذلك سره أن يجد جيشاً قريباً منه يقوده أخو كونت مدينته، فأبحر أعلى النهر إلى طرطوس، وقدم احترامه لـ بالدوين. ورداً على ذلك أخذ منه بالدوين ثلاثمائة من رجاله ليكونوا حامية المدينة، وربما جعل جوينمير نائباً عنه في المدينة بينما أعد العدة

(١) (المترجم) : سكان فريزلاند ، وهي مجموعة من الجزر بالقرب من ساحل بحر الشمال ، ومقسمة بين الدانمرك وألمانيا وهولندا .

لمواصلة السير إلى الشرق.

وفي تلك الأثناء وجد تانكريد مدينة أدنا في حالة من الاضطراب. إذ أن أوشين أوف لامبرن أغار عليها مؤخرًا وترك هناك قوة تنازع الأتراك عليها. بينما كان هناك فارس بورجندي يدعى ويلف، ربما بدأ الرحلة مع جيش بالدوين ثم انشق عليه ليرى ماذا يمكنه أن يجني لنفسه واشترك هو الآخر في الصراع على أدنا، واستطاع أن يشق طريقه إليها ويحتل القلعة. وعند وصول تانكريد انسحب الأتراك، ورحب ويلف بجنود تانكريد في القلعة وتعززت سيطرته على المدينة، وأغلب الظن أن أوشين لم يكن مهتمًا سوى بإخراج رجاله من مغامرة لا تخلو من خطورة، وشعر بالامتنان لتدخل تانكريد، لكنه استحثه على مواصلة المسير إلى ماميسترا (موبسويستا القديمة)، حيث يتلهدف السكان الأرمن كلهم إلى الخلاص من الأتراك. وكان توافقًا لرؤية الفرنجة ينتقلون إلى مجال النفوذ الذي يطمع فيه غريمه قسطنطين الروماني.

ووصل تانكريد إلى ماميسترا في وقت مبكر من أكتوبر (تشرين الأول)، وكما حدث في أدنا هرب الأتراك فور ظهوره ورحب به المسيحيون وأدخلوه المدينة. وأثناء وجوده أتى بالدوين وجيشه، ويبدو أن بالدوين قرر بالفعل أن إمارته التي يريد لها أن تكون في كيليكيا؛ ومن الجائز أن صرفه مناخ سبتمبر (أيلول) بما فيه من أبخرة وملازيم، وربما شعر أنها على مقربة من قوة الإمبراطور المتزايدة. واستحثه مستشاره بأجرات على المضي شرقًا حيث أن الأرمن يطلبون عونه. ومهما يكن الأمر فقد قضى على الفرصة التي أتاحت لتانكريد لتأسيس دولة كيليكية قوية. واتخذ طريق العودة إلى الجيش الرئيسي ليتبادل المشورة مع أخيه وأصحابه قبل الشروع في حملة جديدة. على أن الريبة داخلته، ولذا لم يدع بالدوين يدخل ماميسترا، وأجبره على أن يضرب معسكره على الجانب البعيد من نهر جيهان. وكان على استعداد، مع ذلك، لأن يسمح بإرسال الأطعمة من المدينة إلى المعسكر. ولكن الكثيرين من النورمانديين، وعلى

رأسهم ريتشارد أوف برينسيبات زوج أخت تانكريد، لم يحتملوا أن يفلت بالدوين دون عقاب على جريمته في طرطوس. فحرضوا تانكريد على الاشتراك معهم في هجوم مفاجئ على معسكره. وكانت خطوة تخلو من الحكمة؛ فجنوده بلغوا من العدد والقوة ما لا قبل لهم به وسرعان ما ردهم على أعقابهم في فوضى عبر النهر. وأدى الصراع الذي لا طائل منه إلى ردة فعل، فأفسح بالدوين وتانكريد المجال للصلح فيما بينهما. ولكن الضرر وقع. إن من دواعي الألم أن يصبح جلياً أن الأمراء الصليبيين ليسوا على استعداد للتعاون من أجل خير العالم المسيحي حينما تلوح فرصة اغتنام ممتلكات خاصة، وسرعان ما تحقق المسيحيون — من أبناء البلاد — من أن تحرك مخلصيهم الفرنجة من منطلق مشاعر الإيثار إن هو إلا تحرك مصطنع، وتعلموا أن خير وأيسر وسيلة للاستفادة من الفرنجة هي الإيقاع بينهم. (١)

بالدوين وتانكريد يغادran كيليكيا

وبعد التصالح الذي حدث في ماميسترا أسرع بالدوين إلى الجيش الرئيسي في مرعش عند مجيء الأنباء بأن زوجته تحتضر. ويبدو أن أولاده كانوا مرضى كذلك، ولن يطول بقاؤهم على قيد الحياة، ولبت بالدوين أياماً قليلة مع إخوته وغيرهم من قادة الجيش. وعندما شرعت القوة الرئيسية للجيش في الارتحال جنوباً إلى أنطاكية

(١) ترد قصة الحملة على كيليكيا مفصلة عند Albert of Aix, III, 5-17, pp. 342-50 ، وكذلك Radulph of Caen, XXXIII. XLVII. pp. 629-41 وهناك رواية أقصر تتعاطف مع تانكريد ترد في Gesta Francorum, IV, 10, pp. 55-60 ويقول Radulph (p. 634) إن أورسينوس (أوشين) احتفظ بأدنا بعد ذلك ، لكن Albert (p. 346) يقول إنها كانت من إملاك ويلف Welf ويذكر Albert (pp. 348-9) وصول Guynemer .

تركه وذهب إلى الشرق ليحرب حظه في وادي الفرات والأراضي الواقعة ورائه. وارتحلت معه جماعة أصغر بكثير من تلك التي صحبته في حملة كيليكيا. ربما لأنه لم يسترد شعبيته كقائد بسبب أحداث طرطوس، وربما لأن إخوته لم يتمكنوا من التخلي عن الجنود لتلفهم على احتلال أنطاكية، فصحبه مائة فارس فقط. على أن مستشاره الأرميني باجرات كان ما يزال معه، وقد أضاف إلى أتباعه قسيسا جديدا هو المـؤرخ فولشر أوف تشارترز. (١)

ولم يمكث تانكريد طويلا في مامبيسترا بعد رحيل بالدوين. وبعد أن ترك فيها حامية صغيرة تحول جنوبا حول رأس خليج إيسوس إلى الإسكندرونة. وأرسل أثناء الرحلة مبعوثين إلى جوينمير طالبا تعاونه، وأغلب الظن أن مقر رئاسة جوينمير كان ما يزال في طرطوس. واستجاب جوينمير في سعادة وجاء مع أسطوله ليلحق تانكريد أمام الإسكندرونة. وأسفر الهجوم المشترك عن استيلاء تانكريد على المدينة. فترك فيها حامية ثم مضى فوق سلسلة جبال الأمانوس عبر البوابات السورية ليلحق بالجيش المسيحي أمام أنطاكية. (٢)

ولم يكن لمغامرة كيليكيا سوى القليل من النفع لبالدوين أو تانكريد. إذ وجد كل منهما أن الأمر لا يستحق تأسيس دولة هناك، فلن تتمكن الحاميات الفرنجية الصغيرة في المدن الثلاث: حامية جوينمير في طرطوس، أو حامية ويلف في أدنا، أو

(١) طبقا لما ذكره Matthew of Edessa, II, cliv, p. 219 كان مع بالدوين ١٠٠٠ خيال عندما استولى علي تل بشير و ٦٠٠ عندما واصل مسيرته إلى الرها. ويقول فولشر أوف تشارترز الذي كان برفقته (1, xiv, 2, p. 206, 15, p. 215) إنه كان معه القليل من الجنود "milites paucos" عندما انطلق (1, xiv, 4, p. 208) وثمانين عندما عبر نهر الفرات (1, xiv, 7, p. 210).

(٢) William of Tyre, III, 25, 1, p. 149 يقول إن البحارة بقوا مع تانكريد.

حامية تانكريد في ماميسترا، من أن تتحمل هجوما جادا. ومع ذلك، كان لتبعثر الحاميات التركية بعض النفع للحرب الصليبية عموما، فذلك يحول دون استخدام كيليكيا كقاعدة يستطيع الأتراك أن يشنوا منها هجوما جانبيا على الفرنجة أثناء عملياتهم الحربية في أنطاكية، بينما أتاح الاستيلاء على الإسكندرونة ميناء نافعا للفرنجة تستطيع الإمدادات أن تمر من خلاله. على أن المنتفعين الرئيسيين من هذا الأمر هم الأمراء الأرمن في التلال. إذ أن انهيار القوة التركية في السهل مكنهم من التوغل في القرى والمدن شيئا فشيئا، ومن ترسيخ دعائم مملكة أرمينيا الصغرى في كيليكيا.

وكان الجيش الرئيسي على وشك الانطلاق من مرعش جنوبا إلى أنطاكية عندما تركه بالدوين الذي اتخذ في بداية الأمر طريقا موازيا على بعد أميال قليلة إلى الشرق حتى يمكن حماية الميسرة. وربما حصل بالدوين على الإذن بالانفصال عن الجيش الرئيسي للقيام بتلك المهمة. وفي واقع الأمر كان بإمكانه تبرير حملته كلها على أنها توفر الحماية للحرب الصليبية؛ فأسهل طريق لوصول الإمدادات من خراسان إلى الأتراك في أنطاكية يخترق المناطق التي ينوي غزوها، فضلا عن ذلك فهي مناطق غنية يمكن أن تزود الحرب الصليبية بما تتطلبه من إمدادات الطعام.

بالدوين يتقدم إلى الفرات

وفي عنتاب تحول بالدوين إلى الشرق. ومن المشكوك فيه ما إذا كانت لديه أية خطة عمل مدروسة بخلاف تصميمه عموما على تأسيس إمارة في الفرات تكون ذات نفع له وللحركة الصليبية كلها. وكانت الظروف مواتية؛ فلن يكون لزاما عليه أن ينتزع البلاد من الكفرة، فهي بالفعل في حوزة الأصدقاء الأرمن، وهو على اتصال بأمرائها منهم. فمن خلال باجرات لابد وأن يكون قد أقام علاقات مع أخيه كووغ فازيل الذي كانت لورديته تقع إلى الشرق من مرعش. وربما كان جابريل في ملطية

متلهفا على مساعدة الفرنجة وأمامه الخطر الدائم من الأتراك الدانشمند، بينما من المؤكد أن ثوروس في الرها على اتصال بالصليبيين. وقيل إن قرار بالدوين بالرحيل عن كيليكيا كان بسبب رسالة تلقاها هو أو باجرات من ثوروس يدعوه فيها إلى الرها بصفة عاجلة، وكان الأرمن منذ زمن طويل يأملون في أن يغيثهم الغرب. فقبل ذلك بعشرين عاما، حينما عرف أن البابا جريجوري السابع يفكر في إرسال حملة لإنقاذ العالم المسيحي الشرقي، سافر أحد الأساقفة الأرمن إلى روما ليحظى باهتمامه. (١) وكان الحلفاء الغربيون يحظون بجاذبية عند الأرمن — بمن فيهم الأمراء الذين يحملون ألقابا بيزنطية — تفوق أي شيء يزيد من اعتمادهم على الإمبراطورية البيزنطية المقيمة. ووجود جيش من الفرنجة يحرز انتصارات للعالم المسيحي على حدودهم ذاتها أتاح لهم فرصة كانوا يبتهلون من أجلها كي يحققوا استقلالهم النهائي عن السيطرة التركية والبيزنطية على السواء؛ فرحبوا بالدوين ورجاله بشدة على أنهم محرروهم.

ونحن على علم في الوقت الحاضر ألا نثق في لفظة التحرير التي توحى بالأمل، وهذا درس تعلمه الأرمن من قبلنا. وعندما تحرك بالدوين نحو الفرات هب السكان الأرمن لتحيته، وفرت بعض الحاميات التركية التي كانت في المنطقة وقضى المسيحيون على بعضها الآخر. وحاول الأمير التركي الوحيد ذو الأهمية في المنطقة، بلدق أمير سميساط، الذي يسيطر على الطريق المؤدية من الرها إلى ملطية أن يتدبر أمر المقاومة ولكنه لم يستطع اتخاذ أي إجراء هجومي. وانضم إلى بالدوين اثنان من النبلاء الأرمن المحليين مع قواتهما الصغيرة، وكان اللاتينيون يطلقون عليهما فير ونيكوسوس. وفي وقت مبكر من شتاء ١٠٩٧ ميلادية استكمل بالدوين غزوه للأراضي الممتدة حتى الفرات، واستولى على القلعتين الرئيسيتين رفندل وتيربسيل، وهذان الاسمان

Letter of Gregory in Jaffé, *Monumenta Gregoriana*, VIII, I, *Bibliotheca* (١)

Rermanicarum, vol. II, pp. 423-4

حورهما اللاتينيون عن الأسماء العربية رواندان وتل بشير، وعين مستشاره الأرميني باجرات حاكمًا على رواندان التي كانت تتحكم في طريق مواصلاته مع أنطاكية، بينما عين الأرميني فير حاكمًا على تل بشير. وهي قلعة هامة لأنها تقع بالقرب من المخاضة ذات الأهمية التاريخية التي تعبر نهر الفرات عند كارشيميش. (١)

وعندما كان بالدوين في تل بشير في أول السنة الجديدة، وصلت سفارة من الرها؛ إذ نفذ صبر ثوروس لتأخر وصول الفرنجة الذين يراهم متباطئين على الضفة الغربية لنهر الفرات، وكان موقفه مزعزعًا، واشتد شعوره بالخطر حينما علم أن كربوقا، أمير الموصل التركي المرعب، يحشد جيشًا هائلًا لنجدة أنطاكية وبإمكانه أن يكتسح في طريقه دون مشقة الرها وغيرها من الدويلات الأرمينية. بيد أن بالدوين لم يكن ليذهب إلى الرها إلا بشروط تناسبه، وكان ثوروس يتوقع أن يستغل بالدوين كمرتزق يكافئه بالمال والعطايا، ولكن أصبح جليًا الآن أن بالدوين يريد أكثر من ذلك. فحوّلت سفارة الرها في تل بشير بأن تعرض المزيد الذي يتمثل في أن ثوروس سوف يتخذ بالدوين ابنًا ووريثًا، وفي أنه سوف يشركه من فوره في حكم أراضيه. ولما كان ثوروس لم يعقب ولدًا وأخذ يطعن في السن بدا له ذلك على أنه الحل الوحيد. ولو وسعه الاختيار لما اختار، بيد أنه كان يفتقد الشعبية في وطنه، ويتهدده جيرانه. (٢) وبخلاف غالبية الأرمن قصيري النظر استشعرت القلة الباقية منهم القلق من جراء ذلك؛ فليس من أجل ذلك سعى باجرات إلى تطويع بالدوين في الشؤون الأرمينية، فكان باجرات نفسه أول من أظهر عدم موافقته على ذلك. وعندما كان الفرنجة في تل بشير قال فير — الذي كان بلا شك يرغب في أن يخلف باجرات في استحوازه على ثقة

(١) Albert of Aix, III, 17-18, pp. 35-1

(٢) Albert of Aix, III, 19, p. 352; Fulcher of Chartres, I, xiv, 5-6, pp. 209-10;

Matthew of Edessa, II, cliv, pp. 218-21 Laurent, *op. cit.* pp. 418-23

بالدوين — إن باجرات يحبك الدسائس مع الأتراك، والأرجح أن دسائسه تلك لم تكن سوى مشاوراته المتبادلة مع أخيه كوغ فازيل حول ذلك التهديد الجديد للحرية الأرمنية. وربما كان يأمل كذلك في أن يجعل نفسه أميرا على رواندان. ولم يتردد بالدوين فدفع بالجنود إلى رواندان وألقوا القبض على باجرات وأحضروه للمثول أمامه، وعذبه ليعترف بما اقترفه. ولم يكن لديه ما يعترف به، وسرعان ما هرب متخذا من الجبال ملاذا تحت حماية أخيه كوغ فازيل إلى أن اضطر هو الآخر أن يلحق به في البرية. (١)

الحملة على سميساط

وفي بداية فبراير (شباط) سنة ١٠٩٨ ميلادية غادر بالدوين تل بشير إلى الرها، ولم يكن معه سوى ثمانين فارسا. وأعد له أتراك سميساط كميناً في المكان الذي كانوا يتوقعون أن يعبر فيه نهر الفرات، والأغلب أنه في برجيك، غير أنه خدعهم وانحرف إلى مخاضة أخرى أبعد إلى الشمال. ووصل إلى الرها في السادس من فبراير (شباط) حيث استقبله ثوروس والسكان المسيحيون كلهم ببالغ الحماس، وتبناه ثوروس رسمياً من فوره. وكان الاحتفال تبعا للطقوس الأرمنية المعتادة — في ذلك الوقت — يلائم تبني الطفل الصغير وليس الرجل اليافع، فقد جرد بالدوين من ملابسه إلى الوسط، بينما ارتدى ثوروس قميصا فضفاضا يتسع لشخصين، ثم قام بتمرير القميص من فوق رأس بالدوين بحيث يمكن للأب والابن الجديدين أن يحكما صدريهما العاريين المتقابلين. ثم أعاد بالدوين هذا المشهد مع الأميرة زوجة ثوروس. (٢)

(١) Albert of Aix, III, 18, p. 351

(٢) Albert of Aix, III, 19-21, pp. 352-4; Fulcher of Chartres, I, xiv, 7-12, pp. 210-13

كما أن Guibert, xiv, p. 165 يصف احتفال التبنى.

وبعد تنصيب بالدوين وريثا وشريكا في الوصاية على الملك في الرها، رأى أن أول ما ينبغي عمله هو تدبير الإمارة التركية في سميساط، إذ أنها تستطيع بغاية اليسر أن تعترض اتصاله مع الغرب. وشجع أبناء الرها في غبطة خطته لتجريد حملة، لاسيما وأن الأمير بلدق كان أقرب أعدائهم وأكثرهم عنادا، وكان دائم الإغارة على قطعان دوابهم وحقولهم وأحيانا يجبي الجزية من المدينة ذاتها. وخرجت ميليشيات الرها تصاحب بالدوين وفرسانه إلى سميساط، ولم تنجح الحملة التي تمت فيما بين الرابع عشر والعشرين من فبراير (شباط)؛ إذ كان أهل الرها ضعفاء من الناحية العسكرية. وفاجأهم الأتراك وقتلوا منهم ألفا مما اضطر الجيش إلى الانسحاب. غير أن بالدوين استولى على قرية سان جون الواقعة بالقرب من عاصمة الأمير، وحصنها وأبقى فيها الجزء الأكبر من فرسانه لمراقبة تحركات الأتراك؛ ونتيجة لذلك تناقص عدد الغارات التركية مما حدا بالأرمن إلى إرجاع الفضل في ذلك إلى بالدوين.^(١)

بالدوين وثوروس

وبعد عودة بالدوين إلى الرها بوقت قصير سرعان ما تولدت في المدينة مؤامرة ضد ثوروس بتشجيع من قسطنطين أوف جارجار. ولا نعرف إلى أي مدى كان بالدوين متورطا في تلك المؤامرة؛ إذ أنكرها أصدقاؤه، ولكن طبقا لشهادة الكاتب الأرمني ماثيو فإن المتآمرين أخبروا بالدوين بنيتهم في خلع ثوروس عن العرش لصالحه. ولم يكن أهل الرها يكونون حبا لثوروس، أو امتنانا لكل ما بذله من أجل المحافظة على استقلال مدينتهم، وقد كرهوه لتبعيته للكنيسة الأرثوذكسية ولكونه مسثولا ذا

(١) Albert of Aix, III, 21, pp. 353-4 ويقول Matthew of Edessa, II, cliv, pp. 218-21 إن

لقب في الإمبراطورية . وكان عاجزاً عن حماية محاصيلهم وبضائعهم من المغيرين، وكان ينتزع منهم ضرائب باهظة، غير أنه لم يكن بوسعهم الاستغناء عنه إلى أن ظهر بالدوين الذي رأوا فيه حامياً أكثر اقتداراً. ولذلك لم يكن الفرنجة في حاجة إلى التحريض على مؤامرة، على أنه من الصعب الاعتقاد بأن المتآمرين لم يكونوا ليذهبوا إلى هذا الحد دون أن يحصلوا على موافقة الفرنجة. وفي يوم الأحد السابع من مارس (آذار) ضرب المتآمرون ضربتهم، فحركوا الدماء لمهاجمة منازل المسؤولين التابعين لـثوروس، ثم ساروا إلى قصر الأمير في القلعة. ونظر ثوروس فوجد أن جنوده قد هجروه، ولم يخف ابنه الذي تبناه لنجدته وإنما قدم له نصيحة بالاستسلام، فوافق ولم يطلب سوى السماح له ولزوجته بالذهاب إلى أبيها في ملطية. وبرغم أن بالدوين ضمن حياته في الظاهر فإنه لم يسمح له بالرحيل، وهكذا وجد نفسه سجيناً في قصره، فحاول الفرار من النافذة يوم الثلاثاء، ولكن الجماهير أمسكت به وقطعته إرباً. ولا يعرف مصير الأميرة أم بالدوين بالتبني، وفي يوم الأربعاء العاشر من مارس (آذار) وجه أهل الرها الدعوة إلى بالدوين ليتولى الحكومة.

ولقد حقق بالدوين ما كان يطمع فيه من الحصول على إمارة. وليست الرها في واقع الأمر في الأراضي المقدسة، ولكن وجود دولة فرنجية في وسط الفرات قد يكون عاملاً ذا قيمة من عوامل الدفاع عن أية دولة تقام في فلسطين. واستطاع بالدوين أن يبرر مسلكه في إطار مقتضيات السياسة العامة للحملة الصليبية، ولكنه لا يستطيع أن يبرر مسلكه تبريراً شرعياً أمام العالم المسيحي كله. إذ أن الرها كانت تابعة للإمبراطور قبل الغزوات التركية وينسحب عليها قسم الولاء الذي أقسمه في القسطنطينية. وفضلاً عن ذلك، فإنه قد حصل عليها بعزل حاكمها والإغضاء عن قتله، وقد كان من الناحية الرسمية على الأقل خادماً للإمبراطورية معترفاً به من قبلها. غير أن بالدوين أظهر بالفعل في كيليكيا أن القسم الذي أقسمه لا يعني شيئاً بالنسبة له، بينما في الرها كان ثوروس نفسه على استعداد لأن يتخلى عن حقوقه دون الرجوع إلى سيده البعيد. ومع ذلك،

فإن الأمر لم يفت على الكسيوس الذي احتفظ بحقوقه إلى أن يصبح في وضع يمكنه من فرضها بالقوة.

وعندما أصبح من الواضح أن سيطرة الفرنجة تسببت في الدمار الشامل للأرمن المقيمين في الفرات، أدان المؤرخون الأرمن المتأخرون بالدوين إدانة قاسية، ولكنهم لم يتوخوا العدالة؛ لاقتصارهم على هذا السبب دون غيره. فليس ثمة مبرر أخلاقي لصنيع بالدوين بثوروس على نحو ما يظهره المؤرخون اللاتينيون الذين يستشعرون الحرج. وتصرف ثوروس بطريقة مماثلة مع الفيلاق التركي عندما دعاه قبل ثلاث أو أربع سنوات ثم تسبب في قتله، ولكن تصرفه ذاك كان لإنقاذ مدينته وشعبه من طغيان الكفرة. ولم يكن لفيلاق أباه بالتبني، ومن الحق أن التبني في الأعراف الأرمنية يقل خطورة عنه في القانون الغربي، وليس ذلك بالمبرر الذي يخفف مما اقترفه بالدوين من إثم أخلاقي. على أنه لا ينبغي للأرمن أن يلقوا عليه باللائمة؛ ذلك أن مقتل ثوروس تم في واقع الأمر بأيدي الأرمن أنفسهم الذين دعوا بالدوين ليحل محله بموافقة توشك أن تكون إجماعية من الجنس الأرمني كله. وأما الأمراء الأرمن الذين لم يثقوا في جدوى المساعدة الصليبية، والذين أبعدهم الصليبيون، فكانوا في خدمة الإمبراطور في الأيام الخوالي، وكانوا مكروهين من أبناء جلدتهم بسبب ولائهم للإمبراطور، بل والأكثر من ذلك لأنهم من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية. ولم يكن هناك من يتوفر لديه القدر الكافي من خبرة الحكم للحفاظ على بقاء الاستقلال الأرمني في الفرات سوى المسؤولين البيزنطيين السابقين من أمثال ثوروس وجابريل. ولكن رعاياهم الجاحدين، بما يحملونه من كراهية لبيزنطة، وباستعدادهم لأن يغفروا لللاتيني ما لا يستطيعون

اغتفاره لليوناني من أخطاء هرطقية تسمه بالإدانة الأبدية، لا يلومون إلا أنفسهم عندما يغويهم أصدقاؤهم الفرنجة ويجروهم إلى الكارثة. (١)

وتوردت الحياة في عيني بالدوين الذي اتخذ لنفسه لقب كونت الرها. وبات واضحا أنه ينوي أن يحكم بمفرده. ولكن جنوده من الفرنجة كانوا قليلي العدد ولا بد له من الاعتماد على الأرمن ليعملوا في خدمته. ووجد البعض ممن يضع فيهم ثقته. وأصبح الأمر أيسر بعد اكتشاف مخزن مليء بالكنوز في القلعة يرجع تاريخ الكثير منها إلى أيام البيزنطيين، وكان ثوروس قد زاد من ضخامتها بما فرضه من ضرائب. ومكنت هذه الثروة الجديدة بالدوين من شراء المؤيدين، ليس هذا وحسب، وإنما مكنته كذلك من تحقيق ضربة دبلوماسية كبيرة؛ إذ أن الأمير بلدق، أمير سميساط، تملكه الخوف من أنباء تولي بالدوين الحكم. وعندما رأى الترتيبات تجري على قدم وساق لشن هجوم جديد على عاصمته أسرع بإرسال مبعوثيه إلى الرها عارضا بيع إمارته بمبلغ عشرة آلاف بيزنطة (٢)، فقبل بالدوين ودخل سميساط دخول الفاتحين. ووجد في قلعتها الكثير من الرهائن الذين أخذهم بلدق من الرها، فأعادهم إلى عائلاتهم من فوره. وكان لهذا التصرف، فضلا عن القضاء على التهديد التركي لسميساط، أن أضاف إلى شعبيته إضافة هائلة. ووجه الدعوة إلى بلدق وحرسه الخاص للإقامة في الرها كمرتزقة للكونت. (٣)

(١) يؤكد Fulcher of Chartres, 1,xiv,13؛ Matthew of Edessa, loc. cit. خيانة بالدوين؛ -14,pp. 213-15 الذي تتصف روايته بأنها قصيرة وبالأحرى محرجة؛ -Albert of Aix,III,22,3,pp. 354-5 أنظر Laurent, op. cit. pp. 428-3 وهو يرى على نحو مقنع أن ماثيو كان حاضرا في الرها في ذلك الوقت.

(٢) (المترجم): بيزنطة Bezant : عملة ذهبية أو فضية واسمها مشتق من بيزنطة.

(٣) Albert of Aix, III, pp. 355-6

زواج بالدوين

وذاعت أنباء نجاح بالدوين في الآفاق. وتحول بعض فرسان الغرب عن طريقهم لتعزيز الجيش الصليبي في أنطاكية ليشاركوا بالدوين مغنمه. بينما ترك فرسان آخرون حصار أنطاكية الكتيب ليلحقوا به، وكان من بينهم دروجو أوف نيسل ورينالد أوف تول وجاستون أوف بيارن تابع ريموند، وكافأهم بالدوين بهدايا لائقة من خزائنه. ولكي يساعدهم على الاستقرار شجعهم على الزواج من الأرمنيات الوارثات ذوات الثروات وضرب هو بنفسه المثل، فهو الآن أرمل لا ولد له. وكانت زوجته الجديدة هي ابنة أحد الأعيان الذي يعرفه المؤرخون اللاتينيون باسم تافنوز أو تافروك، وكان أميراً ثرياً يمتلك الأراضي في الجوار. ومن الواضح أنه كانت له علاقة بقسطنطين أوف جارجار، كما كانت له علاقات بالقسطنطينية التي لجأ إليها في نهاية الأمر، وربما كان هو نفسه تاتول حاكم مرعش. ولا شك في أن التحالف معه سيكون ذا قيمة كبيرة لبالدوين، الذي منح ابنته مهراً قدره ستين ألف بيزنطة ووعداً مبهماً بأنها سترث أراضيها، غير أن الزواج لم يسعدها، كما لم يثمر ذرية. (١)

(١) ليس في الإمكان تحديد شخصية حمي بالدوين في الواقع؛ فيطلق عليه Albert of Aix, III, 31, p. 361 تافنوز Taphnuz ويقول إنه كان أحمق قسطنطين. ويطلق عليه William of Tyre, x, I, 1, p. 402 تفروك Tafroc ويفترض Dulaury, p. 431 n. 2 في نشرته لماثيو الأوربي، أنه لابد وأن يكون أحمق لقسطنطين الروماني الذي يدعي ثوروس Thoros؛ لكنه يعترف بأن قسطنطين لم يكن يعرف له أخ بذلك الاسم. ويقبل Hagenmeyer, p. 421 n. 7 في نشرته لفولشر أوف تشارترز، هذا الوضع. علي أنه من الواضح أن قسطنطين الذي كان يعنيه ألبرت هو قسطنطين الجارجاري (Constantine Gargar) ويوحى مقال Honigmann المعنون "مرعش Marash" في دائرة المعارف الإسلامية Encyclopaedia of Islam إن تافنوز Taphnuz هو في الواقع تاتول Thatoul ويؤيد ذلك أننا نعرف أن تاتول تقاعد في القسطنطينية سنة ١١٠٤م (Matthew of Edessa, III, clxxxvi, p. 257) -

وهكذا وضع بالدوين المبادئ الأساسية التي أرساها فيما بعد لمملكة القدس. وتقضي هذه المبادئ بأن يظل زمام الحكومة في يد الأمير الفرنجي وأتباعه من الفرنج، على أن يدعى الشرقيون من المسيحيين والمسلمين لكي يقوموا بدورهم في دولة تنصهر فيها أجناس شتى انصهاراً شاملاً بحيث تمتزج في النهاية في كيان واحد متكامل. كانت تلك سياسة رجل دولة ذي بصيرة ثاقبة. على أنه بالنسبة للفرسان القادمين حديثاً من الذين تعهدوا بأن يهبوا أنفسهم للصليب ويبحثوا شأفة الكفرة؛ فقد رأوا أن هذا الأمر يوشك أن يكون خيانة للعهد عند الصليبي. على أن البابا إيربان لم يكن ليستنهض المؤمنين في كليرمونت كي يقيم ملكاً للدوين وأمثاله في ممالك شبه شرقية.

وفي بادئ الأمر، لم تكن تلك بالسياسة التي يسهل اتباعها. إذ نظر المسلمون إلى بالدوين على أنه مغامر عابر قد يُستفاد به. وكانت مدينة سروج المسلمة تقع جنوب غرب الرها باتجاه الفرات، وكانت مدينة تابعة للأمير الأرمني بلق ابن بهرام ولكنها تمردت عليه مؤخراً، فكتب بلق إلى بالدوين طالباً استئجار خدماته لإخضاعها. ووافق بالدوين على إنجاز تلك المهمة وقد ابتهج لتلك الفرصة التي أتاحت له على هذا النحو. وأرسل مواطنو سروج إلى بلدق سرّاً لكي يأتي لإنقاذهم، فخرج بلدق من الرها متسللاً واستقبله أبناء سروج. ولكن بالدوين تبعه مصطحباً معه عدداً من آلات الحصار، فأصيب بلدق ورجال سروج بالهلع؛ وعرضوا على الفور تسليم مدينتهم إليه

-- وأن زوجة بالدوين طلبت الإذن بالانضمام إلى والديها في القسطنطينية فور أن نبذها سنة ١١٠٤م

(William of Tyre, XI, I, 1, pp. 451-2) وليس هناك ما يدعو إلى افتراض أن كان لها اسم

أردا Arda الذي يطلق عليها أحياناً. أنظر Hagenmyer's edition of Fulcher, loc. cit.

ويذكر Albert of Aix, v, 15, pp. 441-2 أسماء الفرسان الذين انضموا إلى بالدوين.

ودفع إتاوة. وخرج بلدق لمقابلته معلنا أنه إنما أسرع أمامه ليستولي له على المدينة. ولم ينخدع بالدوين، وإنما قبل اعتذار بلدق وأظهر له الود، ولكنه طلب بعد أيام قلائل تسليم زوجته وأولاده كرهائن، وعندما اعترض بلدق اعتقاله وأطاح برأسه. وفي تلك الأثناء وضعت حامية فرنجية في سروج بقيادة فولك أوف تشارترز، وهو شخص آخر غير فولشر المؤرخ. وقد تعلم بالدوين من تلك الحادثة أنه لا يسعه أن يثق في المسلمين، وعمل منذ ذلك الحين على ألا يسكن القادة منهم في أراضيه وسمح لهم بحرية العبادة. ولا يسعه أن يفعل غير ذلك في حالة استيلائه على مدينة مثل سروج يتألف سكانها كلهم تقريبا من العرب والمسلمين، على أن تسامحه هذا صدم الرأي العام الغربي. (١)

وتعززت كونتية بالدوين بعد الاستيلاء على سروج، ثم الاستيلاء بعد ذلك بأشهر قليلة على برجيك بمخاضتها على نهر الفرات، ثم بتطهير الطرق بين الرها وقلعتي تل بشير ورواندان، مما أدى إلى تأمين خطوط مواصلاته مع الحملة الصليبية الرئيسية. وفي ذات الوقت تعلم المسلمون أن كونت الرها قوة لا يستهان بها وركزوا على تدميره. وتبينت قيمة تصميمهم، وما يمكن أن يكون لسيطرة الفرنجة على الرها من أثر في الحروب الصليبية، عندما توقف كربوقا في مايو (أيار) — وهو في طريقه إلى إنقاذ أنطاكية — ليقضي على بالدوين. ذلك أنه قضى ثلاثة أسابيع يقاتل دون جدوى أمام أسوار الرها ثم تخلى عن هجومه عليها. فزاد فشله من هيبة بالدوين؛ وأدى ضياع الوقت في حصاره للرها إلى إنقاذ الحملة الصليبية. (٢)

المؤامرة ضد بالدوين

واستاءوا من تدفق الفرسان الفرنجة على أراضيهـم ومما كان يتفضل به بالدوين

(١) .Albert of Aix, III, 25, pp. 356-7

(٢) .Idem, IV, 10-12, pp. 396-7; Fulcher of Chartres, I, xix, pp. 242-3; Matthew of Edessa, II, clv, p. 221

عليهم. ولم يكن الفرسان الفرنجة يتلطفون مع الأرمن وإنما كانوا يعاملونهم بالازدراء حيناً وبالعنف أحياناً. ووجد وجهاء الرها أنفسهم مبعدين من مجلس الكونت الذي كان يضم الفرنجة فقط، ووجدوا أن الضرائب لا تقل عما كانوا يدفعونه أيام ثوروس، وفضلاً عن ذلك كانت الضياع الأرمنية داخل البلاد تُمنح للقادمين الجدد، والمزارعون مجبرون على العمل فيها كما تقضي الأعراف الإقطاعية الغربية المتشددة. وفي وقت متأخر من سنة ١٠٩٨ ميلادية كشف أحد الأرمن لبالدوين عن مؤامرة تستهدف حياته، وقيل إن اثني عشر مواطناً من مواطني المدينة البارزين كانوا على اتصال بأمراء الأتراك في منطقة ديار بكر. وكان تافنوز صهر بالدوين في الرها آنذاك ولم يكن قد مضى على زفاف ابنته سوى فترة وجيزة، وتردد أن المتآمرين كانوا يريدون تنصيبه في مكان بالدوين أو على الأقل إجبار بالدوين على إشراكه في الحكم. وما أن سمع بالدوين بتلك المؤامرة حتى ضرب ضربته في الحال؛ فتم القبض على زعيم المتآمرين وفُتشت أعينهما، وأما شركاؤهما الرئيسيون فقطعت أنوفهم أو أقدامهم، وألقي بعدد كبير من الأرمن الذين حامت حولهم الشكوك في غياهب السجون وصدورت أملاكهم، لكنهم جرى على ما طبع عليه الشرقيون من المتصفين بالحكمة كانوا قد أخفوا أموالهم بعناية تسبب الحيرة لمفتشي بالدوين. لذا كان بالدوين كريماً معهم فسمح لهم بشراء حريتهم بمبالغ تتراوح بين عشرين ألف إلى ستين ألف بيزنطة للفرد. وعلى الرغم من عدم إثبات اشتراك تافنوز في المؤامرة فقد رأى أنه من الحكمة أن يسرع عائداً إلى الجبال بعيداً عن زوج ابنته المرعب، وأخذ معه الجزء الأعظم من مهر الكونتيسة الذي لم يسبق أن دفع منه سوى سبعمائة بيزنطة. (١)

وهكذا سحق بالدوين المؤامرة بشراسة فوضع حداً لمخاطر رعيته الأرمن، واستمر مع ذلك في الاستعانة بالقليل منهم في المناصب العليا مثل أبي الغريب الذي جعله

(١) Albert of Aix, v, 16-18, pp. 442-3.

حاكمًا على برجيك. على أنه بانضمام المزيد من الفرنجة الذين جذبتهم شهرته إليه كان بوسعه تجاهل الشرقيين، وها هي شهرته الآن، بعد أقل من سنة من مجيئه إلى الرها، قد غدت هائلة بالفعل. وفي الوقت الذي كان فيه الجيش الصليبي الرئيسي يشق طريقه الصعب نحو القدس، كان بالدوين قد أرسى دعائم دولة غنية قوية في عمق آسيا مما جعل العالم الشرقي كله ينظر إليه برهبة واحترام. وذلك بعد أن كان أصغر الأبناء، عندما خرج مع الحملة الصليبية، وهو مفلس يعتمد على تصدق اخوته ولا يكاد يذكر بجانب كبار النبلاء من أمثال ريموند أوف تولوز أو هيو أوف فيرمندوا أو المغامر المتمرسين من أمثال بوهيموند، وها هو الآن عاقل يفوق أيهم عظمة، وفيه تستطيع الحرب الصليبية أن تجد أقدر ساستها وأكثرهم دهاء.

الفصل الثالث :

أمام أسوار أنطاكية

أمام أسوار أنطاكية

"وَأَمَّا الشَّجَرُ الَّذِي تَعْرِفُ أَنَّهُ لَيْسَ شَجَرًا
يُؤْكَلُ مِنْهُ فَلِإِيَّاهُ تُثْلِفُ وَتَقْطَعُ وَتَبْنِي
حِصْنَ عَلَى الْمَدِينَةِ الَّتِي تَعْمَلُ مَعَكَ
حَرْبًا حَتَّى تَسْقُطَ"

(التَّثْنِيَّة: ٢٠ — ٢٠)

تقع مدينة أنطاكية على نهر العاصي وتبعد عن البحر اثني عشر ميلاً تقريباً. وكان
سلوقون الأول السوري قد أسسها سنة ٣٠٠ قبل الميلاد وسميت باسم أبيه، وسرعان
ما برز شأنها لتصبح المدينة الرئيسية في آسيا. وفي ظل الإمبراطورية الرومانية كانت هي
المدينة الثالثة في العالم. وكانت في نظر المسيحيين مدينة مقدسة على نحو خاص، ففيها
أطلق عليهم اسم "المسيحيين" لأول مرة، وفيها أسس القديس بطرس أول أسقفية له.

وفي القرن السادس الميلادي تناقص بهاء المدينة بسبب الزلازل وما لحقه الفرس بها من خراب. وبعد الفتح العربي تدهورت لصالح مدينة حلب الداخلية المنافسة لها، وبعد أن استعادتها بيزنطة في القرن العاشر عادت إليها بعض عظمتها، وغدت الملتقى الرئيسي للتجارة اليونانية والإسلامية وأكثر القلاع ضخامة على الحدود السورية. وفي سنة ١٠٨٥ ميلادية استولى عليها سليمان بن قتلش، ثم انتقلت إثر وفاته إلى السلطان ملكشاه الذي نصب عليها حاكمها التركماني ياغي سيان. وظل ياغي سيان يحكم المدينة لعشر سنوات. ومنذ أن مات ملكشاه أصبح الوالي الأسمى لياغي سيان هو الأمير رضوان الحلبي. على أن ياغي سيان لم يكن تابعًا مخلصًا لواليه وحافظ عمليًا على استقلاله عن طريق الوقعة بين رضوان الحلبي وأنداده دقاق الدمشقي وكربوقا الموصلية. وفي سنة ١٠٩٦ ميلادية بلغ الأمر بياغي سيان حد خيانة رضوان أثناء حربه ضد دقاق الدمشقي، وحول تبعيته من رضوان الحلبي إلى دقاق الدمشقي، ولكن مساعدته تلك لم تفلح في تمكين دقاق من الاستيلاء على حلب. ولم يغفر له أميرها رضوان فعلته هذه أبدًا.

وشعر ياغي سيان بالخطر من أنباء تقدم المسيحيين لاسيما وأن أنطاكية هي الهدف المعلن للصليبيين. وفي واقع الأمر لم يكن لهم من أمل في مواصلة السير جنوبا باتجاه فلسطين ما لم تقع القلعة العظيمة في أيديهم. وكان أغلب سكانها من المسيحيين اليونانيين والأرمن والسوريين، ونظرا إلى أن المسيحيين السوريين يكرهون اليونانيين والأرمن على السواء، فرمما يظلون على ولائهم لياغي سيان، لكنه لم يسعه أن يثق في الآخرين. ويبدو أنه كان حتى ذلك الوقت متسامحا مع المسيحيين، فقد سمح للبطريرق الأرثوذكسي جون الأوكسيني بالإقامة في المدينة وفيها كنائس ضخمة لم تتحول إلى مساجد. على أنه باقتراب الحملة الصليبية بدأ في وضع تدابير تقييدية، فألقى بالبطريرق في السجن رغم أنه كان رئيسا لأهم جالية في أنطاكية، وطرده الكثير من المسيحيين البارزين من المدينة وهرب آخرون. وانتهكت كاتدرائية القديس بطرس وصارت

إسطنبول لخيول الأمير، وحدثت بعض حالات اضطهاد في القرى الواقعة خارج المدينة، وما أن اقترب الصليبيون حتى ذبح القرويون على الفور الحاميات التركية. (١)

ياغي سيان يبحث عن حلفاء

وأخذ ياغي سيان يبحث عن حلفاء. ورفض رضوان الحلبي مساعدته، من قبيل الانتقام منه لخيانته في العام الماضي وإن كان انتقاما قصير النظر. بيد أن دقاق الدمشقي جرد حملة لنجدته بعد أن أرسل إليه ياغي سيان ابنه شمس الدولة يستغيثه، كما عرض المساعدة كل من أتابج دقاق (طغتكين التركماني) والأمير جناح الدولة الحمصي. ورحل مبعوث آخر إلى بلاط كربوقا هو أتابج الموصل الذي كان آنذاك أبرز الأمراء في أعالي العراق والجزيرة وكان من الحكمة بحيث أدرك أن الحملة الصليبية تهدد العالم الإسلامي كله. وكانت عينه على حلب منذ زمن طويل. فإذا استطاع الحصول على أنطاكية يصبح رضوان محاطا وتحت سلطانه، فجهز هو الآخر جيشا لنجدة المدينة ومن خلفه وعود بالمساعدة من سلاطين بغداد وفارس. وفي تلك الأثناء جمع ياغي سيان قواته الكبيرة داخل القلعة وبدأ في إمدادها بالموثون تحسبا لحصار طويل. (٢)

ودخل الصليبيون أراضي ياغي سيان عند مدينة مراتا الصغيرة التي هربت منها حاميتها التركية عند اقتراحهم. ومن مراتا انطلقت فصيلة من الجند بقيادة روبرت أوف فلاندرز باتجاه الجنوب الغربي لتحرير مدينة أرطا التي ذبح سكانها المسيحيون حاميتها. وفي تلك الأثناء، وفي العشرين من أكتوبر (تشرين الأول)، وصل الجيش الرئيسي إلى

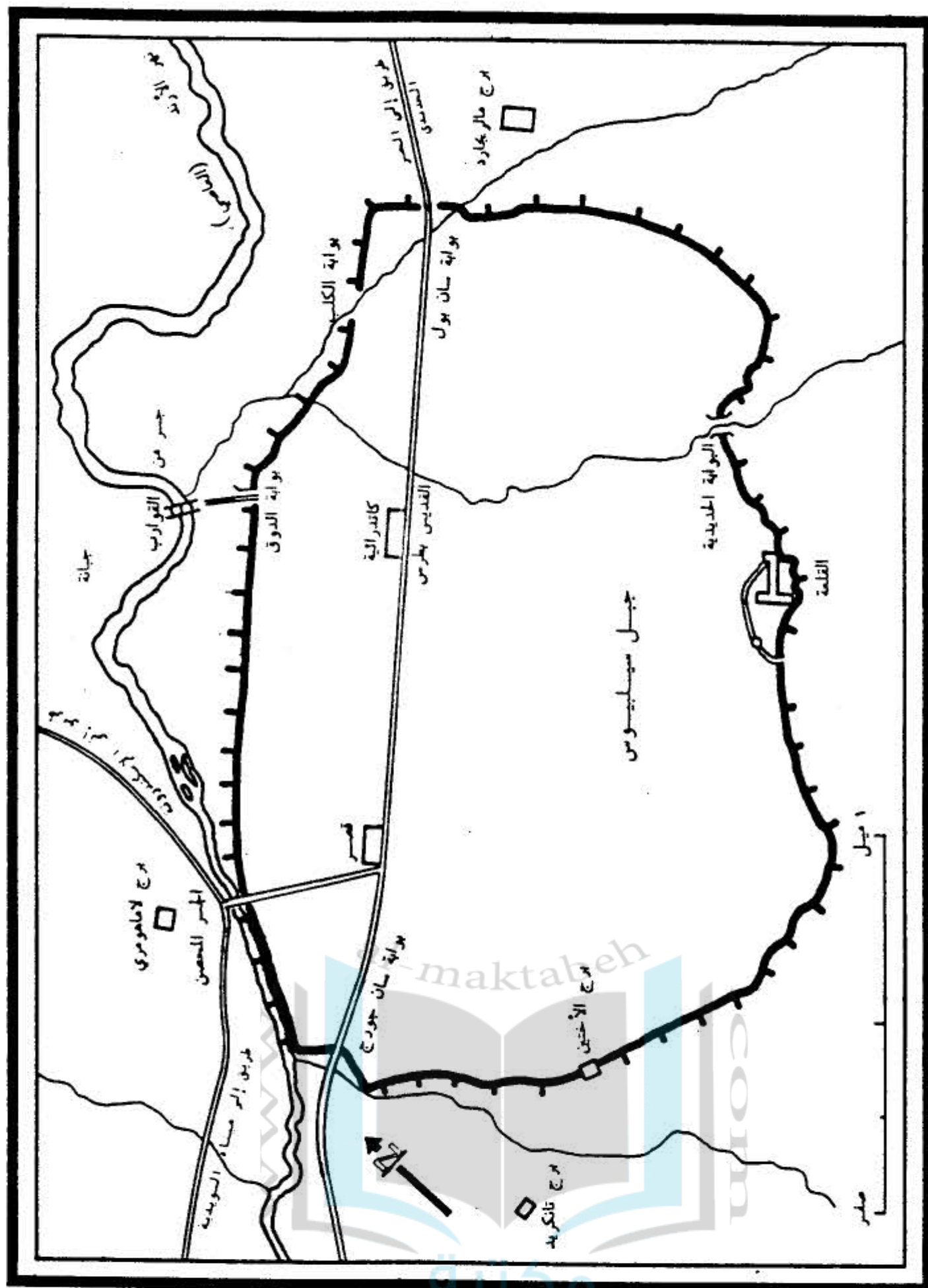
(١) Abu'l Feda, *Annales*, p. 3; Ibn al-Athir, *Kamil at-Tawarikh*, p. 192; Kemal ad-Din, *Chronicle of Aleppo*, pp. 578-9

(٢) Kemal ad-Din, *loc. cit.*

نهر العاصي عند الجسر الحديدي حيث تلتقي الطرق القادمة من مرعش وحلب لتعبر النهر، وكان الجسر محصنا تحصينا قويا وله برجان على جانبي مدخله. ولكن الصليبيين هاجموا من فورهم وعلى رأسهم أسقف لوبوي يدير العمليات الحربية، وتمكنوا بعد قتال شديد من أن يشقوا طريقهم عبره. ومكنهم النصر من الاستيلاء على قدر هائل من الماشية والأغنام والغلال في طريقه لتموين جيش ياغي سيان. والآن أصبح الطريق إلى أنطاكية مفتوحا وباستطاعة الصليبيين مشاهدة قلعتها على مرمى البصر، وفي اليوم التالي وصل بوهيموند على رأس طليعة الجيش أمام أسوار المدينة ومن ورائه الجيش كله. (١).

وامتلأ الصليبيون رهبة من تلك المدينة العظيمة. إذ كانت منازل أنطاكية وأسواقها تشغل سهلا طوله حوالي ثلاثة أميال وبعمق ميل واحد بين العاصي وجبل سلبوس. وتناثرت قصور الأغنياء ومنازلهم على جانب التل. وحول كل ذلك ظهرت التحصينات الهائلة التي شيدها جستنيان وأصلحها البيزنطيون منذ قرن واحد فقط. بآخر ما توصلوا إليه من إبداع مهاراتهم الفنية، ففي الشمال برزت الأسوار واعتلت منحدرات الجبال، وفي الجنوب امتدت الأسوار بطول القمة عند الحافة لتعبر في جسارة شقا يندفع منه سيل يعرف باسم أنوبنكل ليشق طريقه داخل السهل، ثم تمتد الأسوار لتعبر مدخلا خلفيا يطلق عليه البوابة الحديدية، ثم تبلغ الأسوار ذروة ارتفاعها عند القلعة الرائعة التي ترتفع لألف قدم فوق المدينة. ومن هذه الأسوار شمع أربعمئة برج بينها مسافات تسمح بجعل كل ياردة في مرمى السهام. وفي الركن الشمالي الشرقي كانت بوابة القديس بول تستقبل الطريق القادم من الجسر الحديدي وحلب. وفي الركن الشمالي الغربي كانت بوابة القديس جورج تستقبل الطريق القادم من اللاذقية

(١) . Albert of Aix, III, 28-35, pp. 358-64; *Gesta Francorum*, v, 12, pp. 66-7



خريطة أنطاكية ١٠٩٨ ميلادية

سيميون، وهو حاليا ميناء السويدية، فكان هناك بوابات أصغر، مثل بوابة الدوق وبوابة الكلب، تؤدي إلى النهر وتقع إلى الشرق. وكانت المياه داخل الأسوار وفسيرة بالإضافة إلى حدائق الخضر والفاكهة ومراعي لقطعان الماشية. وتستطيع هذه المدينة أن تأوي جيشا بأكمله وتمده بالموثون فيصمد لحصار طويل، من المحال تطويق المدينة تطويقا كاملا لتعذر وضع الجنود في مراكز على البقعة الجنوبية للوحشة شديدة الانحدار. (١)

ولم يستطع الأتراك الاستيلاء على أنطاكية سنة ١٠٨٥ ميلادية إلا بالخيانة. والخيانة هي الخطر الوحيد الذي كان على ياغي سيان أن يواجهه، لكنه كان عصيا. ولئن كان الصليبيون عاجزين عن تطويق المدينة، فكان هو الآخر غير قادر على وضع الجنود على جميع الأسوار لعدم كفاية عددهم. ولم يكن بوسعهم أن يخاطر بأي من رجاله إلى أن يصل المدد؛ فلم يقدم على أية محاولة لمهاجمة الصليبيين أثناء تحركاتهم لأخذ مواقعهم، وتركهم هكذا أربعة عشر يوما دون أن يتحرش بهم.

المعسكرات أمام أنطاكية

واتخذ الصليبيون مواقعهم عند وصولهم خارج الركن الشمالي الشرقي من الأسوار، فشغل بوهيموند القطاع المقابل لبوابة القديس بول، وريموند القطاع المقابل لبوابة

(١) Fulcher (1,XV, 2-4, pp. 217-18) and Raymond of Aguilers (v, pp. 241-2)

وكلاهما يورد وصفا موجزا لأنطاكية ويصفها (William of Tyre (iv,9-10,1,pp. 165-9)

بصورة أكبر اكتمالا . ونهر العاصي أو الأرند Orontes يطلق عليه المؤرخون الغربيون Ferrins

(Fulchrt of Chartres, 1, xv. 1, p. 216- 'Orontes of Ferrins) أو يطلقون عليه

The Far (William of Tyre, iv, 8, 1, p. 164) ويسميه غلطة بذيئة) أو (Gesta Farfar

(Albert of Aix, loc. cit.) Pharpar أو Francorum, x, 34, p. 180)

الكلب وعلى يمينه جودفري أمام بوابة الدوق. وانتظرت الجيوش الباقية خلف بوهيموند على استعداد للتحرك وقتما يتطلب الموقف. وأما بوابة الجسر وبوابة القديس جورج فتركنا دون تغطية. وفي الحال بدأ العمل في بناء جسر من القوارب ليعبر النهر من معسكر جودفري إلى قرية تالنكي حيث تقع مقابر المسلمين، وساعد هذا الجسر على تمكين الجيش من الوصول إلى الطرق الذاهبة إلى الإسكندرونة والسويدية، وسرعان ما أقام الجيش معسكرا شمالي النهر. (١)

وتوقع ياغي سيان هجوما عاجلا على المدينة. ولكن لم يكن بين قادة الصليبيين من نصح بمحاولة اقتحام الأسوار سوى ريموند الذي قال إن الرب الذي شملهم بحمايته حتى الآن لخليق بنصرهم. (٢) ولم يشاركه القادة الآخرون إيمانه هذا لأن التحصينات أرهبتهم ولأن جنودهم مرهقون وليس بوسعهم تحمل خسائر جسيمة الآن. فضلا عن أن التعزيزات ستلحق بهم إذا انتظروا، فـتـانـكـريـد على وشك الوصول من الإسكندرونة، وربما يحضر الإمبراطور ومعه آلات الحصار العجيبة، وقد يوفر لهم أسطول جوينمير المزيـد من الرجال. وكانت هناك شائعة بوجود أسطول من جنوا في عرض البحر. أما بوهيموند الذي كان لنصيحته الأثر الأكبر بينهم، فلديه أسبابه الخاصة به التي تجعله يعارض اقتراح ريموند؛ إذ تركزت طموحاته الآن على الأفراد بامتلاك أنطاكية لنفسه، فكان يفضل الإبقاء عليها حتى لا ينهبها جيش يتوق إلى نهب مدينة غنية. ليس هذا وحسب، وإنما الأخطر بالنسبة له أنه كان يخشى استحالة

(١) يورد Albert of Aix, III, 38-9, pp. 365-6 ووصف الجنود. ويصف تاريخ *Gesta*

Raymond of Aguilers بناء الجسر *Francorum*, v, 12, pp. 66-8 تراخي الحامية، ويصف

وضرب معسكر ريموند.

(٢) Raymond of Aguilers, iv, p. 241

المطالبة بها لنفسه دون غيره إذا ما تم الاستيلاء عليها بالجهد الصليبي الموحد، وكان قد وعى الدرس الذي لقنه إياه ألكسيوس في نيقية، فإذا ما استطاع تدبير استسلام المدينة له فسيكون من أصعب الأمور التنازع على حقه فيها. وسوف يتمكن من تدبير ذلك في وقت قصير، فلديه بعض المعرفة عن طرق الشرقيين في الخيانة. وهكذا استخدم نفوذه لإهمال نصيحة ريموند الذي تعاظمت كراهيته له. وضاعت الفرصة الوحيدة للاستيلاء على أنطاكية بسرعة؛ فلو أن الهجوم الأول صادف أي نجاح لضعفت مقاومة ياغي سيان الذي كان مضطرباً، ومن ثم أدى ذلك التأخير إلى أن يستعيد ثقته بنفسه.

ولم يجد بوهيموند وأصدقائه صعوبة في العثور على وسطاء يستطيعون من خلالها الاتصال بالأعداء. فكان اللاحثون المسيحيون ومعهم المبعدون عن المدينة على اتصال وثيق بأقاربهم الموجودين داخل الأسوار بسبب الثغرات في كل من الحصار والدفاع. فتوفرت لدى الصليبيين معلومات عن كل ما كان يحدث داخل أنطاكية. ولقد سارت هذه العملية في الاتجاهين معاً، ذلك أن الكثير من المسيحيين المحليين، لاسيما السوريين، راودتهم الشكوك فيما إذا كان الحكم البيزنطي أو الفرنسي يفضل الحكم التركي. وكانوا على استعداد لأن ينالوا الحظوة لدى ياغي سيان بأن يقدموا له هو الآخر المعلومات الوفيرة عما كان يحدث في معسكر الصليبيين، فعلم منهم بعدم رغبة الصليبيين في الهجوم. فبدأ ينظم خروج جماعات لمهاجمتهم بحيث يتسلل رجاله من البوابة الغربية لمهاجمة أية جماعة فرنجية صغيرة، للقضاء عليها وهي تبحث عن الأعلاف بعيداً عن الجيش. وأقام اتصالات مع حاميته في حارم عبر الجسر الحديدي على الطريق إلى حلب وحثها على مناوشة الفرنج في مؤخرتهم، وفي ذات الوقت علم بنجاح سفارة ابنه في دمشق وأن هناك جيشاً آتياً لنجدته. (١)

(١) *Gesta Francorum*, v, 12, p. 68; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 577

ولقد ابتهج الصليبيون، في غفلة من أمرهم، باسترخاء ياغي سيان بادئ الأمر. وعندما أعقب الشتاء الخريف بدعوا يشعرون بالخوف على الرغم من أنهم حققوا بعض النجاح الضئيل؛ ففي منتصف نوفمبر (تشرين الثاني) تمكنت حملة بقيادة بوهيموند من استدراج حامية حارم من حصنها وأبادتها تمامًا،^(١) وفي نفس اليوم تقريباً ظهر أسطول صغير من جنوا قوامه ثلاث عشرة سفينة في ميناء السويدية، مما ساعد الصليبيين على احتلاله. وقد جاء هذا الأسطول بتعزيزات من الرجال والسلاح استجابة متأخرة للغاية لنداء البابا إيربان لمدينة جنوا قبل ذلك بحوالي عامين. وشعر الصليبيون بالارتياح لمعرفة أنهم بوسعهم الآن الاتصال بأوطانهم بطريق البحر. على أن مشكلة توفير الطعام للجيش غطت هذا النجاح كله. وعندما دخل الصليبيون سهل أنطاكية بادئ الأمر وجدوه مليئاً بالمؤن، فالأغنام والماشية كثيرة، وصوامع القرى ما تزال مليئة بمعظم حصاد العام، فطعموا جيداً وأهملوا تخزين الإمدادات لشهور الشتاء، ولم يجد الجنود مفراً من التجوال في الأنحاء بحثاً عن الطعام في دائرة من الأرض تتسع شيئاً فشيئاً. مما جعلهم أكثر تعرضاً للقتل من جانب الأتراك الهابطين من الجبال. وسرعان ما اكتشف الصليبيون تسلل المغيرين عبر مضيق أنوبنكل وانتظارهم فوق التل المشرف على معسكر بوهيموند لمهاجمة الصليبيين المنتشرين العائدين إلى معسكرهم متأخرين. وللتصدي لهذا الخطر قرر القادة بناء برج محصن فوق التل واتفقوا فيما بينهم على أن يضع فيه كل منهم حامية من عنده بالتناوب، وسرعان ما شُيّد البرج وأطلق عليه برج مالريجارد Malregard.^(٢)

(١) *Gesta Francorum, ibid. pp. 68-70*

(٢) *Ibid. v, 13, p. 70; Raymond of Aguilers, v, p. 242; Caffaro, De Liberatione, p. 50*

وأوشك مخزون الجيش من الطعام أن ينفد بحلول عيد الميلاد سنة ١٠٩٧ ميلادية. ولم يعد هناك في الريف المجاور ما يمكن الحصول عليه، فعقد الأمراء مجلساً تقرر فيه إرسال قسم من الجيش بقيادة بوهيموند وروبرت أوف فلاندرز أعلى وادي نهر العاصي باتجاه ماله للإغارة على القرى وانتزاع كل ما تصل إليه أيديهم من مؤن. وفي ذات الوقت عهدوا بأمر الحصار إلى ريموند وأسقف لوبوي، إذ كان جودفري آنذاك تحت وطأة المرض الشديد. وفي الثامن والعشرين من ديسمبر (كانون الأول) انطلق بوهيموند وروبرت ومعهما حوالي عشرين ألف رجل، وفي الحال علم ياغي سيان برحيلهم، فانتظر إلى أن ابتعدوا تماماً. وفي ليلة التاسع والعشرين خرج في هجمة قوية عبر الجسر وانقض على الصليبيين المعسكرين شمالي النهر، وربما كان جنود ريموند هم الذين انتقلوا من مكانهم الأول بسبب أمطار الشتاء التي جعلت المنطقة الواقعة بين النهر والأسوار غير صالحة للإقامة، وبوغتوا بالهجوم، ولكن يقظة ريموند أنقذت الموقف، فقد جمع بسرعة عدد من الفرسان وهاجم الأتراك في الظلام فارتدوا عائدين عبر الجسر وهو يطاردهم بكل ما أوتي من حمية حتى أن رجاله تمكنوا من أن يتخذوا لأنفسهم في لحظة وجيزة موطئ قدم عبر الجسر قبل إغلاق البوابات. وبدا أن ريموند على وشك تحقيق ظنه في إمكان اقتحام المدينة، ولكن حصانا ألقى بالفارس من على ظهره وجمع مرتداً تجاه الفرسان المحتشدين على الجسر فأحدث بينهم الاضطراب، وكان الليل حالك الظلمة بحيث يتعذر معرفة ما كان يحدث، فانتشر الذعر بين الصليبيين فهربوا بدورهم وطاردتهم الأتراك إلى المدينة. وسقط قتلى كثيرون من الجانبين خاصة فرسان الفرنج الذين سقط منهم ما لا يستطيع الصليبيون تعويضه، ومن بينهم حامل راية أدمير أسقف لوبوي. (١)

(١) Raymond of Aguilers, v, pp. 243-4; *Gesta Francorum*, vi, 14, pp. 74-6

وفي تلك الأثناء كان بوهيموند متجها إلى الجنوب مع روبرت أوف فلاندرز وهو
 يجهل تماما أن أنطاكية كانت على وشك السقوط في يد غريمه ريموند، كما كان يجهل
 وجود نجدة إسلامية كبيرة تتحرك شمالا باتجاهه. فقد غادر دقاق عاصمته دمشق ومعه
 أتابجة طوغتكين وشمس الدولة ابن ياغي سيان في جيش كبير، حوالي منتصف الشهر.
 وفي حماه انضم إليهم أميرها مع قواته، وفي الثلاثين من ديسمبر (كانون الأول) وصلوا
 شيزار حيث علموا أن هناك جيشا صليبيا على مقربة منهم، فواصلوا السير من فورهم
 وانقضوا عليه في الصباح التالي في قرية البرة. وأخذوا الصليبيين على حين غفلة وطوقوا
 روبرت الذي كان جيشه يتقدم جيش بوهيموند بمسافة قصيرة، ولكن بوهيموند الذي
 كان يشاهد ما يحدث حجز السواد الأعظم من جنوده كقوات احتياطية يلقي بها في
 هجومه على المسلمين في اللحظة التي يظنون فيها أنهم انتصروا، وأدى تدخله إلى إنقاذ
 روبرت، وخسر الدمشقيون خسائر جسيمة فارتدوا إلى حماه. وبرغم أن الصليبيين
 انتصروا وحالوا — بلا شك — دون إغاثة أنطاكية فإنهم كانوا متعبين إلى حد بعيد
 وتعذر عليهم المضي في البحث عن الطعام فنهبوا قريتين وأحرقوا مسجدا وعادوا إلى
 المعسكر أمام أنطاكية بخفي حنين. (١)

الجماعة

ووجدوا رفاقهم في غم عظيم. وفي التاسع والعشرين وهو اليوم التالي للمعركة
 المشتومة حدث زلزال بلغ من الشدة أن شعر به أهل الرها. وفي الليلة التالية أضاء
 الشفق القطبي الشمالي السماء، وخلال الأسابيع التالية هطلت السيول دون توقف
 وازدادت البرودة شيئا فشيئا، ولم يفهم ستيفن أوف بلوا لماذا يشكو المرء من شمس

(١) *Gesta Francorum*, v, 13, pp. 70-2; Albert of Aix, III, 50-1, pp. 373-4; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 580

سوريا دائمة الإشراف. وكان من الواضح أن الرب غير راض عن محاربيهم لكبريائهم ورفاهيتهم ولصوصيتهم، فأمر أديمار أسقف لوبوي بصوم خشوع لثلاثة أيام، ولكن مع اقتراب المجاعة وحلولها لم يحدث الصوم فرقا يذكر. والآن بعد أن فشلت حملة استحلاب الطعام لم يكن بد من أن يموت الكثيرون جوعاً، فكان رجل من كل سبعة رجال يسقط ميتاً من الجوع. فرحل المبعوثون للبحث عن الطعام إلى مسافات بعيدة وبلغوا جبال طوروس التي ارتضى أمراؤها الروبيون تقديم ما يقدرون عليه، وجاءت بعض الإمدادات من الرهبان الأرمن المستوطنين في جبال الأمانوس. بينما جمع المسيحيون الأرمن والسوريون كل ما يؤكل وأحضروه إلى المعسكر، يدفعهم إلى ذلك حب المال وليس حب البشر. فكان ثمن حمل حمار من المؤن ثماني قطع من البيزنطة، ولا يقدر على دفع تلك الأسعار سوى الأثرياء من الجنود، وكانت معاناة الخيول أعظم من معاناة الرجال حتى أن ما تبقى مع الجيش منها كان حوالي سبعمائة حصان فقط. (١)

ووجد الصليبيون في جزيرة قبرص معينا أكثر كرماً. ذلك أن أديمار أسقف لوبوي — الذي كان يتصرف بناء على تعليمات البابا إيربان — ثابر على إقامة علاقات طيبة مع الرؤساء الدينيين الأرثوذكس في الشرق وأظهر لهم احتراماً يدحض النظرية القائلة بأن البابا فكر في الحرب الصليبية كوسيلة لإخضاعهم لسيطرته. أما بطريق أنطاكية السجين داخل المدينة فلم يجد فائدة من تلك الصداقة، وكان الأتراك يضعونه في

(١) Anselm of Ribemont, letter in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*, p. 157

(especially mentioning the horses); Stephen of Blois, *ibid.* p. 150 (يذكر الطقس

الردىء)؛ Fulcher of Chartres, 1, xv, 2-xvi, 6, pp. 221-8 (يورد نصاً بلاغياً يُلوم فيه

الصليبيين على آثامهم)؛ Raymond of Aguilers, vi, p. 245 (يذكر الشفق القطبي وصوم

الخشوع)؛ *Gesta Francorum*, vi, 14, p. 76 (يذكر الأسعار التي كان يتقاضاها المضاربون

المحليون)؛ Matthew of Edessa, II, cli, p. 217 (يذكر كرم الأمراء الأرمن والرهبان).

قفص من حين لآخر ويعلقونه على الأسوار. أما سيميون بطريق القدس فكان آنذاك في قبرص وقد تخلّى عن كرسيه الأسقفى بعد أن أصبحت الحياة في القدس غير آمنة مطلقاً إثر موت أرتق. لكنه كان يكره الأعراف اللاتينية التي نشر بحثاً ضدها يتسم بالصرامة والاعتدال. على أنه أقبل على التعاون مع الكنيسة الغربية بسرور من أجل صالح العالم المسيحي، وكان قد اشترك مع أديمار في أكتوبر (تشرين الأول) في إرسال تقرير عن الحرب الصليبية إلى مسيحيي الغرب. والآن وقد أعيدت الاتصالات بقبرص واتصل به أديمار وسمع بورطة الجيش، بدأ في إرسال كل الطعام والنبذ الفائض عن حاجة الجزيرة تباعاً بطريق البحر. (١)

بطرس الناسك يحاول الهرب

وعلى الرغم من وفرة مقادير الطعام المرسلة من البطريق إلا أنها لم تخفف من وطأة البؤس السائد؛ فبدأ الرجال الذين يشرفون على الموت في الهرب من المعسكر ليأذا بمناطق أغنى أو في محاولة لقطع طريق العودة الطويل إلى أوطانهم، وكان الفارون بادئ الأمر جنوداً مغمورين. على أنه تبين في صباح أحد أيام يناير (كانون الثاني) أن بطرس الناسك نفسه هرب ومعه وليم النجار الذي كان مغامراً ولم يعد يرغب في إضاعة وقته في حرب صليبية ميثوس منها وسبق له أن هرب من حملة في إسبانيا، بيد أنه من

(١) Albert of Aix, VI, 39, p. 489. وأرسل Symeon إلى الصليبيين هدايا الرمان "تفاح شجر

الأرز اللبناني"، ولحم الخنزير المحفف والنبذ. وتاريخ الرسالة شهر أكتوبر، وأرسلت من أنطاكية إلى الكنيسة الغربية بشأن تقدم الحملة الصليبية، مرسلة باسم سيميون وأديمار "وبصورة رئيسية هذا الأخير

الذي عهد إليه البابا إيربان بمسؤولية الجيش المسيحي" Hagenmeyer, op. cit. pp. 141-2

وعن Symeon أنظر ما سبق الصفحات ١٤٤ و ١٨٠.

العسير علينا أن نفهم لماذا أصاب الخوّر بطرس الناسك. وطارد تانكريد الفارين وأعادهم والخزي باد عليهم. ورؤي أنه من الصواب الإبقاء على سمعة بطرس الناسك، ومن ثم أعفوا عن ذنبه في صمت. وأما وليم النجار فقد أجبر على الوقوف طوال الليل في خيمة بوهيموند الذي وبّخه في الصباح توبيخًا ملؤه الحدة والوعيد، فأقسم ألا يترك الجيش مرة أخرى مطلقًا حتى يصل إلى القدس، ولكنه نكث بقسمه فيما بعد. ولم يكن بد من أن تتأثر هيبة بطرس الناسك، لكنه سرعان ما منح الفرصة لاستعادتها. (١)

ونظر أديمار فإذا الجيش يتقلص يومًا بعد يوم بسبب المجاعة وفرار الجنود، فرأى من الضروري توجيه نداء قوي إلى الغرب لإرسال التعزيزات. ولكي يضيفي على ندائه أعلى سلطة صاغه باسم بطريق القدس، ويفترض أنه قد استأذنه في ذلك. ولصياغة ذلك النداء أهميتها الخاصة لما تلقيه من ضوء على سياسة أديمار الكنسية؛ فالبطريق يوجه الخطاب إلى كل المؤمنين في الغرب باعتباره الآن قائدًا لأساقفة الشرق اليونانيين واللاتينيين على السواء، ويلقب نفسه بلقب (الرسولي)، ويأخذ على عاتقه أن يطرد من الكنيسة أي صليبي يحث بعهوده المسيحية؛ وهذه لغة لا يصوغها إلا حبر لا يخضع لأحد. ومن غير المعقول بأية حال أن يورد أديمار مثل هذه اللغة على لسان من تتجه النية إلى إخضاعه للبابا في روما. وأيًا كانت الغاية التي يستهدفها البابا إيربان من مخططاته إزاء حكم الكنائس الشرقية فإن مبعوثه — أديمار — لم يكن يبشر بالسيادة البابوية عليها، ولا ندري رد الفعل الذي أثاره خطاب البطريق في الغرب (٢).

(١) *Gesta Francorum*, VI, pp. 76-8.

(٢) (المترجم) يتبين من سرد الكاتب "ستيفن رانسيمان" أن الكنيسة اللاتينية الغربية، وهي تحاول أن تطرق مختلف السبل من أجل إكمال المسيرة الصليبية في الشرق، تجاوزت كل الحدود المعقولة والمقبولة وتنازلت عن مطلب رئيسي، أو عن المطلب الرئيسي، لها والذي يتمثل في بسط سلطانها على الكنيسة الأرثوذكسية الشرقية التي تعتبر في نظر الكنيسة اللاتينية الغربية منشقة في قوانينها أعرافها عما يتبع في الكنيسة الغربية من قوانين وأعراف علي نحو يدخلها في زمرة الهراطقة. --

وبينما كان الصليبيون يظهرون الاحترام اللائق لهرمية الأرثوذكسية الشرقية، تدهورت علاقاتهم بزعمائها الديوي. ففي وقت مبكر من فبراير (شباط) رحل تاتيسيوس مثل الإمبراطور فجأة تاركا الجيش بعد أن صاحب الحملة الصليبية من نيقية ومعه مجموعة صغيرة من موظفيه وفريق مكون من المرشدين والمهندسين. وكان تاتيسيوس على علاقة طيبة فيما يبدو بزعماء الصليبيين، ففي كومونا وكوكسون التزموا بتسليمه المناطق التي استردها، وقد أشاد بكفاءاتهم القتالية في تقاريره. وهناك تفسيرات عديدة لرحيله المفاجئ آنذاك، ولكن ليس هناك ما يدعونا إلى رفض القصة التي رواها في القسطنطينية لدي عودته؛ فاستنادا إلى روايته حدث في أحد الأيام عندما أصبح معروفا أن الأتراك على وشك القيام بمحاولة أخرى لنجدة أنطاكية أن استدعاه بوهيموند وأخبره في ثقة قاطعة أن الأمراء الآخرين يعتقدون أن الإمبراطور مشغول عن تشجيع الأتراك وأنهم يأتمرون لاغتياله انتقاما لأنفسهم، وتظاهر تاتيسيوس بالاعتناع. وواقع الأمر أن المزاج العام للجيش وقتئذ يجعل من المرغوب جدا وجود كبش فداء، وفضلا عن ذلك كان تاتيسيوس يعتقد أن الصليبيين قد أضعفهم الجوع وثبط من همتهم، وليس لهم الآن من

— سويدي الكاتب في أسلوب سرده غاية دهشته واستعصاء فهمه لمسلك الكنيسة اللاتينية الغربية علي هذا النحو ، ذلك أن الصدع بين هاتين الكنيستين قدم قدم ظهور المسيحية وبقا حتي يومنا هذا . ولا يكاد المؤلف يتصور أن تهمد القيمة الدينية العليا في سبل مصلحة يظهر المؤلف عبر كتابه كله أنها لا تكاد تمت إلي الدين بصلة وإنما ترتبط أما ارتباط بأوجه النفع الشخصي الذي يتفاوت حجمه تفاوتاً يبدأ من البابا نفسه - الذي كان يسعى إلي بسط سيطرته الدينية في الغرب والشرق بما يستتبعه ذلك من سلطان علي الملوك والأمراء - وينتهي إلي صغار المغامرين الذين اشتركوا في الحملات الصليبية مدفوعين بتنازع الأوضاع التي كانت سائدة في أوروبا في ظل النظام الإقطاعي قبل أن يكونوا مدفوعين بمهموم الخلاص المسيحي . Letter Hagenmeyer. op. cit. pp. 146-9.

أمل في الاستيلاء على القلعة العظيمة. وكانوا قد تجاهلوا نصيحة بقطع الطعام عنها حتى تستسلم وفلك باحتلال الحصون المتحكمة في مداخلها البعيدة. ولذا أعلن ضرورة عودته إلى الأراضي الإمبراطورية ليتسنى له ترتيب مخطط أفضل للإمداد، وأبحر في سفينة من ميناء السويدية إلى قبرص ، ولكي يظهر لهم نيته في العودة ترك أغلب أعوانه مع الجيش. ولكن ما أن رحل حتى انطلقت أبواق دعاية بوهيموند تؤكد أنه إنما هرب جبنا من مواجهة الهجوم التركي القادم، إن لم يكن بدافع الخيانة الحقيقية، وعندما يتصرف ممثل الإمبراطور على هذا النحو غير المشرف تصبح الحملة الصليبية في حل من أي التزام تجاه الإمبراطورية، أي أنه لا داعي لإعادة أنطاكية إليها.(١)

بوهيموند يهدد بالانسحاب

وكانت الخطوة التالية أن أشاع بوهيموند أنه يفكر هو نفسه في الرحيل عن الجيش لعدم استطاعته تجاهل التزاماته في الوطن أكثر من ذلك. وحتى ذلك الحين لعب دورا قياديا في كل العمليات العسكرية التي قامت بها الحملة الصليبية . وفي تقديره أن

(١) يقول Raymond of Aguilers, v, pp. 254-6 إن تاتيسوس اقترح حصارا أكثر قربا . ولم يؤخذ

باقتراحه ؛ ثم سرعان ما فر ذلك الفرار الخائن بعد أن عهد إلي بوهيمند بمدن المصيصة وطرشوس وأدنا ولابد أن بوهيمند قد اخترع هذه الهدية المستبعدة للغاية ونشرها بين جنود الجيش . ويقول تاريخ

Gesta Francorum, VI, 16, pp.78-80 إنه هرب من منطلق الجبن الخالص . ويقول ألبرت أوف

آيكس إنه ضرب خيمته علي حافة المعسكر لأنه كان ينتوي الفرار دائما . وعندما هرب وعد وعدا

كاذبا بأنه سيعود (III, 38, p. 366, IV, 38, p. 416). وتعتبر القصة التي أوردتها أناكومينا -

ولابد أنها تقوم علي أساس ما أبلغها به تاتيسوس - أكثر الروايات إقناعا وأنا أقبلها هنا (XI,iv,3,vol.

. II, p. 20)

الفرع سوف يملك الجيش إذا توقع رحيله عنه في تلك المرحلة الشائكة، ولذلك سمح بأن يكون مفهوما أنه لو منح لوردية أنطاكية فسيكون ذلك عوضا له عن أية خسائر يخسرها نتيجة تغييه عن إيطاليا. ولم ينخدع رفاقه الأمراء بتلك المناورات غير أنه حظى بتعاطف كبير بين صفوف عامة الجند. (١)

وفي تلك الأثناء كان الأتراك يتجمعون مرة أخرى في حشود غفيرة لنجدة أنطاكية. وبعدها أخفق دقاق في المساعدة التي وعد بها تحول ياغي سيان مرة أخرى إلى سيده الأول رضوان الحلبي الذي تأسى حينئذ على تراخيه، مما أدى إلى توغل الفرنج إلى أنطاكية، وعندما أعاد ياغي سيان اعترافه بسيادته أعد العدة للحضور لنجدته ومعه ابن عمه سقمان الأرمني من ديار بكر وجموه أمير حماه. وفي أوائل فبراير (شباط) أعاد الحلفاء احتلال حارم حيث تجمعوا توطئة لهجومهم على معسكر الصليبيين. وما أن سمع أمراء الصليبيين بتلك الأخبار حتى عقدوا مجلسا في خيمة أديمار حيث أخذوا بنصيحة بوهيموند بأن تبقى قوات المشاة في المعسكر لصد أي هجوم يخرج من المدينة بينما ينطلق الفرسان — وقد تقلص عدد اللاتنيين منهم للحرب الآن إلى سبعمائة فارس وحسب — في هجوم مفاجئ على الجيش المهاجم. وفي الثامن من فبراير (شباط) تسلس فرسان الفرنج أثناء الليل عبر جسر القوارب واتخذوا موقعهم بين النهر وبحيرة أنطاكية بحيث ينقضون من هذا الموقع على الأتراك أثناء تقدمهم لعبور الجسر الحديدي، وعند انبلاج الصباح ظهر الجيش التركي، فهاجم الصف الأول من الصليبيين على الفور قبل أن يتمكن رماة الأتراك من أن يصطفوا. ولم يستطع الهجوم أن يشتت حشود الأتراك وانسحب الفرسان مستدرجين العدو إلى أرض المعركة التي اختاروها حيث وجد الأتراك البحيرة عن يمينهم والنهر عن يسارهم فعجزت جموعهم الهائلة عن مهاجمة جناحي الصليبيين. وفي هذه الساحة الضيقة عاود الفرسان الهجوم على نحو شامل

(١) Raymond of Aguilers, loc. cit.

هذه المرة، وأمام ثقل هجومهم تحطم جنود الأتراك الأخف تسليحاً وولوا الأدبار ناشرين الفوضى في الصفوف المحتشدة خلفهم. وسرعان ما انسحب جيش رضوان كله في فوضى عائداً إلى حلب، وعند مرورهم بحارب انضمت حاميتها إلى الفارين تاركة المدينة للمسيحيين المحليين الذين سلموها إلى الصليبيين.

وبينما كان الفرسان يفوزون بهذا النصر الكبير كانت المشاة تحارب معركة أصعب؛ إذ خرج ياغي سيان في هجوم شامل على المعسكر الذي كان المدافعون عنه يفقدون مواقعهم شيئاً فشيئاً إلى أن شاهدوا الفرسان المنتصرين يقتربون بعد الظهر. وباقتراهم أدرك ياغي سيان أن الجيش المغيث قد انهزم فأمر بعودة رجاله إلى داخل الأسوار. (١)

وارتفعت معنويات الصليبيين بهزيمة الجيش الثاني الذي جاء لنجدة أنطاكية، ومع ذلك لم يتحسن موقفهم وقتها. فالطعام ما يزال نادراً رغم أن الإمدادات بدأت تصل إلى ميناء السويدية وأغلبها من قبرص حيث جمع البطريق سيميون — وربما تاتسيوس أيضاً الذي جُحد فضله — كل ما كان متاحاً. وتسلمت من المدينة جماعات تغير إغارات متكررة على الطريق الجنوبي الذاهب إلى البحر وتنصب الأكنة للقوافل الأصغر، بينما كانت المدينة تحصل على تموينها من بوابة القديس جورج التي كانت ما تزال بلا حصار عبر الجسر المحصن. ولكي يتحكم الصليبيون في هذا الجسر، فيصبح الطريق إلى ميناء السويدية آمناً، اقترح ريموند بناء برج على الضفة الشمالية بالقرب منه، ولكن المشروع لم يتم لافتقار المواد والبنائين. وفي الرابع من مارس (آذار) وصل إلى ميناء السويدية أسطول كل من عليه من الإنجليز بقيادة إدجار أثلنج المطالب المنفي بالعرش. وكان الأسطول يحمل حجاجاً من إيطاليا وتوقف في القسطنطينية حيث

(١) *Gesta Francorum*, VI, 17, pp. 80-6; *Raymond of Aguilers*, VII, pp. 246-8

التحق به إدجار الذي كان قد وضع نفسه تحت أوامر الإمبراطور. وفي القسطنطينية تم شحن الأسطول بمواد وآلات الحصار، وهكذا وصل الأسطول في الوقت المناسب تماما. وتعهد الصليبيون إخفاء حقيقة أن الإمبراطور هو الذي أرسل تلك الإمدادات.

معركة على طريق السويدية

وعندما بلغت الصليبيين أنباء وصول الأسطول، انطلق ريموند وبوهيموند معاً، لافتقاد كل منهما الثقة في الآخر، ليجندا أكبر عدد ممكن من بين الركاب وليصحباً العمال والمواد إلى المعسكر. وفي السادس من مارس (آذار)، وفي طريق عودتهما محملين من ميناء السويدية، وقعا في كمين نصبته فصيلة من حامية المدينة، وقد أجفل جنودهما من المفاجأة فولوا الأدبار مذعورين تاركين الأحمال في أيدي الأعداء، واندفع بعض الشاردين إلى داخل المعسكر وأشاعوا مقتل كل من ريموند وبوهيموند، وعلى الأثر أعد جودفري العدة للخروج لنجدة الجيش المهزوم. لكن الأتراك خرجوا فجأة من المدينة لتغطية الفصيلة المثقلة بالأحمال حتى أوصولها إلى البوابات. وتمكن رجال جودفري، الذين كانوا مستعدين بسلاحهم للخروج إلى البحر، من صد الهجوم التركي المفاجئ وظهر ريموند وبوهيموند دون توقع ومعهما بقايا قواتهما. وبرغم حالة الضعف البادية عليهما مكنا جودفري من رد الأتراك إلى داخل المدينة. ثم اتحد الأمراء ليعترضوا الفصيلة أثناء عودتهما. ونجحت تكتيكاتهم نجاحاً تاماً، وتغلبوا بمناوراتهم على الفصيلة التي عاقتها أحمالها فانهزمت وقتل أفرادها أثناء كفاحهم للوصول إلى الجسر. واستعاد الصليبيون مواد البناء الثمينة. وقيل إن ألفاً وخمسمائة تركي لقوا حتفهم، غرق الكثير منهم أثناء محاولتهم عبور النهر، وكان من بين القتلى تسعة أمراء. وفي تلك الليلة تسلل أفراد من حامية المدينة لدفن القتلى في مقابر المسلمين على ضفاف

النهر الشمالية، وقد شاهدتهم الصليبيون وتركوهم في أمان، لكنهم في الصباح التالي نبشوا القبور وانهمكوا جثث الموتى من أجل الذهب والفضة التي كان الموتى يتقلدونها. (١)

وترتب على انتصار الصليبيين استكمال تطويق أنطاكية. وتم بناء البرج المطلوب إثر توفر العمال والمواد، وأصبح يتحكم في مدخل الجسر المحصن. وقد شيد بالقرب من مسجد في المقابر الإسلامية وسمي رسمياً بقلعة ماهومري، وهي تسمية مشتقة من الكلمة الفرنسية القديمة بمعنى "مسجد". ولكن الأمراء تنازعوا حول من يكون مسئولاً عن هذا البرج، فطالب به ريموند لأنه من بنات أفكاره، وعادة ما كان يعرف بحصن ريموند.

واكتمل البناء في التاسع عشر من مارس (آذار) ، وسرعان ما أثبت

(١) *Gesta Francorum*, VII, 18, pp. 88 - 96 ; Raymond of Aguilers, VII - VIII , pp.

248 - 9; Albert of Aix, III, 53 - 5, pp. 383 - 6; letter of Stephen of Blois in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 151 - 2; letter of Anselm of Ribemont in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 158 - 9; letter of the clergy of Lucca in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 165-7, حيث يذكر أن مواطناً من Lucca يدعى Bruno وصل ميناء السويدية في تلك اللحظة وكان مسافراً مع أسطول انجليزي . David, Robert Curthose, pp. 236-7 يعرب عن الشك فيما إذا كان Edgar Atheling مع هذا الأسطول الذي كان ما يزال في استكتلندا في خريف سنة ١٠٩٧م ولا بد أنه غادر إنجلترا قبل ذلك التاريخ بيد أن الأسطول كان مكوناً بصورة شبه يقينية من الحرس " الفارانجي " الإنجليزي الذي غادر إنجلترا منذ فترة طويلة وكان يبحر في مياه البحر الأبيض المتوسط بأوامر من الإمبراطور ، ونجدهم فيما بعد يعملون للإمبراطور . (أنظر ما يلي ص ٣٠٨) . واستطاع إدجار سرعة الرحيل إلى القسطنطينية ليستأجره الإمبراطور مؤقتاً ، والانضمام إلى الأسطول هناك . ويقول Orderic Vitalis (x, II, vol. IV, pp. 70-2) إنه علي يقين من أنه كان مع الأسطول واستولى على اللاذقية أيام الحصار ، علي الرغم من أن William of Malmesbury (II, p. 310) يحدد استيلاءه علي اللاذقية في تاريخ أبكر قليلاً . أنظر ما يلي . *loc. cit.*

فائدته في منع الاقتراب من بوابة الجسر، غير أن بوابة القديس جورج كانت ما تزال مفتوحة. ولجعلها هي الأخرى تحت المراقبة استقر الرأي على بناء حصن في مكان دير قدم على تل مواجه للبوابة، واكمل تشييد الحصن في إبريل (نيسان) وعهد به إلى تانكريد الذي تقاضى ثلاثمائة مارك نظير الإنفاق عليه. ومنذ ذلك الوقت لم تتمكن قوافل الطعام من الوصول إلى المدينة، كما لم يستطع مواطنوها أن يرسلوا قطعانهم لترعى خارج الأسوار كما اعتادوا، وكان باستطاعة أفراد من المغيرين تسلق الأسوار على جبل سيلبيوس أو من خلال البوابة الحديدية الضيقة، ولكن أصبح من غير الممكن خروج هجمات منظمة. وبينما بدأت الحامية تعاني الجوع تيسرت مشكلة إطعام الصليبيين؛ فقد تحسن الجو بحلول الربيع، وأصبح في الإمكان التجول لجلب الطعام دون خطر الهجمات التركية المفاجئة، وتحول التجار الذين كانوا يبيعون بضائعهم للحامية بأسعار مرتفعة إلى التعامل مع معسكر الصليبيين. كل ذلك أتاح المزيد من الإمدادات للفرنج ورفع معنوياتهم. وسرعان ما استولى تانكريد بعد بناء حصنه على شحنة طعام هائلة كانت في طريقها إلى ياغي سيان تولى نقلها تجار مسيحيون سوريون وأرمنيون. وبعد كل هذا النجاح راود الصليبيين الأمل في أن تستسلم أنطاكية تحت وطأة الجوع، ويجب أن يكون الاستسلام سريعاً، إذ أن كربوقا الموصلية المرعب كان يعبئ قواته. (١)

مفاوضات مع الفاطميين

وكان الإمبراطور ألكسيوس قد نصح الصليبيين أثناء وجودهم في القسطنطينية

(١) *Gesta Francorum*, VII, 18, VIII, 19, pp. 88, 96 - 8; Raymond of Aguilers, VIII

pp. 249-50; letter of Anselm of Ribemont in Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 158-9 ;

. letter of the clergy of Lucca, *ibid.* p. 166

بالتوصل إلى نوع من التفاهم مع الفاطميين في مصر لأنهم أعداء ألداء للأتراك ومن سماهم التسامح مع المسيحيين من رعاياهم. وعلى استعداد دائما للتعامل مع القوى المسيحية. وربما لم يأخذ الصليبيون بهذه النصيحة، غير أنه في بداية الربيع وصلت سفارة مصرية إلى المعسكر الصليبي أمام أنطاكية أرسلها رجل مصر القوي الأفضل وزير الخليفة الصليبي المستعلي. ويبدو أنه اقترح تقسيم الإمبراطورية السلجوقية فيأخذ الفرنج شمال سوريا وتأخذ مصر فلسطين. ولا شك في أن الأفضل كان يعتبر الصليبيين مجرد مرتزقة عند الإمبراطور، ولذلك افترض أن هذا التقسيم، القائم على أساس الوضع السائد قبل الغزو التركي، سيكون مقبولا على الوجه الأكمل. واستقبل الأمراء الغربيون السفراء استقبالا وديا ولم يلزموا أنفسهم بأية ترتيبات محددة. وبقي المصريون في المعسكر بضعة أسابيع ثم عادوا إلى مصر تصحبهم سفارة فرنجية صغيرة محملة بالهدايا المأخوذة أصلا من الأسلاب التي استولوا عليها في معركة السادس من مارس (آذار). وتعلم الصليبيون من المفاوضات قيمة ما يمكن أن يخرجوا به من مزايا نتيجة للدس بين القوى الإسلامية، فنحوا جانبا تحاملاهم الدينية وأرسلوا إلى دقاق الدمشقي، على أثر أنباء استعدادات كربوقا، طالين منه الحياد ومعلنين أنه ليست لهم أطماع في أراضيه، ولكن دقاق الذي كان يعتبر أخاه رضوان الحلبي عدوة الرئيسي، لم يوافق على طلبهم لأنه رأى أخاه يعود إلى حياده السابق. (١)

(١) استنادا إلى the *Historia Belli Sacri (Tudebodus Imitatus)* p. 181 كان الصليبيون قد

أرسلوا فعلا سفارة إلى مصر من نيقة بناء على نصيحة ألكسيوس . وقائمة السفراء مثار شك ؛ وربما شكلوا سفارة أرسلت من أنطاكية . علي أنه من الممكن أن يكونوا قد تذكروا نصيحة الإمبراطور . وقد جاء ذكر السفارة المصرية إلى أنطاكية عند Raymond of Aguilers, VII, p. 247 وبواسطة Anselm of Ribemont عند Stephen of Blois Hagenmeyer, *op. cit.* p. 151 وبواسطة وعند تاريخ Gesta Francorum. VI, 19, p.96, VII, 17, p. 86 ويذكر ابن الأثير مفاوضات

الصليبيين مع الدقاق (193. *op. cit.*)

وفي أوائل مايو (أيار) أصبح من المعروف أن كربوقا بدأ مسيرته، وكان معه إلى جانب جنوده رجال أرسلهم سلاطين بغداد وفارس وأمراء الأرتق في شمال العراق، وكان دقاق في انتظاره في دمشق كي ينضم إليه، وكان ياغي سيان ما يزال صامدا في أنطاكية برغم الضغوط الشديدة الواقعة عليه. وازداد التوتر بين صفوف الصليبيين، إذ أدركوا أنهم ما لم يستولوا على المدينة أولا فإنهم سوف يسحقون بين الحامية وجيش الغوث الهائل. وفي ذلك الوقت كان الإمبراطور ألكسيوس مجرد حملة في آسيا الصغرى. فأرسل إليه الصليبيون نداء يائسا للإسراع لنجدتهم. أما بوهيموند الذي عقد العزم على الفوز بأنطاكية لنفسه فكان لديه ما يثير قلقه بصفة خاصة؛ فإذا وصل الإمبراطور قبل سقوط أنطاكية، أو إذا تعذرت هزيمة كربوقا إلا بمساعدة الإمبراطور، فسيصبح من المحال ألا تعاد أنطاكية إلى الإمبراطورية، وكان أغلب الأمراء على استعداد لإعطاء المدينة لبوهيموند فيما عدا ريموند أوف تولوز الذي رفض بموازرة — فيما يبدو — من أديمار أسقف لوبوي، وغالبا ما كان الأمراء الصليبيين يناقشون دوافع ريموند لأنه — دون غيره من الأمراء — لم يكن مرتبطا بقسم صريح مع الإمبراطور ولأنه غادر القسطنطينية وهو على وفاق معه؛ ولكنه يكره بوهيموند ويرتاب فيه، ويرى فيه غريمه الرئيسي في القيادة العسكرية للحملة الصليبية، وربما كان هو والمندوب البابوي يعتبران أنه إذا كان القسم باطلا فينبغي أن تكون الكنيسة التي يمثلها أديمار هي وحدها التي يحق لها أن تخصص الأراضي لمن تشاء. وبعد مناقشات ودسائس تم التوصل إلى حل وسط: فإذا كان بوهيموند هو الأمير الذي يدخل جنوده المدينة قبل غيرهم، وإذا لم يحضر الإمبراطور، فإنها تتول إليه. ومع ذلك اعترض ريموند، ولكن كان لدى بوهيموند من الأسباب ما يجعله راضيا. (١)

Gesta Francorum, VIII, 19, pp. 100-2, corroborated by Anna Comnena, XI, iv, (١)

William of Tyre (v, 17, 1, pp. 4, vol. III, p. 21 ويرد تسجيل اعتراض بوهيموند في رواية

تسبب سوء التقدير الذي وقع فيه كربوقا في منح الصليبيين فرصة لالتقاط الأنفاس. فلم يشأ أن يتقدم إلى أنطاكية تاركاً في الرها جيشاً فرنجياً يهدد جناحه الأيمن، ولم يدرك أن بالدوين كان بالغ الضعف بحيث لا يقدر على الهجوم، وأنه كان بالغ القوة في قلعته العظيمة بحيث يتعذر تنحيته، وهكذا توقف كربوقا أمام الرها طوال الأسابيع الثلاثة الأخيرة من مايو (أيار) وهو يهاجم أسوارها دون جدوى، ثم قرر أن الجهد والوقت قد ضاعا بلا طائل. (١)

مؤامرة للاستيلاء على أنطاكية

وفي تلك الأسابيع الثلاثة الثمينة كان بوهيموند يعمل بهمة كبيرة. ففي وقت ما أقام اتصالاً بأحد الضباط داخل مدينة أنطاكية يدعى فيروز وهو أرميني تحول إلى الإسلام ورفع ياغى سيان إلى منصب عال في حكومته. وعلى الرغم من إخلاصه الظاهري كان يحمل مشاعر الغيرة من سيده، خاصة وأنه عاقبه مؤخراً بالغرامة لتخزينه الحبوب. وكان على اتصال بأبناء دينه السابق، وعن طريقهم توصل إلى تفاهم مع بوهيموند ووافق على أن يبيعه المدينة. وظل سر هذه الصفقة في طي الكتمان، ولم يأمن بوهيموند أحداً على هذا السر، وراح يركز علانية على الأخطار الداهية ليضفي المزيد من القيمة على نصره المرتقب. (٢)

(١) أنظر ما سبق ص ٣٣٠ ، والمراجع المذكورة *ibid.* n. 2.

(٢) *Gesta Francorum*, VIII, 20, p. 100 ويطلق عليه صاحب هذا التاريخ "Pirrus" ويقول إنه

كان تركيا . وتطلق عليه Anna Comnena, XI, iv,2, vol. II, p. 19 أرميني معين "a certain

Armenian" ويطلق عليه Radulph of Caen, LXII, pp. 651-2 ثري أرميني "arich"

Armenian ويطلق عليه Matthew of Edessa "واحد من زعماء المدينة" دون أن يحدد جنسه

Raymond of "one of the chief men of the city" (II, civ, p. 222) ؛ ويطلق عليه

--Aguilers, VIII, p. 251

ولقد أفلحت دعايته للغاية. ففي أواخر مايو (أيار) تخلى كربوقا عن حصاره العقيم للرها وواصل تقدمه. فذب الذعر في معسكر الصليبيين، وبدأ الهاربون يتسللون من المعسكر بأعداد كبيرة لا تجدي معها محاولات منعهم، إلى أن هرب أخيراً في الثاني من يونيه (حزيران) حشد غفير من الفرنسيين الشماليين واتخذوا طريق الإسكندرونة يقودهم ستيفن أوف بلوا الذي كتب لزوجته من المعسكر وهو مفعم بالبهجة قبل ذلك بشهرين ليخبرها بأحوال الحصار ويصف لها كذلك الانتصار في معركة السادس من مارس (آذار) مركزاً على أهميته الشخصية في الجيش. أما الآن، والمدينة ما تزال صامدة، وحشود كربوقا على مقربة منها، بدا له أن انتظار مذبحة أكيدة إن هو إلا محض حماقة، فهو لم يكن محارباً عظيماً أبداً، وربما يعيش ليحارب في يوم آخر. وينفرد ستيفن من بين جميع الأمراء بحماسة الشديد في إعجابه بالإمبراطور، ولا بد أن بوهيموند ابتسم عندما رآه يرحل، غير أنه لم يكن ليتنبأ بمدى الفائدة التي سيضيفها رحيله على قضيته. (١)

-- عبارة 'quidam de Turcatis' وربما يعني بهذه العبارة مسيحي مرتد. أما المصادر العربية: كمال الدين (op.cit. pp. 581-2) وابن الأثير (op.cit. p. 192) فلا تحدد جنسه، ويطلق عليه الأخير: فيروز. أما الأول فيقول إنه كان صانع أسلحة يعرف باسم "زراد" صانع الزرد أو الدروع، كان ياغي سيان قد عاقبه لأنه كان يخزن المؤن. ويقول William of Tyre, v, II, 1, pp. 212-13 - وهو يستند إلى المصادر العربية فيما يتضح - إنه كان ينتمي إلى طائفة "بني زرة" الحرفية (ترجمة مصطلح باللاتينية quod in lingua latina interpretatur filii loricatoris). وكان من عائلة لا بأس بها. وتضيف ترجمة وليم الفرنسية القديمة أنه كان 'Hermin' أي أرمينيا.

(١) يقول Fulcher of Chartres, 1, xvi, 7, p. 228 إن رحيل ستيفن حدث في اليوم السابق على سقوط أنطاكية، أي يوم ٢ يونية. وهو يقول ذلك بمشاعر الأسف، لكنه لا يعزو رحيله إلى الجبن. ويقول -

ولو أن ستيفن تأخر في رحيله لسويغات قليلة لتخلي عن قراره بالرحيل. ففي نفس ذلك اليوم أرسل فيروز ابنه إلى بوهيموند ليخبره بأنه مهياً لتنفيذ المهمة التي تنطوي على الخيانة، وقد أشيع فيما بعد أنه كان مترددا طوال الوقت وحتى الليلة السابقة حينما اكتشف أن زوجته على علاقة مشينة مع واحد من رفاقه الأتراك. وهو الآن قائد برج الأختين والقسم الملاصق له من سور المدينة المواجه لحصن تانكريد، ولذلك استحث بوهيموند على أن يجمع الجيش الصليبي بعد ظهر ذلك اليوم وأن يقوده خارجا باتجاه الشرق كما لو كان ذاهبا ليعترض طريق كربوقا، وبعد أن يهبط الظلام يزحف الجنود عائدين إلى سور المدينة الغربي ومعهم السلاح ليتسلقوا البرج وسيكون هو في انتظارهم مراقبا لما يجري، فإذا ما وافق بوهيموند على ذلك فسوف يعيد إليه ابنه في المساء ليحتفظ به رهينة كعلامة على أنه على أهبة الاستعداد للتنفيذ.

-- تاريخ *Gesta Francorum*, ix, 27, p. 140 إنه هرب بسبب المرض. ويعزو Raymond of Aguilers, xi, p. 258 هروبه إلى الجبن الذي يبدو أنه كان الانطباع العام. ويعرب Guibert of Nogent, xxv, pp. 199-200 عن شعوره بضرورة أن يعزي الهرب إلى ميراث. وكان ستيفن قد

انتخب في منصب في الجيش ورد كما يلي :

'ductor' of the army (*Gesta Francorum*, loc. cit.) ; or

'dictator' (Raymond of Aguilers, loc. cit.) ; or

'dominus atque omnium actuum provisor atque gubernator' (Stephen of Blois, letter in Hagenmeyer, op. cit. p. 149) .

ويقينا لا يمكن أن يعني ذلك أنه عين قائدا عاما للجيش أو زعيما سياسيا للحملة الصليبية ، إذ أنه لم يقم بالقيادة قط في أية عملية عسكرية ، بينما كان أديمار هو الشخص الوحيد المعترف به علي أن له السلطة السياسية علي الأمراء الآخرين . والأرجح أن ستيفن قد عهد إليه بمسؤولية الجانب الإداري للجيش وكان مسؤولا عن تنظيم

الإمدادات .

عشية الهجوم

وأخذ بوهيموند بنصيحته. فعندما اقترب اليوم من نهايته أرسل واحداً من مشاته يُدعى مال كورون يجوب المعسكر أمراً الجنود بالاستعداد للانطلاق عند غروب الشمس في غارة على أرض العدو. ثم أرسل إلى الأمراء الرئيسيين يدعوهم لمقابلته وهم: أديمار أسقف لوبوي، وريموند، وجودفري، وروبرت أوف فلاندرز، وأخبرهم لأول مرة بمؤامرتهم قائلاً: "الليلة، إن كان الرب ناصرنا، ستصبح أنطاكية في أيدينا". ولم يفصح ريموند عما انتابه من شتى مشاعر الغيرة، وأيد هو ورفاقه المخطط تأييداً صادقاً.

وعند غروب الشمس شرع الجيش في المسير شرقاً، والفرسان على ظهور جيادهم ميممين شطر أعلى الوادي أمام المدينة بينما جنود المشاة يكدحون على ممرات التلال من خلفهم، وشاهدهم الأتراك من داخل المدينة وهم ذاهبون فاسترخوا متوقعين قضاء ليلة هادئة. على أنه عند انتصاف الليل صدرت الأوامر في سائر أنحاء الجيش بالعودة إلى الأسوار الغربية والغربية الشمالية، وقبيل الفجر مباشرة وصل جنود بوهيموند أمام برج الأختين، ووضعوا سلماً على البرج تسلقه ستون فارساً الواحد تلو الآخر يقودهم فولك أوف تشارترز، ودخلوا من نافذة عالية على الحائط إلى غرفة حيث كان فيروز ينتظر وهو في حالة من التوتر. وظن أول الأمر أن عددهم غير كاف، وصاح باليونانية: "إن ما لدينا من الفرنج قليل للغاية، أين بوهيموند؟"، ولم يكن هناك ما يدعو للقلق؛ فمن برج الأختين استولى الفرسان على البرجين الآخرين اللذين كانا تحت إمرته ليتمكنوا رفاقهم من وضع السلم على الأسوار الممتدة بين الأبراج، بينما ذهب أحد المشاة الإيطاليين ليخبر بوهيموند أن الوقت قد حان ليتسلق الأسوار ويدخل المدينة، فتسلق السور وتحطم السلم من خلفه. وبينما كان بعض الجنود يهرعون بطول الأسوار مباغتين الحاميات في أبراجها، هبط آخرون داخل المدينة وأيقظوا السكان المسيحيين ليساعدوهم على فتح بوابة القديس جورج، وفتحوها على مصراعها

وكذلك بوابة الجسر الضخمة حيث كان سواد الجيش ينتظر. وتدفق الصليبيون عبر البوابتين ولم يلقوا مقاومة تذكر، وشاركهم اليونانيون والأرمن في قتل كل تركي يشاهدونه من الرجال والنساء على السواء". واستيقظ ياغي سيان على ضوضاء الهرج والصخب، فأدرك أنه فقد كل شيء. فهرب مع حرسه الخاص على ظهور الخيل عبر المضيق المؤدي إلى البوابة الحديدية ثم إلى جانب التل. إلا أن ابنه شمس الدولة احتفظ برباطة جأشه وجمع ما استطاع من الرجال وشق طريقه إلى القلعة قبل أن يلحق به الفرنج، وتبعه بوهيموند لكنه فشل في اقتحام القلعة، ولذا رفع رايته الأرجوانية على أعلى نقطة استطاع الوصول إليها، وكانت رؤيتها وهي ترفرف في أشعة الشمس الآخذة في الإشراق تبعث البهجة في نفوس الصليبيين البعيدين أسفلها وهم يدخلون المدينة.

الاستيلاء على المدينة

وجمع بوهيموند ما يكفي من الرجال وحاول أن يشدد الهجوم على القلعة، لكنه عاد مدحورا وجرح هو نفسه. وقتل أثناء ذلك شقيق فيروز وهلك كثيرون من المسيحيين. وكان رجاله يفضلون أن يسلبوا المدينة وينهبوا متاجرها، بينما تعزى هو برأس ياغي سيان التي سلمها له أحد الفلاحين الأرمن. وكان ياغي سيان قد سقط من على ظهر جواده أثناء فراره في الممر الجبلي، فتخلّى عنه حارسه، فرقد هناك وقد أخذ منه الإرهاق وبدا في حالة من الذهول، وعندئذ رآه بعض الأرمن وعرفوه فقتلوه في الحال. ونال الذي جاء برأسه إلى بوهيموند جائزة ثمينة، وباع الباقيون حزامه وغمد سيفه بستين بيزنطة للقطعة.

وبمبوط ليل الثالث من يونية (حزيران) لم يبق تركي واحد على قيد الحياة في أنطاكية، بل إن السكان الأتراك في القرى المجاورة التي لم يدخلها الفرنج بعد أن هربوا

مستنجدين بكربوقا. وراح الفرنج ينهبون منازل مواطني أنطاكية، المسيحيين منهم والمسلمين على السواء، وبعثرت الكنوز والأسلحة التي عثروا عليها أو دمرت على نحو عابث. ولم يكن بوسع المرء أن يسير في شوارع المدينة دون أن يطأ الجثث التي تعفنت سريعا بفعل حرارة الصيف. لكن أنطاكية عادت مسيحية مرة أخرى.(١)

(١) ترد الرواية الأكثر نبضا بالحياة عن الإستيلاء على أنطاكية في تاريخ *Gesta Francorum*, VIII, 20, علي الرغم من أن هذا التاريخ يخلو من ذكر فشل برهيمند في الاستيلاء على الحصن pp. 100-10 ويورد Raymond of Aguilier هذه المعلومات في روايته ، ويقو إن أول صليبي دخل المدينة كان هو Fulk of Chartres (IX, pp. 251-3) ويطلق عليه Radulph of Caen (LXVI, p. 654) اسم William of 'Gouel of Chartres' ويورد فولشر أوف تشارترز رواية أكثر إيجازا . أما رواية William of Tyre (v, 18-23, vol. 1, pp. 222-3) فهي رواية طويلة لكنها مليئة بتفصيلات لا يعتمد عليها وهو يورد القصة المتصلة بمحادثة زوجته فيروز . ويذكر ابن الأثير فرار ياغي سيان وموته (op.cit. p. 193).

الفصل الرابع :

الإستيلاء على أنطاكية

الاستيلاء على أنطاكية

"أَلْقَى يَدَيْهِ عَلَى مُسَالِمِيهِ، نَقَضَ عَهْدَهُ."

(سفر المزامير: المزمور ٥٥ — ٢٠)

كان الاستيلاء على أنطاكية إنجازاً ألهج قلوب المسيحيين. لكنهم بعدما خبت جذوة انتصارهم المسعور، وقِيموا أوضاعهم، وجدوا أن موقفهم إنما تحسن تحسناً طفيفاً عن ذي قبل. لقد فازوا بمزايا عظيمة؛ فلديهم تحصينات المدينة التي لم تَهدم في المعركة تحميهم من حشود كربوقا، ووجدوا المأوى الذي يأوي أتباعهم المدنيين والكثيرين برغم المرض وبرغم الفرار فلم يعودوا يشكلون عائقاً كما كانوا في المعسكر، وقضوا تقريباً على الجيش التركي في المدينة وانتهى بذلك تهديده المتواصل لهم. على أن الدفاع عن الأسوار الطويلة يستلزم رجالاً أكثر مما لديهم الآن، والقلعة ما تزال صامدة

وينبغي تطويقها، وبرغم أن حاميتها كانت بالغة الضعف بحيث لا تقدر على الهجوم إلا أنها تستطيع أن ترصد من قمتها كل حركة في المدينة، وقد استحال منعها من الاتصال بكربوقا. ولم يجد الصليبيون في المدينة ما كانوا يأملون فيه من مخازن طعام، بل إنهم قد دمروا هم أنفسهم أغلب ثرواتها في نشوة انتصارهم. وبالرغم من ذبحهم المسلمين فلم يكن المسيحيون محل ثقة وخاصة السوريون منهم الذين ثبت غدرهم من قبل وكانوا لا يتعاطفون مع اللاتينيين إلا بقدر ضئيل. لقد كان الغدر السوري أخطر بكثير على جيش داخل المدينة من خطورته على جيش يعسكر خارجها. وفضلاً عن ذلك، أبرز الانتصار سؤالاً سبق أن أظهر بالفعل بوادر الانشقاق في الحملة الصليبية: "لمن تؤول المدينة؟".

اقترب كربوقا

لم يكن هناك بادئ الأمر وقت يتسع لمناقشة مستقبل المدينة؛ إذ أن كربوقا يتقدم ولا بد من حماية المدينة من هجومة المائل. وأياً ما كانت الخطط التي يفكر فيها بوهيموند فليس لديه ما يكفي من الجنود لحراسة الأسوار بدون مساعدة زملائه، فينبغي للجميع المشاركة في الدفاع، ولذا تولى كل أمير مسئولية حراسة قسم من التحصينات. وكانت المهمة الملحة التي يتعين على الجيش القيام بها هي تطهير المدينة ودفن الموتى بغاية السرعة قبل أن يتسبب تحلل الجثث في انتشار الأوبئة. وبينما كان الجنود منهمكين في تلك المهمة اتخذ أديمار أسقف لوبوي التدابير لتنظيف كاتدرائية القديس بطرس والكنائس الأخرى — التي دنسها الأتراك — وإعادة إقامة الشعائر المسيحية فيها. وأطلق سراح جون من سجنه وأعيد إلى كرسيه البطريرقي. وكان جون يونانيا يمقت الشعائر اللاتينية، فهو البطريرك الشرعي وإن كان كرسيه الكنسي ما يزال وثيق العلاقة بروما. ولم يكن أديمار ليسيء إلى الشرعية أو إلى العاطفة السائدة بين الناس بأن يتجاهل حقوق جون. كما لم يكن هناك من الصليبيين المدركين لآلام جون

من أجل العقيدة من يستاء من عودته، فيما عدا بوهيموند الذي تنبأ بأن ذلك ربما لا يتفق ومصالحه. (١)

وما أن استقر الصليبيون في المدينة حتى أقبل كربوقا الذي وصل في الخامس من يونية (حزيران) إلى نهر العاصي عند الجسر الحديدي. ثم ضرب معسكره بعد يومين أمام الأسوار في نفس الأماكن التي كان الفرنج يحتلوها مؤخرًا، وعلى الفور أرسل شمس الدولة مبعوثين من القلعة يطلبون مساعدته، لكن كربوقا أصر على تسليم القلعة لجنوده، وتوسل إليه شمس كي يسمح له بالاحتفاظ بالقيادة حتى يتم استرداد المدينة ولكن دون جدوى، فلم يجد مفراً من تسليم القلعة ومخازنها كلها إلى الضابط الحائر على ثقة كربوقا — أحمد بن مروان. (٢)

وأول خطة اختطها كربوقا هي التوغل داخل المدينة من القلعة. وتوقع بوهيموند وريموند تلك الخطة الخطرة فشيدا سورا حول القلعة للفصل بينها وبين تحصينات المدينة. ولأن هذا السور هو أضعف قطاعات الدفاع فقد تناوب الأمراء حراسته برجالهم. وبعد أن قام أحمد بن مروان ببعض عمليات الاستطلاع شن هجوماً على هذا القطاع ربما في باكورة التاسع من يونية (حزيران). وكان يتولى الدفاع عن هذا القطاع يومئذ هيو أوف فيرمندوا وكونت أوف فلاندرز، ودوق نورماندي، وكاد ابن مروان أن يتغلب عليهم لكنهم ردوه في نهاية الأمر بعد أن أنزلوا به خسائر جسيمة. ثم قرر كربوقا إحكام تطويق الفرنج على مسافة أقرب وإرجاء مهاجمتهم إلى أن يضعفهم الجوع، وبذا تكون خسائره أقل ما يمكن، فقام في العاشر من يونية (حزيران) بتغيير مواقع قواته لتطويق المدينة بالكامل، وحاول الصليبيون إعاقته فخرجوا في هجمة شرسة

(١) .Albert of Aix, IV, 3, p. 433. He calls John 'virum Christianissimum'

(٢) .Kemal ad-Din, op. cit. pp. 582-3; Gesta Francorum, IX, 21, p. 112

ولكنهم سرعان ما اضطروا إلى التقهقر مرة أخرى إلى حيث السلامة داخل الأسوار. (١)

وأدى بهم فشلهم إلى حالة من الغم الشديد. ذلك أنهم حينما استولوا على المدينة منذ أسبوع ارتفعت روحهم المعنوية لفترة وجيزة، ثم تدنت الآن إلى الحضيض. فها هو الطعام يتناقص مرة أخرى حتى بلغ سعر الرغيف الصغير بيزنطة واحدة، والبيضة بيزنتين، والدجاجة خمس عشرة بيزنطة، واضطر كثيرون إلى العيش على أوراق الشجر أو الجلود المجففة. وحاول أدمار أسقف لوبوي عبثاً أن يدبر الأمر للتخفيف عن الحجاج الفقراء، وظن الكثير من الفرسان أن ستيفن أوف بلوا قد اختار بفراره المسار الأكثر حكمة. وأثناء ليل العاشر من يونية (حزيران) تمكنت جماعة يرأسها ثلاثة: وليم، وأوبري أوف جرانت — ميسينيل، ولامبرت كونت أوف كليرمونت من المرور خلال خطوط الأعداء والإسراع إلى ميناء السويدية حيث كانت السفن الفرنجية راسية في الميناء. وربما كانت بعض سفن جنوا والسفن الأخرى تابعة لأسطول جوينيمير. وأعلن الهاربون أن الجيش الصليبي هالك لا محالة، فأسرعت السفن الراسية برفع مراسيها وأبحرت بحثاً عن ميناء آخر أكثر أماناً ومعها الهاربون إلى أن وصلوا ميناء طرسوس حيث التحقوا بقوات ستيفن أوف بلوا الذي كان يخطط للعودة إلى أنطاكية لدى سماعه بأنباء استيلاء الصليبيين عليها، لكنه ارتدع بعد أن رأى جيش كربوقا من بعيد. وكان وليم أوف جرانت — ميسينيل هو زوج أخت بوهموند مابيل، ولا شك

(١) Kemal ad-Din, *loc. cit.*; *Gesta Francorum*, XI, 21, p. 114; letter of princes to Urban II, in Hagenmeyer, *op.cit.* p.162; William of Tyre, VI, 4, 1, p.240

في أن فرار أحد الأقرباء القرييين بهذه الدرجة من رئيس النورماندين يؤثر أيما تأثير على الجيش كله. (١)

الكسيوس في طريقه إلى أنطاكية

وبدا للمحاصرين داخل أنطاكية أن فرصة الخلاص الوحيدة هي وصول الإمبراطور وقواته. وكان معروفا أنه انطلق بالفعل من القسطنطينية، وفي الربيع تقدم جون دو كاس من ليديا إلى داخل فريجيا حتى بلغ الطريق الرئيسي الذي سبق أن سلكه الصليبيون الذين أعادوا في بعض الأحيان فتح الطريق إلى أنطاليا. ولذلك رأى الكسيوس أنه من الأسلم أن يأخذ جيشه الرئيسي إلى قلب آسيا الصغرى حتى يوفر المساعدة للحملة الصليبية رغم أن كثيرين من مستشاريه لم يحبذوا حملة تأخذه إلى هذه المسافة البعيدة عن عاصمته في بلاد لم يتم تطهيرها بعد من الأعداء. وفي منتصف يونية (حزيران) وصل الكسيوس إلى فيلوميليوم، وبينما كان يعد العدة لمواصلة مسيرته ظهر ستيفن ووليم في المعسكر، وكانا قد أبحرا معا من طرسوس وسمعا أثناء رحلتهم، ربما في أنطاليا، بمكان وجود الإمبراطور، فتركا رجالهما لمواصلة الرحلة بحرا وأسرعوا شمالا إلى فيلوميليوم ليؤكدوا للإمبراطور أن الأتراك في أنطاكية الآن، وأن الجيش الصليبي على وشك الإبادة. وفي نفس الوقت تقريبا لحق به بطرس أوف أولبس الذي ترك موقعه في كوماننا شرقي قيصرية ليبلغه بأن هناك جيشا تركيا يتقدم ليضرب الكسيوس قبل أن

(١) Raymond of Aguilers, XI, pp. 256-8; *Gesta Francorum*, IX, 23, pp. 126-8; letter of clergy of Lucca, in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 166, Where William of Grant-Mesnil is called 'cognatus Boemundi' أما Ducange في ملاحظاته علي أنا كومينا في *Recueil des Historiens des Croisades, Historiens Grecs*, vol. ii, p. 27 فيوردد مراجع حول زوجته Mabilla رغم أنه يفترض أن زواجها قد تم في تاريخ حديث. ويخبرنا Orderic Vitalis, VIII, 28, vol. ii, p. 455. أنهما قد تزوجا في أبوليا قبل الحملة الصليبية.

يمكن من الوصول إلى أنطاكية. ولم يكن لدى ألكسيوس ما يدعو إلى الشك في تلك الروايات؛ إذ كان ستيفن صديقا يمكن الاعتماد عليه، فضلا عن أن هذه الكارثة لم تكن بعيدة الاحتمال بأي حال من الأحوال. واضطرته تلك الأنباء إلى إعادة النظر في خططه، فإذا كان الأتراك قد استولوا على أنطاكية وقضوا على الفرنج فسوف يواصلون هجومهم لا محالة، وسوف يحاول السلاجقة بلا شك استرداد ما فقدوه ومن ورائهم العالم التركي المنتصر كله، وفي مثل هذه الظروف يصبح استمرار الحملة ضربا من الجنون. وكانت مسيرة جيشه معرضة بحكم وضعها للهجمات التركية الخطرة، ولا مجال لأن يفكر في إطالة خطوط مواصالاته في هذا المنعطف من أجل قضية خاسرة بالفعل. وحتى وإن كان مغامرا كأمرأء الحملة الصليبية فإن المخاطرة ليست جدية بالمحاولة، وإنما هو مسئول عن رعاية إمبراطورية كبيرة معرضة للهجوم، وواجبه الأول ينبغي أن يكون موجهًا نحو رعيته، فاستدعى مجلسه وأخطر أعضائه بضرورة الانسحاب. وكان هناك أمير نورماندي بين مساعديه يدعى جوي وهو أخ غير شقيق لبوهيموند، وظل في خدمة الإمبراطور لسنوات طويلة، واضطرت نوازع الشفقة في صدره على الصليبيين المروطين، فتوسل إلى الإمبراطور كي يستمر في مسيرته، فرمما تكون هناك فرصة لإنقاذهم، غير أنه لم يكن هناك من يؤيد طلبه. وانسحب الجيش البيزنطي العظيم باتجاه الشمال تاركًا نطاقًا من الأرض الجرداء تحمي المناطق التي انتزعها الجيش مؤخرا من الأتراك. (١)

(١) *Gesta Francorum*, IX, 27, pp. 140-6 يذكر تدخل جوي Guy أخي بوهيمند Anna

Comnena, XI, vi, 1-2, vol III, pp. 27-8 وتقول أنا كومنينيا إن بطرس أوف أولب Peter

of Aulps قد أتى مع هارين آخرين من أنطاكية. بيد أنه قد ترك حاكمًا Placentia التي لا

بد وأنه قد جاء منها، ومعه أنباء اقتراب الجيش التركي من الشرق لكي يعترض طريق ألكسيوس

في حال تقدمه. وتوضح أنا كومنينيا أن هذه الأنباء هي التي جعلت ألكسيوس يتخذ طريق العودة

وإذا كان الفرنج قد هزموا فعلا في أنطاكية فمن الجنون أن يستمر في تقدمه.

ولو أن ألكسيوس استجاب لتوسلات جوي لكان ذلك أفضل للإمبراطورية
ولسلام العالم المسيحي الشرقي برغم أنه لم يكن بوسعه أن يصل إلى أنطاكية قبل أن
تنقضي المعركة الحاسمة. فعندما علم الصليبيون بشائعة عودة الجيش الإمبراطوري بلغت
منهم المرارة مبلغها، وتصوروا أنفسهم كمحاربي المسيح ضد الكفرة، واعتبروا رفضه
الإسراع لنجدتهم — مهما بدت ميثوسا منها — عملا من أعمال خيانة العقيدة، ولم
يكن بوسعهم تقدير واجبات الإمبراطور الأخرى، وبدلا من ذلك فإن إهماله يبرر كافة
الشكوك والكراهية التي يحملونها بالفعل نحو اليونانيين. ولم يغتفر ذلك لبيزنطة البتة،
ووجد بوهيموند الأمر كله في صالح طموحه (١).

وتحقق الصليبيون من أن اللوم يقع أيضا على ستيفن أوف بلوا الذي تناوله
مؤرخوهم بمشاعر الغضب ونبذوه بالجبن، وسرعان ما سبقته القصة إلى أوروبا، وقد
عاد ستيفن نفسه متمهلا على مراحل إلى وطنه حيث وجد زوجته وقد أخذ منها
الحجل كل مأخذ ولم يهدأ لها بال حتى أعادته إلى الشرق مرة أخرى للتكفير عن
خطيئته (٢).

وفي تلك الأثناء كان كربوقا يواصل تشديد الحصار على أنطاكية. وفي الثاني
عشر من يونية (حزيران) شن هجوما مفاجئا كاد يستولي فيه على أحد أبراج الجزء
الجنوبي الغربي من السور، لولا أن أنقذت البرج شجاعة ثلاثة فرسان من ماليترا، ولكي

(١) لم يكن من الممكن أن تصل إلى أنطاكية أخبار انسحاب الإمبراطور إلا بعد هزيمة كربوقا بزمان طويل .

أنظر ما يلي الصفحتين ٣٨٣ و ٣٩٠

(٢) Orderic Vitalis, x, 19, vol. iv, p. 118 الذي يذكر حجل أدبلا ، إلى أن تتمكن من إقناع

ستيفن بالذهاب مرة أخرى إلى الحملة الصليبية .

يتجنب بوهيموند تكرار تلك المخاطر أمر بحرق شوارع بأكملها في المدينة بالقرب من الأسوار حتى يتمكن الجنود من المناورة بشكل أيسر. (١)

تدخل ما وراء الطبيعة

وفي ذلك المنعطف حدثت سلسلة من الأحداث بدت للمسيحيين وكأن الرب يشملهم برعايته مما رفع من معنوياتهم. فقد كان الجنود جوعى وملهوفين، وقد أبقى إيمانهم عليهم حتى تلك اللحظة، وهو الآن إيمان مزعزع لكنه لم ينكسر. وفي مثل هذا الجو تنتشر الأحلام والرؤى. ولأبناء العصور الوسطى إيمانهم بأن الخوارق ليست مستحيلة ولا حتى نادرة جدا، ولم تكن أفكارنا المعاصرة المتصلة بقوى اللاشعور قد ظهرت بعد؛ وإنما يعتقدون أن الأحلام والرؤى تأتي من الرب أو — في بعض الحالات — من الشيطان. ولا يتأتى الشك في الحلم إلا إذا كان صاحبه موضع تكذيب صريح. وعلينا أن نتذكر هذا الموقف عندما نتأمل الحادثة التالية: ففي العاشر من يونية (حزيران) ١٠٩٨ ميلادية جاء إلى خيمة الكونت ريموند فلاح اسمه بطرس بارثولوميو في ملابسه البالية وطلب مقابلته مع أديمار أسقف لوبوي، وكان قد التحق بالحملة الصليبية خادما لواحد من حجاج بروفانس يدعي وليم — بطرس. ولم يكن الفلاح أميا تماما على الرغم من أصله الوضعي، وإنما كان معروفا بين أقرانه بأنه سيئ السمعة مفرط الانغماس في الملذات. وقصة ذلك الرجل أنه كان يتعذب خلال الأشهر الأخيرة بالرؤى التي كشف له فيها القديس أندرو عن أثر من أقدس آثار العالم المسيحي يمكن العثور عليها، ألا وهو الرمح الذي نفذ في جانب المسيح. وجاءته الرؤيا الأولى عندما

(١) *Gesta Francorum*, IX, 26, p. 136; Radulph of Caen, LXXVI, pp. 660-1 ويقول

راد ولف أوف كاين إن روبرت الفلنדרزي أحرق الحي ؛ ويذكر *Albert of Aix*, IV, 35, p. 413

الفرسان الآتين من مالين *Malines* .

حدث زلزال الثلاثين من ديسمبر (كانون الأول) ؛ فبينما كان يصلي في رعب ظهر له فجأة رجل مسن فضي الشعر وبصحبه شاب طويل يأخذ جماله بالألباب، وأخبره الرجل إنه هو القديس أندرو نفسه، وأمره بالذهاب من فوره لمقابلة أسقف لوبسوي والكونت ريموند ليوبخ الأسقف على إهماله في واجبه كواعظ، وليكشف للكونت عن مكان الرمح الذي اطلعه القديس عليه. وبعد ذلك وجد بطرس أنه محمول على الهواء بنفس الهيئة التي كان عليها، مرتديا قميصه وحسب، إلى داخل المدينة حيث كاتدرائية القديس بطرس التي حولها الأتراك إلى مسجد، وقاده القديس أندرو من المدخل الجنوبي إلى الكنيسة الصغيرة في الناحية الجنوبية، وهناك اختفى داخل الأرض ليظهر ثانية حاملا الرمح، وأراد بطرس أن يأخذه في الحال ولكن القديس أندرو أمره أن يعود مرة أخرى ومعه اثنا عشر من رفاقه بعد الاستيلاء على المدينة، وأن يبحثوا عن الرمح في نفس المكان. ثم وجد نفسه وقد حمله الهواء عائدا به إلى المعسكر.

رؤى بطرس بارثولوميو

وقال بطرس أنه تجاهل أوامر القديس خشية ألا يستمع أحد إلى رجل فقير مثله، وبدلا من ذلك رحل إلى الرها في حملة لجلب الطعام. وفي العاشر من فبراير (شباط)، وبينما كان جالسا في الحصن القريب من الرها في وقت صياح الديكة، ظهر له القديس أندرو ورفيقه مرة أخرى وزجره على عصيانه لأوامره وعاقبه بمرض مؤقت في عينيه، كما ألقى عليه القديس أندرو محاضرة عن حماية الرب الخاصة مضيفا أن القديسين كلهم مشتاقون لاستعادة أجسادهم ليحابوا إلى جانبهم. واعترف بطرس بارثولوميو بذنبه وعاد إلى أنطاكية، ولكن شجاعته خذلته مرة أخرى ولم يجرؤ على مفاتحة الأمراء العظام. وفي مارس (آذار) شعر بالارتياح حينما أخذه سيده وليم —

بطرس في رحلة لشراء الطعام من قبرص. وفي مساء أحد السعف (١) العشرين من مارس (آذار)، وأثناء نومه مع سيده في خيمة بميناء السويدية، جاءته الرؤيا مرة أخرى، فأعاد بطرس بارثولوميو اعتذاراته، فقال له القديس أندرو ألا يخاف وأعطاه التعليمات التي ينبغي للكونت ريموند تنفيذها عندما يصل إلى نهر الأردن. وسمع سيده وليم - بطرس المناقشة ولكنه لم ير شيئا. وعاد بطرس بـبارثولوميو بعد ذلك إلى المعسكر في أنطاكية ولم يتمكن من مقابلة الكونت، ولذا رحل إلى مامسترا ليواصل رحلته إلى قبرص. وفي مامسترا جاءه القديس أندرو غاضبا وأمره بالعودة، وأراد بطرس أن يطيع الأوامر لكن سيده اضطره إلى الإبحار. وحرفت الأمواج السفينة ثلاث مرات عائدة بها، وأخيرا ألقتها على شاطئ جزيرة قريبة من ميناء السويدية حيث ألغيت الرحلة. ومرض بطرس فترة من الزمن، وبعدما شفي كان الصليبيون قد استولوا على أنطاكية، فدخل المدينة وشارك في معركة العاشر من يونية (حزيران) وكاد أن يقتل منسحقا بين حصانين، وعلى الأثر ظهر له القديس أندرو مرة أخرى وحادثه في صرامة بحيث لم يعد في مقدوره أن يعصى أوامره، فقص القصة على رفاقه أول الأمر، ورغم ارتياهم فيها ها هو الآن يعيدها على الكونت ريموند وأسقف لوبوي. (٢)

(١) (المترجم) : أحد السعف : يوم الأحد السابق على الفصح ، يحتفل فيه بذكرى دخول المسيح القدس ظافرا

وقد نثر سعف النخل في طريقه

(٢) وردت قصة بطرس بارثولوميو كاملة في Raymond of Aguilers, x, pp. 253-5 وهو يؤمن به

لمانا مطلقا . والرواية المقتضبة الواردة في تاريخ Gesta Francorum, ix, 35, pp. 132-4 والتي

ربما كتبت في ذلك الوقت ، تظهر تصديقا بالقصة . وكذلك خطاب الأمراء المرسل إلى إربان الثاني الوارد

في Hagenmeyer, op. cit. p. 163 وهو الخطاب الذي كتب برهينمد مسودته .

ولم يتأثر أديمار بالقصة، واعتبر أن بطرس بارثولوميو شخصية مغمورة لا يعول على قصته وربما استاء من انتقاد حماسه كواعظ، وربما تذكر أنه شاهد في القسطنطينية رمحا مقدسا مشهود له بأصالته منذ زمن بعيد، ولكونه رجل كنيسة متمرس لم يكن ليثق في رؤى الجهلاء. أما ريموند، الذي كان في ورعه أكثر بساطة وأشد حماسا، فكان مهيبا للاقتناع، وأعد العدة للبحث الجاد عن الرمح خلال خمسة أيام، وفي نفس الوقت عهد إلى واعظ جيشه برعاية بطرس بارثولوميو. (١)

وتوالت الرؤى بسرعة. ففي ذلك المساء، وبينما كان الأمراء مجتمعين أعلى المدينة بجوار السور المحيط بالقلعة، طلب قسيس من فالنس (٢) يدعى ستيفن مقابلتهم، وأخبرهم أنه في الليلة السابقة ظن أن الأتراك قد استولوا على المدينة، فاصطحب معه مجموعة من القساوسة إلى كنيسة السيدة العذراء لإقامة قداس شفاعة، وبعد انتهاء القداس استغرق الآخرون في النوم، وبينما كان مستلقيا رأى أمامه هيئة شخص بارع الجمال استفسر منه عن يكون هؤلاء الرجال، وسره أن يعلم أنهم مسيحيون طيبون وليسوا هراطقة، ثم سأل ستيفن عما إذا كان يعرفه، فأجاب بالنفي لكنه لاحظ هالة صليبية الشكل تحيط برأسه على النحو الذي يراه في صورة المسيح، وأقر الزائر أنه هو المسيح ثم سأل عن يكون قائد الجيش، فرد ستيفن بأنه لا يوجد قائد للجيش وإنما

(١) Raymond of Aguilers, *ibid.* p. 255 وعن الرمح الذي حفظ في القسطنطينية أنظر Ebersolt,

Les Sanctuaires de Byzance, pp. 9, 24, 116 أنظر أيضا رانسيمان "الرمح المقدس الذي

عثر عليه في أنطاكية 'The Holy Lance found at Antioch' في "المختارات البسوعية

Ralph of Caen, *ii*, p. 678 ويرد في vol. LXVIII "Analecta Bollandiana سمعة

بطرس السيئة كما أخبر عنها بوهيمند .

(٢) (المترجم) : فالنس : مدينة جنوب شرقي فرنسا علي نهر الرون .

السلطة الرئيسية في يد أسقف، فطلب المسيح من ستيفن أن يخبر الأسقف أن قومه قد أثموا بشهواتهم واقترافهم الزنا، لكنهم إذا عادوا إلى سبيل الحياة المسيحية فسوف يرسل لهم الحماية في غضون خمسة أيام، ثم ظهرت سيدة وضاعة المحيا وقالت للمسيح إن هؤلاء هم الناس الذين كانت تشفع لهم دائما، وانضم إليهما القديس بطرس كذلك، وحاول ستيفن أن يوقظ واحدا من رفاقه ليكون شاهدا على الرؤيا، لكن الزائرين ذهبوا قبل أن يتمكن من ذلك.

اكتشاف الروح القدس

وكان أديمار على استعداد لقبول هذه الرؤيا وتصديقها، إذ أن ستيفن قسيس حسن السمعة، فضلا عن أنه أقسم على الإنجيل أنه صادق في قوله، ولما رأى أديمار أن الأمراء قد تأثروا بالقصة استحثهم في الحال على أن يقسموا بالسر المقدس ألا يترك أي منهم أنطاكية إلا برضاء الآخرين جميعا، فكان بوهموند أول من أقسم، وتلاه ريموند، وروبرت النورماندي، وجودفري وروبرت أوف فلاندرز، ثم تبعهم الأمراء الأقل شأنًا، ورفعت أنباء القسم من معنويات الجيش. وزيادة على ذلك، فإن ما ذكره ستيفن من وجود علامة على رعاية إلهية ستحدث خلال خمسة أيام دعم مزاعم بطرس بارثولوميو. وازدادت التوقعات قوة. (١)

وفي الرابع عشر من يونية (حزيران) شوهذ نيزك في السماء بدا وكأنه سيسقط فوق معسكر الأتراك، وفي الصباح التالي توجه بطرس بارثولوميو إلى كاتدرائية القديس بطرس ومعه صحبة من اثني عشر شخصا تضمنت الكونت ريموند، وأسقف أورانج،

(١) Raymond of Aguilers, XI, pp. 255-6; *Gesta Francorum*, IX, 24, pp. 128-32

وريموند أوف أجيليه المؤرخ، وظل العمال يحفرون الأرض طوال اليوم، لكنهم لم يجدوا شيئاً، فانصرف الكونت تسبقه خيبة الأمل. وأخيراً وثب بطرس نفسه وهو يرتدي قميصه في الخندق، وأمر الحاضرين جميعاً بالصلاة، ثم أخرج قطعة من الحديد وعلى وجهه آيات الانتصار، وأعلن ريموند أوف أجيليه أنه رآها بينما كانت ما تزال مدفونة في الأرض، وسرعان ما انتشرت قصة اكتشافه في أنحاء الجيش وتلقاها الجميع بحماس وغبطة^(١).

وإذا حاولنا الآن أن نحكم على حقيقة ما حدث فستكون المحاولة عقيمة. فقد تم تنظيف الكاتدرائية مؤخراً لإعادة تكريسها لخدمة الرب، وربما شارك بطرس بارثولوميو في هذا العمل بعد عودته إلى أنطاكية، فهو لم يكشف مطلقاً عن تاريخ هذه العودة، وبذا تتوفر لديه الفرصة لدفن قطعة الحديد تحت الأرضية، أو ربما كانت لديه موهبة المستنبى بالعصا الذي يعرف مواقع المعادن تحت الأرض. والجدير بالملاحظة أنه حتى في ذلك العصر الذي تعتبر المعجزات فيه ممكنة الحدوث بشكل عام، التزم أديمار أسقف لوبوي بوضوح بوجهة النظر القائلة بأن بطرس مجرد دجال، وكما يظهر من تنمة القصة شارك كثيرون أديمار في عدم ثقته التي لم تكن قد أعلنت بعد، فالعشور على هذا الأثر أثلج صدور المسيحيين، حتى اليونانيين والأرمن، بحيث لم يشأ أحد أن يفسد ما أحدثه من بهجة وغبطة. ومع ذلك، فإن بطرس بارثولوميو نفسه سبب بعض الصدمة لمؤيديه حينما أعلن بعد ذلك بيومين أنه تلقى زيارة أخرى من القديس أندرو، وربما شعر بالغيرة من ستيفن الذي حادته المسيح مباشرة، ولذا أهجه أن يسمع من القديس

(١) Raymond of Aguilers, XI, p. 257 وتذكر جميع المراجع قصة العشور على الرمح، بما في ذلك

أناكرمينيا XI, vi, 7, vol. III, p. 30 التي تقول إنه مسمار وليس رمحاً، وتنسب اكتشافه إلى بطرس الناسك، كما ذكر القصة Matthew of Edessa, II, clv, p. 223 ويقول ابن الأثير

صراحة إن بطرس دفن رمحاً بنفسه op. cit. p. 195. أنظر رانسيمان Runciman, op. cit.

أندرو أن رفيقه الصامت الذي ظهر معه في الرؤيا كان هو المسيح بالفعل، ثم أعطاه القديس تعليمات دقيقة عن الطقوس التي ستقام احتفالاً بالاكتشاف وإحياء ذكره السنوية، ولدى سماع أسقف أورانج بتلك الطقوس الدينية وتفاصيلها ارتاب في بطرس وسأله ما إذ كان يستطيع القراءة. وظن بطرس أنه من الحكمة أن يعلن أنه أمي، واتضح أنه كاذب، ولكن سرعان ما اطمأن أصدقاؤه إذ أنه منذ ذلك الوقت لم يعد قادراً على القراءة، وسرعان ما عاود القديس أندرو الظهور ليعلن عن معركة وشيكة مع الأتراك لا ينبغي لها أن تتأخر طويلاً لأن خطر الموت جوعاً يتهدد الصليبيين. وأوصى القديس بالصوم خمسة أيام، تكفيراً عن خطايا الناس. وعلى الجيش بعد ذلك أن يهاجم الأتراك وسوف يحظى بالنصر. ولا ينبغي لهم أن ينهبوا خيام الأعداء. (١)

ومرض الكونت ريموند، وبذا أصبح بوهيموند القائد الأعلى للجيش، وقرر أن المخرج الوحيد هو شن هجوم شامل على معسكر كربوقا، ومن الجائز أن يكون القديس أندرو قد استوحى نصيحته الأخيرة من مصادرها الأرضية. وبينما كانت معنويات الصليبيين تتحسن كان كربوقا يواجه صعوبات متزايدة في الحفاظ على تحالفاته؛ فما زال رضوان الحلبي متباعداً عن الحملة، لكن كربوقا شعر بالحاجة إلى مساعدته؛ فبدأ يتفاوض معه، مما أغضب دقاق الدمشقي الذي كان عصبياً بسبب العدوان المصري في فلسطين وهو يتلهم على العودة إلى الجنوب، وأما أمير حمص فكانت له ثارات عائلية مع أمير منبج ولم يسعه التعاون معه. وحدث احتكاك بين الأتراك والعرب في قوات كربوقا نفسه الذي حاول الحفاظ على النظام باستخدام سلطته الاستبدادية التي استاء منها كل الأمراء لمعرفة أنهم مجرد أتابع. وباقترب الشهر

من نهايته كان الهاربون من المعسكر يزدادون أكثر فأكثر، وعاد الكثير من الأتراك والعرب على السواء إلى بلادهم. (١)

سفارة بطرس الناسك

ولا شك في أن قادة الصليبيين علموا بمتاعب كربوقا فحاولوا إقناعه بالتخلي عن الحصار. ففي السابع والعشرين من يونية (حزيران) أرسلوا إليه سفارة مؤلفة من بطرس الناسك وواحد من الفرنج يدعى هيرلوين كان يتحدث العربية والفارسية، ولاختيار بطرس الناسك دلالة على أنه استعاد سمعته التي كانت قد تلوثت بمحاولته الفرار قبل ذلك بخمسة أشهر، وربما لم يذهب في هذه السفارة أحد من القادة خشية ألا يحترم الأتراك حصانة المبعوثين، وقد اختير بطرس الناسك باعتباره أفضل المعروفين من غير المقاتلين مع الجيش، ويعتبر قبوله القيام بهذه المهمة دليل على شجاعته، واسهام في الحفاظ على هيئته. ولا ندري الشروط التي كان مسموحا لبطرس أن يعرضها، فمن الواضح أن الأحاديث التي يقولها المؤرخون المتأخرون على لسان كل من بطرس وكربوقا مجرد تخيلات، وكما يقول بعض المؤرخين ربما أثير اقتراح إجراء سلسلة من المبارزات الفردية تقرر مصير الأمر كله. وعلى الرغم من ضعف كربوقا المتزايد فقد استمسك بضرورة التسليم دون قيد أو شرط، ورجعت السفارة خاوية الوفاض، ولكن ربما اكتسب هيرلوين بعض المعلومات النافعة عن طبيعة الأحوال في المعسكر التركي.

ولم يعد هناك مفر من القتال بعد فشل السفارة. وفي باكورة يوم الاثنين الثامن والعشرين من يونية (حزيران) قام بوهيموند بتنظيم الجنود الصليبيين للعمل، فقسم الجيش إلى ستة جيوش: الأول من الفرنسيين والفلاندرز بقيادة هيو أوف فيرمندوا

Kemal ad-Din, *op. cit.* 583; Abu'l Feda, *Moslem Annals*, p. 4; Ibn al-Athir, (١)

op. cit. p. 194

وروبرت أوف فلاندرز، والثاني من اللوثارينجيين^(١) بقيادة جودفري، والثالث من النورماندين القادمين من نورماندي بقيادة الدوق روبرت، والرابع من أبناء تولوز وبروفانس بقيادة أسقف لوبوي بسبب مرض ريموند الشديد، والخامس والسادس من النورماندين القادمين من إيطاليا بقيادة بوهيموند وتانكريد، ولكي لا تغيب القلعة عن أعينهم تركوا في المدينة مائتي رجل يقودهم ريموند من فراش مرضه. وصعد بعض القساوسة ووعاظ الجيش على الأسوار يقيمون قداس شفاعة، بينما سار البعض الآخر مع الجنود. ومنح ريموند أوف أجيليه شرف حمل الرمح المقدس في المعركة، ورفرفت رايات الأمراء المميزة لكل أمير عن الآخر، لكن دروع الفرسان كانت ملطخة ببعض الشيء، واضطر كثيرون ممن فقدوا خيولهم إلى السير راجلين أو امتطوا دواب الحمل الأخرى، على أن شجاعة الجنود — التي عززتها علامات الرعاية الإلهية التي ظهرت مؤخرا — بدت مرتفعة وهم يخرجون الواحد تلو الآخر عبر الجسر المحصن.^(٢)

الانتصار على كربوقا

وأثناء ظهورهم وهم يخرجون من البوابة حاول القائد العربي وثاب بن محمود إقناع كربوقا بمهاجمتهم على الفور، ولكن كربوقا كان يخشى إن هو هاجمهم بغاية السرعة فسيقضي على طليعة الجيش الصليبي وحسب، بينما لو انتظر فسوف يتخلص منهم جميعا بضربة واحدة. وكان يفضل عدم المضي في ذلك الحصار المرهق نظرا لحالة جنوده السيئة، لكنه عندما رأى جمع الفرنج تردد وأرسل مبعوثا، بعد فوات الأوان،

(١) (المترجم) : نسبة إلى مملكة لوثارينجيا التي أسسها سنة ٨٥٥ ميلادية " لوثير " أصغر أبناء الإمبراطور الكارولينجي " لويس الأول " (الورع) ، وكانت تضم أجزاء من شمال شرق فرنسا وشرقها وما جاورها .
(٢) *Gesta Francorum*, IX, 28, pp. 146-50; Fulcher of Chartres, I, xxi, 1-2, pp. 247-9; Raymond of Aguilers, XI, p. 259; Albert of Aix, IV, 44-9, pp. 420-1

يعلن أنه يقبل مناقشة شروط الهدنة، وتجاهل الفرنج رسوله وواصلوا تقدمهم. واتبع كربوقا الوسيلة التركية المعتادة، فانسحب لاستدراجهم إلى أرض صعبة حيث يحيط رماته سهامهم فجأة على صفوفهم، وفي نفس الوقت أرسل فصيلة تلتف حولهم ليحصرها مسيرتهم بجوار النهر حيث لا تتوفر الحماية لهذا الجانب؛ غير أن بوهيموند كان مستعدا لذلك وكون جيشا سابعا بقيادة رينالد أوف تول لصد الهجوم. وعلى الجبهة الرئيسية التهب وطيس القتال وسقط من بين القتلى حامل راية أديمار الخاص، لكن رماة الأتراك لم يتمكنوا من وقف تقدم الصليبيين وبدأ الصف التركي يهتز، وشدد المسيحيون ضغطهم على الأتراك وقد شجعهم أن رأوا على جانب التل جماعة من الفرسان على خيول بيضاء يلوحون برايات بيضاء، وتعرفوا على قائدهما: القديس جورج، والقديس ميركوري، والقديس ديميتريوس. وأما العون العملي الأكبر فقد جاءهم من قرار الكثير من أمراء كربوقا بالتخلي عن قضيتهم لخشيتهم من أن يجعله الانتصار هائل القوة ويصبحون هم أول ضحاياه، فبدءوا ينسحبون من الميدان وعلى رأسهم دقاق الدمشقي مما نشر الذعر بين الجنود. وأشعل ربوقا النيران في الحشائش الجافة أمام خطوطه في محاولة عقيمة لإعاقة الفرنج إلى أن يستعيد النظام. وكان سقمان الأرمني وأمير حمص هما آخر من بقى على إخلاصه له، وحينما لاذا بالفرار كذلك أدرك أن الأمر قد انتهى وتخلي عن المعركة، وتفتت الجيش التركي كله مذعورا، والتزم الصليبيون بنصيحة القديس أندرو بألا يتخلفوا لسلب معسكر الأعداء، وتبعوا الفارين حتى الجسر الحديدي وهم يقتلون أعدادا غفيرة منهم، وحاول آخرون الاحتماء بحصن تانكريد فأحاط بهم الصليبيون وقضوا عليهم. واشترك أبناء البلاد من السوريين والأرمن في مذبحه قضوا فيها على كثيرين ممن نجوا من المعركة، ووصل كربوقا إلى الموصل ومعه بقايا قواته، ولكنه فقد قوته وهيبته إلى الأبد.

وكان أحمد بن مروان، آمر القلعة، يرقب المعركة من القلعة أعلى الجبل، وعندما رأى الأتراك ينهزمون أرسل رسولا في المدينة يعلن استسلامه، واقتيد الرسول إلى خيمة ريموند الذي أرسل راية من راياته لرفعها على برج القلعة، لكن أحمد الذي علم أن الراية ليست راية بوهيموند رفض رفعها. ويبدو أنه كان قد أعد ترتيبا سريا مع بوهيموند يُنفذ في حالة انتصار المسيحيين، ولم يفتح بوابته إلى أن ظهر بوهيموند نفسه، وسمح لأفراد الحامية بالخروج سالمين بعد أن تحول البعض منهم إلى المسيحية والتحقوا بجيش بوهيموند بما فيهم أحمد ذاته. (١)

ولم يكن انتصار الصليبيين متوقعا، ولكنه كان انتصارا كاملا حسم بقاء أنطاكية في حوزة المسيحيين، وإن لم يحسم مسألة من تؤول إليه المدينة من بين المسيحيين. ومن الواضح أن القسم الذي أقسمه جميع الأمراء للإمبراطور، عدا ريموند، يستوجب تسليم المدينة. لكن بوهيموند أظهر بالفعل نواياه في الاحتفاظ بها. وكان رفاقه، خلا ريموند، على استعداد لأن يرتضوا ذلك لأنه هو الذي خطط للاستيلاء عليها وهو الذي استسلمت له القلعة، وإنما ضايقهم قليلا الاستخفاف بالقسم الذي أقسموه. غير أن الإمبراطور بعيد جدا. ولم يخف لتجدتهم، وتركهم مندوبه، وقد استولوا على المدينة وهزموا كربوقا دون مساعدة منه، وبدأ لهم من غير العمل ترك حامية في المدينة إلى أن يتنازل الكسيوس فيجئ بنفسه أو يرسل واحدا من ضباطه، كما بدا لهم أن الدفاع عن حقوق من هو غائب أمر يخلو من السياسة ومضيعة للوقت ومخاطرة بأن يعاديههم أبرز العسكريين من بينهم، وربما يتخلى عنهم. وكان من الواضح لـجودفري أوف لورين أن الوقوف في طريق طموحات بوهيموند أمر يتصف بالحماسة، أما ريموند فكان

(١) *Gesta Francorum*, IX, 29, pp. 150-8 (وهي أكثر الروايات حيرة)؛ Raymond of Aguilers, XII, pp. 259-61; Fulcher Chartres, XXII - XXIII, pp. 251-8; Albert of Aix, IV, 47-56, pp. 421 - 9; Anselm of Ribemont, letter in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 160; Kemal ad-Din, *loc. cit.*; Ibn al-Athir, *op. cit.* pp. 195-6

دائما يعاني مرارة الغيرة من بوهيموند. وليس من الإنصاف أن نعتبر أن غيرته هي الدافع الوحيد وراء تأييده ألكسيوس في مطالبه؛ إذ كان قد أقام علاقة صداقة مع ألكسيوس قبل أن يغادر القسطنطينية، وكان من الحصافة بحيث أدرك أن تقصيرهم في إعادة أنطاكية إلى الإمبراطورية سيفقدهم حسن نوايا الإمبراطور التي تعتبر ضرورية بالنسبة لهم إذا ما أرادوا المحافظة على خطوط موصلاتهم، وإذا ما أرادوا كبح جماح المسلمين الذين سيقومون بعمل مضاد لا محالة. فضلا عن أن الحرب الصليبية لن تصبح جهدا مبذولا من عالم مسيحي موحد. وشاركه أديمار أسقف لوبوي الرأي، إذ كان عاقد العزم على التعاون مع المسيحيين الشرقيين، وهذا بلا شك ما يريده سيده البابا إيربان الذي كان يدرك خطورة الإساءة إلى بيزنطة. (١)

طباع سيئة

وربما مارس أديمار أسقف لوبوي نفوذه لإرسال هيو أوف فرمندوا إلى الإمبراطور ليشرح له الموقف. وكان هيو، بعد أن أصبحت أنطاكية آمنة، يرغب في العودة إلى موطنه عن طريق القسطنطينية، وكان الصليبيون ما يزالون يعتقدون أن ألكسيوس في طريقه إليهم عبر آسيا الصغرى، ولم تكن قد وصلتهم بعد أنباء انسحابه في أعقاب مقابلته مع ستيفن أوف بلوا، وكان في مأمول أديمار وريموند أن ينجح هيو في إقناع ألكسيوس بالإسراع إليهم. وفي ذات الوقت تقرر أن يبقى الصليبيون في أنطاكية حتى أول نوفمبر (تشرين الثاني) قبل أن يشرعوا في المسير إلى القدس. وكان قرارا طبيعيا نظرا لما يعانيه الجيش من إجهاد، كما أن السير في قيظ صيف سوريا، وفي طريق تكاد أن تكون مجهولة تندر فيها المياه، بدا عملا من أعمال الحمق، وفضلا عن ذلك لا بد

(١) Albert of Aix, v, 2, pp. 433-4 دور أديمار تخميني.

أولا من حسم مسألة أنطاكية، ولا شك في أن أديمار كان يأمل في وصول الإمبراطور قبل ذلك الموعد. وانطلق هيو في وقت مبكر من يولية (تموز) بصحبة بالدوين أوف هينولت، وفي الطريق عبر آسيا الصغرى هاجم الأتراك جماعته وأوسعوهم ضربا، واحتفى بالدوين كونه هينولت ولم يعرف مصيره مطلقا. وحل فصل الخريف في القسطنطينية قبل وصول هيو إليها وقبل أن يقابل الإمبراطور ويخبره بالقصة الكاملة لأنطاكية. وأمسى من المتعذر إعداد حملة تعبر جبال الأناضول، ولذا رأى ألكسيوس أنه من غير المجدي الارتحال إلى أنطاكية قبل الربيع التالي. (١)

وفي ذات الوقت ازدادت الطباع حدة في أنطاكية. ففي بداية الأمر كانت قوات كل من بوهيموند، وريموند، وجودفري، وروبرت أوف فلاندرز قوات تحتل القلعة بصورة مشتركة، واحتفظ بوهيموند بالسيطرة على الأبراج الرئيسية ونجح في طرد جنود زملائه. وربما تم ذلك بموافقة جودفري وروبرت وفرض الأمر على ريموند رغم اعتراضه، فاشتد حنقه ورد على ذلك بأن انفرد بالتحكم في الجسر المحصن وقصر ياغي سيان. غير أن ريموند كان مريضا جدا ولا يستطيع اتخاذ خطوات عملية، والآن سقط أديمار مريضا أيضا، ولقي الفرنسيون الجنوبيون، وقد غاب قائداهما، معاملة سيئة من الجنود الآخرين ولا سيما النورماندين، فتلهف الكثير منهم على أن يتم الصلح بين ريموند وبوهيموند الذي كان يتصرف وكأنه سيد المدينة بالفعل. وما أن انتشرت أنباء هزيمة كربوقا حتى أسرع الكثيرون من أبناء جنوا إلى أنطاكية متلهفين على أن يكونوا أول من يستولي على تجارتها. وفي الرابع عشر من يولية (تموز) أعطاهم بوهيموند موثقا يسمح لهم بسوق وكنيسة وثلاثين منزلا؛ ومن ثم أصبحوا يدافعون عن مطالبه واستطاع هو أن يعتمد على مساعدتهم كي تظل اتصالاته بإيطاليا مفتوحة، ووافقوا

(١) *Gesta Francorum*, x, 30, pp. 161-2; *Albert of Aix*, v, 3, pp. 434-5

على موازرتة في أنطاكية ضد جميع الوافدين إليها باستثناء ريموند كونت تولوز، ففي حالة الصدام معه سوف يبقون على الحياد. (١)

وبينما كان ريموند وبوهيموند يتربص كل منهما بالآخر متحفزا، رحل النبلاء الأقل شأنا لينضموا إلى بالدوين في الرها، أو خرجوا في حملات للنهب والسلب، أو ليقبضوا لأنفسهم إقطاعيات صغيرة في الريف المحيط. وقام بأكثر هذه الغارات طموحا ريموند بيليت القادم من مقاطعة ليموزين الفرنسية، وهو من جيش ريموند، وقد خرج في السابع عشر من يولية (تموز) عبر نهر العاصي واتجه شرقا وبعد ثلاثة أيام احتل مدينة تل مناس حيث تلقاه سكانها السوريون مرحبين. وبعد استيلائه على حصن تركي في الجوار واصل تقدمه لمهاجمة مدينة أكبر هي معرة النعمان بجيش يتألف أساسا من المسيحيين المحليين، لكنهم لم يعتادوا حمل السلاح، وعندما واجهوا الجنود الذين أرسلهم رضوان الحلبي لأنقاذ المدينة انقلبوا على أعقابهم وولوا الأدبار، ولكن رضوان لم يستطع طرد ريموند بيليت من تل مناس. (٢)

موت أديمار أسقف لوبوي

وفي يولية (تموز) انتشر وباء خطير في أنطاكية لا نستطيع أن نحدد طبيعته بدقة. وأغلب الظن أنه كان وباء التيفود نتيجة لحصار ومعارك الشهر الفائت وعدم دراية الصليبيين بالاحتياطات الصحية الضرورية في جو الشرق. وكانت حالة أديمار الصحية

(١) Raymond of Aguilers, XIII, pp. 261-2 ؛ اتفاق استبحار السفن الجنوبية مع بوهيمند يرد في

Hagenmeyer, *op. cit.* pp. 155-6

(٢) *Gesta Francorum*, x, 30, pp. 162-4, Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 584

متوقعة لبعض الوقت، فكان أول الضحايا البارزين لهذا الوباء، ومات في أول أغسطس (آب). (١)

كان موت أديمار مأساة من أعظم مآسي الحملة الصليبية. وهو على صفحات المؤرخين شخصية غامضة نوعا ما، لكنهم يصورونه على أنه قد مارس نفوذا شخصيا أكثر من أي صليبي آخر، وحظى بالاحترام كممثل للبابا، وفازت شخصيته بود الجيش كله، لشفقته ورعايته للفقراء والمرضى، ولتواضعه ولأنه لم يكن عدوانيا قط، وإنما لديه الاستعداد الدائم لبذل النصيحة الحكيمة حتى في الأمور العسكرية. وكان كقائد عسكري يجمع بين الشجاعة والحصافة، وإليه وإلى استراتيجيته يعزى انتصار دوريليوم بدرجة كبيرة، وقد ترأس الكثير من مجالس الجيش أثناء حصار أنطاكية. ومن الناحية السياسية كان يعمل على إيجاد تفاهم طيب مع المسيحيين الشرقيين، سواء مع بيزنطة أو مع كنائس سوريا الأرثوذكسية. واستحوذ على ثقة البابا إيربان وعرف آراءه، وأمكن في حياته كبح التعصب الفرنجي العنصري والديني، كما أمكنه الحيلولة دون أن يتسبب الأمراء بطموحاتهم الأنانية وخلافاتهم في الإضرار بالحملة الصليبية إضرارا لا سبيل إلى إصلاحه. وبرغم حرصه على ألا يحاول السيطرة على الحركة الصليبية مطلقا، فقد اعتبر قائدا للحملة الصليبية — كما نعلم من القسيس ستيفن الذي أبلغ المسيح بذلك في رؤياه. وبعد موته لم يعد هناك من له السلطة العليا المهيمنة، وقد ورث أفكاره ريموند كونت تولوز الذي سبق أن ناقش البابا إيربان في السياسة الصليبية منذ وقت طويل. على أن ريموند كونت تولوز لم يكن له ما لأديمار من اقتدار، وإن كان بوسعه التحاور مع بوهيموند حوار الند للند فإنه لم يكن المتحدث باسم الكنيسة، وفي

(١) *Gesta Francorum*, x, 30, pp. 166; Raymond of Aguilers, XIII, p. 262; Fulcher of Chartres, I, xxiii, 8, p. 258; letter of the princes to Urban II, in Hagenmeyer, *op. cit.* p. 164

غيابه لم يكن لأي أمير من سعة الأفق ما يؤهله للحفاظ على وحدة العالم المسيحي، وإن إحسان أديمار وحكمته وتكامل شخصيته لم تكن أبدا محل مساءلة من رفاقه، حتى أولئك الذين كان يعارض طموحاتهم. وقد بكاه أتباع بوهيموند بنفس القدر من الإخلاص كأبناء جلدته من الفرنسيين وأقسم بوهيموند أن يحمل جثته إلى القدس — لقد تأثر الجيش كله وانزعج لموته.

ومع ذلك، كان هناك رجل واحد لم يشعر بالأسف لموته وهو بطرس بارثولوميو الذي لم يغتفر أبدا للمندوب البابوي تكذيبه للرؤى التي رآها. وأخذ بثأره بعد موته بيومين؛ فأعلن أن القديس أندرو زاره مرة أخرى مصطحبا معه في هذه المناسبة أديمار الذي أعلن أنه قد عوقب على عدم تصديقه فقضى الساعات التي تخللت الفترة منذ موته في الجحيم، ولم ينقذه سوى صلوات رفاقه، خاصة صلوات بوهيموند، والهبات النقدية القليلة التي تبرع بها لصيانة الرمح، وقد نال الغفران وطلب أن يبقى جسده في كاتدرائية القديس بطرس في أنطاكية. ثم قدم القديس أندرو النصيح للكونت ريموند قائلا إنه ينبغي إعطاء أنطاكية لذلك الذي يطالب بها حاليا إذا ما ثبت أنه رجل ورع، ذلك الورع الذي ينبغي أن يقرره بطريق يتم انتخابه من بين أتباع الطقوس اللاتينية، وعلى الصليبيين أن يندموا على خطاياهم وأن يواصلوا المسير إلى القدس التي لا تبعد سوى مسافة عشرة أيام، لكن الرحلة قد تستغرق عشرة أعوام إن لم يعودوا إلى العادات الأكثر ورعا. أي أن بطرس بارثولوميو وأصدقائه من البروفانسال اعتبروا أنه ينبغي السماح لبوهيموند بالحصول على أنطاكية طالما يتعهد بتقديم المساعدة إلى الحملة الصليبية، وأنه ينبغي للجيش أن ينطلق بسرعة إلى القدس، وألا يكون هناك تعامل مع البيزنطيين ولا مع الكنائس الأرثوذكسية المحلية.

وتسبب هذا الوحي في إحراج ريموند. فكان يعتقد اعتقادا مخلصا في الرمح المقدس بالإضافة إلى أن وجود الرمح مع جنوده أضفى عليه الهيبة. ورغم أن كثيرين ربما يقولون إن الانتصار في المعركة مع كربوقا يرجع إلى استراتيجية بوهيموند، فكان

هناك كثيرون آخرون ينسبون الانتصار إلى الرمح المقدس وبالتالي إلى ريموند بطريق غير مباشر. على أن مصدر السلطة الرئيسية الآخر لـ ريموند ينبع لارتباطه الطويل بأديمار، وإذا كان للرسول الإلهي الذي كشف عن موضع الرمح أن يناقش رأي أديمار، وينكر السياسة التي ورثها منه ريموند، والتي تتناسب مع أراء ريموند الخاصة به، فلا بد له من ألا يعتمد على ما تضيفه عليه صداقته لأديمار، ومن ثم بدأ يحاور ويداور؛ فبينما ظل مخلصا لاعتقاده في الرمح أظهر تشككه في أن رؤى بطرس بارثولوميو ما تزال صحيحة. فعلى الرغم من كلمات القديس أندرو فهو ما يزال يؤكد، ومعه آخرون، أن أنطاكية ينبغي أن تعطى للإمبراطور. ونتيجة لذلك وجد نفسه في موقف يعارضه أغلب جنوده.

وتولد انطباع سيئ في صفوف عامة الجيش من جراء الهجوم على أديمار بعد وفاته. وهذا الهجوم وإن كان بمثابة إعلان عن عدم إيمان المندوب البابوي بالرمح فإنه أحيا الشكوك التي راودت الكثيرين في بادئ الأمر. وبدأ النورمانديون والفرنسيون الشماليون بوجه خاص — وهم دائمو الكراهية لأبناء بروفانس — يشجبون الرمح ويستخدمون فضيحة التزوير لتكذيب الكونت ريموند ومخططاته. وبدفاعهم عن سمعة أديمار، استطاعوا العمل ضد السياسة التي كان ريموند يدافع عنها وما تنطوي عليه من إيمان بالرمح. ولنا أن نفترض أن بوهيموند كان مستمتعا بهذا الموقف (١).

مسألة اللاذقية

وبانتشار الوباء في أنحاء أنطاكية لجأ قادة الصليبيين إلى مناطق أخرى من البلاد .

(١) Raymond of Aguilers, XIII, pp. 262-4 ويبدو أن بوهيموند قد بدأ في ذلك الوقت تقريبا يلقي

ظلال الشك على أصالة الرمح (Radulph of Caen, loc. cit.)

فغير بوهيموند جبال الأمانوس إلى داخل كيليكيا حيث عزز الحاميات التي تركها تانكريد هناك في الخريف الفائت والتي رحبت به، وكان في نيته أن تضم إمارته الأنطاكية مقاطعة كيليكيا. وذهب جودفري شمالا إلى مدينتي تل بشير ورواندان اللتين سلمهما له أخوه بالدوين، وكان جودفري غيورا من نجاح أخيه، وكان يود أن يكون له نصيبه من الأراضي بالقرب من أنطاكية شأنه شأن غيره من الأمراء، ولذلك ربما تعهد بإعادة المدينتين إلى أخيه بالدوين إذا ما سار الجيش إلى فلسطين. وأما تحركات ريموند فليست أكيدة. بينما ذهب روبرت النورماندي إلى اللاذقية. (١)

وكانت اللاذقية قبل الغزو التركي هي أقصى ميناء جنوبي للإمبراطورية البيزنطية، واستولى عليها الأتراك سنة ١٠٨٤ ميلادية، لكنها خضعت فيما بعد لأمر شيزر العربي، وفي خريف ١٠٩٧ ميلادية هبط جوينيمير أوف بولونيا على الميناء واستولى عليه وبقيت حاميته هناك إلى ما بعد الشتاء. ولكن حدث في مارس (آذار) أن أبحر أسطول إديجار أثلنج بعد تفريغ إمدادات الصليبيين في السويدية إلى اللاذقية وطرد رجال جوينيمير واستولى على المدينة باسم الإمبراطور، لكنه لم يستطع أن يترك فيها سوى فصيلة صغيرة لحمايتها، ولذا تلقى الجيش الصليبي نداء لاستكمال الدفاع، فما أن تم الانتصار على كربوقا حتى ذهب روبرت النورماندي ملبيا النداء حيث سلمت إليه اللاذقية توطئة لتسليمها إلى الإمبراطور. على أن مفهوم الحكم لم يكن يعني لروبرت سوى جباية أكبر قدر ممكن من الأموال من المحكومين، وبذا بات حكمه ممقوتا من عامة الناس حتى أجبر على ترك المدينة بعد أسابيع قليلة، والآن جاءها حامية مرسلة من إيوستاسيوس فيلو كاليبس حاكم قبرص التابع للإمبراطور. (٢)

(١) Raymond of Aguilers, XIII, p. 262; Albert of Aix, v, 4, p. 435, 13, pp. 440-1

(٢) عن مسألة اللاذقية أنظر :

Chalandon, *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène*, pp. 205-12, and :==

وفي سبتمبر (أيلول) خفت وطأة الوباء وعاد الأمراء إلى أنطاكية حيث اجتمعوا في الحادي عشر من الشهر لوضع مسودة خطاب إلى البابا إيربان ببيان تفصيلات الاستيلاء على أنطاكية ونبأ وفاة مندوبه البابوي. وشعورا منهم بالحاجة إلى سلطة عليا تسيطر على الفرق المتنازعة استحثوه على أن يأتي بنفسه إلى الشرق مؤكدين أن أنطاكية دائرة أسقفية أسسها القديس بطرس، وباعتباره وريثا للقديس بطرس فينبغي تنصيبه فيها، كما ينبغي له زيارة المدينة المقدسة ذاتها، وهم على استعداد لأن ينتظروا

== David, *Robert Curthiose*, pp. 230 ff., and :

Albert of Aix, VI, 45, pp. 500-1.

ويقول هذا الأخير (ألبرت أوف آيكس) إن Guynemer أخذ اللاذقية من الأتراك في خريف سنة ١٠٩٧م واحتفظ بها باسم ريموند التولوزي Raymond of Toulouse ويقول Orderic Vitalis إن Edgar Atheling والإنجليز أخذوها من الإمبراطور ، في وقت ما من أوائل عام ١٠٩٨م ، وعهدوا بها إلى روبرت النورماندي (loc. cit. on p. 228n 1). أما David, *loc. cit.* فيكذب قصة ألبرت ويقول إن الإنجليز لابد وأن أخذوها مباشرة من الأتراك وأن روبرت كان هناك في شتاء عامي ١٠٩٧-١٠٩٨م. ويخبرنا ريموند أوف أجيليه أن روبرت كان غائبا عن أنطاكية في وقت الحملة في ديسمبر ١٠٩٧م . غير أنه من المشكوك فيه ما إذا كان الإنجليز قد جاءوا أمام الساحل السوري قبل شهر مارس . ويقول Radulph of Caen إن روبرت ذهب إلى اللاذقية ، التي كانت خاضعة لحكم الإمبراطور ، في وقت فرار ستيفن أوف بلوا (LVIII,p.649) . غير أنه اشترك في المعركة ضد كبريوقا بعد ذلك بأيام قليلة ، في الوقت الذي تؤكد كافة المصادر وجوده . ويقول Nogent (xxxvii, Guibert of p. 254) إن روبرت كان قد حكم اللاذقية ذات مرة لكنه نفي بسبب ظلمه في الجباية المالية . وقد أوردت أنا الرواية التي أظنها مقنعة بأقصى درجة .

حضوره قبل أن يواصلوا المسير إلى فلسطين. (١) وتصدر اسم بوهيموند قائمة أسماء الأمراء، وأغلب الظن أن كاتم أسرارهم هو الذي كتب الخطاب. ويظهر أثر غياب المندوب البابوي فيما ألحق إليه ضمنا من نبذ لحقوق البطريق جون وفي الإشارة العدائية إلى الطوائف المسيحية الوطنية التي اهتمت بأنها طوائف هرطيقية. ولم يتوقع الصليبيون أن يتمكن البابا من الارتحال إلى الشرق، لكن هذه الدعوة مكنتهم مرة أخرى من تأجيل البت في مصير أنطاكية، فسيرسل البابا بلا شك مندوبا بابويا آخر يكون مشغولا عن القرار. ومن الواضح أن الإمبراطور لن يتوغل داخل سوريا في ذلك الفصل من العام، وربما علموا بانسحابه من فيلوميليوم.

غارات الصليبيين

وساءت أحوال الجنود والحجاج إلى حد بعيد. فلم يكن هناك حصاد لأية محاصيل في سهل أنطاكية بسبب الحرب وما يزال الطعام ناقصا. وبدأ ريموند في تنظيم غارات على أراضي المسلمين تهدف إلى الحصول على الطعام، وقبل أن يستقر عزمه على ما يهدف إليه دعاه جودفري ليشترك معه في حملة على مدينة أعزاز الواقعة على الطريق الرئيسي الذي يصل بين الرها وتل بشير وبين أنطاكية، وكان عمر - أمير أعزاز - في حالة تمرد على سيده رضوان الحلبي الذي كان في طريقه لمعاقبته، وكان أحد قادة عمر قد سبى سيدة فرنجية وأحبها، وهي أرملة أحد فرسان اللورين، واقترحت عليه أن يستنجد بجودفري لمساعدته، واستجاب جودفري مبتهجا؛ فكان يقلقه أن تبقى مدينة أعزاز تابعة لرضوان. وقد قبل ريموند دعوة جودفري لمساعدة عمر وأصر على تسليم ابن عمر كرهينة، كما أرسل بالدوين جنودا من الرها. وباقترب الجيش المسيحي انسحب رضوان من أعزاز وثبت جودفري عمرا على المدينة بعد تقديمه الولاء، وتمكن ريموند من جمع المئون من الجوار ولكنه منى بخسائر جسيمة من جراء الكمائن التركية التي نصبت في طريق عودته. وتدل هذه الواقعة على استعداد أمراء

(١) خطاب الأمراء إلى إيربان الثاني في 5-161. Hagenmeyer, op. cit.

المسلمين للاستعانة بمساعدة الفرنجة في خلافاتهم بين بعضهم البعض. ليس هذا وحسب، وإنما تدل أيضا على أن الفرنج على استعداد لقبول أمراء تابعين لهم من بين المسلمين، معدلين بذلك عقيدتهم المسيحية المتشددة. (١)

وعلى الرغم مما أبلغ به بطرس بارثولوميو من أن القديس أندرو طلب مرة أخرى تبكير الرحيل إلى القدس، انطلق ريموند في أكتوبر (تشرين الأول) في غارة أخرى للحصول على المؤن. وكان ريموند قد احتل بالفعل بلدة روحة الواقعة على نهر العاصي على بعد حوالي ثلاثين ميلا من أنطاكية، ومن هناك هاجم مدينة السيرة الواقعة إلى الجنوب الشرقي، واستسلم سكانها — وكلهم من المسلمين — لكنهم إما قتلوا أو بيعوا عبيدا في أنطاكية، وأعيد تسكين المسيحيين في المدينة وحول المسجد إلى كنيسة، وعين ريموند أحد قساوستها بطرس أوف ناربون أسقفا للمدينة مما أدخل البهجة على جيشها، وقد تم هذا التعيين لأنه لم تكن توجد أسقفية أرثوذكسية رسمية في المدينة، ولم يكن أحد يتصور حتى ذلك الحين إمكان حدوث صدع بين الكنيستين اليونانية واللاتينية يؤدي إلى ازدواجية الأسقفية. ورغم أن الأسقف الجديد كان لاتينيا فقد رسمه بطريق أنطاكية اليوناني جون، وقد كان رفع بطرس أوف ناربون إلى درجة الأسقفية علامة على بدء وجود كنيسة لاتينية مقيمة في الشرق، كما كان بمثابة تشجيع للبعض من الصليبيين من أمثال بطرس بارثولوميو التواقين إلى استبدال رجال الكنيسة اليونانية المحليين بغيرهم من اللاتينيين (٢).

(١) Raymond of Aguilers, XIII, pp. 264-5; Albert of Aix, v, 5-12, p. 435-40; Kemal ad-Din, *op. cit.* p.586

(٢) Raymond of Aguilers, XIV, p. 266; *Gesta Francorum*, x, 31, pp.36-8 . ويقول

تاريخ جستا فرانكورام إن الأسقف قد جرى به إلي أنطاكية لرسامته .

وفي المناقشات التي أعقبت هزيمة كربوقا تعهد الأمراء بالانطلاق إلى القدس في نوفمبر (تشرين الثاني)، وفي أول هذا الشهر بدءوا يتجمعون في أنطاكية لمناقشة خططهم. فجاء ريموند من البرة بعد أن ترك فيها أغلب جنوده، وجاء جودفري من تل بشير وقد أحضر معه رعوس جميع الأسرى الأتراك الذين أسرهم في سلسلة من الغارات الصغيرة في المقاطعة. وكان كونت فلاندرز ودوق نورماندي في أنطاكية بالفعل، ووصل بوهيموند — الذي كان مريضا في كيليكيا — بعد ذلك بيومين. وفي اليوم الخامس من نفس الشهر اجتمع الأمراء ومستشاروهم في كاتدرائية القديس بطرس، واتضح على الفور عدم وجود اتفاق بينهم؛ إذ افتتح أصدقاء بوهيموند الاجتماع بالمطالبة بأن تكون أنطاكية له، فالإمبراطور لن يأتي، وبوهيموند رجل يتصف بالمقدرة، وهو الصليبي الذي يخشاه الأعداء أشد ما يخشون. ورد ريموند الحجة بأن ذكر المجلس في حدة بقسم الولاء للإمبراطور الذي أقسمه الجميع باستثناءه هو، وكان معروفا أن جودفري وروبرت أوف فلاندرز يؤيدان بوهيموند في مطلبه لكنهما لم تتوفر لديهما الجرأة على الجهر بذلك خشية اتهامهما بالحنث باليمين، واستمر الجدل عدة أيام نفذ محلاها صبر الجنود والحجاج الذين كانوا ينتظرون إعلانهم؛ فلم يكن لهم سوى رغبة واحدة وهي تنفيذ العهد التي قطعوها على أنفسهم والوصول إلى القدس. وكانوا تواقين إلى مغادرة أنطاكية التي تأخروا فيها طويلا وعانوا منها كثيرا. وحثهم بطرس باثولوميو والرؤى التي تأتيه فقدموا إلى رؤسائهم إنذارا يعكس احتقارهم لطموحات كل من بوهيموند وريموند وقالوا فيه إن من يرغب في التمتع بخيرات أنطاكية فليمتع بها، ومن يتطلع إلى هدايا الإمبراطور فلينتظر مجيئه، أما هم فإنهم سائرون إلى القدس، وإذا ما استمر قادتهم في المماحكة حول امتلاك أنطاكية فسوف يدمرون أسوارها قبل رحيلهم ويسوونها بالأرض. وفي مواجهة هذا الموقف خشى القادة الأكثر اعتدالا أن يلجأ ريموند وبوهيموند إلى السلاح، فاقترحوا إجراء مناقشة يسودها الود يشترك فيها الأمراء الرئيسيون فقط دون غيرهم. وبعد أن شهد الاجتماع المزيد من المشاهد الغاضبة

توصلوا إلى اتفاق مؤقت؛ وأعلن ريموند أنه يوافق على القرارات التي يتوصل إليها المجلس في نهاية الأمر بشأن أنطاكية شريطة أن يقسم بوهيموند على مصاحبة الحملة الصليبية إلى القدس، بينما أقسم بوهيموند أمام الأساقفة على عدم تأخير الحملة الصليبية أو الإضرار بها من أجل طموحاته الشخصية. وهكذا لم تحسم مسألة أنطاكية ولكن بقيت القلعة وثلاثة أحياء من المدينة في حوزة بوهيموند، بينما ظل ريموند يسيطر على الجسر المحصن وقصر ياغي سيان وعهد بأمرهما إلى وليم إرمنجار. ولم يحدد المجلس تاريخاً للانطلاق إلى القدس وإنما — لكي يشغل الجنود في تلك الأثناء — قرر مهاجمة مدينة معرة النعمان الحصينة، فمن المستصوب إخضاعها لحماية مسيرة الجيش عندما يتقدم جنوباً باتجاه فلسطين. (١)

الهجوم على معرة النعمان

وفي الثالث والعشرين من نوفمبر (تشرين الثاني) خرج ريموند وكونت فلاندرز إلى روحة والبرة ووصلوا إلى أسوار معرة النعمان في السابع والعشرين. وفشلت محاولة الهجوم على المدينة صباح اليوم التالي، وعندما وصل بوهيموند وجنوده بعد ظهر ذلك اليوم فشل الهجوم الثاني كذلك، فقرر اتباع طريقة الحصار المعتادة ولم يكن هناك أي تقدم طوال أربعة عشر يوماً رغم إحكام الحصار. فراح الصليبيون يطوفون في الأراضي المجاورة بحثاً عن أخشاب يصنعون منها آلات الحصار. وتناقص الطعام، فتركت فصائل من الجيش مواقعها للبحث عن الحبوب والخضر. وأخيراً، وفي الحادي عشر من ديسمبر (كانون الأول)، وبعد أن أعلن بطرس بارثولوميو أن النجاح وشيك، دفعوا إلى أحد

(١) Raymond of Aguilers, XIV, pp. 267-8; Gesta Francorum, x, 3, pp. 168-70;

Historia Belli Sacri, xcii, p. 208

أبراج المدينة بحصن خشبي ضخيم على عجلات بناه رجال ريموند وكان أمره وليم أوف مونتبلية. وفشلت محاولتهم تسلق البرج من الحصن الخشبي لكنهم تمكنوا من نسف جدار البرج الملاصق للحصن الخشبي الذي وفر لهم الحماية، وفي المساء انهار جدار البرج وتمكن عدد من صغار الجنود من شق طريقهم إلى داخل المدينة وبدءوا السلب والنهب. وفي تلك الأثناء شعر بوهيموند بالغيرة من نجاح ريموند، وأراد تكرار ضربته الموفقة في أنطاكية فأرسل مناديا ينادي في المدينة أنه إذا استسلمت له المدينة فسوف يحمى أرواح جميع المدافعين إذا لجأوا إلى القاعة الكبيرة بالقرب من البوابة الرئيسية. وحمد القتال أثناء الليل، ورأى الكثير من أبناء المدينة أن الدفاعات قد اخترقت فحصنوا منازلهم وصهاريج مياههم، لكنهم عرضوا دفع ضريبة يفتدون بها أرواحهم، وهرب آخرون إلى القاعة التي أشار إليها بوهيموند. بيد أنه عندما استؤنف القتال في الصباح التالي لم يتبق أحد منهم على قيد الحياة؛ فقد اندفع الصليبيون إلى داخل المدينة وهم يجهزون على كل من يقابلهم واقتحموا المنازل ونهبوها ثم أحرقوها، أما الذين لجأوا إلى القاعة معتمدين على حماية بوهيموند فقد ذبح الرجال وبيع النساء والأطفال عبيدا.

وأثناء الحصار تعذر التعاون بين جنود بوهيموند وريموند إلا بصعوبة. وبعد استيلاء بوهيموند — بخيانتة — على النصيب الأعظم من الغنائم، رغم أن جيش ريموند هو الذي استولى على المدينة. تفجرت العداوة مرة أخرى بين الفرنسيين الجنوبيين وبين النورماندين. وطالب ريموند بالمدينة ورغب في وضعها تحت إمرة أسقف البيرة، لكن بوهيموند لم يكن ليحلو عن المدينة إلا إذا تخلى ريموند عن المنطقة التي يحتلها في أنطاكية. وكهجوم مضاد، بدأ يتساءل علانية عن صحة الرؤى التي جاء بها بطرس بارثولوميو.

وفي تلك الأثناء تزايد السخط في الجيش كله، لاسيما بين جنود ريموند الذين طالبوا باستئناف المسير إلى القدس. وفي يوم عيد الميلاد تقريبا قابل ريموند ممثلون عن

الجنود، أوضحوا له أنهم سوف يعترفون به قائدا للحملة الصليبية كلها إذا ما قام بتنظيم رحيلها، وشعر ريموند بعدم استطاعته الرفض، وبعد ذلك بأيام قليلة غادر معرة النعمان إلى روحة معلنا أن الحملة على وشك الرحيل إلى فلسطين، وعلى الأثر عاد بوهيموند إلى أنطاكية، وتركت معرة النعمان بين يدي أسقف البرة. (١)

على أن ريموند تأخر بعد إعلانه هذا، إذ لم يسعه الرحيل جنوباً تاركاً أنطاكية في يد بوهيموند. وربما رأى بوهيموند أنه كلما تردد ريموند ازداد جنوده تمرداً، وكان يعرف أن الإمبراطور لن يهبط عبر آسيا الصغرى خلال شهور الشتاء، فاقترح تأجيل الحملة إلى عيد الفصح. ولكي يحسم ريموند الأمر استدعى جميع الأمراء لمقابلته في روجة حيث حاول شراءهم ليقبلوا قيادته؛ ويفترض أن تتناسب المبالغ التي عرضها مع ما لكل منهم من قوة، فعرض على جودفري عشرة آلاف سو، ونفس المبلغ لروبرت النورماندي، وستة آلاف لروبرت أوف فلاندرز، وخمسة آلاف لتانكريد، ومبالغ أقل للزعماء الأقل، ولم يعرض شيئاً على بوهيموند، وكان يأمل بذلك في تنصيب نفسه رئيساً بلا منازع للحملة الصليبية، وبالتالي يستطيع كبح جماح بوهيموند، إلا أن عروضه قوبلت ببرود شديد. (٢)

وبينما كان الأمراء مؤتمرين في روجة قام الجيش بعمل مباشر في معرة النعمان؛ فقد كان يعاني التضور جوعاً بعد أن استنفدت إمدادات الجوار كلها، وبدأ أن الحل الوحيد هو أكل لحوم البشر. وحتى الأتراك تأثروا غاية التأثير لإصرار الجيش على أكل لحوم البشر في هذه الظروف ويعلق المؤرخ ريموند أوف أجيليه في حزن وأسى قائلاً: "لقد علمنا بموقف الأتراك بعد فوات الأوان بحيث لم نستطع الاستفادة به".

Raymond of Aguilers, XIV, pp. 267-70; *Gesta Francorum*, x, 33, pp. 172-7; (١)

Ibn al-Qalanisi, *Damascus Chronicle*, pp.46-7; Ibn al-Athir, *op. cit.* pp. 196-7

Raymond of Aguilers, XIV, p.271; *Gesta Francorum*, x, 34, p. 178. See (٢)

ومات أسقف أورانج نتيجة هذه الصعاب وكان له بعض النفوذ على أبناء بروفانس. وأخيرا، صمم الرجال على تدمير أسوار معرة النعمان — رغم اعتراضات أسقف البيرة — لإجبار ريموند على الرحيل. ولم يكدر ريموند يسمع بذلك حتى أسرع عائدا إلى المدينة، لكنه أيقن من عدم إمكان التأجيل أكثر من ذلك. (١)

جيش ريموند ينطلق إلى القدس

وفي الثالث عشر من يناير (كانون الثاني) سنة ١٠٩٩ ميلادية خرج ريموند ورجاله من معرة النعمان لمواصلة الحملة الصليبية. وسار الكونت عاري القدمين على النحو الذي يليق بقائد الحج، وتأكيدا منه لعدم العودة ترك المدينة تأكلها النيران. وكان معه كل الأمراء التابعين له، كما رحل معه أسقف البيرة، وريموند بيليت — وهو لورد مدينة تل مناس — بعد أن هجرا مدينتيهما، وأما الحامية التي كان يحتفظ بها في أنطاكية تحت إمرة وليم إرمينجار فلم تستطع الصمود أمام بوهيموند، لذا أسرعت وراءه. ولم يخرج أحد للحاق به من أقرانه الأمراء سوى روبرت النورماندي يصحبه تانكريد الذي كان بوهيموند بلا شك يريد أن يراقب مصالح النورماندين الإيطاليين في الحملة الصليبية. وتردد كل من جودفري أوف لورين وروبرت أوف فلاندرز قرابة شهر إلى أن أجبرهما الرأي العام على اللحاق بالحملة، على أن بالدوين وبوهيموند بقيا في الأراضي التي استوليا عليها. (٢)

وهكذا، بدا أن الخلاف بين الأميرين العظيمين قد وجد حلا. وأصبح ريموند الآن قائد الحملة الصليبية بلا منازع، لكن بوهيموند امتلك أنطاكية.

(١) Raymond of Aguilers, XIV, pp. 270-2; Gesta Francorum, x, 33-4, pp. 176 - 8

(٢) Raymond of Aguilers, XIV, p. 272; Gesta Francorum, x, 34, p. 180 وكان صاحب

الباب الخامس

أرض الميعاد

الفصل الأول

الطريق إلى القدس

الطريق إلى القدس

"وَالآن اذْهَبِ اهْدِ الشَّعْبَ إِلَى حَيْثُ كَلَّمْتُكَ"

(سفر الخروج: ٣٢ : ٣٤)

عندما كتب ستيفن أوف بلوا لزوجته من نيقية معرباً عن مخاوفه من احتمال تأخر الحملة الصليبية في أنطاكية، لم يكن يحلم البتة بطول الفترة التي سيستغرقها التأخير؛ إذ انقضت خمسة عشر شهراً منذ وصول الجيش إلى أسوار المدينة. وحدثت خلال هذه الفترة تغيرات هامة في العالم الإسلامي؛ إذ كان الفاطميون في مصر قبل بداية الحملة الصليبية قد أفاقوا — كشأن البيزنطيين — من الصدمة الأولى الناتجة عن الاكتساح التركي، وكانوا يأملون — كشأن البيزنطيين كذلك — في استخدام الحملة الصليبية لتعزيز أنفسهم بعد أن أفاقوا. وكان الحاكم الفعلي لمصر هو الشاهنشاه

الأفضل الذي خلف والده الأرميني بدر الجمالي الذي تحول من المسيحية إلى الإسلام كوزير للخليفة الصبي المستعلي. ولم تحقق سفارة الأفضل إلى معسكر الصليبيين في أنطاكية أية نتائج، ورجع سفراء الفرنج إلى القاهرة مع مبعوثيه، ولكن سرعان ما اتضح أنهم لم يكونوا مخولين في أن يتفاوضوا على أي تحالف، وأن الصليبيين — البعيدين كل البعد عن تقديم العون طوعية للمصريين لاستعادة فلسطين — ينوون هم أنفسهم الزحف إلى القدس. ولذا عقد الأفضل العزم على الاستفادة من الحرب الدائرة شمالي سوريا. فما أن سمع بهزيمة كربوقا في أنطاكية، وتحقق من أن حالة الأتراك في سائر أنحاء آسيا تحول دون مقاومتهم لهجوم جديد، حتى غزا فلسطين التي كانت ما تزال في أيدي ابني أرتق، سقمان والغازي، اللذين اعترفا بسيادة دقاق الدمشقي. وبينما كان الأفضل يتقدم، كانا يتقهقران خلف أسوار القدس لعلمهما أن دقاق لا يستطيع أن يخفّ لنجدتهما على الفور، وكان يراودهما الأمل في أن تمكنهما التحصينات العظيمة للقدس إلى جانب القدرة القتالية لجنودهما التركمان من الصمود إلى أن تصل النجدة. وكان جيش الأفضل مجهزاً بأحدث آلات الحصار التي تضم أربعين منجنيقاً، لكن ابني أرتق قاوما لأربعين يوماً إلى أن دُكت الأسوار أخيراً واضطر الأخوان إلى التسليم، وسمح لهما بالعودة إلى دمشق مع رجالهما، ومن هناك واصلا مسيرتهما ليلحقا بأبناء عمومتهما في المنطقة المحيطة بديار بكر. ثم احتل المصريون فلسطين كلها، وبحلول الخريف كانوا قد حددوا حدودهم عند ممر نهر الكلب على الساحل جنوبي بيروت، وفي ذات الوقت قاموا بترميم دفاعات القدس.^(١)

^(١) 197-8. *Ibn Al-Athir, op. cit* pp. 197-8. أنظر مقال "القدس Al Kuds" الذي كتبه Buhl

ومقال "سقمان بن أرتق Sukman Ibn Ortok" الذي كتبه Zettersteen في دائرة المعارف

الإسلامية *Encyclopædia of Islam*.

الأمراء السوريون

وفي شمال سوريا ابتهجت جميع الأسر المالكة العربية المحلية لانهيار القوة التركية. وكانوا على استعداد للتفاوض مع الفرنج. بل إن أمير حماه وهو في نفس الوقت حمو رضوان، وكذلك أمير حمص، وهما صاحبا البلاء الحسن في القتال مع كربوقا، تخليا عن أي تفكير في مقاومة الفرنج. وكانت العائلتان الأكثر أهمية للصليبيين هما العائلتين العربيتين البارزتين: عائلة المنقذين في شيزر، وعائلة بني عمار في طرابلس؛ فكانت الأولى تسيطر على البلاد الواقعة أمام الصليبيين مباشرة من نهر العاصي إلى الساحل، وكانت الثانية تسيطر على الخط الساحلي الممتد من أواسط لبنان إلى حدود الفاطميين. فإذا أراد الصليبيون التقدم فإن صداقتهما، أو على الأقل حيادهما، يعتبر شيئاً أساسياً لتقدم الحملة الصليبية.^(١)

وسار ريموند من معرة النعمان إلى كفر طاب التي تبعد حوالي اثني عشر ميلاً إلى الجنوب حيث انتظر حتى السادس عشر من يناير (كانون الثاني) يجمع المئون لإعادة تموين جنوده، وحيث لحق به تانكريد وروبرت النورماندي. وجاءه هناك سفراء من شيزر التي يعرض أميرها تقديم المرشدين والمئون الرخيصة في حالة عبورهم أراضيهم بسلام، فقبل ريموند العرض. وفي السابع عشر سار مرشدو الأمير بالجيش عبر نهر العاصي بين شيزر وحماه وقادوه أعلى وادي سروت. وكانت كل قطعان الماشية في المقاطعة قد أخفيت في أحد الأودية الملاصقة لوادي سروت، وبطريق الخطأ اقتاد أحد المرشدين الفرنج إلى هذا الوادي، ولم يكن الرعاة والقرويون المحليون من القوة بحيث يمنعون الفرنج من مواصلة الاستيلاء على البهائم. وفضل قائد الحصن الذي يسيطر على

^(١) أنظر مقال "شيزر Shizar" الذي كتبه Honigmann ، ومقال "ابن عمار Ibn Ammar" الذي

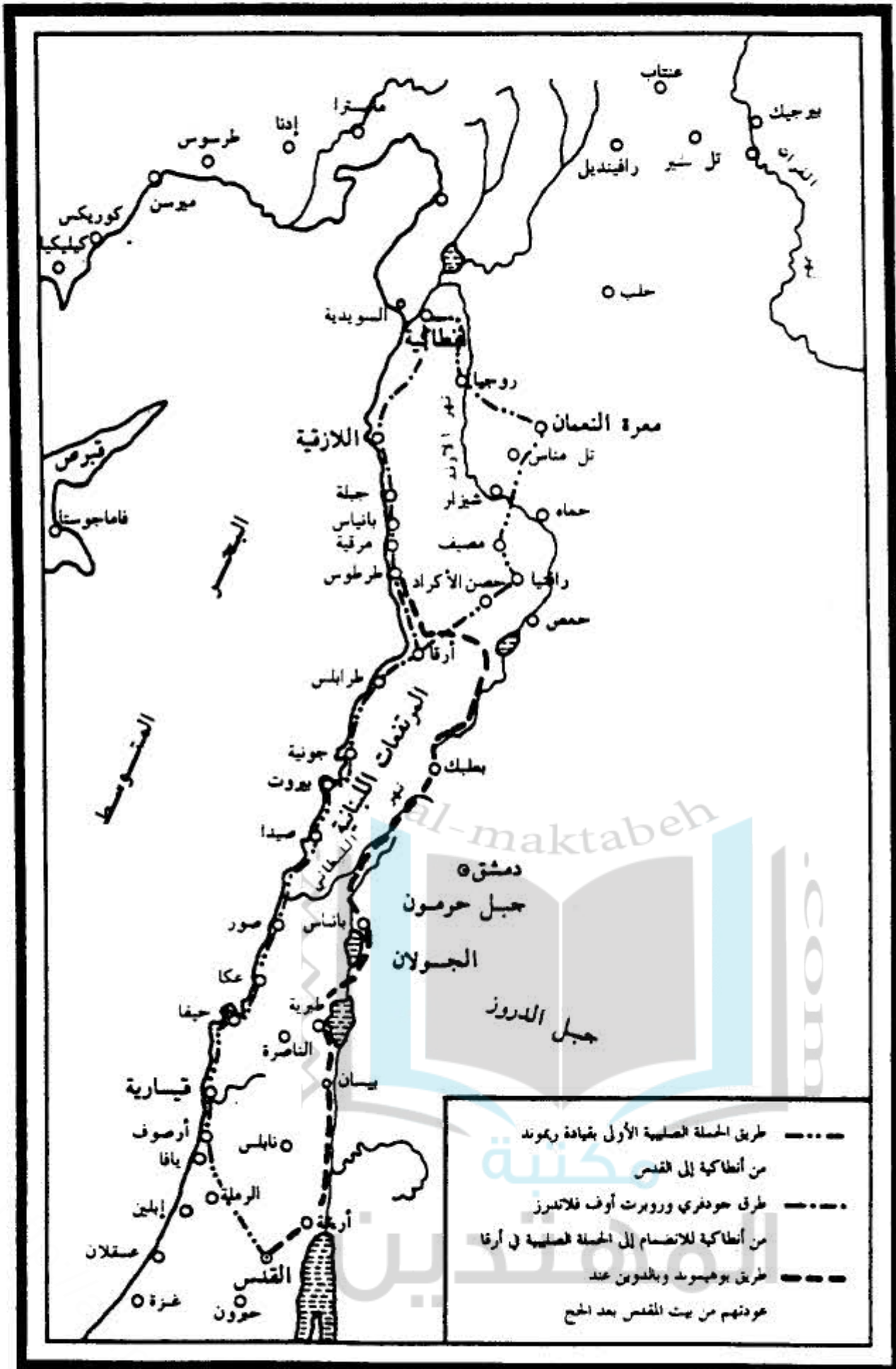
كتبه Sobrnhelm ، في دائرة المعارف الإسلامية *Encyclopedia of Islam*.

الوادي أن يشتري سلامته، وكانت الغنائم من الكثرة بحيث ذهبت أعداد من الفرسان إلى شيزار وحماه لبيع الفائض منها في مقابل خيول الأحمال التي اشتروا منها ألفاً. لقد اختارت السلطات العربية السماح لهم بدخول مدنها والتسوق فيها.^(١)

وبينما كان الصليبيون يجمعون هذه الإمدادات اجتمع ريموند بقواد جيشه لمناقشة الطريق الذي سيسلكونه. وكان ريموند نفسه يؤيد الرأي القائل بأنه ينبغي للجيش أن يتجه إلى الغرب عبر سلسلة جبال النصيري ليصل إلى الساحل بأقصى سرعة ممكنة، لاسيما وأن ميناء اللاذقية في أيدي المسيحيين بالفعل، وطالما ظلّ في طريق الساحل فسوف يكون على اتصال بأنطاكية ويستطيع الحصول على الإمدادات من السلطات البيزنطية في قبرص وهو على علاقة حسنة بها. على أن تانكريد أشار إلى ضرورة الاستيلاء على جميع القلاع الكبيرة الواقعة على الساحل لضمان سلامة الطريق. وكانت القوة القتالية للجيش الآن لا تتجاوز ألف فارس وخمسة آلاف من المشاة، فكيف يتسنى لهذه القوة أن تقوم بأعمال الحصار الحربي؟ لذلك استحثهم تانكريد على المضي إلى القدس مباشرة لتجنب ضرورة الاستيلاء على القلاع الساحلية، وبعد الاستيلاء على القدس سوف تجلب أنباء الانتصار مزيداً من الجنود من أوروبا. ليس هذا وحسب، وإنما لن تقاوم مدن أخرى مثل طرابلس، وصور وعكا، وعارضه آخرون بحجة أن كل البلاد الواقعة بين لبنان والصحراء في حوزة دقاق الدمشقي الذي سوف يتصدى بلا شك لتقدم الصليبيين على خلاف الأمراء العرب الصغار. وأخيراً تقرر الانطلاق في طريق الساحل إلى الجنوب خلال وادي البقاع الواقع بين جبال النصيري ولبنان، وهو أيسر السبل الموصلة من داخل سوريا إلى البحر، كما تقرر استغلال أقل وقت ممكن في إخضاع القلاع المعادية.^(٢)

Raymond of Aguilers, xiv, pp. 272-3; *Gesta Francorum*, x, 34, pp. 180-2. ^(١)

Raymond of Aguilers, xiv, p. 273. ^(٢)



خريطة رقم (٥) : سوريا في وقت الحملة الصليبية الأولى

الصليبيون في حصن الأكراد

وفي الثاني والعشرين من يناير (كانون الثاني) وصل الصليبيون إلى مدينة مصيف التي سارع حاكمها بإبرام معاهدة معهم. ومنها اتجهوا إلى جنوب الجنوب الشرقي ليتجنبوا منطقة الحلو الجبلية، وفي اليوم التالي وصلوا مدينة الرفعانية فوجدوا أهلها قد هجروها، لكنها كانت مليئة بالإمدادات من كل نوع، فبقوا فيها ثلاثة أيام ثم نزلوا إلى سهل البقاع الذي تسيطر عليه قلعة حصن الأكراد الضخمة المشيدة على المرتفع الذي توجد فيه الآن أطلال حصن الفرسان (كرك دي شيفالييه). وجمع السكان المحليون قطعانهم كلها للاحتماء داخل أسوار القلعة. ولضرورات التموين — وليس لأهداف استراتيجية — قرر الصليبيون الاستيلاء عليها، فهاجموا التحصينات في الثامن والعشرين من يناير (كانون الثاني)، ولكن المدافعين كانوا مدركين لعاداتهم، ففتحوا إحدى البوابات وأخرجوا منها بعضاً من بهائمهم، فانصرف الفرنج إلى الإمساك بكل هذه الغنيمة حتى تبعثروا، وخرجت من القلعة قوة لم تحل دون تجمعهم وحسب، بل كادت أن تأسر الكونت ريموند نفسه بعد أن تركه حراسه. وشعر الفرنج بالعار بعدما انطلت الحيلة عليهم، فخططوا لشن هجوم جاد في اليوم التالي، لكنهم حينما وصلوا إلى الأسوار اكتشفوا أن السكان هجروا القلعة أثناء الليل، وما تزال فيها غنيمة كبيرة، فأقام الجيش ثلاثة أسابيع أجرى خلالها المزيد من المناقشات حول الإستراتيجية، واحتفلوا داخل القلعة بعيد التطهر.^(١)

وأثناء إقامة ريموند في حصن الأكراد جاءه مبعوثون من أمير حماه محملين بالهدايا ووعدوه بعدم مهاجمة رجاله، وتبعهم مبعوثون من أمير طرابلس (جلال الملك أبو الحسن) من آل بني عمار، وهي أسرة مشهورة بثقافتها أكثر من شهرتها بفنون

(١) ^(المرجم): عيد التطهر: تقدم المسيح في المعبد بعد إكمال تطهير العذراء (أنظر إنجيل لوقا، الإصحاح

الثاني: ٢٢).

القتال. وقد تمكن هذا الأمير من الحفاظ على استقلال إمارته بالوقية بين السلاجقة والفاطميين. وبالنظر إلى تدهور القوة التركية كان على استعداد لتشجيع الفرنج ضد القوة المصرية التي ولدت من جديد. فوجه الدعوة إلى ريموند لإرسال ممثليه إلى طرابلس لمناقشة ترتيبات مرور الحملة الصليبية، وإحضار رايات تولوز لترفف فوق المدينة. وتأثر مبعوثو ريموند إعجاباً بازدهار طرابلس وما حولها تأثراً بالغاً. وبعد عودتهم إلى المعسكر أشاروا عليه بأنه إذا قام باستعراض للقوة أمام إحدى قلاع الإمارة، فسوف يدفع الأمير لا محالة مبلغاً كبيراً ليؤمن باقي المناطق التي يسيطر عليها سلطانه، فأخذ ريموند بنصيحتهم لحاجته إلى المال، وأمر جيشه بمهاجمة مدينة أرقا التي تبعد حوالي خمسة عشر ميلاً من طرابلس حيث يفتح سهل البقاع على الساحل، ووصل أمام أسوارها في الرابع عشر من فبراير (شباط).^(١)

وفي تلك الأثناء كان ريموند متلهفاً على إقامة مواصلات إلى حامية اللاذقية والبحر، فشجع ريموند بيليت، وريموند فيكونت تورين على القيام بهجوم مفاجئ على طرطوس، وهو الميناء الوحيد الملائم على الساحل بين اللاذقية وطرابلس، فأسرعا غرباً ومعهما فصيلة صغيرة ووصلوا أمام أسوار المدينة بعد هبوط ظلام السادس عشر من فبراير (شباط)، وأشعلوا سلسلة من نيران المعسكر حول الأسوار كلها ليلقوا في روع المدينة أن هناك جيشاً أكبر بكثير مما كان في حقيقته. ونجحت الحيلة، إذ أن حاكم طرطوس الذي كان تابعاً للأمير طرابلس تملكه ذعر شديد، فرحل مع حاميته بحراً أثناء الليل، وفي الصباح فتحت أبواب المدينة للفرنج. وعلى أثر أنباء الغزو سارع حاكم مدينة مرقية الواقعة على بعد عشرة أميال إلى الشمال بالاعتراف بسلطان ريموند. وقويت الحملة الصليبية كثيراً باستيلائها على طرطوس التي فتحت لهم طريق مواصلات يسير عبر البحر إلى أنطاكية وقبرص وأوروبا.^(٢)

^(١) Raymond of Aguilers, xiv-xv, pp. 275; *Gesta Francorum*, x, 34, p. 184.

^(٢) Raymond of Aguilers, xv, p. 276; *Gesta Francorum*, x, 34, pp. 184-6.

حصار أرقا

وأثار هذا النجاح غيرة الصليبيين الذين كانوا ما يزالون في أنطاكية ودفعهم إلى اللحاق بريموند في الجنوب. وفي نهاية فبراير (شباط) خرج جودفري أوف لورين، وبوهيموند، وروبرت أوف فلاندرز من أنطاكية إلى اللاذقية، ولكن بوهيموند عاد أدراجه بعد أن خطر له أن من الحكمة، برغم كل شيء، أن يعزز نفسه في أنطاكية خشية أن يسير الإمبراطور باتجاه سوريا في الربيع، أما جودفري وروبرت فقد اتجها إلى ميناء جبلة الصغير لمحاصرته، وأثناء تواجدهما هناك جاءهما أسقف البيرة مرسلا من ريموند راجيا منهما اللحاق به في أرقا.^(١)

ولم يكن حصار أرقا يسير على ما يرام، إذ كانت المدينة محصنة تحصينا قويا وقد استبسل حماتها في الدفاع عنها، ولم يكن جيش ريموند كبيرا بما يكفي لإحاطتها تماما. ولقد كان تحذير تانكريد من أن الجيش ليس في حالة تسمح له بمحاولة غزو الحصون تحذيرا معقولا تماما. لكن ريموند بدأ الحصار ولم يسعه التخلي عنه خشية أن يعاديه أمير طرابلس عداوة صريحة بعد أن يلمس ضعفه. وربما لم يبذل الجنود الجهد الكبير اللازم؛ فالحياة ناعمة في المعسكر، والبلاد المحيطة خصبة، وبدأ المزيد من الإمدادات يصل من طرطوس، مما دفع الجنود إلى التمتع بالاسترخاء لفترة بعد كل ما عانوه. وفي أوائل مارس (آذار) انتشرت شائعة بتجمع جيش إسلامي لنجدة أرقا يقوده خليفة بغداد بنفسه، ثم اتضح أنها شائعة كاذبة، إلا أنها أشعرت ريموند بالخطر مما دفعه إلى استدعاء جودفري وروبرت أوف فلاندرز، فعقدا هدنة مع أمير جبلة الذي قبل سيادتهما وأسرع جنوبا إلى أرقا. واحتفلا بوصولهما بالإغارة على ضواحي طرابلس وبالقيام

^(١) *Gesta Francorum*, x, 35, p. 186; *Albert of Aix*, v, 33, p. 453.

بعدد من الغارات الناجحة الأخرى في البقية لجمع كافة أنواع الدواب بما فيها الجمال.^(١)

وسرعان ما أسف ريموند لوصول زميليه، بعد أن ظل لشهرين القائد الوحيد للحملة الصليبية وبعد أن اعترف تانكريد بسلطته في مقابل خمسة آلاف سو. فأصبح عندئذ مضطرا إلى الاستعانة بخصومه لينصروه، وتركه تانكريد بعد أن تجاهل نصحه واتجه إلى معسكر جودفري قائلا إن ريموند لم يدفع له بما فيه الكفاية. وأظهر كل من روبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي ميلا قليلا للاعتراف بسيادته. كما أنه أثار الاستياء نتيجة محاولته تأكيد حقوقه، ومن ثم بدأت المنازعات. وعندما رأى رجال كل جيش أن قادتهم يتناطحون، حذوا حذوهم ورفضوا أن يتعاونوا مع بعضهم البعض.

وفي وقت مبكر من إبريل (نيسان) تفاقم الجدل بوصول خطابات من الإمبراطور يعلنهم فيها بأنه على أهبة الاستعداد للتوجه إلى سوريا، فإذا كان باستطاعتهم انتظاره حتى نهاية يونية (حزيران) فسيكون معهم في عيد القديس جون ويقودهم إلى فلسطين. ورغب ريموند في قبول هذا العرض، إذ أنه الخليف المخلص للإمبراطور، ولذا يمكنه أن يعول على الدعم الإمبراطوري في مساعدته على إعادة تأكيد سيادته على جيش الفرنج. وهناك الكثير من بين رجاله — مثل ريموند أوف أجيليه — يشعرون بأن وصول الإمبراطور سيوفر للحملة الصليبية — على الأقل — قائدا يقبله جميع الأمراء برغم كراهيتهم الشديدة للبيزنطيين. على أن سواد الجيش قد نفذ صبره انتظارا للتحرك نحو القدس، ولم يكن هناك من الأمراء الآخرين من يرغب في أن يجد نفسه تحت السيادة الإمبراطورية، ولا تستطيع سياسة ريموند أن تحقق أهدافها في مواجهة هذا الرأي العام القوي. وأغلب الظن أن ألكسيوس لم يتوقع مطلقا أن ينتظره الصليبيون، لقد شعر بالاشمئزاز من تصرفهم في أنطاكية، فقرر أن يلتزم جانب الحياد. وليس هذا بالموقف السليبي عند الدبلوماسي البيزنطي، وإنما يعني إقامة علاقات مع الجانبين كي

^(١) *Gesta Francorum*, loc.cit.; Raymond of Aguilers, xvi, pp. 277-8.

يجني الثمار كائنا من يكون المنتصر منهما. فكان على اتصال بالمصريين الذين ربما كاتبوه عندما تقدمت الحملة الصليبية باتجاه أراضيهم ليسألوه ما إذا كانت تلك الحملة لحسابه، فتبرأ في رده من تلك الحركة الصليبية، وكان لديه من الأسباب ما يبرر ذلك، إذ تعلم من سلوك بوهيموند ألا يعتمد على إخلاص الفرنج، ولم يكن مهتما بشكل خاص بفلسطين الواقعة خارج حدود الأراضي التي يأمل في استعادتها للإمبراطورية، والتزامه الوحيد في فلسطين هو التزامه قبل المسيحيين الأرثوذكس باعتباره القوة التي تحميهم. وكان يحق له أن يرى أنه من الأفضل للمسيحيين الأرثوذكس في فلسطين أن يكونوا تحت حكم الفاطميين المتسامحين من أن يكونوا تحت حكم الفرنج الذين أظهروا بالفعل في أنطاكية عداوة واضحة نحو المسيحية المحلية، وفي ذات الوقت لم يكن راغبا في قطع اتصاله بالحملة الصليبية، فرمما تكون ذات نفع للإمبراطورية. وفيما بعد وقعت مراسلاته مع مصر في أيدي الصليبيين الذين صدمهم مراسلاته مع مصر في أيدي الصليبيين الذين صدمهم الدليل على خيائته صدمة عميقة، رغم أن خيانتهم له بدت في نظرهم معقولة وصحيحة تماما، وألقوا عليه اللائمة عندما طالت فترة بقاء سفرائهم المرسلين من أنطاكية في القاهرة.^(١)

وعاد هؤلاء السفراء إلى الجيش في أرقا بعد ذلك بأيام قليلة حاملين معهم عرضا من الفاطميين بتسوية نهائية مفادها أنه إذا تخلت الحملة الصليبية عن أية محاولة لشق طريقها بالقوة في الأراضي الفاطمية، فسوف يسمح لحجاجهم بحرية الوصول إلى الأماكن المقدسة، وسوف تتخذ كل التدابير لتسهيل الحج. وقد رفض هذا العرض في الحال.^(٢)

^(١) Raymond of Aguilers, xvi, p. 277, xviii, p. 286.

^(٢) Raymond of Aguilers, xvi, p. 277; William of Tyre, vii, 19, vol. 1, pt. 1, pp. 305-6.

مسألة الرمح المقدس

ورغم أن الأمراء الآخرين كانوا يرغبون في استئناف المسير، رفض ريموند التخلي عن أرقا دون الاستيلاء عليها. وحسباً للأمر أعلن بطرس بارثولوميو أن المسيح والقديس بطرس والقديس أندرو ظهرُوا له في الخامس من إبريل (نيسان)، وأعلنوا ضرورة الهجوم على أرقا فوراً. وكان سواد الجيش قد بدأ يعمل رؤى بطرس التي اعتبروها حيلة سياسية من اختراع ريموند. وتزعم القس آرنولف أوف روهس التابع لروبرت النورماندي فريقاً من النورماندين الشماليين الذين أعلنوا على الملأ أنهم لا يصدقون بطرس بارثولوميو، بل ويشككون في صحة الرمح المقدس مشيرين إلى أن أديمار أسقف لوبوي لم يقتنع به أبداً. فجمع أبناء بروفانس صفوفهم لمؤازرة بطرس، فذكرهم ستيفن أوف فالنس برؤياه في أنطاكية، كما ذكرهم ريموند أوف أجيليه بأنه قبل الرمح وهو ما يزال مطموراً في الأرض، وأخبرهم قسيس آخر (بطرس دزيريروس) أن أديمار ظهر له بعد موته ووصف له سعي جهنم التي اصطلى بها بسبب تشككه في الرمح، وقال آخر يدعى ايفيرارد إنه عندما كان في زيارة عمل في طرابلس أثناء حصار الأتراك لأنطاكية أخبره أحد السوريين هناك عن رؤيا تحدث فيها القديس مرقس عن الرمح، وذكر أسقف آبت رؤيا جعلته يغير من رأيه بعد أن كان متشككاً، وأعلن برتراند أوف لوبوي الذي كان من حاشية أديمار أن الأسقف أديمار وحامل رايته قد ظهرا له كلاهما في رؤيا ليعترفا له بأن الرمح هو الرمح الأصلي. وفي مواجهة كل هذه الدلائل المؤثرة اعترف آرنولف علانية بأنه قد اقتنع، ولكن أصدقاءه استمروا في إلقاء ظلال الشك على القصة كلها إلى أن طلب بطرس بارثولوميو أخيراً وهو في سورة الغضب أن يُسمح له بالدفاع عن نفسه عن طريق الاحتكام إلى النار^(١).

(١) (المترجم): المحاكمة بالتعذيب Ordeal أو الاحتكام إلى النار: وسيلة لمعرفة ما إذا كان المتهم بريئاً أم مذنباً بإخضاعه لضروب التعذيب الخطر أو المولم، وكان يُظن أن تلك الوسيلة تخضع لتدخل الرب الذي ينجي البرئ من آثارها.

وأيا ما كانت الحقيقة، فمن الواضح أنه يعتقد اعتقادا راسخا في أنه كان يوحى إليه من السماء.

وتم الاحتكام إلى النار في يوم الجمعة الحزين الثامن من إبريل (نيسان)، فلحضروا كمية من الكتل الخشبية ووضعوها في صفين متقابلين بحيث تشكل ممرا ضيقا وأشعلت فيها النيران، وجاء بطرس بارثولوميو وعليه قميصه فقط والرمح في يده، وقفز بسرعة خلال اللهب، ثم برز من الناحية الأخرى وهو محترق احتراقا مرعبا، وأوشك أن يهوي إلى الخلف في النيران لولا أن أمسك به ريموند بيليت، وظل يعاني من الآلام اثني عشر يوما ثم مات متأثرا بجراحه. وأسفر هذا الاحتكام عن تكذيب الجميع لأصالة الرمح كلية، فيما عدا البروفنسال الذين أكدوا أن بطرس مر بسلام خلال النار ولكن المحتشدين المتحمسين دفعوه إلى الخلف في تلهفهم على لمس قميصه المقدس.

وظل الكونت ريموند يحتفظ بالرمح في كنيسة الصغيرة بكل التبجيل.^(١)

الصليبيون أمام طرابلس

وبقى الجيش شهرا خارج أسوار أرقا إلى أن أمكن اقناع ريموند بالتخلي عن الحصار. وأزهقت أرواح كثيرة في القتال منها أنسيلم أوف ربيمو الذي تضمنت

^(١) Raymond of Aguilers, xvii-xviii, pp. 279-88 يؤيد بطرس بارثولوميو

Fulcher of Chartres, 1, xviii, 4-5, pp. 238-41.

Radulph of Caen, cviii, pp.682;

Albert of Aix, v, 13, p.452.

ويتشكك كل من فولشر وألبرت لكنهما يتخذان موقفا سلبيا لا إلى التأييد ولا إلى الإنكار. ورادولف صريح العداء لبطرس. أما صاحب تاريخ جيستا فرانكورام فيحذف الرواية.

رسائله إلى مولاه رئيس أساقفة ريم سرداً حياً للحملة الصليبية.^(١) وفي الثالث عشر من مايو (أيار) أذعن ريموند لإقناع رفاقه وأمر بهدم المعسكر والدموع تملأ مآقيه، وتحرك الجمع كله باتجاه الجنوب إلى طرابلس. ودارت مناقشات أخرى حول الطريق الذي سيسلكه الجيش، فأخبر السوريون ريموند أن هناك طريقاً سهلاً يمر بدمشق ولكن تنقصه المياه رغم وفرة الطعام فيه. أما طريق لبنان فالمياه فيه وفيرة ولكنه وعراً لدواب الحمل، والبديل الثالث هو طريق الساحل لولا أن به بعض الأماكن تستطيع حفنة من الأعادي أن تقطعه فيها. ومع ذلك، أعلنت النبوءات المحلية أن مخلصي القدس سوف يرتحلون بطول الساحل. فاختار هذا الطريق لدواعي الاتصال بالأسطولين الجنوبي والإنجليزي البحريين في مياه الشرق وليس استجابة للتنبؤ باختياره.^(٢) وعندما اقترب الصليبيون سارع أمير طرابلس ليؤمن عاصمته وضواحيها بأن أفرج عن ثلاثمائة سجين مسيحي كانوا في المدينة. ودفع لهم عوضاً عن احتلال المدينة خمس عشرة ألف بيزنطة وخمسة عشر جواداً أصيلاً، وزود الجيش كله بدواب الحمل والطعام، وزاد على ذلك بأن عرض أن يتخذ المسيحية ديناً إذا هزم الصليبيون الفاطميين.^(٣)

وفي يوم الاثنين السادس عشر من مايو (أيار) غادر الصليبيون طرابلس بصحبة المرشدين الذين قدمهم الأمير، فقادوهم في أمان عبر الطريق الملتف حول رأس الشقعة، وبعد أن مروا بسلام خلال مدينتي البترون وجبيل التابعتين للأمير وصلوا إلى الحدود الفاطمية على نهر الكلب في التاسع عشر من مايو (أيار). ولم يكن للفاطميين جنود

^(١) Raymond of Aguilers, xvi, pp. 276-7; *Gesta Francorum*, x, 35, p. 188 ويغيرند

Fulcher of Chartres, 1, xxv, 8, p.270 أنه قتل بحجر .

Raymond of Aguilers, xviii, pp. 288,290-1. ^(٢)

Ibid. p. 291; *Gesta Francorum*, x, 35-6, pp. 188-90. ^(٣)

على حدودهم الشمالية فيما عدا حاميات صغيرة في المدن الساحلية، لكنهم يملكون بحرية عظيمة تستطيع توفير دفاع إضافي لتلك المدن. وهكذا، وبرغم انعدام المقاومة على هذا الطريق، لم يكن في مأمول الصليبيين الاستيلاء على أي ميناء من الموانئ التي مروا بها، كما لم يعد في مقدور الأسطول المسيحي الاتصال بهم. وكان الخوف من تناقص الإمدادات يدفعهم إلى الإسراع بكل قوتهم إلى هدفهم النهائي.

وعندما اقتربوا من بيروت خشى السكان المحليون أن يقوم الصليبيون بتدمير الحدائق الباسقة وبساتين الفاكهة المحيطة بالمدينة، فسارعوا إلى تقديم الهدايا والسماح لهم بحرية المرور عبر أراضيهم شريطة عدم الإضرار بأشجار الفاكهة والكروم والمحاصيل، وقبل الأمراء شرطهم واقتادوا الجيش بسرعة إلى ميناء صيدا فوصل هناك في العشرين من مايو (أيار). وكانت حامية صيدا أقوى شكيمة، فبينما كان الصليبيون معسكرين على ضفاف نهر الليطاني خرجت إليهم قوة من الحامية وهاجمتهم، لكن الصليبيين صدوا الهجوم وردوا على تلك الهجمة بأن نهبوا الحدائق في الضواحي. ولكنهم رحلوا بكل ما لديهم من سرعة إلى جوار صور حيث انتظروا يومين حتى يدركهم بالدوين أوف لوبورج وعدد من الفرسان من أنطاكية ومن الرها. وكان لجداول المياه والخضرة الزاهية ما جعل المكان خليقاً بأن يكون محطة رائعة للراحة. وبقيت حامية صور داخل أسوارها ولم تناوشهم إلى أن رحلوا في الثالث والعشرين من نفس الشهر، وعبر الجيش الممر المسمى (سلم صور) بلا صعوبة، وكذلك مرتفعات الناقورة، ووصل إلى مشارف عكا في اليوم الرابع والعشرين. وحذا حاكم عكا حذو حكام بيروت، فافتدى المزارع الخصيبة المحيطة بالمدينة بإمدادات الوفيرة. وسار الجيش من عكا إلى حيفا، عبر الساحل على سفح جبل الكرمل إلى قيسارية حيث أمضى أربعة أيام من السادس والعشرين إلى الثلاثين من الشهر لكي يحتفل بالاحتفال الملائم بأحد العنصرة.⁽¹⁾ وبينما هم في معسكرهم هناك انقض أحد الصقور

(1) (المترجم): أحد أو عيد العنصرة: يوم الأحد السابع بعد عيد الفصح تخليداً لذكرى هبوط الروح

القدس في عيد الخمسين (أنظر الإنجيل، العهد الجديد، سفر أعمال الرسل : 2) .

على حمامة محلقة فوقهم فقتلها وسقطت بالقرب من خيمة أسقف آبت، واتضح أنها حمامة زاجلة تحمل رسالة من حاكم عكا يستثير فيها مسلمي فلسطين ضد الغزاة.⁽¹⁾

احتلال الرملة

واستأنف الصليبيون السير بطريق الساحل حتى أرصوف، ثم انخرط الجيش إلى داخل البلاد، فوصل في الثالث من يونية (حزيران) أمام مدينة الرملة. وكانت الرملة مدينة إسلامية بخلاف أغلب مدن فلسطين، وكانت قبل الغزو التركي العاصمة الإدارية للإقليم لكنها تدهورت في السنوات الأخيرة. وباقترب الصليبيون شعر السكان بالذعر؛ فالحامية صغيرة، والمدينة بعيدة عن البحر بحيث لا تستطيع البحرية المصرية مساعدتهم، فهربوا من منازلهم في حشد واحد وساروا باتجاه الجنوب الغربي بعد أن دمروا من قبيل التحدي كنيسة القديس جورج التي كانت قائمة على أطلال قرية اللد التي تبعد عن الرملة مسافة ميل واحد. وعندما تقدم روبرت أوف فلاندرز وجاستون أوف ييلون في طليعة الجيش الصليبي وجدا الشوارع مهجورة والمنازل خاوية.

وأدى احتلال مدينة إسلامية في قلب الأراضي المقدسة إلى أن يشعر الصليبيون بالزهو. وفي الحال أقسموا على إعادة بناء كنيسة القديس جورج وتأسيس لوردية تضم اللد والرملة وجعلها وقفاً عليه، وإنشاء أسقفية جديدة يكون أسقفها هو سيد اللوردية، وعُين القسيس النورماندي روبرت أوف روين أسقفاً لهذه الدائرة الأسقفية. وكما كان في مدينة البرة، لم يكن ذلك يعني وضع أسقف لاتيني محل آخر يوناني، وإنما كان يعني تأسيس أسقفية في بلد إسلامي مفتوح. ودل هذا التعيين على أن الرأي العام الصليبي يعتبر أن البلاد التي تؤخذ بالحرب ينبغي أن تعطى للكنيسة. وعهد بمدينة

⁽¹⁾ Raymond of Aguilers, xviii-xix, p.291; *Gesta Francorum*, x, 36, pp.190-2;

Fulcher of Chartres, 1, xxv, 10.12, pp. 271-6.

الرملة إلى روبرت ومعه حامية صغيرة لحمايتها.^(١) وفي تلك الأثناء ناقش الأمراء الخطوة التالية؛ فالبعض يعتبر أن الهجوم على القدس في قبض الصيف عمل أحق، وإثما الأصوب هو التقدم نحو العدو الحقيقي، مصر. وبعد مناقشات رُفض الاقتراح واستأنفوا السير إلى القدس في السادس من يونية (حزيران).^(٢)

ومن الرملة سلك الجيش الطريق القديم الذي ينتهي داخل تلال يهودا (حاليًا الضفة الغربية لنهر الأردن) إلى شمال الطريق العام الحالي، وأثناء مروره من قرية إيماس وصل مبعوثون من مدينة بيت لحم لينقلوا إلى الأمراء توصلات جميع سكانها المسيحيين لتخليصهم من نير المسلمين، وعلى الفور ذهب تانكريد وبالدوين أوف لوبورج ومعهما فصيلة فرسان صغيرة إلى تلال بيت لحم حيث وصلوا في منتصف الليل. وفي أول الأمر ظن السكان الخائفون أنهم جزء من جيش مصري جاء لتعزيز دفاعات القدس. وعند بزوغ الفجر وبعدما تحققوا من أنهم فرسان مسيحيون، خرجت المدينة كلها في مواكب زياحية^(٣) ومعها كل الآثار والصلبان من كنيسة الميلاد للترحيب بمنقذهم ولتقبيل أياديهم.^(٤)

وبعدما عاد مكان مولد المسيح (بيت لحم) إلى الحكم المسيحي أخذ الجيش الصليبي يشق طريقه طوال اليوم وخلال الليل نحو القدس. وخسف القمر، منذراً بخسوف الهلال مما قوى من عزيمتهم، وفي الصباح التالي جاء مائة فارس من فرسان تانكريد من بيت لحم وانضموا إلى رفاقهم مرة أخرى. وعند الضحى وصل الصليبيون

Raymond of Aguilers, xix, pp. 291-2; *Gesta Francorum*, loc. cit. William of Tyre, vii, 22, vol. 1, pt. 1, p. 313.

Raymond of Aguilers, xix, p. 292. ^(٢)

^(٣) (المترجم): الموكب الزياحي: إحتفال يقوم به المسيحيون، ويطوفون فيه الشوارع حاملين أشياء مقدسة يعرضونها على الجمهور.

Fulcher of Chartres, I, xxv, 13-17, pp. 277-8; Albert of Aix, v, 44-5, pp. 461-3. ^(٤)

إلى أعلى نقطة في الطريق عند مسجد النبي صمويل، على قمة التل الذي يسميه
الحجاج جبل الإرشاد، وظهرت القدس بأسوارها وأبراجها أمامهم على مرمى البصر.
وفي مساء الثلاثاء السابع من يونية (حزيران) سنة ١٠٩٩ ميلادية ضرب الجيش
المسيحي خيامه أمام المدينة المقدسة.^(١)

Gesta Francorum, x, 37, p. 194; Raymond of Aguilers, xx, p. 292; Albert of^(١)
Aix, v, 45, p. 463.

الفصل الثاني

انتصار الصليب

انتصار الصليبي

"اهتفوا لله بصوت البتهاج. لأنَّ الربَّ عليَّ مخوفٌ"

(سفر المزَامِير: المزمور ٤٧ : ١، ٢)

كانت مدينة القدس واحدة من القلاع العظيمة في عالم القرون الوسطى، ومنذ أيام اليبوسيين^(١) اشتهر موقعها بالقوة التي عززتها مهارة الإنسان على مر القرون. فكانت الأسوار التي وجد الصليبيون أنفسهم تحتها مبنية على غرار الأسوار التي تحيط اليوم بالمدينة القديمة، والتي بناها فيما بعد السلطان العثماني سليمان العظيم. ولقد وضع

^(١) (المترجم): اليبوسيون Jebusites : سكان أورشليم على عهد داوود ، (أنظر الكتاب المقدس، العهد القديم، سفر صموئيل الثاني، الإصحاح الخامس إلى الثامن) .

تخطيط الأسوار عندما أعاد هادريان بناء المدينة، ثم أضاف إليها البيزنطيون والأمويون والفاطيون كل بدوره وأصلحوها. فمن الشرق كان غدير قدرين الذي يجري في الوهد الصغير الضيق شديد الانحدار يحمي الأسوار، ومن الجنوب الشرقي كانت الأرض تنحدر إلى وادي جهنم، وكان هناك واد ثالث أقل عمقاً بقليل من الوادين الآخرين يحيط بالسور الغربي، وكانت منطقة الجنوب الغربي حيث تواجه الأسوار جبل صهيون، وكذلك المنطقة المقابلة للأسوار الشمالية، هما فقط المنطقتين الملائمتين للهجوم على التحصينات. وأما القلعة، واسمها برج داوود، فكانت تتوسط جنوب السور الغربي وتتحكم في الطريق الذي يصعد في جانب التل ليصل إلى بوابة يافا. وبرغم عدم وجود ينابيع داخل المدينة فإن صهاريج المياه الوفيرة كانت تضمن إمدادات المياه. وحافظ نظام الصرف الروماني على المدينة وهو ما يزال يستخدم في القرن العشرين.

الدفاع عن القدس

وكان الحاكم الفاطمي إفتخار الدولة هو قائد دفاعات المدينة، وكانت الأسوار في حالة جيدة، ولديه حامية قوية من الجنود العرب والسودانيين. وعلى أثر أنباء اقتراب الفرنج اتخذ احتياطاته؛ فهدم الآبار خارج المدينة أو ستمها، ونقل قطعان الدواب من المراعي المحيطة بالمدينة إلى أماكن آمنة، وأمر السكان المسيحيين كلهم، من الأرثوذكس والهرطقة على السواء، بالبقاء خارج الأسوار، ومع ذلك سمح لليهود بالبقاء داخلها. وكانت خطوة تتصف بالحكمة. ففي القرن العاشر فاق عدد المسيحيين في القدس عدد المسلمين، ورغم تناقص عددهم بسبب ما اقترفه الخليفة الحاكم من اضطهاد، ورغم أن كثيرين آخرين — وفيهم أغلب رجال الدين الأرثوذكس — قد رحلوا مع البطريق أثناء الأوقات العصيبة التي أعقبت موت أرتق، كان ما يزال في القدس ألوف المسيحيين عديمي الفائدة كمقاتلين، فقد حُرِّم عليهم القتال ضد رفاقهم المسيحيين، بالإضافة إلى ذلك كان طردهم يعني تقليل عدد الأفواه التي ستطلب الطعام

أثناء الحصار. وفي نفس الوقت أسرع افتحار الدولة بإرسال المبعوثين إلى مصر لطلب
العون المسلح.^(١)

حتى وإن كانت طبيعة وضع الأرض المحيطة بالقدس تسمح بمحاصرة المدينة، فلم
يكن لدى الصليبيين القوات الكافية لتطويق المدينة كلها. فركزوا على القطاعات التي
يستطيعون فيها الاقتراب من الأسوار: فأخذ روبرت النورماندي موقعه بطول السور
الشمالي في مواجهة بوابة الزهور (بوابة هيرو)، وعلى يمينه روبرت أوف فلاندرز في
مواجهة بوابة العمود (بوابة القديس ستيفن أو بوابة دمشق)، وتولى جودفري أوف
لورين المنطقة التي تغطي الزاوية الشمالية الغربية للمدينة حتى بوابة يافا، ولحق به في هذا
المكان تانكريد الذي جاء من بيت لحم ومعه قطعان الماشية التي استولى عليها في طريقه،
وإلى الجنوب منه كان ريموند أوف تولوز الذي وجد أن الوادي يفصل بينه وبين
الأسوار، فتحرك بعد يومين أو ثلاثة إلى جبل صهيون، وأما القطاعان الشرقي والجنوبي
الشرقي فقد تركا دون حراسة.^(٢)

وبدأ الحصار في نفس اليوم الذي وصل فيه الصليبيون إلى الأسوار وهو السابع
من يونية (حزيران)، ولكن سرعان ما اتضح أن الوقت في جانب المحاصرين، فكان لدى
افتحار كميات وفيرة من الطعام والماء، وكان تسليحه أفضل من تسليح الفرنج،
واستطاع تقوية أبراجه بأجولة مليئة بالقطن والقش تخفف من وطأة قذائف المنجنيق
التي يطلقها الفرنج. فإذا استطاع الصمود إلى أن يأتي جيش النجدة القادم من مصر

^(١) Fulcher of Chartres (1, xxvii, 12, p. 300) يذكر وجود جنود "أثيوبيين" Aethiopian.

ويذكر كل من Raymond of Aguilers (xx, pp. 293-4) و Gesta Francorum (x, 37, p.

198) تسميم الآبار. وكان بطريق الكنيسة الأرمنية "الكاثوليكوس فلهرام Catholicus Varham

موجودا في القدس في ذلك الوقت، ويبدو أنه تمكن من الفرار من المدينة (Matthew of Edessa, II,

clvii, p. 225).

^(٢) Raymond of Aguilers, xx, p. 293; Gesta Francorum, x, 37, p. 194; Albert of

Aix, v, 46, pp. 463-4.

فسوف تنتهي الحملة الصليبية كلها. على أن الحامية، برغم حجمها، لم تكف تكفي لتمرکز الرجال على الأسوار كلها. وسرعان ما واجهت الصليبين صعوبة إمدادات المياه، فقد كانت التدابير التي اتخذها افتخار تدابير فعالة، وكان مصدر المياه النقية الوحيد المتاح للمحاصرين يأتي من بركة سيلوم أسفل السور الجنوبي، وكانت معرضة بشكل خطير لقذائف الحامية، ولكي يعرض الصليبيون نقص المياه كان عليهم أن يقطعوا ما لا يقل عن ستة أميال، وكانت الحامية تعلم ذلك، فكانت ترسل جماعات صغيرة تخرج إلى الطرق المؤدية إلى الينابيع لتنصب الأكمنة؛ فهلك جنود وحجاج كثيرون من تلك الهجمات المباغتة. وبدأ الطعام يتناقص هو الآخر، فلم يكن هناك من طعام بالقرب من المدينة سوى النذر اليسير، وأسهم القَيْظ والأتربة والافتقار إلى الظل في المزيد من رهق الصليبين الوافدين من أجواء أكثر برودة، وقد ارتدى الكثير منهم عدة الحرب التي لا تلائم صيف يهودا (الضفة الغربية)، واتضح لهم جميعاً أنه ليس بوسعهم تحمل حصار طويل، وإنما ينبغي لهم الهجوم على المدينة بسرعة والاستيلاء عليها.^(١)

وفي الثاني عشر من يونية (حزيران) حج الأمراء إلى جبل الزيتون حيث خاطبهم ناسك مسن طالبا منهم مهاجمة الأسوار في اليوم التالي، فاعترضوا لعدم وجود الآلات الضرورية لنجاح الهجوم، لكن الناسك لم يقبل شيئاً من اعتراضاتهم قائلاً لو أنه كان لديهم الإيمان فإن الرب ناصرهم. وأدخلت كلمته الجرأة في قلوبهم، فأمرؤا بهجوم عام في صباح اليوم التالي. بيد أن الناسك كان مخطئاً، أو أن إيمانهم كان بالغ الضعف؛ فقد انطلق الصليبيون إلى الهجوم بحماس مستعر، وسرعان ما اكتسحوا دفاعات السور الشمالي الخارجية، لكن سلامهم كانت أقل بكثير من أن تمكنهم من اعتلاء الأسوار في

^(١) Raymond of Aguilers, xx, pp. 293-4; *Gesta Francorum*, x, 37, pp. 194-8.

أماكن كافية في وقت واحد، وبعد عدة ساعات من القتال اليائس أدركوا عقم محاولتهم فانسحبوا.^(١)

وتسبب فشل الهجوم في خيبة أمل مريرة، غير أنه بين للأمراء حاجتهم الملحة إلى بناء المزيد من آلات الحصار، فقرروا في اجتماع عقدوه في الخامس عشر من يونيو (حزيران) الكف عن أية هجمات أخرى إلى أن تتوفر لديهم المناجق والسمال بصورة أفضل. لكنهم كانوا يفتقرون إلى المواد اللازمة لصنعها. وكما حدث في أنطاكية أنقذهم وصول العون بحراً في الوقت الملائم تماماً. ففي السابع عشر من يونيو (حزيران) رست ست سفن مسيحية في مرفأ يافا بعد أن هجره المسلمون، وكان الأسطول يتألف من غليونين^(٢) من جنوا بقيادة الأخوين إميرياكو، وأربع سفن ربما كانت من الأسطول الإنجليزي، وكانت السفن تحمل إمدادات الطعام والأسلحة بما في ذلك الحبال والمسامير والصماويل وكلها أشياء ضرورية لصنع آلات الحصار. وما أن سمع الصليبيون بوصول تلك السفن حتى أرسلوا في الحال فصيلة صغيرة للاتصال بالأسطول، ووقعت هذه الفصيلة في كمين نصبه فريق من المسلمين يعمل من عسقلان، ولم ينقذ الفصيلة سوى وصول ريموند بيليت ورجالة الذين كانوا في أعقابها. وفي ذات الوقت ظهر أسطول مصري أغلق سواحل يافا، وتمكنت إحدى السفن الإنجليزية من أن تفلت من هذا الحصار وأبحرت عائدة إلى اللاذقية. وأمّا السفن الأخرى فقد هجرها بحارتها فور تفريغ شحنتها وساروا في حراسة ريموند بيليت إلى معسكر الصليبيين خارج القدس حيث قوبلوا بترحاب حار هم والبضائع التي أحضروها معهم. على أنه كان ما يزال من الضروري العثور على الأخشاب اللازمة لصنع الآلات، ولم يكن هناك سوى القليل منها في التلال الجرداء المحيطة بالقدس مما دفع الصليبيين إلى إرسال الحملات مسافة أميال عديدة لجمع الأخشاب المطلوبة. ولم يبدأ العمل في تلك الآلات إلا بعدما توغل

^(١) Raymond of Aguilers, xx, p. 293; *Gesta Francorum*, x, 37, p. 196.

^(٢) (المترجم): الغليون galley: سفينة شراعية كبيرة ذات مجاديف.

تانكريد وروبرت أوف فلاندرز باتباعهما مسافات بعيدة إلى الغابات المحيطة بمدينة السامرة^(١) وعادا محملين بكتل وألواح الأخشاب الضخمة المحمولة على ظهور الجمال، أو على أكتاف الأسرى من المسلمين. وصنعت السلام، وبدأ كل من ريموند وجودفري في تشييد حصن خشبي مجهز بالمنجنيق مثبت على عجلات، وعهد إلى جاستون أوف بايرن بتشيد حصن جودفري، وإلى وليم ريكو بتشيد حصن ريموند.^(٢)

معاناة المحاصرين

وسار العمل ببطء بينما كان الفرنج يعانون المعاناة الرهيبة من حرارة الجو؛ فقد هبت رياح حارة مزعجة على مدى أيام كثيرة كان لها أثر مميت على أعصاب رجال لم يعتادوا عليها. وتفاقت صعوبة إمدادات المياه حتى أن أعدادا من دواب الحمل والقطعان كانت تموت في كل يوم من العطش، مما دفع الجيش إلى إرسال فصائل حتى الأردن للبحث عن المياه. وكانت تلك الفصائل تلقى غاية الحفاوة من السكان المسيحيين الذين أرشدوها إلى ينابيع المياه والغابات الواقعة في الجوار، على أنه كان من المحال منع غارات وكماثن الجنود المسلمين سواء أكانوا من الحامية أو من الجماعات التي تجوب أرجاء البلاد. وثار المشاحنات بين الأمراء مرة أخرى، أولا بسبب امتلاك بيت لحم: فتانكريد هو الذي حرر المدينة وترك رايته ترفرف فوق كنيسة الميلا، لكن رجال الدين وأنداده من الأمراء رأوا أنه من الخطأ أن يكون هذا المبنى المقدس تحت سلطان لورد علماني، ودافع تانكريد عن مطالبته ببيت لحم، وبرغم وقوف الرأي العام ضده فقد اتفقوا على تأجيل هذا الأمر. وثانيا، بدأ الجدل حول مستقبل القدس فلقتراح بعض الفرسان تعيين ملك عليها، فعارض رجال الدين بالإجماع قائلين إنه لا يوجد مسيحي واحد بمقدوره أن يسمى نفسه ملكا في مدينة توج فيها المسيح وعانى الآلام،

^(١) (المترجم): السامرة Samaria : منطقة في فلسطين بين الجليل ويهودا (في الضفة الغربية).

^(٢) Raymond of Aguilers, xx, pp. 294-7; Gesta Francorum, x, 37, pp. 196-200.

ومرة أخرى وقف الرأي العام إلى جانب رجال الدين وتقرر تأجيل المناقشات. وأدت المتاعب الجسمانية البائسة وما صاحبها من محاولة الهجوم الفاشلة وما ترتب على ذلك من تجدد المشاحنات بين الأمراء إلى تخلي الكثيرين عندئذ عن الحملة الصليبية. فذهبت جماعة منهم إلى نهر الأردن لإعادة تعميد أنفسهم في النهر المقدس، وبعد أن جمعوا سعف النخيل من ضفة النهر ارتحلوا إلى يافا مباشرة يحدوهم الأمل في العثور على قوارب تحملهم في رحلة العودة إلى أوروبا.^(١)

وفي أوائل يولية (تموز) علم الصليبيون أن جيشاً عظيماً قد خرج من مصر لنجدة القدس. وتحقق الأمراء من أنه لا وقت لديهم للتأخير، ولكن معنويات جنودهم كانت منخفضة، فأغاثتهم الرؤيا مرة أخرى؛ ففي صباح السادس من يولية (تموز) جاء بطرس دزيريرس، الذي شهد من قبل برؤيته للأسقف أديمار بعد موته، إلى أخي أديمار، وهو وليم هيو أوف مونتيه وكذلك إلى سيده إيزوار أوف جاب وقال لهما إن الأسقف ظهر له مرة ثانية وأمر الصليبيين بأن يكفوا عن مخططاتهم الأنانية وأن يصوموا ثم يسيروا بعد انتهاء الصوم في مواكب زياحية حول أسوار القدس وهم حفاة الأقدام. فإذا فعلوا ما أمروا به بقلوب تائبة فلسوف يستولون على القدس في غضون تسعة أيام. وعندما زعم بطرس دزيريرس بأنه شاهد أديمار يُصلّي نار جهنم لريته في قصة الرمح المقدس كذبه الصليبيون جميعهم، ولكن الآن — ربما لأن الأسقف ظهر في صورة أكثر إشراقاً، ولأن أسرة مونتيه منحت مؤازرتها — فقد لقيت الرؤيا قبولاً فورياً من الجيش كله على أنها رؤيا صحيحة. وقوبلت تعليمات أديمار بطاعة متلهفة؛ فقد صدرت الأوامر بالصوم، وروعي تنفيذها مراعاة متفانية خلال الأيام الثلاثة التالية، وفي يوم الجمعة الثامن من يولية (تموز) دار الموكب الزياح الوقور حول المدينة، وسار الأساقفة والقساوسة في الطليعة حاملين صلباً وآثاراً مقدسة، وتبعهم الأمراء والفرسان، ثم الراجلون من الجنود والحجاج، وكان الجميع حفاة الأقدام. وتجمع المسلمون على

Raymond of Aguilers, xx, pp. 295-6. ^(١)

الأسوار يسخرون منهم، لكنهم تفاخروا بهذه السخرية، وبعد أن أتموا الدورة حول المدينة صعدوا جبل الزيتون حيث خطب فيهم بطرس الناسك، وبعده خاطبهم واعظ ريموند أوف أجيليه، ثم واعظ روبرت النورماندي، آرنولف أوف روه الذي كان يعد آنذاك أبلغ الرعاظ الموجودين مع الجيش، وحركت فصاحتهم الجمع الكبير وأثارته حتى نسي ريموند وتانكريد خلافتهما وأقسما على أن يحاربا معاً من أجل الصليب.^(١)

ترتيبات الهجوم

وتواصل الحماس. فخلال اليومين التاليين دأب رجال الجيش على العمل لإتمام أبراج الحصار الضخمة برغم ما يعانونه من عطش، وكانت مهارة أبناء جنوا برثاسة وليم امبرياكو ذات عون كبير، وحتى المسنين من الرجال والنساء كان لهم نصيبهم في حياكة جلود الثيران والجمال وتثبيتها بالمسامير على الأجزاء المكشوفة من الأعمال الخشبية لحمايتها من النيران الإغريقية التي يستعملها العرب.^(٢) وفي العاشر من نفس الشهر أصبحت الأبراج الخشبية جاهزة للعمل، وسُحبت على عجالاتها إلى مواقعها فوضع أحدها في مواجهة السور الشمالي، وآخر فوق جبل صهيون، وثالث أصغر بقليل من سابقه في مواجهة الركن الشمالي الغربي من الدفاعات. وأنجز الصليبيون أعمال الإنشاءات بحذر شديد بعيداً عن أعين جنود الحامية الذين أخذ منهم الدهول والذعر لدى رؤيتهم تلك القلاع أمامهم، فسارع افتخار إلى تقوية الدفاعات الأضعف، وأخذ في قذف أبراج الحصار قذفاً منتظماً بالأحجار والسوائل الحارقة للحيلولة دون التصاقها بالأسوار.^(٣)

^(١) Raymond of Aguilers, xx, pp. 296-7؛ خطاب ديامبرت Diambert إلى البابا، في

Hagenmeyer, ob. Cit. pp. 170-1; *Gesta Francorum*, x, 38, pp. 200-2.

^(٢) (المترجم): النيران الإغريقية the Greek fire : مركب قابل للاحتراق يشتعل في الماء.

^(٣) Raymond of Aguilers, xx, p. 298; *Gesta Francorum*, x, 38, p. 200.

وتقرر أن يبدأ الهجوم خلال ليلة الثالث عشر والرابع عشر من يولية (تموز)، على أن يكون الهجوم الرئيسي في وقت واحد من جبل صهيون وعلى القطاع الشرقي من السور الشمالي، وهجوم آخر للتضليل على الزاوية الشمالية الغربية. واستنادا إلى أرقام المؤرخ ريموند أوف أجيليه — وليس ثمة شك فيها — كانت قوة الجيش المقاتل الفعالة آنذاك اثني عشر ألفا من جنود المشاة وألف ومائتين أو ألف وثلاثمائة فارس، وبالإضافة إلى ذلك كان هناك حجاج كثيرون لم يحاول تقدير أعدادهم، وهم رجال بلغوا من العمر أو من المرض ما يحول دون اشتراكهم في القتال، كما كان هناك نساء وأطفال. وكانت المهمة الأولى للمغيرين هي إحضار حصونهم الخشبية لتلاصق الأسوار تماما، وهي مهمة تتطلب ردم الخندق المحيط بالأسوار في ذلك القطاع، وركز الصليبيون على مهمتهم هذه طوال الليل وأثناء نهار الرابع عشر من الشهر، ولاقوا الأمرين من الأحجار والسوائل الحارقة التي كان المدافعون يقذفونها، وردوا على ذلك بقصف شديد من المناجق الخاصة بهم. وبحلول مساء الرابع عشر من يولية (تموز) أفلح رجال ريموند في دفع عجلات برجهم أعلى الخندق إلى أن أصبح في مواجهة السور، ولكن الدفاع كان شرسا، ويبدو أن افتخار نفسه كان أمر هذا القطاع، ولم يستطع ريموند أن يحصل على موطىء قدم على السور نفسه. وفي صباح اليوم التالي اقترب برج جودفري الخشبي من السور الشمالي القريب من البوابة التي تسمى حاليا بوابة الزهور، ومن الطابق الأعلى قاد جودفري وأخوه إيوستاس أوف بولونيا عمليات الهجوم. وفي منتصف النهار تقريل نجحا في إقامة جسر بين البرج وقمة السور، حيث قام اثنان من فرسان الفلاندرز (ليتولد وجيلبرت أوف تورناي) بقيادة رأس حربة الجيش اللوثارنجي، وسرعان ما تبعهما جودفري نفسه، وما أن سقط قطاع من السور في أيدي المقتحمين حتى تدفق كثيرون آخرون إلى داخل المدينة عن طريق السلم. وبينما بقي جودفري على السور يشجع المتسلقين الجدد ويرسل الرجال لفتح بوابة العمود لقوات الصليبيين الرئيسة، توغل تانكريد ورجاله وكانوا وراء أبناء اللورين في أعماق شوارع المدينة.

ورأي المسلمون دفاعاتهم تُخترق. فهربوا باتجاه الحرم الشريف حيث توجد قبة الصخرة، والمسجد الأقصى الذي لجأوا إليه ليتخذوه ملاذاً أخيراً لهم. لكن لم يكن هناك وقت لتهيئة المكان للدفاع، وبينما هم يتزاحمون داخل المسجد وأعلاه هبط عليهم تانكريد فاستسلموا له في الحال ووعده بقدية عظيمة وأخذوا رايته لرفعها فوق المسجد، لكنه كان قد دنس قبة الصخرة بالفعل ونهبها. وفي تلك الأثناء تراجع سكان المدينة فراراً وهم في حالة من الاضطراب إلى الأحياء الجنوبية حيث كان افتخار ما يزال صامداً أمام ريموند. وفي وقت مبكر من بعد الظهر تحقق من ضياع كل شيء، فانسحب إلى داخل برج داوود وعرض تسليمه إلى ريموند مع مقدار كبير من المال في مقابل الإبقاء على حياته هو وحرسه الخاص، فقبل ريموند شروطه واحتل البرج وخرج افتخار ورجاله من المدينة سالمين تحت الحراسة وسُمح له بالذهاب إلى الحامية الإسلامية في عسقلان.^(١)

المنتصرون يرتكبون المذابح

كان افتخار ورجاله هم وحدهم الذين بقوا على قيد الحياة من المسلمين في القدس. فهذا النصر الكبير بعد تلك المعاناة الشديدة أصاب الصليبيين بمس من الجنون، فاندفعوا في الشوارع واقتحموا المنازل والمساجد وأخذوا في تقتيل كل من يقابلهم، يستوي في ذلك الرجال والنساء والأطفال. واستمرت المذبحة طوال ما بعد الظهر وخلال الليل كله، ولم تشفع راية تانكريد في حماية اللاجئين بالمسجد الأقصى، ففي

^(١) Raymond of Aguilers, xx, pp. 293-300; *Gesta Francorum*, x, 38, pp. 202-4

وهذان المؤرخان كلنا شاهدا عيان في المعركة وتتفق مقالتهما مع بعضهما. Fulcher of Chartres, 1, xxvii, 5-13, pp. 295-301. ويتفق فولشر أوف شارترز وريموند أو أجيليه في توقيت دخول المدينة في منتصف النهار. ويقول صاحب تاريخ جيستا فرانكورام إن دخول المدينة حدث في ساعة وفاة المسيح. ويورد Albert of Aix (VI, 19-28, pp. 477-83) رواية طويلة ولكنها أقل في مصداقيتها.

باكورة الصباح التالي اقتحمت عصابة من الصليبيين المسجد وقتلوا كل من فيه. وعندما ذهب المؤرخ ريموند أوف أجيليه في وقت متأخر من ذلك الصباح لزيارة منطقة الحرم الشريف كان عليه أن ينتقي مواطيه قدميه بين الجثث والدماء التي وصل ارتفاعها إلى ركبتيه.^(١)

وهرب يهود القدس في حشد واحد إلى كنيسهم الرئيسي، لكن الصليبيين اعتبروا أنهم قدموا المساعدة للمسلمين، فلم يظهروا تجاههم أية رحمة، وأشعلوا النيران في المبني واحترق اليهود كلهم بداخله.^(٢)

وكان لمذبحة القدس وقع عميق على العالم كله. وليس في مقدور أحد أن يعرف عدد الضحايا، وإنما أفرغ الصليبيون القدس من سكانها المسلمين واليهود، وأصيب كثيرون، حتى من المسيحيين، بالهلع مما جرى. وحتى ذلك الوقت كان هناك من بين المسلمين من هم على استعداد لقبول الفرنج كعنصر آخر في سياسات ذلك الزمان المعقدة. بيد أنه بعد المذبحة أصبح هناك تصميم واضح على طرد الصليبيين، وكان هذا الدليل على التعصب المسيحي المتعطش للدماء هو الذي أدى إلى تعصب المسلمين. وفيما بعد، عندما حاول لاتينيو الشرق الأكثر حكمة السعي نحو إيجاد بعض الأسس لتعاون المسيحيين والمسلمين، كانت ذكرى المذبحة تقف دائماً عائقاً في الطريق.

وبعدما فرغ الصليبيون من قتل المسلمين دون أن يبقوا على أي منهم، ذهب أمراء الحملة الصليبية في وقار إلى الحي المسيحي المقيفر، الذي بات مهجوراً منذ أن طرد

^(١) Raymond of Aguilers, xx, p. 300; *Gesta Francorum*, x, 38, pp. 204-6; letter

ob. cit. of Diambert in Hageneyer, *ob. cit.* p. 171

p.4 وابن الأثير *ob. cit.* pp. 198-9 ويثنى الأخير على ريموند لحفاظه على كلمته. أنظر أيضاً ابن

القلانيسي، تاريخ دمشق. Damascus Chronicle, p. 48.

^(٢) . Ibn Al-Qalanisi, *loc. cit.*

افتخار ساكنيه، ليشكروا الرب في كنيسة القبر المقدس. ثم اجتمعوا في السابع عشر من يولية (تموز) لتعين حاكم للمدينة المغتصبة.^(١)

ومات الحاكم الذي كان خليفا بأن يلقي الترحيب من أغلب الصليبيين، وتأسى الجيش كله لغياب أديمار أسقف لوبوي ليرى انتصار القضية التي طالما كافح من أجلها، فلم يصدق أحد أن أديمار لم يشهد حقا هذا الانتصار؛ فقد أدلى الجنود بشهاداتهم الواحد تلو الآخر، بأنهم رأوا محاربا يقاتل في جبهة القتال المتقدمة وتعرفوا فيه على ملامح الأسقف.^(٢) كما كان هناك آخرون لم يمتد بهم الأجل ليسمعوا بهذا النصر البهيج؛ فقد مات بطريق القدس سيميون في منفاه بقبرص قبل النصر بأيام قليلة^(٣)، وفي إيطاليا على البعد يرقد مؤسس الحملة الصليبية مريضا. وفي التاسع والعشرين من يولية (تموز) سنة ١٠٩٩ ميلادية، وبعد دخول جنوده المدينة المقدسة بأسبوعين، قبل أن تصله أية أنباء عن النصر، يموت البابا إيربان الثاني في روما.^(٤)

Raymond of Aguilers, xx, p. 300; *Gesta Francorum*, x, 38, p. 206; Fulcher^(١)
. Chartres, 1, xxix, 1-4, pp. 304-6 of
.Raymond of Aguilers, *loc. cit.* ^(٢)

Albert of Aix, VI, 39, p. 489. ^(٣)

Vita Urbani, in *Liber Pontificalis*, II, p. 293. ^(٤)

أدفو كاتوس سانكتي

سيبالكري

(حامي القبر المقدس)

أدفوكاتوس سانكتي سيبالكري (حامي القبر المقدس)

"فِي تَمْلِكَ الْأَيَّامِ لَمْ يَكُنْ مَلِكٌ فِي إِسْرَائِيلَ"

(سفر القضاة: ٢١ - ٢٥)

تم بلوغ المرام. واستُردت القدس إلى العالم المسيحي. ولكن كيف السبيل إلى الحفاظ عليها؟ وكيف تكون حكومتها؟ ليس في الإمكان الآن تأجيل الإجابة على هذا السؤال الذي كان كل صليبي يفكر فيه بينه وبين نفسه. ويبدو أن الرأي العام قد تذكر أن الكنيسة هي التي خططت للحملة الصليبية لتمجيد المسيح، فشرع بأنه ينبغي أن تكون الكنيسة صاحبة السلطة النهائية. ولو أن أديمار أسقف لوبوي كان ما يزال على قيد الحياة فلا شك في أنه كان سيضع الدستور ويعين مسئول الحكومة؛ فهو الشخصية المحبوبة التي يحترمها الصليبيون، وهو على دراية برغبات البابا إيربان، وربما كان يتصور دولة كنسية يرأسها البطريرك سيميون ويكون هو نفسه مندوباً بابوياً يعمل مستشاراً له،

وريموند أوف تولوز حامياً دنيوياً وقائداً لجيوشها. على أننا لا ندعي تفصيل نواياه التي دفنت معه. وفي واقع الأمر، كان البابا إيربان قد عين مندوباً بابوياً آخر يخلفه يعمل مستشاراً، هو ديامبرت أوف بيزا، ولم يكن الصليبيون قد علموا بذلك بعد^(١). لكن ديامبرت أثبت أنه شخصية طموحة للغاية، ويمكن في نفس الوقت التأثير عليه بحيث لا يمكن اعتباره مفسراً للسياسة البابوية. وليس مع الحملة الصليبية أحد الآن ينصح فيطاع طاعة عمياء.

واجتمع القادة في السابع عشر من يولية (تموز) لمعالجة المسائل الإدارية العاجلة: فلا بد من إخلاء الشوارع والمنازل من الجثث واتخاذ الترتيبات اللازمة للتخلص منها، ويتعين تخصيص بعض أحياء المدينة للجنود والحجاج، ولا بد من الاستعداد للتصدي للهجوم المصري المضاد. كما نوقشت مسألة ما إذا كان سيسمح لتانكريد بالاحتفاظ بكل الكثر الذي أخذه من قبة الصخرة والمشتعل على ثمانية مصاييح ضخمة من الفضة^(٢). وأثار أحدهم مسألة انتخاب الملك فاعترض رجال الدين من فورهم، فلا بد من تقديم الضرورات الروحانية على غيرها، وقبل انتخاب الملك ينبغي تعيين البطريق الذي سوف يرأس عملية الانتخاب. وبعد ذلك بقرن من الزمان تقريباً، وبعدما أصبحت الملكية مقبولة قبولاً تاماً، كتب المؤرخ وليم الصوري — برغم أنه كان رئيس أساقفة — يتهم الكنيسة بأن ذلك كان محاولة مفضوحة تتجاوز فيها الكنيسة حقوقها، على أن تلك المحاولة لم يُعترض عليها آنذاك إلا لأن القائمين بها لم يكونوا على مستوى من الجدارة. لكنهم في حاجة إلى بطريق، ولو أن سيميون كان ما يزال على قيد الحياة للقيت حقوقه الاحترام اللائق، فقد كان مفضلاً لدى أديمار، كما كان الصليبيون يذكرونه بمشاعر العرفان لهداياه التي كان يرسلها لهم في أنطاكية. غير أنه لم يكن هنالك

^(١) وصل ديامبرت إلى اللازقية في سبتمبر ١٠٩٩ م. ولذا لا بد وأن يكون قد غادر إيطاليا قبل الاستيلاء على القدس بوقت طويل. أنظر مايلي صفحة ٤٤٩-٤٥٠.

^(٢) Raymond of Aguilers, xx, pp. 300-1; *Gesta Francorum*, x, 39, p. 206;

Fulcher of Chartres, 1, xxviii, 1-2, pp. 301-3.

رجل كنيسة آخر يلقي القبول يونانيًا كان أو سوريًا، وفي واقع الأمر لم يكن هناك من يطالب بذلك، فقد لحق أعلى القساوسة الأرثوذكس في القدس بالطريق في المنفى، فلا بدّ إذن من رفع أحد اللاتينيين إلى هذا الكرسي البابوي، بيد أنه لم يكن بين القساوسة اللاتينيين قس واحد بارز آنذاك، فبعد موت أدعمار كان وليم أوف أورانج أكثر الأساقفة احترامًا، لكنه مات في معرّة النعمان. وكان أنشط القساوسة حينئذ هو أرنولف أسقف مارتوران النورماندي الإيطالي الذي اقترح تعيين صديقه أرنولف ماليكورن أوف روه — وهو واعظ روبرت النورماندي — أسقفًا، على أن يُمنح نفسه أسقفية بيت لحم. ولم يكن أرنولف أوف روه يخلو من ميزة؛ إذ كان معلمًا لابنة وليم الغازي، سيليشيا الراهبة التي استحثت أخاها روبرت على أن يستعين به ويعده بأسقفية، وكان خطيبًا بليغًا وأديبًا. لكن المعروف عنه أنه كان منغمسًا في دنيويته، وتذكروا عداوته لبطرس بارثولوميو، وفضلاً عن ذلك بدا الأمر كله وكأنه مؤامرة نورماندية؛ فلم يكن القساوسة الفرنسيون الجنوبيون الذين يؤيدهم ريموند أوف تولوز على استعداد للتعاون، ورفض اقتراح انتخاب البطريق من قبل الملك. ولم تكن القصة بمثل ما أولاها المؤرخ وليم الصوري من أهمية، بيد أن تنمة القصة تُظهر أن الرأي العام كان ما يزال يُعُضد الكنيسة ضد القوى العلمانية.⁽¹⁾

⁽¹⁾ Raymond of Aguilers, xx-xxi, pp. 301-2; William of Tyre, ix, vol. 1, pt. 1, pp. 364-6.

Fulcher of Chartres (i, xxx, 2, p. 308) يقول إنه لم يتم انتخاب أي بطريق إلا بعد

الحصول على نصيحة البابا. وربما كان يشير إلى هذه المناقشة الأولى. وعن سيرة حياة Arnulf المبكرة

أنظر David, Robert Curthose, pp. 217-20 ويطلق المؤرخ David عليه "Arnolf of

Choques" ويعتبر أن الاسم "of Rohes" غير صحيح.

مؤامرات من أجل العرش

وفي الأيام التالية انشغل الأمراء بالدسائس حول شغل العرش. ولم يبق إلا أربعة من الأمراء الكبار الذين انطلقوا من القسطنطينية في الحملة الصليبية هم ريموند أوف تولوز، وجودفري أوف لورين، وروبرت أوف فلاندرز، وروبرت النورماندي. وأما إيوستاس أوف بولونيا فكان دائما يلعب الدور متواريا وراء أخيه جودفري، وأما تانكريد، وبرغم كل جسارته، فكان أتباعه قليلين ولا يكاد يجاوز كونه من أقرباء برهيموند الفقراء. ومن بين هؤلاء الأمراء كان ريموند أقواهم شكيمة لما يتصف به من خصائص لا تتوفر لغيره وهي عمره وثروته وخبرته وارتباطه الطويل بأديمار، لكنه لم يكن يحظى بإعجاب رفاقه؛ فهو مفرط في التعالي عليهم طوال الوقت، ودائما ما يظهر نفسه بمظهر القائد العلماني للحملة الصليبية. وكانت سياسة صداقته مع الإمبراطور منفرة للغاية حتى للكثيرين من أتباعه، ولم يثبت نجاحه خلال الأشهر القليلة التي كان فيها قائدا عاما بلا منازع؛ إذ أن خيبته في أرقا وإنكار الرمح المقدس حطما هيئته. ومع أن شجاعته الشخصية ونشاطه ليسا موضع شك إلا أنه كجندي لم يفلح في إحراز أي نصر كبير، فإذا ما أصبح ملكا فسوف ينقلب إلى الغطسة والاستبداد، ولن توحى قيادته أو سياسته بالثقة. وأما عن الأمراء الآخرين، فكان روبرت أوف فلاندرز أكثرهم اقتدارا، لكن المعروف عنه أنه كان يرغب في العودة إلى وطنه فور إنقاذ القدس. وكان روبرت النورماندي محبوبا وله هيئته باعتباره رئيس النورماندين، لكنه لم يكن شخصية قاهرة، كما كان هو الآخر يميل إلى العودة إلى أوروبا. ويبقى لدينا جودفري، فهو فيما مضى كان دوقا للورين الأسفل، وهو مركز أرفع من أي مركز آخر شغله أي من رفاقه، لكنه لم يكن الدوق الذي يتصف بالكفاءة العالية، وأظهر سلوكه في القسطنطينية أنه رجل ضعيف عنيد مرتاب يخلو من الذكاء. على أن قصوره كرجل دولة وإداري كان شيئا غير معروف للصليبيين الذين رأوا فيه رجلا شهما وتقيا

وخادمًا كرس نفسه لقضيتهم. وقيل إنه حينما استفسر الناجبون عن الحياة الخاصة لكل قائد لم تجد حاشية جودفري فيه أي نقص سوى شغفه بالممارسات الدينية.⁽¹⁾

انتصار جودفري

ولا نعرف من هم الناجبون. وربما كانوا من كبار القساوسة والفرسان الذين كانوا بمثابة كبار مستأجري الأرض بالنسبة لأمرء الصليبيين. وفي بادئ الأمر عُرض التاج على ريموند، لكنه رفض رفضًا أدهش المؤرخين لما كان يعرف عنه من طموح واضح لقيادة الحملة الصليبية، ولكنه تحقق من أن ذلك العرض لم يحظ بتأييد مخلص من أغلب الصليبيين، وأن رفاقه لن يخضعوا لسلطانه أبدًا في واقع الأمر، بل إن جنوده التابعين له، الذين يتوقون إلى العودة إلى أوروبا، أعلنوا عدم رغبتهم في أن يقبل العرض. وهكذا أعلن أنه لا يرغب في أن يكون ملكًا في مدينة المسيح المقدسة، أملًا بذلك أن يجعل من المستحيل أن يصبح أي فرد آخر ملكًا. وتحول الناجبون في ارتياح إلى جودفري، الذي كان معروفًا أن كلا من روبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي يؤيدانه، فأظهر بعض التمتع ثم قبل سلطة الملك، لكنه طلب إعفاءه من لقب الملك، وأن يسمى بدلًا من ذلك أدفوكاتوس سانكتي سيالكري أي حامي القبر المقدس.⁽²⁾

وظن ريموند أنه راح ضحية خدعة. ومن المؤكد أن جودفري كان مخلصًا حينما رفض وضع تاج على رأسه في المدينة التي وُضع فيها على رأس المسيح تاج من الشوك.

⁽¹⁾ William of Tyre, ix, i, vol. 1, pt1, pp. 365-6.

⁽²⁾ يذكر Raymond of Aguilers, xx, p. 301 رفض ريموند للتاج ؛ ويقول صاحب تاريخ *Gesta Francorum*, x, 39, pp. 206-8 إن جودفري قد إنتخب princeps civitatis (أمير مدني) لغرض قتال العرب ؛ ويستخدم Fulcher of Chartres, 1, xxx, 1 لقب "princeps (أمير)" ؛ كما أن Albert of Aix, vi, 33, pp. 485-6 يذكر رفض ريموند ؛ William of Tyre, ix, 2, Moeller, 'Godefroid de Bouillon et l'Avouerie du Saint-sépulcre', passim .

وكانت ميزته الرئيسية تتمثل في أن ورعه يتسق مع ورع سائر الصليبيين، ولم يفارق ذهنه أبدا اقتناعه بأن كنيسة المسيح ينبغي أن تكون هي الحاكم النهائي للأرض المقدسة. ولم يصبح في الإمكان تنويع ملك في القدس إلا بعد وفاته، وبعد عودة أغلب الحجاج إلى أوطانهم تاركين وراءهم مستعمرة تتألف من المغامرين من رجال الأعمال من ذوي النظرة العملية.^(١)

وقابل ريموند انتصار جودفري بصورة سيئة للغاية؛ فرفض أن يسلم الحاكم الجديد برج داوود الذي كان في حوزته قائلا إنه ينوي البقاء في القدس للاحتفال بعيد الفصح التالي وسيكون البرج محل إقامته، لكنه بعد أن احتج عليه كل من روبرت النورماندي وروبرت أوف فلاندرز وافق على أن يتركه في رعاية أسقف البرة إلى أن يعقد مجلس عام للحملة الصليبية لحسم الأمر. على أنه ما أن انتقل ريموند من البرج حتى سلمه الأسقف إلى جودفري دون انتظار لقرار تحكيم. وأعذر الأسقف نفسه أمام ريموند بأنه كان أعزل من كل دفاع واضطر للرضوخ، غير أن ريموند أوف أجيليه شاهد بنفسه أكوام السلاح الهائلة التي نقلها المندوب البابوي عديم الإيمان إلى منزل قريب من القبر المقدس، وربما شجعه على تصرفه هذا رجال ريموند التواقون إلى دفع سيدهم إلى العودة إلى فرنسا. وثار تائرة ريموند وأعلن بادئ الأمر أنه عائد إلى وطنه فوراً، وغادر القدس ولكن باتجاه الجنوب إلى وادي الأردن ومعه كل جنوده لتنفيذ تعليمات بطرس بارثولوميو له في أنطاكية، وقاد رجاله وكل منهم يحمل سعة نخل وساروا من أريحا إلى النهر. وبعدما عاد من النهر نزل أصحابه كلهم ليستحموا في النهر المقدس وهم يرددون الصلوات والترانيم، ثم ارتدوا الملابس النظيفة. وعلق ريموند أوف أجيليه على ذلك بقوله: "ومع ذلك لم نعرف بعد لماذا طلب منا الرجل المقدس أن نفعل كل

^(١) See Chalandon, *Histoire de la première Croisade*, pp. 290-2.

هذا". ولم يشأ ريموند العودة إلى القدس التي شهدت مذلته، فضرب معسكره في أريحا.⁽¹⁾

جودفري ورفاقه

وأدى فشل ريموند في الحصول على التاج إلى أن أصبح أتباعه في موقف الضعف. فحينما اجتمع القساوسة في أول أغسطس (آب) لانتخاب بطريق لم تكن معارضة البروفنسال لآرنولف أوف روه معارضة فعالة، ووجد أسقف مارتورانو تأييداً من أهل اللورين ونورمانديي فرنسا وإيطاليا فتمكن من إقناع أغلب من بالمجلس بتعيين آرنولف. وعبثاً حاول ريموند أوف أجيليه وأصدقائه أن يؤكدوا أن انتخاب آرنولف لا يتفق وقوانين الكنيسة؛ فآرنولف لم يكن حتى مساعد شماس، كما كان الجيش يتخذ من أخلاقياته مادة يتغنى بها. ورحبت به جماهير الناس في منصبه البطريقي الجديد.⁽²⁾ و كان آرنولف من الناحية السياسية يتصف بالاعتدال، وإذا كان رجال الدين قد توقعوا أن يملئ سياسته على جودفري فقد خاب ظنهم، وربما كان يدرك أنه ليس أهلاً لأن يحكم القدس، ولذا حصر نطاق أنشطته في الشؤون الكنسية ووضع جُلَّ اهتمامه في أن يجعل من الدائرة الأسقفية دائرة لاتينية. وبموافقة ودفري، عين عشرين كاهناً لإقامة الخدمات الدينية اليومية في كنيسة القبر المقدس، وزود الكنيسة بالأجراس لدعوة الناس إلى الصلاة، ولم يكن المسلمون يسمحون للمسيحيين باستخدامها مطلقاً. ثم أبعاد قساوسة الطقوس الشرقية القائمين بالخدمات الدينية في الكنيسة التي كانت آنذاك —

⁽¹⁾ Raymond of Aguilers, xx, pp. 301-2; William of Tyre, x, 3, Vol. 1, pt 1, pp. 367-8.

⁽²⁾ et Raymond of Aguilers, xx, p. 30; *Gesta Francorum*, x, 39, p. 208, calling Arnulf 'sapientissimum honorabilem virum'; William of Tyre, x, 4, vol. 1, pt 1, p. 369.

كشأها الآن — تضم مذابح كنسية تنتمي إلى جميع طوائف العالم المسيحي الشرقي، ليس فقط اليونانية الأرثوذكسية والجورجية^(١)، وإنما أيضا الطوائف الأرمنية واليعقوبية والقبطية. وغداة الغزو اللاتيني بدأ السكان المسيحيون المحليون يعودون متلهفين إلى القدس، على أنهم بدأوا يشعرون بالأسى لتغير الحكام. فحينما أخرجهم افتحار من المدينة أخذ بعض القساوسة الأرثوذكس معهم أقدم آثار كنيسة القدس، ألا وهو القسم الرئيسي من الصليب الحقيقي، وتبددت رغبتهم الآن في تسليمه إلى الحبر الذي تجاهل حقوقهم. ولم يستطع آرنولف معرفة مكان إخفائه إلا بعد تعذيب المحتفظين به. على أنه برغم تزايد استياء المسيحيين الأرثوذكس من أبناء البلاد فلم يكن أمامهم خيار آخر سوى تقبل الهرمية اللاتينية. وأما كبار قساوستهم فقد تفرقوا وأحجموا عن تعيين أساقفة أو بطريرك من بينهم في مواجهة اللاتينيين. وحتى ذلك الوقت لم يكن هناك صدع بين الأرثوذكسية الشرقية والغربية في فلسطين، ورغم أن آرنولف قد اتخذ الخطوات الأولى التي تجعل من هذا الصدع حقيقة حتمية. وهكذا فإن الكنائس الهرطيقية التي كانت تنعم بتسامح المسلمين وجدت في الغزو اللاتيني بداية الخسوف.^(٢)

^(١) (المترجم): الكنيسة الجورجية الأرثوذكسية: إحدى أقدم الطوائف المسيحية في العالم، وحاليا كنيسة مستقلة في الملة الأرثوذكسية. وإعتنق الجورجيون المسيحية عن طريق امرأة (القديسة "نينو") في أوائل القرن الرابع الميلادي. ومنح الإمبراطور "زينو" (٤٧٤-٤٩١ م) الكنيسة إستقلالها بموافقة بطريرك أنطاكية، ومنذ ذلك الوقت يحمل رؤساء الكنيسة لقب "كاتولييكوس". وفي سنة ١٨٠١م ضمت روسيا جورجيا، وفقدت البلاد إستقلالها السياسي والكنسي، وأثناء الثورة الروسية سنة ١٩١٧م إستعادت الكنيسة إستقلالها، لكنها عانت الإضطهاد في العشرينات. على أنه في عهد "جوزيف ستالين" - الذي كان طالبا في معهد جورجيا اللاهوتي - تمتعت بمعاملة متميزة فيما يبدو. وبعد إنتخاب "كاتولييكوس إلياس" سنة ١٩٧٧م عين أساقفة جدد في العديد من الكراسي الأسقفية.

^(٢) *loc. cit.* Raymond of Aguilers, *loc. cit.* Fulcher of Chrtres, 1, xxx, 4, pp.

309-19; William of Tyre,

وبعد انتخاب جودفري تدهورت العلاقات بينه وبين رفاقه الذين كانوا يؤيدونه حتى ذلك الوقت. فسرعان ما أساء إلى روبرت النورماندي لسبب أو لآخر، وازداد فتور روبرت أوف فلاندرز حياله، وكان تانكريد وقتئذ قد رحل إلى نابلس بعد أن أرسل سكانها إلى القدس يعلنون استسلامهم للصليبيين، وصحبه أخو جودفري (إيوستاس أوف بولونيا)، ربما ليحول دون ما اعتاد عليه من استحواذة على الأسلاب كلها لنفسه، ولقيا استقبالا حسنا هناك ولكن يبدو أنهما لم يحصلوا على غنائم.^(١)

وبعد رحيلهما مباشرة وصلت سفارة مصرية إلى القدس لتوبيخ الفرنج على نقضهم العهد ولتأمرهم بمغادرة فلسطين. ووصلت في أعقاب السفارة أنباء بأن هناك جيشا مصرية بقيادة الوزير الأفضل دخل فلسطين وأنه في طريقه إلى عسقلان. فأرسل جودفري إلى تانكريد وإيوستاس طالبا منهما التزول في السهل البحري وإطلاعه على تحركات العدو، فأسرعا باتجاه قيسارية ثم استدارا جنوبا باتجاه الرملة، وفي طريقهما أمسكا بعدد من الكشافين الذين أرسلهم المصريون أمامهم، وانتزعا منهم معلومات تتصل بعدد قوات الوزير وأماكن تركزها، وتوصلا إلى أن الأفضل ينتظر أسطول له ليلحق به حاملا إمدادات إضافية، وأنه لا يتوقع هجوما من الفرنج، فأرسلا إلى جودفري بذلك يحثانه على أن يأخذه بغتة، فحشد جودفري جيشه من فوره، وطلب من رفاقه أن يلحقوا به، فاستجاب روبرت أوف فلاندرز للنداء. وأما روبرت النورماندي وريموند — الذي كان ما يزال في وادي الأردن — فقد أجابا بأنهما سينتظران إلى أن تتأكد الأنباء، ولم يتحركا إلا بعد أن أرسل الكشافين التابعين لهما لمعرفة ما كان يحدث.^(٢)

^(١) *Gesta Francorum*, x, 39, pp. 208-10

^(٢) *Ibid.* pp. 209-10

الانتصار في عسقلان

وفي التاسع من أغسطس (آب) انطلق جودفري وروبرت أوف فلاندرز من القدس ومعهما رجالهما، وصاحبهما البطريق آرنولف. وعندما وصلوا إلى الرملة وقابلوا تانكريد وايوستاس صدرت الأوامر إلى أسقف مارتورانو بسرعة العودة إلى القدس ليعلن مدى خطورة الوضع، ولكي يستحث كل رجل قادر على القتال أن يلحق بالجيـش. وهنا اقتنع ريموند وروبرت النورماندي وغادرا القدس في العاشر من أغسطس (آب)، وتخلفت حامية صغيرة في المدينة حيث كانت التعليمات تقضي بأن يقوم بطرس الناسك بإجراء الطقوس الدينية بين صلاة وقدّاس شسفاة يتسهل فيها اليونانيون واللاتينيون على السواء من أجل انتصار العالم المسيحي. وفي باكورة الحادي عشر تجمع حشد الصليبيين كله في إبلين الواقعة وراء الرملة بأميال قليلة، ثم تقدموا في الحال إلى داخل سهل أشدود حيث اكتشفوا ساعة الغسق قطعان الماشية التي أحضرها المصريون معهم لأطعام الجنود، فأحاطوا بها واستولوا عليها، واستراحوا لفترة قصيرة حتى الصباح، ثم برزوا في وادي المجدل الأخضر الخصيب شمالي عسقلان حيث معسكر جيش الوزير. وفي ضوء الفجر رتبوا وحداتهم المقاتلة بحيث اتخذ ريموند اليمينه ناحية البحر، وجودفري اليسرة، وروبرت النورماندي وروبرت أوف فلاندرز وتانكريد القلب. وما أن صدر أمر الهجوم حتى اندفع الجنود داخل الجيش المصري، وبغت الأفضل تمامًا، ويرجع ذلك إلى سوء الاستكشاف، فلم يتوقع أن يكون الفرنج على مثل هذه المسافة القريبة. ولم يبد رجاله مقاومة تذكر، وفي دقائق قليلة كانوا يفرون مذعورين، ولاذت جماعة كبيرة منهم بغابة صغيرة من أشجار الجميز حيث قتلوا فيها حرقا، وفي مسيرتهم دفع ريموند بأعداد كبيرة إلى البحر، وفي الوسط توغل روبرت النورماندي وتانكريد إلى قلب المعسكر، واستولى حرس روبرت الخاص على راية الوزير والكثير من أمتعته الشخصية، وتمكن الوزير ومعه حفنة من الضباط من الهرب

إلى عسقلان حيث استقلوا سفينة عادت بهم إلى مصر، وفي ساعات قليلة اكتمل النصر وتأكد استيلاء الصليبيين على القدس.^(١)

وغنم المنتصرون أسلابا هائلة. واشترى روبرت النورماندي راية الوزير بعشرين مثقالا فضيا من النورماندي الذي استولى عليها ثم قدمها إلى البطريق آرنولف، واشترى أمير آخر سيف الوزير بستين بيزنطة، وعثروا على سبائك ذهبية وأحجار كريمة بكميات هائلة ضمن أمتعة المصريين، ووقع في أيديهم من الأسلحة والدواب الشيء الكثير. وفي يوم السبت الثالث عشر من أغسطس (آب) عاد إلى القدس موكب منتصر يحمل بالغنائم، وما استعصى عليهم حمله أشعلوا فيه النيران.^(٢)

وتحقق للانتصار مغزاه الكامل. وإذا كان هذا الانتصار قد ضمن ألا يستعيد المصريون ما فقدوه من أراض، فلم يعن ذلك أن الفرنج سوف يحتلون فلسطين كلها. فالبحرية المصرية ما تزال تتحكم في الساحل وتوفر الحماية للثغور. وكان في مأمول جودفري مواصلة المعركة والاستيلاء على عسقلان خاصة وأن الحامية في عسقلان تدرك تمام الإدراك تعذر الصمود أمام القوات الصليبية المتحدة. ومذبحه القدس لم تذهب أدراج النسيان، ولا يرغب مسلمو عسقلان في أن يلقوا مصير إخوانهم في القدس، وهم يعلمون أن الذين بقوا أحياء في القدس من المسلمين هم فقط الذين استسلموا لريموند أوف تولوز مما رفع من سمعته في الفروسية؛ فأرسلوا إلى المعسكر الصليبي بأنهم على استعداد لتسليم المدينة له هو وحده، لكن جودفري - لارتيابه الشديد في ريموند منذ حادثة برج داوود - رفض الاعتراف بأية شروط لا تؤدي إلى

^(١) 18; Albert-Ibid. pp. 210-16; Raymond of Aguilers, xxi, pp. 302-4; Fulcher of Chrtres, 1, xxxi, 1-11, pp. 311. Of Aix, vi, 44 -50, pp. 493-7; Ibn Al-Athir, op. cit. p. 202

^(٢) Gesta Francorum, x, 39, pp. 216-18; Raymond of Aguilers, xxi, pp. 304-5; Albert of Aix, vi, 47, p. 495; Fulcher of Chartres, 1, xxxi, 10, pp. 316-17. ومعركة عسقلان ينتهى تاريخ كل من Raymond of Aguilers وصاحب تاريخ Gesta Francorum .

تسليمه المدينة هو نفسه، فغضب ريموند وشعر بالمهانة، وبدأ لتوه في التحرك شمالاً
ومعه كل رجاله. وأصيب روبرت النورماندي وروبرت أوف فلاندرز بصدمة شديدة
من تفاهة جودفري حتى أنهما تركاهما كذلك. وبدون مساعدتهما لا يجرؤ جودفري
على المغامرة بمهاجمة عسقلان، وهكذا ضاعت عسقلان من الفرنج لأكثر من نصف
قرن من الزمان.⁽¹⁾

وعرضت مدينة أرسوف الصغيرة الاستسلام إلى ريموند، ورفض جودفري مرة
أخرى الموافقة على أي اتفاق من هذا النوع، وانصرف ريموند غاضباً مرة أخرى، وأعلن
أصدقاء جودفري أن ريموند شجع حامية أرسوف على الصمود أمام جودفري وحرص
على أن يؤكد لهم ضعفه.⁽²⁾

وبانتهاء أغسطس (آب) قرر ريموند، وروبرت النورماندي، وروبرت أوف
فلاندر مغادرة فلسطين؛ فكل من دوق نورماندي وكونت فلاندرز يتلهف على العودة
إلى الوطن، وكل منهما يعتبر أنه قام بواجبه المسيحي وبذا يكون قد أوفى بعهده. وبرغم
المشاحنات التي حدثت مؤخراً، شعر جودفري بقلبه يهبط إلى قدميه لرحيلهما، وفي
مقابلة الوداع التي تمت بينهم توصل إليهما ألا يدخلا جهداً لدى وصولهما إلى أوروبا في
حث الجنود على الخروج إلى الشرق للحرب من أجل الصليب، وذكرهما بمدى الخطورة
التي تحدد بالباقيين في الأرض المقدسة. وفي أوائل سبتمبر (أيلول) شرعا في رحلتهم
شمالاً أعلى الساحل⁽³⁾ وصاحبهما ريموند. غير أن رحيل ريموند لم يكن قاطعاً؛ إذ كان
قد أقسم على البقاء في الشرق، ولقد خسر القدس، ولكن ليس هناك ما يمنعه من أن
يخذو حذو بوهموند وبالديوين ويؤسس إمارته الخاصة به. وكانت المنطقة التي

⁽¹⁾ Radulph of Caen, cxxxiii, p. 703; Albert of Aix, vi, 51, pp. 497-8

Albert of Aix, *loc. cit.* ⁽²⁾

Albert of Aix, vi, 53, p. 499; Fulcher of Chartres, 1, xxxii, 1, pp. 318-20; ⁽³⁾

Orderic Vitalis, x, ii, vol. iv, p. 69

تلائمه أكثر من غيرها هي أواسط سوريا حيث الأمان بعيدا عن الأتراك والمصريين، لا سيما وأن أغلبها في أيدي بني عمار المسلمين، كما كان يأمل في الحصول على تأييد من بيزنطة.^(١)

وسار مع ريموند وروبرت أوف فلاندر وروبرت النورماندي أغلب رجالهم، وتخلف القليل من كل جيش للاستقرار في فلسطين، ولكي تتوازن القوات عادت أعداد من رجال جودفري — وفيهم بالدوين أوف لوبورج — باتجاه الشمال تحت راية كونت أوف فلاندر، وبقي تانكريد وأتباعه القليلون في فلسطين.^(٢)

ديامبرت أوف بيزا

وتمت الرحلة إلى الشمال دون صعوبات. فقد سارع حكام المدن الساحلية المسلمون إلى إمداد الجيش بالموثون أثناء مروره، وفي منتصف سبتمبر (أيلول) وصل الجيش إلى ميناء طرطوس الذي كان ما يزال في أيدي حامية من رجال ريموند، وواصل رحلته إلى جبله حيث سمع القادة أنباء صدمتهم صدمة شديدة وأثارت قلقهم.^(٣)

ذلك أن البابا إيربان كان قبل وفاته بوقت قصير قد عين مندوبا بابويا ليحل محل أديمار في فلسطين، ووقع اختياره على ديامبرت رئيس أساقفة بيزا. وكان البابا إيربان على دراية كاملة برفاقه الفرنسيين، ولكنه كان مخطئا بالنسبة للإيطاليين؛ وكان ديامبرت رئيس أساقفة نشطا، وعرف عنه اهتمامه بالحرب المقدسة، ولذلك أرسله البابا

^(١) Albert of Aix, *loc. cit.* وليس يقينيا التاريخ الذي قرر فيه ريموند إنشاء إمارة في وسط سوريا.

^(٢) *Ibid.* vi, 54, pp. 499-500.

سنة ١٠٩٨ ميلادية مندوبا بابويا له إلى بلاط الملك ألفونسو السادس (أوف كاستيل)^(١)، حيث أظهر حماسا بالغاً واقتداراً في تنظيم الكنيسة في الأراضي التي انتزعت من عرب الأندلس، بيد أنه كانت هناك شائعات بأن إدارته لم تخل من فساد، لا سيما وأنه احتفظ لنفسه بجزء كبير من الأموال التي كان الملك ألفونسو قد أرسلها إلى البابا. وعلى الرغم من نشاطه، كان من الواضح أنه مغرور وطموح وغير أمين. وأدى تعيين البابا إيربان له كمندوب بابوي في الشرق إلى تقويض سياسته إلى حد بعيد.^(٢)

غادر ديامبرت إيطاليا قبل نهاية سنة ١٠٩٨ ميلادية يصحبه أسطول من بيزا جهزته بلدية المدينة. ولا شك في أنه كان يأمل في استغلال أهل بيزا لترسيخ مكانته على له من نفوذ عليهم، بينما أدركوا هم جدوى مساعدتهم له كي يحصلوا على امتيازات خاصة. وكانوا عصبية تتصف بالفوضى؛ فقد استفادوا أثناء رحيلهم شرقاً من الإغارة على جزر هبتانيز، وكورفو، وليوكاس، وسيفالونيا، وزانت، وسرعان ما علمت القسطنطينية بتلك الانتهاكات، فسير إليهم الإمبراطور أسطولا بقيادة تاتيسيوس — العائد من أنطاكية مؤخراً بعد شهور كثيرة قضاها هناك — وكذلك البحار الإيطالي المولد لاندولف. وحاول البيزنطيون اعتراض أبناء بيزا أثناء مرور سفنهم أمام سلموس، غير أنهم وصلوا هناك متأخرين، كما فشلوا في اللحاق بهم أمام شواطئ كوس. وأخيراً ظهر الأسطولان أمام رودس بحيث يري كل منهما الآخر، وحاول البيزنطيون الهجوم واستولوا على إحدى سفن بيزا وعلى ظهرها أحد أقارب بوهيموند، ولكن عاصفة

^(١) (المترجم): كاستيل : إقليم في أسبانيا.

^(٢) يورد Albert of Aix, vii, 7, pp. 51-2 رواية عدائية عن سابق حياة Diambert. أنظر أيضاً Pisani, (ed. Annales Tronci.), vol. 1, pp. 178 ff. ويحتمل أنه انطلق قبل أن يعلم إيربان بموت أدميار، وإما أن يكون قد عُيّن مندوبا بابويا أثناء رحلته أو اتخذ لنفسه السلطة بإعتباره شخصية كسبية أعلى في الشرق.

الساحل القبرصي، لكن الحاكم البيزنطي فيلو كاليبس دحرهم وألحق بهم بعض الخسائر، فأبحروا باتجاه الساحل السوري، بينما دخل الأسطول البيزنطي قبرص.^(١)

بوهيموند وديامبرت في اللاذقية

ظل بوهيموند، منذ أن رحل رفاقه إلى القدس، مشغولاً بتوطيد مركزه في أنطاكية. ولم يكن هناك ما يخشاه من الأتراك آنذاك، وإنما كان مشغولاً بالبيزنطيين في المقام الأول، فهو يعرف أن الإمبراطور لن يغفر له أبداً. ولما كان للإمبراطور أقوى أسطول في المياه الشرقية، بالإضافة إلى ميناء اللاذقية الواقع جنوبه مباشرة، فلن يشعر بالأمان أبداً، فقرر في نهاية أغسطس (آب) أن يحسم الأمر، وسار لمهاجمة اللاذقية، لكنه كان فاقد الحيلة بدون القوة البحرية، فالتحصينات قوية وتستطيع الحامية الحصول على المؤن من قبرص. ووصل أسطول بيزا المعادي للبيزنطيين في الوقت المناسب تماماً. وسارع بوهيموند إلى التوصل إلى اتفاق مع ديامبرت والقباطنة من أهل بيزا الذين وعدوه بتقديم كل ما يستطيعون من مساعدة.^(٢)

وكان الإمبراطور قد أمر أمير بحريته بمعاينة من يأتون أعمال القرصنة من اللاتينيين، وإن كان يرغب في اجتناب الصدام العلني. ولم يعرف تاتيسيوس على وجه اليقين كيف يتعامل مع تلك التطورات الجديدة، وبعد التشاور مع حاكم قبرص طلب من الجنرال البيزنطي بوتوميتيس، الذي ربما جاء إلى قبرص ليكون سفيراً فوق العادة في الشرق، أن يعبر البحر إلى أنطاكية وأن يقابل بوهيموند، ولكن بوهيموند رجل عنييد، فلم تحقق السفارة شيئاً. وعاد بوتوميتيس إلى قبرص وأبحر مع تاتيسيوس والأسطول إلى القسطنطينية لإطلاع الإمبراطور على ما حدث وتلقي تعليماته. وهبت عاصفة هوجاء

^(١) Anna Comnena, xi, x, 1-6, vol. iii, pp. 41-4

^(٢) Albert of Aix, vi, 45, pp. 500-1

أمام سيس على ساحل كيليكيا الغربي حيث تحطمت سفن بيزنطية كثيرة، وتمكنت القطع البحرية التابعة لأمير البحار من مواصلة الرحلة. وبعد ذلك اتخذت سفن بيزا مواقعها لتغلق ميناء اللاذقية من البحر.^(١)

وفي ذلك الوقت وصل ريموند وروبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي إلى جبلة، وكان طبيعيا أن يترعج ريموند من أحداث اللاذقية؛ فهو يمتك كل ما يفعله بوهيموند، وسياسته هي سياسة التحالف مع بيزنطة، وكان شعور رفيقيه بالأسى لا يقل عن شعوره هو؛ وأيا ما كان شعورهما بالأسف لبعض أفعال الإمبراطور، فقد أدركا ضرورة وجود بعض التعاون بين مسيحيي الشرق والغرب، وكانا يواجهان مشكلة إعادة نقل جيشيهما إلى أوروبا، وهي مهمة تكاد أن تكون مستحيلة بدون مساعدة من بيزنطة. ومن غير اللائق أن يستهل المندوب البابوي سفارته في الشرق بعمل يثير استياء المسيحيين الشرقيين. واستدعي ديامبرت إلى المعسكر في جبلة حيث واجه اعتراضاتهم الغاضبة، فأدرك الخطأ الذي وقع فيه واستدعي أسطول بيزا. ولا يستطيع بوهيموند حصار اللاذقية في غيبة المساعدة البحرية، فضلا عن مشاعر الغضب التي أظهرها رفاقه، فاضطر إلى التخلي عن الحصار. وأظهر مواطنو اللاذقية كامل الرضا والترحيب بريموند، فدخلها بصحبة رفيقيه، ورفع رايته على القلعة لترفرف إلى جانب راية الإمبراطور. وعندما سمع حاكم قبرص بهذه التطورات أعلن عن موافقته وعرض تقديم وسائل النقل البحري دون مقابل لسفر روبرت أوف فلاندرز وروبرت النورماندي إلى القسطنطينية في المرحلة الأولى من الرحلة إلى الوطن، فقبلا العرض بامتنان بالغ وأبحرا في أمان إلى القسطنطينية حيث استقبلهما الإمبراطور استقبالا حسنا. ورفض اقتراحه بالبقاء في الشرق في خدمته. وبعد أن أتما زيارتهما القصيرة واصل

^(١) .Anna Comnena, xi, x, 7-8, vol. m, p. 45; Albert of Aix, *loc. cit.*

رحلتها إلى الغرب. ولا نعرف عدد الذين أبحروا معها من رجالهما، وربما أبحر البعض على سفن جنوا للذهاب إلى إيطاليا مباشرة. وأما ريموند فقد بقي في اللاذقية.^(١)

حج بوهيموند في القدس

وفي تلك الأثناء لحق ديامبرت ببوهيموند مرة أخرى في أنطاكية. وكان بوهيموند عليماً بالرجل، وسرعان ما استعاد نفوذه عليه. وفي تلهف المندوب البابوي على الرحيل إلى القدس قرر بوهيموند أن يصحبه؛ فقد أقسم هو والصليبيون الآخرون على الصلاة في كنيسة القبر المقدس وعدم الوفاء بهذا القسم يعرض هيئته للدمار، ولا ينبغي أن تضيع هذه الفرصة الرائعة كي يحج مع ديامبرت وبذا يضمن تحالفه، كما يتعين النظر في مستقبل القدس، فليس هناك من يرث جودفري، وصحته معتلة، ومن المرجح أن يتحكم المندوب البابوي فيمن يأتي بعده، وعلى أية حال تقضي الحكمة بأن يلم بصفه شخصية بالوضع؛ فأعلن عن رحيل ديامبرت وبوهيموند إلى المدينة المقدسة في أواخر الخريف ليكونا هناك في أعياد الميلاد.^(٢)

وعندما سمع بالدوين بتلك الأخبار أرسل من الرها بأنه سوف ينضم إليهما في الحج، فقد شعر هو الآخر بضرورة الوفاء بالقسم، وبمقدوره أن يترك الرها لفترة من الوقت. وكان واضحاً أنه ينبغي للجماعة أن تقوى بقدر الاستطاعة من أجل الصالح العام، وكان هو الآخر مهتماً بوراثنة عرش القدس؛ فهو أخو جودفري ويليه من حيث القرابة في الشرق — فرما غادر إيوستاس أوف بولونيا فلسطين في أعقاب روبرت أوف فلاندرز — ولا يقل طموحه عن طموح بوهيموند. وربما شعر بوهيموند فيما بعد بالأسف لصحبته، فقد جاء مع بوهيموند وبالدوين كل رجالهما الزائدين عن

Albert of Aix, vi, 56-60, pp. 501-5; Ordric Vitalis, vol. iv, pp. 70-2; Guibert^(١)

. of Nogent, p. 232.

Fulcher of Chartres, I, xxxiii, 1-6, pp. 322-6; Albert of Aix, vii, 6, p. 511.^(٢)

احتياجات الدفاع في أراضيها، وكذلك عدد غير من النساء، واستنادا إلى ما أورده فولشر أوف تشارترز بلغ عددهم خمسة وعشرين ألف شخص.^(١)

وانطلق الحجاج في أوائل نوفمبر (تشرين الثاني)، وسلك بوهيموند وديامبرت الطريق الساحلي يحرس جانبهما أسطول بيزا، وأثناء مرورهما باللاذقية رفض ريموند مساعدتهما بالمون، وتوقفا في بانياس الواقعة إلى الجنوب قليلا كي يتمكن بالدوين من أن يلحق بهما، فقد وصل إلى أنطاكية بعد رحيل بوهيموند مباشرة، واستقبله ريموند في اللاذقية استقبالا حسنا. أما أهل بانياس وهم مسيحيون يونانيون يعترفون بسلطان الإمبراطور فلم يرحبوا بالحجاج وأظهروا عزوفهم عن تقديم الإمدادات، فواصل الحجاج مسيرتهم لكنهم سرعان ما داهمهم الجوع. وكانت مدينة طرطوس التي مروا بها في نهاية الشهر قد عادت إلى أيدي المسلمين، وهاجمت حاميتها الراجلين في مؤخرة الحجاج وقتلتهم، ولم يستطيعوا الحصول على الطعام منها، أو على الكثير منه في طرابلس، إذ كان الخبز باهظ الثمن ولم يستطع شراءه إلا الأغنياء. واستخرجوا بعض العصارة الغذائية من قصب السكر الذي كان ينمو في جوار طرابلس، ورغم اهتمام الحجاج بهذا النبات الجديد بالنسبة لهم، إلا أنه لم يكف لإشباع احتياجاتهم. وجاء شهر ديسمبر (كانون الأول) ببرد غير متوقع، وهطلت الأمطار بلا توقف، وارتفع معدل الوفيات بين المسنين والضعفاء، وهلك أغلب دواب الأجمال، لكنهم تابروا وواصلوا تقدمهم، وفي منتصف ديسمبر (كانون الأول) وصلوا إلى قيسارية حيث تمكنوا من شراء الطعام، وفي الحادي والعشرين وصلوا إلى القدس.^(٢)

^(١) يقول Fulcher of Chartres (*loc. cit.*) إن بوهيمند دعا بلدوين لمصاحبه لأن الأعداد الأكبر

توفر الأمان الأكبر. ويورد Fulcher عدد الحجاج، ولا شك أنه عدد مبالغ فيه (*ibid.* 8, p. 328).

^(٢) Fulcher of Chartres, *ibid.* 7-18, pp. 326-32.

وابتهج جودفري برؤياهم؛ فهو في حاجة ملحة إلى القوة البشرية، وداعبه الأمل في إقناع الكثير منهم بالبقاء في فلسطين والاستقرار في الضياع التي يستطيع تقديمها إليهم. ولقد أصاب بعض النجاح؛ فعندما عاد بوهموند وبالديون إلى الشمال تخلف عدد من الفرسان برجالهم وبقوا معه. وكانت هزيمة المصريين في عسقلان تعني خروج يهودا والسامرة في داخل البلاد من نطاق سيطرتهم، برغم بقاء المدن الساحلية في أيدي حكام فاطميين وتحت حماية الأسطول المصري باستثناء ميناء يافا. وكان أغلب سكان القرى من صغار المزارعين المسيحيين السلبين الذين حرّموا من حمل السلاح لأجيال. وكان سادتهم المسلمون يستغلونهم عندما تكون الحكومة المركزية ضعيفة، ولقد رحبوا في بادئ الأمر بتغير الأسياد. وبنهاية الصيف امتد سلطان جودفري إلى سهل جزريل^(١) في الشمال وإلى ما وراء حبرون داخل النقب في الجنوب برغم عدم اكتمال سيطرته على جنوب يهودا؛ لأن أغلب السكان من المسلمين، وتسلك البدو من الصحراء لا ينقطع. وكانت حبرون — التي أطلق عليها الصليبيون اسم (القديس إبراهيم) — محصنة تحصينا قويا حتى يمكن السيطرة على المنطقة.^(٢)

وفي تلك الأثناء توغل تانكريد في الجليل ومعه مجموعة صغيرة مكونة من أربعة وعشرين فارسا ورجالهم. والجليل منطقة اختلف عليها مؤرخا الفاطميون ودقاق الدمشقي الذي لم يتسع الوقت أمامه لاحتلال تلك المقاطعة بعد هزيمة الفاطميين في عسقلان، ولذلك لم يقاوم مسلموها تانكريد، وعندما اقترب من عاصمتهم طبرية هربوا إلى الأراضي الدمشقية، واستقبلته الأقلية المسيحية في المدينة بمشاعر السعادة، أما الجالية اليهودية الكبيرة فكان أفرادها في كرب شديد، إذ أن ذكرى مصر إخوانهم في

(١) (المترجم): سهل جزريل : يقع شمال فلسطين ويفصل بين منطقة تلال الجليل في الشمال والسامرة في الجنوب . وهو مذكور في الكتاب المقدس ، العهد القديم ، بإسم " وادي بزرعيل " (سفر يشوع 17:16).

(٢) إستنادا إلى William of Tyre ، لم يكن لدى جودفري سوى ثلاثمائة فارس وألفين من المشاة . (ix, 19. Vol. 1, pt 1, p. 393)

القدس ما تزال ماثلة في أذهانهم. وقام تانكريد بتحصين طبرية، ثم واصل مسيرته إلى مدينة الناصرة المسيحية وإلى جبل طابور^(١)، ثم توج غزواته بالاستيلاء على قلعة بيسلن الحصينة (سكيتوبوليس) التي تتحكم في المعبر الواصل من سهل جزيريل إلى الأردن. وسارع مسلمو الجليل بالرحيل عن المنطقة، وتابع تانكريد رحيلهم بسلسلة من الغارات الخاطفة الناجحة على الأراضي الإسلامية المحيطة جريا على أسلوب العرب. وأسفرت تلك الغارات لا عن حصوله هو وأتباعه على غنائم وفيرة وحسب، وإنما أكدت أيضا امتلاكه للجليل. وهكذا كبرت الدولة المسيحية وأصبحت كتلة متماسكة من الأراضي تفصل المدن الفاطمية الساحلية فصلا تاما عن الأردن وحواران في داخل البلاد. وها هم المصريون غير مستعدين بعد للثأر من هزيمة عسقلان، وها هو دقاق الدمشقي غارقا إلى أذنيه في مشاجرات عائلية بحيث لا يجرؤ على المخاطرة بحرب هجومية، وإذن فليس هناك من خطر عاجل يهدد جودفري. وواقع الحال أنه لا يتحمل هجوما مضادا جديا بما لديه من قوات محاربة يقدرها المؤرخ ولیم الصوري بثلاثمائة فارس وألفي راجل.

إن تفرق العرب، دون غيره، هو الذي سمح للدولة الدخيلة الصغيرة بأن تقام داخل أراضيهم.^(٢)

ديامبرت يصبح بطريقا

وخطط ديامبرت وبوهيموند سياستهما المقبلة أثناء ارتحاليهما جنوبا. وكان جودفري في حاجة إلى مساعدتهما؛ فهو يفتقر إلى القوة البحرية المتمثلة في سفن بيزا التي يستحوذ ديامبرت على ولائها، كما كان في حاجة إلى أكبر عدد من الفرسان يستطيع بوهيموند الاستغناء عنهم. وأمضى الحجاج عيد الميلاد في بيت لحم، وما أن

(١) (المترجم) : جبل طابور أو الطور : الجبل الذي تمحيا فيه ذكرى تجلى المسيح .

(٢) Radulph of Caen, cxxxix, pp. 703-4; William of Tyre, x, 13, vol. 1 pt 1, p.394

انتهت الاحتفالات حتى كشف الوافدان عن خططهما، فقد خُلع البطريق آرنولف، الذي كان أعداؤه كثيرين، تأسيساً على أن انتخابه لم يكن طبقاً للقانون الكنسي، وكان نصيره دوق نورماندي بعيداً آنذاك. وبتحريض من بوهيموند انتُخب ديامبرت بطريقاً للقدس مكان آرنولف. وانتشرت شائعات تقول إن الهدايا التي أخذها كل من بوهيموند وجودفري ساعدت على إنجاز المهمة. وفور الانتهاء من تنويجه بطريقاً ركع بوهيموند وجودفري أمامه حيث نصبهما في أراضي القدس وأنطاكية.⁽¹⁾

وكان احتفالاً له شأن كبير واتضح مغزاه بجلاء. إذ دائماً ما كان الرأي العام بين الحجاج يعتبر أن الأراضي المقدسة ينبغي أن تكون وقفاً كنسياً، بيد أنه لم يكن لآرنولف من السلطة أو الشخصية ما يمكنه من السيطرة على القوى الدنيوية، ثم جلاء ديامبرت مندوباً بابوياً يتمتع بمهابة أضفاها عليه قرار البابا إيربان بتعيينه، وأحضر معه المساعدة الفعالة المتمثلة في أسطول من السفن ومؤازرة مقتدرة من بوهيموند، ولذا لم يكن الصليبي العادي ينكر عليه مطالبه. وشارك جودفري في تقديم فروض الاحترام اللائق الأصيل للكنيسة، فهو رجل ضعيف لا يشعر بالأمان برغم ما ينتابه من نوبات عناد، وكان يأمل — باعترافه بسيادة الكنيسة — في أن يركز على ركيزة معنوية ملائمة في منصبه، وأن ينال من الكنيسة دعماً كاملاً لحكومته الدنيوية في البلاد، لكنه لم يكن حتى ذلك الوقت يعرف ديامبرت حق المعرفة. وكان بوهيموند أشدّ مكرّاً؛ فهو لم يخسر شيئاً باعترافه بسيادة ديامبرت الذي سيكون بعيداً جداً بحيث لا يستطيع التدخل في شؤون أنطاكية، وسره تجاهل حقوق بطريق أنطاكية اليوناني لا سيما وأنه يرتاب في أنه عميل لبيزنطة. ولأن سلطانه الآن يركز من الناحية الرسمية على رجل الكنيسة اللاتيني الرئيسي في الشرق، فإنه بذلك أجاب على مطالب الإمبراطور برده عملي من شأنه أن يلقي الترحيب من جميع اللاتينيين، وبذا يمكنه أن يأمل في عوْنهم

⁽¹⁾ . Albert of Aix, vii, 7, pp. 511-12; William of Tyre, ix, 15, vol. 1 pt , p. 387

النصادق إذا ما حاول الإمبراطور مهاجمته. ولعله حصل في تلك المناسبة على لقب أمير أنطاكية. ولم يكن لقب (أمير) المرتبط بالأرض معروفاً في الغرب إلا فيما ندر، وباستثناء جنوب إيطاليا حيث سبق أن استخدمه بعض الحكام النورماندين الذين تعاقبوا على الأرض اللومباردية، ولم يعترفوا بأية سيادة دنيوية أعلى سوى كرسي القديس بطرس، وكان ذلك اللقب يناسب بوهيموند تماماً. وفي ذات الوقت حصل ابن أخيه تانكريد على لقب أمير الجليل أيضاً، وربما أراد بذلك أن يظهر أن سيده لم يكن جودفري وإمط البطريق. ولقد اغتبط ديامبرت بالولاء الذي أظهره له ⁽¹⁾، ولعل البابا إيربان كان ينوي أن تصبح الأراضي المقدسة وقفاً كنسياً رغم أنه لم يكن يرغب في إفساد الترتيبات الكنسية القائمة، ولا شك في أنه كان سيرحب باستحلاف أحد اللاتينيين في كل بطريرقية شرقية إذا ما تيسر ذلك بالطرق القانونية والسلمية، وربما يعنّ لنا أن نتساءل ما إذا كان يوافق على إجراء تنتحل بموجبه بطريرقية القدس لنفسها سلطاناً يعلو فوق سلطان بطريرقية أنطاكية الأقدم ذات الزعامة التاريخية. وكانت مطالب ديامبرت هي المطالب البطريرقية المتمثلة في سيادة دينية ودنيوية في الشرق تسمو بنفس قدر السيادة التي أتاحها البابا جريجوري السابع نفسه للبابوية في الغرب. ولقد اختيرت اللحظة اختياراً موفقاً؛ فقد مات البابا إيربان، ولا بد أن تكون أنباء استخلاف باسكال الثاني — الذي رُفِعَ إلى منصب البابوية في الثالث عشر من أغسطس (آب) — قد وصلت القدس بحلول الشتاء، وربما كان ديامبرت على صلة وثيقة بالبابا الجديد الذي كان قد سبقه كمندوب بابوي في إسبانيا وعرف أنه رجل عادي القدرات وليس بالشخصية القوية، ومن غير المحتمل أن يتسبب في وجود عراقيل طالما تم الاعتراف بسيادته الاسمية. ⁽²⁾

⁽¹⁾ See Grousset, *Histoire des Croisades*, vol. 1, pp. 194-6, and Moeller, *op. cit.*

⁽²⁾ For Paschall II, see article 'Paschall II' by Amann in Vacant and Mangenot,

ولم يقدم بالدوين صاحب الرها ولائه للطريق. وليس معروفا ما إذا كان قد طلب منه أن يفعل ذلك ورفض، أم أن المسألة لم يثرها أحد. ولكن يبدو أن علاقته بديامبرت لم تكن علاقة ودودة.^(١)

بوهيموند وبالدوين يعودان إلى الشمال

وبانتهاء الاحتفال رحل بوهيموند وبالدوين معا في يوم رأس السنة الجديدة ١١٠٠ ميلادية إلى أراضيهم. وعاد معهما أغلب أتباعهما، وتخلف عدد منهم منحهم جودفري إقطاعيات في فلسطين. وصاحب جودفري وديامبرت الحجاج إلى أريحا والأردن حيث أمضوا عيد الغطاس^(٢)، ثم تحول بالدوين وبوهيموند شمالا أعلى الوادي إلى بيسان، ومنها إلى طبرية حيث قررا عدم السفر على الطريق الساحلي وإنما المضي قدما مرورا ببانياس ووادي الليطاني إلى داخل سوريا دون أن يعترض طريقهما أحد إلى أن أصبحا داخل سوريا بالقرب من معبد بعلبك حيث الولاء لدقاق الدمشقي الذي خطط لاعتراضهما هناك. وعندما هاجمت القوات الدمشقية كان المركب يسير في طابور يتقدمه بوهيموند بينما كان بالدوين في المؤخرة، ولكن الدقاق كان حريصا على سرعة طردهم خارج أراضيه أكثر من حرصه على القضاء عليهم، فلم تكن غارته عليهم كاسحة ولذا كان من اليسير ردها، وواصل الفرنج طريقهم هبوطا إلى البحر

^(١) ليس هناك من دليل على أن بلدوين قدم الولاء لديامبرت بشأن الرها في أى وقت. ويتضح من الأحداث اللاحقة أن ديامبرت لم يكن يثق فيه .

^(٢) (المترجم) : عيد الغطاس أو عيد الظهور الإلهي : عيد كنسى (٦ يناير) تخليدا لمجيء المخلص، باعتباره أول ظهور للمسيح لغير اليهود ؛ وفي الكنيسة الشرقية تخليدا لذكرى تعميد المسيح .

خلال البقاع ومن هناك اتخذوا الطريق الساحلي مروراً بطرطوس واللاذقية إلى أنطاكية، وقبل نهاية فبراير (شباط) كان بالدوين قد عاد إلى الرها.⁽³⁾

وتمكن جودفري من بسط سيطرته على سهول فلسطين الساحلية بعد أن زادت قواته المسلحة، وكانت أراضيه معزولة عن البحر باستثناء ممر يؤدي إلى يافا، وأثناء الخريف حاول توسيع هذا الممر بالاستيلاء على ميناء أرصوف الصغير الواقع شمال يافا. وكان أهل أرصوف قد عرضوا الاستسلام لريموند أوف تولوز، ولكن أحبط مساعدهم تدخل جودفري، والآن وقد غادر ريموند فلسطين رأوا أن من الحكمة التوصل إلى اتفاق مع جودفري، فأرسلوا إليه بعض الرهائن وفي المقابل سمحوا بأن يدخل مدينتهم أحد الفرسان من هينولت وهو جيرار أوف أفيسن ليقم في المدينة من ناحية وليكون رهينة من ناحية أخرى، بيد أن جودفري كان يريد السيطرة المباشرة، فسار في أواخر الخريف ومعه قوة صغيرة لمهاجمة المدينة. وكان أول ضحاياه صديقه جيرار أوف أفيسن الذي قيده أهل أرصوف وعلقوه من فوق الأسوار بحيث أصبح معرضاً تماماً لسهام المغيرين، وراح جيرار يصرخ دون جدوى متوسلاً إلى جودفري كي يقي على حياته، ولكن رد عليه جودفري بأنه لو كان أخوه إيوستاس نفسه معلقاً في مكانه فلن يثنيه ذلك عن تشديد الهجوم، وسرعان ما سحب أهل أرصوف جسد جيرار بعد أن اخترقه اثنا عشر سهماً من سهام رفاقه. على أن استشهاده ذهب هباء؛ إذ كان رجال جودفري فاقدى الخيلة أمام أسوار المدينة بعدما دمرت الحامية البرجين المتحركين اللذين شيدهما قذفاً بالنيران الإغريقية الواحد تلو الآخر. ورفع جودفري الحصار في الخامس عشر من ديسمبر (كانون الأول)، ولكنه ترك نصف جيشه في الرملة وأمره بتخريب الريف المحيط بأرصوف ليستحيل على مواطنيها أن يفلحوا أرضهم.⁽¹⁾

⁽³⁾ . Fulcher of Chartres, 1, xxxiii, 19-21, pp. 332-4.

⁽¹⁾ . Albert of Aix vii, 1-6, pp. 507-11.

وبوصول التعزيزات واصل جودفري سياسته تلك بصورة موسعة؛ فبدأ رجاله في الإغارة على الريف المحيط بكل المدن الفاطمية الساحلية: عسقلان وقيسارية وعكا فضلاً عن أرصوف، إلى أن عجزت كلها عن الحصول على أية إمدادات من داخل البلاد. وفي نفس الوقت استعان ببحارة بيزا في تحصين مدينة يافا، وإدخال التحسينات على مرفئها، وتدفقت السفن من جميع الموانئ الإيطالية وموانئ بروفانس الفرنسية لمشاركة أهل بيزا في تلك الفرصة السانحة تجذبها توقعات التجارة الرائجة مع الدولة الجديدة، وبمساعدها تمكن جودفري من محاصرة الساحل الفلسطيني. وتزايدت الصعوبات أمام السفن الفاطمية في جلب الإمدادات بحرًا إلى الموانئ الإسلامية. وكانت هناك أعمال قرصنة من الجانبين، لكن على وجه العموم كان مواطنو تلك الموانئ هم الذين عانوا أسوأ المعاناة.^(١)

وفي منتصف شهر مارس (آذار) استجاب المصريون لنداء عاجل من حامية أرصوف وأرسلوا لها فصيلة صغيرة بطريق البحر لتعززها، فتشجع رجال أرصوف ونظموا غارة مضادة على الفرنج، لكنهم وقعوا في كمين قُتل فيه الجزء الأعظم من جيشهم، فتملكهم اليأس وأرسلوا إلى جودفري سفارة وصلت القدس في الخامس والعشرين من مارس (آذار) حاملة إليه مفاتيح أبراج المدينة كهدية رمزية، على أن تدفع إتاوة سنوية، فقبل جودفري استسلامهم ومنح حق استلام الإتاوة لواحد من أهم فرسانه هو روبرت أوف أبوليا. وبعد ذلك بأيام قليلة فوجئ جودفري واغتبط لظهور جيران أوف أفيسن في القدس وقد شفي من جراحه والآن أعادته سلطات أرصوف كعلامة على حسن النوايا. ودفعه تأنيب الضمير الذي كان يعاني منه إلى إهدائه إقطاعية القديس إبراهيم، أي حبرون.^(٢)

^(١) Ibid, vii, 12, 14, pp. 515-16.

^(٢) Ibid, vii, 13, 15, pp. 515-16.

ولم يمض وقت طويل حتى سارت مدن عسقلان وقيسارية وعكا على نفس الدرب الذي سارت عليه أرصوف. ففي أول إبريل (نيسان) اجتمع أمراء تلك المدن وأرسلوا المبعوثين إلى جودفري محملين بهدايا من الحبوب والفاكهة والزيتون والخيول العربية، وعرضوا عليه دفع إتاوة شهرية قدرها خمسة آلاف بيزنطة إذا سمح لهم بأن يفلحوا أرضهم في سلام، فقبل جودفري عرضهم، وسرعان ما نشأت علاقات حميمة بين المدن الإسلامية وحاكمها المسيحي. وكان العديد من صغار مشايخ المسلمين في سفوح الجبال قد أعلنوا خضوعهم من قبل؛ فبينما كان جودفري في معسكره أمام أرصوف زاره وفد منهم بهدايا من الطعام، وتأثر الوفد بالبساطة التي يعيش فيها وابتهجوا لها — وهي بساطة أملاها عليه فقره وذوقه، وتناسبت تلك البساطة مع تصورهم للمحارب العظيم المتواضع ويسرت له الفوز بصدقتهم.⁽¹⁾

وسار على دربهم شيوخ شرق الأردن وسعوا إلى التفاهم معه. إذ اعتادوا إرسال فائض إنتاجهم إلى مدن الساحل، والآن تعترض الدولة الفرنجية طرق تجارتهم، فطلبوا تمكينهم من إرسال قوافلهم عبر يهودا مرة أخرى فأذن لهم جودفري، لكنه حاول تحويل التجارة إلى ميناء يافا المسيحي بقدر الإمكان. وفي نفس الوقت شجع الإيطاليين على اعتراض أية تجارة بين المدن الإسلامية الساحلية ومصر ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً كي تصبح تلك المدن معتمدة على المسيحيين في تجارتها. وهكذا بدأت فلسطين كلها تتكامل في كيان اقتصادي واحد بعلاقات مع أوروبا فيما وراء البحار، وحققت السياسة الفرنجية عائداً سريعاً من الثروة والرخاء للدولة الصليبية.⁽²⁾

⁽¹⁾ . *Ibid. loc. cit.*; William of Tyre, ix, 20, vol. 1 pt 1, pp. 395-6

⁽²⁾ . Albert of Aix, vii, 14, p. 516

غارات عبر الأردن

وشجع تزايد نفوذ جودفري بين جيرانه المسلمين على محاولة توسيع سيطرته لتشمل البلاد الواقعة عبر الأردن. وكان في أرض سوات الواقعة إلى الشرق من الجليل أمير أطلق عليه الصليبيون اسم "الفلاح السمين"، وكان تانكريد قد أغار على أراضيه ودفعه إلى الاعتراف بالسيادة الفرنجية، لكن "الفلاح السمين" سرعان ما تحلل من تلك التبعية فور رحيل تانكريد ولجأ إلى سيده الأعلى دقاق الدمشقي طلباً للمساعدة. ولذا طلب تانكريد بدوره المساعدة من جودفري، فإذا كان للفرنج موطئ قدم هناك فسوف يتمكنون من تحويل التجارة الرائجة في الجولان وحواران إلى المواني الفلسطينية، فضلاً عن أن منطقة سوات تشتهر بخصب أراضيها. وتلهف جودفري على الاشتراك في غزوها، فجمع الجنود في وقت مبكر من شهر مايو (أيار) وألحقهم بقوات تانكريد في غارة أدت بهما عبر أراضي "الفلاح السمين" إلى قلب الجولان مباشرة. وأثناء عودتهما مثقلين بالغنائم انقض الدقاق على المؤخرة التي يقودها تانكريد، ومضى جودفري الذي كان في الطليعة وهو يجهل ما كان يحدث، ولم يتمكن تانكريد من تخليص نفسه إلا بعد أن فقد الكثير من رجاله وكل نصيبه من الأسلاب. على أن الدقاق لم يشعر بأنه من القوة بحيث يطارد الفرنج فعاد إلى دمشق بعد أن تأكد من مغادرتهم أراضيهم. ومضى جودفري ومعه أسلابه إلى القدس. لكن تانكريد كان يتحرق شوقاً للانتقام، فبعد أن استراح جيشه في طبرية وجمع التعزيزات قام بغارة أخرى في الأراضي الدمشقية كانت من الشراسة بحيث دفعت الدقاق إلى اقتراح هدنة. فكان رد تانكريد أن بعث بستة فرسان إلى دمشق ومعهم رسالة مؤداها أنه على الدقاق إما أن يصبح مسيحياً أو يغلدر دمشق، فتملكته سورة الغضب من تلك الإهانة، ورد على الرسل بالمثل وخيرهم بين أن يسلموا أو يقتلوا، وتخلّى واحد منهم عن عقيدته وقتل الخمسة الآخرين. وفي الحال طلب تانكريد المساعدة من جودفري ليثأر لاستشهادهم، فخرج جودفري مرة أخرى ليشترك معه في غارة أكثر هولاً من سابقتها؛ وظلوا أربعة عشر يوماً يخربون الجولان بينما احتفى المسلمون وراء أسوار مدنها. على أن الدقاق، الذي لم يكن ميالاً بطبعه

للالتزام بحملات القتال، لم يحاول أن يتصدى لهم. ووجد "الفلاح السمين" نفسه وقد هجره سيده وأفقره الفرنج فوافق مرة أخرى على قبول سيادة تانكريد ودفع إتاوة منتظمة له.^(١)

وبرغم قوة جودفري الصاعدة بين جيرانه المسلمين، كانت قوته الداخلية في نطق أراضيه آخذة في الاضمحلال. فكانت علاقته بتانكريد، وهو أكبر أتباعه، علاقة ودودة، غير أنه يبدو أن تانكريد، برغم كل ما يطلبه من مساعدات جودفري، شكل سياسته وفقا لرغباته. وبينما كان تانكريد، وهو أمير الجليل، يتصرف كما لو كان عاهلا مستقلا، وجد جودفري أن سيده الأعلى الذي قبله دونما روية، وهو البطريق ديامبرت، يقيد من استقلاله أكثر فأكثر؛ فلم يكن ديامبرت يرضى بأن تكون سلطته مجرد سلطة اسمية نظرية، وإنما يريد أن تستند إلى قوة إيجابية، ولم يكن جودفري يميل إلى رفض طلباته لشعوره الدائم بعدم الثقة في نفسه أمام الكنيسة، ولخشيته من أن يفقد مساعدته. في ١١٠٠ سنة (شباط) الثاني من فبراير (شباط) سنة ١١٠٠ ميلادية، قام بتسليم ربع مدينة يافا إلى دائرة القدس الكنسية، وبعد ذلك طلب ديامبرت السيطرة لا على يافا كلها وحسب، وإنما أيضا على مدينة القدس نفسها وعلى قلعتها (برج داوود) وأذن جودفري مرة أخرى لكنه أصر على التأخير الذي ربما دفعه إليه فرسانه الحانقون؛ ففي قداس وقور أقيم يوم عيد الفصح أول إبريل (نيسان) وهب المدينتين للبطريرقية، لكنه أعلن استمرار امتلاكه لهما حتى توافيه المنية أو إلى أن يستولي من الكفار على مدينتين كبيرتين بدلا منهما. ولم يكن هذا حلا مرضيا؛ إذ ليس من اليسير بناء مملكة منظمة حول عاصمة مؤقتة، ويبدو أنه لم يكن لدى جودفري هيئة حكومية بخلاف جماعته هو نفسه، كما لم يكن بوسع أن يأمل الآن في تأسيس حكومة في القدس. ولو كان ديامبرت إداريا متمرسا، أو رجل دولة يتصف بالحكمة مثل أديمار، لقدّر لنظام الحكم الهرمي الذي تصوره أن يبقى، لكن

^(١) Ibid. vii, 16-17, pp. 517-18

محاولته غير المتبصرة أن يطرد من العاصمة حماها الدنيوين الذي يعتمد عليهم أمن الدولة المسيحية، هي محاولة من شأنها أن تؤدي إلى كارثة، وحتى المهلة التي حصل عليها جودفري جعلت المستقبل غير معروف. لكن العناية الإلهية أظهرت الرحمة للقدس.^(١)

فلدى عودة جودفري إلى الجليل في الثامن عشر من يونية (حزيران) بعد غارته في الجولان علم بوصول أسطول قوي إلى يافا قادما من البندقية، فهرع جنوبا لتحيته وهو يدرك الفائدة الكبيرة لهذا الأسطول في السيطرة على السواحل، وانطلق من طبرية مرورا بعكا وحيفا إلى قيسارية. وكان أميرها تواقا إلى إظهار احتراماته لسيده، فلدعاه إلى مأدبة عومل فيها بأسمى مظاهر التشريف. ومن قيسارية انطلق جودفري مباشرة إلى يافا، فوصلها وهو يعاني من المرض، وانهار فور وصوله النزل الذي كان قد شيد بنفسه لكبار الزوار. وتذكر أصدقاؤه كل ألوان الفاكهة التي تناولها على مائدة الأمير وتهامسوا بكلمة السم، والحقيقة أن مرضه ربما كان التيفود. وفي اليوم التالي استرد من قوته ما يكفي لاستقبال أمر الأسطول البندقي والأسقف الذي كان بصحبته، وناقش معهما الشروط التي بموجبها يقدم الأسطول المساعدة للصليبيين. على أن الجهد الذي بذله في المقابلة كان فوق طاقته الصحية، فطلب من جماعته نقله إلى القدس حيث تحسن تحسنا طفيفا في هوائها المنعش، لكنه كان بالغ الضعف بحيث لم يقدر على العمل.^(٢)

جودفري في مرضه الأخير

وتحلق السياسيون حول فراش مرضه يتشاحنون. فهذا ديامبرت قد عيل صبره انتظارا للحظة يستولي فيها على المدينة، وها هم البنادقة متلهفون على اتخاذ الخطوات

^(١) William of Tyre, x, 16-17, vol. 1, pt 1, pp. 388-90.

^(٢) Albert of Aix, vii, 18, p. 519. ويقول المؤرخ ماثيو الأوربي Matthew of Edessa،

ويفترض أنه يعتمد على شائعات مسيحية محلية، إن الأمير دس السم لجودفري (n, clxv, p. 299).

اللازمة للمضي في ترتيباتهم، وقد جاءوا إلى القدس في جماعتين للعبادة في الأماكن المقدسة: الأولى في الحادي والعشرين من يونية (حزيران)، والثانية في الرابع والعشرين، لكن ربما تخلف أمرهم وأسقفهم لفترة أطول لمواصلة المفاوضات. وما أن سمع تانكريد بوصولهم وبمرض جودفري حتى ترك الجليل متجهاً إلى الجنوب على عجل. ومن فراش المرض أناب جودفري ابن عمه الكونت البرجندي وارنر أوف جراي للقيام بأعماله، وأعطى موافقة على الشروط التي اشترطها البنادقة والتي تتمثل في أن يُسمح لهم بحرية التجارة في سائر أنحاء الدولة الفرنجية، وأن يكون لهم سوق وكنيسة في كل مدينة من مدن الدولة، وأن يحصلوا على ثلث كل مدينة يساعدون في الاستيلاء عليها، وعلى مدينة طرابلس كلها شريطة دفع إتاوة لجودفري، وفي مقابل ذلك يقدمون مساعدتهم للصليبيين حتى منتصف أغسطس (آب).⁽¹⁾ ثم نوقشت المدن التي سوف تتم مهاجمتها في الصيف، وتقرر أن تكون عكا الهدف الرئيسي على الرغم من المعاهدة المعقودة بين أميرها وجودفري، ولا بد من الاستيلاء على حيفا كذلك. وكان تانكريد يأمل في ضمان عكا لنفسه وضمها لإمارته، على أن جودفري شخصياً وعد صديقه جلدमार كاربنيل بإعطائه حيفا.⁽²⁾

وخلال النصف الأول من يولية (تموز) بدا جودفري أقوى قليلاً، وكان يُظن أنه سوف يشفى. وبدأ الاستعداد لتنفيذ مخططات تسيير الحملة إلى عكا، فلحق جنود تانكريد بقائدهم في العاصمة، وعيّن وارنر أوف جراي قائداً لجنود جودفري. وعندئذ قرر البطريق ديامبرت مصاحبة الحملة كي يُظهر أنه السلطة الرئيسية في البلاد، ولكي يكون له رأي عند أي توزيع للأراضي؛ فهو لا يثق في وارنر، وظن أنه من المأمون أن

⁽¹⁾ vii, 19, p. 519 *Translatio Sancti Nicolai in Venetiam R.H.C.Occ* vol. v, pt 1,

. pp. 272-3; Albert of Aix .

. *Translatio Sancti Nicolai, loc. cit.* ; Albert of Aix vii, 20, p. 520. ⁽²⁾

يفادر القدس فجوفري يعاني المرض الشديد ولا يقوى على اتخاذ أي إجراء، وجنوده كلهم بعيدون عنه في الحملة. ولم يحدث قط أن أخطأ في حساباته على هذا النحو.

وفي الثالث عشر من يولية (تموز) غادر القدس كل من البطريق وتانكريد ووارنر وجميع رجالهم، وساروا جنوباً إلى يافا للاتصال بالبنادقة. وأثناء اقترابهم من يافا سقط وارنر مريضاً فجأة، وكان واضحاً أن حالته لا تسمح له بمواصلة الحملة، فبقي أربعة أيام في يافا ثم عادوا به إلى القدس محمولاً على محفة. بينما أسرع الجيش شمالاً على الساحل وتجهزت سفن البندقية للإبحار شمالاً إلى جانبته، لكن الرياح الشمالية أوقفتها ولم تحرز تقدماً يذكر.^(١)

ولم يكذ وارنر أن يصل إلى القدس حتى توقف قلب جودفري المرهق. وفي يوم الأربعاء الثامن عشر من يولية (تموز)، كان جودفري — كونت اللورين وحامي القبر المقدس — يرقد في هدوء ليستريح راحته الأخيرة بعد أن تقوى بآخر طقوس الكنيسة. لقد كان حاكماً ضعيفاً يفتقر إلى الحكمة، لكنه نال احترام الرجال من كل الأمم لشجاعته وتواضعه وإيمانه. وفي القدس قبل نأ موته بالحداد، وظل مسجى في نعش مكشوف خمسة أيام، ثم دُفن في كنيسة القبر المقدس.^(٢)

^(١) .*Translatio Sancti Nicolai, loc. cit.*

^(٢) .Albert of Aix, vii 21, pp. 520-1; William of Tyre, ix, 23, vol. 1 pt 1, p. 399

الفصل الرابع

(مملكة أورشليم)

مملكة أُورُشَلِيم

"لَا بَلْ يَكُونُ عَلَيْنَا مَلِكٌ"

(صَمُوئِيلَ الْأَوَّلُ : ٨ - ١٩)

أملى جودفري وصيته وهو على فراش المرض، وأوفى بوعده الذي وعد به في عيد الفصح ووهب مدينة القدس للبطريق. وعندما مات لم يكن في القدس من يتمتع بأية سلطة فيما عدا وارنر أوف جراي، فقد رحل البطريق وزعماء الفرسان كلهم في الحملة

إلى عكا. وكان وارنر نفسه يحتضر، لكنه أدرك ما ينبغي عمله؛ فنهض من فراش مرضه واحتل من فوره برج داوود ووضع فيه رجالاً من حرس جودفري الشخصي، وبعد أن تشاور مع بعض الضباط في منزل جودفري وهم ماثيو وكيلى الإقطاعيات، وجودفري (الياور)، ومع روبرت أسقف الرملة وآرنولف الأسقف السابق، أرسل أسقف الرملة مع فارسين للانطلاق بغاية السرعة إلى الرها ليخبروا بالدوين بوفاة أخيه، ويستدعوه ليتولى التركة؛ فلا طاعة عليهم إلا لواحد من أقاربه. وهو أمر دُبر من قبل؛ إذ شملت الدعوة الموجهة إلى بالدوين أسماء جماعة من الفرسان كانوا عند إرسالها مع الجيش مثل جلدمار كارنبل وفيشر الألماني. وتتألف هذه الجماعة من أبناء اللورين والفرنسيين الشماليين الذين جاءوا إلى الحملة الصليبية مع جودفري أو لحقوا به، وكانوا يعارضون النورماندين والإيطاليين معارضة مريرة لا سيما وأن جودفري كان واقعاً تحت نفوذهم. وأفلحوا في كتمان سرهم وظنوا أن الحكمة تقضي بإبقائه طي الكتمان، فلم تصل أنباء موت جودفري إلى الجيش.⁽¹⁾

وبينما كانت سفن البنادقة ما تزال بالقرب من يافا انتظاراً لهدوء الرياح الشمالية جاءهم من لقدس رسول ينعي إليهم موت جودفري، فسأله أمر البنادقة نفسه عن مدى تأثير ذلك على الحملة، وأرسل لتوه أسرع ثلاث سفن لديه شمالاً بمحاذاة الساحل لتلحق بتانكريد والبطريق وتستفسر عما ينويانه الآن. ووقع النبأ على الجيش وقعاً سيئاً لما كان يمكنه لجودفري من محبة، ويبدو أن ديامبرت قد تردد. لقد كان قلقاً على ميراثه، لكنه كان مطمئناً إلى ما أوصى به جودفري، وظن أن أهل اللورين بلا قيادة، ووافق على ما أصر عليه تانكريد من ضرورة انتهاز فرصة وجود الأسطول

⁽¹⁾ .Albert of Aix, vii, 30, p. 526; William of Tyre, x, 3, vol. 1, pt 1, pp. 403-4

يتضح أن قادة الجيش لم يعلموا بموت جودفري إلا عن طريق البنادقة

البندقي للاستيلاء على حيفا على الأقل وتأجيل الهجوم على عكا. لكنه أرسل مبعوثاً إلى القدس للاستيلاء على برج داوود باسمه.⁽¹⁾

وواصل الجيش زحفه إلى حيفا وعسكر على منحدرات جبل الكرمل، وسرعان ما ابصر الأسطول البندقي داخلًا إلى خليج حيفا التي كان أغلب سكانها من اليهود مع وجود حامية مصرية صغيرة. وتذكر اليهود مصير ذويهم التعس في القدس والجليل، فأظهروا الاستعداد للدفاع عن أنفسهم إلى النهاية، وزودهم المسلمون بالسلاح، فحاربوا بكل ما أوتي من جنسهم من عناد. وفي معركة دارت في المرفأ فقد البنادقة سفينة، فثبط ذلك من عزيمتهم وانسحبوا إلى الخليج، وفي نفس الوقت علم تانكريد فجأة بالوعد الذي وعده جودفري بمنح جلدمار كارنيل ميناء حيفا فتملكه الحق، واستدعى رجاله وتقهر إلى خيمته حيث ظل متجهماً مقطب الجبين. واستخدم ديامبرت كل لباقتة لإقناعه باستئناف الهجوم، وتبين له أن البنادقة يعدون العدة بالفعل للانصراف، ووعدته بأنه سيعمل على منح حيفا للرجل الأفضل، فوافق تانكريد على التعاون مرة أخرى وشن هجوماً جديداً. وبعد كفاح يائس انهالت القذائف على البرج الرئيسي للدفاعات فأحدثت ثغرة. وهرب من كان قادراً على الفرار من المسلمين واليهود إلى عكا أو إلى قيسارية، لكن المذبحة قضت على أغلب السكان.⁽²⁾

وسقطت حيفا في الخامس والعشرين من يولية (تموز). وفي الحال اجتمع قادة الجيش لتعيين من سيأخذها، وكان لتانكريد أكثر القوات عدداً إلى جانب تأييد ديامبرت، فلم يستطع جلدمار كارنيل أن يفعل شيئاً ضده وطرده من المدينة، فأتجه ومعه أبناء اللورين إلى حبرون جنوب فلسطين حيث اتخذها مقراً له. وأما حاكمها

⁽¹⁾ .*Translatio Sancti Nicolai in Venetiam*, pp. 275-6; William of Tyre, *loc. cit.*

⁽²⁾ .Albert of Aix, vii, 22-5, pp. 521-3; *Translatio Sancti Nicolai*, pp. 276-8

جيرار أوف أفيسن فرما كان ما يزال مع تانكريد.⁽¹⁾ وبعد ذلك اجتمع ديامبرت وتانكريد لمناقشة القضية الأكبر ألا وهي حكومة القدس المقبلة، وبلغت ديامبرت الآن أخبار القدس؛ فقد وجد مبعوثه أن وارنر أوف جراي قد استولى على برج داوود ورفض تسليمه إلى ممثلي البطريق، كما علم باستدعاء بالدوين إلى الجنوب. ومات وارنر في الثالث والعشرين من يولية (تموز) من جرّاء الإرهاق الذي بذله في مجهوده الأخير؛ غير أنه على الرغم من تفسير أصدقاء البطريق لموته هذا بأن يد الرب قد امتدت لمعاقبته على عدم تقواه، فإن ذلك لم يُجدهم فتيلًا؛ فقد بقي السرج آمنًا في حيازة أبناء اللورين.⁽²⁾ وليس بمقدور ديامبرت أن يأمل في تحقيق مطالبه دون أن يُعان على ذلك ومن ثم أصبح التحالف مع تانكريد أمرًا أساسيًا، فإمارته تمتد الآن من شرق الجليل إلى البحر المتوسط وتفصل القدس عن الشمال. وأما تانكريد فكان يُمقت بالدوين منذ أن تشاجرا في كيليكيا قبل ذلك بثلاث سنوات. ولذلك قرر ديامبرت، بموافقة تانكريد التامة، أنه ينبغي أن يعرض حكم فلسطين على بوهيموند، وأمر أمين سرّه موريللوس بالتوجه فورًا إلى أنطاكية ومعه رسالة إلى أميرها.

ديامبرت يلجأ إلى بوهيموند

ولم يكن ديامبرت يقصد أن ينخدع بوهيموند بأية أوهام حول طبيعة توليه للسيادة مستقبلاً. وافتتح خطابه بالتذكير بمساعدة بوهيموند له في انتخابه بطريقاً للدائرة الكنسية التي ووصفها بأنها أم الكنائس جميعاً وسيدة الأمم، متجاهلاً بذلك مطالب روما تجاهلاً بيناً. ثم ذكر التنازلات التي انتزعها من جودفري، واشتكى من محاولات حاشيته الحيلولة دون ذلك، وأعاد التأكيد على بنود المنحة التي تمت يوم عيد

⁽¹⁾ Albert of Aix, vii, 6, pp. 523-4. وليس هناك تسجيل يدل على أن جيرارد Gerard إعترض

على تصرف جلدمار Geldemar .

⁽²⁾ William of Tyre, loc. cit.

الفصح والتركيز على أنه بموجبها ينبغي للقدس أن تؤول إليه بموت جودفري. غير أن وارنر أوف جراي قد جانبه الصواب باحتلاله برج داوود، وعرض الميراث على بالدوين. ومن أجل ذلك طلب من بوهيموند أن يخف لمساعدته. تماماً كما فعل والد بوهيموند حينما ساعد البابا جريجوري السابع وقت أن ظلمه الأباطرة الألمان، وهي ذكرى لم تكن تتصف بسماحة نفس إزاء الكنيسة كما يبدو من تخيل ديامبرت. وعلى بوهيموند أن يكتب إلى بالدوين لمنعه من الحضور إلى فلسطين دون إذن البطريق، وإذا ما عصى فلا بد من أن يستخدم بوهيموند القوة لكبح جماحه، أي أنه من أجل أن يحكم البطريق فلسطين متحدداً بذلك رغبة الفرسان الذين يقع على كاهلهم أمر الدفاع عن البلاد، ينبغي لأمر أنطاكية المسيحي أن يعلن الحرب على كونت الرها المسيحي.⁽¹⁾

وليس من الممكن أن نعرف ما كان يمكن أن يكون عليه رد بوهيموند على تلك الرسالة، لو أنها وصلتته! فلم يكن من المحتمل أن يندفع ويخاطر بالدخول في صراع مع بالدوين؛ ولو أنه جاء إلى فلسطين لما بقى طويلاً خاضعاً للبطريق ديامبرت. على أن تلك الدعوة لم تصل إلى بوهيموند على الإطلاق، وتخلّى الحظ عن ديامبرت.

ريموند في زيارة القسطنطينية

وحدثت تطورات في شمالي سوريا خلال الأشهر القليلة المنصرمة نتجت عنها بعض تغيرات. فقد أمضى ريموند أوف تولوز أشهر الشتاء في اللاذقية يحكمها بالاشتراك مع ممثلي الإمبراطور، وكان على علاقة ممتازة بحاكم قبرص الذي كان يزوده بالإمدادات. وفي وقت ما من الربيع التالي تلقى رسالة من الإمبراطور ألكسيوس يشكره فيها على مساعدته ويطلب منه تسليم اللاذقية إلى السلطات البيزنطية، ويدعوه لزيارة

⁽¹⁾ William of Tyre, x, 4, ويرد نص خطاب ديامبرت عند Albert of Aix, vii, 27, p. 524

البلاط الإمبراطوري. وربما حمل الرسالة من القسطنطينية إيوستاثيوس الخصى الذي نال مؤخرًا ترقية وأصبح أمير البحار للأسطول الإمبراطوري، وخرج بأسطول قوي وشرع في الحال في الاستيلاء على مواني غرب كيليكيا، وسيلبوسيا، وكوريكسوس، ثم وسع سيطرته لتشمل أراضي كيليكيا الأبعد إلى الشرق التابعة لبوهيموند، فاحتل طرسوس، وأدنا، وماميسترا. وقبل ريموند الدعوة وأبحر إلى القسطنطينية في أول يونية (حزيران)، وفي قبرص قابل الأسطول البندقي الذي كان في طريقه إلى يافا، ووصل إلى العاصمة الإمبراطورية في نهاية الشهر تقريبًا. وأمّا زوجته الكونتيسة إلفيرا أوف أراجون التي بقيت بجانبه في جميع رحلاته، فقد تخلّفت في اللاذقية تحت حماية السلطات البيزنطية مع من تبقى من جيوش تولوز وبروفانس.⁽¹⁾

وكان أمين سر ديامبرت قد وصل إلى اللاذقية في نهاية يولية (تموز) وهو في طريقه إلى أنطاكية، واحتجزته السلطات لفحص أوراقه، واكتشفت الرسالة المرسلة إلى بوهيموند. وأرسلت الرسالة إلى رجال ريموند لترجمتها، فصدّموا صدمة شديدة وأبقوها في طي الكتمان واعتقلوا موريللوس.⁽²⁾

ولو أن بوهيموند تسلم الرسالة لغداً مستقبلياً كله أكثر إشراقاً. ففي بداية أغسطس (آب) غادر أنطاكية وهو يجهل أحداث فلسطين متوجّهاً إلى أعلى الفرات تلبية لنداء الأرمن في ملطية. وكان قد تمكّن في باكورة الصيف من تعزيز حدوده الجنوبية الشرقية وراء نهر العاصي بانتصاره على هجوم مضاد شنه رضوان الحلبي الذي انسحب واتجه إلى حمص يطلب مساعدة أميرها.⁽³⁾ وكانت العلاقات بين حمص وحلب

⁽¹⁾ Anna Comnena, xi, vii, 4, x, 9-10, vol. iii, pp. 345-6; Fulcher of Chartres, 1,

xxxii, 1, pp. 320-1; *Translatio Sancti Nicolai*, p. 271

كومنينا ليس واضحاً، وإن كان التاريخ يمكن تأكيده من المصادر الغربية.

⁽²⁾ .Albert of Aix, *loc. cit.*

⁽³⁾ . Kemal ad-Din, *Chronicle of Aleppo*, pp. 588-9

في غاية الاضطراب بحيث لا تشكل خطرا على بوهيموند حتى وإن كان المسلمون قادرين على استرداد تل مناس التي تركها ريموند بيليت دون حماية كافية ورحل جنوبا مع كونت تولوز. وشعر بوهيموند بقدرته على توسيع سلطانه باتجاه الشمال، ولم يستطع منع البيزنطيين من استعادة كيليكيا لافتقاره إلى القوة البحرية، لكنه كان متلهفا على السيطرة على ممرات جبال طوروس والمقابلة التي ربما تخرقها أية حملة بيزنطية تستهدف أنطاكية. وسعد بوهيموند لتلبية جبريل صاحب ملطية نداء الاستغاثة الذي كان يتوقع هجوما من مالك غازي جوموشكين الأمير الدانشمندي صاحب سيواس الذي دأب على الإغارة على أراضي جبريل لثلاث سنوات في الصيف، ويخشى الآن من أن يتقدم إلى المدينة نفسها. ولم يشأ جبريل الاستغاثة ببالدوين، مع أنه أقرب، بعد التجربة التي مر بها زوج ابنه ثوروس صاحب الرها. لكن بوهيموند أظهر مراعاته لمشاعر الأرمن. وكان من بين أصدقاء جبريل أسقف أنطاكية الأرميني سيريان، وأسقف مرعش جريجوري، واستغل جبريل وساطتهم وعرض تسليم المدينة إلى بوهيموند شريطة وضع نهاية للتهديد التركي.⁽¹⁾

وقبل أن يتوجه بوهيموند إلى أنطاكية استجابة للنداء تصرف تصرفا أدى إلى انفصاله عن اليونانيين إلى الأبد. وترتب عليه أول صراع لا سبيل إلى رتقه بين الكنيستين اليونانية واللاتينية. ذلك أن جون الرابع، الذي أعاد أديمار تنصيبه بطريقا لأنطاكية، استمر في منصبه منذ ذلك الوقت. لكنه يوناني، وبوهيموند يشك في أنه متعاطف مع بيزنطة وفي أنه يشجع الأرثوذكس التابعين لدائرته البطريارقية على التطلع إلى الخلاص على يد الإمبراطور. والآن طرده بوهيموند من المدينة، وعين مكانه واحدا من اللاتينيين هو برنارد أوف فالنس، الذي كان قسيسا تابعا لأديمار، وجعله بوهيموند مؤخرا أسقفا لمدينة أرطة، وأخذه معه إلى القدس لرسامته. وكان اللاتينيون

⁽¹⁾ Albert of Aix, *loc. cit.*; Matthew of Edessa, n, clxvii, pp. 230-1; Michael the

. Syrian (ed. Chabot), m, iii, p. 187; Ibn al-Athir, *op. cit.* pp. 203-4

المتأخرون، مثل وليم الصوري شديدي الرغبة في ترسيخ شرعية تعاقب البطارقة اللاتينيين في أنطاكية، فأعلنوا أن جون الرابع استقال بالفعل من كرسيه الأسقفي، ولكن الحقيقة هي أن جون لم يعلن عن استقالته إلا بعد وصوله إلى القسطنطينية كي يفسح الطريق ليخلفه يوناني. واستقر في أحد الأديرة في أكسيا حيث كتب بحثاً ينكر فيه الأعراف اللاتينية ويتحدث بمرارة عن الاضطهاد اللاتيني، وآلت حقوقه إلى البطريق الجديد الذي انتخبه القساوسة المبعدون. وهكذا تأسس خطان متنافسان من البطارقة، الخط اليوناني والخط اللاتيني، لا يتنازل أحدهما للآخر. وبات الصدع بين الكنيستين في أنطاكية واضحاً لا لبس فيه بسبب بوهيموند، أما الإمبراطور الذي يتطلع إلى استعادة أنطاكية إلى إمبراطوريته، فقد أضاف إلى تطلعه هذا تصميمه على إعادة الخط الشرعي إلى العرش البطريرقي.^(١)

بوهيموند في الأسر

وانطلق بوهيموند إلى ملطية بعد أن أزاح مصدر الخيانة الرئيسي المحتمل في أنطاكية. ولم يشأ أن يترك عاصمته بحامية غير كافية، فلم يصطحب معه سوى ابن عمه ريتشارد أوف سالرنو وثلاثمائة فارس وتكملة من المشاة، وصحبه الأساقفة الأرمن من أنطاكية ومرعش، وربما كان بعض فرسانه من الأرمن كذلك. وامتألت نفسه بالثقة من أنه سوف ينتصر على الأتراك حتى تمثل هذه القوة الصغيرة، فسار دون أن يأخذ جانباً

^(١) William of Tyre, vi, 23, vol. 1, pt 1, pp. 273-5; Orderic Vitalis, vol. iv, p. 141.

141. ويفترض Orderic Vitalis دونما منطوق أن التغيير حدث أثناء أسر بوهيموند، ومع ذلك عيّن

بوهيموند من يخلفه؛ Radulph of Caen, cxi, p. 704. See Leib, *Deux Indédits*؛

Byzantins, pp. 59-69. ويرد هروب جون المؤرخ في أكتوبر ١١٠٠م في مخطوطة في سبائك ترد في

Benechewitch, *Catalogus Codicum Manuscriptorum Graecorum*, p. 279. أنظر

Grumel, 'Les Patriarches D'Antioche du nom de Jean', in *Echos d'Orient*, vol.

. xxxii, pp. 286-98.

الحذر في التلال التي تفصل ملطية عن وادي اكسو. وهناك كان الأمير الدانشمندي ينتظر متربصا في كمين، وانقض عليه فجأة، فبوغت الفرنج وأحيط بهم، وأبىد جيشهم بعد صراع خاطف مرير، وقتل الأساقفة الأرمن. واقتيد بوهيموند ومعه ريتشلرد أوف سالرنو إلى الأسر المذل، وهو الذي طالما أخاف الكفرة.^(١)

وكان بالدوين هو الذي خلص شمال سوريا للعالم المسيحي. فلما وجد بوهيموند نفسه أسيرا قص خصلة من شعره الأصفر وعهد بها للجندي انسل من بين الأتراك المحيطين، وأسرع إلى الرها حيث أبلغ بالدوين رسالة من بوهيموند مظهرا خصلة الشعر الأصفر دليلا على صدقه، وقد توسل بوهيموند في رسالته إلى بالدوين أن يعمل على إنقاذه قبل أن ينقله الأتراك إلى أعماق الأناضول. على أنه كان مهتما بسلامة الدويلات الفرنجية أكثر من اهتمامه بصديقه وغريمه القديم، فانطلق في الحال بقوة صغيرة لا تضم سوى مائة وأربعين فارسا وكان استطلاعهم رائعا، فسبقتهم شائعات تضخم من حجم جيشه. وكان مالك غازي جوموشتيكين قد سار في الصباح التالي لانتصاره إلى أسوار ملطية وأخذ يلوح للحامية برعوس ضحاياه من الفرنج والأرمن، لكنه عندما سمع باقتراب بالدوين رأى من الأفضل العودة إلى أراضيه ومعه أسلابه وأسراؤه، وتبعه بالدوين داخل الجبال ولكنه خشى التوغل في أعمال البلاد لئلا يقع في كمين، فضلا عن عدم ثقته في السكان المحليين، فعاد إلى ملطية بعد ثلاثة أيام. ونقل

^(١) Albert of Aix, vii, 27-8, pp. 524-5; Fulcher of Chartres, I, xxxv, 1-4, pp.

343-7; Radulph of Caen, Cxli, pp. 704-5; Matthew of Edessa, *loc. cit.*; Michael the Syrian (ed. Chabot), m.iii, pp. 188-9 (talking of Armenian treachery); Ibn al-Qalanisi, *Damascus Chronicle*, pp. 49-50; Ibn al-Athir, *op.*

cit. p. 203; Kemal ad-Din, *op. cit.* p. 589

بوهيموند وريتشارد أوف سالرنو مقيدان بالسلاسل ليقضيا سجنًا طويلًا في قلعة
نكسار البعيدة في جبال بنطش.⁽¹⁾

ورحب جبريل صاحب ملطية ببالدوين باعتباره مخلصه، وسارع بوضع نفسه
تحت سيادته. وفي المقابل ترك بالدوين خمسين فارسًا لتدبير الدفاع عن المدينة، وبعد
ذلك بأشهر قليلة استطاع جبريل بمساعدة الفرسان ردّ هجوم دانشمندي قام به الأتراك
بعدما علموا بنبأ رحيل بالدوين عن الشمال.⁽²⁾

رحلة بالدوين إلى القدس

أمّا مبعوثو القدس الذين جاءوا ليخبروا بالدوين بموت أخيه، فلم يستطيعوا المشول
بين يديه سوى بعد عودته إلى الرها من حملته في نهاية أغسطس (آب). وأمضى شهر
سبتمبر (أيلول) في الترتيب لرحلته والإعداد لحكومة الرها. وكان ابن عمه بالدوين
أوف لوبورج في أنطاكية حيث يبدو أنه كان نائبًا عن بوهيموند، وربما كان يعمل
ضابط اتصال بين القائدين الكبيرين، واستدعى إلى الرها حيث خلع عليه بالدوين
الكونتية تحت سيادته. وانطلق بالدوين إلى القدس في الثاني من أكتوبر (تشرين الأول)
ومعه عائلته والحرس الخاص المؤلف من مائتي فارس وسبعمئة راجل. وكما يخبرنا
قسيسه فولشر أوف تشارترز، انطلق لا يستشعر إلا قليلاً من الحزن لموت أخيه، وغاية
السرور بما سيرته.⁽³⁾

⁽¹⁾ (المترجم): منطقة جبال بنطش Puntos : تقع شرقي البحر الأسود ، والإسم مأخوذ من الإسم
القديم للبحر الأسود وهو (بحر بنطش) . 525-6 . pp. 29, vii, Albert of Aix , والمراجع في
الحواشي السابقة

⁽²⁾ . Albert of Aix, loc. cit.

⁽³⁾ . Fulcher of Chartres, ii, i, 1, pp. 352-4; Albert of Aix, vii, 31, p. 527

وتبددت آمال ديامبرت في خروج بوهيموند لإيقاف بالدوين، فقد ضاع بوهيموند الآن في السر. وبمشاعر البهجة استقبل الفرنج في أنطاكية الرجل الذي أنقذهم بتدخله مما كان سيعتب على الكارثة. وبعد أن أمضى ثلاثة أيام في أنطاكية أرسل زوجته ومن صاحبها من السيدات ليرحلن بحراً إلى يافا خشية ما قد يواجهه من مصاعب في الرحلة. وفي اللاذقية، حيث استقبلته السلطات استقبالا حسنا، أمضى ليلتين وانضم إليه جنود آخرون كثيرون، لكن سرعان ما تبدد حماسهم على أثر الأنباء التي تقول إن أترك دمشق عاقدون العزم على القضاء عليه أثناء رحيله جنوب الساحل. وبوصوله إلى جبلة كانت قواته قد تضاءلت إلى مائة وستين فارسا وخمسمائة راجل، ولم يصل سالما إلى طرابلس إلا بالإسراع في السير. وكانت علاقة أمير طرابلس الجديد، فخر الملك، بدقاق الدمشقي في أسوأ أحوالها لأنه كان يحاول التعدي تدريجيا على المنطقة اللبنانية الساحلية؛ ولذلك سره أن يقدم إلى بالدوين ليس فقط جميع المواد الغذائية التي يحتاجها، وإنما أيضا المعلومات حول تحركات ومخططات الدقاق.

وبينما يقترب الطريق الساحلي من بيروت قادما من طرابلس، وعند ممر نهر الكلب، يقع الطريق في ممر ضيق بين الجبال والبحر. ولهذا الممر شهرته منذ أقدم العصور؛ إذ قام كل الغزاة الذين اقتحموه، منذ الفرعون رمسيس، باحتفاء بانتصاراتهم بتسجيل ذلك في عبارة على واجهة الصخرة. وهنا كان الدمشقيون ينتظرون مجيء بالدوين الذي كان ما يزال يذكر تحذير أمير طرابلس ولذا كان يتقدم بحذر شديد ليجد نفسه في مواجهة جيش الدقاق كله ومعه جيش أمير حمص. بينما يقف أسطول عربي قادم من بيروت على استعداد لقطع طريق الانسحاب، وفشل بالدوين في عبور النهر في مواجهة تلك القوات المتفوقة، وشعر بالامتنان لهبوط الليل، فتمكن من الانسحاب تحت جنح الظلام. وحث أمير حمص الدمشقيين على مهاجمته في الظلام، لكن مستشاري الدقاق فضلوا الانتظار حتى الفجر ليتمكن الأسطول الإسلامي من العمل معهم، واكتفوا بإطلاق سيل من السهام أثناء الليل على صفوف الفرنج. ويصف فولشر أوف تشارترز المعركة قائلا: "كم كنت أود لو عدت إلى وطني في تشارترز أو أورليانزا

وكم شعر آخرون بمثل شعوري!" ولكن ذلك لم يثبط من عزيمة بالدوين، ففي الصبح التالي تظاهر بمواصلة الانسحاب، لكنه راعى أن يكون أفضل رجاله المسلحين في المؤخرة، وتبعه الدمشقيون يطاردونه متلهفين، وعندما وصل إلى الجزء الضيق من الطريق مرة أخرى عبر جونيا الواقعة على مسافة خمسة أميال إلى الشمال، واستدار فجأة واندفع فرسانه المدرعون في قوة وسرعة وبكل ثقل نحو مطارديه الذين بوغثوا وتداعوا إلى الوراء على حشود الجنود من خلفهم. وسرعان ما عم الاضطراب في الطريق الضيق وشدت بالدوين هجماته، ولم تتمكن السفن العربية من الاقتراب من الشاطئ لمساعدة حلفائها الذين دب الذعر بينهم. وبهبط الليل كان الجيش الإسلامي كله قد هرب إلى الجبال أو وراء أسوار بيروت. وعسكر بالدوين تلك الليلة في جونيك وفي الصباح التالي عبر جيشه المحمل بالغنائم نهر الكلب دون مقاومة.

ومن تلك المرحلة حتى نهاية الرحلة لم يتعرض له المسلمون. ومر بسلام على بيروت وصيدا، وفي صور أرسل له حاكمها المصري المؤن عن طيب خاطر، وفي اليوم الأخير من أكتوبر (تشرين الأول) وصل إلى ميناء حيفا المسيحي. وكانت حيفا تابعة لتانكريد الذي كان آنذاك في القدس يساعد ديامبرت في محاولة يائسة لأخذ برج داوود من أبناء اللورين قبل مجيئ بالدوين. وأثناء غياب تانكريد عرض الفرنج في حيفا فتح بوابات المدينة لسبالدوين ولكن الريب ساورته وفضل أن يعسكر خارج الأسوار. وبعد أن استراح جنوده هناك عدة أيام واصل سيره جنوبا على الساحل إلى يافا. ولدى سماع تانكريد أنباء اقترابه أسرع إلى يافا ليحاول تزعم المدينة ضده، لكن مواطنيها طردوه، ودخل بالدوين يافا وسط حماس سكانها، غير أنه لم يمكث فيها طويلاً. وفي التاسع من نوفمبر (تشرين الثاني) سار أعلى التلال ودخل القدس.^(١)

^(١) Fulcher of Chartres, II, i, 2-iii, 9, pp. 354-66 ، وهي عبارة عن رواية شاهد عيان تنبض

بالحيوية عن الرحلة ؛ Albert of Aix, VII, 32-5, pp. 527-31.

الملك بالدوين

وبينما هو يقترب من المدينة شيئا فشيئا خرج سكانها للترحيب به بأروع مظاهر البهجة. ولم تكن حشود المستقبلين تتألف من الفرنج جميعا وحسب، وإنما من اليونانيين والسوريين والأرمن كذلك، الذين قابلوه جميعا خارج الأسوار ونقلوه بمظلمر التشریف إلى كنيسة القبر المقدس. وتبعثر أعداؤه؛ فانسحب ديامبرت من القصر البطريقي إلى دير على جبل صهيون وقضى الوقت في الصلاة والممارسات الورعة. ورحل تانكريد شمالا إلى أراضي الجليل، وانتهت الفوضى التي سادت فلسطين منذ موت جودفري. وفي يوم ذكرى القديس مارتين، الأحد الحادي عشر من نوفمبر (تشرين الثاني)، وافق الجميع بسرور على أن يحمل بالدوين لقب ملك القدس.^(١)

وكان بالدوين بالغ الحصافة بحيث لم يلجأ إلى الانتقام. وتطلع أعداء ديامبرت — ومنهم البطريق السابق آرنولف — إلى مشاهدة خذلانه السريع، لكن بالدوين لم يتخذ أي إجراء ضده، وإنما تركه يتمتع بكامل حقوقه وذهب في حملة ضد العرب. وتحقق ديامبرت من أنه سوف يحسن صنعا بقبول الهزيمة ومحاولة الإفادة منها قد الإمكان. وعندما عاد بالدوين إلى القدس في منتصف ديسمبر (كانون الأول) وجد ديامبرت على استعداد للصلح بعد أن تلاشت آماله في إنشاء حكومة ثيوقراطية فعالة. على أنه ربما يظل محتفظا بسيادته الاسمية وما له من نفوذ كبير على المملكة. كما أن بالدوين — الذي لم يفته ما لـديامبرت من سيطرة على المساعدة التي تقدمها بيزا — عفى عنه عن طيب خاطر وثبته في دائرته البطريارقية.^(٢) أما تانكريد فكان أكثر ضراوة؛ إذ استدعاه بالدوين إلى القدس لبيان أسباب عصيانه لرغبات جودفري المعروفة حيال تسليم حيفل، ولم يمثل تانكريد للاستدعاء مرتين، ثم وافق أخيرا على مقابلة بالدوين على ضفاف نهر

^(١) Fulcher of Chartres, II, iii, 13-14, pp. 368-9; Albert of Aix, VII, 36, pp. 531-2;

.William of Tyre, x, 7, 1, pp. 410-11

.Fulcher of Chartres, II, iii, 15, pp. 369-70; William of Tyre, x, 9, i, p. 413 ^(٢)

العوجاء الصغير بين يافا وأرصوف، لكنه لم يأت في الموعد وطلب أن تتم المقابلة في حيفا. وكان هناك حل أسير، فلا يوجد قائد لفرنج أنطاكية منذ وقوع بوهيموند في الأسر ورحيل بالدوين أوف لوبورج ليحكم الرها، فاقترحوا بحبي تانكريد إليهم ليكون وصيا مكان خاله. فوجد تانكريد في هذا الاقتراح متسعا لا يطغى عليه فيه ظل بالدوين، بينما شعر بالدوين بالغبطة لتخلصه دون مشقة من تابع له لا يثق فيه ولا يحبه، وتمت المقابلة في حيفا في أوائل مارس (آذار) سنة ١١٠١ ميلادية في جو من الود، وأعاد تانكريد إلى بالدوين إقطاعية الجليل مع تمنياته الطيبة ورحل إلى أنطاكية.^(١)

وكان قد سبق في يوم عيد الميلاد في سنة ١١٠٠ ميلادية، في كنيسة الميلاد في بيت لحم، أن قدم بالدوين تبجيله إلى البطريق ديامبرت الذي قام بدوره بتتويجه ملكا.^(٢)

وهكذا تأسست مملكة أورشليم بعد أكثر من أربع سنوات على رحيل أمراء الغرب الأوروبي من أوطانهم في الحملة الصليبية. وكان الفائز الوحيد من بين جميع قادتها هو بالدوين، الابن الأصغر المفلس لكونت بولونيا، وسقط أنداده الواحد تلو الآخر؛ إذ عاد الكثير منهم إلى الغرب: روبرت النورماندي، وروبرت أوف فلاندرز، وهيو أوف فرمندوا، وستيفن أوف بلوا، حتى أخوه إيوستاس أوف بولونيا — الذي ربما كان يأمل في أن يرث أخاه جودفري — فضل أراضيه على شاطئ القنال الإنجليزي. أما منافسوه الرئيسيون في الشرق، فهذا بوهيموند يرقد يائسا في سجنه التركي، وذاك ريموند — الذي ما يزال بلا أرض — بعيد في القسطنطينية عميل للإمبراطور. لكن بالدوين ترقب الزمن واغتتم الفرص المتاحة. وهو الوحيد من بينهم جميعا الذي أثبت أنه

^(١) Fulcher of Chartres, II, vii, 1, pp. 390-3; Albert of Aix, VII, 44-5, pp. 537-8

^(٢) Fulcher of Chartres, II, vi, 1, pp. 384-5; Albert of Aix, VII, 43, pp. 536-7;

.William of Tyre, *loc. cit.*

أكثرهم اقتدارا وأشدّهم صبرا وأعمقهم بصيرة فنال مكافأته، وأظهر المستقبل أنه أهل لها، وكان تنويجه تنويجا رائعا، ونهاية تحذوها الآمال للحملة الصليبية الأولى.

المرفقات

المرفق الأول: المصادر الرئيسية لتاريخ الحملة



المرفق الثاني: (قوة الصليبيين العددية)

المفديين

المرفق الأول

المصادر الرئيسية

لتاريخ الحملة الصليبية الأولى

غطت المصادر المعاصرة أو شبيهة المعاصرة على وجه التقريب قصة الحملة الصليبية الأولى . وقد تناولت في الحواشي النقاط التي أثارها المصادر الأقل أهمية أو الثانوية ؛ بيد أن أهم المصادر الرئيسية التي نعتمد عليها دوماً ، والتي لا تتفق دائماً مع بعضها البعض ، في حاجة إلى تقييم نقدي كي نقدم قيمتها النسبية .

(١) المصادر اليونانية

المصدر الوحيد ذو الأهمية الرئيسية هو Alexiad الذي كتبه Anna Comnena ، وهو يتناول حياة الإمبراطور ألكسيوس الذي كتبه إبنته الأثيرة التي كتبت تاريخها بعد أربعين سنة من أحداث الحملة الصليبية ، بعدما أصبحت عجوزاً . وربما خانتها ذاكرتها أحياناً ، وينصرف ذلك خاصة إلى أن تأريخها يتسم بشئ من التشوش ؛ فضلاً عن إنها عاجلت الأحداث بعد إنقضائها ، كما أنها كانت ابنة بارة أرادت أن تظهر والدها

ألكسيوس في كل حال بمظهر الرجل الطيب الحكيم ذي الضمير الحى ؛ ومن ثم كانت تميل إلى إخفاء ما قد يُفسّر في رأيها على أنه يسيء إليه أو إلى أصدقائه . فهي بصراحة لا يعتمد عليها عندما تتناول الأحداث التى تقع خارج حدود الإمبراطورية إذ تطلق العنان لتحاملاتها ، مثل ما جاء في روايتها عن سيرة حياة البابا جريجورى السابع . على أن المؤرخين المحدثين يتجهون إلى التقليل من شأنها . ولقد كانت امرأة ذكية ذات ثقافة عالية تُعمل ضميرها وتحاول التحقق من مصادرها . وعلى الرغم من أنها كتبت في شيخوختها فقد كان في نيتها لزمن طويل أن تكون مترجمة حياة أبيها ولا بد أن تكون قد جمعت الكثير من مادتها أثناء حياته عندما كانت تواتيها الفرصة الكاملة للحصول على أوراقه الرسمية . وكانت تتحكم في إنحيازها عندما تستند إلى معلومات لها مصداقيتها ، كروايتها عن مسيرة الصليبيين عبر الأناضول ، ومن الواضح أنها إستفادت من تقارير تاتيسيوس ؛ وعلى الرغم من أنها قد أخطأت في حذف بعض الأشياء ، فليس من الممكن إتهامها بأنها قد ارتكبت أى حذف في وصفها للأحداث التى حدثت في القسطنطينية أو داخل الإمبراطورية . وكانت تتمتع بثقة والدها كما كان لها معرفة شخصية بالكثير من الشخصيات والأحداث التى تصفها . ومن اليسير التجاوز عن ورعها وإنحيازها ، ومن ثم فإن شهادتها على كافة الشؤون المتصلة مباشرة ببيزنطة ينبغي تفضيلها على أية شهادة أخرى لأى مؤرخ آخر .^(١)

أما أعمال المؤرخين Zonaras and Glykas^(٢) ، والتاريخ العام الموجز المعروف بإسم the Synopsis Sathas^(٣) ، فلا تضيف سوى القليل جدا إلى معلوماتنا . وليست هناك وثائق بيزنطية رسمية باقية تتصل بالحملة الصليبية عدا الرسائل التى كتبها

^(١) نُشرت آخر طبعة عن أنا كومنينيا في The Collection Budé ، وحررها Leib بمقدمة كاملة وحواشى . وترد في Anna Comnena, by Mrs Buckler دراسة نقدية تفصيلية عن Alexiad . وهناك ترجمة إنجليزية لـ Alexiad by E. A. S. Dawes (London, 1928) .

^(٢) كلاهما نشر في the Bonn Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae .

^(٣) Ed. In Sathas, Bibliotheca Graeca Medii Aevi, vol. vii

ألكسيوس للأمرء والمسؤولين على إختلاف رتبهم وهى مترجمة إلى اللاتينية ومن ثم تفتقر يقينا إلى الدقة . كما أن خطابات أسقف بلغاريا Theophylact ، التى لم تنشر على الوجه الملائم حتى الآن فلا تضيف سوى القليل من المعلومات .^(١)

(٢) المصادر اللاتينية

المصادر اللاتينية أكثر عددا ، وهى تمدنا بأغلب معلوماتنا .

إنضم Raymond of Aguilers (أو Aighuilhe فى دائرة اللوار الأعلى Department of Haute Loire) إلى الحملة الصليبية فى صحبة Adhemar of Le Puy ، وسرعان ما أصبح واعظا لريموند التولوزى Raymond of Toulouse . وبدأ يكتب تاريخه *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem* أثناء حصار أنطاكية وأتمه فى نهاية سنة ١٠٩٩ م . وقد ركز على حملة الكونت ريموند ؛ على أنه وإن كان فرنسيا جنوبيا مخلصا ، فإنه يقينا لم يكن بمنأى عن أن ينتقد رئيسه ، فقد عارض تأخر الكونت عن مواصلة السير من أنطاكية ، ولم يتعاطف معه فى تبنيه للسياسة البيزنطية . ولم يكف عن توجيه التعليقات غير الودودة لليونانيين إلا فى مناسبة واحدة (أنظر ما سبق صفحة ٣٢٦) . وكان دوره فى قصة الرمح المقدس سببا فى إرتياب النقاد فى مصداقيته ، على أنه من الواضح أنه كان مخلصا فى نطاق حدوده وعلى دراية واسعة ، وسرعان ما إنتشر تاريخه إنتشارا واسعا . وبالرغم من أن بعض المخطوطات المبكرة تحتوى على تلفيقات معينة فلم يعاد نشرها مطلقا .^(٢)

وكان Fulcher of Chartres حاضرا فى مجمع كليرمونت ، ثم ذهب إلى الشرق فى صحبة سيده الأعلى Stephen of Blois ، وفى شهر يونيو ١٠٩٧ م أصبح واعظا لـ

^(١) ترد رسائل Theophylact فى M. P. G. vol. cxxvi .

^(٢) Ed. In the *Recueil des Historiens des Croisade* ، وهناك متسع لنشرة نقدية جيدة .

Baldwin of Boulogne ، وبقي في حاشيته منذ ذلك الوقت قُدُما . وقد كتب تاريخه *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium* على ثلاث مراحل في ١١٠١ و ١١٠٦ و ١١٢٤ - ١١٢٧ م . وكان فولشر أكثر المؤرخين اللاتينيين ثقافة وأكثرهم مصداقية . وبرغم إخلاصه التام لبلدوين إلا أن نظرتة العامة كانت موضوعية بصورة ملفتة . ولا تظهر أية لحة عدائية للبيزانطيين إلا في مرحلته الثالثة فقط ؛ كما أن نظرتة العامة إلى المسيحيين الشرقيين عادلة وودودة . وقد استعان المؤرخون اللاحقون كثيرا بتاريخه.^(١) وفي حوالى ١١٠٨ م، نشر Bartolf of Nangis ، وربما كان يكتب في سوريا ، طبعة تضم الفصول المبكرة مع إضافات قليلة تعالج الوصف البيئى بصورة أساسية .^(٢) وهناك موجز مقتضب للفصول اللاحقة ينسب إلى Losiard of Tours .^(٣) وقد إستخدم William of Malmesbury و Richard of Poitiers و Sicard of Cremona تاريخ فولشر كله كمصدر رئيسى عندما كانوا يكتبون عن الحملة الصليبية .^(٤)

وأكثر الروايات المعاصرة إنتشارا عن الحملة الصليبية هو العمل الذى لايعرف صاحبه والمعروف بإسم *Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum* ، الذى ربما كتبه كمذكرات يومية أحد أتباع بوهيمند ممن ذهبوا إلى القدس مع تانكريد . وينتهى هذا التاريخ بقصة معركة عسقلان في عام ١٠٩٩ م ، ونشر للمرة الأولى سنة ١١٠٠ م أو أوائل ١١٠١ م ؛ وقد قرأه Ekkehard في القدس سنة ١١٠١ م . وتضم أقدم مخطوطة باقية تلفيقات مثل الوصف " الحرفى " لأنطاكية ، وفقرة تشوه أعمال بوهيمند في القسطنطينية (أنظر ما سبق ص ٢٠٩ الحاشية ١) أوحى بها بوهيمند نفسه في حوالى

^(١) الطبعة التى نشرها Hagenmeyer ، وهى مشروحة بالكامل ، حلت محل الطبعة المنشورة في . *Recueil*

^(٢) . Ed. In the *Recueil*. See Cahen, *La Syrie du Nord*. P. 11 n1

^(٣) . Ed. In the *Recueil*.

^(٤) أنظر . Cahen loc. cit. ولم يعد تاريخ Sicard موجودا .

سنة ١١٠٥ م ، وكذلك فقرة أقتبست من Raymond Of Aguilers . وكان الكاتب جنديا بسيطا ، ومخلصا بقدر إسهامه ، غير أنه كان ساذجا ومتحيزا وشديد الإعجاب ببوهيمند . ويعزى النجاح الواسع الذى حققه تاريخ *Gesta* بصورة أساسية إلى الجهود التى قام بها بوهيمند نفسه . وقد إعتبر أنها بمثابة دفاع عن نفسه "*apologia*" وراح يعرضها للنشر فى شمال فرنسا أثناء زيارته هناك سنة ١١٠٦ م .^(١) وأعيد نشره فى تاريخ مبكر بطريقة تكاد أن تكون كلمة بكلمة ، وقام على نشره قس من بوترو الفرنسية ، وكان صليبيا ، يدعى Tudebod . وتحتوى نسخته *the De Hiersolymitano Itinere* على إضافات قليلة من ذكريات شخصية.^(٢) وفى حوالى سنة ١١٣٠ م ظهر *Historia Belli Sacri* ، وهو عبارة عن تجميع أهوج جمعه راهب من مونت كاسينو يركز على *Gesta* وبه فقرات قليلة مأخوذة من Radulph of Caen ، ومن مصدر آخر مفقود الآن ، ومن ماثورات التقاليد الجارية.^(٣) وأعيد كتابة *Gesta* عدة مرات، فى حوالى سنة ١١٠٩ م بواسطة Guibert of Nogent الذى أضاف معلومات شخصية وإستعار من Fulcher ، والذى كان ينشد المزيد من النعمة النقدية الأخلاقية فى الأسلوب^(٤)؛ وفى حوالى سنة ١١١٠ م بواسطة Baudri of Bourgueil رئيس أساقفة Dol ، الذى كان يسعى إلى تحسين الأسلوب اللفظي^(٥)؛ وبواسطة Robert of Reims الذى ظهرت نسخته - وهى شعبية رومانسية نوعا ما *Historia Hierosolymitana* - فى حوالى سنة

^(١) نشر Bréhier آخر نشرة بعنوان *Histoire Anonyme de la première Croisade* . وما تزال هناك فائدة ترجى من الحواشى الموجودة فى نشرة Hagenmeyer المعروفة بإسم *Anonymi Gesta Francorum* (Heidelberg, 1890) .

^(٢) Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit.* pp. 8-9

^(٣) Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit.*

^(٤) Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit.*

^(٥) Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit.*

١١٢٢م. ^(١) كما ألهمت التاريخ *Expeditio contra Turcos* الذي لا يعرف كاتبه،
والفصول الخاصة بالحملة الصليبية في تاريخي Hugh of Fleury and Huntingdon of
Henry. ^(٢)

وهناك ثلاثة مؤرخين للحملة الصليبية الأولى على جانب من الأهمية لم يشتركوا
فيها هم أنفسهم. فقد جاء Ekkehard رئيس دير Aura إلى فلسطين مع الصليبيين الألمان
في الحملات الصليبية لعام ١١٠١م. وبعد عودته إلى ألمانيا في حوالي عام ١١١٥م كتب
عملا يسمى Hierosolymita انتهى أن يكون جزءا من تاريخ للعالم كان يفكر في
وضعه. وهو يتألف من ذكريات شخصية قليلة وقصص حكاها له أو لصديقه Frutholf
of St Nichelsberg أعضاء عاملون في الحملة الصليبية، واستكملة بمعلومات مأخوذة من
تواريخ نشرت بالفعل. ودائما ما كان يذكر مصادره، ولكنه كان ساذجا سريع
التصديق. ^(٣)

وقد جاء Radulph of Caen إلى سوريا سنة ١١٠٨م؛ واشترك مع بوهيمند بالفعل
في حملة Epirot سنة ١١٠٧م ثم ألحق نفسه بتانكريد. وبعد موت تانكريد في حوالي
سنة ١١١٣م، كتب *Gesta Tancredi Siciliae in Expeditione Hierosolymitana*؛ وهو
كتاب لا يوجد إلا في مخطوطة ولم يستكمل قط. ويدل أسلوبه على جهل كاتبه وإدعائه
الكبير، ويضم القليل من فضلات شاملة من المعلومات حول بطلها، وبخلاف ذلك يسير

Ed. In *Recueil*. See Cahen, *loc. cit.* ^(٤)

^(٥) Extracts of Hugh and Henry are published in the fifth volume of the *Recueil*.
The *Expedition Cotra Turcos* is publish with Tudebod in the third volume.

^(٦) النسخة الواردة في المجلد الخامس من *Recueil* أفضل بكثير من نسخة Hagenmeyer
(Ekkehard von Aura, Leipzig, 1888).

على نهج أعمال أخرى منشورة بالفعل؛ ومع ذلك، لا يبدو أن الكاتب قد قرأ

(4). *Gesta Francorum*

وترد أكثر الروايات المعاصرة إكمالا للحملة الصليبية الأولى في *Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae* of Albert of Aix (Aachen)، وهو التاريخ الذي كتب في وقت ما في حوالي سنة 1130م. ولا نعرف شيئا عن Albert سوى أنه لم يذهب إلى الشرق مطلقا. وحتى منتصف القرن الماضي كان يعتبر أكثر المصادر أصالة لتاريخ الحملة الصليبية؛ وأولاه مؤرخون عظام مثل جيبون Gibbon ثقتهم الكاملة. على أنه منذ أن نقده von Sybel نقدا هداما أصبح الاتجاه الحديث التقليل من شأنه على نحو لا يتصف بالعدل. وتاريخه عبارة عن تجميع لأساطير وروايات شهود العيان، جمعها بقدر ضئيل جدا من الحس النقدي وبدون الاستشهاد بالمصادر. ومن الواضح أن روايته عن حياة بطرس الناسك المبكرة لا يعتمد عليها؛ بيد أن سرده لحملة بطرس أمده بها يقينا أحد الذين اشتركوا فيها؛ فهناك تفاصيل مقنعة إجمالا مثل الوقت المستغرق في الانتقال من مرحلة إلى أخرى في المسيرة. ولا بد من أنه اعتمد في قصة رحلة جودفري إلى القسطنطينية والمسير عبر الأناضول على مارواه له جندي في جيش جودفري. وربما كان من عادته قبل أن يبدأ في جمع كتابه تدوين المعلومات التي يدلي بها الجنود والحجاج العائدون. ومن اليسير بصورة معقولة التعرف على ما يحويه كتابه من أساطير؛ على أنه في سرده لأحداث الحملة الصليبية ذاتها يتعين أن يعامل بما يستحقه من إحترام.⁽¹⁾

(4). Ed. In the *Recueil*

(1) Ed. In the *Recueil*. وهناك كم كبير من الكتابات عن Albert، من أهمها ما كتبه Kres، von Syble، Kügler، Kühne and Beaumont (see Bibliography) وانظر أيضا Hagenmeyer، *Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermitte*، وخاصة صفحة 9 وما بعدها.

أما William of Tyre، وهو أعظم المؤرخين، الصليبيين، فقد كتب بعد الحملة الصليبية بحوالى سبعين سنة. وإلى أن وطّد الصليبيون أنفسهم في فلسكين إعتد في كتابة تاريخه على Albert of Aix بصورة تكاد تكون مانعة؛ على أنه بعد الإستيلاء على القدس إستند تاريخه كذلك على ما بقى في مملكة الصليبيين من سجلات وتراث. ولم يصبح تاريخه الرائع *Historia Rerum in Partibus Transmairnis Gestarum* مصدرا هاما إلا بعد إستخلاف بالدوين. وأرجو أن أناقشه بصورة أكثر إكتمالا في جزء تال من هذا الكتاب.⁽¹⁾

وهناك وجهة نظر مختلفة إختلافا بسيطا تغطي السنوات من 1100 إلى 1163م أوردها Caffaro الجنوى مؤلف *The Annals of Genoa* و *De Liberatione Civitatum* و *Orientis* وهو العمل المكتوب سنة 1155م والذي أكتشف ضمن بعض الأوراق القديمة بعد قرن من الزمان، ويحتمل أن يكون قد حدث فيه تغيير طفيف قبل نشره. وكان Caffaro من أسرة جنوية جاءت إلى فلسطين سنة 1100م وتصطبغ روايته بالصبغة الوطنية وإن كانت معتدلة ويعتمد عليها.⁽²⁾

وجميع المؤرخين المعاصرين في أوروبا الغربية يذكرون الحملة الصليبية، لكنهم يعتمدون إعتقاداً كلياً على مصدر أو آخر من المصادر التي ذكرناها، باستثناء *the Chronicle of Zimmern* الذي يقدم معلومات عن الصليبيين الألمان.⁽³⁾

ولقد نتج عن الحملة الصليبية ملاحم حماسية باللاتينية وبلهجات فرنسا العصور الوسطى شمالاً وجنوباً. ومع ذلك، كان لمثيراتها الأدبية من الأهمية ما يفوق جدارتها

⁽¹⁾ Ed. In the *Recueil*. See Prutz, *Wilhelm von Tyrus*, and Cahen, *op. cit.* pp.

.17-18

⁽²⁾ .Ed. In the fifth volume of the *Recueil*

⁽³⁾ Extrcts are published by Hagenmayer in vol. II of the *Archives de l'Orient*

.Latin

التاريخية؛ ذلك أن الشعراء اللاتين Gregory the Lombard, Joseph of Exeter and Gunther of Basle ليست لهم قيمة من الناحية التاريخية. أما "أنشودة أنطاكية البروفنسية *Provençal Chanson d'Antioche*" التي تنسب إلى Gregory Bechada فهي أكثر إثارة وتستحق مزيدا من الدراسة. وفي لهجات شمال فرنسا العصور الوسطى توجد - بالإضافة إلى أنشودة Baudry الشعرية أنشودة أنطاكية *a Chanson d'Antioche* التي نظمها Graindor of Douai، وهي تركز جزئيا على Robert the Monk وجزئيا على أنشودة سابقة نظمها Richard the Pilgrim الذي شارك في الحملة الصليبية على ما يبدو في جيش Robert of Flanders. وكان رجلا بسيطا جاهلا نوعا ما وإنما كانت له وجهة نظره الخاصة به. فمثلا، وبرغم رغبته في أن يستولى الصليبيون على القسطنطينية، وكان ودودا إزاء تاتيسيوس. كما توجد قصيدة شعرية بالفرنسية نظمها Ginon مع بعض التلفيقات التي حشرها من يدعى Fulcher تقوم على أساس نفس المادة، وأخرى بالأسبانية *Gran Conquista d'Ultramar*، في تاريخ لاحق، تستخدم Bechada and William of Tyre and Graindor. وليست الدائرة سوى تاريخ أسطوري بطلها Godfrey of Lorraine، مثل *Chevalier eu Gygne*.⁽¹⁾

والمبقى لدينا من المراسلات المعاصرة للحملة الصليبية قليل جدا؛ وإن كان ذا أهمية عظمى. فهناك رسائل قليلة من وإلى البابا إيربان الثاني وباسكال الثاني؛ ومناشدتان من رجال الدين في الشرق؛ ورسالتان مثيرتان، وإن كان بهما الكثير من المراءاة، مرسلتان من زعماء صليبيين؛ والأكثر قيمة رسالتان من كل من صليبيين بارزين Stephen of Blois و Anselm أسقف Ribemont. وقد كتب ستيفن ثلاث رسائل لزوجته؛ ضاعت الأولى التي كتبها لدى وصوله القسطنطينية. والثانية من معسكر في نيفية والثالثة من معسكر في أنطاكية. وعلى الرغم من أن ستيفن كان رجلا ضعيفا إلا أنه كان مخلصا ومتحمسا؛ ورسالتاه هما الأكثر إنسانية من بين وثائق الحملة الصليبية. وكتب Anselm

⁽¹⁾ عن الملاحم الحماسية أنظر Hatem, *les Poèmes Epiques des Croisades*، الذي يدافع

عن الأصل السوري للقصائد، والموجز الموجود في 12-16. Cahen, *op. cit.*

رسالتيه من أنطاكية ووجههما إلى رئيسه Manases رئيس أساقفة Reims، ويحتويان على معلومات ولكنهما يخلوان من نوعية الكتابة الشخصية التي يتصف بها خطابا ستيفن.^(١)

وليس هناك من شك في الأهمية الكبيرة للقرارات البابوية القليلة التي تنظم الحملة الصليبية، والمواثيق المتصلة بإنشاء المملكة الصليبية. وتضم محفوظات جنوا والبندقية مادة تزايد أهميتها بتزايد إهتمام المدن الإيطالية بشؤون الصليبيين.

(3) المصادر العربية

على الرغم من كثرة المصادر العربية وأهميتها البالغة للحملات الصليبية المتأخرة فهي لاتعطينا سوى القليل فيما يتصل بالحملة الصليبية الأولى. ولم تبق أية مواثيق أو مستندات رسمية عن تلك الفترة. إن ما يشتهر به العرب من دوائر المعارف العظيمة والمؤلفات الجغرافية الكبيرة لاتكاد تهم بسنوات الحملة الصليبية الأولى، باستثناء واحد، وهو أن أعمال المؤرخين الذين يعرف أنهم عاشوا في ذلك الوقت لم تصل إلينا إلا على هيئة مقتبسات قصيرة متفرقة في أعمال الكتاب المتأخرين. وليس هناك سوى تواريسخ ثلاثة لها أهمية حقيقية.

في الفترة من 1140 إلى 1160م كتب ابن القلانيسي الدمشقي Ibn al-Qalanisi of Damascus تاريخا عن مدينته في وقت الغزوات التركية حتى عصره. ويظهر من عنوان تاريخه "مذيل تاريخ دمشق Mudhayyal Tarikh Dimashq" أن المقصود به أن يكون تذيلا لتاريخ المؤرخ هلال Hilal الذي كان يستهدف كتابة تاريخ عن العالم بينما لم

(١) يرد أفضل نشر لهذه الرسائل في Hgenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*. وهناك مجموعة

مكتملة على نحو أكبر ترد في Riant, *Inventaire des Lettres historiques*.

يهتم ابن القلانيسى إلا بدمشق وحكامها. وقد أمضى حياته في ديوان الإنشاء بالبلاط
الدمشقي وتدرج فيه إلى أن أصبح رئيسا له، ومن ثم كان على دراية جيدة؛ ويبدو أنه
كان يتوخى الدقة والموضوعية إلا عندما كانت تتعرض سمعة رؤسائه للخطر.⁽¹⁾

وفي بداية القرن الثالث عشر كتب ابن الأثير الموصلي Ibn al-Athir of Mosul كتابه
"كامل التواريخ Kamil et-Tawarikh" وقد كان لإستخدامه المعنى ونقده للمصادر
السابقة أن جعل منه حجة لها أهمية بالغة رغم أن رواياته تتسم عادة بالإقتضاب
الشديد.⁽²⁾

وبعد ذلك بنصف قرن كتب كمال الدين الحلبي Kemal ad-Din of Aleppo تاريخه،
الذي لم يستكمل حتى الآن، عن حلب وموسوعته؛ على أنه إستعان هو الآخر بما سبقه
من مصادر واستشهد في موسوعته بأسماء تلك المصادر، التي من بينها ما يثير ضياعه غاية
الأسف، ألا وهو تاريخ الغزو الفرنجي لكتابه حمدان بن عبد الرحيم الأثاري، ولم يبق منه
سوى صفحات قليلة حتى في عصر كمال الدين نفسه. وترك ابن زريق المعري، من معرة
النعمان المولود سنة 1051م، والذي لعب دورا في أحداث الحملة الصليبية، تاريخا لعصره
لم يعرف هو الآخر إلا من مقتطفات قليلة؛ وترك ابن زريق الحلبي المولود في 1090م
تاريخا لشمال سوريا في وقت الحملة الصليبية، ما يزال موجودا منه الآن عدد أكبر بقليل
من المقتطفات.⁽³⁾

⁽¹⁾ عن ابن القلانيسى أنظر مقدمة Gibb لترجمة فقرات تاريخ دمشق *Damascus Chronicle* التي
تشير إلى الحملات الصليبية (أنظر ثبت المراجع). والنص العربي الكامل نشره Amedorz (Leyden, 1908).

⁽²⁾ نشر Tornberg (Leyden, 195-76) الأعمال الكاملة لابن الأثير باللغة العربية في أربعة عشر
مجلدا، والفقرات ذات الصلة منشورة في R. H. G. Occ.

⁽³⁾ ليست هناك طبعة جيدة لتاريخ كمال الدين. ويرد في *Recueil* فقرات كاملة تتصل بالحملة
الصليبية من 1097 إلى 1146م.

(4) المصادر الأرمينية

هناك مصدر أرميني لا يقدر بثمن يغطي فترة الحملة الصليبية الأولى، ألا وهو: تاريخ ماثيو الأورفي *Chronicle of Matthew of Edessa* الذي يتناول تاريخ سوريا من سنة 952 إلى 1136م ولا بد أنه كُتب قبل سنة 1140م. وكان ماثيو رجلا ساذجا يحمل الكراهية لليونانيين ولا يشعر بكثير حب لأبناء جلدته من الأرثوذكس. ولا بد أنه إستقى الكثير من معلوماته عن الحملة الصليبية من بعض جنود الفرنج الجهلة؛ أما عن الأحداث التي حدثت في مدينته وما جاورها فكان على دراية كاملة.⁽¹⁾

ويتناول الحملة الصليبية باقتضاب المؤرخون الأرمن اللاحقون مثل *Samuel of Ani* و *Kirakos of Ganzag* and *Mekheta of Airavanq*، الذين كتبوا في نهاية القرن الثاني عشر، و *and Vartan the Great* في القرن الثالث عشر ويبدو أنهم إستفادوا من *Matthew* ومن تاريخ مفقود كتبه من يدعى *Hohn the Deacon* الذي يثنى على صموئيل ثناء كبيرا، والذي أظهر عداء معينا لا إزاء الإمبراطور ألكسيوس فحسب، وإنما أيضا إزاء أمه أنا دلاسينا *Anna Dalassena*.⁽²⁾

⁽¹⁾ نشر *Dulaurier* سنة 1858م ترجمة فرنسية من المخطوطات، ومقتطفات من النص الأرميني مع ترجمة فرنسية في *R. H. C. Arm.*، ونُشر النص الأرميني بكامله في القلنس سنة 1868م، ولم أتمكن من الحصول عليه، ولذا إستخدمت ترجمة *Dulaurier*، مع مطابقتها بقدر الإمكان بالمقتطفات الأرمينية المنشورة في *Recueil*.

⁽²⁾ ترد في *Recueil* مقتطفات عن هؤلاء المؤرخين.

(5) المصادر السورية

العمل الوحيد الباقي الذي يتناول الحملة الصليبية الأولى هو تاريخ ميخائيل السوري Michael the Syrian، بطريق أنطاكية اليعقوبي من 1166 إلى 1199م، وهو يمر مر الكرام بالفترة السابقة على سنة 1107م. ولقد استعان بالتواريخ السورية الأقدم التي ضاعت الآن، كما استعان بالمصادر العربية. ومعلوماته ضئيلة القيمة إلى أن يصل إلى عصره.⁽¹⁾

وعلى الرغم من أن التواريخ الرئيسية للحملة الصليبية قد نشرت كل على حدة فإن التجميع الكبير الوحيد للمصادر هو *Recueil des Historiens des Croisades* الذي نشر في باريس من سنة 1844م قُدِّمًا. وهو يتضمن نصوصا لاتينية وفرنسية قديمة وعربية ويونانية وأرمينية مع ترجمات إلى الفرنسية للكتاب الغربيين واليونانيين. ولسوء الحظ شاب الإهمال طبعاات المخطوطات فيما عدا المجلد الأخير (الخامس) من النصوص اللاتينية المنشورة بعد عدة سنوات من نشر باقي *Recueil*. كما أن هناك الكثير من الفراغات العشوائية في النصوص، وليست الترجمة دقيقة دائما. ومع ذلك، تبقى المجموعة شيئا لاغنى عنه لدارس الحملات الصليبية.

(1) ترجمها Chabot ونشرها.



المرفق الثانى

قوة الصليبيين العددية

يتورط أى مؤرخ من مؤرخى العصور الوسيطة، مهما كان جنسه، بدرجات متفاوتة فى مبالغات تشوبها الكتابات التصويرية الفظة كلما اضطر إلى تقدير الأعداد التى لا سبيل إلى حصرها؛ ولذا يستحيل علينا اليوم إثبات الحجم الحقيقى الذى كانت عليه الجيوش الصليبية. فعندما يخبرنا Fulcher of Chartres and Albert of Aix أن مقاتلى الحملة الصليبية الأولى بلغ عددهم ستمائة ألف مقاتل، بينما يخبرنا Ekkehard لأهم كانوا ثلاثمائة ألف، ويورد Raymond of Aguilers رقما متواضعا قدره مائة ألف، أو عندما تعلن أنا كومنينا أن جودفرى اللورى Godfrey of Lorraine أحضر معه عشرة آلاف فارس وسبعين ألف من المشاه، فمن الواضح أن هذه الأرقام لاتعنى سوى الدلالة على ضخامة العدد الكبيرة جدا فى الواقع.^(١) على أنه عندما يتناول المؤرخون أعدادا أصغر، فلا حاجة هناك إلى إنعدام الثقة الكاملة فى هؤلاء المؤرخين، على الرغم من أنهم يفضلون ذكر رقم تقريبى. ومن الأدلة التى يسوقونها نستطيع أن نجري تخفيضات معينة.

ولاسبيل إلى تقدير نسب أعداد غير المقاتلين فى الجيوش، إذ كانت أعدادهم مرتفعة يقينا. ولقد أحضر عدد كبير من الفرسان عقيلاتهم معهم؛ وقد إصطحب ريموند التولوزى Raymond of Toulouse زوجته، وإصطحب بالدوين البولونى Baldwin of Boulogna زوجته وأولاده وكان مع بوهيمند أخت واحدة على الأقل. ونحن نعرف أسماء عدد من السيدات اللاتى اشتركن فى حملة روبرت النورماندى Robert of

Anna Comnena, x, ix, 1, vol. 11, p. 220; Fulcher of Chartres, 1, x, 4, p. ^(١)

.183; Ekkehard, Hierosolymite, xiii, p. 21; Raymond of Aguilers, v, p. 242.

وبذكر تاريخ Chronicle of Zimmern, p. 27 أن جيش Godfrey كان قوامه ٣٠٠٠٠٠ رجل.

Normandy، وأحيانا تظهر سيدات أخريات في القصة. وقد جلبت كل هؤلاء السيدات معهن وصيفات، وبقينا كان مع الجيش عدد كبير من السيدات الأقل شأنًا، من الفضليات ومن اللاتي يفتقدن الفضل والإحترام. وما نفتأ نسمع عن ذكور غير مقلتلين مثل بطرس بارثولوميو Peter Bartholomew ومخدومه. وكان عدد رجال الدين المصاحبين للجيش كبيرا، على أنه من الأرجح أن أغلب الذكور من غير المقاتلين كانوا يُدفعون دفعا إلى الخدمة في أوقات الخطر. وليس من الممكن أن تجاوز نسبة غير المقلتلين الدائمين من النساء وكبار السن والأطفال ربع القوة كلها.

كما يُرجَّح أن معدل الوفيات كان مرتفعا بصورة خاصة بين غير المقاتلين، ولاسيما كبار السن والأطفال. أما معدل الوفيات بين المشاه المقاتلين بسبب الأمراض والمشاق فلا بد أنه قد جاوز معدله بين الفرسان والسيدات، ممن كانت تتوفر لهم خدمات أفضل ومقدرة أكبر على شراء الطعام. وكان دور الفرسان في المعارك أكثر تعرضا للقتال من المشاه ومن ثم كانت خسائرهم أكبر.

ويبدو أن نسبة الفرسان إلى المشاه حوالى واحد إلى سبعة مع الأخذ في الاعتبار أن المشاه يشملون جميع القادرين على القتال. وربما كانت تقديرات أنا كومينا صحيحة فيما يتعلق بالقوة النسبية لقوات جودفرى صحيحة، وإن تعين قسمة أرقامها على عشرة على الأقل. وفي معركة عسقلان التى إشترك فيها كل رجل متاح فى فلسطين، كان عدد الفرسان ألف ومائتين فارس وعدد المشاه تسعة آلاف راجل، وهى نسبة واحد إلى سبعة ونصف.^(١) وفى حصار القدس، وإستنادا إلى Raymond of Aguilers، كان هناك ما بين ألف ومائتين إلى ألف وثلاثمائة فارس من جيش قوامه اثنى عشر ألف رجل، كان يضم - مع ذلك - أبناء جنوا وإنجليز وبحارة.^(٢) ويتعين أن يؤخذ المصطلح "فارس" على أنه يعنى خيَّال مسلَّح وليس بأى معنى آخر من معانى الفروسية، بينما كان الكثير من رجال

^(١) William of Tyre, ix, 12, vol. 1, pt. 1, p.380

^(٢) Raymond of Aguilers, xix, p. 292

المشاهير غير مسلحين تسليحا كاملا. وربما كانت نسبة رماة السهام وحملة الحراب مجرد نسبة ضئيلة بصورة معقولة من المجموع الإجمالي.

وعن الجيوش كل على حده، فمن اليقين تقريبا أن جيش ريموند كان هو الأضخم، وإن لم يتوفر لدينا سوى دلالة واحدة على حجمه. ذلك أنه عندما سمع الشائعات الكاذبة في كوكسون Coxon بأن الأتراك قد أدخلوا أنطاكية أرسل قوة فرسان من خمسمائة فارس بمن فيهم بعض فرسانه البارزين، لإحتلال المدينة.^(١) ويتواتر ذكر الرقم خمسمائة تواترا تشوبه الريبة، بيد أنه ربما كان ذلك الرقم يعتبر الوحدة الملائمة لغلوة أو حملة من هذا النوع. ومن غير المحتمل أن يكون ريموند قد حجز نصف قوة فرسانه في هذه المرحلة. وإذا ما قابلنا هذا الرقم (٥٠٠) على أنه صحيح بوجه التقريب، فلا بد وأن كانت قوة فرسانه كلها قد بلغت ألف ومائتي فارس أو أكثر، وإجمالي جيشه قد بلغ عشرة آلاف رجل عدا كبار السن والنساء والأطفال.^(٢)

ويرد في تاريخ لوقا Chronicle of Lucca أن بوهيمند ذهب إلى الشرق ومعه من الفرسان ٥٠٠ فارس.^(٣) وتلاحظ أنا كومنينا أن جيشه لم يكن جيشا ضخما، ومن ثم ربما كان هذا الرقم صحيحا تماما.^(٤) وقد سمح لتانكريد بأن يأخذ معه في حملته على

^(١) أنظر ما سبق ص ٣٠٣.

^(٢) من الواضح أن جيش ريموند كان مازال جيشا هائلا عندما غادر فلسطين كما أظهرت الحملات اللاحقة.

^(٣) من إفتباس. Chalandon, *Histoire de la Première Croisade*, p. 133. ولم أتمكن من إكتشاف التاريخ الذي يشير إليه.

^(٤) Anna Comnena, x, ix, 1 vol. 11, p. 230 : "بوهيمند ... لم يكن لديه جيش كبير لأنه كان يفتقر إلى المال ...".

كيليكيا مائة فارس ومائتي راجل. رغم أنه أرسل له لاحقا ثلاثمائة راجل آخرين. وتتفق هذه الأرقام مع بعضها البعض بصورة معقولة.^(١)

والدليل الوحيد المتوفر لدينا على الأحجام النسبية للجيش الأخرى يتمثل في تصرف ريموند في روجيا Rugia عندما حاول أن يرشو أنداده ليقبلوا زعامته، إذ عرض على جودفري وروبرت النورمندي عشرة آلاف سو لكل منهما^(٢) وعلى روبرت الفلاندرزي ستة آلاف سو، وتكريد خمسة آلاف سو ومبالغ أقل للقادة الأقل شأنًا. ولا بد أن المبالغ قد حُددت في علاقتها بالقوة التي يستطيع كل أمير تقديمها آنذاك. رغم أنه من المحتمل أن يكون ريموند قد عرض على تنكريد مبلغا أكبر بصورة تفاوتية كى يُعبده هو وأكبر عدد ممكن من النورمندين عن بوهيمند.^(٣)

ودليلنا الوحيد على حجم جيش جودفري، بعيدا عن الرقم الخيالي الذي أورده أنا كومينا، يتمثل في إстеعداده لأن يتخلى عن خمسمائة فارس وألفي راجل لأخيه بلدوين من أجل حملته على كيليكيا. ولايحتمل في الأغلب الأعم أن يكون قد تخلى عن نصف قوة فرسانه، حتى وإن كان في نيته أن تعود هذه القوة للانضمام إليه قبل الوصول إلى أنطاكية. والأمر يغرينا إلى أن نفترض أن العرض الذي عرضه ريموند في روجيا Rugia كان يقوم على أساس دفع عشر عملات سو عن كل فارس. وفي ذات الوقت، لو أننا قسّمنا الرقم الذي ساقته أنا كومينا على عشرة فقد نضيف إلى رصيد جودفري حوالى ألف فارس وسبعة آلاف راجل وقت وصوله إلى القسطنطينية. ولا بد أن خسائره كانت كبيرة قبل تاريخ الاجتماع المعقود في روجيا، وذلك باستبعاد الفرسان الذين صحبوا بلدوين إلى الرها؛ على أن هناك من انضم إليه من الباقين على قيد الحياة من حملة بطرس الناسك الصليبية والحملات الصليبية الألمانية التي لم يكتب لها النجاح، فضلا عن بعض

^(١) أنظر ما سبق ص ٣١٤.

^(٢) (المترجم) : سو Sou عملة فرنسية قديمة مختلفة القيمة.

^(٣) أنظر ما سبق ص ٣٩٦.

بحارة جوليمار Guynere الذين كان سيدهم بولوني، ومن الطبيعي لذلك أن ينضموا إلى كونت بولينيا وإخوته.^(١)

وفي روجيا كان روبرت نورماندى يتساوى في المرتبة مع جودفرى فإذا كان تحت إمرة جودفرى ألف فارس فلا بد وأن روبرت كان على نفس القدر من القوة. وبعد قرن من الزمان اضطرت نورماندى إلى تزويد دوقها بعدد من الفرسان يقل قليلا عن ستة آلاف فارس.^(٢) وربما كان روبرت قادرا على أن يجمع بسهولة للحملة الصليبية أكبر عدد من الفرسان، ربما ستمائة وخمسين فارسا، وقد انضم إليه جنود من بريتاني ومن وراء القناة الإنجليزية الأمر الذى ربما أضاف إليه مائة أو مائة وخمسين فارسا. وزيادة على ذلك، وبعد عودة ستيفن أوف بلوا وهيو أوف فيرمندوا إلى أوربا، فإنه قد تولى زمام قيادة قواتهما التى بقيت بعد رحيلهما. فأما ستيفن، الذى لم تكن أراضيه شاسعة وإنما كانت غنية، فرمما قدم مائتين وخمسين أو ثلاثمائة فارس. وأما هيو، فيرجح أنه لم يحضر معه الكثير مما يزيد على مائة فارس. وإجمالا، يرجح بصورة معقولة أن روبرت كان لديه ما يقترب من ألف فارس تحت قيادته في وقت روجيا.

وبنفس القاعدة، لابد وأن كان لدى روبرت أوف فلاندرز ستمائة فارس أتى بعضهم من أراضى جاره كونت هينولت Count of Hainault. وكان روبرت مدين قانونا للمليكة، ملك فرنسا، بمجرد عشرين فارسا كاملى التسليح؛ غير أنه في سنة

^(١) أنظر ما سبق الصفحات ٢٥٠-٢٥١ و٣١٩.

^(٢) *Milites Regni franciea*, in Bouquet, R. H. F. vol. xxii, pp. 684-5. وذلك يعطى

نورمادى ٦٠ صاحب راية (المترجم : صاحب الراية هو فارس له أتباع تحت رايته في الميدان.) وذلك في زمن فيليب أوغسطس. وربما كان لكل صاحب راية عشرة من الخيالة. أنظر أيضا قائمة المرجع السابق

vol. xxiii, p. 698 n. 2، التى تذكر ٥٨١ فارسا لدوقية نورماندى.

١١٠٣م عرض في معاهدة تزويد هنرى الأول ملك إنجلترا بألف فارس.^(١) ولذا من اليسير عليه أن يجمع ستمائة فارس للحملة الصليبية.

وتتناسب مع هذه الأرقام قوة بوهيمند المؤلفة من خمسمائة فارس التى ذكرها تاريخ لوكا. the Chronicle of Lucca. وإذا افترضنا أن جيوش اللوردات الأقل شأنًا تحتسب فى الجيوش الأكبر، وأن المبالغ التى عرضها عليهم ريموند فى روجيا شخصية خالصة، فإننا نصل إلى العدد الإجمالى للحملة كلها وهو تقريبا أربعة آلاف ومائتين إلى أربعة آلاف وخمسمائة فارس وثلاثين ألف راجل، بما فى ذلك المدنيين الذين يمكن إجبارهم على الخدمة القتالية. ويرد فى الخطاب الذى كتبه ديامبرت للبابا قوة الجيش بخمسة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل. وربما كان هذا العدد الأخير للجيش يتضمن المقاتلين المسلحين فقط، أما الرقم الأول ففيه مبالغة عن رقم أربعة آلاف يمكن التغاضى عنها.^(٢)

ويبدو هذا الجيش صغيرا بما فيه الكفاية من الصغر. ومع ذلك، وعندما نتعرض للأرقام التى يذكرها المؤرخون لكل معركة على حده، نجد الأرقام أصغر من ذلك؛ ففي معركة بحيرة أنطاكية، وعندما قيل لنا إن جميع الفرسان دخلوا المعركة، لم يكن هناك سوى سبعمائة فارس فى المعركة؛ على أن الكثير من الفرسان كانوا مرضى فى ذلك الوقت؛ ويتضح من رسالة أرسلها Anselm of Ribemont أن النقص الحقيقى كان فى الجياد، يقدر بأن لم يكن متاحا سوى ٧٠٠ فى وقت حصار أنطاكية، ولذا هلك الكثير من الجوع ومن البرد؛ ويعلن أنه لم يكن هناك نقص فى عدد الرجال.^(٣) فضلا عن ذلك، يحتمل فى هذه المناسبة أنبقى فرسان ريموند معه لحراسة المعسكر. وقيل إن

^(١) Actes des Cômtes de Flandres, ed. by Vercauteren, nos. 30, 41, ومقتبسة

بتعليقات فى Lot, L'Art militaire et les Armées du Moyen Age, vol. 1, p. 130 n. 2.

^(٢) Letter in Hagenmeyer, Die Kreuzzugsbriefe, p. 172.

^(٣) أنظر ما سبق ص ٣٤٣.

الحملة المغيرة التي قادها بوهيمند وروبرت أوف فلاندرز في الشهر التالي كانت تتألف من ألفى فارس وخمسة عشر ألف راجل، وذلك قطعاً باستبعاد جيش ريموند.^(١) ولكن، مرة أخرى لم يكن حاضراً في حصار القدس سوى ألف ونائتين أو ألف وثلاثمائة فارس، وأزيد قليلاً من عشرة آلاف راجل؛ وكانت قوة الجيش في عسقلان مماثلة جداً.^(٢) وعلى الرغم من أن الكثير من الجنود قد لاقوا حتفهم أو قتلوا وأن كثيرين قد علدوا إلى أوطانهم، فمن الممكن أن تكون قوة الجيش قد تقلصت بمقدار الثلثين في الفترة ما بين اجتماع روجيا وحصار القدس.

ولذلك، ليس بوسعنا إلا أن نعيد التأكيد على أن أي تقدير ينبغي أن يؤخذ بتحفظ. وأنا أعتقد أن قوام الجيش كله وقت أن غادر القسطنطينية قد بلغ على وجه التقريب العدد الإجمالي الذي سبق أن اقترحتة أعلاه. وعلى مدى العامين التاليين تضاعف الجيش بصورة كبيرة جداً؛ وأما في روجيا فقد كان حسابات ريموند عتيقة ويشوبها الكثير من التفاؤل إستخدامها ليبنى عليها عروضة. وفي إعتقادي أنه يمكن قبول الأرقام الصغيرة نسبياً، المذكورة في تاريخ إنجازات بلدوين الجسورة، على أنها صحيحة على الحملة.

ومن المحال بنفس القدر إحتساب حجم حملة بطرس الناسك الأصلي. فمن الواضح أن الرقم الذي أورده المؤرخ ألبرت أوف آيكس وهو أربعين ألف مبالغ فيه، وإن كان من المحتمل أن يصل عدد أتباعه إلى عشرين ألف شخص، وكان غير المقاتلين من هذا لرقم يمثل الأكثرية الساحقة.^(٣)

^(١) أنظر ما سبق ص ٣٤١.

^(٢) أنظر ما سبق ص ٥٠٤ الحاشيتين ٢١١.

^(٣) يقدر المؤرخ Chalandon, *op. cit.* p. 59 أن ١٥٠٠٠ شخصاً غادروا فرنسا مع بطرس؛ ومن المحال التحقق من هذا العدد وهو معقول فيما يبدو. ويقول تاريخ *Chronicle of Zimmern*, pp. 27-8 إن بطرس كان معه ٢٩٠٠٠ شخصاً في سيفيتوت بعد أن قتل ٣٢٠٠ ألماني (في كسمريجوردون Xerigordon).

ولإغراض المقارنة، تجدر ملاحظة أن الجيش البيزنطي كله في القرن التاسع قد احتسب على أنه يبلغ مائة وعشرين ألف رجل. ولا بد أن ضياع مقاطعات الأناضول قد نتج عن خفض القوات المتاحة بحلول نهاية القرن الحادى عشر؛ على أنه ربما كان بإمكان ألكسيوس الإستغناء عن سبعين ألف رجل إقتضت الحاجة إلى إستخدام أغلبهم فى شغل حاميات حدوده المترامية الأطراف، بينما كانت نسبة كبيرة يجرى تسريحها فى كل شتاء لأسباب إقتصادية. ومن غير المحتمل أن يكون أكبر جيش دافع به البيزانطيون فى المعارك فى هذه الفترة يزيد على عشرين ألف رجل من الجنود المجهزين والمدربين على نحو جيد. ومن المحال تقدير أحجام الجيوش الإسلامية؛ وربما بلغ جيش كيربوقا حوالى ثلاثين ألف رجل، ولكن ليس هناك من دليل فعلى على ذلك. وكان قادرا على الإضطلاع بحصار أنطاكية أكثر فاعلية مما كان يستطيعه الجيش الصليبي. ومن المؤكد أن جيش المصريين فى عسقلان كان أكبر من جيش الصليبيين، وإن لم يكن هناك من سبيل لمعرفة حجمه الفعلى سوى بالتخمين. ومن المشكوك فيه ما إذا كان الجيش التركى فى دوريليوم على نفس القدر من ضخامة جيش الصليبيين؛ إذ كان الأتراك يعتمدون على هجومهم المفاجئ وعلى حركتهم لتعويض أى نقص فى أعدادهم.

(ثبت المراجع)



BIBLIOGRAPHY

I. ORIGINAL SOURCES

1. COLLECTIONS OF SOURCES

[Note. The abbreviations at the end of certain items are used to refer to these items in the footnotes and the following sections of the bibliography.]

ACHÉRY, L. D'. *Spicilegium sive Collectio veterum aliquot Scriptorum*, 13 vols. Paris, 1655-77. 2nd ed. (ed. L. F. J. de la Barre), 3 vols. Paris, 1723.

Acta Sanctorum (Bollandiana). Antwerp-Paris-Rome-Brussels, 1643- (in progress). [Aa. Ss.]

Acta Sanctorum Ordinis Sancti Benedicti (ed. J. Mabillon and L. d'Achéry), 9 vols. Paris, 1668-1701.

AMEDROZ, H. F. and MARGOLIOUTH, D. S. *The Eclipse of the Abbasid Caliphate: Original Chronicles of the Fourth Islamic Century*, 6 vols. and Index. Oxford, 1920-1.

Archives de l'Orient Latin, pub. Société de l'Orient Latin, 2 vols. Paris, 1881-4.

ASSEMANI, J. S. *Bibliotheca Orientalis*, 3 vols. Rome, 1719-28.

BENECHWITCH, V. *Catalogus Codicum Manuscriptorum Graecorum qui in Monasterio Sanctae Catharinae in Monte Sinai Asservantur*. St Petersburg, 1911.

BOUQUET, M. and others. *Recueil des Historiens des Gaules et de la France*, 23 vols. Paris, 1738-1876. New series, Paris, 1899- (in progress). [R.H.F.]

BROSSET, M. F. *Collection d'Historiens Arméniens*, 2 vols. St Petersburg, 1874-6.

CAETANI, L. See Bibliography, p. 352.

Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium (ed. J. B. Chabot and others). Paris, 1903- (in progress). [C.S.C.O.]

Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum. Vienna, 1866- (in progress).

Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae. Bonn, 1828-97. [C.S.H.B.]

DÖLGER, F. *Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches*, 3 vols. Munich-Berlin, 1924-32.

Fonti per la Storia d'Italia, Istituto Storico Italiano. Rome, 1887- (in progress).

HAGENMEYER, H. *Die Kreuzzugsbriefe aus den Jahren 1088-1100*. Innsbruck, 1902.

HOLTZMANN, W. See Bibliography, p. 355.

JAFFÉ, P. *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, 6 vols. Berlin, 1864-73.

JAFFÉ, P. *Regesta Pontificum Romanorum*, 2nd ed. (ed. W. Wattenbach, S. Loewenfeld, and others), 2 vols. Leipzig, 1885-8.

LEIB, B. *Deux Inédits Byzantins sur les Azymites au début du XII^e Siècle*. Rome, n.d. (1924).

Bibliography

- Liber Pontificalis* (ed. L. Duchesne), 2 vols. Paris, 1884-92.
- MABILLON, J. *Annales Ordinis Sancti Benedicti*, 6 vols. Paris, 1703-39.
- MABILLON, J. *De Re Diplomatica Libri VI*. Paris, 1681.
- MANSI, J. D. *Sacrorum Conciliorum Amplissima Collectio*, 31 vols. Florence, Venice, 1759-98. Continuation (ed. J. B. Martin and L. Petit). Paris, 190- (in progress).
- MIGNE, J. P. *Patrologiae Cursus Completus*.
 I, *Patrologia Latina*, 221 vols. Paris, 1844-55. [M.P.L.]
 II, *Patrologia Graeco-Latina*, 161 vols. in 166. Paris, 1857-66. [M.P.G.]
- MONTFAUCON, B. DE. *Bibliotheca Coisliniana*. Paris, 1715.
- Monumenta Germaniae Historica* (ed. G. H. Pertz, T. Mommsen, and others). Hanover, 1826- (in progress). [M.G.H.]
- MURATORI, L. A. *Rerum Italicarum Scriptores*, 25 vols. Milan, 1723-51. [R.I.Ss.]
- NEUBAUER, A. and STERN, M. *Quellen zur Geschichte der Juden in Deutschland*, 2 vols. Berlin, 1892.
- Palestine Pilgrims' Text Society*, 13 vols. and Index. London, 1896-7. [P.P.T.S.]
- Patrologia Orientalis* (ed. R. Graffin and F. Nau). Paris, 1907- (in progress). [P.O.]
- Recueil des Historiens des Croisades*. Publ. Académie des Inscriptions et Belles Lettres. Paris, 1841-1906.
Documents Arméniens, 2 vols. 1869-1906. [R.H.C.Arm.]
Historiens Grecs, 2 vols. 1875-81. [R.H.C.G.]
Historiens Occidentaux, 5 vols. 1844-95. [R.H.C.Occ.]
Historiens Orientaux, 5 vols. 1872-1906. [R.H.C.Or.]
- RIANT, P. *Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades, Archives de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1881.
- RÖHRICHT, R. *Regesta Regni Hierosolymitani*, 2 vols. Innsbrück, 1893-1904.
- ROZIÈRE, E. DE. *Recueil général des Formules usitées dans l'Empire des Francs du Vme au Xme Siècle*, 2 vols. Paris, 1859.
- SATHAS, K. N. *Μεσοπωνική Βιβλιοθήκη, Bibliotheca Graeca Medii Aevi*, 7 vols. Venice-Paris, 1872-9.
- TOBLER, T. and MOLINIER, A. *Itinera Hierosolymitana et Descriptiones Terrae Sanctae*, 2 vols. Geneva, 1879.
- UGHELLI, F. *Italia Sacra*, 9 vols. Rome, 1644-62.
- VAISSÈTE, DOM. See Bibliography, p. 359.

2. WESTERN SOURCES, LATIN, OLD FRENCH AND GERMAN

- Adamnan. *Arculf's Narrative about the Holy Places* (trans. J. R. Macpherson). P.P.T.S. vol. III.
- Aetheria. See *Pilgrimage of Saint Silvia*.

Bibliography

- Aimé of Monte Cassino. *Chronicon, L'Ystoire de li Normant* (ed. O. Delarcq). Rouen, 1892.
- Albert of Aix (Albertus Aquensis). *Liber Christianae Expeditionis pro Ereptione, Emundatione et Restitutione Sanctae Hierosolymitanae Ecclesiae*, in *R.H.C.Occ.* vol. iv.
- Alexius I Comnenus. Letters nos. i, v and xi, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Ambrose, St, Archbishop of Milan. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. xvi.
- Annales Altahenses Majores*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. xx.
- Annales Pisani* (ed. P. Tronci), 4 vols. Pisa, 1828-9.
- Anonymi Gesta Francorum et Aliorum Hierosolimitorum* (ed. L. Bréhier as *Histoire Anonyme de la Première Croisade*). Paris, 1924. (Also ed. H. Hagenmeyer. Heidelberg, 1890.)
- Anselm of Ribemont. Letters nos. viii and xv, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Augustine, St, of Hippo. *Contra Faustum*, in *M.P.L.* vol. xlii.
- Augustine, St, of Hippo. *De Civitate Dei*, in *M.P.L.* vol. xlii.
- Augustine, St, of Hippo. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. xxxiii.
- Bartolf of Nangis. *Gesta Francorum Iherusalem Expugnantium*, in *R.H.C.Occ.* vol. iii.
- Baudri of Dol. *Historia Jerosolimitana*, in *R.H.C.Occ.* vol. iv.
- Baudri of Dol. *Vita di Roberti de Arbrisello*, in *Aa. Ss.* (23 February), vol. iii.
- Bechada, Gregory. *Chanson d'Antioche en provençal* (ed. P. Meyer) in 'Fragment d'une Chanson d'Antioche en provençal', in *Archives de l'Orient Latin*, vol. ii.
- Benedict of Accolti. *Historia Gotefridi*, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. ii.
- Berno. *Libellus de Officio Missae*, in *M.P.L.* vol. cxlii.
- Bernold of Constance (Saint-Blaise). *Chronicon*, in *M.G.H. Scriptores*, vol. v.
- Bohemond. Charter no. x, and letters (with other princes) nos. xii and xvi, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Caffaro de Caschifelone. *Annales Ianuenses*, in *Fonti per la Storia d'Italia*, vols. i and ii.
- Caffaro de Caschifelone. *De Liberatione Civitatum Orientis Liber*, in *R.H.C.Occ.* vol. v, pt. i.
- Cartulaire de Saint-Chaffre* (ed. U. Chevalier). Paris, 1881.
- Chanson du Chevalier au Cygne* (Belgian version, ed. Reiffenberg and Borgnet), 3 vols. Brussels, 1846-59.
- Chanson du Chevalier au Cygne* (ed. Hippeau), 2 vols. Paris, 1874-7.
- Chronicon Barensis*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. v.
- Chronique de Zimmern* (German text with French trans., ed. Hagenmeyer), in *Archives de l'Orient Latin*, vol. ii.
- Clementia, Countess of Flanders. Charter no. vii, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Clergy of Lucca. Letter no. xvii, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Bibliography

- Commemoratorium de Casis Dei vel Monasteriis*, in Tobler and Molinier, *Itinera Hierosolymitana*, vol. 1.
- Cosmas of Prague. *Chronicon*, in M.G.H. *Scriptores*, vol. vii.
- Daimbert (Dagobert), Archbishop of Pisa and Patriarch of Jerusalem. Letters nos. xviii and xxi, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- De Sancto Wlphlagio*, in Aa. Ss. (7 June), June, vol. ii.
- Ekkehard of Aura. *Chronicon Universale*, in M.G.H. *Scriptores*, vol. vi.
- Ekkehard of Aura. *Hierosolymita*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. 1.
- Ennodius. *Libellum pro Synodo*, in *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*, vol. vi. Vienna, 1882.
- Expediatio Contra Turcos* (ed. at base of Tudebod), in R.H.C.Occ. vol. iii.
- Fulbert of Chartres. *Epistolae*, in R.H.F. vol. x.
- Fulcher of Chartres. *Gesta Francorum Iherusalem Peregrinantium* (ed. H. Hagenmeyer). Heidelberg, 1913.
- Genoese citizens. Pact with Bohemond no. xiv, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Gesta Adhemari Episcopi Podiensis Hierosolymitana*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. ii.
- Gesta Francorum*. See *Anonymi Gesta Francorum*.
- Gilon. *De Via Hierosolymitana*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. ii.
- Glaber. See Radulph.
- Graindor of Douai. See Richard the Pilgrim.
- Gregory VII, Pope. *Epistolae*, in *Monumenta Gregoriana*, vol. ii of Jaffé, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*.
- Gregory VII, Pope. *Registra* (ed. E. Caspar), in M.G.H. *Epistolae*, vol. ii.
- Gregory of Tours. *De Gloria Martyrum*, in M.P.L. vol. lxxi.
- Guibert of Nogent. *Historia Hierosolymitana*, in R.H.C.Occ. vol. iv.
- Gunther of Basle. *Solymarius*, in *Archives de l'Orient Latin*, vol. 1.
- Henry of Huntingdon. *De Captione Antiochiae*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. ii.
- Historia Belli Sacri* (Tudebodus Continuatus), in R.H.C.Occ. vol. iii.
- Historia et Gesta Ducis Gotfridi*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. ii.
- Hugh of Fleury. *Itineris Hierosolymitani Compendium*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. ii.
- Hugh of Lerchenfeld. *Breviarium Passagii in Terram Sanctam*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. ii.
- Itinerary of Bernard the Wise* (trans. J. H. Bernard), in P.P.T.S. vol. iii.
- Itinerary of the Bordeaux Pilgrim* (trans. A. Stewart), in P.P.T.S. vol. 1.
- Jerome, St. *De Viris Illustribus*, in M.P.L. vol. xxiii.
- Jerome, St. *Epistolae*, in M.P.L. vol. xxii.
- Jerome, St. *Liber Paralipumenon*, in M.P.L. vol. xxviii.
- John VIII, Pope. *Epistolae*, in M.P.L. vol. cxxvi.
- Joseph of Exeter. *Poemata* (ed. J. Jusserand), *De Josepho Exoniensi*. Paris, 1877.
- Joseph the Historiographer. *Tractatus de Exordio Sacrae Domus Hospitalis Jerosolimitani*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. ii.

Bibliography

- Lambert of Arras. *Canons of the Council of Clermont*, in Mansi, *Concilia*, vol. xx.
- Leo IX, Pope. *Epistolae*, in M.P.L. vol. cxliii.
- Leo of Ostia. *Chronicon Monasterii Casinensis*, in M.G.H. *Scriptores*, vol. vii.
- Lisiard of Tours. *Historiae Hierosolimitanae Secunda Pars*, in R.H.C.Occ. vol. iii.
- Liudprand of Cremona. *Opera* (ed. J. Becker). Hanover-Leipzig, 1925.
- Malaterra, Gaufredus. *Historia Sicula*, in M.P.L. vol. cxlix.
- Martin I, Pope. *Epistolae*, in M.P.L. vol. lxxxvii.
- Milites Regni Franciae*, in R.H.F. vol. xxii.
- Miracles de Saint-Benoît* (ed. E. de Certain). Paris, 1856.
- Miracula Sancti Wolframni Senonensis*, in *Acta Sanctorum Ordinis Sancti Benedicti*, ser. iii, pt. ii.
- Monitum in Balduini III Historiae Nicenae vel Antiochenae Prologum*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. i.
- Nicholas I, Pope. *Epistolae*, in M.G.H. *Epistolae*, vol. vi.
- Notitiae Duae Lemovicenses de Praedicatione Crucis in Aquitania*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. ii.
- Orderic Vitalis. *Historia Ecclesiastica* (ed. A. Le Prevost and L. Delisle) in Société de l'Histoire de France, 5 vols. Paris, 1838-55.
- Paschal II, Pope. Letters nos. xix and xxii, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe. Peregrinatio Frotmundi*, in Aa. Ss. (24 October), Oct., vol. x.
- Pilgrimage of Saint Silvia of Aquitaine* (trans. A. Stewart), in P.P.T.S. vol. i.
- Prudentius. *Carmina* (ed. J. Bergman), in *Corpus Scriptorum Ecclesiasticorum Latinorum*, vol. lxi.
- Radulph of Caen. *Gesta Tancredi Siciliae Regis in Expeditione Hierosolymitana*, in R.H.C.Occ. vol. iii.
- Radulph Glaber. *Historiarum Sui Temporis Libri V*, in R.H.F. vol. x.
- Raymond of Aguilers. *Historia Francorum qui ceperunt Jerusalem*, in R.H.C.Occ. vol. iii.
- Richard the Pilgrim. *La Chanson d'Antioche*, in *Roman des Douze Pairs: La Chanson d'Antioche composée au Commencement du XII^{me} Siècle par le Pèlerin Richard, renouvelée sous le Règne de Philippe Auguste par Graindor de Douai et publiée pour la première fois par Paulin Paris*, 2 vols. Paris, 1848.
- Robert the Monk. *Historia Hierosolymitana*, in R.H.C.Occ. vol. iii.
- Sigebert of Gembloux. *Chronicon*, in M.G.H. *Scriptores*, vol. vi.
- Stephen of Blois. Letters nos. iv and x, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Symeon, Patriarch of Jerusalem (with others). Letters nos. vi and ix, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.
- Tolomeo. *Annales Lucchenses*, in M.G.H. *Scriptores* (new ser.), vol. viii.
- Translatio Sancti Nicolai in Venetiam*, in R.H.C.Occ. vol. v, pt. i.
- Tudebod. *De Hierosolymitano Itinere*, in R.H.C.Occ. vol. iii.
- Urban II, Pope. Letters nos. ii and iii, in Hagenmeyer, *Die Kreuzzugsbriefe*.

Bibliography

- Victor II, Pope. Letter no. 1 (wrongly attributed to Victor III), in *M.P.L.* vol. cxxix.
- Victricius, St. *Liber de Laude Sanctorum*, in *M.P.L.* vol. xx.
- Vita Genovefae Virginis Parisiensis, in *M.G.H. Scriptores Rerum Merovingiarum*, vol. iii.
- Vita Lietberti, in d'Achéry, *Spicilegium*, vol. ix.
- Vita Urbani II, in *Liber Pontificalis*, vol. ii.
- William of Malmesbury. *Gesta Regum* (ed. W. Stubbs), *Rolls Series*, 2 vols. London, 1887-9.
- William of Tyre. *Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum*, in *R.H.C. Occ.* vol. i, pts. i and ii. Old French version, *L'Estoire de Eracles, Empereur, et la Conqueste de la Terre d'Outremer*, *ibid.*
- Willibald. *Hodoeporicon* (trans. W. R. Brownlow), in *P.P.T.S.* vol. iii.

3. GREEK SOURCES

- Anna Comnena. *Alexiad* (ed. B. Leib), in *Collection Byzantine de l'Association Guillaume Budé*, 3 vols. Paris, 1937-45. (Also ed. Ducange, in *R.H.C.G.* vol. I.)
- Attaliates, Michael. *Historia* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* Bonn, 1853.
- Basil, St. *Opera*, in *M.P.G.* vols. xxix-xxxii.
- Bryennius, Nicephorus. *Historia* (ed. A. Meineke), in *C.S.H.B.* Bonn, 1836.
- Cedrenus, Georgius. *Synopsis Historiarum* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1839.
- Cerularius, Michael, Patriarch. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. cxx.
- Chronicon Paschale* (ed. L. Dindorf), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1832.
- Constantine Porphyrogenetus. *De Ceremoniis Aulae Byzantinae* (ed. J. J. Rieske), in *C.S.H.B.* 2 vols. Bonn, 1829-30. (Also ed. A. Vogt, in *Collection Byzantine de l'Association Guillaume Budé*, 4 vols. Paris, 1935-40.)
- Doctrina Jacobi nuper Baptizati* (ed. N. Bonwetsch), in *Abhandlungen der Königlichen Gesellschaft der Wissenschaft zu Göttingen, Phil.-Hist. Klasse, Neue Folge*, vol. xii, no. 3. Berlin, 1910.
- Eastern Patriarchs. Letter to Theophilus, in *M.P.G.* vol. xcv.
- Eusebius of Caesarea. *Ecclesiastical History* (trans. H. J. Lawlor and J. E. L. Oughton), 2 vols. London, 1928.
- Glycas, Michael. *Chronicon* (ed. I. Bekker), in *C.S.H.B.* Bonn, 1836.
- Gregory Nazianzene, St. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. xlvi.
- John VI Cantacuzenus. *Historia* (ed. L. Schopen), in *C.S.H.B.* 3 vols. Bonn, 1828-32.
- John Chrysostom, St. *Opera*, in *M.P.G.* vols. xlvii-lxiv.
- John the Oxite, Patriarch of Antioch. *Περὶ τῶν Ἀζύμων*, in Leib, *Deux Inédits Byzantins*.

Bibliography

- Nicephorus Callistus. *Historia Ecclesiastica*, in *M.P.G.* vol. cxi. vi.
- Nicephorus, Patriarch. *Opuscula Historica* (ed. C. de Boor), in *Bibliotheca Teubneriana*. Leipzig, 1880.
- Origen. In *Joannem*, in *M.P.G.* vol. xiv.
- Passio LX Martyrum et Legenda Sancti Floriani* (ed. H. Delehaye), in *Analecta Bollandiana*, vol. xxiii. Brussels, 1903.
- Peter, Patriarch of Antioch. Letter to Michael Cerularius, in *M.P.G.* vol. cxx.
- Synopsis Chronicon*, in *Sathas, Μεσαιωνική Βιβλιοθήκη*, vol. vii.
- Theodosius, Patriarch of Jerusalem. Letter to Ignatius of Constantinople, in *Mansi, Concilia*, vol. xvi.
- Theophanes Confessor. *Chronographia* (ed. C. de Boor), 2 vols. Leipzig, 1883-5.
- Theophylact, Archbishop of Bulgaria. *Epistolae*, in *M.P.G.* vol. cxxvi.
- Zonaras, Joannes. *Epitome Historiarum*, vol. iii (ed. T. Büttner-Wörst), in *C.S.H.B.* Bonn, 1897.

4. ARABIC AND PERSIAN SOURCES

[Note. The titles of the works are translated into English.]

- Abu'l Fedā. *Moslem Annals* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. i. (Full text with Latin trans. ed. J. Reiske. Copenhagen, 1789-94.)
- Abu'l Mahāsin. MS. passages quoted with Russian trans. in Rosen, *Emperor Basil the Bulgar-slayer*.
- Agapius of Maboug. *Universal Chronicle* (ed. with French trans. by A. A. Vasiliev), in *P.O.* vols. v, vii and viii.
- Antiochus the Strategē. *Capture of Jerusalem by the Persians*, Arabic version (ed. with French trans. by A. Couret), in *Revue de l'Orient Chrétien*. Paris, 1897. See Bibliography, p. 350.
- Balādhuri. *The Conquest of the Nations*, Arabic text. Cairo, A.H. 1319. (English trans. by P. K. Hitti and F. C. Murgotten, 2 vols. New York, 1916-24.)
- Chronicle of Seert* (ed. with French trans. by A. Scher), in *P.O.* vols. iv, v, vii and xiii.
- Eutychius, Patriarch of Alexandria. *Annals* (Latin trans. in *M.P.G.* vol. cxi).
- Ibn al-Athir. *History of Atabegs of Mosul* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. ii, pt. ii.
- Ibn al-Athir. *Sum of World History* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Occ.* vol. i. (Full Arabic text ed. C. J. Tornberg, 14 vols. Leyden-Upsala, 1851-76.)
- Ibn Khaldūn. *Universal History*, Arabic text, 7 vols. Bulaq, A.H. 1287, (Partial Latin trans. by C. J. Tornberg. Upsala, 1840.)

Bibliography

- Ibn al-Qalānisi. *Continuation of the Chronicle of Damascus: The Damascus Chronicle of the Crusades* (selected and trans. into English by H. A. R. Gibb). London, 1932. (Full Arabic text ed. H. F. Amedroz. Leyden, 1908.)
- al-Jahiz. *Three Essays* (ed. J. Finkel). Cairo, 1926.
- Kemal ad-Din. *Chronicle of Aleppo* (selection, with French trans.), in *R.H.C.Or.* vol. III.
- Miskawaihi. *The Experiences of the Nations* (concluding portions with English trans. by D. S. Margoliouth), in Amedroz and Margoliouth, *Eclipse of the Abbasid Caliphate*, vols. I and II (Arabic text); vols. IV and V (English text).
- Mukaddasi. *Description of Syria* (English trans. by G. Le Strange), in *P.P.T.S.* vol. III.
- Nasir-i-Khusrau. *Diary of a Journey through Syria and Palestine* (English trans. from the Persian by G. Le Strange), in *P.P.T.S.* vol. IV.
- Severus of Aschmounein. *History of the Patriarchs of Alexandria* (ed. with English trans. by B. Evetts), in *P.O.* vols. I and V.

5. ARMENIAN SOURCES

- Aristaces of Lastivert. *History* (Armenian text). Venice, 1844.
- Kirakos of Gantzag (Guiragos of Kantzak). *History* (extracts with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.
- Matthew of Edessa. *Chronicle* (French trans. by E. Dulaurier). Paris, 1858. (Extracts with French trans., in *R.H.C.Arm.* vol. I.)
- Mekhitar of Airavanq. *History* (Armenian text). St Petersburg, 1867.
- Samuel of Ani. *Chronological Tables* (French trans.), in Brosset, *Collection d'Historiens Arméniens*, vol. II.
- Sebeos. *History of Heraclius* (Armenian text). Constantinople, 1851.
- Sembat, Constable of Armenia. *Chronicle* (Armenian text). Paris, 1859.
- Vahram Rabuni. *History of the Rupenian Dynasty* (rhyming chronicle, Armenian text with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.
- Vartan the Great. *History* (extracts with French trans.), in *R.H.C.Arm.* vol. I.

6. SYRIAC SOURCES

- Anonymous Chronicle (ed. A. S. Tritton with English trans.) in 'First and Second Crusades from an anonymous Syriac chronicle', in *Journal of the Royal Asiatic Society*. London, 1933.
- Anonymous Chronicle (ed. with Latin trans. by I. Guidi), in *C.S.C.O. Scriptores Syri*, ser. III, vol. IV. (Quoted as *Anon. Guidi*.)
- Bar Hebraeus, Gregory, called Abu'l Faraj. *Chronography*. Part I, *Political History* (ed. with English trans. by E. A. W. Budge), 2 vols. Oxford, 1932. Parts II and III, *Ecclesiastical History* (ed. with Latin trans. by

Bibliography

- J. B. Abbeloos and T. J. Lamy), 2 vols. Louvain, 1872-7. (Extracts in Assemani, *Bibliotheca Orientalis*, vol. II.)
- Elias of Nisibin. *Chronicle* (ed. with French trans. by E. W. Brooks and J. B. Chabot), in C.S.C.O. *Scriptores Syri*, ser. III, vols. VII and VIII.
- Michael the Syrian. *Chronicle* (ed. with French trans. by J. B. Chabot), 4 vols. Paris, 1899-1910.
- 'Thomas the Priest.' *Book of the Caliphs* (ed. as *Chronicon Miscellaneum ad annum Domini 724 pertinens* with Latin trans. by E. W. Brooks), in C.S.C.O. *Scriptores Syri*, ser. III, vol. IV.

7. HEBREW SOURCES

- Anonymous of Mainz-Darmstadt. *Memorial* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.
- Eliezer bar Nathan. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.
- Ephraim bar Jacob. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.
- Martyrology of Nuremberg, *Das Martyrologium des Nürnberger Memorbuches* (ed. with German trans.), in Safeld, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. III. Berlin, 1898.
- Salomon bar Simeon. *Relation* (ed. with German trans.), in Neubauer and Stern, *Quellen zur Geschichte der Juden*, vol. II.

8. VARIOUS SOURCES

- Antiochus the Strateger. *Capture of Jerusalem by the Persians*, in Georgian (ed. with Russian trans. by A. Marr), in *Textes et Recherches relatifs à la Philologie Arménienne*, vol. IX. St Petersburg, 1909. (This work was probably originally written in Greek. The Georgian version is derived from a lost Arabic version, of which the work mentioned in Bibliography, p. 348, is an abridgement. A second Georgian and a slightly fuller Arabic version have since been discovered. See P. Peeters in *Analecta Bollandiana*, vols. XXXI and XXXVIII.)
- John of Nikiu. *Chronicle* (trans. from the Ethiopic by R. H. Charles). London, 1916. (This work was originally written in Greek and translated into Arabic and from Arabic into Ethiopic. Both the Greek and Arabic versions are lost.)

II. MODERN WORKS

- AMANN, E. and DUMAS, A. *L'Eglise au pouvoir des Laïques*, vol. VII of A. Fliche and V. Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1940.
- AMANTOS, K. *Ἱστορία τοῦ Βυζαντινοῦ Κράτους*, 2 vols. Athens, 1939-48.
- AMARI, M. *Storia dei Musulmani di Sicilia*, 9 vols. Florence, 1854-72.

Bibliography

- AMÉLINEAU, E. 'La Conquête de l'Egypte par les Arabes', in *Revue Historique*, vol. CXXIX. Paris, 1915.
- ANDERSON, J. G. C. 'The Road-System of Eastern Asia Minor', in *Journal of Hellenic Studies*, vol. XVII. London, 1897.
- ARCHER, T. A. and KINGSFORD, C. L. *The Crusades*. London, 1894.
- ARNOLD, T. and GUILLAUME, A. *The Legacy of Islam*. Oxford, 1931.
- BALLESTEROS Y BERETTA, A. *Historia de España*, vol. II. Barcelona, 1908.
- BARKER, E. Article 'The Crusades', in *Encyclopaedia Britannica*, 11th ed.
- BARTHOLD, W. Article 'Turks', in *Encyclopaedia of Islam*.
- BARTHOLD, W. *Turkestan down to the Mongol Invasion*. Gibb Memorial Series. Oxford, 1928.
- BAUDRILLART, A., VOGT, A. and ROUZIÈS, M. *Dictionnaire d'Histoire et de Géographie Ecclésiastique*. Paris, 1912- (in progress).
- BEAUMONT, A. A. 'Albert of Aachen and the County of Edessa', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
- BECKER, C. H. Article 'Djizya', in *Encyclopaedia of Islam*.
- BERCHEM, M. VAN. 'The Mosaics of the Dome of the Rock at Jerusalem and of the Great Mosque at Damascus', ch. v in Creswell, *Early Muslim Architecture*.
- BLEYE, A. *Manual de Historia de España*, 2 vols. Bilbao, 1927-8.
- BOGLATZIDES, L. 'Ιστορικαὶ Μελέται'. Thessalonica, 1932.
- BOISSONNADE, P. 'Cluny, la Papauté et la première grande Croisade internationale contre les Sarrasins d'Espagne', in *Revue des Questions Historiques*, vol. CXXVII. Paris, 1932.
- BOISSONNADE, P. *Du nouveau sur la Chanson de Roland*. Paris, 1923.
- BRÉHIER, L. *L'Eglise et l'Orient au Moyen Age: Les Croisades*. Paris, 1928.
- BRÉHIER, L. and AIGRAN, A. Grégoire le Grand, les Etats barbares et la Conquête Arabe, vol. v of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*.
- BREYSIG, T. 'Gottfried von Bouillon vor dem Kreuzzuge', in *Westdeutsche Zeitschrift für Geschichte*, vol. XVII. Trier, 1898.
- BROWNE, L. E. *The Eclipse of Christianity in Asia*. Cambridge, 1933.
- BUCKLER, G. *Anna Comnena*. Oxford, 1929.
- BUHL, F. Articles 'Al Kuds' and 'Muhammed', in *Encyclopaedia of Islam*.
- BURKITT, F. C. *Early Eastern Christianity*. London, 1904.
- BURY, J. B. *History of the later Roman Empire from Arcadius to Irene*, 2 vols. London, 1889.
- BURY, J. B. *Selected Essays* (ed. Temperley). Cambridge, 1930.
- BURY, J. B. 'The Ceremonial Book of Constantine Porphyrogennetos', in *English Historical Review*, vol. XXII. London, 1907.
- BUTLER, A. J. *The Arab Conquest of Egypt*. Oxford, 1902.
- BYRNE, E. H. 'Genoese Colonies in Syria', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.

Bibliography

- CABROL, F. and LECLERCQ, H. *Dictionnaire d'Archéologie chrétienne et de Liturgie*. Paris, 1907- (in progress).
- CAETANI, L. C. *Annali dell' Islam*, 7 vols. Milan, 1905-14.
- CAHEN, C. 'Diyar Bakr au temps des premiers Artuquides', in *Journal Asiatique*, vol. CCXXVII. Paris, 1935.
- CAHEN, C. 'La Campagne de Mantzikert d'après les Sources Mussulmanes', in *Byzantion*, vol. IX. Brussels, 1934.
- CAHEN, C. 'La première Pénétration turque en Asie Mineure', in *Byzantion*, vol. XVIII. Brussels, 1948.
- CAHEN, C. *La Syrie du Nord à l'Epoque des Croisades*. Paris, 1940.
- CAHEN, C. 'La Tughra Seldjucide', in *Journal Asiatique*, vol. CCXXXIV. Paris, 1943-5.
- Cambridge Medieval History* (planned by J. B. Bury), 8 vols. Cambridge, 1911-36.
- CAUWENBERGH, E. VAN. *Les Pèlerinages expiatoires et judiciaires dans le droit communal de la Belgique au Moyen Age*. Louvain, 1922.
- CAVAIGNAC, E. *Histoire du Monde*. See Gaudefroy-Demombynes.
- CHALANDON, F. *Essai sur le Règne d'Alexis Comnène Ier*. Paris, 1900.
- CHALANDON, F. *Histoire de la Domination normande en Italie et en Sicile*, 2 vols. Paris, 1907.
- CHALANDON, F. *Histoire de la première Croisade*. Paris, 1925.
- CHALANDON, F. *Les Comnènes, t. II: Jean II Comnène et Manuel Comnène*. Paris, 1913.
- CHAMICH, M. *History of Armenia* (trans. J. Avdall), 2 vols. Calcutta, 1827.
- CHEVALIER, U. *Cartulaire de Saint-Chaffre*. See Bibliography, p. 344.
- CHRISTENSEN, A. *L'Iran sous les Sassanides*. Paris-Copenhagen, 1936.
- COGNASSO, F. *La Genesi delle Crociate*. Turin, 1934.
- COURET, A. *La Palestine sous les Empereurs grecs*. Grenoble, 1869.
- COURET, A. *La Prise de Jérusalem par les Perses en 614*. Orléans, 1896.
- CRESWELL, K. A. C. *Early Muslim Architecture*, 2 vols. Oxford, 1932-40.
- CROZET, R. 'Le Voyage d'Urbain II et ses arrangements avec le Clergé de France', in *Revue Historique*, vol. CLXXIX. Paris, 1937.
- DAVID, C. W. *Robert Curthose*. Cambridge, Mass., 1920.
- DELBRÜCK, H. *Geschichte der Kriegskunst im Rahmen der politischen Geschichte*, 3 vols. Berlin, 1907.
- DELEHAYE, H. *Les Origines du Culte des Martyres*, in *Analecta Bollandiana*, vol. XLIV. Brussels, 1925.
- DELEHAYE, H. *Sanctus: Essai sur le Culte des Saints*. Brussels, 1927.
- DER NERSESSIAN, S. *Armenia and the Byzantine Empire*. Cambridge, Mass., 1945.
- DESCHAMPS, P. *Les Châteaux des Croisés en Terre Sainte: vol. I, Le Crac des Chevaliers*. Paris, 1934; vol. II, *La Défense du Royaume de Jérusalem*. Paris, 1939.

Bibliography

- DEYRERSE, R. *Le Patriarchat d'Antioche*. Paris, 1945.
- DIEHL, G. and MARÇAIS, G. *Le Monde Oriental de 395 à 1081*, vol. III of *Histoire Générale*, fondée par G. Gloetz, *Histoire du Moyen Age*. Paris, 1936.
- DIEHL, C., MARÇAIS, G., OECONOMOS, L., GUILLAUD, R. and GROUSSET, R. *L'Europe Orientale de 1081 à 1453*, *ibid.* vol. IX. Paris, 1945.
- DODU, G. *Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin de Jérusalem*. Paris, 1894.
- DÖLGER, F. *Regesten der Kaiserurkunden des Oströmischen Reiches*, vol. II. Munich-Berlin, 1925.
- DOZY, R. *Histoire des Musulmans d'Espagne* (new ed.), 3 vols. Leyden, 1932.
- DUCANGE, C. DU F. *Les Familles d'Outremer* (ed. E. G. Rey). Paris, 1869.
- DUCHESNE, L. *Les Premiers Temps de l'Etat Pontifical*. Paris, 1898.
- DUNCALF, F. 'The Pope's Plan for the First Crusade', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
- DUVAL, R. *Histoire politique, religieuse et littéraire d'Edesse*. Paris, 1892.
- DUSSAND, R. *Topographie historique de la Syrie antique et médiévale*. Paris, 1927.
- DVORNIK, F. *The Photian Schism*. Cambridge, 1948.
- EBERSOLT, J. *Les Sanctuaires de Byzance*. Paris, 1921.
- EBERSOLT, J. *Orient et Occident*, 2 vols. Paris, 1928-9.
- Encyclopaedia of Islam*, 4 vols. Leyden-London, 1908-34.
- ENLART, C. *Les Monuments des Croisés*, 2 vols. (with albums). Paris, 1925-8.
- ERDMANN, C. *Die Entstehung des Kreuzzugsgedankens*. Stuttgart, 1935.
- EVERY, G. *The Byzantine Patriarchate*. London, 1947.
- FLICHE, A. *Le Règne de Philippe Ier, Roi de France*. Paris, 1912.
- FLICHE, A. *L'Europe Occidentale de 888 à 1125*, vol. II of *Histoire Générale*, fondée par G. Gloetz, *Histoire du Moyen Age*. Paris, 1930.
- FLICHE, A. 'Urbain II et la Croisade', in *Revue de l'Histoire de l'Eglise de France*, vol. XIII. Paris, 1927.
- FLICHE, A. and MARTIN, E. V. *Histoire de l'Eglise*. See Amann and Bréhier.
- FRITSCH, E. *Islam und Christentum im Mittelalter*. Breslau, 1930.
- FRYE, R. and SAYILI, A. 'Selcuklardan evvel Ontasarkta Türkler', in *Belleten*, vol. VII. Istanbul, 1946.
- GAUDEFROY-DEMOMBYNES, J. and PLATONOV, S. F. *Le Monde Musulman et Byzantin jusqu'aux Croisades*, in E. Cavaignac, *Histoire de Monde*, vol. VII¹. Paris, 1931.
- GAY, J. *L'Italie Méridionale et l'Empire Byzantin*. Paris, 1904.
- GAY, J. *Les Papes du XIe siècle et la Chrétienté*. Paris, 1926.
- GIBBON, E. *Decline and Fall of the Roman Empire* (ed. J. B. Bury), 7 vols. London, 1896.
- GINDLER, P. *Graf Balduin I von Edessa*. Halle, 1901.
- GOEJE, M. J. DE. *Mémoire sur la Conquête de la Syrie par les Arabes*. Leyden, 1900.
- GORDLEVSKY, A. *Seldjuk Empire in Asia Minor* (in Russian). Moscow, 1941.

Bibliography

- GRAEFF, E. Article 'Hakim', in *Encyclopaedia of Islam*.
- GRAETZ, H. *Geschichte der Juden*, 11 vols. Leipzig, 1866-78.
- GRAF, G. *Geschichte der Christlichen Arabischen Litteratur*, 2 vols. Vatican City, 1944-7.
- GRANDCLAUDE, M. *Etude Critique sur les Livres des Assises de Jérusalem*. Paris, 1930.
- GRÉGOIRE, H. 'Mahomet et le Monophysisme', in *Mélanges Charles Diehl*, vol. 1. Paris, 1930.
- GRÉGOIRE, H. 'Notes sur Anne Comnène', in *Byzantion*, vol. III. Brussels, 1926.
- GROUSSET, R. *Histoire de l'Arménie des Origines à 1071*. Paris, 1947.
- GROUSSET, R. *Histoire des Croisades et du Royaume Franc de Jérusalem*, 3 vols. Paris, 1934-6.
- GROUSSET, R. *L'Empire du Levant*. Paris, 1946.
- GRUMEL, V. 'Jérusalem entre Rome et Byzance', in *Echos d'Orient*, vol. XXXVIII. Paris, 1939.
- GRUMEL, V. 'Les Patriarches d'Antioche du nom de Jean', in *Echos d'Orient*, vol. XXXII. Paris, 1933.
- GRUNEBAUM, G. E. V. *Medieval Islam* (2nd imp.). Chicago, 1947.
- GÜTERBOCK, C. *Der Islam im Lichte der byzantinischen Polemik*. Berlin, 1912.
- HAGENMEYER, H. *Chronologie de la Première Croisade*. Paris, 1902.
- HAGENMEYER, H. *Die Kreuzzugsbriefe*. See Bibliography, p. 342.
- HAGENMEYER, H. *Peter der Eremit*. Leipzig, 1879. French trans. (without appendices) by Furcy Raynaud, *Le Vrai et le Faux sur Pierre l'Hermite*. Paris, 1883.
- HALPHEN, L. *L'Essor de l'Europe*, vol. VI of *Peuples et Civilisations* (ed. I. Halphen and P. Sagnac), 2nd ed. Paris, 1940.
- HANSEN, W. *Das Problem des Kirchenstaates in Jerusalem*. Fribourg, 1928.
- HATEM, A. *Les Poèmes Epiques des Croisades*. Paris, 1932.
- HEERMANN, O. *Die Gefechtsführung der abendländischen Heere im Orient in der Epoche des ersten Kreuzzuges*. Marburg, 1887.
- HEFELE, C. J. *Histoire des Conciles* (trans. and ed. H. Leclercq). Paris, 1907- (in progress).
- HERGENRÖTHER, J. *Photius, Patriarch von Konstantinopel*, 3 vols. Regensburg, 1887-9.
- HEYD, W. *Histoire du Commerce du Levant* (trans. Furcy Raynaud; 2nd reimp.), 2 vols. Leipzig, 1936.
- HILL, G. *A History of Cyprus*, vol. 1. Cambridge, 1940.
- HOGARTH, D. G. and MUNRO, J. A. R. *Modern and Ancient Roads in Eastern Asia Minor*. Royal Geographical Society, Supplementary Papers (new ser.), vol. III. London, 1893.

Bibliography

- HOLTZMANN, W. 'Die Unionsverhandlungen zwischen Kaiser Alexios I und Papst Urban II im Jahre 1089', in *Byzantinische Zeitschrift*, vol. xxviii. Leipzig, 1928.
- HONIGMANN, E. *Die Ostgrenze des byzantinischen Reiches von 363 bis 1071*, in *Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae*, vol. iii. Brussels, 1935.
- HONIGMANN, E. Articles 'al Lâdhqiya', 'Izniq', 'Macarrat al Numan', 'Malatya', 'Marash', 'Missis', 'Orfa', 'Ortoqids' and 'Shaizar', in *Encyclopaedia of Islam*.
- HOUTSMA, M. T. Article 'Seljuks', in *Encyclopaedia Britannica*, 11th ed.; articles 'Menguchek' and 'Tutush', in *Encyclopaedia of Islam*.
- HUART, C. *Histoire des Arabes*, 2 vols. Paris, 1911-12.
- HUBERTI, L. *Studien zur Rechtsgeschichte der Gottesfrieden und Landfrieden*. Ansbach, 1892.
- HUSSEY, J. M. *Church and Learning in the Byzantine Empire*. Oxford, 1937.
- IORGA, N. *Histoire de la Vie Byzantine*, 3 vols. Paris, 1934.
- IORGA, N. *Histoire des Croisades*. Paris, 1924.
- IORGA, N. *Les Narrateurs de la Première Croisade*. Paris, 1928.
- Islam Ansiklopedisi*. Istanbul, 1940- (in progress).
- JIREČEK, C. *Die Heerstrasse von Belgrad nach Constantinopel und die Balkanpässe*. Prague, 1877.
- JORANSON, E. 'The Great German Pilgrimage of 1064-65', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
- JUGIE, M. *Le Schisme Byzantin*. Paris, 1941.
- JUGIE, M. 'Le Schisme de Michel Cérulaire', in *Echos d'Orient*, vol. xxxiv. Paris, 1937.
- JUYNBOLL, T. W. Article 'Kharadj', in *Encyclopaedia of Islam*.
- KLEIN, C. *Raimund von Aguilers: Quellenstudie zur Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Berlin, 1892.
- KNAPPEN, M. M. 'Robert II of Flanders in the First Crusade', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
- KÖPRÜLÜ, M. F. 'Anadolun Selcuklarî Tarihi'nin Yerli Kaynakları', in *Belleten*, vol. vii. Istanbul, 1943.
- KÖPRÜLÜ, M. F. *Les Origines de l'Empire Ottoman*. Paris, 1935.
- KRAUSS, S. *Studien zur byzantinisch-jüdischen Geschichte*. Leipzig, 1914.
- KREBS, F. *Zur Kritik Alberts von Aachen*. Münster, 1881.
- KREY, A. C. 'A Neglected Passage in the Gesta', in *The Crusades and other Historical Essays presented to D. C. Munro*. New York, 1928.
- KREY, A. C. 'Urban's Crusade, Success or Failure?', in *American Historical Review*, vol. lmi. New York, 1918.
- KRUMBACHER, K. *Geschichte der byzantinischen Litteratur*. Munich, 1897.
- KÜGLER, B. *Albert von Aachen*. Stuttgart, 1885.
- KÜGLER, B. *Bohemund und Tankred*. Tübingen, 1862.

Bibliography

- KÜGLER, B. *Geschichte der Kreuzzüge*. Berlin, 1891.
- KÜGLER, B. 'Peter der Eremit und Albert von Aachen', in *Historische Zeitschrift*, vol. XLIV. Berlin-Munich, 1880.
- KÜHNE, E. *Zur Geschichte des Fürstentums Antiochien, 1098-1130*. Berlin, 1897.
- KULAKOVSKY, Y. 'Criticism of evidence in Theophanes' (in Russian), in *Vizantiiski Vremennik*, vol. XXI. St Petersburg, 1915.
- KULAKOVSKY, Y. *History of Byzantium* (in Russian), 3 vols. Kiev, 1913-15.
- KURAT, A. N. *Peçenek Tarihi*. Istanbul, 1937.
- Kuseir Amra*. Published by Kaiserliche Akademie der Wissenschaften, 2 vols. Vienna, 1907.
- LABOURT, J. *De Timotheo I, Nestorianorum Patriarcha*. Paris, 1904.
- LABOURT, J. *Le Christianisme dans l'Empire Perse*. Paris, 1904.
- LAMMENS, H. *Etudes sur le Siècle des Ommayyades*. Beirut, 1930.
- LAMMENS, H. *L'Arabie Occidentale avant l'Hégire*. Beirut, 1928.
- LAMMENS, H. *La Syrie: Précis Historique*, 2 vols. Beirut, 1921.
- LA MONTE, J. L. *Feudal Monarchy in the Latin Kingdom of Jerusalem*. Cambridge, Mass., 1932.
- LANE POOLE, S. *A History of Egypt in the Middle Ages*. London, 1925.
- LANE POOLE, S. *The Mohammedan Dynasties*. Paris, 1925.
- LANGLOIS, V. *Numismatique de l'Arménie au Moyen Age*. Paris, 1855.
- LAURENT, J. *Byzance et les Turcs Seldjoudes jusqu'en 1081*. Nancy, 1913.
- LAURENT, J. 'Byzance et les Origines du Sultanat de Roum', in *Mélanges Charles Diehl*, vol. I. Paris, 1930.
- LAURENT, J. 'Des Grecs aux Croisés: Etude sur l'histoire d'Edesse', in *Byzantion*, vol. I. Brussels, 1924.
- LAURENT, J. *L'Arménie entre Byzance et l'Islam*. Paris, 1919.
- LAURENT, J. 'Le Duc d'Antioche Katchatour', in *Byzantinische Zeitschrift*, vol. XXX. Leipzig, 1929-30.
- LAURENT, J. 'Les Arméniens de Cilicie', in *Mélanges Schlumberger*, vol. I. Paris, 1924.
- LEIB, B. *Deux Inédits Byzantins sur les Azymites*. See Bibliography, p. 343.
- LEIB, B. *Rome, Kiev et Byzance à la fin du XIème siècle*. Paris, 1924.
- LE STRANGE, G. *Lands of the Eastern Caliphate*. Cambridge, 1905.
- LE STRANGE, G. *Palestine under the Moslems*. London, 1890.
- LOEWE, H. M. J. 'The Seljuks', in *Cambridge Medieval History*, vol. IV, ch. X, B. Cambridge, 1923.
- LONGNON, J. *Les Français d'Outremer au Moyen Age*. Paris, 1929.
- LOT, F. *L'Art Militaire et les Armées du Moyen Age*, 2 vols. Paris, 1946.
- LUCHAIRE, A. 'Les premiers Capétiens', in E. Lavisse, *Histoire de France*, vol. II, 2. Paris, 1901.
- MANSELLI, R. 'Normanni d'Italia alla Prima Crociata: Boemondo d'Altavilla', in *Japigia*, vol. IX. Naples, 1940.

Bibliography

- MANTEYER, G. DE. *La Provence du Ier au XIIe Siècle*. Paris, 1908.
- MARICQ, A. 'Un "Comte de Brabant" et des "Brabançons" dans deux textes byzantins', in *Académie Royale de Belgique, Bulletin de la Classe des Lettres*, 5ème série, vol. XXXIV. Brussels, 1948.
- MÉLY, F. DE. 'La Croix des premiers Croisés', in supplementary vol. to Riant, *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*. Paris, 1904.
- MICHAUD, J. F. *Histoire des Croisades*, 5 vols. Paris, 1817-22.
- MICHEL, A. *Amalfi und Jerusalem im griechischen Kirchenstreit*. *Orientalia Christiana Analecta*, no. 121. Rome, 1939.
- MICHEL, A. *Humbert und Kerularios*, 2 vols. Paderborn, 1924-30.
- MOELLER, C. 'Godefroid de Bouillon et l'Avouerie du Saint-Sépulcre', in *Mélanges Godfried Kurth*, vol. 1. Liège, 1908.
- MORAVCSIK, G. *Byzantinoturcica*, 2 vols. Budapest, 1942-3.
- MORDTMANN, J. H. Articles 'Izmir' and 'Eskişehir', in *Encyclopaedia of Islam*.
- MUIR, W. *The Caliphate, its Rise, Decline and Fall* (rev. ed.). Edinburgh, 1915.
- MUKRIMIN HALIL (YINANÇ). Article 'Danışmend', in *Islam Ansiklopedisi*.
- MUKRIMIN HALIL (YINANÇ). *Türkiye Tarihi, Selçuklu Dairi*, vol. 1, *Anadolun Fethi*. Istanbul, 1934.
- MUNRO, D. C. 'Did the Emperor Alexius I ask for aid at the Council of Piacenza?', in *American Historical Review*, vol. XXVII. New York, 1922.
- MUNRO, D. C. *The Kingdom of the Crusaders*. New York, 1936.
- MUNRO, D. C. 'The Speech of Pope Urban II at Clermont', in *American Historical Review*, vol. XI. New York, 1906.
- NAU, F. *Les Arabes Chrétiens de Mésopotamie et de Syrie du VIIème au VIIIème siècle*. Paris, 1933.
- NICHOLSON, R. H. *Tancred*. Chicago, 1940.
- NORDEN, W. *Das Papsttum und Byzanz*. Berlin, 1903.
- OECONOMOS, L. *La Vie Religieuse dans l'Empire Byzantin*. Paris, 1918.
- O'LEARY, DE L. *Arabia before Mohammed*. London, 1927.
- O'LEARY, DE L. *A short History of the Fatimid Khaliphate*. London, 1923.
- O'LEARY, DE L. *How Greek Science passed to the Arabs*. London, 1948.
- OMAN, C. W. C. *A History of the Art of War in the Middle Ages* (2nd ed.), 2 vols. London, 1924.
- ORMANIAN, M. *L'Eglise Arménienne*. Paris, 1910.
- OSTROGORSKY, G. 'Agrarian Conditions in the Byzantine Empire', in *Cambridge Economic History of Europe*, vol. 1. Cambridge, 1942.
- OSTROGORSKY, G. *Geschichte des byzantinischen Staates*. Munich, 1940.
- PARIS, G. 'La Chanson d'Antioche provençale et la Grande Conquista de Ultramar', in *Romania*, vols. XVII, XIX and XXII. Paris, 1888, 1890, 1893.
- PAULOT, L. *Un Pape Français: Urbain II*. Paris, 1903.
- PERNICE, A. *L'Imperatore Eraclio*. Florence, 1905.
- PFISTER, C. *Etudes sur le Règne de Robert le Pieux*. Paris, 1885.

Bibliography

- PIGEONNEAU, H. *Le Cycle de la Croisade et la Famille du Bouillon*. Saint-Cloud, 1877.
- PIGNOT, J. H. *Histoire de l'Ordre de Cluny*, 3 vols. Autun, 1868.
- PIGULEVSKAYA, N. V. *Byzantium and Iran in the Sixth and Seventh Centuries* (in Russian). Moscow, 1946.
- PONTIERI, E. *Tra i Normanni nell' Italia meridionale*. Naples, 1948.
- POUPARDIN, R. *Le Royaume de Bourgogne*. Paris, 1907.
- PRUTZ, H. G. *Wilhelm von Tyrus*. Munich, 1883.
- RAMSAY, W. M. *The Historical Geography of Asia Minor*. Royal Geographical Society, Supplementary Papers, vol. iv. London, 1890.
- RAMSAY, W. M. 'The Intermixture of Races in Asia Minor', in *Proceedings of the British Academy*, vol. vii. London, 1917.
- RASOVSKY, D. 'The Polovtsians' (in Russian), in *Seminarium Kondakovianum*, vols. vi-x. Prague-Belgrade, 1935-9.
- REY, E. G. *Les Colonies Franques de Syrie*. Paris, 1883.
- REY, E. G. 'Les Dignitaires de la Principauté d'Antioche', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. viii. Paris, 1900-1.
- RIANT, P. *Donation de Hugues, Marquis de Toscane*. Académie d'Inscriptions et de Lettres, *Histoires et Mémoires*, vol. xxxi. Paris, 1884.
- RIANT, P. *Expéditions et Pèlerinages des Scandinaves en Terre Sainte*. Paris, 1865.
- RIANT, P. *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, 2 vols. Geneva, 1877-8.
- RIANT, P. *Inventaire critique des Lettres historiques des Croisades*. See Bibliography, p. 343.
- RICHMOND, E. T. *The Dome of the Rock in Jerusalem*. Oxford, 1924.
- RÖHRICHT, R. 'Die Pilgerfahrten nach dem Heiligen Lande vor den Kreuzzügen', in Raumer, *Historisches Taschenbuch*, vol. v, Folge 5. Leipzig, 1875.
- RÖHRICHT, R. *Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Innsbruck, 1901.
- RÖHRICHT, R. *Geschichte des Königreichs Jerusalem*. Innsbruck, 1898.
- RÖHRICHT, R. *Regesta Regni Hierosolymitani*. See Bibliography, p. 343.
- ROSEN, V. R. *Emperor Basil the Bulgar-slayer* (in Russian). St Petersburg, 1883.
- ROUSSET, P. *Les Origines et les Caractères de la première Croisade*. Neuchâtel, 1945.
- RUNCIMAN, S. 'Charlemagne and Palestine', in *English Historical Review*, vol. l. London, 1935.
- RUNCIMAN, S. 'The Byzantine "Protectorate" in the Holy Land', in *Byzantion*, vol. xviii. Brussels, 1948.
- RUNCIMAN, S. *The Emperor Romanus Lecapenus*. Cambridge, 1929.
- RUNCIMAN, S. 'The Holy Lance found at Antioch', in *Analecta Bollandiana*, vol. lxxviii. Brussels, 1950.
- SACKUR, E. *Die Cluniacenser*, 2 vols. Halle, 1892-4.
- SCHLUMBERGER, G. 'Deux Chefs normands des Armées byzantines', in *Revue Historique*, vol. xvi. Paris, 1881.

Bibliography

- SCHLUMBERGER, G. *L'Épopée Byzantine*, 3 vols. Paris, 1896-1905.
- SCHLUMBERGER, G. *Numismatique de l'Orient Latin*, 2 vols. Paris, 1878-82.
- SCHLUMBERGER, G. *Récits de Byzance et des Croisades*, 2 vols. Paris, 1917-22.
- SCHLUMBERGER, G. *Sigillographie de l'Empire Byzantin*. Paris, 1884.
- SCHLUMBERGER, G. *Sigillographie de l'Orient Latin* (continued by F. Chalandon and completed by A. Blanchard). Paris, 1943.
- SCHLUMBERGER, G. *Un Empereur Byzantin, Nicéphore Phocas*. Paris, 1890.
- SIMON, G. *Der Islam und die Christliche Verkündigung*. Gütersloh, 1920.
- SOBERNHEIM, M. Article 'Ibn Ammar', in *Encyclopaedia of Islam*.
- STARR, J. 'Byzantine Jewry on the eve of the Arab Conquest', in *Journal of the Palestine Oriental Society*, vol. xv. Jerusalem, 1935.
- STARR, J. *The Jews in the Byzantine Empire, 641-1204*. Athens, 1939.
- STEVENSON, W. B. 'Islam in Syria and Egypt' and 'The First Crusade', in *Cambridge Medieval History*, vol. v, chs. vi and vii. Cambridge, 1926.
- STEVENSON, W. B. *The Crusaders in the East*. Cambridge, 1907.
- SYBEL, H. VON. *Geschichte des ersten Kreuzzuges* (2nd ed.). Leipzig, 1881.
- TER MIKELIAN, A. *Die Armenische Kirche in ihren Beziehungen zur Byzantinischen Kirche*. Leipzig, 1892.
- TER MINASSIANTZ, A. *Die Armenische Kirche in ihren Beziehungen zu den Syrischen Kirchen*. Leipzig, 1904.
- THIBAUDET, A. *Cluny*. Paris, 1928.
- THUROT, C. 'Études Critiques sur les Historiens de la Première Croisade', in *Revue Historique*, vol. i. Paris, 1876.
- TOMASCHEK, W. *Zur historischen Topographie von Kleinasien im Mittelalter*. *Sitzungsberichte der Kaiserlichen Akademie der Wissenschaften, Philos.-hist. Classe*, vol. CXXIV. Vienna, 1891.
- TOURNEBIZE, F. *Histoire politique et religieuse de l'Arménie*. Paris, 1910.
- TRITTON, A. S. *The Caliphs and their non-Muslim Subjects*. Oxford, 1930.
- USENER, H. *Der Heilige Tychon, Sonderbare Heilige*, no. 1. Leipzig-Berlin, 1907.
- USPENSKY, F. I. *History of the Crusades* (in Russian). St Petersburg, 1900.
- VACANT, A. and MANGENOT, E. *Dictionnaire de Théologie Catholique*. Paris, 1899- (in progress).
- VAILHÉ, S. 'La Prise de Jérusalem par les Perses en 614', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. vi. Paris, 1901.
- VAILHÉ, S. 'Les Juifs et la Prise de Jérusalem en 614', in *Echos d'Orient*, vol. xii. Paris, 1907.
- VAISSÈTE, DOM. *Histoire de Languedoc* (ed. A. Molinier), 10 vols. Toulouse, 1874.
- VASILIEV, A. A. *Byzantium and the Arabs* (in Russian), 2 vols. St Petersburg, 1900-2. Vol. 1 trans. H. Grégoire and E. M. Canard as *Byzance et les Arabes*, in *Corpus Bruxellense Historiae Byzantinae*, vol. I. Brussels, 1935.

Bibliography

- VASILIEV, A. A. *Histoire de l'Empire Byzantin*, 2 vols. Paris, 1932.
- VASILIEV, A. A. 'The Opening Stages of the Anglo-Saxon Immigration to Byzantium in the Eleventh Century', in *Seminarium Kondakovianum*, vol. IX. Prague-Belgrade, 1937.
- VASILIEVSKY, V. G. *Works* (in Russian), vol. I, containing *Byzantium and the Petchenegs*, and *The Varango-Russian and the Varango-English Company in Constantinople*. St Petersburg, 1908.
- VERLINDEN, C. 'Robert Ier, Le Frison, Comte de Flandre', in *Werken mitgegeven door de Faculteit der Wijsbegeerte en Letteren te Gent*. Ghent, 1935.
- VILLEY, M. *La Croisade: Essai sur la Formation d'une Théorie juridique*, vol. VI of H. X. Aquillière, *L'Eglise et l'Etat au Moyen Age*. Paris, 1942.
- VINCENT, H. and ABEL, R. *Jérusalem*, vol. II, *Jérusalem Nouvelle* (2 fasc.). Paris, 1914-26.
- WELLHAUSEN, J. *Das Arabische Reich und sein Sturz*. Berlin, 1902.
- WIET, G. *L'Egypte Arabe*, vol. IV of C. Hanataux, *Histoire de la Nation Egyptienne*. Paris, 1937.
- WILKEN, F. *Geschichte der Kreuzzüge*, 7 vols. Leipzig, 1807-32.
- WITTEK, P. 'Byzantinisch-seldschukische Beziehungen', in *Oostersche Genootschap in Nederland, Verlag van het achste Congress*. Leyden, 1936.
- WITTEK, P. 'Deux Chapitres de l'Histoire des Turcs de Roum', in *Byzantion*, vol. XI. Brussels, 1936.
- WITTEK, P. 'Le Sultan de Rum', in *Annuaire de l'Institut de Philologie et d'Histoire orientales et slaves*, vol. VI. Brussels, 1938.
- WITTEK, P. *The Rise of the Ottoman Empire*. London, 1938.
- WOLFF, T. *Die Bauernkreuzzüge des Jahres 1096: ein Beitrag zur Geschichte des ersten Kreuzzuges*. Tübingen, 1891.
- YAKUBOVSKY, A. 'The Seldjuk Invasion and the Turcomans in the Eleventh Century' (in Russian), in *Proceedings of the Academy of Science of the U.S.S.R.* Moscow, 1936.
- YEWDALE, R. B. *Bohemund the First*. New York, 1917.
- YINANÇ. See Mukrimin Halil.
- ZETTERSTEEN, K. V. Articles 'Sukman ibn Ortok' and 'Suleiman ben Qutulmush', in *Encyclopaedia of Islam*.
- ZLATARSKY, V. N. *History of the Bulgarian Empire* (in Bulgarian), 3 vols. in 4. Sofia, 1918-40.

ستيفن رانسيمان

تاريخ الحملات الصليبية

٢- مملكة القدس والشرق الفرنجي

١١٠٠ - ١١٨٧ م

ترجمة

نور الدين خليل

تاريخ الحملات الصليبية

٢- مملكة القدس والشرق الفرنجي

١١٠٠ - ١١٨٧ م

المحتويات

١١ مقدمة
٢٣ مقدمة المؤلف

الباب الأول: إنشاء المملكة

٢٩ الفصل الأول: مملكة ما وراء البحار (أوترمييه) وجيرانها
----	---

أرض فلسطين - الاحتياج إلى ميناء بحرى - إمارة أنطاكية - إمارة الرها - المدن الإسلامية الساحلية - الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية - بيزنطة - مشاكل بالدوين

٤٧ الفصل الثاني: الحملات الصليبية سنة ١١٠١م
----	--

١١٠٠م اللومبارديون يجتمعون - ١١٠١م اللومبارديون والفرنسيون فى القسطنطينية - ١١٠١م معركة مرسيفان - ١١٠١م نتائج معركة مرسيفان - ١١٠١م الحملة الصليبية الفرنسية - ١١٠١م الحملة الصليبية الأكتانية - ١١٠١م معركة هرقل - ١١٠٢م اعتقال الكونت ريموند

٦٣ الفصل الثالث: أمراء أنطاكية النورمانديون
----	--

١١٠١م تنكريد وبيزنطة - ١١٠٢م ضغينة الأسقف مناس - ١١٠٢م بلدوين الثانى يرهن لحيته - ١١٠٣م إطلاق سراح بوهيموند - ١١٠٤م أهمية حران - ١١٠٤م كارثة حران - ١١٠٤م بوهيموند وتنكريد يتركان بلدوين أسيرا - ١١٠٤م بوهيموند يرحل إلى الغرب - ١١٠٧م بوهيموند يغزو الإمبراطورية - ١١٠٨م معاهدة ديفول - ١١٠٦م الاستيلاء على أفاميا - ١١٠٩م تنكريد فى ذروة قوته

٨٧ الفصل الرابع: تولوز وطرابلس
----	-----------------------------------

بنو عمار أصحاب طرابلس - ١١٠٢م انتصار ريموند أمام طرابلس - ١١٠٥م موت ريموند - ١١٠٨م فخر الملك يزور الخليفة - ١١٠٨م برتراند التولوزى يرحل إلى الشرق - ١١٠٩م برتراند ووليم جوردون - ١١٠٩م استسلام طرابلس

١٠٣ الفصل الخامس: الملك بالدوين الأول
-----	---

١١٠١م الاستيلاء على أرسوف وقيسارية - ١١٠١م معركة الرملة الأولى - ١١٠٢م معركة الرملة الثانية - ١١٠٢م الملك بلدوين فى يافا - ١١١١م بلدوين

ودياميرت - ١١٠٢م خلع دياميرت - ١١٠٢م انتخاب أرنولف بطريقا - ١١٠٣م
حصار عكا - ١١٠٥م معركة الرملة الثالثة - ١١٠٦-١١٠٨م هجمات على المدن
الإسلامية الساحلية - ١١٠١م الاستيلاء على صيدا - ١١٠٥م تشييد الحصون في
الجليل - ١١٠٨م هدنة مع دمشق - ١١١٨م بلدوين يغزو مصر - ١١١٣م زواج
بلدوين من أدبلا - ١١١٨م موت أمراء

١٣٩ الفصل السادس: توازن في الشمال

١١٠٧م إطلاق سراح جوسلين - ١١٠٨م مسيحيون ومسلمون ضد مسيحيين
ومسلمين - ١١٠٩م المصالحة بين أمراء الفرنج - ١١١٠م إخلاء الريف الرهاوى -
انتشار الحشاشين - ١١١١م ائتلاف إسلامي جديد - ١١١١م فشل مودود -
١١١٢م موت تنكريد - ١١١٣م موت مودود ورضوان - ١١١٦م سقوط واسيل
دغا - ١١١٥م حملة برسق بن برسق - ١١١٥م انتصار الفرنج في تل دانيت -
١١١٨م صدع في الكنيسة البعقوية - ١١١١-١١١٣م مفاوضات بيزنطة مع
العرب - ١١١٢-١١١٥م حروب سلجوقية ضد بيزنطة

الباب الثاني: الذروة

١٧٥ الفصل الأول: الملك بالدوين الثاني

١١١٩م غارات في شرق الأردن - ١١١٩م معركة بحر الدم - ١١١٩م ايلغازي
ضيق انتصاره - ١١١٩م معركة محكمة في هاب - ١١١٩م فشل حملة الأراتقة -
١١١٨-١١٢٠م بدايات الأنظمة الدينية العسكرية للرهبان الفرسان - ١١٢١م
الحملة الصليبية الجورجية - ١١٢٢م الكونت جوسلين يقع أسيرا - ١١٢٣م بلدوين
وجوسلين يحاولان الهرب من الأسر - ١١٢٤م موت بلك - ١١٢٣م وصول
أسطول بندقي إلى عكا - ١١٢٤م حصار صور - ١١٢٤م فدية الملك بلدوين -
١١٢٥م معركة عزاز - ١١٢٦م وصول بوهمند الثاني - ١١٢٨م الاستخلاف
على العرش - ١١٢٦م الحشاشون في بانياس - ١١٢٧م نزاع بين بوهمند الثاني
وجوسلين - ١١٣٠م مصرع بوهمند الثاني - ١١٣١م موت بلدوين الثاني
وجوسلين الأول

٢١٩ الفصل الثاني: الجيل الثاني

١١٣٢م هيو (أوف لوبواسيه) والملكة مليسند - ١١٣٢م محاولة قتل هيو -
١١٣٣م فولك ينقذ بونز أمير طرابلس - ١١٣٥م زنكي أمام دمشق - ١١٣٦م

استدعاء ريموند (أوف بواتيه) إلى أنطاكية - ١١٣٦م الحرب مع الأرمن - ١١٣٧م
استغلال ريموند الثانى فى طرابلس - ١١٣٧م استسلام قلعة بعين

٢٤١ الفصل الثالث: مطالب الامبراطور

الأيام الأخيرة من حكم الكيسوس الأول - ١١١٨م ولاية عهد جون كومنينوس -
١١٣٧م جون يعد العدة لغزو سوريا - ١١٣٧م ريموند يقدم فروض السواء
للإمبراطور - ١١٣٨م المسيحيون يخاصرون شيزر - ١١٣٨م دخول جون أنطاكية
- ١١٣٩م جون فى الأناضول - ١١٣٩م خلع البطريق رادولف - ١١٤٢م جون
يعود إلى كيليكيا

٢٦٣ الفصل الرابع: سقوط الرها

١١٣٩م التحالف الفرنجى مع دمشق - ١١٤٠م بناء القلاع على الحدود الجنوبية -
١١٤٣م مؤسسات الملكة ملبسند - ١١٤٣م موت الملك فولك - ١١٤٤م حصار
الرها - ١١٤٥م سياسة زنكى فى الرها - ١١٤٦م مصرع زنكى - ١١٤٧م
الفرنج يتخاصمون مع أنر - ١١٤٧م ارتفاع نجم نور الدين

الباب الثالث: الحملة الصليبية الثانية

٢٨٧ الفصل الأول: اجتماع الملوك

حملات صليبية متفرقة - الملك روجر الثانى الصقلى - ١١٤٦م التجمع فى فيزيلاى
- ١١٤٦م القديس برنار فى ألمانيا - ١١٤٧م البابا إيوجينوس فى فرنسا -
١١٤٧م الملك كونراد يغادر ألمانيا - ١١٤٧م الألمان فى البلقان - ١١٤٧م وصول
الفرنسيين إلى القسطنطينية

٣٠٧ الفصل الثانى: الشقاق المسيحى

١١٤٦م حملة مانويل ضد قونية - ١١٤٧م الألمان يعبرون إلى آسيا - ١١٤٧م
الفرنسيون يعبرون إلى آسيا - ١١٤٧-١١٤٨م الفرنسيون فى آسيا الصغرى -
١١٤٨م الفرنسيون فى أضايا - ١١٤٧-١١٤٨م السياسة البيزنطية أثناء الحملة
الصليبية - ١١٤٧-١١٤٨م دور الإمبراطور

٣٢٣ الفصل الثالث: الإخفاق التام

١١٤٨م لويس وإينور فى أنطاكية - ١١٤٨م قرار الهجوم على دمشق - ١١٤٨م
مشاجرات فى المعسكر المسيحى - ١١٤٨م الملك كونراد يغادر فلسطين - ١١٤٩م
برتراند التولوزى

الباب الرابع: تحول المد

٣٣٩ الفصل الأول: الحياه في الشرق الفرنجى (أوتريميه)

المسيحيون الوطنيون والمسلمون واليهود - إقطاعيات المملكة - الدستور - المحكمة العليا - الإدارة - الدويلات التابعة - إمارة أنطاكية - السيادة الإمبراطورية - التنظيم الكنسى - النفثامان العسكريان - الملابس - الصداقة مع المسلمين - الكنيسة الأرثوذكسية - رفاهية الشرق الفرنجى

٣٧٧ الفصل الثانى: ارتفاع نجم نور الدين

١١٥٠م اعتقال الكونت حوسلين - ١١٥٠م استسلام تل بشير لبيزنطة - ١١٥٠م خطاب الأميرة كونستانس - ١١٥٢م اغتيال ريموند الثانى - ١١٥٢م الملكة مليسند ترضخ لابنها - ١١٥٠م مكائد فى مصر - ١١٥٣م الاستيلاء على عسقلان - ١١٥٤م نور الدين يأخذ دمشق - ١١٥٦م زلازل فى سوريا

٣٩٩ الفصل الثالث: عودة الإمبراطور

١١٥٦م رينالد يغير على قبرص - ١١٥٧م الفرنج يهاجمون شيزر - ١١٥٨م الإمبراطور مانويل يدخل كيليكيا - ١١٥٩م الإمبراطور فى أنطاكية - ١١٥٩م الهدنة بين مانويل ونور الدين - ١١٦٠م رينالد يقع فى الأسر - ١١٦١م مليسند الطرابلسية - ١١٦٢م موت بلدوين الثالث

٤١٩ الفصل الرابع: تربص مصر

١١٦٢م الملك أمالريك - ١١٥٤م مكائد فى القاهرة - ١١٦٣م هزيمة نور الدين فى الكرك - ١١٦٤م كارثة فى أرتاح - ١١٦٥م بطريق يونانى فى أنطاكية - ١١٦٧م السفراء الفرنج فى القاهرة - ١١٦٧م صلاح الدين محاصر فى الإسكندرية - ١١٦٦-١١٦٧م مغامرات أندرونيكوس كومنينوس - ١١٦٨م التحالف مع بيزنطة - ١١٦٨م أمالريك يتقدم نحو القاهرة - ١١٦٩م شركوه يفوز بمصر لنور الدين - ١١٦٩م حملة تحالف ضد مصر - ١١٦٩م حصار دمياط - ١١٧٠م زلزال يضرب أنطاكية - ١١٧١م أمالريك فى القسطنطينية - ١١٧١م انتهاء الخلافة الفاطمية - ١١٧٢م إطلاق سراح ريموند أمير طرابلس - ١١٧٣م اغتيال سفراء الحشاشين - ١١٧٤م موت الملك أمالريك

الباب الخامس : انتصار الإسلام

الفصل الأول : الوحدة الإسلامية ٤٦١

- ١١٧٤م ريموند كونت طرابلس وصيًا - ١١٧٤م صلاح الدين يهاجم حلب -
- ١١٧٦م صلاح الدين يهزم سيف الدين صاحب الموصل - ١١٧٦م زواج سيبيلا الأولى - ١١٧٦م معركة مريوسيفالوم - ١١٧٧م فيليب كونت فلاندرز فى فلسطين - ١١٧٧م هزيمة صلاح الدين فى تل الجزر - ١١٧٩م موت همفرى أمير تبين - ١١٨٠م هدنة عامين - ١١٨٠م سيلا وبلدوين أمير ايلين - ١١٨٠م البطريق هيراكلوس - ١١٨٠-١١٨٢م عهد ألكسيوس الثانى - ١١٨٥م سقوط اندرونيكوس كومنينوس - ١١٨١م رينالد (أوف شاتيلون) ينقض المعاهدة -
- ١١٨١م وفاة الصالح اسماعيل - ١١٨٣م صلاح الدين يمتلك حلب

الفصل الثانى : قرنا حطين ٤٩٥

- ١١٨٢م حملة رينالد فى البحر الأحمر - ١١٨٣م حوى يتشاجر مع الملك -
- ١١٨٣م الزواج فى قلعة الكرك - ١١٨٥م وصية الملك بلدوين الرابع - ١١٨٥م مرض صلاح الدين - ١١٨٦م الإعلان عن سيلا ملكة - ١١٨٦م أول مجلس للملك حوى - ١١٨٧م خيانة ريموند - ١١٨٧م عيون كريسون - ١١٨٧م صلاح الدين يعبر الأردن - ١١٨٧م الفرنج يعسكرون فى لويّا - ١١٨٧م معركة حطين - ١١٨٧م فى خيمة صلاح الدين - ١١٨٧م فلسطين تستسلم لصلاح الدين - ١١٨٧م الدفاع عن القدس - ١١٨٧م استسلام القدس - ١١٨٧م اللاجئون - ١١٨٧م دبلوماسية رينالد أمير صيدا - ١١٨٧م الدفاع عن صور -
- ١١٨٧م تشريف صلاح الدين

المرفقات:

- المرفق الأول : المصادر الرئيسية لتاريخ الشرق اللاتيني ٥٣٣
 المرفق الثاني : معركة حطين ٥٤٦
 المرفق الثالث : شجرات الأنساب ٥٥٢

الخرائط:

- خريطة رقم (١) : شمال الشام في القرن الثاني عشر الميلادي ١٤١
 خريطة رقم (٢) : جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي ١٧٧
 خريطة رقم (٣) : مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر ٢٢١
 خريطة رقم (٤) : بيت المقدس زمن ملوك اللاتين ٣٤١
 خريطة رقم (٥) : مصر في القرن الثاني عشر ٤٢١
 خريطة رقم (٦) : الجليل ٤٩٧

مقدمة

هذا هو الجزء الثانى من "تاريخ الحملات الصليبية"، للمؤرخ ستيفن رانسيمان الذى نقلنا إلى العربية من قبل جزءه الأول وقدمنا له. ولا بد لنا من أن نستهل هذه المقدمة بفقرة من مقدمة الجزء الأول: "إن للإسلام حضارة عربية المهة عالمية القصد. ودور الحضارة الإسلامية فى تاريخ البشرية أخطر من أن يشار إليه فى سياق ضيق، لكننا نورد ذكره لأنه يوجب على المسلمين أن "يؤرخوا لأنفسهم"، وألا يتذكروا ذلك لغيرهم، فغيرهم ولا شك قادرون، ولكنهم غير منصفين يذهب بهم الهوى والمصلحة مذاهب شتى، فلا ينكرون دور الحضارة الإسلامية فى قديم العالم وحديثه، ولكنهم ينصرفون بهذا الدور منصرفاً إلى السلب. وكيف لا والحضارة الإسلامية قلّصت دور حضارتهم وأذنت بانقضائه فيما مضى، وتؤذن بانقضائه فيما هو آت عندما يُقدّر للمسلمين عود إلى ما كانوا وما ينبغى أن يكونوا عليه.

فبعد أن كان المسلمون هم أصحاب المعرفة، بكل جوانبها وفى كل آفاقها، وبعد أن أتاحوا لما يسمى بالحضارة الغربية المعاصرة أسباب وجودها ومقوماتها، تناءوا مع الأيام عن الجادة التى أبلغتهم وأبلغت غيرهم ما لم يكونوا بالغيه، فآل

أمرهم إلى غيرهم، وقصرت أداتهم وضافت آفاقهم فأصبحوا يعولون على من لا يرغبون إلا مضرتهم وإذلالهم" وإنما نعيد ذكر هذه الفقرة ونحن نتوسع ، بعض الشيء ، فى بيان مدى حاجتنا إلى مدرسة تأريخ عربية قادرة على أن تعين المسلمين على أن يصححوا صور الإسلام التى تبدو مشوهة فى مرآة الغرب، والتى جاوزت - فى زمن الهيمنة - نطاق حدود الغرب الفكرية إلى غير نطاق كان ينبغى أن تأتلق فيه قدرة العرب والمسلمين على أن يعنوا هم أنفسهم بتقديم حضارتهم وتراثها.

تاريخ وتواريخ

ولمة فارق هام بين تاريخ الإسلام والتاريخ له وغيره من تواريخ الأديان الأخرى والتاريخ لها . ذلك أن حضارة الإسلام جاءت إلى الوجود بعد أن واثت الإنسان - ونعنى به الإنسان المسلم - القدرة على تسجيل تاريخه؛ فى حين أن المسيحية - التى ترجع بداياتها إلى القرن الأول الميلادى - لم يتح أن تتخذ لها مكانا فى العالم إلا فى القرن الرابع، فأتت بنمط من التاريخ بغير ، من حيث الواقع والمنهج ، أنماط التاريخ عند الإغريق والرومان. ذلك أنه كان لابد للمسيحية من أن تجد لنفسها أصولا فى اليهودية.

واليهود هم أول شعب فى العالم القديم فرضت عليه عقيدته واجبا دينيا يقضى بأن يتذكر أبنائه ماضيهم ، لأن العبرة فيما توارثوه من تواريخ تتمثل فى ذكر ما فعله الرب لشعبه المختار. وذلك على نقيض الحال عند الإغريق الذين لم تأمرهم آلهتهم بأن يتذكروا شيئا من هذا القبيل . فكان يتعين على كل يهودى أن يكون على دراية بالكتابات اليهودية المقدسة ، التى جُمع من بينها فى نهاية المطاف ما أصبح يعرف فيما بعد بـ "العهد القديم". فكتب أسفار العهد القديم انتقوا من بين تلك الكتابات ، التى يُفترض أن كل يهودى يعرفها ، ما رأوا أنه يفسر "قصد الرب" . زد على ذلك أن لليهود تراثا غير مكتوب ، يقول عنه يوسيفوس Josephus ، المؤرخ اليهودى الذى عاش فى القرن الأول الميلادى : "إن ما لم يدون منه بقى فى الذاكرة الجمعية لشعب إسرائيل وكهانه خاصة".

ثم جاء المسيحيون فأخذوا بالعهد القديم وأضافوا إليه كما جديداً من "التاريخ المقدس". فكتب الأناجيل الأربعة ، التى يضمها العهد الجديد ، جاءوا بذكر ما رأوا أنه حقائق ينبغى على المؤمنين أن يعرفوها ؛ غير أن المؤرخين يرون أنه ليس ثمة سبيل مقنع

يعين على الوصول إلى حقائق تاريخية مما جاء به العهد الجديد ، باستثناء ما يُروى بسفر "أعمال الرسل". فالعهد الجديد على إجماله لا يمثل سوى مختارات من الكتابات المسيحية الأولى ، ولا يتضمن إلا ما اتفق مع عقيدة الكنيسة ، عندما أتيح لتلك العقيدة بأخرة أن تتخذ شكلا واحدا . وثمة فراغ تام بين سفر "أعمال الرسل" ، الذى يرجع فيما يحتمل إلى أواخر القرن الأول الميلادى، وبين كتاب "التاريخ الكنسى" Ecclesiastical History الذى ألفه يوسيبوس بامفيلوس Eusebius Pamphili of Caesarea (الذى توفي حوالى سنة ٣٤٠ ميلادية) وكتابات معاصريه فى الربع الأول من القرن الرابع الميلادى.

ووجد الكتاب المسيحيون أن قصة السيد المسيح ، كما ترويه الأناجيل ، يتمثل فيها تحقيق النبؤات التى ذكرت فى غير مكان من العهد القديم ، وبذلك أضاف الجزء اليهودى من الكتاب المقدس إلى المسيحية بعدا قديما . وتحول التاريخ الذى ورد فى عهدى الكتاب المقدس ، اللذين أمسيا وثيقى الارتباط ، إلى ثبت وحيد يتمثل فيه وحى الرب ويتضاءل بجانبه غيره مما كتبه الناس والجماعات الدينية على اختلافها.

تاريخ عام

لم يكن مفهوم "التاريخ العام" مجهولا عند الوثنيين؛ ثم جاء المسيحيون وحاولوا أن يستفيدوا منه . ذلك أنه كان عليهم أن يحيلوا "التاريخ المسيحى المقدس" إلى "تاريخ عام" يصطبغ بالعراقة . ويرى الدارسون أن ما توخاه المسيحيون فى ذلك يتصف بمغلاة تفوق تلك التى يتصف بها ما جاء به اليهود .

وأضطر المسيحيون الأولون ، فى دفاعهم عن دينهم ، إلى أن يوفقوا بين بعض ما جاء فى التاريخ الوثنى وما جاء فى "تاريخهم العام". فكان المؤرخ المسيحى يحاول بلوغ ذلك بالتوفيق بين التاريخ المقدس والترتيب الزمنى العام منذ بدء الخليقة وحتى الزمن الذى كان يعيش فيه ، فجاءت أحداث التاريخ المسيحى اليهودى متزامنة مع الأحداث البارزة فى التاريخ الوثنى بما فيه من أساطير وخرافات . وكان سيكستوس يوليوس الإفريقى Sextus Julius Africanus أول كاتب مسيحى حاول ذلك التوفيق فى القرن الثالث ، فقال - فيما قال - إن وجود البشرية بدأ منذ ستة آلاف عام وأن السيد المسيح ولد بعد مضى خمسة آلاف وخمسمائة عام على خلق العالم. وتمثل فيما كتبه سيكستوس نموذج تأثره يوسيبوس Eusebius فى مدونته التاريخية "التاريخ الكنسى"

التي غدت أساسا توالى بعده تواريخ ألفها الكتاب البيزنطيون فى لغتهم اليونانية. وقد نقل القديس جيروم St. Jerome (الذى توفى سنة ٤١٩ أو ٤٢٠) هذا العمل إلى اللغة اللاتينية وظل تأثيره بالغا، فى غرب أوروبا، لما يجاوز ألف عام. ويقول إدموند فرايد Edmund B. Fryde فى تناوله لهذا الموضوع: "إن الدارس المحدث يعجب ببراعة يوسيبوس، ومن أتوا بعده، ويتملكه اليأس من سخف الكثير مما انتهوا إليه". ولنا أن نلاحظ أن الأخذ بمولد السيد المسيح على أنه بداية التقويم الميلادى استحدثه ديونيسيوس إكسيجيوس Dionysius Exiguus فى روما فى أوائل القرن السادس، ولكن هذا التقويم لم يرج إلا عندما استخدمه اللاهوتى والمؤرخ الإنجليزى بيد Bede فى القرن الثامن.

ولم يُعن مسيحيو القرنين الرابع والخامس بكتابة تاريخ عصرهم، وإن عنّ لهم أحيانا أن يفعلوا ذلك، فلم يكن هذا إلا من قبيل الدفاع عن دينهم فى مواجهة العالم الوثنى أو الجماعات الدينية المسيحية المعارضة التى كانت توصم بالهرطقة. وكل هذه التواريخ التى كتبها "المدافعون عن الدين" يعتورها بالضرورة قدر كبير من التحريف المتمثل فى انتقائهم ما يرون أنه يجب إبدائه وما يرون أنه ينبغى إخفاؤه. وغالبا ما كان هؤلاء المدافعون يشتطون فى إححافهم بحق من يناهضونهم وبحق غير المسيحيين. ولم تخل أعمال المؤرخين الكلاسيكيين من مثل تلك المثالب بطبيعة الحال، بيد أن المسيحيين تجاوزوا فى اقتناعهم بأنهم لابد أن يكونوا - دون غيرهم - أهل صواب. وعند المقارنة بين المؤرخين المسيحيين وواحد من الكتاب الوثنيين المبرزين مثل أميانوس مارسيلينوس Ammianus Marcellinus (النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى) يتبين تميزه بأنه لا يتوانى فى إبداء إعجابه بمن يستحق الإعجاب من المسيحيين، وأنهم - على النقيض منه - يتصفون بضيق النظرة والتصلب.

التأريخ للتأريخ

ذلك ما كان عليه التأريخ الغربى على إجماله. ومن الغريب أن تلك الحال بقيت على ما كانت عليه حتى القرن التاسع عشر. وما تناولناه إن هو إلا الصورة التى تظهرها مرآة البحث الحديث، والتى وقفنا منها عند ما يقتضيه السياق. وهى صورة مركبة يتمثل فى قسماتها واقع ما انتهى إليه الباحثون، وهى قسمات تجنح بالضرورة إلى إبداء ما لا يكاد "عَطَّار" الإنحياز يفلح فى إصلاح قبحه بمحاولة إخفائه. ومن شأن مثل هذا

التأريخ أن ينتج تاريخنا أو تواريخ لا تسوغها فلسفة التاريخ بمنظورها التأملية والتحليلية النقدية. ويحق لنا هنا أن نقول: أوليس غريبا أن يكون للإنسان تاريخان أو أكثر، تاريخ يتمثل فيه ما تتابع بالفعل من أحداث، ولا يكاد يلم الإنسان به إلام الموقن، وتاريخ أو تواريخ كلها من نتاج "تأريخ" لا يكاد الإنسان في محاولة توخى الحيدة فيه أن يبلغ بعض شأوا

وأولى ما نغنى به في هذا السياق هو أن نلتفت إلى حقيقة حلية موداها أن التواريخ اليهودية المسيحية، في أصلها تواريخ دينية انتهى بها المطاف إلى أن تصبح، على أيدي أصحاب العقائد، تاريخا دينيا موحدا يقوم على الانتقاء وعلى الإبداء والإخفاء؛ ثم حاول أصحابه أن يحيلوه إلى تاريخ عام، فتخلطت الحقائق بالأساطير والأوهام، ذلك أن أسفار الكتاب المقدس، بعهديه القديم والجديد تقوم، في إجمالها، على سرد يرى أصحابه أنه تواريخ أو تاريخ أو أساس للتأريخ. وهذا على النقيض من تاريخ الإسلام فالقرآن الكريم لا يعنى بالتأريخ أو بأى سرد للتاريخ أو بتحديد تواريخ، وما جاء به من قصص لم يكن إلا من قبيل ذكر المثل للتدبر والاعتبار. كما أن تاريخ محمد ﷺ لم يتناوله القرآن الكريم من قريب أو من بعيد، وإنما تناوله المؤرخون وما يزالون. ولمة فارق بين تواريخ كتبت، على نحو أسلفناه، وانتهى البحث الحديث فيها إلى ما انتهى إليه، وتاريخ بدأ واتخذ مسيرته بعد أن أتيح للعيون والعقول أن تبصر في نور الحقيقة والحق وإعمال العقل.

الانتماء والتأريخ

ويضطرنا ضيق النطاق، ونحن بصدد بيان مدى حاجتنا إلى تأريخ عربى إسلامى معاصر جديد، أن نتجاوز الحائل إلى المائل فنلقى نظرة غير مستأنية على واقع التأريخ الحديث والمعاصر، ومدى تأثيره بما انتهى إليه فكر الإنسان في عصره الأخير. فنقول إن فروع العلم المختلفة تؤدي أدوارا بالغة الخطورة في صياغة أوجه الفكر المختلفة على المستويات المحلية والعالمية في مجابهة الإيديولوجيات بعضها بعضا. وإذا شئنا أن نمثل لذلك، فإننا نقول إنه يتعين على المرء أن يلقى نظرة على تاريخ العالم، أو على تاريخ أمة بعينها، من خلال الكتابات التاريخية التي قام بها كتاب ينتمون إلى أيديولوجيات مختلفة، فإنه واجد ولا شك أن هذا التاريخ - سواء أكان تاريخ العالم أم تاريخ أمة معينة - يصطبغ بشئ من طابع الفكر الذى ينتمى إليه كاتب التاريخ. ويتجلى ذلك في

أوضح صورة إذا ما قرأنا التواريخ التى يصدرها العالم الغربى والتواريخ التى كان يصدرها الشق الماركسى من العالم، كما أسلفنا فى مقدمة الجزء الأول.

وليس ذلك وحسب ، فإن نغرات التراث القومية أحدثت أثرها فى فوارق نلاحظها فى التواريخ التى يكتبها أناس ينتمون إلى حضارة واحدة كما هى الحال فيما نقرأه من تواريخ كتبها الفرنسيون والإنجليز والأمريكيون وغيرهم.

وإذا شئنا أن نسوق مثلاً يعبر عن هذه الحقيقة فى واحد من جوانبها، ويظهر ما يمكن أن يشوب نظرة المؤرخ حتى فى معالجته لأحداث الواقع ، وإن كان حديثاً أو معاصراً ، نرجع إلى السنوات الأولى من الحرب العالمية الثانية عندما استقر الأمر لهتلر فى بولندا بإخضاعها فى أوائل عام ١٩٤٠ ، ثم قفزت قواته بغتة من شرق أوروبا لتجتاح غربها، ووجهت ضرباتها والعالم لا يكاد يفىق من ذهوله إلى دولتين محايدتين هما الدنمارك والنرويج. وسرعان ما سقطت الدنمارك دون مقاومة تذكر، واستبسل النرويجيون دفاعاً عن وطنهم بعد أن تجاوزوا وقع المباغتة. وفى تلك الآونة اندفعت القوات البريطانية لتعين النرويجيين على التصدى للهجوم الألمانى؛ وبدى عندئذ أن نجح الغزوة الألمانية أمر مشكوك فيه، ولكن الألمان أثبتوا فى نهاية الأمر أن البريطانيين والنرويجيين لم يكونوا أنداداً لهم. وأكرهت القوات البريطانية والنرويجية على الفرار إلى بريطانيا، وسقطت النرويج فى أيدي الألمان، الذين أتاح لهم غزو الدنمارك والنرويج الاستيلاء على سلسلة القواعد البحرية الهامة فى بحر الشمال، والتى تقع فى مواجهة الساحل البريطانى، مما دعم مركز هتلر فى قتاله مع بريطانيا. ومضى هتلر فى توجيه ضرباته ، فغزت القوات الألمانية فجأة دولتين محايدتين أخريين، وهما بلجيكا وهولندا، وقضت فى وقت قصير على قواتهما. واندفعت قوات بريطانية وفرنسية لتعين هاتين الحليفتين الجديدتين، ولكنها عجزت عن إيقاف الضربات القاصمة والسريعة التى وجهتها فرق البانزر The Panzer divisions ، وأسراب كبيرة من الطائرات القاذفة. وتهاوت القوات المتحالفة تحت وطأة هذه الضربات المروعة.

ويصف المؤرخ الأمريكى "سوثيرث" ما حدث بعد ذلك قائلاً: "إن ليوبولد الثالث ملك بلجيكا، وقد عجز عن أن يهضم أن تذبح قواته، أمر كل الجنود البلجيكيين أن يلقوا بأسلحتهم".

"King Leopold III of Belgium, unable to stomach the slaughter of his troops, ordered all Belgian soldiers to throw down their arms."

وهذه العبارة على بساطتها تبين أن خطوة "ليوبولد الثالث" كانت نتيجة حتمية ترتبت على ما سبقها من أحداث. ولكننا نجد أن للمؤرخ البريطاني "هربرت جورج ويلز"، رأيا آخر في ذلك، إذ يقول: "وخطر للملك ليوبولد، الذي كان قد لجأ إلى فرنسا وبريطانيا ليعيناه عند غزو بلاده، أن الوقت كان موافيا عندئذ لعمل من أعمال الجبن والخيانة الفائقين".

"It occurred to King Leopold, who had appealed to France and Britain for assistance when his country was invaded, that the time was now opportune for an act of supreme cowardice and treachery."

هذا ما يقوله ويلز، بالرغم من أنه ينعى على الفرنسيين في الصفحة نفسها من تاريخه أنهم لم يمدوا خط ماحينو إلى ما وراء الحدود البلجيكية، وأن خطة الحلفاء للتحرك العسكري من ناحية اليسار المكشوفة كان يعثرها نقص شديد...

"The French had never prolonged the Maginot Line beyond the Belgian frontier, and the plan of the Allies for a war movement on the exposed left was very incomplete."

ونحن نقدر تفهم "سوثرث" لموقف الملك ليوبولد الثالث، ونعرف في الوقت نفسه دوافع "ويلز" في موقفه منه. وإذا كان للنظرة أن تختلف إزاء حدث له مثل ما أسلفنا من مقدمات، فماذا يمكن أن تكون عليه الحال إذا تعلق الأمر بالمعتقدات والأيدولوجيات وما بينهما من صراعات وسياسات!

وهذا المثال يظهر جانباً واحداً من جوانب المسألة، التي تتعدّد أيما تعدّد إذا حاولنا أن نعدّد أمثالها على امتداد تاريخ الإنسان في عجزه القديم الجديد عن بلوغ الحيدة الموضوعية.

وإذا كان الباحثون في فروع العلم المختلفة يتأثرون، على وعى منهم أو على غير وعى، بانتمائهم الفكري أو العقدي أو الأيدولوجي على نحو يحيل الحيدة الموضوعية إلى ضالة يعسر الوقوع عليها، فإن أدوات البحث العلمي ووسائله كالموسوعات والمعاجم - والدور الذي تلعبه في هذه المجالات جد خطير - تتأثر تبعاً لذلك بكل هذه العوامل. وإذا ما أردنا أن نتعرف على شيء مما يشوبها يكفي أن نلقى نظرة على دائرة المعارف الإسلامية التي صنفها المستشرقون في عصر غفلة ما تزال تهيمن على عقولنا وتتغلغل

فيما تنتهى إليه، وليذهب من شاء إليها ليرى بنفسه ولنفسه ما آلت إليه حال حضارتنا في كتابات الغرب.

وأما عن المعاجم العام منها والنوعى فحدث ولا حرج، ويكفى أن نشير إلى ما ارتبط بالفاظ: "عربى" و"محمد"، وغيرهما في معاجم الغرب لتبين بعدا آخر من أبعاد السعار الذى تناول أنيابه كل ما يمت إلى الإسلام والمسلمين بصلة.

ولعله يحق لنا أن نذكر فى هذا السياق مثلا يظهر المفارقة البينة فى المواقف التى يتخذها الغرب وتفصح عنها أحيانا أداة البحث العلمى؛ فإننا إذا ما نظرنا إلى تعريف كلمة "يهودى Jew" فى قاموس أكسفورد فى طبعته الرابعة والخامسة على التوالى، نرى فارقا فى التعريف لا تحتاج دوافعه إلى تعقيب، ويكفى أن نسوق التعريفين كما هما:

تعريف الطبعة الرابعة: يهودى، (اسم) شخص من الجنس العبرانى؛ مرابى مبتز (معنى دارج)، عاقد الصفقات المجحفة، غنى كيهودى (تركيب)؛ يهودى لا يؤمن = شخص لا يصدق؛ قل هذا لليهود (تركيب يستخدم عند عدم تصديق أية رواية) ... ، تصيد اليهود = اضطهاد اليهود.

يهودى، (فعل) يغش، يحتال (دارج).

Jew (1), n. Person of Hebrew race: (transf., colloq.) extortionate usurer, driver of hard bargains; *rich as a ~*; *unbelieving~*, incredulous person; *tell that* (an unlikely tale) *to the~s*; *~baiting*, persecution of *~s*.

Jew (2), v.t. (colloq) Cheat, overreach.

تعريف الطبعة الخامسة: يهودى، (اسم) شخص من الشعب العبرانى أو اليهودى، أو شخص يعتنق اليهودية؛ مرابى (معنى مهين ومبتذل)، التاجر الذى يعقد الصفقات المجحفة؛ تصيد اليهود = اضطهاد اليهود.

Jew, n. One of the Hebrew or Jewish people, or one who professes Judaism; (transf., derog., vulg.) usurer, trader who drives hard bargains; *~baiting*, persecution of *~s*.

ونحسب أننا لسنا فى حاجة إلى بيان أوجه التغيير التى أدخلت على المعانى من حيث التعديل والإضافة والحذف ولياقة استخدام الكلمة، كما نلاحظ أن استخدام "الفعل Jew" بمعنى "يغش أو يحنال" قد أسقط نهائيا من الطبعة الخامسة رغم وروده ككلمة مستقلة فى الطبعة الرابعة.

فإذا كان لنا أن نقول أن المعجم أداة بحث هامة، فإن الموسوعة تمثل وسيلة لا يستغنى عنها باحث، وهى لا تسلم فى الوقت الحاضر مما يفرضه الصراع الأيديولوجى بين مختلف الثقافات. فدائرة المعارف البريطانية، على سبيل المثال، أداة بحث حظيت وتحظى بثقة الباحثين عبر العالم كله لما عرفت به من حيده، وإن كانت حيدها فى نطاق انتماء حضارى معين، ويبقى الإنسان إنسانا! غير أننا لاحظنا، ونحن ننقل النظر فى طبعتها الصادرة منذ عشرين عاما وطبعاتها الأخيرة أن ما شابها نتيجة لما يقتضيه الانتماء بالضرورة تحول إلى مثالب فرضتها الهيمنة التى تفرض نفسها فى الوقت الحاضر. ولا تتسع مقدمة كهذه لذكر مزيد من الأمثلة، ولكننا نذكر هذه الحقيقة لنلفت الأذهان إلى واجب أغفلناه أيما إغفال يفرض علينا أن نعد لأنفسنا أدوات بحث تعين باحثينا على أن يتعرفوا على حقيقة تراثنا وحضارتنا.

ولكم يعانى المرء عندما يجد أن باحثا مصريا يقول فى تاريخه عن الإسلام، عند تناوله لصفات على بن أبى طالب عليه السلام : "وكان على - كما يقول نيكلسون - يعوزه حزم الحاكم ودهاؤه ...". ونحب أن نتساءل هنا: ألم يكن من الأجدر بمؤرخنا أن يعود إلى المراجع العربية والإسلامية وهو يحاول التأريخ لعلى عليه السلام؟ فما معنى أن ننقل عمن نقلوا عن مراجعنا، إلى هذا الحد يمكن أن يبلغ تعريلا على ثقافة غريبة عنا فنذور فى حلقة رذيلة خادعة، دون أن نعمل ملكاتنا النقدية فنقع فى حبال من يتقصون الإسلام ومثله العليا المتمثلة فى أعلامه ورجاله ويذهبون فى عدائهم له ولهم كل مذهب! عن عمد يمليه الهوى أو عن جهل يفرضه قصور الأداة.

وهذا القصور فى أداة الغرب البحثية فى الفروع التى تتصدى للتأريخ للشرق، يقر به الباحثون الغربيون أنفسهم. وحسبنا هنا أن نذكر القليل مما كتبه برنارد لويس الأستاذ بجامعة برنستون حول هذا الموضوع فى مقاله عن "الإسلام" فى كتاب "الاستشراق والتاريخ" Orientalism and History : "يلاحظ أن تأريخ العرب غالبا ما يكتبه فى أوروبا مؤرخون يجهلون العربية أو مستعربون يجهلون التاريخ. وفى هذا القول سخرية شديدة غير أن لها ما يبررها".

"It has been remarked that the history of the Arabs has been written in Europe chiefly by historians who know no Arabic, or by Arabists who know no history. The gibe is sharp, but not wholly unjustified."

ثم يستطرد برنارد لويس مبينا أنه: "فى معظم الجامعات الغربية تنفصل الدراسات التاريخية عن الدراسات الشرقية فى فروع مستقلة يشتغل بها أساتذة ودارسون تختلف أهدافهم ومناهج بحثهم فى غالب الأمر. ومن قبيل المبالغة بلا ريب أن نقول إن الإثنين لا يلتقيان على الإطلاق غير أنه ليس من الإجحاف أن نقول إن كلا منهما يجاوز الآخر على الطريق محيا إياه فى برود وفى غير مبالاة بل وفى إعراض أحيانا إن التعامل مع المصادر التاريخية الإسلامية يقتضى من الباحث أن يبذل فى دراسة فقه اللغة جهدا عسيرا يكاد يستغرق كل وقته، فلا يتأتى له أن يكتسب دُرْبَة المؤرخ. وإذا ما وات المؤرخ الغربى الجرأة على أن يدرس لغة شرقية فإنه لا يكاد يبلغ فى ذلك بعض غاية. فليس ثمة "لغة عمل" فى أى من اللغات الشرقية، وتعلم واحدة منها يعنى دراسة حادة ممتدة، وعندما يحاول المؤرخ أن يرجع إلى المصادر الشرقية فلإن خطر تعذر الفهم والتفسير ربما جاوز فى حسامته خطر اعتماده على الترجمات التى أعدها المستشرقون — برغم أن لنا أن نقول إن هذه الترجمات لا تبرا بأية حال من الخطأ". ولا نحسب أننا فى حاجة إلى أن نعقب على ما كتبه برنارد لويس الذى استعرض فيما لم ننقله عنه العديد من المثالب المعقدة التى تتصف بها فروع التأريخ فى الغرب.

وينبغى أن نلتفت هنا إلى الأهمية الخاصة التى يجب أن نوليها لأدوات البحث ووسائله. ذلك أنه لا بد للباحث كى يعد عملا علميا من أن يتعامل مع هذه الأدوات والوسائل ليقدم لنا فى نهاية الأمر بحثا يتحول بذاته إلى "مصدر" يعتمد عليه غيره من الباحثين فيما بعد، أى أنه يصبح "مرجعاً" يستعان به. وهذا يعنى بطبيعة الحال أن الأخطاء التى ترد فى أدوات البحث ووسائله الأولية تتواتر ثم تتواتر، وهذا التواتر فى حد ذاته ربما يضيف على الخطأ "قناعاً" يوحى بصحته، أو يحول دون تبين حقيقته. وهذا التصور على إجماله يبين مدى الزيف الذى يمكن أن يصطبغ به نتاج الفكر. وتلك مأساة تلحق بجهد الإنسان كثيرا من التخلط والهوان.

ولنا أن نخلص من هذا كله إلى أنه يجب علينا أن ننظر فيما كتبناه من تواريخ تأثرنا فيها خطى المدرسة الغربية وأخذنا بمناهجها واعتمدنا على أدوات بحثها ، حتى نتخلص مما اعتورها من أخطاء تواترت عندهم ثم عندنا مما أفسح المجال للأباطيل والأوهام أن تترأى فى ظل المسوح الأكاديمية وكأن لها بعض صلة بواقع أو حقيقة. ونرجو أن يتيح ذلك لنا أن نصحح ما ينبغي تصحيحه وأن نكمل ما اعتوره النقصان وأن نؤرخ لما لم يؤرخ له. ولا تتسع هذه المقدمة - بطبيعة الحال - لمعالجة النهج الذى يجب علينا أن نتخذه كي نبلغ هذه الغاية بيانا لمسيرة حضارتنا والتزاما بأصالتنا، وتقويما لثقافتنا.

وأسأل الله أن يعيننا ويوفقنا إلى ما يحبه ويرضاه.

نور الدين خليل

جنيف ١٩٩٦

مقدمة المؤلف

أجتهد في هذا المجلد أن أعرض قصة الدويلات وراء البحار (أوتريميه) ، بدءاً من اعتلاء الملك بالدوين العرش وإلى أن استعاد صلاح الدين القدس . وهى قصة سبق أن رواها كتاب أوروبيون ؛ إذ أبرزها (روهرينخت) فى شمول ألماني ، وأضفى عليها (رينيه جروسيه) من فرنسية الأناقة والأصالة ، وعرضها (ى. ب. ستيفنس) فى إنجاز إنجليزي بالغ . ولقد سرت على نفس الدرب ، واستعنت بذات مصادرهم ؛ على أننى جازفت بأن أضفت إلى الدليل تفسيراً يختلف أحياناً عن تفسير من سبقونى . وليست القصة يسيرة دائماً ، لاسيما وأن سياسات العالم الإسلامى فى باكورة القرن الثانى عشر تتحدى أى تحليل مباشر ، وإنما يلزم فهمها إذا أردنا أن نفهم قيام الدويلات الصليبية وأسباب استرجاع الإسلام لقوته فيما بعد.

ولم يشهد القرن الثانى عشر آياً من الهجرات العنصرية الضخمة التى صبغت القرن الحادى عشر ، والتى كان لها أن تتكرر فى القرن الثالث عشر ، وبذا تتعقد قصة الحملات الصليبية اللاحقة واضمحلال وسقوط الدويلات الفرنجية وراء البحار (أوتريميه) . ونستطيع الآن أن نركز اهتمامنا أساساً فى (أوتريميه) ذاتها ، على أنه ينبغى

لنا دائما أن نستحضر خلفية أشمل تتسع لسياسات أوروبا الغربية ، والحروب الدينية التي أشعلها حكام أسبانيا وصقلية ، وانشغال بيزنطة ، والخلافة الشرقية . إن تبشير القديس برنار ، ووصول الأسطول الإنجليزي إلى لشبونة ، ودسائس القصور في القسطنطينية وبغداد ، كلها أحداث مترابطة تلعب أدوارها في المسرحية ، برغم بلوغها الذروة على تلي عارٍ في الجليل .

والحرب هي جوهر هذا المجلد . وفي عرضي المسهب للكثير من الحملات والغارات سرت على درب المؤرخين القدامى الذين أتقنوا أعمالهم ؛ فما الحرب إلا الخلفية الأساسية للحياة في الدويلات الفرنجية وراء البحار (أوتريميه) التي غالبا ما يتوقف مصيرها على المخاطر التي يزخر بها ميدان القتال . على أنني خصصت في هذا المجلد فصلا عن الحياة في الشرق الفرنجي ونظامها؛ وأرجو أن أكتب في مجلدي التالي عن تطورات الفنية والاقتصادية ، فكلاهما جانبا الحركة الصليبية اللذان بلغا ذروة الأهمية في القرن الثالث عشر .

ولقد ذكرت في مجلدي الأول بعض عظام المؤرخين ممن ساعدتني كتاباتهم . وفي هذا المجلد لا بد لي من تسجيل تقديري الخاص لأعمال (جون لامونت) ، الذي كان موته المبكر بمثابة ضربة قاسية للتأريخ الصليبي ، ونحن مدينون له قبل الآخرين جميعا بمعلوماتنا المتخصصة المتصلة بالنظام الحكومي في الشرق الفرنجي . وأود كذلك أن أعترف بالعرفان للبروفيسور (كلود كوهين) من ستراسبورج ، الذي تعدّ رسالته العظيمة عن شمال سوريا، ومقالاته المختلفة، على جانب عظيم من الأهمية للموضوع الذي نتناوله .

كما أنني مدين لأصدقائي الكثيرين الذين ساعدوني في رحلاتي إلى الشرق ، خاصة إدارة الآثار القديمة في كل من الأردن ولبنان ، وشركة بتزول العراق . ومرة أخرى أعرب عن شكري لموظفي مطبعة جامعة كامبردج لما أبدوه من عطف وصبر .

الباب الأول:

إنشاء المملكة



المفتدين

<http://al-maktabeh.com>

الفصل الأول:

**مملكة ما وراء البحار
(أوتريمييه) وجيرانها**

مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) وجيرانها

"أَنْتِ أَكَالَةُ النَّاسِ وَمُشْكِلَةُ شُعُوبِكَ"

(حزقيال : ١٢ . ٣٦)

دخلت الجيوش الفرنجية مدينة القدس ، وبذا حققت الحملة الصليبية الأولى هدفها. على أنه إذا أراد المسيحيون أن تبقى القدس في أيديهم ، وأن يتيسر على الحجاج بلوغها، فلا بد لهم من إقامة حكومة راسخة ، ذات دفاعات منيعة ، تربطها بأوروبا مواصلات آمنة؛ إذ أن الصليبيين الذين تمكنوا من الاستقرار في الشرق كانوا مدركين جيدا لاحتياجاتهم . وقد شهدت الفترة القصيرة من حكم الدوق جودفري مولد المملكة المسيحية؛ لكنه كان ضعيف أحرق برغم طبيته ؛ إذ دفعته الغيرة إلى أن يشاجر مع رفاقه ، وبوازع من ورع دفين وهب الكنيسة سلطات ضخمة ، وبموته وتولّى أخيه بالدوين أنقذت المملكة الوليدة. وكان بالدوين يتصف بالحكمة والبصيرة وصرامة رجل الدولة ؛ غير أن مسؤوليات هائلة كانت في انتظاره ، وليس لديه سوى القليل ممن يستطيع الاعتماد عليهم بعد رحيل أهم محاربي الحملة الصليبية الأولى إلى الشمال أو

إلى أوطانهم ، ولم يتخلف من بين أبرز عناصر تلك الحركة سوى أضعفهم - بطرس الناسك - الذى لا نعرف شيئا عن حياته الغامضة هناك ، وقد عاد هو نفسه إلى أوروبا عام ١١٠١م^(١) واصطحب الأمراء معهم جيوشهم فى طريق عودتهم ، ولم يكن بالدوين قد أحضر إلى الشرق أى أتباع ، فهو الإبن الأصغر المفلس ، وإنما استدان الرجال من إخوانه ، وها هو الآن يعتمد على حفنة من المحاربين الوريثين الذين سبق أن أخذوا العهد على أنفسهم قبل مغادرتهم أوروبا بالبقاء فى الأراضى المقدسة ، وعلى مغامرين يعلقون الآمال على امتلاك الممتلكات التى ترفعهم درجات تصل بهم إلى مصاف الأثرياء ، وكان أغلبهم - كشأنه - من أصغر الأبناء المفلسين.

أرض فلسطين

وكانت سيطرة الفرنج على أغلب الأراضى الفلسطينية ضعيفة واهية عندما تولى بالدوين شؤون المملكة . وكانت أكثرها أمنا تلك المنطقة الممتدة عبر السلسلة الجبلية من بيت لحم شمالا إلى سهل جزريل^(٢) وكان المسيحيون المحليون يسكنون الكثير من القرى بعد أن هجرها أغلب المسلمين بمجىء الجيوش الفرنجية ، بل هجروا مدينتهم المفضلة نابلس التى كانوا يطلقون عليها دمشق الصغيرة . وكان الدفاع عن هذه المنطقة يسيرا ؛ إذ يوفر لها وادى الأردن الحماية من الشرق ، وليست بالنهر مخاضة بين أريحا وبيسان ، كما لا يوجد من الممرات سوى ممر واحد يصعد من الوادى إلى داخل الجبال ، كما كان من العسير دخول المنطقة من الغرب ، وإلى الشمال تقع إمارة الجليل التى استولى عليها تانكريد وضمها إلى العالم المسيحي ، والتي تشتمل على سهل إزدرايون مرج بنى عامر والتلال الواقعة بين الناصرة وبحيرة الحولة . وحدود هذه الإمارة أكثر تعرضا للإختراق ؛ إذ يمكن اختراقها من عكا على ساحل البحر المتوسط ، ومن الشرق عبر الطرق الواقعة شمال وجنوب بحر الجليل . غير أن الكثير من المسلمين هاجروا من هناك أيضا ، ولم يبق سوى المسيحيين وجماعات قليلة من اليهود فى بعض المدن ، خاصة مدينة صفد وهى الوطن الرئيسى للتقاليد التلمودية منذ أمد بعيد ؛ لكن

(١) (ibid p. 347). Hagenmeyer, Pierre l'Hermite, pp. 330-44. مات بطرس الناسك فى سن متقدمة عام ١١١٥م.

(٢) سهل جزريل : شمال فلسطين المحتلة ، ويفصل تلال الجليل شمالا عن السامرة جنوبا . وهو مذكور فى العهد القديم باسم "وادي برزعل" (أنظر سفر يشوع : ١٧ - ١٦).

أغلب اليهود آثروا اللحاق بالمسلمين فى المنفى بعد المذابح التى حصدت أبناء دينهم فى القدس وطبرية وبعد مقاومتهم للمسيحيين فى حيفا^(٣) . وكانت سلسلة الجبال المركزية وطبرية بمثابة قلب المملكة . وانتشرت مواقع الاستطلاع واتسعت فى المناطق الإسلامية المحيطة ، وحصلت إمارة الجليل مؤخرًا على منفذ إلى البحر فى حيفا ، وسيطرت حامية فرنجية على النقب جنوبًا فى الخليل ، أما قلعة القديس أبرام ، وهى تسمية أطلقها الفرنج على الخليل ، فكانت أكثر قليلًا من كونها جزيرة فى محيط إسلامى^(٤) . ولم يكن للفرنج سيطرة على الطرق الآتية من شبه الجزيرة العربية حول الطرف الجنوبى للبحر الميت بطول الطريق البيزنطى القديم المسمى بطريق التوابل . وكان البدو يستخدمونه للتسلل داخل النقب والاتصال بالحاميات المصرية فى غزة وعسقلان على الساحل . وكان للقدس نفسها منفذ على البحر عبر ممر يمضى خلال اللد والرملة إلى يافا ، لكن الطريق لم يكن مأمونًا بغير مواكبة عسكرية ؛ إذ كانت الجماعات المغيرة المنطلقة من المدن المصرية، واللاجئون المسلمون فى الهضاب المرتفعة وبدو الصحراء، يطوفون المنطقة ويتعرضون للمسافرين فى غفلة منهم. ويروى (سايلوف) - وهو من الحجاج الشماليين - مشاعر الهلع والمخاطر عندما حج إلى القدس عام ١١٠٢م^(٥) . وكان أميرًا للمدينتين الإسلاميتين أرسوف وقيسارية ، الواقعتين بين يافا وحيفا ، قد أعلن أنهما من أتباع جودفرى ، لكنهما بقيا على اتصال بمصر عن طريق البحر ؛ إذ كان الساحل شمالى حيفا ، الممتد مسافة مائتى ميل تقريبًا، يخضع للسيطرة الإسلامية حتى مشارف اللاذقية حيث كانت الكونتيسة زوجة ريموند (كونت تولوز) تقيم مع حاشية زوجها فى حماية الحاكم البيزنطى^(٦) .

وكانت فلسطين بلدا فقيرا بعد أن كان مزدهرا فى العصور الرومانية . على أن ذلك الازدهار لم يصمد للغزوات الفارسية ؛ ثم شهدت البلاد مولد ازدهار آخر فى ظل الخلافة العربية ، لكن الحروب المتواصلة منذ مجيء الأتراك قضت على ذلك الازدهار فى مهده . والآن تنتشر الغابات أكثر من ذى قبل ، فما تزال هناك غابات عظيمة فى الجليل وعلى امتداد جبل الكرمل وحول السامرة ، وكذلك غابة الصنوبر

(٣) عن اليهود، أنظر صفحة ٣٤٤ .

(٤) أنظر أعلاه ، الجزء الأول ، الصفحتين ٢٦٣ و ٣٧٦ .

(٥) *Pilgrimage of Saewulf* (in P. P. T. S. vol. IV) .

(٦) أنظر أعلاه ، الجزء الأول الصفحتين ٣٧٨ و ٣٧٩ .

الساحلية جنوب قيسارية ؛ مما أدى إلى وجود رطوبة فى بلد يفتقر بطبيعته إلى الماء . وقد بقيت تلك الغابات والحدائق كلها برغم ما أحدثه الفرس من خراب مرار ومرات ، وبرغم ما تسبب فيه أبناء البلاد والماعز من خراب بطنى . وازدهرت حقول الحبوب فى وادى ازدراليون (مرج بنى عامر) ، وأينعت ثمار الموز وغيرها من ثمار الفاكهة المستجلبة إلى وادى الأردن ذي المناخ المداري ؛ ولولا الحروب الأخيرة لازدهر السهل الساحلى كذلك بمحاصيله وحدائقه التى تنمو فيها الخضروات والبرتقال اللاذع ؛ وكانت بساتين الزيتون وأشجار الفاكهة تحيط بقرى جبلية كثيرة . على أن البلاد فى أغلبها كانت مجدبة والتربة خفيفة ضعيفة خاصة حول القدس ، وقد خلت مدنها من أية صناعة كبيرة . وحتى عندما بلغت المملكة أوج عظمتها لم يكن ملوكها فى مصاف كبار الأثرياء مثل كونت طرابلس أو أمراء أنطاكية^(٧) ؛ إذ كانت الضرائب هى المصدر الرئيسى للثروة . أما الأراضى الخصبة فى مواب والجولان عبر الأردن فكان منفذها الطبيعى عن طريق موانئ الساحل الفلسطينى ؛ إذ كانت البضائع المنقولة من سوريا إلى مصر تسلك الطرق الفلسطينية ، وكانت القوافل المحملة بالتوابل الآتية من جنوبى شبه الجزيرة تجتاز النقب إلى البحر المتوسط على مر العصور . على أنه كان لابد من إغلاق المنافذ الأخرى كلها لتأمين هذا المصدر ، وهو الرسوم ؛ وكذا كان على الفرنج أن يسيطروا على كل الحدود الممتدة من خليج العقبة جنوبا إلى جبل الشيخ^(٨) ، بل ومن لبنان إلى الفرات .

وفضلا عن ذلك ، لم تكن فلسطين بلادا صحية ، باستثناء القدس ذات الهواء الجبلى والمرافق الصحية الرومانية ، فهى مدينة صحية بما فيه الكفاية ، فيما عدا ما تجلبه رياح الخماسين من الجنوب من حرارة شديدة وأتربة . على أن السهول الدافئة التى جذبت الغزاة بخصوبتها كانت مرتعا خصبا للأمراض بما فيها من مياه راكدة وبعوض وذباب ، فتفشى أمراض الملاريا والتيفود والدوسنتاريا ، وسرعان ما انتشرت أوبئة الكوليرا والطاعون وغيرها فى القرى المزدهمة الخالية من المرافق الصحية ، وكثرت حالات الجزام . وسقط فرسان الغرب وجنوده فريسة لتلك الأمراض بملابسهم التى لا تلائم المناخ ، وبشهيتهم القوية ، وجهلهم بقواعد الصحة الشخصية ، وبات معدل

(٧) يرد موجز جيد عن فلسطين فى 3-9 pp. *Munro, The Kingdom of the Crusaders*.

(٨) جبل الشيخ أو حرمون أو سنير : اسم الجزء الجنوبي من سلسلة جبال لبنان الشرقية على الحدود السورية.

الوفيات أعلى بين الأطفال. ودائما ما تمزح الطبيعة مزاحا لا يخلو من قسوة ، فتجعل مواليد الإناث أقدر على المقاومة من الذكور، مما أثار مشكلة سياسية متواصلة لدى الأجيال اللاحقة لمملكة الفرنج . على أن المستعمرين تعلموا فيما بعد ممارسة العادات الصحية ، فتهيات الفرص لحياة أطول؛ لكن معدل وفيات الأطفال ظل فى مستواه الرهيب ، وسرعان ما اتضح بجلاء ضرورة استمرار تدفق الهجرة بأعداد كبيرة من أوروبا كي يتوفر لفرنج فلسطين ما يكفى للسيطرة على البلاد .

الإحتياج إلى ميناء بحرى

كانت أولى مهام الملك بالدوين هى تأمين الدفاع عن مملكته . ولما كان ذلك ينطوى على أعمال هجومية ، فكان لزاما عليه الاستيلاء على أرسوف وقيسارية وابتلاع أراضيهما، ولا بد من الاستيلاء على عسقلان التى فشل المسيحيون فى غزوها عام ١٠٩٩م بسبب غيرة جودفرى من الكونت ريموند^(٩) ، ودفع الحدود المصرية جنوبا كي يسلم الطريق من القدس إلى الساحل . ويجب إنشاء نقاط مراقبة متقدمة عبر الأردن وجنوب البحر الميت ، وينبغى له أن يحاول ربط مملكته بالدويلات المسيحية فى الشمال لفتح طريق الحجاج ولمزيد من المهاجرين ؛ وعليه التقدم بطول الساحل قدر الاستطاعة وتشجيع إقامة دويلات مسيحية أخرى فى سوريا . كما ينبغى له أن يوفر للمملكة ميناءً بحريا أفضل من يافا أو حيفا ؛ إذ أن ميناء يافا قريب جدا من الشاطئ ومفتوح ومياهه ضحلة للغاية فلا تستطيع السفن الكبيرة الإقتراب من الشاطئ ، ومن أجل النزول إلى الشاطئ يتعين استخدام قوارب صغيرة تتعرض لأخطار شديدة إذا ما نشطت الرياح ، أما إذا قويت الرياح تعرضت السفن ذاتها للخطر . ويخبرنا الحجاج (سايرولف) أنه فى اليوم التالى لنزوله إلى البر هناك عام ١١٠٢م شاهد حطام أكثر من عشرين سفينة من سفن الأسطول الذى أبحر معه، كما شاهد أكثر من ألف حاج وهم يفرقون^(١٠) . وأما شاطئ الرسو فى حيفا فهو أعمق وتحميه منطقة جبل الكرمل من الرياح الجنوبية والغربية ، لكن الأخطار تحدق به فى مهب الرياح الشمالية . والميناء

(٩) أنظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٥٤ .

(١٠) *Pilgrimage of Saewulf*, pp. 6-8

الوحيد الآمن على الساحل الفلسطيني فى جميع الأحوال المناخية هو ميناء عكا .
ولأسباب اقتصادية ، فضلا عن مبررات استراتيجية ، ينبغي غزو عكا .

أما عن الحكومة الداخلية ، فكان بالدوين فى حاجة ماسة إلى الرجال والمال .
فليس فى مأموله بناء المملكة بغير ما يكفى من الثراء والقوة اللازمين للسيطرة على
أتباعه . ولا سبيل إلى الحصول على الرجال سوى الترحيب بالهجرة واستمالة المسيحيين
المحلين للفوز بتعاونهم . وبمقدوره توفير الأموال بتشجيع التجارة مع البلدان المجاورة ،
واغتنام فرصة التبرعات من الوريثين الأوروبيين الراغبين فى تشييد الكنائس فى الأراضى
المقدسة ووقف الأموال عليها؛ على أن هؤلاء الوريثين سيرسلون أموالهم إلى الكنيسة ،
فعليه إذن أن يصبح سيد الكنيسة لضمان الإفادة من تلك الأموال لصالح المملكة كلها .

إن أعظم مصدر لقوة الفرنج هو تشتت العالم الإسلامى . وما كان للحملة
الصليبية الأولى أن تحقق هدفها لولا الغيرة التى تسلطت على القادة المسلمين ونبذ
التعاون مع بعضهم البعض ؛ فأما مسلمو الشيعة وعلى رأسهم الخليفة الفاطمى فى
مصر، فكانوا يحملون للأتراك السنيين والخليفة العباسى فى بغداد ما يحملونه للمسيحيين
من كراهية ؛ وأما الأتراك ، فقد غاصوا فى التنافس بين بعضهم البعض : بين السلاجقة
والدانشمندان ، وبين الأراتقة وآل تتش ، وبين ولدى تتش ذاتهما ، دقاق ورضوان ؛
وأما الأتابج من أمثال كربوقا ، فقد تسببوا فى زيادة الإضطراب سوء على سوء لما كان
يراود كل منهم من طموحات شخصية ؛ وأما الأسر المالكة الأصغر ، مثل بنى عمار
فى طرابلس وبنى منقذ فى شيزر ، فقد انتهزت تلك الفوضى العارمة ونالت استقلالاً
واهياً ؛ ولم يكن هناك من أثر ترتب على نجاح الحملة الصليبية سوى تفاقم تلك
الفوضى العقيمة ، فدب اليأس فى نفوس الأمراء المسلمين ، وراحوا يتبادلون الاتهامات ،
مما جعل التعاون مع بعضهم البعض يزداد صعوبة على صعوبة^(١١) .

وانتهز المسيحيون ارتباك الإسلام . فراحت عبقرية الإمبراطور ألكسيوس المرنه
تعمل عملها فى تسيير دفة الأمور ؛ فأفاد من الحملة الصليبية واستعاد السيطرة على
غربى آسيا الصغرى ، واسترد الأسطول البيزنطى مؤخرًا كامل الخط الساحلى لشبه
الجزيرة فصار تحت سلطة الإمبراطور ، بل عاد ميناء اللاذقية السورى إلى ممتلكات

(١١) للإطلاع على مقال رائع موجز حول العالم الإسلامى آنذاك ، أنظر مقدمة Gibb's The Damascus Chronicles (إبن القلانيسى - تاريخ دمشق)

الإمبراطور بمساعدة ريموند (كونت تولوز)^(١٢) . وبانت الإمارات الأرمينية آمنة بعد أن كان الأتراك يتهددونها بالفناء؛ وأسفرت الحملة الصليبية عن مولد إمارتين فرنجيتين كانتا بمثابة إسفين في العالم الإسلامي.

إمارة أنطاكية

كانت إمارة أنطاكية أغنى الإمارات وأكثرها أمانا . وقد أنشأها يوهيموند النورماندى على الرغم من معارضة رفيقه ريموند (كونت تولوز) ، وبرغم ما أقسم عليه من تعهدات للإمبراطور الكسيوس . ولم تكن أنطاكية واسعة المساحة ، وإنما تألف من وادى نهر الأرند (العاصي) وسهل أنطاكية وسلسلة جبال أمانوس ومنطقتي الإسكندرونة والسويدية . على أن مدينة أنطاكية ذاتها كانت غنية برغم التقلبات التى مرت بها مؤخرًا؛ فكانت مصانعها تنتج الملابس الحريرية والسجاد والزجاج والفخار والصابون ، وكانت القوافل الآتية من حلب وما بين النهرين تتجاهل الحروب بين المسلمين والمسيحيين وتعبر بوابات المدينة فى طريقها إلى البحر . ولما سكان الإمارة فكانوا كلهم تقريبًا من المسيحيين الذين يتألفون من اليونانيين ، والسيرمان الأرثوذكس، والسيرمان اليعاقبة ، والأرمن ، وقليل من النساطرة ؛ وكل طائفة منهم قنحشها الغيرة من الطائفة الأخرى ، بحيث بات من اليسير أن يسيطر عليهم النورمانديون^(١٣) . أما أهم خطر خارجي تعرضت له أنطاكية فكان يتمثل فى بيزنطة أكثر مما يتمثل فى المسلمين ؛ إذ أدرك الإمبراطور البيزنطي مبدئته فى المسألة الأنطاكية، لكنه يسيطر الآن على موانئ كيليكيا واللاذقية ، ولديه قاعدة بحرية فى قبرص ، فراح يتحين الفرصة لاستعادة حفرقه المسلوبة فى أنطاكية ، محاصره وأن الأرثوذكس كانوا تواقين للحكم البيزنطي ، لكن النورماندين أفلحوا فى ضربهم بالأرمن واليعاقبة.

وفى صيف عام ١١٠٠م تعرضت أنطاكية لضربة قاسية ، عندما انطلق يوهيموند على رأس حملة لملاقاة أمير الدانشمند ، فانهزم وتحطم جيشه ووقع هو نفسه أسيرا . على أن الكارثة لم تسبب فى أضرار دائمة فى الإمارة عدا محاصر الرجال ؛ إذ أن الملك بالدوين، الذى كان آنذاك كونت الرها ، تصرف على الفور بحيث كان حائلًا بين

(١٢) أنظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٧٩ .

(١٣) بالنسبة لأنطاكية أنظر . *Cahen, La Syrie du Nord, pp. 127 ff.*

الأتراك وبين متابعة انتصارهم ، وبعد أشهر قليلة أتى تانكريد من فلسطين لتولى مهام الرصاية على أنطاكية أثناء سجن خاله بوهيموند ، ووجد النورمانديون فى تانكريد قائدا لا يختلف عن خاله فى كثرة تحرّكه وتجرّده من المبادئ الخلقية^(١٤).

إمارة الرها

وكانت الإمارة الفرنجية الثانية هى كونتية الرها ، أو أورفا ، وكانت دولة حاضرة توفر الحماية لأنطاكية من المسلمين . والآن يحكمها ابن عم الملك بالدوين وسميه ، بالدوين (كونت لوبرج) . وكانت الكونتية أكبر مساحة من إمارة أنطاكية ، وتمتد على جانبي الفرات من رواندان وعينتاب إلى حدود غير واضحة فى أراضي الجزيرة إلى الشرق من مدينة الرها . وكانت تفتقر إلى الحدود الطبيعية وتجانس السكان ؛ إذ كانوا مسيحيين فى أغلبهم من اليعاقبة والسيريان والأرمن ، ولكن كانت هناك مدن إسلامية كذلك مثل سروق . ولم يكن بمقدور الفرنج إقامة حكومة مركزية ، وإنما كانوا يحكمون من خلال حاميات فى القليل من الحصون القوية التى كانت تفرض الضرائب والإتاوات على القرى المحيطة ، وتنطلق منها الغارات عبر الحدود فتعود محملة بالغنائم . ودائما ما كانت المنطقة كلها بلدا حدوديا ومسرحا للأعمال الحربية التى لا نهاية لها . وكانت زاخرة بالأراضي الخصبة والمدن المزدهرة . على أن الملك بالدوين الآن أقل ثراء مما كان عليه أيام أن كان هو كونت الرها ، عندما كان يجبى الضرائب من أهل الرها فضلا عن إغاراته هناك^(١٥) .

وكانت الدولتان فى ميسس الحاجة إلى الرجال . بل كانت القدس ذاتها فى أمس الحاجة إلى الرجال ؛ فمنذ أن فتح المسلمون فلسطين بآدى الأمر ، حرموا سكانها المسيحيين من حمل السلاح ، لذا لم يجد الحكام الجدد الصليبيون من يُعتمد عليه من الجنود المحليين . أما أنطاكية والرها فكانتا تقعان داخل الحدود البيزنطية السابقة ، وفيهما الكثير من المسيحيين من ذوى التقاليد العريقة فى الشجاعة العسكرية ، ولا سيما الأرمن ؛ وبذا كان بمقدور أى أمير فرنجي إنشاء جيش كامل العدة إذا ما تعاون معه الأرمن . وقد حاول بوهيموند ثم تانكريد فى أنطاكية ، وبالدوين الأول ثم

(١٤) أنظر أعلاه ، المجلد الأول ، صفحة ٣٨٠ ، وأدناه ، الفصل الثالث .

(١٥) Cahen, op. cit. pp. 110 ff.

بالدوين الثانى فى الرها، استمالة الأرمن بادية الأمر ؛ على أنه ثبت من التجارب أنهم قوم تجرى الخيانة فى عروقهم ، فامتنع الإعتماد عليهم ، ولم يجرؤ حكام أنطاكية والرها على وضعهم مواضع الثقة ، ولم يكن هناك من بد لحكام هاتين الدولتين من الاستعانة بفرسان ولدوا وتربوا فى الغرب لقيادة كتائبهم وإدارة حصونهم ، ومن الاستعانة كذلك برجال الدين الذين نشأوا فى الغرب لتسيير حكوماتهم . بيد أنه بينما كانت أنطاكية تتيح للمهاجرين حياة وادعة ناعمة، لم تجتذب الرها سوى المغامرين المعتادين على حياة السلب والنهب .

المدن الإسلامية الساحلية

أما القدس ، فكانت بينها وبين الدولتين الفرنجيتين الشماليتين مناطق فسيحة شاسعة يحكمها عدد من عواهل المسلمين الفيورين . وكانت منطقة الساحل شمالى المملكة مباشرة تحت سيطرة الموانى الأربعة عكا وصور وصيدا وبيروت ، وكلها تدين بالولاء لمصر بحيث يقوى ذلك الولاء باقتراب الأسطول المصرى ويضعف بابتعاده^(١٦) . وكان بنو عمار مستقلين بإمارتهم الواقعة شمالى بيروت ويحكمونها من عاصمتهم طرابلس ؛ وقد انتهز أميرها رحيل الصليبيين جنوبا فراح يوسع رقعة حكمه مؤخرًا حتى طرطوس^(١٧) . وبين طرطوس واللاذقية كان القاضى ابن صليحة يحكم إمارة جبلة ، على أنه فى صيف عام ١٠٠١م سلمها إلى طغتكين - أتابع دقاق الدمشقى - الذى سلمها بدوره إلى بنى عمار^(١٨) . وفى جبال النصيرية الواقعة وراء طرطوس وجبلة كان بنو محرز يحكمون إمارتى المرقب وقدموس الصغيرتين ، بينما كانت إمارة الكهف تحت حكم بنى عمرو^(١٩) . وأما الوادى الأعلى لنهر العاصى فكان مقسما بين خلف بن ملاعب فى أمافيا ، وهو مغامر شيعى اعترف بالولاء للسيادة الفاطمية ، وبنى منقذ أمراء شيزر - الأمراء الأهم من تلك الأسر الحاكمة الصغيرة - وجناح الدولة فى حمص ، وهو أتابع سابق لرضوان الحلبي الذى استقل بحمص بعد أن وقع فى خلاف مع

(١٦) Gibb, op. cit. pp. 15-18; Le Strange, Palestine under the Moslems, pp. 342-52

(١٧) للمزيد حول بنى عمار أنظر مقال Sobernheim "بن عمار" فى دائرة المعارف الإسلامية.

(١٨) ابن القلانيسى ، تاريخ دمشق ، The Damascus Chronicle, pp. 51-2

(١٩) Cahen, op. cit. p. 180

سيده^(٢٠) . وكانت حلب ما تزال فى قبضة رضوان الذى كان يحمل لقب ملك لكونه من الأسرة السلجوقية الحاكمة . وكان بنو أرتق يحكمون الجزيرة التي تقع إلى الشرق من حلب بعد انسحابهم إليها من القدس التي احتلها الفاطميون عام ١٠٩٧ م . وكان بنو أرتق أنفسهم من أتباع دقاق أمير دمشق ، الذى خلع على نفسه لقب ملك كأخيه رضوان^(٢١) .

وتفاقم اضطراب هذه الانقسامات السياسية بسبب اختلاف عناصر السكان في سوريا؛ إذ كان الأتراك يشكلون أرسطقراطية إقطاعية صغيرة متناثرة ؛ وكان الأمراء الأقل كلهم تقريباً من العرب ؛ وأما سكان المدن في شمال سوريا ومناطق دمشق ، فكانوا مسيحيين في أغلبهم ، من السريان المنتمين إلى الكنيسة اليقونية ، والنساطرة في المناطق الشرقية ، ومن الأرمن المتسللين من الشمال ، وكان أغلب السكان في أراضى بنى عمار من المارونيين أتباع مذهب "المونوثيلية"^(٢٢) . وفي جبال النصيرية استقرت قبيلة النصيرية ، وهي طائفة شيعية يستمد منها خلف بن ملاعب قوته ، وكان الدروز - وهم فئة شيعية توله الحاكم بأمر الله - يقيمون في منحدرات جنوب لبنان، ويكرهون جيرانهم المسلمين ، لكنهم كانوا أشد كراهية للمسيحيين . وازداد تعقد الأمور بهجرة العرب المطردة من الصحراء ، وتدفق الأكراد من الجبال الشمالية إلى الأراضى الخصيبة ، وكذلك بوجود جماعات التركمان التي كانت على استعداد لأن تضع نفسها تحت إمرة أى زعيم محارب يدفع لها^(٢٣) .

الخلافة الفاطمية والخلافة العباسية

كان حكام مصر الفاطميون أقوى حيران سوريا من المسلمين؛ إذ كان وادى النيل والدلتا في عالم العصور الوسطى أكثر المناطق كثافة بالسكان ، وكانت مصانع القاهرة والإسكندرية العظيمة تنتج الزجاج والفخار والأدوات المعدنية ، فضلاً عن الكتان

(٢٠) أنظر مقال Honigman "شيزر" ، ومقال Sobernheim "حمص" ، في دائرة المعارف الإسلامية ، وكذلك introduction to Hitti, An Arab-Syrian Gentleman, pp.5-6

(٢١) أنظر Gibb, op. cit. pp. 22-4

(٢٢) (المترجم) Monotheletism معتقد لاهوتي مفاده أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين.

(٢٣) أنظر Gibb, op. cit. pp. 27-9

والمنسوجات المزركشة ، وكانت المحاصيل الوفيرة من الحبوب تنمو فى المناطق المزروعة ، والدلتا زاخرة بمزارع قصب السكر . كما كانت مصر تسيطر على تجارة السودان الرائجة بما تشمله من ذهب وصمغ عربى وريش نعام وعاج ، وتنقل تجارة الشرق الأقصى المبحرة عن طريق البحر الأحمر عبر الموانئ المصرية إلى البحر المتوسط . وبرغم ما كان يشاع من إفتقاد المصريين للشهرة العسكرية ، كان بمقدور الحكومة المصرية أن تدفع بالجيوش الجرارة إلى الميدان ، كما كان باستطاعتها استخدام المرتزقة أيما كان عددهم ؛ وفضلا عن ذلك ، فهى القوة الوحيدة التى تنفرد بامتلاك أسطول بحرى ضخم . ولذا كان من الطبيعى للحاكم الشيعى فى مصر أن يوفر الحماية للشيعية فى سوريا ، بل وللعرب السنيين الذين يخشون السيطرة التركية ، ومن ثم كانوا على استعداد للإعتراف بسيادته لما كان يتحلى به دائما من تسامح ؛ على أن الغزوات التركية دأبت على تقليص الإمبراطورية الفاطمية فى سوريا ، كما أن استيلاء الفرنج على القدس وتغلبهم على التعزيزات المصرية فى عسقلان ، أضر بمكانة الخلافة الفاطمية . بيد أنه كان بمقدور مصر تعويض جيش فقدته فى معركة ، فلم يكن هناك مفر فى أن يسرع الوزير الأفضل قدر استطاعته فى الانتقام من الهزيمة واسترجاع فلسطين ، لاسيما وأنه هو نفسه أرمينى مولود فى عكا ويحكم مصر باسم الخليفة الفاطمى الصغير (الأمير) ؛ وهكذا ظل الأسطول المصرى على اتصال بالمدن الإسلامية الساحلية فى فلسطين^(٢٤) .

أما الخليفة العباسى الشاب المستظهر بالله العباسى ، والذي يعتبر ندا لنظيره الفاطمى ، فكان قابعا فى الظل فى بغداد لا ينفذ له أمر من الأمور إلا بعد موافقة السلطان السلجوقى بركيارق أكبر أبناء ملك شاه العظيم ، وإن كان دون أبيه قوة واقتدارا ؛ ودائما ما كان إخوة السلطان السلجوقى يتمردون عليه ، فاضطروه إلى أن يهب أخاه الأصغر سنقر ، مقاطعة خراسان ، وظل منذ عام ١٠٩٩م فى حرب دائمة مع أخيه محمد الذى تمكن أخيرا من الفوز بمقاطعة العراق . وهكذا بقى بركيارق فى انشغال دائم يحول بينه وبين أن يكون حليفا نافعا فى الكفاح ضد المسيحيين .

وكان زعيم أصغر فرع فى الأسرة الحاكمة السلجوقية ، وهو قلج أرسلان الأناضولى ، والذي خلع على نفسه لقب سلطان ، فى وضع أفضل قليلا من ابن عمه فى

العراق آنذاك. وكانت الحملة الصليبية الأولى قد انتزعت منه عاصمته نيقية مع جُل ثروته في معركة دوريليوم ؛ كما استردت بيزنطة أغلب الأراضي التي كان يسيطر عليها ؛ وكان على خلاف مع سلاجقة الشرق إذ رفض الاعتراف بسيادتهم . على أن المهاجرين التركمان الوافدين إلى الأناضول وفروا له الوسيلة التي أعاد بها بناء جيشه ، وأصبحوا شعبه الذي يفوق عدد المسيحيين^(٢٥). على أن الإمارة الأكثر نشاطا في شمال شرق الأناضول كانت إمارة الدانشمند في سيواس وعلى رأسها الأمير أنوشكين الذي أطبقت شهرته الآفاق لإيقاعه بهيموند في الأسر ، وكان أول قائد مسلم يحرز النصر على جيش من فرسان الفرنج ، وما فتئت قوته تتزايد بمجىء المهاجرين التركمان^(٢٦).

وكانت هناك عدة إمارات أرمنية تفصل بين أترك الأناضول والدويلتين الفرنجيتين في شمال سوريا؛ فكان أوشين يسيطر على أواسط جبال طوروس ، وأمراء بيت روبين يسيطرون على المنطقة الواقعة إلى الشرق منه ، وكواسيل في جبال طوروس المقابلة ، وثاتول في مرعش ، وجبرائيل في ملطية . وكان كل من ثاتول وجبرائيل من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية ، ومن ثم اتجهت ميولهما إلى بيزنطة ، وكان كلاهما يرتكز من الناحية القانونية على ما خلعه الإمبراطور على كل منهما من ألقاب . وأما أمراء بيت روبين ، الذين انفردوا بنجاحهم في إنشاء دويلة كتب لها الدوام ، فكانوا على عدائهم التقليدي لكل من بيزنطة والكنيسة الأرثوذكسية^(٢٧).

بيزنطة

كانت بيزنطة أكثر القوى المسيحية الخارجية اهتماما بشؤون سوريا . وكان الإمبراطور الكسيوس معتليا عرش الإمبراطورية لما يقرب من عشرين سنة . وقد تسلم الإمبراطورية بادیء الأمر وهي في أشد حالات تدهورها ، فراح يعيد بناءها على دعائم

(٢٥) أنظر مقال "السلاجقة" و "قلج أرسلان" في دائرة المعارف الإسلامية .

(٢٦) For the Danishmends, see Mukrimin Halil, article 'Danishmend', in Islam Ansiklopedisi

(٢٧) لمزيد من الإطلاع على الخلفية الأرمنية أنظر : Tournebize, Histoire Politique et Religieuse : d'Armeniepp. 168-70. وانظر أيضا أعلاه ، الجزء الأول ، صفحة ٢٤٥ وما بعدها.

راسخة بما عرف عنه من دبلوماسية وإدارة إقتصادية ماهرة ومعاملة حسنة لرعاياه ، بل ولأنداده داخل وخارج الإمبراطورية على السواء ؛ فاستغل الحركة الصليبية لاسترجاع غربى آسيا الصغرى من الأتراك ، وأعاد تنظيم أسطوله فسيطر به على السواحل . وكان لبيزنطة مكانتها التقليدية العظيمة فى أرجاء الشرق حتى وهى فى أشد درجات تدهورها ؛ فهى الإمبراطورية الرومانية بتاريخها الذى تحمله ورائها بألف سنة ؛ والجميع يعترف بالإمبراطور رئيسا للعالم المسيحى مهما بلغت كراهية رفاقه المسيحيين لسياسته أو حتى لجشعه ؛ والقسطنطينية أكثر مدن العالم أخذا بالألباب لكثرة سكانها ونشاطهم ، ولضخامة ثروتها، وتحصيناتها المتينة . وكانت القوات البيزنطية المسلحة تنفرد بأنها الأحسن تجهيزا فى زمانها ؛ كما تنفرد عملة الصلبدوس الذهبية ، (هيبيربيرون Hyperpyron) التى تسمى بيزانت بأنها العملة الوحيدة المضمونة فى احتساب المبادلات الدولية لوقت طويل ، وكان قسطنطين العظيم هو الذى ثبت قيمتها . وكان لبيزنطة أن تلعب دورا مسيطرا فى السياسات الشرقية لما يقرب من قرن من الزمان أمامها . على أن ما حققته بيزنطة من شتى ضروب النجاح كان يرجع فى حقيقة الأمر إلى ما كان يتصف به رجالها من ذكاء متقد، وإلى اسمها الرومانى ، أكثر مما يرجع إلى قوتها الحقيقية ؛ فقد دمرت الغزوات التركية نظام الأناسول الإقتصادى والاجتماعى الذى كانت الإمبراطورية تعتمد عليه جُل اعتمادها لتلبية احتياجاتها من الجنود والغذاء ؛ وبرغم إمكان استرداد الأرض ، يكاد يستحيل إسترجاع النظام السابق . والآن أصبح الجيش كله تقريبا من المرتزقة ، ولذا فهو باهظ التكاليف وليس فى الإمكان كذلك الاعتماد عليه ؛ فإذا كان من الجائز الإطمئنان إلى استئجار المرتزقة الأتراك من البنجاك للتصدى للفرنج أو للسلافين ، فليس فى الإمكان وضعهم موضع الثقة أمام أتراك آسيا؛ كما أن المرتزقة من الفرنج لن يحاربوا رفاقهم الفرنج طواعية . وكان الكسيوس قد لجأ فى مستهل حكمه لجوء المضطر إلى شراء المساعدة من البنادقة على أن يمنحهم امتيازات تجارية برغم ما لحق رعاياه من أضرار ؛ ثم أتبع ذلك بمنح امتيازات للمدينتين البحريتين جنوا وبيزا ، ومن ثم بدأت تجارة الإمبراطورية تنتقل إلى الغرباء . وبعد ذلك بقليل اضطرت حاجته إلى السيولة المالية إلى التلاعب فى العملة ، فأمر بضرب قطع من العملات الذهبية التى يقل محتواها الذهبى عما كان عليه من قبل ، فاختلت الثقة فى البيزانت ، وفى الحال أصر عملاء الإمبراطورية على أن يتقاضوا مستحققاتهم بعملة "المبخائليات" التى ضربت فى عهد الإمبراطور ميخائيل السابع ، وكانت آخر العملات التى اشتهرت بأنها الجديرة بالثقة .

وكانت أول اهتمامات الإمبراطور توفير الرفاهية لإمبراطوريته . ولقد رحب بالحملة الصليبية الأولى ، وكان مهياً للتعاون مع زعمائها ؛ لكن طموحات بوهيموند وخيانتة فى أنطاكية صدمته وأغضبه ، وباتت أولى رغباته إسترجاع أنطاكية والسيطرة على الطرق المؤدية إليها عبر آسيا الصغرى . وكان تعاونه مع الصليبيين قد وصل إلى نهايته بانتقالهم جنوباً إلى فلسطين . وأما السياسة البيزنطية التقليدية طوال القرن السابق فكانت التحالف مع الفاطميين فى مصر ضد السنيين العباسيين والأتراك ؛ فكانت معاملة الفاطميين للمسيحيين الشرقيين تتميز بالرفق والعطف ، عدا فترة حكم الخليفة الحاكم المجنون ؛ ولذا لم يكن هناك ما يدعو الكسيوس إلى افتراض أن حكم الفرنج للمسيحيين الشرقيين سيكون أفضل من حكم الفاطميين ، وبذا نأى بنفسه عن المسيرة الفرنجية التى تستهدف القدس . بيد أنه لم يكن بوسعه ، وهو باعتباره راعياً للأرثوذكس ، أن يتجاهل مصير القدس . وإذا كان مقدراً للمملكة الفرنجية البقاء ، فيكون لزاماً عليه أن يتخذ من الخطوات ما يكفل له تأكيد حقوقه ؛ وهو على استعداد لأن يظهر للفرنج فى فلسطين ما يدل على حسن نواياه، لكن مساعداته الإيجابية سوف تقتصر على مساعدتهم فى فتح الطرق العابرة لآسيا الصغرى . وأما مشاعره حيال النورماندين فى أنطاكية فكانت العداء لا غير ، وقد اتضح فيما بعد أنه عدوهم الخطر . ولا يبدو أنه كان يبنى النفس باستعادة الرها، وربما تحقق من فائدة الكونتية الفرنجية بوضعها كمخفر متقدم فى مواجهة العالم الإسلامى^(٢٨).

مشاكل بالدوين

ولقد برز عنصر جديد فى السياسات الشرقية بتدخل المدن التجارية الإيطالية التى تخلفت عن الانضمام إلى الحملة الصليبية إلى أن أيقنت من أنها تبشر بالنجاح ؛ فعندئذ راحت بيزا والبندقية وحنوا ترسل الأساطيل إلى الشرق ، واعدة بتقديم المساعدة للصليبيين نظير حصولها على منشآت فى أية مدينة تشارك فى غزوها . ورحب الصليبيون بذلك ؛ فيكاد يستحيل إخضاع المدن الساحلية الإسلامية بغير القوة البحرية، فضلاً عن أن السفن ستؤمن لهم سرعة الإتصال بأوروبا الغربية بدلا من الرحلة الطويلة

(٢٨) للإطلاع على وضع بيزنطة وسياسة الكسيوس ، أنظر المجلد الأول فى أماكنها المختلفة .

على اليابسة . على أن ما كانت تطلبه تلك المدن من امتيازات وتحصل عليه لم يكن
يعنى سوى أن تفقد حكومات الفرنج فى الشرق الكثير من الإيرادات الهامة^(٢٩) .

ولم تكن تعقدات الوضع الدولى من حول الملك بالدوين تبشره بالتفاؤل . فإما أن
حلفاءه تعوزهم الحماسة أو أنهم مجبولون على الجشع ، فلا تشغلهم سوى الأنانية .
فكان يستعين بتشتت أعدائه ؛ ولو أن العالم الإسلامى وجد زعيما يجمع شمله ،
لتضاءلت فرصة البقاء أمام الدويلات الفرنجية فى الشرق . وفى ذات الوقت لم يكن مع
الدوين سوى قلة قليلة من الأنصار فى أرض مناخها مميت ، كانت على مر القرون
ساحة للإقتتال بين الأمم . ولقد استبشر لما علم بأن هناك حملات صليبية جديدة
انطلقت فعلا من الغرب .

(٢٩) يرد أحسن موجز للدور الذى لعبه الإيطاليون فى : Heyd, *Histoire du Commerce du*
Levant vol. i, pp., 131 ff.

الفصل الثانى:

الحملات الطليبية

سنة ١١٠١م



العمليات الصليبية سنة ١١٠١م

"قَالُوا لَا نَضْغِي"

(إرميا: ٦ . ١٧)

وصل نبأ استعادة المسيحيين لبيت المقدس إلى أوروبا الغربية في أواخر صيف ١٠٩٩ م ؛ فأنار في القلوب الحماس والبهجة . وتوقف المؤرخون في أرجاء أوروبا عن تناول الأحداث المحلية ليسجلوا تلك الرحمة العظيمة التي أنزلها الرب بهم . وكان البابا إيربان قد مات قبل أن يعلم بذلك النبأ ؛ لكن أصدقاءه ومساعديه في جميع الكنائس راحوا يمجدون الرب لنجاح سياسته . وعاد كثير من زعماء الصليبيين خلال الشتاء التالي إلى أوطانهم ومعهم رجالهم . ولا شك في أن الجنود - كدأبهم - بالغوا في وصف ما اعترضهم من مصاعب و تصوير روعة الأراضي التي اجتازوها ، واختلقوا الكثير من معجزات السماء ليشدوا من أزرهم . على أنهم جميعا أعلنوا عن أن الحالة في الشرق تحتاج إلى محاربين و مستعمرين لمواصلة "عمل الرب" ، وأن الثروات والضياع الضخمة تنتظر من يفوز بها من المغامرين . وراحوا يشجعون حملة صليبية جديدة

يمنحها دعاة الكنيسة بركاتهم^(١).

على أن الحملة التالية لم تشرع فى الرحيل إلا فى بداية خريف ١١٠٠ م ، فلم يكن السفر مناسباً فى أشهر الشتاء ، وكان الحصاد ينتظر من يجمعه . وفى سبتمبر عام ١١٠٠ م غادرت الحملة الصليبية اللومباردية إيطاليا إلى الشرق ، وعلى رأسها أبرز الشخصيات اللومباردية أنسلم (كونت بويه) رئيس أساقفة ميلانو وبصحبه ألبرت كونت بياندرات ، وجيرت كونت بارما ، وهيو كونت مونتيللو . ولم يكن لأبناء لومبارديا فى الحملة الصليبية الأولى دور بارز ؛ فخلال الأشهر الأولى من تلك الحملة رحل الكثير منهم شرقاً وانضموا إلى بطرس الناسك ، لكنهم أسهموا فى دمار حملته لتآمرهم مع رفاقه الألمان ضد الفرنسيين ، ومن بقى منهم على قيد الحياة انضم إلى بوهيموند ، الذى علا نجمه فوق زعماء الصليبيين جميعاً نتيجة لذلك . وكانت الحملة الراهنة أكثر تنظيماً بقليل . وكان فيها قلة قليلة من الجنود المدربين ، وتآلف أساساً من رعاع جاءوا من الأحياء الفقيرة فى المدن اللومباردية ، بعد أن اضطرت معيشتهم لانتشار الصناعة فى المقاطعة ولم يكن لهم محلا فيها . وصحبتهم أعداد كبيرة من رجال الدين والنساء والأطفال . وكانت حملة ضخمة الحشود يقدر المؤرخ ألبرت كونت آيكس عدد أفرادها بمائتى ألف شخص ، إلا أنه ينبغى أن نقسم هذا العدد على عشرة على الأقل . ولم يكن هناك سبيل لأن يسيطر أحد على هذا الحشد ، سواء أكان رئيس الأساقفة ، أم كونت بياندرات الذى كان يعتبر القائد العسكرى للحملة^(٢).

١١٠٠م اللومبارديون يتجمعون

وفى خريف ١١٠٠ م ، شرع اللومبارديون فى مسيرتهم متمهلين ، عبر كارنيولا أسفل وادى نهر ساف وخلال أراضي ملك هنجاريا ، ودخلوا الامبراطورية البيزنطية عند بلجراد ؛ وكان الكسيوس مهياً للتعامل معهم . فسار جنود حراسته معهم عبر البلقان . وكانوا كثرة يتعذر توزيع الإمدادات عليهم ومراقبتهم وهم فى معسكر واحد؛

(١) أنظر مثلاً، خطاب البابا باسكال الوارد فى Migne, Patrologia Latina, vol. CLXIII, cols. 42 ff. وكان يعتقد فى الشرق أنه إذا لم تصل تعزيزات فقد بتعين إخلاء الأراضي المفتوحة De Translatione S. Nicolai in R. H. C. Occ. vol. v, p. 271 .

(٢) Albert of Aix, VIII, I, p.559; Anna Comnena, XI, viii, I, vol. III, p. 36., كومنينا "نورماندين تحت قيادة أخوين باسم (Phlantras).

فقرر تقسيم الحملة إلى ثلاث مجموعات : الأولى قمضى الشتاء فى معسكر خارج مدينة فيلوبوبوليس ، والثانية خارج أدرينوبل (أدرنة) ، والثالثة على مشارف مدينة رودوستو. وحتى مع هذه التجزئة استحالت السيطرة عليهم لما كانوا عليه من فرضى عارمة ؛ إذ راحت كل مجموعة تغير على المناطق المحيطة بمعسكرها ، تنهب القرى وتقتحم مخازن الغلال ، وتسرق الكنائس . وفى نهاية الأمر جمعهم الامبراطور فى شهر مارس فى معسكر واحد خارج أسوار القسطنطينية متويا نقلهم إلى آسيا بغاية السرعة؛ لكنهم علموا بخروج صليبين آخرين للحاق بهم ، فرفضوا عبور مضيق البوسفور إلى آسيا إلى أن تصل تلك التعزيزات . فقطعت عنهم السلطات الامبراطورية المون لإجبارهم على التحرك ، فما كان منهم إلا أن بادروا بمهاجمة أسوار المدينة وشقوا طريقهم إلى فناء قصر (بلاشيرنا) الامبراطورى حيث قتلوا أسدا أليفا من أسود الامبراطور وحاولوا فتح بوابات القصر . وكان رئيس أساقفة ميلانو وكونت بياندرات فى ضيافة الامبراطور الكريمة ، فارتاعا لما حدث ، واندفعا خارجين إلى وسط الحشود المشاغبة ونجحوا أخيرا فى إقناعها بالعودة إلى المعسكر ؛ ثم كان عليهما أن يواجها مهمة تهدئة الامبراطور^(٣).

غير أن الذى تأتى له أن يصنع السلام هو ريموند (كونت تولوز) الذى كان يمضى فصل الشتاء فى ضيافة الامبراطور ، بعد أن فاز بثقته الكاملة . وكان ذا شهرة عظيمة لأنه أقدم أمراء الصليبين جميعا ، وكان صديقا للبابا إيربان والأسقف أديمار ، فأصغى له اللومبارديون ووافقوا على الأخذ بنصيحته والانتقال إلى آسيا. وبنهاية شهر أبريل كانوا قد استقروا فى معسكر بالقرب من نيكوميديا انتظارا لوصول الصليبين الجدد من الغرب^(٤).

١١٠١م : اللومبارديون والفرنسيون فى القسطنطينية

ولم يطر النسيان أبدا فرار ستيفن كونت (بلوا) من أنطاكية ، لأنه لم يفر بقسمه

(٣) Albert of Aix, VIII, 2-5, pp. 559-62; Orderic Vitalis, x, 19, vol. IV, P. 120 , ألبرت القصة قائلا إن الامبراطور استخدم أسوده ضد الصليبين.

(٤) Albert of Aix, VIII, 7, p.563; Anna Comnena, XI, viii, 2 vol. III, pp. 36-7. ريموند كان بحوزته ما يسمى (الرمح المقدس) أنظر Runciman, 'The Holy Lance found at Antioch', in Analecta Bollandiana, vol. LXVIII, pp. 205-6.

الصليبي، وأظهر الجبن في وجه الأعداء . ولذا كانت زوجته الكونتيسة أدبلا، ابنة وليم الغازي ، تعتصرها مرارة الخجل منه . فلم تكن تكف ، حتى حينما ينفردا معا في مخدعهما ، عن توبيخه كي يذهب لإسترداد سمته . ولم يكن يوسع التفرع بأن الكونتية في احتياج اليه . إذ أن زوجته كانت دائما الحاكم الفعلى للكونتية . ونال منه الضجر ومملكته الموحش الشريرة ، فانطلق إلى الأراضي المقدسة مرة أخرى في ربيع ١١٠١م^(٥).

وانتشر نبا اعتزامه الخروج، وبدأ فرسان كثيرون يعدون العدة لمصاحبته إلى أن خرجوا معه تحت قيادة ستيفن كونت برجاندى ، وهيو كونت بروي ، وباللون كونت جراندبريه ، وهيو كونت بيرفوند (أسقف سواسن) . وارتحلوا جنوبا خلال إيطاليا ثم عبروا البحر الأدرياتيكي ، ووصلوا القسطنطينية في أوائل مايو تقريبا. وفي مكان ما أثناء الرحلة أدركتهم فرقة ألمانية صغيرة يرأسها كونراد الذى كان كونستابل الامبراطور هنرى الرابع^(٦).

وابتهج الصليبيون الفرنسيون لرؤية ريموند فى القسطنطينية ، وزادت بهجتهم بعد أن استقبلهم الامبراطور . وربما بإيحاء من الكسيوس ، قرروا تنصيب ريموند قائدا للحملة كلها؛ ولم يكن يوسع اللومباردين سوى الإذعان . وفى الأيام الأخيرة من شهر مايو تحرك الجيش كله من نيكوميديا فى طريقه الى دوريليوم ، و كان يتألف من فرنسيين ، وألمان ، ولومباردين ، وبعض البيزنطيين بقيادة تسيتاس ، الذى كان معه خمسمائة من المرتزقة الأتراك - وربما كانوا من البتشنج.

واستهدفت الحملة الوصول إلى الأراضي المقدسة وأن تعيد ، فى طريقها ، فتح الطرق التى تخترق آسيا الصغرى فى ، وهو هدف ثانوي آيداه الامبراطور تأييدا تاما . ولذا أوصى ستيفن (كونت بلوا) أن تسلك الحملة طريق الحملة الصليبية الأولى من خلال دوريليوم وقونية . ووافق ريموند على نصيحته لأنها تتفق والتعليمات التى تلقاها من الامبراطور. لكن النورماندين الذين يشكلون أغلب الجيش كان لهم رأى آخر، فبوهيموند هو بطلهم ، وليس هناك غيره ممن يثقون فى قدرته على قيادتهم إلى النصر ؛ لكنه أسير لدى أمير الدانشمند فى قلعة نقصار الواقعة على مسافة بعيدة إلى الشمال الشرقى من الأناضول ، فأصروا على أن تكون مهمتهم الأولى هى إنقاذ بوهيموند ، ولم

(٥) Orderic Vitalis, x, 19, vol. iv, p. 119.

(٦) Albert of Aix, VIII, 6, pp. 256-3; Orderic Vitalis, loc. cit.

تجد اعتراضات ريموند وستيفن أذنا صاغية ؛ فما يشعر به ريموند من غيرة حيال بوهيموند كان معروفا جيدا ، كما أن ريموند - برغم مزاياءه - لم يظهر أبدا بمظهر القائد الذى يأمر فيطاع . وأما ستيفن ، فقد تسبب جنبه السابق فى أنطاكية فى القضاء على ما تبقى له من نفوذ . وهكذا انتصر رأى اللومباردين بعدما أيدهم كونت بياندرات ورئيس اساقفة ميلانو^(٧) . واخرف الجيش شرقا من نيكوميديا ويمسم وجهه شطر أنقرة . وكانت البلاد فى أغلبها تحت السيطرة البيزنطية ، ولذا لم يجد الصليبيون صعوبة فى الحصول على الغذاء من أى مكان ، فيما عدا أنقرة نفسها التى تتبع الآن السلطان السلجوقى قلعج أرسلان . وعندما وصلوها يوم ٢٣ يونية وجدوا تحصيناتها ضعيفة فهاجموها واستولوا عليها ، وسلموها لممثل الامبراطور ، فكان ذلك تصرفا حكيما .

١١٠١ م : معركة مرسيفان

غادر الصليبيون أنقرة باتجاه الشمال الشرقى عبر الطريق الذاهب إلى جنجرة الواقعة إلى الجنوب من بفلاجونيا كى يصلوا إلى الطريق الرئيسى المؤدى إلى أماسيا ونيقصار . على أن متاعبهم بدأت ولما وصلوا إلى جنجرة ، إذ كان قلعج أرسلان يتفهم أمامهم مخربا البلاد ليمنع عنهم الطعام . وفى ذات الوقت شعر الملك غازى الدانشمند بالخطر فبادر بتجديد تحالفه مع قلعج أرسلان ، وأرسل إلى رضوان الحلبي يستحثه على إرسال التعزيزات . وفى أوائل يوليه وصل الصليبيون إلى جنجرة حيث كان السلاجقة ينتظرونهم بأعداد ضخمة فى الحصن المنيع ، واضطر الصليبيون إلى الرحيل بعد أن نهبوا البلاد واستولوا على ما فيها من طعام ، ثم نال منهم الجوع والتعب ، وهم الذين لا قبل لهم بحرارة يولية المحرقة فى هضبة الأناضول . وبين مشاعر اليأس وخيبة الأمل أخذوا بنصيحة الكونت ريموند بأن لا سبيل إلى إنقاذ الجيش من كارثة محققة إلا بالسير شمالا باتجاه كستمونى ، ومنها إلى أية مدينة بيزنطية على ساحل البحر الأسود . ولم يساور ريموند شك فى أن الامبراطور سيفغر له مخالفته لتعليماته بعد أن استعاد له القلعتين العظيمتين : أنقرة وكستمونى ، لاسيما أن الأخيرة (كاسترا كومنون - أى قلعة كومنين) هى موطن الأسرة الامبراطورية من قبل .

(٧) Albert of Aix, VIII, 7, pp. 563-4 يقول إن قرار السير شرقا هو قرار اللومباردين.

ومضت الرحلة إلى كستمونى بطيئة مولة . فالماء فى تناقص ، والأتراك يدمرون المحاصيل أثناء تحركهم السريع فى صفوف متوازية ، يناوشون طليعة الصليبيين تارة ومؤخرتهم تارة أخرى . ولم يمض وقت طويل حتى هاجم الأتراك فجأة حرس الطليعة الذى كان يتألف من سبعمائة فارس من اللومباردين فضلا عن المشاة فلاذ الفرسان اللومبارديون بالفرار تاركين المشاة للقتل والتكيل . ويجهد جهيد تمكن ستيفن (كونت برجندي) من جمع شتات الطليعة لصد هجوم الأعداء . وخلال الأيام التى تلت تكرر اشتباك ريموند فى المؤخرة مع الأتراك ، مما أجبر الجيش كله على أن يتحرك فى حشد واحد ، فامتنع إرسال الكشافين أو فرق البحث عن المون . وبوصول الجيش إلى كستمون بدا واضحا للقادة أن فرصة النجاة الوحيدة هى الإندفاع مباشرة بقدر الإمكان فى اتجاه الساحل ، على أن النورماندين رفضوا مرة أخرى الاستجابة لنداء العقل ، ولعلمهم ألقوا باللوم كله على ريموند لإختياره طريق كستمونى . بما فيه من مصاعب ، وربما ظنوا أن الأمور ستسير على ما يرام بخروجهم من أراضى السلاجقة إلى أراضى الدانشمند ، وانتهى بهم الأمر إلى إصرار أحمق على التوجه إلى الشرق مرة أخرى ، ولم يكن للأمرء من حيلة سوى الرضوخ لإصرارهم ؛ إذ أن انفصالهم بفرقهم الصغيرة عن الجيش الرئيسى يعنى ضياعا محققا . وتحركت الحملة الصليبية وعبرت نهر هاليس فصارت فى أراضى الدانشمند . وفى الطريق تلبسهم شيطان النهب والسلب ، فنهبوا قرية مسيحية قبل وصولهم إلى مدينة مرسيفان الواقعة فى منتصف الطريق بين النهر وأماسيا ، وهناك وقع الكونستابل كورنارد فى كمين ففقد عدة مئات من جنوده الألمان وبات جلياً الآن أن الدانشمند وحلفاءهم يتجمعون فى حشود ضخمة استعدادا لهجوم جاد ، فراح ريموند ينظم صفوف الجيش المسيحي استعدادا للمعركة^(٨).

وبدأ الأتراك أسلوبهم المفضل فى الحرب : ينقض الرماة ويطلقون سهامهم وينسحبون بسرعة ليظهر رماة آخرون من اتجاه آخر . ولم تنهياً للصليبيين فرصة نزال رجل لرجل بحيث تظهر ميزات قوتهم البدنية الأكبر وأسلحتهم الأفضل . وسرعان ما

(٨) Albert of Aix, VIII, 8-14, PP. 564-7. يقول ألبرت إن ريموند أخذ رشوة من الأتراك ليقود الجيش إلى كستمونى وليس هذا مقنعا. Anna, loc. cit. تذكر أنا كرمينا نهب القرية المسيحية ما حدده Tomaschak من أن "Maresch" التى ذكرها Albert هى Amasea Topographie von Merzifun or Mersivan. Kleinasiens, p. 88) وأن يعكس ما حدده Michaud على أنه Mersivan إلى Maresiam or Marescan والأخيرة هى الشكل الفرنسى لـ Marash ولكن من الصعب أن نرى كيف يمكن وضع حرف الراء 'r' فى Amasya ، وهى الاسم التركى لـ Amasea أو Masa العربية.

انهيار اللومبارديون ، ودب الرعب فى قلوبهم وهم يولون الأدبار يسبقهم قائدهم كونت بياندرات تاركين وراءهم نساءهم وقساوستهم ، وفى الحال لحق بهم المرتزقة من البتشنج الذين لم يجدوا أى مبرر لانتظار موت محقق . وصار ريموند وحيدا بعد أن هجره رفاقه ، فتقهقر مع حرسه الخاص إلى تل صخرى صغير وراح يقاوم إلى أن تمكن ستيفن كونت بلوا وستيفن كونت برجاندى من إنقاذه . وارتد الفرسان الفرنسيون وكونراد الألمانى إلى المعسكر حيث قاوموا بشجاعة طوال النصف الثانى من النهار . وبحلول الليل وجد ريموند أن لا طاقة له بمزيد من القتال ، فهرب متخفيا تحت جناح الظلام مع حرسه الخاص (البروفانس) والحرس البيزنطى ، وبم وجهه شطر الساحل . ولما علم رفاقه بفراره كفوا عن القتال ؛ وشهد انبلاج الصباح تسابق من نجا من الجيش تاركين المعسكر يستولى عليه الأتراك بمن فيه من غير المحاربين.

ونمهل الأتراك فى المعسكر ليقتلوا الرجال والمسنين ، ثم انطلقوا يتعقبون الفارين وقد أخذ الحماس منهم كل مأخذ ، ولم يفلت من سيوفهم سوى الفرسان على خيولهم، ولم يبق من اللومباردين المعاندين الذين تسببوا فى الكارثة سوى قاداتهم . وهكذا فقد الجيش أربعة أحماسه ، وفاز الأتراك بكثير الكثير من نفيس الثروة والأسلحة ، وامتلات أجنحة الحريم وأسواق الرقيق فى الشرق يومئذ بالأسرى من الصبايا والأطفال^(٩).

وأفلح ريموند وحرسه فى الوصول إلى ميناء بافرا البيزنطى الصغير على مصب نهر هاليس حيث وجدوا سفينة أبحرت بهم إلى القسطنطينية ؛ وأما الفرسان الآخرون فقد شقوا طريق عودتهم عبر النهر حتى الساحل عند سينوب على البحر الأسود ، حيث واصلوا سيرهم البطئ على الطريق الساحلى وسط الأراضى البيزنطية وحتى البوسفور ثم تجمعوا مرة أخرى فى القسطنطينية فى باكورة الخريف^(١٠).

١١٠١ م نتائج معركة مرسيفان

حاول رأى العام الصليبي أن يجد كبش فداء يلقي عليه بمسؤولية الكارثة ، فوجده فى بيزنطة ؛ إذ قيل إن ريموند بقيادته للجيش فى غير طريقه ، ليهلك فى كمين

(٩) Albert of Aix, VIII, 14-23, pp. 567-73, واتفق روايه ألبرت مع الرواية المقتضبة التى روتها أنا كومينا فى 37-8, vol. iii, pp. 37-8, Anna Comnena, xi, viii, 3.

(١٠) Albert of Aix, viii, 24, p. 274.

متفق عليه سلفا ، إنما كان ينفذ تعليمات الامبراطور . لكن الحقيقة هي أن الامبراطور غاضب الآن على ريموند ورفاقه برغم استقباله لهم بأدب يشوبه برود لا يخفى إمتعاضه^(١١) ، وكان حربا به أن يغفر لهم لو أن الحملة الصليبية استردت له كستموني والجزء الداخلي من بفلاجونيا ؛ فقد كان متلهفا على طريق مباشر مأمون إلى سوريا ، وراغبا في تأمين معاودة غزواته في جنوب غرب آسيا الصغرى ، وساعيا إلى التدخل في شؤون سوريا ، فضلا عن عزوفه عن التورط في حرب مع الأمير الدانشمندى ، لاسيما أن المفاوضات جارية الآن لشراء بوهيموند ؛ وهكذا فشلت مخططاته بسبب حماقة اللومباردين ليس إلا . على أن الكارثة كانت لها آثارها الأخطر ؛ فالحملة الصليبية الأولى جردت الأتراك من شهرتهم ومن ثقتهم بأنفسهم كذلك ، ولكن الأتراك الآن استعادوا الشهرة والثقة بالنفس على السواء ، وتمكن السلطان السلجوقي من بسط سيطرته على أواسط الأناضول ، وسرعان ما أقام عاصمة ملكه في قونية الواقعة في قلب الطريق الرئيسى من القسطنطينية إلى سوريا ، بينما واصل الملك غازى الدانشمندى غزواته في وادى الفرات وحتى مشارف كونتية الرها^(١٢) . وهكذا بات الطريق البرى من أوروبا إلى سوريا مغلقا في وجه البيزنطيين ، فضلا عن الصليبيين . وعلاوة على ذلك ، ساءت العلاقات بين الصليبيين وبيزنطة لإصرار الصليبيين على أن صانع بلاياهم هو الامبراطور ، بينما شعر البيزنطيون بالصدمة والغضب لغباء الصليبيين وجحودهم وخداعهم.

١١٠١ م : الحملة الصليبية النفرسية

لم يمض وقت طويل حتى اتضحت نتائج الكارثة . فبعد أيام قليلة من انطلاق اللومباردين من نيكوميديا ، كان جيش فرنسى قد وصل القسطنطينية وعلى رأسه وليم الثانى ، كونت نفرس . وكان قد خرج من وطنه في فبراير ١١٠١ م ، مرتحلا عبر إيطاليا ثم عبر البحر الأدرياتيكي من برنديزى إلى أفلونا . وترك جيشه انطبعا رائعا أثناء مسيرته عبر مقدونيا لما أبداه من انضباط ، واستقبل الامبراطور الكونت استقبالا حسنا ، ولكن الكونت قرر عدم البقاء في القسطنطينية ؛ وربما توقع أن ينضم في القسطنطينية إلى قوات كونت برجندي - وهو جاره في الوطن - ولذا أسرع في الرحيل قدر

(١١) Ibid., loc. cit. يقول إن ريموند راح يهدىء من حفيظة الامبراطور .

(١٢) Cahen, La Syrie du Nord, p.232; Michael the Syrian, iii, pp.189-191.

استطاعته أملا اللحاق به . وبوصوله نيكوميديا ، علم أن الصليبيين ذهبوا إلى أنقرة ، فوصلها في نهاية يولييه تقريبا . على أنه لم يكن هناك من يعرف مكان الجيش الفرنسى اللومباردى ؛ ولذلك عاد وليم متخذاً الطريق الذاهب إلى قونية . وبرغم ما لقيه الجيش فى رحلته من مشاق فى بلد لم يبرأ من الخراب منذ الحملة الصليبية الأولى ، فقد تقدم الجيش فى نظام تام . وكانت قونية آنذاك فى قبضة حامية سلجوقية قوية ، وباءت بالفشل محاولات وليم فى الهجوم على المدينة للاستيلاء عليها . وتحقق من أن التأخير هناك يخلو من الحكمة ، فواصل مسيرته . بيد أنه فى تلك الأثناء علم قلعج أرسلان والملك غازى بظهور هذا العدو الجديد . وكان حماس الانتصار على اللومباردين ما يزال مشتعلا ، فأسرعا جنوبا ربما خلال (قيصرية مزاكيا) و(نيجده) ، فوصلا هرقله قبل وليم . وكان الجنود النفريسيون يسيرون ببطء باتجاه الشرق من قونية ، وقد نفذ الطعام ، والآبار الموحدة على الطريق قد سدها الأتراك . ولدى اقترابهم من هرقله ، وهم فى حالة من شدة التعب والضعف ، وقعوا فى كمين وأحاط بهم الجيش التركى الذى كان يفوقهم بأعداد الغفيرة . وانهارت مقاومتهم بعد قتال قصير . وسقطت القوة الفرنسية بكاملها فى ميدان المعركة ، عدا الكونت وليم نفسه والقليل من الفرسان الراكبين الذين تمكنوا من اختراق خطوط الأتراك ، وبعد أن هاموا على وجوههم عدة أيام فى جبال طوروس وصلوا قلعة جيرمانيكوبوليس البيزنطية ، الواقعة شمال غرب سلوقية الإيزورية . ويبدو أن الحاكم البيزنطى هناك أمدهم بقوة من اثنى عشر جنديا مرتزقا من البتشنج لمرافقتهم حتى الحدود السورية . وبعد ذلك بأسابيع قليلة دخل الكونت وليم ورفاقه أنطاكية ، نصف عرايا وبلا سلاح ، قائلين إن البتشنج استلبوهم وتركوهم فى الصحراء التى كانوا يعبرونها ؛ غير أن ما حدث فى حقيقة الأمر لا يعلمه أحد^(١٢).

١١٠١م : الحملة الصليبية الأكيثانية

لم يكد كونت نفرس يعبر البوسفور فى طريقه إلى الأراضى المقدسة حتى وصل القسطنطينية جيش آخر أكبر يتألف من فرنسيين وألمان . وكانت الفصيصة الفرنسية بقيادة وليم التاسع ، دوق أكيثان ، الذى كان أشهر الشعراء الغنائيين فى عصره (Troubadour)، والذى كان من الناحية السياسية غريما مريرا لريموند التولوزى ؛ إذ أن زوجته ، الدوقة فيليبا ، هى ابنة الأخ الأكبر لريموند ، وكان لها أن ترث كونتيته . وجاء

(١٢) .Albert of Aix, viii, 25/33, pp. 576/8.

مع وليم التاسع هيو (كونت فيرمندوا) الذى كان قد تخلص عن الحملة الصليبية الأولى بعد الإستيلاء على أنطاكية ، وكان متلهفا على الرفاء بالعهد الذى قطعه على نفسه بالذهاب إلى القدس . وانطلق الجيش الأكتانى من فرنسا فى شهر مارس فى الطريق البرى الذى يخترق جنوب ألمانيا وهنغاريا . وفى الطريق انضم إليه الدوق ويلف دوق بافاريا الذى أمضى حياة حافلة فى ألمانيا، ثم أزمع أن يمضى مابقى له من سنوات الشيخوخة فى الحرب من أجل الصليب فى فلسطين . وأحضر معه جيشا مجهزا تجهيزا جيدا يتألف من فرسان وراجلين ؛ وكان بصحبته ثيمو ، رئيس أساقفة سالزبرج ، ومرجرافين إيدا النمساوية ، وكانت إحدى أجمل نساء عصرها؛ لكنها الآن وقد ولى شبابها سعت إلى مافى الحملة الصليبية من إثارة يشوبها الورع . وسار الجيشان المتحدان معا أسفل نهر الدانوب إلى بلجراد ثم سلكا الطريق الذى يخترق البلقان . وكان حشدا جامحا يغلب على سلوكه العبث الذى بلغ مداه بوصولهم ادريانوبل ؛ فأرسلت السلطات البيزنطية جنود البتشنج و الأتراك الروس (البولوفتسيان) لوقف أى تقدم آخر لهم . وبدأت معركة عادية ؛ ولم يسمح لهم بالتقدم إلا بعد أن تدخل الدوق وليم ومعه ويلف شخصا وتعهدا بانضباط سلوك الجند . ورافقهم حرس قوى حتى القسطنطينية ، حيث استقبل الكسيوس الكونت وليم ، وويلف ، ومارجرافين ، استقبالا حسنا، وكان قد أعد العدة لنقل رجالهم بأسرع ما يمكن عبر البوسفور . واستقل بعض الحجاج المدنيين سفينه أخذتهم مباشرة إلى فلسطين التى وصلوها بعد رحلة استغرقت ستة أسابيع، وكان بينهم المؤرخ إيكارد (كونت أورا) Ekkehard of Aura .

وكان بمقدور الدوقين اللحاق بوليم الثانى كونت (نفرس) وتقوية جيشيهما بالانضمام الى قواته. لكن كونت نفرس كان يرغب فى الانضمام الى كونت برجندي ، وليس من المتوقع أن ينضم الدوق وليم الى جيش يقوده عدوه القديم ريموند كونت تولوز . أما ويلف البافارى ، الذى كان عدوا قديما للإمبراطور هنرى الرابع ، فرمما كانت المودة منعدمة بينه وبين كونراد ، الذى كان يعمل فى خدمة هنرى الرابع (كونستابل) . وأسرع كونت نفرس متقدما إلى أنقره ، بينما تريت الجيش الأكتانى البافارى على ضفاف البوسفور خمسة أسابيع ، ثم تحرك متمهلا على طول الطريق الرئيسى الذهاب إلى دوريليوم وقونية . ووصل دوريليوم بعد أن غادرها الجيش النفرسى بأيام قليلة وابتعد كثيرا فى طريق عودته باتجاه قونية . ومما زاد من صعوبات الأكتانيين والبافاريين مرور جيش آخر على نفس الطريق قبل ذلك بأيام قليلة ، مستوليا على

القدر الضئيل الذى كان متاحا من إمدادات الطعام ، فألقى الصليبيون باللوم على البيزنطيين خاصة . وكشأن النفرسين ، وجدوا الآبار جافة أو مسدودة فنهبوا مدينة فيلوميليوم بعد أن هجرها أهلها . وكانت الحامية التركية ، التى صدت الجيش النفرسى فى قونية ، قد هجرت المدينة قبل وصول هذا الجيش الأكبر آخذة معها كل شئ يؤكل ، ونزعت الثمار والفواكه من البساتين والحدائق جميعا ، فلم يجد الصليبيون ما يجددون به حيويتهم . وفى نفس تلك اللحظة تقريبا كان قلع أرسلان وملك غازى أمامهم على مسافة مائة ميل تقريبا يذبحون رجال نفرس.

١١٠١م : معركة هرقله

راح الصليبيون يكدحون فى شق طريقهم من قونية خلال الصحراء نحو هرقله وقد نال منهم الجوع والعطش . وظهر فرسان الأتراك من يمينهم ويسارهم ، يرشقونهم بسهامهم ، ويتصيدون فرق البحت عن الطعام والجماعات الشاردة . وفى أوائل سبتمبر دخلوا هرقله فوجدوها مهجورة مثل قونية . وكان النهر يتدفق بمياهه وراء المدينة ، وهو أحد الأنهار القليلة ذات المياه الوفيرة طوال الصيف فى الأناضول.

واندفع المحاربون المسيحيون نحو المياه التى بدت لهم مرحة تاركين صفوفهم وقد أوشكوا على الجنون من قسوة الظمأ ، ولكن الجيش التركى كان محتبسا فى الأحام الكثيفة على جانبى النهر . وبينما كان الصليبيون فى صخبهم الفوضى ، انقضَّ عليهم الجيش التركى وأحاط بهم ، ولا وقت هناك لإصلاح الصفوف ، فدبَّ الذعر فى الجيش المسيحى واختلط الفرسان والمشاة فى فرارهم مذعورين ، وأثناء تعثرهم فى محاولة الفرار راح العدو يعمل فيهم السيف . وتمكن دوق أكيثان من شق طريقه على فرسه إلى الجبال يتبعه سائس الخيل ، وبقي هكذا هائما على وجهة أياما عدة إلى أن عثر على طريق طرسوس . وجرح هيو (كونت فيرمندوا) جرحا بليغا فى المعركة ؛ وتمكن بعض رجاله من إنقاذه وتمكن هو الآخر من الوصول إلى طرسوس ، لكنه كان رجلا ميتا ، إذ وافته المنية يوم ١٨ أكتوبر ودفن هناك فى كاتدرائية القديس بطرس ، ولم يفد قط بعهدده الذى قطعه على نفسه بالذهاب إلى القدس . ولم يفلح ويلف البافارى فى النجاة إلا بعدما ألقى بدروعه كلها ، وبعد عدة أسابيع وصل إلى أنطاكية مع اثنين أو ثلاثة من خدمه . وأسير رئيس أساقفة ثيمو ، واستشهد فى سبيل عقيدته . وأما مصير سارجرافين النمساوية فلا يعلمه أحد . وتقول الأساطير المتأخرة إنها أنهت أيامه سيرة فى

حريم بعيد حيث ولدت البطل المسلم زنكى ، والراجح أنها سقطت من فوق محبتها أثناء الذعر وداستها الأقدام حتى ماتت^(١٤).

انتهت كل حملة من الحملات الصليبية الثلاث عام ١١٠١ م بكارثة ، مما كان له أثره فى قصة الحركة الصليبية برمتها. فقد انتقم الأتراك لهزيمتهم فى دوريليوم ، فضلا عن ذلك ، ليسوا هم الذين يطردون من الأناضول . وظل الطريق عبر شبه الجزيرة محفوقا بالمخاطر للجيوش المسيحية ، فرنجية كانت أو بيزنطية . وفيما بعد عندما رغب البيزنطيون فى التدخل فى سوريا ، كان عليهم تعزيز مواقعهم فى نهاية خطوط المواصلات التى كانت طويلة وضعيفة جدا ؛ بينما كان المهاجرون الفرنج يخشون الرحيل برا عن طريق القسطنطينية ، إلا إذا كانوا فى صحبة جيوش جرارة ، وليس أمامهم سوى ركوب البحر ، وهو أمر لا يتوفر إلا للقليل من ذوى القدرة المالية . وبدلا من وصول آلاف المستعمرين الذين تستفيد منهم سوريا وفلسطين فى ذلك العام، لم يصل إلى الدويلات الفرنجية سوى عدد ضئيل من القادة المشاغبين الذين فقدوا جيوشهم شهرتهم ، حيث يوجد بالفعل ما يكفى من القادة المشاغبين.

ومع ذلك ، لم يشعر المسيحيون كلهم بالأسف لكوارث عام ١١٠١ م . إذ وجدت المدن البحرية الإيطالية أن الفشل فى تأمين الطريق البرى عبر آسيا الصغرى يعنى زيادة نفوذها وثروتها؛ فهى تملك السفن التى توفر البديل لخطوط مواصلات الدويلات الفرنجية فى الشرق ، وأصبح التعاون معها أمرا لازما لازبا ، وأصرّوا على أن يكون الدفع فى شكل امتيازات تجارية . وأما الأرمن فى جبال طوروس ، خاصة الأمراء الروميون ، فقد رحبوا بالظروف التى حالت دون معاودة بيزنطة إنشاء امبراطوريتها فى المناطق التى يعيشون فيها ؛ رغم أن الأرمن الأقرب إلى الشرق كانوا أقل ابتهاجا لتلك الظروف ، إذ أن عدوهم الرئيسى هو الأمير الدانشمندى ، الذى سرعان ما دفعه حماس انتصاره إلى مهاجمتهم . أما النورمانيدون فى أنطاكية ، كشأن

(١٤) Ekkehard, XXIV, (وهو المصدر الوحيد الكامل) Albert of Aix, VIII, 34-40, pp.579-82
XXVI, pp.30-2, ذهب بحرا من القسطنطينية ، ويشوش الحملات الأرضية كما يفعل Fulcher of
Charters, VII,xvi, 1-3, pp. 428-33. وهناك ثلاثة Passiones S. Thiemonis يصف استشهاد
رئيس الأساقفة ولكن ليس هناك تفاصيل عن الحملة . وأما مصير إيذا الحدسى فيرد
فى M.G.H.Ss.vol. XXI, p. 462. Historia Welforum Weingartensis, in
قللت لا غير. وهناك عدة مورخين غربيين يشيرون إلى هذه الحملة لمجرد المناسبة . ويحدد
Hagenmeyer(op.cit. p. 457) تاريخ نهب فيلوميليوم بحوالى ١٠ أغسطس ، وتاريخ المعركة
حوالى ٥ سيمير.

الروبيين يخشون بيزنطة أكثر مما يخشون الأتراك، فقد أتيحت لهم فسحة من الوقت نافعة ؛ فما زال بوهيموند فى الأسر المضى ، وانتهاز تنكريد - الرصى على أنطاكية - الفرصة بكاملها وراح يقوى الإمارة على حساب الامبراطور . وسرعان ما وضعت الأقدار فى يده ورقة رابحة .

١١٠٢م اعتقال الكونت ريموند

كان دوق أكيثان ، وكونت بافاريا ، وكونت نفرس ، قد وصلوا فعلا مع القليلين الباقين على قيد الحياة إلى أنطاكية بحلول خريف ١١٠١ م . أما قادة الحملة الصليبية الفرانكولومباردية فكانوا لا يزالون فى القسطنطينية . وكان من الصعب أن يغفر لهم الكسيوس حماقاتهم . حتى ريموند الذى كان يعلق عليه الآمال العراض خيب آماله هو الآخر . وفى نهاية العام قرر الأمراء الغربيون مواصلة رحلة الحج ؛ وطلب ريموند الإذن ليلحق بزوجه وجيشه فى اللاذقية ، فأذن لهم الامبراطور وأمدهم بسفن أبحرت بهم إلى سوريا . وفى بداية العام تقريبا هبط إلى البر فى ميناء السويدية ستيفن (كونت بلوا) ، وستيفن (كونت برجندى) ، والكونستابل كونراد ، وألبرت (كونت بياندرات) ، وأسرعوا إلى اللاذقية حيث رحب بهم تنكريد ترحيبا حارا أما سفينة الكونت ريموند فقد انفصلت عن باقى السفن واضطرت إلى الرسو فى ميناء طرسوس . وما أن وطئت قدمه البر حتى تقدم منه فارس يدعى برنار الغريب وألقى القبض عليه لخيانته العالم المسيحي بفراره من ميدان القتال فى مرسفان . ولم يكن بمقدور حرس ريموند الخاص أن يفعل شيئا لقله عدده ، فلم يتمكن من إنقاذه . واقتيد ريموند تحت الحراسة وسُلم لتنكريد^(١٥).

(١٥) 3-582, pp. 42, viii, Albert of Aix, ١١٠١م (انظر ادناه ص ٦٤) . وكما يفترض رادولف (Radulph of Caen) cxlv, p.708, من المحتمل ان يكون ريموند قد هبط الى الساحل فى لونيديادا ، او ميناء طرسوس ، وليس فى السويدية مع الصليبيين الآخرين كما يفترض ألبرت . أما ماثيو الأورفسى Matthew of Edessa, clxxii, p. 242 فيقول إن ريموند قد سُجن فى (سارواتافى) ، أى سارفينتيكار فى جبال طوروس . وليس ذلك محتملا.

الفصل الثالث:

**أمراء أنطاكية
النورمانديون**

أمراء أنطاكية النورمانديون

"وهؤلاء كلهم يعملون ضد أحكام قيصر"

(أعمال الرسل : ١٧ - ٧)

وبرغم انزعاج أمراء الفرنج ، على ما بدا آنذاك ، لهزيمة بوهيموند ووقوعه أسيرا لدى الملك غازي الدانشمندي، إلا أن ذلك لم يكن يخلو من أحداث وجدوا فيها بعض عِوض ؛ فأنطاكية في حاجة إلى وصى عليها في غيبة بوهمند ، وكان تنكريد هو المرشح لمباشرة مهام الإمارة بدلا من خاله الأسير، وبذا تمكن الملك بلدوين من التخلص من أخطر أتباعه في فلسطين ، بينما أقبل تنكريد على أنطاكية تسبقه مشاعر البهجة ، ففيها الخلاص من وضع لا يخلو من حرج ، يفتقر فيه إلى الأمان ، وفيها أحوال جديدة يتسع فيها المجال ويتحقق الاستقلال . وعندما رحل عن فلسطين في شهر مارس ١١٠١م لم يكن لديه سوى شرط واحد : أن يستعيد إقطاعية الجليل التي سبق أن استولى عليها، في حالة إطلاق سراح خاله من الأسر خلال ثلاث سنوات وإذا لم تعد

أنطاكية في احتياج إليه . وهكذا بات بلدوين وتنكريد كلاهما حريصا على بقاء بوهيموند أسيرا أطول فترة ممكنة ، ولم يبذلا أية محاولة للتفاوض مع أسرته^(١) .

وتوخى تنكريد الاستقامة في وصايته على أنطاكية . فلم يتخذ لنفسه لقب أمير أنطاكية وبرغم أنه سلك عملة - كما تقول الأسطورة في لغة يونانية رديئة - فلم تحمل هذه العملة سوى عبارة (خادم الرب) . وكان أحيانا يطلق على نفسه (الأمير الأكبر) ، ولو أن طموحاته أغرته بأكثر من ذلك لوجد معارضة من الرأي العام في أنطاكية على الأرجح ، فما زال النورمانديون يعتبرون بوهمند قائدهم ، كما كان هناك صديق مخلص لبوهمند هو البطريق اللاتيني "برنار الفالنسي" الذي عينه قبل الأسر مباشرة والذي من أجله طرد البطريق اليوناني "جون الأوكزيتي" . وسار تنكريد على نفس السياسة التي كان يسير عليها بوهمند ، فراح يعزز الجوانب الداخلية في إدارة الإمارة ، ويضفي الصبغة اللاتينية على الكنيسة ؛ وفي الشؤون الخارجية دأب على تحقيق الشراء على حساب البيزنطيين وأمراء المسلمين من جيرانه . على أن طموحاته المحلية فاقت طموحات خاله ، على عكس طموحاته العالمية التي كانت أقل من طموحات خاله^(٢) .

١١٠١م تنكريد وبيزنطة

وكان أول شاغل لتنكريد هو توفير الحماية من أي هجوم بيزنطي . وقد ساعده ما منى به الصليبيون من كوارث عام ١١٠١ م ؛ فلا يستطيع الامبراطور - بعد النهضة القوية لأتراك الأناضول - أن يسير جيشا يجتاز شبه الجزيرة ويمضي مباشرة إلى الجنوب الشرقي البعيد . وكان تنكريد يرى أن الهجوم هو أفضل سبل الدفاع ، ولذا بعث في صيف ذلك العام - وربما فور أن سمع بأنباء مرسيفان - بالجنود إلى كيليكيا لاستعادة مامسترا وأضنة وطرسوس التي كان البيزنطيون قد استردوها قبل ذلك بثلاث سنوات . ولم تكن القوات البيزنطية المحلية من القوة بحيث تصمد لمقاومة قواته ، فكان له ما أراد .

(١) Fulcher of Chartres, I, vii, I, pp. 390-3; Albert of Aix, VII, 44-5, pp. 537-8.

(٢) Schlumberger, *Les Principautés franques du Levant*, pp. 14-15, التي تظهره في أردية امبراطورية ، ومع ذلك توجد "كوفية" على رأسه . ومنقوش على العملة باللغة الإغريقية : "نانكريد ، خادم الله" ، وعلى الوجه الآخر : IC XP NIKA (مثل العملات البيزنطية) . وطبقا لما ورد في *Historia Belli Sacri*, p. 228 لم يتأكد منصبه كحاكم إلى أن أقسم قسم الولاء لبوهيموند وخلع عليه الوصاية المندوب البابوي موريس أوف بورتو *Maurice of Porto*.

وعندما لجأ وليم كونت أكيثان وهيو كونت فيرمندوا إلى طرسوس في نهاية سبتمبر كان برنار الغريب التابع لتنكريد حاكما على المدينة^(٣).

وبعد ذلك تحول اهتمام تنكريد إلى ميناء اللاذقية البيزنطى الذى كان النورمانديون يشتهرون منذ زمن طويل . وكان ميناء هائلًا ، خاصة بعد بحىء جنود ريموند البروفانسيين من مقاطعة بروفانس الفرنسية مما أضاف قوة جديدة للميناء ، فضلا عن الأسطول البيزنطى الذى يوفر له الحماية بحرا، فلم يجرؤ تنكريد على مهاجمة اللاذقية قبل أن يتفاوض مع مدينة جنوا الإيطالية ضمانا لمساعدة سفنها^(٤) . فراح يحتل البلاد الداخلية ويحاول الاستيلاء على جبلة فى الجنوب . ولقد سبق أن حاول بوهمند الاستيلاء على جبلة فى صيف ١١٠٠م بحملة صغيرة أسر فيها "الكونستابل" التابع له وباءت تلك الحملة بالفشل ؛ وكذلك فشل تنكريد فى الاستيلاء على جبلة فى صيف ١١٠١م . على أن حملة تنكريد هذه الفاشلة دفعت قاضيها ابن صليحة إلى تسليم المدينة لأتابج دمشق ، وتقاعد هو نفسه فى دمشق ليمضى شيخوخة هادئة . وأرسل أتابج دمشق ، طفتكن ، ابنه بورى ليتولى حكم جبلة . لكنه كان مكروها ، فخلعه أبناء جبلة بعد أشهر قليلة ووضعوا أنفسهم تحت حماية بنى عمار فى طرابلس ، وسحب تنكريد جنوده من المنطقة^(٥) .

وقد مكّنه اعتقاله لريموند وحجزه فى أنطاكية من معاودة خطته للاستيلاء على اللاذقية . على أن تصرفه حيال ريموند كان بمثابة صدمة للبطريق برنار ولرفاقه الصليبيين . ونزولا على رغبتهم أطلق سراح ريموند ؛ على أنه كان لزاما أن يقسم ريموند أولا على عدم التدخل مطلقا فى شؤون سوريا الشمالية^(٦) . وانطلق ريموند لغزو طرسوس ، وفى طريقه الذى يمر باللاذقية التزم بقسمه وأمر جنوده بإخلاء المدينة والانضمام إليه ومعهم زوجته الكونتيسة ، وهكذا ترك الحامية البيزنطية وحيدة دون مساعدة البروفانس الفرنسيين . وفى ربيع ١١٠٢م زحف تنكريد على اللاذقية ، لكن أسوارها المنيعة استعصت عليه وصدته حاميتها ببسالة ، بينما كانت وحدات البحرية

(٣) Radulph of Caen, cxliii, p. 706; Albert of Aix, VIII, 40, p. 582; Orderic Vitlais, XXIII, p. 140.

(٤) Caffaro, Liberatio, p. 59; Ughelli, Italia Sacra, IV, pp. 847-8.

(٥) Ibn al-Qalanisi, Damascus, pp. 51-2.

(٦) Albert of Aix (VIII, 42, pp. 582-3) يقول إن ريموند أقسم ألا يغزو سوريا شمال عكا، وحيث لا اعتراض على هجومه على طرسوس فرمما اقتصر قسمه على البلاد الواقعة إلى الشمال من اللاذقية .

البيزنطية تزود الحامية بالمؤن ، واستمر الحصار لما يقرب من عام . وفى الأسابيع الأولى من ١١٠٣م ، وبينما كان تنكريد ينتظر سفن جنوا التى استأجرها لقطع المواصلات بين اللاذقية وقبرص ، تدبر خدعة حربية لرجال الحامية خارج أسوار المدينة، وانقض عليهم وأوقعهم فى الأسر ، فاستسلمت له المدينة^(٧) .

١١٠٢م ضغينة الأسقف مناس

ولم يكن الامبراطور الكسيوس ليرضى عن تلك التصرفات ؛ إذ أغضبه إبعاد بطريق أنطاكية اليونانى جون الأوكسىتى ، وطرد رجال الدين اليونانيين واستبدالهم بآخرين من اللاتينيين . وكان قد تسلم رسالة فى باكورة ١١٠٢م من الملك بلدوين يرجوه فيها بذل ما لديه من جهد لمساعدة أبة حملة صليبية تالية ، وذلك بعد أن سمع شائعة تقول إن البيزنطيين ساعدوا فى تخطيط الحملات الصليبية سنة ١١٠١م بامتناعهم عن التعاون معها . وحمل رسالة بلدوين أسقف يدعى مناس كان قد ذهب إلى فلسطين مع إكارد فى ١١٠١م وكان عائدا لتوه من القدس . ويبدو أن العبارات الرقيقة كانت تغلب على أسلوب الرسالة ، فضلا عما حملة الأسقف من هدايا بالديون، فتأثر الامبراطور الكسيوس وظن أن بمقدوره مصارحة الأسقف بما يداخله من أحزان ، لكنه أخطأ الحكم على الرجل ؛ إذ كان الأسقف لاتينيا أكثر منه مسيحيا ، ولا تعاطف لديه إزاء اليونانيين ، ورجاه الامبراطور أن يذهب إلى إيطاليا ويبلغ البابا بما صارحه به ، ففعل الأسقف وإنما بطريقة أثارت غضب البابا على بيزنطة . ولو كان البابا إيربان الثانى على قيد الحياة ما وقع الضرر لما كان يتصف به من سعة الأفق وعزوف عن الدخول فى خلافات مع العالم المسيحى الشرقى ؛ أما خلفه البابا باسكال الثانى فكان ضئيلا بجانب سلفه ، منعدم البصيرة ، سهل الإنقياد . وسرعان ما وافق على وجهة النظر الفرنجية المبتذلة من أن الامبراطور يناصبهم العدا . ولم يجد الامبراطور سبيلا للإنتصاف .

ثم حاول تنكريد التدخل فى شؤون مملكة القدس . ففى ١١٠١م نفى الملك بلدوين البطريق ديامبرت ، فرحب به تنكريد على الفور فى أنطاكية حيث وضع كنيسة القديس جورج تحت تصرفه . وبعد أشهر قليلة انهزم الملك بلدوين أمام العرب فى

(٧) Radulph of Caen, cxliv, pp. 708-9; Anna Comnena, IX, vii, 7, vol. III, p. 36.

الرملة ، فاستنجد بأمرأء الشمال ، لكن تنكريد رفض تقديم المساعدة ما لم يرجع البطريق ديامبرت إلى القدس ويسترد بطريقته ، فاضطر بلدوين إلى الموافقة ، وبهذا ارتفعت شهرة تنكريد ، غير أنها خبت عندما أدين ديامبرت في أحد المجالس الكنسية وتقرر طرده مرة أخرى ، فرحب به تنكريد مرة ثانية ، لكنه لم يواصل الدفاع عن قضيته .

١١٠٢م بلدوين الثانى يرهن لحيته

ولم تلق تصرفات تنكريد استحسانا قط من جاره فى الرها بلدوين أوف ليبورج . وأبو بلدوين ، وهو هيو الأول كونت ريثيل ، هو ابن أميرة من بولونيا ، وهى عمّة جودفرى كونت لورين والملك بلدوين . ولأن بلدوين الثانى هذا ابن هيو الأصغر ، ومن ثم مفلس ، فقد جاء إلى الشرق مع أبناء عمومته ، لكنه بقى مع بوهمند فى أنطاكية وقت أن نصب بلدوين الأول نفسه فى الرها ، وكان يقوم بدور الوساطة والاتصال بين الأميرين ، فلما وقع بوهمند فى الأسر تولى حكومة أنطاكية إلى أن استدعى بلدوين من الرها وأصبح ملك القدس ، وعندئذ خلع الملك بلدوين على ابن عمه ، بلدوين كونت ليبورج ، إقطاعية الرها ليحكمها حكما ذاتيا تحت سيادة القدس . ولم يكن وضعه هذا الذى ورثه فى الرها وضعاً سهلاً ؛ فليست لإمارة الرها حدود طبيعية ، وهى معرضة للغزو دائماً ، ولا يستقيم له حكم إلا بتعزيز المدن الرئيسية والحصون بالحاميات ، وإذن كان فى احتياج إلى من يثق فيهم من القائمين على خدمته ومن رفاقه ، لكنه يفتقر إلى رجال من أبناء جلدته ، فراح يعمل على توثيق عرى الود مع المسيحيين من أهل البلد . وكان أول عمل يقدم عليه حيال ذلك هو زواجه - بصفته كونت الرها - من أميرة محلية هى الأميرة "مورفيا" ابنة جبرائيل القديم صاحب ملطية ذى العرق الأرمني ، ولكن من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية . وفى ذات الوقت راح يتودد للأرمن من أتباع الكنيسة الغريغورية المنفصلة وفاز بمؤازرتهم ، ومن بينهم مؤرخهم الكبير ماثيو الأورفى (أوف إيديسا) الذى كان يثنى عليه غاية الثناء لما يتحلى به من طباع ودودة ومسلك لا تشوبه شائبة برغم تدممه على طموحاته وبخله . وعلى الرغم من المحاباة التى كان بلدوين يظهرها للأرمن بوجه خاص كى ينتفع بهم فى حروبه ، فقد كان يظهر العطف كذلك على رعاياه من السيريان اليعاقبة ، وأفلح فى رأب صدع حدث فى كنيستهم . ولم يكن هناك ما يعيب بلدوين سوى الجشع ؛ فكان

فى احتياج لا ينقطع إلى المال ، يذل ما فى وسعه للحصول عليه . على أن مساعيه فى الحصول على المال كانت أقل تعسفا من مساعى بلدوين الأول ، بل تجاوزها لطفاً ومرحاً ، وكثيراً ما كان فرسانه يمرحون من مساعيه تلك ، لاسيما عندما يفكر فى انتزاع ثلاثين ألف بيزنت من حميه ، فيعلن أنه مدين لرجاله بهذا المبلغ ويقسم لهم أنه سوف يخلق لحيته إن لم يوفهم حقوقهم ، وكان يعلم مدى أهمية اللحية لكرامة الرجولة - كشأن اليونانيين - بين الأرمن الذين أصيبوا بالذهول عندما شاهدوا الصليبيين بادية الأمر بلحاهم الخليفة ، كما كان يعلم جيداً رأى حميه من أن صهراً بلا لحية يحط من هيئته . وعندما كان رجال بلدوين يشاركون فى هذه الملهاة مؤكدين قسم سيدهم ، كان جبرائيل يسارع بتقديم المال المطلوب للحيلولة دون تلك المهانة الشنيعة ، ويفرض على زوج ابنته قسماً جديداً بالاً يرهن لحيته مرة أخرى^(٨) .

واضطر بلدوين الثانى فى بداية حكمه إلى التصدى للأمير سقمان الأرمنى صاحب مارددين فى هجوم الأخير على مدينة سروق الإسلامية التى سبق أن استولى عليها بلدوين الأول وعهد بحكمها إلى فولشر أوف تشارتر . لكن بلدوين الثانى الذى خف لنجدة فولشر انهزم أمام سقمان ولقى فولشر مصرعه ، واستولى المسلمون على المدينة عدا القلعة الصامدة بقيادة بنديكت رئيس الأساقفة اللاتينى فى الرها ؛ فأسرع بلدوين الثانى إلى أنطاكية لاستئجار الجنود لتعويض خسائره . وابتسم له الحظ لدى عودته ؛ إذ اندحر سقمان خارج المدينة بخسائر كبيرة ، فراح بلدوين الثانى يقتل كل من تعاون مع الأراتقة من السكان ، وامتألت السجون ، واضطر السجناء إلى اقتداء أنفسهم مما زاده ثراء بهذه الأموال الجديدة^(٩) .

وسرعان ما وجد بلدوين نائباً مفيداً فى شخص ابن عمته جوزلين (أوف كورتناى) ، وهو المفلس أصغر أبناء لورد كورتناى ، ويبدو أنه أتى إلى الشرق فى صحبة جاره الحميم كونت (نفرس) ، ووهبه بلدوين كل أراضى الكونتية الواقعة غربى نهر الفرات ، واتخذ تل بشير مقراً رئيسياً له . وأثبت أنه الصديق الوفى لبلدوين ، على أن ولاءه هذا حامت حوله الشكوك فيما بعد^(١٠) .

(٨) وليم الصورى William of Tyre, x, 24, pp. 437-8, XI, II, pp. 469-72 ، يروى قصة زواج بلدوين وحيته . ويتحدث ماثيو الأورفى Matthew of Eddessa, ccxxv, p. 296 عنه باحترام ولكن بدون تعاطف معه.

(٩) Al Azimi, p. 494; Ibn al-Qalanisi, p.50-1; Matthew of Edessa, clxviii, pp. 232-3.

(١٠) William of Tyre, x, 24, pp. 437.

١١٠٣م إطلاق سراح بوهيموند

ويبدو أن مشاعر الريبة من طموحات تنكريد تزايدت على مر الأيام لدى بلدوين، الذي كان يرغب في إعادة بوهمند إلى أنطاكية، فشرع ومعه البطريق برنار في مفاوضة الأمير الدانشمندى على إطلاق سراحه، ولم يشاركهما تنكريد في تلك الصفقة. وكان الامبراطور الكسيوس قد سبق وأن عرض على الأمير ستين ومائتى ألف بيزانت فدية لإطلاق سراح بوهمند، وكان الأمير على استعداد للموافقة لولا أن السلطان قلع أرسلان بلغته تلك الأنباء، وكان قد طلب نصف أية فدية قد يتسلمها الدانشمند بصفته السيد الأعلى الرسمى لأتراك الأناضول. وأدى الخلاف بين الأمير والسلطان إلى منع الأول من سرعة قبول عرض الامبراطور؛ لكنه كان عرضا نافعا، إذ أحدث صدعا بين الأميرين. وكان بوهمند فى أسره على علم بتلك المفاوضات، وكان ما يزال وسيما فاتنا يلفت انتباه سيدات بيت الأمير؛ وربما تمكن بمساعدتهن من الإيحاء لأسره بأن الأفضل من صفقة الامبراطور التى ينوى السلاجقة دس أنوفهم فيها، إجراء ترتيب خاص مع فرنج سوريا والوعده بمحالفتهم. ووافق الأمير على إطلاق سراح بوهمند لقاء مائة ألف بيزانت^(١١).

وهاجم جيش الدانشمند ملطية أثناء المفاوضات، ولا بد وأن استنجد حاكمها جبرائيل بزواج ابنته بلدوين الذى لم يتحرك لمساعدته لعزوفه عن الإساءة إلى الأمير فى تلك المرحلة الحرجة. وكان جبرائيل مكروها من رعاياه لعقيدته الأرثوذكسية، خاصة وأن السريان لم يغفروا له أبدا إعدام أحد أساقفتهم بتهمة الخيانة؛ فاستولى الدانشمند على عاصمته وأسرره، عدا إحدى قلاعته التى ظلت صامدة أمام المهاجمين؛ فطلب منه أسروه أن يأمر باستسلامها، ولما رفضت الحامية أوامره، أعدموه أمام أسوارها^(١٢).

(١١) يذكر Albert of Aix, IX, 33-6, pp. 610-12; Orderic Vitalis, x, 23 vol. IV, P. 144 حب بوهيموند مع ابنة الدانشمند، بينما يجعل Miracula S. Leonardi (Aa. Ss., Nov., vol. III, pp. 160-8, 179-82) صديقه زوجة مسيحية للأمير. ويقول Matthew of Edessa (Clxxviii, p. 252) إن أليكسيوس دفع فدية؛ ولكن ريتشارد كان في سوريا بالفعل قبل إطلاق سراح بوهيموند ويقول Radulph of Caen إن بلدوين كان يتصرف من منطلق كراهيته لتنكريد. وبورد إبن القلانيسي الشجار بين الحاكمين السلجوقي والدانشمندى.

(١٢) Michael the Syrian, III, pp. 185-9.

وبعد أشهر قليلة ، وفي ربيع ١١٠٣ م ، جرى تسليم بوهمند إلى الفرنج ملطية ، وتولى بلدوين والبطريق برنار جمع مبلغ الفدية يساعدهم أمير من صغار أمراء الأرمن يدعى كواسيل ، وأقارب بوهمند في إيطاليا . ولم يشاركهم تنكريد في جهودهم . وعلى الفور اتجه بوهمند إلى أنطاكية حيث استعاد سلطانه ، وأعرب عن شكره لتنكريد على الملأ لتوليه شؤون الإمارة أثناء غيابه . غير أنهما كانا على شيء من الخلاف ؛ إذ لم يجد تنكريد ما يدفعه إلى تسليم الأراضي التي غزاها هو نفسه أثناء وصايته ، لكن الرأي العام أجبره على التراجع ، وكوفىء بإقطاعية صغيرة داخل الإمارة . وكان بمقدوره أن يطالب قانونا باستعادة الجليل من بلدوين الأول ، لكنه رأى أن الأمر لا يستحق العناء^(١٣) .

واحتفل الفرنج بعودة بوهمند بهجوم على حيرانهم . ففي صيف ١١٠٣ م أغار بوهمند ومعه جوسلين أوف كورتناي على أراضي حلب واستوليا على مدينة المسلمية شمال حلب وانتزعا إتاوة كبيرة من مسلمي المنطقة استخدمت في سداد الدين المستحق للفرنج على بلدوين والبطريق للفدية^(١٤) . ثم تحول الفرنج للإغارة على الأراضي البيزنطية ؛ فبعد أن كتب الكسيوس إلى بوهمند مطالبا باستعادة مدن كيليكيا ، عزز رسالته بإرسال قائده بوتوميتس لاستردادها ؛ لكن القوة البيزنطية لا يعتمد عليها ، ولذا ، وبعدها دخل كيليكيا في خريف ١١٠٣ م ، سرعان ما قرر أن المهمة فوق طاقته ، وإثر أنباء تفيد بأن الفرنج يخططون للتوسع شمالا ومهاجمة مرعش سارع إليها ، وكان يحكمها ثاتول باسم الامبراطور . وربما كان بوسعه وقتئذ إنقاذ ثاتول بذهابه إليها ، لكنه تسلم أمر استدعاء من القسطنطينية . وفي وقت مبكر من الربيع التالي اتجه بوهمند وجوسلين إلى مرعش . وشعر ثاتول بأنه فاقد الحيلة ؛ فالجيش البيزنطي بعيد جدا ، وأصبح الأتراك الدانشمند على علاقة طيبة الآن بالفرنج ؛ فلم يجد بديلا عن تسليم المدينة لجوسلين الذي سمح له بالعودة إلى القسطنطينية ، بينما استولى بوهمند على مدينة البستان الواقعة شمال مرعش^(١٥) .

(١٣) أنظر أعلاه ، يقول Fulcher (II, xxiii, I, p. 460) إن تنكريد قد كوفىء على اقتداره ، ولكن رادولف يقول إنه لم يعط سوى مدينتين صغيرتين .

(١٤) 591 p. ad-Dim Kemak (Kamil at-Tawarikh, p212); Ibn al-Athir يقول إن بوهيموند اغتصب أموالا من قسرين .

(١٥) Matthew of Edessa, clxxxvi, p. وخطي Anna Comnena, XI, ix, 1-4, vol. III, pp. 40-1 257 في إيراد الاستيلاء على مرعش بعد معركة حران ، pp. 710 -Radulph of Caen, cxlviii-cl, pp. 2 .

١١٠٤م أهمية حران

وأصبح الفرنج الآن فى مأمن من أى هجوم يأتيهم من الأناضول ؛ وإذن بإمكانهم أن يتحولوا لمهاجمة مسلمى الشرق . وفى شهر مارس عاود بوهمند غزو أراضى رضوان الحلبى واستولى على مدينة بصرفوت الواقعة على الطريق بين أنطاكية وحلب ، لكن محاولته الاستيلاء على مدينة كفر لاتا الواقعة إلى الجنوب من حلب لم تكلل بالنجاح لما أبدته قبيلة بنى عليم من مقاومة بأسلة . وفى تلك الأثناء قطع جوسلين طريق المواصلات بين حلب والفرات . على أنه إذا كان من المطلوب عزل مسلمى سوريا عزلا فعليا عن مسلمى العراق وفارس ، فلا بد للمسيحيين من الاستيلاء على قلعة حران العظيمة الواقعة بين الرها والفرات شمالى الجزيرة ، بل إنهم يستطيعون ، والحال كذلك ، تجريد حملة على الموصل وإلى قلب ما بين النهرين . وبدت الظروف مناسبة فى ربيع ١١٠٤ م ؛ إذ كانت الحرب الأهلية، خلال ١١٠٣م، بين السلطان السلجوقى بركياروق وأخيه محمد تمزق الشرق الإسلامى كله ، وفى يناير ١٠٤م إتفقا على السلام على أن يحتفظ السلطان ببغداد والهضبة الإيرانية الغربية - وكان أخوه الثالث سنقر قد سبق وحصل على خراسان وإيران الشرقية - وحصل محمد ، وفقا للإتفاق على شمال العراق والجزيرة وحقوق سيادية على ديار بكر وكل سوريا. لكنه كان اتفقا غير يسير ، إذ كان الأخران كلاهما يتربان إفساد هذا الإتفاق، وفى ذات الوقت راح كل منهما يكيد المكائد للفوز بحلفاء من أمراء الترك والعرب جميعا؛ وفى الجزيرة نشبت الحرب الأهلية بموت كربوقا ، أتابج الموصل ، الذى هزمه الفرنج فى أنطاكية ؛ إذ لم يتمكن سقمان الأرتقى أمير ماردين من استخلاف مرشحه ، ودارت الحرب بينه وبين الأتابج الجديد حكمرمش الذى عينه السلطان السلجوقى محمد ، أما حران نفسها فكانت خاضعة للقائد التركى قراجه الذى كان من مماليك ملكشاه ، لكن سلوكه الشرس دفع أهلها إلى التمرد عليه ، فسلموا الحكم لمحمد صاحب أصفهان ، الذى قتل بدوره على يد غلام سابق لقراجه يدعى جوالى بعد أن توثقت عرى الصداقة معه . على أن سلطة جوالى كانت غير مأمونة بدرجة كبيرة ، بينما كانت حران ذاتها

تعانى معاناة شديدة من غارات فرنج الرها الذين حاربوا حقولها واعترضوا تجارتها ، وقد اتضحت نيتهم فى سرعة المضى قدما^(١٦).

داهمت مشاعر الخطر كلا من سقمان فى ماردين وحكرمىش فى الموصل ، مما دفعهما إلى نسيان خلافهما والاتحاد معا فى حملة لمهاجمة الرها قبل أن تهاجمهما ، وتوجهها إليها معا فى أوائل مارس ١١٠٤ م ، وكان مع سقمان قوة كبيرة من فرسان التركمان الذين يتصفون بخفة الحركة ، ومع حكرمىش قوة أصغر قليلا تتألف من السلاجقة والأتراك والأكراد والعرب . وعلم بلدوين الثانى بتجمعهما فى رأس العين الواقعة على بعد سبعين ميلا تقريبا من عاصمته ؛ فاستنجد بجوسلين وبوهمند مقترحا عليهما تحويل الهجوم بالإغارة على حران . وبعد أن ترك حامية صغيرة فى الرها ، اتجه إلى حران ومعه فرقة صغيرة من الفرسان ومشاة الأرمن ، وصحبه بندكت رئيس أساقفة الرها . وعلى مقربة من حران انضم إليه جوسلين وجنوده ، وكذلك جيش أنطاكية بقيادة بوهمند ، وتنكريد والبطريق برنار ، وديامبرت البطريق السابق للقدس . وبلغ عدد الجيش الفرنجى كله ما يقرب من ثلاثة آلاف فارس وربما ثلاثة أضعاف عددهم من المشاة ، وهو القوة الفرنجية الضاربة كلها فى شمال سوريا ، عدا حاميات الحصون .

١١٠٤م كارثة حران

تجمع الجيش أمام حران بينما الأميران المسلمان ما يزالان على مسافة ما إلى الشمال الشرقى فى طريقهما إلى الرها . ولو أن الفرنج حاولوا الإنقضاض على الحصن لاستولوا على حران ؛ لكنهم كانوا عازفين عن تحطيم التحصينات على أمل أن ينتفعوا بها هم انفسهم فيما بعد ، ظانين أن الخوف سيدفع الحامية إلى الاستسلام . وكان تفكيرهم لا يخلو من حكمة ؛ إذ كان المسلمون داخل المدينة لا حول لهم ولا قوة ، فبادروا بمفاوضتهم من فورهم . وعلى إثر ذلك اختلف بلدوين وبوهمند ؛ أى من رايتهما يرتفع أولا على الأسوار؟ وانتهى الأمر بأن قضى عليهما تأخرهما ؛ إذ مال الجيش التركى جنوبا وأصبح فوقهما قبل تسوية الخلاف .

(١٦) للاطلاع على خلفية الحملة على حران ، أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 236-7 مع المراجع ويركز نيكلسون فى مقالته عن تنكريد أن الحملة لم تكن جزءا من سياسة عامة للتوسع ، وإنما استجابة لتهديد من المسلمين . ولكن يقينا كانت حران هدفا نهائيا للفرنج .

ودارت المعركة على ضفاف نهر البليخ ، بالقرب من ساحة معركة (كارها) القديمة ، حيث سبق منذ قرون أن أباد (البارثيون) الفيالق الرومانية وفياتق (كراسوس). وكانت استراتيجية الفرنج تقضي بأن يشنك جيش الرها في الميسرة مع قوة العدو الرئيسية ، بينما يختبئ الجيش الأنطاكي خلف تل منخفض يبعد نحو ميل إلى اليمين استعدادا للتدخل في اللحظة الحاسمة . لكن المسلمين وضعوا خططاً مماثلة ؛ فهاجم جزء من جيشهم ميسرة الفرنج ثم استدار هاربا ؛ فظن جنود الرها أنهم فازوا بنصر يسير ، واندفعوا يتعقبونهم ، مما أفقدهم الاتصال بزملانهم في الميمنة ، وعبورهم النهر وقعوا مباشرة في كمين أعده الجيش الإسلامي الرئيسي ، ولقى الكثير منهم حتفه على الفور ، واستدار الباقون ولاذوا بالفرار . وعندما تجهز بوهمند - الذي دحر كتيبة صغيرة أمامه - للإشتراك في المعركة لم يجد سوى سيل متدفق من الهارين على مبعدة يتزاحمون عائدين عبر النهر حيث هبطت عليهم فصيلة تركية جديدة . وأدرك أنه خسر كل شيء؛ فأسرع بالفرار مع عدد ضئيل من جنود الرها. وأثناء مرور الحارين أسفل أسوار حران انقضت عليهم الحامية ، وفي فرضى حماسها قتلت مع الفرنج عددا من المسلمين المتعقبين ، وهرب جيش أنطاكية دون خسائر جسيمة . أما جنود الرها فقد أسروا أو قتلوا جميعهم تقريبا . وكان الطريق برنار في قمة الفرع بحيث قطع أثناء فراره ذيل حصانه خشية أن يلحق به الترك ويمسكونه من الذيل ، رغم أنه لم ير أحدا من الإعداء وقتئذ .

وكان بندكت رئيس الأساقفة من بين أول من وقعوا في الأسر . لكنه لم يلبث أن أطلق سراحه ، إما لتواطؤ حارسه - وهو مسيحي مرتد - أو بسبب هجوم أنطاكي مضاد . وهرب بلدوين وجوسلين معا على صهوة جواد ، لكن البعض أدركهما في مجرى النهر واقتادوهما أسيرين إلى خيمة سقمان .

وأسرع بوهمند وتنكريد إلى الرها وهما يخشيان - بحق - أن يهاجمها الترك كخطوة تالية ، وراحا يعملان على تنظيم دفاعاتها . ومرة أخرى تنقلب مصائب بلدوين عند تنكريد فوائد ؛ إذ أن من تبقى من الفرسان في الرها وعلى رأسهم رئيس الأساقفة توسلوا إلى تنكريد أن يتولى الوصاية على الرها إلى حين إطلاق بلدوين من الأسر؛ فقبل تنكريد هذا العرض مرحبا، وساورت بوهمند - كشأن بلدوين الأول منذ أربع سنوات - مشاعر الإرتياح لابتعاد تنكريد عنه . وبقي تنكريد في الرها مع بقايا

جيشه وما استطاع بوهمند الإستغناء عنه من جنود ، بينما رجع بوهمند إلى أنطاكية حيث كان جيرانه يعدون العدة للإفادة من الكارثة التى حلت بالفرنج^(١٧).

وتعد معركة حران تمة للحملات الصليبية فى ١١٠١م؛ إذ أن تلك الحملات جميعها حطمت أسطورة القوة الفرنجية التى لا تقهر . ذلك أن هزائم ١١٠١م تعنى حرمان شمال سوريا من تعزيزات الغرب التى يطلبها الفرنج لتوطيد سيادتهم هناك ؛ وأما كارثة حران فتعنى ، على المدى الطويل ، الحكم بهلاك كونتية الرها، وأن الفرنج لن يستولوا أبدا على حلب. إن الإسفين الذى كان فى نية الفرنج دقّه بين المراكز الإسلامية الثلاثة: الأناضول ، والعراق ، وسوريا ، قد تم دقّه دون مراعاة لاعتبارات الأمن . ولم يكن المسلمون هم وحدهم المستفيدين ؛ إذ كان الامبراطور يرقب الأحداث من بيزنطة بعين الغضب ، ولم يأسف للخزى الذى لحق بالفرنج .

١١٠٤م بوهمند وتكريد يتركبان بلدوين أسيرا

لم تكن النتائج العاجلة لكارثة حران مهلكة كما كان يُخشى ؛ إذ لم يستمر التحالف طويلا بين سقمان وحكرمش بعد انتصارهما ؛ فقد استحوذ جنود الأول على أغلب الأسرى والغنائم ، مما أثار غيرة الأخير ، فهاجمت كتيبته السلجوقية خيمة سقمان واختطفت بلدوين ، الأمر الذى أثار حنق التركمان ، لكن سقمان مارس من ضبط النفس ما يكفى لمنعهم من الهجوم المضاد ، وروّض نفسه على قبول خسارة سجينه ذى القيمة العالية . وقام بإخضاع بعض الحصون المسيحية الصغيرة على الحدود بخدعة بسيطة وهى إرتداء جنوده ملابس ضحاياهم الفرنج ، ثم إنه رجع إلى ماردين ولم يشترك فى الحرب أكثر من ذلك^(١٨) . أما حكرمش فواصل القتال ؛ بادئا بتأمين نفسه من سقمان بأن سحق الحصون الفرنجية فى شبيختان شرقى الرها ثم واصل سيره إلى العاصمة . إن تأخر الفرنج قد أنقذ حران للإسلام ، والآن أدى تأخر المسلمين فى الإبقاء على الرها للعالم المسيحي؛ إذ توفر لتكريد الوقت الضرورى لتزيم دفاعات المدينة. ويُعزى نجاحه فى مقاومة هجوم حكرمش الأول بدرجة كبيرة إلى ولاء الأرمن

(١٧) Radulph of Caen, cxlviii, p. 712; Albert of Aix, loc. cit.; Matthew of Edessa, clxxxiii, p. 256.

(١٨) Ibn al-Athir, loc. cit. ، المأثور عن سقمان أنه قال : "أفضل أن أفقد غنائمى على أن يعيبنا المسيحيون بالحماقة".

المحليين وبسالتهم ، لكن شدة الهجوم دفعته إلى طلب النجدة العاجلة من بوهمند الذى كانت لديه بعض المشكلات ، غير أن تهديد الرها لا تعلقه أولوية ، فسار فى الحال لنجدة ابن أخته ، لكن وعورة الطريق تسببت فى تأخره . وفى غمرة اليأس أمر تنكريد حاميته بالخروج قبل الفجر ، وانقض رجاله فى ظلمة الليل على الأتراك فى نومهم المطمئن ، واكمل النصر بوصول بوهمند؛ وهرب حكرومش مذعورا تاركاً كنوزه فى المعسكر . وهكذا تم الانتقام لحران وبقيت الرها^(١٩) .

ومن بين الذين أسرههم تنكريد أميرة سلجوقية كريمة الأصل كانت فى معية الأمير ، وكانت أثيرة لدى حكرومش بحيث عرض أن يفتديها فى الحال إمّا بخمسة عشر ألف بيزانت أو مبادلتها بالكونت بلدوين نفسه . ووصلت أنباء هذا العرض إلى القدس ، فسارع الملك بلدوين بمكاتبة بوهمند راجيا ألا تضيع هذه الفرصة لإطلاق سراح الكونت بلدوين؛ لكن بوهمند وتنكريد فضلا سد حاجتهما من المال ، فضلا عن أن عودة بلدوين تعني تنحية تنكريد من منصبه الراهن ليصبح بين يدي خاله ؛ وكان ردهما أن التلief على قبول العرض يخلو من الدبلوماسية ، وربما يؤدي التردد إلى أن يرفع حكرومش من قيمة الفدية ؛ وفى الوقت ذاته كانا يعدان الترتيبات لإستلام الفدية . وبقي بلدوين أسيرا.

وبعد أن نال بوهمند وتنكريد من الثراء بالتضحية بزميلهما ، تحولا لمجابهة الأعداء من حولهما الذين دأبوا على ممارسة الضغوط عليهما . ولم يحاول حكرومش مهاجمة الرها مرة أخرى ، وتمكن تنكريد من ترميم دفاعات المدينة؛ أمّا بوهمند فكان عليه أن يسرع لمجابهة غزو رضوان الحلبي للمناطق الشرقية من إمارته . وفى شهر يونية تخلى سكان أرتاح الأرمن عن مدينتهم للمسلمين وقد شملتهم البهجة لتخلصهم من الطغيان الأنطاكي ، وحذت حذوهم المدن الحدودية: المعرة ومسرين وسرمين ، ثمّا عزل الحاميات الفرنجية الصغيرة فى معرة النعمان والبارة وكفر طاب فانسحبت إلى أنطاكية . وفى تلك الأثناء أغار رضوان على الإمارة إلى أن بلغ الجسر الحديدي ؛ وعلى البعد فى شمال الإمارة تمكنت حامية بوهمند من البقاء بعد أن سحنت أبرز زعماء الأرمن المحليين الذين كانوا يخططون للتآمر مع الأتراك . وكاد الخطر أن يحدق بدويلة بوهمند كلها

(١٩) -Albert of Aix, IX, 43, pp. 617-18; Ibn al-Athir, p. 223; Ibn al-Qalanisi, pp. 69. 69 . 70.

لولا أن مات دقاق الدمشقي في أواخر يونية ١١٠٤ م ، فتحول اهتمام رضوان إلى الصراع بين ابني الدقاق - بوري وأرتاش - على خلافة أبيهما^(٢٠).

وكان انشغال بوهمند بالشؤون البيزنطية من أسباب فشله في مواجهة هجوم رضوان . فالامبراطور ألكسيوس على علاقة طيبة بالدويلات الفرنجية الواقعة إلى الجنوب، وريموند كونت تولوز لا يزال صديقه الحميم ، وفاز الامبراطور بثقة الملك بلدوين بعد أن افتدى بماله كثيرا من وجهاء الفرنج الأسرى في مصر ، لقد كان كرمه هذا تسبقه الحكمة بالمقارنة المذهلة بما أقدم عليه بوهمند وتنكريد من التخلي عن بلدوين الرها في الأسر . إن افتداء الامبراطور للأسرى ذكر الفرنج بماله من نفوذ ومهابة تحظيان باحترام الفاطميين ؛ ولذلك ، وعندما تصرف الامبراطور ضد أنطاكية ، لم يتلق أميرها أية مساعدة من أقرانه . وكان ألكسيوس قد قام بالفعل بتحصين كوريكوس وسليوكية الواقعتين على ساحل كيليكيا لمنع ما قد تقدم عليه أنطاكية من عدوان على غرب كيليكيا . وفي صيف ١١٠٤ م استرد الجيش البيزنطي بقيادة موناستراس دوغما صعوبة مدن كيليكيا الشرقية: طرسوس وأضنة والمصيصة؛ وفي ذات الوقت قام أسطول بيزنطي صغير يقوده الأدميرال كيتاكوزينوس - وكان في قبرص يطارد أسطولا مغيرا من جنوا - باستغلال موقف بوهمند ، فسأطر إلى اللاذقية^(٢١) . استولى بحارته على المرفأ وأسفل المدينة : وسارع بوهمند بجمع ما أمكنه من جنود الفرنج لتعزيز الحامية في القلعة واستبدال قائدها الذي ما عاد يوليه ثقته ، لكنه لم يحاول طرد البيزنطيين من مراكزهم لافتقاره إلى القوة البحرية .

١١٠٤ م بوهمند يرحل إلى الغرب

وبحلول الخريف داخلت بوهمند مشاعر اليأس ؛ فعقد مجلسا في سبتمبر ضم أتباعه في أنطاكية واستدعى تنكريد كذلك ، وصارحهم بالأخطار المحدقة بالإمارة قائلا إن المخرج الوحيد هو تأكيد إرسال التعزيزات من أوروبا ، وأنه سيذهب بنفسه إلى فرنسا لممارسة نفوذه الشخصي في استجلاب الرجال المطلوبين . ومن باب الواجب عرض تنكريد القيام بهذه المهمة ، لكن خاله أجاب بأنه لا يتمتع بما يكفي من نفوذ في

(٢٠) Radulph of Caen, loc. cit.; Kemal ad-Din, pp. 592-3; Sibte ibn al-Djauzi, p. 529; ibn

al-Qalanisi, pp. 62-5. ويلاحظ أن رانسيماي أورد اسم أحد ابني الدقاق بلفظ (إلتاش). في حين

أن ابن القلانيسي ذكره بلفظ (ارتاش) وهو عم بوري وليس ابنه. (المترجم)

الغرب، وأنه ينبغي أن يبقى وصيا على أنطاكية. وسرعان ما تمت ترتيبات رحيل بوهمند، وأبحر في أواخر الخريف من ميناء السويدية مصطحبا معه ما كان متاحا من الذهب والفضة والمجوهرات والأشياء الثمينة ونسخا من "إنجازات الفرنج"، وهو تاريخ مجهول للحملة الصليبية الأولى من وجهة النظر النورماندية، وأدخل بوهمند في تلك النسخ فقرة تروحي بأن الامبراطور وعده لوردية أنطاكية^(٢١).

وتولى تنكريد حكومة أنطاكية، وأقسم في ذات الوقت أن يحافظ على الرها لبلدوين وأن يسلمها له فور إطلاق سراحه من الأسر؛ ولأنه لا يستطيع أن يحكم الرها من أنطاكية بصورة جيدة، فقد عهد بحكومتها لابن عمه وصهره ريتشارد كونت ساليرنو، نائبا عنه عبر الفرات^(٢٢).

وفي وقت مبكر من العام الجديد وصل بوهمند إلى أملاكه في أبوليا حيث بقي هناك حتى سبتمبر التالي يدبر شؤونه الخاصة ويشرف عليها بعد غيبة تسع سنوات، وينظم فرق النورماندين ليلحقوا بزملائهم في الشرق. ثم ذهب إلى روما لمقابلة البابا باسكال وأكد له أن الامبراطور ألكسيوس هو عدو اللاتينيين اللدود في الشرق، وكان باسكال قد انحاز فعلا ضد ألكسيوس بتأثير من الأسقف مناس، وسرعان ما وافق على وجهة نظر بوهمند. وعندما ذهب بوهمند إلى فرنسا كان بصحبته ممثل البابا، برونو، حاملا معه توصيات من البابا بالتبشير بحرب مقدسة ضد بيزنطة. وكانت هذه نقطة تحول في تاريخ الحروب الصليبية. وباتت السياسة النورماندية - وهدفها كسر شوكة الامبراطورية الشرقية - هي السياسة الصليبية الرسمية. وتقرر التضحية بمصالح العالم المسيحي كله من أجل المغامرين الفرنج. وفيما بعد ندم البابا على ما أقدم عليه من طيش، ولكن بعد أن نفذ سهم الضرر. وما كان يشعر به فرسان الغرب وجماهيره من ازدياد لخطر الامبراطور، وغيره من ثروته، وريبة في طقوس مسيحية لا يفهمونها،

(٢١) تذكر بعض المصادر الموثوقة أن "إنجازات الفرنج" *Gesta Francorum* كتبه فولشر أوف تشارتر *Fulcher of Charters* (حوالي ١٠٥٩ - حوالي ١١٢٧) القس والمؤرخ الفرنسي الذي صاحب الحملة الصليبية الأولى منذ بدايتها. وهو عبارة عن سرد ينبض بالحياة مكتوب على ثلاث مراحل: الحملة الصليبية الأولى (١١٠١)، ورحلة بلدوين إلى القدس (١١٠٦)، ومملكة القدس (١١٢٤ - ١١٢٧) (المترجم).

(٢٢) *Matthew of Edessa, clxxxix, p. 260; Michael the Syrian, III, p. 195; Ibn-alAthir, pp. 262-3.* ومن هذا الوقت فصاعدا يطلق تنكريد على نفسه في وثائقه الرسمية "تانكريد دو كس إيه برنيسيس أنتيو كينوس" (تانكريد دوق وأمير أنطاكية). وأثناء فترة وصايته الأولى كان يسمى في الوثائق الرسمية (أمير) دون تحديد أماكن. كان ما يزال يحمل لقب أمير الجليل.

لقى كل ذلك تأييدا رسميا من الكنيسة . ومنذ ذلك الوقت قدما ، كانوا يشعرون بأن لديهم المبررات التى تسوّغ كل عمل عدائى يستهدف بيزنطة ، حتى ولو عدّل البابا من آرائه . إن الحملات الصليبية ، والبابا على رأسها ، لم تكن حركة تبذل العون للعالم المسيحى ، وإنما كانت أداة للإستعمار الغربى العارى من الخلق . وترتب على هذا الإتفاق التعس بين بوهمند والبابا باسكال آثار أبعد شأوا بكثير من كل الخلافات بين الكاردينال همبرت وميخائيل سريولاريوس التى أكدت الفصل بين الكنيستين الشرقية والغربية .

وقبل بوهمند بحرارة فى فرنسا حيث أمضى بعض الوقت فى بلاط الملك فيليب الذى أذن له بتجنيد الرجال فى أنحاء المملكة ، ولقى تشجيعا فعّالا من كونتيسة بلوا، الكونتيسة أديلا وهى صليبية متحمسة بالإنابة ؛ فزيادة على تقديمها بوهمند لأخيها هنرى الأول الإنجليزى ، الذى سبق أن قابله فى نورماندى فى عيد الفصح عام ١١٠٦م ووعد بتشجيعه ، رتبت له زواج تحالف مثير من ابنة الملك فيليب، كونستانس ، وهى كونتيسة شامبانيا المطلقة، وتم الزواج فى وقت متأخر من ربيع ١١٠٦م ؛ وفى ذات الوقت وافق الملك فيليب على منح يد ابنته الصغرى ، سيشيليا ، وهى وليدة السفاح من علاقة الزنا مع برترادا أوف مونتفورت ، لتكريد . ولم تذهب كونستانس إلى الشرق أبدا ، وإنما قضت حياتها الزوجية وفترة ترملها فى إيطاليا؛ أما سيشيليا فقد أبحرت إلى أنطاكية فى نهاية العام تقريبا . وقد عززت هذه العلاقات الملكية من مكانة الأمراء النورمانيين^(٢٣) .

(٢٣) Orderic Vitalis, XI, vol. IV, pp. 210-13; Suger, Vita Ludovici, pp. 29-30; Chronicon S. Maxentii, p. 423; Chronicon Vindocinense, pp. 161-2; William of Tyre, XI, I, p. 450; Anna Comnena, XII, i, I, vol. III, p. 53. استنادا إلى Luchaire, Louis VI le Gros, p. 22 - فى إبريل أو مايو ١١٠٦م . ويحتمل أن تكون سيشيليا قد انطلقت إلى الشرق بعد هذا التاريخ . ولذلك يحتمل أن يكون زواجها قد حدث فى وقت لاحق من عام ١١٠٦م . ويعتقد ماثيو الأورني أن بوهيموند كان بجيرا على الزواج من سيدة ثرية ، يطلق عليها زوجة سيفن بول (وواضح أنه يخلط بين Hugh of Champagne مع الصليبي Hugh of Saint Pol الذى كان صديقا لبوهيموند). وقد أمرت بسجنه حتى رضى فى النهاية . وكان يفضل العودة إلى الشرق.

١١٠٧ م بوهمند يغزو الامبراطورية

بقى بوهمند فى فرنسا حتى وقت متأخر من عام ١١٠٦ م ، ثم عاد إلى أبوليا حيث خطط لحملة الصليبية الجديدة التى تقرر أن تبدأ بهجوم لا هوادة فيه على الامبراطورية البيزنطية ؛ وتمهّل فى حملته إذ عرف من الأنباء أن أنطاكية لا تعاني من أخطار عاجلة فى ظل حكم تنكريد . وفى أول أكتوبر ١٠٧ م هبط بجيشه على ساحل إبيروس الامبراطورى فى أفلونا ، وبعد أربعة أيام ظهر أمام قلعة درهاكيوم العظيمة التى تعدّ مفتاح شبه جزيرة البلقان ، وهى التى طالما سال لها لعاب النورماندين منذ احتلالها قبل ذلك بربع قرن . على أن الكسيوس هو الآخر قد توفر له الوقت لوضع ترتيباته ؛ فكان على استعداد للتضحية بحدوده الجنوبية الشرقية لإنقاذ درهاكيوم ؛ فسالم السلطان السلجوقي قلعج أرسلان الذى أمده بالمرتزقة . وجد بوهمند القلعة منيعة وحاميتها شديدة البأس بحيث تعذر الإنقضاض عليها فحاصرها . لكنه يفتقر إلى القوة البحرية كشأنه فى حروبه الأولى ضد بيزنطة ، فبات الدمار مصيره ؛ ذلك أن البحرية البيزنطية قطعت خطوط مواصلاته مع إيطاليا فى الحال تقريبا وسدّت الساحل . ثم حاصره الجيش البيزنطى الرئيسى فى وقت مبكر من الربيع التالى ؛ وبحلول الصيف تفشت فى جيش بوهمند الدوسنطاريا والملاريا ، ونالت منهم المجاعة ، بينما حطّم الكسيوس معنوياتهم بإطلاق الشائعات وتزييف الرسائل لزعمائهم ، وهى وسائل وصفتها ابنته أنا كومنينيا بإعجاب شديد . وبحلول سبتمبر أيقن بوهمند من الهزيمة فاستسلم للإمبراطور . لقد كان نصرا مؤزرا لبيزنطة ؛ إذ كان بوهمند آنذاك أشهر محارب فى العالم المسيحى ، وكان مشهد هذا البطل المرعب بقامته الطويلة التى تعلو الامبراطور ، ومع ذلك بدت متضرّعة مطيعة لما يعليه عليها ، شاهدا على ما للامبراطور من مهابة طاغية لا تنسى .

١١٠٨ معاهدة ديفول

استقبل الكسيوس بوهمند فى معسكره الذى ضربه فى مدخل الوديان الضيقة حيث يجري نهر ديفول . وعامله بكياسة يعلوها البرود ؛ ولم يضيّع وقتا ، وإنما بسط أمامه معاهدة السلام التى لا بد له من التوقيع عليها . وتردد بوهمند بادئ الأمر ، لكن (نيسفورس برنيوس) ، زوج أنا كومنينيا، الذى كان يقف بين يدي حميه الامبراطور ، حثه على التوقيع الذى لا مفر منه .

وترد صيغة المعاهدة بكاملها فى صفحات أنا كرومينيا. وعوجبها يعرب بوهمند أولا عن أسفه العميق لحثه بقسمه الأول للإمبراطور ؛ ثم يقسم بكل الوفاق أن يصبح التابع والمولى المخلص للإمبراطور ووريثه جون "كريم النسب" (٢٤)؛ ويفرض على كل رجاله أن يحذوا حذوه ؛ ولا ينبغي أن يكون هناك غموض فى المصطلح اللاتينى "مولى"، فأحصيت واجبات التابع ؛ وأن يظل أميرا لأنطاكية يحكمها تحت سيادة الامبراطور ؛ وتشمل أنطاكية ذاتها وميناءها السويدية ومناطق الشمال الشرقى حتى مرعش مع الأراضى التى يغزوها وبتنزعها من أمراء حلب المسلمين وغيرها من الدويلات السورية الداخلية ؛ وتبقى مدن كيليكيا والسجل المحيط بأنطاكية تحت الحكم المباشر من الامبراطور ؛ ولا مساس بأراضى الأمراء الروبيين . وأضيف ملحق بالمعاهدة يضم قائمة المدن التى يمارس بوهمند سلطاته عليها وقد اختيرت بعناية . ويتولى بوهمند فى إطار سلطاته ، ممارسة السلطة المدنية ؛ ويستعاض عن البطريق اللاتينى بآخر يونانى. وتوجد نصوص خاصة تقضى بأنه فى حالة رفض تنكريد أو غيره من رجال بوهمند الإمتثال لشروط المعاهدة ، يتولى بوهمند إجباره على الطاعة قسرا.

وتعتبر معاهدة ديفول مثيرة للإهتمام ؛ إذ تكشف عما كان يترأى لالكسيوس من حل المسألة الصليبية . فهو على استعداد لأن تصبح مناطق الحدود ، بل وأنطاكية ذاتها، تحت الحكم الذاتى لأمير لاتينى ، طالما يلتزم هذا الأمير بالتبعية له وفقا للأعراف اللاتينية ، وطالما تحتفظ بيزنطة بسيطرة غير مباشرة من خلال الكنيسة ؛ فضلا عن أن الكسيوس يعتبر نفسه مسؤولا عن المسيحيين الشرقيين ، بل يريد تأكيد حقوق أتباعه الأرمن الروبيين المتذمرين . ولقد بقيت المعاهدة مجرد قصاصة ورق . لكنها كسرت بوهمند ؛ فلم يجرؤ على الظهور فى الشرق مرة أخرى البتة ، وتقاعد مخذولا مغزيا فى أراضيه فى أبوليا حيث مات عام ١١١١ م ، واحدا من صغار أمراء إيطاليا المغمورين تاركا طفلين من زوجته الفرنسية ليثا حقوقه فى أنطاكية . كان جنديا شجاعا، وقائدا مقداما ماكرا، وبدا فى أعين أتباعه بطلا ؛ وهو الوحيد الذى طغت شخصيته على جميع رفاقه فى الحملة الصليبية الأولى ؛ لكن طموحاته العريضة العارية من الخلق كانت هاويته . ولم يأت الوقت بعد كى يدمر الصليبيون درع العالم المسيحى الشرقى .

وكما تحقق الكسيوس جيда ، كانت معاهدة ديفول تتطلب تعاون تنكريد . وتنكريد ، الذى لم يأسف لإزالة خاله من الشؤون الشرقية ، لم يكن على استعداد لأن

(٢٤) المعنى الحرفى : الابن المولود للإمبراطور بعد إعتلائه العرش "Porphyrogenete". (الترجم)

يصبح تابعا للإمبراطور . وكان أقل ضموحا من بوهمند ، إذ لا مطمح له سوى إنشاء إمارة قرية مستقلة . على أن توقعاته لم تكن تبشر بالآمال ؛ إذ لم يترك له بوهمند سوى القليل من الرجال ، ولم يترك له أية أموال جاهزة . ورغم ذلك قرر المبادرة بالهجوم ، فانتزع قرضا من أثرياء تجار أنطاكية أنعش خزائنه ومكّنه من استئجار مرتزقة محليين ؛ واستدعى من الفرسان والخيالة ما أمكن الاستغناء عنهم فى الرها وتل بشير وكذلك الأراضى الأنطاكية . وفى ربيع ١١٠٥ م انطلق لاسترداد أرتاح . وكان رضوان الحلبي يتهيأ للرحيل جنوبا لمساعدة بنى عمار فى كفاحهم ضد الفرنج ؛ لكنه تحول للدفاع عن أرتاح لدى وصول الأنباء بتقدم تنكريد . وتقابل الجيشان يوم ٢٠ إبريل فى قرية تيزين القريبة من أرتاح فى سهل منزل تكسوه الصخور . وفزع تنكريد من ضخامة العدو التركى ، فاقترح على رضوان التفاوض . وكان رضوان حريّا بالموافقة لولا أن حثه قائد خيالاته صبار على الهجوم دون تأخير . وتسببت الصخور فى الحيلولة دون أن يستخدم الأتراك تكتيكهم المعتاد ؛ وبعدما اندحر الأتراك من أول هجوم الفرنج ، ارتدوا ليربصوا بالعدو ، لكنهم لم يتمكنوا من إعادة ترتيب صفوفهم للهجوم التالى ؛ وفى تلك الأثناء قام فرسان الفرنج بتعجيز مشاتهم . وتسبب فشل خططهم فى إصابتهم بالذعر ، فانطلق رضوان هاربا إلى حلب مع حرسه الخاص ، وتبعه أغلب فرسانه ، وقتل من بقى من الراجلين فى ميدان القتال .

واستعاد تنكريد بنصره كل الأراضى التى فقدتها قبل ذلك بعام ؛ إذ تخلت الحامية التركية عن أرتاح وسلمته المدينة ، بينما طارد جنوده الهاربين حتى أسوار حلب ، وانتهبوا كثيرا من سكانها أثناء فرارهم فى رعبهم . وطلب رضوان السلام بأن عرض تسليم كل أراضيه فى وادى العاصى ودفع إتاوة منتظمة لتنكريد . وبنهاية عام ١١٠٥ م كانت سيطرة تنكريد قد اتسعت مرة أخرى جنوبا حتى البارة ومعة النعمان .

١١٠٦ م الإستيلاء على أفاميا

وفى فبراير ١١٠٦ م أغتيل أمير أفاميا ، خلف بن ملاعب ، على يد متعصين من حلب لأنه لم يكن مناهضا للفرنج ، ثم اختلف القتلة مع حليفهم الرئيسى داخل المدينة ، أبو الفتح ، الذى تولى حكومتها ، فطلب مساعدة رضوان . ودعا الأرمن المحليون تنكريد الذى رأى الظروف مناسبة للتدخل ، فسار جنوبا وبدأ حصار أفاميا . وتمكن أبو الفتح من المحافظة على النظام ؛ وتلقى من أميرى شيزر وحماة وعودا بالمساعدة .

واضطر تنكريد إلى التراجع بعد حصار ثلاثة أسابيع بدعوى ضرورة مساعدة حامية اللاذقية التي تواجه المجاعة من حصار البيزنطيين طوال ثمانية عشر شهرا . وزودها بالمؤن ثم عاد إلى أنطاكية . وبعد ذلك بأشهر قليلة ظهر في أنطاكية أحد أبناء خلف، مصبح بن ملاعب ، مع مائة من أتباعه ، وقد نجا من المصير الذى لقيه أبوه ، وراح يحرض تنكريد على معاودة الهجوم على أفاميا؛ فحاصر تنكريد المدينة مرة أخرى بمساعدة مصبح ، وحفر خندقا حولها لمنع الدخول أو الخروج . ولم يهب أحد من الجيران الأمراء لمساعدة أبي الفتح ؛ وبعد أسابيع قليلة ، فى ١٤ سبتمبر ١١٠٦ م استسلم المسلمون بعد أن وافق تنكريد على شرط الإبقاء على حياتهم . وبعد أن دخل تنكريد المدينة أراد أن يدخل البهجة على قلب مصبح ، فقتل أبو الفتح وثلاثة من رفاقه . واقتيد نبلاء أفاميا إلى أنطاكية وبقوا فيها إلى أن رتب رضوان فديتهم . وتم تنصيب حاكم فرنجى فى أفاميا ، بينما منح مصبح إقطاعية فى الجوار . وسرعان ما استعاد الفرنج كفر طاب وعهد بها إلى فارس يدعى ثيوفيلوس الذى مالبث أن جعل من نفسه مصدر رعب لمسلمي شيزر .

أصبح تنكريد آمنا على حدوده الشرقية والجنوبية ؛ ومن ثم يستطيع أن يتحول إلى العدو الذى يبغضه البغض كله — بيزنطة . وفى صيف ١١٠٧ م ، وفى الوقت الذى كان يتهاى فيه بوهمند لمهاجمة المقاطعات الأوروبية ، اضطر ألكسيوس إلى نقل جنوده من الحدود السورية للتصدي لما يعتبره تهديدا أخطر ، فاستدعى كيتاكوزينوس من اللاذقية مع كثير من رجاله ، وموناستراس من كيليكيا التى عهد بإدارتها إلى الأمير الأرمنى سبارايد أوشين أوف لامبرون . وفى شتاء ١١٠٨ م ، أو أوائل ١١٠٩ م ، وبعد خذلان بوهمند فى إيسيروس ، هاجم تنكريد كيليكيا . ولقد أخطأ الامبراطور الحكم على الرجال ؛ ذلك أن أوشين ينحدر من أسرة عريقة النسب، وكان مشهورا فى شبابه بالشجاعة ، لكنه بات الآن مترفا كسولا ؛ وكان حصن المصيصة الواقع على نهر جيهان هو الباب المؤدى إلى كيليكيا . وعندما تقدمت قوات تنكريد برا عبر جبال الأمانوس ، وبحرا أعلى النهر لمحاصرة المدينة ، تقاعس أوشين فى التصدى له ، فسقطت المصيصة بعد حصار قصير . ويبدو أن تنكريد نصّب نفسه خلال الأشهر التالية حاكما على أضنة وطرسوس برغم بقاء غربى كيليكيا فى أيدي الامبراطورية . ورجع أوشين نفسه إلى أراضيه فى طوروس .

١١٠٩ م تنكريد فى ذروة قوته

كانت اللاذقية قد استرجعت بالفعل . وحتى آنذاك ، كانت حركة النورماندين مقيدة لغياب القوة البحرية ؛ لكن البحرية البيزنطية تركزت الآن بعيدا فى البحر الأدرياتيكي ، فتمكن تنكريد من شراء مساعدة أسطول مدينة بيزا ، التى طلبت أن يكون لمن مساعدتها أحد شوارع أنطاكية ، وحيا من أحياء اللاذقية مع كنيسة ومستودع بضائع . وكان بتزياس - الذى خلف كتناكوزينوس كقائد بيزنطى هناك - يفتقر إلى القوة اللازمة للمقاومة ؛ وفى ربيع ١١٠٨ م ضمت اللاذقية أخيرا إلى الإمارة الأنطاكية . وفى العام التالى توسع تنكريد جنوبا منتزعا جبلة وبولونياس وقلعة المرقب من سيادة بنى عمار التى أقل نجمها .

وهكذا ، وعندما كان بوهموند يستسلم للامبراطور ويوقع على تنازله عن استقلاله ، كان تنكريد فى ذروة قوته ، ولم يكن على استعداد بأى حال لأن يطيع المرسوم الامبراطورى ؛ فسلطانه الرئيسى يمتد من طوروس إلى الجزيرة ووسط سوريا ، وكان حاكم أنطاكية والرها ، رغم أنه كان مجرد الوصى عليهما فى الواقع ؛ لكن الأمير بوهمند يعيش الآن فى إيطاليا مخزيا ولن يعود إلى الشرق أبدا ؛ والكونت بلدوين يعانى الوهن فى الأسر التركى ، ولن يبذل تنكريد أى جهد لإنقاذه من الأسر ؛ وأمير حلب تابعه بالفعل ؛ ولن يجروا أحد من جيرانه على مهاجمته . لقد انتصر فى تحديه لوريث القياصرة فى القسطنطينية . وعندما استقبل سفراء الامبراطور فى أنطاكية الذين وفدوا لتذكيره بالتزامات خاله ، طردهم فى عجرفة . وكان - كما قال عن نفسه - نينوس الآشورى العظيم ، عملاق لا يقدر إنسان على مقاومته .

على أن للعجرفة حدودها . فبرغم ذكائه ، كان بغیضا غير مأمون الجانب . وكان زملاؤه الصليبيون هم الذين تحدوا قوته وقضوا عليها .

الفصل الرابع:

تولوز و طرابلس



تولوز و طرابلس

"جَدْ لُبْنَانُ إِلَيْكَ يَأْتِي"

(اشعيا ٦٠ . ١٣)

كان ريموند كونت تولوز الأكثر ثراء وتميزا من بين جميع الأمراء الذين انطلقوا في الحملة الصليبية الأولى عام ١٠٩٦ م ، وقد توقع الكثيرون تعيينه قائدا للحركة. وبعد مضي خمس سنوات كان من أقل الصليبيين اعتبارا ، إذ كانت مشاكله من صنع يده . إذ على الرغم من أنه لم يكن أكثر جشعا ولا أبعد طموحا من أغلب رفاقه ، إلا أن خيلاءه جعل أخطائه واضحة جليلة . وكانت سياسة ولائه للإمبراطور تركز على الشعور بالشرف والتبصر بفنون إدارة شؤون الحكم ، لكن ولائه بدا لرفاقه حيلة خادعة ، ولم يجن من ولائه ثمارا كثيرة إذ سرعان ما اكتشف الإمبراطور أنه صديق عاجز . وكان أتباعه يحترمون ما كان عليه من ورع ، ولكنه لم يكن له سلطان عليهم، إذ أجبروه على الإسراع في رحيل مبكر أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ كما أظهرت كوارث ١١٠١ م مدى ضعف كفاءته في توجيه حملة عسكرية ، و انحدر إلى أدنى

درجات المهانة عندما اعتقله زميله الصغير تنكريد . وعلى الرغم من حفيظة الرأي العام إزاء تصرف تنكريد ، إذ يعدّ خرقاً لقواعد الضيافة والشرف ، لم يحصل ريموند على حريته إلا بتوقيع تنازله عن أية مطالب في شمال سوريا ، ناسفاً دون قصد أساس اتفاقه مع الإمبراطور^(١) على أنه كان يتميز بالعزيمة ؛ إذ أخذ على نفسه عهداً بالبقاء في الشرق ، وسيفي بعهدده ، ولسوف بنحت لنفسه في الصخور إمارة .

بنو عمار أصحاب طرابلس

وكانت هناك منطقة لا مفر للمسيحيين من الاستيلاء عليها كى تستديم إقامتهم في الشرق . إذ تفصل بين فرنج أنطاكية والرها وبين اخوانهم في القلس من ناحية أخرى ، مجموعة من الإمارات الإسلامية ، أهمها إمارة بنى عمار في طرابلس وعلى رأسها زعيم العائلة المسالم القاضى فخر الملك أبو على الذى كان يحكم منطقة غنية برغم ضالة جيشه . وكانت سياسته الماهرة مع جيرانه هى سياسة الإسترضاء إزاءهم جميعاً حتى وإن تعارضت مع مبادئه ، فاستطاع الحفاظ على استقلال هش يرتكز - كملاذ أخير - على قوة عاصمته المحصنة فى شبه جزيرة الميناء . وكان كلما اقترب الفرنج من أراضيه يظهر لهم الكثير من المودة ، وزود الحملة الصليبية الأولى بالموثوق ، ولم يعارض قادتها عندما حاصروا مدينته أرقا ، وقدم لبلدوين البولونى مساعدات قيمة أثناء رحلته الشائكة لتسلم تاج القلس . وعندما انسحب الصليبيون من مدينتى طرطوس وبرزية إلى مسافة بعيدة استولى عليهما بهدوء . وهكذا كان يتحكم فى الطريق الساحلى كله من اللاذقية وجبله حتى محمية بيروت الفاطمية^(٢) .

وكان الطريق البديل الذى يربط بين شمال سوريا وفلسطين يمضى أعلى وادى العاصى مروراً بمدينة شيزر الخاضعة لبني منقذ ، ومدينة حمه التى تدين بالولاء لرضوان ، وحمص حيث يحكم جناح الدولة زوج أم رضوان ، ثم يتشعب الطريق من هناك ؛ فيمضى فرع منه خلال البقاع إلى طرابلس والساحل ، وهو طريق ريموند الذى سلكه فى الحملة الصليبية الأولى ؛ ويمضى الفرع الثانى مباشرة وراء محمية بعلبك الدمشقية إلى

(١) أنظر أعلاه ص (٦٥) .

(٢) أنظر أعلاه ص (٣٧) ، وكذلك مقال "Ibn Ammar ابن عمار" فى دائرة المعارف الإسلامية . *Encyclopaedia of Islam* وقد أعطى الشيخ المحلى فى مجلة مدينته هذه لبورى - ابن دقاق - لكن فخر الملك أوقف هذه العطية .

منايع نهر الأردن.

وراح ريموند - الذى لم تكن طموحاته متواضعة أبدا - يتأمل فى إنشاء إمارة تتحكم فى كل من الطريق الساحلى ووادى العاصى تكون عاصمتها حمص التى يطلق عليها الفرنج لاشاميل La Chamelle ، على أن هدفه الأول كان مدن الساحل، والأرجح أنه قرر ذلك فى وجود سفن جنوا التى قد تساعد . وبعد أن أطلق تنكريد سراحه فى الأيام الأخيرة من عام ١١٠١ م انطلق من أنطاكية مع من تبقى على قيد الحياة من أمراء الحملات الصليبية فى عام ١١٠١ م ، وهم : ستيفن أوف بلوا ، ووليم الأكتاني ، وويلف البافارى ، ورفاقهم ؛ وكانوا يتلهفون على إتمام رحلة الحج إلى القدس . وفى اللاذقية اجتمع الشمل مرة أخرى مع زوجته وجنوده، وساروا جميعا إلى طرطوس . وبوصوله خارج أسوار المدينة ، شاهد أسطول جنوا الصغير راسيا قبالة الشاطئ، وكان يعقد الآمال على مساعدته. وكان حاكم المدينة قد أبدى مقاومة ضعيفة قبل هذا التهديد المزدوج من البحر والبر ، وفى منتصف فبراير تقريبا دخل ريموند طرطوس مع من رافقه من المرتحلين ، الذين وافقوا دون نقاش على أن تكون المدينة مدينته . وظنوه سيصحبهم بعد ذلك إلى القدس ؛ لكن رفضه أغضبهم ، ونعتوه بنعوت الكفر حسب ما ذكره المؤرخ فولشر أوف تشارتر؛ لكنه قرر أن تكون طرطوس نواة أملاكه، فاستأذنه وواصلوا رحلتهم جنوبا^(٣).

ولم يحاول ريموند إخفاء مخططاته ، مما جعل ناقوس الخطر يذق فى العالم الإسلامى؛ وأرسل فخر الملك إلى أمير حمص وإلى دقاق الدمشقى يحذرهما. وعندما ظهر ريموند أمام أسوار طرابلس اتضح أن جيشه يزيد قليلا على ثلاثمائة رجل ، وظن المسلمون أن اللحظة قد حانت لتدميره، وسارع الدقاق بتقديم ألفى فارس، وقدم جناح الدولة مثلهم وأكثر، واستنفر بنو عمار جيشهم كله؛ وعندما تجمع الحشد الإسلامى فى السهل المطل على المدينة كان واضحا أنه يفوق جيش ريموند بعشرين ضعفا.

١١٠٢ م إنتصار ريموند أمام طرابلس

لم نجد فيما كتبه مؤرخو الصليبيين عن أعمال ريموند سوى النذر اليسير، وإنما نعلم

(٣) Fulcher of Chartres, II, xvii, 1-2, pp. 433-5; Albert of Aix, VIII, 43, p. 583; Caffaro, Liberation, p. 69 يقول إن أسطولا من جنوا قدم المساعدة.

عن هذه المعركة غير العادية التي تلت من المؤرخ العربى ابن الأثير . فقد وضع ريموند مائة من رجاله في مواجهة الدمشقيين ، ومائة فى مواجهة بنى عمار ، وخمسين فى مواجهة رجال حمص ، والخمسين الباقين لحرسه الخاص . وبدأ جنود حمص الهجوم ؛ لكنهم فشلوا فأصابهم الذعر فجأة ، وانتشر الذعر بين الدمشقيين . وأما جنود طرابلس فكانوا يحرزون تقدما ؛ وعندما وجد ريموند أن أعداءه الآخرين يلوذون بالفرار تحول إلى جند طرابلس بجيشه كله ؛ فكانت صدمة مفاجئة فاقت احتمالهم ، فاستداروا هم أيضا ولاذوا بالفرار . واندفع فرسان الفرنج فى ساحة القتال مجهزون على كل المسلمين ممن لم يتمكن من الهرب . ويقدر المؤرخ العربى عدد المهالكين من إخوانه فى الدين بسبعة آلاف رجل .

لم يسترجع النصر سمعة ريموند وحسب ، بل ضمن كذلك بقاء مملكته اللبنانية . ولم يجرؤ المسلمون على مهاجمته مرة أخرى البتة . على أن قواته كانت من الضالة بحيث لم يتمكن من الاستيلاء على طرابلس ذاتها بتحسيناتها الهائلة فى شبه جزيرة الميناء . وبعد أن فرض إتاوة باهظة من المال والجياذ عاد إلى طرطوس للتخطيط لحملة التالية^(٤) .

وبعد أن أمضى الأشهر التالية فى توطيد مواقعه فى جوار طرطوس ، انطلق فى ربيع ١١٠٣م لغزو البقاع ، وهى غزوة ضرورية لعزل طرابلس وللتوسع باتجاه وادى العاصى . وفشلت محاولته فى مباغته قلعة طوبان الواقعة فى مدخل الوادى الشمالى الشرقى ، لكنه حط رحاله غير هياب وحاصر قلعة الحصن الهائلة التى تسيطر على الرادى كله ، والتى سبق أن احتلها جنوده لمدة أسبوع عام ١٠٩٩ م ؛ والقلعتان تابعتان لجناح الدولة الحمصى الذى لم يكن يوسعه أن يفقداهما ؛ فحشد جيشا لإنقاذهما . بيد أنه أثناء خروجه من الجامع الكبير فى حمص بعد صلاة الدعاء بالنصر ، قتله ثلاثة من الحشاشين مما أشاع الإضطراب والفوضى فى المدينة . وعلى الفور رفع ريموند الحصار عن قلعة الحصن وسار شرقا لينتهز هذه النهضة . وينسب الرأى العام تلك الجريمة إلى عملاء رضوان الذى لم يغفر لجناح الدولة مطلقا هجوم الأخير عليه قبل ذلك بثلاث سنوات بينما كان يقاتل الفرنج فى أنطاكية . وفزعت أرملة جناح - وهى أم رضوان - من اقتراب ريموند؛ فأرسلت إلى حلب تعرض المدينة على رضوان . ولم

(٤) Ibn al-Athir, pp. 211-12; Sibte ibn al-Djauzi (p.525) يذكر أن مكان المعركة خارج طرطوس وكذلك يذكر Caffaro, *Liberatio*, loc. cit. Radulph of Caen, cxlv, p. 707

يوافقها مستشارو جناح في ذلك ، وإنما استدعوا دقاق الدمشقي لإنقاذهم بدلا من رضوان ؛ فأتى دقاق بنفسه على عجل وبصحبه أتايجه طفتكن الذي عهد إليه بحكومة حمص، ولم يكن ريموند في وضع يستطيع فيه محاربته ، فانسحب إلى الساحل^(٥).

ولدى عودته إلى طرطوس علم بوصول أسطول صغير من جنوا يتألف من أربعين سفينة ألقت مراسيها في اللاذقية ، فاستأجاره من فوره لمساعدته في الهجوم على طرابلس ؛ لكن الهجوم باء بالفشل ، فرحل الخليفان جنوبا واستوليا على ميناء جبيل ، أو جبيل، الذي كان القدماء يطلقون عليه إسم بيلوس ؛ وكوفى أبناء جنوا بثلاث المدينة^(٦) لكن ريموند كان قد عقد العزم على غزو طرابلس نفسها ؛ وفي الأشهر الأخيرة من عام ١١٠٣ م ضرب معسكره في ضواحي المدينة وشرع في تشييد قلعة ضخمة فوق سلسلة من التلال في الداخل تبعد حوالي ثلاثة أميال عن المدينة . وقبل ذلك بفترة وحيزة حاول إقناع تنكريد بالتحول عن اللاذقية ، إرضاء لبيزنطة ، فكافأته بيزنطة بأن أمدته من قبرص بمواد البناء والبنائين المهرة . وبحلول ربيع عام ١١٠٤ م اكتمل بناء القلعة وحل بها ريموند وأسمها جبل الحاج ، وهي التي يسميها العرب قلعة سنجيل ، أي قلعة سان جويل^(٧).

١١٠٥م: موت ريموند

بانت طرابلس الآن في حالة حصار دائم ، لكنها ظلت منيعة ؛ إذ كان ريموند يسيطر على الداخل البرية لكنه لا يملك القوة البحرية الدائمة . وكان بنو عمار لا يزالون يحتفظون بأسطول تجارى كبير ، ولديهم الكثير من الثروة المكدسة ، فاستمروا في إحضار الملون من الموانئ المصرية في الجنوب لكن قلعة ريموند كانت تهدد حريتهم ؛ فخرجوا في أواخر الصيف وحرقوا الضواحي حتى أسوارها، وأصيب ريموند نفسه عندما وقع عليه سقف محروق . وفي أوائل الربيع التالي أمكن إغراء فخر الملك بترتيب عقد

(٥) Ibn al-athir, p. 213 والتاريخ الذي ذكره غامض. Kemal ad-Din, pp. 590-1.

(٦) Albert of Aix, IX, 26, pp.605-6; Caffaro, Liberatio, p. 71

(٧) Anna Comnena, XI, viii, 5, vol. III, p. 380; Albert of Aix, ix, IX, 32, P. 510; Caffaro, iberatio, p.70; RadulphofCaen, loc.cit.; William of Tyre, X, 17, p. 441; Ibn al-Athir, pp. 217-18; Abu'l Mehasin,p.275.

هدنة مع المسيحيين تخلى لهم بموجبها عن الضواحي . وما أن تمت المفاوضات حتى مرض ريموند مرض الوفاة ولم يكن قد شفى تماما من جراحاته التي أصابته قبل ذلك بستة أشهر ، ومات في جبل الحاج يوم ٢٨ فبراير عام ١١٠٥ م ، وبقيت له شهرته لما أقدم عليه من مغامرات تغلب عليها الشجاعة في سنواته الأخيرة . ونعاه عارفوه على أنه فارس مسيحي عظيم فضل شدائد الحرب على متع الوطن كلها^(٨).

وكان جديرا بما نسب إليه . فعلى خلاف زملائه الصليبيين - المستقرين الآن في الشرق بعد أن كانوا فقراء لا شأن لهم يذكر في أوطانهم - كان لدى ريموند ميراث ضخم في أوروبا ؛ وبرغم قسمه بعدم العودة إلى ميراثه أبدا ، كان مع ذلك يحتفظ بنوع ما من السيطرة على أملاكه هناك . وبموته برزت مشكلة استخلافه في تولوز فضلا عن لبنان . فقد ترك تولوز يحكمها برتراند أكبر أبناءه ، الذي حامت الشكوك حول حقه في وراثة الكونتية ، ربما لأنه كان ابن سفاح . ولقد مات جميع أبناء ريموند من الكونتيسة ألفيرا فيما عدا ولد صغيره ، ألفونسو جوردون ، الذي ولد قبل أشهر قليلة في قلعة جبل الحاج ، ولا يستطيع طفل أن يحكم دويلة عسكرية لها وضعها الشائك في لبنان ، وربما لم يكن وجوده نفسه معروفا بعد في تولوز . واستمر برتراند يباشر إدارة أراضي أبيه الأوروبية . وفي الشرق إختار جنود ريموند - وربما توافق إختيارهم مع آخر رغبات ريموند - ابن عمه وليم جوردون ، كونت سردانيا (الواقعة على جبال البرانس) ، والذي وصل إلى الشرق مؤخرا ، وكانت جدته لأمه هي خالة ريموند . وقد اعتبر نفسه وصيا على ابن عمه الطفل ألفونسو ، وأبى أن يأخذ أية أملاك من أراضي في الشرق . بيد أنه طالما بقي ألفونسو جوردون على قيد الحياة ، فلن يتوفر الأمن في حكومة وليم جوردون ولا في حكومة برتراند^(٩).

(٨) Albert of Aix, loc.cit.; Carraro, *Liberatio*, p. 72; Bartolf of Nangis, LXVIII, p. 539.

(٩) Histoire de Vaissette Albert of Aix, IX, 50, pp. 123-4. وطبقا لما ذكره في تاريخه Languedoc, ed. Molinier, vol.IV, I, pp. 195-9, ولد برتراند ابن ريموند من زوجته الأولى إينة مركيز بروفانس . وأبطل هذا الزواج فيما بعد على أساس القرابة الوثيقة التي تحظره . ولا يترتب على هذا الإبطال دائما إعتبار ثمرته أولاد سفاح . ولكن من الواضح أنه على الرغم من أن ريموند اعتبر برتراند وريثه في تولوز حينما رحل إلى الشرق بصحبة أولاده من ألفيرا (وهم غير معروفين من ناحية الذكورة والأنوثة)، فإن مطالب برتراند تعتبر أدنى من مطالب ألفونسو جوردون الشرعية الثابتة في تولوز وفيما بعد تسببت مطالب ألفونسو جوردون حول طرابلس في إنزعاج حفيد برتراند ، ريموند الثاني (أنظر أدناه، الباب الثالث ، الفصل الثالث) أما William of Malmesbury ، الذي لا يتوخى الدقة دائما، فيسمى برتراند ابن ريموند العشيق (II, 9. 456) ويسميه الكاتب المعاصر Caffaro (Liberatio, p. 72) ابن الحرام.

وسار وليم جوردن على سياسة سلفه ، مضيقا الحصار ومحتفظا بالتحالف مع بيزنطة . وأرسل له حاكم قبرص ، إيوماثيوس فيلو كاليبس ، بناء على تعليمات الإمبراطور ، سفيرا لتلقى تعابير الاحترام ، وإزاء ذلك أعطاه الهدايا القيّمة . ونتيجة لامتناع وليم جوردن لبيزنطة ، دأبت قبرص على إرسال إمدادات منتظمة للفرنج الموحدين أمام طرابلس . ومن حين لآخر كان جنود بيزنطة يساعدون في حصار المدينة . وتدفق الطعام على المعسكر الفرنجي في الوقت الذي هددت فيه الجماعة سكان طرابلس ؛ إذ تعذر وصول الطعام برا ، ولم يعد يكفي هذا العدد الكبير من السكان ما تنقله السفن من الموانئ الفاطمية ، فضلا عن الطعام الذي كان يتسلل عن طريق أراضي تنكريد التي تخترق الحصار؛ وارتفعت أسعار المواد الغذائية إرتفاعا خياليا ، بحيث أصبح سعر رطل التمر قطعة ذهبية ؛ وهاجر كل قادر على الهرب من المدينة ، ولم يبق داخل الأسوار سوى البؤس والمرضى ، اللذين حاول فخر الملك تخفيفهما بتوزيع الطعام على الجنود والمرضى وتسديد أثمانها من ضرائب خاصة . وهرب بعض نبلاء المدينة إلى معسكر الفرنج ، وكشف اثنان منهم للمحاصرين الممرات التي لا تزال الأطعمة تهرب عن طريقها إلى داخل المدينة . وعرض فخر الملك على وليم جوردن مبالغ طائلة لقاء تسليمه هذين الخائنين؛ وعندما رفض الكونت تسليمهما وحدا مقتولين في المعسكر المسيحي^(١٠).

١١٠٨م فخر الملك يزور الخليفة

لم يجد فخر الملك من يلجأ إليه طلبا للعون ؛ فعندما طلبه من الفاطميين أصروا على ضم دويلته إليهم؛ ولسبب أو لآخر لم يكن على علاقة طيبة مع طغتكين صاحب حمص، وهو أقرب الحلفاء إليه ، وقد تولى حكم دمشق بعد موت الدقاق في ١١٠٤م ، وقد دأب هو نفسه على محاربة وليم جوردن . وبدا له أن أقاصى الحلفاء هم الأكثر حرصا عليه ، فأرسل في سنة ١١٠٥م نداء عاجلا إلى سقمان الأرتقي حاكم ماردين الذي لم يكن عزوفا عن معاودة الدخول في ساحة الصراع في الساحل السوري ، فانطلق مع جيش كبير عبر الصحراء . غير أنه مات فجأة لدى وصله البتراء ، وأسرع

(١٠) Anna Comnena, loc. cit.; ويقول ابن الأثير (Ibn al-Athir, p. 236) إن المدينة تلقت إمدادات جيدة من الإغريق في اللاذقية.

قواده بالعودة إلى الجزيرة ليختلفوا حول استخلافه^(١١).

ويمكن فخر المالك طوال عامي ١١٠٦ و ١١٠٧ م من تدبير أمره في طرابلس وسط البوس المتزايد بفضل ما كان له من ثروة وما اتصف به من دبلوماسية ؛ فتحسنت علاقته بطغتكن الذي استطاع مساعدته بعد أن استعاد رغبة من الفرنج سنة ١١٠٥ م محولا بذلك إنتباههم عن طرابلس^(١٢)؛ على أن أقدام الفرنج باتت راسخة الآن على الساحل اللبناني ، وليس هناك من الجيران المسلمين من يتوفر لديه الإستعداد ، أو الاقتدار ، لطردهم . وفي ربيع ١١٠٨ م ، قرر فخر الملك وهو في غمرة اليأس أن يلتمس المساعدة بنفسه من الخليفة العباسي في بغداد ، ومن أكبر عاهل هناك وهو السلطان محمد السلجوقي.

وانطلق من طرابلس في شهر مارس بعد أن عهد إلى ابن عمه أبو المناقب بن عمار بتصريف شؤون الحكم ، وبعد أن أمر بمنح جميع الجنود راتب ستة أشهر مقدما . وكان قد أطلع طغتكن على نيته ، ويبدو أنه حصل على إذن من وليم جوردون بالمرور من الأراضي التي يسيطر عليها الفرنج ؛ واصطحب معه حرسا خاصا يتألف من خمسمائة رجل ، كما حمل العديد من الهدايا للسلطان . وبوصوله إلى دمشق إستقبله طغتكن بمظاهر الاحترام اللائق، وأمطره أمراء دمشق البارزون بالهدايا، برغم توحيه الحيلة ونزوله خارج أسوار المدينة . وعندما شرع في مواصلة الرحلة انضم إلى حرسه ابن طغتكن ، تاج الملك بوري . وعلى مشارف بغداد إستقبل بأسمى آيات التشريف ؛ إذ أرسل إليه السلطان زورقه الخاص ليعبر به نهر الفرات ، وأجلسه على الوسادة التي تتشرف عادة يجلس السلطان نفسه عليها . ورغم أن فخر الملك ليس له من لقب قط سوى لقب القاضي ، فقد دخل بغداد بالتشريفات التي لا تجرى الا لعاهل أمير . وأظهر كل من الخليفة و السلطان مشاعر تعاطفهم الأخوية ، وأثريا على ما قدمه للدين من خدمات . على أنه حينما بدأت المناقشة الجدّية سقط القناع عن خواء تلك المحاملات ؛ إذ وعده السلطان بإرسال جيش سلجوقي كبير لتخليص طرابلس ، ولكن هناك أولا بعض المهام الصغيرة التي يتعين إنجازها بالقرب من بغداد، فمثلا ينبغي تأديب جاولي أمير الموصل حتى يظهر من الطاعة أكثر مما هو عليه . وأدرك فخر الملك حقيقة أن محمدا عزوف عن التدخل في مسألة طرابلس . وبعد مرور أربعة أشهر عقيمة ومترفة في بلاط

(١١) .Ibn al-Athir, pp. 226-7.

(١٢) .Ibn al-Qalanisi, op.cit. p. 60; Ibn al-Athir, p. 230.

السلطان شرع فى رحلة العودة إلى وطنه ليكتشف أنه لم يعد له وطن^(١٣).

ذلك أن أبا المناقب ووجهاء طرابلس كانوا واقعيين ؛ وتحققوا من أن القوة الإسلامية الوحيدة القادرة على مساعدتهم هى القوة الفاطمية التى مازالت تسيطر على البحار ، فتوجهوا إلى الوزير المصرى الأفضل ملتجئين إرسال حاكم يتولى شؤون المدينة ، وإستجابة لرغبتهم أرسل شرف الدولة الذى وصل طرابلس فى صيف ١١٠٨م حاملا معه الحبوب للسكان ؛ ولم يجد صعوبة فى إحكام سيطرته على المدينة ؛ إذ اعتقل أنصار فخر الملك وأرسلهم بحرا إلى مصر . وكان فخر الملك قد وصل فى طريق عودته إلى دمشق قبل أن يعلم بهذه الثورة ، وكان لا يزال يمتلك جبلة الواقعة إلى الشمال من طرطوس ، فولى وجهه شطرها ، لكن حكمه هناك لم يدم طويلا ؛ فقد ظهر تنكريد الأنطاكي فى شهر مايو ١١٠٩ م بكامل قوته أمام المدينة ، فاستسلم فخر الملك بعد أن اشترط الإحتفاظ بالمدينة كإقطاعية من تنكريد ؛ لكن هذا الأخير خان وعده ، فاضطر فخر الملك إلى الرحيل إلى دمشق دون أن يتحرش به تنكريد ليتقاعد فيها ، وقضى ما بقى من حياته يتقاضى معاش تقاعده من طغتك^(١٤).

١١٠٨م : برتراند التولوزى يرحل إلى الشرق

مع أن فخر الملك فقد طرابلس ، لم يستطع المصريون الإحتفاظ بها ، كما لم يتمكن وليم جوردن من الفوز بها ؛ إذ أنه بموت ريموند وافق بارونات تولوز على إستخلاف برتراند ، فقد حكمهم بالفعل لما يقرب من عشر سنوات ، فضلا عن أنهم لم يعلموا بعد بوجود ابن شرعى لريموند. على أنهم بعدما علموا بوجود ألفونسو جوردن الصغير ، أرسلوا إليه يستدعونه لتسلم حقه فى الميراث ، ولا تلام الكونتيسة ألفيرا على إثارتها الأراضى الخصبة فى جنوب فرنساعلى لوردية وضعها شائك فى الشرق . فوصلت مع ابنها إلى تولوز سنة ١١٠٨م.

وبوصلهما ، كان لزاما على برتراند أن ينظر فى مستقبله . والراجح أنه قد تم إعداد إتفاق عائلى ، يتخلى برتراند بموجبه عن مطالباته فى أراضى أبيه الأوروبية ، مقابل تخلى ألفونسو جوردن له عن ميراثه فى لبنان وبذا يتخلص منه نهائيا فى تولوز .

(١٣) Ibn al-Qalanisi, op.cit. pp. 83-6; Ibn al-Athir, pp. 255-7..

(١٤) Ibn al-Qalanisi, pp.86-90; Ibn al-Athir, p.274; Sibte ibn ak-Djauzi, p.536.

وفى صيف ١١٠٨م رحل برتراند إلى الشرق وقد عقد العزم على غزو طرابلس ليكون هذا الغزو بمثابة تنويع لإمارته التي تنتظره. وربما توقع بعض الصعوبات مع وليم حوردين ، ولذا اصطحب معه جيشا من أربعة آلاف فارس وراجل ، وأسطولا من أربعين قادسا^(١٥) أمدته بها موانئ بروفانس ، واصطحب معه ابنه الصغير بونز . وكان ميناء جنوا أول مكان توقف فيه للزيارة آملا الحصول على المساعدة البحرية اللازمة للإستيلاء على طرابلس . وحاول وليم حوردين هو الآخر ترتيب تحالف مع أبناء جنوا، لكن سفارته وجدت أنهم قد قبلوا برتراند بالفعل حليفا للجمهورية . ووعدت جنوا بمساعدة برتراند على استلامه الأراضي التي غزاها أبوه فى الشرق وتوزيعها بالإستيلاء على طرابلس التي سيحصلون فيها على مناطق تجارية مفضلة ؛ وفى الخريف أبحر أسطول من جنوا مع برتراند بإتجاه الشرق^(١٦).

ورتب برتراند أن تكون خطوته التالية هى زيارة القسطنطينية كى يضمن موازنة الإمبراطور ، صديق أبيه . ودفعت العواصف بأسطوله إلى خليج فولو ، وإلى مرفأ الميرو حيث ترك رجاله إنطبعا رائعا بإحجامهم عما إعتاد عليه الغرب من نهب الريف . وترتب على ذلك أن استقبله ألكسيوس فى القسطنطينية بمشاعر التعاطف وعامله كإبنه، وأغدق عليه من الهدايا القيمة ، ووعدته بميزات إمبراطورية ؛ وفى مقابل ذلك أقسم على الولاء للإمبراطور^(١٧).

وأبحر برتراند من القسطنطينية مع حلفائه أبناء جنوا إلى ميناء السويدية الأنطاكي، وأرسل مبعوثا إلى تنكريد كى يحضر لمقابلته ، فجاء تنكريد فى الحال . لكن المناقشة التى دارت بينهما لم تتخذ مسارا سلسا هينا؛ إذ طلب برتراند بأسلوب متعجرف أن يسلمه تنكريد الأجزاء من مدينة أنطاكية التى كانت فى حوزة أبيه ذات مرة ، ورد تنكريد بأنه على استعداد للنظر فى طلبه إذا ما ساعده فى حملته المرتقبة ضد المصيصة ومدن كيليكيا البيزنطية . ولم يلق هذا الاقتراح قبولا لدى برتراند الذى أقسم لتوه قسم الولاء للإمبراطور ألكسيوس ، لاسيما وأنه أدخل فى حسابه المساعدات البيزنطية .

(١٥) (المترجم) القادس : سفينة شراعية بحرافية كبيرة.

(١٦) يقول ألبرت أوف آيكس (Albert of Aix, XI, 3, p.664) إن برتراند زار بيزا وهو يعنى جنوا؛ Caffaro, Liberatio, p. 72.

(١٧) تقول آنا كومنينيا (Anna Comnena, XIV, ii, 6, vol. III, p. 149) إن برتراند أقسم قسم الولاء لألكسيوس عندما كان بالفعل فى طرابلس . ولكن ألبرت أوف آيكس (المراجع السابق) يذكر زيارته عن طريق هالميروس Halmyrus إلى القسطنطينية.

وبدلاً من ذلك عرض على تنكريد أن يغزو له مدينة جبلة التي لاذ بها فخر الملك ، ولكن تنكريد أصرّ على التعاون معه في حملة كيليكيا . وبرفض برتراند ومصارحته بالقسم الذي أقسمه للإمبراطور ، أمره تنكريد بمغادرة الإمارة ، وأصدر أوامره لرعاياه ألا يبيعوه شيئاً من المؤن ؛ فاضطر برتراند إلى الرحيل مبحراً جنوباً إلى ميناء طرطوس^(١٨) .

١١٠٩م برتراند ووليم جوردون

كان أحد نواب وليم جوردون حاكماً على طرطوس . وسارع باستقبال برتراند في المدينة ، وزوده بكل ما كان في حاجة إليه من المؤن . وفي اليوم التالي أرسل برتراند مبعوثاً إلى مقر وليم جوردون الرئيسى في جبل الحاج طالباً تسليم كل تركة أيه في أراضي لاشاميل La Chamelle ، أى إمارة حمص ، التي كان ريموند يأمل في إنشائها . لكن وليم جوردون كان قد حقق مؤخرًا نجاحاً ملحوظاً . إذ عندما تولى المصريون حكم طرابلس قام أهالي مدينة أرقا - التي كانت تحت قيادة واحد من غلمان فخر الملك المفضلين - بوضع المدينة تحت حماية طغتكس الدمشقي الذي خرج بنفسه لتفقد محميته الجديدة ؛ و لكن أمطار الشتاء أخرت تقدمه في البقاع ؛ وأثناء إنتظاره تحسن الجو هاجم بعض الحصون التي بناها المسيحيون بالقرب من الحدود ؛ فزحف وليم جوردون مع ثلاثمائة من الخيالة ومائتين من المشاة المحليين فوق كتف جبل لبنان وباغته بالإنقضاض عليه بالقرب من قرية الأكمة ، فهرب طغتكس مع جيشه الدمشقي مذعوراً إلى حمص والفرنج في أعقابه يطارّدونه ، لكنهم آثروا عدم المغامرة بمهاجمة المدينة وإنما تحولوا شمالاً للإغارة على أراضي شيزر . وعلم أميراً شيزر مرشد وسلطان ، وهما من المنقذين ، بأن جيش الفرنج صغير ، فخرجوا وهما على ثقة من هزيمته بيسر ، لكن الفرنج بادروا بهجوم ضار كسر رجال شيزر فلاذوا بالفرار وعاد وليم جوردون إلى أرقا التي استسلمت له بعد حصار لا يزيد على ثلاثة أسابيع^(١٩) .

وانتشى وليم جوردون بانتصاراته ، ولم يكن في حالة تسمح له بالتنازل عما يطلبه برتراند، ورد عليه قائلاً إنه يمتلك أراضي ريموند بحق الوراثة ، فضلاً عن أنه دافع عنها

(١٨) Albert of Aix, XI, 5-7, PP. 665-7.

(١٩) Usama, ed. Hitti, p. 78; Ibn al-Athir, pp. 226-7.

ووسع من رقعتها . على أنه استشعر الخطر من ضخامة أسطول برتراند ؛ فاستنجد بأنطاكية ملتصقا تدخل تنكريد لصالحه بعد أن وعد بأن يصبح تابعا لتنكريد . واضطر برتراند إلى إتخاذ إجراء مناظر، فأرسل مبعوثا إلى القدس يعرض قضيته على الملك بلدوين ويناشده التدخل بصفته الحكم الأعلى لفرنج الشرق ، ومن ثمّ يعترف بسيادته عليه^(٢٠).

واستجاب بلدوين من فوره للنداء . ذلك أن حنكته السياسية ترى ضرورة تعاون فرنج الشرق، وصوّر له طموحه أنه قائدهم . وكان غاضبا أشد الغضب على تنكريد من موقفه إزاء بلدوين الرها وجوسلين أوف كورتناى . وتحرك برتراند جنوبا إلى طرابلس حيث كان الجيش يقوم بمهمة مزدوجة : مواصلة حصار المدينة الإسلامية ، ومحاصرة أعوان وليم جوردن فى جبل الحاج . وفى ذات الوقت كان وليم جوردن قد غادر جبل الحاج واحتل طرطوس مرة أخرى ، ولبت فيها ينتظر تنكريد . وما أن وصل حتى جاء مبعوثان من الملك بلدوين ؛ هما إيوستاس جارنييه وباجان أوف حيفا ، وأمرهما بالمثل فى بلاط الملك أمام طرابلس لتسوية مسألة ميراث ريموند، وإعادة الرها وتل بشير إلى أصحابهما الشرعيين . وود وليم جوردن لو أن تنكريد يرفض هذا الاستدعاء ، لكن تنكريد تحقق من عدم جدوى التحدى.

وفى شهر يونية تجمع أمراء فرنج الشرق جميعا خارج أسوار طرابلس ؛ فحضر برتراند مع جيشه ، وجاء الملك بلدوين من الجنوب وبصحبه خمسمائة فارس ومثلهم من المشاة ، وأحضر تنكريد سبعمائة من أقدر فرسانه ، ووصل بلدوين الرها وجوسلين مع الحرس . وانهقدت جلسة وقورة فى قلعة جبل الحاج أسفرت عن مصالحة رسمية بين تنكريد وبلدوين الرها وجوسلين ، بينما تقرر تقسيم الميراث التولوزى بأن يحتفظ وليم جوردن بطرطوس وما غنمه غزوا - أى أرقا ؛ ويحصل برتراند على جبيل وطرابلس فور الاستيلاء عليها . وأقسم الأول قسم الولاء لتنكريد ، وأقسم الثانى قسم الولاء للملك بلدوين . ويقضى الاتفاق بأنه فى حالة وفاة أى منهما يرث الآخر أراضيه^(٢١).

(٢٠) Fulcher of Chartres, II, xi, I, pp. 526-30; Albert of Aix, XI, 1-2, 8, pp. 663-4, 666.

(٢١) Fulcher of Chartres, II, xli, I, p. 531; Albert of Aix, XI, 9-12, pp. 666-8.

١١٠٩م استسلام طرابلس

وحل السلام بين القادة ، وشرع الجيش الفرنجي حادا في الاستيلاء على طرابلس . وكان الحاكم المصرى شرف الدولة لا يزال يلح يائسا في طلب المساعدة من السلطات المصرية التى شغلتها مكائد قادتها وخلافاتهم ، فتأخر ما جهزته فى موانئ الدلتا من أسطول ضخيم وسفن من ناقلات الجنود وقوارب محملة بالإمدادات . وكانت الشهور تمضي والوزير يحاول تهدئة الخلافات بمحاولات منقوصة ، إلى أن صدرت الأوامر أخيرا بالإبحار . غير أن الرياح الشمالية هبت واشتدت مما عرقل إبحار السفن من الميناء ، وعندما أبحرت فى نهاية الأمر وقد نقص عددها ، كان السيف قد سبق العذل^(٢٢) .

وتلفتت حامية طرابلس فرجحت أساطيل جنوا وبروفانس تعزلها بحرا ، وآلات الفرنج تقصف أسوارها فتعجزها برا ؛ فنفضت عن نفسها فكرة المقاومة ، وأرسل شرف الدولة إلى الملك بلدوين يعرض تسليم المدينة بشرط السماح للمواطنين الراغبين فى الهجرة بالرحيل آمنين ومعهم منقولاتهم ، وأن يسرى على المواطنين الراغبين فى البقاء ما يسرى على رعايا الفرنج ، وأن يحتفظوا بممتلكاتهم ، وإنما يدفعون ضريبة سنوية معينة ، وأن يسمح له هو نفسه بالرحيل مع جنوده إلى دمشق . فوافق بلدوين ودخل المسيحيون طرابلس يوم ٢١ يولية ١١٠٩م .

وأما بلدوين ، فقد احترم إتفاقه ولم يحدث فى المناطق التى كان يياشرها نهب أو تخريب ، وأما بحارة جنوا فقد اقتحموا المدينة العارية من أى دفاع ، وراحوا ينهبون المنازل ويحرقونها ، وأخذوا يقتلون كل مسلم يقابلهم ؛ ولم تتمكن السلطات من كبح جماحهم إلا بعد فترة من الوقت ، وأثناء النهب والشغب أحرقوا مكتبة بنى عمار العظيمة عن آخرها وهلك كل محتوياتها . وكانت أروع مكتبة فى العالم الإسلامى^(٢٣) .

وبعد الاستيلاء على كامل المدينة وفرض النظام تم تنصيب برتراند حاكما لها ومُنح لقب كونت طرابلس ، وأعاد تأكيد تبعيته لمملكة القدس . وضرب بتعهداته للإمبراطور الكسيوس عرض الحائط . وكوفئ أبناء جنوا بحى من أحياء طرابلس ، وقلعة تعرف

(٢٢) Ibn al-Athir, p. 274; Ibn al-Qalanisi, p. 89

(٢٣) Fulcher of Charters, II, xli, 2-4, pp. 531-3; Albert of Aix, XI, 13, p. 668; Ibn al-Qalanisi, pp. 89-90; Ibn al-Athir, loc. cit.; Abu'l Mahasin, p. 489; Ibn Hmdun, p. 455; Sibte ibn al-Djauzi, p. 536.

بقلعة الكونستابل تبعد عشرة أميال إلى الجنوب من طرابلس، وبالثلاثين الباقيين من مدينة جبيل بعد منحها للأدميرال هيو أميرياكو، وقد حوّلها ذريته إلى إقطاعية وراثية^(٢٤).

ولم ينتظر برتراند طويلا ليستحوذ على ميراث أبيه كله في الشرق، إذ أصيب وليم جوردن بسهم أثناء تواجد الجيش الفرنجي في طرابلس، وبقيت ملابسات مقتله غامضة. ويبدو أنه اندفع لفض شجار شب بين إثنين من سائسي الخيل، وأثناء محاولته الفصل بين الرجلين أطلق البعض عليه سهما. وبقينا حامت الشبهات حول برتراند، ولكن دون بينة. وعلى الفور تسلم برتراند جميع أراضي وليم جوردن، التي أصبحت إذن تدين بالولاء للملك بلدوين. ولقد راهن تنكريد على الحصان الخاسر^(٢٥).

وهكذا تحققت طموحات ريموند في تأسيس دويلة في الشرق أقامها ولده. ولكنها كانت إمارة ثقل عما كان يراود خياله، ولم تكن أراضي "لا شاميل" جزءا منها قط، وبدلا من الاعتراف بسيادة الإمبراطور البعيد في القسطنطينية، أصبح لها سيد أعلى على مقربة في القدس. على أنه كان ميراثا غنيا مزدهرا. وكان لهذه الإمارة، بما لها من ثروة وموقع يربط فرنج شمال سوريا بفرنج فلسطين، دورا حيويا في تاريخ الحروب الصليبية.

Caffaro, *Libertio*, pp. 72-3. See Rey, 'Les Seigneurs de Gibelet', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III, pp. 399-403. (٢٤)

Fulcher of Charters, loc. cit.; Albert of Aix, XI, 15, pp. 669-70. (٢٥)

الفصل الخامس:

الملك بالدوين الأول

الملك بلدوين الأول

"قلبه صلب كالبحر وقاس كالرحى"
(أبواب ٤١ - ٢٤)

اتضح بجلاء من تدخل الملك بلدوين فى طرابلس سنة ١١٠٩ م أنه عاهل فرنج الشرق بلا منازع. وقد حظى بتلك المكانة بما كان له من دأب شاق صبور ومن حسارة المغامرة . وعندما وصل القدس بعد موت جودفرى ، برغم معارضة البطريق ديامبرت وحليفه أمير انطاكية (بوهيموند)، كان ما ورثه عبارة عن خزانة خاوية وممتلكات مبعثرة تتألف من سلسلة الجبال الوسطى فى فلسطين وسهل ازدراليون ، وحصون نائية قليلة شيدت فى أراض معادية ، وجيش بالغ الضالة مؤلف من فرسان متعجرفين لا سلطة للقانون عليهم، ومرترقة من أهل البلاد لاثقة فيهم . ولم يكن فى المملكة أية هيئة واحدة منظمة عدا الكنيسة التى تضم شيعتين : شيعة ديامبرت ، وشيعة أرنولف . وكانت أسرة جودفرى هى التى تتولى تصريف الإدارة المركزية ، وهى أسرة صغيرة غير جديرة بتولى حكومة بلد. وأما النبلاء الذين أوكلت إليهم الحصون الحدودية ، فكانوا

يحكمون أراضيهم بما تملّيه عليهم أمراؤهم.

ورأى بلدوين أن أخطر ما يتهدد مملكته هجوم إسلامي قبل أن تنتظم أمورها. وإعتقاداً منه بأن أفضل سبل الدفاع هي الهجوم، انطلق في حملة يرهب بها الكفرة قبل أن يجد حلاً لمشكلة علاقته مع دياميرت، وقبل أن يوضع التاج على رأسه وهي مشكلة يرى أنها ملحة. وكان لأعماله الجرئية في الرها وإنتصاره في نهر الكلب ما أضفى عليه سمعة مرعبة راح ينتفع بها. فلم يكد يمر أسبوع على وصوله إلى القدس حتى انطلق جنوباً إلى عسقلان وسار أمام أسوارها مستعرضاً؛ بيد أن قلعة عسقلان كانت من القوة بحيث لا يستطيع جيشه الهزبل مهاجمتها، فاتجه شرقاً إلى الخليل، فجنوباً داخل النقب، إلى زغر في الأرض المالحة في الطرف الجنوبي للبحر الميت، وراح يشعل الحرائق في القرى التي يقابلها في طريقه. وواصل مسيرته خلال قفار إيدوم (الشراه) إلى جبل هارون حيث دير القديس هارون القديم بالقرب من البتراء. ورغم أنه لم يبق طويلاً في تلك المنطقة، فقد كان لمسيرته أثرها المروع على العرب، فأحجموا عن التسلل إلى أراضيهم في السنوات القليلة التي تلت^(١).

وعاد إلى القدس قبيل عيد الميلاد بقليل، وتوفر للبطريق دياميرت الوقت الكافي ليتدبر أمره، فاختار أن ينحني لعاصفة قدره المحتوم. وفي عيد الميلاد من عام ١١٠٠م وضع تاج الملك على رأس بلدوين معلناً تنويجه ملكاً على القدس، وفي المقابل آلت إليه البطرياركية.

وفي بدايات ربيع ١١٠١م علم بلدوين بأن قبيلة عربية ثرية تعبر وادي الأردن، فسارع إليها على رأس كتيبة عبر النهر وانقضّ عليها بليل، وأجهز على أغلب الرجال وهم في خيامهم، وسبى النساء والأطفال واستلب الكثير من الثمين والمال، ولم يتمكن من الهرب إلا القليل. ومن بين السبايا كانت زوجة أحد شيوخ القبيلة تنهياً لتضع حملها، فأمر بلدوين بإطلاق سراحها مع خادمتها وناقيتين وكثير من الطعام والشراب. ووضعت طفلها على جانب الطريق حيث وجدها زوجها. ومست كياسة بلدوين شغاف قلبه فأسرع إليه يوفيه حقه من الشكر والعرفان، واعداداً برد الجميل يوماً ما^(٢).

(١) صاحب فولشر أوف تشارتر هذه الحملة (Fulcher of Charters, II, iv, i-5, ii, pp. 370-83) ؛
 Albert of Aix, VII, 28-42, pp. 533-6. كان هناك دير إغريقي في جبل هارون حالياً، وأنزل
 للربان حول الضريح النبطي الكبير الذي يعرف الآن باسم الدير.

(٢) William of Tyre, X, II, p. 415.

وزادته هذه الغارة شهرة على شهرة ، فوفدت السفارات فى مارس إلى القدس من مدن الساحل أرسوف وقيسارية وعكا وصور تحمل الهدايا الثمينة ، كما أرسل دقاق الدمشقى يعرض خمسين ألف بيزنت فدية أسرى معركة نهر الكلب ؛ وإذن وجدت أعقد المشاكل المالية طريقها إلى الحل^(٣).

١١٠١ م : الإستيلاء على أرسوف وقيسارية

أما هدايا أرسوف وقيسارية ، فلم تغن عنهما شيئا ؛ إذ ظهر أسطول جنوا فى مارس أمام حيفا ، وألقى مراسيه فى يافا يوم ١٥ أبريل ، وكان من بين ركابه الأسقف موريس كاردينال بورتو الذى بعث البابا باسكال ممثلا شخصيا له . وحتى آنذاك ، كان بلدوين يعتمد على أسطول بيزا الصغير الذى حمل عدوه ديامبرت ، رئيس أساقفة بيزا ، إلى الشرق . وأملت المصلحة على بلدوين تفضيل التحالف مع أبناء جنوا ، إذ أنهم أنداد بيزا الشداد ، فانطلق جنوبا إلى حيفا للتحية ولإستقبال ممثل البابا . ودعا قادة الأسطول لقضاء عيد الفصح فى القدس حيث إتفقوا على تقديم خدماتهم البحرية طوال موسم كامل نظير ثلث الأسلاب المستلبة ، المال والمنقول سواء بسواء ، وشارع فى حى السوق من كل مدينة يتم الاستيلاء عليها . وحالما وقعوا الإتفاق ، انطلقوا يريدون أرسوف ، بلدوين برا وأهل جنوا بحرا . وسرعان ما انهارت المقاومة وعرضت سلطات المدينة التسليم شريطة السماح للسكان بالهجرة المأمونة مع ذويهم ومنقولاتهم إلى أرض إسلامية ، وقبل بلدوين فرحلوا فى حراسة جنوده إلى عسقلان . وعزز بلدوين الحامية برجاله بعد أن أعطى أبناء جنوا حقهم المتفق عليه^(٤).

ورحل الحلفاء من أرسوف إلى قيسارية حيث بدأوا حصارها يوم ٢ مايو . وأبت الحامية أن تستسلم المدينة اعتمادا على أسوارها البيزنطية القديمة . على أن المدينة سقطت إثر هجوم عام يوم ١٧ مايو . وأطلق القادة المنتصرون جنودهم لينهبوا المدينة كما يحلو لهم ؛ وبلغت الشراسة حدا أذهل حتى القادة أنفسهم ؛ ووقعت أفطع المذابح فى الجامع الكبير ، الذى كان ذات مرة معبد هيرود أجريبا^(٥) ، حيث لاذ به الكثيرون

(٣) Albert of Aix, VII, 52, pp. 541-2.

(٤) Fulcher of Charters, II, viii, 1-7, pp. 393-400; Albert of Aix, VII, 54, pp. 452-3.

(٥) (المترجم) : هيرود أجريبا: من ملوك بنى إسرائيل (١٠ ق م - ٤٤ م) استغل صداقته بالأسرة الإمبراطورية وأصبح ملكا . اضطهد المسيحيين ، وسجن بطرس الرسول ، وقتل الخوارى يعقوب بن

الذين توسلوا طالبين الرحمة ، لكنهم ذبحوا رجالا ونساء سواء بسواء ، إلى أن استحوالت أرضية الجامع بحيرة دماء . ولم يخرج من الجامع أحد على قدمية سوى عدد قليل من البنات والأطفال الرضع ، إلى جانب كبير القضاة وقائد الحامية بعد أن أنقذهما بلدوين نفسه طمعا في فدية ثمينة . وقد أمر بلدوين بتلك الوحشية متعمدا ، حتى يظهر أنه عند كلمته مع كل من يعقد معه اتفاقا ، وإلا فإنه لا يرحم^(١).

وما أن أنهى بلدوين توزيع الغنائم بحسب الاتفاق ، ووضع جنود الحامية ، حتى جاءته الأنباء بأن جيشا مصرية قد دخل فلسطين.

ذلك أن الوزير الأفضل كان متلهفا على الثأر من كارثة عسقلان التي وقعت قبل عامين ، فجهز حملة يقودها المملوك سعد الدولة الجراشي ، وصلت عسقلان في منتصف مايو ، وواصلت تقدمها حتى الرملة ، وربما على أمل التوغل إلى القدس بينما كان بلدوين منهمكا في قيسارية ؛ وأسرع بلدوين بقواته إلى الرملة ، فعاد سعد إلى عسقلان انتظارا للتعزيزات . وبعد أن قام بلدوين بتعزيز تحصينات الرملة اتخذ من يافا مقرا لقيادته كي يتمكن من مراقبة تحركات المصريين ، وفي ذات الوقت يبقى على اتصاله بالمواصلات البحرية ، ولبث في يافا طوال الصيف عدا زيارة قصيرة للقدس لأغراض إدارية ، كما أنه علم من رسالة اكتشفت مع حاملها برصول قوات مصرية جديدة إستعدادا للزحف على القدس.

١١٠١ م معركة الرملة الأولى

في ٤ سبتمبر تحرك سعد بجنوده تحركا بطيئا حتى مشارف الرملة . وفي مجلس الحرب الذي عقده بلدوين قبل يومين تقرر المبادرة بالهجوم فجرا دون انتظار هجوم الأعداء . وكانت عدة الفرنج مائتين وستين فارسا وتسعمائة راجل ، تسليحهم جيد وخبرتهم بالحرب حسنة . أما المصريون فكانت عدتهم أحد عشر ألف فارس وواحد

زبدى بقطع رأسه في القدس عام ٤٤ م.

(١) Fulcher of Charters, IX, 1-9, pp. 400-4; Albert of Aix, VII, 55-6, pp. 453-4; William of Tyre, X, 16, p. 423, يذكر أن أبناء جنوا أخذوا - كجزء من الغنائم - كأسا أحضر إعتقلوا أنه مصنوع من الزمرد الخالص . ولا يزال موجودا في خزانة كاتدرائية القديس لورينزو في جنوا، وإعتبر فيما بعد الكأس المقدسة (التي شرب منها المسيح في العشاء المقدس) (أنظر Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*, I, p. 137.)

وعشرين ألف راجل ، تسليحهم سيئ وكذلك تدريبهم على الحرب . وقد
رجاله إلى خمس فرق : الأولى يقودها فارس يقال له برفولد ، والثانية يقود
كارنبيل - لورد حيفا ، والثالثة يقودها هيو (أوف سانت أومير) الذى
أميرا للجليل ، والفرقتان الرابعة والخامسة يقودهما بلدوين نفسه . وسار
الرملة يستلهمون حماسهم من الصليب الحقيقى ، ومن الصلاة التى أقامها أر
روس ، وما أعلنه الكاردينال ممثل البابا من غفران خاص لهم . ومع أ
الأولى إنقضوا على المصريين بالقرب من بينة إلى الجنوب الغربى من المدينة .

وسحق المصريون هجوم الفرقة الأولى بقيادة برفولد وسقط هو
واندفع جلدمار بفرقة الثانية لمعاونته ، ليهلك هو الآخر مع رجاله كلب
فرقة الجليل على الأثر ، ولم تفعل شيئا فى حشود المصريين . وتمكن هيو (أومير)
بعد خسائر فادحة من سحب رجاله ولاذ بالفرار قاصدا يافا ور
المصريين تطارده . وبدا أن الفرنج قد خسروا كل شئ . على أن الملك بلد
أن اعترف بذنوبه علانية أمام الصليب الحقيقى ، وبعد أن ألقى على رفاقه
اعتلى فرسه العربى الشجاع "الغزال" واندفع أمام فرسانه فى قلب العدو
المصريون الواقفون من النصر ، وبعد سجال قصير استدار جنود الوسط وهر
الذعر إلى ميمنتهم ، ومنع بلدوين رجاله من التوقف لنهب الجثث أو سلب
وطاردهم حتى أسوار عسقلان . ثم جمع شتات رجاله وراحوا يقتسمون الأ
فازوا بها فى ساحة القتال^(٧) .

وفى تلك الأثناء، وصل هيو (أوف سانت أومير) إلى يافا، وأبلغ الملك
بالحزيمة . وظننا منهم أن الملك قد قتل فى هذه الكارثة، سارعوا بطلب الم
الرجل الذى ظنوه الوحيد القادر على العون — تنكريد فى أنطاكية . وفى الد
شاهدوا فى الأفق جيشا ظنوا أنه جيش المصريين؛ لكن النشوة تملكهم عن
رايات الفرنج وتعرفوا على الملك . فأرسلوا إلى أنطاكية ثانية بأن الأمور تسير
ولا حاجة لأن يأتى تنكريد . غير أن تنكريد كان قد تجهز - بشئ من
للإنطلاق جنوبا^(٨) .

ولقد مال الخطر عن الفرنج مؤقتا ؛ وأصيب المصريون بخسائر كبيرة ، و

(٧) of Chartres, II, xi, I-xiii, 5, pp. 407-20; Albert of Aix, VII, 66-70, pp. 550-3

(٨) Fulcher of Chartres, II, xiv, I-8, pp. 420-4.

من معاودة إرسال حملة فى ذلك الفصل من السنة. غير أن مصر زاهرة بمواردها ، فلم يجد الأفضل صعوبة فى تجهيز جيش آخر فى العام التالى لمواصلة الكفاح . وفى ذلك الوقت وفد على بلدوين من نجا من أمراء الحملات الصليبية فى الأناضول عام ١١٠١م ، وكانوا قد وصلوا إلى مشارف بيروت فى أوائل ربيع ١١٠٢م وعلى رأسهم وليم الأكتانى ، وستيفن أوف بلوا ، وستيفن أوف برجندى ، والكونستابل كونراد ، وبصحبته نبال شتى من الأراضى الرابضة ، وإيكارد أوف أوراء ، وأسقف مناس ، وأكثرهم جاء إلى أنطاكية بطريق البحر . وأرسل بلدوين حرسا لاستقبالهم وحراستهم حتى القدس خوفا عليهم من الأعداء . وبعد أن احتفل القادة بعيد الفصح فى الأماكن المقدسة ، تهيأوا للعودة إلى بلادهم ؛ فأبحر وليم الأكتانى فى أمان من ميناء السويدية فى نهاية إبريل ؛ بيد أن العواصف قذفت بالسفينة التى تقل ستيفن أوف بلوا وستيفن البرجندى وآخرين إلى يافا . وقبل العثور على سفينة أخرى تقلهم جاءت الأنباء بمسير جيش إسلامى جديد من مصر . ولسوء حظهم لبثوا للمساعدة فى الصراع الرشيك^(٩).

١١٠٢م معركة الرملة الثانية

فى منتصف مايو ١١٠٢م تجمع الجيش المصرى فى عسقلان ثم انطلق باتجاه الرملة . وكان قوامه نحو عشرين ألفا من العرب والسودانيين يقودهم شرف المعالى ، ابن الوزير . وكان بلدوين قد أعد عدته بجيش من عدة آلاف مسيحي ينتظر فى يافا ، وحاميات الجليل على أهبة الاستعداد لإرسال الكتاب إذا ما دعت الحاجة . لكن حواسيس بلدوين ضلّوه ، فظن المصريين جماعة صغيرة من المغيرين ، فقرر القضاء عليهم بنفسه دون استدعاء قواته الاحتياطية . وكان معه فى القدس أصدقاءه من الغرب ، ستيفن أوف بلوا ، وستيفن البرجندى ، والكونستابل كونراد ، وهيو كونت لوسينان ، وغيرهم من فرسان البلجيك . واقترح عليهم الإنطلاق مع الفرسان لإنهاء هذه المهمة . وغامر ستيفن أوف بلوا بالقول بأن هذا تصرف يتصف بالتهور ، وأن من الأفضل إجراء إستطلاع جيّد ؛ لكنه لم يجد أذنا صاغية ، وإنما تذكروا جنبه فى أنطاكية ، فصحبهم دون أن يزيد على ما قال .

وفى ١٧ مايو انطلق بلدوين من القدس على رأس نحو خمسمائة فارس ، يغلب

(٩) Fulcher of Chartres, II, XV, I-6, pp. 424-8.

عليهم الكثير من المرح والقليل من النظام . وساعة أن خرجوا إلى السهل بوغثوا بالجيش المصرى الضخم ، وتحقق بلدوين من خطته ، ولا سبيل الآن إلى التراجع فقد شاهدتهم المصريون الذين بادرت خيالتهم الخفيفة بقطع طرق تفهقرهم ، وبذا أصبحت الفرصة الوحيدة أمام الفرنج هى الإندفاع مباشرة إلى قلب العدو . وظن المصريون بادئ الأمر أن هؤلاء لابد وأن يكونوا طليعة الجيش الفرنجى الكبير ، وفقدوا الأمل من وصول قوات أخرى في أثرهم قبل الالتحام ، فجمعوا شملهم وأطبقوا على الفرنج ، فانكسرت صفوف بلدوين . وتمكن فرسان قليلون بقودهم روجر أوف روزوى ، وهيو أوف لى بورج ، ابن عم بلدوين ، من شق طريقهم بين المصريين والوصول سالمين إلى يافا . وسقط الكثير من فرسان الفرنج صرعى ، منهم جيران أوف أفيزن ، والياور الأسبق لجودفرى ، ستايلون . وتمكن بلدوين نفسه ورفاقه القادة من شق طريقهم إلى حصن الرملة القريب . وبات الجيش المصرى بهم محيطة .

ولولا هبوط الظلام لانقض عليهم المصريون . لكن دفاعات الرملة كانت بالغة السوء ، وربما يصمد برج واحد كان بلدوين قد شيدته قبل ذلك بعام ، فتزاحموا بداخله . وفى منتصف الليل جاء أحد الأعراب إلى البوابة طالبا مقابلة الملك فأجيب إلى طلبه ؛ وكشف عن شخصيته قائلا إنه زوج السيدة التى تعطف عليها بلدوين أثناء غارة الأردن . وعرفانا منه بالجميل جاء يحذر بلدوين من هجوم مصرى فى الفجر ونصحه بالهرب فى التو واللحظة . وأخذ بلدوين بنصيحته . وآيا ما قد تكون مشاعر أسفه لتخليه عن زملائه - وليس هو بالرجل الذى يعتني كثيرا بالشرف - ارتأى له أن بقاء المملكة يتوقف على بقاء شخصه ، فتسلل مع ثلاثة من رفاقه وأحد غلمانة خلال خطوط العدو ثملأه الثقة فى فرسه "الغزال" الذى سيحمله سالما إلى مأمنه . وفى تلك الليلة تمكن فيكونت يافا ليثار أوف كامبارى ، وجوتمان أوف بروكسل من الهرب كل على حده . وتمكن جوتمان ، رغم جراحاته البالغة من الوصول إلى القدس معلنا أخبار الكارثة ، وناصحا بالمقاومة اعتقادا منه أن بلدوين ما يزال على قيد الحياة .

وفى باكورة اليوم التالى تسلق المصريون أسوار الرملة بأعداد غفيرة ووضعوا حزم الحطب حول البرج الذى لاذ به الفرسان . فأثر الفرسان وعلى رأسهم كونراد الاندفاع إلى الأعداء بدلا من الهلاك فى النيران . على أنه لم يكن هناك مهرب ، وفى لحظات قتلوا جميعا وأسر البعض منهم . وتركت شجاعة كونراد إنطباعها على المصريين فأبقوا على حياته وأرسلوه مع أكثر من مائة من زملائه أسرى إلى مصر . ومن بين من صرخوا من القادة ستيفن البرجندى ، وهيو أوف لوسينان ، وجيوفرى أوف فندوم ، وقتل معهم

ستيفن أوف بلوا وبذا استعاد سمعته بموته المجيد ، وإذن تستطيع زوجته الكونتيسة أدبلا أن تنام ملء جفניה (١٠).

١١٠٢ م : الملك بلدوين فى يافا

وكانت الملكة والبلاط ، مرة أخرى ، فى يافا حيث أخبرهم روجر أوف روزوى ومن معه من الهاربين بالهزيمة النكراء . وداهمهم الجزع من سقوط الملك مع كل فرسانه ، وراحو يعدون خطط الهرب بحرا ، فلا يزال فى الوقت متسع . لكن الجيش المصرى وصل إلى أسوار المدينة يوم ٢٠ مايو ، كما اقترب الأسطول المصرى فى الأفق الجنوبى . وتحققت أسوأ المخاوف عندما رفع جندى مصرى أمامهم رأسا بدت وكأنها رأس الملك ، لكنها كانت فى حقيقتها رأس جيرود اوف وبثينك الذى كان شديد الشبه بالملك . وفى تلك اللحظة ، وكما لو كان فى الأمر معجزة ، شوهدت سفينة صغيرة مبحرة من ناحية الشمال وعليها راية الملك الخاصة به فى قمة الصارى.

كان بلدوين قد هرب من الرملة وبم وجهه شطر الساحل محاولا اللحاق بالجيش فى يافا. لكن الجنود المصريين كانوا يجوبون البلاد ، فاضطر بلدوين إلى تمضية ليلتين ويومين متجولا خلال سفوح التلال شمال الرملة ، ثم أسرع بعبور سهل شارون إلى أرسوف التى وصلها مساء التاسع عشر ، فكانت مفاجأة سارة لحاكمها روجر أوف حيفا . وفى ذات الليلة لحق به فى أرسوف جنود الجليل وعددهم ثمانون فارسا جمعهم وقادهم هيو أوف سانت أومير ، وكانوا قد أسرعوا جنوبا بمقدم أنباء تقدم المصريين . وفى الصباح التالى اتجه هيو برجاله جنوبا فى محاولة لشق طريقه إلى يافا ، بينما أفلح بلدوين فى إقناع مغامر إنجليزى بالابحار بسفينته وإختراق الحصار المصرى . ورفع بلدوين رايته ليدخل البهجة على بلاطه ، وما لبث المصريون أن شاهدوها فأرسلوا

(١٠) Fulcher of Chartres, II, xviii, I-xix, 5, pp. 436-44; Ekkehard of Aura, *Hierosolymita* (١٠) pp. 33-5; Albert of Aix, IX, 2-6, pp. 591-4; Bartolf of Nangis, pp. 533-5; William of Tyre, X, 20-1, pp. 429-32) تدخل الشيخ البدوى ؛ ورواية ابن الأثير (Ibn al-Athir, pp. 213-16) رواية مضطربة لأنها تقوم على أساس روايتين مختلفتين . وأنا أقبل التاريخ الذى أورده Hagenmeyer (op. cit. pp. 162-6) ، رغم أن the *Chronicon* S. Maxentii, p. 421 تقول ٢٧ مايو ، وألبرت أوف آيكس "حوالى عيد العنصرة" أى حوالى ٢٥ مايو؛ وحوال موت ستيفن أوف بلوا ، وطبقا لرواية Guibert of Nogent, p. 245 ، فليس هناك شئ معروف بصورة قطعية ؛ ويرد تاريخ وفاته فى *Cartulaire de Notre Dame de Chartres*, III, p. 115 وهو ١٩ مايو.

السفن من فورهم لاعتراض سفينة بلدوين ، غير أن رياحا شمالية قوية أعاققت المصريين عن اللحاق بها، ودفعت سفينة بلدوين إلى داخل المرفأ بسرعة.

وشرع بلدوين من فورهم في إعادة تنظيم قواته . وقبل أن يتمكن المصريون من إحكام الحصار حول المدينة ، شق لنفسه طريقا وخرج لمقابلة هيو ومجموعة الجليل وأخذهم إلى داخل الأسوار . ثم أرسل إلى القدس إستدعاء جميع من يمكن الإستغناء عنه من هناك ومن الخليل . وتطوع راهب محلى بحمل الرسالة وتسلل بها من يافا عبر خطوط العدو تحت طيات الظلام ، لكنه وصل القدس بعد ثلاثة أيام . وبتأكيده بقاء الملك على قيد الحياة عمّت الفرحة ، وأمكن جمع تسعين فارسا تقريبا وعددا أكبر من الخيالة ، وتحرزوا جميعا بقطعة من الصليب الحقيقي ، وأسرعوا جنوبا إلى يافا . أما الفرسان ، فقد تمكنوا من شق طريقهم إلى داخل المدينة لما كانوا عليه من تسليح جيد وعدة ، وأما الخيالة فقد حرفوا إلى البحر فتركوا خيولهم وسبحوا إلى داخل المرفأ . وفي تلك الأثناء كتب بلدوين إلى تنكريد وبلدوين الرها بخسائره الجسيمة طالبا إرسال التعزيزات.

وقبل إنطلاق فرسان الشمال ، هبطت على يافا نجدة لم تكن فى الحسبان ؛ إذ دفعت الرياح إلى يافا أسطولا من مائتى سفينة أغلبها سفن انجليزية محملة بالجنود والحجاج القادمين من إنجلترا وفرنسا وألمانيا ، وتمكن هذا الأسطول من تخطى الحصار المصرى . وبذا توفر لبلدوين المزيد مما كان يحتاجه من الرجال . وفى ٢٧ مايو خرج على رأس الجيش لملاقاة العدو . وليست لدينا تفاصيل المعركة، ويبدو أن المصريين حاولوا إستدراجه والإحاطة به دون جدوى، وأخيرا اندفع عدد كثيف من الفرسان نحو العدو فشتتوا صفوفه فاستدار المصريون وهربوا. وبعد ساعات قليلة كانت القوة المصرية كلها تسرع الخطى إلى عسقلان، تاركة معسكرها بما فيه من غنيمة للمسيحيين^(١١).

ونجا بلدوين ومملكته بسلسلة من المصادفات رأى فيها المسيحيون يد الرب تمتد إليهم، وليس ذلك شيئا غير طبعى ، وليست استراتيجية المصريين العاجزة أقل تلك الأحداث ؛ إذ كان بمقدور كتيبة مصرية صغيرة أن تستولى على القدس بعد معركة الرملة مباشرة دون أن يضعف تطويق يافا ؛ لولا أن قبضة الوزير الأفضل على الأمور كانت تتراخى ، وكان ولده الأشرف ضعيفا لا طاعة له ، فأصاب الشلل حركته لما

(١١) Fulcher of Chartres, II, xx, I-xxi, 18, pp.444-55; Ekkehard of Aura, loc. cit.; Albert of Aix, IX, 7012, pp. 595-7; Ibn al-Athir, loc. cit.

ساد بين قواده من صراع . وفى الصيف التالى أرسل والده حملة جديدة بحرا وبراً . على أنه أنشاء لإبحار الأسطول شمالاً إلى يافا رفضت القوات البرية التقدم وراء عسقلان لما كان يشعر به قائدوها المملوك تاج العجم من غيرة من أمير البحار القاضى ابن قادوس . وترتب على ذلك حبس تاج العجم لانعدام الولاء ، لكن السهم كان قد نفذ وضاعت أفضل فرصة لاسترداد فلسطين^(١٢) .

ولما علم تنكريد وبلدوين أوف لي جورج بمأزق القدس ، راحا يعدان العدة للإنطلاق جنوباً بغاية السرعة . وكان معهما وليم الأكتانى الذى كان فى أنطاكية وقت وصول رسالة الملك بلدوين . وارتحلوا جميعاً أعلى وادى العاصى مروراً بخص ثم هبوطاً خلال الأردن الأعلى . وبدت قواتهم كبيرة بحيث تجنبت السلطات الإسلامية المحلية إيقاف مرورهم . ووصلوا يهودا فى أواخر سبتمبر . وأنداك ، لم يعد بلدوين فى حاجة عاجلة لمساعدتهما ، لكن وجودهما أغراه بمهاجمة الجيش المصرى فى عسقلان . ورجحت المناوشات كفة المسيحيين ، لكنهم لم يغامروا بالهجوم على تلك القلعة^(١٣) .

١٠١١ م بلدوين وديامبرت

وكان تجمع حكام الفرنج مفيداً لبلدوين لأسباب أخرى ؛ إذ كان تنكريد ينوى المساعدة بشروطه ، لكنه فى الواقع مكّن بلدوين من التغلب على أعضل مشاكله الداخلية . فقد سبق للبطريق ديامبرت أن تزج بلدوين يوم عيد الميلاد من سنة ١١٠٠م ، لكنه فعل ذلك على مضض دون أن تخفى مشاعره على بلدوين . وشعر بلدوين بضرورة السيطرة على الكنيسة ، فهى جيدة التنظيم وهى - لا السلطة العلمانية - التى تتلقى من أتقياء المتعاطفين فى الغرب الهبات وتركات المواريث المذكورة فى الرصايا . وقد حامت الشكوك حول ترقية ديامبرت من الناحية القانونية ، خاصة وأن هناك شكوى أرسلت إلى روما بشأنه ، أدت فى نهاية الأمر إلى أن أرسل البابا باسكال ممثله موريس ، أسقف وكاردينال بورتو ، فى مهمة لتقصي الحقائق ، فوصل فى عيد الفصح من سنة ١١٠١م . وفى الحال اتهم بلدوين ديامبرت ، فى حضوره ، بتهمة

(١٢) Ibn al-Athir, loc.cit.

(١٣) 213 إن أمراء الشمال أصروا على الإنسحاب. Albert of Aix, IX, 15, p. 599; Ibn Moyassar, p. 464 ويقول ابن الأثير p. Ibn al-Athir

الخيانة، وأظهر الخطاب الذى ارسله دياميرت إلى بوهمند بعد موت جودفرى محرّضا على معارضة استخلاف بلدوين ولو أدى الأمر إلى إستخدام القوة. فضلا عن ذلك أعلن أن دياميرت حاول إغتياله أثناء رحلته جنوبا. ومهما يكن الأمر بشأن احتمال تزوير الخطاب، فلا جدال فى وجود الخطاب نفسه. فما كان من موريس إلا أن منع دياميرت من المشاركة فى احتفالات عيد الفصح وقام بها بمفرده. وأمّا دياميرت، الذى أخذ منه الخوف على مستقبله فقد سعى إلى مقابلة بلدوين، وركع أمامه يزرف دموعه متوسلا المغفرة. لكن بلدوين رجل صعب المراس لا تلين له قناة، فأصرّ على موقفه إلى أن تمتم دياميرت بأنه يدخر ثلاثمائة بيزانت. وعندئذ لانت قناة بلدوين، فهو دائم الاحتياج إلى المال، فقبل الهدية سرا ثم قصد إلى ممثل البابا وأعلن فى شهامة غفرانه لدياميرت. وأشرقت أسارير موريس، وهو الرجل المسالم، لنجاحه فى التوفيق بينهما^(١٤).

وبعد بضعة أشهر احتاج بلدوين مرة أخرى إلى المال ، فطلبه من دياميرت الذى أعطاه مائتى مارك مدعيا أن ذلك المبلغ هو كل ما كانت تحويه خزانة البطريرقية . على أن رجال الدين المشايخين لأرنولف همسوا فى أذن الملك بأن دياميرت يخفى مبالغ طائلة فى الواقع . وحدث بعد أيام قلائل أن أقام دياميرت مأدبة سخية على شرف ممثل البابا ، فقد دأب على استثمار موازرته . واقتحم بلدوين عليهما خلوتيهما وألقى عليهما محاضرة استنكر فيها ما يتمتعان به من ترف المعيشة بينما قوات العالم المسيحى تتضور جوعا . فثارت ثائرة دياميرت ورد عليه قائلا ان للكنيسة أن تنفق أموالها كما يحلو لها ولا سلطة للملك عليها ، بينما حاول موريس تهدئة الموقف وقد بدا عليه القلق. ولم يكن هناك من سبيل لإسكات بلدوين الذى ساعده تدريبه القديم على أعمال القساوسة فى الإستشهاد بالقانون الكنسى ، وكان فى لسانه فصاحة فعلت فعلها فى موريس الذى أقنع دياميرت بأن يتكفل بكتيبة من الفرسان . ومع ذلك ، لم يدفع دياميرت المال أبدا برغم طلبات بلدوين المستمرة . وفى خريف ١١٠١م وصل مبعوث من الأمير روجر أوف أبوليا حاملا منحة قدرها ألف بيزانت للبطريق على أن يخصص ثلثها لكنيسة القبر المقدس، وثلثها الثانى للمستشفى ، وثلثها الأخير للملك للإنفاق على

(١٤) كتب ألبرت أوف آيكس (Albert of Aix, VII, 46-51, pp. 538-41) رواية معادية لدياميرت . وكان وليم الصورى (William of Tyre (x, 26-7, pp.438-40) مدافعا على طول الخط عن حجة دياميرت فى مصالح استقلال الكنيسة ، وبطريقة المحتالين لم يذكر شيئا عن تحقيقات موريس Maurice. ريان. pp.218-19. Riant, Inventaire.

الجيش. ونهزور ديامبرت واحتفظ بالمنحة كلها، رغم أن شروطها لم تكن خافية. وعندما اشتكى بلدوين لم يعد في وسع ممثل البابا المضى في موازرة ديامبرت، وأعلن تنحيته عن البطريارية. فعاد ديامبرت إلى يافا حيث أمضى الشتاء، ثم ارتحل في مارس إلى أنطاكية. وتلقاه صديقه القديم تنكريد مرحاب، وعهد إليه بكنيسة القديس جورج، وهي واحدة من أغنى كنائس المدينة. وفي ذات الوقت، ترك بلدوين منصب البطريق شاغرا بدعوى ضرورة إخطار روما. واقتحم إثنان من أتباعه خزانة البطريارية فوجدوا أن ديامبرت قد أخفى عشرين ألف بيزانت. أما موريس، الذي كان يباشر أعمال البطريارية بصفة مؤقتة، فقد تلفت تلك الفضائح صحته، فمات في ربيع ١١٠٢م^(١٥).

١١٠٢م : خلع ديامبرت

عندما جاء تنكريد في الخريف لإنقاذ بلدوين أعلن أنه يشترط إعادة تنصيب ديامبرت الذي كان بصحته. وأنداك كان بلدوين لئن العريكة إلى أقصى الحدود. غير أنه في تلك الآونة وصل ممثل جديد للبابا - روبرت كاردينال باريس. فأصر الملك على عقد مجمع كنسى برئاسة روبرت لوضع الأمور في نصابها، فأسقط في يد تنكريد وديامبرت ولم يجرؤا على الرفض. وتقرر في إحدى الجلسات إعادة تنصيب ديامبرت مؤقتا إلى حين إجراء تحقيق شامل. وبعد ذلك ألحق تنكريد جنوده بجنود الملك في الحملة على عسقلان. وسرعان ما عقد المجمع الكنسى في كنيسة القبر المقدس برئاسة ممثل البابا وبمساعدة أسقفى لاوون وبياتشنزا الزائرين، وحضر المجمع الكنسى أساقفة ورهبان فلسطين كلهم، وكذلك أسقف المصيصة من أراضى تنكريد. وبإيجاء من أرنولف أوف روه، قام أساقفة قيسارية وبيت لحم والرملة بتوجيه الاتهامات إلى ديامبرت معلنين أنه أثناء رحلته إلى فلسطين عام ١٠٩٩م، ترأس أهل بيزا وهاجموا رفاقا مسيحيين في جزيرة أبونيا؛ وسعى إلى إشعال حرب أهلية بين الملك بلدوين والأمير بوهمند، واستولى على أموال أودعت لديه لرعاية الحجاج فى المستشفى فضلا عن جنود المسيح. وكانت التهم حقيقية لا سبيل إلى إنكارها، فلم يجد الكاردينال ممثل البابا مندوحة من إعلان عدم جدارة ديامبرت لمنصبه وأمر بخلعه. ولم يجد تنكريد ما يعترض به على هذا الإجراء الكنسى فاضطر إلى قبول الهزيمة. وصحبه ديامبرت فى

رحلة العودة إلى أنطاكية وأعيد تنصيبه في كنيسة القديس جورج إلى أن تتاح له فرصة الذهاب إلى روما . لقد صنع لنفسه صورة رجل هرم فاسد جشع، وغادر فلسطين لم يأس لحاله أحد . لقد كان تعيينه ممثلاً رسولياً خطأ فادحاً ارتكبه البابا إيربان الثاني^(١٦).

أمّا أرنولف أوف روه ، الذى أعان بلدوين فى الأمر كله من تلقاء نفسه ، فقد بلغ من المكر ما بلغه بحيث لم يحاول أن يحل محل ديامبرت فى منصبه . وبدلاً من ذلك ، وحينما طلب ممثل البابا مرشحاً للبطريرقية، اقترح الأساقفة الفلسطينيون قساً هرماً يدعى إيفرمار ، جاء من ثيروان إلى الشرق مع الحملة الصليبية الأولى ، وكان يشتهر بورعه وإحسانه . ورغم أنه وأرنولف من نفس البلد، إلا أنه لم يشاركه مكائده، وفاز باحترام الجميع . وابتهج ممثل البابا وهو يقوم برسم هذا القس الذى لا تشوبه شائبة؛ كما أحس بلدوين بمشاعر الرضا لأن إيفرمار شيخ كبير لا يخشى جانبه، ومحال أن يغامر بدس أنفه فى السياسة، وفى ذات الوقت يستطيع أرنولف مواصلة وضع مخططاته دونما عائق.

على أن اليأس لم يداخل ديامبرت . فحينما ذهب بوهموند - الذى كان يوفر له الحماية - إلى إيطاليا عام ١١٠٥م صحبه إلى روما ليبحث أحزانه للبابا باسكال الذى كان حذراً أول الأمر، لكنه بعد أن تريت قليلاً منحه مؤازرته، وربما كان مرد ذلك إلى نفوذ بوهمند الذى لا يقاوم . وأرسل البابا يطلب من بلدوين رداً على ما اتهمه به ديامبرت، لكن الملك لم يعر الأمر انتباهاً، ربما لعلمه أن البابا دائماً يستمع لبوهمند . فألغى باسكال قرار خلع ديامبرت قائلاً إن هذا الخلع كان نتيجة لتدخل سلطات مدنية . ولحسن الطالع إمتدت يد الرب لتصلح من حمق البابا؛ فبينما كان ديامبرت يتهيأ للعودة منتصراً لاستعادة عرشه البطريرقى مرض ومات فى ميسينا يوم ١٥ يونية ١١٠٧م^(١٧).

١١٠٢م : انتخاب أرنولف بطريقاً

ولم تنته مشاكل البطريرقية . وتزايد شعور بلدوين بعدم الرضا عن إيفرمار، وربما كان يدرك ما للكنيسة من أهمية فائقة بحيث لا يصح أن تترك ، لمن لا كيان له ، وإنما

(١٦) Albert of Aix, IX, 14, 16-17, pp. 598-600; William of Tyre, loc. cit.

(١٧) William of Tyre, XI, I, pp. 450-I.

يلزم أن يرأسها، حليف له يتصف بالكفاءة . وعندما علم إيفرمار بإعادة تنصيب دياميرت رسمياً، شد الرحال إلى روما ، ليجد غريمه دياميرت ميتاً مع شكاواه من السلطة المدنية . وعندما وردت أنباء موت دياميرت إلى فلسطين ، سارع أرنولف إلى روما كي يبذل جهوده لموازرة الملك . وكان البابا باسكال آنذاك يميل إلى إيفرمار ؛ غير أنه أدرك أن القضية أشد تعقيداً مما كان يظن ؛ فعهد بها إلى رئيس أساقفة آرل ، جيبيلين أوف سابران ، وهو شيخ طاعن في السن واسع الخبرة . ووصل فلسطين في ربيع ١١٠٨ م ، وقد سبقه إليها إيفرمار وأرنولف . واستقر رأيه على أن إيفرمار ليس أهلاً للمنصب ، وليس هناك من يرغب في عودته ، ولذا أعلن أن كرسي البطريركية شاغراً وعقد مجلساً كنسياً لتعيين خلفاء له . واقترح بلدوين ترشيح جيبيلين ، فقبل بمشاعر الغبطة المشوبة بالحرج، وتم تعيين إيفرمار رئيساً لأساقفة قيسارية الذي كان شاغراً لحسن الحظ، وذلك من قبيل التعويض.

وترددت شائعات بأن أرنولف حرّض الملك على إختيار جيبيلين لتقدمه في السن وبذا سرعان ما ستصبح البطريركية شاغرة مرة ثانية . وهذا ما حدث في الواقع، إذ لم يعيش جيبيلين سوى أربع سنوات، وبموته انتخب أرنولف أخيراً ليعتلي عرش البطريركية دون معارضة من أحد^(١٨).

وكان بلدوين يرى أن أرنولف بطريق مثالي ؛ وقد تمكن من الاحتفاظ بمنصبه برغم نفور أتباعه وبرغم ما نشأ لاحقاً من مشاكل حول زواج بلدوين الثاني . ولقد كان أرنولف فاسداً بلا شك . فعندما تزوجت ابنة أخته إيما من بابوستاس جارنيه وهو زوج حاز رضاه، وهبها إقطاعية ثمينة في أريحا تابعة لكنيسة القبر المقدس . لكنه كان نشطاً وكفواً وكُرس نفسه للملك الذي يرجع إليه الفضل في التخلي نهائياً عن فكرة أن تخضع القدس لحكومة دينية ثيوقراطية بعامل يكون مجرد وزير للدفاع ، وهي فكرة غير عملية كان يتصورها أغلب المشتركين في الحملة الصليبية الأولى ؛ كما تدبر إشراك كنائس فلسطين كلها معه في الرأي ، حتى في خلع رجال الدين التابعين لكنيسة القبر المقدس ممن لا يثق في ولائهم ، والذين عيّنهم جودفري أوف لورين . وباتساع المملكة غزواً ، كافح بلا هوادة في سبيل إتحاد السلطتين الدينية والمدنية ضد البابا باسكال الذي كان يدافع عن الحقوق التاريخية غير العملية للكرسي الرسولي الأنطاكي ، مدفوعاً

(١٨) Albert of Aix, x, 589, pp.650-9, xii, 24, p.704; William of Tyre, loc. cit. and XI, 4, pp. 455-6.

بتحيزه المشؤوم لمناصرة أمراء أنطاكية النورماندين . ولم يكن أرنولف حديرا بالاحترام، وإنما كان خادما أميناً لمملكة القدس . وقد شجب المؤرخ وليم الصوري ذكره ولطخ سمعته دون وجه حق، لأنه بذل الكثير لتعزيز الحملة الصليبية الأولى^(١٩).

كما يرجع الفضل إلى أرنولف سيده الملك بلدوين في تحسن علاقة الهرمية اللاتينية بالمسيحيين المحليين . ففي بداية الأمر ، عندما كان أرنولف على رأس البطريركية سنة ١٠٩٩ م ، نهب الطوائف الشرقية وطردها من كنيسة القبر المقدس . على أن دياميرت كان عدواً أسوأ للطوائف الشرقية ، فلم تقتصر سياسته على طردهم من الكنيسة وحسب ، وإنما أيضاً من أديرتهم ومنشأتهم في القدس ، سواء كانوا أرثوذكس كال يونانيين أو الجورجيين ، أو هراطقة كالأرمن واليعاقبة والنساطرة . كما لو أن آداب المجتمع التقليدي بالسماح للنساء بالخدمة في الأماكن المقدسة . ونتيجة لتلك الأفعال الشائنة انطفأت مصابيح كنيسة القبر المقدس عشية عيد الفصح ، ولم تهبط النار المقدسة من السماء لإضاء تهمارة أخرى إلى أن تشترك الطوائف الخمس المحرومة في صلاة ضراعة أن يغفر الرب للفرنج . ووعى بلدوين المدرس ، وأصر على إنصاف الوطنيين ، وأن يحتفظ اليونانيون بمفاتيح كنيسة القبر المقدس ذاتها ؛ ويبدو أن جميع المسيحيين في فلسطين أزروه منذ آنذاك . واقتصر تعيين كبار رجال الدين على الفرنج برغم وجود قساوسة يونانيين في الكنيسة ، ولقى ذلك الوضع قبولا من الأرثوذكس المحليين الذين سبق لكاهنهم الأعلى أن غادر البلاد خلال سنوات الإضطراب قبل الحملة الصليبية مباشرة . وبرغم ما كانت تحمله الأديرة الأرثوذكسية من نفور شديد من الهرمية اللاتينية فقد مارست نشاطها دون عائق ، ولم يجد الحجاج الأرثوذكس ولا الوطنيين مبرراً للشكوى من السلطة المدنية ، ويبدو أن كنائس الهراطقة كانت راضية كذلك . لكن الوضع اختلف تماماً في الدويلات الفرنجية شمال سوريا حيث ساد الإستياء من ظلم الفرنج^(٢٠).

(١٩) William of Tyre, XI, 15, p. 479. وليم الصوري يستهجن انتهازية أرنولف.

(٢٠) أنظر أدناه الصفحات ٣٦٩-٣٧٢ . توجد رواية طويلة حول القداس في مخطوطة فولشر أوف تشارتر، وهي مطبوعة في طبعة *Recueil des Historiens des Croisades* ويلاحظ هاجنماير Hagenmeyer، في طبعته عن فولشر ، أنها تظهر في مخطوطة واحدة فقط (لاتينية) ، ويرفضها كلها فيما عدا كلمات المقدمة "conturbati sunt omnes propter ignem quem die sabbati non habuimus ad Sepulcrum Domini" (II, viii, 2, p. 396). See his note 5, pp. 395-6 للإطلاع على كامل المناقشة . وفي ملحق خاص (ibid. pp. 831-7) حشر نصاً ، مع النصوص التي وجدت في Bartolf of Nangis and Guibert of Nogent. ونظراً إلى أن فولشر أوف تشارتر هو القس الخاص لبلدوين ، فلا بد وأنه قد حضر هذا القداس . ويورد دانيال المرحوميني Daniel the

١١٠٣ م : حصار عكا

لم تفتز عزيمة الوزير الأفضل لهزيمة يافا عام ١١٠٢ م ، ولا لإخفاق حملة الربيع من العام التالي ١١٠٣ م ، غير أنه استغرق وقتا أطول في إعداد جيش آخر . أمّا بلدوين ، فقد أرخى قبضته على الساحل الفلسطيني . وبرغم سيطرته على المدن الساحلية من يافا إلى حيفا ، واصل المغيرون المسلمون هجومهم على الطرق التي تربط بينهما ، وخاصة منحدرات جبل الكرمل ؛ بل إن الطريق من يافا إلى القدس لم يسلم من الإغارة كما ذكر الحاج سايولف^(٢١) . كما كان القراصنة يتسللون من مينائي صور وعكا الخاضعين للسيطرة المصرية للإغارة على التجارة المسيحية . وفي أواخر خريف ١١٠٢ م قذفت العواصف بسفن الحجاج العائدين إلى أوطانهم - وهم الذين أنقذوا بلدوين في يافا في شهر مايو - إلى شتى شواطئ الساحل ، بعضها بالقرب من عسقلان ، والبعض الآخر بين صور وصيدا ؛ ولم يسلم أحد من الركاب ، فمات من مات ، ومن لم يموت بيع في أسواق الرقيق المصرية وفي ربيع ١١٠٣ م حاصر بلدوين عكا بمساعدة بعض السفن الإنجليزية التي كانت لاتزال معه . وأوشكت الحامية على الاستسلام لولا وصول إثني عشر قادسا فاطميا وعدد كبير من سفن النقل القادمة من صور وصيدا تحمل الرجال وآلات إطلاق النيران الإغريقية، فلم يجد بلدوين مفرًا من رفع الحصار^(٢٢) . وحاول في الصيف التالي تطهير منطقة جبل الكرمل من قطاع الطرق، فلم يصب نجاحا يذكر، وأصيب في أحد الاشتباكات بجرح خطير في كليتيه وأشرف على الهلاك. وبينما هو راقد في فراش المرض في القدس جاءت انباء الحملة المصرية المزدوجة بقيادة تاج العجم وابن قادوس. على أن امتناع تاج العجم عن التقدم وراء عسقلان أجبر ابن قادوس على محاولة حصار يافا بمفرده ، وبذل جهوده ببعض الحماس وليس كله . وبعد أن شفى بلدوين بالقدر الذي يسمح له بقيادة الجيش إلى الساحل ألقع الأسطول المصري^(٢٣) .

وفي مايو التالي وصل إلى حيفا من جنوا أسطول حربي سبق وأن ساعد ريموند التولوزي في الاستيلاء على جيبيل . وقابل بلدوين قاداته وضمن تحالفهم لإخضاع عكا

Higumene (ed. de Khitrowo, pp. 75-83) رواية القداس في عام ١١٠٧ . ويتضح من هذه الروايات أن الإغريق قد منحوا مسؤولية كنيسة القيامة نفسها.

Albert of Aix, IX, 18, pp. 600-1. (٢١)

Albert of Aix, IXh, 15, p. 59; Ibn l-Athir, p. 213 (٢٢) ذكر ابن الأثير عاما مختلفا ٤٩٥ هـ بدلا من ٤٩٦.

Fulcher of Chartres, II, xxiv, I, pp. 460-1; Albert of Aix, IX, 22-3, pp. 103-4. (٢٣)

بعد أن وعدهم بما اعتادوا عليه من قبل ، وهو ثلث الغنائم وامتيازات تجارية وأحد الأحياء في السوق؛ وبدأ الحلفاء حصار عكا يوم ٦ مايو . وقاومهم القائد الفاطمي المملوك ظهر الدولة الجيوشى مقاومة عنيدة ؛ لكن مصر لم ترسل إليه أية مساعدة ، فاضطر بعد عشرين يوما إلى أن يعرض التسليم بشروط مماثلة لشروط استسلام أرسوف ، وهى السماح بالمرور الآمن للمواطنين الراغبين فى الرحيل مع منقولاتهم ، ومعاملة الباقين كرعايا للملك الفرنجى . وقبل بلدوين الشروط والتزم بها، بل وأمر بالإبقاء على مسجد لرعاياه المسلمين . أما بحارة إيطاليا فقد أبوا أن يتركوا تلك الثروة الهائلة تفلت من أيديهم فانقضوا على المهاجرين وقتلوا منهم خلقا كثيرا ونهبوهم جميعا ، مما أغضب بلدوين وهم بمهاجمة أبناء جنوا لمعاقبتهم ، لولا أن وصل البطريق إيفرمار وأفلح فى تهدئته ومصالحته بهم^(٢٤).

وبسقوط عكا ، نال بلدوين ما كان يصبو إليه من مرفأ آمن فى شتى الأجزاء المناخية . وبرغم بعد الشقة عن القدس بما يزيد على مائة ميل ، سرعان ما أصبحت عكا الميناء الرئيسى للمملكة بدلا من يافا بممراتها المائية المفتوحة . وفضلا عن ذلك ، كانت عكا هى الميناء الرئيسى الذى تشحن منه بضائع دمشق إلى الغرب ، ولم يتوقف هذا الطريق التجارى بعد الغزو الفرنجى ، وإنما شجعه مسلمو عكا المقيمون بها^(٢٥).

١١٠٥ م : معركة الرملة الثالثة

وفى صيف ١١٠٥ م شرع الوزير الأفضل فى آخر محاولة لاسترجاع فلسطين ؛ ففى أوائل أغسطس حشد فى عسقلان جيشا مجهزا تجهيزا حسنا قوامه خمسة آلاف جندى من العرب الخيالة والمشاة السودانيين ، يقوده ابنه سناء الملك حسين . وتعلم المصريون مما فشلوا فيه من دروس سابقة ؛ فطلبوا مساعدة حكام دمشق الأتراك . ولو أن دمشق ساهمت بمساعدتها فى عامى ١١٠٢ و ١١٠٣ م لكانت مساعدة لها قيمتها . على أن دقاق الدمشقى مات فى يونية ١١٠٤ م، ونشأ الخلاف بين أسرته وأتابجه طغتكين ، بل جاء رضوان الحلبي سعيًا وراء نصيبه فى الإرث.

(٢٤) Fulcher of Chartres, II, xxv, I-3, pp.462-4; Albert of Aix, IX, 27-9, pp.606-8; Caffaro, *Liberatio*, pp.71-2; Charter of Baldwin in *Liber Irium Reipublicae Genuensis*, vol. I, pp. 16-17.

(٢٥) أنظر أدناه ص (٣٦٧). كانت التجارة مازال مستمرة فى زمن ابن جبير (١١٨٣).

وبدا طغتكن بتنصيب ابن الدقاق ، تتش ، على العرش ولما يجاوز من العمر عاما واحدا ؛ ثم استبدله بأخى الدقاق ، أرتاش ، البالغ من العمر إثني عشر عاما. وسرعان ما ارتاب أرتاش فى نوايا الوصى طغتكن ، فهرب إلى حوران حيث أحاره أتكين أمير بصرى ، ومنها استغاث بالملك بلدوين الذى دعاه إلى القدس . وفى تلك الملاحظات إغبط طغتكن بطلب المساعدة من المصريين ، بيد أنه أثر عدم المغامرة بإرسال قوة كبيرة ، وإنما أرسل قائده صباوو على رأس ألف وثلاثمائة من الرماة الراكبين^(٢٦) وفى أغسطس دخل الجيش المصرى فلسطين حيث انضم إليه جنود دمشق بعد هبوطهم خلال الأردن وعبر النقب . وكان بلدوين منتظرا فى يافا ، لكنه بعد أن شاهد الأسطول المصرى فى الأفق اختار الانتقال إلى موقع الرملة الذى لا بد أن تدور فيه المعركة ، وعهد بيافا إلى ليثار (أوف كمبارى) مع ثلاثمائة جندى . وكان بصحبته أرتاش الدمشقى الصغير المطالب بالعرش ، وكل من بقى من جند الفرنج فى فلسطين ، وحاميات الجليل وحيفا والخليل ، وكذلك الجيش الرئيسى المؤلف من خمسمائة فارس وألفين من المشاة . كما استدعى بلدوين البطريق إيفرمار من القدس ، فجاءه مع مائة وخمسين رجلا جمعهم من هناك ومعهم الصليب الحقيقى.

وبدأت المعركة يوم الأحد ٢٧ أغسطس . ومع انبلاج الصبح اعتلى البطريق فرسه وسار فى غدو ورواح أمام صفوف الفرنج بكامل أرديته والصليب فى يده ، مانحا بركته وغفرانه ، وبعد ذلك هجم الفرنج ؛ لكن هجوما مضادا من الأتراك الدمشقيين كاد أن يكسر صفوف الفرنج لولا أن حمل بلدوين رايته فى يده وقاد هجوما بعثرهم . وحارب المصريون بشجاعة غير عادية، لكن ميسرتهم كانت قد ذهبت فى محاولة فاشلة لمفاجأة حيفا، وعادت بعد فوات الوقت . وبحلول المساء هزم المسلمون ؛ فاستدار صباوو ورجاله عائدين إلى بلادهم ، وانسحب المصريون إلى عسقلان ، ومنها أسرع قائدهم سناء الملك عائدا إلى القاهرة . وكانت الخسائر جسيمة ، إذ قتل حاكم عسقلان وأسر حاكما عكا وأرسوف السابقان وافتديا فيما بعد بفدية كبيرة. وأعرب المؤرخ فولشر أوف تشارتر عن مشاعر الأسى من هرب سناء الملك لضياح الفدية السخية التى كان سيحصل الفرنج عليها. غير أن خسائر الفرنج كانت كبيرة أيضا. وبعد سلب المعسكر، لم يطارد بلدوين المصريين ، وكف عن مساندته للأمير الصغير أرتاش الذى عاد إلى الرحبة فى الفرات كسير القلب . وعاد الأسطول المصرى إلى مصر

ولم يحقق شيئا سوى هلاك بعض السفن فى عاصفة^(٢٧).

وكانت معركة الرملة الثالثة خاتمة المحاولات الكبيرة التى بذلها الفاطميون لاستعادة فلسطين ؛ لكنهم ظلوا خطرا دائما يتهدد الفرنج . ففى خريف ١١٠٦م أوشكت غارة صغيرة أن تنجح حيث فشلت الجيوش الكبيرة ؛ ففى أكتوبر من ذلك العام كان بلدوين مشغولا على الحدود فى الجليل ، وهاجم بضعة آلاف من فرسان المصريين معسكر حجاج بين يافا وأرسوف وقتلوا من كان فيه . وخرج لهم حاكم يافا ، روجر أوف روزوى ، لكنه وقع فى كمين نصبوه له ، ولم ينقذه سوى فرسه الذى سبق به الريح عائدا إلى يافا . واشتعل حماس المصريين فى المطاردة ، حتى أنهم أدركوا أربعين من جنوده المشاة خارج البوابات وقتلوه . وبعد ذلك توجه المصريون شمالا باتجاه القدس ، وهاجموا حصنا صغيرا يطلق عليه كاستيل آرنو لم يكن بلدوين قد أستكمل بناءه ، وكان مخصصا لحراسة الطريق . واستسلم العمال ، لكنهم قتلوا عدا قائدهم جيوفرى ، أمر قلعة برج داوود ، الذى أسروه للحصول على الفدية . وعندئذ سمع بلدوين بالغارة فسار جنوبا فى قواته ، فلم يجد المصريون مفرا من الإنسحاب إلى عسقلان^(٢٨).

١١٠٦ - ١١٠٨م : هجمات على المدن الإسلامية الساحلية

وفى العام التالى كادت حملة مصرية أن تستولى على الخليل ، لكن بلدوين دحرها بنفسه . وفى عام ١١١٠م توغل المصريون حتى أسوار القدس ، إلا أنهم سرعان ما تراجعوا^(٢٩) وتكررت غارات مماثلة من حين لآخر على نطاق أصغر خلال السنوات العشر التالية ، الأمر الذى حرم المسيحيين من الأمان فى السهل الساحلى والنقب مستوطنين وحجاجا سواء بسواء ؛ على أن تلك الغارات كانت أكثر قليلا من كونها غارات إنتقامية لما أقدم عليه بلدوين من غارات على الأراضى الإسلامية .

وهكذا أطلق بلدوين يده فى محاولته لتوسيع المملكة . وكانت أهم أهدافه المدن الساحلية عسقلان جنوبا ، وصور وصيدا وبيروت شمالا . لكن عسقلان وصور كلاهما

(٢٧) -Albert of Aix,IX,48-50, pp.621-4; Fulcher of Chartres, II,XXXI, I-xxxiii,3,pp.489 503;Ibn al-Athir,pp. 228-9; Ibn Moyessar, p. 466.

(٢٨) Albert of Aix, x, 10-14, pp. 635-8.

(٢٩) . Ibid. x, 33, pp. 646-7; XI, 28, p.676.

قلعة قوية بحامية كبيرة متواجدة بصورة مستديمة، ولا بد لإخضاعهما من إعداد العدة بعناية. وفي ربيع ١١٠٦م جاء إلى الأراضي المقدسة حشد كبير من الحجاج الإنجليز والفلمنكيين والداغريكين، مما أغرى بلدوين بالتخطيط لحملة على صيدا، التي ما أن علم حاكمها بذلك حتى أرسل إلى الملك مبلغا ضخما من المال. وقبل بلدوين الهدية، فحاجته إلى المال لا نهاية لها. وبقيت صيدا آمنة لعامين آخرين^(٣٠).

وفي أغسطس ١١٠٨م، سار بلدوين مرة أخرى إلى صيدا يساعده أسطول صغير يتألف من بحارة مغامرين من شتى المدن الإيطالية، وعلى الفور استأجر حاكم صيدا مساعدة أتراك دمشق لقاء ثلاثين ألف بيزانت، بينما أبحر أسطول مصري من مصر وهزم الإيطاليين في معركة بحرية خارج الميناء، فاضطر بلدوين إلى رفع الحصار. وعلى الأثر رفض أهالي صيدا - ببعض المبررات - دخول الأتراك مدينتهم، خشية أن يكون لطغتكين أطماع فيها، بل رفض الحاكم دفع المبلغ المتفق عليه، فهدد الأتراك باستدعاء بلدوين؛ فأبدى الحاكم استعدادة للعدول عن رفضه، فوافقوا على تسعة آلاف بيزانت على سبيل التعويض ثم انصرفوا^(٣١).

وفي الصيف التالي تلقى برتراند التولوزي مساعدة من بلدوين في الاستيلاء على طرابلس؛ وفي المقابل أرسل برتراند في أوائل ١١١٠م الجنود لمساعدة بلدوين في الهجوم على بيروت. وكانت سفن جنوا وبيزا جاهزة لحصار المدينة، خاصة وأن طرابلس تعتبر قاعدة بحرية مناسبة. وحاولت السفن الفاطمية الآتية من صور وصيدا كسر الحصار، لكنها لم تفلح. واستمر الحصار من فبراير إلى مايو. وداخل الحاكم اليأس من وصول المساعدة، فهرب بليل مخترقا الأسطول الإيطالي إلى قبرص حيث سلم نفسه للحاكم البيزنطي. وفي ١٣ مايو استولى الحلفاء على المدينة التي تخلى عنها حاكمها بهجوم ارتكب فيه الإيطاليون مذبحه عامة قتل فيها الكثير من السكان قبل أن يتمكن بلدوين من المحافظة على النظام^(٣٢).

(٣٠) Ibid. x, 4-7, pp. 632-4

(٣١) Ibid. x, 48-51, pp. 653-5; Ibn al-Qalanisi, p. 87.

(٣٢) Fulcher of Chartres, II, xlii, 1-3, p. 536، ويذكر فولشر التاريخ ١٣ مايو في أشعار فلكية؛ وورد Albert of Aix في صفحة (٦١١) التاريخ ٢٧ مايو؛ Ibn al-Qalanisi pp. 99-101 التاريخ ١٣ مايو.

١١٠١ م : الاستيلاء على صيدا

وأثناء ذلك الصيف تلقى بلدوين من الغرب مزيدا من التعزيزات البحرية . ففي سنة ١١٠٧م أبحر أسطول من ميناء برجين النرويجي يقوده سيجورد ، الذى كان يشارك أخويه فى عرش النرويج ، وعبر بحر الشمال ، متوقفا فى إنجلترا فى الطريق إلى جبل طارق ، ثم قشتالة ، فالبرتغال ، فجزر البليار ، فصقلية ، وأخيرا عكا التى وصلها وقت أن كان بلدوين عائدا من إستيلانه على بيروت . وكان سيجورد أول رئيس متوج يزور المملكة ، ولذا استقبله بلدوين بأسمى آيات التشريف ، ورافقه شخصيا إلى القدس . ووافق سيجورد على مساعدة الفرنج فى حصار صيدا ، وبدأ الحلفاء الحصار فى أكتوبر . لكن تحصينات صيدا كانت شديدة القوة ، وبوصول أسطول فاطمى قوى من صور كادت السفن النرويجية أن تبعثر ولم ينقذها سوى وصول أسطول من البندقية وعلى رأسه كبير القضاة فى جمهورية البندقية بنفسه ، أورديلافو فاليري . وفى تلك الأثناء خطط حاكم صيدا لإغتيال بلدوين ؛ إذ وافق مرتد مسلم من العاملين فى خدمة بلدوين الشخصية على تنفيذ الاغتيال لقاء مبلغ كبير من المال ، على أن المسيحيين المحليين فى صيدا علموا بالمؤامرة ، فأطلقوا سهما يحمل رسالة إلى معسكر الفرنج يحذرون فيها الملك . وأخيرا استسلمت صيدا يوم ٤ يناير بنفس شروط عكا . ورحل وجهاء المدينة إلى دمشق مع منقولاتهم ، وأمسى الفقراء رعايا للملك الفرنجى الذى انتزع منهم حباية مقدارها عشرين ألف بيزانت ذهبى . وكوفئ البنادقة بهدية تتألف من كنيسة وبعض الممتلكات فى عكا . وعُهد بصيدا - باعتبارها بارونية - إلى إيوستاس جارنييه الذى كان بالفعل حاكما لقيسارية ، وقد عزز من كرهه بعد ذلك مباشرة بزواج سياسى من إيماء ، ابنة أخت البطريق أرنولف^(٣٣) .

وسيطر الفرنج على الساحل السورى كله ، باستثناء قلعتين: عسقلان فى الطرف الجنوبى وصور فى الوسط . وكان حاكم صور عصيبا ، فأرسل فى خريف ١١١١م إلى طغتكين فى دمشق يستأجر منه فيلقا من خمسمائة من الرماة لقاء عشرين ألف بيزانت ، وفى ذات الوقت طلب السماح له ولوجهاء المدينة بإرسال ممتلكاتهم الثمينة

(٣٣) Fulcher of Chartres, II, xlv, 1-7, pp. 543-8; Albert of Aix, XI, 26, 30-4, pp. ٥75, Sigurdar Saga 677; William of Tyre, XI, 14, pp. 476-9, Agrip of Noregs Konungasogum, passim; Sigurdar, Saga Jorsalafara ok Broedra فى Hans, pp. 75 ff. Ibn al-Qalanisi, pp. 106-8; Ibn al-Athir, p. 275; Dandolo in Muratori, Ss. R.I. vol. XII, p. 264; Tafer and Thomas, I, 86, 91, 145; Riant, *Les Scandinaves en Terre Sainte*, chap. IV, passim.

إلى دمشق للحفاظ عليها؛ ووافق طغتكين ، وانطلقت من الساحل قافلة غنية فيها الأموال والممتلكات . وكان من الضروري أن تعبر القافلة بلادا يسيطر عليها الفرنج ، فتدبر الحاكم الصوري عز الملك رشوة فارس فرنجي يدعى رينفريد ليرشد القافلة ويضمن سلامتها ، فقبل الفارس الرشوة لكنه سارع بإبلاغ بلدوين ، الذي إنقض على وجهاء صور على حين غرة وسلبهم ثروتهم كلها . ووجد بلدوين في تلك الثروة التي هبطت عليه فجأة تشجيعا للاستيلاء على صور ، فقاد جيشه كله في نهاية نوفمبر لمهاجمة أسوار صور . بيد أنه كان يفتقر إلى أسطول بحري لمساعدته ، ورغم وجود اثنتي عشرة سفينة بيزنطية بقيادة السفير البيزنطي بوتوميت ؛ غير أن البيزنطيين غير راغبين في القيام بعمل عدائي ضد الفاطميين الذين تربطهم بهم علاقات طيبة ، إلا في حالة واحدة وهي أن يساعدتهم بلدوين على استرداد المدن التي استولى عليها أمراء أنطاكية . وبينما تردد بلدوين في الالتزام بشرطهم ، لم يفعل البيزنطيون أكثر من إمداد الجيش الفرنجي بالمؤن . واستمر حصار صور حتى إبريل التالي . وحارب أبناء صور بشجاعة ، وأشعلوا النيران في برج الحصار الخشبي الهائل الذي شيده بلدوين . لكن الحرب أضعفتهم ، على الأقل ، بحيث سعوا إلى طلب مساعدة طغتكين ، وقبل أن يطلب عز الملك هذه المساعدة كتب إلى البلاط المصري مبرا تصرفه . وفشلت الاتصالات الأولى التي حاولها طغتكين ؛ إذ اعترض أحد الأعراب العاملين في خدمة الفرنج حماسة زاجلة ، وأظهر زميله الفرنجي رغبته في ترك الحمامة تواصل طيرانها، لكن الأعرابي أخذها إلى بلدوين . وتنكر بعض الرجال لاستقبال سفراء دمشق واعتقلوهم ثم قتلوهم . ورغم ذلك ، تقدم طغتكين إلى صور وباغت فرقة فرنجية تبحث عن الأعلاف ، وحاصر الفرنج في معسكرهم بينما أغار على القرى . واضطر بلدوين إلى رفع الحصار، ولم يعد إلى عكا إلا بشق طريقه قتالا^(٣٤).

كما فشل بلدوين في حملته على عسقلان بنفس القدر . إذ توجه إليها بعد استيلائه على صيدا مباشرة . لكن حاكمها شمس الخلافة ضاق ذرعا بكل هذا القتال ، فألهمته عقلية التجارية شراء هدنة حاول جباية ثمنها من سكان مدينة صور التي كانت ضمن نطاق سلطته . وعلمت مصر بتلك التصرفات ، فما كان من الأفضل إلا أن بعث بجنود مخلصين أمرهم بخلعه . وارتاب شمس الخلافة في حقيقة نواياهم ، فرفض استقبالهم، بل طرد من جنوده من يرتاب في تعاطفهم مع الفاطميين ، واستعان بمرتزقة

(٣٤) Albert of Aix, XII, 3-7, pp. 690-3; Ibn al-Athir, p. 257; Ibn Moyassar, p.467.

من الأرمن مكانهم . ثم ذهب بنفسه إلى القلنس ليضع نفسه ومدبنته تحت حماية بلدوين، وعاد معه ثلاثمائة جندي فرنجي عيّنهم في القلعة . وصُدم أهل عسقلان من تلك الخيانة ، فدهروا تمردا في يولييه ١١١١م بمساعدة من مصر اغتالوا فيه شمس الخلافة وقتلوا الفرنج . وسارع بلدوين جنوبا لإنقاذ رجاله ، إلا أنه وصل بعد نفاد السهم . وبقيت عسقلان شوكة في حلق الفرنج لأربعين سنة أخرى^(٣٥).

كما فشل بلدوين في محاولة مماثلة في ربيع ١١١٠م لإنشاء محمية في بعلبك بتواطؤ من حاكمها الخصى جمشتكين التاجي ؛ إذ علم طغتكين بالمؤامرة فاستعاض عن جمشتكين بابنه تاج الملك بوري^(٣٦).

١١٠٥م : تشييد الحصون في الجليل

بات شاغل بلدوين الأكبر أن يوفر للمملكة خطا ساحليا ملائما ؛ كما كان مهتما بمنحها نخوما ملائمة على النحو الذي يحقق لها أكبر فائدة من قرب المملكة من طرق التجارة العربية الكبيرة الآتية من العراق والجزيرة العربية إلى البحر المتوسط ومصر . وعندما غادر تنكريد فلسطين إلى أنطاكية ، كان بلدوين قد عهد بإمارة الجليل - التي ظلت تحتفظ بالإسم الطنان الذي أطلقه عليها تنكريد - إلى جاره السابق في فرنسا ، هيو (أوف سانت أومير) الذي لقي تشجيعا على انتهاج سياسة عدوانية ضد المسلمين ؛ فبدأ بتشيد حصن طورون - المعروف اليوم بإسم تبين - في الجبال على الطريق الذي يربط بين صور وبانياس ودمشق . ثم بنى حصنا آخر على التلال الواقعة جنوب غربى بحيرة طبرية كان العرب يسمونه علعال ، لاستخدامه بصورة أفضل في الإغارة على الأراضى الخصبة الواقعة إلى الشرق من البحيرة ، وقد استكمل تشييد الحصنين في خريف ١١٠٥م . على أن الحصن الثانى لم يبق طويلا في أيدي المسيحيين؛ إذ لم يكن طغتكين الدمشقى يسمح بتهديد أراضيه على هذا النحو . ولذا، وبينما كان هيو عائدا في نهاية العام إلى علعال محملا بغنائم وفيرة بعد غارة ناجحة ، انقض عليه الجيش الدمشقى وجرح جرحا مميتا في المعركة وتبعثر رجاله ، واستولى طغتكين على الحصن دون صعوبة . وكان أخوه هيو ، جيران (أوف سانت أومير) ، مريضا آنذاك وفارق

(٣٥) Albert of Aix, XI, 36-7, pp. 680-1; Ibn al-Qalanisi, pp. 108-10.

(٣٦) Ibn al-Qalanisi, op.cit. p. 106; Sibṭ ibn al Djauzi, p. 537.

الحياة بعد أخيه بفترة وجيزة ، فاضطر بلدوين إلى منح إقطاعية الجليل للفارس الفرنسى
حرفاس (أوف باسوش)^(٣٧).

وتواصلت أعمال حرب العصابات . ففي عام ١١٠٦م أغار أبناء صور على
طورون في ذات الوقت الذى أغار فيه الدمشقيون على طبرية ، ولم يكتب النجاح لأى
من الغارتين . وباقتراب بلدوين أرسل الدمشقيون إليه فى معسكره رسولين يعرضان
الإعداد لهدنة قصيرة . فاستقبلهما بمظاهر الإحترام والسخاء ، مما زاده شهرة على شهرة
بين المسلمين ؛ غير أنها كانت هدنة قصيرة^(٣٨)؛ إذ أغار طغتكين على الجليل مرة
أخرى فى ربيع ١١٠٨م ، واستطاع فى إحدى المعارك خارج طبرية أن يأسر حرفاس
(أوف باسوش) وأغلب رجاله ، وأرسل إلى بلدوين يخبره بأن ثمن إطلاق سراحهم هو
مدن طبرية وعكا وحيفا الثلاث. ولما رفض بلدوين العرض قتل حرفاس ووضعت فروة
رأسه بخصلاتها البيضاء المتماوجة على قائم أمام الجيش الإسلامى المنتصر^(٣٩) فأعاد
بلدوين إلى تنكريد لقب أمير الجليل، والأرجح أن الإمارة كانت تدار من القدس . وفى
١١١٣م ، وهو العام الذى مات فيه تنكريد ، أمر بلدوين الرهاوي بنفى جوسلين
(أوف كورتناي) ، فخلع الملك بلدوين عليه إمارة الجليل على سبيل التعويض^(٤٠).

١١٠٨م : هدنة مع دمشق

في أواخر ١١٠٨م كان لكل من بلدوين وطغتكين مصالح رئيسية فى أماكن
أخرى، فاتفقا على عقد هدنة لعشر سنوات تقضى بتقسيم عوائد منطقتي السواد وجبل
عوف، أى شمال الأردن ، على أن يأخذ بلدوين ثلثها، وطغتكين ثلثها الثانى ، ويبقى
الثلث الأخير للسلطات المحلية^(٤١). وربما ترجع أسباب تلك الهدنة إلى دوافع تجارية ؛
فالفارات تقضى على ما ينقل عبر البلاد من تجارة تعود بالنفع على الجميع . ولقد

(٣٧) William of Tyre, XI, 5, pp. 459-60; Ibn al-Qalanisi, pp. 72, 75; Ibn al-Athir, pp. 229
30; Albert of Aix, X, 8, pp. 635-6.

(٣٨) Albert of Aix, X, 25-6, pp. 642-3; Ibn al-Qalanisi, p. 75.

(٣٩) Albert of Aix, X, 57, p. 658; Ibn al-Qalanisi, pp. 86-7; Ibn al-Athir, pp. 268-9.
ابن الأثير على حيرفاس : ابن أخت بالدين.

(٤٠) Albert of Aix, XI, 12, p. 668; William of Tyre, XI, 22, p. 492.

(٤١) Ibn al-Qalanisi, p. 92; Ibn al-Athir, p. 269.

كانت هدنة تجارية خالصة ؛ إذ لم تمنع طغتكين من أن يهب لمساعدة المدن الساحلية الإسلامية ، كما لم تقيد بلدوين في محاولته تخويل بعلبك إلى مدينة تابعة له . لكن المؤرخين العرب يذكرون بمشاعر الإمتنان ما أسفرت عنه تلك الهدنة من الحيلولة دون أن يغزو بلدوين الأراضي الدمشقية عندما ساحت له الفرصة لهزيمة طغتكين على يد وليم جوردن في أرقا^(٤٢) ، وربما نبعت رغبة بلدوين في الهدنة نتيجة لهزيمة حيرفاس وما ترتب عليها من خطر الغارات المنطلقة من الأردن على الجليل . وبالمثل رغب فيها المسلمون بعد غارتين حدثتا مؤخرا . إذ قام وليم كليتون ، ابن روبرت النورماندى ، الذى حلّ مؤخرا بفلسطين للحج ، بمهاجمة أميرة عربية ثرية كانت مرتحلة مع كل ممتلكاتها من شبه الجزيرة العربية إلى دمشق ، والغارة الثانية على قافلة تجارية متجهة من دمشق إلى مصر . وغنم الفرنج فى الغارة الأولى أربعة آلاف جمل ، وغنموا فى الثانية جميع بضائع القافلة التى قتل فيها كل من بقى على قيد الحياة فيما بعد على يد البدو^(٤٣) . وفى ١١١٣م حرق بلدوين المعاهدة بمهاجمته للأراضى الدمشقية .

وبعد أن أخفق بلدوين أمام صور فى ١١١١م ، انشغل حينما من الزمن ببعض الأمور شمالى سوريا . فقد سبق أن أوضح بجلاء فى طرابلس فى ١١٠٩م عزمه على أن يصبح سيدا لجميع فرنج الشرق . وأتاحت له أحداث أنطاكية والرها تأكيد دعواه كما استطاع أن يلفت الانتباه مرة أخرى إلى تضخيم سلطنة الشخصى . ذلك أنه كان مدركا لحقيقة أن فلسطين بلاد مفتوحة للغزو والتسلل من الجنوب الشرقى خلال النقب ، فمن الضرورى إذن السيطرة على المنطقة الممتدة من البحر الميت وحتى خليج العقبة لعزل مصر عن العالم الإسلامى الشرقى . وفى ١١٠٧م أرسل طغتكين جيشا دمشقىا إلى أدوم (العراة) تلبية لنداء البدو المحليين هناك ، وذلك لإنشاء قاعدة للإغارة على يهودا . وكان فى برارى العراة هذه عدة أديرة يونانية ، فأرسل الراهب ثيودور بحث بلدوين على التدخل ؛ فسار بلدوين جنوبا إلى أن اقترب من المعسكر التركى فى وادى موسى بالقرب من البتراء ، لكنه لم يكن راغبافى قتال الترك ، فعرض الراهب ثيودور أن يذهب إلى القائد التركى كما لو كان هاربا ويحذره من اقتراب الجيش الفرنجى الضخم . فاستشعر الأتراك الخطر وانسحبوا بغاية السرعة عائدين إلى دمشق . وعاقب بلدوين البدو بإشعال النيران فى كهوفهم فدمرها واستولى على قطعانهم . وفى

(٤٢) Ibn al-Athir, pp. 269-70.

(٤٣) Albert of Aix, x, 45, p. 653; Ibn al-Athir, p. 272.

طريق عودته شمالا اصطحب معه الكثير من المسيحيين الذين كانوا يخشون انتقام البدو^(٤٤).

وفى ١١١٥م عاد بلدوين إلى منطقة العرابة وقد عقد العزم على الاستيلاء عليها بصفة دائمة ؛ فهبط من الخليل ودار حول الطرف الجنوبي للبحر الميت ، وعبر وادى العرابة المقفر الذى يمتد من البحر الميت وحتى مشارف خليج العقبة ، ووصل إلى بقعة من البقاع الخصبة القليلة فى تلك المنطقة الجرداء ، وهى البقعة المعروفة بالشوبك ، فى رقعة شجراء بين المنخفض والصحراء العربية. وفى ذلك المكان الذى يبعد مائة ميل تقريبا من أقرب مستوطنة فرنجية ، شيد حصنا ضخما وترك فيه حامية وأسلحة جيدة ، وأطلق عليه إسم الجبل الملكى . وفى العام التالى قاد جيشه ومعه قافلة طويلة من البغال المحملة بالملون ، واندفع فى تهور إلى أماكن بعيدة غير معروفة من شبه الجزيرة العربية . وزار الجبل الملكى مرة أخرى ، ثم سار جنوبا إلى أن وصل أخيرا برحاله الذين نال منهم التعب إلى شواطئ البحر الأحمر فى العقبة ، حيث استمتعوا بالاستحمام فى البحر مع خيولهم ، وراحوا يصيدون الأسماك التى تشتهر بها تلك المياه. وانزعج السكان المحليون وأصابهم الذعر فلاذوا بالفرار فى قواربهم ؛ واحتل بلدوين العقبة التى أطلق عليها الفرنج إيليا أو إيلين ، وحصنها بتشييد قلعة فيها ، ثم أبحر إلى جزيرة فرعون الصغيرة التى أطلق عليها الفرنج حراى حيث بنى حصنا ثانيا ، وترك حامية فى كل حصن منهما . وبفضلهما أصبح الفرنج يسيطرون الآن على الطرق التى تربط بين دمشق وشبه الجزيرة العربية ومصر ، وبإمكانهم الإغارة على القوافل بيسر يسير ، وبات من الصعب على أى جيش إسلامى أن يصل إلى مصر من الشرق^(٤٥).

١١١٨ م : بلدوين يغزو مصر

وبعد عودة بلدوين من شواطئ البحر الأحمر ، سار ثانية إلى صور لكنه اكتفى بفرض حصار برى صارم على المدينة ببناء حصن فى سكاندلون حيث يبدأ الطريق الساحلى فى الصعود بمحاذاة الجرف إلى الممر المعروف باسم سلم صور^(٤٦).

(٤٤) Albert of Aix, x, 28-9, pp. 644-5; Ibn al-Qalalnisi, pp. 81-2.

(٤٥) Albert of Aix, XII, 21-2, pp. 702-3; William of Tyre, XI, 29, p. 505. For Aila, see Musil, article 'Aila', in *Encyclopaedia of Islam*.

(٤٦) Fulcher of Chartres, II, lxii, I, pp. 605-6; William of Tyre, XI, 30, p. 507.

وتشجع بلدوين بما حققه من إنجازات ، فشرع في ١١١٨م في حملة أكثر جسارة. إذ أن الجيوش الفاطمية قامت مؤخرًا بغارتين ناجحتين على أراضيها ؛ فبينما كان منشغلا في الشمال مع الأتراك ١١١٣م ، تمكنت الجيوش الفاطمية من التقدم حتى أسوار القدس وهي تنهب البلاد في طريقها. وفي ١١١٥م أوشكت على النجاح في مباغته يافا. والآن يأتي رد بلدوين على ذلك بغزو مصر نفسها؛ فبعد مفاوضات حذرة مع شيوخ القبائل في الصحراء ، قام في وقت مبكر من شهر مارس بقيادة جيش صغير قوامه ستين ومائتي فارس وأربعمائة راجل ، وزوده جيدا بالملح وسار به من الخليل عابرا شبه جزيرة سيناء إلى ساحل البحر المتوسط في العريش (الفرما) الواقعة في عمق الحدود المصرية بالقرب من فرع النيل البيروزى . ونهيا للهجوم على المدينة ، غير أن الحامية هربت في الفرع ؛ وواصل مسيرته إلى النيل نفسه . وفغر رجاله أفواههم لرؤية النيل الشهير . غير أن بلدوين أصيب بمرض مميت ، وعاد باتجاه فلسطين وهو يحتضر^(٤٧).

تمكن الملك بلدوين ، بحملاته التي لا تعرف الكلل ، وبانتهازه لكل نهضة ، من أن يرتقى بدويلته التي ورثها لتصبح دولة موحدة تحوى مقاطعة فلسطين التاريخية كلها . وباستثناء صور وعسقلان ، سيطر على البلاد الممتدة من بيروت شمالا إلى بئر سبع جنوبا وحدود الأردن شرقا ونقاط حدودية في أقصى الجنوب الشرقي تتحكم في المداخل من شبه الجزيرة العربية . واعترف رفاقه المسيحيون في الشرق الفرنجي بسيادته عليهم ؛ وفاز باحترام المسلمين . وكان ما حققه من إنجازات بمثابة ضمان لعدم إمكان تدمير مملكة القدس بسهولة.

وليس لدينا سوى القليل جدا من الشواهد التي تدلنا على إدارته الداخلية للمملكة. وإذا تحدثنا بصورة عامة نقول إنها كانت مملكة إقطاعية . لكنه احتفظ بأغلب البلد في يديه هو شخصيا، يعين النبلاء من طبقة الفيكونت نوابا له ، بل إن أكبر الإقطاعيات بقيت لبضع سنوات بلا عاهل ، ولم تكن الإقطاعيات تورث بعد . إذ عندما قتل هيو (أوف سانت أومير) ، ساد الظن بأن أخاه جيرار سيخلفه في الإمارة لو سمحت صحته بذلك ، لكن حقه لم يكن حقا مطلقا . وقد طُور بلدوين مشروع دستور للمملكة ، وحكم هو نفسه من خلال بيت ملكي كبير كان حجمه آخذا في الاتساع . وكان لكل من أصحاب الإقطاعيات التابعين له بيته الكبير الخاص به . كما تعزى إليه

الترتيبات التى أعدها مع الإيطاليين فى الموانى البحرية، وبرغم أنهم لم يُجبروا على مساعدة الحملات الصليبية إلا أنهم كانوا مضطرين للاشتراك بقواتهم البحرية فى الدفاع عن الأحياء التى يحصلون عليها^(٤٨).

وقد أظهر بلدوين بجلاء نيته فى السيطرة على الكنيسة . ولما أيقن من موازرتها عاملها بسخاء ومنحطها طواعية بعض الأراضى التى استولى عليها من الكفرة . لكنه كان فى سخائه هذا على شىء من الخطأ؛ فالكنيسة غير ملتزمة بتزويده بالجنود. إلا أنه كان يتوقع من الناحية الأخرى أن تزوده بالمال.

وأظهرت أحداث كثيرة مدى ما كان بالدين يتمتع به من شهرة بين المسيحيين المحليين . فمنذ تلك الحادثة التى حدثت فى عيد الفصح من عام ١١٠١م، كان حريصا على احترام مشاعرهم . فكان يسمح لهم فيما يعقده من محاكمه بالحديث بلغاتهم الخاصة ، والتصرف بحسب عاداتهم الخاصة بهم ؛ ولم يكن من المسموح للكنيسة بالتدخل فى ممارساتهم الدينية. وفى السنوات الأخيرة من حكمه شجّع هجرة المسيحيين، الهراطقة والأرثوذكس على السواء من البلدان المجاورة الخاضعة للحكم الإسلامى . فكان فى احتياج لفلاحين كادحين يحتلون الأراضى التى باتت شاغرة فى الخليل بعدما رحل المسلمون . وكان يشجع زواج الفرنج من الوطنيات ، وضرب هو نفسه المثل على ذلك . وقليل جدا من أصحاب لقب البارون تزوجوا من محليات ؛ بيد أن الممارسة أصبحت شائعة بين جنود الفرنج والمستوطنين الأفقر. وفيما بعد ، كان الأطفال المهجنون هم الذين يوفرون للمملكة أغلب احتياجاتها من الجنود.

وأظهر بالدين شيئا مماثلا من الود إزاء المسلمين واليهود الذين باتوا من رعاياه ؛ فسمح بالقليل من المساجد والمعابد اليهودية. وفى المحاكم القانونية أصبح بإمكان المسلمين أن يقسموا بالقرآن واليهود بالتوراة ؛ وبذا غدا بإمكان المتخاصمين من الكفرة التطلع إلى العدالة . وسمح بالتزواج مع المسلمين . وفى عام ١١١٤م تلقى البطريق أرنولف توبيخا شديدا من البابا باسكال لعقده زواج بين مسيحي وسيدة مسلمة^(٤٩).

وفى تلك المسألة اتضح سوء فهم البابا باسكال للشرق مرة أخرى . فإذا أراد

(٤٨) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 228-30

(٤٩) Rohricht, *Regesta*, n. 83, p. 19.

فرنج الشرق البقاء بصورة دائمة، فلا ينبغي لهم أن يظنوا أقلية مغتربة، وإنما يتعين أن يصبحوا جزءاً من العالم المحلي. وأما فولشر أوف تشارتر، وهو قسيس بالدوين، فقد أورد في تاريخه فصلاً حماسياً منظوماً عما لاحظته من معجزة الرب في تحويل الغربيين إلى شرقيين، وبدلاً من أن امتزاج العرقين الشرقي والغربي يثير الإعجاب، ورأى فيه الخطوة الأولى على طريق اتحاد الأمم. وعلى مدى تواجد الدويلات الصليبية نجد القصة نفسها: افرنجي حكيم محنك في الشرق يتبع تقاليد بالدوين فيتبنى العادات المحلية، وينشئ صداقات وتحالفات محلية، بينما الوافدون الجدد من الغرب لا يجلبون معهم سوى الأفكار المتعصبة المتسلطة التي لا تجلب على البلاد سوى الكوارث.

وقد أساء بالدوين إلى البابا عندما استولى على مدينتي صيدا وبيروت الساحلتين وأخضع كنائسها لبطرياركية القدس، ظناً منه أن الإدارة السليمة للمملكة تستدعي ذلك، وهي التي كانت طوال تاريخها تابعة لبطريق أنطاكية. واعترض بطريق أنطاكية - برتراند - لدى البابا من هذا التصرف غير الكنسي. وكان البابا قد أخطر القدس في ١١١٠م بإمكان تجاهل الأوضاع التاريخية للكنائس نظراً للظروف المتغيرة. على أن البابا، وبضعفه المعهود، غير في عام ١١١٢م من موقفه هذا وأيد مطالب أنطاكية؛ وبهدوء تجاهل بالدوين هذا القرار الجديد للبابا. وعلى الرغم مما أبداه البابا بأسكال من توبيخ لاذع، بقيت الأسقفيات خاضعة لبطرياركية القدس^(٥٠).

١١١٣م زواج بالدوين من أديللا

وأما عن زواج بالدوين، فقد ارتكب خطأ جسيماً. ذلك أنه منذ اليوم الذي هرب فيه حموه مذعورا من وحشية زوج ابنته ودون أن يعطى لبالدوين مهر ابنته المتفق، لم يعد بالدوين يهتم كثيراً بعروسه الأرمنية. وكان بالدوين شغوفا بالمغامرات الغرامية، لكنه كان يتوخى التعقل، ومنعه وجود مليكته معه في البلاط من الإنغماس في شهواته. وقد كان للملكة هي الأخرى سمعة الملكة الطروب حتى أنها، كما قيل، وهبت حظوتها لقراصنة مسلمين أثناء رحلتها من أنطاكية جنوباً إلى حيث ينتظرها عرشها. ولم يثمر زواجهما أطفالاً يؤثقون عرى الرابطة الزوجية بينهما؛ وبعد سنوات قليلة، وبعد ما تحقق بالدوين من انتفاء أية فائدة سياسية لزواجه هذا، طردها من

البلاط بدعوى ارتكابها الزنا وأجبرها على دخول دير القديسة آن فى القدس ، وراح يغدق على الدير الهبات بسخاء ، مDAHنة لضميره . على أن الملكة لم تكن تشعر ببناء دفين لحياة الرهبة ، وسرعان ما التمس الإذن بالاعتزال فى القسطنطينية حيث بقيم والداها منذ أن طردهما الفرنج من مرعش ، وأجيب مطلبها . وفى القسطنطينية نضت عن نفسها رداء الرهبة ، وراحت تتذوق كل ما تقدمه المدينة العظيمة من ملذات^(٥١) وفى ذات الوقت أبهج بالدوين أن يجد نفسه قادرا على العودة إلى حياة العزوبة مرة أخرى . على أنه كان لا يزال فى حاجة إلى المال . وفى شتاء عام ١١١٢م علم بوجود أرملة مناسبة للغاية فى أوروبا تبحث عن زوج : إذ أن أديلابدى السالونية - كونتييسة صقلية الأرملة - قد تركت لتوها الرصاية على كونتييتها لبلوغ ابنها الصغير ، روجر الثانى ، سن الرشد . وكانت فائقة الثراء . واجتذبت اللقب الملكى . ولم يكن بالدوين يرغبها لما سيحصل عليه من بائة وحسب ، وإنما أيضا لما تتمتع به من نفوذ على نورماندى صقلية ، فسوف يساعد التحالف معهم فى إمداده بالقوة البحرية، فضلا عن أن ذلك التحالف سيكون بمثابة توازن مضاد إزاء النورماندين فى أنطاكية . فأرسل طالبا يدها . وقبلت الكونتييسة ولكن بشروطها . إذ أن بالدوين أبتز بلا ولد بعد أن مات أبناؤه من زوجته الأولى فى الأناضول أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ ولم تلد له مليكته الأرمينية . فأصرت أديلابدى على أنه مالم يثمر زواجهما من بالدوين بولد - وعمر كل من العريس والعروس لا يبشر كثيرا بولد - فلا بد أن ينتقل تاج القدس إلى ابنها الكونت روجر .

وتم عقد الزواج . وفى صيف ١١١٣م أبحرت الكونتييسة من صقلية تحوطها آبهة لم يشهدها البحر المتوسط منذ أن أبحرت كليوباترة قاصدة سيدنوس Cydnus للقاء مارك أنطونيو . كانت متكئة على بساط خيوطه من ذهب فى سفيتها التى كانت مقدمتها مزدانة بصفائح من الذهب والفضة . وكانت هناك سفيتان أخريان بصحبتها، على جانبى كل سفينة ثلاثة صفوف من المجاديف ، مقدمتاها مزدانتان بنفس زينة سفيتها، وتقلان حرسها العسكرى ، وقد تألق من بينهم الجنود العرب من حرس إبنها الشخصى، تلمع وجوههم السمراء فوق أرديتهم ذات البياض الناصع . وفى أثرمياه الذى تركته السفن وراءها كانت هناك سبع سفن أخرى امتلأت عنابرها بكنوزها الخاصة بها . وهبطت إلى الشاطئ فى عكا فى شهر أغسطس ، حيث كان الملك

(٥١) Guibert of Nogent, p. 259 الذى يذكر حياتها الخلية . ويفترض William of Tyre, XI, PP. 451-2 أنها انسأقت فى الشرور بعد طلائها.

بالدوين فى استقبالها بكل الروعة التى تستطيع مملكته إظهارها ، وكانت الأردبة الحربية الفاخرة تكسوه وتكسو بلاطه كله ؛ وكانت خيولهم وبغالهم مزدانة بالأكسية الأرجوانية والذهب . وبُسِطت الشوارع بالبسط الفاخرة ، ورفرفت الرايات الأرجوانية من النوافذ والشرفات . وعلى طول الطريق إلى القدس بدت المدن والقرى كما لو كانت فى ملابس مبهرجة . كانت البلاد كلها فى بهجة ، ولكنها ليست البهجة الكبيرة لمقدم السيدة الجديدة التى تخطر إلى شيخوختها بقدر ما كانت بهجة لما جلبته فى بطانتها من ثروة^(٥٢) .

وبرغم تلك البداية الباهرة لم يحقق الزواج نجاحا . إذ تسلم بالدوين على الفور بئنته من الملكة ، وأنفقها فى تسديد أحمور الجنود المتأخرة ، وفى الإنفاق على أعمال التحصينات ؛ وأسفر تداول هذه الأموال عن انتعاش اقتصاد البلاد . ولكن سرعان ما خبت الجذوة ؛ وانجلت مساوىء الزواج . ويتذكر أصحاب الورع أن زوجة بالدوين السابقة لم تطلق أبدا طلاقا قانونيا . وصدمهم قيام البطريق أرنولف بكل طواعية بإيجاز ما كان فى حقيقته احتفالا بالجمع بين زوجتين ؛ وسارع أعداء أرنولف فى استغلال تصرفه ذاك الشاذ . وزادت حدة الهجوم عليه عندما أغضب رعية بالدوين كلها اكتشاف أنه اقترح التخلص من ولاية عرش المملكة دون استشارة مجلسه . وانهمرت على روما الشكاوى ضد أرنولف . وبعد عام على الزواج الملكى ، وصل إلى القدس المندوب البابوى بيرينجار أسقف أورانج . وفضلا عن إتهام أرنولف ببيع المقدسات والمناصب الكنسية ، تأكد لدى المندوب البابوى أنه قد غض النظر عن علاقة زنا ، بل وباركها ؛ فجمع أساقفة ورهبان البطريرقية فى مجمع كنسى وأعلن خلع أرنولف . على أن أرنولف لا يخلع بهذه السهولة . فتدبر عدم تعيين خليفة له وانطلق هو نفسه إلى روما فى شتاء ١١١٥م ، حيث مارس كل ما لديه من سحر إغوائى على البابا والكرادلة الذين قويت مشاعر العطف عليه لما أهداهم من هدايا اختارها لهم بعناية . ووقع البابا باسكال تحت نفوذه ، وأنكر قرار مندوبه البابوى . ووافق أرنولف على تقديم تنازل واحد : لقد وعد بأن يأمر الملك بطرد الملكة الصقلية . وعلى الأثر لم يكتف البابا بإعلان بطلان خلع أرنولف ، وإنما قام هو نفسه وقدم له الطيلسان ليرتديه ، وهكذا آيد

(٥٢) Albert of Aix, XII, 13-14, pp. 696-8; William of Tyre, XI, 21, pp. 487-9; Fulcher of

Chartres, II, li, pp. 575-7. كانت أدملابدى ابنة المريكز مانفريد ، وابنة أخت صاحب حانة

سالونا ، وقد تزوجت روجر الأول الصقلى كزوجته الثالثة عام ١٠٨٩ ولمعرفة نسبها أنظر

Chalandon, *Histoire de la Domination Normande en Italie*, II, p. 391, n. 5.

بقائه فى منصبه بما لا يدع مجالاً لأية ريبة . وفى صيف ١١١٦م عاد أرنولف منتصراً إلى القدس^(٥٣).

وقد أقدم أرنولف على هذا التنازل بلا تردد ؛ إذ كان يعرف ان بالدوين الآن ، وبعد أن أنفق البائنة - أصبح شبه آسف على زواجه ، كما لم تجد أدبلايدى هى الأخرى أنها معجبة بمعبود سليمان فى القدس الذى تفتقر فيه إلى أسباب الراحة ، وهى التى اعتادت على الحياة الفاخرة فى قصر باليمو . على أن بالدوين تردد ؛ فهو كاره لأن يخسر مزايا التحالف الصقلي ؛ فقاوم طلبات أرنولف إلى أن أصيب بمرض شديد فى شهر مارس ١١١٧م؛ وأنصت ، وهو بين يدي الموت ، إلى كهنة الأعتراف الذين قالوا له إنه يموت وهو فى حالة من الإثم . وعليه أن يطرد أدبلايدى ، وأن يستدعى زوجته السابقة لتكون إلى جانبه . ولم يستطع أن يلبي كل رغباتهم ؛ إذ أن الملكة السابقة لم تكن مهيأة لمغادرة القسطنطينية والتخلي عما كانت غارقة فيه من ملذاتها الرائعة . على أنه عندما شفى من مرضه أعلن إلغاء زواجه من أدبلايدى ، التى نال منها الغضب ، وقد جردت من ثروتها ، فأبحرت عائدة إلى صقلية فى رحلة تكاد أن تكون بلا حراسة . وكان ذلك إهانة لم ينسها البلاط الصقلي أبداً . ومضى وقت طويل قبل أن تتسلم مملكة القدس أية مساعدة أو تعاطف من صقلية^(٥٤).

١١١٨م موت أمراء

خسف القمر يوم ١٦ يونية ١١١٧م، ومرة ثانية يوم ١١ ديسمبر ، وبعد ذلك بخمس ليال حدثت الظاهرة النادرة فتلاً للشفق القطبى الشمالى فى سماء فلسطين ، فكانت نذيراً مرعباً يتنبأ بموت أمراء^(٥٥) . ولم يكذب النذير . ففى ٢١ يناير ١١١٨م مات البابا باسكال فى روما^(٥٦) ، وفى ١٦ إبريل أنهت الملكة السابقة أدبلايدى بموتها

(٥٣) خطاب باسكال الثانى المؤرخ فى ١٥ يولية ١١١٦، M. P. L. vol. CLXIII, cols. 408-9; Albert of Aix, XII, 24, p. 704; William of Tyre, XI, 24, pp. 499-500 .

(٥٤) Albert of Aix, loc. cit.; William of Tyre, loc.cit.; Fulcher of Chartres, II, lix, 3, p.601.

(٥٥) Fulcher of Chartres, II, lxi, 1-3, lxiii, 1-4, pp. 604-5, 607-8. Hagenmeyer تاريخ وقوع الظاهرة . ويذكر Fulcher موت باسكال ، بالدوين وأدبلايدى وأرنولف والكيسوس.

(٥٦) Annales Romani, M.G.H.Ss., vol. v.p.477; William of Tyre, XII, 5, p. 518.

وجودها الذليل فى صقلية^(٥٧) ، ولم يعش صديقها الزائف البطريق أرنولد سوى اثنى عشر يوما بعدها ، وشهد يوم ٥ إبريل موت السلطان محمود فى إيران ، وفى ٦ أغسطس مات الخليفة المستظهر فى بغداد^(٥٨) . وفى ١٥ أغسطس ، وبعد مرض طويل مؤلم ، مات فى القسطنطينية أعظم عواهل الشرق ، الإمبراطور ألكسيوس^(٥٩) ، وفى بداية الربيع عاد الملك بالدوين من مصر وقد ضربته الحمى . ولم يبق فى بدنه المرهق المتعب أية مقاومة . وقد حمله جنوده عائدين به إلى قلعة العريش الحدودية الصغيرة ، وهو محتضرا . وهناك ، وبدقة عبر حدود المملكة التى تدين له بوجودها ، مات يوم ٢ إبريل بين ذراعى أسقف الرملة . وحسب نجته إلى القدس ، وفى يوم أحد السَّعَف ، ٧ إبريل ، رقد ليستريح فى كنيسة القبر المقدس ، بجانب أخيه جودفرى^(٦٠) .

وصاحب مركب الجنازة نواح الفرنج والمسيحيين المحليين على السواء ؛ بل إن العرب الزائرين كانوا متأثرين . كان ملكا عظيما ، قاسيا و مجردا من المبادئ الخلقية ، لم يكن محبوبا ، ولكن حظى باحترام عميق لما أبداه من نشاط وبصيرة ونظام وعدالة فى حكمه . لقد ورث مملكة ضعيفة غير مستقرة ، لكن قوته الحربية ، وحدة ذهنه الدبلوماسية ، وتسامحه الحكيم ، أوجد لها مكانا راسخا بين ممالك الشرق .

(٥٧) *Necrologia Panormitana, in Forschungen zur deutschen Geschichte, vol. XVIII, PP. 472; William of Tyre, XII, 5, P. 518.*

(٥٨) Ibn al-Athir, pp.310-11; Matthew of Edessa, ccxxvi, p. 297.

(٥٩) Zonaras, p. 759; William of Tyre, XII, 5, p. 517; Ibn al-Qalanisi, p. 157 أيضا. Matthew of Edessa , ccxxviii, pp. 300-1.

(٦٠) Fulcher of Chartres, II, xiv, 1-5, pp. 609-13; Albert of Aix, XII, 26-9, pp. 706-9; William of Tyre, XI, 31, pp. 508-0; Ibn al-Qalanisi, loc. cit..



المفتدين

<http://al-maktabeh.com>

الفصل السادس:

توازن فى الشمال

توازن في الشمال

"فِيحَارِبُونَ كُلُّ وَاحِدٍ أَخَاهُ وَكُلُّ وَاحِدٍ صَاحِبَهُ"

(أشعيا : ١٩ - ٢)

كان الملك بالدوين الأول ، قبل وفاته بضع سنين ، قد أعلن نفسه زعيما دون منازع لفرنج الشرق . ولم يكن ذلك إنجازا يسيرا ، وقد أفلح فيه بالدوين بمهارته في استخدام الظروف.

وغدا تنكريد بلا غريم بين فرنج شمال سوريا بعد أن وقع في الأسر في حران كل من بالدوين (أوف لو بوج) وجوسلين (أوف كورتناي) ، وبعد رحيل بوهيموند إلى الغرب؛ ونتيجة للشقاق الذي كان محتدما بين المسلمين تمكن من انتهاز كل نهضة أمامه انتهازا كاملا. وكانت الامبراطورية السلجوقية تتداعى قطعة قطعة لأسباب تعزى في أهميتها إلى ما ساد من خلافات بين أمرائها بصورة أكبر من عزوها إلى ما كانت تواجهه من ضغوط خارجية. وارتفع نجم جكرمش - أتابج الموصل - بنصره في حران إلى مركز الصدارة بين عوהל الأتراك في شمال سوريا والجزيرة، برغم فشله الذريع في

متابعة المحرم ضد الفرنج. وكان حليفه السابق ونده ، سقمان الأرتقى صاحب مردين ، قد مات فى باكورة ١١٠٥ م ، وهو فى طريقه لمساعدة طرابلس المحاصرة ، وتنازع على الميراث أخوه ايلغازى ، وابنه ابراهيم^(١) وكان ايلغازى فيما مضى تحت إمرة رضوان الحلبي ، ولذا كان الأخير يأمل الآن فى أن يمنحه ايلغازى - بعد الانتصار - نفوذا فى الجزيرة ؛ لكن ايلغازى نسي الولاء القديم ، وكان رضوان نفسه غارقا فى محاربة الفرنج لتأكيد زعامته العليا القديمة^(٢) وفى ١١٠٦ م مات الأمير الدانشمندى العظيم الملك غازى جوموشكين تاركا وراءه مملكة مقسمة ؛ فأصبحت سيواس وأراضى الأناضول من نصيب ابنه الأكبر غازى ؛ وأمست ملطية وأراضى سورية من نصيب ابنه الأصغر سنقر ، وهو شاب لا خبرة له ، مما أغرى قلعج أرسلان - الذى تعاهد مع بيزنطة على السلام مؤخرا - بالتحول شرقا ومهاجمة ملطية والاستيلاء عليها فى خريف ١١٠٦ م^(٣) . ثم إنه خلع على نفسه لقب سلطان وحاول الحصول على الاعتراف بلقبه هذا فى أنحاء العالم التركى ، وكان على استعداد لمصادقة من يعامله بهذه الصفة^(٤) .

ولم ينعم حكيمش بمركز الصدارة طويلا ، إذ كان له حتما أن يتورط فى النزاعات الدائرة فى السلطنة السلجوقية الشرقية . وعندما اضطر السلطان بارقياروق إلى اقتسام أملاكه مع أخيه محمد فى ١١٠٤ م ، تقرر ضم الموصل إلى أملاك الأخير . وحاول حكيمش أن يستقل بنفسه فأعلن أنه يدين بالولاء لبارقياروق فقط ، وتحدى جنود محمد ؛ غير أن بارقياروق مات فى يناير ١١٠٥ م وورث محمد أملاكه كلها ؛ فلم يجد حكيمش ذريعة للإستقلال عن محمد ، وأسرع إليه معلنا خضوعه إليه . وأظهر محمد الصداقة إلى حين ، وعاد شرقا دون أن يغامر بدخول الموصل دخول المنتصرين^(٥) .

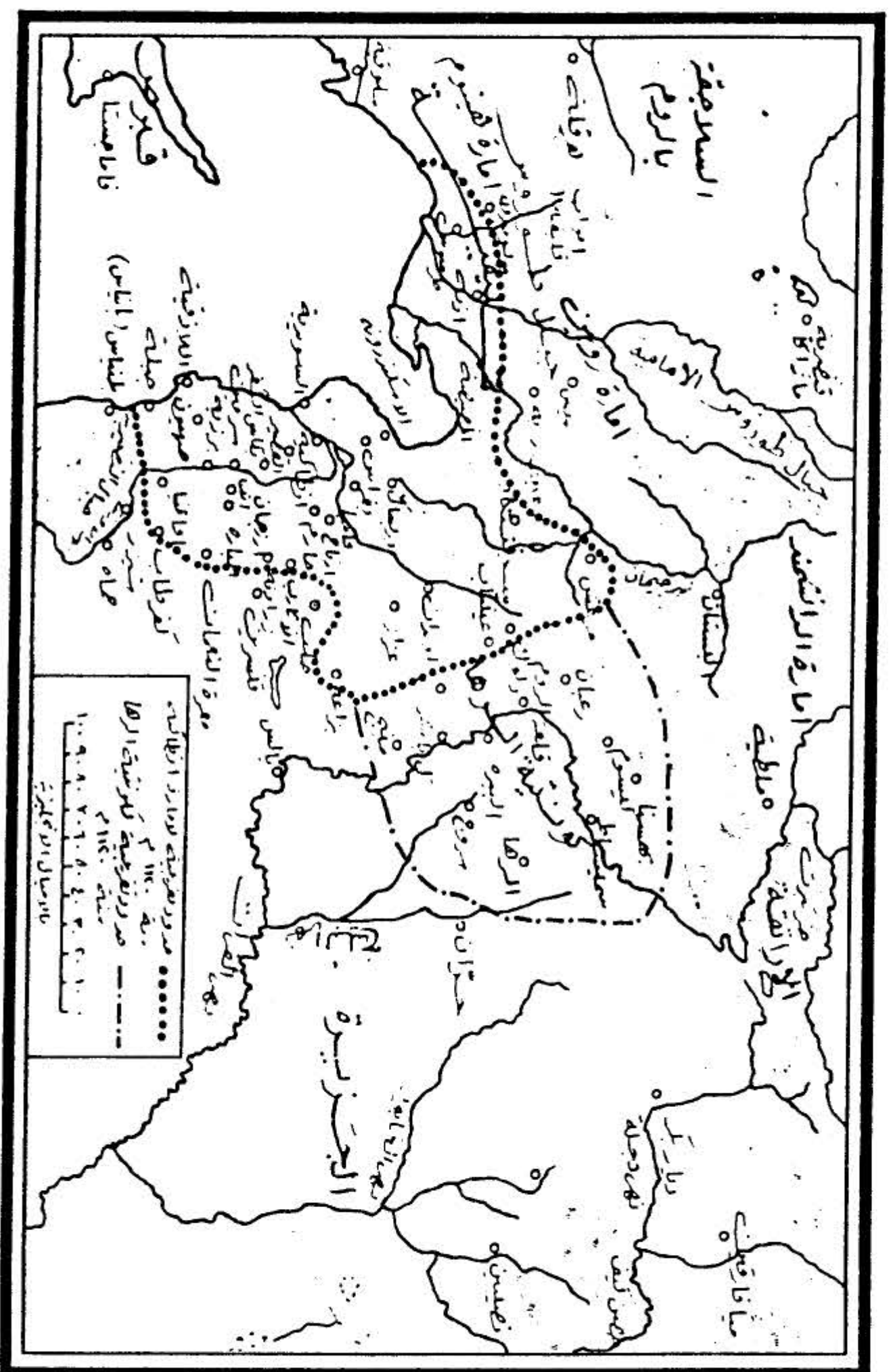
(١) ابن الفرات ، اقتبس 26 n, p. 248, La Syrie du Nord, Cahen ، ويقول ابن الأثير - Athir, pp. 226-7 ، إن ايلغازى أخذ مردين من إبراهيم فى ١١٠٧ . وللإطلاع على التاريخ المعقد لأمراء المسلمين أنظر 246-9. pp. Cahen, op. cit.

(٢) Ibn al-Athir, loc. cit..

(٣) ميخائيل السورى. Michael the Syrian, III, p. 192.

(٤) أنظر مقال 'Kilij Arslan' فى دائرة المعارف الإسلامية. Encyclopaedia of Islam أما ابن القلانيسى ، وابن الأثير ، وغيرهما من المؤرخين العرب فيتوخون جانب الحذر ولا يطلقون عليه سوى مالك . ويسميه ماثيو الأورفى Matthew of Edessa وميخائيل السورى Michael the Syrian سلطان.

(٥) Ibn al-Athir, pp. 224-5.



ثم شرع جكرمش فى تنظيم حملة جديدة ضد الفرنج ، وربما كان ذلك بناء على طلب محمد ، فتحالف مع رضوان الحلبي وصابو، القائد العسكرى لرضوان ، وايلغازى الأرتقى ، وزوج ابنته ألبو ابن أرسلانتاش صاحب سنقار. واقترح الحلفاء على رضوان إدخال البهجة على السلطان محمد بالمهجوم على جكرمش ، ففى ذلك حنكة سياسية ومنفعة ؛ فساروا معا إلى مدينته الثانية نصيبين . غير أن عملاءه هناك أفلحوا فى الرقعة بين رضوان وايلغازى؛ فخطف الأول الثانى فى مأدبة أقامها أمام أسوار نصيبين ، وكبله بالسلاسل ؛ فقام العساكر الأرائقة بمهاجمة رضوان وأجبروه على العودة إلى حلب. وهكذا نجح جكرمش وسار بنفسه وهاجم الرها؛ على أنه بعد أن أفلح فى هزيمة فرقة خرجت للتصدي له من جنود ريتشارد حاكم الإمارة، عاد إلى بلده ليواجه مشاكل جديدة^(٦).

وفى تلك الأثناء حاول قلع أرسلان بدوره الهجوم على الرها - وكان قد استولى لتوه على ملطية - لكنه وجد دفاعاتها قوية ، فتحول إلى حران التى كانت حاميتها تابعة لجكرمش ، وقد سلمته الحامية المدينة . وكان من الواضح أن سلاجقة الروم يسعون إلى توسيع رقعة سلطانهم فى العالم الإسلامى على حساب أبناء عموماتهم سلاجقة الفرس^(٧).

ولم يغفر السلطان محمد أبدا ما راود جكرمش من نزعات استقلالية ، وكان يرتاب فى أنه متواطئ مع قلع أرسلان . وفى شتاء ١١٠٦م حرمه رسميا من الموصل ووهبها مع حكم الجزيرة وديار بكر لمغامر تركى يدعى حوالى سقاوه . فقاد حوالى جيشا ضد جكرمش الذى تقدم هو الآخر لقتاله ، لكن جكرمش هزم خارج المدينة مباشرة ووقع هو نفسه أسيرا ؛ وعلى الفور نصّب أبناء الموصل ابن جكرمش ، زنكى ، أتايما لما كان لجكرمش من شعبية بينهم ، بينما أرسل الأصدقاء خارج المدينة إلى قلع أرسلان طالين مساعدته . وكان فى مأمول حوالى أن يستخدم جكرمش كورقة للمقايضة عليها ، غير أنه بعد أن مات جكرمش بغتة فى أسره ، رأى الحكمة فى الانسحاب . وفتحت الموصل أبوابها لقلع أرسلان الذى وعد باحترام حريتها.

ورسخ حوالى دعائم سلطانه فى وادى الفرات ، ومن هناك تفاوض مع رضوان الحلبي واتفقا على خلع قلع أرسلان أولا ثم يتقدمان معا لمهاجمة انطاكية . وفى يونية

(٦) Matthew of Edessa, clxxxix, pp. 260-1.

(٧) Ibn al-Athir, p. 239.

١١٠٧م توجه الإثنان على رأس أربعة آلاف رجل وهاجما الموصل . وكان قلعج أرسلان بعيدا وجيشه أصغر ، لكنه مع ذلك خف لمهاجمة الحليفين على ضفاف نهر خيبر . وبرغم ما انتصف به من شجاعة ، فقد هزم هزيمة ماحقة وهلك هو نفسه وهو يعبر النهر هاربا^(٨) .

وتركت نهاية قلعج أرسلان أثرها على العالم الشرقي كله . إذ انزاح عن بيزنطة خطر هائل في لحظة حاسمة كان فيها بوهيموند على وشك مهاجمة البلقان ؛ وممكنت السلطنة السلجوقية الفارسية من أن يطول أجلها لقراءة قرن من الزمان ؛ وكانت بمثابة أول مرحلة خطيرة في انفصال أترك الأناضول عن إخوانهم في الشرق الأبعد . وحرمت سوريا - لوقتها - من قوة خليقة بأن تحقق لها وحدتها .

وأصبح بإمكان حوالى دخول الموصل . وسرعان ما صنع من نفسه حاكما بغيضا بأفعاله الوحشية فى حكمه؛ ولم يظهر لسيدته السلطان محمد احتراماً أكثر مما أظهره جكرمش من قبله . وبعد عام، خطط محمد لاستبداله، وأرسل إليه جيشاً بقيادة المملوك مودود الذى أصبح النصير الرئيسى للإسلام خلال السنوات القليلة التى تلت^(٩) .

١١٠٧م : إطلاق سراح جوسلين

وإثناء كل هذا الإضطراب كان بالدوين (أوف لوبورج) أسيرا فى الموصل ، بينما انتقل ابن خالته جوسلين (أوف كورتناى) بعد موت سقمان إلى ايلغازى الذى كان يخطط لطرد ابن أخيه ابراهيم من ماردين ؛ على أن ايلغازى كان فى حاجة إلى المال والحلفاء ؛ ولذا وافق على إطلاق سراح جوسلين مقابل عشرين ألف دينار ووعد بمساعدة عسكرية . وتعهد رعايا جوسلين فى تل بشير طواعية بمبلغ الفدية ، وأطلق سراحه فى وقت ما من عام ١١٠٧م^(١٠) . وتمكن ايلغازى ، بالترتيبات التى أعدها ،

(٨) المرجع السابق الصفحتان ٢٤٦ - ٢٤٧ . ويعتبر ماثيو الأورفى Matthew of Edessa, cxcvi, p. 264 أن موت قلعج أرسلان بمثابة كارثة للعالم المسيحى كله ، أى الأرمن .

(٩) Ibn al-Athir, pp. 259-61; Bar-Hebraeus, trans. Budge, I, p. 241.

(١٠) يقول ميخائيل السورى Michael the Syrian, III, pp. 195-6 إن مواطنى طرابزون سلموا أنفسهم كرهائن الى أن يتم جمع المال ، ثم تراجعوا ، بحيث لم يدفع شئ فى الواقع ، على أن جوسلين عاد الى الأسر كرهينة لبالدوين ، وترك انطبعا رائعا على سلطان الموصل الذى طلب رؤيته خصيصا . ويفترض ابن الأثير Ibn al-Athir, p. 261 أن الفدية قد دفعت على النحو الواجب .

من الاستيلاء على ماردین . ثم سعى حوسلين إلى تخليص بالدوين الذى كان فى قبضة حوالى مع كل متعلقات حكرمش . ولقد اختيرت اللحظة اختيارا حسنا ؛ إذ كان حوالى فى حاجة إلى مساعدة لصد هجوم مودود القادم ؛ فطلب ستين ألف دينار، وإطلاق سراح الأسرى المسلمين المحتجزين فى الرها ، وتحالفا عسكريا . وبينما كانت المفاوضات دائرة ، تخطى أهالى الموصل عن حوالى وفتحوا بوابات مدينتهم لمودود، ووجد حوالى نفسه وقد طرد من الموصل، فوطد دعائم ملكه فى الجزيرة آخذا معه بالدوين^(١١).

وتمكن حوسلين من تجهيز ثلاثين ألف دينار بلا صعوبة كبيرة . وأحضر المال بنفسه إلى قلعة الجبار فى الفرات حيث يعيش حوالى الآن ؛ وعرض أن يبقى هو نفسه رهينة بدلا من بلدوين الذى سيتولى احضار باقى الفدية . وتحركت مشاعر حوالى بهذه الحركة وأثارته بسالة الأمير الفرنجى ، وقبل حوسلين بدلا من بلدوين . وبعد أشهر قليلة أطلق سراح حوسلين واضعا ثقته فى كلمته التى وعدها بتسديد باقى الفدية، وكان لثقته ما يبررها^(١٢) . ولقد أقدم على هذه الحركة بوازع الفروسية من ناحية، وبدافع المصلحة الذاتية من الناحية الأخرى - إذ كان شديد الرغبة فى التحالف الفرنجى.

١١٠٨ م: مسيحيون ومسلمون ضد مسيحيين ومسلمين

مضى على تانكريد الآن أربع سنوات وهو سيد الرها التى يحكمها باسمه ابن عمه ريتشارد (أوف برنسيات) ؛ وكان تانكريد عزوفا عن تسليم الرها لبلدوين . وعندما ظهر بلدوين فى الرها وافق تانكريد على دفع ثلاثين ألف دينار ، لكنه رفض إعادة المدينة لبلدوين إلا بعد أن يقسم قسم الولاء له . ولم يكن بوسع بلدوين الموافقة باعتباره تابعا للملك القدس ، فذهب إلى تل بشير مغاضبا حيث لحق به حوسلين ، وأرسلا إلى حوالى يطلبان مساعدته . وسار تانكريد إلى تل بشير حيث وقعت مناوشات طفيفة اجتمع بعدها المتحاربون فى جلسة معقدة لمناقشة المسألة مرة أخرى ، ولكن دون جدوى . وأطلق بلدوين سراح مائة وستين أسيرا مسلما وأرسلهم هدية إلى

(١١) Ibn al-Athir, p. 260 P Bar-Hebraeus, loc. cit.

(١٢) Michael the Syrian, loc. cit.; Chron. Anon. Syr. pp.81-2; Bar-Hebraeus, trans. Budge, I, p. 243; Ibn al-Athir, p. 261.

حوالى بعد أن أعاد تجهيزهم ثم سار شمالا يبحث عن حلفاء آخرين. وكان حكم ريتشارد فى الرها مكروها من الأرمن خاصة لقسوته وابتزازة ، ولذا ذهب بلدوين لزيارة كبير أمراء الأرمن فى الجوار - كواسيل أمير كيسوم - الذى عزز مكانته مؤخرًا باستمالة كاثوليكوس الأرمني وأقنعه بالعيش فى كنفه . واستقبل كواسيل بلدوين فى مدينة رعبان ووعدته بالمساعدة ، بينما أبهج أوشين الأرمني ، الذى كان يحكم كيليكيا باسم بيزنطة ، أن يخطر أية خطوة ضد تنكريد ، ومن ثم أرسل ثلاثمائة من المرتزقة البشنج . وعاد بلدوين بهذا الحشد المخالف إلى تل بشير . ولم يكن تنكريد مستعدا للإساءة إلى العالم الأرمني كله ، لاسيما وأن برنارد - بطريق أنطاكية - انحاز بنفسه إلى جانب بلدوين ، فاضطر تنكريد على مضض إلى سحب ريتشارد أوف برينسيبات من الرها التى استقبلت بلدوين بمشاعر البهجة^(١٣).

ولم تكن سوى هدنة مؤقتة . وكان بلدوين مخلصا فى صداقته مع حوالى ، فأعاد له الكثير من الأسرى المسلمين ، وسمح بإعادة بناء المساجد فى مدينة سروج التى كان أغلب سكانها من المسلمين ، وأمر بإعدام كبير قضاتها بعد خذلانه إذ لم يكن مقبولا من السكان لارتداده عن الإسلام . واستشعر رضوان الحلبي الخطر من هذا التحالف ، إذ راح حوالى يهدد ممتلكاته فى الفرات ، فرد بالإغارة على قافلة بضائع تضم بعض فدية بلدوين المرسل من تل بشير إلى بلاط حوالى . وفى سبتمبر ١١٠٨م استولى حوالى على مدينة بالس الواقعة على نهر الفرات ، والتى لا تبعد عن حلب سوى خمسين ميلا ، وصلب أبرز المؤيدين لرضوان فى المدينة . وعلى الفور استنجد رضوان بتنكريد . وفى أوائل أكتوبر وصل بلدوين وحوسلين إلى منبج بين حلب والفرات مع بضع مئات من فرسانهما وانضما إلى جيش حوالى الذى كان يتألف من نحو خمسمائة تركى وعدد أكبر من البدو برئاسة ابن صدقة أمير بنى مزيد ، وبذا بلغ قوام الجيش المتحد قرابة ألفي رجل . وكان مع رضوان نحو ستمائة رجل لمواجهة الجيش المتحد ، لكن تنكريد جاء بقوة قوامها ألف وخمسمائة رجل . وحمى وطيس معركة يقاتل فيها مسيحيون ومسلمون مسيحيين ومسلمين . وبينما كان جنود حوالى يدفعون فرنج أنطاكية إلى الوراء شيئا فشيئا منزلين بهم خسائر جسيمة ، كان البدو قد لاحظوا الخيول التى كان فرسان بلدوين يحتفظون بها بصورة احتياطية ، فتعذر عليهم مقاومة اغراء الخيول ، فتخلوا عن القتال وسرقوها وانطلقوا بها ، وإذ رأهم أتراك حوالى يذهبون استداروا

(١٣) Fulcher of Charters, II, xxviii, 1-5, pp.477-81; Albert of Aix, x,37, p.648; Matthew of Edessa, cxclx, p.266;

ولاذوا بالفرار . ونظر بلدوين وحوسلين فوجدا أنهما وحيدان أو يكادان ، فاضطرا إلى الفرار هما أيضا مع بقايا جنودهما، وقد كادا أن يقعا فى الأسر كلاهما. وقيل إن خسائر المسيحيين بلغت نحو ألفين^(١٤).

وانسحب حوسلين إلى تل بشير وعاد بلدوين إلى دلك شمال رواندان حيث حاول تنكريد محاصرته، لكنها كانت مجرد محاولة كف عنها عندما سمع بشائعة اقتراب حاول. وفى نهاية الأمر استعاد بلدوين وحوسلين الرها فوجدا أهلها فى حالة من الذعر . إذ أنهم ، خشية من أن يكون بلدوين قد مات ، ومن ثم يخضعون لحكم ريتشارد الممقوت، اجتمعوا فى كنيسة القديس يوحنا حيث قام الأرمن منهم بتوجيه الدعوة إلى الأسقف اللاتينى للمشاركة فى انشاء حكومة مؤقتة إلى أن ينجلي الموقف . وعندما جاء بلدوين بعد ذلك بيومين ارتاب فى أن الأرمن كانوا يدبرون خيانة لاستعادة استقلالهم . فضرب بسرعة وبقسوة . فاعتقل الكثير من الأرمن وفقاً أعينهم . ولم تسلم عينا الأسقف الأرمينى إلا بغرامة باهظة تبرعت بها رعيته ، وأعقب ذلك طرد الأرمن قسرا من المدينة . وما حدث فى واقع الأمر غير معروف، غير أنه من الواضح أن بلدوين لا بد وأن شعر بخطر حسيم بحيث عكس اتجاه سياسته الأرمينية بصورة مفرطة^(١٥).

١١٠٩ م : المصالحة بين أمراء الفرنج

وبرغم انتصار تنكريد ، وبرغم مصالحة حوالى بعد أشهر قليلة مع سيده السلطان الذى خلع عليه إمارة بعيدة فى فارس ، لم يُقدّم تنكريد على أية محاولة لاجراج بلدوين من الرها، وبدلا من ذلك قاد حملة فى خريف ١١٠٨م ضد شيزر حيث قتل بصعوبة جماعة صغيرة من الأعداء فاجأها فى كهف ، ثم ارتضى الرحيل عن شيزر مقابل جواد أصيل قدّم له هدية^(١٦).

وفى الربيع التالى تورط فى النزاع الذى نشأ بين وليم جوردون وبرتراند التولوزى على ملكية الأراضى الفرنجية فى لبنان . وقوبلت موافقته على أن يصبح وليم جوردون

(١٤) Matthew of Edessa, cxcix, pp. 266-7; Ibn al-Athir, pp. 265-7; Kemal ad-Din, p. 595; Ibn al-Fourat, quoted in Cahen, *op. cit.* p. 250 n. 34.

(١٥) Matthew of Edessa, cxciv, pp. 267-8.

(١٦) Usama, ed. Hitti, pp. 99-100.

من أتباعه بتدخل سريع من الملك بلدوين باعتباره سيداً أعلى لجميع الفرنج الشرق . وعندما استدعاه الملك للحضور مع غيره من قادة الفرنج لقبول تحكيمه فى المعسكر المقام أمام طرابلس ، لم يجرؤ على الرفض . وفى حضور الأمراء المجتمعين قام الملك بلدوين بتقسيم الميراث التولوزى ، ليس هذا وحسب ، بل أحبر تنكريد وبلدوين وجوسلين على التصالح والتعاون ضد الكفرة . وقد قبل تنكريد حق الملك فى التحكيم ، ومن ثم اعترف بسيادته ، وإزاء ذلك سُمح له بأن يحتفظ بوليم جوردون كواحد من أتباعه ، وأعيد له لقب أمير الجليل وملكية المعبد فى القدس ، وحصل على وعد باستئناف إدارة الإقطاعية فى حالة عودة بوهمند إلى انطاكية . وقلت تلك المزايا بعدما قتل ولیم جوردون وانتقلت أراضيه إلى برتراند الذى اعترف بالملك بلدوين وحده سيداً له . على أن تنكريد تشجع على مهاجمة جبلة ، وهي آخر ممتلكات بنى عمار ، فاستولى عليها فى شهر يولية ١١٠٩م ، وبذا باتت حدوده تتأخم حدود برتراند جنوباً^(١٧) .

وقد كان أمراً ضرورياً أن تتم هذه المصالحة بين أمراء الفرنج تحت الملك بلدوين . وفى أوائل ١١١٠م أعد مودود ، أتابع الموصل ، حملة ضد الفرنج تنفيذاً لتعليمات سيده السلطان ، وفى إبريل توجه إلى الرها يساعده ايلغازى الأرتقى مع جنوده التركمان ، وسقمان القطبى أمير ميفارقين ، الذى كان يشتهر بأنه شاه أرمينيا . وبوصول أنباء تلك الحشود الإسلامية ، قام بلدوين (أوف لو بوج) بإيفاد جوسلين إلى القدس متوسلاً إلى الملك بلدوين إرسال تعزيزات عاجلة ، ومعباً عن ريته فى تشجيع تنكريد للأعداء . وأغار أصدقاء تنكريد ، من جانبهم ، بهجوم مماثل على بلدوين ، وإن كان أقل خطورة . وكان الملك بلدوين مشغولاً فى حصار بيروت ، ولم يكن ليتحرك إلا بعد الاستيلاء عليها . غير أنه سارع بالانطلاق شمالاً متجنباً انطاكية ، اقتصاداً فى الوقت من ناحية ولأنه لا يثق فى تنكريد من ناحية أخرى ، ووصل أمام الرها فى نهاية شهر يونية . وبينما كان يقترب من المدينة لحقت به القوات الأرمينية التى أرسلها كواسيل وأمير البيرة وأبو الغريب ، زعيم البهلوان . وكان مودود يحاصر الرها منذ شهرين . وعندما لاحت فى الأفق رايات فرسان القدس وبريق دروعهم تعكسه أشعة الشمس ، تراجع إلى حران وفى مأموه أن ينصب لهم كميناً ويهاجمهم هجوماً خاطفاً^(١٨) .

(١٧) Albert of Aix, xi, 3-13, pp. 664-8, 685-6; Ibn al-Athir, p.274.

(١٨) -Albert of Aix, xi, 16-18, pp. 670-2; Matthew of Edessa, cciv, pp. 270-3; Ibn al-Qalanisi, p.103.

وأطل بلدوين أوف لى بروج من قلعته منبسط الأسارير لمقابلة ابن عمه وسيده . ثم انه سرعان ما اشتكى تنكريد . فأرسل الملك مبعوثا إلى انطاكية يستدعى تنكريد فى قواته لينضم إلى الائتلاف المسيحى ولكى يرد على الاتهامات . وتردد تنكريد . على أن مجلسه الكبير أصر على الامتنال للاستدعاء . وفور وصوله وجّه اتهامات مضادة إلى بلدوين أوف لى بروج قائلا إن مقاطعة أسروين التى تقع فيها الرها كانت دائما تعتمد على انطاكية طوال تاريخها، وانه سيدها الشرعى . فرد عليه الملك بلدوين فى صرامة بأنه بصفته الملك المختار، ولكونه رئيسا للعالم المسيحى الشرقى ، يطلب من تنكريد أن يتصالح مع بلدوين (أوف لو بروج) ، وفى حالة رفض تنكريد واستمراره فى كيد المكائد مع الأتراك، فليس هو بأمير مسيحي وسيلقى حربا لا هوادة فيها باعتباره عدوا لهم . وأيد الفرسان المجتمعون ما قاله الملك ، فاضطر تنكريد إلى التصالح^(١٩).

١١١٠ م : إخلاء الريف الرهاوى

وانطلق الجيش الفرنجى المتحد بطارد مودود الذى واصل تفهقره ليستدرج الفرنج إلى أرض معادية منتويا الالتفاف حوله بانحراف مفاجئ إلى الشمال . وأنذر الملك بلدوين فى الوقت المناسب ، فتوقف لمحاصرة قلعة شناو الواقعة إلى الشمال الغربى من حران . وهناك تبعثر الائتلاف . إذ سمع تنكريد شائعات تقول إن رضوان الحلبي يعد العدة للهجوم على أنطاكية ، وجاء رسل من فلسطين يخبرون الملك بتحريك مصرى يهدد القدس . فتقرر التخلي عن حملة الجزيرة ، وعاد تنكريد إلى سميساط ، وقرر بلدوين (أوف لو بروج) - بناء على نصيحة الملك - عدم جدوى محاولة حماية الكونتية شرقى الفرات ، وتساقطت عبراته وهو يشاهد ما أحدثه مودود من خراب أثناء محاصرة الرها ، وخطط عدم الاحتفاظ بحاميات إلا فى القلعتين الكبيرتين أورفا وسروج وفى بعض الحصون القليلة الأصغر ، والتوقف عند أية محاولة لحراسة الحدود بعد الآن . ونصح السكان المسيحيين بالارتحال إلى الأراضى الأكثر أمانا على الضفة اليمنى للنهر الكبير ، فأخذوا بنصيحته . إذ جمع مسيحيو الريف ، وأغلبهم من الأرمن ، متعلقاتهم وتحركوا تحركا بطيئا باتجاه الغرب . على أن جواسيس مودود أخبروه بما كان يجرى تدبيره ، فأسرع فى آثارهم . وعندما وصل إلى نهر الفرات كان القادة الفرنج قد عبروا

(١٩) Albert of Aix, XI, 20-4, pp.672-4; Fulcher of Charters, II, xliii, 1-6, pp. 532-41; Ibn al-Qalanisi, p.102

النهر فعلا ، ولكن القاربين الكبيرين كانا محملين فوق الطاقة بالجنود ، ففرقا قبل أن يعبر المديون . فانقض عليهم وهم على حالهم دون سلاح ، ولم يفلت من القتل رجل أو امرأة أو طفل إلا فيما ندر . وكانت هذه الإبادة الرهيبة للفلاحين الأرمن بمثابة ضربة لم تبرا منها المقاطعة تماما قط . فبرغم أنهم لا يعول عليهم سياسيا ، إلا أنهم كانوا أثرياء ويقومون بالأعمال الشاقة . وربما يستمر أمراء الفرنج في حكم الرها نفسها لسنوات قليلة تالية ، ومع ذلك ثبت أن مصير السيادة الفرنجية عبر الفرات هو الفشل المحتوم ، ومن ثم دمار رعاياهم التعساء من المسيحيين الوطنيين الخاضعين لهم^(٢٠).

وفي سورة الغضب عاد بلدوين (أوف لو بورج) على رأس كتيبة عبر النهر للانتقام من مودود . لكن رجاله كانوا فاقدى الحيلة أمام عدوهم الذى يفوقهم عددا ، وهم هالكون لا محالة ، لولا أن اسرع الملك بلدوين لنجدتهم ومعه تنكريد الذى جاء على مضض^(٢١).

وعاد الملك بلدوين جنوبا . ورجع تنكريد لمعاقبة رضوان على خيائته بالإغارة على أراضيه . فهاجم حصن النقرة الواقع عبر الحدود مباشرة واستولى عليه ، ثم اتجه إلى مدينة الأثارب التى تبعد عن حلب بنحو عشرين ميلا . ولم يخف أيّ من زملاء رضوان المسلمين لنجدته ، فحاول أن يعرض على تنكريد ثمن لرحيله ، لكن الثمن كان باهظا للغاية . وتوقفت المفاوضات بفرار خازن رضوان إلى معسكر تنكريد ومعه جزء من ثروة سيده . وفي نهاية الأمر سحقت آلات تنكريد أسوار مدينة الأثارب ، فاستسلمت المدينة فى شهر أكتوبر ١١١٠ م . وكان ثمن السلام الذى تكلفه رضوان هو مدينة الأثارب ، وزردنا الواقعة قليلا إلى الجنوب ، وعشرين ألف دينار ، وعشرة من أجود الخيول العربية الأصيلة^(٢٢) ثم سار تنكريد لمهاجمة شيزر وحماه. واشترى أمير شيزر من بنى منقذ فترة هدنة لشهور قليلة بأربعة آلاف دينار وجواد آخر . على أنه عندما انتهت الهدنة فى ربيع ١١١١ م عاد تنكريد وبنى حصنا قويا على تل مجاور فى ابن معشر يستطيع منه مراقبة كل تحرك من المدينة أو إليها. ثم استولى على حصن بسكرائيل الواقع على الطريق من شيزر إلى اللاذقية . ودفع أمير حمص ألفي دينار كي يُترك فى

(٢٠) Albert of Aix, *loc. cit.*; William of Tyre, xi, 7, p. 464; Matthew of Edessa, cclv, p. 273; Ibn al-Qalanisi, p. 103-4.

(٢١) Albert of Aix, xi, 25, p. 675

(٢٢) Matthew of Edessa, cciv, p. 274; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 243;

سلام^(٢٣).

وكان هناك عاملان اثنان أسهما في نجاح تنكريد . الأول أن البيزنطيين كانوا غير مهياين لهجوم مضاد . وقد تسبب موت قلعج أرسلان سنة ١١٠٧م في أن بات الموقف في الأناضول مائعا، إذ أسير ابنه الأكبر ملكشاه في موقعة الخابور ، وهو الآن في قبضة السلطان محمد . واستولت أرملته على ملطية والمقاطعات الشرقية لابنها الأصغر طغرل . وكان ابنه الآخر مسعود يعيش في بلاط الدانشمند . بينما استولى ابن رابع ، وهو عربى ، على قونية فيما يبدو . وكان السلطان محمد يخشى أن يستولى مسعود أو طغرل على الميراث كله ، فأطلق سراح ملكشاه الذى وطّد نفسه في قونية واتخذ لنفسه لقب سلطان في جحود للعرفان^(٢٤) ولم يكن انهيار الحكومة المركزية السلجوقية مفيدا تماما لبيزنطة ، إذ راح السلاجقة يغيرون إغارات عديدة لأمسؤوله على الأراضى البيزنطية؛ غير أن الامبراطور الكسيوس تمكن من احتلال مختلف القلاع الحدودية، ومع ذلك كان عازفا عن المخاطرة بحملة على كيليكيا أو سوريا^(٢٥) وكان لسليته تلك المفروضة عليه أن عادت بالفائدة لا على تنكريد فقط ، وإنما ايضا على كواسيل الارمينى الذى أقدم على تقوية امارته في جبال طوروس الشرقية ، وربما بموافقة الامبراطور ، ومن ثم أفلح فى صد الهجمات التركية . وأما الأمراء الروبيون فى طوروس، وهم الأكثر تعرضا للعدوان السلجوقى ، فلم يتمكنوا من زيادة قوتهم ، ومنعهم تنكريد من التوسع فى كيليكيا ، وهكذا غدا كواسيل سيدا بلا غريم فى العالم الأرمينى^(٢٦).

انتشار الحشاشين

ولقد ظهرت طائفة جديدة ومدمرة فى العالم الاسلامى أضافت مزيدا من الفائدة لتتكريد وفواجع أكثر لأية قوة اسلامية مضادة للصليبيين . فخلال العقود الأخيرة من القرن الحادى عشر أسس حسن الصباح فى فارس هيئة دينية ، عرفت فيما بعد بطائفة الحشاشين ، ونظمها تنظيما جيدا . وكان حسن قد تحول إلى المذهب الاسماعيلى الذى

(٢٣) Albert of Aix, xi, 43-6, pp. 684-6; Usama, ed. Hitti, pp. 95-6;

(٢٤) See Cahen, *op. cit.* pp. 253-4. Michael the Syrian, iii, pp. 194-5; Ibn al-Qalanisi, p. 81 (a vague story)

(٢٥) Anna Comnena, xiv, i, v-vi, pp. 141-6, 166-72. See Chalandon, *op. cit.* pp. 254-6.

(٢٦) Matthew of Edessa, clxxxvii, pp. 258-9; ccx, pp. 281-2. انظر: عن كواسيل

يرعاه الخلفاء الفاطميون ، وغدا خبيرا بالباطنية وخباياها الخفية ، وطور تعاليمه على نفس اللاهوت الصوفي المجازى الاسماعيلي ، لكنها تعاليم غامضة ، على أن أنجازه البارز يعتبر عمليا بصورة اكبر ، وهو انشاء نظام تتمثل وحدته فى الطاعة العمياء لأوامره باعتباره السيد الأعظم ، واستخدم هذا النظام فى اغراض سياسية موجهة ضد الخلفاء العباسيين فى بغداد الذين تحدى شرعيتهم ، وبصورة أخص ضد أعوانهم من الأسياد السلاجقة الذين ساعدت قوتهم على بقاء الخلافة العباسية . وكان سلاحه السياسى الرئيسى هو الاغتيال^(٢٧) Assassination . وكانت الطوائف المبتدعة فى الاسلام دائما ما تمارس الاغتيال فى سبيل العقيدة ، على أن حسن الصباح افلح فى الارتفاع به إلى مستوى عاليا من الكفاءة . إذ أن ما كان أتباعه عليه من تكريس لا مساءلة فيه واستعدادهم للارتحال إلى اماكن قاصية والمخاطرة بأرواحهم تنفيذا لأوامره ، قد مكّنه من أن يضرب أى خصم له فى أى مكان فى العالم الاسلامى . وفى سنة ١٠٩٠م اتخذ حسن مقره فى القلعة المنيعة (الموت) ، أى عش النسر ، فى خراسان . وفى سنة ١٠٩٢م قام بأول اغتيال قتل فيه الوزير الأكبر نظام الملك الذى كان على جانب من الاقتدار بحيث يعد بمثابة الدعامة الرئيسية للأسرة الحاكمة السلجوقية فى إيران . وتتردد أسطورة متأخرة تضيف إلى هول هذا العمل ، تقول إن نظام وحسن ، ومعهما الشاعر عمر الخيام ، كانوا من يتلقون العلم معا من أستاذهم العالم موفق النيسابورى . وأقسموا جميعا على أن يساعد كل منهم زميله مدى الحياة . وكان سلاطين السلاجقة مدرّكين تماما للخطر الذى استحدثه الحشاشون ، لكن محاولاتهم للقضاء على قلعة عش النسر باءت كلها بالفشل . وبعد منعطف القرن مباشرة ، سرعان ما أنشئ مقر للحشاشين فى سوريا احتضنه رضوان الحلبى الذى كان دائما على علاقة سيئة بينى عمومته السلاجقة ، وربما كان عميق التأثير بمذهب الحشاشين ، فضلا عما كان لزعيمهم أبى طاهر ، الصائغ الفارسى ، من نفوذ كبير على رضوان . وكانت كراهية الحشاشين للسنين تجاوز كراهيتهم للمسيحيين وربما كان استعداد رضوان للتعاون مع تنكريد يعزى بدرجة كبيرة إلى تعاطفه مع معتقدتهم . وكان اغتيال جناح الدولة أمير حمص عام ١١٠٣م أول أنجاز للحشاشين فى سوريا ، وبعد ثلاث سنوات اغتالوا خلف ابن ملاعب أمير أمافيا ، على أنه لم يستفد من موته سوى فرنج انطاكية . وعلى الرغم

(٢٧) (المترجم) كلمة assassinate ، ومشتقاتها فى سائر اللغات الاوربية ، بمعنى الاغتيال ، مأخوذة من الكلمة العربية "حشاشين" نظرا لما كان أتباع حسن الصباح يقدمون عليه من جسارة فائقة فى زمن الحملات الصليبية.

من أن الحشاشين لم يكشفوا عن سياستهم ، حتى ذلك الوقت ، إلا باغتيالات متفرقة ، فقد كانوا بمثابة عنصر من عناصر السياسة الاسلامية ، دفع حتى المسيحيين إلى أن يحترموه^(٢٨).

١١١١م : ائتلاف إسلامي جديد

وفي سنة ١١١١م شرع مودود ، حاكم الموصل ، فى اعداد العدة مرة اخرى لتسيير جيش لمهاجمة الفرنج ، تنفيذاً لأوامر سيده السلطان . وفى أوائل تلك السنة كان أهالى حلب حائقين على حاكمهم لما كان عليه من خروج على الدين وخضوع لتتكريد ، فأرسلوا وفداً إلى بلاط الخليفة فى بغداد للحث على اعلان الجهاد الذى يخلصهم من تهديد الفرنج . على أن الرد لم يجد سوى وعود خاوية ، فاستثار أهالى بغداد فحدثت أعمال شغب أمام مسجد القصر . وفى تلك الآونة استقبل الخليفة سفارة من الامبراطور جاءت من القسطنطينية ، وكانت مثل هذه السفارات شيئاً عادياً ، إذ كانت لكل من القسطنطينية وبغداد مصالح مشتركة فى معاداة الأسرة الحاكمة السلجوقية . بيد أنه يبدو أن الامبراطور الكسيوس اعطى تعليماته لمبعوثيه هذه المرة لمناقشة السلطات الاسلامية فى امكانية القيام بعمل مشترك ضد تنكريد^(٢٩) ؛ وقد أسهمت تلك المفاوضات فى أن أعلن المشاغبون أن الخليفة المسلم أسوأ من الامبراطور المسيحي . واستشعر الخليفة المستظهر الخطر من هذا الحماس ، لاسيما وان الاضطرابات أعاقته عن استقبال زوجته على النحو الذى يليق بها لدى عودتها من زيارة ابىها السلطان محمد فى اصبهان^(٣٠) ، فما كان من الخليفة الا أن أرسل إلى حميه الذى اصدر من فوره تعليماته لمودود بإنشاء تحالف جديد تحت قيادة ابنه الصغير مسعود . ووضع مودود فى قائمة التحالف المساعدة التى سيقدمها سقمان صاحب ميفارقين ، واياز بن

(٢٨) عن الحشاشين ، انظر von Hammaer فى *Histoire de l'Order des Assassins* ، وانظر كذلك مقال "الحشاشين" Assassins و "الاسماعيلية Ismaili" فى دائرة المعارف الاسلامية *Encyclopaedia of Islam* Brown; *Literary History of Persia*, vol. II, pp. 193 ff.

(٢٩) Ibn al-Qalanisi, *op. cit.* pp. 112-13 ، يقول ابن القلانيسى إن الامبراطور (الذى يطلق عليه لقب المتملك ، بمعنى "المغتصب" 'userper') أرسل يحذر المسلمين من مخططات الفرنج ، ويقول ضمناً إن السفارة زارت دمشق . وربما لم يقترح الكسيوس سوى عمل موجه ضد تنكريد ، إذ لم يجد تأييداً من أي من زعماء الفرنج فى محاولته حمل تنكريد على تنفيذ معاهدة ديفول (انظر Ibn al-Athir, pp. 279-80 ، يورد ابن الأثير وصول السفارة الى بغداد نقلاً عن ابن حمدون Ibn Hamdun.

(٣٠) Ibn al-Athir, *loc. cit.*

ابلغازى ، والأميرين الكرديين أحمديل صاحب مراغة وأبو الهيجا صاحب أربل ، وبعض نبلاء الفرس بزعامة برسق بن برسق صاحب همدان . وفى يولية أصبح الحلفاء على أهبة الاستعداد ، فانطلقوا فى سرعة خاطفة عبر الجزيرة المحاصرة قلعة جوسلين فى تل بشير . ولدى انتشار النبأ أرسل اليهم (سلطان) أمير شيزر يستحثهم على الاسراع لنجدته . ورأى رضوان أن من السياسة أن يرسل اليهم للاسراع اليه ، إذ لا يستطيع الصمود طويلا ضد تنكريد . وتأثر مودود بما طرأ على وجدان رضوان من تغيير ، وعملا باقتراح أحمديل - الذى كان على علاقة سرية بجوسلين - رفع مودود الحصار عن تل بشير وسار بالجيش قاصدا حلب . غير أن رسالة رضوان كانت تخلو من الاخلاص ، فما أن اقترب الحلفاء المسلمون حتى أغلق رضوان البوابات دونهم واتخذ جانب الحيلة باعتقال الكثير من وجهاء المواطنين والقى بهم فى السجن رهائن منعا لأعمال الشغب . فأسقط فى يد مودود . فما كان منه إلا أن خرّب البلاد حول حلب ثم سار جنوبا إلى شيزر حيث انضم اليه طغتكى الدمشقى الذى جاءه طلبا لمساعدته على استعادة طرابلس^(٣١) .

أما تنكريد ، الذى كان معسكرا أمام شيزر ، فقد انسحب إلى أفاميا وأرسل إلى الملك بلدوين مستنجدا ، فاستجاب الملك واستنفر جميع فرسان الفرنج فى الشرق . فجاء معه البطريق جيلين وتابعاه الرئيسيان فى المملكة وهما إيوستاس جارنييه حاكم صيدا وولتر حاكم الخليل ، وصحبهم برتراند حاكم طرابلس فى الطريق . ومن الشمال جاء بلدوين من الرها مصطحبا تابعيه الكبيرين جوسلين حاكم تل بشير وباجان حاكم سروج . واستدعى تنكريد تابعيه من النواحي المحيطة بالإمارة الانطاكية ، فأحضر جوى - الملقب بالجدى - من طرسوس وريتشارد حاكم مرعش ، وجوى - الملقب خشب الزان - أمير حارم ، وروبرت حاكم السويدية ، ولونز حاكم تل مناس ، ومارتان حاكم اللاذقية ، وبونابلوس حاكم سرمد ، وروجر حاكم هاب ، وانجراند حاكم افامية ، وأرسل كل من كواسيل والروبيون كتيبة أرمينية ، حتى أوشين حاكم لامبرون أرسل القليل من الرجال ربما كان دورهم يقتصر على التجسس نيابة عن الامبراطور . وبذا خلا الشمال من الجنود ، فكانت فرصة سانحة لطغرل ارسلان صاحب ملطية ، فقام على الفور بانتزاع البستان من الحامية الفرنجية الصغيرة واستولى على الجوار المحيط

Ibn al-Qalanisi, pp. 114-15; Kemal ad-Din, pp. 600-1; Ibn al-Athir, p. 282; Albert of Aix, xi, 38, p. 681. (٣١)

بها، ثم قام بغارة داخل كيليكيا^(٣٢).

١١١١ م : فشل مودود

وإزاء هذا التركيز الفرنجي الذي بلغ قوامه ستة عشر ألف رجل ، انسحب مودود بحذر داخل اسوار شيزر رافضا استدراجه في معركة تم الإعداد لها بعناية ، لاسيما وان الامور لم تكن على مايرام في جيشه . فأما طغتكين فقد رفض المساعدة ما لم ينتقل مودود باتجاه الجنوب ، وفي ذلك مجازفة بالغة من الناحية الاستراتيجية ، وأما برسق الكردي فكان مريضا ورغب في العودة إلى بلاده ، وأما سقمان فقد مات فجأة وانسحب جنوده شمالا مع جيشه ، وأما أحمد ديل فسرعان ما تخلى كى يحاول انتزاع شيئا من الميراث ، وبقي اياز الأرمني ، غير أن اباه ايلغازي هاجم الراكب المصاحب لنعش سقمان في محاولة لم يكتب لها النجاح للاستيلاء على كنزهِ . ومع تقلص قوات مودود شيئا فشيئا ، لم يتمكن من المبادرة بالهجوم ، فضلا عن أنه كان عاجزا عن تخضية الشتاء وهو على هذا البعد البعيد من قاعدته ، فعاد إلى الموصل في الخريف^(٣٣).

وأظهر الفشل عدم استطاعة المسلمين رد الهجوم على الفرنج طالما بقي الفرنج متحدين ، وما هذه الوحدة إلا ما أجبرهم عليه الملك بلدوين ، وبذا استطاع أن ينقذ ما أرسى الفرنج دعائمه في تلك المرحلة . وفي الصيف التالي أغار مودود على أراضي الرها ، وكان لغارته ثمارها لكنها لم تكن غارة حاسمة ، هذا في الوقت الذي أقدم فيه طغتكين على عقد تحالف مهلهل مع رضوان ، متكرما عليه نوعا ما، إذ حاول رضوان حث أصدقائه الحشاشين على قتله^(٣٤) على أن الخطر الاسلامي تبدد في تلك المرحلة. وكان حتما أن يعاود المسيحيون الشجار فيما بينهم مرة اخرى . فأولا ، قرر الفرنج مهاجمة كواسيل الذي أدت قوته الصاعدة إلى إثارة مشاعر الغيرة لدى بلدوين الأورفي وتنكريد ، فأغار تنكريد على أراضيهِ واستولى على رعبان وراح

(٣٢) Albert of Aix, xi, 39-40, pp.682-3 ويورد ألبرت قائمة الخلفاء؛ Matthew of Edessa, ccvi, p.275، ويذكر ميخائيل السوري الاستيلاء على البستان، Michael the Syrian, iii, p. 205.

(٣٣) Fulcher of Charters, ii, xlv, 1-9, pp. 549-57; Albert of Aix, xi, 41-3, pp. 683-4.

(٣٤) Kemal ad-Din, pp.601-2; Albert of Aix (xi, 43, p. 684)، ويذكر ألبرت الاستيلاء على عزاز في ذلك الوقت تقريبا، غير ان عزاز كانت ما تزال في حوزة المسلمين عام ١١١٨ م (انظر ادناه ص ١٦٤).

يعد العدة لمحاصرة كيسوم قبل احلال السلام بينهما^(٣٥)؛ وبعد ذلك تحول بلدوين كونت الرها فجأة ضد ابن عمته جوسلين. فقد حدث في صيف ١١١٢ م، عندما كان مودود يهاجم الرها، أن اكتشف جوسلين مؤامرة ارمينية تستهدف تسليم المدينة للمسلمين، فأخطر بلدوين وبذا انقذه واشترك معه في معاقبة الخونة. غير أن بلدوين سمع في الشتاء التالي شائعات تقول أن جوسلين تحدث عن خلعه ليحل محله، إذ كانت اقطاعية تل بشير إقطاعية غنية بينما تعاني أراضي الرها بقسوة من الغارات واضطرار السكان إلى الهجرة. وكان الأرمن يحبون جوسلين بينما يحملون الكراهية لبلدوين الآن. ولم يكن في تصرفات جوسلين ما يؤكد رغبة بلدوين التي ربما كانت قائمة على اساس الغيرة. وفي نهاية العام استدعى بلدوين جوسلين بدعوى المرض وضرورة مناقشة مسألة استخلافه. وعندما وصل جوسلين، دون أن تخافه أدنى رغبة، فوجئ باتهامه بالتقاعس عن امداد الرها بما يكفي من الأطعمة من أرضيه، والقي به في غيابة السجن. ولم يطلق سراحه الا بعد أن وعد بالتنازل عن الاقطاعية. وفي بداية العام التالي تقريبا رحل جنوبا إلى القدس حيث أقطعه الملك بلدوين إمارة الجليل^(٣٦).

١١١٢ م : موت تنكريد

شهد شمال سوريا تغيرات أخرى كثيرة في سنة ١١٢١ م. إذ مات كواسيل يوم ٢١ أكتوبر، فسارعت ارملة إلى اغداق تنكريد بالهدايا كي تضمن مساعدته في استخلاف ابنها بالتبني واسيل دغا، فأرسلت ضمن ما أرسلت تاجها المرصع بالجواهر المخصص للأميرة سيشيليا، غير أن تنكريد كان يشتهي الميراث لنفسه^(٣٧). ومن بين امراء الفرنج، كان ريتشارد (أوف برنسيات) قد مات في وقت ما من الربيع^(٣٨)، ومات برتراند كونت طرابلس في يناير أو فبراير، ولم يكن ابن برتراند الصغير وولي العهد (بونز) يشارك أباه حبه للبيزنطيين ولا كراهته لتنكريد، وربما كان مجلسه يعتقد

(٣٥) Matthew of Edessa, ccix, pp.280-1.

(٣٦) William of Tyre, xi, 22, pp.489-92; Matthew of Edessa, ccviii, p.280, ماثيو الأروفي إلى وجود مؤامرة ضد الفرنج أثناء حصار مودود؛ Ibn Chron. Anon. Syr., p.86; al-Qalanisi, op. cit. p.133

(٣٧) Matthew of Edessa, ccx, pp.281-2

(٣٨) Ibn al-Qalanisi, p. 127 يقول إن نبأ وفاة برتراند وصل دمشق يوم ٣ فبراير.

أن حسن نوابا تنكريد ضرورية كي يوطد الكونت الشاب مكانته ، ومن ثم جرت مصالحة بين بلاطي طرابلس وانطاكية مما ضخم من نفوذ تنكريد^(٣٩) . وتأكدت سيادة تنكريد ، إذ بات جوسلين مخزيا ، وهذا كونت طرابلس صديقه ، ولقى أمير الأرمن العظيم حتفه ، فراح يعد العدة لحملة يقهر بها كواسيل ويضم اراضيه ، لولا أن سقط مريضا فجأة . وترددت الهمسات حتما عن السم ، على أن الراجح هو مرض التيفود . وإذ أيقن من عدم شفائه من مرضه ، سمي ابن اخيه روجر (أوف ساليرنو) ، وهو ابن روجر (أوف برنسبات) ، ورثا له . على أنه أجبر روجر على أن يقسم على تسليم السلطة لابن بوهمند الصغير لو جاء الصبي إلى الشرق ، وفي ذات الوقت طلب من بونز أن يتزوج من أرملته الفرنسية التي لم يين بها - سيشيليا الفرنسية . ومات يوم ٢١ ديسمبر عام ١١١٢م ولم يجاوز السادسة والثلاثين^(٤٠) .

وليست شخصية تنكريد ساطعة بوضوح بين طيات ضباب التاريخ . كان بالغ النشاط والقدرة ، وكان دبلوماسيا حصيفا ، وجنديا بارزا ، وكان له حكمة تتزايد كلما تقدم به العمر . لكنه كان يفتقر إلى السحر الذي كان يحيط بخاله بوهمند . ولا يبدو أنه كان محبوبا بين رجاله ، بخلاف كاتب سيرته المتملق - رادولف (أوف كاين) . وكان رجلا صعبا ، دائم الاهتمام بنفسه ، متجردا من المبادئ الخلقية . وكان منضبطا مع بوهمند ، ومع ذلك تصرف حياله بالغدر ، كما كان غادرا مع رفيقه بلدوين كونت الرها . ولولا تدخل الملك بلدوين ، الذي لا يقل عنه عنادا وإنما يفوقه في سعة الأفق ، لتسببت طموحاته في أن يمضي إلى غاية المدى في تحطيم فرنج الشرق ، إذ كان يتطلع إلى ترسيخ إمارة انطاكية وتضخيمها ، وقد أصاب في ذلك نجاحا بالغاء ، ولولاه لتداعى ما أسسه بوهمند . وما تاريخ أمراء انطاكية الطويل إلا ثمرة نشاطه . ولم يكن من بين جميع أمراء الحملة الصليبية الأولى سوى الملك بلدوين ، وهو المغامر المفلس كشأنه ، الذي تركت حياته أثرها هناك . ومع ذلك ، وبينما كان محمولا ليدفن في رواق كاتدرائية القديس بطرس ، لم يجد المؤرخون ما يؤرخونه من مشاهد الحزن عليه سوى القليل . وكان المؤرخ الوحيد الذي كتب عنه بحرارة وتفجع لموته هو ماثيو الأورفي الأرميني Matthew of Edessa^(٤١) .

(٣٩) يبدو ان (بونز) قد التحق لبعض الوقت بعائلة تنكريد ، وتلقى منه لقب فروسيته.

(٤٠) Fulcher of Charters, ii, xlvii, i, pp. 562-3 (12 December); Albert of Aix, xii, 8, p.693 (about Advent);

(٤١) Matthew of Edessa, loc. cit. وصفه بأنه "أعظم المخلصين أجمعين".

وتحقق الوفاق بين الفرنج بتولى روجر إمارة انطاكية - وقد اتخذ لنفسه لقب الإمارة على الرغم من اعترافه بحق ابن بوهمند في المطالبة بها. وتزوج من سيشيليا اخت بلدوين كونت الرها^(٤٢) وبرغم ما اشتهر به من انه زوج غير مخلص ، كان دائما على علاقة طيبة بأخى زوجته . وأصبحت اخته ، مارياء ، الزوجة الثانية لجوسلين (أوف كورتناي)^(٤٣) وتزوج بونز أمير طرابس من أرملة تنكريد ، سيشيليا الفرنسية ، نزولا على رغبة تنكريد ، وغدا صديقا دائما لروجر^(٤٤) ، ووجد بين الامراء الثلاثة اتفاقهم على اعتبار الملك بلدوين سيدهم الأعلى . ونتيجة لهذا التضامن النادر الحدوث ، وتجدد النزاعات فيما بين المسلمين في الوقت ذاته ، ارتفعت السيادة الفرنجية في شمال سوريا إلى اقصى ذروتها.

١١١٣م : موت مودود ورضوان

وشرع الملك بلدوين عام ١١١٣م في حملة ضد طغتكين صاحب دمشق الذي أفلح أخيرا في الحصول على مساعدة مودود وأباز الأرتقى . واستدرج الحلفاء المسلمون الملك بلدوين إلى الأراضي الدمشقية حتى حصر الصنبرة أعلى نهر الأردن . ونسى الملك بلدوين هذه المرة ما اعتاد عليه من توخي حانت الحذر ، فلحقته هزيمة منكرة^(٤٥) ، فاستنجد بالأميرين بونز وروجر لمساعدته . ولولا وصولهما مع جميع فرسانهما لما استطاع الملك أن ينجو بنفسه . وتقدم المسلمون حتى وصلوا إلى جوار طبرية ، لكنهم لم يغامروا بمواجهة الجيش الفرنجي كله . وبعد اسابيع قليلة من التردد عاد مودود

(٤٢) William of Tyre, xi, 9, p. 523 ، يطلق على روجر زوج اخت بلدوين ، وكذلك يفعل Walter the Chancellor, ii, 16, p. 131. ويرد اسم سيشيليا في ميثاق عام ١١٢٦م (Rhich, Regesta, Additamenta, p. 9) ، ويعطى Orderic Vitalis, x, 23, iv, p. 158 لروجر زوجة تركية اسمها ميلاز، وهي ابنة أمير الدانشمند التي - بناء على روايته - ضمنت اطلاق سراح بوهمند . انظر اعلاه.

(٤٣) لم تكن مارياء لتعرف لولا شجار نشأ لاحقا بسبب بائنتها. انظر ادناه الصفحتين ١٦١ و ١٨١ . ويرد في تاريخ مجهول Chron. Anon. Syr. أن جوسلين تزوجها عام ١١٢١م (ص ٨٩) ، غير انه من الواضح ان الزواج تم ترتيبه في حياة روجر . واعتبرت ابنتهما (ستيفاني) عجوزا في عام ١١٦١م - انظر ادناه ص ٣٦٢ ، الملاحظة ١

(٤٤) استنادا الى رواية (Albert of Aix (xii, 19, p. 701) ، لم يتم الزواج حتى عام ١١١٥م . على انه يبدو أن ابن بونز (ريموند الثاني) كان يبلغ من العمر ٢٢ سنة عام ١١٣٦م.

(٤٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 132-6.

وطفتكن إلى دمشق . وهناك ، وفي آخر يوم من شهر سبتمبر ، وبينما كان مودود يخطو إلى داخل المسجد الكبير مع مضيفه ، انقض عليه أحد الحشاشين وطعنه في مقتل . وفي الحال قتل طفتكن القاتل ليبرئ نفسه من الجريمة . ورغم أن الرأي العام اعتبره مذنباً ، إلا أنه التمس له العذر تأسيساً على أن مودود كانت له مخططاته حيال دمشق^(٤٦) .

وتحرر الفرنج بموت مودود من عدو مرعب . وبعد مرور شهرين ، مات رضوان صاحب حلب في ١٠ يناير ١١١٣م^(٤٧) ، وكانت علاقاته الباردة مع رفاقه المسلمين ذات عون كبير في توطيد الفرنج في سوريا ، على أن الإسلام لم يستفد كثيراً بغياية عن الساحة ، إذ خلفه ابنه ألب ارسلان الذي كان صبياً في السادسة عشرة من عمره ، وكان ضعيفاً فاسداً به قسوة وخاضعاً خضوعاً تاماً لخصميه المفضل لؤلؤ . أما الحشاشون ، الذين كانوا في حماية رضوان قبل موته ، فقد عاملهم الحكم الجديد بجفاء ، بناءً على الأوامر الصريحة من السلطان محمد . الذي أرسل مبعوثه ابن بديع الفارسي وأجبر ألب ارسلان على إصدار أمر بقتل أبي طاهر وغيره من قادة الطائفة . وانطلق سكان حلب النافرين من الحشاشين منذ وقت طويل يقتلون من تناله أيديهم . وجاهدت الطائفة تدافع عن نفسها ، فحاولت الاستيلاء على القلعة بينما كان رضوان يحتضر ، لكن المحاولة باءت بالفشل^(٤٨) . ثم حاول أفراد الطائفة مباغتة قلعة شيزر أثناء أن كانت أسيرة الأمير تشاهد احتفال المسيحيين بعيد الفصح ، غير أن أهل المدينة شاركوا الأمير في مقاومتهم ، وكان نجاحهم الوحيد هو الاستيلاء على حصن قلعة القريب من بالس حيث يقترب طريق حلب بغداد من الفرات ، وبخلاف ذلك تحولوا إلى السرية أو لاذوا بحماية الفرنج ، غير أنهم كانوا لا يزالون اقرباء وبدأوا يحولون انتباههم إلى لبنان^(٤٩) ولم يدم عهد ألب ارسلان طويلاً . وعندما ذهب في زيارة ودية إلى دمشق استقبله طفتكن استقبال الملوك . على أنه حدث في سبتمبر ١١١٤م أن ارتاع الخصي لؤلؤ من تصرفاته الوحشية حتى أنه كان يخشى على حياته ، فتدبر قتله في فراشه ونصب مكانه على العرش أخاه سلطان شاه البالغ من العمر ست سنوات . وخلال السنوات القليلة التي

(٤٦) Ibid. pp. 137-42

(٤٧) Ibid, p. 144; Kemal ad-Din, p. 602.

(٤٨) Ibn al-Qalanisi, pp.145-6; Kemal ad-Din, pp.603-4. See Cahen, op. cit. pp. 267-8.

(٤٩) (Ibn al-Qalanisi, pp. 146-8; Usama, ed. Hitti, pp.146,153) ولم يذكر أسامة تاريخاً للمحاولة في شيزر.

ثلث كان لؤلؤ وضابطه شمس الخواص يسيطران على القلعة ويتحكمان في جيش حلب، وإن كان وجهاء المدينة هم الذين يمسكون بزمام السلطة الحقيقية، ولم يكن لؤلؤ ليحرز على اهمال رغباتهم. ونتيجة لغياب أمير قوى عن حلب، فضلا عن ضالة جيشها، باتت عاجزة لا تقدر على أكثر من الدفاع عن أسوارها. وبرغم إبعاد الحشاشين، اعتبر حيرانها أن هناك ميل شيعية خطيرة لدى السلطة الجديدة بسبب النفوذ الفارسي في المدينة، مما أوجد لدى لؤلؤ الاستعداد لمواصلة السير على الدرب الذي سار عليه رضوان باقامة صداقة خانعة مع فرنج انطاكية^(٥٠).

وفي أعقاب موت مردود أمر السلطان بأن يوكل حكم الموصل إلى مثله لدى بلاط الخليفة، أفسنقر البرسقي، وهو جندي تركي ابتسم له الحظ كسلفه. وكان من بين واجباته إدارة العمليات ضد الفرنج. ففي شهر مايو ١١١٤م قاد جيشا قوامه خمسة عشر ألف رجل لمهاجمة الرها، وبصحبه ابن السلطان مسعود ثميرك أمير سنقار، وتركى صغير يدعى عماد الدين زنكى، وهو ابن أفسنقر الأسبق الذى كان حاكما لحلب وحماء فى السنوات السابقة على الحملة الصليبية. واستدعى ايلغازى حاكم مردين للانضمام للحملة، لكنه رفض، فكانت الخطوة الاولى هى السير إلى مردين الأمر الذى اضطر ايلغازى إلى الرضوخ فأرسل ابنه أياز على رأس كتيبة من جنود التركمان. وحاصر المسلمون الرها طوال شهرين، غير أن حاميتها كانت قريبة ولدى المدينة الكثير من المون، بينما لم يكن الريف المنهوب صالحا لإطعام القوات المحاصرة، ومن ثم اضطر البرسقي إلى رفع الحصار واكتفى بنهب الريف إلى أن أتاح له الأرمن مجالا جديدا للعمل^(٥١).

١١١٦م : سقوط واسيل دغا

بعد مؤامرة الأرمن عام ١١١٢م لتسليم الرها لمودود، حُبكت مؤامرة ثانية وقت أن كان غزو مودود للأراضي الفرنجية وشيكا، وبينما كان بلدوين فى تل بشير يتسلم اقطاعية جوسلين. واكتشفت المؤامرة فى الوقت المناسب. وفي صرامة طرد بلدوين السكان الأرمن جميعا من عاصمته فانتقلوا إلى سميساط. وفى بدايات سنة ١١١٤م،

(٥٠) Ibn al-Qalanisi, pp. 148-9; Kemal ad-Din, pp. 605-6.

(٥١) Matthew of Edessa, ccxii, pp. 282-3; ccxvi, p. 287; Chron. Anon. Syr. p. 86; Ibn al-Athir, pp. 292-3.

وبعد أن لقنهم الدرس سمح لهم بالعودة ، غير أن البعض كان قد ذهب إلى أراضي واسيل دغا - وريث كواسيل - الذى استشعر الخطر بطريقة ما من محاولات فرنجية تستهدف ميراثه . والآن قام هو وأمه التى تبنته بدعوة البرسقى لتخليصهما من الفرنج ، فأرسل البرسقى أحد ضباطه - سنقر الطويل - للتفاوض مع واسيل دغا فى كيسوم . وسمع الفرنج بذلك ، وهاجموا سنقر والأرمن ، ولكن دون جدوى . على أنه قبل أن ينتهز المسلمون هذا التحالف الجديد دب خلاف بين البرسقى وأياز الأرتقى فسجن الأول الثانى . وما أن سمع ايلغازى - وهو أبو أياز - بذلك حتى استنفر عشيرته وسحب جنوده التركمان وهاجم البرسقى وهزمه شر هزيمة وأجبره على الانسحاب إلى الموصل . ومرة أخرى تنتهى الحملة الاسلامية المضادة للصليبية بالإخفاق التام^(٥٢) .

ودفع الأرمن الثمن . إذ تقدم الفرنج لمعاقبة واسيل دغا ، ولم يتمكنوا من اقتحام عاصمته المنيعه رعبان . على انه رأى من الحكمة التحالف مع الأمير الأرمينى توروس الذى دعاه إلى الحضور لمناقشة زواج تحالف ، لكنه اعتقله وسجنه وباعه لبلدوين كونت الرها . ولم يطلق سراح واسيل دغا إلا بعد وعد بالتخلي عن أراضيه كلها لبلدوين كونت الرها ، وسمح له بالذهاب إلى القسطنطينية للتقاعد . وبعد أن ضم بلدوين رعبان وكيسوم سنة ١١١٦م قرر إخضاع الامارات الأرمينية المتبقية فى وادى الفرات . وبدأ فى سنة ١١١٧م بمخلع أبى الغريب حاكم البيرة ، وهو الذى سبق أن ساعده بلدوين أبان الحملة الصليبية الاولى فى تنصيب نفسه ، وأعطى مدينة البيرة لابن خالته - واليران أوف لى بويسيه - الذى تزوج ابنة أبى الغريب . وبعد ذلك أغار على باحرات - شقيق واسيل فازيل - فى لورديته الصغيرة فى خوروس الواقعة غربى الفرات ، وهو العدو السابق والصديق اللاحق لبلدوين الأول . وأخيرا اكتسح أراضي حليف آخر من حلفاء بلدوين ، هو الأمير قنسطنطين الجارجارى ، الذى اعتقله وسجنه فى سميساط حيث وقع فيها زلزال أهلك هذه الضحية التعسة . وسرعان ما وجد الأمير الأرمينى نفسه العاهل الوحيد الأرمينى المستقل الباقى ، مما جعله يشعر بالرضا . على أن الشعب الأرمينى - باستثناء الروبيين - كان قد فقد الثقة فى الفرنج^(٥٣) .

وكان تقلص الخطر من الشرق أحد العوامل التى ساعدت بلدوين كونت الرها فى

(٥٢) -Matthew of Edessa, ccxii, pp. 282-4; Michael the Syrian, iii, pp. 216-17; Ibn al Athir, pp. 292-3.

(٥٣) Matthew of Edessa, ccxiii-ccxiv, pp. 293-5. Chron. Anon. Syr. p. 86. شقيقا لهيو (أوف لى بوايسيه) الذى كانت أمه Alice خالة بلدوين الثانى وابنة عم تنكريد.

غزواته الأرمينية . وكان العام الذى سبقه زاخرا بالأحداث المثيرة ، ففى نوفمبر ١١١٤م حدث زلزال عنيف تسبب فى خراب الأراضى الفرنجية من انطاكية والمصيصة إلى مرعش والرها . وعلى أثر ما أشيع من أن السلطان محمد يعد العدة لحملة جديدة ، سارع روجر امير انطاكية فى جولة تفقد فيها حصونة الرئيسية^(٥٤).

١١١٥م : حملة برسق بن برسق

كان السلطان محمد آخر السلاطين السلاجقة العظام . فقد تسلم من اخيه بركياروق دولة متفسخة ، لكنه استطاع فرض النظام فى العراق وايران ، والسيطرة على العرب المتمردين فى الصحراء الشرقية عام ١١٠٨م ، وتمكن من كبح جماح الحشاشين ، وانصاع له الخليفة المستظهر الذى كان كسولا فى قصره يكتب اشعار الحب . غير أن محاولاته فى تنظيم الحملات لطرد الفرنج من سوريا باءت بالفشل الواحدة تلو الأخرى . وأيقن من أن النجاح لا يتأتى إلا بفرض سلطته على الأمراء المسلمين هناك الذين تسببت غيرتهم وعصيانهم فى خيبة مساعيه . فبدأ بارسال ابنه مسعود لمباشرة حكومة الموصل ومن ثم ضمن ولائها . وفى فبراير ١١١٥م سیر جيشا كبيرا باتجاه الغرب يقوده أمير همدان ، برسق بن برسق ، وفى صحبته أمير الموصل السابق ، جيوش بك ، وكذلك أمير سنجر ، تيمرك ، لمساعدته.

وشعر امراء سوريا المسلمون بالخطر كالفرنج . ولم يكن باستطاعة السلطان محمد أن يعتمد على احد فى سوريا سوى بنى منقذ فى شيزر وابن قراجا أمير حمص . وبانتشار انباء الحملة سارع ايلغازى الأرتقى إلى دمشق لتأكيد تحالفه مع طغتكين ، غير انه فى طريق عودته وقع فى كمين اعده له أمير حمص واعتقله . ونتيجة لتهديد من طغتكين ، أطلق امير حمص سراح ايلغازى شريطة احتجاز ابنه مكانه . وتمكن ايلغازى من العودة إلى مردين وجمع جنوده ثم اتجه غربا مرة أخرى كى ينضم إلى طغتكين ووعد الخصى لؤلؤ بمساعدة الجانبين كليهما . غير انه رأى أن انتصار السلطان ليس فى صالحه ، فانضم إلى طغتكين وايلغازى . وفى تلك الأثناء جمع روجر امير انطاكية قواته واتخذ لنفسه موقعا بجانب الجسر الحديدى عبر نهر العاصى ، حيث عقد معاهدة مع طغتكين وحلفائه - ولا نعرف بمبادرة من - وطلب انضمام جيشهم إلى جيشه امام اسوار اقامية

(٥٤) Fulcher of Charters, II,iii,1-5,pp.578-80; Water the Chancellor, I,pp.83-4; Matthew of Edessa, ccxvii, pp.287-9; Ibn al-Qalanisi, p. 149; Kemal ad-Din, p. 607.

الذى يعد مكانا رائعا لمراقبة تحركات برسق عندما يضطر إلى عبور نهر الفرات والتقدم نحو اصدقائه فى شيزر . وقدم الفرنج نحو ألفى فارس وراجل ، وقدم حلفاؤهم المسلمون نحو خمسة آلاف .

ولم يلق برسق أية مقاومة أثناء مروره بجيشه الضخم عبر الجزيرة . وكان فى مأموله اتخاذ حلب مقرا لقيادته ، لكنه عندما علم بانضمام لؤلؤ إلى اعدائه ، وعلى رأسهم طغتكين ، تحول جنوبا لمهاجمة هذا الأخير . وتمكن بمساعدة أمير حمص تمكن من شن هجوم مفاجئ على حماء التى كانت تابعة لطغتكين وفيها الكثير من امتعة الجيش ، وسقطت المدينة وانتهت مما اثار حق المسلمين المحليين ، ثم إنه اتجه بعد ذلك إلى حصن كفرطاب الفرنجى . وأراد روجر القيام بهجوم مضلل ، غير أن طغتكين أقنعه بخطورة ما يريده ، وبدلا من ذلك طلب الحلفاء مساعدة الملك بلدوين وبونز أمير طرابلس فأسرعا شمالا ، الأول يقود خمسمائة فارس وألف راجل ومع الثانى مائتى فارس والفى راجل ، ودخلا المعسكر فى أفاميا على نفير الأبراق . أما برسق ، وهو الآن فى قاعدته فى شيزر ، فقد أملت عليه الحكمة الانسحاب نحو الجزيرة . ولقد كان لخدعته فعلها . إذ اعتبر بلدوين وبونز أن سحب الخطر قد انقشعت وعادا أدراجهما ، وانفض جيش الحلفاء . واندفع برسق فجأة عائدا إلى كفرطاب واستولى على القلعة بعد مقاومة ضئيلة وسلمها إلى بنى منقذ . وعلى الفور كاتبه لؤلؤ من حلب - إما بوازع الخيانة أو بدافع الجبن - معتذرا عما سبق من خطاياهم وطالبا ارسال كتيبة لاحتلال حلب . فأرسل برسق اليه جيوش بك على رأس فيلقه ، وبذا ضعفت قوته . ولم يكن روجر قد سرح جيشه ، وليس بإمكانه انتظار وصول العون من الملك بلدوين ولا من بونز ولا حتى من طغتكين ، وبعد أن استنجد ببلدوين كونت الرها ، رجا البطريق برنارد أن يبارك جنوده وأن يسمح بارسال قطعة من الصليب الحقيقى يأخذونها معهم ، ثم غادر انطاكية يوم ١٢ سبتمبر وسار جنوبا أعلى وادى العاصى إلى شاسيل روج ، بينما سار برسق شمال بطول خط مواز فى داخل البلاد . ولم يعلم أيّ من الجيشين بموقع الآخر ، إلى أن اندفع داخل المعسكر فى (شاسيل روج) فارس يدعى ثيودور برنفيل كان فى حملة استكشافيه ، وقال إنه شاهد جيش السلطان يتحرك فى الغابه باتجاه تل دانيت بالقرب من مدينة سرميد . وفى صباح الرابع عشر من سبتمبر زحف الجيش الفرنجى فوق منطقة جبلية معترضة ، وانقض على برسق بينما كان الجنود يسرون فى غير عناية وامامهم الحيوانات حاملة الأمتعة ، وكانت بعض الكنائس قد توقفت بالفعل لنصب الخيام للاستراحة فزة الظهيرة ، بينما كان بعض أمراء الجيش قد ذهبوا إلى المزارع

المجاورة طلبا للمون ، وذهب البعض الآخر لاحتلال بزاعه . وحينما بدأت المعركة كان برسق وحيدا غاب عنه أكفا قراده.

١١١٥م : انتصار الفرنج فى تل دانيت

ولم يكن هجوم الفرنج متوقعا قط . إذ ظهوروا فجأة من بين الأشجار واندفعوا بسرعة نحو المعسكر الذى لم يكن مستعدا تماما ، وسرعان ما عمت الفوضى الجيش الاسلامى كله ، وتعذر على برسق لم شمل رجاله ، وكاد هو نفسه أن يقع فى الأسر ، لكنه تمكن من التفهقر مع بضع مئات من الفرسان إلى تل ناتى بالقرب من تل دانيت حيث دحر الأعداء لفترة ، وبذل غاية جهده كى يسقط قتيلًا بدلا من أن يواجه عار الهزيمة ، غير أن حراسه أقنعوه فى نهاية الأمر بعدم جدوى مواصلة القتال فانسحب باتجاه الشرق . وكان تميراك ، أمير سنجار ، أكثر نجاحا بادئ الأمر ودحر ميمنة الفرنج ، لكن جوى فرسنل ، أمير هارنس ، أحضر جنودا آخرين وتمكن من أن يحيط برجال سنجار ، ولم يسلم من الفرسان سوى أسرعهم . وبحلول المساء كانت بقايا الجيش الاسلامى تسرع فى غير نظام نحو الجزيرة^(٥٥).

كان انتصار الفرنج فى تل دانيت نهاية محاولات سلاطين ايران السلاجقة لاستعادة سوريا. ومات برسق بعد المعركة بأشهر قليلة من فرط الخزي والمهانة ، ولم يكن السلطان محمد على استعداد للمخاطرة بحملة جديدة . والآن ، أصبح الخطر الوحيد الذى يتهدد الفرنج من الشرق هو الأمراء شبه المستقلين الذين كانوا غير متحدين وفى حالة من الإحباط . وغدت مكانة روجر أمير انطاكية فى أعلى درجاتها ، وسرعان ما استرد رجاله كفرطاب التى كان برسق قد سلمها لبنى منقذ^(٥٦) . وشعر أمير حلب ودمشق بالخطر الحقيقى ، فسارع الأخير ، طغتكين ، إلى عقد سلام مع السلطان محمد الذى غفر له لكنه لم يقدم له معونة مادية^(٥٧) . وفى حلب قبع الخصي لؤلؤ يرقب

(٥٥) Fulcher of Charters, II, liv, 1-6, pp.586-90; Albert of Aix, XII, 19, p. 701; Walter the Chancellor, I, 6-7, pp.92-6 (the fullest account); al-Azimi, p.509; Ibn Hamdun in Ibn al-Athir, pp.295-8; Usama, ed. Hitti, pp.102-6; Michael the Syrian, III, p. 217; Chron. Anon. Syr.p.86.

(٥٦) Usama, ed. Hitti, p. 106.

(٥٧) Ibn Hamdun, الذى يقول ان المبادأة جاءت من جانب السلطان, Ibn al-Qalanisi, pp. 151-2 loc. cit.

الأحداث وهو فاقد الحيلة ، بينما عزز الفرنج مراكزهم من حوله ، فسعى إلى عقد تحالف أقوى مع طغتكين، غير انه كان سئ السمعة على اجماله . وفي شهر مايو ١١١٧م اغتاله أتراك من حاميته وخلفه زميل خصي كذلك ، هو الأرميني المرتد ياروقتاش ، الذي بادر بطلب مساندة الفرنج ، مانحا روجر حصن القبة الواقع على الطريق بين حلب ودمشق الذي يسلكه الحجاج إلى مكة ، كما منحه حق جباية رسوم الحج^(٥٨) . ولم تنفعه تلك التنازلات. إذ بدأ قتلة لولو يتصرفون باسم الإبن الأصغر لرضوان ، سلطانشاه ، الذي لم يعترف به ، فالتمس ياروقتاش العون من ايلغازي الأرمني . بيد انه عندما وصل جنود ايلغازي إلى حلب وجدوا أن ياروقتاش قد سقط وأن وزير سلطانشاه ، ابن الملحي الدمشقي ، يتولى ادارة الحكومة ، فانسحب ايلغازي تاركا ابنه ، كزل ثمرتاش ، ممثلا له في حلب بعد أن استولى على قلعة بالس على الفرات ، وقد مُنحت له نظير مساعدته فيما لو حاول البرسقي - الذي يحكم الآن في الرحبة - الاستيلاء على حلب التي زعم أن السلطان عهد بها اليه . على أن ابن الملحي أيقن من أن ايلغازي ليس هو الخليف الذي يعتمد عليه تماما ، فقام بتسليم حلب ، وكذلك كزل ابن ايلغازي ، إلى أمير حمص - خيرخان - وأعد العدة لاستعادة بالس بمساعدة الفرنج . بيد أن تحالف ايلغازي مع طغتكين ثبتت حديثه . فبينما سار طغتكين إلى حمص وأجبر خيرخان على التقاعد ، حرر ايلغازي بالس ودخل حلب في صيف ١١١٨م . وكان ابن الملحي قد سبق وأن استبدل بخصي أسود يدعى ابن قراجا ، فاعتقله ايلغازي وحبسه ومعه ابن الملحي والأمير سلطانشاه^(٥٩) ، وأثناء هذه التحركات والمكائد ، كانت الأطراف جميعا كل بدوره تسعى إلى تدخل الفرنج. ورغم أن روجر لم يكن قط سيدا لحلب نفسها، إلا انه استطاع احتلال الأراضى الواقعة شمالها، فاحتل عزاز سنة ١١١٨م ، وبزاعة في أوائل سنة ١١١٩م ، وبذا عزل حلب عن الفرات في الشرق^(٦٠).

وفي ذات الوقت على وجه التقريب، كان روجر يعزز حدوده الجنوبية، فاستولى على قلعة المرقب الواقعة على تل مرتفع يشرف على البحر من وراء بلياس (بانياس - البلانة)^(٦١).

(٥٨) Ibn al-Qalanisi, pp. 155-6.

(٥٩) Ibn al-Qalanisi, *loc. cit.* Kemal ad-Din, pp. 610-15; Ibn al-Athir, pp. 308-9.

(٦٠) Matthew of Edessa, ccxxvii, pp. 297-8; Kemal ad-Din, pp. 614-15.

(٦١) للاطلاع على المصادر العربية ، انظر المناقشة في 16. Cahen, op. cit. p. 279 n. ويبدو ان بونز أمير

وهكذا ، وبنهاية سنة ١١١٨ م ، أصبح هناك توازن فى شمال سوريا . إذ غدا الفرنج جانبا مقبولا فى نط البلاد . وكانوا لا يزالون بعيدين عن الكثرة العددية ، غير أن تسليحهم كان جيدا ، وراحوا يشيدون القلاع ويتعلمون كيف يكيفون انفسهم مع نط الحياة المحلى . فضلا عن أنهم كانوا آنذاك متحديين ، وكان روجر أمير انطاكية أعظم امراء المسيحيين فى الشمال إلى حد بعيد ، ولم يسبب تعاظمه امتعاضا من جانب بلدوين كونت الرها ولا من بونز أمير طرابلس ، ولم يحاول من جانبه أن يتسيد عليهما وإنما شاركهما الاعتراف بسيادة ملك القدس . علي أن الأمراء المسلمين كانوا أقوى نفيرا ، لكن الفرقة سادتهم والغيرة غلبتهم ، ولم يجنبهم الفوضى سوى التحالف بين طغتكين والأراقة ، ومن ثمّ كان التوازن يميل بصورة طفيفة لصالح الفرنج . ولم تكن هناك قوة خارجية فى وضع يمكنها من الإخلال بهذا التوازن . إذ ليس بمقدور الملك بلدوين التدخل دائما فى الشمال خشية تهديد الفاطميين فى مؤخرته ، كما أن سلطان ايران السلجوقى كفّ بعد كارثة قل دانيت عن أية محاولة فعلية يؤكد بها سلطته فى سوريا . كما كانت القوتان الرئيسيتان فى الأناضول ، بيزنطة وسلاجقة الروم ، فى وضع متوازن وقتئذ .

١١١٨ م : صدع فى الكنيسة يعقوبية

بل كان المسيحيون الوطنيون فى حالة توازن كذلك . ذلك أن الرعايا الأرمن فى الرها وأنطاكية كانوا بعيدين عن الأوهام وكان بهم غدر ، وكانت الدولة الأرمينية الوحيدة الحرة الباقية ، وهى إمارة الروبين فى جبال طوروس ، على استعداد للتنسيق مع الفرنج . فقد سبق أن أحضر أميرها (ليو) كتيبة لمساعدة روجر أمير انطاكية فى حصار عزاز^(٦٢) ، وحدث صدع فى الكنيسة يعقوبية أدى إلى انقسامها ، وفى سنة ١١١٨ م تقريبا تشاجر رئيسها بطريق أناناسيوس ، الذى كان مقيما فى انطاكية ، مع مطرانه فى الرها ، بار صابونى ، حول ملكية بعض الكتب المقدسة ، وأصدر قرارا بحرمانه من المهام الكنسية . وإثارة منه للمشاكل ، لجأ المطران بار صابونى إلى بطريق

طرابلس ساعد روجر بعد خلاف طفيف حول بائنة زوجة بونز ، وهى أرملة تنكريد ، سيشيليا ، التى كانت تطالب بمنحها جبلة ، غير أنها رضيت أخيرا بشاسيل روج وأرذغان (William of Tyre, xiv, 5, p. 612).

(٦٢) Matthew of Edessa, loc. cit. وعن تاريخ الروبين انظر. pp. 168 ff. Tournebize, op.cit.

انطاكية اللاتينية ، برنار ، الذى استدعى أثناسيوس لمناقشة المسألة فى مجلس كنسى يعقد فى الكلدانية اللاتينية . فجاء أثناسيوس معترضا . ونتيجة لعجز المترجم فهم برنار أن الخلاف يدور حول دَين خاص بين الأسقفين ، فأصدر حكمه على أثناسيوس متهما إياه بارتكابه السيمونية^(٦٣) ، لأنه لم يغفر للمدين . فاحتاج أثناسيوس لهذا الحكم ولم يعترف بصحته ولم يفهم معناه ، وأعرب عن احتجاجه بالفاظ فظة ، فما كان من البطريق برنار إلا أن أمر بجلده . وكان هناك صديق أرثوذكسى للبطريق أثناسيوس ، هو الفيلسوف عبد المسيح ، الذى أشار باللجوء إلى روحر أمير انطاكية ، الذى كان بعيدا آنذاك ، للإنتصاف . وغضب روحر على البطريق برنار ووبخه لتدخله فى امر لا يخصه ، وسمح لأثناسيوس بالرحيل من انطاكية عائدا إلى وطنه الأول ، دير مار بارسوما ، حيث أصبح أثناسيوس فى اراضى الأراتقة الذين منحوه حمايتهم . وأصدر حكما على بار صابون بالطرد من الكنسى ، وأخضع الكنيسة اليعقوبية فى الرها تحت حكم الحرمان الكنسى ، مما دفع بالكثير من اليعاقبة واهالى الرها ، وقد حرموا من ممارسة طقوسهم الكنسية ، إلى تغيير مذهبهم والتحول إلى المذهب اللاتينى . وأطاع البعض البطريق . ولم يتحقق السلام طوال اعوام كثيرة ، وحتى بعد موت اثناسيوس^(٦٤) .

وكانت المجامع الأرثوذكسية فى انطاكية والرها مستاءة من الحكم اللاتينى ، على أنه لم يكن هناك ما يغويها مطلقا للتآمر مع المسلمين ، غير خلاف الأرمن واليعاقبة ، وانما كانت تنهد فى حسرة تلهفا على عودة بيزنطة . على أن ما كان يوحد بين الأرمن واليعاقبة من اشتزاز لإزاء الأرثوذكس كان بمثابة كابح لقوتهم .

١١١١م - ١١١٣م : مفاوضات بيزنطة مع الغرب

ومع ذلك ، وبرغم خشية فرنج الرها - بحق - من امكان ظهور خطر جديد فى الشرق ، ظلت بيزنطة العدو الرئيسى فى نظر فرنج انطاكية . ذلك أن الامبراطور الكسيوس لم ينس قط مطالبته بأنطاكية . وكان على استعداد للإعتراف بمملكة لاتينية فى القدس ، فقد اظهر حسن نواياه ببذل فدية سخية لإطلاق أسرى الفرنج لدى

(٦٣) (المترجم) السيمونية : شراء أو بيع المناصب الكهنوتية.

(٦٤) Michael the Syrian, III, pp. 193-4, 207-10.

الفاطميين من الرحلة عام ١١٠٢ م ، وبوجود سفنه فى حصار عكا عام ١١١١ م الذى لم يكن فعالا . أما الملك بلدوين فكان من ناحيته دائم الكياسة والانضباط فى تصرفه حيال الامبراطور ، غير انه رفض ممارسة اى ضغط على تنكريد لتنفيذ بنود معاهدة ديفول^(٦٥) . ومنذ ايام الحملة الصليبية عام ١١٠١ م ، والعلاقات الفرنجية البيزنطية تلفها غيوم الريبة ، بينما لم تغفر القسطنطينية مطلقا تدخل البابا باسكال نيابة عن بوهمند عام ١١٠٦ م . وكان الكسيوس سياسيا لثين العريكة بصورة فائقة بحيث لم يدع للإستياء مجالا فى ساسته . وكان خلال عامى ١١١١ م و ١١١٢ م يجرى سلسلة من المفاوضات مع البابا ، من خلال وسيطه رئيس دير مونت كاسينو . واستمال السلطات الرومانية بأن وعدا بتسوية الخلافات المعلقة بين الكنيستين الرومانية واليونانية ، وذلك لكى تقدم له أو لابنه تاج الغرب الامبراطورى ، واقترح أن يذهب بنفسه لزيارة روما . وكان البابا باسكال يعانى آنذاك من مصاعب حسيمة مع الإمبراطور هنرى الخامس ، ولذا كان على استعداد لدفع فئمن غال لقاء مساندة بيزنطة ، على أن الحروب التركية واعتلال صحة الكسيوس حالت دون المضى فى مشروعه^(٦٦) . وأسفرت المفاوضات عن لاشئ . وفى عام ١١١٣ م ، قام رئيس اساقفة ميلانو ، بطرس كريسلان ، بزيارة القسطنطينية لمناقشة بعض الأمور الكنسية^(٦٧) غير أن جدله اللاهوتى مع اسقف نيقية ، ايوستراسيوس ، لم تساعد على بقاء العلاقات طيبة بين الكنيستين . والراجح أن الكسيوس نفسه لم يأخذ مخططه الايطالى الطموح مأخذا جادا . وانما كانت للصدقة البابوية قيمتها لديه كوسيلة لكبح الطموحات النورماندين ولتعزيز سلطته على اللاتينيين فى الشرق .

وفى ذات الوقت لم يستطع البيزنطيون أن يفعلوا شيئا لاستعادة انطاكية . فقد ظلت معاهدة الإمبراطور مع بوهمند خطابا لا حياة فيه ، ولم يغض عنها تنكريد نظره فحسب ، وانما أضاف إلى اراضيه المزيد مما اغتصبه من البيزنطيين ، وسار روجر على نفس الدرب الذى سار عليه تنكريد . وكان الكسيوس يعلق الآمال على أن يصبح أمراء طرابلس عملاءه فى سوريا ، وقدم أموالا تحفظ فى طرابلس لتمويل المشاريع البيزنطية

(٦٥) Anna Comnena, xiv, ii, 12-13, pp. 152-3.

(٦٦) Chalandon, *op.cit.* pp. 260-3 with full references. انظر

(٦٧) Landolph, in Muratori, Ss. R.I. vol. v, p. 487; Chrysolan's speeches in M.P.L. vol. cxxvii, col. 911-19; Eustratius's speeches in Demetracopoulos, *Bibliotheca Ecclesiastica*, vol. 1, p. 15.

الطرابلسية المشتركة . على انه بموت برتراند ، اختار ابنه بونز التعاون مع الأنطاكيين ، ولذا قام بوتوميتيس ، السفير البيزنطى فوق العادة لدى الدويلات اللاتينية ، بالمطالبة باسترداد تلك الأموال ، لكنه لم يحصل عليها الا بعد أن هدد بقطع المون التى تصل طرابلس من قبرص ، ثم رأى من حصافة رأى إعادة الذهب والجواهر الثمينة إلى بونز لأنها كانت ممنوحة لبرتراند شخصيا ، وفى مقابل ذلك أقسم بونز بمين الولاء للإمبراطور ، وربما كان ذلك هو قسم عدم الإضرار الذى سبق أن أقسمه جده ريموند . واستخدمت بيزنطة الأموال التى استردتها فى شراء الخيول للجيش البيزنطى من دمشق والرها والجزيرة العربية^(٦٨).

١١١٢م - ١١١٥م: حروب سلجوقية ضد بيزنطة

كان من الواضح عدم امكان اغواء بونز كى يعمل ضد انطاكية ، بينما حال النشاط التركى دون تدخل الامبراطور بصورة مباشرة فى سوريا . ومنذ أن مات الملك غازى انوشكين الدانشمندى عام ١١٠٦م ، وقلج أرسلان السلجوقى عام ١١٠٧م ، لم يعد فى الأناضول عاهل تركى عظيم . وكان بإمكان الكسيوس الحفاظ على سلطته شيئا فشيئا فى مناطق الأناضول الغربية وبطول الساحل الجنوبى ، مالم ينصرف انتباهه إلى النورماندين . وأنداك ، حاول الأمير البارز حسن أمير كبادوكيا الإغارة على الأراضى البيزنطية عام ١١١٠م ، وتقدم حتى فيلادلفيا مستهدفا أزمير . وقد عهد الكسيوس مؤخرا إلى إيوستاثيوس فيلر كان ادارة الأراضى الواقعة غربى الأناضول وكلفه بتطهير المقاطعة من الأتراك . فتمكن بقواته القليلة من ملاحقة جيش حسن الذى كان منقسما إلى فرق شتى مغيرة هزمها الراحدة تلو الأخرى ، وتفهمر حسن بسرعة ، فباتت سواحل بحر إيجه آمنة من الغارات . على انه فى نفس ذلك العام ، أطلق سراح ملكشاه - أكبر أبناء قلج أرسلان - من الأسر الفارسى ، فاتخذ من قونية عاصمة له ، وسرعان ما سيطر على أغلب ميراثه بعدما هزم حسن وضم أراضيه . وأخذ العبرة من مصير أبيه فتجنب التورط فى الشرق . لكنه سرعان ما شعر بأن لديه مايكفى من القوة ، فانطلق يستعيد الأراضى التى فقدتها قلج أرسلان فى زمن الحملة الصليبية الأولى . وشرع فى الأشهر الأولى من سنة ١١١٢م فى الإغارة داخل الامبراطورية متجها إلى فيلادلفيا حيث صدّه القائد البيزنطى جابراس ، فتفاوض على هدنة . غير انه أغار مرة

اخرى عام ١١١٣ م ، وسير حملة عاجلة انطلقت خلال بيثينيا ووصلت أسوار نيقية ذاتها ، بينما توغل قائده محمد إلى بومانيوم الأبعد إلى الغرب حيث هزم القائد البيزنطي وأسره ، وأغار قائده الآخر منالوك على أيدوس الواقعة على الدردنيل ذات الإيرادات الكثيرة من الجمارك ، وهاجم ملكشاه نفسه برجاموم واستولى عليها . وانطلق الامبراطور لملاقاة المغيرين ، لكنه أثر الانتظار والامساك بهم في طريق عودتهم محملين بالأسلاب الكثيرة . وانقض عليهم اثناء مرورهم من دوريليوم بالقرب من كورنثيوم وظفر بهم تماما واستعاد كل ما كان بحوزتهم من أسلاب وأسرى . وفي عام ١١١٥ م ترددت أنباء بأن ملكشاه يعد العدة لمعاودة الاغارة ، فأمضى الكسيوس وقتنا طويلا من العام يطوف تلال بيثينيا ، وفي العام التالي ، وبرغم اشتداد مرضه ، قرر أخذ زمام الهجوم بنفسه ، فسار جنوبا باتجاه قونية والتقى بالجيش التركي بالقرب من فيلوميلىوم ، وانتصر مرة اخرى وأجبر ملكشاه على التوقيع على معاهدة سلام تعهد فيها باحترام حدود الامبراطورية التي كانت تسيطر آنذاك على كل الساحل من طرابزون إلى سلوقية في كيليكيا وغرب أنقره الداخلى ، والصحراء المالحة وفيلوميلىوم . وفشلت محاولات ملكشاه فى معاودة الغزو . وبعد أشهر قليلة خلعه أخوه مسعود عن عرشه وقتله بعد أن تحالف مع الدانشمند . غير أن الأتراك ظلوا متحصنين بصورة راسخة فى قلب الأناضول . وباتت بيزنطة عاجزة عن أخذ زمام الهجوم فى سوريا . وكان أهم المستفيدين من هذه الحروب الأرمن فى جبال طوروس وأمير انطاكية الفرنجى (٦٩).

الباب الثانى:

الذروة

الفصل الأول:

الملك بالدوين الثانى

الملك بلدوين الثانى

"لَا يُعَدُّ لَكَ رَجُلٌ عَنْ كُرْسِيِّ إِسْرَائِيلَ"

(الملك الأول ٩ : ٥)

أهمل الملك بلدوين آخر واجبات الملوك . فلم يوصى بمن يخلفه على العرش . وانعقد مجلس المملكة على عجل . وبدأ لبعض النبلاء أن خروج التاج من بيت آل بولونيا أمر غير وارد . فقد خلف بلدوين الأول أخاه جودفرى ، ومازال هناك أخ ثالث هو إيوستاس ، كونت بولونيا ، أكبر الثلاثة . فأرسل الرسل على عجل بطريق البحر لإبلاغ الكونت بوفاة أخيه والتماس حضوره لتسلم الميراث . بيد أن إيوستاس كان عازفا عن مغادرة بلده المليء بالمسرات والرحيل إلى الشرق بما فيه من مخاطر ، لكنهم أخبروه أن ذلك واجب ينبغى له القيام به . فانطلق إلى القدس ، لكنه عندما وصل أبوليا قابل رسلا آخرين حاملين الأنباء بأنه قد قضى الأمر ، واستخلف غيره . ورفض اقتراحا بأن يواصل رحلته ويحارب دون حقوقه ، فعاد على الأثر إلى بولونيا وهو غير

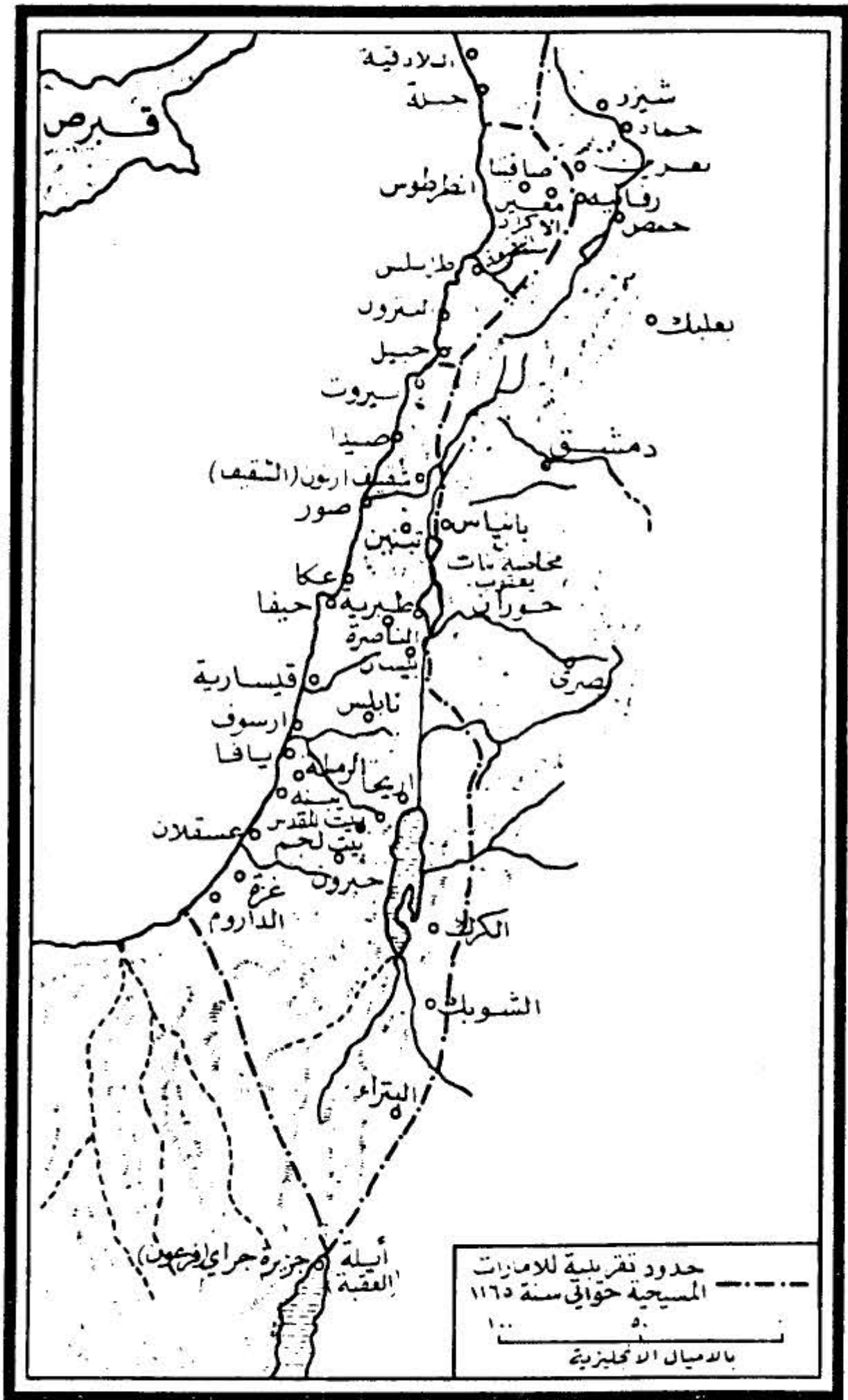
كاره^(١).

وما حدث فى واقع الأمر أن القلة من أعضاء المجلس هى فقط التى أبدت استخلافه. ولقد كان بعيدا ، الأمر الذى يعنى بقاء العرش خاليا لأشهر كثيرة . وكان أكثر أعضاء المجلس نفوذا هو جوسلين (أوف كروتناى) أمير الجليل ، الذى طلب منح العرش لبلدوين (أوف لو بورج) ، كونت الرها . وقد اتخذ جانب الحذر وهو يذكر أعضاء المجلس بأنه ليس هناك ما يجعل بلدوين محبوبا لديه هو شخصا ، إذ سبق أن اتهمه بلدوين بالخيانة زورا وبهتانا ، وأمر بنفيه من أراضيه فى الشمال . غير أن بلدوين رجل اقتدار وشجاعة ، وهو ابن عم الملك الراحل ، وهو الوحيد الباقى على قيد الحياة من فرسان الحملة الصليبية الأولى العظام . فضلا عن ذلك ، كان فى تقدير جوسلين أنه إذا غادر بلدوين الرها إلى القدس ، فإن أقل ما يفعله لابن عمه الذى كافأه بسخاء على الإساءة أن يعهد إليه بكونتية الرها . ولقى اقتراح جوسلين تأييدا من البطريق أرنولف ، وراحا معا يستحثان المجلس على الموافقة . وفى نفس اليوم الذى شُيِّعت فيه جنازة الملك ، وكما لو كان الأمر حسما لمناقشة المجلس ، ظهر بلدوين (أوف لو بورج) فجأة فى القدس . وربما سمع بمرض الملك فى العام الذى قبله ، ولذا رأى من المناسب القيام بحج الفصح إلى الأراضى المقدسة . واستقبل بمشاعر البهجة ، وانتخبه المجلس ملكا بالإجماع . وفى يوم أحد الفصح ، ١٤ إبريل ١١١٤ م ، وضع البطريق أرنولف التاج على رأسه^(٢).

وكان بلدوين الثانى كرجل يختلف عن سلفه اختلافا كبيرا . فبرغم ما كان عليه من وسامة ، بلحيته الطويلة الشقراء ، غابت عنه الهيبة التى كان يتصف بها بلدوين الأول . كان أيسر لقاء ، أنيسا ، مغرما بخفة الظل ، لكنه كان فى ذات الوقت حاد الذهن ، ماكرا ، أقل انفتاحا ، وأقل طيشا ، وأكثر ضبطا للنفس . كان ذا مقدرة على الإتيان باللفتات الضخمة ، لكنه على الجملة كان وضعيا خاليا من الكرم . وبرغم تعسفه فى الشؤون الكنسية ، كان عظيم الورع ، وكانت ركبته متورمتين من كثرة الصلاة . وعلى خلاف بلدوين الأول ، لم يكن هناك ما يعيب حياته الخاصة ، إذ ضرب هو وزوجته مورفيا الأرمينية مثلا رائعا على السعادة الزوجية المثالية ، وهو أمر

(١) William of Tyre, XII, 3, pp. 513-16. ولا نعلم على وجه اليقين الترتيبات التى أعدها لبولونيا . وقد ماتت زوجته ، مارى الاسكتلندية عام ١١١٦ م .

(٢) Fulcher of Charters, III, i, 1, pp. 615-16; Albert of Aix, XII, 30, pp. 707-10; William of Tyre, XII, 4, p. 517.



خريطة رقم (٢) جنوب الشام في القرن الثاني عشر الميلادي

كان نادرا في الشرق الفرنجي^(٣).

وكوفي جوسلين كما توقع بكونتية الرها باعتباره تابعا للملك بلدوين ، تماما كما كان بلدوين نفسه تابعا لبلدوين الأول . كما اعترف كل من روجر امير انطاكية ، وهو صهر الملك ، وبونز امير طرابس ، بالملك الجديد سيدا أعلى ، إذ كان مقررا أن يبقى الشرق الفرنجي موحدا تحت تاج القدس^(٤). وبعد أسبوعين من تتويج بلدوين مات البطريق أرنولف . وكان في خدمته للدولة مخلصا ذا كفاءة إلا أنه ، وبرغم براعته التبشيرية ، تورط في عدد ضخم من الفضائح تحول دون احترامه كرجل كنيسة ، ومن المشكوك فيه ما إذا كان بلدوين قد تأسى لموته . وحرص على أن يُنتخب مكانه قس بيكاردى^(٥) هو جورمون البيكوني الذي لا نعرف شيئا عن سابق حياته . وكان اختيارا موفقا ، إذ كان جورمون يشترك مع أرنولف في خصائص عملية تعلوها طبيعة القداسة ، ولقى الاحترام من الكافة . وجاء تعيينه في اعقاب موت البابا باسكال مؤخرا ، وبذا بقيت العلاقات طيبة بين القدس وروما^(٦).

١١١٩م : غارات في شرق الأردن

لم يكد بلدوين يستقر على العرش حتى سمع الأنباء المشروومة عن تحالف مصر ودمشق. إذ كان الوزير الفاطمي الأفضل متلهفا على معاقبة بلدوين الأول على ما أقدم عليه من غزو متعجرف لمصر، بينما شعر طغتكين في دمشق بالخطر من تعاظم قوة الفرنج . فسارع بلدوين بارسال سفارة إلى طغتكين الذي ، طلب من الفرنج التخلي عن كافة الأراضي الواقعة شرق نهر الأردن مدفوعا بثقة من مساعدة مصر. وكان جيش مصري ضخم قد تجمع خلال الصيف على الحدود متخذا موضعه خارج مدينة اشدود ، ووجهت الدعوة لتغطكين كي يتولى قيادته . واستنفر بلدوين مليشيات انطاكية وطرابلس لتعزيز جنود القدس ، وسار جنوبا لملاقاة العدو . وظل الجيشان يواجهان بعضهما البعض طوال ثلاثة أشهر ، لا يجرؤ أيّ منهما على التحرك ، إذ كان

(٣) William of Tyre, xii, 2, pp.512-13. (انظر أعلاه ص ٦٧).

(٤) استدعى بلدوين بعد توليه العرش مباشرة كلا من روجر وبونز لقتال المصريين تحت قيادته . (انظر أدناه ص ١٤٦).

(٥) (المترجم) نسبة الى اقليم بيكاردى التاريخي الواقع شمال فرنسا.

(٦) Albert of Aix, loc. cit.; William of Tyre, xii, 6, p.519

كل فرد - كما جاء على لسان المؤرخ فولشر (أوف تشارتر) - يفضل الحياة على الموت . وفي نهاية الأمر تفرق الجنود في كل من الجانبين عائدتين إلى بلادهم^(٧).

وفي تلك الأثناء تأخر رحيل جوسلين . إذ كان وجوده في الجليل أكثر الحاحا من وجوده شمال البلاد ، حيث يبدو أن الملكة مورفيا كانت ما تزال هناك ، وحيث كان واليران ، لورد البيرة يتولى الحكومة^(٨) . وكان على جوسلين الدفاع عن الجليل ، باعتباره أميرها ، من غارات دمشق . وفي الخريف شاركه بلدوين في غارة على أذرعات في حوران ، وهي بمثابة مخزن حبوب دمشق . وخرج بوري ، ابن طغتكين ، لملاقاتهم ، لكنه هزم لتهوره . وبعد هذه الواقعة حول طغتكين انتباهه إلى الشمال مرة أخرى^(٩).

وفي ربيع ١١١٩م علم جوسلين بأن قبيلة بدوية غنية ترعى قطعانها شرقي نهر الأردن على نهر اليرموك . فانطلق لينهبها يصحبه اثنان من بارونات الجليل ، هما الأخوان جودفري ووليم (أوف بور) ، ونحو مائة وعشرون من الخيالة . وانقسمت الجماعة لمحاصرة رجال القبيلة . لكن الأمور سارت مسارا سيئا ، إذ علم رئيس القبيلة والتزم جانب الحذر ، وضل جوسلين طريقه في التلال . وأما جودفري ووليم فقد سقطا في كمين أعد لهما، وقتل جودفري ووقع أغلب رفاقه في الأسر . وعاد جوسلين تعيسا إلى طبرية وارسل من يخبر الملك ، الذي سار شمالا وأدخل الخوف في قلوب البدو فأعادوا الأسرى ودفعوا تعريضا ، وسمح لهم بتمضية الصيف في سلام^(١٠) .

وأثناء وجود بلدوين في طبرية للراحة في طريق عودته من هذه الحملة القصيرة ، جاءه الرسل من أنطاكية متوسلين أن يسرع شمالا مع جيشه ، بغاية ما يستطيعه من سرعة.

ذلك أنه منذ انتصار روجر أمير أنطاكية في تل دانيت ، باتت مدينة حلب التعسة لا حول لها ولا قوة في منع العدوان الفرنجي ، وقد أمضتها أن تضع نفسها تحت حماية ايلغازي الأرتقي ، وبعد استيلاء روجر على البزاعة عام ١١١٩م أمست محاصرة من

Fulcher of Charters, iii, ii, 1-3, pp. 617-19; William of Tyre, xii, 6, pp. 518. (٧)

Chron. Anon. Syr., p. 86. (٨)

Ibn al-Athir, pp. 315-16. (٩)

pp. 325-6. Ibid. (١٠)

ثلاث جهات . وكانت خسارة البزاعة فوق ما يتحمله ايلغازى الذى لم يكن منذ آنذاك ، ولا حليفه الدائم طغتكين صاحب دمشق ، على استعداد للمخاطرة بكامل القوات فى معركة ضد الفرنج ، إذ كانا يخنشيان سلاطين الشرق السلاجقة ، بل ويحملان لهم مقنا يفوق الخشية . على أن السلطان محمد قد مات فى ابريل ١١١٨ م ، ومن ثم انطلقت طموحات الحكام وصغار الأمراء فى سائر أنحاء امبراطوريته . وحاول ابنه الشاب ووريثه محمود جاهدا توطيد سلطته إلى أن اضطر أخيرا فى أغسطس ١١١٩ م إلى تسليم السلطة العليا لعمه سنجر ، ملك خراسان ، وأمضى ما تبقى له من حياة قصيرة فى التمتع بمتع الصيد والقنص . وأما سنجر ، الذى كان آخر حكام أسرته على كل الاراضى السلجوقية الشرقية ، فكان مقتدرا بما فيه الكفاية ، غير أن مصالحه تركزت فى الشرق ، ولم يشغل نفسه قط بسوريا ، وكذلك كان شأن ابناء عمومته من سلاجقة الروم ، الذين صرفتهم الخلافات فيما بينهم ، وفيما بينهم وبين الدانشمند ، والحروب مع بيزنطة ، عن امكان تدخلهم فى الشؤون السورية^(١١) . وأخيرا اتاحت الفرصة لأكثر الأمراء المحليين عنادا ، ألا وهو ايلغازى ، الذى لم تكن رغبته فى القضاء على الدويلات الفرنجية تفوق رغبته فى الحصول على حلب لنفسه ، على أن هذه الرغبة الأخيرة تحمل فى طياتها الرغبة الأولى .

١١١٩ م : معركة بحر الدم

وخلال ربيع ١١١٩ م راح ايلغازى يجول فى املاكه ، يجمع جنود التركمان ، ويرتب لاستجلاب الكتائب من الأكراد ومن القبائل العربية فى الصحراء السورية . ومن باب الشكليات المحضة طلب المساعدة من السلطان محمود ولم يصله رد . ووافق حليفه طغتكين على الجحى من دمشق ، ووعد بنو منقذ فى شيزر بأن يشغلوا روجر إلى الجنوب من اراضيه^(١٢) . وفى شهر مايو انطلق الجيش الأرتقى الذى قيل أن قوامه بلغ أربعين الف رجل . وتلقى روجر النبأ رابط الجأش ، غير أن البطريق برنار حثه على طلب المساعدة من الملك بلدوين ومن بونز امير طرابلس . وأرسل الملك بلدوين من طبرية من يقول إنه سيحضر بغاية السرعة التى يستطيعها وسيحضر معه جنود طرابلس ،

(١١) Ibn al-Athir, pp. 318-23. وانظر مقال "سنجر Sandjur" و "السلاجقة Seldjuks" فى دائرة المعارف الإسلامية. *Encyclopaedia of Islam*

(١٢) Ibn al-Qalanisi, pp. 157-7; Kemal ad-Din, pp. 615-16.

وأنه ينبغي لروجر أن ينتظر متخذا زمام الدفاع . ثم جمع بلدوين جيش القدس وحصنه بقطعة من الصليب الحقيقي الذي كان تحت رعاية إيفرمار ، رئيس اساقفة قيسارية^(١٣) .

وفي الوقت الذي أغار فيه بنو منقذ على افاميا ، أرسل ايلغازى فصائل التركمان ناحية الجنوب الغربي كي يصنع اتصالا يصله بهم وبالجيش الصاعد من دمشق . وأغار هو نفسه على اراضي الرها ، لكنه لم يذلل اية محاولة للإغارة على عاصمتها الحصينة . وفي منتصف يونية عبر نهر الفرات عند بالس وتقدم ليضرب معسكره في قنسرين التي تبعد نحو خمسة عشر ميلا جنوب حلب انتظارا لطغتكين . ولم يكن روجر على ما يكفي من الصبر ، إذ انه قرر ملاقاته العدو في الحال ، على الرغم من رسالة الملك ، وبرغم التحذير الصارم من البطريق برنارد ، وبرغم كل التجارب السابقة التي خاضها امراء الفرنج . فقاد جيش انطاكية كله يوم ٢٠ يونية ، وكان مؤلفا من سبعمائة من الخيالة وأربعة آلاف من المشاة ، وعبر به الجسر الحديدي ، وضرب معسكره امام حصن تل عفرين الصغير ، الواقع على الحافة الشرقية لسهل سرمداء ، حيث توفر الأراضي القاحلة دفاعا طبيعيا جيدا . وبرغم ضالة حجم قواته بكثير عن قوات العدو ، كان يأمل في امكان الانتظار لحين وصول بلدوين .

وفي قنسرين ، علم ايلغازى تمام العلم بتحركات روجر كلها ، إذ أن عيونه تنكروا في هيئة تجار وأمعنوا في فحص معسكر الفرنج ثم أبلغوا ايلغازى بما عليه الجيش الفرنجي من ضالة العدد . وبرغم أن ايلغازى كان يفضل انتظار وصول طغتكين ، فقد ألح عليه امراؤه التركمان كي يبادر بالهجوم على معسكر الفرنج . وفي يوم ٢٧ يونية تحرك جزء من جيشه لمهاجمة حصن الأتارب الذي كان في حوزة الفرنج ، وتوفير الوقت لروجر كي يدفع ببعض رجاله إلى هناك تحت قيادة روبرت (اوف فيه بون) ، ثم ألقاه أن يجد العدو على مثل هذه المسافة القريبة ، وبهبوط الظلام أرسل كل ما كان لدى الجيش من أموال إلى حصن أرتاح الواقع على الطريق إلى أنطاكية .

وظل روجر طوال الليل قلقا يترقب أخبار تحركات المسلمين ، وهب الجنود من راحتهم على صوت رجل يسير في نومه ، يجري في انحاء المعسكر صائحا إن كارثة قد حلت بهم . وفي فجر يوم ٢٨ يونية اعلن الكشافون للأمر أن المعسكر محاصر . وهبت من الجنوب رياح الخماسين الجافة التي تبعث الوهن في الأبدان ، ولم يكن في المعسكر نفسه سوى القليل من الطعام والماء ، ورأى روجر الإندفاع خلال صفوف العدو أو

الهلاك . وكان بطرس رئيس اساقفة افاميا ومن قبل رئيس اساقفة . . . مع الجيش ، وهو أول أسقف فرنجي في الشرق . قام بجمع الجنود في حب واحد والقي فيهم موعظة واخذ اعترافاتهم جميعا ، واخذ اعتراف روجر في خيمته . . . معه العنبران للكثير من آثام بدنه . ثم إن روجر أعلن في ثبات انه ذاهب للصيد إلا انه أرسل أولا فرقة أخرى من الكشافين وقعت في كمين ، وهربوا قليل من أفرادها مما عجزوا من الكمين عائدين إلى المعسكر معلنين أن لا سبيل لاختراق الحصار . وقسم روجر الجيش إلى أربعة اقسام وقسم خامس احتياطي ، وعلى الأثر باركهم رئيس الأساقفة مرة أخرى وانطلقوا في كامل النظام في هجومهم على الأعداء .

على أنه كان هجوما يائسا من بدايته . ولم يكن هناك مهرب من جحافل الخيالة والرماة التركمان . فكان أول من أصيب بالذعر من بين الفرنج . المشاة المجددين من السريان والأرمن ، لكن لم يكن هناك ملجأ يهربون إليه ، فتزاحموا فيما بين الفرسان ، وبذا أعاقوا الجياد ، وتحولت الرياح فجأة شمالا وزاد هبوبها حاملة معها سحب الأتربة تلقى بها في وجوه الفرنج . وفي مستهل المعركة تمكن عدد بقل عس مئة من فرسان الفرنج من اختراق صفوف التركمان ، وانضموا إلى روبرت (أوف فيه بون) الذي كان عائدا من الأتارب للاشتراك في القتال ، ولكن بعد فوات الأوان ، وهربوا جميعا إلى انطاكية . وبعد ذلك بقليل ، تمكن رينالد مازوار وفرسان قليلون من الهرب والوصول إلى مدينة سرمد الصغيرة في السهل . ولم يبق على قيد الحياة أحد غير هؤلاء من جيش انطاكية . وسقط روجر نفسه قتيلا عند قاعدة صليبه الضخم المرصع بالمجوهرات ، وسقط حوله فرسانه عدا القليل الذين كانوا أقل حظا ، إذ أخذوا أسرى . وبانتصاف النهار كان كل شيء قد انتهى . ويطلق الفرنج على هذه المعركة Ager Sanguinis ، بحر الدم^(١٤)

١١١٩ م : ايلغازي ضيع انتصاره

وفي حلب ، التي تبعد مسافة خمسة عشر ميلا ، لبث المسلمون يتربصون الأنباء في

(١٤) (William , Walter the Chancellor, II, 2-6, pp. 101-11) الذي يورد أكثر الروايات اكتمالا ، William of Tyre. II 9-10, pp. 523-6; Fulcher of Charters, III, III, 24, pp. 621-3)
قصيرا يقول فيه ان الكارثة سببها غضب الرب مما اعتاده روجر من ارتكاب الزنا (Matthew of Edessa. ccxxvi pp 276-7; Michael the Syrian, III, p. 204; Ibn al-Qalanisi, pp. 159-61. Kemal ad-Din pp 616-18; Usama, ed. Hitti, pp. 148-9; Ibn al-Athir, pp. 324-5.
يقول فولشر إن خسائر الفرنج بلغت سبعة آلاف وخمسمائة المتمركزة معه عند

قلق . وفى وقت الظهر تقريبا جاءت شائعة بأن نصرا موزرا قد تحقق للإسلام ، وفى لحظة الأذان لصلاة العصر شوهد أول المنتصرين وهم يقتربون . ولم يمكث ايلغازى فى أرض المعركة الا لتوزيع الغنائم على رجاله ، ثم سار إلى سرمد حيث استسلم له رينالد مازوار . وتأثر ايلغازى من هيئة رينالد التى بدت رابطة الجنان ، فأبقى على حياته . وسحب المنتصرون الأسرى الفرنج ورائهم عبر الوادى ، وراح التركمان يعذبونهم ويقتلونهم فى حدائق الكروم إلى أن أمر ايلغازى ، الذى كان يفوضى رينالد فى تلك الأثناء ، بالكف عن ذلك ، لأنه لم يشأ حرمان سكان حلب من مشهد الأسرى . وسيق من تبقى إلى حلب التى دخلها ايلغازى المنتصر وقت الغروب ، وهناك عذبوا حتى الموت فى الشوارع^(١٥).

وفى الوقت الذى كان ايلغازى يحتفل فيه بانتصاره ، وصلت انطاكية الأنباء المرعبة عن المعركة ، وتوقع الجميع وصول التركمان لمهاجمة المدينة التى خلت ممن يدافع عنها من الجنود . وفى خضم الأزمة تولى البطريق برنارد القيادة . وأول ما كان يخشاه خيانة المسيحيين المحليين الذين ذاقوا من أفعاله بهم الأمرين فباتوا مغتربين بين أهل انطاكية ، فأرسل فى الحال من يجردونهم من السلاح وفرض عليهم أمرا بحظر التجول . ثم قام بتوزيع ما جمعه من سلاح على رجال الدين الفرنج والتجار ووضعهم على الأسوار للمراقبة . وظلوا فى حالة تأهب ليلا ونهارا ، بعدما أرسلوا رسولا إلى الملك بلدوين كى يسرع الخطى^(١٦).

على أن ايلغازى لم يتابع انتصاره . وإنما كتب إلى عواهل العالم الاسلامى يخبرهم بنصره ، ورد عليه الخليفة بأن أهده رداء الشرف ولقب نجم الدين^(١٧) . وفى تلك الأثناء سار إلى ارتاح حيث كان أحد الأساقفة قائدا لأحد أبراجها ، فقام بتسليمه إلى ايلغازى مقابل رحيله إلى انطاكية سالما . غير أن رجلا معين يدعى يوسف ، ربما كان من الأرمن ، ومسؤولا عن القلعة التى تحوى ثروة روجر ، اقنع ايلغازى بتعاطفه مع المسلمين لولا أن ابنه محتجز فى انطاكية كرهينة . فتأثر ايلغازى بالقصة وعهد إلى يوسف هذا بالمدينة واكتفى بإرسال أحد أمرائه للإقامة كممثل له فى المدينة^(١٨) . وعاد

Kemal ad-Din, *loc. cit.*; Walter the Chancellor, II, 7, pp. 111-13. (١٥)

Walter the Chancellor, II, 8, pp. 114-15. (١٦)

Ibn al-Athir, p. 332. (١٧)

Walter the Chancellor, II, 8, p. 114. (١٨)

من ارتاح إلى حلب حيث توالى عليه سلسلة من الاحتفالات إلى أن ساءت صحته وبدأت معاناته . وأرسل جنود التركمان للإغارة على ضواحي انطاكية ونهب ميناء السويدية ، لكن التقارير أفادت وجود حاميات قوية في المدينة . وهكذا ضيّع المسلمون ما فازوا به من ثمار معركة بحر الدم^(١٩).

ومع ذلك كان الموقف حسيما للفرنج . فقد وصل بلدوين اللاذقية ، وبونز وراءه على مقربة ، قبل أن يعلم النبأ . فغذ السير ولم يتوقف حتى لمهاجمة معسكر للتركمان بلا حماية بالقرب من الطريق ، ووصل انطاكية دون حادثة في الأيام الأولى من أغسطس . وكان ابلغازى قد أرسل بعض جنوده لاعتراض الجيش المنقذ ، واضطر بونز الذى كان خلف بلدوين بمسيرة يوم إلى تفادى هجومهم ولم يتأخر كثيرا . واستقبل الملك استقبالا سارا من اخته الأميرة سيشيليا الأرملة ، ومن البطريق ، ومن كل الناس . وأقيم قداس شكر للرب فى كاتدرائية القديس بطرس . وبدأ بتطهير الضواحي من المغيرين ، ثم قابل وجهاء المدينة لمناقشة حكومتها فى المستقبل . وكان الأمير الشرعى ، بوهمند الثانى ، الذى كان روجر دائم الاعتراف بحقوقه ، صبيا فى العاشرة من عمره يعيش مع امه فى ايطاليا ، وليس هناك من بقى لتمثيل البيت النورماندى فى الشرق ، إذ هلك الفرسان النورمانديون جميعا فى معركة بحر الدم . فتقرر أن يتولى بلدوين نفسه ، باعتباره السيد الأعلى للشرق الفرنجى ، حكومة أنطاكية إلى أن يبلغ بوهمند سن الرشد ، وأن يتزوج بوهمند واحدة من بنات الملك . ثم قام الملك بإعادة توزيع إقطاعيات الإمارة التى تركتها الكارثة بلا أصحاب . وتقرر ، بقدر الإمكان ، أن تتزوج المزملات اللاتى سقط أزواجهن فى المعركة من فرسان يناسبهن من جيش بلدوين أو من الوافدين الجدد من الغرب . ونجد الأرملتين الأميرتين أرملة تنكريد ، التى أصبحت كونتيسة طرابلس ، وأرملة روجر ، وقد أصبحتا زوجتين لتابعين جديدين للملك على أراضيها التى هى بمثابة المهر لكل واحدة منهما . وفى ذات الوقت ، يرجح أن بلدوين أعاد ترتيب إقطاعيات كونتية الرها ، وتقرر رسميا تعيين جوسلين ، الذى تبع الملك من فلسطين ، كونت الرها . وبعد أن اطمأن بلدوين لإدارة البلاد ، تقدم موكبا من حفاة الأقدام إلى الكاتدرائية ، ثم قاد جيشا مولفا من نحو سبعمئة فارس وبضعة آلاف من المشاة لملاقاة المسلمين^(٢٠).

(١٩) Usama, ed. Hitti, pp. 148-9; Ibn al-Athir, pp. 332-3. واستادا الى ما قرره أسامة ، فان ابلغازى اذا ما شرب الخمر يظل يشعر بأنه مخمور مدة عشرين يوما.

(٢٠) -Walter the Chancellor, II, 9-10, pp. 115-18; Fulcher of Charters, III, vii, 13, pp. 633

١١١٩ م : معركة مُحكمة فى هاب

والآن انضم طفتكين إلى ايلغازى ، وانطق الزعيمان يوم ١١ أغسطس للاستيلاء على الحصون الفرنجية الواقعة شرقي نهر العاصى ، بدءا بالأثارب التى استسلمت حاميتها فى الحال مقابل المرور الآمن إلى أنطاكية . وفى اليوم التالى واصل الأميران الزحف على زردنة التى سبق أن غادرها أميرها ، روبرت المجزوم ، إلى أنطاكية ، ومرة اخرى استسلمت الحامية فى مقابل الإبقاء على حياة أفرادها ، لكن التركمان قتلوهم فور خروجهم من البوابات . وكان بلدوين يأمل فى انقاذ الأثارب ، لكنه ما أن عبر الجسر الحديدى حتى قابل حاميتها . فانطلق جنوبا وسمع بحصار زردنة ، لكنه ارتاب فى أن المسلمين ينوون التحرك جنوبا لتطهير الحصون المحيطة بمعرة النعمان وأفاميا ، فسارع بالانطلاق قدما وضرب معسكره فى الثالث عشر فى تل دانيت ، فى نفس مسرح انتصار روجر عام ١١١٥ م . وعلم فى الصباح التالى أن زردنة قد سقطت ورأى من الحكمة التفهقر قليلا ناحية أنطاكية . وفى تلك الأثناء جاء ايلغازى وفى مأموله مباغته الفرنج وهم نيام بالقرب من قرية هاب . غير أن بلدوين كان مستعدا . إذ أدلى باعترافه ، وألقى رئيس اساقفة قيسارية موعظة فى الجنود ثم رفع الصليب الحقيقى ليباركهم ، واصبح الجيش على استعداد للقتال .

وساد الاضطراب المعركة . إذ ادعى كل من الجانبين الانتصار ، على أن الفرنج هم الذين فازوا فى الواقع . فقد دحر طفتكين بونز امير طرابلس فى ميمنة الفرنج ، لكن جنود طرابلس حافظوا على صفوفهم . وإلى جانبه هاجم روجر المجزوم كتيبة حمص وقد عقد العزم على استعادة زردنة ، لكنه وقع فى كمين وبات أسيرا . وصمدت ميسرة الفرنج وقلبه ، وفى اللحظة الحاسمة تمكن بلدوين من رمى الأعداء بجنود جدد ، فاستدار عدد من التركمان وهربوا . على أن أغلب جيش ايلغازى غادر ساحة القتال فى نظام جيد . وعاد ايلغازى وطفتكين باتجاه حلب ومعهما صفوف ضخمة من الأسرى ، واستطاعا أن يخيرا العالم الاسلامى أن النصر كان حليفهما . ومرة اخرى أبهج سكان حلب مشاهدة مجزرة للمسيحيين بالجملة ، إلى أن أبدى ايلغازى امتعاضه ، لخسارة الفدية التى كانت يمثل هذا المال الكثير بعد أن اوقف القتل ريثما يجرب جواداً

Orderic Vitalis (xi, 25, vol. iv, p. 245)؛ يذكر أوردرىك فيتاليس أن سيشيليا ، كوتيسمة طرابلس ، كانت تستثمر الفرسان بالاقطاع . واستثمرت أرملة روجر بالاقطاع فرسانا فى عام ١١٢٦ م. (Rhrich, Regesta, Additamenta, p.9) وربما انتقلت فى ذلك الوقت مرعش من سيادة انطاكية الى سيادة الرها .

جديداً. وسُئل روبرت المجزوم عن فئته فرد قائلاً إنها عشرة آلاف قطعة ذهبية ، فأرسله ايلغازى إلى طغتكين أملاً فى رفع السعر ، لكن طغتكين لم يكن قد روى بعد ظمأه من الدماء . ورغم أن روبرت كان صديقاً قديماً لطغتكين منذ أيام ١١٥١ م ، إلا أن هذا الأخير أطاح رأسه بنفسه ، مما تسبب فى امتعاض ايلغازى الذى كان يريد مبلغ الفدية تسديداً لرواتب جنده (٢١).

ووصل إلى انطاكية من فر من جيش هونز حاملين معهم أنباء الهزيمة ، لولا أن وصل رسول أرسلته الأميرة سيشيليا ومعه خاتم الملك برهانا على نجاحه . ولم يحاول بلدوين نفسه ملاحقة جيش المسلمين ، وإنما اتجه جنوباً إلى معرة النعمان وإلى الروج التى استولى عليها بنو متقذ . فأخرجهم منها لكنه أبرم معهم معاهدة يعفيهم فيها من دفع الجباية السنوية التى سبق أن طلبها روجر . واسترد ما استولى عليه المسلمون من حصون فيما عدا البيرة والأثارب وزردنة ، ثم رجع بلدوين إلى انطاكية فى مركب المنتصرين ، وأرسل الصليب المقدس جنوباً ليصل القدس فى الوقت المناسب لعيد ظهور الصليب يوم ١٤ سبتمبر (٢٢) وأمضى هو نفسه الخريف فى انطاكية يستكمل ما بدأه قبل المعركة من ترتيبات . وفى ديسمبر عاد إلى القدس تاركاً البطريق برنارد لمباشرة حكومة انطاكية نيابة عنه ، بعد أن نصّب جوسلين فى الرها (٢٣) واصطحب معه إلى الجنوب زوجته وبناته الصغيرات اللاتى حضرن من الرها . وفى احتفالات عيد الميلاد فى بيت لحم تزوجت زوجته مورفيا ملكة (٢٤).

١١١٩ م : فشل حملة الأراتقة

ولم يجازف ايلغازى بمهاجمة الفرنج مرة أخرى ، إذ كان جيشه يتقلص شيئاً فشيئاً. فقد جاء جنود التركمان من أجل الأسلاب فى المقام الأول ، وبعد معركة تل دانيت بقوا بلا عمل وقد نال منهم الضجر ورواتبهم تأخر سدادها ، فشرعوا فى العودة إلى

(٢١) Walter the Chancellor, II, 10-15, pp. 118-28; William of Tyre, XII, 1112, pp. 527-30; Kemal ad-Din, pp. 620-2; Usama, ed. Hitti, pp. 14950.

(٢٢) (المترجم) عيد ظهور الصليب Exaltation of the Cross ، عيد يحتفل فيه بذكرى ما اشتهر من ظهور الصليب للامبراطور قسطنطين ، واسترداده فيما بعد من الفرس.

(٢٣) Walter the Chancellor, II, 16, pp. 129-31; William of Tyre, XII, 12, p. 530.

(٢٤) Fulcher of Charters, III, vii, 4, p. 635; William of Tyre, XII, 12, p. 531

بلادهم ومعهم زعماء العرب من أبناء الجزيرة ، ولم يكن يوسع ايلغازى منعهم من العودة ، إذ سقط هو نفسه مريضاً مرة أخرى وظل يتأرجح بين الحياة والموت لأسبوعين ، وعندما برأ من مرضه كانت فرصة إعادة جمع الجيش قد ولّت ، فغادر حلب عائداً إلى عاصمته الشرقية في ماردين ، وعاد طفتكين إلى دمشق^(٢٥).

وهكذا أخفقت الحملة الأرتقية الضخمة ولم تحقق شيئاً ملموساً للمسلمين ، فيما عدا حصون حدودية قليلة وتخفيف الضغط الفرنجى على حلب . بيد أنها كانت نصراً معنوياً عظيماً للإسلام . ولم يكن صدهم فى معركة تل دانيت تعويضاً يوازن الانتصار الرائع فى معركة بحر الدم . ولو كان ايلغازى أكثر قدرة ويقظة لفاز بأنطاكية . إذ أن ما حدث من قتل الفرسان النورماندين وأميرهم على رأسهم ، قد شجّع أمراء الجزيرة وشمالي العراق على تجديد هجماتهم ، ولاسيما وانهم قد تحرروا مما كان سيدهم الأعلى السلجوقي فى فارس يمارسه عليهم من وصاية إسمية . وسرعان ما كان مقدراً أن يظهر رجل أعظم من ايلغازى . وأما الفرنج ، فكانت أسوأ نتائج الحملة هى خسارتهم الفادحة من الرجال . فليس من اليسير تعويض من سقطوا فى معركة بحر الدم من الفرسان ، والأكثر من المشاء . على أن الفرنج لقنوا الدرس جيداً الآن وهو أن فرنج الشرق ينبغي لهم أن يتعاونوا دائماً وأن يعملوا معاً متحدين . فقد أنقذ الملك بلدوين أنطاكية بتدخله الفورى ، وتحقق ما أملتة ظروف الساعة من استعداد الفرنج كافة لقبول الملك على أنه السيد الأعلى النشط . لقد أحدثت الكارثة رتقا فيما أقامه الفرنج فى سوريا.

وبعد أن عاد بلدوين إلى القدس راح يشغل نفسه بإدارة مملكته . فاستخلف على إمارة الجليل ولیم (أوف بور) وبقيت الإمارة فى أسرته . وفى يناير ١٢٠١م استدعى الملك رجال الكنيسة وكبار حائزى الأراضى فى المملكة لحضور مجلس عقد فى نابلس لمناقشة النهوض بأخلاقيات رعاياه ، وربما كان ذلك محاولة منه لكبح ما كان يميل اليه المستعمرون اللاتينيون فى الشرق مما وجدوه من اعتياد التراخى واليسر ، كما كان مهتماً فى الوقت ذاته برفاهيتهم المادية . إذ انه فى ظل بلدوين الأول وجد عدد متزايد من اللاتينيين تشجيعاً على الاستقرار فى القدس ، فبدأ ظهور طبقة بورجوازية لاتينية آخذة فى التضخم شيئاً فشيئاً إلى جانب المحاربين ورجال الدين فى المملكة ، والآن حصلت هذه الطبقة البورجوازية على كامل حرية التجارة من وإلى المدينة ، وفى الوقت

Walter of Chancellor, *loc. cit.*; Ibn al-Qalanisi, p. 161; Kemal ad-Din, pp. 624-5. (٢٥)

ذاته ، ولضمان الامدادات الكاملة من الطعام ، سُمح للمسيحيين الوطنيين ، بل للتجار العرب استجلاب الخضروات والحبوب معفاة من الرسوم الجمركية^(٢٦).

١١١٨-١١٢٠م: بدايات الأنظمة الدينية العسكرية للرهبان الفرسان

كان أهم حدث داخلي في تلك السنوات هو إرساء القواعد لأنظمة دينية عسكرية للرهبان الفرسان . ففي عام ١٠٧٠م قام بعض المواطنين الأتقياء من مدينة أمالفي بإنشاء نُزل في القدس لإيواء الفقراء من الحجاج ، وقد سمح الحاكم المصري آنذاك للقنصل الأمالفي باختيار موقع مناسب ، وكرّست المنشأة للقديس يوحنا المتصدق Saint John the Almsgiver ، وهو بطريق الاسكندرية الخير في القرن السابع . وكان موظفو النزل من أبناء أمالفي أصلاً ، وكانوا قد أخذوا على أنفسهم العهد الرهبانية ، ويخضعون لتوجيهات "السيد" الذي كان يخضع بدوره للسلطات البندكتية في فلسطين^(٢٧) . وفي وقت استيلاء الصليبيين على القدس كان "السيد" رجلاً يدعى جيرارد Gerard ، وربما كان من أبناء أمالفي . وقبل بدء حصار القدس نفاه حاكم القدس المسلم من المدينة هو ورفاقه في الدين ، فأفاد الصليبيون من معلوماته القيمة عن الأحوال الداخلية في المدينة . وقد حث الحكومة الفرنجية الجديدة على منح الهبات للمستشفى ، وانضم الكثير من الحجاج إلى موظفيه الذين سرعان ما تحرروا من إطاعة تعليمات البندكتيين ، وراحوا يجمعون الأموال كى يستقل النظام بنفسه تحت اسم "أصحاب المستشفى" the Hospitallers ، ويدينون بالطاعة للبابا مباشرة . وخلعت عليه المزيد من الأراضي ، وقدم له أغلب كبار رجال الدين في المملكة عشور إيراداتهم . ومات جيرارد حوالي عام ١١١٨م وخلفه الفرنسي ريموند اوف لو بوى Raymond of Le Puy ، الذي كانت لديه أفكار أكبر . فاستقر رأيه على أنه لا يكفى لنظامه مجرد إرشاد الحجاج واستضافتهم ، وإنما ينبغي للنظام أن يحارب كى تظل طرق الحج مفتوحة . وكان النظام يضم إخوة كانت واجباتهم سلمية محضة ، بيد أن واجباتهم تحولت الآن إلى رعاية مؤسسة من الفرسان الملتزمين بعهود دينية تلزمهم بالبقاء في حالة

(٢٦) Rohricht, *Regesta*, p. 20; Mansi, *Concilia*, vol. xxi, pp. 262-6; William of Tyre, xii, xiii, p.531.

(٢٧) (المترجم) التسمية مشتقة من اسم الراهب الإيطالي القديس بندكت (٤٨٠ - ٥٤٣م). وهو مؤسس النظام البندكتي ويوم احياء ذكره ١١ يولية. ويسمى أيضا القديس بندكت النورسياني St. Benedict of Nursia

من الفقر الشخصى والعفة والطاعة ، وتكريس حياتهم لقنال الكفرة . وفى ذات الوقت على وجه التقريب ، وكما لو كان الأمر إعلانا للمركز الأكبر "للمستشفى" ، ودون أن يلحظ أحد ، استعير عن اسم القديس "يوحنا" المتصدق المعلن عنه قديسا راعيا للنظام ، بالحوارى "يوحنا" الرسول . وتميز فرسان المستشفى بعلامة صليب أبيض يضعونها على أردبتهم الكهنوتية فوق لباسهم الحربى .

وساعد على هذا التحول إنشاء فرسان المعبد فى ذات الوقت . وفى واقع الأمر ، فإن فكرة وجود نظام يجمع بين الجانبين الدينى والعسكرى ربما تكون قد نبعت فى ذهن فارس من مقاطعة شامبانيا يدعى هيو اوف باين Hugh of Payens كان قد حث الملك بلدوين الأول عام ١١١٨م على السماح له بأن يستقر مع بعض رفاقه فى جناح القصر الملكى ، المسجد الأقصى سابقا ، فى منطقة المعبد . وكشأن فرسان المستشفى ، اتبع فرسان المعبد بادئ الأمر النظام البينديكتى ، غير أنهم رسخوا أنفسهم فى الحال تقريبا كنظام مستقل ، بثلاث طبقات : الفرسان ، على أن يجرى فى عروقهم جميعا دم النبلاء ؛ وضباط النظام ، الآتين جميعا من الطبقة البورجوازية ، وكانوا هم سائسى الخيول والخدم المشرفين لمجتمع النظام ؛ ورجال الدين ، الذين كانوا القسس الرعاة المسؤولين عن المهام غير العسكرية . وكانت العلامة التى تميز أعضاء المعبد هى صليب أحمر يوضع على رداء أبيض بالنسبة للفرسان ، وعلى رداء أسود بالنسبة لضباط النظام . وكان أول واجب أخذ عليه القسم لهذا النظام هو الحفاظ على الطريق من الساحل حتى القدس نظيفا من قطاع الطرق ، لكنهم سرعان ما أصبحوا يشتركون فى أية حملة حربية تشترك فيها المملكة . وأمضى هيو نفسه الكثير من وقته فى أوروبا الغربية يجند المجندين لنظامه .

ومنح الملك بلدوين النظاميين العسكريين كامل مساندته . وكانا مستقلين عن سلطته ولا يدينون بالولاء إلا للبابا . وحتى الإقطاعيات الضخمة التى بدأ يخلعها عليهما هو وأتباعه لم تكن تنطوى على أى التزام بالحرب فى جيش الملك ، غير أن أجيال قد مضت قبل أن يصيب النظامان من الثراء ما يكفيهما لتحدى السلطة الملكية . وفى الوقت ذاته ، كانا يزودان المملكة بما كانت فى حاجة ماسة اليه ، ألا وهو جيش نظامى بجنود مدربين ، مكفول وجوده المستديم . وفى الإقطاعيات الدنيوية ، إذا مات فجأة صاحب الإقطاعية ، فقد يترتب على انتقال الإقطاعية إلى امرأة أو إلى طفل ، أن يحدث توقف فى إمداد الجنود ويتكرر تورط الملك فى أعمال مضطربة ومصالح مختلفة . كما لا يستطيع الاعتماد على تعويض من مات من اللوردات ، بغيرهم من الوافدين

الجدد من الغرب كلما احتاج اليهم . لكن الأنظمة العسكرية ، بتنظيمها ذى الكفاءة ، وما لها من فتنة ومهابة تتخلل العالم المسيحي الغربى ، تستطيع أن تضمن إمدادا منتظما من المقاتلين المكرسين ، الذين لن تلهيهم أطماع أو مكاسب شخصية^(٢٨).

وفى عام ١١٢٠م عاد بلدوين إلى انطاكية . إذ أن بلاق وإلى ايلغازى على أثارب، بدأ يغير على الأراضى الانطاكية بينما زحف ايلغازى نفسه على الرها . وصُدَّت الغارتان كلاهما، على أن ايلغازى اقترب من حوار انطاكية ، فتوترت أعصاب البطريق برنار وارسل إلى القدس ، إلى الملك بلدوين . وفى يونية شرع بلدوين فى مسيرته شمالا ، حاملا معه مرة اخرى الصليب الحقيقى ، مما سبب الأسى لكنيسة القدس التى كانت نافرة من أن ترى مثل هذا الأثر الثمين يتعرض لمخاطر الحرب . ورحل البطريق جورموند نفسه مع الجيش ليكون مسؤولا عن هذا الأثر . وعندما وصل بلدوين إلى الشمال وجد أن ايلغازى ، الذى اضعفه انصراف جنوده التركمان ، قد انسحب فعلا ، وشعر المسلمون بالخطر حتى انهم استدعوا طغتكين إلى حلب . واثناء الحملة التى تلت تبادل كل من الطرفين الكر والفر حتى أنهك المسلمون فى نهاية الأمر وانسحب طغتكين إلى دمشق ، وعقد ايلغازى هدنة مع بلدوين . وتحدد خط حدود يفصل منطقة نفوذ كل منهما ، فقطع هذا الخط فى مكان ما (طاحونة) إلى نصفين ، وفى مكان آخر قسم الخط حصنا إلى نصفين ، وهدمت المباني برضاء الطرفين ، واما زردنا التى بقيت جيبا اسلاميا فقد جردت من تجهيزاتها العسكرية^(٢٩) . وفى وقت مبكر من الربيع التالى عاد بلدوين إلى القدس بعد أن فاز بنصر معنوى لم تسفك فيه الدماء . وكان مطلوبا فى الجنوب ، إذ اعتقد طغتكين أنه فى كامل انشغاله فى الشمال ، فأغار بغارات مكثفة فى الجليل . وفى شهر يولية ١١٢١م ، انتقم بلدوين بعبوره نهر الأردن وانتهب الجولان ، واحتل حصنا ثم دمره ، وكان طغتكين قد بناه فى

(٢٨) عن الأنظمة العسكرية انظر (William of Tyre, XII, 7, pp. 520-1) (فرسان المعبد) و (XVIII, 4, pp. 822-3) (فرسان المستشفى) . وللإطلاع على مقالات عصرية جيدة انظر Delaville Le Roulx, *Les Hospitaliers en Terre Sainte*; Curzon, *La Règle du Temple*; Melville, *La Vie des Templiers*. ويورد ميخائيل السورى مقالا كاملا عن فرسان المعبد وسميهم (الإخوة الفرنج III, pp. 201-3) انظر ايضا La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 217-25.

(٢٩) Fulcher of Charters, III, ix, 1-7, pp. 638-42; Walter the Chancellor, II, 16, p. 131; -Matthew of Edessa, ccxxx, pp. 302-3; Michael the Syrian, III, pp. 205-6; Kemal ad Din, p/627; Ibn al-Qalanisi, p. 162; Grousset, *op.cit.* I, p. 574, يذكره ميخائيل السورى، فيخلط بين بلاق وبلق ابن اخى ايلغازى، الذى كان آنذاك فى حملة ابعد إلى الشمال (ابن القلانيسى، المرجع السابق).

حيث اسرا^{٣١} وفي تلك الأثناء كان جوسلين نجى ثمار غزوة ناجحة في أراضي ايلغازى
في الحريرة^(٣١)

١١٢١م الحملة الصليبية الجورجية

ظهر خلال صيف ١١٢١م ظهر عامل جديد ترك بصماته على السياسات الشرقية وعلى مسافة بعيدة إلى الشمال ، عند سفوح الجبال القوقازية ، فرض ملوك جورجيا (الكرج) البجراتيون سلطانهم على الشعوب المسيحية التي كانت ما تزال مستقلة عن السيادة الإسلامية ، ووسع الملك داود الثاني سلطته إلى جنوب وادي الرّس حيث أصبح في نزاع مع الأمير السلجوقي طغرل ، أمير أرّان . وبعد هزيمة طغرل من قوات داود ، وجّه طغرل الدعوة إلى ايلغازى كى يشترك معه فى حرب مقدسة ضد الملك المسيحي قليل الأدب . وكانت الحملة التي تلت بمثابة كارثة للمسلمين ، وفى اغسطس ١١٢١م ، كاد الجورجيون أن ينجسوا شأفة الجيش المتحد بين طغرل وايلغازى ، وبما ايلغازى نفسه بشق الأنفس وهو يهرب عائدا إلى ماردين . وتمكن الملك داود من ترسيخ دعائم ملكه فى العاصمة الجورجية القديمة تفليس ، وبحلول عام ١١٢٤م استولى على شمال أرمينيا والحاضرة آنى ، وهى موطن أسرته القديم . ومنذ آنذاك والعالم التزكى كله يدرك إدراك اليأس للخطر المائل عليه من جورجيا بموقعها الاستراتيجى الرائع بل أن هذا الخطر لم تخف حدته بموت داود الثانى عام ١١٢٥م^(٣٢) ، إذ ورث خلفاؤه شدته وكانت شجاعتهم، التي أبقت المسلمين فى حالة عصبية دائمة إزاء جبهتهم الشمالية ، ذات قيمة عظيمة للفرنج على الرغم مما يبدو من عدم وجود اتصال مباشر بين القوتين المسيحيتين ، إذ كان الجورجيون مرتبطين ببيزنطة بروابط الدين والتقاليد ، ولا شعور بالود لديهم نحو الفرنج ، فضلا عن أن ما لقيته مؤسساتهم فى القدس من برود المعاملة لم تكن لتدخل السرور على مثل هذا

(٣) Fulcher of Charters, III, x. 1-6, pp. 643-6

(٣١) Ibn al-Qalanisi, *op. cit* p 163; Kemal ad-Din pp 623-6

(٣٢) *Georgian Chronicle* (in Georgian), pp. 209-10 215. Matthew of Edessa ccxxxix-ii ccxxxix, ccxliii, pp. 303-5, 310-1 313-14; Ibn al-Qalanisi, p 164 Ibn al-Athir pp 330-2; Kemal ad-Din, pp 628-9 Walter the Chancellor 16 p 130.

Michael the Syrian, III, p 206

الشعب المتكبر^(٣٣).

ومع ذلك ، وجد بلدوين أن مصير ايلغازي بات تحت رحمة الجورجيين ، وفي ذلك فرصة لم يدعها تفلت منه . ذلك أن ايلغازي عين ابنه سليمان مؤخرًا واليا على حلب ، لكن هذا الابن الطائش انتهز هزيمة والده وأعلن استقلاله ، ولما وجد نفسه عاجزاً عن التصدي للهجوم الذي شنّه عليه بلدوين على الفور، تصالح مع الفرنج متنازلاً لهم عن زردنه وأتارب ، وهما ثمرة انتصار أبيه ايلغازي . فسارع ايلغازي إلى معاقبة ولده العاق، ولكنه ارتأى من الحكمة تأييد المعاهدة مع بلدوين ، الذي عاد إلى القدس وقد نال منه السرور بمحصاة ذلك العام^(٣٤).

وفي وقت مبكر من عام ١١٢٢ م ، خلع بونز ، كونت طرابلس ، فجأة ولاءه للملك . ولسنا نعرف سبب هذا العصيان ، فيصعب أن نفهم ما هي المساعدة التي كان ينتظرها لكي يحتفظ بولائه للملك . وقد حنق بلدوين واستدعى أتباعه على الفور للحضور ومعاقبة العاصي . وسار الجيش الملكي من عكا، وباقترابه من بونز استسلم وغفر له^(٣٥) . بيد أن استسلامه كان مؤقتاً ، إذ أن ايلغازي كان على شفا الحرب مرة أخرى بعد أن حرّضه ابن أخيه بلك ، الذي كان أميراً على سروج والآن حاكم خازريت . وعندما علم بلدوين بتلك الأنباء رفض أن تصديقها، فقد وقع معاهدة مع ايلغازي وهو يعتقد أن السيد المذهب - ويستخدم المؤرخ العربي كلمة "شيخ" - يحافظ على كلمته، لكن ايلغازي لم يكن سيداً مهذباً ، وقد وعده طفكين بالمساعدة . فحاصر زردنا التي سبق أن أعاد الفرنج تشييدها ، وكان قد استولى على جزء من التحصينات عندما اقترب بلدوين . وتلى ذلك حملة بدون معركة ، إذ لم يشأ بلدوين أن يستدرج إلى كمين بما اعتاده الترك من التظاهر بالهرب كخدعة عسكرية . ومرة أخرى، كان المسلمون هم أول من سأم الكر والفر ، فعادوا إلى بلدهم . وأرسل بلدوين الصليب الحقيقي إلى القدس وهو مرتاح البال ، وذهب هو نفسه إلى

(٣٣) عن المؤسسات الجورجية في القدس ، انظر *Georgian Chronicle*, pp. 222-3 and Brosset, *Additions et Eclaircissements*, x, pp. 197-205. وترد ملاحظات موجزة في *Rey, Les Colonies Franques*, pp. 93-4، ومن الجائز أن يكون التهديد الجورجي المستمر للأرتقة والسلاجقة في بيرسارمينيا، قد ساعد بصورة غير مباشرة في تعاظم قوة زنكي.

(٣٤) Kemal ad-Din, p.629; Ibn al-Athir, pp. 340-50.

(٣٥) of Charters, iii, xi, pp.647-8; William of Tyre, xii, 17, pp. 536-7.

١١٢٢ م : الكونت جوسلين يقع أسيراً

قبل وصول الصليب الحقيقي إلى القدس ، وصلت من الرها أنباء سيئة . ففي ١٣ سبتمبر ١١٢٢ م ، كان الكونت جوسلين وواليران أمير البيرة على حواديهم مع قوة صغيرة من الفرسان بالقرب من سروج عندما وجدوا انفسهم فجأة امام جيش بلك . فهاجموا الجيش ، لكن الأمطار الغزيرة أحالت السهل إلى بحيرة من الطمي ، فانزلقت الجياد وتعثرت ، ولم يجد التركمان خفيفو التسليح صعوبة في الاحاطة بالفرنج . وأسر جوسلين وواليران وستون من رفاقهما . وعلى الفور عرض بلك اطلاق سراحهم مقابل التخلي عن الرها . وبرفض جوسلين الاستماع إلى هذه الشروط ، اقتاد بلك الأسرى إلى قلعته في خرتبرت^(٣٧).

ولم يكن لأسر جوسلين كبير أثر في القوة البشرية للدويلات الصليبية . فنجد في الشهر التالي فرسان الرها يغيرون بنجاح على الأراضي الاسلامية . غير أنه كان لطمة للمهابة الفرنجية أجبرت بلدوين على أن يضيف إلى مشاغله عملاً آخر بأن تولى مرة أخرى إدارة الرها . ولحسن الحظ مات ايلغازي في شهر نوفمبر في ميافارقين ، وقسم أبناؤه وأبناء اخوته الميراث الأرثقي . فكانت ميافارقين من نصيب سليمان أكبر أبنائه ، وحصل أصغر ابنائه ثمرتاش على ماردين ، أما بلك فقد زاد من املاكه في الشمال وأخذ حران في الجنوب ، وذهبت حلب إلى ابن اخيه بدر الدولة سليمان^(٣٨).

وكان المسلمون قد استردوا اثارب مؤخرًا ، وفي إبريل من العام التالي استغل بلدوين ما ساد من اضطراب وحاول اجبار حاكم حلب الجديد الضعيف على تسليمها إلى الأبد . وبعد أن استعاد الملك مدينة البيرة شرع في الرحلة إلى الرها كي يرتب

(٣٦) -Fulcher of Charters, III, xi, 3-7, pp. 648-51; Kemal ad-Din, pp. 632-3; Ibn al-Qalanisi, p. 166.

(٣٧) Fulcher of Charters, III, xii, 1, pp. 651-2; Matthew of Edessa, ccxxxiv, pp. 306-7; Kemal ad-Din, p. 634; Anon. Chron. Syr. p. 90, كان يحضر زوجته إلى البيت ، أخت روجر . ولكن لا توجد إشارة عن اعتقالها ، وحيث أن روجر قد وهب أخته الهبات ، فلا بد وأن يكون الزواج قد حدث قبل موت روجر.

(٣٨) Ibn al-Qalanisi, p. 166; Ibn Hamdun, p. 516; Kemal ad-Din, pp. 632-4; Matthew of Edessa, loc. cit. (يورد ماثيو مقالا يدل على جهل بالاستخلاف الأرثقي).

حكومتها. فوضع جيوفري الراهب ، وهو لورد مرعش، على رأس ادارتها ، ثم مضى مع قوة صغيرة باتجاه الشمال الشرقي كي يستطلع الموضع الذى أسر فيه جوسلين . وفى ١٨ ابريل ضرب معسكره على مسافة غير بعيدة من كركر على نهر الفرات . وبينما كان يتهيأ للاستمتاع برياضة الصباح مع صقره ، غافلاً عن اقترابه من التركمان، انقض بلك على المعسكر. وقتل أغلب الجيش، وأسر الملك نفسه ، وعومل باحترام وأرسل تحت الحراسة لينضم إلى جوسلين فى قلعة خرتبرت^(٣٩).

١١٢٣م : بلدوين وجوسلين يحاولان الهرب من الأسر

ومرة أخرى اجتمع بلدوين وجوسلين فى الأسر . لكن الأمر هذه المرة أخطر مما كان عليه عام ١١٠٤م ، إذ أن بلدوين الآن هو الملك ، أي بؤرة الهيكل الفرنجى كله . وقد برهنت قدرته الإدارية على بقاء الهيكل قائماً ، إذ واصل جيوفري الراهب تدبير حكومة الرها ، وعندما وصلت الانباء أنطاكية، عاد البطريق برنارد فجعل من نفسه السلطة المسؤولة مرة أخرى . وفى القدس ، أشيع أولاً أن الملك قتل ، فقام البطريق جورموند باستدعاء مجلس المملكة للانعقاد فى عكا . وعندما حان وقت انعقاده انجلت حقيقة وقوعه فى الأسر . وانتخب المجلس أيوستاس حارنييه ، لورد قيسارية وصيدا، كي يعمل نائباً ووكيلاً عن المملكة إلى حين تخليص الملك . وسارت الحياة الادارية فى الأراضى الثلاث دونما عائق^(٤٠).

واكتسب الأمير بلك مكانة عليا ، غير انه لم يستغلها فى توجيه ضربة قاضية إلى الفرنج، وإنما استخدمها فى ترسيخ نفسه فى حلب . وكان ذلك عملاً أصعب مما كان يتوقع لأنه لم يكن محبوباً هناك . وأصبح سيدها فى يونية ، ثم هاجم الممتلكات الفرنجية الواقعة أكثر إلى الجنوب ، وما أن استولى على البارة فى شهر اغسطس حتى اضطر إلى التوجه شمالاً مرة أخرى إثر أنباء جاءته من خرتبرت^(٤١).

(٣٩) Fulcher of Charters, III, xvi, 1, pp. 658-9; William of Tyre, XII, II, p. 537; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. IV, p. 247; Matthew of Edessa, ccxxv, pp. 307-8; Ibn al-Qalanisi, p. 167; Ibn al-Athir, p. 352.

(٤٠) Fulcher of Chartres, III, xvi, 1-3, pp. 659-61; William of Tyre, XII, 17, p. 538.

(٤١) Keman ad-Din, pp. 636-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 167-8. عن استيلاء بلك على حلب انظر.. Cahen, op.cit. p. 296 n.35.

ذلك أن جوسلين كان محبوبا دائما من الأرمن . وبعد وصوله إلى الشرق سرعان ما حذا حذو بلدوين الأول وبلدوين الثانى وتزوج من فتاة أرمنية هى اخت ثوروس الروبىنى، ولم تكن أرثوذكسية المولد - مثل ملكتي القدس - ولكنها كانت من أتباع الكنيسة الأرمنية المستقلة ، ومن ثم كان أغلب أبناء بلدما يتعاطفون معها تعاطفا عظيما . وقد ماتت الآن ، وتزوج جوسلين مرة أخرى ، على أن علاقته الحميمة بالارمن استمرت ، ولم يُظهر لهم قط ما أظهره سلفه بلدوين الثانى من قسوة . وكانت قلعة خرتبرت واقعة فى الاراضى الأرمنية ، ووافق فلاح أرمنى على توصيل رسالة إلى أصدقاء جوسلين الأرمن . وجاء خمسون منهم متكرين إلى قلعة خرتبرت ، وحصلوا على إذن الدخول كى يعرضوا على الحاكم مظلمة لهم باعتبارهم من رهبان وتجار المنطقة . وما أن دخلوا القلعة حتى أخرجوا أسلحتهم من طيات أردبتهم وتكاثروا على رجال الحامية . ووجد بلدوين وجوسلين فجأة أنهما أصبحا سيدين فى سجنهما . وبعد مشاور وجزى تقرر أن يغادر جوسلين القلعة ويطلب العون قبل أن يأتى الجيش الأرتقى، بينما يحاول بلدوين الحفاظ على القلعة . وتسلى جوسلين مع ثلاثة من رفاقه الارمن ، وبعدها أفلح فى التسلى خلال القوات التركية المتجمعة ، أرسل أحد رجاله عائدا ليطمئن الملك . وانطلق هو نفسه خلال ارض العدو الخطرة ، يختبئ نهارا ويتخبط ليلا فى ضجر على قدميه . واخيرا وصل الهاربون إلى نهر الفرات ، ولكن جوسلين لا يعرف السباحة ، بيد أنه كان يحمل معه قربتين من قرب النبيذ كان يحمل فيهما الماء ، فنفخ فيهما من فمه واستخدمهما كطوافتين ، وتمكن رفيقاه ، وهما من السباحين الأقوياء ، من دفعه عبر النهر فى الظلام . وفى اليوم التالى وجدتهما أحد الفلاحين الذى تعرف على الكونت ورحب به مبهجا ، إذ سبق وأن أعطاه جوسلين بعض الصدقة . وبمساعدة الفلاح وأسرته واصل جوسلين ارتحاله الحذر إلى تل بشير حيث كشف عن نفسه لزوجته وللبلاط . ولم يتوقف هناك وإنما أسرع إلى أنطاكية لجمع الجنود لانقاذ الملك . لكن جيش أنطاكية كان صغيرا، وكان البطريق برنارد عصيبا . وبناء على اقتراحه أسرع جوسلين على جواد يسابق الريح إلى القدس . وكان أول ما فعله أن قدم قيوده قربانا على مذبح كالفارى (موضع صلب المسيح). ثم استدعى بجلس الفرسان وقص عليهم قصته . وتحمس البطريق جورمون والوكيل ايوستاس فى جمع الجنود الذين انطلقوا تحت قيادة البطريق جورمون والصليب الحقيقى فى المقدمة، باتجاه تل بشير. على أنهم بوصولهم هناك سمعوا أنهم قد وصلوا بعد فوات الأوان.

ذلك أن بلك ، الذى سمع بأنباء الثورة فى خرتبرت، صعد بجيشه من الجنوب بسرعة أذهلت معاصريه . ولدى وصوله عرض على بلدوين مرورا مأمونا إلى بلده لقاء تسليم القلعة . ورفض بلدوين إما لعدم ثقته فى الأمير أو لأنه لم يشأ التخلي عن رفاقه. على أن القلعة كانت أقل مناعة مما كان يظن، إذ سرعان ما نسف مهندسو بلك جدارا اقتحمه الجيش الأرتقى . ولم يظهر بلك الآن أى رحمة ، خاصة بوجود حريمه فى القلعة وقد انتهكت حرمتهم . وحمى بكل من كان يدافع عن القلعة ، فربحى أو أرمينى وكل امرأة ساعدتهم - والراجح أن كانت هناك إماء من الأرمينيات فى الحريم - وألقى بهم من فوق أسوار القلعة ليلقوا حتفهم . ولم يسلم سوى الملك وابن أخ له ، ووالدوين . فأتيدوا إلى قلعة حران حيث الميزد من الأمان^(٤٢).

١١٢٤م : موت بلك

ولم يجازف جوسلين بالهجوم على حران . وبعد أن استغل جيشه فى غارة ناجحة فى حوار حلب، تخلى عنها وعاد إلى تل بشير . وكان بلك عاجزا بنفس القدر عن الاستفادة من الموقف . فلا يستطيع واليه على حلب إلا أن يرد على الفرنج بتحويل كنائس حلب إلى مساجد ، مما أثار ثائرة المسيحيين المحليين ، لكنهم لم يلحقوا ضررا قط باللاتين. وجاء بلك بنفسه إلى حلب لاعداد العدة لحملة جديدة . غير أنه فى أوائل ١١٢٤م تمرد عليه أمير منبج ، لكن تمرقش الأرتقى اعتقله وسحق التمرد بناء على تعليمات بلك ، على أن شقيق المتمرد ، ويدعى عيسى ، كان يحتل القلعة واستنجد بجوسلين . ولقى بلك جيش جوسلين وهزمه ، وقتل جيوفرى الراهب ، ثم انطلق إلى منبج ، وهو متلهف على حفظ النظام هناك ، بعدما تسلم استدعاء عاجلا من الجنوب، من عكا . غير أن سهما طائشا أصابه من قلعة منبج أنهى حياته يوم ٦ مايو . ومات

(٤٢) Fulcher of Chartres, III, xxiii-xxvi, 6, pp. 676-93; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. pp. 248-10. يقول فيتاليس إن الملكة مورفا الأرمينية المولدة ساعدت فى تجنيد المواطنين لانقاذ الملك . ويضيف أن السجناء أرسلوا إلى فارس لكنهم أطلق سراحهم لاحقا William of Tyre, XII, 18-20; Ibn al-Qalanisi, p. 169; الحظ توجد فجوة فى نص ابن القلانيسى، Matthew of Edessa, ccxxxvi, pp. 308-10; (ولسوء pp. 538-41; Michael the Syrian, III, p. 637; Kemal ad-Din, p. 211. وربما كان ابن اخت بلدوين هو أخو Manasses of Hierges ، ابن اخته هوديرنا (انظر ادناه ص ٢٣٣). ويقول لنا ميخائيل، الذى يسميه بار نول (Arnulf?) انه كان ابن احدى الأخوات . ويبدو ان اخت بلدوين الاخرى ، ماهالدا ، سيدة فيزى ، كان لديها ابنا واحدا ، تزوج ابنة عم له ورثة وتولى إمارة Rethel ؛ William of Tyre XII, I, pp. 511-12.

وهو يتمتع قائلاً إن موته بمثابة ضربة مميتة لكفاح الإسلام . وكان على حق، إذ كان هو الوحيد ، من بين جميع القادة الأتراك الذين جابههم الفرنج ، الذى أظهر أقصى درجات النشاط والحكمة . ولم تستمر قوة الأراتقة طويلاً بعده^(٤٣).

وفى مملكة القدس نفسها لم يترتب على غياب بلدون فى الأسر أى أثر ضار ، وإنما أغوت المصريين بغزو البلاد مرة أخرى . وفى مايو ١١٢٣م تحرك جيش مصرى كبير خارجاً من عسقلان إلى يافا . وعلى الفور قاد ايوستاس حارثيه جيش القدس للتصدى له ، وذهب معه الصليب الحقيقى ، بينما سار مواطنو القدس المسيحيون وهم حفاة الاقدام فى مواكب زياحية إلى الكنائس . وكانت جوانب الاحتياط المتصفة بالورع هذه مطلوبة ، إذ عندما واجه الفرنج المصريين عند يمينه يوم ٢٩ مايو ، استدار المصريون هارين برغم تفوقهم العددي ، تاركين معسكرهم نهبا للمسيحيين^(٤٤) وكان ذلك آخر انجازات ايوستاس الذى مات يوم ١٥ مايو . وحرباً على العادة السائدة فى المملكة ، اتخذت أرملته من فورها، وهى إيما ابنة أخت البطريق أرنولف الغنية ، زوجاً آخر هو كونت يافا ، هيو (أوف لو بواسيه) ، كى لا تحرم أرضها من مستأجر نشط . وأمر مجلس المملكة بنقل منصب وكيل المملكة (كونستابل) إلى وليم (أوف بور) أمير الجليل^(٤٥).

١١٢٣م : وصول أسطول بندقى إلى عكا

فى عام ١١١٩م ، وبعد معركة بحر الدم مباشرة ، كتب الملك بلدوين إلى جمهورية البندقية ملتسماً مساعدتها، فبرغم أن المصريين لا يمثلون خطراً جسيماً على البر ، إلا أن اسطولهم ما يزال يسيطر على غرب فلسطين . وقد عرض على البندقية فى المقابل مزايا تجارية ، وعزز البابا هذا الطلب ، وقرر الدوج (رئيس قضاة البندقية)، دومينيوكو ميشيللى ، تلبية هذا الالتماس . ومرت حوالى ثلاث سنوات قبل أن تجهز حملة البندقية .

(٤٣) Fulcher of Chartres, III, xxxi, 1-10, pp. 721-7; Orderic Vitalis, XI, 26, vol. IV, p. 260; William of Tyre, XIII, II, pp. 570-1; Matthew of Edessa, ccxi, pp. 311-12; -Kemal ad-Din, pp. 641-2; Usama, ed. Hitti, pp. 63, 76, 130; Ibn al-Qalanisi, pp. 168 9 (ولا يذكر ابن القلانيسى موت بلك).

(٤٤) Fulcher of Chartres, III, xvi, 3-xix, I, pp. 661-8; William of Tyre, XII, I, pp. 543-5.

(٤٥) Fulcher of Chartres, III, xxii, pp. 674-5; William of Tyre, loc. cit. (بواتيه) انظر ادناه ص ١٩١ . تزوج إيما قبل ابريل ١١٢٤م. (Rohrich, Regesta, p.25).

وفى ٨ اغسطس ١١٢٢ م ، أبحر من فينيسيا ما يزيد كثيرا على مئة سفينة حربية تحمل الرجال والخيول وأدوات الحصار . على أن هذا الاسطول لم يبحر مباشرة إلى فلسطين ، إذ تشاجرت فينيسيا مؤخرا مع بيزنطة بسبب محاولة من الامبراطور جون كومنينوس لتقليل مزاياها التجارية ؛ ولذا توقف البنادقة لمهاجمة جزيرة كورفو البيزنطية . وطوال نحو ستة اشهر من شتاء ١١٢٢-١١٢٣ م ، ضرب الدوج حصارا عقيما على مدينة كورفو . وفى نهاية ابريل ، جاءتهم سفينة مبحرة على عجل من فلسطين لتخبر البنادقة بكارثة الملك . فرغ الدوج الحصار على مضض ، واخذ معه اسطوله الذى لا يقهر شرقا ، ولم يكن يرقفه الا مهاجمة اية سفينة بيزنطية تقابله . ووصل ميناء عكا فى نهاية مايو وسمع أن أسطولا مصرية يبحر فى شواطئ عسقلان . فأبحر جنوبا لمقابلته ، وأرسل فى المقدمة سفنه ذات أسلحة خفيفة كى يوقع الأسطول المصرى فى كمين . ووقع المصريون فى الفخ ، إذ ظنوا أنهم سيحصلون على نصر يسير فأبحروا خارج الميناء ، ليجدوا انفسهم وقد حوصروا بين أسطولين للبنادقة يفوقانهم عدداً ، ولم تفلت بالكاد من الكارثة اية سفينة مصرية ، فالبعض غرق ، والبعض الآخر استولى عليه البنادقة ، ثم استولوا فى طريق عودتهم على اسطول تجارى قابلهم يتألف من عشر سفن مملوئة عن آخرها^(٤٦) ، وبذا تعاضم نصرهم .

وكان وجود الاسطول البندقى فرصة ثمينة ينبغى انتهازها . ودارت مناقشة حول ما إذا كان يتعين استغلال الاسطول فى الاستيلاء على عسقلان أو صور ، وهما القلعتان الاسلاميتان الباقيتان على الساحل . وأيد نبلاء يهودا مهاجمة عسقلان ، وأيد نبلاء الجليل مهاجمة صور . وأخيرا قرر البنادقة مهاجمة صور ؛ إذ أن ميناءها هو الأفضل على طول الساحل ، وهو الآن ميناء الأراضى الدمشقية الغنية ، وهو مركز تجارى أكثر أهمية بكثير من عسقلان ، ففيه مكان رسو مفتوح للسفن ، ومن حوله البلاد الداخلية الفقيرة . على أنهم أصرّوا على الثمن الذى يطلبونه . وتطاولت المفاوضات حول الشروط طوال الخريف . وفى عيد الميلاد من عام ١١٢٣ م ، استمتع القادة البنادقة بما اغدقه الصليبيون عليهم من متع القدس ، وحضروا الصلوات فى بيت لحم . وفى وقت مبكر من السنة الجديدة تم توقيع معاهدة فى عكا بين ممثلى جمهورية البندقية من ناحية ، وبين البطريق جورمون ، والوكيل وليم والمستشار باجان باسم الملك الأسير ، من ناحية اخرى . وتقضى المعاهدة بأن يتسلم البنادقة شارعاً بكنيسة ، وحمامات ومخبزا ، معفاة

(٤٦) Fulcher of Chartres, III, xx, 1-8, pp. 669-72; William of Tyre, XII, 23, pp. 546-7;

Historia Ducum Veneticorum, M. G. H. Ss. vol. xiv, p. 73

جميعاً من كل الالتزامات المألوفة ، وذلك فى كل مدينة من مدن المملكة . ولهم مطلق الحرية فى استخدام الأوزان والمقاييس الخاصة بهم فى كافة تعاملاتهم ، وليس فقط فيما بينهم ، وأن يعفوا من كافة المكوس والرسوم الجمركية فى سائر أنحاء المملكة . ولهم أن يتسلموا بيوتنا اضافية من عكا ، وثلاث كل من صور وعسقلان إذا ساعدوا فى الاستيلاء عليهما . وفضلاً عن كل ذلك ، يُدفع لهم مبلغ سنوى مقداره ثلاثمائة بيزانت عربى (ساراسانى) يضاف إلى العوائد الملكية فى عكا . وفى المقابل وافقوا على استمرارهم المعتاد فى تسديد ثلث أجور سفر الحجاج للخزانة الملكية . بل طالب البنادقة بأنه لا ينبغى للمملكة أن تخفض الرسوم الجمركية المفروضة على الرعايا الآخرين دون موافقة البنادقة . وأقسم البطريق جورمون على الإنجيل بأن الملك بلدوين سوف يؤيد المعاهدة عندما يطلق سراحه ، وهو ما حدث فى الواقع بعد سنتين ، رغم أن بلدوين رفض قبول الشرط الأخير ، الذى يعنى أن تصبح تجارة المملكة كلها خاضعة لمصالح البندقية^(٤٧) . وبعد توقيع المعاهدة تحرك الجيش الفرنجى أعلى الساحل إلى صور ، وأبحر الاسطول البندقى فى خط مواز له . وبدأ حصار صور يوم ١٥ فبراير ١١٢٤م^(٤٨) .

١١٢٤م : حصار صور

كانت صور ما تزال تابعة للخلافة الفاطمية . وكان مواطنوها فى عام ١١١٢م قد صُدموا من ضالة المساعدة التى تلقوها من مصر أثناء حصار المدينة فى العام الذى قبله ١١١١م ، مما دفعهم إلى السماح لطغتكين بأن يولّى عليها واليا من عنده ، فأرسل واحداً من أقدر قواده ، الأمير مسعود ، لكى يباشر أمور المدينة . وفى الوقت ذاته ، كانت سيادة مصر معترفاً بها ، وكان الأئمة فى المساجد يدعون على المنابر للخليفة الفاطمى ، الذى كان مطلوباً منه إرسال مساعدة بحرية منتظمة إلى المدينة^(٤٩) . وسارت الحكومة الثانية سيرا سلساً لعشر سنوات ، ويعزى ذلك بدرجة كبيرة إلى حرص الوزير الأفضل على حسن العلاقات مع طغتكين ، فهو فى حاجة إلى صداقته ضد الفرنج . لكن أحد الحشاشين اغتال الأفضل فى ديسمبر ١١٢١م فى أحد شوارع القاهرة .

(٤٧) Tafel and Thomas, I, pp. 84-9; Rhricht, *Regesta*, pp. 23-5; William of Tyre, XII, 4-5, pp. 547-53; Fulcher of Chartres, III, xxvii, 1-3, pp. 693-5.

(٤٨) Fulcher of Chartres, III, xviii, i, pp. 695-6.

(٤٩) Ibn al-Qalanisi, pp. 128-30, 142.

فرغب الخليفة الأمر ، الذى أصبح سيد نفسه أخيراً ، فى استعادة السيطرة على صور . فأرسل إليها أسطولاً عام ١١٢٢ م ، كما لو كان يقصد تعزيز الدفاع عن المدينة ، وقام أمير البحر بتوجيه الدعوة إلى حاكم المدينة مسعود ليتفقد السفن ، وعندما صعد ظهر السفينة اختطفه وأخذه إلى القاهرة . واستقبل استقبالاً حسناً هناك ، وأرسل بكل مظاهر التشريف إلى طغتكين ، الذى لم يشأ أن يثير نزاعاً حول استعادة الفاطميين للمدينة . على أنه باقتراب الفرنج من المدينة ، أعلن الخليفة الأمر عدم استطاعته أن يفعل شيئاً لانقاذ المدينة بعد تدمير أسطولها ولذا أسلم دفاعاتها إلى طغتكين الذى دفع إليها لتوه سبعمائة جندي تركي ومون لمواجهة الحصار^(٥٠).

ولم يكن يربط صور بالبر الرئيسى للبلاد سوى برزخ ضيق كان الاسكندر الأكبر قد شيده ، وكانت تحصيناتها فى حالة جيدة . على أنه كان يعيبها نقطة ضعف واحدة؛ إذ كانت مياه الشرب تأتي خلال قناة من داخل البلاد ، لعدم وجود آبار فى شبه الجزيرة . وقطع الفرنج هذه القناة فى اليوم التالى لمحيثهم ، لكن أمطار الشتاء ملأت صهاريج المدينة ، ومضى بعض الوقت قبل أن يشعر السكان بنقص المياه . واستقر الفرنج فى معسكر بين الحدائق والبساتين حيث يلتقى البرزخ بالبر الرئيسى للبلاد . وأرسي البنادقة سفنهم بمحاذاتهم ، لكنهم دائماً ما كانوا يحتفظون بقادس فى البحر لاعتراض أية سفينة قد تحاول الانبحار للدخول إلى الميناء . وكان القائد الأعلى للجيش هو البطريق جورمون ، وكان يثير الانطباع بأن لديه من السلطة أكثر مما لدى الوكيل (الكونسابل) . وكان كونت طرابلس ، عندما جاء بجيشه للانضمام إلى القوات المحاصرة ، قد أبدى استعداداً لأن يطيع البطريق فى كل شئ ، وهذا تنازل ربما لم يكن يمنحه لوليم (أوف بور)^(٥١).

وتواصل الحصار طوال الربيع وأوائل الصيف . ودأب الفرنج على قصف منتظم للأسوار عبر البرزخ من آلات أحضر البنادقة مواد صنعها . وكان المدافعون عن المدينة من جانبهم مجهزين جيداً برجمات الحجارة والنيران الاغريقية التى كانوا يطلقونها على مهاجميهم . وحاربوا حرباً رائعة ، غير أن أعدادهم الضئيلة لم تكن تسمح لهم بمحاولات الخروج . وخشية أن يجبرهم الجوع والعطش ونقص الرجال على التسليم ، تسلل

(٥٠) Ibid. pp.165-6, 170-1; Ibn al-Athir, pp. 356-8.

(٥١) Fulcher of Chartres, III, xxviii, I-xxx, 13, pp. 695-720 وقد أورد استطراداً طريلاً حول تاريخ صور)؛ William of Tyre, III, 7, p. 565.

رسلهم خارج المدينة لحث طغتكين والمصريين على الاسراع لنجدتهم . فقام جيش مصرى بهجوم مضلل على القدس نفسها ، ووصل إلى ضواحي المدينة المقدسة . غير أن مواطينها وتجارها ورجال الدين والقساوسة أسرعوا إلى أعلى أسوارها الضخمة ، ولم يجازف القائد المصرى بمهاجمتها . وسرعان ما قام جيش مصرى آخر بنهب المدينة الصغيرة بلين أو (ماهومرى La Mahomerie) ، على مبعده أميال قليلة شمال القدس ، وقتل سكانها . على أن هذه الغارات المنفردة لا تنفذ صور . بل كان طغتكين أقل حماساً فى مساعدتها ، وعندما بدأ الحصار تحرك بجيشه إلى بانياس عند منبع نهر الأردن منتظراً أخبار وصول أسطول مصرى يستطيع أن ينسق معه هجومه على المعسكر الفرنجى ، ولكن لم يبحر أسطول مصرى أعلى الساحل ، إذ لم يستطع الخليفة أن يجمع أسطولا . وكان الفرنج يخشون هذا التلاقى بين القوات البحرية والبرية المعادية ، ولذا بقى الاسطول البندقى لعدة أسابيع خارج صور ليعترض المصريين ، وأرسل البطريق جيشاً كبيراً على رأسه بونز أمير طرابلس وويلم (أوف بور) لمقابلة طغتكين . وعندما وصلوا بانياس ، قرر طغتكين عدم المجازفة بمعركة وانسحب إلى دمشق . والآن بات الأمل الوحيد للمحاصرين فى صور هو بلك الأرتقى ، الذى اشتهر بأنه أسر الملك وأزمع بلك أن يخف لنجدتهم ، لكنه قتل فى منبج فى شهر مايو .

وبنهاية شهر يونية أصبح الوضع داخل صور باعثاً على اليأس . إذ أخذ الطعام والشراب فى التناقص وسقط الكثير من رجال الحامية . وأيقن طغتكين من أن المدينة سوف تستسلم لا محالة ، فأرسل إلى معسكر الفرنج يعرض استسلام المدينة بالشروط المعتادة ، بأن يُسمح للسكان الراغبين فى مغادرة المدينة بالرحيل الآمن مع منقولاتهم ، ويحتفظ من يرغب فى البقاء بحقوق المواطنة . وقبل القادة الفرنج والبنادقة هذا العرض ، برغم ما بدا على الجنود والبحارة من غيظ شديد لدى سماعهم بأنه لن يكون هناك سلب ونهب ، وهددوا بالتمرد . وفى ٧ يولية فتحت البوابات واستولى الجيش الفرنجى على المدينة ، ورفعت راية الملك على البوابة الرئيسية ، ورايتا كونت طرابلس والدوج البندقى على البرجين الراقعين يمين ويسار البوابة الرئيسية . والتزم القادة بكلمتهم ، فلم يحدث سلب ، ومر موكب طويل من المسلمين فى سلام خلال المعسكر الصليبي . وهكذا انتقلت آخر مدينة اسلامية ساحلية واقعة شمال عسقلان إلى المسيحيين ، وعاد جيشهم مبتهجا إلى القدس ، وأبحر البنادقة عائدين إلى فينيسيا بعدما حصلوا على رطل

اللحم^(٥٢) الخاص بهم^(٥٣).

١١٢٤م : فدية الملك بلدوين

وصلت الأنباء السارة الملك بلدوين في شيزر . فبعد موت بلك ، انتقلت مسؤولية حبس الملك إلى تمرناش بن ايلغازي ، الذي لم ترقه المسؤولية وفضل فكرة الحصول على فدية سخية . فطلب من أمير شيزر الدخول في مفاوضات مع الفرنج . ورحلت الملكة مورفيا إلى الشمال لتكون أقرب ما يمكن من زوجها ، وقامت هي والكرونت جوسلين بترتيب الشروط مع الأمير . وكانت الفدية المطلوبة باهظة . فكان على الملك أن يسدد لتمرناش ثمانين ألف دينار ، وكان عليه التخلي عن مدن أتاب ، وزردنا وعزاز وكفرطاب والجزر ، لتصبح مدنا تابعة لحلب - حيث خلف تمرناش سلطة بلك ، وعليه أيضا مساعدة تمرناش في اخضاع زعيم البدو دويس بن صدقة ، الذي استقر في الجزيرة . وينبغي له أن يدفع عشرين ألف دينار مقدما ، ويتم الاحتفاظ برهائن في شيزر لحين دفع المبلغ المتبقى ، وما أن يتسلم المسلمون المبلغ يطلق سراح بلدوين . وعن الرهائن ، طلب تمرناش أصغر أطفال الملك ، الأميرة جوفيتا ذات السنوات الأربع ، وابن جوسلين ووريثه ، صبي في الحادية عشرة من عمره ، وعشرة من أبناء النبلاء . ولكي يظهر الأمير سلطان شيزر حسن نواياه ، أرسل بعض افراد أسرته إلى حلب . وفي نهاية يونية ١١٢٤م ، غادر بلدوين حران على جواده الصوأل الخاص به الذي كان تمرناش قد احتفظ له به ، ومعه هدايا كثيرة ثمينة . وذهب إلى شيزر ، حيث أكرم أميرها وفادته لاعفائه قبل ذلك بخمس سنوات من الأموال المستحقة على شيزر لأنطاكية ، وقابل ابنته ورفاقها الرهائن . وبوصولهم سُمح له بالانطلاق إلى انطاكية التي وصلها في الأيام الأخيرة من شهر اغسطس^(٥٤).

(٥٢) (المترجم) إشارة الى مسرحية شكسبير " تاجر البندقية " فليرجع اليها من شاء.

(٥٣) Fulcher of Chartres, III, xxxii, i-xxxiv, 13, pp. 728-39, (يوجه اللوم ظلما الى أبناء انطاكية لعدم تعاونهم) William of Tyre, XIII, 13-14, pp. 573-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 170-2 giving the date; Ibn al-Athir, pp. 358-9 ٩ يولية Abu'lFeda, pp. 15-16 يحدد التاريخ ٥ يولية؛ Matthew of Edessa, ccxlv, p. 314.

(٥٤) Usama, ed. Hitti, pp. 133, 150; Kemal ad-Din, pp. 643-4; Matthew of Edessa, ccxli, pp. 312-13 ويذكر ماثيو الأروفي ان جوسلين والملكة قاما بترتيب الفدية ، و اضاف ان تيمورناش قتل واليران وابن اخ الملك - والراجع ان سبب ذلك ان الملك خان شروط فديته (Michael the Syrian, III, pp. 212-225, وفي الموائيق سُميت جوفيتا Joveta بأسماء مختلفة. Yvette, Ivetta or Juditta.

والآن ، وبعد أن نال بلدوين حريته ، خان الشروط التي قبلها . فقد أكد له البطريق برنارد انه ليس سوى الوصى على انطاكية وسيدها، وليس من حقه التنازل عن اراضيها التي تنتمي إلى الشاب بوهمند الثاني . واقتنع بلدوين عن طيب خاطر بالحجة وأرسل يخبر ثمرتاش بعميق الاعتذارات انه لسوء حظه البالغ لا يستطيع عصيان البطريق . وكان ثمرتاش مهتماً بتسلم المال أكثر من اهتمامه بالأرض ، فغفر الاساءة خشية ضياع باقي الفدية . ولما وجد بلدوين أن ثمرتاش على هذا القدر من الازعان ، لم يحترم شرطه الآخر الذي بموجبه وعد بمساعدته ضد الأمير البدوي ديبس بن صدقة ، وبدلاً من ذلك استقبل سفارة من ديبس للتخطيط لعمل مشترك ضد حلب . وولد التحالف بينهما . وفي اكتوبر انضم جيشا انطاكية والرها إلى رجال ديبس الأعراب أمام أسوار حلب . وسرعان ما تعزز هذا التحالف بمقدم المطالب بعرش حلب إلى معسكرهم ، سلطان شاه (بن رضوان) ، الذي هرب مؤخراً من سجن الاراتقة ، مع ابن عمه طغرل ارسلان ، اخي سلطان سلاجقة الروم ، وكان الدانشمند قد أخرجوه مؤخراً من ملطية فراح يبحث عن حلفاء.

ولم يبذل ثمرتاش أية محاولة للدفاع عن حلب . إذ كان أخوه سليمان صاحب ميافارقين يقضى آخر أيامه ، وأراد ثمرتاش أن يستوثق من الميراث ، فمكث في ماردين تاركاً وجهاء حلب يقاومون قدر استطاعتهم ، فقاوموا لثلاثة اشهر كان الرسل خلالها يأتونه فيسئ استقبالهم ، إذ لا رغبة لديه في أن يسبوا له مزيداً من المضايقة ، فتوجهوا إلى الموصل وأثاروا اهتمام أتابجها ، آقسنقر البرسقى ، الذي سبق وأن قاد جيوش السلطان ضد الفرنج عام ١١١٤ م . وكان البرسقى يكره الأراتقة ، فأرسل قادة من عنده لاستلام قلعة حلب بينما انطلق هو نفسه مع الجيش ، برغم مرضه ، تشييعه بركات السلطان . وعندما اقترب من حلب أمر خيرخان صاحب حمص ، وطغتكين صاحب دمشق بالانضمام اليه، فأرسل كلاهما الكتائب . وقبل استعراض القوة هذا ، كان التحالف الفرنجي - البدوي قد تفكك . إذ رحل ديبس مع قبيلته باتجاه الشرق ، بينما انسحب بلدوين إلى قلعة الأتارب . وفي نهاية يناير دخل البرسقى حلب، لكنه لم يحاول مطاردة الفرنج فعاد الملك إلى انطاكية ومنها إلى القدس التي وصلها في ابريل ١١٢٥ م بعد غيبة عامين^(٥٥).

(٥٥) Fulcher of Chartres, III, xxxviii-xxxix, 9, 2, pp. 751-6; William of Tyre, XIII, 15, pp. 576-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 172-3; Kemal ad-Din, pp. 645-50; Usama, ed. Hitti, p. 133; Matthew of Edessa, ccxiv, pp. 314-15.

١١٢٥م : معركة عزاز

ولم ينتظر الملك طويلا فى القدس . إذ كان البرسقى أكثر رعبا للفرنج من الأراتقة . فقد تمكن من توحيد مسلمى شمال سوريا تحت سلطته لكونه سيد الموصل وحلب ، ويحظى بموازة السلطان ، وخضع طفتكين وأمير حمص لزعامته . فى شهر مارس قام بزيارة شيزر ، التى كان أميرها ، سلطان بن منقذ ، تواقا دائما لمصادقة ذوى الشأن ، فسلمه الرهائن الفرنج ، الأميرة يوفيتا وجوسلين الصغير ورفاقهما . وفى شهر مايو ، قاد تحالفا اسلاميا جديدا وهاجم القلعة الفرنجية كفرطاب واستولى عليها ، وحاصر زردنا . فأسرع بلدوين شمالا لانقاذ زردنا ، وقاد جيوش أنطاكية وطرابلس والرها فبلغ قوامها ألف ومائة فارس وألفين من جنود المشاة . وانطلق المسلمون إلى عزاز حيث حرت فى نهاية شهر مايو واحدة من أكثر المعارك تعطشا للدماء فى تاريخ الحملات الصليبية . فحاول المسلمون النزال رجل لرجل ، معتمدين على تفوقهم العددي غير أن تفوق لباس الحرب وضخامة ابدان الفرنج كان فوق طاقة المسلمين ، فهزموا هزيمة حاسمة . ومن الغنائم الكثيرة تمكن بلدوين من جمع مبلغ ثمانين الف دينار المطلوبة لفدية الرهائن ، إذ تخلى كل فارس عن جزء من نصيبه لانقاذ ابنة الملك . ورغم أن المال كان من حق ثمرتاش فى الواقع ، إلا أن البرسقى قبله وأعاد الرهائن . وأرسل مبلغ آخر إلى شيزر لافتداء السجناء والرهائن الذين كانوا ما يزالون هناك . وفور اطلاق سراحهم هاجمهم أمير حمص ، غير أن بنى منقذ سارعوا لانقاذهم وارسلوهم إلى حيث يتخذون طريقهم .

وبعد المعركة ابرم المتقاتلون هدنة . فاحتفظ المسلمون بكفرطاب التى أعطيت لأمير حمص ، ولم تكن هناك تغييرات أخرى على الأرض . وبعد أن ترك البرسقى حامية فى حلب عاد إلى الموصل . وحل السلام على الشمال طوال ثمانية عشر شهرا^(٥٦) .

وعاد بلدوين إلى فلسطين ، حيث قام فى خريف ١١٢٥م بغارة على الأراضى الدمشقية ، ومظاهرة عسكرية لاستعراض القوة أمام عسقلان . وفى يناير ١١٢٦م قرر قيادة حملة جادة ضد دمشق ، وغزا حوران . فجاءه طفتكين لملاقاته ، وتلاقى الجيشان عند تل الشقب ، حوالى عشرين ميلا جنوب غرب دمشق . ومال ميزان الحرب لصالح

(٥٦) -Fulcher of Chartres, III, xlii, i-xliv, 4, pp. 761-71; William of Tyre, XIII, II, pp. 578 80; Sigebert of Gembloux, M.G.H.Ss. vol. VI, p. 380; Kemal ad-Din, p. 651; Bustan, p. 519; Usama, loc. cit.; Matthew of Edessa, ccxlvii, pp. 315-18; Michael the Syrian, III, p.221.

المسلمين أول الامر ، وتمكنت فصيلة التركمان التابعة لطغتكين من التوغل حتى المعسكر الملكي . لكن بلدوين فاز في النهاية وطارد الأعداء حوالي نصف المسافة باتجاه دمشق ، غير أنه نظرا لخسائره الجسيمة رأى الحكمة في التخلي عن الحملة وانسحب إلى القلس محملا بالغنائم^(٥٧).

وفي مارس ١١٢٦م هاجم بونز أمير طرابلس القلعة الاسلامية رافنية التي تتحكم في مدخل البقاع من وادي نهر العاصي . وهي هدف فرنجي منذ وقت طويل ، منذ أن استولى عليها طغتكين عام ١١٠٥م . وبينما استنجد حاكمها بطغتكين والبرسقي ، طلب بونز مساعدة الملك بلدوين . وسارع الأميران المسيحيان بالسير إلى القلعة ، قبل أن يتهايا المسلمون للمجئ لانقاذها بوقت طويل . فاستسلمت لهما بعد حصار دام ثمانية عشر يوما . وكان الاستيلاء عليها ذا قيمة عظيمة للفرنج ، فزيادة على أنها بمثابة حماية لطرابلس نفسها ، أصبحت تؤمن طرق المواصلات بين القلس وانطاكية^(٥٨).

وفي تلك الأثناء أعاد المصريون بناء اسطولهم . وفي خريف ١١٢٦م أبحر الاسطول من الاسكندرية لمهاجمة الساحل المسيحي . ولما سمع البرسقي بذلك راح يخطط لهجوم متزامن في الشمال فحاصر الأتارب . وكان بلدوين على حق عندما قرر أن الهجوم الأخير هو الأخطر فأسرع إلى أنطاكية. وما حدث في واقع الأمر أن المصريين قاموا بغارات على ضواحي بيروت ثم وجدوا المدن الساحلية محصنة جيدا بالحاميات حتى أنهم سرعان ما عادوا إلى النيل^(٥٩). وفي الشمال ، انضم جوسلين إلى بلدوين وأجيرا المسلمين على الانسحاب من الأتارب ولم يجازف أي من الجانبين بالدخول في معركة . وسرعان ما أعيد ابرام الهدنة . وعاد البرسقي إلى الموصل بعد أن نصّب ابنه عز الدين مسعود حاكما على حلب . وفي نفس يوم وصوله ، ٢٦ نوفمبر ، طعنه أحد الحشاشين طعنات قاتلة^(٦٠).

(٥٧) -Fulcher of Chartres, III, xlvi, 1-7, 1, 1-15, pp. 772-4, 784-93; William of Tyr, XIII, 17, 18, pp. 581-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 574-7.

(٥٨) Fulcher of Chartres, III, li, 4, lii, 1, pp. 795-7, 798-9; William of Tyre, XIII, 19, pp. 585-6; Ibn al-Qalanisi, p. 180; Kemal ad-Din, p. 652.

(٥٩) Fulcher of Chartres, III, lvi, 1-5, pp. 803-5; William of Tyre, XIII, 20, pp. 587-8.

(٦٠) Fulcher of Chartres, III, lv, 5, pp. 802-3; Ibn al-Qalanisi, pp. 177-8; Kemal ad-Din, pp. 653-4.

وتسبب موت البرسقى فى فرضى عارمة بين المسلمين ، زادت سوءاً بموت ابنه مسعود بعده بأشهر قليلة ، ربما بالسّم ، خاصة وأنه قد تشاجر مع طغتكين . وأما حلب فتجاذبتها أيدي كثيرة . إذ كانت تتأرجح بين طومان ، الذى عينه مسعود ، وضلع أبه ، وهو مملوك أرسله السلطان ، وبدر الدولة سليمان الأرتقى ، وابن رضوان ابراهيم السلجوقى^(٦١) .

١١٢٦م : وصول بوهمند الثانى

وفى نفس الوقت على وجه التقريب تنفس بلدوين الصعداء بعد أن استراح من وصايته على انطاكية . ذلك أن بوهمند الثانى الصغير بلغ من العمر الآن ثمانية عشر عاماً ، وها هو قد أتى ليتسلم ميراثه ، بعد أن تخلّى عن أراضيه فى ايطاليا لابن عمه روجر الثانى الصقلّى . وقد أبحر من أوترانتو فى شهر سبتمبر ١١٢٦م مع أسطول صغير يتألف من أربع وعشرين سفينة تحمل عدداً من الجنود والجياد . ونزل إلى شاطئ السويدية فى وقت مبكر من أكتوبر ، وسار مباشرة إلى انطاكية حيث رحب به الملك بلدوين بكل مظاهر التشريف ، وقد ترك انطباعاً رائعاً ، إذ كان له مظهر ابيه الفخيم ، بهيئته الطويلة وشعره الأشقر ووسامته ، وظهر جواً من التنشئة الرفيعة اكتسبه من أمه كورنستانس ابنة الملك فيليب الأول الفرنسى . وفى الحال سلمه الملك بلدوين الإمارة بكل ممتلكاتها ، وبكل ما كان يتصف به من دقة وأمانة ، وقد تأثر سفير شيزر عميق التأثير عندما رأى الملك منذاً أنذاك يدفع للأمير ما كانت تستهلكه جياد جيش القدس . وكان بصحبة الملك ابنته الثانية ، الأميرة أليس ، وتنسيقاً للخطبة المرسومة سلفاً تزوجها بوهمند الثانى . وبدأ بوهمند عهده بداية لامعة ، بهجوم على كفرطاب فاستعادها من أمير حمص ، وسرعان ما نسمع بعد ذلك بشجاعته فى مناقشات مع جيش شيزر^(٦٢) .

واستطاع الملك بلدوين أخيراً العودة جنوباً وهو يشعر أن موت البرسقى وبجئ

(٦١) Ibn al-Qalanisi, pp. 181-2; Kemal ad-Din, p. 654; Michael the Syrian, III, p. 225.

(٦٢) Fulcher of Chartres, III, lvii, 1-4, lxi, 1-5, pp. 805-9, 819-22 وتحدث الفصول التى

توسط تاريخ فولشر عن مخاطر البحر المتوسط وأنواع الثعابين التى توجد على شواطئه. وبعد فصل

آخر حول طاعون الفئران عام ١١٢٧م ، ينتهى تاريخ فولشر (William of Tyre, XIII, 21, pp. 588-9; Orderic Vitalis, XI, 9, vol. IV, p. 266; Matthew of Edessa, ccl. p. 319) ويقول

ماتيو الأورفى أن بلدوين وعد بوهمند باستخلافه على عرش القدس، Michael the Syrian, III, p. 224; Usama, ed. Hitti, p. 159.

بوهمند سوف يتبع له حرية تدبر مملكته . فأمضى سنة ١١٢٧م فى سلام دائم حتى اننا لا نعرف شيئا عن تحركاته ، باستثناء حملة قصيرة شرقى البحر الميت فى شهر اغسطس (٦٣) . وفى باكورة ١١٢٨م مات صديقه المخلص البطريق جورمون . وخلفه قس فرنسى آخر هو ستيفن (اوف لا فيرتيه) رئيس دير القديس جون إنفاليه فى تشارترز ، وهو نبيل المولد ، تربطه قرابة بالملك بلدوين . وكان بلدوين يأمل فى أن تؤدى روابط القرابة إلى التعاون بروح الود ، لكنه سرعان ما اكتشف انه كان واحدا . ذلك أن البطريق الجديد جدد فى الحال مسألة الاتفاق الذى سبق وأن عقده جودفرى مع البطريق ديامبرت . فطالب بأن تكون يافا ملكية ذاتية للبطريرقية ، وذكر الملك بأنه فور أن يتم الاستيلاء على عسقلان ، فلا بد أن تسلم اليه القلنس نفسها . ورفض بلدوين الانصات لتلك الطلبات ، لكنه لم يدر كيف يعالجها . وساءت العلاقات بين البلاط الملكى والبطريرقية طوال عام ١١٢٩م . وفى أوائل ١١٣٠م ، اوشكت الأزمة أن تصبح علنية ، لولا أن مات ستيفن بعد فترة مرض قصيرة . وارتاب أصدقاؤه فى السم . إذ عندما جاء الملك لزيارة البطريق المحتضر والاستفسار عن صحته علق هذا الأخير بمرارة : "سيدى ، ها أنا مفارق كـرغبتك" . وحقا ، كان موته شيئا مرغوبا . وتدبر بلدوين انتخاب خلفه وليم (اوف ميسينا) رئيس دير القبر المقدس ، وهو رجل شديد الورع والطيبة ، برغم شئ من البساطة وسوء التعليم . ولم تكن لديه طموحات سياسية ، وكانت سعادته فى إنفاذ مشيئة الملك . ونتيجة لذلك غدا محبوا من الجميع (٦٤) .

١١٢٨م : الإستخلاف على العرش

كان الأمر الثانى الهام أن يرتب بلدوين خلافة العرش . إذ لم تلد له الملكة مورفيا ذكورا ، وانما كان هناك أربع بنات : ميليسند ، وأليس ، وهوديرنا ، ويوفيتا . والآن أصبحت أليس أميرة انطاكية ، واما هوديرنا ويوفيتا فكانتا طفلتين . وتقرر أن تخلفه ميليسند بعد اقترانها بزواج مناسب . وفى ١١٢٨م ، وبعد أن استشار مجلسه ، ارسل وليم (اوف بور) ، ومعه لورد بيروت ، جوى بريسبار إلى فرنسا ملتصبا من ملك

(٦٣) Ibn al-Qalanisi, p. 182.

(٦٤) William of Tyre, xiii, 25-6, pp. 594-5, 598; (أوف مالينز of Malines) وأما ميسينا Messines فهي تقع فى غرب فلاندرز.

فرنسا لويس السادس أن يختار من بين النبلاء الفرنسيين رجلا مناسباً لهذا المقام الرفيع . ورشح الملك كونت أنجو ، فولك الخامس ، الذى كان فى الأربعين من عمره ، وهو ابن فولك الرابع ، ريشين ، ومن زوجته برترادا (أوف مونت فورت) ، والتى اشتهرت بعلاقة الزنا مع الملك فيليب الأول ملك فرنسا . وكان فولك رئيس عائلة عظيمة قامت خلال العقود الماضية ببناء واحدة من أغنى الثروات الاقطاعية الهائلة فى فرنسا ، وأضاف إليها هو نفسه اضافات كثيرة عن طريق الحرب ، والزواج ، والدسائس . وفى نفس ذلك العام حقق نصرا عائليا بتزويج ابنه الصغير ووريثه ، جيوفرى ، من الاميرة الأرملة ماتيلدا ، وهى الابنة الوحيدة التى بقيت على قيد الحياة من هنرى الأول الإنجليزى ووريثه انجلترا ونورماندى . وفولك الآن أرمل ، وقد قرر أن يتخلى عن اراضى العائلة لابنه ، ويكرّس نفسه لخدمة الصليب . وقد سبق وان ذهب إلى القدس حاجا عام ١٢٠١م ، ولذلك كان بلدوين يعرفه معرفة شخصية . ولما كان مرشحا مرموقا هكذا ، ويحظى بتأييد ملك فرنسا ، وموازرة البابا هونوريوس الثانى ، فقد قبله الملك بلدوين بمشاعر الغبطة ، وكان تواقا لأن تحوز ترتيبات الاستخلاف استلطف النبلاء فى مملكته ، فمن المستحيل على أيّ من هؤلاء النبلاء أن يجادل فى مزايى هذا الأمير المحارب ، الذى يتميز بهذه الرفعة ، وزوج كبرى كريمات الملك .

غادر فولك فرنسا فى اوائل الربيع من عام ١١٢٩م ، يصحبه وليم (أوف بور) وجوى بريسبار . ونزلوا إلى البر فى عكا فى شهر مايو وتوجهوا إلى القدس . وهناك ، وفى اواخر الشهر ، تزوج فولك وميليسند فى حفول عظيمة مبهجة . وقد حاز هذا الترتيب قبول البلد بأسره ، ربما باستثناء واحد . إذ أنه لم يحرك ساكنا لدى الاميرة ميليسند نفسها ، بقامته القصيرة ، ونحافته ، وشعره الأحمر ، وعمره الوسط ، والذى فرضته عليها فرضا مزاياه السياسية (٦٥) .

(٦٥) William of Tyre, XIII, 24, p. 593, XIV, 2, p. 608; Halphen et Poupardin, *Chroniques des Comtes d'Anjou, Gesta Ambaziencium Dominorum*, p. 115 and *Gesta Consulum Andegavorum*, pp. 69-70. كان فولك قد تزوج Guiberga أو Arenburga ، وريثة Maine ، وواصل الحرب ضد هنرى الأول الإنجليزى بسبب ميراثها. وقد انتهت المشكلة بزواج ابنه جيوفرى (١٧ يونيو ١١٢٨م) من الاميرة ماتيلدا وكانت ابنته سيبلا قد تزوجت من Thierry أوف الزاس ، كونت فلاندرز. وقد حج بالفعل إلى القدس عام ١١٢٠ (وليم الصورى ص. ٦٠٨). ويرد خطاب البابا هونوريوس الثانى إلى بلدوين الذى يطريه فيه ، فى Rozière, *Cartulaire du Saint Sèpulcre*, pp. 1718.

١١٢٦ م : الحشاشون فى بانياس

شرع بلدوين فى عام ١١٢٩ م بمساعدة فولك فى اضخم مشاريع عهده كله ، ألا وهو غزو دمشق . فقد مات طغتكين صاحب دمشق يوم ١٢ فبراير ١١٢٨ م ، وكان لسنوات كثيرة سيد المدينة بكل مافى السيادة من معنى ، واكثر شخصيات المسلمين احتراماً فى غربى سوريا^(٦٦) . وقبل ذلك بوضع سنوات تمكن أحد زعماء الحشاشين ، وهو باهرام من استرأباد ، من الهرب من فارس وذهب إلى حلب ، ورسخ نفسه قائداً للحركة الاسماعيلية السرية فى شمال سوريا . ورغم ما كان يلقاه من مساندة ايلغازى ، كان ابناء حلب يمتقنون هذه الطائفة ، وأجبر باهرام على النزوح من حلب ، قادماً إلى دمشق وهو يعول على التوصية التى منحها اياه ايلغازى ، فاستقبله طغتكين استقبالا حسناً . واستقر هناك ، واخذ يجمع المناصرين من حوله شيئاً فشيئاً ، وفاز بتعاطف المزدقانى وزير طغتكين . وتعاضمت قوة الطائفة مع انكار أهل دمشق السنين ، ولذا طلب باهران الحماية من المزدقانى . ونزولاً على طلب الوزير ، قام طغتكين فى نوفمبر ١١٢٦ م بتسليم الطائفة القلعة الحدودية بانياس - الواقعة تحت تهديد الفرنج - وبذا باتت الآمال تراود طغتكين فى استغلال نشاطات الطائفة . وأعاد باهرام تحصين القلعة وجمع حوله كل اتباعه ، وسرعان ما بدأوا يرهبون الجوار . أما طغتكين ، الذى كان ما يزال يوفر لهم الحماية من الناحية الرسمية ، فقد أزمع القضاء عليهم ، لكن المنية عاجلته قبل أن تسنح له الفرصة . وبعد ذلك بأشهر قليلة قتل باهرام فى صدام مع قبيلة عربية بالقرب من بعلبك كان باهرام قد قتل شيخها . وتولى من بعده فارسى آخر يدعى اسماعيل^(٦٧) .

وخلف طغتكين ، كأتابج دمشق ، ابنه تاج الملك بورى ، الذى عقد العزم على أن يخلص نفسه من الحشاشين . واتخذ خطوته الاولى فى سبتمبر ١١٢٩ م ، بأن قتل فجأة راعى الطائفة ، الوزير المزدغانى ، بينما كان حاضراً المجلس فى الايوان الوردى فى دمشق . وفى التو اندلعت فى دمشق أعمال الشغب ، التى كانت من دبير بورى ، وقتل كل من وقعت عليه الايدى من الحشاشين . وفى بانياس ، شعر اسماعيل بالخطر ، فبدأ مفاوضات مع الفرنج لكى ينقذ شيعته .

وكانت هذه هى الفرصة التى ينتظرها الملك بلدوين . إذ انه لدى سماعه بموت

(٦٦) Ibn al-Qalanisi, pp.183-6; Ibn al-Athir, pp.317-18

(٦٧) Ibn al-Qalanisi, pp. 179-80, 187-91; Ibn al-Athir, pp. 382-4.

طفتكين ، أرسل هيو (أوف باين) ، وهو السيد الأعظم لفرسان المعبد ، إلى أوروبا لتجنيد الجنود هناك معلنا أن دمشق باتت الهدف . وعندما جاءته رسل اسماعيل ، شرع جنود الفرنج في استلام بانياس من الحشاشين ، وبدأوا يعدون العدة كي يستقر بها اسماعيل وطائفته في داخل الاراضى الفرنجية . وهناك مرض اسماعيل بالدوستاريا ، ومات بعد ذلك بأشهر قليلة وتفرق أتباعه^(٦٨) ، وجاء بلدوين نفسه إلى بانياس في أوائل نوفمبر على رأس جيش القدس كله الذى زاد ضخامة بوصول الوافدين الجدد من الغرب . وتقدم دون مقاومة جادة وعسكر عند الجسر الخشبي ، الذى يبعد نحو ستة أميال جنوب غرب دمشق . وحشد بورى جيشه قبالتهم والمدينة من خلفه . ولم يتحرك أي من الجيشين لعدة ايام ، وفي تلك الأثناء أرسل بلدوين فصائل تتألف أساسا من الوافدين الجدد ، تحت قيادة وليم (أوف بور) لجمع الطعام والمواد قبل أن يجازف بمحاصرة المدينة . على أن وليم لم يستطع السيطرة على رجاله الذين كان اهتمامهم منصبا على السلب والنهب أكثر من اهتمامهم بجمع المون بطريقة منظمة . وعلم بورى بذلك . وفي باكورة احد الأيام المتأخرة من نوفمبر ، انقض فرسانه التركمان على وليم وهو على بعد عشرين ميلا جنوب المعسكر الفرنجى . وحارب الفرنج بشدة ، لكنهم غلبوا ، ولم يسلم منهم سوى وليم نفسه وخمسة وأربعين من رفاقه بقوا على قيد الحياة ليخبروا الملك بما حدث^(٦٩).

وقرر بلدوين السير في التو لملاقاة الاعداء وهم يحتفلون بنصرهم ، وأعطى الأمر بالتقدم . وفي تلك اللحظة بدأت الأمطار تهطل بغزارة السيول الجارفة ، واستحال السهل إلى بحر من الطمي ، ونشأت أنهار عميقة قطعت الطرق بعرضها . وفي مثل هذه الظروف يكون الهجوم مستحيلا . وأصيب الملك بخيبة أمل مريرة ، فتخلى عن أية فكرة لمواصلة الحصار . وانسحب الجيش الفرنجى انسحابا بطيئا وانما في نظام مشلى إلى بانياس ، ومنها إلى داخل فلسطين ، حيث تفرق الجيش^(٧٠).

(٦٨) Ibn al-Qalanisi, pp. 191-5; Ibn al-Athir, pp. 384-6.

(٦٩) Ibn al-Qalanisi, pp. 195-8.

(٧٠) William of Tyre, XIII, 26, pp. 595-7; Ibn al-Qalanisi, pp. 198-200.

١١٢٧م : نزاع بين بوهمند الثانى وجوسلين

أسهمت أحداث الشمال فى اشتداد قسوة الشعور بخيبة الأمل . إذ كان بلدوين يأمل فى أن ينتهز بوهمند الثانى وجوسلين ما عمّ حلب من فوضى ويستوليا أخيراً على المدينة الإسلامية العظيمة . على أنه بالرغم من نجاح غارات كل منهما على أراضى حلب فى خريف ١١٢٧م ، كان التعاون بينهما بعيداً ، فكل منهما غيور من صاحبه . وكان جوسلين بهدنة مع البرسقى ، قد حصل على مقاطعات كانت أنطاكية تحتلها لفترة من الزمن . وما هو أسوأ ، أن ماريا زوجة جوسلين الثانية ، أخت روجر أمير أنطاكية ، كانت قد حصلت على وعد بأن يكون مهرها مدينة عزاز ، بينما اعتبر بوهمند أن روجر لم يكن سوى الوصي باسمه ولا حق له فى أن يهب أرضاً أنطاكية . ورفض الاتفاق ، مما دفع جوسلين إلى توجيه جنوده بمساعدة المرتزقة الأتراك للاغارة على القرى الأنطاكية القريبة من الحدود . وأطلق البطريق برنارد حرماناً من شركة المؤمنين ضد إمارة الرها كلها ، لكن ذلك لم يردع جوسلين . وأحيط الملك علماً بأنباء النزاع ، فتملكه الحق ، واسبغ باتجاه الشمال فى أوائل ١١٢٨م ، وأجبر الأميرين على التصالح مع بعضهما . ولحسن الحظ أصيب جوسلين ، الذى كان أكثر شراسة ، بمرض فجائى ارتأى فيه عقوبة من السماء ، ووافق على أن يعيد إلى بوهمند الأسلاب التى أخذها ، والظاهر أنه تخلى عن مطالبته بمدينة عزاز . غير أن كل ذلك جاء بعد فوات الأوان . إذ ضاعت فرصة ذهبية فى العام التالى فى دمشق ولن تتكرر قط . إذ وجد الاسلام بطلاً جديداً بالغ القوة^(٧١).

ذلك أن الخليفة العباسى المسترشد ، الذى خلف الشاعر الودود المستظهر عام ١١١٨م ، فكّر خلال الأشهر الأخيرة من عام ١١٢٦م ، فى استغلال النزاعات العائلية بين سلاطين السلاجقة كى يتحرر من سيطرتهم ، مما اضطر السلطان محمود ، وكانت بغداد واقعة ضمن مناطق نفوذه ، إلى أن يتوقف عن الصيد لارسال جيش إلى هناك ، وأمر عليه قائده عماد الدين زنكى . وقد ذاعت شهرة زنكى فى الحروب ضد الفرنج ، وكان أبوه آقسنقر حاكماً لحلب قبل فترة الحملات الصليبية . وبعد حملة يسيرة ، تمكن زنكى من الإيقاع بقوات الخليفة فى (منطقة واسط) ، وأجبر الخليفة على الطاعة . وسرّ الخليفة المسترشد مما أبداه زنكى من تصرف فيه الخدق واللباقة بعد انتصاره ، وعند تعيين اتابج جديد للموصل بعد موت البرسقى ، جاء بذهن السلطان محمود تعيين

(٧١) William of Tyre, XIII, 22, p.590; Michael the Syrian, III, p.224; Kemal ad-Din, p. 665.

شيخ القبيلة البدوي دويس ، غير انه وافق الخليفة على أن زنكى مرشح افضل . وتم تنصيب ابن السلطان ، ألب ارسلان الشاب ، أميراً للموصل مع زنكى كأتابجه . وأمضى زنكى شتاء عام ١١٢٧م فى الموصل ينظم حكومته هناك . وفى ربيع عام ١١٢٨م سار إلى حلب مدعياً أنها جزء من أراضى البرسقى . وكان سكان حلب قد اجهدهم ما عانوه من الفوضى ، فاستقبلوه بمشاعر البهجة ، ودخل المدينة فى موكب حافل يوم ٢٨ يونية (٧٢) .

ورأى زنكى فى نفسه بطل الإسلام ضد الفرنج ، لكنه لم يشأ أن يضرب الآ عندما يعد للأمر عدته . فأهرم هدنة مع حوسلين تستمر أربع سنوات ، راح اثنائها يعزز من قوته فى سوريا . وسارع اميرا شيزر وحمص إلى الاعتراف بسيادته عليهما . ولم يكن يخشى الأول ، أما الثانى فقد حثه على مساعدته فى حملة ضد حماء التابعة للاملاك الدمشقية ، مع الوعد بمنحه حق ولايتها . على انه ما أن تم الاستيلاء على حماة حتى استبقاها زنكى لنفسه وسجن خير كان أمير حمص ، رغم عدم تمكنه من الاستيلاء على حمص ذاتها . وكان بورى أتابج دمشق ، الذى وعد بالانضمام اليه فى الجهاد ضد المسيحيين ، مشغولاً للغاية فى حروبه ضد القدس بحيث لم يعترض بصورة ايجابية على ما اقدم عليه زنكى . وبنهاية عام ١١٣٠م كان زنكى سيد سوريا دون منازع حتى حمص جنوباً (٧٣) .

١١٣٠م : مصرع بوهمند الثانى

وفى نفس ذلك العام أصيب الفرنج بكارثة حسيمة . إذ كان بوهمند الثانى يطمح فى أن يضم إلى امارته كافة الاراضى التى كانت تضمها من قبل . كانت القوة الانطاكية تدهور فى كيليكيا ، وكانت طرسوس وأدنة مائز الان فى أيدي الفرنج ، ويبدو انهما كانتا بمثابة مهر أرملة روجر ، سيشيليا أخت الملك بلدوين ، وقد بقيت الحامية الفرنجية فى المصيصة . أما فى داخل البلاد الأبعد ، فقد كانت (عين زربة) فى قبضة الأمير الأرمنى ثوروس الروينى الذى اتخذ عاصمته فى سيس القرية . وقد مات ثوروس عام ١١٢٩م ، ومات ابنه قنسطنطين بعده بأشهر قليلة فى احداث مكيدة فى

(٧٢) عن تاريخ زنكى حتى عام ١١٢٨م انظر Cahen, op.cit. pp.306-7, and nn. 12 and 13 (with references).

(٧٣) Ibn al-Qalanisi, pp. 200-2; Kemal ad-Din, p. 658; Matthew of Edessa, cclii, p. 320.

القصر . وكان الأمير التالى هو ليو الأول ، شقيق ثوروس^(٧٤) وظن بوهمند أن اللحظة قد حانت لاسترداد (عين زربة) . وفى فبراير ١١٣٠م زحف بقوة صغيرة اعلى نهر جيحان نحو غابته . وشعر ليو بالخطر وطلب المساعدة من الأمير غازى، الدانشمندى ، الذى تصل اراضيه الآن إلى جبال طوروس . ولم يعلم بوهمند بهذا التحالف، وبينما كان يتقدم اعلى النهر بلا اكتراث لما كان يقابله من مقاومة طفيفة ، انقض عليه الأتراك الدانشمند وقتلوا رجال جيشه كلهم . وقيل إن الأتراك لو تعرفوا على الأمر نفسه لأبقوا على حياته طمعا فيما كان سيدفع من فدية. لكن الذى حدث أن الأمير الدانشمندى أخذ رأسه وحنطها وجعلها شعارا أرسله هدية إلى الخليفة^(٧٥).

وتسبب تدخل بيزنطة فى عرقلة الأتراك عن متابعة انتصارهم ، وبقيت عين زربة فى حوزة الأرمن^(٧٦) . غير أن موت بوهمند كان بمثابة الكارثة لأنطاكية ، فقد تولى بوهمند اماره انطاكية بحق الوراثة ، وتقضى العواطف بأن تنتقل حقوقه إلى وريثه . غير أن زواجه من أليس لم ينجب سوى طفلة واحدة فى الثانية من عمرها تدعى كورنستانس . وكان ينبغي أن يقوم الملك ، مستخدما حقه بصفته السيد الأعلى ، بتعيين وصى لها . لكن أليس ، ودون انتظار تلك الخطوة من أبيها ، تولت الرصاية لتوها. لكنها كانت طموحة . وسرعان ما انتشرت الشائعات فى انطاكية انها تريد أن تحكم لا كوصية ، وانما باعتبارها السيد الحاكم . وكان من المقرر أن تودع الطفلة كورنستانس داخل اسوار الدير ، أو عندما تصل البلوغ ، تتزوج من زوج فقير . وهكذا فقدت الأم الشاذة شعبيتها فى الامارة ، التى يشعر فيها الكثير من الرجال بأن هذه الأوقات تستدعى وصيا محاربا . وعندما سمعت أليس أن الملك فى طريقه اليها من القدس، شعرت بأن القوة تنزلق من قبضتها، فالتحذت خطوة يائسة . إذ كان هناك رسول فوق صهوة جواد تحيطه الزينة ومعلى بأزهى الأغصية المزركشة ، يسرع العدو إلى حلب ، إلى أتابعها زنكى ، تعلن له انها على استعداد للاعتراف بسيادته إذا ضمن لها امتلاك انطاكية.

(٧٤) Vahram, *Armenian Rhymed Chronicle*, p. 500.

(٧٥) William of Tyre, xiii, 27, pp.598-9; Orderic Vitalis, xi, 10, vol.IV, pp. 267-8; Romuald, M.G.H.Ss. vol. xiv, p.420; Michael the Syrian, iii, p. 227; *Chron. Anon. Syr.* pp.98-9; Ibn al-Athir, p. 468.

(٧٦) Michael the Syrian, (iii, p.230) بقول ميخائيل إن جون كومنينوس بدأ فى الحال هجوما على الأتراك . (انظر ادناه ص ٢٤٦).

وكان الملك بلدوين قد اسرع إلى الشمال مع زوج ابنته فولك، على اثر سماعه بموت بوهمند، ليتولى الرصاية على الوريث ويعين الوصى. وباقتزاه من المدينة، القت قواته القبض على مبعوث أليس إلى زنكى. فشنته الملك فى الحال. وعندما ظهر امام انطاكية وجد ابنته قد أغلقت البوابات فى وجهه. فاستدعى جوسلين لمساعدته وعسكر امام المدينة. و فى داخل المدينة فازت أليس بتأييد مؤقت بعدما اغرقت الجنود والناس بالمال من خزانة الإمارة. وربما كانت الدماء الأرمنية التى تجرى فى عروقها جعلتها محبوبة بين المسيحيين الوطنيين. غير أن النبلاء الفرنج لن يوازروا امرأة ضد سيدهم. وبعد ايام قليلة قام فارس نورماندى، وليسم (اوف افرس)، والراهب بطرس اللاتينى، بفتح بوابة الدوق لجوسلين، وبوابة القديس بولس لفولك. وفى اليوم التالى دخل الملك. وحجزت أليس نفسها فى برج من الأبراج، ولم تظهر الا عندما ضمن لها وجهاء المدينة حياتها وتلى ذلك مقابلة مؤلمة بين بلدوين وابنته التى ركعت أمامه مرعوبة فى عارها. وأراد الملك تجنب الفضيحة، ولا شك فى أن قلب الأب بداخله قد خفق لابنته، فففر لها، لكنه أبعداها عن الرصاية ونفاها إلى اللاذقية وجبله، وهى الأرضى التى منحها لها بوهمند الثانى مهرا. وباشر هو نفسه الرصاية، وحصل من كل لوردات انطاكية على القسم له ولحفيدته معا، وبعد أن عهد إلى جوسلين بمسؤولية الرصاية على انطاكية وأميرتها الطفلة، عاد إلى القدس فى صيف ١١٣٠م^(٧٧).

١١٣١م : موت بلدوين الثانى وجوسلين الأول

وكانت تلك آخر رحلاته. إذ أضنته حياة طويلة حافلة بنشاط لا ينتهى لم يقطعها سوى فترتين بئيستين قضاها فى الأسر. وبدأت صحته تنهار فى ١١٣١م، وبحلول أغسطس، بدا جلياً انه يحتضر. وأبدى رغبته فى أن ينقل من القصر فى القدس إلى مكان إقامة البطريرق الملحق بمباني كنيسة القبر المقدس، حتى يموت أقرب ما يمكن من الجمجمة^(٧٨). وعندما شارف على النهاية استدعى نبلاء المملكة إلى حجرته، ومعهم ابنته ميليسيند وزوجها فولك وابنتهما وسميه بلدوين البالغ من العمر سنة واحدة. ومنح

William of Tyre, XIII, 27, pp. 599-601; Micael the Syrian, III, p. 230; Kemal ad-Din, (٧٧) pp. 660-1.

(٧٨) (المترجم) الجمجمة Calvary، أو الموضع الذى صلب فيه المسيح خارج اورشليم.

فولك ومببسييد بر كانه ودعا الجميع إلى موتهما على انهما سيدا المملكة . وكان هو نفسه مرديا رداء كاهن تحت رسامته كاهنا من كهنة كنيسة القبر المقدس . ومُت رسامته بالكاد قبل أن يموت يوم الجمعة ٢١ اغسطس ١١٣١ م ، ودفن في كنيسة القبر المقدس ، وسط براح يستحقه ملك عظيم^(٧٩) .

ولم يعيش ابن عمه ورفيقه القديم جوسلين كونت الرها فترة طويلة بعده . وفي الوقت الذي كان فيه الملك يموت تقريبا ، راح جوسلين يحاصر قلعة صغيرة شمال شرق حلب ، وبينما كان يتفقد رجاله انهار من تحتة أحد الأنفاق كان رجاله قد حفروه . وكانت جراحاته بالغة وتبددت الآمال في شفائه . وبينما هو راقد يحتضر ، جاءت الأنباء بأن الأمير الدانشمندى غازى قد رحف على مدينة كيسوم ، وهى القلعة العظيمة التى نصّب فيها جوسلين مؤخرًا بطريق انطاكية اليعقوبى . وشدد الأتراك ضغطهم على كيسوم ، وأمر جوسلين ابنه بالذهاب لانقاذها . غير أن جوسلين الصغير اجاب بأن جيش الرها ضئيل للغاية بحيث تنتفى صلاحيته . فما كان من الكونت المسن إلا أن نهض من فراشه ، وحملوه في محفة على رأس جيشه ليحارب الأتراك . وجفل غازى من انباء قدومه ، إذ كان يظنه قد مات فعلا ، وفي حالة القلق التى راودته رفع الحصار عن كيسوم . وجاء من المدينة رسول يعدو ليخبر جوسلين الذى أمر بأن توضع محفته على الأرض حتى يتمكن من توجيه الشكر إلى الرب . وكان الجهد والانفعال فوق احتمالاه ، فمات هناك على حافة الطريق^(٨٠) .

وبموت بلدوين وجوسلين ، يأتى الجيل القديم من الرواد الصليبيين إلى نهايته . وفى السنوات التى سوف تلى ، نجد انماطا جديدة من النزاعات بين صليبيى الجيل الثانى . رجال ونساء من أمثال جوسلين الثانى والأميرة أليس ، أو من مثل بيت طرابلس ، المهياً لأن ينتظم فى نمط الحياة الشرقية ، ولا يعبأ إلا بالحفاظ على ما فى

(٧٩) -William of Tyre, XIII, 28, pp. 601-2; Orderic Vitalis, XII, 23, vol. iv, p. 500 . Ibn al Qalanisi, pp 207-8 يدكر ابن القلانيسي تاريخ الوفاة يوم الخميس ٢٥ رمضان ، لكنه يخطئ العام ويدكر (٥٢٦ هجرية) .

(٨٠) William of Tyre, xiv, 3, pp. 609-11; Michael the Syrian, III, 232; Chron Anon Syr pp 99-100

حوزته من ممتلكات، والوافدين الجدد الآتين من الغرب - سيبتهم العدوانية، غير
المصقولين، الذين يستعصى عليهم الفهم، من أمثال فولك، أو ريموند (أوف بواتيه)،
أو رينالد (أوف شاتيلون) المشنوم^(٨١).



(٨١) Ibn al-Athir, pp. 389-90، يتحقق ابن الأثير من الظروف المتغيرة - احتفاء سر د الصليبيين من
ناحية، وبداية الوحدة الإسلامية تحت راية ريكى من ناحية أخرى

الفصل الثانى:

الجيل الثانى

الجيل الثانى

"لَا تَهْمُ وَكَدُوا أَوْلَادًا أَجْنَبِيَّينَ"

(مُوشَع ٥ : ٧)

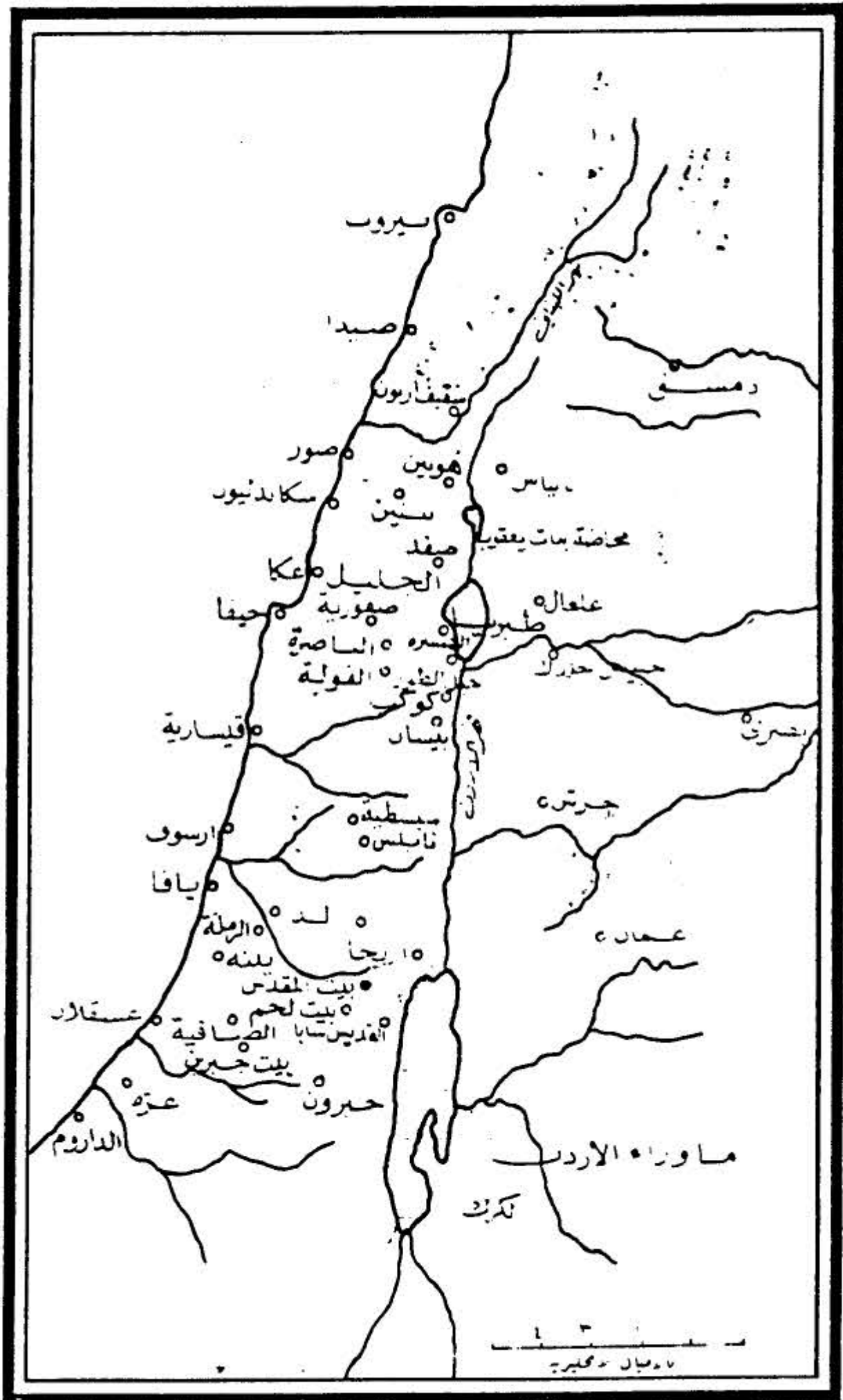
فى ١٤ سبتمبر ١١٣١ م ، وبعد ثلاثة أسابيع من رقود الملك بلدوين الثانى ساجيا لىستريخ فى كنيسة القبر المقدس ، شهدت الكنيسة ذاتها تتويج الملك فولك والملكة ميليسند . وأقيمت الحفول البهيجة فى مناسبة استخلاف العاهل الجديد^(١).

على أنه بينما قبل بارونات مملكة القدس الملك فولك دون تردد ، كان أمراء الشمال الفرنج أقل استعدادا لقبوله كسيد أعلى . إذ سبق وأن كان كل من بلدوين الأول وبلدوين الثانى سيدا أعلى لجميع الدويلات الفرنجية لأن لكل منهما من القوة والشخصية ما يمكنه من ذلك . غير أن الوضع القانونى لم يكن واضحا بأى حال من الأحوال ، ففى حالة الرها ، اعترف جوسلين الأول - كبلدوين الثانى من قبله -

(١) William of Tyre, xiv pp. 608-9, 2.

بسيادة سلفه عندما غدا سلفه هذا ملكا للقدس وورثه الإقطاعية . فهل يعني ذلك الترتيب أن يصبح ورثة جوسلين أتباعا لورثة بلدوين الثانى؟ فى طرابلس خضع الكونت برتراند لسيادة بلدوين الأول كى يوفر الحماية لنفسه من عدوان تنكريد ، غير أن ابنه بونز حاول فعلا انكار حقوق بلدوين الثانى ، ولم يعترف بتلك الحقوق الا لأنه كان يفتقر إلى ما يكفى من القوة لتحدى قوات الملك . وفى انطاكية ، اعتبر بوهمند الأول نفسه أميرا ذا سيادة . وأما تنكريد ، ورغم انه كان وصيًا فقط وليس أميرا ، فقد رفض أن يعتبر نفسه تابعا للملك إلا فيما يتصل بامارته للجليل . وعلى الرغم من أن روجر وبوهمند الثانى قد اعترفا ببلدوين الثانى سيدا أعلى ، فمن الجائز الجدل بأنهما كانا مخطئين فى ذلك . وكان الوضع معقدا بما كان الامبراطور البيزنطى يطالب به من حق مشروع فى الحصول على انطاكية والرها ، بموجب المعاهدة المبرمة بين الامراء والامبراطور فى القسطنطينية أثناء الحملة الصليبية الأولى ، والحصول أيضا على طرابلس بسبب ما اعترف به الكونت برتراند من سيادة للامبراطور .

وأدت خلافة فولك إلى إثارة المسألة برمتها. فتولت أليس ، شقيقة زوجته ، زعامة موجة المعارضة لسيادته العليا ، وقد خضعت لأبيها الملك بلدوين وهى فى خزي شديد، لكنها الآن أعادت تأكيد مطالبتها بأن تكون وصية على ابنتها الصغيرة . وفى حالة إمكان التوصل إلى أن ملك القدس ليس السيد الأعلى لأنطاكية فلن تكون مطالبتها هذه بلا أساس تستند إليه ، إذ أنه من المعتاد فى كل من بيزنطة والغرب منح الوصاية لأم الطفل الأمير . وقد كان موت جوسلين الأول ، بعد شهر تقريبا من موت بلدوين ، فرصة أتاحت لها ؛ إذ أن جوسلين كان وصيا على الأميرة الصغيرة كونستانس ، ولن يلجأ بارونات انطاكية إلى تعيين ابنه جوسلين الثانى وصيا مكان أبيه . وكان كونت الرها الجديد ينصت إلى ما كانت أليس تتملقه به من إطراء وهو فى حالة من خيبة الأمل ، فلا شك فى انه هو الآخر غير مستعد لقبول فولك سيدا اعلى له . وأيدها بونز امير طرابلس أيضا ، وكانت زوجته سيشيليا قد حصلت من زوجها الأول ، تنكريد ، على أراضى قلعة اليعمور (روج) وأرزغان ميراها ، ومن ثم أصبح من خلالها أحد عظام بارونات الإمارة الأنطاكية . وأيقن من أن تحرر انطاكية من القدس سوف يمكن طرابلس من أن تسير على نفس الدرب . وقد فازت أليس فعلا بتأييد أرفع البارونات شأنا فى جنوب الإمارة وهم : الأخوان وليم وغاريتون فى زردنا ، ولسوردات صهيون ، وهى القلعة العظيمة التى شيدها البيزنطيون على التلال الواقعة خلف اللاذقية؛ وكان لديها أنصارها فى أنطاكية نفسها . غير أن أغلب لوردات انطاكية كانوا يخشون



خريطة رقم (٣) مملكة بيت المقدس في القرن الثاني عشر

من أن تحكمهم امرأة. وعندما سمعوا شائعات بما تدبره أليس - مو - معونة إلى القدس لاستدعاء الملك فولك.

وفي الحال انطلق فولك من القدس مع جيش كان الأمر يحدها ليس بوسعه تجاهله . وعندما وصل إلى حدود طرابلس رفض بونز أن يدعه يمر . وكانت الكونتيسة سيشيليا أخت غير شقيقة لفولك ، ولم تفلح مناشدته لها باسم حقوق القرابة . وكان على جيش القدس أن يتقدم بحرا من بيروت إلى السويدية . وما أن هبط في الأراضي الأنطاكية حتى زحف الملك جنوبا وهزم الحلفاء المتمردين في شاستيل روج (اليحمور). لكنه لم يكن على ما يكفي من القوة لمعاقبة أعدائه . إذ اعتذر له بونز وتصالحا . وبقيت أليس دون أن يلحقها أذى في اللاذقية ، في أراضيها التي أخذتها على سبيل المهر . وغفر للأخوين وليم وجارينتون (أميرا صهيون) ، وكذلك جوسلين كونت الرها الذي لم يكن حاضرا في المعركة . ومن المشكوك فيه ما إذا كان فولك قد حصل على قسم الولاء من أي من بونز أو جوسلين ، ومن مواضع الشك كذلك مدى نجاحه في تخطيط الحزب الذي تحزب لأليس . وبعد شهور قليلة قتل وليم (أمير صهيون) في غارة إسلامية صغيرة على زردنا ، وعلى الفور تزوج جوسلين أرملته بياتريس التي ربما منحته زردنا باعتبارها بانياتها . على أن السلام تحقق في ذات الوقت . واحتفظ فولك نفسه بالوصاية على أنطاكية ، وعهد بإدارتها إلى وكيل الإمارة (الكونستابل)، رينالد مازوار لورد مرقب . وعاد هو نفسه إلى القدس ليشارك في مأساة مرعبه في البلاط^(٢).

١١٣٢م : هيو (أوف لو بواسيه) والملكة ميليسند

كان من بين النبلاء شاب وسيم يدعى هيو (أوف لو بواسيه) لورد يافا وكان أبوه ، هيو الأول (أوف لو بواسيه) الأورليانزي ، وهو ابن عم مباشر للملك بلدوين الثاني ، زعيما للمعارضة البارونية للملك لويس السادس ملك فرنسا ، ودمر في عام ١١١٨م قلعة (لو بواسيه) وحرمه من أقطاعيته . وكان شقيقا هيو - جيلدوان ،

(٢) William of Tyre, xiv, 4-5, pp. 611-14; Michael the Syrian, iii, p. 233; Kemal ad-Din, p. 664, ويقول كمال الدين إن وليم صاحب زردنا قتل في الحرب الأهلية ولكن ابن القلانيسي (p. 125) يقول إن وليم قد قتل في وقت مبكر من عام ١١٣٣م . والراجع ان يعود تاريخ تمرد أليس الى وقت مبكر من عام ١١٣٢م .

راهب دير القديسة ماري جوزافات ، وواليران امير البيرة ، قد ذهبوا بالفعل إلى الشرق . وعندما أصبح بلدوين مؤخرًا ملكًا للقدس ، قرر هيو اللحاق بهم ومعه زوجته ماييللا^(٣) . وانطلقا مع ابنيهما الصغير هيو وأثناء مرورهم في أبوليا سقط الولد مريضًا ، فتركاه هناك في بلاط برومند الثاني وهو ابن عم ماييللا المباشر . ولدى وصولهما فلسطين منحهم بلدوين لوردية بافا . ومات هيو الأول بعد ذلك مباشرة ، وعلى اثر ذلك انتقلت ماييللا واقطاعيتها إلى فارس ولوني^(٤) هو ألبرت (أوف نامور) . وسرعان ما سار كل من ماييللا والبرت على نفس دربه الذي انتهى بهما إلى القبر . وأما هيو الثاني ، وهو الآن في نحو السادسة عشرة من عمره ، فقد أبحر من أبوليا للمطالبة بميراثه . واستقبله بلدوين استقبالا حسنا وسلمه اقطاعية والديه ، وأبقاه في البلاط الملكي حيث كان أهم رفاقه ابنة عمه الأميرة الصغيرة ميليسيند . وفي نحو عام ١١٢١ م تزوج إمّا، ابنة اخت البطريرك ارنولف وأرملة أيوستاس جارنييه ، وهي سيدة في سن ناضجة غير أن أملاكها كانت شاسعة . وفتنها زوجها الطويل الوسيم ، غير أن ابنيها التوأمن أيوستاس الثاني وريث صيدا ، ووالتر وريث قيسارية ، كانا يكرهان زوج امهما الذي كان يكبرهما بقليل^(٥) . وفي أثناء ذلك تزوجت ميليسيند من فولك ، ولم تحفل به مطلقا برغم حبه الكبير لها . وبعد تولي العرش استمرت في ألفتها مع هيو ، وشاع في البلاط القيل والقال ، فتمكنت الغيرة من فولك . وهناك اعداء كثيرون يعادون هيو بزعمه ابني زوجته ، فأشعلوا شكوك فولك ، وأخيرا ، جمع هيو حوله -

(٣) كانت أم هيو الأول (أوف لو بواسيه) واسمها أليس (أوف موتلهيرى)، أخت أم بلدوين الثاني ميليسيند (خالته). وهذا وارد في Cuissard, *Les Seigneurs du Puiset*, p. 89. ومن الواضح أن الراهب جيلدون (أوف سانت ماري جوزافات) ، وواليران صاحب البيرة ، كانا أعزبه . ومايللا هي ابنة هيو كونت روسي وأمها هي سييللا ابنة روبرت جيسكارد ، كونت روسي . أنظر ادناه المرفق الثالث للاطلاع على شجرة النسب الأولى ، ١ و ٢ . ويخطئ وليم الصوري (انظر المرجع ادناه ص. ١٩٣ ، ملحوظة ١) بافتراضه أن هيو الثاني ولد في أبوليا ، وفي هذه الحالة يكون قد تزوج في السادسة من عمره !.

(٤) المترجم : نسبة الى وآلون ، أى المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من بلجيكا وما حولها من مناطق فرنسية.

(٥) اسما ابني أيوستاس جارنييه ليسا يقينيين . ويظهر وولتر كلورد قيسارية وصيدا في وثيقة رسمية مؤرخة في ١٢ سبتمبر ١١٣١م (Rohrich, *Regesta*, p.35) ؛ وكان أيوستاس الثاني لورد صيدا عام ١١٢٦م (Rohrich, *Regesta Additamenta*, p.8) ، ويظهر أيوستاس ووالتر كإبني أيوستاس الأول في وثيقة رسمية في نفس العام (Rohrich, *Regesta*, p.28) . ولكن *Lignages* يسمى الابنين جيرارد ووالتر ، كما أن جيرارد Gerard يسمى جوي Guy في *Assises* . انظر La Monte, *The Lords of Sidon' in Byzantium*, vol xvii, pp.188-90 . الذي يجعل جيرارد ابن أيوستاس الثاني، ويجعل موت الأخير قبل عام ١١٣١ عندما أصبح وولتر وصيا لجيرارد .

دفاعاً عن النفس - مجموعة من خاصته كان أبرز أعضائها رومان (أوف هوى) لورد منطقة الأردن. وسرعان ما تمحزب نبلاء المملكة كلها بين الملك والكونت الذى اشتهر عنه التعاطف مع الملكة . وسادت مشاعر التوتر طوال أشهر الصيف من عام ١١٣٢ م . وفى يوم ما فى أواخر الصيف، عندما كان القصر زاخراً بالوجهاء من ذوى الجاذبية فى المملكة، وقف ولتر جارنييه واتهم زوج أمه ، هيو ، صراحة بأنه يتآمر على حياة الملك، ودعاه متحدياً إلى منازلته كى يبرئ ساحته . وأنكر هيو التهمة وقبل التحدى . وحددت المحكمة العليا تاريخ النزال، وعاد هيو إلى يافا والتر إلى قيسارية، لكى يجهز كل منهما نفسه للنزال.

وعندما أزم يوم النزال ، جاء والتر إلى مكان النزال المحدد وهو فى أهبة الاستعداد، ولكن هيو لم يظهر . وربما شعرت الملكة بالخطر ، إذ مضت الأمور شأواً بعيداً، فتوسلت إليه أن يتغيب ، أو ربما كانت الكونتيسة إيمّا هى التى ارتاعت عندما تصورت أنها لا بد وأن تفقد إما الزوج أو الابن ، أو ربما كان هيو هو نفسه ، الذى كان مدركاً لما ارتكبه من اثم ، خائفاً من انتقام الرب . ومهما يكن السبب ، فقد كان جنبه دليلاً ناصعاً على خيائته . ولم يعد بوسع اصدقائه تأييده أكثر من ذلك . وأعلن مجلس الملك غيايباً أنه مذنب، مما جعل هيو يعيش فى ذعر دائم ، فهرب إلى عسقلان ملتصقاً بالحماية من الحامية المصرية . فأعادته فصيلة مصرية إلى يافا وبدأت تنتهب سهل شارون ، فصارت خيانة هيو الآن صريحة . وانقلب عليه أهم أتباعه ، باليان ، لورد بينه ووكيل يافا ، وعندما جاء جيش ملكى على عجل من القدس إلى يافا ، استسلمت له يافا فى الحال . حتى المصريين ، وجدوا فى هيو حليفاً عقيماً فتخلوا عنه . فلم يكن له من بد سوى أن يسلم نفسه للملك .

ولم يكن عقابه قاسياً ، إذ كانت الملكة صديقه ، كما نصح البطريق وليم (أوف ميسين) بالرحمة . وكان الملك نفسه راغباً فى تهدئة الأمور ، إذ أطلت أخطار الحرب الأهلية برأسها . فضلاً عن أنه فى ١١ ديسمبر ، وعندما استنفر الجيش للزحف على يافا ، كان أتابع دمشق قد فاجأ قلعة بانياس واستعادها للسلام . وتقرر نفى هيو ثلاث سنوات ، يجوز له بعدها أن يعود إلى أراضيه وقد أعفى من العقوبة.

١١٣٢ م : محاولة قتل هيو

أثناء أن كان هيو ينتظر سفينة تقله إلى إيطاليا ، ذهب إلى القدس فى وقت مبكر

من العام الجديد لتوديع اصلقاته . وبينما هو يلعب النرد فى احدى الامسيات عند باب أحد حوانيت الفراء ، تسلل فارس بريتونى^(٦) من ورائه وطعنه فى رأسه وفى بطنه ، فحملوه وهو ينزف نزيف الموت ، وفى التو حامت الشبهات حول الملك ، غير أن فولك تصرف فوراً تصرفاً لا يخلو من حصافة ، وسُلم الفارس إلى المحكمة العليا لمحاكمته ، واعترف بأنه قد تصرف بمحض رغبته ، آملاً بذلك أن يفوز بعطف الملك ، وحكم عليه بالاعدام عن طريق بتر أوصاله قطعة قطعة . ونفذ حكم الاعدام علناً . وبعد أن بترت ذراعاً الضحية ورجلاه ، ولكن مازالت رأسه كما هى ، أحمى على إعادة النطق بالاعتراف . وبذا أنقذت سمعة الملك ، غير أن الملكة لم تكن راضية . وبلغ بها الغضب من أعداء هيو أن ظلوا لشهور عديدة يخشون الاغتيال ، ولم يجرؤ زعيمهم ، راووت أمير نابلس ، على المشى فى الشوارع بدون حراسة . بل يقال أن الملك فولك كان خائفاً على حياته . على أن رغبته الوحيدة كانت الفوز بمحظوة زوجته ، فكان يوافقها على كل شئ ؛ أما هى ، وقد أحبطت فى الحب ، فسرعان ما وجدت العزاء فى التمتع بالسيطرة^(٧) .

وقد نجح هيو من محاولة قتله ، ولكن ليس لفترة طويلة . وتقاعد فى بلاط ابن عمه ، الملك روجر الثانى الصقلى ، الذى منحه اقطاعية جارجانو حيث مات فيها بعد فترة قصيرة^(٨) .

ولاشك فى أن فولك قد وجد الراحة فى توجيه انتباهه إلى الشمال مرة أخرى ، إذ كان الوضع هناك نذير سوء للفرنجة أكثر مما كان عليه الوضع فى أيام بلدوين الثانى . فليس فى أنطاكية أمير قوى ؛ وجوسلين الثانى فى الرها يفتقر إلى نشاط أبيه وحسه السياسى ، كان شخصاً بلا جاذبية ، إذ كان قصيراً بديناً ذا كنى الشعر والجلد ، تتناثر فى وجهه البثور ويبرز الأنف الهائل وتحتفظ عيناه البارزتان . وكان حريماً بأن يأتى بلفترات كريمة ، لكنه كان كسولاً مترفاً فاسقاً ولا يصلح قط لقيادة أهم ثغور العالم المسيحى الفرنجى^(٩) .

(٦) (المترجم) نسبة الى مقاطعة بريتون Breton الواقعة شمال غربى فرنسا .

(٧) ترد القصة مطوكة لدى وليم الصورى William of Tyre, XIV, 15-17, pp. 627-33 ويذكر ابن القلانيسى (ص ٢١٥) باقتضاب وجود نزاع فيما بين الفرنج - غير مألوف لديهم

(٨) William of Tyre, XIV, 17, p. 633.

(٩) William of Tyre, XIV, 3, p. 610 . واستناداً لما جاء فى (Crhron. Anon. Syr) p. 35 ولد جوسلين الثانى عام ١١١٣ م

وكانت ندرة القيادة بين الفرنج شديدة الخطر ، إذ أن المسلمين لديهم زنكى الآن ، وهو الرجل القادر على جمع قوات الإسلام . وكان حتى الآن يتحين الفرصة ، إذ كان غارقا في أحداث العراق بحيث لم يتمكن من استغلال الوضع الذى ساد فيما بين الفرنج . فقد مات السلطان محمود بن محمد عام ١١٣١ م ، تاركاً ممتلكاته في العراق وجنوب فارس لابنه داود . غير أن سنجر ، وهو المهيمن في الاسرة ، قرر أن يرث الميراث إلى أخى محمود ، طغرل صاحب قزوین وشقيق محمود ، مما دفع أخوى محمود الآخرين - مسعود صاحب فارس و سلجوق شاه صاحب اذربيجان - إلى التقدم بمطالبهما . وسرعان ما تنازل داود الذى لم يؤيده الخليفة المسترشد ولا رعاياه . ولفترة من الزمن أعلن في بغداد عن قبول طغرل ، إذ كان نفوذ سنجر في جعبته ، وأجبر سنجر مسعود على التخلي . على أن سنجر نفسه سرعان ما انطفأت جذوة اهتمامه بهذا الأمر ، وعلى الاثر جاء سلجوق شاه إلى بغداد وفاز بتأييد الخليفة . فأتجه مسعود إلى زنكى يناشده المساعدة ، فزحف زنكى على بغداد ، لكن قوات الخليفة و سلجوق شاه هزمته بالقرب من تكريت . ولولا أن حاكم تكريت الكردي ، نجم الدين أيوب ، نقله عبر نهر دجلة ، لكان معتقلا أو مقتولا . ووجد الخليفة في هزيمة زنكى تشجيعا له على تحقيق حلمه في بعث ما كان لآل بيته من قوة . وشعر حتى سنجر بالخطر ، فعاد زنكى - وهو نائبه - الهجوم مرة أخرى على بغداد في يولية ١١٣٢ م ، وهذه المرة متحالفا مع الزعيم البدوي دويس المتقلب الأهواء . وكان زنكى منتصرا في بداية المعركة ، لكن الخليفة تدخل بنفسه ، وهزم دويس هزيمة منكرة ثم تحول منتصرا إلى زنكى الذى اضطر إلى الانسحاب إلى الموصل . وفي الربيع التالى وصل المسترشد إلى هناك على رأس جيش ضخم ، وبدأ كما لو أن العباسيين سوف سيتجمعون أمجادهم الخوالى ، إذ كان سلطان العراق السلجوقي أكثر قليلا من كونه تابعا للخليفة . غير أن زنكى كان قد انسحب من الموصل وبدأ مناوشاته مع معسكر الخليفة بلا هوادة وقطع عنه الامدادات . وبعد ثلاثة اشهر انسحب المسترشد^(١٠) وانتكست محاولة البعث العباسى . وخلال العام التالى أزاع الأمير السلجوقي مسعود تدريجيا غيره من المتطلعين إلى سلطنة العراق ، برغم محاولات المسترشد الفاشلة في منعه . ففي معركة جرت رحاها في دايجرج في يونية ١١٣٥ م ، هزم جيش الخليفة

(١٠) Ibn al-Athir, pp. 398-9 و Atabegs of Mosul, pp.78-85 : انظر المقالات Mas'ud ibn Mohammæd', 'Tughril I, and Sanjar' في دائرة المعارف الاسلامية Encyclopaedia of Islam.

هزيمة نكراء اوقعها به مسعود وألقى القبض على الخليفة نفسه ، ونفاه إلى ازربيجان حيث قتله الحشاشون ، وربما كان مسعود متواطئاً معهم . ونُصّب في الخلافة ابنه رشيد الذي استنجد بالمتطوعين إلى سلطنة العراق داود السلجوقي وزنكى ولكن بلا طائل . وتدبر مسعود خلع رشيد من الخلافة عن طريق القضاة في بغداد، وتمكن خليفته المقتفى من إبعاد زنكى عن رشيد وداود بما وعده من وعود سخية . وهكذا ، وبعد أن نال زنكى التأييد باللقاب تشریف جديدة من المقتفى ومن مسعود ، وجد نفسه قادراً ابتداء من عام ١١٣٥م قدماً على تحويل انتباهه نحو الغرب^(١١).

١١٣٣م : فولك ينقذ بونز أمير طرابلس

بينما كان زنكى منشغلاً في العراق ، كان واليه على حلب (سوار) الذي عينه يدير شئون سوريا نيابة عنه ، ولم يكن بوسع زنكى أن يرسل إليه الكثير من الجنود ، غير انه نتيجة لإغراءات سوار التحقت مختلف جماعات قطاع الطرق التركمان بخدمته ، وتجهز بهم في ربيع ١١٣٣م لمهاجمة انطاكية . واستنجد الأنطاكيون الخائفون بالملك فولك كى يأتي لانقاذهم . وأثناء ترحاله شمالاً مع جيشه قابلته في صيدا كونتييسة طرابلس وأخبرته بأن زوجها بونز وقع في كمين نصبته عصبة من التركمان في جبال النصيرية وهربوا إلى قلعة بعرين على حافة وادي العاصي . ونزولاً على رغبتها سار فولك مباشرة إلى بعرين، وباقترابه انسحب التركمان . وأعادت تلك الحادثة ماكان بين فولك وبونز من علاقة ودودة. وسرعان ماتزوج بعد ذلك ابن بونز ووريثه - ريموند - من اخت ملكة القدس هوديرنا، بينما تزوجت ابنته - آجنس - من ابن وكيل فولك في انطاكية - الكونستابل ريموند مازوار أمير المرقب^(١٢).

وبعد أن أنقذ فولك كونت طرابلس ، واصل تحركه إلى انطاكية ، حيث علم أن ساور قد أفلح في الاغارة على مدينة تل بشير الواقعة في اراضى الرها ، وانه حشد جيشاً ليستخدمه ضد انطاكية . فتأخر فولك بضعة أيام متخذاً جانب الحذر ثم تقدم نحو معسكر المسلمين في قنسرين وباغته ليلاً بهجوم مفاجئ فاضطر سوار إلى التقهقر

(١١) Abul' Feda, pp. 21-3; Ibn al-Athir, *Atabegs of Mosul*, pp. 88-91; Ibn at- Tiqtaqa, *AlFakhiri*, pp. 297-8.

(١٢) William of Tyre, xiv, 6, pp.614-15; Ibn al-Qalanisi, pp. 221-2; Ibn al - Athir, pp. 399-400.

والتخلي عن خيامه ، غير أن النصر كان أبعد ما يكون عن الاكتمال ، إذ أن المسلمين في المناوشات التي تلت قضوا تماما على عدة فصائل فرنجية . لكن فولك دخل انطاكية دخول الظافرين قبل أن يعود إلى فلسطين في صيف عام ١١٣٢ م . وما أن رحل حتى عاود سوار الاغارة على الأراضى المسيحية^(١٣) .

١١٣٥ م : زكى أمام دمشق

وباستثناء تلك الغارات الحدودية ، مرت سنة ١١٣٤ م بسلام فيه الكفاية . وفى العام التالى أضعفت الثورات العالم الاسلامى ؛ ففي مصر حاول الخليفة الفاطمى الحافظ كبح سلطان الوزارة بأن عين ابنه حسن وزيرا . لكن الشاب كاد أن يظهر نفسه فى صورة وحش مخبول ، إذ أطاح برؤوس أربعين أميرا تباعا لاتهامهم باتهامات تافهة مما تسبب فى اندلاع الثورة . ولم ينقذ الخليفة نفسه الا بعد أن قتل ابنه بالسم وسلم جثته للثائرين ، ثم عين وزيرا ارمينيا ، فاهرام ، الذى انصرف اهتمامه إلى زيادة ثراء اصدقائه ورفاقه المسيحيين أكثر من اهتمامه باتخاذ اجراءات عدوانية ضد الفرنج^(١٤) . وكانت دمشق على نفس القدر من العجز ، فقد مات بورى ابن طغتكين عام ١١٣٢ م ، وخلفه ابنه اسماعيل كأتابج . وبدأ حكم اسماعيل بداية ساطعة بالاستيلاء على بانياس من الفرنج وبعليك وحماء من أنداده ، لكنه سرعان ما بدأ يمزج بين القسوة الطاغية وحباية الضرائب الجائرة ، مما استفز البعض فى محاولة لاغتياله ، فأنزل عقوبة الإعدام بالجملة ، حتى انه علق على الجدران شقيقه هو نفسه ، سونج ، لأوهى مظنات الريبة . وأزمع بعد ذلك القضاء على مستشار ابيه وموضع ثقته ، يوسف بن فيروز . وقد تحملت أمه ، الأميرة المهية زمرد ، موت ابنها سونج وهى متمالكة لنفسها ، لكن يوسف كان حبيبها ، فراحت تدبر أمرها لانقاذه . وبات اسماعيل مدركا أنه غير آمن حتى فى قصره ، وفى لحظة الشعور بالخطر كتب إلى عدو ابيه القديم، زكى ، يعرض عليه أن يصبح تابعا له اذا استطاع زكى أن يبقيه فى السلطة ، وان لم يفعل زكى ذلك فسوف يسلم دمشق للفرنج . ولم يكن بوسع زكى أن يرحل عن الموصل دون أن يهزم الخليفة العباسى المسترشد ، غير أنه فى ذات الوقت لا يستطيع تجاهل النداء

William of Tyre, XIV, 7, pp. 615-16; Ibn al-Qalanisi, pp. 222-3; Kemal ad-Din, p. 665. (١٣)

Ibn al-Athir, pp. 405-8. (١٤)

الذى تسلمه متأخرا للغاية . فعبر الفرات يوم ٧ فبراير، لكن زمرد قبل ذلك بستة أيام، نفذت اغتيال اسماعيل وتولية ابنها الأصغر شهاب الدين محمود . وأرسل زنكى رسله إلى الاتابج الجديد كى يستسلم ، غير أن هذا الأخير ، وبتأييد من سكان دمشق ، رد على الرسل باعتذار مهذب . ولما وصل زنكى إلى دمشق ، وقد استسلمت له حماته وهو فى الطريق ، وجد دمشق فى حالة دفاع . وأخفقت محاولته قصف الأسوار ، وسرعان ما نفذت المؤن من معسكره ، وتخلّى عنه البعض من جنوده . وفى تلك اللحظة وصلت سفارة من الخليفة المسترشد ، ترجوه أن يتلطّف ويحترم استقلال دمشق . وقبل زنكى بامتنان اعتذاراً مكّنه من الانسحاب دون مساس بمكانته . وحل السلام بين زنكى ومحمود ، وقام زنكى بزيارة رسمية لدمشق ، غير أن محمود لم يتوفر لديه ما يكفى من الثقة فى زنكى بحيث يرد الزيارة ، فأرسل أخاه بدلا منه^(١٥) .

وكانت تلك الحادثة ، التى جاءت فى وقت ضعفت فيه مصر ، بمثابة فرصة نادرة للفرنج لاسترداد بانياس والمبادرة بالعدوان . غير أن فولك ترك الفرصة تفلت من بين يديه . ذلك أن زنكى، بعدما خلّص نفسه من دمشق، راح يغير على الأراضى الأنطاكية . فبينما كان قائده ساوار يهدد تل بشير وعيتاب وعزاز ، مانعا وجود الاتصال بين جيشي انطاكية والرها ، كان زنكى يكتسح طريقه مرورا بمحسون الحدود الشرقية ، كفرطاب ، والمعرة ، وزردنا، والأثارب مستوليا عليها الواحدة تلو الأخرى. ولحسن حظ الفرنج اضطر وقتئذ إلى العودة إلى الموصل ، ولكن الدفاعات الحدودية ضاعت من الفرنج^(١٦) .

وأرغمت تلك الكوارث فولك على السير إلى الشمال مرة أخرى . وكان مايزال وصيا اسميا على انطاكية ، لكن السلطة هناك كانت فى يد البطريق الوقور برنارد . على أن برنارد مات فى أوائل الصيف ، وقد كان رجل دولة مقتدرا ، نشطا ، ثابتا ، شجاعا ، لكنه كان حازما مع نبلاء الفرنج ، ومتعصبا إزاء المسيحيين الوطنيين . وهلّل العوام لخليفته أسقف المصيصة اللاتينى ، رادولف (أوف دومفورت) الذى ، فاتخذ لنفسه العرش البطريقى دون انتظار انتخاب كنسى . وقد كان رادولف رجلا مختلفا جدا ، إذ كان مليحا ، برغم حَوْل طفيف، محبا للآبهة ، مبسوط اليد ، بشوشا ، ليس

(١٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 211-36, أورد ابن القلايسى رواية كاملة للغاية ، لكنه يعزى الدوافع الجديرة بالشأن إلى قتل السيدة المهية لابنها . فيقول ان الوزير الأول لإسماعيل كان كرديا مسيحيا، هو برتراند الكافر Bustan, p. 329; Kemal ad-Din, pp. 667-70; Ibn al-Athir, pp. 403-5.

(١٦) Kemal ad-Din, p. 670.

بصاحب علم ولكنه كان متحدثا فيه استدراج وفصاحة ، لكنه كان - وراء قناع من الشفقة - متعلقا بالدنيا ، طموحا ، خبيثا . ولم يكن راغبا فى أن يسيطر عليه الملك ورجاله ، ولذا استهل المفاوضات مع السيدة الأرملة الأميرة أليس التى كانت ماتزال تعيش فى اراضيها فى اللاذقية . ووجدت أليس فرصتها وناشدت اختها الملكة ميليسيند للمساعدة . وجاء فولك إلى انطاكية فى اغسطس فى زيارة قصيرة . وشعر بأن القوة تنقصه بحيث يحتاج على انتخاب رادولف انتخابا غير عادى ، ولا يستطيع الآن أن يرفض شيئا تراه زوجته . وسُمح للأميرة أليس بالعودة إلى انطاكية . وبقي فولك وصيا ، ولكن السلطة باتت مشاركة فى تحالف غير يسير بين الأرملة والبطريق^(١٧).

١١٣٦م : استدعاء ريموند (أوف بواتيه) إلى انطاكية

وما لبث رادولف أن تشاجر مع رجال الدين التابعين له ، وبقيت أليس سيدة المدينة . ولكنها كانت فى وضع مقلقل ، إذ كان أهم تأييد لها يأتيها من السكان المسيحيين الوطنيين ، وكما ظهر من محاولتها التواطؤ مع زنكى ، كان تقديرها للعواطف الفرنجية شيئا ضئيلا . والآن طافت بذهنها خطة أفضل . فقد ارسلت فى نهاية عام ١١٣٥م مبعوثا إلى القسطنطينية يعرض يد ابنتها الأميرة كونستانس لابن الامبراطور الأصغر مانويل . وربما اقدمت على هذا التصرف ، كما اعلن الصليبيون المرتاعون ، بنوازع طموحاتها الشديدة ؛ غير أنها فى واقع الأمر قدمت أفضل حل للمحافظة على شمالى سوريا . إذ كان العنصر اليونانى قويا فى انطاكية ، والتهديد الاسلامى يتعاظم فى ظل زنكى ، والامبراطورية البيزنطية هى القوة الوحيدة التى يتوفر لها ما يكفى من القوة للتصدى لهذا التهديد . إن دويلة تابعة ، يجرى حكمها فى ظل السيادة الامبراطورية ، أولا بالأميرة نصف الارمنية أليس ، ثم بصورة مشتركة بين أمير بيزنطى وأميرة فرنجية ، كانت خليقة حقا بأن تلحم اليونانيين والفرنج معا من اجل الدفاع عن العالم المسيحى . غير أن نبلاء الفرنج باتوا فى رعب شديد ، ورأى البطريق رادولف نفسه وقد أزيل من منصبه لصالح يونانى بغض . ويبدو أن بارونات انطاكية استشاروا الملك فولك أثناء زيارته حول أنسب زوج لكونستانس . والآن ذهب رسول سرا إلى الملك يقول إن من اللازم العثور على زوج فى الحال . وبعد أن استعرض فولك

(١٧) William of Tyre, xiv, 9, 20, pp. 619-20, 636 .. كان فولك فى انطاكية فى اغسطس عام ١١٣٥م وفقا لما جاء فى Rhricht, Regesta, p. 39

كل أخلائه من الأمراء الفرنسيين ، قرر اختيار ريموند (أوف بواتيه) وهو الابن الأصغر لدوق أكيتمان وليم التاسع ، وكان آنذاك فى إنجلترا فى بلاط الملك هنرى الأول الذى تزوجت ابنته مؤخرًا من ابن فولك جيوفرى . وأرسل فارس من فرسان المستشفى ، جيرارد جيبار ، إلى إنجلترا لإحضاره وروعت أقصى درجات السرية ، فلا يجب أن تعرف أليس شيئًا ، ولا تؤمن حتى الملكة لو علمت . وهناك خطر آخر يكمن فى عداوة الملك روجر الصقلى الذى لم يغفر البتة لمملكة القدس اهانتها لأمه أديلابدى ، والذى كانت طموحاته فى البحر المتوسط لا تدعه قط يسمح بمرور من يتطلع إلى الإقتران بأعظم الوريثات فى الشرق . ووصل جيرارد إلى البلاط الانجليزى وقبل ريموند العرض . لكن الملك روجر اطلع على السر ، اذ كان نورمانديو إنجلترا وصقلية على اتصال وثيق ببعضهم البعض دائما . فقرر القبض على ريموند الذى لن يجد سفينة تقله إلى سوريا إلا من ميناء فى جنوب ايطاليا. واضطر ريموند إلى تجزئة بطاقته والتكر على هيئة حاج حينا ، وخادم لتاجر حينا آخر ، وتمكن من التسلل من خلال الحصار ، ووصل انطاكية فى ابريل ١١٣٦ م .

ولم يكن وصوله ليخفى على أليس ، ولذا ذهب فى الحال لمقابلة البطريق . وعرض عليه البطريق رادولف المساعدة بشروط أن يخضع ريموند له ويذعن له فى كل شيء . فلما وافق ريموند طلب رادولف الاجتماع مع أليس ليخبرها أن ذلك الغريب الفتان جاء طالبا يدها . وهى قصة مقنعة ، اذ كان ريموند فى السابعة والثلاثين ، وأليس دون الثلاثين ، وابنتها كونستانس بالكاد فى التاسعة . وبينما كانت أليس فى قصرها تنتظر خطيب المستقبل ، اختطف البعض كونستانس وذهبوا بها إلى الكندرائية حيث سارع البطريق باجراء زفافها بريموند . وانهزمت أليس . فليس للأرملة المسنة حقوق إزاء الزوج الشرعى للوريثة . فتقاعدت مرة أخرى فى اللاذقية لتبقى متفطرة القلب ما تبقى من حياتها القصيرة^(١٨) .

وكان ريموند فى ميعه الصبا ، وسيما ذا قوة بدنية رائعة . ولم يصب من العلم إلا القليل ، مغرم بالمقامرة، طائش وكسول فى ذات الوقت ، على انه كان ذا شهرة فى الكياسة وطهارة السلوك^(١٩) . وسرعان ما تسببت شهرته بين الناس فى ارتياع البطريق

(١٨) William of Tyre, xiv, 20, pp. 635-6; Cinnamus, pp. 16-17; Robert of Torigny (I, p. 184), ويعتقد روبرت ان ريموند تزوج ارملة بوهمند الثانى .

(١٩) William of Tyre, xiv, 21, pp. 637-8; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 522, الدين كيف كان يستطيع ثنى قضيب حديدى (p. 125) Cinnamus الذى يقارنه بهرقل .

الذي استمرت مشاكله مع تابعيه من رجال الدين ، ووجد نفسه يعامل باحترام وانما في الواقع مسلوب القوة . وأيد النبلاء ريموند تأييدا قويا ، إذ كانت حقيقة الوضع بالنسبة لهم من الخطورة بحيث لا يملكون غير ذلك ، فكانت الامارة مهتزة لفقدائها الدفاعات الشرقية ، ليس هذا وحسب وانما قام احد المغامرين التركمان في الجنوب ، في جبال النصيرية ، بالاستيلاء على حصن بكسرايل من صاحبه رينالد مازوار عام ١١٣١م ، وفي عام ١١٣٦م كاد يستولى على بلاطنس . ثم إن بكسرايل قد استردت بعد ذلك . وفي الجنوب الأبعد ، حيث سبق للفرنج الاستيلاء على قلعة قدموس عام ١١٢٩م ، عادت تلك القلعة عام ١١٣١م إلى الأمير المسلم ، سيف الدين ابن عمرون صاحب قلعة كهف التي باعها في العام التالي لزعيم الحشاشين أبو الفتح . وفي عام ١١٣٥م اشترى الحشاشون قلعة كهف نفسها من أولاد سيف الدين ، وفي شتاء عام ١١٣٦م انتزعوا حصن الجزية من الفرنج^(٢٠) . وكانت كيليكيا قد ضاعت فعلا من أنطاكية . ذلك أنه في عام ١١٣١م ، بعد موت بوهمند الثاني مباشرة ، هبط الأمير ليو الروينسي - بعد أن تدبر حماية ظهره بتحالف مع الأمير الدانشمندى - إلى السهل واستولى على المدن الثلاث : المصيصة وطرسوس وأدنه . وكان أخوه وسلفه ، ثوروس ، قد أفنح قبل ذلك بسنوات قليلة في طرد الحاميتين البيزنطيتين من سيس وعين زربة في داخل البلاد . وفي ١١٣٥م انتزع ليو من بلدوين - لورد مرعش - قلعة سرفنتيكار الواقعة على منحدرات جبال الأمانوس . على أن قبضة الأرمن على كيليكيا كانت ضعيفة ، إذ لجأ إليها قطاع الطرق وباتت سواحلها مرتعا للقراصنة^(٢١) .

١١٣٦م : الحرب مع الأرمن

ولم تكن كورتية الرها أفضل حالا . إذ أن ممر تاش الأرتقى ضم مؤخرا بعض أراضيها في الشرق ، وفي الشمال تنازل ميخائيل أمير كركر الأرمني الذي عجز عن الصمود أمام الترك ، عن أراضيها للكونت جوسلين الذي سلمها في خطوة طائشة إلى العدو الشخصي لميخائيل ، بازل ، شقيق بطريق الكنيسة الأرمنية (كاثوليكوس) الأرمني ، فشبت حرب اهلية بين الأميرين الأرمنيين ، واضطر جوسلين إلى تزويد

(٢٠) Ibn al-Qalanisi, p. 241; Usama, ed. Hitti, p. 157; Kemal ad-Din, p. 680.

(٢١) Gregory the Priest, p. 152; Michael the Syrian, III, pp. 230-3; Armenian Rhymed Chronicle, p.499; Sembat the Constable, p.615.

كركر بحامية من عنده ، لكنه لم يستطع الحيولة دون أن يتناوب الأرمن والأتراك نهب الريف . فأغار سوار على منطقة تل بشير عام ١١٣٥ م ، وفى إبريل ١١٣٦ م تقريبا ، وفى نفس الوقت الذى وصل فيه ريموند (أوف بواتيه) إلى الشرق ، لم يكف قائده أفشين بشق طريقة خلال الاراضى الانطاكية حتى اللاذقية فى الجنوب وهو يحرق القرى وينهبها فى طريقه ، وانما استدار شمالا فيما بعد مارا بمرعش وكيسوم ، وكان أميرهما - بلدوين ، التابع الرئيسى لكونت الرها - يفتقر إلى القوة التى يدافع بها عن اراضيه^(٢٢).

واعتزم ريموند أن تكون أول مهامه استعادة كيليكيا ، وكان عليه أن يوفر الحماية لمؤخرته قبل أن يغامر بمجابهة زنكى . وبموافقة الملك سار مع بلدوين أمير مرعش لمهاجمة الروبيين ، لكن التحالف لم يكن مكتملا . إذ أن جوسلين أمير الرها ، وبرغم كونه تابعا للملك وسيدا لبلدوين ، كان ايضا ابن أخت ليو الأرميني (صاحب كيليكيا) ومالت عواطفه ناحية خاله ، ولم تعد سلطة ملك القلس كافية لاعادة توحيد امراء الفرنج . وتمكن ليو - بمساعدة جوسلين - من دحر الجيش الأنطاكى . وإذ هو منتصر ، وافق على مقابلة شخصية مع بلدوين الذى غدر به وسجنه وبعثه أسيرا إلى أنطاكية . وفى غيبة ليو تشاجر أبناؤه الثلاثة ، وانتهى أمر كبيرهم ، كونسطنطين ، إلى أن اعتقله أخواه وأعميا عينيه . لكن الفرنج فى الوقت نفسه لم ينتفعوا من الأحداث بشئ . وقام الامير الدانشمندى محمد الثانى ابن غازى بغزو كيليكيا ، مدمرا الحصا ، ثم تحول إلى اراضى بلدوين فانتهبها فى طريقة حتى كيسوم . ولم يجد ليو ، الذى هزته الكوارث ، من وسيلة سوى أن يشتري حريته بالتخلي عن مدن كيليكيا لريموند ، لكنه وهو فى طريق عودته إلى وطنه تناسى وعده . واشتعلت مرة اخرى حرب مضطربة إلى أن تمكن جوسلين فى اوائل ١١٣٧ م من رتق هدنة بين المتحاربين الذين ارتاعوا من انباء جاءتهم من الشمال ، مفادها أن الاميرة أليس ليست حمقاء مع كل ماحدث^(٢٣).

ولم يتمكن الملك فولك من تقديم أى عون فعلى لصديقه ريموند ، إذ كان عليه مواجهة اخطار أقرب إليه . ذلك أن حكومة اتابج دمشق الصغير محمود كانت خاضعة

(٢٢) Michael the Syrian, III, p. 244; Ibn al-Qalanisi, pp. 239-40; Kemal ad-Din, p. 672

(٢٣) Gregory the Priest, *loc cit.*(and note by Dulaurier); Sembat the Constable, p. 616; Matthew of Edessa, ccliii, p.320-1

لما كان يمارسه يوسف - عشيق أمه - من سيطرة هادئة ، غير أنه فى إحدى أمسيات ربيع ١١٣٦ م ، وبينما كان الأتابج محمود يمشى فى الفناء مع يوسف والقائد المملوكى ، بزواج انقض الأخير فجأة على يوسف وطعنه طعنات قاتلة ثم هرب إلى كتيبه فى بعلبك . ومن هناك هدد بالزحف على دمشق ما لم يصبح هو الوزير الأول . فأذعن محمود لرغباته ، وسرعان ما اتخذ الدمشقيون موقفا عدوانيا من الفرنج ، ففى بداية العام التالى قاموا بغزو كورتية طرابلس ، يساعدهم المسيحيون المحليون الذين لا يحملون ولاء للفرنج ، فقاموا بارشادهم سرا خلال ممرات لبنان إلى داخل السهل الساحلى ، وبذا بوغت الكونت بونز ، فخرج بجيشه الصغير لملاقاتهم فلقى هزيمة كانت بمثابة كارثة ، وهرب هو نفسه داخل الجبال ، ولكن فلاحا مسيحيا خانه وأوشى به للمسلمين فقتل فى الحال . أما أسقف طرابلس ، جيرارد ، الذى أسر فى المعركة ، فكان أسعد حظا إذ لم يتعرف عليه احد ، وسرعان ما تمت مبادلته على انه رجل ليس له أهمية . واستولى بزواج على حصن حدودى أو أنين ، لكنه لم يجازف بمهاجمة طرابلس نفسها ، وسرعان ما عاد إلى دمشق يحمل الغنائم الكثيرة^(٢٤) .

١١٣٧ م : استخلاف ريموند الثانى فى طرابلس

استمر حكم بونز فى طرابلس خمسا وعشرين سنة . ويبدو انه كان إداريا مقتدرا ، ولكنه كان عديم القيمة من الناحية السياسية ، متلهفا دائما إلى التحرر من تسيد ملك القدس عليه ولكنه كان بالغ الضعف بحيث لا يستطيع تحقيق الاستقلال . وخلفه ابنه ، ريموند الثانى ، الذى كان مزاجه أكثر جدّة ، وقد بلغ الآن من العمر الثانية والعشرين ، وتزوج مؤخرا من الأميرة هوديرنا شقيقة مليسند ملكة القدس ، وكان منصرفا إليها بكل جوارح الغيرة . وكان أول ما بدأه من اعمال أن انتقم لمقتل أبيه ، ليس من مماليك دمشق ، فقوتهم لا قبل له بها وإنما من مسيحيي لبنان الغادرين ، فزحف على القرى التى تحوم الشكوك حول مساعدتها للأعداء ، وراح يقتل الرجال ويأخذ النساء والأطفال لبييعهم عبيدا فى طرابلس . وتركت قسوته بصمات الجبن على اللبنانيين ، مما أدى إلى نفورهم من الفرنج^(٢٥) .

(٢٤) William of Tyre, xiv, 23, p. 640; Ibn al-Qalanisi, pp. 240-1; Ibn al-Athir, pp. 419-20

(٢٥) William of Tyre, loc. cit

ولم يستحسن زنكى ما قام به بزواج من نشاط . فهو لا يفضل مهاجمة الفرنج مع وجود دولة مسلمة عدوانية مستقلة على جانب من جوانبه . وفى نهاية هوية زحف على حمص ، التى كان يحكمها أنثى المملوك المسن باسم أتابج دمشق . وظل زنكى أمام المدينة نحو من اسبوعين ، إلى أن جاءت انباء اقتراب جيش فرنجى قادم من طرابلس . وآيا ما كانت نوايا الكونت ريموند ، تسبب تحركه فى أن يرفع زنكى الحصار عن حمص ويتحول إلى الفرنج . وبينما كان ريموند يتفكر أمامه ، أخذ يتقدم لمحاصرة قلعة بعيرين العظيمة الواقعة على المنحدرات الشرقية لتلال النصيرية ، والتى تتحكم فى المدخل إلى البقاع ، بينما أرسل ريموند إلى الملك فولك فى القدس طالبا مساعدته .

وكان فولك قد تسلم لتوه نداء عاجلا من أنطاكية ؛ لكنه لا يستطيع تجاهل التهديد الاسلامى لطرابلس . فأسرع شمالا مع كل ما استطاع جمعه من رجال كى يلحق بريموند . وانطلقا معا فى مسيرة اضطرارية حول سفوح تلال النصيرية إلى مونت فرات . وكانت رحلة شاقة سرعان ما جعلت الجيش فى حالة يرثى لها . وكان زنكى قد ابتعد باقترابهما ، لكنه عندما سمع بحالتهم عاد وأطبق عليهم من حولهم عندما كانوا خارجين من التلال بالقرب من القلعة . وبوغت الفرنج المرهقون . وحاربوا بشجاعة لكن المعركة سرعان ما انتهت ، تاركة أغلب الفرنج جثثا ملقاة فى الميدان ، والآخريين فى الأسر ، بمن فيهم كونت طرابلس ، بينما هرب فولك مع قلة من حرسه الشخصى إلى داخل القلعة^(٢٦) .

١١٣٧ م : استسلام قلعة بعيرين

بادر الملك فولك ، قبل أن يتمكن زنكى من محاصرة القلعة ، بارسال الرسل إلى بطريق القدس ، وكونت الرها ، وأمير أنطاكية ، متوسلا ارسال العون العاجل . واستجاب الثلاثة لندائه متجاهلين المخاطر الأخرى ، إذ أن وقوع الملك وكل فرسانه فى الأسر قد يعنى فعلا نهاية المملكة . فقام البطريق وليم بتجميع باقى المليشيات المتبقية فى فلسطين وقادها - والصليب المقدس على رأسها - شمالا إلى طرابلس . وهبط جوسلين الرها من الشمال متناسيا همومه المحلية ، وانضم إليه فى الطريق ريموند أمير أنطاكية الذى اضطر إلى مغادرة عاصمته فى هذه اللحظة على مضض . وكانت

(٢٦) William of Tyre, xiv, 25m oo, 643-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 242-3 (أغفل ابن القلانيس بلباقة ذكر التحالف الدمشقى الفرنجى)؛ Kemal ad-Din, pp. 672-3; Ibn al-Athir, pp. 420

فلسطين حسنة الحظ جدا ، إذ لم يكن جيرانها في مزاج عدواني ، وقد تعرت من كل رجالها المحاربين . فكانت مصر مشلولة بثورة في القصر أدت إلى الاستعاضة عن الوزير الأرمني باهرام واستبداله بوزير آخر عنيف مناهض للمسيحيين هو رضوان بن الرلخشي ، الذي كان مشغولا تماما بقتل اصدقاء سلفه والعراك مع الخليفة . وأغارت حامية عسقلان على ليدبا ، لا أكثر^(٢٧) . وكان المملوك بزواج والي دمشق أكثر خطورة ، فما أن غادر البطريق مملكة القدس حتى سمح لنفسه بنهب البلاد في طريقه جنوبا حتى مدينة نابلس المفتوحة فقتل سكانها ، لكنه بالنسبة لدمشق كان يخشى ما يترتب على تمتع زنكى بانتصار ساحق ، بحيث لم يكن يرغب في الضغط على الفرنج إلى آخر المدى^(٢٨) .

وتجمعت قوات الاغاثة في نهاية يولية في البقاع ، بينما كان يأس الملك أخذا في التزايد في قلعة بعرين ، إذ انقطعت عنه أخبار العالم الخارجى ، وأخذ تموينه يتناقص ، وزنكى يستخدم آلات المنجنيق العشر ليل نهار يرحم بها الحجارة فتدق أسوار القلعة . وأخيرا بعث فولك رسولا إلى زنكى يسأله عن شروطه . ولبهجته التى تخالطها الريبة ، طلب مجرد تسليم قلعة بعرين ، وبإمكان الملك الانصراف مع كل رجاله فى حرية . وفضلا عن ذلك ، سوف يطلق سراح الفرسان البارزين المأسورين فى المعركة بمن فيهم كونت طرابلس وبدون أية فدية . فقبل فولك فى الحال . وحافظ زنكى على كلمته ، وحجى بالملك فولك وحرسه الخاص أمام زنكى الذى عاملهم بكامل مظاهر التشريف ، وأهدى الملك رداء فاخرا وسمح لهم باصطحاب اخدانهم ، وساروا فى طريقهم آمنين . وقابلوا جيش الاغاثة فى البقاع ، أقرب مما كانوا يظنون . واغتاز البعض لاكتشافهم انهم لو صمدوا قليلا فرما أمكن انقاذهم ، على أن آخرين أكثر تعقلا أسعدهم أن يفوزوا من الغنيمة بالإياب^(٢٩) .

والحقيقة أن ما كان عليه زنكى من رفق وأناة ما يفتأ يتسبب فى ذهول المؤرخين . لكن زنكى كان على دراية تامة بما يفعله . فليست بعرين بالجائزة الحقيرة ، وامتلاكها سيمنع الفرنج من التوغل فى وادى العاصى الأعلى . كما أنها فى موقع يتحكم تماما

William of Tyre, xiv, 26. 645-7. (٢٧)

Idem, xiv, p. 647 (٢٨)

William of Tyre, xiv, 28-9, pp. 545-51; Ibn al-Qalanisi, loc. cit.; Kemal ad-Din, (٢٩)
loc. cit.; Ibn al-Athir, pp. 421-3.

في حمّاه وحمص الدمشقية ، والحصول عليها بلا مزيد من الحرب فيه الغناء ، لأنه كان راغبا عن المجازفة بمعركة مع قوة الإغاثة الفرنجية على مثل هذا القرب القريب من تخوم دمشق التي لن يتزدد حكامها في انتهاز ما قد يعانيه من هزيمة . فضلا عن ذلك كان زنكى ، كشأن أعدائه الفرنج ، يشعر بالقلق من الأنباء الآتية من الشمال .

الفصل الثالث:

مطالب الإمبراطور

مطالبج الامبراطور

"لَا يَتَكَلَّ عَلَى السَّوِّ يَفْضِلُ لِأَنَّ السَّوَّ يَكُونُ أُجْرَتُهُ"

(أيوپ ١٥ : ٣١)

أما الأنباء التى تسببت فى رتق سلام بين الفرنج والأرمن ، والتى جعلت الأمير ريموند يشعر كارها لمغادرة أنطاكية ، والتى دفعت زنكى إلى اظهار الرحمة لأعدائه ، فهى أنباء تحرك جيش ضخيم فى داخل كيليكيا يقوده الامبراطور جون كومنينوس بشخصه . فمنذ أن فشل الامبراطور الكسيوس فى الحضور إلى انطاكية اثناء الحملة الصليبية الاولى ، اعتاد السياسيون فى الشرق الفرنجى على تجاهل بيزنطة تجاهلا لا يخلو من تلطف ، وحتى مع فشل محاولة بوهمند غزو الامبراطورية من الغرب فشلا ذريعا ، فقد عجز الكسيوس تماما عن ضمان تنفيذ شروط المعاهدة التى وقعها بوهمند . وكما يعلم فرنج أنطاكية جيدا ، كانت همومه الأقرب إلى وطنه هى التى صرفته عن ذلك .

واستمرت تلك الهموم لما يقرب من ثلاثين سنة ، نظرا للحروب المتقطعة المنتشرة

فى كل مكان من تخوم الامبراطورية ؛ فكانت هناك غزوات البولوفستيين^(١) عبر الدانوب الأسفل ، كما حدث فى عامي ١١١٤م و ١١٢١م . وكان هناك التوتر المستمر مع الهنجارين فى الدانوب الأوسط ، الذى اندلع حربا صريحة عام ١١٢٨م ، ووصل الغزو الهنجارى لشبه جزيرة البلقان حتى صوفيا ، لكن الامبراطور دحر هذا الغزو وهزم الهنجارين فى أراضيهم . ودأبت المدن التجارية الإيطالية على الاغارة من حين لآخر على الامبراطورية كى تستزع مزايا تجارية ، فحصلت بيزا على معاهدة تفضيلية عام ١١١١م ، وأما البندقية ، فاستمرت الحرب بينها وبين بيزنطة أربع سنوات بعد أن رفض الامبراطور جون تجديد الامتيازات التى منحها أبوه ، وفى ١١٢٦م استردت بعد تلك الحرب كافة ما كان لها من حقوق . وكان نورمانديو جنوب إيطاليا، فى حالة من الجبن منذ هزيمة بوهمند فى دورازو (ديرهاكيوم) ، وأصبحوا مصدر خطر مرة اخرى عام ١١٢٧م عندما قام روجر الثانى الصقلى بضم إقليم أبوليا . ثم أن روجر الثانى ، الذى اتخذ لنفسه لقب ملك عام ١١٣٠م ، تلبسته كراهية عائلته لبيزنطة ، رغم ميوله إلى اقتباس أساليبها ورعاية فنونها. ، لكن طموحاته كانت من الاتساع بحيث كان من اليسير دائما العثور على حلفاء لكبح طموحاته . فلم يكف بالسعى للسيطرة على ايطاليا وحسب ، وانما كان يطالب بانطاكية باعتباره الممثل الوحيد الباقي على قيد الحياة من ذكور بيت هوتفيل ، بل والقدس نفسها استنادا إلى المعاهدة التى ابرمتها امه أديلايدي مع بلدون الأول^(٢) .

الأيام الأخيرة من حكم الكسيوس الأول

ولم يكن هناك سلام فى آسيا الصغرى . وخلال الحملة الصليبية الأولى وبعدها عزز الكسيوس قبضته على الثلث الغربى من شبه الجزيرة وعلى السواحل الشمالية والجنوبية ، ولو أنه تعامل مع الأمراء الأتراك فقط لاستطاع الاحتفاظ بأملأكه سليمة ، لكن جماعات من التركمان دأبت على التسلل داخل البلاد بحيث تضاعفت أعدادهم

(١) (المترجم) : البولوفستيون Polovstians بالروسية أو الكومان Kuman بالبيزنطية أو الكيشاك Kipchak : اتحاد قبائلى احتل مناطق شاسعة من السهول الآسيوية الأوروبية ، من شمال بحر الآرال وحتى شمال البحر الأسود.

(٢) عن روجر الثانى انظر. Chalandon, *Domination Normande en Italie*, II, pp. 1-51 وقام Basil of Edessa اليعقوبى بعمل وصف تخطيطى عن الغزو البولوفستى عام ١١٢١م ، وقد أفاد منه ميخائيل السورى (Michael the Syrian (III, p. 207).

وقطعانهم ، وكان حتما أن يتدفقوا في الوديان الساحلية سعيا وراء مناخ ألطف ومراع أكثر ، ومن ثم، كان لابد من انهيار الحياة الزراعية المستقرة للمسيحيين . وفى واقع الأمر ، كلما كان ضعف الأمراء يزداد كلما زاد رعاياهم البدو ضراوة وخطورة على الامبراطورية^(٣).

وفى الوقت الذى مات فيه الكسيوس عام ١١١٨م، كانت الأناضول التركية مقسمة بين السلطان السلجوقي مسعود ، الذى كان يحكم من قونية الجزء الجنوبى من وسط شبه الجزيرة ، من نهر صغارى إلى جبال طوروس ، والأمير الدانشمندى غازى الثانى، الذى كانت أراضيه ممتدة من نهر هاليس إلى نهر الفرات . وقد ابتلعا ما بينهما من الامارات الأصغر ، باستثناء ملطية فى الشرق حيث كان اخو مسعود الأصغر ، طغرل، يحكم تحت وصاية امه وزوجها الثانى ، بلك الأرتقى . وعلى الرغم مما احرزه البيزنطيون من انتصار فى فيلوميليوم عام ١١١٥م ، وما اعقب ذلك من محاولة رسم الحدود ، استعاد الأتراك فى السنوات التالية لاوديكيما الفريجية وتوغلوا داخل وادى نهر المياندر وقطعوا الطريق الذاهب إلى أضايا . وفى الوقت ذاته كان الدانشمند يشدد هجماتهم باتجاه الغرب داخل بافلاجونيا . وكان الامبراطور الكسيوس يخطط لحملة يسترد بها مناطق الحدود الأناضولية عندما عرض له مرضه الأخير^(٤).

١١١٨م : ولاية عهد جون كومنينوس

جلبت ولاية عهد الامبراطور جون قوة جديدة لبيزنطة . وكان جون ، الذى يطلق عليه رعاياه (كاليرانيس) ، أى جون الطيب ، واحدا من تلك الشخصيات النادرة التى لا يجد فيها أى مؤرخ من معاصريه ما يعيبها ، باستثناء مؤرخ واحد، هو أخته المؤرخة أنا كومنينيا التى كانت أكبر أولاد الكسيوس . وكانت فى طفولتها قد خطبت إلى ولى العهد الامبراطورى الصغير كونسطنطين دو كاس ، الذى حدث وأن وعده الكسيوس باستخلافه امبراطورا . على أن موته المبكر ، بعد مولد أخيها مباشرة ، كان بمثابة ضربة

(٣) يرد موجز جيد حول مسار وأثر الغزوات التركمانية فى حرب المسلم والمسيحي لامتلاك آسيا الصغرى 'Ramsay, War of Moslem and Christian for the Possession of Asia Minor', in *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*, pp. 295-8.

(٤) Anna Comnena, xv, i, 6-vi, 10, pp.187-213; Chalandon, *Règne d'Alexius I Comnène*, pp. 268-71.

قاسية لطموحاتها ، ودأبت فيما بعد ساعية لاصلاح ما ألحقته بها العناية الالهية من ظلم، بمحاولة اقناع والدها ، وبموافقة أمها ، بان يترك العرش الامبراطورى لزوجها القيصر نيسفوروس برينيوس ، حتى عندما كان الامبراطور راقدا فى فراش الموت ، بين زوجته وابنته تمرّضانه بغاية جهدهما ، ودأبت المرأتان أثناء تمرّضه على المطالبة بعدم توريث جون . لكن الكسيوس قرر أن يخلفه ابنه . وعندما دخل عليه ابنه جون لتوديعه ، ناوله الرجل المحتضر خاتمه الامبراطورى فى هدوء ، وأسرع جون لاغلاق بوابات القصر ، فأفادته السرعة ، اذ هتف به الجيش ومجلس الشيوخ (السّينيت) امبراطورا حاكما فى الحال ، وأسرع البطريق إلى تأييد قرارهما باقامة حفل تتويجه فى كنيسة القديسة صوفيا . وهكذا غلبت الحيلة والدهاء أنا وامها الامبراطورة . على أن جون كان يخشى من أن يحاول أشياءهما الاعتداء على حياته ، حتى انه رفض حضور جنازة أبيه بعدما توفرت له معلومات قوية بوجود مخطط لاغتياله فى هذه المناسبة . وبعد أيام قليلة دبرت أنا مؤامرة للتخلص منه أثناء وجوده فى قصر الضاحية الهادئة فيلوباتيوم . غير أن المؤامرة كان بها نقطة ضعف خطيرة ؛ إذ أن ترتيبها كان يقضى بتتويج نيسفوروس برينيوس ، ولكنه لم يكن راغبا فى العرش ، وربما كان هو الذى انذر الامبراطور . وعاقب جون المتآمرين برفق شديد ، وربما لم تكن الامبراطورة الأم على علم بالمؤامرة ، لكنها مع ذلك تقاعدت فى أحد الأديرة . وصودرت ممتلكات أبرز المؤيدين لأنا ، لكن الكثير منهم استعادها فيما بعد . وحرمت أنا نفسها من ممتلكاتها لفترة ، ثم عاشت منذ آنذاك فى عزلة تامة . ولم يعاقب نيسفورس الذى امتهن مع زوجته مهنة التأريخ ذات التبعات الأقل، عزاء لهما عن ضياع التاج^(٥).

وأصبح جون آمنا الآن . وكان فى الثلاثين من عمره رجلا نحيفا صغيرا ذاكن الشعر والعينين والبشرة خفيفة . وكان صارما فى معالجة للأمور ، فلم يكن يشارك أغلب أفراد أسرته ما كانت تسعد به من مناقشات أدبية ودينية . فهو فوق كل شئ جندى ، يشعر بالسعادة فى الحملات أكثر مما يشعر بها فى القصر . على انه كان إداريا دقيقا ومقتدرا ، وبرغم قسوته على نفسه كان كريما مع أصدقائه ومع الفقراء وعلى استعداد أن يظهر فى أبهة حافلة إذا دعت الحاجة . وكان حنونا حليما مع أسرته ومخلصا لزوجته ، الأميرة الهنجارية بيريسكا ، ثم سُميت اسما مسيحيا إيرين ، غير أن تأثيرها عليه كان ضئيلا برغم مشاركتها له فى صرامته وأوجه احسانه . وكان صديقه

(٥) Anna Comnena, xv, xi, 1-23, pp. 229-42; Zonaras, III, p. 759 (رواية زوناراس أقل تحيزا)؛ أنظر Chalandon, op.cit. pp.273-6, and Les Comnènes, pp. 1'8

الحميم الوحيد هو كبير خدمه ، وهو تركي يدعى أكسوخ الذي أسر وهو صبي عند الاستيلاء على نيقية عام ١٠٩٧م ونشأ في القصر . وكان تصور جون لدوره الإمبراطوري تصورا رفيعا ، وقد ترك له أبوه أسطولا قويا وجيشا مولفا من خليط من الأجناس لكنه كان جيد التنظيم والتجهيز ، كما ترك له خزانة فيها ما يكفي لتدبير سياسة نشطة . ولم يكن يرغب في الحفاظ على حدود الامبراطورية وحسب ، وإنما يسترجع كذلك حدودها القديمة ، ويحيل المطالب الامبراطورية في شمال سوريا إلى واقع^(٦).

وبدأ جون حملته الأولى ضد الأتراك في ربيع ١١١٩م . فهبط خلال فريجييا واستعاد لاوديشيا . واضطر للعودة إلى القسطنطينية لدواعي عاجلة ، لكنه عاد بعد شهر ليستولى على سوزوبوليس ويعيد فتح الطريق إلى أضاليا . وبينما كان يهاجم السلاجقة بنفسه في الغرب ، كان قد جهّز لمهاجمة الدانشمند في الشرق . وقد استغل كونستنتين جابراس ، دوق طرابزون ، شجارا بين الأمير غازي وزوج ابنته الأمير التركي ابن منجر الذي اتخذ في طارناغي بأرمينيا مقرا له ، فهب لمساعدة الأخير . لكن غازي ومعه حليفه طغرل أمير ملطية هزمه وَاخْذَاهُ أسيرا ، فاضطر إلى دفع ثلاثين ألف دينار ليفتدي نفسه . وحدث خلاف بين غازي وطغرل في ذلك الوقت حال دون أن يتابع الترك انتصارهم^(٧).

١١٣٧م : جون يعد العدة لغزو سوريا

لم يتمكن جون من التدخل في الأناضول في السنوات القليلة التي تلت ، إذ شهدت تلك السنوات تعاظم قوة الدانشمند ينذر بالخطر . ففي سنة ١١٢٤م ، وعندما مات بلك الأرتقي زوج ام طغرل أمير ملطية ، اثناء القتال في الجزيرة ، هاجم الأمير غازي ملطية وضمها ، الأمر الذي أبهج المسيحيين الوطنيين هناك إذ وجدوا حكمه يسيرا ومنصفا . ثم استدار غازي غربا وانتزع من البيزنطيين أنقرة وجنجره وقسطمونية ووسع سلطانه جنوبا حتى ساحل البحر الأسود ، مما عزل كونستنتين جابراس برا عن القسطنطينية فأعلن نفسه حاكما مستقلا في طرابزون . وفي ١١٢٩م ، وبعد موت

(٦) Chalandon, *op. cit.* pp.8-11, 19.

(٧) *Ibid*, pp. 35-48

الأمير الروبيني ثوروس ، تحول اهتمام غازي إلى الجنوب ، وفي العام التالي ، وبتحالفه مع الأرمن ، ذبح الأمير بوهمند الثاني أمير انطاكية على ضفاف نهر جيحان . ومهما كانت آراء جون حول انطاكية ، فانه لم يكن يرغب في أن تنتقل إلى أمير مسلم قوى ، فشن هجوما فوريا على بافلاجونيا مما حال بين غازي وبين متابعة انتصاراته . ولحسن الحظ كان سلاحقة الأناضول في حالة من الضعف بسبب خلافات عائلية . ففي ١١٢٥م تمكن الأمير عرب من انتزاع عرش أخيه السلطان مسعود الذي هرب إلى القسطنطينية ، حيث استقبله الامبراطور بمظاهر التشريف . ثم ذهب بعد ذلك إلى زوج امه غازي الدانشمندی واستطاع بمساعدته ، وبعد اربع سنوات من الكفاح ، من استعادة عرشه . ولذا أخوه عرب بدوره إلى القسطنطينية حيث مات^(٨).

وابتداء من ١١٢٠م إلى ١١٣٥م دأب جون على الخروج بحملة ضد الدانشمندی كل سنة . وفي مرتين تتوقف الحملة بسبب مكائد من أخيه ، اسحق سيباستوكراتور ، الذي هرب من البلاط ١١٣٠م وامضى السنوات التسع التالية في التآمر مع شتى الأمراء المسلمين والأرمن . وفي ١١٣٤م عاد من الحروب لموت الامبراطورة المفاجئ . وفي سبتمبر ١١٣٤م ، عندما هدا الموقف بموت الأمير غازي ، تمكن من استعادة كل الأراضي التي فقدتها باستثناء جنجرة التي استعادها في العام التالي . وأما ابن غازي وخليفته ، محمد ، فقد ضايقته المشاجرات العائلية فلم يعد بوسعه العودة هجماته . وأما مسعود ، الذي حُرم من مساعدة الدانشمندی ، فقد توصل إلى اتفاق مع الامبراطور^(٩).

وتملك الخوف أترك الأناضول ، فغدا جون مهياً للتدخل في سوريا . بيد أنه من الضروري أن يحمي ظهره أولا . ولذا وصلت سفارة بيزنطية في عام ١١٣٥م إلى ألمانيا في بلاط الامبراطور الغربي لوثير ، وعرضت عليه نيابة عن جون معونات مالية ضخمة مقابل الهجوم على روجر الصقلي . وتواصلت المفاوضات عدة أشهر إلى أن وافق لوثير على مهاجمة روجر في ربيع عام ١١٣٧م^(١٠) وهُزم الهنغار يون عام ١١٢٨م ، وزحفت حملة عام ١١٢٩م إلى الصرب فأخضعتهم . وبذا تحقق الأمان للدفاع على

(٨) Chalandon, pp. 77-91; Nicetas Choniates, pp. 27-9; Michael the Syrian, III, pp. 223-4, 227, 237.

(٩) Cinnamus, pp. 14-15; Nicetas Choniates, pp. 27-9; Michael the Syrian, III, pp. 237-49.

(١٠) Peter Diaconus, in M.G.H.Ss. vol. VII, p. 833.

الدانوب الأسفل^(١١) وأدت معاهدة أبرمت في ١١٢٦م إلى عزل أبناء بيزا عن حلفائهم النورمانديون ، وأمسى الامبراطور الآن على علاقة طيبة بكل من البندقية وجنوا^(١٢).

وفي ربيع عام ١١٢٧م ، تجمع الجيش الامبراطوري وعلى رأسه الامبراطور وأبنائه في أضايا وتقدم شرقا داخل كيليكيا ، وكان الاسطول الامبراطوري يحرس ميمته ، فبوغت الأرمن بأبناء اقتزاه كما بوغت الفرنج بنفس القدر. وحاول ليو الروبيني ، وهو الآن سيد سهل كيليكيا الشرقي ، أن يوقف تقدمه بمحاولة الاستيلاء على القلعة الحدودية البيزنطية سيلوقية ، لكنه أجبر على التقهقر . واكتسح الامبراطور مرسين ، وطرسوس ، وأذنه ، والمصيصة ، والتي استسلمت له كلها في الحال . وفي عين زربة ، اعتمد الامير الارميني على تحصيناتها الهائلة في صده ، وقاومت حاميتها طوال سبعة وثلاثين يوما ، غير أن آلات الحصار التي كانت في حوزة البيزنطيين سحقته أسوارها ، واضطرت المدينة إلى التسليم ، وانسحب ليو داخل جبال طوروس العالية ، ولم يعبأ الامبراطور بمطاردته آنذاك . وبعد أن طهر عدة حصون ارمينية في الجوار من حامياتها ، قاد قواته جنوبا مروراً بإسوس والإسكندرونة ، والبوابات السورية إلى داخل سهل انطاكية . وفي ١٩ أغسطس ظهر أمام أسوار المدينة وضرب معسكره على الضفة الشمالية لنهر العاصي (الأرند)^(١٣).

وكانت انطاكية بغير أميرها ، إذ ذهب ريموند (أوف بواتيه) لإنقاذ الملك فولك من بعيرين وكان معه جوسلين أمير الرها . ووصلا البقاع ليجدا الملك قد نجا من القلعة. وانتوى فولك الذهاب بنفسه إلى أنطاكية لمقابلة البيزنطيين ، لكنه فضل العودة إلى القدس بعد التجارب التي مر بها مؤخراً . وسارع ريموند بالعودة إلى أنطاكية ليجد الامبراطور قد بدأ حصاره للمدينة ، ولكن الحصار لم يكن مستكملاً بعد ، فتمكن من أن يتسلل داخلا مع حرسه الشخصي من خلال البوابة الحديدية تحت القلعة.

(١١) Chalandon, *op.cit.* pp. 59-63, 70-1.

(١٢) *Ibid.* pp.158-61

(١٣) Cinnamus, pp. 16-18; Nicetas Choniates, pp. 29-35; William of Tyre, xiv, 24, pp. 341-2; Matthew of Edessa, ccliv, p.323; Sembat the Constable, pp. 616-17; Gregory the Priest, pp. 152-3; Michael the Syrian, iii, p. 45; Ibn al-Athir, p. 424; Ibn al Kiyalyani, i.e. (في صفحة ٢٤٠، ملحوظة ٢، يورد الناشر قراءة مغايرة في Qalanisi, pp.2401 Imanyal, Emmanuel غير انه جون هو الذي يتحدث عنه المؤرخ).

١١٣٧ م : ريموند يقدم فروض الولاء للإمبراطور

ظلت الآلات البيزنطية تدق التحصينات عدة أيام . ولم يكن فى مأمول ريموند الحصول على مساعدة من الخارج ، ولم يكن واثقا من مشاعر السكان داخل الأسوار ، وقد بدأ الكثير من الناس ، حتى من باروناته هو نفسه ، يدركون الحكمة من سياسة ليس العنيدة . ولم يمض وقت طويل حتى بادر ريموند بارسال رسالة إلى الامبراطور يعرض عليه الاعتراف بسيادته مقابل الاحتفاظ بالإمارة باعتباره مندوبا امبراطوريا ، وكان رد جون هو الاستسلام بلا قيد أو شرط ، وعندئذ أخبره ريموند بأن عليه استشارة الملك فولك ، وأرسلت الرسائل بغاية السرعة إلى القلس . على أن رد فولك كان عقيما ، إذ قال الملك : "نعلم جميعا ، وقد دأب كيراؤنا من قديم على تعليمنا ، أن أنطاكية كانت جزءا من امبراطورية القسطنطينية إلى أن اخذها الأتراك من الامبراطور واحتفظوا بها أربع عشرة سنة ، وأن مطالب الامبراطور الواردة فى المعاهدات المبرمة مع أسلافنا صحيحة . أفينبغى لنا إذن إنكار الحقيقة والتنكر لما هو صحيح؟" ولم يكن بوسع ريموند أن يتردد أكثر من ذلك ، بعدما عرض عليه الملك ، سيده الأعلى ، هذه النصيحة . ووجد مبعوثوه أن الامبراطور على استعداد لتقديم تنازلات . وتقرر أن يأتى ريموند إلى معسكره ويقسم كامل قسم الولاء له ، وأن يصبح رجلا من رجاله ويمكنه من دخول المدينة والقلعة . وفضلا عن ذلك ، وفى حالة تعاون الفرنج مع البيزنطيين فى الاستيلاء على حلب وما جاورها من المدن ، يعيد ريموند انطاكية إلى الامبراطورية ويأخذ بدلا منها إمارة تتألف من حلب وشيزر وحماه وحمص . وأذعن ريموند . وركع أمام الامبراطور وقدم له فروض الولاء والطاعة . ولم يصر جون عندئذ على دخول انطاكية ، لكن الراية الامبراطورية رفرت فوق القلعة^(١٤) .

وقد أظهرت المفاوضات موقف الفرنج المضطرب إزاء الامبراطور . وربما كانت احتياجات اللحظة العاجلة هى التى أملت الرد الذى كتبه فولك ، الذى كان يعلم تماما أن زنكى هو العدو الأكبر للمملكة الفرنجية ، وليس بوسع الملك الإساءة إلى القوة المسيحية الوحيدة القادرة على صد المسلمين ، وربما مارست الملكة ميليسند نفوذها لصالح سياسة من شأنها أن تبرئ اختها أليس وتلحق الخزي بالرجل الذى خدعها . على أن هذا رأى الذى كتبه فولك ربما كان هو رأى الذى ارتآه محاموه . وبرغم كل

(١٤) William of Tyre, xiv, 30, pp. 651-3; Orderic Vitalis, xiii, 34, pp. 99-100; Cinnamus, pp. 18-19; Nicetas Choniates, pp.36-7

ما أتاه بوهيموند الأول من دعاية ، كان رأى الصليبيين الأكثر ارتياها أن المعاهدة المعقودة بين ألكسيوس وآباءهم فى القسطنطينية ما تزال صالحة ، وإن انطاكية كان ينبغى أن تعود إلى الامبراطورية ، وإن حثت بوهمند وتكريد بما أقسماه من قسم إنما هو تفريط لأية مزاعم قد يزعمونها . وكان ذلك رأيا امبراطوريا أكثر تطرفا مما كان يراه الامبراطور نفسه . والحكومة الامبراطورية تتصف بأنها دائما واقعية ، وقد رأت أن طرد الفرنج من انطاكية دون تقديم تعويض أمر غير عملى ويخلو من الحكمة . وفضلا عن ذلك ، كانت تود تحديد التخوم مع الدويلات التابعة بحيث يسيطر الامبراطور على سياستها العامة وفى نفس الوقت تتحمل تلك الدويلات صدمات هجوم الأعداء . ولذلك لم يرتكز موقف الامبراطور على معاهدة القسطنطينية ، وإنما على المعاهدة الموقعة مع بوهمند فى ديفول . إذ طلب استسلام انطاكية غير المشروط باعتبار ذلك استسلاما من تابع متمرّد ، غير انه كان على استعداد لأن يترك انطاكية تستمر كدويلة تابعة . ومطلبه العاجل هو أن تتعاون معه فى حملاته ضد المسلمين^(١٥).

بات الوقت متأخرا هذا العام للقيام بحملة ولذا عاد جون ، إلى كيليكيا ليستكمل غزوها ، بعد أن رسخ سلطته . وهرب امامه الأمراء الروميون إلى داخل جبال طوروس العالية ، ولأذ ثلاثة من أبناء ليو وهم مليخ ، وستيفن ، وقسطنطين الضريس ، بابن عمتهم جوسلين أمير الرها . وصمدت فاهكا التى تعد بمثابة قلعة الأسيرة لبضع اسابيع بقيادة قائدها المقدام قنسطنطين الذى كان لنزاله مع ضابط من الكتبية المقدونية يدعى ، إيوستراتيوس ، أبلغ الأثر فى الجيش الامبراطورى كله . وبعد سقوط فاهكا مباشرة ألقى القبض على ليو وولديه الكبيرين روين وثوروس ، وأرسلوا إلى السجن فى القسطنطينية حيث أعدم روين لتوه ، لكن ليو وثوروس فازا بالرأفة من الامبراطور الذى سمح لهما بالعيش تحت المراقبة فى البلاط . ومات ليو هناك بعد أربع سنوات ، وانتهى أمر ثوروس بفراره وعودته إلى كيليكيا . وبعدما استكمل جون غزو المنطقة ، ذهب إلى منتجع شتوى فى السهل الكيليكى حيث جاءه بلدوين حاكم مرعش ليقدم له فروض الولاء ويلتمس حمايته من الأتراك . وفى الوقت ذاته ، أرسلت سفارة امبراطورية إلى زنكى كى يتولد لديه الانطباع بأن البيزنطيين غير راغبين فى الشروع فى مغامرة عدوانية.

١١٣٨ م : المسيحيون يحاصرون شيزر

وفى فبراير التالى ، وبأوامر من الامبراطور ، اعتقلت سلطات أنطاكية فجأة كل التجار والمسافرين من حلب والمدن الاسلامية المجاورة ، كى لا ينقلوا فى أوطانهم ما شاهدوه من استعدادات عسكرية . وفى أواخر مارس تحرك الجيش الامبراطورى إلى أنطاكية حيث انضم إليه جنود أمير أنطاكية وكونت الرها وكذلك كتيبة من فرسان المعبد . وفى أول ابريل عبر الحلفاء إلى اراضى الأعداء واحتلوا مدينة بلاط . وفى الثالث من الشهر ظهروا أمام البزاعة التى صمدت لخمسة أيام بقيادة زوجة القائد . وانقضى اسبوع آخر فى جمع الجنود المسلمين فى المنطقة وقد لاذ أغلبهم بمغارات الباب حيث اجبرهم البيزنطيون على الخروج ببث الأدخنة فى المغارات . وكان زنكى مع جيشه أمام حماه يحاول أن يخرج منها الحامية الدمشقية عندما اخبره الكشافون بالغزوات المسيحية . فسارع بارسال الجنود بقيادة سوار لتعزيز حامية حلب . وكان جون بمنى نفسه بمباغثة حلب ، لكنه عندما وصل امام اسوارها يوم ٢٠ ابريل وشن عليها هجوما ، وجدها فى حالة دفاع قوى ، فقرر عدم المضى مع أثقال الحصار واستدار جنوبا . وفى ٢٢ ابريل احتل أنارب ، وفى ٢٥ معرة النعمان ، وفى ٢٧ كفرطاب . وفى يوم ٢٨ كان جيشه أمام بوابات شيزر .

كان صاحب شيزر هو الأمير المنقذى أبو العساكر سلطان ، الذى تدبر استقلاله عن زنكى . ولذا ربما كان جون يأمل فى أن يصرف زنكى اهتمامه عن مصير حلب . غير أن امتلاكها سوف يتيح للمسيحيين السيطرة على أواسط العاصى وسوف يعوق زنكى عن مزيد من التقدم فى سوريا . وشدد البيزنطيون الحصار ، وسرعان ما احتلوا جزءا أسفل المدينة ، وأحضر الامبراطور ما لديه من راجمات الحجارة الضخمة لرحم أعلى المدينة فى التل شديد الانحدار المطل على نهر العاصى . وتروى المصادر اللاتينية والاسلامية على السواء ما بدا من شخص الامبراطور من شجاعة ونشاط ، وكفاءة الرجم كذلك ، فقد بدا كما لو كان فى كل مكان فى ذات الوقت فى خوذته الذهبية ، يتفقد الآلات ، ويشجع المهاجمين ، ويواسى الجرحى . وشاهد أسامة ابن اخي الأمير ما أحدثته المنجنيقات اليونانية من دمار مرعب إذ كانت القذيفة الواحدة منها تدمر بيوتا بكاملها ، بينما انسحقت السارية الحديدية التى تحمل علم الأمير ، وهوت إلى أسفل فنفذت فى بدن رجل كان فى الشارع فقتلته . على انه بينما دأب الامبراطور ومهندسوه على العمل بلا كلل ، تخلف الفرنج . إذ كان ريموند يخشى الإقامة فى شيزر حال الاستيلاء عليها وهى فى خط المواجهة للعالم المسيحى ، تاركا أسباب الراحة فى

أنطاكية ، بينما لم يكن حوسلين ، الذى كان يحمل الكراهية لريموند ، يود أن يراه وقد وطّد نفسه فى شيزر وربما فى حلب لاحقا ، ولذا كان لهمساته أثرها فى تشجيع ما يحمله ريموند من تراخٍ طبيعى ومن عدم ثقة فى البيزنطيين . وبدلا من أن يشترك الأميران فى القتال ، أمضيا أيامهما فى خيمتيهما يلعبان النرد . ولم يكن لتوبيخات الامبراطور من أثر سوى أن دفعتهما دفعا إلى بعض النشاط الخامل لفترة وجيزة . وفى ذات الوقت رفع زنكى حصاره عن حماه وتقدم باتجاه شيزر . وكان مبعوثوه قد أسرعوا إلى بغداد ، حيث كان السلطان عازفا عن تقديم المساعدة أول الأمر ، إلى أن اندلعت اعمال شغب صارخة بالجهاد ، مما اضطره إلى ارسال حملة . ووعد الأمير داود الأرمنى بجيش قوامه خمسين ألفا من التركمان من الجزيرة . كما أرسلت رسائل إلى الأمير الدانشمندى بطلب شن هجوم فى الأناضول . فضلا عن أن زنكى كان مدركا تماما لما يسود البيزنطيين والفرنج من شقاق ، راح عملاؤه فى الجيش المسيحى ينفثون ما يكرهه الأمراء اللاتين من ازدراء للإمبراطور.

١١٣٨ م : دخول جون أنطاكية

على الرغم من كل ما بذله جون من قوة ، فإن صخور شيزر ، وشجاعة المدافعين عنها ، وبلادة الفرنج ، اجتمعت كلها وهزمت . واقترح عليه بعض حلفائه الخروج لملاقاة زنكى خاصة وان جيشه اصغر من جيش المسيحيين، لكنه لم يشأ أن يترك آلات الحصار دون حراسة ، ولا أن يثق بالفرنج الآن . لقد كانت المجازفة فائقة الضخامة . وتدبر أمره واحتل جزء المدينة الاسفل كله ، وفى حوالى ٢٠ مايو أرسل إليه امير شيزر يعرض دفع تعريض ضخمة واهدائه أجود خيوله وأردية حريرية وأنفس كتزوين لديه : منضدة مرصعة بالجواهر ، وصليب بفصوص اليواقيت سبق وأن أخذ من الامبراطور رومانوس ديوجينيس فى منزكيت قبل سبع وثلاثين سنة، فضلا عن قبوله الاعتراف بالامبراطور سيده الأعلى ودفع جباية سنوية له . فما كان من جون ، الذى كان يشعر بالغثيان من حلفائه اللاتين ، إلا أن قبل الشروط ، ورفع الحصار فى ٢١ مايو . وبينما كان الجيش الامبراطورى العظيم يتحرك عائدا إلى أنطاكية ، جاء زنكى إلى شيزر . وبعد عدة مناوشات قليلة ضئيلة الخطر لم يشأ أن يجازف بمطاردة الانسحاب البيزنطى^(١٦).

(١٦) -William of Tyre, xv, 1-2, pp.655-8; Cinnamus, pp.19-20; Nicetas Choniates, pp. 37

وصل جون بجيشه إلى أنطاكية وأصر على دخول المدينة في موكب حافل، فتقدم على صهوة جواده وسار على جانبيه أمير أنطاكية وكونت الرها على الأقدام كما لو كانا سائسين لفرسه . وقابله عند البوابة البطريق وكل رجال الدين ومشوا بين يديه خلال الشوارع المزدانة بأعلام الزينة الملونة حتى الكندراية حيث اقيم قداس وقور ، ومنها إلى القصر حيث اتخذ مكان اقامته . واستدعى ريموند ، وألح أن الأمير فشل مؤخرًا في واجباته كتابع ثم طلب أن يدخل الجيش المدينة ويتسلم القلعة ، إذ أن الحملات المقبلة ضد المسلمين يتعين التخطيط لها في أنطاكية ، وهو في حاجة إلى القلعة لتخزين ما لديه من أموال ومواد الحرب . وارتاع الفرنج . والتمس ريموند بعض الوقت للنظر في هذا الطلب بينما انسل جوسلين خارجًا من القصر . وما أن خرج من القصر حتى طلب من جنوده نشر شائعة بين السكان اللاتين في المدينة بأن الامبراطور يطلب طردهم في الحال ، وحثهم على مهاجمة السكان اليونانيين . ولدى تفجّر أعمال الشغب اندفع عائدا إلى القصر ، صائحا بالامبراطور أنه جاء بمجازفا بحياته ليحذره من الخطر المحدق به . وبقينا كانت هناك ضجة وهرج في الشوارع ، وكان اليونانيون الغافلون يقتلون . ولا أحد يعلم في الشرق أين ينتهى الشغب . ولم يكن جون يحب المعاناة لليونانيون في المدينة ولا أن تغلق عليه ابواب القصر مع حرسه الخاص فقط، وقد انقطع الاتصال بجيشه البعيد على ضفاف نهر العاصي . فضلا عن انه علم أن سلاجقة الاناضول قاموا بغزو كيليكيا وأغاروا على أذنة، بفضل دبلوماسية زنكى . ولم ينخدع بحيلة جوسلين ، لكنه قبل أن يخاطر بعداوة صريحة مع اللاتين لابد وان يؤمن تماما بخطوط مواصلاته، فأرسل إلى ريموند وجوسلين قائلا إنه في الوقت الراهن لا يطلب أكثر من تحديد قسم التبعية وانه لابد من أن يرجع إلى القسطنطينية . وغادر القصر عائدا إلى جيشه ، وعلى الفور هدأت أعمال الشغب بأوامر من الأميرين . غير انهما كانا ما يزالان في حالة من التوتر وفي تلهف كبير لاسترداد حسن نوايا الامبراطور ، حتى أن ريموند عرض تواجد موظفين امبراطوريين في المدينة وهو يظن - صوابا - أن جون لن يقبل بهذا العرض الذي يخلو من الاخلاص . وبعد وقت قصير ودع جون كلا من ريموند وجوسلين بمظهر خارجي يحمل الصداقة وكامل الريبة المتبادلة . ثم قاد جيشه

41; Michael the Syrian, *loc.cit.*; Usama, ed. Hitti, pp.26, 124, 143-4; Ibn al-Qalanisi, pp.248-52; Kemal ad-Din, pp. 674-8; Ibn al-Athir, pp.426-8. القصيدة التهنته Prodomus الى الامبراطور بأن الجو هو الذى انقذ شيزر (M.P.G. vol. CXXXIII, cols. 1344-9).

عائدا إلى كيليكيا^(١٧).

١١٣٩م : جون فى الأناضول

والجدير بالملاحظة عدم التعرض للكنيسة طوال مفاوضات جون حول انطاكية . وكانت سلطات الكنيسة اللاتينية تخشى أن يصر الامبراطور على تنفيذ البند الوارد فى معاهدة ديفول بأن تعود البطريراقية إلى الحظيرة الاغريقية . ذلك انه فى مارس ١١٣٨م، أصدر البابا اينوسنت الثانى أمرا يحظر على أى عضو فى كنيسة البقاء مع الجيش البيزنطى فى حالة إقدام هذا الجيش على أى عمل مضاد للسلطات اللاتينية فى انطاكية وليس هناك أدنى شك فى أن البابا أصدر هذا الأمر استجابة لطلب أنطاكية . ولا بد وأن جون كان عازفا عن إثارة أية مشكلة دينية إلى أن ترسخ أقدامه على أرض صلبة سياسيا واستراتيجيا ، ولو أنه استطاع تقديم إمارة أخرى بدلا من انطاكية إلى ريموند ، لتمكن من إعادة بطريق يونانى إلى المدينة . لكنه فى الوقت ذاته ، وعلى الملأ، كان متساعها إزاء الوجود اللاتينى عندما كان فى موكبه الوقور داخل المدينة إذ جاء رادولف (أوف دومفرننت) وحياه وسار بين يديه إلى القديس الذى تم فى الكندراية^(١٨).

وعاد جون متباطئا إلى القسطنطينية بعد أن ارسل قسما من جيشه لمعاقبة مسعود السلجوقى على غارته فى كيليكيا، فطلب مسعود السلام ودفع تعويضا . وخلال عامي ١١٣٩م و ١١٤٠م انشغل الامبراطور مع الامير الدانشمندى الذى كان عدوا أخطر بكثير من السلاجقة . إذ لم يكف محمد بغزو كيليكيا العليا عام ١١٣٩م والاستيلاء على قلعة فاهكا ، وإنما قاد أيضا حملة باتجاه الغرب توغلت حتى نهر صنفاري . وبتحالفة مع قسطنطين جابراس ، دوق طرابزون المتمرد ، تمكن من حراسة جانبه الشمالى . وخلال صيف ١١٣٩م أفلح جون فى دحر الدانشمند خارج يثينيا وبافلاجونيا ، وفى الخريف سار شرقا بمحاذاة ساحل البحر الأسود . واستسلم

(١٧) William of Tyre, xv,3-5,pp.658-65; al-Azimi (p.352) is the only other chronicler to mention the plot.

(١٨) William of Tyre, xv,3,p.659. ولكن ابن القلانيسى يقول (ص ٢٤٥) ان جون طلب بطريقا يونانيا لأنطاكية . وربما اضطرب عليه الأمر بين مطالب جون والمطالب اللاحقة التى طالب بها مانويل . ويرد خطاب اينوسنت ، المؤرخ فى ٢٥ مارس ١١٣٨م فى *Cartulaire du Saint Sépulcre*, ed. Rozière, p.86.

قسطنطين جابراس ، وتحول الجيش الامبراطورى إلى داخل البلاد لمحاصرة قلعة نقصار الدانشمندية . وكانت مهمة صعبة ، إذ وهبتها الطبيعة القوة والحماية الجيدة، وفي تلك البلاد الجبيلة الوعرة يصعب الحفاظ على خطوط المواصلات . وتأسى جون لخسارته الجسيمة فى جنوده ، ولفرار ابن أخيه ، جون بن أخيه اسحق ، إلى صفوف الاعداء وتحوله إلى الاسلام وزواجه من ابنة مسعود . ويدعى السلاطين العثمانيون انهم من نسله . وفى خريف ١١٤٠ م تخلى جون عن مواصلة الحملة وأعاد جيشه إلى القسطنطينية وفى نيته استئناف الحملة فى العام التالى . لكن الأمير محمد مات فى العام التالى ، وتوقفت القوة الدانشمندية عن نشاطها مؤقتا بما دار لديها من حرب أهلية اشتعلت بين الورثة ، ومن ثم يستطيع جون العودة إلى مشروعه الأكبر وأن يحول انتباهه مرة أخرى إلى سوريا^(١٩).

وسرعان ما خسر فى سوريا ما فازت به حملته ضد المسلمين عام ١١٣٧ م ، إذ استعاد زنكى كفرطاب من الفرنج فى مايو ١١٣٧ م ، ومعرة النعمان وبزاعة وأتارب فى الخريف . وفى السنوات الأربع التالية كان زنكى مشغولا تماما بمحاولته الاستيلاء على دمشق ، وقد فشل فرنج شمال سوريا الكسالى فى انتهاز فرصة الصعوبات التى يواجهها زنكى . وفى كل سنة يتبادل ريموند وسوار والى حلب الغارات فى أراضي بعضهما البعض ، ولكن لم تحدث معركة كبرى^(٢٠) . وفازت كونتية الرها بسلام نسبي، نظرا للنزاعات المهلكة بين امراء المسلمين حول الحدود ، والتي وتفاقت بموت محمد الدانشمندى . وكان الامبراطور جون يراقب الأحداث بعناية من القسطنطينية ، وبدا له بوضوح أن فرنج شمال سوريا لا قيمة لهم كجنود للعالم المسيحي.

١١٣٩ م : خلع البطريق رادولف

ويرجع ما ظهر على ريموند من عدم المبالاة إلى نقص القوة العاملة من ناحية ، ومن ناحية أخرى إلى شجاره مع البطريق رادولف . ولم يكن فى نيته قط أن يخترم قسمه بطاعة البطريق فى كل شئ، وكانت عجرفة رادولف تشير ثأثرته . وعشر على حلفاء فى بعض رجال الكنيسة الملحقين بالكثدرائية يتزعمهم رئيس الشمامسة ،

(١٩) Nicetas Choniates, pp. 44-9; Michael the Syrian, III, p. 248

(٢٠) Kemal ad-Din, pp. 681-5

لامبرت ، وكاهن يدعى أرنولف (أوف كلايريا) . وبتشجيع من ريموند ، رحلوا إلى روما في أواخر عام ١١٣٧م للشكوى من انتخاب رادولف بطريقة غير كنسية ، وعند مرورهم في اراضي الملك روجر الثاني ، استشاره أرنولف - المولود من بين رعاياه - ضد رادولف بأن أكد له أن رادولف قد ضمن لريموند عرش انطاكية ، وهو العرش الذي طالما كان روجر الثاني يشتهي . واضطر رادولف إلى اللحاق بهم في روما للدفاع عن نفسه ، وعندما وصل بدوره إلى جنوب إيطاليا اعتقله روجر . لكنه أوتى من سحر البديهة وإغواء اللسان ما جعله يفوز بالملك إلى جانبه بسرعة . وواصل الرحلة إلى روما حيث انتصر سحره مرة أخرى . ونضا عن نفسه طيلسانه الأسقى ووضعه على مذبح القديس بطرس ، ثم استرده من البابا . وفي طريق عودته خلال إيطاليا لاستئناف مسؤوليات عرشه البطريراقى ، عامله الملك روجر معاملة ضيف الشرف ، لكنه عندما وصل انطاكية ، رفض أتباعه من رجال الدين - يوازرهم ريموند - أن يحويه التحية المألوفة وهي مقابته عند بوابات المدينة . فتظاهر رادولف بمظهر الرجل الوديع المجروح ، وتقاعد سرا في دير بالقرب من السويدية ، وبقي هناك إلى أن دعاه جوسلين أمير الرها - الساعى دائما إلى إحراج ريموند - إلى زيارة رسميه لعاصمته ، حيث استقبل رئيس الأساقفة استقبال السيد الروحي الأعلى . وسرعان ما قرر ريموند أن الأسلم له شخصا أن يعود البطريرق إلى انطاكية ، ولما عاد لقي من التحية كل آيات التشريف التى يودها .

على أن ملف التحقيق أعيد فتحه من جديد في روما نظرا لما اثاره ريموند من هياج واضطراب . وفي ربيع ١١٣٩م ، أرسل بطرس ، رئيس أساقفة ليون ، لينظر الحالة في مكانها . وذهب بطرس الذى كان طاعنا في السن لزيارة الأماكن المقدسة ، وأثناء رحلة العودة إلى الشمال مات في عكا . وكان موته خزيا على اعداء رادولف ، وحتى أرنولف (أوف كلايريا) عرض خضوعه لرادولف الذى منعه غطرسته من قبول ذلك العرض ، فثارت ثائرة أرنولف وعاد إلى روما وحث البابا على ارسال مندوب آخر ، ألبيريك ، أسقف أوستيا . ووصل المندوب الجديد في نوفمبر ١١٣٩م ، وعقد على الفور مجمعا كنسيا حضره كل مطارنة الشرق ، بمن فيهم بطريق القدس . وكان جليا أن تعاطف الجمع يميل إلى جانب الأمير ورجال الدين المعارضين ، وكان رئيس أساقفة أفاميا سيلولن يحاول الدفاع عن البطريرق رادولف فطرده من الجمع ، ومن ثم رفض رادولف حضور جلسات الجمع المنعقدة في كاتدرائية القديس بطرس ، عندما طرد مؤيده الوحيد . وبعد رفضه الاستدعاء لثالث مرة ليدفع عن نفسه الاتهامات الموجهة إليه ،

أعلن المجمع خلعه . وانتخب المجمع مكانه آميرى (أوف ليموج) رئيس كهنة الكنيسة ، وهو رجل ضخم ، نشيط ، وبكاد يكون أمياً ، ومدين لأرنولف بأول درجات تقدمه ، لكنه كان حصيفاً عندما أنشأ علاقة الصداقة مع ريموند . وبناء على قراره المكتوب ألقى ريموند البطريق السابق فى غيابة السجن . وفيما بعد هرب رادولف وذهب إلى روما حيث فاز مرة أخرى بتأييد البابا والكرادلة . لكنه قبل أن يتمكن من استغلال مساعدتهم لإعادة توطيد مكانته وافته المنية فى وقت ما من عام ١١٤٢ م ، وحامت الشكوك حول السم . وضمنت تلك الحادثة التعاون المخلص من كنيسة أنطاكية ، على أن ما كان يتصف به البطريق من معاملة جائرة ، ترك انطباعات قبيحة حتى بين رجال الدين الذين كانوا يكرهونه الكراهية كلها^(٢١) .

١١٤٢ م : جون يعود إلى كيليكيا

وفى ربيع ١١٤٢ م كان جون مهياً للعودة إلى سوريا . وكما حدث عام ١١٣٦ م ، احتاط لحماية ظهره بتحالف مع العاهل الألماني ضد روجر الصقلى ، وزار سفراؤه بلاط كونراد الثالث ، خليفة لوثير ، لعمل الترتيبات الضرورية ولكى توضع اللمسات الأخيرة للصداقة بخاتم الزواج ، وعادوا عام ١١٤٢ م ومعهم اخت زوجة الملك كونراد ، بيرثا (أوف سولزباخ) ، التى تقرر أن تصبح زوجة أصغر أبناء جون - مانويل تحت اسم إيرين . كما ضمن جون النوايا الحسنة للمدن البحرية الإيطالية^(٢٢) . وفى ربيع ١١٤٢ م قاد جون وأبناؤه الجيش عبر الأناضول إلى أضايا ، وهو يدحر فى مسيرته السلاجقة ورعاياهم التركمان الذين كانوا يحاولون مرة أخرى شق طريقهم إلى فريجيا ، ويقوى الدفاعات الحدودية . وبينما كان الامبراطور منتظراً فى أضايا ، أصابته مصيبة جسيمة . إذ أن أكبر أبنائه ألكسيوس ، المعين وريثاً ، سقط مريضاً ومات هناك . وتقرر أن يعهد إلى ابنه الثانى والثالث - أندرونيكوس واسحق - بنقل الجثة بحراً إلى القسطنطينية ، وأثناء الرحلة مات أندرونيكوس هو الآخر^(٢٣) . وبرغم هاتين

(٢١) William of Tyre, xiv, 10, pp. 619-20, xv, ii-16, pp. 674-85. وهو مصدرنا الوحيد.

(٢٢) Chalandon, *op. cit.* pp. 161-2, 171-2

(٢٣) Cinnamus, p. 24; Nicetas Choniates, pp. 23-4. إن جون كان بنو توريت الامبراطورية لألكسيوس ، وأن يحصل مانويل ، أصغر أبنائه ، على إمارة تتألف من أنطاكية و أضايا وقبرص.

الفاجعتين، واصل جون زحفه شرقا معلنا أن الهدف هو كيليكيا العليا لاستعادة ما أخذه الدانشمند من قلاع، إذ لم يرغب في إثارة شكوك الفرنج^(٢٤)، وشق الجيش طريقه الوعر خلال كيليكيا وعبر سلسلة جبال امانوس العليا المسماة جياورداغ، وفي منتصف سبتمبر ظهر فجأة أمام تل بشير، العاصمة الثانية لجوسلين أمير الرها. وبوغت جوسلين فسارح إلى تقديم فروض الولاء والطاعة للامبراطور وقدم له رهينة، ابنته ايزابيلا. فاستدار جون واتجه نحو انطاكية، وفي ٢٥ سبتمبر وصل إلى قلعة باحراس وهي قلعة فرسان المعبد العظيمة التي تتحكم في الطريق من كيليكيا إلى انطاكية. ومن هناك ارسل إلى ريموند طالبا تسليم المدينة كلها له، وكرر ما سبق أن عرضه من تقديم امانة جديدة للأمير من الغزوات المقبلة.

وانزعج ريموند. فبقينا عقد الامبراطور عزمه الآن على متابعة مطالبه والحصول عليها بالقوة، ويبدو أن المسيحيين الوطنيين كانوا على استعداد لمساعدة البيزنطيين. وحاول الفرنج كسب الوقت. فرد ريموند بأنه لابد وأن يستشير اتباعه، وبهذا غير تماما الوضع القانوني الذي ارتكز عليه عام ١١٣١م وانعقد مجلس في انطاكية أعلن فيه الأتباع - وربما استدعاهم البطريق الجديد على وجه السرعة - أن ريموند يحكم كمجرد زوج وريثة انطاكية، ومن ثم لاحق له في التخلي عن أراضيها، بل إن الأمير والأميرة معا لا يستطيعان تغريب الامارة او مبادلتهما دون موافقة أتباعهما الذين سوف يطيحون بهما من على العرش اذا حاولا ذلك. وحمل اسقف جبلة رد المجلس إلى جون الذي استشهد بسلطة البابا في تأييد رفض المطلب الامبراطوري غير انه عرض على جون أن يدخل انطاكية في موكب يكلله الوقار. ولم يكن في هذا الرد الذي يتعارض تماما مع كل تعهدات ريموند السابقة أي خيار يختاره جون سوى الحرب. على أن المرسوم كان متقدما جدا بحيث لا يسمح بالعمل الفوري، ولذا راح جون ينهب ممتلكات الفرنج في حوار المدينة، ثم انسحب إلى داخل كيليكيا لاستعادة القلاع التي اخذها الدانشمند ولكي يمضي الشتاء^(٢٥).

(٢٤) William of Tyre, xv, 19, p. 688، بشير وليم الى ان ريموند دعا جون للتدخل خشية من زنكى، ولكن Nicetas Choniates (p. 52) يتحدث عنه مخفيا خططه وأن وصوله الفعلي الى سوريا كان مفاجأة (William of Tyre, *ibid.* p. 689).

(٢٥) William of Tyre, xv, 19-20, pp. 688-91; Nicetas Choniates, pp. 52-3; Gregory the Priest, p. 156; Matthew of Edessa, cclv, p. 325.

ومن كيليكيا أرسل جون سفارة إلى القدس لتعلن للملك فولك عن رغبته في زيارة الأماكن المقدسة ولكي يناقش مع الملك عملاً مشتركاً ضد الكفرة . واسقط في يد فولك . فهو لا يرغب في نزول الجيش الامبراطوري العظيم إلى فلسطين ، وسوف يكون ممن ما يقدمه الامبراطور من مساعدة هو حتما الاعتراف بسيادته . وانطلق أسقف بيت لحم ، انسيلم ، وبصحبه أمر قلعة القدس ، ورورد ، ورئيس رهبان فرسان المعبد جيوفري الذي كان دارساً جيداً لليونانية ، ليشرحوا لجون أن فلسطين بلد فقير لا يستطيع توفير الطعام لإعاشة جيش ضخم كجيش الامبراطور ، ولكنه اذا تعطف بالحضور مع حرس صغير فسوف يكون الملك في غاية السرور للترحيب به . وقرر جون عدم الاصرار على طلبه أكثر من ذلك حالياً^(٢٦).

في مارس ١١٤٣ م ، عندما أتم الامبراطور استعداداته للاستيلاء على انطاكية ، منح نفسه عطلة قصيرة يذهب فيها لصيد الخنزير البري في جبال طوروس . وأثناء الصيد أصيب عرضاً بسهم فجرحه . ولم يعبأ كثيراً بهذا الجرح . لكن الجرح تعفن وسرعان ما دخل في مرحلة الاحتضار بسبب تسمم الدم . وواجه جون نهايته رابط الجأش ، وظل حتى آخر لحظة يعمل في الترتيب لاستخلافه ولا استمرار الحكومة استمراراً سلساً . لقد مات أكبر ابنين من ابنائه الأربعة . وكان الثالث اسحق ، الموجود الآن في القسطنطينية ، شاباً متقلب المزاج . فقرر جون أن يورث الامبراطورية للأصغر والأحد ذكاءً ، مانويل ، وحث صديقه العظيم ، أكسوك كبير متبوعيه ، مساندة مانويل في مطلبه . ويديه الضعيفتين وضع التاج على رأس مانويل واستدعى جنرالاته للتهاتف للامبراطور الجديد وبعد أن نطق باعتزافه الأخير لراهب جليل من بامفيليا، مات يوم ٨ ابريل^(٢٧).

وكان موت جون بمثابة الخلاص لأنطاكية الفرنجية . وفي الوقت الذي أسرع فيه

(٢٦) William of Tyre, xv, 21. pp. 691-3. ويقول (Cinnamus, p.25) إن جون أعدّ قرابين للقبر المقدس.

(٢٧) William of Tyre, xv, 22-3, pp. 693-5; Cinnamus, pp. 26-9; Nicetas Choniates, pp. 56-64; Matthew of Edessa, cclv, p. 325; Gregory the Priest, p. 156; Michael the Syrian, iii, p. 254; Ibn al-Qalanisi, p.264; Bustan, p. 537.

أكسوك إلى القسطنطينية يسبق الأنباء لحماية القصر والحكومة من أية محاولة من جانب اسحق بن جون للمطالبة بالعرش ، كان مانويل يقود الجيش عائدا به عبر الأناضول. وإلى أن يتأكد أولا من عاصمته ، ليس هناك مجال للمزيد من المغامرات في الشرق . ونحى المشروع الامبراطوري جانبا ، ولكن ليس لفترة طويلة^(٢٨).

(٢٨) Cinnamus, pp. 29-32، يتحدث عن سفارة انطاكية تتصف بالوقاحة ذهبت الى مانويل الذي رد بأنه سوف يعود لتأكيد حقوقه، William of Tyre, xv, 23, Nicetas Choniates, pp. 65-9; p.696.

الفصل الرابع:

سقوط الرها

سقوط الرها

"رَبِّ مُلْكٍ مُّعْجَلٍ فِي أَوَّلِهِ . أَمَّا آخِرَتُهُ فَلَا تُبَارِكُ"
(أمثال ٢٠ : ٢١)

تنفس فرنج الشرق الصعداء لدى سماعهم نبأ وفاة الامبراطور ، ولم يلحظوا في تنهدات راحتهم كم كان الأتابج زنكى أكثر منهم ارتياحا بكثير وهو ألد أعدائهم^(١). وقد أمضى زنكى فترة سنتين ، من ١١٤١م ، وهو يعاني الحرج من رغبة السلطان مسعود في إعادة تأكيد سلطته عليه . ولم يتمكن زنكى من تجنب غزو السلطان لأراضى الموصل إلا بالتظاهر فى الوقت المناسب بالخضوع له ، إلى جانب هدية مالية وإرسال ابنه كرهينة^(٢). ولو قد حدث غزو بيزنطى لسوريا فى تلك اللحظة ، لانتهدت مخططات زنكى فى الجهة الغربية ، بل زاد تهديد تلك المخططات من جرّاء تحالف بين

(١) يتمثل الموقف الاسلامى حيال البيزنطيين فيما أورده ابن القلانيسى (ص ٢٥٢) عندما كان يتحدث عن انسحاب الامبراطور عام ١١٣٨م فيقول : 'اطمأنت كل القلوب بعد حزنها وخوفها'.

(٢) Ibn al-Athir, pp. 241-2

ملك القدس وأتابج دمشق ، نشأ نتيجة لخوفهما المشترك منه .

وبعد انهيار التحالف الفرنجي البيزنطي عام ١١٣٨ م ، عاد زنكى إلى ما كان فيه من محاولة الاستيلاء على دمشق . وكان حصاره لحمص قد توقف مرتين ، المرة الأولى بتقدم الفرنج إلى قلعة بعين ، والمرة الثانية بحصار الفرنج لشيزر . وقد عاد الآن فى كامل قوته إلى حمص ، وأرسل إلى دمشق طالبا يد أم الأتابج للزواج ، الأميرة زمرد ، عارضا حمص مهرا لها . ولم يكن الدمشقيون فى موقف يساعدهم على الرفض . وفى يونية ١١٣٨ م تزوجت السيدة الأرملة من زنكى ودخلت جنوده حمص . وإظهارا لحسن النوايا، أقطع زنكى حاكم حمص المملوك المسن أنر إقطاعية تضم قلعة بعين التى احتلها حديثا وبعض الحصون فى الجوار^(٣).

وكانت أسرة بوري الحاكمة فى دمشق حسنة الحظ ، إذ لم يتخذ أنر مقامه فى قلعة بعين وإنما جاء إلى دمشق . وهناك قُتل الأتابج الصغير شهاب الدين محمود فى فراشه على يد ثلاثة من أقرب غلمانه ، وكان ذلك فى ليلة ٢٢ يونية ١١٣٩ م . ولو كان زنكى - الذى حامت حوله شكوك التواطؤ - يأمل بذلك فى الاستيلاء على الحكم فقد خاب أمله ، إذ باشر أنر فى الحال تسير دفة الأمور ، فصلب القنلة ، واستدعى الأخ غير الشقيق للأتابج ، جمال الدين محمد ، حاكم بعلبك ، ليتسلم عرش محمود . وفى المقابل أعطى محمد بعلبك لأنر الذى تزوج من أم التابج الجديد . لكن أنر بقي فى دمشق مسؤولا عن الحكومة . ولم يصادف ذلك هوى لدى زنكى ، وخاصة بتشجيع زوجته زمرد وأخ محمد ، هو باهرام شاه الذى كان يحمل عداوة شخصية لأنر . وفى أواخر صيف ١١٣٩ م حاصر بعلبك بجيش ضخيم وأربع عشرة آلة من آلات الحصار ، فاستسلمت المدينة يوم ١٠ أكتوبر ، كما استسلمت يوم ٢١ من الشهر حامية القلعة - التى شُيّدت من بقايا معبد بعل الكبير - بعد أن أقسم زنكى على القرآن بالإبقاء على حياة افراد الحامية ؛ لكن زنكى حنث بقسمه ، إذ قتلوا جميعا شر قتلة وبيعت نساؤهم سبايا . ولم يكن زنكى يقصد من ذلك سوى ترويع الدمشقيين ، لكنها جعلت مقاومتهم أكثر صلابة وأدت بهم إلى النظر إلى زنكى على انه عدو خرج عن العقيدة^(٤).

وفى الأيام الأخيرة من تلك السنة عسكر زنكى بالقرب من دمشق ، وعرض على

(٣) Ibn al-Qalanisi, p. 252; Kemal ad-Din, pp. 678-9

(٤) Ibn al-Qalanisi, pp. 253-6; Ibn al-Athir, p.431

الأتابع محمد بعلبك أو حمص بدلا من دمشق . وكان الأمير الصغير حريبا بالقبول
لوسمح له أنر . وبرفض هذا الأخير تحرك زنكى لمحاصرة المدينة . وفى خضم تلك الأزمة
مات محمد يوم ٢٩ مارس ١١٤٠ م . بيد أن الدمشقيين كانوا يحملون الولاء لآل
هورى، ولم يجد أنر صعوبة فى رفع ابن محمد الشاب بحير الدين أبى إلى العرش . وفى
ذات الوقت قرر أنر أن لديه من المبررات الدينية والسياسية ما يدفعه إلى طلب مساعدة
المسيحيين ضد عدوه الغادر . فانطلقت من دمشق سفارة يرأسها الأمير أسامة بن منقذ
قاصدة القدس^(٥).

١١٣٩ م : التحالف الفرنجى مع دمشق

كان الملك فولك يحاول انتهاز فرصة ما يعانيه الدمشقيون من ارتباك كى يحكم
قبضته على منطقة ما وراء نهر الأردن . وفى صيف ١١٣٩ م زاره ثيبرى (أوف الزاس)،
كونت فلاندرز ، زوج سيبيلا ابنة فولك من زواجه الأول . وبمساعدة ثيبرى أغار
فولك على جلعاد ، وبشئ من الصعوبة استولى على حصن صغير بالقرب من عجلون،
وذبح المدافعين عنه^(٦) . ولم يجن من كده سوى القليل . إذ أنه عندما عرض عليه أنر
عشرين ألف بيزنت شهريا وإعادة قلعة بانياس لقاء طرد زنكى من دمشق ، لم يتردد فى
تغيير سياسته . ولم تكن فكرة هذا التحالف جديدة ، فقد سبق وأن حدث فى أوائل
١١٣٨ م أن رحل أسامة إلى القدس نيابة عن أنر لمناقشة حدود التحالف . وبرغم ما
استقبله به البلاط الفرنجى من مظاهر التشريف ، إلا أنه رفض ما عرضه من مقترحات .
أما الآن ، فالبلاط الفرنجى يفهم ما تشكله الأخطار الناجمة عن تعاظم قوة زنكى ،
وعندما استدعى فولك مجلسه لينظر فى العرض ، كان هناك شعور عام بأنه ينبغى
قبوله^(٧).

بعد تسلم الفرنج رهائن من دمشق ، انطلق جيشهم فى إبريل قاصدا الجليل .
وسار فولك متوخيا جانب الحذر ، وتوقف بالقرب من طبرية بينما استمر الكشافون .
وهبط زنكى على الساحل المقابل لبحر الجليل كى يراقب تحركاته ، فوجده ماكثا لا

(٥) Ibn al-Qalanisi, pp. 256-9

(٦) William of Tyre, xv, 6, pp. 665-8

(٧) Ibid. xv, 7, pp. 668-9; Ibn al-Qalanisi, pp. 259-60

يتحرك ، فعاد لمحصرة دمشق . وعلى الأثر انطلق فولك شمالا . ولم يكن زنكى ليحازف بأن يقع بين فكى الفرنج والدمشقيين ، ولذا انسحب مبتعدا عن دمشق . وعندما قابل فولك قوات أنر إلى الشرق قليلا من بحيرة الحولة فى وقت مبكر من يونية ، علموا أن زنكى انسحب إلى بعلبك . وعادت بعض قوات زنكى فى وقت متأخر من الشهر للإغارة حتى وصلت إلى أسوار دمشق ، لكن زنكى انسحب بجيشه الرئيسى إلى حلب ولم يصبه أذى^(٨) . وبذا أنقذ التحالف دمشق دون معركة . والتزم أنر بشروط الصفقة ، وكان جنوده يحاصرون بانياس حصارا متقطعا لعدة شهور خلت . وانتهر أحد قادة زنكى - إبراهيم بن طرغوت - فترة همود فى الحصار وراح يغير على الساحل بالقرب من صور حيث بوغت بجيش فرنجى أنطاكى يقوده ريموند جاء جنوبا لمساعدة فولك فى الحملة الدمشقية . وهزم ابراهيم وقتل . وسرعان ما قرر المدافعون عن بانياس التسليم عندما شاهدوا أنر نفسه وبصحبه فولك وريموند ، اللذين شجعتهما زيارة المندوب البابوى ، ألبريك (أوف بوفيه) . ورتب أنر تعويض المدافعين عن بانياس بأراض بالقرب من دمشق ، ثم سلم المدينة للفرنج الذين نصبوا فيها حاكمها السابق ، رينيه (أوف بروس) ، بينما تقرر تعيين آدم ، رئيس شمامسة عكا ، أسقفا لها^(٩) .

وتأكد تحالف فولك وأنر بزيارة قام بها الأخير بعد ذلك مباشرة إلى بلاط الملك فى عكا يصحبه فيها أسامة . ولقيا استقبالا ساده الود والتعلق ، ثم ذهبا إلى حيفا والقدس ، وعادا خلال نابلس وطبرية . وتمت الجولة فى جو تميز بحسن النية البالغة ، رغم أن أسامة لم يرافق البتة على كل ما شاهده^(١٠) . وفضلا عن ذلك ، أظهر فولك رغبته المخلصة فى صداقة الدمشقيين . إذ شكروا له مما يقوم به رينيه (أوف بروس) من غارات من بانياس على قطعانهم ، فأصدر فولك أوامره الصارمة بأن يكف رينيه عن غاراته وأن يدفع تعويضات للضحايا^(١١) .

(٨) William of Tyre, xv, 8, pp. 669-70; Ibn al-Qalanisi, p.260; Kemal ad-Din, p. 682

(٩) William of Tyre, xv, 9-11, pp. 770-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 260-1

(١٠) Usama, ed. Hitti, pp. 166-7, 168-9, 226

(١١) Ibid. pp.93-4

١١٤٠م : بناء القلاع على الحدود الجنوبية

شعر الملك فولك بالاطمئنان على حكومته فى حوالى عام ١١٤٠م. وكانت الأحوال فى شمال سوريا قد تدهورت منذ أيام أسلافه ، ولم يكن يشعر بأن له مكانة أو سلطة هناك . بل ومن المشكوك فيه ما اذا كان جوسلين أمير الرها يعترف بسلطته هناك . لكنه كان آمناً فى نطاق سلطانه الخاص به . وقد لقن الدرس الذى يفرض على الفرنج تخفيف خصومتهم للمسلمين إذا أرادوا العيش هناك ، وينبغى لهم أن يكونوا على استعداد لم يد الصداقة لأقلهم خطورة ، وقد طوّع الملك نبلاءه بحيث ساروا معه على نفس درب سياسته . واجتهد فى الوقت نفسه كي يوفر الحماية للبلد . فشُيّدت على الحدود الجنوبية ثلاث قلاع للحراسة من غارات المصريين الآتية من عسقلان: ففي بينه، الواقعة على مسافة عشرة أميال تقريباً جنوب غرب اللد ، وفى بقعة وفيرة المياه تتحكم فى تلاقى الطرق من عسقلان إلى يافا والرملة ، استغل أطلال المدينة الرومانية القديمة يمنية لتشييد قلعة رائعة عهد بها إلى باليان ، وشهرته "العجوز" ، شقيق فيكونت تشارترز . وكان باليان يمتلك الأرض فى ظل لوردات يافا ، وفاز بعطف فولك عندما ساندته الملك ضد هيو (أوف لو بواسيه) . ولأنه أمر قلعة بينه ، فقد رفع إلى مصاف كبار مستأجرى الأرض ، وتزوج هيلفيس ، وريثة الرملة . وكانت ذريته تشكل أشهر عائلة نبيلة فى الشرق الفرنجى^(١٢).

وإلى الجنوب من بينه يقع الطريق المباشر من عسقلان إلى القدس ، تحرسه قلعة (الحراسة البيضاء Blanchegarde) ، على التل الذى يسميه العرب تل الصافية ، أى المشرقة . وقد أصبح وكيلها ، أرنولف ، من أغنى وأقوى بارونات المملكة^(١٣) . وبنيت القلعة الثالثة فى بيت جبريل عند القرية التى يسميها الصليبيون خطأ بئر سبع . وكانت تتحكم فى الطريق من عسقلان إلى الخليل ، وعهد باستحكاماتها إلى فرسان المستشفى^(١٤) . ولم تكن تلك الاستحكامات على ما يكفى من الاكتمال بحيث تمنع كل الغارات المنطلقة من عسقلان . ففي ١١٤١م ، اخترق المصريون تلك

William of Tyre, xv, 24 pp.696-7. For Balian's origin , see Ducange, *Familles* (١٢)
d'Outre Mer, ed.Rey, pp.360-1

William of Tyre, xv, 25, pp. 697-9. (١٣)

Ibid. xiv, 22, pp.638-9. Martin, 'Les premiers princes croisés et les Syriens (١٤)
jacobites de Jérusalem. II', *Journal Asiatique*, 8 me série, vol. XIII, pp.34-5, gives
Szrian evidence suggesting that the castle was being built in 1135.

الاستحكامات وهزموا قوة صليبية صغيرة فى سهل شارون^(١٥)، غير أن تلك التحصينات كانت قادرة على صد أى هجوم جاد من الجنوب على القدس ، وكانت بمثابة مراكز للإدارة المحلية .

وفى الوقت ذاته اتخذ فولك الخطوات الكفيلة بإخضاع البلاد شرقى وجنوبى البحر الميت للرقابة الصارمة . وقد ساعدت اقطاعية الشوبك ، بقلعتها الواقعة فى واحة فى تلال إيدوم ، فى تحكم الفرنج المطلق فى طرق القوافل الذاهبة من مصر إلى الجزيرة العربية وسوريا ، على أن القوافل الاسلامية كانت ما تزال تمر آمنة على الطرق ، وكان المغيرون من الصحراء ما يزالون قادرين على الاختراق والوصول إلى يهودا . ومنذ أن تولى فولك العرش منح رومان (أوف لو بوي) الشوبك ومنطقة ماوراء الأردن نحو عام ١١١٥ م . لكن رومان ساند هيو (أوف لو بواسيه) ضد الملك ، الذى صادرهما وحرم ابنه من وراثتهما ، ومنح الاقطاعية لباجان الساقى الذى كان من أرفع مسؤولي بلاطه . وكان باجان إداريا قويا حاول إحكام رقابته على المنطقة الكبيرة التى يحكمها . ويبدو انه أفلح فى أن يستتب الأمن فى البلاد حتى جنوب البحر الميت ، ولكن عندما كان فولك مشغولا فى جلعاد عام ١١٣٩ م تمكنت جماعة من المسلمين من عبور نهر الأردن على مقربة من اتصاله بالبحر الميت والإغارة على يهودا ، حيث نصبت شركاً - بخدعة تفهقر زائف - قضت فيه على جماعة من فرسان المعبد كانت قد أرسلت للتصدي لها . وربما نقل باجان مقره من الشوبك فى الشراه إلى مواب لكى يسيطر على الطرف الشمالى للبحر الميت وطرفه الجنوبى أيضا . وهناك فى مواب ، وبموافقة الملك عام ١١٤٢ م ، وعلى تل يسميه المؤرخون حجرة الصحراء Petra Deserti ، بنى قلعة عظيمة تعرف باسم كرك مواب . وكانت ذات موقع رائع يسيطر على الطرق الوحيدة التى تربط مصر عمليا بغربى الجزيرة العربية والداخلية إلى سوريا ، ولم تكن تلك القلعة تبعد كثيرا عن مخاضات نهر الأردن الأسفل . وكان بلدوين الأول قد أنشأ فعلا مرقبا أسفل شاطئ خليج العقبة ، عند إيلين أو أيله . ونصّب باجان حامية أقوى هناك ، وكذا فى حصن وادى موسى بالقرب من البتراء القديمة . وقد ساعدت تلك الحصون ، مع الشوبك وكرك ، فى توطيد سيادة لورد منطقة الأردن على أراضي إيدوم (الشراه) ومواب ، وعلى ما يحيطها من حقول غنية بالحبوب ، ومنخفضات الملح على البحر الميت على الرغم من أن الفرنج لم يستعمروا تلك المناطق بمجدية ، وواصلت قبائل

البدو حياتها البدوية القديمة فى المناطق القاحلة ، تدفع أحيانا مجرد إتاوة للفرنج^(١٦).

وتحسنت الحالة الأمنية الداخلية فى المملكة فى عهد فولك . إذ كان الطريق بين يافا والقدس فى وقت استخلافه ما يزال محفوفاً بالمخاطر بسبب قطاع الطرق الذين لم يعتادوا على التحرش بالحجاج وحسب ، وإنما كانوا يقطعون كذلك امدادات الطعام الذاهبة إلى العاصمة . وفى ١١٣٣ م ، وبينما كان الملك غائبا فى الشمال ، نظم البطريق وليم حملة ضد قطاع الطرق وشيّد حصنا سمي (شاسيل إيرنوت) بالقرب من بيت نوبه ، حيث يصعد الطريق القادم من اللد إلى داخل التلال . وكان تشييدها تسهيلا للسلطات فى حراستها للطريق ، وبعد اتمام التحصينات على الحدود المصرية ، لم يكن المسافرون يواجهون صعوبة أثناء رحلتهم من الساحل إلا فيما ندر^(١٧).

١١٤٣ م : مؤسسات الملكة مليسند

ليس لدينا سوى القليل عن حكومة المملكة فى السنوات الأخيرة من حكم فولك . فبعد سحق تمرد هيو (أوف لو بواسيه) ، بعد أن هدأت رغبة الملكة فى الانتقام ، أيد البارونات التاج بغاية الإخلاص . وكانت علاقات فولك بكنيسة القدس طيبة على الدوام . إذ أن البطريق وليم (أوف ميسين) الذى تزوّجه والذى قدّر له أن يعيش من بعده ، ظل صديقه الوفي الذى يرعاه . وبتقدم الملكة مليسند فى السن اتجهت اهتماماتها إلى أعمال التقى والورع ، برغم أن المقصود من أهم مؤسساتها هو زيادة مجد أسرتها. وكّرت نفسها لأخواتها ، فغدت أليس أميرة لأنطاكية ، وهودييرنا الآن كونتييسة طرابلس ، أما الصغرى جوفيتا التى أمضت سنة من طفولتها رهينة لدى المسلمين ، فلم تعثر لها على زوج مناسب . وقد انخرطت فى التدين وأصبحت راهبة فى دير القديسة آن فى القدس . واشترت الملكة عام ١١٤٣ م من كنيسة القبر المقدس قرية ييثانى ، كبديل لأراضى قريبة من الخليل ، وبنت هناك ديرا للراهبات تخليدا

(١٦) William of Tyre, xv, 21, pp.692-3. وعن منتجات المنطقة انظر Abel, GÉOGRAPHIE DE LA PALESTINE, I, p 505. وعن الأثر الواقع على التجارة الإسلامية انظر Wiet, op.cit. pp.320-1. أنظر Rey, 'Les Seigneurs de Montréal et de la Terre d'Oultre Jourdain' فى *Revue de l'Orient Latin*, vol. iv, pp. 19ff. والقلعة فى وادى موسى تقع على تل شديد الانحدار يعرف الآن باسم ويرا Wueira خارج ضواحي البتراء، حيث تبدو أطلال خرائب صليبية كثيرة عبر وادى موسى. كما توجد أطلال قلعة صغيرة من العصور الوسيطة على تل الحابس فى وسط البتراء.

(١٧) William of Tyre, xiv, 8, p. 617

للقديس لازاروس وأختيه مارثا وماري ، وجعلت أريحا بكل بسايتها ومزارعها المحيطة وقفا على الدير، وحصنته ببرج . وحتى لا تتضح دوافع الملكة غاية الرضوح ، عيّنت أول رئيسة لدير الراهبات راهبة ممتازة عجوز تريد أن تحتضر ، وقد ماتت بعد شهر قليل بمهارة شديدة . ومن باب الواجب انتخب دير الراهبات رئيسة له حوفيتا البالغة من عمرها أربعة وعشرين ربيعاً . وبذا كانت حوفيتا تقوم بدور مزدوج ، أميرة تجرى في عروقها الدماء الملكية ، ورئيسة أغنى أديرة الراهبات في فلسطين ، ومن ثمّ كانت تشغل مكانة متميزة مبدلة مابقي لها من عمرها الطويل^(١٨) .

كان ذلك أكثر عطايا الملكة مليسند الخيرية إسرافاً ، على أنها حرّضت زوجها على أن يهب كنيسة القبر المقدس عدة هبات على هيئة أراض ، ودأبت على إنشاء دور دينية على درجة من السخاء طوال فترة ترميلها . كما كانت مسؤولة عن تحسين العلاقات مع الكنيستين اليقروية والأرمينية . وقبل الاستيلاء الصليبي على القدس كان اليعاقبة قد هربوا كلهم معاً إلى مصر . وعندما عادوا وجدوا الضياع التي كانت تملكها كنيستهم في فلسطين قد منحت لفارس فرنجي ، حوفير ، الذي أسره المصريون عام ١١٠٣م ومن ثمّ استعاد اليعاقبة أراضيهم . غير أن حوفير ، الذي ظنه الجميع ميتاً ، عاد عام ١١٣٧م من الأسر وطالب بممتلكاته . وبتدخل الملكة تدخل مباشر ، سُمح لليعاقبة الاحتفاظ بممتلكاتهم ، بعد دفع ثلاثمائة بيزانت لجوفير على سبيل التعويض . وفي عام ١١٤٠م نجد كاثولييكوس بطريق الأرمن وقد حضر مجمعا كنسيا للكنيسة اللاتينية هناك . كما وهبت مليسند العطايا لدير القديس ساباس الأرثوذكسي^(١٩) .

أما سياسة فولك التجارية فكانت امتداداً لسياسة سلفه . فكان يحترم التزاماته حيال المدن الإيطالية التي تسيطر الآن على تجارة تصدير البلد . غير أنه رفض رفضاً مطلقاً منح حق الاحتكار ، وفي ١١٣٦م عقد معاهدة مع تجار مرسيليا ، وأعدا منحهم أربعمائة بيزانت سنوياً من عوائد يافا ، لصيانة منشآتهم هناك^(٢٠) .

(١٨) William of Tyre, xv, 26, pp. 699-700 كانت حوفيتا مسؤولة عن تعليم حفيدة اختها سيبيلا ملكة المستقبل (انظر أدناه ص ٤٦٥) . وماتت في وقت ما قبل عام ١١٧٨م ، إذ قالت رئيسة دير الراهبات ، إيفا (أوف ييشاني) إنها قد خلفتها في رئاسة الدير (Cartulaire de Ste Marie) (Josaphat, ed. Kohler, p. 122)

(١٩) Nau, 'Le croisé Iorrain, Godefroy de Ascha', in *Journal Asiatique*, 9me série, vol ١٩٧, pp. 421-31é Rohricht, *Regesta*, pp. 1067. XIV انظر أدناه الصفحات ٣٢١-٣٠٣.

(٢٠) Rohricht, *Regesta*, p.40. See La Monte, *Feudal Monarchy*, p.272 وبعد ١٦ سنة أعطاهم بلدوين الثالث حيا في القدس Rohricht, *Regesta*, p. 70.

١١٤٣ م : موت الملك فولك

فى خريف ١١٤٣ م كان البلاط فى عكا يستمتع بالهدأة التى أتاحها انسحاب زنكى من دمشق . وفى ٧ نوفمبر رغبت الملكة فى الخروج لنزهة خلوية . وبينما الجماعة الملكية على جيادها متجهة إلى داخل البلد فزع أرنب ، وركض الملك يتهب الأرض وراءه . وفجأة تعثر جواده وألقى الملك من على ظهره ، وسقطت صهوة الفرس الثقيلة مرتطمة برأسه . وعادوا به فاقد الرعى والجراحات فظيعة فى رأسه إلى عكا حيث مات بعد ثلاثة أيام . وكان ملكا طيبا لمملكة القدس ، لكنه لم يكن بالملك العظيم ولا بقائد فرنج الشرق^(٢١).

وصدرت عن الملكة مليسند ألفاظ الأسى ، التى حرّكت مشاعر البلاط كله ، لكن ذلك لم يصرفها عن تولى شؤون المملكة . وكان من بين أولادها من فولك إبنان : بلدوين ابن ثلاث عشرة سنة ، وأمالريك ابن سبع سنين . وكان فولك قد تولى العرش باعتباره زوجها ، وكانت حقوقها كورثة معترف بها كلها . غير أن فكرة وجود ملكة وصية بمفردها لم تخالط أذهان البارونات . ولذا عيّنت ابنها بلدوين زميلا لها وباشرت هى الحكومة . واعتبر تصرفها تصرفا دستوريا مثاليا وآيده مجلس الملكة عندما قام البطريق وليم بتتويجها هى وبلدوين يوم عيد الميلاد^(٢٢) . وكانت مليسند امرأة ذات اقتدار وكان حكمها خليقا بالنجاح فى أوقات أكثر سعادة . واتخذت مستشارها ابن عمها الركيل (الكونستابل) مناس (أوف هيرجنز) ابن اللورد الوالونى الذى تزوج اخت الملك بلدوين الثانى ، هودبيرنا (أوف ريثيل) . وقد برز مناس الشاب فى بلاط عمه ، حيث كفلت له قدراته وعلاقاته الملكية تقدما مطردا . وعندما مات باليان العجوز فى يينة ، بعد موت فولك مباشرة ، تزوج مناس أرملة هيلفيس ، وريثة الرملة التى كانت تسيطر على السهل الفلسطينى كله بحقها الشخصى وبحق أولادها . وكان مقدر أن يشعر البارونات بالاستياء عاجلا أو آجلا من قوة مناس ، إذ كان هو والملكة بميلان إلى الحكم الاستبدادى على أنه لم تكن فى الوقت الراهن أية معارضة للملكة^(٢٣).

(٢١) William of Tyre, xv, pp. 700-2; Matthew of Edessa, cclvi, p. 325; Ibn al-Qalanisi, p. 265. كعب سان برنار خطاب تعزية للملكة مليسند (no. 354, M.P.L. vol. CLXXXII, cols. 556-7)

(٢٢) William of Tyre, xvi, 3, p. 707 وعن وضع مليسند الدستورى أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 14-18

(٢٣) William of Tyre, xvi, 3, p. 707 ، يقرّظ الملكة . وعن مناس (انظر ادناه ص ٣٨٦) . وزواجه سجله وليم . وكثيرا ما يظهر اسم هيلفيس Helvis فى صكوك عقود ، e.g. Rohricht, *Regesta*,

وكان لتوليها العرش عيب خطير . ففى ظل حكم الملك فولك ، كان وضع ملك القدس كسيد أعلى للدويلات الصليبية يتنامى نظريا وليس عمليا ، ومن غير الراجح أن يولى أمراء الشمال انتباها اكبر إلى سيادة امرأة وطفل . وعندما كانت المشاحرات تتفجر بين أمير أنطاكية وكونت الرها، كان ملك القدس القوى - كبلدوين الثانى - يشد الرحال شمالا ويهدئ الخلافات قسرا . وهذا مالا تستطيعه ملكة ولا ملك صبى ، وليس هناك من يملك السلطة الغالبة .

أما ريموند أمير أنطاكية فمئذ أن مات الامبراطور جون ، وصد زنكى أمام دمشق، بُعثت من جديد ثقة فى نفسه ، فأرسل فى الحال إلى الامبراطور الجديد مانويل طالبا إعادة كيليكيا إلى إمارته ، وعندما رفض مانويل طلبه هذا قام بغزو المنطقة، وقد اضطر مانويل نفسه أن يبقى فى القسطنطينية فى الشهور الأولى من حكمه ، لكنه أرسل حملة برا وبحرا بقيادة الأخوين كونتوستيفانوس وبرسق التركى المرتد وأمير البحار ديميتريوس براناس ، ولم تكتف الحملة بطرد ريموند من كيليكيا ، وإنما طاردت جنوده حتى أسوار أنطاكية^(٢٤) . وكان ريموند قبل ذلك بأشهر قليلة قد أضاف أراض حليية وصلت إلى البزاعة بينما تقدم جوسلين أمير الرها حتى الفرات لمقابلته . غير أن جوسلين وقع فجأة هدنة مع سوار ، حاكم حلب ، حطمت مخططات ريموند . وزادت العلاقات سوء بين ريموند وجوسلين . ويبدو أن جوسلين قد اضطر منذ نحو عام ١١٤٠م إلى أن يقبل ريموند كسيد اعلى له ، بيد أن الود كان غائبا عنهما تماما . وكان جوسلين قد أغاظ ريموند بتدخله لصالح البطريق رادولف ، وجاءت هذه الهدنة تكاد أن تقطع العلاقات بينهما^(٢٥) .

١١٤٤م : حصار الرها

كان زنكى يراقب تلك المشاحنات . وقد حرره موت الامبراطور من أخطر عدو كامن ، ولن يتخذ الدمشقيون أى عمل ضده بدون مساعدة الفرنج ، ولا يحتمل أن

pp.22,76

Cinnamus, pp. 33-4 (٢٤)

(٢٥) Azimi, p.537; Ibn al-Qalanisi, p. 266. يضع جوسلين تاريخ وثيقة رسمية فى عام ١١٤١م 'Raimundo Antiochiae principe regnante' (Rohricht, *Regesta*, p.51) ويعمله وليم الصورى (xvi, 4, p.710) يلمع الى ريموند على انه سيده عام ١١٤٤م .

تشرع مملكة القدس الآن في مغامرات ، وإذن فلا ينبغي تفويت الفرصة . وفي خريف ١٤٤١م هاجم زنكي قره أرسلان أمير ديار بكر الأرتقي ، الذي تحالف مؤخرًا مع حوسلين . وتعزيزًا لهذا التحالف خرج حوسلين من الرها بأكثر جيشه هابطًا باتجاه الفرات ، لقطع اتصالات زنكي مع حلب فيما يبدو . وقام مراقبون مسلمون في حرّان باخطار زنكي بتحركات حوسلين . وفي الحال أرسل زنكي فصيلة بقيادة ياغى سيانى أمير حماه كى يباغت مدينة الرها ، لكن ياغى سيانى ضل طريقه فى ظلام ليلة مطيرة من ليالى نوفمبر ، ووصل الرها ليجد زنكى قد سبقه إليها بالجيش الرئيسى يوم ٢٨ نوفمبر . وكان أبناء الرها وقتئذ قد أُنذروا وتجهزت الدفاعات بالمدافعين .

وتواصل حصار الرها أربعة أسابيع . وكان حوسلين قد اصطحب معه أبرز جنوده كلهم ، ولذا عُهد بالدفاع إلى رئيس الأساقفة اللاتينى هيو الثانى ، وسانده بإخلاص الأسقف الأرمينى جون والأسقف اليعقوبى بازل . وربما كان زنكى يأمل فى إغواء المسحيين الوطنيين بالتخلي عن الولاء للفرنج ، لكن خابت آماله كلها . واقترح بازل اليعقوبى طلب هدنة ، لكن رأى العام عارضة . على أن المدافعين ، برغم بسالتهم ، كانوا فى قلة من عددهم ، وقد تراجع حوسلين نفسه إلى تل بشير . وينتقده المؤرخ وليم الصورى انتقادًا لاذعًا لتراخيه عن انقاذ عاصمته . غير أن جيشه لم يكن من القوة بحيث يجازف بمعركة مع جيش زنكى . وكان حوسلين واثقًا من صمود التحصينات العظيمة فى الرها لبعض الوقت ، وبإمكانه وهو فى تل بشير أن يعترض أية تعزيزات قد يستدعيها زنكى من حلب ، وكان يعوّل على مساعدة حيرانه الفرنج . وكان قد أرسل من فوره إلى انطاكية وإلى القدس . وفى القدس عقدت الملكة مليسند مجلسًا سمح بجمع جيش أرسلته بقيادة الوكيل مناس (الكونستابل) ، وفيليب أمير ناهلس ، وإيليناند (أوف بور) أمير الجليل . وفى انطاكية ، لم يفعل ريموند شيئًا ، وضاعت هباء كل مناشدات حوسلين له باعتباره سيده الأعلى ، وبدون مساعدته لم يكن حوسلين ليجرؤ على مهاجمة زنكى ، فلبث فى تل بشير منتظرًا وصول جيش الملكة .

لكن جيش الملكة وصل بعد أن سبق السيف العذل . إذ أن جيش زنكى أخذ يتضخم بجموع الأكراد والتركمان التى انضمت اليه من وادى دجلة الأعلى ، فضلًا عن آلات الحصار الجيدة التى كانت معه . وفى داخل الرها ، كان رجال الدين والتجار ، الذين يشكلون جُلّ الحامية ، يفتقرون إلى الخبرة الحربية ، ومن ثم فشلت هجماتهم المضادة وعمليات التلغيم المضادة . وساد الظن أن هيو رئيس الأساقفة يحتجز الأموال التى اكتنزها برغم شدة الحاجة إليها للدفاع . وفى عشية عيد الميلاد انقض

جدار في السور بالقرب من بوابة الساعات وتدفق سيل المسلمين خلال الفجوة فهرب السكان في فرع إلى القلعة ليجدوا بواباتها مغلقة في وجوههم بأمر رئيس الأساقفة ، الذي بقي هو نفسه خارجها في محاولة يائسة للحفاظ على النظام . وهلك الألوف تحت الأقدام في الهرج والمرج ، وجد جنود زنكي في أعقابهم يقتلون ألوفاً أكثر بمن فيهم الأسقف ، إلى أن دخل زنكي نفسه على حواده وأمر بإيقاف المذبحة . وبقى على حياة المسيحيين الوطنيين . أما الفرنج فقد جُمعوا كلهم وقتلوا ، وبيعت نساؤهم في الرق . وبعد يومين ، استسلم لزنكي القس اليعقوبي بارسوما ، الذي كان يتولى قيادة القلعة^(٢٦).

١١٤٥م : سياسة زنكي في الرها

عامل زنكي المدينة معاملة طيبة بعد أن خلصها من الفرنج ، وعيّن عليها كوجك على والي إربل ، مع السماح للمسيحيين ، الأرمن واليعاقبة وحتى اليونانيين ، بتدبير معين من تدابير الحكم الذاتي . وعلى الرغم من تدمير الكنائس اللاتينية ، لم تمس كنائسهم ، ووجدوا تشجيعاً على جلب اخوانهم في الدين لإعادة إسكان المدينة ، وعلى نحو خاص فاز الأسقف السوري بازل بعطف الغزاة بسبب رده المتكبر على سؤلهم له ما إذا كان جديراً بالثقة ، إذ أجاب بأن ولاءه للفرنج أظهرت مدى ما يتمتع به من قدرة على الولاء . أما الأرمن ، وكانت أسرة كورتنای الحاكمة دائماً مشهورة بينهم ، فكانوا أقل ميلاً إلى النظام الجديد^(٢٧).

ومن الرها توجه زنكي إلى سروج ، وهي ثاني قلعة فرنجية عظيمة شرقي الفرات ، فسقطت هي الأخرى له في يناير . ثم انه تقدم إلى البيرة ، وهي المدينة التي تتحكم في أهم مخاضة عبر نهر الفرات ، على أن الحامية الفرنجية أظهرت مقاومة شديدة .

(٢٦) William of Tyre, xvi, 4-5, pp. 708-12; Matthew of Edessa, cclvii, pp.326-8; Michael the Syrian, iii, pp. 259-63; Chron. Anon. Syr., pp.281-6. أكثر اكتمالا بالتفاصيل) Bar-Nerses Shnorhal, *Elegy on the fall of Edessa*, pp. 2ff; Hebraeus, trnas. Budge, pp. 268-700; Kemal ad-Din, pp.685-6; Ibn al-Qalanisi, pp.266-8; Ibn al-Athir, pp.443-6. والشئ . وترد اشارة الى سقوط الرها في خطاب القديس برنارد , no. 256, M.P.L.vol. CLXXXII, col. 463, ويخبرنا ابن الأثير أن مسلماً في بلاط الملك روجر في صقلية حاشه رؤيا تخاطربة (تليثي) بالاستيلاء على الرها.

(٢٧) Michael the Syrian, loc. cit.; Chron. Anon. Syr. loc. cit

وكان جوسلين قريبا فى المتناول ، وحيش الملكة يقترب ، وفى تلك الأوقات سمع زنكى شائعات بوجود اضطرابات فى الموصل . فرفع الحصار عن البيرة وأسرع باتجاه الشرق . وكان لا يزال من الناحية الاسمية مجرد أتابع الموصل يحكمها للأمير السلجوقى الصغير ألب أرسلان ابن مسعود . وعاد إلى الموصل ليجد أن ألب أرسلان حاول تأكيد سلطته فقتل القائد التابع للأتاج ، حقر . وقد جاء اختيار الوقت غاية فى السوء ، إذ أن زنكى ، الذى قهر عاصمة فرنجية ، قد بلغ ذروة الهيبة فى العالم الإسلامى . فخلع ألب أرسلان عن العرش وأعدم مستشاريه ، وفى ذات الوقت بعث الخليفة سفارة إلى زنكى ، محملة بالهدايا، لتخلع عليه شرف تلقيه بالملك الغازى^(٢٨).

وتردد صدى سقوط الرها فى العالم كله . فكان للمسلمين بمثابة أمل جديد جاءهم ، إذ انهارت دولة مسيحية دخيلة فى قلب أراضيهم ، واقتصر وجود الفرنج على الأراضى المطلة على البحر المتوسط . وتطهرت الآن الطرق التى تربط بين الموصل وحلب من الأعداء ، وتم خلع الإسفين المحشور بين أترك إيران وأترك الأناضول . وكان زنكى حديرا بلقبه الملكى . أما الفرنج ، فقد هبط عليهم النبأ هبوط القنوط والإنذار ، ووقع من مسيحيى غرب أوروبا موقع الصدمة المرعبة . ولأول مرة يتحققون من أن الأمور ليست على مايرام فى الشرق ، ومن ثم نشطت حركة للتبشير بحملة صليبية جديدة.

كان من الضرورى ارسال حملة صليبية جديدة فى واقع الأمر، إذ كان أمراء فرنج الشرق لا يزالون عاجزين عن التعاون مع بعضهم البعض برغم المخاطر المحيطة بهم . وقد حاول جوسلين إعادة بناء إمارته فى الأراضى التى يحتلها إلى الغرب من الفرات ، وأن يجعل من تل بشير عاصمته^(٢٩). على أنه ، وعلى الرغم من أن زنكى سرعان ما سوف يهاجمه ، فإنه لم يغفر لريموند رفضه المساعدة . وجاهر بخلافه معه ، وأنكر سيادته عليه . وكان ريموند رافضا للمصالحة بنفس القدر، ولكنه كان مدركا لخطر العزلة . وفى عام ١١٤٥ م ، وبعد أن هزم غارة من التركمان قرر الرحيل إلى القسطنطينية ملتصقا بالمساعدة من الامبراطور مانويل الذى رفض استقباله فور وصوله . ولم يأذن له بمقابلة إلا بعد أن ركع ريموند فى ندامة متضعة أمام قبر الامبراطور جون . ثم أن مانويل عامله

(٢٨) Chron. Anon. Syr. pp. 286-8; Ibn al-Qalanisi, pp.268-9; Ibn al-Athir, pp.445-8; Ibn al-Furat, quoted by Cahen, *La Syrie du Nord*, p.371 n.11.

(٢٩) كان جوسلين ما يزال يمتلك الأراضى الواقعة من سمساط ، مروراً بمرعش (وهى فى حوزة التابع بلديون) جنوب البيرة وعيتاب وراوندان وتل بشير.

معاملة رقيقة كيّسة ، وحمله بالهدايا ووعدته بمعونة مالية . لكنه لم يعد بمساعدة عسكرية عاجلة ، إذ أن البيزنطيين يخوضون حرباً تركية على أراضيهم ، ونحدثنا عن حملة في المستقبل وباتت الزيارة في نظر باروناته مهينة ومموجة ، لكنها مع ذلك ألحقت ثمرة واحدة مفيدة . إذ أنها لم تهر دون أن يلاحظها زنكى ، فقرر تأجيل المزيد من الهجوم على فرنج الشمال وأن يحول انتباهه مرة أخرى إلى دمشق^(٣٠).

١١٤٦م : مصرع زنكى

في شهر مايو ١١٤٦م سار زنكى إلى حلب كي يعد العدة لحملة على سوريا . وبينما كان يعبر الرها علم بمؤامرة دبرها الأرمن حاولوا بها التخلص من حكمه وإعادة حوسلين ، وقد سحقها كوجك على بسهولة . وأمر زنكى بإعدام زعماء المؤامرة ، ونفى جزءاً من السكان الأرمن حل محلهم ثلاثمائة أسيرة يهودية جلبهم زنكى لما كانوا يشتهرون به من استعداد لتأييد المسلمين ضد المسيحيين^(٣١) . وفي الصيف قاد زنكى جيشه جنوباً إلى مدينة قلعة جعبر الواقعة على الطريق المباشر الذاهب من الفرات إلى دمشق ، كان بها أمير ضئيل الشأن رفض الاعتراف به سيداً أعلى له . وبينما كان يحاصر المدينة ، حدثت في ليلة ١٤ سبتمبر ١١٤٦م مشاجرة بينه وبين أحد الخصيان من أصل فرنجى عندما ضبطه يشرب من قدحه الخاص به . فاحتدم الخصى غيظاً مما سمعه من توبيخ ، فانتظر حتى نام ثم قتله^(٣٢).

كان اختفاء زنكى المفاجئ نبأ سار تلقاه كل أعدائه الذين راودهم الأمل في تمزيق مملكته لما سوف ينشأ من خلاف بين أفراد الأسرة الحاكمة ، وهو خلاف عادة ما يعقب وفاة أمراء المسلمين . وبينما كان جسده ساجياً وحيداً لم يدفن بعد ، أسرع أكبر ابنائه سيف الدين غازى ، يصحبه الوزير جمال الدين الأصفهاني ، إلى الموصل لتولي الحكومة هناك ، بينما استولى ابنه الثانى ، نور الدين ، على خاتم الوزارة من اصبع الجثة وانطلق إلى حلب كي ينادى به شيركوه الكردي ، الذى أنقذ أخوه أيوب حياة زنكى عندما

(٣٠) Cinnamus, p. 35; Michael the Syrian, III, p. 267.

(٣١) Michael the Syrian, III, pp. 267-8; Chron. Anon. Syr. p.289; Ibn al-Qalanisi, p. 270; Ibn al-Furat, loc. cit.

(٣٢) William of Tyre, XVI, 7, p.714; Michael the Syrian, III, p.268; Chron. Anon.Syr. p.291; Ibn al-Qalanisi, pp.270-1; Kemal ad-Din, p.688.

هزمه الخليفة عام ١١٣٢ م . وكان انقسام المملكة بمثابة العلامة للأعداء كي يبدؤوا غزوهم . ففي الجنوب استعاد جنود أنر الدمشقيون بعلبك ، وأخضعوا أمير حمص ، وياغى سيانى أمير حماه فأصبحتا تابعتين لدمشق . وفي الشرق أقدم ألب أرسلان على محاولة فاشلة للاستيلاء على السلطة ، بينما استعاد أراتقة ديار بكر مدنا كانوا قد فقدوها^(٣٣) . وفي الوسط قاد ريموند أمير انطاكية غارة حتى أسوار حلب نفسها ، بينما خطط جوسلين لإعادة احتلال الرها . وأجرى عملاؤه اتصالات مع الأرمن في المدينة وفازوا بتأييد اليعاقة ، فانطلق جوسلين نفسه مع جيش صغير انضم اليه بلدوين أمير مرعش وكيسوم . ومرة أخرى رفض ريموند مساعدته ، ولكنه رفض له ما يبرره هذه المرة ، لسوء تخطيط الحملة . إذ كان جوسلين يأمل في مباغنة الرها ، ولكن المسلمين كانوا على استعداد ، وعندما وصل أمام أسوار المدينة يوم ٢٧ أكتوبر لم يتمكن - إلا بالمساعدة الوطنية - من اقتحام طريقه إلى داخل المدينة ذاتها ، غير أن حامية القلعة كانت في انتظاره . وكان جنوده من ضالة العدد بحيث تعذر اقتحام تحصيناتها عنوة . فلبث في المدينة حائرا لا يدري ماذا يفعل . وفي تلك الأثناء وصل الرسل إلى نور الدين في حلب ، الذي كان جيشه الآن يهاجم ريموند هجوما مضادا في أراض انطاكية ، فاستدعى الجيش للعودة في الحال وطلب المساعدة من الحكام المسلمين في الجوار . وفي يوم ٢ نوفمبر ظهر أمام الرها ، وبذا وقع جوسلين بينه وبين القلعة ، وارتأى أن فرصته الوحيدة في الجلاء العاجل . وتمكن خلال الليل من التسلل خارجا مع رجاله ومع عدد كبير من المسيحيين الوطنيين ، وبعم وجهه شطر الفرات . وتبعه نور الدين عن كثب . وفي اليوم التالي دارت رحى المعركة . وصمد الفرنج صمودا جيدا إلى أن أمر جوسلين في تهور بهجوم مضاد دحره المسلمون ، وتفتت الجيش الفرنجي مذعورا . وقتل بلدوين أمير مرعش في ميدان المعركة ، وأصيب جوسلين بجرح في رقبته ، وتمكن من الهرب مع حرسه الخاص ولاذ بسميساط حيث لحق به الأسقف اليعقوبى بازل . وألقى القبض على الأسقف الأرمني جون واقتيد إلى حلب . وأما المسيحيون المحليون الذين تخلى عنهم الفرنج فقد قتلوا جميعا ، وباتت نساؤهم إماء وأطفالهم رقيقا . وفي الرها تقرر نفي السكان المسيحيين جميعا . وأصبحت المدينة العظيمة ، التي يُدعى بانها كانت أقدم كومنويلث مسيحي في العالم ، خاوية مروحة ، ولم تبق قط حتى يومنا هذا^(٣٤) .

Ibn al-Qalanisi, pp.272-4; Ibn al-Athir, pp.455-6; see Cahen, 'Le Diyarbekr' in (٣٣) *Journal Asiatique*, 1935, p.352.

William of Tyre, xvi, 14-16, pp.728-32; Matthew of Edessa, cclviii, pp.328-9 (٣٤) (giving the wrong date 1147-8); Michael the Syrian, iii, pp.270-2. Basil the Doctor,

١١٤٧ م : الفرنج يتخاصمون مع أنر

أيقن أعداء زنكى أنهم لم يكسبوا من وفاته سوى القليل . فضلا عن أن ولديه ، برغم قلة المودة فيما بينهما ، كانا من الحكمة بحيث لم يتشاجرا . وبادر سيف الدين غازى ، برغم انشغاله الشديد مع الأراطقة ، بالترتيب لمقابلة مع أخيه ، تم فيها الاتفاق بسلام على تقسيم الميراث . فأخذ سيف الدين اراضى العراق ونور الدين اراضى سوريا . وفى نفس تلك الأثناء على وجه التقريب تعزز وضع نور الدين نتيجة لتصرف أحمق غير متوقع ارتكبه فرنج القدس . ففى وقت مبكر من عام ١١٤٧ م ، قام أحد قواد أنر ، ألتونتاش ، والى بصرى وصلخد الواقعتين فى حوران ، وكان أرمينيا ثم تحول إلى الإسلام ، بإعلان استقلاله عن دمشق وذهب إلى القدس ملتصقا بتأييدها عارضا تسليم الفرنج بصرى وصلخد إذا نصّبوه فى لوردية فى حوران . وكان تصرف الملكة مليسند سليما جدا بدعوتها مجلسها لمناقشة الاقتراح . وكان قرارا هاما ذلك الذى سوف يتخذ؛ إذ أن مساندة ألتونتاش تعنى تمزيق التحالف مع دمشق . غير انه كان عرضا مغريا ، فأغلب سكان حوران من المسيحيين الملكيين^(٣٥) ، من الطائفة الأرثوذكسية . وبهذه المساعدة المسيحية سيكون من اليسير احتلال حوران ، والسيطرة عليها سوف تضع دمشق تحت رحمة الفرنج . وتردد البارونات ، ثم أمروا بأن يتجمع الجيش عند طبرية ، غير أنهم أرسلوا إلى أنر سفارة تقول إنهم اقترحوا تنصيب ألتونتاش . فغضب أنر ، لكنه رغب فى تجنب الانفصال خوفا من نورالدين ، فرد على الملكة يذكرها بأنه وفقا لقانونها هي الخاص بالاقطاع ، لا يستطيع أي حاكم تأيد تابع لحاكم آخر تربطه بالأول علاقة صداقة إذا تمرد ذلك التابع على سيده ، وعرض تسديد أبة مصروفات تكون قد تكبدتها من جراء تجهيز الحملة . فأرسلت الملكة فارسا يدعى برنارد فاشير إلى دمشق يقول إنها لسوء الحظ ملتزمة بتأييد ألتونتاش الذى سوف يعيده جيشها إلى بصرى ، وتعهدت بعدم الحاق أى أذى بالأراضى الدمشقية بأى حال . وسرعان ما عاد برنارد وقد اقنعه أنر بأن الاقتراح يخلو من الحكمة والصواب . وأقنع الملك الصغير

Elegy on Baldwin, p.205; *Anon. Chron. Syr.* pp.292-7; *Ibn al-Qalanisi*, pp.274-5; *Ibn al-Athir*, pp.455-8 (and *Atabegs*, p. 156); *Bustan* p. 541.

(٣٥) (المترجم) المَلِكِيُون Melchites أو Melkites: تسمية تطلق على من أخذوا من مسيحيي سوريا ومصر بما انتهى إليه مجمع خلقدونية سنة ٤٥١ م من أن للمسيح طبيعتين ، إلهية وبشرية . وللتفصيل انظر الجزء الأول ، ص ٣٢ ، الحاشية رقم (١).

بلدوين بآرائه ، وعندما نوقش الأمر مرة أخرى فى المجلس تقرر التخلّى عن الحملة . ولكن حماس الجنود كان قد اشتد الآن ، وحقن قادة الدهماء فى الجيش لإلغاء غارة على الكفرة كانت ستعود عليهم بالأسلاب ، فأنكروا برنارد ورموه بالخيانة وأصروا على الحرب . فخاف الملك والبارونات وأذعنوا للدهماء .

وفى شهر مايو ١١٤٧م عبر الملك على رأس الجيش الفرنجى نهر الأردن ودخل الجولان . غير أن الأمر لم يكن ما توقعه الجنود من نصر موزر، ذلك أن أنر كان قد أعد العدة تماما ، فراح جنوده التركمان خفيفو الحركة ومعهم أعراب المنطقة يضايقون جنود الفرنج أثناء كدحهم أعلى وادى اليرموك باتجاه درعا. وكان أنر نفسه قد أرسل سفارة إلى حلب ملتصا العون من نور الدين الذى ابتهج لهذه المناشدة . وولد تحالف . ووافق أنر على منح يد ابنته إلى نور الدين ، الذى وعد بالحضور فوراً لمساعدته ، وقد تقرر أن تعود حماه إلى نور الدين ولكن عليه أن يحترم استقلال دمشق . وفى نهاية مايو وصل الفرنج إلى درعا الواقعة على أكثر قليلا من منتصف المسافة بين الحدود وبُصرى، بينما سارع أنر إلى صلخد الواقعة أبعد إلى الشرق ، والتي طلبت فيها حامية ألتوتناش الهدنة . وتحرك أنر غربا كى ينضم إلى نورالدين الذى هبط من حلب بالسرعة القصوى. وزحفا معا إلى بُصرى فما كان من زوجة ألتوتناش إلا أن سلمتها إليهما ووصلت أنباء الاستسلام مساءً إلى الفرنج عندما وصلوا على مرمى البصر من بصرى وقد عانوا فى ترحالهم غاية الرهق وشدة الظمأ، ومن ثم لم يتمكنوا من مهاجمة المسلمين، ولم يكن بوسعهم سوى التقهقر . وكانت رحلة الإياب أصعب من رحلة الذهاب، إذ سرعان ما تناقص الطعام ، والكثير من الآبار قد دمرت ، وتعلق الأعداء بمؤخرتهم يضايقونهم ويقتلون الجماعات الشاردة . وأبدى الملك الصبى بطولة عظيمة عندما رفض اقتراحا بأن يترك الجيش الرئيسى ويسرع إلى مأمّن مع حرس شخصى يجرى اختياره ، وبفضل ما ضربه من مثل ظل الانضباط فى حالة جيدة . وأخيرا قرر البارونات عقد السلام مع أنر ، وأرسلوا رسولا يتحدث العربية ، ربما كان برنارد فاشر، يلتمس هدنة ، لكنه قتل فى الطريق . ومع ذلك ، وبوصول الجيش إلى الرحبة الواقعة على سفح جبل عجلون ، جاء رسول من أنر عارضا إعادة تموين الفرنج. ذلك انه لم يشأ أن يمحو الجيش الفرنجى تماما مع وجود نور الدين على مقربة منه، ورفض الملك العرض فى غطرسة ، على انه لوحظ ظهور فارس غريب غامض على فرس ابيض يرفع راية قرمزية قاد الجيش بأمان إلى جدر . وبعد مناوشة أخيرة هناك عبر الجيش نهر الأردن عائدا إلى داخل فلسطين . وكانت الحملة باهظة التكاليف ولا مغزى لها .

وكشفت عن حماقة الفرنج في السياسة والاستراتيجية برغم ما قد ينز عليهم من مهارة في القتال^(٣٦).

١١٤٧ م : ارتفاع نجم نور الدين

لم تعد الحملة بالنفع على أحد سوى رجل واحد فقط هو نور الدين . واستعاد أنر حران في الواقع . وعندما ذهب ألتونناش إلى دمشق راجيا المغفرة ، فقتت عيناه والقي في غيابة السجن ، ولحق الحزى بأصدقائه . على أن أنر بات مدركا إدراك اليأس لما أصبح عليه نور الدين من قوة . وشعر بالخطر على مستقبله وظل مشتاقا لاستعادة التحالف الفرنجي . ومع ذلك ، التزم نور الدين بمعاهدته مع أنر ، وعاد شمالا لمواصلة مهمته في تجريد الإمارة الأنطاكية من كل أراضيها الواقعة شرق العاصي . وفي نهاية ١١٤٧ م ، كان قد استولى على أرتاح وكفرلاتا وبسرفوت والبلاط^(٣٧).

وهكذا برز نور الدين العدو الرئيسي للمسيحيين . وهو الآن في التاسعة والعشرين من عمره ، غير أن حكمته كانت أكبر من سنه ، بل كان معارضوه يعجبون بنزوعه إلى العدالة والاحسان والورع الصادق . وربما لم يبلغ مبلغ والده زنكي في ذكائه العسكري ، لكنه كان أقل قسوة وغدرا وأبعد شأوا في صواب حكمه على الرجال . وكان وزراؤه وقواده على اقتدار واخلاص ، ومصادره المادية أقل مما كان عليه أبوه ، إذ كان بمقدور زنكي أن يطلب ثروات العراق الأعلى ، التي أمست الآن في حوزة سيف الدين . ولذلك ورث سيف الدين مصاعب زنكي مع الأراقة ومع الخليفة ومع السلطنة السلجوقية ، تاركا نور الدين يوجه كل انتباهه إلى الغرب لا يشغله شاغل . وفضلا عن ذلك ، بقي ولدا زنكي مخلصين لرباطهما العائلي . إذ أن سيف الدين خليف بان يرسل العون إلى نور الدين وقت الشدة دون أن يطمع في ضم نصيبه من أراضي الأسرة . وكان هناك ابن ثالث ، تم تنصيبه في حران كسابع لنور الدين ، بينما كان أصغر أفراد الأسرة قطب الدين ، ينشأ في بلاط أخيه الأكبر في الموصل . وغدا نور

(٣٦) William or Tyre, xvi, 8-13, pp. 715-28; Ibn al-Qalanisi, pp. 276-9; Abu Shama, pp. 50-3.

(٣٧) Kemal ad-din, ed. Blochet, pp. 515-16; Ibn al-Athir, pp. 461-2

الدين ، بمتانة روابطه الأسرية ، وبتحالفه مع أنر ، فى مآمن مما قد يشكله رفاقه المسلمون من أخطار ، ومن ثم صار الرجل المناسب تماماً ليقود الإسلام فى هجومه المضاد، ولكى لا يعمل مسيحيو الشرق على تركيز جهودهم ضده^(٣٨).

الباب الثالث:

الحملة الصليبية الثانية

الفصل الأول:

اجتماع الملوك

اجتماع الملوك

"قُمْ وَاعْمَلْ وَلْيَكُنِ الرَّبُّ مَعَكَ"
(أخبار الأيام الأول ٢٢ : ١٦)

ما أن علمت القدس بسقوط الرها حتى أرسلت الملكة ميليسيند مبعوثيها إلى أنطاكية للتشاور مع حكومتها بصدد إرسال سفارة إلى روما لإبلاغ البابا وطلب إرسال حملة صليبية جديدة . وتقرر اختيار هيو أسقف جبلة ليكون سفيرا ، لما أصاب من شهرة بين المسيحيين اللاتينيين لمعارضته مطالب الامبراطور جون . وبرغم حالة العاجلة التي اتصفت بها سفارته لم يصل الأسقف إلى المقر البابوي قبل خريف عام ١١٤٥ م . وكان البابا إيوجينيوس الثالث في مدينة فيتربو ، إذ كانت روما تحت سيطرة جماعة تزدري الحكم البابوي . وكان بصحبته المؤرخ الألماني أوتو (أوف فريزنجن) ، الذي سجل تلقى البابا للأنباء المرعبة على الرغم من أنه كان أكثر اهتماما هو نفسه بالمعلومات التي حملها أحد أساقفة عاهل مسيحي في شرق فارس ، يدعى جون من

النساطرة، ويحزق تقدما ناجحا ضد الكفرة^(١). وكان قد غزا فعلا العاصمة الفارسية Ecbatana (همدان)، غير أنه اتجه إلى منطقة ثلجية في الشمال حيث فقد عددا غفيرا من رجاله مما اضطره إلى العودة. وكان ذلك إيذانا بدخول بريستر جون الأسطوري في صفحات التاريخ^(٢).

ولم يشارك البابا إيوجينيوس المؤرخ في آماله التي عقدها على بريستر جون في انقاذ العالم المسيحي. وكان في حالة من القلق البالغ. وفي ذات الوقت جاءه وفد من أساقفة الأرمن من كيليكيا، يتلهفون على المساعدة ضد بيزنطة^(٣). ولم يكن بوسع البابا أعمال واجباته نحو الشرق. وبينما ذهب الأسقف هيو لإطلاع عواهل فرنسا وألمانيا بأنباء الرها، قرر البابا إيوجينيوس التبشير بحملة صليبية^(٤). على أن البابوية لم تكن في وضع يمكنها من توجيه الحركة على النحو الذي حاوله البابا إيربان؛ فمنذ أن اعتلى إيوجينيوس عرش البابوية في فبراير لم يتمكن من دخول روما، فضلا عن ذلك لم يكن قادرا على السفر عبر الألب. ولحسن الحظ كان على علاقة طيبة بالعاهلين الرئيسيين في أوروبا الغربية، إذ كان كونراد (أوف هوهنشتافن) ملك ألمانيا مدينا بعرشه للمساندة الكنسية وقد قام الممثل البابوي بتوجيهه. وكانت العلاقات البابوية أكثر ودا مع لويس السابع ملك فرنسا الورع التائب من بعض الجرائم التي ارتكبها في وقت مبكر بسبب نفوذ زوجته إليانور الأكيثانية، وارتضى أن يُسلم قياد أمره كله للمستشارين الكنسيين، وبصورة ملحوظة لرئيس دير رهبان كليرفو، القديس برنارد. وقرر البابا أن يكون الملك لويس هو المستهدف لتقديم المساعدة للشرق، أما كونراد ملك ألمانيا فكان في احتياج لمساعدته في إيطاليا لإخضاع الرومان وكبح طموحات روجر الثاني الصقلي، ولم يشأ أن يتولى كونراد التزامات أخرى. وكان لويس ملكا للأراضي التي جاء منها أغلب أمراء ولوردات فرنج الشرق، ومن ثم كان هو القائد المرشح لقيادة الحملة التي سوف تخلصهم. وفي أول ديسمبر ١١٤٥م أصدر إيوجينيوس أمرا بابويا إلى الملك لويس وكافة الأمراء والمخلصين في المملكة الفرنسية

(١) (المترجم): النسطورية Nestorianism مذهب مسيحي هرطيقى يعزى إلى البطريق نسطوريوس Nestorius (بطريق القسطنطينية ٤٢٨-٤٣١) القائل بوجود طبيعتين للمسيح، إلهية وبشرية.

(٢) Otto of Freisingen, *Chronica*, pp. 363-7. See Gelber, *Papst Eugen III*, p. 36.

(٣) أنظر Tournbize, *Histoire Politic et Religieuse de l'Arménie*, pp.235-9.

(٤) *Chronicon Mauriniacense*, R.H.F. vol II, p.88; Otto Freisingen, *Gesta Friderici*, pp.54-7.

يحثهم على الذهاب لانقاذ العالم المسيحى الشرقى واعداء إياهم بالحفاظ على ممتلكاتهم في الحياة الدنيا وغفران خطاياهم في الحياة الآخرة^(٥).

حملات صليبية متفرقة

ارتاع الغرب لسقوط الرها . وكانت جذوة الحملة الصليبية الأولى وحماسها قد هدأت بعد أن ألهب احتلال القدس خيال الرجال ، فكانوا يسارعون طواعية إلى تلبية النداءات الآتية من الشرق بطلب التعزيزات ، كما اتضح من الحملات الصليبية عام ١١٠١ م . غير أن الحملات الصليبية عام ١١٠١ م كانت نهاياتها فاجعة ، وبرغم ذلك صمدت دويلات الشرق الفرنجية وعززت مواقعها . وكانت التعزيزات ما تزال تزداد على الشرق ، على ضآلتها البالغة ، ولم ينقطع سيل المهاجرين الذين بقى الكثير منهم فترات طويلة بما يكفى لاشتراكهم فى إحدى الحملات الصيفية . وكان من بين هؤلاء الحجاج زعماء من مثل سيجورد النرويجي ، أو كانت هناك جماعات كبيرة من الرعاع ، كالانجليز ، والفلاندرز من البلجيك والدانمركيين ، ممن جاءوا عام ١١٠٦ م . وكانت المدن البحرية الإيطالية ترسل من حين لآخر أسطولا للمساعدة فى الاستيلاء على بعض الموانئ ، وإن كانت دوافعها المعلنة تتمثل فى المصالح التجارية ، كما كانت تجلب معها أعدادا متزايدة من التجار الإيطاليين . غير انه منذ حكم بلدوين الأول قلت حملات الحجاج المسلحة هذه ، وكانت الحملة الوحيدة الملحوظة فى السنوات الأخيرة الحملة التى قادها صهر الملك فولك ، ثيرى كورت فلاندرز . وتواصل تدفق المهاجرين - من أصغر الأبناء المفلسين - مثل باليان (أوف تشارتر) مؤسس بيت إيبيلين (ينبة) ، أو بارونات من أمثال هيو (أوف لو بواسيه) أو مناس (أوف هيرج) ممن كانوا يعقدون الآمال على استغلال علاقة القرابة بالبيت المالك . ومن العوامل الأكثر دواما ونفعا الفرسان الذين جاءوا للانضمام إلى النظامين العسكريين الكبيرين : فرسان المعبد وفرسان المستشفى ، اللذين أخذوا تدريجيا فى مباشرة مهام الجيش الدائم للمملكة ، وكانت هبات الأراضي الكبيرة التى أغدقها التاج عليهم شاهدا على مدى التقدير الذى ينالونه . على انه منذ أن تبعثت جيوش الحملة الصليبية الاولى ، لم تكن هناك قوة

(٥) Jaffé-Wattenbach, *Regesta*, no. 8796, vol. II, p. 26. Caspar, 'Die Kreuzzugsbulen' Eugens III, in *Newes Archiv*, vol XLV, pp.285-306K. ويثبت كاسبار أن تاريخ الأمر البابوي هو قطعا أول ديسمبر ١١٤٥ ، الأمر الذى ينسف النظرية الفرنسية القائلة بأن لويس السابع هو الذى حرّض على الحملة الصليبية.

فرنجية فى الشرق لديها من القدرة ما يكفى لشن هجوم كبير على الكفرة.

كانت صدمة الكارثة فى الرها ضرورية لإثارة الغرب مرة اخرى . وفى ذلك الوقت بدت الدويلات الصليبية فى سوريا فى منظور أوروبا الغربية مجرد الجناح الأيسر للحملة المضادة للإسلام باتساع البحر الأبيض المتوسط ، وأسبانيا جناحها الأيمن حيث كانت ما تزال هناك مهام يقوم بها الفارس المسيحى . وكان تقدم الصليب فى أسبانيا قد توقف فى العقدى الثانى والثالث من القرن الثانى عشر بسبب المشاجرات التى جرت بين الملكة أورাকা ملكة قشتالة وزوجها الملك ألفونسو الأول ملك أراجون . غير أن ابن الملكة ، ألفونسو السابع ، ووريثها من زواجها الأول البرجندى أحدث نهضة فى قشتالة . وبعد ست سنوات من استخلافه بدأ سلسلة من الحملات ضد المسلمين جاءت به فى عام ١١٤٧م إلى بوابات قرطبة حيث تم الاعتراف بسيادته العليا . وقد سبق أن اتخذ لنفسه عام ١١٣٤م لقب امبراطور ليظهر انه السيد الأعلى لشبه الجزيرة وأنه ليس تابعا لأحد . وفى تلك الأثناء تحرر ألفونسو الأول من مشاكل كاستيل المعقدة بموت زوجته أورাকা ، فأمضى سنواته الأخيرة وهو يبادر بالهجوم فى مورسيا Murcia بدرجات متفاوتة من النجاح . وعلى طول الساحل راح ريموند برينجار الثالث كونت برشلونة ، يوسع من سلطانه جنوبا . ومات ألفونسو الأول عام ١١٣٤م ، وحكم أخوه الراهب السابق راميرو حكما مشووما لثلاث سنوات . وفى عام ١١٣٧م زوجت ابنته البالغة من العمر سنتين - الملكة بترونيلا - من ريموند برينجار الرابع عاهل برشلونة ، واتحدت قطالونية وأراجون فى قوة واحدة مكنتها بحريتها القوية من استكمال استعادة شمال شرق أسبانيا وهكذا كانت الأمور فى عام ١١٤٥م تسير على ما يرام على المسرح الأسباني ، غير أن عاصفة كانت تتجمع . ذلك أن المرابطين ، الذين سيطروا على أسبانيا المسلمة طوال النصف الأخير من القرن ، وقعوا فريسة اضمحلال لا مخرج يربحى منه . وحل محلهم فى افريقيا الموحدون ، وهم يمثلون طائفة من المصلحين النسّاك ، تكاد عقيدتهم اللاهوتية أن تكون غنوصية^(٦) . وكانوا يصرون على أنهم طبقة من المقتدرين ، أسسها ولي من أولياء البربر يدعى ابن تومرت ، وواصل خليفته عبد المؤمن نشاط هذا المذهب بمزيد من العنف فهزم زعيم المرابطين - تاشفين بن على - وقتله بالقرب من تلمسان عام ١١٤٥م ، وفى العام التالى استكمل الاستيلاء

(٦) (المترجم) : الغنوصية Gnosticism or Gnosis : معرفة الأمور الروحية . وتطلق عموما على طائفة مسيحية هرطقية فى القرن الأول حتى القرن الثالث كان أفرادها يدعون معرفتهم بالأمور الروحية.

على المغرب واصبح على استعداد للانتقال إلى اسبانيا^(٧) . ونتيجة لتلك التوقعات لم يلق الفرسان المسيحيون في اسبانيا بالاً للنداء الآتي من الشرق . ومن الناحية الاخرى، وبعد أن تأسست الممالك الأسبانية بصورة مضمونة الآن ، لم يعد هولاء الفرسان يوفرون لفرسان وامراء فرنسا نفس النطاق الذي كان سائدا في القرن المنصرم .

الملك روجر الثاني الصقلي

احتل الملك روجر الثاني الصقلي مركز الصدارة في ميدان القتال ضد الاسلام . وكان قد وُحِدَ كافة الأراضي النورماندية في ايطاليا واتخذ لنفسه اللقب الملكي عام ١١٣٠ م . وقد وعى جيدا ما لمملكته من أهمية استراتيجية ، إذ كانت ذا موقع مثالي للسيطرة على البحر المتوسط . غير أنه لكي يستكمل تلك السيطرة كان ضروريا أن يكون له موطئ قدم على الساحل الافريقي قبالة صقلية . واتيحت لروجر الفرصة لما ساد بين الاسر الحاكمة الاسلامية من مشاحنات وندبة في شمال افريقية ، فاقم من حدتها اضمحلال قوة المرابطين في المغرب وضعف السيادة الفاطمية في تونس ، فضلا عن أن المدن الافريقية كانت تعتمد على واردات الحبوب من صقلية . غير أن حملاته الأولى من ١١٢٣ إلى ١١٢٨ م لم تعد عليه بنفع يذكر سوى حصوله على جزيرة مالطة . وفي عام ١١٣٤ م ، وبمساعدة قضائية جاءت في وقتها ، استمال الحسن - صاحب مهدية - إلى قبول سيادته العليا ، وفي العام التالي احتل جزيرة جربة الواقعة في خليج قابس وانفتحت شهيته بغارات ناجحة على السفن الاسلامية ، فبدأ في مهاجمة المدن الساحلية ، وفي يونيو ١١٤٣ دخل جنوده طرابلس لكنهم أحيروا على الانسحاب . وبعد ثلاث سنوات كاملة أعاد احتلال المدينة ، في وقت اندلاع ثورة داخلية فيها كانت تنصب أميرا من امراء المرابطين حاكما عليها ، وتعذر إخراجها منها هذه المرة ، وغدت طرابلس نواة لمستعمرة نورماندية في افريقيا^(٨) .

وهكذا أصبح الملك روجر مناسبا بصورة تشير الإعجاب للاشتراك في الحملة الصليبية الجديدة . غير أنه كان موضع ريبة . فلم يكن سلوكه سلوك من يستشعر الواجب إزاء البابوية قط ونادرا ما كان يوليها المراعاة الواجبة . وقد شعر ذرو السلطان

(٧) عن المهادين انظر *Codera, Decadencia y Desaparicion de los Almoravids en Espana* ومقال Bel عن 'Almohads' في دائرة المعارف الاسلامية *Encyclopaedia of Islam*.

(٨) Chalandon, *Domination Normande en Italie*, pp. 158-65.

الآخرون فى أوروبا بالامتناع من تجرؤه على تنويع نفسه ملكا؛ وقد علق القديس برنار فى رسالته إلى لوثير ملك ألمانيا قائلا: "إن من يجعل من نفسه ملكا لصقلية فإنما يهاجم الامبراطور"^(٩). ويعنى اعتراض القديس برنار عدم موافقة رأى العام الفرنسى . وكان روجر ما يزال يفتقر إلى الشعبية بين امراء الشرق ؛ إذ أظهر بجلاء انه لم يغفر البتة لمملكة القدس اساءة معاملتها لوالدته أديلابدى ، وفشلها فى استخلافه ملكا للقدس على نحو ما ينص عليه عقد الزواج ، وكان يطالب بأنطاكية ميراثا باعتباره الوريث الوحيد من الذكور من ذرية ابن عمه بوهمند . لقد كان وجوده فى الحملة الصليبية غير مرغوب فيه ، لكن الآمال كانت معقودة عليه للمضى فى حربه على الاسلام فى منطقته الخاصة به^(١٠).

ومن اليسير تفهم اختيار البابا لملك فرنسا ، لويس ، لتنظيم الحملة الصليبية الجديدة ، وقد استجاب الملك للنداء متلهفا . وعندما وصل الأمر البابوى ، الذى جاء بعد وقت قصير من وصول الأنباء التى حملها أسقف جبله ، كان لويس قد أصدر لتوه استدعاء لكبار مستأجري الأرض لمقابلته فى يوم عيد الميلاد فى بوج. وعندما اجتمعوا اخبرهم أنه قد قرر أن يأخذ الصليب ورجاهم أن يخذوا حذوه . وداهمته مشاعر الأسف فى خيبة أمله من ردهم ؛ فلم يظهر عوام النبلاء حماسا لطلبه ، وأعرب رجل الدولة البارز فى المملكة - سوجر ، رئيس دير رهبان سانت دينيس - عن عدم موافقته على غياب الملك المتوقع . ولم يفصح أحد عن موازرتة لسيدته سوى أسقف لانجر^(١١).

١١٤٦م : التجمع فى فيزىلاى

ثبطت همة الملك لويس لما أظهره أتباعه من عدم المبالاة ، فقرر إرجاء مناشدته ثلاثة أشهر ، واستدعى تجمعا آخر لمقابلته فى فيزىلاى يوم عيد الفصح ، وفى ذات الوقت كتب يطلع البابا على رغبته فى قيادة حملة صليبية ، وأرسل إلى الرجل الوحيد فى فرنسا الذى كان له من السلطة ما يفوق سلطته هو نفسه ، ألا وهو برنار رئيس دير رهبان كليرفو . وكان القديس برنار الآن فى ذروة شهرته . ومن العسير علينا الآن

(٩) Saint Bernard, letter no. 139, in M.P.L. vol. CLXXXII, col. 294.

(١٠) Odo of Deuil, pp. 22-3.

(١١) pp. 393 ff.; Odo of Deuil, p. 121 Vita Sugerii Abbatis.

أن نلتفت وراءنا عبر القرون لنعرب عن تقديرنا لما كان له من نفوذ رائع على كل من عرفوه ؛ إذ أن هيب فصاحته فقد رواءه فيما بقى من كلمات مكتوبة . ولكونه لاهوتيا مجادلا بدا الآن صارما فظًا جافيا ، لكنه منذ اليوم الذى عُين فيه رئيسا لدبر رهبان كليرفو عام ١١١٥ م ، وهو آنذاك فى الخامسة والعشرين من عمره ، وحتى وفاته بعد ذلك بأربعين سنة تقريبا ، كان صاحب الأثر المهيمن على الحياة الدينية والسياسية فى أوروبا الغربية : فهو الذى أعطى النظام البندكتى قوته الدافعة ، وهو وحده - دون معين فى الأغلب - الذى انقذ البابوية من رغام الصدع الذى كاد يسببه أناكليتوس^(١٢) ، إذ كان فى وعظه حماس وإخلاص ، وكان شجاعا قويا ، وقد خلت حياته مما يعيبها ، فكانت تلك المزايا تجتمع لديه وتمكّنه من الانتصار لأية قضية يمنحها موازرتة ، باستثناء قضية واحدة فقط هي حالة طائفة الكثار المريرة فى لانجدوك^(١٣) . وكان مهتما منذ زمن طويل بمصير العالم المسيحى الشرقى وسبق أن أسهم هو نفسه عام ١١٢٨ م فى وضع مبدأ انشاء نظام فرسان المعبد . وعندما ترجاه البابا والملوك

(١٢) (المترجم): بعد وفاه البابا هونوريوس الثانى عام ١١٣٠ م انتخب اغلب الكرادلة أناكليتوس الثانى Anacletus II ، وانتخبت أقلية الكرادلة اينوسنت الثانى Innocent II ، ورُسم الباباوان كلاهما مما أُنذر بصدع فى الكنيسة حسيم . ودعا الملك الفرنس لويس السادس ملك فرنسا (السمين) مجلسا لتقرير الشرعية البابوية عام ١١٣٠ م ، فاختار المجلس البابا اينوسنت لكن أناكليتوس أجبر غريمه اينوسنت على الهرب الى فرنسا حيث آبهه الراهب القديس برنار (أوف كليرفو) الذى هاجم انحدار أناكليتوس من أسلافه اليهود . وبرغم تحالف أناكليتوس مع الملك روجر الصقلى الطموح ، فقد تغلب مناصرو اينوسنت بمن فيهم الامبراطور البيزنطى جون الثانى كومنينوس والامبراطور الالماني لوثير الثانى على رأس الامبراطورية الرومانية المقدسة الذى اصطحب اينوسنت وقاد جيشا ألمانيا عام ١١٣٢ م واحتل روما كلها ماعدا الجزء الذى يحتله انصار أناكليتوس . وبعد رحيل لوثير أجبر أناكليتوس غريمه اينوسنت على الهرب من روما مرة اخرى فلجأ الى بيزا حيث عقد مجلسا عام ١١٣٤ م وأعلن الحكم على أناكليتوس بالحرمان الكنسى . وتمكن الامبراطور لوثير فى حملته الثانية (١١٣٦-٧) من طرد روجر الصقلى من جنوب ايطاليا ، وبذا أمسى أناكليتوس بقليل من المناصرين، فمات منها بذلك الصدع الوشيك ، ولكن الآراء منقسمة حول تلك المسألة حتى يومنا هذا .

(١٣) (المترجم) : الكثار Cathari : طائفة مسيحية هرطيقية ازدهرت فى القرنين ١٢ و ١٣ فى لانجدوك Languedoc فى جنوب فرنسا وانحاء من أوروبا الغربية . اعتنقت ثنائية مانوية جديدة ذات مبدئين : مبدأ الخير ومبدأ الشر ، قالت إن المادة شر والإنسان مغترب فى هذا العالم الشرير . كانت لها قواعد صوم صارمة منها الامتناع التام عن اكل اللحوم . حظرت المضاجعة الجنسية ونادت بالتيقؤ التام النسكى من العالم . أعادت كتابة القصة الانجيلية وطوّرت خرافة مدروسة لتحل محلها بعد ان تحفظت على أغلب العهد القديم الذى أنكره بعض أفرادها برمته . ورفضت مبدأ التجسد Incarnation وليس عيسى عليه السلام سوى ملاك ، وما آلامه البشرية وموته إلا بمجرد وهم . وهاجمت فساد الكنيسة الكاثوليكية واهتماماتها الدنيوية هجوما لاذعا . جرّدت الكنيسة الكاثوليكية ضدها الحملة الصليبية الألبنسية the Albigenian Crusade وراح بارونات شمال فرنسا يخربون تولوز وبروفانس ويقتلون الكثار والكاثوليك على السواء .

للمساعدة فى التبشير بالحملة الصليبية لى النداء بشغف^(١٤).

وتجمعت الحشود فى فيزيلاي Vézelay يوم ٣١ مارس ١١٤٦ م ، وبانتشار الأنباء بأن القديس برنار سوف يبشر فى هذا الجمع ، جاء الزائرون من سائر أنحاء فرنسا . وكما حدث فى كليرمونت منذ نصف قرن ، كان الحشد من الضخامة بحيث تعذر اجتماعه فى الكاتدرائية ، فتحدث القديس برنار وهو يعتلى منصة أقيمت فى حقل خارج المدينة الصغيرة . ولم تسجل الأجيال كلماته ، وإنما نعرف فقط انه قرأ الأمر البابوى الداعى إلى حملة مقدسة مع وعد المغفرة لكل من يشارك فيها ، ثم استغل فصاحته التى لا تبارى كى يوضح العجالة التى تتطلبها الدعوة البابوية . وسرعان ما وقع الحاضرون أسرى لنفوذه الطاغى ، وبدأ رجال يصيحون طالبين الصليبان - "الصليبان ، اعطونا الصليبان !" - ولم يمض طويل وقت قبل أن تنفذ المواد التى سبق اعدادها لخياطة الصليب، فنضى القديس برنار رداءه الخارجى والقى به لتمزيقه إلى صليبان صغيرة ، وغربت الشمس ولا زال هو ومساعدوه يخيطنون الصليبان، إذ كان المخلصون الذين نذروا انفسهم للذهاب فى الحملة الصليبية يفدون بأعداد آخذة فى التزايد^(١٥).

وكان الملك لويس أول من أخذ الصليب . وتلهف اتباعه على أن يحذوا حذوه وقد نسوا ما أبدوه من برود سابق . وكان من بينهم أخوه روبرت كونت دريو ، وألفونسو - جوردان كونت تولوز الذى ولد هو نفسه فى الشرق ، ووليم كونت نفرس الذى قاد أبوه إحدى الحملات الفاشلة عام ١١٠١ م ، وهنرى وريث كونتية شامباني ، وثيبرى (أوف فلاندرز) الذى سبق له أن حارب فى الشرق وكانت زوجته ابنة (فولك) زوج الملكة ميليسيند ، وأماديوس (أوف سافوى) عم الملك ، وأرشبالد كونت بوربون ، وأراس وليزيو من أساقفة لانجر وكثير من نبلاء المرتبة الثانية . وجاءت الاستجابة الأعظم حتى من رعاع الناس^(١٦) . واستطاع القديس برنار أن يكتب للبابا

(١٤) Odo of Deuil, p. 21. واستنادا الى Otto Freisingen فإن البارونات رغبوا فى استشارة القديس برنار قبل أن يلزموا انفسهم (Gesta Friderici, p. 58) وعن القديس برنار وفرسان المعبد ، أنظر Vacandard, *Vie de Saint Bernard*, ii, pp.227-49.

(١٥) Odo of Deuil, p. 22; *Chronicon Mauriniacense*, loc. cit; Suger, *Gesta Ludovici*, ed. Molinier, pp. 158-60.

(١٦) كان أسقف لانجر هو Godfrey de la Roch Faillée ، وكان راهب كليرفو ويمت الى القديس برنار بصلة قرابة . ولا نعرف سوى القليل عن أسقف أراس Alvisus الذى كان سابقا رئيسا لدير أنشين . وجعلته الأساطير المتأخرة أنحال Suger دون أى أساس لذلك . وكان أسقف ليزيو Arnulf of Séz.

بعد ذلك بأيام قليلة قائلا : "أنت أمرت . وأنا أطعت . وسلطة من أعطى الأمر جعلت طاعتي مثمرة . قد فتحت فمي . تكلمت . وعلى الفور تضاعفت اعداد الصليبيين إلى ما لا نهاية . القرى والمدن الآن مهجورة . ستجد بالكاد رجلا واحدا لكل سبع نساء . وفي كل مكان ترى أرامل لا يزال أزواجهن على قيد الحياة".^(١٧)

١١٤٦م : القديس برنار في ألمانيا

وإذ تشجع القديس برنار بما صادفه من نجاح ، قام بجولة في برجندي واللورين وفلنדרز ، يبشر بالحملة الصليبية في طريقه . وبينما كان في فلاندرز تلقى رسالة من رئيس اساقفة كولونيا يترجاه الحضور على الفور إلى أراضى الراين ؛ ذلك أنه كما حدث في أيام الحملة الصليبية الأولى ، فإن ما أثارته أنباء الحركة من حماس انقلب ضد اليهود . ففي فرنسا اشتكى رئيس دير رهبان كلاني ، بطرس الموقر، من أن اليهود لا يدفعون اسهاما ماليا لإنقاذ العالم المسيحي ؛ وفي ألمانيا اتخذ الازدراء لليهود شكلا أكثر شراسة ؛ إذ أن راهبا بندكتيا متعصبا يدعى رودولف راح ينفث الإيحاء بمذابح لليهود في كافة انحاء أراضى الراين : في كولونيا ومينز وورمز وسبير وستراسبورج . وبذل رئيسا أساقفة كولونيا ومينز ما في وسعهما لإنقاذ الضحايا ، إلى أن استدعيا برنار أخيرا للتعامل مع البندكتي. فسارع برنار بالرحيل من فلاندرز وأمر بعودة رودولف إلى دير . وعندما عاد الهدوء مكث برنار في ألمانيا ، إذ بداه أن على الألمان كذلك الانضمام إلى الحملة الصليبية^(١٨).

ولم يكن للألمان دور متميز حتى الآن في الحركة الصليبية . وإنما كان حماسهم

دارسا كلاسيكيا للأذواق العلمانية المتميزة . وقد اعتبر أسقفا لانجر وليزيو نفسيهما أنهما وقد منحنا وضع المندوبين البابويين، رغم أن المندوبين البابويين كانا في الواقع هما Theodwin الألماني كاردينال بورتو، و Florentine كاردينال جويدو . واعتبر John of Salisbury في *Historia Pontificalis*, pp. 54-5 أن المشاحنات التي دارت بين الأسقفين وازدراءهما المشترك للكاردينالين تعزى بدرجة كبيرة إلى فشل الحملة الصليبية . وكان يعتقد أن Godfrey of Langres أكثر تعقلا من Arnulf of Lisieux.

(١٧) St Bernard, letter no. 247, in *op. cit.* col.447

(١٨) St. Bernard, letters no. 363, 365, in *op. cit.* cols. 564-8, 570-1; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp. 58-9; Joseph ben Joshua ben Meir, *Chronicle*, trans. Biellablitzky, I, pp. 116-29. نورويش على إثارة المشاعر ضدهم . انظر Vacandard, *op.cit.* II, pp. 274-81.

المسيحي موجهها نحو التنصير القسري للسلافيين الوثنيين على حدودهم الشرقية . فمنذ بداية القرن كان العمل التبشيري والاستعمار الألماني يجريان على قدم وساق في المقاطعات السلافية في بوميرانا وبراندينبرج ؛ وقد اعتبر اللوردات الألمان أن توسع العالم المسيحي هذا عمل يفوق في أهميته الحرب ضد الاسلام الذي بدأ تهديده لهم نائيا ونظريا ، ومن ثم أعرضوا عن الاستجابة لتبشير القديس برنار . كما لم يكن ملكهم كونراد (أوف هوهنشتافن) ، برغم إعجابه الشديد بالقديس ، أكثر تلهفا للإنصاف إليه . فكانت لديه اهتمامات في البحر المتوسط ، غير انها كانت مقيدة بايطاليا حيث وعد البابا بتقديم المساعدة ضد الرومان المتمردين وضد روجر الصقلي ، لقاء تنويجه الامبراطوري الذي يتمناه . كما أن وضعه في المانيا نفسها لم يكن مستقرا . فبرغم انتصاره في فينسبرج عام ١١٤٠م إلا أنه كان يلقي العداوة من مناصري بيت ويلف ، وفي الوقت ذاته كانت التصرفات الغريبة من اخوته واخواته غير الأشقاء تثير له المتاعب بطول جناحه الشرقي . وكتب القديس برنار إلى الأساقفة الألمان ليضمن تعاونهم . ثم قابل الملك في فرانكفورت في خريف عام ١١٤٦م ، لكن كونراد راوغه ؛ وتهيأ برنار للعودة إلى كليرفو لولا أن توسل اليه الأساقفة مواصلة تبشيره بالحملة الصليبية في فريبورج ، وبازل ، وشافهاوزن ، وكونستانس . وسرعان ما نجحت الجولة حتى مع ضرورة ترجمة المواقف الدينية بمعرفة مترجم الماني . وتدافعت قطعان الرعاع ليأخذوا الصليب . وفشلت المحاصيل في المانيا ذلك العام وانتشرت المجاعة . والتضور جوعا خليق بأن يولد شعورا غامضا بالنشوة ؛ والأرجح أن الكثيرين ممن استمعوا إلى برنار قد ظنوا - كشأن حجاج الحملة الصليبية الأولى - أن الرحلة ستوصلهم إلى فردوس اورشليم الجديدة في السماوات^(١٩) .

ووافق الملك كونراد على مقابلة القديس برنار مرة أخرى في يوم عيد الميلاد من عام ١١٤٦م أثناء عقده لمجلس تشريعي في مدينة سباير . ومرة ثانية طلب القديس برنار من الملك في موعظته يوم عيد الميلاد أن يأخذ الصليب ، لكن ندائه لم يحرك من الملك ساكنا . على انه بعد يومين القى برنار موعظة أخرى أمام البلاط ، وتحدث كما لو كان هو المسيح نفسه مطوقا الملك ومذكرا إياه بالأفضال التي أمطرتها

(١٩) Bernhadi, Konrad III, oo, 563-78k الذي يورد موجزا كاملا للحملات الصليبية ضد السلافيين . وفي St Bernard's letter no. ٤٥٧ cols. 651-2 (op. cit.) يأمر القديس مسيحي المانيا بالخروج في الحملة الصليبية في الشرق . وفي رقم cols. 652-4٤٥٨ يصدر نفس الأمر للملك بوهيميا وشعبها . والمؤرخون من مثل William of Tyre, Odo of Deuil وأغلب المؤرخين المعاصرين يشيرون إلى كونراد على انه امبراطور ، غير انه في الواقع لم يتلق قط تنويجا امبراطوريا .

السماء عليه ، وصاح به قائلا : " يا إنسان ، ما الذى كان ينبغي لى أن افعله لك ولم أفعله ؟ " فتحركت مشاعر كونراد فى اعماقه ووعد باتباع اوامر القديس^(٢٠).

ورحل القديس برنار عن المانيا وقد تملكته الغبطة بما أنجزه من عمل . وسافر خلال شرقى فرنسا يشرف على ترتيبات الحملة الصليبية وراح يكتب للبيوت البندىكية فى كافة انحاء أوروبا بأمرها بتشجيع الحركة . وعاد إلى المانيا فى شهر مارس للمساعدة فى مجلس فى فرانكفورت عندما تقرر ارسال حملة صليبية ضد السلاف شرقى أولدنبرج . وكان المقصود من وجوده أن يظهر انه بينما يناصر حملة صليبية فى الشرق فإنه لا يرغب فى أن يهمل الألمان واجباتهم الأقرب . وعلى الرغم من أن البابا سمح للمشاركين بارتداء الصليب فى هذه الحملة الصليبية، إلا أنها أخفقت إخفاقا تاما تسبب بدرجة كبيرة فى تأخر تحول السلاف إلى المسيحية . وسارع برنار من فرانكفورت إلى دير رهبانه فى كليرفو ليستقبل البابا الزائر^(٢١).

١١٤٧م : البابا إيوجينيوس فى فرنسا

كان البابا إيوجينيوس قد امضى عيد الميلاد من عام ١١٤٥م فى روما ؛ غير أن المتاعب مع أهل روما أجبرته على سرعة انسحابه مرة اخرى فى فيتربو ، بينما خضعت روما نفسها لتأثير المحرض على الاثارة ضد الكنيسة ، أرنولد (أوف بريشيا) . وتحقق إيوجينيوس من انه بدون مساعدة الملك كونراد لن يتسنى له إعادة تنصيب نفسه فى المدينة المقدسة ، وفى ذات الوقت قرر عبور جبال الألب إلى فرنسا لمقابلة الملك لويس والاشراف على الحملة الصليبية ، فغادر فيتربو فى شهر يناير ١١٤٧م ووصل مدينة ليون يوم ٢٢ مارس . وتلقى اثناء ترحاله أنباء عما بذله القديس برنار من أنشطة، فلم يُسر تماما لذلك . ذلك أن احساسه العملى جعله يتخيل حملة صليبية فرنسية خالصة تحت الزعامة العلمانية لملك فرنسا وبدون القيادة المنقسمة التى كادت أن تحطّم الحملة الصليبية الأولى ، وها هو القديس برنار قد حول الحركة إلى مغامرة دولية ؛ ومن الجائز

(٢٠) Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp. 60-3; *Vita S. Bernardi*, cols. 381-3 . ويحتمل ان يكون كونراد قد تأثر بسماعه ان غريمه Welf VI of Bavaria قرر ان يأخذ الصليب . (انظر Cosack, 'Konrad III's Entschluss zum Kreuzzug' in *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, vol xxxv غير ان قرار ويلف أعلن لكونراد فى وقت قصير جدا بحيث لم يكده هذا الأخير ان يسمع به أنظر 4-53 pp. (Gleber, *op. cit.*).

(٢١) See St Bernard, letter no. 457, *loc. cit.*; Vacandard, *op. cit.* II, pp. 297-8

جدا عمليا أن ترجح كفة المنافسة بين الملوك على كفة تصوراته الرائعة. فضلا عن ذلك ، سوف يحرم البابا من مساعدة الملك كونراد التي يعلق عليها الآمال في إيطاليا . فاستقبل أنباء الاشتراك الألماني استقبالا غاية في البرود . لكنه لم يكن بوسع منع الألمان من الاشتراك^(٢٢).

وقابل البابا الملك لويس في ديجون أثناء الرحلة في فرنسا في الأيام الأولى من إبريل، ووصل كليرفو يوم ٦ إبريل . وارسل إليه الملك كونراد سفارة هناك يلتبس مقابلته في ستراسبورج يوم ١٨ من الشهر ؛ لكن إيوجينيوس كان قد وعد بتمضية عيد الفصح - يوم ٢٠ إبريل - في سانت دينيس ولن يغير من خطته . وأعد كونراد العدة للرحيل إلى الشرق دون مباركة من البابا شخصيا . وفي تلك الأثناء أجرى إيوجينيوس مقابلات عديدة مع الراهب سوجر الذي كان مقررا أن يحكم فرنسا أثناء غيبة الملك لويس. وعقد مجلسا في باريس للتعامل مع هرطقة جيلبرت (أوف دي لا بوريه) ، وقابل لويس مرة أخرى في سانت دينيس يوم ١١ يونيو . وبينما كان لويس يستكمل ترتيباته الأخيرة ، رحل البابا ببطء جنوبا للعودة إلى إيطاليا^(٢٣).

وفي الوقت الذي كان ملكا فرنسا وألمانيا يعدان فيه العدة للحملة الصليبية ويخططان لرحلة برية طويلة ، كانت هناك حملة أكثر تواضعا تتألف من إنجليز مع بعض البلجيكيين من الفلاندرز وأبناء شمال هولندا (من الفريزيين) ، استلهموا ما قام به عملاء القديس برنار من تبشير بالخروج بحرا إلى فلسطين . فأبحرت السفن من إنجلترا في أواخر الربيع من عام ١١٤٧ م ؛ وفي أوائل يونيو أجبرها سوء الأحوال الجوية على اللجوء إلى مصب نهر دورو على الساحل البرتغالي . وقابلهم مبعوثو ألفونس هنري ، كونت البرتغال ، الذي كان قد حقق استقلال بلاده مؤخرا وكان يتفاوض مع البابوية على منحه لقب ملك بمبرر نجاحه في حملاته ضد المسلمين. وكان قد استغل ما يواجهه المرابطون من صعوبات وانتزع نصرا كبيرا في عريق عام ١١٣٩ م ، وفي عام ١١٤٧ م كان قد وصل إلى ضفاف نهر التاجة بعد استيلائه على شنترين. وقد رغب الآن في مهاجمة العاصمة الإسلامية لشبونة وكان في حاجة إلى مساعدة بحرية . وجاء وصول الصليبيين في وقته المناسب. إذ أكد لهم مبعوثه ، أسقف أوبرتو ، عدم الحاجة إلى القيام برحلة طويلة إلى فلسطين إذا كانوا يريدون الحرب من أجل الصليب ؛ فهنا كفر

(٢٢) See Gleber, *op. cit.* pp. 22-7, 48-61

(٢٣) Odo of Deuil, pp. 24-5

فى متناول اليد ، ولن ينال الصليبيون الجدارة الروحية فحسب ، وانما أمامهم ضياع غنية يمكنهم الفوز بها هنا والآن . فوافق البلجيكيون والفريزيون من فورهم ، لكن أفراد الفصيلة الانجليزية ترددوا ، إذ أخذوا على أنفسهم العهد بالذهاب إلى القدس ، وكان الأسقف قد أفلح فى اقناع قائدهم ، هنرى جلانفيل حاكم سافوك ، بالبقاء . واضطر قائد الفصيلة الانجليزية إلى بذل كل ما فى وسعه من نفوذ لتحريض افراد فصيلته على البقاء . وبعد أن تم الاتفاق على الشروط أبحر الأسطول الصغير جنوب نهر التاجه للانضمام إلى الجيش البرتغالى ؛ وبدأ حصار لشبونة . ودافع المسلمون عن مدينتهم ببسالة ، ولم تستسلم الحامية إلا فى أكتوبر، بعد أربعة اشهر ، بعد ضمانات بالمحافظة على ارواح أفرادها وممتلكاتهم . وعلى الفور نقض الصليبيون عهدهم وانغمست أيديهم فى مذبحه كبيرة للكفرة قام بعدها أفراد الفصيلة الانجليزية بتبادل التهتهة على ما قدموه من "فضيلة" ، مع أنهم لم يلعبوا فيها سوى دور ضئيل . وبعد انتهاء الحملة واصل بعض الصليبيين رحلتهم إلى الشرق ، غير أن أغلبهم بقى فى حالة استيطان تحت التاج البرتغالى . ورغم أن هذه الحادثة كانت إيذانا بتحالف طويل بين انجلترا والبرتغال ، وبرغم انها كانت بمثابة إرساء القواعد لانتشار المسيحية وراء المحيطات ، فإنها لم تفعل سوى القليل لمساعدة المسيحيين فى الشرق حيث كانت القوة البحرية بالغة الأهمية للقضية^(٢٤).

١١٤٧ م : الملك كونراد يغادر ألمانيا

فى الوقت الذى تأخر فيه الشماليون فى البرتغالى كان ملكا فرنسا وألمانيا قد شرعا فى الرحيل برا إلى الشرق . وكان الملك روجر الصقلى قد أرسل إلى كل منهما يعرض نقلهما ونقل جيشيهما بحرا . وكان طبيعيا أن يرفض كونراد ذلك العرض إذ كان لفترة طويلة عدوا لروجر ، وكذلك فعل لويس . ولم يكن البابا راغبا فى تعاون روجر ؛ ومن المشكوك فيه ما اذا كانت البحرية الصقلية من الضخامة بحيث تحمل كل الجنود الذاهبين فى الحملة الصليبية . ولم يكن لويس راغبا فى أن يسلم نفسه - وقد انفصل عن نصف جيشه - إلى رجل اشتهر بمماضي نفاقه الحافل فضلا عن كونه عدوا لدودا لعم الملكة

(٢٤) المصدر الرئيسى للأصلى للحملة الصليبية البرتغالية هو Osborn, *De expugnatione Lyxbonensi*, مطبوع فى Stubbs *Memorials of the Reign of Richard I*, vol. I, pp. CXLIV-CLXXXII. أنظر ايضا Ermann, 'Die Kreuzzugegedanke in Portugal' in *Historische Zeitschrift*, vol CXLI, pp.23-53.

الفرنسية . فكان السفر برا أكثر أمانا وأقل تكلفة^(٢٥).

وانتوى الملك كونراد مغادرة ألمانيا في عيد الفصح من عام ١١٤٧م ، وكان قد تلقى سفارة بيزنطية في ديسمبر في مدينة شير ، أخبرها برحيله الفوري إلى الشرق . على أنه لم يبدأ رحلته في واقع الأمر إلا في نهاية مايو . وغادر راتيسبون في الأيام الأخيرة من الشهر وعبر إلى هنجاريا . وكان الجيش بالغ الضخامة . إذ تحدث المؤرخون المرتاعون عن مليون جندي ؛ والأرجح أن العدد الإجمالي للرجال المسلحين والحجاج قد بلغ عشرين الفا . وجاء مع كونراد اثنان من الملوك التوابع : فلاديسلاف ملك بوهيميا وبوليسلاف ملك بولندا . وكان على رأس النبلاء الألمان فريدريك ، دوق سوابيا ، وهو ابن اخي كونراد ووريثه . وكانت هناك كتيبة من اللورين بقيادة ستيفن أسقف ميتز ، وهنرى أسقف تول . ولقد كان جيشا مشاغبا؛ فكان الأقطاب الألمان يغارون من بعضهم البعض ، ودامت الاحتكاكات بين الألمان والسلاف وأبناء اللورين من الناطقين بالفرنسية . ولم يكن كونراد بالرجل الذي يسيطر على الجيش ويبقيه في حالة انضباط، إذ جاوز عمره الآن الخمسين بكثير ، وصحته لا هي بالجيذة ولا بالسيئة ، ومزاجه ضعيف قلق . وقد بدأ في تفويض الكثير من سلطاته إلى يدى ابن أخيه فريدريك القويتين غير المتمرستين^(٢٦).

وعبر الجيش الألماني هنجاريا في شهر يونية . وكان ملك هنجاريا الصغير (حيزا) ودودا جدا ، ولم تحدث حادثة سيئة . وفي هنجاريا جاءت سفارة بيزنطية يرأسها ديميتريوس ماكريمبولائيس والإيطالي ألكسندر (أوف جرافينا) وقابلت كونراد وسألته - نيابة عن الامبراطور - ما إذا كان قد جاء صديقا أم عدوا ، ولكي تترجاه أن يقسم القسم بألا يأتي من الأفعال ما يضر بمصالح ورفاهية الامبراطور . وقد أحسن اختيار قسم عدم الإضرار هذا ؛ إذ كان القسم المعتاد في اجزاء معينة من الغرب يؤخذ من تابع لسيده؛ وهو الذي أقسمه ريموند التولوزي لألكسيوس أثناء الحملة الصليبية الأولى ؛ ومع ذلك كان القسم مصاغا بحيث اذا رفضه كونراد فمعنى هذا انه قد وصم نفسه بعداوة الامبراطور . ولقد أقسم كونراد هذا القسم . فوعده السفراء البيزنطيون بتقديم

(٢٥) كان الملك لويس قد أعلن لروجر عن الحملة الصليبية (Odo of Deuil, p.22)، على أنه عندما اقترح روجر أن يشترك في الحملة بصورة ايجابية نبذ الملك لويس مساعدته مما تسبب في استعادة المؤرخ Odo لأحزانه (ibid. p.24).

(٢٦) Odo of Freisingen, *Chronica*, p. 354 and *Gesta Friderici*, pp. 63-5.

كل المساعدة أثناء عبوره أراضي الامبراطورية^(٢٧).

١١٤٧م : الألمان فى البلقان

فى يوم ٢٠ يولية تقريبا دخل كونراد أراضي الامبراطورية عند برانيتشوف . وساعدت السفن البيزنطية فى نقل رجاله عبر نهر الدانوب . وفى نيش ، قابله حاكم المقاطعة البلغارية ، ميخائيل براناس وزود الجيش بالطعام الذى سبق تخزينه استعدادا لوصوله . وفى صوفيا ، التى وصلها بعد ذلك بأيام قليلة ، أقام حاكم نيسالونيكا، ميخائيل باليولوجوس ابن عم الامبراطور ، ترحيبا رسميا لكونراد من الامبراطور . وحتى الآن سارت الأمور على ما يرام . وكتب كونراد إلى اصدقاء له فى المانيا يخبرهم بأنه راض عن كل شئ . على انه بعد مغادرته صوفيا بدأ رجاله فى نهب الريف رافضين أن يدفعوا للقرويين مقابل ما يأخذونه منهم ، بل انهم قتلوا من اعترض عليهم . وعندما تلقى كونراد الشكاوى اعترف بأنه عاجز عن فرض الانضباط على الغرغاء . وفى فيلرهبوليس حدثت احداث فوضوية أسوأ ، إذ سُرِق المزيد من الطعام ، وحدثت اعمال شغب عندما قام أحد المشعوذين ببعض الحيل وفى مأموله الحصول على بعض المال من الجند ، فاتهمه الألمان بالسحر . واضرمت الحرائق فى الضواحي ، بيد أن اسوار المدينة كانت من القوة بحيث تعذر على الألمان مهاجمتها . وكان احتجاج رئيس الأساقفة ميخائيل اتاليكوس لدى كونراد من القوة بحيث شعر الأخير بالخجل وعاقب زعماء العصابات . ثم أن مانويل أرسل الجنود لمصاحبة الصليبيين وضمان عدم خروجهم عن الطريق . ولم يؤد ذلك إلا إلى عمل فريد من أعمال الفوضى الأسوأ ؛ إذ تكرر الصدام بين البيزنطيين والالمان . وبلغت الأمور ذروتها من سوء بالقرب من أدرنه عندما هاجم بعض قطاع الطرق البيزنطيين وجيها المانيا كان قد تخلف لمرضه وقتلوه ؛ فما كان من فريدريك (اوف سوايبا) إلا أن حرق ديرا كان بالقرب من مكان ارتكاب الجريمة وقتل قاطنيه . وانتقاما لذلك ، دأب البيزنطيون على قتل الشاردين المخمورين - وكانوا بأعداد غفيرة بين الألمان - أينما وقعوا عليهم . وعندما تمكن القائد البيزنطى بروسوخ من تهدئة الأمور واستأنف الجيش مسيرته ، جاءت سفارة من مانويل ، الذى شعر بالخطر الشديد ، تحث كونراد على أن يسلك الطريق الذهاب إلى سيستوس على بوغاز الدردنيل والعبور من هناك إلى آسيا . ولما كان مقررا أن تستمر

مسيرة الألمان إلى القسطنطينية ، فقد اعتُبر طلب مانويل عملا غير ودي لم يوافق عليه كونراد . ويبدو أن مانويل قرر آنذاك مقاومة الصليبيين بالقوة ، لكنه فى آخر لحظة ألغى أوامره المرسلة إلى بروسوخ . وسرعان ما نزل بالألمان عقاب الهسى . فبينما كانوا مستلقين فى معسكرهم فى شيرفاس الواقعة فى سهل ترافيا ، فاجأهم سيل مفرق أطاح بخيامهم وأغرق الكثير من الجنود ودمّر الكثير من ممتلكاتهم ، ولم ينج من الأذى سوى فصيلة فريدريك التى كانت تعسكر فوق ربوة أكثر ارتفاعا . ولم تحدث حوادث أخرى جسيمة إلى أن وصل الجيش القسطنطينية فى العاشر من سبتمبر على وجه التقريب^(٢٨).

وجاء الملك لويس والجيش الفرنسى فى أعقابهم بعد شهر تقريبا . وكان الملك نفسه قد انطلق من سانت دينيس فى الثامن من يونية ، وبعد أيام قليلة استدعى أتباعه لمقابلته فى ميتز . والأرجح أن حملته كانت اصغر من حملة كونراد . وقد جاء معه كل النبلاء الذين اخذوا الصليب معه فى فيزيلاى للوفاء بعهودهم، وكان مع الملك زوجته ، إليانورا الأكيثانية ، أعظم وريثة فى فرنسا وابنة اخت أمير أنطاكية . وكانت كونتيسات فلاندرز وتولوز وكثيرات من السيدات الفخيمات قد ارتحلن مع أزواجهن . وانضم إلى الجيش السيد الأعظم لفرسان المعبد ، إيفيرارد (أوف بار) مصطحبا معه فصيلة من الذين جندهم فى نظام فرسانه^(٢٩). وكان عمر الملك نفسه ستة وعشرين عاما ، وقد اشتهر عنه الورع وليس قوة الشخصية ، وقد مارس كل من أخيه وزوجته نفوذهما عليه ؛ وكفائد كان يفتقر إلى التدريب والحسم^(٣٠). وعلى الجملة كان جنوده أكثر انضباطا وأقل شيطنة من الألمان ، برغم وجود حالات من الفوضى حدثت فى مدينة فورمز عند عبور نهر الراين.

(٢٨) Cinnamus, pp. 69-74; Nictas Choniates, pp. 82-7; Odo of Deuil, p. 38. وكان المؤرخ Odo قد سبق له ان ذكر المحتال من قبل فى صفحة ٣٦. Odo of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp. 65-7.

(٢٩) ترد قائمة بالصليبيين أوردتها Suger, *Gesta Ludovici*, ed. Molinier, pp. 158-60 والأسطورة القائلة بأن الملكة إليانور جاءت على رأس مجموعة من الأمازون تقوم على أساس ملحوظة Nicetas p. 80 بأن الجيش الألماني كان يشتمل على عدد من النساء المسلحات تسليحا كاملا .

(٣٠) تدل صورة شخصيته التى أوردتها Suger فى مؤلفه *Gesta* وفى رسائله الخاصة به على أنه لم يكن رجلا حاسما.

١١٤٧م : وصول الفرنسيين إلى القسطنطينية

وعندما انضمت جميع الفصائل الفرنسية إلى الملك ، انطلق الجيش عبر بافاريا . وفي راتسيبون التي وصلها يوم ٢٩ يونية ، كان هناك سفيران من الامبراطور مانويل في انتظاره ، هما ديميتريوس ماكريمبولانس الذي سبق وان أجرى مقابلة مع كونراد في هنجاريا ، وآخر يدعى موروس . وطلبا ضمانا بأن يتصرف لويس كصديق أثناء تواجده في الأراضي الامبراطورية وأن يعد بأن يعيد إلى الامبراطورية أية ممتلكات سابقة لها قد يستولى عليها في الحملة . وكان واضحا انهما لم يطلبوا منه أن يقسم قسم عدم الإضرار ، إذ كان خليفا بأن يعي مغزاه تماما . وأعلن لويس رسميا أنه جاء كصديق ، لكنه لم يعد شيئا بشأن الغزوات المقبلة ، إذ وجد الطلب مبهما بصورة خطيرة^(٣١) . ومن راتسيبون ارتحل الجيش في سلام لخمس عشرة يوما خلال هنجاريا ووصل الحدود البيزنطية في نهاية أغسطس^(٣٢) . وعبر المرتحلون الدانوب عند برانيتشيفو وسلكوا الطريق الرئيسي خلال البلقان . ووجدوا بعض الصعوبة في شراء ما يكفي من الطعام ، إذ سبق أن استهلك الألمان كل ما كان متاحا ، وما ارتكبه الألمان من تجاوزات أثار الريبة لدى السكان المحليين الذين باتوا عازفين عن المساعدة . وفضلا عن ذلك ، لم يكن التجار المحليون على استعداد لمنح أية تخفيضات في الأسعار بعد تصميمهم على الدفع أولا . غير أن المسؤولين البيزنطيين كانوا ودودين ، واستطاع القادة الفرنسيون السيطرة على انضباط رجالهم . ولم تحدث مشاكل جسيمة إلى أن اقترب الجيش من القسطنطينية رغم أن الفرنسيين بدأوا يشعرون بالإزدراء تجاه كل من البيزنطيين والألمان . وفي أدرنه حاولت السلطات دون جدوى ما حاولته مع كونراد من حث لويس على تجنب العاصمة وعبور الدردنيل إلى آسيا . وفي ذات الوقت ، كان بعض الفرنسيين قد نفذ صبرهم من تمهل الجيش في سيره ، فأسرعوا قُدما ليلحقوا بالألمان . لكن الألمان كانوا يفتقرون إلى الود ، إذ رفضوا منحهم مخصصات الطعام . لذا قامت فصائل اللورين - وكانت على غير وفاق مع زملائها الألمان - بالانضمام إلى الجنود الفرنسيين وأشعلت رأيا عاما فرنسيا مناهضا للألمان^(٣٣) . وهكذا ، وقبل أن يصل الملك الفرنسي إلى القسطنطينية ، كانت العلاقات بين الجيشين الصليبيين مصطبغة بصبغة الريبة والمرارة ،

(٣١) Cinnamus, p. 82; Odo of Deuil, pp. 28-30 عنه.

(٣٢) Odo of Deuil, pp. 30-4.

(٣٣) pp. 35-44 Ibid

وقد اتخذ الألمان والفرنسيون سواء بمسواء موقفا عدائيا إزاء بيزنطة ؛ وليس ذلك بشيرا
بنجاح الحملة الصليبية .

الفصل الثانى:

الشفاق المسيحى

الشقاق المسيحى

"خُصُومَاتٌ وَمُحَاسَدَاتٌ وَسَخَطَاتٌ وَتَحْزَنَاتٌ وَمَذَمَاتٌ
وَنِييَمَاتٌ وَتَكْبَرَاتٌ وَتَشْوِيشَاتٌ"

(رسالة بولس الرسول الثانية إلى أهل كورنثوس ١٢ : ٢٠)

عندما وصلت أنباء الحملة الصليبية إلى القسطنطينية أول الأمر كان الامبراطور مانويل مستغرقا فى شؤون الأناضول . وبرغم الحملات التى أطلقها أبوه وجده من قبل فى المقاطعات الآسيوية للامبراطورية ، بقى الوضع مثيرا للقلق ، إذ لم يسلم من الغزوات التركية سوى المقاطعات الساحلية ، أما فى داخل البلاد فكانت الغارات التركية تكاد أن تكون سنوية ، تكتسح البلاد محتبة الحصون الكبيرة وهى تراوغ الجيش الامبراطورى، وقد هجر سكان المواجهة قراهم وهربوا إما إلى المدن أو إلى الساحل . وأقام مانويل سياسته على أساس إنشاء خط حدودى محدد تحرسه سلسلة من القلاع المتصلة ببعضها البعض عن قرب . وكانت دبلوماسيته وحملاته تستهدف الحفاظ على هذا الخط .

وكان الأمير الدانشمندى محمد بن غازى قد مات فى ديسمبر عام ١١٤١ م ،

وكان يمثل القوة الاسلامية الرئيسية فى آسيا الصغرى ، فاندلعت بعد موته الحروب الأهلية بين ابنائه واخوته ، وقبل نهاية سنة ١١٤٢م انقسمت الإمارة إلى ثلاثة أجزاء احتفظ ابنه ذو النون بقيصرية مزاكا ، بينما احتفظ أخواه يعقوب أرسلان بن غازى وعين الدولة بن غازى بسيواس وملطية على التوالى . وقد رأى مسعود سلطان قونية السلجوقى فى هذا الانقسام فرصته فى السيطرة على أترك الأناضول . فغزا اراضى الدانشمند وبسط سلطانه على المقاطعات الممتدة حتى نهر الفرات ، فتسبب هذا العدوان فى إثارة مشاعر الخوف لدى الأخوين يعقوب أرسلان وعين الدولة فسعيا إلى التحالف مع بيزنطة . وبموجب معاهدة ربما عقدت عام ١١٤٣م أصبحتا تابعتين للإمبراطور بدرجة ما . وبعد ذلك حول مانويل انتباهه نحو مسعود الذى توغلت غاراته إلى ملاحينه الواقعة على الطريق بين نيقية ودوريليوم ، ورد تلك الغارات على أعقابها ، لكنه سرعان ما عاد إلى القسطنطينية لاعتلال صحته ، وللمرض المميت الذى أصيبت به اخته المحبوبة ماريا ، التى دلت على اخلاصها له عند تأمر زوجها ، القيصر جون روجر النورمانى المولد ، على العرش وقت استخلاف أخيها . وفى عام ١١٤٥م غزا مسعود الامبراطورية مرة اخرى واستولى على حصن براكانا الصغير فى إيسوريا ، وبذا هدد خطوط المواصلات البيزنطية مع سوريا ، وسرعان ما أغار بعد ذلك على وادى نهر المياندر وحتى البحر تقريبا.

١١٤٦م : حملة مانويل ضد قونية

قرر مانويل ان الوقت قد حان لضرب مسعود بشدة ويزحف على قونية . وكان قد تزوج حديثا ، وقيل إنه أراد أن يُطلع زوجته الألمانية على روائع الفروسية البيزنطية . وفى صيف عام ١١٤٦م أرسل إلى السلطان إعلانا رسميا بالحرب ، وانطلق فى موكب فخيم بطول الطريق مارا بدوريليوم جنوبا إلى فيلوميليوم حيث حاولت فصائل تركية التصدى له لكنها اندحرت . وتراجع مسعود باتجاه عاصمته التى عزز حاميتها، لكنه رغم ذلك بقى فى الأراضى المفتوحة وأرسل يطلب التعزيزات من الشرق على عجل . وعسكر الجيش البيزنطى لعدة شهور امام قونية التى كان السلطان يدافع عنها . وكان موقف مانويل إزاء أعدائه يتصف بالكياسة ؛ ذلك انه عند انتشرت الشائعات بمقتل السلطان ، أرسل إلى السلطانة يخبرها بان القصة غير حقيقية ؛ وحاول - دون طائل - أن يفرض على جنوده احترام مقابر المسلمين خارج المدينة . وفجأة أصدر أمره

بالانسحاب . وقيل فيما بعد انه قد سمع شائعات بتحريك الحملة الصليبية ؛ لكنه مع ذلك لم يكذب يعلم بالقرار المتخذ في فيزيلاى ذلك الربيع . وكان بالقطع مرتابا في النوايا الصقلية ، وربما تحقق فعلا من أن هناك شيئا يأخذ مجراه . كما انه علم أن مسعود تلقى تعزيزات كبيرة لجيشه ، فكان يخشى من الإمساك به ووراءه خطوط مواصلات طويلة محفوفة بالأخطار . فتقهقر ببطء في غاية النظام عائدا إلى أراضيه^(١).

وقبل إمكان الترتيب لحملة أخرى ضد قونية ، وجد مانويل نفسه يواجه الواقع الفعلى للحملة الصليبية ، فانتابه القلق وله العذر؛ إذ لم تكن تجارب البيزنطيين مع الصليبيين باعثة على الطمأنينة ، ولذا وافق مانويل على ما اقترحه عليه مسعود في ربيع ١١٤٧م من عقد هدنة وإعادة براكانا وما استولى عليه في غزواته الأخيرة . وبسبب هذه المعاهدة نعت العالم المسيحي بالخيانة . غير ان عداوة كونراد التى اتضحت قبل أن يتلقى الألمان نبأ المعاهدة تظهر أن توجهات الامبراطور نابعة من منبع الحكمة وليس هناك ما يجعله ملتزما إزاء رفيق مسيحي يفكر علنا في مهاجمة القسطنطينية . كما لا يستطيع مانويل أن يغتبط بحملة لا شك في انها سوف تشجع امير أنطاكية على تناسى احترامه وتبعيته . وإذا ما دخل في حرب حادة مع الأتراك فرما كانت عوننا للصليبيين في مرورهم عبر الأناضول ، غير انها كانت ستجعلهم يلحقون أضرارا لا حد لها بالامبراطورية التى تعتبر حصنا للعالم المسيحي . ففضل عدم التورط الذى ربما يضعفه في ذلك الوقت الحساس لا سيما وان هناك حربا وشيكة مع صقلية^(٢).

١١٤٧م : الألمان يعبرون إلى آسيا

كانت العلاقات طيبة بين مانويل وكونراد حتى ذلك الحين ؛ إذ جمع بينهما الخوف المشترك من روجر الصقلى ؛ فضلا عن ان مانويل تزوج حديثا من أخت زوجة كونراد^(٣). على ان سلوك الجيش الألماني في البلقان ، ورفض كونراد اتخاذ الطريق الذى يعبر مضيق الدردنيل جعله يشعر بالخطر . وعندما وصل كونراد أمام

(١) أنظر Chalandon, les Comnènes, pp. 248-58. ويقول ميخائيل السورى Michael the Syrian (III, p. 275) إن مانويل عقد سلاما مع الأتراك خشية الصليبيين ، وانه تمكن من صدهم لستين.

(٢) Chalandon, op. cit., pp. 266-7. اندلعت الحرب مع صقلية في الواقع في صيف ١١٤٧م (po. cit. p. 318 n. 1) ويشير اليها. (Odo of Deuil (p. 53)

(٣) وقد تم الزواج في يناير ١١٤٦م. (Chalandon, op. cit. p. 262 n. 3)

القسطنطينية خُصص لإقامته قصر فيلوباتيوم بالقرب من الأسوار ، وعسكر جيشه حوله . على أنه فى غضون أيام قليلة راح الألمان ينهبون القصر بحيث لم يعد صالحا للإقامة وانتقل كونراد عبر رأس القرن الذهبى إلى قصر بيكريديوم، فى مواجهة ناحية فانار . وفى تلك الآونة ارتكب جنوده أعمال العنف ضد السكان المحليين ، وأرسلت فصائل من الجنود البيزنطيين لقمعهم ، وتلى ذلك سلسلة من المناوشات . وعندما طلب مانويل الانتصاف قال كونراد بادئ الأمر إن الاعتداءات لم تكن هامة ؛ ثم هدد بالعودة فى العام التالى والاستيلاء على العاصمة . ويبدو أن الامبراطورة - أخت زوجة كونراد - تمكنت من تهدئة العاهلين . وكان مانويل يحث الألمان على سرعة عبور البوسفور لما كان يخشاه مما سوف يترتب على اتصال الألمان بالفرنسيين، وفجأة أذعن الألمان ، إذ انهم بدأوا بالفعل فى مشاجرات مع أول القادمين الفرنسيين . وأمكن تحقيق وفاق ظاهرى ، وعبر كونراد وجيشه إلى خلقدونية ومعهم الكثير من الهدايا النفيسة وقد تلقى كونراد نفسه بعض الخيول الجميلة . غير أنه رفض اقتراحا بترك بعض رجاله للخدمة مع الامبراطور لقاء حصوله على بعض الجنود البيزنطيين فى كيليكيا ، وكان ذلك الترتيب ملائما لمانويل فى حربه مع روجر الصقلى^(٤).

وعندما وصل كونراد إلى خلقدونية طلب من مانويل تزويده بمُرشدين يأخذونه عبر الأناضول ، وعهد مانويل بتلك المهمة إلى رئيس الحرس الفارنجي، ستيفن . وفى الوقت ذاته نصح الألمان بتجنب الطريق المستقيم العابر لشبه الجزيرة ، واتخاذ طريق الساحل الملتف إلى أضاليا، وبذا يسلكون طريقهم فى الأراضى الواقعة تحت السيطرة الامبراطورية . كما اقترح مراعاة الحكمة وإعادة جميع الحجاج غير المقاتلين إلى بلادهم إذ ليس فى وجودهم سوى احراج للجيش . ولم يعبأ كونراد بهذه النصيحة وإنما انطلق إلى نيقية . وبوصوله هناك أعاد التفكير وقرر تقسيم الحملة . فتقرر ان يصطحب أوتو (أوف فريسينجين) فرقة تضم اغلب الحجاج غير المقاتلين ، فى طريق يخترق لاوديفيا على نهر ليكوس إلى أضاليا ، بينما يسلك هو نفسه ومعه القوة المقاتلة الرئيسية طريق الحملة الصليبية الأولى مخترقا داخل البلاد^(٥).

(٤) Cinnamus, pp.74-80; Nicetas Choniates, p.87; letter of Conrad to Wibald, Wibaldi Annales Epistolae in Jaffé, Bibliotheca, I, p.166. يقول إن الامبراطور استقبله استقبالا حسنا. Odo of Deuil, pp.39-40 ويقول Herbipolenses, pp.4-5; Romuald of Salerno, p.424; إنه طبقا للحسابات الإغريقية عبر البوسفور ٩٠٠٥٦٦ من الجنود والحجاج الألمان . والأرجح ان الرقم الصحيح هو ٩٥٦٦ شخصا. كما يقول إن كونراد لم يقابل مانويل مقابلة شخصية.

(٥) Cinnamus, pp. 80-1 .

غادر جيش كونراد نيقية يوم ١٥ أكتوبر مع ستيفن الفارانجي كبير المرشدين . وطوال الأيام الثمانية الأولى ، أثناء تواجدهم في اراضي الامبراطور ، كانوا يحصلون على جيد الطعام ، رغم أنهم فيما بعد اشتكوا من ان عملاء الامبراطور خلطوا ما كانوا يزودونهم به من دقيق بالطباشير ، كما انهم كانوا يعطونهم عملات منخفضة القيمة . على انهم لم يزودوهم بالطعام أثناء سيرهم في الأراضي التركية التي افتقروا فيها إلى الماء بصورة خاصة . وبوصولهم في ٢٥ أكتوبر إلى نهر باثى الصغير بالقرب من دوريليوم ، في حوار الموقع الذي شهد الانتصار الصليبي العظيم قبل ذلك بنصف قرن ، انقض عليهم الجيش السلجوقي كله . وكان مشاة الألمان في حالة من التعب والعطش ، والكثير من الفرسان مترجلون لإتاحة الراحة لخيولهم المرهقة ؛ فبوغتوا بفرسان الأتراك الخفاف يهجمون عليهم في هجمات متكررة سريعة مفاجئة . وكانت في حقيقتها مذبحة لا معركة . وحاول كونراد أن يلم شعث رجاله ، ولكن دون جدوى . وبحلول المساء كان يسابق الريح هربا مع قليلين ممن بقوا على قيد الحياة عائدا إلى نيقية . لقد فقد تسعة أعشار جنوده وكل ما كان يشتمل عليه معسكره . وباع المتصرون الغنائم في الاسواق المنتشرة في سائر انحاء الشرق الاسلامي حتى فارس^(٦) .

١١٤٧م : الفرنسيون يعبرون إلى آسيا

وفي تلك الأثناء كان الملك لويس والجيش الفرنسي في الطريق إلى القسطنطينية التي وصلها يوم ٤ أكتوبر ، ليحدا حرس المقدمة وجيش اللورين في حالة اشمئزاز سببتها وحشية الألمان من ناحية ، وأنباء هدنة مانويل مع الأتراك من ناحية أخرى . وحالت السلطات البيزنطية دون اتصال فصائل اللورين مع الفرنسيين برغم توصلات مبعوث لويس ، إيفرارد (أوف بارر) السيد الأعظم لفرسان المعبد^(٧) . فاقترح أسقف لانجرز - راهب كليرفو بتعصبه غير المسيحي - على الملك وجوب تغيير سياسته وعقد تحالف مع روجر الصقلي ضد الغدر اليوناني (البيزنطي) . على ان الوساطة المتسلطة على لويس منعه من الأخذ بهذا الاقتراح مما أثار الشعور بخيبة الأمل لدى باروناته .

(٦) Cinnamus, pp. 81-2; Nicetas Choniates, p. 89; letter of Conrad to Wibald, Wibaldi Epistolae, p.152; Annales Palidenses p.82; Annales Herbipolenses, loc.cit.; Odo of Deuil, pp.53, 56-8; William of Tyre, xvi, 21-2, pp.740-4; Michael the Syrian, iii, p.276.

(٧) Odo of Deuil, pp. 40-1 .

لقد شعر بالرضا من استقباله فى البلاط الامبراطورى وفضل الأخذ بالنصيحة الرقيقة التى نصح بها أسقف ليزيو ذو النوازع الانسانية ، وأقام فى قصر فيلوباتيوم الذى جرى تنظيفه بعد الاحتلال الالماني ، ودعى إلى مآدب فى القصر الامبراطورى فى بلاشيرناي حيث لقي ضروب الحفاوة ، واصطحبه الامبراطور فى جوله شاهد فيها معالم المدينة العظيمة . وافتن كثير من نبلائه بنفس القدر لما لاقوه من الاهتمام بهم^(٨). على ان مانويل تدبر سرعة عبور الجيش مضيق البوسفور ، وبعدها استقر الجيش فى خلقدونية ، قطع الامدادات عن الفرنسيين متذرعا بأعمال شغب أثارها حاج فلمنكى ظن أنه خدع. ورغم ان لويس شق من ارتكب الجريمة فى الحال، امتنع مانويل عن إعادة تموين الجيش إلى ان أقسم لويس أخيرا بأن يعيد إلى الامبراطورية ما يمكنه أن يعين على استعادته من ممتلكاتها المفقودة ، ووافق على أن يعترف البارونات هولائهم مقدما للامبراطور فى كل أرض جديدة يحتلونها ، فاعترض النبلاء الفرنسيون ؛ غير أن لويس اعتبر الطلب مقعولا نظرا لحاجته الشديدة للمساعدة البيزنطية ، لاسيما بوصول شائعات حول الكارثة الالمانية^(٩).

وفى أول نوفمبر وصل الجيش الفرنسى نيقية حيث أيقن من هزيمة كونراد ، إذ وصل فريدريك (أوف سوايبا) على جواده إلى المعسكر الفرنسى وأخبرهم بالقصة وطلب من لويس ان يذهب من فورهِ لمقابلة كونراد . وسارع لويس إلى مقر الرئاسة الالماني ودارت المشاورات بين الملكين . وقررا كلاهما أن يتخذا طريق الساحل المتجه جنوبا ليكونا فى داخل الأراضى البيزنطية . وكان الجيشان على وفاق فى تلك اللحظة. ولم يجد الألمان طعاما فى المنطقة التى يعسكرون فيها بعد أن استولى الفرنسيون على كل ما كان متاحا ، فأغار الألمان على القرى المجاورة، فما كان من الشرطة البيزنطية إلا أن هاجمتهم فى الحال ، ولم ينقذهم سوى فصيلة فرنسية يرأسها كونت سواسون الذى سارع لإنقاذهم بناء على طلب كونراد . وفى تلك الأثناء كان كونراد قادرا على المحافظة على نوع من الانضباط بين جنوده . وقد تركه أغلب الحجاج الباقين على قيد الحياة عائدين يتلمسون طريقهم إلى القسطنطينية ، ولا نعلم عنهم شيئا بعد ذلك^(١٠).

(٨) Cinnamus, pp. 82-3; Louis VII, letter to Suger, R.H.F. vol. xv, p.488; Odo of Deuil, pp. 45-6, 47-8

(٩) Odo of Deuil, pp. 48-51.

(١٠) Odo of Deuil, pp. 58-60; William of Tyre, xvi, 23, pp. 744-5.

وانطلق الجيشان معا . وفى ١١ نوفمبر ضربا معسكريهما فى إيسرون بالقرب من باليق سراى الحديثة ، وهناك غيرا الخطة مرة أخرى . ويرجح أنهما تلقيا تقارير حول الرحلة التى قام بها أوتو (أوف فريسينجين) بطول الطريق المباشر الذهاب إلى فيلادلفيا ولاوديفيا . ولا نعلم عن تلك الرحلة سوى القليل ، عدا وصول تلك الحملة فى نهاية الأمر إلى أضايا وهى مرهقة وقد انخفض عدد أفرادها ، تاركة على جانبي الطريق الكثير من الموتى الذين سقطوا صرعى تضورهم جوعا أو ضحايا المغيرين الأتراك . وقرر الملكان السير على مسافة أقرب إلى الساحل خلال الأراضى الأكثر خصوبة ، ومداومة الاتصال بالأسطول البيزنطى . وواصلتا سيرهما خلال أدراميتيوم وبرجاموم وأزمير وهبطتا إلى إفسوس . وكان جيش لويس فى الطليعة بينما كان الألمان يشقون طريقهم فى الخلف بمسيرة يوم تقريبا وقد باتوا موضع سخيرة مهينة من حلفائهم الملتكئين . ويسجل المؤرخ البيزنطى سيناموس Cinnamus الصيحة الفرنسية "نحركوا يا ألمان" التى قذفهم بها الفرنسيون بازدراء^(١١).

١١٤٧ - ١١٤٨ م : الفرنسيون فى آسيا الصغرى

وعندما وصلوا إلى إفسوس كانت صحة كونراد قد تدهورت بحيث تخلف هناك . وما أن سمع مانويل بذلك حتى أرسل له الهدايا الثمينة وحثه على العودة إلى القسطنطينية حيث استقبله استقبالا طيبا وأنزله فى القصر . وكان مانويل شديد الاهتمام بالطب وأصر على أن يكون طبيبا لضيافته واستعاد كونراد صحته وقد مس أعماق مشاعره ما لمس من اهتمام الامبراطور والاميرة . وأثناء هذه الزيارة تمت ترتيبات زواج أخيه هنرى ، دوق النمسا ، من ثيودورا ، ابنة أخى الامبراطور ، أندرونيكوس . وبقي الملك الألمانى وأهل بيته فى القسطنطينية حتى أول مارس ١١٤٨ م عندما نقلهم اسطول بيزنطى صغير إلى فلسطين^(١٢).

وأثناء الأيام الأربعة التى أمضاها الملك لويس فى إفسس ، تلقى رسالة من مانويل

(١١) Odo of Deuil, pp.61-3. ويناقش سيناموس Cinnamus الفرق بين الجيشين . إذ كان الفرنسيون أفضل حالا على خيولهم ومعهم الرماح ، بينما كان الألمان راجلين ومعهم السيوف . وقد أورد عبارة "نحركوا يا ألمان" بالحروف الإغريقية.

(١٢) Cinnamus, pp.85-6; letters of Conrad to Wibald, Wibaldi Epistolae, p.153; Annales Hdrbipolenses, p.6; Odo of Deuil, pp.63-4; William of Tyre, xvi, 23, pp. 745-6.

يخبره فيها أن الأتراك يعدون العدة للحرب ونصحه بتجنبهم وأن يبقى فى نطاق المأوى الذى توفره الغابات البيزنطية . ومن الواضح ان مانويل كان يخشى أن يعانى الفرنسيون من الترك فتلقى عليه الملامة ؛ وفى ذات الوقت لم يكن راغبا فى أن يحدث ما يعكر السلام المعقود بينه وبين السلطان ، ولا سيما وأن الحرب الصقلية على الأبواب . ولم يرد لويس . كما لم يرد عندما كتب له مانويل محذرا من ان السلطات البيزنطية لن تمنع مواطنيها من الانتقام لأية اضرار يسببها الصليبيون . ذلك ان انضباط الجيش الفرنسى كان آخذا فى الانهيار ، وكانت العاصمة تتلقى شكاوى المواطنين من تمرد الصليبيين على القانون^(١٣).

وشق الجيش الفرنسى طريقه المتلوى أعلى وادى نهر مياندر . وفى ديسيرفيوم ، حيث أمضوا عيد الميلاد ، ظهر الأتراك وبدأوا فى مضايقة الصليبيين حتى وصلوا إلى الجسر الذى يعبر النهر فى أنطاكيا البيسيدية^(١٤) ، حيث دارت معركة مدروسة ، غير ان الفرنسيين شقوا طريقهم فوق الجسر وانسحب الأتراك داخل أسوار انطاكيا البيسيدية . ولا نعرف شيئا عن الظروف التى مكنت الأتراك من اللجوء إلى تلك القلعة البيزنطية ، وهى الحادثة التى اعتبرها الفرنسيون بمثابة خيانة للعالم المسيحى ، وليس ذلك شيئا غير طبيعى ؛ على أنه سواء كانت الحامية المحلية للقلعة قد مالت إلى القوة الأقوى ، أو كان هناك نوع من الترتيب الخاص مع الكفرة ، فمن غير المحتمل أن يكون الامبراطور نفسه قد أجاز الخطة^(١٥).

وكانت المعركة التى دارت أمام الجسر فى أنطاكيا البيسيدية قد حدثت فى أول يناير ١١٤٨م تقريبا . وبعد ذلك بثلاثة ايام وصل الصليبيون إلى لاوديفيا ليجدوها مهجورة ؛ إذ أن سمعتهم دفعت بالسكان إلى النزوح إلى التلال ومعهم كل المؤن . وتعذر على الجيش ان يجمع أية أطعمة للمرحلة الشاقة التى تنتظره ، إذ أن الطريق إلى أضاليا كان ملتفا حول مجموعة من الجبال العالية المقفرة ؛ فكانت الرحلة شاقة فى أحسن الظروف . أما بالنسبة لجيش جائع يكافح عواصف شهر يناير ، والأتراك متعلقون بأطرافه يتصيدون الشاردين والمرضى بلا هوادة ، فكانت الرحلة بمثابة كابوس.

(١٣) Cinnamus, loc.cit.; Odo of Deuil, pp.63-5 .

(١٤) (المترجم) بيسيديا : Pisidia كوتية قديمة كانت تقع فى أواسط جنوب آسيا الصغرى ، جنوب فريجيا.

(١٥) Odo of Deuil, pp. 65-6; William of Tyre, xvi, 24, pp. 746-7

فعلى طول الطريق كان الجنود يرون حثت الحجاج الألمان الذين هلكوا فى سيرهم قبل ذلك بأشهر قليلة . ولم تعد هناك محاولات لفرض الانضباط ، فيما عدا مجموعة فرسان المعبد . وكانت الملكة والسيدات المصاحبات لها يرتعدن فى مخفاتهن وقد أقسمن ألا يواجهن مرة أخرى قط مثل تلك المحنة . وفى عصر أحد الأيام ، وبينما بدأ الجيش يهبط باتجاه البحر ، عصى جودفرى (أوف رانكون) قائد حرس المقدمة ، وأمر الملك بأن يضرب المعسكر فوق قمة الممر ، وهبط إلى اسف التل ففقد الإتصال بالجيش الرئيسى ، فكانت فرصة سانحة لهجوم الأتراك . وثبت الصليبيون فى موقعهم ؛ غير ان هبوط الظلام هو وحده الذى أنقذ حياة الملك ، وكانت خسائر الفرنسيين فادحة^(١٦).

١١٤٨ م : الفرنسيون فى أضايا

ومن هنا قدما كان الطريق أيسر ، إذ لم يغامر الأتراك بالهبوط إلى السهل . وفى بداية فبراير وصل الصليبيون إلى أضايا حيث كان حاكمها البيزنطى إيطاليا يدعى لاندولف . وبناء على أوامر الامبراطور بذل ما أمكنه فى التخفيف عن الغربين . غير ان أضايا ليست بالمدينة الكبيرة التى تتوفر فيها موارد الطعام الضخمة ، وإنما كانت فى موقع سيئ فى الريف وقد انتهبها الأتراك مؤخرًا . وأنداك تقلصت مخزونات الشتاء ، بعد أن أخذ الحجاج الألمان الجزء المخصص للتخزين ، فلا عجب من قلة المتاح من المون وارتفاع أسعارها ارتفاعا كبيرا . على أنه فى نظر الفرنسيين الغاضبين المحبطين ، كان كل ذلك بمثابة دليل آخر على الخيانة البيزنطية . والآن قرر الملك لويس أن تتواصل الرحلة بحرا ، وتفاوض مع لاندولف للحصول على السفن . ولم يكن من اليسير فى ذلك الوقت من العام تجميع اسطول فى ميناء على الساحل الكارامانى الموحش . وأثناء الانشغال فى جمع السفن الناقلة ، هبط الأتراك وشنوا هجوما مفاجئا على معسكر الصليبيين . ومرة أخرى ألقى الفرنسيون باللائمة على البيزنطيين ، الذين ربما لم يبذلوا أى جهد للدفاع عن هؤلاء الضيوف الثقال الذين لولا وجودهم لما كانت هناك غارات تركية . وعندما وصلت السفن كانت من قلة العدد بحيث يتعذر نقل الجيش كله ، ولذا

(١٦) Ibid. pp. 67-7, 71-2; William of Tyre, xvi, 25, pp. 747-9. القاتلة بأن الملكة إليانورا مسؤولة عن الكارثة ، أنظر Walker, 'Eleanor of Aquitaine and the disaster at Cadmos Mountain' in American Historical Review, vol. LV, pp. 857-61. وكان Odo of Deuil مسؤولا عن الكثير من الأعمال الطبية فى تزويد الجيش بالطعام . وهو متواضع للغاية بحيث لم يذكر ذلك (William the Monk, Dialougus Apologeticus).

ملأها لويس بأهل بيته هو وبأكبر عدد يمكن أخذه من الفرسان ، وأبحر إلى ميناء السويدية الذى وصله يوم ١٩ مارس . ومدارة من الملك لضميره لتخليه عن جيشه ، ترك مع لاندولف خمسمائة مارك كسى يقوم على رعاية المرضى والجرحى ، ويرسل الباقي بحرا - إذا أمكن - وترك كونت فلاندرز وكونت بوربون ليتوليا مسؤولية الإشراف . وفى اليوم التالى لرحيل الملك اندفع الأتراك هابطين إلى السهل وهاجموا المعسكر . واستحال دحرهم دحرا فعلا نظرا لعدم كفاية الفرسان ؛ ولذا حصل الصليبيون على إذن باللجوء إلى داخل الأسوار ، حيث عولجوا علاجا جيدا وحصل المرضى منهم على الرعاية الطبية ؛ وضاعف لاندولف من نشاطه لجمع المزيد من السفن . ومرة أخرى لم يجد ما يكفى من السفن للحملة كلها، ولذا حذا ثيبرى كونت فلاندرز، وأرشيبالد كونت بوربون، حذو مليكهما وركبا السفن مع أصدقائهما وباقي الفرسان، تاركين المشاة والحجاج لمواصلة طريقهم برا بقدر استطاعتهم^(١٧) . وأعد لاندورف معسكرا خارج المدينة لمن تبقى من الجيش، لكن الجنود التعساء الذين هجرهم قادتهم رفضوا الإقامة على الساحل خوفا من تعرضهم لهجمات رماة الأتراك، وبدلا من ذلك انطلقوا مرة أخرى يشقون طريق العذاب إلى كيليكيا، ووراءهم من تبقى من مشاة كونراد الألمان يجرون أقدامهم، والجميع على حالهم من الجهل وعدم الانضباط والريية فى مرشديهم، والمضايقات تتواصل من جانب الأتراك المقتنعين كذلك بأن البيزنطيين متحالفين معهم . وفى أواخر الربيع وصل أقل من نصفهم إلى انطاكية^(١٨) .

١١٤٧ - ١١٤٨ م : السياسة البيزنطية أثناء الحملة الصليبية

فى إحدى الرسائل الكثيرة المرسلة من الملك لويس إلى الراهب سوجر - وموضوعها جميعا لا يتغير وهو طلب المزيد من المال - نسب الملك ما نزل بالصليبيين من كوارث فى الأناضول إلى "خيانة الامبراطور وأخطائنا أيضا" . ودأب المؤرخ الفرنسى الرسمى للحملة الصليبية - أودو اوف دويل Odo of Deuil - على مهاجمة الامبراطور مانويل بصورة دائمة وبحمية زائدة وردد صدها المؤرخون الغربيون حتى يومنا

(١٧) Odo of Deuil, pp. 73-6 يحاول محاولات مربكة التمويه على تخطى الملك عن الجيش William of Tyre, XVI, 26, pp. 749-51

(١٨) Odo of Deuil, pp. 76-80 .

هذا ، باستثناءات قليلة^(١٩) ، وتسببت النكبات التي منى بها الصليبيون في تنغيص العلاقات بصورة شديدة بين العالم المسيحي الغربى والشرقى بحيث ينبغي فحص الاتهامات فحصا دقيقا . فيشكو أودو من أن البيزنطيين لم يقدموا ما يكفى من امدادات الغذاء التي تقاضوا عنها أسعارا فادحة ، ولم يقدموا ما يكفى من وسائل النقل، ولا ما يكفى من المرشدين ، والأسوأ من هذا كله أنهم تحالفوا مع الأتراك ضد رفاقهم المسيحيين . والاتهامات الأولى سخيفة . فلا توجد دولة فى القرون الوسطى - حتى وان كانت منظمة تنظيما جيدا كبيزنطة - تمتلك ما يكفى من مخزونات الطعام بالقدر الذى يمكنها من امداد جيوشين كبيرين بصورة غير عادية هبطا عليها دون دعوة وباخطار مسبق بفترة وجيزة ؛ وعندما يندر الطعام ترتفع الأسعار حتما . وأما محاولات الكثير من التجار وبعض المسؤولين الحكوميين خداع الغزاة ، فهذا أمر يقينى . فمثل هذا السلوك لم يكن قط ظاهرة نادرة فى التجارة ، ولا سيما فى العصور الوسطى وفى الشرق . وليس من المعقول أن يُتوقع من لاندولف إمداد العدد الكافى من السفن لجيش بكامله فى ميناء أضايا الصغير فى منتصف الشتاء ؛ كما لا يمكن إلقاء اللوم على المرشدين - ونادرا ما يؤخذ بنصائحهم - إذا كان غائبا عنهم آخر ما قام به الأتراك من تدمير الجسور والآبار ، أو فى حالة هربهم إزاء التهديدات والأعمال العدوانية من جانب الرجال الذين يرشدونهم . ومسألة التحالف التركى أكثر حسامة ، على أنه ينبغي النظر إليها من وجهة نظر الامبراطور مانويل ، الذى لم يوجه الدعوة إلى الحملة الصليبية ولا كان راغبا فيها . وكان له أسبابه المعقولة لاستنكارها . ذلك أن الدبلوماسية البيزنطية آنذاك قد تعلمت جيدا كيف توقع الفتنة بين شتى الأمراء المسلمين ضد بعضهم البعض ومن ثم تعزل كلا منهم بدوره ؛ إذ من شأن حملة أعد لها إعلام جيد كالحملة الصليبية أن توحد حتما جبهة الأعداء ضد العالم المسيحي . فضلا عن ذلك ، ومن أجل الاستراتيجية البيزنطية ضد الاسلام ، كان من الضروري السيطرة على أنطاكية ؛ وقد فازت بيزنطة أخيرا بهذه السيطرة عندما أعلن الأمير ريموند عن خضوعه المذل فى القسطنطينية . ولا بد حتما أن يغربه وصول حملة صليبية على رأسها ابنة اخته (اليانور) وزوجها (لويس السابع) بالتخلي عن تبعيته ؛ ولم يكن تصرف الصليبيين ، عندما كانوا ضيوفا فى أراضى الامبراطور ، هو السلوك الذى من شأنه أن يزيد من حب الامبراطور لهم ؛ فقد دأبوا على النهب ، وهاجموا شرطته ، وتجاهلوا

(١٩) Louis VII, letter to Suger, R.H.F. vol. xv, pp.495-6 وموقف Odo of Deuil الشامل مناهض لليونانيين بصورة هستيرية.

طلباته بأن يسلكوا طرقا معينة ، وجاهر الكثير من وجهائهم بضرورة الهجوم على القسطنطينية . وفى ضوء هذه الحقائق، تبدو معاملته لهم كريمة متجملة بالصبر ، وهذا ما تحقق منه بعض الصليبيين . غير أن الغربيين لم يفهموا ولم يغفروا معاهدته مع الأتراك، إذ كانت الاحتياجات العريضة للسياسة البيزنطية بعيدة عن إدراكهم ، ولقد اختاروا أن يتجاهلوا - رغم إدراكهم يقينا - الحقيقة التى مفادها أنه بينما كانوا يطلبون العون من الامبراطور ضد الكفرة كانت أراضيه هو نفسه خاضعة لهجوم حقود من قوة مسيحية اخرى ؛ ذلك أنه فى خريف عام ١١٤٧م احتل الملك روجر الصقلى جزيرة كورفو ومنها أرسل جيشا للإغارة على شبه الجزيرة اليونانية . وخربت طيبه (ثيبس) ، واختطف الألوفا من عمالها للمساعدة فى صناعة الحرير الوليدة فى باليرمو، وحتى كورينث نفسها - وهى القلعة الرئيسية فى شبه الجزيرة - استولوا عليها وحردوها من كنوزها . وعاد النورمانديون الصقليون محملين بالأسلاب إلى كورفو التى خططوا الاحتفاظ بها لتكون بمثابة تهديد دائم للامبراطورية وقبضة خانقة على البحر الأدرياتيكي . وانما كانت شدة الهجوم النورماندى هى التى دفعت مانويل إلى اتخاذ قراره بالانسحاب من قونية عام ١١٤٦م وقبول ما قدمه السلطان من عروض للسلام فى العام التالى . وإذا كان مانويل يوصم بأنه خائن للعالم المسيحى ، فيقينا تكون للملك روجر الصقلى الأسبقية عليه.

١١٤٧ - ١١٤٨م : دور الامبراطور

كان الجيش البيزنطى كبيرا ، لكن وجوده لم يكن مطلقا فى كل مكان وفى كل وقت . وكانت الحاجة تستلزم استخدام أفضل الجنود ضد روجر . ثم كانت هناك شائعات بوجود قلاقل فى السهول الروسية ، حدث أن أسفرت فى صيف عام ١١٤٨م عن غزو بولوفتسيانى للبلقان . ومع وجود الصليبيين على مقربة ، لم يستطع مانويل تعرية حدوده فى كيليكيا من الرجال ؛ إلى جانب أن مرور الصليبيين خلال الامبراطورية كان يعنى ضرورة زيادة الشرطة العسكرية زيادة كبيرة . وبكل تلك المشاغل ، لم يتمكن الامبراطور من توفير قوات حدودية كاملة لتغطية حدوده الطويلة فى الاناضول ، ففضّل هدنة تساعد رعاياه فى الاناضول على أن يعيشوا حياتهم متحررين من تهديد الغارات التركية . وقد تسبب الصليبيون فى تعريض هذه الهدنة للخطر ؛ إذ كان تقدم كونراد إلى دوريليوم بمثابة استفزاز مباشر للأتراك . أما لويس ،

فبرغم بقاءه داخل الأراضي البيزنطية ، إلا أنه جاهر بإعلانه أنه عدو لجميع المسلمين ورفض طلب الامبراطور بالبقاء داخل المدى الذى تحرسه الحاميات البيزنطية . ومن المحتمل تماما أن يكون مانويل - وهو يواجه هذه المشكلة - قد أعد ترتيبا مع الأتراك تغاضى بمقتضاه عن الاغارة على اراضيه طالما انهم يهاجمون الصليبيين فقط ، وان الأتراك التزموا بالصفقة ، مما يولد انطبعا واضحا بأنهم كانوا فى حلف مع السكان المحليين الذين كان يستوى عندهم الصليبيون والأتراك فى سرقة قطعانهم ومخزونات طعامهم ، والذين كانوا فى تلك الظروف يفضلون الأتراك بطبيعة الحال^(٢٠) على انه من المستحيل أن نصدق ما أكده أودو (أوف دويل) من أن السكان المحليين انضموا إلى جانب الأتراك في الهجوم على الصليبيين. فهو يوجه هذا الاتهام إلى سكان أضايا بعد أن قال مباشرة إن الامبراطور عاقبهم فيما بعد لتعاطفهم مع الصليبيين^(٢١).

إن المسؤولية الرئيسية عن الكوارث التى حلت بالصليبيين فى الأناضول ينبغى ان تقع على حماقاتهم هم أنفسهم . وكان الامبراطور حريا فى الواقع أن يفعل من أجلهم أكثر مما فعل ، وانما لا يكون ذلك إلا على حساب المخاطرة الجسيمة بامبراطوريته . بيد أن المسألة الحقيقية أعمق من ذلك . فهل كان الأفضل للعالم المسيحى أن تكون هناك حملات عرضية فخمة تأتى إلى الشرق ، يقودها خليط من المثاليين الحمقى والمغامرين الغلاظ ، لإنقاذ دولة متفحمة يتوقف وجودها على تشتت المسلمين ؟ أم أن تستمر بيزنطة التى ظلت طويلا حارسة للحدود الشرقية فى القيام بدورها دون أن يسبب لها الغرب الحرج ؟ لقد أظهرت قصة الحملة الصليبية الثانية بصورة حتى أوضح مما أظهرت الحملة الصليبية الأولى أن السياستين ليستا متفقتين . وعندما سقطت القسطنطينية نفسها وراح الأتراك يهدرون هدير الرعد على أبواب فيينا ، كان يمكن أن نفهم أي السياستين هى السياسة الصحيحة.

(٢٠) للاطلاع على مشاغل مانويل فى ذلك الوقت أنظر Chalandon ويكرر ميخائيل السورى الكثير من اتهامات الفرنج لليونانيين (III, p. 276) على أن المصادر الاسلامية ، مثل أبو شامة فى صفحة ٥٤ ، تقول إن مانويل كانت له قضية مشتركة مع الفرنج.

(٢١) Odo of Deuil, p. 79.

الفصل الثالث:

الإخفاق التام

الإخفاق التام

"تَشَاوَرُوا مَشُورَةً قَتَبُلُ"

(إِسْعَى ٨ : ١٠)

فى ١٩ مارس ١١٤٨ م وصلت أنطاكية أنباء نزول الملك لويس إلى البر فى ميناء السويدية ، فهبط إليها الأمير ريموند وأهل بيته كلهم للترحيب به ومرافقته إلى المدينة. ومضت الأيام الأولى فى حفول وسرور . وبذل الوجهاء من نبلاء انطاكية ما فى وسعهم لإدخال البهجة على ملكة فرنسا وعقيلات السيدات فى حاشيتها ؛ ونسى الزائرون المشاق التى مروا بها فى هذا الربيع السورى البهيج وسط مفاخر البلاط الأنطاكى . وما أن انتعشوا حتى بدأ ريموند يناقش القادة الفرنسين خطط حملة ضد الكفرة ؛ إذ كانت الآمال العراض تداعب خيال ريموند بمجى الحملة الصليبية . ولقد كان فى وضع محفوف بالمخاطر ؛ إذ كان نور الدين يوطد سلطانه الآن على طول الحدود المسيحية من الرها إلى حماة ، وقد أمضى خريف عام ١١٤٧ م ينتزع القلاع الفرنجية الواحدة تلو الأخرى شرق نهر العاصى ، وكان الكونت جوسلين منشغلا

لـلـغـايـة فـى الحـفـاظ عـلى كـونـتـيـتـه فـى تـل بـشـير . و فـى حـالـة هـجـوم إـسـلامـي عـلى أنـطاكـيـة بـأعـداد كـبـيـرة فـإن القـوة الـوـحـيـدة القـادـرة عـلى مـسـاعـدة رـيـمـونـد هـى بـيـزنـطـة ، و الأـرـجـح أن لا يـصـل جـنـود بـيـزنـطـة إلـا بـعـد فـوات الأـوان ، و عـلى أـيـة حـال سـوف تـصـر بـيـزنـطـة عـلى تـشـدـيـد تـبـعـيـة أنـطاكـيـة . و قـدم الجـيـش الفـرنـسـي - و غـم أن حـواثـر الـرحـلـة قـلـلت مـن قـوة المـشـاة - هـذا التـعـزـيـز الـهـائـل مـن الفـرنـسـان بـمـيـث يـتـمـكـن فـرنـج أنـطاكـيـة مـن أـخـذ زـمـام الـهـجـوم . و دأب رـيـمـونـد عـلى تـحـريـض المـلـك عـلى ضـرـورة أن يـضـربـا مـعـا قـلب قـوة نور الدين - مـديـنة حـلب - و حـث الكـثـيـر مـن الفـرنـسـان الفـرنـسـيـن عـلى الإـنـضـمـام إلـيـه فـى اسـتـطـلاع مـبـدئـى حـتى أسـوارها ، مـما تـسـبـب فـى انـتـشـار الذـعر بـيـن سـكـانها^(١).

١١٤٨ م : لويس و إيلينور فى أنطاكية

غـير انه عـندما حـانت لـحـظـة العـمـل تـردـد المـلـك لوـيـس ، قـائـلا إن قـسـمـه الصـليـبـي يـجـبـره عـلى أن يـذهـب إلـى القـدس أوـلا قـبـل أن يـبـدأ فـى أـيـة حـمـلـة . غـير أن العـذر كان مـجـرد قـنـاع يـخـفى ورائـه عـجزه عـن اتـخـاذ قـرار . لـقـد كان أمـراء الشـرق الفـرنـجـيـ كـلـهـم يـطـلـبـون مـسـاعـدته ؛ فـالـكـونـت جـوسـلـين يـعـلق عـلـيـه الأـمـال فـى اسـتـعـادـة الرها ، أليس سـقـوطـها هـو الـذـى حـرك الـحـمـلـة الصـليـبـيـة كـلـها ؟ و كان رـيـمـونـد أمـير طـرابـلس يـطـالـب بـحـق رابـطـة أبـناء الخـزـولـة ، إذ كانت أمـه أمـيرة فـرنـسـيـة ، فـسـعى إلـى مـسـاعـدته لـاسـتـعـادـة قـلـعة بـعـريـن . ثم حـدث أن جـاء إلـى أنـطاكـيـة فـى شـهـر ابريـل بـطـريق القـدس نـفـسـه ، مـرسـلا مـن البـلاط الأـعـلى لـلمـلـكة ، يـلـتمـس مـنـه الإسـراع جـنـوبا ، و ليـخـبـره بأن المـلـك كـونـراد مـوجـود بـالفـعل فـى الأـراضـى المـقـدسـة^(٢) . و فـى نـهاـيـة الأـمر كان هـناك دافـع شـخـصـى مـحـض هـو الـذـى جـعل المـلـك يـسـتـقر عـلى رآى . ذـلك أن المـلـكة إـيلـينـور كانت أذكى مـن زـوجـها لـلـغـايـة ؛ و كانت قـد أدركت فـى الحـال الحـكـمة التـى يـنـطـوى عـلـيـها مـخـطـط رـيـمـونـد ، عـلى أن تـردـيـدها لـعـواظـفـها البـادـيـة و مـسـانـدتها لـخـالـها (رـيـمـونـد) لم يـكـن لـها مـن أثـر سـوى إثـارة غـيـرة زـوجـها لويس . و بـدأت الألسـن فـى القـيل و القـال ، و كانت المـلـكة و الأمـير يشـاهـدان مـعـا أغـلب الأوقـات . و دارت الـهـمـسـات بأن افـتـتـان رـيـمـونـد يـتـجـاوز اهتمـام خـال بابـنة اختـه . و شـعر لويس بـالـخـطـر عـلى شـرفـه ، فـأعـلـن عـن رـحـيلـة فـى الحـال ، فـما كان مـن المـلـكة إلـا أن

(١) William of Tyre, xvi, 27, pp.751-3; William of Nangis, I, p. 44.

(٢) البـطـريق هـو Fulcher of Angoulême ، رـيـس أسـاقـفة صـور الأـسـبق ، عـيـنتـه مـلـسـيـند عـقـب و فـاة William of Messines عام ١١٤٧ م.

اعلنت عن بقائها فى انطاكية وعزمها على السعى للحصول على الطلاق من زوجها ؛ وردا على ذلك جر لويس زوجته بالقوة من قصر خالها وانطلق إلى القدس مع جنوده جميعا^(٣).

وكان الملك كونراد قد هبط إلى البر فى عكا مع أهم أمرائه فى منتصف ابريل ولقى فى القدس استقبالا وديا ومشرفا من الملكة ملسيند وابنها^(٤). وبعد ذلك بشهر استقبل الملك لويس بمظاهر تشريف مماثلة عند دخوله الأراضى المقدسة . ولم تشهد القدس قط مثل هذا الحشد الرائع من الفرسان والعقيلات^(٥). غير انه قد غاب كثيرون بصورة ملحوظة . ذلك أن ريموند أمير أنطاكية تملكه الحنق مما أتاه لويس ، فنفض يديه من الحملة الصليبية برمتها . وعلى أية حال لم يكن بوسعه أن يترك إمارته وهى تعاني من الضغط الشديد من اجل بعض المغامرات فى الجنوب . كما لم يستطع الكونت جوسلين أن يترك تل بشير . وأما غيبة كونت طرابلس فتعزى إلى حادثة عائلية فاجعة. إذ كان من بين الصليبيين الذين أقسموا القسم فى فيزيلاى ، ألفونسو - جوردان ، كونت تولوز . وكان قد ركب البحر مع زوجته وأولاده من القسطنطينية وهبط فى عكا بعد كونراد بأيام قليلة . وكان لوصوله مع كتيبة كبيرة أن أشعل حماس فرنج الشرق إذ كان بالنسبة لهم شخصية خيالية ، فهو ابن الصليبي القديم ريموند (أوف تولوز) وقد ولد فى الشرق على جبل الحجاج أثناء أن كان والده يحاصر طرابلس . بيد أن مجيئه كان إحراجا للكونت الذى يحكم طرابلس ، وهو حفيد برتراند، الابن غير الشرعي للكونت ريموند. فإذا ما طالب ألفونسو - جوردان بطرابلس ، يصعب إنكار ذلك عليه ؛ ويبدو أنه أحب أن يذكر حقوقه . وفى طريقه شمالا من عكا إلى القدس ، توقف قليلا فى قيصرية . وهناك ، مات فجأة من الألم . وربما كان سبب موته مرض حاد مثل التهاب الزائدة الدودية ، إلا أن الجميع فكروا فى السم فوراً ، وجاهر ابن الميت - برتراند - باتهام ابن عمه ريموند أمير طرابلس بتدبير قتله . واعتقد آخرون أن الملكة ملسيند هى التى ارتكبت الجرم عملا بوصية اختها المحبوبة - الكونتيسة هوديرنا - زوجة ريموند . ولم يثبت شئ من ذلك ؛ غير أن ريموند شعر بالسخط من الاتهام

(٣) William of Tyre, loc.cit. الذى يطلق على إليانور : المرأة "البهاء" لكنه لا يفترض انها غير مغلظة. وقد أورد شكوك الملك John of Salisbury (*Historia Pontificalis*, p.53).

(٤) William of Tyre, xvi, 28, pp. 753-4; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, pp.88-9.

(٥) William of Tyre, xvi, 29, pp. 754.

فامتنع عن أى تعامل مع الحملة الصليبية^(٦).

١١٤٨م : قرار الهجوم على دمشق

عندما وصل كل الصليبيين إلى فلسطين ، وجهت الملكة ملسيند والملك بلدوين الدعوة اليهم لحضور تجمع كبير تقرر عقده فى عكا يوم ٢٤ يونية ١١٤٨م . وكان حشدا مؤثرا . فكان المضيفون الملك بلدوين ، والبطريق فولشر مع رئيسى أساقفة قيسارية والناصر ، والسيدى الأعظمين لفرسان المعبد والمستشفى ، وأبرز أساقفة وبارونات المملكة . وجاء مع كونراد أخواه غير الشقيقين ، هنرى جاسوميرجوت أمير النمسا ، وأوتو (أوف فريسينجن) ؛ وابن أخيه فريدريك (أوف سوايبا) ، وويلف (أوف بافاريا) والكثير من الأمراء الأقل . وكان مع الملك لويس أخوه روبرت (أوف درو) وخطيب ابنته هنرى (أوف شامبانى) ، وثيبرى كونت فلاندرز ، وكذلك برتراند الصغير ، الإبن غير الشرعى لألفونسو - جوردان . ولا نعرف المسار الذى سارت فيه المناقشة ولا الذى تقدم بالاقتراح الأخير . وقرر الجمع ، بعد قليل من المعارضة ، ترسيخ كل قوته فى الهجوم على دمشق^(٧).

ولقد كان القرار هو الحماقة عينها . فدمشق ستكون فى الواقع جائزة ثمينة ، واستيلاء الفرنج عليها سوف يقطع الصلة تماما بين مسلمى مصر وأفريقيا وبين اخوانهم فى الدين فى شمال سوريا والشرق . غير أنه من بين الدول الإسلامية جميعا كانت المملكة البورية الدمشقية هى وحدها التى كانت تتطلع إلى أن تبقى على علاقة صداقة مع الفرنج ؛ إذ أنها - كشأن ذوى البصيرة من الفرنج - كانت تعتبر عدوها الرئيسى هو نور الدين . والمصلحة الفرنجية تقضى بالحفاظ على صداقة دمشق إلى أن يتم سحق نور الدين ، وأن يظل الخلاف مفتوحا بين دمشق وحلب . ويعتبر الهجوم على الأولى أنجح وسيلة لأن يرمى حكامها فى أحضان نورالدين ، كما أظهرت أحداث العام الفائت . لكن بارونات القدس كانوا يشتهون الأراضى الخصيبة التى تدين بالولاء لدمشق ، وكانوا يعانون مرارة الألم فى تذكركم للخزى الذى أصابهم مؤخرا ، ولا بد

(٦) William of Tyre, xvi, 28, p. 754d؛ ويفترض William of Nangis, i, p. 43 أن ملسيند - متورطة فى القتل.

(٧) William of Tyre, xvii, i, pp. 758-9 الذى يورد قائمة بأبرز الحاضرين من رجال الدين والعلمانيين؛ Otto of Freisingen, Gesta Friderici, p.89; Suger, Gesta Ludovici, pp.403-4.

أن ملكهم الشاب ذا المعنويات المرتفعة كان متلهفا على الثأر. ولم تكن حلب تعني شيئا للصليبيين الزائرين ، وإنما كانت دمشق هي المدينة المبجلة في الأسفار المقدسة والتي ستكون استعادتها من الكفرة بمثابة تمجيد للرب وليس هناك من جدوى في توزيع الملامة في اتخاذ هذا القرار ، غير أن المسؤولية الأكبر ينبغي أن تقع على عاتق البارونات المحليين الذين كانوا يعرفون الوضع ، أكثر من وقوعها على عاتق الوافدين الجدد الذين كانوا ينظرون إلى المسلمين كلهم نفس النظرة^(٨).

وفي منتصف يولية ، انطلق الجيش المسيحي ، من الجليل خلال بانياس ، وهو أكبر جيش على الإطلاق يدفع به الفرنج إلى ميدان القتال . وفي يوم السبت ٢٤ يولية ضرب معسكره على حافة الحدائق والبساتين المحيطة بدمشق . وفي بداية الأمر لم يأخذ الأمير أنباء الحملة الصليبية مأخذا جادا ، بعد أن سمع بخسائرها الجسيمة في الأناضول ، وعلى أية حال فإنه لم يتوقع أن تجعل الحملة من دمشق هدفا لها . لكنه عندما اكتشف الحقيقة سارع باصدار الأوامر لحكام المقاطعات بارسال كل من يمكن الاستغناء عنه من الرجال ؛ بينما هرع رسول إلى حلب طالبا المساعدة من نور الدين . وتوقف الفرنج أولا في الموضع المسمى مناكل العساكر على بعد حوالي ثمانية أميال جنوب دمشق التي كانت أسوارها وأبراجها البيضاء ترمض من خلال ما تعج به البساتين من أوراق كثيفة ؛ غير أنهم سرعان ما تقدموا شمالا إلى قرية الميزة حيث المياه الوفيرة . وهناك حاول الجيش الدمشقي وقف تقدمهم لكنه أجبر على الانسحاب وراء الأسوار . وابتهج زعماء الصليبيين بانتصارهم ، فأرسلوا جيش القدس إلى داخل البساتين لتطهيرها من مقاتلي حرب العصابات ؛ وما أن حل عصر اليوم حتى كانت البساتين الواقعة جنوب المدينة في قبضة الفرنج الذين راحوا يغرزون متاريس الحسائك الخشبية من الأشجار التي كانوا يقطعونها . وبعد ذلك ، وبفضل شجاعة كونراد شخصيا ، شقوا طريقهم إلى قرية الربوة الواقعة على نهر بردى أسفل أسوار المدينة تماما. وظن مواطنو دمشق الآن أن كل شيء قد ضاع وبدأوا في وضع المتاريس والحواجز في الشوارع إيدانا بالصراع الأخير اليأس . لكن المد تحول في اليوم التالي ؛ إذ أن التعزيزات التي طلبها أنر بدأت تتدفق إلى داخل المدينة من خلال البوابات الشمالية للمدينة ، وبمساعدها شن هجوما مضادا دحر المسيحيين بعيدا عن الأسوار . وأثناء اليومين التاليين كرر الهجمات ، بينما زاد توغل رجال حرب العصابات داخل الحدائق

والبساتين . وكانت عملياتهم من الخطورة البالغة للمعسكر بحيث اجتمع كونراد وبلدوين وقررا إخلاء البساتين جنوب المدينة والانتقال إلى الشرق وضرب المعسكر في بقعة لا يجد فيها العدو مثل هذه التغطية . وفى يوم ٢٧ يولية تحرك الجيش كله إلى السهل خارج الأسوار الشرقية . ولقد كان القرار بمثابة كارثة ؛ إذ كان الموقع الجديد يفتقر إلى المياه ويواجه أقوى قسم فى الأسوار ؛ وتستطيع الآن فرق الهجوم الدمشقية أن تتحرك بحرية أكبر فى أنحاء البساتين . وفى واقع الأمر ، اعتقد الكثير من جنود الفرنج أن البارونات الفلسطينيين الذين نصحوا الملكين ، لابد وأنهم تلقوا الرشاوى من أونر لقاء نصيحتهم . ذلك أن انتقاهم أضاع آخر فرصة للإستيلاء على دمشق . وكان جنود أونر يتزايدون فى أعدادهم ، وكان يعلم أن نور الدين فى طريقه جنوبا ، فراح يجدد هجماته على المخيم الفرنجى . وبات الجيش الصليبي - وليس المدينة المحاصرة - هو الذى يحارب حربا دفاعية^(٩).

١١٤٨ م : مشاجرات فى المعسكر المسيحى

فى الوقت الذى ترددت فيه الهمهمات عن الخيانة فى أنحاء الجيش المسيحى ، اختلف قواده جهارا حول مستقبل دمشق بعدما يحتلونها . فتوقع بارونات مملكة القدس إدمانها اقطاعية فى المملكة ، واتفقوا على تعيين جوى بريسبار - لورد بيروت - لوردا لها ، ويبدو أن الملكة ملسيند وكونستابل مناس قد وافقا على هذا الترشيح . غير أن ثيرى (أوف فلاندرز) كان يشتهى دمشق التى كان يرغب فى الاحتفاظ بها اقطاعية شبه مستقلة على غرار طرابلس . وفاز بتأييد كونراد ولويس والملك بلدوين الذى كانت اخته غير الشقيقة زوجة ثيرى . ولما علم البارونات المحليون بتأييد الملك لثيرى توانى نشاطهم ؛ وزاد مؤيدوا من كانوا دائما يعارضون الهجوم على دمشق ، وربما كانوا على صلة خفية بأونر ، إذ كانت هناك همسات حول مبالغ طائلة من الأموال المدفوعة المزيفة - وهذا صحيح - التى عثر عليها أثناء مرورها بين دمشق وبين بلاط القدس وأمير الجليل (إليناند). وربما قال لهم أونر إنهم إذا انسحبوا فى الحال فسوف يتخلى عن تحالفه مع نور الدين . وسواء استغل أونر هذا الجدل استغلالا محمدا أم لا ، فلاشك فى أنه كان له أثره على نبلاء المملكة . وكان نور الدين قد وصل

(٩) -William of Tyre, xvii, 2-5, pp. 760-7; Ibn al-Qalanisi, pp.282-6; Abu Shama, pp. 55
9; Usama,ed. Hitti, p.124.

بالفعل إلى حمص وراح يتفاوض على شروط مساعدته لأوثر ؛ فطلب ضرورة السماح لجنوده بالدخول إلى دمشق ؛ وكان أوثر يناور كسبا للوقت ؛ إذ كان الجيش الفرنجى فى وضع صعب أمام دمشق ، ولا يتوقع وصول تعزيزات ، بينما يستطيع رجال نور الدين أن يكونوا فى ساحة القتال فى غضون أيام قليلة. وفى حالة مجيئهم ، فلن تبحث شأفة القوة الصليبية عن آخرها وحسب ، وإنما سوف تكون دمشق فى قبضة نور الدين يقينا^(١٠).

والآن اقتنع بارونات فلسطين كلهم - بعد فوات الأوان - بحماقة مواصلة الحرب ضد دمشق ؛ وراحوا يضغطون برأيهم على الملك كونراد والملك لويس . وأصيب العاهلان الغربيان بالصدمة ؛ وليس باستطاعتهمما المضى فى الجدل السياسى الخبيث ، لكنهما كانا يعلمان أنهما لا حيلة لهما بدون مساعدة الفرنج المحليين . واشتكى الملكان علانية من عدم الطاعة التى وجدها بين الفرنج المحليين وافتقارهم إلى الحماس للقضية . لكنهما أصدرتا الأمر بالانسحاب^(١١).

وفى فجر يوم الأربعاء ٢٨ يولية ، أى فى اليوم الخامس لوصول الصليبيين أمام دمشق ، هدم الجيش المعسكر وبدأ طريق العودة باتجاه الجليل . ورغم أن أموال أوثر ربما كانت ممن انسحابهم فإنه لم يدعهم يرحلون فى سلام . إذ أن فرسان التركمان الخفاف تعلقوا بجناحيهم ومؤخرتهم طوال اليوم كله والأيام القليلة التالية ، وهم يحطرون حشودهم بسهامهم ، وتحول الطريق إلى فراش لجثث الرجال والخيول ، تسببت عفونتها فى تلوث السهل طوال أشهر كثيرة تالية . وفى أوائل أغسطس عادت تلك الحملة العظيمة إلى فلسطين وعاد الجنود المحليون إلى منازلهم . وكانت كل إنجازاتها أنها فقدت العديد من رجالها والكثير من مواردها وعانت من خزي مرعب . إن ما أتاه هذا الجيش الجرار بتخليه عن هدفه بعد مجرد أربعة أيام يعد بمثابة لطمة مريرة للكبرياء المسيحى.

(١٠) William of Tyre, xvii, 6, pp. 767-8. Rey, 'Les Seigneurs de Barut', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. iv, pp. 14-15 ، ويحدد Rey البارون المرشح على أنه Guy of Beirut ، وذلك من Assise, II, p. 458. ويورد ميخائيل السورى (III, p. 276) شائعة الأموال التى دفعت للملك بلدوين وإيليناند ، والتى قبلها خشية من طموحات كونراد. ويقول Bar Hebraeus (trans. Budge, p. 274) إنه لم يجد القصة لدى أى كاتب عربى . ويقول ابن القلانيسى فى صفحة (٢٦٤) إن الفرنج شعروا بالخطر من اقتراب الجيوش الإسلامية . ويقول ابن الأثير (pp. 469-70) إن أونور بالقطع حذر الفرنج المحليين من تلك الجيوش وبذر الخلاف بينهم وبين ملك ألمانيا.

(١١) William of Tyre, xvii, 7, pp. 768-70. وتدرج الترجمة الفرنسية هجوما على (البولانى) أى الفرنج الذين نشأوا فى الشرق . ويلقى كونراد باللوم على البارونات المحليين . انظر letter in *Wibaldi Epistolae*, pp. 225-6.

وتحطمت تماماً أسطورة فرسان الغرب الذين لا يُقهرُونَ ، التي أكسبت هبتها إبان المغامرة العظيمة للحملة الصليبية الأولى . وعادت الحياة إلى معنويات العالم الإسلامي^(١٢).

١١٤٨م : الملك كونراد يغادر فلسطين

لم يمكث الملك كونراد في فلسطين بعد عودته من دمشق ؛ وإنما اصطحب حاشيته يوم ٨ سبتمبر وركب سفينة متجهة إلى نيسالونيكيا . وبوصوله إليها تلقى دعوة ملحة من الامبراطور مانويل لتمضية أعياد الميلاد في بلاطه الامبراطوري . والآن ساد الرفاق التام بين العاهلين . واستمر ابن اخيه الصغير فريدريك في ضفيته للبيزنطيين وتوجيه اللوم اليهم عن الخسائر الألمانية في الأناضول ، ورغم ذلك لم يفكر كونراد إلا في تحالفه النفيس مع الامبراطور ضد روجر الصقلي ، وبات أسيرا لجاذبية مانويل الشخصية وضيافته البهيجة . وأثناء زيارته تمت مراسم زواج أخيه هنري كونت النمسا من ابنة أخى مانويل ثيودورا بأعظم مظاهر الآبهة . وبكى البيزنطيون في ذهولهم لرؤيتهم أميرتهم الشابة المحبوبة تذهب ضحية لهذا المصير البربرى - وكما كتب أحد شعراء البلاط مواسيا أمها: "راحت قربانا لوحش الغرب" . غير أن الزفاف كان علامة على المصالحة التامة بين البلاطين الألماني والبيزنطى . وغادر كونراد القسطنطينية في فبراير ١١٤٩م عائدا إلى ألمانيا ، وحاملا معه تحالفا بينه وبين مانويل ضد روجر الصقلي ، يقضي بتقسيم أراضيه الواقعة على شبه الجزيرة الإيطالية^(١٣).

وفى الوقت الذى كان فيه كونراد يستمتع بما تقدمه القسطنطينية من أسباب الراحة ، لبث الملك لويس مترشا في فلسطين وكتب له الراهب سوجر المرة تلو الأخرى راجيا منه العودة إلى فرنسا، لكنه لم يكن قادرا على حسم أمره . إذ كان بلا شك راغبا في تمضية عيد من أعياد الفصح في القدس . وكان يعلم أن عودته سيعقبها طلاق وما يترتب عليه من كافة المتربات السياسية . فسعى إلى تأجيل اليوم الشوم .

(١٢) William of Tyre, *loc. cit.*; Ibn al-Qalanisi, pp. 286-7.

(١٣) William of Tyre, xvii, 8, pp. 770-1; Cinnamus, pp. 87-8; *Annales Palidense*, p. 83;

Otto of Saint Blaise, p. 305; Otto of Freisingeg, *Gesta Friderici*, p. 96.

من الشعر قالما Prodromus على شرف زواج ثيودورا في R.H.C.G. II, P. 772 ؛ لكنه يشير إليها

قصيدة مرسله لأمها على أنها راحت ضحية "لوحش من الغرب". Ibid. p.768

وفى الوقت ذاته ، وبينما جدد كونراد صداقته مع بيزنطة ، كان لويس يزداد مقتنا للإمبراطور كلما خطر بذهنه، وغير سياسته وسعى إلى التحالف مع روجر الصقلى. وكان خلافه مع ريموند أمير انطاكية بمثابة تنحية أهم عقبة فى طريق هذا التحالف الذى سوف سيزيد الشحنة مع بيزنطة . وأخيرا غادر لويس فلسطين فى أوائل صيف عام ١١٤٩م فى سفينة قبرصية سرعان ما انضمت إلى أسطول صقلى يبحر فى المياه الشرقية من البحر المتوسط . وكانت الحرب الصقلية ضد بيزنطة ما تزال دائرة ؛ وبينما كان الأسطول يدور حول بيلوبونيز^(١٤) هاجمته سفن البحرية البيزنطية . فسارع الملك لويس باصدار الأوامر برفع العلم الفرنسى على سفينته ، وبذا سُمح له بمواصلة الانبحار ؛ غير أن سفينة أخرى تحمل الكثير من اتباعه وممتلكاته وقعت فى أيدي البيزنطيين الذين أخذوها إلى القسطنطينية غنيمة حرب . ومرت أشهر كثيرة قبل أن يوافق الإمبراطور على إعادة الرجال والمتاع إلى فرنسا^(١٥).

وهبط لويس إلى البر فى كلايريا فى نهاية يولية ، واستقبله الملك روجر فى بورتزا. وعلى الفور اقترح الملك الصقلى شن حملة صليبية جديدة يكون هدفها الأول الانتقام من بيزنطة . ووافق لويس ومستشاروه بسهولة ، وواصل رحلته إلى فرنسا وهو ما يفتأ يخبر كل شخص فى طريقه بما لقيه من غدر البيزنطيين وضرورة معاقبتهم . وكان البابا إيوجينوس - الذى قابله لويس فى تيفولى - فاطر الحماس ، غير أن الكثير من أعوان البابوية رحبوا بالمخطط . وبدأ الكاردينال ثيودوين فى البحث عن مبشرين لتشجيعها ، فمنحه بطرس المبجل موارثته . وعندما وصل لويس إلى فرنسا حرض الراهب سوجر على الموافقة . والأهم من كل ذلك أن القديس برنارد أصابته الحيرة من تصارييف العناية الإلهية التى قضت مشيئتها بانتهاء حملته العظيمة مثل هذه النهاية المؤسفة ، فقبل متلهفا اعتبار بيزنطة مصدرا لكل ما لحق بالحملة الصليبية من كوارث ، وأطلق طاقاته جميعها فى استنزال الثأر من السماء على الإمبراطورية الآتمة . بيد أنه لكى تنجح الحركة لابد لها من الاستعانة بمساعدة الملك كونراد الألمانى ؛ وكونراد الألمانى لن يتعاون معها، إذ أنه كان يرى بوضوح شديد أصابع عدوه روجر ، ولم يجد سببا فى التخلّى عن تحالفه

(١٤) (المترجم): بيلوبونيز: Peloponnese, Peloponnesus or Peloponnesos شبه جزيرة تكون الجزء الجنوبي من اليونان حاليا.

(١٥) Cinnamus, p.87, letter of Suger (*Sugeri Opera*, ed. de la Marche, pp. 258-60); William of Nangis, I, p. 46. وقد احتجز البيزنطيون السفينة التى تقل الملكة إليانور لفترة (John of Salisbury, *Historia Pontificalis*, p. 61).

مع مانويل لكى يزيد روحه قوة على قوة . وجاءته المناشدات من الكاردينال ثيودور ومن بطرس المجل ولكن بلا جدوى ؛ وتوسل إليه القديس برنارد نفسه وأطلق الرعود فى وجهه ، بلا طائل كذلك ؛ إذ كانت المرة الأخيرة التى أخذ فيها كونراد بنصيحة القديس هى نصيحة الحملة الصليبية الثانية . ولن يسمح لنفسه بأن يقع فى الفخ مرة أخرى . وبرفض الملك كونراد تقديم المساعدة ، لم يكن هناك مفر من التخلي عن المخطط . وهكذا تأجلت الخيانة العظمى للعالم المسيحى التى نفثها القديس برنارد إلى ما بعد نصف قرن آخر .

١١٤٩ م : برتراند التولوزى

ولم يمكث فى الشرق سوى أمير واحد من أمراء الحملة الصليبية الثانية ؛ ولم تكن اقامته هناك من اختياره . ذلك أن برتراند التولوزى ، وهو ابن الكونت ألفونسو من الزنا ، لم يتحمل رؤية ميراث طرابلس الكبير فى حوزة ابن عمه الذى يرتاب فى أنه قاتل أبيه . فلبث فى فلسطين إلى أن غادرها الملك لويس ، ثم سار شمالا برجاله أبناء لانجدوق (فى جنوب فرنسا) كما لو كان ينوى ركوب البحر من ميناء شمالى سوري . وبعد أن عبر السهل الذى يفتح فيه وادى البقاع باتجاه البحر تحول فجأة إلى داخل البلاد واحتل قلعة العريمة ، ومن هناك تحدى الجنود الذين أرسلهم الكونت ريموند من طرابلس لإقتلعه . وكانت القلعة فى موقع مرتفع جيد كما لو كان وكرا للنسر ؛ إذ أنها تسيطر على الطرق الموصلة من طرابلس إلى طرطوس ومن طرابلس إلى داخل البلاد أعلا البقاع . ولم يجد الكونت ريموند من يتعاطف معه بين الأمراء من رفاقه المسيحيين ، ولذا أرسل إلى دمشق طالبا المساعدة من أوتر الذى استجاب بسرور ودعا نور الدين للانضمام إليه ؛ وبذا أظهر استعدادا للتعاون مع نور الدين ضد المسيحيين دون الإضرار بمحاولته الحفاظ على علاقات طيبة مع مملكة القدس . وفى واقع الأمر فإنه بذلك يرضى الملكة مليسند بمساعدة زوج أختها . وقد هبط الأميران المسلمان على العريمة التى لم تستطع الصمود طويلا أمام هذا الحشد الكبير . ونهب المسلمون الظافرون القلعة عن آخرها ثم دمروها تدميرا وتركوها للكونت ريموند ليحتلها مرة أخرى وانسحبوا وفى أثرهم صف طويل من الأسرى . وكان برتراند وأخته من نصيب نور الدين الذى أخذهما إلى حلب حيث أمضيا اثني عشر عاما فى الأسر^(١٦) .

(١٦) -Ibn al-Qalanisi, pp. 287-8; Ibn al-Athir, pp. 470-1, and Atabegs, p. 162; Kemal ad

ولقد كانت خاتمة ملائمة للحملة الصليبية الثانية ، أن يقع آخر صليبي فيها أسيراً لدى المسلمين الحلفاء لرفيقة الأمير المسيحي الذي حاول أن يسلبه امارته . وليست هناك مغامرة في العصر الوسيط بدأت بآمال أكثر روعة منها . إذ أن الحملة الصليبية الثانية ، وقد خطط لها البابا ، وبشرت لها وأوحتها فصاحة القديس برنارد الذهبية ، وقادها العاهلان الرئيسيان في أوروبا الغربية ، كانت واعدة بالكثير من أجل مجد وخلص العالم المسيحي . على أنها عندما وصلت إلى نهايتها المخزية بانسحابها الكتيب من دمشق ، كان كل ما حققته من انجاز هو تنغيص العلاقة بين المسيحيين الغربيين والبيزنطيين حتى كادت أن تصل إلى مرحلة الصدام ، وزرع بذور الريبة بين الصليبيين من الوافدين الجدد والفرنجة المقيمين في الشرق ، والمباعدة بين الأمراء الفرنجة الغربيين عن بعضهم البعض ، والتقريب الأوثق بين المسلمين من بعضهم البعض ، وإلحاق أضرار مهلكة بما اشتهر به الفرنج من الإقدام العسكري . وربما حاول الفرنسيون أن يلقوا لائحة الإخفاق التام على غيرهم ، على الامبراطور مانويل الخوون ، أو على بارونات فلسطين فاترى الحماس ، وربما راح القديس برنارد يهدر رعوده ضد الأشرار ممن تدخلوا في مشيئة الرب ؛ غير أن الحملة الصليبية في واقع الأمر قد انتهت إلى لا شيء بسبب قادتها ، بضراوتهم وجهلهم وحمافتهم العقيمة.

الباب الرابع:

تحويل المد

الفصل الأول:

الحياه فى الشرق الفرنجى (أوتريميه)

الحياة في الشرق الفرنجي (أوتريميه)

"بَلْ عَمِلْتُمْ حَسَبَ أَحْكَامِ الْأُمَمِ الَّذِينَ حَوْلَكُمْ"

(حزقيال ١١ : ١٢)

فشلت الحملة الصليبية الثانية ، فكان فشلها نقطة تحول في قصة الشرق الفرنجي . وكان سقوط الرها بمثابة اكتمال المرحلة الأولى من البعث الإسلامي ، ثم انهارت الحملة العظيمة انهيارا يرثى له ، وهي الحملة التي كان يفترض لها أن تعيد السيادة الفرنجية ، وبذا جاء انهيارها تثبيتا لمكاسب الإسلام.

ومن أهم أسباب ذلك الفشل اختلاف العادات والتوقعات بين الفرنج المقيمين في الشرق وأبناء عموماتهم في الغرب . ذلك أن الصليبيين صُدموا بعد أن اكتشفوا وجود مجتمع في فلسطين غير أفرادهم أسلوب حياتهم على مدى جيل واحد. كانوا يتحدثون لهجة فرنسية ، وكانوا أتباعا مخلصين للكنيسة اللاتينية ، وحكومتهم تتبع التقاليد التي نطلق عليها التقاليد الإقطاعية . على أن هذا التشابه المصطنع لم يكن له من أثر سوى أن زاد من حيرة الوافدين الجدد بسبب تلك الفروق.

ولو كان المستعمرون أكثر عددا لتمكنوا من الاستمرار بأساليبهم الغربية ، لكنهم كانوا أقلية ضئيلة فى بلد كان مناخه وأسلوب حياته غريبين عنهم . وليس فى الامكان معرفة الأعداد الحقيقية إلا حدسا ؛ لكن يبدو أنه لم يحدث فى أى وقت أن زاد عدد البارونات والفرسان المقيمين إقامة دائمة فى مملكة القدس عن ألف شخص . وأما أقاربهم من غير المقاتلين ، من النساء والمسنين ، فلم يزدوا كثيرا على ألف أخرى . وكانت مواليد الأطفال كثيرة ، لكن القليل منهم يبقى على قيد الحياة . وتعبير آخر ، وبخلاف رجال الدين الذين كان عددهم مئات قليلة ، وفرسان النظامين العسكريين ، لم يكن هناك سوى عدد يتراوح بين ألفين وثلاثة آلاف شخص من البالغين فى الطبقات العليا الفرنجية^(١) . وربما كان مجموع سكان طبقات الفروسية فى إمارة أنطاكية وكونتيتى طرابلس والرها هو نفس العدد^(٢) ، وبقيت تلك الطبقات نقيّة العرق عموما . أما فى الرها وأنطاكية فكانت هناك زيجات مختلطة مع اليونانيين المحليين والأرستقراطية الأرمنية ؛ إذ تزوج كل من بلدوين الأول وبلدوين الثانى - عندما كان كل منهما كونت الرها - من زوجة أرمنية من الطائفة الأرثوذكسية ، وقيل لنا إن بعض نبلائهم قد حذوا حذوهما . وكانت زوجة إبلين الأول وزوجة فاليران أمير البيرة أرمنيتين من أتباع الكنيسة المنفصلة على أنه لم يكن فى الجنوب أرستقراطية مسيحية محلية ، وإنما كان العنصر الشرقى الوحيد يتألف ممن تجرى فى عروقهم دماء أرمنية فى العائلة المالكة وآل كورتناى ، وفيما بعد ذرية الملكة البيزنطية ماريّا كومينا - سواء الذرية المالكة أو ذرية إبلين^(٣) .

(١) ربما كان فى الجيش العظيم الذى هزم فى حطين ١٢٠٠ فارس ، منهم ٣٠٠ فارس من فرسان المعبد ، وربما مثلهم من فرسان المستشفى . وأما البارونات والفرسان العلمانيين فلا يمكن لعددهم أن يزيد على ٧٠٠ شخص ، ومع ذلك اشترك جميع الفرسان فى المعركة . ولم يتخلف فى القدس سوى اثنين فقط . وكان هذا الجيش يشتمل على القليل من الفرسان الآتين من طرابلس أو أنطاكية . وكان عدد معين من الفرسان قد غادر المملكة مع بلدوين (أوف إبلين) أنظر أدناه صفحتى ٤٦٤، ٤٥٤ . وفى تقديرات جون (أوف إبلين) أن الملكة كانت تستطيع فى عهد بلدوين الرابع استدعاء ٥٧٧ فارسا بخلاف فرسان النظامين العسكريين ، و ٥٠٢٥ ضابطا من ضباط النظام. (Ibelin, pp. 422-7)

(٢) ليس فى الامكان معرفة أرقام أنطاكية وطرابلس إلا حدسا . وربما لم تكن الرها تشتمل على مايزيد على ١٠٠ أسيرة من أسرى النبلاء وفرسان الفرنج . وربما كانت كونتية طرابلس تشتمل على ٢٠٠ أسيرة وأنطاكية أكثر بكثير . وفى عام ١١١١ م ، يقول Albert of Aix (xi, 40-1, pp. 182-3) إن تل بشير قدمت ١٠٠ فارس والرها ٢٠٠ فارس ، غير أنه لابد وأن كان الكثير منهم من الأرمن .

(٣) أنظر أدناه ، شجرات الأنساب .

أما طبقة "ضباط الصف" فكانت أكثر عدداً ؛ وكان أفرادها أصلاً بمثابة دعامة المشاة الفرنجية كاملة التسليح ، وقد استقروا في أقطاعات اللوردات . ولما كانوا بلا مفاخر أنساب يفاخرون بها ، كانوا يتزوجون من المسيحيات الوطنيات ؛ وبحلول عام ١١٥٠م بدأوا يشكلون طبقة من "المخلطين" التي برزت بالفعل مع المسيحيين الوطنيين . وفي عام ١١٨٠م كان عدد ضباط الصف يقدر بأكثر قليلاً من ٥٠٠٠ شخص ؛ لكننا لا نستطيع أن نعرف النسبة المتبقية ممن تجرّى في عروقهم الدماء الفرنجية الخالصة . وربما كانت طبقة جنود المرتزقة "sodeers" تدعى هي الأخرى بأنها من نسل فرنجي . وأما طبقة "أنصاف الأتراك Turcoples" التي نشأت محلياً وتسلحت وتدرّبت على غرار الفرسان البيزنطيين الخفاف ، والتي أخذت إسمها منهم ، فكانت تتألف جزئياً من المسيحيين الوطنيين والمتحولين ، وجزئياً من أنصاف الطبقات ، وربما كان هناك فرق بين أنصاف الطبقات المتحدثين لغة آبائهم وبين المتحدثين لغة أمهاتهم . وربما كان "أقطاب الأتراك" ينحدرون من تلك الأخيرة^(٤) .

وكان المستوطنون كلهم تقريباً من أصل فرنسي فيما عدا المدن الكبيرة . وكانت لغة المخاطبة في مملكة القدس وإمارة انطاكية هي اللغة المألوفة لدى الفرنسيين الشماليين والنورمان والتي تدعى Langue d'oeil . وفي كورتية انطاكية بخلفيتها التولوزية ربما كانت تستخدم بادئ الأمر لغة البروفنسال القديمة Langue d'oc وقد اغتاض الحاج الألماني جون (أوف فورزبرج) ، الذي زار القدس حوالي عام ١١٧٥م ، لعدم وجود أي دور للألمان في المجتمع الفرنجي رغم ادعائه أن جودفري وبلدوين الأول كانا من أصل ألماني . وابتهج عندما عثر أخيراً على منشأة دينية كل العاملين فيها على وجه الحصر من الألمان .

وكانت المدن تشتمل على مستعمرات إيطالية كثيرة . إذ كان البنادقة وأبناء جنوا يمتلكون شوارع في القدس نفسها . وكانت هناك منشآت لأبناء جنوا - مضمونة بمعاملة - في كل من يافا وعكا والسويدية وانطاكية ، ومنشآت للبنادقة في أكبر تلك المدن . وكان لأبناء بيزا مستعمرات في صور وعكا وطرابلس واللاذقية . وكانت كلها كميونات تدار بالحكم الذاتي ، وكان مواطنوها يتكلمون الإيطالية ولم يختلطوا اجتماعياً بغيرانهم . وكانت هناك على شاكيتها منشآت يملكها أبناء مرسيليا في عكا

(٤) أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.160-2; Munro, *The Kingdom of the Crusaders*, pp.106-7, 120-1.

وبافا وصور وجليل ، ومنشآت بملكها أبناء برشلونة فى صور . وباستثناء عكا ، كان عدد الأشخاص فى كل من تلك المستعمرات لا يزيد على مئات قليلة^(٥).

المسيحيون الوطنيون والمسلمون واليهود

كانت الأغلبية الساحقة من السكان تتألف من المسيحيين . وفى مملكة القدس كان هؤلاء المسيحيون من أصل مختلط ، أغلبهم يتحدث العربية ، وقد أطلق عليهم بلا اكتراث اسم المسيحيون العرب ، وكلهم تقريبا من أتباع الكنيسة الأرثوذكسية . وفى كونتية طرابلس كان بعض السكان أعضاء فى الطائفة المونوثليتيية (التي تؤمن بوحدة إرادة المسيح ذى الطبيعتين) والتي تسمى الطائفة المارونية . وفى المناطق الأبعد إلى الشمال كان السكان فى أغلبهم من الوحيديطبيين Monophysites^(٦) التابعين للكنيسة اليعقوبية ، غير أنه كانت هناك مستعمرات كبيرة جدا للأرمن ، وكل أفرادها تقريبا من أتباع الكنيسة الأرمنية المنفصلة ، وكان فى أنطاكية واللاذقية وكيليكيا بمجموعات كبيرة من الأرثوذكس المتحدثين باليونانية . وبالإضافة إلى ذلك ، كان فى الأراضى المقدسة مستعمرات دينية من كل طائفة دينية . وكانت الأديرة أرثوذكسية أساسا وتحدث اليونانية ؛ ووجدت كذلك منشآت جورجية أرثوذكسية ، كما كان فى القدس خاصة مستعمرات للوحيديطبيين من الأقباط المصريين والاثيوبيين على السواء ، ومن اليعاقبة السريان ، وجماعات لاتينية قليلة كانت قد استقرت هناك قبل الحملات الصليبية^(٧) . وقد هاجرت جماعات إسلامية كثيرة بعد إنشاء المملكة المسيحية ، على

(٥) Cahen, 'Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin. III. L'Orient latin et commerce du Levant', in *Bulletin de la Faculté de Lettres de Strasbourg*, 29me année, no. 7 يشير الى أن الأنشطة التجارية للباطاليين خلال القرن الثانى عشر كانت تركز أساسا على مصر والقسطنطينية. وكانت الموانئ الساحلية السورية أقل بكثير فى أهميتها بالنسبة لهم.

(٦) (المترجم): أى القائلين بوجود طبيعة واحدة للمسيح ، بخلاف الطائفة القائلة بوجود طبيعتين له بشرية وإلهية

(٧) ليس هناك سوى أدلة قليلة على وجود مسيحيين وطنيين فى فلسطين أثناء القرن الثانى عشر . انظر أدناه الصفحات ٣١٩-٢٣. و Rey, *Les Colonies Franques*, pp.75-94 عن الأقباط والاثيوبيين انظر Gerulli, *Etiopi in Palestina*, pp. 8 ff

أن هناك قرى إسلامية كانت ما تزال موجودة حول نابلس^(٨) ، وبقي سكان مقاطعات كثيرة على إسلامهم بعد أن احتلها الفرنج في وقت لاحق . وفي شمال الجليل ، بطول الطريق من بانياس إلى عكا ، كان الفلاحون على وجه الحصر تقريباً مسلمين . وأبعد إلى الشمال ، في البقاع وجبال النصيرية ووادي نهر العاصي ، كانت هناك طوائف إسلامية هرطيقية تعترف بالحكم الفرنجي^(٩) . وبطول الحدود الجنوبية وما وراء نهر الأردن كانت هناك قبائل رحل بدوية . وأدت مذابح اليهود والتهديد بها إلى تقليص أعداد اليهود بدرجة كبيرة في فلسطين وسوريا المسيحية . وشعر بنيامين تيودبلا بالأسى عندما زار البلاد لضالة عدد مستعمراتهم^(١٠) ، وكان عددهم في دمشق وحدها أكثر من عددهم في كل الدويلات المسيحية^(١١) ، على أنهم في وقت ما خلال القرن الثاني عشر اشترى احتكار صناعة الصباغة من التاج ؛ وكانت صناعة الزجاج في أيديهم بدرجة كبيرة^(١٢) ، وكان في نابلس طائفة سامرية^(١٣) صغيرة تعيش هناك^(١٤) .

وكانت تلك المجتمعات المختلفة تشكل قاعدة الدويلات الفرنجية ؛ ولذا لم يكن الأسياد الفرنج يتسبون في إزعاجهم ، إلا فيما ندر . وحيثما تمكن الوطنيون من اثبات ملكيتهم للأرض كان يسمح لهم بالاحتفاظ بها ؛ غير أن أصحاب الأرض في فلسطين وطرابلس كانوا كلهم تقريباً من المسلمين ، باستثناء الأراضي التي تملكها الكنائس المحلية ، وقد هاجروا فراراً من الغزو الفرنجي تاركين أراض شاسعة تساعد الحكام الجدد على تثبيت أتباعهم من بنى جلدتهم . وبدا أنه لم تعد هناك قرى حرة باقية مثل تلك

(٨) تسبب المسلمون حول نابلس في اشتعال الخطر للفرنج بعد حطين (Abu Shama, p.302؛ وعن المسلمين في عكا وحولها انظر Ibn Jubayr, ed. Wright, pp.8 ff..)

(٩) أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 170 ff.. ويشير Burchard of Mt Sion إلى شتى الطوائف الإسلامية في شمال سوريا (P.P.T.S. vol. XII, p. 18).

(١٠) Benjamin of Tudela, ed. Adler, Hebrew text, pp. 26-47

(١١) *Ibid.* pp. 47-8.

(١٢) Benjamin of Tudela, ed. Adler, Hebrew text, p. 35 (dye-monopoly at Jerusalem). *Ibid.* pp.26-47. صور.

(١٣) (المترجم): نسبة إلى طائفة من اليهود توشك الآن على الانقراض، وترى أنها تنسب إلى السامرة القديمة، ويسمون أنفسهم بنى إسرائيل (أو الشيميريم) أي "المراعين" لأنهم لا يعتدون كمرجع لهم إلا التوراة محصورة في الأسفار الخمسة الأولى من العهد القديم.

(١٤) *Ibid.* pp.33-4 واستناداً إلى بنيامين (pp. 32-44) ، كانت هناك ألف أسرة ووجدت غيرها في قيسارية وعسقلان.

التي كانت موجودة في العهود البيزنطية المبكرة . وكان كل مجتمع من مجتمعات القرى مرتبطا بالأرض ويدفع حصة من انتاجها للسيد ؛ غير أن تلك الحصة لم تكن موحدة . ففي الجزء الأكبر من البلد ، حيث كان القرويون يتبعون نظام الزراعة المختلطة البسيط ، ربما كان السيد يتوقع ما يكفي من الإنتاج لإطعام أهل بيته والتابعين له من "المخلطين وأنصاف الأتراك" الذين كانوا يعيشون في جماعات حول القلعة ؛ إذ لم يكن الفلاح المحلي مناسباً هو نفسه لأن يكون جندياً . وكانت الزراعة تدار في السهول الخصبة على أساس تجارى بصورة أكبر . فكان السيد يستغل البساتين وحدائق الكروم ، وقبل كل ذلك مزارع قصب السكر ، وربما كان الفلاح يتقاضى ما يزيد قليلاً عن قوته . ولم تكن هناك أعمال عبودية فيما عدا بيت السيد ، رغم أن أسرى المسلمين ربما كانوا يعملون مؤقتاً في أراضي الملك أو أراضي السيد الأعظم . وكان التعامل بين القرويين وسيدهم يجري عن طريق رئيسهم ، وأحياناً كان يسمى بالإسم العربى (الرئيس) وأحياناً بالشكل اللاتينى ريجولوس *regulus* وكان السيد يستخدم إلى جانبه أحد مواطنيه على أنه الترجمان (*dragoman*) ، وهو سكرتير يتحدث العربية بإمكانه مسك الدفاتر^(١٥) .

إقطاعيات المملكة

على الرغم من التغير الطفيف الذى حدث فى حياة الفلاحين ، أعيد تنظيم مملكة القدس تنظيمًا ظاهرياً على غرار الإقطاعيات التى نطلق عليها "إقطاعية" . فكان نطاق السلطة الملكية يتألف من المدن الثلاث القدس وعكا ونابلس ، وفيما بعد مدينة دارون الحدودية وما حولها من أراض . وكان نطاقاً يشغل جزءاً كبيراً من المملكة ، إذ أن الملوك الأوائل ، وخاصة الملكة ملسيند ، دأبوا على الإسراف فى إهداء الأراضي لأصدقائهم وللكنيسة وللنظاميين العسكريين الدينيين . وكانت هناك أجزاء أخرى تقطع كبائنة للأرامل من الملكات . وكانت أهم الإقطاعيات الأربع للمملكة هى كونتية يافا التى كانت تخصص عادة لأحد المتعلمين من البيت الملكى ؛ وإمارة الجليل ، التى تدين بإسمها الفخيم لطموح تنكريد ؛ وإقطاعية صيدا السيادية ؛ وإقطاعية ما وراء الأردن

(١٥) أنظر Cahen, 'Notes sur l'histoire des Croisades ed de l'Orient latin. II. Le régime rural syrien au temps de la domination franque', in *Bulletin de la Faculté de Lettres de Strasbourg*, 29me année, no. 7, حيث يرد فيها دراسة نفيسة حول هذه المسألة العريضة.

السيادة . ويبدو أن حائزى تلك الإقطاعيات كان عندهم موظفون كبار تقليدا لما كان عليه الملك . وهذا ما كان يفعله كذلك لورد قيسارية ، الذى كانت اقطاعيته بنفس الأهمية تقريبا ، رغم أن تصنيفها جاء مع الإقطاعيات الإثنى عشرة الثانوية . وبعد حكم بلدوين الثانى، كانت حيازة الأرض تقوم على أساس الحق الوراثى بحيث تنول إلى الإناث فى حالة عدم وجود وريث من الذكور . وليس فى الإمكان إخلاء المستأجر إلا بقرار من المحكمة العليا إذا ارتكب بعض الأعمال الشريرة . غير أنه كان مدينا للملك أو لسيده الأعلى بعدد محدد من الجنود فى حالة طلبهم منه ، ويبدو أنه لم تكن هناك فترة زمنية محددة لخدمتهم . وكان كل من كونت يافا ولورد صيدا وأمير الجليل مدينا بمائة فارس كاملى التسليح ، وأما لورد منطقة الأردن فكان مدينا بستين فارسا^(١٦) .

وقد اختلفت أحجام الإقطاعيات . فكانت الإقطاعيات العلمانية تتحدد بالغزو وكانت عبارة عن قطع محددة من الأرض . على أن ممتلكات الكنيسة والنظامين العسكريين ، كانت آخذة فى التضخم بسبب الهبات الخيرية ووصايا التوريث ، أو ما يتلائم استراتيجيا فى حالة النظامين الدينيين العسكريين ، وقد تبعثرت تلك الممتلكات فى أنحاء الدويلات الفرنجية . وكانت وحدة القياس التى تقاس بها الأراضى هى القرية ، أو الدار *casal* ، أو نادرا جدا نصف القرية أو ثلثها ؛ لكن القرى كانت تختلف فى أحجامها كذلك . وفى شمال الجليل حول صفد ، يبدو أن القرى كانت تشتمل فى المتوسط على مجرد أربعين من السكان الذكور ، لكننا نسمع عن قرى أكبر حول الناصرة ، وقرى أصغر حول صور حيث كان السكان عموما أكثر كثافة مع ذلك^(١٧) .

كما كان هناك لوردات عاديون يتحصلون على اقطاعيات نقدية ، أى كانوا يحصلون من مدن وقرى معينة على إيراد مالى ثابت لقاء التزامهم بتوفير الجنود بأعداد متناسبة . وكانت تلك الإقطاعيات المالية وراثية ويكاد يستحيل أن يلغىها الملك^(١٨) ، وإنما كان يأمل - كما هى الحال فى إقطاعيات الأراضى - أن يموت صاحب الإقطاعية المالية دون أن يترك ورثة ، أو على الأقل يترك بنتا ترثه ، وفى هذه الحالة يستطيع أن يختار لها زوجا أو أن يصر على أن تختار هى زوجا من ثلاثة رجال يرشحهم هو^(١٩) .

(١٦) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.138-65; Rey, *op.cit.* pp. 1-56, 109-64.

(١٧) Cahen, *op. cit.* pp. 291-8.

(١٨) La Monte, *op. cit.* pp. 144-51.

(١٩) يقول Grandclaude, 'Liste d'Assises de Jérusalem', in *Mélanges Paul Fournier*, p. 340 إن تاريخ القانون الذى يسمح للورثة باختيار زوج من بين ثلاثة

وكانت المدن الملكية مجرة على توفير الجنود بحسب ثرواتها . فكان على القلس توفير واحد وستين جنديا ، و نابلس خمسة وسبعين جنديا ، وعكا ثمانين جنديا . على أن الجنود لم يكونوا من الطبقة البورجوازية ، وإنما من النبلاء المقيمين فى المدينة ، أو أصحاب المنازل فيها . وكان رجال الدين البارزون مدينين بالجنود كذلك فى مقابل ضياع الأراضى التى فى حوزتهم أو ملكيتهم للمنازل . أما الطبقة البورجوازية فكانت تدفع للحكومة ضرائب مالية . وكانت الضرائب المنتظمة مفروضة على الموانى والصادات ، وعلى المبيعات والمشتريات ، وعلى رسو السفن والحجاج ، وعلى استخدام الموازين والمقاييس . كما كانت ضريبة الأرض *terraticum* مفروضة على ممتلكات الطبقة البورجوازية ، ولا نعرف عنها سوى القليل . وبالإضافة إلى ذلك ، قد تدفع ضريبة خاصة لبعض الحملات . وفى عام ١١٦٦م كان على غير المقاتلين أن يدفعوا عشرة فى المائة من قيمة منقولاتهم ؛ وفى عام ١١٨٣م كانت هناك ضريبة رأسمالية مقدارها واحد فى المائة على الممتلكات والديون يدفعها جميع السكان ، مقترنة بنسبة اثنين فى المائة على إيرادات المنشآت الكنسية وممتلكات البارونات . وكان على كل فرد من الفلاحين أن يدفع ضريبة الرأس الشخصية لسيده إلى جانب ما تدفعه القرية على إنتاجها ؛ وكان على الرعايا المسلمين دفع العُشر أو الدائم *dime* (أى مبلغ ضئيل) يذهب إلى الكنيسة . ودأبت الهرميات اللاتينية على محاولة تمديد ضريبة الدائم هذه لتطبق على المسيحيين المنتمين إلى كنائس هرطيقية . لكن تلك الهرميات اللاتينية لم تفلح رغم أنها أجبرت الملك أمالريك على رفض عرض من الأمير الأرمينى ثوروس الثانى بارسال مستعمرين إلى المقاطعات الفلسطينية الخالية من السكان لأن رجال الهرمية اللاتينية أصروا على أن يدفع هؤلاء المستعمرون الجدد الدائم^(٢٠) . على أن المسلمين قد وجدوا فى هذا الدائم مستوى ضريبى عام أقل فى ظل الحكم الفرنجى عن مستواه فى ظل الحكام المسلمين المجاورين . كما أنهم - أى المسلمين - لم يُستبعدوا من الالتحاق بالوظائف الحكومية البسيطة ، إذ كان بإمكانهم - والمسيحيين كذلك - الالتحاق بوظائف مسؤولى الجمارك ومحصلى الضرائب^(٢١) .

يرشحهم الملك يرجع الى ما بعد عام ١١٧٧م . غير أن بلدوين الثالث عرض على كونستانس فى أنطاكية الاختيار من بين ثلاثة خطاب فى عام ١١٥٠م . ومع ذلك لا يستطيع الملك إجبارها على قبول أى منهم (انظر أدناه صفحة ٣٣١).

(٢٠) Cahen, *op. cit.* pp. 299-302. وأورد Ernoul, pp. 27-30 عرض ثوروس.

(٢١) Ibn Jubayr, ed. Wright, p. 305.

الدستور

من المحال أن نذكر شيئا دقيقا عن دستور الدويلات الفرنجية لأنه لم يكن هناك دستور ثابت فى أى وقت . وعندما قدم القانونيون المتأخرون ما جمعه من مثل "كتاب للملك Livre au Roi" أو "قوانين القدس Assisses de Jerusalem"، إنما كانوا يحاولون اكتشاف المجالات التى تسببت فيها القرارات المحددة فى تغيير العادات المقبولة ، وليس وضع قانون حكومى راسخ . وكانت هناك اختلافات محلية . إذ لم يكن أمير أنطاكية أو كونت الرها أو كونت طرابلس يصادف مشاكل من الأتباع سوى القليل . بينما كان ملك القدس فى وضع أضعف . فهو ممسوح الرب ، وزعيم الفرنج المقبول فى الشرق ، لا غريم له ، بعد أن وضع بلدوين حدا لطموحات البطريرقية . على أنه فى الوقت الذى كان يستطيع فيه أمير أنطاكية وطرابلس توريث سلطانهما بقواعد الاستخلاف الوراثى المقبولة ، كانت الملكية انتخابية ، وإن كان الشعور العام ربما يؤيد الحق الوراثى . ففى عام ١١٧٤م كان بلدوين الرابع مقبولا دون منازع ليخلف أباه، رغم أنه كان فى الثالثة عشرة فقط من عمره فضلا عن إصابته بالجزام . على أن تثبيت الملك بالانتخاب كان ضروريا . وكان الناجبون أحيانا يضعون شروطهم ، كما حدث عندما أجبر أماليك الأول على تطليق زوجته آجنس قبل أن يسمحوا له بتويجه . وعندما يكون الوريث الطبيعى امرأة تكون هناك تعقيدات أخرى ؛ إذ يتعين انتخاب زوجها كملك ؛ غير أن هذا الملك الزوج ربما اعتبر أنه يستمد حقوقه من خلالها . وفى حالة الملكة ملسيند وابنها بلدوين الثالث ، لم يكن هناك أحد يعلم جيدا ما يكون عليه الوضع القانونى ؛ واتضحت المشكلة الدستورية برمتها بصورة فاجعة بعد موت بلدوين الخامس عام ١١٨٦م^(٢٢) .

المحكمة العليا

كان الملك هو قمة الهرم الاجتماعى ، لكنها قمة منخفضة . فباعتباره ممسوح الرب، كانت له مكانة ما ، ومن ثم فالإساءة إليه خيانة عظيمة . وهو رئيس المحكمة العليا، والقائد الأعلى لقوات المملكة ، وهو المسؤول عن الإدارة المركزية ويعين المسؤولين فيها . وباعتباره السيد الأعلى لأتباعه ، يستطيع منعهم من التصرف فى

(٢٢) فى أماكن متفرقة من La Monte, op. cit. pp. 87-137 وانظر أعلاه ص ٢٧١ وأدناه ص ٣٨٦ ، ٥٠٢ .

أراضيهم ، وبإمكانه اختيار الأزواج للوريثات . ولأنه ليس له سيد أعلى فرقه ، يستطيع أن يهب الهبات كما يحلو له من ممتلكاته الخاصة ، رغم أنه عادة ما كان يُشرك زوجته وأولاده في منح الهبة - كما كان يفعل نبلاؤه عندما يتصرفون في أراضيهم - خوفاً من أن تثار لاحقاً بعض الشكاوى حول بائنة الأرملة أو ميراث الإبن . غير أن السلطة الملكية كانت تنتهى عند هذا الحد . وكانت الإيرادات الملكية مقيّدة وتتناقص بسبب ما يهبه من هبات سخية . ولقد كان الملك دائماً في حاجة إلى المال . وكان على رأس المملكة ، لكنه تحت قانون المملكة الذى كانت المحكمة العليا تمثله . وتألّف المحكمة العليا من كبار مستأجرى الأرض في المملكة ، وهم اللوردات الذين يدينون بالولاء المباشر للتاج . وكان أبرز رجال الدين يحضرون بفضل حيازتهم للأراضي . أما المجتمعات الأجنبية التى تمتلك الأراضي في المملكة ، مثل البنادقة وأبناء جنوا ، فكانوا يرسلون ممثلين عنهم . ومن الجائز دعوة كبار الزائرين للحضور ، رغم أنهم لا يمثلون جزءاً من المحكمة ولا يحق لهم التصويت^(٢٣) .

والمحكمة العليا هي أساساً محكمة قانونية ، ومن ثم كان لها وظيفتان رئيسيتان . الأولى أن توضح الجانب القانوني المتصل بنقطة معينة . ومعنى ذلك أنها كانت تصدر تشريعات ؛ إذ كانت كل قاعدة assise من الناحية النظرية مجرد بيان للقانون ، لكنها كانت فى الواقع تحديداً لقانون جديد كذلك . وثانياً ، كانت تحاكم المذنبين من أعضائها وتنظر فى القضايا التى قد يرفعها بعضهم ضد بعض . وكانت المحاكمة عن طريق الأنداد ملمحاً أساسياً فى التقاليد الفرنجية ؛ وكان مركز الملك هو الأول بين الأنداد *primus inter pares* من كبار مستأجرى الأرض ، رئيسهم وليس سيدهم . والنظرية التى تؤسس ذلك الوضع هي أن المملكة لم يقهرها ملك ، وإنما مجموعة من الأنداد الذين انتخبوا ملكهم بعد ذلك . وهى النظرية التى تبرر للمحكمة أن تنتخب ملوكاً على التعاقب ، وفى الحالة التى يكون الملك فيها دون سن الرشد أو فى حالة وقوعه فى الأسر ، تنتخب المحكمة وصياً أو مشرفاً ملكياً *bailli* كما كانت المحكمة العليا تستشار فى أهم المسائل السياسية ، وكان ذلك تطوراً محتملاً ، إذ لا يستطيع الملك بدون تعاون أتباعه تنفيذ سياسته إلا نادراً . وفى عام ١١٦٦م توسعت المحكمة العليا لتشمل أتباع الأتباع *arrière-vassals* ، كجزء من مخطط أمالريك الأول كى يجد مساندة للتاج ضد أتباعه الرئيسيين . وفى عام ١١٦٢م أجبر المحكمة على إصدار

قاعدة assie تسمح لأتباع الأتباع بالاستئناف ضد أسيادهم أمام المحكمة العليا . وفي حالة رفض السيد الاستجابة للاستدعاء ، يستطيع كبار مستأجره أن يضعوا أنفسهم تحت تصرف التاج . ورغم أن هذا القانون قد زود الملك بسلاح نافع ضد نبلائه ، إلا أنه على المدى البعيد زاد من سلطة المحكمة العليا لا أكثر ، بل وأمكن استخدامه ضد الملك . ويبدو أن المحكمة كانت تنظر في القضايا بعناية وبما يملية الضمير ، ورغم ذلك كانت نتيجة المحاكمة عن طريق النزال مقبولة كدليل . ولم يكن لها مكان انعقاد محدد ، وإنما يستطيع الملك استدعاءها في أي مكان يراه ملائما . وفي عهد الملكة الأولى عادة ما كانت تعقد في القلنس أو عكا . وبدأ النبلاء التلهفون على حضورها ، يهملون أقطاعاتهم ويتخذون لأنفسهم أماكن للإقامة في أي من المدينتين^(٢٤) . غير أن قوتهم كهيئة جماعية ضعفت بمشاجراتهم المتكررة والضغائن العائلية التي تضخمت وتعمقت بمرور الزمن ، وكانت أسر النبلاء كلها تقريبا مرتبطة بعلاقات زواج فيما بينها .

و بمقتضى مبدأ المحاكمة عن طريق الأنداد ، كان للمستوطنين الفرنج من غير النبلاء محاكمهم البورجوازية الخاصة بهم cours des bourgeois . وكانت تلك المحاكم البورجوازية موجودة في كل مدينة كبيرة ، ويرأسها دائما فيكونت المدينة Viscount ولكل محكمة هيئة محلفين من اثني عشر محلفا يختارهم السيد من رعاياه اللاتينيين المولودين أحرارا ، وكانوا يعملون عمل القضاة ، رغم استطاعة أحد أطراف الخصومة اختيار احدهم ليكون محاميه ، وفي هذه الحالة لا يشترك هذا المحامي المحلف في إصدار الحكم . كما كان يُطلب من المحلفين أن يشهدوا على أي عمل أو وثيقة في المحكمة . وعلى خلاف الممارسة في المحكمة العليا ، كانت هناك سجلات دقيقة لكافة الإجراءات القانونية . وكانت المحاكم البورجوازية تجتمع بصفة منتظمة أيام الاثنين والأربعاء والجمعة من كل أسبوع ، فيما عدا أيام الأعياد . وكانت تنظر في الدعوى المرفوعة بين أحد النبلاء وأحد البورجوازيين . وكانت المحكمة البورجوازية تقرر التحاكم بالنزال والتحاكم بالماء^(٢٥) .

وبادئ الأمر كان للمجتمعات الوطنية محاكمها الخاصة بها في القضايا البسيطة برئاسة الزعيم المحلي الذي يعينه الفيكونت ، حيث تطبق قوانينها العرفية . غير انه في

(٢٤) Ibid pp.106-13. ويذكر Usama أمثلة لمحاكمات عن طريق النزال الفردي . الماء . (ed. Hitti, pp.167-9)

(٢٥) La Monte, po. cit. pp. 105-8

عهد الملك اماريك الأول أنشئت محكمة الدعوى Cour de la Fonde فى كل مدينة من المدن الثلاث والثلاثين التجارية الرئيسية . وكانت تنظر فى الشئون التجارية وكافة الدعاوى الأخرى ، حتى الجنائية ، التى يتنازع فيها السكان الوطنيون . وكان يرأسها مشرف ملكى bailli ، يعينه السيد المحلى ، وتآلف من ستة محلفين اثنان من الفرنج وأربعة من الوطنيين . وكان المتخاصمون الوطنيون يقسمون القسم كل على كتابه المقدس ؛ ويستطيع المسلمون أن يقسموا على القرآن ؛ وقد أعجب الزائرون المسلمون بنزاهة الاجراءات القانونية . كما كانت محكمة الدعوى تسجل المبيعات والهبات من كافة الممتلكات فيما عدا العقارات وكانت بمثابة مكتب لجمع ضرائب المشتريات . وفى الامكان الاستئناف لدى المحكمة البورجوازية بنفس اجراءاتها . كما أنشأ اماريك محكمة السلسلة Cour de la Chaine فى جميع المدن البحرية ، للنظر فى القضايا المتعلقة بالملاحة ولكى تكون بمثابة مكان لتسجيل الرسوم الجمركية ورسوم رسو السفن . وكان محلفوها يختارون من التجار والبحارة . وبالإضافة إلى ذلك كان للمجتمعات التجارية الإيطالية والبروفنسالية محاكمها الاستشارية الخاصة بها للنظر فى شئونها الداخلية . وكان لكبار الاقطاعيين محاكمهم الخاصة بهم "محكمة البارونات" لتناول النزاعات التى تنشأ بين أتباعهم من الفرسان . وكان هناك اثنان وعشرون محكمة من تلك المحاكم وكذلك أربع محاكم لأملاك الملك . وكان لكل محكمة من تلك المحاكم الكثيرة مجالها المحدد بوضوح ؛ وحيثما تكون هناك دعوى تشتمل على خصمين من مرتبتين مختلفتين، كانت الدعوى تنظر فى المحكمة الملائمة لأدناهما^(٢٦).

وبسبب مفهوم القانون فى العصور الوسطى الذى لم يكن يتطلب قوانين محددة ، إلا عندما تنشأ الحاجة إلى تحديد نقطة بعينها ، يبدو أن النشاط التشريعى للحكومة كان متعسفا ذا نزوات . ومن بين القوانين الواردة فى القرن الثالث عشر فى قواعد القدس Assise de Jérusalem ، الأرجح أن ستة قوانين يرجع تاريخها إلى عهد الدوق جودفرى ، وتسعة عشر قانونا آخرين من الفترة حتى عام ١١٨٧ م ، ومنها أحد عشر قانونا يمكن تحديد تواريخها بالتقريب^(٢٧).

(٢٦) pp.108-9Ibid

(٢٧) Grandclande, op.cit. pp.322 ff. ، يورد قائمة بالقواعد التى يمكن إرجاعها إلى الفترة ١٠٩٩-١١٨٧ م. ويحدد ستة قواعد لعهد جودفرى وإحدى عشرة قاعدة للملوك من بلدوين الأول إلى بلدوين الرابع (رغم أنه يظن أن إحدى تلك القواعد التى تقضى ببيع الاقطاعيات التى لا ورثة لها لدفع فدية الملك يرجع تاريخها إلى ما بعد وقوع Guy فى الأسر فى حطين . ومع ذلك ، ربما تشير إلى أسر بلدوين الثانى). كما توجد ست قواعد يتعذر

الإدارة

كان المسؤولون الرئيسيون في الأسر الكبيرة يباشرون الإدارة بعد أن يختارهم من كبار مستأجرى الأرض في المملكة. وكان للقهرمان Seneshal الترتيب الأول في الأسبقية فهو الذى يرأس الاحتفالات ، ومن ثم يحمل الصولجان أمام الملك فى حفل التتويج ، وهو رئيس الخدمة المدنية ، والمسؤول بصورة خاصة عن الخزانة (الأمانة Secrète) وهو الذى يشغل المركز الذى تدفع فيه الأموال المستحقة للتاج ، وتؤخذ منه الرواتب ، وهو الذى يحتفظ بسجلات لكافة التعاملات المالية التى تشترك فيها الحكومة. وكانت الأمانة Secrète عبارة عن مكتب واسع التنظيم أخذته الفرنج عن العرب الذين سبق أن أخذوه بدورهم عن البيزنطيين . ويأتى بعد القهرمان الياور أو الكونستابل Constable الذى كان ذا سلطة فعلية أقوى ، إذ كان رئيس الجيش - تحت الملك - والمسؤول عن كافة جوانب تنظيمه وإدارته . وفى حفل التتويج يحمل راية الملك ويمسك بلجام حصانه، وهما مهمتان زائدتان على مسؤولياته . وكان مسؤولا عن الإمدادات العسكرية والعدالة العسكرية . وكان المرتزقة الذين يستأجرهم الملك أو أحد النبلاء يخضعون لنطاق سلطته الخاصة ، ويستوثق من تسلمهم لرواتبهم على النحو الملائم . وفى حالة غياب الملك أو نائبه الملكى bailli عن الحملة تكون له كامل السيطرة عليها . وكان يساعده المارشال الذى كان بمثابة القائم مقامه فى كل شئ . وكان حاجب الملك Chamberlain مسؤولا عن أسرة الملك وأمواله الشخصية . وكان ينتفع بمركزه هذا، بالهدايا التى يغدقها عليه الأتباع الآتين للإعراب عن احتراماتهم للملك . وكانت هناك أراض معينة مخصصة لهذا المكتب ؛ على انه فى عام ١١٧٩م باعها حاجب الملك جون (أوف بيليزم) دون أن تكون هناك إساءة ظاهرة للملك . أما مهام كبير الخدم Butler فليست معروفة ، وربما كانت واجباته تقتصر على الاحتفالات . وكان المستشار Chancellor - كشأنه فى الغرب - رجل دين دائما، رغم أنه لم يكن قسيس الملك على نحو ما اعتاد عليه الغرب . وباعتباره رئيسا للديوان الملكى كانت مهمته صياغة كافة الموائيق وتسجيلها وختمها بالخاتم الملكى . وظل الديوان الملكى مكتب سجلات . ولما لم تكن هناك عدالة ملكية ولا قانون عام ، فلم يُطلب منه البتة أن يصدر أوامر رسمية أو أن ينشئ محكمة خاصة به ، ويبدو أن السجلات كانت محفوظة جيدا برغم بقاء القليل منها . وكانت لغة الديوان الملكى فى القرن الثانى عشر

هى اللاتينية ، وتحديد التواريخ بالسنة الميلادية والخمسة عشرية الرومانية^(٢٨) ، وأحيانا إضافة السنة الملكية أو عدد السنوات المنصرمة منذ الاستيلاء على القدس . وتبدأ السنة فى عيد الميلاد . وكان الملوك يضعون لأنفسهم أرقاما ابتداء من بلدوين الأول بغض النظر عن أسمائهم . ولم يكن لقب الملك يأخذ صيغة محددة بادئ الأمر ، لكنه أصبح فى نهاية الأمر لقبا معياريا^(٢٩) "ملك القدس اللاتينية المدنية المقدسة بفضل الرب" (per Dei gratiam in sancta civitate Jerusalem Latinorum Rex).

وكان الفيكونت أهم المسؤولين المحليين ، إذ كان يمثل الملك فى المدن الملكية ، وهو اللورد فى المدن البارونية . وكان يجمع الضرائب المحلية ويرسلها إلى الخزانة بعد أن يستبقى حاجته من مصروفات الحكومة المحلية ، وكان مسؤولا عن المحاكم القانونية المحلية وعن حفظ النظام عموما فى مدينته . ويأتى اختياره من أسرة نبيلة لكن مركزه لم يكن وراثيا . وكان الذى يليه فى القيادة ما يعرف باللقب العربى المحتسب Mathesep ، وأحيانا رئيس ضباط النظام Master-Sergeant ، الذى كان مسؤولا أصلا عن لوائح التسويق^(٣٠).

الدويلات التابعة

نادى ملك القدس بالسيادة على كل الدويلات الفرنجية فى الشرق ، واعتبر أن من حقه مطالبة حكامها بتسيير الجنود للانضمام اليه فى حملاته . وواقع الأمر أن تلك السيادة لم تكن موجودة إلا عندما يكون الملك قويا بما يكفى لفرضها ، بل لم تكن أنطاكية ولا طرابلس من الناحية النظرية تعتبر جزءا من المملكة . وقد تمكن الملوك الأوائل من فرض السيادة الشخصية على طرابلس . وقدم الكونت برتراند فروض الولاء لبلدوين الأول عام ١١٠٩م لما منحه من الأراضى . وسعى الكونت بونز إلى انكار تبعيته لبلدوين الثانى عام ١١٢٢م لكن محكمته العليا هى التى أجبرته على الخضوع ، وفى عام ١١٣١م رفض السماح للملك فولك المرور فى أراضيه ، لكن الملك عاقبه وأجبره على الخضوع مرة أخرى . وفى الفترة من عام ١١٦٤م إلى ١١٧١م كان الملك

(٢٨) (المترجم) الخمسة عشرية الرومانية Roman Indiction : دورة زمنية من ١٥ سنة أسسها الامبراطور قسطنطين عام ٣١٣ باعتبارها فترة ضريبية.

(٢٩) La Monte, *op.cit.* pp. 114-37 ، حيث يرد أفضل موجز لوظائف مسؤولى الدولة.

(٣٠) *Ibid.* pp. 135-6, 167-8.

أمالريك وصيا على طرابلس للكونت الطفل ريموند الثالث ، غير أن ذلك لكونه أقرب الأقرباء الذكور للصبى وليس كسيده الأعلى. وعندما شب ريموند الثالث عن الطوق لم يعترف قط بالسيادة للملك رغم انه كان تابعا للملك فيما يتصل بإمارة الجليل التي تملكها زوجته . وأثناء حملة عام ١١٨٧م التي اشترك فيها كأمر للجليل ، أعلنت كونتية طرابلس التابعة له عن حيادها . وأما علاقة القدس بكونتية الرها ، فكانت الرابطة الشخصية هي التي تربط الملكين ؛ فعندما عين بلدوين الأول بلدوين الثانى ليخلفه فى الرها ، أخذ منه قسم التبعية ، وحذا بلدوين الثانى حذوه مع جوسلين (أوف كورتناى) . على أن جوسلين اعترف فى أواخر أيامه بأمر انطاكية سيدها أعلى له . وكانت انطاكية فى وضع مختلف ، إذ أن بوهمند لم يعترف بأى سيد أعلى له ، وهذا ما لم يفعله الوصيان تنكريد وروجر اللذان عينتهما كلاهما المحكمة العليا فى الإمارة . وكان بلدوين الثانى يقوم بأعمال الرضى على الأمير الصغير بوهمند الثانى من عام ١١١٩م إلى عام ١١٢٦م ، بيد أنه يبدو أن ذلك كان بناء على دعوة من المحكمة العليا وليس بالحق القانونى . ودعى مرة أخرى عام ١١٣١م لسبب آخر زائد وهو كونه جد الأميرة كونستانس الصغيرة ، التى بدا للمحكمة أن مصالحها معرضة للخطر بسبب أمها أليس . وبعد موته ، وعندما حاولت أليس مرة أخرى الاستيلاء على السلطة ، دعت المحكمة العليا الملك فولك ليتسلم الوصاية بدلا منه . ومرة أخرى كان الملك هو أقرب الأقرباء الذكور للأميرة باعتباره زوج خالتها . ولو كان فى الشرق آنذاك أحد افراد آل هوفيل الذكور لكان هو المختار كوصى . وبالمثل ، عندما اختار الملك زوجا للأميرة كان يتصرف بناء على طلب المحكمة العليا وليس كسيد أعلى . وكان بلدوين الثانى قد طلب من ملك فرنسا اختيار زوج لوريثته ملسيند دون أى افتراض بأنه قبل السيادة الفرنسية . وعندما حان الوقت كسى تختار كونستانس زوجا ثانيا ، اختارته بمحض اختيارها كأمر ذات سيادة . وإذا كانت قد طلبت الإذن من الملك بلدوين الثالث ، فذلك لأن زوجها الذى اختارته كان تابعا للملك . وفى عام ١١٦٠م دعا الأنطاكيون الملك بلدوين الثانى كى يتولى الوصاية ؛ ومرة أخرى لأن الملك كان أقرب الأقرباء الذكور لأمرهم . إن الوضع القانونى لم يتضح بجلاء قط . وربما كان أمير انطاكية يعتبر ملك القدس أعلى منه مكانة ولكن ليس سيده الأعلى^(٣١).

(٣١) La Monte, *op. cit.* pp.187-202. وانظر أيضا 436. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp.7. ومع ذلك كان بوهمند الثانى تابعا لأمالريك بسبب الإقطاعية النقدية التى كان يتقاضاها فى عكا.

وكانت أنطاكية هي الأخرى متميزة عن طرابلس والرها في نظام حكومتها . ولا نعرف عن الرها سوى القليل ، وقد ضاعت الموائيق التي ربما يكون الكونت قد أصدرها . ويفترض أن كان له بلاط من أتباعه كأي لورد اقطاعي عظيم ؛ غير أن موضع الكونتية كأول المخافر الأمامية للعالم المسيحي حال دون أي تطور دستوري . فكانت معيشة أميرها شديدة الشبه بحياة أحد الأمراء الأتراك ممن كانوا يحيطون به ، وكان المستعمرون الفرنج قليلين ، وكذلك كانت الإقطاعيات الكبيرة قليلة . وكان الكونت يعتمد بدرجة كبيرة على المسؤولين الأرمن المديرين على النمط البيزنطي ، وقد اضطرت الحروب شبه الدائمة إلى أن يحكم حكما فرديا مطلقا بصورة أكبر مما لو كان الحال عليه في أراض هادئة . ويبدو أن دستور كونتية طرابلس كان مماثلا لدستور القدس . وكان للكونت محكمته العليا التي تقيده بأحكامها . بيد أن لقبه كان وراثيا وليس اختياريا ، وكانت أملاكه الشخصية أكثر بكثير من أملاك أي من أتباعه . وباستثناء أمر أو أمرين من أمور السياسة الجسام ، لم يكن الكونت يصادف متاعب من بارونات سوى القليل ، إذ كان البارونات منحدرين من الأتباع التولوزيين لأسلافه ، فيما عدا لوردات جبيل من أبناء جنوا . وكان لأهم مسؤولي البلاط نفس القاب ووظائف مسؤولي بلاط القدس . وبالمثل كان الفيكونت يدير مدن الإمارة^(٣٢) .

إمارة أنطاكية

كانت المؤسسات في إمارة أنطاكية تماثل في ظاهرها مثيلاتها في مملكة القدس . فكانت هناك محكمة عليا ومحكمة بورجوازية ونفس المسؤولين الكبار . وكان لأنطاكية قوانينها الخاصة بها Assises ، غير أن مغزاها العام كان متسقا مع مغزى قوانين القدس . ومع ذلك ، كانت هناك فروق كثيرة مستترة تحت السطح ؛ فكان لقب الأمير وراثيا ، ولم تكن المحكمة العليا تتدخل إلا لتعين وصي إذا دعت الحاجة ، وكان الأمير يسيطر منذ البداية في أهم مدن الإمارة والكثير من أراضها ، وكان ضنينا في منح هبات الأرض فيما عدا المقاطعات الحدودية ، وإنما كانت الاقطاعيات النقدية تناسبه بصورة أفضل . ويبدو أن القضاة المعينين من قبل الأمير يقتصرون على المحكمة العليا ، وأن ممثليه الخصوصيين يسيطرون على المحاكم البورجوازية . أما إدارة المدن والأملاك الأميرية ، فقد تبنى الأمير النظام البيزنطي بما له من بيروقراطية مقتدرة ووسائل معتنية في

La Monte, *op. cit.*, *loc. cit.*; Richard, *Le Comté de Tripoli*, pp. 30-43. (٣٢)

جمع الضرائب . وكان لكل من أنطاكية واللاذقية وجبله دوقها الذى كان مسؤولاً مسؤولية كاملة عن البلدية . والأمير هو الذى يعينه أو يفصله كما يحلو له ، لكنه أثناء فترة توليه لمنصبه يبدو انه كان عضواً من أعضاء المحكمة العليا . ودائماً ما كان دوق اللاذقية ودوق جبله يعينون من بين السكان الوطنيين ، أما دوق أنطاكية فكان ذا مولد فرنجى نبيل ، وإنما يساعده فيكونت قد يكون وطنياً . وقد عزز أمراء أنطاكية أنفسهم - كشأن أبناء عموماتهم فى صقلية - إزاء طبقة النبلاء باستغلالهم للمسؤولين المولودين محلياً والذين كانوا يعتمدون كلية على ما كان الأمراء يولونهم من معروف . وقد وحدوا فى أنطاكية مجتمعاً محلياً متعلماً من أصل يوناني وسيرباني وأرمينى ، باقياً منذ العصور البيزنطية . وكانت هناك رقابة زائدة على المحكمة العليا من خلال تعيين القضاة للبت فى المسائل القانونية الخالصة كما هو الحال فى المحاكم البورجوازية . وقد ورث الأمراء ما كانت تتبعه بيزنطة من نظام تقييم الضرائب وجمعها ، وكان لخزانتها *Secrète* بيروقراطيتها الخاصة بها ، ولا تعتمد فى إيراداتها على المحاكم المحلية كما هو الحال فى القدس . وكانوا يوجهون السياسة بقليل من الاعتبار للمحكمة العليا ، ويبرمون معاهداتهم الخاصة بهم مع القوى الأجنبية . وكان تنظيم الامارة كله مرتبطاً ببعضه البعض بصورة أوثق وأكفاً مما كان عليه فى الدويلات الفرنجية الأخرى . ولولا الحروب الدائمة فى أنطاكية ، وضالة شأن الأمراء أو وقوعهم فى الأسر واستبدال أسرة حاكمة نورماندية بأخرى فرنسية ، لتطورت حكومة أنطاكية بحيث تصبح على نفس القدر من كفاءة حكومة صقلية^(٣٣).

السيادة الامبراطورية

وزادت أهمية أنطاكية الفريدة بعلاقتها الخاصة مع الامبراطور البيزنطى . إذ كان الامبراطور ، وفقاً للنظرية البيزنطية ، رئيساً للكومنوليث المسيحى . ورغم أنه لم يحاول قط ادعاء السيادة على عواهل الغرب ، كان يعتبر العالم المسيحى الشرقى مجاله الخاص به . ذلك أن المسيحيين الأرثوذكس فى ظل الخلافة الاسلامية كانوا تحت حمايته ، وكان المسلمون يعترفون بالتزاماته إزاءهم ، ولم تكن لديه أية نية فى التخلّى عن واجباته بسبب الغزو الفرنجى . على انه كان هناك فرق بين أنطاكية والرها من ناحية وبين القدس وطرابلس من الناحية الأخرى . فلم يكن البلدان الأخيران يشكلان جزءاً

(٣٣) Cahen, *op. cit.* pp.435 ff. حيث يرد مقال كامل عن الدستور الأنطاكى وتطوره.

من الامبراطورية منذ القرن السابع ، على خلاف البلدين الأولين اللذين كانا مقاطعتين امبراطوريتين أثناء حياة الامبراطور الكسيوس الأول . وعندما كان الكسيوس يبحث زعماء الحملة الصليبية الأولى على الاعتراف بسيادته ، كان يفرق بين الأراضى الامبراطورية السابقة التى كان يتعين إعادتها إليه كأنطاكية ، وبين الغزوات الأخرى التى لم يكن يدعى سوى سيادة غير محددة عليها . وفشل الصليبيون فى احترام ما أقسموا عليه ، ولم يستطع الكسيوس إرغامهم على ذلك . بيد أن السياسة البيزنطية كانت دائما واقعية ؛ إذ أن الكسيوس عدل من طلباته بعد انتصاره على بوهمند بالسماح للنورماندين - فى معاهدة ديفول - بحكم أنطاكية وانما كأتباع له بصورة صارمة ، وطلب ضمانات معينة مثل تنصيب بطريق يونانى . وكانت تلك المعاهدة بمثابة حجر الأساس للمطالب البيزنطية ، لكن الفرنج تجاهلوا . ويبدو أن رأى العام الفرنجى كان يرى أن بوهمند قد تصرف تصرفا سيئا إزاء الامبراطور ، لكن الامبراطور ضيع قضيته بعدم ظهوره شخصيا . ومع ذلك ، كانت حقوق الامبراطور تتأكد عند ظهوره شخصيا ، وتعبير آخر ، وبالحكم من نصيحة الملك فولك عام ١١٣٧ م ، فإن مطالبته بالسيادة تصبح مقبولة كمطلب معقول من الناحية القضائية عندما يكون فى وضع يمكنه من فرض مطالبته ، وان اختار ألا يفعل ذلك ، ففى الامكان غض النظر عنها . وكانت هناك مناسبات أخرى قليلة عومل فيها الامبراطور كسيد أعلى ، مثلا عندما طلبت الأميرة كونستانس من الامبراطور مانويل اختيار زوج لها ؛ على انها لما وجدت اختياره لا يسرها تجاهلته . وهكذا كانت السيادة الامبراطورية متقطعة خفيفة فى ثقلها، غير أن أمراء انطاكية ومحاميهم كانوا يشعرون بالقلق إزاءها ؛ وبقيت بمثابة تقييد كامن لاستقلال سيادة الأمير.

وقد اعترف كونت الرها بالسيادة الامبراطورية عام ١١٣٧ م؛ لكن الرها كانت بعيدة عن الحدود الامبراطورية، وكانت المسألة أقل إلحاحا. ووافق رأى العام الفرنجى على أن تبيع كونتييسة الرها عام ١١٥٠ م ما تبقى من اراض فى الرها للامبراطور؛ على انه من الواضح أن ذلك قد حدث لتعذر الدفاع عن تلك الأراضى ضد المسلمي. وكان ريموند التولوزى على استعداد للاعتراف بسيادة الامبراطور، وفى عام ١١٠٩ م قدم ابنه برتراند فروض الولاء للامبراطور الكسيوس عن كونتييته المقبلة. وكرر ريموند الثانى هذا الولاء للامبراطور جون عام ١١٣٧ م. ورغم أن ريموند الثالث هاجم بيزنطة عام ١١٥١ م، إلا أنه تلقى مساعدة من البيزنطيين عام ١١٦٣ م، وربما كانت لفته من مانويل لإظهار سيادته العليا. بيد أن هذا الولاء ربما كان قاصرا على طرطوس وجيرانها

التي كانت تنتمي من الناحية التقليدية لأراضي أنطاكية كجزء من "موضوع" اللاذقية. أما العلاقات الشرعية بين بيزنطة ومملكة القدس فكانت ما تزال أقل دقة. إذ أن بلدوين الثالث قدم فروض الولاء للامبراطور مانويل في أنطاكية عام ١١٥٨ م؛ وفي عام ١١٧١ م قام أمالريك بزيارة القسطنطينية كتابع - وإن عومل كتابع رفيع المستوى. وكان كل من بلدوين وأمالريك يعتبر الصداقة البيزنطية جانباً أساسياً في سياستهما، ومن ثم كانا على استعداد لمنح بعض التنازلات. ورغم ذلك، يبدو أن محاميهما لم ينظروا إلى هذه التبعية بأكثر من كونها تبعية نفعية مؤقتة^(٣٤).

التنظيم الكنسي

إذا كان هناك سيد أعلى للملك القدس فهو البابا. إذ كانت الحملة الصليبية الأولى تتوقع قيام دولة دينية ثيوقراطية في فلسطين؛ ولو عاش البطريق أديمار (أوف لوبوى) لرما أمكن تطوير شيء من مثل هذا التنظيم، وربما كانت تلك الفكرة هي التي جعلت جودفري يحجم عن قبول تاج ملكي. وأما البطريق ديامبرت - خليفة أديمار - فكان يتخيل دولة يسيطر عليها بطريق القدس. وعكس بلدوين الآية باتخاذ التاج وباستغلال أعداء ديامبرت داخل الكنيسة. وكان واضحاً أن البابوية لن تقر قيام بطريرقية شديدة القوة في القدس، إذ قد تعمل على ترسيخ دعائمها هي نفسها كما كان ديامبرت يأمل، لما لها من موضع خاص وثروة آخذة في التنامي، بحيث تصبح كفواً شرقياً لروما، ومن ثم كان من اليسير على الملك الاستفادة من البابا ضد البطريق. وكانت التقاليد تفرض عليه تقديم فروض الولاء للبطريق في حفل التتويج، غير أنه سعى إلى ترسيخ لقبه من البابا. وكانت تلك التبعية للبابا أكثر قليلاً من التبعية الاسمية، ولا صرامة فيها أكثر مما كان الباباوات يدعون من تسيد على الممالك الأسبانية؛ على أنها كانت تبعية مفيدة للمملكة، إذ كان الباباوات يشعرون بأنهم مسؤولون عن مواصلة إمداد الأراضي المقدسة بالرجال والمال، وتقديم المساعدة الدبلوماسية كلما دعت الحاجة إليها. وفي الإمكان كذلك استخدام البابوية في كبح البطريرقية وممارسة بعض

(٣٤) عن علاقات أنطاكية بيزنطة أنظر Cahen, *op.cit.* pp. 437-8 وعن علاقات طرابلس بيزنطة أنظر Richard, *op.cit.* pp. 26-30 وعن كامل مسألة المزايم البيزنطية المتصلة بالدويلات الصليبية أنظر La Monte, "To what extent was the Byzantine Empire the Suzerain of the Crusading States?" in *Byzantium*, vol. VII

السيطرة على النظامين العسكريين . غير انه من الناحية الأخرى قد يساعد البابا النظامين العسكريين ضد الملك ؛ وكثيرا ما تدخل البابا عندما كان الملك يحاول كبح جماح المدن التجارية الإيطالية^(٣٥).

وكانت الكنيسة في المملكة خاضعة لبطريق القدس . وبعدها سببته طموحات دياميرت من اضطراب بادئ الأمر ، أصبح هو نفسه في واقع الأمر خادما للتاج . وكانت الهيئة العامة لكنيسة القبر المقدس ترشح اثنين من البطارقة يختار الملك واحدا منهما . وتحت البطريرق كان هناك أربعة من رؤساء الأساقفة لصور ، وقيسارية ، والناصرية ، ورعبوت - مؤاب ؛ وتسعة أساقفة ، وتسعة رؤساء أديرة رهبان يحق لهم وضع تاج الأسقف ، وخمسة نواب لرؤساء أديرة الرهبان ؛ على انه كانت هناك أديرة أخرى معينة تعتمد على البابوية مباشرة ، وتقوم بأعمال النظامين العسكريين . وكانت كنيسة فلسطين ذات ثراء فائق سواء ثراء اقطاعيات الأراضي أو الإقطاعيات النقدية . وعادة ما كان أبرز رجال الكنيسة مدينين بتقديم جنود خدمات ضباط النظام وليس جنود خدمات الفرسان ؛ فكان البطريرق والهيئة العامة لكنيسة القبر المقدس مدينين بتقديم خمسمائة من ضباط النظام ، وأسقف بيت لحم مائتين ، ورئيس أساقفة صور مئة وخمسين ، وكذلك رؤساء أديرة رهبان القديسة ماري جوزافات وجبل صهيون . وكان دير راهبات بيثاني - الذي أسسته الملكة مليسند لأختها - يمتلك مدينة أريحا كلها . وفضلا عن ذلك ، كانت لدى البطريرقية والكثير من الأديرة الأكثر شهرة أراض شاسعة وعقارات في سائر أنحاء أوروبا الغربية ، وكانت إيراداتها ترسل إلى فلسطين . وكان للكنيسة محاكمها الخاصة بها لتعامل مع الحالات التي تتصل بالهرطقة والانضباط الديني والزواج ، بما في ذلك الطلاق والزنا ، والمواثيق الدينية ، وكانت تلك المحاكم تسير على خطى القواعد والاجراءات المعتادة في محاكم القانون الكنسي في الغرب^(٣٦).

وكانت أراضي أنطاكية وطرابلس والرها تابعة كنسيا لبطريق انطاكية . وتسبب رسم حدود نطاق سلطة البطريرق في إثارة المشاكل ؛ إذ أن صور كانت داخلية من الناحية التقليدية في بطريرقية أنطاكية ، رغم أنها كانت تشكل جزءا من مملكة القدس بطريق الغزو . وحكم باسكال الثاني بنقل صور ، بأسقفياتها المستقلة في عكا وصيدا

(٣٥) La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 203-16.

(٣٦) La Monte, *op. cit.* pp.215-16; Rey, *op. cit.* pp. 268-9

وبيروت ، إلى القدس ؛ وقد تم ذلك لاتساقه مع الحقائق السياسية . غير أن المحاولات التي بذلها بطارقة القدس للفوز بنطاق السلطة على الأسقفيات الطرابلسية الثلاث في طرابلس وطرطوس وجبله فشلت برغم تأييد البابوية من حين لآخر . ويبدو أن ريموند التولوزي كان يمتنى نفسه بكنيسة مستقلة في كونتيته المقبلة ؛ غير أن خلفاءه سلموا بالسيادة الكنسية لأنطاكية ، إذ كان الأمر يسيرا عليهم لأنهم كانوا يعينون أساقفتهم دون تدخل.

وكان بطريق أنطاكية - كشأن زميله بطريق القدس - يُنتخب عن طريق الهيئة العامة للكنيسة ، لكن تعيينه في الواقع يتم بمعرفة الحاكم العلماني الذي كان بمقدوره أن يعزله كذلك . ونعرف أن أمراء معينين قدموا فروض الولاء للبطريق أثناء تنويعهم ، لكن الأرجح أن ذلك كان فقط في ظل الظروف الاستثنائية . وكان بطريق أنطاكية يرأس أساقفة البارة وطرشوس والمصيصة ، وكذلك الرها . أما رئاسة أسقفية تل بشير فقد أنشئت فيما بعد باللقب الرسمي "هيرابوليس (مينبج) Hierapolis (Menbij)" ، وكان عدد الأسقفيات يختلف باختلاف الظروف السياسية . فكان هناك تسعة رؤساء ونائبان لأديرة الرهبان اللاتينية . وأهم منشأتين رهبانيتين هما دير القديس بول ودير القديس جورج ، حيث يبدو أن الرهبان البندكتيين قد حلوا محل الرهبان اليونانيين ، ودير القديس سيميون حيث كانت الطقوس اللاتينية والطقوس اليونانية موجودة جنباً إلى جنب . ولم تكن كنيسة أنطاكية على نفس المستوى المرتفع من الثراء الذي كانت عليه كنيسة القدس ؛ إذ كان هناك في واقع الأمر الكثير من المنشآت الفلسطينية تمتلك ضياعاً في الإمارة^(٣٧).

النظامان العسكريان

قبل نهاية القرن الثاني عشر بوقت طويل كان النظامان العسكريان قد بسطا كامل سلطانهما على الكنائس العادية في الدويلات الفرنجية . فمنذ إنشائهما كانت أعداد أفرادها وثروتهما آخذة في الارتفاع بصورة مطردة ، وبحلول عام ١١٨٧م كان النظامان العسكريان يمثلان أهم ملاك الأراضي في الشرق الفرنجي ؛ إذ أخذت ضياعهما تتزايد باستمرار عن طريق الهبات والشراء على السواء . وانضم الكثير من

(٣٧) Cahen, op. cit. pp.501-10

النبلاء الفلسطينيين إلى صفوفهما ، وكان المجندون يفدون اليهما من الغرب بصورة منتظمة ؛ إذ كانوا يشعرون حاجة عاطفية فيهم كانت سائدة آنذاك ، عندما كان الكثير من الرجال تواقين إلى أن يسلكوا حياة دينية وتعمل في أنفسهم الرغبة الدفينة في عمل ايجابي والقتال من أجل العقيدة . كما كانوا يشعرون حاجة سياسة يملوها النقص المتواتر في جنود الشرق الفرنجي ؛ إذ كان التنظيم الإقطاعي يعتمد بصورة مفرطة على ما يحدث في الحياة العائلية للنبلاء من حوادث لتقديم البديل عن الرجال من ضحايا المعارك أو المرض ، فكان الصليبيون الزائرون يشاركون في الحرب مشاركة ايجابية طوال فصل أو فصلين ثم يعودون إلى أوطانهم ، بخلاف فرسان النظامين العسكريين ، إذ كانا يقدمان امدادا لا ينقطع من الجنود المحترفين المكرسين الذين لا يكلفون الملك شيئا إلى جانب ما كانوا عليه من ثراء بحيث بنوا الحصون وحافظوا عليها على نطاق لم يكن يقدر على الإضطلاع به من اللوردات العلمانيون سوى القلة ، ولولا مساعدتهم لهلكت الدويلات الفرنجية في مهدها . وليس لدينا معلومات عن أعداد أفرادهما سوى ما تدل عليه الأحداث . ففي عام ١١٥٨م شارك فرسان المستشفى في الحملة المصرية بإرسال خمسمائة فارس وعدد متناسب من الجنود الآخرين ؛ وكان عدد فرسان المعبد الذين اشتركوا في حملة عام ١١٨٧م ثلاثمائة تقريبا . وفي كل من الحالتين ربما كانت تلك الأعداد تمثل الفرسان القادمين من مملكة القدس فقط ، بخلاف عدد معين كان يستبقى كحاميات . وربما كان نظام فرسان المستشفى هو النظام الأكبر والأكثر ثراء من نظيره، غير أن فرسان المستشفى دأبوا على الانشغال بالأعمال الخيرية . وكانت دور الضيافة التابعة لهما في القدس تتسع لألف حاج ، وكانت لديهم مستشفى للمرضى المعدمين الباقين على قيد الحياة بعد الغزوات العربية المضادة . وكانوا يوزعون الصدقات يوميا على الفقراء بسخاء أدهش الزائرين . وكانوا - مع فرسان المعبد - يحرصون طرق الحجاج ويهتمون بصفة خاصة بأماكن الاستحمام المقدسة في الأردن . كما كان فرسان المعبد يوزعون الصدقات ، وانما بتبذير أقل من فرسان المستشفى . وكان جل الاهتمام منصبا على الأمور العسكرية ، وقد اشتهروا بالشجاعة في الهجوم وكانوا يعتبرون أنفسهم متخصصين في الحرب الهجومية ؛ كما اتقنوا الأعمال المصرفية وسرعان ما جعلوا من انفسهم وكلاء ماليين للصليبيين الزائرين ؛ وفيما بعد ساءت سمعتهم لما كان يشوب طقوسهم الخفية الغريبة من ريبة وتشكك ؛ لكنهم حتى ذلك الوقت كانوا محل تقدير عام لشجاعتهم وفروسيته^(٣٨) .

(٣٨) للإطلاع على المراجع المتصلة بالنظامين العسكريين انظر أعلاه ص ١٥٨ ، الملحوظة رقم ١

والى جانب مزايا النظامين العسكريين كانت هناك المساوى كذلك ، إذ لم يكن للملك سيطرة على النظامين وانما كان السيد الأعلى الوحيد لهما هو البابا ؛ وكانت الأراضي التى توهب لهما تتحول إلى وقف عليهما ، وليس هناك خدمات يلتزمان بها ، ورفضاً أن يدفع كبار مستأجرى أراضيها العثور المستحقة للكنيسة . وكان فرسانهما يحاربون مع جيوش الملك كحلفاء متطوعين لا أكثر . وربما وضع الملك أو اللورد من حين لآخر حصناً تحت السيطرة المؤقتة لفرسانهما ، وكان يطلب منهما أحياناً العمل كأوصياء على بعض القصر . وفى تلك الحالات كانوا جديرين بالقيام بالخدمة على صورة ملائمة . وكان السيدان العظيمان ، أو نائباهما ، يحضران المحكمة العليا للمملكة ؛ وكان ممثلوهما يحضرون فى المحاكم العليا التابعة لأمير انطاكية وكونت طرابلس . غير أن ما كانوا يشيرون به من نصح يخلو من أية مسؤولية ، فإذا لم تلق السياسة الرسمية هوى فى انفسهم يرفضون التعاون ، كما حدث عندما قاطع فرسان المعبد الحملة على مصر عام ١١٥٨ م . وكان تواتر المنافسة بين النظامين بمثابة مصدر خطر دائم ، فنادراً ما أمكن إقناعهما بالاشتراك معاً فى حملة . وكان كل نظام يسير طبقاً لما اختطه لنفسه من خط دبلوماسى بغض النظر عن السياسة الرسمية للمملكة . فنجد كلا النظامين يرم المعاهدات مع حكام المسلمين ، وليست قصة المفاوضات مع الحشاشين عام ١١٧٢ م سوى دليل على استعداد فرسان المعبد للتضحية بترتيب تتضح الحاجة الماسة إليه ، وذلك من أجل مصالحهم المالية ، وازدرااتهم الصريح لسلطة البلاط الملكى . وكان فرسان المستشفى طوال تاريخهم أكثر اعتدالاً ولا يتصفون بالأنانية، على أن النظام ، حتى مع هذا ، كانت له الأسبقية على المملكة .

وهناك توازن مماثل بين المزايا والمساوى يظهر فى علاقات الدويلات الفرنجية بالمدن التجارية الإيطالية والمدن التجارية فى البروفانس الفرنسى^(٣٩) . لقد كان المستعمرون الفرنج جنوداً لا بحارة . وفيما بعد طورت كل من طرابلس وانطاكية أسطولا صغيراً ، وبنى النظامان العسكريان أساطيل أصغر ؛ لكن المملكة نفسها ، بموانئها القليلة الجيدة ، والنقص العام فى الأخشاب ، لم يكن لديها قط مؤسسة بحرية ملائمة . فكان من الضروري لأية حملة تشتمل على قوة بحرية لغزو المدن الساحلية، أو الحملات التى جُردت على مصر ، الاستعانة ببعض القوى البحرية ، وكانت القوتان البحريتان العظيمتان فى الشرق هما بيزنطة ومصر . على أن مصر كانت دائماً عدواً كامناً

(٣٩) أنظر أدناه الفصلين الثانى والثالث ، فى أماكن متفرقة .

حقيقيا ، وبيزنطة محل ريبة دائما . وكان ممكنا أن ترقى الفائدة من الأسطول الصقلى لولا أن السياسة الصقلية لم تكن حذيرة بالثقة . ومن ثم بات الإيطاليون والفرنسيون الشماليون هم الحلفاء الأفضل ؛ وزاد من أهمية مساعدتهم الحاجة إلى إبقاء الطرق البحرية الموصلة بالغرب مفتوحة ولتنقل الحجاج والجنود والمستعمرين إلى الشرق الفرنجى . بيد انه كان يتعين دفع مقابل للمدن التجارية التى طلبت تسهيلات وحقوق تجارية ، وأن يكون لها أحيائها الخاصة بها فى المدن الأكبر ، والإعفاء التام أو الجزئى من الرسوم الجمركية ؛ وكان من الضرورى منح مستعمراتهم امتيازات زائدة فيما يتصل بالأرض . ولم تسبب تلك الامتيازات فى جعلتها استياء لدى السلطات الفرنجية . فآية خسارة فى الإيرادات سوف يوازنها ما يحفزونه من انتعاش التجارة ؛ ولم تر المحاكم الملكية ما يضطرها إلى إنفاذ قوانين جنوا أو البندقية ، خاصة وان القضايا التى تشتمل على مواطن من مواضى المملكة ، أو على جريمة جسيمة مثل القتل ، كانت تترك لهم . وكانت هناك منازعات من حين لآخر ؛ إذ كان البنادقة فى حالة عدااء دائم مع رئيس أساقفة صور ، ودام شجار طويل بين أبناء جنوا والملك أمالريك الأول . وفى كل من الحالتين أيدت البابوية الإيطاليين ، وربما كان الحق القانونى فى جانبهم . على أن المدن التجارية لم تخرج من أجل رفاهية العالم المسيحى ، وانما وراء مجرد الكسب التجارى . وعادة ما كانت المصلحتان تحدثان فى آن واحد ؛ لكنهما إذا ما اصطدمتا كانت المصلحة التجارية العاجلة هى السائدة . ومن أجل ذلك ، لم يكن الإيطاليون والفرنسيون الشماليون على علاقة صداقة منتظمة مع الملك . وفضلا عن ذلك ، كانت غير النظامين من بعضهما البعض زادت شحوب طفيف إذا قورنت بما كانت عليه الغيرة المتفشية فيما بين المدن التجارية ؛ فكانت البندقية على استعداد لمساعدة المسلمين على نحو أسرع بكثير من مساعدتها لجنوا أو بيزا أو مرسيليا ، ويصدق نفس الشيء على ما كانت تراه غريمتها المدن الأخرى . وهكذا ، وبينما كانت المساعدة التى تقدمها تلك المدن جميعا أمرا أساسيا للحفاظ على بقاء الشرق الفرنجى ، فإن ما كان سائدا بين مستعمراتها من مكائد وشغب ، واستعدادهم الطوعى للإقدام على خيانة القضية المشتركة من أجل منفعة لحظية ، قضى على الكثير من القيمة المرتجاة منها^(٤٠) .

وبدوا فى نظر الحجاج خاصة فى صورة جشعة مخزية ، وبصورة غير مسيحية ؛ ذلك أن الغزو كان حافزا كبيرا لرواج حركة مرور الحجاج ، بحيث كان النزل الضخم

الذى يمتلكه فرسان المستشفى كامل العدد دائما . وبرغم الهدف الأصلي للحملة الصليبية ، ظل الطريق العابر للأناضول على حالته غير الآمنة ؛ إذ لا يجرؤ على تحدى أخطاره سوى جماعة مسلحة تسليحا جيدا ، ومن ثم كان الحاج العادى يفضل السفر بحرا بعد أن يجد له مضجعا فى سفينة ايطالية حيث كانت أجرة السفر باهظة التكلفة . وربما يجتمع عدد من الحاج لاستئجار سفينة بكاملها ، وحتى مع هذا كان استئجار القبطان والبحارة باهظ التكلفة كذلك . وكان الأرخص للحاج من شمال فرنسا أو إنجلترا أن يرتحل مع إحدى القوافل الصغيرة التى كانت تبهر سنويا من أحد موانئ القنال الانجليزى إلى الشرق . غير انها كانت رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر ؛ ففيها التعرض لعواصف الأطلنطى ؛ فضلا عن سفن القرصنة الاسلامية المنتظرة فى مضيق جبل طارق وبطول الساحل الأفريقى ، ولم تكن هناك موانئ من أوپورتو أو لشبونة وحتى صقلية يمكن الحصول منها على الماء والمؤن بسلام ، وكان من العسير أن تحمل السفينة من الإمدادات ما يكفى للرجال والخيول الذين تقلهم . فكان الأيسر بكثير السفر برا إلى بروفانس أو ايطاليا لركوب سفن اعتادت على الرحلة اعتيادا حسنا . وبالنسبة لمن يحج بمفرده كان العثور على مضجع فى سفينة أيسر وأرخص فى موانئ ملك صقلية ، لكن الجماعات الكبيرة كانت تعتمد على اساطيل المدن التجارية الكبيرة^(٤١).

الملابس

وعندما كان المسافر يهبط فى عكا أو صور أو السويدية ، يجد نفسه فى الحال فى جو غريب . إذ كانت البنية الفوقية للشرق الفرنجى تخفى تحتها أرضا شرقية . وكانت حياتها الفاخرة تصدم الغربيين وتترك فيهم أثرا ، خاصة وان الحياة فى أوروبا الغربية كانت ما تزال بسيطة متقشفة ؛ إذ كانت الملابس مصنوعة من الصوف ونادرا ما تغسل ، إذ كانت تسهيلات الغسيل قليلة ، فيما عدا بعض المدن القديمة التى تعلقت بها تقاليد الحمامات الرومانية . وحتى فى أعظم القلاع ، كان الأثاث خشنا ولا يرتجى منه أكثر من تأدية الغرض ، وكادت السجاجيد أن تكون مجهولة . وكان الطعام رديئا

(٤١) أنظر Cahen, "Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin. III. L'Orient latin et commerce du Levant", in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, p. 333

يفتقر إلى النوعية ولا سيما خلال أشهر الشتاء الطويلة . وفى كل مكان تقل الراحة وتتضاءل الخصوصية . أما الشرق الفرنجى فكان على نقيض منهل . وربما لم يكن هناك الكثير من البيوت التى تصل ضخامتها وروعيتها ما كان عليه القصر الذى بناه آل إبلين فى أوائل القرن التالى فى بيروت، بأرضياته الفسيفسائية ، وحوائطه الرخامية ، وسُقفه المطلية ، ونوافذه الكبيرة السخية، التى يطل بعضها على البحر غربا ، وبعضها الآخر على الجبال شرقا حيث الحدائق والبساتين . وبقينا كان القصر الملكى فى القدس - المنشأ فى جزء من المسجد الأقصى - أقل تواضعا ، مع أن قصر عكا كان صرحا شامخا. على أن جميع النبلاء والبورجوازيين الأثرياء ملأوا منازلهم فى المدن بمفاخر مماثلة؛ فكانت تحوى البُسط ، والسُتر الدمقسية ، والموائد وصناديق النفائس ذات التقوسات الرائعة ، وأكسية الفرش والموائد الخالية من العيوب ، ومعدات الطعام الذهبية والفضية ، وسكاكين الموائد ، والخزف المزخرف الراق ، وحتى صحاف الخزف الصينى المحلوبة من الشرق الأقصى . وكانت المياه فى أنطاكية تنقل من عيون دافنى إلى كافة المنازل الكبيرة خلال قنوات المياه المبنية والأنابيب . والكثير من المنازل الواقعة بطول الساحل اللبنانى كانت لها إمداداتها الخاصة بها . أما فى فلسطين ، حيث تقل وفرة المياه ، فكان للمدن صهاريج تخزين منظمة تنظيما جيدا ؛ وفى القدس كانت شبكة المجاري التى شيدها الرومان ما تزال فى حالة مثالية . وكانت أماكن القلاع الحدودية الكبيرة محددة لتكون مريحة كمنازل المدن تقريبا ، على الرغم من تجهم الحياة وشراستها خارج الأسوار . فكانت فيها حمامات ، ومخادع مزدانة لسيدات الأسرة وقاعات استقبال رائعة. وأما الحصون التابعة للنظامين العسكريين فكانت أبسط بقدر طفيف ، أما فى المقار الأسرية العظيمة ، مثل قلعة الكرك فى مواب أو غيرها فى طبرية ، كان أمر القلعة يعيش عيشة تزد فى روعتها عن حياة أى ملك فى أوروبا الغربية^(٤٢).

وسرعان ما اصطبغت ملابس المستوطنين بالصبغة الشرقية الفاخرة بنفس القدر الذى اصطبغت به مفروشاتهم . فعندما يخلع الفارس أرديته الحربية ، يرتدى بُرنسا حريريا يطل رأسه منه ، وعادة ما يحيط رأسه بتوربان (عمامة ضيقة لا حرف لها) ؛ وكان عند خروجه فى حملة يرتدى معطفا كُتانيا فوق دروعه ، لحماية الدروع المعدنية من الشمس، وكوفية على النمط العربى فوق خوذته . واتخذت ملابس السيدات النزي الشرقى التقليدى الذى يتألف من ثوب داخلى طويل (روب) ، وسترة (بلوزة) قصيرة

(٤٢) Cahen, *La Syrie du Nord*, pp.129-32. Rey, *op.cit.* pp.3-10. ويورد كاهن

مقالا عن انطاكية وأسباب الراحة فيها.

أو معطف قصير ، بتطريز كثيف بخيوط الذهب ، وربما مطرزة بالمجوهرات . وكن فى الشتاء يرتدين الفراء كما كان يفعل أزواجهن . وكن خارج المنزل يضعن حمارا كالنساء المسلمات ، وذلك لحماية بشرتهن المطلية بوافر الطلاء أكثر من كونه حمارا للعة ، وكن يمشين مشية رقيقة متكلفة . بيد أنه على الرغم من حر الرقة والتراخي هذا كله ، كان فيهن شجاعة كأزواجهن وإخوتهن ، فكانت الكثيرات من نبيلات النساء يتسلمن قيادة الدفاع عن حصونهن فى غيبة بعولتهن . وقد حذت زوجات التجار حذو سيدات الطبقة الأرستقراطية وكثيرا ما بزّتهن فى سخاء زيتتهن . وكانت المحظيات الناجحات - وهى طبقة لم تكن معروفة حتى آنذاك فى المجتمع الغربى - رائعات بنفس القدر . ويقول المؤرخ وليم الصورى عن السيدة باشيا دى ريفيرى ، وهى زوجة صاحب حانوت من نابلس أوقعت البطريق هيراكليوس فى حبائل فتنها، إنك قد تظن أنها كونتيسة أو بارونة مما ترتديه من حرير وجواهر^(٤٣).

ولأن بدت تلك الفخامة غريبة للحاج الغربى، فقد كانت شيئا طبيعيا للزائر القادم من الشرق الإسلامى أو من بيزنطة. ولم يكن للمستعمرين الفرنج مندوحة من محاولة التكيف مع بيئتهم الجديدة، ولا مهرب من الاتصال باتباعهم وجيرانهم. وكان المناخ من الأمور التى يتعين وضعها فى الاعتبار؛ فشتاء فلسطين وسوريا يكاد يطابق شتاء أوروبا الغربية فى كآبته وبرودته ، لكن فترة دوامه أقل. وأما الصيف الطويل القائل فسرعان ما تعلم منه المستعمرون أن لا غنى لهم عن ارتداء ملابس مختلفة، وتناول أطعمة مختلفة، وتعديل أوقاتهم اليومية. ولا محل لعادات الشمال الفظة، وبدلا منها كان عليهم أن يتعلموا الأساليب الوطنية. وعليهم توظيف الخدم الوطنيين ، وكانت المربيات الوطنيات يقمن على رعاية أطفالهم، وسائسو الخيول يعتنون ببيادهم. وكانت هناك أمراض غريبة فى الأنحاء، ومن ثم كان أطباؤهم فاقدى الحيلة حيالها، وسرعان ما اضطروا إلى الاعتماد على الطب الوطنى^(٤٤). وكان حتما عليهم أن يتفهموا الوطنيين

(٤٣) تظهر صورة تنكريد على العملات النقدية وهو يرتدى التريبان أو عمامة الرأس الضيقة بلا حافة (انظر إعلاه ص ٦٤) وفى عام ١١٩٢م شكر هنرى (أوف شامباني) صلاح الدين على هدية التريبان التى أهداها له معلنا أن تلك الأشياء تلقى استحسان زملائه وأنه سوف يرتديها دائما (انظر Rey, op. cit. pp.11) ويصف ابن جبر، Ibn Jubayr (ed. Wright, p.309) ملابس زفاف مسيحي فى عكا عام ١١٨٤. (وعن باشيا أنظر أدناه ص ٤٨٢).

(٤٤) الطبيب الطرابلسى الذى يفترض أنه من السم لبلدوين الثالث كان وطنيا (انظر أدناه ص ٤١٤). وعندما كان أمالريك على فراش الموت أثبت الأطباء الوطنيين أنهم أكثر حكمة من أطباء الفرنج (انظر أدناه ص ٤٥٥). وعين أمالريك رجلا يدعى سليمان بن داود وإبنه الأكبر فى منصب طبيى البلاط ، بينما كان الابن الثانى لسليمان يشغل منصب معلم

وان يمتزجوا بهم؛ ومما ساعد على ذلك غيبة الأرستقراطية الوطنية ، التي كانت خليفة بتحدى حكمهم، بعد أن هرب المسلمون من مملكة القدس وكونتية طرابلس. أما في الأماكن الأبعد إلى الشمال، فكانت الطبقتان الأرستقراطيتان اليونانية والأرمينية تشعران بالغيرة منهم، وتدخلت السياسة في تفاهمهما المتبادل، رغم أن الأرمن في نهاية الأمر تقابلوا معهم في منتصف الطريق وتبنوا الكثير من العادات الفرنجية^(٤٥).

الصدقة مع المسلمين

لم يكن من الممكن قط أن يحل السلام الدائم بين الفرنج وحيوانهم المسلمين ، وإنما كانت هناك اتصالات آخذة في التزايد . إذ كانت إيرادات الدويلات الفرنجية تتألف بدرجة كبيرة من الضرائب المفروضة على التجارة بين داخل البلاد المسلمة وبين الساحل؛ فكان يتعين السماح لتجار المسلمين بحرية الحضور إلى الموانئ البحرية ومعاملتهم معاملة معقولة . ومن العلاقات التجارية نبعت الصداقة . ذلك أن نظام فرسان المعبد - بأنشطته المصرفية الضخمة - كان على استعداد لتوسيع عملياته بحيث يصبح دائما للعملاء الكفرة، والاحتفاظ بمسؤولين متخصصين في شؤون المسلمين . وفي ذات الوقت ، كان الساسة الأعقل بين الفرنج يرون أن لا دوام لمملكتهم إلا إذا بقي العالم الاسلامي مشتتا ، ومن أجل ذلك باتت البعثات الدبلوماسية في حيثة وذهب . وكان لوردات الفرنج والمسلمين على السواء يُستقبلون بآيات التشريف في كل من بلاط غريم العقيدة . وكثيرا ما كان الأسرى أو الرهائن يمحضون سنوات في حصون الأعداء أو قصورهم . ورغم المعاناة التي تجشمها مسلمون قليلون في تعلم اللغة الفرنسية ، كان الكثير من الفرنج - نبلاء وتجار - يتكلمون العربية ، بل إن القليل منهم اهتم بالأدب العربي مثل رينالد أمير صيدا . وفي وقت الحرب كان كل جانب يعرب عن التقدير لما يلحظه من لفتات الكياسة والفروسية . وفي أوقات السلم كان اللوردات من كل جانب يشاركون لوردات الجانب الآخر في رحلات الصيد^(٤٦).

ركوب الخيل في البلاط . أنظر Cahen, 'Indigènes et Croisés', 1934 Syria, ولم يترك الطب الفرنجي أى انطباع لدى أسامة (انظر أدناه ص ٣٦٩).

(٤٥) أنظر. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp.561-8.

(٤٦) (عن رينالد أمير صيدا أنظر أدناه ص ٥٢٦). عندما كان المسلمون يتفاوضون مع الحكام المسيحيين ، كان المسلمون يصرون على أن يدفع فرسان المعبد ضمانات مالية - مثلا المؤرخ أبو شامة. Abu Shama, p. 32 وكان ريموند الثالث كونت طرابلس يتحدث اللغة

كما غاب كامل التعصب الدينى . إذ كانت للعقيدتين العظيمتين خلفية مشتركة ؛ فحيثما تُكتشف فى الخليل آثار يعتقد أنها لإبراهيم واسحق ويعقوب كان المؤرخون المسلمون على نفس القدر من الاهتمام الذى كان عليه المسيحيون^(٤٧) . وحتى فى اوقات الحرب كان حجاج الفرنج يستطيعون التوغل حتى مزار سيدة ساريناى Our Lady of Sardenay على التلال خلف دمشق^(٤٨) ، وكان البدو الذين يحرسون دير سانت كاترين العظيم فى صحراء سيناء يحرسون دائما زائريه^(٤٩) . وتسببت المعاملة الوحشية التى كان رينالد (اوف شاتيلون) يعامل بها الحجاج المسلمين فى أن شعر رفاقه فى العقيدة بصدمة كادت أن تكون مساوية لما شعر به صلاح الدين من حنق . وكان المؤرخ وليم الصورى William of Tyre على استعداد للاعراب لنور الدين عن تقديره لورعه رغم اختلافه معه فى العقيدة . وكثيرا ما كان الكتاب المسلمون يعربون عن اعجابهم بالفروسية الفرنجية^(٥٠) .

ويرد أروع وصف للجو السائد آنذاك فى مذكرات أسامة بن منقذ فى شيزر . وكان بنو منقذ يؤلفون أسرة حاكمة ضئيلة الشأن تعيش فى خوف دائم من أن يستولى عليها مسلمون آخرون يفوقونها قوة ، ولذا كانوا على استعداد للتفاهم مع الفرنج ، وأمضى أسامة نفسه سنوات كثيرة فى كل من بلاطى دمشق والقاهرة عندما كان كلاهما على علاقة دبلوماسية وثيقة بالقدس . وكثيرا ما كان أسامة يقوم بزيارات للأراضى الفرنجية ، كمبعوث وكسائح وكرياضى ؛ ورغم أنه فى كتابته يحدد لكل تلك الأنشطة سوء المصير فى الآخرة ، كان له أصدقاء كثيرون من الفرنج يستمتع بمناقشاتهم . وقد صدمته فجاجة ما كانوا عليه من الطب ، رغم أنه تعلم منهم علاجا ناجعا لنوع من أنواع مرض الدرن الورمى ، وصُيِّق لمدى الحرية المسموح بها لنسائهم،

العربية ، ويكاد يكون من اليقين ان المؤرخ وليم الصورى William of Tyre كان يقرأ العربية ، أو كان يستخدم أمناء يعرفون اللغات الشرقية . (انظر ادناه ص ٥٣٤).

(٤٧) يشير ابن القلانيسى الى الاكتشاف. Ibn al-Qalanisi, p. 161. أنظر أيضا Kohler, 'Un nouveau récit de l'invention des Patriarches Abraham, Isaac et Jacob à Hébron', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV, pp. 477 ff.

(٤٨) عن سيدة ساردينياى Our Lady of Sardenay ، انظر . Rey, *op. cit.* pp. 291-6.

(٤٩) عن دير سانت كاترين وحججه انظر . Rey, *op. cit.* pp. 287-91.

(٥٠) مثلا ، يطلق William of Tyre (xx, 31, p. 1000) على نور الدين (الأمير العادل، الفطن الحصيف، والأصل الثانى للتقاليد الدينية et princeps justus, vafer et providus, et secundum gentis suae traditiones religiosus).

وشعر بالخرج عندما عرض عليه صديق فرنجي ارسال ابنه كى يتعلم فى اوروبا الغربية . وكان يراهم برابرة بعض الشئ ، وبضحك منهم مع أصدقائه المسيحيين الوطنيين ، غير انه كان يستطيع أن يتوصل إلى تفاهم معهم . وكان الوافدون الجدد من الغرب بمثابة العقبة الواحدة التى تعوق الصداقة ، وفى احدى المرات كان جالسا مع فرسان المعبد فى القدس وقام يصلى فى ركن من المسجد الأقصى بعد أن استأذنهم ، فأهانته أحد الفرسان إهانة فظة ، وسارع فارس آخر من فرسان المعبد بشرح له أن ذلك الرجل اللفظ قد جاء لتوه من اوروبا وهو لا يعرف بعد أى سلوك حسن^(٥١).

الكنيسة الأرثوذكسية

دأب المهاجرون فى الواقع، بطبيعتهم الفجة، على تدمير سياسة الشرق الفرنجى، وهم الذين جاءوا لحرب من أجل الصليب وقد عقدوا العزم على عدم السماح بأى تأخير فى تحقيق غايتهم. وكانوا أقرباء فى الكنيسة بوجه خاص . ولم يكن أى من بطارقة القدس اللاتين فى القرن الثانى عشر قد ولد فى فلسطين ، وليس هناك من عظام رجال الكنيسة اللاتينية سوى وليم رئيس أساقفة صور الذى أنكر عليه منصب البطريراقية . ونادرا ما كان نفوذ الكنيسة موبدا للتفاهم مع الكفرة ؛ بل كان نفوذها فاجعا بشكل أكبر فى علاقاتها حتى مع المسيحيين الوطنيين . وكان للمسيحيين الوطنيين نفوذ عظيم لدى عواهل المسلمين ، وكان الكثير من أشهر مشاهير الكتاب والفلاسفة العرب ، وجميع الأطباء تقريبا مسيحيين . وكانوا خليقين بتشكيل جسر بين العالمين الشرقى والغربى.

وقد قبلت طوائف الأرثوذكس فى فلسطين الهرمية اللاتينية نظرا لوجود رجال الدين الأرثوذكس الأعلى جميعا فى المنفى وقت الغزو . وحاول البطريرق ديامبرت أن يحرم قساوستهم من مراكزهم فى كنيسة القبر المقدس ، غير أنه حدثت أحداث فى قداس النار المقدسة عام ١١٠١م ، وأبقى نفوذ الملك على رجال الدين فى الكنيسة وسمح باقامة الشعائر الأرثوذكسية فيها . وكان التاج صديقا دائما للأرثوذكس ، فكانت مورفيا - مليكة بلدوين الثانى وأم مليسيند - أميرة ارثوذكسية ، وكذلك كانت الملكتان زوجتا ولدى مليسيند أرثوذكسيين. وكان بلدوين الأول يظهر آيات

التشريف فى تعامله مع رئيس دير القديس ساباس ، وهى الهرمية الأرثوذكسية الرائدة التى بقيت فى فلسطين ؛ ووهبت الملكة مليسيند الأراضى للدير الذى ربما كان مدينا للتاج ببعض الخدمات . وتمكن الامبراطور مانويل من الحفاظ على مكانته الحامية للمصالح الأرثوذكسية ، ويتضح ذلك مما قام به من اصلاحات كان مسؤولا عنها فى الكنيستين الكبيرتين : كنيسة القبر المقدس وكنيسة الميلاد . وفى ذات الوقت تقريبا ، وربما بمساعدة الامبراطور ، أعيد بناء وزخرفة دير القديس إيوثيموس فى برية يهودا . على أن المردة لم تتزايد بين رجال الدين اللاتين واليونانيين ؛ ففى عام ١١٠٤م استقبل الحاج الروسى دانيال بجفاوة فى المنشآت اللاتينية ، لكن الحاج اليونانى فوكاس الذى حج عام ١١٨٤م ، وبرغم زيارته لمنشآت لاتينية ، لم يستلطف اللاتينيين ، باستثناء راهب اسبانى عاش فى وقت ما فى الأناضول ، ويقص مرحا معجزة أربكت الكاهن اللاتينى الذى يطلق عليه أسقف اللد "المتقحم" . والأرجح أن محاولة الهرمية اللاتينية لفرض دفع العشور على الأرثوذكس ، إلى جانب ازدهارها للأرثوذكس حتى أنه كان نادرا ما تسمح لهم الكنائس الكبيرة باقامة شعائر عقيدتهم ، هو الذى قلل استحباب الأرثوذكس للحكم الفرنجى ، وجعلهم على استعداد لقبول استرداد صلاح الدين للبلاد - بل وللترحيب به - بعد أن انتهت حماية مانويل لهم . وفى انطاكية ، أسفر وجود مجتمع يونانى قوى ، وما حدث من تطورات سياسية عن ظهور العداء علانية بين اليونانيين واللاتين ، مما أضعف الامارة على نحو حسيم^(٥٢) .

(٥٢) انظر Daniel the Higuemene فى اماكن متفرقة ، و John Phocas, *A Brief Description*، فى اماكن متفرقة . وانظر ايضا Rey, op.cit. pp.75-93 ، و Cahen, loc.cit. عندما كانت الحاجة الروسية إيوفروسين (Euphrosyne of Polotsk) تموت فى فلسطين التمت من رئيس دير القديس ساباس أن يجد لها مقبرة ملائمة باعتباره رئيس رجال الكنيسة الأرثوذكسية . انظر de Khitrowo, 'Pèlerinage en Palestine de l'Abbesse Euphrosyne'، فى *Revue de l'Orient Latin*, vol. III, pp. 32-5. الكتاب الأرثوذكس المتأخرون - مثل دوتيسوس Dositheus فى القرن السادس عشر - والذين كرهوا التسليم بحقيقة ان الأرثوذكس قبلوا البطارقة اللاتين من ١٠٩٩م الى ١١٨٧م ، باصدار قائمة بستة بطارقة أو سبعة فى الفترة بين وفاة سيميون عام ١٠٩٩م وحتى ١١٨٧م، (Dositheus, II, p.1243; Le Quien, *Oriens Christianus*, III, pp.498-503) وهناك من يدعى John ، بطريق القدس ، الذى آيد إدانة Soterichus عام ١١٥٧م ، وجون آخر بطريق القدس - ويفترض انه نفس الشخص - الذى كتب بحشاضة اللاتين فى نفس الفترة تقريبا (Drumbacher, *Gesch. der Byz. Literatur*, p.91) ويحتمل ان الامبراطور مانويل كان يفكر فى إعادة الاستيلاء على بطريركية القدس ، واحتفظ بطريق لذلك اليوم . غير انه من الواضح ان الأرثوذكس فى فلسطين خضعوا للبطريق اللاتينى . ويتأكد وجود قسوسة يونانيات فى كنيسة القبر المقدس ، فى *Carulaire du Saint Sépulcre*, ed. Rozière, p.177.

وفى المملكة ذاتها ، لم تكن طوائف الهرطقة بذات أهمية خارج القدس ، حيث كانت كلها تقريبا تحتفظ بمنشآت فى كنيسة القبر المقدس . وحاول دياميرت دون جدوى طردهم هم ايضا ؛ فقد حفظ لهم التاج حقوقهم . وكانت الملكة مليسند فى الواقع قد منحت تأييدها شخصا للسريان اليعاقبة عند نظر الدعوى التى رفعوها ضد فارس فرنجى ، وفى كونتية طرابلس كانت أهم كنيسة هرطيقية هى كنيسة الموارنة ، وأتباعها هم الباقون من العقيدة المونوثيليتية^(٥٣) وعاملتهم الكنيسة المسيحية بما يندر من اللباقة والصبر ؛ وفى عام ١١٨٠م وافقت الطائفة على الاعتراف بسيادة الكرسي الأسقفى الرومانى ، شريطة أن يحتفظ رعاياها بطقوسهم الدينية وعاداتهم السريانية ولم يتخلوا عن معتقدتهم الهرطيقى القائل بوجود إرادة واحدة للمسيح . وأما عن مفاوضاتهم - التى لا نعرف عنها سوى النذر اليسير - فقد أدارها باقتدار البطريق إيمرى بطريق انطاكية . إن القبول بهذه الكنيسة المتحدة الأولى^(٥٤) يظهر أن البابوية كانت على استعداد للسماح بأعراف متشعبة ، وحتى بلاهوت مشكوك فيه ، شريطة الاعتراف بسلطانها النهائية^(٥٥).

رفاهية الشرق الفرنجى

كانت الكنيسة الأرمنية المنفصلة فى امارة انطاكية قوية وتلقى التشجيع من الأمراء ، الذين رأوا فيها غريما نافعا ضد الكنيسة الأرثوذكسية . وفى الرها كان الأرمن يحظون بصداقة آل كورتنای رغم أنهم كانوا محل ريبة من بلدوين الأول وبلدوين الثانى . وجاء الكثير من أساقفة الأرمن للاعتراف بسيادة البابا ، وحضر البعض منهم عددا من المجمع الكنسى التى عقدتها الكنيسة اللاتينية ، وهم يغفرون فى التعاليم اللاتينية مالا يغفر فى التعاليم اليونانية . وفى بادئ الأمر كان السريان اليعاقبة فى عداوة صريحة للصليبيين ويفضلون الحكم الاسلامى ؛ ولكن بعد سقوط الرها ، أصبحوا فى حالة صلح مع أمير انطاكية ، إسميا بسبب معجزة عند قبر القديس بارسوما ، وفعليا

(٥٣) (المترجم): المونوثيليتية Monothelism : معتقد لاهوتى يرى أن للمسيح إرادة واحدة رغم أن له طبيعتين.

(٥٤) (المترجم): الكنيسة المتحدة Uniate Church : أية كنيسة مسيحية شرقية متحدة مع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وإنما تمارس طقوسها الخاصة بها وأعرافها وما الى ذلك.

(٥٥) انظر Dib, article 'Maronites', in Vacant et Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique*, vol.x, 1.

لشعورهم شعورا عاما بخوف من بيزنطة وكراهيئها . وكان البطريق اليقروبي ميخائيل - وهو احد عظام مؤرخى عصره - صديقا للبطريق ليمرى ، وقام بزيارة ودية للقدس . ولم يكن هناك من كنائس المهرطقة الأخرى كنيسة تعتبر ذات أهمية فى الدويلات الفرنجية^(٥٦).

وأما المسلمون من رعايا الفرنج ، فقد قبلوا اسيادهم بهدوء ، واعترفوا بعدالة ادارتهم ؛ ومن الواضح أنهم لا يعتمد عليهم اذا ساءت أمور المسيحيين . وأما اليهود ، فكانوا على حق فى تفضيلهم حكم العرب الذين كانوا يعاملونهم دائما بأمانة وشفقة ، ولو بازدراء معين^(٥٧).

كان الشرق الفرنجى ، فى نظر الحاج الغربى المعاصر ، بمثابة صدمة لما كان عليه من رفاهية وفجور . وأما المؤرخ العصرى فكان بالأحرى يتأسى لتعصب الصليبيين وبربريتهم المشينة . ومع ذلك ، يمكن تفسير كلا الجانبين بالجو الذى كان سائدا هناك . فكانت الحياة بالنسبة للمستعمرين الفرنج غير يسيرة ومحفوفة بالمخاطر . إذ كانوا فى أرض ازدهرت فيها المكائد والقتل ، والعدو يترصد عبر الحدود القريبة . ولم يكن أحد يعلم متى سوف يسلم من طعنة خنجر تأتيه من احد الحشاشين المخلصين ، أو متى ينجو من سم يدسه له خدمه . وتفشت بينهم امراض غامضة لا يعرفون عنها سوى القليل ؛ وحتى بمساعدة الأطباء المحليين ، لم يعيش فرنجى طويلا فى الشرق . وكانت النساء أكثر حظا من الرجال ؛ لتجنبهن مخاطر القتال . ونظرا للمعرفة الطبية الأفضل فى الشرق ، كانت الولادة أقل خطورة منها فى الغرب . بيد أن وفيات الاطفال كانت مرتفعة ، ولا سيما بين الأولاد . فكانت الإقطاعية تلو الإقطاعية تقع فى يد وريثة ، يغوى ميراثها مغامرى الغرب المتوددين للنساء ؛ على انه فى الأغلب الأعم كانت الضياع الضخمة تفتقر إلى سيد لها وقت الأزمة ، ولم تكن أية زيجة سوى مسألة نزاع وتآمر . وغالبا ما كان الزواج عقيما ، إذ فشل الكثيرون من أعنف المحاربين فى أن ينجب طفلا . وأدى التزاوج بين العائلات النبيلة القليلة إلى زيادة التنافس الشخصى . وكانت الإقطاعيات توهب وتقسم بقليل من الاعتبار للضرورات الجغرافية ؛ وتواترت المشاجرات بين أقرب الأنساب.

(٥٦) أنظر أدناه ص ٤٢٨ ، وكذلك مقدمة . Nau's edition of Michael the Syrian

(٥٧) 304-5 pp. Ibn Jubayr, ed. Wright, وتظهر احصائيات Benjamin of Tudela ازدهارا أعظم لليهود فى ظل الحكم الاسلامى.

وكان الهيكل الإجتماعى الذى جلبه الفرنج من الغرب يستلزم نظام استخلاف وراثى منتظم ، واعتناء بالقوة العاملة . وكان الانحطاط المادى للعنصر الانسانى غاية فى الخطورة ؛ فأحاطهم الخوف وحوشا وخونة ، وأطلق الإرتياب حبههم للمباهج التافهة . وبينما كانت سيطرتهم آخذة فى الضعف والوهن ، زاد اسرافهم فى مباريات الفروسية ومظاهر البطولة . وكان الزائرون والوطنيون على السواء يرتاعون لما يرونه حولهم من فسوق وتطرف ، وكان أسوأ المسيئين هو البطريق هيراكليوس^(٥٨) بيد أن الزائر الأعقل كان يفهم أن تحت هذا السطح الرائع كان كل شئ سيئا ؛ فالملك الذى كان مثقلا بالحرير والذهب كان دائم الحتياج إلى المال لدفع رواتب جنده . وربما يتلقى فارس المعبد المتعجرف - الذى يعد أكياس نقوده عدا - استدعاء فى اية لحظة ليقاتل بشراسة تفوق ما عرفه الغرب . وقد ينهض المعربدون - كضيوف قلعة كيراك فى ١١٨٣م - من المائدة على أصوات آلات المنجنيق يقذفها الكفرة لتدق أسوار القلعة . إن زخرف الحياة الأنيقة المرححة فى الشرق الفرنجى كانت معلقة بخيط رفيع من القلق ، والريبة ، والخوف ؛ وقد يتساءل المتفرج بحق ما اذا كانت المغامرة تستطيع أن تستمر طويلا ، حتى فى ظل أفضل الحكام.

(٥٨) *Estoire d'Eracles*, II, p.88; Ernoul, pp.83-7; *Itinerarium Regis Ricardi*, pp.5
 188, Caesarius of Heisterbach, *Dialogus Miraculorum*, I, p. 6; ويعزو هذا
 الأخير سقوط القدس الى فساد فرنج الشرق.

الفصل الثانى:

ارتفاع نجم نور الدين

ارتقاء نجم نور الدين

"وَخَرَجَ غَالِبًا وَلَكِنِّي يَغْلِبُ"

(رؤيا يوحنا اللاهوتي ٦ : ٢)

كان ريموند أمير أنطاكية مصيبا في حثه زعماء الحملة الصليبية الثانية على السير للاستيلاء على حلب . ولقد جنى عليه فشله في اقناعهم ، فكلفه حياته . ذلك أن نور الدين كان العدو الرئيسي للعالم المسيحي ؛ ولو كان هناك جيش كبير لدى ريموند في ١١٤٧م لكان خليقا بأن يسحقه . كان نور الدين سيد حلب والرها ، ولم يكن أوفر صاحب دمشق ولا صغار الأمراء المستقلين في وادي العاصي ليخفوا لنجدته ؛ كما لم يكن ليعتمد على مساعدة أخيه سيف الدين صاحب الموصل الذي كانت له مشاكله الخاصة به في العراق . غير أن حماقة الصليبيين دفعت بأونر إلى الدخول في تحالف معه يبقى طالما بقي الخطر ؛ وواتته فرصة التدخل في شؤون طرابلس فراح يحكم قبضته على أواسط سوريا .

وكان لريموند كذلك ما يبرر رفضه الانضمام إلى الحملة الصليبية . فلم يكن

يسعه، لا هو ولا جوسلين كونت الرها، ترك أراضيها مكشوفة لنور الدين، وحتى عندما كان الصليبيون أمام دمشق أغار جنود من حلب على الأراضي المسيحية. وذهب جوسلين نفسه - تحت علم الهدنة - إلى معسكر نور الدين متوسلا الرحمة؛ وكان كل ما حصل عليه فترة راحة مؤقتة^(١). وفي تلك الأثناء كان مسعود سلطان قونية في سلام مع بيزنطة، فانتهاز ما كان فيه الفرنج من ارتباك وهاجم مرعش. فاستعد ريموند لملاقاته، ولذا أرسل مسعود إلى نور الدين للقيام بهجوم مضلل، فأجيب إلى طلبه؛ غير أن ريموند كان قد تحالف مع كردى من زعماء الحشاشين - على بن وفا - الذى كان يحمل من الكراهية لنور الدين ما يفوق كراهيته للمسيحيين، فباغت ريموند نور الدين فى نوفمبر ١١٤٨م أثناء زحفه خلال القرى الواقعة فى سهل السواد فى أفاميا، على الطريق من أنطاكية إلى مرعش. وكان قائدا نور الدين الرئيسيان - شيركوه الكردى وابن الداية من وجهاء حلب - قد تشاجرا، ورفض الأول الاشتراك فى المعركة؛ واضطر الجيش الإسلامى كله إلى أن ينسحب انسحابا سريعا مشينا. وفى الربيع التالى هاجم نور الدين البلاد مرة أخرى وهزم ريموند فى بجراس بالقرب من ساحة القتال السابقة. ثم تحول جنوبا لمحاصرة قلعة إيناب، وهى واحدة من المعاقل القليلة المتروكة للمسيحيين شرقى نهر العاصى، فسارع ريموند لانقاذها ومعه جيش صغير وقليل من حلفائه الحشاشين يقودهم على بن وفا؛ وبتلقى نور الدين معلومات خاطئة عن قوة ريموند، اضطر إلى الانسحاب. وفى حقيقة الأمر، كان جيش نور الدين الذى يتألف من ستة آلاف فارس يفوق جيش الفرنج المؤلف من أربعة آلاف فارس وألف راجل. وإزاء نصيحة على ابن وفا قرر ريموند تعزيز حامية إيناب. على أن نور الدين أدرك الآن ضعف ريموند. وفى ٢٨ يونية ١١٤٩م كان الجيش المسيحى معسكرا فى قاع واد من الوديان بالقرب من نبع مراد فى الوادى بين إيناب ومستنقع الغاب، فزحف جنود نور الدين أثناء الليل وحاصروا الجيش المسيحى. وفى الصباح تحقق ريموند من أن فرصته الوحيدة للخروج هى الهجوم؛ غير أن طبيعة الأرض كانت ضده، وهبت رياح قذفت بالأتربة فى أعين فرسانه أثناء شق طريقهم على خيولهم أعلى المنحدر، ولم تمض ساعات قليلة حتى اجتثت شأفة الجيش كله. وكان بين القتلى رينالد أمير مرعش وزعيم الحشاشين على ابن وفا. وهلك ريموند نفسه، قتله شيركوه وبذا استعاد استحسان سيده الذى فقد فى أفاميا. ووضعت جمجمة الأمير فى صندوق فضى، وأرسلها نور الدين هدية لسيده

(١) Ibn al-Furat, quoted by Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 382.

الروحي الخليفة في بغداد^(٢).

١١٥٠ م : إعتقال الكونت جوسلين

كان جوسلين كونت الرها هائثا بهدنة مزعومة مع المسلمين ، ولذا رفض مساعدة غريمه القديم ريموند . والآن جاء دوره . إذ أن نور الدين اخترق الأراضي الأنطاكية مستوليا على أرزغان وتل كشفان ، ثم داهم حاميتي أرتاح وحارم الواقعتين أبعد إلى الشمال ، وبذا استكمل إحكام قبضته على أواسط وادي العاصي ، ثم تحول غربا ليظهر أمام أسوار أنطاكية نفسها وراح يغير على الجوار حتى على ميناء السويدية^(٣) . ولم يبذل جوسلين أية محاولة لإنقاذ رفاقه الفرنج ، وإنما سار إلى مرعش يحدوه الأمل في الاستيلاء على ميراث رينالد الذي كان زوج ابنته . ودخل المدينة ، لكنه تركها باقتراب السلطان مسعود ، تاركا فيها حامية سرعان ما استسلمت للسلاجقة نظير الوعد بالإبقاء على حياة المسيحيين ؛ لكنهم عندما انطلقوا مع قساوستهم على الطريق الذاهب إلى أنطاكية ، قتلوا عن آخرهم . وطارد مسعود جوسلين حتى جوار تل بشير . بيد أن التعزيزات كانت تقترب ، ولم يكن نور الدين راغبا في أن يرى جوسلين - الذي كان لا يزال عميله - يفقد أراضيه ليفوز بها السلاجقة . ووجد مسعود أن من السياسة أن ينسحب . وبعد ذلك ، سعى أراتقة الجزيرة - الذين حدد لهم نور الدين وأخويه حدودهم الجنوبية - إلى التوسع بطول الفرات على حساب الأرمن في كركر الذين كانوا أتباعا يدفعون الجزية لرينالد . وبدد جوسلين طاقاته عبثا بارسال المساعدة إلى بازل حاكم كركر ، إذ استولى قرة أرسلان الأرتقي على كامل مقاطعة كركر وخرتبرت ، مما أبهج المسيحيين اليعاقبة الذين كانوا يفضلون حكم أرسلان بصورة لا حدود لها على حكم رينالد لتحيزه الشديد إلى جانب الأرمن ، ومشاعره البغيضة نحو اليعاقبة^(٤) . وفي شتاء عام ١١٤٩ م خاصم نور الدين جوسلين ؛ ولم تنجح هجماته

(٢) William of Tyre, xvii, 9, pp. 771-3p ؛ وخطاب قهرمان نظام فرسان المعبد الى السيد الأعظم Everard ، الوارد في R.H.F. vol. xv, p.541 ؛ أيضا Michael the Syrian, iii, pp. 288-9; *Cron. Anon. Syr.* Syriac edition, p.296; Matthew of Edessa, cclix, p. 329; Gregory the priest, p.142; Ibn al-Qalanisi, pp. 288-92; Abu Shama, pp. 10-12; Ibn al-Furat, loc.cit . ويحدد ابن الفرات موقع المعركة بأنه أرض الحاتم .

(٣) William of Tyre, xvii, 10pp. 774-5; letter to Everard, loc. cit.; *Chron. Anon. Syr.* (Syriac edition), p.299; Ibn al-Qalanisi, p.293; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 180.

(٤) Matthew of Edessa, cclix, pp. 330-1; Gregory the Priest, p. 162; Michael the Syrian,

الأولى ، لكنه فى إبريل ١١٥٠م ، وبينما كان جوسلين متجها إلى أنطاكية للتشاور مع حكومتها هناك ، انفصل عن حرسه المرافق له ووقع فى أيدى بعض التركمان المنفصلين من الباحثين عن المغنم ؛ وكانوا على استعداد لإطلاق سراحه لقاء فدية ثمينة ، لولا أن سمع نور الدين باعتقاله فأرسل فصيلة من الفرسان لتأخذه من أسريه . وفقت عيناه وسجن فى حلب حيث مات بعد تسع سنين فى ١١٥٩م^(٥).

وهكذا ، وبحلول صيف عام ١١٥٠م ، كانت كل من إمارتي أنطاكية وما تبقى من كونتية الرها قد فقدتا سيديهما . ولم يغامر نور الدين بالمضى إلى أكثر من ذلك . وعندما وصلت أنطاكية أنباء موت ريموند ، حول البطريق ليمرى المدينة إلى حالة دفاع وسارع بإرسال مبعوث جنوبا يلتمس من الملك بلدوين أن يخف للنجدة . ثم انه حصل من نور الدين على هدنة قصيرة بعد أن وعد بتسليم أنطاكية فى حالة عدم وصول الملك بلدوين . وكان ذلك ملائما لنور الدين الذى توخى جانب الحذر فى عدم محاصرة أنطاكية ، بينما كان قادرا على الاستيلاء على أفاميا وهى آخر القلاع الأنطاكية فى وادى نهر العاصى . وهرع الملك بلدوين شمالا مع فرقة صغيرة تتألف فى أغلبها من فرسان المعبد . وأغوى ظهوره نور الدين للقبول بهدنة أطول ساعدت على كبح مسعود من مهاجمة تل بشير . بيد أنه على الرغم من إنقاذ أنطاكية ، تقلصت الإمارة لتقتصر على وادى أنطاكية نفسها والساحل من الإسكندرونة إلى اللاذقية^(٦).

iii, 294-6 and Armenian version, p.346.

(٥) William of Tyre, xvii, ii, pp. 776-7; Matthew of Edessa, cclix, pp. 331-2; Michael the Syrian, iii, p. 295; *Chron. Anon. Syr.*, p.300; Ibn al-Furat, quoted by Cahen, op.cit. p.386; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 523-4; *Bustan*, p.544; Ibn al-Qalanisi, p.300; Ibn al-Athir, p.481; Sibte ibn el-Djauzi, p. 122 المراجع . فيقول وليم إنه كان ذاهبا إلى أنطاكية تلبية لنداء من البطريق ؛ بينما يقول كل من ماثيو (أوف إيديسا - الرها) وابن الفرات إنه كان يسعى إلى الحصول على المساعدة من أنطاكية ؛ ويرد فى التاريخ المجهول Anonymous Chronicle انه ذهب ليضمن الوصاية على أنطاكية . ويعزو وليم انفصاله عن صحبته إلى تلبية لنداء الطبيعة ، بينما يعزوه سيبت بن الجوزى إلى علاقة حب مع فتاه تركمانية ، وابن الفرات إلى سقوطه من على جواده أثناء اصطدام الجواد بشجرة - واستنادا إلى ميخائيل السورى لم تكن الشجرة موجودة إلا فى خياله (ويرى المؤرخون السيريانيون أن اعتقال جوسلين جاء انتقاما إلهيا لاضطهاده اليعاقبة) ؛ ويقول المؤرخون السيريانيون إن يهوديا تعرف عليه . والتاريخ المجهول هو فقط الذى يقول بتعميته . ويضيف ميخائيل السيرياني إنه لم يسمح له بالاعتراف - وهو على فراش الموت - على يد قس لاتينى ، وإنما تلقى اعترافه أسقف يعقوبى من الرها.

(٦) William of Tyre, xvii, 15, pp.783-4; Ibn al-Qalanisi, pp. 293-4, 300-1.

١١٥٠ م : استسلام تل بشير لبيزنطة

بقى بعد ذلك ترتيب حكومة الامارتين العاريتين من رئيسيهما . وكان نور الدين قد هاجم تل بشير بعد اعتقال حوسلين ، غير أن الكونتيسة بياتريس أعدت دفاعا شجاعا أجبر نور الدين على الانسحاب . ومع ذلك ، كان من الواضح عدم امكان الاحتفاظ بتل بشير ؛ إذ كانت مكتظة باللاجئين من الفرنج والأرمن القادمين من المقاطعات البعيدة عنها . وكان المسيحيون اليعاقبة يجهررون بالعصيان ، وقد انزلت المنطقة كلها عن انطاكية بغزوات نور الدين . وأثناء أن كانت الكونتيسة تعد العدة للتخلي عن أراضيها جاءتها رسالة من الامبراطور مانويل ، الذى كان مدركا للموقف، عارضا أن يشتري منها كل ماتبقى من بلدها . والتزمت بياتريس بواجبها فأحالت العرض إلى الملك بلدوين الذى كان فى انطاكية . وناقش العرض لوردات مملكته المرافقين له ، ولوردات انطاكية ، الذين شعروا بالاشمزاز لفكرة تسليم أية أراض ليوناني بغرض ؛ غير انهم قرروا بعد الموافقة أنه لو فقد العالم المسيحي تلك الأماكن الآن فيكون الامبراطور هو المخطئ . وأحضر حاكم كيليكيا البيزنطى - توماس - أحولة من الذهب ، لا ندرى عددها ، إلى كونتيسة انطاكية ، التى سلمت جنوده فى المقابل القلاع الست : تل بشير وراوندان وسميساط وعينتاب ودلوك والبيرة . وصاحب جيش الملك الحاميات البيزنطية فى رحلتها ، وفى طريق العودة قام بحراسة الكثير من اللاجئين الفرنج والأرمن المرتابين فى الحكم البيزنطى والذين فضلوا الأمان الأكبر فى انطاكية . واحتفظت الكونتيسة من الصفقة بقلعة واحدة هى قلعة الروم الواقعة على الفرات بالقرب من سميساط ، والتى اعطتها لكاثوليكوس بطريق الأرمن . وبقيت القلعة مكان إقامة تحت السيادة التركية لقرن ونصف من الزمان . وبينما كان الجيش الملكى واللاجئون فى طريق عودتهم حاول نور الدين مباغتتهم فى عينتاب ، غير أن التنظيم الرائع الذى نظمته الملك حافظ عليهم . وتوسل اليه أبرز باروناته - همفرى (أوف تورون) وروبرت (أوف سورديفال) - السماح لهم بالاستيلاء على عينتاب بإسمه ، لكنه التزم بالصفقة التى عقدها مع الامبراطور^(٧).

(٧) William of Tyre, xvii 16-17, pp.784-9 . لم يذكر المؤرخون البيزنطيون الصفقة . وللإطلاع على التاريخ والأدلة التى أوردها المؤرخون المسلمون انظر Cahen, op.cit.p.388 n.24; Michael the Syrian, iii, p.297, and Armenian version, p.343 ويرد التخلي عن روم قلعة فى Vartan, p.435, and Vahram, Rhymed Chronicle, p.618. الكونتيسة طلبت من كاثوليكوس مساعدة لورد أرمينى فى روم قلعة ، ولكن كاثوليكوس نصب نفسه فيها بالخدعة .

أما لماذا عرض الامبراطور الصفقة ، فليس يقينيا . إذ ظن الفرنج أن كيرباء الامبراطور جعله يعتقد أن بإمكانه الاحتفاظ بتلك القلاع . ولا يحتمل انه كانت تنقصه المعلومات بهذه الدرجة . بل انه كان يتطلع إلى المستقبل ؛ إذ انه كان يأمل منذ وقت طويل أن يأتي بقواته إلى سوريا ، فاذا فقدوها الآن فسوف يمكنه استعادتها فيما بعد ، ولن يكون هناك نزاع حول مطالبته . وفي حقيقة الأمر ، فقدتها في اقل من سنة ، عندما تحالف نور الدين مع مسعود السلجوقي . ولقد ولد التحالف في اليوم التالي لاعتقال جوسلين ، وتثبت بزواج نور الدين من ابنة مسعود ، وتقرر أن تكون تل بشير مهرالها . على أن مسعود لم ينضم إلى زوج ابنته في الهجوم على بياتريس ، وانما راح يتملى العيش باستيلائه على كيسوم وبهسنا في شمال البلاد ، وقد منحهما لابنه قلعج أرسلان . وفي ربيع ١١٥١م راح نور الدين ومسعود كلاهما يهاجمان الحاميات ، وسارع الأراتقة للحصول على نصيبهم . فسقطت عينتاب ودلوك في يد مسعود ، وسميساط والبيرة في يد تمرتاش الأرتقي صاحب ماردين ، ورواندال في يد نور الدين . وفي تل بشير نفسها قاوم البيزنطيون لفترة ، لكن المجاعة اجبرتهم على الخروج والتسليم لنائب نور الدين حسان أمير منبج في يولية ١١٥١م^(٨) وذهب كل ماتبقى من أثر لكونتية الرها . وتقاعدت الكونتيسة بياتريس في القدس مع ولديها جوسلين وآجنس ، اللذين قدر لهما فيما بعد أن يلعبا أدوارا فاجعة في سقوط المملكة^(٩).

١١٥٠م : خطاب الأميرة كونستانس

ضاعت الرها ، وبقيت انطاكية . وترك موت ريموند الأميرة كونستانس أرملة بأربعة أطفال صغار . وكان العرش عرشها بحق الميراث ؛ غير أنه ساد الشعور بضرورة أن يحكم رجل في مثل هذه الظروف . وكان ابنها الأكبر - بوهموند الثالث - في الخامسة من العمر عندما مات أبوه ؛ ولا بد من وجود وصي من الذكور إلى أن يشب عن الطوق . وكان البطريق إيمري قد تولى المسؤولية وقت الأزمة ، لكن الرأي العام العلماني لم تعجبه فكرة وجود وصي من رجال الكنيسة . واتضحت ضرورة زواج

(٨) William of Tyre, loc.cit.; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p.277; Michael, Armenian version, p.297; Ibn al-Qalanisi, p.309; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 132 (with the wrong date).

(٩) ربما كانت إيزابيلا - ابنة جوسلين الثاني الأخرى - (انظر اعلاه ص ٢٢٢) ميتة آنذاك ، رغم ان وليم الصوري (ص ٧٧٧) يذكرها عندما مات أبوها على أنها على قيد الحياة .

الأميرة الشابة مرة أخرى . وفي الوقت ذاته يتعين أن يكون الوصي الملائم ابن خالتها، الملك بلدوين ، بصفته أقرب أقرانها الذكور وليس السيد الأعلى . وكان الملك قد سارع إلى انطاكية لدى وصوله نبأ موت ريموند ، وعالج الموقف بحكمة تندر مع صبي مثله في التاسعة عشرة من عمره ، وقبلت سلطته قبولا عاما . وعاد في أوائل صيف ١١٥٠م ليعتمد صفقة بيع أراضي الكونتيسة بياتريس . وكانت مشغولياته في الجنوب من الكثرة بحيث لم يكن راغبا في البقاء في انطاكية ليكون مسؤولا عنها. فحث كونستانس - التي لم تكن قد تجاوزت الثانية والعشرين - على اختيار زوج آخر ، واقترح عليها ثلاثة مرشحين : الأول ، ييف (أوف نيسيل)، كونت سواسون ، وهو نبيل فرنسي ثرى جاء إلى فلسطين في أعقاب الحملة الصليبية الثانية ، وكان يعد العدة للاستقرار؛ والثاني ، وولتر (أوف فالكونبرج) ، من أسرة سانت أومير التي احتفظت فيما مضى بلوردية الجليل ؛ والثالث ، رالف (أوف ميرل) ، البارون الشجاع في كونتية طرابلس . لكن كونستانس لم تكن راغبة في أى منهم ؛ واضطر بلدوين إلى العودة إلى القدس تاركا الحكومة في يديها^(١٠).

وأسخط كونستانس الحاح ابن خالتها الصغير ، فغيرت سياستها في الحال وأرسلت سفارة إلى القسطنطينية تلتمس من الامبراطور ، باعتباره سيدها الأعلى ، أن يختار لها زوجا . وكان مانويل تواقا إلى إجابة رغباتها ؛ فالتفوذ البيزنطي كان آخذا في التدهور بطول الحدود الجنوبية الشرقية للامبراطورية . وحوالي عام ١١٤٣م ، كان الأمير الأرمني - ثوروس الرويني - قد هرب من القسطنطينية ولاذ بيلاط ابن عمه جوسلين الثاني كونت الرها ، حيث جمع فرقة من بنى وطنه تمكن بها من استعادة قلعة العائلة - فاهكا ، الواقعة شرقي جبال طوروس . وانضم إليه اثنان من اخوته - ستيفن ومليح - وأنشأ صداقة مع لورد فرنجي في الجوار ، سيمون حاكم رعبان الذي زوجه ابنته . وفي عام ١١٥١م ، وبينما كان المسلمون يحيطون البيزنطيين بهجومهم على تل بشير ، زحف جنوبا إلى داخل سهل كيليكيا وهزم توماس الحاكم البيزنطي وقتله عند بوابات المصيصة ؛ مما دفع مانويل على الفور إلى ارسال ابن عمه أندرونيكوس على رأس جيش لاسترجاع الأراضي التي استولى عليها ثوروس ؛ والآن جاءت الفرصة في وقتها المناسب لكي يضع من يرشحه هو على عرش انطاكية .

(١٠) William of Tyre, xvii, 18 pp. 789-91. يفترض وليم الصوري أن البطريق يمرى شجع كونستانس على رفض المرشحين خشية ان يضعف سلطانه. Cinnamus, p. 178.

ولم يقدر النجاح لأى من المشروعين . ذلك أن أندرونيكوس كومنينوس كان أكثر أفراد عائلته الموهوبة اتقادا للذكاء وأكثرهم فتنة ، لولا ما كان فيه من تهور وإهمال . فبينما كان فى طريقه لمحاصرة ثوروس فى المصيصة ، هاجمه الأرمن بخروج مفاجئ وأطبقوا عليه على حين غرة ، فهزم جيشه هزيمة منكرة وهرب هو نفسه عائدا إلى القسطنطينية يجر اذيال العار . وفى اختيار زوج للأميرة كونستانس ، أظهر مانويل من البراعة أكثر مما أظهر من التعقل ؛ إذ أرسل زوج أخته القيصر جون روجر ، وهو أرملة أخته المفضلة ماريا . وكان جون روجر نورمانديا بالمولد ، ورغم أنه تأمر مرة ليستأثر بالعرش الامبراطورى ، أصبح الآن صديقا يثق فيه الامبراطور الذى أدرك أن بالامكان الاعتماد على ولائه ، وانما اعتقد أن أصله اللاتينى يرشحه للقبول لدى النبلاء الفرنج ، ولقد نسى التفكير فى كونستانس نفسها . إذ كان حليا أن جون روجر فى أواسط العمر ، وقد فقد سحر شبابه كله ؛ فلا ينتظر من الأميرة الشابة ، التى اشتهر زوجها الأول بوسامته ، أن تقبل هذا القرين الذى يفتقر إلى الرومانتيكية . وهكذا ودعت الأميرة القيصر فى رحلة العودة إلى الامبراطور . كان الأفضل للامبراطور أن يرسل أندرونيكوس إلى أنطاكية ، وجون روجر إلى كيليكيا للقتال^(١١).

١١٥٢م : اغتيال ريموند الثانى

كان الملك بلدوين مهيا لأن يرحب بأى زوج لابنة خالته ؛ إذ جاءته مؤخرا مسؤولية جديدة . ذلك أن الحياة الزوجية التى عاشها الكونت ريموند الثانى كونت طرابلس وزوجته هوديرنا التى جاءت من القدس لم تكن حياة سعيدة تماما . إذ كانت هوديرنا - كشأن أختها مليسند وأليس - عنيدة طروب . ودارت همسات الريبة حول شرعية ابنتها مليسند ، مما دفع ريموند فى غيرته عليها إلى محاولة حبسها فى عزلة على النمط الشرقى . وبلغت العلاقة بينهما فى أوائل عام ١١٥٢م من السوء ما جعل الملكة مليسند تشعر أن من واجبها التدخل ؛ فسافرت مع ابنها الملك إلى طرابلس لترقيع مصالحة عاجلة . وانتهاز بلدوين الفرصة واستدعى كونستانس إلى طرابلس حيث راحت الخالتان توبخانهما على إصرارها العنيد على البقاء مترملة . على أنه ربما لأنهما

(١١) Cinnamus, pp.121-4, 178; Matthew of Edessa, cclxiii, pp.334-6; Gregory the Priest, p. 166; Sembat the Constable, p. 619; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 504-6; Michael the Syrian, iii p. 281.

كلتاهما لم تنجحا تماما فى الحياة الزوجية ، ذهبت نصائحهما أدراج الرياح ، وعادت كونستانس إلى أنطاكية دون أن تعد بشئ . غير أن تدخل الملكة كان فعالا بصورة اكبر مع ريموند وهوديرنا اللذين وافقا على تسوية شجارهما ، وارتى أنه من الأفضل أن تمضى هوديرنا أحازة طويلة للاستحمام فى القلص ، وقرر ريموند البقاء فى طرابلس لفترة نظرا لما أشيع من أن نور الدين سوف يهاجم الكونتية . وانطلقت الملكة والكونتيسة على الطريق الذاهب جنوبا وقد صاحبهما الكونت مسافة ميل أو ميلين . وأثناء عودته ، وبينما كان يعبر البوابة الجنوبية لعاصمته ، وثبت عليه عصابة من الحشاشين وطعنوه إلى أن أسلم الروح . وقد حاول رالف (أوف ميرل) وفارس آخر كانا معه حمايته فلقيا حتفهما كذلك . وقد تم الأمر بسرعة شديدة بحيث لم يتمكن حراسه من الإمساك بالقتلة . وكان الملك يلعب النرد عندما جاءت الصيحات من أسفل المدينة ؛ واندفعت الحامية إلى سلاحها ونزلت كالسيل فى الشوارع تقتل كل مسلم تراه . غير أن الحشاشين تمكنوا من الهرب ولم يعرف قط الدافع الذى دفعهم إلى ذلك^(١٢).

وأرسل من يدعو الملكة والكونتيسة للعودة ، وباشرت هوديرنا الوصاية باسم ابنها ريموند الثالث البالغ من العمر اثنتى عشرة سنة . لكن الرضع كان يتطلب - كشأن أنطاكية - وجود رجل وصى على الحكومة ؛ واضطر بلدوين إلى تولي الوصاية بصفته أقرب الأقرباء الذكور . وفى الحال شن نور الدين غارة وصلت حتى طرطوس التى احتلها جنوده لفترة ، لكنهم سرعان ما دحروا منها ، وسلمها بلدوين - بموافقة هوديرنا - إلى فرسان المعبد^(١٣).

١١٥٢م : الملكة مليسند ترضخ لإبنها

أسعد الملك أن تمكنه الظروف من العودة إلى القدس . وكانت الملكة مليسند المدركة لحقها الوراثى عازفة عن تسليم السلطة لإبنها . لكنه تجاوز الآن الثانية والعشرين من عمره ، والرأى العام يطالب بتويجه كحاكم ناضج . ولذلك ، رقت الملكة مع البطريق فولشر أن يعيد تويجها إلى جانبه حتى تكون مشاركتها السلطة

(١٢) William of Tyre, xvii, 18-19, pp.789-92.

(١٣) Ibid., loc. cit.; Ibn al-Qalanisi, p. 312.

مقبولة بوضوح . وكان من المقرر أن يتم التتويج يوم أحد الفصح ٣٠ مارس ، لكن بلدوين أرجأه . ثم إنه دون أن ترتاب أمه فى شئ دخل كنيسة القبر المقدس يوم الثلاثاء مع حرس من الفرسان وأحير البطريق الغاضب على تتويجه بمفرده . وكان ذلك علامة على صدع بين فى المملكة . إذ كان للملكة الكثير من الأصدقاء ؛ مناس (أوف هيرج) ، حاميتها الذى كان لا يزال المسؤول عن الأمن (كونستابل) ، وكانت لعائلته اتصالات كثيرة من بينها عشيرة إيبلين الكبيرة التى تسيطر على السهل الفلسطينى ، وكان الكثير من نبلاء جنوب فلسطين من شيعته . والجدير بالملاحظة أنه عندما ذهب بلدوين إلى انطاكية عام ١١٤٩م ، لم يصحبه سوى القليل من النبلاء ، إذ انها كانت بعثة لا تهتم بها الملكة . وكان النبلاء الذين صحبوه تحت زعامة همفري (أوف تورون) ووليم (أوف فالكونبرج) ، وكانت ضياعهما فى الجليل . ولم يغامر الملك باللجوء إلى القوة ، وإنما عقد مجلسا كبيرا للمملكة دافع فيه عن مطالبه . وبفضل نفوذ رجال الدين أجبر على قبول حل وسط يقضى بتخصيص الجليل والشمال كمملكة له ، وأن تحتفظ مليسند بالقدس نفسها ونابلس ، أى يهودا والسامرة ، وأن يوضع الساحل - حيث يحتفظ الأخ الصغير للملك ، أمالريك ، بكونتية يافا - تحت سيادتها . وكان حلا مستحيلا . وبعد أشهر قليلة طلب الملك من أمه التنازل له عن القدس التى بدونها - كما قال - لا يستطيع الاضطلاع بحماية المملكة . وبتعاضد قوة نور الدين يوما بعد يوم ، قويت الحجة ، وبدأ حتى أهم مؤيدى الملكة يتخلون عن قضيتها . غير انها صمدت بقوة وحصنت القدس ونابلس ضد ابنها ؛ ولسوء حظها باغت جنود الملك حاميتها الكونستابل مناس واعتقلوه فى قلعة ميرابيل الواقعة على حافة السهل الساحلى ، وأبقى على حياته فى مقابل الوعد بالرحيل عن الشرق وعدم العودة مطلقا ؛ وعلى الأثر استسلمت نابلس للملك . أما الملكة ، التى هجرها نبلاؤها العوام ، والتى كانت ما تزال تحظى بتأييد البطريق ، فحاولت الصمود فى القدس . بيد أن المواطنين انقلبوا عليها ايضا وأرغموها على الكف عن النزاع ، وبعد أيام قليلة سلمت المدينة لابنها الذى لم يتخذ حيالها اجراء قويا نظرا لأن رأى القانونى قد ارتأى ذلك مناسبا فيما يبدو . وسمح لها بالاحتفاظ بنابلس وما حولها كبائنة لها ؛ ورغم انها تقاعدت من الحياة السياسية ، فقد احتفظت بحق رعاية الكنيسة . والآن وقد أمسى بلدوين هو الأعلى فى الحكومة العلمانية ، استبدل الكونستابل مناس بصديقه همفري أمير تبين^(١٤) .

(١٤) William of Tyre, xvii, 13-14 pp. 779-83. كانت نابلس فى حوزة Philip of Milly الذى كان يؤيد الملكة . وفى ٣١ يولية ١١٦١م وقبل أسابيع قليلة من موت الملكة ، مُنح السيادة على ما وراء الأردن بدلا من نابلس (Rohrich, Regesta, p.96). ولم تستشر الملكة مليسند ، ربما لمرضها

كان نور الدين يراقب تلك الاضرابات فى الأسر الحاكمة الفرنجية بغاية الاستحسان. ولم يجشم نفسه عناء شن هجمات جادة ضد المسيحيين خلال تلك السنوات ؛ إذ كانت أمامه مهمة أكثر الحاحا ، ألا وهى غزو دمشق . ولقد واصل أُنور دمشقى حروبا متقطعة ضد المسيحيين لعدة شهور بعد فشل الحملة الصليبية الثانية ، غير أن خشيته من نور الدين دفعته إلى قبول عروض السلام من القلس بكل سرور ، وفى مايو ١١٤٩ م ، أعدت هدنة لمدة سنتين . وبعد ذلك مباشرة مات أُنور فى شهر أغسطس ، وتولى الحكومة الأمير مجير الدين ابن بوري ، حفيد تغتكين والذي كان أُنور يحكم بإسمه^(١٥) . وكان ضعيفا ، مما أتاح لنور الدين فرصة ، على أن نور الدين لم يتصرف فى الحال ، إذ مات أخوه سيف الدين فى شهر نوفمبر ، وكان لزاما إعادة ترتيب أراضى الأسرة على الأثر . وورث الأخ الأصغر قطب الدين الموصل والأراضى الواقعة فى العراق ، وقد اعترف بسيادة نور الدين عليه فيما يبدو^(١٦) . وفى شهر مارس من العام التالى زحف نور الدين على دمشق ، لكن الأمطار الغزيرة أبطأت من تقدمه ، وأتاحت لمجير الدين الوقت الكافى لطلب المساعدة من القلس ؛ ولذا انسحب نور الدين بعد أن تلقى وعدا بأن ينقش إسمه على العملة ويذكر فى الصلوات العامة فى مساجد دمشق بعد اسم الخليفة وسلطان فارس . ومن ثم تأكدت حقوقه فى سيادة عليا غير واضحة.

وفى مايو ١١٥١ م ظهر نور الدين مرة أخرى أمام دمشق ، وجاء الفرنج ثانية لإنقاذها . وبعد أن عسكر نور الدين بالقرب من المدينة مدة شهر ، انسحب إلى بعلبك المجاورة التى كان يحكمها قائده أيوب ، أخو شيركوه . وفى تلك الأثناء سار الفرنج بقيادة الملك بلدوين إلى دمشق ، وسمح للكثير منهم بزيارة الأسواق داخل الأسوار ،

الشديد رغم أن ان اختها هوديرنا ، كوتيسة طرابلس الأرملة وافقت على الصفقة . ويفترض أن فيليب كان يمتلك أراضيه التى منحها له مليسند وليس بلدوين الذى لم يتمكن من تنفيذ التبادل إلا على فراش موته ، وإلا لحرمت من صديقها وتابعها الرئيسى . وكانت زوجة فيليب ، إيزابيلا أو إليزابث ، ابنة اخت Pagan of Oultrejourdain ، والوريثة فى نهاية الأمر لخليفته Maurice الذى انضم الى فرسان المعبد بعد موته . ويبدو أن زوج اختها ماريا Walter Brisebarre III of Beirut أصبح لورد ما وراء الأردن التى حصل عليها بدلا من اقطاعيته فى بيروت ، ولكن بعد موت زوجته وابنتها الرضيعة يبدو أنه فقد الاقطاعية التى انتقلت الى ابنة فيليب Stephanie. انظر Rey, 'Les Seigneurs de Montréal' and 'Les Seigneurs de Barut' فى أماكن متفرقة.

(١٥) Ibn al-Qalanisi, p. 295. يقول ان أونور مات بمرض الدوسنتاريا .

(١٦) Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp.171-5; Ibn al-Qalanisi, pp. 295-6. وللإطلاع على مصادر المخطوطات انظر Cahen, *op. cit* p.393 n.12.

بينما قام مجير الدين بزيارة ودية للملك فى المعسكر المسيحى ؛ لكن قوة الخلفاء لم تكن بالقدر الكافى لتعقب نور الدين ، وبدلا من ذلك زحفوا على بصرى التى تمرد أميرها سرخاك على دمشق وقبل المساعدة من نور الدين . ولم تفلح حملة الفرنج ؛ غير انه سرعان ما تصادق سرخاك مع الفرنج ، كما هى عادة صغار امراء المسلمين فى القلب السريع ، واضطر مجير الدين إلى الاستنجاد بنور الدين لإرغام سرخاك على الطاعة . وعندما اتجه نور الدين شمالا مرة اخرى ، تبعه مجير الدين وقام بزيارته فى حلب حيث وقعت معاهدة صداقة . لكن أمراء دمشق كانوا لا يزالون رافضين التخلي عن التحالف مع الفرنج . وفى ديسمبر ١١٥١م حاولت عصبة من التركمان الإغارة على بانياس ، وربما كان ذلك بأوامر من أيوب ؛ وقامت الحملة بغارة مضادة على أراضي بعلبك دحرها أيوب . وتوخى مجير الدين جانب الحذر وأعلن براءته من أية علاقة له بتلك الأعمال الخيرية . وشعر بخرج أكبر فى خريف ١١٥٢م عندما جاءه فجأة الأمير الأرتقى تمرتاش صاحب مردين على رأس جيش من التركمان قاده خلال المستنقعات حول حافة الصحراء ، وطلب مساعدته فى شن هجوم مفاجئ على القدس ، وربما سمع بالمشاجرات التى دارت بين بلدوين ومليسيند فظن أن توجيه ضربة قوية قد تفلح . وتصرف نور الدين تصرفا وسطا بأن سمح له بشراء المون ، ثم سعى إلى اقناعه بعدم المضى أكثر من ذلك . ثم إن تمرتاش اندفع اندفاعا عنيفا عبر الأردن ، وضرب معسكره أينما اتفق فوق جبل الزيتون ، بينما كان نبلاء الفرنج مجتمعين فى مجلسهم فى نابلس ، للترتيب بلا شك لبائنة مليسيند . غير أن حامية القدس خرجت فى هجوم مفاجئ على التركمان الذين وجدوا أن هجومهم المفاجئ قد فشل ، فاضطروا إلى الانسحاب إلى الأردن ، حيث هجم عليهم جيش المملكة وهم على ضفة النهر وفاز بنصر كامل^(١٧).

١١٥٠م : مكائد فى مصر

خلال الأشهر التالية تحول انتباه المسيحيين والمسلمين على السواء إلى مصر . إذ بدت الخلافة الفاطمية هناك على وشك التصدع . فمنذ مقتل الوزير الأفضل ومصر تفتقر إلى حاكم مقتدر . وقد حكم الخليفة الأمر حتى اكتوبر ١١٢٩م إلى أن اغتيل هو الآخر ، وتعاقب على تصريف شؤون الحكم سلسلة من الوزراء الضعاف . وأظهر الحافظ - الذى خلف الأمر - شخصية أقوى وحاول التخلص من اصفاة الوزارة بتعيين

ابنه هو نفسه ، حسن ، فى منصب الوزير . بيد أن حسن لم يكن بالوزير المطيع وقتل بأوامر من أبيه عام ١١٣٥ م . وراح الوزير التالى ، فاهرام الأرمينى المولد ، يملأ الادارة بأبناء جلدته ، لا لشيء سوى اثاره رد فعل عام ١١٣٧ م عندما حرت فى شوارع القاهرة دماء المسيحيين لعدة ايام . ولم يكن الحافظ أكثر حظا من آخر وزرائه رغم انه تشبث بالعرش إلى أن مات عام ١١٤٩ م . وبدأ عهد ابنه الظافر بحرب اهلية صريحة بين أبرز قائديه ، فغاز أمير بن صلاح وأصبح وزيرا ، لكى يُغتال هو نفسه بعد ذلك بثلاث سنوات^(١٨) . وتسببت مكائده وما سأل من دماء لا نهاية لها فى ارتفاع الآمال لدى أعداء مصر ؛ فبدأ الملك بلدوين عام ١١٥٠ م فى ترميم تحصينات غزة ، وكانت عسقلان ما تزال قلعة فاطمية ، وقد دأبت حاميتها على الإغارة على الأراضى المسيحية . فتقرر أن تكون غزة قاعدة للعمليات ضد عسقلان ؛ مما أثار مشاعر الخطر لدى الوزير ابن صلاح . وكان من بين اللاجئين فى البلاط الفاطمى الأمير أسامة بن منقذ ، وكان من قبل فى خدمة زنكى . فأرسله ابن صلاح إلى نور الدين ، الذى كان معسكرا الآن امام دمشق ، طالبا منه القيام بهجوم مضلل فى الجليل ، وسيقوم الأسطول المصرى فى الوقت نفسه بالإغارة على الموانئ الفرنجية . ولم تفلح السفارة ، اذ كانت هناك مشاغل اخرى تشغل نور الدين . وتوقف أسامة فى طريق عودته فى عسقلان لعامين للقيام بعمليات عسكرية ضد الفرنج المحليين ، ثم عاد إلى مصر فى الوقت المناسب ليشهد المكائد التى تلت مقتل ابن صلاح على يد عباس ، ابن زوجته ، بتستر من الخليفة^(١٩) .

١١٥٣ م : الإستيلاء على عسقلان

وقد حدثت تلك الفواجع فى أعقاب انتصار الملك بلدوين على أمه مباشرة ، فقرر مهاجمة عسقلان وراح يعد لها عدتها بعناية ، وفى ٢٥ يناير ١١٥٣ م ظهر أمام أسوارها جيش المملكة كله بكل آلات الحصار التى استطاعت المملكة تعبئتها . وكان مع الملك السيدان العظيمان لنظامى فرسان المستشفى وفرسان المعبد مع نخبة رجالهما ، وعظام لوردات المملكة العلمانيين ، والبطريق ، ورؤساء أساقفة صور وقيسارية والناصرية،

(١٨) Ibn al-Athir, pp. 475-7. See Wiet, *L'Egypte Arabe*, pp. 190-5 .

(١٩) Usama, ed. Hitti, pp. 40-3; Ibn al-Qalanisi, p. 314. أوردد ابن القلانيسى pp. 307-8 الغارة المصرية على الساحل الفرنجى عام ١١٥١ م ، كما أوردد غارة مصرية انطلقت من عسقلان فى ابريل عام ١١٥٢ م (p.312).

وأسقفا بيت لحم وعكا . وكان الصليب الحقيقى بصحبة البطريق . وكانت عسقلان قلعة هائلة ، ممتدة من البحر فى شبه دائرة عظيمة ، وتحصيناتها مرممة ترميما رائعا ؛ وكانت الحكومة المصرية تحتفظ فيها دائما بمخزونات الأسلحة والمؤن . وظل الجيش الفرنجى لعدة شهور عاجزا عن التأثير فى أسوارها رغم قدرته على حصارها حصارا كاملا . وأضافت سفن الحجاج التى وصلت فى وقت عيد الفصح تقريبا قوة إلى صفوف رجال الجيش الفرنجى ، غير أن وصول الاسطور المصرى فى شهر يونية وازن الموقف . ولم يغامر الفاطميون بانقاذ عسقلان برا ، وإنما أرسلوا اسطولا من سبعين سفينة محملة بالرجال والسلاح والامدادات من كل لون . ولم يجرؤ حيرارد أمير صيدا - الذى كان قائدا للسفن العشرين وهى كل ما تملكه المملكة - على مهاجمة الاسطول المصرى ، وأبحرت السفن المصرية منتصرة إلى داخل الميناء مما أشعل حماس المدافعين ، لكن السفن أبحرت بعيدا بعد أن أفرغت حمولتها ، وتواصل الحصار . وكان أروع آلات الحصار لدى الفرنج برج خشبى هائل تجاوز ارتفاعه قمة الأسوار وراح يقذف الأحجار والحزم المشتعلة فى شوارع المدينة مباشرة . وفى إحدى الليالى ، فى أواخر يولية ، زحف بعض أفراد الحامية خارجين من المدينة وأشعلوا فيه النيران ؛ لكن رياحا هبت ودفعت الكتلة الهائلة المحترقة لترتطم بالبور ، وتسببت الحرارة الشديدة فى تفكك بناء السور ، وفى الصباح كانت هناك فجوة فى السور . وقرر فرسان المعبد - الذين كانوا يشغلون ذلك القطاع - أن يكون لهم وحدهم شرف النصر . فوقف بعض رجالهم بمنعون أى مسيحي آخر من الاقتراب ، واندفع أربعون فارسا إلى داخل المدينة . وظنت الحامية بادئ الأمر أن كل شئ قد ضاع ، لكنها بعدما رأت ضالة عدد فرسان المعبد ، أحاطوا بهم وقتلوهم . وأصلحت فجوة السور على عجل ، وعلقت جنث فرسان المعبد خارج الأسوار .

وأثناء الهدنة التى عقدت لتمكين كل جانب من دفن موتاه ، عقد الملك مجلسا فى خيمته ، أمام الصليب الحقيقى . وثبّطت همه النبلاء العلمانيين مما حدث ، فرغبوا فى التخلّى عن الحصار ؛ غير أن البطريق ، والسيد الأعظم لفرسان المستشفى - ريموند (أوف لو بوى) حثا الملك على مواصلة الحصار ، وكان لفصاحتهمما فعلها فى إثارة مشاعر البارونات ، وعاد الهجوم بأعنف مما كان .

وفى ١٩ أغسطس ، وبعد قصف المدينة قصفا شرسا ، قررت الحامية التسليم ، بشرط السماح للمواطنين بالرحيل المأمون مع منقولاتهم . وقبل بلدوين الشرط والتزم به باخلاص . وبينما كانت الجموع الغفيرة من المسلمين تتدفق خارج المدينة برا وبحرا

للعودة إلى مصر ، دخل الفرنج المدينة فى حالة من الإثارة واستولوا على الحصن بما فيه من مخزونات الثروة والأسلحة الهائلة . وعهد بسيادة عسقلان إلى أخى الملك أمالريك ، كونت بافا . وتحول المسجد الكبير إلى كندراية القديس بول ورسم البطريق أحد قساوستها أسقفا وهو أبسالوم . وفيما بعد حصل أسقف بيت لحم ، جيرارد ، على مرسوم من روما باستقلال المقر الأسقفى^(٢٠) .

كان الاستيلاء على عسقلان آخر الانتصارات العظيمة للملك القدس ، ورفعت مكانتهم ارتفاعا كبيرا . ذلك أن الفوز أخيرا بالمدينة التى كانت تعرف بأنها عروس سوريا ، يعتبر انجازا مدويا ؛ بيد أنه فى واقع الأمر لم يعد بفائدة حقيقة . وعلى الرغم من أن تلك القلعة كانت قاعدة انطلاق غارات صغيرة فى الأراضى الفرنجية ، لم تعد مصر تمثل تهديدا خطيرا للمسيحيين . لكن الفرنج ، وقد باتت عسقلان فى أيديهم ، أصبحوا هدفا لكمان المغامرات الخطرة التى تأتاهم من النيل . وربما كان هذا هو السبب الذى جعل نور الدين ، ببصيرة سياسته ، يحجم عن محاولة التدخل فى الحملة ، فيما عدا ما كان يخطط له من حملة على بانياس اشترك معه فى التخطيط لها مجير الدين صاحب دمشق ، والتى لم تسفر عن شئ نظرا للمشاجرات المتبادلة بينهما . ولم يكن بوسع التأسى لإضعاف مصر ، ولا لتحول انتباه الفرنج نحو الجنوب . أما مجير الدين صاحب دمشق ، فقد تأثر بسهولة أكبر ، وسارع يؤكد لبلدوين صداقته المخلصة ، ووافق على أن يدفع له إتاوة سنوية . وبينما راح لوردات الفرنج يتجولون ويغيرون على الأراضى الدمشقية كما يحلو لهم ، كان سفراء الفرنج يأتون إلى المدينة لجمع المال لملكهم^(٢١) .

١١٥٤ م : نور الدين يأخذ دمشق

كان مجير الدين ومستشاروه حريصين على سلامتهم الشخصية ، ولذا فضلوا أن تكون دمشق محمية فرنجية من أجل مصيرهم على أن يصبح نور الدين سيدهم . لكن المواطن العادى فى دمشق كان يشعر بأن غطرسة المسيحيين فوق الإحتمال وأن الأسرة

(٢٠) William of Tyre, xvii, 1-5, 27-30, pp.794-802, 804-13; Ibn al-Qalanisi, pp.314-17; Abu Shama, pp.77-8; Ibn al-Athir, p.490.

(٢١) Ibn al-Qalanisi, pp. 315-16 (الذى التزم التحفظ حول النفوذ الفرنجى فى دمشق)؛ Ibn al-Athir, p.496, and Atabegs, p.189.

المالكة البورية ما تفتأ تثبت خيانتها للعقيدة ، فانتهاز أيوب أمير بعلبك تلك المشاعر ، وأرسل عملاءه يتوغلون في المدينة يحثون على الازدراء من مجير الدين ، وحدث في تلك الآونة أن نقص الطعام في دمشق ؛ فاحتجز نور الدين القوافل التي كانت تجلب الحبوب من الشمال ، وراح عملاء أيوب ينشرون الشائعات بأن ذلك خطأ مجير الدين لرفضه التعاون مع رفاقه المسلمين . ثم إن نور الدين أقنع مجير الدين بأن الكثير من وجهاء دمشق يتآمرون ضده ، مما أثار الذعر لدى مجير الدين فنكل بهم . وهكذا خسر مجير الدين كلا من الأغنياء والفقراء ، وعندئذ جاء شيركوه ، أخو أيوب ، أمام دمشق كسفير من نور الدين ، مصطحباً قوة مسلحة كما تجري عليه عادة البعثات الصديقة ، غير أنه كان يضمّر الشر . ولم يسمح له مجير الدين بدخول المدينة ولا خرج لمقابلته ؛ فاعتبر نور الدين ذلك التصرف اهانة لسفيره وزحف على دمشق بجيش كبير . وذهبت رسل مجير الدين تناشد في ياسها مساعدة الفرنج ، لكنها أرسلت بعد فوات الأوان ؛ إذ ضرب نور الدين معسكره أمام أسوار دمشق يوم ١٨ إبريل ١١٥٤م ؛ وبعد أسبوع واحد بالضبط ، حدثت أثناءه بعض المناوشات خارج السور الشرقي ، ساعدت امرأة يهودية بعض رجاله على دخول الحى اليهودي ، وعلى الفور فتحت الجماهير البوابة الشرقية ليدخل سواد الجيش . وفر مجير الدين إلى القلعة ، لكنه استسلم بعد ساعات قليلة فقط ؛ ووهبت له حياته وإمارة حمص . على أنه بعد أسابيع قليلة حامت الريب حول تأمره مع أصدقاء قدامى في دمشق ؛ فطرد من حمص . ورفض مدينة باليس التي عرضت عليه في الفرات ، وتقاعد في بغداد .

وفي تلك الأثناء استقبل مواطنو دمشق نور الدين بآيات البهجة البالغة . ومنع جنوده من النهب ، وملأ الأسواق من فوره بالمواد الغذائية ، وألغى الضرائب على الفاكهة والخضروات . وعاد نور الدين إلى حلب بعدما ترك أيوب لتصريف شؤون دمشق . وعهد إلى أحد النبلاء المحليين بمدينة بعلبك ، لكنه عمرد فيما بعد على نور الدين وكان لزاماً إخضاعه للطاعة^(٢٢).

رجحت كفة الميزان رجحانا شديدا باستيلاء نور الدين على دمشق وفاقت استيلاء بلدوين على عسقلان . إذ امتدت أراضيها الآن جنوبا بطول الحدود الشرقية للدويلات الفرنجية ، من الرها إلى ما وراء الأردن ؛ ولم يبق في سوريا الإسلامية سوى القليل من

(٢٢) Ibn al-Qalanisi, pp. 318-21; Ibn al-Athir, pp. 496-7, and *Atabegs*, pp. 190-2; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 527-8.

الامارات الصغيرة التي احتفظت باستقلالها ، مثل شيزر . وعلى الرغم من أن الممتلكات الفرنجية كانت أوسع في مساحتها وأغنى في مواردها ، كان لممتلكات نور الدين ميزة الوحدة في ظل سيد واحد لا يكاد يضايقه أحد من أتباعه كما كان يعاني الفرنج من اتباعهم المتعجرفين . لقد كان نجمه آخذاً في الصعود . لكنه كان شديد الحذر من مواصلة انتصاراته بسرعة سريعة ؛ ويبدو أنه أعاد تأكيد التحالف بين دمشق والقدس وحدد الهدنة في ١١٥٦م لستين آخرين عندما دفع ثمانية آلاف وحدة من عملة الدوقانية^(٢٣) استمراراً للإتاوة التي كان يدفعها بحجر الدين . ويعزى صيره أساساً إلى تنافس مع سلاجقة الأناضول ، إذ كان يرغب في الاستيلاء على نصيبهم من كونية الرها السابقة^(٢٤) .

ومات السلطان مسعود عام ١١٥٥م ؛ وعلى الفور تشاجر ولداه قلعج أرسلان الثاني وشاهنشاه على الميراث . وفاز الأول بتأييد الأميرين الدانشمنديين ذوالنون صاحب قيسارية وذوالقرنين صاحب ملطية ؛ وفاز الثاني بتأييد أكبر الدانشمنديين ، ياغى سيان صاحب سيواس . وطلب ياغى سيان مساعدة نور الدين الذي استجاب بالهجوم على الحصنة السلجوقية من الرها السابقة ، فضم مدن عينتاب ودولوك ، وربما المصيصة . وهزم قلعج أرسلان أخيه . ورغم أنه حاول التحالف مع الأرمن والفرنج ضد نور الدين ، إلا أنه أجبر على قبول خسارته لمقاطعته الفراتية^(٢٥) .

ولما أمن نور الدين على نفسه في الشمال ، عاد إلى الجنوب مرة أخرى . وفي شهر فبراير ١١٥٧م نقض بلدوين هدنته مع نور الدين . ذلك أن أعداداً غفيرة من التركمان ، وقد اعتمدوا على الهدنة ، جاءوا بقطعان أغنامهم وحيولهم لترعى في المراعى الخصيبة بالقرب من الحدود عند بانياس . ولم يستطع الملك بلدوين - المثقل بالديون لحبه للرفاهية لا غير - مقاومة إغراء مهاجمة الرعاة في غير ارتياب منهم واختطاف قطعانهم . وقد أكسبه هذا الخرق المخزى لالتزاماته ، أنفس الغنائم التي غنمتها فلسطين لعقود كثيرة ؛ لكنها أنهضت نور الدين للشار . ففي الوقت الذي ترقف فيه في بعلبك لإخضاع أميرها المتمرد ، كان قائده شيركوه قد هزم بعض

(٢٣) (المترجم): نسبة إلى اللفظة الإيطالية *Ducato* أى عملة ذهبية أو فضية تحمل صورة دوق *Duke*، كانت تستعمل فيما سبق في بعض البلدان الأوروبية.

(٢٤) Ibn al-Qalalnsi, pp. 322, 327.

(٢٥) *Ibid.* pp 324-5; Nicetas Choniates, pp. 152-4; Gregory the Priest, p. 176.

الغارات اللاتينية فى البقاع ؛ واحتث أخوه نصر الدين شافة جماعة من فرسان المستشفى بالقرب من نابلس . وفى شهر مايو انطلق نور الدين نفسه من دمشق لحصار بانياس ؛ وقهر شيركوه قوة إغاثة صغيرة ثم لحق بسيدته أمام أسوار بانياس . وسرعان ما استولى على أسفل المدينة ، لكن القلعة - التى تبعد مسافة ميلين على قمة جبل شديد الانحدار - صمدت بقيادة الكونستابل همفرى (أوف تورون) ، الذى أوْشك على الاستسلام لولا أن جاءت الأنباء باقتراب الملك ؛ فأشعل نور الدين النيران فى أسفل المدينة وانسحب تاركا بلدوين يدخل بانياس ويصلح الأسوار . وبينما كان الفرنج فى طريق عودتهم جنوب الأردن ، انقض عليهم نور الدين شمال بحر الجليل مباشرة ونال نصرا مؤزرا . وبشق الأنفس هرب الملك إلى صفد ، وتمكن المسلمون من العودة لمحاصرة بانياس . على أنه بعد أيام قليلة جاءت الأنباء من الشمال بتوقع هجوم من قلع أرسلان، الأمر الذى دفع نور الدين إلى التخلي عن محاولة الحصار وأسرع عائدا إلى حلب^(٢٦).

١١٥٦م : زلازل فى سوريا

وكانت هناك أسباب أخرى تدعو إلى الرغبة فى تجنب حرب صريحة فى تلك الآونة . ففي أوائل خريف عام ١١٥٦م ، حدثت فى سائر أنحاء سوريا سلسلة من الزلازل . ولم تحدث فى دمشق أضرار جسيمة ، وإنما جاءت أنباء الدمار من حلب وحماه ، بينما انهار موقع محصن فى أقاميا . وفى نوفمبر وديسمبر حدثت هزات أخرى عانت منها مدينة شيزر . وفى الربيع التالى حدثت هزات أخرى كان لها تأثيرها على قبرص والمدن الساحلية الواقعة شمالى طرابلس . وفى أغسطس ١١٥٧م عانى وادى نهر العاصى من هزات أكثر حسامة . وسقط ضحايا عديدون فى حمص وحلب . وفى حماة كان الدمار من البشاعة بحيث أطلق المؤرخون على الزلزال زلزال حماة . وفى شيزر كانت عائلة المنقذين قد تجمعت لتحتفل بختان أمير صغير عندما انقضت أسوار القلعة الضخمة على أفرادها ؛ ولم يتبق على قيد الحياة من كل الأسرة الحاكمة سوى أميرة شيزر التى أخرجت من بين الأنقاض ، وأسامة الذى كان بعيدا فى مهمته الدبلوماسية . وكان المسلمون والمسيحيون سواء بسواء منهمكين تماما فى إصلاح القلاع المحطمة ولم يفكروا فى حملات هجومية جادة لبعض الوقت^(٢٧).

(٢٦) William of Tyre, xviii, ii-i5, pp. 834-45; Ibn al-Qalanisi, pp. 325-6, 330-7

(٢٧) Robert of Torignz, i, p. 309; Michael the Syrian, iii, pp. 315-16, Armenian version,

وفى أكتوبر ١١٥٧ م ، وبعد أن عاد نور الدين من بانياس ، سقط فجأة مريضا فى حالة مرثسة فى سارمين . وظننا منه أن قد حان أجله ، أصر على أن يُنقل على محفة إلى حلب ؛ حيث أوصى بوصيته التى تقضى بأن يخلفه أخوه نصر الدين فى دويلاته ، على أن يحكم شيركوه دمشق تحت سيادته . على أنه عندما دخل نصر الدين حلب للاستعداد لتسلم الميراث ، لقي معارضة من حاكمها ، ابن الداية ، وحدثت اضطرابات فى الشوارع لم تهدأ إلى أن استدعى وجهاء حلب إلى فراش أميرهم ، فوجدوه ما يزال على قيد الحياة، وقد مرت الأزمة المرضية الآن وبدأ يستعيد صحته ببطء . لكنه بدا وقد فقد شيئا من مبادرته وطاقته ؛ فلم يعد المحارب الذى لا يقهر . لقد كانت هناك قوى أخرى آخذة فى الظهور فى سوريا تنهيا للسيطرة على مسرح الأحداث^(٢٨).

-p.356; *Chron. Anon. Syr.*(Syriac edition), p. 302; Ibn al-Qalanisi, pp. 338-41; Ibn al نورالدين أن يهاجم الفرنج حصونه العارية من الحماية ولذا ابقى على تجمع الجيش لمنع أية حركة كهذه . ويرد عند أبى شامة طبعة القاهرة، المجلد الأول ص ١١٢، المراثاة الشعرية لأسامة على دمار عائلته ، التى كان قد تشاجر معها.

William of Tyre, xviii, 17 pp. 847-8; Ibn al-Qalanisi, p. 341; Kemal ad-Din, (٢٨) ed.Blochet, pp. 531-i; Abu Shama, p. 110 (in R.H.C.Or.).

الفصل الثالث:

عودة الإمبراطور

محوطة الامبراطور

"فَإِجْعُ مَلِكُ الشِّمَالِ وَيُقِيمُ جُمْهُوراً أَكْثَرَ مِنَ الْأَوَّلِ وَيَأْتِي بَعْدَ
حِينَ بَعْدَ سَنَيْنَ بِجَيْشٍ عَظِيمٍ وَثَرَوَةٍ جَزِيلَةٍ"
(دانيال ١١ : ١٣)

فى عام ١١٥٣م ، وبينما كان نور الدين يركز انتباهه على دمشق ، وأثناء أن كان الملك بلدوين وجيشه أمام عسقلان ، قررت أميرة انطاكية أن تختط مصيرها بنفسها . ذلك أنه كان هناك فارس من بين الفرسان الذين تبعوا لويس ملك فرنسا فى الحملة الصليبية الثانية يدعى رينالد ، هو الابن الأصغر المفلس لجيوفرى (كونت حين ولورد شاتيلون سير لوان) . وكان المستقبل مظلما أمام رينالد (أوف شاتيلون) فى بلده، ولذا لم ينضم إلى الصليبيين عندما عادوا إلى بلادهم ، وإنما مكث فى فلسطين حيث التحق بخدمة الملك بلدوين الصغير ، وصحبه إلى انطاكية عام ١١٥١م ؛ وسرعان ما التقطته عينا الأميرة المترملة . ويبدو انه بقى فى امارتها، بعدما تملك اقطاعية صغيرة طبعاً ؛ وربما كان وجوده هو الذى دفعها إلى رفض الأزواج المرشحين من الملك والامبراطور . وفى ربيع عام ١١٥٣ قررت أن تتزوجه . وقبل أن تعلن عن نيتها التمتست الاذن من الملك، إذ أنه الرضى على دويلتها والسيد الأعلى لعريسها ، وسارع

رينالد إلى عسقلان حيث معسكر الملك وسلمه رسالة كونستانس . ولم يعترض الملك لمعرفة أن رينالد جندى شجاع ، وقبل كل شئ وجد فيه الخلاص من مسؤوليته عن انطاكية ؛ وما أن عاد رينالد إلى انطاكية حتى انعقد الزواج ونُصّب رينالد أميراً . على أنه لم يكن بالزوج الذى يحظى بالقبول إذ ساد الاعتقاد ، ليس فقط لدى عظام الأسر فى أنطاكية وإنما أيضاً لدى رعايا الأميرة الأكثر تواضعاً ، بأنها قد حطت من قدرها بتسليم نفسها لهذا المغرور بجدانة النعمة^(١) .

وكان من اللائق والصواب أن تطلب كونستانس الإذن من الامبراطور مانويل كذلك ؛ إذ أن القسطنطينية استقبلت أبناء الزواج استقبالا سيئاً ، على أن مانويل كان مشغولاً آنذاك فى حملة ضد السلاجقة ؛ ولم يكن بوسعها أن يعرب عن حنقه بصورة عملية ؛ وإدراكاً منه لحقوقه الأنطاكية أرسل يعرض الإعراف بالأمير الجديد إذ حارب الفرنج انطاكية إلى جانبه ضد ثوروس الأرمينى . وامثل رينالد طواعية ؛ فالتأيد الامبراطورى سيقوى من مركزه شخصياً ؛ فضلاً عن أن الأرمن توغلوا فى مقاطعة الإسكندرونة التى يزعم الفرنج أنها جزء من الإمارة الأنطاكية ؛ وتصدى لهم رينالد فى معركة قصيرة بالقرب من الإسكندرونة ودحرهم إلى كيليكيا ، وأهدى البلد الذى استعاده إلى نظام فرسان المعبد الذى راح يعمل على حماية مداخلها بإعادة بناء قلعتى قسطون وبجراس اللتين تتحكمان فى البوابات السورية . وكان رينالد قد قرر تنسيق تعاونه مع نظام فرسان المعبد ، ومن ثم بدأ معه علاقة صداقة قدر لها أن تكون مهلكة للقدس^(٢) .

وبعد أن ضمن رينالد الأراضى التى أرادها، طلب الإعانة المالية من الامبراطور ، الذى رفض مشيراً إلى أن المهمة الرئيسية لم تنجز بعد، فما كان من ريموند إلا أن غير سياسته . وبتشجيع من فرسان المعبد، توصل إلى سلام مع ثوروس وأخوته؛ وفى الوقت الذى كان الأرمن يهاجمون فيه القلاع البيزنطية المتبقية فى كيليكيا، قرر تسيير حملة ضد جزيرة قبرص الغنية . لكنه كان يفتقر إلى المال اللازم لهذه الحملة . وكان بطريق

(١) William of Tyre, xvii, 26 p. 802 ، يقول إنها تزوجت سرا قبل حصولها على إذن الملك . ويطلق عليه Cinnamus, p. 178 "واحداً اسمه رينالد" Michael the Syrian, Armenian version ؛ ويرد أصل منشأه فى Schlumberger (Renauld de Châtillon, p. 3) . وقد تم الزواج قبل شهر مايو، عندما أكد رينالد امتيازات البنادقة فى انطاكية (Rohricht, Regesta, p. 72)

(٢) William of Tyre, xviii, 10 pp. 834-5; Michael the Syrian, iii, p. 314 and Armenian version, p. 349 ويرد ميخائيل السورى فى تاريخه ما يؤيد ثوروس ؛ Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 283

انطاكية، إيمرى، على جانب كبير من الثراء، وكان قد جاهر بعدم موافقته على زواج كونستانس، فعقد رينالد العزم على معاقبته على النحو الذى يعود عليه بالنفع. وكان إيمرى قد نال احترام الأنطاكيين بما كان له من شجاعة ونشاط فى الأيام السوداء التى أعقبت موت الأمير ريموند؛ لكن البطريق إيمرى كان أمياً منحلّ الخلق مما نال من سمعته وجعلته معرضاً للهجوم. وطلب منه رينالد المال، ولما رفض فقد رينالد أعصابه وألقى به فى غيابة السجن، حيث ضرب الأسقف ضرباً مبرحاً على رأسه، ثم لُطِخت جراحات رأسه بالعسل وترك على سطح القلعة مقيداً بالسلاسل تحت الشمس المحرقة طوال يوم كامل من أيام الصيف ليكون ضحية لكافة الحشرات فى الجوار. وأمر هذا العقاب؛ إذ أسرع البطريق البائس إلى الدفع بدلاً من أن يقضي يوماً آخر فى العذاب. وفى تلك الأثناء وصلت القصة إلى القلس، فارتاع الملك بلدوين وأرسل فى الحال مستشاره رالف وأسقف عكا للإصرار على إطلاق سراح البطريق فى الحال. وأطلق رينالد سراحه بعد أن حصل على المال، وعاد إيمرى بصحبة منقذيه إلى القلس حيث استقبله الملك والملكة مليسند وأخوه البطريق بأسمى آيات التشريف؛ ورفض العودة إلى انطاكية^(٣).

١١٥٦ م : رينالد يُغير على قبرص

صدمت تجربة البطريق الدوائر الفرنجية المسؤولة، لكن رينالد لم ينجل، وبإمكانه الآن مهاجمة قبرص. وفى ربيع عام ١١٥٦ م، هبط هو وثوروس على الجزيرة فجأة. وكانت قبرص قد تجنبت الحروب والغزوات التى أشاعت الاضطراب فى القارة الآسيوية خلال القرن المنصرم، وكانت راضية ومزدهرة فى ظل الحكم البيزنطيين. وقبل نصف قرن، كانت طرود الطعام القيرصية ذات عون كبير لفرنج الحملة الصليبية الأولى عندما كان أفرادها يتضورون جوعاً أمام انطاكية، وكانت العلاقات بين الفرنج وحكومة الجزيرة تنعم بدفء الود، باستثناء بعض الخلافات الإدارية المؤقتة. وما أن سمع الملك بلدوين بخطة رينالد حتى أرسل رسالة عاجلة لتحذير الجزيرة، لكنها وصلت بعد فوات الأوان؛ وتعذر دفع التعزيزات لتصل فى الوقت المناسب. وكان حاكم الجزيرة هو جون كومنينوس، ابن أخى الامبراطور، وكان معه فى الجزيرة الجندى البارز ميخائيل براناس. وبوصول أنباء الهبوط الفرنجى على الجزيرة، اندفع براناس بميليشيات الجزيرة

إلى الساحل وانتزع نصرا مبدئيا صغيرا ؛ غير أن الغزاة كانوا بأعداد غفيرة ، وسرعان ما تغلبوا على جنوده واسروه هو نفسه ؛ وعندما خف حون كومنينوس لمساعدته أُسِر هو الآخر . ثم أن الفرنج والأرمن المنتصرين انساحوا في أرجاء الجزيرة يسلبون وينهبون كل ما تقع عليه أعينهم من المباني التي تستوي فيها الكنائس والأديرة والخوانيت والمنازل الخاصة . وأحرقت الجثث ، وجمعت قطعان الماشية مع السكان كلهم وسيقوا إلى الساحل . واغتصبت النساء ، أما الأطفال والطاعنون في السن غير القادرين على الحركة ، فقد قطعت السيوف حناجرهم . وكان نطاق القتل والسلب من السعة والبشاعة بحيث يثير الحسد لدى المغول والهنون^(٤) . وتواصل الكابوس نحوًا من ثلاثة أسابيع ، وبانتشار شائعة بأن الأسطول الامبراطوري في الأفق ، أصدر رينالد أوامره بالعودة إلى السفن التي كانت مكتظة بالأسلاب . فبيعت القطعان والأسراب لأصحابها بأسعار مرتفعة . وأجبر كل قبرصى على أن يفتدى نفسه ، ولم يتبق في الجزيرة من المال يدفع للفدية . ولذا أخذ الغزاة معهم إلى انطاكية الحاكم وبراناس ، بالإضافة إلى كبار رجال الكنيسة وأبرز الملاك وأهم التجار بعلائلتهم ، ليملكوا في السجن إلى أن تصل أموال الفدية ، فيما عدا البعض ممن مُزقت أوصالهم وارسلوا في هيئة ساهرة إلى القسطنطينية^(٥) . ولم تبرا جزيرة قبرص قط من الخراب الذي أحدثه الفرنسيون وحلفاؤهم الأرمن . واكتمل البؤس بزلازل شديدة ضربت قبرص ضربات قاسية عام ١١٥٧م ؛ وفي عام ١١٥٨م أغار الأسطول المصري - الذي لم يغامر قط بدخول المياه القبرصية - ببعض الغارات العارية من الحماية ، والأرجح أن ذلك قد حدث بدون إذن رسمي من حكومة الخليفة ؛ إذ كان من بين المأسورين أخو حاكم الجزيرة الذي استقبل في القاهرة استقبالا مشرفا وأعيد في الحال إلى القسطنطينية^(٦) .

١١٥٧م : الفرنج يهاجمون شيزر

في عام ١١٥٧م ، عاد كونت فلاندرز - ثيرى - إلى فلسطين مع فصيلة من

(٤) (المترجم) الهون Huns : شعب مغولي احتاح أجزاء كبيرة من أوروبا الشرقية والوسطى تحت زعامة أتيلان عام ٤٥٠م تقريبا.

(٥) William of Tyre, xviii, 10, pp. 834-5; Cinnamus, pp. 78-9; Michael the Syrian, iii, p.315, and Armenian version, p.350; Bar-Hebraeus, trans. Budge, p. 284 Gregory the Priest, p.187 إن رينالد قطع أنوف القساوسة اليونانيين الذين أسرهم

(٦) Ibn Moyassar, p. 473.

الفرسان ، وفي الخريف قرر بلدوين انتهاز مجيئه ومرض نور الدين لإعادة ترسيخ الأوضاع الفرنجية في وسط وادي العاصي ، وشجع رينالد على الانضمام إلى الجيش الملكي في الهجوم على شيزر . وكانت قلعتها ، بعد زلزال أغسطس المدمر ، قد سقطت في أيدي عصابة من المغامرين الحشاشين . ووصل الجيش إلى هناك في نهاية العام ؛ وفي الحال استولوا على أسفل المدينة ، وبدأ سقوط القلعة المحطمة وشيكا لولا أن ثارت مشاجرة بين المحاصرين ؛ إذ وعد بلدوين بأن يهب المدينة لثبتي لتكون نواة لإمارة يحتفظ بها تحت سيادة التاج ؛ غير أن رينالد ادعى بأن المنقذين من رعايا أنطاكية ، ومن ثم طلب من ثبتي أن يقدم له فروض الولاء نظير حصوله عليها . وكان الكونت يرى أنه من المحال التفكير في تقديم فروض الولاء لمثل هذا الرجل المجهول الأصل . ولم يستطع بلدوين تسوية المشكلة إلا بتخليه عن الأراضي المتنازع عليها ، وتحرك الجيش مبتعدا باتجاه الشمال للإستيلاء على أطلال أفاميا ثم محاصرة حارم . وهذه الأراضي أراض أنطاكية بلا شك ، لكن بلدوين وثبتي كانا على استعداد لمساعدة رينالد على استعادتها نظرا لأهميتها الاستراتيجية . وبعد قصف شديد بالمنجنيقات استسلمت في فبراير ١١٥٨ م ، وبعد وقت قليل عهد بها إلى أحد فرسان ثبتي هو رينالد (أوف سانت فاليري) الذي احتفظ بها تحت سيادة أمير أنطاكية^(٧) .

لم يرض الملك عن تصرف أمير أنطاكية وقرر إعادة توجيه سياسته . وكان مدركا لعلاقة رينالد السيئة مع الامبراطور الذي لا يُحتمل أن يغفر الغارة على قبرص ، كما كان مدركا لحقيقة أن الجيش البيزنطي لا يزال أقوى الجيوش في العالم المسيحي . وفي صيف عام ١١٥٧ م أرسل سفارة إلى القسطنطينية ملتصقا اختيار عروس من العائلة الامبراطورية . وكان على رأس السفارة أشار ، رئيس اساقفة الناصرة ، الذي مات أثناء الرحلة ، وهمفري الثاني أمير تبين . واستقبل الامبراطور مانويل السفارة استقبالا حسنا ؛ وبعد شيء من المفاوضات عرض ابنة اخته ثيودورا مع بائة مقدارها مائة ألف قطعة هيربري ذهبية بالاضافة إلى عشرة آلاف أخرى لمصروفات الزفاف ، وهدايا تعادل ثلاثين ألفا أخرى . ولقاء ذلك يتعين منحها عكا والأراضي التابعة لها كبائة تحتفظ بها في حالة موت زوجها دون ذرية . وبعودة السفارة وتأكيده الملك قبوله

(٧) William of Tyre, xviii, 17-19, pp. 847-53; Robert of Torigny, I, p.316; Michael the Syrian, Armenian version, pp.351-3; Ibn al-Qalanisi, pp.342, 344 فاليري) لا يزال أحد بارونات القدس في ١١٦٠ م (Rohricht, *Regesta*, p.94) لكنه عاد الى الغرب بعد ذلك مباشرة . والمؤرخ الوحيد الذي يخبرنا بأنه مُنح حران هو Robert of Torigny.

الشروط ، أبحرت الأميرة الصغيرة من القسطنطينية ووصلت عكا في سبتمبر ١١٥٨ م ، وارتحلت في أبهة إلى القدس ، حيث تزوجت الملك بمراسم زواج قام بها البطريق ايمري الأنطاكي ، إذ لم يكن البابا قد ثبت بعد بطريق القدس المنتخب . وكانت في الثالثة عشرة من عمرها ، وانما كانت فارعة القامة وجميلة . وسُرَّ بها بلدوين ، وسار سيرة الزوج المخلص بعد أن تخلّى عن أيام عزوبته المنحلة^(٨) .

ويبدو أن مانويل وعد اثناء المفاوضات بالانضمام في تحالف ضد نور الدين ، وان بلدوين وافق على ضرورة اخضاع رينالد . وفي تلك الأثناء أغار الملك على الحدود الدمشقية . وفي مارس ١١٥٨ م قام هو وكونت فلاندرز بزحف مفاجئ على دمشق نفسها يوم أول ابريل محاصرا قلعة داريا وضواحيها . بيد أن نور الدين ، بعد أن تمائل للشفاء ، كان في طريقه بالفعل جنوبا ليضع نهاية للمكائد التي أينعت هناك اثناء مرضه ، فوصل دمشق في السابع من ابريل مما أثار مشاعر البهجة البالغة لدى سكانها ، ورأى بلدوين الحكمة في أن ينسحب . فقام نور الدين بهجوم مضاد ؛ وبينما كان قائده شيركوه يغير على اراضي صيدا ، كان هو نفسه يهاجم قلعة الحبيس جلدك التي بناها الفرنج كمخفر امامى جنوب شرق بحر الجليل على ضفاف نهر اليرموك . وكان الهجوم شديدا على الحامية بحيث سارعت إلى الموافقة على التسليم في حالة عدم وصول العون في غضون عشرة ايام ؛ ولذا خف بلدوين مع الكونت ثيرى لنجدتها . غير انه بدلا من أن يذهب اليها مباشرة ، سلك الطريق الواقع شمال البحيرة والمودى إلى دمشق . وأفلحت الحيلة ؛ إذ خشى نور الدين على خطوط مواصلاته فرفع الحصار . وتقابل الجيشان عند قرة البطيحة الواقعة شرقي وادي الأردن الأعلى . وما أن لمح الفرنج المسلمين حتى هاجموا وهم يظنونهم مجرد فرقة كشافة . لكنهم سمعوا صهيل جواد كان الملك قد اعطاه لأحد الشيوخ المعروف انه مع نور الدين - وقد تعرف الجواد على رائحة أصدقائه القدامى بين خيول الفرنج - فلهم ذلك الصهيل على أن القوة المسلمة كلها قد وصلت . ووجد نور الدين ، الذي لم يكن بكامل عافيته ، من حشه على مغادرة ساحة القتال ، وبرحيله استدأر الجيش كله منسحبا بشئ من عدم النظام . وكان النصر الفرنجي كافيا لاقتناع نور الدين بطلب الهدنة . وللسنوات القليلة التالية لم تكن هناك أعمال حربية جادة على الحدود السورية الفلسطينية ؛ وبذا تمكن كل من بلدوين ونور

(٨) William of Tyre, xviii, 16, 22, pp. 846, 857-8; Gregory the Priest, pp. 186-9; Matthew of Edessa, cclxxiii, pp. 352-8.

الدين من تحويل انتباهه إلى الشمال^(٩).

١١٥٨ م : الامبراطور مانويل يدخل كيليكيا

انطلق الامبراطور من القسطنطينية في خريف عام ١١٥٨ م على رأس جيش عظيم ميمما وجهه شطر كيليكيا . وبينما كانت القوة الرئيسية تتبعه بطيئة بطول الطريق الساحلى الوعر شرقا أسرع هو إلى الأمام مع قوة تتألف من مجرد خمسمائة فارس . وكانت استعداداته من السرية وحركته من السرعة بحيث لم يعلم أحد فى كيليكيا بمجيئه . وكان الأمير الأرمني ثوروس فى طرسوس لا يرتاب فى شئ ، إلى أن حدث فجأة فى يوم ما فى اواخر اكتوبر أن اندفع إلى بلاطه حاج لاتينى كان على سابق معرفة به ، يخبره أنه شاهد جنود الامبراطورية على مسيرة مجرد يوم واحد . فجمع ثوروس عائلته وأصدقاءه المقربين وأمواله وهرب من فوره إلى الجبال . وفى اليوم التالى دخل مانويل سهل كيليكيا . وفى الوقت الذى احتل فيه صهره ثيودور فاتاسيس طرسوس ، واصل هو تقدمه بسرعة ؛ وفى غضون اسبوعين كانت كل مدن كيليكيا حتى عين زربه فى قبضته . على أن ثوروس نفسه كان مايزال يراوغه ؛ فبينما راحت الفصائل تجوب الوديان بحثا عنه ، كان هو يهرب من قمة تل إلى قمة اخرى إلى أن وجد الملاذ أخيرا على قمة صخرة شامخة يطلق عليها داجيج ، بالقرب من منابع نهر اليردان التى لم يسكن أطلاها أحد لأجيال خلت . ولم يعرف أحد مكان اختبائه سوى خادمية اللذين يثق فيهما ثقة عمياء^(١٠).

بات رينالد هلوغا لوصول الامبراطور . وكان يدرك تمام الإدراك أن لا قبل له بمقاومة جيشه الامبراطورى العرمرم ؛ وقد انقذه ادراكه هذا . إذ سارع بالخضوع من فوره وهو يعلم أنه بذلك يستطيع الحصول على شروط أفضل للغاية منها فى حالة هزيمته فى معركة . وأكد له حيار - أسقف اللاذقية - وهو أكثر مستشاريه فطنة وفراهة ، أن دوافع الامبراطور هى الكبرياء وليس الغزو . فسارع رينالد بارسال من يعرض تسليم قلعة انطاكية لحامية بيزنطية ، وعندما جاءه مبعوثه ليخبره بأن ذلك لا يكفى ، ارتدى هو نفسه رداء التائب وأسرع إلى معسكر الامبراطور خارج اسوار

(٩) -William of Tyre, xviii, 21 pp. 855-6; Ibn al-Qalanisi, pp. 346-8; Abu Shama, pp. 97 100، (ويقول أبو شامة إن بلدوين طلب الهدنة، وربما اعتمد على جملة مبهمة عند ابن القلانيسى).

(١٠) Cinnamus, pp. 179-81; Matthew of Edessa, loc. cit ; Gregory the Priest.

المصيبة . وكان المبعوثون من كافة الأمراء فى الجوار يتوافدون لتحية الامبراطور ، من نور الدين ، ومن الدانشمند ، ومن ملك جورجيا ، وحتى من الخليفة . وأمر مانويل بترك رينالد ينتظر قليلا . ويبدو أن الامبراطور قد تسلم فى تلك اللحظة رسالة من البطريق المنفى ليمرى يقترح فيها إحضار رينالد امامه مكبلا بالسلاسل وخلعه . غير أن الامبراطور رأى الأفضل له أن يحتفظ به عميلا وضيعة . وفى جلسة وقورة للامبراطور على عرشه فى عيخته العظيمة ، وقد تحلقت حوله جماعات حاشيته والسفراء الأجانب ، واصطفت فصائل بدیعة من الجيش على المداخل ، كان خضوع رينالد : فسار هو وأتباعه حفاة الأقدام عاري الرؤوس خلال المدينة ثم خارجها إلى المعسكر ، حيث سجد فى التراب أمام منصة الامبراطور ، بينما رفع أتباعه أيديهم فى تضرع . ومرت دقائق كثيرة قبل أن يتنازل مانويل ويلاحظ وجوده ، ثم مُنح المغفرة بشروط ثلاثة : أن يسلم القلعة إلى حامية امبراطورية فى اى وقت يُطلب منه ذلك ؛ وعليه أن يقدم كتيبة إلى الجيش الامبراطورى ؛ وأن يقبل بطريقا يونانيا لأنطاكية بدلا من البطريق اللاتينى . وأقسم رينالد على أن يلتزم بتلك الشروط ، ثم صرفه الامبراطور وأعيد إلى انطاكية .

لدى وصول أنباء اقتراب مانويل سارع الملك بلدوين ومعه اخوه أمالريك والبطريق ليمرى شمالا فوصلوا انطاكية فى أعقاب عودة رينالد مباشرة . ولما علم بلدوين بالغفر عن رينالد شعر بشئ من خيبة الأمل وكتب لمانويل فى الحال ملتصسا الاجتماع به . وتردد مانويل لأنه ظن على ما يبدو أن بلدوين كان يرغب فى أن يستأثر بالامارة ؛ وربما كان ذلك جزءا من مقترحات ليمرى . ولما أصر بلدوين وافق الامبراطور . وركب بلدوين خارجا من انطاكية يودعه مواطنوها متوسلين اليه أن يصالحهم مع الامبراطور . ونجحت المقابلة نجاحا بالغا ؛ إذ افتتن مانويل بالملك الصغير وأبقاه ضيفا لديه لعشرة ايام . وبينما كانا يناقشان خطط التحالف ، نجح بلدوين فى الحصول على عفو عن ثوروس الذى قام بنفس الخطوات التى قام بها رينالد وسُمح له بالاحتفاظ بأراضيه فى الجبال . وربما يُعزى إلى بلدوين عدم اصرار الامبراطور على التنصيب الفورى لبطريق يونانى ، واعيد تنصيب ليمرى رسميا فى عرشه البطريقى وأجريت مصالحة رسمية بينه وبين رينالد . وعاد بلدوين محملا بالهدايا إلى انطاكية وقد خلف وراءه أخاه مع الامبراطور .

١١٥٩ م : الامبراطور فى أنطاكية

وفى أحد الفصح ١٢ ابريل ١١٥٩ م جاء مانويل إلى أنطاكية ودخل المدينة فى مركب وقور . وحاولت السلطات اللاتينية أن تبقى خارج المدينة قائلة إن هناك مؤامرة لاغتياله هناك ؛ لكنه لم يعبأ بالتخويف ، ولم يطلب سوى بعض الرهائن من المواطنين ، وأن يُجرد الأمراء اللاتينيون المشتركون فى المركب الزياحي من سلاحهم ، وارتدى هو نفسه درعا تحت أرديته ، ولم تحدث حادثة سيئة . وبينما كانت الرايات الامبراطورية ترفرف اعلى القلعة ، كانت حاشيته تعبر الجسر المحصن داخل المدينة . وأتى أولا الحرس الامبراطورى الاسكندنافى الفخيم ؛ ثم الامبراطور نفسه على صهوة جواد متشحا برداء أرجوانى وعلى رأسه تاج مرصع بدرر اللؤلؤ ، وريئال على قدميه ممسكا بلجام جواده، ومشى لوردات فرنج آخرون بجوار الجواد . وتبعه بلدوين على جواده بلا تاج وبلا سلاح . ثم جاء خلفهما كبار مسؤولى الامبراطورية . وفى داخل البوابات مباشرة كان البطريق ايمرى منتظرا ، بكامل ارديته البابوية ومعه رجال كنيسة كلهم ليقود المركب الزياحي خلال شوارع المدينة، التى فرشت بالبسط والزهور، إلى كاتدرائية القديس بطرس أولا ثم إلى القصر .

ومكث مانويل فى أنطاكية ثمانية ايام قضاهما فى حفول من بعدها حفول . ورغم انه كان هو ذاته ذا كبرياء وجلال فى المناسبات الجديرة بالوقار ، إلا أنه أشاع من جاذبيته وتودده ما أسر الجموع ، وزادت البهجة فى مجملها بما كان يقدقه من سخاء هداياه على النبلاء والعوام على السواء . وفى لفته إلى أبناء الغرب نظم بعض العاب الفروسية وأشرك رفاقه معه فى المثاقفة ؛ وكان فارسا بارعا وأدى دوره بمظاهر الشرف؛ غير أن رفاقه - وكانت الفروسية عندهم وسيلة لا غاية - تركوا انطبعا أقل بالمقارنة بفارسان الغرب . وقويت عرى الود بين الامبراطور وبين ابن اخته بالزواج - الملك . وعندما كُسرت ذراع بلدوين أثناء الصيد ، أصر مانويل على أن يعالجه بنفسه، تماما كما كان يقوم بدور المستشار الطبى لكونراد الألمانى^(١١).

(١١) William of Tyre, xviii, 23-5 pp. 859-64; Cinnamus, pp. 181-90; Nicetas Choniates, pp. 141-5; Prodromus, in R.H.C.G. II, pp. 752, 766 Matthew of Edessa, cclxxiv, pp. 354-5; Gregory the Priest, pp. 188-9; Vahram, *Rhymed Chronicle*, p. 505; Ibn La Monte 'To what extent was the Bzyantine أيضا al-Qalanisi, pp. 349, 353.

Empire the suyerain of the Crusading States? in *Byzantion*, vol. vii

١١٥٩م : الهدنة بين مانويل ونور الدين

كان الأسبوع الرائع علامه على انتصار كبرياء الامبراطور ؛ وكان حيرار أسقف اللاذقية على حق عندما قال إن ما يريده الامبراطور هو الكبرياء وليس الغزو . وعندما انتهت الاحتفالات كلها انضم إلى جيشه مرة اخرى خارج الأسوار وانطلق شرقا إلى الحدود الاسلامية ؛ حيث قابله في الحال تقريبا سفراء نور الدين ومعهم كامل السلطة للتفاوض على هدنة ؛ فاستقبل السفراء وبدأت المناقشات مما أشعل حنق اللاتين الذين كانوا يتوقعونه أن يزحف على حلب . وباقتراح نور الدين اطلاق سراح جميع أسراه من المسيحيين البالغ عددهم ستة آلاف أسير في سجنونه ، وتسيير حملة ضد الأتراك السلاجقة ، وافق مانويل على الغاء حملته .

وربما لم يكن في نية مانويل الاستمرار في حملته قط، وبرغم ما صدر عن الصليبيين والمدافعين عنهم من المؤرخين العصريين من صرخات توصم الامبراطور بالخيانة ، فمن العسير علينا أن نتصور ما كان يستطيع الامبراطور أن يفعله غير ذلك . لقد كانت سوريا بالنسبة للصليبيين تمثل الأهمية كلها ، لكنها كانت بالنسبة لمانويل بمجرد واحدة من المناطق الحدودية الكثيرة ، وليست بالمنطقة الحيوية لإمبراطوريته . ولم يكن بوسعه البقاء شهورا طويلة في نهاية خط مواصلات طويل ومعرض للمخاطر ، ولا أن يغامر بخسائر جسيمة لجيشه - وإن كان عظيما - ثم يتنصل من الملامة . وفضلا عن ذلك ، لم يكن راغبا في كسر قوة نور الدين ، إذ كان يدرك من التجربة المريرة أن الفرنج لم يرحبوا به إلا عندما خشوا سطوته ، ومن ثم يكون من الحمق أن يقضى على مصدر خوفهم الرئيسي؛ إلى جانب أن التحالف مع نور الدين يعد بمثابة أصل من الأصول النفيسة في حروبه مع أعداء أخطر علي الامبراطورية بكثير ، ألا وهم أتراك الأناضول . غير أنه يقدم المساعدة ، كما تظهر الأحداث اللاحقة ، ليمنع نور الدين من غزو مصر؛ إذ أن ذلك يقلب الموازين بصورة قاتلة . وربما تسرع في الهدنة ، إذ كان بوسعه الحصول على شروط أفضل ؛ لولا أنه تلقى أنباء تشير القلق بوجود مؤامرة في القسطنطينية واضطرابات على حدوده الأوروبية . وعلى أية حال ، لم يكن بوسعه البقاء أكثر من ذلك في سوريا^(١٢) .

(١٢) William of Tyre, xviii, 25, p. 864 (لا يوجه لوما إلى الامبراطور بأي حال) ; Otto of Freisingen, *Gesta Friderici*, p. 229; Cinnamus, pp. 188-90; Gregory the Priest, pp. 190-1; Matthew of Edessa, cclxxv, pp. 355-8; Ibn al-Qalanisi, pp. 353-5.

ومع ذلك ، كانت هدنته مع نور الدين خطأ نفسيا . إذ كان الفرنج آنذاك على استعداد لقبوله سيدا لهم ؛ لكن الحكيم من ذوى البصيرة يراه وقد أظهر نفسه مهتما بمصير الامبراطورية بصورة اكثر من اهتمامه بمصيرهم . كما أنهم لم يجلدوا كثير تعزية فى الإفراج عن الأسرى المسيحيين الذين يضمنون بعض أهم المحاربين المحليين ، ومن بينهم السيد الأعظم لفرسان المعبد برتراند (أوف بلانسفورت) ؛ إلا أن أغلبهم كانوا من الألمان الذين وقعوا فى الأسر إبان الحملة الصليبية الثانية ، وفيهم برتراند (أوف تولوز) المطالب بامارة طرابلس ، والذي قد يكون ظهوره مرة أخرى مسيئا للخرج لولا أن حال الأسر دون موته^(١٣).

بعد أن عقد الامبراطور الهدنة انسحب مع جيشه غربا ، بطيئا أول الأمر ، ثم بدأ يسرع بورود أنباء من عاصمته تثير المزيد من الانذار . وحاول بعض اتباع نور الدين مناوشة الجيش على غير رغبة سيدهم . ولإختصار المسافة ، اتجه الجيش من خلال الأراضى السلجوقية ، وحدثت مناوشات مع جنود السلطان ؛ غير أن الجيش وصل سالما إلى القسطنطينية فى أواخر الصيف . وبعد ثلاثة اشهر تقريبا عبر مانويل مرة أخرى إلى آسيا فى حملة ضد السلاجقة ، يجرب فيها معهم شكلا من التكتيكات أكثر حركة ، بينما كان مبعوثوه يعملون على تعزيز التحالف ضد السلطان السلجوقى قلعج ارسلان الثانى . وشعر نور الدين بالارتياح العميق لرحيل مانويل ، فتوغل فى الأراضى السلجوقية من أواسط الفرات ؛ وهاجم الأمير الدانشمندى يعقوب ارسلان من الشمال الشرقى هجوما بلغ من نجاحه أن اضطر السلطان إلى أن يتنازل له عن الأراضى المحيطة بالبستان فى جبال طوروس المقابلة . وفى تلك الأثناء ، كان القائد البيزنطى جون كونتوستيفانوس يجمع فصائل الجنود التى التزم بتقديمها بموجب المعاهدة كل من رينالد وثوروس ، إلى جانب فصيلة من البنجاك تركها مانويل ماثمة فى كيليكيا ، ثم تحرك بكل هذا الجمع خلال مضائق جبال طوروس ؛ وزحف مانويل مع الجيش الامبراطورى الرئيسى أعلى وادى المياندر ، بعد أن عزز الجيش بجنود أرسلها امير الصرب ، وبالحجاج الفرنج الذين جُندوا عندما رست سفنهم فى جزيرة رودس . وكان على السلطان أن يقسم قواته . وبعدها أحرز كونتوستيفانوس نصرا كاملا على الأتراك الذين تصدوا له ، كف قلعج ارسلان عن الحرب ؛ وكتب إلى الامبراطور عارضا السلام لقاء إعادته كل المدن اليونانية التى احتلها المسلمون فى السنوات الحديثة ، والتأكد من

احترام الحدود وتوقف الغارات ، وتقديم فصيلة لتحارب فى جيش الامبراطور منى يُطلب منه ذلك . ووافق مانويل على الشروط ؛ لكنه احتفظ لديه احتياطيا بأخى السلطان المتمرد ، شاهنشاه ، الذى جاءه طالبا الحماية . ولذا ، وكى يؤكد قلعج ارسلان المعاهدة ، أرسل مستشاره المسيحي كريستوفر إلى القسطنطينية مقترحا القيام بزيارة رسمية للبلاط الامبراطورى . وتوقفت الأعمال الحربية فى صيف عام ١١٦١ م ، وفى الربيع التالى استقبل قلعج ارسلان فى القسطنطينية . وكانت الاحتفالات رائعة ، وعومل السلطان بأسمى آيات التشريف وأمطروه بالهدايا ، لكنه عومل كأمر تابع . وكان للزيارة أثرها فى أمراء الشرق كلهم^(١٤).

وعند الحكم على سياسة مانويل الشرقية ، لا بد لنا من أن نحكم فى هذا الضوء العام . فقد فاز بنصر كبيرائى نفيس ، وأخضع السلاجقة - على الأقل مؤقتا - وهم الذين يمثلون التهديد الرئيسى لامبراطوريته . وقد جلب هذا النجاح على الفرنج بعض المزايا المعينة ؛ فمع أن نور الدين لم يهزم ، إلا أنه خاف ، ولن يحاول شن هجوم مباشر على الأراضى المسيحية ؛ وفى الوقت نفسه تسبب السلام مع السلاجقة فى إعادة فتح الطريق البرى للحجاج القادمين من الغرب الذين كانت أعدادهم آخذة فى التزايد ، وأما عن الأعداد الأكثر التى لم تصل ، فذلك يعزى إلى السياسات الغربية ، وإلى الحروب الدائرة بين الهوهينشتافن وبين البابويين^(١٥) فى ألمانيا وإيطاليا ، وبين الكابشيين والبلاطاجونيت^(١٦) فى فرنسا . ومع أنه كان مقدرا أن يبقى لبيزنطة أعظم نفوذ فى شمال سوريا للسنوات العشرين التالية ، كان أصدقاؤها الأصلاء بين الفرنج قليلين .

(١٤) Cinnamus, pp. 191-201, 204-8; Nicetas Choniates, pp. 152-64; Gregory the Priest, pp. 193-4, 199; Matthew of Edessa, cclxxxii, p. 364; Michael the Syrian, III, p. 320; Chron. Anon. Syr p. 302; Ibn al-Athir, p. 544.

(١٥) (المترجم) الهوهينشتافن Hohenstaufen: إسم الأسرة التى حكمت ألمانيا (١١٣٨-١٢٠٨ م) وصقلية (١١٩٤-١٢٦٨ م) . والبابويين Papalists نسبة إلى الدول البابوية Papal State فى وسط وشمال وسط إيطاليا والتى حكمتها البابوية من القرن الثامن وحتى عام ١٨٧٠ م .

(١٦) (المترجم) الكايشيون أو الكايشيان Capetians: نسبة إلى الأسرة الحاكمة الفرنسية (٩٨٧-١٣٢٨ م) التى أسسها هيو كابيت Hugh Capet . والبلاطاجينيت Plantagenets: اسم الأسرة التى حكمت إنجلترا (١١٥٤-١٣٩٩ م) .

١١٦٠ م : رينالد يقع فى الأسر

أظهرت أحداث عام ١١٦٠ م طبيعة السيادة الامبراطورية على انطاكية وقيمتها سواء بسواء . وكان الملك بلدوين قد عاد إلى الجنوب ، وانشغل ببعض الغارات القليلة الضئيلة على الأراضى الدمشقية منتهزا انشغال نور الدين فى الشمال ، إلى أن سمع بأن رينالد قد وقع فى أسر نور الدين . ذلك أن حركة القطعان الموسمية من جبال طوروس المقابلة إلى سهول الفرات ، أغرت الأمير بالإغارة أعلى وادى النهر فى نوفمبر ١١٦٠ م. وأثناء عودته البطيئة نظرا لما كان يسوقه من قطعان الماشية والجمال والحياد التى جمعها ، وقع فى كمين نصبه له حاكم حلب مجد الدين ، وهو أخو نور الدين فى الرضاع . وقد حارب بشجاعة ، لكن رجاله كانوا قلة أمام عدوهم ، وأجبر هو نفسه على الترحل واقتيد أسيرا . وأرسل مع رفاقه وهم مقيدون ، على ظهور الجمال إلى حلب حيث قدر له أن يبقى فى السجن ستة عشر عاما . ولم يسارع أحد لإفدائه ، لا الامبراطور ولا ملك القدس ولا حتى أهالى انطاكية . وفى سجنه وجد جوسلين الصغير (أوف كورتناى) كونت الرها باللقب فقط ، الذى سبق أن أسر فى غارة قبل ذلك بشهور قليلة^(١٧).

وأثارت إزاحة رينالد مشكلة دستورية فى انطاكية التى كان يحكم فيها كزوج للأميرة كونستانس، التى طالبت الآن بتحويل السلطة إليها؛ غير أن رأى العام أيد حقوق ابنها من زواجها الأول ، بوهمند الذى اشتهر باسم "المتلجلج" ، وهو مع ذلك فى الخامسة عشرة من عمره . وكان ذلك الوضع شبيها بوضع الملكة مليسند وبلدوين الثالث فى القدس قبل ذلك بسنوات قليلة . ولم يكن هناك خطر محقق، إذ أن خشية نور الدين من مانويل صدته عن مهاجمة انطاكية نفسها . على أنه يتعين وجود نوع من الحكومة الفعالة . وبصيغة مباشرة ، كان للإمبراطور - المقبول كسيد أعلى لأنطاكية - أن يسوى المسألة . لكن مانويل بعيد ، والأنطاكيون لم يقبلوه بدون تحفظات ؛ وكان نورمانديو انطاكية من الأمراء يعتبرون أنفسهم أمراء ذوى سيادة . غير أن كثرة وجود أمراء من القصر بين خلفائهم كانت تجبر ملوك القدس على التدخل بصفاتهم من الأقارب أكثر من كونهم ملوكا . ومع ذلك ، شبت فى انطاكية عاطفة تعير الملك السيد الأعلى ، ولا شك فى أن مانويل أصبح مقبولا بيسر كبير لأن بلدوين كان يوافق

(١٧) William of Tyre, xviii, 28 pp.868-9; Matthew of Edessa, cclxxxi, pp. 363-4; Chron. Anon. Syr p.302; Gregory the Priest, p.308; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 533; Cahen (op. cit p.405 n.1)، ويورد كاهن Cahen مصادر اضافية ويناقش طبوغرافية الأرض.

على هذه الترتيبات . واتجهت أنظار أبناء انطاكية الآن إلى بلدوين لا مانويل ، لاجل حل ؛ وبناء على دعوتهم جاء إلى انطاكية ، وأعلن أن يوهنن الثالث هو الأمير الشرعي ، وعهد بالحكومة إلى البطريق إيمري إلى أن يشب الأمير عن الطوق . وكان قرارا أغضب كونستانس ، وكان أسلوبا أغضب مانويل . وفي الحال ناشدت الأميرة البلاط الامبراطوري التدخل للانتصاف^(١٨).

١١٦١م : مليسيند الطرابلسية

في نهاية ١١٥٩م تقريبا ، ماتت امبراطورة بيزنطة إيرين - المولودة باسم بيرثا (أوف سولزباخ) - تاركة وراءها طفلة وحيدة . وفي عام ١١٦٠م ، وصلت القسطنطينية سفارة يرأسها جون كونتوستيفانوس ، يصحبها رئيس مترجمي البلاط ، ثيوفيلاكس الإيطالي ، تلتبس من الملك ترشيح إحدى أميرات الشرق الفرنجية تكون عروسا مناسبة للإمبراطور البيزنطي الأرمل . وكان هناك اثنتين من المرشحات - ماريابنة كونستانس أميرة طرابلس ، ومليسيند ابنة ريموند الثاني أمير طرابلس . وكلتاها من بنات خوزلة بلدوين ، وقد اشتهرتا كلتاها بالجمال . وارتاب بلدوين في تحالف عائلي وثيق الصلة بين الامبراطور وانطاكية ، ولذا رشح مليسيند ؛ وارتحل السفراء إلى طرابلس لإبلاغ الأميرة التي حياها الشرق الفرنجي كله على أنها امبراطورة المستقبل ؛ وانتشى بالفخار ريموند أمير طرابلس فقرر منح أخته مهرا يليق بها ، وانفق المبالغ الطائلة على تجهيزها . وانهمرت الهدايا من أمها هوديرنا وخالتها الملكة مليسيند . وهرول الفرسان من سائر الأنحاء إلى طرابلس يداعبهم أمل دعوتهم إلى الزفاف . على أن القسطنطينية لم تبعث بتأكيداتها للزواج . وأرسل السفراء إلى مانويل أوصافا متلاثلة لشخصية مليسيند ، لكنهم سجلوا كذلك شائعة حول مولدها تستند إلى الشجار الشهير بين أمها وأبيها . ويبدو أن لم تكن هناك ريبة حول شرعيتها في حقيقة الأمر ، ويبدو أن تلك الشائعة الباطلة جعلت الامبراطور يتردد . ثم إنه سمع بتدخل بلدوين في أنطاكية ، ثم تسلم مناشدة كونستانس للانتصاف . وفي باكورة صيف ١١٦١م ، نفذ صير ريموند ، فأرسل أحد فرسانه - أوتو (أوف ريسبيرج) - ليسأل عن التطورات ؛ وعاد أوتو في

(١٨) William of Tyre, xviii30, p.874؛ ويقول ميخائيل السوري Michael the Syrian, iii, p.324 إن ثوروس أبعد كونستانس عن حكم انطاكية.

أغسطس تقريبا ينبئ بأن الامبراطور تخلى عن الارتباط^(١٩).

فأما مليسند ، فكانت الصدمة والإهانة فوق احتمالها ، فنال منها الضعف وسرعان ما ذوت مثل "الأميرة بعيدة المنال" *Princesse Lointaine* ، فى رومانسية العصور الوسطى الفرنسية . وأما أخوها ريموند فقد احتدم غيظا ، وفى ثورته طلب تعويضه عن المبالغ الطائلة التى أنفقتها على جهازها ؛ ولما رُفض طلبه جهز السفن الإثنى عشرة التى وصلته لتنقل العروس إلى القسطنطينية وحولها إلى سفن حربية مسلحة وقادها للإغارة على سواحل قبرص^(٢٠). وأما الملك بلدوين ، الذى كان ينتظر مع بنات خروسته يتربأ الأبناء ، فقد شعر بالقلق ، خاصة عندما تلقى السفراء البيزنطيون أوامر بالذهاب إلى أنطاكية ؛ فهرول وراءهم ليجد فى انطاكية سفارة فخيمة من الامبراطور ، يرأسها الكسيوس برينيوس كومنينوس ابن أنا كومنين ، ووالى القسطنطينية ، جون كاماتيروس . وكانوا قد تفاوضوا فعلا على عقد زواج بين سيدهم وبين الأميرة ماريا الأنطاكية ؛ وكان وجودهم كافيا لتثبيت كونستانس حاكمة للإمارة . واضطر بلدوين إلى قبول هذا الرضع . وأما ماريا ، التى كانت أجمل حتى من ابنة خالتها مليسند ، فقد أبحرت من ميناء السويدية فى سبتمبر ، يملأها الفخار أن تصبح امبراطورة ، وتشملها السعادة وقد غاب عنها ما سيكون عليه مصيرها فى نهاية مطافها . وعقد زواجها إلى الامبراطور فى ديسمبر فى كنيسة القديسة صوفيا فى القسطنطينية بمعرفة ثلاثة بطارقة ، ليوك بطريق القسطنطينية ، وسوفرونيوس بطريق الإسكندرية ، وأناسيوس الثانى ، صاحب لقب بطريق انطاكية^(٢١).

١١٦٢م : موت بلدوين الثالث

أدرك بلدوين قيمة التحالف البيزنطى ؛ لكن نجاح مانويل كان أعظم مما كان يرغبه فى الشمال السوري المسيحى وأقل فعالية ضد نور الدين ، رغم أن التحالف

(١٩) William of Tyre, xviii, 30, pp. 874-6. ويقول سناموس Cinnamus, pp. 208-10 إن صحة مليسند لم تكن مرضية ، فضلا عن الشائعات حول عدم شرعيتها. وقد ذكرت مليسند على أنها امبراطورة القسطنطينية المقبلة فى ميثاق ٣١ يولية ١١٦١م ، عندما منح شرق الأردن الى فيليب (أوف ميلف) ، ورغم ذلك كانت هى وأخوها مع الملك فى الناصرة (Rohrich, *Regesta*, p. 96).

(٢٠) William of Tyre, xviii 33, 31, pp. 876-9.

(٢١) *Ibid.* xviii, 31, pp. 875-6; Cinnamus, p. 210-II, ويرد Nicetas Choniates, p. 151 تقرضا بالغا لجمال الامبراطورة الجديدة .

جعل المسلمين فى حالة من الهدوء طوال الستين التاليتين . وعاد الملك بلدوين إلى مملكته بعد هزيمته الدبلوماسية فى زواج الامبراطور . وقد سارت حكومته فى القدس سيرا سلسا منذ إقصاء والدته عن السلطة . وكانت قد برزت عام ١١٥٧م لرأس مجلسا للرعاية أثناء أن كان بلدوين بعيدا فى الحروب ، واحتفظت لنفسها برعاية الكنيسة . وبعد وفاة البطريرق فولشر فى نوفمبر من ذلك العام - ١١٥٧م - ضمنت تعيين خليفته أمالريك (أوف نيسيل) ، وهو قس بسيط كانت تعرف عنه تعليمه الجيد ، إلا انه لا يهتم بالحياة الدنيوية وغير عملى . وعارض ترقيته هرنيس رئيس اساقفة قيصريه ، ورالف اسقف بيت لحم ؛ فاضطر البطريرق أمالريك إلى ارسال أسقف عكا ، فريديريك ، إلى روما لضمان التأيد البابوى . وأفلحت براءة فريديريك ورشاويه - كما ألمع - فى الحصول على تأيد الحكومة البابوية^(٢٢) . وجاءت فى المرتبة الثانية بعد مليسند ابنة زوجها ، سيبلا (أوف فلاندرز) التى رفضت العودة إلى اوروبا مع زوجها ثيرى عام ١١٥٨م وبقيت كراهبة فى الدير الذى كانت مليسند قد أنشأته فى بيتانى . وبعد أن ماتت مليسند فى سبتمبر ١١٦١م ، بينما كان الملك فى أنطاكية ، خلفتها سيبيل فى ممارسة نفوذها فى العائلة الملكية وفى الكنيسة إلى أن ماتت بعد ذلك بأربع سنوات^(٢٣) .

وبينما كان الملك بلدوين مارا خلال طرابلس سقط مريضا . وأرسل كونت طرابلس طبيبه الخاص - باراك السيريانى - لمداواته ، لكن حالة الملك ازدادت سوءا ؛ وانتقل إلى بيروت حيث مات يوم ١٠ فبراير ١١٦٢ . وكان طويل القامة ، قوى البنية ، وكانت بشرته النضرة ولحيته الكثنة الشقراء توحيان بالصحة والرجولة ؛ فظن العالم كله أن عقاقير باراك قد ستمته . وكان فى ربيع الثالث والثلاثين ، ولو قدر له أن يعيش أكثر من ذلك ، لأصبح ملكا عظيما لما كان لديه من طاقة وبصيرة نافذة وحاذية شخصية لا تقاوم . وكان يجيد القراءة والكتابة ، وعلى علم بكل من التاريخ والقانون . وبكاه رعاياه بمرارة ، وجاء حتى الفلاحون المسلمون من التلال للإعراب عن تقديرهم فى موكبه الجنائزى الذى تحرك بطيئا إلى القدس . واقترح البعض من اصدقاء نور الدين على الأتابج أن هذا هو الوقت المناسب للهجوم على المسيحيين ، غير أن نور الدين

(٢٢) William of Tyre, xviii, 20p. 854. وترد أمثلة على الأعمال الخيرية الدينية التى قامت بها مليسند فى عامي ١١٥٩م و١١٦٠م فى Rohricht, Regesta, pp. 88, 94.

(٢٣) William of Tyre, loc. cit. يذكر اشراك سيبلا . ويذكر Ernoul, p.21 رفض سيبلا مغادرة الأراضى المقدسة.

الذى وصل لتوه من حجه في مكة بعد كثرة التأجيل رفض إزعاج الناس وهم يتحبسون
على فقد مثل هذا الأمير العظيم^(٢٤).

(٢٤) William of Tyre, xvi, 2, pp. 705-6، يذكر وصفا تقريبا لشخصية بلدوين الثالث .



المفتدين

<http://al-maktabeh.com>

الفصل الرابع:

تربص مصر

تربص مصر

"لا ، بل إلى أرض مصر نذهب"

(لرمياء ٤٢ : ١٤)

مات بلدوين الثالث بلا ذرية ، وترملت الملكة اليونانية ثيودورا ولما تجاوز ربيعها السادس عشر ، وغدا أخوه أمالريك كونت يافا وعسقلان وريثا للمملكة وتوجه البطريرق أمالريك بعد ثمانية أيام من موت بلدوين ، برغم المشكلة التي أثرت حول استخلافه ؛ إذ لم يكن البارونات راغبين في التخلي عن حقهم في الانتخاب ، حتى ولو لم يكن هناك مرشح آخر . وكانت لهم مظلمة مشروعة ؛ إذ كان أمالريك قد تزوج قبل ذلك بنحو أربع سنوات من أجنيس (أوف كورتناي) ، ابنة جوسلين الثاني كونت الرها ، وكانت من بنات عمومته من الجيل الثالث وتقع من ثم في الدرجات التي تحرم الكنيسة الزواج منها ، وقد رفض البطريرق اعتماد الزواج . وكانت هناك أسباب أخرى تدعو إلى النفور من أجنيس ؛ إذ كانت أكبر من أمالريك بكثير ، وقد قتل زوجها الأول ، رينالد أمير مرعش ، عام ١١٤٩م عندما كان أمالريك في الثالثة

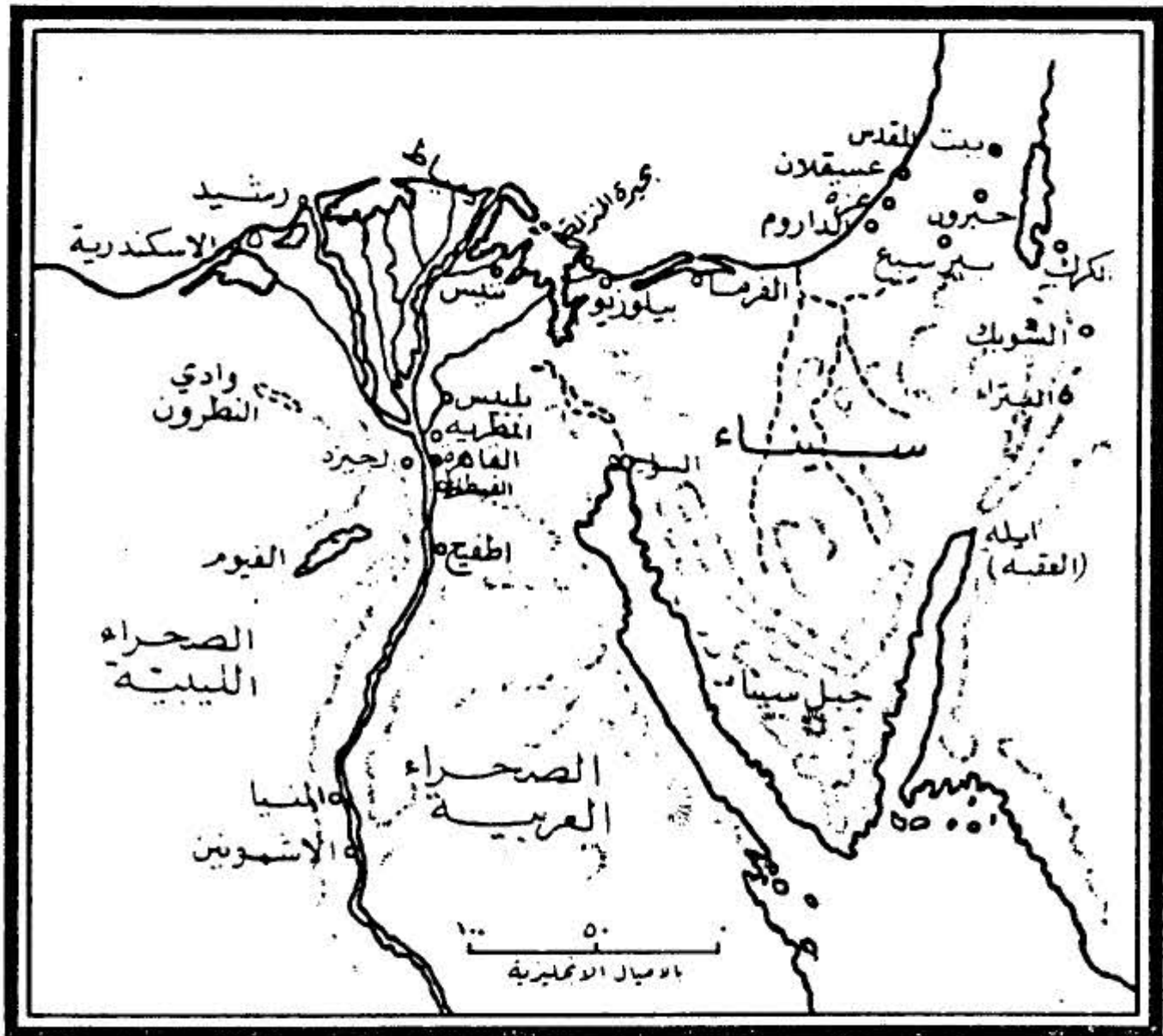
عشرة من عمره ، ولم تكن عفيفة السمعة . وطالب البطريق والبارونات بالغاء الزواج ، فرضخ أمالريك فى الحال ، لكنه أصر على الإعتراف بشرعية حقوق ولديه فى الميراث ، بلدوين وسييلا^(١) .

١١٦٢م : الملك أمالريك

بلغ أمالريك الآن الخامسة والعشرين من عمره ، وكان طويل القامة وسيما كأخيه ، بنفس لون البشرة المتوردة واللحية الكثة الشقراء ، رغم ما يقوله النقاد من أنه مفرط السمعة فى صدره . وكان أقل تعليما ، برغم معوماته الجيدة المتصلة بالمسائل القانونية . وعلى غير شاكلة أخيه الذى كان شغوبا بالثرثرة ، كانت لديه بعض اللجلجة ولذا كان سكوتا ، غير أنه كان كثيرا ما تعاوده نوبات من القهقهة الضاحكة ، فتحرمه بعضا من وقاره . ولم يكن يتمتع قط بشعبية كأخيه ، إذ كان يفتقر إلى الجاذبية والانفتاح على الغير ؛ فضلا عن أن حياته الخاصة لم تكن خليقة بالثناء^(٢) . وفى غضون أشهر قليلة من استخلافه اتضحت نوعيته التى كان عليها كرجل دولة ، عندما أقدم جيرارد - لورد صيدا وشقيق أرنون - بنزع ملكية أحد رعاياه بلا سبب يدعو إلى ذلك ، ولجأ التابع إلى التاج شاكيا ؛ فأصر أمالريك على أن تنظر الدعوى أمام المحكمة العليا للمملكة ، ثم إنه أصدر قانونا assise ، يستند إلى سوابق أخرى مماثلة يخول الأتباع الاستئناف من أسيادهم أمام المحكمة العليا ، وفى حالة عدم حضور السيد أثناء نظر الجلسة فى المحكمة يحكم فى الدعوى غاييا ، ويُنصف المدعى باعادة الأمور كما كانت عليه . وهذا القانون ، الذى يؤسس علاقة مباشرة بين أتباع كبار مستأجرى الأرض والملك الذى ينبغى لهم أن يقدموا له فروض الطاعة المخلصة ، من شأنه أن يضيفى سلطات لا

(١) Robert of Torigny, I, p.309 و William of Tyre, XIX, I, 4, pp.883-90. أمالريك بعام ١١٥٧م . وعن زوج أجنيس الأول أنظر أعلاه ص ٣٢٦ . وقد كرمها متبعو وليم الصورى كراهية شديدة لأسباب وجهية (انظر أدناه ص ٤٠٧) . وربما بالغوا فى أخطائها ، غير أنه من غير المحتمل أن تكون قرابة الدم البعيدة هى التى جعلت البارونات يصرون على طلاقها . واستنادا الى وليم ، أكد علاقة القرابة ستيفانى رئيسة الدير ، وهى ابنة جوسلين الأول ، وماريا (أوف سالرنو) : بيد أنه لا بد وأن كان معروفا جيدا أن بلدوين الأول وجوسلين الأول كانا أبناء عمومة من الدرجة الأولى ، وقد رفض البطريق فعلا مباركة الزواج . والأرجح أن أجنس قد ولدت عام ١١٣٣م ، إذ مات أول زوج لأمها بياتريس عام ١١٣٢م ، وتزوجت جوسلين كونت الرها بعد ذلك مباشرة.

(٢) William of Tyre, XIX, 2-3, pp. 884-8.



خريطة رقم (٥) مصر في القرن الثاني عشر

حدود لها على ملك قوى يهيمن على المحكمة العليا . غير أن المحكمة العليا ذاتها كانت تتألف من نفس تلك الطبقة الموجهة صدها القانون . فإذا كان الملك ضعيفا، يمكن استخدام القانون ضده بتطبيقه على كبار مستأجرى الأراضى الملكية^(٣) . وأعقب هذا القانون قواعد أخرى تنظم علاقات الملك بأتباعه .

وبعدما وطد أماريك دعائم سلطته الملكية فى الداخل ، أصبح بإمكانه الانتباه إلى الشؤون الخارجية . وفى الشمال كان على استعداد للتضحية بأنطاكية للبيزنطيين . وفى أواخر عام ١١٦٢م على وجه التقريب حدثت اضطرابات فى كيليكيا فى أعقاب اغتيال ستيفن أخى ثوروس الذى كان فى طريقه إلى مأدبة دعاه إليها الحاكم الامبراطورى أندرونيكوس . وإن كانت هناك لدى ثوروس أسبابه الخاصة التى تثير لديه الرغبة فى التخلص من ستيفن ، فإنه اتهم أندرونيكوس بالتواطؤ واكتسح طريقه مستوليا على المصيصة وعين زربة وفاهكا ، بمباغطة أفراد حامياتها اليونانيين وقتلهم . وسارع أماريك بعرض المساعدة على الامبراطور الذى استبدل أندرونيكوس بقائد هنجارى المولد ذى اقتدار هو قنسطنطين كولومان ؛ الذى جاء إلى كيليكيا بالتعزيزات، فانسحب ثوروس عائدا إلى الجبال بعد أن قدم بعض التفسيرات^(٤) . وأصبح بوهمند أمير انطاكية الآن فى الثامنة عشرة من عمره أى بلغ سن الرشد ليحكم . لكن أمه كونستانس ، كانت راغبة فى الاحتفاظ بالسلطة فناشدت كولومان تقديم المساعدة العسكرية . وبانتشار شائعة استنجاها بكولومان ، اندلعت أعمال الشغب فى انطاكية؛ الأمر الذى أدى إلى نفى كونستانس وتنصيب بوهمند الثالث مكانها، وسرعان ما ماتت بعد ذلك مباشرة^(٥) .

ولم يعترض الامبراطور على تغيير نظام الحكم، ربما لأن أماريك كفل احترام

(٣) عن هذا القانون الهام *assise* ، انظر أعلاه ص ٣٠١، 22-3. La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 22-3, 153; also Grandclaude, "Liste d'Assises de Jérusalem" in *Mélanges Paul Fournier*, p. 329 ff. وهذا الأخير يحدد تاريخ هذا القانون *assise* بعام ١١٦٦م ويذكر قائمة بالقوانين الأخرى *assizes* التى يمكن ان تعزى إلى أماريك.

(٤) Cinnamus, p. 227; Gregory the Priest, p. 200; Sembat the Constable, p. 621; Michael the Syrian, III, p. 319, Armenian version, pp. 349, 356

(٥) Michael the Syrian, III, p. 324 الذى يؤيد تاريخ سوريا المجهول *Chron. Anon. Syr.* ويبدو أن التاريخين يمزجان أحداث ١١٦٠م والفتره ١١٦٢-١١٦٣م . ويقتبس Ughelli, *Italia Sacra*, VII, p. 203 من وثيقة فى عام ١١٦٧م يطلق فيها بوهمند الثالث على نفسه "أمير أنطاكية ولورد اللاذقية وجبله". Prince of Antioch, Lord of Laodicea and Gibel . وحيث ان اللاذقية وجبله كانتا مهورا لأمه ، فيفترض انها قد ماتت آنذاك.

سيادته. وليضمن ذلك، دعا ابن كونستانس الثانى - بلدوين - وفيما بعد أطفالها من رينالد إلى القسطنطينية. وانضم بلدوين إلى الجيش الامبراطورى وقتل فى الحرب^(٦). وفى الوقت الذى كان فيه الملك أماريك يؤيد البيزنطيين علنا كتب إلى الملك لويس السابع ملك فرنسا يسأله إن كان هناك أى أمل فى إرسال المساعدة للاتين فى سوريا^(٧).

١١٥٤م : مكائد فى القاهرة

كان ضروريا لأماريك أن يضمن حسن النوايا لبيزنطة كى يمضى مع أهم طموحاته السياسية ألا وهى السيطرة على مصر . وكما يفهم جيدا فلإن وجود الدويلات اللاتينية يتوقف على تشتت حيراتها المسلمين وقد اتحدت الآن سوريا المسلمة، بيد أنه طالما بقيت مصر فى حالة عداء مع نور الدين ، فلن يكون الوضع باعثا على اليأس . وكانت الخلافة الفاطمية ، مع ذلك ، فى حالة من الوهن بحيث بدت نهايتها وشيكة ، لكنها لا ينبغي قط أن تقع فى قبضة نور الدين . ومنذ سقوط عسقلان والفوضى آخذة فى التزايد فى بلاط الخليفة ؛ إذ تمكن الوزير عباس من البقاء سنة برغم الكارثة ، وكان ابنه نصر هو المفضل لدى الخليفة الصغير الظافر ؛ وأثار ما بينهما من وداد شائعات فاضحة مما أثار ثائرة عباس ، لا لدوافع أخلاقية ، وإنما لأنه ارتاب - بحق - أن الظافر كان ينوى الرقعة بين الابن والأب . وعلم أسامة الذى كان ما يزال فى البلاط أن نصر وافق فى الواقع على اغتيال عباس ؛ فسارع إلى مصالحتهما وسرعان ما حرض نصر على أنه من الأفضل اغتيال الخليفة بدلا من عباس . ودعا نصر من أنعم عليه إلى حفل ماجن فى منتصف الليل فى منزله حيث طعنه . وتصنع عباس الإعتقاد بأن القتل هم أخوة الخليفة ذاتهم وأعدمهم . وبينما صادر ثروة الخليفة وضع على العرش ابن الظافر - الفائز - وهو صبي فى الخامسة من عمره شاهد موت أعمامه، وفيما بعد عانى من نوبات التشنج المزمنة . وارتابت أميرات العائلة فى حقيقة

(٦) عن بلدوين ، انظر أدناه ص ٤١٣ . وفيما بعد تزوجت إينة كونستانس من رينالد - أجنس - من ألكسيوس المدعى المنتحارى أو ييلا الثالث ، الذى أصبح ملكا هنجاريا عام ١١٧٣ (Nicetas Choniates, p. 221) .

(٧) ترد خطابات أماريك فى Bouquet, R.H.F. vol. XVI, pp. 36-7, 39-40 ويتحدث الخطاب الثانى عن التهديد البيزنطى لأنطاكية. وفى ذات الوقت تقريرا كتب بوهمند الثالث إلى الملك لويس Ibid. pp. 27-8

ماحدث ، وسارعن باستدعاء محافظ مصر العليا ابن رزيق الأرميني المولد لإنقاذهم . فرحف على القاهرة واستمال ضباط الحامية إلى جانبه . فحمل عباس ونصر أموالهما وهربا يوم ٢٩ ماير ١١٥٤م من العاصمة ، مصطحبين معهما أسامة الذى بدأ يتآمر مع ابن رزيق . وبينما هم يخرجون من صحارى سيناء ، هبط عليهم جنود الفرنج من حصن مونتربال ، وتمكن أسامة من الهرب سالما ووصل إلى دمشق في نهاية الأمر؛ وقتل عباس وألقى القبض على نصر وصودرت الأموال ، وسُلم نصر إلى فرسان المعبد ، وأعلن على الفور رغبته فى التحول إلى المسيحية ؛ غير أن البلاط فى القاهرة عرض دفع ستين ألف دينار مقابل تسليمه ، ولذا أوقف تعليمه الدين الجديد وأرسل مقيدا بالسلاسل إلى القاهرة حيث قامت أرامل الخليفة الأربع بتمزيق أوصاله بأنفسهن . ثم إنه شنق ، وعلقت جثته على باب زويلة طوال عامين^(٨) .

وحكم ابن رزيق حتى عام ١١٦١م . وفى ١١٦٠م مات الخليفة الصبى ليخلفه ابن عمه العاضد البالغ من العمر تسع سنوات ، والذى أحير فى العام التالى على الزواج من ابنة ابن رزيق . على أن عمه الخليفة ، وهى أخت الظافر ارتابت فى طموحات الوزير ، فحرضت أصدقاءها على طعنه فى ساحة القصر . وكان قبل وفاته قد تمكن فى سبتمبر ١١٦١م من استدعاء الأميرة اليه وقتلها بنفسه . وخلفه ابنه العادل فى منصب الوزير وحكم خمسة عشر شهرا . وجاء دوره فخلعه محافظ مصر العليا - شاور - وقتله ، وحكم ثمانية أشهر حتى أغسطس ١١٦٣م عندما خلعه ياوره العربى ضرغام الذى قتل كل من كان يخشى طموحه حرصا على بقاءه فى السلطة الأمر الذى جعل الجيش المصرى يكاد أن يكون خاليا من كبار الضباط^(٩) .

١١٦٣م: هزيمة نور الدين فى الكرك

فى عام ١١٦٠م هدد بلدوين الثالث بغزو مصر التى اشترت سكوته بتعهد بدفع إتاوة سنوية قدرها مائة وستين ألف دينار ولم تدفع هذه الإتاوة قط . وفى عام ١١٦٣م، اتخذ أمالريك ذلك ذريعة وهبط فجأة على مصر عابرا برزخ السويس بلا

(٨) (Usama, ed. Hitti, pp. 43-54) وروايته لا تكشف بوضوح خياناته المتقلبة. (Ibn al-Athir, pp. 492-3; William of Tyre, xviii, 9, pp. 832-4. وللاطلاع على تاريخ مصر فى هذه الفترة انظر Wiet, *L'Egypte Arabe*, pp. 191 ff..)

(٩) Ibn al-Athir, p. 529; Abu Shama, p. 107.

صعوبة وحاصر الفرما . لكن النيل كان فى موسم الفيضان ، وتمكن ضرغام من إرغامه على الانسحاب بأن كسر سدا أو سدين من سدود النيل^(١٠) . ولم يغب عن نور الدين ما أقدم عليه أمالريك من تدخل فى مصر ، فانتهاز غيابه للهجوم على أضعف الدويلات الصليبية - طرابلس ؛ فقام بغزو البقاع كى يضرب الحصار حول قلعة الكرك التى كانت تسيطر على سهل ضيق . ولحسن حظ الفرنج كان هيو ، كونت لوسينيان ، وجيوفرى مارتل ، أخو كونت أنجوليم ، بمران خلال طرابلس باتباعهما فى طريق عودتهما من الحج فى القدس ، فانضما إلى الكونت ريموند ، وأرسلت استغاثة عاجلة إلى أنطاكية جاء على أثرها من الشمال لا بوهمند الثالث وحسب ، وإنما أيضا القائد الامبراطورى قنسطنطين كولومان ؛ وسار الجيش المسيحى المتحد مسرعا خلال التلال وباغت المسلمين فى معسكرهم أسفل قلعة الكرك . وبعد معركة قصيرة أظهر فيها كولومان وجنوده تميزهم بصورة خاصة ، هرب نور الدين بلا نظام إلى حمص ، حيث أعاد تجميع جيشه وتلقى تعزيزات مما دفع المسيحيين إلى التخلّى عن المطاردة^(١١) .

وسرعان ما ظهر بعد ذلك الوزير السابق شاور الهارب من مصر فى بلاط نور الدين ، يعرض عليه أن يرسل جيشا لإعادة تنصيبه فى القاهرة ، وفى هذه الحالة يدفع شاور مصروفات الحملة ، ويتخلّى له عن مقاطعات على الحدود ، ويعترف بسيادة نور الدين ، ويدفع له ضريبة سنوية تعادل ثلث إيرادات البلد . وتردد نور الدين خشية المجازفة بجيش يمضى بطول الطرق التى يسيطر عليها الفرنج أو فى طرق ما وراء نهر الأردن . ولم يتخذ قرارا إلا فى ابريل ١١٦٤ م ، بعد أن استخار آيات القرآن الذى فتحه كيفما اتفق ، وأمر بأن ينطلق أكثر قواده إخلاصا - شيركوه - بكثيرة ضخمة ويذهب مع شاور عبر الصحراء ، بينما قام هو بهجوم مضلل على بانياس . واصطحب شيركوه معه ابن أخيه صلاح الدين - وهو ابن نجم الدين أيوب - الذى كان شابا فى السابعة والعشرين من عمره ، ولم يكن شديد الشغف بالانضمام إلى الحملة . وارتاع ضرغام ، فأرسل يطلب المساعدة من أمالريك ؛ غير أن شيركوه كان قد انطلق بسرعة عبر برزخ السويس قبل أن يتهيأ الفرنج للتدخل . وبالقرب من الفرما هزم أخو ضرغام

(١٠) William of Tyre, xix, 5, pp. 890-1; letter of Amalric, *R.H.F.* vol. xvi, pp. 59-60. ويؤكد أمالريك فى خطابه للملك لويس أن بالامكان هزيمة مصر بقليل من المساعدة الإضافية ؛ Michael the Syrian, iii, p. 317.

(١١) William of Tyre, xix, 8, pp. 894-5; Ibn al-Athir, p.531, and *Atabegs*, pp. 207-9; Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 534. Michael the Syrian, iii, p. 324. البيزنطيون كانوا الأكثر رعبا فى الجيش المسيحى.

مع عدد ضئيل من الجنود الذين تمكن من جمعهم . وشهدت القاهرة فى الأيام الأخيرة من شهر مايو ١١٦٤م إعادة تنصيب شاور وموت ضرغام^(١٢).

وما أن استعاد شاور سلطانه حتى تنكر لوعوده وطلب من شيركوه العودة إلى سوريا . فرفض شيركوه واستولى على بليس ، فما كان من شاور إلا أن استنجد بالملك أمالريك ، وحثه على الإسراع عارضا عليه ألف دينار عن كل مرحلة من مراحل الرحلة من القدس إلى النيل وعددها سبع وعشرين مرحلة ، وواعدا بهدايا أخرى لفرسان المستشفى المصاحبين له ودفع تكاليف أعلاف جيادهم . فأعد أمالريك سبل الدفاع الجيد لمملكته ، ثم انطلق بسرعة فى أوائل أغسطس إلى فاقوس الواقعة على النيل ، حيث انضم إليه شاور وانطلقا لمحاصرة شيركوه فى بليس . وصمدت القلعة ثلاثة أشهر ، ولاح احتمال سقوطها . لكن أمالريك جاءته أنباء من سوريا فقرر رفع الحصار بشرط أن يجلو شيركوه عن مصر . ووافق شيركوه ، وسار الجيشان الفرنجى والسورى فى طريقين متوازيين عبر شبه جزيرة سيناء ، وقد تركا شاور مسيطرا على مملكته . وكان شيركوه آخر من رحل من أصحابه . وعندما كان يودع الفرنج سألهم من الوافدين الجدد إلى الشرق : ألا تخشى الخيانة ؟ فأجابوه بفخر بأن جيشه كله سيثار له ، ورد عليه سائله الفرنجى بعبارات الشهامة بأنه يفهم الآن سبب ارتفاع شهرة شيركوه بين الصليبيين^(١٣).

١١٦٤م : كارثة فى أرتاح

ولقد كانت أنطاكية هي مصدر الأنباء التى دفعت أمالريك إلى أن يسرع بالعودة إلى بلده . ذلك أن نور الدين عندما علم أن أمالريك رحل إلى مصر ، ضرب الإمارة الشمالية وحاصر قلعة حارم التى تعتبر القلعة الأساسية ، وكان معه جيش أخيه الذى جاء من الموصل وحنود من أمراء الأراتقة فى ديار بكر وماردين وديرت وكير . وبينما كان لورد حران - رينالد (أوف سانت فاليرى) يدافع عن القلعة ببسالة ، استنجد الأمير بوهمند بريموند أمير طرابلس ، وثوروس الأرمينى ، وكولومان البيزنطى .

(١٢) William of Tyre, XIX, 5, 7, pp. 891-2, 893; Abu Shama, p. 107; Ibn al-Athir, p. 533, and Atabegs, pp. 215-6; Beha ed-Din, P.P.T.S. PP. 46-8.

(١٣) William of Tyre, XIX, 7, pp. 893-4; Ibn al-Athir, pp. 534-6 and Atabegs, pp. 217-9; Abu Shama, p. 125.

فانطلقوا معا في منتصف أغسطس ، ولما جاءت نور الدين اخبار تحركهم رفع الحصار .
وقيل لنا إن نور الدين شعر بالخطر بوجه خاص من وجود الكتيبة البيزنطية . وبينما
كان بوهمند ينسحب ومعه نحو ستمائة فارس تقريبا قرر مواصلة المطاردة ضاربا
عرض الحائط بنصيحة رينالد (أوف سانت فاليري) الذي كان يرى أن الجيش الإسلامي
أكبر بكثير . واصطدم الجيشان يوم ١٠ أغسطس بالقرب من أرتاح . ونجاهل بوهمند
ما حذره منه ثوروس ، وهاجم على الفور . وتظاهر المسلمون بالهرب فاندفع بوهمند
وراءهم مباشرة ، لا لشيء إلا ليقع في كمين ويجد نفسه وفرسانه وقد طوقهم جيش
الموصل . وتمكن ثوروس وأخوه مليخ - وكانا أكثر حذرا - من الهرب من ساحة
القتال ، أما باقي الجيش المسيحي فقد وقع ضحية الأسر أو القتل ؛ وكان من بين
الأسرى بوهمند ، وريموند أمير طرابلس ، وقسطنطين كولومان ، وهيو (أوف
لوسينيان) ، وقد اقتيدوا وهم مقيدون معا في قيد واحد إلى حلب^(١٤) .

وراح مستشارو نور الدين يحثونه على الزحف على مدينة أنطاكية العارية من أي
دفاع ؛ لكنه رفض قائلا إنه لو زحف على أنطاكية فسوف يسرع اليونانيون بإرسال
حامية داخل القلعة ، وإنه برغم إمكان استيلائه على المدينة ، تستطيع القلعة الصمود إلى
أن يأتي الامبراطور . كان يعتقد أن وجود دويلة فرنجية ضئيلة الشأن أفضل من أن
تصبح جزءا من امبراطورية عظيمة . وكان بالغ الحرص على عدم الإساءة إلى بيزنطة
بحيث أطلق سراح قسطنطين كولومان على الفور تقريبا مقابل مائة وخمسين رداء
حريريا . ومرة أخرى أنقذت أنطاكية للعالم المسيحي بفضل هيبة الامبراطور .

وبينما كان أمالريك يغذ السير مسرعا باتجاه الشمال ، انضم اليه ثيرى (أوف
فلاندرز) الذي جاء إلى فلسطين في حجته الرابعة . وبهذا التعزيز توقف أمالريك في
طرابلس لترسيخ حقه في أن يكون الوصي على الكونتية أثناء أسر الكونت ، ثم واصل
مسيرته إلى أنطاكية ، حيث دخل في مفاوضات مع نور الدين الذي وافق على إطلاق
سراح بوهمند أمير طرابلس وثوروس لقاء فدية ضخمة ، وإنما فقط لأنهما من أتباع
الامبراطور ؛ ولم يكن ليطلق سراح ريموند أمير طرابلس ولا سجينه الأقدم - رينالد

(١٤) Robert of William of Tyre, XIX, 9, pp. 895-7 الذي يحدد التاريخ خطأ بعام ١١٦٥ م ؛ Torigny, I, p. 355 ؛ خطابات أمالريك الأول وخطابات Gaufred Fulcher الموجهة إلى لويس السابع في: R.H.F. vol. XVI, pp. 60-2 ؛ ويشير Cinnamus, p. 216 إشارة مقتضبة جدا حول أسر كولومان ؛ Michael the Syrian, III, p. 324 ؛ Bustan, p. 559 ؛ Chron. Anon. Syr. p. 304 ؛ Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 510 ؛ Abu Shama, p. 133 ؛ Ibn al-Athir, Atabegs, pp. 220-3.

(أوف شاتيلون)^(١٥) . وانتاب أمالريك نفسه القلق عندما جاءه مبعوث امبراطوري يسأله عن سبب وجوده في أنطاكية ؛ فكان رده أن أرسل إلى القسطنطينية رئيس أساقفة قيسارية ، وخازنه - اودو (أوف سانت أماند) ، بطلب يد إحدى الأميرات الامبراطوريات ، واقترح عقد تحالف لغزو مصر^(١٦) . واحتجز الامبراطور مانويل السفارة مدة عامين لإعطائها الرد . وفي تلك الأثناء لم يكن لأمالريك بد من أن يعود إلى الجنوب إذ أن نور الدين ، بدلا من مهاجمة أنطاكية ، ظهر فجأة في أكتوبر أمام بانياس التي كان أميرها همفري الثاني (أوف تورون) مع جيش أمالريك . وكان قد أشاع شائعات بأن الهدف هو طبرية ؛ فركزت الميليشيات الفرنجية المحلية هناك . أما حامية بانياس ، فقد قاومت بشجاعة بادئ الأمر ، وكان المأمول أن يخف لنجدتها ثييري (أوف فلاندرز) ، الذي وصل لتوه إلى فلسطين ، لكن القلعة استسلمت فجأة ، ربما بسبب الخيانة . واحتل نور الدين البلاد المحيطة وهدد بالتوغل في الجليل فسارع باروناتها بالوعد بدفع إتاوة^(١٧) .

١١٦٥ م : بطريق يوناني في أنطاكية

ما أن أطلق سراح بوهمند أمير أنطاكية حتى ذهب إلى القسطنطينية لزيارة أخته ، ولكي يتوصل إلى زوج أخته (الامبراطور) دفع جزء من الفدية التي لا يزال مدينا بها لنور الدين ؛ فأعطاه مانويل المعونة المطلوبة وفي المقابل عاد بوهمند إلى أنطاكية ومعه بطريق يوناني - أناسيوس الثاني ؛ أما البطريق اللاتيني إيمري الذي اعترض فقد ذهب إلى منفاه في قلعة قصير^(١٨) . وطوال السنوات الخمس التالية سيطر اليونانيون على الكنيسة الأنطاكية ؛ ولا يبدو أن الأساقفة اللاتينيين قد طردوا ، وإنما كان اليونانيون يشغلون المناصب الشاغرة . وأدى مجئ اليونانيين إلى إرثاء الكنيسة اليعقوبية في أحضان

(١٥) William of Tyre, XIX, 10, II, pp. 898, 900-1; Bustan, p. 561; Michael the Syrian, III, p. 360
الذي أطلق سراحه أولا أصر على إطلاق سراح بوهمند. 326, Armenian version, p. 360
ويقول ميخائيل السيرياني ، في النسخة الأرمنية ، إن ثوروس

(١٦) Cinnamus, pp. 237-8; William of Tyre, XX, I, p. 942.

(١٧) William of Tyre, XIX, 10, pp. 898-900; Ibn al-Athir, pp. 540-2, and Atabegs, p. 234;
Kemal ad-Din, ed. Blochet, p. 541.

(١٨) William of Tyre, XIX, II, p. 901; Michael the Syrian, III, p. 326.
بطريقا لأنطاكية عام ١١٥٧ م عندما اتهم البطريق المعين Panteugen Soterichus بالهرطقة.

اللاتينيين ، إذ كانوا على علاقة ودودة منذ عام ١١٥٢م عندما حدثت معجزة عند قبر القديس السيرياني بارسوما أسفرت عن شفاء طفل فرنجي أعرج ؛ وفى عام ١١٥٦م سُمح للبعاقبة ببناء كندراية جديدة ساعد فى تخصيص الوقف لها الأميرة كونستانس والأمير الأرمني ثوروس ، مما أدخل البهجة على بطريقهم - ميخائيل السوري المؤرخ. والآن ذهب البطريق ميخائيل لزيارة إيمرى فى القصر ليؤكد له تعاطفه معه . وبلغت كراهية ميخائيل لليونانيين شأوا بعيدا بحيث رفض عام ١١٦٩م دعوة ودبة من الامبراطور للحضور إلى القسطنطينية للاشتراك فى إحدى المناظرات الدينية التى كان الامبراطور مانويل شغوفاً بها^(١٩).

وأضى نور الدين عامى ١١٦٥م و١١٦٦م فى القيام بهجمات مفاجئة على القلاع الواقعة شرقى منحدرات لبنان ، بينما راح شيركوه يغير على منطقة الأردن ، ودمر حصنا كان فرسان المعبد قد بنوه فى مغارة جنوب عمان^(٢٠). وفى نهاية عام ١١٦٦م حصل شيركوه أخيرا على إذن سيده فى غزو مصر مرة أخرى ؛ وحث الخليفة فى بغداد على المنادة بهذا المشروع كحرب مقدسة ضد هرطقة الخلافة الشيعية الفاطمية ؛ وربما كان لهذا الجدل أثره على نور الدين الذى أصبح عميق التدين منذ مرضه ، وزود شيركوه وجيشه بتعزيزات من حلب . وانطلق شيركوه من دمشق فى يناير ١١٦٧م ، واصطحب معه صلاح الدين مرة أخرى . ولم يخف نوابه ، مما أتاح الوقت لشاور كى يستنجد بالملك أمالريك . واستدعى الملك باروناته لمقابلته هناك ؛ وبعد تأكيده للخطر المحدق بفلسطين فى حالة غزو السوربيون السنيون لمصر ، وافقت المحكمة العليا على إرسال حملة كاملة لإنقاذ شاور . وكان على قوة المملكة المقاتلة كلها أن تشترك فى الحملة أو أن تبقى على الحدود للحراسة فى غيبة الملك ؛ ولذا كان على كل شخص لا يستطيع الحضور أن يدفع عشر دخله السنوى . وقبل أن يتهيا الجيش جاءت الأنباء بأن شيركوه يعبر صحراء سيناء ؛ فسارع أمالريك بإرسال ما كان

(١٩) Michael the Syrian, III, pp. 301-4, 332, 334-6.

(٢٠) William of Tyre, XIX, II, pp. 901-2; Beha ed-Din, P.P.T.S. p. 501
Ibn al-Athir, pp. 545-6 and Atabegs, ١١٦٧م ، بينما استولى شيركوه على شقيف تيتون ، أو كهف تيرون ، الذى يحدده (Rey Colonies Franques, p. 513) بأنه قلعة نينها، الواقعة على مسافة ١٥ ميلا تقريبا شرق صيدا . ومكان قلعة فرسان المعبد القريبة من عمان غير معروف . ويطلق عليها بهاء الدين أكاف ، وربما تكون مغارة كاف الواقعة جنوب شرق عمان التى تضم أطلالا رومانية ، ولكن ليس هناك ما يدل على وجود أطلال من العصور الوسطى.

جاهزا من الجنود لإعتراض طريقه ، لكن السيف كان قد سبق العذل^(٢١).

١١٦٧م : السفراء الفرنج في القاهرة

هبت عاصفة رملية مرعبة كادت أن تسحق جيش شيركوه ؛ لكنه وصل برزخ السويس في الأيام الأولى من فبراير تقريبا ، وهناك سمع بأن الجيش الفرنجى انطلق يوم ٣٠ يناير ؛ ولذا سار باتجاه الجنوب الغربى ، خلال الصحراء ، ليصل إلى النيل عند أطفيح ، على بعد أربعين ميلا جنوب القاهرة . وعبر النيل وهبط على الضفة الغربية وضرب معسكره في الجزيرة أمام العاصمة . وفي تلك الأثناء اقترب الجيش الفرنجى من القاهرة من الشمال الشرقى ؛ وقابله شاور في مكان ما خارج المدينة وقاده إلى حيث يعسكر على الضفة الشرقية للنيل ، على مسافة ميل من أسوار المدينة . ورفض شاور اقتراحا من شيركوه بالاتحاد ضد المسيحيين ، وعقد حلفا مع أمالريك يدفع بموجبه للفرنج أربعمئة ألف بيزانت نصفها في الحال والنصف الآخر بعد وقت قصير ، شريطة أن يقسم أمالريك بعدم مغادرة مصر إلا بعد طرد شيركوه منها . وبعث الملك إثنان هما هيو (لورد قيسارية) وفارس من فرسان المعبد يدعى جيوفرى - ربما كان يتحدث العربية - إلى داخل القاهرة للحصول على تصديق رسمى من الخليفة على الحلف . واستقبلا في القصر استقبالا فخيمًا؛ إذ اقتيدا عبر صفوف أشجار وبنابيع وحدائق ، حيث ما كان يحتفظ به البلاط من وحوش وأقفاص ضخمة للطيور ، ومن قاعة إلى أخرى تتدلى في كل منها الستائر الكثيفة المحلاة بخيوط الحرير والذهب وأزوار المجوهرات ، إلى أن رُفعت ستارة ذهبية ضخمة ، لتكشف عن الخليفة الصبى من وراء ستر على عرشه الذهبى . وأقسم المقسمون بالحفاظ على المعاهدة . ثم إن هيو - كنائب عن الملك - رغب في اتباع الطريقة الغربية للتصديق على التحالف بأن يشد على يد الخليفة العارية . وارتاع رجال الحاشية الملكية ، وأخيرا تم اقناع سيدهم ، وهو يتسم ابتسامة فيها الإزدراء ، بأن يخلع قفازه . وانسحب السفيران وقد تأثرا تأثرا عميقا - كما كان مقصودا - بما كان للامبراطورية الفاطمية من ثروة هائلة^(٢٢).

(٢١) William of Tyre, xix, 13, 16, pp. 902-4, 907-8; Beha ed-Din, P.P.T.S. p.48
بهاء الدين إن نور الدين أجبر صلاح الدين على مصاحبة شيركوه ؛ Ibn al-Athir, p. 547, and Atabegs, p. 236.

(٢٢) William of Tyre, xix, 17-19, pp.908-13; Ernoul, p.19
في القسطنطينية هو فقط الأكثر ثراء من بلاط القاهرة ؛ Abu Shama, p. 130. ويواصل وليم

ومضى شهر والجيشان يحمل كل منهما فى الآخر ، لا يقدر أى منهما على عبور النهر فى وجود الآخر قبالة . ثم تمكن أمالريك من تنفيذ عبور إلى جزيرة على رأس الدلتا - إلى الشمال قليلا - ومنها إلى الضفة اليسرى ، حيث باغت إحدى فرق شيركوه . ووجد شيركوه أن جيشه ضئيل العدد أمام الفرنج والمصريين ، فانسحب باتجاه الجنوب أعلا النيل ، وتبعه أمالريك وشاور ، متوخين جانب الحذر بترك حامية قوية فى القاهرة تحت قيادة ابن شيركوه ، الكامل ، وهيو (أوف إبلين). وتسبب دخول كتيبة هيو إلى القاهرة والسماح للضباط بحرية دخول القصر ، فى إثارة الذعر لدى دوائر المسلمين الأكثر تشددا فى المدينة.

وفى مكان ما لا يبعد كثيرا عن مدينة المنيا فى وسط مصر ، تهيأ شيركوه لعبور النيل مرة أخرى وفى ذهنه العودة لغزو الحدود السورية . فعسكر فى أشمونين بين أطلال هرموبوليس القديمة ؛ حيث لحق به الجيش الفرنجى المصرى - الذى كان أكبر من جيشه حتى بدون الحامية التى تخلفت فى القاهرة . غير أن جيش شيركوه كان مؤلفا أساسا من فرسان الأتراك خفيفى الحركة ، بينما كان الجيش المصرى يتألف من المشاة ومع الجيش الفرنجى مجرد بضع مئات من الفرسان ؛ وبخلاف ما أشار عليه أمراء الجيش ، قرر شيركوه الاشتباك فى معركة . وتردد أمالريك من ناحيته ، وعندئذ حدثت إحدى تدخلات القديس برنارد التعسة فى التاريخ الصليبي ؛ فقد ظهر للملك فى حلم وراح يوبخه توبيخا مهينا بأنه غير جدير بهذه القطعة الخشبية من الصليب الحقيقى التى يعلقها حول رقبته ، وأنه لن يبارك هذا الأثر إلا عندما يقسم الملك بأن يكون مسيحيا أكثر اخلاصا . وبهذا التشجيع ، شن أمالريك فى الصباح التالى ، ١٨ مارس ١١٦٧م ، هجوما على السوريين . واتبع شيركوه التكتيكات التركية المعتادة ؛ فقد تهاوى القلب من جيشه بقيادة صلاح الدين ، وعندما انطلق الملك وفرسانه فى عدوهم يطاردون القلب ، دفع شيركوه ميمته إلى ميسرة الفرنج والمصريين فانهارت . ووجد أمالريك نفسه وقد أحيط به . وإنما يُعزى تمكنه من الهرب على قيد الحياة - كما يُظن - إلى الأثر المبارك المعلق فى رقبته ؛ على أن الكثيرين من أفضل فرسانه قتلوا وأسر آخرون ، من بينهم هيو كونست قيسارية . واندفع أمالريك وشاور وبقايا جيشهما منسحبين إلى القاهرة للانضمام إلى قوات الحامية^(٢٣).

الصورى بيان الفرق بين الطائفتين السنية والشيعة.

(٢٣) William of Tyre, xix, 22-5, pp. 917-28 (متضمنا وصفا لمصر والنيل) Ibn al-Athir, pp. 547-9, يحدد تاريخ معركة أشمونين فى ١٨ مارس ، وفى Atabegs, p. 23 ، يحدد تاريخها فى ١٨

١١٦٧م : صلاح الدين محاصر في الإسكندرية

لقد انتصر شيركوه ؛ لكن هناك جيشا متحالفا لا يزال في ساحة القتال . وبدلا من محاولة الهجوم على القاهرة ، عبر النهر مرة اخرى واتجه بسرعة إلى الشمال الغربى من خلال الفيوم ؛ وفى غضون أيام قليلة ظهر امام الإسكندرية . وفتحت له هذه المدينة العظيمة بواباتها لما كان يعرف عن كراهيتها لساور . وفى تلك الأثناء أعاد أمالريك و ساور تشكيل جيشهما خارج القاهرة . وبرغم الخسائر كان لا يزال أكبر من جيش شيركوه ؛ ولذا تبعاه إلى الاسكندرية وضربا حصارا حول المدينة ؛ ووصلت تعزيزات قليلة من فلسطين، وأبحرت سفن فرنجية لتحكم الحصار . وبعد انقضاء شهر تقريبا وجد شيركوه المجاعة تهدده ، فترك صلاح الدين مع حوالى ألف من رجاله للدفاع عن المدينة ، وتسلسل خارجا فى إحدى ليالى شهر مايو مع القسم الأكبر من جيشه ، مارا بمعسكر أمالريك ويم وجهه شطر مصر العليا . وشعر أمالريك بالحنق ورغب فى مطاردته ؛ غير أن ساور أخبره بأن الأهم استرجاع الإسكندرية ، ولا مانع لديه من أن ينهب شيركوه مدن مصر العليا إذا شاء . وبنهاية شهر يونية أصبح وضع صلاح الدين داخل المدينة باعثا على اليأس بحيث توسل إلى عمه أن يعودوا . وتحقق شيركوه من أنه ليس هناك ما يمكنه أن يفعله ، فاقرب من الإسكندرية وأرسل أحد أسراه الفرنج ، وهو أرنولف امير تل بشير - بعد أن رفض هيو أمير قيسارية المهمة - إلى معسكر أمالريك يقترح عقد السلام على أساس أن يجلو هو والفرنج عن مصر ، وعلى أن يعد ساور بعدم معاينة رعاياه فى الاسكندرية وغيرها من الذين أيدوا الغزاة . وقبل أمالريك بالشروط ، إذ كان فى حالة عصبية لانشغاله بشؤون فلسطين وطرابلس . وفى ٤ أغسطس ، دخل الجيش الفرنجى الاسكندرية وعلى رأسه الملك . وخرج صلاح الدين وجيشه بأسمى آيات الشرف العسكرى تحت الحراسة ، رغم أن السكان تمنوا لو يمزقوه إربا بعدما ألقوا عليه باللائمة لما هم فيه من بؤس . على أن متاعبهم لم تكن قد انتهت بعد ؛ فما أن دخل مسؤولو ساور المدينة حتى اعتقلوا كل من حامت حوله الشكوك فى التعاون مع السوريين ، مما دفع صلاح الدين إلى الشكاية لأمالريك الذى أمر ساور باطلاق سراح السجناء . وقدم هو نفسه قوارب لنقل الجرحى من جيش شيركوه بحرا إلى عكا ، ولسوء الحظ أرسل من شفى من جراحاته للعمل فى مزارع السكر إلى أن جاء الملك بنفسه للإفراج عنهم . وأثناء المفاوضات ، صادق صلاح الدين الكثيرين من

بين الفرنج ، وساد الاعتقاد فيما بعد بأنه نال درجة الفروسية على يد الكونستابل همفري (أوف تورون) . وغادر شيركوه وصلاح الدين مصر يوم ١٨ أغسطس تقريبا ووصلا دمشق في سبتمبر . واتجه أمالريك وجيشه إلى القاهرة لإعفاء هيو (أوف إبلين) من مهمته في الحامية ، غير أنه انتهى مع شاور إلى أن وقع الأخير على معاهدة بعد فيها بدفع إتاوة سنوية قدرها مائة ألف قطعة ذهبية ، والاحتفاظ بمندوب سام فرنجي وحامية فرنجية صغيرة في القاهرة تسيطر على بوابات المدينة . وبعد ذلك عاد الملك إلى فلسطين ووصل عسقلان يوم ٢٠ أغسطس^(٢٤) .

وظن بعض لوردات الفرنج أن كان من الممكن الحصول على صفقة أفضل ، لكن أمالريك لم يشأ المخازفة بقواته أكثر من ذلك في مصر وترك فرنج سوريا بلا حماية من هجمات نور الدين ؛ وحدث عندما كان في مصر أن أغار نور الدين على أراضي طرابلس ، ولكن دون أن يستولى على أية حصون هامة ؛ فكان من الضروري إعادة تنظيم الدفاع عن البلاد . على أن مشكلة المشاكل هي دائما الرجال ؛ وكانت أعداد الأسر المقيمة تتناقص بسبب الموت أو الوقوع في الأسر ، وأما الصليبيون الزائرون - مثل ثييري (أوف فلاندرز) - فليس في الامكان الاستعانة بهم إلا في حملات محدودة ؛ ومن ثم كان حُل اعتماد أمالريك على النظامين العسكريين اللذين منحا في عام ١١٦٧م والأعوام التالية أعدادا كبيرة من القلاع والأراضي المحيطة . وكانت الهبات على جانب من الأهمية بالنسبة لطرابلس خاصة ، إذ كان أميرها ما يزال أسيرا ولم يكن فيها من الأسر النبيلة الكبيرة سوى القليل . وكانت طرطوس وشمال البلاد كله تقريبا تحت سيطرة فرسان المعبد ، أما فرسان المستشفى - الذين ربما كانوا قد استولوا فعلا على الكرك التي يسمونها "حصن الفرسان des Chevaliers" - فقد عهد اليهم بالبقيع . وفي المملكة ، كان فرسان المعبد - الذين وطدوا دعائمهم بالفعل في غزة - قد منحوا صفد في الشمال ، بينما حصل فرسان المستشفى على قلعة كوكب التي تتحكم في مخاضات نهر الاردن الواقعة إلى الجنوب من بحر الجليل . وفي انطاكية حذا بوهمند الثالث حذو أمالريك ؛ فزادت حيازات فرسان المعبد من المناطق المحيطة ببيجراس ، على البوابات السورية ، وخصص لفرسان المستشفى مساحة ضخمة من الأراضي جنوب الامارة ، كان اغلبها في الواقع في أيدي المسلمين . ولو أن الغيرة المتفشية بين النظامين

(٢٤) William of Tyre, xix, 26-32, pp.928-39; Abu Shama, pp. 130-4; Ibn al-Athir, pp. 547-51, and *Atabegs*, pp. 236-46; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 49-51; Imad ed-Din. وترد قصة فروسية صلاح الدين في p.9 *Itinerarium Regis Ricardi* .

كانت أقل والشعور بالمسؤولية كان أكبر ، لاستطاعا الحفاظ على دفاعات المملكة بما لهما من قوة^(٢٥).

١١٦٦-١١٦٧م: مغامرات أندرونيكوس كومنينوس

بينما تقرر أن يقود النظامان الدفاع عن المملكة ، سعى أمالريك كذلك إلى عقد تحالف اوثق مع بيزنطة . وفى أغسطس ١١٦٧ م ، وكان قد عاد لتوه من مصر ، وصلته أنباء بأن سفيره فى القسطنطينية ، رئيس أساقفة قيسارية والنادل أودو ، قد هبطا فى ميناء صور مع ابنة أخى الامبراطور الجميلة الشابة ماريّا كومنينيا ؛ فسارع إلى مقابلتها ؛ وشهدت كندرائية صور حفل زواجهما الفاخر الذى عقده البطريق أمالريك يوم ٢٩ أغسطس . ومنحت الملكة نابلس والأراضى المحيطة بها مهرا لها . وكان بصحبتهما اثنان من كبار المسؤولين فى بلاط عمها ، وهما ابنا عمومته جورج بالايولوجوس ومانويل كومنينوس ، وكانا مزودين بسلطة مناقشة التحالف مع امالريك.

وكانت العلاقات الحسنة بين امراء الفرنج والامبراطور قد تعرضت مؤخرًا للخطر بسبب ما كان عليه ابن عم آخر لمانويل ، هو أندرونيكوس كومنينوس من رعونة ، وكان أكثر امراء عائلته ذكاء ووسامة ؛ وكان هذا الامير فى أحط درجات الخزي لمغازلته إحدى قريباته ، وهى إيوديشيا ابنة اخت الامبراطور ، التى تحدثت الشائعات بأن الامبراطور نفسه كان بالغ الشغف بها . وفضلا عن ذلك ، أتى من التصرفات ما يدل على افتقاره إلى الحكمة عندما كان محافظا فى كيليكيا عام ١١٥٢ م ؛ غير أنه عُيِّن مرة أخرى فى هذا المنصب عام ١١٦٦ م . وكان سلفه الكسيوس أكسوخ - الذى أوفد مكان كولومان أثناء أسره - قد فشل فى تنفيذ أوامر الامبراطور فى التوفيق بين الأرمن ، وقت أن كانت الآمال معلقة على نجاحه مع ثوروس لما كان يتمتع به أندرونيكوس من جاذبية شخصية ، إلى جانب الكثير من المعونات . بيد أن أندرونيكوس ، الذى بلغ من العمر السادسة والأربعين ، كان أكثر اهتماما بالمغامرة منه بالادارة ؛ وسرعان ما اتاحت له الفرصة لزيارة انطاكية حيث أصابته الاميرة الشابة فيليبيا - اخت بوهمند - بسهم جمالها . ونسى أو تناسى واجباته الحكومية ومكث فى انطاكية يتودد لفيليبيا بسلسلة من الأناشيد العاطفية الليلية حتى ثملت ولم تملك أن

(٢٥) انظر Delaville Le Roulx, *op. cit.* pp. 74-6. وترد أمثلة متواترة عن الهبات الممنوحة للنظاميين فى Rohricht, *Regesta*, pp. 109 ff..

ترفض له طلبا . واغتاز بوهمند ولجا في شكواه إلى زوج أخته مانويل، الذي مملكه الغضب فاستدعى أندرونيكوس وأرسل مكانه قنسطنطين كولومان . كما صدرت الأوامر لكولومان بالتوجه إلى انطاكية ومحاولة الفوز بقلب فيليبيا؛ لكن الأميرة وجدته بسيطا قصيرا في منتصف عمره بالمقارنة بحبيبها الرائع . ومع هذا ، كانت دوافع أندرونيكوس بدرجة كبيرة مضايقة القيصرية التي كان يبغضها ، والآن اتخذ سبيل الحصافة فهجر انطاكية ومحظيته ؛ وأخذ معه نصيبا ضخما من الإيرادات الامبراطورية من كيليكيا وقبرص وبم وجهه شطر الجنوب عارضا خدماته على الملك أمالريك . وسرعان ما عُثر على زوج للأميرة المهجورة ، الكونستابل همفري الثاني (أوف تورون) الأرمل المسن .

وافتن أمالريك بأندرونيكوس ، وأثرت فيه شجاعته الشخصية ، فوهبه اقطاعية بيروت التي كانت شاغرة آنذاك . وبعد ذلك مباشرة ذهب أندرونيكوس إلى عكا ، وهي مهر ابنة عمه الأرملة الملكة ثيودورا التي كانت وقتئذ في ربيعها الحادي والعشرين وفي رابعة جمالها . وكانت قصة حب من كلا الجانبين؛ والتصق كل منهما بالآخر بحيث لم يكن للزواج بينهما ضرورة ، وانتقلت الملكة بلا خجل إلى بيروت حيث مكثت خلية له . وعندما سمع مانويل بهذه الصلة الجديدة ، ربما من سفرائه الذين رافقوا الملكة ماريا إلى فلسطين ، تفجرت لديه سورة الغضب . ولذا ، وعندما ذهب سفراؤه بعد ذلك إلى فلسطين طلبوا سرا تسليم الجاني . ووقعت التعليمات المعطاة للسفراء في يد ثيودورا . ولما كان معروفا أن أمالريك يسعى إلى الفوز بنوايا الامبراطور الحسنة ، ارتأى أندرونيكوس أن الحكمة تدعوه إلى الرحيل وأعلن عن نيته في العودة إلى وطنه ، وجاءت ثيودورا إلى عكا مرة أخرى لتوديعه . وما أن التقيا حتى تركا كل ممتلكاتهما ولاذا بالفرار دون مرافق عابرين الحدود إلى دمشق . واستقبلهما نور الدين استقبالا طيبا؛ وأمضيا السنوات التالية يتجولان في أرجاء الشرق الإسلامي ، وزارا حتى بغداد ، إلى أن منحهما أحد الأمراء المسلمين حصنا بالقرب من حدود الامبراطورية عند بافلاجونيا ، حيث استقر أندرونيكوس بعدما حكم عليه بالتردد من الكنيسة ، سعيدا بحياة قطاع الطرق . ولم يأس أمالريك لرحيلهما ، إذ استعاد مهر اخت زوجته النفيس — عكا^(٢٦)

(٢٦) William of Tyre, xx, 2, pp. 943-4; Cinnamus, pp. 250-1; Nicetas Choniates, pp. 180-6. (وعن تاريخ أندرونيكوس بعد ذلك انظر أدناه الصفحات ٤٨٣-٤٨٥).

١١٦٨م : التحالف مع بيزنطة

ومن الواضح أن امالريك أرسل مع جورج بالايولوجوس إلى مانويل يقترح غزو مصر . وحملت السفارة التالية لمانويل - التي رأسها إيطاليان هما الكسندر (أوف كونفرسانو) كونت جرافينا، وميخائيل (أوف اوترانتو) - شروط الامبراطور التي يبدو أنها كانت تتألف من حصة في أسلاب مصر وإطلاق يده تماما في انطاكية ، وربما التنازل عن أراض فرنجية أخرى . كانت الشروط قاسية ؛ ولذا بعث امالريك رئيس شمامسة صور ، وليم - مؤرخ المستقبل - إلى القسطنطينية لاستئناف المناقشات . وعندما وصل وليم هناك علم أن الامبراطور في حملة في الصرب فتبعه إلى هناك وقابله في موناستير حيث استقبله مانويل بما اعتاد عليه من سخاء الكرم وعاد معه إلى عاصمته . وأبرمت المعاهدة التي تقضى بأن يقتسم الامبراطور والملوك غزوتهما لمصر . وعاد وليم إلى فلسطين في أواخر خريف ١١٦٨م^(٢٧) .

وللحظ التعس ، لم ينتظر البارونات عودته . إذ وردت الأنباء بأن شاور يفتقر إلى الأمان، وأنه متبرم من الحامية الفرنجية في القاهرة ، وقد تأخر في دفع الإتاوة ، إلى جانب انتشار الشائعات بأن ابنه الكامل يتفاوض مع شيركوه ، وطلب يد أخت صلاح الدين . وكان لوصول الكونت وليم الرابع كونت نفرس إلى فلسطين في أواخر الصيف ومعه صحبة رائعة من الفرسان ، أن شجع أولئك المتعجلين للعمل . وعقد الملك مجلسا في القدس راح فيه السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، جيلبرت (أوف أسيلي) بحث بعنف على الانطلاق إلى مصر إذ لم يعد هناك مجال لأي تأخير ؛ وأيده أغلب البارونات العلمانيين ؛ وزاد التأيد بما أضافه كونت نفرس ورجاله ، الذين جاءوا للحرب من اجل الصليب . وعارض فرسان المعبد صراحة ارسال اية حملة وأعلنوا انهم لن يشتركوا فيها . وربما ترجع معارضتهم إلى غيرتهم من فرسان المستشفى ، الذين قرروا بالفعل الحصول على الفرما (بيلوزيوم) باعتبارها نصيبهم في الحملة ، كمقابل لحصن غزة الذي يحتله فرسان المعبد . على أن لفرسان المعبد أيضا علاقات مالية مع المسلمين ومع المدن التجارية الإيطالية التي أصبحت تجارتها الآن مع مصر أكبر من تجارتها مع سوريا المسيحية . ووافق الملك أمالريك على أنه من الضروري القيام بعمل عاجل نظرا لضعف شاور وعدم امكان الاعتماد عليه ، لكنه اعرب عن رغبته في الانتظار إلى أن تصل مساعدة الامبراطور . لكنهم تغلبوا عليه . وأمام الإصرار المتعنت من فرسان المستشفى

ومن أتباعه هو نفسه ، الذين لم يجدوا ما يبرر حصول اليونانيين على حصّة من أسلابهم، رضى أمالريك . وتقرر التخطيط لحملة فى أكتوبر^(٢٨).

١١٦٨م : أمالريك يتقدم نحو القاهرة

عاد وليم الصورى بمعاهدته من القسطنطينية ليجد الملك قد رحل فعلا . وكان أمالريك قد أذاع أنه سيهاجم حمص ردعا لنور الدين عن الإقدام على أى عمل ؛ فعلا كان نور الدين راغبا فى تجنب أى حرب مع الفرنج نظرا لمتاعبه الخاصة به فى شمال شرق سوريا . كما أن شاور لم يتحقق مما كان جاريا إلى أن خرج الجيش الفرنجى من عسقلان يوم ٢٠ أكتوبر ليصل بعد ذلك بعشرة أيام أمام بليس ، الأمر الذى أصابه بالهلع فما كان يظن قط أن يخرق أمالريك معاهدته معه على هذا النحو المستهتر . وقابل سفيره الأول - الأمير بدران - الملك فى الداروم على الحدود ، لكنه ارتشى . وأما سفيره الثانى - شمس الخلافة - فقابل الملك فى الصحراء بعد مروره على بليس بمسيرة أيام قليلة فراح يؤنبه تانيبا مريرا على غدره ؛ فكان رد الملك على ذلك أن المبرر لتصرفه ما قام به الكامل - ابن شاور - من مفاوضات مع شيركوه ، وعلى أية حال ، فإن الصليبيين الوافدين مؤخرا من الغرب عقدوا العزم على مهاجمة مصر ، وإن وجوده إنما ليكبح جماحهم. وأضاف أنه قد ينسحب لو تسلم مليونين آخرين من الدنانير . غير أن شاور ارتاب الآن فى نوايا الملك . ولدهشة الملك ، قرر شاور المقاومة ورفض ابنه طئى - وكان آمر الحامية فى بليس - فتح بواباته للفرنج . لكن قواته كانت ضئيلة العدد ، فبعد ثلاثة أيام من القتال اليائس ، الذى لم يكن أمالريك يظن أن المصريين قادرين عليه، دخل الجيش الفرنجى القلعة يوم ٤ نوفمبر ، أعقبه مذبحه مروعة للسكان . وربما كان أبطال المذبحة هم رجال نفرس ، الذين كانوا متقدمين حماسا وفوضى كشأن أغلب الوافدين الجدد من الغرب ، وكان زعيمهم الكونت قد مات فى فلسطين من الحمى قبل بداية الحملة ، ولم يكن هناك من يقدر على السيطرة عليهم . وحاول أمالريك المحافظة على النظام ، وعندما أفلح أخيرا اضطر هو نفسه إلى أن يشتري من الجنود من بقى على قيد الحياة ممن أخذهم الجنود رهائن . على أن المحذور كان قد وقع . وكان الكثير من

(٢٨) (William of Tyre, xx, 5, pp.948-9) يذكر وصول كونت نفرس فى الفصل السابق؛ Michael the Syrian (III, pp.332-3) ، وكان المؤرخون العرب، Atabegs, pp 553-4, and Ibn al-Athir, pp 246-7, and Abu Shama, pp. 112-13 مدركون أن الملك رضى لمجسه.

المصريين الكارهين لشاور على استعداد للترحيب بالفرنج كمخلصين ، وكانت الطوائف القبطية وهي بأعداد كبيرة فى مدن الدلتا خاصة ، على استعداد للتعاون مع الرفاق المسيحيين ؛ غير أن الأقباط والمسلمين على السواء قد هلكوا فى المذبحة ، فاتخذ الشعب المصرى كله فى بغضه للفرنج . وبعد أيام قليلة وصل اسطول فرنجى صغير محمل فى أغلبه بالغربيين ، وكان مقررا أن يبحر أعلى مصب النيل فى تانيس ، إلى بحيرة المنزلة وهبط فجأة على مدينة تانيس ؛ وتكررت نفس مشاهد الرعب ، وكان الأقباط هم الذين عانوا أكثر من غيرهم.

ومهل امالريك لأيام قليلة فى بلبس ، لإعادة محاولة السيطرة على جيشه بلا شك . وفاته فرصة مباغتة القاهرة ، وانما ظهر يوم ١٢ نوفمبر امام اسوار القسطنطين ، وهى الضاحية القديمة الواقعة جنوب المدينة العظيمة . وتشكك شاور فى قدرة القسطنطين على الصمود فأشعل فيها النيران ، وأرسل سفيره شمس مرة أخرى إلى الملك ليقول له إنه قبل أن تسقط القاهرة فى أيدي الفرنج سيحرقها هى أيضا إلى أن يسويها بالارض بكل ما فيها من ثروة . وكان الاسطول محجوزا فى أعلى الدلتا بحواجز وضعت فى مجرى النهر، فتحقق امالريك من أن الحملة سلكت مسلكا خاطئا . وأخذ بنصيحة قهرمانه - مايلز (أوف بلانس) - جعل شاور يفهم أن فى الامكان رشوة الملك . فراح شاور يتلاعب كسبا للوقت ؛ فبدأ يساوم على المبلغ الذى يستطيع دفعه ؛ فدفع مائة ألف دينار فدية ابنه طى ، وراح يتحدث عن مدفوعات أخرى . وفى تلك الأثناء انتقل الجيش الفرنجى بضعة اميال شمالا وعسكر فى المطرية ، حيث شجر الجميز الذى أوقف ظله السيدة العذراء أثناء هروبها فى مصر . وانتظروا هناك ثمانية ايام إلى أن جاءت الأنباء فجأة بأن شيركوه يزحف داخل مصر التى جاءها بدعوة من الخليفة الفاطمى^(٢٩).

١١٦٩م : شيركوه يفوز بمصر لنور الدين

لم يكن شاور يرغب فى اتخاذ تلك الخطوة اليائسة ؛ لكن ابنه الكامل فرض عليه رأيه وأرغم سيده الإسمى الأعلى - الخليفة العاضد - على الكتابة إلى حلب عارضا على نور الدين ثلث أرض مصر واقطاعيات لقواده . ولا بد أن الخليفة الصغير أدرك خطر

(٢٩) William of Tyre, xx, 6-9, pp.949-56; Abu Shama, pp. 114-15, 136-40 من عماد الدين ؛ Beha ed-Din, P.P.T.S. P. 52; Ibn al-Athir, pp. 554-6, and Atabegs, pp. 247-50.

التماس الحماية ممن يبدو في عينيه هرطيقى مدّع ، لكنه كان فاقد الحيلة . وعندما تسلم نور الدين الدعوة أرسل مبعوثا إلى شيركوه في حمص التي يقيم بها ؛ على أن المبعوث وجد شيركوه فعلا على بوابات حلب . ولم يتردد نور الدين هذه المرة ، فزود شيركوه بثمانية آلاف فارس وخزانة تمويل الحرب تحوى مائتي ألف دينار للإنفاق على جيش دمشق لغزو مصر ، وأمر صلاح الدين بمصاحبته . ولم يكن شاور على يقين بعد أين تكمن مصالحه ، فأنذر أمالريك الذي تحرك مع جيشه ناحية برزخ السويس أملا أن ينقض على شيركوه عندما يبرز من الصحراء ؛ لكن شيركوه أفلت منه بانحداره جنوبا ، وبذا لم يكن للفرنج الآن بد من الجلاء . وبدأ أمالريك انسحابه يوم ٢ يناير ١١٦٩م بعد أن أمر أسطوله بالعودة إلى عكا وبعد أن استدعى الحماية التي تركها في بليس للانضمام إليه^(٣٠).

وبعد ستة أيام دخل شيركوه القاهرة تاركا جيشه معسكرا عند باب اللوق ، وذهب إلى القصر حيث منحه الخليفة الهدايا الرسمية ووعد بالمال والطعام لجنوده . وحيّاه شاور بحرارة ؛ ودأب على زيارته يوميا في الأيام التالية لمناقشة الترتيبات المالية وتقسيم الوزارة . وتلقى شيركوه تلك العروض بكياسة ؛ غير أن ابن أخيه صلاح الدين، الذي كان أهم مستشاريه ، أصر على اتخاذ اجراء أكثر شدة . وأفلح في اقناع الخليفة بالحضور متنكرا إلى مقر شيركوه ؛ وفي ١٨ يناير تلقى شاور دعوة لمرافقة شيركوه في زيارة دينية لغير الإمام الشافعي ، وعندما شرع شاور في الذهاب ، انقض عليه صلاح الدين وأمرأوه ، وجردوا حراسه من أسلحتهم وألقى القبض عليه . وفي أقل من ساعة صدر امر من الخليفة بضرب عنقه، ووضعت رأسه عند قدمي الخليفة. ولكي يتجنب شيركوه أية محاولة تنال منه أعلن أن بيت الوزير مفتوح لمن يرغب في نهبه، وبينما كانت الجماهير تتدافع إلى هناك، انتقل هو والخليفة إلى القصر وتولى زمام الحكومة بهدوء. ولقد كان حكم شاور أبعد ما يكون عن الشعب، وكان اعتبار شيركوه للشرعية غاية في الريبة بحيث لم يلق النظام الجديد معارضة أي من حكام المقاطعات. ولم تمض أسابيع قليلة حتى غدا شيركوه سيد مصر كلها؛ وتسلم أمرأوه الاقطاعات التي كانت لدى شاور وأسرته، وحصل هو نفسه على لقب الوزير

(٣٠) Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 52-3; Ibn al-Athir, p. 563, and Atabegs, p. 250; Abu Shama, p. 117 واستنادا الى رواية نهار الدين التي كررها ابن الأثير بمزيد من الإكمال ، كان صلاح الدين عازفا بشدة عن الانضمام إلى الحملة.

الملك (٣١).

ولم يعيش شيركوه طويلا فى رفعتة ؛ إذ مات يوم ٢٣ مارس ١١٦٩م بسبب التخمّة . ولقد حُجبت شهرته فى التاريخ بظلال سيده نور الدين وابن اخيه صلاح الدين . ومع ذلك ، كان هو الذى أدرك بجلاء يفوق أى مسلم آخر ، أن غزو مصر بما لها من موقع استراتيجى وموارد لا تنضب ، هو المقدمة الضرورية لاسترجاع فلسطين ؛ وبرغم تردد نور الدين ويقظة ضميره ، ظل شيركوه يعمل بلا كلل لتحقيق هذه الغاية . وكان لابن اخيه أن يحصد ما دأب على غرسه . كان ذا مظهر يخلو من أهمية ، وكان قصيرا ، ربلا ، أحمر الوجه ، يبصر بعين واحدة ، وكانت ملامحه تنم عن وضاعة مولده . غير أنه كان جنديا عبقريا . والقليل من القادة يتفانى جنودهم فى حبهم (٣٢) .

ولقد تحقق الفرنج جيدا من الأهمية القاتلة لانتصار شيركوه . وبينما ألقى بعضهم باللائمة على جشع مايلز (أوف بلانسى) ، الذى جعل الملك يقبل المال بدلا من الحرب ، بحث آخرون عن كبش فداء فوجدوه فى السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، الذى أحبر على التخلّى عن منصبه والعودة إلى بلاده فى الغرب . وأما أمالريك نفسه فقد أرسل النداء إلى الغرب لتسيير حملة صليبية جديدة . فانطلقت فى باكورة عام ١١٦٩م سفارة لتحريك العواطف ، يرأسها البطريق أمالريك ورئيس اساقفة قيسارية ، تحمل رسائل إلى الامبراطور فريدريك ، ولويس السابع ملك فرنسا ، وهنرى الثانى ملك إنجلترا ، ومارجريت الملكة الوصية على صقلية ، وإلى كونتات فلاندرز وبلوا . ويروى أنه بعد مضى يومين فى البحر ، هبت عاصفة هوجاء أعادت سفن السفراء إلى عكا ، ولم يرض أحد من الركاب المجازفة مرة اخرى بأخطار الأعماق . وانطلقت سفارة ثانية يرأسها فريدريك رئيس اساقفة صور ، ومساعدته الأسقف ، وجون أسقف بانياس ، وحيرت مرشد نظام فرسان المستشفى . ووصلوا روما فى يولية ١١٦٩م حيث أعطاهم البابا ألكسندر الثالث خطابات توصية موجهة إلى جميع رجال الدين اتباعه . بيد أن تلك الرسائل جميعها لم تجد فتيل ؛ إذ احتجزهم الملك لويس لأشهر

(٣١) Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 53-5) اقتباس من عماد الدين)؛ Ibn al-Athir, pp.558-60 and (٣٢) p.892 بنفس العبارات كالتى استخدمها الكتاب العرب . ويصف بهاء الدين (١-50 pp) عزمه المتلهف على ضم مصر الى ملك سيده .

(٣٢) Beha ed-Din, P.P.T.S. p. 55; Ibn al-Athir, pp. 560-1 (xix, 5, ١٩١٩) ويصفه وليم الصورى . ويصف بهاء الدين (١-50 pp) عزمه المتلهف على ضم مصر الى ملك سيده .

كثيرة في باريس ، حيث مات أسقف بانياس ، بينما كان الملك يشرح لهم مشاعله مع أسرة البلانتاجينيس (الحاكمة في إنجلترا) . فواصلوا رحلتهم إلى إنجلترا حيث حادثهم الملك هنري عن متاعبه مع الكاينيين . ولم يكن هناك معنى لزيارة المانيا نظرا للخلاف بين البابا والامبراطور . وبعد عامين من الإستجداء العقيم عادوا إلى فلسطين بقلوب متفطرة^(٣٣).

١١٦٩م : حملة تحالف ضد مصر

وأحرزت السفارة المرسله إلى القسطنطينية نجاحا أكبر . ذلك أن مانويل أدرك جيدا أن ميزان القوى في الشرق قد انقلب بصورة خطيرة ، فعرض على أمالريك تعاون الأسطول الامبراطوري العظيم في حملته التالية^(٣٤)، فوافق الملك مسرورا . وربما أمكن مع ذلك استعادة مصر ، إذ أن نور الدين في غاية الانشغال في الشمال على ما يبدو . فقد نتج عن موت قره أرسلان ، أمير ديار بكر الأرتقي عام ١١٦٨م ، وما تلى ذلك من خلاف حول الميراث ، أن أفسد النظام على نور الدين وعلى أخيه قطب الدين صاحب الموصل ؛ فضلا عن أن غازي بن حسان ، حاكم منبج ، تمرد بعد ذلك مباشرة ومضت عدة أشهر قبل تسوية أمره . والآن كان قطب الدين يحتضر ، وسرعان ما سوف تثار مسألة الاستخلاف على الموصل^(٣٥). وفي مصر انتقلت ألقاب شيركوه وسلطته إلى ابن أخيه صلاح الدين . ولكن صلاح الدين ليس بالحاكم المحنك ، وكان هناك آخرون من أمراء شيركوه يتمنون استخلافهم مكانه ، غير أن الخليفة اختار صلاح الدين وهو على ثقة من أن افتقاره إلى الخبرة ستدفعه إلى الاعتماد على المسؤولين الفاطميين . وفي ذات الوقت كتب كبير الطواشية لدى العاضد - وهو نوبى يدعى المؤمن - سرا إلى القدس يعد بالمساعدة في حالة غزو الفرنج لمصر . ولكن لسوء حظه، لاحظ أحد عملاء صلاح الدين شكلا غير طبيعي لحقنين مع أحد سعاة البلاط مما أثار ريته، فأخذهما وقطع خياطتهما ووجد الرسالة فيهما . وانتظر المؤمن

(٣٣) William of Tyre, xx,12,pp. 960-1; letters of Amalric in *R.H.F.* vol. xvi, pp. 187-8; Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp.258-259. مات السيد الأعظم لفرسان المستشفى غرقا وهو يعبر من ديبى الى إنجلترا. انظر Delaville Le Roux, *Les Hospitaliers*, pp. 76 ff.

(٣٤) William of Tyre, xx, 13, pp. 961-2.

(٣٥) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* P.52; Abu Shama, pp. 188-9; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 264; Michael the Syrian, iii pp. 339-42; ومات قطب الدين في العام التالي (١١٧٠م).

ثار صلاح الدين ، غير أن أنباء انعدام الأمن لديه شجعت المسيحيين^(٣٦).

وأرسل أمالريك إلى الامبراطور يستعجله ؛ وفي ١٠ يولية ١١٦٩م انطلق الأسطول الامبراطوري الضخم من الدردنيل بقيادة الدوق العظيم أندرونيكوس كونتوستيفانوس . وأبحر الأسطول الرئيسي إلى قبرص مستوليا على سفينتين مصريتين في طريقه ، وأبحر أسطول أصغر مباشرة إلى عكا يحمل معونات مالية لجنود أمالريك . وقيل لأمالريك بأن يرسل إلى قبرص مستدعيا الأسطول عندما يرغب في ذلك . لكن أمالريك لم يكن جاهزا ، إذ أن حملة عام ١١٦٨م سببت الاضطراب في قواته ، وكانت خسائر فرسان المستشفى حسيمة جدا . وأما فرسان المعبد فكانوا لا يزالون يرفضون الاشتراك ، وقد خبت جذوة الحماس عند البارونات عما كانت عليه ، إذ أن التجربة السابقة أضعفت عزائمهم ، ولم يرسل أمالريك إلى قبرص لاستدعاء الأسطول إلى عكا إلا في سبتمبر ، وقد أثار منظره الرائع مشاعر البهجة لدى السكان ؛ ولم تتهيا الحملة كلها للمسير إلى مصر إلا في منتصف اكتوبر . وضاعف التأخير من الحظ التعس ؛ ذلك أن مانويل ، الذي أدخلوا في روعه التفاؤل ، أعد العدة لحملة تستغرق وقتا قصيرا وزود سفنه بالمون التي تكفي ثلاثة أشهر فقط ، وقد قاربت الأشهر الثلاثة على الانقضاء . ولم تستطع قبرص المساعدة في إعادة تموين الاسطول وهي التي لم تبرا بعد مما سببه رينالد من خراب ، وليس في عكا مئون يمكن الحصول عليها^(٣٧) . وفي ذات الوقت تلقى صلاح الدين تحذيرات كثيرة عن الحملة ؛ ولكي يوفر لنفسه الأمان في القاهرة اعتقل في ٢٠ اغسطس ١١٦٩م الخصى المؤمن وضرب عنقه ، وطرد جميع خدام القصر ممن يعرف عنهم الولاء للخليفة واستبدلهم بصنائه هو نفسه . وطرد بعض المسؤولين الذين شجعهم الخليفة على تحريض حرس القصر النوبيين على الثورة ومهاجمة جنود صلاح الدين . وقام آخر صلاح الدين ، فخر الدين ، بهجوم مضاد لكنه لم يستطع أن يفعل شيئا إلى أن أشعل صلاح الدين النيران في ثكنات الحرس في الفسطاط التي كان بها زوجات وأولاد أفراد الحرس النوبيين ، فما كان من الحرس الا أن هربوا هربا لإنقاذهم ؛ فانقض عليهم فخر الدين وقتلهم جميعا على وجه التقريب . أما الخليفة الذي كان يرقب المعركة ، فقد سارع ليؤكد ولاءه لصلاح الدين . وأدى تخلي الخليفة عن النوبيين إلى القضاء على الحرس كله ؛ إذ أن الحرس الأرمني ، الذي لم يشترك في

(٣٦) Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 55-6; Ibn al-Athir, pp. 566-8; Abu Shama, p.146. التي اصدرها الخليفة بتعيين صلاح الدين موجودة في برلين ، ٩٨. folios long.

(٣٧) Nicetas Choniates, pp. 208-9; William of Tyre, loc. cit..

المعركة ، قد حُرق حتى الموت فى الثكنات . وهكذا أفلح صلاح الدين فى إسكات معارضيه^(٣٨) .

١١٦٩ م : حصار دمياط

انطلق الجيش المسيحى أخيراً يوم ١٦ أكتوبر . وعرض أندرونيكوس كونتوستيفانوس ، الذى أغاظه تأخير امالريك ، نقل جُل الجنود بحرا ؛ لكن الفرنج أصروا على الطريق البرى . وفى ٢٥ أكتوبر دخل الجيش مصر عند الفرما بالقرب من بليوزيوم . وكان صلاح الدين يتوقع هجوماً على بليس ، فركز قواته هناك ؛ لكن السفن البيزنطية كانت قد نقلت الفرنج عبر فروع النيل الشرقية ، واجبرت بمحاذاتهم بطول الشاطئ ، فزحف الفرنج بصورة خاطفة على دمياط ، تلك القلعة الغنية التى تتحكم فى فرع النيل الرئيسى ، ومنها يستطيع الأسطول الإبحار باتجاه القاهرة . وبلغت صلاح الدين . ولم يجرؤ هو نفسه على مغادرة القاهرة خشية أن يتشجع مناصرو الفاطميين للقيام بثورة ؛ لكنه أرسل التعزيزات إلى دمياط ، وكتب بنفسه إلى سوريا يلتمس المساعدة من نور الدين . وكانت الحامية فى دمياط قد ألفت بسلسلة عظيمة بعرض النهر ؛ ولم تتمكن السفن اليونانية - التى أعاقنها أيضاً رياح معاكسة - من الإبحار مروراً بالمدينة كى تعترض تعزيزات الجنود والمؤن الآتية فى البحرى من القاهرة . وربما استطاع المسيحيون الاستيلاء على القلعة بهجوم مفاجئ ؛ غير أنه برغم الحاح كونتوستيفانوس للقيام بهجوم فوري - وقد شغله تناقص الامدادات - فقد شعر امالريك بالرهبة من التحصينات المروعة ، وأبدى رغبته فى تشييد المزيد من أبراج الحصار . وبقرار خاطئ وضع البرج الأول أمام أقوى جزء فى الأسوار ؛ وأطلق اليونانيون آلات حصارهم تقصف ناحية مقدسة تضم كنيسة صغيرة مكرسة للسيدة العذراء ، وهى ناحية كانت السيدة العذراء قد توقفت فيها أثناء رحلتها إلى مصر؛ فذب الهلع بين السكان المحليين من المسيحيين والمسلمين على السواء . وفى كل يوم يتدفق جنود جدد إلى داخل المدينة . وفى كل يوم كانت حصص البحارة اليونانيين ورفاقهم على الشاطئ تتناقص ، دون أن يساعدهم حلفاؤهم الفرنج بما لديهم من وفرة فى الامدادات . وفى كل يوم كان كونتوستيفانوس يناشد امالريك المجازفة بهجوم شامل على الأسوار ، ويرد امالريك بأن المجازفة بالغة الخطر ، ويهمس له قواده المرتابون

فى اليونانيين بأن الذى يحرك حماس كورتوستيفانوس هو رغبته فى الاسيلاء على دمياط كجزء من الغنائم الامبراطورية . وما أن أهل شهر ديسمبر حتى بدا جليا أن الحملة قد فشلت . فبدون طعام لا يستطيع اليونانيون المضى فى الحرب . وأطلق المدافعون قاربا مشتعلا فى وسط الأسطول ، فأنزل باليونانيين خسائر فادحة ، رغم أن تدخل امالريك العاجل قلل من الأضرار . وصارت القلعة الآن مزودة جيدا بالرجال والامدادات ، وقيل إن الجيش الإسلامى الآتى من سوريا يقترب ؛ وعندما هطلت الأمطار هطولا مبكرا وأحالت المعسكر المسيحى إلى مستنقع ، كان الوقت قد حان لرفع الحصار . ولا نعرف على وجه اليقين ما إذا كان أمالريك هو الذى بدأ التفاوض مع العرب أم كورتوستيفانوس ، ولا الشروط التى اتفق عليها . وربما أعطى المسيحيون تعويضا ماليا ؛ وبكل اليقين كان أمالريك يأمل فى عزل صلاح الدين عن نور الدين بمظهر من مظاهر الصداقة مع صلاح الدين خاصة وأن علاقات امالريك بنور الدين يشوبها البرود على الأرجح.

وفى ١٣ ديسمبر حرق المسيحيون آلات حصارهم كلها حتى لا تقع فى أيدي المسلمين ورحلوا عن دمياط ، ووصل الجيش إلى عسقلان فى الرابع والعشرين . أما الأسطول فكان أقل حظا ؛ فبينما كان مبحرا باتجاه الشمال هبت عاصفة شديدة ، ولم يستطع البحارة الذين كانوا يتضورون جوعا السيطرة على سفنهم التى امتلأ الكثير منها بالماء وغاص فى الأعماق . وكانت مياه البحر تلقى بالجلث اليونانية على شواطئ فلسطين لأيام ؛ وهرب كورتوستيفانوس نفسه وأبحر إلى كيليكيا ومنها ارتحل برا لرفع تقريره إلى الامبراطور . ووصلت بقايا الأسطول العظيم إلى مياه البوسفور فى وقت مبكر من العام التالى (٣٩).

وأدت النتيجة الفاجعة للحملة حتما إلى تبادل السباب والإتهامات . وألقى الفرنج باللائمة على اليونانيين لنقص الامدادات ؛ وألقى اليونانيون ، بتعقل أكثر ، باللوم على

(٣٩) William of Tyre, xx, 14-17, pp.962-71; Cinnamus, pp. 278-80. الحملة أرسل صلاح الدين الى مانويل عارضا دفع إتاوة سنوية ، لكن مانويل رفضها؛ ومن الناحية الأخرى، يستنتج Nicetas Choniates, pp. 209-19 ضمنا أن مانويل عقد السلام مع مصر ؛ Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 56-9; Abu Shama, pp.151-13; Ibn al-Athir, pp. 668-70 and tabegs, pp. 259-60. ويفترض ميخائيل السورى (III, p.335, and Armenian version, pp.369-70) أن اليونانيين أخذوا رشوة من صلاح الدين للتخلى عن الحملة . ودليله على ذلك مناهض لليونانيين على نحر ثابت بحيث يفقد قيمته . ويقول وليم السورى إن كورتوستيفانوس كان هو أول من طلب وقف القتال ، بينما يقول Nicetas إنه كان الملك.

الفرنج للتأخير الذى لم تكن له نهاية . على أن امالريك والامبراطور أدركا أنه لا ينبغي كسر التحالف . إذ أن صلاح الدين الآن سيد مصر بلا منازع.

وكان صلاح الدين من الحكمة بحيث لم يقع فى الشرك الدبلوماسى الذى أعده له امالريك . ولقد كان نور الدين يثق فى شيركوه ، لكنه كان مرتابا فى طموحات حاكم مصر الجديد ؛ ومع ذلك لزم صلاح الدين جانب الاستقامة المثالية . ذلك أن نور الدين بعث فى ابريل ١١٧٠م إلى صلاح الدين والده نجم الدين أيوب مع صحبة من الجنود السوريين ، فى لفقة من لفقات الصداقة من ناحية ، وربما كتلميح من ناحية أخرى ، إذ كان أيوب شديد الولاء لسيده . وصاحب القافلة أعداد كبيرة من التجار السوريين المتلهفين على تبادل التجارة مع القاهرة ، ولكى يساعد نور الدين هذه القافلة الضخمة على العبور بصورة مأمونة عبر أراضي الأردن ، قاد استعراضا عسكريا ضد الكرك^(٤٠) . وكان ذلك التحرك هو الحركة الوحيدة التى أقدم عليها نور الدين ضد الفرنج ؛ وكان قد تركهم فى سلام أثناء حملتهم على مصر ، بل انهم تمكنوا فى يناير ١١٧٠م من استعادة قلعة عكار جنوب البقعة ، والتى ربما كانوا قد فقدوها عام ١١٦٥م . وقد سلمها امالريك وكذلك مدينة أرقا - بصفته وصيا على طرابلس - إلى فرسان المستشفى الذين باتوا يسيطرون على الوادى كله الآن^(٤١).

١١٧٠م : زلزال يضرب أنطاكية

فى يوم ٢٩ يونية ١١٧٠م رزئت سوريا بزلزال مروع ألحق بها من الدمار نفس القدر الذى سببه زلزال ١١٥٧م ؛ وفى الأشهر القليلة التالية انهمك المسيحيون والمسلمون سواء بسواء فى اصلاح ما أصاب قلاعهم من أضرار . وقد أصيبت حلب وشيزر وحماه وحمص بدمار شديد وكذلك الكرك وطرابلس وجبيل . وفى انطاكية كان الدمار هائلا ، وجد فيه الفرنج عدالة الهية ؛ إذ كان البطريق اليونانى ورجال كنيسة يقيمون قداسا فى كاتدرائية القديس بطرس عندما انهار عليهم المبنى . وبينما كان أثناسيو محتضر تحت الأنقاض أسرع الأمير بوهمند ورجال بلاطه إلى القصير

(٤٠) Beha ed-Din, P.P.T.S. PP. 59-60; Abu Shama, pp. 153-4; Ibn al-Athir, *Atabegs*, pp.260-1.

(٤١) Abu Shama, p.149. وحدث اهداء عكار وأرقا الى فرسان المستشفى بعد وقوع الزلزال فى يونية. (Rohricht, *Regesta*, p.125).

يتوسلون إلى غريمه لإمري (اللاتيني) العودة إلى كرسية البطريرقي . وهكذا انتهت الفترة القصيرة من الحكم الكنسي اليوناني^(٤٢).

ولم يتمكن الامبراطور من التدخل رغم تلقيه الأنباء بمشاعر الغضب . ذلك أن الأمور كانت تسير سيرا سيئا في كيليكيا ؛ فقد مات الأمير ثوروس عام ١١٦٨م تاركا طفلا ليخلفه - روبين الثاني - تحت وصاية لورد فرنجي يدعى توماس كانت امه أخت ثوروس . لكن أخا ثوروس ، مليح ، أثار نزاعا حول الاستخلاف ؛ وكان في وقت ما قد أخذ على نفسه العهد كفارس من فرسان المعبد ، وبعد مشاجرته مع ثوروس ومحاولة اغتياله هرب إلى نور الدين وتحول إلى الاسلام . وفي وقت مبكر من عام ١١٧٠م أمده نور الدين بالجنود وتمكن بذلك من خلع ابن اخيه ، ليس هذا وحسب وإنما توغل ايضا في سهل كيليكيا واستولى على المصيصة وأدنه وطرسوس من حامياتها اليونانية . ثم أنه هاجم فرسان المعبد في باجراس ، مما دفع بوهمند إلى الاستنجاد بأمالريك ، الذي توغل داخل كيليكيا ، ويبدو أنه أعاد الحكم الامبراطوري مؤقتا . ومن الجائز أن يكون عمله هذا الودود قد أحدث وفاقا لدى مانويل وتعويض الخسارة سيطرته الكنسية في انطاكية . لكن مليح لم يرتدع . وبعد عام او بعض عام تمكن من أسر قنسطنطين كورلومان وأغار مرة اخرى على كيليكيا^(٤٣).

وكان نور الدين في تلك الأثناء مشغولا في الشرق الأبعد . فقد مات أخوه قطب الدين صاحب الموصل في صيف ١١٧٠م ؛ وتنازع ابنه سيف الدين وعماد الدين على الميراث ، ومرت بضعة اشهر قبل أن يتمكن نور الدين من تسوية المسألة بما يتفق ورغبته^(٤٤) . وكانت المهلة ذات فائدة للفرنج . غير أن مشكلة مصر بقيت بلا حل . وبقي أمالريك متمسكا بسياسة ذات الشعبتين : التحالف الوثيق مع الامبراطور واستمرار المناشدة للغرب . وفي ربيع ١١٧١م قرر القيام بزيارة شخصية إلى

(٤٢) Michael the Syrian, III, p.339; Ibn al-Athir, *Atabegs*, p. 262; William of Tyre, xx, 18, pp.971-3.

(٤٣) William of Tyre, xx, 26, pp. 991-2; Nicetas Choniates, p.183; Michael the Syrian, III, pp. 331, 337; Sembat the Constable, pp. 622-5; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 508-9؛ ومن غير الممكن البت في التاريخ . إذ أن وليم الصوري يحدد تلك الأحداث بعد زيارة أمالريك للقسطنطينية ، وميخائيل السوري قبل زلزال عام ١١٧٠م . وكانت طرسوس ما تزال يونانية عندما عاد هنري الأسد Henry the Lion من حملته الصليبية عام ١١٧٢م (Arnold of Lübeck, pp.22-3).

(٤٤) أنظر المراجع أعلاه ص (٤٤١) الملحوظة (٣٥)، وأدناه ص (٤٥٠).

النسطنطينية.

وتأخر رحيله بسبب هجوم مفاجئ قام به صلاح الدين على حدوده الجنوبية .
 ففي وقت مبكر من عام ١١٧٠م ظهر جيش مصرى ضخام أمام الداروم ، وهى آخر
 قلعة فرنجية جنوبية على البحر المتوسط . وكانت دفاعاتها ضعيفة ، وبرغم عدم توفر
 آلات حصار لدى صلاح الدين فقد بدأ سقوطها وشيكاً . فسارع أمالريك ، ومعه
 البطريق وقطعة من اثر الصليب الحقيقى ، إلى عسقلان التى وصلها يوم ١٨ ديسمبر ،
 وواصل مسيرته إلى قلعة فرسان المعبد فى غزة ، حيث ترك مايلز (أوف بلانسى)
 لقيادتها إذ رافقه فرسان المعبد فى مسيرته إلى الداروم . وتمكن من اختراق الجيش
 المصرى ودخل الداروم ، وعلى الأثر رفع صلاح الدين الحصار وسار إلى غزة ؛ فاستولى
 على أسفل المدينة ، برغم ما أبداه مايلز من مقاومة عنيفة ، وقتل سكانها . على أن
 القلعة كانت هائلة بحيث لم يغامر صلاح الدين بمهاجمتها . وبنفس الفجاءة التى جاء
 بها صلاح الدين ، اختفى مرة أخرى عائداً إلى الحدود المصرية . ثم إنه أرسل أسطولا
 صغيراً أعلى خليج العقبة واستولى على المخفر الفرنجى الأمامى المسمى أيلة الواقع على
 رأس الخليج ، وذلك فى الأيام الأخيرة من السنة (٤٥).

١١٧١م أمالريك فى القسطنطينية

غادر أمالريك عكا قاصداً القسطنطينية يوم ١٠ مارس ، ومعه حاشية كبيرة تضم
 اسقف عكا ومارشال البلاط جيرار (أوف بوجى) . وكان سيد فرسان المعبد ، فيليب
 (أوف ميلى) قد استقال من منصبه ليمسبى الملك كسفير . وبعد الرسو فى طرابلس ،
 واصل الملك ابجاره إلى الشمال . وفى نجايبولى قابله صهره وكانت الرياح المعاكسة قد
 اضطرتة إلى الذهاب برا إلى هرقله . ومن هناك ركب الملك البحر مرة أخرى كى
 يدخل العاصمة من بوابة القصر فى ميناء بوكوليون ، وهو شرف لا يناله سوى الملوك
 المتوجين.

واستقبل أمالريك استقبالا ملأه بهجة هو وحاشيته . وكان مانويل يستلطف
 الغربيين عموماً ، وقد وجد أمالريك متعاطفاً معه . وأظهر كرمه السخى المعتاد .
 وشاركت عائلته كلها - خاصة صهره - فى الاحتفاء به . وأقيمت قداسات دينية

واحتفالات لا نهاية لها . وأجرى استعراض راقص فى هيسودروم ، ورحلة بحرية أعلا السفور وأسفله^(٤٦) . وفى وسط السفور ناقش الامبراطور والملك المستقبل . وعقدت معاهدة وتم التوقيع عليها ، لكن بنودها لم تسجل . ويبدو أن الملك اعترف فيها على نحو مبهم بسيادة الامبراطور على المسيحيين الوطنيين ، وان مانويل وعد بالمساعدة البحرية والمالية وقما تنهيا حملة اخرى للهجوم على مصر ، وأنه يتعين القيام بعمل مشترك ضد ملوح الأرمني . والأرجح أن كانت هناك بنود بشأن الكنيسة اليونانية فى انطاكية ، بل وربما فى المملكة ، التى تولى فيها مانويل بالفعل فى عام ١١٦٩م مسؤولية إعادة زخرفة كنيسة الميلاد فى بيت لحم ، التى تحمل نقشا مكتوبا بالفسيفساء يشهد بأن الزخرفة أجراها إيفرايم بناء على اوامر الامبراطور . كما تولى مسؤولية اجراء الاصلاحات فى كنيسة القبر المقدس^(٤٧) .

وأما ما كانت عليه تفاصيل المعاهدة ، فقد رضى الفرنج بزيارتهم الرضا كله ، وأعجبوا بمضيفهم أيا إعجاب . وفى ١٥ يونية أبخروا من القسطنطينية عائدين إلى بلدهم تحذوهم الآمال العراض للمستقبل .

وأما مناشدة الغرب إرسال حملة صليبية فكانت أقل نجاحا ؛ ذلك أن فريدريك رئيس أساقفة صور كان ما يزال يتجول تجوالا عقيما بين بلاطى فرنسا وانجلترا . وفى نهاية ١١٧٠م تقريرا كتب له أماريك كى يوجه الدعوة إلى ستيفن (أوف شامباني)، كونت سانسير ، للحضور إلى فلسطين ليتزوج الأميرة سيبيلا^(٤٨) . كانت هناك مأساة

(٤٦) William of Tyre, xx, 22-4, pp. 980-7, Cinnamus, p. 280 وما أورده سيناموس مقتضب جدا يقول فيه ان أماريك وعد الامبراطور بمنحه قلعة Michael the Syrian, III, p. 343.

(٤٧) De Bogue, *Les Eglises de la Terre Sainte*, pp. 99-103 الذى يورد وصفا للفسيفساء فى كنيسة بيت لحم . ويشير إليها الرحالة اليونانى فوكاس Phocas ويتحدث عن الاصلاحات فى كنيسة القبر المقدس (pp. 19, 31) ويناقش La Monte فى "الى أى مدى كانت الامبراطورية البيزنطية متسيدة على الدويلات الصليبية؟ To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Crusading States?" مانويل ، كأسلافه قبل الصليبيين ، ربما اعتبر نفسه مسؤولا عن رفاهية الأرثوذكس فى فلسطين وان حقه فى التدخل لصالحهم كان معترفا به . أنظر أعلاه ص ٣٦٩ عن بطريق القدس الذى احتفظ به مانويل احتياطيا فى القسطنطينية . وربما يعزى الى مانويل اجراء الاصلاحات حوالى آنذاك فى المنشآت الأرثوذكسية فى فلسطين ، مثل (Lavra of Calamon) انظر Vailhé, 'Les Laures de Saint Gerasime et de Calamon' in *Echos d'Orient*, vol. II, p. 117 وكذلك دير القديس إيونيوس .) انظر Johns محاولة الصليبيين استعمار فلسطين وسوريا The Crusaders' attempt to colonize Palestine and Syria *Journal of the Royal Central Asian Society*, vol. XXI, pp. 292-3.

(٤٨) William of Tyre, xx, 25 mo, 988. وكان ستيفن حفيد كونت بلوا الصليبي وأصغر ابناء تيبالد،

حدثت في البيت الملكي عجلت بهذا الاقتراح . فقد أرسل ابن امالريك - بالدوين - وهو الآن في التاسعة من عمره مع رفاق من سنه لتلقى التعليم لدى وليم رئيس شمامسة صور . وكان صيبا وسيما ذكيا ، وفي يوم ما ، بينما كان التلاميذ يختبرون قوة التحمل لدى كل منهم بفرز أطافهم في أذرع بعضهم البعض ، لاحظ معلمهم وليم أن الأمير هو فقط الذي لم يجفل قط ؛ فراح يراقبهم بعناية وسرعان ما تحقق من أن الولد عديم الإحساس بالألم لأنه كان مجذوما^(٤٩) . كان ذلك من تصارييف الرب بسبب زواج سفاح القربي الذي أقدم عليه والداه ، أمالريك وأجنيس ؛ وكانت الحادثة نذير شوم للمملكة . وحتى عندما يكبر بلدوين لن تتمكن الأسرة الحاكمة من الاستمرار من خلاله ، وربما تحمل الملكة اليونانية الشابة ابنا بعده ؛ على أنه في تلك الآونة، وتوخيا للسلامة ، رأت حكمة امالريك أن تزوج ابنته الكبرى سيبيللا من أمير غربي محنك ثرى يستطيع التصرف وقت الضرورة كوصى أو حتى كملك . وقبل ستيفن الدعوة وهبط شاطئ فلسطين في صيف ١١٧١م مع صحبة من الفرسان ، وكان ذلك قبل وصول امالريك من القسطنطينية بأيام قلائل . غير أنه لم يرض عن مظهر فلسطين . وقطع فجأة مفاوضات الزواج بطريقة فظة ، وبعد تأدية النذر في الأماكن المقدسة رحل مع صحبته إلى الشمال منتويا زيارة القسطنطينية . وأثناء عبوره كيليكيا ترصده مليح الأرمني وسلبه كل ما كان معه^(٥٠) .

وفي العام التالي جاء إلى فلسطين زائر أكثر أهمية ، هنرى الأسد ، دوق ساكسونيا وبافاريا ، وحفيد الامبراطور لوثر ، وزوج ابنة هنرى الثانى ملك إنجلترا . غير أنه رفض هو الآخر أن يحارب من أجل الصليب قائلا إنه جاء كمجرد حاج ، ورحل إلى المانيا بأسرع ما يمكن^(٥١) .

كونت بلوا وتشارترز وتروى . وقد ولد حوالى ١١٣٠م ، وفي عام ١١٥١م فر هاربا بزواجه من ماتيلدا (أوف دوزى) . (انظر Anselme, *Hist. Généalogique de la France*, II, p.847) ولما كانت زوجته تدعى أحيانا أليكس ، وأحيانا أخرى ماريا ، فمن المرجح أنه تزوج أكثر من مرة وأنه كان أرملًا في عام ١١٧٠م .

(٤٩) William of Tyre, xxi, 1, pp. 1004-5.

(٥٠) *Ibid.* xx, 25, p 988.

(٥١) رر Joranson 'The Crusade of Henry the Lion' وصفًا مطولا لحملة الصليبية في *Medieval Essays presented to G.W Thompson* وأهم المراجع هو Arnold of Lübeck.

١١٧١م : انتهاء الخلافة الفاطمية

تسببت لا مبالاة الغرب فى خيبة أمل مريرة . على أنه ربما لم تكن هناك ضرورة عاجلة لتسيير حملة ضد مصر ، إذ بدا أن علاقات صلاح الدين بنور الدين وصلت إلى نقطة القطع . ففى عام ١١٧١م كان نور الدين قد وضع حامية خاصة به فى الموصل ، حيث يحكم ابن اخيه سيف الدين ، وكان قد ضم نصيبين ووادى نهر خابور إلى نطاق سلطته ، ومنح سنجار لابن اخيه المفضل لديه عماد الدين . وبنوازع التقى لنصرة الإسلام الأصولى ، كتب إلى صلاح الدين طالبا الكف عن ذكر اسم الخليفة الفاطمى فى المساجد المصرية واستبداله باسم الخليفة فى بغداد . ولم يرغب صلاح الدين فى الامتثال لهذا الطلب ؛ إذ بعد قرنين من الحكم الفاطمى بات النفوذ الشيعى قويا فى مصر . فضلا عن ذلك ، ورغم أنه قد يعترف بنور الدين سيدا له ، فإن سلطته فى مصر مستمدة من الخليفة الفاطمى . فراح يراوغ ، إلى أن هدد نور الدين فى اغسطس بالحضور شخصيا إلى مصر . وبعد أن اتخذ صلاح الدين احتياطات الشرطة ، أعد العدة للتغيير ؛ بيد أنه لم يجرؤ احد على الإقدام على أول خطوة ، حتى أول يوم جمعة من السنة الإسلامية ٥٦٧ هجرية عندما خطا إلى المسجد برباطة جأش زائر سننى من الموصل واعتلى منبر الجامع الكبير ودعا للخليفة المستضى . وحذت القاهرة كلها حذوه . وكان الخليفة الفاطمى العاضد راقدا فى القصر يحتضر ، ومنع صلاح الدين الخدم من إخطاره بالنبا قائلا : "إن يبرأ من مرضه ، فسرعان ما سيعلم ، وإن يميت ، فليمت فى سلام" . على أن الشاب البائس عندما طلب رؤية صلاح الدين قبل وفاته ببضع ساعات ، رفض طلبه خوفا من وجود مكيدة . وندم صلاح الدين على رفضه بعد فوات الأوان ، وكان لا يذكره الا بالخير . وهكذا هلكت الأسرة الحاكمة الفاطمية بموت العاضد . وجمع شمل من تبقى من الأمراء والأميرات ، وأرسلوا حيث عاشوا حياة فائرة ولكن دون أى اتصال بالعالم^(٥٢).

وبعد أيام قليلة انطلق صلاح الدين لمهاجمة قلعة الشوبك جنوب البحر الميت ، وشدد الحصار حولها . وخف اماريك لانقاذها ، لكنه رحل عن القدس متأخرا للغاية بسبب معلومات خاطئة . وعندما كانت الحامية تتهيا للتسليم ، ظهر نور الدين فجأة على الطريق إلى الكرك ؛ وفى تلك اللحظة رفع صلاح الدين الحصار ، قائلا لنور الدين

(٥٢) Ibn al-Athir. pp.575-80, and *Atabegs*, pp. 202-3; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p.551; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.61-2.

إنه مضطر إلى العودة إلى القاهرة بسبب حروب اخوته في مصر العليا. وبدا ذلك لنور الدين محض خيانة بتعين المعاقبة عليها بالقوة. وعندما سمع صلاح الدين بغضبه شعر بالخطر واستدعى مجلساً من أفراد عائلته وقواده، ونصح الشباب من أفراد الأسرة بالتحدي؛ غير أن أبا صلاح الدين، نجم الدين أيوب المسن، وقف وقال إنه هو نفسه مخلص لسيدته وانتهر ابنه لطموحه، وعندما خلا به وبّخه مرة أخرى على أن جعل طموحه بيناً جلياً. فأخذ صلاح الدين بنصيحته وأرسل باعتذاراته البائسة إلى نور الدين الذي قبلها إلى حين^(٥٣).

١١٧٢م : اطلاق سراح ريموند أمير طرابلس

وفي صيف ١١٧١م خطط نور الدين لحملة على الجليل، لكنه كف عنها. وفي أواخر الخريف ارتكب الفرنج أعمال قرصنة من اللاذقية هاجموا فيها سفينتين تجاريتين مصريتين، مما أثار سورة غضبه، فراح يخرب الأراضي الأنطاكية والطرابلسية، ودمر حصن صافيتا وأريما، مما اضطر الفرنج إلى دفع تعويض باهظ حتى يتوقف^(٥٤). غير أنه في عام ١١٧٢م فضل استمرار السلام، جزئياً لعدم ثقته في صلاح الدين من ناحية، ولأنه كان يرغب في الحصول على مساعدة السلاجقة في الهجوم على أنطاكية من ناحية أخرى. لكن السلطان السلجوقي، بعد أن تلقى تحذيراً صارماً من القسطنطينية، تخلى عن تقدمه وبدلاً من ذلك بدأ حرباً ضد الدانشمند استمرت عامين. وبذا أنقذ التحالف البيزنطي أنطاكية على الأقل، رغم أنه لم يحقق شيئاً يذكر، من ائتلاف بين حلب وقونية^(٥٥). وفي الوقت نفسه على وجه التقريب، وافق نور الدين في نهاية الأمر على اطلاق سراح ريموند أمير طرابلس لقاء مبلغ ثمانين ألف دينار. واشترك الملك وفرسان المستشفى معاً في جمع أغلب المبلغ؛ وسمح لريموند بالعودة إلى

(٥٣) William of Tyre, xx, 27, pp. 992-4; Ibn al-Athir, pp. 581-3, and *Atabegs*, pp. 286-8; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p.552; Maqrissi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol. VIII, p. 506. وأورد بهاء الدين P.P.T.S. pp.62-3 سرداً ماهراً مبهماً، خالطاً الحملات في عامي ١١٧١م و١١٧٣م. كما أنه يجعل صلاح الدين يقول إنه هو فقط رفض التفكير في معارضة نور الدين. (p.65).

(٥٤) Ibn al-Athir, *Atabegs*, p.279; Kemal ed-Din, p. 584; Beha ed-Din, P.P.T.S. p. 62. ويقول بهاء الدين أن نور الدين استولى على أرقا، وهو اسم خطأ بدلاً من أريما.

(٥٥) Cinnamus, pp. 291-2; Imad ed-Din, pp. 159-60. وكان قلع أرسلان قد استقبل هنري الأسد استقبالا حسناً أثناء مروره بالأناضول في طريقه من فلسطين.

بلده . ولكنه لم يدفع أبدا باقى المبلغ المستحق لنور الدين وقدره ثلاثين ألف دينار^(٥٦).

وبدأت الحرب عام ١١٧٣ م . ذلك أن أمالريك بعدما شعر بما يكفى من الأمان اتجه شمالا داخل كيليكيا لمعاقبة مليح على ما ألحقه بستيفن (أوف شامباني) من إساءة ولكى ينفذ وعده للإمبراطور . ولم تنجز الحملة شيئا سوى الحيلولة دون أن يزيد مليح من التوسع^(٥٧). وانتهز نور الدين الفرصة وغزا منطقة الأردن واستدعى صلاح الدين لمساعدته . وفى اخلاص صلاح الدين لنصيحة أبيه ، اتجه شمالا بجيش من مصر وضرب الحصار حول الكرك ، بينما سار نور الدين جنوبا من دمشق . وباقترابه رفع صلاح الدين الحصار وعاد إلى مصر قائلا - بحق - إن والده يعانى مرضا خطيرا . غير أنه من الواضح أن صلاح الدين لم يكن راغبا فى القضاء على الدولة الفرنجية الحاضرة الواقعة بينه وبين سيده المتعسف . فعسكر نور الدين بدوره أمام الكرك ، التى كانت عاصمة منطقة الأردن ، وكانت تنتمى إلى وريثة هى ستيفانى (أوف ميلى). وكان زوجها الأول - همفرى - وريث تبين ، قد مات قبل ذلك بسنوات قليلة ؛ وكان زوجها الثانى ، وهو قهرمان أمالريك - مايلز (أوف بلانسى) - بعيدا مع الملك ؛ وكان أول من خف لنجدتها صهرها ، الكونستابل المسن ، همفرى الثانى أمير تبين . وبتعبئة القوات المتبقية فى المملكة انسحب نور الدين ، وقد ملأه الحنق على صلاح الدين . وعندما سمع فى اغسطس بوفاة نجم الدين ايوب ، أخلص أتباعه فى مصر ، نذر أن يغزو مصر بنفسه فى الربيع التالى^(٥٨).

١١٧٣ م : اغتيال سفراء الحشاشين

كان فى هذه الفرقة بين المسلمين تعزية للفرنج . وفى خريف ١١٧٣ م تلقوا عروضاً من مكان آخر لم يكن متوقعا . ولم يكن يُسمع عن الحشاشين سوى القليل

(٥٦) Abu Shama, p. 168; William of Tyre, xx, 28, p. 995. وظروف اطلاق سراح ريموند غامضة . أنظر Baldwin, *Raymond III of Tripoli*, p.11 and n. 23. ويقع التاريخ بين سبتمبر ١١٧٣ وأبريل ١١٧٦ م.

(٥٧) William of Tyre, xx, 26, pp.991-2؛ (انظر المراجع أعلاه ص ٤٤٩ (الملاحظة ٤٩)) وربما خلط وليم بين حملتى أمالريك.

(٥٨) Ibn al-Athir, pp. 587-93, and *Atabegs*, p. 293; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p. 553; Maqrissi, ed. Blochet, *Reveu de l'Orient Latin*, vol. VIII, pp. 509-11. ومات نجم الدين إثر سقوطه من فوق جواده وهو يمارس لعبة الجوكان (البولو).

خلال العقود المنصرمة ، بخلاف اغتيالهم التعسفى لريموند الثانى أمير طرابلس عام ١١٥٢م ، إذ كانوا يوطدون مقارهم بهدوء فى جبال النصيرى . وعلى الجملة لم يظهروا عداوتهم للفرنج ، وإنما كان عدوهم المقيت هو نور الدين الذى تسببت قوته فى تقييدهم شرقا . لكنه كان عاجزا عن قمعهم ، وفى احدى الليالى عُثر على خنجر فرق وسادته ، كان بمثابة انذار له كى لا يعضى شأوا بعيدا . ولكون عواطفهم تميل إلى الشيعة وليس السنة ، فقد صدمهم انتهاء الخلافة الفاطمية . وفى عام ١١٦٩م أرسلت قيادة الحشاشين من مقرها فى قلعة (الموت) فى فارس محافظا جديدا لمقاطعة النصيرى ، هو رشيد الدين سينان من بصرى . وبدأ هذا الشيخ الرهيب ، الذى كان يعرفه الفرنج باسم عجوز الجبل ، سياسة أكثر نشاطا . إذ أرسل الآن إلى أمالريك يقترح انشاء تحالف وثيق ضد نور الدين ، والمع بأنه هو وأتباعه كلهم يفكرون فى التحول إلى المسيحية ، وكان حليا أن المقابل لذلك هو إلغاء الإتاوة التى أفلح فرسان المعبد فى طرطوس فى فرضها على مختلف قرى الحشاشين . وسواء كان أمالريك يظن أن الحشاشين سيتحولون إلى المسيحية أم لا ، أقبل على تشجيع صداقتهم فى سرور . وعاد مبعوثو الشيخ سينان باتجاه الجبال يحملون وعدا بأن تلحق بهم حالا سفارة فرنجية . وبينما هم فى ترحالهم عبر طرابلس ، سقطوا قتلى فى كمين نصبه لهم فارس من فرسان المعبد ، وولتر (أوف مينسيل) ، بتواطؤ مع سيده الأعظم . وارتاع الملك أمالريك ، فقد دمرت سياسته ولطخت سمعته لمجرد أن نظام فرسان المعبد كان بالغ الجشع بحيث يرفض التضحية بجزء صغير من إيراداته . وأمر السيد الأعظم ، أودو (أوف سانت أماند) بتسليم الجانى . ورفض أودو ، وإنما عرض مجرد ارسال وولتر كى يحاكمه البابا ، إذ أنه لا يعترف بأية سلطة أخرى عداه . غير أن أمالريك كان فى قمة الغضب بحيث لم يعبا بدستور نظام فرسان المعبد . وأسرع مع بعض الجنود إلى صيدا حيث السيد الأعظم وهيئة الكنيسة ، واقتحم عليهم مجلسهم بالقوة وخطف وولتر وعاد به والقاه فى غيابة السجن فى صور . وأرسل من يؤكد للحشاشين أن العدالة اخذت مجراها ، فقبل الحشاشون اعتذارات الملك . وفى تلك الأثناء عزم أمالريك أن يطلب من روما حل نظام فرسان المعبد العسكرى^(٥٩).

وكانت فاتحة عام ١١٧٤م فاتحة حسنة للمسيحيين ، إذ أصبح الحشاشون أصدقاء ، وأمسى التحالف البيزنطى فى أحسن أحواله ، ووعد ملك صقلية الصغير ، وليم الثانى ،

بتقديم المساعدة البحرية للربيع ، وبلغ الشقاق بين نور الدين وصلاح الدين حد الأزمة . ولم يكن صلاح الدين نفسه آمنا قط في مصر التي راحت فيها رؤوس الشيعة تحبك ضده المكائد بينما كانت على اتصال بالفرننج . وفي عام ١١٧٣م أرسل صلاح الدين أخاه الأكبر ، توران شاه ، لاحتلال السودان كي تكون بمثابة ملاذ للعائلة في حالة الضرورة ، واحتل توران البلد حتى إبريم بالقرب من وادي حلفا ، حيث قتل الأسقف القبطي وأتباعه وجمهوره وخنازيره السبعمائة على السواء . لكنه أبلغ أن الأرض غير ملائمة للملاذ . فأرسله صلاح الدين إلى جنوب شبه الجزيرة العربية فوجد لها توران شاه أفضل من سابقتها ، واحتلها باسم أخيه وحكمها نائبا عنه حتى ١١٧٦م^(٦٠) .

على أنه لم هناك ما يدعو صلاح الدين للهرب من سخط نور الدين . ففي ربيع عام ١١٧٤م ، جاء الأتابج نور الدين إلى دمشق للتخطيط لحملة على مصر . وبينما كان على جواده صباح يوم ما مع اصدقائه يتريضون خلال البساتين ، حدثهم عن انعدام الثقة في الحياة الإنسانية . وبعد مضي تسعة ايام ، اى فى ١٥ مايو ، مات متأثرا بالتهاب اللوزتين . لقد كان حاكما عظيما ورجلا من كبار الرجال ، أحب العدل فوق كل ما يُحب . وكان بعد مرضه السابق قبل تسع عشرة سنة قد فقد شيئا من طاقة نشاطه ؛ وزادت الأوقات التي كان يقضيها في الورع والتقوى . وقد أكسبه ورعه برغم محدوديته احترام رعيته وأعدائه . كان جادا نادرا ما يتسم ، وعاش حياة بسيطة وألزم أسرته بها ، مفضلا أن ينفق إيراداته الهائلة في أعمال الخير . وكان إداريا معنيا مرتقبا ، وعززت حكومته الحكمة أراضيه التي انتزعها بسيفه . وسعى خاصة إلى كبح جماح أمرائه الأتراك والكرديين بتوطينهم في اقطاعات يدفعون ايجارها على هيئة جنود ، وتمكنت محاكمه القانونية التابعة له من أن تسيطر عليهم . وأسهم هذا الوضع الإقطاعي المنخفض اسهاما كبيرا في ازدهار سوريا بعد ما يقرب من قرن حكمها فيه البدو . وكان طويل القامة أسمر اللون يكاد يكون بلا لحية ، ذا ملامح متناسقة ، وعلى وجهه انطباع حزين هادئ . وكانت لعبة الجوكان (البولو) هي نشاطه الترفيهي الوحيد^(٦١) .

(٦٠) Ibn al-Athir, pp. 599, 602-3, and *Atabegs*, p.293; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 65-6.

(٦١) Ibn al-Athir, pp. 604-5; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 65.

١١٧٤م : موت الملك أمالريك

ورث نور الدين ابنه الملك الصالح اسماعيل وهو صبي في الحادية عشرة، وكان معه في دمشق . وهناك استولى على الرصاية الأمير ابن المقدم ، توازره ام الصبي ، بينما أعلن حرموشكين ، حاكم حلب التي كانت العاصمة الرئيسية لنور الدين ، عن نفسه وصيا . وتدخل ابن عم الصبي ، سيف الدين صاحب الموصل ، لضم نصيبين والجزيرة كلها حتى الرها . وكتب صلاح الدين ، كأمير لأغنى مقاطعات نور الدين ، إلى دمشق بأن الرصاية هي وصايته ، لكنه كان في تلك اللحظة فاقد الحيلة كي يتابع مطالبته^(٦٢) . وأتاح انهيار الوحدة الإسلامية لأمالريك فرصة سرعان ما اختطفها . ففي يونية زحف على بانياس . وخرج له ابن المقدم لملاقاته وربما حدث ما كان يقصده أمالريك ، إذ عرض المقدم على الفور أن يشتري أمالريك بمبلغ ضخيم من المال وعده به ، والافراج عن جميع الفرنج الأسرى في دمشق ، وتحالف في المستقبل ضد صلاح الدين^(٦٣) . وقبل أمالريك العرض ، وكان قد بدأ يعاني من نوبات الدوسنتاريا ؛ وبعد توقيع المعاهدة عاد خلال طبرية ونابلس إلى القدس ، معتليا جواده ورافضا الراحة على المحفة . ووصل القدس وهو في حالة مرضية شديدة . واستدعى الأطباء من اليونانيين والسوريين إلى جانب فراشه ، وطلب منهم أن يفصدوه حتى ينزف دما ثم يعطوه شرابا مسهلا . لكنهم رفضوا ، إذ كانوا يرون أنه في حالة من الضعف لا يتحمل معها الجهد . ولذا استعان بطبيبه الفرنجي الذي لم تكن لديه تلك الوسوس . ويبدو أن العلاج قد أفاده ، ولكن لمجرد يوم أو يومين . وفي ١١ يولية ١١٧٤م ، مات وهو في الثامنة والثلاثين من عمره^(٦٤) .

وإذا كان التاريخ مجرد التحدي والاستجابة ، يكون نجاح الوحدة الإسلامية تحت زنكي ونور الدين وصلاح الدين رد فعل حتمي إزاء الحملة الصليبية الأولى . على أن صروف القدر لا تكف عن فرض أهواء أحكامها . ففي بداية ١١٧٤م بدا أن نجم صلاح الدين في طريقه للأفول ، ومات أمالريك ونور الدين ، دون توقع الموت لأي منهما ، فأنقذه القدر منهما وفتح له طريق انتصاراته المقبلة . وقد رأى فرنج الشرق في

(٦٢) Ibn al-Athir, pp. 606-9; Kemal ad-Din, ed. Blochet, pp. 558-60.

(٦٣) William of Tyre, xx, 31, p. 1000; Abu Shama, p. 162; Ibn al-Athir, p. 611.

(٦٤) William of Tyre, xx, 31, pp. 1000-1. وربما كان الطبيب السوري هو سليمان بن داود . (انظر أعلاه ص ٣٦٦ الملحوظة (٤٤)).

موت أمالريك ، فى هذه اللحظة ، والنواب التى حلت بأسرته ، نذير سوء بنهاية مملكتهم ؛ إذ كان أمالريك آخر ملوك القدس المسيحية الجدير بعرشه . ولقد كانت له أخطاء ، وقد تأرجح بحماس نبلائه عام ١١٦٨ م ، وبتردهم عام ١١٦٩ م . وكان أكثر استعدادا لقبول عطايا الأموال ، التى تحتاجها الحكومة آنيا ، من أن ينفذ سياسة تتسم ببعده النظر . وكانت طاقته وعزمته بلا حدود . وأثبت أنه لا مجال لأن يتحداه أتباعه ولا النظامين العسكريين دون أن يلحق بهم الضرر . ولو أنه عاش أطول مما عاش ، لتحدى حتمية انتصار الاسلام .

الباب الخامس:

إنتصار الإسلام

الفصل الأول:

الوحدة الإسلامية

الوحدة الإسلامية

"الحُكَمَاءُ يَرْتُونُ مَجْدًا وَالْحَقُّ يُحْمِلُونَ هَوَانًا"

(أمثال ٢ : ٢٥)

مكث صلاح الدين فى القاهرة قلقا يترقب، ورأى فى موت الملك أمالريك نعمة وفضل من الله. وكانت مكائد الشيعة قد بلغت ذروتها فى شهر ابريل عندما افتضحت مؤامرة لقتله. فضرب ضربته لم يتردد، وقضى على زعماء التآمر؛ لكنه لم يكن على ثقة من عدم وجود آخرين على استعداد للتآمر إذا جاء الجيش المسيحى لمعاونتهم، بينما سينتقل ميراث نور الدين يقينا إلى غيره^(١). والآن وقد مات أمالريك فقد تبدد خطر الغزو برا. لكن هناك فعلا أسطولا قبرصيا فى الأفق؛ إذ لم يكن الملك وليم الثانى قد سمع بانتهاء المؤامرة ولا بموت أمالريك. وفى ٢٥ يولية ١١٧٤م، ظهر أمام الإسكندرية فجأة مائتان وأربع وثمانين سفينة قبرصية تحمل الرجال والماشية والمون، تحت قيادة تنكريد كونت ليشى. لكنهم لم يجدوا المساعدة التى كانوا يعولون عليها؛

(١) Ibn al-Athir, p. 600.

وكانوا قد رفضوا قبول أية مساعدة من الامبراطور بعدما تشاجر وليم مع مانويل الذى عرض عليه يد ابنته ماريبا ثم سحب العرض ؛ وعلى أية حال ، فقد رغب وليم القبرصي فى أن يظهر أنه أكفأ مما كان عليه البيزنطيون عام ١١٦٩ م . وبفشلهم فى مباغنة المدينة ، وباقتراب صلاح الدين على رأس جيش ، عادوا بسفنهم مرة اخرى واجهروا مبتعدين يوم ١ أغسطس . وبهذا تحرر صلاح الدين كي يزحف على سوريا^(٢) .

وشعر ابن المقدم والى دمشق بالخوف ، فناشد الفرنج تقديم المساعدة ؛ وزادت خشيته عندما هرب الصالح الصغير بن نور الدين مع امه إلى حلب حيث الوصى الأقوى جوموشتكين . وبعد ذلك استنجد ابن المقدم بسيف الدين صاحب الموصل كى يخف لنجدته ؛ لكن سيف الدين فضل تعزيز ما حصل عليه فى الجزيرة . وأصر الدمشقيون على أن يرسل واليهم مستدعيا صلاح الدين . وانطلق صلاح الدين من فوره مع سبعمائة فارس اختارهم ، وعبر منطقة الأردن عبورا خاطفا دون أن يتعرض الفرنج لإيقافه هناك ، ووصل دمشق يوم ٢٦ نوفمبر ، حيث استقبل بمشاعر البهجة . وامضى الليل فى منزل ابيه القديم . وفى صباح اليوم التالى فتح له ابن المقدم أبواب القلعة . ونصب صلاح الدين أخاه طغتكين واليا على دمشق باسم الصالح بعد أن أمطر الدمشقيين بالهدايا النفيسة من ثروة الصالح ، ثم زحف شمالا ضد جوموشتكين^(٣) .

١١٧٤ م : ريموند كونت طرابلس وصيًا

بات الفرنج بعد موت أمالريك بلا قوة فلا يقدرّون على التدخل . وكان الأمير الوحيد الباقي فى البيت الملكى هو بلدوين الصبى المجذوم ابن الثالثة عشرة سنة ؛ ولم تكن اخته سبيللا التى تكبره بعام قد تزوجت بعد . ولم تلد زوجة أليه ، الملكة ماريبا كومينا ، سوى بنتين ماتت إحداهما والأخرى فى الثانية من عمرها . ووافق البارونات على قبول بلدوين مليكا لهم دون اعتراض . وبعد أربعة أيام من وفاة أمالريك ، توج البطريق بلدوين . ولم يكن هناك وصى تم تعيينه . وتولى الحكومة القهرمان مايلز ، الذى كان أقرب الأصدقاء إلى الملك ، وكان من اللوردات بما تملكه زوجته من اقطاعية

(٢) Abu Shama (مقتبساً من عماد الدين)، pp.164-5؛ ويحدد بهاء الدين تاريخ وصول القبارصة يوم ٧ سبتمبر 1007. Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 66-7; William of Tyre, xxi, 30p.

(٣) Beha ed-Din, P.P.T.S pp.67-70; Ibn al-Athir, pp.614-16; Maqrissi, ed. Blochet, Reveu de l'Orient Latin, vol. viii, p.517.

منطقة الاردن الضخمة . لكن مايلز لم يكن يتمتع بالشعبية ، ولا سيما بين افراد الأرستقراطية المولودين محليا ، والذين ناصروا الكونت ريموند كونت طرابلس فى المطالبة بالرعاية . وكان ريموند هو اقرب الأقرباء للملك - بعد أخواته - من الجانب الملكى للأسرة . فكانت أمه ، هوديرنا الأميرة فى القدس ، خالة امالريك . وعلى الرغم من أن بوهمند أمير انطاكية من ذرية أخت هوديرنا الكبرى - أليس - إلا أنه كان من جيل بعيد عن التاج ، فضلا عن أنه كان يقيم فى مكان بعيد ؛ بينما تزوج ريموند مؤخرا من ثانيا أكبر الوريثات فى المملكة ، إيشيفا (أوف بور) ، وأميرة الجليل ، وأرملة وولتر (أوف سانت أومير) . وراح مناصرو ريموند ، يتزعمهم الكونستابل القديم همفري الثانى أمير تبين ، وأسرة إيبيلين ، ورينالد أمير صيدا ، يلحون على أن تعرض حقوق ريموند على المحكمة العليا . وراوغ مايلز أطول فترة يستطيعها ، لكنه اضطر إلى الرضوخ . وفى وقت متأخر من الخريف نصّب ريموند وصيا ، وبذا هوى مايلز من سلطته غير مأسوف عليه . وبعد أسابيع قليلة ، اغتيل مايلز فى ليلة ظلماء فى أحد شوارع عكا^(٤) .

كان ريموند آنذاك فى الرابعة والثلاثين من عمره ، طويلا ، نحيفا ، أسود الشعر والجلد ، يسيطر على وجهه أنف ضخمة ، بارد الشخصية ، ضابطا لنفسه ، يفتقر شيئا ما إلى الكرم . ولم يكن فيه ما يدل على حمية الفروسية التى كان يتمتع بها الصليبيون الأوائل . وكان خلال سنوات أسره الطوال قد قرأ قراءة متعمقة ، وتعلم اللغة العربية ، وتدارس عادات المسلمين . وكان ينظر إلى الدويلات الفرنجية ومشاكلها بمنظور محلى ؛ وكان مهتما ببقائها ، وليس بدورها كرأس حربة للعالم المسيحي العدواني . وكان ذا اقتدار ، وقد ساندته أصدقاؤه ، غير أنه لم يكن سوى وصى ، وكان له أعداء^(٥) .

وكانت وصايته بداية انشقاق فى المملكة . إذ كانت هناك شيع من قبل ولا سيما فى أيام الملكة مليسند لكنها لم تعش طويلا نظرا لسيطرة التاج ، والآن برزت فرقتان محددتان ، تتألف احدهما من البارونات المحليين وفرسان المستشفى وتسعى بقيادة الكونت ريموند إلى إيجاد تفاهم مع الجيران الأجانب ، وليست مستعدة للمجازفة بمغامرات ؛ وتتألف الثانية من الوافدين الجدد من الغرب وفرسان المعبد . وكانت هذه الفرقة عدوانية تصبغها المسيحية العسكرية ؛ ووجدت قائدها عام ١١٧٥م عندما أفرج

William of Tyre, xxi, 4-3, pp.1007-9. (٤)

William of Tyre, xxi, 5 pp.1010-12. (٥)

أخيرا عن رينالد (أوف شاتيلون) من سجنه لدى المسلمين ، إلى جانب جوسلين كونت الرها - وقد غدا كونتا بلا كونتية - فتحول مصيره إلى أن يصبح مغامرا^(٦). وكانت العداوات الشخصية أعنف حتى من الاختلافات السياسية . وأغلب النبلاء الآن أبناء عمومته بين بعضهم البعض ؛ والمشاجرات العائلية هه الأكثر مرارة . فأما زوجنا أماريك فكانت كل منهما تكره الأخرى . وأما آجنس (أوف كورتناى) ، أخت الكونت جوسلين فكانت قد تزوجت مرتين منذ طلاقها ، وقد مات زوجها التالى ، هيو (أوف إيبيلين) بعد الزواج بسنوات قليلة ، وأبهج خليفته - رينالد أمير صيدا - أن يكشف أنه شديد الالتصاق بزوجته من حيث القرابة - كشأن أماريك - فحصل على إبطال الزواج^(٧) ، وانضمت آجنس إلى جانب أخيها وفرسان المعبد ، بينما انضم هو إلى الفرقة الأخرى ؛ وأما الملكة ماريا كومينا ، فسرعان ما تزوجت من هيو (أوف باليان - أخى إيبيلين) ، وقد وهبته اقطاعية مهرها نابلس ، وكان زواجا سعيدا ، ولعبت الأرملة الملكة دورا كبيرا فى حزب زوجها^(٨). وبعد اطلاق سراح رينالد (أوف شاتيلون) بأشهر قليلة تزوج وريثة منطقة الأردن ، ستيفانى ، أرملة مايلز (أوف بلانسى) ، التى اعتبرت الكونت ريموند قاتل زوجها^(٩). وقد بدأ شجار ريموند الطويل مع فرسان المعبد على مسألة شخصية ؛ ذلك أن فارسا بلجيكييا فلمنكيا ، حيرار (أوف ريدفورت) ، جاء إلى طرابلس عام ١١٧٣م والتحق بالخدمة تحت إمرة الكونت الذى وعده بتزوجه من أول وريثة ملائمة فى كونتيته . غير انه عندما مات لورد البطرون بعد أشهر قليلة ، تاركا أراضيه لابنته لوسيا ، تجاهل ريموند وعده لحيرار ، وزوجها لأحد أثرياء بيزا ويدعى بليفانو ، الذى وضع الفتاة - على نحو يفتقر إلى الكياسة - على ميزان ومنح الكونت وزنها ذهابا . وغضب حيرار وتملكته خيبة الأمل ، فانحاز إلى فرسان المعبد ، وسرعان ما غدا أكثرهم نفوذا وأصبح قهرمانهم . ولم يغفر لريموند قط^(١٠).

(٦) عن اطلاق سراح رينالد وجوسلين ، انظر أدناه ص ٤٦٧.

(٧) مات هيو (أوف إيبيلين) عام ١١٦٩م تقريبا، وكان مندوبا لأماريك فى القاهرة عام ١١٦٧م . وكان خطيبا لآجنس قبل أن تتزوج أماريك (William of Tyre, xix, 40, p.890). كما يتحدث ولیم عن طلاق رينالد أمير صيدا. ويظهر اهو رينالد وآجنس على علاقة ببعضهما البعض . ولاشك أن هذه العلاقة كانت من خلال أمها بياتريس أرملة ولیم (أوف صهيون) ، ولم يسجل اسمها قبل زواجها .

(٨) William of Tyre, xxi, 180, p. 1035; Ernoul, p.44.

(٩) Ernoul, pp.30-1.

(١٠) Ernoul, p.114; *Estoire d'Eracles*, pp.51-2. دفع بليفانو عشرة آلاف بيزانت لقاء عروسه . ولو

أما الملك الصغير ، الذى كان مدركا فى بكورة نضجة للمكائد التى تدور من حوله ، فقد حاول الحفاظ على التوازن بين الفرق . وبقي ريموند وصيا عليه لثلاث سنوات ، لكن روابط القرابة جعلت علاقة بلدوين بآل كورتنای أوثق . فعين خاله جوسلين قهرمانا عام ١١٧٦م ؛ وعادت أمه - الليدى آجنس - إلى البلاط حيث مارست نفوذها مخربا . كانت شريرة وجشعة ، لا نهاية لشراتها للرجال ولا للمال ، ولم يسمح لها بتربية اولادها ؛ إذ كان بلدوين قد أرسل إلى وليم الصورى لتربيته ، وسيبيللا إلى جدتها لخالتها الأميرة رئيسة الدير، حوفيتا (أوف بيشانى) . وبدأت الآن تتدخل فى معيشتهم ، وكان بلدوين يأخذ بآرائها المخالفة لآرائه الأفضل ، وسيطرت على سيبيللا^(١١).

١١٧٤م : صلاح الدين يهاجم حلب

كان أول واجبات ريموند الرصى هو كبح تعاظم قوة صلاح الدين . ولم يكن باستطاعة الفرنج الحيلولة دون اتحاد دمشق والقاهرة ؛ ولكن حلب على الأقل ما تزال منفصلة . وما أن وصلت صلاح الدين التعزيزات من مصر حتى زحف على حلب من دمشق . وفى ٩ ديسمبر ١١٧٤م دخل حمص وترك جنوده يحاصرون قلعتها التى صمدت أمامه ، ومر خلال حماه إلى حلب . ولما أغلق جوموشتكين البوابات فى وجهه، بدأ يحاصر المدينة الحصار المعتاد فى ٣٠ ديسمبر . وكان المواطنون مذبذبين فى الاستسلام له ؛ لكن الصالح الصغير هبط اليهم بنفسه ووقف فى وسطهم وناشدتهم الحفاظ عليه من الرجل الذى اختلس ميراثه ؛ فمس كلامه قلوبهم فلم يهتوا أبدا . وفى تلك الأثناء كان جوموشتكين قد استغاث بالحشاشين وبالفرنج . وبعد أيام قليلة عُثر على بعض الحشاشين فى قلب معسكر صلاح الدين فى نفس خيمته فقتلوا بعد دفاع يائس . وفى أول فبراير ظهر الكونت ريموند على رأس جيش فرنجى أمام حمص ، وبمساعدة حامية القلعة بدأ مهاجمة أسوار المدينة . وأتى ذلك بشماره ، إذ رفع نور الدين

كان محتواها من الذهب الخالص لكان وزنها ١٠ أبحار. (المترجم): الحجر stone وحدة وزن انجليزية تساوى ٦٣٥ كيلوجرامات.

(١١) هناك ما يؤكد أن جوسلين كان قهرمانا من ١١٧٧م قدما (Rohrich, Regesta, p.147). وكان دائما يسمى "الكونت جوسلين". وفى الوثائق تسمى آجنس كورتيسة ، لأنها كانت كورتيسة يافا وعسقلان أثناء زواجها من أمالريك . ولم تكن ملكة البتة ، ولم يطلق عليها لقب ملكة قط . (وعن تربية سيبيللا انظر William of Tyre, xxi, 2, p.1006، وعن تربية بلدوين انظر أعلاه ص ٤٥٠).

الحصار عن حلب وأسرع جنوباً ، ولم ينتظره ريموند . وطوال الشهر التالي كان صلاح الدين مقيداً بحصار قلعة حمص . وبحلول إبريل كان سيد كل سوريا حتى حماه في الشمال ؛ لكن حلب بقيت مستقلة . واعتزافاً من حومشتكين بالجميل للفرنج أطلق سراح رينالد (أوف شاتيلون) وجوسلين (أوف كورتناي) وكل السجناء المسيحيين الذين ذبلت أبدانهم في غياهبات سجون حلب^(١٢).

وأثار نجاح صلاح الدين ابن أخى نور الدين ، سيف الدين ، صاحب الموصل الذى أرسل أخاه عز الدين مع جيش كبير إلى سوريا للانضمام إلى حومشتكين . وعرض صلاح الدين ، على حومشتكين أن يتنازل له عن حماه وحمص ، آملاً ربما في إثارة المشاكل بين حلب والموصل . ورفض العرض . لكن صلاح الدين انقض بجنوده المحنكين على جيش الخلفاء أثناء عبوره أخدود بين التلال شمالى حماه ، ومزق الجيش تمزيقاً . ولم يشعر صلاح الدين بأنه قوى بما فيه الكفاية لمتابعة نصره . وعقدت هدنة تسمح لصلاح الدين باحتلال مدن قليلة شمالى حماه ، وبخلاف ذلك بقيت الأمور كما كانت عليه^(١٣).

والآن نفى صلاح الدين عن نفسه تبعيته للصلاح ، قائلاً إنه فعل ما فى وسعه لخدمته باخلاص ، لكن الصالح فضل مستشارين آخرين ورفض مساعدته ، ولذا اتخذ لنفسه لقب ملك مصر وسوريا وسك العملة باسمه فقط . وأيده الخليفة فى بغداد تكريماً وأرسل له أردية ملكية وصلته فى حماه فى مايو^(١٤).

١١٧٦م : صلاح الدين يهزم سيف الدين صاحب الموصل

لم تعيش الهدنة مع آل زنكى طويلاً . ففي مارس ١١٧٦م عبر سيف الدين نفسه الفرات مع جيش كبير وانضم إليه جنود حومشتكين خارج حلب ؛ فأتجه إليه صلاح

(١٢) -William of Tyre, xxi, 6, pp. 1012-13; Abu Shama, pp. 167-8; Ibn al-Athir, pp. 618-20; Kemal ed-Din, ed Blochet, pp. 562-4.

(١٣) -Beha ed-Din, P.P.T.S pp.70-1; Ibn al-Athir, pp.621-2. قرنى حماه ؛ Kemal ed-Din, ed Blochet, p. 564.

(١٤) يرجع تاريخ أول العملات التى تحمل لقب صلاح الدين الملكى الى عام ٥٧٠ هجرية (١١٧٤م) . ولم يتخذ لقب سلطان أبداً ، ولكن الكتاب العرب ، وحتى معاصريه ، عادة ما يمنحونه لقب سلطان . (مثلاً ابن جبير وبهاء الدين). انظر Wiet, op.cit.pp.335-6.

الدين شمالا بعد أن جاءته التعزيزات مرة أخرى من مصر . وفى ١١ ابريل حدث كسوف للشمس ، رأى فيه رجاله نذيرا سيئا أثناء عبورهم وادى العاصى بالقرب من حماء ، وبعد عشرة أيام باغتهم سيف الدين بينما كانوا يسقون جيادهم . غير أن سيف الدين تردد فى الهجوم فى الحال . وفى الصباح التالى ، وعندما جاء سيف الدين بكل قواته لمهاجمة معسكر صلاح الدين على رابية السلطان الواقعة جنوب حلب بعشرين ميلا تقريبا ، اكتشف أنه جاء متأخرا للغاية ؛ إذ كاد هجومهم الأول أن ينجح ، لكن صلاح الدين قام بهجوم مضاد على رأس قواته الاحتياطية وشتت صفوف الأعداء ، وباقتراب المساء كان سيد الساحة . وكان سيف الدين قد ترك ثروته عندما ولى هاربا ، فأعطاه صلاح الدين كلها جائزة لرجاله ، وأحسن معاملة الأسرى وسرعان ما أعادهم إلى بيوتهم . لقد ترك كرمه ورأفته انطبعا رائعا^(١٥) .

وكانت حلب ما تزال ترفض فتح أبوابها لصلاح الدين ، ولذا هاجمها واحتل القلعة الواقعة بين المدينة ونهر العاصى والتي تتحكم فى الطريق الذاهب شمالا . وهنا كاد أن يهلك مرة أخرى عندما دخل أحد الحشاشين الخيمة التى يستريح فيها ، ولم ينقذه سوى القلنسوة المعدنية التى كان يضعها تحت عمامته الضيقة . واستسلمت عزاز يوم ٢١ يونية . وفى يوم ٢٤ يونية ظهر مرة أخرى أمام حلب ؛ لكنه وافق الآن على المصالحة ؛ إذ أن الصالح وامراء حصن كيفا وماردين الأراتقة الذين كانوا يناصرونه وافقوا على التخلّى لصلاح الدين عن كل الأراضى التى غزاها ، وأقسموا هم وصلاح الدين على أن يحافظوا على السلام . وبعد التوقيع على معاهدة السلام يوم ٢٩ يولية ، جاءت اخت الصالح الصغرى لزيارة معسكر صلاح الدين ، وطلب منها بكياسة أن تختار الهدية التى تحبها ، فقالت : "قلعة عزاز" . فأعادها صلاح الدين إلى أخيها^(١٦) .

ورغم أن صلاح الدين لم يتمكن بعد من الاستيلاء على حلب ، كان الصالح وبنوعمومته يشعرون بأنه يتهدهدهم . وباستطاعة صلاح الدين أن يتحول للتعامل مع الحشاشين والفرنجة ؛ فدخل جبال النصيرى لمحاصرة مصيف ، وهى المعقل الرئيسى للحشاشين ، وكان الشيخ سينان بعيدا عن المعقل ، وعندما أسرع بالعودة إلى معقله

(١٥) Beha ed-Din, P.P.T.S PP. 71-4; Ibn al-Athir, pp. 625-6. يحدث فى تل السلطان وفى قرني حماء .

(١٦) Beha ed-Din, P.P.T.S ,PP.74-5; Kemal ad-Din, ed. Blochet,pp.146-7; Ibn al-Athir, ..loc.cit واستادا الى كمال الدين ، كان رأى العام فى حلب مناهضا للمعاهدة ومناصرا للصالح بقرة .

كان باستطاعة صلاح الدين وجنوده القبض عليه لولا أن ثببتهم قوة غامضة معينة . وشمل الجو نوع من السحر ؛ إذ اضطرب صلاح الدين نفسه بأحلام رهيبة . وفى إحدى الليالى هب من نومه فجأة ليجد بعض قطع الكعك الساخنة على فراشه من النوع الذى لا يخزئه سوى الحشاشين ، ومع الكعك خنجر مسموم وورقة مكتوب عليها بيت من الشعر يتهدده ؛ واعتقد صلاح الدين أن شيخ الجبل العجوز كان هو نفسه فى الخيمة . وانهارت أعصابه ؛ فأرسل رسولا إلى الشيخ سينان يلتمس منه العفو عن ذنوبه ويعد ، فى المقابل ، مرورا آمنا منذ ذلك الوقت قدما تاركا الحشاشين دون إزعاج . وعفا عنه الشيخ العجوز ، وتم الوفاء بالمعاهدة^(١٧) .

ولم يكن إبرام مثل هذه المعاهدة ممكنا بين صلاح الدين والفرنج . إذ كانت هناك هدنة عام ١١٧٥ م أطلق بموجبها صلاح الدين ما كان لديه من أسرى مسيحيين كى يتمكن من التعامل مع سيف الدين^(١٨) . على أن الفرنج نقضوا الهدنة فى العام التالى . فبينما كان صلاح الدين يحاصر حلب ، أغار ريموند من البقيعة على إقليم البقاع فى الوقت الذى صعد فيه من الجنوب جيش ملكى بقيادة همفرى (أوف تورون) والملك ابن الخامسة عشرة ربيعا . ويبدو أن ابن المقدم ، وهو والى بعلبك الآن ، هزم ريموند هزيمة طفيفة ؛ غير أن المسيحيين أقاموا اتصالا فيما بينهم وهزموا أخا صلاح الدين توران شاه وميليشيات دمشق هزيمة فادحة ، وما أن شعروا باقتراب صلاح الدين من الشمال حتى انسحبوا مرة أخرى على الفور . ولم يطاردتهم ، إذ كان يتعجل عودته إلى مصر . وبعد أن ترك توران شاه قائدا لجيش قوى فى سوريا ، تسلل مرة أخرى خلال منطقة الأردن ووصل القاهرة فى نهاية سبتمبر^(١٩) .

١١٧٦ م : زواج سيبيللا الأول

ومضت فترة راحة من القتال طوال عام كامل ، لقيت ترحيبا من كل من الجانبين.

(١٧) Abu Firas, ed. Guyard, *Journal Asiatique*, 7 me série, vol. ix, 1877, Arabic text, pp.455-9; Ibn al-Athir (*loc.cit*) ، ويسجل ابن الأثير خطاب التهديد المرسل من سينان إلى صلاح الدين ، شهاب الدين .

(١٨) William of Tyre, xxi, 8, pp. 1017-19. وهو يربخ همفرى (أوف تورون) ، الذى كان مسؤولا عن الهدنة ، لضياح فرصة الهجوم على صلاح الدين عندما كان في وضع محرج .

(١٩) William of Tyre, xxi, ii, pp. 1021-3; Ibn al-Athir, p. 627.

إذ راح صلاح الدين يعيد تنظيم مصر ويعيد بناء القاهرة وتحصينها من جديد ، وفى ذات الوقت كانت حكومة القدس تواجه أهم مشاكلها الداخلية . ففى عام ١١٧٧م شب الملك بلدوين عن الطرق ببلوغة السادسة عشرة ، وكف ريموند عن الرصاية . بيد أن مرض الجذام الذى يعانى منه الملك ازداد سوءا ، وبقينا لن يعيش سنوات كثيرة . ولكى تتاهل الأميرة سيبيللا للاستخلاف ، كان لابد لها من أن تتزوج . ولذا ، وجه بلدوين الدعوة فى عام ١١٧٥م ، وربما باقتراح من لويس السابع ملك فرنسا ، إلى وليم طويل السيف (William Long-Sword) ، وهو أكبر أبناء مركز موتفترات ، للحضور إلى فلسطين وقبول يد سيبيللا . وكان اختيارا حسنا . إذ كانت لوليم اتصالات جيدة ؛ إذ كان والده أغنى الأمراء فى شمال إيطاليا ، وكان من أبناء عمومة كل من الامبراطور فريدريك بارباروسا والملك لويس . وكان هو نفسه ، رغم أنه لم يعد شابا ، على مايكفى من الشجاعة والرسامة بحيث يرضى الأميرة الطروب . وهبط فى ميناء صيدا فى أكتوبر من عام ١١٧٦م ، وبعد أيام قليلة ، مُنح كورتية عسقلان وكورتية يافا ، فى نفس يوم زواجه من سيبيللا ، وكان مقبولا عموما كوريث للعرش . على أن الآمال التى كانت معقودة على شجاعته واتصالاته ذهبت أدراج الرياح . ففى عام ١١٧٧م سقط فريسة مرض الملاريا الذى تواصل بضعة أشهر ، إلى أن مات فى يونية . ووضعت أرملته ابنا فى أواخر الصيف ؛ ورثا للمملكة ، لكنه الوريث الذى جعل الرصاية لا مفر منها . وراح مبعوثو الملك ينقبون فى أوروبا مرة أخرى للعثور على زوج ثان للأميرة^(٢٠) .

كما كان مبعوثو الملك ينقبون أوروبا بحثا عن حلفاء ضد صلاح الدين ؛ إذ أن هدوء القتال يقينا لن يستمر طويلا . غير أن أمراء الغرب كانوا غارقين إلى آذانهم فى شؤونهم الخاصة بهم ؛ وحتى القسطنطينية لا تستطيع تقديم نفس العون كما كانت تفعل من قبل . إذ كان عام ١١٧٦م بمثابة نقطة تحول فى تاريخ بيزنطة . ذلك أن السلطان السلجوقى قلع أرسلان الثانى زاد عنادا ضد الامبراطور ؛ بعدما كان مقيد الشكيمة أثناء حياة نور الدين ، الذى تدخل فى الأناضول عام ١١٧٣م للحيلولة دون أن يتلع السلاجقة أراضى الدانشمند . فقد حافظ أحد قواد نور الدين ، وهو عبد المسيح ، وكان وزيرا سابقا لدى أخيه قطب الدين ، على قيصرية مازاكا لدى النون

(٢٠) . William of Tyre, xxi, 13, pp. 1025-6. كانت أم وليم أختا غير شقيقة للملك كونراد ولأبى فريدريك بارباروسا . وكان أبوه ، وأم الملك لويس - أديلابدى (أوف مورين) - أطفالا من زيجتين مختلفتين لـ Gisela of Burgundy.

الدانشمندى ، وبقي هو نفسه مع حامية فى سيواس . وفى نفس الوقت ثبت لأخى قلعج ارسلان ، شاهنشاه ، امتلاك أنقرة حيث كان الامبراطور قد نصبه فيها قبل عدة سنوات . على أن موت نور الدين حرر قلعج ارسلان من القيود ؛ وفى نهاية عام ١١٧٤م أعيد عبد المسيح إلى الموصل ، وكان ذوالنون وشاهنشاه فى المنفى فى القسطنطينية ، وبذا تملك قلعج ارسلان أراضيها . ثم إنه تحول ضد بيزنطة ، وفى صيف عام ١١٧٦م ، قرر مانويل أن يتعامل مع الأتراك مرة وإلى الأبد . وتشجع بما حققه فى الصيف السابق من بعض النجاح الطفيف فكتب إلى البابا ليعلم أن الوقت قد أصبح ملائما لحملة صليبية جديدة . وسوف يؤمن الطريق الآن عبر الأناضول إلى الأبد . وبينما أرسل جيشا بقيادة ابن عمه أندرونيكوس فاتاتسيس خلال بافلاجونيا لصد ذى النون عند حدوده ، قاد مانويل نفسه الجيش الامبراطورى العظيم ، الذى تضخم بكل التعزيزات التى امكنه الحصول عليها ، وزحف على عاصمة السلطان - قونية . وما أن سمع قلعج ارسلان بالحملة حتى أرسل طالبا السلام . لكن مانويل لم يعد يثق فى كلمته .

١١٧٦م : معركة ميربوسيفالوم

فى وقت مبكر من سبتمبر واجهت الحملة البفلاجونية كارثة أمام أسوار نقصار . وقد أرسل ممثل رأس فاتاتسيس إلى السلطان كعلامة على الانتصار ؛ وبعد أيام قلائل تحرك جيش مانويل خارجا من وادى نهر مياندر ، مروراً بحصن كان قد بناه فى سوبالايوم قبل ذلك بعام ، وملتفا حول قمة بحيرة إيجريدير إلى داخل التلال التى تصعد حتى سلسلة الجبال الضخمة واسمها جبال السلطان داغ . وتباطأت العربات الثقيلة التى تحمل آلات الحصار والأعلاف ؛ وكان الأتراك قد خربوا الأراضى التى كان لتلك العربات أن تمر خلالها . وكان الطريق يودى إلى ممر يطلق عليه اليونانيون تسيريتسى ، وتظهر فى الطرف البعيد أطلال قلعة ميربوسيفالوم . وهناك تجمع الجيش التركى على رأى فوق جانب التل المقفر . وحذر قواد مانويل من ذوى الحنكة من أن يمر جيشه البطئ المتناقل فى ممر صعب فى مواجهة الأعداء ؛ ولكن الأمراء الأصغر كانوا على ثقة من شجاعتهم وإقدامهم وكانوا من طالبي الأجداد ؛ فحثوه على المضى . وكان السلطان قد جمع الجنود من حلفائه وأتباعه جميعا ، بحيث أصبح جيشه كبيرا بنفس القدر كجيش مانويل ، وإن كان أقل فى جودة التسليح ولكنه أكثر قدرة على الحركة . وفى ١٧ سبتمبر شق حرس الطليعة طريقه خلال الممر ، وتنحى الأتراك أمامهم ، كى يلتفوا

حول التلال ويندفعوا هابطين المنحدرات إلى الممر حيث كان الجيش الامبراطورى الرئيسى يشق طريقه بطول الطريق الضيق . وكان زوج أخت الامبراطور - بلدوين أمير انطاكية - على رأس كتيبة للفرسان ، فقام بهجوم مضاد صاعدا التل إلى الأعداء ، لكنه قتل مع رجاله جميعا ، وشاهد الجنود فى الوادى الضيق هزيمته ؛ وكانوا مكდسين مع بعضهم البعض بحيث لا يكاد أحدهم أن يكون قادرا على تحريك يديه . وكان لا يزال بإمكان القيادة الشجاعة أن تنفذ اليوم من أن يشهد الهزيمة ، لكن شجاعة مانويل خذلت ؛ إذ كان هو نفسه أول من أصابه الذعر فولى دبره وكر هاربا من الممر . والآن حاول الجيش كله اللحاق به ؛ لكن عربات النقل سدت الطريق فى خضم الفوضى المتلاطمة . ولم يستطع الفرار سوى القليل من الجنود . وراح الأتراك يقتلون كما يحلو لهم ، وهم بلوحون بتمثال رأس فانتاسيس ، إلى أن هبط الظلام . ثم إن السلطان أرسل رسولا إلى الامبراطور الذى كان يحاول تنظيم صفوف جنوده المرعوبين فى الوادى، عارضا عليه السلام شريطة أن ينسحب فى التو ، ويزيل التحصينات من قلعتى سوبلايوم ودوريليوم . وقبل مانويل الشروط بامتنان . وعاد من الممر حرس الطليعة الذى أفلت من الهزيمة وانضم إلى البقايا المفجعة التى يقودها مانويل الآن باتجاه الوطن ، يتحرش بها الأتراك الذين استعصى على فهمهم ما أبداه قلعج أرسلان من رافة . وربما لم يدرك السلطان قيمة اتمام انتصاره ؛ إذ كان جُل اهتمامه منصبا الآن على الشرق ، ولم يكن يعبأ آنذاك بالتوسع غربا . فكل ما كان ينشده هو الأمان^(٢١) .

ومع ذلك كان مانويل مدركا لمدى حسامة الكارثة التى قارنها هو نفسه بكارثة منزىكيرت التى وقعت قبل ما يزيد قليلا على قرن من الزمان^(٢٢) . لقد دُمرت آلة الحرب العظيمة التى دأب جده وأبوه على بنائها ، وسوف تنقضى سنوات كثيرة قبل إعادة بنائها ، وفى واقع الأمر لم يعاد بنائها قط . وخلال السنوات الثلاث التالية

(٢١) Chaladnon, Nicetas Choniates, pp. 236-48; Michael the Syrian, III, pp. 369-72. انظر
 Les Comnènes, pp. 506-13, and Cahen, La Syrie du Nord, p. 417 n. 3 وعن المعركة ذاتها
 Ramsay, 'Preliminary report', in History and Art of the Eastern Provinces of the
 Roman Empire, pp. 235-8.

(٢٢) Nicetas Choniates, p. 249. ومن الناحية الأخرى حاول مانويل التقليل من الكارثة الى أدنى
 الحدود فى خطابه بشأنها المرسل الى ملك إنجلترا هنرى الثانى (مقتبس فى Roger of Hoveden,
 Chronica, II, p. 101). ولاحظ المعركة كثيرون من المؤرخين الغربيين.

S. Rudberti Salisburgensis II, p. 435, and Liber Pontificalis, Vita Alexandri, in
 Annales p. 777.

كان هناك ما يكفى من الجنود للدفاع عن الحدود ، بل والفوز بانتصارات قليلة بسيطة. على أن الامبراطور لم يعد قادرا أبدا بعد ذلك اليوم على الزحف على سوريا وإملاء إرادته على انطاكية ؛ كما لم يبق لديه شئ من كبريائه العظيم الذى كان فيما مضى يردع نور الدين وهو فى ذروة قوته من زيادة تشديده على العالم المسيحى . وتكاد كارثة ميروسيغالوم أن تكون قاتله للفرنج بنفس القدر الذى قضت به على بيزنطة ؛ فبرغم كل ما كان بينهما من تبادل انعدام الثقة وسوء الفهم ، كان الفرنج يعلمون أن وجود امبراطورية شديدة القوة يعتبر ضمانا أخيرا ضد انتصار الإسلام ؛ ففى لحظتها، وعندما كان الولد الضعيف الصالح يحكم شمال سوريا ، لم يلحظ الفرنج أهمية المعركة. ولكن عندما ذهب وليم الصورى لزيارة القسطنطينية بعد ذلك بثلاث سنوات ، وعلم بما حدث كاملا ، تحقق من الأخطار التى تنتظر الفرنج^(٢٣).

١١٧٧م : فيليب كونت فلاندرز فى فلسطين

على الرغم من هلاك جيش مانويل كان أسطوله لا يزال قويا ، وكان على استعداد لاستخدامه ضد صلاح الدين . ومرة أخرى وعد فى عام ١١٧٧م بإرساله للمساعدة فى هجوم فرنجى على مصر . وخلال صيف ذلك العام ، راحت شائعات بحملة صليبية جديدة آتية من الغرب ، وقيل إن كلا من لويس السابع ملك فرنسا وهنرى الثانى ملك إنجلترا قد أخذ الصليب^(٢٤) . ولكن الذى ظهر فى فلسطين كان عاجلا واحدا فقط . ففى سبتمبر، وأثناء أن كان الملك بلدوين فى طريقه إلى الشفاء من نوبة ملاريا حادة ، هبط فى ميناء عكا فيليب كونت فلاندرز ومعه أتباع كثيرون . وهو ابن كونت ثيرى وسيللا كونتيسة أنجو ؛ وتذكر الفرنج اشتراك ابيه فى أربع حملات صليبية ، وكانوا يعلمون مدى ما تكنه أمه من الحب الورع للأرض المقدسة ، فعلقوا عليه الآمال العراض . وأسفرت أنباء حضوره عن إرسال الامبراطور أربعة سفراء من أصل عريق يعرضون المال لتسيير حملة ضد مصر ، ووصل فى أعقابهم إلى ميناء عكا أسطول بيزنطى من سبعين سفينة تحمل المحاربين المحنكين . ونظرا لما كان عليه الملك

(٢٣) William of Tyre, xxi, 12, p. 1025.

(٢٤) فى معاهدة إيفري Ivry بتاريخ ٢١ سبتمبر ١١٧٧م ، اتفق كل من لويس السابع وهنرى الثانى على الذهاب فى حملة صليبية مشتركة (Benedict of Peterborough, 1, pp.191-4). لكن المشروع سرعان ما انهار بعد ذلك .

بلدوين من شدة المرض الذي أقعده عن الذهاب إلى الحرب ، فقد سارع بعرض الوصاية على فيليب إذا قبل الخروج على رأس حملة ضد مصر . لكن فيليب تردد وراوغ قائلا إنه قد حضر أولا لمجرد الحج ، وثانيا لأنه لا يستطيع تحمل مثل تلك المسؤوليات بمفرده ؛ وعندما اقترح الملك تعيين رينالد (أوف شاتيلون) قائدا مشاركا معه ، انتقد فيليب شخصية رينالد . وجذبوا انتباهه إلى أن الأسطول البيزنطي موجود هنا وعلى استعداد للتعاون ، فكان رده مجرد التساؤل لماذا يتعين إلزام اليونانيين . وأخيرا كشف عن أن هدفه الوحيد من حضوره إلى فلسطين هو أن يزوج ابنتي عمه ، الأميرتين سيبيللا وإيزابيلا من ابني أفضل أتباعه لديه - روبرت أوف بيتون . وكان ذلك فوق ما يتحمله بارونات القدس ؛ فعندما تقدم الكونت بطلبه لدى البلاط ، صرخ في وجهه بلدوين (أوف إيبيلين) قائلا : "كنا نظن أنك قد جئت لتحارب من أجل الصليب ، وأنت لا تتحدث إلا عن الزواج " . وأخذ الكونت فيليب يعد العدة للرحيل ثانية وهو غارق في مشاعر الإحباط والحنق . وكان للمشاحنة وقع الصدمة على سفراء الامبراطور ؛ واتضح بجلاء أنه لن تكون هناك حملة ضد مصر . وانتظروا قرابة شهر ، ثم أبحروا مع الأسطول تصحبهم أحاسيس الغيضان ، كي يحذروا سيدهم الامبراطور من عبث الفرنج الذي لا دواء له^(٢٥).

وغادر كونت فلاندرز القدس قاصدا طرابلس في نهاية أكتوبر . وربما بدأ ضميره يضايقه الآن ، إذ انه وافق على مصاحبة الكونت ريموند في حملة ضد حماه ؛ وقدم الملك جنودا من المملكة لتعزيزه . وفي الوقت الذي أغارت فيه كتيبة على أراضي حمص ، فقط لكي تقع في كمين وتفقد كل ما غنمته من أسلاب ، ضرب الكونت ريموند والكونت فيليب الحصار حول حماه التي كان حاكمها في شدة المرض . غير أنه عندما جاء الجنود من دمشق ، انسحبا دون أن يحققا شيئا . ومن طرابلس ارتحل الكونت فيليب قاصدا أنطاكية حيث وافق على مساعدة الأمير بوهمند في الهجوم على مدينة حارم ، التي كان يحكمها والي صلاح الدين السابق ، حومشتكين ، الذي تشاجر مع سيده صلاح الدين فقتله ، ولذا تمرد أتباعه في حارم ضد الصالح ، لكن تمردهم

(٢٥) William of Tyre, xxi, 18-14, pp. 1027-35. يفترض أن كلا من ريموند أمير طرابلس وبوهمند أمير أنطاكية كان يعارض تسيير حملة ضد مصر وثبطا من عزيمة فيليب . لكن آل إيبيلين كانوا يشعرون بالغثيان من فيليب ، ونظرا لاعتيادهم التدخل مع ريموند ، فمن الجائز القبول بأن وليم الصوري قد بالغ . إذ كان مسؤولا عن التحالف البيزنطي ، ومن ثم أقلقه التدخل عن هذا التحالف ، وربما كان ما أبداه فيليب لاحقا من استعداد لمساعدة ريموند وبوهمند قد جعله يرتاب فيهما. أنظر أيضا Ernoul, p.33 الذي يذكر سخرية بلدوين (أوف إيبيلين) .

انتهى باقتراب الفرنج . وبغزيمة فاترة حاصر بوهمند وفيليب المدينة ، إذ لم تفلح محاولتهما نفس أماكن في الأسوار ، وتمكن الصالح من إرسال فصيلة اخترقت صفوفهم لتعزيز الحامية . وعندما أرسل الصالح اليهما مبعوثيه يؤكدون أن العدو الحقيقي لكل من حلب وانطاكية هو صلاح الدين الذي عاد إلى سوريا ، وافقا على رفع الحصار . وعاد فيليب كونت فلاندرز إلى القدس في عيد الفصح ، ثم أبحر على ظهر سفينة من اللاذقية إلى القسطنطينية^(٢٦).

١١٧٧م : هزيمة صلاح الدين في تل الجزر

كان صلاح الدين قد عبر الحدود من مصر يوم ١٨ نوفمبر . وكان جهاز استخباراته رائعا دائما؛ إذ علم أن التحالف الفرنجي البيزنطي قد انهار وأن كونت فلاندرز غائب في الشمال ؛ فقرر شن هجوم مضاد مفاجئ أعلى الساحل داخل فلسطين . واستدعى فرسان المعبد كافة فرسان النظام للدفاع عن غزة ؛ بيد أن الجيش المصري تقدم إلى عسقلان مباشرة . وكان الكونستابل همفري (أوف تورون) مريضا مرضا شديدا ، وقد نهض الملك لتوه من فراش المرض ، فجمع ما استطاع جمعه من الجنود - ومجموعهم خمسمائة فارس - وأصطحب معه أسقف بيت لحم حاملا الصليب الحقيقي ؛ وأسرع إلى عسقلان ودخل القلعة قبل وصول الأعداء مباشرة . وكان قد استدعى كل قادر على حمل السلاح ليلحق به هناك ، لكن صلاح الدين اعترض السرايا الأولى وأسرها . وبعد أن ترك صلاح الدين قوة صغيرة لضمان بقاء الملك في عسقلان، زحف على القدس . ولمرة واحدة فقط كان صلاح الدين مفرط الثقة بالنفس ؛ فلم يعد هناك أعداء بينه وبين العاصمة المسيحية ، ولذا أرخى جنوده حبل الانضباط وسمح لهم بالتجوال في انحاء الريف للنهب . وبشجاعة اليأس تدبر بلدوين إرسال رسالة إلى فرسان المعبد يطلب منهم التخلي عن غزة والانضمام إليه ؛ وعندما اقترحوا شق طريقه خارجا من عسقلان وسار بكل رجاله شمال الساحل إلى يينة ومنها تحول إلى داخل البلاد . وفي يوم ٢٥ نوفمبر كان الجيش المصري يعبر واديا صغيرا ضيقا بالقرب من قلعة تل الجزر جنوب شرق الرملة بأميال قليلة ، وفجأة هبط عليه فرسان الفرنج قادمين

(٢٦) William of Tyre, xxi, 25, 19, pp. 1036, 1047-9; Ernoul, p.34; Michael the Syrian, iii, pp. 75-6; Abu Shama, pp. 189-92; Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 76-7; Ibn al-Athir, pp. 630 3; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp. 148-53.

من الشمال . ولقد كانت مفاجأة كاملة . وكان البعض من جنود صلاح الدين غائبين يجمعون المرعى ، ولم يكن لديه وقت لإعادة تجميع الباقين الذين هرب الكثير منهم قبل الصدمة الأولى . ولم ينقذ صلاح الدين نفسه سوى حرسه المملوكى ، وأما الفصيلة التى صمدت فقد هلكت كلها أو كادت . وكان بلدوين فى المقدمة بين المسيحيين ؛ وساعد على احراز النصر شجاعة أمراء بينة ، بلدوين وباليان ، وكذلك شجاعة ابنى زوجة ريموند ، هيو ووليم من امراء الجليل . وشوهد القديس جورج نفسه يحارب إلى جانبهم .

وفى غضون ساعات قليلة كان الجيش المصرى يسابق الريح فرارا إلى مصر ، وقد تخلى عن كل ما استلبه وعن الأسرى الذين اسرهم ؛ بل إن الجنود ألقوا بأسلحتهم ليتسنى لهم الفرار الأسرع . وتمكن صلاح الدين من الحفاظ على بعض معايير النظام ؛ غير أن عبور صحراء سيناء كان مؤلما ، مع مضايقات البدو الرحل للهاربين بلاجمية . وأرسل صلاح الدين من الحدود المصرية رسلا من الهجانة إلى القاهرة يؤكدون لمن تسول لهم أنفسهم التمرد أنه مازال على قيد الحياة ؛ وأعلن عن عودته إلى القاهرة فى سائر أنحاء مصر بالحمام الزاجل . لكن هيئته أصيبت إصابة شديدة^(٢٧) .

لقد كان نصرا عظيما أنقذ المملكة إلى حين . لكنه على المدى البعيد لم يغير الوضع؛ فموارد مصر لا حدود لها بينما الفرنج لا يزالون يعانون من نقص الرجال . ولو كان ممكنا للملك بلدوين أن يطارد الأعداء داخل مصر ، أو يهاجم دمشق هجوما خاطفا ، لأفلح فى سحق قوة صلاح الدين ، لكنه لا يستطيع المجازفة بمجيئه هذا الصغير بهجوم فى غيبة المساعدة الخارجية ؛ وبدلا من ذلك قرر تشييد حصون قوية بطول الحدود الدمشقية ، إذ أن فقد بانياس قد أحدث الاضطراب فى النظام الدفاعى للمملكة . فبينما راح همفرى أمير تبين يحصن منطقة قل هونين على الطريق من بانياس إلى طورون، شرع الملك فى بناء قلعة فى منطقة الأردن الأعلى بين بحيرة حولة وبحر الجليل ، لكى تسيطر على المخاضة التى شهدت المصارعة بين يعقوب والملاك^(٢٨) ، وهى المخاضة التى تعرف أيضا بمخاضة الأحزان ؛ وكانت الأراضى الواقعة على جانبيها يقطنها المسلمون من الفلاحين والرعاة ، البعض يدين بالولاء لدمشق ، والبعض الآخر

(٢٧) William of Tyre, xxi, 24-20, pp. 1037-47; Ernoul, pp. 41-5; Michael the Syrian, iii, p. 375; Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 75-6; Abu Shama, pp. 184-7; Ibn al-Athir, pp. 627-35.

(٢٨) (المترجم): أنظر سفر التكوين، الإصحاح الثانى والثلاثين، الآيات ٢٤ وما بعدها.

للمسيحيين ، وكانوا يتمتعون بحرية الذهاب والإياب عبر الحدود التي كانت علامتها الوحيدة شجرة بلوط ضخمة ، وكان الفرنج قد تعهدوا بعدم تحصين مناطق العبور قط. وقد رغب بلدوين في الالتزام بالمعاهدة وتشيد القلعة في مكان آخر ، لكن فرسان المعبد فرضوا عليه رأيهم . وشكى المسلمون المحليون نقض العهد لصالح الدين ، الذي عرض علي بلدوين أولا ستين ألف قطعة ذهبية ، ثم مائة ألف قطعة ذهبية للتخلي عن البناء . ولما رفض الملك ، أقسم صلاح الدين أن يتخذ اجراء هو نفسه^(٢٩).

وبعد الكارثة التي نزلت بصلاح الدين في تل الجزر مكث في مصر بضعة أشهر إلى أن أيقن أن كل شيء على مايرام تحت سيطرته . وفي نهاية ربيع عام ١١٧٨م عاد إلى سوريا وأمضى ما تبقى من العام في دمشق . وكانت الأعمال الحربية الوحيدة في ذلك العام تتألف من غارات قليلة وغارات مضادة^(٣٠) . وأما في المناطق الأبعد إلى الشمال فكان هناك سلام بين انطاكية وحلب ، وتحالف بين انطاكية وأرمينيا، التي أطيح بأميرها الخائن ، مليح ، بعد موت نور الدين مباشرة على يد ابن أخيه روبين الثالث . وكان روبين صديقا للفرنج الذين ساعدتهم في حصار حارم العقيم^(٣١) . كما سعى بوهمند الثالث إلى مصادقة الامبراطور ، وفي عام ١١٧٧م تزوج إحدى قريبات مانويل وتدعى ثيودورا ، كزوجه الثانية^(٣٢).

(٢٩) William of Tyre, xxi, 26, pp. 1050-1; Ernoul, pp. 51-2; Abu Shama, pp. 194-7; Ibn al-Athir, p. 634. وكان صلاح الدين مشغولا آنذاك بتمرد محلي في بعلبك . ويعبر مخاضة يعقوب الآن جسر يعرف باسم "جسر بنات يعقوب".

(٣٠) Ibn al-Arhir, p. 633.

(٣١) Sembat the Constable, p. 624; Vahram, *Rhymed Chronicle*, p. 509. وعن زواج روبين انظر ادناه ص ٤٨٠.

(٣٢) William of Tyre, xxii, 5, p. 1069. تاريخ هذا الزواج ، وحتى اسم العروس ، محل خلاف . إذ أن *Lignages v*, p. 446 يسميها إيرين Irene، ويجعل لها ابنة تسمى كونستانس ، ليست معروفة مع ذلك . وليس معروفا ما إذا كانت من آل كومنينوس أم انها على صلة قرابة بالامبراطور عن طريق امها . ويعتقد Rey ، في *Histoire des Princes d'Antioche', Revue de l'Orient Latin*, 1896، أنهما زوجة بوهمند الأولى . والارجح ان زوجته الأولى هي Orgillosa of Harenc، التي تظهر في الوثائق (Rohricht, *Regesta*, pp. 125, 1399, 5-1170). ويقول وليم يقينا: "إن بوهمند ترك ثيودورا ليعيش مع سييلا".

١١٧٩م : موت همفري أمير تبين

وفى ربيع ١١٧٩م ، عندما بدأت الحركة الموسمية للقطعان ، انطلق الملك بلدوين لجمع الأغنام التى سوف تمر باتجاه بانياس من السهول الدمشقية ، وأرسل صلاح الدين ابن أخيه فاروق شاه ليرى ما يحدث هناك . وكان مقررا أن يخبر عمه عن طريق الحمام الزاجل بالاتجاه الذى يسلكه الفرنج . وفى يوم ١٠ ابريل انقض فاروق شاه فجأة على الأعداء فى واد ضيق فى غابة بانياس ، وبوغت الملك الذى لم يستطع تخليص جيشه الا بما أبداه الكونستابل القديم ، همفري أمير تبين من بطولة ، إذ صمد للمسلمين مع حرسه الشخصى إلى أن هرب الجيش الملكى . وجرح همفري جرحا مميتا ، وقضى نحبه فى حصنه الجديد فى هونين يوم ٢٢ ابريل . وأعرب الجميع ، بل والمسلمون ، عن تقديرهم لشخصيته . لقد كان موته ضربة رهيبه للمملكة ، إذ كان هو وحيدها من السياسيين الكبار الذى حظى باحترام الجميع .

وتابع صلاح الدين الانتصار بمحاصرة قلعة مخاضة يعقوب ، لكن الدفاعات كانت من القوة بحيث انسحب بعد ايام قليلة كى يعسكر أمام بانياس ، ومنها راح يرسل المغيرين إلى داخل الجليل وخلال لبنان لتدمير حصاد المحاصيل بين صيدا وبيروت . وجمع الملك بلدوين قوات المملكة واستدعى ريموند أمير طرابلس للانضمام اليه ، وساروا أعلى طبرية وصفد إلى تبين . وهناك علموا أن فاروق شاه وفرقة من المغيرين فى طريق عودتهم من الساحل وهم محملين بالغنائم ، فانتقلوا إلى الشمال لمهاجمتهم فى وادى مرج عيون الواقع بين نهر الليطانى والأردن الأعلى . غير أن صلاح الدين لاحظ من مرقب فوق تل شمال بانياس أن القطعان فى الجهة المقابلة من الاردن تجرى مبعثرة فى فرع ، فتحقق من أن الجيش الفرنجى يمر بها ، فانطلق بطارده . وفى يوم ١٠ يونية ١١٧٩م ، وبينما كان الجيش الملكى يهزم فاروق شاه فى مرج عيون ، انتقل الكونت ريموند وفرسان المعبد متقدمين قليلا باتجاه الأردن . وفى مدخل الوادى هبطوا على جيش صلاح الدين ، وشارك فرسان المعبد فى المعركة على الفور ؛ بيد أن هجوم صلاح الدين المضاد دحرهم إلى الخلف منكبين على جنود بلدوين ، الذين كانوا يندحرون هم كذلك ؛ ولم يمض وقت طويل حتى كان الجيش الفرنجى كله موليا الأدبار . وتمكن الملك والكونت ريموند ، مع بعض رجالهما ، من عبور نهر الليطانى واللجوء إلى حصن الشقيف أرنون الواقع على مكان مرتفع على الضفة الغربية للنهر . وقتل من تبقى عبر النهر من الرجال جميعا ، أو جُمعوا فيما بعد . ولم يتوقف بعض الهاربين فى قلعة الشقيف ، وانما انطلقوا مباشرة إلى الساحل ؛ حيث قابلوا فى طريقهم

رينالد أمير صيدا مع جنوده المحليين ، وأخبروه أنه جاء بعد أن سبق السيف العذل ،
ولذا عاد أدراجه رغم أنه لو تقدم إلى الليطاني لأنقذ الكثير من الهاربين الآخرين .

وكان من بين أسرى صلاح الدين أودو (أوف سانت أماند) ، السيد الأعظم
لفرسان المعبد ، الذي كان تهوره السبب الرئيسى للهزيمة النكراء ، وبلدوين أمير بينة ،
وهيو أمير الجليل . وسرعان ما اقتدى هيو بعد أن دفعت أمه ، كونتيسة طرابلس ،
خمسة وخمسين ألف دينار من دينارات صور . وأما بلدوين أمير بينة فقد طلب صلاح
الدين مائة وخمسين ألف دينار ، وهي فدية ملك ، وكذلك كان صلاح الدين يقيس
أهمية بلدوين . وبعد أشهر قليلة أفرج عن بلدوين لقاء الإفراج عن ألف أسير مسلم
وبالوعد بأن يبحث عن المال . واقترح مبادلة أودو بأسير مسلم هام ؛ لكن السيد
الأعظم كان بالغ الغرور بحيث لم يوافق على أن هناك من يعادله فى أهميته . فبقى فى
غيابة الجلب فى دمشق إلى أن مات فى العام التالى .

١١٨٠ م : هدنة عامين

لم يتابع صلاح الدين نصره بغزو فلسطين ، ربما لأنه سمع بوصول جماعة كبيرة من
الفرسان القادمين إليها من فرنسا بقيادة هنرى الثانى (أوف شامباني) ، وبطرس (أوف
كورتناى) ، وفيليب أسقف بوفيه ؛ وبدلاً من ذلك هاجم قلعة بلدوين فى مخاضة
يعقوب ، وبعد أن حاصرها خمسة أيام ، من ٢٤ إلى ٢٩ أغسطس ، أفلح فى نفس
جزء من الأسوار واقتحمها وقتل المدافعين عنها ودمرها إلى أن سواها بالارض . ولم
يخرج الزائرون الفرنسيون لمحاولة انقاذ القلعة وإنما سارعوا بالعودة إلى بلدتهم . ومرة
أخرى أثبت صليبيو الغرب أنهم بلا فائدة البتة^(٣٣) .

وبعد أن قام الأسطول المصرى بغارة ناجحة فى أكتوبر على حركة السفن فى
نفس ميناء عكا ، وبعد غارة اسلامية ضخمة داخل الجليل فى وقت مبكر من العام
الجديد ، أرسل الملك بلدوين يطلب الهدنة من صلاح الدين . فوافق صلاح الدين . وقد

(٣٣) William of Tyre, xxi, 30-27, pp. 1052-9; Ernoul, pp. 53-4; Abu Shama, pp. 194-202;
Ibn al-Athir, pp. 635-6; Maqrîsi, *Revue de l'Orient Latin*, vol. VIII, pp. 530-1.
بعض الشكوك حول ما إذا كان أودو (أوف سانت أماند) قد قتل ، لكن كتابا بابويا مرصوا
بالرصاص أرسله البابا ألكسندر الثالث يفترض أنه عاش كأسير . انظر d'Agbon, 'La Mort d'Odon
'de Saint'Amand' in *Revue de l'Orient Latin*, vol. XII, pp. 279-82.

حدث جفاف شديد طوال الشتاء وبأكورة الربيع وأحدثت المجاعة بسورها كلها ،
وليس هناك من يرغب فى غارة تدمر المحاصيل الهزيلة ، وربما قرر صلاح الدين ضرورة
أن يسبق غزو حلب غزو القدس . وفى مايو من عام ١١٨٠م وقع ممثلو بلدوين
وصلاح الدين على هدنة لمدة سنتين ، واستبعدت طرابلس من الهدنة . على أنه بعدما
أغارت البحرية المصرية على ميناء طرطوس ، وبعد صد صلاح الدين من غارته على
النباع ، عقد معاهدة مماثلة مع ريموند^(٣٤) . وفى الخريف سار شمالا إلى الفرات حيث
تشاجر الأمير الأرتقى نور الدين صاحب حصن كيفا - والذي أصبح حليفه - مع قلج
ارسلان السلجوقى . ذلك أن نور الدين كان قد تزوج ابنة السلطان ، لكنه أهلها
بسبب إحدى الرافضات . وفى ٢ أكتوبر ١١٨٠م عقد صلاح الدين مؤتمرا بالقرب من
المصيصة ، حضره أمراء الأراتقة ومبعوثون من قلج ارسلان ، ومن سيف الدين صاحب
الموصل ، ومن روين الأرمينى . وأقسموا على أن يظلوا جميعا فى سلام طوال السنتين
التاليتين^(٣٥) .

وأما الملك بلدوين فقد أمضى فترة الهدنة فى محاولة بناء جبهة مسيحية ضد الاسلام
فذهب وليم الصورى ، وهو رئيس أساقفة منذ عام ١١٧٥م ، إلى روما عام ١١٧٩م
لحضور مجلس لاتيرانى^(٣٦) . وفى طريق عودته قام بزيارة إلى القسطنطينية فى الأيام
الأخيرة من السنة ، وكان الامبراطور مانويل على ما اعتاد عليه من إظهار الكياسة
والود ، لكن عين وليم النافذة استطاعت أن ترى فيه رجلا ميتا . لم يبرأ مانويل قط من
صدمة معركة ميريوسيفالوم مع أنه أظهر اهتماما كبيرا بسوريا ، ومكث وليم هناك
سبعة أشهر ، وحضر الاحتفالات العظيمة التى اقيمت بمناسبة زواج ابنة مانويل ماريبا ،
وكانت عانسا فى الثامنة والعشرين من عمرها ، على رينيه (أوف مونتفرات) ، أخى
زوج سيللا ؛ وزواج ابن مانويل ، وهو ابن عشر سنوات على الأميرة آجنس الفرنسية
وعمرها تسع سنين . وعاد برفقة مبعوثين امبراطورين وافقوه حتى انطاكية^(٣٧) . وكان

(٣٤) William of Tyre, xxii, 3-1, pp. 1053-6; Abu Shama, p. 211; Ibn al-Athir, p. 642.

(٣٥) Ibn al-Athir, pp. 639-40.

(٣٦) (المترجم): المجلس اللاتيرانى Lateran Council. تنسب التسمية الى القديس جون لاتيران St John Lateran، او الى كنيسة المساة باسمه ، وهى كنيسة البابا الكاتدرائية على موقع قصر Plautius Lateranus البازيليكي الرائع فى روما . والمجالس اللاتيرانية Lateran Councils هى خمسة مجالس عامة للكنيسة الغربية عقدت فى Lateran basilica، (١١٢٣م و١١٣٩م و١١٧٩م و١٢١٥م و١٥١٢-١٥١٧م) ويعتبرها الكاثوليك على أنها مجالس مسكونية او عالمية.

(٣٧) William of Tyre, xxii, 4, pp. 1066-8.

الأمير الأرمني روبين متلهفا على تقوية تحالفه مع الفرنج ، ففى باكورة عام ١٨١١م جاء حاجا إلى القدس ، وهناك تزوج الليدى ايزابيلا أميرة تبسين ، بنت ستيفانى اميرة منطقة الاردن^(٣٨) . وأعلن حتى اليعاقبة السريان ولائهم للقضية المسيحية المتحدة ، عندما زار بطريقتهم - ميخائيل المؤرخ - القدس وقابل الملك مقابلة طويلة^(٣٩) .

كما كانت هناك آمال معلقة على حليف من الشرق الأبعد . ذلك أنه منذ عام ١١٥٠م ، ذاعت رسالة فى أنحاء أوروبا الغربية تدل على أن الذى كتبها ذلك العاهل العظيم بريستر جون^(٤٠) إلى الامبراطور مانويل . وبرغم أنها من تزييف أسقف ألماني بصورة شبه يقينية ، فإن محتواها الذى يتحدث عن ثروة وورع ذلك القس الملك فائق الروعة بحيث يمتنع تصديقه . وفى عام ١١٧٧م أرسل البابا طيبه فيليب برسالة يطلب فيها معلومات ومساعدة ، ويبدو أن فيليب أنهى رحلته فى الحبشة ، ولم يكن لها نتائج حقيقية^(٤١) .

١١٨٠م : سيلا وبلدوين أمير ايلين

ومع ذلك لم يأت فارس قوى من الغرب ، ولا حتى للزواج من الأميرة سيلا وخلافة العرش . وعندما كان فريدريك رئيس أساقفة صور فى روما ، أرسل إلى هيو الثالث البرجندي ، وهو من سلالة البيت الملكي كأييه ، يترجاه أن يقبل الترشيح ؛ فوافق هيو بادئ الرأى ، لكنه فضل البقاء فى فرنسا . وفى تلك الأثناء وقعت سيلا نفسها فى حب بلدوين أمير ايلين . وكانت أسرة إيلين الآن ، برغم أصلها المتواضع ، فى مقدمة نبلاء فلسطين . وموت باليان العجوز الذى أسس الأسرة ، مُنحت إقطاعية إيلين نفسها لفرسان المستشفى ، لكن الرملة كانت من نصيب ابنه الأكبر هيو ، وموت هيو مرت إلى أخيه بلدوين الذى كان قد تزوج وريثة بيسان ، ولكن نبذها

(٣٨) Sembat the Constable, p. 627 ويشير Emoul, p.31 الى الزواج ، ويطلق على روبين ابن ثوروس . كما أورد (pp.25-30) زيارة ثوروس الى القدس ، وهى غير مسجلة فى أى مكان آخر، وربما كانت وهمية .

(٣٩) Michael the Syrian, III, p.379.

(٤٠) (المترجم) بريستر جون Prester John: ملك مسيحي أسطوري فى العصور الوسطى وقسيس ، يقال إنه كان يحكم إما فى الشرق الأقصى أو فى اثيوبيا.

(٤١) Rohricht, Regesta, pp.67, 145 وعن اسطورة بريستر جون انظر Marinescu, 'Le Prêtre Jean' in Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine, vol. x

بذريعة قرابة الدم الشديدة التي تحرم الزواج . والآن كان الابن الأصغر باليان زوج الملكة ماريا كومينا ، ولورد مدينة نابلس التي كانت مهرها ؛ وكان بلدوين وباليان الأكثر نفوذا من كل النبلاء المحليين ؛ وبرغم ما كان عليه بلدوين من نسب غير متميز ، كان لزواجه من سبيلا أن يحظى بشعبية في سائر أنحاء البلاد . وقبل إعداد ترتيبات الخطوبة ، وقع بلدوين في الأسر في مرج عيون ؛ وكتب له سبيلا وهو في سجنه تؤكد له حبها ؛ لكنها بعد أن أطلق سراحه قالت له بمرود إنها لا تستطيع أن تتخيل الزواج بينما هو ما يزال مدينا بفدية ضخمة . وكان جملها معقولا ، وإن كان مشبطا ؛ ولم يعرف بلدوين كيف يدبر المال ، فرحل إلى القسطنطينية وتسورها من الامبراطور ، الذي دفع الفدية كلها لما يعرف عنه من شغف باللفتات الكريمة . وعاد بلدوين منتصرا إلى فلسطين في وقت مبكر من ربيع ١١٨٠ م ، لا لشيء إلا ليحد سبيلا مخطوبة لرجل آخر^(٤٢) .

ولم تكن الليدى آجنس تستلطف قط أقارب أزواجها على اختلافهم وكانت تستهجن آل إيبيلين . وقبل بضع سنين جاء إلى فلسطين فارس من بواتو ، هو أمالريك الابن الثاني لكونت لوسينان . وكان جنديا جيدا ، وموت همفري أمير تبين عيين كونستابل . وفي نفس الوقت تقريبا تزوج إيشيفا ، ابنة بلدوين (أوف إيبيلين) ؛ وكان أيضا عشيقا لآجنس . وكان له أخ أصغر في فرنسا ، يدعى جوى . وبتشجيع من آجنس ، بدأ يخبر سبيلا عما كان يتحلى به هذا الشاب من وسامة غير عادية وفتنة إلى أن ترجته أخيرا في إحضاره إلى فلسطين . وفي الوقت الذي كان فيه بلدوين في القسطنطينية ، أسرع أمالريك إلى فرنسا لإحضار جوى ولإعداد له للدور الذي كان مقررا أن يعبه . ووجدته سبيلا على نفس قدر الوسامة التي قبلت لها ، فأعلنت أنها تنتوى الزواج منه . واعترض أخوها الملك ولكن دون جدوى ؛ إذ كان جوى - كما اتضح للجميع - صبيا ضعيفا أحمقا . واغتاز بارونات فلسطين لاحتمال أن يصبح ملكهم المقبل هذا الابن الأصغر لنيل فرنسي تافه ، وكل ما يميزه هي أنه من ذرية ميلوسين الأشبه بجنيات الماء ؛ غير أن آجنس وسبيلا راحتا تضايقان الملك المرهق المريض إلى أن وافق . وفي عيد الفصح من عام ١١٨٠ م تزوج جوى من سبيلا ومنح اقطاعيتي يافا وعسقلان^(٤٣) .

(٤٢) لم يذكر أحد قصة حب بلدوين (أوف إيبيلين) سوى 56-9, pp. 48, Ernoul . ويرنول كان في خدمة أخى بالدوين ، باليان ، ولذلك كان على علم جيد بشؤون الأسرة .

(٤٣) William of Tyre, xxii, 1, pp. 1064-5; Ernoul, pp. 59-60 . ويرنول Benedict of

١١٨٠ م : البطريق هيراكليوس

لأسباب سياسية، وكذلك شخصية، كان آل إيبيلين في غاية الحق، وتفاقم الشقاق بينهم وبين آل كورتناي، يساندتهم في ذلك رينالد (أوف شاتيلون). وفي أكتوبر ١١٨٠م حاول الملك التوفيق بينهما بأن خطب أخته غير الشقيقة إيزابيلا إلى همفري الرابع أمير تبين. وكانت إيزابيلا ابنة زوجة باليان (أوف ايلين)، وهمفري ابن زوجة رينالد (أوف شاتيلون). فضلا عن ذلك كان همفري، حفيدا ووريثا للكونستابل الكبير ووريثا شرعيا عن طريق أمه لاقطاعية منطقة الأردن، ولذلك كان أكثر النبلاء المحليين جدارة، ومن شأن الزواج أن يضيف رونقا على جدارته. ونظرا لصغر سن الأميرة، التي كانت في الثامنة، تقرر تأجيل الزواج الفعلي لثلاث سنوات^(٤٤). على أن الخطوبة لم تصلح شيئا. إذ بعد أيام قلائل استعرض آل كورتناي قوتهم بتعيين بطريق جديد. ذلك أن البطريق امالريك مات يوم ٦ أكتوبر؛ وفي ١٦ أكتوبر، وبضغط من الليدي آجنس، انتخبت هيئة الكنيسة في القدس كخليفة له هيراكليوس، رئيس أساقفة قيسارية. وكان قسيسا لا يكاد يعرف القراءة والكتابة أتى من أوفرن Auvergne، وكانت له وسامة لا قبل لآجنس بمقاومتها، وارتقى في المناصب بما كان لها من حظوة. وكانت محظيته الحالية زوجة أحد تجار الجوخ في نابلس، تدعى باشيا دي ريفيري، وسرعان ما اشتهرت في سائر أنحاء المملكة بأنها السيدة البطريقة Madame la Patriarchesse. وجاء وليم الصوري من أسقفيته صاخبا في محاولة لمنع الانتخاب ولكن دون طائل. وسمّاه الناصبون على أنه اختياريهم الثاني، لكن الملك صدّق على تعيينه بأمر من أمه^(٤٥).

وباتت القوة الآن راسخة في قبضة آل كورتناي ولوسينان وحلفائهم رينالد (أوف

Peterborough, 1, p. 343 إن سيلا كانت قد اتخذت بالفعل جوى عشيقا لها. وعندما اكتشف الملك ذلك، أراد أن يقتل جوى، ولكن بناء على طلب فرسان المعبد أبقى على حياته وسمح له بالزواج.

(٤٤) William of Tyre, xxii, 5, pp. 1068-9; Ernoul, pp. 81-2. واستادا الى وليم، تخلى همفري عن أراضي في الجليل للملك مقابل الارتباط وأعطي بلدوين تورون لأمه. ويقول ابن جبير Ibn Jubayr, ed. Wright, p. 304 إنها ملك "الخزيرة بنت الخزير لسورد عكا"، وإن حين ملك عمه جوسلين.

(٤٥) William of Tyre, xxii, 4, p. 1068، أورد ملحوظة مقتضبة توحي فيها حذف أي أمر يتعلق بترشيحه. ويقول Ernoul, pp. 82-4 بالتحديد إن آجنس أصرت على انتخاب هيراكليوس "لأن جماله محبوب" (pour sa biauté l'ama)؛ وسبق أن جعلته رئيس أساقفة قيسارية. ويضيف أن وليم حذر الكهنة من انتخابه. ويذكر Estoire d'Eracles, ii, pp. 57-9 أن وليم الصوري تنبأ بأن الصليب الذي وجدته هيراكليوس، سوف يضيئه هيراكليوس.

شاتيلون) والبطريق الجديد. وفي شهر ابريل ١١٨١م وجهوا ضربتهم إلى وليم الصوري الذي اعتبروه خطرا عليهم لأنه كان مدرس الملك سابقا. وبذريعة تافهة حكم عليه هيراكليوس بالطرد من الكنيسة. وبعد محاولات عقيمة لرأب الصدع رحل وليم الصوري عام ١١٨٢م أو ١١٨٣م إلى روما للدفاع عن قضيته لدى البلاط البابوي، ومكث هناك حيث مات، ويقال إن البطريق أرسل وراءه جاسوسا دس له السم^(٤٦). وكان ريموند امير طرابلس ثانيا المستهدفين للهجوم. فعندما كان يتهاى في وقت مبكر من عام ١١٨٢م للانتقال من كونتيته إلى أراضى زوجته في الجليل، منعه ضباط الملك من دخول المملكة؛ إذ أن آجنس وأخاها جوسلين ألقيا في روع الملك أنه يتآمر ضد التاج. ولم يرضخ الملك بلدوين إلا بعد الاحتجاجات الغاضبة من بارونات المملكة؛ وعلى مضض رضى بمقابلة ريموند الذي أقنعه ببراءته^(٤٧).

١١٨٠-١١٨٢م: عهد الكسيوس الثاني

ربما كانت المكائد التي تحاك حول الملك المحذوم الميت أقل خطورة لو لم يكن الوضع الخارجى حساسا. ففي ٢٤ سبتمبر فقد الفرنج أهم حلفائهم بموت الامبراطور مانويل فى القسطنطينية. وكان يحبهم حبا أصيلا، كما كان يعمل لمصلحتهم بصورة أصيلة، إلا عندما كان الأمر يصطدم بمصالح الامبراطورية. كان رجلا مؤثرا حاد الذكاء، ولكنه لم يكن امبراطورا عظيما؛ إذ أن طموحه للهيمنة على العالم المسيحى أدى به إلى مغامرات لا تقدر الامبراطورية على خوضها. وأرسل جنوده إلى ايطاليا وإلى داخل هنجاريا فى الوقت الذى كان وجودهم مطلوبا على حدود الأناضول أو فى البلقان. وتعامل مع صندوق ثروته كما لو كان لا ينفد أبدا. وكانت كارثة

(٤٦) Ernoul, pp. 84-6: *Estoire d'Eracles*, II, pp. 57-9. الذى يقول إن الذى دس السم لوليم هو طبيب أرسله هيراكليوس الى روما، وأن هيراكليوس نفسه زار روما بعد ذلك. وتاريخنا رحيل وليم وموته مجهولان. ويتوقف تاريخه فى عام ١١٨٣م. وقد زار هيراكليوس روما عام ١١٨٤ (انظر ادناه، ص ٤٤٤). ومن الناحية الأخرى جاء ذكر وليم فى وثيقة للبابا ايربان الثالث مؤرخة فى ١٧ أكتوبر ١١٨٦م على أنه القاضى فى الدعوى القانونية المتخاصم فيها نظام فرسان المستشفى وأسقف بولونياس (Rohricht, *Regesta, Addimenta*, p.44). ولذلك يفترض Rohricht أنه عاد إلى الأراض المقدسة (*Kreuzzugen*, p.491, n.5 *Geschichte der*). والأكثر ترجيحاً أن المحفوظات البابوية وقعت فى خطأ بشأن الاسم. وكان Josias رئيساً لأساقفة صور فى ٢١ أكتوبر ١١٨٦م (Rohricht, *Regesta*, p. 173).

(٤٧) William of Tyre, xxii, 9, pp. 1077-9.

ميربوسيفالوم ضربة مميتة لجيشه الذى كان لديه من المسؤوليات ما يثقل كاهله . وفى سلسلة طويلة من التنازلات التجارية التى منحها للمدن الايطالية نظير مميزات دبلوماسية عاجلة ، أضعف ما كان عليه رعاياه من رفاهية اقتصادية ، ومن ثم لم تملأ الخزانة الامبراطورية مرة اخرى قط . وبهرت روعة بلاطه العالم بحيث ساد الاعتقاد أن الامبراطورية أعظم مما هى عليه بالفعل ؛ ولو أنه عاش أطول مما عاش فرما كان أسطوره وذهب ، مع ذلك ، شيئا ذا قيمة للفرنج . وكانت شخصيته هى التى حافظت على تماسك الامبراطورية ؛ ولكن موته كشف عن انهيارها . ولقد صارع الموت متشبثا فى عناد بنبوءات منحه أربعة عشر عاما أخرى يعيشها ، فلم يعبأ بالترتيب للرعاية التى سوف يحتاجها ابنه^(٤٨) .

كان الامبراطور الجديد ، ألكسيوس الثانى ، فى الحادية عشرة من عمره . وحريا على ما اعتادت عليه بيزنطة من سوابق راسخة منذ القدم تولت الامبراطورة الأم الرعايا . لكن الامبراطورة ماريا لاتينية من انطاكية ، وهى أول لاتينية يحكم الامبراطورية ، ولكونها لاتينية لم تكن محبوبة من أبناء القسطنطينية ؛ كما أن حب مانويل لللاتين كان محل ازدراء لفترة طويلة ، وقد أضافت المنازعات الكنسية التى دبت فى انطاكية مرارة على مرارة لدى البيزنطيين ؛ إذ لم ينس أحد البتة مرور الصليبيين الصاحب فى أراضى الامبراطورية ، وكانت ذكريات المذابح فى قبرص ، والمجازر التى اقترفها البنادقة وأبناء بيزا وجنوا لا تزال عالقة بالأذهان . وأبغضهم جميعا التجار الايطاليون الذين كانوا يتبخثون زهوا فى القسطنطينية ، مغتربين بتحكمهم فى تجارة الامبراطورية التى كانوا دائما يحصلون عليها باعتدائهم على المواطنين المسلمين فى المقاطعات . واتخذت الامبراطورة مستشارا لها ، وكما كان يُظن ، عشيقا ، ابن أخ لزوجها ، بروتوسيباستوس ألكسيوس كومنينوس ، عم الملكة ماريا من القدس . وكان أحمقا لا يحظى بشعبية . وحنحا معا إلى العنصر اللاتينى ولا سيما إلى التجار الايطاليين . وقامت المعارضة فى وجه الامبراطورة تقودها ابنة زوجها ، بورفيروجينيت ماريا ، وزوجها رينيه (أوف مونترفرات) . وفشلت مؤامرتهم فى قتل المحبوب ؛ لكنهما عندما لاذا بكنيسة القديسة صوفيا ، مضى شأوا أبعد فى الاساءة إلى الجماهير عندما دنس الكنيسة . وأرغمت الامبراطورة على العفو عن المتآمرين ، لكنها فى وضعها هذا غير المأمون توصلت إلى أخى زوجها ، بيلا الثالث ملك هنجاريا كى يأتى لإنقاذها . وكان

(٤٨) أنظر Chalandon, *op. cit* pp. 605-8. ويذكر William of Tyre, xxii, 5, p.1069 موته .

ابن عم زوجها ، أندرونيكوس كومنينوس ، الذى غُفِر له ما قضاؤه فى الشرق من حياة الغواية ، يعيش الآن متقاعدًا فى بونتوس^(٤٩) ، وقد تذكّر رفاقه شجاعته وفتنته ، وعندما قدموه عليهم ليكون زعيما وطنيا كانت استجابته سريعة ؛ وفى اغسطس ١١٨٢ م سار عبر الأناضول ، وبسهولة هزم الجنود القلائل الذين لم ينضموا إلى صفوفه . وأما الامبراطورة فسرعان ما وجدت نفسها بمفردها ومعها مجرد اللاتينيين لمساعدتها . وباقتراب اندرونيكوس من البوسفور ، انقضّ ابناء القسطنطينية فجأة على كل اللاتين فى المدينة ، وقد أثارت الغطرسة اللاتينية المذبحة ؛ على أن مسارها المرعب صدم الكثير من أكثر البيزنطيين وطنية ، ولم ينج سوى القليل من التجار الايطاليين الذين هرعوا إلى سفنهم وانحروا غربا مغيرين على الشواطئ التى مروا بها . وبذا أصبح الطريق إلى القسطنطينية مفتوحا لأندرونيكوس .

وأول ما بدأ به هو القضاء على خصومه ؛ فألقى بروتوسيستوس فى السجن وفقاً عينيه بقسوة . وماتت بروفيروجينيت ماريا وزوجها ميتة غامضة . وأما الامبراطورة الأم فقد حُكِمَ عليها بالإعدام خنقا وأُجبر ابنها نفسه على التوقيع على الحكم . وأصبح أندرونيكوس امبراطورا مشاركا ، وبعد ذلك بشهرين ، فى نوفمبر ١١٨٢ م ، اغتيل الامبراطور الصبى الكسيوس الثانى نفسه ، وتزوج أندرونيكوس الذى كان فى عامه الثانى والستين من أرملة آجنس الفرنسية البالغة من العمر الثانية عشرة سنة .

وبخلاف حالات القتل هذه ، بدأ اندرونيكوس عهده بداية طيبة ؛ فطهر الخدمة المدنية من موظفيها الفاسدين والزائدين عن الحاجة ، وأصر على سيادة العدالة وصرامة القانون ، وأرغم الأثرياء على دفع ضرائبهم ، ووفر الحماية للفقراء من الاستغلال . ولم يحدث لقرون أن كانت المقاطعات محكومة بمثل هذا الحكم الجيد . بيد أن اندرونيكوس كان خائفا وله العذر . ذلك أن الغيرة راحت تنهش الكثيرين من أقربائه ، بينما كانت الطبقة الأرستقراطية تزدرى سياسته ، وكانت الشؤون الخارجية تتوعد بالأخطار . وتحقق من الإنطباع الرهيب الذى تركته مذبحة ١١٨٢ م فى الغرب ، فسارع ليس فقط إلى ابرام معاهدة مع البندقية يعد فيها بتعويض سنوى عن خسائرها ، وإنما سعى كذلك إلى تهدئة البابا بتشيد كنيسة فى العاصمة لإقامة الطقوس اللاتينية ، وشجع تجار الغرب على العودة . بيد أن ألد أعداء بيزنطة كانا امبراطور هوهينشتوفن (الألماني) وملك صقلية ، وفى عام ١١٨٤ م حدث زواج مشووم بين ابن الامبراطور فريدرىك ، هنرى ،

(٤٩) (المترجم) بونتوس Pontus: مملكة قديمة شمال شرق آسيا الصغرى على البحر الأسود.

وأخت ولیم الثانی والوريشة، كونستانس . ولعلمه بأن صقلية سرعان ما ستهاجمه، فقد أحب اندرونيكوس أن يستوثق من حدوده الشرقية؛ ووجد أن نجم صلاح الدين في ارتفاع هناك، ولذا قلب سياسة مانويل رأسا على عقب بعقد معاهدة مع صلاح الدين يطلق فيها يده ضد الفرنج في مقابل تحالفه معه ضد السلاجقة ، ويبدو انهما اتفقا كذلك على تفاصيل تقاسم الغزوات المقبلة وبمحالات النفوذ.

١١٨٥م : سقوط اندرونيكوس كومنينوس

على أن المعاهدة كانت عقيمة . إذ أن خشية اندرونيكوس على نفسه في القسطنطينية دفعته إلى الشروع في اتخاذ اجراءات قمعية تزايدت في وحشيتها حتى لم يعد أحد في العاصمة يشعر بالأمان . ولم يوجه ضربه إلى الارستقراطيين فحسب ، وإنما اعتقلت شرطته حتى التجار والعمال البسطاء لأوهى اشتباه في التآمر ، فكانت عيونهم تُفَقَأ أو كانوا يرسلون إلى حيث تُفَصَّل رؤوسهم . وعندما هبط إلى البر في عام ١١٨٥م جيش صقلی في إبيروس وزحف على نيسالونيكيا، تملك الذعر أندرونيكوس . وأسفر ما أقدم عليه من اعتقالات بالجملة ، وما ارتكبه من اعدامات ، إلى أن دفعت بالشعب كله إلى الثورة التي تفجرت عندما افلح أحد أبناء عمومة الامبراطور ، هو ايزاك أنجيلوس ، من الهرب من سجنائه إلى مذبح القديسة صوفيا والتمس العون من هناك ، وكان يتصف بكرههته للإساءة . بل أن الحرس الشخصي المحيط بأندرونيكوس تخلوا عنه ؛ فحاول عبثا الهرب عبر آسيا ، لكنهم امسكوا به وطافوا به في انحاء المدينة على جمل أجرب ، ثم عذبته الجماهير الهائجة ومزقته إربا حتى الموت . وأعلن عن تنصيب ايزاك انجيلوس امبراطورا ، فتمكن من الحفاظ على نوع من النظام وعقد سلاما مهينا مع ملك صقلية ، لكنه لم تكن له أية فعالية كحاكم . لقد غدت الامبراطورية القديمة قوة من الدرجة الثالثة بنفوذ طفيف في السياسة العالمية^(٥٠).

وأدى اضمحلال بيزنطة إلى قلب موازين القوة في الشرق . وقد انتهج لذلك امراء أرمينيا وانطاكية ، واحتفلوا بخلاصهم من بيزنطة بأن تشاجروا مع بعضهم البعض . فما أن سمع بوهمند الثالث نبأ وفاة مانويل حتى نبذ زوجته اليونانية كي يتزوج سيدة انطاكية منحلّة تدعى سيبلا ؛ ولم يكن البطريق إيمري قد استحسن الزواج اليوناني ،

(٥٠) عن عهد اندرونيكوس انظر Nicetas Choniates, pp. 356-463 وورد William of Tyre, xxii 1079-86 pp. 13-10 عرضا مفيدا بما فيه الكفاية عن استخلاف اندرونيكوس .

ولكن الزنا صدمه ، فأصدر مرسوما بطرد بوهمند من الكنيسة ، وفرض على المدينة الحرمان الديني ، وانسحب مرة أخرى إلى القصر . وكان نبلاء انطاكية على حق في بغضهم لسييلا ، إذ كانت جاسوسة تتلقى الأموال من صلاح الدين لقاء معلومات تتصل بقوة الجيوش الفرنجية وتحركاتها . فساند النبلاء البطريق إيمري ، وأطلقت الحرب الأهلية برأسها لولا أن أرسل الملك بلدوين وفدا كنسيا برئاسة البطريق هيراكليوس للتحكيم . ووافق البطريق إيمري على رفع الحرمان المفروض على المدينة ، ولكن ليس الطرد لبوهمند ، لقاء تعويض مالي ، وتم الإعتراف بسييلا أميرة . ولم يرض الكثير من النبلاء بالتسوية فهربوا إلى بلاط روين . وفي نهاية عام ١١٨٢م زادت العلاقات بين الأميرين تعقيدا عندما تمرد محافظ كيليكيا البيزنطي ، ايزاك كومنينوس ، على اندرونيكوس وطلب المساعدة من بوهمند ضد روين ، وقبل مجئ جنوده في طرسوس . وعلى الفور غير بوهمند من رأيه وباع طرسوس والمحافظ لروين ، ثم ندم على ذلك . وطلب فرسان المعبد فدية عن ايزاك على فهم أن القبارصة المتعاطفين معه سيدفعونها لاحقا ، وعلى الأثر انسحب ايزاك إلى قبرص حيث نصب نفسه امبراطورا مستقلا وتناسى الدين . ثم إن روين ابتلع إمارة هيثوميانز الارمنية الصغيرة التي بقيت في لامبرون شمال غرب كيليكيا تحت حماية القسطنطينية ، وكان ذلك بمثابة الانذار لجيرانه . وهكذا أدى توسيعه لسلطته إلى أن شعر بوهمند بالخطر ، فدعاه عام ١١٨٥م إلى مأدبة مصالحة في انطاكية واعتقله لدى وصوله . غير أن أخا روين ، ليو ، أنهى غزو هيثوميانز ، وهاجم انطاكية . وأفرج عن روين بعدما تنازل لبوهمند عن المصيصة وأدنا ، لكنه سرعان ما استردهما لدى عودته إلى كيليكيا وأعلن عن نفسه سيدا للمقاطعة كلها . وأغار بوهمند بغارات عقيمة لم تحقق شيئا^(٥١).

١١٨١م : رينالد (أوف شاتيلون) ينقض المعاهدة

كانت النزاعات الدائرة بين أقزام الزعماء المسيحيين ملائمة للغاية لصلاح الدين . فلا بيزنطة ولا حتى فرنج شمال سوريا سيعرقلون تقدمه ، كما ولن يرسلوا العون إلى

(٥١) William of Tyre, xxii, 7-6, pp. 1071-4; William of Tyre, *Latin Continuation*, p. 208; Ernoul, p. 9; Nicetas Choniates, pp. 376-7; Neophytus, *De Calamitatibus Cypri*, clxxxvii; Michael the Syrian, iii, pp. 389-94; Sambat the Constable, p. 628; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 508-10. Ibn al-Athir, pp. 729-30; Abu Shama, p. 374.

مملكة القدس . وكانت الدولة الوحيدة في الشرق التي حظت بالاحترام فيما بين المسلمين هي مملكة جورجيا النائية ، والتي كانت تتضخم على حساب أمراء إيران السلاجقة المنهمكين في مصاعبهم التي كانت ملائمة تماما للسلطان^(٥٢) . أما والحالة هكذا ، كان من اللازم للمملكة أن تحافظ على هدنة ١١٨٠ م . لكن رينالد (أوف شاتيلون) ، وهو الآن لورد منطقة الأردن ، استعصى على فهمه سياسة تسير بما لا يتفق مع رغباته ؛ إذ بمقتضى الهدنة يستطيع التجار من المسيحيين والمسلمين على السواء أن يرتحلوا في أمان في أراضي كل من الجانبين ، وأضنى رينالد أن يرى القوافل الإسلامية الثرية في المتناول تمر دون أن يلحقها أذى . وفي صيف ١١٨١ م ، ضعف أمام الإغراء فقاد جنوده المحليين شرقا إلى داخل الجزيرة العربية إلى تيماء بالقرب من الطريق المتجه من دمشق إلى مكة ؛ وبالقرب من الواحة انقض على قافلة كانت مرتحلة في أمان إلى مكة وانسل هاربا بكل بضائعها، بل يبدو أنه كان يتأمل فكرة السير جنوبا لمهاجمة المدينة المنورة، لكن صلاح الدين ، الذي كان في مصر، أرسل حملة سريعة بقيادة ابن أخيه فاروق شاه من دمشق إلى داخل منطقة الأردن جعلت رينالد يسرع بالعودة . واشتكى صلاح الدين إلى الملك من خرق المعاهدة وطلب تعويضا ؛ واعترف بلدوين بعدالة المطلب ؛ وأرسل المبعوثين على جناح السرعة إلى رينالد الذي رفض دفع أية تعويضات رغم ذلك . وقد أيدته أصدقاؤه في المحكمة العليا إلى أن ترك الملك الضعيف الموضوع بلا حل . لكن صلاح الدين تابعه ؛ فبعد أشهر قليلة ، اضطر الجور العاصف أن يهبط ألف وخمسمائة حاج إلى البر في مصر بالقرب من دمياط وهم لا يعلمون بأن الهدنة قد انتهكت . فقيدهم صلاح الدين جميعا بالسلاسل ، وأرسل إلى بلدوين يعرض إطلاق سراحهم فور عودة البضائع التي استلبها رينالد . ومرة أخرى رفض رينالد إعادة أي شيء . وباتت الحرب الآن أمرا حتميا^(٥٣) .

حث رينالد وأصدقاؤه الملك على تركيز الجيش الملكي في منطقة الأردن للإمساك بصلاح الدين عندما يأتي صاعدا من مصر . وأكد آل إيبيلين وريموند أن ذلك سوف يكشف فلسطين له عندما يمر بها، ولكن دون جدوى . وفي ١١ مايو ١١٨٢ م غادر

(٥٢) للاطلاع على تاريخ جورجيا في ظل الملك جورج الثالث (١١٥٦-١١٨٤م) انظر *Georgian Chronicle*, pp. 231-7. وقد خلفته ابنته الملكة العظيمة ثمار *Thamar*. انظر *Allen, History of the Georgian People*, pp. 102-4.

(٥٣) *William of Tyre*, xxii, 14, p. 1087. حذف السبب الذي دفع صلاح الدين إلى اعتقال الحجاج *Ernoul*, pp. 54-6; *Abu Shama*, pp. 214-18; *Ibn al-Athir*, pp. 647-50.

صلاح الدين مصر ؛ وبينما كان يودع وزرائه فى حفل وداع، علا صوت من بين الحشد يردد بيتا من الشعر فحواه أنه لن يرجع إلى مصر ثانية قط . وتصادف أن صدقت النبوءة . وقاد جيشه عبر صحراء سيناء إلى العقبة ، وسار شمالا بلا صعوبة شرق الجيش الفرنجى تماما، يدمر المحاصيل فى طريقه . ولما وصل دمشق وجد أن فاروق شاه قد أغار فعلا على الجليل وخرب القرى الواقعة على منحدرات جبل الطور ، واستولى على عشرين ألف رأس من الماشية والف أسير ، وفى طريق العودة هاجم فاروق قلعة حبيس جلدك المقوسة فى نثوء خارج الصخور أعلى نهر اليرموك عبر الأردن ؛ وحفر خندقا إليها عبر الصخور جعلها تحت رحمته ، وعلى الفور استسلم المسيحيون السريان العازفين عن التضحية بأنفسهم من أجل الفرنج . وأمضى صلاح الدين ثلاثة أسابيع فى دمشق، ثم رحل مع فاروق شاه وجيش ضخيم يوم ١١ يولية وعبر إلى داخل فلسطين حول جنوب بحر الجليل . وأدرك الملك حماقة استراتيجيته السابقة فعاد من منطقة الأردن وسار أعلى الضفة الغربية للنهر ، وقد أحضر معه البطريق والصليب الحقيقى كى تحمل البركات على فرق الجيش . والتقى الجيشان أسفل قلعة فرسان المستشفى المسماه 'كوكب الهوى' (بلفوار) . وفى وطيس المعركة صمد الفرنج لهجمات صلاح الدين ، لكن هجماتهم المضادة لم تفلح فى كسر صفوف المسلمين . وفى آخر النهار انسحب كل جانب زاعما احراز النصر^(٥٤).

كانت المعركة بمثابة صدمة لصلاح الدين باعتباره الغازى ، ولكنها مجرد صدمة مؤقتة . وفى أغسطس عبر الحدود مرة أخرى فى مسيرة خاطفة خلال جبال بيروت ، وفى ذات الوقت ظهر اسطوله على الساحل ، وكان قد استدعاه من مصر بالحمام الزاجل بين القاهرة ودمشق . لكن بيروت كانت محصنة جيدا . وما أن سمع بلدوين بالأنباء حتى دفع بجيشه إلى الشمال من الجليل ، ولم يتوقف الا ليجمع سفنه الراسية فى مينائى عكا وصور . ولم يفلح هجوم صلاح الدين على المدينة قبل وصول الفرنج ،

(٥٤) William of Tyre, xxii, 16-14 pp. 1087-95; Abu Shama, pp. 218-22; Ibn al-Athir, pp. 651-3. وبيت الشعر الذى قيل لصلاح الدين أثناء توديعه قبل مغادرته القاهرة هو :

تمتع من شميم عَرَار نجد .: لما بعد العشية من عَرَار

-(Enjoy the perfume of the ox-eyes of Nejd. After tonight there will be no more ox eyes.).

فانسحب^(٥٥) . لقد حان الوقت لكى ينصرف إلى أعمال أخرى أكثر إلحاحا .

١١٨١ م : وفاة الصالح اسماعيل

فى ٢٩ يونية ١١٨٠م مات سيف الدين صاحب الموصل تاركا مجرد أطفال صغار. ودعا أمراء الموصل أخاه عز الدين ليخلفه . وبعد ذلك بثمانية عشر شهرا ، فى ٤ ديسمبر ١١٨١م ، مات الصالح صاحب حلب فجأة فى نوبة مغص قلوبى ، رأى فيه الجميع السم . وكان شابا فى الثامنة عشرة من عمره ، نبيها ، ذكيا ، حريبا بأن يصبح حاكما عظيما . وبينما كان على فراش الموت توسل إلى أمرائه أن يستخلفوا ابن عمه صاحب الموصل كى تتحد أراضى العائلة ضد صلاح الدين . ووصل عز الدين إلى حلب فى نهاية العام ولقى ترحيبا حماسيا حارا . وجاءه رسل أمير حماه يعرضون عليه ولائهم ؛ غير أن هدنة الستين مع صلاح الدين لم تنته بعد ، ورفض عز الدين عرضهم ، بدافع التراخى أكثر من كونه بوازع الشرف ، وكان لديه الكثير مما يقلقه ؛ إذ أن أخاه عماد الدين صاحب سنجار ادعى فى فبراير ١١٨٢م أن له نصيبا فى الميراث ، وراح يحبك المكائد مع قائد جيش حلب ، قوقورى . وعاد عز الدين إلى الموصل فى مايو بعد أن أعطاه عماد الدين سنجار بدلا من حلب ، وكوفئ قوقورى بامارة حارم حيث راح يتآمر مع جيرانه الأراتقة ، أمير حصن كيفا وأمير البيرة ، ضد أمراء حلب والموصل وقطب الدين الأرتقى صاحب ماردين ، ودعا المتآمرون صلاح الدين لمساعدتهم . وانتهت فى سبتمبر الهدنة المعقودة فيما بين الأمراء المسلمين ؛ وفى يوم انتهائها عبر صلاح الدين الحدود ، وبعد هجوم مضلل على حلب ، عبر الفرات عند البيرة ، وسقطت امامه مدن الجزيرة الواحدة تلو الأخرى ، الرها ، وسروج ، ونصيبين . فواصل زحفه على الموصل وبدأ حصارها يوم ١٠ نوفمبر . ومرة أخرى شعر بالاحباط إذ وجد أن التحصينات من القوة بحيث لا تنال منها الرجمات . وشعر سيده الروحى - الخليفة الناصر - بالصدمة من هذه الحرب الدائرة بين المسلمين ، فحاول التفاوض على السلام . وأخذ حاكم شاة أرمن السلجوقى وأمير ماردين يعدان العدة لإرسال قوات لمساعدة الموصل ، فانسحب صلاح الدين إلى سنجار التى استولى عليها بهجوم شامل بعد حصارها لمدة اسبوعين . وفى هذه المرة فقط لم يستطع كبح جنوده من نهب

William of Tyre, xxii, 18-17 pp. 1096-1101; Abu Shama, p. 223; Ibn al-Athir, pp. (٥٥) 653.

المدينة، لكنه اطلق واليها وأرسله إلى الموصل معززا مكرما . وخرج عز الدين وحلفاؤه لملاقاته في ماردين ، ولكنه أرسل من يتقدمه عارضا الهدنة ؛ وعندما رد صلاح الدين بفضاظة أنه سيقابلهم في ميدان المعركة ، تفرقوا هارين إلى بلادهم . ولم يطاردهم ، وإنما اتجه شمالا لإخضاع ديار بكر ، وهي أغنى وأقوى قلاع الجزيرة ، وبها المكتبة الأرفع شأنًا في الاسلام . وأعطى المدينة لأمير حصن كيفا . وبعد أن أعاد تنظيم الجزيرة ، بأن عهد بكل مدينة إلى من يثق فيه من الأمراء كإقطاعية ، ظهر مرة يوم ٢١ مايو أمام حلب^(٥٦).

١١٨٣م : صلاح الدين يمتلك حلب

عندما انطلق صلاح الدين للهجوم على عماد الدين وعز الدين ، استنجد كلاهما بالفرنج . وذهبت اليهم سفارة تعدهم بإعانة سنوية قدرها عشرة آلاف دينار ، مع التنازل عن بانياس وحبيس قلداك ، والإفراج عن الكثير من الأسرى المسيحيين ممن قد يتضح وجودهم لدى صلاح الدين ، وذلك في حالة قيامهم بهجوم مضلل على دمشق . وكانت لحظة زاخرة بالآمال ؛ فبعد أيام قلائل من غزو صلاح الدين للجزيرة مات فجأة ابن اخيه فاروق شاه والى دمشق . وعلى الأثر أغار الملك بلدوين - ومعه البطريق والصليب الحقيقى - على أراضى حوران ، ونهب عزيز ووصل إلى بصرى ، بينما استعاد ريموند كونت طرابلس حبيس قلداك . وفى وقت مبكر من ديسمبر ١١٨٢م ، قاد ريموند مجموعة مغيرة من الفرسان توغلت مرة اخرى فى بصرى ، وبعد أيام قلائل انطلق الجيش الملكى يريد دمشق ، وضرب معسكره فى ضاحية الدارية التى كان بها مسجد شهير ، أبقى عليه بلدوين بعد أن استقبل وفدا من مسيحيى دمشق يحذرونه من المساس به وإلا سينتقم المسلمون بالهجوم على الكنائس . ولم يحاول الملك مهاجمة المدينة ذاتها ، وسرعان ما انسحب محملا بالغنائم لتمضية عيد الميلاد فى صور . وخطط لحملة أخرى فى الربيع، غير انه فى وقت مبكر من العام الجديد سقط مريضا بالحمى فى الناصرة وهو فى حالة ميؤوس منها . وأمضى بضعة اسابيع بين الحياة والموت ، وتسبب مرضه فى أن أصبح جيشه فى حالة سكون^(٥٧). وأبعد إلى الشمال كان بوهمند الثالث

(٥٦) Beha ed-Din, P.P.T.S pp.79-86; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp. 159-60; Ibn al-Athir, pp. 656-7.

(٥٧) William of Tyre, xxii 22-20, 25, pp. 1102-16; Ibn al-Arhir, pp.155-9.

فاقد الحيلة بلا قوة تمكنه من الإقدام على أى عمل ضد صلاح الدين . وأرسل إلى معسكره امام حلب واهرم معاهدة هدنة لأربع سنوات ، مكنته من اصلاح دفاعات عاصمته^(٥٨).

وفى حلب ، لم يبذل عماد الدين جهدا يذكر للتصدي لصلاح الدين ؛ إذ لم يكن يحظى بشعبية هناك ، وقبل بسرور ما عرضه عليه صلاح الدين من منحه بلده القديم الذى يضم سنجار بالاضافة إلى نصيبين وسروج والرقه . وفى ١٢ يونية ١١٨٣م تملك صلاح الدين حلب ، وبعد خمسة أيام رحل عماد الدين إلى سنجار تحيطه مظاهر التشريف ، ولكن الجماهير سخرت من تخليه على هذا النحو المستهتر . وفى ١٨ يونية دخل صلاح الدين المدينة دخوله الرسمى واتجه بفرسه إلى القلعة^(٥٩).

وفى ٢٤ أغسطس عاد السلطان إلى دمشق التى تقرر أن تكون عاصمته^(٦٠). والآن امتدت امبراطوريته من سيرانيك^(٦١) إلى نهر دجلة . وطوال قرنين مضيا ، لم يكن هناك أمير مسلم بهذه القوة . كان لديه ثراء مصر حائطا يحصى ظهره ، والمدنيتان العظيمتان دمشق وحلب تخضعان لحكومته المباشرة ، وحولهما اقطاعيات يضع ثقته فى حكامها تمتد شمالا وشرقا حتى أسوار الموصل ، وكان الخليفة فى بغداد يسانده ؛ وعز الدين فى الموصل يخنشى بأسه ؛ والسلطان السلجوقى فى الأناضول يسعى إلى التقرب منه للفوز بصداقته ، وأمراء الشرق السلاجقة بلا قوة ليعارضوه . ولم يبق الآن سوى قمع الدخلاء الأجانب الذين كان امتلاكهم لفلسطين وساحل سوريا مهانة باقية للاسلام .

(٥٨) Ibn al-Athir, p. 662.

(٥٩) Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 86-8; Ibn al-Athir, pp.662; Abu Shama, pp. 225-8; Kemal al-Din, ed. Blochet, p. 167; William of Tyre, xxii, 24, pp. 1113-14, الصورى فهم جيدا مغزى فتح صلاح الدين لحلب .

(٦٠) Beha ed-Din, P.P.T.S p. 89.

(٦١) (المترجم) Cyrenaica: التسمية القديمة لإقليم برقة الواقع شرق ليبيا حاليا.

الفصل الثانى:

قرنا حطين

قَرْنَا حَطَّينَ

"قربت نهائنا . كُملت أيامنا لأن نهائنا قد أتت"

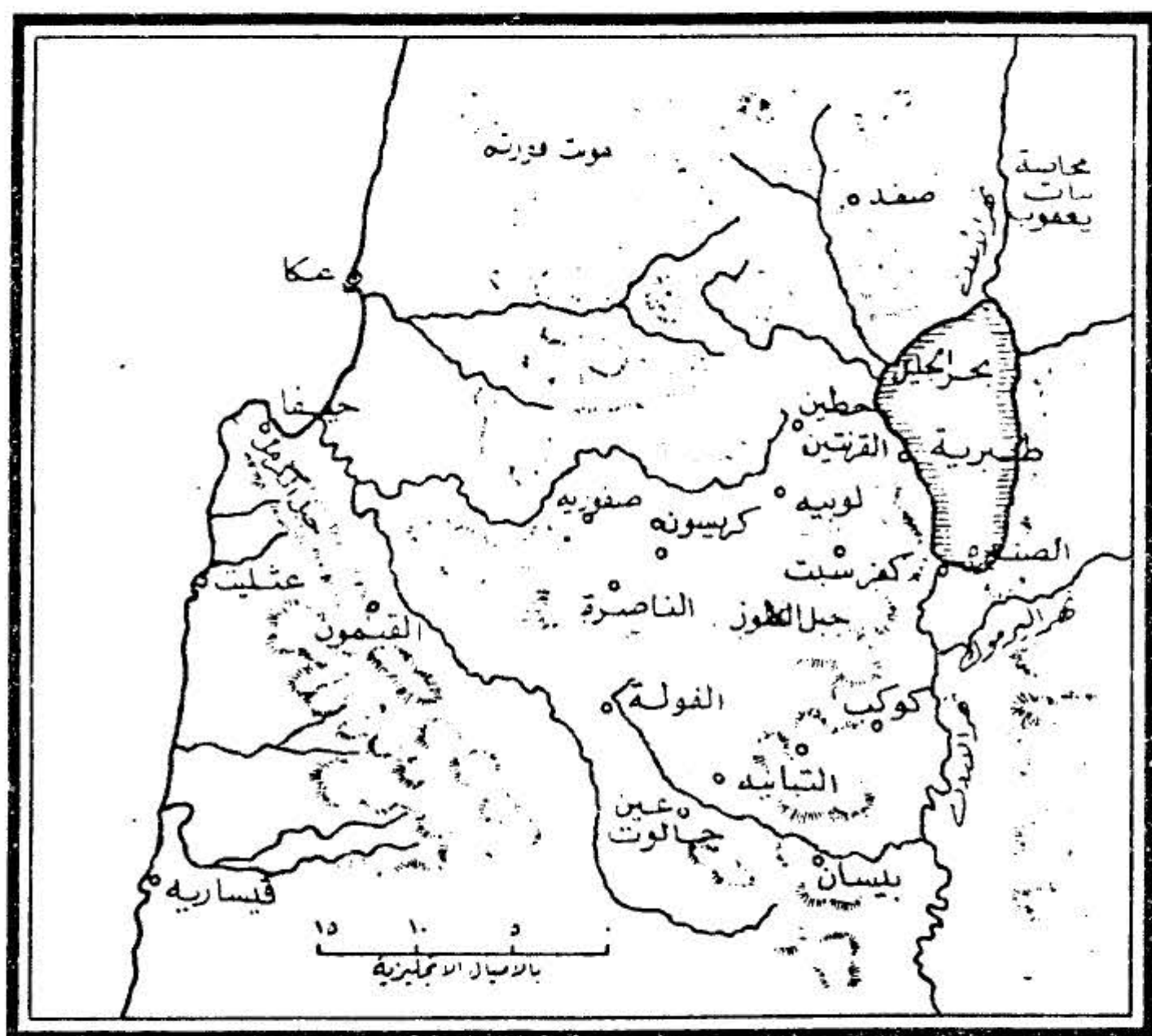
(مراثى إرميا ٤ : ١٨)

عندما نهض الملك بلدوين من فراش مرضه فى الناصرة ، بات حلياً أنه لم يعد قادراً على حكم البلاد . إذ أن الحمى فاقمت مما يعانيه من الجذام ، ففقد القدرة على استخدام ذراعيه وقدميه ، وقد بدأ الأربعة فى التآكل ؛ وكاد يفقد البصر . وقام على خدمته وحراسته أمه واخته سبيلا والبطريق هيراكليوس ، وراحوا يثثونه على تسليم الوصاية لزوج سبيلا ، جوى (أوف لوسينان) . وتقرر أن يسيطر جوى سيطرة كاملة على المملكة ، فيما عدا مدينة القدس التى احتفظ بها الملك لنفسه ، بإيراداتها البالغة عشرة آلاف بيزانت . وقبل بارونات المملكة قرار الملك على مضض^(١) .

(١) . William of Tyre, xxii, 25, pp. 1116-17.

١١٨٢م : حملة رينالد فى البحر الأحمر

ولم يكن رينالد (ارف شاتيلون) حاضرا تلك المداولات . وعندما علم برحيل صلاح الدين إلى الشمال فى خريف عام ١١٨٢م ، بدأ فى تنفيذ مشروع كثيرا ما كان يداعب خياله ؛ وهو اطلاق اسطول صغير إلى البحر الأحمر للإغارة على قوافل البحر الثرية الذاهبة إلى مكة ، ومهاجمة حتى مدينة الاسلام المقدسة ذاتها . وعندما اقتربت السنة من نهايتها سار جنوبا إلى أيلة على رأس خليج العقبة ، وقد أحضر معه السفن التى بناها من أخشاب غابات مؤاب وحربها فى مياه البحر الميت . واستولى على ميناء ايلات الذى كان بحوزة المسلمين منذ عام ١١٧٠م ، لكن القلعة المشيدة على الجزيرة القريبة التى أطلق عليها مؤرخو الفرنج "جزيرة جراى Ile de Graye" ظلت صامدة ؛ وبقي رينالد مع سفينتين من سفنه لمحاصرتها ، وأبحر باقى اسطوله بعيدا عن الجزيرة فى مرج وطرب ، يرشده القراصنة المحليون . وأبحروا جنوبا على الساحل الأفريقى للبحر الأحمر ، يغيرون على المدن الساحلية الصغيرة التى كانوا يمرون بها ، وأخيرا هاجموا عيذاب ، الميناء النوبى العظيم المواجه لمكة . وهناك استولوا على سفن تجارية غنية محملة بالبضائع من عدن ومن الهند ؛ وهاجمت فرقة ارضية قافلة ضخمة بلا حراسة جاءت عبر الصحراء من وادى النيل . ومن عيذاب عبر القراصنة إلى ساحل الجزيرة العربية ؛ وحرقوا السفن الراسية فى مينائى المدينة ، الحوراء وينبع ، وتوغلوا حتى الرغيب ، وهو أحد موانئ مكة ذاتها ، وعلى مقربة أغرقوا باخرة حجاج كانت قاصدة ميناء جدة . وارتاع العالم الإسلامى كله . بل أن أمراء حلب والموصل ، الذين طلبوا مساعدة الفرنج ، شعروا بالخزى لإقدام حلفائهم على هذا الانتهاك لحرمة العقيدة . وتحرك أخو صلاح الدين ، الملك العادل والى مصر فأرسل أمير البحار المصرى حسام الدين لؤلؤ بأسطول يحمل ملاحين مغاربة من شمال افريقية لمطاردة الفرنج . وبدأ لؤلؤ بتخليص جزيرة جراى واستعاد ميناء ايلات الذى كان رينالد نفسه قد انسحب منه ؛ ثم إنه لحق بأسطول القراصنة خارج ميناء الحوراء فدمره وأسر جميع الرجال الذين كانوا على ظهره تقريبا . وأرسل عددا قليلا منهم إلى مكة لكى تجرى عليهم شعيرة الأضحية فى مكان الذبح فى منى أثناء الحج التالى . وأخذ الباقون إلى القاهرة حيث ضربت



خريطة رقم (٦) الجليل

أعناقهم . وأقسم صلاح الدين أغلظ الإيمان بالانتقام من رينالد لمحاولته المشينة^(٢) .

وغادر صلاح الدين دمشق يوم ١٧ سبتمبر ١١٨٣ م بجيش ضخم لفتح فلسطين . وفي التاسع والعشرين عبر الأردن ، جنوب بحر الجليل تماما ودخل ييسان التي هرب أهلها حيث الأمان وراء أسوار طبرية . ولما سمع حوى (أوف لوسينان) بمجيئه استدعى كامل قوة المملكة وقد تعززت بزائرين صليبيين اثنين من الأثرياء ، جودفرى الثالث ، دوق برابانت ، ورالف الأكيتانى (أوف موليون) ورجاهما . وكان مع حوى ريموند أمير طرابلس ، والسيد الأعظم لفرسان المستشفى ، ورينالد (أوف شاتيلون) ، والأخوان إيبيلين ، رينالد أمير صيدا ووالتر أمير قيسارية ؛ وانضم اليهم همفرى الرابع الصغير أمير تبين مع قوات زوج أمه من منطقة الأردن ، لكن المسلمين نصبوا له كميناً على منحدرات جبل جلبوع ، حيث قتل أغلب رجاله . ثم أرسل صلاح الدين فصائل لانتزاع حصون الجوار وتدميرها ، بينما راح آخرون يخربون الدير اليونانى على جبل الطور ، لكنهم أخفقوا فى اختراق الأسوار المنيعة للمنشأة اللاتينية على قمة التل . وعسكر هو نفسه مع جيشه الرئيسى بجوار عيون التبانة فى موقع مدينة بزرعيل القديمة .

١١٨٣ م : حوى يتشاجر مع الملك

تجمع الفرنج يوم أول ديسمبر فى صفورية وساروا إلى داخل سهل بزرعيل . وهاجم المسلمون فى الحال حرس المقدمة ، الذى كان يقوده الكونستابل أمالريك ، ولم ينقذه منهم سوى وصول الأخوين إيبيلين مع جنودهما فى الوقت المناسب . وعسكر المسيحيون عند عيون جالوت فى مواجهة صلاح الدين الذى أفسح جناحيه بحيث كاد أن يطوقهم . وظل الجيشان ساكنين لخمسـة ايام ، ولم يكن من اليسير أن تصل الامدادات إلى المسيحيين ، وبعد يوم أو يومين اشتكى المرتزقة الإيطاليون من الجوع ، وجاء اكتشاف الأسماك فى عيون جالوت فى وقته المناسب لإنقاذ الجيش من التضور جوعاً . وكان أغلب الجنود ، بمن فيهم الفرسان الفرنسيين ورينالد الذى استهان

(٢) Abu Shama, pp.231-5; Ibn al-Athir, p.658; Maqrissi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol. VIII, pp. 550-1. ولم يذكر أحد من المؤرخين الفرنج تلك الغارة سوى 69-Emoul. يتحدث عنها على أنها حملة علمية . وشاهد ابن جبير (Ibn Jubayr) (طبعة 49 Wright) الأسرى الفرنج فى القاهرة .

بالمسلمين ، يرغبون فى الهجوم على المسلمين ؛ ولكن جوى تردد وارتجف ، وأصر ريموند وأميرا إيلين على أن استثارة هذه الأعداد الغفيرة فيه الموت المحقق ، ولا بد للجيش من أن يبقى فى حالة الدفاع ، وكانوا على حق . وحاول صلاح الدين عدة مرات أن يتصيدهم للخروج ، ولما فشل فى ذلك هدم معسكره وعاد يوم ٨ أكتوبر عبر الأردن .

صدم تصرف جوى كلا من الجنود الذين عرفوا فيه جن الحوف ، والفرسان الذين يعلمون عنه صفة الضعف . ولدى عودته إلى القدس تشاجر مع الملك . ذلك أن بلدوين شعر أن هواء صور يناسبه على نحو أفضل من مرتفعات القدس ذات الرياح . فسأل زوج اخته أن يتبادلا المدينتين ، لكن جوى تلقى الطلب بقلة أدب ، فتملكت بلدوين نوبة غضب أثارت معها دفعة من الحيوية ، فاستدعى أهم أتباعه ، وأخذوا بنصيحتهم خلع جوى من الرصاية ، وبدلا من ذلك أعلن يوم ٢٣ مارس ١١٨٣م عن أن ورثته هو بلدوين ابن اخته سبيلا من زواجها الأول ، وهو طفل فى السادسة ، وحرص اخته على السعى لإبطال زواجها . وفى ذات الوقت ، وبرغم عدم قدرته على الحركة دون مساعدة ، وبرغم عجزه عن التوقيع باسمه ، تولى الحكومة بنفسه . وإزاء ذلك عاد جوى إلى كونتيته فى عسقلان ويافا ، ونفض عن نفسه ولاءه للتاج . فاستولى بلدوين على يافا ووضعها تحت السيطرة المباشرة للتاج ، لكن جوى تحداه فى عسقلان . وبلا طائل تشفع البطريق هيراكليوس والسيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى من أجل المتمردين . وفقد الملك صبره معهم ، فطردهم من المحكمة العليا ؛ وكان قد استدعاهم ليأمرهم للتبشير بالرحيل إلى الغرب بحملة صليبية ، ولكن شهور عديدة انقضت قبل أن يرضوا بالرحيل^(٣).

١١٨٣م : الزواج فى قلعة الكرك

كان مجلس البارونات الذى نصح الملك بخلع جوى يتألف من بوهمند أمير انطاكية، وريموند أمير طرابلس ، ولورد قيصرية ، والأخوين إيلين . ولم يكن لورد منطقة الأردن حاضرا . ولقد حان الوقت كى يتم الزواج بين الاميرة ايزابيلا، وهى الآن فى الحادية عشرة ، وهمفري أمير تبين الذى أصبح فى السابعة عشرة من عمره .

(٣) William of Tyre, xxii, 29, pp. 1127-8، يقول إن بلدوين الخامس توج فى هذه المناسبة .

وكان رينالد قد عقد العزم على اتمام حفل الزواج بكل مظاهر الفخامة التى يستطيعها فى قلعته فى الكرك التى سيرثها العريس . وخلال شهر نوفمبر بدأ الضيوف يتوافدون على القلعة ؛ وكان البعض منهم ، مثل أم العروس - الملكة ماريا كومنينا - من الذين يكونون عداوة شخصية لرينالد ، لكنهم جاءوا فى محاولة لرأب الصدع بين الفرق المتشاحنة . وجاء مع الضيوف مسامرون وراقصون ومشعوذون وموسيقيون من سائر انحاء الشرق المسيحى . وفجأة توقفت الاحتفالات لوصول انباء مرعبة بأن صلاح الدين يقرب بجيشه .

كان تدمير قلعة الكرك واميرها الكافر من بين الآمال المحلفة لطموحات صلاح الدين . فطالما يسيطر رينالد على هذه القلعة العظيمة يستطيع اعتراض أى محاولة للمرور بين سوريا ومصر ؛ وأظهرت التجربة أن المعاهدات لا تقيده . ولذا عسكر صلاح الدين يوم ٢٠ نوفمبر امام الأسوار بجيشه الذى وصلته تعزيزات من مصر . ولأد المزارعون والرعاة السريان المسيحيين مع قطعانهم بالمدينة حيث المأمن ، ولجأ الكثير منهم إلى فناء القلعة . وعلى الفور هاجم صلاح الدين أسفل المدينة وشق له طريقا إلى داخلها . ولم يستطع رينالد أن يفعل شيئا سوى أن يهرب إلى القلعة بفضل بطولة أحد فرسانه الذى راح يدافع وحيدا عن الجسر الذى يعلو الخندق بين المدينة والقلعة إلى أن تهدم خلفه . وفى استعراض رائع لبيان الثقة بالنفس تواصلت الاحتفالات فى القلعة بينما كانت الصخور تندفع لتدق اسوارها . واستمر الغناء والرقص بالداخل ، وأعدت الليدى ستيفانى ، ام العريس ، بنفسها أطباقا من حفل العرس أرسلتها خارج القلعة إلى صلاح الدين الذى سأل فى المقابل عن البرج الذى يسكنه العروسان ، وأصدر أوامره بعدم قصفه بآلات حصاره ، ولكن بخلاف ذلك لم تتراخى ضرباته . وواصلت منجنيقاته التسعة الضخمة العمل بلا انقطاع ، وأوشك رجاله على سد الخندق .

وكانت الرسل قد سارعت إلى القدس تستنجد بالملك ، الذى استدعى الجيش الملكى ووضعه تحت أمره الكونت ريموند ، لكنه أصر على مرافقة رجاله بنفسه على محفته . وأسرعوا جنوبا مرورا بأريحا ثم أعلى طريق جبل نيبو . ولم تحدث آلات حصار صلاح الدين سوى أثر طفيف فى أسوار القلعة القوية ، وباقتراب الجيش الملكى رفع صلاح الدين الحصار ورحل باتجاه دمشق يوم ٤ ديسمبر . وفى نشوة النصر حُمل الملك إلى داخل الكرك ، وشرع ضيوف الزواج فى العودة إلى بلادهم^(٤) . ولم يكن للتجربة

(٤) William of Tyre, xxii, 28-30, pp. 1124-7, 1129-30; Ernoul, pp. 102-6, الذى ذكر حفل الزواج هو Ernoul الذى ربما كان حاضرا الحفل لأنه كان تابع بلدوين. وهو يظن

من أثر في إنهاء ما كانوا عليه من خلافات عانت منها العروس الصغيرة أكثر المعاناة؛ إذ أن حمايتها منعتها من رؤية أمها، كطلب رينالد بلا شك؛ وكانت أمها غارقة في حبها لكيد المكائد بين مختلف التحزبات نظرا لدمايتها اليونانية، ولذا كانت تعتبرها نصف غائبة؛ ولم يكن أحد يعاملها معاملة طيبة سوى زوجها. أما همفري أمير تبين فكان شابا ذا جمال خارق وعلى جانب كبير من التعليم، وميوله أنسب لأن يكون بنتا أكثر منه رجلا. وكان رقيق الحاشية يعامل زوجته الطفلة معاملة حكيمة، وكانت تحبه^(٥).

وفي الخريف التالي زحف صلاح الدين مرة أخرى على قلعة الكرك بجيش انضمت إليه كتائب مرسلة من أتباعه الأراتقة. ومرة أخرى كانت التحصينات الهائلة فوق طاقته؛ ولم يستطع تصيد المدافعين للخروج للقتال على المنحدرات أسفل المدينة، ومرة أخرى انسحب إلى أراضيه عندما اقترب جيش من القدس، تاركا مجرد فصيلة للإغارة على الجليل وتخريب البلاد جنوبا حتى نابلس. وعاد صلاح الدين نفسه إلى دمشق، فهناك الكثير مما ينبغي انجازه لإعادة تنظيم امبراطوريته. إن الوقت لم يحن تماما لإزالة المسيحيين^(٦).

وفي القدس كانت بدا الملك المجذوم المتاكلتان تمسكان بعنان الحكومة، وحوى ما يزال يحتفظ بعسقلان رافضا دخول المسؤولين الملكيين إلى داخل المدينة؛ وكان أصدقائه البطريق والسيدان الأعظمان في أوروبا يحاولون عبثا التأثير على الامبراطور فريدريك والملك لويس والملك هنري بما ينتظر مسيحي الشرق من أخطار. وكان عواهل الغرب يستقبلونهم بآيات الشرف البالغ، ويناقشون معهم الخطط لحملة صليبية

أن صلاح الدين - في صباه - كان رهينة في قلعة كيراك حيث كانت الليدي ستيفاني تلاعبه على ركبتيها. ولا يوجد مرجع آخر يذكر أسر صلاح الدين. وقد ولد صلاح الدين عام ١١٣٧ م، وربما لم تكن ستيفاني قد ولدت قبل ١١٤٥ م - تزوجت زوجها الأول حوالي ١١٦٢/١١٦٣ م وكانت البنات يتزوجن صغار السن في فلسطين - فتكون القصة بعيدة الاحتمال؛ Abu Shama, p. 248; Beha ed-Din, P.P.T.S pp.91-2; Maqrisi, ed. Blochet, *Revue de l'Orient Latin*, vol. IX, pp. 13-14.

(٥) أنظر أدناه ص ٥٠٨. وأما التاريخ اللاحق لزوجاته في قصة الحملة الصليبية الثالثة. وبصف مؤلف *Itinerarium Regis Ricardi* (p.120) همفري على أنه 'Vir feminae quam viro' ويقول انه كان يتحدث العربية بصورة جيدة. ويذكر تاريخ هرقل *Estoire d'Eracles*, II, p. 152 منع ايزابيلا من رؤية أمها.

(٦) Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 95-8; Abu-Shama, pp. 249-56; letter of Baldwin IV to Heraclius, in Radulph of Diceto, II, pp. 27-8.

ضخمة ، لكنهم يسوقون الذرائع التى تحول بين اشتراكهم هم شخصيا فى الحملة الصليبية . وكان كل ما أتى به المبعوثون هو أن عددا ضئيلا من الفرسان أخذوا الصليب^(٧) .

وفى خريف ١١٨٤م عاود جوى إثارة سخط الملك أخى زوجته . ذلك أنه منذ استيلاء المسيحيين على عسقلان ، كان مسموحا لبدو المنطقة التحرك كما يحلو لهم لرعى قطعانهم لقاء إتاوة صغيرة يدفعونها للملك . والآن اغتاز جوى لعدم حصوله على الإتاوة وذهابها إلى الملك ، فانقض على الرعاة فى أحد الأيام وقتلهم واستولى على قطعانهم^(٨) .

١١٨٥م : وصية الملك بلدوين الرابع

بات بلدوين الآن طريق الفراش لا يستطيع النهوض منه قط . وأدرك مدى النفوذ المميت الذى تمارسه أمه وأصدقائها ، فأرسل إلى ابن خالته ريموند أمير طرابلس لمباشرة إدارة الحكومة ، وفى ذات الوقت أعد العدة لرحيله الأخير ، فأعلن عن وصيته قبل اجتماع للبارونات فى وقت مبكر من عام ١١٨٥م . فأوصى بأن يخلفه على العرش ابن اخته الصغير ؛ ونزولا على رغبة المجلس الصريحة لا يتولى جوى الرصاية ، وإنما يتولاها ريموند أمير طرابلس ، على أن يحتفظ ببيروت ثمنا لخدماته . بيد أن ريموند رفض تحمل الرصاية الشخصية للملك الصغير خشية أن يموت الصغير صغيرا - إذ بدت عليه رقة الهزال - وفى هذه الحالة تشير إليه اصابع الاتهام بأنه عجل بموته . ونظرا لما كان عليه الصبى من صحة هزيلة ، يقسم البارونات أيضا بأنه فى حالة وفاة الصبى قبل بلوغه العاشرة ، يحتفظ ريموند بالرصاية إلى أن يصدر من الحكام الأربعة الكبار فى الغرب - البابا والامبراطور الغربى وملكى فرنسا وإنجلترا - قرار التحكيم فيما تطالب به الأميرتان سبيلا وإيزابيلا . وفى الوقت ذاته ، وفى محاولة أخيرة للتقريب بين الفرق المتشاحنة ، مُنحت الرصاية الشخصية على الصبى لخال أمه ، جوسلين (أوف كورتناى) ، الذى بدأ الآن يظهر صداقته الودودة لريموند^(٩) .

(٧) عن هذه البعثة انظر 3-32، pp. Radulph of Diceto، 1، p.338، Benedict of Peterborough وقد استشار هنرى الثانى مجلسه الذى طلب منه عدم الذهاب فى حملة صليبية .

(٨) *Estoire d'Eracles*، II، p. 3.

(٩) *Estoire d'Eracles*، II، p.7، Ernoul، pp.115-19، يورد أكثر التواريخ اكتمالا . ويضع تاريخ تلك

وأقسم البارونات المؤتمرون كلهم على انفاذ رغبات الملك . وكان من بينهم البطريق هيراكليوس الذى عاد لتوه من الغرب ، مع السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، روجر (أوف ليه مولان) ؛ اما السيد الأعظم لفرسان المعبد ، أرنولد (أوف توروجا) فقد مات أثناء الرحلة . وبعد مناقشة عاصفة انتخب النظام خليفة له جيمار (أوف ريدفورت) ، العدو القديم لريموند . وأيد جيمار هو الآخر وصية الملك . وأخذ الطفل إلى كنيسة القبر المقدس - محمولا بين ذراعى باليان امير ايبيلين - حيث توجه البطريق^(١٠).

وبعد أسابيع قليلة ، فى مارس ١١٨٥ م ، أراح الموت الملك بلدوين الرابع من آلام مرضه الطويل الموحجة ولما يتجاوز الرابعة والعشرين من عمره . كان الوحيد من بين ملوك القدس أجمعين الأكثر نعاسة ، ولا محل للارتياح فى قدراته ، كما كانت شجاعته فائقة ؛ لكنه وهو على فراش مرضه كان فاقد الحيلة فى السيطرة على المكائد التى تحاك من حوله ، وغالبا جدا ما كان يرضخ لما كانت أمه الشريرة تمارسه عليه من نفوذ نكد ، ويرضخ كذلك لأخته الحمقاء . وعلى الأقل جنبته الأقدرا المهانة الأخيرة التى سوف تلحق بالمملكة^(١١).

الأحداث بعد حصار صلاح الدين الثانى لقلعة كيراك (سبتمبر ١١٨٤م)، ويقول إن بلدوين الرابع مات بعد ذلك مباشرة . غير أن وليم الصورى William of Tyre يذكر (انظر اعلاه ص n.1, ٤٤٠) تتويج بلدوين الخامس فى التاريخ ٢٠ نوفمبر ١١٨٣م. ونظرا الى أن وليم ربما مات قبل نهاية ١١٨٤م ، وكتب صفحاته الأخيرة فى روما، فمن الجائز أنه قد علم بقرار بلدوين بتتويج ابن اخته منذ أن أخزي جوى عام ١١٨٣م ، لكن وليم أخطأ فى الظن بأن التتويج قد حدث . وأما الحقوق القانونية لسيلا وايزابيلا فقد أثارت مشكلة ؛ إذ أن أمالريك كان قد أصدر قاعدة assize فى عام ١١٧١م تسمح للأختين بالمشاركة فى الاقطاعيات سيرا على التقاليد الاقطاعية المعتادة فى اوروبا الغربية . ويعتقد Grandclaude, op.cit. p. 340 أنها تتعلق باستخلاف العرش . وربما ولدت الملكة ماريا آنذاك مباشرة بنتها الكبرى . ومن الناحية الأخرى فإن الأطفال من الزواج الأول ، ذكورا وإناثا، مُنحوا الأسبقية على الأطفال من الزواج الثانى . (انظر La Monte, Feudal Monarchy, p.36) ولكن هل هناك اسبقية لمسألة زواج آجنس الباطل على الزواج الامبراطورى من ماريا؟ يتضح من احداث عام ١١٨٦م أن رأى العام يساند مطالب سيلا (انظر ادناه ص ٤٤٧) . على ان الحالة غامضة بما فيه الكفاية بحيث تتطلب التفكير .

(١٠) *Estoire d'Eracles*, II, pp.7-9; Ernoul, pp.114, 118.

(١١) - *Ernoul*, pp. 118-19; *Estoire d'Eracles*, II, p.9. - *Imad ed Din* (ابو شامة) *Ernoul*, pp. 118-19; *Estoire d'Eracles*, II, p.9. - *Din* (Abu Shama, p. 258) تقديره لذكرى بلدوين الرابع .

١١٨٥م : مرض صلاح الدين

بعدما دفنت جثة الملك فى كنيسة القبر المقدس بمظاهر الأسى ، استدعى ريموند الوصى البارونات مرة اخرى ليسألهم عن السياسة التى يتعين عليه اتباعها . لقد خانتهم امطار الشتاء وأطلت المجاعة تتهدهم . وكان الصليبي الوحيد الذى جاء إلى الشرق هو المركز العجوز وليم (أوف منوتفات) ، جد الملك الطفل ؛ فبعد أن اطمأن على أن كل شئ على مايرام فيما يتصل بحفيده ، استقر فى هدوء فى اقطاعية فى الجليل . وانطلق ابنه كونراد - عم الملك - ليتبعه ، ولكنه توقف فى طريقه فى القسطنطينية حيث كان اخوه قد هلك قبل ذلك بسنوات قليلة . وهناك عرض مساعدته على من انتقم لرئيسه ، الامبراطور ايزاك أنجيلوس ، الذى زوجه اخته . ونسى ابن اخيه وفلسطين . وكان واضحا لجميع البارونات المتجمعين فى القدس أن البلاد التى تتضور جوعا لا تستطيع أن تواجه حربا إلى أن تصل حملة صليبية جديدة ، فوافقوا على اقتراح ريموند بالسعى لدى صلاح الدين للموافقة على فترة هدنة تستمر أربع سنوات .

وكان صلاح الدين على استعداد للقبول ؛ إذ كانت هناك مشاجرة بين اقاربه فى مصر فى حاجة إلى تسوية ؛ وكان قد سمع أن عز الدين صاحب الموصل أصبح مشاكسا مرة اخرى . ووقعت المعاهدة وعادت إلى التجارة حيويتها بين الدويلات الفرنجية وحيرانها ، وتدفقت الحبوب من الشرق لتنقذ المسيحيين من المجاعة^(١٢) .

وفى ابريل ١١٨٥م سار صلاح الدين باتجاه الشمال ، عابرا نهر الفرات عند البيرة فى الخامس عشر من الشهر . وهناك انضم اليه قوقبورى والى حران ومبعوثون من أتباع عز الدين ، واليا الجزيرة وإربيل ، وأرسل عز الدين سفارات إلى الحكام السلاجقة فى قونية وشاه أرمن ، وأرسل الأخير بعض الجند لمساعدته ، وأرسل الأول رسالة تهديد لصلاح الدين ولكنه لم يُقدم على شئ . وفى يونية كان صلاح الدين امام الموصل ، رافضا عروض عز الدين للسلام ، حتى عندما جاءته ام الأمير العجوز بنفسها لكى تحاججه . ولكن الموصل كانت ما تزال قلعة هائلة ؛ وبدأ جنود صلاح الدين يمرضون من حرارة الصيف . وعندما مات فجأة سلطان برسامينيا السلجوقي ، سقمان الثانى ، زحف صلاح الدين شمالا للاستيلاء على المدن التابعة للسلطان ، دياربكر ومايافرقين ، ولكى يتيح لجنوده الراحة فى المناخ الأكثر برودة فى الأراضى المرتفعة . وهناك أصابه المرض هو نفسه واتجه على فرسه وهو يكاد يحتضر إلى قلعة

(١٢) Ernoul, pp.121-8; *Estoire d'Eracles*, II, pp.12-13; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 104-5.

صديقه فوقبوري في حران . وأسرع اخوه العادل ، وهو الآن والى حلب ، باحضار أمهر أطباء الشرق ، لكنهم لم يقدرُوا على شئ . ولما شعر بأن نهايته قد حانت ، ولعلمه بأن أقاربه يتآمرون على الميراث ، جعل امراءه يقسمون على الولاء لأبنائه . ثم بدأ يشفى دون توقع ، ولم يحل شهر يناير إلا وكان خطر المرض قد زال عنه . وفي نهاية فبراير استقبل سفارة من عز الدين ووافق على السلام . وفي ٣ مارس وقع السفراء على معاهدة أصبح عز الدين بموجبها تابعا لصلاح الدين وتم تثبيتته فيما لديه من املاك ؛ أما الأراضي الواقعة عبر دجلة إلى الجنوب من الموصل ، بما فيها إربيل وشيزر فتقرر أن يحكمها أمراء يعينهم صلاح الدين ويدينون له بالولاء المباشر . وكان وجودهم بمثابة الضمان لولاء عز الدين^(١٣) . ثم ذهب صلاح الدين نفسه إلى حمص ، حيث كان واليها ناصر الدين ، ابن شيركوه ، وصهر صلاح الدين ، قد تأمر على عرش سوريا أثناء مرض صلاح الدين ، ولذلك لم يفاجأ أحد عندما عثر عليه ميتا في فراشه يوم ٥ مارس بعد الاحتفال بعيد الأضحى . ومنح ابن الضحية ، شيركوه الثاني ، وكان صبيا في الثانية عشرة من عمره ولاية حمص . وصادر صلاح الدين الكثير من أمواله ، لكن الصبي تلى بلباقة آيات من القرآن الكريم تتوعد من يأكل أموال اليتامى بعذاب شديد ، وبذا استعادها . وفي إبريل عاد صلاح الدين إلى دمشق . الآن امتدت امبراطوريته امتدادا مأمونا حتى تخوم فارس^(١٤) .

كان من شأن الهدنة بين المسيحيين والمسلمين أن جلبت معها الازدهار إلى فلسطين ، فتجددت حركة التجارة بنشاط بين داخل البلاد ومينائي عكا وصور ، مما عاد بالمزايا على التجار في كل من الديانتين . وإذا ما أمكن الحفاظ على السلام إلى أن تأتي حملة صليبية كبيرة من الغرب ، إذن قد يكون للمملكة مستقبل . لكن الأقدار كانت قاسية على المسيحيين مرة أخرى . ففي حوالى نهاية اغسطس ١١٨٦م مات الملك بلدوين الخامس في عكا ولما يبلغ التاسعة من عمره^(١٥) .

(١٣) Beha ed-Din, P.P.T.S pp.98-103; Kemal ed-Din, ed. Blochet, pp.123-6; Abu Shama, p.288; Bustan, p.581.

(١٤) Abu'l Feda, p.55. Lane Poole, *Saladin*, pp.194-5 إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما إنما يأكلون في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا"؛ Beha ed-Din, P.P.T.S PP 103-4.

(١٥) Ernoul, p. 129; *Estoire d'Eracles*, II, p. 25.

١١٨٦ م : الإعلان عن سبيلا ملكة

كان الوصى ريموند والقهرمان جوسلين حاضرين إلى جانب فراش الموت . وأعرب جوسلين عن رغبته فى التعاون مع ريموند ، وحشه على الذهاب إلى طبرية لدعوة بارونات المملكة لمقابله هناك حيث المأمّن من مؤامرات البطريق ، كى يستمر تنفيذ شروط وصية بلدوين الرابع ؛ وسوف ينقل هو نفسه الجثة الصغيرة إلى القدس لدفنها هناك . ووقع ريموند فى المصيدة وسافر بحسن نية . وما أن رحل حتى أرسل جوسلين من يثق بهم من الجنود لاحتلال صور وبيروت ، وبقي هو نفسه فى عكا حيث أعلن عن سبيلا ملكة ، وبعث بالجثة الملكية إلى القدس فى رعاية فرسان المعبد . واستدعى رسله سبيلا وجوى من عسقلان لحضور الجنازة ؛ وأسرع رينالد من الكرك للانضمام اليهما .

واكتشف ريموند أنه انخدع ، فهبط إلى نابلس ، إلى قلعة باليان أمير ايلين ، واستدعى المحكمة العليا للبارونات بصفته الوصى الشرعى . وسارع كل مناصريه للانضمام اليه ؛ فكان مع باليان وزوجته الملكة ماريا وابنتها ايزابيلا مع همفري أمير تبين ، وبلدوين أمير الرملة ، وولتر أمير قيسارية ، ورينالد أمير صيدا ، وجميع كبار مستأجرى الأرض فى المملكة ، باستثناء رينالد (أوف شاتيلون) . وهناك تلقوا دعوة من سبيلا لحضور حفل تتويجها . فكان ردهم أن أرسلوا راهبين بندكتيين كمبعوثين إلى القدس لتذكير المتأمرين بقسمهم للملك بلدوين الرابع ، ولمنع اتخاذ أى إجراء إلى أن تعقد المحكمة مداولاتها .

لكن القدس والموانئ البحرية تحت سيطرة سبيلا . وكان إلى جانبها جنود القهرمان جوسلين والكونستابل أمالريك - وهو اخو جوى - وقد أتى رينالد بجنوده من منطقة الأردن . وأكد لها البطريق هيراكليوس - وهو عشيق امها القديم - مساندة المؤسسة الكنسية . وأبدى السيد الأعظم لفرسان المعبد ، جيرارد (أوف ريدفورت) استعداداه لأن يفعل أى شئ نكاية فى عدوه القديم ريموند . ولم يكن فى القدس منبقى على إخلاصه للقسم سوى السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وكان جمهور القدس يحمل الكثير من التعاطف مع سبيلا ؛ إذ كانت تمثل الحق الوراثى ، ورغم أن العرش كان مايزال بالانتخاب ، فليس من اليسير تجاهل المطالبة بالوراثة خاصة وأن حقوقها كانت مؤكدة وقت طلاق امها ، وكان أخوها ملكا وكذلك ابنها . ونقطة الضعف الوحيدة لديها أن زوجها كان مكروها فى موضع الإزدراء .

أغلق البطريق وفرسان المعبد بوابات القدس ووضعوا الحراس لمنع أى هجوم يشنه

البارونات من نابلس ، ثم أعدوا العدة للتتويج . وكانت الشارة الملكية محفوظة في خزانة لها ثلاثة أقفال يحتفظ بمفاتيحها البطريق والسيدان الأعظمان للنظامين العسكريين ، مع كل واحد منهم مفتاح . ورفض روجر السيد الأعظم لفرسان المستشفى تسليم مفتاحه لما كان يعتبره متعارضا مع القسم الذى أقسمه ، وفى نهاية الأمر ، وفى لفظة منه تدل على الغثيان ، ألقى بمفتاحه من النافذة . ورفض أن يشترك هو أو أى فارس من فرسانه فى حفل التتويج ، الذى أقيم حالما كان كل شئ جاهزا . ونظرا لانعدام شعبية جوى ، توج البطريق سبيلا فقط ، ولكنه وضع تاجا ثانيا إلى جانبها . وبعد أن وضع هيراكليوس التاج على رأسها ، دعاها لأن تستخدم التاج الثانى لتتويج الرجل الذى تظنه جديرا بحكم المملكة . فأشارت إلى جوى كى يقرب منها وينحنى أمامها ووضعت التاج على رأسه . ثم إن أفراد الصحبة المجتمعة أدوا فروض الولاء للمليكهم ومليكتهم الجديدين . وبينما كان جيرارد (أوف ريدفورت) يخطو خارجا ، صاح بصوت مرتفع قائلا إن هذا التاج ما هو إلا انتقام من الزواج الذى تم فى البطرون.

وإزاء حقيقة هذا التتويج ، لم تستطع المحكمة العليا فى نابلس أن تفعل شيئا . وفى الاجتماع نهض بلدوين أمير ايبيلين قائلا إنه عن نفسه لن يمكث فى بلد يحكمه مثل هذا الملك ، ونصح البارونات كلهم بأن يحدوا حذره ؛ لكن ريموند رد قائلا إنهم لم يفقدوا كل شئ بعد ، وقال إن الأميرة ايزابيلا وزوجها همفري أمير تبين فى جانبهم ، فليتوجا وليذهبا إلى القدس ؛ فلا يستطيع أندادهم الصمود أمام الجيوش المتحدة للبارونات جميعا ، فيما عدا رينالد (أوف شاتيلون) وتعاطف فرسان المستشفى ، ليس إلا . وأضاف ريموند أنه طالما كان الوصي فإنه يضمن احترام صلاح الدين للهدنة . فوافق البارونات وأقسموا على نصرته حتى وإن كان ذلك يعنى الحرب الأهلية . على أنهم لم يدخلوا فى حسابهم واحدا من أهم الفاعلين من بينهم ؛ ذلك أن همفري أصابه الرعب من المصير الذى ينتظره ، فهو لا يرغب فى أن يكون ملكا ؛ فتسلل من نابلس فى الحال قاصدا القدس حيث طلب مقابلة سبيلا . فرفضته بازدراء أول الأمر ، لكنه عندما وقف مرتبكا أمامها ، يهرش رأسه ، لانت له ودعته إلى أن يفرغ قصته . وأصغت إليه

فى حنان ثم أخذته بنفسها لمقابلة جوى ، الذى تلقى منه الولاء^(١٦).

١١٨٦م : أول مجلس للملك جوى

تسبب فرار همفرى فى هزيمة البارونات ، وأغفاهم ريموند من إيمانهم ، وذهبوا الواحد تلو الآخر إلى القدس لإعلان خضوعهم لجوى . حتى باليان أمير إيلين وأكثرهم احتراماً جميعاً ، رأى أنه لا شئ يمكن عمله . لكن أخاه بلدوين أعاد ماقدره بأنه يفضل الرحيل عن المملكة على أن يقبل جوى ملكاً له ؛ وانسحب ريموند أمير طرابلس إلى أراضى زوجته فى الجليل ، مقسماً على أنه هو الآخر لن يقدم ولاءه للملك الجديد . لقد كان حربياً أن يقبل ايزابيلا قبول الولاء كملكة ، غير أن ما أبداه همفرى من حبن أقنعه بأنه هو نفسه المرشح الوحيد الجدير بالعرش^(١٧).

وسرعان ما عقد الملك جوى مجلس باروناته الأول فى عكا . ولم يظهر ريموند ، وأعلن جوى أن بيروت التى كانت تحت إشراف ريموند باعتباره وصياً قد انتزعت منه ، وأرسل من يطلب منه تقديم حسابات الأموال العامة التى أنفقها أثناء وصايته . أما بلدوين أمير إيلين ، الذى كان حاضراً ، فقد استدعاه رينالد (أوف شاتيلون) الذى كان واقفاً بجانب الملك لكى يقدم ولاءه للملك . وبالكاد حيا الملك تحية رسمية وقال له إنه وهب أراضيه فى الرملة لابنه توماس الذى سوف يقدم ولاءه عندما يبلغ سن الرشد ، وأنه هو نفسه لن يفعل ذلك قط . وغادر المملكة بعد أيام قلائل ، والتحق بالخدمة لدى بوهمند أمير انطاكية الذى رحب به بسرور ومنحه اقطاعية أكبر من التى تركها ،

(١٦) Ernoul, pp.129-36، اكمل الروايات وأكثرها تصوراً؛ *Estoire d'Eracles*, II, pp.25-31; Radulph of Diceto, II, p.47; Arnold of Lübeck, pp. 116-17. موثوقة) يحددان تاريخ التويج فى سبتمبر، ويحدده Ralph فى أغسطس ، و Arnoul فى ٢٠ يولية. والوثيقة الأولى لـ جوى، مؤرخة فى أكتوبر، Rohricht, *Regesta*, p.873.

(١٧) من الواضح أن ريموند اعتبر نفسه مرشحاً للعرض . ويذكر ابن جبير شائعات عن طموحاته فى وقت مبكر يرجع إلى ١١٨٣م (Ibn Jubayr, p.304). ويقتبس أبو شامة (ص ٢٥٧-٨) من تقرير عماد الدين أنه كان على استعداد للتحول إلى الاسلام لتحقيق طموحه ، ويقول ابن الأثير (ص ٦٧٤) إنه كان يعول على مساعدة صلاح الدين . ويرد فى (pp.51-2) *Historia Regni Hierosolymitani* المتأخرة، أنه طالب بالعرش لأن أمه (تسمى هنا Dolcis) ولدت بعد توريث والده ، بينما ولدت مليسند قبل التويج . ولأن صغرى بنات بلدوين الثانى ، الدبارة Joveta، هى الوحيدة التى ولدت فى الكاردينالية ، فلم يكن ليستطيع استخدام هذه الحجة . وربما أدلى فى نابلس بحجة مماثلة لكى يبرر للبارونات اختيار ايزابيلا وليس سيلا ، والمؤرخ خلط القصة .

ولحق به هناك لوردرات أقل ، إذ أن بوهمند لم يخف تعاطفه مع ريموند وحزبه^(١٨).

وبينما كانت المملكة تتمزق هكذا إلى شيع مريرة من بعضها البعض، كانت الهدنة مع العرب تتزايد تماسكا وصمودا . وكان باستطاعة جوى رآب الصدع ، لكنه كان يفتقر إلى صديقه رينالد (أوف شاتيلون). وبفضل الهدنة عادت القوافل الضخمة بين دمشق ومصر إلى سابق عهدها دونما عائق فى الأراضي الفرنجية . وفى نهاية عام ١١٨٦م ارتحلت قافلة هائلة من القاهرة ومعها فرقة صغيرة من الجنود المصريين لحمايتها من البدو المغيرين ؛ وبينما كانت تعبر مؤاب انقض عليها رينالد فجأة ، فقتل الجنود وأخذ التجار وعائلاتهم بكل ممتلكاتهم معه إلى قلعة الكرك ؛ وكانت الغنيمة أكبر من كل ما سبق أن سلبه فى حياته . وسرعان ما وصلت صلاح الدين انباء العدوان ؛ واحتراما منه للمعاهدة أرسل إلى رينالد يطلب منه اطلاق سراح السجناء وتعريضهم عن خسائرهم . ورفض رينالد استقبال المبعوثين ، فذهبوا إلى القدس شاكين للملك جوى الذى أنصت اليهم بعين العطف وأمر رينالد بالانصياع . غير أن رينالد ، الذى يعلم أن جوى مدين له بالمساعدة فى الوصول إلى العرش والمحافظة عليه ، لم يعبأ بأوامره؛ ولم يستطع جوى، أو لم يشأ ، أن يفرض عليه الطاعة^(١٩).

١١٨٧م : خيانة ريموند

ومع انتهاك الهدنة على تلك الصورة الوقحة لم يكن هناك بد من الحرب التى لا يستطيع بلد منقسم على امره مواجهتها . وسارع بوهمند امير انطاكية إلى تجديد معاهدته مع صلاح الدين^(٢٠) . وعقد ريموند امير طرابلس معاهدة هدنة لبلده ووسعها بحيث تشمل إمارة زوجته فى الجليل ، حتى وان كان السيد الأعلى للمملكة فى حالة حرب مع المسلمين . وفى ذات الوقت ضمن تعاطف صلاح الدين الذى وعده بمساندته فى مسعاه لأن يصبح ملكا للفرنج . وآيا ما كانت تبدو عليه سياسة ريموند من الحكمة فقد كانت خيانة بلا ريب . وبتشجيع من حيرار السيد الأعظم لفرسان المعبد ،

(١٨) جوى أو شك أن يضرب بلدوين لولا عراقة مولده . Ernoul, pp.137-9; *Estoire d'Eracles*, II, p.33, *Les Gestes des Chiprois* (p.659)

(١٩) *Estoire d'Eracles*, II, p. 34. يقول إن أخت صلاح الدين أسرت فى القافلة . والواقع أنها كانت عائدة من مكة مع قافلة تالية (انظر أدناه ص ٥١٢) ؛ Abu Shama, pp. 259-II

(٢٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S* p. 109.

استدعى جوى أتباعه المخلصين وسار شمالا إلى الناصرة لإخضاع الجليل قبل أن يبدأ المسلمون هجومهم . على أن تدخل باليان أمير إيبيلين هو فقط الذى جنب الفرنج الحرب الأهلية ؛ ذلك أنه عندما وصل إلى المعسكر سأل الملك بفضافة : ماذا تفعل ؟ وعندما رد جوى بأنه سيحاصر طبرية ، أكد له باليان حماقة الخطة ، إذ أن ريموند ستكون له قوات أقوى من قوات الملك بما يستطيع الاعتماد عليه من مساعدة العرب ، وطلب باليان ، بدلا من الحرب ، أن يرسله الملك ليتحدث مع ريموند . على أن مناشدته للوحدة لم يكن لها أثر على الكونت ريموند الذى اشترط استرجاع بيروت ليخضع للملك . واعتبر جوى أن ذلك ثمنا فادحا^(٢١) . على أنه بوصول أنباء استعدادات صلاح الدين للحرب الوشيكة ، ناشد باليان الملك مرة أخرى كى يتصالح مع ريموند . وذكره بأخيه وهو فخور به قائلا : "لقد خسرت أفضل فارس فى شخص بلدوين أمير الرملة ، فإذا ما خسرت مساعدة ومشورة الكونت ريموند أيضا ، فيكون فى ذلك نهايتك" . ودائما ما كان جوى مهيا للانصياع لمن يجادته بصرامة ، فسمح لباليان بالذهاب فى سفارة جديدة إلى طبرية ، ومعه جوسياس رئيس أساقفة صور ، والسيدان الأعظمان لفرسان المستشفى والمعبد . وكان ضروريا لهذا الأخير ، وهو الذى أعداء ريموند ، أن يشترك فى أية تسوية^(٢٢) .

وانطلق المندوبون من القدس يوم ٢٩ ابريل ١١٨٧ م ، يصاحبهم عشرة من فرسان المستشفى . وأمضوا تلك الليلة لدى باليان فى قلعة نابلس ، حيث كان باليان مشغولا ببعض الأعمال ، ولذ طلب من السيدين الأعظمين ورئيس الأساقفة أن يسبقوه ، إذ سيتخلف عنهم ذلك اليوم ويلحق بهم فى اليوم التالى فى قلعة الفولة La Fève ، فى سهل بزرعيل . وفى وقت متأخر من مساء ٣٠ ابريل ، غادر باليان نابلس مع حفنة من توابعه متويا الانطلاق على الخيل طوال الليل ؛ لكنه تذكر فجأة أن الليلة هى ليلة القديس فيليب والقديس جيمس ، ولذا تنحى عن الطريق فى سبسطية ، التى تعتبر 'سامرة' القدماء ، وطرق باب قصر الأسقف . واستيقظ الأسقف واستقبلهم ، ومكثوا يتسامرون طوال الليل إلى أن انبلج الفجر وحان موعد القداس ، فقال لمضيفه إلى اللقاء ثم انصرف .

(٢١) Ernoul, pp.141-2; *Estoire d'Eracles*, II, pp.31-5. ويقول إيرنول إن ريموند تلقى بالفعل تعزيزات من صلاح الدين .

(٢٢) Ernoul, pp. 142-3. كان مقررا أن ينضم رينالد أمير صيدا الى الوفد ، لكنه انطلق بمفرده .

وفى ٣٠ ابريل ، وبينما كان باليان يناقش بعض الأعمال مع توابعه ، وكان السيدان الأعظمان على جواديهما فوق التل فى طريقهما إلى الفولة ، تلقى الكونت ريموند مبعوثا من المسلمين فى بانياس ؛ ذلك أن ابن صلاح الدين الأصغر ، الذى كان قائدا للمعسكر هناك ، تلقى من أبيه تعليمات بارسال استطلاع فى فلسطين ، وفى تصرف سليم جدا طلب الإذن من ريموند كى يعبر رجاله أراضى الكونت فى الجليل . ولما كان ريموند ملتزما بمعاهدته الخاصة مع صلاح الدين فلم يستطع رفض هذا الطلب المخرج . وانما اشترط أن يعبر المسلمون الحدود بعد فجر اليوم التالى ويعودوا قبل حلول الظلام ، وألا يلحقوا الأذى بأية مدينة أو قرية فى اراضيه ، ثم أنه أرسل رسله فى انحاء اقطاعياته كلها يطلب من الناس البقاء مع قطعانهم وراء الأسوار طوال اليوم ولا يخشوا شيئا . وفى تلك اللحظة سمع بمجيئ الوفد من القدس ؛ فخرج رسول آخر ليخطر الوفد بنفس الإنذار . وفى باكورة أول مايو شاهد ريموند من قلعة الأمير قوقبورى وسبعة آلاف مملوك يتحولون على جيادهم فى مرج .

وفى نحو ضحى ذلك اليوم وصل باليان وصحبه إلى الفولة . وكانوا قد شاهدوا عن بعد خيام فرسان المعبد منصوبة أسفل الأسوار ؛ لكنهم عندما اقتربوا منها وجدوها خالية ؛ وقد خيم الصمت على القلعة نفسها . ودخل تابع باليان - إرنول - المبنى وانتقل من حجرة إلى اخرى ، ولم يجد أحدا سوى جنديين مستقلقين فى إحدى الشرفات العليا ، وهما فى حالة مرضية مميتة ولا يقدران على الكلام . واحتار باليان وتملكه القلق . فانتظر ساعة أو ساعتين ، لا يستقر له قرار فيما يفعله ، ثم أنه انطلق مرة اخرى بطول الطريق الذاهب إلى الناصرة . وفجأة ظهر فارس من فرسان المعبد آتيا ينهب الأرض ركضا، أشعث الرأس تنزف منه الدماء وهو يصيح بكارثة مروعة .

١١٨٧م : عيون كريسون

وفى ذات الساعة كان ريموند فى طيرة يراقب الممالك وهم فى طريق عودتهم إلى وطنهم . لقد التزموا بما اشترطه عليهم . وكانت عودتهم قبل هبوط الظلام بوقت طويل ، ولم يعتدوا على أى مبنى فى المقاطعة . غير أن حرس الطليعة كان يحمل على أسنة رماحه رؤوس فرسان المعبد .

وصلت رسالة ريموند إلى السيدين الأعظمين فى الفولة مساء يوم ٣٠ من الشهر . وعلى الفور استدعى جيران فرسان المعبد من الجوار للانضمام اليه هناك ، على الرغم

من معارضة روجر فارس المستشفى . وكان قِيم فرسان المعبد - جيمس (أوف ميلى) - فى قرية كاكون التى تبعد مسافة خمسة أميال ، ومعه تسعون فارسا ، فجاء وأمضى الليلة أمام القلعة . وفى الصباح التالى انطلق الخيالة إلى الناصرة ، حيث انضم اليهم أربعون فارسا علمانيا ، وبقي رئيس اساقفة صور هناك ؛ لكن جيرارد توقف لمجرد الصباح فى أهل المدينة بأن هناك معركة ستشب حالا وأن عليهم الهجى لأخذ الغنائم . وبينما الفرسان يعبرون التل خلف الناصرة ، وحدوا المسلمين يسقون خيولهم من عيون كريسون أسفل الوادى . ومع تلك الأعداد الكبيرة نصح كل من روجر وجيمس (أوف ميلى) - القِيم - بالانسحاب ؛ فاحتاج جيرارد غيظا ، وتحول عن رفيقه السيد الأعظم وزجر قِيمه فى ازدراء قائلا : "إنك شديد الإعجاب برأسك الأشقر بحيث تكره أن تفقده" ، فرد عليه جيمس فى كبرياء : "سأمت فى المعركة ميتة الشجعان ، وإنما أنت الذى سيلوذ بفرار الخائنين" . وأشتعل الفرسان غيظا من هذه الإهانة ، فاندفعوا نحو الممالك . ولقد كانت مذبحة لا معركة ، وكان رأس جيمس الأشقر أحد الرؤوس الأخيرة التى سقطت ، وسقط بجانبها السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وفى لمح البصر قُتل كل فارس من فرسان المعبد فيما عدا ثلاثة كان جيرارد واحدا منهم ، وسابقوا الريح مع جراحاتهم عائدين إلى الناصرة ، وكان أحدهم هو الذى قابل باليان . وأما الفرسان العلمانيون فقد أسروا أحياء . وكان البعض من مواطني الناصرة الجشعين قد خرجوا إلى ساحة القتال لجمع الغنائم التى وعد بها جيرارد ، فأحيط بهم وأخذوا أسرى .

وبعد أن أرسل باليان إلى زوجته يحثها على جمع فرسانها ، لحق بجيرارد فى الناصرة وحاول اقناعه بالذهاب إلى طبرية ، لكن جيرارد تذرع بجراحاته الجسيمة ، ولذا واصل باليان رحلته مع رئيس الأساقفة ؛ فوجدوا ريموند فى حالة من الرعب من المأساة التى جعلته يشعر أن سياسته هى التى يقع عليها اللوم . وقبل بسرور وساطة باليان ، فألغى معاهدته مع صلاح الدين ، وانطلق جنوبا إلى القدس حيث قدم فروض الطاعة للملك ، الذى لم يكن حقودا برغم كل أخطائه واستقبل ريموند استقبالا ودودا بل واعتذر له عن الطريقة التى تَوَج بها . وأخيرا ، بدا أن المملكة قد اتحدت مرة أخرى (٢٣) .

(٢٣) أورد Ernoul القصة بالكامل ، إذ كان مع باليان بصفته تبعه *Estoire d'Eracles* pp.143-54 و١١، pp. 37-44; Imad ed-Din, in Abu Shama, p. 262 أرسل قرقورى قائدا للحملة ويحدد عدد الفرسان بأنهم سبعة آلاف . ويرد فى *De Expugnacione* (pp. 21-11) نفس العدد ، لكن الرواية القصيرة تنكر أن ريموند أصر على عدم الإضرار بالملكية وتحاول تبيض زلات فرسان المعبد . وأما *La Fève* ، فهى قرية الغولة العربية (و كلا

١١٨٧ م : صلاح الدين يعبر الأردن

وكذلك بدا صلاح الدين يوحد جيوشه . إذ كان معروفا أن صلاح الدين يجمع جيشا جرارا عبر الحدود في حوران . وفي شهر مايو ، وبينما كان الحشد يتجمع من سائر أنحاء الامبراطورية ، ذهب صلاح الدين في رحلة هابطا الطريق المتجه إلى مكة ليرافق قافلة حج كانت فيها اخته وابنها عائدتين من المدينة المقدسة ، وذلك ليسترتنق من أن رينالد لن يقدم على محاولة أخرى من غاراته في قطع الطرق . وفي تلك الأثناء توافد الجنود من حلب والموصل وماردين ، إلى أن غدا جيشه أضخم الجيوش التي قادها قاطبة . وعبر الأردن استدعى حوى كبار مستأجرى الأرض ومستأجريهم جميعا لمقابلته مع رجالهم في عكا . وكان النظامان العسكريان في لطفة على الانتقام لمذبحة كريسون ، فجاءوا بكل ما كان لديهم من الفرسان ، ولم يتركوا سوى حاميات صغيرة للدفاع عن قلاعهم التي يسيطرون عليها . بل زاد فرسان المعبد من مساعدتهم بتسليم الملك نصيبهم من الأموال التي أرسلها مزخرا الملك هنرى الثانى كقارة عن اغتيال توماس بيكيت^(٢٤) . وقيل لهم أن يودعوها في أحد المصارف لحساب الحملة الصليبية التي أقسم هنرى على الخروج بها ، لكن الاحتياج إلى المال الآن كان ملحا ، وحمل الجنود الذين جهزتهم تلك الأموال راية معهم تدل على جيش هنرى . أما بوهمند أمير انطاكية ، فقد نال منه التأثير بعدما ناشده ريموند وباليان ، فوعد بارسال كتيبة تحت إمرة بلدوين أمير إبيلى ، وأرسل ابنه ريموند لينضم إلى كونت طرابلس الذى كان بمثابة الأب الروحى له . وفي نهاية يونية تجمع فى معسكر أمام عكا ألف ومائتان فارس بكامل أسلحتهم وعدد اكبر من الخيالة الوطنية خفيفة الحركة من طبقة أنصاف الأتراك (Turcopoles) ، ونحو من عشرة آلاف من المشاة . وطلب من البطريق هيراكليوس أن يأتى ومعه الصليب الحقيقى ، لكنه رد بأنه يمر بوعكة وعهد بالصليب الحقيقى إلى رئيس دير رهبان القبر المقدس كى يعطيه لأسقف عكا . لقد فضل - كما قال أعداؤه - البقاء مع محبوبته باشيا .

وفى يوم الجمعة ٢٦ يونية استعرض صلاح الدين جنوده فى عشرا في حوران ؛ وقاد هو نفسه القلب وابن اخيه تقى الدين الميمنة وقوقبورى الميسرة . وسار الجيش فى

الاسمين يعنى الحبة) وتقع فى منتصف المسافة بين جنين والناصره .

(٢٤) (المترجم) القديس توماس أ بيكيت Saint Thomas à Becket (حوالى ١١١٨-١١٧٠م) : حبر انجليزى ، رئيس أساقفة كانتربرى ، اغتيل بعد معارضة لهنرى الثانى . يوم احياء ذكره ٢٩ ديسمبر .

تشكيلات قتال إلى خيسفين ومنها إلى الطرف الجنوبي لبحر الجليل ، حيث مكث خمسة أيام قامت فيها كشافته بجمع المعلومات عن القوات المسيحية . وفى أول يولية عبر الأردن إلى سن النيرة ، وفى الثانى من يولية عسكر بنصف جيشه فى كفر سبت ، على التلال الواقعة على بعد خمسة أميال إلى الغرب من البحيرة ، بينما هاجم جنود أخيه طبرية التى سقطت فى أيديهم بعد ساعة من القتال . وكان ريموند وأبناء زوجته مع جيش الملك، فلاذت الكونتيسة إشيفا ، بعد أن أرسلت رسولا ليخبر زوجها بما يحدث ، إلى القلعة حيث صمدت مع حاميتها الصغيرة .

ولما علم الملك جوى بأن صلاح الدين عبر الأردن ، عقد مجلسا مع باروناته فى عكا. وتكلم الكونت ريموند أولا ، فأشار إلى أن حمارة قيظ الصيف تعد من المساوئ للجيش الذى لا يبادر بالهجوم ، ولذا ينبغي أن تركز استراتيجيتهم على الهجوم الخالص، وسوف يتعذر على صلاح الدين الحفاظ على قواته الضخمة طويلا فى بلاد لافحة من الحر الشديد مع وجود الجيش المسيحى بلا هزيمة ، وسوف يُجبر على الانسحاب بعد برهة ، وفى ذات الوقت سوف تأتى تعزيزات انطاكية . ومال أغلب الفرسان إلى الأخذ بنصيحته ؛ غير أن كلا من رينالد (أوف شاتيلون) وجيرارد السيد الأعظم اتهم ريموند بأنه جبان وأن العرب اشتروه . ودائما ما كان الملك جوى يقتنع بآخر المتكلمين ، وأصدر أوامره بأن يتحرك الجيش باتجاه طبرية .

وبعد ظهر الثانى من يولية عسكر المسيحيون عند صفورية ، فى موقع رائع لإقامة المعسكر توجد فيه المياه الوفيرة والمراعى الجيدة للخيول . ولو أنهم مكثوا هناك ، كما فعلوا قبل أربع سنوات عند عيون جولياث ، لم يكن صلاح الدين ليحازف بمهاجمتهم قط ، إذ كان جيشهم بنفس حجم جيشه وكانت لديهم ميزة الموقع ؛ غير أن مبعوث كونتيسة طرابلس جاءهم فى ذلك المساء ، فعقد جوى مرة أخرى مجلسا فى خيمته ، وتحركت مشاعر الفروسية لدى الفرسان بتفكيرهم فى تلك السيدة الشجاعة الصامدة صمود اليأس بجانب البحيرة ، وانهمرت عبرات أولادها وهم يتوسلون العمل على إنقاذ أمهم ، وتبعهم آخرون يؤيدون ضراعتهم . ثم نهض ريموند خطيبا ، فأعاد خطبته التى ألقاها فى عكا وانما بمزيد من التركيز اليأس ، وأوضح مدى حماقة التخلي عن هذا الموضع القوى والمجازفة بالسير المحفوف بالمخاطر فى حرارة يولية على جوانب التلال الوعرة . وقال إن طبرية هى مدينته والمدافع عنها هى زوجته ، بيد أنه يرى أن تضيق طبرية بكل ما فيها بدلا من أن تضيق المملكة . وحملت كلماته فى طياتها الحجة المقنعة. وانفض المجلس فى منتصف الليل وقد عزم على البقاء فى صفورية.

وبعد أن عاد البارونات إلى أقسامهم ، زحف السيد الأعظم لفرسان المعبد عائدا إلى الخيمة الملكية وقال : "سيدى، أترك تثق فى 'خائن ؟' من العار أن تضيع مدينة لا تبعد سوى ستة فراسخ ؛ وأعلن أن فرسان المعبد خليقون بأن يتخلوا عن نظامهم العسكرى عن أن يتخلوا عن ثأرهم من الكفرة . وكان جوى مخلصا فى اقتناعه بما قاله ريموند قبل ساعة ، لكنه تذبذب وترك جيار يفرط فى اقناعه . وأرسل المنادين فى انحاء المعسكر يعلنون أن الجيش سوف يتحرك فجرا باتجاه طبرية .

١١٨٧م : الفرنج يعسكرون فى لوبيا

كان أفضل طريق من صفورية إلى طبرية يمضى منحرفا شمالا انحرافا طفيفا عن الشرق عبر تلال الجليل ثم يهبط إلى البحيرة على بعد ميل إلى الشمال من المدينة . وكان الطريق البديل يمضى إلى الجسر فى سن النيرة حيث يمضى أحد روافد النهر شمالا بمحاذاة شاطئ البحيرة . وكان معسكر صلاح الدين فى كفر سبت يقع عبر طريق سن النيرة الذى سلكه آتيامن أعلى النهر . ومن الجائز أن ذهب بعض الخونة من معسكر المسيحيين وأخبروه بأن جوى سيخرج من صفورية بطول الطريق الشمالى ، ولذلك قاد جيشه نحو من خمسة أميال عبر تلال حطّين حيث يبدأ الطريق فى الهبوط باتجاه البحيرة ، وكانت حطّين عبارة عن قرية ذات مراعى واسعة ومياه وفيرة ؛ وانضم اليه هناك أغلب جنوده الذين كانوا فى طبرية تاركين بمجرد العدد المطلوب لحصار القلعة .

وكان صباح يوم الجمعة ٣ يولية صباحا حارا انعدم فيه الهواء ، وقد شهد ذلك الصباح خروج الجيش المسيحى من حدائق صفورية الخضراء للسير على التلال العارية من الأشجار . وحريا على التقاليد الإقطاعية ، كان ريموند أمير طرابلس قائدا للطليلة بصفته لورد الإقطاعية ، وقاد الملك الوسط ، وأما المؤخرة فكانت تحت قيادة رينالد والنظامين العسكريين وبالبيان ايلين . وكان الطريق بطوله خاليا من المياه ، وسرعان ما بدأت المعاناة المريرة من الظمأ لدى الرجال والحياد سواء بسواء ، وأبطأت معاناتهم من سيرهم ، ودأب المناوشون المسلمون على مهاجمة حرس الطليعة وحرس المؤخرة ، يطلقون السهام فتنهمر فى وسطهم ثم ينسحبون بعيدا قبل أى هجوم مضاد . وبحلول عصر ذلك اليوم وصل الفرنج إلى الهضبة التى تعلو حطّين مباشرة ، وبدأ أمامهم تل صخرى بقميتين مرتفعتين نحو من مائة قدم ، ووراءه تنحدر الأرض انحدارا شديدا نحو القرية ثم إلى البحيرة . وكان التل يسمى "قرنا حطّين" . وأرسل فرسان المعبد يخبرون

الملك بأنهم لا يستطيعون اليوم المضى أكثر من ذلك ، وترجاه بعض البارونات أن يأمر الجيش بالاندفاع وشق طريقه حربا إلى البحيرة ؛ غير أن جوى تأثر بمعاناة رجاله فقرر التوقف تلك الليلة . وما أن سمع ريموند بذلك حتى عاد من المقدمة على جواده صائحا: "آه أيها الرب الإله ، لقد انتهت الحرب ، انما نحن رجال موتى ، لقد انتهت المملكة ." وأخذوا بنصيحته ضرب جوى معسكره بعد لويّة مباشرة ، باتجاه منحدر القرنين حيث يوجد بئر تحلق حوله الجيش كله . على أنهم أساءوا اختيار الموقع ، إذ كان البئر جافا .

ولم يملك صلاح الدين ضبط مشاعر غبطته وهو ينتظر في الوادي المحضوّر بأسفل . لقد جاءته فرصته أخيرا .

وأمضى المسيحيون ليلة بائسة يستمعون إلى صلوات المسلمين وتلاواتهم الآتية اليهم من أسفل . وانطلق جنود قليلون من المعسكر في بحث عقيم عن الماء ، فقط ليقتلهم الأعداء . وكى يفاقم المسلمون من معاناة الفرنج أشعلوا النيران في الأعشاب الجافة التي تغطي التل ، واندفع الدخان الحار ليملا المعسكر . وتحت غطاء الظلام حرك صلاح الدين رجاله أعلى التل . وعند انبلاج فجر يوم السبت ٤ يولية ، أصبح الجيش الملكي ليجد نفسه محاصرا . ويقول المؤرخ إنه لم يكن باستطاعة أحد التسلل من شبكة الحصار حتى وإن كانت قطرة .

١١٨٧م : معركة حطين

وسرعان ما بدأ هجوم المسلمين بعد الفجر . فأما جنود المشاة المسيحيون فلم يكن يسيطر على ذهنهم سوى شئ واحد ، الماء . فاندفعوا في خضم عارم محاولين شق طريقهم أسفل المنحدر باتجاه البحيرة التي كانت مياهها تبدو أسفلهم لامعة جاذبة ، فدفعوا أعلى رابية طوقتها النيران والأعداء ، وقتل خلق كثير منهم لتوهم ، وأسر آخرون ؛ وكان مشهدهم وهم رقود في جراحاتهم وبأفواههم المتورمة تشير فائق الألم بحيث ذهب خمسة من فرسان ريموند إلى قادة المسلمين يتوسلون اليهم كي يقتلوهم جميعا رحمة بهم وبما هم فيه من بؤس . وأما الخيالة على التل ، فقد حاربوا بشجاعة فائقة يائسة وصدوا هجمات الخيالة المسلمين ، التي كانت تحير الهجمة تلو الأخرى على العودة وبها خسائر ؛ غير أن أعدادهم كانت آخذة في التضاؤل ، ووهنت عزائمهم من العطش ، وبدأت قوتهم تخذلهم . وقبل أن يسبق السيف العذل، ونزولا

على طلب الملك ، قاد ريموند فرسانه فى محاولة لإختراق صفوف المسلمين ؛ وانقض بكل ثقل رجاله على الكتائب التى يقودها تقي الدين ، لكن تقي الدين فتح له صفوفه ليمر من بينها، ثم أطبق عليه مرة اخرى من خلفه ، فلم يتمكن ريموند وفرسانه من شق طريق العودة إلى رفاقهم ، فارتحلوا فى بؤسهم بعيدا عن ميدان القتال وبعموا وجروهم شطر طرابلس . وبعد قليل تمكن باليان أمير ايبيلين ورينالد أمير صيدا من شق طريقهم خارجين من ساحة القتال . وكانا آخر الهاربين .

تبدد أمل المسيحيين الآن ، لكنهم واصلوا القتال وقد تراجعوا إلى أعلى التل ، إلى القرنين . ونقلت خيمة الملك الحمراء إلى القمة وأحاط به فرسانه . وكان الأفضل، ابن صلاح الدين الصغير بجانب أبيه يشهد أول معاركه . وبعد المعركة بسنوات كثيرة أعرب عن تقديره لشجاعة الفرنج وقال : "عندما انسحب الملك الفرنجى إلى قمة التل ، حمل فرسانه بشجاعة على المسلمين ودحروهم منكبين إلى أبى . وراقبت فرعه . تغير لون وجهه وشد على لحيته ، ثم اندفع إلى الأمام صائحا : "كذبوا الشيطان" ، فانقض رجالنا على الأعداء الذين تراجعوا أعلى التل . وعندما شاهدت الفرنج يهربون صرخت مسرورا : "هزمناهم" لكنهم هجموا ثانية ودحروا رجالنا إلى حيث كان يقف أبى . فعاود حث رجاله للتقدم إلى الأمام ، فدحروا الأعداء مرة أخرى إلى أعلى التل . ومرة اخرى صرخت "هزمناهم" . فالتفت أبى الى وقال : "اسكت . إننا لم نهزمهم طالما بقيت تلك الخيمة هناك" . وفى تلك اللحظة انقلبت الخيمة ، فترجل والدى وخر ساجدا على الأرض شكرا لله وهو يذرف دموع الفرحة .

١١٨٧م : فى خيمة صلاح الدين

قتل أسقف عكا . وانتقل الصليب الحقيقى الذى حمله فى المعركة إلى أيدي الكفرة . وأخطأ الموت القليل من جياد الفرسان . وعندما وصل المنتصرون إلى قمة التل وجدوا الفرسان انفسهم وبينهم الملك ممددين على الأرض ، وقد أنهكوا حتى لم يقو الفارس منهم على مواصلة القتال ، وتبقت لديهم بالكاد القوة كى يسلموا سيوفهم استسلاما . واقتيد زعمائهم إلى خيمة صلاح الدين التى نصبت فى ساحة المعركة^(٢٥) .

استقبل صلاح الدين الملك جوى وأخاه الكونستابل أمالريك ، ورينالد (أوف

(٢٥) للإطلاع على الوقائع المعقدة المتناقضة حول حملة حطين ، انظر أدناه المرفق الثانى .

شاتيلون) وابن زوجته همفري امير تبنين ، والسيد الأعظم لفرسان المعبد ، والمركيز العجوز امير مونتفرات ، ولوردات جيبيل والبطرون ، والكثير من البارونات الأقل في المملكة . وحياتهم تكريما ، وأجلس الملك إلى جانبه . ولما لاحظ عطشه ناوله قدحا من ماء الورد ، مبردا بثلوج جبل هرمون . وشرب منها الملك جوى ثم ناولها لرينالد الذى كان إلى جانبه . وتقاليد الضيافة العربية تقضى بأن إعطاء الطعام أو الشراب لأسير يعنى أن حياته مأمونة، ولذا سارع صلاح الدين قائلا للمترجم : "قل للملك إنه هو الذى أعطى ذلك الرجل شرابا وليس أنا." ثم تحول إلى رينالد الذى لم يستطع أن يغفر له زندقة لصوصيته ، فذكره بجرائمه ، وخيائته ، وتجديفه فى الدين ، وحشعه . وعندما رد رينالد بغلظة ، تناول صلاح الدين نفسه سيفا وأطاح برأسه . وارتجف جوى ظنا منه أن دوره سيأتى بعده ؛ لكن صلاح الدين هدأ من روعه قائلا : "الملك لا يقتل ملكا. لكن غدر ذلك الرجل بلغ شأوا بعيدا" . ثم أصدر أوامره ألا يؤذى أحد من البارونات العلمانيين وأن يعامل الجميع بكياسة واحترام أثناء أسرههم . على أنه لم يبق على أرواح فرسان النظامين العسكريين، فيما عدا السيد الأعظم لفرسان المعبد . وكانت جماعة من متعصبى المسلمين من الصوفية قد انضمت إلى جنوده، فعهد اليهم بمهمة قتل الأسرى من فرسان المعبد والمستشفى، فأنجزوا بقابلية ما عهد به اليهم. ثم رحل بجيشه عن حطين، أما الجثث التى ملأت ساحة المعركة فتركت للذئاب والضباع.

وأرسل الأسرى إلى دمشق حيث أودع البارونات فى اماكن مريحة ، وبيع الأسرى من الأفقر فى سوق العبيد . وكانت أعدادهم كبيرة بحيث هبط ثمن الأسير الواحد إلى ثلاثة دنانير ، وإنك لتستطيع أن تشتري أسرة فى صحة جيدة بكاملها تتألف من رجل وزوجته وأبنائه الثلاثة وابنتيه بثمانين دينارا ؛ بل إن أحد المسلمين فكر فى صفقة رابحة بأن يستبدل سجيناً بزوج صندل^(٢٦).

سبق لمسيحيي الشرق أن عانوا من الكوارث قبل ذلك . وسبق أن أسر ملوكهم وأمراؤهم ، غير أن أسريهم آنذاك كانوا من صغار الأمراء الذين كانوا يخرجون سعيا لكسب زهيد . أما على قرني حطين فقد هلك أضخم جيش جمعته المملكة فى تاريخها، وضاع الصليب الحقيقى ، وكان المنتصر عاهل العالم الإسلامى كله .

(٢٦) Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 114-15; Kemal ed-Din (ed. Blochet, pp.180-1)

الدين رواية تختلف اختلافا طفيفا لكنها تحمل نفس المعنى؛ وبورد (pp.172-4) Ernoul نفس القصة تقريبا.

١١٨٧ م : فلسطين تستسلم لصلاح الدين

لم يبق أمام صلاح الدين بعد أن قضى على أعدائه سوى احتلال قلاع الأراضي المقدسة . أما كورنيسة طرابلس ، فقد سلمت له طيرة بعد أن تلاشت امكانية وصول مساعدة لها ، وقد عاملها بما تستحقه من التشريف وسمح لها بالذهاب إلى طرابلس مع كل أفراد اسرتها ثم أنه نقل سواد جيشه جنوبا إلى عكا . ولم يكن القهرمان جوسلين (أوف كورتناي) يفكر إلا في سلامة الشخصية . فأرسل مواطنا يدعى بطرس بريس لمقابلة صلاح الدين عندما جاء أمام الأسوار يوم ٨ ابريل ، يعرض الاستسلام إذا ضمن أرواح وممتلكات السكان . وبدا للكثيرين في المدينة أن من العار أن تستسلم المدينة هذا الاستسلام الذليل ، فحدثت أعمال شغب لفترة قصيرة أحرقت فيها عدة منازل ؛ لكن النظام استتب قبل استيلاء صلاح الدين على المدينة رسميا في العاشر من الشهر . وكان يعلق الآمال على اقناع اغلب التجار المسيحيين بالبقاء هناك ، لكنهم كانوا يخشون المستقبل فهاجروا ومعهم كل منقولاتهم ، ووجد المنتصرون مخزونات هائلة من البضائع ، والحرير ، والادوات المعدنية ، والمجوهرات ، والأسلحة ، تخلص منها التجار فراحوا يوزعونها ، بإشراف ابن صلاح الدين الأفضل الذي أعطيت له المدينة ، على الجنود والرفاق . واما مصنع السكر الضخم فقد انتهبه تقى الدين مما ضايق صلاح الدين^(٢٧) . وبينما مكث صلاح الدين في عكا ، كانت كتائب من جيشه تستسلم المدن والقلاع التي تستسلم في الجليل والسامرة . وفي نابلس صمدت حامية باليان لأيام قلائل وحصلت على شروط مشرفة عندما استسلمت ؛ وقاومت قلعة تبينين لأسبوعين قبل أن تستسلم حاميتها . كان هناك القليل من المقاومة في أماكن أخرى^(٢٨) . وفي تلك الأثناء جاء أخو صلاح الدين ، العادل ، من مصر وحاصر يافا . ولم تستسلم له المدينة ، لذا استولى عليها عنوة وأسر كل السكان من الرجال والنساء والأطفال . ووجد أكثرهم الطريق إلى اسواق العبيد والحريم في حلب^(٢٩) .

بعد استيلاء صلاح الدين على الجليل اتجه إلى الساحل الفينيقي . وكان أغلب

(٢٧) Ernoul, *loc. cit.*; *Estoire d'Eracles*, II, oo, 70-1; Abu Shama, pp.295-7; Beha ed-Din, *P.P.T.S.P.* 116; Ibn al-Athir, pp.688-90.

(٢٨) *Estoire d'Eracles*, II, p.68, *De Expugnatione*, pp.31-4 ولم يذكر بهاء الدين ، سوى بطورون ؛ Abu Shama, pp.300-6; Ibn al-Athir, *loc. cit.*

(٢٩) Ibn al-Athir, pp.690-1. وقد اشترى هو نفسه أمة في سوق حلب ، بتنا صغيرة فقدت زوجها وستة أطفال (ص ٦٩١)؛ *De Expugnatione*, p.229.

الباقين على قيد الحياة في حطين قد هربوا مع باليان إلى مدينة صور ، التي كانت حاميتها قوية وكانت أسوارها الضخمة التي تحرسها من جهة الأرض شديدة المناعة ؛ وبفشل هجومه الأول ، تركها وانطلق إلى صيدا التي استسلمت من فورها يوم ٢٩ يولية . وهرب أميرها ، رينالد ، إلى قلعة المنيعه شقيف أرنون في داخل البلاد . وحاولت بيروت الدفاع عن نفسها ، لكنها استسلمت يوم ٦ أغسطس ؛ واستسلمت جبيل بعدها بأيام قلائل بأوامر من أميرها هيو إبرياكو الذي اطلق صلاح الدين سراحه بهذا الشرط . وبحلول نهاية اغسطس لم يبق للمسيحيين جنوب طرابلس سوى صور وعسقلان وغزة ، وبعض الحصون القليلة المبعثرة ، ومدينة القدس المقدسة^(٣٠) .

وفي سبتمبر ظهر صلاح الدين امام عسقلان وقد أحضر معه أهم أسيرين لديه ، الملك جوى والسيد الأعظم جيرارد . وقد قيل لجوى إن ثمن حريته استسلام عسقلان ؛ ولدى وصوله أمام الأسوار ألقى خطبة للمواطنين طالبا منهم التخلي عن الكفاح ، وكذلك فعل جيرارد ؛ لكن المواطنين ردوا عليهما بتوجيه الإهانات إليهما . وكان الدفاع عن عسقلان دفاعا شجاعا ، وخسر صلاح الدين في الحصار اثنين من امرائه . على أن الحامية أرغمت على الاستسلام يوم ٤ سبتمبر ، وسمح للمواطنين بالرحيل مع كل منقولاتهم . ورافقهم حراس صلاح الدين إلى مصر حيث نزلوا في اماكن مريحة في الاسكندرية ، إلى أن يُرحلوا إلى أراض مسيحية^(٣١) . أما في غزة ، حيث تقضى قوانين نظام فرسان المعبد بطاعة سيدها الأعظم ، فقد أجبرت الحامية على الإذعان لأمر جيرارد بالاستسلام على الفور ، وحصل بدلا من القلعة على حريته^(٣٢) . لكن الملك جوى مكث في السجن لعدة أشهر ، أولا في نابلس ، ولاحقا في اللاذقية ؛ وسمح للملكة سبيلا بالحضور من القدس للانضمام اليه . وكما توقع صلاح الدين دون شك ، كان لإطلاق سراحهما في الربيع التالي أن زاد المسيحيين حرجا على حرج^(٣٣) .

(٣٠) Beha ed-Din P.P.T.S pp.116-17; Abu Shama, pp.306-10; Ibn al-Athir, pp.692-3; De Expugnacione, p.236.

(٣١) -Ernoul, p.184; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 78-9, De Expugnacione, pp.236-8; Beha ed Din, P.P.T.S.P.117; Ibn al-Athir, pp.696-7.

(٣٢) .Abu Shama, pp.312-13; Beha ed-Din, loc.cit; Ibn al-Athir, p. 697.

(٣٣) استنادا الى Ernoul (pp.175, 185) ، كانت سبيلا في القدس حتى عشية الحصار وسمح لها وقسمت بالذهاب الى نابلس^(٣٤) . Ibn al-Athir, p.703; *Estoire d'Eracles*, II, p.79 (p.185) ، ويقول pp.21-3, *Itinerarium Regis Ricardi* ، إن سبيلا كانت في القدس طوال الحصار ثم ذهبت الى نابلس بمجرد مقابلة قصيرة . ويقول بهاء الدين (P.P.T.S.P.143) إن صلاح الدين أخذ جوى الى طرطوس وأطلق سراحه هناك أثناء أن كان صلاح الدين يحاصر كبراك دي شيفالييه . وكان ذلك في يولية ١١٨٨ م ،

١١٨٧ م : الدفاع عن القدس

فى ذات اليوم الذى دخل فيه جنود صلاح الدين عسقلان خسفت الشمس ؛ واستقبل صلاح الدين فى الخفاء وفدا من مواطنى القدس كان قد استدعاه لمناقشة شروط استسلام المدينة المقدسة. على أنه لم تكن هناك مناقشة ؛ إذ رفض الوفد تسليم المدينة التى مات فيها ربهم من أجلهم ، وعادوا بكبيرائهم إلى القدس ، وأقسم صلاح الدين أن يأخذها بالسيف . وجاء إلى القدس من أعانها دون توقع ؛ ذلك أن إيلين باليان ، الذى كان مع اللاتين الفرنج فى صور ، أرسل إلى صلاح الدين ملتصا مرورا مأمونا إلى القدس ، إذ كانت زوجته ، الملكة ماريا ، قد لجأت إليها من نابلس حيث مكثت هناك مع أطفالها وقد أبدى رغبته فى احضارهم إلى صور . ولبنى صلاح الدين طلبه شريطة أن يمضى بالقدس ليلة واحدة وألا يحمل سلاحا . وعندما وصلها وجد البطريق هيراكليوس ومسؤولى النظامين العسكريين يحاولون تهيئة المدينة للدفاع ، ولكن لم يكن هناك قائد يشق فيه الناس . وتصايحوا جميعا بأنه ينبغي لباليان البقاء لقيادتهم ، وانهم لن يدعوه يرحل . وفى حرجه العميق ، كتب باليان إلى صلاح الدين يشرح له حنثه بيمينه . وكان صلاح الدين دائما كئيبا مع عدو يحترمه . فلم يغفر لباليان وحسب ، بل أرسل هو نفسه حرسا لنقل الملكة ماريا ، وأطفالها ، وعائلتها ، وجميع ممتلكاتها جنوبا إلى صور^(٣٤) . ورحل معها ابن أخى باليان الصغير توماس (أوف ايلين) وابن هيو (أوف جيبيل) الصغير . وبكى صلاح الدين لرؤية هؤلاء الأطفال ، ورثة المهابة التى ولت ، وهم يمشون خلال معسكره إلى المنفى .

وفى القدس بذل باليان مافى وسعه . وتضخم عدد السكان باللاتين من كافة المقاطعات المجاورة ، والقليل منهم يصلح للقتال . فكان لكل رجل خمسين امرأة وطفل . ولا يوجد سوى فارسين اثنين فى المدينة ؛ ولذا منح باليان الفروسية لكل صبى تجاوز السادسة عشرة وولد فى اسرة نبيلة ، ولثلاثين رجلا من البورجوازيين . وبعث بالفرق تجمع كل ما تجده من طعام قبل أن تأتى الجيوش الإسلامية لتحكم حصار المدينة .

قبل استيلاء صلاح الدين على طرطوس بأيام قلائل . وربما أخطأ صلاح الدين فى ذكر اسم طرطوس بدلا من طرابلس ، لكن تاريخ الافراج كان بالقطع فى يولية ١١٨٨ . ومع ذلك يقول Ernoul (p.185) ان جوى أطلق سراحه فى مارس ١١٨٨ م ، لكنه يذكر التاريخ (فى ص ٢٥٢) عندما كان صلاح الدين يحاصر طرابلس (يولية ١١٨٨ م) . ويقول *Itinerarium* إن جوى أطلق سراحه فى طرطوس حيث انضمت اليه سيلا أخيرا (p.25).

(٣٤) .Ernoul, pp. 174-5, 185-7; *Estoire d'Eracles*, II, pp.81-4; *De Expugnacione*, p.238.

وتولى مسؤولية الخزانة الملكية والأموال التى أرسلها هنرى الثانى إلى فرسان المستشفى . بل أنه نزع الفضة من سقف القبر المقدس ، ووزع السلاح على كل رجل يستطيع حمله .

وفى ٢٠ سبتمبر عسكر صلاح الدين امام المدينة وبدأ مهاجمة الأسوار الشمالية والشمالية الغربية ، لكن الشمس كانت فى مواجهة أعين جنوده والدفاعات قوية . وبعد خمسة أيام نقل معسكره . وللحظة قصيرة ظن المدافعون أنه رفع الحصار ؛ ولكنه اقام جيشه فى صباح ٢٦ سبتمبر فوق جبل الزيتون ، وراح بعض المتسللين من جيشه تحت حماية فرسانه يزرعون الألغام فى السور بالقرب من بوابة العمود ، غير بعيد من الموضع الذى اقتحم فيه المدينة جودفرى (أوف لورين) قبل ذلك بشمانية وثمانين عاما . وبحلول يوم ٢٩ سبتمبر كانت هناك فجوة كبيرة فى السور ؛ وتجمع المدافعون حولها بقدر استطاعتهم ، وحاربوا باهتياج ، لكن عددهم كان ضئيلا بحيث استحال عليهم الصمود طويلا أمام جحافل أعدائهم . وود جنود الفرنج أن يقوموا بخروج رائع ولو أدى ذلك إلى موتهم ، لكن البطريق هيراكليوس لم يكن يفكر فى أن يصبح شهيدا ، وقال لهم إنهم إن فعلوا ذلك ، فسوف يتركون نساءهم وأطفالهم للرق المحتم ، ولن يمنح بركته لمثل هذا التصرف العارى من الورع . وآزره باليان الذى ارتأى حماقة فى خسارة المزيد من الأرواح . وفى ٣٠ سبتمبر ذهب هو نفسه إلى معسكر الأعداء يلتمس من صلاح الدين وضع شروطه .

١١٨٧م : استسلام القدس

كانت المدينة تحت رحمة صلاح الدين الذى يستطيع قصفها وقتما يحلو له ، فضلا عن أن له بداخلها الكثير من الأصدقاء المحتملين . ذلك أن كبرياء الكنيسة اللاتينية كان دائما موضع ازدراء المسيحيين الأرثوذكس الذين كانوا يولفون أغلب سكان المدينة الأكثر فقرا . ولم يكن هناك صدع قاطع بينهما ؛ إذ كانت العائلة الملكية والنبلاء العوام ، إلا فى انطاكية ، يظهرون مشاعر الود والاحترام لرجال الدين الأرثوذكس . غير أن قمة الهرمية كانت قاصرة على اللاتينيين . وفى مكان عبادتهم المقدس الكبير كان المسيحيون المحليون يضطرون إلى حضور الصلوات بلغة وطقوس غريبة عنهم . وكانت الذكريات ترجع بهم إلى أيام الحكام المسلمين عندما كانوا يمارسون عبادتهم كما يحلو لهم ؛ وكان المستشار الخصوصى لصلاح الدين لشؤون الأمراء المسيحيين

علامة ارثوذوكسيا من القدس يدعى يوسف باتيت وقد أجرى الآن اتصالاته مع الطوائف الأرثوذوكسية في المدينة ، ووعدوا بفتح البوابات لصالح الدين .

على أنه لم تكن هناك حاجة إلى تدخلهم . ذلك أنه عندما جاء باليان أمام خيمة صلاح الدين ، أعلن صلاح الدين أنه أقسم أن يستولى على المدينة بالسيف ، ولا يحله من هذا القسم سوى الاستسلام غير المشروط . وذكر باليان بالمذابح التي ارتكبتها المسيحيون عام ١٠٩٩ م ، فهل يكون تصرفه غير ذلك؟ وتأججت المعركة أثناء المناقشة ، وأشار صلاح الدين إلى رايته التي ترفرف الآن على أسوار المدينة . على أنه في اللحظة التالية اندحر رجاله إلى الخلف ؛ وحذر باليان صلاح الدين أنه ما لم يحصل على شروط مشرفة فإن المدافعين عن المدينة سوف يدمرون في يأسهم قبل أن يموتوا كل شيء في المدينة بما في ذلك المباني التي يقدسها المسلمون في منطقة المعبد ، وسيقتلون الأسرى المسلمين لديهم . وكان صلاح الدين على استعداد لإظهار الكرم طالما سلطته معترف بها ، وكان يرغب في أن تعاني القدس قليلا بقدر الإمكان . فوافق على وضع شروط ، عارضا أن يفتدى المسيحيون جميعا أنفسهم بعشرة دنانير للرجل ، وخمسة دنانير للمرأة ، ودينار واحد للطفل . فأشار باليان إلى وجود عشرين ألف من الفقراء في المدينة ليس بإمكانهم أبدا دفع هذا المبلغ . فهل يقبل مبلغا اجماليا تدفعه السلطات المسيحية نظير حريتهم جميعا ؟ وكان صلاح الدين على استعداد لقبول مائة ألف دينار عن الفقراء كلهم وعددهم عشرين ألف شخص ، لكن باليان يعلم عدم امكان جمع هذا المبلغ ، فاتفقا على تحرير سبعة آلاف شخص نظير مبلغ ثلاثين ألف دينار . وبناء على اوامر باليان ألقت الحامية سلاحها؛ ودخل صلاح الدين القدس يوم الجمعة ٢ أكتوبر الذي يوافق ٢٧ رجب ، وهو ذكرى اسراء النبي إلى القدس ومعراجة إلى السماء .

١١٨٧ م : اللاجئون

كان المنتصرون أهل استقامة وإحسان . وحيث كان الفرنج قبل ثمانية وثمانين عاما يخوضون في دماء ضحاياهم ، لم يُنتهب الآن مبنى واحد ، ولم يُصب شخص واحد . وبأوامر صلاح الدين طاف الحراس في الشوارع والأبواب للحيلولة دون أى اعتداء على المسيحيين . وراح كل مسيحي يجاهد ليجد المال اللازم لفديته ، وأفرغ باليان الخزانة لجمع ما وعد به وهو ثلاثين ألف دينار . وكان من العسير اجبار نظامي المستشفى والمعبد على أن يتقيأ كل منهم ثروته ؛ ولم يكن البطريق وهيئة الكنيسة

يهتمون إلا بأنفسهم فقط . وصُدم المسلمون لرؤية هيراكليوس وهو يفتدى نفسه بدنانيره العشرة تاركا المدينة ترزح تحت ثقل الذهب الذى كان يحمله معه ، تتبعه العربات المحملة بالسجاجيد والصحاف . وبفضل ما تبقى من منحة هنرى الثانى ، أمكن تحرير فقراء المدينة العشرين الف ؛ وكان ممكنا تلافى الرق لآلاف كثيرة لو كان النظامان العسكريان والكنيسة اكثر كرما . وسرعان ما توافد المسيحيون فى صفين طويلين خارجين من البوابات ، أحد الصفين يضم من دفعوا فديتهم بأنفسهم أو دفعها عنهم باليان ، والصف الآخر لغير القادرين على أن يفتدوا أنفسهم ولذا كانوا ذاهبين إلى الرق . وكان المشهد غاية فى الأسى بحيث التفت العادل إلى اخيه صلاح الدين ملتصقا بمنحه ألفا منهم جائزة له على خدماته ، فلبى صلاح الدين طلبه ، فأعتقهم العادل لتوه . وانبسطت أسارىر البطريق هيراكليوس إذ عثر على وسيلة رخيصة لفعل الخير ، فالتمس منحه بعض العبيد ليعتقهم ، فمُنح سبعمائة ، ومنح باليان خمسمائة . ثم أعلن صلاح الدين نفسه أنه سيعتق كل رجل مسن وامرأة عجوز . وجاءته السيدات الفرنجيات اللاتى افتدين انفسهن باكيات يتساءلن إلى أين يذهبن بعد أسر أو قتل آبائهن أو أزواجهن ! فوعدهن صلاح الدين بعق الأزواج ومنح الأراسل واليتامى هبات من ماله الخاص بحسب حالة كل منهن . لقد كانت رحمته وشفقته ناصعة البياض على نحو غريب إزاء ما ارتكبه الغزاة المسيحيون فى الحملة الصليبية الأولى .

وكان البعض من أمراءه وجنوده أقل شفقة ؛ إذ كانت هناك حكايات عن ابتزاز بعض المسلمين لبعض المسيحيين لتحريرهم سرا بعد الاستيلاء على كل ما يملكونه . واعترف أمراء مسلمون آخرون بهروب عبيد بعد تسديد رسوم مرتفعة سرا . غير أن صلاح الدين كان ينزل أشد العقوبة فى كل مرة يعلم فيها بتلك الممارسات^(٣٥) .

وسار صف اللاجئين الطويل بطيئا باتجاه الساحل دون أن يتحرش به المسلمون . وكانوا يرتحلون فى ثلاث قوافل ، يقود الأولى نظام فرسان المعبد ، والثانية نظام فرسان المستشفى ، والثالثة باليان والبطريق . وفى صور ، التى اكتظت بلاجئين آخرين ، لم

(٣٥) أورد إيرنول أكثر الروايات اكتمالا وأصالة، إذ كان مع باليان فى القدس pp.174-5, 211 -Ernoul. *De Expugnacione*, pp.241-51 ويرد فى 30 *Estoire d'Eracles*, II, 81-99 رواية شاهد عيان جرح أثناء الحصار وكان يعارض الاستسلام ؛ Beha ed-Din, pp.320-40; Abu Shama, pp.699-703. *P.P.T.S* pp.118-20; Ibn al-Athir, pp.699-703. وترد قصة يوسف باتيت فى "تاريخ بطارقة الاسكندرية" p.207 *The History of the Patriarchs of Alexandria*، وهو مرجع قبطى عدوانى؛ إذ يضيف المؤرخ أن المسيحيين الأرثوذكس كانوا فى شدة الحزن من الاستسلام، لأنهم كانوا يفضلون قتل الفرنج .

وبقى المسيحيون الأرثوذكس واليعاقبة في القدس . ومن الناحية الرسمية كان على كل فرد منهم أن يدفع الجزية إلى جانب فديته ، وقد أعفى الكثير من الطبقات الفقيرة من الدفع . واشترى الأغنياء منهم الكثير من الممتلكات التي تركها الفرنج بعد رحيلهم ، وما بقي اشتراه المسلمون واليهود الذين شجعهم صلاح الدين على الاستقرار في المدينة . وعندما وصلت القسطنطينية أنباء انتصار صلاح الدين ، أرسل الامبراطور إيزاك أنجيلوس سفارة إلى صلاح الدين لتهنئته وإعادة الأماكن المسيحية المقدسة إلى الكنيسة الأرثوذكسية ، فلبى صلاح الدين طلبه بعد قليل من التأخير . وراح الكثير من اصدقاء صلاح الدين يمثون على تدمير كنيسة القبر المقدس ، لكنه أكد لهم أن المسيحيين يجعلون الموقع وليس المبنى وأنهم لا يزالون يرغبون في الحج إلى هناك ، ولا رغبة لديه في تشييطهم عن ذلك . وفي واقع الأمر أغلقت الكنيسة لثلاثة أيام فقط ، وسمح لحجاج الفرنج بزيارتها بعد دفع رسم معين^(٢٧) .

وباستعادة صلاح الدين للقدس يكون قد أنجز أهم واجباته الدينية . ولكن هناك بعض القلاع الفرنجية التي لا يزال يتعين إخضاعها . وكانت الليدى ستيفن ، سيدة منطقة الأردن ، من بين الأسيرات اللاتي دفعن الفدية فى القدس ، وكانت قد التمسست من صلاح الدين اطلاق سراح ابنها همفرى (اوف تبنين) ، فوافق شريطة استسلام حصنها الكبيرين الكرك والشوبك ؛ وأرسل ابنها همفرى من سجنه كى ينضم اليها .

(٣٧) عن مصير المسيحيين الوطنيين انظر Bar-Hebraeus, trans. Budge, pp.326-7؛ وBeha ed -Din, P.P.T.S pp.198-201 تبادل السفارات بين صلاح الدين والإمبراطور. ويرد الإغلاق الوقت لكنيسة القبر المقدس في Maqrissi, ed.Bloch, *Revue de l'Orient Latin*, vol IX, p.33. وعن اليهود انظر Schwab, 'Al-Harizi', in *Archives de l'Orient Latin*, 1 p. 236.

لكن الحاميتين رفضتا كلتاهما الانصياع لأوامرها بالاستسلام . ولفشلها فى تنفيذ شرطها أعادت ابنها إلى الأسر ثانية ؛ وهو تصرف أدخل السرور على قلب صلاح الدين ، فأعق همفرى بعد ذلك بأشهر قليلة . وفى تلك الأثناء ضرب العادل والجيش المصرى الحصار حول الكرك . واستمر الحصار ما يربو على سنة كاملة ؛ ولشهور كثيرة أشرف المدافعون على التضور جوعا ، وأخرجوا نساءهم وأولادهم لإعالة انفسهم بأنفسهم ، بل انهم باعوا فى حقيقة الأمر البعض منهم للبدو نظير الحصول على الطعام . ولم تستسلم القلعة إلا فى نهاية عام ١١٨٨ م ، عندما أكلت الحامية آخر حصان فيها . وصمدت الشوبك بضعة أشهر بعدها إذ لم يكن الحصار محكما كسابقتها^(٣٨).

١١٨٧ م : دبلوماسىة رينالد أمير صيدا

وفى الشمال استسلم فرسان المعبد فى قلعة صفد يوم ٦ ديسمبر ١١٨٨ م بعد شهر من القصف الشديد ، وبعد ذلك حذا فرسان المستشفى حذوهم فى قلعة كوكب ، الواقعة فى مكان مرتفع من وادى الأردن . وكانت قلعة هورين قد احتلت قبل ذلك . أما شقيف أرنون الذى لجأ اليه رينالد أمير صيدا ، فقد أنقذ بفضل دبلوماسيته . إذ كان رينالد رجلا متعلما ، شغوقا بالأدب العربى ، فجاء إلى خيمة صلاح الدين معترفا بأنه على استعداد لتسليم حصنه والتقاعد فى دمشق إذا منح ثلاثة أشهر يتدبر فيها شؤونه ؛ بل إنه ألمع إلى أنه قد يعتنق الإسلام . وكان أسلوبه فى المناقشة فاتنا حتى أن صلاح الدين اقتنع بحسن نواياه ، لا لشيء سوى أن يكتشف بعد فوات الأوان أن الهدنة التى منحها له استغلها فى تعزيز دفاعات الحصن . وفى ذات الوقت كان صلاح الدين قد انتقل إلى منطقة طرابلس وانطاكية^(٣٩).

كان ريموند أمير طرابلس ، بعد فراره من حطين مباشرة ، قد مات فى نهاية عام ١١٨٧ م تقريبا متأثرا بمرض ذات الجنب^(٤٠)، رغم الظن بأن مرضه يرجع إلى الإكثار

(٣٨) Ernoul, p.187; *Estoire d'Eracles*, II, p. 122; Abu Shama, p. 382; Beha ed-Din, P.P.T.S pp.139, 143.

(٣٩) Beha ed-Din, P.P.T.S pp.122-3, 138-41, 142-3. (٣٩) *جذابا*؛ Abu Shama, pp.395-400; Kemal ed-Din, ed. Blochet, p. 191.

(٤٠) (المترجم): التهاب الغشاء البلورى المحيط بالرتين ، ويتصف بصعوبة وآلام التنفس ، غالبا مايصحبه ارتشاح سائل فى فراغ الصدر.

(الملاخوليا) والعار ؛ وقد اعتبره كثيرون من معاصريه خائنا ساهمت أنانيته فى دمار المملكة ؛ لكن المؤرخ وليم الصورى وباليان ايلين كانا من أصدقائه ودافع عنه كلاهما. لقد كانت مأساته الحقيقة هى مأساة كل المستعمرين الفرنج من الجيلين الثانى والثالث الذين كانوا على استعداد ، بنزوعهم الطبيعى ومن منطلق السياسية ، لأن يصبحوا جزءا من العالم الشرقى ، لكن تعصب أبناء عمومته من الوافدين الجدد من الغرب أجبرهم على التحزب ، ولم يكن يسعهم فى نهاية الأمر إلا أن يتحزبوا لرفاقهم المسيحيين . ولم يترك ذرية ، ولذا أوصى بتوريث كونتيته لابنه الروحى ريموند ، ابن أقرب أقربائه المذكور بوهموند أمير انطاكية ، لكنه اشترط أنه فى حالة مجئ أحد من أفراد آل تولوز إلى الشرق تكون الكونتية من نصيبه . وقبل بوهمند الميراث لابنه ، ثم استعرضه لأخيه الأصغر ، بوهمند ، خشية أن تصبح انطاكية وطرابلس معا تحت إمرة رجل واحد لا يستطيع الدفاع عنهما^(٤١).

بيد أنه سرعان ما أصبح هناك القليل من الميراث ؛ ففى أول يولية ١١٨٨ م زحف صلاح الدين مخترقا البقاع ، مارا بقلعة فرسان المستشفى فى الكرك التى ظن أنها شديدة القوة بحيث لا يقدر على مهاجمتها ، وبم وجهه شطر طرابلس ؛ لكن وصول اسطول ملك صقلية اليها صرفه عن مهاجمتها، وتحول شمالا . وقصف مدينة طرطوس ، لكن قلعة فرسان المعبد صمدت له . فتابع زحفه أسفل أسوار مرقب حيث حاول فرسان المستشفى التصدى له أثناء مروره . واستسلمت جبيل يوم الجمعة ١٥ يولية واللاذقية يوم ٢٢ من الشهر ؛ وكانت اللاذقية مدينة جميلة ، يرجع تاريخ كنائسها وقصورها إلى العصور البيزنطية ، وبكى المؤرخ المسلم عماد الدين لرؤيتها منهوبة مخربة . ومن اللاذقية تحول صلاح الدين إلى داخل البلاد نحو صهيون ، حيث كان يعتقد أن قلعة فرسان المستشفى لا تقهر ؛ غير أنه بعد أيام قلائل من القتال العنيف استولى عليها بهجوم عام يوم الجمعة ٢٩ يولية . وفى يوم الجمعة ١٢ اغسطس استسلمت حامية قلعة بكاس الشجر ، وكانت ذات حماية جيدة رغم وجود الحصن بجوار أخدود هائل ومجارى كبيرة من أثر المياه ؛ وجاء استسلامها لعدم وجود مساعدة آتية من انطاكية . وفى يوم الجمعة ١٩ سقطت مدينة سمرين . وبعد أيام قلائل ، استسلمت

(٤١) يرد موت ريموند بلون تاريخ محدد فى *Estoire d'Eracles*, p.72، حيث ترد ترقيبات الاستخلاف، وأوردها أيضا عماد الدين (فى أبى شابة p.284) وبهاء الدين . P.P.T.S.p.114 ويقول الكتاب العرب إنه مات بمرض ذات الجنب . وعن تصرفه فى حطين انظر أدناه ، المرفق الثانى . ويقول Benedict of Peterborough إنه وجد ميتا فى فراشه (II, p. 21).

قلعة برزية الواقعة فى أقصى جنوب وادى العاصى . وكان قائدها زوجا لأخت المخير السرى لصالح الدين وهى أميرة من أنطاكية ومنح حريته هو وزوجته . وفى ١٦ سبتمبر استسلمت قلعة فرسان المعبد فى درب ساك الواقعة فى جبال الأمانوس ، وفى يوم ٢٦ سقطت قلعة بجراس التى تسيطر على الطريق من انطاكية إلى كيليكيا^(٤٢) . بيد أن جيش صلاح الدين بات مرهقا الآن ، ورغب جنود سنجار فى الذهاب إلى أوطانهم . ولذا ، وعندما توسل الأمير بوهمند لعقد هدنة تعترف بكل فتوحات المسلمين، منحها له صلاح الدين . وظن أن بإمكانه أن يفرغ من مهمته وقتما يجب . وكان كل ما تبقى لبوهمند وأولاده عاصمته أنطاكية وطرابلس وميناء السويدية، بينما احتفظ فرسان المستشفى بمحصى المرقب والكرك، وفرسان المعبد بطرطوس^(٤٣) .

١١٨٧م : الدفاع عن صور

على أنه كانت فى الجنوب مدينة لم تسقط بعد لصالح الدين ، وهنا ارتكب خطأه الكبير . ذلك أن بارونات فلسطين اللاحثين احتشدوا الآن فى صور ، أقوى مدن الساحل ، التى لم يكن يصلها بالبلاد سوى شبه جزيرة ضيقة رملية بنى غيرها سور ضخيم . ولو أن صلاح الدين عجل بهجومه على صور حالما استولى على عكا ، لما أوقفه شئ حتى هذا السور ؛ لكنه تأخر إلى ما بعد فوات الأوان . وكان رينالد أمير صيدا ، الذى كان وقتئذ يسيطر على المدينة ، يتفاوض من أجل التسليم ، بل إن صلاح الدين أرسل رايتين من راياته ليرتفعا فوق القلعة ، لولا أن حدث يوم ١٤ يولية - بعد حطين بعشرة أيام - أن دخلت سفينة إلى الميناء . وكان على ظهرها كونراد ، ابن مركزيز مونتفرات المسن وشقيق الزوج الأول للملكة سيبلا . وكانت معيشته فى القسطنطينية ، وكان متورطا فى جريمة قتل هناك ، ولذا أبحر سرا مع مجموعة من فرسان الفرنج للحج فى الأماكن المقدسة . وكان خالى الذهن عن الكوارث التى حلت بفلسطين ، فاتجه إلى عكا . وعندما وصلت الباخرة خارج ميناء الميناء اندهش القبطان لعدم سماعه صوت الجرس الذى كان عادة يدق عند رؤية سفينة . وحدثته نفسه بأن

(٤٢) -Ernoul, pp.252-3; *Estoire d'Eracles*, II, p. 122; Abu Shama, pp. 356-76; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp.125-38; Kemal ed-Din, ed Blochet, pp. 187-90; Ibn al-Athir, pp.726-727; 9: ويقتبس أبو شامة 2-361 pp وصف عماد الدين للأذقية وتخريبها .

(٤٣) -Ibn al-Athir, pp.732-3; Beha ed-Din, P.P.T.S p.137. كان من المقرر ان تستمر الهدنة سبعة أشهر .

هناك شيئا غير طبيعي ولذا لم يدخل إلى المرسى . وسرعان ما جاءت بمحاذاة سفينته مركب شراعى بسارية واحدة وعليها مسؤول الميناء المسلم ؛ فتظاهر كونراد بأن السفينة سفينة تجارية وسأل ماذا هناك ، واجابه المسؤول بأن صلاح الدين استولى على المدينة قبل أربعة أيام . وتسبب الرعب الذى تملكه فى إثارة الريبة لدى المسؤول المسلم؛ ولكن كونراد تمكن ، قبل أن يطلق المسؤول سبل الإنذار ، من الإسراع بالإبحار إلى صور ، حيث لقي ترحيبا باعتباره المخلص وعهد اليه بمهمة الدفاع عن المدينة . والغيت شروط صلاح الدين للسلام وألقى برأيتيه فى الخندق المائى . وكان كونراد عفيا ، قاسيا ، شجاعا ؛ رأى أن المدينة تستطيع الصمود إلى أن تأتى المساعدة من الغرب ، وكان على ثقة من أن أخبار سقوط القدس سوف تجعل المساعدة تأتى لا محالة . وعندما ظهر صلاح الدين امام صور بعد أيام قليلة ، كانت قوة دفاعاتها تفوق قوته ، فأحضر مركز مونتفرات من دمشق ، وأظهره امام الأسوار مهددا بقتله إن لم تستسلم له المدينة؛ غير أن ورع البنية لدى كونراد لم يكن قويا ، مايكفى لكى يعيل عن واجبه كمحارب مسيحي ؛ فلم يحرك ساكنا ، وبالطية المعتادة أبقى صلاح الدين على حياة الرجل العجوز . ورفع الحصار ليتجه إلى عسقلان . وعندما ظهر مرة اخرى امام صور فى نوفمبر ١١٨٧م وحدها قد عززت من تحصيناتها ، ووصلتها بعض التعزيزات البحرية والعسكرية ، وحال الشريط الأرضى الضيق دون أن يستخدم رجاله ومنجنيقاته . وجاء بعشر سفن اسلامية من عكا ؛ لكن المسيحيين استولوا على خمس منها يوم ٢٩ ديسمبر ، واندحر هجوم متزامن على الأسوار . وفى مجلس حرب أنصت صلاح الدين لأمرائه الذين أشاروا إلى أن الجنود فى حاجة إلى الراحة ؛ وكان الشتاء مطيرا وباردا ، وظهرت الأمراض فى المعسكر . وفى أول أيام العام الجديد ١١٨٨م أمر صلاح الدين بتسريح نصف جيشه وانسحب للاستيلاء على الحصون فى داخل البلاد . وأنقذت المدينة بفضل حيوية كونراد وثقته ، وأنقذ معها بقاء المملكة المسيحية^(٤٤).

١١٨٧م : تشريف صلاح الدين

وفيما بعد أسف صلاح الدين أسفا مريرا على فشله فى الاستيلاء على صور . غير أن ما أنجزه كان هائلا بلا أدنى ريب . وسواء جاءت انتصاراته نتيجة لاستجابة

Ernoul, pp. 179-83; *Estoire d'Eracles*, II, pp.74-8, 104-10; *Itinerarium Regis* (٤٤) Ricardi, pp.18-19; Beha ed-Din, P.P.T.S pp. 120-2; Ibn al-Athir, pp. 694-6, 707-12.

الإسلام الحتمية لتحدى الفرنج الدخلاء ، أو نتيجة لسياسة أسلافه العظام ذوي البصيرة النافذة ، أو نتيجة لنزاعات وحماقات الفرنج أنفسهم ، أو نبعت من شخصيته هو نفسه ، فقد جاء بالبينّة التي تدل على قوة الشرق وروحه . وفى قرنى حطين ، وعلى بوابات القدس ، انتقم لإهانة الحملة الصليبية الأولى ، وأظهر كيف يحتفل الشريف بانتصاره .

المرفقات:

المرفق الأول: المصادر الرئيسية لتاريخ الشرق اللاتيني

المرفق الثاني: معركة حطين

المرفق الثالث: شجرات الأنساب

المرفق الأول

المصادر الرئيسية لتاريخ الشرق اللاتيني

١١٠٠-١١٨٧ م

١- المصادر اليونانية

لا تتناول المصادر اليونانية اللاتينيين في الشرق إلا عند وجود اتصال مباشر مع بيزنطة . وحتى عام ١١١٨ م ، يظل التاريخ المسمى أليكسياد Alexiad الذى كتبه أنا كومنيننا Anna Comnena أهم المصادر اليونانية ، برغم وجود نوع من الإضطراب فيما كتبه من تتابع أحداث الشؤون الفرنجية^(١) . وفيما يتصل بعهدى جون ومانويل كومنينوس ، يعتبر تاريخى جون سيناموس John Cinnamus ونيكتاس أكوميناتوس ، أو خونياتيس Acominatus, or Choniates Nicetas المصدرين الأساسيين . إذ كان الأول كاتب سر الامبراطور مانويل كومنينوس وكتب تاريخه بعد موت مانويل مباشرة . ويفتقر تاريخ عهد الامبراطور جون إلى المهارة ؛ غير أنه يتناول تاريخ مانويل نفسه بعناية ويعتبر جديرا بالثقة . وبغض النظر عن بعض التحيزات الوطنية الطفيفة ، فهو مؤرخ ذو رصانة ، يمكن الاعتماد عليه^(٢) . أما نيكتاس Nicetas ، فكتب تاريخه فى باكورة القرن الثالث عشر ، ويغضى الفترة من عهد الامبراطور جون إلى ما بعد استيلاء اللاتين على القسطنطينية . وتاريخه مستقل تماما عن تاريخ سيناموس Cinnamus وبدءا من النصف الأخير من حكم مانويل قُدُما ، يصف الأحداث التى

(١) انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر .

(٢) نشر فى مجموعة Bonn Corpus .

يعرفها معرفة شخصية، وعلى الرغم من الأسلوب البلاغى السائد والميل إلى الأخلاقيات، فإنه تاريخ دقيق يمكن الاعتماد عليه^(٣). ولا يوجد مصدر يونانى آخر له أهمية رئيسية^(٤)، فيما عدا رواية مثيرة وإن كانت غامضة حول رحلة حج قام بها إلى فلسطين عام ١١٧٨ م من يدعى جون فوكاس^(٥) John Phocas.

٢- المصادر اللاتينية

أهم مصادرنا للتاريخ المبكر للدويلات الصليبية هم مؤرخو الحملة الصليبية الأولى، وبصورة ملحوظة فولشر أوف تشارترز Fulcher of Chartres وألبرت أوف آيكس Albert of Aix، وبدرجة أقل رادولف أوف كاين Radulph of Caen، وإيكار أوف أوراء Ekkehard of Aura وكافارو Caffaro وقد ناقشت تلك المصادر فى الجزء الأول من هذا التاريخ. ويتعين اضافة أنه بالنسبة للفترة ١١٠٠ إلى ١١١٩ م، وعندما تصل إلى نهايتها يمكن ان يعتبر تاريخ ألبرت المصدر الذى يعتمد عليه بصورة شاملة. وليس معروفا مصدر حصوله على المعلومات، بيد أنه بمطابقته على المصادر السورية فإنها تؤيده.

ويغطى التاريخ الأنطاكي للفترة ١١١٥ م إلى ١١٢٢ م عمل قصير يسمى De Bello Antiochene كتبه المستشار وولتر Walter the Chancellor، الذى ربما كان مستشارا للأمير روجر. وهو عمل يتصف بالأصالة وزاخر بالمعلومات المفيدة حول تاريخ مؤسسات انطاكية آنذاك^(٦).

ومن عام ١١٢٧ م، عندما ينهى فولشر عمله، وحتى العقد الأخير السابق على استيلاء صلاح الدين على القدس، فإن مصدرنا الهام الوحيد هو تاريخ وليم الصورى William of Tyre's Historia Rerum in Partibus Transmarinis Gestarum،

(٣) نشر فى مجموعة Bonn Corpus.

(٤) لا يزال زوناراس Zonaras مفيدا للسنوات الأولى من القرن. انظر الجزء الأول، مرفق المصادر. وما كتبه Manasses من تاريخ منظوم لا يقدم سوى مادة ضئيلة قليلة الأهمية (نشر فى مجموعة Bonn Corpus) ونشرت القصائد ذات الصلة التى كتبها برودروموس Prodromus فى (مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية. Recueil des Historiens des Croisades).

(٥) Translated in the Palestine Pilgrims' Text Society, vol. v.

(٦) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية. Recueil.

الذى يغطي الفترة من ١٠٩٥م إلى ١١٨٤م^(٧). وقد ولد وليم فى الشرق بعد عام ١١٣٠م بفترة قصيرة . وربما تعلم اللغة العربية واليونانية فى طفولته ، ثم ذهب إلى فرنسا لإتمام دراسته . وبعد عودته إلى فلسطين مباشرة أصبح رئيس شمامسة صور ومستشارا للمملكة من ١١٧٠م إلى ١١٧٤م . كما كان معلما لبلدوين الرابع فى صفره . وفى عام ١١٧٥م أصبح رئيس اساقفة صور ، وفى عام ١١٨٣م ، وبعد فشله فى الحفاظ على البطريركية ، تقاعد فى روما حيث مات قبل عام ١١٨٧م . وبدأ كتابة تاريخه عام ١١٦٩م ، وأنهى الكتب الثلاثة عشر الأولى بحلول عام ١١٧٣م . وقد اخذ معه العمل كله إلى روما وكان ما يزال يعمل فيه وقت موته واعتمد وليم فى روايته عن الحملة الصليبية الأولى اعتمادا رئيسيا على ألبرت Albert ، وبدرجة اقل على ريموند اوف اجيلير Raymond of Aguilers وعلى نسخة Baudri من Gesta ، وعلى فولشر Fulcher من عام ١١٠٠م إلى عام ١١٢٧م ، وفولشر مصدره الرئيسى ، رغم أنه استعان ايضا بالمستشار وولتر . وإضافاته الوحيدة اليهم حكايات شخصية حول الملوك ومعلومات عن الكنائس الشرقية وعن صور . وخلال الفترة من ١١٢٧م وحتى عودته إلى الشرق كان يعتمد على محفوظات المملكة وعلى هيكل تاريخى للملوك ، مفقود الآن . وترتبط على ذلك فإن معلوماته عن شمال سوريا لايعول عليها . ومن ستينات القرن الثانى عشر قَدْما كانت لديه معرفة وثيقة ومتبصرة عما كان يصفه من احداث وشخصيات فاعلة . ويغلب الاضطراب على توارىخه وأحيانا يتوفر البرهان على أنها خاطئة . وربما يرجع ذلك إلى أنها أضيفت إلى مخطوطاته عن طريق ناسخ لمخطوطاته فى وقت مبكر . ويعتبر وليم واحدا من أعظم مؤرخى العصور الوسطى . وكانت له تحاملاته ، مثل كراهيته للسيطرة العلمانية على الكنيسة ، غير أنه معتدل فى كلماته إزاء أعدائه هو شخصيا ، مثل البطريرق هيراكليوس ، وأجنس اوف كورتناى ، وكانا كلاهما يستحقان ملامته . وكان يرتكب الأخطاء حيثما تكون معلوماته غير كاملة . بيد أنه كان ذا بصيرة نافذة؛ إذ وعى مغزى الأحداث العظام التى حدثت فى عصره ، وتعاقب المسببات والنتائج فى التاريخ . وأسلوبه مباشر ولا يخلو من خفة الظل . ويترك عمله الانطباع بأنه كان هو نفسه حكيما ، شريفا ، محبوبا . ولسوء الحظ ، فقد عمله الآخر - تاريخ الشرق - History of the East الذى اعتمد فيه اساسا على التاريخ العربى

(٧) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية. *Receuil* انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر . وعن تاريخ
 زليم انظر Steven فى مولفه Crusaders in the East, pp. 361-71 ، وهو عمل موثق ويشتمل على
 مناقشة كاملة.

الذى كتبه سعيد بن البطريق ، رغم اعتماد مؤرخى القرن التالى عليه ، من مثل جاك أوف فيترى Jacques of Vitry .

ولتاريخ وليم الصورى استطراد Continuation لاتيني كُتب فى الغرب عام ١١٩٤ ، باضافات لاحقة^(٨) ، وهو عمل يتصف بالرصانة والموضوعية ، وربما استند إلى عمل مفقود يعتبر ايضا أساسا للكتاب الأول من خط سير الملك ريتشارد Itinerarium Regis Ricardi ، الذى يغطى السنوات من ١١٨٤م إلى الحملة الصليبية الثالثة^(٩) . ومن المشاكل الجسيمة مداومة الكتابة باللغة الفرنسية القديمة ؛ وقد حدث فى نحو منتصف القرن الثالث عشر أن ترجم أحد أتباع الملك الفرنسى تاريخ وليم ، فشرح بعض النصوص وأدخل تعليقات مشكوك فى قيمتها ، وأضاف إلى ذلك التاريخ اضافات تاريخية امتدت لفترة طويلة فى القرن الثالث عشر . ومن كلماته الافتتاحية ، يعرف هذا العمل عادة بأنه تاريخ هرقل Estoire d'Eracles وفى نفس الوقت تقريبا ظهر فى الشرق لمن يدعى برنارد الخازن Bernard the Treasurer استطرادا لعام ١١٢٩م تعزى إلى إرنول Ernoul الذى كان متبوعا لبلدوين أوف إيلين . وقرتبط هاتان الترجمتان ارتباطا وثيقا ، وهما موجودتان فى عدد كبير من المخطوطات التى تضم ، مع ذلك ، اختلافات يمكن تقسيمها إلى ثلاث مجموعات للفترة من ١١٨٤م إلى ١١٩٨م . ولا يمكن الحكم على أى من المجموعات الثلاث بأنها المخطوطة الاصلية ، إذ أن كل مجموعة تضم أحداثا غير موجودة فى أى من الأخرتين . وأكثر الحلول احتمالا هو أنها كلها تعتمد على عمل مفقود كتبه إرنول نفسه عن هذه الفترة . وبقينا كتب إرنول أصلا أحداث يوم أول مايو ١١٨٧م ، وهى واردة فيما كتبه برنارد عن إرنول ؛ وتظهر المجموعة كلها اهتماما بآل إيلين وتشتمل على الكثير مما وصفه شهود العيان مما يتلاءم مع أصالة أحد افراد آل إيلين . وعلى الجملة تعتبر تلك الاستطرادات مصادر يعتمد عليها برغم كونها غير موضوعية . ويبدو أن إرنول كان يسجل بعناية بقدر ما يسمح به تحيزه لصالح آل إيلين . ويأتى الترتيب التاريخى للفقرات الأولى عشوائيا ؛ ويبدو أنها تتألف من ملاحظات وذكريات غير متصلة ببعضها البعض^(١٠) .

(٨) نشره M. Salloch .

(٩) نشر خط سير الملك ريتشارد Itinerarium فى سلسلة Rolls التى يحررها Stubbs .

(١٠) يرد نشر Estoire d'Eracles فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil ونشر Ernoul عن طريق Mas Latrie وللإطلاع على مناقشة المشكلة برمتها انظر مقدمة Mas Latrie لإرنول وكاهن La Syrie du Nord, pp.21-4.

كما يرد وصف موجز لفتح صلاح الدين لفلسطين فى *Libellus de Expugnacione Terrae Sanctae Saladinum* ، ويعزى أحيانا إلى رالف أوف كوجشال *Ralph of Coggeshall* ويكاد يكون من اليقين إن الذى كتبه رجل انجليزى بعد سنوات قليلة من الحادثة التى يصفها . ويظهر الكاتب اعجابا بالنظامين العسكريين ، وخاصة نظام المعبد ، وقد سكت بمهارة عن سيناته ، لكنه أظهر فى الوقت ذاته مودته لريموند امير طرابلس . ويدرج رواية لأحد شهود العيان فى حصار القلص قالها هى نفسها جندى جرح هناك^(١١) .

وهناك تواريخ متأخرة عن المملكة تضيف معلومات اخرى ، وخاصة *Historia Regni Hierosolymitani* ، وهو استطراد لكفارو *Caffaro* ، وحوليات الأرض المقدسة *Annales de la Terre Sainte* ، وموجز للتاريخ المسمى *Historia Regum Hierosolymitanorum*^(١٢) وترد معالجة كاملة للحملة الصليبية الثانية فيما كتبه أودو اوف دوويل *De Ludovici VII profectio in Orientum of Odo of Deuil* ، وهى رواية حية ومتحاملة للغاية لأحد المشتركين فى رحلة لويس وصل فيها حتى اضايبا، وترد بإيجاز أكثر فى *Gesta Friderici* التى كتبها *Otto of Freisingen* وكان هو نفسه مشترك فى الرحلة ايضا ؛ وحياة لويس السابع التى كتبها سوجر^(١٣) *Life of Louis VII by Suger* وأما قصيدة أمبرواز *Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte* ، وكذلك خط سير الملك ريتشارد *Itinerarium Regis Ricardi* ، وبرغم معالجتهما للحملة الصليبية الثالثة ، فلا تعرضان سوى معلومات استعادية^(١٤) .

ويورد مؤرخون غربيون كثيرون فقرات تتصل بالشرق اللاتينى ، مثل الإنجليزى *William of Malmesbury* و *Benedict of Peterborough* ، وكذلك المهتمون بالحملة الصليبية الثالثة ؛ والفرنسى *Sigebert of Gembloux* ومكملوه، و *Robert of Torigny*؛

(١١) نشرها J. Stevenson فى سلسلة Rolls .

(١٢) نشرت *Historia Regni Hier.* فى *M.G.H.Ss* ، ونشرت *Annales de la Terre Sainte* عن طريق Rohricht فى *Archives de l'Orient Latin* وفى *Historia Regum* in Kohler, *Mélanges*.

(١٣) Odo, or Eudes, Of Deuil's book has recently been edited by Waquet, and Otto of Freisingen's *Gesta* by Hofmeister in *M.G.H.Ss.*, new series سوجر Suger

(١٤) نشر Ambroise عن طريق G. Paris وتوجد ترجمة انجليزية بملاحظات مفيدة قام بها Hubert and La Monte.

والإيطاليان Romuald and Sicard of Cremona وغيرهم^(١٥). ويعتبر Norman Orderic Vitalis، أهمهم إذ أن تاريخه الذى ينتهى عام ١١٣٨م زاهر بالمعلومات المتصلة بالشرق الفرنجى Outremer، ولا سيما ما يتصل بشمال سوريا، ويحتمل أن كان له أصدقاء أو أقارب بين نورمانديي انطاكية. ويتضح ان الكثير من القصص التى رواها ليست سوى اساطير، ولكن الكثير من المادة التى كتبها مقنعة ولا توجد فى اماكن اخرى^(١٦).

وفيما يتصل بالرسائل المعاصرة ذات الصلة، فإن أهم مجموعة رسائل هى الواردة فى المراسلات البابوية. والمراسلة بين لويس السابع وكونراد الثالث تلقى الضوء على الحملة الصليبية الثانية^(١٧) وبقيت من الضياع رسائل قليلة كتبها لاتينيون بارزون فى الشرق^(١٨) وبقيت من الضياع محفوظات ثلاث منشآت كنسية فى الشرق، وهى محفوظات كنيسة القبر المقدس، ومحفوظات دير القديسة ماري جوزافات Saint Mary Josaphat ومحفوظات دير القديس لازاروس Saint Lazarus وتكاد محفوظات نظام فرسان المستشفى أن تكون كاملة، ولكن محفوظات نظام فرسان المعبد فلا تعرف إلا بمراجع نادرة وغير مباشرة. كما يوجد عدد معين من السجلات العلمانية التى تتناول نقل الأرض فى الدويلات الفرنجية^(١٩)، وتعطى المحفوظات البابوية بعض المعلومات الإضافية؛ وأما المعلومات المتصلة بالشؤون التجارية فيمكن استخلاصها من محفوظات بيزا والبندقية وجنوا^(٢٠). وأما قوانين القدس Assises، التى كتبت فيما بعد، فتضم قوانين assises محددة يرجع تاريخها ابتداء من القرن الثانى عشر^(٢١).

(١٥) للإطلاع على ما نشره هؤلاء المؤرخون، انظر قائمة المصادر والمراجع.

(١٦) لا تزال أفضل طبعة لتاريخ Orderic هى طبعة Le Prévost.

(١٧) نشرت فى R.H.F. and in Wibaldi Epistolae (Jaffé, Bibliotheca), respectively.

(١٨) أغلبها نشر فى R.H.F. ويوجد غيرها فى شتى التواريخ.

(١٩) انظر قائمة المصادر والمراجع عن السجلات Cartulaires وأغلبها مختصر فى Rohricht's Regesta.

(٢٠) ترد الرسائل البابوية فى M.P.L. ولم تُنشر المحفوظات الايطالية كاملة. وأورد Cahen موجزا لما صدر منها 3-4 pp. op. cit.

(٢١) نشرت القوانين Assises فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية the Recueil وللإطلاع على مناقشتها انظر La Monte، فى مؤلفه، pp.97-100 Feudal Monarchy، و Grandclaude، op.cit فى اماكن متفرقة.

ومن السجلات المثيرة للاهتمام ما تركه مسافران سافرا إلى فلسطين خلال القرن الثاني عشر ، هما Saewulf ، الذي ربما كان انجليزيا وزار البلد عام ١١٠١ م ، والألماني John of Wurzburg ، الذي زار البلد حوالي ١١٧٥ م^(٢٢).

٣- المصادر العربية

بتقدم القرن الثاني عشر أخذ عدد المصادر العربية المعاصرة في التزايد . وبالنسبة للجزء الأول من القرن نعتمد على ابن القلانيس Ibn al-Qalanisi في الشؤون الدمشقية، وعلى العظمي al-Azimi فيما يتصل بشمال سوريا، وعلى التاريخ الذي يبدو مشوشا شيئا ما الذي كتبه ابن الأزرق^(٢٣) Ibn al-Azraq فيما يتعلق بالجزيرة بخلاف ما ورد من استشهاد من تواريخ مفقودة اقتبسها مؤرخون متأخرون . ومع ذلك ، لدينا المذكرات القيمة التي كتبها أسامة ابن منقذ^(٢٤) Usama ibn Munqidh وكان أسامة من امراء شيزر، وقد ولد عام ١٠٩٥ م. وبعد ثلاثين سنة ، نفى نتيجة لمكائد عائلية ، وأمضى مابقي من عمره الذي بلغ ثلاثا وتسعين سنة في دمشق أساسا ، مع فترات اقامة في مصر وديار بكر . وبرغم كونه من مدبري المكائد الماهرين ، وكان الولاء الشخصي بالنسبة له لا يعنى شيئا ، فقد كان رجلا ذا فتنة ساحرة وذكاء ، وكان جنديا ، مولعا بالألعاب الرياضية، وأديبا . وليس في مذكراته التي تسمى الإعتبار Instruction by Examples، ترتيب تاريخي ، وقد جمعها شيخ مسن دون تحقيق ، لكنها تعطى صورة حية غير عادية للحياة فيما بين الأرستقراطية العربية والفرنجية في عصره. وتضارعها حيوية رحلات ابن جبير الأندلسي Spaniard Ibn Jubayr ، وقد مر ابن جبير في مملكة القدس عام ١١٨١ م^(٢٥).

(٢٢) نشرت وترجمت الى الانجليزية في P.P.T.S. vols.IV AND V .

(٢٣) لم ينشر كاملا . والاقتباسات ذات الصلة حللها Cahen في Journal Asiatique, 1935 .

(٢٤) بالنسبة لأسامة ، أستخدم أنا ترجمة فيليب حتي Hitti بعنوان An Arab-Syrian Gentleman التي تستند الى دراسة معنية بالنص الأصلي بصورة أكثر من نص Derenbourg ، الذي نشر عام ١٨٩٥ . والترجمة الانجليزية التي ترجمها Potter تستند الى نص Derenbourg .

(٢٥) نشر Wright النص الكامل لابن جبير منذ قرابة مائة عام في Leyden. ويجري نشر ترجمة الى الفرنسية يقوم بها Gaudefroy-Demonbynes، وسوف تصدر قريبا ترجمة Broadhurst الى اللغة الانجليزية. ويرد في Recueil بعض الاقتباسات.

أما سيرة حياة صلاح الدين فقد ألهمت جمعا غفيرا من الكتاب ، أهمهم عماد الدين الأصفهاني^(٢٦) Imad ed-Din of Isfahan ، وبهاء الدين بن شداد^(٢٧) Beha ed Din ibn Shedad ، والمؤرخ المجهول الذى كتب (البستان)^(٢٨) the General Garden of all the Histories of the Ages وكان عماد الدين يعمل موظفا سلجوقيا فى العراق ، والتحق بخدمة نورالدين ، ثم أصبح كاتم سر صلاح الدين من عام ١١٧٣م قُدما . وكتب عددا من الأعمال ، بما فيها تاريخ السلاجقة وروى حروب صلاح الدين . وهذه الأخيرة تكاد تكون برمتها مستنسخة عند أبى شامة ، وتعد أكثر المصادر ثقة حول ترجمة صلاح الدين . وأسلوبه مزخرف على نحو غريب ومعقد ولا يخلو من صعوبة . كما كان بهاء الدين من حاشية صلاح الدين منذ عام ١١٨٨م . وأما ما كتبه عن حياة صلاح الدين ، فيأتى فى أسلوب بسيط ودقيق ، يعتمد أساسا على السماع وبعض ذكريات صلاح الدين نفسه حتى ذلك التاريخ . ومنذآنذاك ، اتصف بالدقة التى يتصف بها عماد الدين . وقد كتب البستان فى حلب فى ١١٩٦/١١٩٧م ، وهو على نحو ما تاريخ أجوف وموجز للإسلام ، يتناول أساسا حلب ومصر ، لكنه يضم معلومات لا توجد إلا فى فيما كتبه ابن ابى طي من تاريخ لاحق أكثر اكتمالا . وربما اعتمد كلاهما على مصدر شيعي مفقود . وأما المؤرخان الآخران الفاضل الشيباني وابن الدهان ، فليسا معروفين إلا من الإقتباسات^(٢٩) .

ويعتبر ابن الأثير الموصلى ، المولود فى ١١٦٠م والمتوفى فى ١٢٣٣م ، أعظم كتاب التاريخ فى القرن الثالث عشر . ومؤلفه "كامل التواريخ" عبارة عن تاريخ العالم الإسلامى ، دأب فيه على توخى العناية فى اختيار ما يعد حساسا من الكتاب السابقين عليه والمعاصرين له . وبالنسبة للحملة الصليبية الأولى وبداية القرن الثانى عشر ، تعتبر مقدماته مقتضبة نوعا ما . وبالنسبة لنهاية القرن يستند أساسا على مؤرخين كانوا فى حاشية صلاح الدين ، رغم ما يضيفه من ذكريات شخصية قليلة . وبالنسبة لمنتصف القرن ، الذى لم يكتب فيه مؤرخ اسلامى على قدر من الأهمية ، يبدو أنه استخدم

(٢٦) للإطلاع على أعمال عماد الدين انظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 50-2 ، ويورد أبو شامة Abu Shama (انظر أدناه ص ٤٨٢) ، اقتباسات طويلة من أعماله .

(٢٧) نشر النص العربى عن طريق Schultens, and in *Recueil* وأنا أشير فى الحواشى المذكورة اعلاه الى النص المنشور فى P.P.T.S. والذى جمع من علاقة مختلطة من النشرتين .

(٢٨) نشره Cahen فى *Bulletin de l'Institut Oriental à Damas* .

(٢٩) انظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 52-4 .

مادة أصيلة . ولا يخلو تاريخه من عيوب ؛ فهو لا يسمى مصادره وغالبا ما يغير الروايات لكي تتناسب خاصة مع تحيزه لزنكى . بيد أنه - كشأن وليم الصوري - يعد مورخا حقيقيا حاول ان يفهم المغزى الواسع للأحداث التي يصفها . وأما عمله الثانى "تاريخ اتابجة الموصل" فيعتبر من الكتابات ذات المستوى المنخفض ، وتتصف نوعا ما بالتقريظ الخالى من النقد ، والتي مع ذلك تشتمل على بعض المعلومات التى لا توجد فى غيره^(٣٠) .

أما كتاب كنوز الذهب لابن أبى طي الحلبي Mines of Gold of Ibn abi Tayyi of Aleppo ، وهو وحده أعظم مؤرخى الشيعة ، والمولود فى ١١٨٠م ، فلا نعرفه إلا من غزارة استخدم مؤرخى السنة لإعماله ، وكانوا مدركين لهذه الحقيقة . ومن الواضح أنه عمل يتصف بأهمية عظيمة ، يغطى التاريخ الإسلامى كله ، مع اشارة خاصة لحلب ؛ ومن الاقتباسات المتبقية ، لا بد وأن هذا العمل استفاد فى تفصيلاته من نفس المصدر الذى أفاد منه البستان^(٣١) .

أما كمال الدين الحلبي Kemal ad-Din of Aleppo ، الذى عاش من ١١٩١م إلى ١٢٦٢م ، ومؤلف موسوعة تراجمية ربما لم يتمها ، فقد كتب قبل ١٢٤٣م تاريخ حلب ، وهو تاريخ طويل واضح وسهل الأسلوب ، يعتمد بصورة كبيرة على العظمى وابن القلانيسى ومعاصرى صلاح الدين ، وكذلك على التقاليد والأخبار المتواترة . ولا يتوخى كمال الدين الدقة فى ايراد العلاقة بمصادره ، وهو متحامل على الشيعة^(٣٢) . وأما سبط بن الجوزى Sibte Ibn al-Djauzi ، المولود فى بغداد عام ١١٨٦م ، فكتب أحد أطول التواريخ الإسلامية ، مرآة الزمان ؛ على أنه فيما يتعلق بالقرن الثانى عشر لم يفعل سوى ان استنسخ معلومات أوردها كتاب سابقون^(٣٣) . وفى ١٢٥١م أكمل أبو شامة Abu Shama ، المولود فى دمشق عام ١٢٠٣م ، تاريخا لعهدى نورالدين وصلاح الدين يسمى "كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين"^(٣٤) ويتألف بدرجة كبيرة من نسخ

(٣٠) عن الإصدارات ، انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر والمراجع .

(٣١) انظر Cahen, op. cit. pp.55-7.

(٣٢) انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر والمراجع . وترجم Blochet فصوله التى تغطى الفترة الأخيرة من القرن الثانى عشر وهى منشورة فى Revue de l'Orient Latin .

(٣٣) يرد فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil اقتباسات قليلة . ونشر Jewett (Chicago) (1907) طبعة مصورة أخرى من المخطوطة التى تعتبر مختلفة نوعا ما .

(٣٤) نشر فى بولاق عام ١٨٧١م وعام ١٨٧٥م . والمراجع التى أستند إليها هى اقتباسات نشرت فى

مطابقة من ابن القلانيسى ، وبهاء الدين ، وابن الأثير (الأتابج) ، وابن ابى طي ، والفاضل ، وقبلهم جميعا عماد الدين الذى كان حريصا فى شغف على تشذيب أسلوبه مع ذلك.

ومن بين المؤرخين المتأخرين كتب أبو الفدا ، الذى كان أميرا لحماه فى بداية القرن الرابع عشر، تاريخا ليس فيه أكثر من موجز مفيد للمؤرخين الأبركر ، ولكنه حاز على شعبية هائلة ودائما ما يُقتبس^(٣٥).

أما ابن خلدون Ibn Khaldun ، الذى كتب فى نهاية القرن الرابع عشر ، فقد لخص ابن الأثير فيما يتصل بالشؤون السورية ، لكنه بالنسبة للتاريخ المصرى استخدم تاريخ ابن الطوير ، وهو تاريخ مفقود كتب فى عصر صلاح الدين^(٣٦). ويشتمل تاريخ المقرئى Maqrisi ، الذى كتب فى بداية القرن الخامس عشر ، على معلومات حول مصر لا توجد فى سواه^(٣٧).

أما قاموس التراجم (وفيات الأعيان) الذى جمعه ابن خلكان Ibn Khallikan فى القرن الثالث عشر ، فيضم شذرات قليلة فريدة من المعلومات التاريخية^(٣٨).

ولا توجد مصادر تتناول أترك الأناضول مباشرة . وفى واقع الأمر ، يخبرنا مؤرخ القرن الثالث عشر ابن ييبى Ibn Bibi أنه لم يستطع الشروع فى كتابة تاريخه عن السلاجقة قبل عام ١١٩٢ م ، وهو العام الذى مات فيه قلج ارسلان الثانى ، نظرا لافتقاره إلى المادة التاريخية^(٣٩) كما لا توجد أية مصادر فارسية ذات صلة.

مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٣٥) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٣٦) طبع فى بولاق عام ١٨٦٨م فى سبعة مجلدات.

(٣٧) ترجم Blochet اقتباسات منه نشرت فى *Revue de l'Orient Latin* .

(٣٨) ترجمه de Slane الى الفرنسية.

(٣٩) ترد تعليقات ابن ييبى فى بداية المجلد الثالث من مؤلف هوتسما Houtsma المعنون "النصوص المتعلقة بتاريخ السلاجقة" (وهو ترجمة تركية قديمة لابن ييبى *Textes Relatifs à l'Histoire des Seldjoukides*).

٤- المصادر الأرمينية

أهم مصدر أرميني للعقود الأولى من القرن الثاني عشر، كشأن الحملة الصليبية الأولى، هو ماثيو الأورفي Matthew of Edessa، المتوفى عام ١١٣٦م وأكمل عمله، بنفس الروح الوطنية المعادية لبيزنطة، جريجورى القسيس الكيسونى Gregory the Priest, of Kaisun، حتى عام ١١٦٢م^(٤٠). أما معاصره، القديس نرسيس شنورمال الأول Saint Nerses Shnorhal I، بطريق الكنيسة الأرمينية (كاثوليكوس) من عام ١١٦٦م إلى عام ١١٧٢م، فقد كتب قصيدة طويلة عن سقوط الرها، تفتقر نوعاً ما إلى الاهتمام الشعرى والتاريخى^(٤١)، لا ولا كانت القصيدة الطويلة التى كتبها خليفته، بطريق الكنيسة الأرمينية (كاثوليكوس) جريجورى الرابع دغا Catholicus Gregory IV Dgha مؤثرة هى الأخرى^(٤٢). والأحسن من الناحية الشعرية المراثاة التى كتبها قسيس يدعى بازل العالم الدينى Basil the Doctor، لبلدوين امير مرعش، وكان واعظه الكنسى^(٤٣) والأكثر اهمية حوليات صموئيل أوف أنى Annals of Samuel of Ani، التى كتبت فى أرمينيا الكبرى ووصلت عام ١١٧٧م^(٤٤) وهى تعتمد جزئياً على متى Matthew وجزئياً على التواريخ المفقودة التى كتبها جون الشماس John the Deacon وآخر يدعى ساركافاج Sarcavag. وأما المجموعة التالية من المؤرخين الأرمن، مثل ميخيتار اوف ايرافانك Mekhitar of Airavank، وفارتان Vartan، وكيراكوس Kirakos، فلا يعتمد عليهم كثيراً عندما يتناولون الشؤون الفرنجية، رغم انهم على جانب من الأهمية للخلفية الإسلامية^(٤٥). ويبدأ مؤرخو أرمينيا الصغرى (كيليكيا) بكتاب مجهول ترجم فى حوالى عام ١٢٣٠م تاريخ ميخائيل السورى، وعدل فيه كما

(٤٠) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية (Recueil) والتى أشير أنا إليها فى الحواشى). كما ترجمها Dulaurier فى نهاية إصداره لمتى الأورفي. Matthew of Edessa.

(٤١) نشرت فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil.

(٤٢) نشرت فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil.

(٤٣) توجد مقتبسات فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil.

(٤٤) نشرت فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil.

(٤٥) توجد اقتباسات فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية Recueil.

يحلوه بحث يتفق مع وطنيته المشبوبة^(٤٦). وفي حوالى عام ١٢٧٥م ، كتب الكونستابل سيمباط Sembat ، وهو مترجم قوانين Assises انطاكية ، تاريخا يعتمد على متى Matthew و جريجورى Gregory بالنسبة للقرن الثانى عشر ، ولكنه يضيف معلومات قليلة مشتقة من محفوظات الدولة^(٤٧). وبعد ذلك بسنوات قليلة كتب من يسمى "المؤرخ الملكى" Royal Historian تاريخا لم ينشر بعد مطلقا^(٤٨). وفي وقت مبكر من القرن الرابع عشر كتب المفوض فاهرام الأورفى Vahram of Edessa التاريخ المقفى Rhymed Chronicle ، الذى يستند بدرجة كبيرة إلى متى Matthew ، غير أنه يضم معلومات غير معروف مصدرها^(٤٩).

٥- المصادر السريانية

يعتبر "تاريخ العالم" الذى كتبه ميخائيل السورى Michael the Syrian أهم المصادر السريانية^(٥٠). وكان مؤرخا معنيا حي الضمير ، والذى كان تحامله الوحيد مناهضته لبيزنطة . وهو يذكر المصادر السريانية التى استخدمها ، وكلها مفقود الآن ؛ كما أنه عرف مصدرا عربيا مجهولا للسنوات من ١١٠٧م إلى ١١١٩م ، والذى يبدو أنه كان معروفا كذلك لابن الأثير.

ويوجد تاريخ سيريانى مجهول ، كتبه قس مغفور فى الرها حوالى عام ١٢٤٠م ، يضم معلومات قيمة حول الرها ، بخلاف معلومات مشتقة بوضوح من ميخائيل^(٥١). وقرب نهاية القرن الثالث عشر كتب جريجورى أبو الفرج ، ويعرف بصورة أفضل باسم ابن العبرى Bar-Hebraeus ، تاريخا للعالم ، يعتمد بالنسبة إلى القرن الثانى عشر

(٤٦) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٤٧) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٤٨) المخطوط اليدوى موجود فى البندقية فى المكتبة الميختارية Mekhitarist Library .

(٤٩) نشر فى مجموعة مؤرخى الحملات الصليبية *Recueil* .

(٥٠) نشره Chabot وترجمه الى الفرنسية.

(٥١) نشر القسم الأول من هذا التاريخ بترجمة انجليزية قام بها Tritton (*Journal of the Royal Asiatic Society*)؛ انظر الجزء الأول ، مرفق المصادر والمراجع . ونشر Chabot النص الكامل باللغة السريانية فى *Corpus Scriptorum Orientalium* .

بصورة رئيسية على ميخائيل وابن الأثير ، ولكن بقدر معين من المعلومات المشتقة من مصادر فارسية أو غيرها^(٥٢).

٦- مصادر أخرى

تعتبر رحلة بنيامين التطيلي Voyage of Benjamin of Tudela المصدر اليهودي الوحيد الهام لهذه الفترة، وهو يورد رواية معنية عن المستعمرات اليهودية في سوريا في وقت رحلته حول البحر المتوسط في الفترة من ١١٦٦م إلى ١١٧٠م^(٥٣).

أما المصادر الجورجية ، وهي ذات قيمة فقط بالنسبة لتاريخ جورجيا والأراضي المجاورة ، فقد جُمعت مع بعضها البعض في تاريخ واحد "تاريخ جورجيا" Georgian Chronicle، ونشر في القرن الثامن عشر^(٥٤).

ويوجد باللغة السلوفية القديمة Old Slovanic رحلة حج دانيال هيجومين Pilgrimage of Daniel the Higuene وقد زار فلسطين عام ١١٠٤م^(٥٥).

وتوجد قصص نرويجية معينة ، ولا سيما التي تتناول الحملة الصليبية للملك سيغورد Sigurd ، تشتمل على قطع من المعلومات التاريخية المثيرة للإهتمام في وسط التفاصيل الأسطورية^(٥٦).

(٥٢) نشرها Wallis Budge وترجمها الى الإنجليزية.

(٥٣) نشرها Adler .

(٥٤) نشره Brosset .

(٥٥) ترجمتها الى الفرنسية Mme de Khitrowo ولم أتمكن من رؤية النص السلوفاكي . كما أنها ترجمت من السلوفية المختصر رحلة حج الديارة إيوفروسين Pilgrimage of the Abbess Euphrosyne .

(٥٦) يرد موحزها في Riant, Les Expéditions des Scandinaves .

المرفق الثانى

معركة حطين

تصف المصادر العربية واللاتينية معركة حطين بشئ من الإسهاب ، غير أن ما يرد فى تلك المصادر يفتقر دائما إلى التنسيق . وقد حاولت فى الصفحات ٤٥٥ - ٦٠ أعلاه أن أذكر رواية متناسقة بقدر الإمكان عن المعركة ، على أنه لا بد من تسجيل الاختلافات . ومن سوء الطالع أن مؤرخين اثنين فقط يبدو أنهما قد حضرا المعركة هما إيرنول ، الذى يفترض أنه ، بصفته تبيعا لباليان (أوف ايلين) ، قد صحب سيده وهرب معه ، وعماد الدين الأصفهاني الذى كان فى حاشية صلاح الدين ، هذا بخلاف تيرينس أو تيريكوس (Terence or Terricus) ، وهو من فرسان المعبد كتب رسالة مقتضبة حول المعركة ، وبعض المسلمين الذين اقتبس أبو شامة رسائلهم . بيد أن الرواية الأصلية التى كتبها إيرنول تلاعب فيها برنارد الخازن Bernard the Treasurer وغيره من المؤرخين التابعين على وليم الصورى ، وأما رواية عماد الدين ، وبرغم أنها تنبض بالحياة أحيانا فإنها خليقة بأن توصف بالبلاغة أكثر من كونها تتصف بالدقة . وأما ما نقله الأفضل ، ابن صلاح الدين ، إلى ابن الأثير عن أزمة المعركة ففيه نبض الحياة ولكنه شديد الاقتضاب.

ويعتبر تاريخ هرقل Estoire d'Eracles المصدر الوحيد الذى أوضح أن جوى عقد مجلسين منفصلين قبل المعركة ، أحدهما فى عكا وربما يوم أول يولية ، والثانى فى صفورية مساء اليوم الثانى من يولية. وتحدث ريموند امير طرابلس فى المناسبتين ، ولا شك أن الحديثين المذكورين فى تاريخ هرقل يعكسان جوهر كلماته التى قالها فعلا . غير أنه لا بد وأن أخطأ تاريخ هرقل فى قوله مجلس عكا عقد بعد أن أرسلت كونتيسة طرابلس لتعلن استيلاء صلاح الدين على مدينة طبرية ، إذ أن صلاح الدين دخل طبرية

صباح الثاني من يولية ؛ ولا يذكر ريموند طبرية في حديثه في عكا ، وإنما نصح فقط باتباع استراتيجية دفاعية . أما إيرنول ، وكما نشر تاريخه برنارد الخازن ، بتجاهل المجلس الأول . وربما اعتبر برنارد أن ريموند تحدث مرتين في نفس المناسبة . كما أن تاريخ De Expugnatione لا يذكر سوى المجلس الثاني . وخطبة ريموند الثانية معروفة لدى ابن الأثير الذي يكاد يسجلها بنفس الكلمات الواردة في تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول وتاريخ De Expugnatione ولذا تكون نصيحة ريموند يقينية رغم أن عماد الدين يعتقد أنه كان يثبث على الهجوم ، أما المؤرخون المتأخرون ، من بين حاشية ريتشارد قلب الأسد ، المنحازون إلى جانب جوى (أوف لوسينان) فقد اتهموا ريموند بالخيانة . ويفترض Ambroise و Itinerarium Reicardi Regis كلاهما أن ريموند استدرج الجيش لوجود اتفاق بينه وبين صلاح الدين ، وترد نفس التهمة في رسالة من أهل جنوا إلى البابا ، وفيما بعد أوردها ابن العبري السيرياني .

ويقول عماد الدين إن كوتيسة طرابلس أبقت أولادها معها في طبرية . ولكن إيرنول يقول إن ريموند هرب من المعركة ومعه أبناء زوجته الأربعة ، وثابت في رسالة (المواطن الجنوي) تلهفهم على انقاذ أمهم في المجلس قبل المعركة .

وقرر الملك جوى التحرك من صفورية بناء على طلب جيرارد سيد فرسان المعبد . وذلك مذكور بوضوح في تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول ، لكن مؤلف De Expugnatione ، الذي لم يكن يرغب أبدا لسبب أو لآخر ترجيه اللوم إلى فرسان المعبد ، ألقى على ذلك الطلب من جيرارد التمويه والغموض ، ذلك إذا حكمنا مما يبدو عليه أحيانا من تحفظات . ولأن ريموند هو سيد المنطقة ، فقد طلبت نصيحته فيما يتصل بالطريق الذي يتبع ، فاختار الطريق الذي يخترق حطين . وكانت نصيحته تلك ، التي سببت الكارثة ، هي الذريعة التي اتخذها أعداؤه لاتهامه بالخيانة . وتخبرنا رسالة الجنوي والرسالة المتداولة بين فرسان المستشفى عن المعركة ، بوجود ستة من الخونة ، من الواضح أنهم من فرسان ريموند - يدعى أحدهم لاوديسيوس أو ليوسيوس الطبري Laodiceus or Leucius of Tiberias وهم الذين أخبروا صلاح الدين بحالة الجيش المسيحي . ومن المحتمل ، في اعتقادي ، أن خيانتهم حدثت في هذا المنعطف ، وأنها تكمن في اخطار صلاح الدين بالطريق الذي اختاره المسيحيون . ومن الصعب أن نفهم ماهي المعلومات المفيدة التي يعطونها له بعد ذلك . ويلقى كل من تاريخ هرقل وتاريخ إيرنول باللائمة على ريموند لاختياره مكان المعسكر أمام حطين ؛ إذ كان يظن بوجود مياه هناك ، لكن نبع الماء كان جافا . ويروي صاحب تاريخ De Expugnatione قصة

أكثر اكتمالا؛ فيقول إن ريموند ، الذى كان فى المقدمة ، أوصى بسرعة المسير إلى البحيرة ، لكن فرسان المعبد فى المؤخرة لم يقدرُوا على المضى أكثر من ذلك . وقد ارتاع ريموند من قرار الملك بضرب المعسكر وصرخ " لقد ضعنّا " ؛ على أنه طالما اتَّخذ القرار ، فيفترض أنه اختار موضع المعسكر ترتيبا على الاعتقاد الخاطئ بوجود مياه فيه . ويذكر عماد الدين ما أبداه صلاح الدين من اغتباط بتحركات الجيش المسيحى .

والموقع الفعلى للمعسكر ليس يقينيا . إذ أن تاريخ De Expugnacione ، وتاريخ حملة ريتشارد Itinerarium ، وتاريخ Ambroise ، يطلقون عليه قرية ماريسكالكا أو ماريسكاليا - Marescalcia or Marescallia وربما يكون الاسم هو خان المسكين المعروف الآن ؟ - بينما يطلق عليه عماد الدين قرية لوبية ، الواقعة على الطريق الحالى على مسافة ميلين جنوب غرب قرنى حطين . ويطلق المؤرخون العرب على المعركة معركة حَطين (أو حِطّين) ويوضحون بجلاء أن المشاهد النهائية قد تمت فوق قرنى حطين . وتطلق حوليات الأرض المقدسة Annales de la Terre Sainte على المعركة قرنتين Karneatin أى - Qarnei Hattin (قرنى حطين)^(١) . ويقول إيرنول إن المعركة حوربت على مسافة فرسخين من طبرية . والقرنان فى الواقع على مسافة خمسة أميال من طبرية فى خط مستقيم ، وحوالى تسعة أميال على الطريق .

ويقول عماد الدين إن رماة العرب بدأوا يطلقون سهامهم على المسيحيين أثناء سيرهم ، ويعقدُ القصة بقوله أن ذلك كان يوم الخميس لأنه أراد أن تنشب المعركة فى يوم جمعة . ويشير إيرنول وتاريخ هرقل إلى خسائر فادحة تكبدها المسيحيون أثناء سيرهم . وليس أكيدا الوقت الذى أشعلت فيه النيران . ويقول ابن الأثير ضمنا إن النيران بدأت مصادفة على يد متطوع من المسلمين ، ويوضح بجلاء هو وعماد الدين أن النيران كانت متأججة عندما بدأت المعركة صباح يوم ٤ يوليو . ويرسم عماد الدين صورة حية للصلوات والتلاوات فى معسكر العرب خلال الليل .

واستنادا إلى ابن الأثير ، حاولت قوات مشاة الفرنج صبيحة يوم المعركة الاندفاع نحو المياه . ويقول عماد الدين إنهم لم يتمكنوا من التقدم نحو المياه بسبب النيران . ويقول تاريخ De Expugnacione إن أفراد قوات المشاة هربوا فى الحال وهم فى جمع واحد على التل بعيدا عن الفرسان ورفضوا تنفيذ أوامر الملك بالعودة قائلين إنهم يموتون عطشا ، وقد قتلوا عن آخرهم هناك . ومن الناحية الأخرى يقول إيرنول إنهم

(١) Qarnei هى مثنى Qarn أى Horn - قرن .

استسلموا ، رغم ذهاب خمسة من فرسان ريموند إلى صلاح الدين يتوسلون اليه أن يجهز عليهم جميعا . وربما اعتبر تصرفهم هذا خيانة اشار اليها فرسان المستشفى (انظر اعلاه) رغم أن إيرنول ، كما قال حرفيا ، يقول إنها ربما كانت ايضا استعطافا لموت سريع من اجل الرحمة . أما بهاء الدين فلا يذكر سوى أن جيش المسيحيين انفصل إلى جزأين ، أحدهما - ويفترض المشاة - أحاطت به النيران فماتوا جميعا ، بينما وقع في الأسر الجزء الآخر أى المؤلف من الفرسان المحيطين بالملك . وتقول كافة المصادر الإسلامية إنه قبل بدء الهجوم على فرسان الفرنج كان هناك نزال بين مملوك وفارس مسيحي قتل فيه الأول الذى ظنه المسيحيون خطأ أنه ابن السلطان.

واستنادا إلى إيرنول ، فإن الملك عندما شاهد قتل المشاة طلب من ريموند شن هجوم على العرب . وريموند هو الشخص المناسب لشن هذا الهجوم باعتباره سيد المنطقة ، وهو هجوم الفرصة الوحيدة لكى يخلص الجيش نفسه . ولذلك لا يبدو أن هناك أساسا لاتهام ريموند بالخيانة من قبل الكتاب المسيحيين ، والجنوي ، وأصدقاء الملك ، ولا لاتهامه بالجن من قبل المسلمين . على أن المناورة الذكية التى نفذها تقى الدين بفتح صفوفه لكى يمر ريموند ، يبدو انها تؤيد الاتهامات الأولى رغم أن عماد الدين يقول إن رجال ريموند تكبدوا خسائر فادحة . ويقول إيرنول إن ريموند لم يهرب من ميدان القتال إلا عندما رأى أن وضع الملك ميؤوسا منه وليست هناك أية فرصة لإنقاذه . ويقول تاريخ De Expugnatione إن باليان ورينالد امير صيدا قد هربا مع ريموند دون ذكر تفاصيل كما فعل عماد الدين. غير أن إيرنول يقول ضمنا إنهما هربا كل على حده ، وهو الأمر الأكثر احتمالا لأنهما كانا فى مكانين مختلفين فى الجيش. ولا بد أنهما قد شقا طريقهما مع القليل من فرسان المعبد الذين يذكر تيرنس Terence هروبهم . وأما الرواية المفصلة عن المعركة الواردة فى تاريخ De Expugnatione فتتوقف عند فرار ريموند . وربما كان المؤرخ قد حصل على معلوماته من أحد رجال ريموند.

ويقول عماد الدين إنه بعد فرار ريموند بدأ الملك وفرسانه الانسحاب صعودا أعلى تل حطين تاركين جيادهم (التي يفترض انها كانت جريحة ولا فائدة منها على التل) . كما يلاحظ عماد الدين كم كان الفرسان المسيحيون يفتقرون إلى القوة فى غيبة جيادهم . ويقول ابن الأثير إنهم حاولوا نصب خيامهم على القمة ولكن الوقت لم يساعدهم إلا فى نصب خيمة الملك . وكان الفرسان مترجلين ومنهكين عندما أسروا . ويقول كلاهما إن تقى الدين استولى على الصليب . وتروى رواية الأفضل للحظات الأخيرة للجيش المسيحي ؛ بينما يفصل ابن القادسى أن ريحا شديدة هبت فى منتصف

النهار عندما شن المسلمون هجومهم الأخير.

وتكاد الاحداث التى حدثت فى خيمة صلاح الدين بعد المعركة أن ترد بنفس الأسلوب لدى إيرنول وتاريخ هرقل وعماد الدين وابن الأثير . وليست هناك ضرورة للارتياح فى قصة الشراب الذى أعطى للملك جوى ، ولا فى مقتل رينالد (أوف شاتيلون) على يد صلاح الدين نفسه.

ويرد فى تاريخ *Historia Regni Hierosolymitani* أن قوام الجيش المسيحى كان ألف فارس من فرسان المملكة و ألف ومائتى فارس آخرين دفع نفقاتهم الملك هنرى الثانى ، و ٤ آلاف من أنصاف الأتراك ، و ٣٢ ألف من المشاة ، منهم ٧ آلاف دفع هنرى نفقاتهم . ومن الواضح أن هذا العدد مبالغ فيه . ويتحدث تاريخ حملة ريتشارد *Itinerarium* عن عدد اجمالى قدر ٢٠ ألف جندى ، وهو عدد لا يزال يحتمل أن يكون مرتفعا بصورة فائقة . وربما كان العدد الحقيقى للفرسان هو ألف فارس ، إلى جانب ٢٠٠ آخرين جهّزهم هنرى ، فيكون المجموع ١٢٠٠ فارس . وفى إحدى مخطوطات تاريخ هرقل يرد عدد الجيش كله على انه ٩ آلاف جندى ، وفى مخطوطة اخرى ٤٠ ألف جندى . وتتحدث رسالة فرسان المستشفى عن سقوط ألف فارس فى المعركة بين قتيل وجريح ، وفرار ٢٠٠ فارس . ويقول إيرنول إن ريموند امير انطاكية أحضر ٥٠ أو ٦٠ فارسا (تختلف قراءات المخطوطات). ويقول Terence إن ٢٦٠ فارسا من فرسان المستشفى قتلوا فى المعركة ويكاد أن لم يهرب احد - وهو يقول "nos" التى قد تعنى نفسه فقط . ويرد فى رسالة فرسان المستشفى أن الذين بقوا على قيد الحياة ٢٠٠ فقط . وليس من الممكن أن يزيد عدد المشاة على عدد الفرسان بنسبة تصل إلى عشرة إلى واحد ، وربما كان عددهم يقل كثيرا عن ١٠ آلاف جندى . وربما كان عدد خيالة أنصاف الأتراك الخفيفة ٤ آلاف خيال ، على انه لا يبدو انهم لعبوا دورا خاصا فى المعركة وربما كانوا أقل من ذلك . وقد يكون جيش صلاح الدين اكبر بصورة طفيفة ، ولكن ليست هناك أرقام يعتد بها . أما ما أورده عماد الدين من أن العدد كان ١٢ ألف خيال وأعداد غفيرة من المتطوعين ، فهو يقينا مبالغ فيه ، رغم انه ليس بنفس المبالغة التى أورد بها عدد الجيش المسيحى وهو ٣٠ ألف جندى . (ومع ذلك يمضى بهاء الدين أبعد من ذلك قائلا إن ٣٠ ألف قتلوا و ٣٠ ألف أسروا). وقد يجوز لنا أن نفترض أن مجموع جيش صلاح الدين النظامى بلغ حوالى ١٢ ألف جندى ، وتضخم بالمتطوعين والفصائل الآتية من الحلفاء ليصل إلى ١٨ ألف تقريبا . ويبدو أن الجيشين كانا من أضخم الجيوش التى القى بها فى ساحة القتال حتى آنذاك سواء من

جانب المسيحيين او من جانب اعدائهم ؛ على انه ينبغي اعتبار أن ١٥ ألف جندي في الجانب المسيحي و ١٨ ألف جندي في الجانب الإسلامي ، على أنها الأعداد القصوى. وكان فرسان المسيحيين أفضل تسليحا من الجنود المسلمين أبدا كانوا ، غير أن الخيالة الخفيفة الإسلامية ربما كانت أفضل تسليحا من أنصاف الأتراك والمشاة ايضا، أو أفضل من المسيحيين.

ملاحظات

أهم مصادر المعركة هي كما يلي:

الفرنجية

Ernoul, pp. 155-74; Estoire d'Eracles, ii, pp. 46-49; De Expugnatione, pp. 218-28; Itinerarium Regis Ricardi, pp. 12-17; Benedict of Peterborough, ii, pp. 10-14، ويوحنا بنديكت رسالة ابناء جنوا إلى البابا ورسالة Terence المعبدى، Ambroise، ed. Paris, cols. 67-70; Ansbert, Gesta Frederici, containing letter of the Hospitallers to Archimbald; Historia Regni Hierosolymitani, pp. 52-3; Annales de la Terre Sainte, p. 218.

العربية

Ibn al-Athir, pp. 679-88 ؛ Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 110-16 وما في ذلك وصف الأفضل للمعركة ؛ Abu Shama, pp. 262-89 مشتملا على رواية عماد الدين الكاملة عن المعركة واقتباسات من بهاء الدين ومحمد بن القادسي.

ويرد في تاريخ ميخائيل السورى (iii, p. 404) وصف مقتضب للمعركة ، كما يرد وصف أطول وغير دقيق في ترجمة ابن العبري Bar-Hebraeus Budge, pp. 322-4 ، يخلط فيه الملكة ايزابيلا بالكونتيسة إيشيفا كونتيسة طرابلس . ويرد وصف غير دقيق في النسخة الأرمنية لميخائيل السورى (pp. 396-8) و (pp. 420-1) Kirakos of Gantzag والروايات السيريانية والأرمنية كلها تصف ريموند على انه خائن. وتوجد مناقشة قيمة للمصادر ودور ريموند في Baldwin, Reymond III of Tripolis, pp. 151-60 .

المرفق الثالث

شجرات الأنساب

BIBLIOGRAPHY

[NOTE. This bibliography is supplementary to the bibliography in vol. I of this *History*, and does not include works already mentioned there. The same abbreviations are employed.]

I. ORIGINAL SOURCES

1. COLLECTIONS OF SOURCES

- BORGO, F. DAL. *Diplomata Pisana*. Pisa, 1765.
 DEMETRACOPOULOS, A. K. *Bibliotheca Ecclesiastica*. Leipzig, 1866.
Fornmanna Sögur, 12 vols. Copenhagen, 1825-37.
 HALPHEN, L. and POUPARDIN, R. *Chroniques des Comtes d'Anjou*. Paris, 1913.
Liber Jurium Reipublicae Genuensis (ed. Ricotti), 3 vols., in *Monumenta Historiae Patriae*. Turin, 1854-7.
 MARCHEGAY, P. and MABILLE, E. *Chronique des Eglises d'Anjou*. Paris, 1869.
 MURATORI, L. A. *Antiquitates Italicae*, 6 vols. Milan, 1738-42.
Recueil des Historiens des Croisades, Lois, 2 vols. Paris 1841-3, including the *Assises and Lignages of Jerusalem (R.H.C. Lois)*.
 REINAUD, M. *Extraits des Historiens Arabes*, in Michaud, *Bibliothèque des Croisades*, vol. II. Paris, 1829.
 TAFEL, G. L. F. and THOMAS, G. M. *Urkunden zur ältern Handels und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vols. Vienna, 1856-7.

2. LATIN AND OLD FRENCH SOURCES

- Ambroise. *L'Estoire de la Guerre Sainte* (ed. Paris). Paris, 1897.
Annales Barenses, in *M.G.H.Ss.* vol. v.
Annales Beneventani, in *M.G.H.Ss.* vol. III.
Annales Herbipolenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVI.
Annales Palidenses, in *M.G.H.Ss.* vol. XVI.
Annales Romani, in *M.G.H.Ss.* vol. v.
Annales S. Rudberti Salisburgensis, in *M.G.H.Ss.* vol. IX.
Annales de Terre Sainte (ed. Röhricht), in *Archives de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1884.
 Ansbert. *Gesta Frederici Imperatoris in Expeditione Sacra*, in *M.G.H.Ss.*, in *usum scholarum*, 1892.
 Arnold of Lübeck. *Chronica Slavorum*, *M.G.H.Ss.*, in *usum scholarum*, 1868.
 Benedict of Peterborough. *Gesta Regis Henrici II* (ed. Stubbs), 2 vols., *Rolls Series*. London, 1867.
 Bernard, St. Abbot of Clairvaux. *Epistolae*, *M.P.L.*, vol. CLXXXII.
 Burchard of Mount Sion. *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XII. London, 1896.

- Caesarius of Heisterbach. *Dialogus Miraculorum* (ed. Strange), 2 vols. Cologne, 1851.
- Cartulaire de Notre Dame de Chartres* (ed. L'Epinois and Merlet), 3 vols. Chartres, 1852-5.
- Cartulaire de Sainte Marie Josaphat* (ed. Kohler). *Revue de l'Orient Latin*, vol. VII. Geneva, 1899.
- Cartulaire du Saint Sépulcre* (ed. Rozière). Paris, 1849.
- Cartulaire Général de l'Ordre des Hospitaliers* (ed. Delaville Le Roulx), 4 vols. Paris, 1894-1904.
- Cartulaire Général de l'Ordre du Temple* (ed. D'Albon). Paris, 1913.
- Chronicon Mauriniacense*, in R.H.F. vol. XII.
- Chronicon Sancti Maxentii*, in Marchegay and Mabille, *op. cit.*
- Chronicon Vindocinense*, in Marchegay and Mabille, *op. cit.*
- Dandolo. *Chronicon Venetum*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. XII.
- De Expugnatione Terrae Sanctae per Saladinum Libellus* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1875.
- Ernoul. *Chronique d'Ernoul et de Bernard le Trésorier* (ed. Mas Latrie). Paris, 1871.
- Estoire d'Eracles*, R.H.C.Occ. vols. I and II.
- Eudes, see Odo.
- Gesta Ambaziencium Dominorum*, in Halphen and Poupardin, *op. cit.*
- Gesta Consulum Andegavorum*, in Halphen and Poupardin, *op. cit.*
- Gestes des Chiprois*, R.H.C.Arm. vol. II.
- Historia Ducum Veneticorum*, in M.G.H.Ss. vol. XIV.
- Historia Regni Hierosolymitani*, in M.G.H.Ss. vol. XVIII.
- Historia Regum Hierusalem Latinorum*, ed. in Kohler, *Mélanges pour servir à l'histoire de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1906.
- Historia Welforum Weingartensis*, in M.G.H.Ss. vol. XXI.
- Ibelin. *Le Livre de Jean d'Ibelin*, in R.H.C. Lois, vol. I.
- Itinerarium Peregrinorum et Gesta Regis Ricardi* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1864.
- John of Salisbury. *Historiae Pontificalis quae Supersunt* (ed. Lane Poole). Oxford, 1927.
- John of Wurzburg. *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), P.P.T.S. vol. V. London, 1896.
- Landolph Junior. *Historia Mediolanensis*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, vol. V.
- Letters of King Amalric, Masters of the Temple, officials of the Temple and other officials of Outremer, in R.H.F. vols. XV and XVI.
- Lignages d'Outremer*, in R.H.C. Lois, vol. II.
- Louis VII, King of France, letters, in R.H.F. vols. XV and XVI.
- Miracula Sancti Leonardi*, Aa. Ss. (Nov.), vol. III.

- Necrologia Panormitana* (ed. Winkelmann), in *Forschungen zur deutschen Geschichte*, vol. xviii. Göttingen, 1878.
- Odo (Eudes) of Deuil. *Profectione Ludoyld VII in Orientem* (ed. Waquet). Paris, 1949.
- Osborn. *De Expugnatione Lyxbonensi*, in Stubbs, *Memorials of the Reign of Richard I*, Rolls Series. London, 1864.
- Otto, Bishop of Freisingen. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss.*, in *usum scholarum*, 1912.
- Otto, Bishop of Freisingen. *Gesta Friderici Imperatoris* (ed. Simson), *M.G.H.Ss.*, in *usum scholarum*, 1912.
- Otto of Saint Blaise. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss.*, in *usum scholarum*, 1912.
- Paschal II, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vol. clxiii.
- Passiones Sancti Thiemonis*, in *R.H.C.Occ.* vol. v.
- Peter Diaconus. *Chronica* (ed. Wattenbach), *M.G.H.Ss.* vol. vii.
- Pilgrimage of Saewulf to Jerusalem* (trans. Bishop of Clifton), *P.P.T.S.* vol. iv. London, 1896.
- Radulph of Diceto. *Opera Historica* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1876.
- Ralph of Coggeshall. *Chronicon Anglicanum* (ed. Stevenson), Rolls Series. London, 1875.
- Robert of Torigny. *Chronique* (ed. Delisle), 2 vols. Rouen, 1872-3.
- Roger of Hoveden. *Chronica* (ed. Stubbs), 4 vols., Rolls Series. London, 1868-71.
- Romuald of Salerno. *Chronicon* (ed. Arndt). *M.G.H.Ss.* vol. xix.
- Suger, Abbot of Saint-Denis. *Gesta Ludovici cognomine Grossi and Historia gloriosi regis Ludovici VII* (ed. Molinier). Paris, 1887.
- Suger, Abbot of Saint-Denis. *Opera* (ed. de la Marche). Paris, 1867.
- Vita Alexandri III*, in *Liber Pontificalis*, vol. ii.
- Vita Sancti Bernardi*, in *M.P.L.* vol. clxxxv.
- Walter the Chancellor, *Bella Antiochena* in *R.H.C.Occ.* vol. v.
- Wibald, *Wibaldi Epistolae*, in Jaffé, *Bibliotheca Rerum Germanicarum*, vol. i.
- William the Monk. *Dialogus Apologeticus* (ed. Wilmart), in *Revue Mabillon*. Paris, 1942.
- William the Monk. *Vita Sugerii*, in Suger, *Opera* (see above).
- William of Nangis. *Gesta Ludovici VII*, in *R.H.F.* vol. xx.
- William of Tyre. *Die lateinische Fortsetzung (Latin Continuation)* (ed. Salloch). Leipzig, 1934.

3. GREEK SOURCES

- Chrysolan, Peter, Archbishop of Milan. *De Sancto Spiritu* in *M.P.G.* vol. cxxvii.
- Cinnamus, John. *Epitome Historiarum*, C.S.H.B. Bonn, 1836.
- Eustratius, Archbishop of Nicaea. *On the Holy Ghost*, in Demetracopoulos, *Bibliotheca Ecclesiastica*, vol. i.

- Nicetas Choniates (Acominatus). *Historia*, C.S.H.B. Bonn, 1835.
 Neophytus. *De Calamitatibus Cypri* (ed. Stubbs), Rolls Series. London, 1864.
 (In preface to *Itinerarium Regis Ricardi*.)
 Phocas, John. *A Brief Description* (trans. Stewart), P.P.T.S. vol. v. London, 1896.
 Prodromus, Theodore. *Poemata*, selections in M.P.G. vol. cxxxiii and R.H.C.G. vol. II.

4. ARABIC SOURCES^{*}

- Abu Firas. *Noble Word*, ed. in Guyard, 'Un Grand Maître des Assassins' in *Journal Asiatique*, 7me série, vol. IX, Paris, 1877.
 Abu'l Mahâsin. Extracts in R.H.C.Or. vol. III.
 Abu Shama. *Book of the Two Gardens*. Extracts in R.H.C.Or. vols. IV and V; full edition. Cairo, 1870-1. (Except when otherwise stated references are to the R.H.C. edition.)
 Al-Azimi. *Abrégé* (ed. Cahen), in *Journal Asiatique*, vol. CCXXXII. Paris, 1940.
 Beha ed-Din ibn Shedad. *Life of Saladin* (trans. Conder), in P.P.T.S. vol. XIII. London, 1897.
 Bustan al-Djami li Djami Tawarikh z-Zaman (ed. Cahen), in *Bulletin d'Etudes Orientales de l'Institut de Damas*, vols. VII and VIII. Damascus, 1938.
 Ibn Jubayr. *Voyage* (Arabic text ed. Wright). Leyden, 1852.
 Ibn Moyassar. Extracts in R.H.C.Or. vol. III.
 Ibn at-Tiqtaqa. *Al-Fakhri* (History of Musulman Dynasties); trad. Amar. Paris, 1910.
 Imad ed-Din. *Al Fath al Qussi fi'l Fath al Qudsi* (ed. de Landsberg). Leyden, 1888. Extracts quoted by Abu Shama, *op. cit.*
 Kemal ad-Din. *Chronicle of Aleppo* (later portions trans. Blochet) in *Revue de l'Orient Latin*, vols. III and VI. Paris, 1895-8.
 Maqrîsi. *History of Egypt* (trans. Blochet). *Revue de l'Orient Latin*, vols. VIII-X. Paris, 1900-2.
 Sibî ibn al-Djauzi. Extracts in R.H.C.Or. vol. III.
 Usama ibn Munqidh. *Autobiography* (ed. Hitti). *An Arab-Syrian Gentleman of the Crusades*. New York, 1929.
 Zettersteen Chronicle. Anonymous chronicle (ed. K.V. Zettersteen). Leyden, 1919.

5. ARMENIAN, SYRIAC, GEORGIAN AND HEBREW SOURCES

- Basil the Doctor. *Funeral Elegy of Baldwin of Marash*, R.H.C.Arm. vol. I.
 Gregory the Priest. *Continuation of Matthew of Edessa's Chronicle*, R.H.C.Arm. vol. I.
 Gregory IV Dgha, Catholicus. *Elegy on the Fall of Jerusalem*, R.H.C.Arm. vol. I.
 Nerses Shnorhali, Catholicus. *Elegy on the Fall of Edessa*, R.H.C.Arm. vol. I.

* References to Ibn al-Athîr are to his *Sum of World History* (*Kamil at-Tawarikh*), except when otherwise stated.

- Anonymous Syriac Chronicle* (full text, J. Chabot). C.S.C.O. vol. III. (Quoted as *Chron. Anon. Syr.*) References are to Tritton's translation—see above, vol. I, Bibliography, p. 349—except where otherwise stated.
- Georgian Chronicle*, in Brosset, *Histoire de la Géorgie*.
- Benjamin of Tudela. *Voyages* (ed. Adler). London, 1907.
- Joseph ben Joshua ben Meir. *Chronicle* (trans. Biellablitzky), 2 vols. London, 1835.

6. SLAVONIC AND NORSE SOURCES

- Daniel the Higumene. *Vie et Pèlerinage de Daniel, Hégoumène Russe* (trans. de Khitrowo). *Itinér. Russes en Orient, Société de l'Orient Latin*. Geneva, 1889.
- 'Pèlerinage en Palestine de l'Abbesse Euphrosyne, Princesse de Polotsk' (trans. de Khitrowo), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III. Paris, 1896.
- Agrip of Noregs Konungasögum (ed. Munch), in *Samlinger til det Norske Folks Sprog og Historie*, vol. II. Oslo, 1834.
- Sigurdar Saga Jorsalafara ok brædra hans in Fornmanna Sögur*, vol. VII.

II. MODERN WORKS

- ABEL, F. M. *Géographie de la Palestine*, 2 vols. Paris, 1933-8.
- ALLEN, W. E. D. *History of the Georgian People*. London, 1932.
- ALMEIDA, F. DE. *Historia de Portugal*, 4 vols. Coimbra, 1922-6.
- ANSELME DE LA VIERGE MARIE (P. DE GUIBOURS). *Histoire Généalogique et Chronologique de la France*, 9 vols. Paris, 1726-33.
- BALDWIN, M. W. *Raymond III of Tripolis and the Fall of Jerusalem*. Princeton, 1936.
- BEL, A. Article 'Almohads', in *Encyclopaedia of Islam*.
- BERNHARDI, W. VON. *Konrad III*. Leipzig, 1883.
- BROSSET, M. F. *Histoire de la Géorgie*. St Petersburg, 1849.
- BROWNE, E. G. *Literary History of Persia*, 4 vols. London, 1906-30.
- CAHEN, C. 'Indigènes et Croisés', in *Syria*, vol. XV. Paris, 1934.
- CAHEN, C. 'Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient latin', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 1951.
- CASPAR, E. 'Die Kreuzzugsbullen Eugens III', in *Neues Archiv der Gesellschaft*, vol. XLV. Hanover, 1924.
- CATE, J. L. 'A Gay Crusader', in *Byzantion*, vol. XVI, 2. New York, 1943.
- CODERA, F. *Decadencia y Desaparición de los Almoravides en España*. Saragossa, 1899.
- COSACK, H. 'Konrad III's Entschluss zum Kreuzzug', in *Mitteilungen des Instituts für österreichische Geschichtsforschung*, vol. XXXV. Vienna, 1914.
- CUISSARD, C. *Les Seigneurs du Puiset*. Orleans, 1881.

- CURZON, H. DE. *La Règle du Temple*. Paris, 1886.
- D'ALBON, G. A. M. J. A. 'La Mort d'Odon de Saint-Amand', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. XII. Paris, 1904.
- DELAVILLE LE ROULX, G. *Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre*. Paris, 1904.
- DELISLE, L. *Mémoire sur les Opérations Financières des Templiers*. Paris, 1889.
- DIB, P. Article 'Maronites', in Vacant et Mangenot, *Dictionnaire de Théologie Catholique*.
- DODU, G. *Histoire des Institutions Monarchiques dans le Royaume Latin de Jérusalem*. Paris, 1894.
- DOSITHEUS, Patriarch of Jerusalem. 'Ἱστορία περὶ τῶν ἐν Ἱεροσολύμοις Πατριαρχευσάντων. Bucharest, 1715.
- ERDMANN, K. 'Der Kreuzzugsgedanke in Portugal', in *Historische Zeitschrift*, vol. CXII. Munich, 1930.
- GERULLI, E. *Etiopi in Palestina*. Rome, 1943.
- GLEBER, H. *Papst Eugen III.* Jena, 1936.
- GRANDCLAUDE, M. 'Liste d'Assises remontant au premier Royaume de Jérusalem', in *Mélanges Paul Fournier*. Paris, 1929.
- HAGENMEYER, H. *Chronologie du Royaume de Jérusalem*. Paris, 1901.
- HAMMER, J. VON. *Histoire de l'Ordre des Assassins* (French trans.). Paris, 1833.
- HERTZOG, E. *Die Frauen auf den Fürstenthronen der Kreuzfahrerstaaten*. Zürich, 1915.
- JOHNS, C. N. 'The Crusaders' attempt to colonize Palestine and Syria', *Journal of the Royal Central Asian Society*, vol. XXI. London, 1934.
- JORANSON, E. 'The Crusade of Henry the Lion', in *Medieval Essays presented to G. W. Thompson*. Chicago, 1938.
- KOHLER, C. 'Un nouveau récit de l'invention des Patriarches Abraham, Isaac et Jacob à Hébron', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.
- KÜGLER, B. *Studien zur Geschichte des zweiten Kreuzzuges*. Stuttgart, 1866.
- LA MONTE, J. L. 'The Lords of Caesarea in the period of the Crusades', in *Speculum*, vol. XXII. Cambridge, Mass., 1947.
- LA MONTE, J. L. 'The Lord of Le Puiset on the Crusades', in *Speculum*, vol. XVII. Cambridge, Mass., 1942.
- LA MONTE, J. L. 'The Lords of Sidon', in *Byzantion*, vol. XVII. New York, 1944.
- LA MONTE, J. L. 'To what extent was the Byzantine Empire the suzerain of the Crusading States?' *Byzantion*, vol. VII. Brussels, 1932.
- LANE POOLE, S. *Saladin*. London, 1898.
- LE QUIEN, M. *Oriens Christianus*, 3 vols. Paris, 1740.
- LUCHAIRE, A. *Louis VI le Gros*. Paris, 1890.
- MARINESCU, C. 'Le Prêtre Jean', in *Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine*, vol. X. Bucharest, 1923.

- MARTIN, ABBÉ. 'Les premiers princes croisés et les Syriens jacobites de Jérusalem', in *Journal Asiatique* (8me série), vols. XII and XIII. Paris, 1888-9.
- MELVILLE, M. *La Vie des Templiers*. Paris, 1951.
- MUSIL, A. Article 'Aila', in *Encyclopaedia of Islam*.
- NAU, F. 'Le croisé lorrain, Godefroy de Ascha', in *Journal Asiatique* (9me série), vol. XIV. Paris, 1899.
- NEUMANN, C. *Bernhard von Clairvaux und die Anfänge des zweiten Kreuzzuges*. Heidelberg, 1882.
- RAMSAY, W. M. 'Preliminary report on exploration in Phrygia and Lycaonia' and 'War of Moslem and Christian for the possession of Asia Minor', in *Studies in the History and Art of the Eastern Provinces of the Roman Empire*. Aberdeen, 1906.
- REY, E. G. 'Les Seigneurs de Gible', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. III. Paris, 1895.
- REY, E. G. 'Les Seigneurs de Barut' and 'Les Seigneurs de Montréal et la Terre d'Oultrejourdain', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.
- REY, E. G. 'Résumé de l'Histoire des Princes d'Antioche', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. IV. Paris, 1896.
- RICHARD, J. *Le Comté de Tripoli sous la dynastie Toulousaine*. Paris, 1945.
- SCHLUMBERGER, G. *Campagnes du roi Amaury de Jérusalem en Egypte*. Paris, 1906.
- SCHLUMBERGER, G. *La Numismatique de l'Orient Latin*. Paris, 1878.
- SCHLUMBERGER, G. *Les Principautés Franques du Levant*. Paris, 1877.
- SCHLUMBERGER, G. *Renaud de Châtillon*. Paris, 1923.
- SCHWAB, M. 'Al-Harizi et ses pérégrinations en Terre Sainte', in *Archives de l'Orient Latin*, vol. I. Paris, 1881.
- VACANDARD, E. *Vie de Saint Bernard, Abbé de Clairvaux*, 2 vols. Paris, 1895.
- VAILHÉ, S. 'Les Laures de Saint Gerasime et de Calamon', in *Echos d'Orient*, vol. II. Paris, 1899.
- VOGUE, C. J. M. DE. *Les Eglises de la Terre Sainte*. Paris, 1860.
- WALKER, C. H. 'Eleanor of Aquitaine and the disaster at Cadmos Mountain', in *American Historical Review*, vol. LV. New York, 1950.

ستيفن راتسيما

تاريخ الحملات الصليبية

٣- مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة

ترجمة

نور الدين خليل

تاريخ الحملات الصليبية

٣- مملكة عكا والحملات الصليبية المتأخرة

المحتويات

١١	مقدمة المترجم
٢٩	مقدمة

الباب الأول: الحملة الصليبية الثالثة

٣٥ الفصل الأول: ضمير الغرب

- ١١٨٧م: بعثة رئيس أساقفة صور - ١١٨٩م: استخلاف الملك ريتشارد -
- ١١٨٩م: ابتجار الأسطول الإنجليزي - ١١٨٩م: الامبراطور فريدريك يغادر المانيا
- ١١٨٩م: فريدريك في البلقان - ١١٩٠م: مصرع فريدريك بارباروسا -
- الامان في أنطاكية

٥٣ الفصل الثاني: عكا

- ١١٨٨م: الإفراج عن الملك جوى - ١١٨٨م: المنافسة بين جوى وكونراد -
- ١١٨٩م: جوى يصل أمام عكا - ١١٨٩م: صلاح الدين ينتقل إلى عكا -
- ١١٩٠م: توقف إجبار للطرفين - ١١٩٠م: قتال متهاوش - ١١٩٠م: زواج
- كونراد وايزابيللا - ١١٩١م: المجاعة في المعسكر الفرنجي

٧٣ الفصل الثالث: قلب الأسد

- ١١٩٠م: الملك ريتشارد والملك فيليب - ١١٩٠م: الملك تنكريد الصقلي - ١١٩٠م:
- ريتشارد يحاصر ميسينا - ١١٩٠م: مفاوضات في صقلية - ١١٩١م: الأسطول
- الإنجليزي يصل مياه قبرص - ١١٩١م: ريتشارد يفتزو قبرص - ١١٩١م:
- وصول ريتشارد إلى معسكر الصليبيين - ١١٩١م: خلافات في المعسكر -
- ١١٩١م: الصليبيون يدخلون عكا - ١١٩١م: ريتشارد يقتل الأسرى العرب -
- ١١٩١م: معركة أرسوف - ١١٩١م: انتصار ريتشارد - ١١٩١م: ريتشارد
- يتفاوض مع العادل - ١١٩٢م: ريتشارد في بيت توبا - ١١٩٢م: مفاوضات
- جديدة - ١١٩٢م: اغتيال كونراد - ١١٩٢م: ريتشارد يستولى على دارون -
- ١١٩٢م: ريتشارد ينسحب إلى يافا - ١١٩٢م: آخر انتصارات ريتشارد -
- ١١٩٢م: معاهدة بين صلاح الدين وريتشارد - ١١٩٩م: موت ريتشارد

الفصل الرابع: المملكة الثانية ١١٧

١١٩٣م: وفاة صلاح الدين - ١١٩٣م: أبناء صلاح الدين - ١١٩٩م:
 الخلافت الأيوبية - ١١٩٤م: حكومة هنرى - ١١٩٧م: مملكة قبرص -
 ١١٨٦م: ليو الثانى الأرمينى - ١١٩٤م: هنرى والحشاشون - ١١٩٨م: تتويج
 ليو الثانى - ١١٩٧م: موت هنرى (أوف شامبانى) - ١١٩٨م: زواج إيزابيلا
 وأماريك - ١١٩٧م: الحملة الصليبية الألمانية - ١١٩٧م: الاستخلاف على
 أنطاكية - ١٢٠١م: الحرب الأهلية فى الشمال - ١٢٠٥م: موت الملك
 أماريك

الباب الثانى: حملات صليبية ضالة

الفصل الأول: الحملة الصليبية ضد المسيحيين ١٤٩

١١٩٩م: اينوسينت الثالث والحملة الصليبية - ١٢٠١م: تعيين يونيفاس قائدا للحملة
 الصليبية - ١٢٠٢م: مفاوضات مع البندقية - ١٢٠٢م: نهب مدينة زارا - ١٢٠٣م:
 الحملة الصليبية تبهر قاصدة القسطنطينية - ١٢٠٣م: الكسيوس الصغير امبراطورا -
 ١٢٠٤م: ثورة فى القصر - ١٢٠٤م: نهب القسطنطينية - ١٢٠٤م: تتويج بلدوين
 كونت فلاندرز امبراطورا - ١٢٠٤-١٢٦١م: الامبراطورية اللاتينية - ١٢٠٤م:
 اينوسنت يدين الحملة الصليبية - ١٢٠٤م: النتائج المزرقة على الحملة الصليبية

الفصل الثانى: الحملة الصليبية الخامسة ١٧٧

١٢١٠م: جون (أوف برين) ملك القدس - ١٢٠١م: الاستخلاف فى أنطاكية -
 ١٢٠٦م: بطريق يونانى فى أنطاكية - ١٢١٢م: التبشير بحملة الأطفال الصليبية -
 ١٢١٢م: الأطفال فى مرسيليا - ١٢١٢م: مصير الأطفال - ١٢١٦م: موت البابا
 اينوسنت الثالث - ١٢١٧م: تأخر الصليبيين - ١٢١٨م: الملك اندرو يعود إلى بلاده
 - ١٢١٨م: الصليبيون ينزلون إلى البر فى مصر - ١٢١٨م: وصول الكاردينال
 بيلاجيوس - ١٢١٩م: احتلال العديلية - ١٢١٩م: القديس فرانسيس (أوف
 أسيسى) - ١٢١٩م: الكامل يعرض شروط السلام - ١٢٢٠م: بيلاجوس ينشد
 حلفاء - ١٢٢٠م: الملك جون يغادر الجيش - ١٢٢١م: الصليبيون يتقدمون -
 ١٢٢١م: بيلاجوس يستعطف طالبا السلام

الفصل الثالث: الامبراطور فريدريك ٢١٩

١٢٢٦م: الاستخلاف الأرمينى - ١٢٢٥م: زواج فريدريك ويولاند - ١٢٢٥م:
 مصير جون (أوف برين) - ١٢٢٨م: فريدريك يشرع فى الرحيل إلى الشرق -

١٢٢٨م: فريدريك يهبط فى قبرص - ١٢٢٨م: فريدريك فى عكا - ١٢٢٨م:
 المنازعات العائلية الأيوبية - ١٢٢٩م: استعادة القدس - ١٢٢٩م: فريدريك فى
 القدس - ١٢٢٩م: نهاية صلة فريدريك الصليبية - ١٢٢٩م: وضع القدس المقلق -
 ١٢٢٩م: الملكة أليس تطالب بعرش القدس - ١٢٣١: انشاء مجلس إدارى
 (كوميون) فى عكا - ١٢٣٢م: معركة كاسال إميرت - ١٢٣٢م: معركة أحربدى
 - ١٢٣٣م: تعيين موجاستيل وكيلا

٢٥٥ الفصل الرابع: فرضى مقننة

١٢٣٣م: بوهمند الخامس أمير أنطاكية - ١٢٢٩م: الكامل بعيد وحدة الامبراطورية
 الأيوبية - ١٢٣٩م: الحرب الأهلية فيما بين الأيوبيين - ١٢٣٩م: تيبالد (أوف
 ستابانى) وصلته الصليبية - ١٢٤٠م: نهاية صلة تيبالد الصليبية - ١٢٤١م: ريتشارد
 إيرل كورنويل - ١٢٤٣م: قبول وصاية الملكة أليس - ١٢٤٣م: معاهدة مع الصالح
 إسماعيل صاحب دمشق - ١٢٤٤م: ضياع القدس نهائيا - ١٢٤٤م: كارثة فى
 لافورى - ١٢٤٧م: ضياع عسقلان - ١٢٤٥م: بطريرقية لاتينية فى أنطاكية -
 ١٢٥٢م: فضائح فى كنيسة أنطاكية

الباب الثالث: المغول والمماليك

٢٨٧ الفصل الأول: مجى المغول

حنكيز خان - ١٢٠٦م: تنظيم امبراطورية حنكيز خان - ١٢١٨م: محمد شاه
 الخوارزمى - ١٢٢١م: هزيمة الخوارزميين - ١٢٢٢م: المغول يطلون إلى القوقاز -
 ١٢٢٧م: استخلاف أوغوداى - الغزو المغولى لأوروبا - ١٢٤٢م: المغول فى آسيا
 الصغرى

٣٠٧ الفصل الثاني: القديس لويس

١٢٤٨م: الملك لويس يبحر من إيجو-مورت - ١٢٤٩م: الحملة الصليبية تصل أمام
 دمياط - ١٢٤٩م: لويس فى دمياط - ١٢٤٩م: الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة -
 ١٢٥٠م: معركة المنصورة - ١٢٥٠م: تورانشاه يتولى قيادة المسلمين - ١٢٥٠م:
 لويس فى السجن - ١٢٥٠م: مقتل تورانشاه - ١٢٥٠م: لويس يبقى فى الشرق -
 ١٢٥٣م: الخليفة يحقق السلام بين أمراء المسكمين - ١٢٥٢م: التحالف الفرنجى مع
 الحشاشين - ١٢٥٤م: الآثار التى تروى رحيل لويس - ١٢٥٦م: حرب

القديس ساباس - ١٢٥٨م: الملكة بلسيزاس فى عكا - ١٢٦١م: البيزنطيون
يستعيدون القسطنطينية - ١٢٧٠م: آخر صلة صليبية للملك لويس

٣٤٧ الفصل الثالث: المغول فى سوريا

١٢٥٤م: التحالف الأرميني مع المغول - ١٢٥٤م: وليم (أوف روبروك) فى تراقورم
- ١٢٥٦م: الجيش المغولى يتحرك باتجاه الغرب - ١٢٥٧م: إبادة الحشاشين فى
فارس - ١٢٥٨م: المغول يخربون بغداد - ١٢٥٩م: المغول يدخلون سوريا -
١٢٦٠م: سقوط دمشق - ١٢٥٩م: موت الخان الأعظم مونغكا - ١٢٦٠م:
المماليك يطلبون مساعدة الفرنج - ١٢٦٠م: معركة عين جالوت

٣٧١ الفصل الرابع: السلطان بيبرس

١٢٦٥م: موت هولأكو - ١٢٦٦م: بيبرس يفتح الجليل - ١٢٦٦م: المماليك
يخربون كيليكيا - ١٢٦٨م: سقوط أنطاكية - ١٢٦٨م: هيو، ملك قبرص والقدس
- ١٢٦٩م: تتويج هيو - ١٢٦٩م: الحملة الصليبية لأطفال أراجون - ١٢٧٠م:
قتل فيليب أمير مونتفورت - ١٢٧١م: وصول إدوارد الإنجليزي - ١٢٧٢م: هدنة
بين إدوارد وبيبرس - ١٢٧٢-١٢٧٤م: البابا جورج العاشر يجمع تقارير عن
الحملات الصليبية - ١٢٧٤م: مجمع ليون - ١٢٧٥م: الرصاية فى طرابلس -
١٢٧٦م: الملك هيو يتقاعد فى قبرص - ١٢٧٧م: بيبرس يغزو الأناضول - وفاة
بيبرس

الباب الرابع: نهاية الشرق الفرنجى

٤٠٧ الفصل الأول: تجارة الشرق الفرنجى

منتجات الشرق الفرنجى - التجارة العابرة - دور التجار الإيطاليين - الطرق
التجارية فى ظل المغول - ثروة البارونات - ضرب العملة فى الشرق الفرنجى -
معضلة الشرق الفرنجى الاقتصادية

٤٢٥ الفصل الثانى: العمارة والفنون فى مملكة الشرق الفرنجى

القلعة البيزنطية - قلاع القرن الثانى عشر - ضعف دفاعات القلاع - عمارة
الأماكن المقدسة - الكنائس فى القدس - زخرفة الكنائس - الفسيفساء واللوحات
الجدارية

٤٤٩ الفصل الثالث: سقوط عكا

١٢٨٢م: الحرب الأهلية في طرابلس - ١٢٨١م: معركة حمص - ١٢٨٢م: انهيار
قوة تشارلز (أوف أنجو) - ضياع المرقب - ١٢٨٦م: آخر أعياد الشرق الفرنجي -
١٢٨٧م: سفارة أبان ساوما - ١٢٨٩م: الخان بحث حملة صليبية - ١٢٨٧م:
سقوط اللاذقية - ١٢٨٨م: لوتشيا، كوتسة طرابلس - ١٢٨٩م: المدافعون عن
عكا - ١٢٩١م: اتهامات بالجن - عكا سنة ١٢٩١م - ١٢٩١م: آخر محاولة
للتفاوض - ١٢٩١م: الهروب من عكا - ١٢٩١م: تدمير عكا - ١٢٩١م: موت
مملكة الشرق الفرنجي

الباب الخامس : خاتمة

٤٨٩ الفصل الأول : آخر الحملات الصليبية

الافتقار إلى حلفاء - ريموند لُـل - مقترحات الحملة الصليبية - ١٣٠٨م: فرسان
المستشفى يحتلون جزيرة رودس - ١٣٠٨م: محاكمة نظام المعبد الديني العسكري -
١٢٩٩-١٣٠٨م: المغول يغزون سوريا ثانية - ١٣٥٩م: استخلاف بطرس الأول
القيصري - ١٣٥٦م: الملك بطرس يخطط حملته الصليبية - ١٣٦٥م: الحملة تهاجم
الإسكندرية - ١٣٦٥م: نهب الإسكندرية - ١٣٧٥م: انهيار المملكة الأرمنية -
١٣٤٤م: الاستيلاء على أزمير - تنامي السلطة العثمانية - ١٣٦٦م: انتصار
السلطان - تيمور الأعرج (تيمور لنك) - ١٤٤٤م: الحملة إلى فارنا - ١٤٦٤م:
البابا بيوس الثاني آخر الصليبيين

٥٣٣ الفصل الثاني : إجمال

الحملات الصليبية والبابوية - الحملات الصليبية والإسلام - الحملات الصليبية والعالم
المسيحي الشرقي - دمار بيزنطة - الافتقار إلى قائد

المرفقات:

- المرفق الأول : المراجع الرئيسية لتاريخ الحملات الصليبية المتأخرة ٥٤٩
 المرفق الثاني : الحياة الفكرية فى أوترمييه ٥٥٩
 المرفق الثالث : شجرات الأنساب آخر الكتاب

١- البيوت الملكية للقدس وقبرص وبيت ايلين

٢- بيت أمراء أنطاكية

٣- بيت أسرة أمبرياكو

٤- بيت أرمنيا الملكى (كيليكيا)

٥- الأيوبيون

٦- بيت جنكيز خان

المصادر والمراجع: ٥٦٣

الخرائط:

خريطة رقم (١) : عكا وضواحيها فى سنة ١١٨٩ م ٥٥

خريطة رقم (٢) : دلتا النيل زمن الحرب الصليبية الخامسة، وحملة القديس

لويس التاسع ١٧٩

خريطة رقم (٣) : امراطورية المغول زمن جنكيز خان وأخلافه ٢٨٩

خريطة رقم (٤) : عكا سنة ١٢٩١ م ٤٥١

خريطة رقم (٥) : الشرق الفرنجى فى نهاية القرن الثالث عشر ٥٣٥

مقدمة المترجم

منطق التاريخ

هذا هو الجزء الثالث من "تاريخ الحملات الصليبية" الذي أخذنا على عاتقنا ترجمته بأكمله ، لما تميز به من خصائص علمية وفنية تفرد به بين ما كُتب في مختلف العصور عن تلك الحملات . وليس ثمة شك في أن هذا التاريخ ، الذي يوفى على كل غاية للخصائص التي أسلفناها ، يتفرد تفردا عبقريا قلما يتاح لغيره في ناحية واحدة مميزة وجليلة الخطر ، تتمثل في أن كاتبه التزم فيه حيطة موضوعية علمية قلما يتسم بها مؤرخ في تناوله لأمر تمس عقيدة أخرى غير عقيدته ، وحضارة لا ينتمى إليها . فالإنسان هو الإنسان لا يتأتى له - وإن أراد - أن يخلص عن وعى أو غن غير وعى من آثار تنشئته الاجتماعية والدينية والسياسية . وإذا أجلنا النظر فيما يدور حولنا الآن يستبين لنا أن الصراع الدائر في شتى أرجاء العالم اتخذ في العقود الأخيرة شكلا جديدا

يمكن أن نجمله على أنه "صراع فكري". فالسلاح ، وقد بلغ به الإنسان مبلغا يمكن أن ينتهى بالعالم إلى أسوأ مصير ، أمسى نتيجة لذلك عقيما لا يكاد يُبلغ جماعة من الناس غاية ما تريد ، فالضوابط التى تحكم استخدامه أصبحت حدودا لا يمكن تجاوزها إلا إذا أراد الإنسان أن يضع حدا للحياة نفسها . غير أن العقائد هى العقائد ، والمذاهب السياسية وغير السياسية هى المذاهب ، باقية على ما كانت عليه ، ولا بد لها من أن تصطرع محاولة تحقيق غاياتها أو بعض غاياتها . ولم يعد فى يد الإنسان بعد مسيرة الحضارات الطويلة سوى فكره كى يخوض به غمار عالم قمىء لم يكد يتعلم شيئا أو يلقي درساً من ماضى أيامه . وكلمة "فكر" فى هذا السياق لا تحمل على ما فيها من إيجاب ، بل هى تقارب السلب إنما مقارنة . ومن الغريب أن هذه حال صدقت فيما مضى وتصدق فى أيامنا . إذ أن روح "المؤامرة" التى غلبت على سياق الحملات الصليبية فى شتى مراحلها الطويلة ، هى نفس الروح التى تغلب على الفكر السياسى فى الوقت الحاضر.

ولعل أقرب مثال على ذلك ما حدث للإتحاد السوفياتى السابق الذى كان يشكّل طوال خمسة وسبعين عاما قوة هائلة يحسب لها كل حساب ، انتهى وانتهت أيامه وانتهت العقيدة التى بشر بها وظن أنها باقية إلى يوم الدين . والمفكرون السياسيون فى شتى بقاع العالم يكادون يجمعون على أن ذلك الإتحاد السوفياتى إنما قضت عليه "المؤامرة" . فالمعسكر الغربى الذى بنى أمجاده على أساس فلسفة رأسمالية ، والذى لم يأبه بانسانية الإنسان ، إلا عندما تهددت كيانه تلك الإيديولوجية التى سادت ردحا من الزمان فى الإتحاد السوفياتى ، لم يتأتّ لسلاحه النووى الرهيب أن يتصدى لذلك الخصم القوى أو يقضى عليه . ولم تكن ثمة سبيل إلى ذلك إلا بإنفاق قدر هائل من المال خاطب فى الإنسان غرائزه وجموحه واستطاع أن يستلب عقيدته ووطنيته . وبات من المعروف أن أمريكا انفقت ذلك المبلغ الطائل كى تجتنب الجوء إلى السلاح الذى كان سيؤدى بالضرورة إلى هلاكها إن هى أقدمت على استخدامه . ولا يتسع هذا المجال لتفصيل كل ذلك ، وإنما الذى يعيننا هو التماثل الواضح بين أمس واليوم . فالإنسان على إدعائه الإيمان لا يستطيع فى كل حال أن يقبض فى يقين على ما يعتنقه ، وفى هذه العبارة مفتاح يعيننا على أن نتفهم ما جرى إبان الحملات الصليبية.

فالمسلمون أصحاب عقيدة تستطيع أن تتصدى دون غيرها لمنطق عام يتفق مع فطرة الإنسان، وتحرك قدراته ولا تتجاهل طبائع الأشياء وحقائقها ، ومع ذلك استطاع الصليبيون عبر عقود متعاقبة أن يحققوا بعض انتصار على المسلمين ، لا لأنهم كانوا

مدافعين عن عقيدة وإنما لأنهم كانوا أصحاب دنيا وأصحاب سياسة أى أصحاب "مؤامرة". والحملات الصليبية فى متابعتها تظهر فى جلاء أنه لم يأت للصليبيين أن يحققوا شيئا من نصر إلا عندما نجحوا فى أن يخذلوا المسلمين بعض حين عما يعتقدون . وفى اللحظات التى غلب فيها الإيمان على هوى الإنسان لم يستطع أحد غير التاريخ كله أن يغنم من المسلمين مغنما وإن كان يسيرا ، على كثرة العدو وقلة المسلمين . وهذا الرأي ليس رأي مسلم ، وإنما هو منطق التاريخ ، وفيه دلالة واقعية على أن ما هو صحيح لا بد أن يصح فى منطق الواقع إذا التزم الإنسان كائنا من كان حادة إيمانه وصواب عقله ، أى أن التاريخ نفسه دَلَّ ، ولسوف يدَلُّ ، على صحة هذه العقيدة التى جمع الخصوم لها ويجمعون ، وحاولوا وهم يحاولون.

ففترات الإضمحلال فى دورات الحضارة لا تدل على أن قوة القاهرة استطاعت أن تدحر قوة دونها، وإنما تدل على أن فكر الإنسان وقدرته على الخديعة استطاع فى غيبة الإيمان أن يجد له منفذا عند بعض طلاب الدنيا.

"الخطر" القديم الجديد

والذى يتدبر ما أورده رانسيमान فى مجلداته الثلاثة على عمقها وشمولها، يتاح له أن يستبين فى غير ما شك أن الصليبيين على اختلاف انتماءاتهم وقومياتهم وعقائدهم وعلى اختلاف أيامهم ، لم يكونوا سوى طلاب منفعة ولم يكن للدين موضع فى وجدانهم، وإنما اتخذوه ذريعة يتعللون بها لاستلال سيوفهم . ولنعد ، فى لحظة سريعة ، إلى القرن العشرين لنرى أنه فى العقد الثانى منه بدا يلوح فى الأفق عدو للغرب مكين ، أنساه عداوته للإسلام إلى حين . وما أن دار الزمان دورته وانتهى الاتحاد السوفياتى الذى كان يقوم على فكر وضعى ، حتى عاود الغرب الإحساس بالخطر بما هو ماثل بالإمكانية فى الإسلام . وبدأ مفكرو الغرب يعيدون استكناه التاريخ ليكتشفوا من جديد مدى ما يمكن أن يتمثل فى ذلك العدو القديم من خطر شديد . وعلىنا فى هذا السياق أن نقصر النظر على مجال واحد لنتبين مدى خطورة ذلك . ففي الوقت الذى يتاح فيه لإسرائيل أن تملك السلاح النووى ، وأن ترفض فى صلف التوقيع على معاهدة منع انتشار السلاح النووى ، يحال بين أية دولة إسلامية وبين أن تحاول مجرد محاولة امتلاك ذلك السلاح أو غيره مما يوصف بأنه متقدم . ولقد نجح الغرب فى ذلك كله من خلال نفاذه إلى عقول كثير من الحاكمين الذين يستهويهم ما فى الدنيا من متاع

رخيص ، بعد أن بعدت الشقة بينهم وبين ما ينبغي لهم أن يلتزموه من أمر دينهم ، وبعد أن وحدوا من يرر لهم مسلكهم ويزينه.

لقد أجملنا في نظرة عامة ما توحى به في النهاية قراءة ما كتبه رانسيمان عن الحملات الصليبية ، والذي لا بد لنا أن نستخلص منه أنه ينبغي للمسلمين إن أرادوا البقاء أن يعودوا إلى ما يفرضه عليهم دينهم . ولقد سبق أن أوضحنا في مقدمتي الجزأين الأول والثاني من هذه الترجمة كثيرا مما أعاننا رانسيمان على أن تفهمه من اللوحة العامة التي رسمها في فن واقتدار للحملات الصليبية والتي أبرز فيها على نحو يدهش المتأمل كثيرا من الخصائص التي يتميز بها من يحق لهم أن يقولوا أنهم صدروا عما عمل به عليهم ضمائرهم ومقتضيات دينهم . ونحن كرانسيمان نستطيع أن نلتزم الحيدة العلمية الموضوعية غير متأثرين بانتمائنا وإنما مستجيبين لمقتضيات العقل والمنطق برغم غيبتهما في عالم تنأى تنأيا يكاد يكون كاملا عما هو عقلاني أو منطقي . ولن نعاود هنا بطبيعة الحال ذكر ما سبق أن تناولناه في مقدمتي الجزأين السابقين ، وإنما سننظر على نحو عام في مجمل ما حققه رانسيمان تحقيقا تاريخيا علميا ، ضارين عددا من الأمثلة المدللة التي تعبر في صدق وعمق عن واقع حال تلك الصفحات السوداء التي خطها الصليبيون في صلف وعدوان في كتاب التاريخ .

هل يعيد التاريخ نفسه ؟

ولعل لنا أن نبدأ بالإشارة إلى الأحوال العامة التي كانت سائدة بين جماعات المسلمين باختلاف تسمياتها السياسية لتأمل من خلالها ما يسود العالم العربي والإسلامي الآن من أحوال مشابهة . ونحن في ذلك لا نقول مع القائلين "إن التاريخ يعيد نفسه" ، فهذه العبارة تبدو للوهلة الأولى كما لو كانت صحيحة، وواقع الحال أنها ليست كذلك إلا بمعيار واحد . فالتاريخ لا يعيد نفسه أبدا كوقائع وأحداث ، ومن يتأمل تفاصيل أحداث التاريخ ، أو بالأحرى أحداث التواريخ ، يجد أنها لا تتماثل على الإطلاق . ونحسب أن من قال بهذه العبارة إنما يعنى ما نعنيه بقولنا إن العبارة قد تكون صحيحة بمعيار واحد يتمثل في الإنسان نفسه . ذلك أن "الإنسان العاقل" - مذ كان يزحف على ظهر الأرض في بدائية لا تكاد تدرى من أمرها أو من أمر غيرها شيئا، وحتى عصرنا الحالى الذى يقال فيه إن الحضارة السائدة هي حضارة الإنسان المعاصر أو حضارة القرن العشرين على إطلاق - لا يكاد يثبت إزاء منطق سوي إلا من حيث

ظاهر القشرة التي تُرَقَش العالم بألوانها الخادعة . وليس ثمة شيء يمكن أن يكون ثابتاً سوى أثر الإنسان وتنايه عن القيمة ، فهذان هما العاملان الأساسيان للذات حركاً ويحركان تواريخ الإنسان في مختلف حقب حضاراته . ونحسب أن عبارة "إن التاريخ يعيد نفسه" لا تصدق أو تصح إلا بهذا المعيار . فبرغم ما تقلب فيه الإنسان من عقائد وأديان وأيديولوجيات لم يستطع في أية حال أن يعلن على أثره أو يثبت على قيم عليا تستطيع أن تبرز وجودها عبر منطق سوي أو عام . فلكل جماعة من البشر منطقها الذي يقوم أساساً للدفاع عن مصالحها الخاصة المنبثقة عن أثرتها وظلمها برغم ما قالت الآلهة وما قاله الله وما نادى به المخلصون ، وبرغم ما تدعو إليه المسيحية من تسامح . ونقف هنا عند المسيحية بصفة خاصة لأننا نعالج "أحملاات الصليبية" . ولعل ذلك يعود بنا إلى واقعة تدلل على صحة ما أسلفناه . فعندما أراد ريتشارد قلب الأسد أن يغادر عكا في لفة للذهاب إلى القدس ، كان وجود أسرى المسلمين لديه يشكل حجر عثرة تسبب له الحرج ، فلم يجد سبيلاً إلى بلوغ غايته سوى أن يتخلص من أولئك الأسرى على نحو لا نحسب أن عقلاً أو إيماناً أو قلباً به مسحة من إنسانية يستطيع أن يتدبر الأمر في منطق قويم يمكن أن يجد شبه مبرر لما قام به قلب الأسد . ويحسن بنا أن ننقل ما جاء به رانسيما عن هذه الواقعة:

"وبرحيل فيليب تولى ريتشارد كامل زمام الجيش والمفاوضات مع صلاح الدين الذي وافق على الالتزام بالمعاهدة التي أبرمها ضباطه في عكا. وبينما انهمك الصليبيون في إعادة بناء أسوار عكا وتقويتها شرع صلاح الدين في جمع الأسرى والمال المطلوب منه. وفي الثاني من أغسطس استقبل صلاح الدين في معسكره ضباط مسيحيين ينقلون موافقة ريتشارد على اقتراحه بتجزئة المدفوعات وعودة الأسرى على ثلاث دفعات شهرية ، على أن يُطلق سراح الأسرى العرب بعد تسديد الدفعة الأولى . وسمح للزائرين بمشاهدة الصليب المقدس الذي كان صلاح الدين يحتفظ به في حالة من الوقار. وفي الحادي عشر من أغسطس أرسلت الدفعة الأولى من المال وأسرى الصليبيين إلى معسكر المسيحيين ، وعاد سفراء ريتشارد يؤكدون صحة الدفعة الأولى من المال، غير أن كبار الأسرى وبخاصة من تحدت أسماؤهم لم يصلوا جميعاً، ومن ثم فلن يطلق سراح جنود السلطان المأسورين في عكا. فعرض صلاح الدين إما قبول دفعة المال مع رهائن عن اللوردات المفقودين وإطلاق

سراح رجاله، أو قبول دفعة المال وترك رهائن لديه ضمانا لإطلاق سراح رجاله؛ ورفض السفراء العرضين كليهما، وطلبوا دفعة المال وإعطائه مجرد تعهد بشأن الأسرى العرب. لكن صلاح الدين لا يثق فى كلمتهم، ولذا رفض إعطائهم أى شىء ما لم يفرجوا عن رجاله.

وريتشارد الآن متلهف على مغادرة عكا والسير إلى القدس، لكن الأسرى العرب كانوا حجر عثرة تخرجه، فسرّه أن يجد ذريعة للتخلص منهم. وفى العشرين من أغسطس، وبعد أكثر من أسبوع على عودة سفرائه إليه، أعلن أن صلاح الدين قد أخل بتعهده، وبكل العمد وسبق الإصرار أمر بقتل الأسرى الباقين على قيد الحياة من حامية عكا وعددهم ألفين وسبعمائة أسير. وكما أخبرنا المؤرخون المدافعون عن ريتشارد فى سرورهم - راح جنوده المتلهفون يعملون السيف ذبحا شاكرين الرب على هذه الفرصة للإنتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام المدينة. وقُتلت زوجات وأطفال الأسرى إلى جوارهم، وأبقوا على مجرد القليل من الوجهاء وأقرباء البنية لاستخدامهم فى أعمال السخرة. وشاهد العرب فى المخفر الأقرب إلى عكا ما كان يحدث فاندفعوا لإنقاذ إخوانهم، بيد أنه برغم بسالتهم فى القتال حتى هبوط الظلام لم يتمكنوا من اختراق الصفوف إليهم. وعندما انتهى الذبح عادر الإنجليز مكان المذبحة بما فيه من جثث تمزقت أوصالها وفسدت، وبات بإمكان المسلمين الحضور للتعرف على أصدقائهم الشهداء.

وحشية طائشة وإنسانية حليلة

ويتبين من تفاصيل هذه الواقعة، التى لا نجد من الألفاظ ما يعبر عن سوء ما فيها، أن قلب الأسد لم يُقِم وزنا للضمير المسيحى، أو مقتضيات ضمير الإنسان كإنسان، ولم يلتزم بما ينبغى أن تفرضه عليه العهود والأعراف، كما أنه وسفرائه لم يستجيبوا للعروض المنطقية التى عرضها صلاح الدين فى المفاوضات لبلوغ حل لهذه المسألة، على ما فى ذلك كله من عدم الاعتداد بما يمكن أن يحدث لكبار الأسرى المسيحيين لدى صلاح الدين، مما ينبى عن روح مجازفة لا تقيم وزنا لحياة الإنسان حتى وإن كان من الرفاق المحاربين، وإن دلّ هذا على شىء فإنما يدل على أن الآصرة التى كانت تشد

أولائك الرفاق الصليبيين بعضهم إلى بعض لم تكن تنبثق عن وازع من دين أو رغبة فى الدفاع عن قيمة وإنما هى أثره الإنسان وظلمه . ونضيف إلى ذلك أن المؤرخين المدافعين عن ريتشارد قلب الأسد حاولوا تبرير مسلكه الذى لا يتأتى لعقل أو قلب أن يقبله . بل إنهم يجاوزون ذلك إلى تمجيد الرب شكرا على المذبحة التى ارتكبتها أولائك الذين يجاوزون الوحوش فى وحشيتهم . ولا يقف الأمر عند هذا الحد وإنما يجاوزه إلى المخاطرة بعودة "الصليب المقدس" الذى كان فى حوزة صلاح الدين . والأمر على هذا النحو ليس أمر دين أو أمر اعتداد بأهم رمز لهذا الدين الذى قامت الحملات الصليبية تحت رايته . وإذا وقفنا عند "الصليب" فى المسيحية فإنه يمثل الفداء فى أحلى صورة من وجهة نظر المسيحية التى ترى أن الرب نفسه ، تعبيرا عن المحبة ، يفتدى الإنسان، ذلك الخاطئ الذى خرج عن طاعته . فأى فداء وقد ترك المحاربون المدافعون عن الصليب لدى صلاح الدين ؟ ثم أى فداء والصليب المقدس نفسه لا يؤبه به ؟

ولنعد مرة أخرى إلى واقعة تظهر أن ريتشارد لم يكن بطبيعته ينجح إلى شىء سوى الإفحاش فى سفك الدماء ، ولنر ما يقوله رانسيمان مقارنا ريتشارد قلب الأسد بصلاح الدين الأيوبي:

"وبعد خمسة أيام من القتال المستعر، قُصف أسف المدينة (مدينة دارون) واستسلمت حامية القلعة . ولم يتعلم ريتشارد شيئا من شهامة صلاح الدين، إذ قتل بعض رجال الحامية بالسيف، وألقى بالبعض من أعلا أسوار القلعة ، واقتاد البعض فى عبودية سرمدية"

وليس ثمة فحش يدل على شذوذ العقل من قتل المستسلمين بإلقائهم من على ، فهذا درك لا تنحط إليه الوحوش فى همجيتها.

منطق الدعاية وواقع التاريخ

ونحن إذ نعرض لريتشارد قلب الأسد إنما نعرض لقائد فرد يستطيع أن يوجه الأمور حيثما يعين له وحيثما تشاء نزواته . وليت الأمر يقتصر على ذلك ، فإننا إذا انتقلنا إلى نظرة عامة نجد أن الصدع بين الكنيسة الرومانية الكاثوليكية والكنيسة اليونانية الشرقية ينبثق عن نزوع إلى تعصب لا يتهيا له أن يقيم وزنا لما يراه الآخرون من أتباع نفس الدين من ناحية ، وعن تعلق بما يمكن أن تتيحه الحرب "المقدسة" من مغنم ينعم بها

أصحاب الشأن دون اعتبار للرأى العام المسيحى الذى الذى كانت الكنيسة تعمل جاهدة على اقناعه بأن الحملات الصليبية موجهة فى أساسها للدفاع عن الصليب. ولنقرأ الفقرة التالية من الباب الثانى الذى عمد رانسيماى إلى تسميته "حملات صليبية ضالة"، إذ يقول فى الفصل الأول من هذا الباب، وعنوانه "الحملة الصليبية ضد المسيحيين:"

"على أن الصليبي العادى قد لُقِنَ الاعتقاد الذى مفاده أن بيزنطة دأبت على القيام بدور الخيانة ضد العالم المسيحى طوال الحروب المقدسة. فمن الحكمة إذن واستحقاق الثواب إرغامها على التعاون الآن. وأبهج الورعين من بين رجال الجيش أن يساعدوا فى سياسة من شأنها أن تعيد اليونانيين المنشقين إلى الحضيرة. أما الأكثر ولعا بالحياة الدنيا فراحوا يتفكرون فى ثراء القسطنطينية ومقاطعاتها المزدهرة وتطلعوا لتوقعات السلب والنهب. وربما تطلع بعض البارونات، وفيهم بونيفاس نفسه، إلى نفس التوقعات، وراحوا يوازنون حساباتهم التى تقول إن الضياع على شواطئ بحر إيجه أكثر جاذبية للغاية من أية ضياع يجدونها فى أراضى سوريا القاحلة. وأسهم ما كان يحمله الغرب من الإزدراء كله منذ أمد بعيد للعالم المسيحى الشرقى، فجعل من اليسير على داندولو وبونيفاس تطويع الرأى العام وشده لمناصرتهم"

ويبدو أن الحروب على اختلاف زمانها وظاهر دواعيها تنصرف فى التحليل النهائى إلى أسباب اقتصادية بالمعنى العام لهذه الكلمة، وهذا المعنى العام يشمل بطبيعة الحال نزوع الفرد إلى تحقيق أمانيه الجاحمة واتجاه الجماعة إلى التصرف على نحو يرضى مطامعها ويكفل لها أسباب الرفاهية، وإن تحقق ذلك على حساب أية قيمة وإن كانت ديناً. ولنتأمل معاً الدوافع الحقيقية التى تبرزها الفقرة التالية من نفس الفصل، وإن لم تكن هذه الدوافع حينذاك متمثلة إلا فيما يتعلق بآمال أصحابها (قبل الاستيلاء على القسطنطينية)، ولا شك فى أن أمل الإنسان، على زيفه، يحدد مسار خطاه:

"وتقرر فى نهاية الأمر تشكيل هيئة محلفين من ستة من الفرنج وستة من البنادقة لإختيار الامبراطور بعد الاستيلاء على المدينة مباشرة. وإذا كان الامبراطور الذى سيقع عليه الإختيار فرنجياً - وهو الأفضل - فيتعين اختيار أحد البنادقة لمنصب البطريق. وينبغى أن يكون للإمبراطور

القصر الإمبراطورى الفخيم وقصر الإقامة بلاشيرنا ، وربيع المدينة والإمبراطورية ؛ وأما الثلاثة أرباع الباقية فيكون نصفها للنادقة والنصف الآخر لفرسان الصليبيين يقتسمونها إلى اقطاعات لأنفسهم . ويتعين أن يقسم قسم الولاء للإمبراطور جميع أصحاب الإقطاعيات ، فيما عدا الدوج . وهكذا يكون كل شىء قد تم ترتيبه "لشرف الرب والبابا والإمبراطور" . وأما المطالبة بأن تواصل الحملة مسيرتها فى وقت ما لمحاربة الكفرة، فقد تخلوا عنه صراحة".

للتاريخ دلالة عامة

ولننظر حولنا الآن لنرى أن الأمم البعيد لا يختلف إلا من حيث الشكل عن يومنا هذا . فلقد نجحت القوى الإستعمارية فى تقسيم العالم العربى إلى دول ودويلات ، ربما لا يتوفر لبعضها مقومات الدولة كما يراها علماء السياسة ، وكانت الغاية من وراء ذلك أن تصطنع تلك القوى لنفسها دُمى تتولى حكم هذه الدول والدويلات ، وهذه الدُمى تستجيب دونما تردد لكل ما يمليه السيد صاحب الأمر فى سياسات العالم الحديث، وتعمل فى نفس الوقت على الإستماتة فى الدفاع عن مصالحها الشخصية دون اعتبار لأية مقتضيات قومية أو دينية أو إنسانية . وبذلك استطاع أعداء المسلمين أن يُحكّموا وثاقهم وأن يسيروهم تبعاً لأهوائهم وحسبما تقتضيه مصالحهم إلى حد يصيب كل صاحب عقل باغتراب لا يكاد يقرّ على قرار. ولعل لنا أن نستخلص من هذه النظرة العامة أن الإنسان - كما قلنا - هو الإنسان ، يحرك التاريخ ، أو يتحرك به التاريخ طبقاً للعاملين الأساسيين اللذين أشرنا إليهما واللذين يتمثلان فى أنانية الإنسان ونزوعه إلى الظلم.

ونعود هنا إلى ما سبق أن ارتأيناه من أن التاريخ لا يعيد نفسه إلا من حيث دلالاته العامة . فواقعة تخريب القسطنطينية التى أوردها رانسيمان فى نفس الفصل تدل فى جلاء على أن الإنسان الذى يدعى التحضر لم يبلغ فى تحقيق ادعائه هذا أى حد بالمعنى الأخلاقى أو القيمى فى القديم والجديد . فالفقرة التى سوف تلى عن دخول الصليبيين القسطنطينية تجاوز قدرة الإنسان على الوصف ، وتدل فى نفس الوقت على أن أولئك الصليبيين لم يكونوا سوى شرادم من البرابرة لم يتح لهم أى قدر من التحضر وإن دافع عنهم المدافعون . فأهل البندقية على سبيل المثال لم يبلغوا فى عدوانهم همجية

الصلبيين، لأنهم كانوا ما يزالون يمثلون أبناء الحضارة الإغريقية القديمة التى تدعى الحضارة الأوروبية الحديثة أنها وليدتها . ومن ثم كانوا على قدر من التقدم بالمعنى الإقتصادى والتجارى والفنى وبقدرتهم على ارتياد البحار ، ولذلك بذلوا الجهد فى سبيل الإبقاء على ما كانوا عليه من رفاهة وهيمنة . ولن نفيض فى التعليق على ما جاء فى الفقرة التالية ، فقد أغنانا رانسيمان عن ذلك:

"انتهبت القسطنطينية بصورة لا مثيل لها فى التاريخ . وتسعة قرون خلت ظلت المدينة العظيمة عاصمة للحضارة المسيحية ؛ فكانت مليئة بالأعمال الفنية التى بقيت من اليونان القديمة ، والطُرف المشوقة التى أبدعتها أيدي أبنائها المهرة ؛ وكان البنادقة يعرفون حقا قيمة تلك الأشياء ، إذ أينما وجدوا كنوزا كانوا يستولون عليها ويحملونها لتزين ميادين مدينتهم وكنائسها وقصورها . بيد أن الفرنسيين والبلجيكي كانوا قد أشربوا فى قلوبهم شهوة التخريب فكانوا يندفعون متحمهرين فى جماعات تعوى فى وحشية فى الشوارع وفى البيوت، ينتزعون أي شىء يبرق أمامهم ، ويدمرون كل ما لا يستطيعون حمله ، ولا يتوقفون إلا للقتل أو الإغتصاب ، أو لتحطيم بوابات أقبية النيذ لينتعشوا ، فلم يخلص من تخريبهم دير أو كنيسة أو مكتبة . وفى كنيسة القديسة صوفيا ذاتها راح سكارى الجنود يمزقون الستائر الحريرية ويجذبون الأيقونة الفضية العظيمة ويحطمونها قطعاً قطعاً ، بينما داسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والأيقونات . وبينما كانوا يشربون الخمر فى أوانى المذبح جلست إحدى العاهرات على عرش البطريق وراحت تغنى أغنية فرنسية بذئثة . وهُتكت أعراض الراهبات فى صوامع أديرتهن ، واقتحم الجنود القصور والأكواخ سواء بسواء وحطموها . وكانت النساء الجريحات ملقيات مع الأطفال محتضرن فى الشوارع . ولثلاثة أيام تواصلت المشاهد المفزعة والنهب وسفك الدماء ، إلى أن استحالت المدينة الضخمة الجميلة إلى وضم كبير بحيث صرخ المؤرخ نيستاس قائلا : لـر أنهم العرب لكانوا أرحم . وكان على حق."

حقيقة الانتماء وواقع التاريخ

وتذكرنا هذه الواقعة البالغة الدلالة بما ارتكبه الصليبيون عندما دخلوا مدينة القدس قبل ذلك بمحوالى مائة عام على النحو الذى ورد فى الجزء الأول من هذا التاريخ الحافل، مع فارق لا بد لنا من أن نلحظه، ذلك أنهم كان ينبغي لبربريتهم أن نجد فى قداسة مدينة القدس حائلا يحد ولو إلى بعض حد من غلوائهم ، إذ أنها مهد المسيحية وموضع صلب المسيح وقيامته ، ولكن طبيعة الصليبيين تغالب فى كل حال حسن ظن إنسانية الإنسان وما يفترض فيه من عقل وحكمة . ولسنا فى حاجة إلى القول بأن دارس التاريخ ، وإن كان على غير حيدة ، لن يجد صورة كهذه أو حتى تقاربها ، أتى بها المسلمون حيثما توجه فتحهم . بل الأمر على نقيض يدعو إلى كثير من التفكير، إذ كان الظلم والجهالة سائدين فى كل الأصقاع التى فتحها المسلمون، وجاء الفتح إيذانا بانقضاء كل ما ترتب على ذلك ، فعرب القرآن السنة أهل هاتيك الأصقاع على اختلافهم ، وأتاح القادم الجديد لعقولهم أن تفكر وأن تتدبر ، وخلق من أصحاب القدرة فيهم عبقریات ما تزال آثارها الفكرية والعلمية ماثلة فى حضارة اليوم ، ويرى المنصفون من الدارسين أن ما يقال إنه حضارة الغرب لم تكن لتبلغ ما بلغت لولا ذلك الجهد الفائق الذى قام به رواد المسلمين الأول فى سبيل احقاق الحق وإقامة العدل وإعمال العقل. وليس من قبيل الخروج على مقتضيات البحث أن نقول إن الحضارة الإغريقية لم تكن هى الباعث القادر فى حد ذاته على أن يولد حضارة الغرب دون الجهد الذى قام به المسلمون ، أى أننا لو افترضنا جدلا أن الله لم يشأ أن يبعث برسالة الإسلام لبقى العالم على ما كان فيه من جهالة قديمة راسخة .

ولنا أن نشير على عجل إلى حملة بالغة الشذوذ جاءت بين الحملات صليبية لتضفى عليها مظهرا معبرا غير مسبوق أو ملحوق فى التاريخ كله ، ألا وهى "حملة الأطفال الصليبية" . ذلك أن تلك الحملة تعبر عن أمرين : أولهما أن الهوس الدينى الذى لم يوت أكله فيما قام به الكبار ، كان له أثره الوخيم على الأطفال الذين لم يتأت لخياهم الصغير أن يتبين ما وراء الحملات الصليبية من دوافع حقيقية . وثانيهما أن الطفل الذى يمثل قيمة لها مغزاها فى كل ما ساد العالم من ثقافات قد فقد هذه القيمة إبان تلك الفترة ، وفى ذلك إدانة كاملة لقدرة الصليبيين على أن يلتزموا جادة ما تفرضه عاطفة الإنسان الشخصية المباشرة . ويدل ذلك فى نفس الوقت على أن الكبار من غير ذوى المصلحة المتمثلين فى آباء أولئك الأطفال كانوا من السذاجة الدينية والاجتماعية على نحو جد مهين ، وإلا لما تركوا أولادهم يقدمون على رحلة غاية فى

المشقة تحف بها المخاطر والأهوال . وما آل إليه أمر هؤلاء الأطفال بينه رانسيما ن فيما أورده . ولعل لنا أن نعجب الآن كثيرا ونحن نرى أبناء الغرب من حفدة الصليبيين وهم يتصدون للعالم رافعين لواء ما يسمونه "حقوق الإنسان" و "حقوق الطفل".

الوهم والتاريخ

ولنا أن ندرك أن حملة الأطفال الصليبية تلك قامت على كثير من الوهم . ويبدو أن الوهم كان يلعب دورا بالغ الخطورة في تاريخ الحركة الصليبية . فالتحالف الصليبي المغولي الذي أفاض رانسيما ن في بيانه لم يقم من وجهة نظر الصليبيين على أساس تحالف قوتين معاديتين ضد عدو مشترك وحسب ، وإنما أوغل الصليبيون في إيهام أنفسهم بزعم أن القس جون الأسطوري ، وهو في رأيهم حبشى ، تجسّد على حين غرة في شخصية مغولية ، وأن خلاص الصليبيين من المسلمين سوف يأتي من الشرق البعيد . ولنا هنا أن نطرح سؤالا بسيطا عسانا أن نجد من يجيب عليه : كيف يتأتى لأناس يُفترض أنهم يتحركون بوحى ربّاني أن يجدوا عونهم في قوم وثنيين ؟ على أن لنا أن نلاحظ كذلك أن المغول على شراستهم وهمجيتهم في استخدام القتال كانوا أصحاب سياسة يمكن أن تتسق مع نمط فكري ساد في المجتمعات السابقة يتمثل في أن القوة تصنع الحق . ونقول ، بين قوسين ، إن هذا النمط الفكري ما زال سائدا حتى الآن . ولا شك في أن عقد المقارنة بين المغول والصليبيين يظهر أن المغول كانوا أصحاب نظام يحكم علاقاتهم ببعضهم البعض ، فلا نراهم ينتهكون حرّماتهم أو يتزامون بهرطقة تحدث صدعا بينهم ، وأن همجيتهم لم تستشر فيما بينهم كما استشرت همجية الصليبيين ضد المسيحيين وضد غيرهم.

ولئن شئنا أن نضيف إلى الوهم الصليبي شيئا ، فلن نبلغ في ذلك مبلغ رانسيما ن عندما قال في الفصل الثاني (القديس لويس) من الباب الثالث (المغول والمماليك):

"تسببت حملة القديس لويس الصليبية في توريط مسيحي الشرق في كارثة عسكرية مروعة، وعلى الرغم من أن بقاءه في الشرق لأربع سنوات قد أفاد كثيرا في إصلاح الأضرار ، إلا أن خسارة القوة البشرية لم تستعوض تماما قط . كانت شخصيته أنبل الشخصيات من بين عظام

الصليبيين قاطبة ؛ غير أنه كان من الأفضل لمملكة ما وراء البحار ألا يغادر لويس فرنسا مطلقا إذ كان لفشله عميق الأثر . ذلك أنه كان رجلا طيبا يخشى الرب ، ومع ذلك ساقه الرب إلى كارثة . وفى سابق العهد كان من الممكن تفسير ما يُتلى به الصليبيون من بلايا على أنه عقاب إلهى على ما ارتكبه من جرائم وشرور، بيد أنه لم يعد فى الإمكان الآن الدفاع عن هذه النظرية الهشة . فهل يا ترى قد عبس الرب من الحركة الصليبية برمتها؟

على أن للتاريخ منطقا نستفيد منه دروسا جديدة بالإعتبار إذا أعملنا عقولنا . فالرهم الصليبي الذى اقتيد به عوام الصليبيين إلى مصائر لم يكونوا ليتمنوها لأنفسهم، بين منطق التاريخ حقيقته بمضى الزمان وتراكم النتائج التى ترتبت على الحملات الصليبية ، ونكتفى بقولة رانسيما فى الفصل الرابع (السلطان بيبرس) من الباب الثالث (المغول والمماليك):

"والأسوأ من كل ذلك أن لا أحد بات يؤمن الآن فى المزايا الروحانية الموعودة لمن يصبح صليبياً ، اللهم سوى القليل . وبقينا فإن هذا الإنكار الذى يورده هومبرت وهو حزين كان منتشرا انتشارا واسعا؛ وظهرت قصائد شعبية عديدة تركز على ذلك ، وكان هناك الكثير من المنشدين الذين أعلنوا صراحة أن الرب لم يعد فى حاجة إلى الحملات الصليبية . وأخفقت مقترحات هومبرت فى مناهضة تلك الظاهرة وبعث روح حماسية جديدة؛ فلا جدوى فى مواصلة الإدعاء - كما يؤمن القديس لويس - بأن الهزائم والإهانات تعتبر شيئا طيبا للروح ؛ وإن محاولة إقناع الرجال بأن الحملة الصليبية هى أفضل وسيلة للتوبة من آثامهم أمست محاولة متأخرة للغاية".

أحداث التاريخ وموضع الثقة

ولعل ما قدمناه يبين فى كثير من وجوهه أن الأطر الأخلاقية الصليبية لم تكن فى عمومها تتسق مع ما يدعو إليه الدين أو ما تفترضه الفطرة السليمة . وليس ذلك فحسب ، وإنما ينبغى لنا أن نلاحظ هنا أن الرأي العام الذى كان سائدا بين الشعوب على اختلافها بين فى نهاية المطاف وبرغم سذاجة العصر حقيقة الوهم الذى بثه فيها

أصحاب النفوذ والقوة المهيمنة وراء القيام بالحملات الصليبية . وما أورده رانسيمان يدل على أن تلك الشعوب قد تحررت من الوهم بحيث تغنى المنشدون مرددين خيبة الأمل التي تعين على الخلاص من الوهم . ولا نكاد نجد غرابة في ذلك ، ولكن الغريب أن أولئك الصليبيين الذين كانوا يستخدمون لفظة "كفار" وهم يشيرون إلى عامة المسلمين كانوا يوقنون في دخيلتهم بأن المسلمين أصحاب قيم تحترم وتلتزم ويقام لها كل وزن ويُعتد بها في كل مسلك من مسالكهم ، وليان ذلك نورد الفقرة التالية من نفس الفصل دون تعليق:

"أما الملك هيو في قبرص فكانت له رؤية أخرى أكثر واقعية ؛ فلا هو ينتظر حملة صليبية ولا يرغب فيها ، وإنما يريد بمجرد الحفاظ على الهدنة مع بيسرس ، ومع ذلك لم تفعل الهدنة سوى القليل لتحسين وضعه . وفي سنة ١٢٧٣م فقد السيطرة على إقطاعيته الرئيسية بيروت ؛ فوفاة جون الثاني الإبليني انتقلت لوردية بيروت إلى ابنته الكبرى إيزابيلا ، ملكة قبرص الأرملة التي تركت أرملة عذراء في سنة ١٢٦٧م ، ولكن عذريتها لم تدم طويلا ؛ ذلك أن افتقارها إلى العفة وعلاقتها بجوليان أمير صيدا بصورة خاصة تسببا في إصدار مرسوم بابوي حثها بشدة على الزواج مرة أخرى ، وفي ١٢٧٢م وهبت نفسها ولورديتها لإنجليزي - هامو الأجنبي - وكان أحد رفاق الأمير إدوارد فيما يبدو . وكان يرتاب في الملك هيو فعندما حضرته الوفاة في العام التالي وضع زوجته وإقطاعيتها تحت حماية بيسرس ، وعندما حاول هيو الفوز بالأرملة وإعادتها إلى قبرص ليزوجها لأحد المرشحين ممن اختارهم ، استشهد السلطان على الفور بالعهد الذي أوصى به هامو وطلب عودتها ، ولم يجد الملك أية مساعدة من المحكمة العليا ، واضطر إلى إعادة إيزابيلا إلى بيروت حيث عُيِّن حارس مملوكي لحمايتها".

وإذا كان ما سبق يعبر عما يعتور سلوك الصليبيين إزاء غيرهم بصفة عامة ، فلا بد لنا من أن نورد هنا فقرة أوردها رانسيمان في "خاتمة كتابه" ، وهي بمثابة تعليق عام على الحملات الصليبية ، وهي فقرة تتعلق بفئة كان لها دورها الدائم عبر الحملات الصليبية كلها ، ألا وهي طائفة "نظام فرسان المعبد الديني العسكري" . فهذه الطائفة ، فضلا عن قيامها بدور المرابي المبتز ، كان لها من الطقوس الخفية المريية ما يدمغها ويصم أخلاقها بما لا ينبغي أن توصم به فئة تلعب دورا دينيا عسكريا بالغ الخطورة . والفقرة

التالية تبين في جلاء تام كيف أن الصليبيين من تلك الفئة المتسيّدة لم يكونوا على خلق يتفق وأبسط ما تنادى به القيمة الإنسانية حتى في المجتمعات البدائية ، ناهيك عما ينادى به الدين آيا كان هذا الدين :

"أما نظام فرسان المعبد فكان أقل إقداما وأقل حظا ؛ وكان دائما أكثر إثارة للعداوة من نظام فرسان المستشفى ، وإن كان هو الأكثر غنى . وقد ظل لفترة طويلة بمثابة المصرف الرئيسى ومقرض الأموال فى الشرق ، يحقق النجاح فى مهنة لا تلهم المودة ، وقد اشتهرت سياسته دائما بالأنانية والاستهانة . وبرغم شجاعة فرسانه فى قتالهم فى أوقات الحرب ، فقد أوجدت أنشطته المالية وشيعة قريى بين فرسانه والمسلمين ؛ واتخذ كثير من الفرسان أصدقاء مسلمين ، واهتموا بالديانة والعلم الإسلاميين . وذاعت شائعات بأن النظام كان يدرس وراء أسوار قلاعه فلسفة خفية وأنه كان ينخرط فى طقوس ملطّخة بالهرطقة ؛ وقيل إنه كانت هناك طقوس تعليم تجديفية يعوزها الإحتشام ؛ وسرى همس عن حلقات تمارس فيها رذائل شاذة . ومن غير الحكمة رفض هذه الشائعات على أنها اختلاق من الأعداء لا أساس له ، فرما كان فى تلك الشائعات ما يُبنى عما يكفى لمهاجمة النظام عن اقتناع تام".

ولعل القارىء يدرك أن هذا درك فى الفحش والتدنّى لا ينحط إليه انسان يحق له أن يدعى أنه ينتمى إلى هذا الجنس .

القيمة وصيغة التاريخ

ويُجمل رانسيمان اتساق مسلك الصليبيين عبر فترات الحملات الصليبية المتعاقبة والمتباينة والتي جاوزت قرنين من الزمان فى عبارة بليغة إذ يقول :

"وبحلول عصر السبت باتت الإسكندرية كلها فى قبضة الصليبيين واحتفل الغزاة بنصرهم فى وحشية لا مثيل لها . إن قرنين ونصف من الحرب المقدسة لم تعلّم الصليبيين شيئا من الإنسانية ؛ فلم يكن هناك ما يضاهى المذابح سوى مذبحه القللس سنة ١٠٩٩م ومذبحه القسطنطينية سنة ١٢٠٤م . ولم يكن المسلمون بهذه الوحشية لا فى أنطاكية ولا فى

عكا . وكان ثراء الإسكندرية ثراءً غير عادي ، وقد جُنَّ جنون المنتصرين لرؤية تلك الأسلاب الوفيرة ، ولم يُبقوا على أحد ، وعانى المسيحيون واليهود نفس القدر الذي عاناه المسلمون ، وحتى التجار الأوروبيين المستقرين في المدينة شاهدوا مصانعهم ومخازنهم تنهب بلا رحمة ؛ وأغار المنتصرون على المساجد والمقابر وسرقوا ما تزدان به أو دمروه ؛ ولم تسلم الكنائس من نهبهم رغم أن سيدة قبطية كسيحة شجاعة تمكنت من إنقاذ بعض كنوز طائفتها مضحية بثروتها الخاصة ؛ ودخل الغزاة البيوت ، واستلبوا أصحابها ، ومن تواني منهم في تسليم كل ممتلكاته قتل هو وأسرته ؛ واقتاد الغزاة ما يقرب من خمسة آلاف سجين من المسيحيين واليهود والمسلمين لبيعهم رقيقاً . وحملت الأسلاب على ظهور الخيول والحمير والجمال التي سارت في خط طويل لنقلها إلى السفن الراسية في الميناء ، وبعدما انتهت الدواب من مهمتها قتلت في أماكنها . وغرقت المدينة كلها في رائحة جثث الآدميين والدواب .

ولا بد لنا من أن نشير هنا إلى أن كل باحث محايد لسوف يحني الهامة احتراماً لقدرة وحيدة رانسيومان مؤرخ الحملات الصليبية الذي تجيء فقرته السابقة كأبلغ دليل على أن تلك الحملات لم تكن "مقدسة" ولم تنبعث في ظل أية عقيدة تعتد بإنسانية الإنسان، ونحن في ذلك كله لا نشير إلى أي دين ، وإنما نشير إلى الصليبيين الذين تناءى بهم سلوكهم عن مقتضيات دينهم ، وليس أدل على ذلك مما أصاب المسيحيين أنفسهم على أيديهم.

قيمة تسود

وخلاصة القول أن الحملات الصليبية بعد قرنين ونصف من الزمان آذنت بانقضاء ما كان للإمبراطوريتين الغربية والشرقية من سلطان حاولتا فرضه في كل حال باسم الانتماء إلى عقيدة تدعو إلى التسامح وعدم اللجوء إلى القوة . وترتب على ذلك نشأة وتنامي قوة الإمبراطورية العثمانية شيئاً فشيئاً ، والتي أرسى قواعدها عثمان بن أرطغرل وتوالى من بعده سلاطين آل عثمان الذين لم يكذب يعض بهم أكثر من قرن وربع قرن حتى استطاع محمد الفاتح أن يفتح القسطنطينية سنة ١٤٥٣ م . ولن نعرض هنا

لأحداث أو دوافع أو ظروف سياسية ، وإنما سنجمل القول في أن الإمبراطورية العثمانية أتاحت لها مقوماتها أسباب البقاء كإمبراطورية حتى نهاية الحرب العالمية الأولى . وهذا يعنى أنها بقيت مذ أرسى عثمان بن أرطغرل لبناتها الأولى فى مستهل القرن الرابع عشر إلى الربع الأول من القرن العشرين . ولا نغيب أن الإمبراطوريات العظمى تقوم ويقدر لها طول بقاء نتيجة لمقومات يمكن أن تنحصر فى نطاق ما هو سياسى أو عسكرى أو اقتصادى . فلا بد لتلك العوامل الأساسية كلها من عامل أهم يشكل القيمة العليا الجامعة والمحركة لهذه العوامل . ونعنى بهذه القيمة العليا هنا العقيدة التى تزود الرجال بيمان يحيلهم إلى أبطال واثقين من أنهم إنما يدافعون عن قضية حق تصل أسباب الأرض بقيم السماء . وليس أدل على ذلك من أنه لا يحق لباحث أن يفترض أن تلك القيمة العليا التى أشرنا إليها قد انقضت بانقضاء الإمبراطورية العثمانية .

الصلبية الجديدة

والذى حدث بتلخص فى أن خصوم الإسلام اجتهدوا فى التناهى بالمسلمين والعرب عن المقتضيات التى يلزمهم بها دينهم ، فعمدوا إلى إحياء الاتجاهات العرقية والنزوع إلى تحقيق المصالح الشخصية فى نفوس أناس كانوا فى محل قيادة الشعوب الإسلامية والعربية . وأبين مثال على ذلك ما تمثل فى شخصية قائد يحسب فى العادة على المسلمين وإن كان فى حقيقة الأمر أداة من أدوات التسلط والاستعباد والتناهى عن القيمة الحقبة باسم العلمانية ، ألا وهو مصطفى كمال أتاتورك الذى جاء عند نهاية الإمبراطورية لبيتعد بالأتراك عن كل مقومة تمت إلى الإسلام والتراث الإسلامى بصلة . ففضلا عن علمانيته المعلنة ، وإقصاء الدين عن إدارة الدولة ، لم يدع اللغة التركية فى حروفها التى أكسبها الإسلام لها ، شأنها فى ذلك شأن كثير من الشعوب الآسيوية التى عرب الإسلام لسانها أو أكسب لغتها حروف العربية وكثيرا من ألفاظها . وكان أتاتورك فى ذلك حريصا - حرص الشيوعيين الذين تولوا أمر عدد من تلك الشعوب - على أن تنبت الصلة بين شكل اللغة والتراث الذى تنتمى إليه ، حتى لا يتهيا للأجيال الجديدة أو يسهل عليها سبيل دراسة العربية والعودة إلى ذلك التراث الهائل الذى يمكن أن يحرك فيهم ما يباعد بينهم وبين أولئك الذين تأمروا وحاولوا أن يجتثوا شأفة الإسلام .

ولعل من الواضح أننا لم نبتعد عن الحملات الصليبية فيما أسلفناه من فورنا . ذلك

أن ما حدث منذ أيام أتاتورك وما يحدث فى أيامنا إن هو إلا امتداد للحملات الصليبية ينتهج سبلا مختلف عن سبيل القتال الذى بء بالفشل بعد طول محاولة . فالحملات الصليبية ما تزال ممتدة حتى الآن فى صليبية جديدة عن طريق انتهاج سياسات التفرقة والتبعية والإحتواء ووآد القدرات والإمكانات مما أدى إلى تفرق المسلمين والعرب فى دول ودويلات تتناوى بهم فيها الأحابيل والسياسات عمّا يشه الإسلام من إيمان وعزمات قادرة . غير أن هذه الصليبية الجديدة تغيب عنها حقيقة ماثلة لن تستطيع أن تجد حياها مخرجا ، وهذه الحقيقة تتمثل فى العقيدة الواحدة التى تجمع الشعوب الإسلامية والعربية على نهج واحد وتكفل لها أسباب البقاء على النحو الذى تبرزه وقائع التاريخ، وما العصر الذى نحياه بالنسبة للمسلمين إلا مرحلة من مراحل التدنى تشبه تلك الفترة التى هيأت للصليبيين أن يحاولوا محاولتهم الطويلة دون طائل حقيقى . وإعمالا لمبدأ الحيدة الكاملة الذى توخيناه فى ترجمتنا لهذا الكتاب وفى تناولنا لما جاء به، ننهى هذه المقدمة بما يختتم به رانسيما رحلته الطويلة المقتدرة مع الحملات الصليبية :

"أما عن الصليبيين أنفسهم ، فإن ما حققوه من أوجه الفشل البين لا تفسير له . لقد كانوا يحاربون لنصرة قضية الرب ؛ ولو أن الإيمان والمنطق كانا صحيحين لانتصرت قضية الرب تلك . وفى فورة النجاح الأولى وضعوا عنوانا لتواريخهم Gesta Dei per Francos (الفرنج قاموا بعمل الرب)." .

وليس هناك أدنى شك فى أن رانسيما يقرر فى وضوح أن القضية التى حارب الصليبيون تحت شعارها ليست قضية الرب ، وإنما قضية الرب الحقيقية تتمثل فى قوله : أحبوا أعداءكم!

الإسكندرية فى يونيو ١٩٩٨

نور الدين خليل

مقدمة

تتجه النية في هذا الجزء الثالث إلى تناول تاريخ الشرق الفرنجى والحروب المقدسة منذ إحياء المملكة الفرنجية وقت الحملة الصليبية الثالثة إلى انهيارها بعد ذلك بقرن ، مع خاتمة تجلوا المظاهر الأخيرة للروح الصليبية . وهى قصة تتشابك فيها المواضيع . إن اضمحلال الشرق الفرنجى ، بصغار مآسيه المعقدة، تخللته من آن لآخر بصورة دورية حملات صليبية ضخمة انتهت جميعها، بعد الحملة الصليبية الثالثة ، إلى الانصراف عما جاءت من أجله أو أنها انتهت بكارثة . وفى أوروبا ، ورغم اعتياد ذوى النفوذ فيها على إظهار التعلق بالحركة الصليبية ، فلم تستطع حتى حميا ورع القديس لويس أن توقف تدهورها ، بينما وصلت العداوة بين العالم المسيحى الشرقى والغربى ذروتها التى تمثلت فيها أضخم فواجع العصور الوسيطة ، الا وهى تدمير الحضارة البيزنطية باسم المسيح . أما فى العالم الإسلامى ، فقد أسفر حافز الجهاد المستمر عن استبدال الأيوبيين الطيبين المهذبن بالمماليك الأكثر كفاءة والأقل عاطفة ، والذين قدر لسلطينهم القضاء على ما كان فى سوريا من فرنج . وأخيرا ، جاء المغول بغزوهم الطاغى ، وبدأ أول الأمر أن يجيأهم ينطوى على انقاذ العالم المسيحى الشرقى، بيد أنه لم يكن لنفوذهم فى نهاية الأمر ، ولما كان عليه حلفاؤهم من سوء تدبير واساءة فهم، من أثر سوى الدمار . والحكاية كلها هى حكاية عقيدة وحماسة، شجاعة وجشع ، آمال وتخلص من أوهام.

ولقد أدخلت فصولا قصيرة حول التجارة والفنون فى الشرق الفرنجى ، والمعالجة فيها من قبيل أداء الواجب بالضرورة ؛ فليس فى الامكان فصل التاريخ التجارى أو التاريخ الفنى لدولة استعمارية مثل الشرق الفرنجى عن التاريخ العام للتجارة أو للحضارة فى العصور الوسيطة . ومن ثم حاولت ألا أتجاوز حدود ما يتصل اتصالا وثيقا

بفهم الشرق الفرنجى.

وتاريخ الحملات الصليبية موضوع ضخم ليست له حدود محددة ؛ ومعالجتي له لا تمثل سوى اختيارى الشخصى . فإذا ما رأى القارئ أننى أخطأت فيما منحتة من تركيز لشتى جوانبه ، فليس فى وسعى إلا الدفع بأن للكاتب أن يكتب كتابه بالطريقة التى يراها . وليس للنقاد أن يشكوا من أن الكاتب لم يكتب الكتاب على النحو الذى كانوا هم سيكتبونه لو أنهم تناولوا الموضوع . غير أن الأمل يحذونى فى ألا أكون قد حذف ما يعد أساسيا لفهم الموضوع.

والدين الضخم الذى أنا مدين به للكثير من الثقة أمواتا وأحياء يظهر ، على ما أظن ، فى الحواشى التى أثبتها . وإن تاريخ قبرص العظيم الذى كتبه السير جورج هيل ، والتاريخ بالغ الدقة للحملات الصليبية المتأخرة الذى كتبه الاستاذ عطية ، كلاهما أساسى لدراسة هذه الفترة ، وعلى الطلبة أن يشعروا دوما بالامتنان للأستاذ كلود كاهن لما تحويه أعماله من معلومات عميقة العلم . ولا بد لى أن أذكر ما أشعر به من أسى لوفاة م. جروسيت الذى كان لبصيرته ذات الرؤية الواسعة وكتابات النابضة بالحياة أثر كبير فى تبيان سياسات الشرق الفرنجى والخلفية الآسيوية . ومرة أخرى ، لجأت إلى الدارسين الأمريكين ، مثل الأستاذ لا مونت الذى رحل عنا ، والسيد ب. أ. ثروب.

ومرة أخرى اشكر اصدقائى فى الشرق الأدنى الذين ساعدونى أثناء رحلاتى هناك ، وأخص بالذكر شركة بتزول العراق ، ومديرى مطبعة جامعة كامبريدج على فضلهم.

لندن ١٩٥٤

ستيفن رانسيمن

الباب الأول:

الحملة الصليبية الثالثة

الفصل الأول:

ضمير الغرب

ضمير الغرب

"لم نصدق ملوك الأرض وكل سلطان المسكونة أن العدو
والمبغض يدخلان أبواب اورشليم"
(مراثى أرميا ٤ : ١٢)

تنتشر الأنباء السيئة بسرعة . إذ أن الرسل سارعوا إلى أمراء الغرب يخبرونهم بما
حدث ولم تكد معركة حطين تشرف على نهايتها الفاجعة ؛ وسرعان ما تبعهم رسل
آخرون يحملون نبأ سقوط القدس . وهبطت أنباء الكارثتين على العالم المسيحي الغربى
فأصابته بالهلع . وبرغم النداءات الكثيرة من مملكة القدس فى السنوات المتأخرة، لم
يتحقق أحد من الخطر الجاثم ، وباستثناء البلاط البابوى فيما يبدو . وكان المسافرون
باتجاه الشرق من الفرسان والحجاج قد وجدوا فى الدويلات الفرنجية حياة أكثر ترفاً
ونعيمًا يعرفونه فى أوطانهم جميعها، وسمعوا عن غرائب البسالة فى الحرب ، ورأوا
التجارة وهى فى قمة ازدهارها، وقد استعصى عليهم أن يتفهموا كيف تحدد المخاطر
بكل ذلك الإزدهار ، والآن بوغتوا بأن كل شئ قد انتهى؛ فالجيش المسيحى قضى
عليه، والصليب المقدس ، أقدس الآثار فى العالم المسيحى ، بات فى أيدي الكفرة،

والقدس ذاتها ضاعت ؛ لقد انهار صرح الشرق الفرنجى كله في غضون أشهر قليلة ،
وإذا ما كان لشيء أن يُنقذ من الانقراض ، فلا مهرب من إرسال المساعدة ، وإرسالها
بسرعة .

أما اللاجئون الناجون من الكارثة ، فقد تراحموا الآن خلف أسوار صور ،
وساعدتهم حمية كونراد (أوف مونتفرات) التى لا تعرف الكلل على التثبيت
بشجاعتهم . إذ أن مصادفة وصوله السعيدة أنقذت المدينة من الاستسلام ، وراح
اللوردات الذين افلتوا من قبضة صلاح الدين ينضمون إليه فى صور الواحد تلو الآخر
وقبلوا زعامته بامتنان . على أنهم كانوا جميعا يعلمون أن صور لا قبل لها بالصمود دون
أن يأتى الغوث من الغرب ، وأن احتمالات استعادة الأرض المفقودة منعدمة . وفى فترة
الهدوء التى أعقبت أول هجوم لصلاح الدين على صور ثم رحيله عنها لفتح شمال
سوريا ، أرسلوا أكثرهم مهابة ، جوسياس ، رئيس أساقفة المدينة ليخبر البابا وملوك
الغرب شخصيا بمدى احتياجهم إلى المساعدة احتياج اليأس . وفى ذات الوقت تقريبا
أرسل الناجون من النظامين العسكريين نفس القصة المقلقة للتأثير فى إخوانهم
الغربيين^(١) .

١١٨٧ م : بعثة رئيس أساقفة صور

أبحر رئيس الأساقفة من صور فى أواخر صيف ١١٨٧ م ، وبعد رحلة سريعة وصل
إلى بلاط الملك وليم الثانى ملك صقلية الذى كان فى شدة الكآبة لما أشيع عن الكارثة .
وبعدما سمع وليم من رئيس الأساقفة بما وصلت إليه من مدى ارتدى رداء من الخيش
واعتزل الناس أربعة ايام ، كتب بعدها إلى زملائه العواهل يحثهم على الانضمام إليه فى
حملة صليبية ، وأنه هو نفسه قد أعد العدة لإرسال حملة إلى الشرق فى أسرع وقت
ممكن . وقد سبق له أن حارب بيزنطة عام ١١٨٥ م عندما حاول جنوده احتلال
ثيسالونيكي وهزم هزيمة بشعة . على أن أسطوله الآن ما يزال مبحرا فى المياه القبرصية
يساعد ايزاك كومنينوس اللورد الذى اغتصب قبرص فى تمردده على الامبراطور ايزاك

(١) عن رحلة جوسياس انظر Ernoul, pp. 247-8 ويرد تقرير تيرينس Terence من فرسان المعبد إلى
إخوانه فى المعتقد ، فى Benedict of Peterborough, II, pp. 13-14 ، ويرد تقرير فرسان
المستشفى فى Ansbert, Expedition Friderici, pp. 2-4 كما كتب تيرينس إلى هنرى الثانى
Benedict of Peterborough, II, pp. 40-1 .

أنجيلوس . وبسرعة سالم الامبراطور ، واستدعى الأدميرال الصقلي مرجاريتوس (أوف برينديزي) لإعادة تهيئة سفنه والإبحار إلى طرابلس بصحبة ثلاثمائة فارس . وفى ذات الوقت واصل رئيس الأساقفة جوسياس طريقه ترافقه سفارة صقلية إلى روما^(٢).

وهناك فهم البابا أيضا مدى خطورة الأنباء ؛ إذ سبق أن أرسل أبناء جنوا بالفعل تقريرا إلى البلاط البابوي^(٣)، فى عهد البابا السابق ، إيربان الثالث ، الذى كان رجلا مريضا ولم يحتمل الصدمة فمات كمدا يوم ٢٠ أكتوبر^(٤). لكن خليفته البابا جريجورى الثامن أرسل على الفور رسالة عامة إلى جميع المخلصين فى الغرب يخبرهم بخطورة الخسارتين : الأراضى المقدسة والصليب المقدس؛ وذكرهم بأن ضياع الرها قبل أربعين سنة كان ينبغى أن يكون بمثابة الإنذار ، أما الآن فالمطلوب عدم ادخار أى جهد؛ فليجأ كل فرد إلى التوبة من آثامه ، وليدخر فى السماء كنزا بأخذ الصليب . ووعد بمنح غفران عام لجميع الصليبيين؛ وسوف ينعمون بحياة أبدية فى السماء ، وسوف تحفظ مقتنياتهم التى على الأرض فى حماية الكرسي البابوي . واختتم رسالته بالأمر بالصوم أيام الجمعة لخمس سنوات تالية والامتناع عن أكل اللحم أيام الأربعاء والسبت، وسوف يصوم الذين تحت إمرته، وكذلك تحت إمرة كاردينالاته أيام الإثنين أيضا . وانطلق رسل آخرون من روما يحملون لكافة أمراء العالم المسيحي أمرا بهدنة مدتها سبع سنين ؛ وقيل إن الكاردينالات أقسموا جميعا أن يكونوا من بين أوائل الذين يأخذون الصليب ، وسوف يعتبرون أنفسهم رهبانا متسولين^(٥) ويقودون الجيوش المسيحية إلى فلسطين^(٦).

ولم يقدر للبابا جريجورى أن يشهد نتائج جهوده، إذ مات فى بيزا يوم ١٧ ديسمبر ، بعد أن شغل البابوية لشهرين تاركا العمل لأسقف براينيسست الذى انتخب بعده بيومين على أنه كلمنت الثالث . وبينما سارع كلمنت بالاتصال بعظماء عواهل

(٢) Ernoul, loc. cit.

(٣) Benedict of Peterborough, II, pp. 11-13.

(٤) Annales Romani in Watterich, Pontificum Romanorum Vitae, II, pp. 682-3.

(٥) (المترجم): mendicant friar: قديما كانت توجد بعض الأنظمة الدينية يعيش أفرادها على الصدقات فقط ولا يملكون شيئا.

(٦) أورد Benedict Peterborough, II, pp. 15-19 خطابات البابا بنصها. ومع ذلك ، فإن الشاعر البروفنسى Giraut يعتبر أن نشاط البابا لم يكن كافيا (انظر Throop, Criticism of the Crusades, pp. 29-30).

الغرب ، ارتحل الامبراطور فريديريك بارباروسا ورئيس أساقفة صور عبر جبال الألب لمقابلة ملكي فرنسا وإنجلترا^(٧).

ولقد سبقته أنباء بعثته قبل أن يرحل . ذلك أن إيمري ، بطريق أنطاكية المسن ، كتب في سبتمبر رسالة إلى الملك هنري الثاني يخبره فيها بما يعانيه الشرق من محن ، وأرسلها مع أسقف بانياس لتسليمها بيده^(٨)، وقبل أن يصل جوسياس رئيس أساقفة صور إلى فرنسا كان أكبر أبناء هنري ، ريتشارد كونت بواتر، قد أخذ الصليب^(٩). وكان هنري نفسه يحارب فيليب أوغسطس الفرنسي حروبا متقطعة لسنوات كثيرة . وعندما وصل جوسياس في يناير ١١٨٨ م وجد الملكين في جيسور على الحدود بين نورماندى والأراضي الفرنسية ، حيث تقابلا لمناقشة الهدنة . وساعدته فصاحته في اقناعهما بالاتفاق على السلام والوعد بالذهاب في حملة صليبية بأسرع ما يمكنهما . وسارع فيليب كونت فلاندرز يحذو حذوهما ، وربما كان يشعر بالتحجل لحملته الصليبية التي أجهضت قبل عشر سنوات ؛ وأقسم الكثير من كبار النبلاء على مرافقة الملكين . وتقرر أن تسير الجيوش معا على أن يضع الجنود الإنجليز صلبانا حمراء ، والفرنسيون صلبانا بيضاء ، والفلاندرزيون صلبانا خضراء . ولجابهة نفقات الحملة فرض الملكان كلاهما ضرائب خاصة^(١٠)، وفي نهاية يناير اجتمع مجلس الملك هنري في لامان La Mans لاتخاذ قرار بدفع عشور صلاح الدين ، وقدرها عشرة في المائة ضريبة على الإيرادات والمنقولات تحصيل من كل فرد من رعايا الملك من العوام في كل من إنجلترا وفرنسا . ثم عبر هنري إلى إنجلترا لإعداد مزيد من الترتيبات للحملة الصليبية التي دأب رئيس أساقفة كانتبري - بلدوين - على التبشير بها تبشيرا متحمسا . وشرع رئيس أساقفة صور في رحلة العودة وهو مفعم بالآمال^(١١).

وبعد مؤتمر جيسور مباشرة كتب هنري رده على بطريق أنطاكية قائلا إن الغوث

(٧) . *Annales Romani* in Watterich, *op. cit.* II, p. 692 .

(٨) . Benedict of Peterborough, II, pp. 36-8 .

(٩) . Ambroise, *L'Estoire de la Guerre Sainte*, col.3; *Itinerarium Regis Ricardi*, p.32; Rigord, pp.83-4. ومن الناحية السياسية فشل المؤتمر الذي عقد في جيسور . Gisors.

(١٠) . Benedict of Peterborough, II, p. 30; Ambroise, cols. 3-4; *Itinerarium*, pp. 32-3.

(١١) . Benedict of Peterborough, II, pp. 30-2 .

قادم على جناح السرعة^(١٢) على أنه لم يكن هناك ما يبرر تفاؤله، وقد جمعت عشور صلاح الدين بما يبعث على الرضا برغم محاولة أحد فرسان المعبد، جيلبرت (أوف هاستون) أن يأكل الأموال التي جمعها؛ بينما كان وليم الأسد، ملك الاسكتلنديين ومن أتباع الملك هنري، عاجزا تماما عن اقناع بارونات المسرفين بالاسهام بنس واحد. ووضعت ترتيبات حكم البلاد أثناء غيبة الملك وورثته في الشرق^(١٣). غير أن الحرب اندلعت مرة أخرى في فرنسا قبل أن يتجمع الجيش بوقت طويل؛ إذ تمرد بعض أتباع ريتشارد عليه في بواتو، وفي يونيو ١١٨٨م تورط في نزاع مع كونت تولوز. وغضب الملك الفرنسي للإعتداء على تابعه، فبادر بغزو بيري Berry، فغزا هنري بدوره أراضي فيليب، وتواصلت الحرب طوال الصيف والخريف. وكانت مشاعر البؤس لدى ريتشارد مزعزعة، ولذا انضم في يناير ١١٨٩م إلى فيليب في هجوم ضد هنري. وارتاع الكثير من المسيحيين الطيبين من هذه الحرب التي لا تنتهي، ورفض بعض أتباع فيليب، كونت فلاندرز وكونت بلوا، حمل السلاح إلى أن تنطلق الحملة الصليبية^(١٤) وكان البابا قد أرسل في خريف ١١٨٨م أسقف ألبانو، ثم أرسل في الربيع التالي - بعد وفاة الأسقف - الكاردينال جون (أوف أناني)، يأمر الملكين بعقد السلام بينهما ولكن دون جدوى. وأخفق بلدوين رئيس أساقفة كنتربري بنفس القدر. وكان فيليب وريتشارد قد توغلا في أراضي هنري الفرنسية طوال بدايات الصيف، واستولى فيليب يوم ٣ يولية على قلعة تور العظيمة، وفي اليوم التالي وافق هنري، الذي كان آنذاك في حالة مرضية يائسة، على عقد سلام بشروط مهينة، وبعد يومين اثنين، وقبل التصديق على معاهدة السلام، مات هنري يوم ٦ يولية في شينون^(١٥) Chinon.

١١٨٩م : استخلاف الملك ريتشارد

هدأ الوضع بموت الملك العجوز. ومن المشكوك فيه ما إذا كان قد خطر بباله قط

(١٢) . pp. 38-9 Ibid.

(١٣) . Ibid. pp. 44, 47-8.

(١٤) . Ibid. pp. 34-6, 39-40, 44-9; Rigord, pp. 90-3

(١٥) Benedict of Peterborough, II, pp. 50-1, 59-61, 66-71; Rigord, pp. 94-7;

Roger of Wendover, I, pp. 154-60

على نحو جاد أن يرى نفسه ذاهبا في حملة صليبية ، على خلاف ورثه ريتشارد الذى كان عاقد العزم على الوفاء بقسمه ، وبرغم أنه قد ورث حتما نزاع أبيه مع الملك فيليب ، إلا أنه كان على استعداد لقبول أية تسوية تمكنه من حربة الانطلاق إلى الشرق ، لاسيما أن فيليب سينضم إلى الحملة الصليبية . أما فيليب فكان ما يشعر به من رهبة حيال ريتشارد أقل منها إزاء هنرى ورأى من سوء السياسة تأجيل الحملة الصليبية أكثر من ذلك ، وسرعان ما عقدت معاهدة ، وعبر ريتشارد إلى إنجلترا كي يتزوج ويتولى شؤون الحكم^(١٦).

وجرت مراسم التتويج يوم ٣ سبتمبر ، اعقبتها أعمال اضطهاد بين لليهود فى لندن ويورك ، إذ كان المواطنون غيورين مما أسبغه عليهم الملك الراحل من محابة ، ودائما ما كانت الحمية الصليبية توفر ذريعة لقتل أعداء الرب . وعاقب ريتشارد مشيرى الشغب وسمح لليهودى كان قد تحول إلى المسيحية تفاديا للقتل بأن يعود إلى يهوديته . وأذهل المؤرخين التعليق الذى قاله بلدوين رئيس الأساقفة أنه إن لم يكن رجل الرب فالأفضل له أن يكون رجل الشيطان . ومكث الملك فى إنجلترا طوال الخريف يعيد تنظيم ادارة البلاد ، ومثلت المناصب الكنسية الشاغرة . وبعد إجراء بعض التغييرات الأولية، تم تعيين وليم لونجشامب ، أسقف إيلى ، مستشارا وقاضيا لجنوب إنجلترا ، بينما عُين هيو ، أسقف دورهام ، قاضيا لشمال إنجلترا وأيضا وكيلا فى ويندسور . ومُنحت الملكة الأم إليانورا سلطات نائب الملك لكنها لم تكن تنوى البقاء فى إنجلترا . ومُنح اخو الملك ، جون ، اقطاعيات ضخمة فى جنوب غرب البلاد وقد سبق أن صدر بحقه حظر، له ما يبرره، من دخوله إنجلترا وسُحب هذا الحظر على وجه السرعة. وبيعت الضياع الملكية لجمع المال ، واجتمعت أثمانها مع الهدايا وعشور صلاح الدين لتوفر للملك ثروة ضخمة ؛ وأرسل وليم ملك اسكتلندا عشرة آلاف جنيه نظير تحرره من الولاء للنجاح الإنجليزي واستعادته لمدينتي بيرويك وروكسبورج اللتين سبق أن فقدتهما فى عهد هنرى^(١٧).

وفي نوفمبر جاء روثرود ، كونت بيرش ، من فرنسا ليعلن أن الملك فيليب كاد أن يستكمل استعداداته للحملة الصليبية وأعرب عن رغبة الملك فى مقابلة ريتشارد فى

(١٦) .Benedict of Peterborough, II, pp. 74-5; Roger of Wendover, I, pp. 162-3 .

(١٧) Benedict of Peterborough, II, pp. 80-8, 97-101; Roger of Wendover, I, pp. 164-7; Ambroise, cols.6-7.

فيزيلاي يوم أول ابريل لمناقشة رحيلهما معا^(١٨). وفي نهاية عام ١١٨٨م وصلت إلى البلاط الفرنسي رسالة من عملائه في القسطنطينية مفادها أن الناسك المقدس دانيال تنبأ بأنه في السنة التي يقع فيها عيد البشارة^(١٩) في يوم أحد الفصح سوف يستعيد الفرنج الأراضي المقدسة ، وسوف يحدث اقتران اليومين هذا في عام ١١٩٠م . وأضاف التقرير أن صلاح الدين يواجه اضطرابات نظرا للتزاعات الدائرة في عائلته ومع حلفائه، حتى برغم مساعدة الامبراطور إيزاك عديم التقوى، وسرت شائعة بأن صلاح الدين نفسه قد هزم هزيمة نكراء بالقرب من أنطاكية^(٢٠). ولم تكن الأخبار الواردة إلى فرنسا في العام التالي بمثل هذا التفاؤل الكبير ، غير أنه عرف أن الفرنج بدأوا يأخذون زمام الهجوم، بفضل المساعدة الصقلية^(٢١). فضلا عن ذلك ، كان الامبراطور الغربي فريدريك بارباروسا في طريقه بالفعل إلى الشرق^(٢٢) وقد حان الوقت للملكي فرنسا وإنجلترا لينطلقا.

ووافق الملك ريتشارد ، مسترشدا بنصيحة مجلسه ، على أن يكون تجمع القوات في فيزيلاي ، وعاد إلى نورماندى في عيد الميلاد وأعد العدة للانطلاق إلى فلسطين في أواخر الربيع ، على أنه في اللحظة الأخيرة تقرر تأجيل كل شيء لوفاة ملكة فرنسا ايزابيلا (أوف هينو) في وقت مبكر من شهر مارس^(٢٣) وحدث اللقاء في فيزيلاي يوم ٤ يولييه لا قبله ، بين الملك وفرسانه ومشاته ، استعدادا للانطلاق في مشروعهم المقدس^(٢٤).

١١٨٩م : إبحار الأسطول الإنجليزي

ومضت ثلاث سنوات على نكبة حطين التي حلت بمملكة القدس ، ومن حسن

(١٨) Benedict of Peterborough, II, pp. 92-3.

(١٩) (المترجم): Annunciation بشارة الملك جبريل لمريم بحبلها بالمسيح.

(٢٠) Ibid. II, pp. 51-3.

(٢١) Ibid. II, pp. 51-3.

(٢٢) انظر ادناه (ص ٤٤).

(٢٣) Benedict of Peterborough, II, p. 108; Itinerarium, p. 146; Rigord, pp. 97-8.

(٢٤) Benedict of Peterborough, II, p. 111; Itinerarium, pp. 147-9; Ambroise, cols. 8-9; Rigord, pp. 98-9.

حظ الفرنج أن كان هناك صليبيون آخرون ليسوا على هذا القدر من التمهّل ؛ إذ أن الإستجابة الفورية من الملك وليم الصقلي أنقذت صور وطرابلس من الضياع . ومات وليم يوم ١٨ نوفمبر ١١٨٩ ، وكان على عليفته تنكريد أن يواجه اضطرابات في بلده^(٢٥) على أنه وصل في سبتمبر أسطول يتألف من سفن دائركية وفلمنكية (فلاندرز) ، بالغت التواريخ المتفائلة في تقدير عددها بأنه خمسمائة سفينة ، قبالة الشاطئ السوري ؛ وجاء في نفس الوقت تقريبا جيمس ، لورد أفيسن ، أشجع فرسان فلاندرز^(٢٦) وحتى الإنجليز ، لم ينتظروا جميعا مليكهم لكي يتحركوا ، وإنما أبحر أسطول صغير من أبناء لندن ، مغادرا نهر التيمز في أغسطس ، ووصل في الشهر التالي إلى البرتغال حيث وافقوا ، كما فعل رفاقهم قبل أربعين سنة ، على الالتحاق بأعمال مؤقتة لدى ملك البرتغال ، وبفضل مساعدتهم تمكن الملك سانكو من أن ينتزع من الاسلام قلعة سيلفيس الواقعة شرق رأس القديس فينسينت . وفي يوم عيد ميخائيل كبير الملائكة (٢٩ سبتمبر) واصل اللندنيون إبحارهم خلال مضيق جبل طارق^(٢٧) . غير أن أضخم قوة كانت قد شرعت فعلا في الرحيل إلى الأراضي المقدسة هي جيش الامبراطور فريدريك بارباروسا .

وكان لأنباء الكوارث التي حلت بفلسطين عميق الأثر لدى فريدريك . فمنذ أن عاد مع عمه الملك كونراد من الحملة الصليبية الثانية التعيسة وهو يتلهف على محاربة الكفرة مرة أخرى . وقد تقدم به العمر الآن ، إذ كاد يبلغ السبعين من عمره ، وأمضى في حكم المانيا خمسا وثلاثين سنة . ولم تمح السنون شجاعته ولا جاذبيته ، وإنما تعلم الحذر من تجاربة المريرة الكثيرة . ولم تكن هناك روابط شخصية كثيرة تربطه بفلسطين التي لا تضم من المستوطنين من أصل الماني سوى القليل ، وأدى خلافه الطويل مع البابوية إلى أن تحجم الحكومة الفرنجية عن طلب مساعدته ، على أن آل مونتفرانت كانوا دائما من بين مناصريه ، وربما أدت شجاعة كونراد في الدفاع عن صور إلى تحريك مشاعره . وبسبب زواج وريثه هنري مؤخرا من الأميرة الصقلية كونستانس ، أصبح على علاقة وثيقة بنورماندي الجنوب ؛ وبوفاة البابا ايربان الثالث في خريف عام

(٢٥) انظر Chalandon, *Domination Normande en Italie*, II, pp. 416-18. ويرد موت وليم في كافة التواريخ الأنجلو-رومانية والفرنسية على أنه كارثة.

(٢٦) Benedict of Peterborough, II, p. 94; *Itinerarium*, p. 65; Ambroise, cols. 77-8.

(٢٧) Benedict of Peterborough, II, pp. 116-22; Ralph of Diceto, II, pp. 65-6; *Narratio Itineris Navalis ad Terram Sanctam*, passim.

١١٨٧م تمكن من التصالح مع روما . وكان جريجورى الثامن شغوفاً بانضمام مثل هذا الخليف الرائع لإنقاذ العالم المسيحى ، كما كان كليمنت الثالث ودوداً بنفس القدر^(٢٨).

في اليوم السابع والعشرين من مارس ١١٨٨م، أخذ فريدرىك الصليب في مينز من يد الكاردينال ألبانو. وكان ذلك اليوم رابع أيام الأحد في فترة الصوم الكبير Lent الذي يعرف من صلاة القديس الافتاحية على أنه^(٢٩) Laetare Hierusalem، بيد أنه انقضى ما يزيد على عام قبل أن يتهيأ للرحيل إلى الشرق . ومُنحت الوصاية على املاكه لابنه الذي سوف يصبح هنرى السادس . أما غريمه الكبير في المانيا - هنرى أسد ساكسونيا - فقد صدرت له الأوامر إما أن يتخلى عن حقوقه في جزء من أراضيه ، أو ينضم إلى الحملة الصليبية على حسابه الخاص ، أو يُنفى لثلاث سنوات ؛ فاختار الحل الأخير وتقاعد في بلاط زوج أمه هنرى الثاني في انجلترا^(٣٠) وبفضل التعاطف البابوي ، هدأت الكنيسة الألمانية بعد سلسلة طويلة من المشاحنات . وتعززت الحدود الغربية لألمانيا بإنشاء منطقة عسكرية جديدة^(٣١) Margravate. وبينما كان فريدرىك يجمع جيشه كتب إلى عواهل الأراضي التي سوف يعبرها، ملك هنجاريا والإمبراطور ايزاك أنجيلوس والسلطان قلع أرسلان السلجوقي ؛ وأرسل إلى صلاح الدين سفيراً ، هنرى (أوف ديتز)، برسالة متبجحة يطالبه فيها بإعادة فلسطين كلها إلى المسيحيين ويتحداه في معركة في ساحة زوآن^(٣٢) في نوفمبر ١١٨٩^(٣٣). وقد رد ملك هنجاريا والسلطان السلجوقي برسائل تعد بتقديم المساعدة ، فى عام ١١٨٨ وصلت سفارة بيزنطية إلى

(٢٨) لا تزال أفضل رواية عن حياة فريدرىك الأول العامة هى التى أوردها Prutz في *Kaiser Friedrich I.* وأورد Ansbert حملته الكاملة إلى الشرق في *Expeditio Friderici* وكذلك في *Historia Peregrinorum*. و *Epistola de Morte Friderici Imperatoris* ونشرت كل تلك التواريخ في *Chroust, Quellen zur Geschichts des Kreuzzuges Kaiser Friedrichs I*.

(٢٩) Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, v, 2, pp. 1143-4.

(٣٠) Benedict of Peterborough, II, pp. 55-6.

(٣١) Hefele-Leclercq, *op. cit.* p. 1144, with references.

(٣٢) (المترجم): Zoan: التسمية التى أطلقها الكتاب المقدس على مدينة تانيس Tanis بدلتا مصر القديمة.

(٣٣) Ansbert, *Expeditio Friderici*, p. 16. وترد نسخة من رسالة فريدرىك إلى صلاح الدين في تاريخ Benedict of Peterborough, II, pp. 62-3. ويكاد زيفها أن يكون يقيناً.

نورمبرج للترتيب لتفصيلات مرور الصليبيين عبر اراضي ايزاك^(٣٤). على أن رد صلاح الدين كان كيّسا متعاليا؛ إذ عرض الافراج عن أسرى الفرنج وإعادة الأديرة اللاتينية في فلسطين إلى أصحابها، لا أكثر، وإلا فهي الحرب.

١١٨٩م : الامبراطور فريدريك يغادر ألمانيا

في باكورة شهر مايو ١١٨٩، انطلق فريدريك من راتسيون ، يصحبه ابنه الثاني فريدريك (أوف سوايبا) وكثيرون من كبار أتباعه ؛ وكان جيشه أكبر قوة تجتمع حتى ذلك الوقت لتنتقل في حملة صليبية ، وكان جيد التسليح والإنضباط^(٣٥). ورحب به الملك بيلا ترحيبا ودودا أثناء عبوره هنجاريا ولم يدخر جهدا في تقديم كل ما يطلبه من تسهيلات . وفي ٢٣ يونية عبر نهر الدانوب عند بلجراد ودخل الأراضي البيزنطية^(٣٦)، فبدأ سوء التفاهم . إذ أن الامبراطور ايزاك أنجيلوس لم يكن بالرجل الذي يعالج موقفا يتطلب المهارة والصبر والشجاعة . لقد كان ذكيا ، ولكنه كان من رجال الحاشية ضعيف الإرادة ووصل إلى العرش مصادفة ويعي دائما وجود أنداد له في اراضيه ؛ لقد كان مرتابا في مسؤوليه جميعا لكنه لم يجرؤ على مراقبتهم مراقبة صارمة . كما أن القوات المسلحة لإمبراطوريته وخزائنها لم تبرأ من الاستنزاف الذي فرض عليها إبان عهد المجد الزائف لمانويل كومنينوس ، وأما محاولة الامبراطور أندرونيكوس إصلاح الإدارة فقد انتهت بسقوطه ، وبات الآن أكثر فسادا من أي وقت مضى ، وكانت الضرائب الباهظة الظلمة تسبب الإضطراب في البلقان ؛ فكانت قبرص ثائرة تحت ايزاك كومنينوس ، وضاعت كيليكيا للأرمن ، وكان الأتراك يقطعون من الأقاليم الامبراطورية في وسط الأناضول وجنوبها الغربي ، وقد شن النورمانديون هجوما ضخما على إبيروس ومقدونيا، وكانت هزيمة النورماندين هي النصر العسكري الوحيد الذي تحقق في عهد ايزاك انجيلوس ، أما فيما عداه فكان يستند إلى الدبلوماسية ؛ فدخل في تحالف وثيق مع صلاح الدين مما أثار رعب فرنج الشرق ؛ ولم تكن دوافعه

(٣٤) .Ansbert, *Expositio Friderici*, p. 15; Hefele-Leclercq, *loc. cit.*

(٣٥) يقدر Arnold of Lubeck أن احصاء أجري للجيش عند عبوره نهر ساف، فكان هناك خمسون ألف فارس ومائة ألف راجل (pp. 130-1) ويقدر المؤرخون الألمان أن قوام الجيش كله كان مائة ألف.

(٣٦) .Ansbert, *Expositio Friderici*, p. 26.

أن يقضى على مصالحهم ، وإنما كان يستهدف كبح قوة السلاجقة . وكان قد أنجز انجازا طارئا بإعادة الأماكن المقدسة في القدس إلى الرعاية الأرثوذكسية ، لكنه انجاز صدم الغرب خاصة . ولكي يعزز من قبضته على البلقان صادق ملك هنجاريا - بيل - وتزوج ابنته الصغرى مارجريت عام ١١٨٥ ؛ لكن الضرائب غير العادية التي فرضها بمناسبة الزواج كانت الشرارة التي فجّرت تمرد الصرب والهنجارين المتوقدين ، ولم يستطع جنرالاته سحق المتمردين برغم القليل من النجاح أول الأمر . وعندما ظهر فريدريك في بلجراد كانت هناك دولة صربية مستقلة تشكلت فعلا في التلال الواقعة شمال غرب شبه الجزيرة ؛ وعلى الرغم من أن القوات البيزنطية كانت ما تزال تستحوذ على الغابات بطول الطريق الرئيس الذاهب إلى القسطنطينية ، كان قطاع الطرق الهنجاويون هم أسياد الريف^(٣٧) .

١١٨٩ م : فريدريك في البلقان

لم يكد الجيش الألماني يعبر نهر الدانوب حتى بدأت المتاعب ؛ إذ راح قطاع الطرق الصرب والبلغار يهاجمون الجماعات الشاردة ، وارتاع الريفيون وتوجسوا من الألمان الذين اتهموا البيزنطيين في الحال بالتحريض على تلك العداوة ، ولم يتحققوا من أن ايزاك كان أضعف من أن يضع حدا للمتاعب . وكان فريدريك حصييفا عندما سعى إلى مصادقة زعماء التمرد ؛ فجاء ستيفن نيمانيا أمير الصرب مع أخيه سراسيمير إلى مدينة نيش لتحية العاهل الألماني أثناء مروره بالمدينة في يولية ؛ وأرسل زعيما التمرد البلغاري ، الأخوان فلاخ ، ايفان آسين وبيتر ، رسائل إلى العاهل الألماني يعدانه بتقديم المساعدة . وتسببت تلك المفاوضات في إثارة مشاعر قلق ليست غير طبيعية في القسطنطينية . وقد كان ايزاك مرتابا من قبل في نوايا فريدريك ؛ إذ أنه أرسل سفيريه السابقين في البلاط الألماني وهما جون دو كاس وقسطنطين كانتاكوزينوس ، لتحية فريدريك فور دخوله الأراضي البيزنطية . وذهل صديقهما القديم المؤرخ نيستاس خونيائيس عندما وجدتهما يتنهزان الفرصة ويحرضان فريدريك ضد ايزاك ، الذي سرعان ما علم بتأمرهما . وبينما كان مرافقو فريدريك يشيرون بمخططاتهم ما كان

(٣٧) عن ايزاك أنجيلوس انظر، Cognasso, 'Un Imperatore Bizantino della Decadenza, Isacco II Angelo'in Bassarione, vol. XXXI, pp. 29 ff., 246 ff.. ويرد خطاب

فريدريك الأول إلى هنري في Bohmer, Acta Imperii Selecta, p. 152

يشعر به فعلا من انعدام الثقة فى ايزاك التي سبق وان نشأت من تجاربه اثناء الحملة الصليبية الثانية ، فى تلك الأثناء تخلت عن ايزاك حكمته . فحتى ذلك الوقت كان نظام الجيش الألماني ، واستعدادات السلطات البيزنطية لإعادة تمويين الجيش ، قد ساعدا فى الحيلولة دون حدوث ما لا تحمد عقباه ؛ ولكن فريدرىك احتل فليوبوليس ومنها ارسل مبعوثين إلى القسطنطينية لإعداد ترتيبات عبور الجيش إلى آسيا، فما كان من ايزاك الا أن القي بالرسل فى غيابة السجن وهو يقصد الاحتفاظ بهم رهائن كي يضمن تصرفا هادئا من فريدرىك . ولقد أخفق أخفاقا تاما فى الحكم على فريدرىك الذي أرسل ابنه على الفور ، فريدرىك (أوف سوايبا)، للاستيلاء على مدينة ديديموتيوخوم فى ثراس كرهينة مضادة ، وكتب إلى ابنه هنرى فى المانيا كي يحشد اسطولا لمهاجمة بيزنطة ، كما كتب إلى البابا ملتمسا بركاته لحملة صليبية ضد اليونانيين ، قائلا إنه ما لم يتحكم الفرنج فى المضائق فلن تنجح الحركة الصليبية قط . وتوقع ايزاك وصول اسطول غربى لیساعد الجيش الألماني فى هجومه على القسطنطينية ، فراح يراوغ لعدة أشهر إلى أن تراجع أخيرا وأطلق سراح السفراء الألمان. ورُقِع السلام ترقيعا فى ادرينوبل ، وأعطى ايزاك رهائن لفريدرىك ووعد بتقديم السفن إذا وافق فريدرىك على عبور الدردنيل وليس البوسفور ، كما وعد بتزويده بالموثأ أثناء عبوره الأناضول . وكانت رغبة فريدرىك هى الانطلاق مباشرة إلى فلسطين ؛ فكظم غيظه ووافق على الشروط.

وكان سير الجيش الألماني فى البلقان بطيئا للغاية ، وكان فريدرىك فى شدة الحرص بحيث لم يشأن عبور الأناضول فى فصل الشتاء . فأمضى شهور الشتاء فى أدرينوبل بينما كان سكان القسطنطينية يرتعدون خوفا من أن يرفض اعتذارات ايزاك ويهاجم مدينتهم . وأخيرا ، تحركت حملته كلها فى شهر مارس ١١٩٠ هابطة إلى جاليبولي على الدردنيل ، وبمساعدة الناقلات البيزنطية عبرت إلى آسيا فتنفس ايزاك ورعاياه الصعداء^(٣٨).

بمغادرة فريدرىك الشاطئ الآسيوي للدردنيل اتخذ تقريبا الطريق الذى طرقه الاسكندر الأكبر قبل خمسة عشر قرنا ، عابرا جرانيكوس ونهر انجلوكوميتس اثناء فيضانه إلى أن اتخذ الطريق العام البيزنطى المرصوف الذى يربط ميليتوبوليس وبلقسير

(٣٨) Nicetas Choniates, pp. 525-37; Ansbert, *Expositio Friderici*, pp. 27-66; *Gesta Federici in Expeditione Sacra*, pp. 80-4; Otto of St Blaise, pp. 66-7; *Itinerarium*, pp. 47-9; See Hefele-Leclercq, *op. cit.* pp. 1147-9; Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, pp. 445-7.

الحديثة ، وعلى هذا الطريق اخترق كالاموس إلى فيلادلفيا، حيث أظهر السكان الود أول الأمر ، لكنهم حاربوا بعض السرقات من حرس المؤخرة وعوقبوا . ووصل لاوديقيا يوم ٢٧ ابريل ، أي بعد ثلاثين يوما من عبوره الدردنيل ؛ ومن هناك اتجه إلى داخل البلاد بطول الطريق الذي اتخذه مانويل في مسيرته المهلكة إلى ميروسيغالوم . وفي الثالث من مايو ، وبعد مناوشة مع الأتراك ، عبر ساحة المعركة حيث كانت عظام الضحايا ما تزال ظاهرة للعيان . وقد غدا الآن في الأراضي التي يسيطر عليها السلطان السلجوقي . وكان واضحا جليا أن قلعج ارسلان لم يكن ليترك الصليبيين يمرون في اراضيهم سالمين - برغم ما وعدهم به . غير أنه ارتاع من حجم جيشهم ، فنشط في التسكع حول اطرافه ، بتصيد الشاردين ويتدخل في عمليات جمع الطعام . وأثبتت تلك التكتيكات فعاليتها ، إذ اجتمع الجوع والعطش وسهام الأتراك ، فبدأت الاصابات تتوالى . واضطر فريدريك إلى اتخاذ طريق ملتف حول طرف سفوح السلطان داغ ثم إلى الطريق القديم من فيلوميليوم شرقا فوصل قونية يوم ١٧ مايو ، حيث كان السلطان وحاشيته قد انسحبوا امامه ، وبعد معركة حادة مع قطب الدين ، ابن السلطان ، تمكن كونراد في اليوم التالي من شق مدخل إلى داخل المدينة ، ولم يلبث بها طويلا وانما ترك جيشه يأخذ قسطا من الراحة في حدائق ميرام في الضواحي الجنوبية . وبعد ستة ايام انتقل إلى كارامان التي وصلها يوم ٣٠ مايو ومنها قاد الجيش خلال ممرات جبال طوروس دون مقاومة باتجاه ساحل سيلوقية الجنوبية . وكان الميناء الآن تحت سيطرة الأرمن ، فسارع بطريق الأرمن (كاثوليكوس) بارسال رسالة إلى صلاح الدين . وكان الطريق يخترق بلادا وعرة وتقلص الطعام واشتد هيب حرارة الصيف^(٣٩) .

١١٩٠ م : مصرع فريدريك بارباروسا

في العاشر من يونية هبط الجيش الضخم إلى سهل سيلوقية وأعد العدة لعبور نهر كاليكادنوس ليدخل المدينة . وتقدم الامبراطور على جواده مع حرسه الخاص ، ثم هبط إلى ناحية المياه . وما حدث بعد ذلك غير يقيني ، فإما أنه وثب من على جواده لينعش

(٣٩) Nicetas Choniates, pp. 538-44; Ansbert, *Expositio Friderici*, pp 67-90; *Gesta Federici*, pp.84-97; *Epistola de Morte Friderici*, pp. 172-7; Ramsay *Itinerarium*, pp. 49-53. الطريق الذي سلكه فريدريك في *Historical Geography of Asia Minor*, pp.129-30 واما تحذير كاثوليكوس لصلاح الدين فقد أورده بهاء الدين (P.P.T.S.pp.185-9).

نفسه في تيار الماء البارد ووجد التيار أقوى مما كان يظن ، أو أن بدنه الطاعن في السن لم يتحمل الصدمة ؛ أو أن حواده انزلت وألقى به في الماء حيث غرق بثقل ما كان يحمله من دروع . وفي وقت وصول الجيش إلى النهر كانت حثته قد انتشلت وبقيت ممددة على ضفة النهر^(٤٠).

كان موت الامبراطور العظيم ضربة مريرة ليس فقط لرفاقه وإنما للعالم الفرنجي كله، إذ أن أنباء مجيئه على رأس جيش ضخم قد شدت كثيرا من عزائم الفرسان المحاربين على الساحل السوري . وبدت قوته وحدها كافية لدحر المسلمين ، وبانضمام جيوش ملكي فرنسا وإنجلترا إليه ، التي كان مقرر أن ترحل حالا إلى الشرق ، فإن استعادة الأراضي المقدسة إلى المسيحية بدت يقينية . وكان صلاح الدين نفسه يخشى أن يكون تجمع الجيوش فوق طاقته . وعندما سمع أن فريدريك في طريقه إلى القسطنطينية أرسل كاتم سره ومترجم سيرته - بهاء الدين - إلى بغداد لتحذير الخليفة الناصر والدعوة إلى أن يتكلم المؤمنون للتصدي للتهديد ، واستدعى أتباعه جميعا للانضمام إليه . وظل يجمع المعلومات عن كل مرحلة من مراحل تحرك الجيش الألماني ، وظن خطأ أن قلع ارسلان يساعد الغزاة سرا . وعندما سمع المسلمون فجأة بموت فريدريك ، بدا لهم أنها معجزة مهداة اليهم من السماء ، وفي الإمكان الآن تقليص الجيش الذي تجمع لصد الألمان في شمال سوريا ، وأرسلت فصائل للانضمام إلى قواته على الساحل الفلسطيني^(٤١).

كان الخطر كبيرا على الإسلام ، وكان صلاح الدين محقا في أن يرى خلاصه في مصرع الامبراطور . فبالرغم من هلاك عدد من الجنود الألمان ، وضياع بعض المعدات أثناء الرحلة الشاقة عبر الأناضول ، كان جيش الامبراطور ما يزال ضخما . غير أن الألمان ، بتلهفهم الغريب إلى عبادة زعيم ، عادة ما تضعف معنوياتهم باختفاء الزعيم . وهيمن الارتباك على جنود فريدريك . إذ أن دوق سوابيا الذي تولى القيادة كان يفتقر إلى شخصية أبيه . وقرر بعض الأمراء العردة مع أتباعهم إلى أوروبا ، واستقل آخرون

(٤٠) Nicetas Choniates, p. 545; Ansbert, *Expositio Friderici*, pp.90-2; *Epistola de Morte Friderici*, pp.177-8; *Gesta Federici*, pp.97-8; Otto of St Blaise, -p.51; *Itinerarium*, pp.54-5; Ibn al-Athir, II, p.5; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.183-4.

(٤١) Ernoul, pp.250-1; *Estoire d'Eracles*, II, p140; *Itinerarium*, pp.56-7; Ambroise, col.87; Ibn al-Athir, *loc.cit.*; Abu Shama, pp.34-5. Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.189-91; Bar-Hebraeus, pp. 332-4

سفينة من سيلوقية أو طرسوس إلى صور . وواصل الدوق مسيرته مع الجيش الذي تناقص عدده بصورة كبيرة ، في حمارة قىظ الصيف في سهل كيليكيا ، يحمل معه جثة الامبراطور المحفوظة في الخل . وقام الأمير الأرمني ليو بزيارة المعسكر الألماني من قبيل اللياقة بعد أن كان مترددا . ولم يتمكن القادة الألمان من عمل الترتيبات الكفيلة بإطعام رجالهم بما فيه الكفاية ، فانعدم الانضباط بين الجنود ، وخاصة في غياب الامبراطور ، فكثير منهم جوعى ، وكثير مرضى ، وكلهم بين مشاكس وعنيد ، وأصيب الدوق نفسه بمرض عضال واضطر إلى أن يمكث في كيليكيا ، واستمر جيشه بدون له ، لكي يجابه هجوما سقط فيه ضحايا كثيرون بينما كان يعبر البوابات السورية . وكان من وصل إلى أنطاكية يوم ٢١ يونية بمجرد جماعة من الغوغاء في حالة تدعو إلى الرثاء ، وبعد أيام قليلة وصل فريدريك دون سوايا بعد أن تماثل الشفاء^(٤٢).

الألمان في أنطاكية

ورحب الأمير بوهمند كونت أنطاكية بالألمان ترحيبا حارا . وكانوا في حالة دمار . فبدون قادتهم فقدوا حماسهم ، وبعد ما لا قوه من مشاق الرحلة كانوا على غير استعداد للتخلي عن رفاهية أنطاكية . كما أن ما أقبلوا عليه من إفراط فى الملذات لم يكن له أثر فى تقوية حالتهم الصحية . فقد اغتبط فريدريك (أوف سوايا) لما لمسه من ترحيب بوهمند ، وتلقى دعوة من ابن عمه كونراد (أوف مونتفرات) من صور لزيارته ، جعلته متلهفا على مواصلة الرحلة . على أنه عندما غادر أنطاكية فى نهاية اغسطس كان الجيش بصحبته قد تقلص أكثر فأكثر ، ومن ثم لم يجد الكثير من الفرنج فائدة ترجى من أي جهد يبذل لمساعدتهم ، وكان معارضو كونراد جميعا يعلمون أن فريدريك ابن عمه وصديقه ، فدأبوا على الهمس بأن صلاح الدين قد دفع لكونراد ستين ألف بيزانت لكي يعمل على ابعاد فريدريك عن أنطاكية ، وهى المكان الذي يستطيع فيه أن يؤدي خدمات نافعة للقضية المسيحية . ومن الناحية الرمزية ، فشل مفعول الخل أيضا فتحللت جثة الامبراطور ، وبغاية السرعة دفنت بقاياها في كتدرائية أنطاكية ، لكن بعض العظام انتزعت من الجثة وسافرت مع الجيش على أمل غاش في أن

Sicard of Cremona, p. 610; Otto of St Blaise, p.52; Abu Shama, pp.458-9; (٤٢)
Beha ed-Din, P.P.T.S. pp.207-9.

يكون هناك جزء على الأقل من فريدريك بارباروسا منتظرا يوم القيامة في القدس^(٤٣).
 إن الإخفاق المروع الذي منيت به حملة الامبراطور الصليبية ، أسفر عن تزايد
 أهمية رحيل ملكي فرنسا وإنجلترا إلى الشرق ، ليدليا بدلوهما في الصراع المصري المرير
 الذي اندلع على ساحل فلسطين الشمالي.

(٤٣) Abu Shama, pp. 458-60; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 212-14; Ernoul, p. 259

الفصل الثاني:

عكا

٢١

"هأنذا أرد أدوات الحرب التى بيدكم التى أنتم محاربون بها ملك
بابل والكلدانيين الذين يحاصرونكم خارج السور"
(إرميا ٢١: ٤)

أخطأ صلاح الدين فى ساعة الانتصار خطأ واحدا جسيما عندما ترك نفسه
لمخاوفها من تحصينات مدينة صور ، فلو أنه زحف عليها بعد استيلائه على عكا مباشرة
عام ١١٨٧م لفاز بها . وكان يظن أن استسلامها قد رُتب وإن تأخر لأيام قليلة،
وعندما وصل إلى صور كان كونراد (أوف مونتفرات) قد وصلها قبله ورفض التفكير
فى الاستسلام ، ولم يكن لدى صلاح الدين آنذاك ما يعينه على ضرب حصار منظم
حول المدينة ، فانتقل إلى أهداف أخرى أيسر فى الاستيلاء عليها . وبعد سقوط القدس،
هاجم صلاح الدين مدينة صور للمرة الثانية فى شهر أكتوبر بجيش كبير وبكل ما لديه
من آلات الحصار . غير أن الأسوار وراء البرزخ الضيق صارت الآن حصينة بعدما قواها
كونراد الذى خصص ما أحضره من أموال من القسطنطينية لتقوية الدفاعات كلها .
ولم يستطع صلاح الدين النيل من الأسوار بآلات الحصار ، كما أن اسطوله دمر فى

معركة خارج مدخل الميناء، فرفع الحصار مرة أخرى وسرح أغلب جنوده ، وقبل أن يأتى مرة أخرى لاستكمال فتح منطقة الساحل كان العون قد وصل من وراء البحار^(١).

ولم تكن القوات التى أرسلها وليم الثاني الصقلى في أواخر الربيع من عام ١١٨٨ كبيرة ، إلا أنها كانت تتألف من أسطول جيد التسليح بقيادة الأدميرال مارجاريتوس ومثتين من الفرسان المدربين . وعلى أثر وصول هذه التعزيزات رفع صلاح الدين الحصار عن قلعة الكرك في يولية ١١٨٨م وأحجم عن مهاجمة طرابلس^(٢) ويرضى الآن بالتفاوض على السلام . وكان هناك فارس من أسبانيا جاء إلى صور في الوقت المناسب للمشاركة في الدفاع عنها ، ولا نعرف اسمه ولكن من الدروع التي كان يرتديها كانوا يطلقون عليه الفارس الأخضر . وقد تأثر صلاح الدين كثيرا بشجاعته وإقدامه ، وقابله بالقرب من طرابلس في صيف عام ١١٨٨م آملا أن يقنعه بالترتيب لهدنه وبالحاقه بالخدمة مع العرب . لكن الفارس الأخضر أجاب بأن الفرنج لن يضعوا في اعتبارهم شيئا أقل من استعادة بلدهم ولا سيما وأن العون آت من الغرب. فليخل صلاح الدين فلسطين، ولسوف يجد الفرنج بعد ذلك أكثر حلفائه إخلاصا^(٣).

١١٨٨م : الإفراج عن الملك جوي

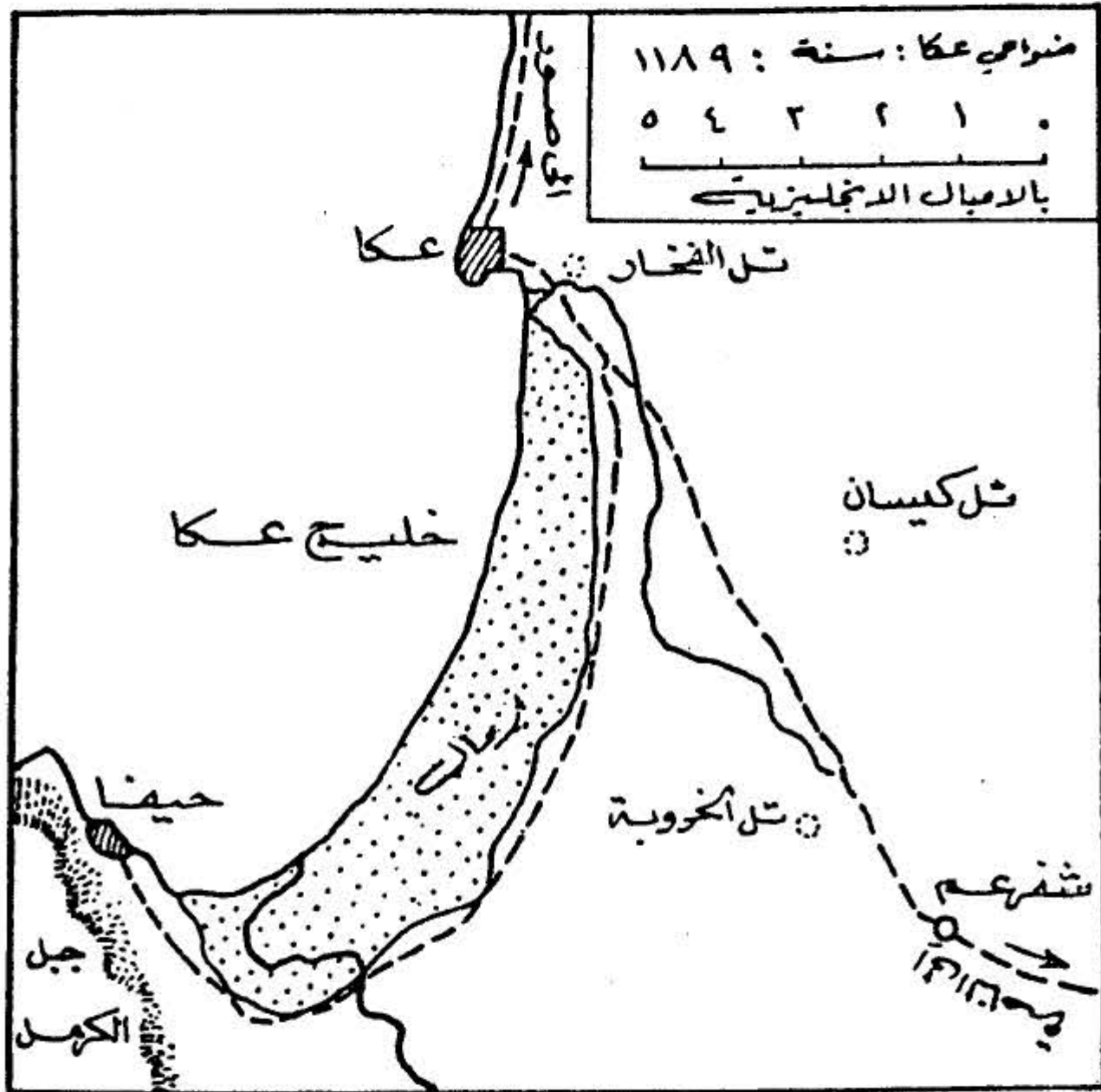
على الرغم من عدم إمكان التوصل إلى السلام ، أبدى صلاح الدين نواياه الودودة بأن اطلق سراح البعض من أبرز سجنائه . ولقد كان من عاداته أن يُغوى لوردات الفرنج من أسراه بأن يفوزوا بحريتهم بالأمر بتسليم حصونهم اليه ، فكانت وسيلة رخيصة وسهلة في الحصول على القلاع . بل إن فروسيته مضت أبعد من ذلك ؛ فعندما فشلت الليدى ستيفانى سيدة منطقة الأردن في إقناع حاميتي كرك ومونتريال بالاستسلام لكي يُفرج عن ابنها همفري (أوف طورون) ، أعاده صلاح الدين إليها

(١) انظر اعلاه ، الجزء الثاني ، الصفحتان ٥٢٢-٥٢٣.

(٢) *Itinerarium*, pp.27-8; Benedict of Peterborough, II, p. 54; *Estoire d'Eracles*, II, pp.114, 119-20; Abu Shama, pp. 362-3; Ibn al-Athir, pp. 718, 720-1. *Eracles* والمؤرخون الإسلاميون إن مارجاريتوس أجرى مقابلة مع صلاح الدين في اللاذقية.

(٣) .Ernoul, pp. 251-2.

خريطة رقم ١ : عكا



حتى قبل أن يستولى على القلعتين العنيدتين بالقوة . وكانت عسقلان هي ثمن الافراج عن الملك جوي ، لكن سكانها خجلوا من أنانية ملكهم فرفضوا احترام اتفاهه مع صلاح الدين . ولقد سقطت عسقلان الآن ، ولذا كتبت الملكة سيبيل مرارا وتكرارا إلى صلاح الدين تتوسل اليه أن يعيد اليها زوجها . وفي بولية أجابها صلاح الدين إلى طلبها ، وبعد أن أقسم جوي أغلظ الإيمان بأنه سوف يعبر البحر عائدا إلى بلده وأنه لن يحمل السلاح قط في وجه المسلمين أرسل مع عشرة من أبرز أتباعه ، بمن فيهم الكونستابل أمالريك ، إلى طرابلس للانضمام إلى الملكة . وفي ذات الوقت سُمح لمركيز مونتفرات المسن بالذهاب إلى ابنه في صور^(٤) .

وتسبب ما كان عليه صلاح الدين من كرم وسخاء في أن يشعر رفاقه بالخطر . إذ أنه لم يكتف بالسماح للمواطنين الفرنج في كل مدينة تستسلم له بالذهاب إلى صور أو طرابلس للانضمام إلى رفاقهم ، وإنما مضى أبعد من ذلك بأن صمّم حاميتي هاتين القلعتين المسيحيتين بالإفراج عن الكثير من اللوردات الأسرى . على أن صلاح الدين كان يدري ما هو فاعل . ذلك أن مشاحنات التحزبات التي مزقت الفرنج في السنوات الأخيرة من مملكة القدس لم تخمد إلا قبل معركة حطين بأسابيع قليلة بفضل مهارة باليان (أوف ايلين) ، ثم تفجرت مرة أخرى في نفس مساء يوم المعركة ، بعد أن زادت الكارثة من مرارتهم . وراح مناصروا لوسينان وكورتناي يلقون بمسؤولية الكارثة على ريموند أمير طرابلس ؛ بينما وجد أصدقاء ريموند - وهم آل ايلين وآل جارنيه واغلب النبلاء المحليين - أسبابا أفضل ليلقوا باللائمة على ضعف الملك جوي ونفوذ فرسان المعبد ورينالد (أوف شاتيلون) . والآن مات ريموند ورينالد ؛ ولكن المرارة لم تمت . ذلك أن النبلاء الذين حرموا من أملاكهم وظلوا محبوسين وسط الحشود وراء أسوار صور لم يكن لديهم ما يفعلونه سوى تقاذف الاتهامات بين بعضهم البعض . والآن وبعد أن تخلص باليان وأصدقائه من الأسر أعلنوا عن قبولهم لكونراد (أوف مونتفرات) زعيما لهم معتبرين أنه الوحيد الذي انقذ صور ؛ أما مناصروا جوي الذين برزوا من السجن بعد أن انتهت أسوأ مراحل الأزمة ، فلم يكن في ناظرهم سوى متطفل وغريم محتمل لملكهم . ولقد جاء الإفراج عن جوي ، وهو أمر أبعد ما يكون عن

(٤) عن مشكلة الإفراج عن جوي ومكان وزمان الإفراج عنه بدقة انظر اعلاه الجزء الثاني ص ٤٦٢ ، n.4 مع المراجع . ويشير Ernoul (p.253) وتاريخ هرقل (Eracles (p.121) وبهاء الدين (P.P.T.S. (p.143) إلى قسم جوي بعدم حمل السلاح ضد المسلمين . ويقول تاريخ Itinerarium إنه وعد بأن يهجر الملكة (p.25) كما يقول Ambroise (col.70) إنه وعد بالعودة عبر البحر . وبعد ذلك قال جوي إنه أوفى بوعد بذهابه من طرطوس إلى جزيرة رودس (Estoire d'Eracles, II, p.131).

تقوية الفرنج ، ليصل بالمشاحنات إلى ذروتها^(٥).

١١٨٨ م : المنافسة بين جوي وكونراد

وانسحبت الملكة سيلا إلى طرابلس، وربما كانت مدفوعة في ذلك بالرغبة في الهرب من الجو المعادي لزوجها . وموت ريموند في خريف ١٨٧١ م ، انتقلت طرابلس إلى الابن الأصغر لابن عمه ، برهمند الأنطاكي الذي كان مستهترا لا يبالي بشئ ، ولذا ربما سره تعزيز الحامية في طرابلس ولم يعبا بتجمع أنصارها اللوسينيين حولها . ولحق بها جوي فور إطلاق سراحه ، وعلى الفور عثر على أحد القساوسة ليحرره من قسمه الذي أقسمه لصالح الدين . إذ كان قسما تحت الإكراه ولأحد الكفرة ولذا قالت الكنيسة إنه قسم باطل . وأغضب صلاح الدين أن يسمع بذلك غير أن دهشته جاوزت كل حد . وبعد أن زار جوي أنطاكية حيث وعده برهمند وعدا مبهما بالمساعدة سار مع مناصريه من طرابلس إلى صور منتويا الاستيلاء على ما تبقى له من مملكته الغابرة . وأغلق كونراد البوابات في وجهه ، فكان كونراد وحزبه يرون أن جوي قد خسر المملكة في حطين وأثناء أسره ، وقد تركها بلا حكومة ، وكان كل شئ خليقا بالضياع لولا تدخل كونراد . ولما طلب جوي أن يجري استقباله كملك ، كان رد كونراد أنه يحتفظ بصور أمانة لعواهل الصليبيين الآتين لإنقاذ الأراضي المقدسة ، وعلى الإمبراطور فريدريك وملكى فرنسا وإنجلترا أن يقرروا لمن تُعطى الحكم في نهاية الأمر . وبدا الجدل عادلا ويناسب كونراد تماما ؛ إذ ربما يحظى جوي في مطلبه بتأييد ريتشارد ملك إنجلترا وهو السيد الأعلى للوسينيين في جين (بجنوب غرب فرنسا)؛ ولكن الإمبراطور فريدريك وفيليب ملك فرنسا من أبناء عمومة كونراد ومن أصدقائه . وعاد جوي مغتما مع حزبه إلى طرابلس^(٦) . وسُر الصليبيون لإنشغال صلاح الدين في تلك الآونة باخضاع القلاع في شمال سوريا، وقد سرح جيشه تسريحا جزئيا، ثم سرح المزيد من الفصائل في يناير ١١٨٩ م. وقد أمضى هو نفسه الشهور الأولى من العام في القدس وعكا يعيد تنظيم حكومة فلسطين ، ثم عاد إلى عاصمته دمشق في مارس^(٧).

(٥) ابن الأثير pp. 707-11 ، يتقد بشدة سياسة صلاح الدين.

(٦) Ernoul, pp. 256-7; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 123-4; Ambroise, cols.71-3; *Itinerarium*, pp. 59-60.

(٧) Abu Shama, pp. 380-1; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 140-1.

وفي إبريل عاد جوي مع سبيلا إلى صور ومرة أخرى طلب منحه السيطرة على المدينة ، ولما وجد أن كونراد شديد العناد كسابق عهده ، عسكر أمام أسوار المدينة . وفي نفس الوقت تقريبا وصلت تعزيزات قيعة من الغرب . ففي وقت سقوط القدس ، كانت مدينتا بيزا وجنوا تخوضان واحدة من الحروب المعتادة بينهما ، ومن بين انجازات البابا جريجوري الثامن أثناء بابويته القصيرة، مفاوضات الهدنة بينهما والوعد بأسطول من بيزا في حملة صليبية . وأبحر أبناء بيزا قبل نهاية العام لكنهم أمضوا الشتاء في ميناء ميسينا الواقع شمال شرق صقلية ، ووصلت سفنهم البالغ عددها اثنتين وخمسين سفينة إلى صور يوم ٦ إبريل ١١٨٩م تحت قيادة أوبالدو رئيس أساقفتهم . ويبدو أن أوبالدو تشاجر مع كونراد بعد وصوله مباشرة ، وعندما ظهر جوي ، انضم إليه أبناء بيزا . كما أنه فاز بتأييد القوات الصقلية التي انضمت إليه . وفي بداية الصيف حدثت بعض المناوشات الطفيفة بين الفرنج والمسلمين ، غير أن صلاح الدين كان ما يزال يرغب في أن تستريح جيوشه ، وكان المسيحيون ينتظرون المزيد من المساعدة من الغرب . وفجأة هدم الملك جوي معسكره في نهاية أغسطس وانطلق مع أتباعه جنوب الطريق الساحلي للهجوم على عكا ، وأبحرت سفن بيزا وصقلية بمحاذاته .

١١٨٩م : جوي يصل أمام عكا

وكانت تلك حركة من حركات التهور اليائس ، وقرار رجل شجاع لكنه في ذات الوقت غاية في الحماسة . فبعد أن أحبطت رغبة جوي في أن يحكم صور ، شعر بحاجة الملحة إلى مدينة يستطيع منها أن يعيد انشاء مملكته . وكان كونراد آنذاك في شدة المرض ، ورأي جوي الفرصة سانحة لكي يظهر أنه هو القائد النشط للفرنج ، لكن المخاطرة كانت هائلة . ذلك أن حجم الحماية الإسلامية في عكا يجاوز ضعف حجم جيش جوي كله ، فضلا عن وجود قوات صلاح الدين النظامية في متناول اليد . ولم يكن أحد يتوقع النجاح لهذه المغامرة ، لكن للتاريخ مفاجآته . فإذا كان كونراد بطاقته الجامحة هو الذي أنقذ بقايا فلسطين للعالم المسيحي ، فإن حماقة جوي الطائشة هي التي حولت المد وبدأت حقبة جديدة من إعادة الغزو^(٨) .

كان صلاح الدين في التلال الواقعة وراء صيدا يحاصر قلعة بيوفورت عندما

(٨) Ernoul, p.257; *Estoire d'Eracles*, II, pp.124-5; Ambroise, cols.73-4; *Itinerarium*, pp.60-62; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp.143-4

وصلته أنباء حملة جوي . وكانت القلعة مشيدة على منحدر صخري شاهق وتبع لرينالد أمير صيدا وقد بقيت حتى آنذاك بما كان لسيدتها من مكر . إذ أنه ذهب إلى بلاط صلاح الدين وسحر السلطان وحاشيته باظهار تقديره العميق للأدب العربي واهتمامه بالاسلام ، وألح إلى أنه إذا توفر له بعض الوقت فسوف يستقر في دمشق بعد أن يتحول إلى الاسلام . غير أن الشهور انقضت ولم يحدث شيء سوى تقوية تحصينات قلعة بيوفورت . وأخيرا قال صلاح الدين في اوائل اغسطس إن الوقت قد حان لكي تستسلم قلعة بيوفورت وتبقي بمثابة ضمان لنوابا رينالد ، الذي اخذه المسلمون تحت الحراسة حتى بوابة القلعة حيث أمر قائد الحامية بتسليمها باللغة العربية ، وان يقاوم باللغة الفرنسية . ولم تنطل الخدعة على العرب ، لكنهم كانوا فاقدى الحيلة لا يستطيعون الاستيلاء عليها بالمهجوم ، وبينما كان صلاح الدين يجمع قواته لمحاصرتها ألقى رينالد في السجن في دمشق^(٩) . وظن صلاح الدين بادئ الأمر أن مسيرة جوي تستهدف سحب الجيش العربي بعيدا عن قلعة بيوفورت ، غير أن حواسيسه سرعان ما اخبروه أن جوي يريد عكا . وعندئذ أراد صلاح الدين مهاجمة الفرنج أثناء صعودهم سلم صور أو لسان الناقورة ، لكن مجلسه لم يوافق وإنما رأي الأفضل أن يترك الفرنج يصلون إلى عكا لكي يقعوا بين الحامية وجيش صلاح الدين الرئيسي . ولم يكن صلاح الدين على ما يرام آنذاك ، فوافق على ما ارتآه المجلس وهو في حالة من الوهن^(١٠) .

وصل جوي إلى مشارف عكا يوم ٢٨ أغسطس وضرب معسكره على تل تورون، حاليا تل الفخار، الذي يبعد مسافة ميل شرقي المدينة ، على نهر ييلوس الصغير كي يتزود رجاله بالماء . وبعد ثلاثة أيام فشلت محاولته الاولى في الهجوم على المدينة ، فلبث ينتظر التعزيزات^(١١) . وكانت عكا قد بنيت على شبه جزيرة صغيرة ناتئة في خليج حيفا ، فوفر لها البحر الحماية من الجنوب والغرب وكذلك حاجز الأمواج القوي . وكان هناك حاجز أمواج متهدم يمتد باتجاه الجنوب الشرقي إلى صخرة يكللها حصن يدعى برج الذباب . Tower of Flies ووراء حاجز الأمواج مرفأ لا يؤثر فيه سوى رياح البحر البعيدة عن الشاطئ . وأما شمال المدينة وشرقها فقد توفرت لهما الحماية بأسوارها العظيمة التي تلتقي في الركن الشمالي الشرقي بزاوية قائمة مع حصن يدعى البرج

(٩) Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 140-3, 150-3.

(١٠) Ibid. pp. 154, 175; Ibn al-Athir, II, p.6; Ambroise, cols. 74-5.

(١١) Ernoul, pp. 358-9; Estoire d'Eracles, II, pp. 125-6

الملعون . Cursed Tower وكانت البوابتان الأرضيتان تقعان في نهاية كل سور من السورين على الشاطئ ، وكانت هناك بوابة ضخمة تفتح في المرفأ ، وبوابة ثانية تفتح على مرسى معرض للرياح الغربية المستديمة . وكانت عكا في ظل ملوك الفرنج أغنى مدينة في المملكة ومكان اقامتهم المفضل ، ودائما ما كان صلاح الدين يزورها خلال الأشهر الأخيرة وقد اعتنى باصلاح الأضرار التي سببها جنوده أثناء الاستيلاء عليها . والآن أصبحت قلعة قوية بها حامية جيدة ومؤن وفيرة وخليفة بمقاومة طويلة^(١٢) .

وكانت التعزيزات قد بدأت تصل من الغرب في أوائل سبتمبر . فجاء أولا أسطول كبير يحمل الدانمركيين والفريزيين (قاطنو شمال هولاندا)، وهم جنود لا يعرفون الانضباط لكنهم ملاحون مهرة كانت سفنهم ذات فائدة بالغة في احكام الحصار حول المدينة من البحر ، وخاصة عندما أدى موت وليم الصقلي في نوفمبر إلى انسحاب الأسطول الصقلي^(١٣) . وبعد أيام قليلة جاءت سفن من ايطاليا تحمل كتائب البلجيكي من الفلاندرز وكتائب الفرنسيين ، يقودهم الفارس المقدام جيمس (أوف آفيزن)^(١٤) ، وكذلك كونتات باروهرين وبريو ، وفيليب أسقف بوفيه . وقبل نهاية الشهر جاءت فرقة من الألمان بقيادة لويس ، الحاكم العسكري في ثورينجيا، الذي فضل السفر مع أتباعه بحرا على مرافقة الامبراطور . وكان معه كونت جيلدرز وفرقة من الايطاليين بقيادة حيرار رئيس أساقفة رافينا وأسقف فيرونا .

١١٨٩م : صلاح الدين ينتقل إلى عكا

شعر صلاح الدين بخطر هذه التعزيزات ، وبدأ يستدعى أتباعه مرة أخرى فجاءوا مع جزء من جيشه من بيوفورت ، تاركين فصيلة صغيرة لتنتهي إخضاع الحصن . ولم يفلح هجومه على معسكر جوى يوم ١٥ سبتمبر ، غير أن ابن أخيه تقي الدين تمكن

(١٢) عن عكا انظر Enlart في *Les Monuments des Croisés*, vol. II, pp. 29.. ويرد وصف للمدينة في *Itinerarium*, pp.75-6.

(١٣) *Estoire d'Eracles*, II, pp. 127-8; Ambroise, col. 77 ووسط فرنسا و Cornwall أقصى جنوب غرب إنجلترا؛ *Itinerarium*, pp. 64-5. أنظر Riant في *Expéditions des Scandinaves*, pp. 277-83

(١٤) عن James of Avesnes أنظر *Benedict of Peterborough*, II, pp. 94-5. *Ambroise, loc. cit.*؛ ويرد ذكر أسقف Beauvais ورفاقه والحاكم العسكري، وفي ٧٣-٤ يرد ذكر الإيطاليين

من اختراق خطوط الفرنج وإقامة اتصال مع البوابة الشمالية للمدينة، وضرب معسكره هو نفسه إلى الشرق قليلا من معسكر المسيحيين. وسرعان ما شعر الفرنج بقدرتهم على أخذ زمام الهجوم. وبينما كان لويس (أوف ثورينجيا) مارا بصور أقنع كونراد (أوف مونتفرات) بالانضمام إلى الجيش الفرنجي، طالما وأنه لن يكون مضطرا إلى الخضوع لأوامر جوي. وفي ٤ أكتوبر، وبعد أن حصن الفرنج معسكرهم الذي تركوه تحت قيادة جودفري أخى جوي، شنوا هجوما كبيرا على خطوط صلاح الدين. وكانت معركة مريرة؛ ذلك أن تقي الدين الذي كان على ميمنة العرب انسحب تمويها لينصب كمينا لفرسان المعبد الذين كانوا قبالة، لكن صلاح الدين لم يتبه للمناورة وانطلق لإنقاذه فأضعف واسطة جيشه وكانت النتيجة أن تداعى الوسط والميمنة فاستداروا هارين بعد أن نزلت بهم خسائر فادحة، ولم يكبح البعض عنان جيادهم إلى أن وصلوا إلى طبرية، بل أن كونت برين توغل حتى خيمة صلاح الدين نفسه، لكن ميسرة العرب كانت متماسكة، وعندما تفرقت صفوف المسيحيين لمطاردة الهارين، هاجمهم صلاح الدين بالميسرة وردهم وهم يفرون في فوضى إلى معسكرهم الذي كان يتعرض في نفس الوقت لهجوم عنيف قامت به حامية عكا. وصمد جودفري (أوف لوسينان) في المعسكر، وسرعان ما أصبح الجزء الأكبر من الجيش المسيحي آمنا خلف دفاعاته، ولم يشأ صلاح الدين أن يجازف بالهجوم عليهم. وسقط الكثير من فرسان الفرنج على أرض المعركة ومن بينهم آندرو (أوف برين)، وأصيب الجنود الألمان بالذعر ولحقت بهم خسائر جسيمة، كما كانت خسائر فرسان المعبد جسيمة هي الأخرى، إذ أسر سيدهم الأعظم حيرار (أوف ريدفورت)، وهو الذي كان يمثل العبقرية الشيطانية للملك جوي في الأيام التي سبقت حطين، ودفع حياته ثمنا لحماقاته. ولم ينقذ كونراد نفسه من الأسر سوى تدخل غريمه الشجاع الملك جوي^(١٥).

ولقد كان النصر في جانب المسلمين، وإن لم يكن كاملا، إذ لم يبرح المسيحيون مكانهم؛ وأثناء الخريف جاءهم المزيد من المساعدة من الغرب، فقد وصل أسطول

(١٥) Ambroise, cols. 78-81; *Itinerarium*, pp.68-72; Ralph of Diceto, II, p.70; *Estoire* إذ أنه كان حاضرا هو نفسه. ولا تطابق روايته تماما الرواية الواردة في *Itinerarium*، فهو لا يذكر أي خروج قامت به الحامية. ويصف المناوشات التي سبقت 415 pp. Abu Shama, pp. 154-62 - 22.

اللندنيين في نوفمبر بعد أن شد من أزره ما أحرزه من نجاح في البرتغال^(١٦). ويتحدث المؤرخون عن مجي صليبيين آخرين كثيرين من نبلاء فرنسا ومن فلاندرز وإيطاليا، وحتى من هنجاريا والدانمارك^(١٧). وقد رفض الكثير من فرسان الغرب انتظار أسيادهم المتأقلين. وبهذه القوات الإضافية تمكن الفرنج من استكمال حصار عكا من البر. لكن صلاح الدين كان يتلقى التعزيزات هو الآخر، إذ أن أنباء ارتحال الامبراطور فريدريك بارباروسا التي شجعت المسيحيين دفعت صلاح الدين إلى استدعاء أتباعه من سائر أنحاء آسيا، بل أنه كتب إلى مسلمي المغرب وإسبانيا قائلا إنه إذا كان العالم المسيحي الغربي يرسل فرسانه للحرب من أجل الأراضي المقدسة، فينبغي لغرب العالم الإسلامي أن يحذو حذوه. فأجابوه بعبارات التعاطف وإنما بالنذر اليسير من المساعدة الإيجابية^(١٨). ورغم ذلك سرعان ما غدا جيشه ضخما بما فيه الكفاية لكي يحكم بدوره حصار المسيحيين أو يكاد؛ وإذن أمسى المحاصرون محاصرين. وفي ٣١ أكتوبر اخترقت خمسين سفينة من سفنه الاسطول الفرنجي، وإن كان ذلك ببعض الخسائر، وجلبت الطعام والمؤن إلى داخل عكا، وفي ٢٦ ديسمبر أعاد أسطول من مصر (أرمادا) فتح المواصلات مع المرفأ^(١٩).

١١٩٠ م : توقف إجباري للطرفين

واجه الجيشان بعضهما طوال الشتاء لا يغامر أيهما باشتباك عام. وقد كانت بينهما مناوشات وصراعات، غير أنه كان هناك في الوقت نفسه اختلاط ودي سرى بينهما، وبدأ الفرسان في الجانبين يعرفون ويحترمون بعضهم، وقد يحدث توقف للحرب بينما الزعماء يتمتعون بمناقشة ودية، وكانت الدعوة توجه إلى جنود الأعداء لحضور الاحتفالات والسمر في كل من المعسكرين، وفي أحد الأيام تحدى صبية صغار يعيشون في معسكر العرب الصبية المسيحيين في معركة وهمية مرحة. وتتميز صلاح الدين نفسه

(١٦) *Itinerarium* التاريخ على أنه سبتمبر. على أنه إذا صححت التواريخ التي أوردها Benedict و Ralph of Diceto (انظر أعلاه) p.9, n.6، يكون شهر نوفمبر هو أبكر تاريخ تستطيع السفن فيه أن تصل إلى سوريا

(١٧) *Itinerarium*, pp.73-4; Ambroise, col.84. لم يرد تاريخ وصول كل من هؤلاء

(١٨) Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 171, 175-8; Abu Shama, pp. 497-506.

(١٩) *Itinerarium*, pp.77-9; Ambroise, cols. 84-5; Abu Shama, pp. 430-1.

بما أظهره للأسرى المسيحيين من طيبة وبما كان يرسله إلى الأمراء المسيحيين من هدايا ورسائل تتصف بالود. أما الأكثر تعصبا من أتباعه فكانوا يتساءلون عما حدث للجهاد الذي توسل صلاح الدين إلى الخليفة أن يبشر به ، كما أن هذا الجو الغريب استعصى على فهم الوافدين الجدد من فرسان الغرب . ومن الناحية الظاهرية ، كانت الحرب خلوا من المرارة ، لكن الجانبين كليهما كانا يصران اصراراً صارماً على النصر^(٢٠).

وبرغم نواذر الكياسة هذه كانت الحياة في معسكر المسيحيين صعبة ذلك الشتاء، إذ نقص الطعام ولا سيما بعد أن فقد الفرنج السيطرة على البحر . وباقتراب الأحوال الجوية الأكثر دفئا أصبحت المياه تمثل مشكلة وانهارت ترتيبات المرافق الصحية ، فانتشر المرض بين الجنود . ودفعت تلك الصعاب كلا من جوي وكونراد إلى عقد اتفاق بينهما يقضي بأن يحتفظ كونراد بصور، وكذلك بيروت وصيدا بعد استردادهما، على أن يعترف بجوي ملكا. وبعد أن أبراما السلام بينهما على تلك الهيئة غادر كونراد المعسكر في مارس وعاد في نهاية الشهر بسفن محملة بالطعام والأسلحة ، وأقلع أسطول صلاح الدين من ميناء عكا لاعتراضه ، على أنه بعد معركة حامية الوطيس ردت سفن العرب برغم استخدامها للنار الأغريقية وتمكن كونراد من النزول إلى الشاطئ ومعه المؤن . واستغل الفرنج المواد التي احضرها فشيّدوا أبراج حصار خشبية حاولوا بها الهجوم على المدينة يوم ٥ مايو ، غير أن الأبراج أحرقت^(٢١).

وسرعان ما عاد ظهور المجاعة والمرض في معسكر المسيحيين الذين شعروا بقليل من العزاء عندما سمعوا بوجود مجاعة في عكا أيضا ، رغم أن السفن العربية كانت تشق طريقها حربا إلى داخل الميناء من حين لآخر حاملة معها مؤنا جديدة^(٢٢). ودأبت فصائل من المسلمين طوال الربيع على الانضمام إلى جيش صلاح الدين . وفي ١٩ مايو، يوم السبت السابع^(٢٣)، بدأ في مهاجمة المعسكر الذي صمد لثمانية أيام من الحرب^(٢٤)، وفي يوم ٢٥ يولية ، وهو يوم القديس جيمس ، دارت رحى معركة على نطاق شامل

(٢٠) Abu Shama, pp. 412, 433; Ibn al-Athir, II, pp. 6,9.

(٢١) -Itinerarium, pp.79-85; Ambroise, cols.85-92; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp.178-80; Ibn al Athir, II, pp.18-21

(٢٢) Itinerarium, pp. 85-6, 88; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 181-2

(٢٣) (المترجم) السبت السابع Whit Saturday بعد عيد الفصح ، تحليلدا لنزول الروح القدس في عيد الخمسين أو العنصرة (Pentecost انظر العهد القديم ، أعمال الرسل ٢).

(٢٤) pp. 87-8 Itinerarium,.

حدث فيها أن قام جنود الفرنج بقيادة ضباط الصف، وضد رغبة قادتهم، بهجوم جرئ على معسكر تقي الدين على ميمنة صلاح الدين، فهُزموا هزيمة منكرة وهلك الكثير منهم، وخف لنجدتهم رالف (أوف التاريا)، وهو صليبي انجليزي مرموق، ورئيس شمامسة كولشيستر، وقتل في المعركة^(٢٥).

وخلال الصيف جاء إلى المعسكر صليبيون آخرون رفيعو النسب حيث لقوا الترحيب رغم أن كل جندي جديد كان يعنى فما جديدا يتعين إطعامه. وكان من بينهم الكثير من أعظم النبلاء الفرنسيين والبرجانديين، الذين اسرعوا بالهجرة يسبقون مليكهم. فكان من بينهم تيبالد كونت بلوا، وأخوه ستيفن (أوف سانسير) والذي سبق أن عزف عن الزواج بالملكة سبيلا، ورالف كونت كليرمونت، وجون كونت فونتيني، وألان (أوف سانت فاليري)، مع رئيس اساقفة بيزانسون وأساقفة بلوا وتول وغيرهم من رجال الدين البارزين. وكانوا تحت إمرة هنري (أوف تروى) كونت شامباني، وهو شاب مرموق للغاية إذ أن أمه - ابنة الينور الأكتانية من زواجها الفرنسي - كانت اختا غير شقيقة للملكي انجلترا وفرنسا، وكان كل من خاليه يقدره تقديرا عاليا. وفي الحال حصل على مركز خاص كمندوب للملكين ومبعوثهما. وتولى زمام عمليات الحصار الجارية التي كان يديرها حتى آنذاك جيمس (أوف افزن) ولاند جريف (أوف ثورينجيا)^(٢٦) واستغل لاندجريف وصوله ليعود إلى أوروبا بعد أن كان مريضا لبعض الوقت، وربما بالمalaria^(٢٧) ووصل فريدريك (أوف سوابيا) مع بقايا جيش بارباروسا إلى عكا في أوائل أكتوبر^(٢٨) وبعد أيام قلائل هبطت في صور فصيلة انجليزية وسارت جنوبا إلى عكا. وكان على رأسها بلدوين، رئيس اساقفة

(٢٥) *Itinerarium* pp. 89-91; Ambroise, cols. 93-4. ويخطئ امبرواز في تحديد تاريخ معركة ويقول انها وقعت في يوم القديس جون بدلا من يوم القديس جيمس؛ *Estoire d'Eracles*, II, p. 151; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 193-6

(٢٦) *Itinerarium*, pp. 92-4; Ambroise, col. 94; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* p. 197. هنري الأول كونت شامباني. وكان تيبالد (أوف بلوا) وستيفن (أوف سانسير) الأخوين الصغيرين لأبيه. وكانت عمته Alix زوجة ثانية للملك لويس السابع، وأم الملك فيليب الذي كان لذلك ابن عمته من الدرجة الأولى وعمه من الدرجة الثانية.

(٢٧) مات لاندجريف في طريقه إلى الوطن. وبتهمه Ralph of Diceto بأنه كان على علاقة بالأعداء وقبل منهم الأموال. (II, pp. 82-3)

(٢٨) Abu Shama, p. 474، يحدد التاريخ على أنه ٤ أكتوبر؛ Beha ed-Din *P.P.T.S.* pp. 209, 213; *Itinerarium*, pp. 94-5.

١١٩٠ م : قتال متهاوش

انقضى الصيف كله في قتال متهاوش، وكل جانب ينتظر التعزيزات التي تمكنه من أخذ زمام الهجوم، فبعد أن استولى رجال صلاح الدين على بيروت، انضموا إليه في عكا، لكنه كان قد أرسل جنودا للتصدي لفريدريك بارباروسا في الشمال، ولم يعودوا حتى الشتاء. وفي تلك الأثناء انقلبت المناوشات إلى اختلاط ودي. ولاحظ مؤرخو المسيحيين، والرضا يأخذ بألباهم، عدة أحداث أنعم فيها الرب على البطولة الصليبية وخيب مساعي العرب، لكن جميع محاولاتهم لتسليق أسوار عكا بآء بالفشل. وشن فريدريك (أوف سوابيا) بعد وصوله مباشرة هجوما شرسا، حاول بعده رئيس أساقفة بيسانسون دك المدينة بآلات حصار منجنقية متطورة شيدت حديثا. ولم يكن هناك طائل من أي من الهجومين^(٣٠) وفي نوفمبر تدبر الصليبيون زحزحة صلاح الدين عن موقعه في تل قيسان الواقع على بعد خمسة أميال من المدينة، لكنه رسخ قواته في موضع أقوى في تل خروبا الأبعد قليلا، وقد مكّنهم ذلك من شق طريق إلى حيفا في بعثة للبحث عن الطعام خففت قليلا بعض الجوع في المعسكر. على أن كلا المدينة والمعسكر كانا يعانيان من الجوع والمرض، ولم يكن أي منهما في وضع يمكنه من بذل أقصى جهد^(٣١).

١١٩٠ م : زواج كونراد وايزابيللا

كانت الملكة سيللا من بين ضحايا المرض ذلك الخريف، وقبل وفاتها بأيام قلائل كانت البنتان الصغيرتان اللتان ولدتهما للملك جوي قد لقيتا حتفهما^(٣٢). والآن

(٢٩) *Itinerarium* p. 93.(٣٠) Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 214-18; Abu Shama, pp. 480-1; *Itinerarium*, pp. 97-109 ويرد في *Itinerarium* أحداث معجزات متنوعة وفي الصفحات ١٠٩-١١ هجوم على برج الذهب وفي الصفحات ١١١-١١٣ هجوم رئيس أساقفة بيسانسون؛ Ambroise, cols. 98-104.(٣١) *Itinerarium*, pp. 115-119; Ambroise, cols. 105-8; Abu Shama, pp. 513-14(٣٢) *Estoire d'Eracles*, II, p. 151 حيث يرد إسم البنتين على أنهما أليس وماريا؛ Ernoul, p. 267؛ Ambroise, col. 104 تاريخ وفاتها في نهاية أغسطس، الذي يقول أنها كان لها أربعة أطفال؛ ويرجع

أصبحت الأميرة أيزابيلا هي وريثة المملكة، وبات عرش جوى في خطر ، إذ أنه قد فاز بالتاج كزوج للملكة . فهل تبقى حقوقه بعد وفاتها؟ أما بارونات المملكة الباقيين على قيد الحياة ، بقودهم باليان (أوف ايبيلين) فكانت تلك فرصتهم كي يتخلصوا من حكمه الضعيف المشرووم . وكان مرشحهم للتاج هو كونراد (أوف مونتفرات). فلو أنه استطاع أن يتزوج ايزابيلا لصارت مطالبته أقوى من مطالبة جوى . وكانت الصعوبات تكثف هذا الحل ، إذ أن شائعات قد انتشرت بأن كونراد لديه زوجة تعيش في القسطنطينية ، وربما زوجة أخرى في ايطاليا ، ولم يعبأ البتة بمحاولة إلغاء الزواج أو الطلاق . لكن القسطنطينية وايطاليا بعيدتان ، وإن كانت فيهما سيدتان مهجورتان ففي الامكان نسيانهما . على أن المشكلة الأعزل كانت تمثل في زواج ايزابيلا من همفري أمير تبين الذي لم يكن على قيد الحياة وحسب، وإنما موجود أيضا في المعسكر. وقد كان همفري شابا فاتنا وشجاعا وثقفا ، لكنه كان وسيما بصورة أثوية بحيث لم يكن الجنود الغلاظ من حوله يحترمونه ، كما لم ينس البارونات قط ضعفه الذي دفعه إلى التخلي عن قضيتهم عام ١١٨٦م عندما نال جوى التاج متحديا للشروط الواردة في وصية الملك بالدوين الرابع . فقرروا أنه لابد وأن يُطلق . وكان من اليسير اغواء همفري نفسه بالموافقة على الطلاق ، إذ لم يكن مناسبا للحياة الزوجية ؛ فضلا عن أنه امتلأ رعبا من المسؤوليات السياسية . غير أن ايزابيلا كانت أقل انقيادا منه ، إذ كان همفري دائما لطيفا معها ، ولم ترغب في استبداله بمحارب مقيت في أواسط عمره ، ولا طموحات لديها للتاج . وترك البارونات الأمر لأمها المقتدرة الملكة ماريا كومينا ، زوجة باليان . فمارست عليها سلطة الأمومة التي دفعت الأميرة العازفة في نهاية الأمر إلى أن تهجر همفري . ثم أعلنت أمام الأساقفة المجتمعين أن خال الأميرة، بلدوين الرابع، قد أجبرها على الزواج وأنها لم تكن قد تجاوزت عامها الثامن عندما تمت تربيته الارتباط . وحيث أنها في شرح الشباب ، وبالنظر إلى ما هو معروف عن همفري من نخث، فلا بد من إلغاء الزواج . وكان البطريق هيراكليوس في شدة المرض بحيث لم يتمكن من حضور الاجتماع وعين رئيس أساقفة كنتريري ليكون ممثله . ولأن هذا الأخير يعلم مدى شغف سيده الملك ريتشارد بأبناء لوسينيان ، فقد رفض النطق بإبطال الزواج ، وإنما ذكر زواج كونراد السابق وأعلن أن الزواج بين

بينما يرد في إحدى مخطوطات Ernoul تاريخ ١٥ يولية. وفي وثيقة محررة في عكا بتاريخ شهر سبتمبر ١١٩٠م ورد اسمها على أنها على قيد الحياة ، ووردت على أنها ميتة في رسالة مؤرخة في ٢١ أكتوبر. *Epistolae Cantuarenses*, pp. 228-9. ويقول Rohricht في *Regesta*, Addimentum, p.67 إنها ماتت يوم ١ أكتوبر ١١٩٠

كونراد وايزابيلا لن يكون سوى انغماس في علاقة زنا . على أن كونراد كان قد فاز برئيس اساقفة بيزا، الذي كان مندوبا بابويا، لمناصرة قضيته في مقابل - هكذا قيل - امتيازات تجارية لأبناء بلدته ؛ وقام اسقف بوفيه - وهو من أبناء عمومة الملك فيليب - باستغلال موازنة المندوب البابوي لضمان الاتفاق العام على طلاق ايزابيلا ، وقام هو نفسه بتزويجها من كونراد يوم ٢٤ نوفمبر ١١٩٠ م . وشعر أبناء لوسينان بالحنق من هذا الزواج الذي أطاح بحق جوي في العرش ، وتعاطف معهم للغاية أتباع الملك ريتشارد القادمين من إنجلترا ونورماندي وغين^(٣٣) . أما بلدوين رئيس الأساقفة ، وهو متحدثهم الرئيسي ، والذي راح يقذف أوامر الطرد من الكنيسة لكل من له صلة بهذا الأمر ، فقد مات فجأة يوم ١٩ نوفمبر . وبذل المؤرخون الإنجليز كل ما في وسعهم لتلطيف ذكرى كونراد . ومضى جوي نفسه شأوا بعيدا بحيث تحدى كونراد لملاقاته في نزال فردي ، لكن كونراد رفض حتى قبول مناقشة هذا الأمر، بعدما أيقن من أن حقه المشروع قد أصبح الآن في جانبه ، وقد رمي أبناء لوسينان كونراد بالجبن . غير أن كل من كان حريصا على مستقبل المملكة كان على يقين من أنه لكي يستمر الخط الملكي ، كان ينبغي لإيزابيلا أن تتزوج مرة أخرى وأن تنجب طفلا ؛ وكان من الواضح أن كونراد ، الذي انقذ صور ، هو الذي يقع عليه اختيارها . ومكث العروسان في صور حيث ولدت ايزابيلا في العام التالي بنتا سُمّتها ماريا كي تكون سميّة لجدتها البيزنطية . وكان كونراد - محقا في رفضه لقب الملك إلى أن يتم تنويجه هو وزوجته ، ورفض العودة إلى المعسكر لأن جوي رفض التنازل عن أي من حقوقه^(٣٤) .

(٣٣) (المترجم) Guienne, Guyenne: منطقة تاريخية تقع جنوب غرب فرنسا.

(٣٤) Ernoul, pp. 267-8؛ وترد الرواية الأكثر اكتمالا وبأسلوب يخلو من الهوى في الجزء الثاني ، الصفحات ١٥١-٤ من *Estoire d'Eracles* ؛ أما الروايتان الواردتان في 110-12 cols. Ambroise ، وفي 119-24 pp. *Itinerarium* ، فكلتاهما مشربتان بالعداوة المريرة إزاء كونراد وباليان والمملكة ماريا كومنينا . وقد جاء في *Itinerarium* أن ايزابيلا رضيت طواعية، بينما من الواضح في *Eracles* أنها لم ترض إلا لأن رضاها كان واجبها السياسي . واستادا إلى Ernoul ، رضي همفري بالطلاق لأنه حصل على الرشوة . فجعلته ايزابيلا يحتفظ باقطاعية تبين التي كانت في حوزة جده ثم ضمها بلدون الرابع إلى التاج . وبقينا كانت زوجة كونراد الإيطالية قد ماتت قبل زواجه من الأميرة البيزنطية ثيودورا أنجيلينا (Nicetas Choniates, p.497) ومن أسلوب رواية المؤرخ نيكيتاس يتمثل أن زوجته البيزنطية كانت قد ماتت هي الأخرى (المرجع السابق) . pp. 516-17 وأما جوي (أوف سينليس) الذي عرض تحدي همفري في نزال إذا عارض الطلاق ، فقد أسره العرب عشية الزواج

١١٩١م : المجاعة في المعسكر الفرنجي

واستمر الصليبيون في بلاياهم طوال أشهر الشتاء ، ووصلت صلاح الدين تعزيزاته من الشمال وبات الحصار محكما الآن حول معسكر الفرنج ، فلا الطعام يصلهم برا ولا البحر الهائج الهادر شتاءً يسمح بتوصيل الكثير اليهم في أشهر الشتاء ، بينما تستطيع سفن العرب أن تشق طريقها حربا من حين لآخر إلى المرفأ في عكا. ومن بين اللوردات الذين لقوا حتفهم من المرضى في المعسكر تيبالد (أوف بلوا) وأخوه ستيفن (أوف سانسير)^(٣٥). وفي ٢٠ يناير ١١٩١م مات فريدريك (أوف سوايبا)، ووجد الجنود الألمان أنفسهم بلا قائد رغم أن ابن عمه ، ليوبولد كونت النمسا الذي وصل من فينيسيا في باكورة الربيع ، حاول تنظيمهم تحت رايته^(٣٦). وكان هنري (أوف شامباني) مريضا لأسابيع كثيرة بحيث باتت زوجته يائسة من شفائه^(٣٧) والقى الكثير من الجنود ، وخاصة الإنجليز ، باللائمة على كونراد لما هم فيه من بؤس لأنه كان يمضي الوقت يداعب زوجته ورفض أن يخف لمساعدتهم . غير أنه مهما كانت دوافعه ، فمن الصعب أن نتخيل ما كان بوسعه أن يفعله، خاصة وان المعسكر كان بالفعل مزدحما بدونه^(٣٨) ومن حين لآخر كانت هناك محاولات لتسلق الأسوار ، وبصورة ملحوظة يوم ٣١ ديسمبر ، عندما تحرك حطام سفينة اغاثة عربية ليقف عند مدخل المرفأ ، فصرف انتباه الحامية ، لكن محاولة الفرنج باءت بالفشل . وبعد ستة ايام انهار جزء من سور المدينة من ناحية البر، ولم يستطع الصليبيون انتهاز تلك الفرصة كذلك ، وهرب الكثير منهم إلى المسلمين . وبفضل مساعدة صلاح الدين ، وجهاز جواسيسه الماهر ، تمكن من ارسال قوة اخترقت خطوط الصليبيين يوم ١٣ فبراير ، ودخل المدينة قائد جديد وحامية جديدة لإغاثة المدافعين عن المدينة الذين نال منهم التعب والرهق ، لكنه تردد

(٣٥) أورد المؤرخ Haymar Monachus موت تيبالد وأخيه في De Expugnatione Acconis, p.38. ونحن التي ابتلي بها الصليبيون في Itinerarium في الصفحات ١٢٤-٣٤، مع قصيدة من الشعر تلحن كونراد! كما أن Ambroise, cols. 112-15 يلقى باللائمة على كونراد. ويذكر Beha ed-Din, P.P.T.S.p.236 موت الكونت باليات.(Tibald)

(٣٦) أورد بهاء الدين Beha ed-Din, P.P.T.S. loc.cit. موت فريدريك (أوف سوايبا). وأورد Ansbert في Expeditio Friederici, pp.96 وصول ليوبولد ملك النمسا مع مجموعة من أبناء الراين Rhinelanders من فينيسيا. وأمضى الشتاء في زارا. وكان ابن أخي فريدريك بارباروسا، هنري ملك النمسا وثيودورا كومينا

(٣٧) Beha ed-Din, loc. cit..

(٣٨) Itinerarium, loc. cit.

هو نفسه في شن هجوم نهائي على معسكر المسيحيين ، إذ كان الكثير من جنوده في حالة إرهاق ، وعندما وصلت التعزيزات كان قد أرسل فصائل إلى أماكن بعيدة للراحة. وبدأ أن البؤس في معسكر المسيحيين يقوم بالمهمة بدلا من قيام صلاح الدين بانجازها^(٣٩).

ومرة أخرى جاوز جلم صلاح الدين حد الحكمة. وباقتراب فترة الصوم الكبير للمسيحيين بدا أن الفرنج لن يقدرُوا على البقاء طويلا . فكانت عملة البنس (الدرهم الصغير الفضي) في المعسكر ثمننا لمجرد ثلاث عشرة حبة من الفاصوليا أو ثمننا لبيضة واحدة ، وكان ثمن حوال الحبوب مائة قطعة ذهبية . وذبح الكثير من أكرم الجياد سدا لأفواه أصحابها . وكان الجندي العادي يأكل العشب ويقضم ما يجده من عظام . وحاول الأساقفة ورجال الدين تنظيم نوع من التخفيف ، لكن العقبة تمثلت فيما كان عليه تجار بيزا من بخل ، فهم الذين كانوا يسيطرون على أغلب امدادات الطعام . على أنه في شهر مارس ، وعندما بدا كل شيء باعثا على اليأس ، وصلت سفينة مليئة بالحبوب وتمكنت من إفراغ حمولتها على الشاطئ ، وبتحسن الجو تبعثها سفن أخرى . فكان الترحيب بها مضاعفا ، إذ انها لم تكن تحمل المواد الغذائية وحسب ، وإنما كانت تحمل أيضا أنباء مفادها أن ملكي فرنسا وإنجلترا قد وصلا أخيرا إلى مياه الشرق^(٤٠).

(٣٩) Abu Shama, pp. 517-18; Ibn al-Athir, II, pp. 32-3

(٤٠) Itinerarium, pp. 136-7; Ambroise, cols. 119-20

الفصل الثالث:

قلب الأسد

قلب الأسد

"لأنى أتى بشر من الشمال وكسر عظيم.
قد صعد الأسد من غابته وزحف مهلك الأمم"
(ارميا ٤ : ٦-٧)

هبط الملك فيليب أوغسطس إلى البر عند المعسكر أمام عكا يوم ٢٠ ابريل ١١٩١م في يوم السبت التالي لعيد الفصح ، وبعد سبعة اسابيع ، وفي يوم السبت التالي لأحد العنصرة ، هبط الملك ريتشارد ، بعد أن انقضى ما يقرب من أربع سنوات على معركة حطين والنداء اليائس إلى الغرب للمساعدة . ورحب الجنود المرهقون المحاربون على الساحل الفلسطيني بالملكين وقد أخذ منهم السرور كل مأخذ بحيث غفروا أو تناسوا هذا التأخير الطويل . على أن المؤرخ العصري يرى شيئا من العبث في رحلة ريتشارد المتمهلة المشاكسة إلى ميدان المعركة حيث كان مطلوبا بغاية السرعة.

ومن اليسير أن نتفهم تريث الملك فيليب وإيثاره عدم التعجل ، إذ ليس هو بالرجل المثالي ، وإنما ذهب يحارب حربا صليبية من منطلق الضرورة السياسية لا أكثر. ولو أنه أحجم عن المغامرة المقدسة لخسر النوايا الحسنة لا من الكنيسة وحسب ، وإنما من

أغلب رعاياه . فكانت مملكته ضعيفة مهددة ، وكان على حق لأن يرتاب في طموحات الأنجفين^(١)، ولذا لم يكن بوسع الرحيل عن فرنسا إلى أن يستوثق من أن غريمه الإنجليزى في طريقه هو الآخر . وكانت الحكمة تستدعي أن يشرعا في الرحيل معا . كما لا يلام أي من الملكين للتأخير النهائي الذي سببه موت الملكة الفرنسية . وكان لريتشارد بعض الأعذار المعينة أيضا، إذ أجبره موت أبيه على إعادة تنظيم المملكة ، فضلا عن ذلك ، كان ينوى الارتحال بحرا كشأن فيليب ؛ وكان الرحيل بالبحر غير عملي خلال أشهر الشتاء . على أن ضالة ما يديه الصليبي من تلهف أصيل تظهر غيبة الهدف والمسؤولية كلاهما.

الملك ريتشارد والملك فيليب

ولقد كانت في شخصية ريتشارد عيوب جسيمة ؛ فمن الناحية البدنية كان فاتنا، فارعا طويل الأوصال وقويا، ذا شعر ذهبي يميل إلى الحمرة وملامح فيها وسامة ، وقد ورث عن أمه ليس فقط ما يتميز به آل بواتو من وسامة ، وإنما ورث عنها أيضا طريقتها الجذابة وشجاعتها وتذوقها للشعر والرومانسية ، وكان اصداؤه وخدمه يتبعونه في مهابة وتفان. وقد أخذ عن والديه كليهما طبعاً حاداً وإرادة عاطفية . على أنه لم يرث عن والده ذكاءه السياسي ولا اقتداره الإداري ، كما لم يأخذ من الملكة إليانور حسنها السليم . إذ أنه قد نشأ في بيئة تحيطها المشاحنات العائلية والخيانة الأسرية ؛ ولأنه كان الابن المدلل المفضل لدى أمه فقد كره أباه ، وفقد الثقة في اخوته رغم أنه أحب أخته الصغرى جوانا . ولقد تعلم أن يكون محاربا عنيفا لا أن يكون محاربا مخلصا. وكان شحيحا مقتررا وإن كانت به قدرة على الإتيان بلفتات سخية . وكان ولوعا بمظاهر التباهي بالتبذير . وكانت له طاقة ليس لها حدود ، غير أنه في فورة حماسه بما يشغله ينسى المسؤوليات الأخرى ؛ وكان يحب النظام لكنه كان يملكه الضجر من الإدارة ، ولم يكن يستحوذ على انتباهه سوى فن الحرب ، وكجندي كانت له ملكات حقيقية ، واحساس بالاستراتيجية والتكتيكات والقدرة على قيادة الرجال . وهو الآن في الثالثة والثلاثين من عمره ، في شرح الحياة ، شخصية ساحرة لها شهرة سبقته إلى

(١) (المترجم) : Angevin نسبة الى اقليم أنجو Anjou غربي فرنسا؛ أو من ينتمي الى ملوك إنجلترا Plantagenet 1154-1399.

الشرق^(٢).

أما الملك فيليب أوغسطس فكان مختلفا جدا . إذ كان أصغر من ريتشارد بشماني سنوات ، وأن كان قد امضى فعلا ما يزيد على عشر سنوات كملك ، وقد علمته تجاربه المريعة الحكمة . ولم يكن ندا لريتشارد من الناحية البدنية ، وإنما كان ذا بنية جيدة وكومة من شعر أشعث وقد فقدت إحدى عينيه القدرة على البصر . ولم يكن هو شخصيا يتصف بالشجاعة ، ورغم أنه كان سريع الغضب ويطلق لأهوائه عنانها فقد كانت لديه القدرة على حجب عواطفه ، ولم يكن يحب التفاخر لا عاطفيا ولا ماديا . وكان بلاطه باعثا على الملل متقشفا ، ولم يكن يعبا بالفنون ، كما لم يكن على قدر من التعليم رغم إدراكه لقيمة المتعلمين وكان يسعى من قبيل السياسة إلى اكتساب صداقتهم والحفاظ عليها بما له من فطنة ووعده البليغ . وكسياسي كان صبورا ، يقظا ما كرا غادرا بلا ضمير . لكنه كان ذا احساس طاع بواجباته ومسؤولياته . وبرغم تقتيره وشحه على نفسه وعلى أصدقائه كان كريما مع الفقراء ، يحميهم من ظالمهم . كان رجلا مُنفرا غير محبوب ، لكنه كان ملكا طيبا . ومن بين فرنج الشرق كان يتمتع بمكانة خاصة ، إذ كان السيد الأعلى للأسر التي أنجبتهم جميعا تقريبا ، وكان أغلب الصليبيين الزائرين أتباعا له بصورة مباشرة أو غير مباشرة . لكنهم كانوا يحسنون تقدير ريتشارد لشجاعته وبسالة فروسية وجاذبية ؛ وبالنسبة للعرب بدا ريتشارد الأكثر نبلا من قرينه ، والأكثر ثراء ، والأعظم^(٣).

وانطلق الملكان معا من فيزيلاي يوم ٤ يولية ١١٩٠ م . وكان ريتشارد قد سبق وأرسل أسطول له للبحار حول الساحل الأسباني ومقابلته في مرسيلىا ، لكن القوة البرية كلها تقريبا كانت معه ، وأما جيش فيليب فكان أصغر إذ أن الكثير من أتباعه قد سبق ورحلوا إلى الشرق فعلا . وسار الجيش الفرنسي من فيزيلاي يتبعه الجيش الانجليزى على مقربة إلى أن وصلا ليون ، وبعد أن عبر الجيش الفرنسى نهر الرون ، انهار الجسر العابر للنهر تحت ثقل الحشود الانجليزية ، وفقدت أرواح كثيرة ، وتأخر الركب إلى أن

(٢) يرد في ص ١٤٤ من *Itinerarium* وصف لشخص ريتشارد . أما عن شخصيته فانظر ما كبه Stubbs في *introduction to the Itinerarium* ، وانظر ايضا *Norgate, Richard the Lion Heart, passim.*

(٣) يرد مديح للملك فيليب في *Continuation of William the Breton, p. 323.* أما تاريخ *Itinerarium* فيضع في كل مكان أسوأ تفسير ممكن لشخصيته ، وللاطلاع عليه انظر *Cartellieri, Philipp II August, passim.*

اعيد تنظيم النقل. وبعد أن غادر الجيشان ليون مباشرة افترق الملكان ؛ فاتجه فيليب إلى الجنوب الشرقي عبر سفوح الألب ثم لزم الساحل بالقرب من نيس ثم بطول الساحل إلى جنوا حيث كانت السفن في انتظاره ، واتجه ريتشارد إلى مرسيليا حيث انضم إليه اسطوله يوم ٢٢ اغسطس . ولم تحدث حوادث في الرحلة فيما عدا تأخير بسيط في البرتغال في شهر يونية حيث ساعد البحارة الملك سانكو في صد غزو من امبراطور مراكش. ومن مرسيليا أبحر إلى فلسطين مباشرة البعض من أتباع ريتشارد بقيادة بلدوين (أوف كنتزبرى)، لكن الجيش الرئيس ابحر في قوافل مختلفة إلى ميسينا في صقلية حيث كان يفترض أن ينضم إلى الفرنسيين مرة أخرى^(٤).

١١٩٠م : الملك تنكريد الصقلي

كان الملك وليم الثاني الصقلي قبل وفاته في نوفمبر ١١٨٩م قد اقترح أن يلتقي ملك فرنسا وملك إنجلترا بقواتهما في صقلية ، وذلك عند بدء تخطيط حملتهما الصليبية أول الأمر . وكان وليم الثاني قد تزوج من أخت الملك ريتشارد، جوانا الانجليزية، لكن الزواج لم يثمر ولدا ، ولذا ورثته خالته كونستانس، زوجة هنري (أوف هوهينشتوفن)^(٥) وهو اكبر ابناء فريديك بارباروسا. ورأي الكثير من الصقليين أن فكرة وجود حاكم الماني فكرة بغیضة لديهم ، ولذا حيكت مؤامرة قصيرة بموازرة من البابا كليمنت الثالث - الذي شعر بالخطر من توقع أن تتحكم أسرة هوهينشتوفن في جنوب ايطاليا - وضعت على العرش بدلا من كونستانس وزوجها هنري، أحد أبناء الزنا للملك الراحل ويدعى تنكريد كونت ليكي . وكان تنكريد رجلا ضئيلا قبيحا لا يثير الإعجاب قط ، ولم يكد يجلس على العرش حتى وجد نفسه في الحال يواجه المصاعب؛ إذ حدث تمرد اسلامي في صقلية ، وغزو الماني لأراضيه ؛ وقد بدأ الأتباع الذين انتخبوه يغيرون رأيهم. ولذا اضطر تنكريد إلى استدعاء رجاله وسفنه من فلسطين ، ولولاهم لما تمكن من هزيمة أعدائه . ورغم أنه كان على استعداد لاستقبال الملكين الصليبيين بمظاهر التشریف ومساعدتهما بالمؤن إلا أنه لم يكن على استعداد البتة

(٤) للإطلاع على رحلة الملك عبر فرنسا انظر *Itinerarium*, pp. 149-53؛ وانظر cols. 11 - Ambroise, 14; Benedict of Peterborough, 11, pp. 111-15; Rigord, pp. 98-9; William the Breton, pp. 95-9.

(٥) (المترجم) Hohenstaufen: اسم الأسرة الحاكمة في المانيا (١١٣٨-١٢٠٨؛ ١٢١٥-١٢٥٤) وفي صقلية (١١٩٤-١٢٦٨).

لأن يصاحبهما في حملتهما الصليبية^(٦).

وكان الملك فيليب قد غادر جنوا في نهاية اغسطس ، وبعد رحلة يسيرة على الساحل الإيطالي وصل ميسينا يوم ١٤ سبتمبر . ولنفوره من مظاهر الآبهة ، اتخذ طريقه داخل المدينة محتاطا بقر الإمكان كي لا يتطفل عليه أحد ، لكن تنكريد أصدر أوامره باستقباله بمراسم التشریف وجعله يقيم في قصر ملكي هناك . أما الملك ريتشارد فقد قر قراره على الرحيل برا من مرسيليا ، ويبدو أنه كان عزوفا عن الرحلات البحرية لأنه كان يعاني بلا شك من مرض دوار البحر . ونقل أسطوله الجيش إلى ميسينا وانتظره خارج الميناء ، بينما سار معه حفنة صغيرة من الحراس في الطريق البري بطول الساحل مخترقا جنوا ثم بيزا وأوستيا إلى ساليرنو حيث انتظر إلى أن سمع أن أسطوله قد وصل ميسينا ، ويبدو أنه عندئذ أرسل أغلب حرسه بحرا إلى ميسينا للإعداد لوصوله ، بينما استمر هو نفسه على جواد مع رفيق واحد فقط . وبينما كان مارا بمدينة ميليتو في منطقة كلابريا بالجنوب الإيطالي حاول أن يسرق صقرا من بيت أحد الفلاحين ، وأوشك القرويون الخائفون على القضاء عليه ، ولذا كان في حالة مزاجية سيئة عندما وصل إلى مضائق ميسينا بعد يوم أو يومين ، وقد قابله رجاله على الشاطئ الإيطالي واصطحبوه في مركب فخيم إلى ميسينا حيث هبط هناك يوم ٣ سبتمبر . وبدأت الفخامة المفرطة لدخوله المدينة صارخة في تعارضها مع وصول فيليب المتواضع.

وأثناء مرور ريتشارد عبر إيطاليا سمع عن تنكريد الكثير مما أغضبه ، إذ كانت شقيقته الملكة الأرملة المهيسة جوانا تحت الإقامة الجبرية التكديرية وقد حُرمت من بائنتها ، وكان لها بعض النفوذ في المملكة ، وكان واضحا أن تنكريد لم يكن يوليها ثقته . وفضلا عن ذلك ، كان وليم الثاني قد ترك ميراثا ضخما لحميه ، هنري الثاني ، يتألف من طبق ذهبي وأثاث ذهبي وخيمة حريرية وسفینتين كبيرتين مسلحتين والكثير من الأكياس المليئة بالملون . وبموت هنري ، افترض تنكريد أن بوسعه الاحتفاظ بالميراث لنفسه . ومن ساليرنو أرسل ريتشارد إلى تنكريد يطلب إطلاق سراح اخته والتخلي عن بائنتها وميراثها ، وكان لهذه الطلبات وما ورد من أنباء عن تصرفات ريتشارد في كلابريا أن تسببت في خوف تنكريد ، فتدبر أن ينزل ريتشارد في قصر خارج أسوار ميسينا ، ولكي يرضيه أرسل جوانا تصحبها حراسة ملكية لتنضم إلى أخيها ودخل في مفاوضات حول مدفوعات من الأموال بدلا من البائنة والميراث . وكان الملك فيليب ،

(٦) عن وضع تنكريد انظر. Chalandon, *Domination Normande en Italie*, 11, pp. 419-24.

الذى زاره ريتشارد بعد وصوله بيومين ، قد عرض مساعيه الحميدة ، وعندما ذهبت اليه الملكة جراناً للإعراب عن تقديرها ، استقبلها استقبالا بلغ من الود القدر الذى جعل الجميع يتوقعون أن يسمعوا عن زواجهما الوشيك . على أن ريتشارد لم يكن في مزاج يساعده على المصالحة ؛ فأولا أرسل فصيلة عبرت المضائق واحتلت مدينة باجنارا على ساحل كلابريا حيث نصبّ اخته هناك . ثم هاجم جزيرة صغيرة في مواجهة ميسينا تماما كان بها دير اغريقى ، وطرد الرهبان شر طردة ليحل جنوده مكانهم . وكانت المعاملة التى نالت من قداسة الرهبان أن جعلت الرعب يملك أهل ميسينا الذين كانوا يونانيين في أغلبهم ، بينما أثار الجنود الإنجليز حنق المواطنين الأكثر ثراء لما أقدموا عليه ازاء زوجاتهم وبناتهم.

١١٩٠م : ريتشارد يحاصر ميسينا

وفي الثالث من اكتوبر حدثت مشادة في احدى الضواحي بين بعض الجنود الإنجليز وجماعة من المواطنين أدت إلى أعمال شغب . وانتشرت في المدينة شائعة بأن ريتشارد ينوى غزو صقلية كلها ، وأغلقت البوابات في وجه رجاله ، ولم تفلح محاولة لسفنه في اقتحام المرفأ . وسارع الملك فيليب إلى استدعاء رئيس اساقفة ميسينا وقائد بحرية تنكريد ، مرجاريتوس ، وغيره من الوجهاء الصقليين إلى قصره وذهب معهم في الصباح التالي لتهدئة ريتشارد في مقر اقامته خارج الأسوار . وفي اللحظة التى بدا فيها أن هناك بعض الترتيبات للمصالحة ، سمع ريتشارد بعض المواطنين المتجمعين على تل وراء النافذة يكيلون الشتائم المهينة لإسمه ، فتملكه الهياج وغادر الاجتماع وأمر جنوده بالهجوم مرة اخرى . وفي هذه المرة بوغت المواطنون وتمكن الإنجليز من احتلال المدينة في غضون ساعات قليلة وراحوا ينهبون الأحياء كلها ولم يتركوا سوى الشوارع المحيطة بالقصر الذي ينزل فيه الملك فيليب . وبالكاد تمكن مرجاريتوس والوجهاء الآخريين من الهرب مع عائلاتهم واحتل ريتشارد منازلهم ، وأحرق الأسطول الصقلى الراسى فى المرفأ ، ولم يحن عصر اليوم الا وكانت راية البلانتاجين ترفرف على المدينة.

ولم تتوقف وحشية ريتشارد وضراوته عند هذا الحد ، فبرغم موافقته على أن ترفرف راية الملك فيليب بجاور رايته ، اجبر المواطنين على أن يدفعوا له برهائن يحتفظ بها ضمانا لحسن سلوك مليكهم وأعلن أنه على استعداد للاستيلاء على المقاطعة كلها ، وفي ذات الوقت شيد حصنا خشبيا ضخما خارج المدينة مباشرة أطلق عليه

"ماتيجريفون" أي لجام اليونانيين ، تحقيرا لشأنهم.

وشعر الملك فيليب بالقلق مما ظهر من أخلاق نظيره ، وارسل ابن عمه دوق برجندي لمقابلة الملك تنكريد في كتانيا وتحذيره من نوايا ريتشارد ، ولكي يعرض عليه المساعدة إذا ساءت الأمور، وكان تنكريد في وضع صعب إذ كان يدرك أن هنري (أوف هوهنشتوفن) على وشك غزو أراضيه، وكان مدركا أن أتباعه غير حذرين بالثقة ، وبحساباته السريعة قرر أن ريتشارد سيكون حليفا أفضل من فيليب ؛ إذ ليس من المحتمل أن يهاجمه فيليب الآن، ولم يكن ملوك فرنسا على علاقة طيبة بآل هوهنشتوفن ، فضلا عن أن صداقة فيليب في المستقبل غير يقينية . وكان ريتشارد من الناحية الأخرى يمثل اعظم شر مائل ، لكن المعروف أنه بمقت آل هوهنشتوفن وهم اعداء بنى عمومته الويلف . وهكذا رفض تنكريد عرض مساعدة الفرنسي ودخل في مفاوضات مع الإنجليز ، فعرض على ريتشارد عشرين ألف أوقية من الذهب بدلا من الميراث المستحق لهنري الثاني ، ونفس المبلغ لجوانا بدلا من بائنتها.

١١٩٠م: مفاوضات في صقلية

وفي الامكان دائما تهدئة غضب ريتشارد بمنظر الذهب ، فقبل العرض الخاص به والعرض الآخر نيابة عن اخيه ، بل أنه وافق على خطبة وريثه الصغير ، آرثر دوق بريتاني ، لإحدى بنات تنكريد ، وعندما كشف تنكريد ما اقترحه عليه فيليب ، وافق ريتشارد طواعية على أن تكتب الشروط في معاهدة وطلبا من البابا منحهما موازرتة . وهكذا حل السلام ، وبناء على نصيحة رئيس أساقفة روين أعاد ريتشارد على مضض ما صادره من منقولات مستحقة لمارجريتوس ووجهاء مواطني ميسينا.

ولقد انخدع الملك فيليب لكنه لم يجهر بالاعتراض . وفي ٨ أكتوبر ، وأثناء صياغة المعاهدة ، تقابل مع ريتشارد مرة أخرى لمناقشة المرحلة المقبلة للحملة الصليبية ؛ فوضعت قواعد مراقبة أسعار المواد الغذائية ، وتحدد ولاء الرجال لسادتهم، وخصص كل فارس نصف أمواله لاحتياجات الصليبيين ، ومُنعت المقامرة على الجميع باستثناء الفرسان ورجال الدين ، وإذا أفرطوا في اليسر يتعين معاقبتهم ، وينبغي للحجاج الذين يقعون تحت طائلة الديون أن يدفعوا ديونهم . وصدق رجال الدين على هذه اللوائح ووعدوا بمعاقبة منتهكيها بالطرد من الكنيسة . وكان من اليسر أن يوافق الملكان على هذه الأمور ، وإن لم تكن تسوية بعض الأمور السياسية على نفس القدر من اليسر ،

وبعد محاورات اتفق الملكان على اقتسام الغزوات المقبلة بينهما بالتساوى . وكانت المشكلة الأكثر حساسية تتصل بالأميرة أليس أخت الملك فيليب فمنذ سنوات طويلة أرسلوا هذه الأميرة التعسة وهي طفلة إلى البلاط الانجليزي لتتزوج ريتشارد أو أحد أبناء هنرى الثاني . وقد احتجزها هنرى الثاني برغم نفور ريتشارد من الموافقة على زواجه المقترح منها . وسرعان ما تناقل البلاط همسات قبيحة بأن هنرى نفسه قد أصبح مفرط الألفة معها . ولم يكن ريتشارد بالرجل الذي تتجه ميوله ناحية الزواج ، ولذا رفض الانقياد إلى ما أعده أبوه من ترتيبات برغم استعجال فيليب مرارا وتكرارا . وحتى بعد وفاة هنرى ، لم تكن أم ريتشارد الملكة الينورا - التى تحررت الآن بموت زوجها - لتزى ابنها المفضل مقيدا بفتاة من أسرة تمقتها ، بل فتاة كانت تعتقد أنها عشيقة زوجها الراحل . ولحرصها على مصالح مواطنيها من أبناء منطقة جين التى نشأت فيها عازمت على تزويجه من إحدى أميرات نافار ، وقد قبل اختيارها^(٧) . وهكذا ، وعندما أثار فيليب مرة أخرى مسألة زواج اخته أليس ، رفض ريتشارد أن يعير الموضوع أي اعتبار قائلا إن سمعة أليس تحول بينه وبين التفكير فى زواجه منها . وكانت الاهانة فوق احتمال فيليب ، رغم أنه كان دائم اللامبالاة بسعادة أسرته ، ولم يتدخل قط لمساعدة اخته البائسة آجنس أرملة الامبراطور الكسيوس الثاني البيزنطى . ولذا زادت علاقته بريتشارد برودا على برود وقرر مغادرة ميسينا في الحال إلى الشرق ، لكن عاصفة هوجاء أعادته إلى صقلية بعد يوم من إبحاره . ولأنه الآن في منتصف اكتوبر فقد قرر أن الحصافة تدعوه لقضاء الشتاء في ميسينا . ويبدو أن ذلك ما كان ينتويه ريتشارد دائما ، ولم توقع معاهدته مع تنكريد الا في ١١ نوفمبر . وفي الرقت ذاته أرسل يطلب من أمه إرسال الأميرة برينجاريا النافارية لتلحق به في صقلية .

وانصرم الشتاء هادئا في صقلية . وفي يوم عيد الميلاد أولم ريتشارد وليمة تقطر سخاء في حصن ماتيجريفون (لجام اليونانيين) ، دعا اليها ملك فرنسا ونبلأ صقلية . وبعد أيام قلائل اجتمع في مقابلة مشيرة بالراهب يواخيم المسن رئيس دير كورازو ومؤسس نظام فيورى الدينى . وشرح له القديس المبجل معنى سفر الرؤيا . فقال له أن رؤوس التنين السبعة هى : هيرود ونيرون وكونستانتينوس ومحمد وميلسموث (وربما كان يعنى به عبد المنعم مؤسس طائفة الـ Almohad) وصلاح الدين وأخيرا المسيح الدجال

(٧) (المترجم): تقع منطقة جين التاريخية Guienne في جنوب غرب فرنسا المسماة حاليا اكيٲان Aquitaine. واما نافار التاريخية Navarre فهى مملكة قديمة تقع حاليا شمال شرق اسبانيا وجنوب غرب فرنسا.

نفسه الذى ، كما أعلن ، ولد بالفعل قبل ذلك بخمس عشرة سنة في روما وسوف يجلس على العرش البابوى . ورد ريتشارد ردا يفتقر إلى الأدب لم يلق الترحيب من القديس ، قائلا أن المسيح الدجال ربما كان هو البابا الحالي كليمنت الثالث الذى قال إنه هو نفسه يبغضه ؛ ولم يتفق معه القديس في أن المسيح الدجال قد ولد من قبيلة دان البابلية أو الأنطاكية ولا أنه سوف يحكم في القدس . على أن ريتشارد ابهجه أن يسمع من يواخيم أن المنتصر في فلسطين سيكون ريتشارد وأن صلاح الدين سرعان ما سيقتل . وفي فبراير نظم ريتشارد مباريات مبارزة رياضية تشاجر اثناءها مع الفارس الفرنسي وليم (أوف بار) ، لكن فيليب تمكن من مصالحتهم . والواقع أن ريتشارد تصرف تصرفا سليما جدا إزاء فيليب ، بل أنه اعطاه بعد ايام قليلة عدة سفن كانت قد وصلت مؤخرا من إنجلترا . وفي ذات الوقت سمع أن أمه الملكة الينور والأميرة بيرينجاريا قد وصلتتا نابلي فأرسل من يقابلهما ويصطحبهما إلى برنديزى إذ كانت حاشيتهما فائقة الضخامة بحيث لا تتحملها ميسينا بمواردها المحدودة ، خاصة وأن كورت فلاندرز قد وصل ميسينا لتوه مع صحبة كبيرة للغاية .

وباقتراب الربيع تأهب الملكان لاستئناف رحلتهما . فذهب ريتشارد إلى كنانيا لزيارة تنكريد وأقسم معه قسم صداقة أبدى . وتحركت مشاعر الخوف لدى الملك فيليب من هذا التحالف فلحق بهما في تورمينا ، وهو على استعداد الآن لأن يصلح على عجل جميع خلافاته مع ريتشارد ، وأعلن رسميا أن لريتشارد كامل الحرية في أن يتزوج من يرغب في اختيارها . وعندما أبحر فيليب يوم ٣٠ مارس مع كل رجاله من ميسينا كانت مشاعر حسن النية على عمومها تغلب عليه . وما أن أبحر من الميناء حتى وصلته الملكة الينور والأميرة بيرينجاريا . ولم تبق الينورا مع ابنها سوى ثلاثة ايام ثم شدت رحلها إلى إنجلترا متخذة طريق روما لك تتوقف لدى البلاط البابوي لإنجاز بعض المهام لابنها ، وبقيت الأميرة بيرينجاريا في صحبة دائمة مع الملكة جوننا^(٨) .

وأخيرا غادر ريتشارد ميسينا يوم ١٠ ابريل بعد أن فكك حصن ماتيجريفون (لجام

(٨) ترد قصة تصرفات الملك في صقيلة بالكامل في *Itinerarium*, pp. 154-77 ؛ وكذلك عند Ambroise, cols. 14-32 وكلاهما يؤيد ريتشارد بشدة ؛ وانظر، Benedict of Peterborough, II, pp. 126-60 الذى يورد أكثر الروايات اكتمالا ويتضح انه اكثر قليلا من الناحية الموضوعية ؛ أما Rigord, pp. 106-9 ، فانه يقول ضمنا إن فيليب كان متلهفا على الاستمرار في الحملة الصليبية بينما كان ريتشارد يضع الصعوبات . وانظر Chalandon, op. cit. II, pp. 435-42. ويورد Benedict (II, pp. 151-5) مقابلة ريتشارد مع يواخيم ، ومن الواضح انها قائمة على اساس معلومات من شخص كان حاضرا في المقابلة

اليونانيين) . وشعر تنكريد بالأسف لرحيله وكان له ما يبرر ذلك ؛ إذ أن البابا كليمنت الثالث مات في نفس ذلك اليوم في روما ، وبعد أربعة ايام تمت رسامة كاردينال سانتا ماريا في كوزميدين على أنه البابا سيلستين الثالث . وكان هنرى (أوف هوهنشتوفن) في روما آنذاك ، وكان أول ما فعله البابا الجديد أن قام تحت الضغوط بتتويجه هو وكونستانس الصقلية امبراطورا وامبراطورة.

وأبحر فيليب بأسطوله الفرنسي بسلام إلى صور حيث استقبله بترحاب كبير ابن عمه كونراد (أوف مونتفرات) ، ووصل مع كونراد إلى عكا يوم ٢٠ ابريل ، وفي الحال تم تشديد الحصار على هذه القلعة الاسلامية . وبدأت أعمال الحصار الحربي جذابة لفيليب بمزاجه الصبور الخلاق ، فأعاد تنظيم آلات الحصار وبنى الأبراج للمحاصرين، غير أنه تقرر تأجيل محاولة الهجوم على الأسوار إلى أن يصل ريتشارد ورجاله^(٩).

١١٩١م : الأسطول الإنجليزي يصل مياه قبرص

وكانت رحلة ريتشارد أقل أمانا . إذ سرعان ما هبت رياح قوية فرقت هذا الأسطول الصغير ، وأمضى الملك نفسه يوما في ميناء بجزيرة كريت ، وأبحر منه في مياه عاصفة إلى جزيرة رودس حيث بقي عشرة ايام من ٢٢ ابريل إلى ١ مايو ، في فترة نقاهة مما يصيبه من دوار البحر . وفي تلك الأثناء ضاعت إحدى سفنه في عاصفة ، بينما ألقت الرياح بثلاث سفن أخرى إلى قبرص ، من بينها السفينة التي تقل الملكة جوانا وبيرينجاريا ؛ وتحطمت سفينتان على الساحل الجنوبي للجزيرة ، لكن الملكة جوانا تمكنت من الوصول إلى مرسى أمام ميناء ليماسول.

وكانت قبرص طوال خمس سنوات تحت حكم اسحق دو كاس كومنينوس الذي نصب نفسه امبراطورا بعدما نجح في تمردده على بيزنطة وقت استخلاف اسحق أنجيلوس، والذي تمكن من الحفاظ على استقلاله بتحالفات هشة، فتارة مع الصقليين ، وتارة مع أرمن كيليكيا، وثالثة مع صلاح الدين لقد كان مشاكسا يكره اللاتينيين ولم تكن له شعبية على الجزيرة لما كان يفرضه من ضرائب باهظة. وكان الكثير من رعاياه لا يزالون يعتبرونه متمردا ومغامرا . ولقد كان لظهور الأساطيل الفرنجية الضخمة امام الشواطئ القبرصية أثره في احساسه بالخطر ، لكنه واجه المشكلة على نحو يخلو من الحكمة . ذلك

(٩) *Estoire d'Eracles*, II, pp. 155-6; Rigord, p. 108; Abu Shama, II, p. 6 .

أنه عندما تمكن بحارة ريتشارد من الوصول إلى الشاطئ بعد تحطيم سفينتهم ، اعتقلهم وصادر كل ما امكنهم انقاذه من بضائع ، ثم أرسل مبعوثا إلى سفينة الملكة جوانا يدعوها هي وبيرينجاريا إلى الهبوط إلى الشاطئ ؛ لكن الملكة جوانا كانت تعلم من التجارب قيمتها هي نفسها باعتبارها رهينة محتملة ، فردت بأنها لا تستطيع مغادرة السفينة دون إذن أخيها ، والتمست السماح بإرسال من يحضر لها الماء من الشاطئ ، فرفض طلبها بطريقة فظة تخلو من الكياسة . بل أن اسحق جاء بنفسه إلى ليماسول وبنى التحصينات بطول الساحل لمنع أية محاولة للهبوط إلى الشاطئ.

وفي ٨ مايو، أي بعد أسبوع من وصول جوانا أمام شواطئ ليماسول، لاح اسطول ريتشارد على مرمى البصر . وقد كان إبحاره من رودس شنيعا ، وأوشكت سفينة ريتشارد ذاتها أن تتحطم في خليج أتاليا ، ولم يكن لدوار البحر اثره في تلطيف مزاج ريتشارد ، وعندما سمع بما لقته اخته وخطيبته من معاملة أقسم على الانتقام . وعلى الفور بدأ في إنزال الرجال بالقرب من ليماسول وزحف على المدينة ؛ ولم يقاوم اسحق وإنما انسحب إلى قرية كيلاني على سفوح ترودوس . ولقي ريتشارد الترحيب في ليماسول ليس فقط من التجار اللاتين المستقرين في المدينة ، وإنما أبدى اليونانيون صداقتهم للغزاة من منطلق بغضهم لإسحاق الذي أبدى استعدادا من ثم للتفاوض . وبمنحه الأمان جاء إلى كولوسي وذهب إلى معسكر ريتشارد حيث وافق على دفع تعويض عن البضائع التي سرقها والسماح للجنود الانجليز بشراء المون معفاة من الرسوم الجمركية وإرسال قوة رمزية من مائة رجل مع الحملة الصليبية رغم أنه رفض مغادرة الجزيرة هو نفسه ، وعرض إرسال ابنته رهينة إلى ريتشارد.

وقد اقتنع اسحق من زيارته للمعسكر أن ريتشارد ليس بالرجل المرعب كما كان يُظن . ولذلك، وما أن عاد إلى كولوسي حتى تنكر لاتفاقه وأمر ريتشارد بالرحيل عن اراضيه . لقد ارتكب غلطة حمقاء . وكان ريتشارد قد سبق وأرسل سفينة إلى عكا لتعلن عن وصوله الوشيك إلى قبرص ، وفي ١١ مايو، وهو اليوم الذي تقابل فيه اسحق مع ريتشارد وعاد إلى كولوسي، دخلت إلى ميناء ليماسول سفن تحمل أبرز الصليبيين المعارضين لكونراد جميعا؛ فكان عليها الملك جوى وأخوه جيوفري، وكونت لوسينيان وهو أحد أبرز أتباع ريتشارد في فرنسا، وكان عليها بوهمند كونت انطاكية مع ابنه ريموند، وكان عليها الأمير ليو الروبيني الذي خلف مؤخرا أخاه روبين، وكان هناك همفري سيد تبنين وهو زوج ايزابيلا المطلق، كما كان هناك الكثير من فرسان المعبد البارزين . ولأن فيليب انحاز إلى جانب كونراد، فقد جاءوا ليضمنوا مؤازرة ريتشارد

لحزبهم، ورأي ريتشارد أن قوته تعاضمت بمحيتهم ، فقرر غزو الجزيرة بكاملها. ولا شك في أن زائريه أكدوا له أهميتها الاستراتيجية في الدفاع عن الساحل السوري كله ، والمخاطر الماثلة لو أن اسحق دخل في تحالف وثيق للغاية مع صلاح الدين . لقد كان غزو الجزيرة فرصة سانحة لا ينبغي تفويتها.

١١٩١م : ريتشارد يغزو قبرص

وفي ١٢ مايو احتفل ريتشارد بزواجه من بيرينجاريا في كنيسة القديس جورج الصغيرة في ليماسول ، وتوجها أسقف إيفريو ملكة لإنجلترا ، وفي اليوم التالي جاءت السفن المتبقية من الاسطول الانجليزي . أما اسحق ، الذي كان مدركا للخطر المحدق به، فقد انتقل إلى فاماغوستا ، وتبعه بعض الانجليز برا والباقي بحرا . ولم يذلل الامبراطور أية محاولة للدفاع عن فاماغوستا ، وانما انسحب إلى نيقوسيا . وبينما كان ريتشارد في فاماغوستا جاءت الرسل من فيليب ومن لوردات فلسطين تحثه على الاسراع إلى فلسطين . لكنه رد بغضب قائلا إنه لن يتحرك حتى يستولى على قبرص التي ركز على أهميتها لهم جميعا . وكان من المفترض أن يذهب أحد مبعوثي فيليب، وهو باجان أمير حيفا ، إلى اسحق تأكيدا لتحذيره . فأرسل اسحق زوجته ، وهي اميرة ارمينية ، وابنته إلى قلعة كيرينيا ، ثم سار جنوبا باتجاه فاماغوستا ، وقابله جنود ريتشارد بالقرب من قرية تريميثوس وهزموه بعد التحام شديد قيل إنه استخدم فيه سهام مسمومة . وهرب من ساحة القتال إلى كانتارا ، ودخل ريتشارد نيقوسيا دون مقاومة ، فقد أظهر قبارصة نيقوسيا لامبالاتهم بمصير اسحق ، بل إنهم كانوا على استعداد لمساعدة الغزاة.

وفي نيقوسيا سقط ريتشارد مريضا ، وكان اسحق يأمل في أن تصمد قلاع الأربع الشمالية الضخمة ، كانتارا وبوفافينتو وسانت هيلاريون وكيرينيا ، إلى أن يكمل ريتشارد من الحرب ويرحل باسطوله ، لكن الملك جوى الذي كان أمرا لجيش ريتشارد زحف على كيرينيا واستولى عليها ، وأسر الامبراطورة وطفلتها ، ثم بدأ محاصرة سانت هيلاريون وبوفافينتو . وتلفت اسحق فوجد نفسه محروما من أسرته ، ورعاياه في حالة من الفتور أو العداوة حياله ، ففقد اتزانه واستسلم بلا قيد أو شرط ، واقتيد ليمثل أمام ريتشارد في سلاسله الفضية الثقيلة . وبنهاية شهر مايو كانت الجزيرة كلها في قبضة ريتشارد.

وكانت الأسلاب التي حصل عليها ريتشارد فائقة الضخامة؛ إذ كان اسحق قد كسب ثروة هائلة من جباياته من الضرائب . واشترى الكثير من نبلاته حسن نوايا سيدهم الجديد بالهبات السخية ، وسرعان ما أوضح ريتشارد أن المال هو الذي يشغل جُلَّ اهتمامه ، وفرض على كل يوناني ضريبة على رأسماله قدرها خمسين في المائة ، على أنه في المقابل أكد بقاء القوانين والمؤسسات التي كانت قائمة أيام مانويل كومنينوس . ووضع الحاميات اللاتينية في قلاع الجزيرة ، وعيّن انجليزين هما ريتشارد (أوف كامفيل) وروبرت (أوف تورنهام) كلا في منصب المندوب السامي وأُنيط بهما الاشراف على الادارة في الجزيرة إلى أن يقرر ريتشارد مصيرها النهائي . وسرعان ما اكتشف اليونانيون أن فرحتهم بسقوط اسحق ليس لها دعامة ترتكز عليها ، إذ حُرموا من الاشتراك في حكومتهم ، وأمروا بحلق لحاهم كعلامة على حالة الخنوع الذليل التي باتوا فيها^(١٠).

أما ريتشارد نفسه فقد بدا له أن غزوه لقبرص قد أتاح له ثروة لم يكن يتوقعها . وواقع الأمر أن ذلك الغزو كان أكثر منجزاته بقاءً وتعبيراً عن بعد نظره من كل ما انجزه في الحملة الصليبية ؛ ذلك أن امتلاك الفرنج لقبرص أطال عمر أراضيهم في فلسطين ، وتجاوز بقاء منشأتهم التي أقاموها في الجزيرة منشأتهم في سوريا بقرنين من الزمان . على أن الغزو كان نذير شر لليونانيين . فإن كان الصليبيون على استعداد واقتدار على ضم مقاطعة ارثوذكسية، أفلا يغريهم ذلك في الإسراع في شن حرب مقدسة طال تلهفهم عليها ضد بيزنطة؟

(١٠) يرد غزو ريتشارد لقبرص بغاية الإكمال في *Itinerarium*, pp.177-204، وفي cols. 35 - Ambroise، 57، وباكمال أقل بصورة طفيفة في *Benedict of Peterborough*, II, pp. 162-8، وانظر *William of Newbury*, II, pp. 59 ff.; *Richard of Devizes*, pp.423-6 الإنجليزية وما قام به ريتشارد من مهمة موحدة وارد في *Epistolae Cantuarenses*, p.347. أما إيرنول *Ernoult* ص: ٢٠٧-٢١٣، وتاريخ هرقل *Estoire d'Eracle* جزء ٢، ص ١٥٩-٧٠) وأورد *Mas Latrie* روايات مختلفة في *Documents*, II, pp.1 ff.III, pp.159-70، عارضا وجهة نظر الشرق الفرنجي (اورتميه) المؤيدة لريتشارد. ويرر *Rigord*, pp.109-10، وكذلك *William the Breton*, pp. 104-5 ما فعله ريتشارد بسبب رفض القبارصة مساعدة الصليبيين. وتوجد رواية كاملة كتبها أحد اليونانيين يدعى *Neophytus*، شديد العداء لإسحاق، لكنه يأسى للغزو، منشورة في مقدمة *Stubbs's edition of the Itinerarium*, pp.clxxxv-clxxxix (De Calamitatibus Cypri). *Nicetas Choniates* (p.547) الغزو باقتضاب. كما يورد أبو شامة (II, p.8) *Abu Shama* وبهاء الدين *Beha ed-Din* (P.P.T.S.p.242) الغزو بإيجاز. ولكن ابن الأثير (II, pp.42-3) *Ibn al-Athir* يقول إن ريتشارد استولى على الجزيرة بطريق الخيانة. ويذكر كل من أبي شامة وبهاء الدين أن بعض المسيحيين المرتدين القادمين من اللاذقية قد أغاروا على الجزيرة قبل ذلك بأشهر قليلة. انظر *Hill, History of Cyprus*, I, pp.314-21.

وفي الخامس من يونية أبحر الأسطول الانجليزي من فاما جوستا قاصدا الساحل السوري . وكان الإمبراطور اسحق على ظهر الاسطول أسيرا لدى الملك جوى ، وأما ابنته الصغرى فقد ألحقت ببلاط الملكة جوانا كي تتعلم عندها أسلوب الحياة الغربية . وكان أول ما شاهدته الملك ريتشارد من الساحل السوري هو قلعة المرقب . وبعد أن ظهرت له الياسة تحول مبحرا جنوبا مرورا بطرطوس وجبيل وبيروت وهبط بالقرب من صور مساء يوم ٦ يونية . ورفضت حامية المدينة دخوله بناء على أوامر فيليب وكونراد ، ومن ثمّ واصل طريقه بحرا إلى عكا وسره أن يشاهد سفنه وهي تفرق غليوننا عربيا كبيرا . ووصل أمام المعسكر يوم ٨ يونية^(١١) .

١١٩١م : وصول ريتشارد إلى معسكر الصليبيين

تجددت الثقة في النفس ، وعلت آمال الجنود المرهقين في حصارهم لعكا ، بوصول الملك ريتشارد على رأس خمسة وعشرين غليوناً ، فارتفعت المشاعر احتفالاً بمجيئه ، وقرعت الطبول في انحاء المعسكر . وكان ملك فرنسا قد شيد الكثير من آلات الحصار المفيدة ومنها منجنيق ضخّم أطلق عليه جنوده "الجار الشرير" وسلما متشابكا يعرف باسم "القط" ، وكان كل من دوق برجندي والنظامين العسكريين لديه منجنيقه ، بخلاف منجنيق آخر شيد من الأموال العامة التي أطلق عليها "مقلع الرب"^(١٢) .

كانت تلك المنجنيقات تدق الأسوار فتحدث فيها بعض الأضرار ، بيد أنه كان لابد من وجود قائد يستثير المحاصرين لبذل جهد أخير ، وكان ملك فرنسا شديد الحذر من هذا الدور ولم يُقدم عليه ، وكان أمراء الصليبيين الآخرين أو المحليين في غاية الإرهاق أو غير قادرين على ذلك . وبعث ريتشارد حمياً جديدة في ذلك كله . فما أن وصل حتى أرسل مبعوثاً ومعه مترجم مؤتمن ، وهو أسير مغربي يضع فيه ثقته ، إلى معسكر صلاح الدين يقترح مقابلته ؛ إذ تملكه الفضول لرؤية هذا الكافر الشهير ، وكان يعلق الآمال على التوصل إلى نوع من التسوية السلمية لو أنه تمكن من أن يخاطب

(١١) *Itinerarium*, pp.204-11; Ambroise, cols. 57-82; Benedict of Peterborough, II, pp. 169-70 and *Estoire d'Eracles* pp. 168-9; Ernoul, p.273, and *Estoire d'Eracles* pp. 169-70
هرقل على ترحيب فيليب الرابع بريتشارد (Abu Shama, II, pp. 42-3: Beha ed-Din, P.P.T.S.)
PP.242-248، ويذكر أبو شامة الاستيلاء على بعض وسائل النقل التابعة لريتشارد.

(١٢) *Itinerarium*, p. 218; Haymar Monachus, pp. 44-6.

فى مثل هذا العدو فروسيته. بيد أن صلاح الدين رد عليه ردا حذرا بأنه من غير الحكمة أن يتقابل الملوك الأعداء قبل أن يوقعوا على هدنة ، ورغم ذلك قال إنه على استعداد لأن يسمح لأخيه العادل بمقابلة ريتشارد . وتقرر تأجيل القتال ثلاثة أيام واتفق على أن تتم المقابلة فى السهل الواقع بين المعسكرين ، لكن المرض داهم فجأة ملكي إنجلترا وفرنسا وسقط كلاهما مريضا بمرض يطلق عليه الفرنج أرنالديا ، وهو حمى تسبب تساقط الشعر والأظافر. وكانت إصابة فيليب طفيفة ، أما إصابة ريتشارد فكانت شديدة استمرت عدة أيام . لكنه كان يقود العمليات من فراش مرضه ، فأصدر أوامره بالمكان الذى يوضع فيه المنجنيق الضخم وأمر ببناء برج خشبي هائل مثل برج ماتيغريفون الذى بناه فى ميسينا. ولم يكذبأ من مرضه حتى أصر على زيارة جنوده فى خطوطهم^(١٣).

وتلقى صلاح الدين كذلك تعزيزات فى أواخر شهر يونية ، إذ وصل جيش سنجار فى الخامس والعشرين من الشهر ، ووصل فى أعقابها مباشرة جيش مصرى جديد وجنود من صاحب الموصل ، وفى أوائل يولية أرسل أميرا شيزر وحماة بعض الكتائب . وعلى الرغم من هذه القوات المتكاثرة لم يكن صلاح الدين بقادر على إخراجهم الصليبيين من معسكرهم ، إذ أنهم انتهزوا توقف القتال فى الشتاء ونعومة التربة بفعل الأمطار وأحاطوا أنفسهم بسدود ترابية ومتاريس تحميها خنادق من اليسر عليهم الدفاع عنها. وبقي شكل المعركة كما هو طوال شهر يونية وأوائل يولية فدأبت آلات الحصار الفرنجية على قصف أسوار عكا ، وإذا حدث وأفلح الفرنج فى إحداث ثغرة صغيرة واندفع خلالها الفرنج ، أشارت الحامية على القصور بعلامة ما إلى صلاح الدين الذى كان يشن فى الحال هجوما على المعسكر ومن ثم يسحب المعتدين بعيدا عن الأسوار . وكانت هناك معارك بحرية من حين لآخر ، إذ أن وصول الأساطيل الانجليزية والفرنسية قد انتزع من العرب سيادتهم على البحار ، ولذا كان نادرا أن تتمكن سفنهم من اختراق الحصار البحري وجلب المؤن إلى المرفأ؛ فأخذ الطعام والمواد الحربية فى التناقص فى المدينة المحاصرة فبدأ الحديث فيها عن التسليم.

(١٣) Ibid. pp. 213-25; Ambroise, col. 123; Benedict of Peterborough, II, p. 170: الحمى 'Arnaldia' والذى يسميه المؤرخ أمبرواز 'Leonardie' ، فرمما كان نوعا من الأسقربوط ، وهو داء من اعراضه تورم اللثة ونزيفها، أو مرض الغشاء المتقرح الذى يصيب الجنود فى الميدان. أنظر La Monte وترجمة Hubert لأمبرواز ص ١٩٦ حاشية ٢.

١١٩١ م : خلافت في المعسكر

وتواصل المرض والشجار في المعسكر المسيحي . ذلك أن البطريرق هيراكليوس قد مات ، فحيكت المكائد حول انتخاب خليفته^(١٤) . ولم يتوقف النزاع على التاج ؛ فقد ناصر ريتشارد الملك جوي ، بينما شايح فيليب كونراد ، وانضم أبناء بيزا إلى حزب ريتشارد ، ومن ثم كانت الأساطيل القادمة من جنوا تعرض خدماتها على فيليب . وعندما خطط فيليب لهجوم عاصف على المدينة قرب نهاية يونية ، رفض ريتشارد أن يتعاون رجاله معه ، وربما كان مرجع ذلك إلى أنه لم يبرأ بعد بالقدر الذي يسمح له بالحرب شخصيا وخشي أن يفقد مغانم النصر . وفشل الهجوم لغيبة أتباعه وأصدقائه ، وأما هجوم صلاح الدين المضاد فلم يتمكن الصليبيون من صدّه إلا بشق الأنفس^(١٥) . وتعقدت العلاقات بين ريتشارد وفيليب عندما مات في ١ يونية فيليب كونست فلاندرز، ذلك الصليبي الذي سبق أن تقاعس عن الحرب سنة ١١٧٧ م، دون أن يترك وراءه ورثة مباشرين؛ فبينما كانت لملك فرنسا بعض المطالب في الميراث الفلاندرزي، كان ملك إنجلترا عازفا عن أن يترك ذلك الإقليم الخصب ذا الموقع الاستراتيجي يقع في يد غريمه . وأثناء أن كان فيليب يستشهد ببند الاتفاق الموقع في ميسينا مطالبا بنصف جزيرة قبرص ، رد ريتشارد بطلب مضاد ألا وهو نصف فلاندرز، ولم يواصل أي من الجانبين مسعاه لتحقيق مطالبه ، وإنما ظل كل منهما في تردده لشكواه^(١٦) .

وفي الثالث من يولية، وبعدما حاول تقي الدين ابن أخي صلاح الدين بلا جدوى شق طريقه داخل المدينة، أحدث الفرنسيون ثغرة خطيرة في الأسوار ، لكنهم أجزروا على التقهقر . وبعد ثمانية أيام قام الإنجليز وأبناء بيزا في اللحظة التي كان باقي الصليبيين يتناولون العشاء بتجربة حظهم فنجحوا أول الأمر لكنهم فشلوا في النهاية . وأنداك، كانت الحامية قد قررت فعلا الكف عن الكفاح ، وأرسلت مبعوثين إلى معسكر الصليبيين في الرابع من يولية ، بيد أن ريتشارد رفض مقترحاتهم رغم أن سفراءه كانوا في زيارة لصلاح الدين في نفس ذلك اليوم يطلبون السماح بشراء الفاكهة والحلوى المثلجة ويلمعون باستعدادهم لمناقشة شروط السلام . وصدّ صلاح الدين لسماعه بأن

(١٤) أنظر مقدمة Mas Latrie للمؤرخ Haymar Monachus ، صفحة xxxvi.

(١٥) Ambroise, col. 123; Rigord, pp. 108-9; Haymar Monachus, p.35.

(١٦) Rigord, p. 113; Benedict of Peterborough, II, p.171.

رجالها داخل عكا فقدوا الأمل ، فوعدهم بالمساعدة العاجلة ، لكنه لم يتمكن من حث جيشه على شن هجوم ضخم على معسكر المسيحيين كان قد خطط لتنفيذه في الخامس من يولية . وفي السابع من يولية جاءه مبعوث سايحا من عكا يعمل آخر نداء من المدينة ؛ فلم تعد الحامية قادرة على الصمود أكثر من ذلك بدون مساعدة ، وكانت معركة الحادى عشر من يولية هى آخر جهد من المحاصرين . وفي اليوم التالى عرضت الحامية التسليم ، وقبلت شروطها . وكان على عكا أن تستسلم بكل ما فيها من سفن ومخزونات عسكرية ، وتدفع مئتي ألف قطعة ذهبية للفرنج وفوقها أربعمئة قطعة لكونراد شخصيا . وتقرر الإفراج عن ألف وخمسمئة سجين مسيحي معهم مائة سجين من الجنود ، بأسمائهم المحددة ، وإعادة الصليب الحقيقي . فإذا نفذت الحامية هذه الشروط فسوف يبقى أفرادها على قيد الحياة .

١١٩١ م : الصليبيون يدخلون عكا

وسبح سابح من المرفأ ليطلع صلاح الدين على ما اتفق عليه ، إذ تقرر أن يقوم هو بتنفيذ الشروط . وتملكه شعور بالارتياح ؛ فبينما جلس أمام خيمته يجهز ردا يمنع الحامية من الخضوع لهذه الشروط ، شاهد الرايات الفرنجية تنشر على أبراج المدينة . لقد سبق السيف العذل ، وأبرم ضباطه المعاهدة باسمه ، ولكونه رجلا شريفا التزم بها ، وانتقل بمعسكره إلى شفرعمر الواقعة على الطريق الذاهب إلى صفورية مبتعدا عن المدينة ، إذ ليس بوسعه أن يفعل شيئا لمساعدتها ، وتجلّد استعدادا لاستقبال سفراء الفرنج المنتصرين^(١٧) .

ما أن تم قبول التسليم حتى خرجت الحامية العربية خارج عكا . وتحركت مشاعر الغزاة وهم يشاهدون المدينة وهى تقع فى الأسر ، فقد ملكهم الاعجاب بشجاعتها وتماسكها ، وبكونها خليفة بمصير أفضل . وعندما خرج آخر عربى دخل الفرنج وكونراد على رأسهم وقد رفع حامل الراية رايته الشخصية ورايات الملوك . واتخذ الملك ريتشارد من القصر الملكي السابق محل اقامته بالقرب من السور الشمالى للمدينة ، ونزل الملك فيليب فى المنشأة السابقة لفرسان المعبد المطلّة على البحر بالقرب من طرف شبه

(١٧) - *Itinerarium*, pp. 227-33; Ambroise, cols. 133-9; Benedict of Peterboroughii, pp. 174 9; Rigord, pp. 115-16; Ernoul, p. 274; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 173-4; Abu Shama, II, pp. 19-29; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* PP. 258-69; Ibn al-Athir, II, pp. 44-6.

الجزيرة . وثارت مشاحنات غير لائقة شوّهت عملية تخصيص الأحياء في المدينة . ذلك أن دوق النمسا ، باعتباره قائدا للجيش الألماني ، طالب بمكان مماثل للملكي الإنجليزي وفرنسا ورفع رايته بجوار راية ريتشارد ، لا لشيء إلا ليراها وقد أنزلها الانجليز وألقوا بها في الخندق أسفل القصر . فكانت إهانة لم يغفرها قط ليوبولد دوق النمسا ؛ وعندما عاد إلى وطنه بعد أيام قليلة كان قلبه مليئا بكرهية ريتشارد . وطالب التجار والنبلاء الفرنج ، الذين كانت لهم أملاك في عكا من قبل ، بإعادة ممتلكاتهم اليهم ، وكانوا كلهم تقريبا من أنصار كونراد ، ولذا لجأ إلى الملك فيليب عندما حاول الصليبيون الزائرون اجلاءهم عن ممتلكتهم ، وأصر على تلبية مطالبهم^(١٨) .

وكانت أولى المهام الواجب إنجازها تنظيف كنائس عكا وإعادة ما كان لها من قداسة ، وأشرف على تلك المهمة المندوب البابوي أديلار (أوف فيرونا) ، ثم اجتمع الأمراء معا لتسوية المسألة الملكية بصورة نهائية . وبعد أن تشاوروا تقرر أن يظل جوي ملكا إلى أن يلقي حتفه ، فينتقل التاج إلى كونراد وايزابيللا وذريتهما ، وفي ذات الوقت يعين كونراد لوردا لصور وبيروت وصيدا ويقتسم هو وجوي العوائد الملكية . وبضمان المستقبل لكونراد ، بدأ فيليب يتحدث عن العودة إلى الوطن ، ذلك أنه منذ أن جاء إلى الأراضي المقدسة وهو يعاني من مرض يكاد يكون متواصلا ، ولقد أدى واجبه المسيحي في المساعدة على استعادة عكا ، وسوف يخلف وراءه دوق برجندي والقسم الأكبر من جيشه الفرنسي . ومارس ريتشارد ضغوطه عبثا من أجل إعلان مشترك بأن الملكين سوف يبقيان في الشرق لثلاث سنوات . وكان أقصى ما وعد به فيليب هو عدم الهجوم على أراضي ريتشارد الفرنسية إلى حين عودة ريتشارد إلى الوطن ، وهو وعد لم يراع مراعاة تامة . وفي الحادي والثلاثين من يولية غادر عكا إلى صور يصحبه كونراد الذي صرح بأنه ينبغي أن يتدبر أمر أراضي هناك ، لكنه في حقيقة الأمر كان عازفا عن الخدمة في جيش يسيطر عليه ريتشارد . وبعد ثلاثة أيام أبحر الملك فيليب من صور قاصدا برنديزي^(١٩) .

(١٨) *Itinerarium*, p. 234; Ernoul, pp. 274-5; *Estoire d'Eracles*, II, pp. 175-6; *Chronica Regia Coloniensis*, p. 154 ويرد في تاريخ المستعمرات الملكية قصة شجار ريتشارج مع ليوبولد دوق النمسا. ويقول Ansbert, *Expeditio Friderici*, p. 102 إن ليوبولد كان مستاء من هجوم ريتشارد على اسحق كومنينوس في قبرص، إذ كان ابن عم أمه.

(١٩) *Itinerarium*, pp. 238-9; Ambroise, cols. 142-3; Benedict of Peterborough, II, pp. 183-5, 192-9, 227-32 ويقول تاريخ هرقل *Estoire d'Eracles*, II, pp. 179-81 إن فيليب كان مريضا حقيقة pp. 106-9; William the Breton, pp. 116-17; Ernoul, pp. 277-8; Rigord, pp. 116-17; William the Breton, pp. 106-9.

ونظر الإنجليز إلى رحيل فيليب على أنه تصرف الجبان وفرار الخائن . غير أنه يبدو أن صحته كانت سيئة حقيقة ، فضلا عن وجود مشاكل في الوطن كان مسؤولا عن إيجاد حلول لها ، كمسألة ميراث الفلاندرز . هذا إلى جانب ارتاب في تأمر ريتشارد عليه وأن زوجته كانت في خطر . وقد ذاعت قصة غريبة تقول إن ريتشارد عندما ذهب لزيارة فيليب وهو طريح الفراش في مرضه الشديد قال له كذبا إن ولده الوحيد لويس قد مات ، إما على أنها شكل من أشكال الهزل الماحن ، أو على أمل شرير في أن تكون الصدمة فوق احتماله . ولقد كان هناك كثيرون في الجيش المسيحي ممن يتعاطفون مع فيليب فيما يعانيه من شدائد . وعلى الرغم من أن ريتشارد استأثر بإخلاص رجاله وأعجاب العرب ، إلا أن بارونات الشرق الفرنجي كانوا يرون في ملك فرنسا العاهل الجدير بالاحترام وقد أحسوا بأنه يتفهم احتياجاتهم^(٢٠) .

وبرحيل فيليب تولى ريتشارد كامل زمام الجيش والمفاوضات مع صلاح الدين الذي وافق على الالتزام بالمعاهدة التي أبرمها ضباطه في عكا . وبينما انهمك الصليبيون في إعادة بناء أسوار عكا وتقويتها شرع صلاح الدين في جمع الأسرى والمال المطلوب منه وفي الثاني من أغسطس استقبل صلاح الدين في معسكره ضباط مسيحيين ينقلون موافقة ريتشارد على اقتراحه بتجزئة المدفوعات وعودة الأسرى على ثلاث دفعات شهرية ، على أن يطلق سراح الأسرى العرب بعد تسديد الدفعة الأولى . وسمح للزائرين بمشاهدة الصليب المقدس الذي كان صلاح الدين يحتفظ به في حالة من الوقار . وفي الحادي عشر من أغسطس أرسلت الدفعة الأولى من المال وأسرى الصليبيين إلى معسكر المسيحيين ، وعاد سفراء ريتشارد يؤكدون صحة الدفعة الأولى من المال ، غير أن كبار الأسرى وبخاصة من تحدت اسماءهم لم يصلوا جميعا ، ومن ثم فلن يطلقوا سراح جنود السلطان المأسورين في عكا . فعرض صلاح الدين إما قبول دفعة المال مع رهائن عن اللوردات المفقودين وإطلاق سراح رجاله ، أو قبول دفعة المال وترك رهائن لديه ضمانا لإطلاق سراح رجاله ؛ ورفض السفراء العرضين كليهما ، وطلبوا دفعة المال واعطائه مجرد تعهد بشأن الأسرى العرب . لكن صلاح الدين لا يثق في كلمتهم ، ولذا رفض إعطاءهم أي شيء ما لم يفرجوا عن رجاله .

(٢٠) *Estoire d'Eracles, loc. cit.* الذي يذكر قصة تأمر ريتشارد . ويقول Beha ed-Din, *P.P.T.S.p.* 240 إن الجميع كانوا يعترفون بسلطة ملك فرنسا ، ويقول فيما بعد في صفحة ٢٤٢ إن ملك إنجلترا كان أقل منه مكانة برغم تميزه عليه في الثروة والشجاعة والشهرة .

١١٩١ م : ريتشارد يقتل الأسرى العرب

وريتشارد الآن متلهف على مغادرة عكا والسير إلى القدس ، لكن الأسرى العرب كانوا حجر عثرة تخرجه فسرّه أن يجد ذريعة للتخلص منهم . وفي العشرين من أغسطس ، وبعد أكثر من أسبوع على عودة سفرائه اليه ، أعلن أن صلاح الدين قد أخل بتعهده ، وبكل العمد وسبق الإصرار أمر بقتل الأسرى الباقين على قيد الحياة من حامية عكا وعددهم ألفين وسبعمائة أسير . وكما أخبرنا المؤرخون المدافعون عن ريتشارد في سرورهم راح جنوده المتلهفون يعملون السيف ذبحا شاكرين الرب على هذه الفرصة للانتقام لرفاقهم الذين سقطوا أمام المدينة . وقتلت زوجات وأطفال الأسرى إلى جوارهم ، وأبقوا على مجرد القليل من الوجهاء وأقرباء البنية لاستخدامهم في أعمال السخرة . وشاهد العرب في المخفر الأقرب إلى عكا ما كان يحدث فاندفعوا لإنقاذ اخوانهم ، بيد أنه برغم بسالتهم في القتال حتى هبوط الظلام لم يتمكنوا من اختراق الصفوف اليهم . وعندما انتهى الذبح غادر الإنجليز مكان المذبحة بما فيه من جثث تمزقت أوصالها وفسدت ، وبات بإمكان المسلمين الحضور للتعرف على أصدقائهم الشهداء^(٢١).

وفي يوم الخميس الثاني والعشرين من أغسطس خرج ريتشارد من عكا على رأس الجيش الصليبي، وتغيّب كونراد والكثير من البارونات المحليين، وسار الفرنسيون بقيادة دوق برجندي في المؤخرة متذمرين، فلم يكن أحد من الجنود راغبا في مغادرة المدينة، فكم فيها من الراحة والدعة طوال الشهر المنصرم، وما أحلى ما فيها من طعام وفير، وكم فيها من امرأة لعب ترضى الشهوة ؛ ولم يرضهم ما سمعوه من أن القائمين على خدمة المعسكر من النساء الغسالات قد سُمح لهن بمرافقة الجيش في مسيرته ، غير أن قوة الشخصية لدى ريتشارد تغلبت . وكان صلاح الدين ما يزال في شفر عمر التي تتحكم في الطريقتين الرئيسيتين الآتين من الساحل ، أحدهما يذهب إلى طبرية ودمشق ، والآخر إلى القدس مخترقا الناصرة . على أن ريتشارد اتجه جنوبا بطول الطريق الساحلي حيث يوفر البحر وأسطولة الحماية لجناحه . ولذا تبعه السلطان وسار بمحاذاته وعسكر

(٢١) (Itinerarium, pp.240-3; Ambroise, cols.144-8) كلاهما يبرر ما فعله ريتشارد بسبب وحشية صلاح الدين ويقولان إن كونراد حاول أن يعهد اليه بالسجناء ليحتفظ بهم . وأميروا Ambroise بمجد الرب للمذبحة P.P.T.S. pp.270-4 قصة أكثر إقناعا . واستنادا إلى أبي شامة Abu Shama, ii, pp.30-3 طلب صلاح الدين من فرسان المعبد - وكان يثق في كلمتهم برغم كراهيته لهم - أن يضمنوا الشروط لكنهم رفضوا متوجسين من انتهاك ريتشارد للشروط . ولم يعد الصليب المقدس.

في تل القيمون على منحدرات جبل الكرمل ومن هناك خرج لتفقد البلاد في منطقة الشاطئ جنوب الكرمل ليختار مكان المعركة.

وجاوز المسيحيون حيفا ، وكان صلاح الدين قد نزع عنها أسلحتها قبل سقوط عكا بوقت قصير ، ثم التف المسيحيون حول أنف جبل الكرمل . وكانت حركتهم بطيئة كي يظل الأسطول بمحاذاتهم ، وكان ريتشارد يعتقد أنه ينبغي السماح للجنود بالراحة كل ثانى يوم تقريبا ، إذ كانت الرياح في الغرب وقد وجدت السفن صعوبة في الالتفاف حول الموقع ، فكان فرسان العرب خفيفو الحركة يهبطون جبل الكرمل من حين لآخر وينقضون على الجيش في مسيرته ، ويعزلون الشاردين من الجيش ، يأخذونهم إلى صلاح الدين ، ويُستجوبون ، ثم يقتلون انتقاما لمذبحة عكا ، ولا يبقى منهم أحد على قيد الحياة سوى الغسالات . وفي تلك الأثناء قاد ريتشارد جيشه الرئيسي فوق حافة جبل الكرمل وعسكر في مكان ما داخل البلاد يبعد قليلا عن قيسارية^(٢٢).

١١٩١م : معركة أرسوف

وفي الثلاثين من الشهر ، وباقتراب المسيحيين من قيسارية ، أصبح الجيشان أقرب إلى بعضهما ، واستعر القتال في كل يوم منذ آنذاك . غير أن ريتشارد قاد جيشه بصورة شكية ؛ فكان عادة في أحسن أحواله في المقدمة ، لكنه من حين لآخر كان ينطلق على فرسه إلى الوراء بطول الجيش كله يشجع الرجال . على أن الجو كان في حمارة القيظ ، والغريون مثقلون بالدروع ولم يعتادوا على حرارة الشمس ، فهلك الكثير منهم بضربة الشمس ، وكثيرون فقدوا الوعي وقتلوا حيثما رقدوا ، وكاد دوق برجندي والجنود الفرنسيون أن يبادوا عن آخرهم أثناء تقاتلهم في المؤخرة خلف عربات المون ، لكنهم خلصوا بأنفسهم . لقد كان الحشد كله يكدح كدحا ، صارخا في ضراعة من حين لآخر "Sanctum Sepulchrum adjuva" ساعدنا أيها القبر المقدس.

وبعد أيام قليلة اختار صلاح الدين ساحة المعركة التي قرر أن تكون شمال أرسوف مباشرة حيث يتسع الوادي بما يكفي لإنطلاق الفرسان ، وفي ذات الوقت تحجبه جيدا

^(٢٢) Itinerarium, pp.248-56; Ambroise, cols. 152-60; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp.275-81;

Abu Shama, II, pp.33-6

الغابات التي تمتد جنوبا على مبعدة ميلين من البحر . وفي الخامس من سبتمبر طلب ريتشارد التفاوض وقابل العادل ، أخا صلاح الدين ، تحت علم الهدنة . على أنه برغم حالة الانهك التي يعانيها من الحرب ، طلب تسليم فلسطين كلها ، لا أقل . وعلى الفور أوقف العادل المفاوضات .

وفي صباح السبت السابع من سبتمبر أيقن ريتشارد أن المسلمين سيفرضون عليه معركة ، فراح ينظم رجاله استعدادا لها . وكانت أحمال المون ممتدة بطول الساحل يحرسها هنرى (أوف شامباني) وجزء من المشاة . وكان رماة السهام في خط المقدمة وخلفهم الفرسان ، وفرسان المعبد على اليمين في الطرف الأخير من الخط . وبعدهم كان البريتون ورجال أنجو ، يليهم جنود جين بقيادة جوى وأخيه ، جيوفرى (أوف لوسينان) . وفي الوسط كان الملك نفسه مع جنوده من الإنجليز والنورمان ، ثم الفلمنكيون أبناء فلاندرز والبارونات المحليون تحت قيادة جيمس (أوف أفيسن) ، والفرنسيون بقيادة هيو (أوف برجندي) وفي أقصى اليسار كان فرسان المستشفى . وبعد إعداد كل شئ انطلق ريتشارد ودوق برجندي على جواديهما بطول الخطوط يحثان الجنود ويشجعانهم .

وبدأ العرب هجومهم في الضحى . فكانت الموجة تلو الموجة من مشاة الزنج والبدو خفيفي السلاح تنقض على المسيحيين ، تمطرهم بوابل من السهام والرماح ، وأفلحوا في بعثرة الخط الأول من جنود المشاة الذين شملتهم الفوضى ، بيد أنهم لم يؤثروا تأثيرا يذكر فسى الفرسان بدروعهم . وفجأة قسّم العرب جنودهم ، واندفع الفرسان الأتراك وقد لمعت سيوفهم وفؤوسهم ، وشنوا أعنف هجماتهم على فرسان المستشفى والفلمنكيين وإلى جانبهم البارونات المحليين ، وفي مأولهم الإحاطة بجناح المسيحيين الأيسر . وصمد الفرسان وبعد كل موجة كان رماة السهام يعيدون تنظيم صفوفهم . غير أن ريتشارد ، وبرغم ما يدعيه من حنكة عسكرية ، لم يكن يسمح لأى جزء من جيشه بالهجوم إلا بعدما يكون الجميع على أهبة الاستعداد وبعد أن يُظهر المهاجمون الأتراك علامات على الانهك وإلى أن يصبح الجيش العربى الرئيسى أقرب . ومرة بعد مرة يرسل السيد الأعظم لفرسان المستشفى إلى ريتشارد متوسلا أن يعطى إشارة الهجوم ، قائلا إن فرسانه سيصيبهم الوهن ما لم يتسلموا زمام الهجوم ، لكن ريتشارد كان لا يزال يأمر بالاصطبار ، فقام فرسان هما مارشال من فرسان المستشفى وبلدوين كاريو بالتصرف وانطلقا إلى الأعداء ، وانطلق خلفهما كل رفاقهما ، وحذا كل الفرسان بطول الجيش حذوهما فنخسوا خيولهم بالمهاميز . وساد الإضطراب أول

الأمر ، إذ لم يكن رماة السهام على استعداد وكانوا في الطريق حجر عشرة امام الفرسان ، وانطلق الملك نفسه إلى وسط الهرج في محاولة لإعادة بعض النظام ، وتولى زمام الهجوم . وكان كاتم اسرار صلاح الدين على تل قريب يرقب روعة المشهد ففغر فاه أثناء أن كان الفرسان المسيحيون يرددون في طريقهم باتجاهه . وكان ذلك فوق احتمال الجنود المسلمين ، فانكسرت صفوفهم وهربوا ، لكن صلاح الدين جمعهم في الوقت المناسب للدفاع عن معسكره ، بل قاد هجوما آخر على العدو ، ولكن دون جدوى وبحلول المساء كان الجيش المسيحي مسيطرا على الميدان ويواصل سيره باتجاه الجنوب^(٢٣).

١١٩١ م : انتصار ريتشارد

لم تكن معركة أرسوف معركة حاسمة ، لكنها كانت نصرا معنويا ضخما للمسيحيين . وكانت خسائرهم قليلة بصورة باعثة على الدهشة برغم مصرع الفارس العظيم جيمس (أوف افيزن) الذي كان راقدا مع خمس عشرة جثة من جثث العرب حوله . على أن خسائر العرب كانت قليلة أيضا بنفس القدر تقريبا ، ولم يسقط أى أمير مرموق ، وفي اليوم التالى جمع صلاح الدين كل رجاله وكان على استعداد لمواجهة أخرى ، تجنبها ريتشارد إذ لم يكن من القوة بما يكفى للدخول فيها . كانت قيمة النصر تكمن فيما منحه من ثقة للمسيحيين . وكانت هذه المعركة أول معركة كبيرة مكشوفة منذ معركة حطين ، وأظهرت إمكان هزيمة صلاح الدين . ولكونها قد وقعت بعد الاستيلاء على عكا مباشرة ، فقد بدا ذلك مؤشرا على أن المد قد تحول وأن بالامكان تحرير القدس ذاتها مرة أخرى . وكانت شهرة ريتشارد فى أوج ارتفاعها . ومن الحق أن هجوم الانتصار من شُنّ بالمخالفة لأوامره ، لكنه لم يحدث سوى قبل دقائق قليلة من اكتمال استعداده ، إن تمالكه لنفسه من قبل ، وتوجهه للهجوم من بعد أظهر قدره فائقة على القيادة . فكان ذلك بشيرا لمستقبل الحملة الصليبية.

ومن الناحية الأخرى ، أصيب صلاح الدين بمهانة شخصية وعامة . فجيشه لم يكن ذا فعالية في عكا والآن هزم فى معركة مكشوفة . وكشأن سلفه العظيم نور الدين ، كان صلاح الدين يفقد شيئا من طاقته وسيطرته على الرجال وهو يخطو نحو

(٢٣) Itinerarium, pp.256-78; Ambroise, cols. 160-78; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp.281-95;

Abu Shama, II, pp.36-40

الشيخوخة . كانت صحته سيئة وقد عانى من نوبات متكررة من الملاريا . وقد تراجعت قوته عما كانت عليه أيام شبابه في فرض قراراته على الأمراء المشاكسين الذين كانوا أتباعه ، وكان كثيرون ينظرون إليه على أنه حديث النعمة ومغتصب ، وإذا ما بدا نجمه ينحدر كانوا سراعا في اظهار ثمرهم من تبعيته . لقد كان كثيرا عليه أن يقبل تفوق ريتشارد عليه في القيادة العسكرية . وقبل كل شيء ، لا ينبغي له أن يفقد القدس التي كان استرجاعها أكبر انتصاراته المجيدة . وقد أخذ جيشه في نظام جيد إلى الرملة الواقعة على الطريق إلى القدس ، انتظارا لما سيقدم عليه ريتشارد في حركته التالية.

واصل الجيش الصليبي سيره إلى يافا وشرع في إعادة بناء تحصيناتها . وحتى آنذاك كان ريتشارد يتوخى أن يكون الأسطول إلى جانبه لتزويده بالمون ، ولم يكن على استعداد للتوغل داخل البلاد إلى المدينة المقدسة بدون قاعدة قوية على الساحل ، فضلا عن أن جيشه قد أصابه الكلال بعد سيره الطويل جنوب الساحل بحيث كان في شدة الحاجة إلى الراحة . وقد أحدث حذره وتأخيره الكثير من الحيرة للمؤرخين ، إذ لو أنه اتجه بسرعة خاطفة إلى القدس لوجد بها حامية واهية ولوجد أسوارها ضعيفة ، على أن جيش صلاح الدين كان قد هُزم فقط ولم يُدمر ، وما زال جيشا جبارا ، وحتى لو أفلح ريتشارد في اقتحام طريقه إلى القدس ، لأصبح معزولا عن الساحل ، فكان من الحصافة التأكد من يافا قبل الشروع في مغامرة أكبر . ومع ذلك ، كان التأخير مفرطا ، وأتاح لصلاح الدين تقوية دفاعات المدينة المقدسة . ثم إنه خشى أن يتجه ريتشارد إلى عسقلان ويقيم بها قاعدة ، ومن ثم يقطع عليه الطريق إلى مصر التي هي بمثابة مصدره الرئيسي من الرجال ، ولذا أخذوا قسما من جيشه من الرملة إلى عسقلان وراح يحطمها تحطيمًا رثيا برغم ثرائها وازدهارها^(٢٤) . وفي تلك الأثناء راح الجيش المسيحي يسبح فيما تتيحه يافا من أسباب الراحة ؛ فالحياء فيها ناعمة ، والحدائق من حولها بألوان الثمار زاهرة ، والسفن تجلب المون الوفرة ، كما تستجلب من عكا عاهرات النساء ليتسلى بهن الرجال . وبقي العرب على مسافة من المدينة ، ولم تحدث سوى مناوشات قليلة بين الفرسان في سهل اللد في ضواحي المعسكر . ودبت في الجيش حياة التراخي والنعومة ، واتخذ الكثير من الجند سبيلهم عائدين إلى عكا ، فاضطر ريتشارد إلى إرسال الملك جوى لحثهم على العودة إلى المعسكر ، لكنهم لم يعيروه التفاتا؛ فكان من

(٢٤) *Itinerarium*, pp.280-1; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.295-300; Abu Shama, II, pp.41-4 ويظهر ابن الأثير II, pp.50-1 أن صلاح الدين أذعن لأمرائه على خلاف رغبته فيما يتصل بعسقلان.

الضروري أن يذهب ريتشارد نفسه إلى عكا كي يجمع شملهم مرة أخرى^(٢٥). وكان لريتشارد شواغله التي تقلقه ، إذ لم يكن راضيا عن سير الأمور في عكا وما يليها شمالا حيث كان حزب كونراد يتمتع بالقوة. كما كانت هناك اضطرابات في قبرص بعد موت ريتشارد (أوف كامفيل)، وبعد الصعوبات التي واجهها روبرت (أوف تورنهام) في الحماة تمرد . وساورته المخاوف مما قد يفعله الملك فيليب في طريق عودته إلى فرنسا . ووجد ريتشارد حلا لمشاكله في قبرص بأن باع الجزيرة لفرسان المعبد^(٢٦). على أنه كان متلهفا على الشروع في التفاوض مع صلاح الدين ، وهذا الأخير على استعداد لسماع مقترحاته ، فأنا ب أخاه العادل للتفاوض باسمه.

١١٩١ م : ريتشارد يتفاوض مع العادل

كان همفري (أوف تورون) أفضل دارس للغة العربية في الجيش ، وكان ريتشارد يحمل له عاطفة عميقة . فما أن وصل ريتشارد إلى يافا حتى أرسل همفري إلى اللد حيث يتولى العادل القيادة لمناقشة الشروط الأولية لعقد هدنة ، لكن شيئا لم يتقرر. وكان العادل دبلوماسيا ماهرا ، وكبح جماح أخيه في تلهفه على تسوية . وأتيحت لدبلوماسيته فرصة رائعة عندما جاءه مبعوثون في أكتوبر من صور يسألونه إن كان على استعداد لاستقبال سفارة من كونراد . وكانت أول مطالب ريتشارد التي لا يتنازل عنها استرداد القدس وكل البلاد الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن وعودة الصليب المقدس . وأرسل صلاح الدين رده قائلا إن المدينة المقدسة هي مدينة مقدسة للإسلام أيضا ، ولا سبيل لإعادة الصليب بدون بعض التنازلات في المقابل . وبعد أيام قليلة تقدم ريتشارد بمقترحات جديدة . إذ أنه - كشأن الصليبيين جميعا - كان معجبا بالعادل الذين اطلقوا عليه سيف الدين ، واقترح أن يتسلم العادل فلسطين كلها التي يملكها صلاح الدين الآن ، وأن يتزوج العادل من أخت الملك - الملكة جوانا الصقلية - التي يتعين أن تهرب لها المدن الساحلية التي استولى عليها ريتشارد ، بما فيها عسقلان، وأن يعيش العريسان في القدس التي ينبغي أن تتوفر للمسيحيين امكانية الوصول إليها ، وأن يُسترد الصليب ، وأن يفرج عن جميع الأسرى من الجانبين ، وأن

(٢٥) *Itinerarium*, pp.283-6; Ambroise, cols. 187-9.

Benedict of Peterborough, II, pp.172-3; Ernoul, p.273; *Estoire d'Eracles*, II, (٢٦) pp.170,189-90.

يسترد فرسان المعبد وفرسان المستشفى ممتلكاتهم الفلسطينية . وذهب كاتم أسرار صلاح الدين في زيارة لصلاح الدين ومعه العرض ، واعتبر صلاح الدين العرض طرفة من الطرائف ووافق عليه في مرح . على أن ريتشارد ربما كان حاداً تماماً في عرضه . وأما الملكة جوانا، التي انضمت إلى ريتشارد في يافا مع الملكة بيرينجاريا، فقد ارتفعت لدى سماعها الاقتراح ، وقالت إنه ليس ثمة ما يدفعها إلى الزواج من مسلم . وبعد ذلك ، سأل ريتشارد العادل إن كان بمقدوره أن يتفكر في أن يصبح مسيحياً . ورفض العادل في أدب هذا الشرف ، ودعا ريتشارد إلى وليمة فاخرة في اللد في الثامن من نوفمبر ، فكان مهرجاناً بهيجاً وافتقاراً بتأكيد مشاعر الود إزاء بعضهما وفي جعبة كل منهما كثير من الهدايا . بيد أنه في نفس تلك اللحظة كان صلاح الدين يتسلى في معسكره القريب بسفير أرسله كونراد - ريموند الجذاب أمير صيدا - الذي غفر له السلطان أحياله في يوفورت .

وفي الصباح التالي استقبل صلاح الدين مبعوث ريتشارد - همفري (أوف تورون) - الذي جاء بعرض يقضى بالاعتراف بالعادل حاكماً لفلسطين كلها طالما سيكون المسيحيين نصيب في القدس . وكان المأمول أن تُجرى ترتيبات الزواج من جوانا ، رغم اعتراف ريتشارد بأن الرأي العام المسيحي قد أصيب بنوع من الصدمة من هذه الفكرة؛ ويعتقد ريتشارد أن تدخل النظام البابوي قد يجعل جوانا تغير رأيها ، وفي هذه الحالة يستطيع العادل أن يتزوج ابنة اخته - إلينور (أوف بريتاني) - التي يمكنها الزواج دون تدخل بابوي باعتبارها تحت وصاية الملك ، وبعدما تتم تسوية كل ذلك ، سيرجع ريتشارد إلى أوروبا . وكان عرض كونراد أقل إثارة ، ففي مقابل حصوله على صيدا وبيروت سوف يتخاضم مع الصليبيين الآخرين ، بل اقترح عودة عكا إلى المسلمين . على أنه عندما سألوا السفير ما إذا كان كونراد سيحمل السلاح فعلاً في وجه ريتشارد، راوغ في رده .

وعقد صلاح الدين مجلساً لتقرير أي الحزبين الفرنجيين الذي تستمر معه المباحثات . وصوت العادل وأمراء آخرون في جانب حزب ريتشارد ، وربما لم يكن ذلك بدافع استلطفه وإنما لأنه سرعان ما سيغادر فلسطين ، بينما كونراد ، وكانوا جميعاً يشعرون بشئ من الخشية حياله كان ينوي البقاء في فلسطين على الدوام . وقبلت مقترحات ريتشارد من حيث المبدأ ، غير أن حاشية همفري شعرت بالحزن يوماً ما عندما شاهدت رينالد أمير صيدا يخرج في رحلة صيد مع العادل وقد بدا الاثنان على علاقة

وطيدة ودودة . وواقع الأمر أن العادل تدبر إطالة المفاوضات إلى أن حل الشتاء^(٢٧) . وفي تلك الآونة كانت الحرب بين الجيشين متقطعة ومتفرقة . وفي أحد أيام شهر نوفمبر ، وبينما كان ريتشارد في رحلة صيد بالصقور ، سقط هو نفسه في كمين عربي ، وأوشك العرب أن يأخذوه لولا شهامة الفارس وليم (أوف برو) الذي صاح بأنه هو الملك وحل محل الملك في الأسر ، وقد سقط بعض الفرسان الآخرين في ذلك اليوم ، على أنه بخلاف تلك المناوشات الطفيفة لم يكن هناك اشتباك حدير بالذكر^(٢٨) .

١١٩٢ م : ريتشارد في بيت نوبا

عندما بدأت أمطار نوفمبر هطولها سرح صلاح الدين نصف جيشه وعاد مع الباقين إلى مقره الشتوى في القدس . وكانت التعزيزات في طريقها من مصر . غير أن ريتشارد رفض أن يثبته الجو عن عزمه ، ففي منتصف الشهر قاد جيشه ، الذي زاد عدده بفصائل جديدة أتت من عكا ، خارجا من يافا حتى الرملة التي وجدها وقد هجرها العرب وفككوا حصونها ، وبقي فيها ستة أسابيع ينتظر الفرصة للزحف على القدس ، ودأب العرب على الإغارة على مخافره الأمامية ، وكاد هو نفسه أن يقع في الأسر عندما كان يقوم بأعمال استطلاع بالقرب من قلعة بلانشجارد ، وفي اشتباك آخر وقع في الأسر أحد الوجهاء ، هو إيرل ليشيستر لكنه أفرج عنه فيما بعد . وخلال الأيام الأخيرة من العام كان الجو من سوء بحيث سحب صلاح الدين فرق الإغارة التابعة له . وأمضى ريتشارد عيد الميلاد في لاترون الواقعة على حافة تلال يهودا ، وفي الثامن والعشرين من ديسمبر تحرك جيشه شمالا في التلال دون أن يعترضه الأعداء . وهطلت الأمطار بغزارة شديدة واستحالت إلى سيول ، وغرق الطريق في الطين ، وهبت رياح عاتية خلعت قوائم الخيام قبل التمكن من نصب أية خيمة . وبحلول الثالث من يناير كان الجيش قد وصل إلى بيت نوبا التي لا تبعد عن المدينة المقدسة سوى اثني عشر ميلا . وامتأ الجنود الإنجليز والفرنسيون حماسا ، وباقتراحهم على هذا النحو من هدفهم الذي بات وشيكاً هانت عليهم المشاق التي عانوها في المعسكر في هذا الارتفاع تحت الرياح المطيرة ، والدمار الذي سببته الأمطار لمخزوناتهم من البسكوت والخنازير ،

(٢٧) *Itinerarium*, pp.295-7; ويورد بهاء الدين P.P.T.S. pp.302-35 رواية مفصلة عن المفاوضات
Abu Shama, II, pp.45-50.

Itinerarium, pp. 286-8. (٢٨)

وهما طعامهم الرئيسي، وما فقدوه جياد كثيرة بسبب البرد ونقص التغذية ، وما عانوه من كدح ورهق . على أن الفرسان من ذوى الدراية بالبلاد - فرسان المستشفى والمعبد والبارونات المولودين محليا - كان لهم وجهة نظر أكثر حصافة وبعثا على الأسى ذلك أنهم قالوا للملك ريتشارد إنه حتى إذا تمكن من التوغل فوق التلال الطينية مخترقا العواصف إلى القلص ، وحتى لو تمكن من محاصرة جيش صلاح الدين هناك ، فإن هناك جيشا عربيا آتيا من مصر سوف يعسكر على التلال خارج المدينة ، وبذا سيقع بين شقى الرحى . وأضافوا أنه حتى لو تمكن من الاستيلاء على القلص ، فماذا بعد ذلك؟ فالزائرون الصليبيون سيعودون جميعا إلى اوطانهم في أوروبا بعد حجهم ، وليس الجنود المحليون بما يكفي من العدد للصمود بها في وجه قوات الإسلام المتحد. واقتنع ريتشارد. وبعد تردد دام خمسة أيام اتخذ القرار الصائب بالانسحاب^(٢٩).

وعاد الجيش أدراجه غاضبا وقد وهنت عزيمته مخترقا الجليلد إلى الرملة ، وتحمل الإنجليز خيبة الأمل بثبات ، لكن الفرنسيين بطبعهم المتقلب سرعان ما شرعوا في التخلي عن الجيش فهرب الكثير منهم إلى يافا وبينهم دوق برجندي ، بل ذهب البعض إلى عكا . وأدرك ريتشارد أنه من الضروري القيام ببعض النشاط حفاظا على معنويات الجنود ، وفي العشرين من يناير عقد مجلسا آزره في اصدار الأوامر للجيش بالتحرك من الرملة والاتجاه إلى ابلين في الطريق إلى عسقلان . وهناك شرع في اصلاح تلك القلعة العظيمة التى سبق أن دمر صلاح الدين تحصيناتها قبل أشهر قليلة . وكشأن صلاح الدين ، كان ريتشارد يدرك أهميتها الاستراتيجية . وحث الفرنسيين على الانضمام اليه هناك^(٣٠).

وأمضى ريتشارد الأشهر الأربعة التالية في عسقلان ، لم يغادرها إلا مرة واحدة زار فيها عكا. وقد جعل من عسقلان أقوى قلعة على الساحل الفلسطيني كله . ولعدم وجود مرفأ بها ، لم يكن من اليسير دائما تفريغ مؤن الطعام الآتية بطريق البحر ، فضلا عن أن الأحوال الجوية في ذلك الشتاء كانت دوما سيئة ولم يفعل صلاح الدين شيئا لمضايقتهم ، وقد ظن البعض من أتباع ريتشارد أن فروسية صلاح الدين منعتهم من مهاجمتهم وهم على مثل هذه الحالة الضعيفة ، الأمر الذي أثار سخط أمرائه . على أن حقيقة الأمر أن صلاح الدين كان يريد لجيشه أن يستريح ، وكان ينتظر التعزيزات من

(٢٩) Ibid. pp. 303-8; Ambroise, cols. 203-8.

(٣٠) Itinerarium, pp. 309-12; Ambroise, col. 208-11; Abu Shama, II, p. 51.

الجزيرة والموصل . وربما كان بعض أمراءه ساخطين حقا وأن لم يكن ذلك لإحجامه عن مهاجمة الصليبيين بالضرورة ، وهو لا يسعه المجازفة بمعركة وهم على ما هم عليه من سوء الطبع^(٣١) .

هذا فضلا عن أن الأنباء الآتية من عكا تشير إلى تشتت الفرنج ، ففي فبراير استدعى ريتشارد كورنراد إلى عسقلان للمساعدة في الأعمال الجارية ، لكن كورنراد أرسل ردا فظا . وبعد أيام قليلة تخلى هيو (أوف برجندي) وكثير من الفرنسيين عن الجيش وفروا إلى عكا . وكان الملك فيليب قد ترك للدوق قدرا زهيدا للغاية من المال لرواتب الجند ، ومنذ آنذاك ورواتبهم يدفعها ريتشارد على هيئة قروض . على أن ثروة ريتشارد الضخمة بدأت تناقص ، ولذا كفّ عن تمويلهم . وفي عكا اشتد التنافس بين أبناء بيزا وأبناء جنوا ، ولكل منهما الآن الكثير من الرجال والسفن الراسية ، وشيئا فشيئا تحول التنافس إلى حرب مفتوحة . وزعم أبناء بيزا أنهم يعملون باسم الملك جوى ، فاستولوا على المدينة برغم معارضة هيو (أوف برجندي) الذي كان قد وصلها من فورهِ ، واحتلوا المدينة لثلاثة أيام معتبرين أنها لا تحقق لهم ولا لكورنراد ، ولا لأبناء جنوا ، وأرسلوا إلى ريتشارد يلتمسون منه الحضور لمساعدتهم . وفي العشرين من فبراير وصل ريتشارد إلى عكا وحاول إحلال السلام ، وأجرى مقابلة مع كورنراد في كاسال امبرت الواقعة على الطريق إلى صور ، لكن المقابلة لم تفلح ، إذ كان كورنراد لا يزال يرفض الانضمام إلى الجيش في عسقلان ، حتى عندما هدده ريتشارد بأنه إذا أصر على رفضه الانضمام إلى الجيش فسوف تُصادر أراضيه جميعها ، وهو تهديد يستحيل تنفيذه . وفي نهاية الأمر أفلح ريتشارد في ترقيع هدنة هشة ، ثم عاد إلى عسقلان وقد اقتنع أكثر من أي وقت مضى بضرورة تحقيق السلام مع صلاح الدين^(٣٢) .

١١٩٢ م : مفاوضات جديدة

وكان ريتشارد ما يزال على اتصال بالعاذل . فأرسل مبعوثا انجليزيا هو ستيفن (أوف تورنهام) ، في زيارة للقدس لمقابلة السلطان وأخيه ، وأصيب المبعوث بالصدمة لدى رؤيته رينالد أمير صيدا وباليان أمير ابلين وهما يخرجان من بوابة المدينة . ولم تكن

(٣١) *Itinerarium*, pp.313-17; Ambroise, cols. 212-14

(٣٢) *Itinerarium*, pp. 319-24; Ambroise, cols. 218-21.

مفاوضات صلاح الدين مع كونراد قد انقطعت ، وكان وجود باليان نذيرا سيئا ، إذ كان فارسا يحظى بتقدير كبير من صلاح الدين . على أية حال انطلق العادل على جواده في العشرين من مارس هابطا إلى معسكر ريتشارد وهو يحمل عرضا نهائيا بأن يحتفظ المسيحيون بما استولوا عليه ، ولهم الحق في الحج إلى القدس حيث يمكن للاتينيين الاحتفاظ بقساوسة ، وأن يبقى معهم الصليب المقدس ، ومن حقهم ضم بيروت كذلك في حالة هدم حصونها . واستقبل الملك السفارة استقبالا حسنا حقا ؛ وكعلامة على التشريف الخاص طوّق أحد أبناء العادل بحزام الفروسية ، ولا شك في أن المظاهر المسيحية المعتادة قد ألغيت من الاحتفال . وعندما رجع العادل إلى أخيه في أوائل إبريل ، بدا أنه قد تم التوصل أخيرا إلى تسوية^(٣٣).

وتأكدت ضرورة التسوية بعد أيام قليلة ، عندما وصل من إنجلترا رئيس أديرة هيرفورد ليخبر ريتشارد بأن الأمور تسير بصورة سيئة في إنجلترا . ذلك أن أخا الملك ، جون ، كان يغتصب السلطة أكثر فأكثر ، وتقدم كبير القضاة وليم أسقف إيللي متوسلا ريتشارد أن يذهب إلى الوطن على الفور . وكان ريتشارد قد أمضى عيد الفصح ، الخامس من إبريل ، في المعسكر وهو حائق لرحيل الفرنسيين الباقين بعد أن استدعاهم هيو (أوف برجندي) في الشمال . والآن ، وأكثر من أى وقت سابق ، يتعين أن تُخمد المشاحنات بين الصليبيين ، ولذا أمر الملك بعقد مجلس من الفرسان جميعا وبارونات فلسطين ، وأخبرهم بأنه سرعان ما سيغادر البلد ، ويجب الانتهاء إلى قرار فيما يتعلق بتاج القدس عارضا عليهم الاختيار بين الملك جوى و الماركيز كونراد . وصدمة الآخر لا يجد مؤيدا واحدا لجوى ، كانوا جميعا يريدون كونراد.

وكان ريتشارد من الحكمة والأريحية بحيث يرضخ للقرار ، ووافق على الاعتراف بكونراد ملكا ، وانطلقت بعثة يرأسها ابن أخيه هنرى (أوف شامباني) إلى صور لنقل الأخبار الحسنة إلى الماركيز.

وعندما وصل هنرى إلى صور في العشرين من إبريل تقريبا كانت البهجة بالغة . وتقرر أن يجرى التتويج في غضون أيام قليلة في عكا ، وكان مفهوما أن كونراد سوف يرضى في نهاية الأمر بالانضمام إلى المعسكر في عسقلان . ورحل هنرى من صور على الفور إلى عكا لإعداد المدينة للاحتفال^(٣٤).

(٣٣) Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 328-9; Itinerarium, p.337.

(٣٤) Itinerarium, pp.329-38; Ambroise, cols. 225-31.

١١٩٢م : اغتيال كونراد

ركع كونراد على ركبتيه لدى سماعه الأنباء ضارعا إلى الرب قائلا إنه إن لم يكن حديرا لأن يصبح ملكا، فلا يأذن الرب بذلك . وبعد أيام قلائل ، وفي يوم الثلاثاء الثامن والعشرين من ابريل ١١٩٢ ، اضطرت زوجته الأميرة إيزابيلا إلى الانتظار طويلا قبل تناول العشاء ، إذ كانت قد بقيت في حمامها مترتبة تريثا طويلا، ولذا قرر الخروج لتناول عشاء مع صديقه القديم أسقف بوفيه . لكنه وجد الأسقف قد فرغ من تناول وجبته . ورغم الالحاح عليه كي ينتظر ريثما يتم إعداد الطعام له ، انطلق في مرح قاصدا بيته . وبينما كان يجتاز منعطفا حادا برز له رجلان أعطاه أحدهما خطابا يقرؤه ، بينما طعنه الآخر في حسده . وحُمِل إلى قصره وهو يحتضر.

فأما أحد الرجلين فصرع على الفور ، واقتيد الثاني واعترف قبل اعدامه بأنه ورفيقه من الحشاشين ، كلفهما سيد الجبل، الشيخ سينان ، بتنفيذ المهمة . وكان الحشاشون قد توخوا حيادا هاما طوال تلك الحملة الصليبية، مما أتاح لهم الفرصة لتقوية حصونهم وتكديس المزيد من الثروة . وكان كونراد قد أساء إلى الشيخ سينان بعمل من أعمال القرصنة أقدم عليه ضد سفينة تجارية محملة بنفيس البضائع كان الحشاشون قد اشتروها . وبرغم اعتراضات سينان ، لم يُرجع كونراد البضائع ولا البحارة الذين غرقوا كلهم في الواقع . وربما كان سينان يخشى من أن تتعرض أراضيه للخطر في نهاية الأمر من انشاء دويلة صليبية قوية على الساحل اللبناني . وقيل إن القاتلين كانا قد أمضيا بعض الوقت في صور ينتهزان النهضة المواتية ، وأنهما قبلتا حتى التعميد تحت رعاية كونراد وباليان . غير أن الرأي العام كان يبحث عن دوافع أعمق ؛ فقال البعض إن صلاح الدين دفع رشوة لسينان كي يقتل ريتشارد و كونراد كليهما ، لكن خشي سينان من أن يؤدي مقتل ريتشارد إلى أن يصبح صلاح الدين حرا في الزحف على الحشاشين ، ولذا تولى تنفيذ المهمة الأخيرة . وهناك نظرية أخرى أكثر شيوعا وهي أن ريتشارد نفسه قد رتب الإغتيال . وليس تواطؤ صلاح الدين على الاغتيال حديرا بالتصديق ؛ وريتشار - برغم كراهيته الشديدة لكونراد - لم يستخدم قط سلاح الاغتيال هذا . لكن أعداءه ، وعلى رأسهم أسقف بوفيه ، رفضوا تصديق براءته^(٣٥).

Itinerarium, pp. 337-42; Ambroise, cols. 233-8; Ernoul, pp. 288-90; Estoire (٣٥) d'Eracles, II, pp. 192-4; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 332-3; Abu Shama, II, pp. 52-4

وكان مقتل كونراد بمثابة صدمة للمملكة الوليدة . ذلك أن كونراد الفظ الطموح عديم الخلق والذي مع ذلك حاز ثقة واعجاب النبلاء المحليين من الفرنج ، كان حرياً بأن يكون ملكاً قوياً ماكرًا . ومع ذلك ، كان هناك بعض العوض لاختفائه ؛ إذ توفرت حرية الاختيار لوريثة المملكة - إيزابيلا - لأن تتزوج وتضع التاج على رأس مرشح آخر أقل إثارة للخلاف . ولقد أسرع هنري (أوف شامباني)، لدى سماعه بالإغتيال ، عائداً من عكا إلى صور حيث وجد الأميرة الأرملة وقد أغلقت على نفسها القلعة رافضة تسليم مفاتيح مدينتها لأي شخص عدا ممثل ملك فرنسا أو ممثل ملك إنجلترا . وما أن وصل هنري حتى نادى به أبناء صور على أنه الرجل الذي ينبغي أن يتزوج أميرتهم ويرث العرش ، لاسيما وأنه كان شاباً ، وذا شهامة ، ويحظى بالشعبية ، وابن اخت كل من الملكين . ورضخت إيزابيلا لصخب عامة الناس ، فوهبت نفسها ومفاتيحها لهنري ، وأعلنت خطبتهما بعد يومين من اغتيال كونراد . وقد رأى البعض أنه كان من اللائق التأخير أكثر من ذلك ، وكان من المشكوك فيه ما إذا كان الزوج مرة أخرى في غضون عام أمراً قانونياً من الناحية الكنسية . وكان لدى هنري نفسه بعض الفتور ، على خلاف إيزابيلا التي كانت امرأة بالغة الفتنة في ربيعها الحادي والعشرين غير أنها سبق أن تزوجت مرتين ، ولديها الآن طفلة رضيعة سوف ترثها . ويبدو أن هنري قد أصر على أن يصدق ريتشارد على الخطبة ، فأرسلت الرسل التي جاءت بهنري إلى عكا حيث قابل ابن اخته . وأشيع أنه أخبر هنري بما يساوره من شكوك ، وبتلفه إلى العودة إلى الوطن حيث أراضيه الفسيحة في فرنسا . على أن الحل راق في عيني ريتشارد ونصح هنري بقبول اعتلاء العرش ووعدته بأنه سوف يرجع يوماً ما بمساعدة جديدة لمملكته ، ورفض أن يبذل له النصيح حول الزواج ؛ ولكن هنري لا يستطيع أن يغدو ملكاً بغير زواجه من إيزابيلا . وفي الخامس من مايو ١١٩٢ - وبعد أسبوع واحد تماماً من الترميل - دخلت إيزابيلا عكا وهنري إلى جانبها . وخرج الشعب كله لتحيتهما ، وأقيمت احتفالات الزواج بين مظاهر الفخامة والبهجة ، ثم أن الأميرة وزوجها اتخذوا من قلعة عكا مكان إقامتهما^(٣٦) .

(٣٦) (*Itinerarium*, pp. 342-3; Ambroise, cols. 238-9) اختيار هنري ، وأيده الفرنسيون ، لكن ريتشارد لم يكن ليلزم نفسه ؛ وأما Ernoul, pp. 290-1 *Estoire d'Eracles*, II, pp. 195-6 فيوضح أن ريتشارد أصر على ذلك ؛ ويقول أبو شامة Abu Shama, loc.cit. إن إيزابيلا كانت حُبلى عندما تزوجت هنري . ومع ذلك ربما كانت ابنتها ماريًا قد ولدت قبل مصرع كونراد .

١١٩٢ م : ريتشارد يستولى على دارون

ولقد كان زواجها سعيدا ، فسرعان ما جاشت أعماق هنري بحب زوجته حتى ما يكاد يحتمل غيابها عن ناظره . وهي الأخرى وجدت سحره لا يقاوم بعد أن عانت من جهامات ذلك العجوز القادم من اقليم بيدمونت الإيطالي والذي أجبرت على الزواج منه قسرا .

وقد تخلى ريتشارد فعلا عن الملك جوي ، بعد أن فهم أخيرا أن لا أحد في فلسطين يرتجى أي نفع من ذلك العاهل السابق الذي لا خير فيه . بيد أن هناك مستقبل قبرص الذي يتعين تدبره ، وكان عازفا عن الاحتفاظ بضباط في الجزيرة عندما يرجع إلى أوروبا ، كما أن فرسان المعبد ، الذين باع لهم حكومة قبرص ، كانوا يفتقرون إلى الحكمة في معاملة المواطنين اليونانيين ، وتمنوا لو يعيدونها اليه ، ولذا سمح لجوي أن يشتري منهم حكومتها بعد أن طلب لنفسه مبلغا إضافيا ، لم يدفعه جوي كاملا في واقع الأمر . وفي وقت مبكر من شهر مايو ، هبط جوي في جزيرة قبرص وله كامل السلطة ليحكمها كما يحلو له^(٣٧).

وبعدما استقرت تلك الأمور كلها ، وجه ريتشارد الدعوة إلى هنري للانضمام اليه في عسقلان . وكانت هناك شائعة تفيد بأن أحد أبناء أخي صلاح الدين في الجزيرة شرع في تمرد خطير ضد السلطان ، ولذا قرر ريتشارد شن هجوم مفاجئ على دارون الواقعة جنوب الساحل بعشرين ميلا ، وخاصة وأن معاهدته مع العرب لم يتم التصديق عليها بعد . غير أن هنري تلقا مع الجيش الفرنسي في عكا ، فلم ينتظرهم ريتشارد وإنما زحف بحرا وبرا على دارون ، وفي الثالث والعشرين من مايو ، بعد خمسة أيام من القتال المستعر ، قصف أسفل المدينة واستسلمت حامية القلعة . ولم يتعلم ريتشارد شيئا من شهامة صلاح الدين ، إذ قتل بعض رجال الحامية بالسيف ، وألقى البعض من أعلا أسوار القلعة ، واقتاد البعض في عبودية سرمدية^(٣٨).

طربت قلوب الصليبيين باستيلائهم ذاك اليسير على آخر قلاع صلاح الدين الساحلية ، حتى أنهم خططوا مرة أخرى الزحف على القدس . ووصل هنري والفرنسيون إلى دارون غداة الاستيلاء عليها ، في الوقت المناسب لقضاء عيد العنصرة

(٣٧) للإطلاع على بيع قبرص أنظر Hill, *History of Cyprus*, II, pp. 36-8, 67-9.

(٣٨) *Itinerarium*, pp. 352-6; Ambroise, cols. 245-51; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp.337; Abu Shama, II, p. 54.

هناك مع الملك . ثم إن الجيش عاد بعد ذلك مباشرة إلى عسقلان ، وراح الفرنسيون والانجليز سواء بسواء يمحّثون الملك على شن هجوم عاجل على المدينة المقدسة . وكان ريتشارد قد وصله لتوه المزيد من الأنباء المقلقة من انجلترا ، وساورته الريبة عما إذا كانت الحملة ستكون مجدية من الناحية العسكرية ، وانصرف إلى فراشه في حيرته ، ولم يوقظه إلا خطاب عكّر صفوه سلمه له أحد قساوسته الفرنسيين ، وأقسم على البقاء في فلسطين حتى عيد الفصح التالي^(٣٩).

في السابع من يونية انطلق الجيش الصليبي مرة أخرى من عسقلان . وبتجاوزه الرملة في سيره خلال بلانشجارد ، وصل لاترون في العاشر وبيت نوبا في الحادى عشر وهناك توقف ريتشارد وبقي الجيش هناك شهرا . وكان صلاح الدين ينتظر في القدس التي وصلتها التعزيزات من الموصل والجزيرة لتوها . وكان تقدم المسيحيين أكثر من ذلك في التلال بلا مخزون طعام أو دواب أمتعة أمراً يتصف بالحماقة . وانتهى الأمر بالجانين إلى المناوشات بينهما بدرجات متفاوتة من النجاح . وفي أحد الأيام، وبينما كان الملك ريتشارد على جواده على التلال فوق إمارس ، شاهد على البعد فجأة أسوار وأبراج القدس، فسارع بتغطية وجهه بدرعه حتى لا يشاهد المدينة التي لم يأذن له الرب بتخليصها . بيد أنه كان هناك بعض العوض؛ ففي أحد الأيام جاء إلى المعسكر أسقف اللد السورى ومعه قطعة من الصليب الحقيقى كان يحتفظ بها ، وجاءه بعد ذلك بقليل رئيس الدير اليوناني مار إلياس ، وهو رجل وقور بلحية بيضاء طويلة، وأفضى إلى الملك بالمكان الذي دفن فيه قطعة أخرى من الصليب لكي ينقذها من الكفرة ، واحتفروا المكان وأخرجوها وأعطوها لريتشارد . وكانت القطعتان عزاء للجيش عن فشله في استعادة الجزء الرئيسى لهذا الأثر الهام الذي يبدو أن صلاح الدين قد أعاده الآن إلى كنيسة القبر المقدس في القدس.

وفي العشرين من يونية ، عندما كان قواد الجيش مترددين في التخلي عن محاولة الهجوم على القدس والتوجه بدلا من ذلك إلى مصر ، جاءت أنباء بأن قافلة اسلامية ضخمة آتية من الجنوب في طريقها إلى المدينة المقدسة . وبعد ثلاثة أيام انقض عليها ريتشارد عند الخوض الدائر ، أو آبار كويفا ، في المنطقة الجذباء على بعد عشرين ميلا تقريبا جنوب غرب الخليل . ولم يكن المسلمون على استعداد لمجابهة هذا الهجوم ، وبعد معركة قصيرة وقعت القافلة كلها في أيدي الصليبيين ، بنفيس بضائعها ، وما كانت

(٣٩) Itinerarium, pp. 356-65; Ambroise, cols. 252-9.

تحملة من مؤن الطعام الوفيرة ، وبضعة آلاف من الجياد والجمال . وعاد الجيش المسيحي منتصرا إلى بيت نوبا .

وارتاع صلاح الدين من الأنباء ، وعلم أن ريتشارد سوف يزحف الآن على القدس لا محالة ، فسارع بارسال الرجال لسد كافة الآبار الواقعة بين بيت نوبا والقدس وقطع جميع أشجار الفاكهة . وفي أول يولية عقد مجلسا في القدس يحيطه جو من القلق ، لمناقشة ما إذا كان عليه أن ينسحب باتجاه الشرق . وقد رغب هو نفسه في البقاء هناك ، وأيده أمراؤه المجتمعون مؤكدين ولاعهم له . غير أن الأتراك وجنود الأكراد كانوا على خلاف فيما بينهم ، ولذا لم يكن واثقا من صمودهم لهجوم كبير .

١١٩٢م : ريتشارد ينسحب إلى يافا

وسرعان ما هدأت مخاوفه . إذ كانت هناك في المعسكر المسيحي مناقشات يشوبها القلق أيضا ، فكان الجنود الفرنسيون متلهفين على التقدم في الحال بعدما أصبح الطعام ووسائل الانتقال بتلك الوفرة الوفيرة . غير أن الكشافين التابعين لريتشارد حذروه من عدم توفر الماء . كما كانت هناك مشكلة ما تزال تفرض نفسها ، وهي كيفية الاحتفاظ بالقدس بعد عودة الصليبيين الغربيين إلى أوطانهم . وأمر ريتشارد الجيش مرة أخرى بالانسحاب من بيت نوبا ، مما أثار سخرية الفرنسيين وشعورهم بالإهانة . وفي الرابع من يولية جاءت صلاح الدين الأنباء بأن المسيحيين قد هدموا معسكرهم وأنهم يشرعون في التحرك جنوبا باتجاه الساحل ، فخرج على رأس رجاله إلى تل مجاور ليشاهد الموكب على البعد^(٤٠) .

وما أن عاد ريتشارد إلى يافا حتى سعى مرة أخرى إلى عقد هدنة تتيح له حرية العودة إلى الوطن . وأرسل هنري (أوف شامباني) إلى صلاح الدين رسالة متغطرسة يعلنه فيها أنه الآن وريث مملكة القدس وأنها ينبغي أن تسلم إليه كاملة . وبعد ثلاثة أيام وصل القدس سفراء من ريتشارد ، كانوا أكثر رقة ، إذ أن ريتشارد أعلن أنه يترك ابن أخيه كي تشمله أفضال صلاح الدين ، وحث على التوصل إلى تسوية الأمر بصورة ودية . وعقد صلاح الدين مجلسا وافق على معاملة هنري معاملة رقيقة ، وعلى

(٤٠) Itinerarium, pp. 365-98; Ambroise, cols. 260-87; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 337-52;

Abu Shama, II, pp. 56-62

السماح للقساوسة اللاتينيين بدخول الأماكن المقدسة ، والتنازل عن الساحل الفلسطيني للمسيحيين ، شريطة تفكيك حصون عسقلان . ورفض ريتشارد التفكير في هدم حصون عسقلان ، حتى عندما عرض صلاح الدين اللد في مقابل ذلك . وأثناء أن كانت المحادثات دائرة يحملها الرسل جيئة وذهوبا ، انتقل ريتشارد إلى عكا ، وفي نيته الانبحار حتى وإن لم تكن المعاهدة قد وقعت بعد . وكان يخطط للزحف المفاجئ على بيروت والاستيلاء عليها ، ومنها يركب البحر إلى أوروبا^(٤١).

وتهيأت لصلاح الدين فرصة بغيابه . ففي باكورة السابع والعشرين من يولية قاد جيشه خارجا من القدس ووصل مساء نفس ذلك اليوم أمام يافا وبدأ مهاجمة المدينة من فوره ، وبعد ثلاثة أيام من قصف المدينة أفلح مهندسو الألفام في إحداث ثغرة اندفع منها الجنود العرب داخل المدينة . وكان الدفاع عن المدينة بطوليا لكنه كان عقيما . وأجبرت الحامية على التسليم وفي مفهومها أن الأعداء سوف يبقون على حياة أفرادها ، ودارت المفاوضات مع البطريق الجديد الذي تصادف وجوده في المدينة . على أن جنود صلاح الدين كانوا آنذاك خارج سيطرته ، واندفع الأكراد والأتراك في الشوارع ينهبون المدينة ويقتلون المواطنين الذين كانوا يحاولون الدفاع عن بيوتهم ، ولذا نصح صلاح الدين جنود الحامية بأن يغلقوا على انفسهم أبواب القلعة إلى أن يتمكن من استعادة النظام.

١١٩٢م : آخر انتصارات ريتشارد

وكانت المدينة، لحظة اقتراب صلاح الدين من الأسوار، قد أرسلت رسالة خاطفة إلى ريتشارد تحمل أنباء الهجوم، فخرج ريتشارد في الحال لإنقاذها، وذهب هو نفسه بحرا تساعده سفن بيزا وجنوا بينما أرسل جيشه برا . وهبت رياح معاكسة أعاقته وقذفت به إلى نقطة جبل كارمل ، ولذا كان جيشه عاجزا عن الوصول إلى يافا قبله ، فتأخر في الطريق إلى قيسارية . وفي الحادي والثلاثين، وبعدما تمكن صلاح الدين من تهدئة جنوده بالقدر الذي يسمح له بإجلاء تسعة وأربعين فارسا من فرسان الحامية مع زوجاتهم ومنقولاتهم من القلعة إلى المدينة ، لاح في الأفق أسطول ريتشارد المؤلف من خمسين غليوناً . فما كان من الحامية إلا أن استأنفت القتال ، وكادت في هجمة واحدة

(٤١) Itinerarium, pp. 398-9; Ambroise, cols. 287-8; Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 353-60;

Abu Shama, II, pp. 63-6

أن ترد المسلمين غير المنظمين خارج المدينة . ولم يكن ريتشارد على علم بما يحدث ، فتزد في النزول إلى البر ، إلى أن سبح قس إليه ليخبره أن القلعة لم تسقط بعد . فدفع بسفنه إلى أسفل القلعة وخاض الماء إلى الشاطئ على رأس جيشه . أما في خيمة صلاح الدين ، فكانت رسل الحامية تحاول التفاوض مع صلاح الدين يائسة في ذات الوقت الذي شن فيه ريتشارد هجومه . وبوغت العرب الذين كان أغلبهم لا يزال مبعثرا في الشوارع . وترتب على الشراسة التي كان يحارب بها ريتشارد ، وقد تقدم هو نفسه في المقدمة ، في ذات الوقت الذي شنت فيه الحامية هجوما آخر ، أن اندفع العرب في فرارهم لا يلوون على شيء . وجاء كاتم أسرار صلاح الدين وهمس في أذنه نبأ الهزيمة النكراء . وبينما كان يحاول تعطيل زائريه بجديته المتع ، جاء سيل الهاربين المسلمين ليكشف الحقيقة . فاضطر صلاح الدين إلى الأمر بالانسحاب . وكان بمقدوره البقاء هو نفسه في معسكره مع حفنة من الفرسان ، لكن جيشه الرئيسي هرب إلى عسير الواقعة على مبعدة حمسة أميال داخل البلاد ، قبل أن يعيد تنظيم صفوفه . وهكذا استعاد ريتشارد يافا بما يقرب من ثمانين فارسا وأربعمائة من رماة السهام ، وربما ألفي بحار إيطالي . ولم يكن مع قواته كلها سوى ثلاثة جياد^(٤٢) .

وفي الصباح التالي مباشرة أرسل صلاح الدين حاجبه أبا بكر لاستئناف محادثات السلام ، فوجد ريتشارد يتفككه مع بعض الأمراء الأسرى ، حول استيلاء صلاح الدين الخاطف على يافا وعن استيلائه عليها . وقال إنه كان بلا سلاح ولم يتوفر لديه الوقت حتى لتغيير حذائه . على أنه اتفق على الفور مع أبي بكر على أن الحرب ينبغي أن تتوقف . وكانت رسالة صلاح الدين تقترح - كنقطة مساومة - أنه طالما أن يافا قد دمرت الآن ، فينبغي أن تتوقف الحدود الفرنجية عند قيسارية . وعرض ريتشارد اقتراحا مضادا بأن يحتفظ بيافا وعسقلان كإقطاعيتين تحت سيادة صلاح الدين ، دون أن يفسر كيفية إدارة الإقطاعيتين عندما يكون الملك في أوروبا . وكان رد صلاح الدين هو تقديم يافا ، وأصر على الاحتفاظ بعسقلان . ومرة أخرى أثبتت عسقلان أنها بمثابة حجر عثرة ، وتوقفت المفاوضات^(٤٣) .

وكان الجيش الفرنجي الذي استدعاه ريتشارد لإنقاذ يافا يتقدم بعد أن مر بقيسارية .

(٤٢) *Itinerarium*, pp. 400-11; Ambroise, cols. 289-302; Beha ed-Din, *P.P.T.S.* pp. 361-71; Abu Shama, II, pp. 66-71

(٤٣) لم يذكر تلك المفاوضات سوى المؤرخين المسلمين، بهاء الدين (4-371 *P.P.T.S.* Beha ed-Din) وأبي شامة (3-71 II, pp. 71-3).

والآن أدرك صلاح الدين مدى ضآلة قوة ريتشارد في يافا ، فقرر أن يضرب ضربته في معسكره خارج الأسوار قبل وصول قوات جديدة . وفي فجر يوم الأربعاء الخامس من أغسطس ، وبينما كان واحد من أبناء جنوا يتجول خارج المعسكر ، سمع صهيل خيول ووقع أقدام جنود ، ورأى على البعد وميض حديد يلمع في ضوء الشمس البازغة ، فأيقظ من في المعسكر ، وعندما ظهر العرب كان ريتشارد مستعدا . ولم يتوفر لرجاله الوقت الكافي ليحملوا أسلحتهم . فوضع ريتشارد رجاله خلف سياج من أوتاد خيام خشبية كانت مغروزة لتفريق خيول العدو، ونظمهم في أزواج بحيث ثبتوا دروعهم على هيئة سور أمامهم ، وغرسوا رماحهم الطويلة في الأرض بزاوية لتخترق أجساد المهاجمين. وبين كل زوج من الرجال كان هناك رامى سهام . وهجم فرسان المسلمين في سبع موجات كل منها ألف رجل ، لكنهم لم يتمكنوا من اختراق سور الحديد ، وتواصل الهجوم حتى ما بعد الظهر . وعندما بدا التعب على جياد الأعداء ، جعل ريتشارد رماته يمرون إلى الخط الأمامي وصوبوا كل سهامهم على العدو المهاجم . وأوقف وابل السهام الأعداء . وعاد الرماة مرة أخرى وراء حملة الرماح الذين هجموا يتقدمهم ريتشارد على صهوة جواده . وأعجب صلاح الدين بالمشهد في برغم غضبه، وعندما تعثر جواد ريتشارد وسقط به ، أرسل سائسا في خضم الاضطراب ومعه جوادين حديدين كهديّة للملك شجاع . وزحف بعض المسلمين ملتفين لمهاجمة المدينة نفسها ، فهرب البحارة الذين كانوا يحرسونها إلى سفنهم ، إلى أن جاءهم ريتشارد على جواده وجمعهم . وبحلول المساء ، أوقف صلاح الدين المعركة وانسحب إلى القدس، وراح يضيف إليها تحصينات على تحصيناتها تحسبا لمقدم ريتشارد^(٤٤).

١١٩٢م : معاهدة بين صلاح الدين وريتشارد

ولقد كان نصرا مؤزرا ، يرجع الفضل فيه إلى تكتيكات ريتشارد وشجاعته الشخصية . لكنه لم يتابع انتصاره . ففي غضون يوم أو يومين عاد صلاح الدين إلى الرملة بجيش جديد يتألف من كتائب من مصر وشمال سوريا ، بينما كان ريتشارد ، الذي نال منه الإجهاد ، يرقد في خيمته مريضا بحمة شديدة، وهو الآن متلهف على السلام . وأعاد صلاح الدين عرضه الأول ، ولازال مصرا على تسليم عسقلان ، وهو

(٤٤) *Itinerarium*, pp.413-24; Ambroise, cols. 304-11; Beha ed-Din, *P.P.T.S.*pp.374-6;

Abu Shama, II, p.74. المورخون المسلمون يجعلون من المعركة معركة صغيرة

أمر يصعب على ريتشارد احتمالته ، فكتب إلى صديقه القديم الأفضل ، الذي كان هو الآخر على فراش مرضه بالقرب من القدس ، راجيا تدخله كي يترك له صلاح الدين عسقلان ، لكن صلاح الدين أبى ، وأرسل إلى الملك المريض خوفاً وكثري وبعض الثلوج من جبل حرمون لتبريد مشروباته ، لكنه لا يتخلى عن عسقلان . ولم يكن ريتشارد في وضع يمكنه من المساومة ؛ ذلك أن حالته الصحية ، فضلا عن سوء تصرفات أخيه في إنجلترا ، كانا يفرضان عليه العودة فورا إلى بلده . والصليبيون الآخرون قد نال منهم الضرر ، فكان ابن اخته هنري والنظامان العسكريان يظهران عدم ثقتهم في سياسته ، فما فائدة عسقلان عندما يرحل هو وحيشه؟ وقد دأب أغلب الوقت على الجهر بتصميمه على مغادرة فلسطين . وفي يوم الجمعة الثامن والعشرين من أغسطس ، جاءه حامل بريد العادل بالعرض النهائي من صلاح الدين . وبعد خمسة أيام ، في الثاني من سبتمبر ١١٩٢ ، وقع على معاهدة سلام مدتها خمس سنوات وأثبت سفراء السلطان أسماءهم عليها . ثم تناول السفراء يد ريتشارد وأقسموا نيابة عن سيدهم ، ورفض ريتشارد نفسه القسم باعتباره ملكا ، ولكن هنري (أوف شامباني) وباليان (أمير ابلين) والسيدتين الأعظمين لفرسان المعبد والمستشفى أقسموا نيابة عنه . وفي اليوم التالي وقع صلاح الدين نفسه المعاهدة في حضور سفراء ريتشارد . لقد انتهت حرب الحملة الصليبية الثالثة.

وتقضى المعاهدة بأن يحتفظ الصليبيون بالمدن الساحلية جنوبا حتى يافا ، وبحرية الحجاج في زيارة الأماكن المقدسة ، والسماح للمسلمين والمسيحيين بالمرور في أراضي بعضهم البعض . لكن تقرر هدم حصون عسقلان.

وسرعان ما طلبت مجموعات من الصليبيين زيارة الأماكن المقدسة ، وما أن رتب صلاح الدين لمرافقتهم وإيوائهم ، حتى انطلق أفراد تلك الجماعات بلا سلاح حاملين جواز مرور من الملك إلى القدس للإعراب عن تبجيلهم لمزاراتها. ولم يشأ ريتشارد نفسه الذهاب ، ورفض منح أي جواز مرور للجنود الفرنسيين ، على أن الكثير من فرسانه التابعين له قاموا بالرحلة . وكانت إحدى الجماعات بقيادة هوبرت والتر أسقف سالزبورى ، الذي استقبل هناك بمظاهر التشريف وسمح له بمقابلة مع السلطان ، تحدثا خلالها في مواضيع كثيرة ولا سيما شخصية ريتشارد . وأعلن الأسقف أن ريتشارد يتمتع بكافة المزايا الطيبة ، لكن صلاح الدين أعرب عن اعتقاده أن ريتشارد يفتقر إلى الحكمة والاعتدال . وعندما قدم صلاح الدين هدية وداع للأسقف ، طلب الخبر السماح لقسيسين من اللاتين ولإثنين من الشمامسة بالخدمة في كنيسة القبر المقدس

وكذلك في بيت لحم والناصرة ؛ فوافق صلاح الدين وبعد أشهر قليلة وصل القساوسة وسمح لهم بأداء واجباتهم دون إعاقة.

ووصلت القسطنطينية شائعات بأن ريتشارد يمارس ضغوطه لإضفاء الصبغة اللاتينية على الأماكن المقدسة. فوصلت سفارة من الامبراطور اسحق أنجيلوس إلى صلاح الدين الذي كان ما يزال في القدس ، تطلب استرداد الأرثوذكس للسيطرة الكاملة على الكنيسة الأرثوذكسية التي كانت لهم أيام الفاطميين ، لكن صلاح الدين رفض الطلب ، فهو لن يسمح لأية طائفة بمفردها بالسيطرة على تلك الأماكن ، لكنه - كشأن السلاطين العثمانيين من بعده - سيكون بمثابة جهة تحكيم بينهم جميعا. كما أنه رفض على الفور ما عرضته ملكة جورجيا من شراء الصليب المقدس بمبلغ ٢٠٠,٠٠٠ دينار^(٤٥).

١١٩٩ م : موت ريتشارد

بعد توقيع المعاهدة رحل ريتشارد إلى عكا حيث وضع أموره في نصابها ودفع ما عليه من ديون وحاول جمع الديون المستحقة له . وفي التاسع والعشرين من سبتمبر أبحرت الملكة بيرينجاريا والملكة جوانا من عكا فوصلتا فرنسا بسلام قبل عواصف الشتاء . وبعد ذلك بعشرة أيام رحل ريتشارد نفسه عن الأراضي التي حارب فيها ببسالة طوال ستة عشر شهرا مريرة . كان الحظ خصمه ؛ إذ اضطرته الأحوال الجوية إلى الرسو بسفينته في ميناء كورفو الواقع في أراضى الامبراطور البيزنطى اسحق أنجيلوس. وخشية من أن يقع فى الأسر ، تنكر من فوره في زى فارس من فرسان المعبد، واصطحب معه أربعة رجال من أتباعه ، واستقل زورق قراصنة كان قاصدا رأس البحر الأدرياتيكي ، لكن الزورق تحطم بالقرب من أخيليا ، فاستمر ريتشارد واصحابه برا خلال كارينثيا والنمسا منتويا الإسراع في هدوء ليصل إلى أراضى صهره هنرى (أوف ساكسونى) . غير أن ريتشارد ليس بالرجل الذي يتنكر عن اقتناع بمبدأ التنكر ، فتم التعرف عليه في الحادى عشر من ديسمبر بينما كان متوقفا في حان بالقرب من فيينا، واقتيد في الحال ليمثل بين يدى ليوبولد دوق النمسا ، وهو الرجل الذى نزع ريتشارد رايته في عكا . واتهمه ليوبولد بقتل كونراد (أوف مونتفرات) وألقى به في غيابة

(٤٥) Beha ed-Din, P.P.T.S. pp. 334-5. كما رفض صلاح الدين طلب الامبراطور المساعدة في استرجاع قبرص.

السجن . وبعد ثلاثة أشهر سلمه ليوبولد إلى سيده الأعلى الامبراطور هنري الخامس ، الذي كان يحمل له كراهية شديدة لصداقته الطويلة مع هنري الأسد وتحالفه مؤخرًا مع تنكريد في صقلية، ولذا أبقاه في السجن عاما كاملا ولم يطلق سراحه إلا في مارس ١١٩٤ ، لقاء فدية ضخمة وقسم بالتبعية . وأثناء أشهر السجن المضيئة ، تعرضت أراضي لمكائد أخيه جون والهجمات الضارية من الملك فيليب . وعندما عاد إلى أراضيه كانت تنتظره مهام كثيرة للغاية بحيث أبعدت عن خياله التفكير في رحلة أخرى إلى الشرق . وحارب في فرنسا ببسالة طوال خمس سنوات دفاعا عن ميراثه ضد الكايتيون اللثام^(٤٦) إلى أن أصابه سهم طائش في السادس والعشرين من مارس ١١٩٩م انطلق من قلعة متمردة في ليموزين ، كان فيه نهاية حياته . لقد كان إينا شريرا ، وزوجا شريرا ، وملكًا شريرا ، لكنه كان جنديا بأسلا رائعا^(٤٧) .

(٤٦) (المترجم) أسرة حاكمة فرنسية (٩٨٧-١٣٢٨م) أسسها Hugh Capet.

(٤٧) ترد عودة الجيش إلى الوطن في *Itinerarium*, pp. 439-40; Abroise, cols. 327-9. وأما رحلة ريتشارد وما صادفه من نواب فترد باقتصاب في *Itinerarium*, pp. 441-6. كما في ذلك الخطاب المزيف المرسل من شيخ الجبال إلى ليوبولد دوق النمسا يعلن براءة ريتشارد من مقتل كونراد، وكذلك في التواريخ الأخرى . أنظر . Norgate, *Richard the Lion Heart*, pp. 264-76.

الفصل الرابع:

المملكة الثانية

المملكة الثانية

"ويكون الساحل لبقية بيت يهوذا عليه برعون"
(صَفْنَا ٧:٢)

وصلت الحملة الصليبية الثالثة إلى نهايتها . ولن تعاود قط تلك الكوكبة من الأمراء الرحيل شرقا في حرب مقدسة . وبعد ، وبرغم الجهد الهائل الذي بذلته أوروبا الغربية مجتمعة ، كانت النتيجة ضئيلة تافهة . فقد أنقذ كونراد صور قبل وصول الصليبيين ، وأنقذ الأسطول الصقلي طرابلس . وكل ما أسهم به الصليبيون في إعادة مولد المملكة الفرنجية هو عكا والخط الساحلي جنوبا حتى يافا ، بخلاف جزيرة قبرص التي نزلها الصليبيون من سيدها المسيحي . ومع ذلك ، كان هناك إنحياز واحد ؛ ألا وهو صد اندفاع صلاح الدين في الغزو . لقد أزهق المسلمون من الحرب المطولة ، ولن يفكروا ولو لهنية في محاولة قذف الصليبيين إلى البحر . لقد ولدت المملكة من جديد حقا ، وباتت من القوة بما يكفي لإستمرارها طوال قرن آخر . ولقد كانت مملكة صغيرة جدا . وبرغم أن ملوكها كانوا إسما ملوك القدس ، كانت القدس ذاتها خارج قبضتهم .

وكل ما كانوا يملكونه هو شريط من الأرض لا يزيد عرضه مطلقاً على عشرة أميال ،
يمتد تسعين ميلاً على البحر من يافا إلى صور . وأبعد إلى الشمال أبقت حيدة بوهموند
الحصيفة على عاصمته وأراض قليلة حولها جنوباً حتى ميناء السويدية ؛ بينما احتفظ ابنه
بطرابلس ذاتها ، واحتل فرسان المستشفى قلعة الكرك ، وفرسان المعبد في طرطوس تحت
سيادته . ولم يكن ذلك بالشئ الكثير الذى أنقذ من حطام الشرق الفرنجى ، غير أنه في
تلك اللحظة كان ما أنقذ في أمان .

١١٩٣م : وفاة صلاح الدين

لم يكن صلاح الدين قد جاوز الرابعة والخمسين من عمره ، لكنه كان مرهقاً
ومريضاً بعد كل أوزار الحرب تلك . وظل في القدس منشغلاً بالإدارة المدنية لمقاطعة
فلسطين إلى أن سمع أن ريتشارد أنجر من عكا . وكان يعقد الآمال عندئذ على زيارة
مصر ، وبعدها يحقق طموحه الورع بالحج إلى مكة ، لكن الواجب استدعاه إلى دمشق .
وبعد أن قام بجولة دامت ثلاثة أسابيع في الأراضى التى فتحها ، وبعد أن قابل بوهمند في
بيروت ووقع معه معاهدة سلام قاطعة ، وصل دمشق في الرابع من نوفمبر ، حيث كان
في انتظاره كثير من الأعمال التى تراكت أثناء سنوات أربع من حياته أمضاها مع
الجيش . ولقد كان شتاء قاسياً ، ولديه الكثير مما ينبغى عمله في عاصمته ، فأرجأ
الرحلة إلى مصر والحج إلى مكة . وكلما أتاحت له فسحة من الوقت كان يستمع
لمناظرات المتعلمين من رجاله في الفلسفة ، وكان أحياناً يخرج للصيد . على أنه بمرور
أشهر الشتاء ، عرف المقربون إليه أن صحته آخذة في التدهور ، وكان يشكو من التعب
الشديد والنسيان ، ونادراً ما كان بمقدوره بذل الجهد لإجراء مقابلة . وفي يوم الجمعة
التاسع عشر من فبراير ١١٩٣م تحامل على نفسه وخرج على جواده لاستقبال الحجاج
القادمين من مكة . وفي ذلك المساء اشتكى من الحمى ومن الأوجاع ، واحتمل مرضه
صابراً محتسباً ، وهو على يقين من اقتراب أجله . وفي غرة مارس راح في غيبوبة .
وسارع ابنه الأفضل ليضمن ولاء الأمراء ، ولم يبق بجوار فراش السلطان سوى قاضى
دمشق وقليل من الخدم المخلصين . وفى يوم الأربعاء الثالث من الشهر ، وبينما كان
القاضى يقرأ القرآن بجواره ، تلى الآية : " لا إله الا هو عليه توكلت " ، ففتح السلطان
المحتضر عينيه ، وتبسم ، ثم مضى في سلام إلى بارئته^(١) .

(١) يرد وصف نابض بالحياة لأيام صلاح الدين الأخيرة أورده بهاء الدين (P.P.T.S. pp.392-402) ،

ومن بين جميع الشخصيات العظيمة في العصر الصليبي ، كان صلاح الدين الأكثر جاذبية . ولقد كانت له أخطاؤه ؛ ففى وصوله إلى السلطة أظهر من المكر والقسوة ما يتعارض مع سمعته فيما بعد . وعندما كان الأمر يتصل بمصالح السياسة ، لم يكن ليحجم قط عن سفك الدماء ، فقد قتل بيديه ريموند (أوف شاتيلون) الذى كان يثق به . لكنه فى لحظات قسوته ، لم يكن ذلك إلا ابتغاء لصلاح قومه ودينه . لقد كان مسلما مخلصا . ومهما كانت مشاعره الطيبة نحو أصدقائه المسيحيين ، كان يعرف أن مصير أرواحهم إلى هلاك ، ومع ذلك كان يحترم سبلهم ونظر اليهم كرفاق آدميين . وعلى خلاف عواهل الصليبيين ، لم يحنث قط بوعده وعده لأى انسان آيا ما تكون ديانتة . وعلى الرغم من شدة حميته كان دائما كيسا ، كريما ، رحيفا باعتباره غازيا وقاضيا ، وكسيد على الآخرين كان منصفًا متسامحا . ورغم أن بعض الأمراء ربما كان متبرما منه باعتباره كرديا عصاميا ، ورغم أن المبشرين فى الغرب يطلقون عليه عدو المسيح ، فإن الذين لم يشعروا حياله بالاحترام والتبجيل كانوا نادرة نادرة ، كما أن قليلا من أعدائه كان باستطاعتهم مقاومة جاذبيته . وكان ضئيل البنية ، وكان وجهه فى لحظات الراحة كئيبا يوحى بانقباض الصدر ، لكنه من اليسير أن يتحول وجهها مضيئا تزينه ابتسامة فاتنة . وكانت أخلاقه دائما كيسة ، ويرضيه القليل . وكان يكره الفظاظه والبهرجة ويعشق الهواء الطلق والصيد ، على أنه كان ذا معارف جيدة ويجد المتعة فى المناقشات الفكرية رغم أنه أشاع الرعب بين المتشككين . وعلى الرغم من قوته وانتصاراته كان رجلا هادئا متواضعا . وبعد سنوات كثيرة وصلت قصة إلى مسامع الكاتب الفرنجى فينسينت أوف بوفيه تقول إنه بينما كان يحتضر استدعى حامل رايته وأمره بالتجول فى أنحاء دمشق بخرقه من كفته مثبتة على رمح وينادى فى الناس أن عاهل الشرق كله لا يستطيع أن يأخذ معه إلى القبر سوى خرقه القماش هذه^(٢) .

ولقد كانت انجازاته عظيمة ؛ فقد أكمل ما بدأه نور الدين فى توحيد الاسلام ، وطرده الدخلاء الغربيين من المدينة المقدسة وحصرهم فى شريط ضيق على الساحل ، لكنه

الذى كان موجودا فى بلاطه آنذاك . ويذكر أبو شامة روايات مختلفة. Abu Shama, II, pp. 93-7. أنظر أيضا ابن الأثير. Ibn al-Athir, II, pp. 72-5. ويخطئ Ernoul (p. 304) وتاريخ هرقل *Estoire d'Eracles* (II, p. 217) فى ذكر تاريخ وفاته عام ١١٩٧ ، وكذلك *Gestes des Chiprois* (p. 15) ، أما المؤرخ Roger of Hoveden (III, p. 213) فيذكر التاريخ الصحيح . ١١٩٦ .

(٢) يورد بهاء الدين تقریظا مقنعا عن شخصيته مع أمثلة وأقاصيص . (P.P.T.S. pp. 4-45) ويورد Vincent of Beauvais (Douai edition) قصة الخرقه . p. 1204 ويذكره جميع المؤرخين المسيحيين بمشاعر الاحترام . وللاطلاع على الأقاصيص المثيرة بشأنه انظر Lane-Poole, *Saladin*, pp. 370-401.

لم يتمكن من طردهم نهائياً، إذ كان الملك ريتشارد وقوات الحملة الصليبية الثالثة فوق احتمالته ، ولو أن حاكماً آخر له نفس الثقل جاء بعده ، لأكمل المهمة بغاية السرعة . غير أن مأساة الإسلام في العصور الوسيطة هي غيبة المؤسسات المستديمة للمضى بالسلطة بعد وفاة الحاكم . فكانت الخلافة هي المؤسسة الوحيدة التي يسمو وجودها على وجود أصحابها؛ والآن أصبح الخليفة عاجزاً من الناحية السياسية. على أن صلاح الدين لم يكن خليفة ، وإنما كان كردياً ليست عائلته بالعائلة الكبيرة ، وكان هو الذي يفرض الطاعة على العالم الإسلامي قوة شخصيته وحسب. وكان أبنائه في أشخاصهم يفتقرون إلى شخصيته.

١١٩٣م : أبناء صلاح الدين

مات صلاح الدين تاركاً سبعة عشر ابناً وبتاً صغيرة . كان أكبرهم الأفضّل ، وهو شاب متكبر في الثانية والعشرين من عمره ، استخلفه أبوه في وراثته دمشق وزعامته الأسرة الأيوبية . وبينما كان صلاح الدين يحتضر ، استدعى الأفضّل كل أمراء دمشق ليقسموا له قسم الولاء ، وفي حالة الحث بالقسم تطلق نساؤهم ويحرم أولادهم من الموارث . وسببت هذه العبارة الأخيرة الصدمة للكثيرين منهم ، ورفض بعضهم القسم ما لم يقسم الأفضّل بدوره بالابقاء عليهم في ضياعهم . على أنه بعد وفاة أبيه ودفنه في المسجد الأموي الكبير ، لقيت سلطته القبول في دمشق . وكان ابنه الثاني ، العزيز ، حاكم مصر فعلاً وكان في الحادية والعشرين من عمره ، وأعلن نفسه هناك سلطاناً مستقلاً . وكان ابنه الثالث ، الظاهر ، يحكم في حلب ولم يظهر استعداداً لقبول سيادة أخيه العليا . وأخ آخر ، خضر ، كان يحكم في حوران واعترف بسيادة الأفضّل . ولم يبق على قيد الحياة من إخوة صلاح الدين سوى اثنين : طغتكين ، الذي خلف توارنشا في حكم اليمن ، والعاقل الذي لم يكن صلاح الدين يثق في مطامحه ، وكان يسيطر على أراضى شرق الأردن التي كانت بحوزة الفرنج من قبل كإقطاعية له ، وأراضى الجزيرة حول الرها . وكان أبناء إخوته وأبناء عمومته يمتلكون ضياعاً أصغر في سائر أنحاء أراضى السلطان . أما أمراء آل زنكى ، عز الدين وعماد الدين ، فكانوا يحكمون الموصل وسنجار كأتباع ؛ وكان الأراقة لا يزالون يسيطرون على ماردن وكيفا . وكان أغلب أصحاب الإقطاعيات الآخرين قواداً عسكريين استخدمهم صلاح

الدين ، وكان أبرزهم بكنمر أمير خلاط^(٣).

وبموت صلاح الدين بدأت وحدة الإسلام تتفتت . فبينما كان أبنائه في غيرتهم يرقبون بعضهم البعض ، كانت هناك مؤامرة يجرى تدبيرها في الشمال الشرقي لإعادة حكم آل زنكى في شخص عز الدين ، بمساندة من بكنمر والأراطقة . وأنفذ الأيوبيون لما اتخذه العادل من جوانب الحذر ، وللموت المفاجئ لكل من عز الدين وبكنمر ، وكان الظن أن عملاء العادل ضالعون في ذلك . ولقن الدرس ابن عز الدين وورثه - نورالدين أرسلان - وخليفة بكنمر أقسنقر ، وأظهرا الاحترام للعادل إلى حين . وفي الجنوب سرعان ما دب الخلاف بين الأفضل والعزیز . ذلك أن الأول أتى بحركة تخلص من الحكمة طرد فيها أغلب وزراء والده ، وألقى بكل ثقته في ضياء الدين بن الأثير ، وهو أخو المؤرخ ابن الأثير ، بينما راح هو نفسه يمضى أيامه ولياليه يعاقر الخمر ويضطرب للأوتار . وهرب الوزراء السابقون إلى القاهرة حيث العزيز الذي سره الترحيب بهم . وبناء على نصيحتهم قام العزيز بغزو سوريا في شهر مايو ١١٩٤م ، ووصل إلى أسوار دمشق ؛ فارتاع الأفضل واستنجد بعمه العادل الذي هبط على رأس جيش من الجزيرة وقابل العزيز في معسكره . وأجريت ترتيبات جديدة للأسرة اضطر بمقتضاها الأفضل إلى التنازل عن يهودا بشمال فلسطين للعزيز ، وعن اللاذقية وجبله لأخيه الظاهر صاحب حلب ، على أن كلا من العزيز والظاهر اعترفا بسيادته العليا . ولم يحصل العادل على شيء من هذه الصفقة ، سوى المكانة الرفيعة لكونه الحكم في العائلة . ولم يستمر السلام طويلا ، ففي أقل من سنة زحف العزيز على دمشق مرة أخرى ، واضطر العادل إلى الهجى ثانية لإنقاذ ابن أخيه الأكبر ، وبدأ الأمراء من حلفاء العزيز يتخلون عنه ، فرده الأفضل عبر إقليم يهودا إلى داخل مصر وخطط للزحف على القاهرة . وكان ذلك أكثر مما كان يريده العادل ، وهدد بمساندة العزيز إن لم يعد الأفضل إلى دمشق . ومرة أخرى كانت كلمته مطاعة.

١١٩٩م : الخلافات الأيوبية

سرعان ما اتضح عجز الأفضل عن الحكم ، إذ باتت حكومة دمشق كلها في قبضة الوزير ضياء الدين الذي كان يجرّس على العصيان بين كل أتباع سيده . وقرر العادل

(٣) Abu Shama, II, pp.101-9; Ibn al-Athir, II, pp.75-7; Kemal ad-Din, trns. Blochet, p.305

أن المصالح الأيوبية لا يصلح لها مثل هذا العجز من جانب رأس الأسرة ، فغير سياسته وتحالف مع العزيز الذي تمكن بمساعدته من الاستيلاء على دمشق في يولية ١١٩٦ ، وضم كل أراضي الأفضل ، الذي عرضوا عليه تقاعدا مشرفا في مدينة صلخد الصغيرة في حوران حيث كف عن المتع الحسية واستبدلها بحياة التقى ، واعترف بالعزيز سلطانا أعلى للأسرة الحاكمة . ولم تكن سلطة العزيز على عمه تزيد قط عن كونها سلطة إسمية .

ودام ذلك الوضع لعامين . ففي نوفمبر ١١٩٨ ، سقط العزيز من على صهوة جواده أثناء صيد ابن آوى بالقرب من الأهرامات ومات متأثرا بإصاباته في التاسع والعشرين من نوفمبر . وكان ابنه الأكبر ، المنصور ، صبيا في الثانية عشرة من عمره . وخشى الوزراء من طموح العادل ، فاستدعوا الأفضل من صلخد ليكون والي مصر ، فوصل الأفضل إلى القاهرة في يناير ١١٩٩ وتولى الحكومة . وكان العادل آنذاك في الشمال يحاصر ماردن التي كان أميرها الأرتقي يولوك - أرسلان ضجرا من السيطرة الأيوبية . ولقد أصبح العادل في وضع يشوبه الحرج مؤقتا ، الأمر الذي جعل ابن أخيه الثالث الظاهر صاحب حلب يخطط لتحالف ضده ، إذ كان يلقي المتاعب طوال حكمه من أتباعه وقد ارتاب في أن عمه كان يشجعهم على ذلك . وفي الوقت الذي أرسل فيه الأفضل جيشا من مصر لمهاجمة دمشق ، كان الظاهر يعد العدة للهبوط من الشمال ، وانضم اليهما أفراد آخرون من العائلة مثل شيركوه صاحب حمص . فترك العادل ابنه ، الكامل ، لمواصلة حصار ماردن ، وسارع إلى دمشق التي وصلها في الثامن من يونية . وبعد ستة أيام وصل الجيش المصري ، وفي أول هجوم له على دمشق توغل داخلها ، لكنه سرعان ما رُدَّ خارجا منها . ووصل الظاهر وجيشه بعد ذلك بأسبوع ، وظل الأخوان يحاصران عمهما في عاصمته طوال ستة أشهر ؛ لكن العادل كان دبلوماسيا خبيرا حصيفا ، وشيئا فشيئا استطاع أن يجتذب إلى جانبه الكثير من أتباع ابن أخيه ، بمن فيهم شيركوه صاحب حمص ؛ وأخيرا في يناير عام ١٢٠٠ ظهر ابنه الكامل على رأس جيشه الذي انتصر في الجزيرة ، فانفصل الأخوان اللذان كانا السبب في بدء الشجار وانسحبا . وطارد العادل الأفضل داخل مصر ، وهزم جنوده في بليس . وفي فبراير ، رضع الأفضل لعمه بعدما تلبسه ورع جديد ، وعاد إلى تقاعده في صلخد ، واستولى العادل على ولاية مصر . على أن الظاهر لم يهزم . فقام بهجوم مفاجئ على دمشق في الربيع التالي بينما كان العادل ما يزال في مصر ، وحث الأفضل على الانضمام إليه ثانية . ومرة أخرى يسارع العادل إلى عاصمته في الوقت المناسب لكي

يُحاصره ابنا أخيه ، غير أن سرعان ما تمكن من إثارة الشجار بينهما . ذلك أنه اشترى الأفضل بأن وعده بمدنيتي المصيصة وميفارقين في الشمال بدلا من صلخد ، وبدأ أتباع الظاهر يتخلون عنه الواحد تلو الآخر ، وسره أن يسالم عمه العادل معترفا بسيادته القاطعة . وفي نهاية عام ١٢٠١م كان العادل قد بسط سيادته على كامل امبراطورية صلاح الدين واتخذ لقب سلطان . ولم يُمنح المنصور صاحب مصر سوى مدينة الرها . ولم يُسمح للأفضل مطلقا بالسيطرة على ميفارقين التي مرت مع الأراضي المحيطة بها إلى المظفر وهو الابن الرابع للكامل . وحصل ابنه الأكبر ، الكامل ، على مصر تحت سيادة أبيه ، وكان ابنه الثاني ، المعظم ، نائب أبيه في دمشق ، وحكم ابنه الثالث ، الأشرف ، أغلب أراضي الجزيرة من حران . أما الأبناء الأصغر فقد منحوا اقطاعات بلوغهم ما يكفي من العمر ؛ غير أنهم جميعا كانوا تحت رقابة أبيهم الوثيقة . وهكذا عادت وحدة الإسلام وعلى رأسها أمير كان يلقي من الاحترام أقل مما كان يلقاه صلاح الدين ، لكنه كان أكثر مكرًا ونشاطًا^(٤) .

١١٩٤م : حكومة هنري

حالت مشاحنات الأيوبيين دون أن يتسلم المسلمون زمام الهجوم على المملكة الفرنجية الوليدة ، وتمكن هنري (أوف شامباني) شيئا فشيئا من إعادة بعض النظام إليها . ولم يكن ذلك بالعمل اليسير ، كما لم يكن وضع هنري مأمونا تماما . فلعدة أسباب لا محل لشرحها الآن ، لم يُتَوَجَّ ملكا قط . وربما كان ينتظر وهو يداعب الأمل الأثير لديه باسترجاع القدس يوما ما ؛ وربما اتضح له أن الرأي العام كان عازفا عن قبول لقبه الملكي ؛ أو ربما كان تأثير الكنيسة عظيما^(٥) . وترتب على ذلك أن تقيدت سلطاته ، ولاسيما سلطته على الكنيسة . وعندما مات البطريق هيراكليوس كانت هناك بعض الصعوبة في العثور على من يخلفه على عرشه الأسقفي ، وفي نهاية الأمر عُيِّن قسيس

(٤) للإطلاع على تاريخ الأيوبيين المضطرب خلال تلك السنوات أنظر Abu Shama, pp. 110-40; Ibn al-Athir, II, pp. 78-89. Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 581 n.3..

(٥) أنظر المناقشة المثيرة في Prawer, 'L'Etablissement des Coutumes du Marvhe à Saint Jean d'Acre' in *Revue Historique de Droit Francais et Etranger*, 1951, pp. 341-3. أن زواج هنري الذي عُقد بعد ترميل ايزابيلا بأيام قليلة لا تعتبره أعراف البلد زواجا قانونيا ، ولذلك كان هنري حرجولا من أن يتخذ اللقب الملكي.

مغمور يدعى رادولف . ولما مات عام ١١٩٤ اجتمع كهان كندراية القبر المقدس في عكا التي كانوا فيها آنذاك ، وانتخبوا البطريق آيمار ، الملقب بالراهب ، رئيسا لأساقفة قيسارية وأرسلوا إلى روما للتصديق على الانتخاب . لكن هنرى لم يكن راضيا عن هذا الاختيار ، وفي سورة غضبه اشتكى من أنه لم يُستشر واعتقل الكهّان ، الأمر الذى أطلق الإنتقادات حتى من أصدقائه ، فليس هو بالملك المتوّج ومن ثم لا يحق له التدخل . وحته مستشاره جوسيا رئيس أساقفة صور على التراجع عن موقفه وتهدة الكنيسة بالافراج عن الكهّان مع الاعتذارات اللازمة ومنح ابن اخى البطريق الجديد ضيعة غنية بالقرب من عكا ، وفي ذات الوقت تلقى تويخا حادا من البابا^(٦) وعلى الرغم من إحلال السلام ، ربما كان البطريق عازفا تماما عن أن يمنح على هنرى الآن بتويجه . فهنرى أكثر حظا بأتباعه العلمانيين ، إذ أنه يتمتع بتأييد زعيمهم ، باليان ، أمير ابلين والنظاميين العسكريين . على أن جوى (أوف لوسينان) كان ما يزال في قبرص ينظر باشتياق إلى مملكته السابقة ، يشجعه في ذلك أبناء بيزا الذين وعدهم بامتيازات كبيرة ، وكان الغضب بملاهم لما كان هنرى يغدقه على أبناء جنوا من امتيازات . وفي شهر مايو ١١٩٣ اكتشف هنرى أن المستعمرة التى يمتلكها أبناء بيزا في صور تتآمر للاستيلاء على المدينة وتسليمها لجوى ، فاعتقل زعماء المؤامرة على الفور وأمر بأن يخفض عدد المقيمين في المستعمرة إلى ثلاثين شخصا ، وانتقم أبناء بيزا بالإغارة على القرى الساحلية الواقعة بين صور وعكا ، فما كان من هنرى إلا أن طردهم من عكا نفسها ، وكان ياور المملكة (الكونستابل) ما يزال أحبا جوى ، أمالريك (أوف لوسينان) الذى كان مسؤولا عن وصول جوى إلى فلسطين قبل ذلك بسنوات كثيرة ، لكنه تمكن من إقامة علاقات جيدة مع البارونات المحليين . وكانت زوجته هي إيشيفا (أوف ابلين) ، ابنة اخت باليان (أوف ابلين) ، وابنة بلدوين (كونت الرملة) وهو أكثر المعارضين مرارة لجوى ، ولم يكن زوجا مخلصا فيما مضى ، لكنه تصالح معها الآن ، وتدخل نيابة عن أبناء بيزا ، لا لشيء إلا لكي يعتقله هنرى بسبب تدخله . وسرعان ما تدخل السيدان الأعظمان لفرسان المستشفى والمعبد وأقنعا هنرى بإطلاق سراحه ، ورأى من الحكمة أن ينسحب إلى يافا التى كان الملك ريتشارد قد عيّن أخاه جيوفرى حاكما لها . ولم يكن قد استقال من منصبه كياور (كونستابل) ، لكن هنرى اعتبره مقصّرا وعيّن فى عام ١١٩٤ خليفة له جون (أوف ابلين) ، وهو ابن باليان والأخ غير الشقيق لإيزابيلا . وفي ذات الوقت حل السلام مع أبناء بيزا وأعيدت لهم ناحيتهم في عكا ، ومنذ آنذاك

Estoire d'Eracles, II, pp.203-5 (manuscript D). (٦)

قدما اعترفوا بحكومة هنري^(٧).

١١٩٧ م : مملكة قبرص

مات الملك جوي في قبرص في مايو ١١٩٤ ، وبهذا أمكن تحقيق مصالحة عامة ؛ وأدى غيابه عن الساحة إلى أن يصبح هنري آمنا على نفسه ، وحرمان أبناء بيزا ومخالفين آخرين من أن يكون لهم مرشح منافس. وكان جوي قد أوصى بسلطته في قبرص لأخيه الأكبر جيوفري ؛ لكن جيوفري هذا كان قد عاد إلى فرنسا ، ولم يتردد الفرنج في قبرص في استدعاء أمالريك من بافا ليحل محله . وكان هنري قد طلب في أول الأمر ، باعتباره ممثلا للملك القدس ، استشارته في امر الاستخلاف ، لكنه لم يجد سبيلا لتنفيذ مطلبه وسرعان ما أدرك هو وأمالريك أن عليهما أن يتعاوننا معا. وجاء بلدوين ، كونستبل قبرص الذي كان من قبل لورد بيسان ، إلى عكا وحث هنري على الاعتراف بأمالريك وزيارته في قبرص أيضا. وكانت مقابلهما ودودة جدا ووضعنا مخططات لتحالف وثيق تربطه خطبة أبناء أمالريك الثلاثة ، جوي وجون وهيو ، إلى بنات ايزابيلا الثلاث ، ماريا (أوف مونتفرات) وأليس وفيليبا (أوف شامباني). وهكذا كان المأمول توحيد ممتلكاتهما في الجيل التالي ، لكن أميرين من الأمراء القبارصة ماتا في سن صغيرة جدا ، وكان الزواج الوحيد الذي أثمر في الأسرة الحاكمة الآتية هو زواج هيو من أليس. وكان مثل هذا الترتيب ضروريا للغاية ، ذلك أنه إذا كان المطلوب أن تعود الأملاك الفرنجية في قبرص بالفائدة على فرنج فلسطين وتوفر لهم قاعدة آمنة ، فلا بد للبلدين من التعاون . لقد كان الإغراء مستمرا ، ليس فقط للهجرة من الغرب للاستقرار في الجزيرة الرائعة بدلا من البقايا الضئيلة في المملكة الفلسطينية الخالية الآن من الإقطاعيات، ولكن كان إغراء أيضا لبارونات فلسطين نفسها المفلسين كي يعبروا البحر الضيق . وإذا كان اللوردات القبارصة على استعداد لعبور البحر والحرب من اجل الصليب وقت اقتراب الخطر ، إذن تصبح قبرص بمثابة أصل من الأصول للشرق الفرنجي. أما في حالة وجود سوء تفاهم ، فسوف تصبح قبرص قوة طاردة خطيرة جدا^(٨).

(٧) *Estoire d'Eracles*, II, pp.202-3.

(٨) أنظر Hill, *History of Cyprus*, II, p. 44 and notes على قبرص. وللإطلاع على مصالحة هنري مع أمالريك أنظر، *Estoire d'Eracles*, II, pp. 207-8.

وعلى الرغم مما كان عليه أمالريك من الود ، لم يكن على استعداد لأن يصبح تابعا يذعن لهنرى . فلقد سعى بالفعل إلى أن يتخذ لنفسه لقب ملك، كي يحدد بوضوح طبيعة سلطته لرعاياه وللمستعمرين، وكذلك للقوى الأجنبية. لكنه شعر بأنه في حاجة إلى نوع من التصديق من جهة أعلى؛ ولا بد وأن ما سبق من تاريخ ملوك القدس قد جعله عازفا عن التقدم إلى البابا لتتويجه . وبقينا لن يمنحه الامبراطور الشرقي قط ذلك التتويج . ولذا ، أتى بحركة تخلص من الحكمة للمستقبل ، فأرسل إلى الامبراطور الغربي هنرى السادس . الذى كان يخطط للقيام بحملة صليبية ولسوف يناسبه للغاية وجود ملك عميل له في الشرق. وهكذا ، وفي شهر اكتوبر عام ١١٩٥ ، وصل سفير أمالريك ، رينيه (أوف جيل) موفدا من مملكة قبرص نيابة عن سيده ، إلى جيلنهاوزن القريبة من فرانكفورت لتقديم الاحترامات للإمبراطور . وتسلم أمالريك صولجانا ملكيا مرسلا من سيده ؛ وأجريت مراسم التتويج في سبتمبر ١١٩٧ عندما جاء المستشار الإمبراطورى كونراد أسقف هيلدشايم إلى نيقوسيا للاشتراك في المراسم، وقدم له أمالريك فرض الولاء^(٩). ووضعت الخطط لأن تتبع حكومة البلد الممارسات الإقطاعية الصارمة التي كانت سائدة في مملكة القدس، بوجود محكمة عليا على غرار محكمة القدس العليا ، على أن تسرى قوانين القدس، بما فيها من تعديلات أدخلها ملوكها، على الجزيرة. ولجأ أمالريك إلى البابا لتنظيم كنيسة ، فعين البابا رئيس شمامسة اللاذقية وألان ، ورئيس شمامسة اللد ، وقاضي قضاة قبرص ، وأوكل اليهم إنشاء كراسي أسقفية على النحو الذي يروونه . فأنشأوا مقرا للرئاسة الأساقفة في نيقوسيا، شغلها آلان ، ومقار للأسقفيات في بافوس وفاماجوستا وليماسول . ولم يفصل الأساقفة الإغريق في الحال ، وإنما فقدوا عشورهم والكثير من أراضيهم التي استولى عليها أصحاب المناصب الجدد من اللاتين^(١٠).

وعلى الرغم من عدم استطاعة هنرى (أوف شامباني) السيطرة على قبرص ، أصبح باروناته في مملكته يخلصون له الولاء الآن . على أن معارضيهم سرهم الانسحاب إلى قبرص تاركين الأراضي الفلسطينية لأصدقائه . وأعيد تنصيب اللوردات السابقين لحيفا وقيسارية وأرسوف في إماراتهم السابقة؛ وكان صلاح الدين قبل وفاته قد وهب باليان

212-13 (manuscript D).

(٩) *Estoire d'Eracles* II, pp. 209-12; Ernoul, pp. 302-3; Arnold of Lubeck, p.204; *Annales Marbacenses*, p.167.

(١٠) Mas Latrie, *Documents*, III, pp. 599-605; Makhaeras, pp. 28-9.

صاحب ابلين إقطاعية كايمنون - أو تل كايمنون - النفيسة الواقعة على منحدرات جبل الكرمل^(١١). وقد كانت الصداقة مع آل إيلين ، وزوج أم زوجته والإخوة غير الأشقاء، ذات قيمة كبيرة في تحقيق القبول العام لسلطة هنري . وكانت هناك مشكلة اكبر فيما يتصل بإمارة انطاكية ذلك أن بوهمند الثالث أمير انطاكية، وكان أيضا حاكما لطرابلس باسم ابنه الصغير، كان قد لعب دورا مرييا نوعا ما أثناء فتوحات صلاح الدين والحملة الصليبية الثالثة ؛ فلم يبذل جهدا جادا لمنع صلاح الدين من الاستيلاء على حصونه الواقعة في وادي العاصي عام ١١٨٨ ، ولا لاستعادة اللاذقية وحيلة اللتين استولى عليهما المسلمون بطريق الخيانة من قاضيه المسلم ، القاضي منصور بن نبيل ؛ وقد سره أن يقبل من صلاح الدين هدنة تسمح له بالاحتفاظ بأنطاكية ذاتها ومينائها السويدية . ولم ينقذ طرابلس سوى تدخل الأسطول الصقلي فقيت لإبنه . وكان بوهمند عندما وصل فريدريك (أوف سوايبا) وبقايا جيش بارباروسا إلى أنطاكية - قد اقترح عليهم اقتراحا معتدلا بأن يعاونوه في محاربة المسلمين في الشمال ، ولكنهم عندما اتجهوا جنوبا ، لم يشترك بصورة إيجابية في الحملة الصليبية أكثر من قيامه بزيارة واجبة للملك ريتشارد في قبرص . وقد غير موقفه في ذات الوقت إزاء سياسات الأحزاب الفلسطينية . وما أن مات ابن عمه ريموند (أوف طرابلس)، وضمن الميراث لإبنه ، حتى منح تأييده كله لجوى (أوف لوسينان) وأصدقائه ، ربما من خشيته من أن يكون لكونراد (أوف منتفات) أطماع في طرابلس . ولم يكن يرغب في وجود ملك عدواني قوى على حدوده الجنوبية إذ كان في غاية الإنشغال باشتباكات مع جاره الشمالي ، أمير أرمينيا الرويني ليو الثاني، وهو أخو روبين الثالث ووريثه.

١١٨٦م : ليو الثاني الأرميني

بتولي ليو الحكم عام ١١٨٦م سعى إلى التحالف مع بوهمند واعترف به سيذا أعلى له . واشترك الأميران في التصدي لغارة توركمانية عام ١١٨٧م ؛ وبعد ذلك مباشرة تزوج ليو إحدى بنات أخت الأميرة سبيللا، وفي نفس الوقت تقريبا كان قد أقرض بوهمند مبلغا ضخما من المال ؛ انتهت الصداقة عند هذا الحد، فلم يظهر بوهمند اهتماما بسرعة سداد القرض ؛ وعندما غزا صلاح الدين الأراضي الأنطاكية بقي ليو على حياد مشوب بالخذر . وفي عام ١١٩١م دمر صلاح الدين قلعة باجراس العظيمة

بعد أن استولى عليها من فرسان المعبد . وما أن انصرف رجال صلاح الدين بعد هدم الحصون ، حتى جاء ليو وأعاد احتلال الموقع وأعاد بناء الحصون . وطلب بوهمند إعادتها إلى فرسان المعبد ، ولما رفض ليو اشتكى لصلاح الدين الذي حالت مشغوليته الشديدة في أماكن أخرى دون إمكان التدخل ، وبقي ليو مستوليا على باجراس ؛ على أنه كان حائقا من لجوء بوهمند إلى صلاح الدين ، وزاد تغيظه عندما علم أن زوجة بوهمند - سيللا - كانت تأمل في الاستعانة بمساعدته لاسترجاع الميراث الأنطاكي لابنها وليم على حساب أبناء زوجها . وفي أكتوبر ١١٩٣م دعا ليو بوهمند إلى الحضور إلى بجراس لمناقشة المسألة برمتها ، فوصل بوهمند تصحبه سيللا وابنها . وما أن دخل حتى اعتقله مضيفه مع كل حاشيته ، وقيل له إنه لن يفرج عنه إلا بتنازله للأمير ليو عن سيادة أنطاكية . ووافق بوهمند على الشروط بأسى ، وربما بتحريض من سيللا التي كانت تأمل أن يعطى ليو - باعتباره سيدا أعلى لأنطاكية - الخلافة لابنها . وذهب أحد قواد بوهمند ، بارثولوميو تيريل ، وابن أخى زوجة ليو ، هيشوم (أوف ساسون) ، ومعهما جنود من الأرمن ، إلى أنطاكية لإعداد المدينة للنظام الجديد .

ووصل الوفد إلى أنطاكية التي كان باروناتها لا يحبون بوهمند كثيرا ، والكثير منهم تجرأ في عروقه دماء أرمنية ، فكسبوا على استعداد لقبول ليو كسيد أعلى ، وسمحوا لبارثولوميو بدخول الجنود الأرمن إلى المدينة وأنزلوهم في القصر . غير أن البورجوازيين من المواطنين الإغريق واللاتين على السواء ارتاعوا لما حدث وقد ظنوا أن ليو ينوى أن يحكم المدينة هو نفسه ، وأن الأرمن سوف يتسلطون عليهم . وحدث أن تحدث جندي أرمني باستخفاف عن القديس هيلاري ، وهو قديس فرنسي كرست له أبرشية القصر ، فبادر خازن المؤن في الكنيسة بقذف الجندي بالحجارة . وطرد الأرمن من المدينة ووجدوا أن من الحكمة الانسحاب إلى بجراس . وعندئذ اجتمع المواطنون في كتدرائية القديس بطرس وعلى رأسهم البطريق وشرعوا في إنشاء مجلس كوميوني ليتولى إدارة المدينة . ولكي يكون وضع المنتخبين قانونيا ، سارعوا بقسم الولاء للإبن الأكبر لبوهمند ريموند إلى حين عودة بوهمند ؛ فقبل ريموند ما أظهره من مظاهر الولاء ، واعترف بمطالبهم . وفي تلك الأثناء أرسلت الرسل إلى أخيه بوهمند أمير طرابلس وإلى هنرى (أوف شامباني) يتوسلون اليهما أن يخفيا لنجدة أنطاكية من الأرمن .

وأظهرت الحادثة أنه بينما كان بارونات أنطاكية على استعداد للمضي حتى أبعد مما فعله أبناء عموماتهم في القدس ليضعوا أنفسهم في مصاف مسيحيي الشرق ، جاءت معارضة هذا الاندماج من المجتمع التجاري . غير أن الظروف كانت مختلفة عما كانت

عليه المملكة قبل سنوات قليلة . وكان كل من الفرنج واليونانيين في أنطاكية يعتبرون الأرمن برابرة الجبال . وأظهرت الكنيسة اللاتينية - في شخص البطريرق - تعاطفها مع مجلس الكوميون ، غير أنه من المشكوك فيه ما اذا كانت قد لعبت دورا رئيسيا في ذلك . إذ كان البطريرق رادولف الثاني رجلا ضعيفا مسنًا لم يصعد إلى عرش البطريركية إلا حديثا بعد أن كان يشغله البطريرق المهيب إمري (أوف ليموج) . والأكثر ترجيحاً أن المحرضين الرئيسيين كانوا التجار الإيطاليين الذين يخشون على تجارتهم تحت السيطرة الأرمنية ؛ وخاصة وأن فكرة مجلس الكوميون كانت آنذاك فكرة تخطر للإيطالي على نحو أيسر للغاية من أن تخطر للفرنسي . وأيا كان أولئك الذين شجعوا الكوميون، فإن يواناني أنطاكية هم الذين سارعوا بلعب دور قيادي فيه^(١٢) .

١١٩٤م : هنري والحشاشون

وهرول بوهمند أمير طرابلس إلى أنطاكية مليا نداء أخيه ، وأيقن ليو من أنه قد فقد فرصته . فتقهقر مع سجنائه إلى عاصمته سيس . وفي بداية الربيع التالي قرر هنري (أوف شامباني) التدخل ، ومن حسن الطالع أن لم يكن العرب على حال يتيح لهم أن يعتدوا بعد وفاة صلاح الدين ، غير أنه لا يمكن السماح باستمرار مثل هذا الوضع الخطير ؛ وأثناء ارتحاله شمالا قابلته سفارة من الحشاشين ؛ فقد مات مؤخرا شيخ الجبل سينان ، وكان خليفته متلهفا على إعادة الصداقة التي كانت قائمة بين طائفته والفرنج؛ فأرسل اعتذاراته لاغتيال كونراد (أوف منتفرات) ، وهي جريمة كان من اليسير على هنري اغتفارها ، ودعاه إلى زيارة قلعة الكهف . وهناك ، وعلى إحدى القمم الوعرة في جبال النصيري، لقي هنري ألوان التسلية الفاخرة ؛ وشهد بناظره كيف يقتل المتشيعون أنفسهم عن طيب خاطر عندما يأمرهم شيخهم إلى أن توصل إيقاف الاستعراض . ورحل وهو محمّل بنفيس الهدايا ووعد ودود من الحشاشين بقتل أي فرد من أعدائه يطلب قتله^(١٣) .

(١٢) أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 582-5. وهو بمثابة رواية كاملة المراجع لتلك القصص.

(١٣) Ernoul, pp. 323-4; *Estoire d'Eracles*, pp. 216,231 (manuscript D).

١١٩٨ م : تتويج ليو الثاني

ومن الكهف ، انطلق هنرى شمالا بمحاذاة الساحل إلى أنطاكية حيث توقف قليلا قبل مواصلة رحلته في أرمينا . ولم يكن ليو راغبا في الدخول معه في حرب مفتوحة ، فقابلته أمام سيس مظهرا استعداداته للتفاوض على تسوية . واتفقا على اطلاق سراح بوهمند بلا أية فدية ، وأن يُعترف ببجراس والأراضي المحيطة بها على أنها أراض أرمينية ، وأن لا يكون أي من الأميرين سيدا على الآخر . وللتصديق على المعاهدة ، وعلى أمل توحيد الإمارتين ، اتفق على أن يتزوج وريث بوهمند - ريموند - من ابنة اخت ليو والوريث الشرعية ، أليس ابنة روين الثالث . وحقيقة كانت أليس متزوجة فعلا من هيثوم أمير ساسون ، غير أنه كان من اليسير التغلب على هذه العقبة ؛ إذ حدثت وفاة هيثوم المفاجئة وانما في وقتها المناسب . وكانت التسوية بمثابة البشير بالسلام في الشمال ، وبها أظهر هنرى نفسه على أنه مهندسها ومن ثم فهو جدير بخلافة ملوك القدس الأوائل . وعاد جنوبا وقد زادت مكانته رفعة^(١٤).

ومع ذلك ، لم يشعر ليو بأنه قد أشبع طموحاته . ولعلمه بأن أمالريك حاكم قبرص يسعى إلى تاج ملكي ، فقد حذا حذوه . على أن الرأي القانوني آنذاك كان يرى أن التاج لا يمنحه سوى الامبراطور أو البابا - كما يرى الفرنج . أما بيزنطة ، التي انقطعت صلتها الآن بكيلىكيا وسوريا بسبب الغزوات السلجوقية ، فلم يعد لديها ما يكفي من القوة اللائقة باسمها بحيث يكون لها وزنها إزاء الفرنج الذين أراد ليو أن يؤثر فيهم . ومن أجل ذلك أرسل إلى الامبراطور الغربي هنرى السادس الذي راح يراوغ ، إذ كان يأمل في الحضور هو نفسه إلى الشرق ، وعندئذ ينظر في المسألة الأرمينية . ولذلك طرق ليو أبواب البابا كليستين الثالث ، إذ كان ليو على اتصال بروما أيام البابا كلمنت الثالث ملوفا بإخضاع كنيسة البابوية ؛ ذلك أنه كان يدرك أنه لن يكون مقبولا قط كسيد أعلى للفرنج باعتباره رئيسا لدولة هرطيقية . وعارض رجال الدين التابعين له هذا العبث معارضة عنيفة لما كانوا يحملونه من غيرة وحماس لاستقلالهم وعقيدتهم ؛ غير أن ليو ثابر على مساعيه في صبر ، إلى أن أدخل في روع أساقفته المتذمرين أن السيادة البابوية لن تكون سوى سيادة اسمية ولن تغير من الأمر شيئا ، بينما أخبر المندوبين البابويين أن الأساقفة قد رحبوا بالإجماع بهذا التغيير . وكان البابا قد أمر مندوبيه بمراعاة الرفق واللين والكياسة ، ولذا لم يسأل المندوبون أية أسئلة . وفي تلك الأثناء كان

الامبراطور هنرى - الذى سبق أن وعد أماريك بالتاج - قد وعد ليو بنفس الوعد في مقابل الاعتراف بحقوقه السيادية على أرمينيا ، على أن تجري مراسم التتويج لدى وصوله . لكنه لم يذهب إلى الشرق البتة ؛ إذ حالت المنية دون ذلك . على أن مستشاره كونراد (أوف هيلدشايم) ، يصحبه المندوب البافوي كونراد رئيس أساقفة مينز، جاء إلى سيس في يناير ١١٩٨م بعد موت الامبراطور مباشرة ، وشهد احتفال التتويج الرائع . وكان الامبراطور الشرقي ألكسيوس أنجيلوس يأمل في الحفاظ على بعض النفوذ في كيليكيا فأرسل إلى ليو قبل ذلك بأشهر قليلة تاجا ملكيا تسلمه ليو بغاية العرفان . وقام رأس الكنيسة الأرمنية كاثولييكوس جريجورى أبيراد بوضع التاج على رأس ليو ، بينما أعطاه كونراد صولجانا ملكيا . وحضر المراسم رئيس أساقفة طرسوس الأرثوذكسي ، والبطريرق اليغقوبي ، وسفراء الخليفة ، وكذلك الكثير من النبلاء من أنطاكية . وكان بمقدور ليو الإدعاء بأن لقبه الملكي قد اعترف به رعاياه كلهم وحيث أنه كلهم^(١٥) .

وكان يوما مشهودا للأرمن الذين رأوا في ذلك إحياء لمملكة أرمينيا القديمة ؛ وكان في هذا التتويج استكمال لاندماج الإمارة الروينية في عالم فرنج الشرق ؛ على أن دواعي الشك كانت تدور حول ما إذا كانت سياسة ليو في صالح الأرمن ككل ، إذ أنها فصلت أبناء أرمينيا الكبرى القديمة التى هي بيت ذلك الجنس عن إخوانهم الجنوبيين . وبعد انقضاء فترة من الفترات المجيدة وجد أرمن كيليكيا أن إضفاء الصبغة الغربية لم تعد عليهم بفائدة في نهاية الأمر .

وكان تواجد كونراد رئيس الأساقفة في الشرق يرجع إلى عزم الامبراطور هنرى على إطلاق حملة صليبية جديدة ، إذ أن وفاة والده فريديريك المباغتة جعلت من اشتراك الألمان في الحملة الصليبية الثالثة اشتراكا عقيما يدعو للرثاء . وكان لدى هنرى طموحات في أن تصبح امبراطوريته واقعا دوليا ، فما أن رسخت أقدامه في أوروبا حتى فكر في أن عليه استعادة المكانة الألمانية في الأراضي المقدسة . وبينما كان يضع الخطط لحملة ضخمة كفيلة بأن تجعل البحر المتوسط كله تحت سيطرته ، وضع الترتيبات لإرسال حملة ألمانية مبكرة تبهر مباشرة إلى سوريا، فانطلق من بارى رئيس الأساقفة كونراد (أوف مينز) وأدولف كونت هولشتاين ومعهما جمع غفير من الجنود استجلبوا أساسا من دوقيات الراينلاند وهونشتوفن . ووصلت الفصائل الأولى إلى عكا

في أغسطس ، غير أن القادة توقفوا في قبرص من أجل تنويع آماليك ، وسبقهم هنري دوق برابانت مع كتيبة من رفاقه^(١٦).

ولم يرحب بهم هنري (أوف شامباني) ترحيب المبتهجين ؛ فقد علمته التجارب مدى حماقة استشارة حرب لا ضرورة لها . وكان مستشاروه الرئيسيون هم آل إيلين ، وحما زوجته وأخوتها ولوردات طبرية وأبناء زوجة ريموند كونت طرابلس ، وبوازع من الإخلاص لتقاليدهم العائلية أشاروا بالتوصل إلى تفاهم مع المسلمين ودبلوماسية حساسة تمارس ضرب أبناء وإخوة صلاح الدين بعضهم ببعض . وكانت السياسة ناجحة ؛ إذ كان السلام حيويًا لاستعادة المملكة المسيحية ، وتحقيق السلام على الرغم من استفزاز أمير بيروت القرصان أسامة الذي لم يتمكن العادل في دمشق ولا العزيز في القاهرة من السيطرة عليه^(١٧). وكانت بيروت وصيدا ما تزالان في قبضة المسلمين تفصلان المملكة عن كونتية طرابلس . في وقت مبكر من عام ١١٩٧م ضاقت هذه الثغرة باستعادة جبيل ؛ وكانت سيدتها الأرملة ستيفاني (أوف ميللي) ابنة أخت رينالد أمير صيدا ، وكانت تحصل منه على الهدايا للتعامل مع المسلمين ؛ وبمكيدة مع الأمير الكردي هناك تمكنت من إعادة احتلال المدينة بدون قتال وتسليمها إلى ابنها^(١٨).

١١٩٧م : موت هنري (أوف شامباني)

ولقد جاء الألمان وهم عاقدو العزم على الحرب . ولم يتوقف أوائل القادمين لاستشارة الحكومة في عكا، وإنما ساروا مباشرة في الأراضي الإسلامية في الجليل . فآثار هذا الغزو المسلمين ؛ وكانت الأراضي تابعة للعادل فاستدعى أقاربه حاشا إليهم على تناسي خلافاتهم والانضمام إليه . ولم يكد الألمان يعبرون الحدود حتى انتشرت الأنباء باقتراب العادل ؛ وضحمت الشائعات من حجم قواته ؛ وتسلط الذعر على الألمان فلم ينتظروا ملاقاته وإنما ولوا الأدبار باتجاه عكا، وسارع الفرسان تاركين المشاة . وبدا مرجحا أن يواصل العادل مسيرته دون مقاومة إلى عكا، غير أن هنري أخذ بنصيحة

(١٦) تاريخ هرقل. *Estoire d'Eracles*, II, pp. 214-16 (manuscript D) وقد أجريت استعدادات هنري للحملة الصليبية على (*Annales Marbacenses*, p. 167 Diet of Gelnhausen)

(١٧) Ibn al-Athir, II, p. 85p Ernoul, pp. 315-16.

(١٨) *Estoire d'Eracles*, II, pp. 217-18p; Ernoul, p. 305.

هيو كونت طبرية وسارخ بارسال فرسانه وما استطاع جمعه من جنود ايطاليين لتعزيز مشاة الألمان الذين أثبتوا شجاعة تفوق شجاعة قادتهم ، فأصبحوا بعد وصول التعزيزات على استعداد للصمود . ولم يكن العادل ليحازف بمعركة قبل أن يعد لها عدتها ، ولم يشأ في الوقت ذاته أن يفقد جيشه ، فأنحرف جنوبا وزحف على يافا التي كانت محصنة تحصينا جيدا ، ولكن حاميتها كانت ضئيلة العدد ، ولم يتمكن هنري من تعزيزها ، وكان أمالريك (أوف لوسينيان) يحكم المدينة قبل ذهابه إلى قبرص ، فعرض عليه هنري اعادتها إليه شريطة أن يدافع عنها ، فمن الأفضل أن يأتي القبارصة إليها بدلا من أن تزول إلى المسلمين أو إلى الألمان الذين لا يقيمون للمسؤولية وزنا . وما أن تلقى أمالريك هذا العرض حتى أرسل واحدا من بارونات - رينالد بارليه - ليتولى القيادة في يافا ويعد العدة للحصار الوشيك . بيد أن رينالد كان رجلا مستهينا ، وسرعان ما جاءت الأنباء بأنه يقضى أيامه في هو طائش وليس لديه نية إعداد العدة لمقاومة العادل ، ولذا جمع هنري ما استطاع جمعه من الجنود الزائدين عن الحاجة في عكا وطلب من مستعمرة بيزا هناك تقديم التعزيزات^(١٩).

وفي العاشر من سبتمبر جمع هنري جنوده في فناء القصر ، ووقف يستعرضهم من نافذة مفتوحة في أحد الأروقة العليا . وفي تلك اللحظة دخل الحجرة مبعوثون من مستعمرة بيزا ، فاستدار هنري لتحيتهم ناسيا المكان الذي يقف فيه وخطا خطوة إلى الخلف من خلال النافذة المفتوحة . وكان القزم الضئيل الذي يرافقه (سكارليت) واقفا بجواره فتعلق بملابسه ؛ غير أن هنري كان ثقیل الوزن وسكارليت خفيفه ، فهويا معا وارتطما بالرصيف وقُتلا^(٢٠).

١١٩٨م : زواج إيزابيلا وأمالريك

وأدى ذهاب هنري المفاجئ إلى أن ألقى بالملكة كلها في حالة من الذهول ، إذ كانت له شعبية كبيرة . وبرغم افتقاره إلى المواهب الطبيعية البارزة ، فقد استغل مهارته ودأبه واعتماده على مستشاريه المخلصين وأثبت اقتداره لأن يحكم واستعداده لأن يتعلم من التجربة ، وقد لعب دورا هاما في استمرار بقاء المملكة . غير أن البارونات لا

(١٩) Abu Shama, Ernoul, pp.305-7; D'Eracle, II, pp. 216-19 (المخطوطة)
Ibn al-Athir, II, pp.84-6; II, pp. 116, 152

(٢٠) *Estoire d'Eracles*, II, p.220; Ernoul, p.306; Amadi, pp.90-1; Ibn al-Athir, II, p.86.

يستطيعون إضاعة الوقت في البكاء عليه ، إذ يتعين العثور على حاكم جديد بسرعة ليتولى أمر الحرب مع العرب والحملة الصليبية الألمانية وكافة ما تواجهه المملكة من المشاكل المعتادة . وكانت وطأة الشكل قد نالت من أرملته الأميرة إيزابيلا فأحالتها إلى حالة من التخبط يستحيل معها أن تتولى حكم المملكة ، لكنها كانت الشخصية التي تحرك الأمور باعتبارها وريثة الخط الملكي . وكان لها بنتان صغيرتان من هنرى بقيتا على قيد الحياة هما أليس وفيليبا ، وأما ابنتها من كونراد - ماريا أوف مونتفرات - التي اشتهرت بلقب أبيها باسم (لا ماركيز)، فكانت في الخامسة من عمرها . وكان واضحا أنه ينبغي لإيزابيلا أن تتزوج مرة أخرى . وفي الوقت الذي كان يعترف فيه البارونات بوضعها كوريثة ، اعتبروا أن اختيار زوجها التالي هو أمر يدخل في اختصاصهم ، ولسوء الحظ لم يتمكنوا من الاتفاق على اختيار زوج مناسب لها . فاقترح هيو أمير طبرية وأصدقائه ترشيح أخيه رالف الذي كانت أسرته - آل فالكونبرج أوف سانت أومير - إحدى أبرز العائلات في المملكة ؛ لكنها كانت عائلة فقيرة بعد أن استولى المسلمون على أراضيها في الجليل ، وكان رالف ابنا أصغر من المفلسين ، وكان معروفا عنه بصورة واسعة الانتشار أنه يفتقر إلى ما يكفى من الثروة والمكانة المرموقة ، وكان فرسان النظامين العسكريين بصفة خاصة يعارضونه . وأثناء أن كانت المناقشات جارية جاءت الأنباء بسقوط يافا دون مقاومة ، فانطلق دوق برابانت لاستعادتها . والآن عاد إلى عكا وتولى زمام الحكم ، وبعد أيام قليلة ، في العشرين من سبتمبر ، وصل كونراد (أوف مينز) والقادة الألمان من قبرص . وكان كونراد يتصف بقوة سلطته البالغة باعتباره بطريق الإمبراطورية الغربية، وموضع ثقة الامبراطور ، وصديقا - كذلك - للبابا الجديد إنوسنت الثالث . وعندما اقترح منح التاج للملك أمالريك القبرصى لم يعارضه أحد عدا البطريق آيمار الراهب برغم عدم تأييد رجال الدين التابعين له لمعارضته . وبدأ الاختيار اختيارا رائعا ، إذ كانت زوجة أمالريك الأولى - إيشيفا أوف إيبيلين - قد ماتت مؤخرا ، وبذا لم يكن هناك ما يعوقه من زواج إيزابيلا . ورغم أن الكثيرين من البارونات السيريان لم يتناسوا تماما أنه من آل لوسينان، فقد أظهر تخليه عن كل السياسات المتحيزة ، وأظهر أنه أكثر اقتدار من أخيه الأصغر جوى . وكان اختياره باعثا على إدخال السرور على البابا الذي بدا له من الحكمة لم شمل الشرق اللاتيني تحت زعامة واحدة . على أن نوايا المستشار كونراد كانت أكثر خبثا . إذ كان أمالريك مدينا بتاجه القبرصى للإمبراطور هنرى واصبح تابعا له . وباعتباره الآن ملكا للقدس ، أفلا يُخضع مملكته الجديدة للسلطة الإمبراطورية ؟ وتردد

أمالريك نفسه قليلا . رُم يصل إلى عكا قبل يناير ١١٩٨ م . وفي الصباح التالي لوصوله تزوج من الأميرة إيزابيلا وبعد أيام قليلة تزوجهما البطريق ملكا وملكة للقدس^(٢١).

ولم تكن وحدة التاجين مكتملة على الصورة التي كان يطمح إليها البابا أو المستعمرون ، إذ أوضح أمالريك منذ البداية الفصل بين إدارة كل من المملكتين وعدم اتفاق أية أموال قبرصية في الدفاع عن الأراضي المقدسة . وكان هو نفسه بمثابة رابطة شخصية بينهما ، فكانت قبرص مملكة وراثية ، ووريثه هناك هو ابنه هيو ، أما في مملكة القدس فكان الحق الوراثي مرتبطا بالقبول العام واحتفظت المحكمة العليا بمطالبتها بانتخاب من يعتلى العرش، وفي القدس كان أمالريك مدينا بوضعه لزوجته ، فلو مات فسوف تعاود الزواج وسوف يُقبل الزوج الجديد ملكا، وكانت وريثة العرش هي ابنتها ماريا (أوف مونترات) ، وحتى لو أنجب منها ولدا ، كان من المشكوك فيه أن تكون لثمرة الزواج الرابع أسبقية على ثمرة الزواج الثاني . على أن ذريتهما الفعلية اقتصرت على بنتين هما سبيلا وميليسند^(٢٢).

ورغم أن أمالريك كان يعتبر نفسه أكثر قليلا من نائب للملك، فقد كان حاكما ذا اقتدار ونشاط . وقد حث المحكمة العليا على مشاركته في مراجعة الدستور كي تتحدد الحقوق الملكية بوضوح ، خاصة وأنه أثار مسألة استشارة رالف أمير طبرية ، وهو غريمه في العرش ، والذي يقال إنه كان محل تقديره وإن لم يكن يحبه . وكان رالف متميزا بمعلوماته القانونية ، فكان من الطبيعي أن يُطلب منه إصدار الطبعة الجديدة من القوانين التي كانت تسمى كتاب الملك. Livre au Roi بيد أن أمالريك كان يخشى أن تستغل معلومات رالف ضده . وفي شهر مارس ١١٩٨ م ، وبينما كان الملك على صهوة جواده مع حاشيته يتجولون في البساتين المحيطة بصور، هبط عليه أربعة فرسان ألمان . وأنقذ الملك دون أن تلحق به إصابات جسيمة ، ورفض المهاجمون التصريح

(٢١) Roger of Hoveden, iv, p. 29; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 221-3; Ernoul, pp. 309-10. الذي يطلق اسم ميليسند خطأ على العروس إن الزوجين قد تزوجا وتوجا في بيروت بواسطة كونراد أوف مينز. والأرجح أن ذلك دعاية ألمانية، إذ أن البابا إنوسنت الثالث كتب إلى البطريق آيمار يوبخه على أنه رفض أولا السماح بالزواج بسبب روابط الدم، ثم أتمه وأتم التويج رسالة في M.P.L. vol. ccxiv, col. 477. وأصبحت العادة منذ آنذاك قدما أن يتم تويج ملك القدس في كندراية صور.

(٢٢) أنظر La Monte, *Feudal Monarchy*, p. 43. وعن الملكية الوراثية في قبرص أنظر Hill, op.cit. vol. ii, p. 50 n. 4.

بالجهة التي ينوبون عنها في محاولتهم ، لكن أمالريك أعلن أن رالف مذنب وحكم عليه بالنفي . وطالب رالف بحقة في محاكمة يجريها أقرانه من النبلاء . وبناء على نصيحة جون أمير إيبيلين - وهو أخو الملكة غير الشقيق - اقتنع الملك بأن رالف لابد وأن يحيل القضية إلى المحكمة العليا ، التي قضت بأن الملك قد أخطأ في نفي رالف دون محاكمته . ولم تحل المسألة إلا عندما أعلن رالف أنه سيذهب طواعية إلى المنفى في طرابلس بعد أن فقد ثقة الملك ، وربما كان ذلك راجعا إلى تدخل جون أمير إيبيلين المعروف بمهارته . وأظهرت الحادثة للنبلاء عدم إمكان معارضة الملك دون الإفلات من القصاص ، لكنها أظهرت للملك أن عليه أن يمثل للدستور^(٢٣).

وكانت سياسته الخارجية تتصف بالقوة والمرونة . ففي أكتوبر ١١٩٧م، وقبل أن يعتلي العرش، بذل المساعدة لهنري (أوف برابانت) مستغلا تمركز المسلمين في يافا وأرسل حملة مفاجئة تتألف من ألمان وجنود من أبناء برابانت بقيادة هنري لاستعادة صيدا وبيروت . أما صيدا فقد سبق أن دمرها المسلمون الذين ظنوا أن لا سبيل للدفاع عنها ، ولما وصلها المسيحيون وجدوها أثرا بعد عين . وكان أمير بيروت القرصان أسامة قد طلب العون من العادل ، ولما وجد أن هذا الأخير لم يرسل له العون قرر تدمير مدينته ، غير أنه بدأ متأخرا جدا ، إذ وصل هنري وجنوده فوجدوا أسوارها مفككة بحيث يسهل عليهم دخولها ، غير أن أغلب المدينة كان سليما وسرعان ما أصلحوا ما تلف منها . ومُنحت بيروت كإقطاعية لأخي الملكة غير الشقيق جون (أوف إيبيلين). وبعودة جبيل إلى قبضة أمراء المسيحيين بالفعل ، أصبح للمملكة حدود مشتركة مع كونتية طرابلس مرة أخرى ، غير أن الساحل المحيط بصيدا لم يخلُ تماما من الأعداء الذين كانوا يحتفظون بنصف الضواحي^(٢٤).

١١٩٧م : الحملة الصليبية الألمانية

تشجع الصليبيون الألمان بنجاحهم في بيروت فخططوا ، وعلى رأسهم رئيس الأساقفة ، للزحف بعد ذلك على القدس . وحاول البارونات السيريان أن يُثْنُوهم عن

(٢٣) pp.228-30; John of Ibelin, pp.327-8; Philip of Novara, pp.522-3,570. *Estoire d'Eracles*, ii

(٢٤) -Ernoul, pp. 311-17; *Estoire d'Eracles*, ii, pp.224-7; Arnold of Lubeck, p.205; Ibn al Athir, ii, p. 86.

عزمهم ، أملين الحفاظ على السلام مع العادل على أساس تخليه عن بافنا واحتفاظه ببيروت ، ولكن محاولاتهم ذهبت أدراج الرياح . وفي نوفمبر ١١٩٧م دخل الألمان الجليل وحاصروا قلعة تبين العظيمة . وكان هجومهم الأول من القوة بحيث سارعت الحامية الإسلامية تعرض التخلي عن القلعة ومعها خمسمائة سجين مسيحي محتجزين في غيابة سجونها مقابل الإبقاء على حياة أفرادها ومرورهم آمنين مع أمتعتهم الشخصية . غير أن رئيس الأساقفة كونراد أصر على التسليم بلا قيد أو شرط . وفي لفة بارونات الفرنج على مصادقة العادل ، وبدافع من خشية حدوث مذبحة تشي جهاد المسلمين ، أرسلوا يعذرون السلطان من أن الألمان ليسوا معتادين على الإبقاء على حياة أسراهم . واستبسلت الحامية في الدفاع ، بينما حث العادل ابن أخيه العزيز على إرسال جيش من مصر لملاقاة الغزاة . وبدأ الألمان يشعرون بالوهن وتراخت عزائمهم . وفي تلك الأثناء وصلت الأنباء بموت الامبراطور هنري في سبتمبر ، ولذا تلهف الكثير من القادة على العودة إلى المانيا ، ولما جاءت اخبار الحرب الأهلية في المانيا قرر كونراد ورفاقه التخلي عن الحصار . وفي الثاني من فبراير ١١٩٨م اقترب الجيش المصري القادم من الجنوب . وتهيأ جنود الألمان وضباطهم للحرب ، ولكن انتشرت فجأة شائعة بفرار المستشار رئيس الأساقفة مع عظام اللوردات ، فدب الذعر في الجميع ، وانطلق الجيش كله هاربا ولم يتوقف أبدا إلى أن وصل إلى مأمنه في صور . وبعد أيام قليلة شرع الجيش في رحلة العودة إلى المانيا . وهكذا لم تحقق الحملة الصليبية كلها سوى الخيبة ولم تفعل شيئا للحفاظ على المكانة الألمانية . ومع ذلك ، فقد ساعدت في استعادة بيروت للفرنج ، وتركت خلفها مؤسسة دائمة هي منظمة فرسان التيوتون^(٢٥).

وكانت الأنظمة العسكرية الدينية الأقدم قد استجلبت أعدادا ضخمة من الألمان برغم انها كانت أنظمة عالمية من الناحية الرسمية . وفي وقت الحملة الصليبية الثالثة ، كان بعض التجار القادمين من مينائي برمين ولوبيك الألمان قد أنشأوا نزلًا للألمان في عكا على غرار مستشفى القديس يوحنا ، وتقرر تكريسه للعذراء ، وخصص لرعاية الحجاج الألمان . وكان لابد وأن تزداد أهميته بحضور الحملة الألمانية عام ١١٩٧م ، وعندما قرر عدد من فرسان الصليبيين عدم العودة إلى المانيا في الحال ، حذت المنظمة حذو مستشفى القديس جون قبل ذلك بقرن من الزمان وضمت هؤلاء الفرسان ، وفي عام ١١٩٨م تلقت اعترافا من الملك ومن البابا بأنها نظام عسكري . والأرجح أن

(٢٥) (المترجم) - التيوتون : شعوب المانية قديمة وخاصة في شمال ألمانيا.

المستشار الأسقف كونراد كان مدركا أن وجود نظام ألماني خالص سيكون ذا قيمة في زيادة المخططات الإمبراطورية ، وقد تحمل هيو نفسه مسؤولية الشروع فيها بدرجة كبيرة. وسرعان ما حصلت على هبات الضياع الخصبة في ألمانيا ، وبدأت في الحصول على القلاع في سوريا ، فكان أول ممتلكاتها برج فوق بوابة سانت نيكولاس في عكا، وهبه أمالريك شريطة أن يعيد الفرسان تسليمه بناء على أمر الملك . ثم سرعان ما اشتروا قلعة مونتفورت الواقعة على التلال المسيطرة على "سلم صور"، وأعادوا تسميتها باسم ستاركنبرج . وكشأن فرسان المعبد والمستشفى قدم النظام العسكرى الألماني الجنود للدفاع عن الشرق الفرنجى ، لكنه لم يعمل على تسهيل حكم المملكة^(٢٦).

وما أن رحل الصليبيون الألمان حتى دخل أمالريك في مفاوضات مع العادل ؛ وكان العزيز قد أسرع في العودة إلى مصر ، ولم يكن العادل يرغب فى الشجار مع الفرنج لتلفه على الحصول على الميراث الأيوبى كله . وفي أول يولية ١١٩٨م وقع على معاهدة تقضى بأن يحتفظ العادل ببيافا ، ويحتفظ الفرنج بجبيل وبيروت ، وتقسيم صيدا بينهما ، على أن تستمر المعاهدة خمس سنوات وثمانية أشهر . وكانت تلك التسوية في صالح العادل ، إذ بعد وفاة العزيز في شهر نوفمبر أطلقت يده للتدخل فى مصر وضم أراضى السلطان المتوفى . وبتزايد قوته زاد إصرار أمالريك على مسالته إذ كانت هناك مشاكل في أنطاكية مرة أخرى^(٢٧).

١١٩٧م : الإستخلاف على أنطاكية

كان بوهموند الثالث قد شارك في حصار بيروت ، وفي طريق عودته خطط لمهاجمة جبلة واللاذقية ، غير أنه اضطر إلى الإسراع إلى إمارته ، فقد مات ابنه ريموند فجأة في أوائل عام ١١٩٧م ، وبذا انهارت مخططاته الرائعة في توحيد كيليكية وأنطاكية تحت ابنه ريموند وعروسه الأرمينية . ولقد ترك إبنه رضيعا هو ريموند-روبن الذى كان وريثا لأنطاكية بحق الوراثة . لكن بوهموند الثالث الآن قد دلف باب سنته الستين ،

(٢٦) أنظر Rohricht, *Geschichte des Konigreichs Jerusalem*, pp. 677-8.

(٢٧) Ernoul, pp. 316-17; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 228; ويقول Roger of Hoveden, iv, p. 28 إنه كان مقررا أن تستمر الهدنة ست سنوات وستة أشهر وستة أيام؛ أبو شامة: النص العربى. ed. Ibn al-Athir, ii, p. 89.؛ i, pp. 220-1, Bairaqa

ومن غير المحتمل أن يعيش ليرى حفيده وقد بلغ سن الرشد . ولو أن الوصى على الطفل كان من اقاربه الأرمن ففي ذلك الخطورة كلها التي تتمثل في سيطرة الأقلية ؛ فأرسل بوهموند الأرملة أليس مع ولدها إلى أرمينيا ، ربما لأنه كان يخطط لأن يستخلف أحد أبناء سبيلا ، وربما لأنه ظن أن في ذلك سلامتهما . وقد حدثت تلك الأحداث في وقت تنويع ليو تقريبا . وكان كونراد (أوف مينز) نواقيا للإستيلاء على عرش أنطاكية لأحد أتباع سيده ، وبذا يكون قد استكمل مهمته في عكا ، فما كان منه إلا أن سارع بمغادرة سبيس إلى أنطاكية حيث أبحر بوهموند على استدعاء باروناته وجعلهم يقسمون على مساندة استخلاف ريموند-روبين^(٢٨) .

وكان الأفضل لكونراد أن يذهب إلى طرابلس . إذ كان بوهموند كونت طرابلس ، وهو الابن الثاني لبوهموند الثالث ، شابا تتوفر لديه طموحات ضخمة والقليل من الشعور بالضمير ، وهو ضليع في القانون وقادر على أن يجد ما يبرر به أكثر أعماله فحشا ، ولم يكن بينه وبين الكنيسة شيء من الود . وفي خلاف بين أبناء بيزا وأسقف طرابلس على بعض الأراضي ، ناصر أهل بيزا - من أجل المال بلا شك . وعندما عُيِّن الأسقف بطرس (أوف انجوليم) بطريقا لأنطاكية وقام بتعيين خليفة له في دائرة طرابلس بلا اجراءات كنسية بسبب العجلة ، قبل البابا ما تذرعه به من أن وجود حاكم مثل بوهموند لا تستطيع الكنيسة المجازفة بالتأخير . وكان بوهموند عاقدا عزمه على ضمان استخلاف أنطاكية ، وعلى الفور رفض الاعتراف بصحة القسم الذي أقسمه النبلاء لصالح ريموند-روبين . وكان في احتياج لحلفاء ، فوجدهم في فرسان المعبد الذين انضموا إليه في سرور بعد غضبهم من ليو الذي احتفظ بيجراس ، وضم إليه فرسان للمستشفى بعد أن حصلوا على منح معقولة . وأما أبناء بيزا وحنوا فقد ارتشوا بامتيازات تجارية . والأكثر أهمية أن كميون أنطاكية نفسه كان يخشى الأرمن ، ويحمل العداء لأي عمل يأتيه البارونات . وفي نهاية ١١٩٨م ظهر بوهموند كونت طرابلس فجأة في أنطاكية ، وعزل أباه وحث الكميون على قسم الولاء لنفسه .

بيد أن ليو كان له حليف عظيم ، ألا وهو البابا إينوسينت الثالث . وأيا ما كانت

(٢٨) Arnould of Lubeck, p.207; *Chronica Regia Coloniensis*, p. 161; Roger of Hoveden, iv, p. 28 ، وجميعهم يقول ضمنا إن بوهموند احتل المدن مؤقتا . كمال الدين ترجمة Blochet, pp.213-15 فإنه لم يهاجمها في الواقع . وأما Rohricht, op.cit.p. 675, n. فيخطئ في ترجمة جيبيل ويذكرها Gibelet وهي Jebail في تاريخ هرقل Eracles, ii, p.228 ، ويذكرها جيلة Jabala (Dschebele).

الشكوك التي ربما كانت البابوية تشعر بها حول إخلاص الكنيسة الأرمنية في خضوعها لروما ، كان اينوسنت الثالث عازفا عن إبعاد أتباعه الجدد . وانهمرت على روما وبطريق كنيسته الأرمنية (كاثوليكوس) رسائل من ليو وطلبات تعكس الود والإخلاص، ولم يكن هناك مجال لتجاهلها . وأدت معارضة الكنيسة على الأرجح إلى أن يسمح بوهموند الصغير لوالده بالعودة إلى أنطاكية وعاد هو نفسه إلى طرابلس ؛ لكنه تمكن بشكل أو آخر من مصالحة والده الأمير الشيخ الذي تحول ومال إلى جانبه . وفي تلك الأثناء مارس فرسان المعبد كل ما لديهم من نفوذ للتأثير على روما ؛ غير أن ليو تجاهل تلميحات الكنيسة التي تفيد بأنه ينبغي له إعادة يجراس إلى نظام فرسان المعبد، إذ كانت يجراس من الناحية الإستراتيجية موقعا أساسيا له إذا كان له أن يتحكم في أنطاكية . ودعا الأمير الشيخ وبوهموند والبطريق بطرس لمناقشة المسألة برمتها ، غير أن عناده دفع حتى بالبطريق إلى الانحياز إلى جانب بوهموند كونت طرابلس . وانضمت الكنيسة في أنطاكية إلى الكميون والأنظمة العسكرية في معارضتها للإستخلاف الأرميني . وعندما مات بوهموند الثالث في ابريل ١٢٠١م ، لم يجد بوهموند كونت طرابلس صعوبة في تنصيب نفسه في المدينة . بيد أن الكثير من النبلاء المتمسكين بقسمهم ، والذين كانوا يخشون استبداد بوهموند ، هربوا إلى بلاط ليو في سيس^(٢٩) .

١٢٠١م : الحرب الأهلية في الشمال

وطوال الربع التالي من القرن انشغل مسيحيو شمال سوريا بحرب الإستخلاف الأنطاكية ، وقبل تسوية المسألة بوقت طويل كان الوضع كله في الشرق قد تغير . ومن حسن الحظ أن أمراء الأناضول السلاجقة والأيوبيين لم يكونوا في وضع يمكنهم من شن حرب للغزو هناك . ذلك أن وفاة السلطان السلجوقي قلعج أرسلان الثاني أعقبتها حرب أهلية طويلة فيما بين أولاده . وانقضت عشر سنوات تقريبا تمكن بعدها أحد الأبناء الصغار ، ركن الدين سليمان صاحب توقات، من إعادة توحيد أراضي الأسرة . وحدثت غارة سلجوقية على كيليكيا عام ١١٩٣م ، ومرة أخرى عام ١٢٠١م، الأمر الذي تسبب في اضطراب ليو في اللحظة الحرجة التي كان فيها بوهموند الثالث راقداً . يحتضر . على أنه عندما كان يتوفر لركن الدين بعض الوقت أثناء حروبه مع اخوته ومع

(٢٩) للإطلاع على هذه القصة المعقدة أنظر Cahen, op. cit. pp. 590-5 ، مع مناقشة حول تعارض المصادر.

أمراء الدانشمند الضعفاء ، كان يستغله في مهاجمة جورجيا ، التي كانت مليكتها ثامار تبدو أشد خطورة في تهديدها للإسلام من أي عاهل لاتيني^(٣٠).

ولم يكن من السهل الحفاظ على السلام . ففي نهاية عام ١٢٠٢م هبط على عكا أسطول فلمنكي صغير ، كان قد أبحر بحتازا مضيق جبل طارق تحت قيادة أمير قلعة بروج ، جون (أوف نيسل) . وبعد أيام قليلة وصلت حفنة من الفرسان في سفن من مرسيليا برئاسة الأسقف وولتر (أوف أوتون) وكونت فوريه ، ولحقت بهم مجموعة أخرى من الفرسان الفرنسيين القادمين من فينيسيا ، وفيهم ستيفن (أوف بيرش) وروبرت (أوف مونتفورت) ورينالد الثاني كونت دامبيير . ولم يبلغ عدد المجموعات الثلاث سوى مئات قليلة من الرجال ، وهم نسبة ضئيلة بمقارنتها بالجيش العرمرم الذي يبحر الآن من دالماتيا ؛ وكان رينالد (أوف مونتفيريل) قد غادر زارا أمام الجيش ، وسرعان ما جاء بالأنباء التي تفيد بأنه سيمر بعض الوقت قبل أن يظهر الجيش في سوريا ، وربما لن يصل . وكشأن الرافدين الجدد ، عقد الفرسان الفرنسيون العزم على الخروج في الحال للحرب من أجل الصليب ، وقد تملكهم الرعب عندما حثهم الملك أمالريك على الانتظار متحملين بالصبر ، فما كان من رينالد كونت دامبيير إلا أن أهان الملك في وجهه راميا إياه بالجبن ، وباعتباره قائدا بذاته ، عرض الفرسان على الالتحاق بخدمة بوهموند كونت طرابلس . فانطلقوا للانضمام إليه في أنطاكية بعدما عبروا طرابلس في أمان . لكن جبلة واللاذقية كانتا ما تزالان في أيدي المسلمين ، وكان أمير جبلة رجلا مسالما تربطه ببحرانه المسيحيين أوثق الروابط ، فرحب بهم ضيوفا عليه ، وحذرهم من عبور اللاذقية دون أخذ الأمان من سيدها الظاهر صاحب حلب ؛ وعرض أن يكتب هو نفسه السلطان الذي كان حريا بتلبية طلبهم لإهتمامه بزيادة إشعال الحرب الأهلية في أنطاكية ، غير أنه لم يسع رينالد ورفاقه الانتظار ، فغذوا السير عبر اللاذقية التي أراد أميرها الوفاء بواجبه الإسلامي فنصب لهم كمينا وأسر كثيرين وقتل الباقين^(٣١).

(٣٠) Ibn Bibi, ed. Houtsma, iv, pp. 5-22; Ibn al-Athir, ii, pp.69-72; *Georgian Chronicle* (ed. Brosset), i, pp.292-7.

(٣١) Ernoul, p. 341; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 247-9; Villehardouin, ed. Faral, pp. 102-4 وكمال الدين ترجمة Blochet, p.39. وذهب جون أوف نيسل وقليلون ممن أفلتوا من اللاذقية إلى ليو الثاني ضد أنطاكية . وعن الحملة الصليبية الرابعة أنظر أدناه ص ١٠٧ ff. وبتقيد Villehardouin بمراة الصليبيين الذين أصروا على الذهاب إلى الأراضي المقدسة.

١٢٠٥ م : موت الملك أمالريك

أغار أمالريك نفسه من حين لآخر على المسلمين عندما كان أحد الأمراء يقوى نفسه بالقرب من صيدا ويبدأ في الإغارة على السواحل المسيحية . وحيث أن العادل لم يعرض أية تعويضات ، انتقم أمالريك بإرسال سفن تعترض قافلة بحرية ثمينة كانت مبحرة إلى اللاذقية واستولى عليها ، كما قام بغارة على الجليل . ورغم أن العادل وصل في مسيره إلى جبل طابور لملاقاته ، فقد رفض الدخول معه في معركة . كما أن رد فعله لم يكن عنيفا عندما أبحر الأسطول المسيحي إلى دلتا النيل ثم أعلا النهر مارا برشيد وخرّب مدينة فوة . وفي ذات الوقت تقريرا قام فرسان المستشفى في الكرك ومرقب بالإغارة على حمّاه ، وهي إمارة المنصور ، حفيد أخى العادل دون نجاح دائم^(٣٢).

وفي سبتمبر ١٢٠٤ م أبرمت معاهدة سلام بين أمالريك والعادل لست سنوات . ويبدو أن المبادرة بها جاءت من أمالريك ، وإن كان العادل مشتاقا من جانبه لإنهاء القتال ، ربما لقلقه من تفوق المسيحيين في القوة البحرية ، غير أنه يقينا كان مدركا أن امبراطوريته سوف تجنى الثمار باستئناف التجارة التي ركزت مع الساحل السوري . ولذا كان على استعداد للتخلي لا عن بيروت وصيدا نهائيا لأمالريك فحسب ، وإنما تخلى له كذلك عن يافا والرملة وسهل ترتيبات الحج للحجاج الذاهبين إلى القدس والناصرية . أما أمالريك ، الذي لا يتوقع الآن تلقى أية مساعدة فعالة من الغرب ، فقد بدت له الشروط جيدة بصورة تثير الدهشة^(٣٣) غير أنه لم يتمكن من التمتع بمكانته المتزايدة لفترة طويلة ، ففي أول ابريل ١٢٠٥ ، وبعد فترة قصيرة من المرض نتيجة الإفراط في أكل السمك ، مات في عكا عن عمر يزيد قليلا على الخمسين^(٣٤).

ولم يكن أمالريك ملكا عظيما ، غير أنه كشأن سلفه هنري تعلم من التجربة الحكمة السياسية التي كانت ذات قيمة لهذه المملكة البائسة المحفوفة بالأخطار ؛ وأسهم

(٣٢) Ernoul, pp. 355-60; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 258-63; Abu Shama, ii, p. 158; Ibn al Athir, ii, p. 96.

(٣٣) Ernoul, p. 360; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 263; Ibn al-Athir, loc. cit..

(٣٤) Ernoul, p. 407; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 305; Appendix to Robert de Monte, Bouquet, R.H.F. vol. xviii, p. 342. وفيه التاريخ بدقة . وقد مات ابنه الرضيع من إيزابيلا يوم ٢ فبراير . وكان السمك من صنف البوري الأبيض .

ذهنه المنسق القانوني لا في إيجاد دستور لقبرص وحسب ، وإنما فعل الكثير من أجل الحفاظ على الملكية في الأراضي الأصلية . وكرجل كان يلقي الاحترام ولكن لم يكن محبوبا كثيرا . وكان في شبابه يتصف باللامسؤولية وكان مشاغبا ، ودائما ما كان يستهين بالمعارضة . وبرغم أنه أوضح بجلاء تفضيله لأن يظل ملكا لقبرص وحدها، فيرجع إليه الفضل في قبوله للمهام التي ألقاها التاج الثاني على عاتقه ونفذها بكل ما تستدعيه من واجبات . وفي وقت وفاته كانت المملكتان منفصلتين ، فالت قبرص إلى ابنه هيو الأول ابن إيشيفا (أوف إيلين)، وكان طفلا في السادسة من عمره . وكانت الأخت الكبرى للطفل قد تزوجت حديثا من وولتر (أوف مونتيليارد) الذي عهدت إليه المحكمة العليا في الجزيرة بالرصاية^(٣٥) . وفي مملكة القدس آلت السلطة تلقائيا إلى الملكة إيزابيلا التي لم تشعر بالإرتباك لموت زوجها هذا الأخير على النحو الذي يعوقها عن مباشرة الحكم . بيد أنها هي نفسها لم تعيش طويلا ؛ إذ طوت أكفان الغموض تاريخ وفاتها كما طوت أغلب أحداث حياتها . وكانت هي الوحيدة من بين سيدات البيت الملكي في القدس التي كانت شخصيتها شخصية معتمدة لم يبق لنا شيء يكشف عن شخصيتها . وكان زواجها ووجودها ذاته ذا أهمية كبيرة . ولو كان لها تطلعات سياسية لكانت بمثابة قوة في الأراضي المقدسة ، لكنها تركت نفسها تنتقل من زوج إلى زوج دون اعتبار لرغباتها الشخصية . ونحن نعلم أنها كانت جميلة ؛ على أننا ينبغي أن نصل إلى نتيجة أنها كانت هزيلة ضعيفة^(٣٦) .

وتركت إيزابيلا خمس بنات ، ماريا (أوف مونتفرات) وأليس وفيليبا (أوف شامباني) وسيبيلا وميليسيند (أوف لوسينان) . واعتلت ماريا العرش ، وكانت آنذاك في الثالثة عشرة من عمرها ، وعُيِّن جون أوف إيلين ، لورد بيروت ، وصيا على العرش . وليس معروفا ما إذا كان تعيينه جاء عن طريق الملكة الراحلة أو عن طريق البارونات ، غير أنه كان المرشح البارز ، إذ باعتباره الأخ الأكبر غير الشقيق لإيزابيلا ، كان هو أقرب الأقرباء الذكور لماريا . وكان صاحب أغنى إقطاعية في المملكة الصغيرة وكان القائد المقبول للبارونات ، وقد جمع بين شجاعة أبيه وحكمة باليان وبين الدهاء الإغريقي الذي ورثه عن أمه - ماريا كومنينيا . وظل يحكم البلد لثلاث سنوات بمهارة وهدوء لا تزعجه فيها الحروب العربية ولا تخرجه فيها الحملات الصليبية . وفي واقع

Estoire d'Eracles, ii, p. 305. (٣٥)

Ibid. (٣٦)

الأمر ، وكما توقع أمالريك وهو محزون عندما وقع معاهدته مع العادل ، ليس هناك فارس غربي يزعج نفسه طواعية بالحضور إلى فلسطين . لقد وجدت الحملات الصليبية مراتع أخرى أكثر خصوبة تنصيدها^(٣٧).

(٣٧) Ibid.; Ernoul, p. 407.

الباب الثانى:

حملات صليبية ضالة

الفصل الأول:

الحملة الصليبية ضد المسيحيين

الحملة الصليبية ضد المسيحيين

"كيف صارت كأرملة العظيمة في الأمم . السيدة في البلدان صارت تحت الجزية،
كل أصحابها غدروا بها صاروا لها أعداء"
(مراثى إرميا ١: ١٠: ٢)

في نوفمبر ١١٩٩م، دعا الكونت تيبالد (أوف شامباني) أصدقاءه وجيرانه لمشاهدة ألعاب الفروسية في قلعة إكري الواقعة على نهر إيسن في شمال فرنسا . وبعد انتهاء المقارعة ، تحولت أحاديث اللوردات إلى الحاجة إلى حملة صليبية جديدة ، وهو أمر وقع من الكونت موقعا قويا ، إذ كان هو ابن اخي قلب الأسد وفيليب أوغسطس ، وكان اخوه هو الكونت هنري الذي حكم في فلسطين . وبناء على اقتراحه دُعِيَ الواعظ الجوّال فولك (أوف نويلي) ليحدث الضيوف . وأشعلت فصاحته المجموعة كلها فأقسموا على أخذ الصليب ؛ وأُرسل مبعوث إلى البابا لإبلاغه بالقرار الورع^(١).

كان إينوسنت الثالث متربعا على العرش البابوي لأكثر من عام في الواقع. وكان

(١) Villehardouin, i, pp. 2-6.

متقد الحماس في طموحه لإقامة السلطة غير العادية للكرسي البابوي ، لكنه في الوقت ذاته كان حذرا بعيد النظر رائق الذهن، وقانونيا يفضل وجود أساس قانوني لمطالباته، وكان سياسيا لا يتورع عن استخدام أية وسيلة في متناول يده مهما تكن . وكان قد أصابه الاضطراب من جراء الوضع في الشرق ، وكان أحد أعماله الأولى أن أفصح جهرة عن رغبته في حملة صليبية جديدة ؛ وفي عام ١١٩٩م كاتب البطريق آيما بطريق القدس طالبا تقريراً مفصلاً عن المملكة الفرنجية^(٢) . وكان ملوك القدس أتباعاً له ، وزاد من رغبته في مساعدتهم السياسة الدؤوبة للإمبراطور هنري السادس، الذي كان منحه للتاجين في قبرص وأرمينا بمثابة التحدي للسلطة البابوية في تلك الأماكن. وقد أظهرت التجربة أن الملوك والأباطرة ليسوا مرغوبين تماماً في الحملات الصليبية . والحملة الصليبية الوحيدة التي تعتبر نجاحاً كاملاً هي الحملة الصليبية الأولى التي لم يشارك فيها ملك على رأسه تاج . ومن شأن حملة صليبية تتألف من بارونات، متجانسين في العنصر بشكل أو بآخر، أن تتجنب مظاهر الندية الملكية والقومية التي دمرت بدرجة كبيرة الحملتين الصليبيتين الثانية والثالثة . وستكون نوازع الغيرة التي قد تنشأ تافهة يسهل السيطرة عليها في وجود ممثل بابوي مقتدر. ولذلك، رحب إينوسنت ترحيباً حاراً بالأنباء التي وصلتته من شامباني ، ذلك أن الحركة التي أطلقها تيبالد لن تساعد الشرق مساعدة فعالة فحسب ، وإنما يمكن استخدامها كذلك في توطيد أواصر وحدة العالم المسيحي تحت سلطة روما^(٣) .

١١٩٩م : إينوسنت الثالث والحملة الصليبية

وقد اختيرت اللحظة اختياراً حسناً للبابوية . ففي زمن الحملة الصليبية الأولى لم يكن هناك إمبراطور في الغرب في وضع يمكنه من التدخل ؛ ونتج عن موت هنري السادس في سبتمبر ١١٩٧م أن أراح الكنيسة من تهديد حقيقي . وكان هنري - باعتباره ابن فريدريك بارباروسا وزوج وريثة صقلية، التي أصبح ميراثها في قبضته القوية بحلول عام ١١٩٤م - أكثر هولاً من أي عاهل آخر منذ شارلمان ، وكان شعوره بتلك المكانة قوياً وكاد أن ينجح في تعزيز تلك المكانة على أساس وراثي ؛ إذ أن منحه

(٢) Rohricht, *Regesta*, pp. 202-3.

(٣) عن موقف إينوسنت الثالث، أنظر Fliche, *La Chrétienté Romaine* vol. x of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise* pp.44-60.

للتيجان في الشرق وطلبه التحالف مع قلب الأسد الأسير ، أوضح أنه ينظر لنفسه على أنه "ملك الملوك" . ولم يخف كراهيته لبيزنطة ، وهي الامبراطورية القديمة التي فاقت تقاليدها تقاليده في نذبتها، لا ولم يخف ما كان يصبو إليه في الماضي في السياسة النورماندية لبناء سلطان له في البحر المتوسط ، والتي كانت تشتمل بذاتها على دمار بيزنطة . وكان إطلاق حملة صليبية جزءا حتميا من هذه السياسة . وطوال عام ١١٩٧م كان يضع خططه بحذر. وكان للبعثة الألمانية التي هبطت عكا في ذلك العام أن تكون بشيرا لجيش عظيم يقوده بنفسه . وأسقط في يد البابا إينوسنت الثالث ، وهو رجل هَيَّاب متذبذب ، لكنه لم يحاول إثناءه عن عزمه رغم أنه نصحه بعدم شن هجوم عاجل على القسطنطينية إذ أنه يفاوض أمباطورها على وحدة الكنيسة . ولو لم يمت هنري فجأة في ميسينا، وهو في الثانية والثلاثين، أثناء تجهيزه لإسطول عظيم يقهر به الشرق، فرما نجاحا كبيرا في أن يجعل من نفسه سيد العالم المسيحي كله^(٤).

مات البابا سيلستين بعد أشهر قليلة من موت الامبراطور ، ولذا وجد البابا إينوسنت الثالث نفسه مستخلفا دون غريم دنيوي . وعهدت الإمبراطورة الأرملة كونستانس إليه بمملكها الصقلية وابنها الصغير فريدريك . وفي ألمانيا، حيث لم يكن الأمير الصقلي المولد معروفا، استولى عمه - أخو هنري - فيليب (أوف سوابيا) على أراضي العائلة ونصب نفسه إمبراطورا ووجد أن أعداء الهوهينشتوفن لم يجبنوا إلا بشكل مؤقت . وعين آل ويلف مرشحا ندا هو أوتو (أوف برونسفيك)؛ وكان ريتشارد البريطاني قد قتل في شهر مارس ١١٩٩م، وقد بدأ الخلاف على ميراثه بين أخيه جون وابن أخيه آرثر، بينما كان ملك فرنسا فيليب مشتركا في النزاع اشتراكا نشطا. وهكذا كان ملكا فرنسا وإنجلترا في شغل شاغل ، وألمانيا منصرفة إلى الحرب الأهلية، والسلطة البابوية آمنة في جنوب إيطاليا ، فيستطيع إينوسنت الثالث إذا أن يشرع في التبشير بالحملة الصليبية تملأه الثقة . وكخطوة أولى بدأ مفاوضات مع الامبراطور البيزنطي ألكسيوس الثالث حول وحدة الكنائس^(٥).

(٤) أنظر Foreville and de Pina, *Du Premier Concile du Latran à l'avènement d'Innocent III* (vol. ix of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*) pp. 216-26.

(٥) Fliche, op. cit. pp.46, 50; *Gesta Innocentii III*, M.P.L. vol. ccxiv, cols. 119-23.

١٢٠١ م : تعيين بونيفاس قائدا للحملة الصليبية

وفي فرنسا، كان الركيل الرئيسي للبابا هو فولك (أوف نيويلى) المبشر المتجول الذي طالما كان يسعى إلى الإيحاء بحملة صليبية . وكان مشهورا بعدم الهيبة أمام الأمراء، كما حدث أن أمر الملك ريتشارد بالتخلي عن كبريائه وشحه وشهوته^(٦). وتنفيذا لطلب البابا راح يتجول في البلاد محرضا القرويين على أن يتبعوا أسيادهم إلى الحرب المقدسة . وفي ألمانيا كادت الموعظ الكنسية التي يلقيها أبوت مارتان (أوف بيريز) أن تكون ملهمة بنفس القدر ، رغم أن النبلاء كانوا متورطين في الحرب بحيث لم يولوه اهتماما كبيرا^(٧). على أنه لا فولك ولا مارتان استطاع إشعال الحماس كمبشرى الحملة الصليبية الأولى . وكان التجنيد أكثر تنظيما ، إذ كان مقصورا أساسا على التابعين للبارونات الذين أخذوا الصليب ، والكثير من هؤلاء البارونات تحركوا بوازع الورع بصورة أقل من وازع الرغبة في الحصول على أراض جديدة بعيدة عما كان يمارسه الملك فيليب أوغسطس من أنشطة تنظيمية . ولقى تيبالد (أوف شامباني) قبولا عاما لأن يصبح قائد الحركة ؛ وكان معه بالدوين التاسع (أوف هينولت) وكونت فلاندرز، وأخوه هنرى، ولويس كونت بلوا، وجيوفري الثالث (أوف لي بيرش) وسيمون الرابع (أوف مونتفورت) وإخوتهم، وإنجوراد (أوف بوف)، ورينالد (أوف دامبيير) وجيوفري (أوف فيلهاردوين)، ولوردات آخرون أقل شأنًا من شمال فرنسا والبلاد والواطة . وأعلن أسقف أوتون ملازمته لمجموعة من الفرسان من أوفرني . وفي إقليم الراين الألماني أخذ أسقف هالبرتشتادت الصليب وكذلك كونت كاتزنيلنبورجين ومعهما الكثير من جيرانهما^(٨). وسرعان ما حذا حذوهم بعد ذلك مختلف الوجهاء في شمال إيطاليا ، يتزعمهم بونيفاس مركزيز مونتفرات ، الذي تسبب اشتراكه في أن يشير لدى البابا إينوسنت الثالث أول مشاعر الريبة حول المغامرة كلها، إذ كان أمراء مونتفرات أصدقاء مخلصين وحلفاء لآل هوهينشتوفن^(٩).

(٦) Villehardouin, loc. cit; Roger of Hoveden, iv, pp.76-7. لفرسان المعبد، وشحه للسيستريين (الربان البندكتيين)، وشهوته لأساقفته .

(٧) Gunther, *Historia Constantinopolitana* in Riant, *Exuviae*, i, pp. 60-5.

(٨) يورد Villehardouin, i, pp. 6-14 and Robert of Clary (ed.lauer), pp. 2-3 قوائم بالصليبيين الفرنسيين. ويذكر Villehardouin, p.74 أسماء الصليبيين الألمان.

(٩) يقول Villehardouin, i, p. 44 ضمنا إن بونيفاس لم يأخذ الصليب إلا بعد أن تم تعيينه قائدا أعلا للحملة؛ *Gesta Innocentii III*, loc.cit,col.132، الذي يوحى بشكوك البابا. وكانت أم بونيفاس أختا غير شقيقة لجد هنرى السادس، وكان أبوه أختا غير شقيق لجدة فيليب ملك فرنسا.

ولم يكن في الإمكان تنظيم الحملة بسرعة . وكانت المشكلة الأولى هي العثور على سفن تحملها إلى الشرق ؛ إذ مع اضمحلال بيزنطة لم يعد الطريق البري عبر البلقان والأناضول وسيلة عملية للوصول إلى الشرق . ولم يكن أحد من الصليبيين يملك أسطولا تحت تصرفه ، باستثناء كونت فلاندرز ؛ وكان الأسطول الفلمنكي قد أبحر بمفرده إلى فلسطين بقيادة جون (أوف نيسيل)^(١٠) . وبعد ذلك كانت هناك مسألة الإستراتيجية العامة ؛ وكان ريتشارد قلب الأسد عندما غادر فلسطين قد أدلى برأيه من أن مصر هي النقطة الضعيفة في الإمبراطورية العربية . وتقرر في نهاية الأمر أن تكون مصر هي هدف الصليبيين . وكان عام ١٢٠٠م قد انقضى في مفاوضات مختلفة ، حاول فيها إينوسنت الاحتفاظ ببعض السيطرة . وفي شهر مارس ١٢٠١م مات تيبالد (أوف شامباني) فجأة ؛ واختارت الحملة الصليبية بونيفاس (أوف مونتفرات) قائدا للحملة بدلا منه . وكان اختيارا طبيعيا ، إذ كان لآل مونتفرات اتصالات ملحوظة مع الشرق . وكان أبو بونيفاس قد مات وهو بارون فلسطيني ، ومن بين أخوته تزوج وليسم من سيبلا ملكة القدس وأصبح أبا الطفل الملك بلدوين الخامس ؛ وتزوج رينير ابنة الإمبراطور مانويل وقتل في القسطنطينية ؛ وكان كونراد هو منقذ صور ، وحاكم الأراضي المقدسة وأبا لوريثتها الحالية . غير أن تعيينه لقيادة الصليبيين أبعدته عن نفوذ البابا إينوسنت . وكان بونيفاس قد جاء إلى فرنسا في أغسطس عام ١٢٠١م ، وقابل رفاقه الرئيسيين في سواسون ، حيث صدقوا على زعامته ؛ ومن هناك واصل رحلته إلى ألمانيا لتمضية أشهر الشتاء مع صديقه القديم فيليب (أوف سوايبا)^(١١) .

وكان فيليب (أوف سوايبا) مهتما هو نفسه بالشؤون الشرقية ، وإنما في الأمور البيزنطية وليس في سوريا . وقد بلغ الغاية في مشاركته لأسرته الحاكمة شعورها بالكراهية الشديدة تجاه الأباطرة البيزنطيين . وتوقع أن يصبح في القريب العاجل إمبراطورا غربيا ، وود لو أنه يواصل تنفيذ برنامج أخيه هنري كاملا . وفضلا عن ذلك ، كانت لديه علاقات مع بيزنطة . وعندما استولى هنري السادس على صقلية غزوا ، كان من بين الذين أسرهم الأرسلة الشابة للأمير المتوج روجر الصقلي المحروم من عرشه ، وهي إيرين أنجلينا ، ابنة الإمبراطور اسحق أنجيلوس ؛ فمنحها لفيليب عروسا . وكان زواجا يكلله الحب ؛ ومن خلال حبه لفيليب أصبح متورطا في المشاجرات الملكية

(١٠) أنظر أعلاه ، ص ١٤٠ .

(١١) *Gesta Innocentii III*، ويلمع تاريخ، Villehardouin, i, pp. 40-6; Robert of Clary, pp.4-6 *loc. cit.* بأن فيليب ملك فرنسا قد تدخل لصالح بونيفاس.

لأنجيلي^(١٢).

وبعد أشهر قليلة من زواج فيليب فقد حموه عرشه . إذ أن القوة لم تضاف شيئا إلى قدرة إسحق ؛ إذ كان مسؤولوه فاسدين لا سبيل إلى السيطرة عليهم ، وكان هو نفسه على قدر من التبذير أكثر بكثير مما تستطيع تقديمه إمبراطوريتة التي افتقرت . ففقد نصف شبه جزيرة البلقان انتزعتها منه مملكة قوية تهدده هي المملكة الفلاكية البلغارية^(١٣) . وكان الأتراك - حتى موت قلعج أرسلان الثاني عام ١١٩٢م - يستولون على الأناضول شيئا فشيئا ، وبذا يحجبون بيزنطة عن الساحل الجنوبي وعن سوريا . وبدأت التنازلات التجارية تباع للإيطاليين أكثر فأكثر من أجل النقد الجاهز . وكان حفل الزفاف الرائع للإمبراطور إلى الأميرة مرجريت الهنجرية من الإسراف وانعدام الفطنة بحيث أشعل غضب رعاياه المثقلين بالضرائب ؛ وبدأت أسرته هو نفسه تهجره ، وفي ١١٩٥م خطط أخوه ألكسيوس مؤامرة وضع هندستها في القصر بنجاح . وفقت عينا إسحق وألقى به في غيابة السجن ومعه ابنه ألكسيوس الأصغر . وكان الإمبراطور الجديد ، ألكسيوس الثالث ، أكثر اقتدارا بقليل من أخيه ؛ فأظهر بعض النشاط الدبلوماسي وتودد ليكسب صداقة البابوية بعرض اجراء محادثات حول الوحدة الكنسية - وهي صداقة ربما جنبته هجوم هنري السادس - وأفلح بمكائده في الإبقاء على الفرقة بين أمراء السلاجقة . على أنه ترك الشؤون الداخلية لزوجته إيوفروسين التي كانت مسرفة متلافة ، وأحاطت نفسها بالخدم والحشم بنفس القدر كما كان أخو زوجها^(١٤) .

وفي نهاية عام ١٢٠١م ، هرب ألكسيوس الأصغر ، ابن إسحق ، من السجن في القسطنطينية وعم وجهه شطر بلاط أخته في ألمانيا . واستقبله فيليب استقبالا حسنا وقدمه إلى بونيفاس (أوف منونترفرات) . وتشاور الثلاثة وأعرب ألكسيوس عن رغبته في الحصول على عرش والده ، وكان فيليب على استعداد لمساعدته كي يحول الإمبراطورية الشرقية إلى عميل للإمبراطورية الغربية . ولدى بونيفاس جيش صليبي تحت تصرفه . أليس من صالح الحملة الصليبية أن تتوقف في طريقها لكي تعيد حاكما صديقا

(١٢) *Chronica Regia Coloniensis*, p.157.

(١٣) (المترجم) - المملكة الفلاكية البلجارية. Vlach-Bulgarian نسبة إلى الشعوب الفلاكية جنوب شرق أوروبا ، أساسا في رومانيا ، وهي غير سلافية

(١٤) أنظر. Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, pp.440-487.

إلى عرشه في القسطنطينية؟^(١٥).

١٢٠٢م : مفاوضات مع البندقية

وفي تلك الأثناء راح الصليبيون يبحثون عن وسيلة نقل لرحلتهم البحرية . وفي وقت مبكر من عام ١٢٠١، وأثناء حياة كونست شامباني ، دخلوا في مفاوضات مع البنادقة وأرسلوا إلى البندقية جيوفري (أوف فيلهاردوين) لترتيب الشروط . وفي إبريل وقعت معاهدة بين جيوفري والبنادقة تقضى بحصولهم على ٨٥,٠٠٠ مارك كولوني فضي لقاء توفير وسائل النقل والأطعمة لمدة عام ، من ٢٨ يونية ١٢٠٢م ، لعدد من الفرسان قدره ٤,٥٠٠ فارس وخيولهم ، و ٩,٠٠٠ فارس بلا لقب ، و ٢٠,٠٠٠ جندي مشاه . فضلا عن ذلك ، توفر جمهورية البندقية خمسين قادسا لمصاحبة الحملة الصليبية شريطة أن تحصل على نصف ما تحققه الحملة من غزو . وما أن تم الاتفاق حتى استدعى الصليبيون للتجمع في البندقية وهم على أهبة الاستعداد للإبحار قاصدين غزو مصر^(١٦).

وكان هناك صليبيون قليلون مرتابون في المعاهدة ؛ ولذا اصطحب أسقف أوتون جماعته مباشرة من مرسيليا إلى سوريا. ونقد صير آخرين ، برئاسة رينالد (أوف دامبير)، من التأخير في البندقية فرتبوا ترتيبهم للإبحار إلى عكا كما كان هناك شيء من عدم الارتياح من جانب الصليبيين الأقل شأنا لصدور القرار بمهاجمة مصر ؛ فقد انخرطوا في الحملة لإنقاذ الأرض المقدسة ، ولا يفهمون القصد من الذهاب إلى مكان آخر . ونفخ البنادقة بهدوء في نار استيائهم ، إذ لم تتوفر لديهم النية للمساعدة في الهجوم على

(١٥) Nicetas Choniates, p. 712; Innocent III letters, v, 122, *Gesta Innocentii III*, loc.cit., cols.123-5; ibid.cols.130-2.

الصليبية الرابعة كان مرتباً له . أنظر Vasiliev, op.cit. pp.455-8. ويبدو أن الحقيقة هي أنه في الوقت الذي تفوفرت فيه أسباب منفصلة لفيليب أوف سوايا ، وبونيفاس ، وأهل فينيسيا للرغبة في مهاجمة القسطنطينية ، فإن مصادفة وصول ألكسيوس هي التي جعلت تحو الحملة إلى القسطنطينية شيئاً عملياً . ولم يكن لدى البابا مثل هذه النوايا ، وكان الصليبي الفرنسي العادي تتوفر لديه النية الأصلية للذهاب إلى الأراضي المقدسة ولكنه سمح للظروف بأن تحيد به هنا وهناك . وعن موقف بونيفاس أنظر، Gregoire, 'The Question of the Diversion of the Fourth Crusade',

Byzantion, vol.xv., وعن مخطط فيليب أوف سوايا المتعمد أنظر Winkelman, Philipp von

Schwaben,i,pp. 296-525.

(١٦) Villehardouin, ii, pp. 18-34. وافق البابا على المعاهدة وإنما بلا حماس ، إذ من الواضح أنه يرتاب

في البنادقة (Gesta Innocentii III, loc.cit.col.131)

مصر . وكان العادل مدركا تماما لما تجلبه التجارة مع أوروبا من مميزات لبلاده ، وكان في أعقاب غزوه لمصر قد عرض امتيازات تجارية لها قيمتها على المدن الإيطالية . وفي نفس اللحظة التي كانت فيها حكومة البندقية تساورم الصليبيين حول نقل قواتهم ، كان سفراؤها في القاهرة يرتبون لعقد اتفاق تجاري مع والي السلطان الذي وقع معهم على معاهدة في ربيع ١٢٠٢ م ، وذلك بعد أن حصل مبعوثو العادل إلى البندقية على تأكيدات حاكم البندقية (الدوج) أنه لن يوافق على أية حملة على مصر^(١٧).

وليس يقينيا ما إذا كان الصليبيون قد فهموا دقائق دبلوماسية البندقية ، على أنه إذا كان أي منهم يرتاب في أنهم قد خدعوا ، فلم يكن هناك ما يمكن عمله ، إذ وضعتهم معاهدتهم مع البندقية في قبضتها تماما ، ذلك أنهم لم يتمكنوا من جمع المبلغ الذي وعدوا به وهو ٨٥,٠٠٠ مارك . وفي يونيو ١٢٠٢ م تجتمع الجيش ؛ ولكن جمهورية البندقية امتنعت عن تقديم السفن لما وجدت أن المال ليس في طريقه إلى السداد . وهكذا وجد الصليبيون أنفسهم قد عسكروا في جزيرة سان نيكولو دي ليدو الصغيرة ، يضايقهم تجار البنادقة الذين يطالبونهم بديون لم يدفعوها ويهددونهم بمنع المؤن عنهم تماما ما لم تظهر نقودهم أولا ، وبحلول سبتمبر لم يكن لديهم حيلة إلا أن يوافقوا على أية شروط قد تفرضها عليهم البندقية . وكان بونيفاس قد لحق بهم ذلك الصيف بعد زيارة للبابا في روما لم يصادفها النجاح ، ولذا كان مهيا للتعاون مع البنادقة . وكانت قد مرت بضع عقود شهدت حروبا متقطعة بين جمهورية البندقية وملك هنجاريا من أجل السيطرة على دالماتيا ، وكانت مدينة زارا الهامة قد سقطت مؤخرا في أيدي الهنغارين . وأخطر الصليبيون الآن بإمكان البدء في الحملة وتأجيل دفع الدين إذا شاركوا في حملة مبدئية لاستعادة زارا ، وما أن سمع البابا بذلك العرض حتى أرسل من فوره لمنع قبوله . بيد أنه آيا ما كانت مشاعرهم حيال ذلك العرض ، لم يكن بوسعهم إلا أن يلتزموا به^(١٨).

وذُبر الأمر بليل بين بونيفاس (أوف مونتفرات) ، الذي لم يرض عنه ضميره

(١٧) ينكر المؤرخون وجود معاهدة محددة رغم أن المؤرخ هوبف Hopf *Geschichte Griechenlands, i, p. 118* يحدد تاريخها في ١٣ مايو ١٢٠٢ م ، ولا يورد المؤرخ أية مصادر في الواقع . غير أن Ernoul, pp. 345-6 يقول بكل التأكيد إن المفاوضات بين البندقية والسلطان كانت حارة آنذاك . وليس هناك ما يدعونا إلى افتراض أنه اخترع هذه القصة ، التي يفترض أنه استمدّها من البنادقة في سوريا . وعن الهروب من الحملة الصليبية انظر Villehardouin, i. pp. 52-4.

(١٨) Villehardouin, i. pp. 58-66; Robert of Clary, pp. 9-11.

المسيحي رضاء كاملاً، ربين دوج البندقية إنريكو داندولو . وكان هذا الأخير قد بلغ من العمر أرذله ، لكن الشيخوخة البالغة لم تخمد طاقته أو طموحاته. فقبل نحو ثلاثين سنة كان في سفارة إلى القسطنطينية حيث تورط في شجار صاحب فقد على أثره بصره جزئياً . وزادت مرارته ضد البيزنطيين بعد إرتقائه الدوجية مباشرة في ١١٩٣م عندما صادفته بعض الصعوبات مع الامبراطور الكسيوس الثالث في تحديد شروط تجارية مجزية كان الامبراطور إسحق قد منحها للبندقية ؛ ولذا كان مهياً لأن يتقاسم مع بونيفاس مخططات حملة تستهدف القسطنطينية ، على أنه يتعين في الوقت ذاته المحافظة على مظهر الحملة الصليبية ؛ فما أن تمت الموافقة على مهاجمة زارا حتى أقيم حفل وقرر في كنيسة القديس مارك حيث تباهى الدوج وكبار مستشاريه بأخذ الصليب^(١٩).

١٢٠٢م : نهب مدينة زارا

أبحر الأسطول من البندقية في الثامن من نوفمبر ١٢٠٢م ووصل أمام زارا بعد ذلك بيومين . وبعد هجوم شرس، استسلمت المدينة في الخامس عشر من الشهر وانتهت عن آخرها . وبعد ثلاثة أيام بدأ القتال بين البنادقة والصليبيين عند تقسيم الأسلاب ، غير أنه أمكن تدبير السلام بين الفريقين . ثم إن الدوج وبونيفاس قررا أن الوقت متأخر هذا العام للقيام بمغامرة الاتجاه إلى الشرق . فبقيت الحملة في زارا لتمضية الشتاء، بينما خطط زعماءها لعملياتهم المقبلة^(٢٠).

وعندما وصلت روما أنباء تخريب زارا ، أصيب البابا اينوسنت بالرعب ، فهو لا يحتمل أن تستخدم حملة صليبية في تحد صارخ لأوامره لمهاجمة أراضى أحد أبناء الكنيسة البررة فطرد الحملة الصليبية كلها من الكنيسة ، ثم إنه بعد أن تحقق من أن الصليبيين أنفسهم كانوا ضحية ابتزاز ، عفى عنهم وإنما أبقى على إعلان طرد البنادقة من الكنيسة^(٢١). ولم ينزعج داندولو ، فمن خلال بونيفاس كان فعلاً على علاقة بفيليب (أوف سوابيا) وهو زميله في الطرد من الكنيسة . وفي وقت مبكر من عام ١٢٠٣م

(١٩) Diehl, *Une* Dandolo وعن Villehardouin, i, pp. 66-70; Robert of Clary, pp. 10-12. *République Patricienne, Venise*, pp. 47-8; Vasiliev, *op. cit.* pp. 452-3

(٢٠) Villehardouin, i, pp. 76-90; Robert of Clary, pp. 12-14.

(٢١) Innocent III, letters, v, 161, 162, vi, 99-102 (*M.P.L.* vol. ccxiv, cols. 1178, 1182; vol. ccxv, cols. 103-10); Villehardouin, i, pp. 104-8.

جاء رسول من ألمانيا إلى زارا ، من فيليب إلى بونيفاس بعرض محدد من زوج أخته الكسيوس . إذا زحف الصليبيون على القسطنطينية ونصبوا الكسيوس على العرش الإمبراطوري هناك ، فإن الكسيوس يضمن للصليبيين دفع المال الذي لا يزالون مدينين به للبنادقة ؛ وسوف يزودهم بالمال اللازم والمؤن لغزو مصر ، وسوف يضيف فرقة مؤلفة من ١٠,٠٠٠ رجل من الجيش البيزنطي ؛ وسوف يتكفل بتكاليف إعالة خمسمائة فارس ليبقوا في الأرض المقدسة ، وسوف يضمن خضوع كنيسة القسطنطينية لروما . فأحال بونيفاس الموضوع إلى داندولو الذي ثارت لديه مشاعر البهجة . إذ يعنى ذلك أن البندقية سوف تتسلم أموالها ، وفي ذات الوقت سوف تجعل اليونانيين أذلاء ، وسوف تتمكن من توسيع وتقوية رقعة مميزاتها التجارية في سائر أنحاء الإمبراطورية البيزنطية . وأما الهجوم على مصر فيمكن بسهولة تدبره لما بعد^(٢٢) .

عندما طُرح الاقتراح على الصليبيين كان هناك قليل من المنشقين ، مثل رينالد (أوف مونتيريل) الذي أعرب عن شعوره بأنهم قد أخذوا الصليب لمحاربة المسلمين ، وليس هناك ما يبرر المزيد من التأخير ، فتركوا الجمع وأبحروا ميممين وجوههم شطر سوريا ؛ وبقي آخرون مع الجيش ، يفصحون عن اعتراضاتهم ؛ وكُمت أفواه آخرين مرة أخرى برشاوى البنادقة التي جاءت في وقتها المناسب . على أن الصليبي العادى قد لقن الاعتقاد الذي مفاده أن بيزنطة دأبت على القيام بدور الخيانة ضد العالم المسيحي طوال الحروب المقدسة . فمن الحكمة إذن واستحقاق الثواب إرغامها على التعاون الآن . وأبهج الورعين من بين رجال الجيش أن يساعدوا في سياسة من شأنها أن تعيد اليونانيين المنشقين إلى الحظيرة . أما الأكثر ولعاً بالحياة الدنيا فراحوا يتفكرون في ثراء القسطنطينية ومقاطعاتها المزدهرة وتطلعوا لتوقعات السلب والنهب . وربما تطلع بعض البارونات ، وفيهم بونيفاس نفسه ، إلى نفس التوقعات ، وراحوا يوازنون حساباتهم التي تقول إن الضياع على شواطئ بحر إيجه أكثر جاذبية للغاية من أية ضياع يجدونها في أراضى سوريا القاحلة . وأسهم ما كان يحمله الغرب من الإزدراء كله منذ أمد بعيد للعالم المسيحي الشرقي ، فجعل من اليسير على داندولو وبونيفاس تطويع الرأي العام وشده لمناصرتهم^(٢٣) .

(٢٢) Villehardouin, i, pp. 90-100 وهو يتحدث عن مفاوضات مسبقة بين الكسيوس والصليبيين في البندقية ص. ٧٠-٤ .

(٢٣) Villehardouin, i, pp. 100-4; Robert of Clary, pp. 14-15. (أوف سانت بول) Hugh of Saint Pol, letter in *Chronica Regia Coloniensis*, p. 205، إن كل الصليبيين تقريباً

لم تخف حدة القلق لدى البابا عندما سمع بالقرار الذي اتخذته الحملة الصليبية . إن المخطط الوليد الذي وجد رعاية البنادقة وأصدقاء فيليب (أوف سوايبا) لم يكن ليضيف رصيذا للكنيسة ، فضلا عن ذلك قابل ألكسيوس الشاب وأفصح له عن رأيه فيه من أنه شاب تافه . لكن السيف كان قد سبق العذل ، فلا سبيل له لأن يعترض اعتراضا مؤثرا ؛ وإذا كان انحراف الحملة الصليبية سوف يضمن حقيقة معونة بيزنطية إيجابية ضد الكفرة ، ويحقق في ذات الوقت وحدة الكنائس ، فيكون للحملة الصليبية ما يبرر تصرفها . وأرضى نفسه بأن أصدر أمرا بعدم مهاجمة أي مسيحيين بعد ذلك إلا إذا كانوا يعرقلون الحرب المقدسة فعلا . وكان الأكثر حكمة للبابا ، على المدى البعيد ، أن يعرب صراحة وبلا هوادة عن معارضته ، ولو كان ذلك بلا طائل . أما اليونانيون ، المرتابون دوما في النوايا الباهوية ، وغير المدركين لتعقدات السياسات الغربية، فقد بدا لهم أن في فتور همته في إدانته للحملة الصليبية الدليل على أنه كان القوة المحركة وراء المكيدة برمتها^(٢٤).

١٢٠٣م : الحملة الصليبية تبحر قاصدة القسطنطينية

وفي الخامس والعشرين من إبريل وصل ألكسيوس إلى زارا قادما من ألمانيا، وبعد أيام قليلة أبحرت الحملة وتوقفت بعض الوقت في دورازو، حيث قبل ألكسيوس كامبراطور، ثم في كورفو حيث وقع ألكسيوس بوقار معاهدة مع حلفائه . وتواصلت الرحلة في الخامس والعشرين من مايو . والتف الأسطول حول بيلوبونيس (شبه الجزيرة اليونانية) ثم انحرف شمالا إلى جزيرة أندروس حيث أعاد ملء صهاريج المياه من عيون المياه الوفيرة هناك . ومن أندروس بم وجهه شطر الدردنيل الذي وجده بلا حماية .

كانوا يرغبون في الإنطلاق إلى فلسطين لكن التحريض كان أقوى منهم.

(٢٤) *Gesta Innocentii III, loc. cit. cols. 130-2: Innocent III, letters, v, 122 (to the Emperor Alexius, M.P.L. vol. ccxiv, cols. 1123-5)؛ وخطاب إلى رئيس أساقفة سالزبورج Ebrard، الموجود في Registrum de Negotio Romani Imperii, lxx (M.P.L. vol. ccxvi, cols. 1075-7)، والذي يتحدث فيه إلى ضرورة التفكير في مثل تلك الأمور . وربما علم فيليب (أوف سوايبا) بمشروع مهاجمة زارا، إذ أرسل الكاردينال Peter of Capua، يرافقه زعماء صليبيون لضمان موازنة البابا لألكسيوس في الوقت الذي يستحيل فيه وصول رد إذا كانت الحملة الصليبية ذاهبة مباشرة إلى الشرق. أنظر Bréhier, *Les Croisades*, p.155. ويعلن تاريخ نوفجورود The Novgorod Chronicle (ed. Lasonov, . 241) أن البابا آيد مخطط الهجوم على القسطنطينية ، بينما يرد ضمنا في Chronica Regia Coloniensis, p.200 أنه وقع قرار الطرد من الكنيسة من على الصليبيين لمهاجمتهم زارا عندما قرروا الزحف على القسطنطينية.*

وكان حصاد تراقيا (شرق جزيرة البلقان) ناضجا ، ولذا حط الصليبيون رحالهم في مدينة أبيدوس القديمة في آسيا الصغرى ليجمعوا ما يستطيعونه . وفي الرابع والعشرين من يونية وصلوا أمام العاصمة الإمبراطورية^(٢٥).

ولم يكن الامبراطور ألكسيوس الثالث قد أعد أية ترتيبات ضد وصولهم ، إذ لم يبرأ الجيش الإمبراطوري قط من كوارث السنوات السابقة على مانويل ، فكاد أن يكون كله من المرتزقة ؛ ومن الواضح أن الفرق الفرنجية لا يعول عليها في مثل تلك الظروف ؛ ولم تكن الثقة تتوفر في السلاف والبشنج إلا بقدر ما تتوفر الأموال الجاهزة لدفع رواتبهم . وأما الحرس الفارنجي ، الذي يتألف أساسا من الإنجليز والدانمركيين ، فكان لديه إخلاص تقليدي لشخص الامبراطور ، غير أن ألكسيوس الثالث لم يكن بالرجل الذي يلهم الولاء الشخصي الكبير ، فهو مغتصب حصل على العرش لا من خلال أية جدارة كجندي أو كرجل دولة ، وإنما عن طريق مؤامرة تافهة في القصر ، وظهر بمظهر الحاكم الضعيف . ولم يكن واثقا لا من جيشه فحسب ، وإنما من الشعور العام لرعاياه ؛ فبدأ الأسلم ألا يفعل شيئا إذ سبق للقسطنطينية أن قاومت عواصف كثيرة من قبل طوال تسعة قرون من تاريخها ، ولسوف تقاوم عاصفة أخرى بلا ريب .

وبعد أن هاجم الصليبيون بلا حدودى خلقدونية وكريسوبوليس على الشاطئ الآسيوي للبسفور ، هبطوا إلى الأرض في غلاطيا ، أمام القرن الذهبي . واحتلوا المدينة وتمكنوا من كسر السلسلة المحيطة بمدخل القرن الذهبي وإحضار سفنهم إلى داخل المرفأ . وكان ألكسيوس الصغير قد أوهم الصليبيين بأن بيزنطة كلها سوف تنهض مرحبة به ، فأدهشهم أن يجدوا بوابات المدينة مغلقة في وجوههم والجنود يعتلون الأسوار . وصُدّت محاولاتهم الأولى في قصف أسوار المدينة من سفنهم بطول القرن الذهبي ، غير أنه بعد كفاح شرس تمكن داندولو والبنادقة من إحداث ثغرة في السابع عشر من يولية . أما ألكسيوس الثالث ، الذي أدهشه كشأن الصليبيين أن يجد مدينته في موضع الدفاع ، فكان يفكر فعلا في الفرار ؛ وقد قرأ في الكتاب المقدس كيف هرب داود أمام أبشالوم ولذا عاش ليستعيد عرشه . فاصطحب معه إبنته الأثيرة لديه وجوالا مليشا بالأحجار الكريمة ، وتسلل عبر الأسوار الأرضية ولجأ إلى موسينوبوليس في تراقيا . ووجد المسؤولين الحكوميين أنفسهم وقد تخلّى عنهم الامبراطور ، فاتخذوا قرارا سريعا وإنما لا

(٢٥) Villehardouin, i, pp. 110-28; Robert of Clary, pp. 30-40; Anonymous of Halberstadt, in Riant, *Exuviae*, i, pp. 14-15; *Devastatio Constantinopolitana* (ed. Hopf), pp. 88-9; Nicetas Choniates, p. 717.

يخلو من براعة . فأخرجوا الامبراطور السابق الأعمى إسحق من سجنه وأجلسوه على العرش وأعلنوا لداندولر والصليبيين أنه طالما أعيد والد المطالب بالعرش فلا ضرورة هناك لمواصلة القتال . وكان الكسيوس الصغير حتى آنذاك قد اختار تجاهل وجود أبيه، ولكنه لا يستطيع الآن أن يتصل منه ، فحرض حلفاءه على وقف الهجوم . وبدلاً من ذلك أرسلوا سفارة إلى المدينة تقول إنهم سوف يعترفون بإسحق إذا رفع ابنه ليكون امبراطوراً مشاركاً، وإذا تعهد الإثنان بإنفاذ المعاهدة التي وقعها الأخير . ووعد إسحق بتلبية مطالبهم وفي أول أغسطس، وفي احتفال وقور في كنيسة القديسة صوفيا ، وبحضور أبرز بارونات الصليبيين ، توج الكسيوس الرابع ليصبح رفيق أبيه^(٢٦).

١٢٠٣م : الكسيوس الصغير إمبراطوراً

وسرعان ما وجد الكسيوس الرابع أن الامبراطور لا يستطيع أن يكون غير مسئول كالمطالب بالعرش ذلك أن محاولته إجبار رجال الدين في المدينة على قبول سيادة روما وإدخال الأعراف اللاتينية، لقيت مقاومة عنيدة ؛ كما لم يكن من اليسير عليه جمع كل الأموال التي وعد بها . وبدأ عهده بداية طائشة بأن أغدق الهدايا الثمينة على الصليبيين فتحركت من ثم نوازع جشعهم . بيد أنه عندما حان موعد تسليم البنادقة الأموال المستحقة لهم ، اتضح أن الخزانة لم يكن فيها الكفاية ، ولذا أعلن الكسيوس عن ضرائب جديدة ، وزاد من غضب الكنيسة ما أقدم عليه من مصادرة قدر كبير من المشغولات الذهبية الكنسية لصهرها للبنادقة . وطوال خريف وشتاء عام ١٢٠٣م زاد التوتر في المدينة زيادة مطردة ، وأسخط المواطنين رؤية فرسان الفرنج المتغطرسين وهم يتجولون خلال الشوارع . وقد ركزت التجارة . ودأبت مجموعات من سكارى الجنود الغربيين على نهب القرى في الضواحي ، بحيث لم تعد الحياة آمنة خارج أسوار المدينة . وفي محاولة لإظهار الورع، أحرقت جماعة من الفرنسيين مسجداً كان قد بُنى للزائرين من تجار المسلمين ، فانتقلت النيران وأتت تماماً على حي من أحياء المدينة بصورة فاجعة . وكان الصليبيون من جانبهم ساخطين كالبزنطيين بنفس القدر ؛ وتيقنوا من أن الحكومة البيزنطية غير قادرة مطلقاً على تنفيذ الوعود التي وعد بها الكسيوس الرابع،

(٢٦) Nicetas Choniates, pp. 718-26 حيث يرد وصفاً كاملاً من وجهة النظر اليونانية؛ Villehardouin, i, pp. 154-84 الوصف الصليبي الأكثر اكتمالاً؛ Robert of Clary, pp. 41-51؛ Anonymous of Halberstadt, pp. 15-16؛ *Devastatio Constantinopolitana*, pp. 89-90, letter of Saint Pol in *Chronica Regia Coloniensis*, pp. 203-8.

فلا الرجال ولا الأموال التي عرض دفعها تلوح في الأفق . وسرعان ما كفّ الكسيوس نفسه عن المهمة اليائسة في محاولة إرضاء ضيوفه . ودعاهم إلى حفل في إحدى المناسبات في القصر ، وبمساعدهم خرج في حملة عسكرية خفيفة ضد عمه الكسيوس الثالث في تراقيا ، وما أن انتصر في مناوشة صغيرة حتى عاد إلى القصر ليحتفل بانتصاره؛ وكان يقضى باقى أيامه ولياليه غارقا في متعه الخاصة . أما أبوه اسحق ، الذي فقد بصره بحيث لم يستطع المشاركة في الحكم، فقد أغلق على نفسه كل الأبواب مع منجميه الأثريين لديه ولم يكن في نبوءاتهم أية تأكيدات حول المستقبل . وكان لابد من أن يحدث صدع واضح؛ وبذل داندولو ما في وسعه ليزيد من حدته بأن تقدم بطلبات غير معقولة^(٢٧) .

ولم يكن في القسطنطينية سوى رجلين اثنين بدا أنهما قادران على تولي الحكم ، وهما زوجها إينسى الامبراطور السابق الكسيوس الثالث . وكان زوج أنا ، ثيودور لاسكاريس ، جنديا بارزا نظم الدفاع الأول ضد اللاتينيين ، غير انه تقاعد بعد هرب حميه . أما زوج إيودوشيا ، الكسيوس مورزوفلوس ، على غير شاكلة الأول ، سعى إلى نيل حظوة الكسيوس الرابع ومُنح لقب بروتوفستياربوس ؛ والآن جعل من نفسه زعيم الوطنيين . وربما أراد أن يدخل الرهبة في قلب الكسيوس الرابع ، فدبر بعض أعمال الشغب في يناير ١٢٠٤م، غير أن نتيجتها الوحيدة الملموسة كانت تدمير تمثال أثينا العظيم ، وهو من أعمال فيدياس^(٢٨) ، وكان قائما في الساحة المواجهة للغرب ؛ فحطمته جماعة من الغوغاء السكارى إلى شظايا ، لأن الإلهة بدت وهى تشير إلى الغزاة^(٢٩) .

١٢٠٤م : ثورة في القصر

وفي شهر فبراير جاء وفد من الصليبيين إلى قصر بلاشيرنا يطلب من الكسيوس

(٢٧) Nicetas Choniates, pp. 736-8; Villehardouin, i, pp. 186-206; Robert of Clary, pp. 57 8; *Devastatio Constantinopolitana*, pp. 90-1.

(٢٨) (المترجم) - المثال الشهير Phidias ، عاش في القرن الخامس قبل الميلاد ويُنسب إليه بناء معبد أثينا الدائري على الأكروبوليس

(٢٩) Nicetas Choniates, pp. 738-47; Villehardouin, ii, pp. 6-23; Robert of Clary, p. 57; *Devastatio Constantinopolitana*, p. 91 .

الرابع الرفاء بوعوده فوراً ، ولم يكن يملك إلا أن يعترف بعجزه ، وكادت الجماهير الغاضبة أن تمزق المندوبين إرباً إرباً أثناء خروجهم من قاعة المقابلات الإمبراطورية ؛ ثم اندفعت الجماهير إلى كنيسة القديسة صوفيا حيث أعلنوا خلع ألكسيوس وانتخبوا مكانه نبيلاً مغموراً يدعى نيكولاس كانابوس تصادف وجوده وحاول رفض هذا الشرف . وبعد ذلك قام مورزوفليس بغزو القصر ، ولم يحاول أحد الدفاع عن ألكسيوس الرابع الذي ألقى به في زنزانة السجن حيث شق دون أن يبكيه أحد قط ، إذ لم يكن يستحق البكاء عليه . وبعد أيام قليلة مات أبوه اسحق من الأسى ومما لقيه من سوء المعاملة . وسُجن كانابوس المغمور ؛ واعتلى مورزوفلوس العرش على أنه ألكسيوس الخامس^(٣٠) .

كانت ثورة القصر تحدياً مباشراً للصليبيين . وطالما كان البنادقة يحرصونهم على أن السبيل العملي الوحيد هو الاستيلاء على القسطنطينية بالقوة وتنصيب أحد الغربيين إمبراطوراً ، والآن بدا لنصيحتهما ما يبررها ؛ غير أنه لم يكن من اليسير اختيار إمبراطور . وتواصلت المناقشات طوال شهر مارس في معسكر في غلاطيا ، وكان البعض يمارس الضغوط لإنتخاب فيليب (أوف سوابيا) لكي يوحد الإمبراطوريتين ، لكن فيليب كان بعيداً ، وقد حُكم عليه بالحرمان الكنيسي ، ولم يكن البنادقة يفضلون فكرة وجود إمبراطورية واحدة قوية . وكان بونيفاس (أوف مونتفرات) المرشح البارز غير أنه على الرغم مما عدده داندولو من آيات الإعجاب به ، فقد رفضه البنادقة ؛ إذ لمسوفيه تطلعات مفرطة ، فضلاً عن العلاقات التي تربطه بأبناء جنوا . وتقرر في نهاية الأمر تشكيل هيئة محلفين من ستة من الفرنج وستة من البنادقة لاختيار الإمبراطور بعد الاستيلاء على المدينة مباشرة . وإذا كان الإمبراطور الذي سيقع عليه الاختيار فرنجياً - وهو الأفضل - فيتعين اختيار أحد البنادقة لمنصب البطريرق . وينبغي أن يكون للإمبراطور القصر الإمبراطوري الفخيم وقصر الإقامة بلاشيرنا ، وربع المدينة والإمبراطورية ؛ وأما الثلاثة أرباع الباقية فيكون نصفها للبنادقة والنصف الآخر لفرسان الصليبيين يقتسمونها إلى أقطاعات لأنفسهم . ويتعين أن يقسم قسم الولاء للإمبراطور جميع أصحاب الإقطاعات ، فيما عدا الدوج . وهكذا يكون كل شيء قد تم ترتيبه "لشرف الرب والبابا والإمبراطور" . وأما المطالبة بأن تواصل الحملة مسيرتها في وقت

Nicetas Choniates, pp.738-47; Villehardouin, ii, pp.6-23; Robert of Clary, pp.58-9; (٣٠)
Devastitio Constantinopolitana, p.92.

ما لمحاربة الكفرة ، فقد تخلوا عنه صراحة^(٣١).

وكان الكسيوس الخامس حاكما ذا بأس ، لكنه لم يكن يحظى بشعبية تذكر . فأقدم على طرد أي وزير يظن أنه غير موال له ، ومنهم المؤرخ نيسيتاس خونيئاتيس Nicetas Choniates الذي انتقم منه في تأريخه له . وبُذلت بعض المحاولات لترميم الأسوار وتنظيم الناس للدفاع عن المدينة ، على أن معنويات حرس المدينة قد تدنت لكثرة الثورات ، ولم يكن هناك سبيل قط لاستجلاب الجنود من المقاطعات ؛ كما كان هناك خونة داخل المدينة اشترأهم البنادقة . وصُدَّ أول هجوم شنه الصليبيون في السادس من ابريل بخسائر جسيمة . وبعد ستة أيام عاود الصليبيون هجومهم ؛ ونشب قتال يائس في القرن الذهبي حاولت فيه السفن اليونانية بلا جدوى منع الأسطول البندقي من إنزال الجنود أسفل الأسوار . وكان الهجوم الرئيسي منصبا على حي بلاشيرنا حيث كانت الأسوار ممتدة حتى القرن الذهبي ، وهناك فتحت ثغرة في السور الخارجي بينما كان المدافعون في السور الداخلي صامدين ، وفجأة شبت النيران - إما مصادفة أو خيانة - في المدينة من ورائهم وحاصرتهم ، فانهار دفاعهم وتدفق الفرنج والبنادقة إلى داخل المدينة . وهرب مورزوفلوس مع زوجته بامتداد الأسوار حتى البوابة الذهبية القريبة من بحر مرمرة ، ثم خارجا في تراقيا ، لائذا بحميته في موسينوبوليس . وبعد تسرب أنباء فراره ، اجتمع من بقي من النبلاء في كنيسة القديسة صوفيا لمنح التاج لثيودور لاسكاريس ؛ على أن السيف كان قد سبق العذل لإنقاذ المدينة ، فرفض ثيودور خواء هذا الشرف ، وخرج مع البطريق واتجه إلى العمود الذهبي في الميدان الذي بين الكنيسة والقصر الكبير وخاطب الحرس الفارانجي في حرارة قائلا إنهم لن يكسبوا شيئا الآن باستسلامهم لأسياد جدد . لكن معنوياتهم كانت قد كُسرت ، ولن يحاربوا أكثر من ذلك ؛ ولذا تسلل ثيودور مع زوجته والبطريق والكثير من النبلاء إلى مرفأ القصر وهربوا في سفينة إلى آسيا^(٣٢).

وشق الغزاة طريقهم إلى داخل المدينة ، وحدث قتال قليل ؛ وبحلول الصباح التالي كان الدوج وأبرز الصليبيين قد استقروا في القصر الكبير ، وأمروا جنودهم بتمضية الأيام

(٣١) Villehardouin, ii, pp. 34-6. Robert of Clary, p. 68; Andrea Dandolo, *Chronicle* (ed. Pastorello), p. 279.

(٣٢) -Nicetas Choniates, pp. 74-56; Villehardouin, ii, pp. 32-50; Robert of Clary, pp. 60 79; Gunther, pp. 91-4, 100-4; letter of Baldwin, R.H.F. vol. xviii, p. 522; *Devastatio Constantinopolitana*, p. 92; Ernoul, pp. 369-73; *Novgorod Chronicle*, pp. 242-5.

الثلاثة التالية في نهب المدينة.

١٢٠٤م : نهب القسطنطينية

انتهت القسطنطينية بصورة لا مثيل لها في التاريخ . وتسعة قرون خلت ظلت المدينة العظيمة عاصمة للحضارة المسيحية؛ فكانت مليئة بالأعمال الفنية التي بقيت من اليونان القديمة، والطُرف المشوقة التي أبدعتها أيدي أبنائها المهرة؛ وكان البنادقة يعرفون حقا قيمة تلك الأشياء، إذ أينما وجدوا كنوزا كانوا يستولون عليها ويحملونها لتزين ميادين مدينتهم وكنائسها وقصورها . بيد أن الفرنسيين والبلجيكي كانوا قد أشربوا في قلوبهم شهوة التخريب فكانوا يندفعون متجمهرين في جماعات تعوى في وحشية في الشوارع وفي البيوت، ينتزعون أي شيء يبرق أمامهم ويدمرون كل مالا يستطيعون حمله، ولا يتوقفون إلا للقتل أو الإغتصاب، أو لتعطيم بوابات أقبية النبيذ لينتعشوا، فلم يخلص من تخريبهم لا دير أو كنيسة أو مكتبة. وفي كنيسة القديسة صوفيا ذاتها راح سكارى الجنود يمزقون الستائر الحريرية ويجذبون الأيقونة الفضية العظيمة ويحطمونها قطعاً قطعاً، بينما داسوا بأقدامهم الكتب المقدسة والأيقونات. وبينما كانوا يشربون الخمر في أواني المذبح جلست إحدى العاهرات على عرش البطريق وراحت تغنى أغنية فرنسية بذينة . وهتكت أعراض الراهبات في صوامع أديرتهن، واقتحم الجنود القصور والأكواخ سواء بسواء وحطموها . وكانت النساء الجريحات ملقيات مع الأطفال يحتضرن في الشوارع . ولثلاثة أيام تواصلت المشاهد المفزعة والنهب وسفك الدماء، إلى أن استحالت المدينة الضخمة الجميلة إلى وضم كبير، بحيث صرخ المؤرخ نيسناس قائلاً: لو أنهم العرب لكانوا أرحم، وكان على حق^(٣٣).

(٣٣) Nicetas Choniates, pp. 757-63; Nicolas Mesarites, in Heisenberg, *Neue Quellen zur Geschichte des Lateinischen Kaisertums*, i, pp. 41-8; letter of Greek clergy in Cotererius, *Ecclesiae Graecae Monumenta*, iii, pp. 510-14; Innocent III letters, viii, 126 (M.P.L. vol. ccxv, cols. 699-702) وقد كتبت للبابا إينوسينت الثالث تقارير تفصيلية لم تترك شيئاً عن الفظائع؛ Robert of Clary, pp. 68-9, 80-1; Villehardouin, ii, pp. 52-8; Gunther, pp. 104-8; letter of Baldwin, loc. cit; Ernoul, pp. 374-6; *Novgorod Chronicle*, pp. 245-6.. وقد أصيب المؤرخون اللاتينيون من ضراوة السلب أكثر من صدمتهم من قسوة الصليبيين. ويعترف Gunther قائلاً حتى Martin of Pairis المشهود له بالجدارة كان مصمماً على أن يأخذ نصيبه من الأسلاب، رغم أنه انتهب الكنائس فقط بوازع من الورع . ويلقى Ernoul باللائمة على البنادقة لأنهم كانوا الأكثر جشعاً في النهب . ويقول أبو شامة Abu Shama

وفي نهاية الأمر تحقق زعماء اللاتينيين أن كثرة التخريب هذه ليست في صالح أحد ، وبعدها استنفد الفحش طاقة الجنود، عاد النظام ؛ وأجبر كل من سرق شيئا ثميناً على تسليمه إلى نبلاء الفرنج ، وعُذب المواطنون التعساء لكي يكشفوا عما تخايّلوا على إخفائه من أشياء . وحتى بعد اختفاء الكثير من الأسلاب على هذا النحو الشائن ، كانت كميات الأسلاب تثير الدهول . وقد كتب المؤرخ Villehardouin أنه لم يكن بمقدور أحد أن يحصى الذهب والفضة والمشغولات ومجوهراتنا ، وضروب النسيج الفاخر وأنواع الحرير وأردية الفراء وفراء السنجاب والأقمشة الرمادية المتألثة وفراء حيوان القاقوم ؛ وأضاف من مصادره العليمة هو نفسه أنه منذ أن خلق العالم لم يحدث أن أخذت هذه المقادير الضخمة من مدينة ما . وقُسمت كلها طبقاً للمعاهدة، فذهب ثلاثة أثمان إلى الصليبيين ، وثلاثة أثمان إلى البنادقة ، واستبقى الربع الباقي لإمبراطور المستقبل^(٣٤).

١٢٠٤ م : تتويج بلدوين كونت فلاندرز إمبراطوراً

كانت المهمة التالية هي اختيار إمبراطور . وكان الأمل لا يزال يداعب بونيفاس (أوف مونتفرات) في أن يختاروه، ولكي يرفع من مكانته أنقذ الإمبراطورة الأرملة مرجريت الهنجرية أرملة إسحق وتزوجها فجأة ، لكن البنادقة لم يكونوا لينالوا من وراثة شيئا ؛ وبنفوذهم مُنح العرش لأمير أقل إثارة للجدل وهو بلدوين التاسع كونت فلاندرز وهابنولت ، وهو رجل كريم النسب عظيم الثروة ، لكنه أضعف وأسهل انقيادا ، وكان اللقب الذي ينتظره أضخم مما سيكون له من سلطان فعلي . وتقرر أن يكون سيّداً أعلا لجميع الأراضي التي غزيت ، مع الاستثناء الذي يتقرر للأراضي المخصصة لدوج البندقية . وتقرر أن تضم أملاكه الخاصة تراقيا حتى كورلو ، وبيشنيا وميسنيا حتى جبل الأوليمب وبعض جزر بحر إيجه ، ساموتراقيا و ليسبوس وكيوس وساموس وكوس . غير أنه كان من المقرر ألا يمتلك عاصمته ملكه كلها ؛ إذ طالب البنادقة بحقهم في ثلاثة أثمان القسطنطينية ، وأخذ الجزء الذي يضم كنيسة القديسة صوفيا حيث نصبوا أحد البنادقة ، ثوماس موروسيبي ، بطريقاً . فضلاً عن ذلك ، طالبوا بأجزاء من الإمبراطورية من شأنها أن تساعد تفوقهم البحري ، وهي السواحل

(ii, p. 154) إنهم باعوا الكثير من أسلابهم للمسلمين.

Villehardouin, ii, pp. 59-60; Robert of Clary, pp. 80-1 . (٣٤)

الغربية للجزء القاري من اليونان ، وبيلوبونيز كلها ، وناكسوس وأندروس وإيوروبا وغاليبولي ومواني تراقيا على بحر مرمرية ، وأدرينوبل . وأعطوا بونيفاس ، كتمويض عن العرش ، أملاكا غير محددة في الأناضول وشرق ووسط اليونان القارية وجزيرة كريت ؛ ولكي لا يُقدم على السير لغزو أراض في آسيا طلب بدلا من ذلك ماسيدونيا مع ثيسالونيكيا . واعترض بلدوين ، غير أن الرأي العام آزره في طلبه وخاصة عندما طرح حقا وراثيا منبثقا من أخيه رينير الذي كان قد تزوج ماريما المولودة بعد تولي أبيها العرش ؛ وكسب البنادقة إلى صفه بأن باع لهم كريت ، وأصبح ملك ثيسالونيكيا تحت سيادة الامبراطور . وخصص للنبل الأقل شأنا اقطاعيات تتناسب مع مكانة كل منهم وأهميته^(٣٥).

وفي السادس عشر من مايو ١٢٠٤م أقيم حفل تتويج بلدوين في كنيسة القديسة صوفيا ، وفي أول أكتوبر، وبعد أن أفشل محاولة من بونيفاس للإستقلال، عقد مجلسا للبلاط في القسطنطينية حيث خلع على حوالي ستمائة من أتباعه اقطاعياتهم ولوردياتهم؛ وفي تلك الأثناء صدر دستور يرتكز حزبيا على نظريات القانونيين الإقطاعيين وحزبيا على ما كان يُظن أنه متبع في مملكة القدس . وكان هناك مجلس يتألف من كبار ملاك الأرض يساعدهم الحاكم البندقي للقسطنطينية المطلق الصلاحية (بودستا) ؛ وكان هذا المجلس يقدم النصح للإمبراطور حول المسائل السياسية ، ويوجه العمليات العسكرية ، ومن سلطاته نقض الأوامر الإدارية الصادرة عن الامبراطور . وكانت هناك محكمة عليا، مشكلة بصورة مثيلة ، تنظم علاقاته بأتباعه . وأصبح أكثر قليلا من رئيس مجلس الأعيان . وقليلة هي الدساتير غير العملية كتلك الواردة في القوانين الرومانية^(٣٦).

١٢٠٤ - ١٢٦١ م: الإمبراطورية اللاتينية

لم يكن لرومانيا - وهو الاسم الذي أطلقه اللاتين على امبراطوريتهم - من حقيقة

(٣٥) عن مناقشة تتصل بتقسيم الإمبراطورية أنظر Longnon, *L'Empire Latin de Constantinople*, pp. 49-64. وتورد معاهدة التقسيم في Tafel and Thomas, *Urkunden*, i, pp. 464-8.

(٣٦) *Assises of Romania* (ed. Villehardouin, ii, pp. 66-8; Robert of Clary, p. 93. Recoura), *passim*.

واقعية سوى ما يزيد قليلا على سلطة امبراطورها ؛ فالكثير من مقاطعاتها كان لا يزال في أيدي أعدائها ، ولا سبيل لغزوها قط . وأما البنادقة الذين يعيشون الواقع ، فلم يأخذوا سوى ما كانوا يعرفون أنه سوف يصمد ، جزيرة كريت وموانئ مودون وكروتون في شبه جزيرة البيلوبونيز وكورفو إلى حين . ونصّبوا في الجزر التابعة لهم في بحر إيجه أتباعا من اللوردات المنحدرين من أصل بندقي ، أما في سيفالونيا وإيوبويا فأعربوا عن ترحيبهم بالولاء الذي أعلنه أمراء اللاتين الذين نصبوا أنفسهم قبلهم . وسرعان ما اكتسح بونيفاس (أوف منتفرات) أغلب اليونان القارية ونصّب أتباعا له هناك ، وأصبح أوتو (أوف لا روش) البرجندي دوقا لأثينا وطيبة . وخضعت بيلوبونيز لإثنين من اللوردات الفرنسيين هما وليم (أوف شامبلت) وجيوفري (أوف فيلهاردوين) ، وهو ابن أخى المؤرخ ، الذي أسس أسرة حاكمة من أمراء أخايا^(٣٧) .

وهكذا ، أصبحت كل المقاطعات الأوروبية تقريبا في الإمبراطورية في قبضة اللاتين . غير أن اللاتين كانوا مخطئين في اعتقادهم أن الاستيلاء على القسطنطينية سوف يعطيهم الإمبراطورية كلها ؛ ففي أوقات الكوارث كانت الروح اليونانية تظهر نفسها في أعلا درجات الشجاعة والحيوية . وفي أول الأمر أدى ضياع العاصمة الإمبراطورية إلى الفوضى ، غير أنه في غضون سنتين أعاد العالم اليوناني المستقل تنظيم نفسه في ثلاث دول وراثية ؛ فبعيدا في الشرق ، احتل حفيدان للإمبراطور أندرونيكوس ، هما الكسيوس وداود كومنينوس ، طرابزون وأقاما سلطانهما بطول شواطئ البحر الأسود المطلة على آسيا الصغرى ، وقد أفلحا في ذلك بمساعدة عمتهما الملكة العظيمة تمارا ملكة جورجيا (الكرج) . وفي ١٢٠٦م قتل داود في قتال أراد به توسيع سلطانهما باتجاه البوسفور ، وعاش الكسيوس ليتخذ لقب امبراطور وليؤسس أسرة حاكمة استمرت لمدة قرنين ونصف ، ازدهرت من التجارة الآتية من فارس والشرق لتمر خلال عاصمتها ، ومن مناجم الفضة في التلال الواقعة إلى الخلف ، كما كانت لها شهرة جمال أميراتها . وبعيدا في الغرب تمكن أحد أبناء السُّفاح من اسرة انجيلوس من أن يصبح طاغية في إيروس وأسس أسرة حاكمة كان لها أن تجتث شأفة مملكة مونتفرات في ثيسالونيكيا . وأكثر الممالك الثلاث روعة هي الإمبراطورية التي أسستها في نيقية ابنة الكسيوس الثالث ، أنا وزوجها ثيودور لاسكاريس ؛ إذ التفت حولهما أبرز المواطنين الذين هربوا من القسطنطينية ، وتخلّى البطريق اليوناني جون كوماتيروس ، الذي سبق أن هرب إلى

Longnon, loc. cit.; Hopf, *Geschichte Griechenlands*, ii, p. 10. (٣٧)

ترافيا ، عن منصبه لكي يتمكن رجال الدين المنفيون من العاصمة الإمبراطورية القديمة من انتخاب قسيس موجود فعلا في نيقية ، وهو ميخائيل أوتورينوس ، الذي قام ببناء على ذلك بتتويج ثيودور وأنا . وهكذا أصبحت نيقية في أعين اليونانيين العاصمة الشرعية للإمبراطورية . وسرعان ما وسّع ثيودور حكمه ليشمل أغلب الأراضي المتروكة لبيزنطة في آسيا . وخلال أكثر قليلا من خمسين عاما كان خلفاؤه قد عادوا لحكم القسطنطينية^(٣٨).

كما نسي اللاتين السلالات العنصرية الأخرى في البلقان ؛ إذ كانت إمبراطورية الإخوة آسن الفلاحية-البغارية^(٣٩) لتصبح طواغية حليفة لهم ضد اليونانيين المكروهين ؛ غير أن الإمبراطور كان يطالب بالأراضي التي سبق أن احتلها القيصر كالويان ، وكان الطريق اللاتيني يطالب بالسلطة على الكنيسة الأرثوذكسية البغارية؛ فانسأقت بلغاريا إلى تحالف غير طبيعي مع اليونانيين ؛ وفي معركة أدرنه في عام ١٢٠٥م كاد جيش رومانيا أن يهلك ، وأسر الإمبراطور بلدوين وأودع السجن في قلعة بلغارية ليقتل فيه نحيه . وبدا للحظة أن الإمبراطور التالي حكم في القسطنطينية سيكون القيصر البغاري، غير أن الشرق اللاتيني أخرج من جعبته حاكمة العظم الأوحده ، في شخص هنري أخى بلدوين . ذلك أن ما أبداه خلال عهده الذي دام عشر سنوات من طاقة نشطة وحكمة متسامحة أنقذ الإمبراطورية اللاتينية من هلاك عاجل ، وساعد على بقائها حتى عام ١٢٦١م ما ساد عواهل اليونانيين من خصومه ومشاجرات مع بعضهم البعض ومع البلغار، ووجود الأتراك في الخلفية^(٤٠).

ولم يستطع غزاة عام ١٢٠٤م المبتهجون التنبؤ بخواء ما يترتب على مشروعهم، وقد انبهر معاصروهم بذلك الغزو . وفي بادئ الأمر كانت البهجة تعم العالم اللاتيني كله . ومن الحق أن يتساءل شاعر الهجاء الكلوني جيوت (دي بروفانس)^(٤١) في

(٣٨) Vasiliev, 'Foundation of the Empire of Trebizond', *Speculum*, vol. xi, pp.3-37; Ostrogorsky, *Geschichte des Byzantinischen Staates*, 2nd ed., pp. 337-46.

(٣٩) (المترجم): شعب فلاخ Vlach أحد الشعوب الأوربية التي تمثل العنصر الرئيسي لشعوب رومانيا وملدوفيا وجماعات أصغر في البلقان جنوب وغرب نهر الدانوب . وقد أطلق عليهم حيرانهم اسم فولوخ Volokh ، الذي صار الى فلاخ ، رغم تسميتهم أنفسهم رومانين

(٤٠) Longnon, op.cit. *passim*, esp. pp. 77-186; Ostrogorsky, op.cit. pp. 337-59; Zlatarsky, *History of the Bulgarian Empire* (in Bulgarian), III, pp. 211-47.

(٤١) (المترجم): كلوني Cluniac ، نسبة الى نظام رهبان كلوني المنشق على النظام البنيديكتي في القرن الحادي عشر

أشعاره لماذا سمح البابا بحملة صليبية موجهة ضد مسيحيين، وأما الشاعر الغنائي البروفانس غيوم فيجويرا فقد اتهم روما اتهاماً مريراً بخيانة اليونانيين خيانة غادرة. غير أنه في الوقت الذي كان يكتب فيه كانت روما تبشر بحملة صليبية ضد رفاقه المواطنين^(٤٢). وكانت هذه الحالات من الخلاف في الرأي نادرة. وكان البابا إينوسنت مبتهجاً بادئ الأمر برغم كل ما شعر به من هواجس حول انحراف الحملة الصليبية إلى القسطنطينية؛ ففي رد إينوسنت على رسالة تقيض بهجة غامرة من الامبراطور الجديد بلدوين تتباهى بنتائج المعجزة العظيمة القيمة لصنع الرب، كتب إينوسنت معرباً عن ابتهاجه بالرب، ومنحه موافقته دون تحفظ^(٤٣). وانتشرت في سائر أنحاء الغرب أناشيد الشكر والتمجيد، وفار الحماس عندما بدأت الآثار الثمينة تفقد على كنائس فرنسا وبلجيكا؛ وانطلقت الترانيم احتفالاً بسقوط المدينة العظيمة الدنسة Constantinopolitana Civitas diu profana، التي تتقيأ الآن كنوزها. ولقي لاتينيو الشرق تشجيعاً بهذه الأنباء^(٤٤)، فيقينا سوف تصبح استراتيجية الحملات الصليبية كلها فعالة على نحو أكبر بعدما باتت القسطنطينية في أيدي أبناء جلدتهم. وانتشرت الشائعات بأن المسلمين قد أصيبوا بالرعب؛ وهنا البابا نفسه على ما أعرب عنه سلطان مصر من الشعور بالتوجس كما قبل^(٤٥).

١٢٠٤ م : إينوسنت يدين الحملة الصليبية

كانت معاودة التفكير أقل تشجيعاً، وعادت إلى البابا هواجسه. ذلك أن اندماج الإمبراطورية الشرقية وكنيستها في دنيا العالم المسيحي الروماني كان انجازاً رائعاً؛ ولكن، هل تم ذلك على النحو الذي يجلب النفع المستديم؟ لقد تلقى المزيد من المعلومات، وشعر بالرعب عندما علم بمشاهد التعذيب والتعطش للدماء عند نهب

(٤٢) Guyot de Provins, *OEuvres* (ed. Orr), p. 34; Guillem Figuera, 'Dun Servientes Far' in de Bartholomaeis, *Poesie Provenziale Storiche*, ii, pp. 98-9. الصليبية. Throop, *Criticism of the Crusade*, pp. 30-1.

(٤٣) Innocent III, letters, vii, 153, 154, 203, 208 (M.P.L. vol. ccxv, col. 454-61, 512-16, 521-3).

(٤٤) ترانيم واردة في Riant, *Exuviae*, ii, pp. 43-50. وخاصة *Sequentia Andegavensis*.

(٤٥) Ibn al-Athir, *الأنثى*, Innocent III, letters, viii, 125 (M.P.L. vol. ccxv, col. 698). ii, p. 95. بأن غزو القسطنطينية ساعد الصليبيين على الوصول إلى سوريا بصورة أيسر.

المدينة . لقد أصيب بصدمة عميقة كمسيحي ، وشعر بالقلق كرجل سياسة . إن مثل هذه الوحشية البربرية ليست هي السياسة الفضلى للفوز بتعاطف العالم المسيحي الشرقي ؛ فكتب في حلق مرير إلى القسطنطينية بعدد الفطائع وينكرها ؛ كما علم أن الغزاة قد قسّموا الدولة في خفة وكذلك الكنيسة هناك دون أية إشارة لسلطته ؛ لقد كان هناك تعمد في تجاهله ، وهو يدرك مدى عجز الترتيبات التي تمت للإمبراطورية الجديدة ، وكيف أن البنادقة فاقوا الصليبيين حيلة ودهاء. ثم إنه سمع بكل الغثيان أن مندوبه الرسولي بطرس (أوف سانت مارسيل) قد أصدر مرسوماً يحل كل من أخذ الصليب من واجب مواصلة الرحلة إلى الأراضي المقدسة . لقد سقط القناع عن الحملة الصليبية لتظهر بمظهر الحملة التي لا تبغي سوى غزو الأراضي المسيحية ، ولم تفعل شيئاً لمساعدة الجنود المسيحيين الذين يحاربون الإسلام^(٤٦).

وتحقق فرنج سوريا فعلا من تلاشى الأمل في وصول أية حملة في عام ١٢٠٤ م . وانقضى الصيف والصليبيون قاعدون في القسطنطينية ؛ وفي سبتمبر عقد الملك أمالريك هدنة مع العادل بعدما أدرك عدم وصول تعزيزات^(٤٧). غير أنه سرعان ما اتضح أن المنشآت اللاتينية الواقعة أبعد إلى الشمال سوف تلحق أضرارا جسيمة بالمنشآت في سوريا ؛ إذ أن الامبراطور بلدوين أرسل إلى البابا إينوسنت متباهيا بأن الكثير من فرسان مملكة ما وراء البحار قد حضروا تنويجه ، وأنه قد بذل ما في وسعه لحثهم على البقاء معه . وبعد أن اتضح وجود أقطاعات غنية تبعث على البهجة على شواطئ البوسفور أو في اليونان ، سارع الفرسان الآخرون الذين استولى المسلمون على أراضيهم في سوريا إلى القسطنطينية للانضمام إلي رفاقهم . وكان من بينهم هيو كونت طبرية ، وهو أكبر أبناء زوجة ريموند كونت طرابلس، وزوج مرجريت (أوف ايلين)، ابنة ماريا كومنينيا . ووجد المغامرون من فرسان الغرب عدم جدوى الذهاب بعيدا إلى مملكة القدس ذات الزحام الشديد للبحث عن لوردية أو عن إحدى الورشيات ؛ فهناك أراض أفضل في اليونان . وكان غزو قبرص قد سبق وأغوى مستوطنين من الأراضي السورية . وبعد غزو رومانيا لم يكن هناك تقريبا من مجندي سوى المجندين من فرسان الأنظمة الدينية العسكرية الذين خرجوا من أوروبا للدفاع عن الأرض المقدسة^(٤٨).

(٤٦) Innocent III, letters, viii, 126 (M.P.L. vol. ccxv, cols. 699-0702).

(٤٧) أنظر أعلاه صفحة ١٤٢.

(٤٨) Villehardouin, ii, p. 124.

١٢٠٤ م : النتائج المترتبة على الحملة الصليبية

ليست هناك قط جريمة ضد الإنسانية أعظم من الحملة الصليبية الرابعة . فهي لم تقف عند تدمير أو تبديد كل كنوز الماضي التي دأبت بيزنطة على جمعها، ولم تقف عند الجراحات التي قتلت حضارة بقيت نشطة وعظيمة ، وإنما تجاوزت ذلك إلى أن أمست عملا من أعمال الحماقة السياسية الهائلة، ولم تجلب أية مساعدة للمسيحيين في فلسطين ؛ وبدلا من ذلك ، استلبتهم معينين كانوا قادرين على مساعدتهم، وقلبت رأسا على عقب كل سبل الدفاع عن العالم المسيحي . ولو أن اللاتين كانوا قادرين على تولي أمر الإمبراطورية البيزنطية كلها كما كانت عليه في أيام مانويل ، لتمكنوا من توفير عون قوى للحركة الصليبية على الرغم من أن اتجاه بيزنطة لمصلحة سوريا اللاتينية لم يكن ليزدهر طويلا . على أن بيزنطة قد خسرت أراض في الأناضول منذ وفاة مانويل؛ ولم يستطع اللاتين غزو ما تبقى ، بينما كان هجومهم على اليونانيين بمثابة قوة إضافية للأتراك . وأصبح الطريق البري بين أوروبا وسوريا أكثر صعوبة نتيجة للحملة الصليبية الرابعة ، مع ريبة اليونانيين في نيقية ، وعداوة الأتراك للمسافرين . ولم تحاول قط أية جماعة مسلحة من الغرب الترحال عبر الأناضول مرة أخرى ؛ كما لم يصبح الطريق البحري أسير ، إذ كانت السفن اللاتينية الآن تفضل نقل المسافرين إلى الجزر اليونانية والبوسفور وليس إلى عكا والموانئ السورية.

وفي الحركة الشاملة لتاريخ العالم ، كانت الآثار مفعجة للغاية؛ فمنذ أن بدأت بيزنطة إمبراطوريتها وهي بمثابة الحارس لأوروبا ضد الشرق الكافر والشمال البربري، وقد واجهتهم بجيوشها وروضتهم بحضارتها . ومرت بالكثير من فترات القلق عندما كان يتراءى لها أن قدرها قد أزف ، لكنها بقيت حتى الآن . وعند نهاية القرن الثاني عشر كانت تواجه أزمة طويلة ، إذ أن ما دمّرت الغزوات التركية في الأناضول من قوتها البشرية واقتصادها قبل ذلك بقرن بدأت آثاره الكاملة تظهر عليها ، وتفاقت تلك الآثار بما كانت عليه المدن التجارية الإيطالية من تنافس دائب . على أنها كانت خليفة بأن تظهر على نحو جيد مرونتها للتكيف مرة أخرى واستعادة البلقان وقدرًا كبيرًا من الأناضول ، وكانت ثقافتها خليفة بأن تواصل تأثيرها الذي لم ينقطع على البلدان من حولها . حتى الأتراك السلاجقة ربما يخضعون تماما لسيطرتها إلى أن تستوعبهم لإنعاش الإمبراطورية . وتظهر قصة إمبراطورية نيقية أن البيزنطيين لم يفقدوا بأسهم ؛ ولكن

ضياح القسطنطينية كسر وحدة العالم البيزنطي ، ولم يعد هناك سبيل مطلقا لإصلاح ما انكسر حتى بعد استرجاع العاصمة نفسها لقد كان صد السلاجقة جزءا من انجازات أهل نيقية ، ولكن عندما ظهرت قبيلة تركية جديدة أشد بأسا تحت زعامة آل عثمان الرائعين ، كان العالم المسيحي الشرقي قد بلغ من الانقسام حدا يحول دون أن يكون له موقف موثر؛ إذ تحولت زعامته إلى مكان آخر ينأى عن منطقة البحر المتوسط التي ولدت فيها الثقافة الأوروبية إلى الشمال الشرقي البعيد ، إلى سهول روسيا الشاسعة . لقد كانت روما الثانية تخلي المكان لروما الثالثة الموسكوفية^(٤٩) .

وفي تلك الأثناء غرست بذور الكراهية بين العالم المسيحي الشرقي والعالم المسيحي الغربي ؛ ولم تتحقق البتة آمال البابا إينوسنت الطيبة ، ولا تبجحات الصليبيين المطمئنة بأنهم قد أنهوا الصدع ووحّدوا الكنيسة . وإنما تركت بربريتهم ذكرى لن تغفر لهم قط . وفيما بعد ، قد يناصر العواهل المسيحيون الشرقيون الوحدة مع روما في توقع أثير لديهم بأن الوحدة سوف تخلق جبهة متحدة ضد الأتراك ، غير أن شعوبهم لن تتبعهم ، فهم لا يستطيعون نسيان الحملة الصليبية الرابعة . وربما كان حتما أن تنجرف كنيسة روما والكنائس الشرقية الكبيرة بعيدا عن بعضها البعض ؛ على أن الحركة الصليبية برمتها قد نغّصت العلاقات فيما بينها، ومنذ آنذاك قُدّما، معهما حاول قليل من الأمراء أن يبلغوا غاية، كان الصدع في قلوب المسيحيين الشرقيين كاملا ومستعصيا ونهائيا .

(٤٩) (المترجم):نسبة إلى Muscovy وهي درقية كبيرة سابقة محيطة بموسكو وتحتويها، اتسعت في الإمبراطورية الروسية في القرن السادس عشر تحت إيفان الرابع

الفصل الثاني:

الحملة الصليبية الخامسة

الحملة الصليبية الخامسة

"هل يسير اثنان معا إن لم يتواعدا؟"

(عاموس ٣:٣)

لم يكن فشل الحملة الصليبية الرابعة في مساعدة فلسطين يخلو من عِوض؛ إذ تُركت المملكة الصغيرة في سلام طوال ما يزيد على عشر سنوات ، وصمدت الهدنة التي رتبها الملك أمالريك مع السلطان . ولم يكن بمقدور الفرنج المجازفة بخرقها دون مساعدة غربية ، بينما كان لدى العادل ما يكفيه من المشاغل في توطيد دعائم سلطانه بحيث لم يشأ أن يسبب لنفسه ربكة غزو دويلة لا ضرر منها ، ولو أنه هاجمها لاستثار حملة صليبية جديدة. وظل جون (أوف إيبيلين) طوال ثلاث سنوات يحكم في هدوء كوصي على ابنة اخته الملكة ماريا.

وفي ١٢٠٨م بلغت الملكة عامها السابع عشر ، وآن وقت البحث لها عن زوج . فسافرت بعثة مؤلفة من فلورينت أسقف عكا ، وأymar لورد قيصرية إلى فرنسا تلتمس من الملك فيليب ترشيح زوج لها . وكان المأمول أن يستميل هذا العرض بمنح التاج أحد

الأمراء الأثرياء الأقوياء للحضور لإنقاذ الشرق الفرنجي ، بيد أن العثور على عريس لم يكن بهذا اليسر اليسير. وأخيرا، أعلن فيليب في ربيع ١٢١٠م أن فارسا من شامباني يدعى جون (أوف برين) قبل المنصب^(١).

١٢١٠م : جون (أوف برين) ملك القدس

وكان اختيارا باعثا على خيبة الأمل . إذ كان جون إنسا أصغر مفلسا يبلغ من العمر فعلا ستين عاما . وقد سبق أن تزوج أخوه الأكبر ولتر كبرى كريمات الملك تنكريد ملك صقلية ، وبذا أعلن عن مطالبة عقيمة بعرش صقلية ؛ لكن جون أنفق حياته بصورة غامضة نسبيا كواحد من قادة الملك الفرنسي . وأشيع عنه أنه قد اختير الآن بسبب خيانة زوجية مع الكونتيسة بلانش (أوف شامباني) فضحت البلاط . وبغض النظر عن فقره ، لم يكن غير مناسب للمنصب ؛ إذ لديه دراية واسعة بالسياسة الدولية ، وكانت سنه المتقدمة بمثابة ضمان لعدم إقدامه على مغامرات يشوبها الطيش والتهور . ولكي يزداد قبولا منحه كل من الملك فيليب والبابا إينوسنت دوطه (مهر) أربعين ألف جنيه فضي^(٢).

وفي تلك الأثناء، تولى جون (أوف ايلين) الحكم إلى أن يصل . وكان شهر يولية ١٢١٠م هو موعد انتهاء الهدنة مع العادل ، فأرسل السلطان إلى عكا يقترح تجديد لها . وكان جون (أوف ايلين) يترأس مجلسا ، وأوصى لديه بالموافقة على العرض ، وأيده السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، غورين (أوف مونتيجو)، والسيد الأعظم لفرسان التيوتون هرمان بارديت . لكن السيد الأعظم لفرسان المعبد ، فيليب (أوف لوبليسيه)، حرض الأساقفة على الإصرار على رفض هذا الاقتراح ، على أساس قانوني مؤداه أن الملك المقبل لا يستطيع أن يكون مقيدا بأية هدنة جديد . ووقع قتال حقيقي طفيف ؛ فأرسل العادل ابنه المعظم مع بعض الجنود إلى جبل الطور ، وأسفر وجوده عن توقف الفرنج^(٣).

(١) Ernoul, pp. 407-8; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 305-8; see La Monte, 'John d'Ibelin', in *Byzantion*, vol.xii

(٢) *Estoire d'Eracles*, loc. cit..

(٣) pp. 310, 316; Abu Shama, ii, p.158 *Ibid.*.

هبط جون (أوف برين) إلى البر في عكا في الثالث عشر من سبتمبر ١٢١٠م ، وفي اليوم التالي زوجه بطريق القدس ألبرت من الملكة ماريا ؛ وفي الثالث من أكتوبر توج العروسان في صور.

وسرعان ما اكتسب الملك الجديد شعبيته . فقد أظهر مهارة في التعامل مع أتباعه ومع الأنظمة الدينية العسكرية وأظهر الحذر في تعامله مع المسلمين . فبينما كان رجال البلاط في صور للترويج ، أغار المعظم على ضواحي عكا لكنه لم يجازف بمهاجمة المدينة ذاتها . وفي وقت مبكر من الصيف التالي سمح جون لبعض أتباعه بالانضمام إلى فرسان المعبد في حملة بحرية على مصب النيل في دمياط ، لكنها كانت عديمة الجدوى . وبعد أشهر قليلة قبل عرضا جديدا من العادل للتوقيع على هدنة لخمس سنوات بدأ تنفيذها في يولية ١٢١٢م . وفي ذات الوقت أرسل الملك رسائل إلى روما طالبا حملة صليبية جديدة تنهيا للحضور إلى فلسطين بمجرد انتهاء الهدنة^(٤).

وفي نفس ذلك العام ماتت الملكة الشابة بعد ولادتها لطفلة سميت إيزابيلا تسميا بجدها لأُمها ، لكن اسمها المعتاد هو يولاندا . وموت الملكة بات الوضع القانوني للملك مثار رية ، فقد حكم كزوج للملكة وقد مرت المملكة الآن إلى يولاندا وليس لأبيها حق قانوني . لكنه أبوها ، وقبل كوصي طبيعي للمملكة ، على الأقل إلى أن تزوج ، واستمر يحكم المملكة في سلام حتى وصول الحملة الصليبية التالية . ولكي يعزي نفسه في ترملة تزوج عام ١٢١٤م من الأميرة ستيفاني الأرمينية ابنة ليو الثاني . وثبت أنها زوجة أب سيئة ، وذاعت شائعة باطلة تغزو موتها في ١٢١٩م إلى الضرب المبرح من جون لمحاولتها دس السم للطفلة يولاندا^(٥).

وكانت الدويلات اللاتينية المجاورة أقل حظا من مملكة عكا . ففي قبرص خلف الملك أمالريك ابنه هيو ذو السنوات العشر ، ومنحت الرصاية لولتر (أوف مونتييلارد) وهو فارس فرنسي كان ياورا (كونستابلا) لأمالريك وتزوج اخت هيو الكبرى بورجونديا . وكان وصيا فاشلا ورط الجزيرة في حرب غير موفقة مع الأتراك ، وعندما سلم السلطة لأخى زوجته في ١٢١٠م ، نفى كرها للإرتياب في اختلاس ضخمة أثناء

(٤) . and p. 317; Abu Shama, loc. cit. *Estoire d'Eracles*, loc. cit.

(٥) Ernoul, p. 411. انظر أدناه (ص. ٢١٠). *Estoire d'Eracles*, ii, p.320. انظر La Monte, *Feudal Monarchy*, p.55. واسم مكة الشابة عند جميع مؤرخي مملكة أوترمييه (مما وراء البحار) هو إيزابيلا ، وإن كانت عادة تسمى يولاندا عند المؤرخين الغربيين . وأنا أستخدم هذا الاسم الأخير لتقليل الإضطراب مع الإيزابيلاوات الأخريات.

توليه منصبه . والآن أصبح الملك هيو في الخامسة عشرة من عمره^(٦) . وقبل ذلك بعامين تزوج ابنة زوجة أبيه أليس ، من أميرات القدس ، وذلك بناء على الترتيب الذي اتفق عليه أبواهما . وتولت الملكة ماريا كومنينيا ، وهي جدة العروس ، المفاوضات لتنفيذ الزواج ، وقدمت دودة بلانش (أوف نافار) ، كونتيسة شامباني ، وأرملة عم العروس ، إذ كانت تخشى أنه مالم تتزوج أليس وأختها في سلام في الشرق ، فقد تأتي إحداهما للمطالبة بالإستيلاء على كونتية شامباني من ابنها الطفل . وكان الملك هيو شابا طائشا فباتت علاقاته مع حيرانه وأتباعه وكنيسته والبابوية علاقات عاصفة ، لكنه وفر لمملكته حكما راسخا^(٧) .

١٢٠١م : الإستخلاف في أنطاكية

كانت الأحوال في إمارة أنطاكية تجاوز كثيرا مملكة قبرص في اضطرابها. إذ كان برهموند كونت طرابلس قد نصب نفسه هناك في اعقاب وفاة والده برهموند الثالث عام ١٢٠١م ، متحديا حقوق ابن أخيه ريموند-روبين ؛ علي أن ليو الأرميني - وهو والد خال ريموند - استمر في الضغط من أجل قضيته . وتعقدت الأمور بسبب الشجار الذي نشب بين ليو وفرسان المعبد لرفضه إعادة قلعته في بجراس . ولذلك انحاز فرسان المستشفى إلى جانبه ضد برهموند . ومع ذلك ، كان بمقدور برهموند طلب العون من الأتراك السلاجقة الذين تواترت الحرب بينهم وبين ليو ؛ وكان الظاهر صاحب حلب على استعداد دائما لأن يرسل إليه التعزيزات ، ومن أجل ذلك كان العادل يحمل العداء لبرهموند ، وكان تعاطف ملكي القدس وقبرص يغلب عليه القلب . ثم جاءت المشاكل الدينية لتزيد من الفوضى . وكان من الأمور الأساسية لصالح الحركة الصليبية برمتها تسوية مسألة الإستخلاف في أنطاكية ؛ وشعر البابا إينوسنت أن من واجبه التدخل ، فحاول كل من مندوبيه البابويين ، سوفريد (أوف سانت براكسيدس) وبطرس (أوف سانت مرسيل) كل على حدة، ثم معا ، سماع القضية . على أنه في الوقت الذي كان يظهر فيه ليو مراعاته لروما بالكلام فقط ، رفض عقد السلام مع

(٦) *Estorie d'Eracles*, ii, pp. 15-16; Mas Latrie, *Documents*, ii, p. 13.

(٧) Mas Latrie, *Histoire de l'Ile de Chypre*, i, pp. 175-7; *Documents*, ii, p. 34; Innocent III, letters, ix, 28 (M.P.L. vol. ccxv, cols. 829-30); Hill, *History of Cyprus*, ii, 72-83

فرسان المعبد بالتخلي لهم عن قلعة بجراس ، كما أمره البابا . ومن الناحية الأخرى ، أنكر بوهمند حق البابا في الاهتمام إلى مسألة إقطاعية خالصة . وبعد موت بوهمند الثالث مباشرة انضم البطريق بطرس الأنطاكي إلى حزب ليو ، ولم يغتفر له ذلك بوهمند الرابع ولا من كميون أنطاكية الذي كان شديد العداءة لأرمينيا . غير أنه في عام ١٢٠٣م كتب ليو إلى البابا قائلا إن الكنيسة الأرمنية ينبغي أن تخضع مباشرة لولاية روما ، وفي ١٢٠٥م تشاجر البطريق مع المندوب البابوي بطرس (أوف سانت مرسيل) حول تعيين رئيس شمامسة أنطاكية . ووجد البطريق نفسه بلا صديق وفي وسع بوهمند أن يثار منه^(٨).

وكانت لبوهمند نفسه مشاكله . إذ على الرغم من حيازته لأنطاكية وفوزه بتأييد الكميون ، كانت سلطته في الريف مقيدة . وحدث الإضطراب في كونتيته الطرابلسية في نهاية عام ١٢٠٤م من جراء تمرد رينورت ، لورد نيفين ، الذي تزوج ورثه عكار دون إذن بوهمند ، وانضم إليه عدد من اللوردات ، بمن فيهم رالف لورد طبرية الذي كان أخوه أوتو الآن في بلاط ليو ، وفاز المتمردون بتعاطف الملك أمالريك . وبينما كان بوهمند يسعى إلى قمع التمرد ، ضرب ليو الحصار حول أنطاكية ولم ينسحب إلا عندما أرسل الظاهر صاحب حلب جيشا لمساعدة بوهمند . وبعد موت أمالريك ، سحب جون (أوف ايلين) كل تأييد للمتمردين الذين هزمهم بوهمند في نهاية العام ، وبعدها فقد عينا أثناء القتال . وفي ذات الوقت ، ولكي يُظهر أنطاكية بمظهر الدويلة العلمانية ومن ثم خارج نطاق سلطة البابا ، أعلن أن سيدها الأعلى كان دائما امبراطور القسطنطينية . وعندما قامت ماريا (أوف شامباني) وزوجة الامبراطور اللاتيني الجديد بلدوين بزيارة فلسطين عام ١٢٠٤م في طريقها للانضمام إلى زوجها ، سافر إلى عكا ليقدم إليها احتراماته^(٩).

(٨) عن التاريخ الأنطاكي خلال هذه الفترة، أنظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 600-15 مع المراجع الكاملة.

(٩) Alberic of Trois Fontaines, *Chronicon*, R.H.F., vol. xviii, p. 884. كان الافتراض السائد فيما بين الفرنج هو أن امبراطور القسطنطينية اللاتيني قد ورث كافة حقوق البيزنطيين . ومع ذلك ، تفاوض ليو الأرمني على الفور مع امبراطور نيقية ، الذي زعم بنفس القدر أنه وريث البيزنطيين . أنظر Cahen, *loc. cit.* esp. p. 606.

١٢٠٦ م : بطريق يوناني في أنطاكية

وبات بوهمند في عام ١٢٠٦ م مهتاجا من البابا وبطريقه سواء بسواء ، فأقدم على خلع الأخير واستدعى البطريق اليوناني سيمون الثاني ، الذي كان بلا منصب ، ليحل محله . ومن الراجح أن سيمون كان يقيم فعلا في أنطاكية ؛ ولا بد أن الكوميون أيد حركة بوهمند ، إن لم يكن هو الذي اقترحها . وبرغم انقضاء قرن كامل من الحكم الفرنجي ، كان العنصر اليوناني لا يزال كبيرا ومزدهرا ، ومرار الوقت تزوج بلا شك الكثير من العائلات التجارية اللاتينية مع اليونانيين ، وكلهم يكرهون الأرمن ، وتسبب الغزل بين البابا وليو في خوفهم ضد روما . أما بوهمند من ناحيته ، فلم تعد بيزنطة قادرة على تهديده ، ومن ثم توفر لديه الاستعداد لأن يشايح الكنيسة التي كانت تقايلها توصي بالحذر من الأمراء العلمانيين . ومن سخریات القدر أن يعيد اللاتين البطريرقية اليونانية بعد دمار بيزنطة والتي حارب من أجلها الأباطرة البيزنطيون في القرن الماضي حروبا شرسة . وعلى الفور أنهى البطريق اللاتيني بطرس شجاره مع المندوب البابوي الذي أعاد إليه سلطة الطرد من الكنيسة ، وكانت موضع شك . وبكل التأيد من روما طرد الأمير والكميون من الكنيسة ، فردوا بالاحتشاد في الكنائس اليونانية في المدينة . ثم لجأ البطريق اللاتيني إلى الدسائس . ففي نهاية العام التالي ١٢٠٧ م أدخل إلى المدينة ليلا بعض الفرسان الذين يدينون له بالولاء ، وتمكنوا من الاستيلاء على أسفل المدينة ، غير أن بوهمند جمع قواته في القلعة وسرعان ما ردهم إلى خارج المدينة . وحوكم البطريق بطرس ، الذي كان تأمره جليًا واضحا ، بتهمة الخيانة وألقي به في غيابة السجن حيث مُنع عنه الطعام والماء ، فابتلع في يأسه زيت مصباحه فمات متوجع^(١٠).

وبدأت مشاعر القلق تنتاب البابا اينوسنت من هذا النزاع الذي لا نهاية له ، وعهد بمسؤولية تسويته إلى بطريق القدس . وفي عام ١٢٠٨ م ، خرب ليو البلاد المحيطة بأنطاكية بينما كانت طرابلس تواجه غزوا من قوات العادل التي جاءت ، دون روية ، للانتقام لهجوم شنه بعض القبارصة على تجار مسلمين ولغارة عدوانية شنها فرسان المعبد . وأنقذ بوهمند نفسه بالإستنجاد بالسلاجقة ضد ليو ، بينما أرسل البابا مناشدة

(١٠) Cahen, loc. cit. esp. pp.612-13. وتظهر القصة أن العنصر اليوناني في الكميون لا بد وأن كان قويا . والمفترض أن كان هناك قدر كبير من التزاوج فيما بين الدوائر البورجوازية.

إلى الظاهر صاحب حلب لإنقاذ أنطاكية من اليونانيين . وأعقب ذلك ثورة ديولوماسية؛ إذ كان بطريق القدس ألبرت صديقا لفرسان المعبد حلفاء بوهمند ، وأغضب ليو بإصراره على أن تكون الخطوة الأولى المبدئية لأية تسوية هي ضرورة إعادة يجراس إلى النظام . وفي تلك الأثناء وافق بوهمند على قبول بطريق لاتيني جديد في أنطاكية ، بطرس (أوف لوسيديو) ، وبذا تناسى ليو ولاءه لروما ، وتحالف متباهيا مع الامبراطور اليوناني في نيقية ، ورحب بطريق أنطاكية اليوناني ، سيميون ، في صقلية وأعطي الكثير من أراضى الكنيسة اللاتينية فيها لليونانيين . على أنه في ذات الوقت سعى لنيل صداقة هيو ملك قبرص الذي كانت أخته هيلفيس متزوجة من ريموند-روين، ومنح نظام فرسان التيوتون حصونا في كيليكيا. وتواصل الصراع^(١١).

وفي عام ١٢١٣ م ، وبينما كان ابن بوهمند الأكبر ، ريموند ، البالغ من العمر الثامنة عشرة في كندرائية طرطوس ، اغتالته عصابة من الحشاشين . ويبدو أن فرسان المستشفى قد حرضوا القتلة الذين كانوا يدفعون لهم الإتاوة. وفي العام التالي ، قتل الحشاشون بطريق القدس ، ألبرت ، وهو عدو آخر لفرسان المستشفى . وسعى بوهمند للثأر ، فهاجم بتعزيزات من فرسان المعبد حصن الخوابي الذي يملكه الحشاشون . واستنجد الحشاشون بالظاهر الذي استنجد بدوره بالعدل . ورفع الحصار عن حصن الخوابي ، واعتذر بوهمند للظاهر الذي كان الآن أقل استعدادا لتأييده . فضلا عن ذلك ، كانت هناك شائعات بحملة صليبية جديدة أسفرت عن لم شمل المسلمين . وبدأ الظاهر يتودد لعمه العادل^(١٢).

واستغل ليو الوضع ليسالم روما مرة أخرى . وكان بطريق القدس الجديد رالف، وهو أسقف صيدا السابق، لئن العريكة ، والبابا على استعداد لأن يمنح ليو مغفرته شريطة أن يساعد في الحملة الصليبية التالية . وكان زواج جون (أوف برين) من ستيفاني ابنة ليو بمثابة تصديق على تحالف أرمنيا وعكا . وفي عام ١٢١٦ م تدبر ليو دسياسة ناجحة لا شك وأن ساعد فيها البطريق بطرس ، تمكن بها من تهريب جنود إلى داخل أنطاكية واحتلال المدينة دون ضربة واحدة . وكان بوهمند بعيدا في طرابلس، وسرعان ما استسلم جنود قلعته لليو . ونصّب ريموند-روين أميرا على أنطاكية . وفي خضم البهجة الغامرة التي انتابت ليو لهذه النتيجة الناجحة لحرب طويلة، أعاد ليو أخيرا

(١١) Cahen, *op. cit.* pp.615-19.

(١٢) *Ibid.* pp. 619-21.

قلعة بجراس إلى فرسان المعد وأعاد أراضي الكنيسة اللاتينية في كيليكيا. غير أنه فقد في مقابل نصره قلاعاً في الغرب وعبر طوروس استولى عليها أمير قونية السلجوقي كيكافوس^(١٣).

ولقد سويت مسألة أنطاكية في الوقت المناسب تماماً للحملة الصليبية الجديدة . ذلك أن البابا إينوسنت، ومنذ تحرر من أوهام الحملة الصليبية الرابعة ، دأب على بذل جهد أوقع لإنقاذ الشرق . ولقد كانت هناك اضطرابات كثيرة أزعجته ؛ فكان عليه أن يجد حلاً لمشكلة عريضة ، ألا وهي مشكلة هراطقة جنوب فرنسا ؛ كما أن الحل الشرس المتمثل في الحملة الصليبية الأليجينسية^(١٤)، ورغم أنه هو الذي حرض عليها ومنح الصليبيين فيها غفراناً مماثلاً للغفران الممنوح في الحرب ضد الكفرة، هذا الحل الشرس أثار صعوبات بدوره. وفي ١٢١١م بشر بحملة صليبية في أسبانيا رداً على غزو الوزير الناصر في دولة الموحدين لإقليم كاستيل الواقع في وسط أسبانيا الشمالي ؛ وبرر جهوده ذلك النصر الرائع الذي أحرزه لاس لافاس دي تولوزوا في يولية ١٢١٢م عندما قضى على جيش إفريقي؛ وبدأت مرحلة جديدة لإعادة الغزو المسيحي. على أنه كان هناك القليل من الفرسان الذين أبدوا استعدادهم للسفر إلى الأراضي المقدسة . لقد جاءت الاستجابة الوحيدة للصلاة التي أقيمت لإنقاذ القدس من طبقة مختلفة تمام الاختلاف^(١٥).

١٢١٢م : التبشير بحملة الأطفال الصليبية

في أحد أيام شهر مايو ١٢١٢م وبينما كان الملك فيليب الفرنسي يعقد بلاطه في

(١٣) Ibid., pp. 621-3.

(١٤) (المترجم): الأليجينسيون Albigenses: هراطقة ازدهروا في جنوب فرنسا في القرنين الثاني عشر والثالث عشر. كانوا يعتقدون أن المسيح كان ملاكاً له جسد وهمي ومن ثم لم يعان الآلام ولم تحدث له قيامة، وأن الخلاص الذي جاء به ليس له وجود إلا في أقواله. وأنكروا الأسرار المقدسة واعتقدوا أن الشر كامن في كل شيء ومن ثم اعتنقوا عقيدة أخلاقية ذات صرامة متطرفة، فأدانوا الزواج واستعمال المنتجات الحيوانية كلها. وقد أدانت مجامع متعاقبة هذه الهرطقة من سنة ١١٦٥ قداماً، لكن الهرطقة انتشرت إلى أن شن البابا إينوسنت الثالث حملة صليبية عليهم اتصفت بقسوة بالغة، وفي ١٢٣٣ عهد البابا جريجوري التاسع إلى محكمة التفتيش الدومينيكية باستئصال شأفهم بصورة نهائية، وبحلول القرن الرابع عشر لم يبق لهم أثر.

(١٥) للإطلاع على سياسة إينوسنت في جنوب فرنسا لانيويديوك وأسبانيا أنظر Fliche, *La Chrétienté Romaine*, pp. 107-8, 112-37.

سانت دينيس، ظهر صبي من رعاة الغنم في نحو الثانية عشرة من عمره يدعى ستيفن، وهو من مدينة كلوي الصغيرة في أورليانيه. وأحضر معه رسالة للملك، قال إن المسيح شخصيا أعطاهما له بعدما تجلى له وهو يرعى غنمه، وأمره أن يذهب ويبشر بحملة صليبية. ولم يتأثر الملك فيليب بالطفل وأمره أن ينصرف إلى منزله. لكن ستيفن، الذي أشعل الزائر الغامض جذوة حماسه، رأى نفسه الآن زعيما ملهما يقدر على النجاح حيثما فشل فيه الكبار. وطوال الأعوام الخمسة عشر الماضية كان المبشرون يجولون الريف يحثون على حملة صليبية ضد المسلمين في الشرق أو في أسبانيا أو ضد هراطقة لانجويديوك. ومن اليسير على صبي هستيري أن يصاب بعدوى الفكرة التي مفادها أنه يستطيع هو أيضا أن يصبح مبشرا ويستطيع محاكاة بطرس الناسك الذي بلغت جرأته الفائقة مبلغا أسطوريا خلال القرن الماضي. ولم يأس من لامبالاة الملك، وبدأ يبشر في نفس مدخل دير سانت دينيس ويعلن أنه سوف يقود جماعة من الأطفال لإنقاذ العالم المسيحي. وسوف تجف البحار أمامهم وسيمرون، كما مر موسى خلال البحر الأحمر، آمنين إلى الأراضي المقدسة. وقد وُهب فصاحة غير عادية، ومست أقواله قلوب الكبار، وجاءه الأطفال زرافات ملين نداءه. وبعد نجاحه الأول انطلق مرتحلا في أنحاء فرنسا يستدعي الأطفال؛ ومضى كثيرون ممن تحولوا إلى عقيدته يضربون في الآفاق للتبشير نيابة عنه. وكان على الجميع أن يتجمعوا في فيندوم في غضون نحو شهر لينطلقوا منها إلى الشرق.

وفي نهاية يونيو احتشد الأطفال في فيندوم. وتحدث المعاصرون الذين ارتاعوا عن ثلاثين ألف طفل ليس فيهم من يزيد عمره على اثنتي عشرة سنة. وبقينا كان هناك عدة آلاف منهم، جُمعوا من كافة أنحاء البلد، البعض منهم ريفيون بسطاء تركهم آباؤهم طواعية يذهبون في حملتهم العظيمة. بيد أنه كان هناك كذلك صبيان من أصل نبيل تسللوا من بيوتهم للانضمام إلى ستيفن وأتباعه من "الأنبياء القُصّر" كما يسميهم المؤرخون؛ وكان الحشد يضم أيضا فتيات وقليلًا من القساوسة الشبان وثلة من الحجاج المسنين البعض منهم جذبه التقوى، والبعض الآخر ربما جذبه الشفقة، والبعض يقينا للمشاركة في الهدايا التي كانت تهبط عليهم كلهم كالمنطقس. وجاءت المجموعات محتشدة إلى المدينة، مع كل منها قائد يحمل راية الحرب^(١٦) وهي التي

(١٦) (المترجم): راية الحرب: Oriflamme وهي علم فرنسا الملكي القديم عبارة عن راية حريرية حمراء بأحد طرفيها عدة شقوق لتمثل ألسنة اللهب. ومن معاني الكلمة أيضا أي رمز يلهم الشجاعة والتفاني في الحرب.

اتخذها ستيفن شعارا للحملة الصليبية . ولم تستوعبهم المدينة ، فعسكروا في الحقول خارجها .

١٢١٢م : الأطفال في مرسيليا

وبعد أن منح القساوسة الودودون بركاتهم ، وبعد إبعاد آخر الآباء المحزونين ، انطلقت الحملة باتجاه الجنوب . وكانوا جميعا على وجه التقريب يسرون على الأقدام ؛ لكن ستيفن أصر على أن يكون له ما يليق بزعيم الحملة من عربة مزدانة بزينة مرحة تعلوها ظلة تحجب عنه أشعة الشمس ؛ وسار إلى جانبه خيول يعلوها نبلاء الأطفال ، وكل منهم على ما يكفي من الثراء بحيث يمتلك حصانا . ولم يمتنع أحد من النبي الملهم وهو يرتحل مستريحا ؛ بل على العكس عومل وكأنه قديس ، وكانت خصلات من شعره وقطع من ملابسه تجمع كآثار نفيسة . وسلكوا الطريق الذي يمضى عبر تور وليون قاصدين مرسيليا . وكانت رحلة كلها آلام ؛ إذ كان الصيف شديد الحرارة بصورة غير عادية ، وكانوا يعتمدون في طعامهم على الصدقات في الوقت الذي لم يترك فيه الجفاف ما يفيض عن الحاجة ، فضلا عن ندرة المياه . ولقي الكثير من الأطفال حتفهم على جانب الطريق ، وعدل آخرون عن مواصلة الرحلة ومضوا يهيمون على وجوههم محاولين العودة إلى أهليهم . على أنه في نهاية الأمر وصلت الحملة الصليبية الصغيرة إلى مرسيليا .

واستقبل مواطنو مرسيليا الأطفال استقبالا طيبا ؛ إذ وجد الكثير بيوتا يبيتون فيها ، وأقام آخرون في الشوارع . وفي الصباح التالي اندفعت الحملة كلها إلى المرفأ لمشاهدة البحر وهو ينفلق أمامهم ، ولما امتنعت المعجزة تملكتهم مشاعر خيبة الأمل المريرة . وتحول بعض الأطفال ضد ستيفن صائحين بأنه خذلهم وبدأوا ينقلبون على أعقابهم ؛ لكن أغلبهم بقوا على شاطئ البحر ، أملين في كل صباح أن يلين لهم الرب . وبعد أيام قليلة ، وكما يروى في المأثور ، عرض تاجران من مرسيليا هما هيو الحديدي ووليم الخنزير بعض السفن لتكون تحت تصرفهم وتنقلهم إلى فلسطين بلا مقابل ، تمجيذا للرب . فقبل ستيفن في شغف هذا العرض الشفوق . واستأجر التاجران سبع سفن ركبها الأطفال وأبحرت . وانقضت ثماني عشرة سنة قبل معرفة أي خبر عنهم .

وفي تلك الأثناء وصلت حكايا ما قام به ستيفن من تبشير إلى بلاد الراين في ألمانيا التي لم يشأ أطفالها أن يفوتهم الأمر ؛ ذلك أنه بعد أسابيع قليلة من رحيل ستيفن في

حملته، شرع صبي يدعى نيكولاس من قرية في بلاد الراين يبشر بنفس الرسالة أمام ضريح الملوك الثلاثة في كولونيا . وكشأن ستيفن ، أعلن أن الأطفال يستطيعون أن يأتوا بما لم يستطعه الكبار ، وأن البحر سوف ينفلق عن طريق أمامهم . على أنه بينما كان للأطفال الفرنسيين أن يغزوا الأراضي المقدسة بالقوة ، كان للأطفال المانيي تحقيق هدفهم بتحويل الكفار عن دينهم . وكان نيكولاس ، شأنه شأن ستيفن ، على قدر من الفصاحة الفطرية واستطاع أن يجد حوارين فصحاء ليحملوا تبشيره إلى أماكن أبعد ، أعلى وأسفل بلاد الراين . وفي غضون أسابيع قليلة تجمع جيش من الأطفال في كولونيا على أهبة الاستعداد للإنطلاق إلى إيطاليا حيث البحر . ويبدو أن الأطفال الألمان كانوا في متوسط عمري يزيد زيادة طفيفة عن مثيله لدى الأطفال الفرنسيين ، كما يبدو أن كان معهم عدد أكبر من الفتيات ؛ كما كانت هناك فصيلة أكبر من صبيان النبلاء ، وعدد من المتشردين سيئي السمعة والعاهرات .

وانقسمت الحملة إلى فريقين ؛ يتألف الفريق الأول، استنادا إلى ما رواه المؤرخين، من عشرين ألف طفل يقودهم نيكولاس نفسه . وانطلق هذا الفريق أعلى نهر الراين إلى بازل ثم مختزقا غرب سويسرا ، مرورا بجنيف ليعبر جبال الألب من ممر جبل سيني . وكانت رحلة شاقة على الأطفال فكانت خسائرهم فادحة ؛ إذ أن أقل من ثلث المجموعة التي غادرت كولونيا ظهروا أمام أسوار جنوا في نهاية أغسطس وطلبوا إيواءهم ليلة واحدة داخل أسوارها . وكانت السلطات في جنوا على استعداد للترحيب بالحجاج أول الأمر ، لكن السلطات عندما عاودت التفكير ارتابت في وجود مؤامرة ألمانية؛ فسمحوا لهم بقضاء ليلة واحدة فقط، ومن شاء منهم في الاستقرار بصورة دائمة في جنوا لقي الترحيب . ف شعر الأطفال بالرضا، وهم يتوقعون انفلاق البحر أمامهم في الصباح التالي . على أن البحر في الصباح التالي كان مغلقا أمام صلاتهم بنفس قدر انغلاقه للفرنسيين في مرسيليا . وفي خضم خيبة الأمل التي داهمت الأطفال قبل الكثير منهم على الفور عرض سلطات جنوا وأصبحوا مواطنين جنوئين ، ونسوا رحلة الحج . وفيما بعد زعمت عدة عائلات رفيعة المستوى أنها من سلالة هذه الهجرة الأجنبية . بيد أن نيكولاس والعدد الأكبر واصلوا رحلتهم ؛ ولسوف ينفلق البحر أمامهم في مكان آخر . وبعد أيام قليلة وصلوا بيزا حيث وافقت سفيتان قاصدتان فلسطين على اصطحاب عدد من الأطفال ، ركبوا البحر وربما وصلوا إلى فلسطين ولكن لا يعرف شيء عن مصيرهم . ومع ذلك ، كان نيكولاس ما يزال ينتظر أن تحدث معجزة ، وواصل سيره الجهاد مع أتباعه المخلصين إلى روما ، حيث استقبلهم البابا اينوسنت

الذي تحركت مشاعره لتقواهم وإن كان قد شعر بالخرج من حماقتهم . وفي صرامة تغلب عليها الشفقة قال لهم إنهم ينبغي الآن أن يعودوا إلى بلادهم ، وعندما يشبوا عن الطرق عليهم عندئذ الوفاء بعهودهم والذهاب للحرب من أجل الصليب .

١٢١٢م : مصير الأطفال

ولا نعرف سوى القليل عن رحلة العودة . ولم يستطع الكثير من الأطفال ، وخاصة الفتيات ، مواجهة حرارة الطريق الملتهبة وتخلفوا في بعض المدن أو القرى الإيطالية . ولم يكن هناك سوى مجموعة صغيرة من النائحين الهائمين الذين وجدوا طريق العودة إلى بلاد الراين في الربيع التالي . وربما لم يكن نيكولاس من بينهم . غير أن الآباء الغاضبين الذين هلك أطفالهم أصروا على القاء القبض على أبيه الذي يبدو أنه شجع الصبي على الخروج مدفوعا بالخيلاء . فأخذوه وشنقوه .

ولم تكن المجموعة الثانية من الحجاج الألمان أكثر حظا من سابقتها . فقد ارتحلت إلى إيطاليا خلال سويسرا الوسطى ثم خلال سانت جوثارد وبعد مشاق ضخمة وصلت إلى البحر في أنكونا . وعندما فشل البحر في الانفلاق لهم تحركوا ببطء أسفل الساحل حتى برنديزي ، حيث وجد القليل منهم بعض السفن المبحرة إلى فلسطين وقبلت نقلهم ؛ لكن الباقين عادوا وبدأوا تجوالهم البطيء في طريق العودة مرة أخرى . ورجعت مجرد حفنة منهم إلى منازلهم أخيرا .

وبرغم حالتهم المفجعة البئيسة ، ربما كانوا أكثر حظا من الفرنسيين . ففي عام ١٢٣٠م وصل أحد القساوسة إلى فرنسا من الشرق ومعه حكاية غريبة ، وقال إنه كان أحد صغار القساوسة الذين صحبوا ستيفن إلى مرسيليا ، وركب معهم السفن التي قدمها التاجران . وبعد أيام قليلة من الإبحار واجههم جو سيئ وتحطمت سفينتان على جزيرة سان بييترو الواقعة أمام الركن الجنوبي الغربي لسردينيا ، وغرق جميع الركاب . أما السفن الخمس التي نجت من العاصفة فسرعان ما وجدت نفسها وقد حاصرها أسطول للعرب قادم من أفريقيا ؛ وعلم الركاب أنهم قد جيئ بهم هناك بناء على ترتيب مسبق لكي يباعوا في الأسر . وأخذوا جميعا إلى بوجي على الساحل الجزائري حيث تم شراء الكثير منهم فور وصولهم وأمضوا ما بقي من حياتهم في الأسر هناك . وشُحن الباقون ، ومن بينهم القس الصغير ، على سفن ذهبت إلى مصر حيث كانت أسعار عبيد الفرنج أفضل ؛ وعندما وصلوا إلى الإسكندرية اشترى حاكمها الجزء الأكبر

من الشحنة للعمل في ضيعته . واستنادا إلى ما رواه القس ، كان هناك نحو من سبعمائة منهم لا يزالون على قيد الحياة . وأخذت مجموعة صغيرة إلى أسواق الرقيق في بغداد ، حيث استشهد ثمانية عشر شخصا منهم لرفضهم الدخول في الإسلام . وكان القساوسة وقليلون من المتعلمين هم الأكثر حظا ، إذ كان حاكم الإسكندرية ، وهو الكامل ابن العادل ، مهتما باللغات والآداب الغربية ، فاشتراهم وأبقاهم عنده كمتترجمين ومدرسين وأمناء سر ، ولم يحاول أن يحولهم إلى عقيدته . وبقوا في القاهرة في أسر مريح ؛ وفي نهاية المطاف أطلق سراح هذا القس بمفرده وسُمح له بالعودة إلى فرنسا . وأجاب على أسئلة الآباء قائلا لهم كل ما كان يعرفه ، ثم إنه اختفى اختفاءً غامضا . وهناك قصة أخرى لاحقة تطابق قصة التاجرين الشريرين في مرسيليا بتاجرين سُتقوا بعد ذلك بسنوات قليلة لمحاولة اختطاف الامبراطور فريدريك نيابة عن العرب ، وبذا عوقبا في النهاية على ما اقترفاه من جرائم^(١٧) .

لم يكن الأطفال الصغار هم الذين سينقذون القدس . إذ كان لدى البابا إينوسنت آراء أوسع وأكثر واقعية ، فقرر عقد مجلس كبير للكنائس في روما عام ١٢١٥م لتنظيم كافة الشؤون الدينية للعالم المسيحي ، وقبل كل شيء ينبغي ادماج الكنيسة اليونانية . وكم كان يوده أن تكون قد انطلقت حملة صليبية بحلول ذلك الوقت ؛ فطوال عام ١٢١٣م ومندوبه روبرت (أوف كورسون) يجوب فرنسا ومعه الأوامر بالتساهل في قبول من يأخذ الصليب ، إذ كانت الضرورة بالغة . ونفذ المندوب أوامر سيده بحماس مفرط . وسريعا جدا شرع النبلاء الفرنسيون في الكتابة لملكهم قائلين إن مبشرى المندوب البابوي أعفى أتباعهم من العهود التي قطعوها على أنفسهم ، وأن هناك جمع سخيف من المسنين والأطفال وذوي الجذام وذوي العرج والنساء وذوي السمعة السيئة ، قد تجمعوا للحرب المقدسة . وأجبر البابا على كبح جماح روبرت ؛ وعندما افتتح المجلس اللاتيراني^(١٨) لعام ١٢١٥م ، لم تكن هناك حملة صليبية جاهزة بعد

(١٧) للإطلاع على قصة الحملة الصليبية للأطفال أنظر Rohrich, 'Die Kinderkreuzzug' in *Historische Zeitschrift*, vol. xxxvi; Alphandéry, 'Les Croisades d'Enfants' in *Revue de l'Histoire des Religions*, vol. lxxiii; Munro, 'The Children's Crusade' in *American Historical Review*, vol. xix; Winkelmann, *Geschichte Kaiser Friedrichs des Zweiten*, i, pp. 221-2. ويرد اشتراك الأطفال الألمان في *Annales Stadenses (M.G.H. Scriptores*, vol. xvi, p. 355).

(١٨) (المترجم) : نسبة إلى كنيسة القديس جون لاتيران St. John Lateran ، أو كندرائية البابا باعتباره أسقف روما . وترجع تسمية هذا المكان إلى اسم الأسرة الرومانية (Plautii Laterani) التي كان قصرها يشغل نفس الموقع.

للإنطلاق . وفي الجلسة الأولى تحدث البابا نفسه عن ورطة القدس ، ونهض بطريق القدس مناشدا المجلس تقديم العون . وسارع المجلس إلى تأكيد المزايما والمغفرة المقرر منحها للصليبيين وإلى الترتيب لتمويل الحملة التي تقرر أن تتجمع في صقلية أو أبوليا وتبحر إلى الشرق يوم أول يونية ١٢١٧م^(١٩).

١٢١٦م : موت البابا اينوسنت الثالث

واستثار المجلس نشاط الكنيسة . ف طوال ربيع عام ١٢١٦م انطلق المبشرون في سائر أنحاء العالم المسيحي الغربي ، وإلى أماكن بعيدة كبعد ايرلندا واسكندنافيا . وأعلن علماء اللاهوت البارزون من دكاترة جامعة باريس أن من يأخذ الصليب ثم يحاول التنصل من الوفاء بعهدده فإنه إنما يرتكب إثما مميتا . وانتشرت الرؤى الشعبية عن صلبان تسبح في الهواء ورؤج لها بدعاية ضخمة . وراودت الآمال اينوسنت . إذ لاحظ أن الأعوام التي مقدارها ٦٦٦ عاما المخصصة في سفر الرؤية للوحش قد انقضت . لقد انقضت في الواقع ستة قرون ونصف على مولد محمد . ولقد كتب إلى السلطان العادل يحذره من العقاب الإلهي الآتي ويحثه على التخلي عن القدس بصورة سلمية وما زال في الوقت متسع . غير أن تفاؤله كان سابقا بعض الشيء لأوانه ؛ إذ كتب له جيرفاس ، راهب بريمونترى ، رسالة سرية يقول فيها إن نبلاء فرنسا يتجاهلون آراء علماء اللاهوت من دكاترة باريس ، وأنه لا بد وأن يكون هناك عمل ما يتصف بالقسوة للمحافظة على ما قطعه دوقات برجاندی واللورين من عهود على أنفسهم . كما نصح في حكمة عدم الجمع بين الفرنسيين والألمان في حملة واحدة ؛ إذ أن الأمتين لا تتعاونان معا تعاوننا متناغما . بيد أن العوام من فقراء الناس كانوا يأخذون الصليب في حماسهم ولا يجب تشييط همهم بالتأخير.

وفي شهر مايو ١٢١٦م ذهب البابا اينوسنت إلى بيروجيا في محاولة لإنهاء العداوة الطويلة بين جنوا وبيزا ؛ وهناك ، وبعد مرض قصير ، مات يوم ١٦ يولية . وقليلة هي العهود البابوية التي كانت أكثر روعة وأكثر انتصارا من الناحية الظاهرية . ومع ذلك ، لم تتحقق قط أعز طموحاته ألا وهي استعادة القدس . وبعد يومين من وفاته ، انتخب

(١٩) Fliche, op. cit. pp. 156-216 وعن التاريخ الكامل للحملة الصليبية الخامسة أنظر، Donovan, *Pelagius and the Fifth Crusade*، حيث يرد مقال يتصف بالعناية وموثق توثيقا جيدا ، وإن كان منحازا انحيازاً طفيفاً لصالح بيلاجيوس .

الكاردينال المسن سافيلي لمنصب البابا باسم هونوريوس الثالث^(٢٠).

وتولي هونوريوس في شغف برنامج سلفه . فبعد أيام قليلة من استخلافه ، كتب إلى الملك جون في عكا يخبره بأن الحملة الصليبية آتية^(٢١) . وكان جون يزداد قلقا على قلق؛ إذ كان من المقرر أن تنتهي هدنته مع العادل في العام التالي . كما كتب هونوريوس إلى ملوك أوروبا فاستجاب له القليل منهم . وفي الشمال البعيد أخذ الملك إنجي الثاني ملك النرويج الصليب ، لا لشيء إلا ليموت في الربيع التالي ؛ وعندما خرجت الحملة الإسكندنافية كانت تافهة الشأن^(٢٢) . وكان الملك أندرو الثاني ملك هنجاريا قد أخذ الصليب فعلا ، لكن إينوسنت أعفاه من الوفاء بعهده في وقت سابق بسبب الحرب الأهلية الدائرة في بلده، والآن أظهر الحماس، لكنه كان لديه مأرب آخر؛ فمليكته كانت من ناحية أمها ابنة أخت الامبراطور اللاتيني هنري امبراطور القسطنطينية الذي كان أبترًا، ولذا دأبت الآمال هنري في الميراث . على أنه عندما مات هنري في يونيو ١٢١٦م اختير في مكانه أبوها بطرس (أوف كورتناي)؛ وبدأ تحمس أندرو يحمده ، لكنه وافق أخيرا على أن يكون جيشه على أهبة الاستعداد بحلول الصيف التالي^(٢٣) . أما في بلاد الراين السفلى فكانت هناك استجابة جيدة للتبشير ؛ وكان البابا يأمل في أسطول كبير محمل بالفريزيين^(٢٤) على أنه كان هنا تأخير مرة أخرى . كما لم تكن الأنباء الآتية من فلسطين مشجعة كثيرا ؛ إذ أن جيمس (أوف فيتري)، الذي أرسل هناك أسقفا لعكا بتعليمات لإثارة اللاتين المحليين، أرسل تقريرا مريرا عما وجدته . إذ أن المسيحيين الوطنيين يكرهون اللاتين ويفضلون الحكم الإسلامي ، بينما كان اللاتينيون أنفسهم يعيشون حياة كسولة مترفة خليعة ، وكانوا شرقيين كليّة . ورجال الدين فاسدون بخلاء أصحاب مكائد . ولا أحد جدير بالثناء سوى الأنظمة الدينية العسكرية ، على الرغم من أن المستعمرين الإيطاليين ، الذين كانوا على ما يكفي من الحصافة بحيث توخوا الإعتدال في نفقاتهم ، احتفظوا ببعض الأنشطة والأعمال ؛ غير أن مشاعر الغيرة المتبادلة بين المدن الإيطالية الكبيرة البندقية

(٢٠) Filche, op. cit. p. 212.

(٢١) *Regesta Honorii Papae III* (ed. Pressutti), nos. i, 673, i, pp. i, 1178-80.

(٢٢) *Regesta Honorii Papae III*, no. 399, i, p. 71.

(٢٣) Innocent III, letters, xv, 224 (M.P.L. vol. ccxvi, col. 757); Theiner, *Vetera Monumenta*, i, pp. 5-6.

(٢٤) *Regesta Honorii Papae III*, no. 885, i, pp. 149-50.

وجنوا وببزا حالت دون إمكان التعاون مع بعضها البعض . وفي واقع الأمر، وكما اكتشف الأسقف جيمس ، لم يكن فرنج أوتريميه يرغبون في حملة صليبية جديدة ؛ إذ أن انقضاء عقدين من الزمان زاد من رخائهم المادى . ومنذ وفاة صلاح الدين لم يظهر المسلمون ميلا للعدوان ، إذ كانوا هم أيضا يستفيدون من التجارة الآخذة في التزايد ، فقد كانت البضائع الآتية من داخل البلاد تملأ أرصفة عكا وصور، ويشهد القصر الذي بناه جون (أوف ايلين) في بيروت على الرخاء المتجدد . وكانت هناك مستعمرات إيطالية أنشئت بمهارة في مصر ؛ ومع تزايد القوة الشرائية لأوروبا الغربية تزايد مطردا ، كانت التوقعات رائعة لتجارة البحر المتوسط . على أن ذلك كله كان يتوقف بصورة مقلقة على الحفاظ على السلام^(٢٥).

١٢١٧م : تأخر الصليبيين

وكان البابا هونوريوس يفكر بطريقة أخرى . إذ كان يعقد الآمال على أن تبخر حملة عظيمة من صقلية في صيف عام ١٢١٧م . غير أنه عندما حل الصيف ، وبرغم وصول شتى مجموعات الفرسان الفرنسيين إلى الموانئ الإيطالية ، لم تكن هناك سفن . ووصل جيش ملك هنجاريا إلى سبالاتو في دالماتيا في شهر أغسطس ، وانضم إليه هناك الدوق ليوبولد السادس دوق النمسا وجيشه^(٢٦) . ولم يصل الأسطول الفريزي إلى البرتغال إلا في يولية ، وبقي جزء منه في لشبونة . ولم يبحر الباقي إلى جايتا إلا في أكتوبر ، وبذا كان الوقت متأخرا للغاية للإنطلاق إلى فلسطين إلى أن ينقضى الشتاء^(٢٧) . وفي نهاية يولية أمر البابا الصليبيين بالتجمع في إيطاليا وصقلية للإنطلاق إلى قبرص ؛ على أن وسيلة النقل كانت لا تزال غائبة . وأخيرا وفي أوائل سبتمبر وجد الدوق ليوبولد سفينة في سبالاتو تحمل جماعته الصغيرة إلى عكا ، ولم تستغرق رحلته سوى ستة عشر يوما . وتبعه الملك أندرو بعد حوال أسبوعين . غير أن أبناء سبالاتان لم

(٢٥) James of Vitry, *History of Jerusalem* trans. Stewart), P.P.T.S. vol. xi, pp. 56-91.

(٢٦) *Scriptores Rerum Hungaricarum*, Thomas Spalatensis, *Historia Salonitana* III, p.573.

(٢٧) *Gesta Crucigerorum Rhenanorum*, pp.29-34; *De Itinere Frisonum*, pp.59-68 hricht, *Quinti Belli Sacri Scriptores Minores* both in

يسمحوا له بأن يأخذ أكثر من سفيتين ، ولذا بقى سواد جيشه هناك^(٢٨). في ذات الوقت تقريبا هبط الملك هيو القبرصي في عكا مع ما استطاع جمعه من جنود^(٢٩).

كان الحصاد سيئا في سوريا ذلك العام ، وبات من الصعب إطعام جيش متعطّل . وعندما وصل الملوك ، أوصى جون (أوف برين) بحملة على الفور . وفي يوم الجمعة ٣ نوفمبر انطلق الصليبيون من عكا وساروا شمال سهل بزرعيل . وبرغم أن أعدادهم لم تكن كبيرة ، إلا أنها كانت أكبر من أية أعداد شوهدت في فلسطين منذ الحملة الصليبية الثالثة . وكان العادل قد جاء ببعض الجنود إلى فلسطين عندما سمع بأن المسيحيين يتجمعون ، غير أنه لم يكن يتوقع غزوا مبكرا هكذا . كانت قواته أقل عددا ، ولذا انسحب أمام الصليبيين عند تقدمهم باتجاه بيسان ، مرسلًا ابنه المعظم لتغطية القدس ، بينما انتظر هو في عجلون مهيا للتصدى لأي هجوم على دمشق . ولم يكن لمخاوفه ما يبررها ؛ إذ كان الجيش المسيحي يفتقر إلى النظام ، فالملك جون يعتبر نفسه القائد الأعلى ، لكن الجنود النمساويين الهنجارين كانوا يعتبرون قائدهم الملك أندرو فقط ، والقبارصة الملك هيو ، بينما كانت الأنظمة الدينية العسكرية تطيع قوادها لا غير . واحتل المسيحيون بيسان وخربوها ، ثم راحوا يهيمنون على وجوههم بلا هدف عبر الأردن وأعلى الشاطئ الشرقي لبحر الجليل ، والتفوا حول كفرناحوم (الكنيسة) ثم عادوا خلال الجليل إلى عكا . وكان شاغلهم الشاغل هو الحصول على المخلفات الدينية ؛ فأبهج الملك أندرو أن يحصل على أباريق المياه التي استخدمت في حفل الزواج في كفر كانة (في الجليل)^(٣٠).

١٢١٨م : الملك أندرو يعود إلى بلاده

ضجر الملك جون وخطط حملة لنفسه لتدمير الحصن الذي شيده المسلمون فوق جبل الطور . ولم ينضم إليه هيو ولا أندرو ، ولم ينتظر الأنظمة الدينية العسكرية . وفي الثالث من ديسمبر فشل أول هجوم له على الحصن رغم أن الحامية كانت على استعداد

(٢٨) Regesta Honorii Papae III, no. 672, i, p. 117; Thomas Spalatensis, p. 574; Annales Claustroneoburgenses (M.G.H. Scriptores, vol. ix, p. 622).

(٢٩) ii, p. 322 Estoire d'Eracles,.

(٣٠) Ibid. pp. 323-4; Oliver, Historia Damiatana, p. 165; Johannes Thwrocz, Chronica Hungarorum (Scriptores Rerum Hungaricarum, vol. i, p. 149).

للتسليم في الواقع . وعندما وصلت الأنظمة الدينية العسكرية بعد ذلك بيومين كانت هناك محاولة ثانية للهجوم ، لم تكن أفضل من سابقتها . ومرة أخرى انسحب الجيش إلى عكا^(٣١).

وفي مستهل العام الجديد تقريبا أزمعت مجموعة صغيرة من المنحاريين ، على خلاف نصائح المحليين وبلا إذن من مليكها، الخروج للإغارة والسلب في البقاع وكادت أن تهلك عن آخرها في عاصفة ثلجية عند عبورها لبنان^(٣٢). بينما سار الملك أندرو مع الملك هيو إلى طرابلس حيث كان يوهنن الرابع ، أمير أنطاكية السابق، الذي تحمل حديثا من زوجته الأولى بليسانس (أوف جيل)، يحتفل بزواجه من ميليسند أخت هيو غير الشقيقة . وهناك مات هيو فجأة في العاشر من يناير ، تاركا عرش قبرص لطفله هنري الذي لم يتجاوز شهره الثامن ، تحت وصاية أرملة أليس ابنة القدس^(٣٣). وعاد الملك أندرو إلى عكا وأعلن عن رحيله إلى أوروبا ؛ لقد أوفى بعهده وأضاف مؤخرا إلى مجموعة آثاره التي جمعها رأس القديس ستيفن ، وقد حان الوقت للعودة إلى وطنه . وعبثا حاول بطريق القدس أن يشيه عن عزمه بالحجة وبالتهديد . وأخذ جنوده باتجاه الشمال مارا بطرابلس وأنطاكية إلى أرمينا ومنها إلى القسطنطينية بعد أن أخذ أمان المرور من السلطان السلجوقي . إن حملته الصليبية لم تحقق شيئا^(٣٤).

وتخلف ليوبولد دوق النمسا ؛ إذ كان يفتقر إلى المال ، واضطر إلى أن يقترض خمسين ألف بيزانت من جوى إميرياكو (أوف جيل)، غير أنه كان على استعداد لمزيد من العمل من أجل الصليب . واستعان به الملك جون للمساعدة في تقوية تحصينات قيسارية ، بينما شرع فرسان المعبد وفرسان التيوتون في تشييد قلعة ضخمة في عثليت جنوبي جبل الكرمل ، قلعة الحجاج . وفي ذات الوقت هدم العادل حصنه الواقع فوق

(٣١) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 324-5; Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 165-7; Jamse of Vitry, *History of Jerusalem*, p. 119; Abu Shama, ii, pp. 163-4.

(٣٢) *Ibid.* pp. 164-5; Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 167-8.

(٣٣) Ernoul, p. 412; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 325, 360; *Gestes des Chiprois*, p. 98.

(٣٤) Oliver, *Historia Damiatana*, p. 168; James of Vitry, *Epistola*, iii (ed. -hricht), *Zeitschrift für Kirchengeschichte (Z.K.G.)*, vol. xv, pp. 568 R 70; Johannes Thwrocz, *loc. cit.* .
اليمنى للقديس توماس والقديس بارثولوميو وجزء من عصا مارون.

جبل الطور ، فهو عرضة سهلة للهجوم وليس حديرا بالصيانة^(٣٥).

وفي السادس والعشرين من ابريل ١٢١٨ وصل إلى عكا النصف الأول من أسطول الفريزيين ، وبعد اسبوعين وصل النصف الذي كان قد أمضى الشتاء في لشبونة . وكانت هناك أنباء بأن الصليبيين الفرنسيين المحتشدين في ايطاليا على وشك اللحاق بهم . وعلى الفور أخذ الملك جون بالنصيحة حول أفضل سبل الانتفاع بالقادمين الجدد . لم ينس أحد قط أن الملك ريتشارد نصح بالهجوم على مصر ، كما أن المجلس اللاتيراني ذكر مصر باعتبارها الهدف الرئيسي لأية حملة صليبية . فإذا أمكن طرد المسلمين خارج وادي النيل ، فلن يفقدوا أخصب أقاليمهم وحسب ، وإنما لن يتمكنوا من الاحتفاظ بأسطول في شرق البحر المتوسط ؛ لا ولن يستطيعوا الاحتفاظ بالقدس طويلا ضد هجوم كمناشة يأتي من عكا ومن السويس . وتوفر السفن الفريزية تحت تصرف الصليبيين ، أصبح لديهم الوسيلة الآن لشن هجوم كبير على الدلتا . وبلا تردد، تقرر أن يكون الهدف الأول هو ميناء دمياط ، مفتاح النيل^(٣٦).

أصبح السلطان العادل شيخا مسنا الآن يود أن يقضى سنواته الأخيرة في سلام . ولكن كان لديه ما يقلقه في الشمال ، وقد مات ابن اخيه الظاهر صاحب حلب عام ١٢١٦م تاركا طفلا كخليفة له يدعى العزيز ، والخصي طغرل قائما بالوصاية . وبرز أخو الظاهر - الأفضل - أكبر أبناء صلاح الدين من تقاعده في سميساط مطالباً بالميراث ومستنجدا بسلطان قونية السلجوقي كيكاوس ؛ وكان سلاجقة الأناضول الآن في ذروة بأسهم ، ولم تعد كذلك بيزنطة ؛ وكان امبراطور نيقية في بالغ انشغاله يحارب الفرنج لإزعاجهم ؛ وقد تلاشت قوة الدانشمند ، واستقر رعاياهم الآن طائعين ، وبدأ الرخاء يعود إلى شبه الجزيرة . وفي باكورة ١٢١٨م زحف كيكاوس والأفضل على أراضي حلب وتقدموا نحو العاصمة . وكان طغرل الوصي يعلم أن العادل مهدد من الصليبيين ، فاستنجد بابن العم الشاب لسيدته ، الأشرف صاحب العراق ، وهو ثالث أبناء العادل . وهزم الأشرف الجيش السلجوقي هزيمة نكراء بالقرب من بزاغة ، وانسحب الأفضل عائدا إلى سميساط ، واضطر صاحب حلب إلى الاعتراف بالأشرف سيدا أعلا له ؛ غير

(٣٥) *Estoire d'Eracles*, ii, pp.325-6; Oliver, *Historia Damiatana*, p. 169; Abu Shama, ii, pp.164-6.

(٣٦) *Gesta Crucigerorum Rhenanorum*, pp. 37-8; *De Itineri Frisonum*, pp.69-70; Ernoul, pp. 414-15; James of Vitry, *loc. cit.*; Oliver, *Historia Damiatana*, p. 175. أنظر Donovan, op. cit. pp. 36 n., 54.

أن السلاجقة ظلوا بمثابة تهديد إلى أن مات كايكاوس في العام التالي عندما كان يخطط للتدخل في نزاع على الاستخلاف في الموصل . ومكّن ذلك الأشرف من تعزيز قوته ، ومن أن يصبح ندا خطيرا لإخوته في الجنوب^(٣٧) .

وحتى آخر لحظة يبدو أن العادل كان يأمل في ألا تبلغ الحماسة بالفرنج حدا يقطعون فيه السلام ، وقد شاركه آماله ابنه الملك الكامل والي مصر . وكان الكامل على علاقة ممتازة مع البنادقة الذين وقّع معهم معاهدة تجارية عام ١٢٠٨ م. وفي ١٢١٥ م كان في مصر مالا يقل عن ٣٠٠٠ تاجر أوروبي . وأدى وصول اثنين من اللوردات بصورة مفاجئة إلى الإسكندرية في ذلك العام إلى إثارة مشاعر الخوف لدى السلطات التي اعتقلت مؤقتا الأوروبيون كلهم، غير أن العلاقات الحسنة قد استعادت ؛ وفي عام ١٢١٧ م استقبل الوالي سفارة بندقية جديدة استقبالا ودودا . ولم يتأثر المسلمون من تسكع الحملة الصليبية غير الفعال في عام ١٢١٧ م. وما كانوا يظنون بوجود أي خطر الآن.

١٢١٨ م : الصليبيون ينزلون إلى البر في مصر

في عيد الصعود^(٣٨) ، الرابع والعشرين من مايو ١٢١٨ م، ركب الجيش الصليبي السفن الفريزية في عكا بقيادة الملك جون ، وأبحر هابطا إلى عثليت لجمع المزيد من المؤن؛ وبعد ساعات قليلة رفعت السفن مراسيها ، لكن الرياح هدأت ؛ وتمكن بمجرد القليل منها من مغادرة المرسى والإبحار إلى مصر ، فوصلت أمام مصب النيل في دمياط في السابع والعشرين من الشهر ، وألقت المراسي هناك انتظارا لرفاقهم . ولم يغامر الجنود بادئ الأمر بمحاولة الهبوط إلى البر لعدم وجود ضابط كبير معهم ، غير أنه في التاسع والعشرين من الشهر ، ودون أن يظهر أي أسطول في الأفق ، حرض رئيس اساقفة نيقوسيا، إيوستورجيوس، الجنود على قبول الكونت سيمون الثاني (أوف ساربروك) قائدا لهم ، وعلى اقتحام الضفة الغربية لمصب النهر ؛ ولم تكن هناك معارضة جادة ، وكادت العملية أن تكتمل عندما ظهرت في الأفق أشعة أسطول الصليبيين الرئيسى . وسرعان ما دخلت السفن عبر حاجز الأمواج ، وهبط الملك جون ودوق

(٣٧) أنظر. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 624-8.

(٣٨) (المترجم) : عيد الصعود Ascension Day ذكرى صعود المسيح الى السماء في اليوم الأربعين بعد قيامته (في العقيدة المسيحية).

النمسا والسادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة إلى الشاطئ^(٣٩).

تقع دمياط على الضفة الشرقية للنهر وعلى مسافة ميلين منه، تحمى ظهرها بحيرة المنزلة. وكما أظهرت تجربة الفرنج عام ١١٦٩م، ليس في الإمكان مهاجمتها بصورة تنصف بالكفاءة إلا عن طريق الماء والبر معا. وكان المصريون في عام ١١٦٩م قد مدوا سلسلة بعرض النهر أسفل المدينة قليلا من الضفة الشرقية إلى برج على جزيرة ملاصق للضفة الغربية، فسدت بذلك الحيز الوحيد الصالح للملاحة؛ وأقاموا جسرا من القوارب خلف السلسلة. وحدد الصليبيون هذا البرج على أنه أول هدف لهم.

وعندما أيقن المسلمون أن الحملة الصليبية موجهة ضد مصر، سارع العادل بتجنيد جيش في سوريا، بينما سار الكامل الجيش المصرى الرئيسى من القاهرة باتجاه الشمال وعسكر في العديلية جنوب دمياط بأميل قليلة. بيد أنه لا يملك ما يكفى من الرجال والسفن لمهاجمة مواقع المسيحيين برغم تقوية البرج. وفي نهاية يونيو فشل أول هجوم جاد على الحصن، وعندئذ اقترح أوليفر (أوف بادربون)، وهو مؤرخ الحملة بعد ذلك، صنع وسيلة جديدة تحمل هو وأحد أبناء حداثه تكاليفها. وهي عبارة عن برج مبي على سفينتين مربوطتين معا، ومغطى بالخلود ومثبت فيه السلام والآر أصبح في الإمكان مهاجمة الحصن من النهر ومن الشاطئ أيضا^(٤٠).

وفي يوم الجمعة السابع عشر من أغسطس، أقام الجيش المسيحي صلاة شفاعة مهية، وبعد أن سوح، في عصر الرابع والعشرين، بدأ الهجوم. وبعد ذلك بأربع وعشرين ساعة تقريبا، وبعد قتال شرس، تمكن الصليبيون من تثبيت أنفسهم فوق الإستحكامات، واندفعوا إلى داخل الحصن. وقاتلت الحامية بلا توقف إلى أن بقي من رجالها مائة رجل على قيد الحياة، ثم استسلمت. وكانت الأسلاب الموجودة في الحصن وفيرة، وأقام المنتصرون جسرا صغيرا من القوارب لنقلها إلى الضفة الغربية. ثم إنهم قطعوا السلسلة وهدموا جسر القوارب الذي يعبر المجرى الرئيسى، وباتت سفنهم قادرة على الإبحار فيها حتى أسوار دمياط^(٤١).

(٣٩) James of Vitry, *History of Jerusalem*, pp. 118-19; Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 175-7; *Gesta Crucigerorum Rhenanorum*, pp. 38-9; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 326-7.

(٤٠) Abu Shama, ii, p. 165; *Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, trans. Blochet, pp. 240-1; Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 179-82.

(٤١) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 182-4; *Gesta Crucigerorum Rhenanorum*, p. 39.

كان العادل مريضا في دمشق عندما وصلته أنباء سقوط الحصن بعد أيام قليلة . وكان قد علم لتوه أن ابنه المعظم قد استولى على قيسارية ودمرها ، غير أن صدمة الكارثة في دمياط كانت فوق احتماله ، فمات في الحادى والثلاثين من أغسطس وهو يناهز الخامسة والسبعين . وكان صفاء الدين ، كما كان الصليبيون يسمونه ، يفتقر إلى شخصية أخيه صلاح الدين المرموقة ، وقد أظهر تعامله مع أبناء أخيه صلاح الدين نوعا من الخيانة والخبث . بيد أنه حافظ على وحدة الإمبراطورية الأيوبية وكان حاكما ذا اقتدار وتسامح وعجا للسلام . وكان في أعين الصليبيين دائم الطيبة وشريفا ، ولقد حاز إعجابهم واحترامهم على الدوام . وخلفه في سوريا ابنه الأصغر المعظم وفي مصر ابنه الأكبر الكامل^(٤٢) .

لم تكن كارثة دمياط كارثة ضخمة على النحو الذي كان ينجشاه العادل . فلو أن المسيحيين واصلوا الحرب وهاجموا دمياط من فورهم ، فرما سقطت المدينة ، لكنهم بعد استيلائهم على الحصن ، ترددوا وقرروا انتظار التعزيزات . وعاد الكثير من الفريزيين إلى وطنهم ، لا لشيء إلا ليعاقبوا على تنكرهم للقضية بفيضان كاسح اكتسح فريزيا في اليوم التالي لوصولهم هناك . وعُرف آنذاك أن الحملة البابوية التي طال التخطيط لها قد غادرت إيطاليا فعلا . ولقد كان هناك تأخير مستمر ، ولكن البابا هونوريوس تمكن في نهاية الأمر من تجهيز اسطول بتكلفة ثمانية وعشرين ألف مارك فضى لنقل الجنود المنتظرين لما يزيد على عام في برنديزي . وأمر عليهم الكاردينال بيلاجيوس (أوف سانت لوتشيا)^(٤٣) .

١٢١٨م : وصول الكاردينال بيلاجيوس

وفي ذات الوقت تقريبا كان نبيلان فرنسيان هما هيرفي كونت نِفرس، وهيو (أوف

40; John of Tulbia, *De Domino Johanne*, in Rohrich, loc. cit., p. 120; *Histoire des Patriarches*, p. 243.

Abu Shama, ii, p. 170; Ibn al-Athir, ii, pp. 116, 148; Ibn Khallikan, *Biographical Dictionary*, iii, p. 235. (٤٢)
، بينما يقول ابن خلكان إنه كان في الثلاثة والسبعين من عمره . ويرد وصف خيالي لفراش مرضه في *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 229-30.

Oliver, *Historia Damiatana*, p. 186; Alberic of Trois Fontaines, p. 788; *Regesta Honorii Papae III*, nos. 1350, 1433, i, pp. 224, 237. (٤٣)

لوسينان) كونت دي لا مارش ، يفارضان أبناء جنوا على سفن لنقل مجموعة الصليبيين الفرنسيين والإنجليز إلى الشرق . ورغم اشتهار كونت نفرس بأنه ابن الكنيسة الشريرة ، سمح له البابا بدفع تكاليف النقل من ضريبة قدرها جزء من عشرين من دخل الكنائس الفرنسية . وانضم إلى الكونتين في جنوا رئيس أساقفة بوردو ، وليم الثاني ، وأساقفة باريس ولاوون وأنجرز وغيرهم من ذوي الرتب الأقل ، وإيرل^(٤٤) كل من تشستر ، وآرونديل ، وديربي ، ووينشستر . وأرسل البابا كاردينال كورسون ، روبرت ، ليكون الموجه الروحي للأسطول ، وإنما بلا أية سلطات بابوية^(٤٥) .

وصل الكاردينال بيلاجيوس وحملته إلى المعسكر المسيحي في منتصف سبتمبر . وكان بيلاجيوس أسبانيا وعلى قدر كبير من المثابرة والخبرة الإدارية وإن كان يفتقر تماما إلى الحدق ؛ إذ سبق تعيينه لتسوية مسألة الكنائس اليونانية في امبراطورية القسطنطينية اللاتينية ، ولم يصب نجاحا إلا في إثارة المزيد من العداوة المريرة لروما . وما أن وصل إلى المعسكر حتى ثار الإضطراب ؛ ذلك أن جون (أوف برين) كان مقبولا كقائد للحملة الصليبية ، وكانت قيادته موضع خلاف في السنوات السابقة من ملكي هنجاريا وقبرص ، وقد رحل أحدهما ومات الآخر . واعتبر بيلاجيوس نفسه الوحيد المسؤول عن الحملة بصفته المندوب البابوي ، خاصة وأن التناوب الذي طغى على شتى الأمم المشاركة كان جليا واضحا بصورة فائقة وليس هناك سوى ممثل البابا الذي يستطيع تطويعهم . وجلب معه انباء بأن الامبراطور الغربي فريديريك الثاني قد وعد باللاحاق به مع جيش امبراطوري ، وعندما يصل فلا بد من أن يُمنح القيادة العسكرية العليا . ولكن بيلاجيوس لن يقبل أية أوامر من الملك جون الذي كان ، قبل كل شيء ، مجرد ملك من خلال زوجته الميتة^(٤٦) .

وفي اكتوبر أصبح لدى الملك العادل ما يكفي من التعزيزات لشن هجوم على معسكر الصليبيين بأسطول صغير أرسله شمال النهر، فرد بفضل جهد الملك جون في المقام الأول، وبعد أيام قلائل بنى المسلمون جسرا عبر النيل إلى الشمال قليلا من المدينة.

(٤٤) (المترجم) : إيرل Earl: لقب انجليزى دون المركز وفوق الفيكونت

(٤٥) Regesta Honorii Papae III, nos. 1498, 1543, 1558, i, pp. 248, 256, 260. وللإطلاع على قائمة صحيحة لهؤلاء الصليبيين أنظر Greven, 'Frankreich und der funfte Anzuzug', Historische Jahrbuch, vol. xlii. Matthew of Westminster أسماء الصليبيين الإنجليز. (Flores Historiarum, ii, p. 167)

(٤٦) أنظر Donovan, op. cit. pp. 46-9 والخواشى.

ونظّم بيلاجيوس إغارة على أعمال البناء بآت بالفشل ، لكن الكامل لم يواصل البناء لنقل جيشه عبر النهر ، وبدلاً من ذلك شن هجوماً آخر شرساً من الماء ، لكنه جاء بعد قوات الأوان ؛ إذ جاءت الكتيبة الأولى من الصليبيين الفرنسيين وقادت الدفاع . ووصل الهجوم الثاني إلى المعسكر نفسه لكنه رُدَّ إلى النهر حيث غرق الكثير من جنود المسلمين^(٤٧).

وبعد وصول الجيش الفرنسي والإنجليزي كله في وقت متأخر من أكتوبر ، مر القتال بفترة من الهدوء . وتسببت وفاة العادل في تأخير التعزيزات التي كان الكامل ينتظرها من سوريا ، وهو الآن ينتظر الجيش الذي وعد أخوه المعظم بارساله . وكان للمسيحيين مشاكلهم الخاصة بهم ؛ إذ حفرُوا قناة تصل البحر بالنهر إلى الشمال من جسر المسلمين ، لكنهم لم يستطيعوا ملأها . وفي ليلة ٢٩ نوفمبر هبت عاصفة هوجاء دفعت بمياه البحر إلى المنطقة المنخفضة حيث يوجد معسكرهم ؛ فامتلأت كل خيمة بالماء وتشربت المخازن به أيضاً ، وتحطمت قوارب كثيرة ، ودفعت المياه بقوارب أخرى عبر النهر إلى معسكر المسلمين ، وغرقت الخيول ، وعندما انحسر الماء كانت هناك أسماك كثيرة ملقاة في كل مكان ، وهو مشهد لطيف ، كما يقول المؤرخ أوليفر (أوف بادربورن) ، يبهج أي شخص يراه . ولتجنب تكرار ذلك ، أمر بيلاجيوس ببناء حاجز بسرعة . واستخدمت كل أنواع الحطام ، حتى الأشعة الممزقة وجثث الخيول ، لزيادة تغطية الحاجز . وكانت النتيجة الوحيدة الحسنة لهذا الفيضان هي أن امتلأت القناة ، وأصبح بمقدور القوارب المسيحية أن تتوغل في النهر^(٤٨).

وقبل أن يكتمل إصلاح المعسكر مباشرة ضرب الجيش وباء خطير . فكان الضحايا يعانون من الحمى المرتفعة واستحالت جلودهم إلى اللون الأسود ؛ وحصد الوباء أرواح سُلس الجنود على أقل تقدير ، بمن فيهم الكاردينال روبرت كورسون . وبات الناجون من الوباء في حالة من الضعف والإكتئاب ، ثم جاء في أعقاب ذلك شتاء قارس بصورة غير عادية . وكان من حسن حظ المسيحيين أن عانى المسلمون كذلك من المرض

(٤٧) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 190-2; *Histoire des Patriarches*, p. 394; *Gesta Obsidionis Damiate* (in Rohricht, op. cit. pp. 79-80); John of Tulbia, p. 123

(٤٨) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 131-2, 196-7; *Gesta Obsidionis Damiate* p. 82; John of Tulbia, p. 124; *Libre Duellii Christiani in Obsidione Damiate Exacti* (in Rohricht, op. cit.), pp. 148-9; James of Vitry, *Epistola v* (Z.K.G. vol. xv, pp. 582-3); *Histoire des Patriarches*, pp. 245-6

١٢١٩م : احتلال العديلية

وفي أوائل فبراير ١٢١٩م رأى بيلاجيوس تعذر الحفاظ على معنويات الجنود في غيبة النشاط . ولذا حث الجيش في يوم السبت ٢ فبراير على الانطلاق لمهاجمة المسلمين؛ لكن عاصفة ممطرة تعمي الأبصار أجبرتهم على العودة . وفي يوم الثلاثاء التالى جاءت المعسكر أنباء تقول إن السلطان ينسحب بجيشه ، فسارع الصليبيون عابرين النهر إلى العديلية ووجدوا الموقع مهجورا ، وخرجت جماعة من حامية دمياط لملاقاتهم ، لكنهم رُدوا واستولى الصليبيون على العديلية ، وبذا عزلوا المدينة تماما^(٥٠).

ويُعزى انسحاب السلطان الكامل المفاجئ إلى اكتشافه مؤامرة في بطانته . ذلك أن أحد الأمراء ، عماد الدين أحمد بن المشطوب ، كان يخطط لقتله واستبداله بأخيه الفائز، ولم يعرف السلطان في يأسه عدد المتورطين من بين حاشيته ، ففكر في اللجوء إلى اليمن وكان واليها ابنه المسعود ، لكنه علم أن أخاه المعظم في طريقه أخيرا لمساعدته . فانتقل مع جنوده باتجاه الجنوب الشرقي إلى أشمون حيث التقى الأخوان السلطانان يوم ٧ فبراير. وكان وجود المعظم مع جيش ضخم بمثابة رادع للمتآمرين ؛ وألقى القبض على ابن المشطوب وأرسل إلى السجن في الكرك ، ونفى الأمير الفائز إلى سنجار ومات في ظروف غامضة في الطرق إلى هناك . لقد أنقذ الكامل عرشه ، ولكن على حساب ضياع دمياط^(٥١).

وحتى بمساعدة المعظم ، لم يستطع الكامل طرد المسيحيين . إذ أن النهر والأهوار والقنوات حالت دون استغلال المسلمين لتفوقهم العددي ؛ وفشلت الهجمات التي شنها المسلمون على المعسكرين في الضفة الغربية وفي العديلية أيضا . فضرب السلطان

(٤٩) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 192-3; James of Vitry, loc. cit.; John of Tulbia, p. 125; *Gesta Obsidionis Damiate*, p. 83; *Histoire des Patriarches*, p. 249.

(٥٠) -Oliver, *Historia Damiatana*, pp.194-201; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp.83 4; *Estoire d'Eracles*, ii, p.337; John of Tulbia, loc. cit.

(٥١) Ibn al-Athir, ii, pp.116-17; Ibn Khallikan, iii, p. 240; *Histoire des Patriarches*, pp. 246-7.

معسكره في فارسكور جنوب دمياط بستة أميال تقريبا ، على أهبة الاستعداد لمهاجمة مؤخرة الصليبيين إذا حاولو الهجوم على دمياط . واستمر الوضع محمدا طوال الربيع . ونشبت معارك ضارية يوم أحد السَّعَف^(٥٢) ، ومرة أخرى يوم أحد العنصرة^(٥٣) حاول فيها المسلمون شق طريقهم إلى داخل العدلية دون جدوى . أما في دمياط ذاتها ، وعلى الرغم من أن الطعام كان ما يزال وفيرا ، ازداد نقص عدد افراد الحامية بسبب المرض ؛ لكن المسيحيين لم يجروا عل شن هجوم عليها^(٥٤) .

وفي تلك الأثناء قرر السلطان المعظم هدم القدس . إذ قد يكون من الضروري عرض القدس على المسيحيين لإنهاء الحرب ؛ وفي هذه الحالة سوف يتسلمونها أطلالا ويتعذر الدفاع عنها ، وبدأ تدمير الأسوار يوم ١٩ مارس ، وسبب الذعر في المدينة ، إذ ظن المواطنون المسلمون أن الفرنج قادمون ، فهرب الكثير منهم مذعورين عبر الأردن . ثم راح الجنود ينهبون المنازل غير الآهلة ، وحاول بعض المتعصبين تدمير كنيسة القبر المقدس ، لكن السلطان لم يكن يسمح بذلك . وبعد القدس ، هدمت قلاع الجليل وطورون وصفد وبانياس ، ودمرت كلها . وفي الوقت نفسه أرسل السلطانان يناشدان العون في سائر أنحاء العالم الإسلامي ، موجَّهين دعوتهما بصورة خاصة إلى الخليفة في بغداد الذي وعد بإرسال جيش عرمرم لم يصل قط^(٥٥) .

وأعقب الشتاء الثلجي صيف حارق ، وهبطت معنويات الصليبيين ثانية . ومرة أخرى أصر بيلاجيوس على العمل ؛ فبعد صد هجوم إسلامي شديد على المعسكر يوم ٢٠ يولية وبخسائر فادحة في كل من الجنائين ، ركز الصليبيون على قصف أسوار المدينة . ولم يفلح قصفهم هذا لأن النيران الإغريقية التي كان المدافعون يستخدمونها سببت أضرارا جسيمة لآلاتهم ، ولم يحمدها النبذ ولا الأحماض ، وبينما هم منهمكون في قصف الأسوار ، شن المسلمون هجوما آخر أوشك على تدمير الجيش المسيحي كله

(٥٢) (المترجم) : أحد السَّعَف : Palm Sunday يوم الأحد السابق على عيد الفصح ، وفيه احتفل بدخول المسيح بيت المقدس بمواكب زياحية حمل فيها السَّعَف

(٥٣) (المترجم) : أحد العنصرة Whit-Sunday ، يوم الأحد السابع بعد عيد الفصح ، إحياء لذكرى هبوط الروح القدس في عيد العنصرة (انظر سفر أعمال الرسل ، الإصحاح الثاني).

(٥٤) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 202-6; *Liber Duellii*, pp. 151-2; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp. 87-90.

(٥٥) Abu Shama, ii, pp. 173-4; Ibn al-Athir, ii, p. 119; *Histoire des Patriarches*, p. 52; *Estoire d'Eracles*, ii, p.339; Oliver, *Historia Damiatana*, p. 203

الذي لم ينقذه سوى هبوط الظلام فجأة . وشن الصليبيون هجوما ثانيا على الأسوار يوم ٦ أغسطس ، لكنه أخفق بنفس القدر^(٥٦).

وأثارت الهزائم الجنود العاديين في الحملة الصليبية ودفعتهم إلى العمل. وألقوا باللائمة على قادتهم لتراخيهم وسوء تصرف قوادهم؛ إذ قتل الكثير من النبلاء المرموقين، بمن فيهم كونتات لا مارش، وبار-سور-سين ، ووليم (أوف تشارتر) والسيد الأعظم لفرسان المعبد ، وعاد آخرون إلى أوروبا ؛ وغادر الجيش في شهر مايو ليوبولد دوق النمسا الذي كان أكثر الأمراء طاقة ونشاطا ؛ غير أنه لا يلام على عودته إلى بلده بعد أن قدم خدماته في الشرق طوال عامين ، ومحا بشجاعته سوء السمعة التي لطخت والده من جراء خلافاته الكثيرة مع قلب الأسد في الحملة الصليبية الثالثة . وقد أخذ معه إلى بلده كيسة من الصليب الحقيقي ، على أن القافلة التي أخذته إلى أوروبا كانت تضم آخرين بدا رحيلهم هروبا من القضية^(٥٧). وفي أواخر أغسطس ، وبينما كان الملك جون يتشاحن مع بيلاجيوس حول الإستراتيجية ، فبدافع أحدهما عن تشديد الحصار ، بينما يصر الآخر على شن هجوم على معسكر السلطان ، ثار الجنود وأخذوا في أيديهم زمام الأمور ، وفي ٢٩ أغسطس خرجوا متدفقين في فوضى عارمة لمواجهة خطوط المسلمين . وتظاهر المسلمون بالانسحاب ثم قاموا بهجوم مضاد . وحاول بيلاجيوس تولي القيادة ، وبرغم نصائحه ، استدارت الكتيبة الإيطالية وولت الأدبار ، وسرعان ما تفشى ذعر عام ، ولم ينقذ الباقيين على قيد الحياة ومعسكرهم سوى مهارة الملك جون والنبلاء الفرنسيين والإنجليز والأنظمة الدينية العسكرية^(٥٨).

(٥٦) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 208-10; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp. 87, 90-7; John of Tulbia, pp. 127-8.

(٥٧) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 188, 207-8; *Gesta Obsidionis Damiate*, p. 90; *Liber Duellii*, p. 258. وعن آثار المخلفات الدينية التي حصل عليها ليوبولد ، أنظر Riant, *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, ii, p. 283. وكان كونت بار-سور-سين هو Milo III of Le Puiset.

(٥٨) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 213-19; *Fragmentum Provinciale de Captione Damiatæ* (in Rohricht, op. cit.), pp. 185-92; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp. 101-4; John of Tulbia, pp. 132-3; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 340-1.

١٢١٩م : القديس فرانسيس (أوف أسيسي)

كان هناك زائر بارز للمعسكر راح يرقب المعركة في أسى بئيس ، وهو الأخ فرانسيس (أوف أسيسي) . لقد جاء إلى الشرق وهو يظن - كظن كثير من الطيبين الحمقى قبله وبعده - أن سفارة سلام يمكنها أن تتوصل إلى السلام . وقد طلب الآن الإذن من بيلاجيوس للذهاب لمقابلة السلطان . وبعد قليل من التردد وافق بيلاجيوس ، وأرسله تحت راية الهدنة إلى فارسكور . وارتاب حراس المسلمين بادئ الأمر لكنهم سرعان ما قرروا أن أي شخص على هذا القدر من البساطة ، وبهذه الرقة ، وبذلك القدرة الطاغية ، لابد وأن يكون مجنوناً ، وعاملوه بما يجب من احترام لشخص به مس من الرب . وأخذوه إلى السلطان الكامل الذي انبهر به ، وأنصت إلى مناشدته في صبر ، وكان السلطان فائق الطيبة وبالغ التحضر بحيث لم يسمح له بأن يشهد على عقيدته عن طريق اختبار التعذيب بالنار^(٥٩) ؛ كما لم يجازف بما قد تثيره مناقشة عامة حول الدين من مرارة . وعرضت على فرانسيس هدايا كثيرة لكنه رفضها ، وأعيد إلى المسيحيين يحيط به حرس الشرف^(٦٠) .

ولم يكن تدخل القديس ضروريا في الواقع ، إذ كان الكامل نفسه ينجح إلى السلم . فقد ارتفع النيل في ذلك الصيف ارتفاعا طفيفا ووجدت مصر نفسها مهددة بالجماعة ؛ وكانت الحكومة في حاجة إلى كل مواردها لاستجلاب الطعام على عجل من الأراضي المجاورة . وكان المعظم في شوق للعودة مع جيشه إلى سوريا؛ ولم يكن أي من السلطتين سعيدا بأنشطة أحدهما الأشرف في الشمال . وفي بغداد كان الخليفة تحت سيطرة جلال الدين خوارزم شاه الذي دمر أبوه محمد الأملاك السلجوقية في إيران وأسس امبراطورية ممتدة من نهر الإندوس إلى نهر دجلة^(٦١) . ومن الممكن استخدام جلال الدين ضد الأشرف ، بيد أنه نظرا لطموحاته المعروفة كان من الخطورة تشجيعه على أن يبلغ هذا الشأو البعيد . ولذلك كان المعظم على استعداد لمساندة الكامل في أية

(٥٩) (المترجم): اختبار التعذيب أو المحاكمة بالتعذيب: Ordeal طريقة ألمانية قديمة لتقرير ما إذا كان المشتبه فيه مذنباً أو بريئاً بإخضاعه لاختبار بدني ، مثل وضع يده في ماء مغلي أو مروره بين أكوام محترقة بالنيران ، فإذا مر بهذا الاختبار بأمان ، يؤخذ ذلك على أنه تبرئة إلهية

(٦٠) *Acta Sanctorum*, October 4, pp. 611 ff. See van Ortroy 'Saint Francois et son Voyage en Orient' in *Analecta Bollandiana*, vol. xxxi. أوردها Ernoul, p. 431 حول رجال الدين الذين لم يستعهم تشير إلى زيارة القديس للسلطان

(٦١) (المترجم): نهر الإندوس: Indus نهر في جنوب آسيا ينبع من جنوب غرب التبت ويتدفق غربا عبر جامو وكشمير في الهند، ثم إلى الجنوب الغربي خلال باكستان ليصب في بحر العرب

مفاتيح ودية مع الفرنج . وفي وقت ما من شهر سبتمبر وصل إلى الصليبيين سجين فرنجي من قبل السلطان يعرض هدنة قصيرة ويعرض استعداد المسلمين للتخلي عن القدس ؛ وقبلت الهدنة ، ولكن المسيحيين رفضوا مناقشة المزيد من شروط السلام^(٦٢).

١٢١٩ م : الكامل يعرض شروط السلام

وأبقى الجانبان كلاهما الهدنة في ترميم دفاعاتهما . كما وجد الكثير من الصليبيين فرصة سانحة للعودة إلى أوطانهم ، وقد سبق أن رحل البعض في بداية الشهر ، وفي ١٤ سبتمبر أبحر عدد آخر منهم بملأ اثني عشرة سفينة . وبعد أسبوع وصل اللورد الفرنسي سوفاري (أوف موليون) مع صحبة كبيرة نقلت على عشرة قوادس شرعية من جنوا^(٦٣) . وعندما خرق الكامل الهدنة وهاجم الفرنج يوم ٢٦ من الشهر تولى القادمون الجدد الدفاع بنجاح^(٦٤).

وكان الكامل ما يزال يأمل في السلام ؛ إذ كان مدركا أن دمياط لن تصمد ، فعدد أفراد حاميتها انكمش للغاية من جراء المرض بحيث لم يتوفر ما يكفي من الرجال على الأسوار ، وقد باءت بالفشل محاولاته ادخال التعزيزات إليها ، كما لم ينجح الخونة في المعسكر ممن اشترى خدماتهم في أي من محاولاتهم . وفي نهاية أكتوبر أرسل فارسين من الأسرى لينقلا إلى الفرنج شروطه النهائية ، وهي أنه في حالة جلائهم عن مصر سوف يعيد اليهم الصليب الحقيقي ، وسوف يحصلون على القدس ، وكل فلسطين الوسطى والجليل ، ولن يحتفظ المسلمون إلا بالحصون الواقعة في منطقة الأردن ، وسوف يدفعون لهم إتاوة^(٦٥).

ولقد كان عرضا يأخذ بالألباب . إذ يمكن بدون حرب استعادة المدينة المقدسة مع

(٦٢) Oliver, *Historia Damiatana*, p. 218; *Gesta Obsidionis Damiate*, p. 105.

(٦٣) Oliver, *Historia Damiatana*, loc. cit; *Gesta Obsidionis Damiate*, p. 104; John of Tulbia, p. 133; James of Vitry, loc.cit..

(٦٤) Oliver, *Historia Damiatana*, p. 219; *Fragmentum Provinciale*, pp. 193-4; *Gesta Obsidionis Damiate*, p. 106; *Liber Duellii*, p.160.

(٦٥) Oliver, *Historia Damiatana*, p.222; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 341-2; Ernoul, p. 435; Maqrisi (trans. Blochet), ix, p. 490; *Histoire des Patriarches*, p. 253; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp. 109-10; Ibn al-Athir, ii, p. 122.

بيت لحم والناصرة والصليب الحقيقي إلى العالم المسيحي . ونصح الملك جون بقبول العرض ، وأيده باروناته هو نفسه وبارونات إنجلترا وفرنسا وألمانيا . بيد أن بيلاجيوس لم يوافق على أي من هذا الشروط ، ولا بطريق القدس . إذ كانا يعتقدان أن الخطأ كله في التوصل إلى تفاهم مع الكفرة ؛ ووافقتهما الأنظمة الدينية العسكرية لأسباب استراتيجية ؛ فقد هُدمت القدس وحصون الجليل ، ويستحيل على أية حال الاحتفاظ بالقدس بدون السيطرة على منطقة الأردن . وعارض الإيطاليون الشروط بنفس القدر . وبرغم أن المدن الإيطالية كانت قليلة الرغبة في إحداث صدع في العلاقات مع مصر ، فإن حدوث الصدع الآن بالفعل جعلهم يرغبون في الاحتفاظ بدمياط كمركز تجاري ؛ ولم يكن ضم أراض داخل البلاد يستهوي تلك المدن الإيطالية . وتفاقم الخلاف بين الفريقين بصورة ملوها المرارة حتى أن أسقف عكا ، جيمس ، اعتقد أن السلطان قدم هذا العرض لا لشيء سوى أن يحدث الشقاق بينهم . وبإصرار بيلاجيوس رفض العرض^(٦٦) .

وبعد أيام قلائل عادت مجموعة استكشاف كان بيلاجيوس قد أرسلها لتعلن أن سور دمياط الخارجي ليس عليه رجال ، وفي اليوم التالي ، الثلاثاء ٥ نوفمبر ١٢١٩م تقدم الصليبيون بقواتهم وتسوروه ، والسور الداخلي كذلك ، بلا مقاومة تذكر . وفي داخل المدينة وجدوا رجال الحامية كلهم تقريباً يعانون المرض ، ولم يكن هناك على قيد الحياة من المواطنين سوى ثلاثة آلاف شخص ، كلهم في حالة من الضعف البالغ بحيث لا يستطيعون حتى دفن موتاهم . وكان الطعام والمال وفيراً ، غير أن المرض قام بما كان مفروضاً أن يقوم به الصليبيون . وما أن استولى الصليبيون على المدينة كلها حتى احتجزوا ثلاثمائة من وجهاء المدينة كرهائن ؛ وسلموا الأطفال الصغار لرجال الدين لتعميدهم واستخدامهم في خدمة الكنيسة ، وباعوا من تبقى من المواطنين رقيقاً . وكان من المقرر تقسيم المال فيما بين الصليبيين بحسب رتبة كل منهم ، غير أن كل ما أعلنه المندوب البابوي من لعنات للسارقين ، لم يمنع الجنود من سرقة الأشياء الثمينة واخفائها^(٦٧) .

(٦٦) James of Vitry, *Epistola*, vi (Z.K.G. vol. xvi, pp. 74-5); Oliver, *Historia Damiatana*, p. 223, and *Epistola Regi Babilonis*, p. 305; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 342; letter of French lords to Honorius in Rohricht, *Studien zue Geschichte des Funften Kreuzzuges*, p.46; Maqrisi, *loc. cit.*

(٦٧) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 236-40; *Gesta Obsidionis Damiate*, pp. 111-14; *Fragmentum Provinciale*, pp. 196-200; Ibn Khallikan, iv, p. 143;

ومثلت الخطوة التالية في ضرورة الاتفاق على حكم دمياط. وعلى الفور طالب الملك جون بأن تكون جزءا من مملكة القدس وأيده في ذلك الأنظمة الدينية العسكرية والنبلاء العلمانيين. وحاجج بيلاجيوس بأن المدينة المهزومة تنتمي إلى العالم المسيحي كله، أي إلى الكنيسة؛ غير أنه خضع بعدما وجد الرأي العام ضده وبعد أن هدد جون بالإبحار عائدا إلى عكا. وبإمكان الملك أن يحكمها إلى أن ينضم فريدريك الألماني إلى الحملة الصليبية^(٦٨). وفي تلك الأثناء أرسل جزءا من الجيش لمهاجمة تانيس الواقعة على المنصب التانيسي للنيل على مسافة أميال قليلة إلى الشرق؛ فوجد الجنود أن حاميتها هجرتها قد خروفا، فعاد الصليبيون بمزيد من الأسلاب، لم تؤد إلا إلى مزيد من المشاجرات. وقد ظن الإيطاليون خاصة أنهم قد خدعوا، ولما وجدوا بيلاجيوس رافضا مناصرتهم انقلبوا على أعقابهم في تمرد حقيقي؛ فكان لزاما على الأنظمة الدينية العسكرية طردهم من المدينة. وبحلول الشتاء كان الجيش المنتصر كله يتأجج سخطا^(٦٩).

١٢٢٠ م : بيلاجيوس ينشد حلفاء

تنبأ بيلاجيوس، في غمرة ابتهاجه الأولى، بالدمار النهائي للإسلام. فسوف تهزم الحملة الصليبية مصر كلها؛ ولا شك أن العون سيأتي من ذلك العاهل المسيحي ذي الشهامة ملك جورجيا. كما أن هناك بريستر جون الذي قالت الشائعات إنه ينتظر ليضرب ضربة جديدة من أجل العالم المسيحي، وقد ظن بادئ الأمر أن بريستر جون إن هو إلا نجاشي اثيوبيا الذي لم يرد قط، مع ذلك، على رسالة من البابا أرسلها قبل أربعين سنة^(٧٠). على أن هناك الآن مرشحا جديدا للقيام بهذا الدور وهو عاهل شرقي يدعى جنكيز خان. ولسوء الحظ لم يكن للحلفاء المقصودين من تأثير؛ إذ أن المغول التابعين لجنكيز خان هزموا جيش الملك جورج، وهو ملك جورجيا، هزيمة نكراء عام ١٢٢٠ م على حدود أذربيجان، ودمرت القوة العسكرية الهائلة التي بنتها الملكة تمار.

Ibn al-Athir, ii, p. 119; Abu Shama, pp. 176-7.

^(٦٨) *Gesta Obsidionis Damiate*, p. 115; John of Tulbia, p. 139; Ernoul, p. 426.

^(٦٩) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 240-1; John of Tulbia, p. 139; *Liber Duellii*, p. 166.

^(٧٠) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 231-5. وقد تأثر بيلاجيوس أيضا بنبوءة إسلامية واعدة. وعن بريستر جون انظر أعلاه، الجزء الثاني، (ص. ٤٧٤) والملاحظة (٣٩).

ولم يعبأ المنتصرون بمهاجمة الإمبراطورية الأيوبية^(٧١). أما التعاون الأكثر جدية فكان متوقعا من أعظم عواهل غرب أوروبا، فريدريك، ملك ألمانيا و صقلية.

وقد سبق أن أخذ فريدريك الصليب عام ١٢١٥ م، لكن البابا إينوسنت منحه الإذن بتأجيل الحملة الصليبية حتى يفرغ من ترتيب الأمور في ألمانيا. وما يزال فريدريك يتلكأ؛ إذ وعد البابوية بتسليم عرش صقلية الذي ورثه وهو صبي لإبنه الصغير هنرى. لكنه سرعان ما اكتشف أنه بمعاودة تصميمه على الذهاب في حملة صليبية فإنه إنما يرضى بتقسيم مملكته، وسوف يساوم البابا على تنصيبه الإمبراطور. وكانت رغبته في الذهاب إلى الشرق رغبة أصيلة، برغم أن دوافع الذهاب ترجع إلى الطموح أكثر مما ترجع إلى التقوى؛ إذ أنه ورث عن أبيه هنرى السادس تطلعاته الشرقية، لكنه لن يحاول تحقيقها إلا كإمبراطور ممالكه الأوروبية آمنه في قبضته. وكان ينبغي لنوابه أن تكون واضحة حلية للبابا؛ على أن هونوريوس، الذي كان ذات مرة معلما له، كان رجلا بسيطا اعتبر أن وعوده أصيلة، ودأب على إرسال الرسائل إلى الصليبيين في مصر يزف اليهم نبأ توقع جيش هوهينشتافن^(٧٢).

ومن أجل ذلك ركن الصليبيون إلى الدعة والراحة؛ وفي حالة التراخي التي ركنوا إليها تفاقم الخلافات بين بيلاجيوس والملك جون والإيطاليين والأنظمة الدينية العسكرية. ولو أنهم زحفوا على القاهرة فور سقوط دمياط لكان النجاح حليفهم؛ إذ كان الكامل في وضع يائس، وقد وهنت العزيمة لدى جيشه، ورعاياه يتضورون جوعا ولقد أصر المعظم على إعادة قواته إلى سوريا لحشيته من حدوث اضطرابات في الشمال ولإعتقاده أن أفضل السبل لمساعدة الإسلام هي شن هجوم الآن على عكا نفسها. وبات الكامل في كل يوم يتوقع تقدم المسيحيين، فاتخذ من طلخا مقرا لمعسكره، على مسافة أميال قليلة أعلى فرع دمياط وشيد على عجل التحصينات على جانبي النهر

(٧١) أنظر أدناه ص ٢٩٧. وقد كتب بيلاجيوس إلى البابا هونوريوس الثالث معربا عن آماله في مساعدة جورجيا. (Rohricht, Studien, p. 52) وكان إينوسنت الثالث قد سبق وطلب تعاون جورجيا. (Oliver, Historia Damiatana, pp. 232-3) وأظهر James of Vitry اهتمامه بتدخل المغول بأن ترجم من العربية، بمساعدة بعض الخبراء، كتاب يسمى *Excerpta de Historia David regis Indiorum qui Presbyter Johannes a vulgo appellatur* (ed. Rohricht, Z.K.G. vol. xvi, pp. 93 ff.) وما أورده من حقائق خاطئ تماما.

(٧٢) للإطلاع على ملخص بالمراجع حول تعاملات فريدريك مع البابا أنظر Donovan, op.cit. pp. 75-9.

توقعاً لهجوم لم يحدث قط^(٧٣).

١٢٢٠م : الملك جون يغادر الجيش

وقد مات ليو الثاني ملك أرمينيا في أوائل الصيف من عام ١٢١٩م تاركاً بنتين كانت كبراهما ستيفاني زوجة جون (أوف برين)، وكانت الصغرى، إيزابيلا، ابنة الأميرة سبيللا أميرة قبرص والقدس، وكانت في الرابعة من عمرها. وكان ليو قد وعد باستخلاف ابن أخيه ريموند-روين أمير انطاكية، غير أنه وهو على فراش الموت عين إيزابيلا وريثة له. وعلى الفور تقدم جون بمطالبة بالعرش نيابة عن زوجته وابنتهما الرضيع، وفي فبراير ١٢٢٠م تسلم إذنا من البابا بمغادرة الحملة الصليبية وزيارة أرمينيا. وكانت علاقته ببيلاجيوس من السوء بحيث لم يكن هناك مغزى في بقاءه مع الجيش، ومن ثم منح البابا الآن صراحة كامل القيادة لبيلاجيوس، ورحل جون إلى عكا. وبينما هو يتهياً للإبحار إلى كيليكيا ماتت زوجته الأرمينية وقالت الشائعات إن موتها جاء نتيجة لسوء معاملته لها. وبعد أسابيع قليلة مات ابنهما الصغير، ومن ثم لم يعد لجون أية مطالبات أخرى في العرش الأرميني. بيد أنه لم يرجع إلى مصر^(٧٤). وفي شهر مارس أغار المعظم على المملكة مهاجماً قلعة قيسارية التي أعيد بناؤها لتوها، ثم تحول ليضرب الحصار حول معقل فرسان المعبد في عثليت. فهرع فرسان المعبد عائدين من دمياط، وأبقى جون جيشه في الأفق. ودام الحصار حتى شهر نوفمبر عندما انسحب المعظم إلى دمشق^(٧٥).

وفي تلك الأثناء بقيت الحملة الصليبية ساكنة لا تتقدم ولا تتأخر. وبُذلت محاولات لإعادة بناء المدينة ففي عيد التطهير، في فبراير^(٧٦)، كُرس المسجد الجامع ليصبح كندراية العذراء. وفي شهر مارس وصلت مجموعة من الأساقفة الإيطاليين على رأسهم رئيس أساقفة ميلانو، يصحبهم مبعوثان من فريدريك الثاني، وجليبوا معهم

(٧٣) *Histoire des Patriarches*, p. 254; *Abu'l Fida*, p. 91.

(٧٤) *Ernoul*, p. 427; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 340; *Oliver, Historia Damiatana*, p. 248.

(٧٥) *Oliver, Historia Damiatana*, pp. 244-5, 255-6; *Ernoul*, pp. 421-4.

(٧٦) (الترجم) : عيد التطهير : *Feast of the Purification* عيد مسيحي تخليداً لتقديم المسيح في المعبد بعد استكمال تطهير مريم (انظر انجيل لوقا ، ٢: ٢٢) ، وموعده ٢ فبراير

قوات كبيرة ، واتفقوا من فورهم مع بيلاجيوس على شن هجوم . لكن الفرسان لم يوافقوا قائلين إن الملك جون هو القائد الوحيد الذي ينبغي لجميع الأمم أن تدين له بالطاعة ، وهو غائب الآن^(٧٧) . وفي شهر يولية أرسل فريدريك ثمانية قوادس بقيادة ماثيو ، كونت أبوليا ، فعاود بيلاجيوس محاولاته لشن هجوم دون جدوى ، حتى عندما اقترح حملة منفصلة لم يجد أذنا صاغية ، بل انقلب ضده مرتزقته هو نفسه من الإيطاليين ، وكان المشروع الوحيد الذي وافقت عليه الأنظمة الدينية العسكرية هو الإغارة على مدينة البرلس على مسافة عشرين ميلا إلى الغرب من دمياط . ونهبت المدينة ؛ لكن الفرسان وقعوا في كمين في طريق عودتهم وأسر عدد من فرسان المستشفى ، بمن فيهم رئيسهم المارشال^(٧٨) .

والآن استعداد الكامل ثقته بنفسه . وبرغم أنه كان ما يزال يفتقر إلى القوات البرية فقد أصلح بحريته ، وفي صيف عام ١٢٢٠م أرسل أسطولا في فرع رشيد أبحر إلى قبرص حيث وجد أسطولا صليبيا راسيا أمام ليماسول ، وبهجوم مفاجئ أغرق أو أسر السفن الصليبية كلها ، وأسر ألوف كثيرة . وقيل إن بيلاجيوس تلقى تحذيرات تقول إن البحارة المصريين دائبون على عمل الترتيبات ، إلا أنه لم يعبأ بتلك التحذيرات . وبعد أن سبق السيف العذل أرسل أسطولا بندقيا لإعترض الأعداء ولمهاجمة موانئ رشيد والإسكندرية ولكن بلا جدوى ، إذ حال افتقاره إلى المال دون أن يتوفر لديه ما يكفيه من السفن الخاصة به ؛ ولم يكن بوسع الخزانة البابوية أن توفر له أية أموال أخرى^(٧٩) .

وفي سبتمبر عاد المزيد من الصليبيين إلى بلادهم ؛ غير أنه في نهاية العام أرسل البابا هونوريوس أخبارا طيبة . فقد جاء فريدريك إلى روما في نوفمبر ١٢٢٠م ، توجه البابا امبراطورا وتزوج زوجته كونستانس امبراطورة ، وفي المقابل وعد فريدريك وعدا قاطعا بالإنطلاق إلى الشرق في الربيع التالي . وكان هونوريوس قد بدأ يرتاب في وعود فريدريك ، حتى أنه نصح بيلاجيوس بعدم رفض أية عروض للسلام مع السلطان قبل أن يحيلها إلى روما . غير أن الامبراطور الجديد بدا الآن جادا في وعده ؛ ونشط في تشجيع رعاياه على أخذ الصليب ، وسير كتيبة كبيرة بقيادة لويس ، دوق بافاريا ،

Oliver, *Historia Damiatana*, p. 248; Roger of Wendover, ii, pp. 260-1. (٧٧)

Oliver, *Historia Damiatana*, p. 252. (٧٨)

Ernoul, pp. 429-30; Oliver, *Historia Damiatana*, p. 253. (٧٩)

أبحرت من ايطاليا في وقت مبكر من الربيع^(٨٠).

جاءت أنباء اقتراب وصول الدوق فأثلجت للغاية صدر بيلاجيوس حتى أنه عندما سبق عرض الكامل شروط السلام في شهر يونية ، نسي تعليمات البابا ورفضها ، ولم يخطر روما إلا مع وصول الأخبار السارة . وكان الكامل قد عرض مرة أخرى التخلي عن القدس وفلسطين كلها عدا منطقة الأردن مع هدنة مدتها ثلاثين سنة ودفع أموال تعريضا عن تدمير القدس . وبعد رفض هذه الشروط مباشرة وصل لويس دوق بافاريا^(٨١).

١٢٢١ م : الصليبيون يتقدمون

كان فريدريك قد أمر لويس بألا يشن هجوما كبيرا إلى أن يصل هو نفسه . لكن لويس كان متلهفا على مهاجمة الكفرة ؛ وعندما انتظر خمسة أسابيع دون أن تصله أية أنباء عن مغادرة فريدريك لأوروبا تساوت مع رغبات بيلاجيوس . ولم يقتنع زعماء الصليبيين بضرورة الزحف الفوري، للجيش الذي وصلته التعزيزات، داخل مصر إلا بعد أن جادل الدوق بأن الوقت قد حان نظرا لإقتراب وقت فيضان النيل، وبعد أن أعلن الممثل البابوي أن الحالة المالية للجيش تستلزم عملا عاجلا . ولكن زعماء الصليبيين أصروا على شيء واحد وهو استدعاء الملك جون ليلعب دوره ، وكانت المعارضة ضئيلة . وكتبت ملكة قبرص الوصيّة على العرش إلى بيلاجيوس. أن العمل يجري على قدم وساق لإعداد جيش اسلامي ضخم في سوريا يعده المعظم وأخوه الأشرف ؛ وتلقى فرسان الأنظمة الدينية العسكرية من إخوانهم في فلسطين ما يؤكد تلك الأنباء. غير أن بيلاجيوس وجد في تلك الأنباء حجة أخرى للتقدم العاجل داخل مصر ؛ وخاصة وأنه سمع نبوءات تفيد بسرعة انتهاء سيادة السلطان^(٨٢).

(٨٠) Oliver, *historia Damiatana*, p.257. أنظر Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, v, ii, pp. 1420-1.

(٨١) Oliver, *loc. cit.*; James of Vitry, *op. cit.* pp. 106-9; Ernoul, p. 442.

(٨٢) Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 257-8; Roger of Wendover, ii, p. 264; James of Vitry, *Epistola vii* (Z.K.G. vol. xvi, p. 86); Ernoul, pp. 441-3. النبوءات أنظر: Oliver, *Historia Damiatana*, pp.258-0; James of Vitry, *Excerpta* (Z.D.G.vol. xvi, pp. 106-13); *Annales de Dunstaplia (Annales Monastici*, vol. iii, p. 62); Alberic of Trois Fontaines, p. 790.

وفي ٤ يولية ١٢٢١م أمر الممثل البابوي بالصوم ثلاثة أيام في المعسكر . وفي السادس من الشهر وصل الملك جون عائدا مع فرسان مملكته وقد ملأه الحماس لكنه لم يكن على استعداد لأن يُتهم بالجن . وفي الثاني عشر من الشهر تحركت القوة الصليبية قاصدة فارسكور، وهناك رتبها بيلاجيوس في تشكيلات قتالية . ولقد كان جيشا كبيرا؛ تحدث معاصروه عن ستمائة وثلاثين سفينة من شتى الأحجام وخمسة آلاف فارس وأربعة آلاف رام وأربعين ألف جندي مشاة . وصاحب الجيش حشد كبير من الحجاج؛ وقد أمروا أن يسيروا بالقرب من الضفة النهر لتزويد الجنود بالماء. وتخلفت حامية كبيرة في دمياط.

وتقدم الجيش الإسلامي حتى شرمشاح لملاقاتهم ، ولكنه بعد أن شاهد أعدادهم الضخمة انسحب خلف البحر الصغير الذي يجري من النهر إلى بحيرة المنزلة ، ولبث منتظرا في مكانين سبق الإعداد لهما ، في ظلخا وفي الموقع الذي أصبح المنصورة فيما بعد على جانبي النهر . وبحلول ٢٠ يولية كان الصليبيون قد احتلوا شرمشاح . وتوسل اليهم الملك جون كي يبقوا هناك ، فقد حان وقت فيضان النيل ، والجيش السوري يقترب ؛ لكن بيلاجيوس أصر على المزيد من التقدم ، يؤيده عوام الجنود الذين سمعوا شائعة بأن السلطان قد هرب من القاهرة . وفي جنوب شرمشاح مباشرة كانت هناك قناة آتية إلى النهر من فرع آخر ؛ وفي حمية تقدم الصليبيين لم يتركوا سفنا لحماية مصب القناة ، ربما لظنهم أنها غير صالحة للملاحة . وبحلول يوم السبت ٢٤ يولية كان الجيش المسيحي كله رابضا بطول البحر الصغير مواجهها للعدو.

ولقد ارتفع النيل الآن وامتلات القناة وغدا الدفاع عنها يسيرا . على أنها قبل أن يصبح غورها بالغ العمق عبرتها جيوش أخوي الكامل - المعظم والأشرف - بالقرب من بحيرة المنزلة واتخذت لها مواقع حصينة تفصل بين الصليبيين ودمياط . وما أن توفر ما يكفي من المياه في القناة المارة بشرمشاح حتى ابحرت سفن الكامل فيها وقطعت طريق انسحاب الأسطول المسيحي . وفي منتصف أغسطس تحقق بيلاجيوس من أن جيوش الأعداء تفوق جيشه عددا ، وأن جيشه محاصر تماما وليس لديه من طعام سوى ما يكفي لعشرين يوما . وبعد قليل من الجدل ، حث البافاريون القيادة على الانسحاب الفوري كوسيلة وحيدة للهرب ؛ وفي ليلة الخميس ٢٦ أغسطس بدأ الانسحاب الذي شابهته الفوضى . ذلك أن الكثير من الجنود لم يتحملوا ترك مخزوناتهم من النيذ ، فشربوه كله بدلا من تركه . وعندما صدرت الأوامر بالتحرك كانوا في حالة سكر شديد . وفي حركة حمقاء أشعل فرسان التيوتون النيران في المخزونات التي لم يستطيعوا

حملها ، وبذا أبلغوا المسلمين بأنهم تاركو مواقعهم . وكان النيل ما يزال يرتفع ، وأصدر السلطان أو أحد قاداته الأوامر بفتح المنافذ الواقعة بطول الضفة اليمنى . فتدفقت المياه على الأراضي المنخفضة التي ينبغي للمسحيين عبورها ؛ فراحوا يكدحون خلال بحيرات الوحل والمصارف الطينية وفي ذيلهم خيالة السلطان من الأتراك ومشاة الحراسة من أبناء النوبة . وتمكن الملك جون وفرسانه من دحر خيالة الأتراك ، ورد فرسان الأنظمة الدينية العسكرية النوبيين ، ولكن بعد أن هلك الألوف من المشاة والحجاج . وكان بيلاجيوس على ظهر سفينة جرفت بها مياه الفيضان فتجاوزت في سرعة حصار الأسطول المصري ؛ ولأن سفينته كانت تحمل الإمدادات الطبية للجيش والكثير من طعامه ، فقد كان فراره بمثابة كارثة . وتمكنت سفن أخرى قليلة من الهرب لكن المسلمين استولوا على الكثير من السفن^(٨٣) .

١٢٢١م : بيلاجيوس يستعطف طالبا السلام

وفي يوم السبت الثامن والعشرين من الشهر تملك اليأس بيلاجيوس ، فأرسل مبعوثا إلى السلطان طالبا السلام ؛ وما يزال لديه رصيد يساوم عليه ؛ فقد أعيد تحصين دمياط وبها حامية جيدة ولديها الأسلحة الوفيرة ؛ وهناك أسطول بحري قوي في الأفق بقيادة هنري كونت مالطا ، وولتر (أوف بالير)، مستشار صقلية ، الذي أرسله الامبراطور فريدريك . لكن الكامل كان يعلم أن الجيش الصليبي الرئيسي تحت رحمته ؛ فكان صارما وانما كريما . وبعد الأخذ والرد في عطلة نهاية الأسبوع ، قبل بيلاجيوس يوم الإثنين شروطه التي تقضى بأن يتخلى المسيحيون عن دمياط ويحترموا هدنة مدتها ثمانية أعوام يعتمدها الامبراطور . ويتم تبادل جميع الأسرى من الجانبين . وسوف يعيد السلطان من جانبه الصليب الحقيقي . وعلى الحملة الصليبية تسليم زعمائها كرهائن إلى أن تستسلم دمياط ، وحدد السلطان بالإسم بيلاجيوس والملك جون ودوق بافاريا والسادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية وثمانية عشر شخصا آخرين من الكونتات والأساقفة . وفي المقابل أرسل أحد أبنائه ، وأحد إخوته وعددا من صغار الأمراء^(٨٤) .

(٨٣) يرد الوصف الأكثر اكتمالا لشاهد عيان في Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 257-73 ; Roger of Wendover, ii, pp. 263-4; Ernoul, pp. 439-44; *Histoire des Patriarches*, pp. 257-8; Abu Shama, ii, pp. 180, 182-3; Ibn al-Athir, ii, pp. 122-4, 158; Ibn Khallikan, iii, p. 241.

(٨٤) Oliver, *Historia Damiatana*, pp.274-6; Ernoul, pp. 444-7; *Histoire des*

وعندما أرسل السيدان العظيمان لفرسان المعبد وفرسان التوتون إلى دمياط لإعلان استسلامها ، ثمرت الحامية أول الأمر ضد هذا الأمر وهاجمت منزل الملك جون ومنازل الأنظمة الدينية العسكرية . ذلك أن هنري ، كونت مالطا كان قد وصل لتوه مع أربعين سفينة ؛ وشعرت الحامية بما يكفي من القوة لتحدي الأعداء . غير أن الشتاء قادم والطعام ينفذ وقادتهم رهائن والمسلمين يهددون بالزحف على عكا . وسرعان ما رضخ المتمردون . وبعد أن أوفى الكامل للملك جون وليمة رائعة ، وبعد أن أعاد تموين الجيش المسيحي بلا مقابل ، تم تبادل الأسرى ؛ وفي يوم الأربعاء ٨ سبتمبر اعتلت الحملة الصليبية كلها ظهور سفنها ودخل السلطان دمياط^(٨٥).

وهكذا انتهت الحملة الصليبية الخامسة ، التي كانت قاب قوسين أو أدنى من النجاح . ولو كان في الجيش المسيحي قائد حكيم يلقي الإحترام ، لتحقيق احتلال القاهرة والقضاء على الحكم الأيوبي في مصر . وبتنصيب حكومة أكثر ودا هناك - إذ لم يكن الصليبيون يأملون قط في حكم مصر كلها بأنفسهم - لكان استرجاع فلسطين كلها أمرا غير مستحيل . لكن الامبراطور الذي كان خليقا وحده بأن يشغل هذا الدور لم يأت البتة برغم كل وعوده . لقد كان يلاجيوس رجلا متعجرفا فاقد الحيلة ممجوجا تكشف أخطاؤه كقائد في كارثة الهجوم الأخير ، بينما لم يكن لدى الملك جون ، برغم كل شجاعته ، الشخصية أو الهبة لقيادة جيش دولي . وتكاد كل مرحلة من الحملة أن تكون قد تحطمت على صخرة الغيرة الشخصية أو القومية . وكان الأكثر حكمة قبول الشروط التي عرضها السلطان مرتين واسترداد القدس . غير أنه ربما كان خيرا الإستراتيجية على حق عندما قالوا إنه من المحال الإحتفاظ بالقدس بدون حصون منطقة الأردن ، على الأقل طالما كان المسلمون في مصر وسوريا متحالفين . وهكذا لم تكسب الحملة شيئا ، وفقدت الكثير من الرجال والموارد والسمعة ، وكان أكثر الضحايا تعاسة هم أكثرهم طهارة ذيل . ونتيجة الخوف من مسيحيي الغرب ، ثارت موجة جديدة من التعصب في الإسلام . ففي مصر ، وبرغم التسامح الشخصي الذي كان الكامل يتحلى به ، مورست تصرفات معينة ضد المسيحيين المحليين ، الملكيين والأقباط سواء بسواء ؛ وفرضت ضرائب باهظة ، وأغلقت كنائس ، ونهب الجنود

Patriarches, pp. 257-8; Abu Shama, ii, p. 183-5

Oliver, *Historia Damiatana*, pp. 274-6; Ernoul, pp. 444-7; *Histoire des* (٨٥)
Patriarches, p. 258.

المسلمون الغاضبون الكثير منها. كما لم يكن في الإمكان أن يستعيد التجار الإيطاليون سابق وضعهم في الإسكندرية ؛ فقد شجّع أبناء جلدتهم الحملة الصليبية ، وبرغم عودتهم إلى موائل صرافتهم لم تعد الثقة فيهم كسابق عهدها. ولقد أبحر جنود الصليب عائدين إلى بلادهم يكللهم العار وتنهشهم المرارة . ولم يعيدوا معهم حتى الصليب الحقيقي نفسه . وعندما حان الوقت لتسليمه لم يُعثر له على أثر^(٨٦).

(٨٦) عن التفسيرات المعاصرة لفشل الحملة الصليبية أنظر Donovan, *op.cit.* pp.94-7 والحواشي ، وأنظر أيضا. Throop, *Criticism of the Crusades*, pp. 31-4.

الفصل الثالث:

الامبراطور فريدريك

الامبراطور فريدريك

"والآن أرسلت رجلا حكيما صاحب فهم"
(اخبار الأيام الثاني ١٣: ٢)

عندما أبحرت الحملة الصليبية في كآبتها من دمياط ، عاد الملك جون إلى عكا مباشرة، بينما اتجه الكاردينال بيلاجيوس شمالا لتنفيذ تعليمات البابا في أنطاكية وفي مملكة كيليكيا الأرمنية. ذلك أنه بوفاة الملك ليو الثاني، اعترف البابا هونوريوس بمطالبة جون (أوف برين) باستخلاف زوجته أو ابنها ؛ وبموتهما حول تأييد الكنيسة إلى ريموند-روبين أمير أنطاكية الذي جاء بنفسه إلى دمياط في صيف عام ١٢٢٠م للتشاور مع بيلاجيوس . وقبل ذلك بأشهر قليلة كان بوهمند أمير طرابلس قد أعاد الاستيلاء على أنطاكية رغم احتفاظ فرسان المستشفى بالقلعة . ثم أغار ريموند-روبين على كيليكيا مع أمه الأرمنية أليس ، ووطد دعائمه في طرسوس انتظارا للعون من فرسان المستشفى الذين تربطه بهم علاقات حسنة ، إذ عهد اليهم برعاية قلعة أنطاكية. على أن النبلاء الأرمن نفذوا رغبة مليكهم الراحل وقبلوا إبنته الصغيرة إيزابيلا مليكة

تحت وصاية آدم أمير بغراس . وقد اغتال الحشاشون آدم بعد أشهر قليلة من السلطة ، بتحريض من فرسان المستشفى بلا شك ؛ وخلفه في الوصاية قسطنطين زعيم الأسرة الهيثومية ، وكان الهيثوميون فيما سبق يمثلون الحزب المناصر لبيزنطة في أرمينيا . والآن برزوا كأبطال الوطنية ضد ما كانت تميل اليه الأسرة الحاكمة من اضعاء الصيغة اللاتينية . وفي وقت مبكر من عام ١٢٢١م زحف قسطنطين على طرسوس واستولى عليها ومعه الأمير وأمه ؛ وبعد ذلك مباشرة مات ريموند-روين في السجن ، وبرحيله باتت ايزابيللا آمنة على العرش الأرميني ، وكذلك الحال مع بوهمند أمير طرابلس في أنطاكية^(١).

وكان البابا قد حذر ييلاجيوس كي يتصرف بعناية ، فلا فائدة في طرح مطالبات بنات ريموند-روين الرضع اللاتي تقاعدن مع أمهن اللوسينانية في قبرص . لكن بوهمند هو ابن الكنيسة العاق ، وقد تدبر انتزاع قلعة أنطاكية من فرسان المستشفى ، كما حرّمهم من الوعد بمنحهم جلة التي عرضها عليهم ريموند-روين إذا نجحوا في الاستيلاء عليها ، وترك الحق في هذا الوعد لفرسان المعبد ، ومن ثمّ برز خطر اندلاع حرب مفتوحة فيما بين الأنظمة الدينية العسكرية . وتدبر ييلاجيوس اقناع كل منهما بقبول نصف المدينة ؛ غير أن بوهمند لم يرفض فقط إعادة الاعتراف بحق فرسان المستشفى في أنطاكية ، وإنما ضم ممتلكاتها هناك حتى برغم تهديد ييلاجيوس بطرده من الكنيسة وتنفيذه حكم الطرد . وظل فرسان المعبد على صلة حميمة به ، وسعى الوصي على أرمينيا إلى التحالف معه . وكان السلطان السلجوقي كايكوباد أعظم عاهل الآن في آسيا الصغرى ؛ إذ احتل جبال طوروس الغربية ، واتخذ من ساحل أليا عاصمته الشتوية ، وكان يمثل تهديدا للحدود الأرمينية كلها . وكان الأرمن في احتياج لحسن نوايا أنطاكية ؛ ولذا اقترح الوصي أن يرسل بوهمند ابنه الرابع فيليب ليتزوج من الملكة الأرمينية الشابة ، مصرا على شرط واحد فقط وهو أن ينضم العريس إلى الكنيسة الأرمينية المنشقة . ولما كانت الضغينة ملتهبة في صدر بوهمند من قرار المندوب البابوي بطرده من الكنيسة ، فقد سمح لابنه عن طيب خاطر بالسقوط في الهرطقة . وساعد التحالف بين أرمينيا وأنطاكية على تحقيق هدفه العاجل ؛ إذ حوّل كايكوباد انتباهه بعيدا عنهما إلى جيرانه المسلمين في الشرق .

(١) عن التفاصيل والمصادر، أنظر. Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 628-32.

١٢٢٦م : الإستخلاف الأرمني

كان الأرمن يعلقون الآمال على أن يصبح فيليب نفسه أرمينيا صالحا ، خاصة وأنه لم تكن لديه توقعات قط في أن يرث أنطاكية ؛ غير أن مزاجه كان لاتينيا عنيدا ، وقد أمضى أغلب الوقت في انطاكية . وثارت حفيظة الهيثوميين وأصدقائهم ، فاعتقلوه بليل في أواخر عام ١٢٢٤م أثناء ترحاله إلى أنطاكية وسجنوه في سبيس حيث دسّوا له السم بعد ذلك بأشهر قليلة . وثارت ثائرة بوهمند لكنه كان فاقد الحيلة ؛ إذ أن البابا كان قد أيد طرده من الكنيسة وحذر فرسان المعبد كي يتعدوا عنه . وانحاز فرسان المستشفى صراحة إلى جانب الأرمن المهرطقة ، فعندما هربت الملكة الشابة أرملة فيليب كسيرة القلب إلى سيلوشيا لائذة بحمايتهم ، سلّموا المدينة كلها إلى الرصي قسطنطين ليتجنبوا عار تسليمها بأنفسهم . واستنجد بوهمند بكايكوباد فغزا السلاجقة كيليكيا ؛ فما كان من قسطنطين إلا أن حث بوهمند على إيقافهم بأن دعاه للحضور إلى كيليكيا ليستعيد ابنه ، وفي ذات الوقت رتب لطغرل - الرصي على حلب - لأن يزحف على أنطاكية . وعندما وصل بوهمند فعلا إلى كيليكيا قيل له إن ابنه قد مات وعليه أن يسرع عائدا إلى عاصمته انطاكية للدفاع عنها ضد طغرل . وفي تلك الأثناء أبحرت الملكة الشابة التعيسة إيزابيلا على الزواج من هيثوم ابن قسطنطين . وظلت لسنوات كثيرة على رفضها العيش معه ، لكنها لانت في نهاية الأمر ، وفي عام ١٢٢٦م احتفل بتويجهما معا . والآن رأى قسطنطين ، برغم وطنيته الشديدة ، أن من الحكمة مصالحة أرمينيا مع البابوية ؛ فأرسلت الرسائل باسم الزوجين الشابين إلى البابا وإلى الامبراطور فريدريك^(٢) .

رضى مسيحيو الشمال كل الرضا لإستدامة الحرب بين جاريتهم الرئيسيين المسلمين وهما السلاجقة من ناحية والأيوبيون في حلب والموصل من ناحية أخرى ؛ إذ لا تنطبق عليهم هدنة الثمانى سنوات التي ضمنها الكامل . وفي الجنوب ، استغل جون (أوف برين) هذه المعارك الإسلامية استغلالا شغرفا لكي تستريح مملكته المرهقة ، وبخاصة لكي ينعش التجارة مع بلاد الداخل الإسلامية التي كانت مصدر إيراداته الرئيسى . وفي خريف ١٢٢٢م قرر زيارة الغرب ؛ إذ كان يرغب في استشارة البابا حول مساعدة مملكته في المستقبل ، وعليه أن يجد زوجا لابنته الملكة الصغيرة التي لم تتجاوز الحادية

(٢) Cahen, *op. cit.* pp. 632-5 . ويكتب المؤرخون الأرمن من وجهة نظر الهيثوميين . وأفضل سرد موزوعي هو سرد ابن الأثير . ii, pp. 168-70 .

عشرة ، لكنه الآن في السبعينات من عمره ، ولا بد من ضمان استخلافه . وبعد أن عيّن نائبا له هو أودو (أوف مونتليارد) ، ركب السفينة من عكا مع بيلاجيوس الذي أنهى لتوه جولة رسولية بابوية في قبرص مع بطريق القدس ، رالف (أوف ميرينكورت) ومع السيد الأعظم لفرسان المستشفى . وكان السيد الأعظم لفرسان التيوتون ، هيرمان (أوف سالزا) موجودا بالفعل في روما . وهبطت الصحبة الي اليابسة في برنديزي بجنوب ايطاليا في نهاية أكتوبر^(٣) .

ومضى جون مباشرة إلى روما حيث طالب بمنح مملكة القدس أية أراض تستولى عليها أية حملة صليبية في المستقبل ، وربما اعترض بيلاجيوس على ذلك ، لكن البابا وافق على طلب جون وأرسل الامبراطور بموافقته كذلك . ثم ذهب جون إلى فرنسا لزيارة صديقه القديم الملك فيليب أوغسطس مرة أخرى . وفي ذات الوقت طرح هيرمان (أوف سالزا) اقتراحا يقضى بزواج الملكة يولاندا من الامبراطور فريدريك نفسه الذي ماتت زوجته الإمبراطورة قبل أربعة أشهر . ولسوف يكون زواجا رائعا . وراقت الفكرة لجون ، ولكنه تردد إلى أن وعده هيرمان بالإحتفاظ بالوصاية حتى مماته . وتحمس البابا ، فإذا كان لفريدريك أن يحكم القدس باسم زوجته أي يصبح زوجا للملكة ، فيقينا لن يعاود مراوغاته وتأجيله للحملة الصليبية ؛ وبوصول جون إلى باريس كانت المفاوضات قد اكتملت تقريبا . ولم ترق الأنباء للملك فيليب وعنف جون ؛ إذ أن ملك فرنسا هو الذي كان مطلوبا منه حتى الآن أن يعثر على زوج لوريثة مملكة الشرق الفرنجي . وكان فيليب قد سبق ورشح جون ؛ ولكن تقديرا لما كان بينهما رَحَب فيليب بجون ترحيبا طيبا ، وكان جون حاضرا عندما مات فيليب في مانتيس يوم ١٤ يولية ١٢٢٣ م . وترك فيليب في وصيته لجون خمسين ألف مارك كي تنتفع بها مملكة القدس ، مع ميراث مماثل لنظام فرسان المستشفى ونظام فرسان المعبد . وحضر جون جنازة الملك وتتويج ابنه لويس الثامن ، ثم ذهب في رحلة الحج إلى سانتياجو دي كومبوستيلا في أسبانيا . ومكث بضعة أشهر في كاستيل حيث تزوج برنجاريا أخت الملك فرديناند الثالث ، وعاد إلى ايطاليا في وقت ما من عام ١٢٢٤ م^(٤) .

(٣) Oliver, *Historia Damiatana*, p.280; *Estoire d'Eracles*, ii, p.355; Ernoul, pp.448-9; *Annales de Terre Sainte*, p.437

(٤) Ernoul, pp. 449-50; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 355-6; Richard of San Germano, -M.G.H. vol. xix, pp.342-3; *Historia Diplomatica Friderici Secundi* (ed. Huillard Bréholles), ii, p. 375. للزواج. Raynaldus, Anno 1223, no. 7, i, pp. 465-6.

١٢٢٥م : زواج فريدرىك وبولاندا

وفي شهر أغسطس من العام التالى ، وصل إلى عكا هنرى كونت مالطة ومعه أربعة عشر قادسا امبراطوريا لكى يصطحب الملكة الصغيرة ، التى لم تتجاوز الرابعة عشرة من عمرها ، إلى ايطاليا لزفافها. وكان على ظهر السفينة جيمس ، رئيس أساقفة كابوا المختار ، الذى ما أن هبط إلى البر حتى تزوج بولاندا كوكيل لفريدرىك في كنيسة الصليب المقدس . ثم أخذت إلى صور ، ولكونها تعتبر الآن راشدة ، وتزوجها البطريق رالف ملكة للقدس في حضور جميع نبلاء مملكة الشرق الفرنجى ؛ واستمرت الحفول لأسبوعين ، ثم أبحرت الملكة بصحبة رئيس أساقفة صور ، سيمون (أوف موحاستيل) وابن عمها باليان أمير صيدا . وتوقفت لأيام قليلة في قبرص لرؤية حالتها، الملكة أليس . وعندما حانت ساعة الرحيل انهمرت الدموع من مآقي الملكتين والسيدات كلهن ؛ وسمعن بولاندا تتمتم تمنة وداع حزينة لأرض سوريا الحلوة التى لن تراها مرة أخرى^(٥).

وفي برنديزي كان الامبراطور ، ومعه الملك جون ، منتظرا عروسه . واستقبلت بالآبهة الإمبراطورية وجرى احتفال ثان بالزواج يوم ٩ نوفمبر ١٢٢٥م في كندرائية برنديزي^(٦).

كان فريدرىك في عامه الحادى والثلاثين ؛ شابا وسيما ربعا قوي البنية برغم ميله إلى السمنة، وكان شعره الأحمر كآل هومينشتوفن، يتراجع إلى الوراء قليلا . وكانت ملاحه متسقة بفهم ممتلئ يوحى بالشهوة، وتبدو طيبة إلى أن تلاحظ عينيه الباردتين الخضراوين ، اللتين تخفى نظرتيهما النافذة قصر نظره . وكانت ألمعته حليّة ؛ إذ كان يتحدث ست لغات بطلاقة، الفرنسية والألمانية والإيطالية واللاتينية واليونانية والعربية . وكان ضليعا في الفلسفة والعلوم والطب والتاريخ الطبيعى ، وعلى دراية جيدة بالبلدان الأخرى ؛ وكان حديثه - إذا أراد - أسرا . غير أنه برغم كل هذا الذكاء لم يكن محبوبا ؛ إذ كان قاسيا أنانيا ، خبيثا لا يعتمد عليه كصديق ولا يغفر كعدو. وسبب انغماسه في المتع الشهوانية من كل لون صدمة حتى للمعايير البسيطة في مملكة الشرق الفرنجى . وكان يجب أن يثير ثائرة المعاصرين بتعليقاته الفاضحة عن الدين والأخلاق . ولم يكن في الواقع بلا تدين ؛ بيد أن مسيحيته كانت على شاكلة بعض الأباطرة

(٥) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 357-8; *Gesta des Chiprois*, pp. 22-3 .

(٦) *Estoire d'Eracles*, loc. cit. .

البيزنطيين نوعا ما ؛ فكان يعتبر نفسه نائب الرب الممسوح على الأرض ، وكان يدرك أنه دارس لاهوت مقتدر ؛ ولذا لن يرضخ لما يمليه عليه أي أسقف حتى وإن كان أسقف روما ؛ ولم يجد ضررا في الإهتمام بالأديان الأخرى ، خاصة الإسلام الذي كان على اتصال به طوال حياته . وهو لا يعتبر أن اليونانيين منشقون لأنهم ينكرون سلطة البابا . ومع ذلك ، لم يكن هناك حاكم اضطهد بوحشية زائدة هراطقة المسيحيين من أمثال الكاثاريين وأبناء جلدتهم كما فعل هو . وكان الرجل الغربي العادي يرى فيه شخصا غير مفهوم . ورغم أن دمائه كانت نصف ألمانية ونصف نورماندية، فقد كان أساسا صقليا بالنشئة ، طفل الجزيرة التي كان نصفها يونانيا ونصفها الآخر عربيا . ولو أنه كان يحكم في القسطنطينية أو في القاهرة ، لكان حاكما بارزا ولكن ليس غريب الأطوار . وكملك لألمانيا وكامبراطور غربي ، كان أعجوبة مرعبة . ومع ذلك ، ورغم كل فهمه للشرق عموما ، لم يفهم مملكة الشرق الفرنجي قط^(٧) .

ولقد اتضحت أبعاده في الصباح التالي لزفافه . إذ رحل مع الإمبراطورة من برنديزي دون أن يخطر حماه ، وعندما أسرع الملك الشيخ وراءه ، استقبله استقبالا باردا . وأعقب ذلك شجار مفتوح عندما علم جون من ابنته الباكية أن زوجها أغوى واحدة من بنات عمومته . ثم إن فريدريك أعلن في برود أنه لم يعد قط بأن يستمر جون كموصي . ولم يكن هناك اتفاق مكتوب ، وليس للملك أي مطلب قانوني بعد أن تزوجت ابنته ، ووجد جون أن وضعه قد انتزع منه ، بل أخذ منه جنود فريدريك مبلغ المال الذي أورثه إياه الملك فيليب للقدس^(٨) . فهرب يائسا إلى البلاط البابوي . وغالب البابا هونوريوس في عناد أن يسيء التفكير في تلميذه السابق ، ولكنه جاوز الهم وصدم ؛ غير أنه لم يستطع أن يضع شيئا لجون سوى أن يعهد إليه بإدارة الأوقاف الكنسية في توسكانيا . لكن سيرة حياة المحارب القديم لم تنته ؛ إذ كان قد اقترح أن يعتلى عرش إنجلترا ، وفي عام ١٢٢٨ م احتاجت إمبراطورية القسطنطينية اللاتينية إلى وصي على الإمبراطور الطفل بلدوين الثاني ، ورحب جون بالوظيفة مسرورا ، ورغم

(٧) عن مظهر فريدريك أنظر . Kantorowicz, *Fredrick II*, pp. 366-8 ويضفى عليه هذا الكتاب نوعا من المثالية والرومانسية . أنظر أيضا أدناه ص ٢٢٨ .

(٨) (Ernoul, pp. 451-2; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 358-60) وأيضا في صفحة ٣٥٦ من تاريخ هرقل المذكور حيث قيل إن جون كان يعتمد على احتفاظه بالوصاية حتى عام ١٢٢٧ م وهو المعنى الذي تبلغ فيه يولاندا السادسة عشرة ؛ *Historia Richard of San Germano*, p. 345; *Diplomatica Friderici Secundi*, ii, p. 392 . في ديسمبر ١٢٢٥ م . (*ibid.* ii, p. 526) وابنة العم التي أغويت هي إينة وولتر (أوف برين)

اقتراه من الثمانين من العمر . وتزوج بلدوين من ابنته ماريا التى لم يتجاوز الرابعة من عمرها؛ وتدير جون بعناية أمر منحه لقب امبراطور حتى وفاته عام ١٢٣٧م^(٩).

١٢٢٥م : مصر جون (أوف برين)

كانت الملكة الإمبراطورة يولاندا أقل حظا من أبيها؛ إذ أن فريدرىك أرسلها إلى الحرم الذي يحتفظ به في باليرمو حيث عاشت في عزلة يأخذ منها السقم والضنى تلهفا على حياة أوتريميه البراقه. وفي ٢٥ ابريل ١٢٢٨م أنجبت ولدا ، كونراد ، وبعد أن أدت واجبها ماتت بعد ستة أيام قبل أن تبلغ السابعة عشرة^(١٠).

كان فريدرىك قد وعد البابا أول الأمر بأن يتزوج عروسه في سوريا ، لكنه أرسل مع الملك جون والسيد الأعظم لفرسان التيوتون إلى البابا طالبا التأجيل ، فمنحه البابا تأجيلا لمدة سنتين . وفي ٢٥ يولية ١٢٢٥م قابل مندوبين بابويين في سان جيرمانو ، وأقسم بأنه سيبدأ رحلته إلى الشرق في أغسطس عام ١٢٢٧م ، وأنه سيرسل ألف فارس في الحال ، وإذا حث بقسمه فسوف يودع مائة ألف أوقية من الذهب في روما ، ولو أن الإمبراطور أخذ بنصح أوتريميه لأجل رحيله حتى عام ١٢٢٩م ، وهو العام الذي تنتهى فيه الهدنة مع الكامل^(١١).

وقد أرسل الفرسان الذين وعد بإرسالهم ضمن القافلة التي ذهبت لاصطحاب امبراطورة المستقبل . واستغل فريدرىك العامين المسموح له بهما في توطيد دعائم حكمه في شمال ايطاليا ، وبذا ربط أراضيه الألمانية بأراضيه في جنوب ايطاليا. وأحبطته العداوة العنيدة لعصبة لومباردى^(١٢)؛ ولم يقدر إلا على ضمان مصالحة وفتت فى عذده

(٩) عن سيرة حياة جون بعد ذلك انظر . Longnon, *L'Empire Latin*, pp. 169-74.

(١٠) Ernoul, p. 454; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 366; Richard of San Germano, p. 447; *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, i, p. 858.

(١١) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, pp. 36-48; *Regesta Honorii Papae III*, no.5566, ii, p.352.

(١٢) (المترجم): عصبة لومباردى Lombard League: مجموعة من المدن فى شمال إيطاليا بدأت فى الاتحاد معا فى أول ديسمبر سنة ١١٦٧م لتقاوم محاولات أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة لتقليص حرية الكوميونات شمال إيطاليا وولايتها القانونية وتشكلت بادئ الأمر من ١٦ مدينة ثم زادت إلى ٢٠ مدينة، وقد أيد هذه العصبة - منذ البداية - البابا ألكسندر الثالث كحليف ضد عدوه فريدرىك الأول بارباروسا. ولم ينقض أمر هذه العصبة إلا بعد وفاة الامبراطور فريدرىك الثانى سنة ١٢٥٠م

عداوة عصبية لومباردى التى لا تلين، ولم يكن بوسعه سوى أن يصل إلى حل وسط مع اللومباردين بمغازلة البابوية بإظهار حماس جديد للحملة الصليبية . غير أن معلمه القديم، البابا هونوريوس ، مات في شهر مارس ١٢٢٧م ، وكان البابا الجديد جريجوري التاسع مطبوعاً على كثير من جهامة . وكان من أبناء عمومة اينوسنت الثالث، وعلى غرار اينوسنت كان رجلاً ذا عقلية تشريعية رائعة وإيمان متشامخ عنيد بما للبابوية من سلطة إلهية . ولأنه كان صارماً زاهداً، كان ينفر من فريدريك كرجل ، ولم ير استحالة المهادنة بين ما يريد الامبراطور من "قيصرية بابوية"^(١٣) ومفهومه الخاص عن سلطته . وهكذا أملى كل من السياسة والورع أن يرحل فريدريك إلى الشرق^(١٤).

١٢٢٨م : فريدريك يشرع في الرحيل إلى الشرق

بدأ فريدريك مهياً للذهاب . وقد سبق أن أبحرت إلى الشرق مجموعة من الصليبيين الإنجليز والفرنسيين تحت رئاسة أسقفى إكستر وونشستر . وراح الامبراطور طوال صيف ١٢٢٧م يحشد جيشاً ضخماً في أبوليا^(١٥) وتفشى وباء الملاريا فأضعف الجيش ، لكن عدة آلاف من الجنود أبحروا من برنديزي في شهر أغسطس بقيادة هنري الرابع دوق ليمبورغ . وانضم فريدريك إلى الجيش بعد أيام قليلة ، وركب البحر يوم ٨ سبتمبر ؛ وما كادت المرساة ترفع حتى أصيب أحد رفاقه مريضاً بمرض ميثوس من شفائه، وهو لويس حاكم ثورينغيا ؛ فرست سفينتهم في أوترانو حيث مات وانتقلت عدوى المرض إلى فريدريك نفسه فغادر الأسطول الذي أرسله إلى عكا تحت رئاسة بطريق القدس ، جيرولد (أوف لوزان)، وذهب إلى منتجع المياه المعدنية في بوزولي للاستحمام وأرسل

(١٣) (المترجم) : القيصرية البابوية: Caesaropapism نظام سياسي فيه رئيس الدولة هو نفسه رئيس الكنيسة وقاضى القضاة في المسائل الدينية

(١٤) Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, v, ii, pp. 1467-8 .

(١٥) (المترجم) : أبوليا: Apulia منطقة على ساحل إيطاليا الجنوبي الشرقي للبحر الأدرياتيكي . عاصمتها برنديزي

مبعوثا إلى البابا جريجوري في (أناني) ليشرح سبب هذا التأخير الذي لم يمكن تجنبه^(١٦). لكن جريجوري لم يقتنع بالرواية وظن أن الامبراطور يعاود مراوغته ، فسارع بطرده من الكنيسة ، ولكنه عاود إصدار الحكم بروبة بوقار في كنيسة القديس بطرس في شهر نوفمبر^(١٧) فما كان من فريدريك إلا أن أصدر بيانا مهيبا أرسله إلى أمراء أوروبا ينكر فيه مزاعم البابا ، ثم واصل استعداداته للحملة الصليبية. وعلى الرغم من تحذير البابا له بعدم إمكانه قانونا الإنطلاق إلى الحرب المقدسة وهو تحت الحظر الكنسي، فقد جمع صحبة صغيرة وركب البحر من برنديزي يوم ٢٨ يونية ١٢٢٨م^(١٨) وعلى أية حال تسبب التأخير في تغير وضعه ؛ إذ ماتت الامبراطورة يولاندا ، وبذا لم يعد فريدريك ملكا وزوج الملكة ، وإنما وصيا على ابنه الملك الرضيع كونراد . ومن حق بارونات المملكة، إذا شاءوا ، أن يرفضوا وصايته^(١٩).

لم يكن حكام الشرق الفرنجي ينتظرون وصول الامبراطور بمشاعر السرور الخالص؛ وكان بوهمند أمير أنطاكية وطرابلس أقلهم قلقا لعدم اعترافه بأي سيد أعلى سوى امبراطور القسطنطينية اللاتيني فيما يحتمل. على أنه بإمكان فريدريك المطالبة بحقوق السيادة على قبرص ؛ إذ أن الملك أماريك قد حصل على التاج من خلال الامبراطور هنري السادس ؛ فضلا عن أن فريدريك، وحتى موت الإمبراطورة الذي لم يكن معروفا في الشرق حتى وقت وصوله ، كان يقينا ملك القدس^(٢٠) ولقد تدخل فعلا في شؤون مملكة القدس؛ إذ سبق وأن أرسل عام ١٢٢٦م توماس (أوف أكوينو)، كونت أكير، ليحل محل أودو (أوف مونتييلارد) في الوصاية ؛ وأظهر توماس قوة وحزما في تعامله مع المحكمة العليا، لم يلقيا استلطافا من جانب البارونات^(٢١).

(١٦) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, p.44, v, p. 329; *Annales Marbacenses*, p.175; Alberic of Trois Fontaines, p. 920; Richard of San Germano, p.348 .

لويس (أوف ثورينجيا) زوج القديسة إليزابيث الهنجرية. أنظر. Hefele-Leclercq, op. cit. pp. 1469-70 ويذكر Ernoul, pp. 458-9 ولاحظ عدد الإنجليز الكبير

(١٧) Hefele-Leclercq, op. cit. pp. 1471-2

(١٨) *Historia Diplomatica Friderici*, iii, pp.37-48 ، الذي يرد فيه نص اعلان فريدريك

(١٩) *Ibid.*, i, p.898; Richard of San Germano, p.350; *Estoire d'Eracles*, ii, pp.366-7; Hefele-Leclercq, op.cit. p.1477.

(٢٠) عن الوضع القانوني لفريدريك ، انظر. La Monte, *Feudal Monarchy*, p. 59 .

(٢١) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 304 .

وفي قبرص كان الوصي الرسمي على الملك الطفل هنري الأول هو أمه أليس القدسية . وكانت قد عهدت بالحكم إلى عمها فيليب (أوف ايلين) وهو الابن الثاني للملكة ماريا كومنينيا . ولم تكن العلاقات بين الملكة ووكيلها^(٢٢) طيبة؛ فكانت دائما ما تشكو من تجاهل رغباتها، وحدثت مواجهة مفتوحة عام ١٢٢٣م عندما رفض فيليب السماح باستلاب عشور رجال الدين الأرثوذكس لصالح رجال الدين اللاتين كما أوصى الكاردينال بيلاجيوس في مجلس عقد في ليماسول، وكانت الملكة متفقة مع الكاردينال ، لكنها عندما فشلت في إنفاذ طريقته تقاعدت في غضب في طرابلس حيث تزوجت أكبر أبناء الأمير بوهمند ، من الباقيين على قيد الحياة ، وهو الذي سيصبح بوهمند الخامس^(٢٣) . وفي عام ١٢٢٥م، عندما أصبح من المؤكد أن الامبراطور ينوي نية جادة في الحضور إلى الشرق ، أمر فيليب بتتويج الملك هنري الذي لم يجاوز الثامنة من عمره ، حتى اذا بلغ هنري الخامسة عشرة فعلى الأقل لا تمدد الوصاية على أساس أنه لم يتزوج بعد ؛ وكانت الملكة أليس ما تزال تعتبر نفسها وصية برغم وجودها في النفي الاختياري، وباءت بالفشل محاولتها تعيين زوجها الجديد وكيلا ، إذ لم يقبله أحد من البارونات ، فعرضت المنصب على واحد من البارونات البارزين ، أمالريك بارليه ، الذي - برغم معارضته ترشيح بوهمند - قبل المنصب لنفسه ، ويرجع ذلك بدرجة كبيرة إلى كراهته لآل إيلين . غير أن البارونات ، باستثناء منشق واحد ، أعلنوا عدم إمكان تعيين الوكيل إلا بموافقة المحكمة العليا ، التي طلبت أن يستمر فيليب في منصبه . وبعد أن تشاجر بارليه علنا مع مشايخي إيلين انسحب إلى طرابلس انتظارا لمجيء فريدريك، بينما ذهب أحد أصدقائه ، جافين (أوف شينشي) إلى إيطاليا ليكون في معية الامبراطور^(٢٤) . وفي عام ١٢٢٧م مات فيليب (أوف ايلين)؛ ودعت المحكمة العليا أخاه الأكبر جون ، لورد بيروت ، ليحل محله وكيلا . ويبدو أن أليس وافقت على تعيينه^(٢٥) .

وغدا جون (أوف ايلين) أعظم شخصية في أوتريميه . فهو أدنى الأقارب الذكور

(٢٢) المترجم : المعنى الحرفي للكلمة الإنجليزية *bailli* هو : مسؤول في العصور الوسيطة يمثل الملك أو السنيور وله سلطات واسعة قضائية ومالية وعسكرية . ووجدنا أفضل ترجمة لها "الوكيل" .

(٢٣) Hill, *History of Cyprus*, ii, pp. 87-8 ، وترد في هذا التاريخ مراجع ومناقشة التواريخ

(٢٤) *Gestes des Chiprios*, pp. 30-3; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 361-2.

(٢٥) *Gestes des Chiprois*, p. 37; *Annales de Terre Sainte*, p. 438; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 365. ويرد تاريخ هرقل تاريخ موت فيليب بالخطأ عام ١٢٢٨م . وليس هناك في أي مرجع نص صريح على تعيين جون وكيلا ، لكنه كان قائما بأعمال الوكيل عند وصول فريدريك

في الشرق لكل من ملك قبرص والإمبراطورة الملكة يولاندا . ولقد كان ثرياً إذ يملك مدينة بيروت وزوجته وريثة أرسوف ، وساعدته خصاله الشخصية على أن يكتسب احتراماً عاماً . واجتمع مولده النبيل وثروته واستقامته وجعلت منه فعلاً زعيماً مقبولاً لبارونات أوتريميه لعدة عقود . ولأن نصفه شرقي-فرنسي والنصف الآخر يوناني ، فقد فهم الشرق وأهاليه ، وكان ضليعاً في تاريخ وقوانين المملكة الفرنجية^(٢٦) . وعلى الفور اشتتم الإمبراطور فريدريك أنه بمثابة الخطر الجسيم الذي يهدد سياسته ، وقد فهم فريدريك هو الآخر الشرق وأهاليه من تدريباته في صقلية . وكانت معاملاته مع المسلمين من النوع الذي كان البارونات يتعاطفون معه . بيد أن مفهوم فريدريك على الحكم الملكي لم يكن هو مفهومهم . ذلك أن ملك القدس تقيده التقاليد بالدستور ويجاوز قليلاً رئيس المحكمة العليا ، كما أنه القائد العام . أما فريدريك فكان يعتبر نفسه حاكماً مطلقاً على النحر الروماني-البيزنطي ، مستودع القوة والقانون ، نائبا علوياً للرب على الأرض ، فضلاً عما تستطيع حقوق الوراثة أن تعطيه من كل المزايا . إن إمبراطور الرومان لن يتحكم فيه حفنة من صغار بارونات الفرنج.

١٢٢٨م : فريدريك يهبط في قبرص

كان بارليه وحزبه على اتصال بفريدريك فعلاً قبل أن يصل أمام ليماسول يوم ٢١ يولية ١٢٢٨م . وبناء على نصيحتهم استدعى على الفور جون (أوف ايبيلين) ومعه ابنه الاثنين وملك قبرص الصغير لمقابلته . وحاول أصدقاء جون تحذيره مما يشتهر به فريدريك من غدر ، لكن جون كان شجاعاً طاهر الذيل ، ولم يكن ليرفض دعوة من عاهل قبرص . وبوصوله مع ولديه والملك ، استقبله فريدريك استقبالا مشرفاً ملقبا إياه بالعم وأغدق عليه الهدايا الثمينة . وقيل له بأن ينضو عن نفسه ملابس الحداد على أخيه فيليب وأن يحضر حفلاً يقام على شرفه . وفي الحفل تسلل جنود فريدريك ووقفوا خلف كل ضيف من الضيوف ، وقد استلوا سيوفهم . ثم إن فريدريك طالب جون بتسليم إقطاعيته في بيروت وكافة إيرادات قبرص المحصلة منذ وفاة الملك هيو . ورد جون بأن بيروت قد منحتها له اخته الملكة إيزابيللا وأنه سيدافع عن حقه فيها أمام المحكمة العليا لمملكة القدس ، وأما عن الإيرادات فقد أعطاها هو وأخوه للملكة الوصية أليس ، وهو تصرف سليم . فانفجر فريدريك يهدر مهرداً ، لكن جون ظل رابطاً

(٢٦) أنظر La Monte, 'John of Ibelin', in *Byzantium*, vol. xii

الجأش، معلنا أنه لم يرفض مساعدة الامبراطور في حملته الصليبية ، ولو أدى الأمر إلى أن يُقتل فإنه لن يخترق قوانين البلاد . ولم يكن مع فريدرىك سوى ثلاثة أو أربعة آلاف جندي ، فلم يجروا على المجازفة بصدع عليّ وطالب ببقاء عشرين نبيلاً بمن فيهم ولدي ايلين معه كرهائن ، وأن يبقى الملك معه ، وأن يصحبه جون إلى فلسطين؛ وفي المقابل اعترف جون والنبلاء القبارصة ، وهذا هو الحق ، بفريدرىك سيداً أعلى لقبرص ، وليس وصياً - إذ أن الملكة أليس هي الوصية الشرعية - وكوصي على القدس وليس كملك للقدس ؛ إذ عرفوا الآن بموت يولاندا وأن الملك هو ابنها الرضيع كونراد^(٢٧) .

١٢٢٨م : فريدرىك في عكا

وكان الامبراطور قد استدعى في ذات الوقت أبرز عواهل أوترمييه للحضور إلى قبرص ؛ فوصل باليان لورد صيدا في أغسطس مع فريق من الجنود ، وبعد ذلك مباشرة وصل جوى أمبرياكو أمير جبيل الذي يكن الكراهية لآل ايلين ، والذي اقترض منه الامبراطور قدراً كبيراً من المال ، كما سبق أن فعل ليوبولد السابع دوق النمسا قبل ذلك بسنوات قليلة . وبهذه التعزيزات زحف الامبراطور على نيقوسيا ، وفي الطريق انضم اليه بوهمند الرابع أمير انطاكية . واتخذ جون (أوف ايلين) جانب الحذر وانسحب إلى قلعة ديدمى - التي يسميها اليونانيون "القمتين التوأمتين" ، ويسميها الفرنج "رب المحبة" ونسميها اليوم "سانت هيلاريون" . وكان قد سبق أن أرسل سيدات وأطفال أسوته إليها مع مخزونات وفيرة من المؤن . وكان القانون الإقطاعي يقضى بأنه خلال الوصاية ليس من الممكن طرد البارونات من القلاع التي عهد اليهم بها العاهل الراحل . ولم يحاول فريدرىك الآن الاستهزاء بالقانون ، إذ كان متلهفاً على الانتقال إلى فلسطين ، ويبدو أن باليان أمير صيدا - وهو ابن أخى جون - قد قام بالوساطة . وأعدت الترتيبات أن يقسم الملك قسم الطاعة للإمبراطور وأن يقسم جميع القبارصة قسم الولاء له كسيد أعلا . ورغم الاعتراف بأليس وحدها وصية ، فسوف يعين فريدرىك وكيلاً ليحكم البلاد ، ويحضر جون إلى فلسطين للدفاع عن حقوقه في بيروت أمام المحكمة العليا ؛ وسوف يطلق سراح جميع الرهائن . وبعد أن أقسم الجميع على الحفاظ على السلام بهذه الشروط ، أبحر الامبراطور من فاما جوستا في ٣ سبتمبر

(٢٧) *Gestes des Chipris*, pp. 37-45 ، حيث يورد فيليب (أوف نوفارا) مقالا ينبض بالحياة ، وربما كان هو نفسه حاضراً! *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 367-8.

يصحبه الملك وامراء ايلين وأغلب بارونات قبرص . وتخلف بارليه باعتباره وكيلا ،
بمساعده جافين (أوف شينشى) وأصلقاؤه الآخرون^(٢٨).

عندما وصل الامبراطور وصحبه إلى عكا، هرع جون (أوف ايلين) من فوره إلى
بيروت ليتأكد من قدرتها على مقاومة هجوم من الامبراطور ، ثم عاد إلى عكا للدفاع
عن حقه امام المحكمة العليا ، غير أن فريدريك لم يكن فى عجلة من أمره ليتخذ إجراء.
وجاءت الأنباء إلى فلسطين تقول إن البابا قد طرده من الكنيسة مرة أخرى لذهابه في
الحملة الصليبية قبل حصوله على إبراء كنسي من طرده الأول من الكنيسة . ولذا ثارت
الريب في صحة ما أقسم عليه الآخرون، ورفض الكثير من الوريثين التعاون معه ، بمن
فيهم البطريق جيرولد ، وكذلك فرسان المعبد وفرسان المستشفى فلا شأن لهم بالمطرود
من الكنيسة ؛ فليس هناك إذن من يمكنه الإعتماد عليه سوى فرسان التيوتون ، فسيدهم
الأعظم هيرمان (أوف سالزا) صديقه ، خاصة وأن جيشه ليس كبيرا ؛ إذ أن الكثير من
الجنود الذين رحلوا في عام ١٢٢٧م مع دوق ليمبورج قد عادوا إلى بلادهم فعلا إما
بدافع نفاد الصبر أو بوازع الخشية من الإساءة إلى الكنيسة . وبعد شهر ، أبحر عدد
إضافى ضئيل إلى الشرق مع البطريق ؛ وكان فريدريك قد سير فى ربيع ١٢٢٨م
خمسمائة فارس بقيادة تابعه المخلص المارشال ريتشارد فيلانجيري . وحتى بجيش أوترمييه
كله ، لم يكن بمقدوره حشد القوة العسكرية المؤثرة القادرة على توجيه ضربة حاسمة إلى
المسلمين . ولكى تزداد جوانب قلقه ، جاءت كلمة من إيطاليا بأن ضابطه الدوق
رينالد (أوف سبوليتو) فشل في هجوم شنه على تخوم أنكونا ، وأن البابا يحشد القوات
لغزو مملكته هو نفسه ؛ وإذن لا يستطيع فريدريك الشروع في حملة ضخمة فى الشرق.
لابد إذن لحملة الصليبية أن تكون حملة صليبية دبلوماسية^(٢٩).

ومن حسن طالع الامبراطور أن السلطان الكامل كانت لديه وجهة نظر مماثلة ؛ إذ
أن تحالف الإخوة الأيوبيين الثلاثة ، الكامل والمعظم في سوريا والأشرف في الجزيرة ، لم
يقدر له البقاء طويلا بعد انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة . ذلك أن المعظم كان

(٢٨) *Gestes des Chiprois*, pp. 45-8; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 368-9. وطبقا للقانون الألماني ،
يبلغ الملك من الرشد في الخامسة والعشرين وأما في القدس وقبرص وفى الخامسة عشرة . وربما كان
فريدريك بنوى اعتبار هنرى قاصرا الى أن يبلغ الخامسة والعشرين . أنظر، Hill, op. cit., ii, p. 98.
n.4 .

(٢٩) *nigreichts Jerusalem*, pp. 776-7 hricht, *Geschichte des K. R* القوة العددية لجيش فريدريك . ولم يكن عدد الجيش يتجاوز مطلقا ١١ ٠٠٠ رجل ، وعاد الكثير
من الجنود الى بلادهم بسرعة

دائم الغيرة من الكامل ؛ والآن ارتاب بحق فى أن الكامل والأشرف يخططان لغزو أراضيه . وإلى الشرق من الأيوبيين ، كانت الامبراطورية الخوارزمية العظيمة تحت جلال الدين قد بلغت أوج مجدها ؛ وكان جلال الدين قد صد غزوا مغوليا ، وهو يحكم الآن من أزريجان إلى نهر الإندوس ، مسيطرا على الخليفة في بغداد . وعلى الرغم من أن وجود المغول في مؤخرته عرقله من أن يذهب شأوا بعيدا في مغامراته في الغرب ، إلا أنه كان بمثابة خطر كامن يتهدد الأيوبيين ؛ وعندما استنجد به المعظم عام ١٢٢٦م ، إغاضة منه لأخويه ، واعترف بسيادته العليا ، شعر الكامل بالخوف في أعماقه . وكان الأشرف في جانب الدفاع ، محتملا حصار عاصمته خلاط . وكان المغول آنذاك مشغولين في الصين ، ولو أرسلت لهم مناشدة - وإن كانت بحق فكرة حكيمة - لما صادفت أكثرا . وهكذا ، أرسل الكامل في خريف ١٢٢٦م إلى صقلية واحدا من أكثر أمرائه موضعا للثقة ، فخر الدين بن الشيخ ، طالبا العون من الامبراطور فريدرىك الذي أظهر تعاطفه لكنه لم يبذل أية وعود ، إذ كان قنذ يفكر في حملة صليبية جادة . لكنه لم يغلق باب المفاوضات وأرسل توماس (أوف اكيرا) الذى كان فعلا في فلسطين ، مع أسقف باليرمو إلى القاهرة محمّلين بالهدايا والرسائل الودودة للسلطان . وكما فعل الكامل أثناء الحملة الصليبية الخامسة ، اقترح استعداده لإعادة القدس إلى المسيحيين ، لكنها لسوء الحظ تنتمى لأخيه المعظم ، وعندما ذهب أسقف باليرمو إلى دمشق لتأكيد هذا الاقتراح ، أجابه المعظم في غضب بأنه ليس مسلما ، وأنه لا يزال شارعا سيفه . وفي تلك الأثناء زار فخر الدين صقلية مرة أخرى وبات صديقا أليفا للإمبراطور الذى منحه رتبة الفروسية . كان رحيل فريدرىك إلى الشرق ، الذى كان البابا يلح فيه بشغف ، يلقي نفس القدر من تشجيع السلطان^(٣٠) .

١٢٢٨م : المنازعات العائلية الأيوبية

على أنه قبل أن يشرع فريدرىك في الرحيل أصبح الوضع متأزما ؛ إذ مات المعظم يوم ١١ نوفمبر ١٢٢٧م تاركاً أملاكه لشاب في الحادية والعشرين هو ابنه الناصر داود . ولما كان هذا الحاكم الجديد ضعيفا عديم الخبرة ، فقد أعد الكامل العدة على

(٣٠) عن سياسة الكامل عموما أنظر ابن الأثير (ii, pp. 162-8) ؛ وأبو الفدا (pp. 99-102) ؛ والعينى pp. 183-6 ؛ والمقرئى 470-511 ؛ Maqrisi, trans. Blochet, ix, pp. 470-511 ؛ *Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, p. 518 .

الفور لضم أراضيه ، وزحف على فلسطين واستولى على القدس ونابلس . فاستنجد الناصر بعمه الأشرف الذي سارع إلى نجدة معلنا أنه جاء ليضمن عدم انتهاز الفرنج للوضع ليضموا فلسطين ؛ وكان الكامل يجهر بنفس الإدعاء الذي بدا مستصوبا ، خاصة وأن فريدريك في طريقه الآن إلى الشرق . وأخيرا تقابل الأخوان في تل العجول بالقرب من غزة وقررا تقسيم أراضى ابن أخيهم فيما بينهما ، ولا يزالان يتحاجان بأنهما يعملان بإيثار لصالح الإسلام . وكان الناصر معسكرا في بيسان حيث خطط الأشرف لإعتقاله ، غير أن الصبي سمع بالمكيدة وفر هاربا إلى دمشق ، وطارده جيشا عميه وضربا حصارا حول المدينة في وقت ما من نهاية عام ١٢٢٨م^(٣١).

وفي هذه الملابسات شعر الكامل بالأسى لمحى فريدريك؛ كان يأمل في أن تخلص له فلسطين بصفة دائمة؛ فالحوارزميون لم تبدر عنهم بادرة تنبى بمقدمهم لمساعدة الناصر. على أن وجود جيش صليبي في عكا كان يعنى عدم قدرته على تركيز قواته كلها في حصار دمشق، وليس فريدريك بالموثوق به كلية ، إذ ربما يقرر التدخل في جانب الناصر . وعندما أرسل فريدريك مبعوثيه توماس (أوف اكيرا) وباليان أمير صيدا إلى الكامل للإعلان عن وصوله ، طلب الكامل من فخر الدين زيارة الاميراطور مرة أخرى ، وبدء مفاوضات معه وإطالتها بقدر الإمكان حتى تسقط دمشق أو يرحل فريدريك إلى بلده . وأعقب ذلك عدة أشهر من المساومات في جو يشوبه شيء من الخديعة المتبادلة وشيء من الإعجاب المتبادل ، فلم يكن الاميراطور أو السلطان شديد الإخلاص لدينه، وإنما كان كل منهما مهتما بأسلوب حياة الآخر ، ولم يكن أي منهما على استعداد للذهاب إلى الحرب إذا أمكن تجنبها ؛ غير أنه كان لزاما على كل منهما أن يتشدد بقدر امكانه في المساومة حرصا على مكائته عند شعبه . فأما فريدريك فكان يريد أن يكسب الوقت ولم يكن جيشه من الضخامة بما يكفى لحملة كبيرة ؛ وأما الكامل ، فكان يشعر بالخطر من أي مظهر للقوة ولما يستولى على دمشق ، وكان على استعداد لمنح المسيحيين تنازلات إذا ساعده ذلك على المضي في سياسته الأكبر ألا وهى إعادة توحيد العالم الأيوبي والسيطرة عليه . غير أن هذه التنازلات لا يجب أن تمضى أبعد مما ينبغي ؛ إذ عندما طلب فريدريك النزول عن فلسطين كلها قال له فخر الدين ، بناء على تعليمات الكامل ، إنه ليس بوسع سيده الإساءة إلى الرأي العام الإسلامى بهذه الدرجة.

(٣١) - Ibn Khallikan, ii, p.429; Maqrisi, ix, pp.516-18; Abu Shama, ii, pp. 187-91; Ibn al Athir, ii, pp. 173-4; Histoire des Patriarches, p.519.

وفي آخر نوفمبر ١٢٢٨م حاول فريدريك الإسراع بالأمر بأن قام باستعراض عسكري حشد فيه جميع الجنود التابعين له وسار جنوب الساحل إلى يافا وشرع في إعادة تحصينها . وفي ذات الوقت لم يكن الناصر يعد محاصرا تماما في دمشق ، فقاد جيشا إلى نابلس لإعترض خطوط إمدادات عمه ؛ لكن الكامل رفض أن يُخدع ، وقطع المفاوضات قائلا إن رجال فريدريك قد نهبوا القرى الإسلامية ، ولم يستأنف المفاوضات إلا بعد أن دفع فريدريك تعويضات للضحايا^(٣٢).

١٢٢٩م استعادة القدس

وفي نهاية الأمر أثبت فريدريك أنه المساوم الأفضل . فعندما حل شهر فبراير كان الناصر ما يزال آمنا في دمشق ، وكان جلال الدين الخوارزمي يلتفت ناحية الغرب مرة أخرى ، واستكمل فريدريك تحصينات يافا . وبناء على نصيحة فخر الدين أرسل توماس (أوف أكيرا) وباليان أمير صيدا مرة أخرى إلى العادل . وفي ١١ فبراير عادا بشروط السلطان النهائية ، ووافق عليها فريدريك ، وبعد أسبوع ، أي في ١٨ من الشهر ، وقع معاهدة سلام مع ممثلي الكامل ، فخر الدين وصلاح الدين أمير أربيل ، وشهد عليها السيد الأعظم لنظام التيوتون وأسقفا إكستر ووينشستر . وبمقتضى هذه المعاهدة تسترد مملكة القدس مدينة القدس ذاتها وبيت لحم مع ممر يمضي خلال اللد إلى البحر في يافا والناصره وغربي الجليل بما في ذلك مونتفرات وتبنين ، وباقي المقاطعات الإسلامية المحيطة بصيدا . على أنه في القدس نفسها تقرر أن تبقى قبة الصخرة والمسجد الأقصى في أيدي المسلمين ، ويُسمح للمسلمين بحق الدخول وحرية العبادة . وعلى فريدريك إعادة بناء أسوار القدس ، وكان ذلك تنازلا له شخصيا . على أن يطلق سراح جميع السجناء من الجانبين ، ويستمر السلام عشر سنوات بالتقويم المسيحي أي عشر سنوات وخمسة أشهر بالتقويم الإسلامي . ولم تنطبق المعاهدة على إمارة بوهمند أنطاكية - طرابلس^(٣٣).

(٣٢) *Estoire d'Eracles*, ii, pp.369-72; Ernoul, pp. 460-3; al-Aïni, pp. 186'8.

(٣٣) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, pp.90-1, 93-5, 102 (الزنا) إلى البابا ، وإعلان فريدريك ، ورسالة البطريق جيروльд ، بإعلان شروط السلام؛ *Ibid.* pp. 86-7 (حيث يرد نص جزئي للمعاهدة مع تعليقات البطريق)؛ *Histoire*؛ Ernoul, p. 465; *d'Eracles*, ii, p. 374; al-Aïni, pp. 188-90; Maqrissi, ix, p. 525

وهكذا ، ودون توجيه ضربة واحدة ، فاز الامبراطور المطرود من الكنيسة بعودة أماكن العالم المسيحي المقدسة . بيد أنه ينذر أن تقابل معاهدة ما يمثل هذا الإنكار العاجل والشامل . إذ ارتاع العالم الإسلامي ، وأتاح ذلك للناصر في دمشق أن يعلن الحداد العام على ما لحق بالإسلام من غدر ، وحتى أئمة الكامل سبوه في مواجهته ؛ ولم يكن هناك عزاء يُذكر في إجابته العرجاء من أنه لم يفعل سوى التخلي عن بيوت وكنائس مهدمة بينما المقدسات الإسلامية سالمة باقية للإسلام ؛ كما لم يكفر التذرع في تعليقه بأن المسلمين لا يزالون يسيطرون استراتيجيا على الإقليم^(٣٤) . وكان المسيحيون من ناحيتهم مدركين ادراكا جيدا للوضع الاستراتيجي . وراح الأكثر عنادا من بينهم يولولون باكين على أن القدس لم تسترجع بالسيف ، وأعربوا عن تفززهم من أن الكفرة سوف يحتفظون بمقدساتهم ، واسترجعوا جميعهم ما جاء في مفاوضات الحملة الصليبية الخامسة عندما رفض المسيحيون عرض الكامل بالتنازل عن فلسطين كلها لأن خبراء الاستراتيجية أكدوا عدم إمكان صمود القدس بدون منطقة الأردن ؛ فكيف السبيل إذن للاحتفاظ بها وليس يربطها بالساحل سوى ممر واحد ضيق من الأرض ؟ لقد غاب ما كان فريدريك يتوقعه من بهجة . ولم يقترح أحد رفع قرار الطرد من الكنيسة عن الرجل الذي أدى مثل هذه الخدمة العظيمة للعالم المسيحي ؛ فقد أعلن البطريق جيروld عن غمه ورمى المدينة المقدسة بحرمان كنسي إذا استقبلت الامبراطور ؛ وتملك فرسان المعبد الحق من بقاء المعبد في أيدي المسلمين فأعلنوا عن اعتراضهم ؛ فلا هم ولا فرسان المستشفى سيتعاملون مع أعداء البابا . وكذلك بالنسبة للبارونات المحليين ، المستائين من استبداد فريدريك ، إذ شعروا بالخطر من الحدود الجديدة غير العملية ؛ وتفاقم استياؤهم من الامبراطور عندما أعلن أنه ذاهب إلى القدس ليتوج ملكا ، فهو في حقيقة الأمر ليس مليكهم ، وإنما فقط الرضى ووالد الملك^(٣٥) .

١٢٢٩ م : فريدريك في القدس

وفي يوم السبت ١٧ مارس ١٢٢٩ م دخل موكب فريدريك القدس ، يحوطه جنود حرسه من الألمان والإيطاليين والقليل جدا من البارونات المحليين ؛ ولم يكن معه ممثلون

(٣٤) Al-Aīni, pp. 190-1; Abu'l Feda, p. 104; Maqrisi, x, pp. 248-9 .

(٣٥) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, pp. 101, 138-9 (رسائل هيرمان وجيروld)؛ p. 177, iii, Matthew Paris .

عن الأنظمة الدينية العسكرية فيما عدا فرسان التيوتون، ولم يصحبه من رجال الدين سوى أساقفة فريدريك الصقليين وأصدقائه الإنجليز، بطرس (أوف وينشستر) ووليم (أوف إكستر). واستقبل الامبراطور عند بوابة المدينة القاضي شمس الدين قاضي نابلس الذي سلّمه مفاتيح المدينة باسم السلطان. ثم مر المركب الزياحي القصير خلال الشوارع الخالية إلى مبنى المستشفى القديم حيث اتخذ فريدريك مقر إقامته. وغابت كل علامات الحماس، وقد هجر المسلمون المدينة فيما عدا مزاراتهم المقدسة؛ وتنحى المسيحيون الوطنيون عن الأبصار لخشيتهم التي لها ما يبررها من أن ينالهم الضرر لعودة الحكم اللاتيني. ولقد شعر رفاق فريدريك نفسه بالخرج من قرار طرده من الكنيسة، وعندما عُرف أن رئيس أساقفة قيسارية في طريقه إلى المدينة يحمل أوامر البطريق بوضع المدينة تحت الحرمان الكنسي ارتبكت الحاشية وترددت. وفي الصباح التالي، الأحد ١٨ مارس، ذهب فريدريك لحضور قداس في كنيسة القبر المقدس. ولم يكن هناك قسيس واحد، وإنما فقط عساكره وفرسان التيوتون. ولم يرتدع، وإنما أمر بوضع تاج ملكي على مذبح الجمجمة^(٣٦) ثم تناوله بنفسه ووضعه على رأسه. وعلى الأثر انطلق السيد الأعظم لفرسان التيوتون في قراءة تقريره للإمبراطور-الملك، أولا بالألمانية ثم بالفرنسية، يعدد فيه منجزاته ويبرر سياسته. ثم تحركت الحاشية عائدة إلى المستشفى حيث عقد فريدريك مجلسا لمناقشة الدفاع عن القدس. وارتضى السيد الأعظم لفرسان المستشفى ومرشد فرسان المعبد حضور المجلس، وكذلك الأساقفة الإنجليز وهيرمان (أوف سالزا). وأمر فريدريك بإصلاح برج داود وبوابة القديس ستيفن في الحال، وسلّم مقر الإقامة الملكي الملحق ببرج داود لنظام التيوتون العسكري. وفيما عدا فرسان التيوتون، لم يلق تعاونًا من أحد سوى القدر اليسير^(٣٧).

وهدأت حدة التوتر بتحول فريدريك عما كان فيه وذهابه لزيارة المزارات الإسلامية. وكان السلطان قد تصرف بفطنة عندما أمر مؤذن المسجد الأقصى بعدم الأذان للصلاة أثناء تواجد العاهل المسيحي في المدينة. لكن فريدريك احتج، فلا ينبغي للمسلمين تغيير عاداتهم بسببه؛ فضلا عن أنه قد جاء إلى القدس - كما قال - لسمع

(٣٦) المترجم: الجمجمة أو الجُلُجَّة أو الجُلُجَّة Calvary، اسم المكان الذي صُلب فيه المسيح. وأيضا مُذابح للمسيح المصلوب

(٣٧) *Historia Diplomatica Friderici Secundi, loc. cit.* . تَبَط هيرمان عزم فريدريك على إقامة صلاة دينية في كنيسة القبر المقدس. وألقى فريدريك كلمته الخاصة به باللغة اللاتينية *Estoire d'Eracles*, ii, pp.375,385; Ernoul, p. 465

أذان المؤذن أثناء الليل . وبينما هو داخل في المنطقة المقدسة للحرم الشريف، لاحظ قسيسا مسيحيا يتبعه ، فطرد بفظاظة من فوره ، وأصدر أوامره بقتل أي قسيس مسيحي يعبر عتبة منطقة الحرم الشريف بدون إذن من المسلمين . وأثناء طوافه حول قبة الصخرة لاحظ النقش الذي أبرزه صلاح الدين بالفسيفساء حول القبة مسجلا تطهير المبنى من المشركين ؛ فسأل الامبراطور وعلى ثغره ابتسامة : "من هم المشركون؟" وعلق على شبائك المثبتة في النوافذ وقيل له إنها قد وضعت للحيلولة دون دخول العصفير ، فقال : "والآن أرسل الله لكم الخنازير" مستخدما المصطلح الإسلامي المسيء للمسيحيين . ولوحظ أنه كان معه بعض المسلمين في حاشيته ، من بينهم عربي من صقلية كان معلما له في الفلسفة.

ولقد اهتم المسلمون برؤية الامبراطور ، لكنه لم يترك لديهم عميق انطباع وخاب أملهم من مظهره ، وقالوا إنه لا يساوي مئتي درهم في سوق الرقيق بوجهه الأملس الأحمر وبصر عينيه الحسرتين . وأقلقتهم ملاحظاته المضادة لعقيدته هو نفسه ، فبمقدورهم أن يحترموا مسيحيا مخلصا، أما هذا الفرنجي الذي يستخف بالمسيحية ، ويثنى ثناء جافا على الإسلام ، فقد أثار ارتياهم . وربما سمعوا ما يعزى إليه على نحو شائع من أن موسى والمسيح ومحمد ما هم إلا ثلاثة أدياء . وعلى أية حال ، بدا رجلا بلا دين . ولقد وقع فخر الدين ، الذي دائما ما ناقش معه الفلسفة في قصر عكا، ضحية لسحره ، وأما السلطان الكامل ، الذي كانت نظراته التأملية تقاربه، فقد نظر إليه بإعجاب ودود ، وخاصة عندما أبلغه فخر الدين بثقة أن فريدريك ما كان ليصر قط على أخذ القدس لو لم أن تكن مكاتته كلها معرضة للخطر . غير أن الورعين من المسلمين والمسيحيين على السواء نظروا شذرا إلى القصة برمتها. إن الاستخفاف البين لا يكسب قلوب الناس قط^(٣٨).

١٢٢٩م : نهاية حملة فريدريك الصليبية

في يوم الإثنين التاسع عشر وصل بطرس أمير قيصرية ليلقي على القدس قرار البطريق بجرمانها الكنسي . واهتاج فريدريك لهذه الإهانة ، فتخلى من فوره عن كل أعمال الدفاع عن المدينة، وجمع كل عساكره وأسرع هابطا إلى يافا حيث توقف ليوم

(٣٨) Al-Aini, pp. 192-3; Maqrisi, ix, pp. 525-6 .

ثم سار أعلا الساحل إلى عكا التي وصلها في الثالث والعشرين من الشهر ، فوجدها تغلى تدمرا . إذ لم يغفر له البارونات استخفافه بالدستور ؛ ورغم كونه وصيًا لا غير ، فقد أبرم معاهدة بدون رضاهم وتوج نفسه ملكا . وحدثت أعمال شغب اشتبك فيها مسلحون محليون مع حامية الامبراطور . وشعر المستعمرون الجنوبيون والبنادقة بالاستياء من الحظوة التي نالها أهل بيزاوخاصة وأن هذه المدينة كانت من حلفاء فريدريك القلائل في ايطاليا . إن عودة الامبراطور لم يكن لها من أثر سوى تفاقم المرارة التي شملت الأجواء^(٣٩).

وفي الصباح التالي استدعى فريدريك ممثلين من سائر أنحاء المملكة لمقابلته وألقى عليهم بيانا بأعماله ؛ فقوبلت كلماته باستهجان غاضب ، فما كان منه إلا أن لجأ إلى القوة ؛ فضرب نطاقا من الشرطة حول قصر البطريق وحول مقار فرسان المعبد ، ووضع الحراس على بوابات المدينة حتى لا يدخلها أو يغادرها أحد إلا بإذن . وأشيع أنه ينوى مصادرة قلعة فرسان المعبد العظيمة في عثليت ، لكنه علم بأن حاميتها حصينة للغاية . وفكر في اختطاف جون (أوف ايبيلين) والسيد الأعظم لفرسان المعبد وإرسالهما إلى أبوليا ؛ غير أنهما احتاطا بحراسة شديدة ، فلم يحاول المجازفة بذلك . لكنه في ذات الوقت تلقى أنباء خطيرة من ايطاليا تقول إن حماء ، جون (أوف برين) قام على رأس جيش بابوى بغزو ولاياته ؛ فلم يكن بوسعه تأجيل رحيله من الشرق أكثر من ذلك ، وليس بوسعه سحق معارضيهِ إلا بمزيد مما لديه من جنود في سوريا . فأعلن عن رحيله الرشيك وعيّن باليان أمير صيدا وجارنييه الألماني وكيلين عن المملكة . وكان باليان مشهورا بأرائه المعتدلة وأمه من آل إيبيلين ؛ وكان جارنييه ، برغم أصله الألماني ، ضابطا لدى الملك جون (أوف برين). وعيّن أودو (أوف مونتليارد) ياورا للمملكة (كونستابل) مسؤولا عن الجيش.

كانت تلك التعيينات تمثل في حقيقتها هزيمة للإمبراطور . وكان مدركا أنه قد خسر ، ولتجنب مشاهد مهينة خطط لركوب البحر يوم أول مايو عند شروق الشمس ، وهو وقت ليس فيه أحد ؛ غير أن السر انفضح . وأثناء مروره مع حاشيته أسفل شارع الجزارين إلى المرفأ ، احتشد الناس خارج الأبواب وراحوا يقذفونه بالأحشاء والرّوث . وسمع الشغب جون (أوف ايبيلين) وأودو (أوف منتليارد) فانطلقا على جواديهما لحفظ النظام ؛ لكنهما عندما ودعا الامبراطور على قادسه وداعا رقيقا ،

(٣٩) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, iii, p.101; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 374 .

رد عليهما متمتما باللغات^(٤٠).

ومن عكا أبحر فريدريك إلى ليماسول . وبقي نحواً من عشرة أيام في قبرص حيث قضى بأن يكون الركلاء هم أمالريك بارليه وأصدقاءه الأربعة ، جافين (أوف تشينشي)، وأمالريك (أوف بايزان)، وهيو (أوف جيبيل)، ووليم (أوف ريفت)؛ وعهد اليهم برعاية الملك . وفي الوقت نفسه رتب زواج الملك الصغير وأليس (أوف مونتفرات) التي كان والدها واحداً من مناصريه المخلصين في إيطاليا . وفي ١٠ يونية ١٢٢٩ م هبط في برنديزي^(٤١).

من بين عظماء الصليبيين قاطبة كان فريدريك الثاني أكثرهم تخيباً للآمال . فكان ذا ذكاء حاد وعلى دراية بعقلية المسلمين وبمقدوره تقدير غوامض دبلوماسيتهم ؛ وأدرك ضرورة وجود بعض التفاهم بينهم وبين المسيحيين إذا كان لمملكة الشرق الفرنجية أن تبقى . بيد أنه فشل في إدراك طبيعة فرنج أوتريميه . لقد اجتمعت تجربة أسلافه النورماندين وإنجازاتهم مع طبعه ومفهومه عن الإمبراطورية لتؤدي به إلى السعي نحو بناء حكم استبدادي مركزي . ولقد وجد أن العمل في أوربا خارج أراضيه الإيطالية بالغ المشقة ؛ ولو أنه أحسن اختيار وسائله لأنجزه في قبرص، على أنه في مملكة القدس المتقلصة ، كان مصير التجربة الفشل لا محالة ؛ إذ أن المملكة لا تكاد تتجاوز مجموعة من المدن والقلاع يربطها ببعض البعض رباط مزعزع وليست لها حدود يمكن الدفاع عنها ، ولم تعد الحكومة المركزية ممكنة ، وكان لزاماً أن يُعهد إلى السلطات المحلية ، مهما سببته نزاعاتها المتبادلة ونوازع الغيرة من مشقة ، بحكومة يتزعمها زعيم ماهر ومحترم . ولم تكن تلك السلطات سوى البارونات العلمانيين والأنظمة الدينية العسكرية . ولقد أبعد فريدريك البارونات العلمانيين بأن داس بقدميه على ما كانوا يفخرون به من حقوق وتقاليد . إذ كانت الأنظمة الدينية العسكرية أهم ، إذ بإمكانها دون غيرها، الآن وبعد أن أثر الفرسان العلمانيون البحث عن الثروة في اليونان الفرنجية، توفير مصادر التجنيد للحرب والاستقرار في الشرق . وعلى الرغم من أن رؤساءهم العظام لهم مقاعد في مجلس الملك ، وبرغم طاعتهم له باعتباره قائداً أعلى في ميدان القتال، إلا أنهم يدينون بالولاء للبابا لا سواه . ولا يُنتظر منهم مساعدة حاكم طرده البابا من الكنيسة وصنّفه على أنه عدو للعالم المسيحي . وليس هناك سوى نظام فرسان

(٤٠) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 375; *Ernoul*, p. 466; *Gestes des Chiprois*, p. 50 .

(٤١) *Gestes des Chiprois*, pp. 50-1 .

التيوتون الأقل أهمية بين الأنظمة الثلاثة الذي كان على استعداد لتحدي الحظر الباهوى بسبب علاقة الصداقة التي تربط سيدهم بالإمبراطور . واللافت للنظر أن فريدريك، بهذه الإمكانيات الضئيلة وبما أثير ضده من كراهية ، تمكن من الفوز بنجاح دبلوماسى منهل يتمثل فى استعادة القدس^(٤٢).

١٢٢٩ م : وضع القدس المقلق

كان استرجاع القدس ضئيل النفع للملكة فى واقع الأمر . إذ أنه برحيل فريدريك المتعجل بقيت القدس مدينة مفتوحة . ومن المحال حراسة الطريق الصاعد إليها من الساحل ؛ فبدأ قطاع الطرق من المسلمين على سرقة الحجاج وقتلهم أحيانا . وبعد أسابيع قليلة من رحيل فريدريك من البلد قام أئمة المسلمين من المتعصبين فى الخليل ونابلس بتنظيم غارة على القدس ذاتها ، مما دفع المسيحيين من كافة الطوائف إلى الهرب حيث الأمان فى برج داود بينما استنجد حاكمها، رينالد أمير حيفا بعكا ؛ فخفف الوكيلان باليان أمير صيدا وجارنييه مع جيش من عكا ، مما أجبر المغيرين على الانسحاب ، وتبرأ حكام المسلمين من أية صلة بالمغيرين ، وبعد تحصين المدينة بحامية أكبر وترميم بعض التحصينات البسيطة توفر شئ من الأمن ؛ وألغى البطريق قرار الحرمان الكنسى وجاء للإقامة فى المدينة جزءا من السنة . بيد أن الوضع ظل مقلقا؛ فبإمكان السلطان إعادة الاستيلاء على القدس فى أى وقت يختاره . أما فى الجليل ، حيث أعيد بناء حصني مونتفرات وتبنين ، فكان صمود المسيحيين أقوى . غير أنه بوجود المسلمين فى صفد وبانياس ، لم يكن استمرار الصمود مضمون^(٤٣).

وكانت الحرب الأهلية المريرة هي أهم ما أورثه فريدريك فى كل من قبرص ومملكة القدس . وبدأت الحرب الأهلية فى قبرص على الفور ؛ إذ تلقى الوكلاء الخمسة هناك تعليمات بطرد جميع اصدقاء آل ايبيلين من الجزيرة ، وتحصيل ما وافقوا على أن يدفعوه لفريدريك وهو مبلغ عشرة آلاف مارك ، وعدم تسليم الحصون التى كانت حامياتها ما تزال تتألف من جنود الإمبراطورية إلا بعد دفع القسط الأول . فجمعوا المال عن طريق فرض ضرائب باهظة ومصادرة ممتلكات آل ايبيلين ومناصريهم . وتصادف أن واحدا

(٤٢) عن تعارض الآراء فيما يتصل بانجازات فريدريك فى فلسطين ، أنظر Kantorowicz, op. cit. pp. 193 ff. and Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 322-3

(٤٣) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 303-5 .

من أخلص المناصرين لجون أمير بيروت ، وهو المؤرخ الشاعر فيليب (أوف نوفارا)، كان موجودا في الجزيرة ، وسمع له الوكلاء بمرور آمن للحضور إلى نيقوسيا ومناقشة نوع من الهدنة بينهم وبين آل ايلين ؛ غير أنهم عندما وصلهم فيليب غيروا موقفهم واعتقلوه . وأعقب ذلك مشهد غاضب أمام الملك الصبي الذي كان يعرف فيليب معرفة جيدة لكنه كان فاقد الحيلة لا يستطيع التدخل ؛ وانتهى الأمر بأن وافق الوكلاء على إطلاق سراح فيليب بكفالة ؛ لكنه اتخذ جانب الحكمة والحذر وهرب إلى مقر فرسان المستشفى، إذ اقتحم رجال مسلحون منزله تلك الليلة ، وكتب بلغة ركيكة يناشد جون (أوف ايلين) في عكا أن يخف لنجدته وانقاذ ممتلكات أصدقائه كلهم ، فجهز جون من فوره حملة على حسابه الخاص وتمكن من الهبوط عنوة شمال فاما جوستا في جاستريا ؛ ثم زحف بخذر على نيقوسيا حيث قابل جيش الوكلاء الذي كان أكبر بكثير من جيشه ، وإنما أقل حماسا . ودارت بعض المفاوضات نشبت بعدها معركة شنها آل ايلين يوم ١٤ يولية ؛ وشن فرسان جون هجوما جريئا قاده ابنه باليان ، رافقه خروج فرسان من المستشفى نظمه فيليب (أوف نوفارا)، فحُسمت المعركة ، وهرب الوكلاء مع جنودهم إلى الحصون الثلاثة: رب المحبة ، وكانترا ، وكيرينيا . ومضى جون يتعقبهم وضرب حصارا حول الحصون الثلاثة، وسرعان ما استولى على كيرينيا ، لكن حصن رب المحبة ، الذى لجأ إليه بارليه ومعه الملك الصغير وأخواته ، وكذلك حصن كانترا ، كانا من العسير اقتحامهما ، ولم يستسلما إلا في صيف عام ١٢٣٠م من التضور جوعا . وكانت شروط جون للسلام شروطا سخية . ذلك أنه من بين الوكلاء الخمسة ، قتل جافين (أوف شينيشي) في حصن كانترا ، ووليم (أوف ريفت) وهو أخوه غير الشقيق ، الذى هرب من كيرينيا بحثا عن مساعدة في كيليكييا حيث مات فيها، ولم يعاقب جون الثلاثة الباقين مما أثار استياء كثيرين من أصدقاء جون . بل إن جون لم يسمح لفيليب المؤرخ الشاعر أن يكتب فيهم قصيدة هجاء . وأرسل رسولا باسم الملك إلى عواهل أوروبا لتبرير الخطوات التى اتخذت ضد الامبراطور ، وتولى جون نفسه الحكم إلى أن يبلغ الملك هنرى سن الرشد في عام ١٢٣٢م^(٤٤).

(٤٤) (Gestes des Chiprois, pp.50-76 حيث يرد وصف المؤرخ فيليب أوف نوفارا نفسه: *Estoire* Hill, op. cit., ii, pp. 100-7. انظر *d'Eracles*, ii, pp. 375-7 .

١٢٢٩م : الملكة أليس تطالب بعرش القدس

وفي تلك الأثناء كان باليان أمير صيدا وجارنييه الألماني يحكمان مملكة القدس بصورة سلمية . وفي خريف عام ١٢٢٩م جاءت الملكة أليس القبرصية إلى عكا مطالبة بالعرش ؛ إذ أن وصياتها على قبرص - التي كانت ما تزال تقوم بها من الناحية الاسمية - لم تعد عليها إلا بالمتاعب . وكانت قد طَلّقت زوجها بوهمند الصغير أمير انطاكية على أساس قرابة الدم ؛ إذ كانا أبناء عمومة من الدرجة الثالثة . والآن أعلنت أنه على الرغم من أن كونراد ابن الامبراطور هو ملك القدس قانونا ، إلا أنه قد فرط في حقه بفشله في المجئ إلى مملكته ، ومن ثم ينبغي للمحكمة العليا تسليم التاج إلى الوريث الشرعي التالي ، أي إليها هي نفسها . ورفضت المحكمة مطالبتها تأسيسا على أن كونراد لا يزال دون سن الرشد وبذا لا يكون وجوده ضروريا . على أن المحكمة وافقت على ارسال سفارة إلى إيطاليا تطلب إرسال كونراد في غضون عام إلى الشرق للتمكين من تقديم فروض الولاء له شخصيا . ورد فريدريك بأنه سيفعل ما يراه مناسباً^(٤٥).

وفي ٢٣ يولية ١٢٣٠م عقد فريدريك سلاما مع البابا بمعاودة سان جيرمانو . فقد كان على الحملة منتصرا في ايطاليا ، وهو الآن على استعداد لتقديم بعض التنازلات حول سيطرة الكنيسة في صقلية حتى يمكن تبرئته من قرار طرده من الكنيسة . وأسفرت مصالحته مع البابوية عن تشديد قبضته في الشرق ، فقد وصلت التعليمات إلى البطريق جيروld برفع قرار الحرمان الكنسي الذي فرض على القدس ، كما تلقى تعنيفا لإصداره هذا القرار دون الرجوع إلى روما . وشعرت الأنظمة الدينية العسكرية بأنها لم تعد مضطرة لأن تتنحى جانبا ؛ كما لم يعد في وسع البارونات الاعتماد على المساندة الكنسية^(٤٦) . وانتظر الامبراطور الوقت الذي يناسبه . وفي خريف ١٢٣١م ، وبعدما أخبر البابا بضرورة ارسال جيش للدفاع عن القدس ، جمع نحو من ستمائة فارس و مائة مساعد فارس و سبعمائة من المشاة المسلحين و ثلاثة آلاف من رجال البحرية ، وأرسلهم بقيادة مارشاله - ريتشارد فيلانجيري النابوليتاني - في اثنين وثلاثين قادسا . ومُنح فيلانجيري هذا لقب المندوب الإمبراطوري^(٤٧).

(٤٥) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 380. See La Monte, *Feudal Monarchy*, p. 64 n 1

(٤٦) Hefele-Leclercq, op. cit. pp. 1489-90 .

(٤٧) كتب البابا جريجوري الى فريدريك قائلا إنه لا ينبغي لفيلانجيري أن يلقب نفسه بلقب المندوب الإمبراطوري ، وإنما فقط مندوب الإمبراطور في القدس . وأوصى بفيلانجيري لدى الأساقفة السوريين

وكان جون (أوف ايلين) في عكا عندما جاء أحد عملائه من ايطاليا في باخرة لفرسان التيوتون، وحذّره من الأسطول القادم . وظن أن هدفه الأول هو قبرص ، فسارع بجمع رجاله من بيروت تاركا مجرد حامية ضئيلة العدد في القلعة وأبحر قاصدا قبرص . وعندما وصل الأسطول الإمبراطوري أمام الساحل القبرصي علم فيلانجيري أن جون مع الملك هنري في كيتي ، وأن باليان (أوف ايلين) يحتل ليماسول . فأرسل سفيرا لمقابلة الملك ومعه رسالة من فريدريك يطلب منه فيها نفى آل ايلين ومصادرة أراضيه . ورد الملك هنري بأن جون هو عمه وأنه على أية حال لن يجرد أتباعه من ممتلكاتهم . وكاد الحشد الحاضر أن يقتص من بارليه الذي كان حاضرا وتكلم باسم فريدريك لولا أن أنقذه جون.

١٢٣١م : إنشاء مجلس إداري (كوميون) في عكا

وبعودة السفير ، أبحر فيلانجيري مباشرة إلى بيروت التي لم تكن بها حامية والتي سلمها له أسقفها المهلوع ؛ وبدأ حصاره حول قلعتها، وبعدما أوشكت على السقوط اتجه إلى صيدا وصور واحتلها ثم ظهر في عكا ؛ حيث طلب عقد اجتماع للمحكمة العليا وأظهر لها رسائل من فريدريك بتعيينه وكيلا ؛ وصدق البارونات على التعيين ، وبمقتضى ذلك أعلن فيلانجيري مصادرة أراضى آل ايلين ، وهنا احتج البارونات جميعا؛ إذ ليس في الإمكان مصادرة الضياع إلا بقرار من المحكمة العليا وبعد إتاحة الفرصة للمالك للدفاع عن قضيته ، ورد فيلانجيري متعاليا أنه وكيل الامبراطور ولسوف ينفذ تعليمات الامبراطور. وكان ذلك خرقا جسيما للدستور سبب الصدمة حتى للمعتدلين مثل باليان أمير صيدا وأودو (أوف مونتفرات) الذي كان على استعداد حتى آنذاك لتأييد الامبراطور . وعلى الأثر انحاز البارونات جميعا إلى حزب جون (أوف ايلين)؛ وكذلك فعل تجار عكا ، لما لجون من شعبية بينهم فضلا عن استيائهم من أسلوب فيلانجيري المتعطرس. وكان أغلبهم ، فضلا عن نبلاء قليلين ، ينتمون إلى أخوة دينية كرسست نفسها للقديس أندرو ؛ وعلى أساس تلك الأخوة الدينية أنشأوا مجلسا إداريا (كوميون) ليمثل كافة الطبقة البرجوازية المحلية ، برئاسة اثني عشر قنصلا ودعوا جون (أوف ايلين) ليكون أول عمدة لهم . بيد أن فيلانجيري كان رهيبا ؛ إذ كان لديه جيش

بهذه الصفة (رسالة جريجوري التاسع ، المؤرخة في ١٢ أغسطس ١٢٣١ ، والواردة في M.G.H. (Epistolae Saeculares, xiii, i, p. 363) .

جيد أحضره معه يتألف أساسا من اللومباردين ، وكان فرسان التيوتون وأبناء بيزا أصدقاءه المخلصين . أما البطريق وفرسان المستشفى والمعبد فقد انزروا جانبا ، فلا أحد منهم يعا بفريدريك ، لكنهم منذ أن تمت مصالحته مع البابا، ساورهم الشك في واجبه أين يكون.

عندما وصلت إلى قبرص أبناء مهاجمة بيروت ، توصل جون (أوف ايلين) إلى الملك هنري لكى يخف لنجدتها مع قوات الجزيرة ، ووافق الملك الصغير وأمر بإبحار جيش المملكة كله . ورغم خطورة بقاء قبرص بلا حراسة فقد كان جون يؤمن بضرورة انقاذ الأرض الأصلية أولا ؛ ومن باب الاحتياط اضطر بارليه وأصدقاءه إلى مصاحبة الحملة . وكان في مأمول جون مغادرة قبرص في عيد الميلاد من عام ١٢٣١م ، لكن الأجواء العاصفة حالت دون تحقيق أمله حتى ٢٥ فبراير عندما استطاع الجيش الإبحار من فاما جوستا . وأبحرت السفن بسرعة وسط عاصفة مطيرة هائلة وألقت مراسيها جنوب طرابلس مباشرة في الميناء الصغير (بوى القائد العام). وهناك هبط سرا إلى اليابسة بارليه وأصدقاءه وعددهم ثمانون فارسا ، وذهبوا إلى طرابلس تاركين معداتهم وراءهم ، وأرسل لهم فيلانجيري سفينة تقلهم إلى بيروت ، وتبعهم جون برا مع أغلب رجاله ، بينما أبحر الاسطول القبرصى باتجاه الجنوب لكنه صادف أجواء سيئة أمام البطرون ، حيث تحطمت سفن قليلة ودمرت سفن أخرى وفقدت مواد كثيرة. وعندما كان جون مارا خلال جيبيل هرب بعض جنود المشاة ، وأخيرا وصل بيروت وشق طريقه إلى القلعة ، ومن هناك استنجد بالبارونات لإنقاذه ؛ فجاء كثيرون يقودهم ابن أخيه جون أمير قيسارية . على أن باليان أمير صيدا كان لا يزال يأمل في المصالحة ، فأسرع إلى بيروت مع شريكه السابق فى الوكالة، جارنيه ، والبطريق والسيدى الأعظمين لفرسان المستشفى والمعبد . غير أن فيلانجيري رفض النظر في شروط المصالحة التى تترك لآل إيلين ملكية أراضيهم ، ولم يوافق المتفاوضون على أقل من ذلك.

وبعد أن أعاد جون تعزيز حامية بيروت ، انتقل إلى صور حيث استقبل استقبالا حسنا ، وفاز بالكثير من المجندين وخاصة من أبناء جنوا . كما أرسل سفارة برئاسة ابنه باليان إلى طرابلس للترتيب لزواج أخت الملك هنرى الصغرى ، إيزابيلا ، من ثانى أبناء بوهمند ، هنرى . لكن بوهمند لا يثق كثيرا فى قضية آل ايلين فعامل السفارة بود قليل. ومع ذلك ، بات فيلانجيري عصيبا . ذلك أنه كان قد اتخذ مقر رئاسته في صور تاركا القيادة في بيروت لأخيه لوثر . والآن أمر أخاه لوثر برفع الحصار والانضمام اليه في صور.

وفي تلك الأثناء عاد بارليه إلى قبرص بعد أن تعززت قواته بمجنود من اللومباردين ، وشرع في الإغارة على الجزيرة ، وسقطت أمامه الحصون الواحدة تلو الأخرى فيما عدا قلعة رب المحبة التي لاذت بها أخوات الملك ، وقلعة بوفافينتو التي كانت أشدهم منعة ، والتي هربت إليها متنكرة في هيئة راهب الليدى إيشيفا (أوف مونتيليارد) ، وهى ابنة عم الملك هنرى وابنة اخت أودو ، مصطحبة معها المون الوفيرة وبهذا تمكنت من الاحتفاظ بهذا الحصن للملك . وكان زوجها الأول ، والتر (أوف مونتيجو) ، قد قتله رجال بارليه في معركة نيقوسيا ، وقد تزوجت مؤخرا من باليان (أوف ايلين) ؛ غير أن الزواج ظل في طي الكتمان لأنهما كانا أبناء عمومة . وعلم باليان بالغزو عندما كان في طرابلس من قبطانين بحريين من أبناء جنوا قدما مساعدتهما لكن برهمند أسر سفيتيهما .

١٢٣٢م : معركة كاسال إمبرت

وفي نهاية ابريل وافق أبناء جنوا على مساعدة آل ايلين في هجوم على فيلانجيري في صور ، في مقابل الحصول على امتيازات في قبرص ؛ فاتجه الجيش شمالا إلى (كاسال إمبرت) على مبعدة اثني عشر ميلا تقريبا . غير أن جون قابل هناك بطريق انطاكية ، ألبرت (أوف ريزاتو) ، الذى عُين مؤخرا مندوبا بابويا في الشرق وقد جاء جنوبا للوساطة ؛ وكان قد زار صور لتوه وسمع شروط فيلانجيري الجديدة ؛ فقال جون أنه ينبغي - بحق - احالة تلك الشروط إلى المحكمة العليا ، وعاد إلى عكا مع البطريق ومعهما قوة من الحرس أضعف غيابها جيشه بصورة جسيمة . وفي وقت متأخر من ليل ٢ مايو ، خرج فيلانجيري ، الذي علم برحيل جون، وربما رتب ذلك مع البطريق ، بكل قواته من صور وانقض على معسكر إيلين الذي لم يكن يتوقع أي هجوم وكانت حراسته سيئة . وحارب أنسيلم ، الذي كان في القيادة مع لوردات إيلين الصغار ، بشجاعة فائقة ، لكن فيلانجيري استولى على المعسكر . وأسرع ملك قبرص الصغير في نصف ملابسه إلى حيث الأمان في عكا ، ولاذ الباقون على قيد الحياة بقمة تل.

ولم يحاول فيلانجيري متابعة انتصاره ، وإنما انسحب بكل ما غنمه إلى صور تاركا مجموعة لحراسة ممر سلم صور . أما جون (أوف ايلين) فما أن سمع بالكارثة حتى سارع شمالا من عكا وأنقذ أبناءه ، غير انه عندما حاول اللحاق بالأعداء الثقليين بالغنائم صده حراس الممر ، فعاد إلى عكا . وفي ذات الوقت عبر فيلانجيري إلى قبرص

بتعزيزات لبارليه . وعلى الأثر صادر جون جميع السفن الراسية في ميناء عكا ، بينما عرض الملك جون اقطاعيات في قبرص للفرسان المحليين وحتى للتجار السوريين إذا انضموا إليه ، ورتب أن يسهم أبناء جنوا بالمساعدة في مقابل اعفائهم من المكوس ومنحهم الحق في أن يكون لهم أحياءهم الخاصة بهم ومحكمهم في نيقوسيا وفاماجوستا وبافوس . وكانت الأموال في تناقص ، لكن جون أمير قيسارية وجون الأصغر (أوف ايلين) ، وهو ابن فيليب ، باعوا ممتلكات في قيسارية وعكا لفرسان المعبد والمستشفى وجمعوا قرضا يبلغ واحد وثلاثين ألف بيزانت وأعطوه للملك.

وبهذه التعزيزات والتجهيزات ، أبحر جون والملك من عكا يوم ٣٠ مايو ، وتوقفا في صيدا لالتقاط باليان (أوف ايلين) الذي كان في طريقه من سفارته في طرابلس ، وعبروا البحر إلى فاماجوستا . وكان اللومبارديون التابعون لفيلانجيري في المدينة ومعهم ما يربو على ألفين من الخيالة بينما كان مع انصار ايلين مائتان وثلاثة وثلاثون فقط . ورغم ذلك حازف جون بإنزال جنوده الرئيسيين بعد حلول الظلام على جزيرة صخرية تقع إلى الجنوب مباشرة من الميناء . وكانت بلا حراسة إذ لم يدر بذهن احد إمكان انزال خيول هناك . ثم تمكنت فصيلة صغيرة في قواربها من شق طريقها إلى داخل الميناء مطلقة صرخات عالية بحيث ظن اللومبارديون أن جيشا عظيما يطبق عليهم ، فاحرقوا سفنهم وسارعوا بمغادرة المدينة . وفي الصباح التالي عبر جيش ايلين الصخور إلى اليابسة الرئيسة فوجد فاماجوستا مهجورة.

وبقي جون هناك ما يكفي من الوقت لكي يوفي الملك بوعده لأبناء جنوا بالتوقيع على معاهدة معهم تقضى بتخصيص حي لهم ، ثم انطلق الجيش إلى نيقوسيا . ونتيجة لتصرفات اللومباردين الوحشية، انعدمت شعبيتهم على الجزيرة ، وباتوا يخشون ثورة الفلاحين عليهم . واثناء انسحابهم أمام جيش ايلين أحرقوا مخازن الحبوب كلها التي خزن فيها الحصاد لتوه . وقرروا عدم الاحتفاظ بنيقوسيا ، وانما مضوا بطول الطريق الذهاب أعلى التلال إلى كيرينيا التي استولوا عليها لتحمي مؤخرتهم وليصبحوا على اتصال بفيلانجيري نفسه ، الذي كان يحاصر حصن رب المحبة . وكان معروفا أن حامية حصن رب المحبة تتضور جوعا وعلى وشك الاستسلام ، فاذا استطاع فيلانجيري صد أعدائه إلى أن يستولى على الحصن وعلى أختي الملك الموجودتين بداخله ، فسيكون في وضع قوى لمساومة الملك.

وسار الإيليون ببطء إلى نيقوسيا وهم يعانون من نقص الطعام ، غير أنهم وجدوا

في نيقوسيا ذاتها مخازن ضخمة غفل عنها اللومبارديون . واستراب جون من ذلك بحيث لم يضرب معسكره داخل المدينة ، وإنما قاد جيشه في الحال يوم ١٥ يونية باتجاه كيرينيا منتويا أن يعسكر في أجريدي الواقعة أسفل الممر مباشرة . ولخشية الجيش من هجوم في أية لحظة فقد سار في تشكيل قتالي ؛ وكان يتعين أن يفرد الطليعة باليان ، ابن جون ، لكنه كان قد طُرد من الكنيسة لزواجه من ابنة عمه إيشيفا ، تلك السيدة الشجاعة التي كانت تراقب الحملة كلها من مكنها المرتفع في بوفافينتو ، فضلا عن أن والده لم يكن يسمح له بقيادة عليا . ولذلك قاد الفرقة الأولى أخوه هيو ، مع أنسيلم (أوف براي) . وقاد ابن جون الثالث ، بلدوين ، الفرقة الثانية ؛ وقاد جون أمير قيسارية الفرقة الثالثة ؛ وقاد جون الإبليني نفسه المؤخرة مع أبنائه الآخرين والملك . وكان جيشا ضئيل العدد تنقصه الخيول بحيث يضطر تابع الفارس إلى أن يحارب راجلا . وبدا الجيش حقيرا في أعين اللومباردين الذين كانوا ينظرون اليه من قمة الممر ، حيث يلتقى الدرب القادم من حصن رب المحبة بالطريق . وصدر الأمر بمهاجمتهم دون تأخير .

١٢٣٢ م : معركة أجريدي

هبط جنود الخيالة من اللومباردين التل وهم يرددون بقيادة والتر كونت مانويلو، ومروا بطول جناح جيش ايبيلين ، لكنهم لم يتمكنوا من كسر صفوفه ، وساقتهم قوة دفع الهجوم إلى السهل أسفل . ومنع جون رجاله من تعقبهم ؛ ولم يجرؤ اللومبارديون على العودة والكدح لصعود المنحدر الشديد ، وإنما نهبوا الأرض ركضا باتجاه الشرق دون توقف إلى أن وصلوا جاستريا . واندفعت ثاني قوة لومباردية ، بقيادة بيرارد أخى والتر ، وهجمت مباشرة في قلب الصفوف التي يقودها هيو الإبليني وأنسيلم (أوف براي) ؛ غير أن الخيول وجدت صعوبة في هبوط جانب التل الصخري الوعر ، فكان لكثير من الخيول كبواتها ملقاة راكميها الذين حال ثقل أسلحتهم دون الوقوف على الأقدام . وحارب أغلب الإيبيلين على الأقدام ، وبرغم التفوق العددي لأعدائهم، وسرعان ما كانت لهم اليد العليا على أعدائهم . وقتل قائد اللومباردين بيرارد بيد أنسيلم نفسه ؛ وكان فيلانجيري منتظرا على رأس الممر منتويا الهبوط لإنقاذ بيرارد ؛ غير أن باليان الإبليني ظهر فجأة مع حفنة من الفرسان ، كانوا قد تسلقوا التل من مؤخرة جيش ايبيلين في درب جبلي يقع غرب الطريق وهجموا مباشرة على معسكر فيلانجيري . ومرة أخرى كان التفوق العددي في جانب اللومباردين الذين راحوا يشددون على

باليان وحفنة فرسانه ، ورفض أبو باليان أن يفصل فصيلة من جنوده وأن يرسلها لمساعدته ؛ غير أنه سرعان ما فقد فيلانجيري أعصابه ، إذ لم ترجع فصائل مانويلو ، فقاد رجاله في حالة من الفوضى هابطا إلى كيرينيا .

وأنقذت قلعة رب المحبة وهرب محاصروها باتجاه الجنوب الغربى إلى السهل . ولما هبط الظلام فاجأهم فيليب (أوف نوفارا) وأسرهم . ووصل والتر (أوف مانويلو) إلى قلعة جاستريا ، لكن فرسان المعبد بداخلها رفضوا السماح له بالدخول ، وعثر عليه جون ، ابن فيليب الإيبيليني ، محتبئا في حفرة واعتقله . وفي ذات الوقت سار جون أمير بيروت لمحاصرة فيلانجيري في كيرينيا .

ودام حصار كيرينيا عشرة أشهر . إذ كان الإيبيليون يفتقدون السفن بادئ الأمر ، بينما كان لدى فيلانجيري أسطول أبقي على اتصاله بصور . ولم يتمكن الإيبيليون من إحكام الحصار حول القلعة بحرا إلا بعد استمالة أبناء جنوا للمساعدة بسفنهم مرة أخرى . وقبل أن يكتمل الحصار هرب فيلانجيري مع أمالريك بارليه ، وأمالريك أمير بيسان ، وهيو أمير جبيل ، وذهبوا أول الأمر إلى أرمينيا في محاولة فاشلة للحصول على مساعدة الملك هيثوم ، ثم إلى صور ، وفي نهاية الأمر إلى إيطاليا لإطلاع الامبراطور . أما اللومبارديون في كيرينيا ، بقيادة فيليب شينارت ، فقد شيدوا دفاعات قوية . وكان صغار لوردات إيبيلين قد جرحوا جميعا أثناء القتال ؛ وكان أنسيلم (أوف براى) المحارب الصنديد ، والذي كان جون أمير بيروت يلقبه بلقب "الأسد الأحمر" ، قد أصيب بسهم حديدى ومات بعد ستة أشهر من أوجاعه . ومن بين اللاجئين داخل كيرينيا الأميرة أليس (أوف مونتفرات) الإيطالية التى اختارها فريدريك لتكون عروس الملك هنرى ؛ وكانت قد تزوجت بالتوكيل ، ومن المشكوك فيه ما إذا كانت قد رأت زوجها قط ، إذ وصلت إلى قبرص يرافقها الحرس الإمبراطورى بعد أن انضم الملك إلى الإيبيلين . وأثناء الحصار سقطت مريضة وماتت ؛ وقد توقف القتال لمراسم تسليم جثتها وعليها رداء الملكة ، وحُملت إلى نيقوسيا حيث أجريت لها جنازة ملكية ودفنها زوجها الذي لم يرها قط وهى على قيد الحياة .

واستسلمت كيرينيا في ابريل ١٢٣٣ م ، وُسُمح للمدافعين عنها بالانسحاب إلى صور مع أمتعتهم الشخصية ، وتم تبادل الأسرى الذين أسرهم الإيبيليون بالأسرى الذين كان يحتجزهم فيلانجيري في صور . والآن عادت قبرص كلها إلى حكم الملك هنرى وأبناء عمومته الإيبيلين . وكوفئ أتباع الملك المخلصون وسُدد ما اقترضوه من

قروض^(٤٨). ودخلت الجزيرة عهدا من السلام لا يشوبه إلا محاولات هرمية الكنيسة اللاتينية قمع أي رجل دين يوناني لا يقبل سلطتها أو لا يعترف بأعرافها، وذلك على الرغم من معارضة البارونات العلمانيين. أما الرهبان اليونانيون المعاندون في عصيانهم فقد عوقبوا حتى بالحرق^(٤٩).

١٢٣٣م : تعيين موجاستيل وكيل

على الرغم من حلول السلام في قبرص، كان فيلانجيري ما يزال يحتل صور في الأراضي الرئيسية، وكان فريدريك ما يزال حاكم القلس القانوني وصيا على ابنه الصغير. وعندما علم فريدريك بفشل سياسته، وربما من فيلانجيري نفسه، أرسل رسائل إلى عكا، سلمها أسقف صيدا بيده كان يزور روما، بالغاء تعيين فيلانجيري كوكيل، وتعيين أحد النبلاء السوريين مكانه وهو فيليب (أوف موجاستيل). وإذا كان أملة تهدئة البارونات بتعيين لورد محلي، فقد خاب أملة؛ إذ كان موجاستيل شابا مختئا أثارت علاقته الحميمة مع فيلانجيري فضيحة كبيرة، بينما بقيت صور في حوزة فيلانجيري. وعندما وصلت أنباء التعيين الجديد جون أمير بيروت، لم تكن كيرينيا قد سقطت بعد، فأسرع من فورهِ مبحرا إلى عكا، حيث كان باليان أمير صيدا وأودو (أوف مونتيلليارد) يتهيآن لقبول موجاستيل، ورتبا بأن يتم قسم الولاء له في كنيسة الصليب المقدس، لكن جون أمير قيسارية نهض عندما افتتح الحفل وأعلن عدم قانونية الإجراءات؛ إذ لا يستطيع الامبراطور أن يلغي بنزوة من خياله الترتيبات التي تمت أمام المحكمة العليا. وثار خلاف غاضب، وقرع جون جرس الإنذار لكوميون عكا مستدعيا أعضائه لمساعدته، واندفع حشد مهتاج إلى داخل الكنيسة، أوشك على قتل باليان وأودو لولا تدخل جون شخصيا، بينما هرب موجاستيل مذعورا إلى صور. وأعيد انتخاب جون عمدة للكوميون وأصبح الحاكم الفعلي للمملكة، فيما عدا صور التي كان فيلانجيري يحكمها باسم الامبراطور، والقدس ذاتها التي يبدو أنها كانت خاضعة

(٤٨) أورد Philip of Novara قصة الحرب اللومباردية الطويلة من وجهة نظر ايلينية عاطفية (Gestes des Chiprois, pp. 77-117) وتورد بعض الإطالة في 386-402, pp. *Estoire d'Eracles*، ومرة أخرى من وجهة نظر معادية للإمبراطور. وأما تاريخي (Amadi (pp. 147-82 و Bustron (pp. 80 - 104 فيخلفان في مجرد تفصيلات بسيطة. أما مؤرخو فريدريك فلا يعنون بالقصة.

(٤٩) عن تاريخ قبرص الكنسي في هذه الفترة أنظر Hill, op.cit. iii, pp 1043-5. وهناك رواية عن استشهاد ثلاثة عشر يونانيا على يد اللاتينيين عام ١٢٣١م منشورة في Sathas, vol.ii, pp 20-20.

لممثل مباشر من الامبراطور . ومن المرجح أن باليان أمير صيدا ظل وكيلا إسميا، غير أن المحكمة العليا قبلت زعامة جون إلى حين اتخاذ بعض الترتيبات القانونية الجديدة. وأرسل المبعوثان فيليب (أوف تروي) وهنري أمير الناصرة إلى روما لشرح أعمال البارونات والكوميون ؛ غير أن السيد الأعظم لفرسان التيوتون ، هيرمان (أوف سالزا)، الذي كان موجودا هناك ، كان يرى أنهما لم تتح لهما فرصة عادلة لسماع وجهات نظرهما ؛ إذ كان البابا لا يزال على علاقة حسنة بفرديريك وكان تواقا لإعادة سلطته في الشرق . وفي ١٢٣٥م أرسل البابا رئيس أساقفة رافينا إلى عكا مندوبا بابويا عنه، لكن رئيس الأساقفة لم يفعل سوى أن أوصى بالطاعة لسلطة فيلانجيري ، الأمر الذي لم يلق قبولا . وأرسل البارونات بدورهم قاضيا إلى روما ، هو جيوفري لو تور . وكان البابا جريجوري قد بدأ شجاره مع الامبراطور مرة أخرى ، لكنه كان عاقد العزم على أن يكون تصرفه سليما . وفي شهر فبراير ١٢٣٦م كتب إلى فرديريك وإلى البارونات قائلا برحوب قبول فيلانجيري وكيلا ، على أن يساعده أودو (أوف مونتيليارد) حتى شهر سبتمبر الذي يعين فيه بوهمند أمير انطاكية وكيلا . ولأن فرديريك وكونراد حاكمان شرعيان ، فقد أخطأ البارونات فيما قاموا به من تصرف ، على أنه يتعين منح المغفرة للجميع فيما عدا آل إيبيلين الذين يجب محاكمتهم امام المحكمة العليا . وينبغي حل كوميون عكا^(٥٠).

ولم يقبل البارونات والكوميون تلك الشروط وتجاهلوها . وفي هذا المنعطف مات جون الإيبيليني نتيجة لحادثة حدثت له أثناء ركضه على جواده . ولقد كان لورد بيروت العجوز هذا ، كما كان يسميه معاصروه ، الشخصية المهيمنة في الشرق الفرنجي . ولا يخامر أحد أية شكوك حول صفاته الشخصية العالية . كان شجاعا وشريفا وسليما في تصرفاته ، وكان لشخصيته التي لا تشوبها شائبة أثر كبير في تعزيز قضية البارونات^(٥١). ولولاه لأفلاح فرديريك بجدارة في انشاء حكم مطلق في كل من قبرص والمملكة السورية ؛ وبرغم أن حكم البارونات يميل إلى الإعتباطية والسير كيفما اتفق ، يصعب علينا أن نعي كيف يعتبر الحكم المطلق تحسينا للأحوال . ولقد كان فرديريك نفسه بعيدا جدا بحيث لا يستطيع السيطرة عليه ؛ وكان حكمه على الرجال سيئا ؛ إذ أن وضع الحكم المطلق في قبضة رجل مثل رتشارد فيلانجيري لا بد وأنه كان

(٥٠) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 406-7; *Gesta des Chiptois*, pp. 112-13

(٥١) أنظر اعلاه صفحة ٢٢٩، الحاشية ٢٦.

سيؤدي إلى كارثة سريعة ؛ وكان الحل الأفضل هو ما أوصى به البابا نفسه ، وهو اتحاد حكومة الأراضي الرئيسية مع قبرص^(٥٢). غير أن تقييد البارونات بالقانون ، الذي جعلهم يعارضون استبداد فريدريك ، لم يكن ليسمح لهم بوجود أي ملك آخر بخلاف سيدهم الشرعي ، ابنه كونراد . وأما الاتحاد مع قبرص ، فيتعين أن ينتظر إلى أن تأذن به يد الرب . لقد كان موقف البارونات متماسكا وسليما . لكنه في ذات الوقت قنّ الفوضى.

(٥٢) اقترح البابا على جيوفري لو تور أن تقبل الأراضي الرئيسية سلطة الملك القبرصي (*Estoire d'Eracles*, ii, p.407)

الفصل الرابع:

فوضى مقننة

فوضى مقننة

"إِذِ النَّامُوسُ لَمْ يُكْمَلْ شَيْئًا"

(الرسالة إلى العبرانيين ٧: ١٩)

ترتب على موت لورد بيروت العجوز أن جرد اوتريميه من زعيمها الطبيعي ؛ ولم يتمتع قط أى بارون فرنجي آخر بهذه المكانة العالية مرة أخرى . ولقد أدى دوره، إذ أسس تحالفا بين البارونات وكوميون عكا ، ودلهم على سياسة مشتركة تركز على حقوقهم القانونية . ومن بين أبنائه الأربعة ، بقي اثنان في الأراضي الرئيسية السورية هما باليان الذي استخلف على إمارة بيروت ، وجون الذي ورث إقطاعية أمه في أرسوف ، وتسلم اثنان ضياع الأسرة في قبرص وتزوج كلاهما زواجا سياسيا أعاد الوحدة إلى نبلاء المملكة ؛ فتزوج بلدوين ، الذي أصبح (قهرمانا) ، من أخت أمالريك (أوف بيسان) ، وتزوج جوي ، الذي أصبح ياورا ، من ابنة ووريثة زعيم المتمردين أمالريك بارليه . أما ابن أخى اللورد العجوز ، وهو جون آخر ، والذي أصبح كونت يافا ، وواضع قوانين القدس، فكان أبرز القانونيين في المملكة . وكان ابن عمومته

باليان أمير صيدا لا يزال قائما بأعمال الوكيل مع أودو (أوف مونتييلارد) ، غير أن فشل سياسته الترفيقية أضعف من سلطته . وكان أقوى النبلاء ابن عم آخر هو فيليب (أوف موننفورت) ، وهو أخو سيمون ذاك الذي قاد الحملة الصليبية الألبيجينية . وكان فيليب قد تزوج مؤخرا الأميرة الأرمنية ماريا ، ابنة ريموند-روبين ، وهي ورثة طورون عن طريق أم حداثها ، أخت آخر لوردات طورون . وفوق ذلك ، أكمل جون أمير قيسارية ، وهو ابن عم آخر ، الفرع العائلي الذي يسيطر الآن على أوتريميه . وأضاف إلى شهرة اللورد العجوز بعد وفاته أن أصبح أبناؤه وأبناء إخوته على استعداد للعمل معا بروح من التفاهم ؛ وتوثقت عرى وحدتهم بمقتهم لفيلانجيري الذي كان لا يزال يحتل صور للإمبراطور^(١) .

وحتى مع ذلك ، كان وضع مملكة ما وراء البحار مقلقا . إذ مات بوهمند الرابع أمير أنطاكية وكونت طرابلس في شهر مارس ١٢٢٣م بعد أن تصالح أخيرا مع الكنيسة . وقد أظهر لنا ملحوظا إبان الحروب التي دارت بين الإمبراطورين وبارونات أوتريميه . إذ أنه رحب بادئ الأمر بفريدريك بوازع من كراهيته للإيليين الذين عارضوا تعيين ابنه بوهمند ، زوج الملكة أليس ، في الوصاية على قبرص . وبعد ذلك ، ولخشيتهم من طموحات فريدريك غير من سياسته . فبعد تطبيق أليس من بوهمند الصغير بسبب قرابة الدم وافق طواعية على اقتراح جون الإيليني بزواج أصغر أبنائه ، هنري ، من إيزابيلا القبرصية ، كبرى أخوات الملك هنري ، وهو زواج يستهدف في النهاية وضع أمير أنطاكية على العرش القبرصي . غير أنه في ذلك الوقت كان فيلانجيري قد انتصر في معركة كاسال إيميرت ؛ ولذا راوغ بوهمند ، مدفوعا برغبته في أن يكون في جانب المنتصر . ولم يتم الزواج إلا بعد هزيمة الإمبراطورين في قبرص^(٢) . وفي ذات الوقت على وجه التقريب تصالح بوهمند مع فرسان المستشفى . وكانت الكراهية المشتركة للإمبراطور فريدريك من جانب كل من نظامي فرسان المعبد والمستشفى قد دفعتهما إلى التعاون معا إلى حين ، ولم يكن بوسعهما أن يضرب أحدهما بالآخر . ولذلك أعلن عن خضوعه للكنيسة والتمس من جيروld رئيس أساقفة القدس أن يتفاوض مع فرسان المستشفى من أجله . ووافق النظام على إسقاط مطالبته بما وعده

(١) عن أسرة إيلين وأبناء عمومتهما، أنظر شجرة الأنساب، المرفق الثالث أدناه، المرتكزة على *Lignage d'Outremer*.

(٢) Amadi, pp. 123-4 بالنسبة لطلاق أليس و *Gestes des Chiprois*, pp. 86-7; *Estoire d'Eracles*, ii, p.360 بالنسبة لزواج إيزابيلا

ريموند-روين من مزايا والإعتراف بحقوق بوهمند الإقطاعية ، وذلك في مقابل إيجارات ضخمة لممتلكات في مواقع في أنطاكية وطرابلس. وفي الوقت ذاته رفع جيروود حكم الطرد من الكنيسة الصادر ضده ، وأرسل إلى روما للتصديق على تلك التسوية . وجاء تصديق البابا بعد أسابيع قليلة من موت بوهمند^(٣).

١٢٣٣ م : بوهمند الخامس أمير أنطاكية

وبرغم كل أخطاء بوهمند الرابع فقد كان حاكما قويا ، أعجب حتى أعداؤه بثقافته وبتعليمه كقانوني . أما ابنه بوهمند الخامس فكان رجلا ضعيفا، وكان ابن الكنيسة البار ، وسمح للبابا جريجوري التاسع بأن يختار له زوجه الثانية ، لوشين (أوف سينبي) التي كانت من أسرة البابا^(٤). وبعد سنوات قليلة ، في عام ١٢٤٤ م ، وباستغلاله لتجربة أبيه ، حصل من روما على ضمان بعدم إمكان الحكم عليه بالطرد من الكنيسة إلا عن طريق البابا شخصيا^(٥) غير أنه لم يكن السيد في إمارته هو نفسه ؛ إذ كان الذي يحكم أنطاكية مجلسها الإداري (الكوميون) ، ولم يكن يحظى معه بشعبية أبيه ، ربما لأن صداقته بروما أغضبت العنصر اليوناني القوي هناك ، ومن ثمّ فضل الإقامة في عاصمته الثانية طرابلس . ولم تكن له من سيطرة على الأنظمة الدينية العسكرية ، وكانت علاقته بأرمينيا في ظل الهيثوميين تفتقر إلى الود ، وكان قطاع اللاذقية الإسلامي يشطر أراضيه إلى قسمين ، وكان عهده بمثابة علامة على اضمحلال سريع^(٦).

وكان فريدريك قد استبعد أنطاكية وطرابلس من معاهدة السلام التي عقدها مع الكامل لضيقة من بوهمند الرابع آنذاك . ومع ذلك تمكن بوهمند من الحفاظ على السلام مع جيوانه المسلمين ، بخلاف بعض هجماته على الحشاشين الذين يبغضهم باعتبارهم حلفاء فرسان المستشفى . وكانت الأنظمة الدينية العسكرية على جانب كبير

(٣) Cahen, *La Syrie du Nord*, Rohricht, *Regesta Regni Hierosolymitani*, pp. 269-70 . Nord, pp. 642-3.

(٤) *Estoire d'Eracles*, ii, p.408. كانت لوسين حفيدة إينة أخت إينوسنت الثالث ولذا فهي من بنات خوزلة جريجوري التاسع

(٥) Innocent IV, *Registres*, 418 (ed. Berger), i, p. 75

(٦) أنظر . Cahen, *op. cit.* pp. 650-2, 664-6; Rey, *Histoire des Princes d'Antioche*, p. 400

من قلة الحذر ، وهذا ما كان مثار معارضته الشديدة . إذ أن فرسان المستشفى استشاروا الكامل حتى أغار على قلعة الكرك عندما كان يهاجم دمشق عام ١٢٢٨ م . وفي ١٢٢٩ م شنوا غارة مضادة على بارين ، وفي ١٢٣٠ م شاركوا فرسان المعبد في طرطوس في شن هجوم على حماة حيث وقعوا في كمين وهزموا هزيمة منكرة . وفي العام التالي انقضت الأنظمة الدينية العسكرية فجأة على جبلة ، ولم يحتفظوا بها إلا لأسابيع قليلة . وفي نهاية الأمر عقدت هدنة في ربيع ١٢٣١ م دامت لعامين^(٧) .

وبعد استخلاف بوهمند الخامس مباشرة أرسل أخاه هنري مع فرق من عكا وقبرص لمساعدة الأنظمة الدينية العسكرية في هجوم آخر على بارين التي افتدت نفسها بالوعد بدفع إتاوة يتسلمها نظام فرسان المستشفى من حماة . واستمرت الهدنة المحددة حتى عام ١٢٣٧ م ، عندما انقض فرسان معبد يجراس فجأة على قبائل التركمان المستقرة في شرق بحيرة انطاكية . وزحف جيش حلب في كامل قوته للانتقام بمحاصرة يجراس التي لم ينقذها سوى وصول بوهمند نفسه الذي تدبر تجديد الهدنة . واستاء مرشد فرسان المعبد في انطاكية وهو وليم (أوف مونتفرات) من هذه الإهانة وضرب برغبات بوهمند الصريحة عرض الحائط معلنا أنه سوف يخرق الهدنة بعد إبرامها مباشرة . وفي شهر يونية من ذلك العام حرض فرسانه ولورد جيبيل ولوردات علمانيين قليلين على مهاجمة قلعة درب الساق الواقعة شمالي يجراس . وأخذت حاميتها على حين غرة لكنها قاومت مقاومة شديدة ، بينما أسرع الرسل إلى حلب التي أرسل واليها على الفور جيشا قويا . وسمع بعض الأسرى المسيحيين نبأ إرسال هذه القوة ، فتدبروا إرسال رسالة إلى وليم يخبرونه على الإنسحاب ، فتجاهل ذلك التحذير في كبرياء ، ففوجئ بفرسان المسلمين ينقضون عليه ، وهُزمت قوته الصغيرة هزيمة منكرة ، وقتل هو نفسه ووقع أغلب رفاقه في الأسر . وبذئوع انباء الكارثة كتب كل من نظامي المعبد والمستشفى رسائل متلهفة إلى الغرب للنجدة ؛ على أن المسلمين لم يتابعوا انتصارهم ، إذ أنهم تلقوا وعدا بمبالغ وفيرة من المال لاقتداء أسراهم ، فوافقوا على تجديد الهدنة . وفقدت الأنظمة الدينية العسكرية ثقتها بنفسها وحافظت على السلام لعشر سنوات بموافقة البابا الذي اضطر إلى تقديم أكبر قدر من أموال الفدية^(٨) .

(٧) . Ibn al-Athir, ii, p. 180 وعن مصادر المخطوطات انظر 6,7 nn. 642, Cahen, op. cit.,

(٨) . *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 403-5; *Annales de Terre Sainte*, p.436; Kemal ad-Din, trans. Blochet, pp. 85, 95-6; Abu'l Feda, pp. 110-12.

ويعزى إلى السلطان الكامل العظيم، ولحسن حظ الفرنج، ما أبداه المسلمون من غيبة الروح العدوانية، ذلك أن الكامل كان رجل سلام وشرف . ومع ذلك كان على استعداد لأن يحارب وأن يحيك المكائد في سبيل توحيد الأراضي الأيوبية تحت زعامته ، فليست المنازعات العائلية والمشاحنات من مصلحة أحد. وكان مهياً لدفع هجمات السلاجقة أو أتراك خوارزم ، وطالما لا توجد اضطرابات بسببها المسيحيون ، فهو تاركهم في حالهم . وكان أمراء المسلمين جميعاً مدركين للمزايا التجارية للموانئ البحرية الفرنجية القريبة من حدودهم ؛ وكانوا كارهين للمجازفة بتغيير مسار التجارة الضخمة بين الشرق والغرب بعداوات حمقاء ، وكان الكامل خاصة حريصاً على تهيئة الإزدهار المادى لرعاياه ؛ فضلاً عن ذلك ، كان كصديقه فريدريك الثاني ، رجلاً ذا فضول ذهنى واهتمامات فكرية واسعة ، وكان ذا تسامح أصيل وطيبة على نحو يفوق للغاية آل هوهنشتوفن . وعلى الرغم من افتقاره إلى ما كان عمه صلاح الدين يزدان به من جلال البطولة ، وحدة الذهن المتوقد وما كان أبوه العادل يتحلى به، فقد كان يفيض عاطفة إنسانية أكثر من أيهما. وكان ملكاً ذا اقتدار . وربما استهجن معاصروه المسلمون ما كان يظهره من استلطاف "للرجل الأشقر" ، لكنهم كانوا يحترمون ما كانت عليه حكومته من عدالة ونظام جيد^(٩).

١٢٢٩م : الكامل يعيد وحدة الإمبراطورية الأيوبية

أفلح طموح الكامل في إعادة توحيد العالم الأيوبي . ففي شهر يونية ١٢٢٩م تمكن أخوه الأشرف أخيراً من إبعاد ابن أخيه الناصر عن دمشق بعد أن مُنح على سبيل التعويض مملكة في وادى الأردن وشرقي النهر ، عاصمتها الكرك ، تحت سيادة الكامل الفعالة . واحتفظ الأشرف بدمشق مع اعترافه بسيطرة الكامل وتخليه له عن أراضى فى الجزيرة وبطول الفرات الأوسط . وتلك كانت مقاطعات الإمبراطورية الأيوبية الأكثر تعرضاً للهجوم ولذا رغب الكامل فى السيطرة عليها مباشرة نظراً لما كان يمثل جلال الدين الخوارزمي من تهديد جد خطير ، ووراءه إلى الشرق ما لا يعلمه إلا الله من قوة المغول ، هذا فى ذات الوقت الذى كان فيه السلطان السلجوقي كايكوباد يشدد ضغوطه باتجاه الشرق من الأناضول . وفى ١٢٣٠م، وعندما كان الأشرف فى دمشق ،

(٩) عن الكامل، أنظر ثناء أبى الفدا عليه Abu'l Feda's eulogy, p. 114 ، وابن خلكان Ibn Khallikan, iii, pp. 241-2.

استولى جلال الدين على قلعته العظيمة الأخلاط بالقرب من بحيرة فان ، وسار لمهاجمة السلاجقة، فسارع الأشرف شمالاً وتحالف مع كايكوباد ، وهزم التحالف جلال الدين هزيمة حاسمة بالقرب من إرزينجان . وفي ذات الوقت كان المغول يهاجمون مؤخرة الإمبراطورية الخوارزمية ، ومن ثم بدأ تفكك تلك الإمبراطورية . وفي العام التالي هزم المسلمون جلال الدين نفسه الذي قتل أثناء فراره يوم ١٥ أغسطس بيد فلاح كردي كان جلال الدين قد قتل أخاه منذ زمن طويل^(١٠).

وبغياب صلاح الدين اختل توازن القوى؛ إذ أصبح السلاجقة في شرقى الأناضول بلا غريم ، وبات المغول قادرين على التقدم غرباً في حرية ، وتمتعت الخلافة العباسية في بغداد بأشهر قليلة من الاستقلال نادرة ومقلقة. ولم يمض وقت طويل قبل أن يلتفت كايكوباد إلى أراضي الكامل الواقعة في الفرات الأوسط . ومضت الفترة من ١٢٣٣م إلى ١٢٣٥م في حروب متصلة ، وانتقلت الرها وسروك ومدن أخرى في الإقليم من سيد إلى آخر إلى أن تمكن الكامل في نهاية المطاف من ترسيخ قواعده . وأثار نجاح الكامل غيرة أقاربه ؛ وكره الأشرف وضعه كتابع ؛ وفي حلب مات فجأة عام ١٢٣٦م الملك العزيز الصغير ابن الظاهر ، وتولت أم الظاهر ضيفة الوصاية على حفيدها الظاهر الثاني، وهي أخت الكامل، لكنها كانت تخشى طموحات أخيها، وشاركها مخاوفها عدد من صغار الأمراء الأيوبيين . وأثناء الأشهر الأولى من عام ١٢٣٧م جمع الأشرف حلفاءه ، وضمن العون الفعال من كايكوباد ؛ وبدأ أن لا مفر من الحرب الأهلية ، لكن كايكوباد مات في بداية الصيف وأصيب الأشرف بمرض خطير، وبموته يوم ٢٧ أغسطس تبددت المؤامرة ؛ إذ استولى أحد إخوته الصغار ، الصالح اسماعيل ، على دمشق وحاول بلا جدوى إعادة توحيد المتآمرين . وبمساعدة الناصر والي الكرك ، زحف الكامل على دمشق في يناير ١٢٣٨م وضمها وعرض الصالح اسماعيل بإقطاعية في بعلبك. على أن العمر لم يطل بالكامل وانتصاراته ؛ فبعد شهرين مات في دمشق يوم ٨ مارس وهو في الستين من عمره^(١١).

(١٠) Ibn Khallikan, iii, pp. 242, 488-9; Ibn al-Athir, ii, pp. 176-8; Maqrisi, x, pp. 250-2. وانظر Cahen, *op. cit.* pp. 644-6 والخواشي لمراجع المخطوطات

(١١) Ibn Khallikan, iii, pp. 242-4; Kemal ad-din, trans. Blochet, pp. 88-99. See Cahen, *op. cit.* pp. 645-6

١٢٣٩م : الحرب الأهلية فيما بين الأيوبيين

وأطلقت وفاته الحرب الأهلية من عقابها . إذ كان أكبر أبنائه الصالح أيوب ، ووالدته أمة سودانية، في الشمال فسار في الحال إلى دمشق التي سبق أن استولى على السلطة فيها أحد أبناء إخوة الكامل وهو الجواد، وتمكن الصالح أيوب من خلع ابن عمه بمساعدة بعض قطاع الطرق الخوارزميين . وفي ذات الوقت تم تنصيب أخيه الأصغر ، العادل الثاني ، سلطانا على مصر . وكان الصالح أيوب قد عزم على أن يأخذ لنفسه أغنى مقاطعات أبيه ، لكنه عندما شرع في غزو مصر ، قام عمه الصالح اسماعيل بانقلاب مفاجئ خلعه من عرشه في دمشق ؛ وأثناء فرار الصالح أيوب باتجاه الجنوب وقع في قبضة الناصر صاحب الكرك الذي، برغم ذلك، تبنى قضيته وأعاره جنوده لغزو مصر . وكان غزوا يسيرا . إذ أساء العادل الثاني إلى وزرائه بأن عهد بالحكومة إلى زنجي شاب كان به ولوعا ، وحيكت مكيدة ناجحة خلعه في يونية ١٢٤٠م، ودُعي الصالح أيوب ليعتلى العرش المصري ؛ وكوفئ الناصر بمنصب الحاكم العسكري لفلسطين . على أن الصالح اسماعيل بقي سيد دمشق ؛ وبات العالم الأيوبي طوال العقد التالي تمزقه الخصومة بين العم وابن أخيه . وسرعان ما استحال الشمال إلى فوضى ؛ إذ راح أفراد عصابات الخوارزميين يعيشون فسادا في أنحاء شمالي سوريا ، بأوامر من الصالح أيوب فيما يبدو . وفي الجزيرة احتفظ أمير ميفارقين الأيوبي ، المظفر ، بسلطة ضئيلة . وحاول ابن الصالح أيوب ، توران شاه ، جمع شتات أراضى جده ، لكن مدنا كثيرة سقطت في قبضة السلطان السلجوقي . وفي حلب بقي الناصر يوسف - الذي خلف أخاه عام ١٢٣٦م - في جانب الدفاع ، في نفس ذات الوقت الذي كان فيه أميراً حماء وحمص مشغولين للغاية بصد الخوارزميين^(١٢) .

وفي خضم هذا الإضطراب العنيف انتهت المعاهدة المعقودة بين فريدريك الثاني والسلطان الكامل . وكان البابا جريجوري التاسع قد أعد لذلك عدته بأن أرسل في صيف عام ١٢٣٩م عملاء للتبشير بحملة صليبية في فرنسا وإنجلترا ؛ ولم يتوفر عند الملك الفرنسي ولا الملك الإنجليزي الاستعداد للاستجابة شخصيا لمناشدته ، غير أنهما أعربا للمبشرين عن كامل تشجيعهما . وفي أوائل الصيف كانت هناك صحبة متميزة من النبلاء الفرنسيين على استعداد للإبحار إلى الشرق . وكان على رأسهم تيبالد (أوف

(١٢) عن هذا التاريخ المضطرب أنظر، Maqrīsi, x, pp. 245-6; Ibn Khallikan, ii, pp. 445-6, iii, pp. 297-330; Kemal ad-Din (trans. Blochet), loc. cit. . Cahen, op. cit. pp. 646-9.

شامباني)، وهو ملك نافار^(١٣)، وابن اخي هنري (أوف شامباني)، ولذا فهو من أبناء عمومة ملوك فرنسا وإنجلترا وقبرص. وكان معه دوق برجندي هيو الرابع، وبطرس نوكلير كونت بريتاني، وكونتات بار ونفرس ومونتفورت وجوني وسانسير والكثير من اللوردات الأقل. وكان عدد جنود المشاة أقل من المتوقع بالنظر إلى ارتفاع مستويات القادة؛ غير أن الحملة كلها كانت هائلة^(١٤).

وكان في مأمول تيبالد أن يركب البحر مع رفاقه من برنديزي، غير أن الحروب التي دارت بين البابا والإمبراطور جعلت الترحال خلال إيطاليا صعبا؛ فضلا عن أن الإمبراطور، الذي تقع برنديزي في أراضيه، لم يكن سعيدا بالحملة الصليبية، إذ كان يعتبر نفسه حاكم فلسطين لابنه الصغير ومن ثم كان ينبغي لحملة ذاهبة لمساعدة مملكته أن يتم تنظيمها تحت سلطته هو. ولم يكن بوسعه موافقة النبلاء الفرنسيين الذين كانوا يتجهون بفطرتهم - دون شك - إلى تأييد بارونات أوتريميه ضده. وفصلا عن ذلك، ولإدراكه لوضع العالم الإسلامي، كانت الآمال تداعبه في انتزاع مساومة طيبة للمملكة بالطرق الدبلوماسية، ولا شك في أن مجيء هؤلاء الفرسان الطائشين نافذ الصبر سوف يقضى على تلك المفاوضات، بيد أنه نظرا لمشاكله في إيطاليا لم يكن بوسعه أن يرسل هو نفسه رجالا للسيطرة على هؤلاء الفرسان، وإنما حصل على وعد بعدم الإقدام على أي شيء إلى أن تنتهي الهدنة في أغسطس، ثم أحل نفسه من الأمر برمته. ولذا اضطر الصليبيون إلى ركوب البحر من آجيوس-مورت ومرسيليا^(١٥).

١٢٣٩م : تيبالد (أوف شامباني) وحملة الصليبية

كانت رحلة الحملة الصليبية رحلة عاصفة خلال البحر المتوسط، انجرفت فيها بعض سفنها إلى قبرص، واندفع بعضها عائدا حتى بلغ صقلية. غير أن تيبالد نفسه وصل عكا في أول سبتمبر؛ وخلال الأيام القليلة التالية تجمع هناك جيش قوامه ألف فارس على وجه التقريب. وانهقد مجلس في الحال لتقرير أفضل سبل الاستفادة من هذا

(١٣) المترجم : Navarre : إقليم تاريخي ومملكة سابقة في شمال شرق أسبانيا وجنوب غرب فرنسا.

(١٤) *Estoire d'Eracles*, ii, pp.413-14; *Gestes des Chiprois*, p.118; Gregory IX, letter, in Potthast, *Regesta*, i, p. 906.

(١٥) *Estoire d'Eracles*, ii, loc. cit.; *MS of Rothelin*, p. 528; Gregory IX, letter, in Potthast, *op. cit.*, i, p.910.

الجيش ، وحضر المجلس بالإضافة إلى الأمراء الزائرين أهم البارونات المحليين ، بممثلين عن الأنظمة الدينية العسكرية ، بينما حضر رئيس أساقفة صور ، بطرس (أوف سارجين) نيابة عن بطريق القدس . وكانت لحظة مناسبة لمشروع دبلوماسي ؛ إذ أتاحت المشاجرات بين ورثة الكامل الفرصة للمسيحيين لاستخدام قوتهم الجديدة كنقطة مساومة وللحصول على تنازلات سخية من واحد أو آخر من الفرق المتصارعة . لكن الصليبيين جاءوا ليحاربوا ، ولن يخذوا الحذو المشين الذي سلكه فريديريك . ولذلك أوصى البارونات المحليون بتسيير حملة ضد مصر . ولن تتسبب تلك الحملة في الإساءة إلى حيرانهم المسلمين القريبين في سوريا ، ليس هذا وحسب وإنما أيضا ستكون واعدة بفرص نجاح طيبة نظرا لما يفتقر إليه السلطان العادل من شعبية . وأكد آخرون أن دمشق هي العدو ؛ وعلى الجيش تقوية حصون الجليل ثم الزحف على العاصمة السورية . على أن تيبالد كان يشتهي انتصارات متعددة ، فقرر أن يهاجم الجيش أولا القاعدتين الأماميتين المصريتين عسقلان وغزة ، وربما كان ذلك بناء على اقتراح كونت يافا، والتر (أوف برين) الذي لم يكن ينتمي إلى جماعة العائلة الإيبيلية ؛ ثم يهاجم دمشق بعد ضمان الحدود الجنوبية . وبسماع تلك الأنباء، هرعت الرسل تجوب كل بلاط أيوبي للترتيب لهدنة مؤقتة بين الأمراء المسلمين^(١٦) .

وانطلقت الحملة من عكا إلى الحدود المصرية يوم ٢ نوفمبر ، وصحب الصليبيين فصائل من الأنظمة الدينية العسكرية وعدد من البارونات المحليين . وأثناء سيرهم باتجاه يافا ، جاء أحد الجواسيس وأخبر بطرس (أوف بريتاني) بأن هناك قافلة اسلامية نفيسة تتحرك أعلى وادي الأردن قاصدة دمشق ، فما كان من بطرس إلا أن خرج على جواده في الحال مع رالف (أوف سواسون) ومثني فارس ونصبوا كميناً للقافلة . وكانت القافلة مسلحة تسليحا جيدا ، وفي المعركة التي نشبت كاد بطرس أن يُقتل ؛ لكن جنود المسلمين هربوا في نهاية الأمر تاركين قطيعا ضخما من الماشية والأغنام استولى عليها المسيحيون ، وقاد بطرس المنتصر أسلابه عائدا إلى يافا التي وصلها رفاقه الآن . ونظرا لتناقص الطعام لدى الجيش فقد قوبل انتصاره بالترحيب الشديد . على أن انتصاره هذا خلق عدوا من الناصر صاحب الكرك^(١٧) .

وسير على وجه السرعة جيش مصري من الدلتا إلى غزة بقيادة المملوك ركن

MS. of Rothelin, pp. 531-2; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 413-14. (١٦)

MS. of Rothelin, pp. 533-6. (١٧)

الدين . وكانت أول أنباء عن وصوله تلقاها المسيحيون تفيد بأن عدده مجرد ألف رجل . ونظرا لما كان يكنه هنرى (أوف بار) من مشاعر الغيرة لنجاح كونت بريتاني ، فقد عزم في الحال على مهاجمته واكتساب ما يترتب على ذلك من جدارة وأسلاف ؛ وأبقى خطته طي الكتمان عن الجميع عدا القليل من الأصدقاء مثل دوق برجاندى وغيره من اللوردات القادمين من شرق فرنسا ؛ ثم أدخل في الصحبة الوكيلين عن المملكة ، باليان أمير صيدا وأودو (أوف مونتيلارد) اللذين ملأهما الإستياء من قيادة تيبالد ، وكان معهما والتر أمير يافا وأحد الإبلين ، وجون أمير أرسوف . وعند حل ليل ١٢ نوفمبر، تهيأت الصحبة كلها للزحف على غزة ، وكان قوامها لمسمانة من الخيالة وأكثر من ألف من المشاة . غير أن الأنباء تسربت ؛ إذ بينما كانوا يمتطون صهوات خيولهم فاجأهم الملك تيبالد وسادة الأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة وكونت بريتاني، وبدأوا بالرجاء ، ثم بتوجيه الأوامر اليهم للعودة إلى المعسكر ، لكن هنرى كونت بار رفض التحول عن موقفه واتهم الملك وأصدقائه بالجبن وتحدى أوامره ؛ وانطلق الفرسان فى أشعة القمر التي تبدد ظلام الليل . أما تيبالد ، الذي كان متشككا في مدى قوة الأعداء الحقيقية ، لم يكن بوسعه منعهم . وفي الصباح التالى نقل معسكره إلى أسوار عسقلان لتقديم العون إذا قضت الحاجة .

وكان كونت بار شديد الثقة من النجاح بحيث أنه عندما اقترب من غزة فى الفجر تقريبا أوقف رجاله فى فجوة بين التلال الرملية على شاطئ البحر وأمرهم بأخذ قسط من الراحة . غير أن الجيش المصرى كان أكبر بكثير مما كان يظن وقد انتشر جواسيسه فى الأنحاء . ولم يصدق الأمير ركن الدين أن أعداءه على هذا القدر من الحماسة ؛ فأرسل الرماة زاحفين حول الكثبان الرملية إلى أن أحاطوا تقريبا بالفرنج . وكان والتر سيد يافا أول من تحقق مما يحدث ، فنصح بانسحاب سريع نظرا لعدم إمكان الجياد من المناورة فى الرمال العميقة ؛ وركب هو نفسه جواده وابتعد ناحية الشمال ومعه دوق برجاندى ؛ وتبعه فرسان أوتريميه الآخرون بأسرع ما أمكنهم . بيد أن هنرى كونت بار ما كان ليترك المشاة الذين قادهم إلى الكمين ؛ وبقي معه أقرب أصدقائه . وسرعان ما انتهت المعركة على مشهد خيولهم وجنود المشاة وهم يكدحون فى الكثبان الرملية بمن فيهم الكونت هنرى نفسه . وأسر المصريون ستمائة آخرين وحملوهم إلى مصر ، كان من بينهم كونت مونتفورت الشاعر - فيليب (أوف نانثيل) - الذى أمضى أيامه فى السجن يصب اللعنات المسجوعة على الأنظمة الدينية العسكرية التى ألقى عليها باللائمة ، بدافع العاطفة أكثر منه بوازع المنطق ، لفشل تلك الحملة الحمقاء .

١٢٣٩ م : هزيمة الفرنج في غزة

عندما وصل الهاربون عسقلان ، نسي تيبالد الحذر وأراد الزحف على غزة في الحال لإنقاذ رفاقه ؛ لكن فرسان أوتريميه لم يوافقوا ، إذ من الحمق المخاطرة بالجيش ، وبقينا سيقتل المسلمون أسراهم بدلا من أن يفقدوهم مرة أخرى . فتملك الغضب تيبالد ولم يغفر ذلك لجنوده قط . على أنه لم يكن هناك لبقايا الجيش شيء سوى العودة البطيئة إلى عكا^(١٨) .

وفي ذات الوقت رد الناصر صاحب الكرك على الهجوم البريتوني على القافلة الإسلامية بأن زحف على القدس . وكانت القدس كلها بلا حماية فيما عدا الجزء من السور المجاور لبوابة القديس ستيفن ، الذي بدأ فريدريك تشييده ، وقلعة تضم برج داود ، جرى تقويتها مؤخرا . وكانت تلك القلعة تدين بالولاء لا للحكومة في عكا وإنما لفيلنجيرى في صور ؛ وكان قد أهمل إمدادها بحامية ملائمة . واحتل الناصر المدينة بلا صعوبة ، لكن جنود الحامية صمدوا إلى أن نفذت المون بعد سبعة وعشرين يوما ، فاستسلموا يوم ٧ ديسمبر مقابل عبور آمن إلى الساحل . ودمر الناصر التحصينات ، بما فيها برج داود ، ثم انسحب إلى الكرك^(١٩) .

بعد كارثة غزة انتقل تيبالد بقواته شمالا إلى طرابلس . إذ جاء مبعوث المظفر الثاني أمير حماه الذي كان على خلاف مع جميع أقاربه الأيوبيين ، والذي كان يتهدهده التحالف بين الرضى على حلب وأمير حمص . وعرض على الفرنج أن يساعده لقاء التخلي لهم عن قلعة أو قلعتين ، وأعرب عن أمله في التحول إلى المسيحية ؛ فقبل تيبالد العرض في وقد استخفه الحبور . غير أن تقدمه إلى طرابلس ردع أعداء المظفر الذي أرسل إلى تيبالد قائلا في أدب إن خدماته لم تعد مطلوبة برغم ما حدث^(٢٠) .

(١٨) يرد وصف نابض بالحياة في *MS. of Rothelin*, pp. 537-50؛ *Gestes des Chiprois*, pp. 118؛ *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 414-15؛ Abu Shama, ii, p. 193؛ ويرد خطأ في النص بشأن التاريخ في *Maqrissi*, x, p. 324. وأشعار فيليب مقتبسة في *Rothelin*, pp. 548-9.

(١٩) *MS. of Rothelin*, pp. 529-31، حيث يرد ذلك قبل معركة غزة ، ولا يرد سوى تاريخ السنة؛ ويذكر *Maqrissi*, x, pp. 323-4؛ أي بعد معركة غزة ؛ ويورد أبو الفدا نفس التاريخ ؛ ويورد *al-Aini*, pp. 196-7 مجرد تاريخ السنة. ولنا أن نقبل التاريخ الذي أورده المقريري

(٢٠) *Abu'l Feda*, pp. 115-19 (المؤرخ أبو الفدا هو حفيد المظفر الثاني)؛ *Kemal ad-Din*, trans.؛ *Estoire d'Eracles*, ii, p. 416؛ *Gestes des Chiprois*, pp. 98, 100, 104؛ *Bloch*, pp. 120-1.

وأثناء تراث الحملة الصليبية في طرابلس نصّب الصالح أيوب نفسه سيدا لمصر ،
واندلعت الحرب بينه وبين الصالح اسماعيل في دمشق . وغدا واضحا أن بإمكان الفرنج
إجراء مساومة طيبة . وسارع تيبالد بالعودة جنوبا وعسكر بجيشه في الجليل بجوار عيون
سفورية . ولم يطل انتظاره . ففي وقت مبكر من صيف عام ١٢٤٠ م ، تملك الرعب
الصالح اسماعيل من غزو قام به الصالح أيوب والناصر مجتمعين ، فاقترح على الفرنج
إقامة تحالف دفاعي . فإذا ضمنوا حراسة الحدود المصرية من الساحل وإمداده بالأسلحة
فإنه يتخلى لهم عن القلعتين العظيمتين شقيف أرنون وصفد والتلال الواقعة بينهما .
وقام بالمفاوضات فرسان المعبد الذين كانت لهم الآن علاقات مالية مع دمشق ، وكوفتوا
بامتلاك صفد . غير أن رعايا الصالح اسماعيل أصيبوا بالصدمة ، ورفضت حامية شقيف
أرنون تسليم وديعتهم العظيمة لباليان أمير صيدا ، وابن آخر لورداتها المسيحيين ،
واضطر الصالح اسماعيل إلى الذهاب بنفسه لمحاصرة القلعة كي تستسلم . وغادر دمشق
اثنان من أئمة الدين ، أحدهما الواعظ الأكبر للجامع الكبير ، تعبيرا عن تفززهما مما
يحدث ولاذا بالقاهرة^(٢١).

١٢٤٠ م : نهاية حملة تيبالد الصليبية

أدى انعدام الثقة في الامبراطور فريدريك إلى تحالف صعب بين فرسان المعبد
والمستشفى للسنوات الإثني عشرة الأخيرة ؛ غير أن حصول فرسان المعبد على صفد
جاوز احتمال فرسان المستشفى ، فبينما قاد تيبالد جيشه لينضم إلى قوات الصالح
اسماعيل ، بين يافا وعسقلان ، شرع فرسان المستشفى في مفاوضات مع الصالح أيوب ،
وقوي مركزهم عندما هرب نصف رجال الصالح اسماعيل إلى المعسكر المصري
لكراهتهم العمل مع المسيحيين ، واضطر الحلفاء إلى الانسحاب . ولما كان الهدف
الرئيسي للصالح أيوب هو هزيمة الصالح اسماعيل ، فقد ابتهج عندما اتاحت له الفرصة
للخروج من التحالف ؛ فعرض على الفرنج إطلاق سراح أسراهم في غزة ومنحهم الحق
في احتلال عسقلان وتحصينها ، في مقابل التزامهم بالحياة . ووقع السيد الأعظم
لفرسان المستشفى الاتفاق في عسقلان مع ممثل السلطان . وكان ذلك نصرا دبلوماسيا
للصالح أيوب الذي تمكن بتكلفة زهيدة من جانبه من كسر التحالف الذي أهان الصالح

(٢١) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 417-18; *MS. of Rothelin*, pp. 551-3; *Gestes des Chiprois*,
p. 12; Abu'l Feda, loc. cit.; Maqrissi, x, p. 340; Abu Shama, ii, p. 193.

اسماعيل نفسه بإنشائه. واعتبط تيبالد لإطلاق سراح أمالريك (أوف مونتفورت) وأصدقائه الآخرين ، فمنح مساندته لفرسان المستشفى . غير أن الرأي العام في أوترمييه أصيب بالصدمة لذلك التخلي الفاضح عن التحالف مع دمشق التي ظلت حتى يوم صلاح الدين الحليف التقليدي للمسيحيين . واتحدت شعبية تيبالد اتحادا شديدا حتى أنه قرر العودة إلى أوروبا . وبعد حج سريع في القدس أبحر من عكا في نهاية سبتمبر ١٢٤٠م ، وتبعه أغلب رفاقه فيما عدا دوق برجندي الذي أقسم على الانتظار لحين الإنتهاء من تحصين عسقلان ، وكونت نفرس الذي انضم إلى جماعة المعبد والبارونات المحليين الذين عسكر معهم بالقرب من يافا ، وقد أخذ على نفسه العهد بالإحتفاظ بالمعاهدة مع دمشق ومقاومة أي غزو مصرى .

لم تكن حملة تيبالد الصليبية عقيمة تماما . إذ استعاد المسيحيون شقيف أرنون (بيفورت) وصفد وعسقلان جميعا . غير أنه أتيح للمسلمين أن يقضوا على مثال آخر من غدر الفرنج^(٢٢) .

١٢٤١م : ريتشارد إيرل كورنويل

وفي الحادى عشر من أكتوبر ، وبعد أيام قليلة من رحيل تيبالد ، وصل إلى عكا حاج أكثر تميزا ، هو ريتشارد (إيرل كورنويل) ، وهو أخو هنري الثالث الإنجليزى ، وأخته هي زوجة الامبراطور فريدريك. كان في عامه الحادى والثلاثين ، ويعتبر واحدا من أقدر أمراء زمانه. وقد حازت رحلة حجه كامل موافقة الامبراطور الذي خوله سلطات التصرف فيما يراه الأفضل للمملكة من ترتيبات^(٢٣) . وأصيب بالرعب لدى وصله لما وجدته من فوضى عارمة ؛ إذ يكاد فرسان المعبد وفرسان المستشفى أن يكونوا في حرب مفتوحة فيما بينهم ، ويناصر البارونات المحليون فرسان المعبد ، فيما عدا والتر أمير يافا ، ولذا شرع فرسان المستشفى في السعى نحو كسب ود فيلانجيرى والإمبراطورين ، وأما فرسان التيوتون فقد انتحروا جانبا ، وقد زودوا حصونهم السورية

(٢٢) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 419-20; *MS. of Rothelin*, pp. 553-5; *Gestes des Chiprois*, pp. 121-2; Maqrissi, x, p. 342.

(٢٣) عن ريتشارد وحملته الصليبية أنظر *Powicke, King Henry III and the Lord Edward*, i, pp. 197-200. وكان البابا قد حث ريتشارد على التخلي عن الحملة الصليبية ، وأن يهب الأموال لحماية الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية (انظر المرجع السابق ص ١٩٧ ، الحاشية ٢).

بالحاميات ، ولكنهم أولوا جُل اهتمامهم لصقلية حيث كان الملك الأرميني قد عهد اليهم بمحسون ضخمة . وكان فيلانجيري نفسه ما يزال يحتفظ بصور وكان هو المسؤول عن إدارة القدس^(٢٤) .

ولدى وصول ريتشارد ، سارع إلى عسقلان حيث قابله سفراء من قبل السلطان المصرى الذين طلبوا منه تأكيد المعاهدة المعقودة مع نظام فرسان المستشفى . ووافق ريتشارد ، لكنه لكي يهدئ بارونات أوتريميه أصر على أن يؤكد المصريون التنازل عن الأراضي التي سبق أن تنازل عنها الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وأن يضيفوا إليها ما تبقى من الجليل ، بما في ذلك (بلفوار) وجبل الطور وطبرية . ولم يكن بوسع الصالح اسماعيل منع هذا التنازل الجديد بعد أن فقد السيطرة على شرقي الجليل للناصر . وفي تلك الأثناء أطلق سراح أسرى الحرب الفرنج المأسورين في غزة ، مقابل أسرى المسلمين القليلين لدى المسيحيين . وهكذا استردت المملكة كافة أراضيها السابقة غربي الأردن حتى ضواحي غزة جنوبا ، باستثناء مشروم لنابلس ومقاطعة السامرة . وبقيت القدس بلا تحصينات ؛ لكن أودو (أوف مونتييلارد) ، الذي كانت زوجته وريثة أمراء الجليل ، بدأ في إعادة بناء قلعة طبرية ، واستكملت الأعمال في عسقلان . وقام ريتشارد بتعيين والتر بينيني حاكما لعسقلان ، وقد كان ممثلا لفيلانجيري في القدس . وأرسل الامبراطور فريدريك ، ربما باقتراح من ريتشارد ، سفارة تهنئة إلى السلطان الصالح أيوب الذي استقبل سفيرة بأسمى آيات التشريف والآبهة في القاهرة وبقيها هناك حتى أوائل الربيع .

ومكث ريتشارد نفسه في فلسطين حتى شهر مايو ١٢٤١ م . ولقد تصرف بحكمة ومهارة عظيمتين واستطاع أن يجعل من نفسه نائبا للملك في المملكة يحظى بقبول عام ، وقد رضى عنه الامبراطور كثيرا وتأسى كل فرد في أوتريميه على رحيله . وعاد إلى أوروبا ، حيث كان ينتظره مستقبل عريض الآمال ضئيل الإنجاز^(٢٥) .

(٢٤) Richard's letter in Matthew Paris, *Chronica Majora*, iv, p. 139. وكان ريتشارد نفسه مقيما في مبنى المستشفى في عكا. (*Gestes des Chiprois*, p. 123) وعن النظام التيوتوني في صقلية أنظر Strehlke, *Tabulae Ordinis Theutonici*, pp. 37-40, 65-6, 126-7. وعن سيطرة فريدريك على القدس من خلال وكيله Pennenpié الذي عينه ، أنظر *Gestes des Chiprois*, loc. cit..

(٢٥) Richard's letter in Matthew Paris, iv, pp. 139-45; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 421-2; *MS. of Rothelin*, pp. 555-6; *Gestes des Chiprois*, pp. 123-4. تيبالد قد أبرم فعلا معاهدة مع مصر ، التي أبدى ريتشارد (وذلك كما يرد ضمنا في *Gestes* ، وربما

وبعد رحيل ريتشارد إيرل كورنول ، لم يطل بقاء النظام الذي أقامه . ذلك أن الآمال داعبت البارونات المحليين في أن يستمر عن طريق التوسل إلى الامبراطور لتعيين أحد رفاقه وكيلا للمملكة ، هو سيمون (أوف مونتفورت)؛ وزوجة سيمون هي اخت ريتشارد ، وهو نفسه من أبناء عمومة لورد طورون ، وولد سيمون انطبعا ممتازا عن نفسه . بيد أن فريدريك تجاهل طلبهم ، وعاد سيمون إلى مستقبل عظيم عاصف في إنجلترا^(٢٦) . وسرعان ما عادت النزاعات في الأرض المقدسة مرة أخرى ، إذ رفض نظام فرسان المعبد الالتزام بمعاهدته مع الصالح أيوب ، وفي ربيع عام ١٢٤٢م أغاروا على مدينة الخليل الإسلامية . فرد الناصر صاحب الكرك بإرسال جنود لقطع الطريق إلى القدس ولجباية الرسوم من الحجاج والتجار العابرين ؛ مما أثار فرسان المعبد فانطلقوا من يافا وانقضوا على نابلس يوم ٣٠ أكتوبر وانهبوها وحرقوا الجامع الكبير وقتلوا الكثير من السكان ، بمن فيهم عدد كبير من المسيحيين الرضيين . ولم يكن الصالح أيوب مستعدا بعد للحرب ، وإنما اكتفى بإرسال جيش قوي لمحاصرة يافا لفترة من الوقت كتحذير للمستقبل^(٢٧) . وفي داخل المملكة غابت السلطة المهيمنة ، وكانت الأنظمة الدينية العسكرية تتصرف كما لو كانت جمهوريات مستقلة . وكانت السلطة الحاكمة في عكا هي المجلس الإداري (الكوميون) الذي لم يستطع مع ذلك منع فرسان المعبد والمستشفى من الإقتتال فيما بينهم في الشوارع . وانزوى البارونات في إقطاعياتهم يحكمونها كما يحلو لهم.

أما فيلانيجيري في صور ، فقد بدا له أن تلك الفوضى تبشر بالخير الوفير . إذ كان على صلة سرية بنظام فرسان المستشفى في عكا ، وفاز بياثنين من أبرز البورجوازيين إلى جانبه ، هما جون فيلان وويليم (أوف كونش) . وفي إحدى ليالي ربيع ١٢٤٣م ، جاء من صور واستقبل سرا في عكا وهو مستعد لتنظيم انقلاب ، لكن وجوده لم يمر دون أن يُلحظ ، وأخطر به فيليب (أوف مونتفورت) لورد طورون الذي تصادف وجوده في عكا . وعلى الفور حذر فيليب الكوميون ومستعمرتي جنوا والبندقية ، وقام المسؤولون

كانت النص محرفا) أم أن ريتشارد استكمل المفاوضات التي بدأها تيبالد . أنظر أيضا *Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, pp. 342-6 .

(٢٦) Rohricht, *Regesta*, p. 286. وتاريخ الرسالة ٧ مايو ١٢٤١م. وكان أخو سيمون، أمالريك، أحد الأسرى المطلق سراحهم حديثا من مصر.

(٢٧) *Histoire des Patriarches*, pp. 350-1; Matthew Paris, iv, p. 197 . كما وقعت معارك كثيرة بالقرب من غزة عام ١٢٤٢م أشار إليها المقرئزي مرتين. (Maqrissi, x, pp. 342, 348) أنظر Stevenson, *Crusaders in the East*, p. 321 n.1.

التابعون لهم باعتقال جون فيلان ووليم (أوف كونش) ، وأطلقوا رجال الشرطة في الشوارع ، وأرسلت رسالة تستدعي باليان الإيبيليني من بيروت وأودو (أوف مونتيليارد) من قيسارية . وتحقق فيلانجيري من أن فرصته قد ضاعت ، فتسلل في هدوء عائدا إلى صور . وكان تواطؤ فرسان المستشفى واضحا ، ولذا حاصر باليان فور وصوله مقرهم في عكا ، واستمر الحصار ستة أشهر . وكان السيد الأعظم ، بطرس (أوف فياي برايد) في المرقب في حملات متقطعة على حيرانه المسلمين ، ولذا لم يكن بوسعه تقديم الرجال لإنقاذ فرسانه المحاصرين في عكا . وفي نهاية المطاف توصل إلى السلام مع باليان بأن اعتذر له وأقسم بأنه ليس له دخل في المؤامرة^(٢٨) .

١٢٤٣ م : قبول وصاية الملكة أليس

في ٥ إبريل ١٢٤٣ م كان كونراد (أوف هوهنشتوفن) ، ابن الامبراطور فريدريك من الملكة يولاندا، في الخامسة عشرة من عمره وبلغ بذلك سن الرشد رسميا ، ومن ثم يتوجب عليه الحضور إلى عكا وتسلم زمام المملكة ، ولم يعد لأبيه الحق في الرصاية . ورغم أن الملك الصغير أرسل في الحال توماس (أوف أكيرا) كنائب له ، ولم تظهر أية بادرة للحضور شخصيا إلى الشرق . ولذا اعتبر البارونات أنهم ملزمون قانونا بتعيين الوريث التالي المتاح كوصي عليه ، وكان ذلك الوريث التالي هو الملكة أليس ملكة قبرص الأرملة المسنة ، جدة خالته . وكانت أليس ، بعد طلاقها من بوهمند الخامس ، قد تصالحت مع أبناء عموماتها الإيبيلين ، وفي عام ١٢٤٠ م ، وبموافقتهم ، تزوجت من رالف كونت سواسون ، وهو شاب يبلغ من العمر نصف عمرها ، وسبق أن جاء إلى الشرق مع الملك تيبالد . وطلب باليان الإيبيليني وفيليب (أوف مونتفورت) عقد جلسة للبرلمان في عكا في قصر البطريق يوم ٥ يونية ١٢٤٣ م ، حضرها البارونات كلهم ، ومثل الكنيسة بطرس (أوف سارجين) رئيس أساقفة صور ، وأساقفة المملكة ، وأرسل الكوميون مسؤوليه وأرسلت مستعمرتا جنوا والبندقية رئيس كل منهما . وتولى فيليب (أوف نوفارا) شرح الوضع القانوني وأوصى بعدم القسم بالولاء للملك كونراد إلى أن يأتي بنفسه لتلقيه ، وأن يُعهد إلى أليس وزوجها بالوصاية إلى حين حضور كونراد .

(٢٨) *Gestes des Chiprois*, pp. 124-7; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 422 ؛ ويرد تاريخ خاطئ (١٢٤٣ م) للقصة في *Annals de Terre Sainte*, p. 441 ؛ *Richard of San Germano*, p. 382 ؛ الذي يتحدث عن "تمرد" في عكا ضد الامبراطور في أكتوبر ١٢٤١ م

واقترح أودو (أوف مونت إبارد) أن يُطلب من كونراد رسمياً زيارة مملكته وألا يتم شيء حتى يصل رده ، لكن الإيبيليين لم يجدوا مغزى لتلك الخطوة ، وسادت وجهة نظرهم ، وأقسم المجتمعون قسم الولاء لأليس ورالف ، مع المحافظة على حقوق الملك كونراد^(٢٩).

وأزال القرار البقية الضئيلة من سلطة فيلانجيري التي كانت السبب في تردد البارونات في مهاجمته في صور ، وكان الامبراطور قد استدعاه للعودة إلى إيطاليا قبل تعيين توماس (أوف أكيرا) مباشرة ، فترك مدينته تحت إمرة أخيه لوثير . وفي ٩ يونية أصدر البرلمان في عكا أمراً إلى لوثير بتسليم صور إلى الوصيين . وبرفضه الانصياع لأمر البرلمان ، زحف باليان الإيبيليني وفيليب (أوف مونتفورت) مع كتائب من البنادقة والجنود على المدينة . ووضع لوثير ثقته في أسوارها العظيمة التي أفلحت في تحدى صلاح الدين نفسه . غير أن المواطنين المحليين كانوا قد ضجروا من فيلانجيري ، فعرضوا فتح ممر الجزارين الخلفي الملاصق للبحر . وفي ليل ١٢ يونية زحف باليان ورجاله حول الصخور المؤدية إلى الممر وسمح لهم بالدخول . ثم إنهم فتحوا البوابات الرئيسية لحلفائهم ؛ وما أن احتلوا منازل فرسان المستشفى وفرسان التوتون حتى باتت المدينة في أيديهم فيما عدا القلعة في الجنوب التي انسحب إليها لوثير . وكانت قلعة هائلة صمد فيها الإمبراطوريون لأربعة أسابيع . بيد أن المصادفة سيئة الحظ أجبرت السفينة التي تحمل ريتشارد فيلانجيري إلى إيطاليا على العودة لسوء الأحوال الجوية . وهبط ريتشارد فيلانجيري في ميناء صور دون أن يرتاب في شيء فوق من توه في أيدي أعدائه . وحملوه مكتوفاً إلى بوابة القلعة وهددوا بشنقه ما لم تستسلم الحامية . ورفض لوثير إلى أن شاهد حبل المشنقة يضيق حول رقبة أخيه ، فقبل الشروط الهينة التي عرضها المنتصرون ، وهي السماح للأخوين بالرحيل بحريتهما مع عائلتيهما ومتعلقاتهما . وتقاعد لوثير في طرابلس حيث استقبله بوهمند الخامس استقبالا حسنا ، ولحق به هناك توماس (أوف أكيرا) . أما ريتشارد ، فقد دفعه ضميره إلى العودة إلى سيده الإمبراطوري الذي ألقى به على الفور في غيابة السجن . وبرحيل فيلانجيري باتت القدس وعسقلان وصور رسمياً في أيدي الوصيين.

(٢٩) (*Gestes des Chiprois*, pp. 128-30) رواية فيليب أوف نوفارا الذي يزعم أنه نظم الأمر؛ *Estoire d'Eracles*, ii, p. 240; *Amadi*, pp. 190-1; *Assises*, ii, p. 399 - Tafel - *Thomas, Urkunden*, ii, pp. 351-89 مقال كبه شاهد عيان بنديقي هو Marsiglio Giorgio ويقول فيليب إن أبناء أيزا كانوا ممثلين، وهو أمر غير مرجح نظراً لصدقتهم مع الإمبراطور ، فضلاً عن عدم ذكر ذلك في أي مكان آخر . أنظر . *La Monte, Feudal Monarchy*, pp. 71-3.

وكان رالف (أوف سواسون) يتوقع في ثقة من أن إدارة المدينة المهزومة ستمنح للوصيين ؛ لكن فيليب (أوف مونتفورت) كان يشتهي صور لنفسه لينوج بها اقطاعيته شقيق أرنون ؛ ومد له الإيبيليون يد الموازنة . وعندما طالب رالف بالمدينة مغاضبا رد البارونات في سخرية بأنهم سوف يحتفظون بها هم أنفسهم على سبيل الأمانة إلى أن يتضح يقينا إلى من تؤول . وتحقق رالف فجأة من أن النية تتجه إلى جعله مجرد رئيس صوري ؛ وفي خضم مشاعر الخذلان والتقرز غادر من فورهِ الأراضي المقدسة عائدا إلى فرنسا . أما الملكة أليس ، التي علمتها سنوات حياتها الخمسون أن تتمسك بالصبر ، فقد بقيت وصية إسمية إلى أن ماتت عام ١٢٤٦م^(٣٠).

١٢٤٣م : معاهدة مع الصالح اسماعيل صاحب دمشق

كان انتصار البارونات يعنى انتصار نظام فرسان المعبد على السياسة الخارجية لنظام فرسان المستشفى . وأعيدت المفاوضات مع بلاط دمشق . وكان الصالح أيوب صاحب مصر قد تشاجر مؤخرا مع الناصر صاحب الكرك واستشعر الخطر من تخلي الفرنج . وكان الصالح اسماعيل صاحب دمشق ، وبموافقة الناصر، قد عرض على الفرنج أن ينسحب من منطقة المعبد في القدس ، والتي كان وجود رجال الدين المسلمين فيها قد ضمنه فريدريك الثاني ، وعلى الفور عرض الصالح أيوب نفس العرض . واتضحت مهارة نظام فرسان المعبد الذي كان يدبر ضرب أمراء المسلمين بعضهم ببعض ، فتمكن من ضمان موافقتهم جميعا على إعادة المنطقة إلى العبادة المسيحية . وفي حماس كتب السيد الأعظم ، أرماند (أوف بيريجورد) إلى أوروبا في نهاية عام ١٢٤٣م يزف إليها تلك النتيجة السارة وليعلن أن النظام الآن منهمك في إعادة تحصين المدينة المقدسة . وكان ذلك آخر نصر دبلوماسي في مملكة ما وراء البحار^(٣١).

وكتب الامبراطور فريدريك في مرارة إلى ريتشارد (أوف كورنول) معلقا على استعداد النظام للسعى نحو تحالف إسلامي في الوقت الذي أنكر عليه النظام فيه أن يفعل

(٣٠) Tafel-Thomas, في *Gestes des Chiprois*, pp. 130-6; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 420; *loc.cit.* (أن البنادقة لم يُعطوا شيئا خاصا بهم)؛ *Assises*, ii, p. 401. ليس للوصي حقوق قانونية على القلاع.

(٣١) Abu'l Feda, p. 122; Maqrisi, x, pp. 355-7; al-Aini, p. 197; Matthew Paris, iv, pp. 289-98.

ذلك^(٣٢).

وتشجع فرسان المعبد بنجاحهم ؛ فعندما اندلعت الحرب بين الصالح أيوب والصالح اسماعيل في ربيع عام ١٢٤٤م ، حرضوا البارونات على التدخل بفعالية إلى جانب الصالح اسماعيل . وكان الناصر صاحب الكرك وأمير حمص الصغير ، المنصور ابراهيم ، قد انضموا كلاهما إلى الصالح اسماعيل ؛ وجاء المنصور ابراهيم بنفسه إلى عكا لإعتماد التحالف وليعرض نيابة عن الحلفاء جزءا من مصر على الفرنج حال هزيمة الصالح أيوب . واستقبل الأمير المسلم بآيات التشريف العظمى . وتولى فرسان المعبد تقديم أغلب جوانب التسلية والضيافة^(٣٣).

بيد أن الصالح أيوب لم يكن بالذي يُهزم بهذه السهولة . ذلك أنه وجد حلفاء أشد بأسا من الفرنج . فقد دأب الأتراك الخوارزميون ، منذ أن مات ملكهم جلال الدين ، على التحول في أنحاء الجزيرة وشمال سوريا ، يغيرون وينهبون . وفي عام ١٢٤١م حاول تحالف لأمرأء سوريا الأيوبيين قمعهم ، وهزمهم هزيمة بشعة في معركة لا تبعد عن الرها . لكن الخوارزميين وطدوا مقرهم في ريف البلاد بين الرها وحران ، وكانوا لا يزالون على استعداد لبيع خدماتهم^(٣٤). وكان الصالح أيوب على اتصال بهم من حين لآخر ، والآن دعاهم لغزو أراضي دمشق وفلسطين^(٣٥).

١٢٤٤م : ضياع القدس نهائيا

في شهر يونية ١٢٤٤م اجتاح عشرة آلاف خيال خوارزمي الأراضي الدمشقية ، يخربون البلاد ويحرقون القرى . وكانت دمشق ذاتها شديدة القوة بحيث لم يحاولوا مهاجمتها ، ولذا واصلوا زحفهم داخل الجليل واستولوا في طريقهم على طبرية وجنوبا خلال نابلس باتجاه القدس . وتنبه الفرنج إلى الخطر ، فهرع البطريق روبرت المنتخب حديثا إلى المدينة مع السידين الأعظمين لفرسان المعبد والمستشفى ، وراحوا يعززون

(٣٢) Matthew Paris, iv, p. 419 .

(٣٣) Joinville (ed. de Wailly), p. 290 .

(٣٤) Cahen, *La* أنظر Abu'l Feda, p. 119; Kemal ad-Din (trans. Blochet), vi, pp. 3-6, 13. Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 410-11. *Syrie du Nord*, pp. 648-9;

(٣٥) Maqrissi, x, p. 358 رسالة فريدريك الثاني في Matthew Paris, iv, p. 301 ، يوجه فيه اللوم إلى بارونات أوترمييه على استفزازاتهم التي أسفرت عن ذلك التحالف

الحاميات في التحصينات التي أعاد فرسان المعبد بناءها لتوهم ، لكنهم لم تواتهم الجراءة هم أنفسهم على البقاء في المدينة . وفي ١١ يولية اقتحم الخوارزميون المدينة ، ودار القتال في الشوارع ، وتمكنوا من شق طريقهم إلى دير القديس جيمس الأرميني وقتلوا الرهبان والراهبات . وخرج الحاكم الفرنجي في قوة مسلحة من القلعة لكي يلقي حتفه مع مرشد نظام فرسان المستشفى . غير أن الحامية صمدت ، ولم تأت المساعدة من الفرنج ، ولذا ناشدوا أقرب حلفائهم المسلمين ، الناصر صاحب الكرك ، لكنه لم يكن يحب المسيحيين ، ويستاء ضرورة التحالف معهم ، ومع ذلك أرسل بعض جنوده الذين هددوا الخوارزميين إلى أن عرضوا على الحامية مرورا آمنا إلى الساحل في حالة استسلام القلعة ، ثم إن الناصر نفذ يديه من مصيرها . وفي ٢٣ أغسطس خرجت مسيرة من نحو ستة آلاف مسيحي من الرجال والنساء والأطفال ، تاركة المدينة للخوارزميين . وأثناء سيرهم بطول الطريق باتجاه يافا ، نظر البعض منهم ورائه وشاهد رايات فرنجية ترفرف فوق الأبراج ، فظنوا أن النجدة قد وصلت بطريقة ما ، وأصر كثيرون على العودة إلى المدينة لا لشيء إلا ليقعوا في كمين أسفل الأسوار وهلك ألفان تقريبا . وبينما كان الباقون مرتحلين باتجاه البحر ، هاجمتهم عصابات من العرب ، ولم يصل إلى يافا سوى ثلاثمائة .

وهكذا، خرجت القدس نهائيا من أيدي الفرنج ، وانقضى من الزمن قرابة سبعة قرون قبل أن يعبر بوابتها جيش مسيحي مرة أخرى . ولم يُظهر الخوارزميون للمدينة أي نوع من الشفقة ؛ إذ اقتحموا كنيسة القبر المقدس حيث كان قليل من القساوسة اللاتين المسنين يقيمون قداسا بعد أن رفضوا مغادرة المدينة ، فقتلوا عن آخرهم إلى جانب قساوسة الطوائف الوطنية الذين كانوا بداخلها آنذاك . واستخرجت عظام ملوك القدس من مقابرها وهُشمت ، وأشعلت النيران في الكنيسة ذاتها . وانتهدت المنازل والخوانيت في سائر أنحاء المدينة ، وأحرقت الكنائس . وبعد أن خربت المدينة كلها ، اتخذ الخوارزميون طريقهم إلى غزة للانضمام إلى الجيش المصري^(٣٦) .

وفي الوقت الذي كان فيه الخوارزميون ينهبون القدس ، كان فرسان مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) يتجمعون خارج عكا ، حيث انضمت اليهم جيوش حمص ودمشق تحت قيادة المنصور إبراهيم صاحب حمص ؛ وأحضر الناصر جيش الكرك . وفي ٤

(٣٦) *Chronicle of Mailros* (Melrose), pp. 159-60; Matthew Paris, iv, pp. 308, 338-40; *MS. of Tothelin*, pp. 563-5; Maqrissi, x, pp. 358-9; al-Aini, p. 198 .

أكتوبر ١٢٤٤م، بدأ تحرك قوات التحالف باتجاه الجنوب على طول الطريق الساحلى . وعلى الرغم من أن الناصر والبدو التابعين له قد انتحوا بأنفسهم جانبا ، كان التعاون على مستوى مثالى بين الفرنج والمنصور إبراهيم ورجاله . وكان الجيش المسيحى أضخم جيش جمعته مملكة أوترمييه منذ يوم حطين المشؤوم . إذ كان هناك ستمائة فارس علماني بقيادة فيليب (أوف مونتفورت) لورد طورون وصور ، ووالتر (أوف برين) كونت يافا . وأرسل نظاما المعبد والمستشفى كلاهما ما يزيد على ثلاثمائة فارس من فرسان نظاميهما بقيادة السيدين الأعظمين أرماند (أوف بيريجورد) ووليم (أوف شاتونيف) ، وكانت هناك كتيبة من النظام التيوتونى . وأرسل بوهمند أمير أنطاكية أبناء عمومته جون ووليم (أوف بوترون) وجون (أوف هام) كونستابل طرابلس . وصاحب الجيش البطريق روبرت نفسه مع رئيس أساقفة صور ، وأسقف الرملة رالف . وكان هناك عدد متناسب من مساعدى الفرسان وجنود المشاة . وربما كان الجنود التابعون لإمرة الناصر إبراهيم أكثر عددا ، وإنما أخف تسليحا . ويبدو أن الناصر أحضر فرسانا من البدو .

وكان الجيش المصرى رابضا أمام غزة بقيادة المملوك الشاب الأمير ركن الدين بيبرس . وكان يتألف من خمسة آلاف من الجنود المصريين المنتخبين وحشود الخوارزميين . والتقت الجيوش المتعادية يوم ١٧ أكتوبر في قرية خريبا، أو لا فوربى ، في السهل الرملى الواقع على مبعدة أميال قليلة شمال شرق غزة . وسارع الحلفاء بعقد مجلس حرب أوصى فيه الناصر إبراهيم بالبقاء حيث كانوا ، وتخصين معسكرهم تحسبا لأي هجوم خوارزمى ، وبنى حساباته على أن الخوارزميين سرعان ما يفقدون صبرهم لكرائهم مهاجمة المواقع القوية ، وليس بوسع الجيش المصرى شن هجوم بدونهم . وبحسن الطالع، ربما يسرع الجيش المصرى في التفهقر إلى مصر . ووافقه على رأيه الكثير من المسيحيين ؛ غير أن ووالتر أمير يافا حثهم حثا متلهفا على شن هجوم فوري ، فقواتهم تفوق الأعداء عددا، وهذه فرصة مجيدة للقضاء على التهديد الخوارزمي وإلحاق المهانة بالصالح أيوب . وكان له ما أراد ، وتحرك الجيش كله مهاجما . وكان الفرنجة في الميمنة، والدمشقيون وأبناء حمص في القلب ، والناصر في الميسرة.

١٢٤٤م : كارثة في لافوربى

وبينما كان الجنود المصريون يصدون هجوم ميمنة الفرنج ، كان الخوارزميون

ينقضون على حلفائهم المسلمين . وثبت المنصور إبراهيم ورجاله من أبناء حمص ، لكن الجنود الدمشقيين لم يتحملوا الصدمة فانقلبوا على أعقابهم وولوا الأدبار ومعهم الناصر وحيشه . وبينما كان المنصور إبراهيم يقاتل لشق طريق يخرج منه ، استدار الخوارزميون وانقضوا على جناح المسيحيين يدفعونهم باتجاه الكتائب المصرية . وحارب الفرنج ببسالة ولكن بلا طائل . وفي غضون ساعات قليلة تم القضاء على جيشهم كله . وكان من بين القتلى السيد الأعظم لنظام فرسان المعبد ، ومرشده المارشال ، ورئيس أساقفة صور ، وأسقف الرملة ، واثنان من صغار لوردات بوترون . ووقع في الأسر كونت يافا ، والسيد الأعظم لنظام فرسان المستشفى ، وكونستابل طرابلس . وتمكن فيليب (أوف مونتفورت) من الهرب مع البطريق عائدين إلى عسقلان حيث انضم إليهما الباقيون على قيد الحياة من الأنظمة الدينية العسكرية ، ثلاثة وثلاثون فارسا من نظام المعبد ، وست وعشرون فارسا من نظام المستشفى ، وثلاثة فرسان من النظام التيوتوني . وواصلوا رحيلهم بحرا إلى يافا . وقدر عدد القتلى بما لا يقل عن خمسة آلاف رجل ، وربما أكثر بكثير . واقتيد ثمانمائة أسير إلى مصر^(٣٧) .

وسار الجيش المنتصر من فوره إلى عسقلان التي كانت حاميتها الآن من فرسان المستشفى . وأثبتت تحصيناتها منعها ، إذ فشل المصريون في هجماتهم عليها ، فضربوا حولها الحصار وقد جلبوا السفن من مصر لمراقبة الساحل . وفي تلك الأثناء أسرع الخوارزميون إلى يافا ومعهم كونتها الذي هددوا بشنقه ما لم تستسلم الحامية ، لكنه صاح في رجاله أن يصمدوا . وكانت تحصيناتها فوق طاقة الخوارزميين الذين انسحبوا ومعهم أسيرهم وقد أبقوا على حياته ؛ لكنه مات في الأسر لاحقا بعد شجار مع أمير مصري كان يلاعبه الشطرنج^(٣٨) .

ترتب على كارثة غزة أن سلب الفرنج من كافة المكاسب الثمينة التي كسبتها لهم الدبلوماسية خلال العقود السابقة . ولم يكن محتملا أن تصمد القدس ومنطقة الجليل أمام أى هجوم إسلامي جاد ؛ غير أن ضياع القوة البشرية ترك مملكة الشرق الفرنجي عاجزة تماما عن الدفاع عن أى شئ فيما عدا المقاطعات الساحلية والقليل من أقوى القلاع داخل البلاد . ولم يسبق أن كانت الخسارة أفدح إلا في حطين ؛ ومع ذلك

(٣٧) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 427-31; *MS. of Tothelin*, pp. 562-6; *Gestes des Chiprois*, pp. 145-6; *Chronicle of Mailros*, pp. 159-60; Joinville, pp. 293-5; Matthew Paris, iv, pp. 301, 307-11; Maqrissi, x, p. 360; Abu Shama, ii, p. 193 .

(٣٨) Joinville, *loc. cit.*; Amadi, pp. 201-2 .

هناك فرق بين حطين وثرثرة . إذ كان صلاح الدين المنتصر في حطين سيدا بالفعل لكل من سوريا ومصر ؛ أما الصالح أيوب صاحب مصر فكان عليه التغلب على غريمه صاحب دمشق قبل أن يغامر بالقضاء على المسيحيين . وأنقذ هذا التأخير مملكة الشرق الفرنجية .

وكان الخوارزميون يعتقدون الآمال على أن يكافئهم الصالح أيوب على مساعدتهم بتوطينهم في أراضي خصبة في مصر ، لكنه رفض السماح لهم بعبور الحدود التي زودها بالجنود كي يستوثق من بقائهم في سوريا . فعادوا للإغارة على فلسطين حتى ضواحي عكا ، ثم تحولوا إلى داخل البلاد لينضموا إلى المصريين في حصارهم لدمشق . وزحف الجيش المصري بقيادة معين الدين شمالا محترقا أواسط فلسطين ، متزعا من الناصر صاحب الكرك كل أراضي الواقعة إلى الغرب من نهر الأردن ، ووصل في نهاية الأمر أمام دمشق في شهر ابريل ١٢٤٥ م . ودام الحصار ستة أشهر . وقد أزال الصالح اسماعيل صاحب دمشق السدود المقامة على نهر بردا ، فاستحالت الأراضي خارج الأسوار إلى مستنقع لا يُحترق . على أن تضيق الحصار الذي نظمه المصريون سرعان ما أثار القلق بين التجار وأصحاب الحوانيت ؛ فاضطر الصالح اسماعيل أن يقبل في اكتوبر الشروط التي تقضى بتخليه عن دمشق في مقابل إمارة تابعة تتألف من بعلبك وحمص . لكن الخوارزميين ظلوا بلا مكافأة ، ولذا قرروا في أوائل عام ١٢٤٦ م التخلي عن مناصرة الصالح أيوب وعرضوا خدماتهم على الصالح اسماعيل الذي انتهز فرصة مساعدتهم وعاد إلى دمشق وضرب حولها الحصار ، وفي مأموله أن ينضم إليه أمراء أيوبيون آخرون ضد الصالح أيوب ؛ لكنهم كانوا أشد كراهة للخوارزميين . وأرسل الوصي على حلب وكذلك أمير حمص ، وكان الصالح أيوب يعينهما بالمال ، جيشا لنجدة دمشق ، فاضطر الصالح اسماعيل وحلفاؤه إلى رفع الحصار واتجهوا شمالا ، ليقابلوا القوة المخلصة في أوائل شهر مايو في مكان ما على الطريق بين بعلبك وحمص ، وهُزم الصالح اسماعيل هزيمة نكراء وهلك الخوارزميون أو كادوا ؛ ومن بقى على قيد الحياة منهم اتخذ طريقه شرقا للانضمام إلى المغول ، بينما كان الحلييون المنتصرون يجوبون شوارع حلب حاملين رأس زعيمهم المقتول . وابتهج العالم العربي كله باختفائهم . وتأكد امتلاك الصالح أيوب لدمشق ، ومرة أخرى فرض على الصالح اسماعيل أن ينغلق على نفسه في بعلبك ، واعترف الأمراء الأيوبيون في الشمال بسيادة

الصالح أيوب . الذي يستطيع أن يتحول إلى الفرنج مرة أخرى^(٣٩).

١٢٤٧م : ضياع عسقلان

في السابع عشر من يونية استولى جيش مصري على طبرية وقلعتها التي بناها مؤخرًا أودو (أوف مونتيلارد) ، وسرعان ما احتل الجيش جبل الطور (فلسطين) وقلعة الكوكب (بل فوار) ، ثم سار الجيش إلى عسقلان وحاصرها . وكانت التحصينات التي شيدها هيو (أوف برجاندی) في حالة جيدة ، وكانت فيها حامية قوية من فرسان المستشفى ، واستدعيت التعزيزات من عكا ومن قبرص . وعلى الفور أرسل هنري ملك قبرص أسطولاً من ثمانية قوادس تحمل مائة فارس بقيادة قهرمانه بالدوين الإيليني إلى عكا حيث كان الكروميون ، بمساعدة من المستعمرات الإيطالية ، قد أعد سبعة قوادس أخرى وخمسين سفينة أصغر . وكان المصريون قد أحضروا أسطولاً من واحد وعشرين قادساً كان يحاصر المدينة ، وقد أبحر الآن للتصدي للمسيحيين . غير أنه قبل أن يبدأ الصدام هبت فجأة عاصفة في البحر المتوسط حرفت الكثير من السفن حطاماً إلى الشاطئ ، وعاد الناجون إلى مصر ، وتمكن الأسطول المسيحي من مواصلة الإبحار إلى عسقلان دون أن يتعرض له أحد وأعاد تموين الحامية والهبوط بالفرسان إلى اليابسة . لكن الأحوال الجوية السيئة استمرت ولم تستطع السفن البقاء في المرسى الذي لا تتوفر له الحماية خارج المدينة ، فعادت إلى عكا تاركة عسقلان لمصيرها . وواجهت الجيش المحاصر عقبة افتقاره إلى الأخشاب الضرورية لآلات الحصار ؛ غير أن حطام سفنه المبعثرة بطول الشاطئ أمدّه بكافة المواد التي يحتاجها ، واستطاعت آلة المنجنيق الضخمة أن تشق ممراً أسفل الأسوار يفضي مباشرة إلى القلعة ؛ وفي ١٥ أكتوبر تدفق الجيش المصري في هذا الممر ، وبوغت المدافعون الذين قتل الكثير منهم على الفور ووقع الباقون في الأسر . وبناء على أوامر السلطان هُدمت القلعة واستحالت خراباً^(٤٠) . ولم يتابع الصالح أيوب انتصاره ، وإنما قام بزيارة القدس وأمر بإعادة بناء أسوارها ، ثم سار إلى دمشق ليلتأس الجمع هناك . ومكث فيها طوال شتاء عام ١٢٤٨م وربيع عام ١٢٤٩م

(٣٩) Ibn Khallikan, iii, p. 246; Maqrissi, x, pp. 361-5; Abu Shama, ii, p. 432; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 432.

(٤٠) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 432-5; *Gestes des Chiprois*, p. 146; *Annales de Terre Sainte*, p. 442; al-Aini, p. 200; Maqrissi, x, p. 315 .

وجاءه أمراء سوريا المسلمون كلهم لتقديم فروض الولاء^(٤١).

أما في مملكة أوترمييه المتقلصة ، فقد ساد فيها الهدوء الداخلي برغم خسائرها وافتقارها إلى السطلة المركزية. وكانت الملكة أليس قد ماتت عام ١٢٤٦ م ، وانتقلت الوصاية إلى الوريث التالي ابنها هنري ملك قبرص بعد احتجاج من أختها غير الشقيقة، الأميرة المسنة مليسند الأنطاكية . أما الملك هنري ، الذي كانت سمته المفرطة أهم ما يميزه، فلم يكن بالرجل الذي يفرض سلطانه على الآخرين^(٤٢). فعين باليان الإيليني وكيلا له عن المملكة وأيد فيليب (أوف مونتفورت) في امتلاكه لصور. وعندما مات باليان في سبتمبر ١٢٤٧ م، خلفه كوكيل للمملكة أخوه جون أمير أرصوف، وكلورد لبيروت ابنه ، جون^(٤٣).

وفي الشمال، حاول بوهمند أمير أنطاكية وطرابلس أن ينأى بنفسه بقدر الإمكان عن اهتمامات جيرانه ؛ وبنفوذ زوجته الإيطالية لوسين (أوف سيني) بقي على علاقة طيبة بالبابوية؛ غير أن كثرة عدد أقاربها وأصدقائها ممن دعتهم إلى الشرق أسخط باروناته وسبب له المشاكل فيما بعد. وربما أرسل كتيبة إلى معركة غزة المشرومة بناء على طلب البابا. غير أنه احتفظ في ذات الوقت بعلاقات ودودة مع فريدريك الثاني ، ومنح لوثير فيلانجيري وتوماس (أوف أكيرا) اللجوء في طرابلس، مما ضايق البابا، رغم أنه رفض منحهما مساعدة إيجابية . واستمر خلافه مع الملكة الأرمنية لبضع سنوات . وقد حاول عبثا حث البابا على ترتيب طلاق الوريثة الروينية الشابة من الملك الجديد هيثوم، لكي يحرم هيثوم من الحق في العرش ؛ لكن روما منعتة هو وهنري ملك قبرص من مهاجمة الأرمن تحديدا، بينما كان هيثوم من ناحيته مشغولا للغاية في صد هجمات السلطان السلجوقي الكبير كايكوسراو . ونتج عن زواج أخت هيثوم ستيفاني من هنري ملك قبرص في عام ١٢٣٧ م أن مهد الطريق تدريجيا لمصالحة عامة^(٤٤).

(٤١) Ibn Khallikan, loc. cit. .

(٤٢) Gestes des Chiprois., p. 146- حيث يرد بالأحرى موجز مشوش عن الحل؛ Rohricht, Regesta., pp. 315-16; Innocent IV, Registres (ed. Berger), no. 4427, ii, p. 60.

البابا مطالبة مليسند لـ Odo of Châteauroux للتحقيق، ورفض لاحقا. أنظر، Rohricht, Geschichte des Konigreichs Jerusalem, p. 873 n.3 .

(٤٣) Annales de Terre Sainte, p. 442; Amadi, p. 198 .

(٤٤) أنظر . Cahen, La Syrie du Nord, pp. 650-2 .

١٢٤٥ م : بطريرقية لاتينية في أنطاكية^(٤٥)

لم يكن لبوهمند سوى القليل من السلطة على الأنظمة الدينية العسكرية المستقرة في أراضيه ؛ التي تزايد حذرهما . وفي محاولة من البابوية لمصالحة كميون أنطاكية مع ما لديه من عناصر يونانية قوية غيرت البابوية ، بموافقة بوهمند فيما يبدو ، من سياستها إزاء الكنيسة الأرثوذكسية هناك . وقد اتضح الآن بجلاء استحالة تكامل اليونانيين واللاتين في كنيسة واحدة . ولذا عرض هونوريوس الثالث على اليونانيين كنيسة خاصة بهرميتها وطقوسها الخاصة بها طالما يعترف البطريق اليوناني بسيادة سلطة روما . وقد رفض رجال الدين اليونانيون العرض ، والأرجح بتشجيع خفي من بوهمند الذي اعتبر أن الهرمية اليونانية المستقلة أيسر في التعامل معها ؛ وسارع البطريق سيميون إلى حضور المجلس المناهض لللاتينية الذي استدعاه للإنعقاد في نيمفايوم امبراطور نيقية ، حيث أعلن في ثبات طرد البابا من الكنيسة المسيحية . على أنه عندما مات سيميون في نحو عام ١٢٤٠ م ، كان خليفته داود - الذي ربما تدخلت في تعيينه الأميرة لوسين - على استعداد للتفاوض . وفي عام ١٢٤٥ م ، أرسل البابا إينوسنت الرابع لورينزو (أوف أورتا) الفرنسيسكاني إلى الشرق بتعليمات بالمساواة التامة في كل مكان بين اليونانيين المعترفين بالسيادة الكنسية البابوية وبين اللاتين . ولم يكن مطلوبا منهم سوى طاعة الرؤساء اللاتين حيثما كانت هناك سابقة تاريخية طيبة لذلك . وتلقى البطريق الدعوة لإرسال بعثة إلى روما على حساب البابا لمناقشة نقاط الخلاف . وقبل البطريق داود هذه الشروط . وفي نفس الوقت تقريبا كان البطريق اللاتيني ألبرت ، الذي لم يكن سعيدا تماما بتلك الترتيبات ، قد رحل إلى فرنسا لحضور مجلس في ليون حيث مات هناك . ولم يُعيّن البطريق اللاتيني التالي أوبيزون فيشي ، وهو ابن أخى البابا ، حتى عام ١٢٤٧ م ، وجاء إلى أنطاكية في العام التالي . وفي ذات الوقت كان داود هو البطريق الوحيد المقيم في أنطاكية ؛ على أنه بوفاة داود في تاريخ غير معروف ، نبذ خليفته إيوثيموس السلطة البابوية ، ولذا حكم عليه البطريق اللاتيني أوبيزون بالطرد من الكنيسة ونفاه من المدينة^(٤٦) .

(٤٥) المترجم : العنوان بالإنجليزية هو *A Uniate Patriarchate at Antioch* ، وتعني لفظة *Uniate* ، أبة طائفة مسيحية في شرق أوروبا والشرق الأدنى تعترف بالسيادة البابوية لكنها تحتفظ بطقوسها وأعرافها . ولذلك اخترنا لفظة (لاتينية) للدلالة على الصبغة التي تصطبغ بها البطريرقية الشرقية في أنطاكية .

(٤٦) *Ibid. pp. 684-5; Regesta Honorii Papae III, nos. 5567, 5570, ii, p. 352.* والأدلة كلها مشتقة من مصادر بابوية على الرغم من أن Bar Hebraeus (trans. Budge, p. 445) يذكر رحلة

وكانت مجموعة كبيرة تابعة للكنيسة اليقونية قد أعلنت بالفعل خضوعها لروما. وفي عام ١٢٢٧م كان البطريرق اليقوني إجناتيوس الأنطاكي في زيارة للقدس واشترك في موكب زياحي لاتيني، وأعلن إعلانا أورثوذكسيا بالإيمان، فمُنح رداء راهب دومينيكي. ولدى عودته استحوذ على مشاعر الكثير من رجال الدين التابعين له، وطلب رسميا من اللاتين أن عليهم ممارسة سر الاعتراف لدى قسيس يقوني في حالة عدم وجود كاهن اعتراف لاتيني. وفي عام ١٢٤٥م، جاء المبعوث البابوي أندرو (أوف لونجومو) في زيارة للماردين حيث يقيم إجناتيوس؛ وتفاوضا على شروط الاتحاد. وكان إجناتيوس على استعداد لقبول صيغة لفظية حول عقيدة وإدارة ذاتية تخضع مباشرة لسيادة روما. على أنه كانت هناك ضغائن بين اليقونيين في شمال سوريا وأقرانهم في المقاطعات الشرقية والجنوبية؛ وقد أنكر الأخيرون الاتحاد؛ ولسوء الحظ لم يتحدث إجناتيوس إلا لطرف واحد من الكنيسة اليقونية. وطالما بقي إجناتيوس على قيد الحياة، ظل أتباعه على إخلاصهم لللاتين، أما بعد وفاته عام ١٢٥٢م فقد نشأ خلاف حول استخلافه، انتصر فيه إلى حين المرشح المناصر لللاتين جون الحلبي، لكنه اعتبر أن أصدقاءه اللاتين لم يمنحوه ما يكفي من التأييد، بينما دأب غريمه دينيس، الذي حل محله في النهاية، على معارضتهم. ولم يكن هناك من يحافظ على الاتحاد سوى شريحة ضئيلة من الكنيسة في طرابلس^(٤٧).

١٢٥٢م : فضائح في كنيسة أنطاكية

تولى الجهود الرامية إلى تحقيق الاتحاد بدرجة كبيرة الرهبان المبشرون من طائفتي الدومينيكان والفرنسيسكان الذين بدأوا أعمالهم في الشرق بعد إنشاء أنظمتهم الدينية مباشرة، ولم يجدوا كبير مجال في مملكة القدس المقيدة، لكنهم كانوا على جانب من النشاط بصورة خاصة في بطريرقية أنطاكية حيث كان البطريرق ألبرت ناصرهم المخلص. واتجهت نيتهم أكثر فأكثر إلى تغيير رجال الدين الدنيويين في شتى الأسقفيات المبعثرة للبطريرقية. ولم تكن علاقات البطارقة بأتباع نظام الرهبنة البندكتي الجديد على كامل وفاقها؛ إذ أن البطريرق بطرس الثاني، الذي كان هو نفسه رئيسا

"Lettre des Chrétiens de Terre Sainte à... أنظر أيضا...
 Revue de l'Orient Latin, ii, p. 213. Charles d'Anjou"

(٤٧) Cahen, op. cit. pp. 681-4، مع المراجع.

سابقا للرهبان البندكتيين ، قد ساعدهم على الاستقرار في ديرين اثنين هما دير القديس جورج (أوف جوبان) بالقرب من أنطاكية، ودير بلمونت بالقرب من طرابلس . بيد أن شتى الفضائح ثارت أثناء تولي ألبرت البطريراقية؛ وتعين إرسال سلسلة من المناشدات إلى روما قبل إعادة النظام إلى الأديرة وقبل تصحيح سلطة البطريرق^(٤٨).

ولم يبد بوهمند الخامس نفسه سوى قليل اهتمام بهذه الإجراءات ، فنادرا ما زار أنطاكية ، وإنما كان يعقد بلاطه في طرابلس . وكما هو الحال في المملكة ، تفرقت شتى العناصر في أراضيه شيعا، وقد أنقذهم من الإنقراض مشاجرات الأيوبيين والقوة الجديدة الأكثر هولا التي بدأت ترج العالم الإسلامي ، ألا وهي أمبراطورية المغول.

(٤٨) Ibid. pp. 668-71, 680-1 .

الباب الثالث:

المغول و المماليك

الفصل الأول:

مجيء المغول

مجيء المغول

"هُوَ ذَا كَسْحَابٍ يَضْعُدُ وَكَرُوبَةٍ مَرَكِبَاتِهِ . أَسْرَعُ مِنَ النَّسُورِ
خَيْلُهُ . وَيَلُّ لَنَا لَأَنَّا قَدْ أَخْرَجْنَا"
(إرميا ٤: ١٣)

في سنة ١١٦٧ م ، وقبل عشرين سنة من استعادة صلاح الدين للقدس ، وفي مكان قصي على ضفاف نهر أونون شمال شرقي آسيا ، رزق زعيم مغولي يدعى ييزوغاي وزوجته هويلون بمولود ذكر أطلقا عليه إسم تيموجين ، غير أنه مشهور تاريخيا باسمه الآخر جنكيز خان^(١) . وكان المغول عبارة عن مجموعة من القبائل تعيش

(١) للإطلاع على كامل سيرة حياة جنكيز خان أنظر:

Howorth, *History of the Mongols*, i, pp. 27-115; Grousset, *L'Empire Mongol, 1ère phase*, pp. 35-242 and *L'Empire des Steppes*, pp. 243-315; Martin, *Chingis Khan and his Conquest of Northern China*, passim.

وأهم المصادر الأصلية هي (Yuan Ch'ao Pi Shih وهو التاريخ الرسمي للمغول) وYuan Shing وWu Ch'in Cheng Lu ، وكلاهما كتب أصلا بالمغولية وترجم إلى الصينية . وأعيدت كتابة أولهما ونشر (بالأحرف اللاتينية) ، وترجم جزئيا إلى الفرنسية بواسطة Pelliot (*L'Histoire Secrète des Mongols*) - Rashid ad-Din, *Jami at-Tawarikh*، الذي كتب بالفارسية ونشر جزء بالفارسية

على ضفاف نهر أمور الأعلى ، وفي حالة حرب دائمة مع جيرانهم الشرقيين التتار. وكان جد ييزوغاي ، قابول-خان ، قد ربطهم في كونفدرالية ليست وثيقة العرى؛ بيد أنه بعد وفاته تفككت مملكته، وتمكن الامبراطور الصينى في شمال الصين من ترسيخ سيادته على المنطقة بكاملها. ولم يرث ييزوغاي سوى جزء صغير من الكونفدرالية القديمة، لكنه راح يزد من قوته وشهرته بما أنزله من هزائم القبائل التتبية وضم أراضيها ، وبالتدخل في شؤون أكثر جيرانه القريبين حضارة ، خان الكيرات.

وكانت جماعات الكيرات ، وهم شعب شبه بدوى من أصل تركى ، قد سكنت البلاد المحيطة بنهر أورخون خارج منغوليا الحديثة . وفي وقت مبكر من القرن الحادى عشر تحول زعيمهم إلى المسيحية النسطورية ومعه أغلب رعاياه . وتسبب هذا التحول في اتصال الكيرات بالأتراك الأوغور إذ كان من بينهم الكثير من النساطرة . وكان الأوغور قد طوروا ثقافة مستقرة في وطنهم في وادى تاريم ومنخفض تورفان ، وطوروا أبجدية للغة التركية تقوم على أساس حروف سيريانية . وكانت ديانتهم السائدة في الأزمنة الأبرى هي المانوية^(٢) . والآن ، اتجهت المانوية فى ظل النفوذ الصينى إلى أن تصبح بوذية . وكانت قوة الأوغور في انحسار ، لكن حضارتهم انتشرت لتشمل الكيرات والأتراك النايما الذين تقع بلادهم بين الأوغور والكيرات^(٣).

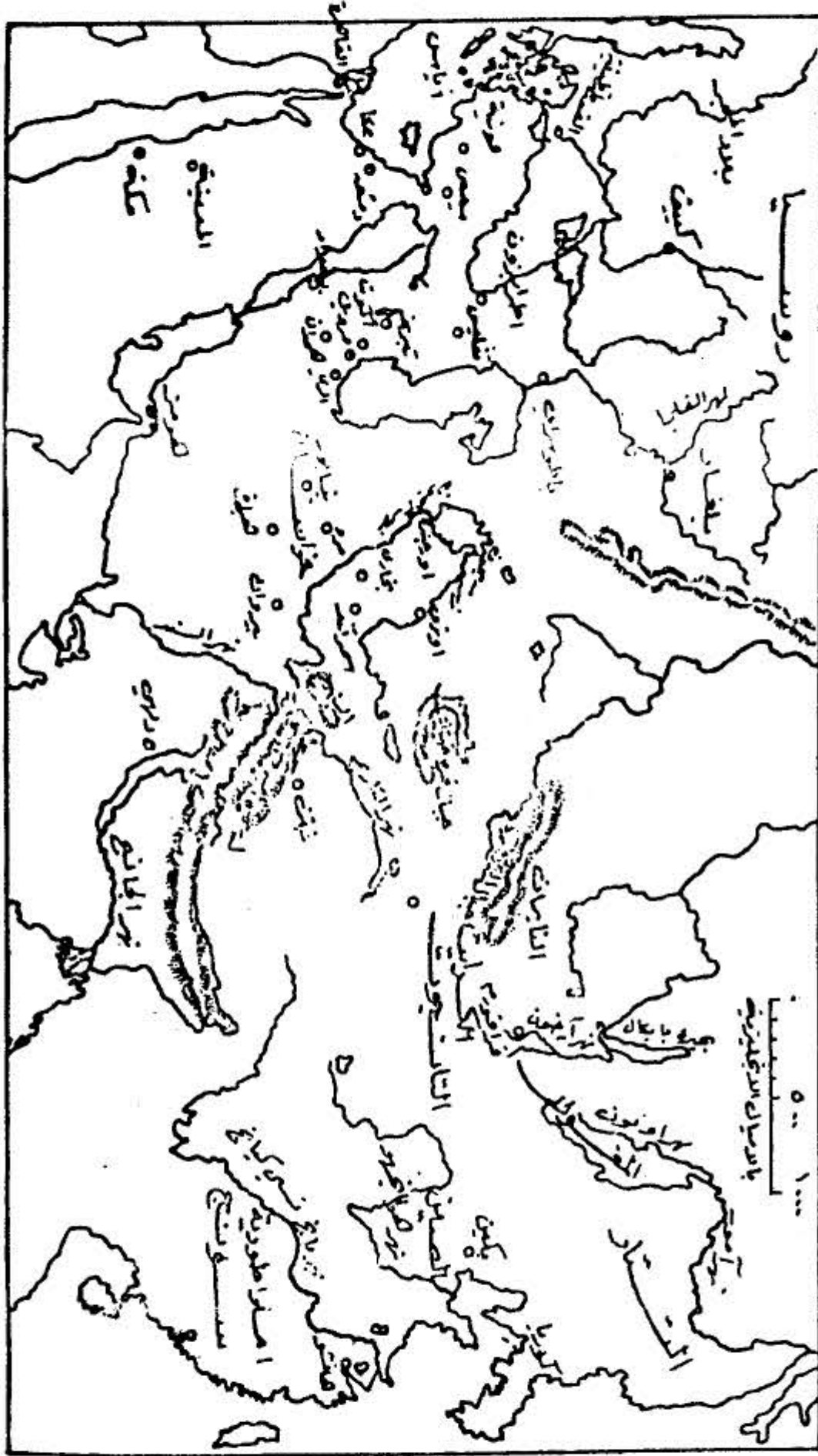
وفي نحو عام ١١٧٠م مات الخان الكيراتى قورياكوز ، وهو ابن ميرغوز خان ، ووجد ابنه طغرل بعض الصعوبة في ضمان ميراثه نظرا لمعارضة إخوته وأعمامه . وأثناء حروبه مع إخوته ضمن مساعدة ييزوغاي الذى أصبح صديقه الحميم . وتسببت هذه الصداقة في ارتفاع مكانة ييزوغاي بين زعماء قبائل المغول ، على أنه قبل أن يجعل من نفسه خان المغول الأكبر، دس له السم بعض التترين الرُحل أثناء تناوله وجبة عشاء

مع الترجمة بواسطة Quatremère ؛ ونشر النص كله بترجمة روسية بواسطة . (Berezin) وتوجد نصوص مختلفة بالمغولية والصينية تتناوله، نشرت وترجمت الى الألمانية بواسطة Haenisch ('Die Letzten Feldzüge Cingis Hans und Sein Tod' in *Asia Major*, vol. ix). وعن تاريخ ميلاد جنكيز خان أنظر... Grousset, *L'Empire Mongol*, p. 53 n. 3.

(٢) (المترجم): المانوية Manichaeism : عقيدة دينية تقول بالثنوية، أى وجود النور والظلمة أو الخير والشر. (النور أو الخير = الإله، الظلمة أو الشر = الشيطان).

(٣) عن شتى قبائل الأتراك المغول أنظر Howorth, *op. cit.* i, pp. 19-26; Crousset, *L'Empire Mongol*, pp. 1-32; Martin, *op. cit.* pp. 48-58; Pelliot, 'Chrétiens d'Asie Centrale et d'Extrême Orient', in *T'oung Pao*, vol. xi. For the Uighurs, Bretschneider, *Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources*, i, pp. 236-63.

خريطة رقم (٣) الامبراطورية المغولية



معهم. وكان أكبر أبنائه تيموجين (جنكيز خان) في التاسعة من عمره آنذاك.

جنكيز خان

وتمكنت أرملة ييزوغاي النشطة - هويلون - من ضمان بعض السلطة للزعيم الصغير على قبائل أبيه . غير أن طفولة تيموجين كانت عاصفة ؛ إذ بدا زعيما وهو ما يزال صبيًا ، وكان متحجر القلب إزاء أُنْداده ، وحتى فيما بين أفراد أسرته . وأثناء الحروب التي انتزع بها سيطرته على المغول ، أسرته لفترة قبيلة تايشيوت ، كما أن الأتراك المركيت على بحيرة بايكال أسروا لفترة زوجته بورك التي تزوجها وهو في السابعة عشرة ؛ ولذلك فإن شرعية ابنها الأكبر جوجي ، الذي ولد أثناء أسرها ، كانت موضع ريبة دائما. ويعزى نجاح تيموجين المتزايد، إلى حد كبير لتحالفه مع طغرل الكيرات خان ، الذي كان يعتبره في مكانة أبيه ، والذي ساعده في حروبه ضد الميركاتيين . وفي نحو عام ١١٩٤م انتخب تيموجين ملكا أو خانا للمغول جميعا، واتخذ اسم جنكيز - أى القوي . وبعد ذلك مباشرة اعترف الامبراطور الصيني بجنكيز أميرا أعظم للمغول وضمن تحالفه ضد التتار الذين كانوا يهددون الصين. ودارت حرب خاطفة أسفرت عن خضوع التتار لحكم جنكيز . وعندما خلع طغرل خان من عرش كيرات عام ١١٩٧م كان جنكيز هو الذي أعاده . وفي ١١٩٩م ضم جنكيز قواته إلى قوات طغرل خان لهزيمة اتراك النايمن ، غير أنه لم يمض وقت طويل حتى تزايدت غيْرته من قوة الكيرات. والآن غدا طغرل أعظم عواهل السهوب الشرقية الفسيحة ، وكان لقبه وانج-خان أو أونج-حان، وقد تسرب هذا اللقب إلى غربي آسيا متحولا إلى "يوهانس" Johannes وهو شكل أكثر ألفة ورخامة ، وبذا جعله مرشحا للقيام بدور القسيس جون^(٤)، لكنه كان رجلا خؤونا متعطشا للدماء يفتقر كل الافتقار إلى الفضائل المسيحية ؛ ولم يستطع قط مساعدة رفاقه المسيحيين . وفي ١٢٠٣م تشاجر مع جنكيز ولم تكن أول معركة بينهما في خالخاليت معركة حاسمة ؛ على أنه بعد أسابيع قليلة هُزم الجيش الكيراتي هزيمة نكراء في جيجير أوندور ، في قلب أراضي كيرات . وقتل طغرل أثناء فراره باحثا عن ملجأ ، واستسلم أفراد أسرته الباقين على قيد الحياة

(٤) المترجم : جون المشيخي ، Prester John ، ملك وقسيس مسيحي أسطوري يقال إنه حكم في الشرق الأقصى أو أثيوبيا.

لجنكيز خان الذي ضم البلاد كلها^(٥).

وفي عام ١٢٠٤م ، كانت نايمان هي الأمة الثانية التي أخضعت في معركة ضخمة جرت رحاها في شاكيرموت ، حيث كان سلطان جنكيز كله في خطر. وأدت الحروب التي دارت في العامين التاليين إلى ترسيخ مكانة جنكيز كسيد أعلى على جميع القبائل في المناطق الممتدة بين حوض تاريم ونهر أمور وسور الصين العظيم . وفي ١٢٠٦م انعقد (كوريلتاي) أو مؤتمر من جميع القبائل الخاضعة له على ضفاف نهر أونون أكد لقبه الملكي ؛ وأعلن أن شعبه ينبغي أن يُعرف بصورة جماعية باسم المغول.

١٢٠٦م : تنظيم امبراطورية جنكيز خان

كانت امبراطورية جنكيز خان أساسا عبارة عن خليط من العشائر . ولم يحاول التدخل في التنظيم القديم للقبائل باعتبارها عشائر يحكمها رؤساء بالوراثة، واقتصر على فرص سيادة عائلته، ألتي أوروك أو العشيرة الذهبية ، وأقام حكومة مركزية تسيطر عليها عائلته الكبيرة ورفاقه ، ووضع تحت تصرف العشائر الحرة أعدادا كبيرة من العبيد الذين استرقهم من القبائل التي قاومته وهزمها . ومنح أقاربه وأصدقاءه آلاف العبيد. وفي المؤتمر (كوريلتاي) المنعقد عام ١٢٠٦م مُنحت أمه هويلون ، وأخوه تيموغ أوتيشين ، عشرة آلاف أسرة من الأرقاء لكل منهما ، وخمسة أو ستة آلاف أسرة لكل من أبنائه الصغار . أما القبائل ، وحتى المدن ، التي استسلمت له طواعية فقد تركت دون تدخل طالما احترمت قوانينه المهيمنة ودفعت لجامعى ضرائبه ما يطلبه من إتاوة باهظة . ولكي يضم بلاده في كيان واحد ، أصدر مجموعة من القوانين (ياسا) تقرر أن تتسبد على القوانين المألوفة في السهوب . وقد بسطت مجموعة قوانين (ياسا) ، والتي صدرت على مراحل طوال حكمه ، بصورة محددة ما يتمتع به رؤساء القبائل من حقوق ومزايا ، وشروط الخدمة العسكرية وغيرها من الخدمات المستحقة للخان ، ومبادئ فرض الضرائب ، وكذلك مبادئ القوانين الجنائية والمدنية والتجارية . وبرغم كونه حاكما مطلقا أعلى ، فقد كان جنكيز ينوى التقيد هو وخلفاؤه بالقانون^(٦).

(٥) ترد أفضل رواية عصرية حول بروز جنكيز وتسيده في . Martin, op. cit. pp 60-84 وعن شهرة طغرل على أنه جون القس المشيخي أنظر Yule, Cathay and the Way Thither, iii, pp. 15-22

(٦) Ibid. pp. 85-101 ويخصص تاريخ Yuan Ch'ao ثلاثة فصول (١٩٤-٦٨-٧٢٦ pp. ، في النص المغولي) لمعركة شاكيرموت، وهو أكثر مما تخصصه لأية معارك أخرى لجنكيز خان .

وما أن أكمل جنكيز ترتيب إدارة إمبراطوريته حتى شرع في توسيعها ، فلديه الآن جيش ضخّم اهتم بتنظيمه كل الاهتمام . ذلك أن جميع أفراد القبائل الذين تتراوح أعمارهم بين الرابعة عشرة والستين كانوا بحرين على أداء الخدمة العسكرية طبقا للتقاليد المغولية والتركية ؛ وكانت حملات الصيد الشتوية الضخمة كل عام، والتي تعتبر ضرورية لتزويد الجيش والبلاط باللحوم، بمثابة مناورات كي يظل الجنود في حالة تدريب . وقد جُبل رجال القبائل على الطاعة العمياء لزعمائهم ؛ وكان الزعماء يعرفون من تجاربهم المريرة أن عليهم أن يطيعوا الخان . كما كان لرعاياه ، كشأن القبائل الرحل جميعا ، اشتياق إلى أن يجتازوا الآفاق، وخوف من أن تستهلك مراعيهم وغاباتهم ؛ وقد أعطاهم الخان بلادا جديدة وأسلابا ضخمة وقطعانا من العبيد . لقد كان جيشا من الخيالة والرماة وحملة الرماح على ظهور جياد سريعة ورجال ودواب اعتادوا منذ مولدهم على خشن العيش وعلى الرحلات الطويلة عبر الصحاري بمقادير قليلة جدا من الطعام والشراب . وهذا التركيب من سرعة الحركة والنظام والأعداد الغفيرة لم يكن معروفا قط من قبل^(٧) .

وكانت الدول الثلاث الكبرى التي تناخم المغول الآن هي الإمبراطورية الصينية في الشرق بعاصمتها بكين ؛ ومملكة هسيامسي التانجوتية بطول المناطق العليا على نهر الأصفر، حيث كانت هناك أسرة حاكمة من أصل تيبتي تحكم شعبا مغوليا مقيما يتألف من خليط من المغول والأتراك والصينيين ؛ وفي الجنوب الغربي ، مملكة كارا خايتاي، وهي عبارة عن جماعات رحل بوذيين من منشوريا شردهم الأباطرة الصينيون في وقت مبكر من القرن الثاني عشر وشقوا طريقهم باتجاه الشرق لينشئوا إمبراطورية على حساب الأوجوريين في حوض تاريم والأتراك المسلمين في ياركاند وخوتان . وكان عاهلهم جور-خان عاملا مهولا في السياسات الإسلامية الشرقية ؛ وكان لأوغور في تورفان عملاء له . وكانت هسيا هسي أضعف الممالك الثلاث ، ولذا بدأ جنكيز خان بمهاجمتها ، وفي ١٢١٢م قبل ملكها سيادته ، وتلا ذلك غزو الإمبراطورية الصينية ، وأسفرت سلسلة من المعارك الطاحنة عن ضم الريف كله حتى البحر الأصفر وشانتونج إلى سلطته . بيد أن المغول لم يعتادوا على مهاجمة الأماكن الحصينة ، وصمدت أمامهم المدن ذات الأسوار الضخمة ؛ ولم تبدأ جيوشه في تعلم فن حرب الحصار إلا بعد أن التحق مهندس صيني يدعى ليو بو-لين بخدمة جنكيز خان . وبحلول عام ١٢٢٦م بات

(٧) Ibid. pp. 11-47، حيث ترد مناقشة كاملة حول الجيش المغولي

الامبراطور الصيني من أتباعه، وكان قد استولى قبل ذلك في ١٢٢١م على مقاطعة منشوريا الصينية، واعترفت كوريا بالسيادة المغولية. وعندما مات آخر الأباطرة الصينيين عام ١٢٢٣م، أدمجت مقاطعاته المتبقية في الإمبراطورية المغولية^(٨).

١٢١٨م : محمد شاه الخوارزمي

وفي تلك الأثناء كان جنكيز خان قد وسع غزواته باتجاه الجنوب الغربي. وأنداك كانت الإمبراطورية الخوارزمية تحت محمد شاه في أوج عظمتها؛ إذ كان محمد سيدا لكل آسيا من كردستان والخليج الفارسي إلى بحر الآرال، والباير، والإندوس. وقد وجد فيه جور-خان في كارا خيتاي جارا مقلقا وسعى إلى إحراجه بتحريض أتباعه في أرض ما وراء النهر^(٩). وأدت الحروب التي تلت إلى إلحاق الضعف الشديد بكارا خيتاي؛ وبينما كان محمد شاه يضم أراضيهم الجنوبية، اغتصب أمير نايماني يدعى كوشلوك عرش جور-خان. وكان كوشلوك مسيحيا نسطوريا بالميلاد، لكنه أصبح بوذيا بزواجه من أميرة من كارا خيتاي؛ غير أنه على خلاف عواهل جور-خان، كان متعصبا ضد رعاياه المسيحيين والمسلمين. وانهز جنكيز خان افتقاره إلى الشعبية للتدخل. وعندما اكتسح جيش مغولي حوض تورفان جنوبا، استقبل كقوة مخلص، وخضع الأوجور طواعية لحكم المغول؛ وبات كوشلوك مقيدا داخل إمارة صغيرة في وادي تاريم^(١٠).

وأدى هذا التوسع بجنكيز خان إلى أن يصبح على اتصال مباشر بأراضي الخوارزميين. ولم يكن محمد شاه بالرجل الذي يتحمل غريما طموحا بنفس قدر طموحه؛ واستقبل كل من العاهلين سفارات من نظيره؛ على أن محمد الخوارزمي شعر بالإهانة عندما طلب جنكيز خان من هذا الأمير الخوارزمي الاعتراف به سيدا أعلا

(٨) عن غزو الصين، أنظر نفس المرجع، الفصول ٥-٨ و ٩-١٠، في أماكن مختلفة.

(٩) (المترجم): أرض ما وراء النهر Transoxiana: إقليم تاريخي في التركستان بوسط آسيا يقع شرقي نهر جيحون (الأموداريا) Oxus River وغرب نهر سيحون (السرداريا) Jaxartes River وهو حاليا في أوزبكستان وجزء من تركمانستان وقازاخستان. كان مركزا إسلاميا عظيما، ومركزا لامبراطورية تيمور الأعرج في القرن الخامس عشر وازدهرت فيه مدينتي بخارى وسمرقند المشهورتان في العالم كله آنذاك.

(١٠) عن محمد شاه، أنظر Barthol، مقال "Khwarezm"، في *Encyclopaedia of Islam*؛ وعن Kuchluk أنظر Martin, op. cit. pp. 103-4, 109-11, 220, 224

باعتباره خان الأمم التركية المغولية . وفي ١٢١٨م ارتحلت من منغوليا قافلة ضخمة من التجار المسلمين ومعها مائة مغولي مرسلين في بعثة خاصة إلى البلاط الخوارزمي . وعندما وصلت القافلة إلى أوترور ، على نهر ياكسارتيس في أراضى محمد ، قتل الحاكم المحلي المسافرين وسرق بضائعهم ، وأرسل نصفها إلى الشاه . وكان ذلك العمل استفزازا لجنكيز خان ليس بوسعه تجاهله . وقدّر كوشلوك أن الحرب على وشك الإندلاع فأقدم على محاولة لإحياء مملكة كارا خيتاي . وفي خطة حربية شديدة الذكاء ، حرّض القائد المغولي جيي كوشلوك وجيشه على المضى بطول أراضيه إلى أن قتله في وادٍ مرتفع في بامير^(١١).

١٢٢١م : هزيمة الخوارزميين

وبذهاب كوشلوك، أصبح جنكيز خان على استعداد للخروج لملاقاة الخوارزميين. ولقد كان عملا مهولا ؛ إذ قيل إن محمد شاه كان قادرا على أن يلقي في الميدان نصف مليون رجل ؛ وكان على جنكيز خان أن يقاتل على مبعدة ألف ميل من دياره . وفي وقت متأخر من صيف ١٢١٩م ، غادر الجيش المغولي ، المؤلف من مائتي ألف رجل ، معسكره على ضفاف نهر إرتيش ، وانضم إليه في طريقه باتجاه الغرب ملوك من أتباع الخان ، مثل أمير الأوغور . ولم يكن محمد شاه واثقا من المكان الذي سوف يضرب فيه المغول ضربتهم ، ولذا قسّم جنوده بين خط سيحون (السرداريا) وممرات فرغانه ، وربض ماكتا بجيشه الرئيسي في مدينتي ما وراء النهر العظيمة بخارى وسمرقند . ومضى الجيش المغولي مباشرة إلى أواسط جامسارتيس ، وعبر النهر عند أوترور . وبقي جزء من الجيش لمحاصرة المدينة ، وهي مهمة بطيئة إذ لم يكن المغول متمرسين بعد على أعمال الحصار الحربي ؛ وتحرك جزء من الجيش جنوب النهر لمهاجمة الجيش الخوارزمي الرابض على ضفافه ؛ وتحرك جزء آخر أعلى النهر لقطع الطريق على الجيش الرابض في فرغانه ؛ وزحف جنكيز خان نفسه مع جيشه الرئيسي مباشرة إلى بخارى التي وصلها في فبراير ١٢٢٠م . وعلى الفور تقريبا فتح المديون له بوابات المدينة ؛ وقاوم الأتراك في القلعة لأيام قليلة ، ثم ذبحوا عن آخرهم ومعهم أئمتهم المسلمين الذين كانوا يشجعونهم على مواصلة القتال . ومن بخارى واصل جنكيز خان زحفه على سمرقند ، بينما انسحب محمد شاه ، الذي فقد الثقة في جنوده ، إلى عاصمته أورغنج على ضفاف نهر

(١١) Barthold, *op. cit.* pp. 397-9; Martin, *op. cit.* pp.230-3 .

جيحون (الأموداريا)، بالقرب من كيفا . وفي سمرقند ، حيث انضم أبناء جنكيز خان إليه بعد استيلائهم على أوترور ، استسلمت الحامية التركية من فورها ، راجية الانضمام إلى جيش الغازي . غير أن جنكيز خان رأى أن هؤلاء الجنود الذين لا يعتمد عليهم غير حديرين بالثقة فقتلهم جميعا . وعبثا حاول مديون قليلون تنظيم مقاومة ، وذبحوا كذلك . ثم إن جنكيز خان أرسل أبناءه لمحاصرة أورغينج ، وهناك تسببت دفاعاتها الأقوى ، والمشاحنات بين أبناء جنكيز خان ، في تأخير الاستيلاء عليها لأشهر قليلة . وفي تلك الأثناء هرب محمد شاه إلى خراسان بطارده جيش تحت قيادة أكثر قادة جنكيز ثقة ، سوبوتاي وحيي ؛ وتمكن من الفرار من مطارديه لا لشيء سوى أن يموت في ديسمبر ١٢٢٠م في جزيرة صغيرة في بحر قزوين كسير القلب وحيدا .

وتمكن ابن محمد شاه ، جلال الدين ، من خوض قتال أفضل ، إذ انضم إلى الجيش الخوارزمي في فرغانة ، وانسحب إلى أفغانستان . وفي بارفان ، الواقعة إلى الشمال مباشرة من هندوكوش ، أوقع هزيمة منكرة بالجيش المغولي المرسل لإخضاعه . وانتقل جنكيز نفسه عبر الأوكسوس عابرا بلخ التي استسلمت له ومن ثم أنقذت ، ثم باميان في أواسط كوش الهندية ، وصمدت القلعة أمام هجماته ، وأثناء الحصار قُتل حفيده الأثير لديه ، موتوجين . ولذلك ، وعندما تم الاستيلاء على المدينة لم يُترك فيها مخلوق على قيد الحياة . وفي ذات الوقت زحف ابنه تولوي وزوج ابنته توجوتشار أبعد من ذلك إلى الغرب ، واستوليا على ميرف التي لم يبق من سكانها الذكور سوى أربعمئة من أصحاب الحرف الماهرين ، ثم على نيسابور حيث قُتل توجوتشار فلقيت المدينة نفس المصير تماما، وترأست أرملته شخصيا عملية المذبحة . وأرسل أصحاب المهن من المدينتين إلى منغوليا . وفي عام ١٢٢١م ، تقدم جنكيز خان خلال أفغانستان لمهاجمة جلال الدين ، ولحق به على ضفاف نهر الإندوس . وفي معركة يائسة دارت رحاها يوم ٢٤ نوفمبر تم تدمير الجيش الخوارزمي ، وهرب جلال الدين نفسه عبر النهر ولاذ بملك دهلي ، ووقع أبنائه في قبضة المنتصر وقتلوا .

وأقصى جنكيز خان نحو من عام في أفغانستان . وكانت مدينة هيرات الضخمة التي استسلمت بادئ الأمر للمغول بهدوء قد ثارت بعد انتصار جلال الدين في بارفان . وحاصرها جيش مغولي بضعة أشهر ، وبعد الاستيلاء عليها في يونيو ١٢٢٢م ، قُتل سكانها الذين بلغوا مئات الآلاف ؛ واستمرت المجزرة لمدة أسبوع . وجاء إلى المدينة التي استحالت مبانيتها إلى أطلال وأراضيها إلى خرائب إداريون مغول يساندتهم ما يكفي من الجنود للمحافظة على نظام المدينة المرعوبة . ثم إن جنكيز خان عاد إلى أرض

ما وراء النهر التي كانت أقل في وحشة من غيرها ، حيث نصّب حاكما خوارزميا ، هو مسعود يالاواش ، ومستشارين مغول لمراقبته والسيطرة عليه . وأرسل والد مسعود ، محمد يالاواش ، شرقا ليحكم بكين ، وهي وسيلة تشريفية للمزيد من ضمان ولاء مسعود . وفي ربيع ١٢٢٣م عاد جنكيز وعبر نهر سيحون (السرداريا) وارتحل متمهلا عبر السهوب ، ووصل إلى إرتيش في صيف عام ١٢٢٤م ، ثم إلى وطنه على نهر تولا في الربيع التالي^(١٢).

لم تمر غزوات جنكيز خان الرائعة دون أن يلحظها المسيحيون في سوريا . إذ كان معروفا أنه يهاجم أضخم قوة إسلامية في وسط آسيا ؛ ويستطيع النساطرة بكنائسهم المنتشرة عبر آسيا كلها أن يشهدوا بأنه لم يتخذ موقفا عدائيا من المسيحيين . وكان الخان نفسه شامانيا^(١٣) لكنه كان يود استشارة رجال الدين المسيحيين والمسلمين مع تفضيله للمذكورين أولا . وقد تزوج أبنائه من أميرات مسيحيات ، من الكيريات ، كان لهن نفوذ كبير في البلاط . والأرجح أن يكون حليفا للعالم المسيحي^(١٤).

وقد اهتزت هذه الآمال بعض الشيء خلال عام ١٢٢١م . ذلك أن الجيش الذي أرسله جنكيز خان بقيادة سوبوتاي وجيي للقبض على محمد شاه قد فشل في تحقيق هدفه المباشر ، إذ راوغهم الشاه واتخذ اتجاهها معاكسا لإتجاهه الأول ووصل بحر قزوين . غير أن القائدين المغوليين واصلا مسيرتهما غربا ؛ وفي صيف ١٢٢٠م احتل الري القريبة من طهران الحالية ونهبها ، لكنهما أبقيا على حياة أغلب سكانها . وتلتها مدينة قم التي قتل سكانها كلهم . ولقيت مدينتا كاسفين وزينجان مصيرا مماثلا ، لكن همدان استسلمت في الوقت المناسب وانقذت نفسها بعد دفع إتاوة باهظة . ودفع أمير أذربيجان ثمنا لتجنب هجوم على تبريز ؛ وواصل المغول زحفهم في فبراير ١٢٢١م لمهاجمة جورجيا.

(١٢) Browne, *Literary History of Persia*, ii, pp. 426-40; Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 31-46; Brestchneider, *op. cit.* i, pp. 276-94; *Yüan Ch'ao*, pp. 105-8 (a brief account); Rashid ad-Din (trans. Berezin), ii, pp. 42-85.

(١٣) المترجم : الشامانية : Shamanism ديانة شعوب معينة شمال شرق آسيا تنرم على أساس الاعتقاد في الأرواح الطيبة والشريرة التي لا يستطيع التأثير فيها سوى رجل الدين الشاماني.

(١٤) Regesta Honorii Papae III, no. 1478, i, p.565. يتحدث خطابه المؤرخ في ٢٠ يونيو ١٢٢١م عن قوات آتية من الشرق الأقصى لإنقاذ الأراضي المقدسة . وعن دين جنكيز خان نفسه أنظر Martin, *op. cit.* pp.310-11, 316-17.

١٢٢٢ م : المغول يصلون القوقاز

خرج الملك جورج الرابع ابن الملكة تمارا على رأس فرسان جورجيين لصد تقدم المغول وهزم هزيمة شنعاء في خوناني جنوب تفليس مباشرة ، وكانت بمثابة كارثة لم يبرأ منها الجيش الجورجي قط . لكن الغزاة استداروا جنوبا ؛ إذ ثارت همدان وتعين معاقبتها ، وفي طريقهم لتخريب المدينة وتدميرها لم يتوقفوا إلا لينهبوا ماراغيا في أذربيجان . وأمضوا ما بقي من العام في شمال غرب فارس . وفي أوائل ١٢٢٢ م تحولوا شمالا مرة أخرى . وبعد أن خربوا المقاطعات الجورجية الشرقية ، وهزموا جنودا أرسلوا لقمعهم ، ساروا بطول ساحل بحر قزوين مارين بالبوابات القزوينية باتجاه أراضي الكيبيشاك^(١٥) بين نهري القولجا والدون . وسارع الكيبيشاك بالتحالف مع قبائل شمال القوقاز ، آلان وليسغيان ؛ غير أنه عندما عرض عليهم سوبوتاي وحيي نصيبا من الغنائم أحجموا عن التدخل أثناء أن كان المغول يسحقون القوقازيين . وكان لابد أن ينقلب عليهم المغول بعد ذلك . فعلقوا الآمال على أن يأتي الروس لإنقاذهم مقابل الرشوة ؛ على أنه في ٣١ مايو ١٢٢٢ م ، دُمّر جيش روسي ضخّم على ضفاف نهر كالكا بالقرب من بحر آزوف ، كان يقوده أمراء كييف وجليش وتشيرنيجوف وسمولينسكي . ولم يتابع جنرالات المغول انتصارهم ، وإنما دخلوا منطقة القرم ونهبوا مركزا تجاريا لأبناء جنوا في سولدايا ، ثم انساحوا شرقا ولم يتوقفوا إلا لكي يهزموا جيشا من بلغار الكاما ويخربوا بلدهم ، وفي باكورة عام ١٢٢٣ م ، انضموا إلى جنكيز خان عند نهر سيحون (السرداريا).

تعلق الضحايا الغربيون لهذه الغزوة الشاسعة بأمل أن تكون ظاهرة معزولة ، جائحة مفزعة لا تتكرر . غير أن جنكيزخان امتلأ سرورا بجنرالاته ؛ إذ علاوة على ما قاموا به من استطلاع قيم واكتشافهم عدم وجود جيش يتصدى لهم في غرب آسيا ، فقد أربهاوا الأمم هناك بقسوة تحول دون أن يجروا أي من تلك الأمم على معارضتهم عندما يحين الوقت للغزو الجاد^(١٦).

(١٥) المترجم : كيبيشاك : Kipchak اتحاد قبائلي احتل في القرن الحادي عشر مناطق شاسعة من السهول الأوروبية الآسيوية تمتد شمالا من بحر الآرال (شرقي بحر قزوين) وغربا شمال البحر الأسود. يُنطق اللفظ بالروسية (بولوفستي)، ويُعرف لدى البيزنطيين باسم كومان.

(١٦) Bretshneider, *op. cit.*, i, pp. 294-9 . وتتنصف الروايات الروسية عن الحملة بنوع من الإضطراب . أنظر، Karamzin, *History of the Russian Empire* (in Russian), iii, p. 545; Vernadsky.

وعندما مات جنكيزخان عام ١٢٢٧م ، كانت أملاكه ممتدة من كوريا إلى فارس ومن المحيط الهندي إلى سهول سيبيريا المتجمدة . ليس هناك رجل آخر ولم يتأت لرجل آخر عبر التاريخ أن يقيم امبراطورية شاسعة كهذه . ومن المحال أن يفسّر نجاحه بنظرية ما تقول أن الحافز الإقتصادي هو الذي دفع المغول إلى التوسع ؛ ولا يسعنا سوى أنهم كانوا وسيلة مواتية لزعيمهم التوسعي . لقد كان جنكيزخان مهندس مصيره . ولكنه يبقى لغزا . فمن حيث المظهر ، قيل لنا إنه كان طويلا قويا بعينين كعيني القط . وبقينا كانت طاقة احتماله البدنية هائلة ، وبقينا كذلك أن كان لشخصيته أعمق الأثر لدى كل من تعامل معه . كانت مهارته في التنظيم فائقة ؛ وكان يعرف كيف ينتقى الرجال وكيف يعاملهم . وكان لديه احترام أصيل للعلم ، وكان على استعداد دائما للإبقاء على حياة أي دارس للعلم ؛ غير أنه لسوء الحظ لم يتح إلا لقليلين لبيان علمهم . وتبنى للمغول الأبجدية الأوغورية وأرسى قواعد الأدب المغولي . وكان من النواحي الدينية يتصف بالتسامح ، وعلى استعداد لم يد العون لأية طائفة لا تعارضه سياسيا . وقد أصر على أن تكون الحكومة عادلة ومنظمة . وطُهرت الطرق من قُطاعها ، وأنشئت خدمة بريدية ؛ وازدهرت التجارة تحت رعايته وغدا بإمكان القوافل الضخمة أن ترحل سنويا بعرض آسيا وهي آمنة . على أنه كان بالغ القسوة ؛ فهو لا يولى أي اعتبار للحياة البشرية، أو تعاطف مع المعاناة الإنسانية ، فهلك الملايين من أبناء المدن في حروبه ؛ وشاهد ملايين القرويين حقوقهم وبساتينهم وقد استحالت خرابا . لقد كانت امبراطوريته تركز على دعائم البؤس الإنساني^(١٧).

١٢٢٧م : استخلاف أوغوداي

أتاحت وفاة الغازي الكبير فرصة من الراحة للعالم الخارجي ، إذ انقضت سنتان تقريبا قبل تسوية الاستخلاف على الإمبراطورية . وتقضى الأعراف المغولية بحق أكبر الأبناء وذريته في الاستخلاف على الإمبراطورية ، وبحق أصغر الأبناء في الاحتفاظ بأراضي الوطن في دعوة المؤتمر (كوريلتاي) الذي يصدق على الاستخلاف . وخالف جنكيزخان تلك الأعراف وسمى ابنه الثالث أوغوداي وريثا للسلطة العليا، متخطيا

The Novgorod Chronicle و Kievian Russia, pp. 236-9. ويعلق تاريخ نوفجورود

(ed.Nasonov), p. 63 بأن الله وحده يعلم من أين أتى التتار وإلى أين ذهبوا

(١٧) يرد موزر جيد عن شخصية جنكيزخان في. Martin, op. cit. pp. 1-10

بذلك أكبر أبنائه يورجي الذي حامت الشكوك حول شرعيته ، فضلا عن أن سجله العسكري والإداري لم يكن مرضيا . وكان ابنه الثاني ياجاتاي جنديا يتقد ذكاء ، لكن طباعه كانت من الحمية والإندفاع بحيث تحول دون أن يكون حاكما مقتدرا . أما أوغوداي ، وبرغم كونه أقل في مواهبه البادية ، فقد ظن جنكيزخان أن لديه من الصبر والمهارة ما يساعده على التعامل مع أخويه وأتباعه . وربما كان أصغر الأبناء تولوي أقدر الإخوة لولا أن أعاقه ما اعتاد عليه من الإنغماس في ملذاته . وباعتباره الأمير المسؤول عن استدعاء المؤتمر (كوريلتاي) للإنعقاد ، فقد كان الشخصية المحورية في حسم الاستخلاف ، وحث زعماء القبائل على تنفيذ رغبات جنكيزخان . وأصبح أوغوداي الخان الأعلى ، وخصصت لأقاربه أملاك ضخمة ، وحصل إخوة جنكيز خان على المقاطعات الشرقية المحيطة بنهر أمور وغيرها في منشوريا ، واحتفظ تولوي "بأراضي الوطن" الواقعة على نهر أونون . وكان الميراث الشخصي لأوغوداي أراضي كيرات ونايمان السابقة ، وورث ياجاتاي مملكتي أوغور وكارا خيتان . ومُنح أبناء يورجي المتوفى ، باتو وأوردا وشييان ، المقاطعات الشرقية الممتدة حتى الفولجا . على أنه في الوقت الذي سُمح للأمراء بممارسة الحقوق المطلقة على رعاياهم ، كان عليهم أن يطيعوا قانون المغول الإمبراطوري ، وأن يقبلوا القرارات الصادرة من حكومة الخان الأعلى التي أقامها أوغوداي في كاراكورام . إن وحدة الإمبراطورية المغولية لم تُصب بأذى^(١٨).

عندما عاد جنكيز خان وجيوشه إلى منغوليا غادر جلال الدين الخوارزمي ملجأه في الهند وجمع حوله البقايا الكبيرة المتبقية من جيوش أبيه . واستقبل في فارس بالترحيب على أنه المحرر من المغول ، وبحلول عام ١٢٢٥م غدا سيد الحضبة الفارسية وأذربيجان ، وبحلول عام ١٢٢٦م أصبح السيد الأعلى في بغداد . وبتهديد مملكته للأيوبيين ، كان بمثابة عامل مفيد من عوامل السياسة الفرنجية في سوريا ؛ بيد أن المسيحيين الأبعد في الشمال وجدوا فيه جارا أسوأ حتى من المغول . إذ غزا جورجيا عام ١٢٢٥م ، فأرسلت العاهلة الجورجية روسودان أخت جورج الرابع -وهي ملكة غير متزوجة وإن لم تكن عذراء - جيشا لملاقاته . غير أن زهرة الفرسان الجورجيين كانت قد سقطت قبل ذلك بأربع سنوات في خوناني ، فكانت هزيمة جنودها مهمة يسيرة في جارني على حدودها الجنوبية . وأثناء فرار الملكة نفسها إلى كوتاييس ، احتل جلال الدين عاصمتها

(١٨) أنظر . Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 284-91.

تفليس وخربها وضم وادي نهر كور كله . وحاول الجورجيون عام ١٢٢٨م استعادة مقاطعاتهم المفقودة ، لكن المحاولة انتهت بكارثة ، إذ انكشبت المملكة الجورجية واقتصرت على أراضيها المطلّة على البحر الأسود ؛ ولم تعد ذات قيمة كمخفر شمالي شرقي للعالم المسيحي ، ولا كقوة تستطيع تحدى قبضة المسلمين على آسيا الصغرى^(١٩).

ولم يمض وقت طويل حتى عاد المغول إلى الغرب . وكان عليهم أولا قمع ثورة صينية في شمال الصين . على أنه في أوائل عام ١٢٣١م ، ظهر جيش مغولي ضخم في فارس بقيادة خورماكان ، وساعدته ذكرى الغزو المغولي السابق مساعدة جيدة ؛ فلم يجد مقاومة في مسيرته من خراسان إلى أذربيجان ، إذ هرب جلال الدين أمامه ، لكي يموت ميتة غامضة في كردستان . وتبعه جنوده الخوارزميون في فراره ، وأعادوا تجميع أنفسهم في الجزيرة حيث ابتعدوا مؤقتا عن حشود المغول ؛ ومن هناك عرضوا على الأيوبيين المتشاحنين أن يستأجروهم ، إلى أن تم القضاء عليهم في نهاية الأمر بالقرب من حمص عام ١٢٤٦م . وضم خورماكان شمال فارس كله وأذربيجان إلى الإمبراطورية المغولية ، وظل من عام ١٢٣١م إلى ١٢٤١م يحكم المقاطعة من معسكر في موغان بالقرب من بحر قزوين . وفي ١٢٣٦م غزا جورجيا ؛ وكانت الملكة روسودان قد أعادت احتلال تفليس بعد سقوط جلال الدين ، لكنها هربت ثانية إلى كوتيس ، واستولى المغول على شرقي جورجيا . وبعد انتهاء فظائع الغزو ، كان الجورجيون يفضلون المغول كثيرا على الخوارزميين نظرا لكفاءة إدارتهم . وفي ١٢٤٣م ، أصبحت الملكة نفسها تابعة لهم على فهم أن الملكة الجورجية كلها من المقرر منحها لابنها ليحكمها تحت السيادة المغولية^(٢٠).

الغزو المغولي لأوروبا

كان المسيحيون في المناطق الشمالية الأبعد أقل ارتياحا . وفي ربيع ١٢٣٦م تجمع

(١٩) أنظر ترجمة حياة جلال الدين التي كتبها أمين سره الناصر (an-Nasair (ed. Houdas) ، في أماكن مختلفة؛ Browne, *op. cit.* ii, pp. 447-50. وانظر d'Ohsson, *Histoire des Mongols*, i, pp. 255 - 9,306. وعن انهيار جورجيا أنظر. *Georgian Chronicle* (ed. Brosset), i, pp. 324-31.

(٢٠) Browne, *op. cit.*, ii, pp. 449-50; d'Ohsson, iii, pp. 65-6; *Georgian Chronicle*, i, p. 343

جيش مغولي ضخيم شمال بحر الآرال بقوده باتو ، ابن يوجي ، الذي كانت أملاكه تتضمن تلك السهول . وكان مع باتو إخوته وأربعة من أبناء عمومته هم جويوك وقادان ، إينا أوغوداي ، وبايدار بن ياجاتاي ، ومونغكا بن تولوي . أما القائد المسين سوبوتاي فكان رئيسا للأركان . وبعد أن أخضع الجيش المغولي القبائل التركية على الفولجا ، زحف على الأراضي الروسية في خريف ١٢٣٧م ، وفي ٢١ ديسمبر شن هجوما على ريزان واستولى عليها ، وقتل أميرها وسكانها جميعا ؛ وبعد أيام قلّتل سقطت كولومنا ، وفي وقت مبكر من العام الجديد هاجم المغول مدينة فلاديمير العظيمة التي لم تصمد سوى ستة أيام ، ولدى سقوطها يوم ٨ فبراير ١٢٣٨م حدثت مذبحة أخرى بالجملة . ونهبت سوزدال في نفس الوقت تقريبا ، وأعقب ذلك احتلال وتدمير المدن الثانوية في وسط روسيا ، موسكو و يوريف و جاليش و بيريسلاف و روستوف و ياروسلاف . وفي ٤ مارس هُزم وقتل أمير فلاديمير ، يوري العظيم ، على ضفاف نهر سيتي ، وبعد المعركة مباشرة سقطت تفير و تورزهوك ، وتقدم الغزاة على تلال فالداي باتجاه نوفغورود ، ولحسن حظ تلك المدينة هطلت أمطار الربيع وأغرقت الآجام والأدغال المحيطة بها من كافة نواحيها ، فانسحب باتو لتمضية ما تبقى من العام في سحق المقاومة الأخيرة للكيشاك ، بينما هزم ابن عمه مونفكا قبائل ألان والقبائل القوقازية الشمالية ، ثم قام بغارة استكشافية وصل فيها حتى كييف .

وفي خريف ١٢٤٠م قاد باتو الجيش المغولي الرئيسي داخل أوكرانيا . وخربت مدينتا شيرنيجوف و بيريسلاف ، وتم الاستيلاء على كييف يوم ٦ ديسمبر بعد أن دافعت عن نفسها دفاعا باسلا . ودُمّر الكثير من أعظم كنوزها ، وقتل أغلب سكانها على الرغم من الإبقاء على حياة قائد حاميتها ، ديميتري ، لما أبداه من شجاعة أعجب بها باتو ومن كييف ، زحف جزء من الجيش بقيادة بايدار بن ياجاتاي شمالا إلى داخل بولندا محرضا ساندومير وكراكاو . واستنجد الملك البولندي فرسان التيوتون الذين كانوا مستقرين على الساحل البلطقي . وفي ٩ إبريل ١٢٤١م دارت معركة شرسة في الستاد بالقرب من ليغنيتز ، اجتشت فيها شأفة الجيوش المشتركة لفرسان التيوتون والملك البولندي . غير أن بايدار لم يغامر بالتوغل أكثر من ذلك غربا ، فخرب سيليسيا ، ثم اتجه جنوبا خلال مورافيا إلى داخل هنجاريا .

وفي تلك الأثناء عبر باتو و سوبوتاي إلى جاليكيا ، يدفعان أمامهما قطعان الفارين

المرعوبين من كل الأقوام في السهوب. وفي فبراير ١٢٤١م عبرا جبال الكاربات^(٢١) إلى داخل وادي هنجاريا. وخرج الملك بيلا على رأس جيشه لملاقاتهم وهُزم هزيمة مأساوية يوم ١١ أبريل بجوار جسر موهي على نهر سايو. وتدفق المغول على هنجاريا إلى داخل كرواتيا ومضوا حتى شواطئ البحر الأدرياتيكي. ومكث باتو نفسه بضعة أشهر في هنجاريا التي يبدو أنه كان يرغب في ضمها إلى الإمبراطورية المغولية. بيد أن الرسل جاءت في ١٢٤٢م نبأ وفاة الخان الكبير أوغوداي في كاراكورام يوم ١١ ديسمبر ١٢٤١م^(٢٢).

ولم يكن بوسع باتو أن يظل بعيدا عن منغوليا في الوقت الذي يتقرر فيه الإستخلاف؛ إذ أنه أثناء الحملة الروسية تشاجر شجارا مريرا مع اثنين من أبناء عمومته هما جويوك بن أوغوداي وبوري حفيد ياغاتاي، وقد انسحب كلاهما في غضب إلى الوطن. وأظهر أوغوداي مناصرته لباتو ضد ابنه الذي أرسله مخزيا إلى المنفى. على أن جويوك، باعتباره أكبر أبناء الخان، كان ما يزال قويا. وعين أوغوداي كخليفة له حفيده شيريمون الذي قتل أبوه كوشو في الحرب مع الصينيين. ومع ذلك، كان شيريمون صغيرا غير ذي تجربة، ولذا تولت الرصاية أرملة أوغوداي، توراجينا خاتون، الأميرة النائمانيية بالميلاد، وعقدت العزم على أن يعتلى جويوك العرش. واستدعت المؤتمر (كوريلتاي) للإنعقاد، على أنه برغم الاعتراف بسلطتها إلى حين تعيين خان عظيم جديد، فقد مرت خمس سنوات دون أن تتمكن من إقناع الأمراء الأقارب وزعماء القبائل بقبول جويوك، وتولت إدارة الحكومة خلال تلك السنوات الخمس. ولقد كانت ذات طاقة ونشاط لكنها كانت بخيلة. وبرغم أنها كانت مسيحية بالميلاد، إلا أنها قربت إليها مسلما هو عبد الرحمن الذي اتهمته الشائعات بالتعجيل بموت أوغوداي. وتسبب فساد وفساد في أن أصبح مكروها من الجميع؛ غير أنه لم تتوفر لأحد السلطة الكافية للنيل من الرصاية^(٢٣).

(٢١) Carpathian Mountains : المترجم، سلسلة جبال في وسط أوروبا تمتد إلى الجنوب الشرقي من جنوب بولندا خلال الجمهورية التشيكية وأكرانيا إلى شمال شرق رومانيا.

(٢٢) Bretschneider, op. cit. i, pp.308 من المصادر الشرقية، Novgorod Chronicle, pp.74-6. 285-8 للإطلاع على رواية كاملة أنظر Strakosch-Grossman, *Der Einfall den Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242*, also Sacerdoteanu, *Marea Invazie Tatară si Sud-estul European*.

(٢٣) عن رصاية توراجينا، Bar-Hebraeus (trans. Budge), pp.303-6. أنظر Grousset, op. cit. pp.410-11.

١٢٤٢م : المغول في آسيا الصغرى

لم يشأ باتو التورط في مغامرات في الغرب إلى أن تأكد الإستخلاف . واحتفظ بحاميات في روسيا ، لكن وسط أوروبا كان في حالة من الهدوء . ولم يستمر تقدم المغول إلا في غربي آسيا حيث أرسلت الرصية قائدا يتصف بالنشاط والإقتدار يدعى بايشو ليكون حاكما لغرب آسيا.

وفي أواخر عام ١٢٤٢م غزا بايشو أراضي السلطان السلجوقي كيخسرو ، الذي كان آنذاك في الجزيرة يسعى إلى ضم أراض لا سيد لها بعد انهيار جلال الدين . وفي بداية الربيع سقطت إرزن الروم للمغول . وفي ٢٦ يولية ١٢٤٣م هُزم جيش السلطان في صدغ بالقرب من إرزنجان ، وتقدم بايشو إلى قيصرية - مازاكا ؛ فاستسلم كيخسرو وقبل السيادة المغولية ، وسارع جاره هيثوم ملك أرمينيا في أن حذو حذوه^(٢٤) .

وربما كان متوقعا أن يخطط أمراء العالم المسيحي الغربي للترتيب لعمل متناسق ضد هذا الخطر المرعب . وقد سبق في عام ١٢٣٢م ، عندما دمر خورماكان القوة الخوارزمية في فارس ، أن أرسل الحشاشون مبعوثين إلى أوروبا لتحذير المسيحيين وطلب المساعدة بعد أن بات مقرهم الرئيسي في الموت في الجبال الفارسية مهددا^(٢٥) . وفي ١٢٤١م ، عندما بدا مصير أوروبا الوسطى محتوما ، حث البابا جريجوري التاسع على إنشاء تحالف كبير لإنقاذها . غير أن الامبراطور فريدريك ، الذي كان الآن منهمكا في إخضاع الدويلات البابوية في إيطاليا ، رفض التحول عن موقفه . وأمر ابنه كونراد ، باعتباره حاكما لألمانيا ، بتعبئة الجيش الألماني ، وناشد ملكي فرنسا وإنجلترا لتقديم المساعدة^(٢٦) . وعندما انسحب المغول إلى روسيا في العام التالي عاد العالم المسيحي الغربي إلى أوهامه . إذ ساعدت أسطورة القس جون على انتشار عقيدة تكاد تكون رؤيوية تركت أثرا فائقا بأن الخلاص قادم من الشرق . ذلك أن أحدا لم يتأن ليتدبر أنه

(٢٤) Ibn Bibi (ed. Houtsma), iv, pp. 234-47; Bar-Hebraeus (trans. Budge), pp. 406-9; Vincent of Beauvais, *Speculum Historiale* (Douai edition), xxx, pp. 147, 150. See Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 694-6

(٢٥) See Pelliot, 'Les Mongols et la Papauté', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. xxiii, pp. 238 ff.

(٢٦) *Historia Diplomatica Friderici Secundi*, v, pp. 360-841, 921-85 (سلسلة من الخطابات حول الخطر التتري).

إذا كان وانج- كان الكيراتي هو القس جون، فمن غير المحتمل أن يقوم الذي قضى عليه بنفس دوره. فكان كل فرد يفضل تذكر أن المغول حاربوا المسلمين وأن أميرة مسيحية تزوجت أحد أفراد الأسرة الإمبراطورية. وإن لم يكن خان المغول الأعظم مسيحياً؛ إنهم كانوا يأملون أن يتلهم إلى أن يكون نصيراً للأيدولوجية المسحية ضد قوى الإسلام. إن وجود مثل هذا الحليف المحتمل شديد البأس في الخلفية الشرقية جعل اللحظة تبدو مؤاتية لحملة صليبية جديدة؛ وكان هناك صليباً مهماً في المتناول^(٢٧).

(٢٧) Pelliot, *loc. cit.*; Marinescu, 'La Prêtre Jean' in *Bulletin de la Section Historique de l'Académie Roumaine*, vol. x *passim* Langlois, *La Vie en France au Moyen Age*, vol. iii, pp. 44'56.

الفصل الثانى:

القديس لوييس

المقدّيس لويس

"لا يَنْتَفِعُ الإنسانُ بِكَوْنِهِ مَرْضِيًّا عِنْدَ اللَّهِ"
(أيوب ٣٤:٩)

في ديسمبر ١٢٤٤م أصيب ملك فرنسا لويس التاسع بمرض مؤسّس بعدوى الملاريا. وبينما كان راقداً والموت منه قريب أقسم لأن شُفي لينطلقن في حملة صليبية. وأنقذت حياته؛ وما أن استرد صحته حتى بدأ في ترتيباته. والملك الآن في الثلاثين من عمره، طويلاً واهن البنية أشقر الشعر والبشرة، يعاني دائماً من مرض الحمرة والأنيميا، لكن شخصيته لم تفتقر إلى القوة قط. وقليل من الجنس البشري كله كان على مثل هذا الورع المخلص الواعي. وكملك شعر بأنه مسؤول أمام الرب عن رفاهية شعبه؛ ولم يسمح لأي أسقف، ولا حتى للبابا نفسه، بأن يقف بينه وبين هذا الواجب. وكانت مهمته أن يوفر حكومة عادلة. وبرغم احترامه المرتاب لحقوق أتباعه الاقطاعية كان ينتظر منهم أن يقوموا بدورهم، وإذا ما فشلوا في ذلك قلّص سلطاتهم ولم يكن في ذلك مبتدعاً. وبفضل هذا الالتزام الصارم فاز بالإعجاب حتى من أعدائه؛ وزاد من إعجابهم ما كان له من ورع شخصي وتواضع وتقشف مشهود. وكانت نظرتة إلى الوفاء بالعهد نظرة سامية، فلم يُخلف وعدا قط. ولم تكن لديه رحمة إزاء الآثمين؛ وكان صارماً، بل قاسياً، في معاملاته مع الهراطقة والكفرة. وكان أصدقاؤه يجدون في حديثه

سحرا وسخرية رقيقة ، لكنه كان يتناهى عن وزرائه وأتباعه ؛ وكان إزاء أصفاله سيدا مستبدا . وكانت مليكته مرجريت البروفانسية فتاة تنصف بالمرح وبروح الاستعلاء ، لكنه روضها وأحال سيرتها إلى ما يناسب زوجة قديس^(١) .

وفي ذلك العصر ، عندما كانت الفضيلة تحظى بالإعجاب الكبير لكنها نادرا ما تتحقق ، جاوز الملك لويس فى رفعة رفاقه العواهل . وكان طبيعيا أن تساوره الرغبة فى الذهاب فى حملة صليبية ؛ ولقى امثاله الواقعى للحركة تقديرا تشوبه البهجة . وكانت الأحوال فى ميسس الحاجة إلى حملة صليبية . وفى ٢٧ نوفمبر ١٢٤٤م ، وبعد كارثة غزة مباشرة ، أبحر جاليران أسقف بيروت من عكا ليخبر أمراء الغرب ، نيابة عن بطريق القدس روبرت ، بجمعية إرسال التعزيزات وإلا فسوف تهلك المملكة كلها . وفى يونية ١٢٤٥م ، عقد البابا إينوسنت الرابع ، بعد أن أخرجته قوات الامبراطور من إيطاليا ، مجلسا فى مدينة ليون الإمبراطورية لمناقشة كيفية كبح جماح فريديريك ؛ انضم إليه هناك الأسقف جاليران وكذلك ألبرت بطريق أنطاكية . وكان إينوسنت قد شعر ببعض الإساءة عندما طلب من لويس التغاضى عن كل أعماله المضادة للإمبراطور ، ورفض لويس طلبه هذا بوازع من ضمير ؛ غير أن البابا عندما علم بما أبلغه به أسقف بيروت جاليران من أحوال الشرق الباعثة على القنوط ، أعلن فى سرور تأييده لتعهدات الملك الصليبية ، وأرسل أودو ، الكاردينال-الأسقف فى فراشاتي للتبشير بحملة صليبية فى سائر أنحاء فرنسا^(٢) .

استمرت ترتيبات الملك ثلاث سنوات . وفرضت ضرائب غير عادية لتمويل الحملة ، ولم يُستثن رجال الدين من دفعها مما أثار حنقهم . وكان لابد من تدبير أمر الحكم فى البلاد ، فعهد بالوصاية مرة أخرى إلى الملكة الأم بلانش ، التى ثبت اقتدارها كحاكم أثناء الفترة العاصفة السابقة على بلوغ ابنها سن الرشد . وكانت هناك مشاكل خارجية يتعين تسويتها ، إذ ينبغي حث ملك إنجلترا على الحفاظ على السلام^(٣) . وكانت العلاقات مع الامبراطور فريديريك حساسة بوجه خاص ؛ إذ فاز

(١) تتضح شخصية لويس بجلاء يسن فى التراجم التى كتبها عنه William of Nangis و Joinville و William of Saint-Pathus وهذا الأخير هو كاهن اعترف الملكة مرجريت الذى . وكتب آخر ترجمة له ليبرر الحاقه بالقديسين .

(٢) Hefele-Leclercq, *Histoire des Concile*, v, 2, pp. 1635, 1651-3, 1655-61; MS. of Rothelin, pp. 566-7; Joinville, ed. Wailly, p. 37; William of Saint-Pathus, pp. 21-3; William of Nangis, R.H.F. vol. xx, p. 352.

(٣) Joinville, pp. 41-2; William of Nangis, *loc. cit.*; Powicke, *King Henry III and the*

لويس بعرفان فريدريك التزامه الحياد الصارم في الشجار بين البابوية والامبراطور ؛ لكنه هدد بالتدخل عام ١٢٤٧م عندما اقترح فريدريك على حلفائه مهاجمة شخص البابا في ليون. وفضلا عن ذلك ، فإن فريدريك هو والد ملك القلس الشرعى ، ولذا ليس من حق لويس دخول بلاده مالم يأذن له الملك كونراد ، ويبدو أن المبعوثين الفرنسيين دأبوا على إطلاع فريدريك اطلاقا كاملا بالحملة الصليبية المنتواة ، وأن فريدريك - الذى أعرب عن تعاطفه مع الحملة - نقل المعلومات إلى بلاط مصر . وكان لزاما العثور على السفن التي سوف تنقل الحملة إلى الشرق ، وبعد مفاوضات قليلة وافقت جنوا ومرسليا على تقديم العون الضرورى . أما البنادقة ، الذين ساءهم بالفعل هذا المخطط الذي قد يعوق ترتيباتهم التجارية الطيبة مع مصر ، فقد زاد ذلك من عدائهم الدفين^(٤).

١٢٤٨م : الملك لويس يبحر من إنجلترا-مورت

وأخيرا غادر الملك لويس باريس يوم ١٢ أغسطس ١٢٤٨م ، وفي اليوم الخامس والعشرين أبحر من إنجلترا-مورت قاصدا قبرص وبصحبه الملكة وأخوين من إخوته هما روبرت كونت أرتوا ، وتشارلز كونت أنجو . وتبعه اثنان من أبناء عمومته ، هيو دوق برجندي ، وبطرس كونت بريتاني ، وكان كل منهما قد اشترك في حملة صليبية عام ١٢٣٩م ؛ وهيو العاشر (أوف لوسينان) ، كونت لا مارش ، وزوج أم الملك هنرى الثالث ، الذي كان شابا في الحملة الصليبية الخامسة ؛ ووليم (أوف ديامبير) ، كونت فلاندرز ؛ وجوى الثالث كونت سانت بول ، الذى شارك أبوه في الحملتين الثالثة والرابعة ؛ وجون كونت ساربروك ؛ وابن عمه المؤرخ جون (أوف جوانفيل John of Joinville) ، وقهرمان شامباني ، والكثير من ذوى الشأن الأقل . وأبحر البعض منهم من إنجلترا-مورت ، والبعض الآخر من مرسليا . واستأجر المؤرخ جوانفيل وابن عمه - ومع كل منهما تسعة فرسان - قاربا من الميناء الأخير^(٥).

وانطلقت في أثرهم مباشرة كتيبة انجليزية بقيادة وليم ، إيرل سالزبرى ، وهو حفيد

Lord Edward, i, p. 239.

(٤) Hefele-Leclercq, op. cit. v, 2, pp. 1681-3. Al-Aini, p. 201, السلطان

(٥) Joinville, pp. 39-40, 43-6; Matthew Paris, v, pp. 23-5.

هنرى الثانى و(فير روزاموند) . وخطط لوردرات انجليز آخرون للانضمام إلى الحملة الصليبية ، لكن هنرى الثالث لم يشأ أن يفقد خدماتهم ، ولذا رتب أن يحول البابا دون مرورهم . وجاء من اسكتلندا باتريك ، إيرل دونبار ، الذى مات فى رحلته إلى مرسيليا^(٦) .

وصل الأسطول الملكى ميناء ليماسول يوم ١٧ سبتمبر ؛ وهبط الملك والملكة إلى البر فى الصباح التالى . وخلال الأيام القليلة التالية تجمع جنود الحملة الصليبية فى قبرص . وبالإضافة إلى نبلاء فرنسا جاء من عكا السيد الأعظم القائم بالأعمال لنظام فرسان المعبد ، وبارونات سوريون كثيرون ، واستقبلهم هنرى ملك قبرص جميعا بحفاوة ودودة^(٧) .

عندما نوقشت خطة الحملة وافق الجميع على أن تكون مصر هى المستهدفة . فهى أغنى مقاطعات الإمبراطورية الأيوبية وأيسرها اقتحاما ؛ وتذكروا كيف أن السلطان أثناء الحملة الصليبية الخامسة كان على استعداد لمبادلة القدس نفسها بدمياط . وعندما اتخذ القرار أبدى لويس رغبته فى أن تبدأ العمليات على الفور ، لكن سادة الأنظمة الدينية العسكرية والبارونات السوريين أثروه عن عزمه ، إذ سرعان ما سوف تبدأ العواصف الشتوية ، ومن الخطورة الإقتراب من ساحل الدلتا بضافه الرملية الحزونة وندرة موانئه . فضلا عن ذلك ، كانوا يأملون فى اقناع الملك بالتدخل فى نزاعات الأيوبيين العائلية ؛ ذلك أنه فى صيف ١٢٤٨ م طرد صاحب حلب الناصر يوسف ابن عمه الأشرف موسى من حمص ، فاستنجد الأمير المخلوع بالسلطان أيوب الذى جاء من مصر وأرسل جيشا لاستعادة حمص ، وكان فرسان المعبد قد بدأوا فعلا فى التفاوض مع السلطان ، مقترحين عليه أن يتخلى عن بعض الأراضى لقاء مساعدات إضافية من الفرنج . على أن الملك لويس لا شأن له بهذه المخططات . إذ أنه قد جاء ، كشأن الصليبيين الزائرين فى القرن الماضى ، لمحاربة الكفرة لا للخوض فى الدبلوماسية . وأمر فرسان المعبد بقطع مفاوضاتهم^(٨) .

(٦) Matthew Paris, iv, pp. 628-9, v, pp. 41, 76.

(٧) Joinville, pp. 46-7; *Gestes des Chiprois*, p. 147.

(٨) Joinville, pp. 47, 51, 52; William of Nangis, pp. 367-9; Abu'l Feda, p. 125; Maqrissi, x, pp. 198-9.

١٢٤٥-١٢٤٧م : بعثة (بيان دل كارين) إلى منغوليا

إن الهواجس التي منعت الملك من أن يتفق مع أي مسلم لم تنطبق على المغول الوثنيين. وكانت لديه سابقة يحذوها. ففي عام ١٢٤٥م استكمل البابا إينوسنت الرابع جهوده الرامية إلى انقاذ العالم المسيحي في الشرق الأدنى بأن أرسل سفارتين إلى بلاط الخان الأعظم في منغوليا. وغادرت ليون في إبريل من ذلك العام إحدى البعثتين برئاسة الفرنسيسكاني جون (أوف بيان دل كارين)، وأمضت خمسة عشر شهرا في رحلتها عبر روسيا وسهوب أواسط آسيا إلى أن وصلت في أغسطس ١٢٤٦م إلى المعسكر الإمبراطوري في سيرا أورودو القريب من كاراكورام في الوقت المناسب لتشهد المؤتمر (كوريلتاي) الذي انتخب جويوك ووضعه على قمة السلطة. وكان لدى جويوك الكثير من النساطرة ضمن مستشاريه، فاستقبل البعثة البابوية استقبالا طيبا. بيد أنه عندما قرأ رسالة البابا التي تطالبه بقبول المسيحية، كتب ردا يأمر فيه البابا بالإعتراف بسيادته والحضور مع جميع أمراء الغرب لتقديم فروض الولاء والطاعة. ولدى عودة جون (أوف بيان دل كارين) إلى البلاط البابوي في نهاية عام ١٢٤٧م، سلم البابا ذلك الخطاب المثبط وتقريراً مفصلاً أوضح فيه أن المغول لا هم لهم سوى الغزو^(٩). على أن إينوسنت لم يكن ليترك أوهامه تذهب كلية أدراج الرياح؛ فانطلقت سفارته الثانية برئاسة أسلين اللومباردي الدومينيكاني بعد ذلك بقليل وارتحلت عبر سوريا، حيث قابل القائد المغولي بايشو في مايو ١٢٤٧م في تبريز. ووجد أسلين في شخص بايشو رجلاً عدوانياً مقيتاً، لكنه كان على استعداد لمناقشة إمكانية التحالف ضد الأيوبيين. فخطط للهجوم على بغداد، وسوف يناسبه أن تتولى حملة صليبية تشتت انتباه مسلمي سوريا. وأسل مبعوثين مع أسلين في عودته إلى روما هما آييج وسركيس، وبقينا كان ثانيهما نسطوريا، ورغم افتقارهما إلى سلطات التفويض المطلقة، فقد انتعشت آمال الغرب مرة أخرى. ومكثا مع البابا نحواً من عام. وفي نوفمبر ١٢٤٨م طلب منهما العودة إلى بايشو يحملان الشكوى من أنه ليس هناك شيء يتخذ حول التحالف^(١٠).

وأثناء أن كان الملك لويس في قبرص جاءه في نيقوسيا اثنان من النساطرة في ديسمبر ١٢٤٨م هما مارك وداود، وقالوا إنهما مرسلان من القائد المغولي أليغيداي،

(٩) See Pian del Carpine, *Historia Mongolorum* (ed. Pulle), لرواية كاملة عن هذه السفارة، esp. pp. 115 ff. Guyuk's letter is given *ibid.* pp. 125-6.

(١٠) See Pelliot, "les Mongols et la Papauté", *Revue de l'Orient Chrétien*, vol. xxviii, pp. 112, 131.

وهو المفوض على الموصل من قبل الخان الأعظم . وأبرز رسالة تتحدث بإسهاب مفرط عن تعاطف المغول مع المسيحية ، مما أدخل البهجة على لويس فأرسل على الفور بعثة من الدومينيكانيين يرأسها أندرو (أوف لونييمو) وأخوه ، وكلاهما يتحدث العربية . وكان أندرو في الواقع هو وكيل البابا الرئيسي في المفاوضات التي جرت مؤخرًا مع القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح . وحملت البعثة معها نموذجًا لكنيسة ، كهديّة ثلاثم رحّل بدوى متحول إلى المسيحية ، وبعض الآثار الدينية لمذبحها ، وهدايا أخرى دنيوية . وغادر أفراد البعثة قبرص في يناير ١٢٤٩م قاصدين معسكر أليغيداي الذي أرسلهم إلى منغوليا . وبرصوهم إلى كاراكورام وحدا أن جويوك قد مات وأرملته أوغول كايميش تقوم بأعمال الرصاية . وكانت كريمة مع البعثة ، لكنها اعتبرت هدايا الملك مجرد إتاوة من تابع لسيد ، بينما حالت مشاكل الأسرة الحاكمة في الوطن دون أن ترسل حملة كبيرة إلى الغرب ، وإن توفرت النية لديها . وعاد أندرو بعد ثلاث سنوات بلاشيء سوى خطاب من سيد أعلى شكرت فيه الرصية تابعها لما أبداه من انتباه وطلبت إرسال هدايا مماثلة كل سنة . وذهل لويس من هذا الرد ، غير أنه كان لا يزال يعلق الآمال على التوصل إلى تحالف مغولي يوما ما^(١١) .

وهكذا ، فإن إقامة الحملة الصليبية في قبرص لم يكن لها أثر سياسي . وكان الملك لويس قبل ذلك بنحو عام قد أرسل الركلاء لجمع الطعام والأسلحة للجيش ؛ وقد تحققت المهمة الأخيرة على نحو مفيد ، غير أن هيئة المهمات الحربية (الكوميسارية) لم تكن تتوقع أن تُطعم تلك الأفواه الكثيرة لأكثر من شهر أو شهرين . ومع ذلك ، لم تستطع الحملة عمليا الإبحار لغزو مصر قبل شهر مايو ١٢٤٩م . وعندما حل الربيع ، طلب لويس من المستعمرات التجارية الإيطالية المحلية تزويده بالسفن ، وعارض البنادقة الحملة الصليبية برمتها ولم يقدموا المساعدة المطلوبة . وفي شهر مارس بدأت حرب صريحة بين أبناء جنوا وأبناء بيزا بطول الساحل السوري ، ووقعت أسوأ نتائجها على أبناء جنوا الذين يعلق عليهم لويس جُلّ اعتماده . وتدبر جون الإيليني ، لورد أرسوف ، بعد حوالي ثلاثة أسابيع إقناع المستعمرتين بالتوقيع على هدنة تستمر ثلاث سنوات . وبنهاية شهر مايو أمكن توفير السفن التي تحتاجها الحملة الصليبية^(١٢) . وفي

(١١) Pian del Carpine, *op. cit.* pp. 174-95. ومن المشكوك فيه ما إذا كان أليغيداي مخلولا لإرسال سفارة . ويرد ذكر وصفها وكذلك سفارة لويس في Joinville, pp. 47-8, and *MS. of* Rothelin, p. 469. ويصف Matthew Paris (v, pp. 80-87) شائعات تحول ملك التار عن دينه بتهلل بالغ. ('jocundissimi')

(١٢) Joinville, pp. 46-7; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 436-7, Matthew Paris, v, p. 70;

ذات الوقت كان لويس يستقبل الزائرين والسفارات في نيقوسيا ؛ إذ أرسل له هيثوم الأرميني هدايا نفيسة ؛ والتمس بوهمند أمير أنطاكية الحصول على كتيبة من ستمائة من الرماة لحماية إمارته من قطاع الطرق الزكمان وحصل عليها . وارتحلت إليه امبراطورة القسطنطينية، ماريا (أوف برين) اللاتينية ملتزمة العون ضد امبراطور نيقية اليوناني ، وأعرب لها لويس عن تعاطفه لكنه أخبرها أن الحملة الصليبية ضد الكفرة ينبغي أن تكون لها الأسبقية . وأخيرا ، وصل في شهر مايو وليم (أوف فيلهاردوين) أمير أخايا^(١٣) مع أربع وعشرين سفينة وفصيلة من الفرنج من موريسا (بولوبونيس). وكان دوق برجندى قد أمضى معه الشتاء فى اسيرطة وحثه على الانضمام إلى الملك . وكان الجيش الذي تجتمع في قبرص يتزايد حجمه على نحو مهول . غير أن جوانب المتع التي تزخر بها الجزيرة اللطيفة قد أوهنت من معنوياته ؛ وكادت أن تنفذ مخزونات الطعام التي كان مقرا أن تكفي الحملة على مصر^(١٤) .

١٢٤٩م : الحملة الصليبية تصل أمام دمياط

في ١٣ مايو ١٢٤٩م كان هناك أمام ميناء ليماسول أسطول من مئة وعشرين ناقلة كبيرة والكثير من السفن الأصغر ، وبدأ الجيش يصعد على ظهرها . ولسوء الحظ ، هبت عاصفة بعد أيام قلائل بعثرت السفن ؛ وعندما أبحر الملك نفسه يوم ٣٠ مايو لم يبحر معه سوى ربع جيشه ، وأبحر باقي الجيش بصورة مستقلة قاصدا الساحل المصرى . ووصل الأسطول الملكي أمام دمياط يوم ٤ يونية^(١٥) .

وكان السلطان أيوب قد أمضى الشتاء في دمشق راجيا أن يفرغ جنوده من الاستيلاء على حمص قبل أن يبدأ الغزو الفرنجى . وتوقع أول الأمر أن يهبط لويس في سوريا ، لكنه بعد أن تحقق من أن المحجم يستهدف مصر ، رفع الحصار عن حمص وأسرع بنفسه إلى القاهرة وأصدر أوامره لجيوشه السورية أن تتبعه . وكان رجلا

William of Nangis, p. 368.

(١٣) المترجم : أخايا Achaia ، إقليم قديم شمال بولوبونيس أو شبه الجزيرة اليونانية

(١٤) Joinville, pp. 48-51; Vincent of Beauvais, pp. 1315 ff.

(١٥) Joinville, pp. 52-3; William of Nangis, pp. 370-1; MS. of Rothelin, p. 589;

ويقدر أبو الفدا Abu'l Feda, p. 126 قوام جيش الملك بأنه ٥٩.٠٠٠ رجل letter of Guy of Melun in Matthew Paris, v, pp. 155-6

مريضاً ، فى مرحلة متأخرة من مرض السل ، ولم يعد قادراً على قيادة جنوده بنفسه؛ فأمر وزيره المسين فخر الدين - صديق فريدريك الثاني - أن يقود الجيش الذي تقرر أن يقاوم الهجوم الفرنجى على أرض مصر ، وأرسل مخزونات المؤن إلى دمياط ووضع فيها حامية من رجال قبائل بنى كنانة ورجال من البدو اشتهروا بشجاعتهم . واتخذ قاعدته فى أشمون طناح الواقعة إلى الشرق من الفرع الرئيسى لنهر النيل^(١٦).

وعلى ظهر السفينة الملكية -مونتجوا- راح مستشارو الملك يتوسلون إليه انتظار وصول باقى ناقلاته قبل محاولة الهبوط إلى البر ، لكنه رفض التأخير . وفى فجر الخامس من يونية بدأ الهبوط بين أنياب العدو على الرمال الواقعة إلى الغرب من مصب النهر. ودارت معركة شرسة على نفس شاطئ البحر ؛ غير أن استبسال الجنود الفرنسيين والملك على رأسهم ، وشجاعة فرسان أوترمييه بقيادة جون الإيليني كونت يافا، أجبر المسلمين على التقهقر بعد أن أصيبوا بخسائر فادحة ؛ وبهبوط الظلام سحب فخر الدين رجاله وعبر جسر القوارب إلى دمياط التى وجد سكانها فى حالة من الذعر والحامية تتخاذل ، فقرر إخلاء المدينة . وهرب معه كل السكان المسلمين ، وتبعهم بنو كنانة بعد أن أشعلوا النيران فى الأسواق ، لكنهم أهملوا أوامره بتدمير جسر القوارب . وفى الصباح التالى علم الصليبيون من المسيحيين الذين بقوا فى منازلهم أن دمياط بلا دفاع . فعبروا فى انتصارهم الجسر ودخلوا المدينة^(١٧).

١٢٤٩م : لويس فى دمياط

ذهل الفرنج وابتهجوا من سهولة الإستيلاء على دمياط . لكنهم لا يستطيعون الآن متابعة انتصارهم ، إذ سرعان ما سيبدأ فيضان النيل . وكانت التجربة المريرة التى مرت بها الحملة الصليبية الخامسة ما تزال ماثلة فى الأذهان ، ولذا رفض لويس التقدم إلى أن تهبط مياه النهر . وفضلاً عن ذلك، كان ينتظر وصل التعزيزات من فرنسا بقيادة أخيه ألفونسو كونت بواتو . وفى ذات الوقت تحولت دمياط إلى مدينة فرنجية . ومرة أخرى،

(١٦) Maqrissi, x, pp. 200-1; Abu'l Feda, p. 126; Al-Aīni, p. 201.

(١٧) Joinville, pp. 53-8; William of Nangis, p. 371; *MS. of Rothelin* (letter of John Sarrasin), pp. 589-91; *Gestes des Chiprois*, pp. 147-8; Matthew Paris, v, (letter of Guy of Melum); Maqrissi, xiii, p. 203-4; Abu'l Feda, p. 126; al-Aīni, pp. 201-23é Abu Shama, ii, p. 195.

وكما حدث عام ١٢١٩ م ، تحول الجامع الكبير إلى كندرائية ونُصّب فيها أسقف . وخصصت المباني للأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة ، والأملاك لأبرز لوردات مملكة ما وراء البحار (أوترمييه) ؛ وكوفئ أبناء جنوا وبيزا على خدماتهم بسوق وشارع لكل منهما ، أما البنادقة النادمين على اتخاذهم موقف عدائي فقد توسلوا للحصول على مكافأة مماثلة ، وأجيب سؤالهم . وعامل الملك لويس المسيحيين الوطنيين والقبط القائلين بالطبيعة الواحدة للمسيح بعدالة حذرة ورحبوا بحكمه . وعندما كان الجيش في قبرص ، كانت الملكة قد أرسلت مع سيدات الحملة الصليبية الأخريات إلى عكا ، والآن استدعيت للانضمام إلى الملك . كما رحّب لويس بصديق آخر بارز ، وإن كان قد بات معدما ، هو بلدوين الثاني امبراطور القسطنطينية ، الذي سبق أن زار لويس في باريس لجمع المال ، وباع للملك آثار "الآلام" التي بقيت من سلب الصليبيين للعاصمة الإمبراطورية . وطوال أشهر الصيف كانت دمياط عاصمة مملكة ما وراء البحار (أوترمييه) . بيد أن الجنود قد وهنت عزائمهم بهذا الإسترخاء في رطوبة الدلتا الحارة ؛ وبدأ الغذاء يتناقص ، وأظلت الأمراض في المعسكر^(١٨) .

صدم العالم الإسلامي لضياع دمياط . غير أنه بينما تردد الفرنج ، أقدم السلطان المختصر على خطوة . وكما فعل أبوه قبل ثلاثين سنة ، عرض على الفرنج أن يعطيهم القدس ثمنا لدمياط . ورفض العرض . ذلك أن الملك لويس كان لا يزال يرفض التعامل مع واحد من الكفرة ، وفي ذات الوقت عاقب أيوب القادة المسؤولين عن ضياع دمياط ، فأعدم أمراء بنى كنانة ، وأحزى فخر الدين وكبار قادة المماليك . وأراد المماليك القيام بتمرد في القصر ، لكن فخر الدين أنشأهم عن عزمهم ؛ وحفظ له السلطان إخلاصه له . وهُرع الجنود إلى المنصورة التي سبق أن بناها السلطان الكامل في موقع انتصاره على الحملة الصليبية الخامسة ، ومن هنا جاء إسمها . وحُمِل أيوب نفسه إلى هناك على محفته ليُشرف على تنظيم الجيش . وانطلق رجال حرب العصابات البدو في المناطق المحيطة ، وكانوا يتسللون حتى أسوار دمياط ، يقتلون الفرنج الشاردين خارجها . واضطر لويس إلى إنشاء السدود وحفر الخنادق لحماية معسكره^(١٩) .

(١٨) MS. of Rothelin, pp. 592-4; Matthew Paris, vi, pp. 160-1; *ibid.* iv, p. 626 (Emperor Baldwin's visit).

ويرد إبلاغ لويس بشأن كنيسة دمياط مطبوعا في Baluze, *Collectio Veterum Scriptorum*, iv, pp. 491-5.

(١٩) (Matthew Paris, v, p. 89) Al-Aini, pp. 202-6. وقتل هيو لا مارش أثناء هذه الاشتباكات

وفى أكتوبر هبطت مياه النيل . وفى نفس الوقت تقريبا، فى ٢٤ أكتوبر ، وصل الأخ الثانى للملك، ألفونسو (أوف بواتو) ومعه التعزيزات من فرنسا . لقد حان الوقت للتقدم نحو القاهرة . واقترح بطرس البريتونى بتأييد من بارونات أوتريميه أن الأكثر حكمة مهاجمة الإسكندرية ، إذ سيفاجأ المصريون بهذه الحركة ، ولدى الصليبيين ما يكفى من السفن لعبور فروع النيل ، وباستيلائهم على الإسكندرية فإنهم يتحكمون فى ساحل مصر المتوسطى كله ، وسوف يكون لزاما على السلطان أن يرضخ لما يملونه من شروط . بيد أن أخا الملك ، روبرت (أوف ارتوا) ، عارض هذا المشروع بحماس وأيده الملك . وفى ٢٠ نوفمبر انطلق الجيش الفرنجى من دمياط بطول الطريق الجنوبى الذاهب إلى المنصورة ، وبقيت حامية قوية فى دمياط مع الملكة وبطريق القدس^(٢٠).

وبدا الحظ مبتسما للملك لويس ؛ إذ أن السلطان أيوب الآن على فراش الموت ، ومات فى المنصورة بعد ثلاثة أيام فى الثالث والعشرين . لقد كان رجلا عبوسا منعزلا تعوزه البشاشة وسعة الأفق وحب العلم مما كان يتصف به أغلب أقربائه . وكانت صحته ضعيفة بصورة دائمة ؛ وربما تضاءلت به دماؤه السودانية على وعى منه، عن بقية أسرته، التى لم تتخلط سلالتها الكردية . غير أنه كان حاكما مقتدرا ، وآخر الحكام العظام فى الأسرة الحاكمة الأيوبية العظيمة . وكان موته بمثابة كارثة تهدد المسلمين ؛ إذ كان ابنه الوحيد تورانشاه بعيدا فى الجزيرة واليا عليها . وجاء إنقاذ مصر على يد السلطانة الأرملة شجرة الدر الأرمينية المولدة ، التى استأمنت الخصى جمال الدين ، الذى سيطر على القصر ، وكذلك فخرالدين ، وأخفت نبأ موت زوجها وزيفت توقيعه على وثيقة بتعيين تورانشاه وريثا وفخرالدين قائدا عاما للجيش وواليا أثناء مرض السلطان . وعندما تسرب نبأ موت أيوب فى نهاية الأمر ، كانت السلطانة وفخرالدين قد أحكما قبضتهما على السلطة ، وكان تورانشاه فى طريقه إلى مصر . على أن الفرنج تشجعوا لسماعهم النبأ ، وبدا لهم أن تلك الحكومة التى تسيطر عليها امرأة وقائد مسين سرعان ما ستنهار . فغذوا السير باتجاه القاهرة^(٢١).

(٢٠) Joinville, pp. 64-5; Matthew Paris, vi, p. 161 (letter of Guy of Melun); السابق أخطاء فى تواريخ أحداث الشتاء فى فبراير، Maqrisi, (ibid. v, pp. 105-7, and p. 130); xiii, p. 215.

(٢١) Maqrisi, xiii, pp. 208-15; Abu'l Feda, p. 127; al-Aini, p. 207; MS. of Rothelin, p. 599; Matthew Paris, v, pp. 107-8.

١٢٤٩ م : الصليبيون يتقدمون نحو المنصورة

كان الطريق من دمياط تقطعه أعداد لا حصر لها من قنوات النيل وفروعه ، أكبرها البحر الصغير الذي يتفرع من النيل الرئيسى جنوب المنصورة مباشرة ويجرى مارا بأشمون-طناح إلى بحيرة المنزلة ، وبذا يعزل ما يسمى جزيرة دمياط . وأبقى فخرالدين أغلب قواته خلف البحر الصغير ، وأرسل الفرسان لإنهاء الفرنج أثناء عبورهم كل قناة ، ولم تنجح أي من تلك المناوشات في صد تقدم الفرنج . وكان الملك لويس يتقدم تقدما بطيئا حذرا . وفي ٧ ديسمبر حدثت معركة بالقرب من فارسكور صُد فيها الفرسان المصريون ، وأصر فرسان المعبد على مطاردة الفارين تحديا لأوامر الملك إلى مسافة بعيدة للغاية ، وصادفتهم بعض المصاعب في الانضمام إلى رفاقهم . وفي ١٤ ديسمبر وصل الملك بارامون ، وفي الحادي والعشرين ضرب جيشه معسكره على الضفة البحر الصغير التي تواجه المنصورة^(٢٢) .

مكث الجيشان يواجهان بعضهما عبر القناة الواسعة لستة أسابيع . وحاول الفرسان المصريون العبور إلى الجزء الأسفل الجنوبي من جزيرة دمياط ، وهاجموا مؤخرة الفرنج ، لكن تشارلز (أوف أنجو) ردهم بالقرب من المعسكر . وفي تلك الأثناء أمر لويس ببناء سد يعبرون القناة من فوقه ، غير أنه على الرغم من بنائه سقائف لحماية العمال ، كان القصف المصرى من الضفة المقابلة ، وخاصة باستخدام النيران الإغريقية ، هائلا بحيث تم التخلي عن بناء السد . وفي باكورة شهر فبراير ١٢٥٠ م ، جاء إلى معسكر الملك قبطني من سلمون ، وعرض أن يكشف لهم عن مخاضة لعبور البحر الصغير لقاء حصوله على ٥٠٠ بيزنت . وفي فجر ٨ فبراير انطلق الصليبيون عبر المخاضة ؛ وبقي دوق برجندى مع قوات قوية للحفاظ على المعسكر ، بينما سار الملك لويس مع الجيش المتقدم وقاد أخوه روبرت (كونت أرتوا) المقدمة مع فرسان المعبد والكتيبة الإنجليزية ، وصدرت إليه أوامر صارمة بعدم مهاجمة المصريين إلى أن يأذن الملك . وتحقق العبور الصعب بنجاح ، لكنه كان بطيئا . وعندما وجد روبرت كونت أرتوا نفسه على الضفة الأخرى من البحر الصغير مع رجاله ، خشي أن يضيع عنصر المفاجأة ما لم يهاجم الأعداء في الحال . وحاول فرسان المعبد عبثا تذكيره بالتعليمات الصادرة إليه ، لكنه أصر على التقدم ووافقوا على المشاركة في الهجوم . وكان لإندفاعه

Joinville, pp. 69-70; *MS. of Rothelin*, pp. 597-8; Maqrissi, xiii, pp. 215-16; al-Aīni, (٢٢) p. 207.

ما يبرره . ذلك أن المصريين في معسكرهم ، خارج المنصورة بنحو عشرين ميلا ، كانوا يبدأون حياتهم اليومية عندما برغتوا بخيالة الفرنج تزجر في وسطهم فجأة ؛ وقتل الكثير من المصريين عندما هرعوا لأخذ أسلحتهم ، وهرب آخرون في نصف ملابسهم إلى حيث الأمان في المنصورة . وكان القائد العام فخر الدين قد خرج لتوه من الحمام ، وكان خادمه الخاص يصبغ له لحيته بالحناء ، عندما سمع الهرج والمرج . ولم ينتظر حتى يشتمل بدروعه ، وإنما قفز على جواده وانطلق إلى قلب المعركة ، ووجد نفسه في وسط بعض فرسان المعبد الذين قطعوه إربا .

١٢٥٠م : معركة المنصورة

أصبح روبرت كونت أرتوا الآن سيد معسكر المصريين . ومرة أخرى ترجاه السيد الأعظم لنظام المعبد الانتظار إلى أن يأتي الملك والجيش الرئيسي إلى المخاضة وينضموا إليه ، وكذلك نصحه وليم (أوف سالزبوري) باتخاذ جانب الحيطه ؛ غير أن روبرت أصر على الاستيلاء على المنصورة والقضاء على الجيش المصرى ، ورمى فرسان المعبد والإنجليز بالجبن ، ثم نظم صفوف رجاله وشن هجوما جديدا على المصريين الفارين ؛ ومرة أخرى شعر سيد فرسان المعبد ووليم بأن عليهما اللحاق به . على أنه بالرغم من موت فخر الدين ، تمكن القادة المماليك من إعادة النظام إلى جنودهم ؛ وتولى القيادة أقدرهم ركن الدين بيبرس وكنيته البندقدار أي "صاحب القوس"^(٢٣) . ووضع رجاله في مواضع حساسة داخل المدينة ذاتها ، وترك فرسان الفرنج يتدفقون داخل البوابة المفتوحة . وعندما اندفع فرسان الفرنج إلى أسوار القلعة ذاتها وفرسان المعبد في ذيلهم ، خرج المماليك من الشوارع الجانبية وانقضوا عليهم كالصواعق . ولم تتمكن جياد الفرنج من الاستدارة بسهولة في الحيز الضيق وعلى الفور تبعثروا في فوضى عارمة . وتمكن فرسان قليلون من الهرب على الأقدام إلى ضفاف النيل ، لا لشيء إلا ليغرقوا في مياهه . وتمكن قليلون آخرون من إنقاذ أنفسهم من المدينة ، بينما اشتبك فرسان المعبد في قتال الشوارع ؛ ولم يبق على قيد الحياة من قوامهم البالغ مائتين وتسعين فارسا سوى خمسة فرسان . واحتفى روبرت كونت أرتوا مع حرسه الخاص في أحد المنازل ، لكن المصريين سرعان ما اقتحموا المنزل وقتلوه جميعا ومن بين الفرسان الذين سقطوا في

(٢٣) (المترجم): Arbalest or Arbalist: القوس القذوف: آلة فى العصور الوسطى لقذف السهام والحجارة وما إليها.

المعركة إيرل سالزبورى وأتباعه الأنجليز كلهم تقريبا ، ولورد كوسي ، وكونت برين . وكان بطرس البريتونى معهم في المقدمة ، وأصيب بجرح في رأسه ، لكنه أفلح في الهرب من المدينة على ظهر جواد عائد وأسرع ينذر الملك .

عبر الجيش الصليبي كله تقريبا البحر الصغير . وما أن علم الملك لويس بالكارثة حتى نظم صف دفاعه الأول على الفور لصد أي هجوم ، بينما أرسل مهندسيه لتشيد جسر من الزوارق على الممر المائي . وترك كتائب الرماة على الجانب الأبعد من القناة كي يغطوا إعادة العبور إذا اقتضت الضرورة ، رغم أنه كان شديد التلهف على أن ينضموا إليه . وكما توقع ، سرعان ما خرج المماليك المنتصرون من المدينة وشنوا هجوماً على صفوفه ، وثبت لويس رجاله يصدون الهجوم ، بينما أمطروهم الأعداء بسيول السهام المتساقطة على جنوده ؛ وما أن بدأت سهام المماليك في النفاد ، حتى أمر بهجوم مضاد . ورد فرسانه العرب ، لكنهم سرعان ما أعادوا تشكيل صفوفهم وأعادوا الهجوم بينما حاولت فصائل منهم تعطيل بناء جسر الزوارق ، وكاد الملك نفسه أن يسقط في القناة من ضغط هجوم الأعداء لولا أن أنقذه هجوم مضاد آخر . وأخيراً اكتمل بناء جسر الزوارق باقتراب مغيب الشمس وعبر عليه الرماة من الجانب الآخر ، وجلب بجيئهم النصر للملك . وانسحب المصريون مرة أخرى إلى داخل المنصورة ؛ وضرب لويس معسكره في الموقع الذي كانوا يعسكرون فيه البارحة . وعندئذ فقط علم من القائم بأعمال السيد الأعظم لفرسان المستشفى بمقتل أخيه ، فانفجرت العبرات من مآقيه^(٢٤) .

لقد انتصر الصليبيون ، لكنه انتصار باهظ الثمن . ولو أن روبرت كونت أرتوا أحجم عن غارته تلك الطائشة ، لشعروا بأنهم من القوة بحيث يحاولون مهاجمة المدينة فيما بعد برغم أن آلات الحرب التي سوف تتصدى لهم أفضل حالا من آلاتهم . وهكذا لم يكن هناك ما يفعله الصليبيون ؛ وكان الوضع ينذر بالخطر ويذكرهم بالحملة الصليبية الخامسة ، عندما توقف الجيش المسيحي الذي احتل دمياط في مكان قريب من نفس هذه البقعة وأجبر على التقهقر في نهاية الأمر . ولم يكن لويس يمتنى النفس الآن بمصير أفضل من ذلك ، ما لم تحدث اضطرابات في البلاط المصري قد تدفع الحكومة في القاهرة إلى أن تعرض عليه شروطاً مقبولة . وفي ذات الوقت حصّن معسكره وعزز

Joinville, pp. 71-93; *MS. of Rothelin*, pp. 599-608; Matthew Paris, v, pp. 147-54m⁺ (٢٤) vi, pp. 191-3; al-Aīni, p.208.

حسر القوارب . وكان ذلك تصرفا حكيما؛ إذ بعد ثلاثة أيام هاجم المصريون مرة أخرى يوم ١١ فبراير بعد أن وصلتهم التعزيزات من الجنوب فغدوا أقوى مما كانوا عليه . ودارت رحى معركة من أشرس المعارك التي يذكرها رجال مملكة ما وراء البحار (أوتريميه) ؛ ذلك أن المماليك راحوا يشنون الهجوم تلو الآخر ، يطلقون سحبا من السهام في كل مرة يهجمون فيها ، ومرة أخرى يكبح لويس رجاله إلى أن تحين لحظة الهجوم المضاد . وصمد بثبات تشارلز (أوف أنجو) في الميسرة ، كما صمد بارونات سوريا وقبرص في يسار الوسط ، لكن بقايا فرسان المعبد والنبلاء الفرنسيين كانوا يتأرجحون في يمين الوسط ، واضطر الملك نفسه إلى إنقاذهم كي لا يفقد اتصاله بالميسرة . وكان السيد الأعظم وليسم قد فقد عينا في المنصورة ، والآن فقد الأخرى ومات متأثرا بفقدانها . وكان ألفونسو (أوف بواتر) يحرس المعسكر ناحية جناحه الأيمن، وحدث أن أحاط به المصريون ولم ينقذه سوى الطبّاحين والنساء من تابعات المعسكر . وأخيرا أنهك المسلمون وانسحبوا في نظام تام عائدين إلى المدينة^(٢٥).

١٢٥٠م : تورانشاه يتولى قيادة المسلمين

وظل الملك لويس ينتظر في المعسكر أمام المنصورة لثمانية أسابيع ؛ ولم يحدث التمرد المصري المأمول قط . وبدلا من ذلك وصل تورانشاه ، ابن السلطان الراحل ، إلى معسكر المصريين يوم ٢٨ فبراير . ذلك أنه ما أن سمع من زوجة أبيه بوفاة والده حتى غادر عاصمته ديار بكر وسابق الرياح إلى الجنوب . وأمضى ثلاثة أسابيع في دمشق حيث نودى به سلطانا ، ووصل القاهرة في أواخر فبراير . وكان وصوله إلى المنصورة بمثابة علامة على نشاط جديد للمصريين . وأمر بصنع أسطول من القوارب الخفيفة نُقلت على ظهور الإبل إلى منافذ النيل السفلى في المنطقة ، حيث انطلقت لتبدأ اعتراض السفن التي تجلب الطعام إلى معسكر الصليبيين من دمياط ، واستولى المصريون على أكثر من ثمانين سفينة فرنجية الواحدة تلو الأخرى ، وفي ١٦ مارس ضاعت قافلة من اثنتين وثلاثين سفينة في ضربة واحدة . وسرعان ما شعر الفرنج بتهديد المجاعة ، وفي أعقاب المجاعة أمراض الدوسنتاريا والتيفود^(٢٦).

(٢٥) Joinville, pp. 93-5; MS. of Rothelin, pp. 608-9.

(٢٦) Abu Shama, ii, p. 195; al-Aini, p. 209; Maqrisi, xiii, pp. 220-4; Matthew Paris, vi, pp. 193-4; Joinville, pp. 102-4; MS. of Rothelin, pp. 609-12.

وفي بداية ابريل فهم الملك لويس أنّ عليه أن يبذل فصارى جهده لانتشال الجيش من عفن المعسكر والإنسحاب إلى دمياط . وأخيرا ، أخضع نفسه للتفاوض مع الكفرة ، وأرسل إلى تورانشاه يعرض استبدال دمياط بالقدس^(٢٧) لكن السيف كان قد سبق العذل . إذ عرف المصريون الآن مدى خطورة الرضع الذي يعانيه ؛ وعندما رفض المصريون العرض جمع الملك لويس ضباطه لمناقشة الإنسحاب ؛ فتسلوا إليه أن يتسلل هو نفسه مع حرسه الشخصى إلى دمياط ، لكنه رفض في كبرياء أن يترك رجاله . وتقرر إرسال المرضى بالقوارب فى النيل ، وأن يمشى القادرون بطول الطريق الذي جاءوا من خلاله . وهدم المعسكر صباح ٥ ابريل ١٢٥٠م وبدأت رحلة العذاب والملك في المؤخرة يشجع المتفرقين . وشاهد المسلمون في المنصورة هذه الحركة فانطلقوا يتعقبونهم . ووجدوا الفرنج جميعا قد عبروا البحر الصغير ، لكن المهندسين فاتهم تدمير جسر القوارب ، فهرعوا يعبرونه وسرعان ما راحر يناوشون الفرنج من جميع الجوانب ؛ وطوال ذلك اليوم صد الصليبيون الهجمات أثناء تحركهم البطئ . وكانت شجاعة الملك نفسه تفوق كل ثناء . لكنه سقط مريضا تلك الليلة ، وفى الصباح التالى استطاع بجهد جهيد أن يثبت على جواده . وأثناء الحركة المتثاقلة في ذلك اليوم أغلق المسلمون الدائرة حول الجيش وهاجموا بكامل قواتهم ؛ ولم يحاول الجنود المرضى والمرهقون مقاومتهم إلا فيما ندر . لقد كان واضحا أن النهاية قد حلت . وكان جيوفرى (أوف ساجين) يقود الحرس الشخصى الملكى ، وفى خضم القتال أخذ الملك إلى كوخ في قرية منية الخولى عبدا لله الواقعة إلى الشمال مباشرة من شرمساح . وكان قبول الهزيمة فوق احتمال فرسان الفرنج ؛ فتولى بارونات أوترمييه القيادة وأرسلوا فيليب (أوف مونتفورت) للتفاوض مع الأعداء . وكاد فيليب أن ينجح في اقناع القادة المصريين بالسماح للجيش بالمضى في أمان مقابل تسليم دمياط ، لولا أن انطلق على جواده واحد من مساعدى الفرسان يدعى مارسيل بين صفوف المسيحيين - وقد رشاه المصريون على ما يُظن - صائحا في القادة باسم الملك أن يستسلموا دون شرط . وأطاعوا الأوامر التي لم يكن لويس نفسه يعرف عنها شيئا ، وألقوا أسلحتهم ، وأحيط بالجيش كله واقتيد في الأسر . وفي ذات الوقت تقريبا حوصرت السفن التي تحمل المرضى إلى دمياط وتم الإستيلاء

(٢٧) Matthew Paris يتحدث ماثيو باريس عن عروض مبكرة للسلام عرضها السلطان ورفضها الملك بناء على نصيحة روبرت (أوف أرتوا) v, pp. 87-8, 105 أو بناء على نصيحة المندوب البابوي v, pp. 143 ويرد عرض الملك لويس في Joinville, pp. 106-7 ووصلت الى أوروبا شائعة بأن لويس قد استولى على القاهرة. (ibid. p. 118, vi, p.117)

عليها^(٢٨).

١٢٥٠ م : لويس في السجن

وتحير المصريون بادئ الأمر في أمر أعداد أسراهم الغفيرة . ونظرا لإستحالة حراستهم جميعا، اعدموا على الفور من لم يقو على المشي من الضعف ، وظل المصريون على مدى أسبوع يأخذون كل مساء ثلاثمائة لتضرب أعناقهم بأوامر السلطان نفسه . ونقل الملك لويس من فراش مرضه وأودع مكبلا بالسلاسل في منزل خاص في المنصورة . واحتفظ المصريون بزعماء البارونات معا في سجن كبير . ودأب آسروهم على تهديدهم بالقتل ، لكنهم في الواقع لم تتوفر لديهم النية لقتل أى فرد قد يفتدى نفسه بفدية كبيرة . وكان جوائيل على ظهر إحدى السفن الأسيرة ، وأنقذ حياته وحياة رفاقه بأن جعل من المفهوم أنه ابن عم الملك ؛ وعندما استجوبه أمير البحر المصرى عن ذلك ، وعلم منه أن ذلك غير صحيح وإنما هو في الواقع ابن عم الامبراطور فريدريك ، ارتفعت شهرته ارتفاعا كبيرا.

وواقع الأمر أن مهابة الامبراطور فريدريك، ذلك الكافر، فعلت الكثير للتيسير على الصليبيين . ذلك أنه عندما أمر السلطان لويس في سجنه التخلي لا عن دمياط فحسب وإنما عن كافة الأراضي الفرنجية في سوريا ، رد لويس بأنها ليست تابعة له وإنما للملك كونراد ابن الامبراطور ، وأن الامبراطور وحده هو الذي يستطيع التخلي عنها . ولذا سحب المصريون الإقتراح على الفور . على أن الشروط التي انتزعوها من الملك كانت قاسية للغاية ؛ إذ كان عليه أن يفتدى نفسه بالتخلي عن دمياط وأن تكون فدية جيشه دفع خمسمائة ألف جنيه تورى^(٢٩) ، أي مليون بيزنت . لقد كان مبلغا باهظا ، لكن أعداد الأسرى كانت هي الأخرى غفيرة . وما أن تم الاتفاق على الشروط حتى أخذ الملك والبارونات البارزين على ظهر قوادس أبحرت بهم في النهر إلى فارسكور حيث كان السلطان قد اتخذ مكان اقامته . وكانت الترتيبات تقضى بأن يواصلوا رحلتهم إلى

(٢٨) Joinville, pp. 107-10; *MS. of Rothelin*, pp. 612-16; William of Nangis, p. 376; William of Saint-Pathus, pp. 74-5; Matthew Paris, v, pp. 157-9, 165-8, vi, pp. 193-7; al-Aīni, pp. 209-13; Maqrisi, xiii, p. 227; Abu'l Feda, p. 128.

(٢٩) (المترجم) Pound Tournai : جنيه تورى : عملة نقدية فرنسية قديمة سُكَّت في مدينة تور

دمياط لتسليمها بعد يومين ، يوم ٣٠ ابريل^(٣٠).

لم تكن تلك المساومة لتتم قط لولا تجلّد الملكة مرجريت . ذلك أنه عندما تركها الملك للزحف على المنصورة كانت على وشك أن تضع مولودها ؛ وولد المولود على يد فارس تخطى الثمانين من عمره كقابلة ، وذلك بعد ثلاثة أيام من مجئ أنباء استسلام الجيش . فسَمّت ابنها الصغير جون تريستان ، أي طفل الأسي . وفي نفس ذلك اليوم علمت أن أبناء بيزا وجنوا يعدون العدة للجلاء عن دمياط لعدم كفاية ما تبقى من طعام لأفواه السكان ، وهي تدرك أنها لا تستطيع الصمود في دمياط دون مساعدة الإيطاليين ، فاستدعت زعماءهم إلى جانب فراشها لمحاجاتهم ؛ فلو هُجرت دمياط ، فلن يبق شيء يمكن تقديمه لإطلاق سراح الملك ، وعندما اقترحت عليهم أن تشتري هي نفسها كل الطعام في المدينة والإشراف على توزيعه وافقوا على البقاء . وكلفتها الشراء ما يزيد على ثلاثمائة وستين ألف جنيه ، لكنها أنقذت معنويات المدينة . وما أن أصبحت في حالة تسمح لها بالسفر حتى أصر تابعوها على نقلها بحرا إلى عكا ، بينما ذهب البطريق روبرت بمرور آمن إلى السلطان في فارسكور لإستكمال الترتيبات المتعلقة بالفدية^(٣١).

١٢٥٠م : مقتل تورانشاه

وتأخرت المفاوضات النهائية شيئا ما ، إذ وصل البطريق فوجد السلطان ميتا . ذلك أنه في يوم الإثنين ٢ مايو كان السلطان وأسراه لا يزالون في فارسكور . وفي ذلك اليوم أقام السلطان مأدبة لأمرائه ، على أنه خسر تأييد المماليك . إذ أن أهمية وقوة هذا الجيش الضخم من الأتراك والجراكسة قد تعاضمت أثناء حكم أيوب الذي كان يشملهم برعايته فكافؤه بإخلاصهم له ، ونتيجة لتأييدهم للسلطنة شجرة الدر بقي التاج على رأس تورانشاه . لكنه الآن سلطان انتصر على الفرنج ، فشعر هو نفسه أنه من القوة بحيث يملأ الحكومة بذوى الحضرة لديه من الجزيرة ؛ وعندما اعترض المماليك،

(٣٠) Joinville, pp. 110-22; *MS. of Rothelin*, pp. 616-18; Matthew Paris, v, pp. 1604, vi, pp. 196-7 (يقول كاتب هذه الرسالة، وهو من فرسان المستشفى)، "إن أملنا الوحيد يكمن في فريدريك (al-Aini, pp. 213-14)؛"

(٣١) Joinville, pp. 142-4.

رد عليهم بتهديدات لفظها وهو في حالة من السكر . وفي ذات الوقت أساء إلى روجه أيه بأن طالبها بممتلكات كانت لأبيه . فكبت من فورها إلى قادة المماليك لحمايتها .

وعندما نهض تورانشاه لمغادرة المأدبة يوم ٢ مايو ، انقض عليه جنود من المماليك البحرية وعلى رأسهم بيبرس البندقداري ونزلوا عليه ضربا بسيوفهم ؛ فهرب جريحا إلى برج خشبي على ضفة النهر ، وعندما تبعه الجنود وأشعلوا النيران في البرج الخشبي ، قفز في النيل ووقف في الماء متوسلا الرحمة عارضا التخلي عن السلطنة والعودة إلى الجزيرة ؛ ولم يلتفت أحد إلى توسلاته ، وإنما أطلقوا عليه سربا من السهام فشلت في قتله ، فقفز بيبرس إليه في الماء وقضى عليه بخنجره . وظل جثمانه الممزق الأوصال ثلاثة أيام دون أن يُدفن ، وأخيرا حصل سفير الخليفة البغدادى على إذن من المماليك بدفنه في قبر بسيط . وعيّن المتآمرون المنتصرون زعيم قادة المماليك عز الدين أيك قائدا عاما ووصيا ، وتزوج الأرملة المسنة السلطنة شجرة الدر التي تمثل الشرعية . وفيما بعد نودي بالطفل الأشرف موسى ، وهو من أبناء عمومة السلطان الراحل ، سلطانا مشاركا لا لشيء سوى أن يُخلع بعد أربع سنوات ، ولم يُعرف مصيره النهائي^(٣٢) .

عندما وصل البطريق العجوز من دمياط بمرور آمن موقع من تورانشاه ، زعمت الحكومة الجديدة أن التوقيع لا قيمة له وعاملته كأسير . وذهب بعض المماليك إلى الملك لويس وسيوفهم ما تزال ملطخة بالدماء طالبين منه الأموال مكافأة لهم على قتل عدوه ؛ وتفكّه آخرون تفكّها مقبلا بأن راحوا يشهرون سيوفهم في وجوه النبلاء الأسرى ، وأصيب المورخ جوفانفيل بالروع الشديد . على أنه لم يكن في نية المماليك التخلي عن الفدية الكبيرة ، فأكدوا الشروط السابقة التي تقضى بالإفراج عن الملك بعد استسلام دمياط ، غير أنه ينبغي للجنود العاديين من الأسرى ، وبعضهم نُقل إلى القاهرة ، الانتظار في الأسر إلى أن يتم دفع المال الذي خفض مبلغه إلى أربعمئة ألف جنية تورى ، يدفع نصفه في دمياط والنصف الآخر لدى وصول الملك إلى عكا . وعندما طلبوا من الملك أن يقسم على أنه لم ينفذ الشروط فسوف يرتد عن ديانة المسيح رفض رفضا جازما ، وطوال فترة بقائه في الأسر كان لما أظهره من اعتزاز بالنفس وثبات أمره العميق على أسريه ، حتى أن بعضهم اقترح متمازحا أن يكون هو سلطانهم التالي^(٣٣) .

(٣٢) Maqrissi, xiii, pp. 230-2; Abu'l Feda, p. 129; Abu Shama, pp. 198-209; Ibn Khallikan, iii, p. 248. وعن الأشرف موسى ، أنظر أدناه ص ٣٦٣ .

(٣٣) Joinville, pp. 123-32; William of Nangis, p. 381; William of Saint-Pathus, pp. 23, 58, 75-6; MS. of Rothelin, pp. 618-19; al-Aini, p. 213.

وفي يوم الجمعة ٦ يونيو ١٢٥٠م ذهب جيوفري (أوف سارجين) إلى دمياط وسلم القلعة لطلائع المسلمين ، وأحضر الملك بعد ظهر ذلك اليوم ، وشرع الملك في البحث عن الأموال لدفع القسط الأول من الفدية . غير أن ما كان لديه من أموال في خزائنه الخاصة لم يجاوز مائة وسبعين ألف جنيه ، فتقرر أن يستبقى المصريون معهم أخا الملك ، ألفونسو كونت بواتو ، إلى أن يتم العثور على الباقي . وكان معروفا أن لدى فرسان المعبد مقادير هائلة من الأموال في قادسهم ، وكان التهديد بالعنف هو الوسيلة الوحيدة التي انتزعت موافقتهم على دفع المطلوب على مضض . وبعد تسليم المبلغ كله إلى المصريين أطلق سراح كونت بواتو . وفي المساء أبحر الملك والبارونات إلى عكا التي وصلوها بعد رحلة عاصفة استمرت ستة أيام . ولم تكن على سفينة الملك ملابس مهيأة ولا فراش ، واضطر إلى وضع رداءه والنوم على الحشية التي كان ينام عليها في السجن^(٣٤) .

وتخلف الكثير من الجرحى في دمياط ، قتلهم المسلمون عن آخرهم على خلاف ما وعدوا به^(٣٥) .

١٢٥٠م : لويس يبقى في الشرق

بعد وصول لويس إلى عكا مباشرة استشار أتباعه حول خطته للمستقبل . قد كاتبته أمه من فرنسا تحثه على الإسراع في العودة ؛ إذ قيل إن هنري ملك إنجلترا سائر على درب الحرب ، فضلا عن الكثير من المشاكل الأخرى العاجلة . غير أنه كان لديه شعور بأن وجوده مطلوب في مملكة ما وراء البحار ، ذلك أن كارثة الحملة المصرية لم تدمر جيشا فرنسيا فحسب ، وإنما سلبت أوتريميه جنودها جميعا أو كادت فضلا عن أن واجبه يفرض عليه البقاء حتى إطلاق سراح آخر السجناء في مصر . ونصحه إخوته وكونت فلاندرز بالعودة إلى فرنسا ، غير أنه كان قد عقد العزم على البقاء . وفي ٣ يولية أعلن عن قراره ؛ وبإمكان إخوته ومن يرغب في الرحيل العودة إلى الوطن ، لكنه ما كثر وسوف يلحق بخدمته الشخصية كل من يتوفر لديه الاستعداد للبقاء معه ، مثل جوانفيل . وأرسل رسالة إلى بارونات فرنسا يشرح فيها قراره ويرجوهم إرسال

(٣٤) Joinville, pp. 135-8; MS. of Rothelin, pp. 619-20.

(٣٥) MS. of Rothelin, p. 620.

التعزيزات للحملة الصليبية ؛ إذ قد شعر شعورا مريرا بفشل جهوده الضخمة . وراقه أن يعلن أن الكارثة بمثابة علامة على فضل الرب أرسلها كي يعلمه التواضع ، وكان عليه أن يفكر في أنه قد دفع ثمننا لفضل هذا الدرس آلافا مؤلفة من الأرواح البريئة^(٣٦) .

وأبجر إخوة الملك مع أبرز نبلاء الحملة الصليبية من عكا في نحو منتصف يولية تاركين وراءهم كل ما يستطيعون الإستغناء عنه من أموال ، لكنهم تركوا نحو من ألف وأربعمائة رجل لا غير^(٣٧) . وبقيت الملكة مع الملك ، الذي قبل على الفور حاكما فعليا للمملكة . وكان تاج المملكة من الناحية الشرعية ما يزال يخص كونراد الألماني ؛ لكن الواضح بجلاء أن كونراد لن يأتي البتة إلى الشرق الآن . وموت أليس القبرصية انتقلت الوصاية إلى ابنها الملك هنري الذي عين ابن عمه ، جون كونت أرسوف ، وكيلا للمملكة ؛ وقد أسعده تسليم الحكومة إلى لويس^(٣٨) .

أسفر رحيل أتباع لويس الفرنسيين عن مزيد من استدادته للإصغاء للنصح . فقد وسّعت التجربة من مداركه ، وعلمه افتقاره إلى القوات المسلحة الحاجة إلى وجود علاقات دبلوماسية مع الكفرة ، ووجده بعض أصدقائه أنه ينزع إلى اتباع سياسة حمقاء ، لكنه لم يكن ليفعل ذلك والدبلوماسية مواتية في هذه اللحظة . ولم تلق ثورة المماليك في مصر قبولا حسنا من مسلمي سوريا حيث تواصل الولاء للأيوبيين ؛ فعندما وصلت أنباء موت تورانشاه ، انطلق الناصر يوسف صاحب حلب من حمص جنوبا ، وفي ٩ يولية احتل دمشق حيث استقبل استقبالاً حماسيا على أنه ابن حفيد صلاح الدين . ومرة أخرى تعود الخصومة المريعة بين القاهرة ودمشق ، وتلهفت كلتاها على شراء المساعدة من الفرنج ؛ فلم يكد لويس يصل إلى عكا حتى جاءت سفارة من الناصر يوسف . بيد أن لويس لم يكن ليلزم نفسه على الرغم من أن التحالف مع دمشق قد يكون مستصوبا من الناحية الاستراتيجية ، فعليه أن يفكر في الأسرى الفرنج المحتجزين في مصر^(٣٩) .

وفي شتاء عام ١٢٥٠م بدأ جيش دمشق يغزو مصر ، وفي ٢ فبراير ١٢٥١م لقي

(٣٦) Joinville, pp. 145-57; William of Nangis, p. 383; William of Saint-Pathus, pp. 91-2; Matthew Paris, v, pp. 173-4.

(٣٧) Joinville, p. 157.

(٣٨) لم يتحدد وضع لويس القانوني مطلقا ، غير أنه كان مقبولا بوضوح كسلطة عليا في غيبة كونراد

(٣٩) Abu Shama, ii, p. 200; Abu'l Feda, p. 131; Ibn Khallikan, ii, p. 446; Joinville, p. 158.

الجيش المصري بقيادة أيك عند العباسية في الدلتا، التي تبعد عن الزقازيق الحالية اثني عشر ميلا إلى الشرق . وفي بداية الأمر حقق السوريون بعض النجاح رغم أن كتيبة أيك نفسه كانت صامدة ؛ لكن كتيبة من المماليك في جيش الناصر يوسف تخلت عن قضيته في أتون المعركة ، وعلى الأثر استدار الناصر يوسف ، الذي لم يُظهر شجاعة تذكر ، موليا الأدبار . وهكذا أنقذت سلطة المماليك في مصر . غير أن فلسطين وسوريا ما زالتا في قبضة الأيوبيين . وعندما أرسل الناصر يوسف بعد ذلك إلى عكا يلّمح بأنه قد يتنازل عن القدس لقاء مساعدة الفرنج ، أرسل لويس سفارة إلى القاهرة يحذر أيك من أنه ما لم تتم تسوية مسألة الأسرى الفرنج على وجه السرعة فسوف يتحالف مع دمشق . وأفلح سفيره جون (أوف فالينسين) خلال زيارتين في ضمان الإفراج عن الفرسان أولا، بمن فيهم السيد الأعظم لفرسان المستشفى الذي أسر في غزة عام ١٢٤٤م ، ثم الإفراج ثانيا عن حوالي ثلاثة آلاف ممن أسروا حديثا ، في مقابل الإفراج عن ثلاثمائة أسير مسلم لدى الفرنج . وأظهر أيك تلهفا متزايدا على مصادقة الملك بأن أرسل اليه مع الدفعة الثانية فيلا وحمارا وحشيا كهدية ، فتجرا لويس وطلب الإفراج عن جميع الأسرى المتبقين في أيدي المماليك دون أية مدفوعات أخرى . وعندما تحقق أيك من أن لويس أرسل إلى بلاط دمشق مبعوثه ييف البريتوني الذي يتحدث العربية ، وافق على طلب الملك في مقابل تحالف عسكري ضد الناصر يوسف . وتجاوز ذلك إلى الوعد بأنه ما أن يحتل المماليك فلسطين ودمشق فسوف يعيدون إلى المسيحيين كامل مملكة القدس القديمة حتى الأردن شرقا . ووافق لويس ؛ وأطلق سراح جميع الأسرى في نهاية شهر مارس ١٢٥٢م . وكاد فرسان المعبد أن ينسفوا المعاهدة برفضهم قطع علاقاتهم مع دمشق ؛ فاضطر الملك إلى زجرهم علنا وطلب اعتذارا متضعا^(٤٠).

١٢٥٣م : الخليفة يحقق السلام بين أمراء المسلمين

ولم يسفر التحالف الفرنجي المملوكي عن شيء. ذلك أنه ما أن سمع به الناصر يوسف حتى أرسل الجنود إلى غزة لقطع الإتصال بين الحلفاء ؛ فسار لويس جنوبا إلى يافا ، لكن المماليك لم يتقدموا خارج مصر . وظل السوريون والفرنج بلا حركة نحو من عام ، وكل منهما عازف عن إشعال معركة . وفي ذات الوقت أصلح لويس

Abu Shama, *loc. cit.*; Abu'l Feda, *loc. cit.*; Joinville, pp. 158-60; *MS. of Rothelin*, (٤٠) pp. 624-7; Matthew Paris, v, p. 342.

تخصينات يافا بعد أن سبق أن أصلح تخصينات عكا وحيفا وقيسارية^(٤١). وفي وقت مبكر من عام ١٢٥٣م ناشد الناصر يوسف بغداد للتوسط بينه وبين المماليك . وكان الخليفة المستعصم متلهفا على توحيد العالم الإسلامي أمام المغول ؛ فحث أيك الذي كان يعترف بسطانه الإسمي على قبول شروط الناصر يوسف . وتقرر قبول أيك حاكما لمصر والسماح له بضم فلسطين حتى الجليل شمالا والأردن شرقا . وتم التوقيع على معاهدة السلام في إبريل ١٢٥٣م وأمسّت ترتيبات أيك مع الفرنج في طي النسيان^(٤٢).

واتخذ الجيش الدمشقي طريقه من غزة عائدا إلى وطنه مخترقا الأراضي الفرنجية ومغيرا عليها . وكانت المدن من القوة بحيث تتعذر مهاجمتها فيما عدا صيدا حيث كان يجري إعادة تشييد أسوارها . ورغم أن الدمشقيين لم يحاولوا مهاجمة قلعتها الواقعة على جزيرتها الصغيرة ، إلا أنهم خربوا المدينة وانسحبوا محملين بالأسلاب والأسرى . ونأر الملك لويس بتسيير حملة للإغارة على بانياس لم يصادفها النجاح . ولحسن طالع مملكة ما وراء البحار لم يُظهر أيك ولا الناصر يوسف أية رغبة جديدة في الحرب^(٤٣).

ويُعزى إحجامهما بدرجة كبيرة إلى وجود ملك فرنسا في الشرق . فعلى الرغم من سجله العسكري المفعج فقد كان لشخصيته أثر واضح . وليس في ذلك ما يؤسف عليه ؛ إذ أن الامبراطور فريدريك ، الذي كان لا يزال لإسمه وزن في الدوائر الإسلامية، مات في ديسمبر ١٢٥٠م في إيطاليا . ولم يرث إبنه كونراد شيئا من هيئته^(٤٤).

وفضلا عن ذلك، كان لويس أكثر نجاحا بكثير في التعامل مع قاطني أوترمييه من فريدريك ، إذ كان ماهرا غير مغرض . واتضحت قيمته بتدخله في إمارة أنطاكية ، إذ مات بوهمند الخامس في يناير ١٢٥٢م تاركا ابنته بليزانس التي تزوجت قبل وفاته بأشهر قليلة من هنري ملك قبرص الأبر، وكانت زوجة ثالثة له؛ كما ترك ابنه بوهمند البالغ من العمر خمس عشرة سنة الذي استخلف تحت وصاية الأميرة المسينة لوسيين الإيطالية . وكانت لوسيين امرأة بلا فعالية ، لم تغادر طرابلس أبدا وعهدت بحكم

(٤١) Joinville, pp. 167-8, 184-5; *MS. of Rothelin*, pp. 627-8; Matthew Paris, vi, p. 206; al Aini, p. 215.

(٤٢) Maqrissi, *Sultans*, i, i, pp. 39,54; Abu'l Feda, p. 132.

(٤٣) Joinville, pp. 197-8; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 440-1.

(٤٤) مات فريدريك يوم ١٣ ديسمبر في فيورنتينو. See Hefele-Leclercq, v, i, p. 1693.

الإمارة إلى أقاربها الرومان . وسرعان ما أدرك بوهمند السادس أن أمه لا تتمتع بشعبية ، وتمكن بموافقة لويس من الحصول على إذن من البابا بأنه قد بلغ سن الرشد قبل الموعد القانوني بأشهر قليلة . وبعدما وافق البابا إينوسنت الرابع جاء بوهمند إلى عكا حيث منحه الملك لقب فارس وأبعدت لوسين عن السلطة ومُنحت دخلا طيبا عوضا لها . وفي ذات الوقت أكمل لويس المصالحة بين بلاط أنطاكية وبلاط أرمينيا . وكان بوهمند الخامس قد أقام في سنواته الأخيرة علاقات مع الملك هيثوم ؛ على أنه اعتبر الماضي مليئا بالذكريات المريرة، لكن بوهمند السادس لم يكن يحمل مثل هذه الضغينة ؛ وفي ١٢٥٤م ، وبناء على اقتراح لويس ، تزوج ابنة هيثوم ، سيلا ، وأصبح بدرجة ما تابعا لحميه . ووافق الأرمن على أن يتحملوا نصيبا من مسؤولية حماية أنطاكية^(٤٥).

ومات هنرى ملك قبرص يوم ١٨ يناير ١٢٤٣م . ولأن ابنه هيو الثاني كان رضيعا لم يجاوز أشهره الأولى ، فقد طالبت الملكة بليزانس بالوصاية على قبرص والوصاية الإسمية على القدس . وأيدت المحاكم العليا في قبرص في وضعها هناك ، لكن بارونات اوتريميه اشترطوا وجودها شخصيا قبل الاعتراف بها ؛ بينما ظل جون الإيبيليني، وهو سيد أرصوف ، وكيلا عن المملكة ؛ وراحت بليزانس تفكر الزواج من ابنه الشاب باليان . وقد واصل الملك لويس في الواقع تسير شؤون الحكم^(٤٦).

١٢٥٢م : التحالف الفرنجي مع الحشاشين

لم يكن هناك من أمل في أن ترسل أوروبا حملة صليبية جديدة . ذلك أن هنرى الثالث ملك إنجلترا، الذي سبق أن أخذ الصليب مع كثير من رعاياه في ربيع ١٢٥٠م ، أقنع البابا بالسماح له بتأجيل حملته ورفض إخوة لويس إرسال المساعدة من فرنسا ، إذ كان الرأي العام هناك ساخطا خائب الأمل . فعندما وصلت الأنباء في أول الأمر

(٤٥) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 439, 441-2; *MS. of Rothelin*, p. 624; Joinville, pp. 186-7; Vincent of Beauvais, p.96.

(٤٦) *-Estoire d'Eracles, loc.cit.; Assises*, ii, p.420. See La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.74 5; Hill, *History of Cyprus*, ii, p.149

ومن غير المحتمل أن كانت بليزانس أكثر من خطيبة لباليان ، إذ عرضت نفسها بعد سنوات قليلة لتكون عروسا لإيدموند (أوف لانكاستر). (Rymer, *Foedera*, i, p. 341) ولم يُعترف بها رسميا وصية على القدس إلى أن زارت عكا في عام ١٢٥٨

بكارثة المنصورة ، ظهرت حركة جماهيرية هستيرية من الفلاحين والعمال أطلقت على نفسها اسم رعاة الكنيسة الصغار ، وتزعمها شخص غامض أطلق عليه "سيد هنجاريا" ، واكتسحت هذه الحركة البلاد تعقد الاجتماعات منكرة البابا ورجال دينه وأخذت على نفسها العهد لإنقاذ الملك المسيحي . ومنحتهم الملكة الوصية بلانش تأييدها أول الأمر ؛ لكن الفوضى تملكهم بحيث كان لا بد من قمعهم . وقع النبلاء الفرنسيون بتعليقاتهم المريرة ضد البابا الذي فضّل التبشير بحملة صليبية ضد الامبراطورين المسيحيين بدلا من إرسال المساعدة لمن يكافحون الكفرة . وبلغت الملكة الوصية بلانش شأوا بعيدا بحيث أعلنت عن مصادرة أملاك أي تابع ملكي يستجيب لمناشدة البابا إينوسنت الرابع من أجل حملة صليبية ضد الملك كونراد في عام ١٢٥١ م . لكنها لم تجازف لا هي ولا مستشاروها بإرسال التعزيزات إلى الشرق^(٤٧) .

وفي سعى الملك لويس في البحث عن حلفاء ، أقام أكثر العلاقات ودا مع الحشاشين . إذ بعد كارثة دمياط مباشرة أرسل زعيمهم السوري إلى عكا يطالب بدفع مكافأة له لإتخاذه موقف الحياد ، لكن الملك ردعه قائلا بصرامة أنه دفع لمبعوثيه في حضور سادة الأنظمة الدينية العسكرية . وقد طلب الحشاشون بصورة خاصة إعفائهم من الإلتزام بدفع إتاوة لنظام فرسان المستشفى ، ولذا كانت سفارتهم التالية أكثر تراضعا بكثير ، إذ أحضرت معها هدايا نفيسة للملك والتماس تحالف أوثق . وكان لويس على علم بالعداء الذي يكنه الحشاشون للإسماعيليين للمسلمين السنيين ، فشجّع لويس توددهم وأرسل اليهم ييف البريتون لترتيب المعاهدة . وافتتن ييف بمكتبه الطائفة التي كانت تحتفظ بها في مسياد ، إذ وجد موعظة مشكوك في صحتها موجهة من المسيح إلى القديس بطرس الذي يعتبر ، كما أخبرته الطائفة ، تجسيدا جديدا لهابيل ونوح وإبراهيم . وتم التوقيع على حلف للدفاع المشترك^(٤٨) .

ومع ذلك ، كان المطمح الدبلوماسي الرئيس للملك لويس هو الفوز بصدقة أكثر أعداء الحشاشين شراسة — المغول . ففي بداية عام ١٢٥٣ م ، وصل إلى عكا تقرير بأن أحد أمراء المغول ، وهو سرتق بن باتو، قد تحول إلى المسيحية ، فسارع لويس بإرسال اثنين من الرهبان الدومينيكيين ، وليم (أوف روبروك) وبارثولوميو (أوف كريمونا)

(٤٧) Matthew Paris, *Chronica Majora*, v, pp. 172-3, 259-61; Throop, *Criticism of the Crusades*, pp. 57-9.

(٤٨) Joinville, pp. 160-5.

ليحثا الأمير على الحضور لمساعدة رفاقه المسيحيين في سوريا . بيد أنه لم يكن من سلطة أمير مغولي صغير أن يعقد مثل هذا التحالف الهام^(٤٩) وفي الوقت الذي كان الراهبان الدومينيكيان ويرتحلان في عمق آسيا قاصدين بلاط الخان الأعظم نفسه ، اضطر لويس إلى مغادرة أوترمييه . إذ ماتت أمه الملكة الوصية بلانش في نوفمبر ١٢٥٢ م ؛ وسرعان ما عمت الفوضى بعد موتها مباشرة . وبدأ ملك إنجلترا في إثارة المصاعب على الرغم من قسمه بالذهاب في الحملة الصليبية ، ولم يساند أساقفته الذين عهد البابا إليهم بالتبشير بالحملة الصليبية . واندلعت الحرب الأهلية بسبب ميراث كونتية فلاندرز ، وازدادت تمليل عظماء الأتباع الفرنسيين كلهم . وكان أول واجبات لويس مكرسا لمملكته ، فرتب وهو كاره للعودة إلى الوطن ، فأبحر من عكا يوم ٢٤ أبريل ١٢٥٤ م . وكاد قاربه الملكي أن يتحطم أمام ساحل قبرص ؛ لكن العاصفة هدأت عندما نذرت الملكة سفينة فضية لضريح القديس نيكولاس في فارانجيل . وبعد أيام قلائل أنقذ القارب الملكي من دمار النيران بفضل سرعة الملكة . وفي يولية هبطت الصحبة الملكية في هيريس في أراضي أخى الملك ، شارلز (أوف انجو)^(٥٠) .

تسببت حملة القديس لويس الصليبية في توريط مسيحي الشرق في كارثة عسكرية مروعة ، وعلى الرغم من أن بقاءه في الشرق لأربع سنوات قد أفاد كثيرا في إصلاح الأضرار ، إلا أن خسارة القوة البشرية لم تستعوض تماما قط . كانت شخصيته أنبل الشخصيات من بين عظام الصليبيين قاطبة ؛ غير أنه كان من الأفضل لمملكة ما وراء البحار ألا يغادر لويس فرنسا مطلقا إذ كان لفشله عميق الأثر . ذلك أنه كان رجلا طيبا يخشى الرب ، ومع ذلك ساقه الرب إلى كارثة . وفي سابق العهد كان من الممكن تفسير ما يُبتلى به الصليبيون من بلايا على أنه عقاب إلهي على ما ارتكبه من جرائم وشرور ، بيد أنه لم يعد في الإمكان الآن الدفاع عن هذه النظرية الهشة . فهل يا ترى قد عبس الرب من الحركة الصليبية برمتها^(٥١) ؟

(٤٩) Pelliot, 'Les Mongols et la Papauté', loc. cit. p. 220. Rubruck's *Itinerarium* is translated and edited by Rockhill.

وقد خالطته الشكوك في تحول سرتق الى المسيحية عندما قابله . (ibid. pp. 107, 116) لكن الأرمن كانوا يعتقدون أن تحوله أصيلا . (Kirakos, trans. Brosset, p. 173)

(٥٠) Joinville, pp. 218-34; William of Saint-Pathus, pp. 29-30; *MS. of Rothelin*, pp. 629-30; Matthew Paris, v, pp. 434-452-4. For Blanche's death, on 1 December 1252, see Matthew Paris, v, p. 354.

(٥١) Salimbene, *Chronica*, pp. 235-7, الذي يقول بأنه قد أعرب عن مثل هذه الشكوك ، وقد

١٢٥٤م : الآثار التي تروبت على رحيل لويس

على الرغم من أن مجئ الملك الفرنسي إلى الشرق كان مشووما ، فقد أسفر رحيله عن ضررماتل. إذ ترك وراءه جيوفري (أوف سارجين) كممثل له ومنحه المنصب الرسمي قهرمان المملكة. والآن كان جون الإيليني كونت يافا وكيلا للمملكة بعد أن خلف ابن عمه جون أمير أرصوف في المنصب عام ١٢٥٤م ، لكنه أعاده إليه عام ١٢٥٦م . والراجح أن كان جون أمير أرصوف غائبا في قبرص أثناء تلك السنوات مستشارا للملكة بليزانس التي استمرت كوصية شرعية للمملكتين معا^(٥٢) وبعد وفاة كونراد الألماني في إيطاليا عام ١٢٥٤م ، انتقل لقب ملك القدس إلى ابنه كونرادين الذي لم يجاوز السنتين ، وقد تذكر قانونيو اوتريميه بكثير من الشك حقوقه الإسمية^(٥٣). وكان الملك لويس قد رتب قبل رحيله مباشرة عقد هدنة مع دمشق تنتهي في ٢١ فبراير ١٢٥٤م ، لمدة سنتين وستة أشهر وأربعين يوما . والآن غدا الناصر يوسف صاحب دمشق مدركا تماما للخطر المغولي ولم تكن لديه أية رغبة في محاربة الفرنج . وبالمثل رغب أيك صاحب مصر في تجنب حرب كبيرة ، وعقد في ١٢٥٥م هدنة لعشر سنوات مع الفرنج ، لكنه استبعد يافا صراحة من الهدنة إذ كان يعقد الآمال على الحصول عليها كميناء لمقاطعته الفلسطينية^(٥٤). وكانت هناك غارات تعقبها غارات مضادة عبر الحدود . ففي يناير ١٢٥٦م استولى جيوفري (أوف سارجين) وجون أمير يافا على قافلة ضخمة من الماشية ، وعندما قاد المملوك والى القدس حملة في مارس لمعاقبة المغيرين منى بالهزيمة وقتل . أما أيك ، الذي كانت له مشاكله مع قواده ومنهم بيبرس ، فقد عقد معاهدة جديدة مع دمشق ، ثم معاهدة أخرى بوساطة من الخليفة البغدادى ومُنح فلسطين ثانية؛ غير أن القوتين الإسلاميتين جددتا معاهديهما مع الفرنج لعشر سنوات وشملتا أراضي يافا^(٥٥).

وجّهت الإهانات علانية إلى الإخوة المينديكانيين الذين كانوا يبشرون بالحملة الصليبية بعد فشلها.

La Monte, *loc. cit.* n. 1. (٥٢)

Matthew Paris, v, pp. 459-60. For Contadin's rights, see below pp. 284-5. (٥٣)

Matthew Paris, v, p. 522; *MS. of Rothelin*, p. 630; *Annales de Terre Sainte*, p. 446 (٥٤)

MS. of Rothelin, pp. 631-3; *Annales de Terre Sainte*, *loc. cit.*; Abu'l Feda, pp. 133-4. (٥٥)

١٢٥٦م : حرب القديس ساباس

إن ما أظهرته القاهرة ودمشق من أناة أملت عليها خشيتهما المتعاضمة من المغول، قد أنقذت الفرنج مما كانوا يستحقونه من نتائج حرب أهلية سرعان ما نشبت بعد رحيل الملك لويس مباشرة . ذلك أن شتى التجار الإيطاليين يمثلون الآن أنشط العناصر في مدن مملكة أوترمييه . وباتت تجارة البحر المتوسط تحت سيطرة الجمهوريات الثلاث الكبرى جنوا والبندقية وبيزا بما لها من مستعمرات في كل ميناء شرقي . وإلى جانب الشركات المصرفية التابعة لنظام فرسان المعبد ، كانت التجارة الإيطالية تزود أوترمييه بأغلب إيراداتها ، كما كانت تعود بالنفع بنفس القدر تقريبا على الأمراء المسلمين، الذين يُعزى استعدادهم بدرجة كبيرة للتوقيع على الهدنة من حين لآخر إلى خشيتهم من انقطاع مصدر الربح هذا . غير أن الجمهوريات الثلاث كانت في حالة من الخصومة المريرة . إذ تسببت الإضطرابات بين بيزا وجنوا في تأخير إبحار لويس من قبرص عام ١٢٤٩م ، وفي ١٢٥٠م قتل أحد البنادقة تاجرا من أبناء جنوا ونشب قتال في شوارع عكا^(٥٦) . وعندما رحل لويس إلى أوروبا اندلعت الإضطرابات مرة أخرى إذ كان تل مونتجوا في عكا يفصل بين حي البنادقة وحي أبناء جنوا ، وكان ذلك التل ينتمي إلى أبناء جنوا فيما عدا أعلى نتوء له الذي يتوجه دير القديس ساباس القديم . وادعت كل من المستعمرتين ملكيتها للدير . وفي صباح أحد الأيام أوائل عام ١٢٥٦م ، وبينما كان القانونيون لا يزالون مختلفين حول المسألة ، استولى أبناء جنوا على الدير ، ولما احتج البنادقة هرع إلى حيهم رجال مسلحون من أبناء جنوا هابطين التل ، وسارع إلى الانضمام إليهم أبناء بيزا الذين سبق أن رتبوا معهم الأمر ؛ وبوغت البنادقة الذين شاهدوا منازلهم تُستلب وكذلك سفنهم الراسية على رصيف الميناء . وبجهد جهيد طردوا الغزاة خارج حيهم مرة أخرى ، بعدما استولى الغزاة على الكثير من سفنهم^(٥٧) .

وفي تلك اللحظة كان فيليب (أوف مونتفورت)، سيد طورون وصور - الذي اعترض طويلا على حق البنادقة في امتلاك قرى معينة على مقربة من صور - يظن أن الفرصة سانحة لإخراجهم من ثلث صور الذي كانوا يملكونه بموجب معاهدة عقدت عند الاستيلاء على صور سنة ١١٢٤م، وإخراجهم كذلك من ممتلكاتهم في الضواحي.

(٥٦) *Annales Januenses*, p. 238. See above, p. 260.

(٥٧) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 443; *Annales Januenses*, p. 239; Dandolo, p. 365. See Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*, i, pp. 344-54, القديس ساباس

ولم يستطيعوا منعه لإنشغالهم فى نزاعهم مع أبناء جنوا. وعندما عرضت حكومة جنوا - التى كانت عازفة عن أن تبدأ حربا مع البندقية - التوسط، كان البنادقة على غضب يحول دون قبولهم العرض. وكان القنصل البندقى فى عكا، ماركو جوستينيانى، دبلوماسيا متمرسا. غير أن تصرف فيليب المتغطرس صدم أبناء عمومته الإيبيلين الذين كانوا يتمسكون جميعا بالالتزام بالقانون. وارتاب وكيل الملكة جون أمير أرصوف فى أن المونتفورتين ينتوون فى أن يعلنوا استقلال صور عن حكومة عكا. وبرغم أنه لم يكن على ود مع البنادقة، ليرود موقفهم من حملة لويس الصليبية فى المقام الأول، فقد نجح جوستينيانى فى اكتسابه إلى جانبهم.. وكان جون أمير يافا على علاقة سيئة فعلا بأبناء جنوا الذين حاول أحدهم اغتياله. وشعرت الجماعات الدينية فى عكا بالخطر من أن يُفلح فيليب فى تحويل صور إلى منافس تجارى ناجح لمدينتهم عكا، فأولوا تعاطفهم ومساعدتهم للقنصل جيستينيانى الذى كانت خطوته التالية إقناع أبناء بيزا بأن الجنوين ليسوا سوى حلفاء يتصرفون بالأنانية وليست الثقة فيهم بمأمونة، وبذا ضمن تأييدهم. كما انضم إليه التجار من مرسيليا الذين ما فتئوا يشعرون بالغيرة من الجنوين، وعندئذ انضم إلى الجانب الآخر التجار الكتاليون الغيورون من أبناء مرسيليا. وناصر نظام المعبد والنظام التيوتونى البنادقة، وانضم نظام المستشفى إلى الجنوين. وفى الشمال، تذكرت أسرة إمبرياكو، التى كانت تحكم جبيل، أصلها الجنوى؛ وكان زعيمها هنرى قد تشاجر مع سيده بوهمند السادس أمير أنطاكية وطرابلس، فتحدى نهى سيده المحدد وأرسل الجنود لمساعدة الجنوين فى عكا. وقد حاول بوهمند نفسه التزام الحياد، غير أن عواطفه كانت مع البنادقة، ودفعته عداؤه لإمبارياكو إلى الدخول فى الصراع. ولم تستطع أخته الملكة الرصية بليزانس أن تفعل شيئا، وكان الرجل الوحيد الذى تضع فيه ثقته فى اوتريميه هو جيوفرى (أوف سارجين)، لكن نفوذه كان ضئيلا لكونه غريبا ولا تتوفر له القوة الفعلية. وبدأت الحرب الأهلية تحتذب مجتمع اوتريميه كله. ولم تعد المسألة مجرد اتحاد البارونات الوطنيين ضد سيد غريب كما كانت الحال أيام فريدريك الثانى، وإنما ألهبت الخلافات العائلية التافهة أتون الصراع. وكانت أم فيليب أمير مونتفرات، وزوجة هنرى أمير جبيل تنتميان إلى آل إيبيلين؛ وكانت جدة بوهمند السادس من آل إمبرياكو. بيد أن عُرى القرابة لم تكن تعنى شيئا الآن^(٥٨).

وكانت حكومة البندقية سريعة فى اتخاذ اجراء. فما أن علم الجنوين بأن أبناء بيزا

قد تخلوا عنهم حتى اجتاحتهم حي بيزا في عكا فسيطروا على الميناء الداخلى . غير أنهم لم يتوفر لهم الوقت لمد سلسلة لسد المدخل قبل دخول أسطول كبير بقيادة الأدميرال البندقي لورنزو تيبولو ، الذى اقتحمت سفنه السلسلة وهبط الرجال على الرصيف . واندلعت في الشوارع معركة متعصّشة للدماء انتهت بطرد الجنويين مرة أخرى إلى حيّهم الذى يحميه وجود حي فرسان المستشفى شمالهم مباشرة . واحتل البنادقة دير القديس ساباس ، لكنهم لم يستطيعوا طرد الجنويين أو فرسان المستشفى من المباني الخاصة بهم^(٥٩) .

١٢٥٨م : الملكة بليزانس في عكا

وفي شهر فبراير ١٢٥٨م أقدمت الملكة الوصية بليزانس على محاولة تأكيد سلطتها؛ فأبحرت من قبرص مع ابنها الملك هنرى الذي لم يجاوز الخامسة من عمره ووصلت إلى أخيها بوهمند في طرابلس حيث صاحبها إلى عكا . وطلب بوهيموند من المحكمة العليا للمملكة أن تقر مطالب ملك قبرص الذي يعتبر الوريث التالى بعد كونرادين المتغيّب ، بالإعتراف به موضع للسلطة الملكية وبأمره حارسة ووصية . على أن ما كان يعلقه بوهمند من آمال فى وقف الحرب بتأكيد سلطة أخته ووجودها استحال سرايا . وما أن أقر الأيبيليون بمطالب هيو وبليزانس ، اللذين كانا يتطلعان دائما إلى حقوق الملك كونرادين ، وأذعن فرسان المعبد وفرسان التيوتون ، حثة أعلن فرسان المستشفى على الفور أن لا شئ يمكن تقريره في غيبة كونرادين، متذرعين بالحجج التي دُحضت عام ١٢٤٣م . وبذا تورطت العائلة الملكية في الحرب الأهلية ؛ فناصر الطرف البندقي بليزانس وابنها، وبسخرية التاريخ اتخذ جانب أبناء جنوا فرسان المستشفى وفيليب أمير مونتفورت ، وهذه الأطراف كلها التي سبق أن عارضت فريدريك الثاني معارضة مريّة، باتت الآن من أنصار آل هوهنشتوفن . واعترفت أغلب الأصوات بالملكة بليزانس وصية . وتنازل لها جون أمير أرسوف رسميا عن منصبه كوكيل للملكة وأعادت تعيينه ثم عادت مع أخيها إلى طرابلس ومنها إلى قبرص بعد أن أصدرت تعليمات لوكيل المملكة الذي عينته بمعاملة المتمردين معاملة لا هوادة فيها^(٦٠) .

(٥٩) Dandolo, loc. cit.; Annales Januenses, p. 240; Estoire d'Eracles, ii, p. 447.

(٦٠) Assises, ii, p. 401; Estoire d'Eracles, ii, p. 443; MS. of Rothelin, p. 643; Gestes des Chiprois, pp. 149, 152.

كان بطريق القدس هو جيمس بانتاليون ، ابن إسكافي من تروي . وكان قد عُيِّن في ديسمبر ١٢٥٥ م ، لكنه لم يصل عكا إلا في صيف ١٢٦٠ م عندما نشبت الحرب الأهلية . وأعلن مناصرته - بحق - للملكة بليزانس وناشد البابا في إيطاليا اتخاذ إجراء ؛ فاستدعى البابا ألكسندر الرابع وفردا من الجمهوريات الثلاث للحضور إلى بلاطه في فيربو وأمر بهدنة فورية . وتقرر أن يذهب سفيران مفوضان من البنادقة ومثلهما من أهل بيزا إلى سوريا على متن سفينة جنوية ، واثنان من الجنوبيين على سفينة بندقية ، وأن تسوى المسألة برمتها . وأبحر المبعوثون في شهر يولية ١٢٥٨ م ، لا لشئ إلا ليعلموا أثناء الرحلة أن السيف قد سبق العذل . ذلك أن جمهورية جنوا أرسلت فعلا أسطولا بقيادة أمير البحر روسو ديللا توركا وصل أمام صور في يونية حيث انضم إلى أسطول جنوي صغير كان في الشرق . وفي ٢٣ يونية أبحر من صور الأسطول المشترك المؤلف من نحو ثمانية وأربعين قادسا ، وفي ذات الوقت سارت كتيبة جنود جنوب الساحل تابعة لفيليب (أوف مونتفورت) . وكان لدى البنادقة وحلفائهم البيزين نحوًا من ثمانية وثلاثين قادسا بقيادة تيبولو . ونشبت المعركة الفاصلة أمام عكا يوم ٢٤ يونية ، وأثبت تيبولو أنه صاحب التكتيكات الأقوى ؛ وبعد صراع شرس خسر الجنوبيون أربعًا وعشرين سفينة وألفًا وسبعمائة رجل وانسحبوا في فوضى عارمة . ولم يتمكن الباقون على قيد الحياة من الوصول بأمان إلى عكا إلا عندما هبت فجأة نسمة جنوية . وفي الوقت ذاته صدت ميليشيا عكا تقدم فيليب وخرب الحي الجنوبي داخل المدينة . وقرر الجنوبيون بعد هزيمتهم أن يهجروا عكا كلية وأن ينشئوا مقرًا لهم في صور^(٦١).

وفي إبريل ١٢٥٩ م أرسل البابا مندوبًا له إلى الشرق ، توماي آني (أوف لينتينو) ، وهو الأسقف الشرقي للقدس ، يحمل أوامر بتسوية النزاع . وفي نفس الوقت على وجه التقريب مات وكيل الملكة جون أمير أرصوف ؛ وجاءت الملكة بليزانس إلى عكا مرة أخرى ، وفي أول مايو عيّنت وكيلا للمملكة جيوفري (أوف سارجين) الذي كان ذا شخصية تحظى بالإحترام وكان أقل إثارة للجدل ، وتعاون مع المندوب البابوي لضمان الهدنة . وفي يناير ١٢٦١ م اجتمعت المحكمة العليا بحضور مندوبين عن المستعمرات الإيطالية وتوصلت إلى اتفاق يقضي بأن يكون للجنوبيين مقرهم في صور ، وللجنوبيين والبنادقة مقرهم في عكا ؛ وأجريت مصالحة رسمية بين المتحاربين من النبلاء والبنادقة والبيزين . على أن الإيطاليين لم يعتبروا الإتفاق نهائيًا قط . وسرعان ما نشبت الحرب

(٦١) Dandolo, p. 367; *Annales Januenses*, p. 240; *Gestes des Chprois*, pp. 153-6; Raynald, xxii, pp. 30 ff.; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 445.

بينهم وتواصلت ، مما ألقى الضرر بالتجارة كلها وبالنقل البحري بطول الساحل السوري^(٦٢).

١٢٦١م : البيزنطيون يستعيدون القسطنطينية

كما لحق الضرر بالفرنج البعيدين إلى الشرق عبر الحدود السورية . إذ أن امبراطورية القسطنطينية اللاتينية المتأرجحة لم تكن لتبقى إلا بمساعدة الإيطاليين الذين كانوا يخشون ضياع امتيازاتهم التجارية . وكانت البندقية حريصة بصورة خاصة على بقائها ، لما لها من ممتلكات في القسطنطينية نفسها وفي جزر بحر إيجه . ولذا ساندت جنوا امبراطور نيقية اليوناني القوي ميخائيل بالايولوجوس مساندة فعالة . وكان ميخائيل قد أحرز نصرا مؤزرا عام ١٢٥٩م في بيلاجونيا بمقدونيا حيث أسر أمير أخيا ولیم (أوف ويلهاردوين) وجميع باروناته وأجبره على التنازل عن قلاع ماينا وميسترا و مونيغاسيا ، وهي القلاع التي تسيطر على النصف الشرقي من شبه الجزيرة ؛ وبذلك أرسى ميخائيل فعلا دعائم استعادة بيزنطة لشبه الجزيرة اليونانية . وفي مارس ١٢٦١م وقع ميخائيل معاهدة تقضي بمعاملة أبناء جنوا معاملة تفضيلية في سائر أراضيه حاليا ومستقبلا . وفي ٢٥ يولية ، وبمساعدة الجنويين ، دخل جنوده القسطنطينية . لقد وصلت الامبراطورية اللاتينية ، وليدة الحملة الصليبية الرابعة ، إلى نهايتها ، ولم تفعل للشرق الفرنجي شيئا سوى الضرر^(٦٣).

وهكذا كان استعادة البيزنطيين للقسطنطينية وانهايار الإمبراطورية اللاتينية نتيجة لحرب بدأت حول دير قديم في عكا . لقد كانت ضربة موجعة للمهابة اللاتينية والبابوية ، وانتصارا لليونانيين . على أنه حتى باستعادة بيزنطة لعاصمتها ، فإنها لم تعد الامبراطورية العالمية كعهدا في القرن الثاني عشر ؛ فما هي الآن إلا دولة بين دول كثيرة . فإلى جانب الإمارات اللاتينية المتبقية ، هناك الآن مملكتان قويتان بلغارية وصربية في البلقان ؛ وفي الأناضول ، وعلى الرغم من تعجيز المغول للسلطنة

(٦٢) Tafel-Thomas, *Urkunden*, iii, pp. 39-44; *Gestes des Chiprois*, p. 156; *Annales des Terre Sainte*, pp. 448-9.

(٦٣) For the recapture of Constantinople, see Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, pp. 538-9. The chief Byzantine sources are Pachymer, pp. 140 ff., and George Acropolita, i, pp. 182 ff.

السلجوقية، فلا أمل هناك البتة في زحزحة الأتراك ، وقد أدى امتلاكهم لوطنهم القديم في واقع الأمر إلى إضافة المزيد من المشاكل للأباطرة بدلا من تقويتهم . وكان أبناء جنوا، أهم المستفيدين، قد هُزموا في سوريا ؛ لكن تحالفهم مع بيزنطة مكّنه من السيطرة على تجارة البحر الأسود التي كانت تتزايد في حجمها وأهميتها في الوقت الذي طورت فيه الغزوات المغولية طرق القوافل عبر آسيا الوسطى^(٦٤).

وفي مملكة الشرق الفرنجي تمكن جيوفري (أوف سارجين) ، تسانده ما كان لذكرى القديس لويس من مهابة ، من استعادة بعض النظام بين بارونات المملكة . وماتت الأعمال العدوانية النشيطة على البر ، رغم أن الملاحين الإيطاليين قد يواصلون القتال ؛ بيد أنه لم تكن هناك عودة للصدقة القديمة بين آل مونتفرت وآل إيلين . ولم يخفف نظاما المعبد والمستشفى من عدائهما التقليدي ؛ بينما ينس النظام التيوتوني من مستقبل سوريا ، فبدأ يركز جل اهتمامه في شواطئ البلطيق البعيدة ، حيث مُنح فيها الأراضي والقلاع منذ عام ١٢٢٦ قُدما لقاء مساعدته في ترويض وتحويل الوثنيين من البروسيين والليفونيين^(٦٥).

ولم تتسع سلطة جيوفري لتمتد إلى داخل كونتية طرابلس . إذ أن ما كان يحمله بوهمند من مقت لتابعه هنري أمير جبيل اتقد وتحول إلى حرب ؛ فلم ينكر هنري سيادة بوهمند ويوطد نفسه بمساعدة الجنوبيين في استقلال كامل ، وإنما قام ابن عمه برتراند ، زعيم الفرع الأصغر من عائلة إميرياكو ، بمهاجمة بوهمند في طرابلس نفسها . وكانت الأميرة المسنة لوسين ، عندما خلعت من الوصاية ، قد تمكنت من إبقاء الكثير من المقربين إليها من الرومان في مناصب هامة في الكونتية ، مما أثار حفيظة البارونات الوطنيين الذين وجدوا ممثلين في برتراند إميرياكو - الذي يمتلك ضياعا كبيرة في جبيل وحولها - وزوج ابنته جون أمير أنطاكية وهو لورد البطرون ومن أبناء العمومة الثانية لبوهمند . وفي ١٢٥٨م زحف البارونات على طرابلس حيث يقيم بوهمند

(٦٤) See Heyd, i, pp. 427 ff.

(٦٥) (Translation): Prussians and Livonians:

(المترجم): البروسيون Prussians ، نسبة إلى بروسيا وهي منطقة تاريخية شمالي ألمانيا ، تحولت إلى مملكة شمالي أوروبا (١٧٠١-١٨٧١) والمركز المهيمن للإمبراطورية الألمانية (١٨٧١-١٩١٩) ، وانتهت رسميا عام ١٩٤٧م . والليفونيون Livonians نسبة إلى ليفونيا Livonia ، وهي مقاطعة سابقة تابعة لبروسيا (١٧٨٣-١٩١٨) تقع على خليج ريجا ، وقسمت عام ١٩١٨م بين لاتفيا وإستونيا.

(Author's note): For the Teutonic Order, see Strehlke, *Tabulae Ordinis Teutonic*

وحاصروا المدينة ، وخرج اليهم بوهمند في رجاله لكنه هُزم وجرح في كتفه بواسطة برتراند نفسه ، وأجبر على البقاء محاصراً في عاصمته الثانية إلى أن خف فرسان المعبد لنجدته . وتحرق شوقاً إلى الثأر . وفي يوم ما ، وأثناء أن كان برتراند على حواده مخترقاً إحدى قراه ، انقض عليه فجأة بعض القرويين المسلحين وقتلوه . وقطعت رأسه وأرسلت هدية إلى بوهمند الذي لم يتشكك أحد في تخريضه على القتل ، ولقد كان ذلك الإغتيال بمثابة عامل مساعد مؤقت لتحقيق غرضه ؛ إذ ارتعب المتمردون وانسحبوا إلى جيل . بيد أنه قد أصبحت هناك الآن ثارات دماء بين بيتي أنطاكية وإمبرياكو^(٦٦) .

وفي ١٢٦٣م انتهت حكومة جيوفري (أوف سارجين) . إذ ماتت الملكة القبرصية بليزانس في سبتمبر ١٢٦١م ، ولقيت وفاتها أعظم الأسى ، فقد كانت سيدة غاية في الإستقامة . وكان ابنها هيو الثاني في الثامنة من عمره ، فكان ضروريا وجود وصي جديد لقبرص والقدس . وكان لأبي هيو الثاني - هنري الأول - شقيقتان تزوجتا كبراهما ماريا من والتر (أوف برين) وماتت في شبابها تاركة ابنها هيو . وتزوجت صغراهما إيزابيلا من هنري الأنطاكي أخى بوهمند الخامس ، وهى ما تزال على قيد الحياة . وكان ابنها المسمى هيو أكبر من ابن خالته هيو (أوف برين) الذي نشأته إيزابيلا ربيا مع ابنها . وعلى الرغم من أن هيو (أوف برين) كان الوريث التالى للعرش ، فقد كان عازفا عن منافسة خالته وابنها من أجل الوصاية ؛ وبعد مداوات جرت في المحكمة العليا القبرصية ، اعتبرت المحكمة أن وصاية الرجل أفضل من وصاية المرأة ، ولذا أغفلت مطالبة إيزابيلا لصالح ابنها الذي عُيِّن باعتباره أكبر أمير تجرى في عروقه الدماء الملكية ؛ وأتيح لمحكمة القدس العليا المزيد من الوقت للتفكير . وظلت الأمور على ما هي عليه حتى ربيع ١٢٦٣م عندما جاءت إيزابيلا إلى عكا مع زوجها هنري الأنطاكي . واستقبلها النبلاء هناك كوصية فعلية ، لكنهم بعدما لمسوا من جوانب الريبة ما تجاهلوه حتى آنذاك رفضوا أن يقسموا لها قسم الولاء ؛ فلم يكن ذلك ليحدث إلا إذا كان الملك كونرادين حاضرا . واستقال جيوفري (أوف سارجين) من منصب وكيل المملكة ، فخلعت الملكة المنصب على زوجها ، وعادت هي نفسها بدونه سعيدة إلى قبرص .

(٦٦) *Gestes des Chiprois*, pp. 157-60. See Rey, "Les Seigneurs de Gible", in *Revue de l'Orient Latin*, iii, pp. 399-404.

وكان لورد البيطرون هو جون وليس وليم كما جاء في index to Mas Latrie's edition of the *Gestes*. وقد قتل أبوه وليم في لافوربي عام ١٢٤٤م.

وماتت في العام التالي في قبرص ، وأصبح منصب الوصاية على القدس شاغرا مرة أخرى. وطالب هيو الأنطاكي ، الوصي على قبرص ، بالوصاية باعتباره ابنها ووريثها ؛ لكن هيو (أوف برين) تقدم بمطالبة مضادة الآن وأعلن أن العرف الفرنسي المتبع في أوتريميه يقضي بأن ابن الأخت الكبرى له الأسبقية على ابن الأخت الصغرى بغض النظر عن الأكبر سنا من ابني الخاليتين. واعتبر قضية أوتريميه أن العامل الحاسم هو القرابة لآخر من شغل المنصب ، وحيث أن إيزابيلا قد قبلت كآخر وصية ، يكون لابنها هيو الأسبقية على ابن اختها . وأجمع النبلاء وكبار رجال الدولة على قبوله وأعربوا له عن الولاء الذي أنكروه على أمه . وأعلنت الكوميونات والمستعمرات الأجنبية الولاء له ، واعترف به السيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى . وعلى الرغم من أن الإيطاليين كانوا لا يزالون يحاربون بعضهم البعض في البحار ، فقد ساد جو عام ، وإن كان مصطنعا ، من المصالحة في المملكة نظرا لنشاط هيو في المقام الأول. إذ لم يعين وكيلا للملكة يعمل باسمه في الأراضي الرئيسية ، وإنما كان دائم السفر بين قبرص وعكا. وبينما هو في قبرص عُهد بحكومة الأراضي الرئيسية إلى جيوفري (أوف سارجين) الذي أصبح قهرمانا مرة أخرى ، كما غدت الإدارة في أيدي أناس محترمين ؛ إذ كانت الأخطار تتجمع وتزايد^(٦٧).

١٢٧٠م : آخر حملة صليبية للملك لويس

لم ينس لويس ملك فرنسا الأراضي المقدسة قط . إذ كان يرسل كل عام مبلغا من المال لإعالة مجموعة الجنود الصغيرة التي تركها هناك وراءه في عكا برئاسة جيوفري (أوف سارجين) ؛ ودامت هذه الممارسة حتى بعد موت جيوفري ولويس نفسه . وكان الأمل يراوده دائما في الخروج مرة أخرى في حملة صليبية ، غير أن احتياجات بلده لم تتح له ذلك . ولم يحدث إلا في عام ١٢٦٧م ، عندما كان مرهقا ومريضا، أن شعر بقدرته على الإعداد لحملة الصليبية الثانية ، وبدأ شيئا فشيئا في إعداد الترتيبات الضرورية وجمع الأموال . وفي ١٢٧٠م أصبح على استعداد للإبحار إلى فلسطين^(٦٨).

على أن أخا الملك ، تشارلز ، شوّه المشروع الورع ودمّره . ذلك أنه في عام

(٦٧) See La Monte, *op. cit.* pp.75-7, and Hill, *op. cit.*, ii, pp.151-4 والمراجع

Joinville, pp. 210-12. (٦٨)

١٢٥٨م ، عندما كان السفلى كونرادين ملكا إسميا لصقلية والقدس ، خلعه ابن عمه من السفاح ، مانفريد بن فريدريك الثاني . وكان منفريد قد ورث الكثير مما كان لأبيه من ذهن متقد متفطرس ؛ ولقى نفس القدر من كراهية البابوية . وبدأ الباهرات في البحث عن أمير بديل يعتلى العرش الصقلي الذي كان تحت سلطتهم بصورة تقليدية . وبعد أن تفكروا في إدموند (أوف لانكاستر) ، ابن هنري الإنجليزي ، وجدوا مرشحهم في شخص تشارلز (أوف أنجو) ، الذي كان على قدر ضئيل مما كان عليه أخوه القديس ؛ إذ كان باردا وقاسيا ومتطرفا في طموحاته ، وكانت زوجته الكونتيسة بياتريس ، وهي وريثة بروفانس وأخت لثلاث ملكات ، متلهفة على أن تضع تاجا على رأسها . وفي ١٢٦١م ، أصبح بطريق القدس جيمس بانتاليون هو بابا باسم إيربان الرابع . وسرعان ما أقنع الملك لويس بأن إزالة آل هوهينشتوفن من صقلية أمر أساسي مطلوب لنجاح أية حملة صليبية مقبلة .

ووافق لويس على ترشيح أخيه ، وفرض ضرائب في فرنسا نيابة عنه . ومات إيربان عام ١٢٦٤م لكن خليفته ، كلمنت الرابع ، وهو فرنسي آخر ، أكمل الترتيبات مع تشارلز الذي زحف عام ١٢٦٥م داخل إيطاليا وهزم منفريد وقتله في معركة بينيفينتيو . ومكّنه النصر من السيطرة على جنوب إيطاليا وصقلية ، وتلقت زوجته التاج الذي كانت تهفو إليه . وبعد ثلاث سنوات بذل كونرادين جهودا شجاعة لاستعادة ميراثه الإيطالي ، لكن جهوده لم تلق سوى كارثة بالقرب من تالياكوزو ، ووقع الصبي كونرادين الذي لم يجاوز السادسة عشرة من عمره في الأسر وقطعت رأسه ، وكان آخر آل هوهينشتوفن . وتصاعدت الآن طموحات تشارلز وزينت له السيطرة على إيطاليا ، واستعادة القسطنطينية من اليونانيين المنشقين ، وإنشاء امبراطورية في البحر المتوسط على نحو ما كان يحلم به أسلافه النورمانديون عبثا . وبدأ البابا كليمنت يخشى الوحش المخيف الذي رفعه ؛ لكنه مات عام ١٢٦٨م . وطوال ثلاث سنوات راح تشارلز يكدد المكائد مع الكرادلة للحيولة دون انتخاب بابا جديد ؛ ولم يكن هناك من يكبح جماحه . على أنه شعر بالقلق من الحملة الصليبية التي ينتويها أخوه ، إذ ينبغي استغلال رجال فرنسا وأموال فرنسا لصالحه ، وليس لدعم مملكة نائية لم يكن مهيا بعد للإهتمام بها . وكان يطمح في المساعدة لمهاجمة بيزنطة ، فإن لم تكن المساعدة وشيكة ، فينبغي على الأقل تحويل مسار الحملة الصليبية إلى مسار ما آخر يعود عليه بالنفع^(٦٩) .

(٦٩) -See Jordan, *Les Origines de la Domination Angevine en Italie*, passim; Hefele
Leclercq, *op. cit.* vi, i, pp. 47-60, 63-6; Powicke, *op. cit.* ii, pp. 598-9 حيث توجد

وكان معروفا أن المستنصر أمير تونس الذي يسيطر على الساحل الأفريقي المقابل لصقلية يتخذ موقفا ودّيا من المسيحيين ، لكنه أساء إلى تشارلز عندما قبل لجوء المتمردين من صقلية . فأقنع تشارلز الملك لويس ، الذي لم تحجب التجربة تفاؤله الإيماني ، بأن الأمير على استعداد للتحويل إلى المسيحية ، وأن استعراضا خفيفا للقوة خليق بأن يجره إلى حظيرة الإيمان ، وبذا تكون هناك مقاطعة جديدة تضاف إلى المسيحية في بقعة ذات أهمية استراتيجية واسعة لأية حملة صليبية جديدة . ويبدو أن القرار الذي اتخذه لويس كان متأثرا بمرضه ؛ إذ لم يخفّر أصدقاءه من الحكماء ، مثل جوفانيل ، استيائهم من هذا المشروع ، لكن لويس كان واثقا من أخيه . وفي أول يولية أبحر من ميناء آجو-مورت على رأس حملة مهولة ، وكان معه أبنائه الثلاثة الباقين على قيد الحياة ، وزوج ابنته تيبالد ملك نافار ، وابن أخيه روبرت أوف أرتوا ، وكونتات بريتاني ولانمارش ، وورث فلاندرز ، وجميع أبناء رفاقه في حملته الصليبية السابقة ، وكونت سانت بول وهو من الباقين على قيد الحياة من تلك الحملة الصليبية السابقة ، وكونت سواسون . وفي ١٨ يولية وصل الأسطول أمام قرطاجنة في حمارة قيظ الصيف الأفريقي . ولم يبدِ أمير تونس أية رغبة في التحول إلى المسيحية ، وبدلا من ذلك حصّن عاصمته ونظّم حاميتها . لكنه لم يكن بحاجة إلى القتال ، إذ تولت الأحوال المناخية هذه المهمة بدلا منه ؛ فقد تفشّى المرض بسرعة في المعسكر الفرنسي ، وسقط الأمراء والفرسان والجنود فريسة المرض بالألوف ، وكان الملك من بين الأوائل الذين صرّعهم المرض . وعندما وصل تشارلز (أوف أنجو) يوم ٢٥ أغسطس مع جيشه علم أن أخاه توفي قبل ساعات قليلة . وكان وريث فرنسا ، فيليب ، مريضا في حالة خطيرة ؛ وكان جون الحزين (تريستان) الذي ولد في دمياط محتضر . واستطاع تشارلز بما له من بأس أن يحفظ الحملة من كارثة حتى الخريف عندما دفع له الأمير تعويضا كبيرا كي يعود إلى إيطاليا؛ غير أن أمر الحملة الصليبية بأسرها كان قد انقضى من قبل^(٧٠).

عندما وصلت أنباء مأساة تونس إلى الشرق، تنفس المسلمون الصعداء من أعماقهم، وغرق المسيحيون في نواحهم . وكان للأسى ما يبرره . إذ لن يحدث البتة مرة أخرى أن يخرج جيش ملكي من أرضه الأم لإنقاذ فرنج مملكة ما وراء البحار

مناقشة سياسة تشارلز أوف أنجو

(٧٠) Joinville, pp. 262-3. See Sternfeld, *Ludwigs des Heiligen Kreuzzug nach Tunis*, passim

(اوتريميه). ولقد كان الملك لويس ملكا لفرنسا عظيما وطيبا ، أما فلسطين التي أحبها بمزيد من الإعزاز ، فلم يجلب لها سوى خيبة الأمل والأسى . وراح وهو على فراش الموت يفكر في المدينة المقدسة التي لم يرها قط ، ولم تكن مساعيه لتخليصها سوى مساع عقيمة . وكانت آخر كلماته "القدس ، القدس" ^(٧١).

الفصل الثالث:

المغول فى سوريا

المغول في سوريا

"أَتَيْقُ بِهِ لَأَن قُوَّتَهُ عَظِيمَةٌ؟ أَوْ تَرَكْ لَهُ تَعَبُكَ؟"
(أَيُوبُ ١١: ٣٩)

عندما وصل وليم (أوف روبروك) إلى بلاط الخان الأعظم في الأيام الأخيرة من عام ١٢٥٣ م ، وجد حكومة مختلفة اختلافا كبيرا عن تلك التي رحبت بأنندرو (أوف لونجومو) الذي سبق أن بعثه الملك لويس . وعندما مات غويوق ، ابن أوغوداي ، عام ١٢٤٨ م ، تولت أرملته أوغول قيميش أعمال الوصاية على ابنائها قوشا وناقو وقوغو . بيد أنها كانت حاكمة تغلب عليها البلادة وقد تملكها الشح والسحر ، ولم يبدُ على أي من أبنائها ما يبشّر باقتدار كبير . ودأب ابن عمهم شيريمون ، الذي قضى له حده أوغوداي بالخلافة، على دس الدسائس ضدهم. بيد أن المعارضة الأكثر هولا جاءت من تحالف النائب على الغرب (باتو) مع الأميرة سورغقتاني أرملة تولوي الابن الأصغر لجنكيز خان. وكانت الأميرة سورغقتاني الكيراتية المولدة، كشأن أبناء جنسها جميعا، مسيحية نسطورية يغلب عليها الورع ، ولذا كانت تلقى الاحترام لحكمتها وطهاره

ذيلها . وبعد ترملها رغب أوغوداي في تزويجها من ابنه غويوق ؛ لكنها رفضت بلباقة مفضلة تكريس نفسها لتعليم أبنائها الأربعة النابهين مونغكا وقوبلاي وهولاكو وأرقبوغا . وعندما أجرى غويوق تفتيشا على مالية العائلة الإمبراطورية كانت هي وأبناؤها فحسب الذين كانوا يتصرفون بوازع من الضمير المثالي . وكان (باتو)، الذي لم تلتئم عداوته لغويوق قط ، معجبا بها غاية الإعجاب ، لكن مطالبته بالعرش أخذت تتزايد ضعفا على ضعف نظرا لما كان يحيط بشرعية أبيه جوجي من شكوك ، فما كان منه إلا أن انضم إليها لمناصرة مونغكا في مطالباته . وجاء باتو إلى منغوليا ، وبصفته من كبار أمراء العائلة طلب انعقاد المؤتمر (كوريلتاي)، الذي انتخب في أول يولية ١٢٥١م مونغكا لمنصب الخان الأعظم . ورفض أحفاد أوغوداي حضور المؤتمر (كوريلتاي) ، ورغم ما بذلته سورغقتاني من محاولات مخلصنة لتهديتهم ، وإنما تأمروا لمهاجمة أعضائه وهم سكارى في الاحتفالات التي تعقب مراسيم التولية . وأجهضت المؤامرة ؛ وبعد عام من الحرب الأهلية المتقطعة انتصر مونغكا على أئداده جميعا ونُصّب خانا أعظم في قراقورام . وأدين الوصي أوغول قايميش وكذلك أم شيريمون بتهمة السحر ونُفذ فيهما الإعدام غرقا ، وأما أمراء آل أوغوداي فقد أرسلوا إلى المنفى^(١).

وبتولى مونغكا ، أحيا المغول مرة أخرى سياستهم التوسعية . وعاد كبار الأمراء إلى مناصبهم الحكومية ، وعُهد بالمقاطعات الشرقية إلى الأخ الثاني لمونغكا ، قوبلاي ، الذي شرع يغزو كل الصين غزوا نشيطا منسقا . وتحول إلى البوذية، وغلبت على حروبه ومعاملته للمقهورين روح الإنسانية والرفق . ومكث مونغكا وأخوه الأصغر أريقبوغا في منغوليا يراقبان في يقظة الإمبراطورية الشاسعة كلها . وبدأ ورثة ياغاناي في التركستان محاولات تجريبية لتوسيع سلطانهم عبر بامير إلى داخل الهند . ونقل باتو مقره إلى ضفاف الفولجا السفلى كي يسيطر على أمرائه التابعين له في روسيا ، وأسس هناك مقر الخان التي أطلق عليها الكتاب المسلمون (كيشاك) ، وأطلق عليها المغول والروس (القبيلة الذهبية) . وانتقلت حكومة فارس إلى الأخ الثالث لمونغكا ، هولاكو . وأصبحت حدوده وحدود قوبلاي في الشرق هي المنطقة التي توجهت إليها الآن جهود المغول^(٢).

(١) William of Rubruck (ed. Rockhill), pp. 163-4; Howorth, *History of the Mongols*, i, pp. 170-86; Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 306-11.

(٢) Grousset, *op. cit.* pp. 312-13, 364-6; Iakoubovski and Grekov, *La Horde d'Or*, pp. 98-120.

١٢٥٤م : التحالف الأرميني مع المغول

من بين الدول المتاحمة للبحر المتوسط كانت المملكة الأرمينية أول من تحقق من أهمية التقدم المغولي . وكان الأرمن قد شهدوا مشدوهين انهيار الجيش السلجوقي أمام الحملة المغولية التي قادها أحد حكام الأقاليم عام ١٢٤٣م ، وكان بمقدورهم أن يقدرُوا استحالة مقاومة الجيش الإمبراطوري . وأرسل الملك هيثوم في حركة حكيمة رسالة يغلب عليها الإحترام إلى بامشو عام ١٢٤٣م . غير أن المغول انسحبوا آنذاك واستعاد قايغوسرو أراضيها التي فقدوها في الأناضول وبدأ في الضغط مرة أخرى على أرمينيا يساعده الأمير الأرميني المتمرد قسطنطين (أوف لامبرون)^(٣).

وكان في تقدير هيثوم أن المغول سوف يعودون وأن لهم أهميتهم لكل العالم المسيحي الآسيوي ، وخاصة له هو نفسه . فأرسل في عام ١٢٤٧م أخاه الكونستابل سيمباد على رأس سفارة إلى بلاط الخان الأعظم . ووصل سيمباد إلى قراقورم عام ١٢٤٨م قبل وفاة غويوق بوقت قصير ؛ واستقبله غويوق استقبالا ودودا ، وما أن علم أن هيثوم على استعداد لأن يكون تابعا له حتى وعد بإرسال العون إلى الأرمن ليستعيدوا المدن التي أخذها منهم السلاجقة . وعاد سيمباد إلى وطنه ومعه وثيقة من الخان الأعظم تضمن وحدة أراضي هيثوم^(٤). غير أن موت غويوق أوقف أي عمل عاجل . وفي ١٢٥٤م ، وما أن سمع هيثوم بخلافة خان جديد ذي بأس حتى شرع هو نفسه في الرحلة إلى قراقورم^(٥).

صارت قراقورم الآن المركز الدبلوماسي للعالم . ذلك أنه عندما وصلها سفير لويس التاسع ، وليم (أوف روبروك) عام ١٢٥٤م ، وجد سفارات من الإمبراطور اليوناني ومن الخليفة ومن ملك دلهي ومن السلطان السلجوقي ، كما وجد أمراء من الجزيرة ومن كردستان وأمراء من روسيا ، وجميعهم يتزقب مقابلة الخان . وكان هناك عدد من الأوروبيين الذين استقروا هناك ، وفيهم الجوهري من فارس مع زوجته الهنجرية ،

(٣) Ibn Bibi (ed. Houtsma), pp. 243, 249-50; Sempad, pp. 649-51; Kirakos, trans. Brosset, p. 142; Vincent of Beauvais, pp. 1295-6.

(٤) Sempad, letter to Henry of Cyprus, in William of Nangis, pp.361-3.

(٥) Ibn Sheddad, *Geography* (ed.Cahen),in *Revue des Etudes Islamiques*(1936),p. 121;Bar-Hebraeus (trans.Budge),pp.418-19

وامرأة من الألزاس متزوجة من مهندس روسي^(٦). وليس هناك تمييز عنصري ولا ديني في البلاط ؛ وكانت المناصب العليا في الجيش والحكومة قاصرة على أعضاء العائلة الإمبراطورية ، غير أنه كان هناك وزراء ومحافظو أقاليم من كل أمة آسيوية على وجه التقريب . وكان مونفكا نفسه يدين بالشامانية ديانة آبائه ، لكنه كان يحضر الاحتفالات المسيحية والبوذية والإسلامية دون تمييز بينها . وكان يؤمن بوجود إله واحد يعبد المرء كما يحلو له . وكان المسيحيون النساطرة يمثلون أهم نفوذ ديني ، وكان مونفكا يحاييهم بصفة خاصة تخليدا لذكرى أمه سورغقتاني التي ظلت دائما على ولائها لعقيدتها ، رغم أنها كانت من سعة الأفق بما يكفي لأن تهب المسلمين كلية دينية إسلامية في بخارى . كما كانت زوجته الإمبراطورة الرئيسية كوتوكساي ، والكثيرات من زوجاته الأخريات ، يعتنقن المسيحية النسطورية^(٧) . وأعلن وليم (أوف روبروك) على الملأ أنه قد صُدم بجهل رجال الدين النساطرة وفسوقهم ، واعتبر أن طقوسهم الدينية أزيد قليلا من خلاعات عريضة السكرى ، وفي يوم من أيام الأحد شاهد الإمبراطورة عائدة تترنح من قداس صاخب ؛ وعندما لم يوفق في أمره كان يميل إلى أن يلقي باللائمة على ما كان يسود هذه الهرمية الهرطيقية من ندبة^(٨).

١٢٥٤م : وليم (أوف روبروك) في قراقورم

ولم تكن سفارته ناجحة تماما في الواقع . ذلك أنه ارتحل عن طريق عاصمة باتو على نهر الفولجا حيث وجد ابن باتو ، سرتق ، مِيالا إلى معاملة المسيحيين معاملة حسنة ، رغم احتمال عدم كونه مسيحيا حقيقيا . ولقد أرسله باتوا إلى منغوليا ، وسافر على حساب الحكومة بطول الطريق التجاري الكبير ، في راحة وأمان ، ورغم مرور أيام بكاملها دون رؤية منزل واحد . وفي نهاية ديسمبر ١٢٥٣م وصل إلى

(٦) William of Rubruck (trans. Rockhill), pp. 165 ff., 176-7. كما كان هناك رجل انجليزي مولود في هنجاريا يدعى بازيل كان يعيش في قراقورم. (ibid. p. 211) ويصف. Bar-Hebraeus, p. 411 هيثوم وكذلك ملكي جورجيا الذين كانوا في قراقورم ، إلى جانب سفارات من حلب ومن الفرنج ومن الحشاشين في البرلمان (كوريلتاي) في أعقاب موت أوغورداي

(٧) Howorth, op. cit., i, pp. 188-91. وماتت سورغقتاني في فبراير ١٢٥٢م . ويطلق عليها Bar-Hebraeus (p. 417) "الملكة كاملة الحكمة والإيمان"، William of Rubruck (trans. Rockhill), pp. 184-6. Pelliott, 'Les Mongols et la Papauté', loc. cit. p. 198. وقد أخبر هولوكو المؤرخ الأرمني فارتان أن أمه كانت مسيحية مخلصنة. (Vartan, Armenian text, ed. Emin, p. 205)

(٨) William of Rubruck, loc. cit.

معسكر الخان الأعظم على مبعدة أميال قليلة من قراقورم . واستقبله مونغكا استقبالا رسميا يوم ٤ يناير ، وسرعان ما رحل بعد ذلك مع البلاط إلى قراقورم نفسها . ووجد الحكومة المغولية وقد عقدت عزمها فعلا على مهاجمة مسلمي غرب آسيا ، وعلى استعداد لمناقشة الإقدام على عمل مشترك . بيد أنه كانت هناك عقبة لا سبيل إلى تخطيها ؛ إذ لا يستطيع الخان الأعظم أن يقبل وجود أي أمير ذا سيادة غيره في العالم . وكانت سياسته الخارجية بسيطة في أساسها ؛ فأما أصدقاؤه فكانوا أتباعا له فعلا ؛ وأما أعداؤه فكان يتعين إزالتهم أو إخضاعهم إلى حالة التبعية . وكان كل ما استطاع ولیم الحصول عليه هو الوعد المخلص تماما بأن يتلقى المسيحيون المساعدة الوفيرة طالما جاء حكامهم لتقديم فروض الولاء لسيد العالم . ولم يكن باستطاعة ملك فرنسا التعامل بتلك الشروط . وفي أغسطس ١٢٥٤ م ، غادر ولیم قراقورم وقد تعلّم ، كشأن سفراء كثيرين بعده ذهبوا إلى بلط أبعد في آسيا ، أن عواهل الشرق لا يفهمون أعراف الدبلوماسية الغربية ولا مبادئها . وعاد بطريق آسيا الوسطى إلى بلاط باتو ومنه خلال القوقاز وهضبة الأناضول إلى أرمينيا ثم إلى عكا . وكان يُعامل في كل مكان يذهب إليه بالاحترام اللائق بمبعوث مفوض إلى الخان الأعظم^(٩).

وكان الملك هيثوم قد وصل إلى قراقورم بعد رحيل ولیم عنها بفترة وجيزة . ولقد جاء وقد اختار طواعية أن يكون تابعا ؛ وكان الزائرون الأجانب الآخرون إما من الأتباع الذين استدعوا رغما عنهم ، أو أنهم كانوا ممثلين للملوك يدعون الاستقلال في تكبر ؛ ولذا عومل هيثوم برعاية خاصة ؛ فعندما استقبله مونغكا استقبالا رسميا في ١٣ سبتمبر ١٢٥٤ م ، منحه وثيقة تؤكد سلامته شخصيا وسلامة مملكته من أي انتهاك ، وعومل باعتباره المستشار المسيحي الرئيسي للخان في الشؤون المتصلة بغرب آسيا . ووعده مونغكا بإعفاء كافة الكنائس والأديرة المسيحية من الضرائب . وأعلن أنه أصدر أوامره لأخيه هولاكو ، الذي رَسَّخ فعلا أركانها في فارس ، بالإستيلاء على بغداد والقضاء على قوة الخلافة ، وتعهده باستعادة القدس ذاتها للمسيحيين إذا تعاونت معه كافة القوى المسيحية . ورحل هيثوم عن قراقورم في أول نوفمبر محمّلا بالهدايا وقد اعتبط لنجاح جهوده التي بذلها . وارتحل إلى الوطن عن طريق التركستان وفارس حيث أعرب عن ولائه لهولاكو ثم عاد إلى أرمينيا في شهر يولية التالي^(١٠).

(٩) Ibid. pp. 165 ff.

(١٠) Kirakos, pp. 279 ff.; Vahram, *Rhymed Chronicle*, p. 519; Bar-Hebraeus, pp. 418-19; Hayton, *Flor des Estoires*, pp. 164-6; Bretshneider, *Mediaeval Researches*, i, pp.

وكان تفاؤل هيثوم طبيعيا لكنه كان مفرطا . ذلك أن المغول كانوا يقينا تواقين إلى السيطرة على الخلافة أو القضاء عليها . وكان لديهم فعلا الكثير من الرعايا المسلمين بحيث بات من الأمور الأساسية لهم السيطرة على المؤسسة الدينية الرئيسية في العالم الإسلامي ، ولم تكن لديهم عداوة خاصة يكتونها للإسلام كدين ؛ وبالمثل ، وبرغم محاباتهم للمسيحية محابة تفوق أي عقيدة أخرى ، فلم تتوفر لديهم نية السماح بوجود أية دولة مسيحية مستقلة ؛ وفي حالة استعادة القدس للمسيحيين ، فإنها سوف تستعاد تحت الإمبراطورية المغولية . ومن دواعي الإثارة أن نتأمل فيما كان يمكن أن يحدث لو تحققت طموحات المغول في غرب آسيا . كان من الممكن إنشاء خاتية مسيحية عظمى وربما تنميتها بمرور الزمن من القوة المركزية في منغوليا . بيد أن حلم القديس لويس في أن يصبح المغول الأبناء المطيعين للكنيسة الرومانية لم يكن ليرد في الأذهان ؛ ولم تكن المنشآت المسيحية في غرب آسيا لتحتفظ بأي استقلال لها . لو حدث انتصار مغولي في غرب آسيا لكان في صالح العالم المسيحي ككل ؛ غير أنه ليس من الممكن توجيه اللاتمة إلى فرنج أوترمييه، المدركين لموقف الخان الأعظم إزاء الأمراء المسيحيين ، لتفضيلهم المسلمين الذين عرفوهم على هؤلاء القوم الغرباء ذوي الشراسة والغطرسة الآتين من الصحارى القصية ، وسجلهم في أوروبا الشرقية لا يبعث على التشجيع^(١١) . أما محاولة هيثوم بناء تحالف مسيحي كبير لمساعدة المغول فقد استقبلها المسيحيون الرطونيون استقبالا حسنا ؛ وانصاع بوهمند أمير أنطاكية الذي كان واقعا تحت نفوذ حميه . لكن فرنج آسيا نأوا بجانبهم^(١٢) .

١٢٥٦م : الجيش المغولي يتحرك باتجاه الغرب

في يناير ١٢٥٦م عبر جيش مغولي ضخيم نهر أكسس OXUS بقيادة هولأكو أخي الخان الأعظم . وكان هولأكو - كأخيه قبلاي - أفضل تعليما من أغلب أمراء المغول؛

164-72 .

(١١) للإطلاع على الدفاع عن موقف الفرنج، انظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 708-9. تاريخ الحملات الصليبية لجروسيت Grousset in his *Histoire des Croisades* ، دأب على الإشارة بحق إلى الفرص التي أضاعها الفرنج برفضهم التحالف مع المغول ، لكنه على الرغم من معرفته بتاريخ المغول يبدو أنه قد تغاضى عن استحالة معاملة الخان الأعظم للفرنج على أنهم مستقلين لا تابعين . لم يكن المغول يعترفون بإمكان وجود دول أجنبية مستقلة

(١٢) أنظر أدناه الصفحات (٣٦٠-٣٦٢) و(٣٦٤-٣٦٥).

فكان يميل إلى تقريب المسلمين وقد دارم هو نفسه إرضاء ميوله في إطلاقاته على الفلسفة والكيمياء . ولقد اجتذبت البوذية كما سبق أن اجتذبت أخاه قبلاي ؛ غير أنه لم يكف قط عن شامانية أسلافه، وكان يفتقر إلى ما كان يتصف به أخوه من حب الخير . وكان يعاني من نوبات من الصرع التي ربما كان لها أثرها على طباعه التي لا يعتمد عليها ؛ فكان متوحشا إزاء المقيهورين كشأن أي من أسلافه . على أنه لم يكن للمسيحيين ذريعة للشكوى منه ؛ إذ كان أقوى نفوذ في بلاطه هو نفوذ زوجته الرئيسية دوكوز خاتون . وكانت هذه السيدة المرموقة أميرة كيراتية ، حفيدة طغرل خان ، ومن ثم من أبناء خزولة أم هولأكو . وكانت نسطورية غيورة ، ولم تخف كراهيتها للإسلام وتلغفها على مساعدة المسيحيين من أية ملة^(١٣) .

وكان هدف هولأكو الأول هو مقر الحشاشين في فارس ؛ فليس في الإمكان وجود حكومة منظمة حتى يتم القضاء على هذه الطائفة ، خاصة وقد أساء أتباع الطائفة إلى المغول بقتلهم ياغاتاي ، الابن الثاني لجنكيز خان . وكان هدفه التالي بغداد التي يستطيع الجيش المغول التقدم منها إلى سوريا . وقد وضعت الخطط بعناية لكل شيء ؛ فأصلحت الطرق عبر تركستان وفارس وشيئت الجسور ، وأرسلت الطلبات لجلب عربات آلات الحصار من الصين ، ونزعت القطعان من الرعاة كي يصبح الكلاً وفيما الخيول المغول . وكانت مع هولأكو دوكوز خاتون واثنتان من زوجاته الأخريات وابناه الأكبران . وكان حفيده نيغودار يمثل آل ياغاتاي . وأرسل باتو من (القبيلة الذهبية) ثلاثة من أبناء اخوته ارتحلوا أسفل الشاطئ الغربي لبحر قزوين وانضموا إلى الجيش في فارس . وقدمت كل قبيلة في الكونغدرالية المغولية خمس رجالها المقاتلين ، وكان هناك آلاف من الرماة الصينيين المهرة في إطلاق السهام المشتعلة من قسيهم . وكان جيش قد أرسل قبل ثلاث سنوات لإعداد العدة وعلى رأسه أكثر جنرالات هولأكو ثقة وهو قيتبوغا النسطوري ذي العرق النايمني Naiman ، والذي قيل أنه من نسل الحكماء الثلاثة من الشرق^(١٤) . وكان قيتبوغا قد أعاد توطيد السلطة المغولية في أهم مدن الهضبة الإيرانية

(١٣) Rashid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 94-5, 145 الذي يذكر تأثير دوكوز خاتون . وقد أعجب بها كونغكا وكان دائما ما ينصح هولأكو بالأخذ برأيها . وقد ولدت أميرة كيراتية كشأن سورغقتاني . وعن هولأكو أنظر:

Howorth, *op. cit.* iii, pp. 90 ff. and Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 563-6.

(١٤) حكماء المشرق الثلاثة، أو مجوس المشرق الذين جاعوا ليعبدوا عيسى الطفل في بيت لحم، طبقا لإنجيل متى، الإصحاح الثاني.

واستولى على بعض معاقل الحشاشين الأقل أهمية قبل وصول هولاكو^(١٥).

١٢٥٧م : إبادة الحشاشين في فارس

عشا حاول زعيم الحشاشين ركن الدين خورشاه تجنب الخطر بالدسائس والألاعيب الدبلوماسية . ودخل هولاكو أرض فارس وزحف زحفا بطيئا وبلا هوادة خلال ديماوند وعباس آباد إلى سهول الحشاشين . وبظهور الجيش العرمرم أمام قلعة الموت وشروعه في تشديد حصاره للقلعة ، خضع ركن الدين ، وجاء بنفسه في ديسمبر إلى خيمة هولاكو لإعلان خضوعه . ورفض حاكم القلعة إطاعة أوامره باستسلامها ، فاستولى عليها المغول عنوة بعد أيام قليلة . ووعد هولاكو الإبقاء على حياة ركن الدين ، غير أن هذا الأخير التمس إرساله إلى قراقورم آملا الحصول على شروط أفضل من الخان الأعظم مونغكا . وبوصوله هناك رفض مونغكا مقابلته قائلا إنه من الخطأ إنهاك الخيول الكريمة في مثل تلك البعثة العقيمة . وكانت هناك قلعتان للحشاشين لا تزالان صامدتين أمام المغول ، جبردكوه ووليمبيسر . وقيل لركن الدين أن يعود إلى بلاده للترتيب لاستسلام القلعتين ؛ وفي الطريق قتل مع حاشيته ، وفي ذات الوقت أرسلت الأوامر إلى هولاكو بضرورة إبادة الطائفة عن آخرها . وأرسل عدد من أقارب زعيم الحشاشين الأكبر إلى ابنة ياغاتاي ، سالغان خاتون ، كي تنتقم بنفسها لمقتل والدها . وجمع آخرون بذريعة إجراء احصاء وقتلوا بالآلاف . وفي نهاية ١٢٥٧م لم يكن هناك في الجبال الفارسية سوى القليل من اللاجئين . أما الحشاشون في سوريا فكانوا حتى آنذاك بعيدين عن قبضة المغول ؛ لكنهم استشرفوا مصيرهم^(١٦).

وكان الحشاشون يحتفظون في قلعة الموت بمكتبة ضخمة مليئة بكتب الفلسفة وعلوم السحر ، وأرسل هولاكو حاجبه المسلم ، عطاء الملك يوفيني ، لفحصها . فنحى عطاء الملك جانبا نسخ القرآن التي وجدها ، وكذا الكتب ذات القيمة العلمية والتاريخية ، وأحرق أعمال الزندقة . وبمصادفة غريبة ، شب في ذات الوقت حريق كبير بفعل البرق في المدينة المنورة ، ودمرت تماما مكتبتها التي كانت تحوى أعظم المختارات

(١٥) Bretschneider, *op. cit.* pp. 114-15 من المصادر الأصلية. وعن أسلاف قيتبوغا، أنظر Hayton, *Flor des Estoires*, p. 173.

(١٦) *Ibid.* pp. 116-18; Browne, *Literary History of Persia*, ii, pp. 458-60.

عن الفلسفة الإسلامية القويمة^(١٧).

واجتث هولاء شافة الحشاشين في فارس ، ثم زحف بجيشه الجرار على عاصمة الخلافة الإسلامية ، بغداد . وكان الخليفة المستعصم في السابعة والثلاثين من عمره ، ومن الأسرة الحاكمة العباسية ، وابن الخليفة المستنصر من أمة أنيوية ، وكانت الآمال تداعبه في استرجاع قوة عرشه وهيبته . ومنذ انهيار الخوارزميين صارت الخلافة سيدة نفسها ، وما كان من خصومة بين القاهرة ودمشق ساعد الخليفة على أن يتصرف تصرف الحكيم للإسلام . بيد أنه على الرغم من اصطناعه الآبهة ومظاهر التشريفات من حوله ، فقد كان المستعظم رجلا ضعيفا أحمق ، كل همّه إشباع ملذاته الشخصية ، وقد تمزق بلاطه من جرّاء العداوة بين وزيره الشيعي مؤيد الدين ، وأمين سره السنّي أيك الذي كان يحظى بتأييد ولى العهد . وكانت حصون بغداد شديدة البأس ، وباستطاعة الخليفة بناء جيش كبير ، إذ كان عدد فرسانه مائة وعشرين ألفا؛ غير أن ذلك كان متوقفا على مصادر الإمدادات العسكرية ، والمستعصم لا يثق في أتباعه ، ومن ثم أخذ الخليفة بنصيحة وزيره بتقليص حجم الجيش ودفع إتاوة اختيارية من المال الناتج عن ذلك للمغول لإبعادهم عن بغداد . ولم يكن لسياسة التهذئة هذه أن تصيب نجاحا ، حتى في حالة تنفيذها على وجه الإتساق الأكمل ؛ ذلك أنه عندما رد هولاء طلب الاعتراف بسيادته على الخلافة ، كان نفوذ أيك آخذا في الصعود ، وانتهى الأمر برفض طلب هولاء رفضا متعاليا^(١٨).

وبات العرّافون من حول هولاء لا يتفقون جميعا على تشجيع حملته ، وراودته هواجس الخوف من خيانة أتباعه ممن يدينون بالإسلام وتدخل حكام سوريا ومصر ، فشرع في حملته متوجسا شيئا ما . على أنه اتخذ احتياطات ذات فعالية إزاء احتمالات الخيانة ، ولم يخف أحد لإنقاذ بغداد ، وفي ذات الوقت زاد جيشه قوة على قوة إذ جاءته فرقة من القبيلة الذهبية المغولية وكذلك الجيش الذي أبقاه بايكو على تخوم الأناضول طوال العقد الأخير ، فضلا عن فرقة من الفرسان الجورجيين المتحمسين لضرب عاصمة الكفرة.

وفي نهاية ١٢٥٧م انطلق الجيش المغولي هابطا من قاعدته في همذان ، وعبر بايكو

(١٧) Browne, loc. cit

(١٨) D'Ohsson, Histoire des Mongols, iii, pp. 215-25.

بجنوده نهر دجلة عند الموصل وسار جنوباً على الضفة الغربية ، ودخل كيتبوغا وجناح
الميسرة سهل العراق الواقع شرقي العاصمة ، بينما تقدم هولاكو والقلب خلال
كرمنشاه . وما أن سمع الخليفة باقتراب بايكو من الشمال الغربي حتى انطلق جيشه
بقواته الرئيسية لملاقاته . وأعاد أيك عبور نهر دجلة على مبعده ثلاثين ميلاً من بغداد ،
فتظاهر بايكو بالانسحاب وبذا تربص بالعرب في مكان منخفض معشوشب تملأه
المستنقعات ، وبعث بمهندسين لهدم الجسور المقامة على نهر الفرات من خلفهم ،
واستولفت المعركة في اليوم التالي . وأجبر جيش أيك على التقهقر إلى المنخفضات
الطينية ، ولم يتمكن من الفرار سوى أيك نفسه وحرسه الشخصي خلال المياه إلى
بغداد وهلك سواد جيشه في ميدان المعركة ، وفر الباقون على قيد الحياة إلى داخل
الصحراء وتفرقوا^(١٩).

١٢٥٨ م : المغول يخربون بغداد

وفي ١٨ يناير ظهر هولاكو أمام أسوار بغداد الشرقية وبحلول الثاني والعشرين من
الشهر باتت المدينة محاصرة تماماً مع جسور من القوارب على نهر دجلة أقيمت شمال
وجنوب أسوار المدينة التي يتوسطها النهر وتطل على ضفتيه كليهما . وكانت المدينة
الغربية التي تحوى قصر الخلفاء الغابرين أقل أهمية الآن من المدينة الشرقية حيث تتركز
مباني الحكومة ، وشن المغول أعنف هجماتهم على الأسوار الشرقية . وبدأ اليأس يدب
في نفس المستعصم . وبنهاية يناير أرسل الوزير ، الذي كان ينادى دائماً بالسلام مع
المغول ، ومعه البطريق النسطوري ، آملاً في أن يتوسط لدى دوكوز خاتون في محاولة
التعامل مع هولاكو فأعيدا دون أن يسمعهما أحد . وبعد أن قصف المغول الأسوار
الشرقية قصفاً مرعباً خلال الأسبوع الأول من فبراير بدأت الأسوار في الإنهيار ، وفي
العاشر من فبراير ، اقتحم المغول المدينة بأعدادهم الغفيرة ، وهنا برز الخليفة وسلم نفسه
لهولاكو ومعه قادة الجيش جميعاً ورجالات دولته . فأمروا بإلقاء أسلحتهم ثم ذبحوا ،
ولم يُبق المغول على أحد سوى الخليفة إلى أن دخل هولاكو المدينة والقصر يوم ١٥
فبراير . وبعد أن كشف الخليفة عن مخبأ كنوزه كلها ، قتل هو الآخر . وفي تلك الأثناء
دارت المذابح في كافة أنحاء المدينة لم يسلم منها من استسلم على الفور ومن واصل
القتال ، وهلك النساء والأطفال مع رجالهم ؛ ووجد مغولي في شارع جانبي أربعين

رضيعا حديثي الولادة ماتت أمهاتهم ، فأخذته الرحمة بهم فقتلهم إذ كان يدرك عدم إمكان بقائهم على قيد الحياة وليس هناك من يرضعهم. وكان الجنود الجورجيون وهم أول من اقتحم الأسوار على جانب خاص من الشراسة في تخريبهم . وفي مدى أربعين يوما قتل ثمانون ألف مواطن تقريبا في بغداد . وكان الباقون على قيد الحياة عددا قليلا من المحظوظين الذين لم تكشف أماكن اختبائهم في بعض الأقباء وعددا من البنات والأولاد من ذوى الجاذبية نجوا ليصبحوا عبيدا ، وأفراد المجتمع المسيحي الذين لجأوا إلى الكنائس وتركوا دونما إزعاج بأوامر خاصة من دوكوز خاتون^(٢٠).

وفي أواخر مارس كانت الروائح الكريهة المنبعثة من الجثث من الشدة بحيث سحب هولاء جنوده من المدينة خشية الأوبئة ؛ وأعرب الكثير منهم عن الأسى وهم خارجون لإعتقادهم أنه لا تزال هناك أشياء نفيسة يمكن العثور عليها. على أن هولاء لم يمتلك الآن الكنوز الضخمة التي اكتنزها الخلفاء العباسيون طوال خمسة قرون . وبعد أن أرسل قسما كبيرا منها إلى أخيه مونغا ، عاد متمهلا إلى همدان ومنها إلى أذربيجان حيث بنى قلعة حصينة فى شاهها على شاطئ بحيرة أورميا، وجعلها بمثابة مخزن لكافة ما بحوزته من ذهب ومعادن نفيسة ومجوهرات . وترك بغداد يحكمها الوزير السابق مؤيد الدين يراقبه مسؤولون مغوليون عن كثب. ومُنح البطريق النسطورى ماكيكا اقطاعا حصينة وقصرا ملكيا سابقا يكون له سكنا وكنيسة. وجرى تنظيف المدينة وإصلاح شأنها تدريجيا ، وبعد ذلك بأربعين سنة أصبحت مدينة اقليمية مزدهرة، وقد تضاعف حجمها إلى عشر ما كانت عليه^(٢١).

وكان لآباء تدمير بغداد عميق الأثر فى آسيا كلها . فطُرب لذلك المسيحيون الآسيويون فى كل ماكان ؛ وفى نشوة المنتصرين كتبوا عن سقوط بابل الثانية ، وهتفوا لهولاء ودوكوز خاتون على أنهما قسطنطين وهيلينا^(٢٢)، بُعثا من جديد وقد اتخذهما

(٢٠) Ibid. pp. 462-6; Bretschneider, op. cit. i, pp. 119-20; Abu'l Feda, pp. 136-7; Bar Hebraeus, pp. 429-31; Kirakos, pp. 184-6; Vatran (Armenian text, ed. Emin), p. 197; Hayton, *Flor des Estoires*, pp. 169-70.

(٢١) Bretschneider, op. cit. pp. 120-1; D'Ohsson, op. cit. iii, p. 257; Levy *A Baghdad Chronicle*, pp. 259-60.

(٢٢) (المترجم: قسطنطين). (مات سنة ٣٣٧م) أول امبراطور بيزنطى يعتنق المسيحية. ناصر الكنيسة ووجهها المباني . خاصة فى فلسطين . اتخذ من بيزنطة عاصمة له بعد أن أعاد بناءها وأطلق عليها "القسطنطينية" عام ٣٣٠م . فى ٢١٣م أمر بأن يكون يوم الأحد عطلة رسمية . وفى الشرق يعتبر قديسا.

الرب وسيلة للإنتقام من أعداء المسيح^(٢٣).

أما المسلمون ، فقد رأوا في سقوط بغداد صدمة مروعة وتحديا ؛ فعلى مدى قرون اقتطعت من الخلافة العباسية جوانب كثيرة من القوة المادية ، لكن كيائها المعنوى كان لا يزال عظيما . والآن وقد أزيلت الأسرة الحاكمة وكذلك العاصمة ، باتت زعامة الإسلام خاوية وغدا بمقدور أي قائد إسلامي طموح أن يشغلها . ولم يطل التشفى المسيحي ؛ فسرعان ما غلب الإسلام غالبية ؛ غير أن وحدة العالم الإسلامي كانت قد تلقت ضربة لم تستطع قط أن تبرا منها . وكان سقوط بغداد - بعد سقوط القسطنطينية بنصف قرن في ١٢٠٤م - وقد وضع نهاية دائمة لثنائية الحكم القديمة المتوازنة بين بيزنطة والخلافة ، وهي الثنائية التي في ظلها ازدهرت الإنسانية طويلا في الشرق الأدنى ؛ لكن لم يقدر للشرق الأدنى مطلقا أن يعيد هيمنته على الحضارة.

١٢٥٩م المغول يدخلون سوريا

عد أن خرب هولاكو بغداد حول انتباهه إلى سوريا . وكانت خطوته الأولى هي إحكام قبضة المغول على الجزيرة ، وخاصة لإخضاع الكامل أمير ميافرقين الأيوبي الذي رفض قبول السيادة المغولية ، ومضى شأوا بعيدا بحيث صلب قسا يعقوبيا قام بزيارته كمبعوث من هولاكو^(٢٤) . واستقبل هولاكو مبعوثين من دول كثيرة قبل مغادرته معسكره . وجاءه بدرالدين لؤلؤ ، أتابع الموصل المسن ، كى يعتذر عن مساوئه السابقة؛ وسرعان ما أتى على أثره السلطانان السلجوقيان إبنا كيخوسرو ، كايكاوس الثانى وقلج أرسلان الرابع ؛ وحاول الأول بلا جدوى تهدئة هولاكو ، وكان قد قاوم بايكو عام ١٢٥٦م ، مستخدما في هذه التهدئة رياء مفرطا مصطنعا أذهل المغول . وأخيرا، أرسل الناصر يوسف ، صاحب حلب ودمشق ، ابنه العزيز لتقديم واجب احتراماته في اتضاع للغازى . وحوصرت ميافرقين وتم الإستيلاء عليها في وقت مبكر

هيلينا: (قديسة) أم الإمبراطور قسطنطين . هجرها زوجها ، لكنها نالت مركزا مشرفا بعد اعتلاء ابنها العرش الإمبراطورى . تمجست في تأييدها للقضية المسيحية . وفي سنة ٣٢٦م زارت الأراضى المقدسة . ويقول التراث الكنسى المتأخر إنها اكتشفت الصليب الذى صلب عليه المسيح

(٢٣) Stephen Orbelian, *History of Siunia* (Armenian text), pp. 234-5, calls Hulagu and Dokuz Khatun "the new Constantine and Helena"

(٢٤) D'Ohsson, iii, p. 307.

من سنة ١٢٦٠م ، وذلك بفضل مساعدة حلفاء هولاء الجورجيين والأرمن . فذبحوا المسلمين وأبقوا على المسيحيين . وعُذّب الكامل بأن أُجبر على أن يأكل لحم بدنه هو نفسه إلى أن مات^(٢٥) .

وفي سبتمبر ١٢٥٩م قاد هولاء الجيش المغولي قاصدا غزو شمال غرب سوريا ؛ وكان كيتبوغا يقود الطليعة ، وبايكو الميمنة ، وقائد آخر مقرب - سونجياك - الميسرة ، بينما كان هولاء هولاء نفسه يقود القلب . وتقدم خلال نصيبين وحران والرها إلى البيرة حيث عبر نهر الفرات . وحاولت سروج مقاومته ، فنهبت . وفي باكورة العام الجديد أطبق الجيش المغولي على حلب ؛ ولما رفضت حاميتها الإستسلام ، حوصرت المدينة يوم ١٨ يناير ؛ وكان السلطان الناصر يوسف في دمشق عندما هبت العاصفة المغولية ؛ وكان في مأمره أن يؤدي وجود ابنه في معسكر هولاء إلى تجنب الخطر ، وعندما وجد أنه على خطأ ، خطا الخطورة الأكثر إهانة بأن عرض قبول سيادة مماليك مصر ، فوعده بالمساعدة لكنهم لم يكونوا في عجلة من أمرهم لتقديمها . وفي ذات الوقت جمع جيشا خارج دمشق ، واستدعى ابنه عمه صاحب حماة وصاحب الكرك لتقديم العون . على أنه بينما كان ماكنثا ينتظر ، بدأ بعض ضباطه الأتراك يتآمرون ضده ، واكتشف مخططاتهم في الوقت المناسب ؛ فهربوا إلى مصر آخذين معهم واحدا من إخوته . وتسبب هربهم في إضعاف جيشه بصورة كبيرة بحيث كف عن الأمل في الخروج لإنقاذ حلب .

وكان دفاع حلب دفاعا شجاعا بقيادة تورانشاه ، عم الناصر يوسف ؛ غير أنه بعد ستة أيام من القصف تداعت الأسوار وتدفق المغول إلى داخل المدينة . وكما حدث في الأماكن الأخرى ، ذبح المسلمون من المواطنين ، وتم الإبقاء على المسيحيين ، بخلاف بعض الأرثوذكس الذين لم تتضح كنيستهم في حريم التقتيل ، وصمدت القلعة لأربعة أسابيع أخرى بقيادة تورانشاه . وعندما سقطت في نهاية الأمر ، أظهر هولاء نفسه على أنه رحيم بصورة غير متوقعة ؛ فأبقى على حياة تورانشاه لكبر سنه ولشجاعته ، ولم تمس حاشيته . ووقع في يد الغازي قدر ضخم من الكنوز . وضم هولاء حلب إلى أمير حمص السابق الأشرف الذي كان له من البصيرة ما جعله يأتي إلى معسكر المغول كعميل قبل ذلك بشهور قليلة ؛ وتوفر له مستشارون مغول وحامية

Kirakos, pp. 177-9; Vartan, p. 199; Rashid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 330-1; (٢٥) D'Osson, iii, p. 356.

مغولية دعما لسلطانها^(٢٦).

وبعد ذلك ، كان يتعين معاقبة قلعة هرنس الواقعة على الطريق الذهاب من حلب إلى أنطاكية ، لأن حاميتها رفضت الإستسلام ما لم يضمن أحد المسلمين كلمة هولاكو. وعندما تم الإستيلاء عليها مع المذبحة المعتادة ، أصبح هولاكو على حدود أنطاكية ، حيث ذهب أميرها وحموه ملك أرمينيا إلى معسكره لتقديم احتراماتهما . وكان الملك هيثوم قد سبق وأن زوده بقوات للتعزيزات وكوفىء ببعض الأسلاب من حلب ، بينما صدرت الأوامر للأمراء السلاجقة بأن يعيدوا إليه الأراضي التي استولى عليها أبوه في كيليكيا . كما كوفىء بوهمند لما أبداه من طاعة ؛ فأعيدت إلى إمارة أنطاكية عدة مدن وقلاع كانت تابعة للمسلمين منذ يوم انتصار صلاح الدين ، من بينها اللاذقية ؛ وفي المقابل كان مطلوباً من بوهمند تنصيب بطريق يوناني هو إيونيوس في عاصمته مكان البطريرق اللاتيني . وعلى الرغم من أن الملك هيثوم لم يكن يميل إلى اليونانيين ، إلا أن هولاكو كان يعي أهمية وجود عنصرهم في أنطاكية ؛ وربما كان حافزه في ذلك علاقة الصداقة التي تربطه بالإمبراطور في نيقية^(٢٧).

١٢٦٠م سقوط دمشق

بدا لللاتينيين في عكا أن خضوع بوهمند مجلبة للعار ، خاصة وأنه ينطوي على إهانة الكنيسة اللاتينية في أنطاكية . وكان النفوذ البندقي ما يزال في أعلى مستواه في المملكة، ومرة أخرى بات البنادقة على علاقة تجارية جيدة مع مصر ؛ وقد انصب اهتمامهم على التجارة الآتية من الشرق الأقصى خلال الطريق الجنوبي وعن طريق الخليج الفارسي أو البحر الأحمر؛ وتزايدت لديهم مشاعر القلق وهم يشاهدون طرق القوافل المغولية العابرة أواسط آسيا إلى البحر الأسود حيث كان أبناء جنوا يعززون سيطرتهم بتحالفاتهم مع اليونانيين . وتلفتت الحكومة في عكا حولها باحثة عن بلد

(٢٦) Maqrissi, *Sultans*, I, i, pp. 90,97; Abu'l Feda, pp. 140-1; Rashid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 327-41; Bar-Hebraeus, pp. 435-6

(٢٧) *Gestes des Chiprois*, p. 161; letter to Charles of Anjou, *Revue de l'Orient Latin*, vol. ii, p. 213; Bar-Hebraeus, p. 436; Hayton, *Flor des Estoires*, p. 171..

وقد قام البابا بطرد بوهمند من الكنيسة بسبب هذا التحالف Urban IV, *Registres*, 26 May 1263. ولم يُذكر قط تسليم اللاذقية ، لكنها كانت في أيدي الفرنج عندما ذكرت بعد ذلك . أنظر أدناه الصفحتين ٣٩٥-٣٩٦.

آخر لحمايتها ؛ وكان معروفا أن تشارلز (أوف أنجو)، أخا ملك فرنسا، لديه طموحات في البحر المتوسط وكان يتأمر بالفعل من أجل عرش صقلية ؛ فأرسلت حكومة عكا إليه رسالة عاجلة في مايو ١٢٦٠م تصف أخطار تقدم المغول وترجوه التدخل^(٢٨).

وفي وقت كتابة الرسالة كان المغول أسيا دمشق . فلم يحاول السلطان الناصر يوسف الدفاع عن عاصمته ؛ إذ أنه ما أن علم بسقوط حلب واقتراب الجيش المغولي حتى هرب إلى مصر لاجئا إلى المماليك ، ثم غيّر رأيه وكر عائدا باتجاه الشمال فأسره المغول . وأرسلت حمّاه وفدا إلى هولاء في فبراير ١٢٦٠م ، قدّم اليه مفاتيح المدينة ، وبعد أيام قلائل حذا وجهاء دمشق حذوهم ، وفي غرة مارس دخل كيتبوغا دمشق على رأس جيش مغولي ، وبصبحته ملك أرمينيا وأمير أنطاكية . ولأول مرة منذ ستة قرون يشهد مواطنو عاصمة الخلافة القديمة ثلاثة زعماء مسيحيين راكبين في شوارع المدينة في جولة المنتصر . وكانت القلعة قد صمدت للغزاة لأسابيع قليلة ، لكنها هُزمت وتم الإستيلاء عليها يوم ٦ إبريل .

وبسقوط المدن الثلاث العظام ، بغداد وحلب ودمشق ، بدا أن الإسلام في آسيا قد جاءت نهايته . ففي دمشق ، كما في سائر أنحاء غربي آسيا ، كان الغزو المغولي يعنى نهضة المسيحيين المحليين ؛ ولم يُخفّر كيتبوغا تعاطفه مع المسيحيين ، إذ كان هو نفسه مسيحيا . وللمرة الأولى منذ القرن السابع ، يجد مسلمو وسط سوريا أنفسهم أقلية مضطهدة . فكانوا يتحرقون شوقا للإنتقام^(٢٩).

وفي ربيع ١٢٦٠م أرسل كيتبوغا فصائل لاحتلال نابلس وغزة ، ومع ذلك لم يصلوا إلى القدس نفسها ؛ وبذا أصبح الفرنج محاطين تماما بالمغول . ولم يكن لدى السلطات المغولية أية نوايا لمهاجمة المملكة الفرنجية شريطة أن تبدي ما يكفي من الخضوع ؛ وكان الفرنج الأكثر تعقلا على استعداد لتجنب الاستفزاز ، لكنهم لا يستطيعون التحكم في مزاجهم المتهور ؛ وكان أكثر البارونات رعونة حوليان ، لورد صيدا وبيوفورت ، وهو رجل ضخّم البنية وبه وسامة ، غير أن رغباته كانت تسيّره في حمقه ، وقد خلا مما كان يتمتع به جده رينالد من ذكاء حاد ؛ إذ سبق أن أجبره تذييره

(٢٨) 'Lettre à Charles d'Anjou', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. ii, pp. 213-14

(٢٩) Abu'l Feda, pp. 141-3; *Gestes des Chiprois*, loc. cit.; Hayton, *Flor des Estoires*, pp. 171-2.

وللإطلاع على مراجع المخطوطات أنظر. Cahen, op. cit. p. 707 nn. 19, 20.

المفرط على أن يرهن صيدا لفرسان المعبد بعد أن اقترض منهم مبالغ طائلة ؛ وتسبب مزاجه الأخرق في نشوب خلاف بينه وبين فيليب أمير صور الذى كان حاله غير الشقيق ؛ وكان قد تزوج بواحدة من بنات الملك هيثوم ؛ ولم يكن لحميه من نفوذ عليه . وبدا له أن الحروب بين المغول والمسلمين بمثابة فرصة سانحة للتوغل فى غارة من بيوفورت إلى سهل البقاع الخصيب ؛ غير أن كيتبوغا لم يكن يسمح للمغيرين بأن يفسدوا النظام المغولى حديث الولادة ، فأرسل فصيلة صغيرة من الجنود تحت إمرة أحد أبناء إخوته لمعاقبة الفرنج ؛ فما كان من جوليان إلا أن استنجد بجيرانه لمساعدته ، فتربصوا بآبن أخى كيتبوغا وقتلوه ، فأرسل كيتبوغا فى حمأة غضبه جيشا أكبر توغل داخل صيدا ونهبها برغم إنقاذ قلعة البحر بواسطة السفن الجنوية الآتية من صور . وتسبب ذلك فى هياج الملك هيثوم وألقى باللائمة على فرسان المعبد الذين انتهزوا فرصة خسائر جوليان لمصادرة رهنية صيدا وبيوفورت . وبعد ذلك بوقت قصير أغار جون الثانى أمير بيروت وفرسان المعبد على الجليل وواجهتها قوات الإحتياط المغولية بنفس القدر من الشراسة المغولية الشديدة^(٣٠) .

١٢٥٩م : موت الخان الأعظم مونغا

ومع ذلك ، لم يكن بوسع كيربوقا الشروع فى معارك كبيرة . وفى الحادى عشر من أغسطس ١٢٥٩م مات الخان الأعظم مونغا أثناء حملته مع أخيه قوبلاى فى الصين ؛ وكان أولاده صغارا غرارا ، ولذا مارس الجيش فى الصين ضغوطا لإستخلاف قوبلاى ، غير أن الأخ الأصغر لمونغا ، أريكبوغا ، كان يسيطر على الوطن بما فيه قراقورام والخزائن المركزية لكنوز الإمبراطورية ، واشتهى العرش لنفسه . وبعد عدة شهور من المناورات واستكشاف الصديق من غير الصديق ، عقد كل من الأخوين مؤتمرا (كوريلتاى) فى ربيع ١٢٦٠م ، انتخب كل مؤتمر أحد الأخوين خانا أعظم . وكان يؤيد أريكبوغا أغلب أقاربه الإمبراطورين الذين كانوا فى منغوليا ، بينما كان لدى قوبلاى الدعم الأقوى فيما بين القادة . ولم يكن أى من المؤتمرين أو (الكوريلتاين) قانونيا تماما ؛ إذ لم تكن كافة فروع العائلة ممثلة ، ولم يكن أى من الجانبين على استعداد لإنتظار حضور هولاكو وأمراء القبيلة الذهبية ، ولم يُخطر حتى آل ياغاتاى

(٣٠) *Gestes des Chirois*, pp.162-4p Hayton, *Flor des Estoires*, p.174p *Annales de Terre Sainte*, p. p. 449، وربما أخطأ فى ذكر تاريخ هذه الأحداث بعد معركة عين جالوت

ولم يرسلوا وفودا تمثلهم . وكان هولاکو نفسه يؤيد قوبلاي ، رغم أن ابنه شوموغار كان من حزب أريقبوغا ، بينما كان بيرك - خان القبيلة الذهبية - متعاطفا مع أريقبوغا . ولم تحسم المسألة إلا في نهاية سنة ١٢٦١م عندما سحق قوبلاي أريقبوغا أخيرا ، وفي ذات الوقت ظل هولاکو ماکثا في حذر بالقرب من حدوده الشرقية ، على أهبة الإستعداد للتحرك إلى داخل منغوليا إذا دعت الضرورة . وكان له ما يبرر شعوره بالقلق ؛ ذلك أن أريقبوغا تدخل بصورة استبدادية في شؤون الخانية التركستانية واستبدل الوصيّة أورغانا بابن عم زوجها (آلغو) الذي هرب لاحقا وتزوج أورغانا ، الأمر الذي كان له أكبر الأثر في انتصار قوبلاي ؛ ولذا كان هولاکو يخشى تدخلا مماثلا في أراضيه ؛ فضلا عن ذلك ، كانت علاقاته مع أبناء عمومته في القبيلة الذهبية آخذة في التدهور . وفي الوقت الذي أظهر بلاطه أوجه التعاطف الشديد المسيحية ، كان الخان بيرك ينحاز إلى الجانب الإسلامي معترضا على سياسة هولاکو المعادية للإسلام . وحدثت مناقشات في القوقاز وهي التخوم التي تفصل بين مناطق نفوذ كل من هولاکو وبيرك ؛ وقد دأب الأخير وقواد جيشه على اضطهاد القبائل المسيحية . على أن محالة هولاکو توطيد سلطنة على الجانب الشمالي من الجبال بآت بالفشل عندما انتصر على جيش من جيوشه حفيد ابن أخى بيرك (نوغاي) بالقرب من نهر تيرك عام ١٢٦٩م^(٣١).

كان هولاکو في خضم هذه المشاغل مما اضطره إلى سحب الكثير من جنوده من سوريا بعد استيلائه على دمشق مباشرة ، وترك قيتبوغا يحكم البلد بقيادة متقلصة تقلصا شديدا . ولسوء حظ المغول ، استفز تقدمهم في فلسطين القوة الإسلامية العظيمة الوحيدة التي لم تهزم ، ألا وهي ممالك مصر ؛ والآن غدا الممالك في حالة مناسبة لقبول التحدي.

كان أول سلاطين الممالك ، أيك ، مزعزا في سلطانه . ولكي يضيف الشرعية على نفسه تزوج الأرملة المسنة السلطنة شجرة الدر ، ليس هذا فحسب وإنما عين كسلطان مشارك طفلا من أمراء الأيوبيين . غير أن ذلك الطفل - الأشرف موسى - كان عديم الجدوى وسرعان ما اتضح أنه عبء بلا طائل ؛ وفي سنة ١٢٥٧م نشأ

(٣١) Rashid ad-Din, pp. 341 ff., 391 ff.; Bar-Hebraeus, p. 439; Kirakos, pp. 192-4; Hayton, *Flor des Estoires*, p. 173. See Grousset, *L'Empire Mongol*, pp. 317-24; Howorth, op. cit. iii, p. 151; D'Ohsson, op. cit., iii, p. 377. العائلة الإمبراطورية في خط القرابة الأنثوي

خلاف بين أيك والسلطانة التي لم تكسر على استعداد لأن يهبر سلطانها من بعتر مبتدئا حديث النعمة ؛ وفي ١٥ ابريل أعدت العدة كي يقتله الخصيان التابعون له في حمامه . وكاد مقتله أن يثير حربا أهلية ، إذ نادى بعض المماليك بالانتقام من الأرملة ، وأيدها آخرون كرمز للشرعية . وفي نهاية الأمر انتصر أعداؤها ؛ وفي ٢ مايو ١٢٥٧م ضربت شجرة الدر حتى الموت بينما نصب ابن أيك سلطانا وكان ابن خمسة عشر ربيعا ، على أن الشاب لم يكن يمثل أسرة حاكمة لها احترامها ولا يتمتع هو نفسه بشخصية القائد ، فخلعه في شهر ديسمبر ١٢٥٩م أحد رفاق أبيه القدامى ، سيف الدين قطز ، وأصبح سلطانا بدلا منه . وتولى السلطنة عاد إلى مصر شتى المماليك - مثل بيبرس - ممن هربوا إلى دمشق لاستيائهم من أيك^(٣٢).

١٢٦٠م : المماليك يطلبون مساعدة الفرنج

في وقت مبكر من سنة ١٢٦٠م أرسل هولاءكو سفارة إلى مصر بطلب خضوع السلطان ، فقتل قطز السفير وتأهب لملاقاة المغول في سوريا . وقد حدث في تلك الآونة أن اضطر هولاءكو إلى نقل الجزء الأكبر من جيشه باتجاه الشرق بعد وصول الأنباء بموت مونغاكا واندلاع الحرب الأهلية في منغوليا . وكانت أعداد الجنود الذين تركوا مع كيتبوغا أقل كثيرا من الجيش الذي جمعه قطز الآن ، فبال جانب المصريين أنفسهم كانت هناك بقايا القوات الخوارزمية وجنود أمير الكرك الأيوبي . وفي ٢٦ يولية عبر الجيش المصري الحدود وسار إلى غزة ، وبيبرس يقود الطليعة . وكانت هناك قوة مغولية صغيرة في غزة بقيادة القائد بيدار الذي أرسل إلى كيتبوغا يحذره من الغزو؛ على أنه قبل أن يتمكن المدد من الوصول اجتث المصريون شأفة جنوده^(٣٣).

وكان كيتبوغا في بعلبك ، فأعد العدة من فوره للسير جنوبا مرورا ببحر الجليل إلى وادي الأردن ، لكن انتفاضة للمسلمين في دمشق أوقفته ؛ فقد دُمرت بيوت المسيحيين وكنائسهم ونشأت الحاجة إلى جنود المغول لاستعادة النظام^(٣٤). وفي ذات الوقت قرر قطز المسير أعلا الساحل الفلسطيني وأن يتقدم داخل البلد نحو الشمال

(٣٢) Abu'l Feda, p. 135.

(٣٣) Rashid ad-Din (trans. Quatremère), p. 347; D'Ohsson, op. cit. iii, pp. 333-5.

(٣٤) Abu'l Feda, p. 143.

لتهديد خطوط مواصلات كيتبوغا فى حالة تقدم الأخير داخل فلسطين . ولذا أرسلت سفارة مصرية إلى عكا طالبة الإذن بالمرور خلال الأراضى الفرنجية والحصول على المؤن أثناء المسير إن لم يكن الحصول على العون العسكرى الفعّال.

واجتمع البارونات فى عكا لمناقشة الطلب . وكانت مشاعر المرارة ضد المغول تخيم عليهم نظرا لنهب صيدا مؤخرا ، كما راودتهم الريب حيال تلك القوة الشرقية بما لها من سجل فى المذابح بالجملة . وكانت الحضارة الإسلامية مألوفة لديهم ؛ وكان أغلبهم يفضل المسلمين كثيرا على المسيحيين المحليين المتمتعين بمحابة المغول . وفى بادئ الأمر كانوا ميالين إلى تقديم بعض القوات المسلحة الإحتياطية للسلطان ؛ غير أن السيد الأعظم للنظام التيوتونى^(٣٥) ، وهو آنو (أوف ساينجهاوزن) ، حذرهم من الثقة الكبيرة فى المسلمين ، خاصة إذا ارتفعت معنوياتهم بانتصار على المغول . وكان النظام التيوتونى يمتلك الكثير من الممتلكات فى المملكة الأرمينية ؛ وربما كان آنو يشجع سياسة الملك هيثوم . وقد كان لكلماته التى اتصفت بالحصافة بعض الأثر على بارونات الصليبيين ؛ فرفض التحالف العسكرى ، وإنما وعدوا السلطان بمرور آمن لجيشه وإمداده بتسهيلات المؤن^(٣٦) .

وخلال شهر أغسطس قاد السلطان جيشه أعلا الطريق الساحلى وعسكر لعدة أيام فى حدائق الفاكية خارج عكا . ووجهت الدعوة لعدد من الأمراء لزيارة المدينة كضيوف شرف ومن بينهم بييرس الذى ألفت قطز بعد عودته إلى المعسكر إلى سهولة الإستيلاء على المدينة بغته ؛ لكن قطز لم يكن على استعداد لأن يكون خوّونا على هذا النحو ولا أن يخاطر بانتقام مسيحيي بينما المغول لم يُهزموا بعد . وتزايد شعور الحرج لدى الفرنج كثرة من أعداد زائريهم ، لكن عزاءهم كان فى الوعد بالسماح لهم بشراء ما يحصلون عليه من خيول المغول بأسعار مخفضة^(٣٧) .

(٣٥) (المترجم): النظام التيوتونى: Teutonic Order نظام عسكرى دينى يتألف جُلّه من الفرسان الألمان وبعض الإسكندنافيين والهولنديين والإنجليز

(٣٦) MS. of Rothelin, p. 637

(٣٧) William of Tripoli, *De Statu Saracenorum*, in Du Chesne, v, p. 443; *Gestes des Chiprois*, pp. 164-5.

١٢٦٠ م : معركة عين جالوت

نما إلى علم قطز وهو فى عكا أن كيتبوغا قد عبر الأردن ودخل سهل الجليل الشرقى؛ فقاد جيشه على الفور باتجاه الجنوب الشرقى ، خلال الناصرة ، وفى يوم ٢ سبتمبر وصل عين جالوت ، أى عيون حوليات ، حيث سبق وأن تحدى الجيش المسيحى صلاح الدين فى عام ١١٨٣ م . وجاء الجيش المغولى فى الصباح التالى وبصحبة فرسانه كتائب جورجية وأرمينية ؛ لكن كيتبوغا كان يفتقر إلى الكشافين ، إذ كان السكان المحليون غير ودودين حياله ؛ ولذا لم يكن يعرف أن الجيش المملوكى كله على مقربة . وكان قطز على دراية تامة بتفوقه العددي ، ولذا أخفى قواته الرئيسية فى التلال القريبة ولم يُظهر سوى الطليعة التى يقودها بيبرس . ووقع كيتبوغا فى الفخ . إذ قاد رجاله كلهم فى هجوم على العدو الذى رآه أمامه ؛ فتقهقر بيبرس فى لمح البصر داخل التلال والأعداء يتعقبونه فى حماس متقد ، وفجأة وجد الجيش المغولى نفسه وقد حوَصر كله . وقاتل كيتبوغا قتالا رائعا ، وبدأ المصريون بتأرجحون ، ودخل قطز نفسه المعركة لتنظيمهم ؛ على أنه بعد ساعات قليلة اتضحت آثار تفوق المسلمين العددي . وتمكن بعض رجال كيتبوغا من شق طريقهم هربا من المعركة ، لكن كيتبوغا نفسه رفض أن يشهد هزيمته ؛ فكان وحيدا أو يكاد عندما قتل حصانه ووقع أسيرا ، وأنهى أسره المعركة . واقتيد فى القيود إلى السلطان الذى راح يسخر من سقوطه ؛ فرد فى تحدٍ متنبئا بانتقام مخيف من المنتصرين ، ومتفاخرا بأنه - على خلاف أمراء المماليك - دائم الإخلاص لسيدته . فضربوا عنقه^(٣٨) .

كانت معركة عين جالوت إحدى المعارك الحاسمة فى التاريخ . ومن الحق أن الأحداث التى حدثت على بعد أربعة آلاف ميل نسببت فى أن يصبح الجيش المغولى فى سوريا من الضالة بحيث لم يقدر - فى غيبة الكثير من الحظ الحسن - على الإضطلاع بإخضاع المماليك، ومن الحق أنه لو أرسل جيش أكبر بعد الكارثة ، لأمكن استعواض الهزيمة ؛ غير أن تصارييف التاريخ قد حالت دون تحويل حكم التاريخ المتخذ فى عين جالوت تحويلا معاكسا . لقد كان النصر المملوكى إنقاذا للإسلام من أخطر تهديد كان عليه مواجهته . ولو قُدِّر للمغول أن يتوغلوا داخل مصر ، لما بقيت هناك دولة إسلامية عظيمة فى العالم شرقى مراكش . ولقد كانت أعداد المسلمين فى آسيا غفيرة بصورة فائقة بحيث تستحيل إزالتهم ، لكن لم يقدر لهم أم يكونوا الجنس الحاكم . ولو

(٣٨) Rashid ad-Din, pp. 349-52; Maqrisi, I, i, *Sultans*, pp. 104-6; Abu'l Feda, pp. 143-4.

قُدِّرَ لكثير بوقا المسيحي الانتصار ، لكان في ذلك تشجيع لتعاطف المغول حيال المسيحيين ، ولأصبح المسيحيون الآسيويون في مركز القوة للمرة الأولى منذ المهرطقات الكبرى لعصر ما قبل الإسلام . ومن العجيب أن نتخيل ما كان يمكن أن يحدث آنذاك ، ولا يستطيع المؤرخ إلا أن يقص ما قد حدث فعلا . لقد جعلت عين جالوت من سلطنة مصر المملوكية القوة الرئيسية في الشرق الأدنى للقرنين التاليين ، وحتى بروز الإمبراطورية العثمانية . ولقد أكملت القضاء على المسيحيين الوطنيين في آسيا ؛ ذلك أنه بتقوية الإسلام وإضعاف العنصر المسيحي فإنها سرعان ما حفزت المغول الباقين في غرب آسيا إلى اعتناق الإسلام . كما أسرع بزوال الدويلات الصليبية ؛ إذ أن المسلمين المنتصرين ، كما تنبأ السيد الأعظم للنظام التيوتوني ، باتوا تواقين للإنتهاء من أعداء العقيدة .

وبعد خمسة أيام من الانتصار في عين جالوت ، دخل السلطان دمشق . فأما الأشرف الأيوبي الذي نبذ القضية المغولية فقد أعيد تنصيبه في حمص ؛ وأما أمير حماة الأيوبي الذي هرب إلى مصر فقد عاد إلى إمارته ؛ واستعبدت حلب في غضون شهر . وأما هولاءكو ، الذي تملكه الغضب لفقدانه سوريا ، فكان فاقد الحيلة إلى أن يعود النظام في قلب الإمبراطورية المغولية . ولقد أرسل الجنود لاستعادة حلب في شهر ديسمبر ، لكنهم أُجبروا بعد أسبوعين على الانسحاب بعد أن ذبحوا عددا كبيرا من المسلمين انتقاما لموت كيتبوغا . وكان ذلك هو كل ما استطاعه هولاءكو للإنتقام لصديقه المخلص^(٣٩) .

وانطلق السلطان قطز في رحلة العودة إلى مصر تظلمه أكاليل المجد . على أنه بالرغم من أن نبوءة كيتبوغا عن الثأر لم تتحقق تماما قط ، فإن ملاحظته المريرة عن عدم إخلاص المماليك سرعان ما كان لها ما يبررها . إذ أن ربيعة قُضِرَ في أكثر قواده نشاطا وهو بيبرس ، كانت آخذة في التزايد ؛ وعندما طلب بيبرس أن يُنصَّب حاكما لحلب رُفِضَ طلبه بصورة جافية . ولم ينتظر بيبرس طويلا كي يتصرف ؛ ففي يوم ٢٣ أكتوبر ١٢٦٠م ، وبينما كان الجيش المنصور يقترب من حافة الدلتا ، ذهب قطز للتريض في صيد الأرانب البرية ، وانطلق مع قليل من أمرائه . بمن فيهم بيبرس وبعض أصدقائه . وما أن ابتعدوا عن المعسكر حتى اقترب أحدهم كما لو كان سيطلب شيئا من السلطان ، وبينما كان ممسكا يده متهيئا لتقبيلها ، اندفع بيبرس من الخلف وطعن

(٣٩) Abu'l Feda, p. 144; Bar-Hebraeus, pp. 439-40. See Cahen, op. cit. pp. 710-11

سيده بالسيف في ظهره . ثم إن المتآمرين انطلقوا على جيادهم إلى المعسكر ليعلنوا القتل . وكان أقطاي ، ياور السلطان ، في الخيمة الملكية عندما وصلوا وسأل من فوره أيهم ارتكب القتل ؛ وعندما اعترف بيبرس على نفسه ، دعاه أقطاي إلى الجلوس على عرش السلطان ، وكان أول من أعرب له عن طاعته ؛ وحذا قادة الجيش كلهم حذوه . وعاد بيبرس إلى القاهرة سلطاناً^(٤٠) .

Abu'l Feda, loc. cit.; Maqrissi, *Sultans*, I, 1, pp. 110-13; Bar-Hebraeus, loc. cit.; (٤٠) *Gestes des Chiprois*, pp. 165-6.

الفصل الرابع:

السلطان بيبرس

السلطان بيبرس

"وأغلق على المصريين في يد مولى قاس فَيَسْلَطَ عليهم
ملك عزيز يقول السيد ربّ الجنود"

(إشعياء ١٩:٤)

كان ركن الدين بيبرس البندقدارى يقارب الآن عامه الخمسين ، وهو تركى من الكيشاك بالميلاد ضخّم داكن البشرة ، أزرق العينين ذو صوت عال رنان . وعندما جاء إلى سوريا بادیء الأمر كعبد عُرض للبيع على أمير حمّاه الذى تفحصه وظنه حلفاء بالغ الخشونة . غير أن أميراً مملوكياً ، البندقدار حارس السلطان ، لاحظته فى السوق وأنس فيه الذكاء ، فابتاعه . ومنذ ذلك الوقت سرعان برز نجمه ، ومنذ انتصاره على الفرنج فى سنة ١٢٤٤م عرف عنه أنه أقدر الممالك العسكر . وأظهر الآن أنه رجل دولة من أرفع مستوي ، لا تعوقه مقتضيات الشرف أو الإمتنان أو الرحمة^(١).

كان أول ما يشغله توطيد وضعه الجديد كسلطان ؛ ولم يعترض سبيله أحد فى مصر، أما فى دمشق فكان هناك مملوك آخر استولى على السلطة هو سنقر الحلبي الذى

(١) Abu'l Feda, p. 156. See Sobernheim, article 'Baibars' in *Encyclopaedia of Islam*.

كانت له شعبيته في دمشق ، لكن هجوم المغول على حلب في نفس الوقت هدد قبضة بيبرس على سوريا؛ غير أن أمير حمص وحماه الأيوبيين هزم المغول بينما زحف بيبرس على دمشق وهزم سنقر خارج المدينة يوم ١٧ يناير ١٢٦١م ، وحارب مواطنو دمشق تأييدا لسنقر لكن مقاومتهم سُحقت . ومضى بيبرس ليتعامل مع الأيوبيين ؛ فأغرى أمير الكرك بوعود براءة كي يضع نفسه تحت إمرة السلطان ثم أزيل بهدوء ؛ وُسُحح للأشرف صاحب حمص بالإحتفاظ بمدينته حتى وفاته سنة ١٢٦٣م . وفي أوائل سنة ١٢٦٤م اتفق نظاما المعبد والمستشفى على توحيد قواتهما للإستيلاء على حصن ليزون الصغير ، وهي مجيدو القديمة^(٢) ، وبعد أشهر قليلة قاما بغارة مشتركة حتى عسقلان ، بينما توغل في الخريف الجنود الفرنسيون الذين يُدفع نفقاتهم من أموال القديس لويس ، توغلا فعلا حتى ضواحي بيسان . ولذلك اجتاح المسلمون الريف الفرنجي جنوب الكرمل فأمست الحياة غير آمنة هناك^(٣) .

وفي بداية سنة ١٢٦٥م انطلق بيبرس من مصر على رأس جيش رهيب . ذلك أن المغول بدأوا يعتدون على شمال سوريا في ذلك الشتاء ؛ وانتوى بيبرس بادیء الأمر القيام بهجوم مضاد؛ لكنه علم أن جنوده في الشمال أوقفوهم ، ولذا أصبح في مقدوره استخدام جيشه في مهاجمة الفرنج في الجنوب . وتظاهر بأنه يتسلي بحملة صيد ضخمة في التلال الواقعة خلف أرصوف ، ثم ظهر بغتة أمام قيسارية ، وسقطت المدينة في الحال يوم ٢٧ فبراير، وصمدت القلعة لأسبوع ، واستسلمت الحامية يوم ٥ مارس وُسُحح لها بحرية الرحيل، غير أن المدينة والقلعة علي السواء سُويتا بالأرض . وبعد أيام قلائل ظهر جنوده عند حيفا . فأما المواطنون الذين أُنذروا في الوقت المناسب فقد هربوا في قوارب كانت راسية تاركين كلا من المدينة والقلعة اللتين دُمّرتا ؛ وأما من بقي هناك فقد قتل . وفي تلك الأثناء هاجم بيبرس قلعة فرسان المعبد العظيمة في عثليت ، وحُرقت القرية الواقعة خارج الأسوار لكن القلعة نفسها أفلحت في مقاومته ؛ وفي ٢١ مارس كفّ عن محاصرتها وسار إلى أرصوف التي حصنها فرسان المستشفى بالحامية والمون تحصينا جيدا ؛ فكان بها ٢٧٠ فارسا داخل القلعة حاربوا بشجاعة رائعة ، لكن جنوب المدينة سقط يوم ٢٦ ابريل بعد أن دُمّرت آلات حصار السلطان أسوارها ، وبعد ثلاثة أيام استسلم قائد القلعة ، الذي فقد ثلث فرسانه، بعد الوعد بمرور الأحياء

(٢) (المترجم) مجيدو : Megiddo مدينة قديمة شمال فلسطين على سهل ازدراليون يرجع تاريخها الى ٣٥٠٠ سنة قبل الميلاد . يعتقد أنها هراماجيدون Armageddon المذكورة في الإنجيل

(٣) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 444, 449; *Annales de Terre Sainte*, p. 451.

مرورا آمنا ، وتراجع بيرس عن وعده واقتادهم جميعا أسرى. وارتاع الفرنج لضياح هاتين القلعتين العظيمتين ، وألهمت هذه الخسارة المنشد المتحول ، ريكوت بونوميل ، قصيدة مريرة شاكية من أن المسيح يبدو الآن مسرورا بما لحق المسيحيين من ذلة^(٤).

وهنا جاء دور عكا . لكن الرضى ، هيو أمير أنطاكية ، الذى كان فى قبرص ، كان قد سارع فعلا وعبر البحر مع ما استطاع جمعه من الرجال ؛ وعندما اتجه بيرس شمالا من أرصوف مرة أخرى ، وجد هيو قد نزل إلى البر فى عكا يوم ٢٥ إبريل ؛ فعاد الجيش المصرى إلى وطنه بعد أن ترك جنودا للسيطرة على الأراضى المستعادة مؤخرًا . والآن باتت الحدود على مرمى البصر من عكا ذاتها^(٥). وسارع بيرس بكتابة أنباء انتصاراته إلى مانفريد ملك صقلية الذى تظاهر البلاط المصرى بالصدقة مع والده فريدريك الثانى^(٦).

١٢٦٥م : موت هولاکو

كانت تلك السنة سنة طيبة لبيرس ؛ ففى ٨ فبراير ١٢٦٥م مات هولاکو فى أذربيجان. وكان أخوه قوبلاى قد منحه لقب الخان وتوارث إدارة الممتلكات المغولية فى جنوب غربى آسيا . وعلى الرغم من أن مشاكله مع القبيلة الذهبية ومع مغول التركستان ، الذين اعتنقوا الإسلام كذلك ، قد حالت دون استئناف هجوم حاد على الممالك ، فقد كان مع ذلك مرهوب الجانب بما يكفى لردع الممالك عن مهاجمة حلفائه . وفى شهر يولييه ١٢٦٤م عقد آخر مؤتمر له (كوريلتاى) فى معسكره بالقرب من تبريز حضره أتباعه جميعا بمن فيهم الملك داود ملك جورجيا ، والملك هيثوم ملك أرمينيا ، وبوهمند أمير أنطاكية . وكان هيثوم وبوهمند فى حالة من الخنزى أمام هولاکو لقيامهما فى العام السابق باختطاف البطريق الذى أصرّ هولاکو عام ١٢٦٠م على تنصيبه ، وهو إيوثيمىوس بطريق أنطاكية ، وحمله إلى أرمينيا ، واستبدلا به البطريق

(٤) *Gestes des Chiprois*, p. 171; *Estoire d'Eracles*, II, p. 450; *Annales di Terre Sainte*, pp.451-2; al-Aïni, pp.219-21; Abu'l Feda, p. 150; Maqrissi, *Sultans*, I, ii, pp. 7-8.

Bonomel's poem is given in Bartholemaeis, *Poesie Provenziale*, II, pp. 222-4.

(٥) *Gestes des Chiprois*, loc. cit.; *Estoire d'Eracles*, loc. cit..

(٦) Maqrissi, *Sultans*, I, ii, p. 16. ويورد Al-Aïni سفارة إلى بيرس فى ١٢٦٤م من تشارلز (أوف أنجو) الذى كان يخطط لمهاجمة مانفريد. (p.219)

أوبيزون اللاتيني في أنطاكية . وكان هولاکو يدرك أهمية التحالف مع البيزنطيين كوسيلة لكبح أترک الأناضول ؛ فكان يتفاوض على سيدة من العائلة الإمبراطورية في القسطنطينية ليضيفها إلى زوجاته ، وعندما اختار الإمبراطور ميخائيل لهذا الشرف ابنته من السفاح ، ماريا ، رافقها إلى تبريز البطريق إيوثيميوس الذى كان لاجئا فى القسطنطينية والذى عاد إلى الشرق بدعوة صريحة لا شك فيها من هولاکو . وكان المغول من سعة الأفق بحيث لم يسمحوا للخلافات العقائدية فيما بين المسيحيين بأن تتدخل فى سياستهم العامة . ويبدو أن بوهمند تمكن من العثور على عذر لنفسه ، ولم يستقبل إيوثيميوس مرة أخرى فى أنطاكية^(٧) .

بيد أن موت هولاکو جعل ضعف المغول أمرا حتميا فى لحظة حرجية . وأفلحت أرملته دوکوز خاتون بما لها من نفوذ فى تأمين استخلاف ابنه المفضل أباغا الذى كان حاكما للترکستان ، على أن أباغا لم يُنصب رسميا بلقب خان إلا فى شهر يونية بعد أربعة أشهر من موت والده ؛ ومضت عدة أشهر أخرى قبل استكمال إعادة توزيع الإقطاعيات ومناصب الحكم . وماتت دوکوز خاتون فى الصيف ، ونعاهها المسيحيون بأعمق المشاعر . وفى الوقت نفسه استمر تهديد أباغا من أبناء عمومته فى القبيلة الذهبية الذين غزوا فعلا أراضيه فى الربيع التالى . وهكذا كان من المستحيل على الحكومة المغولية التدخل آنذاك فى غربى سوريا . أما بيرس ، الذى تسببت دبلوماسيته فيما كان يلقاه الخان من اضطرابات مع جيرانه الشماليين ، فقد تمكن من استئناف حملاته ضد المسيحيين دون خشية تدخل^(٨) .

١٢٦٦م : بيرس يفتح الجليل

فى باكورة صيف ١٢٦٦م ، وبينما كانت جيوش أباغا منشغلة فى صد غزوات الخان بيرك عن فارس ، انطلق جيشان مملوكيان من مصر ؛ أحدهما بقيادة السلطان نفسه الذى ظهر أمام عكا يوم أول يونية ؛ غير أن كتيبتها التى أبقاها القديس لويس

(٧) Rashid ad-Din (trans. Quatremère), pp. 417-23; see Howorth, op. cit. iii, pp. 206-10. Vatran (ed. Emin), pp. 205-6, 211; Bar-Hebraeus, pp. 444-5. 'Lettre à Charles d'Anjou', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. ii, p. 213. حول إمكانية إقامة قداس على روح هولاکو - لكنه نُبت من همتها. (Vatran, ed. Emin, p. 211)

(٨) Howorth, op. cit., iii, pp. 218-25.

هناك جاءتها التعزيزات مزحرا من فرنسا فزادتها قوة ، ولذا تحول عنها بيبس وسار فى استعراض أمام قلعة النظام التيوتونى فى مونتفورت ، ثم زحف فجأة على صفد التى كان فرسان المعبد يسيطرون من قلعتها الضخمة على باقى الجليل المرتفع . وكانت التحصينات قد أعيد إنشاؤها كلها منذ حوالى خمس وعشرين سنة ، وكانت الحامية بأعداد غفيرة رغم أن الكثير من الجنود كانوا من المسيحيين الوطنيين أو أنصاف الوطنيين . وقد صُد الهجوم الأول للسلطان يوم ٧ يولية، وكذلك فشل فى محاولتيه التاليتين يومى ١٣ و ١٩ يولية . فأعلن بواسطة المنادين أنه بمنح العفو التام عن كل الجنود الوطنيين الذين يستسلمون له . ومن المشكوك فيه معرفة عدد المسيحيين الوطنيين الذين وثقوا فى كلمته ؛ على أن فرسان المعبد ساورتهم الريبة فى الحال، فتبادلوا الاتهامات وتطور الأمر بينهم إلى اقتتال ؛ وبدأ السوريون فى الفرار . وسرعان ما اكتشف فرسان المعبد استحالة صمود القلعة ، وفى آخر الشهر أرسلوا أحد أتباعهم السوريين توسموا فيه الولاء إلى معسكر بيبس يعرضون الإستسلام . وعاد السوري - واسمه ليو - بوعد بانسحاب الحامية إلى عكا دون أذى ؛ وبعد أن سلم فرسان المعبد القلعة لبيبس بهذه الشروط قطع رؤوسهم جميعا. وليس يقينا ما إذا كان ليو على وعى بخيانتة أم لا ؛ لكن تحوله الفورى إلى الإسلام كان دليلا عليه^(٩).

وبالاستيلاء على صفد ، تمكن بيبس من السيطرة على الجليل . وكانت خطوته التالية مهاجمة طورون التى سقطت له بلا قتال تقريبا . ومن طورون أرسل كتيبة لتدمير القرية المسيحية قرّة الواقعة بين حمص ودمشق لإرتيابه فى اتصالها بالفرنج ؛ فقتلت البالغين وأخذت الأطفال عبيدا ، وعندما أرسل مسيحيو عكا وفدا يطلب السماح بدفن الأموات رفض بغلظة قائلا إنهم إذا كانوا يريدون حث الشهداء فسوف يجدون مثلها عندهم . ولكى ينفذ وعيده سار أسفل الساحل وراح يقتل كل مسيحي يقع فى يده . لكنه ، مرة أخرى ، لم يغامر بمهاجمة عكا نفسها التى وصلها لتوه الوصى هيو من قبرص . وعندما انسحب المماليك فى الخريف، جمع هيو فرسان الأنظمة الدينية العسكرية وكتيبة فرنسية بقيادة جيوفرى (أوف سارجين) وقام بحملة مضادة فى الجليل. غير أنه فى ٢٨ أكتوبر وقعت الطليعة فى كمين نصبته لها حامية صفد ، بينما هاجم العرب المحليون المعسكر الفرنجى ، فاضطر هيو إلى الانسحاب بخسائر فادحة^(١٠).

(٩) *Gestes des Chiprois*, pp. 179-81; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 484-5; Maqrisi, *Sultans*, I, ii, pp. 28-30; Abu'l Feda, p. 151; al-A'ini, pp. 222'3

(١٠) *Gestes des Chiprois*, pp. 180-1; *Estoire d'Eracles*, loc. cit

١٢٦٦م : الممالك بخربون كيليكيا

وبينا بيرس بخول بمحملاته فى الجليل ، تجمع فى حمص الجيش المملوكى الثانى بقيادة أقدر أمرائه ، قلاوون ، الذى قام بغارة خاطفة باتجاه طرابلس استولى خلالها على حصنى قوليا وحلبا ومدينة أرقا التى تتحكم فى مدخل طرابلس من البقاع ، ثم أسرع شمالا كى يلحق بجيش المنصور صاحب حماء ؛ ثم سارت قواتهما المتحدة إلى حلب وانحرفت باتجاه الغرب إلى داخل كيليكيا^(١١). وكان الملك هيثوم يتوقع هجوما مملوكيا. ولقد حاول هيثوم فى ١٢٦٣م، على أثر أنباء موت هولأكو ، أن يتصالح مع بيرس ؛ وكانت البحرية المصرية تعتمد فى بناء سفنها على أخشاب غابات جنوب الأناضول ولبنان ، وكان هيثوم وزوج ابنته بوهمند يسيطران على تلك الغابات ، وفى مأملهما استغلال سيطرتهم هذه كورقة تفاوض ؛ غير أن محاولة الحصار زادت من عزم بيرس على الحرب^(١٢). وفى ربيع ١٢٦٦م ، علم هيثوم أن هناك هجوما مملوكيا وشيكًا ، فانطلق قاصدا بلاط الخان فى تبريز ؛ وأثناء تواجده هناك يستجدى مساعدة المغول، تفجرت العاصفة على كيليكيا . وكان الجيش الأرمينى بقيادة إبني هيثوم ، ليو وثوروس، ينتظر عند البوابات السورية بينما فرسان المعبد فى يجراس يجرسون جناحيه ، لكن الممالك انحرفوا شمالا ليعبروا جبال الأمانوس بالقرب من سارفتيكار ، فهرع الأرمن لإعراض طريقهم أثناء هبوطهم فى السهل الكيليكى . ووقعت معركة حاسمة يوم ٢٤ أغسطس هلك فيها الجيش الأرمينى لعجزه أمام الأعداد الغفيرة ؛ وقتل ثوروس ، أحد الأميرين ، وأسير الآخر ليو . واكتسح المسلمون المنتصرون كيليكيا ؛ وبينما كان قلاوون وممالكه ينهبون أياس وأضنا وطرسوس ، قاد المنصور جيشه مارا بالمصيصة إلى العاصمة الأرمينية سيس حيث نهب القصر وحرق الكتدرائية وذبح بضعة آلاف من السكان. وفى نهاية سبتمبر انسحب المنتصرون إلى حلب ومعهم أربعون ألف أسير تقريبا وقوافل ضخمة من الأسلاب . وكان الملك هيثوم قد أسرع عائدا من بلاط الخان ومعه صحبة قليلة العدد من المغول ، لا لشيء سوى ليجد وريثه أسيرا وعاصمته أطلالا وبلده كله خرابا . ولم تبرا المملكة الكيليكية قط من الكارثة ، ولم تعد قادرة على أن

(١١) Abu'l Feda, *loc. cit.*; al-Aīni, p. 222(١٢) Mas Latrie, *Histoire de Chypre*, i, p. 412

تلعب أكثر من دور سلبي في سياسات آسيا^(١٣).

وبعد أن اجثت ببيرس شافة الأرمن أرسل جنودا في خريف ١٢٦٦م لمهاجمة أنطاكية ؛ غير أن قواده انتشروا بالأسلاب وكان يعوزهم الحماس ، وقبلوا من يروهمند ومن كميون أنطاكية الرشوة التي أغرتهم بالتخلي عن المحاولة^(١٤).

واهتاج ببيرس من ضعف مندوبيه ، ولم يسمح هو نفسه بتأجيل القضاء على الفرنج ؛ فظهر في شهر مايو ١٢٦٧م مرة أخرى أمام عكا ، ورفع الرايات التي استولى عليها من فرسان المعبد والمستشفى ، وتمكن بذلك من الإقتراب حتى الأسوار مباشرة قبل اكتشاف الخدعة . غير أن هجومه على الأسوار تم صده ، ورضى بنهب الريف ، وترك الجثث الخالية من الرؤوس في الحدائق المحيطة بعكا إلى أن خاطر المواطنون بالخروج لدفعها . وعندما أرسل الفرنج سفراءهم طلبا للهدنة استقبلهم في صفد حيث كانت القلعة كلها محاطة بجماجم الأسرى المسيحيين الذين قُتلوا^(١٥).

ولم تيسر أسباب الحياة في عكا بتجدد القتال بين البنادقة وأبناء جنوا للسيطرة على الميناء ؛ ففي ١٦ أغسطس ١٢٦٧م قام الأدميرال الجنوي لوشيتو جريمالدي بشق طريقه عنوة إلى داخل الميناء بثمانية وعشرين غليوناً بعد استيلائه على برج الذباب الذي كان يرتفع في نهاية حاجز الأمواج . غير أنه بعد اثني عشر يوماً أخذ خمس عشرة سفينة من سفنه إلى صيدا للإصلاح ؛ وأثناء غيابه ظهر أسطول بندقية من ستة وعشرين غليوناً وهاجم سفن جنوا الباقية ، وضاعت في المعركة خمس سفن جنوية ، وحاربت السفن الأخرى لشق طريق خلال الميناء وأبحرت إلى صيدا^(١٦).

وفي وقت مبكر من سنة ١٢٦٨م انطلق ببيرس مرة أخرى من مصر . وكانت الأملاك المسيحية جنوب عكا هي مجرد قلعة فرسان المعبد في عثليت ومدينة يافا التي

(١٣) Vatran (ed. Emin), pp. 213-15; Hethoum, p. 407; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 522-3; King Hethoum, poem, *R.H.C. Arm.* i, pp. 551-2; Ballad on Prince Leo's Captivity, *ibid.* pp. 539-40; Hayton, *Flor des Estoires*, pp. 177-8; Bar-Hebraeus, pp. 445-6; Maqrisi, *Sultans* i, ii, p. 34; Abu'l Feda, p. 151; *Gestes des Chiprois*, p. 181; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 455.

(١٤) Cahen, op. cit. p. 716, citing MS. of Ibn Abdarraḥīm (Muḥī ad-Dīn). (١٤)

Gestes des Chiprois, pp. 181-3; *Estoire d'Eracles*, ii, p.455; al-Aīnī, p. 225. (١٥)

Gestes des Chiprois, p. 186; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 455-6; Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*, i, p. 354. (١٦)

بملكها القانونى جون (الايلىنى). وفى ربيع ١٢٦٦م مات جون الذى كان المسلمون يعاملونه دائما باحترام ؛ ولم يكن ابنه جوى يتمتع بنفس المكانة ؛ وكان فى مأموله أن يحترم السلطان الهدنة المعقودة مع والده ، ونتيجة لذلك ، وعندما ظهر الجيش المصرى أمام المدينة يوم ٧ مارس ، لم تكن فى حالة تسمح لها بالدفاع عن نفسها ؛ ولذا سقطت فى قبضة السلطان بعد اثنتى عشرة ساعة من القتال ، وقتل الكثير من سكانها ، وسُمح للحامية بالرحيل دون أذى إلى عكا ؛ ودمرت القلعة وأرسلت أخشابها ورخامها إلى القاهرة من أجل الجامع الكبير الجديد الذى كان يبصر بينه هناك^(١٧).

وكان الهدف التالى للسلطان هو قلعة بيوفورت التى تسلمها نظام المعبد مؤخرا من جوليان أمير صيدا . وبعد عشرة أيام من القصف الشديد استسلمت الحامية يوم ١٥ إبريل ؛ وأطلق النساء والأطفال ليذهبوا إلى صور ، لكن جميع الرجال اقتيدوا عبيدا . وأصلح بيبس القلعة وزودها بحامية قوية^(١٨). وفى أول مايو ظهر الجيش المملوكى فجأة خارج طرابلس، غير أنه وجد حاميتها قوية ، فتحول بنفس القدر من الفجاءة باتجاه الشمال . وأرسل فرسان المعبد من طرطوس و صفيطا على عجل يتوسلون إلى السلطان أن يحتفظوا بأراضيهم^(١٩). واحترم بيبس رغبتهم وزحف زحفا سريعا جنوب وادى العاصى (الأرند)؛ وفى ١٤ مايو كان أمام أنطاكية حيث قسّم قواته إلى ثلاثة أقسام ؛ فذهب جيش للإستيلاء على ميناء السويدية ، وبذا عزل أنطاكية عن البحر ؛ وتحرك الجيش الثانى شمالا إلى البوابات السورية ، وبذا منع أية مساعدة قد تصل المدينة من كيليكيا ؛ وأحاطت القوة الرئيسية بقيادة بيبس نفسه بالمدينة عن قرب.

١٢٦٨م : سقوط أنطاكية

كان الأمير بوهمند فى طرابلس ، وكانت أنطاكية تحت إمرة ياورها (الكونستابل) سيمون مانسل الذى كانت زوجته أرمينية ، وإحدى قريبات زوجة بوهمند . وكانت أسوار المدينة قد أصلحت بصورة جيدة ، لكن الحامية لم تكن من الكبر بحيث تحرس امتدادها الطويل . وقد تهور الكونستابل وقاد بعض الجنود إلى

(١٧) *Gestes des Chiprois*, p. 190; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 456; *Abu'l Feda*, p. 152; Maqrissi, *Sultans*, i, ii, pp. 50-1; *al-Aîni*, pp. 226-7.

(١٨) *Gestes des Chiprois*, loc. cit.; *Estoire d'Eracles*, loc. cit.; *al-Aîni*, pp. 227-8.

(١٩) *Al-Aîni*, p. 228.

الخارج فى محاولة للتفاوض على الإستفادة بالمدينة، لكن الممالك أسروه . وأمره أسروه بالعمل على ترتيب استسلام الحامية ؛ غير أن قواده داخل المدينة رفضوا الإستماع إليه ، ووقع الهجوم الأول على المدينة فى اليوم التالى وُردّ ، وافتتحت المفاوضات مرة أخرى بلا نجاح يذكر . وفى ١٨ مايو قام الجيش المملوكى بهجوم عام على الأسوار بكافة أجزائها ؛ وبعد قتال شرس فتحت ثغرة فى الدفاعات الممتدة أعلا جبل سلبوس ، وتدفق المسلمون داخل المدينة.

وأصيب المؤرخون ، والمسلمون من بينهم ، بصدمة من المجزرة التى تلت ؛ ذلك أن أمراء السلطان أصدروا أوامرههم بإغلاق بوابات المدينة حتى لا يهرب أحد من السكان، وقُتل من كان فى الشوارع فى الحال ، أما الجبناء الذين بقوا فى بيوتهم فقد ظلوا على قيد الحياة لا لشيء سوى لإنهاء أيامهم فى الأسر . وهرب بضعة آلاف من المواطنين مع عائلاتهم لاجئين إلى القلعة الضخمة الواقعة على قمة الجبل ، لقد نجحوا بحياتهم ، لكن الأمراء اقتسموهم ، وفى ١٩ مايو أمر السلطان بجمع الأسلاب وتقسيمها . وعلى الرغم من أن ازدهار أنطاكية اضمحل لعدة عقود ، إلا أنها كانت أغنى المدن الفرنجية ، وكانت كنوزها المتراكمة مذهلة ؛ فكانت هناك أكوام من حلى الذهب والفضة ، وكانت العملات من الوفرة بحيث كانت تعطى فى أوعية ، وكان عدد الأسرى غفيرا . ولم يكن هناك جندى فى جيش السلطان لم يحصل على عبد ، أما فائض العبيد فقد انخفض ثمن الصبى إلى اثنى عشر درهما والبنت إلى خمسة دراهم فقط؛ وسُمح لقليلين من المواطنين الأكثر ثراءً بأن يفتدوا أنفسهم . وأطلق سراح سيمون مانسيل وتقاعد فى أرمينيا ، غير أن الكثير من كبار المسؤولين فى الحكومة وفى الكنيسة قُتلوا أو لم يُسمع عنهم مرة أخرى قط^(٢٠).

ولقد استمرت إمارة أنطاكية ١٧١ سنة ، وهى أول دويلة أسسها الفرنج فى الشرق الفرنجى . وجاء دمارها بمثابة ضربة مرعبة للهيبة المسيحية ، وجرّ وراءه الإنهيار السريع للمسيحية فى شمال سوريا . وقد انتهى الفرنج ، ولم تتحسن أحوال المسيحيين الوطنيين إلا بقدر ضئيل ، وكان ذلك عقابا لهم لما قدموه من مساعدة ، لا للفرنج وإنما للأعداء الأكثر خطورة على الإسلام ، ألا وهم المغول . ولم تبرا المدينة نفسها قط؛ إذ فقدت فعلا أهميتها التجارية ، حيث أن الحدود بين الإمبراطوريتين المغولية

(٢٠) *Gestes des Chiprois*, pp. 190-1; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 456-7; Bar Hebraeus, p. 448; Maqrissi, *Sultans*, i, ii, pp. 52-3; al-Aïni, pp. 229-34; Abu'l Feda, p. 152.

والمملوكية كانت فخرى بطول نهر الفرات ، ولذا لم تعد التجارة من العراق والشرق الأقصى تمر خلال حلب ، وإنما ظلت في الأراضي المغولية وراحت تندفق على البحر من أياس في كيليكيا ؛ ولذا لم يكن للغزاة المسلمين اهتمام بإعادة توطير الناس في أنطاكية ، وباتت أهميتها الآن مجرد كونها قلعة حدودية. ولم يُعد بناء الكثير من منازلها داخل الأسوار العظيمة ، وانتقل رؤساء الكنائس المحلية إلى مراكز تتصف بحماية أكبر ولم يمض طویل وقت قبل أن يتأسس في دمشق المقرين الرئيسيين للكنيستين الأرثوذكسية واليعقوبية^(٢١).

تلقت فرسان المعبد فوجدها أن أرمينيا قد أضعفت وأنطاكية دُمّرت ، فأدركوا استحالة الاحتفاظ بمحصولهم في جبال الأمانوس ؛ فهجروا حصن بحراس والحصن الأصغر في صخرة روسل دون قتال ، وكان كل ما تبقى من الإمارة هو مدينة اللاذقية التي كان المغول قد أبقوا عليها ومنحروها لبوهمند ، وقد باتت الآن بقعة معزولة ، وحصن قصير الذي أنشأ أميره اللورد علاقة صداقة مع مسلمي الجوار وسمح له بالإقامة هناك لسبع سنوات أخرى كتابع للسلطان^(٢٢).

١٢٦٨م : هيو ، ملك قبرص والقدس

استراح بيبرس لفترة بعد انتصاره في أنطاكية . وكان هناك ما يدل أن المغول على استعداد للقيام بدور أكثر إيجابية ، وكانت هناك شائعات تقول إن القديس لويس أخذ في الإعداد لحملة صليبية ضخمة . وعندما أرسل الوصي هيو طالب الهدنة أجاب السلطان بارسال سفارة إلى عكا تعرض هدنة مؤقتة ؛ وكان هيو يأمل في الحصول على بعض التنازلات وحاول تهديد السفير بحى الدين ، بإظهار جنوده في استعراض حربي ؛ لكن بحى الدين لم يجب سوى بأن الجيش كله لا يبلغ عدده ما يبلغه عدد الأسرى المسيحيين الضخم في القاهرة. وطلب الأمير بوهمند أن يدخل في الهدنة ؛ وعندما

(٢١) عندما زار الرحالة ابن بطوطة أنطاكية في سنة ١٣٥٥م كان هناك عدد كبير من السكان لا يزالون يسكنونها (Ibn Battutah, *Voyages*, ed. Defrémery, i, p. 162) ، لكن بيبرس دمر تحصيناتها. ويقول Bertrandon de la Broquière الذي زارها سنة ١٤٣٢م أن الأسوار كانت ما تزال كاملة ، وإنما لم يكن هناك سوى ٣٠٠ منزل من المنازل المسكونة داخل ثلث الأسوار وكان أغلب السكان من التركمان. (Voyage d'Outremer, ed. Schefer, pp. 84-5)

(٢٢) *Gestes des Chiprois*, p. 191. *Estoire d'Eracles*, ii, p. 457. Cahen, *La Syrie du Nord*, p. 717 n.17.

أجابه السلطان بمجرد لقب كونت لفقده الإماره شعر بالمهانة ، لكنه قبل بسرور الهدنة التي مُنحت له . وكانت هناك غارات مملوكية قليلة الشأن فى الأراضى المسيحية فى ربيع سنة ١٢٦٩م ، وإن كانت الهدنة قد احترمت على العموم طوال سنة كاملة^(٢٣) .

وفى ذات الوقت حاول الفرنج تنظيم بيتهم . وفى ديسمبر ١٢٦٧م مات الملك هيو الثانى ملك قبرص وهو فى الرابعة عشرة من عمره ، وخلفه على العرش الوصى هيو أمير أنطاكية - لوسينان باسم هيو الثالث ، وتَوَجَّح يوم عيد الميلاد . وقد أتاح له استخلافه سلطة أوثق على أتباعه ، إذ لم يكن هناك خطر الآن من انتهاء حكمه فجأة عندما يبلغ ولى العهد السن القانونية . غير أنه كان عاجزا عن التغلب على ما يدعونه من أنهم غير مجبرين على الخدمة فى جيشه خارج حدود المملكة ، وكلما رغب فى أن يفعل ذلك كان يعتمد على رجال من الضياع الملكية وعلى المتطوعين . وفى ٢٩ أكتوبر ١٢٦٨م قُطعت رأس كونرادين (أوف هوهينشتوفن) فى نابولى بأوامر من تشارلز (أوف أنجو) ، الذى حاول عبثا أن يسترد منه بالقوة ميراثه الإيطالى .

١٢٦٩م : تزيج هيو

وكان موت كونرادين يعنى انقطاع الخط الأكبر للبيت الملكى فى القدس الذى ينحدر من الملكة ماريا، المركيزة . وكان التالى فى خط الإستخلاف أبناء بيت قبرص ، المنحدرين من الأخت غير الشقيقة لماريا ، أليس (أوف شامباني) . أما مطالبة هيو الثالث بأن يكون وريثا فقد اعترف بها ضمنا بتعيينه وصيا ، بينما تم تخطى ابن عمه هيو (أوف بريان) الذى كان أحق منه فى الوراثة من الناحية القانونية . ومضى هيو (أوف بريان) يبحث عن حظه فى دوقية أثينا الفرنجية ، حيث تزوج وريثها ، وأنشأه ذلك عن تحدى ابن عمه . على أنه قبل أن يتلقى الملك هيو تاجه الثانى ، كان هناك منافس آخر يتعين وضعه موضع الاعتبار . ذلك أن الأخت الثانية غير الشقيقة للملكة ماريا - مليسند أوف لوسينان - كانت قد تزوجت الأمير بوهمند الربع أمير أنطاكية كزوجة ثانية ، وكانت ابنتهما ماريا ما تزال على قيد الحياة . وبينما يستطيع هيو الإدعاء بأنه من نسل زواج للملكة إيزابيلا ، يسبق ماريا ، فإن ماريا كانت أقرب إلى الملكة إيزابيلا بجيل واحد . ومثلت أمام المحكمة العليا ، مدعية أن الإستخلاف ينبغى أن

Muhi ad-Din, in Reinaud, *Bibliothèque des Croisades*, pp. 513-15. (٢٣)

يتقرر بدرجة القرابة بالملكة إيزابيلا التي هي السلف المشترك لكل من كونرادين ، وهيو ، وهي نفسها . ودفعت بأن للحفيدة أسبقية على ابن الحفيد . ورد هيو بأن جدته الملكة أليس قد تم قبولها وصية لأنها كانت الوريث التالي ولأن ابنها الملك هنري ملك قبرص قد تم قبوله وصيا بموتها ، وبعد هنري تجمي أرملته ، ثم هيو نفسه ، كأوصياء على هيو الثاني . وهو الآن يمثل خط أليس . وردت ماريا كان هناك خطأ ، فكان ينبغي لألمها مليسند أن تخلف أليس كوصية . واستمر الجدل بعض الوقت أيد فيه فرسان المعبد ماريا ، بينما أيد قانونيو الشرق الفرنجي مطالبة هيو . ولو أنهم رفضوا ، لأجبروا على الاعتراف بأنهم كانوا على خطأ فيما سبق ، وكان الرأي العام في جانبهم ؛ إذ من الواضح أن ملك قبرص الشاب الفتي كان مرشحا مرغوبا بصورة أكبر من عانس في أواسط عمرها . ولم تقبل ماريا الحكم ؛ وأصدرت اعتراضا رسميا يوم تتويج هيو ، ثم رحلت والجلبة تحيطها إلى ايطاليا لتعرض قضيتها أمام الإدارة البابوية ، ووصلت روما في فترة تسبق تولي بابا جديد ؛ لكن جريجوري العاشر ، الذي انتخب سنة ١٢٧١م ، تعاطف معها وسمح لها بإثارة القضية في مجلس ليون سنة ١٢٧٤م . وظهر ممثلون من عكا ، ودفعوا بأن المحكمة العليا في القدس هي السلطة القضائية الوحيدة التي تقرر الإستخلاف على المملكة ، وحفظت المسألة . وكان جريجوري - قبل أن يموت سنة ١٢٧٦م - قد أعد الترتيبات لماريا لكي تتبع قضيتها لشارلز (أوف آنجو) ، واستكملت الصفقة في مارس ١٢٧٧م ، واستلمت الأميرة ألف جنيه ذهبا ودخلا سنويا قدره أربعة آلاف جنيه توري^(٢٤) . واعتمد تشارلز الثاني عاهل نابولي ذلك الدخل السنوي ؛ غير أنه من المشكوك فيه كم من المال كانت تتسلمه ماريا التي كانت ما تزال على قيد الحياة في سنة ١٣٠٧م^(٢٥) .

ونياية عن البطريق ، قام أسقف اللد بتتويج هيو في ٢٤ سبتمبر ١٢٦٩م . وكان هيو قبل تتويجه قد تمكن فعلا من تسوية الخلاف بين فيليب أمير مونتفورت والحكومة في عكا . وكان كبرياء فيليب قد لحقته المهانة بضياح طورون ، ولم يعد يتوق إلى القيام بأي عمل بمفرده ؛ وعندما اقترح هيو تزويج أخته - مرجريت أميرة أنطاكية ولوسينان ، أجمل بنات جيلها - من ابن فيليب الأكبر - جون - قبل فيليب العرض

(٢٤) (المترجم) : توري Tournai ، صفة لعملة نقدية فرنسية قديمة مسكوكة في مدينة تور على الطراز الملكي

(٢٥) *Gestes des Chiprois*, pp. 190-3; *Assises*, ii, pp.415-19. See La Monte, *Feudal Monarchy*, pp.77-9, and Hill, *History of Cyprus*, ii, pp. 161-5

بسرور . وهكذا أصبح بمقدور هيو الذهاب إلى صور لكي يتزوج في كندرايتها ، وهي التي باتت منذ سقوط القدس مكان التويج التقليدي للملوك . وسرعان ما تزوج بعد ذلك ابن فيليب الأصغر ، همفري ، من إيشيفا (أوف إيبيلين) ، وهي الابنة الصغرى لجون الثاني أمير بيروت . وكانت هذه المصالحة بين آل مونتفورت وآل إيبيلين أكثر يسرا ، إذ انتهى الجيل الأكبر لآل إيبيلين . وقد مات جون أمير بيروت سنة ١٢٦٤م ، وجون أمير يافا سنة ١٢٦٦م ، وجون أمير أرصوف سنة ١٢٦٨م . وبعد حملات بيبرس الأخيرة كانت الإقطاعية المدنية الوحيدة في المملكة بخلاف صور هي بيروت ، التي آلت إلى ابنة جون الكبرى ، إيزابيلا . وكانت قد زوّجت وهي طفلة من الملك الطفل هيو الثاني ملك قبرص الذي مات قبل إنفاذ الزواج . وكان هيو الثالث يأمل في استخدامها كوريثة قانونية مناسبة لكي تختبأ أحد الفرسان المتميزين إلى الشرق . وفي قبرص كان آل إيبيلين لا يزالون يمثلون أقوى عائلة ؛ وسرعان ما فاز الملك بولانهم بزواج إيزابيلا أخرى من آل إيبيلين ، وهي ابنة الكونستابل جوي^(٢٦) .

وعلى الرغم من أنه رتب أمر الصلح فيما بين أتباعه القليلين الباقين من غير رجال الدين ، فإن ضمان تعاون الأنظمة الدينية العسكرية ، وكميون عكا ، والإيطاليين كان أكثر صعوبة . أما جنوا والبندقية فلن تكف أي منهما عن الشجار تلبية لنداء أي عاهل ؛ وأما فرسان المعبد وفرسان التيوتون فقد إزدروا مصالحة هيو مع فيليب أمير مونتفورت ؛ وأما أعضاء كميون عكا فكانوا غيورين بنفس القدر مما كانت تحظى به صور من محاباة ، وقد كرهوا أن يروا نهاية الملكية الغائبة التي في ظلها زادت قوتهم . كما لم يكن بإمكان هيو استدعاء أتباعه القبرصيين لتعزيز سلطته . لقد كانت محاولته في جعل حكمه فعالاً محكوماً عليها بالفشل^(٢٧) .

ولم تكن الشؤون الخارجية مشجعة . إذ أن ظل تشارلز (أوف أنجو) كان يغيص على عالم البحر المتوسط . وكانت هناك آمال عراض في الشرق معلقة على حملة القديس لويس الصليبية الوشيكة ؛ بيد أن تشارلز حولها في ١٢٧٠م لكي تخدم اهتماماته ؛ وبموت لويس في تونس في ذلك العام ، تحرر تشارلز من احترامه للإشار

(٢٦) *Gestes des Chiprois*, pp. 192-3. وفيما بعد ظلت الأميرة مارجريت تزداد سمعة وبدانة وفقدت هيبتها . وكانت عند زواجها قد بلغت من العمر الرابعة والعشرين . أنظر أيضا *Lignages*, p. 462 ، وشجرة الأنساب أدناه ، والمرفق الثالث

(٢٧) See Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 645-6 ، وهو يبالغ من قدرات هيو في ضوء ما تلى ذلك من أحداث . وانظر أيضا Hill, *op. cit.* p. 178.

الذى كان يتميز به لويس؛ وكان على علاقة ودودة مع السلطان بيبرس ، وإن كان فى أعماق نفسه يحمل العداوة للملك هيو ، وسبق أن انحاز ضده عندما أيد مطالبة هيو (أوف براين) فى عرش قبرص ، ومطالبة ماريا بعرش القدس . لقد كان من حسن حظ الشرق الفرنجى حقا أن كانت مطامح تشارلز الأساسية موجهة ضد بيزنطة ؛ إذ كان من الواضح أن أية حملة صليبية يسهم فى مساعدتها سوف تتحول لتتناسب مع أهدافه الأنانية^(٢٨).

١٢٦٩م : الحملة الصليبية لأطفال أراجون

ومع ذلك ، لم تكن الروح الصليبية قد ماتت تماما فى أوروبا . وفى أول سبتمبر ١٢٦٩م أبحر الملك جيمس الأول ملك أراجون^(٢٩) من برشلونة بأسطول قوى لإنقاذ الشرق . ولم يكد ذلك الأسطول يقلع حتى هبت ، لسوء حظه ، عاصفة مخربة اضطرت الملك والجزء الأكبر من أسطوله إلى العودة . ولم يواصل الرحلة إلا أسطول صغير تحت إمرة ابني الملك من السفاح ، الطفلين فرناندو سانشير وبيدرو فرنانديز ، ووصلوا عكا فى نهاية ديسمبر وكلهم تواق إلى محاربة الكفرة . وفى وقت مبكر من ديسمبر قطع بيبرس الهدنة مع هيو وظهر مع ثلاثة آلاف رجل فى الحقول أمام عكا، وترك جنودا آخرين محتبئين فى التلال. ورغب الأطفال فى الإسراع فى الحال لمهاجمة الأعداء ؛ ومارس فرسان العسكر ما فى وسعهم من مهارة لتهديتهم ، وقد ارتابوا فى وجود كمين . وفضلا عن ذلك ، تقلصت أعداد المسيحيين بعد أن خرجت الكتيبة الفرنسية للقيام بغارة عبر مونتفورت، كان القهرمان جيوفرى (أوف سارجين) يقودها حتى وفاته فى ربيع ذلك العام ، مع قائدها الجديد أوليفر (أوف تيرم) ، والقهرمان الجديد روبرت (أوف كريسيك) بانصرافها إلى غارة عبر مونتفورت . ولمح هؤلاء المغيرون لدى عودتهم القوات الإسلامية . ورغب أوليفر (أوف تيرم) فى التسلل دون أن يلحظه أحد خلال حدائق الفاكهة عائدا إلى عكا ، لكن القهرمان روبرت أصر على مهاجمة الأعداء . وسقط الفرنسيون مباشرة فى الكمين الذى نصبه بيبرس لهم ، ولم ينج منهم سوى قلة ضئيلة ، وعندما تنادى الجنود داخل عكا للذهاب لإنقاذهم ، قام أطفال

(٢٨) أنظر أعلاه ص ٣٤١.

(٢٩) (المترجم)، أراجون : Aragon إقليم فى شمال شرق اسبانيا . ومن القرن الحادى عشر الى القرن الخامس عشر كان مملكة تضم فى أوقات مختلفة سردينيا وصقلية ومناطق أخرى من البحر المتوسط.

أراجون - وقد لقنوا الدرس - بكبح جماحهم . ثم سرعان ما عادوا فيما بعد إلى أراجون دون أن يحققوا شيئاً^(٣٠).

وبرغم عدم كفاية مساعدة الغرب ، كان لا يزال هناك أمل فى الشرق ؛ ذلك أن الخان أباجا فى فارس كان يدين ، كشأن والده هولاكور ، بالشامانية المزوجة بتعاطف مسيحى شديد^(٣١). وكان موت زوجة أبيه المسيحية - دوكوز خاتون - بمثابة انتزاع صديقة هام من إخوانها فى الدين من كل المذاهب ؛ لكنهم وجدوا حاميا جديدا فى شخص الأميرة ماريا البيزنطية ، التى كانت قد وصلت إلى بلاط الخان لتجد هولاكور ميتا ، وتزوجها أباجا على الفور، وسرعان ما أحاطها باحترام عميق ؛ وبجلها رعاياه جميعا لطيبتها وحصافتها ، وكانت معروفة لديهم على أنها ديسبينا خاتون . وحث أبناء حسن نوايا الخان ، ملك أراجون مع البابا كلمنت الرابع ، على إرسال جيمس ألاريك (أوف بيرينيان) فى بعثة إلى الخان فى ١٢٦٧م للإعلان عن الحملة الصليبية المزمعة الأراجونية وحملة الملك لويس الصليبية، واقتراح تحالف عسكرى . غير أن أباجا كان مشغولا للغاية بحربه مع القبيلة الذهبية ، ولذا كان رده مجرد وعود غامضة^(٣٢). ويتضح عجزه عما وراء ذلك فى فشله فى انقاذ أنطاكية من المماليك فى العام التالى . وسرعان ما واجهته حرب جديدة مع أبناء عمومته من آل جاغاتاي الذين غزوا أراضيهم الشرقية سنة ١٢٧٠م ورُدوا بعد معركة عنيفة بالقرب من حيرات . وفى السنتين التاليتين كانت المهمة الرئيسية هى إعادة فتح خطوط المواصلات مع عمه وسيدته الأعلى الخان الأعظم قوبلاى فى الصين^(٣٣). غير أنه فى سنة ١٢٧٠م ، وبعد انتصاره فى حيرات ، كتب للملك لويس يتعهد بتقديم مساعدة عسكرية فور ظهور الحملة الصليبية فى فلسطين^(٣٤). ولكن الملك لويس ذهب إلى تونس حيث لا يستطيع المغول مساعدته. وكانت المساعدة العملية الوحيدة التى استطاع الخان تقديمها إلى المسيحيين هى تزويد

(٣٠) *Gestes des Chiprois*, pp. 183-5; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 457-8; *Annales de Terre Sainte*, p. 454

(٣١) (المترجم) ، الشامانية Shamanism ، ديانة شعوب معينة فى شمال شرقى آسيا تقوم على أساس الاعتقاد فى أرواح الخير والشر التى لا تتأثر إلا بالشامان ، أى رجل الدين الشامانى

(٣٢) D'Ohsson, *Histoire des Mongols*, iii, pp. 539-42; Howorth, *op. cit.* iii, pp. 278-80. وعن شهرة ماريا أنظر Bar-Hebraeus, p. 505.

(٣٣) D'Ohsson, *op. cit.* pp. 442 ff..

(٣٤) *Ibid.* pp. 458-9.

هينوم الأرميني بأسير مملوكى بارز ، هو شمس الدين سنقر الأشقر ، الصقر الأحمر ، الذى أسره المغول فى حلب . ولإطلاق سراح ذلك المملوك ، وافق بيبرس على إطلاق سراح ليو ، وريث هينوم ، وعقد هدنة مع هينوم شريطة أن يتنازل الأرمن عن حصون الأمانوس فى درباسك ، وبهسنا ، ورعبان ، ووُقعَت الهدنة فى شهر أغسطس ١٢٦٨م وفى العام التالى عاد ليو إلى أرمينيا ، بعد أن سُمح له بالحج فى القدس . وعلى الفور تنازل أبوه عن العرش لصالحه وتقاعد فى أحد الأديرة حيث مات فى العام التالى . واعترف الخان أبغا بلقب ليو الجديد كملك ، وذهب ليو شخصيا إليه لتقديم احتراماته^(٣٥).

١٢٧٠م : قتل فيليب أمير مونتفورت

ظل بيبرس هادئا طوال صيف سنة ١٢٧٠م ، لاحتمال الدفاع عن مصر ضد ملك فرنسا. غير أنه لكى يُضعف الفرنج ، أعد ترتيبات اغتيال البارون البارز الوحيد لديهم، فيليب أمير مونتفورت . وكان الحشاشون فى سوريا يشعرون بالإمتنان للسلطان الذى حررهم بغزواته من ضرورة دفع إتاوة لفرسان المستشفى ، كما أنهم ازدروا بشدة المفاوضات الفرنجية مع المغول الذين دمروا مقرهم الرئيسى فى فارس . وبناء على طلب بيبرس أرسلوا أحد متعصبيهم إلى صور ، وهناك ادعى أنه متحول إلى المسيحية وتوغل يوم الأحد ١٧ أغسطس إلى داخل الكنيسة الصغيرة حيث كان فيليب وابنه جون يصليان ، وفجأة انقض عليهما ، وقبل أن تصل المساعدة كان فيليب قد أصيب بجرح مميت ، وامتد به الأجل إلى أن عرف أن قاتله قد اعتقل وأن ورثه سليم بلا أذى . وكان موته بمثابة ضربة موجعة للشرق الفرنجى ؛ إذ أن جون ، برغم تكريس نفسه للملك هيو ، زوج أخته ، كان يفتقر إلى خبرة أبيه وهيبته^(٣٦).

وكان موت الملك لويس أمام تونس من بواعث الإرتياح الكبير للسلطان الذى كان على استعداد للسير لمساعدة الأمير التونسى . وعلم أن ليس هناك ما يخيفه من

(٣٥) *Gestes des Chiprois*, p. 191; *Estoire d'Eracles*, pp. 457, 463; Bar-Hebraeus, pp. 446 9; Vahram, *Rhymed Chronicle*, pp. 523-4; Hayton, *Flor des Estoires*, p. 178. See Cahen, *op. cit.* p. 718.

(٣٦) *Gestes des Chprois*, pp. 194-8; *Annales de Terre Sainte*, p. 454; Maqrissi, *Sultans*, i, ii, pp. 80-3.

تشارلز (أوف أنجو) . وفى ١٢٧١م توغل مرة أخرى فى الأراضى الفرنجية ؛ وفى فبراير ظهر أمام صافيتا، الحصن الأبيض لفرسان المعبد . وبعد أن دافعت الحامية الصغيرة دفاعاً حماسياً ، نصحتها السيد الأعظم للنظام بالاستسلام ؛ وسمح للباقيين على قيد الحياة بالانسحاب إلى طرطوس، ثم واصل السلطان تقدمه إلى القلعة الضخمة لفرسان المستشفى Krak des Chevaliers أو قلعة الحصن ، التى وصل إليها يوم ٣ مارس . وفى اليوم التالى انضمت إليه فصائل من الحشاشين وكذلك المنصور صاحب حماء وحيشه ؛ وهطلت أمطار غزيرة لعدة أيام منعت من تثبيت آلات الحصار ؛ غير أنه فى ١٥ مارس، وبعد قصف قصير مركز تمكّن المسلمون من شق مدخل إلى برج البوابة فى الحاجز الخارجى . وبعد أسبوعين شقوا طريقهم إلى الحاجز الداخلى ، وراحوا يقتلون الفرسان الموجودين هناك ويأسرون الجنود الوطنيين ، وصمد الكثير من المدافعين لعشرة أيام آخر فى البرج الكبير جنوب الحاجز ؛ وفى ٨ إبريل استسلموا وأرسلوا بسلام إلى طرابلس . إن الإستيلاء على حصن الكرك ، الذى تحدى صلاح الدين نفسه ، مكّن بيبرس من السيطرة على المداخل المؤدية إلى طرابلس . ولقد تابع زحفه عليها واستولى على حصن عكار ، وهو حصن فرسان المستشفى جنوب البقاع الذى سقط فى أول مايو بعد حصار أسبوعين^(٣٧).

وكان بوهمند فى طرابلس . ولخشيتته من أن تشارك طرابلس مصير عاصمته الأخرى أنطاكية ، أرسل إلى بيبرس يتوسل إليه عقد هدنة . وسخر السلطان من افتقاره إلى الشجاعة وطلب أن يدفع كافة نفقات هذه الحملة المملوكية ، وكانت هناك بقية باقية فى معنويات بوهمند تعينه على رفض هذا الشرط المهين . وفى ذلك الوقت لم ينجح هجوم بيبرس على قلعة مراغة المبنية على صخرة قبالة الشاطئ بين بولونياس وطرطوس ، وكان سيدها ، بارثولوميو ، قد ذهب إلى البلاط المغولى ساعياً إلى طلب المساعدة . وتملك الغضب بيبرس لفشله حتى أنه حاول اغراء الحشاشين لقتل بارثولوميو أثناء رحلته^(٣٨).

وفى نهاية مايو عرض بيبرس فجأة على بوهمند هدنة لعشر سنوات ، بلا شروط سوى الإحتفاظ بما استولى عليه مؤخراً . وبعد أن قبلها شرع فى رحلة العودة إلى مصر

(٣٧) Maqrîsi, *Sultans*, i, ii, pp. 84-5; al-Aîni, pp. 237-9; Abu'l Feda, p. 154; *Gestes des Chiprois*, p.199; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 460.

(٣٨) hricht, Maqrîsi, *Sultans*, i, ii, pp.86, 100; *Annales de Terre Sainte*, p. 455; R 'Derniers Temps' in *Archives d'Orient Latin*, ii, pp. 400-3.

ولم يتوقف إلا لكي يحاصر قلعة نظام التوتون في متفورت التي استسلمت يوم ١٢ يونية بعد حصار أسبوع واحد^(٣٩). والآن لم يبق للفرنج أية حصون داخل البلاد ، وفي نفس الوقت تقريبا أرسل أسطولاً من سبع عشرة سفينة لمهاجمة قبرص بعد أن سمع أن الملك هيو غادر الجزيرة إلى عكا . وظهر أسطوله فجأة أمام ليماسول ، غير أنه نظرا لسوء المهارة الملاحية شحطت إحدى عشرة سفينة ووقع بحارتها أسرى لدى القبارصة^(٤٠).

١٢٧١م : وصول إدوارد الإنجليزي

ويعزى تسامح السلطان مع برهمند إلى وصول حملة صليبية جديدة . وكان هنري الثالث ملك إنجلترا قد أخذ الصليب منذ أمد بعيد ، ولكنه الآن شيخ عجوز أنهكه الحروب الأهلية فشجع ابنه ووريثه الأمير إدوارد على أن يعمل محله وينطلق إلى الشرق . وكان إدوارد في بداية الثلاثينات من عمره ، ذا قوة واقتدار وبرود ، سبق له أن أظهر مواهبه كرجل دولة في تعامله مع المتمردين على والده . واتخذ قراره بالخروج بحملته الصليبية بعد أن سمع بسقوط أنطاكية ، لكنه خطط لها بعناية وبصورة منظمة . ورغم أن النبلاء الإنجليز وافقوا على مصاحبته ، إلا أنهم بدأوا يعتذرون الواحد تلو الآخر لسوء حظه ؛ وفي نهاية الأمر غادر الأمير إنجلترا في صيف ١٢٧١م ومعه مجرد ألف رجل وزوجته إليانور (أوف كاستيل) . وبعد أشهر قليلة تبعه أخوه إدموند (أوف لانكاستر) بالتعزيزات ، وكان أحد المرشحين فيما سبق للعرش الصقلي . كما صحبته فصيلة صغيرة من البريتون^(٤١) بقيادة الكونت الذي يتبعونه ، وفصيلة أخرى من هولاندة بقيادة تيدالدو فيسكونتي ، رئيس أساقفة ليج . وكان إدوارد ينوي الانضمام إلى الملك لويس في تونس ومواصلة الإبحار معه إلى الأراضي المقدسة ، لكنه وصل أفريقيا ليجد الملك ميتا ، والجنود الفرنسيون على وشك العودة إلى بلادهم ؛ فأمضى الشتاء في صقلية مع الملك تشارلز الذي كانت زوجته الأولى خالته ، وواصل الإبحار

(٣٩) *Gestes des Chiprois*, pp. 199-200; *Estoire d'Eracles*, loc. cit..

(٤٠) Maqrissi, *Sultans*, I, ii, p. 88; Abu'l Feda, p. 154; al-Aini, pp. 239-40; *Gestes des Chiprois*, p. 199; *Estoire d'Eracles*, loc. cit.; *Annales de Terre Sainte*, loc. cit..

(٤١) (المترجم) ، البريتون : Bretons أهل بريتاني Brittany ، إقليم شمال غرب فرنسا يشغل شبه جزيرة تقع بين القنال الإنجليزي وخليج بسكاي

فى الربيع التالى إلى قبرص ثم إلى عكا حيث هبط إلى البر يوم ٩ مايو ١٢٧١ م .
وسرعان ما انضم إليه الملك هيو والأمير برهمند^(٤٢).

وارتاع إدوارد من الحالة التى وجد عليها الشرق الفرنجى . وكان يعلم مدى صغر جيشه ، لكن الأمل كان يرواده فى توحيد مسيحي الشرق ليصبحوا قوة مرعبة ثم يستخدم مساعدة المغول فى القيام بهجوم فعال على بيس . وكانت صدمته الأولى أن للبنادقة تجارة مزدهرة مع السلطان ، يزودونه بكل ما يحتاجه من أخشاب ومعادن للأسلحة، بينما يبذل الجنويون ما فى وسعهم لإيجاد طريق لهم فى هذه التجارة المربحة وقد سيطروا فعلا على تجارة الرقيق فى مصر . وعندما وبّخ التجار على مسلكهم الذى يعرض مستقبل مسيحي الشرق للخطر ، أظهروا له التصاريح التى حصلوا عليها من المحكمة العليا فى عكا لهذه الأغراض . ولم يكن بوسعهم أن يفعل شيئا لمنعهم^(٤٣) . ثم راودته الآمال فى أن يأتى جميع فرسان قبرص إلى مليكهم فى فلسطين ؛ غير أنه برغم مجيء بعض الإقطاعيين إلا أنهم أصروا على أنهم متطوعون ، وعندما طلب منهم الملك هيو البقاء فى سوريا طوال فترة وجوده هناك ، أعلن المتحدث باسمهم فى صرامة، وهو ابن عم زوجته، جيمس (أوف إيلين) ، أنهم لا يلتزمون بالخدمة إلا للدفاع عن الجزيرة، وأضاف متكبّرا أنه لا ينبغي للملك أن يحتسب ذهاب النبلاء القبارصة للحرب فى ذلك البلد سابقة ، لأنهم كانوا كثيرا ما يفعلون ذلك بناء على طلب آل إيلين بصورة أكبر مما كانوا يفعلونه بناء على طلب أى ملك ، والمخ إلى أن طلبه كان خليقا بأن يُلبى لو أن هيو طلبه بطريقة أكثر مهارة . وطال الجدل حتى عام ١٢٧٣ م ، عندما وافق القبارصة - بروح مصالحة نادرة - على أن يمضوا أربعة أشهر فى البلد الرئيسى إذا تواجد الملك أو ورثته مع الجيش . وفى ذلك الوقت كان السيف قد سبق العذل ولم يحقق إدوارد هدفه^(٤٤).

ولم يكن الأمير الإنجليزى أكثر نجاحا مع المغول . ذلك أنه ما أن وصل عكا حتى أرسل سفارة إلى الخان ، تتألف من ثلاثة من الإنجليز هم رينالد روسيل ، وجودفرى ويليس ، وجون باركر . وكانت جيوش أباغا الرئيسية تحارب فى التركستان ، ومع

(٤٢) *Gestes des Chiprois*, pp. 199-200; *Estoire d'Eracles*, pp. 460-1.. الصليبية أنظر.. Powicke, *King Henry III and the Lord Edward*, ii, pp. 597 ff.

(٤٣) hricht, 'Derniers Temps', p. 622; Powicke, *op. cit.* ii, pp. 604-5. Dandolo, p. 380; R

(٤٤) *Assises*, i, pp. 347, 626, ii, pp. 427-34; *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 462-4. See Hill *History of Cyprus*, ii, pp. 168-70.

ذلك وافق على أن يرسل ما يستطيعه من مساعدة. وفي ذات الوقت أرضى إدوارد نفسه ببضع غارات صغيرة عبر الحدود مباشرة. وفي منتصف أكتوبر ١٢٧١م وفي أباغا بوعدده بأن اقتطع عشرة آلاف خيال من حامياته في الأناضول، انساحوا جنوبها مروراً بعينتاب داخل سوريا وهزموا التركمان الذين كانوا يحرسون حلب، وهربت حامية حلب المملوكية أمامهم إلى حماة؛ وواصلوا زحفهم مروراً بحلب إلى معرة النعمان وأفاميا. ودب الذعر بين المسلمين المحليين، لكن بيبرس الذي كان في دمشق لم يفاجأه الشعور بالخطر؛ إذ كان معه جيش ضخم واستدعى التعزيزات من القاهرة. وعندما بدأ في الزحف شمالاً يوم ١٢ نوفمبر تقهقر المغول عائدين، إذ أنهم لم يكونوا من القوة بما يكفي لمواجهة الجيش المملوكي كله بينما ظل أتباعهم الأتراك في الأناضول ماكثين حيث كانوا. وانسحبوا إلى ما وراء الفرات محملين بالأسلاب^(٤٥).

وبينما كان بيبرس منشغلاً بالمغول، قاد إدوارد الفرنج عبر جبل الكرمل للإغارة على سهل شارون، لكن جنوده كانوا من القلّة بحيث عجز عن قصف قلعة قاقون المملوكية الصغيرة التي تحرس الطريق العابر للتلال. وإذن، فالمطلوب غزو مغولي أكثر فعالية وحملة صليبية أكبر إذا أراد إدوارد استعادة أي أرض^(٤٦).

١٢٧٢م : هدنة بين إدوارد وبيبرس

وفي ربيع ١٢٧٢م تحقق الأمير إدوارد من أنه ينفق الوقت بلا طائل، وكل ما كان يستطيعه في غيبة قوة بشرية أكبر وفي غيبة الحلفاء هو أن يرتب هدنة تحفظ الشرق الفرنجي للوقت الراهن، وكان بيبرس من ناحيته على استعداد للهدنة، إذ أن بقايا المملكة الفرنجية البائسة واقعة تحت رحمته طالما لا تعوقه تعقيدات خارجية. وكانت أولى مهام جيشه هي التصدي للمغول الذين ينبغي كبح جماحهم بالطرق الدبلوماسية في الأناضول وفي السهوب. وإلى أن يشعر بالأمان في تلك الجبهة، فإن الإستيلاء على آخر القلاع الفرنجية لا يتطلب منه جهداً كبيراً، وفي الوقت ذاته ينبغي له منع التدخل من الغرب، ولذا يتعين المحافظة على حسن العلاقة مع تشارلز (أوف أنجو) وهو الوحيد الذي جلب مساعدة فعالة إلى عكا. غير أن ضموح تشارلز الرئيسي

(٤٥) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 461; Abu'l Feda, p. 154; D'Ohsson, *op. cit.* iii, pp. 459-60; Powicke, *op. cit.* ii, pp. 601-2.

(٤٦) *Gestes des Chiprois*, pp. 200-1; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 461.

هو غزو القسطنطينية ، ولا تمثل سوريا سوى مجال اهتمام ثانوي بالنسبة له ، وكان ضم سوريا إلى امبراطوريته مجرد أفكار غامضة في رأسه ، ولذا كان يرغب في الحفاظ على وجودها ولا يفعل ما من شأنه زيادة قوة الملك هيو الذي كان يأمل في أن يحل محله يوما ما؛ وكان مهياً للوساطة بين بيرس وإدوارد ، وفعلاً تم توقيع معاهدة سلام يوم ٢٢ مايو ١٢٧٢م في قيصريّة بين السلطان وحكومة عكا ، تضمنت للمملكة الاحتفاظ لعشر سنوات وعشرة أشهر بملكاتها الراهنة التي تتألف أساساً من سهل ساحلي ضيق يمتد من عكا حتى صيدا ، إلى جانب الحق في استخدام طريق الحج إلى الناصرة دون عائق . أما كونتية طرابلس فكانت معاهدة ١٢٧١م تضمن سلامتها^(٤٧).

وكان المعروف عن الأمير إدوارد رغبته في العودة إلى الشرق على رأس حملة صليبية أكبر ؛ ومن ثم ، وبرغم المعاهدة، قرر بيرس القضاء عليه . وفي ١٦ يونية ١٢٧٢م ، تنكر أحد الحشاشين في هيئة مسيحي وطني وتوغل إلى غرفة نوم الأمير وطعنه بخنجر مسموم ، ولم يكن الجرح مميتاً ، وإن ظل إدوارد مريضاً بمرض خطير لعدة أشهر . وسارع السلطان بإنكار ضلوعه في هذا العمل بأن أرسل تهانيه بنجاة الأمير الذي ما أن تماثل للشفاء حتى أعد العدة للإبحار إلى وطنه ، وقد اعتلت صحته، ولم يعد هناك ما يفعله ، فأبحر من عكا يوم ٢٢ سبتمبر ١٢٧٢م^(٤٨) عائداً إلى إنجلترا ليجد نفسه ملكها.

١٢٧٢-١٢٧٤م : البابا جورج العاشر يجمع تقارير عن الحملات الصليبية

وكان رئيس أساقفة ليج ، الذي سحب إدوارد إلى فلسطين ، قد رحل في الشتاء الفائت لدى سماعه بأنباء غير متوقعة بأنه قد انتخب بابا . ومنذ أن تولى البابوية باسم جورج العاشر لم يفقد اهتمامه بفلسطين قط ؛ وجعل مهمته الرئيسية العمل على إحياء الروح الصليبية ، فعُيّنت في سائر أنحاء أوروبا مناشدته الرجال بأن يأخذوا الصليب ويحاربوا ، ووصلت بعيداً حتى فنلندا وأيسلندا ، وربما وصلت جرينلاند وساحل أمريكا

(٤٧) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 461-2; *Annales de Terre Sainte*, p. 455; Maqrissi, *Sultans*, i, ii, p. 102; al-Aïni, p. 247. See Delaville le Roulx, *Hospitaliers en Terre Sainte*, p. 225.

(٤٨) *Gestes des Chiprois*, p. 201; *Estoire d'Eracles*, ii, p. 462; Sanuto, p. 225. ذكر Ptolemy of Lucca بعد مرور قرن من الزمان ، ولأول مرة ، أسطورة أن زوجة إدوارد ، إلينورا ، تمص السم من جرحه . أنظر Powicke, *op. cit.* p. 603.

الشمالية^(٤٩) لكن لم تكرر هناك استجابة . وفي ذلك الوقت جمع تقارير توضح عداوة الرأي العام ؛ وقد أعدت هذه التقارير بمهارة ، فلم يمس أحدها المشكلة الأساسية وهي أن فكرة الحملة الصليبية نفسها قد هانت . ذلك أن الثواب الروحاني موعود لمن يحارب اليونانيين ، الألبيجينستين Albigensians والمهرينشتوفن ، فباتت الحرب المقدسة مجرد وسيلة للسياسة البابوية العدوانية الضيقة ؛ بل إن مناصري البابوية المخلصين لم يجدوا ما يبرر القيام برحلة شاقة إلى الشرق في الوقت الذي تتاح فيه الفرص السائحة للفوز بمكاسب مقدسة في حملات ذات متطلبات أقل في شذنها.

وعلى الرغم من أن التقارير المرسلة إلى البابا توخت جانب الحرص في انتقادها للسياسة البابوية، إلا أنها كانت صريحة بما فيه الكفاية في تأكيد أخطاء الكنيسة . وهناك أربعة تقارير جديدة بالنظر: أولا (بجمل الفضائح الكنسية) Collectio de Scandalis Ecclesiae، وربما كان كاتب التقرير هو جيلبرت (أوف تورناي) وهو أحد الرهبان الفرنسيسكان الذي يذكر ما لحق بالحملات الصليبية من ضرر بسبب مشاجرات الملوك والنبلاء ، ركز على فساد رجال الدين وإساءة استخدام منح الغفران الذي تمنحه الكنيسة . وبينما كان كبار رجال الدين ينفقون أموالهم على اقتناء الجياد الأصيلة والقروء المستأنسة، كان عملاؤهم يجمعون الأموال في مقابل الإعفاء من التعهد بأخذ الصليب . ولم يسهم أحد من رجال الدين في دفع الضرائب المفروضة من أجل الحملات الصليبية ، رغم أن القديس لويس سبق أن أثار غضبهم برفض استثناءهم . هذا في الوقت الذي فرضت فيه الضرائب على عوام الناس المرة تلو الأخرى من أجل حملات صليبية لم تحدث أبدا^(٥٠).

أما التقرير الذي أرسله برونو أسقف أولموتز فقد اتخذ مسارا مختلفا ؛ إذ تحدث برونو كسابقه عن فضائح الكنيسة ، لكنه كان سياسيا . وقال إنه ينبغي أن يكون هناك سلام وإصلاح شامل في أوروبا، وهذا لا يتحقق إلا عن طريق امبراطور قوى ، وجاء في تقريره ضمنا أن سيده الملك أوتو كار ملك بوهيميا هو المرشح الملائم لهذا المنصب . وأكد أن الحملات الصليبية في الشرق لا معنى لها الآن وقد فات أوانها، ويتعين توجيه الحملات الصليبية لمحاربة الملحدين على الحدود الشرقية لأوروبا . وكان فرسان التيوتون

(٤٩) A. Riant, *Les Scandinaves en Terre Sainte*, pp. 361-4 .

(٥٠) قام Stroick بنشر وتحرير the Collectio في تاريخ محفوظات الفرنسيسكان Archivum Franciscanum Historicum, vol. xxiv. See Throop, *op. cit.* pp. 69-104.

يسبغون التصرف لما هم عليه من جشع وشهوة إلى السلطة ، أما إذا كانت موجهة
توجيهها سليما عن طريق عامل مناسب ، فهي خليقة بأن تأتي بمميزات مادية ودينية
كذلك^(٥١).

وقدّم وليم الطرابلسي ، وهو راهب دومينيكانى يعيش فى عكا ، تقريرا بناءً نزيها ،
تضاءلت فيه آماله فى حرب مقدسة فى الشرق تدار من أوروبا ، غير أنه كان متأثرا
بنبوءات تقول إن نهاية الإسلام قد اقتربت بل فى متناول اليد ، وكان اعتقاده أن المغول
سيكونون هم محطمو الإسلام ؛ وقد حان وقت النشاط التبشيري ، وهو كعضو فى
نظام تبشيري فإنه يؤمن بقوة الموعظ ، وهو مقتنع بإمكان الفوز بالشرق عن طريق
البعثات التبشيرية وليس السيف . وكان يؤيده فى رأيه هذا مفكر عظيم للغاية ، وهو
روجر بيكون^(٥٢).

أما أكثر التقارير اكتمالا فقد كتبها راهب دومينيكانى آخر ، هومبرت أوف
رومانز ، وهو الرئيس العام السابق للنظام . وقد كتب تقريره (العمل الثلاثى) Opus
Tripartitum تمهيدا لإنعقاد مجلس عام لمناقشة الحملة الصليبية ، وانفصال الكنيسة
اليونانية ، وإصلاح الكنيسة . وهو لا يعتقد فى امكانية تحويل المسلمين إلى المسيحية ،
رغم الوعد الإلهي بتحويل اليهود وإمكان تحول ملحدى أوروبا الشرقية . وارتأى أن
ذهاب حملة صليبية أخرى إلى الشرق أمر أساسي ؛ وأورد شرور الكسل والبخل والجبن
التي تُثبِّط همم الرجال عن الإبحار شرقا . وتأسى لحب الوطن الذى يمنعهم من الرحيل
إلى الشرق والتأثير الأثوى الذى يحاول ربطهم بمحسى الوطن . والأسوأ من كل ذلك
أن لا أحد بات يؤمن الآن فى المزايا الروحانية الموعودة لمن يصبح صليبيا ، اللهم سوى
القليل . ويقينا فإن هذا الإنكار الذى يورده هومبرت وهو حزين كان منتشرا انتشارا
واسعا ؛ وظهرت قصائد شعبية عديدة تركز على ذلك ، وكان هناك الكثير من
المنشدين الذين أعلنوا صراحة أن الرب لم يعد فى حاجة إلى الحملات الصليبية .
وأخفقت مقترحات هومبرت فى مناهضة تلك الظاهرة وبعث روح حماسية جديدة ؛
فلا جدوى فى مواصلة الإدعاء - كما يؤمن القديس لويس - بأن الهزائم والإهانات

(٥١) نشر Hofler مذكرات برونو فى Proceeding of the Bavarian Academy of Science, 1846.
وانظر Throop, op. cit. pp. 105-14.

(٥٢) See William of Tripoli, *De Statu Saracenorum*, passim; also Roger Bacon, *Opus*
Majus, iii, pp. 120-2.
بها فى أعمالهم التبشيرية

تعتبر شيئا طيبا للروح ؛ وإن محاولة إقناع الرجال بأن الحملة الصليبية هي أفضل وسيلة للتوبة من آثامهم أمست محاولة متأخرة للغاية . وأما إصلاح رجال الدين ، الذى أيده هومبرت بشدة ، فربما كانت فيه بعض الفائدة . على أن نصيحة هومبرت ، كخطة عملية لاستمالة عواطف العوام ، كانت ضئيلة القيمة ، ومن ثم جاءت توصياته بالإعداد لحملة صليبية كانت سابقة لأوانها ، وهى توصيات تشمل ضرورة وجود برنامج للصلوات والصوم واقامة الطقوس ؛ وضرورة دراسة التاريخ ؛ ويتعين وجود هيئة من المستشارين الدينيين والمتحرسين ؛ وينبغى أن يكون هناك جيشا مرابطا من الصليبيين . أما عن التمويل ، فقد ألمع هومبرت إلى أن الوسائل البابوية لجباية الأموال لم تكن دائما تحظى بالشعبية ، وأعرب عن اعتقاده أنه فى حالة قيام الكنيسة ببيع جزء من كنوزها الضخمة ووسائل تزيينها المفرطة فلسوف تتحقق نتائج سيكولوجية طيبة فضلا عن النتائج المادية . غير أنه ينبغى للأمرء وكذلك القائمين على الكنيسة القيام بدورهم^(٥٣) .

١٢٧٤م : مجمع ليون

بعد أن تسلح البابا جريجورى العاشر بكل هذه النصائح ، التى لم تطمئنه كثيرا ، أعلن عن عقد مجمع يعقد فى ليون ، وافتتحت دوراته فى شهر مايو ١٢٧٤م . وكثر الحاضرون من الشرق يقودهم بول (أوف سيني) أسقف طرابلس ، كما حضر وليم (أوف بيجو) المنتخب حديثا سيدا أعظم لنظام فرسان المعبد . غير أن ملوك العالم المسيحى تجاهلوا الدعوات الملحة المرسله اليهم ؛ إذ اعتذر فيليب الثالث ملك فرنسا عن الحضور ، وحتى إدوارد الأول الذى كان البابا جريجورى يعتمد عليه بصورة خاصة احتج بشواغل فى الوطن ؛ ولم يظهر سوى جيمس الأول ملك أراجون ، وهو عجوز ثرثار ، لم يحقق شيئا فى محاولته الأولى مع حملة صليبية شرقية ، لكنه كان صادق التلهف على وسيلة مدوية للإنطلاق فى مغامرة أخرى ، لكنه سرعان ما أصابه الضجر من المناقشات وسارع عائدا إلى أحضان عشيقته اللادى برينجاريا . ووعدت وفود من الامبراطور البيزنطى ميخائيل بالعمل على إخضاع كنيسة القسطنطينية ؛ إذ كان ميخائيل مرعوبا من طموحات تشارلز (أوف أنجو) ، بيد أنه كان وعدا لا سبيل

(٥٣) فيما يتصل بمسألة الضرائب الواردة فى *Opus Tripartitum* أنظر Throop, op. cit. p.147 n.1 ويورد Throop ملخصا مكتملا جدا للمحتويات ، ibid. pp. 147-213.

لتحقيقه ، فليس لرعايا الامبراطور ضلع فيه . وكان النجاح الوحيد للمجمع هو اتحاد الكنائس الذي ولد ميتا . ولم يتحقق شيء له جدواه من إصلاح الكنيسة ؛ وبينما كان الجميع على استعداد للحديث عن الحملة الصليبية ، لم يتقدم أحد بعروض ذات فائدة بصورة خاصة تعتبر ضرورية لإطلاق تلك الحملة الصليبية.

ومع ذلك ، تشبث جريجورى وسعى إلى جعل حكام أوروبا ينفذون القرارات المصطبغة بالورع التي أصدرها المجمع . وفى ١٢٧٥م أخذ فيليب الثالث الصليب ؛ وفى وقت لاحق من تلك السنة حذا حذوه رودولف الهابسبورجى^(٥٤)، لقاء وعد بتوجيه بمعرفة البابا فى روما . وفى ذات الوقت حاول جريجورى تهيئة الأرضى المقدسة لمجىء الحملة الصليبية ؛ فأمر بترميم القلاع وإرسال المزيد والأفضل من المرتزقة . ومن تجربته الشخصية فى الشرق بدا أنه انتهى إلى أن حكومة الملك هيو لا أمل يرتجى منها؛ ولذلك كان متعاطفا مع مطالب ماريا الأنطاكية وشجعها على بيع مطالبها لتشرلز (أوف آنجو) الذى أراد أن يهتم بالشرق الفرنجى بصورة أكثر فعالية ، ليس فقط من أجل رفاهية هذا الشرق الفرنجى وإنما أيضا ليحول انتباهه عن طموحاته فى بيزنطية^(٥٥). بيد أن خطط البابا جريجورى كلها قد باءت بالفشل . وعندما مات فى ١٠ يناير ١٢٧٦م لم تكن هناك حملة صليبية فى طريقها إلى الشرق ، ولا أحد يرغب فى الرحيل.

أما الملك هيو فى قبرص فكانت له رؤية أخرى أكثر واقعية ؛ فلا هو ينتظر حملة صليبية ولا يرغب فيها، وإنما يريد مجرد الحفاظ على الهدنة مع بيرس ، ومع ذلك لم تفعل الهدنة سوى القليل لتحسين وضعه . وفى سنة ١٢٧٣م فقد السيطرة على إقطاعيته الرئيسية بيروت ؛ فب وفاة جون الثانى الإبلينى انتقلت لوردية بيروت إلى ابنته الكبرى إيزابيلا ، ملكة قبرص الأرملة التى تركت أرملة عذراء فى ١٢٦٧م ، ولكن عذريتها لم تدم طويلا ؛ ذلك أن افتقارها إلى العفة وخاصة علاقتها بجوليان أمير صيدا بصورة خاصة تسببا فى إصدار مرسوم بابوى حثها بشدة على الزواج مرة أخرى ، وفى ١٢٧٢م وهبت نفسها ولورديتها لإنجليزى - هامو الأجنبى - وكان أحد رفاق الأمير إدوارد فيما يبدو . وكان يرتاب فى الملك هيو فعندما حضرته الوفاة فى العام التالى وضع زوجته وإقطاعيتها تحت حماية بيرس ، وعندما حاول هيو الفوز بالأرملة

(٥٤) (المترجم) رودولف الهابسبورجى Rudolph of Hpsburg ، أسرة هابسبورج أسرة حاكمة حكمت النمسا ثم النمسا-وهنجاريا (١٢٧٨-١٩١٨) ، وأسبانيا (١٥١٦-١٧٠٠)، والإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٤٣٨-١٨٠٦).

(٥٥) See Hefele-Leclercq, *op. cit.* VI, i, pp. 67-8, 153 ff.; Throop, *op. cit.* pp. 262-82.

وإعادتها إلى قبرص ليزوجها لأحد المرشحين ممن اختارهم ، استشهد السلطان على الفور بالعهد الذي أوصى به هامو وطلب عودتها ، ولم يجد الملك أية مساعدة من المحكمة العليا ، واضطر إلى إعادة إيزابيلا إلى بيروت حيث عُين حارس مملوكي لحمايتها^(٥٦) ولم يتمكن هيو من إستئناف سيطرته على اقطاعية بيروت إلا بعد وفاة بيرس بوقت طويل . وتزوجت إيزابيلا من زوجين آخرين قبل وفاتها في سنة ١٢٨٢م تقريبا عندما انتهت بيروت إلى أختها إيشيفا، زوجة همفري (أوف مونتفورت) الذي كان صديقا وفيا للملك^(٥٧).

١٢٧٥م : الوصاية في طرابلس

كانت انتكاسة هيو الثانية في طرابلس . فقد مات بوهمند السادس - آخر أمراء أنطاكية - في ١٢٧٥م تاركا ابنه بوهمند عن حوالى أربعة عشر عاما وابنته الأصغر لوسيا . وطالب الملك هيو بالوصاية على طرابلس باعتباره الوريث الذكر التالى لبيت أنطاكية ؛ غير أن الأميرة المسنة سيبيلا الأرمينية باشرت المنصب على الفور إذ أن تقاليد العائلة تخول لها ذلك ، وعندما وصل الملك هيو إلى طرابلس لتحقيق مطالبته وجد أن بوهمند السابع الصغير قد أرسل إلى بلاط خاله الملك ليو الثالث الأرميني ، ووجد أسقف طرطوس ، بارثولوميو ، يباشر إدارة المدينة باسم سيبيلا ، ويبدو أن بارثولوميو هذا ينتمى إلى عائلة مانسل الأنطاكية العظيمة ، ولم يساند أحد في طرابلس الملك هيو إذ أن بارثولوميو كان يحظى بشعبية كبيرة آنذاك ، وكان عدوا لدودا لأسقف طرابلس بول (أوف سيني) وهو خال بوهمند السادس ، وعدوا كذلك لجميع الرومان الذين عينهم في الكونتية بالإشتراك مع لوسيين . وتأييد من النبلاء المحليين قامت سيبيلا وبارثولوميو بقتل بعض الرومان ونفى البعض الآخر . ولسوء الحظ كان أسقف طرابلس ، بول ، يحظى بتأييد نظام فرسان المعبد وقد قابل السيد الأعظم للنظام في

(٥٦) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 462; Ibn al-Furat, in Reinaud, *Chroniqueurs Arabes*, p. 532. ويُظهر بويك Powicke, *op. cit.* p.6006 n.1 أن إسم زوج إيزابيلا كان هومو وليس إدموند . ويقل هيل Hill, *op. cit.* p. 137 n.2 الرأى القائل أن علاقتها كانت بجون أمير يافا . غير أن ذلك يثير صعوبات فيما يتعلق بتاريخ الأحداث ؛ فقد مات جون أمير يافا سنة ١٢٦٦م . فضلا عن ذلك، كان جون يتمتع باحترام كبير ، بينما كان المشهور عن جوليان أن حياته كانت حياة انحلال . وكانت زوجة جون هي أخت الملك هيثوم الذى مات في ١٢٦٩م ، بينما كانت زوجة جوليان هي أخت خليفة هيثوم . والأرجح كثيرا أن المرسوم البابوي أخطأ جيل الأميرة

(٥٧) *Lignages*, p. 462; Ducange-Rey, *Familles d'Outremer*, pp. 235-6.

بجمع ليون. وعندما جاء برهمند السابع من أرمينيا سنة ١٢٧٧م لاستلام الحكم واجهته عداوة النظام التي لا هراة فيها^(٥٨).

وفقط في اللاذقية الأبعد إلى الشمال فاز هيو بنصر ضيل . إذ كانت اللاذقية هي كل ما تبقى من إمارة أنطاكية ، واعتبر بيرس أنها لا تدرج تحت أي من معاهدته مع طرابلس أو عكا ، وكانت جيوشه تحيط بها عندما استنجد مواطنوها مباشرة بالملك هيو الذي استطاع التفاوض على هدنة مع السلطان الذي سحب بدوره جنوده نظير إتاوة سنوية قدرها عشرين ألف دينار وإطلاق عشرين أسيرا من المسلمين^(٥٩).

ولم يمض وقت طويل حتى امتدت مشكلات هيو إلى عكا نفسها . فقد كان كوميون عكا مستاءً من حكمه المباشر ، بينما أخذت العداوة تتزايد ضده من جانب نظام المعبد الذي شعر بالامتناع من مصالحته مع آل مونتفورت ، وعارض توليه العرش؛ أما نظام المستشفى ، الذي لا بد وأنه كان يعتمد على حسن نواياه ، فقد تضاءلت أهميته بعد ضياع مقره الرئيسي في الكرك؛ وكانت القلعة العظيمة الوحيدة الباقية لفرسان المستشفى هي قلعة المرقب التي تشرف من قمة تلها العالي على بولونيا. وقد سبق أن كتب السيد الأعظم لنظام المستشفى ، هيو (أوف ريفيل) في ١٢٦٨م قائلاً إن النظام يحتفظ الآن بثلاثمائة فارس وحسب في الشرق الفرنجي بعد أن كانوا عشرة آلاف في الأيام الخوالي ، غير أن النظام كان لا يزال يملك مقره الرئيسي في طرطوس وكذلك في صيدا وقلعة عثليت العظيمة ، بينما زاد من قوته علاقاته المصرفية مع العالم الشرقي كله^(٦٠). وكان توماس بيرار ، السيد الأعظم للنظام من سنة ١٢٥٦ إلى ١٢٧٣م، مخلصاً في أيامه الأولى للأوصياء القبارصة ، ورغم أن كراهيته للملك هيو كانت آخذة في التزايد إلا أنه لم يتحداه صراحة قط ؛ لكن خليفته وليم (أوف بوجو) كان من معدن آخر ؛ إذ كان من أقرباء البيت الملكي الفرنسي ، وكان عزيز النفس طموحاً نشيطاً . وعندما انتخب كان في أبوليا في أراضى ابن عمه تشارلز (أوف آنجو) وجاء إلى الشرق بعد ذلك بستين وقد عقد العزم على دفع مشاريع

(٥٨) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 466-7, 481; *Gestes des Chiprois*, p. 202.

(٥٩) Maqrissi, *Sultans*, i, ii, p. 125; Muhi ad-Din in Michaud, *Bibliothèque des Croisades*, ii, p. 685.

(٦٠) (المترجم) العالم الشرقي : *Levant* اللفظ مشتق من الأصل اللاتيني *levare* بمعنى ينهض أو يشرق، والتسمية تنطبق على منطقة شرق البحر المتوسط بما في ذلك جميع البلاد المطلة على البحر وهي اليونان وتركيا والشام ومصر

تشارلز ولذا عارض الملك هيو من البداية.

١٢٧٦م : الملك هيو يتقاعد فى قبرص

وفى أكتوبر ١٢٧٦م اشترى نظام المعبد قرية تسمى لافوكونارى - تقع على بعد أميال قليلة جنوب عكا - من مالكةها توماس (أوف سانت برتين) ، وتعهد ألا يطلب موافقة الملك على الصفقة ، وتجاهل شكواه . ومع هذه المضايقات من الأنظمة الدينية العسكرية ، ومن كوميون عكا ، ومن المستعمرات التجارية ، عقد هيو العزم على مغادرة تلك المملكة الجاحدة . وفجأة جمع مقتنياته وانسحب إلى صور متويا الإبحار منها إلى قبرص ، وغادر عكا دون أن يعين وكيلًا . وابتهج فرسان المعبد وكذلك البنادقة حلفاءهم الموثوقين ؛ بيد أن البطريق توماس (أوف ليتينور) وفرسان المستشفى وفرسان التوتون وكذلك الكميون وأبناء جنوا أصيبوا بصدمة وأرسلوا الوفود إلى صور يتوسلون إليه على الأقل أن يعين نائبا ؛ لكنه كان من الغضب أول الأمر بحيث لم يستمع إليهم ؛ وربما أقنعت حجاج جون (أوف مونتفورت) فعين باليان الإبلينى - ابن جون أمير أرصوف - وكيلًا كما عين قضاة لمحاكم المملكة . وبعد ذلك مباشرة أبحر إلى قبرص ليلا دون أن يخطر أحدا . ومن قبرص كتب إلى البابا ليبر تصرفه^(٦١).

وكانت مهمة باليان عسيرة . إذ كانت هناك أعمال شغب فى شوارع صور بين تجار مسلمين من بيت لحم تحت حماية فرسان المعبد وتجار نساطرة من الموصل كان رؤساؤهم فرسان المستشفى . واشتعلت العداوات مرة أخرى بين البنادقة والجنوبيين ؛ ولم يستقم أمر أى حكومة إلا بمساعدة البطريق وفرسان المستشفى^(٦٢).

وفى سنة ١٢٧٧م استكملت ماريا الأنطاكية بيع حقوقها لتشارلز (أوف آنجو) الذى اتخذ على الفور لقب ملك القدس . وأرسل روجر (أوف سان سيفيرينو) كونت مارسيكو مع قوة مسلحة إلى عكا ليصبح وكيلًا له ، وبفضل مساعدة نظام المعبد والبنادقة ، تمكن روجر من الهبوط إلى البر فى عكا حيث قدم أوراق اعتماده الموقعة من تشارلز ومن ماريا ومن البابا جون الحادى والعشرين . وأخرج باليان الإبلينى حرجا

(٦١) *Estoire d'Eracles*, ii, pp. 474-5; *Gestes des Chiprois*, p. 206 (post-dating the episode). See Delaville le Roux, *op. cit.* pp. 210-29.

(٦٢) *Estoire d'Eracles*, *loc. cit.*; *Gestes des Chiprois*, *loc. cit.*.

شديدا ؛ فليس لديه تعليمات من الملك هيو ، وكان يعلم أن فرسان المعبد والبنادقة على استعداد لحمل السلاح نيابة عن روجر ، بينما لم يكن هناك وعد من البطريق ولا من فرسان المستشفى بالتدخل ؛ ولكي يتجنب إراقة الدماء سلم القلعة للأنجليين^(٦٣) . ورفع روجر علم تشارلز وأعلن أنه ملك القدس وصقلية ثم أمر بارونات المملكة أن يقدموا الولاء له هو نفسه باعتباره وكيل الملك . وتردد البارونات بوازع من حبههم لهيو أقل من كراهيتهم لقبول انتقال التاج بلا قرار من المحكمة العليا . ولكي يحافظوا على بعض الشرعية أرسلوا الوفود إلى قبرص ليسألوا ما إذا كان هيو يحررهم من الولاء له ؛ ورفض هيو أن يرسل ردا . وأخيرا هدد روجر الذي كان بيده الأمر والنهي بمصادرة ضياع الذين يرفضون تقديم ولائهم له ، لكنه أتاح فرصة أخرى للرجوع إلى هيو ، وكانت عقيدة بنفس القدر ؛ ولذا خضع البارونات لروجر ، وسرعان ما اعترف به بوهمند السابع وكيلا قانونيا . وعيّن روجر بعض الفرنسيين من بلاط تشارلز كمسؤولين رئيسيين أمامه ؛ فأصبح أودو بوالشيان قهرمانا، وريتشارد (أوف نيوبلانز) كونستابلا، وجيمس فيدال رئيسا عسكريا^(٦٤) .

وجاءت هذه الترتيبات على هوى بيرس؛ فبإمكانه أن يثق في أن ممثل تشارلز لن يستحث حملة صليبية جديدة ولن يتآمر مع المغول ، وبهذا الشعور بالأمان كان على استعداد للسماح للشرق الفرنجي بالبقاء لسنوات أخرى قليلة ، وفي الوقت نفسه يستطيع المبادرة بالهجوم على الخان . وكان أباغا مدركا للخطر ، ولذا كان تواقا لإقامة تحالف مع الغرب . وفي ١٢٧٣م أرسل خطابا إلى عكا موجه إلى إدوارد ملك إنجلترا ، يسأل متى تصل حملته الصليبية التالية . وقام بنقل الرسالة إلى أوروبا دافيد وهو دومينيكي كان راعيا للبطريق توماس (أوف لينتينو) . وأرسل إدوارد ردا ودودا اعتذر فيه قائلا إنه لا هو ولا البابا قد قرر متى يمكن أن تذهب حملة أخرى إلى الشرق . وفي العام التالي ظهر مبعوثون مغول في مجمع ليون ، وقام كردينال أوستيا - الذي صار لاحقا البابا إينوسنت الخامس - بتعميد اثنين منهم . وكانت الردود التي تلقاها من البابا وإدارته مرة أخرى ودودة ولكنها غامضة . وفي خريف ١٢٧٦م عاود الخان

(٦٣) (المترجم) الأنجليين : Angevins نسبة الى آنجو Anjou أو ينتمي الى ملوك الخط الإنجليزي من عائلة بلاتاجين (١١٥٤-١٣٩٩) .

(٦٤) *Estoire d'Eracle*, pp. 478-9; *Gestes des Chiprois*, pp.206-7; Amadi,p.214; Sanudo, pp.227-8; John of Ypres in Martène and Durand, *Thesaurus Novus Anecdotorum*, vol. iii,col.755.

المحاولة مرة أخرى ؛ فقد هبط إلى البر في إيطاليا اثنان من الجورجيين ، هما الأخوان جون وجيمس فاسيلي ، لزيارة البابا ومعهما أوامر بالذهاب إلى بلاطى فرنسا وإنجلترا ، وكانا يحملان رسالة شخصية من أباغا إلى إدوارد الأول ، اعتذر فيها عن أن مساعدته فى سنة ١٢٧١م لم تكن فعالة على نحو أكبر . ولم يسفر أى من هذه الأنشطة الدبلوماسية عن أية نتيجة . وكان الملك إدوارد يأمل مخلصا فى الذهاب فى حملة صليبية أخرى ، بيد أنه لم يكن هو ولا فيليب الثالث ملك فرنسا مستعد لذلك بعد . وكانت الإدارة البابوية تحت النفوذ الشرير لتشارلز (أوف آنجو) الذى كان يكره المغول باعتبارهم أصدقاء أعدائه البيزنطيين والجنوئين ، والذى كان يقيم سياسته كلها على أساس التفاهم مع بيرس . وكان الباباوات يراودهم أمل متفائل فى الترحيب بالمغول فى حظيرة الكنيسة ، لكنهم لم يتحققوا من أن الوعد بالثوبة فى السماء لم يكن إغراء كافيا للخان . بل حتى النداءات التى أطلقها ليو الثالث الأرمينى ، الذى كان فى الوقت نفسه تابعا مخلصا للخان وعلى اتصال وثيق بروما ، لم تسفر عن أية نتيجة عملية من البابوية^(٦٥).

١٢٧٧م : بيرس يغزو الأناضول

تمكن بيرس من تنفيذ مخططاته دون تهديد من الغرب بالتدخل . وفى ربيع ١٢٧٥م قاد بنفسه غارة داخل كيليكيا خرب فيها مدن السهل ، بيد أنه لم يتمكن من التوغل إلى العاصمة سيس . وبعد سنتين قرر غزو الأناضول . وكان السلطان السلجوقى الآن طفلا هو قيخوسرو الثالث ، وكان وزيره سليمان حامل الأختام بمثابة القوة الرئيسية فى البلاد ، غير أنه كان عاجزا عن السيطرة على الإمارات المحلية التى كانت آخذة فى الظهور ، وأهمها إمارة الكارامانيين ؛ وكان للخان محمية واسعة فى السلطنة ، يفرض وجودها حامية مغولية كبيرة . وفى ١٨ إبريل ١٢٧٧م اجتث المماليك شأفة هذه الحامية فى البستان ؛ وبعد خمسة أيام دخل بيرس قيصرية مازاكا ، فسارع وزير السلطان - سليمان - والأمير الكارامانى إلى تهنئة المنتصر ؛ غير أن أباغا استشاط غضبا وقاد بنفسه جيشا مغوليا فى استعراضات شاقة إلى داخل الأناضول . ولم ينتظر بيرس وصوله ، وإنما تقهقر إلى سوريا ، واستعاد أباغا بسرعة السيطرة على السلطنة

(٦٥) William of Nangis, pp. 540, 564; D'Ohsson, *op. cit.* iii, pp. 543-9; Powicke, *op. cit.* p.602 n.1; iii., pp. 280-1 *op. cit.* Howorth.,

السلجوقية . وألقى القبض على سليمان الخائن وقتله ، وقالت الشائعات إن لحمه قدم مطهياً في أطباق على مائدة الخان الرسمية التالية^(٦٦) .

وفاة بيرس

ولم يعيش بيرس طويلاً بعد مغامرته في الأناضول . وهناك قصص كثيرة رويت حول وفاته ؛ فاستناداً إلى بعض المؤرخين مات متأثراً بجراحاته التي أصيب بها في حملته الأخيرة ؛ واستناداً إلى البعض الآخر أفرط في شراب القَمْز ، وهو لبن الفرس المخمّر الذي يحبه الأتراك والمغول . غير أن الشائعة السائدة هي أنه أعد القَمْز المسموم للأمير الأيوبي صاحب الكرك ، القاهر ابن الناصر داود الذي كان مع جيشه والذي أساء إليه ، ثم شرب باهمال من نفس الكأس قبل تنظيفه . ومات يوم أول يولية ١٢٧٧م^(٦٧) .

ولقد أزاح موته أعدى أعداء المسيحية منذ صلاح الدين . فعندما أصبح بيرس سلطاناً كانت الأراضي الفرنجية تمتد بطول الساحل من غزة إلى كيليكيا ، مع وجود قلاع ضخمة في داخل البلاد لحمايتها من الشرق . وعلى مدى حكمه الذي استمر سبع عشرة سنة حصر الفرنج في مدن قليلة بطول الساحل ، عكا وصور وصيدا وطرابلس وجبيل وطرطوس ، مع مدينة اللاذقية المعزولة ، وقلعتي عثليت ومرقب . ولم يطل به العمر ليشهد إزالتها إزالة كاملة ، بيد أنه جعل إزالتها أمراً حتمياً . وكانت شخصيته تتميز بقليل من الخصال التي أكسبت صلاح الدين الإحترام حتى من أعدائه . لقد كان قاسياً ، غير مخلص ، خووناً ، بأخلاقه غلظة ، وفي كلامه خشونة . ولم يكن بوسع رعاياه أن يحبوه ، لكنهم منحوه أعجبوا به بحق ، إذ أنه كان جندياً حاد الذكاء ، وسياسياً ماهراً ، وإدارياً حكيماً ، سريعاً في اتخاذ قراراته وكتماها ، وكانت أهدافه واضحة له تماماً . وبرغم أنه كان مسترقاً في الأصل فقد رعا الفنون وتوسع في البناء ، فعل الكثير لتجميل مدنه وإعادة عمارة قلاعه . وكرجل كان شريفاً ، لكنه كحاكم كان من بين أعظم حكام زمانه .

(٦٦) Abu'l Feda, p. 165; Maqrisi, *Sultans*, i, ii, pp.144-5; Bar-Hebraeus, pp. 456-9; D'Ohsson, *op. cit.* pp. 486-9. See Howorth, *op. cit.* iii, pp. 252-6.

(٦٧) Maqrisi, *Sultans*, i, ii, p.150; Abu'l Feda, pp. 165-6; *Gestes des Chiprois*, pp. 208-9; Hayton, *Flor des Estoires*, p. 193; Bar-Hebraeus, p. 458.

الباب الرابع:

نهاية الشرق الفرنجي

الفصل الأول:

تجارة الشرق الفرنجى

تجارة الشرق الفرنجى

"بَكْرَةٌ تَجَارَتِكَ مَلَأُوا جَوْفَكَ ظُلْمًا فَأَخْطَأَتْ"

(حزقيال ٢٨: ١٦)

على مدى تاريخ الشرق الفرنجى ، كانت القضية المباشرة فيها بين المسيحية والإسلام يعتمدها شئ من الغموض أو العُوج. ذلك أن المستعمرات الفرنجية كانت واقعة فى منطقة تشتهر بالغنى ، وبأنها يقينا تسيطر على بعض أعظم الطرق التجارية فى العالم. وكانت طموحات المستعمرين وحلفائهم المالية والتجارية تتعارض أحيانا مع الانتماء الدينى، وكانت هناك مناسبات تطلبت فيها احتياجاتهم الإنسانية الأساسية مصادقة جيرانهم المسلمين.

ولم تكن هناك قوة تجارية دافعة وراء إطلاق الحملة الصليبية الأولى . أما المدن البحرية الإيطالية ، التى كان تجارها أحببوا جامعى الأموال فى عصرهم ، فقد استشعرت الخطر بادئ الأمر نتيجة لتلك الحركة التى كان يمكن أن تقضى على العلاقات التجارية التى أقيمت مع مسلمى الشرق ؛ وحينما نجحت الحملة الصليبية

وأنشئت المستوطنات الفرنجية في سوريا ، عرض الإيطاليون مساعدتهم وقد تحققوا من إمكان استخدام المستعمرات الجديدة لصالحهم . وكان الحافز التجارى الذى دفع الصليبيين ، يتمثل فى شدة الرغبة فى الأرض فيما بين النبلاء الأقل فى فرنسا والبلاد الراضية ، وشوق الفلاحين هناك إلى الفرار من بيوتهم الموحشة المحرومة ، ومن الفيضانات والمجاعات التى حدثت فى السنوات الأخيرة ، والهجرة إلى الأراضى ذات الثراء الأسطورى . وقد وجد كثيرون من البسطاء غموضا شديدا فى التمييز بين هذه الحياة التى يعيشونها والحياة الأخرى ؛ وخلطوا بين أورشليم الدنيوية وأورشليم الملكوت^(١) وتوقعوا أن يجدوا مدينة مرصوفة بالذهب تفيض لبنا وعسلا . ولقد خدعتهم آمالهم ولم يفيقوا من الوهم إلا شيئا فشيئا ؛ إذ أن حضارة مدن الشرق ومستوى معيشتها الأعلى ، اتخذت مظهر الثراء الرفير ، وهذا ما كان الحجاج العائدون يقصونه على أصدقائهم . على أنه بمرور الوقت تناقص بريق تلك الأقاصيص . وبعد الحملة الصليبية الثانية لم تعد جماهير غفيرة من فلاحى الغرب تذهب باحثة عن بيوت جديدة فى الأراضى المقدسة . وظل النبلاء المغامرون يذهبون إلى الشرق لاكتساب الثروات ، ومن بين الصعوبات التى عرقلت تنظيم الحملات الصليبية المتأخرة غيبة الحافز الاقتصادى^(٢) .

ولم تكن الأقاليم الفرنجية فى الشرق الفرنجى غنية بطبيعتها وفى حقيقة الأمر . وقد كانت هناك مناطق خصبة ، مثل سهل بزرعيل (إزدراليون) وسهل شارون وسهل أريحا ، والشريط الساحلى الضيق الواقع بين جبال لبنان والبحر ، ووادى البقاع ، وسهل أنطاكية . بيد أنه بالمقارنة بما وراء الأردن وحوران والبقاع ، كانت فلسطين بلدا جديبا غير ذى زرع . وكانت أهمية الأردن للفرنج تكمن فيما تزرعه من حبوب بنفس قدر سيطرتها على الطريق الذهاب من دمشق إلى مصر^(٣) . وبدون مساعدة

(١) (المترجم) أورشليم الملكوت ، أو أورشليم الجديدة New Jerusalem ، المذكورة فى الإنجيل ، سفر الرؤيا ٢١:٢ "وأنا يوحنا رأيت المدينة المقدسة أورشليم الجديدة نازلة من السماء من عند الله مهيأة كهروس مزينة لرجلها"

(٢) يعتبر التاريخ الذى كتبه Heyd ، واسمه *Histoire du Commerce du Moyen Age* ، العمل الرئيسى للتاريخ الاقتصادى للحملات الصليبية . وقد نوقشت حديثا المسألة برمتها فى مقال هام كتبه Cahen بعنوان "Notes sur l'histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III" ، منشور فى *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg* ، مايو-يونية ١٩٥١ . ويرد Cahen أسباب تقليل الأهمية التجارية للدويلات الصليبية الى أدنى حد لها

(٣) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحتين ٢٧-٢٨ .

الأردن، لم يكن الأمر سهلاً دائماً على مملكة القدس في أن تُطعم نفسها . وفي حالة الحصاد السيئ ، كان يتعين استيراد الحبوب من سوريا المسلمة^(٤) . وفي العقدين الأخيرين للشرق الفرنجي ، عندما كان الفرنج محصورين في مدن الشريط الساحلي ، كان لزاماً استيراد الحبوب دائماً .

منتجات الشرق الفرنجي

وكانت إمدادات المواد الغذائية الأخرى كافية . فكانت التلال توفر المراعي لأعداد كبيرة من الأغنام والماعز والخنازير . وكانت هناك حدائق للفاكهة والخضروات تحيط بكل المدن ، كما كانت أشجار الزيتون . وربما كان زيت الزيتون في واقع الأمر يصدر بكميات قليلة إلى الغرب ، بينما كانت الفواكه الفلسطينية النادرة ، كالليمون الحلو أو شراب الرمان أو الزبيب الأحمر، تشاهد أحياناً على موائد أثرياء إيطاليا^(٥) .

ومع ذلك ، كانت هناك منتجات قليلة يستطيع الشرق الفرنجي تصديرها على نطاق كبير يكفي لجلب قدر كبير من العوائد إلى البلد . وأهم تلك المنتجات هو السكر؛ فعندما وصل الصليبيون إلى سوريا وجدوا أن قصب السكر يزرع في مناطق ساحلية كثيرة وفي وادي الأردن ، فواصلوا زراعته وتعلموا من أبناء البلد طريقة استخلاص السكر من القصب . وكان هناك مصنع سكر ضخيم في عكا، ومصانع في أغلب المدن الساحلية ، وكانت صور هي المركز الرئيسي لتلك الصناعة . وكان السكر المستهلك كله في أوروبا خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر يأتي من الشرق الفرنجي^(٦) . وتأتي الملابس بشتى أنواعها في المرتبة الثانية من مراتب التصدير الرئيسية ؛ فكانت دودة القز تربى حول بيروت وطرابلس منذ نهاية القرن السادس ، بينما كان

(٤) E.g. in 1185 . أنظر أعلاه ، الجزء الثاني ، الصفحتين ٤٩٦-٤٩٧ .

(٥) كان رئيس أساقفة صور يمتلك ٢٠٤٠ شجرة زيتون في قرية واحدة فقط، Tafer-Thoma, *Urkunder*, p.299. أنظر Cahen, "Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin II", in *Bulletin de la faculté des lettres de Strasbourg* (April, 1951), p. 293. Burchard of Rey, *Les Colonies Franques*, p. 245; Heyd, *op. cit.* pp. 177-8. Mount Sion في مؤلفه وصف الأرض المقدسة Description of the Holy Land إن حدائق الفاكهة المحيطة بطرابلس كانت تعود على أصحابها بعائد سنوي قدره ٣٠٠ ٠٠٠ بيزانت ذهبي. ed. P.P.T.S. p. 16

(٦) Heyd, *op. cit.* i, p. 179, ii, pp. 680-6; Cahen, *op. cit.* ii, p. 293; Rey, *op. cit.* pp.248-9

الكتان ينمو في سهول فلسطين ، وكانت المواد الحريرية تباع للتصدير . وكانت الانسجة الحريرية المطرزة بالذهب والفضة تُصنع في عكا وبيروت واللاذقية ؛ وكانت صور تشتهر بقماش يعرف باسم زندادو أو سيندال . وكان للأقمشة الكتانية المصنوعة في نابلس شهرة عالمية ، وكانت الأصباغ الأرجوانية الآتية من صور درازا عسريا للملابس . بيد أن الإيطاليين كانوا يستطيعون أيضا شراء الحرير والكتان في أسواق سوريا ومصر حيث كانت الإمدادات أكبر والأسعار أرخص دائما^(٧) . وكذلك الحال مع الزجاج ؛ فكان اليهود في شتى المدن ، خاصة صور وأنطاكية ، ينتجون الزجاج للتصدير ، بيد أن الزجاج المنتج في مصر كان ينافس منتجاتهم . وربما كانت المدابغ لا توفر سوى الاحتياجات المحلية ، لكن الفخار كان يُصدّر أحيانا^(٨) .

وكانت هناك سوق دائمة للأخشاب في مصر ؛ فمنذ أقدم العصور كان الأسطول المصري يُبنى بالأخشاب المستجلبية من غابات لبنان أو التلال الواقعة جنوب أنطاكية ، هذا فضلا عما كان يحتاجه المصريون من أخشاب بمقادير كبيرة لأغراض البناء المعماري . ونادرا ما كانت الحروب بين المصريين والدويلات الصليبية تقطع هذه التجارة لفترة طويلة^(٩) . وكانت هناك مناجم حديد بالقرب من بيروت ، وإن بدا أن إنتاجها لا يكفي للتصدير^(١٠) .

وكانت تُصدّر أنواع معينة من الأعشاب والعطارة ؛ أهمها المرهم ؛ الزيت العطرية ولأنها تستخدم أساسا في أوروبا في طقوس الكنيسة ، يصبح الآتى منها من الأراضي المقدسة أكثر شعبية ، وفي القرن الثاني عشر كانت تزرع بمقادير كبيرة بالقرب من القدس ، غير أنه لم يكن من اليسير زراعة المحصول الذي يتطلب ريًا باهظ التكاليف . وبعد إعادة الفتح الإسلامي في نهاية القرن تضاءلت زراعتها وسرعان ما

(٧) Heyd, *op. cit.* i, pp. 178-9, ii, pp. 612, 696, 699, 705 . وكانت يياضات نابلس خشنة بمقارنتها بتلك التي تنتج في مصر. Rey, *op. cit.* pp. 214-21. (ibid. p. 632 n.1) ويقول الإدريسي Idrisi في (p. 11) Geography (Arabic text, ed. Guildermeister, p. 11) إن نوعا معينا من الملابس البيضاء كان يُصنع في صور

(٨) Heyd, *op. cit.* i, p. 179; Rey, *op. cit.* pp. 211-12 (quoting Assises, ii, p. 179), 224-5.. أنظر أعلاه ، الجزء الثاني ص. ٣٣٩-٣٤٠ .

(٩) See Rey, *op. cit.* pp. 234-40, for the forests in Outremer.

(١٠) Idrisi, p. 16 ، يقول إن الحديد كان يُرسل من بيروت إلى سائر أنحاء سوريا

التجارة العابرة

وكان حكام الشرق الفرنجي يحصلون على أكبر الإيرادات من البضائع التي كانت تمر عبر البلد؛ فكان هناك طلب متزايد في أوروبا العصور الوسطى على البضائع الشرقية والعطارة والأصباغ والأخشاب المعطرة والحرير والخزف، وكذلك بضائع من البلدان الإسلامية الواقعة على حدود الشرق الفرنجي. بيد أنه كان لزاما على هذه التجارة أن تتوقف على الظروف السياسية في آسيا؛ فعندما بدأت الحملات الصليبية كانت أغلب تجارة الشرق الأقصى تأتي بحرا عبر المحيط الهندي فالبحر الأحمر إلى مصر، وقد جذبتها ما كانت عليه المدن المصرية من ثراء وما كان الحكم الفاطمي يوفره من أمان، وبذا بعدت التجارة عن طريقها السابق أعلى الخليج الفارسي إلى بغداد. وكانت الموالي السورية تستخدم في تصدير البضائع المحلية دون غيرها، كأصباغ النيل من العراق أو الأدوات المعدنية الدمشقية، وأية عطارة من جنوب الجزيرة العربية تحمل في قوافل بدلا من القوارب. وفي نهاية القرن الحادي عشر، لم تجدد التجارة أو الصناعة في داخل سوريا تشجيعا بسبب الحروب الصغيرة التي أعقبت الغزوات التركية؛ ولم ترجع سوريا إلى سابق ازدهارها إلا عندما جعل نورالدين، ومن بعده صلاح الدين، من سوريا ومصر وحدة منظمة، فزادت المنتجات المحلية، وأمكن نقل البضائع الآتية من العراق وفارس بأمان إلى حلب أو حمص أو دمشق ومن أيها إلى البحر، وكان تجار حلب يستخدمون ميناء السويدية، الذي يصلون إليه من خلال أنطاكية، وميناء اللاذقية؛ أما طرطوس وطرابلس فكانتا مينائي حمص وعكا ودمشق^(١٢).

وعلى الرغم من أن الإيطاليين ساعدوا الصليبيين في غزو كل ميناء من تلك الموانئ، بقيت مصالحهم التجارية الرئيسية في مصر؛ فكانت القوانين التجارية الصادرة في البندقية خلال القرن الثاني عشر تذكر دائما الإسكندرية أكثر مما تذكر عكا، وبصورة خاصة بعد طرد البنادقة من القسطنطينية. كما أن سجلات جنوا في الفترة من ١١٥٦ إلى ١١٦٤م تظهر أن عدد العملاء الذين لهم مصالح في الإسكندرية يبلغ

(١١) Heyd, *op. cit.* ii, pp. 577-8.(١٢) Heyd, *op. cit.* i, pp. 168-77.

ضعف عدد من لهم مصالح في الشرق الفرنجي تقريبا . والجدير بالملاحظة كذلك في النصف الأول من القرن الثاني عشر أن أغلب المسافرين من أوروبا إلى فلسطين يذهبون أولا في سفن بندقية أو جنوبية إلى القسطنطينية ومنها برا، أو في سفن ساحلية يونانية إلى سوريا ؛ أو أنهم يبحرون مباشرة من جنوب إيطاليا في سفن مملكة صقلية ، ولذا يبدو أنه لم تكن هناك سفن كثيرة تبحر في رحلات منتظمة من الموانئ التجارية الإيطالية إلى سوريا حتى السنوات الأخيرة من القرن^(١٣) . وحتى ذلك الوقت لم يكن حجم البضائع التي تمر خلال الموانئ السورية كبيرا ؛ ولأن الرسوم الجمركية على هذه البضائع العابرة كانت مجرد عشرة في المائة من قيمتها تقريبا ، فمن اليسير أن نفهم علة عدم امتلاء خزانة الشرق الفرنجي في أغلب الأحوال، وعلة إغراء الملوك بالإغارة دائما في الوقت الذي كان حريا بهم للدواعي الشرف والدبلوماسية الحفاظ على السلام^(١٤) .

ومن اليسير كذلك أن نفهم علة تردد المدن البحرية الإيطالية في مساندة الحملات الصليبية . ذلك أن الواجب المسيحي يملئ عليهم تقديم العون إلى الفرنج ضد المسلمين؛ بيد أن الازدهار الكامل لتلك المدن كان يتوقف على احتفاظها بعلاقات طيبة مع المسلمين ، وكلما أسهمت بالمساعدة في مغامرة مسيحية ، كانت تجازف بخسارة حقوقها التجارية مع الإسكندرية . ومع ذلك، وفي غيبة تعاونها لم يكن الصليبيون قادرين البتة على غزو المدن الساحلية ؛ وتظهر حقيقة تعاونها أن مشكلتها لم تكن بالمشكلة الهينة على كل حال . فقد أرسل الجنويون مساعدتهم بينما كانت الحملة الصليبية الأولى ما تزال في أنطاكية ؛ وأبحر أسطول من بيزا قبل أن تصل إلى الغرب أنباء الاستيلاء على القدس ؛ وكان سلوكها اللاحق الذي اتصف بالبرود تجاه مملكة القدس يعزى إلى شجار بلدوين الأول مع ديامبرت ، الذي كان رئيس أساقفتها ، أكثر من كونه يعزى إلى أية حسابات تجارية ؛ وحتى البنادقة ، الذين كانت لهم أوثق العلاقات مع مصر ، قدموا المساعدة إلى جودفري (أوف لورين) قبل موته مباشرة . ولم تكن هذه السياسة تتصف تماما بالمجازفة بنفس القدر الذي يبدو من الوهلة الأولى ؛ إذ لا توجد تجارة ما لم تعد بالنفع على كلا الجانبين . ولم تكن السلطات الإسلامية في مصر ترغب - شأنها في ذلك شأن الإيطاليين - في قطع العلاقات التجارية لفترة طويلة . وبرغم أن تلك السلطات كانت في لحظات الغضب تغلق الإسكندرية في وجه السفن

(١٣) Cahen, *op. cit.* iii, p. 330-3، ويورد إحصائيات

(١٤) Cahen, *op. cit.* iii, pp. 330-3 . وكانت الغزوات من مثل غزوات بلدوين الثالث في عام ١١٥٧ م لا تستهدف سوى الحصول على المال (أنظر أعلاه ، الجزء الثاني ص ٣٨٨) .

المسيحية ، فقد كانت تعاني من توقف الأعمال ، ومن ثم لم تكن تشار بصورة بالغة الصرامة . فضلا عن ذلك ، وجد الإيطاليون مزايا كثيرة في الحصول على حصة من الموانئ التي تؤخذ حديثا ، ولم يتوفر لديهم أبدا شعور بالأمن في المدن الإسلامية ولا حتى في القسطنطينية ؛ ففي حالة قيام الجماهير بأعمال شغب ، ربما تُدمر منشآتهم ، أو ربما يتدخل حكام غرباء بنزواتهم في أعمالهم ؛ ورغم أن حجم التجارة الفعلي المقرر لموانئ سوريا المسيحية ربما كان أقل منه في القسطنطينية أو الإسكندرية ، كان بمقدورهم الاعتماد على عدم انقطاع أعمالهم . ولم يكن لديهم من صعاب سوى منافسة رفاقهم الإيطاليين وليس عداوة الحكام المحليين . وكانت هناك أيضا ميزة أخرى ذات أهمية متزايدة تتصل بالموانئ الفرنجية ؛ إذ كانت الصعوبة الرئيسية للإيطاليين هي العثور على بضائع في أوروبا يوفر بيعها ثمن البضائع التي يرغبون في شرائها من الشرق . وحتى السنوات الأولى من القرن العاشر كانت الصادرات الرئيسية للبندقية هي العبيد من أوروبا الوسطى ، بيد أن تحول السلاف والهنجارين إلى المسيحية أنهى هذه التجارة . وفي النصف الأخير من القرن الثالث عشر أحيا الجنوبيون تجارة العبيد التي كانت تقوم على نقل العبيد الأتراك والتتر من موانئ البحر الأسود لبيعهم لممالك مصر ، على أنه في السنوات التي تخللت ذلك لم يكن هناك من العبيد سوى القليل . وكانت الصادرات الهامة الوحيدة من الغرب هي المعادن والأخشاب ، ولأن هذه المواد كانت تستخدم أساسا في صناعة الأسلحة ، فكان من الطبيعي أن ترفض السلطات الدينية في أوروبا بيعها للمسلمين . غير أن الإيطاليين تعلموا تدريجيا أن الحركة الصليبية ووجود الشرق الفرنجي قد جذبا إلى الشرق عددا كبيرا من الجنود والدبلوماسيين ، والأهم منهم ، الحجاج ؛ فإذا تولى الإيطاليون نقلهم على سفنهم ، تمكن أصحاب تلك السفن من استغلال عائدات نقل المسافرين ومصرفاتهم في الموانئ السورية لشراء البضائع المستوردة من الأماكن الأبعد إلى الشرق . وأخيرا ، وبرغم تمسك التجار الإيطاليين بمصالحهم ، فإنهم لم يتجاهلوا كلية هواجسهم الدينية ؛ فكان الكثير منهم ، حتى في جنوا أو البندقية ، يفضلون ممارسة تعاملاتهم في الموانئ المسيحية وليس الإسلامية ؛ فضلا عن أن الكنيسة تعارض بشدة من الناحية العملية التجارة مع الكفرة ، وقد كان للكنيسة قوتها السياسية في إيطاليا ، ومن شأن معاداتها أن يتسبب في حرج خطير^(١٥).

(١٥) Ibid. and pp. 340-4 . Cahen يُنقص قليلا من أهمية الشرق الفرنجي للإيطاليين بصورة عامة . وفي التاريخ ما يوحى بشدة اهتمامهم بالشرق الفرنجي بصورة تفوق ما يتضمنه جدول

دور التجار الإيطاليين

وكانت الفترة التي شهدت ذروة ازدهار التجارة في الشرق الفرنجي هي فترة السنوات العشر السابقة مباشرة على استعادة صلاح الدين للقدس والعقود الأولى من القرن الثالث عشر . وكان العالم الإسلامي متحدا مزدهرا وقد اكتشف الإيطاليون مزايا التجارة من خلال الموانئ المسيحية ؛ وفي ذات الوقت تعلم المستعمرون الفرنج كيف يصادقون حيرانهم الكفرة . وبين الحاج المسلم المؤرخ ابن جبير، الذي ارتحل مع قافلة من التجار المسلمين من دمشق إلى عكا، أن تلك القوافل كانت متواترة بصورة منتظمة، وأعرب عن استحسانه لسلسلة ترتيبات جمع الرسوم الجمركية^(١٦). وكانت عكا أكثر موانئ الساحل ازدحاما بحركة الأعمال ، إذ كان الميناء الطبيعي لدمشق ، ولذا كان يستخدم لمنتجات المصانع الدمشقية والريف الغني المحيط بحوران ، ليس هذا وحسب وإنما يخدم كذلك تجار اليمن الذين دأبوا على الحجىء بطريق الحجاج بطول ساحل الجزيرة العربية؛ كما أن عكا هي الميناء الوحيد الآمن في فلسطين كلها ، وكان المسافرون إلى الأماكن المقدسة يفضلون النزول إلى البر فيه أكثر من تفضيلهم النزول في ميناء يافا ذات المرسى المفتوح حيث كانت تقع الحوادث بكثرة قبل استيلاء الصليبيين على عكا . وكانت المثلبة الوحيدة لعكا هي ضالة المرفأ الداخلي بحيث لم يكن يتسع للسفن الكبيرة في ذلك الوقت التي كانت تضطر إلى الرسو خارج حاجز الأمواج حيث تتعرض للرياح الجنوبية الغربية ، أو تضطر إلى أن تبحر شمال الساحل حيث مرفأ صور الأكبر والأكثر أمانا^(١٧). وفي شمال سوريا كان أفضل مرفأ هو مرفأ اللاذقية الذي كان يناسب جميع الأحوال الجوية، رغم أن مرفأ السويدية الواقع على مصب نهر العاصي كان ملائما بصورة أكبر لأنطاكية وحلب وكان يستخدم للسفن الأصغر^(١٨).

المؤرخ

(١٦) Ibn Jubayr (ed. Wright), pp. 306-7 .

(١٧) Ibn Jubayr, pp. 307-8 ، الذي يلاحظ أن ميناء صور أفضل من ميناء عكا للسفن الأكبر

(١٨) أثنى الجغرافيون المسلمون جميعا على مرفأ اللاذقية باعتباره مرفأ جيدا بصورة خاصة (مثل الإدريسي Idrisi, p. 23 ، وياقوت في قاموسه الجغرافي. Yakut, *Geographical Dictionary*, ed. Wustenfled, iv, p. 338 ، والدمشقي Dimashki, ed. Mehren, p. 209 ، ويبدو أن ميناء سان سيميون (السويدية) كان يستخدم بصورة أقل كثيرا فيما عدا التجارة الذهابية إلى أنطاكية ذاتها . وربما كان المرفأ قد بدأ يحتل بالطين فعلا . أما ياقوت Yakut, iii, p. 385 ، الذي كان يكتب قبل غزو بيرس ، فقد أشار إليه على أنه ميناء أنطاكية الذي كان الفرنج يستخدمونه

وتذكر قوانين القدس عددا من البضائع التي كانت تمر في جمارك الشرق الفرنجي ؛ وإلى جانب الحرير وغيره من المنسوجات كانت هناك شتى أنواع العطاراة مثل القرقة والخبهان والقرنفل ولحاء حوزة الطيب والمسك ونبات الخلنجان وحوزة الطيب ، وكذلك النيلج و أصباغ القوة وعود نبات الند والعاج^(١٩). وكان للفرنج دور ضئيل جدا في هذه التجارة . وكان التجار ، مسلمون أو مسيحيون وطيون ، يحضرون البضائع إلى الساحل من داخل البلاد ؛ وفي شمال سوريا كان يحضرها من أنطاكية أيضا اليونانيون والأرمن ، وكان التجار الزائرون يعاملون معاملة طيبة ؛ فيسمع للمسلمين أداء عباداتهم في المدن المسيحية ، وفي واقع الأمر كان هناك في عكا ذاتها جزء من الجامع الكبير - الذي حولوه إلى كنيسة - مخصص كي يباشر المسلمون طقوسهم . وكانت هناك أنزال يمكنهم البقاء فيها ، كما كانت هناك دور مسيحية تضم سكانا مسلمين . وكان التجار الإيطاليون يشترون مباشرة من المستوردين المسلمين ؛ وفضلا عن الإيطاليين يبدو أن كان هناك عدد معين من المسلمين الآتين بحرا إلى عكا لشراء البضائع من الداخل ، وخاصة المغاربة الآتين من شمال غرب أفريقيا وكانوا يرتحلون إلى أماكن بعيدة تصل إلى دمشق أو غيرها من المدن الإسلامية الداخلية^(٢٠).

الطرق التجارية في ظل المغول

أدى توسع الإمبراطورية المغولية في القرن الثالث عشر إلى تغيير الطرق التجارية الرئيسية الآتية من الشرق الأقصى . وعندما استولى المغول على داخل آسيا شجعوا التجار على اتخاذ طريق برى من الصين يخترق التركستان ثم يتجه شمالا بحر قزوين إلى الموانئ الواقعة على الساحل الشمالي للبحر الأسود مثل كافا ، أو جنوبى بحر قزوين خلال إيران إلى طرابزون الواقعة على الساحل الجنوبي للبحر الأسود ، أو إلى أياص في مملكة أرمينيا الكيليكية . ونتيجة لنظام المغول المثالى أصبح هذا الطريق مفضلا على الطريق البحرى المحفوف بالمخاطر عبر المحيط الهندى^(٢١). وفي القرن الثانى عشر كانت

(١٩) *Assises*, ii, pp. 174-6. See Heyd, *op. cit.* pp. 563 ff. The *Assises* mention III dutiable articles.

(٢٠) Ibn Jubayr, pp. 307-9.

(٢١) Heyd, *op. cit.* ii, pp. 70-3.

السفن الصينية تبهر دائما غرب سيلان إلى الموانئ العربية ، أما الآن فلم يعد الأمر يستحق الذهاب إلى أبعد من الساحل الشرقي للهند^(٢٢) وقد أسفر الغزو المغولي للعراق عن وصول بعض التجارة الهندية إلى الغرب عن طريق البحر أعلى الخليج الفارسي ، وكانت نسبة منها تعبر خلال دمشق أو حلب إلى الموانئ الفرنسية . غير أن أغلب التجار كانوا يفضلون البقاء داخل الأراضي الواقعة تحت السيطرة المغولية ومنها يعبرون إلى البحر المتوسط عند أياس بينما تنقل أغلب التجارة الهندية برا خلال أفغانستان وفارس^(٢٣) . وكانت مصر ما تزال سوقا رائجة للبضائع الشرقية ، لكنها لم تعد تقع على أقل الطرق تكلفة من الشرق الأقصى إلى أوروبا^(٢٤) .

وفي ذات الوقت كانت كل من البندقية وجنوا تزيدان تجارتها تدريجيا ، وأخذت المنافسة بينهما تزداد حدة ، وببعض تنبأ خلفهما . وقد زادت المنافسة بين تلك المدن نتيجة لتحول طرق التجارة ؛ فكانت البندقية أول الأمر تتحكم في البحر الأسود نظرا لسيطرتها على الإمبراطورية اللاتينية في القسطنطينية ، ولذلك لم تتأثر بقيام القوة المغولية ، ولكن عندما استعاد البيزنطيون عاصمتهم سنة ١٢٦١م بالمساعدة الفعالة من جنوا ، تمكن الجنويون من استبعاد البنادقة من البحر الأسود واحتكار تجارة آسيا الوسطى ، وكذلك التجارة الجانبية المربحة - تجارة العبيد بين السهول الروسية ومصر ؛ ولأن حكام الممالك كانوا يعتمدون على امدادات منتظمة من عبيد الكيشاك والقبائل التركية المجاورة ، كان من المحال على البنادقة إستبعاد الجنويين من الإسكندرية ؛ ورغم أن الملك الأرمني سمح للبنادقة بالمشاركة في التجارة المغولية الآتية إلى أياس ، كان من الضروري للبندقية أن تحاول طرد الجنويين من الموانئ الفرنسية ؛ فأما في عكا ، فقد أصابوا النجاح ، وأما صور التي انسحب إليها الجنويون فكان موقعها يقل في جودته . وأصبحت السياسة العامة للبندقية - في كراهيتها لجنوا - معارضة المغول ، إذ كانت جنوا تحصد من امبراطوريتهم تلك الأرباح الطائلة ؛ ونتيجة لذلك ، كان البنادقة يستخدمون نفوذهم في عكا لتحريض حكومتها على مؤازرة الممالك ضد المغول^(٢٥) .

(٢٢) يقول الإدريسي إن السفن الصينية كانت تذهب في القرن الثاني عشر حتى دايال الواقعة على مصب نهر الإندوس ، لكنها في القرن الثالث عشر لم تكن تذهب إلى أبعد من سومطرة . ثم تولت السفن العربية تجارة المحيط الهندي التي كانت ما تزال مزدهرة . أنظر Heyd, op. cit. i, pp. 164-5.

(٢٣) Heyd, op. cit. pp. 73 ff. .

(٢٤) *ibid.* كان المصريون يتقاضون كذلك رسوما جمركية أعلى . (ibid. p.78)

(٢٥) أنظر أعلاه ص ٣٣٣ وما بعدها؛ وأيضا Bratianu, Commerce Génois dans la Mer Noire

ومن الطبيعي أن يتسبب تطوير ميناء أياس - باعتباره المنفذ الرئيسى لتجارة المغول فى البحر المتوسط - فى تقليل أهمية الموانئ الفرنجية ؛ غير أن الزيادة العامة فى التجارة الآسيوية فى ظل المغول كانت تعنى استمرار وجود فائض فى التجارة يستخدم الطرق الأقدم . ودأب تجار الموصل على زيارة عكا أثناء النصف الثانى من القرن الثالث عشر، ولم تكن الحروب الدائرة بين المماليك والمغول تعرقل كثيرا مرور القوافل من العراق وإيران إلى فلسطين . وكانت عكا حتى السنوات الأخيرة من عمرها ، وباعتبارها العاصمة المسيحية ، مليئة بالنشاط التجارى ، بينما كانت البضائع التى تتداولها اللاذقية فى الشمال والآتية من حلب من الضخامة بحيث ترسل تجار حلب بصورة خاصة السلطان المملوكى للإستيلاء على الميناء الذى لا ينبغي - بمثل مكانه هذا النفيس - أن يبقى فى أيدي الكفرة^(٢٦).

ثروة البارونات

ومع ذلك ، كانت كل هذه التجارة المزدهرة ذات نفع ضئيل للفرنج . ذلك أنه يجعل الموانئ البحرية بمثابة ميدان قتال بين المستعمرات الإيطالية المتنافسة ، غدت تلك الموانئ مصدرا لضعف سياسى فعال ؛ وحتى لو ظل الإيطاليون فى سلام ، لم يكن حكام الشرق الفرنجى ليحصلوا من التجارة على أموال كثيرة . فكان يحق للملك رسميا الحصول على عشرة فى المائة تقريبا من المكوس الجمركية ، غير أنه كان يبيع حصصا ضخمة من تلك النسبة لأتباعه أو للكنيسة أو للأنظمة الدينية العسكرية ، وبذا لم يكن يتبقى له الكثير . وكان أمراء أنطاكية وكونتات طرابلس أفضل حالا بقليل لأنهم لم يمنحوا غيرهم سوى القليل من عوائد الإقطاعيات، غير أن الشرق الفرنجى لم يكن بالمكان الذى تجمع فيه الثروات الضخمة ؛ إذ كان هناك لوردات على قدر من الثراء يتيح لهم العيش فى رفاهية، مثل آل إيبيلين فى بيروت الذين كانوا يمتلكون مناجم الحديد المحلية ، أو آل منوننفورت فى صور بما لهم من مصانع السكر . وكان مواطنو الشرق الفرنجى يظهرون فى أعين المسافرين الغربيين البسطاء بمظاهر الإزدهار الرائع ؛ غير أن تلك المظاهر كانت مظاهر زائدة عن الحاجة ومصطنعة . وكانت المدن أكثر نظافة وترتيا فى مبانيها ، وبإمكان ساكنيها شراء الملابس الحريرية والتعطر بالعطور والطيب

esp. pp. 79 ff

For Ayas, called by the Italians Lajazzo, see Bratianu, *op. cit.* pp. 158-62. (٢٦)

بأسعار لا يقدر عليها سوى أثرياء الأثرياء فى أوروبا الغربية ، بيد أن تلك الأشياء كانت من المنتجات المحلية ولذلك كانت رخيصة نسبياً^(٢٧).

وليس لدينا سوى القدر القليل من المعلومات المتصلة بأنشطة الطبقات البورجوازية فى الشرق الفرنجى التى يبدو أنها لم تلعب دوراً فى التجارة الدولية وإنما قصر أفرادها جهدهم على إدارة الحانوت وتصنيع البضائع للإستهلاك المحلى . وكانت لهم بعض القوة السياسية ؛ ذلك أن كوميون عكا - الذى يتألف من البورجوازية الفرنجية - كان عنصراً هاماً فى الدولة ، بيد أنه انتحى بنفسه جانباً بعيداً عن المجتمعات الوطنية فيما يبدو ، حتى عن الأرثوذكس الذين كانوا يعاملون ككيان منفصل^(٢٨). وفى أنطاكية ، حيث كان الكوميون أكثر تأثيراً ، كانت البورجوازيان الفرنجية واليونانية تعملان معاً ، وربما كان هناك تزاوج أكثر ، ولم يكن الفرنج هناك بأعداد كبيرة كما هى حالهم فى عكا أو فى طرابلس التى يبدو أنها حذت حذو نمط عكا^(٢٩). أما الطبقات العاملة فكانت فى أغلبها من أصل وطنى أو من أصول متخلطة ؛ وكثيراً ما كانت هناك أعداد كبيرة من العبيد ، من المسلمين المأسورين فى الحروب ، للعمل فى المناجم أو فى تشييد المباني العامة أو فى الضياع الملكية أو ضياع النبلاء^(٣٠).

وكان الحكم يفتقر إلى المال دائماً. وحتى فى وقت السلم كان يتعين على البلد أن يكون مهياً لاندلاع حرب مفاجئة ، وعادة ما كانت الحرب تسفر عن تخريب مناطق كبيرة من الريف . ولم تكن إيرادات المكوس والضرائب كافية ؛ وكان من العسير مجابهة الطوارئ المفاجئة فى غيبة المساعدة الخارجية ، مثل أسر الملك أو قسم بكامله من أقسام الجيش . ولحسن الحظ كانت المساعدة الخارجية دائماً قادمة ؛ ذلك أنه بالإضافة إلى الأموال التى يحصل عليها الفرنج - عادة بطرق غير حكيمة - عن طريق الإغارة فى الأراضى الإسلامية للنهب ، كانت الهبات ترسل من أوروبا بلا انقطاع ؛ إذ

(٢٧) بحسب أمادى Amadi أن قيمة إقطاعية فيليب (أوف مونتفورت) الموجودة فى طورون فى عام ١٢٤١م هى ستين ألف بيزانت شرقى. (p. 180) غير أن جوى أمير جبيل كان بمقدوره إقراض خمسين ألف بيزانت شرقى إلى ليوبولد دوق النمسا وثلاثين ألف بيزانت شرقى لفريدريك الثانى (أنظر أعلاه ، ص ١٤٩ و ١٨٢) . أنظر أيضاً La Monte, *Feudal Monarchy*, pp. 171-4.

(٢٨) أنظر Cahen, *op. cit.* iii, pp. 335-7; also Prawer 'L'Etablissement des Coutumes du Marché à Saint-Jean d'Acre' in *Revue Historique de Droit Français*, 1951.

(٢٩) بالنسبة لأنطاكية انظر Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 549 ff., 153 ff. وبالنسبة لطرابلس أنظر Richard, *La Comète de Tripoli*, pp. 71 ff. .

(٣٠) Rey, *Les Colonies Franques*, pp. 105-8

أن فلسطين هي الأرض المقدسة ، والصليبيون والمستعمرون كانوا عموما يعتبرون جنود المسيح . وكان الزائرون يدفعون ضريبة فور وصولهم ؛ ولم يتوقف الأمر عند ما كان يحضره الحجاج من أموال إلى البلد لإنفاقها أو التصديق بها ، وإنما كان لكثير من المزارات والأديرة أراض ممنوحة لها في الغرب كانت إيراداتها ترسل إليها في فلسطين . وكانت الأنظمة الدينية العسكرية تحصل على أغلب دخولها من هبات الغرب التي أتاحت له أن تظل على ثرائها الفاحش حتى وإن فقدت كل ممتلكاتها في سوريا . وكان كل فرد من مواطني الشرق الفرنجي ، بدءا من الملك هبوطا إلى المواطن العادي ، يتلقى الهبات من حين لآخر من أقاربه في الغرب أو من المتعاطفين معه ؛ وكانت تلك الإعانات تساعد بدرجة كبيرة في موازنة مالية الشرق الفرنجي ، وهكذا فإن رغد العيش في المدن السورية ، الذي كان يحوز إعجاب الزائرين من الغرب ، كان بموِّله جزئيا أبناء جلدتهم في موطنهم^(٣١) .

ضرب العملة في الشرق الفرنجي

كان ضرب العملة في الشرق الفرنجي مصدرا آخر من مصادر القوة الاقتصادية يصعب تقييم آثاره . فعندما بدأت الحملات الصليبية لم يكن هناك ضرب للعملات الذهبية في غرب أوروبا باستثناء صقلية والأندلس المسلمة ، وكانت الفضة هي أئمن المعادن المستخدمة ، كما لم تكن الدويلات الإسلامية في سوريا تصدر عملات ذهبية في ذلك الوقت رغم أن الخليفين في بغداد والقاهرة كانا يتنافسان في ذلك . ومع ذلك ، ما أن أنشئت الدويلات الصليبية حتى بدأ ملك القدس وأمير أنطاكية وكونت طرابلس في سك الدنانير الذهبية التي كانت تعرف باسم (البيزانئات الشرقية) والـ كانت مقلدة من دنانير الفاطميين ، لكن محتواها الذهبي كان مجرد الثلثين تقريبا . وكانت هذه العملات ، خاصة عملات مملكة القدس التي كان المسلمون يطلقون عليها (الصوري) نسبة إلى مدينة صور ، سرعان ما انتشر تداولها انتشارا واسعا في أنحاء الشرق الأدنى . ومن الصعب معرفة المصدر الذي حصل الفرنج منه على الذهب ؛ إذ أن السلب والفدية لم يوفرأ سوى قدر ضئيل غير منتظم ، وكان المصدر الرئيسي للذهب في ذلك الوقت هو السودان ، ويحتمل أن يكون التجار المغاربة قد أحضروا منه بعض الذهب . بيد أنه لتفسير ظهور ضرب العملة ، لا بد وأن كانت هناك حركة عامة

للذهب من البلدان الإسلامية إلى البلدان المسيحية ؛ ولا بد أن المستوطنين الأوروبيين كانوا يشترون الذهب من المسلمين - بأسعار باهظة بلا شك - فى مقابل الفضة التى كانت وفيرة فى أوروبا ؛ لابد وأن إصدارات هذه العملات الذهبية المنخفضة القيمة قد ساعد فى حركة الذهب كلها . ولا بد أن تكون مقادير كبيرة من الذهب قد انتقلت إلى الغرب ؛ إذ تجدر ملاحظة أن كانت هناك عملات ذهبية من سبائك رائعة بدأت تظهر خلال القرن الثالث عشر فى أوروبا الغربية^(٣٢).

وكان حكام الشرق الفرنجى يحتفظون بصرامة بحق إصدار العملات الذهبية ؛ ولم يكن مسموحا للمستعمرات الإيطالية هناك ولا للأنظمة الدينية العسكرية بالتعدى على هذا الاحتكار . وكان باستطاعة كبار مستأجرى الأرض سك مجرد العملات البرونزية للإحتياجات المحلية.

وكان للأنظمة الدينية العسكرية مصدر إضافي للثروة مشتق من أنشطتها المصرفية. ذلك أنها بممتلكاتها الشاسعة فى سائر أنحاء العالم المسيحى ، كانت فى موضع يثير الإعجاب بمكنها من تمويل الحملات الصليبية ؛ فلم يكن الإشتراك الفرنسى فى الحملة الصليبية الثانية ممكن التحقيق إلا بمساعدة نظام فرسان المعبد الذى دفع مبالغ طائلة للويس السابع فى الشرق تم تسديدها فى فرنسا . وبنهاية القرن الثانى عشر دأب نظام فرسان المعبد على ممارسة الإقراض المنتظم للأموال بأسعار فائدة مرتفعة ، غير أن سمعتهم المالية كانت من الشهرة الراسخة بحيث جعلت المسلمين يثقون فيهم ويستفيدون من خدماتهم . وكان لفرسان المستشفى وفرسان التيوتون معاملات مالية مماثلة ، وإن كانت على نطاق أصغر ؛ ولم تكسب حكومات الشرق الفرنجى شيئا مباشرا من تلك الأنشطة التى زادت من قوة تلك الأنظمة وتمردها ؛ غير أنها كانت تعود بالنفع المالى على البلد ككل^(٣٣).

(٣٢) (Cahen, *Notes sur l'Histoire des Croisades*, iii, pp. 337-8) الذى يورد مناقشة هامة جدا حول المشكلة). أنظر أيضا Schlumberger, *Les Principautés Franques du Levant*, pp. 8-45 . وكان لبيزانت القدس الشرقى قيمة ذهبية تزيد قليلا على ثلث الجنيه الإنجليزى الحال (Sovereign). وكان بيزانت أنطاكية الذهبى أقل فى قيمته بصورة طفيفة.

(٣٣) تتجاهل قوانين القدس *The Assises of Jerusalem* الأعمال المصرفية رغم أن قوانين أنطاكية تعترف بها أنظر Cahen, *op. cit.* p.339. وانظر Piquet, *Les Banquiers du Moyen Age*, passim ؛ وانظر أيضا Melville, *La Vie des Templiers*, pp. 75-83 وكانت حملة لويس التاسع الصليبية، كشأن حملة لويس السابع الصليبية، تمول بدرجة كبيرة عن طريق النظام. (Piquet, *op. cit.* pp. 71-8).

معضلة الشرق الفرنجي الاقتصادية

لا يزال التاريخ الإقتصادي للحملات الصليبية غامضا جدا . فالمعلومات غير كافية ، وهناك الكثير من التفاصيل لا سبيل إلى تفسيرها الآن . ومن غير الممكن أن نفهم تاريخها السياسي دون أن نضع في الاعتبار إحتياجات المستوطنين والتجار الإيطاليين التجارية منها والمالية . وعادة ما كانت تلك الإحتياجات تسير بالتضاد مع الدافع الأيديولوجي الذي بدأ الحركة الصليبية وحافظ عليها . وكان الشرق الفرنجي دائما تحت سيف المعضلة المسلط ؛ فقد أنشأه خليط من ذوى الحمى الدينية والمغامرين من المتعطشين إلى امتلاك الأرض . وإذا كان للشرق الفرنجي أن يدوم في حالة صحية فمن غير الممكن أن يظل معتمدا على الإمدادات المنتظمة من الرجال والأموال من الغرب ؛ فلا بد أن يثبت وجوده إقتصاديا ، ولا سبيل لأن يتحقق ذلك إلا بالتراضى مع جيرانه ، فإذا كانوا ودودين ومزدهرين فسوف يزدهر هو أيضا ؛ غير أن السعى إلى صداقة المسلمين بدا خيانة كاملة للمثل الصليبية . ولم يكن المسلمون من جانبهم قادرين أبدا على التصالح مع دولة غربية ومتفحمة في الأراضي التي يعتبرونها ملكهم ؛ فكانت معضلتهم أخف إيلا ما ، إذ لم يكن وجود المستعمرين المسيحيين ضروريا لتجارتهم مع أوروبا ، مهما بدا وجودهم ملائما أحيانا ؛ ولذا كانت العلاقات الحسنة متقلقة دائما . وكانت المشكلة الكبرى الثانية التي كان على الشرق الفرنجي مواجهتها هي علاقته بالمدن التجارية الإيطالية ، إذ كانت عنصرا لا غنى لبقاء الشرق الفرنجي عنه ، فبدون تلك المدن يوشك الاتصال بالغرب أن يكون مستحيلا ، ولبات مستحيلا تماما تصدير منتجات البلد أو الفرز بأي نوع من التجارة من الشرق الأبعد . وقد تسبب الإيطاليون في إلحاق أضرار لا سبيل إلى إصلاحها بما كان لهم من عجرفة وتنافس فيما بينهم وما كانت سياستهم تنصف به من عدم اكتراث ؛ فكانوا يناوون بأنفسهم جانباً سيا الحملات الحيوية ، ويظهرون جهارا تفتت العالم المسيحي . وقد زودوا المسلمين بمواد الحرب الأساسية ، وكانوا يقومون بأعمال الشغب ويحاربون بعضهم بعضا في شوارع المدن . ولا بد أن كان حكام الشرق الفرنجي يأسفون لهذه التجارة الغنية التي أتت بمثل هؤلاء الحلفاء الجامحين الخطيرين إلى شواطئهم ؛ ومع ذلك ، وبدون هذه التجارة ، تصبح قصة الشرق الفرنجي أقصر وأكثر عتامة . وليس من السهل في أية حال الفصل بين ما للرشاء المادي من مطالب عدوانية وبين البدة الأيديولوجية . ولا تستطيع أية حكومة أن تأمل في إشباع إيٍّ من المطلبين إشباعا كاملا ، فليس بوسع المرء أن يعيش على الأيديولوجية وحدها ، بينما يتوقف الإزدهار على قضايا أوسع من أن تنحصر في

شريط أرضى ضيق . ولقد ارتكب الصليبيون أخطاء كثيرة ، وكانت سياساتهم دائما تتصف بالتزدد والتغير ، بيد أن اللوم كله لم يكن يقع عليهم لفشلهم في حل مشكلة لم يكن لها حل في الواقع.

الفصل الثانى:

العمارة والفنون فى مملكة الشرق الفرنجى

العمارة والفنون في مملكة الشرق الفرنسي

"تَزِينُ الْآنَ بِالْجَلَالِ وَالْعِزِّ وَالْبَسِ الْمَجْدَ وَالْبَهَاءَ"
(أيوب ٤٠ : ١٠)

سمح فرنج أوتريميه للتجارة ، التي كان ينبغي لها أن تقيم بلدهم ، بأن تنزلق من قبضتهم . غير أنهم احتفظوا في بعض مجالات الفنون بمنتجاتهم ، وكانت إنجازاتهم هنا جديرة بالملاحظة ؛ إذ لم يكن المستعمرون كثيرون العدد ، والقليل منهم فقط هم القادرون على أن يكونوا فنانين . فضلا عن ذلك ، فقد جاءوا إلى الأراضي التي كانت تقاليدها الفنية أقدم بكثير من تقاليدهم ، ولم يجدوا فيها المواد التي اعتادوا عليها ؛ ومع ذلك ، بدأوا يطورون نمطاً يجاري احتياجاتهم بصورة مرضية .

وقد اندثرت أغلب أعمالهم الصغيرة ؛ فلم يسمح تاريخ سوريا وفلسطين المضطرب ببقاء الأشياء الرقيقة الهشة ، وإنما كانت هندسة عمارتهم أقوى على البقاء برغم ندرة مابقي - كشأن أغلب بلدان العصور الوسيطة - فيما عدا الآثار العسكرية والكنسية . وحتى تلك الآثار تبدل شكلها الأصلي من جراء التغيير والتحلل . وبخلاف

أكثر مزارات العالم المسيحي قداسة ، وهى التى لم يلمسها المسلمون لشدة حرصهم ،
والتي أصلحها المسيحيون فيما بعد ، كانت الكنائس الباقية حتى الآن مُصانة فقد أبقي
عليها تحويلها إلى مساجد ، واستحال غيرها أطلالا . أما القلاع والحصون الفرنجية فقد
دُمّرت كلها تدميرا شديدا فى خضم الحروب ، بحيث كان المسلمون الغزاة مضطرين -
إذا رغبوا فى استخدامها - إلى إعادة تشييد الكثير منها وخاصة الأسوار الخارجية
والبوابات . وما تركه الإنسان وشأنه ساعدت الطبيعة على تدميره فى الأماكن التى
ضربتها الزلازل . وحيشما يجتهد علماء الآثار المحدثون بما لهم من معرفة فى أعمال الترميم
والتجديد - كما حدث فى قلعة الفرسان Krak des Chevaliers ليس من الممكن دائما
التمييز بوضوح بين ما هو صليبي وما هو مملوكي .

وكانت أول المباني التى احتاج الصليبيون إلى تشييدها هى ما يدافعون به عن
أنفسهم . ووجب على الكنائس والقصور أن تنتظر إلى أن تصبح البلاد آمنة ؛ فكان
يتعين ترميم أسوار المدن ، وبناء الحصون لحراسة الحدود ولكى تكون بمثابة مراكز
إدارية آمنة لمقاطعات البلد . ولم تكن تحصينات المدن الرئيسية تستدعى سوى ترفيع هنا
وهناك ، فيما عدا حالات قليلة كان الصليبيون فيها قد شقوا مدخلا بهدم الأسوار . أما
فى أنطاكية ، فإن نظام الدفاع العظيم الذى شيّده البيزنطيون عند نهاية القرن العاشر لم
يعان سوى القليل من الأضرار ، ولم يكن الأمراء اللاتين فى حاجة إلى إضافة أي شيء
لنظام الدفاع ذاك . وبالمثل ، لم يكن هناك سوى أعمال ترميم طفيفة لأسوار القدس
الفاطمية ، رغم ما يبدو من أن الصليبيين قد أحدثوا من فورهم تغييرات وتحسينات فى
برج داود ؛ لكنهم سرعان ما بدأوا فى بناء قلاع فى المدن برغم ما فيها من تحصينات
كافية ، وقد بُنيت تلك القلاع كلها على حافة المدينة يمكن الدفاع عنها بصورة
مستقلة . وكان الدافع لبناء تلك القلاع ليس فقط رغبة أمراء المدن فى تحقيق القدرة
على استمرار المقاومة حتى فى حالة سقوط المدينة فى أيدي الأعداء ، وإنما ليكونوا
أيضا فى موضع يرهبون به المدينة إذا ما بدرت منها بؤادر تمرد أو عصيان . والقلعة
الأولى التى يمكن تحديد تاريخها بصورة مؤكدة هى قلعة الكونت ريموند على جبل الحاج
التي بُنيت سنة ١١٠٤م لتكون له بمثابة مقر أثناء حصاره طرابلس ؛ وكانت خارج
المدينة رغم أن طرابلس الإسلامية بُنيت فيما بعد عند قاعدتها ، على أن الذى تبقى إلى
الآن مما شيّده ريموند يجاوز السور الغربى بقليل . ولا بد أن قلاع أمراء الجليل فى طبرية
وطورون قد بُنيت فى نفس الوقت تقريبا . وقد بدأ العصر العظيم الأول لبناء القلاع
فى العقد الثانى من القرن الثانى عشر فى ظل بلدوين الثانى واستمر فى ظل فولك ،

وفيه شيدت قلاع عظيمة مثل قلعة مواب وقلعة بيوفورت ، وشمالا قلعة صهيون ، وكذلك القلاع الأصغر في يهودا مثل الصافية وبينة^(١).

القلعة البيزنطية

ولقد وجد الصليبيون هندسة معمارية عسكرية متقدمة تقدما بالغا في الشرق عنها في الغرب الذي بدأت فيه القلعة الحجرية في الظهور الآن فقط . فقد درس الرومان الدفاع العسكرى باعتباره علما من العلوم ، وقام البيزنطيون ، الذين قلدهم غزاة أجناب لا نهاية لهم ، بتطويره ليناسب احتياجاتهم ، وتعلم منهم العرب . على أن مشاكل البيزنطيين لم تكن هي نفسها مشاكل الصليبيين ؛ إذ كان البيزنطيون يفترضون أن القوة البشرية متاحة دائما ، وبوسعهم توفير حاميات كبيرة ، وكانوا يلاقون العنت كي يدافعوا عن مدنها دفاعا جيدا ؛ وكانت أسوار القسطنطينية ما تزال قادرة - بعد بنائها بألف عام - على تحدى أحدث مدافع العثمانيين ، وأما أسوار أنطاكية فقد أذهلت الصليبيين إعجابا بها. على أن القلعة البيزنطية لم تزد كثيرا عن كونها معسكرا حصينا ، وكانت مصممة للتعامل مع عدو ثقل أسلحته هولا عن أسلحة البيزنطيين . أما العرب ، وهم أخطر منافسيهم ، فكانوا أقل تقدما في آلات الحصار ولم يكن ضروريا أن تكون أسوار القلعة البيزنطية قوية ؛ إذ كانت هناك شبكة من التحصينات الخارجية من أهم ملاحظها خندق واحد على الأقل باتساع كبير يمنع العدو من إحضار المناجق أو سلاالم التسلق بالقرب من القلعة ؛ وكانت الأبراج ناتئة بصورة طفيفة على مسافات منتظمة بطول الأسوار ، وتستهدف توفير مجال أطول لأفراد الحامية من رماة السهام وقاذفى الخنادق يصل إلى خطوط الأعداء أكثر من كونها تستهدف الدفاع عن الأسوار ذاتها . ولم يكن البرج المركزى فى وسط القلعة مصمما كآخر خط دفاعى ، وإنما ليكون مخزنا للأسلحة والمؤن . وباستثناء أمثلة قليلة على الحدود الأرمينية حيث كان يعيش بارونات الحدود عيشة شبه مستقلة ، لم يكن مقصودا من القلعة البيزنطية أن تكون مكان إقامة ؛ إذ كان أمر القلعة جنديا محترفا يترك زوجته وأولاده فى منزله . وأخيرا ، ورغم الإفادة من الدفاعات الطبيعية ، لم يكن الاعتبار الأول هو الحيلولة دون الوصول إلى الموقع ، وإنما كانت الاستفادة الرئيسية بالقلعة هى أنها بمثابة ثكنة

(١) أنظر ، الجزء الثانى ، ص ٨٨-٨٩ و ١٢٣ و ٢٦٣-٢٦٥ . وانظر Deschamps, *La Défense du Royaume de Jérusalem*, pp. 5-19, and *Le Crac des Chevaliers*, pp. 43-4.

عسكرية. ولم يكن من الملائم إجبار الجنود على الكدح فى صعود الجبل وهبوطه فى كل مرة يتحركون فيها^(٢).

ومال العرب إلى اتباع النمط البيزنطى رغم أنهم كانوا أقل اهتماما بمشاكل الدفاع، إذ كانت جيوشهم أساسا متحركة وهجومية^(٣).

وعكف الصليبيون على دراسة هندسة العمارة العسكرية التى كانوا يقابلونها فى ترحالهم باتجاه الشرق وتعلموا منها الكثير، غير أن احتياجاتهم الأساسية كانت مختلفة؛ إذ كانت تعوزهم القوة البشرية دائما ولا يستطيعون الإحتفاظ بحاميات كبيرة، ومن أجل ذلك كان لابد لقلاعهم أن تكون أقوى بكثير وأيسر فى الدفاع عنها، ويتعين اختيار موقع القلعة بخصائصه الدفاعية، ويجب استغلال كل منحدر وكل تل صغير بأقصى استغلال ممكن؛ ولما لم يكن هناك من يمكن الإستغناء عنه وتكليفه بالاستطلاع وحمل الرسائل كان لابد لكل معقل أن يتمكن من مشاهدة جاره وتبادل الإشارات معه. وكان لابد للأسوار أن تكون سميكة ومرتفعة حتى تكون قادرة على الصمود للهجوم المباشر، لأن الدفاع عن التحصينات الخارجية يتطلب الكثير من الرجال. وفى الوقت نفسه، ينبغى الإنتفاع بالقلعة كمكان إقامة لأمرها ومركز إدارى له. وقد أحضر الصليبيون معهم وسائلهم الإقطاعية ولما كانوا يحكمون أناسا غرباء، كانت القلعة مركزا للحكم المحلى. ولابد أن يكون برجها المركزى الذى يتوسطها من الكبر بما يكفى لحماية القطعان والأسراب فى حالة الغارات العدائية المتكررة. وفى واقع الأمر، كانت القلعة بالنسبة للفرنج تلعب دورا هاما يفوق كثيرا دورها عند البيزنطيين والعرب^(٤).

(٢) *Le Crac*, pp. 45-57; Ebersolt, *Monuments d'Architecture Byzantine*, pp. 101-6; Fedden, *Crusader Castles*, pp. Deschamps 22-6.

(٣) Deschamps, *Le Crac*, p. 51; Fedden, *op. cit.* p. 26.

(٤) Deschamps, *Le Crac*, pp. 89-103; Smail, "Crusaders' Castles of the Twelfth Century", in *Cambridge Historical Journal*, vol. x, 2
القلعة.

قلاع القرن الثاني عشر

أما في الغرب ، فكانت القلعة حتى ذلك الوقت لا تزيد عن كونها برجاً مربعاً صلباً وقد يكون محصناً من النوع الذي بلغ به النورمانديون حد الكمال^(٥). ولم تكن هذه القلعة ملائمة لمتطلبات الشرق الفرنجي. وقد أجبر الصليبيون على أن يكونوا رواداً في ذلك المجال ، فاقبسوا من البيزنطيين الكثير من الأفكار ؛ فمنهم تعلموا استخدام الكوة لإطلاق القذائف على المهاجمين ، والإستفادة من تشييد الأبراج بطول الأسوار ، رغم أنهم سرعان ما أدخلوا تعديلاً في ذلك بعد أن اكتشفوا أن البرج المستدير يتيح نطاقاً أوسع من البرج القائم الزوايا الذي كان البيزنطيون يفضلونه. وكانت الحصون الأصغر المبنية في أوائل القرن الثاني عشر ، مثل حصن الكوكب ، قد بُنيت على الطراز البيزنطي المعتاد بأسوار خارجية مضلعة قائمة الزوايا تقريباً ، وقد زُينت بأبراج ، وتحيط بحيز في الوسط يضم البرج المركزي. وقد اختيرت المواقع بحيث يمكن الإستغناء عن أعمال التحصينات الخارجية ، وكان البناء كله متيناً للغاية. ودائماً ما كانت الأعمال البيزنطية متكاملة. وفي قلعة صهيون كانت الخنادق البيزنطية متكاملة بقناة ضيقة عمقها تسعون قدماً محفورة في الصخور الصلبة^(٦). كما أضاف الفرنج الأبواب الحديدية المدلاة التي لم تكن مستعملة في الشرق منذ عصور الرومان ، وكذلك المدخل الملتوى الذي بدأ العرب في تفضيله وإن لم يكن البيزنطيون يستخدمونه إلا نادراً ، ربما لأنه لم يكن مناسباً للآلات الثقيلة التي كانوا يحتفظون بها داخل القلاع^(٧).

ومن الطبيعي أن تكون القلاع الأكبر أكثر تعقيداً. فلم تكن قلعة الكرك مثلاً تقتصر على إيواء قائدها وأسرته ، وإنما كذلك الجنود والكتبة الذين يتولون إدارة المقاطعة ؛ وفي مثل هذه القلعة في القرن الثاني عشر كان موقع البرج المركزي والأماكن السكنية في أبعد الأماكن وأكثرها يسراً في الدفاع عنها من الحيز المركزي. وعادة ما كان موضع المخازن والكنيسة الصغيرة في الحيز المركزي، بينما الأبراج الأخرى المحيطة بالحيز كبيرة بحيث تضم حجرات الثكنات والمكاتب. وكان تصميم

(٥) (المترجم) النورمانديون Normans : أبناء نورماندى Normandy وهو إقليم تاريخي يقع شمال غرب فرنسا على القنال الإنجليزي.

(٦) للإطلاع على مخطط لقلعة الكوكب أنظر Deschamps, *La Défence*, p.121 ، وللإطلاع على مخطط أبسط لقلعة اليعمور (Chasel Rouge) أنظر Le Crac, p. 57 وتمت تقوية القلعتين التوأمتين الشفر وبكاس بخنادق صناعية مثل صهيون (Le Crac, pp. 80-1).

(٧) Deschamps, 'Les Entrées de Châteaux des Croisés', in *Syria*, vol. xiii

القلعة يختلف باختلاف المنطقة التي تقع فيها . وكان البرج المركزي ما يزال برجاً مكعباً بسيطاً - على الطراز النورماندى - بمدخل واحد فقط عادة . وكان البناء نفسه صلباً وبسيطاً بلا زخرفة وإن كانت هناك بعض المحاولات لزخرفة أماكن الإقامة والكنيسة الصغيرة . ولسوء الحظ لم تبق أية زخارف لقلاع القرن الثانى عشر ؛ أما الحصون التى ظلت مسيحية بعد عصر صلاح الدين فقد أعيدت زخرفتها فى القرن التالى ، وقد غيّر العرب الحصون التى احتلوها ؛ واستحال ما تبقى إلى أطلال^(٨).

وبتقدم سنوات القرن الثانى عشر طرأت بعض التغييرات على مخطط القلعة . من ذلك أن وضع البرج المركزي - وهو أقوى جزء فى القلعة - أصبح فى أضعف قسم من الحيز المركزي ، بدأ يعتبر من الأمور المنطقية ، وأصبح البرج المركزي نفسه مستديراً عادة وليس مضلعاً لأن السطح المستدير يقاوم القصف بطريقة أكثر فعالية من السطح المضلع ؛ وأزيدت فى البرج الأبواب والأبواب السرية . وكان حجم القلعة يميل إلى الزيادة خاصة عندما كانت الأنظمة الدينية العسكرية تبنى القلاع لنفسها أو عندما تستولى على قلاع من النبلاء العلمانيين ؛ ولم يكن فى قلاع الأنظمة الدينية العسكرية سيدات مقيمات، ورغم إمكان توفير أماكن إقامة رائعة لكبار المسؤولين فقد كان كل مقيم فيها يؤدي غرضاً عسكرياً . وأما القلاع الأكبر مثل قلعة الكرك أو عثليت فكانت مدناً عسكرية قادرة على إسكان عدة آلاف من المحاربين وما يلزمهم من خدم . ونادراً ما كانت تمتلئ هذه القلاع عن آخرها . وكانت الدفاعات الآن تقوى عن طريق حيز مركزي مزدوج متحد المركز ؛ وكان للقلاع العظيمة التى يملكها فرسان المستشفى - مثل الكرك ومواب - حزام مزدوج . واتباع فرسان المعبد نفس النظام فى صافيتا، وإن كانوا يفضلون كمبدأ عام الحيز المركزي الواحد ؛ وطبقاً للطراز الأول بُنيت قلعتاهم الرئيسيتان طرطوس وعثليت فى القرن الثالث عشر ، على أنه فى كل من الحالتين كانت الأقسام الأطول من الأسوار تنتصب من البحر مباشرة ، وعبر شبه الجزيرة التى كانت تصل عثليت باليابسة كان هناك خط مزدوج معقد . كما أن قلعة فرسان التيوتون فى مونتفورت ذات حيز مركزي واحد . ولم تكن فكرة الحيز المركزي فكرة جديدة ؛ ذلك أن الأسوار الأرضية للقسطنطينية كانت مبنية بخط مزدوج فى القرن الخامس ، وفى القرن الثامن أحاط الخليفة المنصور مدينته الدائرية ببغداد بخط مزدوج .

(٨) أنظر على سبيل المثال الوصف التفصيلي وتصميم قلعة الكرك فى مواب و الصيفية فى بانياس فى Deschamps, *La Défense*, pp. 80'93, 167-75، وانظر أيضاً اللوحات .

يد أن فرسان المستشفى كانوا هم أول من طبق فكرة الحيز المزدوج فى قلعة صغيرة رغم عدم إمكان استخدامها إلا لقلعة كبيرة الحجم^(٩).

وكانت التحسينات الأخرى لقلاع القرن الثالث عشر تتمثل فى النعومة الشديدة لواجهة الأسوار الخارجية التى تحول دون تثبيت السلاح ، وفى الإستخدام الأوسع للمزاغل والفتحات لرماة السهام ذات حواف منحدره عادة إلى أسفل وأحيانا قواعده تشبه الركاب - وفى تعقيدات أكثر فى بوابات المداخل ؛ وفى قلعة الكرك هناك مدخل طويل مغطى تسيطر عليه فتحات لرماة السهام فى جداريه الجانبين ، تعقبه ثلاثة أركان قائمة الزوايا ، ثم باب حديدى مدلى ، وأربعة بوابات منفصلة. وكانت الحماية تتوفر للأبواب الخلفية من أركان غير متوقعة ، وهى وسيلة كان البيرنطيون أول من قدمها^(١٠).

ضعف دفاعات القلاع

إن هذه القلاع الضخمة ، بأبنيتها القوية ، ومواقعها الرائعة على الصخور الشائخة وقمم الجبال ، بدت منيعة قبل أن يُعرف البارود . وكانت طبيعة الأرض تحول دائما دون أن يصبح استعمال السلاح أمرا عمليا ، وليس فى الإمكان إحضار أبراج الحصار للسيطرة على الأسوار إلا إذا كانت هناك أرض مسطحة فى الخارج تخلو من الخنادق . وكان من الصعب دائما على المحاصرين أن يجدوا موقعا قريبا بما فيه الكفاية يضعون فيه المناجق أو الرامات لقذف الصخور . وكان الخطر الفنى الرئيسى هو النفق ؛ إذ كان المهندسون يحفرون النفق تحت الأسوار ، يسندون سقفه أثناء توغلهم بعمد خشبية ثم يشعلون فيها النيران فى نهاية الأمر بفروع الأشجار ، مما يتسبب فى انهيار النفق نفسه . ومع أحجار الأسوار من فوقه . غير أن حفر النفق كان مستحيلا فى حالة بناء القلعة فوق الصخور الصلدة ، كقلعة الكرك . وعلى الرغم من وجود المخازن والصهاريج ، كانت المجاعة والعطش هما الخطر الحقيقى . وكان نقص القوة البشرية يعنى عدم القدرة

(٩) Rey, *Architecture Militaire des Croisés*, pp. 70 ff. وهو يبالغ فى الفرق بين النمطين اللذين استخدمهما فرسان المعبد وفرسان المستشفى ؛ Fedden, *op. cit.* pp. 28-9. أنظر Deschamps, *Le Crac*, pp. 279 ff. وذلك للإطلاع على مراحل كل نط والتغيرات الداخلة عليه . أنظر أيضا Melvin, *La Vie des Templiers*, pp. 136-42 .

(١٠) Fedden, *op. cit.* pp. 29-30.

على الدفاع بصورة جيدة ؛ إذ ليس بوسع المملكة دائما إرسال قوة مخصصة ، وكانت معرفة هذه الحقيقة تتسبب فى إثارة التشاؤم بين أفراد الحامية ؛ ذلك أنه فى ذروة انتصارات صلاح الدين ، لم تستطع قلعة صهيون العظيمة - التى اشتهرت بأنها أقوى القلاع فى زمانها - مقاومة المسلمين إلا لثلاثة أيام^(١١).

إن أهمية القلاع الصليبية تقع فى نطاق التاريخ العسكرى أكثر مما تقع فى نطاق التاريخ الفنى ؛ ذلك أن الصليبيين العائدين إلى أوروبا أتوا معهم بأفكار عيرت عن نفسها عمليا هناك ؛ فقلعة ريتشارد قلب الأسد التى تُعرف بقلعة جيار قدمت تلك الأفكار إلى العالم الغربى . غير أن القلاع فى الشرق كانت لها قيمتها الجمالية، فكنايسها تعد من أروع أمثلة العمارة الكنسية فى الشرق الفرنجى ؛ وقاعاتها الضخمة - وأجملها فى قلعة الكرك - تُقارن بأروع القاعات القوطية الأولى فى غرب أوروبا ؛ وتظهر أحيائها السكنية الرقة والجمال ، وقد بقيت لتعطينا فكرة عن قصور النبلاء فى الشرق الفرنجى . أما غرفة السيد الأعظم فى قلعة الكرك ، التى ترتفع عالية فى البرج الجنوبى الغربى من الحيز المركزى الداخلى ، بقبتها المضلعة ، وأعمدتها الرقيقة ذات التيجان والقواعد ، وإفريزها البسيط كامل الإستدارة بحيث يُظهر زينته الزخرفية بخمس زهرات بيتلاتها ، ربما كانت هى الغرفة الأكثر بهاءً دون أغلب غرف قلاع وقصور المدن الأخرى . وطرازها هو الطراز القوطى لشمال فرنسا فى القرن الثالث عشر ، بينما للقاعة الضخمة زخارف قوطية حجرية مماثلة للزخارف الموجودة فى كنيسة سانت نيكولاس العصرية فى ريم^(١٢).

وكانت القلاع عملا هندسيا فى أساسه ، بينما كان المقصود بالكنايس أعمالا فنية . وعندما وصل الصليبيون إلى الشرق وجدوا فيه تقاليد قديمة للبناء تناسب البلاد . وكان الخشب سلعة نادرة ؛ وكل ما تقدمه الغابات يستغل فى بناء السفن وصناعة الأسلحة ، ولذا كان على المهندسين أن يقوموا بالبناء دون دعائم خشبية ، وكانت الأسقف من الحجارة وغالبا مسطحة كي تكون بمثابة شرفات لقضاء الأمسيات . وكان نظام التقيبى يستخدم لدعم السقوف ، وكانت الأقواس المدببة القادرة على حمل الأوزان الثقيلة من الملامح العصرية آنذاك . وكان الطراز الوطنى للبنائين السوريين هو

(١١) Oman, *History of the Art of War in the Middle Ages*, ii, pp. 29 ff.; Fedden, *op. cit.* pp. 34-40.

(١٢) (المترجم) : ريم Reims : مدينة شمال شرق فرنسا شهدت استسلام ألمانيا للحلفاء عام ١٩٤٥.

الطراز العربى - البيزنطى الذى بلغ الكمال فى ظل الخلفاء الأمويين، والذى امتد أثره إلى ما حدث من تطور فى العصر العباسى بعد ذلك ، وفى فن العمارة الفاطمية وما تأثرت به من شمال أفريقيا وكان النّازون السوريون قد شاهدوا مؤخرًا الأعمال البيزنطية فى الأماكن المقدسة وفى أنطاكية ، كما كان هناك تدفق للحرفيين الأرمن المهرة بطرازهم الخاص بهم.

عمارة الأماكن المقدسة

كانت أول كنيسة بناها الصليبيون فى الشرق هى كندرائية القديس بول فى طرسوس التى استكمل بناؤها قبل عام ١١٠٢ م . وهى عبارة عن مبنى يتسم بالخشونة والفضاظة على طراز كنائس شمال فرنسا الرومانيسكية الأسطورية ، ولكن أقواسها مدببة ؛ وهى كندرائية مستطيلة الشكل ذات جناحين وصحن تحده أعمدة وركائز بالتبادل . وقد أحضرت الأعمدة من بعض المباني القديمة ؛ وتيجان الأعمدة مكعبات حجرية بسيطة بمثلثات، منحوتة من زوايا المكعبات ، وهو شكل من الزخرفة يوجد فى الراينلاند الألمانية ، وكذلك فى أرمينيا، وربما قام العمال الأرمن بعمل هذه الأشكال هنا . وكان لطريققتها الفجة أثر فى ذوق العمارة الصليبية بعد ذلك^(١٣).

وما أن استقر المستعمرون آمنين حتى كان أول اهتمامهم بإصلاح الأماكن المقدسة ، وبعد ذلك إنشاء الكنائس المناسبة فى مدنهم الرئيسية . ومن أقدم المزارات التى بقيت فى حالة جيدة كنيسة الميلاد فى بيت لحم التى بناها قسطنطين ورممها جستينيان ؛ والإضافات المعمارية الوحيدة التى أضافها الصليبيون رواق بسيط مسقوف ذو أعمدة على النمط القوطى أقيم سنة ١٢٤٠ م تقريباً ، ومدخل شمالى جنوبى إلى مغارة الميلاد، بُنى سنة ١١٨٠ م تقريباً على الطراز الرومانيسكى المتأخر، له قوس مدبب وعلى تيجان الأعمدة زخرفة على هيئة أشواك من صنع سورى فيما يبدو . كما بنى الصليبيون مقاراً للرهبان حول الكنيسة دُمّرت الآن^(١٤) . أما الكنيسة الأكثر قداسة عمّا سواها ، وهى كنيسة القبر المقدس فى القدس ، فقد بدت لهم غير ملائمة ؛ فبعد أن دمرها الخليفة الحاكم بأمر الله، أعاد البيزنطيون بناء القاعة المستديرة المحيطة بالقبر

Enlart, *op. cit.* ii, pp. 378-9 (١٣)

Enlart, *op. cit.* ii, pp. 66-8. (١٤)

نفسه، غير أنهم جعلوا الطرف الشرقى مسطحاً وبنوا هناك ثلاثة محاريب مقببة ، وألحق
مصلّى القديسة ماري العذراء بشمال القاعة المستديرة ، أما مصلّى القديس جون ،
ومصلّى الثالث ، ومصلّى القديس جيمس فقد ألحقت بجنوب القاعة المستديرة . وأعيد
بناء موضع جُلُجَّة^(١٥) كمُصَلّى منفصل ، كما أعيد بناء مصلّى القديسة هيلينا فى
كهف اكتشاف الصليب^(١٦) . وكانت المباني مزخرفة فى ترف بالرخام والفسيفساء .
وقرر الصليبيون وضع كافة المباني معا تحت سقف واحد . ومن الواضح أن الأعمال
الرئيسية قد نفذت بعد زلزال سنة ١١١٤م وقبل سنة ١١٣٠م برغم عدم انتهاء بعض
الأجزاء عند موت بلدوين الثانى سنة ١١٣١م ، ولم يتم تكريس الصرح الجديد حتى
١٥ يولية ١١٤٩م ، وهو الذكرى السنوية الخمسين للإستيلاء على المدينة ، وأضيف
برج الجرس فى حوالى سنة ١١٧٥م .

وكان لا بد أن يتأثر مخطط المبنى الجديد بالموقع الذى كان يحده من الجنوب
صخرة الجمجمة ومن الشرق بالمنحدر المؤدى إلى مصلّى القديسة هيلينا الذى يقع أسفل
القاعة المستديرة بعدة أقدام، ولذلك هدم الفرنج الجدار الشرقى للقاعة البيزنطية ،
ودمروا محاريبها المقببة ، مستبدلين أوسطها بقوس كبير يؤدى إلى داخل كنيسة جديدة
تتألف من مكان مخصص لجوقة المنشدين له قبة تقوم على ركائز بالقرب من الطرف
الغربى ، وجناح يحيط به ممشى مسقوف ، والطرف الشرقى منحرف وبه ثلاثة محاريب
مقببة . وبين المحراب الأوسط والمحراب الجنوبي سلم ينحدر مؤدياً إلى كنيسة القديسة
هيلينا مباشرة . وأما الجناح الجنوبي فيقع قبالة مصلّى الجمجمة الذى أعيد بناؤه برغم
بقاء الفسيفساء البيزنطية على أعمدة المدخل . وفى ناحية الغرب من جلجثة ، وفيما
بينها وبين القاعة المستديرة ومصلّى القديس جون ، بُنيت قاعة جديدة لتضم فى غرب
مصلّى الجمجمة، حجر المسحة^(١٧) وقبري جودفرى وبلدوين الأول . وكان هناك ممر -
وهو المدخل الرئيسى الحالى - يؤدى من القاعة الجديدة إلى فناء . وامتد بطول الجناح
الشمالى جناح خارجى شيد البيزنطيون معظمه ، يفتح على فناء آخر يتفرع منه ممر

(١٥) (المترجم) : جُلُجَّة Golgotha : (فى الإنجيل)، الموضع الذى صُلب فيه المسيح : "وجاءوا به إلى
موضع جُلُجَّة الذى تفسره موضع جُمُجَّة" (إنجيل مرقس ١٥ : ٢٢).

(١٦) (المترجم) اكتشاف الصليب Invention of the Cross ، احتفال الثالث من مايو تخليداً لذكرى ما
يُروى عن اكتشاف الصليب الحقيقى فى القدس عام ٣٢٦م بواسطة هيلينا أم قسطنطين العظيم.

(١٧) (المترجم) المسحة Anointing : من الطقوس المسيحية يُجرى بمسح الشخص خاصة عند العماد أو
الذى يحتضر أو المريض بمرض خطير وما إلى ذلك.

يجاوز كنيسة القديسة ماري ويؤدي إلى شارع البطريق. وهناك فناء ثالث يحيط بمصلى القديسة هيلينا وتحيط به مبان جديدة لسكنى كبار الرهبان الأرغسطيين الذين عُهد إليهم آنذاك بالكنيسة.

وهذه الأعمال الصليبية - التي جاوزت تخريب الخوارزميين سنة ١٢٤٤ م ، ومرور الزمن ، والحريق الفاجع في ١٨٠٨ م - تبدو وثيقة الصلة بالكنائس الكلونية الكبيرة التي بناها الحجاج ، وخاصة كنيسة القديس سيرنين في تولوز التي كرّسها البابا إيربان بعد مؤتمر كليرمونت مباشرة . وبذكرنا المشى المسقوف بشدة بأمثاله في كلوني نفسها وبكنيسة القديس سيرنين ؛ وإن كان هناك فارق فإنه فارق في الحجم . فقد حرص مهندسو القبر المقدس على جعل أعمدتهم أقصر وأقوى حتى تتسق مع القاعة المستديرة البيزنطية ، التي ربما كان المقصود بتصميمها مقاومة صدمات الزلازل . وفي الإمكان مقارنة التفصيلا الزخرفية - باستثناء ما تبقى من الفسيفساء البيزنطية وتيجان الأعمدة - بالكثير من مثيلاتها في جنوب فرنسا وجنوبها الغربي . وتبدو أعمال النحت ، وبخاصة تحت الأشكال المنحوتة على الأعتاب العليا للأبواب والنوافذ ، في أغلبها من مدرسة تولوز وإن كانت قد نحت محليا . وعلى وجه العموم يبدو أن المهندسين والفنانين الذين قاموا بالعمل كانوا فرنسيين ، ومن جنوب غرب فرنسا على الأرجح وتشربوا التراث الكلوني . والمعروف أن المهندس الذي كان يصمم برج جرس الكنيسة يدعى جوردان (الأردن) ، وهو اسم عادة ما يُطلق على الأطفال الذين يُعمدون في النهر المقدس . وربما كان من مواليد فلسطين^(١٨).

الكنائس في القدس

وكانت كنيسة القبر المقدس هي الضريح الأقدم الوحيد الذي أدخل عليه الصليبيون تغييرات واسعة . ورمموا عدة كنائس صغيرة ، مثل كنيسة صعود المسيح الواقعة على جبل الزيتون ، وقبر العذراء في الجثمانية^(١٩) . وعندما صارت قبة الصخرة كنيسة فرسان المعبد لم يضيفوا إليها سوى رخام زخرفي وأعمال حديدية زخرفية ، كما لم يُمس المسجد الأقصى برغم إعادة تهيئة المنطقة التي يعلوها لتصبح حظائر

(١٨) -Enlart op. cit. ii, pp. 144-80; Duckworth, *The Church of the Holy Sepulchre*, pp.203-58; Harvey, *Church of the Holy Sepulchre* pp. ix-x.

(١٩) (مترجم) الجثمانية Gethsemane : الحديقة التي اعتقل فيها المسيح خارج القدس.

للحياد ومخازن ، وشيّدت المباني حول المسجد لإيواء فرسان النظام ، بينما أضيف جناح فى الجهة الجنوبية الغربية أصبح مكان الإقامة المفضل للملوك . وفى أغلب المدن التى استعمروها وجدوا أن الكنائس قد أصابها من شدة الدمار ما لا يجعلها تستحق الإصلاح ، فكانوا يتركونها لأصحاب الطوائف من السكان الأصليين الذين كانوا يملكونها فعلا . واستولوا على بعض الأديرة القديمة ، وإن كانوا يفضلون بصورة عامة تشييد مبانيهم الخاصة بهم . وفى بعض الأحيان كانوا يستخدمون المواضع السابقة وقواعدها التحتية ، كما حدث فى كنيسة البازيليك ذات القاعدة الرومانية الكبيرة فى جبل صهيون ؛ وفى أحيان أخرى كانوا يغيرون اتجاهات الموضع السابق تغييرا طفيفا ، كما حدث فى كنيسة الجثمانية . وفى أغلب الأحيان كانوا يختارون المواقع الخاصة بهم أو يعيدوا بناء الكنيسة برمتها فى مواقع تقليدية^(٢٠) .

وبخلاف كنائس فرسان المعبد التى كانت دائرية الشكل ، كان التصميم الشاىء للكنيسة الصغيرة هو الشكل المستطيل مع وجود نتوء دائرى أحيانا فى الحائط الخارجى فى الطرف الشرقى . وكان البناء قويا ذا عقد مدبب واحد متقاطع الأضلاع يدعم سقفا حجريا مسطحا . وكانت هذه الكنائس الصغيرة مبنية فى كل قلعة ، حتى فى القلاع المعزولة مثل القلعة الواقعة على تل الوعيرة بجوار أطلال البتراء القديمة^(٢١) .

وكانت الكنائس الأكبر مستطيلة كذلك ، ولها أجنحة جانبية بطول المبنى تفصلها عن صحن الكنيسة أعمدة أو قوائم . ودائما ما كانت هناك ثلاثة محاريب متوارية فى عمق الجدار . وكان فى الكتدرائية الكبرى فى صور وفى كنيسة أو كنيسةين أخريين أجنحة فرعية قصيرة تجعل صحن الكنيسة يتخذ هيئة صليب ، وإن لم يكن لذلك مدلولاً معماريا . وتوجد فى كتدرائية طرطوس غرفة للأشياء المقدسة وأخرى لأدوات التناول مبيتان فى الركنين الجنوبي الشرقى والشمالى الشرقى . وكان لقليل من الكنائس ، مثل كنيسة القديسة آه فى القدس ، وكتدرائية قيصرية فيما يبدو قباب تقوم على أعمدة وتغطى الحيز الواقع أمام الحرم ؛ وكان السقف فى العادة مسطحا أو برميلى الشكل .

(٢٠) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 207-11, 214-21, 233-6, 243-5, 247-9.

(٢١) لم يبق من كنيسة الوعيرة سوى ما يزيد قليلا على التواء المستدير فى الحائط الخارجى . كما لا يوجد سوى بقايا شائبة لإفريز مصبوب ولا أثر هناك للزخرفة . وتبدو الأحجار المستخدمة فى تشييدها أصغر مما اعتاد الصليبيون على استخدامه فى المباني . ويبدو أن كان لها دهليز صغير وسرداب . أما كنيسة قلعة الكرك فكانت أكبر بكثير ولها أربع نوافذ . ويقال إن لها زخارف جصية وإن لم يبق منها شيء الآن . أما كنيسة فرسان المعبد فى قلعة عثليت فلم تكن دائرية وإنما باثنى عشر ضلعا ؛ وتنتمى للقرن الثالث عشر .

وكانت الأعمدة الجانبية مغطاة في معظم الأحوال بأقنية ذوات حنايا ؛ وكان الصحن مغطى إما بقبر ذى حنايا أو بقبر برميلي طويل مدبب مضلع . وإذا كانت الأجنحة أقل ارتفاعا من بقية أجزاء الكنيسة ، تعددت النوافذ حول المنور ، وكانت النوافذ كلها ، بما فى ذلك تلك التى تقع فى الطرف الشرقى ، صغيرة لتراعى ضوء شمس سوريا المبهر . وكانت الأقواس مدببة باستثناء القليل منها . وكانت الأبراج نادرة ؛ وكان للكنيسة الدير فى جبل الطور برجان على جانبي المدخل الغربى ، يحوى كل منهما مصلّى على هيئة محراب فى الدور الأرضى . وكانت تلحق بالكنائس أحيانا أبراج أحراس ، ولكنها لم تكن جزءا مكملًا لها^(٢٢) .

زخرفة الكنائس

كانت زخارف كنائس القرن الثانى عشر بسيطة ؛ ودائما ما كانت تستخدم فى ذلك أعمدة مأخوذة من المباني القديمة ؛ وتنوعت رؤوس تلك الأعمدة ، فكان بعضها قديما ؛ واتخذ البعض النمط الكورينثى والسلى لرؤوس الأعمدة البيزنطية والعربية ، الذى كان يتبعه البناءون المحليون أو الفرنج الذين سايروا الأنماط المحلية ؛ كما اتخذ البعض النمط الرومانيسكى الغربى^(٢٣) . وكانت توجد فى بعض الكنائس ، مثل كنيسة قرية الناب ، لوحات جدارية على النمط البيزنطى^(٢٤) ، وكانت هناك أعمال من الفسيفساء

(٢٢) أنظر Enlart, *op. cit. passim* وقد اعتمدت بدرجة كبيرة على المعلومات الشخصية المتصلة بالمباني.

(٢٣) أنظر Enlart, *op. cit. i*, pp. 70-3

(٢٤) أنظر أدناه ، ص ٤٣٩ .

فى حجرة العشاء الأخير على جبل صهيون ، وفى كنيسة الرقاد^(٢٥) الملاصقة لها^(٢٦). ولا بد من أن يكون الفنانون البيزنطيون الذين أرسلهم الامبراطور مانويل معهم أدواتهم قد مارسوا فنهم هناك ، كما مارسوه بالفعل فى كنيسة الميلاد فى بيت لحم^(٢٧)؛ وإن كانت الزخرفة التصويرية نادرة . وكان للزخارف المحيطة بالأقواس أطراف مدببة ، أو على شكل أنياب الكلب . ولم يبق إلا القليل من الأشكال المنحوتة؛ وكانت لبنات عقود الأقواس مبطننة فى الغالب ، وكانت الحلقات وردية الشكل البسيطة من الزخارف الأخرى المفضلة^(٢٨).

وكان الوقع العام لكنائس القرن الثانى عشر يتميز بالحدة إلى حد ما ، ولم يبلغ شأو العمارة المعاصرة فى الغرب ، ويرجع ذلك إلى الحرص على اجتناب استخدام الأخشاب والإحتراز من الزلازل ، وإن جاءت النتيجة حسنة التناسب . ولا شك فى أن الصليبيين قد جاءوا معهم بمهندسين معماريين تشرّبوا الأنماط الفرنسية ، البروفانسى والتولوزى منها على وجه الخصوص ، بيد أنه من الواضح أنهم أخذوا بآراء البنائين المحليين ؛ وتعلموا فى الشرق طريقتهم فى استخدام القوس المدب . وأول مثالين للقوس المدبب فى الغرب يتمثلان فى كنيستين قامت ببنائهما حوالى سنة ١١١٥م إيدا اللورينية، وهى أم أول حاكمين فرنبيين للقدس ، وكان ابنها الأكبر إيوستاس البولونى

(٢٥) (المترجم) الرقاد أو الموت Dormition : ويقصد به رقاد السيدة العذراء فى نزعها الأخير ، ويمثل هذا الرقاد موضوعا فنيا تناوله الفنانون المسيحيون تناولا مختلفا عبر العصور . ويرجع الاختلاف فى لوحات أولئك الفنانين إلى أن تناول موضوع موت السيدة العذراء جاء فى الأجزاء المكثوبة من الكتاب المقدس . وهذا الموضوع الفنى يدور حول فكرة تقول إن تلامذة المسيح المنتشرين فى أرجاء الأرض جاءوا عند موت العذراء إلى فراش موتها بطريقة إعجازية والتفوا حوله ، كما هبط المسيح نفسه من السماء وانضم إليهم ليتولى رفع روحها بنفسه . وفى اللوحات الأولى التى تناولت هذا الموضوع ، ظهر السيد المسيح يحمل روحها على شكل طفل فى أكفان بيضاء ، بينما ظهر القديس بولس واضعا رأسه على صدرها منصتا إلى دقة القلب الأخيرة . وفى لوحات تالية اتخذت روحها شكل ملاك ، ثم اختفى السيد والمسيح والروح فى لوحات لاحقة . ولم يكن ليتيح لهؤلاء الفنانين هذا التنوع الخصب فى معالجة هذا الموضوع ما لم تكن تلك الرواية قد وردت فى الأجزاء المكثوبة من الكتاب المقدس.

(٢٦) فى سنة ١١٠٦م شاهد دانيال الهيجوميني Daniel the Higuemene الفسيفساء فى حجرة العشاء الأخير in Klutrowo, *Itinéraires Russes*, p. 36 وفى حوالى سنة ١١٦٠م كان John of Würzburg يصف لوحات الرسل الفسيفسائية هناك بما عليها من كتابات لاتينية تصف هبوط الروح القدس، وكذلك الفسيفساء فى كنيسة الرقاد التى تصور الرقاد نفسه والكتابات المدونة عليها المكتوبة باللاتينية وإنما تستخدم مصطلحات يونانية (P.P.T.S. pp. 42-3).

(٢٧) أنظر أدناه ، ص ٤٣٩.

(٢٨) Enlart, *op. cit.* i, pp. 93 ff.

قد عاد حديثا من فلسطين . ومن العسير ألا نعتقد أن المهندسين العائدين أشاعوا الطريقة الجديدة في الغرب ، حيث طوّرت كي تناسب الحاجات المعمارية المحلية^(٢٩) .

ويستحيل على المرء أن يلجأ إلى التعميم في تناوله لأصول شتى الوجوه المعمارية والزخرفية ؛ ذلك أن قبة كنيسة القديسة آن في القدس شديدة الشبه بالقباب التي بناها المهندسون الفرنسيون في Périgord ، وإن كان نفس نمط القبة القائمة على أعمدة بلا اسطوانة موجود في الشرق^(٣٠) . وغالبا ما يقارب الحفر الرومانيسكي الحفر البيزنطي والأرميني بحيث تتعذر التفرقة الواضحة بينها ؛ ومن المحتمل أن حفر الأشكال ، والخيال الزائد الذي تتسم به رؤوس الأعمدة ؛ من نتاج الفنانين الفرنج ، على أن زخارف أوراق الأقتشا أو الكروم نشأت محليا . ويبدو أن نموذج الأطراف المدببة كان ينتقل من الشمال إلى الجنوب حتى في أوروبا ؛ وكان نمط أنياب الكلب معروفا في الشرق من قبل ، ويرجد هذا النمط ، ونمط لبنات العقود المبطن ، على البوابة الفاطمية العظيمة 'باب الفتوح' في القاهرة ، التي بناها مهندسون أرمينيون من الرها ، وهي المدينة التي سبق أن كان البيزنطيون مسؤولين فيها لعدد من العقود عن إقامة كثير من المباني الجديدة^(٣١) .

الفسيفساء واللوحات الجدارية

وتُظهر الأمثلة الباقية من فنون التصوير تأثرا شديدا بالفن البيزنطي يشكك فيما يبدو في أن فنانا فرنجيا واحداً قام بعمل في الشرق . ومن اليقيني أن أعمال الفسيفساء

(٢٩) Enlart, *op. cit.* i, pp. 3-4, 67-8. إن بعض الزخارف في كنيسة إيدا في Wast and Saint Cluny في نفس التاريخ تقريبا. والدور الذي قام به المهندسون الأرمن في نشر القوس المدبب وفي نقبة أقواس العقود التي بالغ Strzygowski في استنكارها (جدير بالإعتبار . أنظر Baltrusaitis, *Le problème de l'Ogive de l'Arménie*, pp. 45 ff. esp. pp. 68-70 . يقال عن أعمال الأرمن في أوترمييه . أنظر أيضا Clapham, *Romanesque Architecture*, pp. 107-12.

(٣٠) Clapham, *loc. cit.* . وقبة القديسة صوفيا في القسطنطينية بلا اسطوانة . وكانت الاسطوانات نادرة في العمارة الفارسية.

(٣١) Clapham, *op. cit.* pp. 110, 112-13. وهو يرفض قبول أن المقارنات الأرمينية ذات صلة ، بسبب الشكوك المحيطة بالتواريخ . على أن زخارف الكنائس في أرمينيا الكبرى يمكن تحديد تواريخها بشيء من اليقين . أنظر (Der Nersessian, *Armenia and the Byzantine Empire*, pp. 84) - الذي يظهر عرضا صغرية تتبع أصول الأنماط الزخرفية).

فى بيت لحم صممها ونفذها فنانان من القسطنطينية هما بازل وإفريم ، وإن كانا قد قاما بعملهما بالتعاون مع السلطات اللاتينية المحلية . وبدأت فى تلك الأعمال صور القديسين الغربيين وكذلك الشرقيين ، وجاءت الكتابات عليها فى اللغة اللاتينية وكذلك اليونانية، ويحتمل أن يكون رسم المسيح بالفسيفساء فى الكنيسة اللاتينية فى الجمجمة من عملهم^(٣٢). ونمط اللوحات الجدارية ، التى يعثرها البلى سريعا فى قرين الناب ، نمط بيزنطى والنقوش عليها لاتينية ، وإن كان اختيار موضوعها شرقيا^(٣٣). وكان هناك ، على وجه اليقين ، فنانون يونانيون يعملون فى فلسطين حوالى سنة ١١٧٠م تحت رعاية الامبراطور مانويل ، وكانوا مسؤولين عن اللوحات الجدارية فى الأديرة الأرثوذكسية فى كلامون وسان إيدثيموس ، ولا شك فى أن الآباء اللاتينيين فى قرية الناب كانوا يستخدمونهم فى زخرفة كنيستهم^(٣٤). وأحيانا ما تؤخذ الكنيسة الصغيرة فى أميون ، على مقربة من طرابلس ، على أنها أثر صليبي استدلالا من معمارها ، ولكن تكريسها باسم قديس يونانى فوكاس وكتاباتها اليونانية ، ولوحاتها الجدارية البيزنطية، تظهر أنها مزار أورثوذكسى فى كل حال ، وهى تدلل على الصعوبة البالغة فى التفرقة بين النمطين الفرنجى والمحلى^(٣٥). ولقد انتفع كثير من كنائس الفرنج بالهدايا التى منحها الامبراطور فى القسطنطينية لأساقفتها، وبخبرنا كبير الأساقفة العظيم وليم الصورى بأن الامبراطور مانويل أغدق عليه هدايا فاخرة لكثدرائية^(٣٦). ولقد زار أسقف الناصرة أشارد المدينة الإمبراطورية ليفاوض فى أمر زواج بلدوين الثالث ، ومات هناك ، وعاد جثمانه محملا بالهدايا كذلك^(٣٧). وكان هناك اتصال مستمر طوال القرن الثانى عشر ، خاصة فى عهد مانويل، بين أوتريميه وبيزنطة ، ولا بد

(٣٢) Church of the Nativity at Bethlehem (ed. Schultz), pp. 31-7, 65-6) John Phocas's description); Enlart, *op. cit.* i, p. 159, ii, pp. 65-6; Dalton, *Byzantine Art and Archaeology*, pp. 414-15. See above, vol. ii, pp. 391-2 and n. i. The mosaic Christ in Glory from the vault of the Latin Chapel of Calvary is reproduced as the frontispiece of Harvey, *op. cit.* Very little has been written about it. It may be Byzantine work of the previous century.

(٣٣) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 323-4.

(٣٤) أنظر الجزء الثانى ص ٣٣٦ ملحوظة ١.

(٣٥) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 35-7

(٣٦) William of Tyre, xxii, 4, p. 1068

(٣٧) *Ibid.* xviii, 22, p. 857.

من أن يكون لبيزنطة تأثير فنى عظيم آنذاك ، واستمر هذا التأثير عبر القرن التالى ويوحى الوصف الذى أورده ويلبراند (أوف أولينبرج) لقصر آل إبلين فى بيروت بلوحاته الجدارية ورخامه ، بأنه عمل بيزنطى ؛ واللورد العجوز جون الإبلينى الذى بناه كانت أمه أميرة بيزنطية^(٣٨).

وكان ذلك القصر - فى بيروت - استثناءً . فعمارة القرن الثالث عشر فى أوترمييه اقتربت من التراث الفرنسى أكثر من عمارة القرن الثانى عشر . وبإختصار المناطق الفرنجية فيما لا يجاوز المدن الساحلية إلا قليلا، بدا أن دور الصناع الوطنيين والتراث المحلى قد أخذ فى التقلص . وكانت كتدرايية البشارة فى الناصرة هى آخر الكنائس التى اكتملت قبل فتوحات صلاح الدين ثم حطم بيمرس مبنائها ، بيد أن الشكل المنحوت الباقى هناك فرنسى صرف ، ويبدو أن مدخلها الكبير ، وهو أكثر المداخل زخرفة ، كان يشبه إلى حد كبير مداخل كثير من الكتدراييات الفرنسية فى ذلك الوقت ، وكان المبنى بأسره يقترب فيما يحتمل من النمط الفرنسى أكثر مما يقترب من النمط المحلى السابق^(٣٩) . وكانت الكنيسة الرئيسية التى بنيت فى القرن الثالث عشر - وهى كنيسة القديس أندرو فى عكا - عبارة عن مبنى قوطيا عاليا ورشيقا ، لا يبقى منه الآن إلا بقايا قليلة، ولكن الأوصاف والرسوم التى تركها الرحالة القدامى تؤكد ارتفاعها ؛ وكانت أجنحتها الجانبية عالية تنورها نوافذ طويلة وضيقة مدببة من أعلاها، ويلتف أسفلها حول الأسوار الخارجية ممر مقفل عند الأطراف ذو أعمدة أنيقة.

ولا يمكننا أن نعرف كيفية إضاءة المنور والطرف الشرقى ، أما الباب الغربى فكانت تعلوه ثلاث نوافذ أكبر تعلوها ثلاث نوافذ أخرى تتخذ شكل عيون البقر . وكل ما يتبقى من الكنيسة الآن رواق من جانبها الغربى فيما يحتمل ، نقل بعد فتح عكا على ظهور الجمال إلى القاهرة حيث اتخذ مدخلا لمسجد أقيم تخليدا لذكرى السلطان أشرف فاتح عكا ؛ ويتخذ هذا الرواق أبعادا مرتفعة وأنيقة ، وتحمل سقفه المقوس من جانبيه سلسلتان من الأعمدة تتألف كل منهما من ثلاثة أعمدة اسطوانية يعقبها عمودان أقل استدارة وهكذا ، ويتلاقى جانبى السقف المقوس فى تناسق مع

(٣٨) Wilbrand of Oldenburg in Laurent, *Peregrinatores Medii Aevi Quattuor*, pp. 166 ff. انظر الجزء الثانى ص ٣٦١.

(٣٩) Enlart, *op. cit.* pp. 298-310.

رؤوس الأعمدة ، ويتلو في باطن هذا السقف سقف آخر على شكل ورقة شجر ثلاثية الأطراف تخترقه عين بقرة . وهذا النمط هو النمط القوطي المتبع في جنوب فرنسا^(٤٠).

ويتسم أسلوب عمارة القرن الثالث عشر في قلعة الكرك بنفس النمط المتشامخ . وكانت غرفة السيد الأعظم الشاهقة وقاعة الطعام العظيمة تصطبغان كليّة بالصبغة الغربية ؛ وللثانية رواق شديد الشبه برواق كنيسة القديس أندرو في عكا، وإن كانت أعمدته أقل أناقة ، وله نافذة وردية الشكل تتوسط سقفه المقوس ، تقابل عين البقرة التي تتوسط سقف رواق كنيسة القديس أندرو^(٤١).

ومن المؤسف أنه لم يبق من آثار القرن الثالث عشر إلا القليل ، على أن نمط أوتريميه في عمومها كان يقارب النمط الفرنسي القوطي المعاصر المتبع في قبرص في ظل حكم آل لوسينيان ، مبتعدا عن النمط الأكثر محلية الذي ساد في القرن السابق . وتروحي الأعمال الباقية في الناصرة بأن الفن الصليبي كان على صلة بالحركة القوطية في الغرب . ولقد حفزت فتوحات صلاح الدين كثيرا من الحرفيين المحليين بأن يحاولوا الاستفادة من النمط الإسلامي . ومن المحتمل أن يقلص انهيار بيزنطة عند منعطف القرن من تأثير أنماطها ؛ وقد جلبت الحملة الصليبية الثالثة إلى الشرق أعدادا كبيرة من الفنانين والصناع الغربيين . ويبدو أن العداء المتزايد بين الكنيستين اللاتينية والأرثوذكسية أوحى في نفس الوقت بتباين أشد بين أنماطهما.

مزامير الملكة مليسند^(٤٢)

ولا يوجد من مخطوطات القرن الثاني عشر سوى مخطوطة مزخرفة بالحروف يُعرف أنها انتهت إلينا من أوتريميه ، وهي "سفر المزامير" المعروف باسم مزامير الملكة مليسند. وتنتمي هذه المخطوطة بلا شك إلى امرأة ؛ وقد جاء فيها ذكر موت بلدوين الثاني والملكة مورفيا ، ولم تذكر موت الملك فولك ، مما يدعو إلى افتراض أنها تنتمي إلى مليسند وأنها كُتبت قبل موت الملك فولك . ومع ذلك ، فإن هناك ما يبرر افتراض أنها كُتبت لشقيقة مليسند ، جوفيتا، رئيسة دير بيثاني ، وفي هذه الحالة ، وبافتراض

(٤٠) Enlart, *op. cit.* ii, pp. 15-23 .

(٤١) Enlart, *op. cit.* i, pp. 134-7 .

(٤٢) (المترجم): نسبة إلى سفر المزامير في العهد الجديد من الكتاب المقدس.

أن ذكر فولك لا محل له ، يمكن أن يرجع تاريخ هذه المخطوطة إلى أية سنة منحصرة في الفترة التي عاشتها جوفيتا ، أي حتى سنة ١١٨٠ م. وقد كتب النص كاتب لاتيني مقتدر ، وتبدو العناوين المزخرفة لاتينية أكثر مما تبدو بيزنطية ، وإن كانت زخرفة الصفحة الكاملة بيزنطية تتخذ أسلوب المقاطعات الشرقية من الامبراطورية ، يظهر عليها توقيع رسّام يدعى بازل ؛ ومن الممكن أن يكون بازل هذا هو نفسه الذي قام برسم اللوحات الجدارية في بيت لحم سنة ١١٦٩ م. وتشابه صور المخطوطة إلى حد ما صور كتاب قداس عُثر عليه في سوريا قام بزخرفته جوزيف الذي كان يعيش في ملطية في عهد أسقف يدعى جون ، الذي يرى أنه نفس الأسقف الذي كان يحكم من سنة ١١٩٣ م إلى سنة ١٢٢٠ م ، ومن ثم يمكن أن يكون الفنان الذي زخرف مزامير مليسند سورياً تدرب في مدرسة بيزنطية ، ويحتمل أن تكون المخطوطة قد كتبت لجوفيتا رئيسة الدير في السنوات الطويلة من عمرها الطويل^(٤٣).

وهناك مجموعة مثيرة من المخطوطات يُنظر إليها في العادة على أنها نتاج صقلى ، وثبت البحث الحديث أنها كتبت في عكا في الوقت الذي كان يقيم فيه القديس لويس هناك على وجه التقريب من سنة ١٢٥٠ م إلى سنة ١٢٥٤ م ، فأسلوبها بيزنطي ، وقد اشترى لويس مقتنيات كثيرة من امبراطور القسطنطينية بلدوين الثاني ، وربما كان من بينها مخطوطات أرسلت إليه في عكا وألهمت الفنانين الذين كانوا يعملون هناك . ومن المستحيل أن يقال إن تلك المدرسة قد بقيت بعد عودة الملك إلى فرنسا^(٤٤).

لم يبق من الفنون الصغرى إلا أقل القليل ، ومن المستحيل أن نعرف ما صُنِعَ منها محلياً وما استجلب من الشرق أو الغرب ؛ فالأثاث والأشياء التي تستخدم في الحياة اليومية جاءت ولا شك من ورش محلية ، ويحتمل أن تكون مواد الزينة قد جاءت من الخارج ، من القسطنطينية أو من المدن الإسلامية الكبرى ، أو جاء بها زوار من فرنسا.

(٤٣) Boase, 'The Arts in the Latin Kingdom of Jerusalem', in *Journal of the Warburg Byzantine Art and Archaeology*, vol. ii, pp. 14-15. أما Dalton ، في مؤلفه *Byzantine Art and Archaeology*, pp. 471-3 فيعتقد أن صور الصفحة الكاملة بيزنطية اقليمية وأنها صُممت لعمل آخر . ورؤوس الصفحات من عمل فنان آخر ؛ وربما كانت رومانيسكية غربية وإن كانت بتأثيرات شرقية (مثلاً القديس جون الإنجيلي بلحية). والفنان الثاني أكثر رقة من الأول ، وإن كانت ألوانه أضعف . وفي *East Christian Art*, p.309 ، يفترض أن الفنان الأول أرمني. أنظر Buchthal, 'The Painting of Syrian Jacobites' in *Syria* vol. xx, pp. 136 ff. esp. p. 138 .

(٤٤) أي حكم على هذه المجموعة من المخطوطات لا بد أن ينتظر نشر العمل الوشيك الذي كتبته Dr. H. Buchthal .

أو إيطاليا . وهناك مجموعة من الأشياء عُثر عليها فى القرن التاسع عشر تحت أبنية الأديرة فى بيت لحم تضم حوضين نحاسيين يبدو أنهما يرجعان إلى المدرسة الموسينية فى القرن الثانى عشر ، حُفرت عليها مجموعة من الرسوم تصور حياة القديس توماس الرسول ، وشمعدانين فضيين يبدو أنهما من صنع بيزنطى فى نهاية القرن الثانى عشر ، وآخرين مطلّين بمينا مدينة ليموج الفرنسية يرجعان إلى نهاية القرن الثانى عشر كذلك ، وآخر أكبر من سابقه ، ورأس صولجان أسقف ، مطلّين بمينا مدينة ليموج كذلك^(٤٥) . وربما يكون الحاجز الحديدى الذى أقامه الصليبيون فى قبة الصخرة من صنع محلى ، وإن كان شديد الشبه بالمشغولات الحديدية الرومانسكية الفرنسية^(٤٦) .

الفنون الصغرى

وربما كانت الثريات الحديدية المستخدمة فى الكنائس مصنوعة محليا ، وإن جاءت تصميماتها على غرار تصميمات أوروبا الغربية المعتادة^(٤٧) ولم تبق أدوات فخارية أو زجاجية يمكن إرجاعها إلى تلك الأيام . وكانت العملات والأختام تصنع محليا ، وكانت تلك العملات تصك بقصد استخدامها فى الشرق ، ومن ثم اتخذت الأنماط الإسلامية المحلية ، وجاءت عليها نقوش عربية . وأختام القرن الثانى عشر بسيطة وبدائية ، أما أختام القرن الثالث عشر فتتميز برقة واتقان أكثر^(٤٨) . وهناك وعاء بلورى على هيئة ركاب فى إطار من الفضة المزينة بالجواهر ويحوى صندوقا داخليا من الخشب المشغول ، وهو محفوظ الآن فى القدس وربما كان من صنع محلى ، وإن كانت أجزاؤه الفضية أو البلورية قد جاءت من وسط أوروبا^(٤٩) وهناك لوحتان من العاج منقوشتان فى رقة ، وهما بمثابة غطاءين لسفر مزامير الملكة مليسند ؛ على أحدهما مدليات تحكى قصة داود وفى أركانه رسوم أرواح ، وعلى الآخر عرش الرحمة وفى أركانه حيوانات خرافية . ورسوم الأيقونات غربية أكثر منها بيزنطية برغم أن الملابس الملكية بيزنطية ، أما الحيوانات فذات طابع أندلسى ، والزخارف أرمينية الإيحاء . ولا يمكننا فيما يبدو أن

(٤٥) Enlart, *op. cit.* i, pp. 172-201 .

(٤٦) *Ibid.* ii, pp. 310-11 .

(٤٧) *Ibid.* i, pp. 175-9 .

(٤٨) See Schlumberger, *Sigillographie de l'Orient Latin*, esp. introduction by Blanchet.

(٤٩) Enlart, *op. cit.* i, pp. 197-8 .

نفترض أن صانع عاج على هذا القدر من المهارة كان يعيش فى القدس فى ذلك الوقت. وربما كانت هاتان اللوحتان هدية من مكان آخر^(٥٠).

ولا ينبغي أن يستخلص الباحث من ضالة الشواهد أن الجهد لم يكن كبيرا ؛ ذلك أنه إذا ما ازدهرت العمارة ازدهرت الفنون الأخرى كذلك وعكست صورة الحياة فى أوتريميه ؛ فالعمارة فى القرن الثانى عشر عمارة مستعمرين كانوا على استعداد للتوافق مع البلاد التى جاءوا إليها ، وإن كانوا يستمدون العون دائما من الغرب. على أن الكوارث التى حلت فى نهاية القرن الثالث عشر قضت على التوازن القديم ؛ وفى القرن الثالث عشر لم يتبق من الأسر العظيمة القديمة فى أوتريميه سوى القليل ، وحلت محلها الأنظمة الدينية العسكرية التى كانت تجند أساسا من الغرب ولم تكن تعاطف كثيرا مع التراث المحلى . والعناصر الرضوية فى المدن تفرقت الآن ، واتجهت عكا بناظرها إلى الغرب ، وتركزت الثروة لدى الإيطاليين ، بينما كانت القوة فى العادة فى أيدي ذوى النفوذ من الغرب أو من بنوب عنهم . وأخذ النبلاء - أكثر فأكثر - فى اللجوء إلى قبرص حيث كانت تنبثق حضارة غوطية . وكانت هناك أصداء بيزنطية قليلة تنتهى إلى الأسماع ، وإن كانت تتخافت شيئا فشيئا ، فبيزنطة أخذت فى الأفول ، وقضى المغول على الثقافة العربية الأعرق ، وكانت ثقافة مصر المملوكية الأحداث معادية. وربما استمر تلاقى الثقافات فى أنطاكية ، غير أن النهب والزلازل والبلى قضت على شواهد. وفى الجنوب من أنطاكية ، فإن محاولة أوتريميه اتخاذ نمط يميزها قد قضى عليها فى ميدان القتال فى حطين . ولم يكن الجهد الشديد المتواضع فى أوتريميه إبان القرن الثانى عشر سوى افتتاحية لم تؤد إلى شيء ، وما كانت أوتريميه فى القرن الثالث عشر إلا إقليما نائيا لعالم البحر المتوسط القوطى.

Enlart, *op. cit.* i, pp. 199-200; Dalton, *Byzantine Art and Archaeology*, pp. 221-3, (٥٠) and *East Christian Art*, p. 218 points out the Oriental affinities and believes that the carver was local. Boase, *loc. cit.* .

الفصل الثالث:

سقوط عكا

سقوط ملكا

"نهاية. قد جاءت النهاية على زوايا الأرض الأربع"

(حزقيال ٧:٢)

عم الفرع الشرق الفرنجي لأنباء وفاة بيبس . وكان خليفته ابنه الأكبر بركة الذي كان شابا ضعيفا يقضى وقته فى محاولة السيطرة على أمراء الممالك . وكانت مسؤوليات السلطنة فوق احتماله . وفى أغسطس ١٢٧٩م تمرد عليه أمير الجنود السوريين قلاوون وزحف على القاهرة ؛ وتنازل بركة عن العرش لأخيه البالغ من العمر سبعة عشر سنة ؛ وتولى قلاوون الحكومة، وبعد ذلك بأربعة أشهر خلع قلاوون السلطان الصبى ونصب نفسه سلطانا ؛ ورفض حاكم دمشق ، سنقر الأشقر ، الاعتراف بسلطته ونصب نفسه هو الآخر سلطانا هناك فى شهر ابريل التالى ؛ لكنه لم يستطع الصمود أمام المصريين ، وبعد معركة قريبة من دمشق دارت رحاها فى يونية ١٢٨٠م ، تقاعد فى شمال سوريا وسرعان ما تصالح مع قلاوون الذى استولى بذلك

على ميراث بيرس كله^(١).

ولم يستغل الفرنج الهدنة ؛ إذ عبثا حثهم الخان أباغا وتابعه ليو الثالث ملك أرمينيا على عقد تحالف والقيام بحملة صليبية . ولم يكن لهم من مناصر سوى نظام فرسان المستشفى . وكان تشارلز (أوف أنجو) ، بكراهيته لبيزنطة وحلفائها الجنوبيين ، قد أمر وكيله في عكا روجر (أوف سان سفيرينو) باحترام التحالف المعقود مع البنادقة وفرسان المعبد والبلاط المملوكي . أما البابا ، الذي وعده الامبراطور ميخائيل بإخضاع الكنيسة البيزنطية ، فقد شجع تشارلز في مخططاته السورية كي يشتت انتباهه عن الهجوم على القسطنطينية . وأبدى إدوارد الأول ملك إنجلترا تعاطفه مع المغول ؛ ولكنه كان بعيدا في إنجلترا وليس لديه الوقت ولا المال لحملة صليبية جديدة^(٢).

وفي الشرق الفرنجي ، كان بوهمند السابع على استعداد للتعاون مع عمه الأرميني ، غير أنه كان على علاقة سيئة بفرسان المعبد ؛ وفي ١٢٧٧م تشاجر مع أقوى أتباعه ، جوى الثانى إميرياكو أمير جبيل الذى كان من أبناء عمومته وصديقا حميما له ، وقد سبق أن حصل على وعد بتزويج إحدى الوريثات المحليات من عائلة أليمان لأخيه جون . غير أن بارثولوميو أسقف طرطوس رغب فى أن يكون الميراث لابن أخيه وحصل على موافقة بوهمند ؛ وعلى الأثر اختطف جوى الفتاة وزوجها لجون ، ولخشيته من انتقام بوهمند هرب إلى فرسان المعبد . ورد بوهمند بأن دمر مباني فرسان المعبد فى طرابلس وقطع أشجار غابة لهم قرية فى مونتروك . وعلى الفور قاد السيد الأعظم لفرسان المعبد ، وليم (أوف بوجو) ، فرسانه إلى طرابلس وسار فى استعراض خارج الأسوار ، وعندما عاد أحرق حصن البطرون ؛ غير أن محاولته قصف نيفين أسفرت عن أسر اثنى عشر فارسا من فرسانه ألقى بهم بوهمند فى السجن ؛ وعندما انطلق فرسان المعبد عائدين إلى عكا ، زحف بوهمند على جبيل لمهاجمتها ؛ خرج جوى لملاقاته ومعه كتيبة من فرسان النظام كان قد تركها له وليم (أوف بوجو) ، ودارت معركة عنيفة على أميال قليلة شمال البطرون ، وكان فى كل جانب مائتا مقاتل بالكاد غير أن القتل استمر ، وهُزم بوهمند هزيمة منكرة ، ومن بين الفرسان الذين فقدتهم ابن عمه ، وزوج أخت جوى ، وباليان أمير صيدا ، وهو آخر رجال بيت جارنيسه

(١) Abu'l Feda, pp. 157-8; Maqrisi, *Sultans*, i, ii, p. 171, ii, i, 26; d'Ohsson, *Histoire des Mongols*, pp. 519-22.

(٢) Hayton, *Flor des Estoires*, pp. 180-1.

١٢٨٢م : الحرب الأهلية في طرابلس

قبل بوهمند بعد هزيمته هدنة لمدة سنة ؛ غير أن جوى وفرسان المعبد عاودوا مهاجمته سنة ١٢٧٨م ؛ ومرة أخرى هُزم بوهمند ، بيد أن اثني عشر غليوناً حاولت شق طريقها للدخول إلى مرفأ طرابلس لكن عاصفة بعثرتها . ثم أرسل بوهمند خمسة عشر غليوناً لمهاجمة قلعة فرسان المعبد في صيدا ، فتجحت في إحداث بعض الأضرار هناك قبل أن يتدخل السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، نيكولاس لورنى ، الذى سارع إلى طرابلس ورتب هدنة أخرى . غير أن جوى أمير جبيل كان ما يزال على شراسته وقد عقد العزم على الاستيلاء على طرابلس ذاتها . وفى يناير ١٢٨٢م ، تمكن زمعه إخوته وبعض أصدقائه من التسلل إلى حى فرسان المعبد فى طرابلس . وقد حدث شئ من سوء الفهم ، وكان قائد فرسان المعبد - ريديكور - غائبا إذ ارتاب جوى فى وجود خيانة وأصابه الذعر ؛ وبينما كان يحاول اللياذ بمقر فرسان المستشفى جاء شخص ما وحذر بوهمند ؛ وهرب المتآمرون إلى أحد أبراج فرسان المستشفى فحاصرهم جنود بوهمند . وبعد ساعات قليلة أخذوا بنصيحة فرسان المعبد ووافقوا على الاستسلام شريطة الإبقاء على حياتهم ؛ غير أن بوهمند حنث بوعدده ، وفقاً أعين رفاق جوى جميعاً ؛ أما جوى نفسه فقد أخذ مع أخويه جون وبلدوين وابن عمه وليم إلى نيفين حيث دُفِنوا جميعاً فى حفرة حتى أعناقهم ، وتركوا كي يموتوا جوعاً.

وارتاع أتباع بوهمند مما لاقاه المتآمرون من مصير بشع ؛ فضلاً عن أن أسرة امبرياكو لم تنس أبداً أصلها الجوى ، وقد كان هناك الكثير من أبناء جنوا بين المتآمرين . ولأن أبناء جنوا كانوا أصدقاء ودودين للأرمن ودعاة للتحالف مع المغول ، فقد تباعد بوهمند عن سياستهم . وفى ذات الرقت خطط جون أمير مونتفورت - الذى كان حليفاً حميماً لأبناء جنوا - للخروج من صور كي ينتقم لأصدقائه ؛ لكن بوهمند وصل إلى جبيل قبله . وقد تملك أبناء بيزا دون غيرهم مشاعر البهجة الخالصة من هذه الحكاية كلها لما يكتونه لأبناء جنوا من كراهية.

ولم تكن الأحوال السياسية أفضل حالاً فى الجنوب . ذلك أن النبلاء المحليين كانوا

(٣) *Estoire d'Eracles*, ii, p. 481; *Gestes des Chiprois*, pp. 207, 210-13.

يزدرون حكم روجر (أوف سان سفرينو) في عكا . وفي ١٢٧٧م حاول وليم (أوف بروجو) أن يكسب إلى جانبه جون أمير مونتفورت وأفلح في مصالحته مع البنادقة الذين سُمح لهم بالعودة إلى أحيانهم السابقة في صور . غير أن جون ابتعد عن حكم عكا ؛ وفي ١٢٧٩م هبط إلى البر فجأة في صور الملك هيو ، وفي مأموله أن يجمع النبلاء حوله . وسانده جون ، لكن أحدا لم ينهض لنصرته . وكانت فترة الأشهر الأربعة - التي كان يحق له فيها قانونا المطالبة بأن يتواجد أتباعه القبرصيون القادمون من وراء البحار - قد مرت بصورة عقيمة . وعندما عاد فرسانه إلى قبرص كان على الملك أن يتبعهم ؛ وألقى باللائمة لفشله على فرسان المعبد - بحق - إذ أن وليم (أوف بروجو) هو الذي أبقى عكا على إخلاصها لروجر (أوف سان سفرينو) . وانتقم من فرسان المعبد بمصادرة أملاكهم في قبرص بما في ذلك قلعتهم في جاستريا . واشتكى نظام فرسان المعبد لدى البابا الذي كتب لـ هيو يأمره برد الممتلكات ، لكنه تجاهل الأمر البابوي . وعلى الرغم مما يبدو من موافقته على التحالف مع المغول ، بسبب معارضة روجر (أوف سان سفرينو) في المقام الأول ، فإنه لم يكن في وضع يمكنه من اتخاذ أية خطوة عملية في الأراضي الرئيسية^(٤) .

وكان الخان متلهفا على مهاجمة الماليك قبل أن يتمكن قلاوون من ترسيخ وضعه ؛ وكان سنقر - أمير دمشق السابق - ما يزال يتحدى المصريين في شمال سوريا إلى أن عبر جيش مغولي الفرات في نهاية سبتمبر ١٢٨٠م واحتل عينتاب وبجراس ودريساك ، وفي ٢٠ أكتوبر دخل حلب حيث نهب أسواقها وأشعل الحرائق في مساجدها ، فارتاع السكان المسلمون في المقاطعات وهربوا جنوبا إلى دمشق ؛ وفي ذات الوقت قام فرسان المستشفى في المرقب بغارة مشمرة على البقاع وتوغلو فيها حتى كادوا يصلون إلى قلعة الكرك ، وأثناء عودتهم هزموا جيشا إسلاميا بالقرب من مرقية كان قد أرسل لصددهم . بيد أن المغول لم يكونوا من القوة الكافية للإحتفاظ بحلب ؛ فعندما جمع قلاوون قواته في دمشق انسحبوا عبر الفرات ، واكتفى السلطان بإرسال قوة لمعاينة فرسان المستشفى الذين هزموها أمام المرقب^(٥) .

وفي ذات الوقت تقريبا ، ظهر سفير مغولي في عكا ليخبر الفرنج باقتراح الخان

(٤) *Gestes des Chiprois*, p. 207; *Annales de Terre Sainte*, p. 457; *Amadi*, p. 214; *Mas Latrie, Documents*, ii, p. 109; *Raynaldus*, 1279, p. 488 .

(٥) *Maqrissi, Sultans*, ii, i, p. 26; *Abu'l Feda*, p. 158; *Bar-Hebraeus*, p. 463; *Gestes des Chiprois*, pp. 208-9.

بإرسال جيش من مائة ألف رجل إلى سوريا في الربيع التالي ، وليرجوهم تعزيز الجيش بالرجال والمؤن . وأحال فرسان المستشفى الرسالة إلى الملك إدوارد في إنجلترا ؛ أما في عكا نفسها فلم تكن هناك استجابة . وشعر قلاوون بالخوف من أنباء الغزو المغولي القادم ، فتصالح مع سنقر في يونيو ١٢٨١ م ، مانحا إياه أنطاكية وأفاميا كإقطاعيتين ، وأرسل إلى عكا مقترحا عقد هدنة لعشر سنوات مع النظامين الدينين العسكريين ، وكانت الهدنة المعقودة مع حكومة عكا في ١٢٧٢ م ما تزال سارية لمدة عام آخر ؛ ونصح بعض الأمراء من أعضاء السفارة المصرية الفرنج بعدم قبول الهدنة مع قلاوون لأنه سرعان ما سيطاح به ، وما أن سمع روجر (أوف سان سيفرينو) ذلك حتى كتب إلى السلطان يحذره ، وتمكن السلطان من القبض على المتآمرين في الوقت المناسب . وفي ذلك الوقت وافقت الأنظمة الدينية العسكرية في عكا على المعاهدة التي وقّعت في ٣ مايو . وفي ١٦ يولية وقّع بوهمند على هدنة مماثلة . لقد كان ذلك نصرا دبلوماسيا لقلاوون ؛ فلو أن الفرنج اتحدوا من خلفه حتى بدون تعزيزات من الغرب ، لتسبب ذلك في تعقد حملته ضد المغول تعقدا خطيرا^(٦).

١٢٨١ م : معركة حمص

في شهر سبتمبر ١٢٨١ م ، توغل جيشان مغوليان في سوريا ؛ كان الخان يقود أحدهما بنفسه وتمكن من إخضاع القلاع الإسلامية بطول الحدود مع نهر الفرات ، بينما كان يقود الثاني آخر الخان - مانغو تيمور - الذي بدأ بالاتصال بليو الثالث ملك أرمينيا ثم سار جنوبا خلال عينتاب وحلب إلى داخل وادي العاصي . وكان قلاوون قد ذهب إلى دمشق حيث جمع قواته ثم سارع إلى الشمال . وانتحى الفرنج جانبا فيما عدا فرسان المعبد في مرقب الذين رفضوا الالتزام بالهدنة التي عقدها نظامهم الديني العسكري في عكا ؛ وسار بعض فرسانهم للانضمام إلى ملك أرمينيا . وفي ٣٠ أكتوبر تقابل الجيشان المغولي والمملوكي خارج حمص مباشرة . وكان مانغو تيمور يقود قلب المغول ، وعلى ميسرته أمراء مغوليون آخرون ، وعلى يمينته قوات احتياطية جورجية مع الملك ليو وفرسان المستشفى . وكانت يمينة المسلمين تحت قيادة المنصور صاحب حمه ، وكان قلاوون يقود بنفسه المصريين في القلب ، وإلى جانبه جيش دمشق بقيادة الأمير لاجين ، وفي ميسرته سنقر المتمرد السابق ومعه أبناء سوريا

(٦) hricht, *Regesta*, p. 374 . Maqrissi, *Sultans*, II, i, pp. 28-34; R

الشمالية والتركمان.

وما أن نشبت المعركة حتى نجح المسيحيون في ميمنة المغول في اقتلاع سنقر من مكانه وطاردوه إلى داخل معسكره في حمص ، وبذا فقدوا الإتصال بمركزهم . وفي ذات الوقت ، وعلى الرغم من صمود ميسرة المغول ، جُرح مانغو تيمور نفسه أثناء هجوم مملوكي على القلب ؛ وتخلت عنه رباطة جأشه فأمر بانسحاب متعجل ؛ فوجد ليو ملك أرمينيا ورفاقه أنفسهم في عزلة فكان عليهم أن يشقوا طريقهم عائدين إلى الشمال وتكبدوا خسائر جسيمة ، وخسر قلاوون الكثير من الرجال أثناء مطاردتهم للأرمن . وعاود الجيش المغولي عبور نهر الفرات بلا مزيد من الخسائر ، وبقي النهر العظيم بمثابة الحدود بين الإمبراطوريتين ، ولم يغامر قلاوون بمعاكبة الأرمن . وكان الراهب الإنجليزي لفرسان المستشفى - جوزيف (أوف تشانسي) - حاضرا في المعركة، وفيما بعد كتب وصفها وأرسله إلى إدوارد الأول قائلا إن الملك هيو والأمير بوهمند لم يتمكنوا من الانضمام إلى المغول في الوقت المناسب ؛ وربما كان يحاول حمايتها من سخط الملك الإنجليزي ، وهو العاهل الغربي الوحيد الذي ما زال مهتما بالحرب المقدسة ، والذي كان يساند التحالف المغولي بشدة . ولكن أحدا في الشرق في مثل فراسة إدوارد؛ فلم يفعل الملك هيو شيئا ، وتهادن بوهمند مع المسلمين ، بينما ذهب روجر (أوف سان سفرينو) ومندوب الملك تشارلز في رحلة خاصة لمقابلة قلاوون وتهنئته على انتصاره^(٧).

١٢٨٢ م : انهيار قوة تشارلز (أوف أنجو)

وكان الصقليون ساخطين على غطرسة تشارلز (أوف أنجو) وجنوده ، فهبوا فجأة مساء ٣٠ مارس ١٢٨٢م وذبحوا جميع الفرنسيين في الجزيرة . وكان لصلوات المساء الصقلية أثرا يجاوز مداه ما كان يتوقعه سكان الجزيرة الغاضبون . لقد ظهر أن الإمبراطورية المتوسطة العظيمة التي يترع عليها تشارلز كانت بلا قواعد ترتكز عليها . فطوال العقدین التاليين حاول هو وخلفاؤه عبثا استعادة صقلية من أمراء أراجون الذين

(٧) Maqrīsi, *Sultans*, II, i, pp. 35-7; Abu'l Feda, pp. 158-60; Bar-Hebraeus, pp. 464-5; Hayton, *Flor des Estoiros*, pp. 182-4; *Gestes des Chiprois*, p. 210; letter of Joseph of hricht, *Regesta*, Chauncy, and King Edward's reply (ed. Sanders), P.P.T.S. vol. v, R p. 375; d'Ohsson, *op. cit.* pp. 525-34

انتخبوا لتولي عرشها ؛ ولم تعد مملكة الأنجفين^(٨) في نابلي قوة عالمية ؛ أما البابوية ، التي آمنت للأنجفين مملكتهم الصقلية ، فقد أهينت ولحق بها الدمار المالي في محاولاتها الإبقاء على عملاتها ، وتخلي الأنجفيون عن مشاريعهم في البلقان وشرقه ، وفي القسطنطينية تنفس الامبراطور الصعداء ، فلم يعد مضطرا لإثارة حنق مواظيه بأن يعرض خضوع كنيستهم لروما إذا استطاعت روما كبح جماح طموحات تشارلز^(٩). وفي الشرق الفرنجي وجد روجر (أوف سان سفيرينز) نفسه فجأة بلا أي نصير ، وقد استدعاه سيده للعودة إلى إيطاليا ، فغادر عكا في نهاية العام بعد أن عهد بمنصبه كوكيل للمملكة إلى قهرمانه أودو بوالشين^(١٠).

وتلقى ممالك مصر أنباء انهيار قوة تشارلز بمشاعر الصدمة والارتياح في آن. فقد كان كل من بيارس وقلاوون يخشاه ويحترمه ولذا أحجما عن مهاجمة إقليمه الجديد في أوترمييه . والآن ، لم يعد بوسع أحد أن يكبح جماح السلطان طالما حيل بين الفرنج وتحالفهم مع المغول . وفي يونية ٢٨٣ م ، وهو موعد انتهاء الهدنة الموقعة في قيصرية ، عرض قلاوون على أودو بوالشين تجديدها لعشر سنوات آخر ، فقبل أودو بسرور لكنه لم يكن واثقا من سلطته ؛ ولذا قام كميون عكا وفرسان المعبد في عثليت وصيدا بالتوقيع في الجانب الفرنجي من المعاهدة التي ضمنت للفرنج ممتلكاتهم في جبل الكرمل وعثليت وأيضا في صيدا ، واستبعدت صور وبيروت . كما نصت المعاهدة على الحق في حرية الحج إلى الناصرة^(١١).

وأبهج أودو أن يحافظ على السلام ؛ إذ أوشك الملك هيو مرة أخرى على استعادة أراضى مملكته الرئيسية. وكانت الليدى إيزابيلا البيروتية قد ماتت مؤخرًا ، وانتهت مدينتها إلى أختها إشيافا زوجة همفري أمير مونتفورت الذي كان الأخ الأصغر لسيد صور . ولإدراك هيو أن بإمكانه أن يثق في آل مونتفورت ، فقد أبحر من قبرص في

(٨) (المترجم) الأنجفين : Angevin نسبة إلى إقليم أنجو Anjou التاريخي في غرب فرنسا والذي ساعد على ظهور الأسرة التي حكمت في إنجلترا Plangagenet house من ١١٥٤ حتى ١٤٨٥ م

(٩) يبقى تاريخ أماري Amari حرب الصلوات المسائية الصقلية *La Guerra del Vespero Siciliano* أفضل تاريخ عام للصلوات المسائية والحرب التي ترتبت عليها

(١٠) *Gestes des Chiprois*, p. 214; Sanudo, *Chronique de Romanie* in Mas Latrie, *Nouvelles Preuves*, i, pp. 39-40. لو تشيا (أوف جوفين).

(١١) Maqrissi, *Sultans*, ii, i, p. 60, 179-85, 224-30. See Hill, *History of Cyprus*, ii, p. 176.

نهاية يولية بصحبة اثنين من أبنائه - هنرى وبوهمند - وفى نيّته المهبط فى عكا ، غير أن الرياح قذفت به إلى بيروت التى وصلها فى أول أغسطس واستقبل استقبالاً حسناً . وبعد أيام قلائل واصل إنخاره إلى صور وقد أرسل جنوده برا جنوب الساحل . وفى الطريق لقي الجنود أذى كثيراً من غارات المسلمين ، وظن هيو أن فرسان المعبد فى صيدا هم الذين حرضوا المسلمين على ذلك ؛ وعندما هبط على البر فى صور وقعت أحداث كانت بمثابة نذير شوم له ؛ إذ سقطت رايته فى البحر ، وعندما جاء رجال الدين فى موكبهم لمقابلته انزلق الصليب الضخم الذى كانوا يحملونه وهشم مجموعة طبيب البلاط اليهودى . ومكث هيو منتظراً فى صور ، غير أنه لم يبد أحد فى عكا أية بادرة للترحيب به هناك ؛ لقد كان كميون عكا وفرسان المعبد يفضلون الحكم غير المتفحّم لأودو بوالشين . ولن يبق مع هيو نبلاؤه القبارصة لأكثر من الفترة القانونية وقدرها أربعة أشهر ، وفى الثالث من نوفمبر - قبل انقضاء الفترة - مات بوهمند أحد ولديه الذى كان يعلق عليه الآمال العراض . وكان الحدث الأخطر بالنسبة له موت صديقه وزوج أخته جون (أوف مونتفورت) الذى لم يترك ذرية ، ولذا سمح الملك بأن تزول صور إلى أخيه ووريثه - همفري - لورد بيروت ؛ غير أنه أضاف بنداً يبيح لأخيه - إذا رغب - شراء المدينة مرة أخرى للتاج نظير مائة وخمسين بيزانت ، غير أن همفري مات فى فبراير التالى ، وبعد فترة مناسبة تزوجت أرملته من الابن الأصغر لهيو - جوى - ومنحته بيروت . وبقيت صور فى ذلك الوقت تحت حكم أرملة جون ، مرجريت^(١٢) .

وبقى هيو فى صور حتى بعد أن تركه نبلاؤه ، وفيها مات يوم ٤ مارس ١٢٨٤م . ولقد بذل ما فى وسعه للمحافظة على السلطة فى مملكة الشرق الفرنجى وحالت دون ذلك صفاته الشخصية ، إذ برغم وسامته الطاغية وجاذبيته كان سيئ الطباع وتعوزه المهارة . ويُعزى فشله بدرجة كبيرة إلى عداوة تجار عكا والأنظمة الدينية العسكرية الذين كانوا يفضلون العاهل الغائب البعيد الذى لا يتدخل فى شؤونهم^(١٣) .

وخلف هيو على العرش ابنه الأكبر جون ، وهو صبي وسيم فى السابعة عشرة من عمره تقريباً . وتوّج ملكاً لقبرص فى نيقوسيا يوم ١١ مايو ، وبعد ذلك مباشرة عبر البحر إلى صور حيث توّج ملكاً للقدس . بيد أن سلطته لم يُعترف بها خارج صور

(١٢) *Gestes des Chiprois*, pp. 214-16; *Amadi*, pp. 214-15 .

(١٣) *Gestes des Chiprois*, pp. 216-17; *Amadi*, p. 216. See Hill, *op. cit.* p. 178

وبيروت . وحكم لسنة واحدة فقط ، ومات في قبرص يوم ٢٠ مايو ١٢٨٥ م . وورثه أخوه هنرى الذى كان فى الرابعة عشرة من عمره وتزوج ملكا لقبرص يوم ٢٤ يونية . ولم يغامر آنذاك بعبور البحر إلى سوريا^(١٤) .

١٢٨٥ م : ضياع المرقب

كان قلاوون يتهيأ لمهاجمة الفرنج الذين لا تشملهم الهدنة الموقعة سنة ١٢٨٣ م . وسارعت السيدتان الأرملتان اللتان تحكمان بيروت وصور - إيشيفا ومرجريت - تطلبان منه الهدنة ، فأجابهما إلى طلبيهما^(١٥) . وكان هدف السلطان الاستيلاء على قلعة المرقب العظيمة التابعة لفرسان المستشفى الذين دأبوا على التحالف مع المغول . وفى ١٧ إبريل ظهر السلطان مع جيش عظيم فى سفح الجبل الذى تعلوه القلعة وقد أتى بعدد كبير من المناجق يجاوز أي عدد شوهد مجتمعاً من قبل ، وقام رجاله بجرها إلى أعلى التل وبدأو قصف الأسوار . غير أن القلعة كانت مجهزة تجهيزاً جيداً وكانت مناجقها فى وضع أفضل ، فدمرت الكثير من آلات الأعداء ؛ ولم يحرز المسلمون تقدماً طوال شهر . وفى نهاية الأمر نجح مهندسو السلطان فى حفر نفق تحت برج الأمل الذى كان يرتفع فى نهاية الزاوية الشمالية البارزة ، وملأوه بالأخشاب القابلة للإحتراق . وفى ٢٣ مايو تفجّر النفق وسقط البرج حطاماً . وتسبب سقوطه فى عرقلة هجوم المسلمين واضطروا إلى التقهقر ، غير أن الحامية اكتشفت توغل النفق بعيداً تحت دفاعاتها ، فتحققت من الهزيمة واستسلمت . وسُمح لقادة فرسان المستشفى فى القلعة البالغ عددهم خمسة وعشرين قائداً بالإنسحاب مع منقولاتهم على صهوات الجياد وبكامل أسلحتهم . وسمح لباقي أفراد الحامية بحرية الرحيل دون أن يحملوا معهم شيئاً ، فانسحبوا إلى طرطوس ومنها إلى طرابلس . ودخل قلاوون القلعة دخول المنتصرين يوم ٢٥ مايو^(١٦) .

وشعر مواطنو عكا بالخطر لضياع المرقب ، وفى نفس الوقت تقرّيباً علموا بوفاة

(١٤) *Gestes des Chiprois*, p. 217; Amadi, *loc. cit.*; Maqrissi, *Sultans*, II, i, p. 80.

(١٥) Maqrissi, *Sultans*, II, ii, pp. 212-13

(١٦) *Gestes des Chiprois*, pp. 217-18; Amadi, *loc. cit.*; Maqrissi, *Sultans*, II, i, p. 80 (also in p. 86 but dated the following year); Abu'l Feda, p. 161; life of Qalawun in Reinaud, *Bibliothèque des Croisades*, II, pp. 548-52.

تشارلز (أوف أنجو) ؛ وكان ابنه تشارلز الثاني (أوف نابولي) متورطاً للغاية في الحرب الصقلية بحيث لم يعبأ بالشرق الفرنجي ، وكانت الحرب تثير الإضطراب شيئا فشيئا في أوروبا الغربية كلها . وقد حان الوقت كي يكون للشرق الفرنجي حاكم قريب مناح؛ وبناء على نصيحة فرسان المستشفى أرسل هنري الثاني مبعوثا من قبرص يدعى حوليان الأصفر إلى عكا للتفاوض على الاعتراف به ملكا . فوافق الكميون ، وتعاطف نظاما المستشفى والتيتوتون ، ووافق نظام المعبد - بعد بعض التردد - على مؤازرته؛ غير أن أودو بوالشين رفض التخلي عن منصب وكيل المملكة ، وكانت الكتبية الفرنسية المعالة بأموال ملك فرنسا تسانده.

وفي الرابع من يونية هبط هنري إلى البر في عكا حيث استقبله الكميون بمشاعر الغبطة ، وقد ارتأى السادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية - المستشفى والمعبد والتيتوتون - أن الحكمة تقضى تغيبهم عن الاستقبال قائلين إن طبيعة مناصبهم الدينية تجبرهم على التزام جانب الحياد . واتجه هنري مباشرة إلى كنيسة الصليب المقدس حيث أعلن أنه سوف يقيم في القلعة كما كان يفعل الملوك السابقون ؛ لكن أودو بوالشين رفض مغادرة القلعة التي وضع فيها حامية من الفرنسيين ، فذهب إليه أسقف فاما جوستا وراهب المعبد الدوميني في عكا ليحاجونه ، لكنه رفض الاستماع إليهم وتقدم باعتراض قانوني . وأقام الملك مؤقتا في قصر أمير صيدا المتوفى وأعلن ثلاث مرات إمكان رحيل الفرنسيين عن القلعة مع كافة أمتعتهم دون أن يتعرض لهم أحد بأذى ؛ بينما أخذ المواطنون يسخطون على أودو وتهيأوا لمهاجمته ، وعلى الأثر، نظر السادة الثلاثة العظام للأنظمة الدينية العسكرية وتحققوا من اتجاه رياح الأحداث ، ونصحوا أودو بتسليمهم القلعة ثم أعطوها لهنري الذي دخلها في موكب وقور يوم ٢٩ يونية^(١٧).

١٢٨٦م : آخر أعياد الشرق الفرنجي

وبعد ذلك بستة أسابيع ، يوم ١٥ أغسطس ، قام رئيس الأساقفة بوناكورسو (أوف جلوريا) ، نائبا عن البطريق ، بتتويج هنري في صيدا . وبعد الإحتفال عاد البلاط إلى عكا حيث انقضى أسبوعان في حفول تخللتها الألعاب ومسابقات الفروسية،

(١٧) *Gestes des Chiprois*, pp. 218-20; *Amadi*, pp. 216-17; *Sanudo, Liber Secretorum*, p. 229; *Machaeras* (ed. Dawkins), p. 42; *Mas Latrie, Documents*, iii, pp. 671-3.

وأقيمت فى قاعة فرسان المعبد الكبيرة عروض مسرحية شملت مشاهد من قصة المائدة المستديرة ظهر فيها لانسلوت وتريسترام وبالاميد ، وقدموا قصة ملكة فيمينى المأخوذة من قصة طروادة^(١٨) . ولم يشهد الشرق الفرنجى طوال قرن مضى مثل ذلك الحفل البهيج الرائع ؛ وكان لجاذبية الملك الصبى الوسيم أثرها على الجميع ؛ إذ لم يكن معروفا بعد أنه مصاب بالصرع ؛ فكان من ورائه عمّاه فيليب وبلدوين الإيبليين ينصحانه بكل شئ ، وكانا يحظيان باحترام عميق . وبناء على نصيحتهما لم يمكث طويلا فى عكا ، وإنما عاد إلى قبرص بعد أسابيع قليلة تاركاً بلدوين الإيبلى وكيلا للمملكة ، وكان عمّاه يدركان جيدا أن إقامة الملك فى المملكة أمر لن يستسيغه العامة من الناس^(١٩) .

ولا بد أن السلطان فى القاهرة قد ابتسم لدى سماعه بمرح الفرنج الأرعن ؛ أما الخان المغولى فى تبريز فقد بدا له أن الوقت قد حان للقيام بعمل أكثر جدية . وكان أباغا قد مات فى أول ابريل ١٢٨٢ م ، وخلفه أخوه تيكودار الذى عمّده فى طفولته ليدخل عقيدة النساطرة باسم نيكولاس ، غير أن ميوله كانت مع المسلمين . وما أن اعتلى العرش أو كاد حتى أعلن تحوله إلى الإسلام متخذا إسم أحمد ولقب السلطان ، وفى نفس الوقت أرسل إلى القاهرة لإبرام معاهدة صداقة مع قلاوون . وارتاع المغول المسنون فى بلاطه من سياسته ، فما كان منهم إلا أن شكوه فى الحال لدى الخان الأعظم قوبلاى . وبموافقته ، قام ابن أباغا - أرغون - بقيادة تمرد فى خراسان التى كان حاكمها . وهُزم بادئ الأمر ، غير أن قواد أحمد تخلوا عنه ، وانتهى أمر السلطان أحمد بأن اغتيل فى مكيدة دُبّرت فى القصر يوم ١٠ أغسطس ١٢٨٤ م . وعلى الفور اعتلى أرغون العرش^(٢٠) . وكشأن أبيه ، كان أرغون إنتقائيا من الناحية الدينية ، وكانت ميوله تتجه نحو البوذية ، غير أن وزيره سعد الدولة كان يهوديا ، وأعز أصدقائه كان كاثوليكيوس بطريق الأرمن النسطورى ، مار يابهالاه . وكان هذا الرجل المرموق من أصل تركي ، من الأونغوت ولد فى مقاطعة شانسى الصينية على ضفاف نهر هوانج هو . وقد جاء إلى الغرب مع ابن جلدته - رابان ساوما - على أمل غاش فى أن

(١٨) المترجم) المائدة المستديرة Round Table مائدة كبيرة مستديرة كان يجلس عليها الملك آرثر مع فرسانه، وقد اختارها مستديرة نجبا للخلاف حول الصدارة أو الأسبقية

(١٩) Gestes des Chiprois, p. 221; Annales de Terre Sainte, p. 548; Amadi, p. 217.

(٢٠) Abu'l Feda، الفدا، وبشير المؤرخ Howorth, History of the Mongols, iii, pp. 295-310 (٢٠) p.160، ومؤرخون عرب آخرون إلى السلطان أحمد (أنظر المراجع التى يوردها Howorth) ، لكن المؤرخين الغربيين يتجاهلون . ويتناوله المؤرخ ابن العبرى Bar-Hebraeus, pp. 467-71 بإسهاب

يُحج إلى القدس . وبينما كان في العراق سنة ١٢٨١م خلا منصب البطريرق الأرمني وتم انتخابه ليشغله . وكان له نفوذ قوى على الخان الجديد الذى كان نواقيا لإنقاذ أماكن العالم المسيحى المقدسة من أيدي المسلمين ؛ بيد أنه امتنع عن ذلك ما لم يساعده ملوك الغرب المسيحيون^(٢١) .

١٢٨٧م : سفارة رابان ساوما

وفى سنة ١٢٨٥م كتب أرغون إلى البابا هونوريوس الرابع يقترح القيام بعمل مشترك ، لكنه لم يتلق أى رد . وبعد عامين قرر إرسال سفارة إلى الغرب واختار سفيرا له رابان ساوما ، وهو صديق مار يابهالاه ؛ وانطلق السفير فى وقت مبكر من سنة ١٢٨٧م وكتب قصة بعثته بأسلوب ينبض بالحياة . وقد أبحر من طرابزون ووصل القسطنطينية فى عيد الفصح تقريبا ، واستقبله الامبراطور أندرونيكوس استقبالا ودودا ، وزار كنيسة القديسة صوفيا وغيرها من المزارات العظيمة فى المدينة الإمبراطورية . وكان الامبراطور أندرونيكوس على علاقة ممتازة بالمغول وأبدى استعدادا لمساعدتهم بقدر ما تسمح له موارده الآخذة فى التناقص . ومن القسطنطينية توجه رابان ساوما إلى نابولى التى وصلها فى نهاية يونية . وبينما كان هناك شاهد معركة حرية فى المرفأ بين الأسطولين الأراجونى والنابوليتانى ؛ وكان ذلك شاهده الأول على أن أوروبا الغربية مشغولة بنزاعاتها . وواصل طريقه إلى روما حيث وجد أن البابا هونوريوس قد مات لتوه ، ولم يجتمع الكرادلة بعد لانتخاب خليفته ؛ واستقبله الكرادلة الإثنا عشر المقيمون فى روما ، غير أنه وجدهم جهلاء لا نفع يرجى منهم ؛ ذلك أنهم لا يعرفون شيئا عن انتشار المسيحية بين المغول ، وصددهم أن يعرفوا أنه يخدم عاهلا وثنيا . وعندما حاول الحديث فى السياسة ، بدأوا معه استجوابا حول عقيدته وانتقدوا أوجه انحرافها عن عقيدتهم ؛ وانتهى الأمر بأن كاد يفقد السيطرة على أعصابه . ذلك أنه قال إنه قد جاء ليعرب للبابا عن احتراماته ولكى يضع الخطط للمستقبل وليس لإجراء مناقشة حول العقيدة . وبعد أن أدى طقوس عبادته فى كنائس روما الرئيسية ذهب فى حبور إلى جنوا التى رحب أبناؤها به فى احتفال كبير ، إذ كان التحالف المغولى على جانب من الأهمية بالنسبة لهم ، وقد أنصتوا لمقترحات السفير بكل انتباههم .

See Budge, *The Monks of Kublai Khan*, introduction, pp. 42-61, 72-5. (٢١)

وفى نهاية أغسطس ذهب رابان ساوما إلى فرنسا ووصل باريس فى وقت مبكر من شهر سبتمبر ، حيث كان فى استقباله كل ما كان يتمناه ؛ إذ رافقه حرس خاص فى دخوله العاصمة ، وفى مقابله مع الملك الصغير فيليب الرابع ، حظى بالتشريفات الملكية ، ونهض الملك من على عرشه لتحيته وأولاه أذنا مصغية بمشاعر الاحترام العميق. وغادر القاعة ومعه وعد بأن يقود فيليب بنفسه - إذا شاء الرب - جيشا لإنقاذ القدس . وكان لباريس أثرها المبهج فى نفس السفير ، وخاصة جامعتها التى كانت آنذاك فى قمة مجدها فى العصر الوسيط . وصحبه الملك شخصيا فى جولة فى كنيسة القديس^(٢٢) لمشاهدة الآثار المقدسة التى احتلها القديس لويس من القسطنطينية. وعندما أذنت ساعة رحيل رابان ساوما من باريس عين الملك سفيرا - جوبرت هيليفيل - بتعليمات لأن يعود معه إلى بلاط الخان للترتيب لمزيد من تفصيلات التحالف.

وكان المضيف التالى لرابان ساوما هو ملك إنجلترا إدوارد الأول الذى كان آنذاك فى عاصمة ممتلكاته الفرنسية بورجو، وكان إدوارد قد حارب فى الشرق وطالما ناصر فكرة التحالف مع المغول ، ووجد رابان ساوما عنده استجابة ذكية وعملية لمقترحاته وألقى فى روعه أن الملك هو أقدر رجال السياسة الذين قابلهم فى الغرب ، وقد أحس بالرضا عندما طلبوا منه إقامة قداس فى البلاط الإنجليزى . بيد أنه عندما حان الوقت لوضع جدول زمنى ، راوغ الملك ولم يستطع - كشأن ملك فرنسا فيليب - أن يحدد بدقة متى سيكون جاهزا للشروع فى حملة صليبية . وعاد رابان ساوما إلى روما وفى صدره شئ يقلقه . ولقد توقف فى جنوا لقضاء أعياد الميلاد وتصادف أن قابل هناك الكاردينال جون (أوف توسكولوم) ممثل البابا وأخبره بما يعمل فى صدره من مخاوف ؛ وكان المماليك يعدون العدة آنذاك للقضاء على آخر دويلة مسيحية فى سوريا، وليس هناك فى الغرب من يأخذ التهديد مأخذا جادا.

وفى شهر فبراير ١٢٨٨م اختير نيكولاس الرابع لمنصب البابا ؛ وكان من بين أول أعماله استقبال السفير المغولى ، وكانت العلاقة الشخصية بينهما رائعة ؛ فقد خاطب رابان ساوما البابا على إنه الأسقف الأول للعالم المسيحى ، وأرسل نيكولاس بركاته إلى الكاثوليكيوس أى بطريق الأرمن النسطورى واعترف به بطريقا للشرق . وعلى مدى أسبوع الآلام السابق لعيد الفصح كان السفير يقيم القداس أمام جميع

(٢٢) (المترجم) كنيسة القديس: Sainte-Chapelle كنيسة فى باريس بناها لويس التاسع سنة ١٢٤٥م لتضم "تاج الشوك" وغيره من "آثار الآلام". وفى سنة ١٩٠٦ لم تعد كنيسة

الكرادلة ، وتناول من يمدى البابا نفسه القربان المقدس؛ وغادر روما مع جوهرت هيلفيل في أواخر ربيع ١٢٨٨م محملاً بالهدايا ، الكثير منها آثار قيعة ، للخان ولكاثوليكوس بطريق الأرمن النسطوري ، ومعه خطابات لهما ولأميرين مسيحيين في البلاط ، ولأسقف تبريز اليعقوبي دبنيس . بيد أن الغموض كان بكثف الرسائل ؛ إذ لم يستطع البابا أن يعد بعمل محدد في أي تاريخ محدد^(٢٣) .

وفي واقع الأمر ، كان للملوك الغرب ما يصرفهم عن الحملة الصليبية ، وهذا ما بدأ رابان ساوما يدركه ؛ ذلك أن شبح تشارلز (أوف أنجو) المشؤوم اشترك مع ما كان للبابوية من رغبة في الانتقام ، وحالاً دون القيام بأية حملة صليبية . فقد أعطى البابا جزيرة صقلية للأنجفين ، والآن وقد انقلب الصقليون ضد الانجفين ، فإن الحفاظ على المهابة اضطر البابوية وفرنسا إلى محاربة أقوى قوتين بحريتين في البحر المتوسط - جنوا وأراجون - لإعادة الإستيلاء على الجزيرة ؛ ولم يكن نيكولاس ولا الملك فيليب على استعداد للتفكير في حملة صليبية إلى أن تسوى المسألة الصقلية . ولقد أدرك إدوارد ملك إنجلترا الخطر المحدق بالمسألة الصليبية ، وتمكن في عام ١٢٨٦ من ترتيب هدنة بين فرنسا وأراجون ، غير أنها بقيت هدنة قلقة لاستمرار القتال في إيطاليا وفي البحر . وفضلاً عن ذلك ، كان لإدوارد مشاكله الخاصة به ؛ وربما راوده الحنين لإنقاذ الأراضي المقدسة ، لكنه وجد أن الأكثر إلحاحاً غزو ويلز ومحاولة غزو اسكتلندا . وبعد موت ألكسندر الثالث ملك اسكتلندا في سنة ١٢٨٦م ، تحولت أنظاره باتجاه الشمال ، بينما كان يخطط للسيطرة على تلك المملكة المجاورة من خلال وريثها الطفلة مارجريت ، عذراء النرويج ، ويجب على الشرق أن ينتظر . ولم يكن هناك أية قوة للرأي العام خليقة بأن تحت العواهل على الماضي قدما ؛ وكما أظهرت تحقيقات البابا جريجوري العاشر ، كانت الروح الصليبية تحتضر^(٢٤) .

١٢٨٩م : الخان يحث حملة صليبية

ولم يكن أرغون ليصدق أن مسيحي الغرب ، بكل تأكيداتهم الورعة المخلصة

(٢٣) بورد بودج Budge, op. cit. pp. 164-97 ترجمة كاملة لمقال رابان ساوما عن رحلاته في أوروبا

(٢٤) للإطلاع على الصورة العامة للوضع أنظر، Grousset, *Histoire des Croisades*, iii, pp. 711-21 ، وللإطلاع على آثار الحرب الصقلية على السياسة العامة أنظر أيضا Lévis-Mirepoix, *Philippe Le Bel*, pp. 22 ff. وأنظر أيضا أعلاه الصفحات ٨٢ وما بعدها.

على حبهم للأراضي المقدسة ، يمكن أن يُظهروا مثل هذه اللامبالاة بمصيرها المحفوف بالأخطار . وقد رحب برابان ساوما لدى عودته إلى الوطن بأسمى آيات التشريف ، وأبدى مشاعر الود لجوهرت هيليفيل ؛ غير أنه كان يرغب في معلومات أكثر دقة مما أعطاه له جوهرت . وبعد فصح سنة ١٢٨٩م مباشرة أرسل مبعوثا ثانيا من أبناء جنوا يدعى بوسكاريل (أوف جيسولف) كان قد استقر في أراضي الخان منذ وقت طويل ، ومعه رسائل إلى البابا وملكى فرنسا وإنجلترا . ولا يزال الخطاب المرسل إلى فيليب موجودا حتى يومنا هذا، وهو مكتوب باللغة المغولية باستخدام الخط الأوجورى . وباسم الخان العظيم قوبلاي، يعلن أرغون إلى ملك فرنسا أنه يقترح - بمساعدة الرب - الزحف على سوريا في آخر شهر شتوى من سنة الفهد ، أى فى يناير ١٢٩١م ، والوصول إلى دمشق فى حوالى منتصف أول شهور الربيع ، فبراير . وإذا أرسل الملك قوات إضافية واستولى المغول على القدس ، فسوف تمنح القدس للملك ؛ لكنه إذا فشل فى التعاون ، فسوف تذهب الحملة سدى . وهناك حاشية مضافة إلى الخطاب كتبها بوسكاريل بالفرنسية تعرب فى مهارة عن مديح الملك الفرنس وتضيف أن أرغون سوف يُحضر معه ملوك جورجيا المسيحيين وعشرين أو ثلاثين ألف خيال ، وسوف يضمن تزويد الغربيين بالموثوقية . ولا بد أن هناك رسالة مماثلة قد أرسلت إلى الملك إدوارد - وهى مفقودة الآن - وقد أضاف إليها البابا مذكرة توصية وتشجيع . ولم يصلنا رد فيليب ملك فرنسا ، وإنما لدينا رد إدوارد ؛ وهو يهنئ الخان على مشروعه المسيحي ويشن عليه بصورة ودودة . بيد أن الرد جاء خلوا من تاريخ محدد ومن وعد مبذول ، وإنما أحيل الخان إلى البابا الذى لا يستطيع أن يفعل شيئا سوى القليل فى غيبة تعاون الملوك^(٢٥) . وفى تلك الأثناء كتب فرنجى مجهول الاسم بحثا يظهر مدى سهولة نزول قوة من الغربيين إلى البر فى أياس بأرمينيا التى سيكون ملكها غاية فى التعاون ، ومنها تذهب القوة لتنضم إلى المغول . ولم يلتفت أحد إلى نصيحته^(٢٦) .

وعلى الرغم من الردود المثبطة التى عاد بها بوسكاريل ، أرسله أرغون مرة أخرى مع اثنين من المغول المسيحيين هما أندرو زانغان وساهادين ؛ فذهبوا أولا إلى روما حيث استقبلهم البابا نيكولاس ، ثم انطلقا لزيارة ملك إنجلترا وقد تسلحوا برسائل عاجلة من البابا الذى اعتبر على ما يبدو أن ملك إنجلترا يحتمل أن يتحمس للحملة الصليبية أكثر

(٢٥) Chabot, *op. cit.* pp. 593-4, 604-16 ، وقد أورد نص الرسالتين

(٢٦) Kohler, "Deux Projets de Croisade en Terre Sainte", text and introduction, *Mélanges pour Servir à l'Histoire de l'Orient Latin*, pp. 516 ff..

من الملك فيليب، ووصلوا اليه في وقت مبكر من سنة ١٢٩١م . غير أن عذراء الترويع كانت قد ماتت في العام الفائت وغرق إدوارد في الشئون الأسكتلندية ، وعاد المبعوثون محزونين إلى روما حيث مكثوا طوال الصيف . وفي ذلك الوقت كان السيف قد سبق العذل ، إذ تحدد مصير الشرق الفرنجي ، ومات الخان أرغون^(٢٧) .

ولو أن التحالف المغولي تحقق ونفذه الغرب باخلاص ، فلعل بقاء الشرق الفرنجي كان قد طال أكثر من ذلك ، ولبات الممالك في حالة من الشلل ، إن لم يُدمروا ، ولبقيت خانية فارس قوة كبرى صديقة للمسيحيين وللغرب . ولكن الذي حدث ، أن بقيت الامبراطورية المملوكية لثلاثة قرون تقريبا ، وفي غضون أربع سنوات من موت أرغون اتسع المعسكر الإسلامي ليشمل مغول فارس . إن إهمال الغرب لم يتسبب في خسارة القضية الفرنجية فحسب ، وإنما في خسارة قضية تجمعات العالم المسيحي الشرقي البائسة . ويعزى إهمال الغرب هذا أساسا إلى الحرب الصقلية التي كانت من نتاج المرارة البابوية والاستعمار الفرنسي .

وفي تلك الأثناء تركت أوترمييه انطبعا متزايدا بالاستهانة المخلة؛ فلم يكد الملك هنري يرجع إلى قبرص من احتفالات عكا حتى اندلعت حرب شعواء على الساحل السوري بين أبناء بيزا وأبناء جنوا . وفي ربيع سنة ١٢٨٧م أرسلت جنوا أسطولا إلى الشرق بقيادة الأدميرالين توماس سبينولا وأورلاندو أشيري . وبينما كان سبينولا في زيارة للإسكندرية للحصول على حياض مسالم من السلطان ، كان أشيري مبحرا أعلى وأسفل الساحل السوري يغرق أية سفينة أو يأسرها، إذا كانت لأبناء بيزا أو لفرنج من أصل بيزي . وكان تدخل فرسان المعبد هو وحده الذي حال دون بيع البحارة المأسورين كعبيد. ثم إن أشيري انسحب إلى صور ليخطط للهجوم على مرفأ عكا وألحق البنادقة أسطولهم المحلي بأبناء بيزا لحماية المرفأ؛ غير أن أشيري انتزع انتصارا أمام حاجز الأمواج يوم ٣١ مايو ١٢٨٧م ، رغم أنه لم يتمكن من التوغل داخل الميناء . وعندما أبحر سبينولا شمالا من الإسكندرية ، تمكن أبناء جنوا من محاصرة الساحل كله . وفي نهاية الأمر تمكن السيدان الأعظمان لفرسان المعبد وفرسان المستشفى ، مع ممثلي النبلاء المحليين ، من اقناع أبناء جنوا بالإبحار إلى صور والسماح بحرية الملاحة^(٢٨) .

(٢٧) Chabot, *op. cit.* pp. 617-19.

(٢٨) *Gestes des Chiprois*, pp. 220-30; *Annales Januenses*, p. 317

١٢٨٧ م : سقوط اللاذقية

وتجنب ميناء واحد هذا الصراع ، لأنه كان يراجه فعلا مصيرا أسوأ . ذلك أن تجار حلب دأبوا على الشكوى إلى السلطان منذ بعض الوقت من أنه من غير المناسب أن يضطروا إلى إرسال بضائعهم إلى ميناء اللاذقية المسيحي ، وهو آخر بقايا إمارة أنطاكية . وسنحت الفرصة لقلاوون في ذلك الربيع بعد أن دمر زلزال أسوار المدينة يوم ٢٢ مارس تدميرا شديدا . وادعى السلطان بأن اللاذقية - باعتبارها جزءا من الإمارة القديمة - لا تغطيها الهدنة المعقودة مع طرابلس ، وأرسل قائده الأمير حسام الدين طورانطاي للإستيلاء على المدينة التي سقطت بسهولة في يديه ؛ غير أن المدافعين عنها انسحبوا إلى القلعة الواقعة في فتحة المرفأ ، والتي يصلها بالأرض الرئيسية طريق مرتفع . ووسّع طورانطاي الطريق المرتفع وسرعان ما أقنع الحامية بالاستسلام يوم ٢٠ إبريل ، ولم يحاول أحد أن يخف لنجدتها^(٢٩) .

ولم يعيش سيدها السابق بوهمند السابع طويلا بعد ضياعها ؛ فقد مات أبتريوم ١٩ أكتوبر ١٢٨٧ م ، وورثته أخته لوتشيا التي سبق أن تزوجت الأدميرال الكبير السابق لتشارلز (أوف أنجو) المدعو نارحوت (أوف توسي) ، وهي تعيش الآن في أبوليا . ولم يرغب نبلاء ومواطنو طرابلس في أن يستدعوا إلى الشرق أميرة توشك ألا تكون معروفة ، وترتبط بالأنجفتين سيثي السمعة ؛ فعرضوا الكونتية على السيدة المسنة الأميرة سيبلا الأرمينية التي ما أن تلقت العرض حتى كتبت إلى صديقها القديم الأسقف بارثولوميو أسقف طرطوس تدعوه ليكون وكيلها عن المملكة . غير أن رسالتها وقعت في أيدي نبلاء الكونتية الذين جاءوها وأخبروها أن الأسقف غير مقبول . ورفضت أن تتحول عن موقفها . وبعد مشهد عاصف انسحب النبلاء وتشاوروا مع كبار التجار ؛ وأعلنوا جميعا خلع الأسرة الحاكمة عن العرش وإنشاء كميون يصبح من الآن قُدُما هو السلطة السيادية . وكان رئيس الكوميون هو بارثولوميو إميرياكو الذي كان والده برتراند العدو للودود لبوهمند السادس والذي سبق لبوهمند السابع أن أعدم أخوه وليم بصورة بشعة مع ابن عمه لورد جيبيل .

(٢٩) Gestes des Chiprois, p. 230; Abu'l Feda, p. 162; Maqrissi in Reinaud, op. cit. pp. 5612.

١٢٨٨ م : لوتشيا ، كونتيسة طرابلس

وذهبت الأميرة المسنة إلى أخيها في أرمينيا . وفي وقت مبكر من سنة ١٢٨٨ م وصلت لوتشيا مع زوجها إلى عكا لكي تذهب إلى طرابلس لتسلم ميراثها . واستقبلها فرسان المستشفى استقبالا طيبا ، فهم الحلفاء القدامى لأسرتها الحاكمة ، وصحبوها حتى مدينة نيفين الحدودية للكونتيسة ؛ وهناك أصدرت بيانا بإعلان حقوقها . وكان رد الكميون اصدار قائمة طويلة تحوى المآسى والشكاوى من أعمال القسوة والاستبداد التى ارتكبتها أخوها وأبوها وجدها ، وأعلنوا عن عدم رغبتهم فى هذه الأسرة الحاكمة ، ووضعوا أنفسهم تحت حماية جمهورية جنوا ؛ وقد أرسل رسول إلى جنوا لإطلاع الدوج الجنوى الذى أرسل على الفور الأدميرال بنيتو زخاريا ومعه خمس سفن ليتفق مع الكوميون . وفى ذات الوقت توجه السادة العظام للأنظمة الدينية العسكرية الثلاثة ، ومعهم وكيل البنادقة فى عكا ، إلى طرابلس للدفاع عن قضية الوريثة ؛ وكان دافع فرسان المستشفى فى ذلك هو الصداقة القديمة بين النظام وعائلتها ، وتمثل دافع فرسان المعبد وفرسان التيوتون فى أنهم يساندون البندقية ضد جنوا . بيد أنه قد قيل لهم إنه يجب على لوتشيا أن تعترف بالكوميون كحاكم للكونتيسة .

وعندما وصل الأدميرال زخاريا أصر على عقد معاهدة تعطى أبناء جنوا مزيدا من الشوارع فى طرابلس ، والحق فى وجود قاض لقضاة المدينة ليحكم مستعمرتهم ، بينما ضمن حرية الكميون وامتيازاته . على أن مواطنى طرابلس بدأوا يرتابون فى نزاهة صديقتهم جنوا . أما بارثولوميو إميرياكو ، الذى ضمن السيطرة على جبل بتزويج ابنته آجنس من ابن عمه بطرس ابن جوى الثانى ، فقد اشتبهى الكونتيية لنفسه ؛ وأرسل رسالة إلى القاهرة ليعرف ما إذا كان قلاوون سوف يسانده إذا ما نادى بنفسه كونتا . وبدأت الشكوك تحوم حول طموحاته ؛ وتحول الرأى العام فى طرابلس لمناصرة قضية لوتشيا . وكتب الكميون فى عكا رسالة لها ، دون إخطار أبناء جنوا ، يعرض قبولها إذا ما أكدت وضع الكميون وامتيازاته . وفى حركة لا تخلو من فطنة أخبرت لوتشيا زخاريا الذى كان فى أياس يرتب لعقد معاهدة تجارية مع ملك أرمينيا ، فسارع إلى عكا لمقابلتها . ووافقت على تأكيد امتيازات كل من الكميون وجنوا ، وبهذه الشروط تم الاعتراف بها كونتيسة طرابلس^(٣٠) .

Gestes des Chiprois, pp. 231-4; *Amadi*, pp. 217-18; *Sanudo*, p. 229; *Annales* (٣٠) *Janvenses*, pp.322-6.

ولم تلق تلك الترتيبات استحسانا من البنادقة ولا من بارثولوميو إميرياكو الذى كان على اتصال فعلى بقلاوون . ووصل إلى القاهرة اثنان من الفرنج يلتمسان تدخل السلطان ، وليس فى الإمكان الآن معرفة ما إذا كان بارثولوميو هو الذى أرسلهما ، أم بنادقة عكا ؛ وكان كاتم أسرار السيد الأعظم لفرسان المعبد يعرف أسماء المبعوثين لكنه فضل عدم الكشف عنهما . وقد حذرا السلطان من أنه إذا سيطرت جنوا على طرابلس فسوف تهيمن على الشرق كله وسوف تغدو تجارة الإسكندرية تحت رحمتها^(٣١).

وأبهج السلطان أن توجه إليه الدعوة للتدخل ؛ إذ كانت تلك الدعوة دريعة لخرق الهدنة مع طرابلس . وفى فبراير ١٢٨٩م نقل الجيش المصرى كله إلى سوريا دون أن يكشف عن الهدف . غير أن أحد أمرائه ، بدرالدين بكتاش الفخرى ، كان مأجورا لفرسان المعبد ، فأرسل كلمة إلى السيد الأعظم ، ولیم (أوف بوجو) أن هدف قلاوون هو طرابلس . وسارع ولیم يحذر المدينة ويناشدها الاتحاد وترتيب دفاعاتها . ولم يصدقه أحد ، إذ كان المشهور عن ولیم أنه مغرم بالمكائد السياسية ، وقيل إنه اختلق تلك القصة لمصلحته الخاصة آملا أن توجه إليه الدعوة للوساطة ولم يتغير شئ وواصلت الأطراف نزاعاتها حتى أواخر مارس تقريبا عندما زحف الجيش الضخم للسلطان محترقا البقاع وتجمع أمام أسوار المدينة^(٣٢).

١٢٨٩م : سقوط طرابلس

وأخيرا ، أخذ التهديد مأخذا الجدا . ففى داخل المدينة منح الكميون والنبلاء على السواء الكونتيسة لوتشيا السلطة العليا . وأرسل فرسان المعبد قوة شمالا بقيادة مارشاهم ، جيوفرى (أوف فينداك) ؛ وأرسل فرسان المستشفى قوة بقيادة مارشاهم ، ماثيو (أوف كليرمونت) . وسارت الكتيبة الفرنسية شمالا من عكا بقيادة جون (أوف جريللى) . وكان فى الميناء أربعة غلايين جنوية وغلليونان بندقيان ، فضلا عن قوارب أصغر بعضها لأبناء بيزا . ومن قبرص أرسل الملك هنرى أخاه الأصغر أمالريك الذى كان قد عينه لتوه كونستابلا للقدس ، ومعه صحبة من الفرسان وأربعة غلايين . وفى

(٣١) . 234 p. *Gestes des Chiprois* ويقول أبو المحاسن . p. cit. in Reinaud, op. cit. Abu'l Muhasin 561 إن بارثولوميو حذر قلاوون

(٣٢) . 234-5 pp. *Gestes des Chiprois* وكان الفخرى يلقب (بأمير السلاح) ، ومن هنا يطلق عليه صاحب تاريخ *Gestes* صلاح . انظر أبو الفدا . p. 159 Abu'l Feda

نفس الوقت هرب الكثير من المواطنين غير المقاتلين عابرين البحر إلى قبرص.

كانت طرابلس العصور الوسطى تقع على البحر ، على شبه الجزيرة الجذباء التي تقف عليها الآن ضاحية "المينا" العصرية، وقد فصلت عن قلعة جبل الحجاج التي لم تبذل محاولة للدفاع عنها على ما يبدو . أما المدينة نفسها فقد كانت دفاعاتها رائعة . وبرغم سيطرة المسيحيين على البحر ، إلا أن التفوق العددي الشاسع للمسلمين وضخامة آلات حصارهم أثبت عدم إمكان المقاومة . وعندما دمر القصف برج الأسقف الواقع في الركن الجنوبي الشرقي من الأسوار الأرضية، وبرج المستشفى الواقع بينه وبين البحر ، قرر البنادقة استحالة الدفاع أكثر من ذلك ، وحملوا سفنهم على عجل بكل ممتلكاتهم وأبحروا خارجين من المرفأ . وتسبب فرارهم في شعور أبناء جنوا بالخطر ، وقد ارتاب قائدهم زاخاريا في أن البنادقة يحاولون سرقة بعض قواربه ؛ فجمع هو الآخر رجاله وتركوا المدينة بعدما أخذوا معهم كل ما أمكنهم أخذه . وتسبب رحيلهم في بث الفوضى بين المسيحيين ؛ وفي ذلك الصباح ، ٢٦ إبريل ١٢٨٩ م ، أمر السلطان بهجوم عام ؛ واحتشد المماليك بمحشود كثيفة على السور الجنوبي الشرقي المنهار داخلين المدينة.

وفي المرفأ، كافح المواطنون الذين أصابهم الذعر للوصول إلى القوارب ؛ وتمكنت الكونتيسة لوتشيا من الإبحار بأمان إلى قبرص ومعها أماليك القبرصي ومارشالا النظامين الدينيين العسكريين ، لكن قائد فرسان المعبد لقى حتفه في القتال وكذلك بارثولوميو امبرياكو . وكان المسلمون يقتلون على الفور أي رجل يجدونه في طريقهم؛ أما النساء والأطفال فكانوا يؤخذون رقيقا . وتمكن بعض اللاجئين من العبور في قوارب تجديف إلى جزيرة سانت توماس الصغيرة الواقعة أمام اللسان الأرضي مباشرة ، لكن خيالة المماليك تقدموا في المياه الضحلة وسبحوا إليها ، حيث نلت مذابح مماثلة ، وعندما حاول المؤرخ أبو الفدا الحموي زيارة الجزيرة بعد أيام قلائل صدته الرائحة النتنة المنبعثة من الجثث المتحللة^(٣٣).

وعندما انتهت المذبحة والنهب ، دمر قلاوون المدينة وسواها بالأرض حتى لا يحاول الفرنج استعادتها بما لهم من سيطرة على البحار . وأمر بتشييد مدينة جديدة في

Gestes des Chiprois, pp. 235-7; Amadi, p. 218; *Annales Januenses*, loc. cit.; Auria, (٣٣) *Annales in M.G.H. Scriptores*, vol. ,xviii, p. 324; Maqrissi, *Sultans*, II, i, pp.101-3; Abu'l Feda, pp. 163-4 .

سفع جبل الحاج تبعد عن الشاطئ أميال قليلة^(٣٤).

وذهب بعض جنود المماليك للإستيلاء على البطرون ونيفين . ولم تكن هناك أية محاولة للدفاع عنهما . وعرض بطرس اميرياكو ، لورد جبيل ، خضوعه للسلطان ، وسمح له بالإحتفاظ بمدينته تحت الإشراف الصارم لعشر سنوات أخرى تقريبا^(٣٥).

وقع سقوط طرابلس من أهالى عكا وقع الصدمة المبررة . وكانوا فى السنوات القليلة الأخيرة قد أقنعوا أنفسهم بأنه طالما أنهم ليسوا عدوانيين ، فلن يعترض السلطان حقيقة على استمرار بقاء المدن المسيحية على طول الساحل . وربما يهاجم قلاعهم التى يتمثل فيها خطر كامن عليه . وربما يتبرم من الأنظمة الدينية العسكرية التى كان عملها الحرب من أجل عقيدتها ، حتى وإن كان المسلمون والمسيحيون على السواء يتعاملون مع فرسان المعبد على أنهم أصحاب مصارف . غير أن تجار الموانى وأصحاب الخوانيت لم يطلبوا سوى السلام ، ومن الواضح الجلى أن نبلاء أوتريميه من عشاق الرفاهية لم تعد لديهم الرغبة فى حملة صليبية وما يصاحبها من حرج . لقد كانت عكا وأخواتها الموانى أماكن ملائمة لتجارة المسلمين وكذلك المسيحيين ؛ وقد أظهر مواطنوها حسن نواياهم برفضهم للتحالف المغولى . أما هذا الهجوم على طرابلس الذى لم يروا له ما يستفزهم فقد أظهر لهم مدى زيف حساباتهم . والآن أجبروا على التيقن من أن هناك مصيرا مماثلا ينتظر عكا.

وبعد سقوط طرابلس بثلاثة أيام وصل الملك هنرى إلى عكا فوجد فيها مبعوثا من قلاوون ، يحمل شكوى السلطان من أن الملك هنرى والأنظمة الدينية العسكرية قد انتهكوا الهدنة المعقودة معه بذهابهم لم يد العون إلى طرابلس . ورد هنرى بأن الهدنة تنطبق على مملكة القدس ؛ فإذا كانت طرابلس مشمولة بهذه الهدنة ، فلم يكن ينبغى للسلطان أن يعتدى عليها . وقبل المسلمون هذا العذر ، وتم تحديد الهدنة لتغطى مملكتى القدس وقبرص لفترة أخرى قدرها عشر سنوات وعشرة أشهر وعشرة أيام . وسارع ملك أرمينيا وسيدة صور يحذوان حذو الملك هنرى^(٣٦) ، على أن هنرى لم يعد الآن يثق فى كلمة السلطان ؛ وليس بمقدوره مناشدة المغول ، فيقينا سيعتبر السلطان ذلك خرقا

(٣٤) *Gestes des Chiprois*, pp. 237-8

(٣٥) Maqrissi, *Sultans*, II, i, pp. 103-4. Sanudo, p. 230. See Grousset, *op. cit.* p. 745 n.3.

(٣٦) *Gestes des Chiprois*, p. 238; Amadi, *loc. cit.* See Stevenson, *Crusaders in the East*, p. 351 n.3..

للهدنة . غير أنه قبل أن يعود إلى قبرص في سبتمبر ، وقد ترك أخاه كركيل للمملكة في عكا ، أرسل جون (أوف جريللي) إلى أوروبا لكي يصور لعواهل أوروبا مدى ما وصله الوضع من بأس^(٣٧).

١٢٩٠ م : صليبيون من شمال إيطاليا

ولقد صُدم عواهل أوروبا كذلك بمصير طرابلس ؛ غير أن المسألة الصقلية كانت ما تزال تستحوذ على أذهان الجميع فيما عدا إدوارد ملك إنجلترا الذي كانت مشكلته الإسكتلندية قد بلغت حد الأزمة . أما البابا نيكولاس الرابع فقد استقبل جون (أوف جريللي) بمشاعر العطف المخلصة ، وكتب في حرارة الأسى إلى ملوك الغرب يستعطفهم لإرسال المساعدة . غير أنه كان هو نفسه كان متورطا في المسألة الصقلية ؛ ولم يكن بوسعهم إلا كتابة الرسائل وحث رجال الدين على التبشير بحملة صليبية . وكان الأمراء والنسودات الذين ناشدهم البابا يفضلون الانتظار إلى أن يبادر الملك إدوارد بحركة ما ، إذ أنه برغم كل شيء قد أخذ الصليب ولديه بعض الخبرة بالشرق^(٣٨). ولكن إدوارد لم يتحرك . أما جمهورية جنوا ، التي مُنيت بخسارة فادحة لضياح طرابلس ، فقد انتقمت بالإستيلاء على سفينة تجارية مصرية ضخمة كانت مبحرة قبالة الشاطئ جنوب الأناضول ، وبالإغارة على ميناء تينه في الدلتا العارى من الحماية ؛ وعندما أغلق قلاوون الإسكندرية في وجه أبناء جنوا سارعوا إليه يطلبون السلام . وعندما وصل مبعوثوهم إلى القاهرة ، وجدوا سفراء من الامبراطور البيزنطي والامبراطور الألماني منتظرين بباب السلطان^(٣٩).

ولم تجد مناشدات البابا صدى إلا في شمالي إيطاليا ؛ ولم تأت الاستجابة من البارونات ، وإنما جاءت من السوق من الفلاحين والعاطلين من سكان المدن الصغيرة في لومبارديا وتوسكانيا ، التواقين إلى مغامرة قد تعود عليهم ببعض الفضل والخلاص الروحي وما يحتمل من أسلاب . ولم يكن البابا سعيدا تماما بذلك ، لكنه قبل مساعدتهم ووضعهم تحت إمرة أسقف طرابلس الذي سبق أن جاء إلى روما لاجئا . وكان في

(٣٧) Raynaldus, 1288, p. 43, 1289, p. 72 .

(٣٨) hricht, "derniers Jours", p. 529. For Edward's attitude, see Powicke, *op. cit.* R pp.729 ff

(٣٩) Heyd, *op. cit.* i, pp. 416-18

مأمول البابا أنهم فلن يفعلوا شيئا يتصف بالحق بعدما أصبحوا تحت يد كابحة لأسقف يعرف الشرق . أما البنادقة ، الذين لم يأسوا لرؤية جنوا وهي تفقد قاعدتها في طرابلس ، والذين شعروا بخلاف ذلك حيال عكا التي كانت لهم فيها الهيمنة التجارية ، فقد قدموا عشرين غليوناً تحت قيادة ابن الدوج - نيكولاس تيبولو - ويساعده ، بناء على طلب البابا ، جون (أوف جريللي) وروكس (أوف سالي) . وكان البابا قد عهد إلى كل فرد من هؤلاء القادة الثلاثة بألف قطعة ذهبية من خزانة البابوية ، بيد أنهم كانوا يفتقدون المؤن . وعندما أبحر الأسطول قاصدا الشرق انضم إليه خمسة غلايين أرسلها الملك جيمس ملك أراجون الذي كان تواقا لتقديم المساعدة على الرغم من أنه كان في حرب مع البابوية والبنديقية^(٤٠) .

أعادت الهدنة بين الملك هنري والسلطان بعض الثقة إلى أهل عكا ؛ فعادت التجارة سيرتها الأولى . وفي صيف ١٢٩٠م بدأ تجار دمشق يرسلون قوافلهم مرة أخرى إلى الساحل ؛ وكان الحصاد وفيرا في الجليل في ذلك العام ، واحتشد الفلاحون المسلمون بمحاصيلهم في أسواق عكا . ولم يسبق للمدينة قط أن شهدت مثل تلك الحيوية والنشاط . وفي أغسطس ، وفي قمة هذا الإزدهار ، وصل الصليبيون الإيطاليون . ومن لحظة نزولهم إلى اليابسة أثبتوا أنهم مثار حرج كبير للسلطات ؛ إذ كانوا فوضويين ، سكارى ، فاسقين ، ولم يستطع قادتهم السيطرة عليهم لعجزهم عن دفع رواتبهم بانتظام . ولأنهم قد جاءوا لمحاربة الكفرة ، فقد بدأوا يهاجمون التجار والفلاحين المسلمين المسالمين . وفي أحد الأيام في أواخر أغسطس اندلعت أعمال شغب ؛ قال البعض إنها بدأت في حانة شراب حيث يتواجد المسيحيون والمسلمون ؛ وقال البعض الآخر إن تاجرا مسلما أغوى سيدة مسيحية ، واستنجد زوجها بمجيرانه للانتقام . وفجأة اندفع غوغاء الصليبيين في الشوارع وفي الضواحي يقتلون كل مسلم يقابلونه ، ولأنهم قرروا أن كل من له لحية فهو مسلم ، فقد هلك أيضا الكثير من المسيحيين المحليين ؛ وارتاع بارونات المدينة وفرسان الأنظمة الدينية العسكرية ؛ وكل ما استطاعوه هو انقاذ القليل من المسلمين وأخذهم إلى القلعة حيث الأمان ، والقبض على القليل ممن بدا أنهم زعماء الشغب^(٤١) .

(٤٠) *Gestes des Chiprois*, p. 238; Dandolo, p. 402; Sanudo, p. 229; Amadi, pp. 218-19

(٤١) *Gestes des Chiprois*, loc. cit.; Amadi, p. 219; Florio Bustron, p. 118; Maqrissi, *Sultans*, II, i, p. 109.

وسرعان ما وصلت أنباء المذبحة إلى السلطان الذي استشاط غضبا بحق ، وقرر أن الوقت قد حان ليقطع الفرنج من التربة السورية . وسارعت حكومة عكا بإرسال اعتذاراتها وتأسفها ، غير أن السلطان أرسل مبعوثيه إلى عكا وأصر على تسليمه المذنبين لمعاقبتهم . وعقد الكونستابل أمالريك مجلسا نهض فيه السيد الأعظم لفرسان المعبد ونصح بتسليم جميع المجرمين المسيحيين الموجودين آنذاك في سجون عكا إلى ممثلي السلطان على أنهم مرتكبوا الجريمة . غير أن الرأي العام لم يكن يسمح بإرسال مسيحيين إلى حتفهم على أبدى الكفرة . ولم يتلق سفراء السلطان أية ترضية ، وبدلا من ذلك كانت هناك محاولة فائرة لإثبات أن بعض تجار المسلمين مذنبون بإشعال الشغب وبذا يتعين أن يُلقى باللائمة عليهم^(٤٢) .

١٢٩٠م : موت قلاوون

وكان رد قلاوون هو اللجوء إلى السلاح ؛ وحدثت مناقشة أجراها فقهاؤه، جعلته يشعر بالرضى لتوفر المبرر القانوني الذي يسمح له بخرق الهدنة ؛ وأبقى مخططاته طي الكتمان . وبينما كان يعين الجيش المصري ، صدرت الأوامر للجيش السوري بقيادة ركن الدين طوقسو واليه على دمشق بالمسير إلى ساحل فلسطين بالقرب من قيصرية وإعداد آلات الحصار . وكان قد أذاع أن هدف الحملة هو أفريقيا^(٤٣) . ولكن مرة أخرى حذر الأمير الفخري وليم (أوف بوجو) وفرسان المعبد من نوايا السلطان الحقيقية . ونقل وليم التحذير ، غير أنه كما حدث في طرابلس لم يكن هناك من يصدقه . فأرسل من تلقاء نفسه مبعوثا إلى القاهرة . فعرض السلطان أن يبقى على المدينة لقاء مبلغ من السيكوينات^(٤٤) يعادل عدد السكان . على أنه عندما وضع العرض أمام المحكمة العليا رفضته باستهزاء ، واتهم وليم بالخيانة وأهانته الجمع بينما كان يغادر القاعة^(٤٥) .

(٤٢) *Gestes des Chiprois*, pp. 239-40; Amadi, *loc. cit.*

(٤٣) *Gestes des Chiprois*, p. 240; Maqrissi, *Sultans*, II, i, p. 109; Muhi ad-Din, in Reynaud, *op.cit.* pp.567-8.

(٤٤) (المترجم) السيكوين sequin عملة نقدية ذهبية قديمة كانت تستعمل في إيطاليا وتركيا

(٤٥) *Gestes des Chiprois*, *loc. cit.*; Ludolf of Suchem (trans. Stewart) < P.P.T.S., vol. xii, p.56.

وازداد رضى أهالى عكا عن أنفسهم فى نهاية العام عندما وصلتهم الانباء من القاهرة بموت قلاوون . وكان قد كف تماما عن اخفاء نواياه فى الزحف على عكا ؛ ففى رسالته لملك أرمينا ذكر قسمه بالألا يترك مسيحيا واحدا على قيد الحياة فى المدينة . وفى ٤ نوفمبر ١٢٩٠ م ، انطلق من القاهرة على رأس جيشه . لكنه ما أن شرع فى المسير حتى أصابه المرض ، وبعد ستة أيام توفى فى مرحلة التين على مجرد خمسة أميال من عاصمته . وبينما هو على فراش الموت أخذ من ابنه الأشرف خليل وعدا بمواصلة الحملة . ولقد كان سلطانا عظيما ، يباهى ببرس فى غلظته وقسوته ، وإنما يتميز عنه بإحساس رفيع بالإخلاص والشرف^(٤٦) .

وعلى غير شاكلة ببرس ، ترك قلاوون ابنا جديرا بأن يخلفه . وأعقب موته مكيدة القصر المعتادة ؛ بيد أن الأشرف لم يكن ليؤخذ على غرة ، وتمكن من القبض على زعيم المكيدة الأمير طورونطاي ، واستطاع ترسيخ تربعه على العرش . والآن ، كان الوقت متأخرا جدا للزحف على عكا ، وتأجلت الحملة إلى الربيع^(٤٧) .

وانتهزت حكومة عكا هذه المهلة السلمية وأرسلت سفارة أخرى إلى القاهرة قادها أحد وجهاء عكا ، فيليب مينبوف ، الذى كان دارسا مثقفا للعلوم العربية ؛ ومعه فارس من فرسان المعبد يدعى بارثولوميو بيزان ، وفارس من فرسان المستشفى ، وكاتم أسرار يدعى جورج . ورفض السلطان مقابلتهم ، وألقى بهم فى غيابة السجن حيث لم يبقوا طويلا على قيد الحياة^(٤٨) .

شرع جيش المسلمين فى التحرك فى مارس ١٢٩١ م ، وكان الأشرف قد اتخذ جوانب الحيلة فى ترتيباته واستكملها ؛ إذ جمع آلات الحصار من سائر أنحاء السلطنة . وكان الجيش محملا بكثير الكثير من حمأة حتى أنه استغرق شهرا للإرتحال من الكرك - حيث ترقف لأخذ منجنيق ضخيم يسمى المنصور - حتى عكا جنوبا فى جو ممطر ملئ بالطمى ؛ فضلا عن مائة آلة حصار أخرى صُنعت فى دمشق ومصر . وكان هناك منجنيق ضخيم آخر يسمى الغاضب ، ومناجق أخرى أصغر ذات كفاءة خاصة ، تعرف باسم الثيران السوداء . وفى ٦ مارس غادر الأشرف القاهرة قاصدا دمشق حيث ترك

(٤٦) -Maqrisi, *Sultans*, II, i, pp.110-12; Abu'l Feda, p. 163; *Gestes des Chiprois*, pp. 240 1; Amadi, p.219.

(٤٧) Abu'l Feda, *loc. cit.*; *Gestes des Chiprois*, p. 241

(٤٨) *Gestes des Chiprois*, pp. 241-3; Maqrisi, *Sultans*, II, i, p.120 .

الحريم . وفى ٥ إبريل وصل أمام عكا بكل قواته الضخمة . وتحدث البعض عن ستين ألف فارس ومائة وستين ألف راجل . ومهما قد تبدو هذه الأعداد مبالغاً فيها فقد جاوز جيشه بكثير ما كان باستطاعة المسيحيين حشده^(٤٩) .

١٢٩١ م : المدافعون عن عكا

تسببت أنباء استعدادات السلطان فى أن أرغمت أهل عكا أخيراً على التحقق من ورسولهم . وأرسلت أثناء الشتاء استعدادات عاجلة إلى أوروبا ، ولم يكن لها سوى نتائج طفيفة للغاية ؛ إذ كان قد وصل قليل من الفرسان المتفرقين خلال الخريف السابق ، من بينهم أوتو (أوف جراندسون) السويسرى ومعه بعض الإنجليز الذين أرسلهم إدوارد الأول ؛ وجمع فرسان المعبد والمستشفى جميع رجالهم ؛ أما السيد الأعظم لفرسان التيوتون ، بوركارد (أوف شواندن) ، فقد تسبب فى توليد انطباع سيئ باختياره التخلي عن منصبه فى تلك اللحظة بعينها ؛ غير أن خليفته ، كونراد (أوف فيوشتوانجن) ، استدعى عدداً من رفاقه الفرسان من أوروبا . وأرسل هنرى ملك قبرص جنوداً قبرصيين وأخاه أماريك لقيادة الدفاع ، ووعد بالحمى بنفسه مع التعزيزات . وتم قيد كل مواطن قادر بدنياً من مواطني عكا ليلعب دوره^(٥٠) . على أنه حتى مع ذلك كانت الأعداد قليلة ؛ إذ كان عدد سكان عكا المدنيين جميعاً ثلاثين أو أربعين ألف نسمة ، بالإضافة إلى ما يقل عن ألف فارس أو مساعد فارس بجواد ، وحوالى أربعة عشر ألف جندي مشاة ، بما فى ذلك الحجاج الإيطاليون . وكانت تحصينات المدينة فى حالة جيدة قد تمت تقويتها مؤخراً بأوامر من الملك هنرى . وقد أصبح هناك الآن خط أسوار مزدوج لحماية شبه الجزيرة التى تقع عليها المدينة وضاحتها الشمالية مونتوسارت ، وسور واحد يفصل مونتوسارت عن عكا ، وتقع القلعة على ذلك السور الأخير بالقرب من نقطة اتصاله بالسور المزدوج . وكان هناك اثنا عشر برجاً على مسافات غير منتظمة من الأسوار الخارجية والداخلية ، وقد شُيد الكثير منها على نفقة بعض الحجاج البارزين ، مثل البرج الإنجليزى الذى بناه إدوارد الأول ، وبرج كونتييسة بلوا التالى له . وفى الزاوية التى تنحرف فيها الأسوار من المضى شمالاً من خليج عكا لكى تمضى غرباً ناحية البحر ، قام برج ضخيم على السور الخارجى بناه

(٤٩) Al-Jazari (ed. Sauvaget), pp. 4-5; Maqrissi, loc. cit.; Abu'l Feda, p. 163

(٥٠) hricht, Geschichte, pp. 1008 ff. Gestes des Chiprois, p. 241. See also R

حديثا الملك هنرى الثانى فى مواجهة البرج الملعون على السور الداخلى . وأمام برج الملك هنرى كان هناك مدخل ضخم بناه الملك هيو^(٥١) . وكانت هذه الزاوية بكاملها أضعف جزء فى الدفاع ؛ ولذلك عُهد بها إلى جنود الملك تحت إمرة أخيه أمالريك . وعلى يمينته تمركز الفرسان الفرنسيون والإنجليز بقيادة جون (أوف جريللى) وأوتر (أوف جراندسون) ثم الجنود البنادقة وأبناء بيزا وجنود كمبيون عكا . وعلى يسرة أمالريك كان هناك أولا فرسان المستشفى ثم فرسان المعبد ، كل بقيادة سيده الأعظم ، وذلك لتغطية أسوار مونتوسارت ، أما فرسان التيوترون ، فكانوا بمثابة تعزيز للكتائب الملكية عند البرج الملعون . أما فى جانب المسلمين ، فقد تمركز جيش حماة - وكان معه المؤرخ أبو الفدا بنفسه - ناحية البحر فى مواجهة فرسان المعبد ؛ وتمركز جيش دمشق فى مواجهة فرسان المستشفى ؛ وكان الجيش المصرى فى موضع يمتد من نهاية سور مونتوسارت ويلتف إلى خليج عكا ، ونصبت خيمة السلطان على مسافة غير بعيدة من الشاطئ ، فى مواجهة برج المندوب البابوى^(٥٢) .

١٢٩١م : إتهامات بالجن

وفيما بعد ، عندما ضاع كل شئ ، توهجت جذوة الغضب والحزن فأشعلت التتاهم وتبادل السباب . فراح المؤرخون المسيحيون ، بلا ضابط ، يقذفون الحامية باتهامات الجن^(٥٣) لكن حقيقة الأمر أن المدافعين عن أوتريميه أظهروا فى تلك اللحظة

(٥١) أنظر أعلاه ص ٥٩ ، والخريطة ص ٤٥١ . وانظر أيضا Rey, Colonies Franques, pp.451 ff. وكانت كونتيسة بلوا المسنة أليس (أوف بريتانى) قد زارت عكا سنة ١٢٨٧م وماتت هناك (Annales de Terre Sainte, pp.459-60; Sanudo, p. 229).

(٥٢) Abu'l Feda, p. 164; Gestes des Chiprois, p. 243

(٥٣) التواريخ الفرنجية الرئيسية التى تناولت سقوط عكا هي:

١ - Gestes des Chiprois كُتبه المدعو (فارس معبد صور) Templar of Tyre الذى كان كاتم أسرار السيد الأعظم للنظام ، وكان شاهد عيان . ورغم إعجابه بالسيد الأعظم ، لم يكن تابعا لنظام فرسان المعبد . وكان على وجه العموم منصفاً (انظر أدناه ص ٥٥٠).

٢ - Marino Sanudo, the elder ، لم يكن حاضرا وإنما بنى تاريخه على Gestes

٣ - De Excidio Urbis Aconis (in Martène and Durand, Amplissima Collectio, vol.v) وهو عمل لمجهول كُتبه أحد المعاصرين ولكنه لم يكن شاهد عيان ، وأطلق لنفسه العنان فى اتهماته بالجن والخيانة.

٤ - Thaddeas of Naples, Hystoria de Desolacione Civitatis Aconensis (ed. Riant)

الحاسمة من لحظات مصيرهم شجاعة وإخلاصاً طوتهما طياً مؤسفاً كتابات السنوات الحديثة. وربما حدث أثناء تحميل السفن بالنساء والمسنين والأطفال لإرسالهم إلى قبرص قبل بداية الحصار أن هرب معهم بعض الرجال من القادرين على الحرب. وربما أظهر بعض التجار الإيطاليين مشاعر الأنانية المرتاعة حول ممتلكاتهم. ولم تشترك جنسوا في الصراع في الواقع، إذ كان قد استبعدوا البنادقة فعلاً من عكا، وعقدت معاهدتها مع السلطان. غير أن البنادقة وأبناء بيزا حاربوا ببسالة وكان أبناء بيزا مسؤولين عن تشييد منجنيق ضخيم كان أكثر آلات المسيحيين كفاءة.

عكا سنة ١٢٩١م

بدأ الحصار في السادس من إبريل. ويوماً بعد يوم راحت مناجى السلطان كبيرها وصغيرها تقذف أحجارها أو حاوياتها الفخارية وبها مزيج قابل للإنفجار، فتصطدم بأسوار المدينة، أو تتجاوزها إلى داخل المدينة، وراح رماة سهام السلطان بصون سحب سهامهم على المدافعين في أروقة الأبراج وشرفاتها، بينما راح مهندسوه يعدون العدة لتلقيم الدفاعات الصعبة، وقيل إنه كان لديه ألف مهندس أمام كل برج. وكان المسيحيون لا يزالون مسيطرين على البحر، وكانت مؤن الطعام تصل بانتظام من قبرص؛ غير أنهم كانوا يفتقرون إلى التسليح، وبدأوا يتحققون من عدم وجود ما يكفي من الرجال لوضعهم على الأسوار لمجابهة الأعداء بأعدادهم المهيولة؛ غير أنه لم يكن هناك حديث عن الاستسلام. وثبتوا في إحدى سفنهم منجنيقا تسبب في إحداث أضرار جسيمة في معسكر السلطان. وفي ليلة ١٥ إبريل، والقمر ساطع في السماء، خرج فرسان المعبد، يساعدهم أوتو (أوف جراندسون)، واندفعوا في هجوم مباشر على معسكر رجال حماة؛ وبرغت المسلمون؛ غير أن الكثير من فرسان المعبد تعثروا في حبال الخيام في غُبْشَة الليل وسقطوا وأسروا، وأُجبر الآخرون على أعقابهم إلى داخل المدينة بخسائر فادحة. وبعد ليال قليلة قام فرسان المستشفى بخروج آخر في ظلام تام، كان مآله الفشل الزريع، إذ أشعل المسلمون على الفوز مشاعلهم ونيرانهم. وبعد

وهو عمل مسمى بنفس القدر.

وهناك تاريخ كتبه راهب يوناني يدعى Arseniud، استشهد به Bartholomew of Neocastro، نشره Paladino في، XIII, iii، Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, new edition, p.132، وهو يتهم الفرنج بالفسوق والخمول وليس بالجن. وتقول كل المصادر تقريباً كلاماً طيباً عن الملك هنرى

هذا الخروج الثانى تقرر أن ذلك باهظ التكلفة فى القوة البشرية . على أن التخلّى عن المعارك الهجومية أضرم بمعنويات المسيحيين ، وتفشى بينهم الإحساس بانقطاع الأمل . لقد كان الوقت فى جانب المسلمين .

وفى الرابع من مايو ، أى بعد حوالى شهر من بدء الحصار ، وصل الملك هنرى من قبرص ومعه ما استطاع جمعه من جنود بلغ عددهم مائة خيال وألفى راجل فى أربعين سفينة ؛ وكان برفقته رئيس أساقفة نيقوسيا ، جون توركو (أوف أنكونا) ، وربما يعزى تأخره فى المجئ إلى المرض . واستقبل بمشاعر البهجة ، وما أن هبط إلى البر حتى تسلم القيادة ونفث قوة فى الدفاع . غير أنه سرعان ما اتضح جليا أن تلك التعزيزات كانت غاية فى الضآلة ، فلم تحدث فرقا فى المحصلة العامة .

١٢٩١م : آخر محاولة للتفاوض

وحاول الملك محاولة أخيرة للسلام ، فأرسل فارسين هما وليم (أوف كافران) ووليم (أوف فيليير) من فرسان المعبد إلى السلطان يسأله لماذا خرق الهدنة ، ويعدّه بالإنتصاف من أية مظالم . واستقبلهما الأشرف خارج خيمته ؛ وقبل أن يبدأ بتسليم الرسالة سألهما باقتضاب ما إذا كانا قد أحضرا مفاتيح المدينة ؛ وعندما أجابا بالنفى قال إنه إنما يريد المكان ولا يعبأ بمصير السكان . وتقديرا لشجاعة الملك الذى جاء للحرب وهو صغيا ومريض ، فإنه سوف يبقى على السكان إذا استسلموا له ؛ ورد المبعوثان بأنهما سوف يُعتبران خائنين إذا وعدا بالإستسلام ، وبعد أن قالوا ذلك مباشرة قذف منجنيق من الأسوار بحجر سقط بالقرب من المجموعة ؛ فاستشاط الأشرف غضبا واستل سيفه ليقتل السفيرين ، لكن الأمير الشجاعى قام إليه وهدأه قائلا إنه لا ينبغي أن يلوّث سيفه بدماء الخنازير . وسُمح للفارسين بالعودة إلى مليكهم .

السفر

كان مهندسو السلطان قد بدأوا فعلا فى تلقيم الأبراج . وفى ٨ مايو قرر رجال الملك أن برج الملك هيو الضخم لم يعد الدفاع عنه مجديا ، فأشعلوا فيه النيران وتركوه لينهار . وخلال الأسبوع التالى لغم البرج الإنجليزى وبرج كونتييسة بلوا ، وبدأ انهيار الأسوار المجاورة لبوابة القديس أنطوان وبرج القديس نقولا . وصمد برج هنرى الثانى الجديد حتى ١٥ مايو ، عندما انهار جزء من جداره الخارجى ؛ وفى الصباح التالى شق المماليك طريقهم فى الأطلال ، وكان لا بد للدفاع أن يتقهقر إلى الأسوار الداخلية . وفى نفس ذلك اليوم كان هناك هجوم مركّز على بوابة القديس أنطوان ولم يمنع

الأعداء من الدخول إلى المدينة سوى بسالة فرسان المعبد وفرسان المستشفى . ومُحَيَّر مارشال فرسان المستشفى ، ماثيو (أوف كليرمونت) ، بشجاعته الفائقة .

وفي اليوم التالي عزز المسلمون قبضتهم على السور الخارجى ؛ وأمر السلطان بهجوم عام صباح الجمعة ١٨ مايو ؛ وشن الهجوم بطول الأسوار من بوابة القديس أنطوان حتى برج البطريق بجوار الخليج ، غير أن الهجوم الرئيسى للمسلمين كان على البرج الملعون عند زاوية الجزء النائى ؛ وألقى السلطان بكل إمكانياته فى المعركة ، فلم تتوقف المناجق عن القصف ، وانهمرت سهام رماته - التى كادت أن تأخذ شكل كتلة متحدة - على المدينة ؛ واندفعت الكتبة تلوح الكتبة بقودها أمراؤها بعماماتهم البيضاء تهاجم الدفاعات ؛ وكانت الضوضاء تثير الرعب ، والمهاجمون يصرخون صرخات المعركة تستحثهم الأبواق والصنج المعدنية والطبول التى يقرعها ثلاثمائة طبال على ظهور الجمال .

ولم يمض طويل وقت حتى شق الممالك طريقهم إلى داخل البرج الملعون مما اضطر حاميته - المؤلفة من الفرسان السيريان والقبارصة - إلى التقهقر غربا باتجاه بوابة القديس أنطوان حيث خف لمساعدتهم فرسان المعبد والمستشفى يحاربون جنبا إلى جنب ، وكأنه لم يكن هناك قط قرنان من التنافس بينهما . وحاول ماثيو (أوف كليرمونت) يائسا قيادة هجوم مضاد لاستعادة البرج ، بيد أنه على الرغم من أن السليدين الأعظمين تبعاه ، لم يجد ذلك فتىلا . وبطول الأسوار الشرقية للمدينة تمكن جون (أوف جريللى) وأوتو (أوف جراندسون) من الصمود لبضع ساعات ؛ بيد أنه بعد سقوط البرج الملعون استطاع الأعداء المرور من الأسوار المنهارة والاستيلاء على بوابة القديس نيقول ؛ وبذا ضاع السور بكامله ورسخ المسلمون وضعهم داخل المدينة .

١٢٩١ م : الهروب من عكا

واستعر القتال فى الشوارع ، ولم يعد هناك ما يمكن عمله لإنقاذ عكا . وأصيب وليم (أوف بوجو) السيد الأعظم لفرسان المعبد إصابات مميتة فى هجومه المضاد العقيم على البرج الملعون ، وحمله أتباعه إلى مبنى نظام المعبد حيث مات ، وكان معه ماثيو (أوف كليرمونت) ، لكنه عاد إلى المعركة وإلى حتفه . وجرح السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، جون (أوف فيلير) ، لكن رجاله أحضروه إلى المرفأ ووضعوه على متن سفينة وسط اعتراضاته . وكان الملك هنرى وأخوه أمالريك قد ركبا السفينة فعلا ؛

وفيما بعد اتهم الملك هنرى بالجنين لتخليه عن المدينة ، غير أنه كان فاقد الحيلة ، وكان واجبه إزاء مملكته يحتم عليه تجنب الأسر . وفى القطاع الشرقى جرح جون (أوف جريللى) وتسلم القيادة أوتو (أوف جراندسون) الذى صادر كل ما كان يجده من السفن البندقية ووضع عليها جون (أوف جريللى) وجميع ما أمكن إنقاذه من الجنود وكان هو آخر من انضم اليهم على ظهرها . وعم اضطراب مفرع أرصفة الميناء ؛ واكتظت قوارب التجديف بالجنود والمدنيين ، وفيهم النساء والأطفال ، فى سعى للوصول إلى الغلايين الراسية قبالة الشاطئ . وكان البطريق العجوز نيكولاس (أوف حنابى) ، قد جرح جرحا بسيطا وحمله خدمه المخلصون ووضعوه على زورق شراعى صغير ؛ ومن قبيل العطف سمح لكثير من اللاجئين أن يركبوا معه القارب إلى أن هبط الزورق بثقلهم وأغرقهم جميعا . وبعض الرجال أسعفتهم أذهانهم فاختطفوا قاربا وراحوا يجمعون رسوما باهظة من اليائسين على الأرصفة من التجار والسيدات ؛ وقام المغامر الكتالونى^(٥٤) روجر فلور ، الذى حارب بشجاعة كفارس من فرسان المعبد أثناء الحصار ، بتولى قيادة غليون تابع لفرسان المعبد ، وكان بمثابة أساس لثروته الضخمة التى جمعها من ابتزازه لنبيلات عكا^(٥٥).

وكانت السفن ضئيلة العدد للغاية بحيث لا تستطيع أن تنفذ الهاربين . وسرعان ما توغل جنود المسلمين فى المدينة مباشرة ، يقتلون من يقابلهم ، المسنون والنساء والأطفال على السواء ؛ وابتسم الحظ لقليل من المواطنين الذين مكثوا فى بيوتهم ، فقد أخذوا أحياء ليباعوا رقيقا ، ولكن لم ينج الكثير . وليس بمقدور أحد أن يخبرنا بعدد الذين هلكوا ؛ وفيما بعد حاولت الأنظمة الدينية العسكرية وكذلك بيوتات التجار العظام وضع قوائم بالناجين من أفرادها ، غير أن مصير أغلب أفرادها كان مجهولا . وتحدث من سافروا لاحقا إلى الشرق عن مشاهدتهم لبعض أعضاء فرسان المعبد المرتدين عن دينهم يعيشون عيشة حقيرة فى القاهرة ، وآخرين يعملون فى قطع

(٥٤) (المترجم) نسبة إلى كتالونيا Catalonia ، وهو إقليم فى شمال شرق اسبانيا عاصمته برشلونة.

(٥٥) هذه الرواية مأخوذة من 43-54 pp. *Gestes des Chiprois* ؛

-Sanudo, pp. 230-1; Amadi, pp. 220-5; *De Excidio*, cols. 760-82; Thaddeus, pp. 18 23; Ludolf of Suchem (P.P.T.S. pp. 54-6); al-Jazari, p. 5; Maqrissi, *Sultans*, II, i, pp. 125-6; Abu'l Feda, pp. 164-5; Abu'l Muhasi in Reinaud, *op. cit.* pp. 569-72. There is a picturesque account (unfortunately without references) in Schlumberger, *Byzance et Croisades*, pp. 207-79. Muntaner, *Cronica* (ed. Coroleu), p. 378, tells of Roger of Flor's conduct.

الأخشاب ناحية البحر الميت . وأطلق سراح بعض الأسرى وأعيدوا إلى أوروبا بعد تسع أو عشر سنوات . وقيل إن الرقيق من الفرسان وذرياتهم كان أسيادهم يعاملونهم بشئ من الإحترام . واختفت نسوة كثيرات وأطفال إلى الأبد في حريم أمراء المماليك . وزاد العرض في سوق الرقيق بدمشق زيادة كبيرة ، فاختفض سعر الفتاة إلى دراهمة واحدة^(٥٦) . على أن عدد المسيحيين الذين قُتلوا كان أكبر^(٥٧) .

وبحلول ليل ١٨ مايو باتت عكا كلها في قبضة السلطان ، فيما عدا قلعة فرسان المعبد الضخمة ذات التواء المطل على البحر في النقطة الجنوبية الغربية من المدينة ، حيث لاذ بها فرسان المعبد الناجون من الموت ومعهم عدد من المواطنين من الجنسين . ولعدة أيام تحدث جدرانها الضخمة الأعداء ، والسفن التي أنزلت اللاجئين في قبرص عادت لمساعدتهم . وبعد أسبوع تقريبا عرض الأشرف على مارشال النظام ، بطرس (أوف سيفرى) ، السماح له بركوب البحر مع كل من كان معه في القلعة بمنقولاتهم إذا استسلموا له ؛ وقبل بطرس الشرط ، ودخل أحد الأمراء ومائة مملوك القلعة للإشراف على الترتيبات ، بينما رفرفت راية السلطان على البرج . لكن هؤلاء المماليك كانوا خارج سيطرة المشرفين عليهم ، فبدأوا في إزعاج المسيحيات والأطفال وفي تملكهم ، الأمر الذي أثار حنق الفرسان فانقضوا على المسلمين وقتلوه ، وأنزلوا راية الأعداء وتهيأوا للمقاومة حتى الموت . وعندما هبط الظلام ، أرسل بطرس (أوف سيفرى) خزانة نظام فرسان المعبد مع قائد الفرسان ، تيبالد جودين ، مع قليل من غير المقاتلين ، في قارب إلى القلعة في صيدا . وفي اليوم التالي ، وعندما رأى الأشرف قوة القلعة وما كانت عليه حاميتها من شجاعة يائسة ، عرض نفس الشرط المشرف كما سبق ؛ وخرج بطرس وقليل من رفاقه بمرور آمن لمناقشة الاستسلام . غير أنهم ما أن وصلوا خيمة السلطان حتى حوصروا وقيدوا وضربت أعناقهم على القور ؛ ولما رأى أفراد الحامية من فوق الأسوار ما حدث أغلقوا البوابة وواصلوا الحرب . غير أنهم لا يستطيعون منع المهندسين المسلمين من الزحف حتى الأسوار وحفر نفق ضخمة تحتهم . وفي ٢٨ مايو بدأ جانب القلعة المطل على اليابسة في الإنهيار ، ودفع الأشرف ، الذي خذله صيره ، بألفى مملوك إلى داخل الفتحة الآخذة في الإتساع . ولم تتحملهم قواعد

(٥٦) (المترجم) الدراهم : عملة يونانية فضية قديمة ؛ وهي الآن العملة الرسمية لليونان الحديثة

(٥٧) *Gestes des Chiprois*, pp. 254-5; Maqrîsi, *op. cit.* p. 126; letter of Sultan al-Ashraf to hricht, *Geschichte*, p. Hethoum of Armenia in Bartholomew Cotton, p. 221. See R 1021 n.3 .

المبنى التى تزايد ميلها ؛ وبينما كانوا يشقون طريقهم قتالا إلى الداخل انهار الصرح كله وقضى على المدافعين والمهاجمين على السواء بالكم الهائل من الأحجار المنهارة^(٥٨).

١٢٩١ م : تدمير عكا

ما أن أصبحت عكا فى يد السلطان حتى أخذ فى تدميرها بصورة منتظمة وقد عقد العزم على ألا تعود أبدا كرأس حربة للعدوان المسيحى فى سوريا ؛ فنهبت البيوت والأسواق ثم حُرقت ؛ وهدمت مباني الأنظمة الدينية العسكرية ، وعُطِّلت تحصينات الأبراج والقلاع وتركّت أسوار المدينة للتفكك. وعندما مر بها الحاج الألمانى ليودولف (أوف سوشين) بعد ذلك بأربعين سنة ، لم يجد سوى بعض الفلاحين التعساء يعيشون بين أطلال ما كان مرة العاصمة الرائعة لمملكة الشرق الفرنجى ؛ وما زال هناك كنيسة أو كنيستين لم تدمر كليّة ؛ غير أن المدخل الرائع لكنيسة القديس أندرو قد أخذ لتزيين المسجد الذى بنى فى القاهرة لتشريف السلطان المنتصر ؛ وفى وسط الجدران المتهدمة فى كنيسة سانت دومينيك ، لا يزال قبر الراهب الدومينيكى ، جوردان السكسونى ، باقيا لم يُمس ، إذ أن المسلمين قد حدّقوا فيه ووجدوا أن الجثة لم تفسد^(٥٩).

١٢٩١ م : موت مملكة الشرق الفرنجى

وسرعان ما لقيت المدن الفرنجية المتبقية نفس مصير عكا. فبعد أن أصبح أغلب عكا فى قبضة الأشراف ، أرسل يوم ١٩ مايو فرقة جنود كبيرة إلى صور التى كانت أقوى مدن الساحل ، منيعة أمام أي عدو يفتقد السيطرة على البحر ؛ وفيما مضى تسببت مرتين فى إحباط صلاح الدين . وقبل أشهر قليلة كانت الأميرة مرجريت ، التى تنتمى إليها المدينة ، قد سلّمتها لابن أخيها ، أخى الملك ، أمالريك . وكانت حاميتها صغيرة ، وما أن اقترب العدو حتى تملك الهلع وكيل أمالريك ، آدم (أوف كارفان) ، وأبحر هاربا إلى قبرص وتخلّى عن المدينة دون قتال^(٦٠). وفى صيدا قرر

(٥٨) *Gestes des Chiprois*, pp. 255-6; Bartholomew Cotton, p. 432; Ludolf of Suchem, *loc. cit.*; Sanudo, p.231. The Story is also told by Bar-Hebraeus, p. 493 (dated 1292)

(٥٩) Enlart, *Monuments des Vroisés*, ii, pp. 9-11; Etienne de Lusignan, *Histoire de Chypre*, fol. 90; Ludolf of Suchem (P.P.T.S. p. 61)

(٦٠) *Gestes des Chiprois*, p. 254; Sanudo, *loc. cit.*; al-Jazari, p. 6; Abu'l Feda, p. 164;

فرسان المعبد المقاومة . وكان تيبالد حردين حاضرا مع ثروة نظام فرسان المعبد ، وكان الفرسان الباقون على قيد الحياة قد انتخبوه سيدا أعظم ليخلف وليم أوف بوجو . ولقد تركوا في هدوء لمدة شهر . ثم جاء جيش مملوكى عمرمرم بقيادة الأمير الشجاعى . وكان الفرسان من القلة بحيث لا يستطيعون الاحتفاظ بالمدينة ، ولذا انسحبوا مع الكثير من وجهاء المواطنين إلى قلعة البحر التى بنيت على جزيرة صخرية على بعد مائة ياردة من الشاطئ ، تم ترميمها حديثا . وفى الحال أبحر تيبالد إلى قبرص لجمع الجنود لمساعدة القلعة ؛ لكنه بعدما أصبح هناك لم يفعل شيئا ، إمّا لجبنه أو لياسه . وحارب فرسان المعبد الموجدون فى القلعة ببسالة ، ولكن عندما بدأ مهندسو الماليك فى بناء ممر مرتفع فى البحر استيأسوا وأبحروا شمال الساحل إلى طرطوس . وفى ١٤ يولية دخل الشجاعى القلعة وأمر بتدميرها^(٦١) .

وبعد أسبوع ظهر الشجاعى أمام بيروت التى كان مواطنوها يعلقون الآمال على أن المعاهدة المعقودة بين السيدة إشيغا والسلطان سوف تحفظهم من الهجوم ؛ وعندما قام الأمير بتوجيه الأمر إلى قادة الحامية بالحضور للإعراب عن احترامهم له انصاعوا للأمر بقلق ، لا لشيء سوى ليجدوا أنفسهم سجناء . ولا تستطيع الحامية أن تفكر فى الدفاع فى غيبة قوادها . فهرع أفرادها إلى سفنهم وولوا الأدبار حاملين معهم ما فى الكندرائية من آثار ، ودخل الماليك المدينة يوم ٣١ يولية . ولقد هدموا أسوارها وتحولت الكندرائية إلى مسجد^(٦٢) .

وما أسرع ما احتل السلطان بعد ذلك حيفا دون مقاومة يوم ٣٠ يولية ، وحرق^{ليس أن} رجاله الأديرة على جبل الكرمل وقتلوا رهبانها . وما زال هناك قلعتا فرسان المعبد فى طرطوس وفى عثليت ؛ ولم يكن فى أي منهما الحامية ذات القوة الكفيلة بمواجهة الحصار ، فصار الجلاء عن طرطوس يوم ٣ أغسطس وعن عثليت يوم ١٤ من نفس الشهر . وكل ما بقى الآن لفرسان المعبد هو قلعة جزيرة إرواد على بعد حوالى ميلين

Maqrissi, *Sultans*, II, i, p. 126.. وكانت مرجريت ما تزال سيدة صور فى ١٢٨٩م، Gestes, p. 237، رغم أن Gestes (ibid) يتحدث عن أمالريك باعتباره سيد صور فى ١٢٨٨م . أنظر، Hill, op. cit. p. 182 n. 5 .

(٦١) Gestes des Chiprois, pp. 256-7; Annales des Terre Sainte, p. 460; al-Jazari, p. 7; Maqrissi, *Sultans*, II, i, p. 131; Abu'l Feda, loc. cit

(٦٢) Gestes des Chiprois, pp. 257-8; al-Jazari, loc. cit.; Maqrissi, loc. cit.; Abu'l Feda, loc. cit.

من الساحل فى مواجهة طرطوس ؛ وظلوا ماكثين هناك طوال اثنتى عشرة سنة أخرى ، ولم يجلوا عن الجزيرة إلا فى سنة ١٣٠٣م عندما بدأت الشكوك تخوم حول مستقبل هذا النظام الدينى العسكرى^(٦٣).

وراح جند السلطان لعدة أشهر يجوبون السواحل شمالا وجنوبا ، يدمرون بعناية أى شئ قد يفيد الفرنج إذا ما حاولوا النزول على الشاطئ مرة أخرى ؛ فراحوا يقطعون أشجار بساتين الفاكهة ، ويفسدون أنظمة الري . والقلاع الوحيدة التى تركت قائمة هى تلك القلاع البعيدة عن الساحل ، مثل قلعة جبل الحاج فى طرابلس ، وقلعة المرقب على جبلها المرتفع . ولقد عمّ الخراب على طول البحر . وشاهد فلاحو المزارع - التى كانت ذات مرة غنية بالمزروعات - مزارعهم وقد دُمّرت ، فلاذوا بالهجرة . وسارع من كان من أصل فرنجى إلى الاندماج فى العنصر الإسلامى ، وسومل المسيحيون الوطنيون معاملة أفضل قليلا من العبيد ؛ لقد اتفقوا على أن كان للإسلام من تسامح كريم ؛ ذلك أن مرارة الحروب الدينية المار بها نالت من المتصرين ، فلم يعد لديهم مكان للرحمة إزاء الكفار^(٦٤).

ولم تكن جماعة المسيحيين التى هربت إلى قبرص بأفضل حالا ؛ فقد عاش جيل حياة بئيسة ، حياة اللاجئين غير المرغوبين ، وعمضى السنين تقلص العطف عليهم واستحال إلى تعاطف هزيل ؛ وكانت فائدتهم الوحيدة أنهم كانوا يذكرون القبارصة بالكارثة المروعة ، ولم يكن القبارصة بحاجة إلى مذكّر . وطوال القرن التالى كانت سيدات الجزيرة العظيمات ، عندما يخرجن من دورهن ، يرتدين العباءات السوداء فتغطيهن من الرأس إلى القدم . لقد كانت علامة الحداد على موت الشرق الفرنجى^(٦٥).

(٦٣) *Gestes des Chiprois*, p. 250; *Annales de Terre Sainte*, loc. cit.; al-Jazari, p. 8; Maqrisi, *Sultans*, II, i, p. 126; Abu'l Feda, loc. cit.

(٦٤) أنظر أدناه ص ٥٣٧.

(٦٥) Sanudo, p. 232; Cobham, *Excerpta Cypria*, pp. 17, 22.

الباب الخامس:

خاتمة

الفصل الأول:

آخر الحملات الصليبية

آخر الحملات الصليبية

"والفاهمون من الشعب يُعلمون كثيرين . ويعثرون بالسيف
وباللهيب وبالسبي وبالنهب أيّاماً"

(دانيال ١١ : ٣٣)

سقطت عكا ، وطُرد الفرنج من سوريا ، فبدأت الحركة الصليبية تتناهى عن نطاق السياسة الواقعية . وقبل ذلك بقرن ، وبعد فتوحات صلاح الدين ، كان الفرنج ما يزالون يحتفظون بقلاع ضخمة فى الأراضى الرئيسية ، صور وطرابلس وأنطاكية ؛ وكانت هناك قواعد يستطيع أي جيش مخّص أن ينطلق منها . أما الآن فقد ضاعت القواعد ، ولم تكن جزيرة إرواد الصغيرة الجرداء عديمة القيمة ، ولذا كان لا بد من تنظيم تموينها عبر البحر ، من قبرص . ولم تبق هناك أراض مسيحية سوى مملكة أرمينيا فى كيليكيا ؛ غير أن الرحلة من كيليكيا إلى سوريا كانت صعبة ، ولم يكن الأرمن فى مجملهم موضع ثقة . ومرة أخرى ، جاء ضياع القدس عام ١١٨٧م صدمة مرعبة للعالم المسيحي ، وبالمثل جاء انهيار المملكة مباغتاً . على أن الجميع كانوا يعلمون فى ١٢٩١م أن مملكة الشرق الفرنجى كانت تتقوّض ؛ وأتى اختفاؤها بالحزن دون المفاجأة .

وتهيمن على أوروبا الغربية الآن مشاكل ومشاحنات داخلية ، ولذا لن تتأجج حمرة الحميا التي تدفع عواهل أوروبا إلى الشرق كما كان عليه الحال أيام الحملة الصليبية الثالثة ؛ ويستبعد كذلك أن تنطلق حملة شعبية ضخمة كالحملة الصليبية الأولى ؛ فشعوب الغرب تستمتع الآن بجوانب جديدة من الراحة والإزدهار ولن يستجيب لأي تبشير رؤيوي لأي فرد من أمثال بطرس الناسك استجابة لأسلافهم في ورع ساذج جهول قبل ذلك بقرنين من الزمان ، فلم تعد تقنعهما وعود الغفران الكنسى بعدما صدمهما استغلال الحرب المقدسة لأغراض سياسية . ولم يعد فى الإمكان تنظيم حملة عسكرية ضخمة بعدما أحييت الإمبراطورية البيزنطية إلى ظل باهت . لقد كانت نهاية الشرق الفرنجى نبأ محزنا ، لكنه لم يستفز رد فعل عنيف .

على أن البابا نيكولاس الرابع وحده أخذ يحيل أساه إلى عمل ؛ لكنه لم يجد من يلجأ إليه ، وقد أصيبت هيبة البابوية بالشلل لإخفاق الحرب الصقلية ؛ فلم يعد الملوك يعاون بتنفيذ الأوامر البابوية . وكان الامبراطور الغربى - الذى أفسد الباباوات سلطته الدنيوية - مشغولا للغاية فى ألمانيا ؛ وإذا ما تحرك فلم يكن ذلك إلا القيام بحملة فى إيطاليا . وكان فيليب الرابع ملك فرنسا مقتدرا ونشطا ، غير أنه بعدما انتشل مملكته من الحرب الصقلية ، راح ينفق طاقته فى دعم السلطة الملكية . وكان إدوارد ملك إنجلترا غارقا إلى أذنيه فى اسكتلندا . فضلا عن ذلك ، كان التنافس الشديد بين إنجلترا وفرنسا يزداد حدة وسرعان ما تولدت عنه حرب المائة عام . وكان عاهل أقوى قوة بحرية فى البحر المتوسط ، ألا وهو جيمس الثانى ملك أراجون ، ومعه أخوه فريديريك المطالب بصقلية ، فى حرب مع عميل البابا تشارلز الثانى ملك نابولى الذى كان على استعداد كبير من الناحية النظرية للمساعدة فى أمر الحملة الصليبية ، بيد أنه يتعين عليه أولا أن يطرد أبناء أراجون من صقلية . وفى الشرق ، كان الامبراطور البيزنطى فى شغل شاغل للتصدى للأتراك من ناحية ، والتصدى لعاهلى البلقان الحديدى فى بلغاريا والصرب من ناحية أخرى . وبالإضافة إلى ذلك ، كان الأنجليون فى نابولى يأخذون على عاتقهم مطالب الأباطرة اللاتين الذين حرموا من أملاكهم . ولذلك ، لم يكن بوسع البابا ، راعيهم ، أن يأمل فى اكتساب تعاطف اليونانيين . وكانت المدن التجارية الإيطالية مشغولة للغاية فى تكييف سياساتها مع الظروف المتغيرة ولم يكن بوسعها أن تعد بأية وعود قد تسبب لها الحرج . أما ملكا قبرص وأرمينيا فكانا شديدى الاهتمام بالمشكلة وثيقة الصلة بهما ؛ ذلك أن مملكتيهما كانتا فى خط المواجهة الآن ، وكان على واحدة منهما أو الأخرى أن تكون قاعدة لأية حملة صليبية جديدة . بيد أن الملكين

كانا حريصين بالغ الحرص على ألا يستفزا السلطان ؛ فكان على ملك أرمينيا أن يصارع الأتراك والمصريين ، وكان على ملك قبرص أن يجد حلا لمشكلة اللاجئين ؛ وزيادة على ذلك ، فإن البيتين الملكيين المترابطين الآن بروابط الزواج ، سرعان ما اضطربت أمورهما بالمشاجرات العائلية والحرب الأهلية . وبقي الخان في فارس بمثابة حليف محتمل ؛ على أن الخان أرغون قد أصيب بخيبة أمل مريعة لفشله في تحريك الغرب ليفعل شيئا قبل سقوط عكا ؛ ولن يقوم بشئ. وفي ١٢٩٥ م ، وإثر موت أرغون ، اتخذ الخان غزان الإسلام ديناً رسمياً للخانية ، وتخلّى عن ولائه للخان الأعظم في الشرق ؛ وكان غزان صديقاً ودوداً للمسيحيين ، إذ أنه نشأ وتربى على يدي ديسينا خاتون ، زوجة الخان أباغا الكريمة التي يحترمها الشرق كله ؛ ولم يقلل اعتناقه للإسلام بأي حال من كراهيته للمصريين والأتراك . ولم تعد هناك سفارات مغولية إلى روما ، وخبا الأمل في أن تصبح فارس قوة مسيحية . وصحيح أن كان هناك مبعوث بابوي في بكين ، وهو الأخ جون (أوف مونت كورفينو) ؛ وبرغم تمتع الأخ جون بصداقة الخان الأعظم قوبلاي ، إلا أن الخان فقد اهتمامه بشؤون الشرق الأدنى^(١).

الافتقار إلى حلفاء

ولا يبقى سوى الأنظمة الدينية العسكرية التي تأسست كي تحارب من أجل العالم المسيحي في الأراضي المقدسة، وما يزال ذلك هو واجبها الأول . وبعد سقوط عكا هجر النظام التيوتوني الشرق إلى ممتلكاته في البلطيق^(٢) ؛ لكن نظام فرسان المعبد ونظام فرسان المستشفى أقاما مقريهما في قبرص ؛ ولما كانا عاجزين هناك عن إنجاز مهامهما، فقد انصرفا إلى التوسط في السياسات المحلية ؛ وربما كان باستطاعة البابا الاعتماد عليهما لتوفير المساعدة لأية حملة يرسلها؛ إذ أن ما لهما من هبات شاسعة في سائر أنحاء

(١) Baluze, *Vitae Paparum Avenionensium* (ed. Mollat), iii, p. 150; Atiya, *The Crusade in the Later Middle Ages*, pp. 34-6; Hill, *History of Cyprus*, ii, pp. 193 ff.; Browne, *Literary History of Persia*, iii, p. 40. For John of Monte Corvino, see Atiya, op. cit. pp. 248-52.

(٢) انتقل مقر قيادة التيوتون إلى البندقية سنة ١٢٩١ م ، ومنها إلى مارينبرغ Marienburg في بروسيا سنة ١٣٠٩ م . وللإطلاع على التاريخ اللاحق للنظام أنظر الفصل الذي كتبه Boswell في تاريخ كامبريدج الوسيط. Cambridge Medieval History, vol. vii, pp. 248 ff.

أوروبا أثار من الغيرة ما قد يترتب عليه نتائج خطيرة ما لم يكن هناك ما يبررها . غير أن نظامي المعبد والمستشفى لا يستطيعان القيام بحملة صليبية بدون مساعدة^(٣).

ولقد فشل البابا نيكولاس في إثارة الغرب بعد سقوط طرابلس ؛ وكان على نفس القدر من العجز بعد كارثة عكا التي تفوق كارثة طرابلس حسامة ، ولم يمنحه مستشاروه أية مساعدة ؛ وقد آيد تشارلز الثاني ملك نابولي اقتراحا طرح منذ بضع سنين بدمج الأنظمة الدينية العسكرية لوضع حد للتنافس بينهم ، لكنه كان يعتقد أن القيام بعمل عسكري في الشرق من المحال في هذه اللحظة ، وإنما آيد ضرب حصار اقتصادي على مصر وسوريا ، لسهولته ولآثاره المدمرة على السلطان^(٤). وكان ذلك أيضا أمرا غير عملي في الواقع ؛ إذ لن تتعاون في الحصار قط المدن التجارية الإيطالية ولا البروفنسالية في جنوب شرق غرناطة ولا الأراجونية ، إذ أن ازدهارها يتوقف على التجارة الشرقية التي يمر أغلبها في أراضي السلطان . وفي واقع الأمر، لو توقفت هذه التجارة لعجزت تلك المدن عن تسيير أساطيلها ، ولأصبح المسلمون يسيطرون على البحر المتوسط . وكان من حسن الحظ أن الصادرات الرئيسية التي كان المسيحيون يدفعون بها أثمان البضائع الشرقية تتألف من الأسلحة ؛ فهل كان الأمر يستحق حرمان أوروبا من المنافع الناتجة من كل هذا النشاط التجاري ؟ لا بد وأن تعترض الكنيسة على هذا التبادل الشنيع للبضائع ؛ لكن المصالح التجارية باتت الآن أقوى من الكنيسة . ومات نيكولاس الرابع سنة ١٢٩١م وقد خابت آماله في مساعيه^(٥).

ولم يحقق أي من خلفائه نتيجة أفضل . بيد أنه على الرغم من افتقاد الجنود لحملة صليبية إلا أن الشعور بخذلان العالم المسيحي ولد موجة جديدة من الدعاية ؛ غير أن القائمين بالدعاية لم يعودوا هم المبشرون المرتحلون كما كان الأمر في الماضي، وإنما تولى ذلك الآن الأدباء الذين كانوا يكتبون الكتب والنشرات لتبيان الحاجة إلى حملة مقدسة، وكان لكل كاتب ملكه في خطته . وفي ١٢٩١م ، قام الأخ الفرنسيسكاني فيدينزو (أوف بادوا) وهو الذي اعتاد البابا فيما سبق على استخدامه في البعثات الدبلوماسية ، والذي ارتحل كثيرا في الشرق ، بنشر بحث يسمى كتاب استعادة الأرض المقدسة Liber de Recuperatione Terre Sancte ، أهدها لسلفه نيكولاس الرابع . ويحتوي على

(٣) انظر أعلاه صفحة ٤٩٤ وما بعدها

(٤) Atiya, op. cit. pp. 35-6

(٥) Ibid. p.45

تاريخ متعمق للأراضي المقدسة ، مع مناقشة لنوع الجيش المطلوب لاستعادتها ، بدائل الطرق التي يتعين أن يسلكها هذا الجيش . وكان عملا إخباريا مقنعا ؛ غير أن فيدينزو افترض أن هناك جيشا متاحا وأن قائده سوف يختار الطريق اختيارا نهائيا^(٦) . وفي العام التالي ١٢٩٢ م ، نشر المدعو Thaddeus of Naples مقالا عن سقوط عكا ؛ وهو عمل روائي ينبض بالحياة ، موشى باتهامات وافرة بالجن لكل شخص كان هناك فعلا . وكان الأسلوب العنيف الذي استخدمه ثاديوس مقصودا يستهدف إلحاق العار بالغرب استفزازا له كي يُطلق حملة صليبية ؛ وأنهى كتابه بمناشدة عظمى للبابا والأمراء والمتدينين المخلصين كي ينقذوا الأرض المقدسة التي هي تراث المسيحيين^(٧) .

ريموند لُل

كان لكتاب ثاديوس أثره اليقيني على الداعية الذي جاء بعده ، وهو من أبناء جنوا ويدعى جالفاني (أوف ليفانتى) ، الذي كان طبيبا في البلاط البابوي . وكان كتابه الذي نشره سنة ١٢٩٤ م ، وأهداه لملك فرنسا فيليب الرابع ، عبارة عن مزيج من التشبيهات المأخوذة عن لعبة الشطرنج ومواعظ باطنية ، وكان خلوا من الآراء العملية^(٨) . أما الشخصية التي جاوزت الآخرين في أهميتها فهي المبشر الأسباني الكبير ريموند لُل ، الذي ولد في مايوركا سنة ١٢٣٢ م ، ورُجم حتى الموت في بوجيه في شمال إفريقيا سنة ١٣١٥ م . وذاعت شهرته باعتباره صوفيا ، وإن كان في الوقت نفسه سياسيا عمليا . وكان يجيد اللغة العربية ودأب على الإرتحال في البلاد الإسلامية . وفي سنة ١٢٩٥ م تقريرا قدم للبابا مذكرة حول العمل المطلوب لمحاربة الإسلام ، وفي سنة ١٣٠٥ م نشر كتابه (كتاب النهاية) Liber de Fine الذي فصل فيه أفكاره وقدم برنامجا يُنتفع به ؛ فينبغي عنده للمبشرين المتعلمين تعليما جيدا أن يستميلوا المسلمين ، وبقدر الإمكان الكنائس المسيحية الهرطيقية والمنشقة ، وإن كانت الحملة المسلحة ضرورية ، ويجب أن يكون قائدها ملكا Rex Bellator (الملك المحارب) ، وينبغي لكافة الأنظمة الدينية العسكرية أن تتحد تحت قيادته في نظام ديني عسكري واحد جديد يكون بمثابة

(٦) Ibid. pp. 36-43.. Golubovitch منشور في Biblioteca Bio - Bibliografica della Terra Sancta, ii, pp. 9 ff

(٧) Atiya, op. cit. pp. 31-4; The Hystoria de Desolacione is edited by Riant

(٨) Atiya, op. cit. pp. 71-2 .

العمود الفقري للجيش. ويقترح أن تطرد الحملة الصليبية المسلمين من اسبانيا ، ثم تعبر البحر إلى افريقيا وتتجه شرقا إلى تونس ومنها إلى مصر ؛ ثم ينادى بعد ذلك بحملة بحرية كذلك، مفترضا ضرورة الاستيلاء على جزيرتي مالطا ورودس لتكونا بمثابة قاعدتين لما لهما من موانئ جيدة . ثم يفضل بعد ذلك فيما يبدو أن تنتزع الحملة البرية القسطنطينية من اليونانيين وترتحل عبر الأناضول . وهو ملئ بنصائح محددة حول تنظيم الجيش والأسطول ، وحول إمداد الطعام ومواد الحرب ، وكذلك حول تدريب المبشرين الذين يجب أن يصاحبوا الجيش. والكتاب مطول وأحيانا يناقض نفسه ، إلا أنه من وضع رجل ذى ذكاء ملحوظ وخبرة واسعة ، رغم أن موقفه إزاء المسيحيين الشرقيين يتسم بتعصب منفر^(٩).

وفى الوقت الذى كتب فيه ريموند لل ، بدا أن هناك حملة صليبية وشيكة بالفعل؛ إذ أعلن فيليب ملك فرنسا عن رغبته فى إطلاق حملة ، وجرى رسم الخطط ودراساتها للتنفيذ فى كل من البلاط البابوى وباريس . ولم يكن واضحا بعد الدافع الحقيقى للملك فيليب قد تبين بعد ، ألا وهو انتزاع الأموال من الكنيسة بهذه التعلة الرائقة. وكان قد خرج لتوه ظافرا من نزاعه مع البابا بونيفاس الثامن الذى وجد أن الأسلوب الذى سبق أن دمر أسرة هوهينشتوفن لا يجدى مع عواهل الغرب الجدد . وكان البابا كليمنت الرابع قد انتخب سنة ١٢٠٥م وكان فرنسيا ، ورسخ بابويته فى أفينيون على حدود مملكة الملك الفرنسى ، ودأب على إظهار احترامه للملك . وسارع إلى جمع مذكرات يسترشد بها هو نفسه والملك كذلك^(١٠).

مقترحات الحملة الصليبية

وخصصت أكثر هذه المذكرات إثارة للاهتمام لاطلاع الملك وحده . ذلك أن قانونيا فرنسيا، هو بطرس دوبوا ، قدم إليه رسالة اتفق على أن يطلع أمراء أوروبا على نصفها الذى يأمرهم بالانضمام إلى الحركة تحت قيادة ملك فرنسا ، وبه بعض التوصيات حول الطريق الذى يُتبع وطرق تمويل الحملة . وأوجبت الرسالة إلغاء نظام فرسان المعبد وضم ممتلكاته ، وإصدار تشريع بتحصيل ضريبة التركات من رجال

(٩) يورد Atiya, op. cit. pp. 74-94 مناقشة كاملة لحياة لل وأعماله فيما يتصل بالحملة الصليبية

(١٠) Ibid. p. 48 .

الدين. وأضاف كاتب الرسالة بعض المقترحات العامة حول الاتجاه إلى السماح للقساوسة بالزواج وتحويل الأديرة إلى مدارس للبنات. وكان النصف الثاني نصيحة خاصة للملك توضح له كيفية ضمان السيطرة على الكنيسة بالتضييق على مجمع الكرادلة، ونحته على إنشاء امبراطورية شرقية يجلس أحد أولاده على قمتها^(١١). وبعد ذلك مباشرة، في سنة ١٣١٠م، قام كبير المستشارين الدبلوماسيين للملك فيليب بإرسال مدونة عن الحملة الصليبية إلى البابا، تحوى مقترحاتها استراتيجية ضئيلة؛ وتركز في أساسها على كيفية التمويل. فكان على الكنيسة تقديم كل الأموال، وكان إلغاء نظام فرسان المعبد هو أول بند من البنود^(١٢). وفي ذات الوقت كان البابا يطلب المشورة. وكان الأمير الأرمني هيثوم أو هايتون كوريكوس، الذى تقاعد فى فرنسا وأصبح رئيسا لدير رهبان برايمونسراتينسى بالقرب من بواتيه، قد طلب منه أن يقدم آرائه. ونشر كتابه "زهرة تاريخ أراضي الشرق" *Flos Historiarum Terre Orientis*. سنة ١٣٠٧م الذى حقق انتشارا واسعا فور صدوره؛ وكان يضم إيجازا بمجملات عن تاريخ الشرق، مع مناقشة تتم عن اطلاع جيد على حالة الإمبراطورية المملوكية. وأوصى هايتون بحملة مزدوجة تذهب بحرا وتتخذ قاعدة لها فى قبرص وفى أرمينيا. وأوصى بالتعاون مع أرمينيا وتحالف وثيق مع المغول^(١٣). وبعد ذلك بقليل، أعرب الدبلوماسى البابوى وليم آدم عن آراء مماثلة، وكان قد ارتحل إلى أماكن كثيرة فى الشرق ثم ذهب إلى الهند؛ وأضاف اقتراحا بضرورة أن يحتفظ المسيحيون بأسطول فى المحيط الهندى ليقطع تجارة مصر الشرقية. كما كان يعتبر أنه ينبغي لللاتين إعادة الاستيلاء على القسطنطينية^(١٤). وفي سنة ١٣١٢م قدم أسقف ميندى، وليم دورانت، بحثا أوصى فيه بالطريق البحرى وركز على عناصر تكوين الحملة وخاصة فيما يتعلق بمعنوياتها^(١٥). كما أن الأدميرال العجوز الجنوبي بيتو زاخاريا، الذى كان ذات مرة قاضى قضاة طرابلس، كتب آراءه فيما يتصل بالقوات البحرية المطلوبة^(١٦).

(١١) *Ibid.* pp. 48-52; Hill, *op. cit.* ii, p. 239.

(١٢) Atiya, *op. cit.* pp. 53-5.

(١٣) Hayton's *Flos* is published in *Recueil des Historiens des Croisades, Documents Arméniens*, vol. ii. See Atiya, *op. cit.* pp. 62-4.

(١٤) Atiya, *op. cit.* pp. 64-7. وآراء آدم منشورة كمرق لكتاب هايتون فى *Recueil*.

(١٥) Atiya, *op. cit.* pp. 67-71.

(١٦) *Ibid.* pp. 60-1. See Mas Latrie, *Documents*, ii, p. 129.

وكانت هناك مقترحات عملية أجدى، طرحها ثلاثة زعماء كان لهم أن يلعبوا دورا رائدا فى أية حملة صليبية . ذلك أنه فى سنة ١٣٠٧م كان السيدان الأعظمان لفرسان المعبد والمستشفى فى أفينيون ، وطلب منهما البابا كلمنت أن يعربا عن آرائهما؛ فأرسل الأول - جيمس (أوف مولاي) - من فوره تقريراً أوصى فيه بعملية مسح أولي للبحار بواسطة عشرة غلايين كبيرة ، يعقبها جيش لا يقل عن اثنى عشر إلى خمسة عشر ألف خيـال وأربعين إلى خمسين ألف جنـدى مشاة . ولن يجد ملوك الغرب صعوبة فى جمع هذه الأعداد ، ويتعين إقناع الجمهوريات الإيطالية بتوفير وسائل النقل . وأعرب عن عدم موافقته على الهبوط فى كيليـكيا ؛ وإنما يتعين أن تتجمع الحملة فى قبرص وتهبط على الساحل السورى^(١٧) . وبعد ذلك بأربع سنوات ، وفى وقت انعقاد مجمع فيينا ، كتب السيد الأعظم لفرسان المستشفى ، فولك أوف فيلاريت ، إلى الملك فيليب يخبره بالترتيبات التى اتخذها نظامه الدينى العسكرى وغيرها من الترتيبات التى يستطيع أن يقوم بها من أجل الحملة الصليبية^(١٨) . وفى نفس الوقت قدم هنرى الثانى ملك قبرص آراءه إلى المجمع . وكان يرغب فى ضرب حصار اقتصادى على الإمبراطورية المملوكية . وأعرب عن عدم ثقته فى الجمهوريات الإيطالية ، بأسباب مقنعة ، وحث على ألا تعتمد الحملة الصليبية عليها فى النقل البحرى . وكان مؤيدا لهجوم على مصر باعتبارها المنطقة الأيسر اختراقا من بين المناطق التابعة للسلطان^(١٩) .

وبعد كل تلك المذكرات وكل ذلك الحماس ، أخذت الجميع المفاجأة وخيبة الأمل - عدا الملك فيليب - لعدم القيام بحملة صليبية ؛ فقد حقق فيليب هدفه الرامى إلى وجود ذريعة لجمع المال من الكنيسة ؛ وسرعان ما كشف عن آرائه الحقيقة بهجوم على منظمة كبيرة تعتبر مساعدتها شيئا أساسيا للحملة الصليبية^(٢٠) .

١٣٠٨م : فرسان المستشفى يحتلون جزيرة رودس

إن ضياع الشرق الفرنجى ترك الأنظمة الدينية العسكرية فى حالة من عدم اليقين .

(١٧) Baluze, *op. cit.* ii, pp. 145 ff.

(١٨) Delville le Roulx, *France en Orient*, ii, pp. 3-6.

(١٩) Mas Latrie, *Documents*, ii, pp. 118-25; Atiya, *op. cit.* pp. 58-60.

(٢٠) Atiya, *op. cit.* pp. 53, 73.

وقد وجد فرسان التيوتون حلا لمشكلتهم بتركيز كل طاقتهم لغزو البلطيق^(٢١). غير أن نظامي فرسان المعبد والمستشفى وجدا نفسيهما في قبرص مقيدتين بقيود معينة وبلا ترحيب. وبدأ نظام فرسان المستشفى، الأكثر حصافة من المعبد، في البحث عن وطن جديد. وفي ١٢٠٦م جاء إلى قبرص قرصان جنوي، فينيولو دي فينولي، وكان قد استأجر جزيرتي كوس و ليروس من الإمبراطور البيزنطي أندرونيكوس، واقترح على السيد الأعظم لفرسان المستشفى، فولك (أوف فيلاريه)، أن يشتركا معا في غزو جزر أرخبيل دوديكانيسيا كلها وتقسيمها بينهما، على أن يحتفظ هو بثلاثها. وبينما أبحر فولك إلى أوروبا للحصول على تأييد البابا على الخطة، رسا على ساحل جزيرة رودس أسطول صغير لفرسان المستشفى، تساعده بعض غلابين جنوا، وبدأ في إخضاع الجزيرة شيئا فشيئا. وحاربت الحامية اليونانية ببسالة، ولم تسقط قلعة فيليمرو الضخمة في يد الغزاة سنة ١٢٠٦م إلا بالخيانة، وصمدت مدينة رودس لسنتين أخريين. وأخيرا، حدث في صيف سنة ١٢٠٨م أن أرسلت القسطنطينية بغليوناً يحمل التعزيزات للحامية، لكن عاصفة دفعته إلى فاماغوستا في قبرص حيث استولى عليه فارس قبرصي يدعى فيليب الأصفر الذي أخذه مع ركابه وسلمه للمحاصرين. ولكي ينقذ قائد الحامية حياته، وكان من أبناء رودس، وافق على التفاوض على استسلام المدينة التي فتحت أبوابها لنظام فرسان المستشفى يوم ١٥ أغسطس. وعلى الفور أقام نظام المستشفى مقره في الجزيرة، وجعل من المدينة ومينائها الرائع أقوى قلعة في الشرق. وهلل الغرب لذلك الغزو - الذي تحقق على حساب يونانيين مسيحيين باعتباره نصرا صليبيا مؤزرا؛ وقد أعطى هذا النصر بالفعل قوة جديدة لنظام المستشفى الديني العسكري، كما منحه الوسيلة لمواصلة مهمته الموكلة بها إليه. بيد أنه كان على أهالي رودس البؤساء أن ينتظروا لأكثر من ستة قرون ليستعيدوا حريتهم^(٢٢).

أما نظام فرسان المعبد فكان أقل إقداما وأقل حظا؛ وكان دائما أكثر إثارة للعداوة من نظام المستشفى. وإن كان هو الأكثر غنى، وقد ظل لفترة طويلة بمثابة المصرف الرئيسي ومقرض الأموال في الشرق، يحقق النجاح في مهنة لا تلهم المودة، وقد اشتهرت سياسته دائما بالأنانية والاستهانة. وبرغم شجاعة فرسانه في قتالهم وقت الحرب، فقد أوجدت أنشطته المالية وشيعة قربي بين فرسانه والمسلمين؛ واتخذ الكثير

(٢١) أنظر أعلاه ص ٣٣٩.

(٢٢) *Gestes des Chiprois*, pp. 319-23; Delaville le Roulx, *Hospitaliers en Terre Sainte*, pp. 273-9; Amadi, pp. 254-9

من الفرسان أصدقاء مسلمين ، واهتموا بالديانة والعلم الإسلاميين. وذاعت شائعات بأن النظام كان يدرس وراء أسوار قلاع فلسفة خفية، وأنه كان ينخرط في طقوس ملطّخة بالهرطقة ؛ وقيل إنه كانت هناك طقوس تعليم تجديفية يعوزها الاحتشام ؛ وسرى همس عن حلقات تمارس فيها رذائل شاذة. ومن غير الحكمة رفض هذه الشائعات على أنها اختلاقات من الأعداء لا أساس لها. وبما كان في تلك الشائعات ما ينبي عما يكفى لمهاجمة النظام عن اقتناع تام (٢٣).

١٣٠٨م : محاكمة نظام المعبد الدينى العسكرى

وعندما ذهب جيمس (أوف مولاي) إلى فرنسا سنة ١٣٠٦م لمناقشة البابا كلمنت فى شأن الحملة الصليبية المتوقعة ، سمع عن اتهامات موجهة إلى نظامه الدينى العسكرى، فطلب إجراء تحقيق عام ؛ وتردد البابا الذى تحقق من أن الملك فيليب قد عقد العزم على إلغاء النظام ، ولم يجرؤ على الإساءة إلى الملك . وفى أكتوبر ١٣٠٧م قام الملك فيليب فجأة باعتقال جميع أعضاء النظام الموجودين فى فرنسا وحاكمهم بتهمة الهرطقة التى ساقها فارسان من ذوى السمعة السيئة كانا قد طردا منه . وأدلى المتهمون بالاعترافات تحت التعذيب ، ورغم أن القليل منهم أنكر التهم كلها ، أقبل أغلب المتهمين على الإقرار بما طلب منهم. وفى الربيع التالى ، وبناء على طلب الملك فيليب ، أمر البابا بأن يقوم كل حاكم يوجد فى الأراضى التابعة لسلطته أية ممتلكات لنظام المعبد الدينى العسكرى باعتقال أعضاء النظام والبدء فى محاكمة مماثلة ؛ وبعد شئ من التردد استجاب مختلف ملوك أوروبا فيما عدا دينيس البرتغالى الذى لم يكن ليدخل فى هذا الأمر المؤسف . وفى غير ذلك المكان صودرت ممتلكات نظام المعبد ، واقتيد الفرسان ليمثلوا أمام المحاكم . ولم يكن التعذيب يستخدم دائما ، ولكن كان هناك استجواب ثابت . وكان المتهمون يعرفون أنه يُنتظر منهم أن يعترفوا ، وقد اعترف

(٢٣) توجد مناقشة استدلالية حول السمعة الشائنة لنظام فرسان المعبد الدينى العسكرى أوردها Martin فى مؤلفه (محاكمة فرسان المعبد 46-50, 18-24, pp. *The Trial of the Templars*) وتسميت فضيحة محاكمتهم الجائرة فى أن يميل المؤرخون إلى رفع اللوم عنهم كلية ، غير أنه من الواضح أن الريب التى حامت حول عاداتهم لم تكن بلا أساس تماما . وقد نشر Lizerand المستندات والمصادر ذات الصلة فى مؤلفه (إضبارة مسألة فرسان المعبد. *Le Dossier de l'Affaire des Templiers*) وتعتبر آخر مؤرخة لهم ، الأنسة ميلفين Mlle Melvin، متعاطفة معهم للغاية فى مؤلفها حياة فرسان المعبد (*La Vie des Templiers*, pp. 246 ff.)

الكثير منهم^(٢٤).

وكان تعاون حكومة قبرص يمثل جانبا خاصا من اهتمامات البابا ؛ إذ كان مقر النظام يقع فى الجزيرة . بيد أن حاكم الجزيرة الآن هو شقيق الملك هنرى الثانى ، أمالريك ، الذى تمكن بمساعدة نظام المعبد من تنحية الملك موقتا عن سلطاته ووصل رئيس الراهب هايتون من أفينيون فى مايو ١٣٠٨م يحمل خطابا من البابا يأمر فيه باعتقال كافة الفرسان على الفور إذ اتضح أنهم كافرون . وتلكا أمالريك فى تنفيذ الأمر مما أتاح للفرسان الوقت للإستعداد للدفاع عن أنفسهم بقيادة مارشالهم آيمى (أوف أوسيلير) ؛ على أنه بعد تناوش مسلح قصير استسلموا فى أول يولية . وكانوا قد أخفوا جزءا ضخما من ثروتهم بعناية شديدة بحيث لم يُسترجع أبدا ؛ ونقل الجزء الباقى من ثروتهم من ليماسول إلى بيت أمالريك فى نيقوسيا ، ووضع الفرسان تحت الحراسة فى كيروكيتيا ويورماسويا أول الأمر ثم فى ليفكارا ، حيث ظلوا ثلاث سنوات . وفى مايو ١٣١٠م ، وبعد عودة الملك هنرى الثانى إلى السلطة ، حوكم فرسان المعبد القبارصة نظرا لإصرار البابا على ذلك وبغاية السرعة . وقد سبق لكثير من إخوانهم أن حُرقوا فى فرنسا ، وفى سائر أنحاء أوروبا كان أعضاء النظام يسجنون أو يجردون من كل ما يملكون . ولم يكن الملك هنرى يشعر بالرضا حيال الفرسان الذين خذلوا قضيته قبل سنوات قليلة، بيد أنه أتاح لهم محاكمة عادلة . وتم توجيه الاتهام إلى ستة وسبعون فارسا منهم ، وأنكروا جميعا تلك التهم ؛ وأقسم شهود بارزون على براءتهم ، وأعلن واحد من شهود قليلين معادين لهم أنه لم تأخذه الريبة فيهم إلا بعد سماع رواية البابا عن جرائمهم . وبرئت ساحتهم كلية . وعندما وصلت أنباء براءتهم إلى أفينيون ، كتب البابا مغاضبا إلى الملك هنرى لإجراء محاكمة ثانية ؛ وأرسل مندوبا بابويا شخصيا ، دومينيك باليسترينا ، للتأكد من إنفاذ العدالة التى أمر بها البابا . وأعيدت المحاكمة سنة ١٣١١م ، لكن نتيجتها غير مسجلة . وكان البابا كلمنت قد أمر - إذا ما أخطق خطر تبرئة ثانية - بأن يتدبر دومينيك الحصول على مساعدة الرهبان الدومينيكان والفرنسيسكان فى اللجوء إلى التعذيب ؛ وقد أرسل المندوب البابوى فى الشرق ، بطرس أسقف روديز ، إلى قبرص لمساعدة دومينيك فى مساعيه . ولذلك احتفظ الملك بحكمه على ما يبدو وأبقى المتهمين فى السجن . وكانوا لا يزالون فى السجن فى سنة ١٣١٣م ، عندما وقف بطرس أسقف روديز أمام جميع أساقفة الجزيرة

(٢٤) Martin, *op. cit.* pp. 28-46; Melvin, *op. cit.* pp. 249-57.

وكبار رجال الدين فيها وقرأ عليهم مرسوم البابا المؤرخ فى ١٢ مارس ١٢١٣م ،
بإلغاء النظام كله وتسليم كافة ثرواته وممتلكاته لنظام فرسان المستشفى ، بعد تعويض
السلطات المدنية عما تكبدته من مصروفات فى شتى المحاكمات . ووجد الملوك فى
سائر أنحاء أوروبا أن هذه المصروفات مرتفعة على نحو كبير ؛ ولم يتسلم نظام فرسان
المستشفى سوى جزء ضئيل من الممتلكات الفعلية . ولم يُفرج عن قادة فرسان المعبد فى
قبرص أبدا ؛ بيد أنهم كانوا أسعد حظا من سيدهم الأعظم الذى بعدما أمضى سنوات
فى السجن والتعذيب وفى الإدلاء بكثير من الاعترافات والتراجع عنها ، أحرق حتى
الموت فى باريس فى مارس ١٢١٤م^(٢٥) .

أزيل فرسان المعبد من قبرص وهاجر فرسان العبد إلى رودس ، فباتت المملكة
القبرصية الحكومة المسيحية الوحيدة المهتمة فعليا بالأراضى المقدسة . وكان الملك ملكا
للقدس من الناحية الإسمية ؛ وظل الملوك لأجيال كثيرة لاحقة يتوحيون بالتاج القبرصى
فى نيقوسيا ثم يتزوجون بتاج القدس فى فاما جوستا ، وهى المدينة الواقعة على أقرب
مسافة من أراضيه المفقودة . فضلا عن ذلك ، كان الساحل السورى ذا أهمية
استراتيجية لقبرص ؛ إذ أن وجود عدو شرس فى سوريا خليف بأن يجعل وجودها نفسه
معرضا للخطر . ولحسن الحظ ، كان السلطان يخشى حملة صليبية جديدة ولذا بقيت
الموانئ السورية دون الاستفادة بها ، وفضل أن يتركها هكذا مهجورة . ومع ذلك ،
ظلت قبرص فى خطر دائم من مصر . ولما كان الملك هنرى يعتقد أن الهجوم خير
وسائل الدفاع ، فقد أرسل فى سنة ١٢٩٢م خمس عشرة غليوننا يساعدهم عشرة
غلايين من البابا ، للإغارة على الإسكندرية . بيد أنه كان جهدا عقيما ، ولم تكن له
من نتائج سوى تصميم الأشرف على غزو قبرص ؛ وعندما أمر ببناء مائة غليون صاح
قائلا "قبرص ، قبرص ، قبرص" ، غير أنه كانت لديه مخططات أخرى أكبر . فنبغى أولا
اقتلاع المغول والاستيلاء على بغداد . وشعر أمراؤه بالخطر من طموحاته فاغتالوه يوم
١٣ ديسمبر سنة ١٢٩٣م ؛ وكان اغتياله بمثابة جائزة بائية للأمير الشاب ذى العزم ،
الذى أتم ما بدأه صلاح الدين ونظف سوريا من بقايا الصليبيين الأخيرة^(٢٦) .

(٢٥) Hill, *op. cit.* ii, pp. 232-6, 270-4

(٢٦) *Gestes des Chiprois*, pp. 61-2; Thaddeus, p. 43; Sanudo, p. 283; Wiet, *L'Egypte Arabe*, p. 461

١٢٩٩-١٣٠٨م : المغول يغزون سوريا ثانية

كان الأشرف مصيبا في ألا يغفل عن المغول . ففي سنة ١٢٩٩م ، وفي عهد المملوك السلطان الناصر محمد ، الذي لم ينعم بفترة سلام في كثير من الأحوال ، زحف غزان المغولي - الذي غير لقبه من الخان إلى السلطان - على سوريا غازيا واجتث شأفة قوات الدفاع المملوكي في سلامة القرية من حمص يوم ٢٣ ديسمبر . وفي يناير ١٣٠٠م استسلمت له دمشق واعترفت بسيادته ؛ ورجع إلى فارس في الشهر التالي معلنا أنه سرعان ما سيعود لغزو مصر . وعلى الرغم من أن غزان كان مسلما إلا أنه فكان يرحب بالتحالف مع مسيحيين . وسارع ريموند لـ إلى سوريا فور سماعه بأنباء غزوه لسوريا ، لكنه وصل بعد مغادرة غزان لسوريا ، فعاد إلى قبرص والتمس من الملك مساعدته في الذهاب في بعثة تبشيرية إلى الحكام المسلمين . وتجاهل الملك هنري طلبه هذا ، لأنه لم يوافق على أن أفضل وسيلة لكسب صداقة الكفرة هي كشف أخطائهم لهم ، والأجدي اتباع نهج دبلوماسي ، غير أنه لم يتم شيء ، وانتهت الفرصة عندما هُزم الجيش المغولي سنة ١٣٠٣م عند مرج السفر . وبعد ذلك بخمس سنوات ، في سنة ١٣٠٨م ، دخل غزان سوريا مرة أخرى ، وتوغل هذه المرة حتى القدس . وأشيع عنه أنه كان على استعداد لتسليم المدينة المقدسة للمسيحيين إذا عرضت عليه أية دولة مسيحية التحالف معه . وفي ذلك الوقت كان البابا وفيليب ملك فرنسا يرفعان عقيرتهما بالدعاية لحملتهما الصليبية المزمعة ، ورغم ذلك لم ترد للمغول أية عروض من الغرب ، بينما تسببت المشاحنات بين الملك هنري وأخيه في تحويل قبرص إلى دولة عاجزة . وعلى أية حال ، ربما وجد غزان - الذي حُسِّن إسلامه بعد تحوله إليه - صعوبة تنفيذ مثل ذلك الرعد^(٢٧) . وبوفاته سنة ١٣١٦م ، تبددت فرص وجود تحالف مغولي مع المسيحيين . أما ابن أخيه وخليفته أبو سعيد ، فقد غير اتجاهه نحو المصالحة مع مصر . وكان آخر الحكام المغول العظام الذين حكموا فارس ؛ وبعد وفاته سنة ١٣٣٥م بدأت الخانية الأولى تفكك^(٢٨) .

وعلى الرغم مما كان يبدو من عزلة مملكة قبرص ، فلم يكن هناك من خطر عاجل

(٢٧) *Gestes des Chiprois*, pp. 296-306; Hill, *op. cit.* ii, pp. 212-15; Atiya, *op. cit.* pp. 90

1. أما المؤرخ Felix Fabri ، الذي كتب بعد ذلك بقرنين تقريبا ، فيذكر رواية أسطورية عن الإمبراطور التتري الطيب "كازانوس" Casanus الذي كان - بحسب قوله - مسيحيا عرض إعادة القدس إلى المسيحيين. trans. Stewart, P.P.T.S. vol.x, pp. 372-8.

(٢٨) Brown, *op. cit.* iii, pp. 51-61.

يتهددها ؛ إذ لم يكن لدى السلطان ، حتى بعدما ذهب عنه ما يشغله عن المغول ، ما يكفى من القوة البحرية للمجازفة بالحملة على الجزيرة ؛ ولم يكن راغبا فى الإساءة إلى الجمهوريات الإيطالية ، إذ أنه كان يكسب هو الآخر منافع كبيرة من تجارتهم . وقد انتزع إرواد من فرسان المعبد سنة ١٣٠٢ م ، وكان حربيا بأن يترك قبرص وشأنها لولا أنها باتت قاعدة لحملة صليبية جديدة ؛ وحاولت الحكومة القبرصية من جانبها ، بقدر ما تسمح به الطبائع الشخصية والأسر الحاكمة ، أن تكون على علاقة وثيقة بملوك أرمينيا فى كيليكيا ، ومع ملكي أراجون وصقلية ، الذين كانت أساطيلهما تفرض الاحترام^(٢٩) .

بعد أن خبت جذوة حديث الغزو الصليبي الذى أوحى به فيليب ملك فرنسا ، كانت هناك فترة هدوء . غير أن فيليب السادس أعاد الحياة إلى هذا الحديث سنة ١٣٣٠ م . وكانت نواياه تنصف الإخلاص البالغ على خلاف نوايا عمه ، وشجع نواياه تلك البابا جون الثانى والعشرون . ومرة أخرى قدمت المذكرات إلى البلاطين البابوي والملكى ؛ وكتب طبيب ملكة فرنسا ، جوى (أوف فيجيفانو) ، مقالا موجزا عن الأسلحة المطلوبة^(٣٠) . وكان هناك برنامج أطول وأكثر تفصيلا أرسله إلى الملك المدعو بوكارد ، وهو كاهن كان يعمل فى كيليكيا من أجل ضمان ضم الكنيسة الأرمنية إلى روما . وكانت مقترحات بوكارد كثيرة ، لكنها عقيمة ؛ إذ أنه أظهر عداوة للمسيحيين الإنشقاقيين والهراطقة تفوق عداوته للمسلمين ، واعتبر أن غزو الصرب وبيزنطة الأرثوذكسيين جزء أساسى فى أية حملة صليبية . ولم تناقش مخططاته لإختبارها . وقبل أن تنطلق أية حملة صليبية كان ملك فرنسا مشغولا باندلاع حرب المائة عام مع إنجلترا^(٣١) .

وفى تلك الأثناء كان هناك برنامج أجدى ، لا يتطلب أية حملة عسكرية ضخمة ، نشره المؤرخ مارينو سانودو Marino Sanudo الذى كان أحد أفراد بيت دوقية جزيرة ناكسوس^(٣٢) ، وكانت الدماء اليونانية تجرى فى عروقه ، وكان مراقبا فطنا ورائدا فى

(٢٩) *Gestes des Chiprois*, p. 309, dating the capture of Ruad 1303; Sanudo, p.242, dating it 1302. See Hill, *op. cit.* ii, pp. 215-16

(٣٠) Atiya, *op. cit.* p. 96.

(٣١) *Ibid.* pp. 96-113.

(٣٢) (المترجم) جزيرة ناكسوس: Naxos أكبر الجزر فى مجموعة Cyclades اليونانية جنوب بحر إيجه

علم الإحصاء . وكان مؤلفه *Secreta Fidelium Crucis* ، الذى ظهر سنة ١٣٢١م تقريبا، يضم تاريخا للحملات الصليبية ، مصطبغا نوعا ما بمقاصد القائمين على الدعاية، لكنه يتصل فى أغلبه بمناقشة مفصلة لوضع الشرق الإقتصادى . وكان يرى أن السبيل الأنجع لإضعاف مصر يكمن فى حصار اقتصادى ، غير أنه تحقق من استحالة منع التجارة الشرقية فجأة ؛ إذ يجب العثور على طرق ومصادر إمدادات بديلة . وكان تحليله متعمقا ، وتميزت اقتراحاته ببعد النظرة والشمول . ولسوء الحظ ، ليس هناك من سبيل لتنفيذها إلا إذا تعاونت كافة القوى الأوروبية ، وهو الأمر الذى يستحيل تحقيقه الآن^(٣٣) .

١٣٥٩م : استخلاص بطرس الأول القبرصى

وفى واقع الأمر ، كانت هناك محاولة وحيدة لإنقاذ الأراضى المقدسة من الكفرة . وفى سنة ١٣٥٩م اعتلى بطرس الأول عرش قبرص ؛ وكان أول عاهل بعد القديس لويس الفرنسى تتحرق رغبته العارمة ليقاقل فى حرب مقدسة . وكان قد أنشأ وهو شاب نظام فروسية جديد أطلق عليه اسم فرسان السيف بهدف واحد معروف ألا وهو استعادة القدس ، واحترأ على سخط والده الملك هيو الرابع ومحاولة السفر إلى الغرب للفوز بمجندين لحملته الصليبية . ودارت حروبه الأولى بعد اعتلائه العرش ضد أتراك الأناضول حيث اكتسب موطئ قدم بحصوله على غابة كوريكوس من الأرمن . وفى سنة ١٣٢٦م انطلق فى جولة عامة فى العالم المسيحى لتعزيز هدفه ؛ وبعد زيارته لجزيرة رودس حيث حصل على وعود بالمساعدة من فرسان المستشفى ، أبحر إلى البندقية ومكث فيها إلى ما بعد بداية العام الجديد ١٣٦٣م . وأبدى البنادقة تعاطفهم رسميا مع مخططاته . وبعد زيارته لميلانو ، ذهب إلى جنوا حيث انشغل بتسوية خلافات بين مملكته وجمهورية جنوا، وفاز بموازرة يعوزها الوضوح من أبناء جنوا . ووصل أفينيون يوم ٢٩ مارس ١٣٦٣م ، أى بعد أشهر قليلة من انتخاب البابا إيربان الخامس . وكانت مهمته الأولى هي حماية حقه فى عرشه من هيو أمير الجليل ابن أخيه الأكبر المتوفى . وحصل هيو على تعويض فى صورة راتب تقاعدى سنوى قدره خمسين ألف بيزانت . وبينما كان فى أفينيون ، زار المدينة جون الثانى ملك فرنسا ووعدته بتعاونه

(٣٣) . 1144, p. iii, *op. cit.* Hill, pp. 114-27, *Ibid.* لترد نشره Sanudo الوحيدة فى Bongars, *Gesta Dei per Francos*, vol. ii.

الوثيق ، وأخذ الملكان الصليب معا فى إبريل ومعهما الكثير من النبلاء الفرنسيين والقبارصة ؛ وفى ذات الوقت كان البابا يبشر بالحرب المقدسة وعين الكاردينال تاليراند مندوبا بابويا. ثم قام بطرس بجولة طاف فيها بفلاندرز وبرابانت والراينلاند^(٣٤). وفى أغسطس ذهب إلى باريس لمقابلة الملك جون مرة أخرى.

١٣٥٦م : الملك بطرس يخطط حملته الصليبية

وقررا أن تنطلق الحملة فى شهر مارس التالى . وغادر بطرس باريس قاصدا مدينتي روين وكاين فى شمال غرب فرنسا وأبحر إلى إنجلترا . وأمضى شهرا تقريبا فى لندن حيث أقيم احتفال ضخم ومسابقات الفروسية على شرفه فى سميثفيلد . وأهداه الملك إدوارد الثالث سفينة جميلة تدعى كاثرين وأموال لتغطية ما تكبده مؤخرا من مصروفات ؛ ولسوء الحظ سُرقت منه الأموال وهو فى طريق عودته إلى الساحل . وعاد إلى باريس لتمضية أعياد الميلاد ثم اتجه جنوبا إلى إقليم أكييتان لمقابلة الأمير الأسود فى بوردو^(٣٥). وأثناء وجوده هناك تلقى فى أسى نبأ موت الكاردينال تاليراند فى يناير ١٣٦٤م ، ثم موت الملك جون الفرنسى فى شهر مايو . وذهب إلى سانت دنيس للمشاركة فى جنازة جون ، ثم إلى ريم لحضور تتويج خليفته تشارلز الخامس ، ثم ذهب إلى ألمانيا حيث عرض فرسان ومواطنو مدينتي إيسلنجن وإيرفورت الانضمام إلى حملته الصليبية ، غير أن مارجرىف دوق فرانكونيا ورودولف الثانى دوق ساكسونى ، وبرغم استقباليهما له بمراسم التشريف ، قالوا إن قراريهما يتوقف على الامبراطور ؛ ولذا ذهب مع رودولف إلى براغ حيث يقيم الامبراطور تشارلز الذى أكد له حماسه ودعا بطرس لمصاحبته إلى كراكو حيث كان على وشك أن يعقد مؤتمرا مع ملكي هنجاريا وبولندا . وهناك اتفق على إرسال بيان إلى كافة أمراء الإمبراطورية يدعوهم إلى التعاون فى الحرب المقدسة . وبعد أن زار بطرس فيينا ، حيث وعده رودولف الرابع دوق النمسا بمزيد من المساعدة ، عاد إلى البندقية فى نوفمبر ١٣٦٤م. وكان جنوده قد ساعدوا البنادقة مؤخرا فى قمع تمرد فى جزيرة كريت ، ومن ثم استقبلته البندقية بأسمى آيات

(٣٤) (المترجم) فلاندرز: Flanders إقليم شمال غرب أوروبا على بحر الشمال يضم جزءا من شمال غرب فرنسا وأجزاء من بلجيكا . برابانت: Brabant دوقية سابقة فى غرب أوروبا نشأت فى أواخر القرن الثانى عشر ؛ ومنذ سنة ١٨٣٠م قسّمت بين هولندا وبلجيكا . راينلاند: Rhineland الجزء من ألمانيا الواقع غرب نهر الراين

(٣٥) (المترجم) الأمير الأسود : Black Prince إسم لأمير ويلز ، ابن إدوارد الثالث ١٣٣٠-١٣٧٦م.

التشريف، ومكث هناك حتى نهاية يونية ١٣٦٥ م . وأثناء تواجده هناك وقع على معاهدة مع جنوا بتسوية كافة الخلافات الهامة^(٣٦).

وفى تلك الأثناء كان البابا إيربان يكتب بهمة لا تعرف الكلل إلى أمراء أوروبا يحثهم على الانضمام إلى الحملة ؛ وتعززت جهوده بنشاط جديد أضفاه عليها المنسوب البابوي الجديد إلى الشرق بطرس (أوف ساليحناك دى توماس) وهو البطريرق الإسمي للقسطنطينية ، الذى يتميز بشدة حرصه على التماسك ، ومعارضته للإنشقاقيين وللهرطقة وللکفار ، ويتميز بولاء حاز احترام حتى من كان يضطهدهم . وكان يعمل معه تلميذه فيليب (أوف ميزير) ، وهو صديق حميم للملك بطرس ، الذى عينه مستشارا لقبرص . ما اجتمعوا عليه ولم يسفر من نشاط عن أعداد المجندين التى كان يتوقعها الملك بطرس وتلقى بها الرعود ؛ فلم يتقدم أحد من الألمان ، ولا أحد من كبار نبلاء فرنسا أو إنجلترا أو الأراضي المحاورة ، بخلاف إيمى كونت جنيف ووليم روجر فيكونت تورين وإيرل هيريفورد . على أنه كان هناك الكثير من الفرسان الأقل شأنا الآتين من أماكن قصية كاستكتلاندا ؛ وقبل أن يغادر الملك بطرس البندقية ، تجمع هناك جيش كبير مخيف . لقد كان الإسهام البندقي مفيدا على نحو خاص ، إلا أن جنوا بقيت متناحية^(٣٧).

ولقد تقرر أن تتجمع الحملة الصليبية فى رودس فى أغسطس ١٣٦٥ م ، وبقيت محطتها التالية سرا ؛ فلو أن بعض تجار البندقية أخبر المسلمين لكان هناك خطر جسيم . ووصل الملك بطرس إلى رودس فى وقت مبكر من الشهر ، وفى الخامس والعشرين أبحر الأسطول القبرصى كله ودخل المرفأ ، وكان قوامه مائة وثمانى سفن من كافة أنواعها ، غلايين وسفن نقل وسفن تجارية وزوارق خفيفة ؛ وبإضافة ما قدمته البندقية وفرسان المستشفى من غلايين ضخمة ، بلغ عدد سفن الأسطول كله مائة وخمس وستين سفينة ، كانت تحمل جيشا كاملا من الجنود مع جياد وفيرة ومؤن وأسلحة ؛ ومنذ الحملة الصليبية الثالثة لم تخرج حملة تتناسب مع حجم هذا الجيش إلى الحرب المقدسة ؛ وعلى الرغم من خيبة الأمل لغيبة عواهل الغرب العظام ، كانت هناك ميزة فى المقابل ألا وهى أن الملك بطرس كان القائد بلا منازع . وفى أكتوبر كتب للمليكة إلينور الأراجونية بأن كل شئ على أهبة الاستعداد ، وفى الوقت نفسه أصدر أمرا إلى جميع رعاياه فى سوريا

(٣٦) للإطلاع على رحلة بطرس أنظر Atiya, op. cit. pp. 330-7; Hill, op. cit. ii, pp. 324-7.

(٣٧) Atiya, op. cit. pp. 337-41.

بالعودة إلى الوطن مانعا إياهم من المتاجرة هناك . كان يريد أن يُظن أن هدفه هو سوريا^(٣٨).

١٣٦٥م : الحملة تهاجم الإسكندرية

بعدما اتخذ القرار بمهاجمة السلطان ، كان اختيار الإسكندرية كهدف اختياراً ذكياً . ذلك أنه من غير المجدي غزو سوريا أو فلسطين بدون قاعدة على الساحل ، وكان المصريون قد دمروا الموانئ هناك عمدا باستثناء طرابلس ؛ وقد أظهرت الخبرة السابقة أنه عندما فقد حاكم مصر دمياط كان على استعداد للتخلي عن القدس لاستعادتها ؛ وكانت الإسكندرية بمثابة جائزة أثنى من دمياط ، وبإمكان غزاتها أن يصبحوا في وضع تفاوضي أفضل ؛ كما أن الإسكندرية ستكون قاعدة رائعة لمزيد من التقدم ؛ وبقينا بها المون الوفيرة ، وقنواتها تجعل الدفاع عنها يسيراً من اليابسة ، فضلاً عن أنها الميناء الذي من خلاله تمر كل تجارة السلطان تقريباً عبر البحار ، ولسوف يتسبب فقدانها في إخضاع أراضيها لنوع من الحصار الإقتصادي الشديد ، ومن غير المحتمل كذلك أن يتوقع السلطان هجوماً على مدينة تتوفر فيها للتجار المسيحيين مثل هذه المصالح الضخمة ، كما اختيرت اللحظة اختياراً جيداً . وكان السلطان شعبان صبياً في الحادية عشرة من عمره وكانت السلطة في قبضة الأمير يلبغا الذي كان مكروهاً من رفاقه الأمراء ومن الشعب . وكان والي الإسكندرية خليل بن عرام متغيباً يؤدي فريضة الحج في مكة ، وكان نائبه على الإسكندرية جنغرة ضابطاً صغيراً بحامية لا تكفي ولا أمل فيها . ومن الناحية الأخرى ، كان المشهور عن أسوار الإسكندرية قوتها ؛ وحتى لو استولى الأعداء على مينائها وعلى شبه جزيرة فاروس التي تتوسطهما، فما زالت هناك تحصينات ضخمة بطول جبهة الميناء.

ووصل الأسطول أمام الإسكندرية في مساء التاسع من أكتوبر ، وظن المواطنون بادئ الأمر أنه أسطول تجاري ضخيم وتهيأوا للخروج للمساومة . ولم تتضح نوايا الأسطول إلا في الصباح التالي عندما دخلت السفن الميناء الغربي ولم يدخل من الميناء الشرقي الذي كان يستقبل وحده السفن المسيحية . وسارع نائب الوالي جنغرة بتركيز رجاله على الشاطئ الأمامي ليحول دون الهبوط عليه ؛ وبرغم بسالة بعض الجنود

(٣٨) Atiya, op. cit. pp. 341-4; Hill, op. cit. ii, pp. 329-31

المغاربة ، شق الفرسان المسيحيون طريقهم على الشاطئ. وبينما تدفق التجار الوطنيون خارجين من المدينة عبر البوابات المؤدية إلى داخل البلاد، تفهقر جنفرة إلى ما وراء الأسوار وجمع حاميته للصغيرة للسيطرة على القطاع المواجه لمكان الإنزال . وكان الملك بطرس ينتوى التوقف عن الهجوم لرغبته في هبوط جميع رجاله وخيوله على مهل في شبه جزيرة فاروس ، غير أنه عندما استشار قاداته وجد أن الكثير منهم يعارض اختيار الإسكندرية كهدف قائلين إنهم من القلة بحيث لا سبيل لهم للاحتفاظ بمثل هذه القلعة الضخمة ، ولا التقدم منها إلى القاهرة ، وأعربوا عن رغبتهم في الإبحار إلى مكان آخر، لكنهم سوف يبقون إذا تم الاستيلاء فوراً على المدينة بقصفها قبل أن يتمكن السلطان من إرسال قوات تخلصها. واضطر بطرس إلى النزول على رغبتهم وبدأ في التو الهجوم على السور الغربي كما توقع جنفرة ؛ وأثناء التصدي لهم هناك ، انتقل المهاجمون إلى القطاع المواجه للميناء الشرقي . وكان المكان الموصل بين القسمين بين الأسوار يمر عبر مبنى الجمارك الضخم؛ وكان أحد ضباط الجمارك غير الرسميين قد أقام المتاريس عبر الأبواب خشية السرقة. ولم يستطع جنفرة نقل رجاله في الوقت المناسب لمواجهة الهجوم الجديد ، وظنوا أن المدينة قد فقدت فبدأوا في التخلي عن مواقعهم والحرب في الشوارع قاصدين البوابات الجنوبية حيث الأمان ، وبحلول ظهيرة يوم الجمعة العاشر من الشهر كان الصليبيون قد وطدوا مراكزهم داخل المدينة ، وتواصل القتال في الشوارع. وفي ليل الجمعة شن المسلمون هجوما مضادا شرسا من خلال إحدى البوابات الجنوبية التي حرقها المسيحيون في غمرة هياجهم ، وصُد الهجوم المضاد ؛ وبحلول عصر السبت باتت الإسكندرية كلها في قبضة الصليبيين.

١٣٦٥م : نهب الإسكندرية

واحتفل الغزاة بنصرهم في وحشية لا مثيل لها . إن قرنين ونصف من الحرب المقدسة لم تعلم الصليبيين شيئا من الإنسانية ؛ فلم يكن هناك ما يضاهي المذابح سوى مذبح القدس سنة ١٠٩٩م ومذبح القسطنطينية سنة ١٢٠٤م . ولم يكن المسلمون بهذه الوحشية لا في أنطاكية ولا في عكا . وكان ثراء الإسكندرية ثراء غير عادي ، وقد حُن جنون المنتصرين لرؤية تلك الأسلاب الوفيرة ، ولم يُبقوا على أحد ، وعانى المسيحيون واليهود نفس القدر الذي عاناه المسلمون ، وحتى التجار الأوروبيين المستقرين في المدينة شاهدوا مصانعهم ومخازنهم تُنهب بلا رحمة ؛ وأغار المنتصرون على

المساجد والمقابر وسرقوا ما تزدان به أو دمروه ؛ ولم تسلم الكنائس من نهبيهم رغم أن سيدة قبطية كسيحة شجاعة تمكنت من إنقاذ بعض كنوز طائفاتها مضحية بثروتها الخاصة ؛ ودخل الغزاة البيوت ، واستلبوا أصحابها ، ومن توانى منهم فى تسليم كل ممتلكاته قتل هو وأسرته ؛ واقتاد الغزاة ما يقرب من خمسة آلاف سجين من المسيحيين واليهود والمسلمين لبيعهم رقيقا . وحملت الأسلاب على ظهور الخيول والحمير والجمال التى سارت فى خط طويل لنقلها إلى السفن الراسية فى الميناء ، وبعدها انتهت الدواب من مهمتها قتلت فى أماكنها . وغرقت المدينة كلها فى رائحة جثث الآدميين والدواب .

وعبثا حاول الملك بطرس الحفاظ على النظام . وكان فى مأموله الاحتفاظ بالمدينة ، ولكنه هدم الجسر الذى يعبر القناة والمؤدى إلى الطريق الذاهب إلى القاهرة بعد أن أحرق الصليبيون البوابات . على أنه لم يكن للصليبيين رغبة سوى العودة بأسلابهم إلى بلادهم بأسرع ما يمكن ؛ إذ كان هناك جيش آت من القاهرة وكانوا عازفين عن المخاطرة بدخول المعركة ؛ بل إن شقيق الملك أخبره باستحالة الدفاع عن المدينة ، بينما أعلن فيكونت تورين صراحة ، ومعه أغلب الفرسان الإنجليز والفرنسيين ، أنهم لن يبقوا فى المدينة بعد الآن ؛ وعبثا اعترض بطرس والمندوب البابوى ؛ وبحلول يوم الخميس السادس عشر لم يكن هناك بالمدينة سوى قليل من الجنود القبرصيون ، وعاد باقى أفراد الحملة إلى السفن على أهبة الاستعداد للرحيل . وبوصول المصريين إلى ضواحي المدينة ، اعتلى بطرس نفسه غليونيه وأعطى الأمر بالجللاء . وناءت الأسلاب بالسفن بحيث كان لا بد من أن يُطرح فى البحر كثير من قطع الأسلاب الكبيرة . ودأب الغواصون المصريون لشهور تلت على إنقاذ أشياء ثمينة من المياه الضحلة أمام أبى قير^(٣٩) .

وكان بطرس والمندوب البابوى يعلقان الآمال على أن يبدأ الصليبيون ، بعد تخزين أسلابهم بأمان فى قبرص ، فى الخروج مرة أخرى فى حملة جديدة ؛ غير أنهم ما أن وصلوا فاما جوستا حتى بدأوا جميعا فى إعداد العدة للرحيل إلى أوطانهم فى الغرب . وتنهيا المندوب البابوى للحاق بهم للعثور على مجندين مكانهم ، لكنه مرض مرضا مميتا قبل أن يغادر الجزيرة . وأدى الملك بطرس صلاة شكر بعد عودته إلى نيقوسيا ، غير أنه

(٣٩) يورد وليم أوف ماشوت William of Machaut وصفا مسهباً لرحلة الإسكندرية فى شعر حماسي جيد منشور . ed. Mas Latrie, esp. pp. 61 ff. ويبدو أن ماشوت لم يذهب قط إلى الشرق ؛ غير أن ما يورده من معلومات - باستثناء ما يتصل بمولد بطرس وموته - يعتمد عليها . وللإطلاع على قصة الحملة كاملة أنظر . Atiya, *op. cit.* pp. 345-69, also Hill, *op. cit.* ii, pp. 331-4.

كان موجع القلب . وذكر انتصاره في تقريره للبابا انتصاره ، كما ذكر خيبة أمله المرة^(٤٠).

استقبل الغرب أنباء نهب الإسكندرية استقبالا متباينا ؛ فقد هلل له بادئ الأمر على أنه نصر عسكري وإذلال للإسلام . ولقد ابتهج البابا ، لكنه رأى ضرورة إرسال تعزيزات على الفور إلى بطرس ليحلوا محل الذين تخلو عن الحملة، ووعد تشارلز ملك فرنسا بإرسال جيش ، وأخذ الصليب أبرز فرسانه برتراند دو جوسلين ؛ كما أن أماديوس ، كونت سافوي ، المعروف في القصص بالفارس الأخضر ، والذي كان يتهيأ للإرتحال إلى الشرق ، قرر الإبحار إلى قبرص . غير أن البنادقة أعلنوا آنذاك أن بطرس عقد معاهدة سلام مع السلطان ؛ فكف تشارلز ملك فرنسا عن إعداد جيشه ، وذهب دو جوسلين ليحارب في أسبانيا ، وذهب أماديوس إلى القسطنطينية^(٤١) . أما البنادقة ، فلم يجدوا للحملة نتائج تبعث على السرور ، على خلاف البابا ؛ إذ كانوا يأملون في استخدامها لتعزيز قبضتهم التجارية على الشرق ، والذي حدث هو أن ممتلكاتهم الوفيرة في الإسكندرية قد دمرت ، وتوقفت كل تجارتهم مع مصر . وكاد تخريب الإسكندرية أن يدمرهم كقوة تجارية ، وهو الأمر الذي أدخل البهجة على أبناء جنوا الذين كوفتوا على تخلفهم . وسرعان ما وقعت على الغرب كله آثار الحملة الصليبية ؛ فقد ارتفعت للغاية أسعار التوابل والحرير وغيرهما من البضائع الشرقية التي كان الجمهور قد اعتاد عليها الآن^(٤٢).

وواقع الأمر أن بطرس شرع في التفاوض مع مصر ، لكن المראה الشديدة تملكت الجانبيين بحيث ذهبت برغبة كل منهما في السلام . فبينما كانت كراهية الشعب تعوق الأمير بلبغا ، الذي كان يحاول كسب الوقت حتى يتمكن من بناء أسطول يغزو به قبرص ، كان بطرس يغالى في مطالبه بالتنازل عن الأراضي المقدسة ، وأعقب ذلك بغارات على الساحل السوري . على أن أتباعه بدأوا يشعرون بالخطر لما أصابه من هوس الحملة الصليبية ، وكانوا يخشون نضوب موارد الجزيرة في قضية يائسة ؛ وعندما دبر فارس - سبق أن تشاجر معه بطرس - أمر اغتياله سنة ١٣٦٩م لم يحرك حتى إخوته ساكنا لإنقاذه . وفي العام التالي لوفاته عُقدت معاهدة مع السلطان ، وتم تبادل

(٤٠) Atiya, *op. cit.* p. 369.

(٤١) Atiya, *op. cit.* p.370; Hill, *op. cit.* ii, p. 335-6.

(٤٢) Machaut, pp. 115-16; Heyd, *Histoire du Commerce du Levant*, ii, pp. 52-5.

الأسرى ؛ وانتهى الأمر بمصر وقبرص إلى سلام مقلقل^(٤٣).

كان هولوكوست الإسكندرية بمثابة علامة على انتهاء الحملات الصليبية التي كان هدفها المباشر استعادة الأراضي المقدسة . وحتى لو كان جميع الصليبيين على نفس القدر من الحماس كما كان الملك بطرس ، فمن المشكوك فيه ما إذا كانت الحملة ستجلب النفع على العالم المسيحي بأي حال من الأحوال ؛ فعندما بدأ تنفيذها كانت مصر في سلام مع الفرنج لما يزيد على نصف قرن ، وقد بدأ المماليك يفقدون كانوا عليه من تعصب ، وكان رعاياهم المسيحيون يعاملون معاملة أكثر طيبة ؛ وكان يُسمح للحجاج بحرية الحج إلى الأماكن المقدسة ؛ وكانت التجارة تزدهر بين الشرق والغرب . والآن عادت الحياة إلى مرارة المسلمين ؛ فعانى المسيحيون الوطنيون من فترة اضطهاد جديدة برغم براءتهم من الذنب ؛ ودمرت الكنائس ، وحتى كنيسة القبر المقدس أغلقت لثلاث سنوات ؛ وأحدث توقف التجارة أضرارا جسيمة من كل ناحية في عالم لم يبرأ بعد مما أحدثه الطاعون الأسود من خراب^(٤٤)؛ وبعدها كان المماليك على استعداد لتحمل وجود مملكة قبرص ، باتت الآن عدوا يتعين إزالته . وانتظرت مصر مدة ستين سنة لتأخذ بثأرها ، وكان التخريب الشنيع الذي حدث للجزيرة سنة ١٤٢٦م بمثابة عقاب مباشر لتخريب الإسكندرية^(٤٥).

١٣٧٥م : انهيار المملكة الأرمنية

ولقيت المملكة المسيحية الوحيدة الأخرى في الشرق حتفها قبل قبرص . ولم يشترك أرمن كيليكيا في حملة الملك بطرس الصليبية ؛ لكن يتهم الملكى أمسى الآن فرنجيا ، وللكتير من النبلاء علاقات وثيقة مع قبرص ، واعترفت كنيستهم بسيطرة روما . وطوال القرن الرابع عشر كان المصريون يضغطون على الأرمن ، إذ كانوا يرتابون بحق في أنهم أصدقاء الفرنج والمغول وأنهم غيرون من الثروة التي كانت تمر عبر طريق التجارة في مصر الذي يصل إلى البحر عند أياس . ولقد أدى انهيار الخانية

(٤٣) Atiya, op. cit. pp. 371-6; Hill, op. cit. ii, pp. 345-67; Heyd, op. cit. pp. 55-7.

(٤٤) (المترجم) الطاعون الأسود: Black Death طاعون وبائي اكتسح أوروبا وآسيا فيما بين عامي ١٣٤٧ و ١٣٥١م ، وربما كان كلا من الوباء النملى والوباء الرئوى ، وقد أهلك عددا من البشر يزيد على أي وباء آخر معروف أو حرب.

(٤٥) Atiya, op. cit. pp. 377-8.

المغولية إلى حرمانهم من أهم مؤيديهم ؛ وضم الأتراك أغلب أراضيهم في سنة ١٣٧١م. وفي سنة ١٣٧٥م ، وبينما كان القبارصة مستغرقون في حرب مريرة مع جنوا ، أكمل المسلمون الغزاة من الممالك وحلفائهم الأتراك إخضاع البلد ؛ وهرب آخر ملك أرمني ، ليو السادس ، إلى الغرب حيث مات كلاجي في باريس ، وبهذا انتهى الاستقلال الأرمني^(٤٦).

وحقيقة الأمر ، أن حملة صليبية كذلك التي خطط لها الملك بطرس لم تكن في أوانها ؛ فلم يكن بوسع العالم المسيحي أن يحتمل هذا التفريط ؛ إذ كان عليه أن يواجه تهديداً بالغ الخطورة في الشمال . ذلك أن مخططة الحملة الصليبية الأولى قد أدركوا بوضوح أن انقاذ الأراضي المقدسة يتوقف على الاحتفاظ بقوة مسيحية في الأناضول . غير أنه منذ أن مات البابا إيربان الثاني ، لم يتوفر لأي سياسي غربي أي قدر من الحكمة يوقفه على أن الاحتفاظ بالأناضول يعتمد على بيزنطة . ولقد سببت الحركات الصليبية في القرن الثاني عشر حرجاً للأباطرة البيزنطيين . وأضافت تلك الحركات الصليبية مشاكل جديدة كان على بيزنطة مواجهتها ، ولم تتح للأباطرة قط الفرصة لإخضاع الغزاة الأتراك . وربما كانت المهمة مستحيلة تماماً ، ذلك أن أسلوب الغزو التركي ، في تدمير الزراعة والاتصالات ، جعل استعادة الأناضول عملاً عسيراً ، بينما أدت طموحات الأباطرة المتنوعة ، مثل مانويل وأندرونيكوس ، إلى مزيد من تبديد الطاقة . وقد سمحت كارثة منزيكيرت سنة ١٠٧١م بدخول الأتراك إلى الأناضول ؛ وأما كارثة ميربوسيفالوم سنة ١١٧٦م فضمنت لهم البقاء هناك . غير أن الحملة الصليبية الرابعة ، وما سببته من دمار للنظام الإمبراطوري البيزنطي لا يرجى له إصلاح ؛ كانت هي الحملة التي أتاحت للأتراك فرصة المضى إلى أبعد من ذلك . وفي القرن الثالث عشر أتيح للعالم المسيحي الفرصة الأخيرة للتعامل مع الأتراك ؛ فكانت قوتهم في الأناضول حتى ذلك الوقت تعتمد على سلطنة قونية السلجوقية ؛ وقد أدت الغزوات المغولية التي بدأت سنة ١٢٤٢م إلى تقويض الدولة السلجوقية وتدميرها في نهاية الأمر ؛ وكان الأباطرة البيزنطيون المقيمون في المنفى في نيقية مدركين أن فرصتهم سائحة ، غير أن ما عرقل جهودهم مشاغلهم الأوروبية وتلهفهم على استعادة عاصمتهم

(٤٦) أنظر Tournebize, *Histoire Politique et Religieuse de l'Arménie*, pp. 644 ff., esp. pp. 654-30. والتاريخ الغامض لنهاية المملكة الأرمنية يتوقف أساساً على تاريخ الفرنسيسكاني جون دارديل, *Documents Arméniens*, (published in R.H.C., vol.ii).

الإمبراطورية في مجابهة عداوة الغرب اللاتيني الذي كانت تعوزه البصيرة والخبرة ليفهم الوضع. وما أن أعاد البيزنطيون ترسيخ أنفسهم في القسطنطينية حتى ضاعت الفرصة . وكان على أباطرة آل باليولوحوس أن يواجهوا الممالك الصغيرة القوية في البلقان ، وطلبات الجمهوريات الإيطالية وخطر إعادة الغزو اللاتيني ، الذي كان أمرا واقعا إلى أن أعاققت صلوات المساء الصقلية تشارلز أوف أنجو ؛ وفي نهاية القرن الثالث عشر كان الوقت متأخرا جدا ؛ فقد ذهب السلاجقة ، ولكن مكانهم شغلته عدة إمارات نشطة وطمرحة ، تقويها هجرة القبائل التركية التي كانت خاضعة للمغول . وكان اقتلاعهم يحتاج إلى جهود طويلة متناسقة . وكان من بين أهم الأمراء كرممان الكبير ، الذي امتدت أراضيه تمتد بطول البلاد من فيلادلفيا حتى جبال طوروس المقابلة . وكان هناك أمراء آخرون مستقرين في أضايا ، في أيدين (ترال) وفي مانيسة (مغنسية) . وكان الساحل الشمالى ما يزال في قبضة بيزنطة وأختها إمبراطورية طرابزون ، وكان التركمان يحتلون البلاد الواقعة جنوب طرابزون ؛ وفي الشمال الغربي كانت هناك إمارة جديدة عفية تبرز تحت أمير مقدم يدعى عثمان^(٤٧) .

١٣٤٤م : الاستيلاء على أزمير

كان إدراك اللاتين بأهمية الأناضول يتزايد الآن ، رغم أنهم كانوا ينظرون إليها كقاعدة للعدوان عليهم بأقل مما كانوا ينظرون إليها على أنها منطقة يحتاجون فيها إلى قواعد للسيطرة على البحر المتوسط . ولقد كان احتلال فرسان المستشفى لجزيرة رودس محض مصادفة ، غير أن ذلك كان ينطوى على توجه جديد . وكانت الجمهوريات الإيطالية مهتمة منذ زمن طويل بجزر بحر إيجه ، وكان من الطبيعى أن يمتد قلقها ، وقلق العالم اللاتيني كله ، إلى الأراضى الرئيسية المقابلة لتلك الجزر . وعندما قام الأمير عمر صاحب أيدين ، الذى كان فى حوزته ميناء أزمير الرائع ، ببناء أسطول للقرصنة فى مياه بحر إيجه ، لم يترك البنادقة والفرسان فى رودس الأمر يمر دون أن يفعلوا شيئا . وفى سنة ١٣٤٤م أبحر أسطول مغيرا على أزمير أسهم فيه البنادقة ومن فى ركبهم بحوالى عشرين سفينة ، والفرسان بست سفن ، والبابا وملك قبرص بأربع

(٤٧) أنظر Koprulu, Les, Gibbons, *The Foundation of the Ottoman Empire*, pp. 15-34; *Origines de l'Empire Ottoman*, pp. 34-79; Wittek, *The Rise of the Ottoman Empire*, pp. 33-51 .

قطع. وكان القائد هو بطريق القدس اللاتيني هنرى (أوف آستى) ، وهزم أمير أيدين فى معركة بحرية فى يوم الصعود أمام مدخل الخليج . ورفض الحلفاء المسيحيون ، بناء على طلب البابا ، دعوة تقدم بها لورد جزيرة خيوس السابق واستولى الأسطول، فى طريقه إلى أزمير، على جزيرة خيوس، فطلب صاحبها السابق إعادتها إليه، ولكن الحلفاء المسيحيين رفضوا ذلك بناء على طلب البابا واستزوا فى الاتجاه شمالا إلى أزمير التى قاومت مقاومة قصيرة ثم وقعت فى أيدي المسيحيين يوم ٢٤ أكتوبر رغم صمود القلعة . ويعزى هذا النصر اليسير فى أساسه إلى أن الأمير عمر لم يكن مستعدا وأنه يغار ويخشى رفاقه الأمراء ؛ فجاء بجيشه لإنقاذ المدينة بعد فوات الأوان. غير أنهم استدرجوا إلى محاولة غزو البلاد. فلحقت بهم هزيمة منكرة على بعد أميال قليلة من المدينة ، وقتل هنرى (أوف آستى) ومارتين زاخاريا . وبعد أن فشل الأتراك فى استعادة أزمير تم توقيع معاهدة فى سنة ١٣٥٠م قضت بأن يعهد بالمدينة إلى فرسان المستشفى رغم بقاء القلعة فى أيدي الأتراك . واحتفظ فرسان المستشفى بأزمير حتى سنة ١٤٠٢م عندما قصفها تيمور^(٤٨).

وبينما كان مصير أزمير ما يزال فى الميزان ، أعلن نبيل فرنسى يدعى همبرت الثانى ، دوفين (أوف فيين)^(٤٩)، عن رغبته فى الذهاب فى حملة صليبية إلى الشرق. وكان رجلا ضعيفا لا خير فيه ، وإن كان ذا ورع أصيل وبلا طموحات شخصية. وبعد شئ من التفاوض مع البابا ، تقرر أن يذهب لإستكمال الجهد المسيحى فى أزمير؛ وفى مايو ١٣٤٥م انطلق من مرسيليا مع صحبة من الفرسان والقساوسة ، وانضم إليه فى رحلته المتجهة شرقا جنود من شمال إيطاليا ؛ وبعد مغامرات شتى عديمة الفعالية ، وصل أزمير سنة ١٣٤٦م ، وهزم جيشه الأتراك فى معركة خارج الأسوار . ولم يبق هناك طويلا ، وإنما عاد إلى فرنسا فى صيف ١٣٤٧م . ولقد كانت الحملة كلها فريدة فى عمقها، وتكمن أهميتها فى أن الكنيسة باتت الآن مستعدة لأن تعتبر أية حملة ذاهبة إلى الأناضول بمثابة حملة صليبية^(٥٠).

وفى سنة ١٣٦١م ، نال بطرس القبرصى مساعدة فرسان المستشفى فى هجوم

(٤٨) Atiya, op. cit. pp. 290-300.

(٤٩) (المترجم) دوفين : Dauphin لقب الابن الأكبر لملك فرنسا ، وهو لقب استخدم من ١٣٤٩ إلى ١٨٣٠م.

(٥٠) Ibid. pp. 300-18.

على ميناء أضايا التركي، بعد أن حصل مؤخرا على كوريكوس من الأرمن؛ وبعد قتال قصير سقط الميناء في يديه في الرابع والعشرين من أغسطس؛ وسارع أمراء الجوار في علايا ومونوفجات وتيكي إلى تقديم ولائهم له، وهم يحسبون أن صداقته قد تكون نافعة ضد عدوهم الرئيسي كرمان الأكبر. وسرعان ما تخلوا عن خضوعهم وحاولوا غير مرة استعادة أضايا التي بقيت، مع ذلك، في القبضة القبرصية لستين عاما^(٥١).

تنامي السلطنة العثمانية

وفي تلك الأثناء وجدت أوروبا نفسها مضطرة إلى تحويل انتباهها إلى الشمال. ذلك أن العقود الأولى من القرن الرابع عشر شهدت تناميا غير عادي في قوة الإمارة التركية التي أسسها عثمان بن ارطغرل واتخذت لقبها "عثمانية أو عثمانية" من اسمه؛ وكان عثمان في سنة ١٣٠٠م زعيما ضئيل الشأن له أراض في جنوب بيشينيا، وعند وفاته سنة ١٣٢٦م كان سيد بروصا وأغلب الأراض الواقعة بين أدراميتيوم ودوريليوم وبحر مرمره. ويعزى توسعه جزئيا إلى دبلوماسيته الماهرة والمرنة إزاء رفاقه الأمراء، والأهم من ذلك، إلى ضعف بيزنطة. وفي سنة ١٣٠٢م، استأجر الامبراطور أندرونيكوس الثاني في حركة طائشة مجموعة من الكتلان يرأسها روجر فلور، فارس المعبد السابق الذي جمع ثروته بسلوكه المشين أثناء نهب عكا. وحارب روجر الأتراك بنجاح، وإن حارب بمزيد من النشاط سيده الإمبراطور. وقتل سنة ١٣٠٦م، لكن جماعة كتلان بقيت في الأراض الإمبراطورية في تعاديتها حتى ١٣١٥م. وأثناء حروبها أحضرت إلى أوروبا كتبية تركية سبق أن استخدمها الامبراطور في آسيا^(٥٢). وإثر ذهاب مجموعة كتلان، اندلعت الحرب الأهلية في الإمبراطورية بين أندرونيكوس الثاني وحفيده أندرونيكوس الثالث، ولم تنته إلا بوفاة الأول سنة ١٣٢٨م؛ وقد استخدم كل من الجانبين الأتراك كمرتزقة. وفي تلك الأثناء، واصل ابن عثمان - أورهان - ما بدأه والده؛ فأكسب لنفسه هيمنة غامضة على أمراء الأراض الواقعة جنوب أراضيه، وواصل غزوه لبشينيا. واستولى على نيقية سنة ١٣٢٩م وعلى

(٥١) Ibid. pp. 323-30; Hill, op. cit. ii, pp. 318-24.

(٥٢) See Vasiliev, *History of the Byzantine Empire*, pp. 605-8. Muntaner قصة مجموعة كتلان في سرد ينبض بالحياة.

نيكوميديا سنة ١٣٣٧م^(٥٣). واندلعت الحرب الأهلية فى الإمبراطورية مرة أخرى سنة ١٣٤١م بين جون الخامس وزوج أمه جون كانتاكوزينوس ، بينما كان تنامى قوة ستيفن دوشان فى الصرب يجتذب انتباه كافة شعوب البلقان^(٥٤).

وفى سنة ١٣٥٤م أرسل أورهان ، الذى اتخذ لقب سلطان ، جنودا عبر الدردنيل للإستيلاء على مدينة جاليبولي ؛ وبعد ذلك بستين نقل عدة آلاف من بنى جلدته عبر المضيق وجعلهم يستقرون فى ثريس^(٥٥)؛ وفى العام التالى استطاع أن يتقدم داخل البلاد ويستولى على قلعة أدرينوبل العظيمة التى أصبحت عاصمته الثانية . وعند وفاته سنة ١٣٥٩م كانت ثريس كلها تقريبا فى يديه ، ونُزلت القسطنطينية عن ممتلكاتها الأوروبية . وكان ابنه وخليفته مراد الأول ذا اقتدار كبير على أن يواصل ما بدأه أبوه وحده . وكانت أولى مهامه تأسيس هيئات جانيسارى (أو الجندى الجديد) من أطفال الرقيق المسيحيين الذين أحضروا على التحول إلى الإسلام والمرسلين اليه كإتاوة^(٥٦).

ولم يمر توسع الأتراك العثمانيين دون أن يُلاحظ فى الغرب . ويبدو أنه لم يكن هناك خطر على القارة الأوروبية حتى ذلك الوقت ؛ إذ بدت الإمبراطورية الصربية العظمى قادرة تماما على صد أي تقدم . بيد أنه من الواضح أن القسطنطينية ذاتها كانت مهددة ، ومعها مصالح الإيطاليين التجارية ؛ ومع ذلك كان اليونانيون منشقين؛ وكانت سياسة الكنيسة الغربية هى الإصرار على خضوعهم لروما قبل إمكان البحث فى مسألة إرسال المساعدة لهم . وحقيق أن يفشل هذا النوع من الإبتزاز المعنوي . وكان من المحال أن يوافق اليونانيون على هيمنة الكنيسة اللاتينية ، حتى وإن كان حكامهم على استعداد للإلتزام بها ، ليس فقط بسبب عقيدتهم الدينية وإنما أيضا لما يشعرون به من اعتزاز وطني وما لا يغيب عن ذاكرتهم من الفظائع السابقة^(٥٧).

(٥٣) Vasiliev, *op. cit.* pp. 608-9; Gibbons, *op. cit.* pp. 54-70.

(٥٤) Vasiliev, *op. cit.* pp. 609-13.

(٥٥) (المترجم) ثريس: Thrace الإقليم القديم الواقع شرقى شبه جزيرة البلقان ؛ أو الإقليم الحالى الواقع جنوب شرقى شبه جزيرة البلقان وهو مقسم حاليا بين اليونان وتركيا.

(٥٦) Gibbons, *op. cit.* pp. 100-3, 110-21 .

(٥٧) Vasiliev, *op. cit.* 670-2.

١٣٦٦م : حملة كونت سافوى الصليبية

كان أماديوس السادس كونت سافوى قد أخذ الصليب سنة ١٣٦٥م . وكان البابا إيربان السادس منشغلا فى التبشير بالحملة الصليبية نيابة عن بطرس ملك قبرص . وكان ذهاب أماديوس إلى الأرض المقدسة قد ملك عليه لبه ؛ بيد أنه كان ابن عم الامبراطور البيزنطى جون الخامس وكان يرغب فى مساعدته ؛ وأذن له البابا بأن يبدأ حملته بمحاربة الأتراك شريطة أن يضمن إخضاع الكنيسة اليونانية . وبذل البنادقة ما فى وسعهم لوقف حملته الصليبية لخشيتهم من أن تتدخل فى سياستهم التجارية ؛ كما أنهم لا يريدونه بصورة خاصة أن ينضم إلى بطرس القبرصى ، وتنفسوا الصعداء عندما أحدثت شائعاتهم عن معاهدة بطرس مع المصريين أثرها لديه وقرر التركيز على بيزنطة ، وانتفى مجموعة متميزة من الفرسان ، وإن صادفته مصاعب التمويل منذ البداية . ووصلت الحملة مضيق الدردنيل فى أغسطس ١٣٦٦م ، وعلى الفور حاصر جاليبولى التى سقطت يوم ٢٣ أغسطس . على أن أماديوس بدلا من أن يهبط فى ثريس ويظهر المقاطعة من الأتراك ، أبحر إلى القسطنطينية حيث وجد أن الملك البلغارى شيشمان الثالث قد خان الامبراطور واعتقله ؛ ولذا كرس كل طاقته فى إنقاذ ابن عمه ، ولم يتحقق ذلك إلا بهجوم على ميناء فارنا التابع لشيشمان . وعندما تم إنقاذ جون ، وجد أماديوس أنه قد أنفق كل أمواله ، وكذلك الأموال التى جباها محليا وما اقترضه من الإمبراطورة ، فاضطر إلى العودة إلى الوطن ؛ بيد أنه قبل أن يرحل أخذ من الامبراطور وعدا بأن يجعل كنيسته خاضعة لروما . وجاء إلى غليونيه بطريق القسطنطينية فيلوثيوس ومعه فارس يوناني وأخبره بأن الشعب اليونانى سوف يخلع الامبراطور إذا وافق على ذلك ، فما كان من أماديوس إلا أن اختطفهما وأخذهما معه إلى إيطاليا ، وعاد إلى وطنه فى نهاية ١٣٦٧م . على أن حملته الصليبية كانت عديمة القيمة أو تكاد ؛ إذ أن الأتراك استعادوا جاليبولى بعد رحيله مباشرة^(٥٨) .

وفى ظل حكم مراد ، زاد الأتراك من قوتهم بسرعة . فقد أخضع مراد أمراء غربي الأناضول وتسيّد عليهم ، ثم تقدم فى أوروبا . وبعد انتصاره على الصرب فى ماريتسا سنة ١٣٧١م ، أصبحت بلغاريا دولة تابعة وسرعان ما ضمها كلها . وفى ١٣٨٩م ، نشبت معركة حاسمة بين الصرب والأتراك فى كوسوفو ؛ وقبل المعركة مباشرة اغتيل مراد بيد أحد الصربيين لكن جنوده الذين فاقت أعدادهم أعداءهم للغاية انتصروا

انتصارا كاسحا . وأصبح الأتراك الآن سادة البلقان^(٥٩).

وعلى الرغم من أن جهد الغرب الصليبي قد تحول في سنة ١٣٩٠م في حملة فاجعة قادها لويس الثاني دوق بوربون إلى المهدية بالقرب من تونس^(٦٠)، كان من الواضح أنه لابد من صد الأتراك العثمانيين حتى تبقى أوروبا المسيحية آمنة . وعندما ضم السلطان بايزيد مدينة فيدين على نهر الدانوب ، وكان أميرها قد اعترف بسيادة هنجاريا ، ناشد الملك الهنجاري سيغيسموند اللوكسمبرجي ، أخو الامبراطور وينزيل ، جميع رفاقه العواهل ليقدموا له المساعدة . وأصدر كل من البابا الروماني بونيفاس التاسع ، والبابا الأفينيوني بنديكت الثالث عشر مراسيم بابوية توصي بحملة صليبية ، بينما كتب فيليب (أوف ميزيه) ، وهو عجوز من القائمين على الدعاية ، خطابا علنيا إلى ريتشارد الثاني ملك إنجلترا يدعو إلى التعاون مع تشارلز السادس ملك فرنسا من أجل الحملة الصليبية القادمة . وما كان لسيغيسموند من علاقات مع الألمان مكنه من أن يجد مؤازرة في ألمانيا ؛ أما أميرا والاشيا وترانسيلفانيا^(٦١)، فقد أخذ منهما الرعب كل مأخذ من التقدم التركي فانضما إليه برغم كراهيتهما الشديدة للهنجارين . وفي الغرب أعلن دوق برجندى ودوق أورليانز ودوق لانكاستر جميعا رغبتهم في المساعدة . وفي مارس ١٣٩٥م وصلت إلى البندقية سفارة هنجارية يرأسها رئيس أساقفة حيران ، نيكولاس (أوف كانيزاي) لضمان تنفيذ وعد دوج البندقية بتوفير وسيلة النقل ؛ ثم واصل السفراء ترحالهم إلى ليون حيث استقبلهم دوق برجاندى فيليب المقدم ، استقبالا مفرط الحفاوة ، ووعدهم بمساعدته في حماس . وبعد أن قاموا بزيارة ديجون لتقديم احتراماتهم للدوقة مرجريت الفلاندرزية ، ذهبوا إلى بورردو لمقابلة عم ملك إنجلترا جون (أوف لانكستر) الذي تعهد بتجهيز كتيبة انجليزية . وانطلقوا من بورردو إلى باريس . وكان الملك الفرنسي تشارلز السادس يعاني من نوبة جنون ، ولحسن الأوصياء وعدوا بالقيام بتشجيع النبلاء الفرنسيين على الانضمام إلى الحملة الصليبية . وبدأ تجمع جيش دولي ضخم لانقاذ العالم المسيحي . ومن أجل تمويله فرض دوق برجاندى ضرائب خاصة أدت إلى جمع مبلغ ضخم قدره سبعمائة ألف فرنك ذهبي ، وأضاف النبلاء الفرنسيون إسهاماتهم كل بدوره ؛ وقدم جوي السادس كونت لا

(٥٩) Vasiliev, *op. cit.* p.624; Gibbons, *op. cit.* pp.174-8.

(٦٠) يرد الوصف الكامل لحملة لويس في . Atiya, *op. cit.* pp. 398-434.

(٦١) (المترجم) والاشيا : Wallachia إقليم في شرق أوروبا يقع جنوب الألب الترانسيلفانية ، اندمج مع مولدا فيا سنة ١٨٦١م ليكونا رومانيا

ترعمواي أربع وعشرين ألف فرنك . ووافق اللوردات الفرنسيون والبرجانديون على قبول قيادة الإبن البكر لدوق برجندى ، جون كونت نيفرس ، وهو شاب فى الرابعة والعشرين تملأه الحيوية^(٦٢).

١٣٩٦م : حملة نيكوبوليس الصليبية

بينما عاد السفراء الهنجاريون مسرعين إلى بودا لإطلاع الملك على ما حققوه من نجاح ، وليبذلوا له النصيحة بالمضى قدما فى ترتيباته ، أصدر دوق برجاندى مراسيم دقيقة لتنظيم تصرفات الجنود الفرانكو هنجاريين . وقد استدعوا للتجمع فى ديجون فى العشرين من إبريل ١٣٩٦م ؛ وتقرر أن يقود الحملة جون النفريسي ، ونظرا لصغر سنه تشكّل مجلس استشاري مؤلف من فيليب ابن دوق بار ، وجوى (أوف لا ترعمواي) ، وأخيه وليم ، والأدميرال جون (أوف فينا) ، وأودارد لورد شاسيرون . وفى نهاية الشهر انطلق جيش من عشرة آلاف رجل وارتحل خلال ألمانيا إلى بودا ؛ وفى طريقه انضم إليه ستة آلاف ألماني يرأسهم الكونت بالاتين روبرت ابن روبرت الثالث كونت ويتلسباخ ، وإيبرهارد كونت كاتزنلينبوجين . وسار خلفهم على مقربة ألف مقاتل انجليزي بقيادة الأخ غير الشقيق للملك ريتشارد ، جون هولاند ، إيرل هنتينجدون^(٦٣).

ووصلت الجيوش الغربية فى نهاية يولية تقريبا إلى بودا حيث وجدت الملك سيحجسмонند فى انتظارها ومعه قوة تتألف من نحو ستين ألف رجل ؛ وانضم إليه تابعه ميرسيا حاكم والاشيا ومعه عشرة آلاف رجل آخرون وحوالى ثلاثة عشر ألف مغامر جاءوا من بولندا وبوهيميا وإيطاليا وأسبانيا ؛ وكان هذا الجيش المتحد الذي اقترب من مائة ألف جندي أكبر تجمع على الإطلاق دخل مجال الحرب ضد الكفرة . وفى تلك الأثناء توغل أسطول فى البحر الأسود وألقى مراسيه عند مصب نهر الدانوب ، وكان رجاله من فرسان المستشفى تحت قيادة السيد الأعظم فيليبيرت (أوف نايلاك) ومن البنادقة واهل جنوا.

ولم يبق السلطان العثماني بايزيد من جانبه فى الجانب الآخر مكتوف اليدين .

(٦٢) Atiya, *Crusade of Nicopolis*, pp.1-34, a fully referenced account.

(٦٣) *Ibid.* pp. 41-8, 67-8, 184 nn.

وعندما وصلت الأنباء بتجمع الحملة الصليبية ، كان يحاصر القسطنطينية ؛ وعلى الفور استدعى جميع رجاله وسار شمالا إلى الدانوب ، وكان تعداد جيشه يُقدَّر بما يجاوز مائة ألف.

غير أن فرسان الغرب لم يلقنوا شيئا مما مروا به عبر ثلاثة قرون من الخيرة. وعندما نوقشت خطة الحملة في بودا نصيح الملك سيجيسموند باتخاذ استراتيجية الدفاع ، وكان يعرف قوة عدوه . ولقد ارتأى أنه من الأفضل أن يستدرج الأتراك إلى داخل هنجاريا ثم يهاجمهم من مواقع أعداءها ؛ وكان سيجيسموند يعتقد ، كغيره من الأباطرة البيزنطيين إبان الحملات الصليبية المبكرة ، أن سلامة العالم المسيحي تتوقف على الحفاظ على مملكته ؛ على أن حلفاءه ، كشأن الحملات الصليبية المبكرة ، كانوا يفضلون هجوما كبيرا ؛ فمن شأن ذلك أن يحطم الأتراك وأن يجعل الجيوش المسيحية تتقدم منتصرة خلال الأناضول إلى سوريا وإلى المدينة المقدسة ذاتها ؛ وكان الحلفاء على قدر كبير من الحماس لرأيهم بحيث رضخ سيجيسموند . وفي وقت مبكر من شهر أغسطس انطلقت جيوش التحالف جنوب الضفة اليسرى لنهر الدانوب حتى أورشوفا عند البوابات الحديدية ، وهناك عبرت إلى داخل أراضي السلطان.

وقضى الجيش ثمانية أيام ليعبر النهر ، ثم سار بطول الضفة الجنوبية إلى مدينة فيدين التي كان حاكمها أميرا بلغاريا يدعى جون-سراشيمير ، بيد أنه كان تابعا للسلطان الذي كان قد ترك حامية صغيرة هناك . وبوصول المسيحيين انضم اليهم جون-سراشيمير وفتح لهم البوابات ، وقتل الأتراك . وكانت المدينة التالية الواقعة إلى الجنوب على النهر هي مدينة راهوفا ، وهي قلعة قوية يحيطها خندق مائي وسور مزدوج وفيها حامية تركية كبيرة . وعلى الفور اندفع للهجوم أكثر الفرسان الفرنسيين حماسا بقيادة فيليب (أوف أرتوا) كونت إيرو ، وجون لو مانجر الذي كان يشتهر بلقب مارشال بوسيكوت ، وكادوا أن يهلكوا جميعا لولا أن سيجيسموند أدركهم بالهنجارين . ولم تستطع الحامية الصمود طويلا أمام الجيش المسيحي كله . وقصفت المدينة وقتل جميع سكانها وأغلبهم من البلغارين المسيحيين ، فيما عدا ألف من الأثرياء احتجزوا من أجل الفدية.

١٣٩٦م : معركة نيكوبوليس

وتحرك الجيش من راهوفا قاصدا نيكوبوليس التي كانت المعقل التركي الرئيسي

على الدانوب ، فى مرقع يصل الطريق الآتى من وسط بلغاريا إلى النهر ، وقد بُنيت بجانب النهر على تل توجت قمم منحدراته الشديدة بخطين من الأسوار الهائلة . وقد جاء الصليبيون بدون آلات للحصار ؛ إذ لم يتحقق الغربيون من ضرورتها ، ولم يكن سيجموند قد أعد العدة إلا لأعمال الدفاع . وعندما فشلت السلام التى سارع الفرنسيون بإقامتها ، وكذلك الأنفاق التى حفرها المهندسون الهنجاويون ، قبع الجيش على أمل تجويع المدينة كي تستسلم ، وقد ساعدهم على ذلك وصول أسطول فرسان المستشفى الذى أبحر باتجاه الشمال فى نهر الدانوب وألقى مراسيه أمام الأسوار يوم ١٠ سبتمبر ؛ على أن نيكوبوليس كانت مزودة جيدا بالمؤن ، ولم يكن حاكمها التركى دوجان بيك يتوى الإستسلام وكان قد سمع بمصير أبناء جلدته فى فيدين وراهوفا .

كان التأخير مميتا لمعنويات الجيش المسيحى ؛ إذ راح الفرسان الغربيون يتسلون بالخمر والميسر وكافة أنواع الفسق . ونجراً جنود قليلون وقالوا إن الأتراك عدو مخيف فأمر المارشال بوسيكوت بصلم آذانهم عقابا لهم على الروح الإنهزامية . ونشبت مشاجرات بين مختلف الفصائل ، بينما بدأ أتباع سيجموند الترانسلفانيون وحلفاؤهم الولاشيون يتحدثون عن التخلي عن الحصار .

وبعدما أمضت الحملة الصليبية أسبوعين أمام نيكوبوليس ، جاءت الأنباء باقتراب الأتراك . فقد انطلق جيش السلطان بسرعة من ثريس باتجاه الشمال ؛ وكان تسليحه خفيفا وخياله أسرع بكثير فى تحركها من الفرنج ، وكان رماته على مستوى رفيع من التدريب ، ويتفوقون بميزة النظام الأمثل والطاعة التامة لقيادة السلطان وحده الذى كان هو نفسه ذا اقتدار غير عادى . ولقد أرسل أمامه بعض الجنود الذين هزمتهم كتيبة فرنسية بقيادة اللورد كوسى فى أحد ممرات البلقان ؛ لكن غيرة المارشال بوسيكوت ، الذى اتهم كوسى بمحاولة سرقة شرف النصر من جون النفرسى ، حالت دون بذل أية محاولة أخرى لوقف تقدم الأتراك ؛ وفى ذات الوقت قرر الفرسان قتل الأسرى المأسورين فى راهوفا .

وفى الخامس والعشرين من سبتمبر ١٣٩٦ م ، بدت للعيان طليعة الجيش التركى التى عسكرت فى التلال الواقعة على بعد ثلاثة أميال تقريبا من المسيحيين . وقبل شروق الشمس فى الصباح التالى زار سيجموند جميع رفاقه القادة ورجاهم أن يبقوا فى حالة الدفاع . ورغم أنه أخبرهم صراحة أنه لا يستطيع أن يضع ثقته فى أتباعه من الترانسلفانيين والولاشين ، لم يسانده سوى كوسى وجون (أوف فيين) ، أما القادة

الأخرون فكانوا عاقدي العزم على فرض معركة على الفور ؛ وخضع سيجيسموند في ضعفه ، وقسم جيشه إلى ثلاث فرق جاعلا جنوده المنجاريين في القلب والولاشيين في الميسرة والترانسيلفانيين في الميمنة ، وكانت الطليعة تتألف من الغربيين جميعهم بقيادة جون النفريسي.

وعندما انبلج الصبح كان كل ما يمكن رؤيته من الأتراك فرقة من الفرسان غير النظاميين خفاف الحركة ، فوق منحدر التل مباشرة ، وخلفها مشاة الأتراك مع فصيلة من الرماة ، تحميهم خطوط من الأوتاد ؛ أما الجزء الرئيسي من فرسان السباهي^(٦٤) التي يقودها السلطان بنفسه فكانت محتبة وراء قمة التل . وكان على ميسرته فرقة من فرسان الصرب بقيادة الأمير ستيفن لازاروفيتش ، وهو أحد الأتباع المخلصين للسلطان.

وأظهرت المعركة ، كعندها في الإستراتيجيات السابقة ، أن الصليبيين لم يتعلموا شيئا طوال القرون . فلم يبق الفرسان الغربيون في المقدمة ليطلعوا سيجيسموند على خططهم ، وفي حماس بالغ فائق الثقة هاجموا قمة التل وفرقوا فرسان الأتراك الخفاف أمامهم ؛ وبينما عاود فرسان الأتراك تجميع أنفسهم خلف مشاتهم ، وجد الفرسان أن الأوتاد تعترضهم ، فترجلوا على الفور وواصلوا هجومهم راجلين وهم يترعون الأوتاد أثناء تقدمهم ، يدفعهم في ذلك أن مشاة الأتراك تبعثرت هي الأخرى ، وكان باستطاعة بعض الأتراك التقهقر خلف الفرسان التي كانت تتجمع ، غير أن كثيرين قتلوا أو طردوا أسفل السهل . غير أنه عندما كان الصليبيون المنتصرون المنهكون يسرعون في هجومهم هذا إلى أن وصلوا إلى قمة التل ، وجدوا أنفسهم وجها لوجه أمام فرسان السباهي السلطانية وقوات الصرب ؛ وجاء هجوم هؤلاء الجنود الجدد مباغتاً للصليبيين الراجلين المنهكين العطشى الثقليين بأسلحتهم ، فسرعان ما اندفعوا مبعثرين في فوضى عارمة واستحال نصرهم هزيمة شنعاء . ونجا فرسان قليلون من القتل ؛ وكان من بين الهالكين وليم (أوف لاتريمواي) وابنه فيليب جون (أوف كادزود) أدميرال فلاندرز ، والمعلم الأكبر لفرسان التيوتون . وسقط جون (أوف فيين) أدميرال فرنسا الكبير متشبها براية نوتردام الكبيرة التي عهد بها إليه ، ولم ينقذ جون النفريسي من القتل سوى صياح مصاحبيه بالتعريف بشخصه وحشه على الاستسلام ، واقتيد معه

(٦٤) (المترجم) فرسان السباهي: Sipahi Cavalry فرسان إقطاعيون في الإمبراطورية العثمانية كانوا يؤلفون أغلب الجيش العثماني حتى حوالى منتصف القرن السادس عشر.

كونت إيو وكونت لامارش وجوي (أوف لا تريمواي) وإيجوراند (أوف كوسى) والمارشال بوسيكوت.

١٣٩٦م : انتصار السلطان

عندما ترحل الفرسان اندفعت خيولهم عائدة إلى المعسكر ولا يعلو صهواتها أحد؛ وعلى الفور قرر الولاشيون والترانسفاليون أنهم خسروا العركة وسارعوا بالانسحاب بعدما استولوا على كل ما يجدونه من القوارب كي يعبروا النهر، غير أن سيجيسموند أمر جنوده بالتقدم لإنقاذ الغربيين؛ وقتلوا كثيرين من مشاة الأتراك المبعثرين أثناء تحركهم باتجاه أعلى التل. وعندما اقتربوا من ساحة القتال وجدوا أنهم وصلوا بعد فوات الأوان، إذ هجم فرسان السلطان هابطين عليهم وردوهم بخسائر جسيمة حتى ضفاف النهر.

ولما تبثر جيش سيجيسموند، أغرته نفسه بالكف عن القتال، فلقا إلى سفينة بندقية راسية في النهر حملته إلى القسطنطينية ومنها إلى وطنه خلال بحر إيجه والبحر الأدرياتيكي؛ وكان يخشى الإرتحال برا لتوحسه من خيانة الولاشين. أما جنوده فقد انطلقوا مع قليلين من الصليبيين الغربيين الباقين على قيد الحياة واتخذوا طريقهم إلى بلادهم بأية طريقة يستطيعونها، يضايقهم الوطنيون المعادون والروحوش ولسعات برد الشتاء المبكر؛ فوصل الكونت بلاتين إلى قلعة أبيه في أسماه الممزقة ومات بعد ذلك بأيام قليلة، وكان قليل من رفاقه اللاجئين أكثر حظا منه^(٦٥).

ولقد نال بيازيد نصرا عظيما وإن كانت خسائره جسيمة؛ فأمر في سورة غضبه، وفي ذاكرته كذلك ما ارتكبه الصليبيون من مذابح، بقتل ثلاثة آلاف من سجنائه عمدا، ولم يبق إلا على قليل من النبلاء يمكن الحصول منهم على فدية كبيرة؛ وقد كلف فارس فرنسي يدعى جيمس (أوف هيلي)، وكان يتحدث التركية، بالتعرف عليهم ثم سُمح له بالرحيل إلى الغرب للترتيب لجمع مال الفدية الذي لم يجمع إلا في يونية التالي، ووصلت سفارة غربية إلى السلطان في بروسا وسلمته المبالغ الضخمة التي طلبها؛ وقد أرسل كثير من المتعاطفين في سائر أنحاء العالم المسيحي إسهاماتهم، لكن الجزء الأكبر دفعه الملك سيجيسموند ودوق برجاندی الذي قدم ما يزيد على

مليون فرنك . ووصل الأسرى الذين أطلق سراحهم إلى بلادهم فى نهاية ١٣٩٧م تقريباً^(٦٦).

كانت حملة نيكوبوليس الصليبية أضخم وآخر الحملات الصليبية الدولية الكبيرة . واتخذ نمط تاريخها المؤسف فى دقة تبعث على الحزن ، سيرة الحملات الصليبية المفجعة الكبيرة فى الماضى ، مع فارق يتمثل فى أن ميدان قتالها كان فى أوروبا وليس فى آسيا . وجاءت الأخطاء والحماقات كما هى دون تغيير ؛ وتبدد نفس الحماس فى المشاحنات والغيرة ونفاد الصبر . إن كل ما تعلمه الغرب من هذا الفشل الأخير أن الحرب المقدسة قد انتهت عملياً إلى غير رجعة.

ولم يعد هناك مجال للحملات الصليبية ؛ لكن الكفرة ظلوا يهددون قلب العالم المسيحى ؛ فقد وصلوا إلى الدانوب وشواطئ البحر الأدرياتيكي . وكانت القسطنطينية ما تزال مسيحية ، وإن كانت معزولة ، وقد ظلت مسيحية لا لشيء سوى أن السلطان لم تتوفر له بعد المدفعية القوية بما يكفى لقصف أسوارها الضخمة الكثيفة ، ولا ما يكفى من السفن لقطع وسائل اتصالها بحراً . ووجد فرسان المستشفى فى رودس ولوردات أرخبيل بحر إيجه الإيطاليون أنهم عند الحدود وأن قبرص موقع بعيد ؛ وراح ملك هنجاريا ، وحكام ولاشيا ومولدافيا ، وزعماء ألبانيا ، يبحثون عن العون للدفاع عن حدودهم ؛ ودأبت الجمهوريات الإيطالية على محاولة معرفة أي السياسات التى يتعين اتباعها للحفاظ على مصالحها التجارية ؛ وكان البابا عميق الإدراك للخطر الذى يتهدد العالم المسيحى ، لكن القوى الغربية لم تعد تهتم ، إذ كانت تجربتها الأخيرة بالغة المرارة ، وليس فى الإمكان بعث الحماس الذى عجل بتلك التجربة بعد هذه الكارثة . ودأب حتى البابا نفسه على أن يحيك المكائد بلا توقف كي يحل لاديسلاس النابوليتانى محل سيجيسموند بغض النظر عما سوف تحدثه الحرب الأهلية من أضرار بدفاعات أوروبا الوسطى^(٦٧) . أما الملك الفرنسى ، الذى وجد نفسه من سنة ١٣٩٦ إلى ١٤٠٩م سيد جنوا ، فكان قلقاً بما فيه الكفاية على مصير المستعمرة الجنوبية فى بيرا المواجهة للقسطنطينية ، فأرسل المارشال بوسيكوت مع ألف ومائتي رجل إلى البوسفور سنة ١٣٩٩م ؛ فحال وجوده دون القيام بمحاولة غير متحمسة للهجوم على المدينة

(٦٦) Ibid. pp. 102-11.

(٦٧) Atiya, *Crusade in the Later Middle Ages*, pp. 463-4; Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, vi, 2, pp. 1253-4

الإمبراطورية من جانب الأتراك ؛ لكنه سرعان ما انسحب عندما لم يجد من يموله هو أو رجاله^(٦٨) ثم إن الإمبراطور البيزنطي مانويل الثانى ارتحل إلى الغرب تحدوه الآمال كى يطلب المساعدة ؛ وصُدم الإيطاليون لرؤيتهم مدى البؤس الذي وصل إليه وريث القياصرة . وأعطاه دوق ميلانو هدايا رائعة كى تناسب حالته مع مكانته ؛ واستقبل استقبالاً فخيماً فى باريس ولندن ، غير أنه لم تعرض عليه مساعدة مادية ؛ ولم تعبأ به البابوية لأن مانويل كان بالغ الأمانة فلم يعد بإخضاع كنيسته لروما لإدراكه أن شعبه لن يصبر على ذلك . غير أنه فى سنة ١٤٠٢م أسرع عائداً إلى عاصمته وقد أثلجت صدره أنباء تنذر فيما يبدو بانتهاء الإمبراطورية العثمانية^(٦٩) .

تيمور الأعرج (تيمور لنگ)

ولد تيمور لنگ سنة ١٣٣٦م بالقرب من سمرقند ، أميراً ضئيل الشأن من ذرية الأتراك المغول ، وفى سنة ١٣٦٩م كان سيد جميع الأراضى التى تنتمى لفرع ياغاتاى المغولى ؛ ومنذ ذلك الوقت قُدماً وسَّع أراضيه بحروب قاسية لا رحمة فيها، بادئاً بداية بطيئة أول الأمر ، ثم بقوة دفع متزايدة . ومن سنة ١٣٨١م إلى سنة ١٣٨٦م اكتسح أراضى الخانية المغولية فى فارس ، وفى ١٣٨٦ استولى على تبريز وتفليس ، وطوال السنوات الأربع التالية كان منشغلاً على حدوده الشمالية ، وفى سنة ١٣٩٢م استولى على بغداد . وفى السنوات التالية أغار على روسيا ضد مغول القبيلة الذهبية متوغلاً فى الأراضى الروسية حتى موسكو ، وفى ١٣٩٥م ظهر فى شرقى الأناضول حيث سقطت فى قبضته اذربيجان وسيفاس ؛ وفى ١٣٩٨م استولى على شمال الهند فى حملة رائعة زاد من فعاليتها مذابح شنيعة . وفى سنة ١٤٠٠م استدار غرباً مرة أخرى وزحف على سوريا وهزم الجيوش المملوكية المرسله لمحاربهه ، أولاً فى حلب ثم فى دمشق ، ثم احتل وخرب كل المدن الكبيرة فى الإقليم . وفى ١٤٠١م عاقب تمرداً حدث فى بغداد بأن دمر المدينة تدميراً كاملاً وهى لم تكد تنهض من آثار غزو هولاكو قبل ذلك بقرن ونصف من الزمان . وفى ١٤٠٢م عاد إلى الأناضول وقد عقد العزم على أن يهزم السلطان العثمانى الذى كان العاهل الوحيد الباقى الذى لم يلحق به الإهانة فى العالم الإسلامى . ووقعت المعركة الحاسمة فى أنقرة يوم ٢٠ يولية ، هزم فيها بيازيد هزيمة

(٦٨) Atiya, op. cit. pp. 465-6; Vasiliev, op. cit. pp. 632-3.

(٦٩) Vasiliev, op. cit. pp. 631-4.

كاملة واقتيد أسيرا ومات فى الأسر بعد ذلك بأشهر قليلة ، وفى تلك الأثناء سقطت مدن الأناضول العثمانية فى قبضة الغازى الذى طرد فرسان المستشفى من أزمير فى ديسمبر ١٤٠٢م^(٧٠).

وكان فى مأمول الامبراطور مانويل أن تكون الكارثة التى حلت بالسلطان بيازيد بمثابة نهاية الخطر العثماني ؛ غير أنه لم يكن من القوة بما يكفى لإغناخ إجراء دون مساندة . وكانت الجمهوريات الإيطالية قد اتخذت جانب الحذر ؛ إذ سارع أبناء جنوا إلى عقد معاهدة مع تيمور للحفاظ على تجارتهم الآسيوية ، غير أنهم كانوا يخشون على تجارتهم فى البلقان والمستقبل أمامهم مشكوك فيه ، عاونوا فى الحفاظ على القوة العثمانية بأن ساعدوا بقايا جيش بيازيد فى العبور بحرا إلى أوروبا . أما البنادقة فقد تناءوا عن ذلك^(٧١) ، وكان لموقفهم الحذر ما يبرره ؛ ذلك أن غزو تيمور قد حال فى واقع الأمر دون قيام السلطان العثماني بمهاجمة القسطنطينية ، وساعد ذلك على بقاء بيزنطة لنصف قرن آخر ؛ ولو أن أوروبا كلها تدخلت فى الحال لكان فى ذلك نهاية الإمبراطورية العثمانية ، بيد أن الأتراك كانوا مستقرين بأجناسهم فى الأناضول وسياستهم فى البلقان فلم يكن من اليسير اقتلاعهم ؛ كما لم يكن لتيمور ما كان لجنكيز خان من عبقرية سياسية . وعندما مات تيمور سنة ١٤٠٥م بدأت امبراطوريته تنفك فى الحال . وسرعان ما استعاد المماليك سوريا ، وفى أذربيجان نهضت أسرة حاكمة من تركمان الأغنام السود وأقامت لها سلطانا يمتد من الأناضول إلى بغداد . وكانت هناك فى فارس إرهابات وطنية سرعان ما أدت إلى ظهور الأسرة الحاكمة الصفوية . وفى ما وراء النهر^(٧٢) استمرت ذرية تيمور لما يقرب من قرن ولم يؤسسوا امبراطورية دائمة إلا فى الهند باسم مغول دلهى العظام^(٧٣).

وفى الأناضول ، كان الأثر الوحيد والأخير لغزو تيمور هو التدفق الجديد للأتراك

(٧٠) للإطلاع على سيرة تيمور أنظر Bouvat, *L'Empire Mongol, 2me phase, passim*, esp. pp. 58-63.

(٧١) Heyd, *op. cit.* ii, pp. 65-7.

(٧٢) (المترجم) ما وراء النهر: Transoxiana or Transoxania اقليم تاريخى فى وسط آسيا شرق نهر جيحون (Amu Darya (Oxus River) ، وغرب نهر سيحون (Syrdarya (Jaxartes River) وهى حاليا فى جمهورية أوزبكستان وأجزاء من جمهوريتى تركمانستان وكازاخستان . كان مركزا حضاريا عظيما فى القرن الخامس عشر ومركز الإمبراطورية التيمورية.

(٧٣) Bouvat, *op. cit.* pp. 84 ff.

والتركان ومن ثم تعزيز جذور القوة العثمانية . وعندما مات تيمور تولى أولاد ييازيد ميراث أبيهم . وراحوا يحاربون بعضهم البعض لست سنوات ، وأتاحت الحروب الأهلية للقوى المسيحية فرصة أخرى لوقف مزيد من النمو فى القوة العثمانية ، إلا أن القوى المسيحية لم تهتبل هذه الفرصة . واستعاد الامبراطور البيزنطى بدبلوماسيته قليلا من المدن الساحلية ، وسمح لفرسان رودس ببناء حصن على الأرض الرئيسية المواجهة لجزيرتهم ، فى بودرون ، وهي هاليكارناسوس القديمة . ولم يُكتسب شئ آخر . وعندما أصبح محمد الأول السلطان الوحيد سنة ١٤١٢م ، كانت الإمبراطورية العثمانية سليمة لم يمسه أذى . وكان محمد حاكما مسالما يجنب الحروب العدوانية ، وقد أعاد تنظيم سلطانه فى حزم ؛ وعندما مات سنة ١٤٢١م كان العثمانيون أقوى من ذى قبل (٧٤).

١٤٤٤م : الحملة إلى فارنا

بدأ خليفة محمد الأول ، مراد الثانى ، عهده بمحاولة الاستيلاء على القسطنطينية ، بيد أنه كان ما يزال يفتقر إلى المدفعية الثقيلة والسفن . وبعد أن دافع اليونانيون عن عاصمتهم فى شجاعة بدون مساعدة خارجية ، من يونية إلى أغسطس ١٤٢٢م ، تغلب مراد عن الحصار وركز انتباهه على غزوات فى شبه الجزيرة اليونانية ، وفى آسيا ، وعبر الدانوب (٧٥). وفى مجمع فلورانس الذى عقد فى ١٤٣٩م وافق الامبراطور جون الثامن - خليفة مانويل - فى حالة من اليأس على إخضاع كنيسة لروما ؛ وأنكر شعبه هذا الاتحاد ، وكانت مكافأته ضئيلة فى المقابل (٧٦). وفى ١٤٤٠م نادى البابا إيوجينوس الرابع بحملة صليبية جديدة ؛ وبعد ذلك بأربع سنوات أعلن الزعيم الألبانى سكاندربرج الحرب على الأتراك وانضم اليه سيده ملك الصرب جورج ، ووعد البابا نفسه وملك أراجون بأن يرسل كل منهما عشرة غلايين إلى الشرق ؛ وقام ابن سيجيسموند من السفاح ، جون كورفينوس ، الملقب هونيادى ، حاكم ترانسيلفانيا باسم الملك فلاديسلاف ، بأعداد العدة لقيادة الجيش الهنجارى عبر الدانوب . بيد أنه بعد مناوشات قليلة شعر الحلفاء باليأس ووافقوا على هدنة لعشر سنوات تم التوقيع عليها فى

(٧٤) Hammer, *Histoire de l'Empire Ottoman* (trans. Helbert), ii, pp. 120 ff

(٧٥) *Ibid.* ii, pp. 159 ff.

(٧٦) Vasiliev, *op. cit.* pp. 672-4.

زيجيدين في يونية ١٤٤٤م^(٧٧) ثم أعد مراد العدة للإبتعاد بجيشه للتعامل مع أعداء في الأناضول ؛ وعلى الأثر أقنع المندوب البابوي المصاحب للجيش - الكاردينال حوليان سيزاريني - قادة الجيش بأن القسم الذي يُقسم لكافر يُعد قسما باطلا، وحثهم على التقدم . ورفض ملك الصرب الأرثوذكسي هذه الفتوى وأعلن أنه لن يسمح للزعيم الألباني سكندربرج بالبقاء مع الجيش ، واعترض جون هونيادي على الفتوى ولكنه ظل في موقع القيادة ؛ وقاد جيش التحالف المؤلف من عشرين ألف جندي تقريبا إلى فارنا حيث وصلوا في وقت مبكر من نوفمبر ١٤٤٤م ؛ وعلى إثر التحذيرات التي جاءت مراد عن انتهاكهم للمعاهدة ، سارع إلى مقابلتهم على رأس جيش يفرق جيشهم ثلاثة أضعاف . ونشبت المعركة في العاشر من نوفمبر . وقاوم المسيحيون بشجاعة ، وكان مراد قد علّق المعاهدة المنتهكة في رايته وهو في المعركة ، وفي اللحظة الحاسمة كان صوته يدوي قائلا : "أيها المسيح ، إن كنت ربا كما يدعى أتباعك ، فعاقبهم على نقضهم العهد" ، واستجيب دعاؤه وانتصر جنوده ؛ وكاد الحلفاء المسيحيون أن يبادوا ، وقتل الملك فلاديسلاف الذي كان مع جنوده ، كما قتل الكاردينال الخزون . وهرب هونيادي مع حفنة من بقايا جيشه^(٧٨) .

وترتب على ما بذله سكاندربج من جهود شجاعة انقاذ استقلال ألبانيا لعشرين سنة أخرى ؛ وعلى الرغم من الهزيمة الفاجعة التي لحقت بجون هونيادي في معركة الأيام الثلاثة في ساحة كوسوفو المشؤومة سنة ١٤٤٨م ، فقد حال بين السلطان وعبور الدانوب طوال حياته^(٧٩) على أنه عند وفاته سنة ١٤٥٦م ، كان الأتراك قد حققوا ما كان يتطلع إليه العالم الإسلام منذ أيام النبي ﷺ . ذلك أنه في سنة ١٤٥١م كان مراد الثاني قد خلفه ابنه محمد الثاني ، وهو شاب في الحادية والعشرين من عمره ذو طاقة وإقدام واقتدار لا تحدهما حدود ، وقد حدد لنفسه هدفه الأول ، ألا وهو الإستيلاء على القسطنطينية . ولا مجال في هذه الصفحات لسرد القصة الرائعة الفاجعة لآخر أيام بيزنطة . فأما اليونانيون ، الذين انقسموا على أنفسهم في معاداتهم لحكامهم الذين باعوا كنيستهم لروما ، فقد انتظموا في شجاعة فائقة لاحتمال الألم الأخير ؛ وأما الغرب فقد أرسل من عوننا ضئيلا ما يبعث على اليأس على ما فيه من اقدام ؛ وأما

(٧٧) Hammer, *op. cit.* ii, pp. 288-302.

(٧٨) See Halecki, *The Crusade of Varna, passim*

(٧٩) Hammer, *op. cit.* ii, pp. 322-7.

السلطان ، فكان له من وفرة الموارد وحسن الاستعداد وغلبة الإدارة، ما جعل النصر مآله . وما كان انتصاره انتصارا لهيبته وحسب ، فقد كانت بيزنطة تختصر منذ وقت طويل ، وضمن موتها دوام بقاء الأتراك في أوروبا . ومكنهم من السيادة على البحار الشرقية ، وكان يؤذن بانقضاء امبراطوريتي جنوا والبندقية ، ومملكة قبرص، وفرسان المستشفى في رودس؛ وأتاح للسلطان حرية الاندفاع بجيوشه حتى بوابات فيينا^(٨٠).

١٤٦٤م : البابا بيوس الثاني آخر الصليبيين

تحقق الجميع في سائر أنحاء أوروبا من أن سقوط القسطنطينية كان علامة على انتهاء عصر . ولم يكن نبأ سقوطها غير متوقع ؛ وإن أدى إلى ندم مرير. ومع ذلك ، وبخلاف الأمراء الذين تتهدد الأخطار حدودهم مباشرة ، لم يعبأ أحد بأن يتخذ اجراء ؛ سوى الكاردينال نونسيو في ألمانيا ، وهو عالم الإنسانيات الكبير إينياس سيلفيوس ، الذى حاول إيقاظ الغرب لأداء واجب تأخر عن مواعده . بيد أن خطبه التى ألقاها فى المجالس الألمانية لم تسفر عن شئ ، وأنبأت خطاباته التى أرسلها إلى البابا عن خلاصه من الهم . وفى ١٤٥٨م أصبح هو نفسه البابا تحت إسم بيوس الثاني ؛ ودأب طوال فترة بابويته على أن يخلق من جديد حملة صليبية على غرار ما كان يرسله أسلافه؛ وفى ١٤٦٣م بدا أن مشروعه على وشك بلوغ الغاية؛ فقد جاء اكتشاف مناجم الشبّة فى الولايات البابوية فى الوقت المناسب لتزويده بعوائد غير متوقعة تهدد بكسر احتكار الإتراك للشبّة . وكان دوج البندقية الجديد يؤيد الحرب على ما يبدو ؛ وكان ملك هنجاريا قد سالم الامبراطور أخيرا ، فبات تواقا إلى تحالف مسيحي ؛ وأظهر دوق برجندى ، جون الطيّب ، اهتماما مرحّبا . وقد كان القرار الكنسى الصادر فى أكتوبر بمثابة انعكاس للتفاؤل البابوي . على أنه بمرور الشهور خبت جذوة الحماس ؛ ولم يقدم للبابا مساندة مادية سوى الهنجاريين الذين كانوا يواجهون حربا تركية على نحو أو آخر. وتردد البنادقة ؛ ولم تكن أي من المدن الإيطالية على استعداد للمجازفة بما سوف يجلبه قطع العلاقات مع السلطان من ضياع للتجارة . وكتب دوق برجندى بأن مكائد ملك فرنسا تجعل من المستحيل عليه مغادرة أراضيه ؛ وقرر البابا بشجاعة أنه سوف يمول الحملة الصليبية ويقودها بنفسه ؛ وبناء على أوامره استجمع وكلاؤه أسطولا من

(٨٠) لا يزال أفضل تاريخ لسقوط القسطنطينية هو ما أورده Pears فى "دمار الإمبراطورية اليونانية The Destruction of the Greek Empire, pp. 237 ff. See also Vasiliev, op. cit. pp. 647-55

الغلايين فى أنكونا ؛ وفى ١٨ يولية ١٤٦٤ م ، وبرغم ما كان يبدو عليه من الإنهاك وضعف الصحة ، أخذ الصليب فى وقار أثناء قداس فى كنيسة القديس بطرس .

وبعد أيام قلائل انطلق قاصدا ميناء الإنجار . ورأى فيه المحيطون به رجلا ميتا ، وأخفوا عنه حقيقة مؤداها أنه لم يخذُ حذوه أى من أمراء أوروبا ، وأنه ليست هناك جيوش تزحف وراءه إلى الميناء لتركب غلايينه المتجهة إلى الشرق ؛ بل إنهم عندما اقترب من ميناء أنكونا أسدلوا ستائر محفته حتى لا يرى الطرقات وقد اكتظت ببجارة أسطوله بعدما هجروا سفنهم وقد غنّوا السير عائدين إلى أوطانهم . ووصل أنكونا يوم ١٤ أغسطس ، لا لشيء إلا ليموت فيها . وشملته الرحمة بأن خفيت عليه حقيقة انهيار حملته الصليبية انهيارها التام^(٨١) .

وقبل أربعة قرون تقريبا ، كان تبشير البابا إيربان الثانى بالحملة الصليبية يرسل الرجال بالألوف مخاطرين بحياتهم فى الحرب المقدسة ؛ أما الآن ، فكان كل ما فى وسع البابا ، الذى أخذ هو نفسه الصليب ، أن يجمع حفنة من المرتزقة الذين هجروا القضية من قبل أن تبدأ الحملة . لقد ماتت الروح الصليبية .

(٨١) For Pius II see Atiya, *op. cit.* pp. 227-30; Hefele-Leclercq, *Histoire des Conciles*, vii, 2, pp. 1291-352.

الفصل الثانى:

إجمال

إجمال

"والذى يزيد علما يزيد حُزنا"

(جامعة ١ : ٨١)

كانت الحملات الصليبية قد أطلقت لإنقاذ العالم المسيحي الشرقي من المسلمين ؛ وعندما انتهت الحملات الصليبية بات العالم المسيحي الشرقي كله تحت حكم المسلمين. وعندما خطب البابا إيربان خطبته العظيمة فى كليرمونت بدا الأتراك وقد أوشكوا على تهديد البوسفور ، وعندما بشر البابا بيوس الثانى بآخر حملة صليبية كان الأتراك يعبرون نهر الدانوب . ومن بين آخر الثمار التى أثمرتها الحركة أن سقطت جزيرة رودس فى أيدي الأتراك سنة ١٥٢٣م ؛ أما قبرص ، فقد دمرتها حروبها مع مصر وجنوا إلى أن ضمتها البندقية ، ثم آلت فى نهاية الأمر إلى الأتراك كذلك سنة ١٥٧٠م ؛ ولم يتبق لغزاة الغرب سوى حفنة من الجزر اليونانية ظلت البندقية تحتفظ بها بصورة مقلقلة . ولم يتوقف التقدم التركي بأي جهد متناسق بذله العالم المسيحي ؛ وإنما أوقفته أقرب

الدول اهتماما بالقضية وهي البندقية وامبراطورية هابسبرج^(١)، بينما دأبت فرنسا، وهي الزعيم القديم للحرب المقدسة، على مساندة الكفرة. ولقد بدأ انهيار الإمبراطورية العثمانية لفشلها في إيجاد حكومة على كفاءة تعينها على إدارة ممتلكاتها الشاسعة، إلى أن باتت غير قادرة على أن تتصدى لطموحات حيرانها ولا أن تخمد الروح الوطنية في رعاياها المسيحيين، وهي الروح التي يرجع الفضل في بقائها للكنائس التي حاول الصليبيون جهدهم التدمير استقلالها.

وليست الحركة الصليبية برمتها، من المنظور التاريخي، سوى إخفاق تام؛ ذلك أن نجاح الحملة الصليبية الأولى، وهو بمثابة معجزة، أو يكاد، قد أنشأ الدويلات الفرنجية في أوتريميه؛ وبعد ذلك بقرن من الزمان، عندما بدا أن كل شيء قد ضاع، جاءت الحملة الصليبية الثالثة بمجدها الشجاع لتحافظ على تلك الدويلات لمائة عام آخر. على أن مملكة القدس الضئيلة وأخواتها الإمارات كانت نتاجا واهيا لطاقة لها حماس كبير. فطوال ثلاثة قرون لم يكد هناك زعيم في أوروبا إلا وأقسم بحماس في وقت ما على الذهاب إلى الحرب المقدسة؛ ولم يكن هناك بلد تقاعس عن إرسال الجنود للحرب من أجل العالم المسيحي في الشرق؛ وكانت القدس في ذهن كل رجل وكل امرأة؛ ومع ذلك، كانت الجهود المبذولة للإستيلاء على المدينة المقدسة أو لاستعادتها يحكمها الهوى والبلادة على نحو خاص. ولم يكن لتلك الجهود ما كان يُرتجى من الأوروبيين الغربيين من أثر على التاريخ العام. إن عصر الحملات الصليبية واحد من أهم العصور في تاريخ الحضارة الغربية؛ فعند بدايته، كانت أوروبا الغربية تنهض لتوها من فترة طويلة من الغزوات البربرية التي نطلق عليها العصور المظلمة، وعند نهايته، كانت الزهرة العظيمة التي نطلق عليها "النهضة" قد بدأت تفتح لتوها؛ غير أننا لا نستطيع أن نعزو أي شق من هذا التطور إلى الصليبيين مباشرة، فلا شأن للصليبيين بما ساد الغرب من أمن جديد مكن التجار والدارسين من الإرتحال كما يحلو لهم. لقد أتاحت بالفعل إمكانية الحصول على ما تناهى إليه العالم الإسلامي من علم عن طريق أسبانيا؛ وكان الطلاب، مثل جربرت (أوف أوريلاك)^(٢)، يرتادون مراكز

(١) (المترجم) هابسبرج: Hapsberg إسم أسرة حاكمة حكمت النمسا ثم النمسا والمجر (١٢٧٨-١٩١٨) وأسبانيا (١٥١٦-١٧٠٠) والإمبراطورية الرومانية المقدسة (١٤٣٨-١٨٠٦)

(٢) (المترجم) جربرت (أوف أوريلاك): Gerbert of Aurillac هو البابا سيلفستر الثاني Sylvester II، ولد في ٩٤٥م تقريبا في أوريلاك بفرنسا، ومات يوم ١٢ مايو ١٠٠٣م في روما، اشتهر بإنجازاته الدراسية ومجالات التقدم التي أدخلها في التعليم، وأحكامه السياسية المتبصرة.

خريطة رقم (٥) الشرق الفرنجي



التعليم الأسبانية . وطوال الحقبة الصليبية ذاتها ، كانت صقلية ، وليس أراضى أوتريميه ، بمثابة مكان التقاء الثقافات العربية واليونانية والغربية ؛ ومن الناحية الفكرية لم تضاف أوتريميه شيئا على وجه التقريب^(٣) . وليس أدل على ذلك من أن رجلا له وزنه مثل القديس لويس يمضى سنوات عدة هناك دون أن تضيف شيئا إلى نظراته الثقافية . وإن كان الامبراطور فريدريك الثانى قد اهتم بالحضارة الشرقية ، فإنما يعزى ذلك إلى نشأته فى صقلية . ولم تسهم أوتريميه فى تقدم الفن الغربى ، خلا عالم العمارة العسكرية ، وربما فى تقديم القوس المدبب ؛ وفى مجال فن الحرب - بخلاف بناء الحصون - أظهر الغرب المرة تلو الأخرى أنه لم يتعلم شيئا من الحملات الصليبية ؛ إذ تكررت نفس الأخطاء فى كل حملة من الحملة الصليبية الأولى إلى حملة نيكوبوليس الصليبية . لقد كانت ظروف الحرب فى الشرق تختلف اختلافا شاسعا عنها فى أوروبا الغربية بحيث كان الفرسان المقيمون فى أوتريميه هم الذين اهتموا وحدهم باسترجاع التجارب السابقة . ومن الجائز أن يكون مستوى المعيشة العام فى الغرب قد ارتفع نتيجة لرغبة الجنود والحجاج العائدين فى تقليد أوجه الراحة التى لمسوها فى أوتريميه ؛ على أن التجارة بين الشرق والغرب لم تكن تعتمد عليهم فى وجودها ، برغم ازديادها نتيجة للحملات الصليبية.

الحملات الصليبية والبابوية

ولم تترك الحملات الصليبية بصماتها إلا على بعض جوانب التطورات السياسية لأوروبا الغربية . ذلك أن أحد الأهداف التى أعرب عنها البابا إيربان فى تبشيره بالحملات الصليبية هو أن يجد البارونات المشاغبون المحاربون شيئا مفيدا يفعلونه بدلا من إنفاق طاقاتهم فى الحروب الأهلية فى الوطن ؛ وليس هناك من شك فى أن إزاحة قطاعات كبيرة من ذلك العنصر الجامح وإرساله إلى الشرق قد ساعد على تنامي السلطة الملكية فى الغرب ، مما كان له أكبر الآثار الضارة بالبابوية . على أن البابوية ذاتها قد أصابت فائدة فى الوقت نفسه ؛ ذلك أن البابا قد أطلق الحملة الصليبية كحركة مسيحية دولية تحت قيادته ، وكان لنجاحها الأولى أن ازاد كثيرا من سلطته ومكانته . وكان الصليبيون جميعا ينتمون إلى رعيته ؛ فغزواتهم هي غزواته . ولأن البطرقيات القديمة فى أنطاكية والقدس والقسطنطينية اندرجت تحت سلطانه الواحدة تلو

(٣) للإطلاع على حياة أوتريميه الفكرية أنظر أدناه المرفق الثانى.

الأخرى ، فقد بدا أن مطالبته بأن يكون رئيس العالم المسيحي كان لها ما يبررها . وفى الشؤون الكنسيّة اتسع سلطانه اتساعا كبيرا ؛ فقد اعترفت المجامع التى تعقد فى أي مكان من العالم المسيحي بسيادته الروحية ؛ وكان المبشرون التابعون له يرتحلون إلى أقاصى الأرضى كأثيوبيا والصين . وكانت الحركة كلها بمثابة حافز لتنظيم المحكمة العليا البابوية على أساس دولي يتجاوز للغاية عما كان عليه فيما سبق ، وقد لعبت دورا كبيرا فى تطوير القانون الكنسي^(٤) . ولو أن الباباوات قنعوا بمحصن المنافع الكنسية وحسب ، لتوفر لهم المبرر القوي للرضا عن أنفسهم ؛ بيد أن الآونة لم تكن مهية بعد للفصل الواضح بين السياسة الدينية والدينية ؛ وفى السياسة الدينية اعترى البابوية خداع النفس ؛ فليست الحملة الصليبية الجديدة بالاحترام إلا إذا كانت موجهة ضد الكفرة ؛ والحملة الصليبية الرابعة تم توجيهها ، إن لم يكن تبشيرها ، ضد مسيحي الشرق ، تلتها حملة صليبية ضد هراطقة جنوب فرنسا ومن أظهر التعاطف معهم من النبلاء ، وأعقب ذلك حملات صليبية تم التبشير بها ضد هوهنشتوفن ؛ إلى أن انتهى الأمر بالحملة الصليبية على أنها تعنى أية حرب ضد أعداء السياسة البابوية ، واستخدمت ما تملكه الكنيسة من روحانيات غفرانية وثواب أخروي لدعم طموحات الكرسي البابوي . وأفلح الباباوات فى تدمير أباطرة الشرق والغرب على السواء ، مما زج بهم فى أوضاع مشينة فى الحرب الصقلية والأسر الأفينيوني . لقد غلّقت الحرب المقدسة لتصبح مسرحية هزلية مأساوية .

الحملة الصليبية والإسلام

وبغض النظر عن اتساع سلطة روما الروحانية ، فإن أهم فائدة حصل عليها العالم المسيحي الغربى من الحملات الصليبية كانت فائدة سلبية . ذلك أنه قبل ابتداء الحملات الصليبية كانت أهم مراكز الحضارة فى الشرق متمركزة فى القسطنطينية وفى القاهرة ، وقبل انقضائها نقلت الحضارة مراكزها إلى إيطاليا وبلدان الغرب الصغيرة . ولم تكن الحملات الصليبية السبب الوحيد لإضمحلال العالم الإسلامى ؛ فالغزوات التركية دمرت فعلا الخلافة العباسية فى بغداد ، وحتى بدون الحملات الصليبية كان لا بد للغزوات التركية أن تسقط فى نهاية الأمر الخلافة الفاطمية فى مصر ؛ ولولا استفزازات الحرب المتواترة ضد الفرنج لإكتمل اندماج الأتراك فى العالم

(٤) See Ullmann, *Medieval Papalism*, pp. 120-1, 128-9.

العربي ولقدموا له حيوية وقوة جديدين دون تدمير وحدته الأساسية . وكانت الغزوات المغولية أشد تدميرا للحضارة العربية ، وليس فى الإمكان إلقاء اللوم على الحملات الصليبية لمجئ المغول . على أنه لولا الحملات الصليبية لكان العرب أقدر بكثير على التصدى للعدوان المغولى ، وكانت الدولة الفرنجية الدخيلة بمثابة قرح متفبح لا سبيل للمسلمين إلى نسيانه ؛ وطالما شغلهم القرح فلا سبيل قط لأن يركزوا كل انتباههم على المشاكل الأخرى .

بيد أن الضرر الحقيقي الذى ألحقته الحملات الصليبية بالإسلام كان أكثر خبثا . كانت الدولة الإسلامية قائمة على الحكم الدينى ، ويتوقف صلاحها السياسى على الخلافة المتمثلة فى خط من الملوك الدينيين وهبتهم الأعراف استخلافا وراثيا . ولقد جاء الهجوم الصليبي عندما كانت الخلافة العباسية عاجزة سياسيا أو جغرافيا عن قيادة الإسلام للتصدي له ؛ ولم تستطع الخلافة الفاطمية - بالنظر إليها من منظور يخالف المنظور السننى - أن تسيطر على نطاق واسع يحظى بما يكفى من الولاء . وكان الرجال الذين نهضوا لإحراق الهزيمة بالمسيحيين ، مثل نور الدين وصلاح الدين ، شخصيات بطولية جسورة نالت الاحترام والولاء ، ذلك أنه لم يكن ممكنا قط قبول الأيوبيين ، برغم ما كانوا عليه من اقتدار بالغ ، كأعلى قادة للإسلام لأنهم ليسوا بخلفاء ؛ ولم يكونوا من نسل النبوة ولم يكن لهم مكان ملائم فى الحكم الدينى الإسلامى . ولقد يسر تدمير المغول لبغداد مهمة المسلمين على نحو أو آخر ؛ فقد تمكن المماليك من إقامة دولة دائمة فى مصر لأنه لم يعد فى بغداد خلافة شرعية ، سوى خط مصطنع قابع فى الظل تحت الحجز التشريفى فى القاهرة . وفى نهاية الأمر حل سلاطين آل عثمان المشكلة بأن تولوا الخلافة هم أنفسهم ؛ وقبلهم المسلمون لشدة قوتهم ، ولكنه لم يكن قبولاً بكل الإخلاص لأنهم كانوا كذلك مقتصين ولا ينتسبون إلى بيت النبوة . ولقد سمحت المسيحية منذ البداية بالفصل بين ما لقيصر وما للرب ، ومن ثم ، لم تفقد المسيحية حيويتها عندما انهار مفهوم مدينة الرب السياسية غير المقسمة الذى كان سائدا فى العصر الوسيط ، لم تعطل حيويتها ؛ لكن الإسلام وحدة سياسية ودينية فى آن واحد ؛ وقد تصدعت هذه الوحدة قبل الحملات الصليبية ، وقد تسببت أحداث تلك القرون فى توسيع الصدع بحيث لم يكن هناك سبيل إلى رتقه . وقد أنجز سلاطين عثمان العظام إصلاحا سطحيا ولكن إلى حين ؛ فقد دام الصدع حتى يومنا هذا .

غير أن الضرر الأكبر تمثل فيما تركته الحرب المقدسة من آثار على روح الإسلام . فأي دين يقوم على أساس تنزيل شامل لا بد من أن يُظهر بعض الإزدراء لغير المؤمنين ؛

ولكن الإسلام لم يكن متعصبا فى أيامه الأولى ؛ واعتبر النبى أن اليهود والمسيحيين تلقوا شيئا من التنزيل ولذلك لا يتعين اضطهادهم ؛ وفى ظل الخلفاء الأوائى لعب المسيحيون دورا مشرفا فى المجتمع الإسلامى ، وكان هناك عدد كبير لافى للنظر من المفكرين والكتاب العرب من المسيحيين الذين قدموا دافعا فكريا مفيدا ؛ ذلك أن المسلمين ، باعتمادهم على كلام الله ، انصرفوا بكل وقتهم وجهدهم إلى القرآن ، وركنوا إلى السكون ولم يذهبوا بتفكيرهم مذاهب شتى . كما أن التنافس بين الخلافة وبيزنطة المسيحية لم يكن يخلو من الود ؛ فقد كان الدارسون والتقنيون فى حيثة وذهب بين الإمبراطوريتين مما عاد بالفائدة المتبادلة . وكان فى الحرب المقدسة التى بدأها الفرنج دمار تلك العلاقات الحسنة ؛ وما أظهره الصليبيون من تعصب وحشى رد عليه المسلمون بتعصب آخذ فى التزايد ، أما ما كان يتحلى به صلاح الدين وأسرته من إنسانية واسعة الأفق ، فسرعان من صاق نطاقه وأصبح شيئا نادرا بين المؤمنين . وبحلول عصر المماليك بات المسلمون كالصليبيين على نفس القدر من ضيق الأفق ، وكان رعاياهم المسيحيون من بين أول الذين عانوا ؛ ولم يستعيدوا قط ما ساد بينهم وبين جيرانهم وأسيادهم المسلمين من ألفة ؛ فحبت حياتهم الفكرية ، وانطفأ معها ما كان لها من تأثير واسع على الإسلام . وباستثناء فارس بما لها من تقاليد هرطيقية مزعجة ، توارى المسلمون خلف أستار عقيدتهم ؛ وليست العقيدة المتعصبة بقادرة على التقدم .

الحملات الصليبية والعالم المسيحي الشرقى

كان ما ألحقته الحملات الصليبية من ضرر بالإسلام ضئيلا بمقارنته بما ألحقته من أضرار بالعالم المسيحي الشرقى . وقد أمر البابا إيربان الثانى الصليبيين بالذهاب إلى الشرق عوننا واستنقاذا لمسيحي الشرق ؛ وكان استنقاذا غريبا ؛ إذ عند انتهاء كان العالم المسيحي الشرقى يعيش فى ظل سيطرة الكفرة ، ولم يؤد ما بذله الصليبيون من جهد جهيد إلى تخليصه . وعندما استقر الصليبيون فى الشرق لم تكن معاملتهم لرعاياهم المسيحيين بأفضل مما كان يفعله الخليفة من قبلهم ، ولا شك فى أن الصليبيين كانوا فى واقع الأمر أشد قسوة لأنهم تدخلوا فيما كانت تمارسه الكنائس المحلية من ممارسات دينية ؛ وحينما طردوا تركوا المسيحيين المحليين بلا حماية يتحملون سخط الغزاة المسلمين . ومما لا خلاف عليه أن المسيحيين الوطنيين تلقوا الصاع صاعين من هذا السخط بسبب اعتقادهم اليائس بأن المغول سوف يعطونهم الحرية الدائمة التى لم

يحصلوا عليها من الأتراك ، وكان عقابهم قاسيا وكاملا ؛ إذ أنقلتهم القيود القاسية والمهانة، وانتهى بهم الأمر إلى إهمالهم. حتى أراضيهم لم تسلم من العقاب ؛ فقد خرب الخط السورى الساحلى الجميل واستحال قفرا . أما المدينة المقدسة ذاتها فقد غرقت مهملة فى اضمحلال طويل لا اطمئنان فيه .

وواكبت مأساة المسيحيين السريان فشل الحملات الصليبية ؛ لكن تدمير بيزنطة ترتب على سوء نية عمدى . إن الكارثة الحقيقية للحملات الصليبية تتمثل فى عجز العالم المسيحى الغربى عن فهم بيزنطة . وطوال العصور كان هناك دائما سياسيون أملون يعتقدون أن شعوب العالم سوف يتحابون ويتفاهمون لو أنهم تقاربوا . وذلك وهم مأساوي . ذلك أنه طالما كان هناك تفاعل بين بيزنطة والغرب ، وإن قل ، ظلت العلاقة بينهما علاقة ودودة ؛ وقد وجد الحجاج المرتزقة الغربيون الترحيب فى المدينة الإمبراطورية وعادوا إلى أوطانهم يقصون الكثير عن روائعها ، غير أنهم لم يكونوا كثرة يمكنها أن تحدث تلاقيا؛ وكان هناك بين الامبراطور البيزنطى والقوى الغربية ما يختلفون عليه أحيانا؛ فكان موضوع الخلاف ينتهى فى الرقت المناسب أو تبتكر بمهارة صيغة ما لتجزئته . وكانت هناك مسائل دينية مستديمة يفاقم من حدتها مطالب البابوية الهلديبراندية^(٥)؛ وحتى مع ذلك ، كان بالإمكان الاتفاق على بعض ترتيبات العمل . على أنه فى وجود إصرار من النورماندين على التوسع فى شرق البحر المتوسط ، بدأ عصر جديد باعث على القلق . وتناطحت المصالح البيزنطية فى صراع حاد مع مصالح الغرب، وقد تم صد النورماندين ، وأطلقت الحملات الصليبية كحركة مصالحة . على أنه كان هناك سوء فهم منذ البداية ؛ إذ ظن الامبراطور البيزنطى أن واجبه المسيحى المحافظة على حدوده لتكون بمثابة الحصن ضد الأتراك الذين اعتبر أنهم هم الأعداء ؛ وكان الصليبيين يرغبون فى مواصلة التقدم حتى الأراضي المقدسة ؛ إذ جاءوا ليدخلوا فى حرب مقدسة ضد الكفرة من كافة الأجناس . وبينما فشل قادة الصليبيين فى تفهم سياسة الامبراطور ، وجد الألوف من الجنود والحجاج أنهم فى أرض بدا لهم فيها أن اللغة والعرف والدين أشياء غريبة تستعصى على فهمهم ومن ثم فهم فى المكان الخطأ؛ لقد توقعوا أن يجدوا الفلاحين والمواطنين فى الأراضي التى يمرون فيها لا يماثلونهم

(٥) (المترجم) الهلديبرانية نسبة الى البابا Hildebrand وهو البابا جريجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥) ويشتهر بإصراره المفرط على سلطة الكنيسة . أصلح الكنيسة وألغى السيمونية (بيع المناصب الكنسية) وغيرها، وطرده الامبراطور هنرى الرابع من الكنيسة مرتين ، وأعفى أتباع الامبراطور من الولاء له... الخ.

وحسب، وإنما يرحبون بهم كذلك ؛ لقد أصابتهم خيبة أمل مزدوجة ؛ ولأنهم فاتهم أن يدركوا أن ما أتوه من سرقة وما اعتادوه من تخريب، لم يكن ليكسبهم إعجاب ضحاياهم أو احترامهم ، فقد شعروا بالأذى والغضب والحقد ؛ ولو قد أتيح الاختيار للجندي الصليبي العادي ، لاختار مهاجمة القسطنطينية وتخريبها قبل ذلك بكثير. غير أن قادة الحملة الصليبية كانوا بآدىء الأمر مدركين غاية الإدراك لواجبهم المسيحي وسيطروا على أتباعهم ، ورفض لويس السابع قبول ما نصح به بعض نبلائه وأساقفته من حمل السلاح ضد المدينة المسيحية ؛ ورغم أن هذه الفكرة داعبت فريديريك بارباروسا ، إلا أنه سيطر على تمالك نفسه وتجاوز المدينة . وترك أمر مهاجمتها للأوغاد الجشعين الذين وجهوا الحملة الصليبية الرابعة ، فانتهزوا فرصة ضعف بيزنطة الموقت ليخططوا لتدميرها وينفذوه .

دمار بيزنطة

كانت امبراطورية القسطنطينية اللاتينية ، وقد تصور الغربيون أنها آثمة ، طفلا سقيما للغرب الذى دفعه الحرص على رعاية إلى التضحية باحتياجات أبنائه فى الأراضى المقدسة . وكان الباباوات أنفسهم متلهفين على إبقاء اليونانيين الكارهين تحت سيطرتهم الكنسية أكثر من تلهفهم على إنقاذ القدس ؛ وعندما استعاد البيزنطيون عاصمتهم ، دأب كبار الكهنة والسياسيون الغربيون سواء بسواء على العمل الجاد معا لاستعادة السيطرة الغربية . إن الحملات الصليبية لم تعد حركة لحماية العالم المسيحى، وإنما أصبحت حركة لإقامة سلطة الكنيسة الرومانية.

لقد كان إصرار الغربيين على غزو أراضى بيزنطة واستعمارها بمثابة كارثة على مصالح أوتريميه ؛ بل كانت كارثة أكبر على الحضارة الأوروبية ؛ وكانت القسطنطينية ما تزال مركز العالم المسيحى المتحضر . ونرى فى صفحات وليم هاردينغ الأثر الذى طبعته على الفرسان الآتين من فرنسا وإيطاليا للإستيلاء عليها : لم يكن بمقدورهم أن يصدقوا أن مثل هذه المدينة الفخيمة موجودة على ظهر الأرض ؛ لقد كانت دون المدن

كلها الحاضرة المتسيدة^(٦)؛ ولم يكن رجال الحملة الصليبية الرابعة - كشأن أغلب الغزاة البرابرة - يتوون تدمير ما وجدوه ، وإنما كانوا يرغبون فى المشاركة فيه والسيطرة عليه، بيد أن ما كان يتسلط عليهم من حشع وحمق ساقهم أعمال معول التخريب فى المدينة حتى دمروها تدميرا . وكان البنادقة دون غيرهم ، بما هم عليه من قدر أعلى من الإستنارة ، هم الذين تعرفوا على أكثر الأشياء نفعا فأنقذوها ؛ ولقد حصدت إيطاليا فى الواقع بعض المنافع من اضمحلال بيزنطة وسقوطها ، وأما الفرنج الذين استوطنوا الأراضى البيزنطية ، وبرغم ما أوجدوه فى تلال اليونان وأوديتها من حيوية رومانتيكية مصطنعة ، فقد استعصى عليهم أن يفهموا تقاليد الثقافة اليونانية التى طال عليها الزمن ؛ وأما الإيطاليون ، الذين لم تنقطع قط علاقتهم باليونانيين طويلا ، فكانوا أقدر على تقدير قيمة ما أخذوه . وعندما أذن اضمحلال بيزنطة برحيل علمائها وتفرقهم ، فتحت لهم إيطاليا ذراعيها مرحبة بهم . لقد كان انتشار الدراسات الإنسانية فى إيطاليا نتيجة غير مباشرة للحملة الصليبية الرابعة.

كانت النهضة الإيطالية فخارا للإنسانية . غير أنه من الأفضل لو أنها تحققت بغير تدمير العالم المسيحى الشرقى . وقد نجت الثقافة البيزنطية من صدمة الحملة الصليبية الرابعة . وفى القرن الرابع عشر وباكورة القرن الخامس عشر ازدهر الفن والفكر البيزنطيين على نحو رائع الوفرة ، لكن القواعد السياسية للإمبراطورية لم تكن آمنة ؛ وفى واقع الأمر ، لم تعد بيزنطة إمبراطورية منذ سنة ١٢٠٤م ، وإنما دولة بين دول كثيرة تضاهيها فى القوة أو أقوى ؛ ولما واجهتها عداوة الغرب ومنافسة جيرانها فى البلقان ، لم تعد قادرة على حراسة العالم المسيحى ضد الأتراك . إن الصليبيين أنفسهم هم الذين أقدموا عمدا على هدم دفاعات العالم المسيحى ، ومن ثم يسّروا للكفرة عبور المضائق والتوغل إلى قلب أوروبا . إن الشهداء الحقيقيين فى الحملات الصليبية ليسوا هم الذين سقطوا فى حطين أو أمام أبراج عكا ، وإنما هم الأبرياء من مسيحيى البلقان، وكذا مسيحيى سوريا والأناضول ، الذين كان مصيرهم القتل والإسترقاق.

أما عن الصليبيين أنفسهم ، فإن ما حققوه من أوجه الفشل البين لا تفسير له . لقد كانوا يحاربون لنصرة قضية الرب ؛ ولو أن الإيمان والمنطق كانا صحيحين لانتصرت

(٦) "Or poez savoir que mult esgarderent Costantinople cil qui onques mais l'avoient veüe; que il ne pooient mie cuidier que si riche ville petüst estre en tot le monde.... Muls nel poist croire se il ne le veüst a l'oïl le lonc et lé de la ville, qui de totes les autres ere souveraine" (Villehardouin, ed. Faral., i, p. 130)

قضية الرب تلك . وفي فورة النجاح الأولى وضعوا عنوانا لتواريخهم *Gesta Dei per Francos*، أى (الفرنج قاموا بعمل الرب) ، غير أن الحملة الصليبية الأولى أعقبتها سلسلة طويلة من الكوارث ، وحتى انتصارات الحملة الصليبية الثالثة لم يكتب لها تمام ولا يقين . لقد كانت هناك قوى شريرة أحبطت عمل الرب . وفي بادىء الأمر أمكن إلقاء اللائمة على بيزنطة ، وعلى الامبراطور المنشق بكنيستته ، وعلى الشعب الكنود الذى رفض الاعتراف برسالة الصليبيين الإلهية . وبعد الحملة الصليبية الرابعة لم يعد ممكنا لهذه الذريعة أن تظل قائمة ، ومع ذلك أخذت الأحوال تسوء بصورة مطردة ؛ وربما زعم المبشرون الأخلاقيون أن الرب كان غاضبا على محاربيه لما ارتكبوه من آثام ؛ وانطوى ذلك الزعم على شئ من الصدق وأن شئنا تفسيرا كاملا فإن الحملة انهارت عندما قاد القديس لويس جيشه إلى واحدة من أعظم الكوارث التى مر بها الصليبيون فى تاريخهم ؛ ذلك أن القديس لويس كان رجلا يظن عالم العصور الوسطى أنه طاهر الذيل بلا آثام . إن ما قضى على الحروب المقدسة فى واقع الأمر لم يكن الشر بقدر ما كان الغباء ؛ ولا ضير ، فتلك هى الطبيعة البشرية ، إذ يعترف المرء طواعية أنه آثم ولا يعترف بأنه أحق ؛ وليس فى الصليبيين من يعترف بأن ما ارتكبوه فعلا من جرائم لم يكن سوى جهل ضائق أفقه وبصيرة عمياء مستهترة.

كانت العقيدة أهم الدوافع التى استحثت الجيوش المسيحية على الاتجاه شرقا . ولاقت من الصعاب ما لا يخطر على قلب بشر كي تفوز بالنصر فى الحملة الصليبية الأولى التى بدا نجاحها معجزة من المعجزات ، ولذا توقع الصليبيون أن تستمر المعجزات لتنتقمهم فى أوقات الشدة ، ولأنهم كانوا على ثقة من تدخل المعجزات ، فقد أصبحوا متهورين . وظلوا حتى النهاية فى نيكوبوليس - كما كان حالهم فى أنطاكية - على يقين من أن السماء ستمد إليهم يد العون . ومرة أخرى ، جعلتهم عقيدتهم - بكل بساطتها - متعصين . لقد كان ربهم ربا غيورا ، ولم يكن بوسعهم يتفهموا أن ربهم يمكن أن يكون بنفس قوة اله المسلمين، وكان كل من يظهر تسامحا للكفار خائنا فى نظرهم، وحتى أولئك الذين يمارسون طقوسا تغاير طقوسهم فى عبادة كانوا مشارا ارياب وتأسى.

ودائما ما كانت هذه العقيدة الأصيلة مرتبطة بجشع لا حياء فيه . وقليل هم المسيحيون الذين يعتقدون دوما أنه من غير المناسب الربط بين عمل الرب واكتساب المزايا المادية ، وأن الصواب أن ينتزع جنود الرب الأراضى والثروة من الكفرة ، وأن سرقة الهراطقة والإنشاقين لها ما يبررها كذلك . لقد ساعدت الطموحات الدنيوية فى

إيجاد روح الأقدار التي كانت بمثابة الأساس للكثير من نجاح الحركة في أول أمرها. غير أن الجشع وشهوة القوة سيدان فيهما خطر؛ إذ أنهما يولدان قلة الصبر، ذلك أن حياة الإنسان قصيرة وهو يتعجل النتائج؛ ويولدان الغيرة، ذلك أن المناصب والممتلكات محدودة، ومن المحال إرضاء كل طالب. ولقد استدامت العداوات بين الفرنج الذين استقروا في الشرق وبين أولئك الذين جاءوا لمحاربة الكفرة والبحث عن الثروة؛ ونظر هؤلاء وأولئك إلى الحرب من وجهة نظر مختلفة، وفي خضم الحسد وانعدام الثقة والمكائد، لم تنهياً فرصة النجاح الكبير إلا للقليل من الحملات، وفاقم الجهل المشاجرات والافتقار إلى القدرة. وشيئا فشيئا راح المستعمرون يكتفون أنفسهم مع أسلوب الحياة والمناخ في الشرق؛ وبدأوا يتعلمون كيف يحارب أعداؤهم وكيف يصادقونهم. أما الصليبي الوافد حديثا، فقد وجد نفسه في عالم غريب عليه تماما، وهو عادة على قدر من التكبر يحول دون أن يسلم بنقائصه؛ فامتلاً نفورا من أبناء عمومته المستقرين في أوتريميه وأعرض عن الاستماع إليهم؛ وهكذا وقعت الحملة تلو الأخرى في نفس الأخطاء وفي نفس النهاية المؤسفة. وربما كان بوسع مستعمري أوتريميه أن يبلغوا نظرة أوسع ولكن جنود الغرب جاءوا ليحاربوا من أجل الرب المسيحي.

الافتقار إلى قائد

ولو كانت هناك قيادة قوية وذكية لكانت خليقة بأن تنقذ الحركة. غير أن الخلفية الإقطاعية التي جاء منها الصليبيون جعلت من الصعب قبول قائد من القواد. لقد كانت الحملات الصليبية من شأن البابا، ونادرا ما كان المندوبون البابويون جنرالات أكفاء. وكان هناك الكثير من الرجال المقتدرين بين ملوك القدس، لكن سلطتهم على رعاياهم كانت ضئيلة، وانعدمت سلطتهم على حلفائهم الزائرين. أما الأنظمة الدينية العسكرية، التي كانت توفر أروع الجنود وأكثرهم خبرة، فكانت مستقلة وقد سادت الغيرة فيما بينها. وبدأ في وقت من الأوقات أن الجيوش الوطنية التي يقودها الملك بمثابة سلاح أفضل؛ ولكن، على الرغم من أن الملك ريتشارد الإنجليزي، ذا العبقرية العسكرية، كان واحدا من القادة الناجحين القلائل بين الصليبيين، كانت الحملات الملكية الأخرى مشؤومة كلها بلا استثناء. وكان من العسير على أي عاهل أن يخرج في حملة لمدة طويلة في أماكن تبعد كثيرا عن أراضيه؛ وكانت إقامة قلب الأسد وإقامة

القدّيس لويس فى الشرق على حساب رفاهية إنجلترا وفرنسا . وكانت التكلفة المالية خاصة باهظة . وكان بمقدور المدن الإيطالية أن تجعل من الحملات الصليبية شيئا مربحا ؛ وربما كان النبلاء المستقلون الآملون فى العثور على الضياع أو التزوج من الوريثات فى أوترمييه يجدون عوضا عما تكبدوه من أموال ، أما إرسال الجيش الملكى إلى ما وراء البحار فكان مشروعاً باهظ التكلفة بأقل القليل من الأمل فى التعويض المادى ، ومن ثم يتعين جمع ضرائب خاصة فى سائر أنحاء المملكة ؛ ولا غرابة فى أن يفضل بعض الملوك من ذوى التفكير العملى ، مثل فيليب الرابع الفرنسى ، أن يجمع الضرائب ثم يظل ماكنّا فى بلده ولم يكن ممكنا فى أى حال العثور على القائد المثالى الجندى والدبلوماسى العظيم الذى يتوفر له وقت ومال ينفقه فى الشرق ، وإدراك واسع بالأساليب الشرقية . ولم يكن لنا فى واقع الحال أن نلاحظ تناهى الحركة الصليبية إلى الفشل بقدر ما نلاحظ أنه كان عليها أن تصيب نجاحا ، وأن على أوترمييه أن تبقى لمائتى عام بعد أن تحرز سوى نصر واحد بعد تأسيسها المشهود .

إن انتصار الحملات الصليبية إنما هو انتصار للعقيدة . وما العقيدة بلا حكمة إلا خطر مائل . وبمنطق قوانين التاريخ الصارمة ، فإن العالم كله يكفر عما يرتكبه كل مواطن فيه من جرائم وحماقات . وفى سياق تفاعل وتلاقى الشرق والغرب الطويل الذى نمت فيه حضارتنا ، كانت الحملات الصليبية حدثا فاجعا ومدمرا . وإذ ينظر المؤرخ وراءه عبر القرون إلى قصتها الرائعة ، لا بد وأن يجد أن إعجابه بها تغلله سحابة من الأسى لكونها شاهدا على قصور الطبيعة البشرية . لقد كان فيها كثير من الشجاعة وقليل من الشرف ، كان فيها كثير من الإخلاص وقليل من الفهم . لقد لوّثت المثل العليا بالقسوة والجشع ، ولطخت الجسارة والجلد بالورع الأعمى الضيق ؛ ولم تعد الحرب المقدسة أن تكون تزمنا طويلا من التعصب باسم الرب ، وما ذاك إلا إثم فى حق الروح القدس .

المرفقات:

المرفق الأول: المراجع الرئيسية لتاريخ الحملات
الصليبية المتأخرة
المرفق الثاني: الحياة الفكرية في أوتريميه

المرفق الأول

المراجع الرئيسية
لتاريخ الحملات الصليبية المتأخرة

(١) المراجع اليونانية

ليست المراجع اليونانية بذات أهمية إلا في تاريخ الحملة الصليبية الرابعة . وأهم مؤرخ لهذه القصة هو ^(١) Choniates Nictas ويتناول المؤرخ ^(٢) George Acropolites الحملة الصليبية الرابعة والفترة حتى الإسترجاع البيزنطى للمدينة . أما الفترة التى تلت ، فإن أهم تاريخ هو تاريخ George Pachymer ^(٣) .

ويتناول تاريخا المؤرخين القبرصيين اليونانيين ^(٤) George و Leontius Makhaeras و Bustron ^(٥) باقتضاب كبير الفترة السابقة على القرن الرابع عشر ^(٦) .

(١) انظر أعلاه ، الجزء الثانى ، ص ٥٢٧

(٢) Edited by Meisenberg in the Teubner series

(٣) Published in the Bonn Corpus

(٤) *Recital concerning the Sweet Land of Cyprus*, edited with a translation by Dawkins

(٥) edited in Sathas, vol. ii.

(٦) Neophytus غزو ريتشارد الأول لقبرص فى *De Calamitatibus Cypri*, edited by Stubbs and published as preface to the *Itinerarium* (see above, vol. ii, bibliography)

(٢) المراجع اللاتينية والفرنسية القديمة

تعتبر أهم مجموعة تواريخ تتناول أوتريميه من الحملة الصليبية الثالثة حتى سقوط عكا هي مجموعة استرسالات وليم الصوري William of Tyre الفرنسية القديمة . وحتى سنة ١١٩٨م يبدو أن تاريخ إرنول Ernoul وهو المصدر الرئيسى ، يبدو أنه مفقود ، ومنه التاريخ الموجود 'Ernoul' or Bernard the Treasurer والمخطوطتان C و G لتاريخ هرقل Estoire d'Eracles تعتبر أقرب النسخ ، والمخطوطات A and B المتماثلتان ، و D التى تختلف عنهما اختلافا طفيفا ، تعتبر مسودات أخرى . ومن سنة ١١٩٨م إلى سنة ١٢٠٥م تعتبر كل النسخ متطابقة . ومن سنة ١٢٠٥م قُدِّما يتطابق كل من 'Ernoul' و C و G و D من التاريخ Estoire حتى سنة ١٢٢٩م التى ينتهى فيها 'Ernoul' ثم تتبع المخطوطتان C و G باختلاف طفيف - المخطوطتين A و B من الـ Estoire الذى لا علاقة له منذ سنة ١٢٠٥م سوى القليل بتاريخ 'Ernoul' وتنتهى المخطوطة A فى سنة ١٢٤٨م ، وتستمر المخطوطات B, C and D حتى السنوات ١٢٦٦م و ١٢٧٥م و ١٢٧٧م . وفى تلك الأثناء يوجد استرسال آخر ، يعرف باسم مخطوطة Rothelin ، يغطى الفتى من ١٢٢٩م إلى ١٢٦١م ؛ وبقينا نشر فى مكان ما فى فرنسا^(٧) . وأما النسخة الموجودة من حوليات الأرض المقدسة Annals de Terre Sainte فيبدو أنها بجميع مختصر لإحدى مصادر استرسالات وليم . وأما مخطوطات الفترة من ١٢٤٨م قُدِّما فتكاد أن تكون مطابقة لها^(٨) .

أما التجميع الذى تم فى بدايات القرن الرابع عشر ، والمعروف باسم Gestes des Chiprois ، فيبدأ بتاريخ مقتضب للأرض المقدسة brief Chronique de Terre Sainte ، من ١١٣١م إلى ١٢٢٢م ، وهو يقوم على أساس حوليات الأرض المقدسة Annales de Terre Sainte والقسم الثانى عبثة عن تاريخ الحروب التى دارت بين آل إبلين والإمبراطورين ، وقد كتبها فيليب النوفارى Philip of Novara سنة ١٢٤٥م تقريبا ، بتعليقا من ترجمته الذاتية ، وهو إيطالى يعيش فى قبرص ويكتب بالفرنسية . وتبدو كتابات فيليب نابضة بالحياة ولها طلاوة خاصة ؛ وهو يدرج فى سرده قصائد شعرية طويلة من نظمه هو نفسه ، فيها غضاضة سارة وفطنة ، برغم خلوها من البراعة الشعرية

(٧) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحتين ٥٢٨-٩٢٩ و Cahen, La Syrie du Nord, pp. 21-5.

(٨) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، ص ٢٣١ ، الحاشية ١٢.

الكبيرة . وكان فيليب صاحب ولاء متحمس لآل إبلين ، لكنه صادق ودقيق بقدر ما يسمح له ولاؤه . والقسم الأخير من "المآثر" Gestes عبارة عن تاريخ أوتريميه من سنة ١٢٤٩م إلى سنة ١٣٠٩م ، كتبها رجل تعرفه التقاليد على أنه فارس المعبد الصوري Templar of Tyre ويتينا لم يكن من فرسان المعبد هو نفسه ، لكنه شغل فيما يبدو منصب أمين سر السيد الأعظم لنظام المعبد الديني العسكري ، وليسم (أوف بوجو) . ومن الواضح أنه قد عرف المصدر الذي يقوم على أساسه استرسالات Continuations وليسم الصوري . والأرجح أن رجلا معنا هو جيرار المونترالي قد جمع "المآثر" Gestes في سنة ١٣٢٥م تقريبا^(٩) .

ولكل واحدة من الحملات الصليبية الرئيسية مجموعة مؤرخيها . فكان يغطي الحملة الصليبية الثالثة مؤرخون مختلفون من الأنجلو-نورمان ، وأهمهم^(١٠) Benedict of Peterborough, Richard of Devizes, Ralph of Diceto and William of Newburgh. وتعتبر هذه التواريخ ، مع Libellus de Expugnacione على جانب خاص من الأهمية للفترة المبكرة من الحملة الصليبية قبل وصول ريتشارد قلب الأسد إلى الشرق . كما أنها تحتوي على نسخ من رسائل تتناول شؤون الشرق الأدنى . وفيما يتعلق بحملة الملك ريتشارد وحده ، فإن أهم المراجع هي : المرجع اللاتيني Itinerarium Regis Ricardi ، كتبه على ما يبدو أحد مواضي لندن ، ريتشارد الثالث المقدس Richard of the Holy Trinity ؛ والشعر الفرنسي القديم الذي نظمته^(١١) Ambroise, L'Estoire de la Guerre Sainte. والمرجعان مرتبطان ببعضهما البعض ارتباطا وثيقا ، وربما كان الإنسان قد اشتقا من مفكرة يومية فقدتها جندي في الجيش الإنجليزي ، وقد كرسها بحماس للملكه ، وهي صادقة بحسب ايضاحاته المنحازة^(١٢) . وترد وجهة النظر الفرنسية في

(٩) نشر المآثر Gestes ، جاستون رينود في نشرة معينة : أنظر Cahen, op. cit. pp.25-6 وانظر أيضا Hill, History of Cyprus, iii, p. 1144 .

(١٠) نشرت توارينجهم جميعا في سلسلة Rolls . أنظر ثبت المراجع أدناه ص، ٤٩٧-٤٩٨ ، والمجلد الثاني ص، ٤٩٣ و ٤٩٥ .

(١١) أنظر الجزء الثاني ، ثبت المراجع ، ص ٥٤٧ .

(١٢) كتب Gaston Paris في مقدمته لنشرة Ambroise عن اعتقاده أن الـ Itinerarium تعتمد على Ambroise. أما الآنسة Miss Norgate, The Itinerarium Peregrinorum and the Song of Ambroise. English Historical Review, vol. xxv ، فتتوهم أن Ambroise تعتمد على الـ Itinerarium . أما إدواردز Edwards في مقاله المعنون The Itinerarium Regis Ricardi and the Estoire de la Guerre Sainte المنشور في (pp. 59) Essays in Honour of James Tait - (77) ، فيجادل جدلا مقنعا بأن الإثنين يقومان على أساس مصدر مشترك ضائع . ويسير على وجهة

المقالة المختصرة التي كتبها^(١٣) Rigord, Gesta Philippi Augusti. أما التواريخ الألمانية التي تصف الحملة الصليبية لفريدريك الأول ، مثل "Ansbert, Expeditio Friderici" فتنتهي بوفاة الامبراطور^(١٤).

وأهم مصادر الحملة الصليبية الرابعة هو^(١٥) Geoffrey of Villehardouin's Conquête de Constantinople وقد كتبه سنة ١٢٠٩م تقريبا فارس قام هو نفسه بدور بارز في الحملة وكان عما لقاهر Morea وربما أقام Villehardouin قصته على أساس ملاحظات أخذها آنذاك ؛ وبغض النظر عن تحيزه الشديد إلى الغرب ، يمكن اعتباره شاهدا يعتمد عليه . ويعتبر Conquête de Constantinople الذي كتبه Robert of Clari بمثابة شاهد عيان آخر ، غير أن كاتبه كان أكثر بساطة وجهلا^(١٦).

وأهم مصادر الحملة الصليبية الخامسة بخلاف ما كتب في أوترمييه هو رسائل الكاردينال^(١٧) James of Vitry و Historia Damiatana التي كتبها Oliver of Paderborn الذي كان أمين سر الكاردينال بيلاجيوس . وبرغم ولاء أوليفر لسيدته ، فإن ما كتبه نابض بالحياة وموضوعيا بشكل معقول^(١٨).

ولم تلهم حملة فريدريك الثاني الصليبية أي كاتب متخصص ؛ غير أن لدينا حملة القديس لويس الصليبية التاريخ النفيس Histoire de Saint Louis : الذي كتبه John Sieur of Joinville الذي كان حاضرا في الحملة ؛ ولم يمنعه إعجابه بالملك من أن يكتب سردا أمينًا وحيا وشخصيا جدا^(١٩).

نظرة كل من Hubert و La Monte في مقدمة ترجمة كل منهما لـ Ambroise.

(١٣) Edited by Delaborde.

(١٤) Edited by Chroust. See Cahen, *op. cit.* p.19 n. 3.

(١٥) النشرة التي نشرها (Faral) بمقدمة فرنسية عصرية) هي الأكثر ملاءمة ، ولها مقدمة مفيدة.

(١٦) نشره Lauer. أما الترجمة الأحدث إلى الفرنسية العصرية Poèmes et Récits de la Vieille France, vol. xvi التي ترجمتها Charlot ، فهي غير كافية وخاصة فيما يتعلق بملاحظاتها.

(١٧) نشرها R. hricht في Zeitschrift für Kirchengeschichte أنظر ثبت المراجع أدناه.

(١٨) Edited, with his letters, by Hooeweg. The volumes of the *Scriptores Minores Quinti Belli Sacri*, edited by R. hricht, contain all the lesser authorities covering the fifth Crusade.

(١٩) أحسن نشرة هي نشرة de Wailly. وأهم مؤرخ آخر لحملة لويس التاسع الصليبية هو William of Nangis الذي كتب بعد الحملة ببضعة عقود.

أما سقوط عكا الأخير فقد أدى إلى حصيلة من المورخين ، ولكنهم جميعا كانوا غائبين عن عكا فيما عدا فارس معبد صور "Templar of Tyre" أما Thaddeus of Naples ، والكاتب المجهول الذى كتب de Exidio Urbis Acconis ، فانهما يبالغان بصورة واضحة فى روايتيهما لأغراض الدعاية^(٢٠).

وطوال الفترة كلها ، تعد المراسلات البابوية هى الأكثر أهمية ، إلى جانب الرسائل التى بقيت من أعضاء الأنظمة الدينية العسكرية ومن الملوك ومن وزراءهم^(٢١).

وعن الشؤون الدستورية ، هناك مرجعان أساسيان هما Philip of Novara's Livre de Jean d'Ibelin ، وهو عمل فقهي رائع كتبه كونت يافا Published in the *Recueil des Historiens des Croisades, Lois*, vol. i. Published in the *Recueil des Historiens des Croisades, Lois*, vol. i. Published in the *Recueil des Historiens des Croisades, Lois*, vol. i. أما The Assises de la Cour des Bourgeois التى جمعت بين عامي ١٢٤٠م و١٢٤٤م ، فتصف الإجراءات التجارية^(٢٢) وليست Assises d'Antioch موجودة سوى بالترجمة الأرمنية التى ترجمها حوالى عام ١٢٦٠م Sempad ، وهو أخو الملك هيثوم الأول ؛ وتغطى باقتضاب إجراءات وعادات كل من المحاكم البارونية والبورجوازية فى الإمارة^(٢٣).

وهناك أعمال هامة مختلفة كتبها مسافرون معاصرون ، وهى نافعة بصورة خاصة فى وصف العلاقات الغربية بالمغول ؛ وأتم تلك الأعمال تقارير عن بعثاتها كتبها^(٢٤)

(٢٠) See above, p. 414 n.2. The *De Excidio* is published in Martène and Durand, *Inokussuna Coccectio*, vol.v. See also Kingsford in *Transactions of Royal Historical Society*, 3rd series, vol. iii, p. 142 n.2.

(٢١) Innocent III's correspondence is published by Migne, P. L. vols. 214-16: Honorius IV's *Regesta* are edited by Pressutti, Gregory IX's *Registrs* by Auvray, Innocent IV's *Registres* by Bergen, Alexander IV's by Bourel de la Roncière, Urban IV's by Guirard, Clement IV's by Jordan, Gregory X's by Guiraud, Nicholas III's by Gay and Vitte, Honorius IV's by Pron and Nicholas IV's by Langlois, all published in the *Bibliothèque des Ecoles Francaises dà Athènes et de Rome*.

(٢٢) نشرت فى نفس الجزء

(٢٣) نشرها فى البندقية the Mekhitarist Fathers مع ترجمة فرنسية.

(٢٤) Both translated and edited by Rockhill in *Hakluyt Society Publications*, 2nd series, vol. 137

الأراضي المقدسة الذي كتبه James of Vitry والرصفين اللاحقين اللذين كتبهما Ludolf of Suchem and Felix Fabri. وما يوفر معلومات قيمة ، وصف

(٣) المراجع العربية

سبق ذكر المؤرخين العرب الذين تناولوا حروب صلاح الدين والعقود الأولى من القرن الثالث عشر ، وذلك في المرفق الأول من المجلد الثاني من هذا التاريخ . وينتهي التاريخ القيم الذي كتبه بهاء الدين بوفاء صلاح الدين ، لكن ابن الأثير ، وأبا شامة (الذي ينقل عن عماد الدين) ، وكمال الدين ، يأخذوننا إلى داخل القرن الثالث عشر^(٢٥) وللفترة المتبقية من ذلك القرن ، هناك مؤرخون عديدون معاصرون ؛ غير أن الكثير من أهم تلك التواريخ لم ينشر بعد وليس في الإمكان قراءتها إلا في مخطوطاتها. ذلك أن أعمال ابن واصل ، التي تضم حياة الصالح التي تعود حتى سنة ١٢٥٠م وتاريخ الأيوبيين حتى ١٢٦٣م ، موجودة في عدة مخطوطات ، وليس منها ما هو منشور سوى عدد قليل من المقتبسات الضئيلة التي اقتبسها Reinaud في Michaud's Bibliothèque des Croisades, vol. iv ومع ذلك ، استعان المؤرخون اللاحقون بابن واصل كما بخلوهم ، مثل ابن الفراض والمقرئزي^(٢٦) وقد فقدت تماما ، أو تكاد ، حياة بيبس التي كتبها ابن شداد الجغرافي ؛ كما أن حياة قلوون التي كتبها بيبس المنصوري مجزأة وإن استخدمها ابن الفارض^(٢٧) ويورد Reinaud في (المرجع المشار إليه)^(٢٨) مقتطفات مما كتبه ابن عبد الظاهر عن حياة بيبس وقلوون . ويرد في تاريخ ابن العميد القبطي معلومات أصلية عن الفترة حتى ١٢٦٠م^(٢٩)؛ أما التاريخ المجهول لبطارقة الإسكندرية الذي يتوقف عند نفس التاريخ تقريبا ، فيعطي معلومات جديدة

(٢٥) انظر اعلاه ، الجزء الثاني ، ص ٥٢٣.

(٢٦) انظر . Cahen, *La Syrie du Nord*, pp. 68-70.

(٢٧) انظر . *ibid.* pp. 75, 78-9.

(٢٨) *Ibid.* p. 74.

(٢٩) Edited by Cheikho in *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, vol. iii.. وأما

الترجمات التي قام بها Erpenius and Echelensius في القرن السادس عشر ، فلا تجاوز سنة ٥١٢ هجرية (١١١٨م).

مأخوذة من مصادر قبطية^(٣٠). أما ما ورد في تاريخ أبو الفدا^(٣١) فهو كله عبارة عن تجميع من مصادر أقدم إلى أن يصل بتاريخه إلى أحداث عصره، من حوالي ٢٩٠١م قُدِّمًا^(٣٢). وأما تاريخ يونيني Younini فلا يوجد إلا في مخطوطة، ويستمر حتى سنة ١٢١١م، وإن كان يضم نفس المعلومات الواردة في التاريخ المعاصر للجزري^(٣٣) Al-Jazri.

ومن بين المؤرخين المتأخرين، بخلاف ابن خلدون والموسوعي ابن خلكان^(٣٤)، فإن ابن الفراض يعد الشخصية الأعظم، وقد كتب تاريخه في نهاية القرن الرابع عشر، وهو بدرجة كبيرة تجميع من التواريخ السابقة التي فقد الكثير منها، ولكنه موضوع بإحساس حقيقي بفن التاريخ^(٣٥)، وأما معاصره المقرئ فيفتقر إلى تميزه ككاتب. وبخلاف بعض معلومات محضة عن مصر، فإن تواريخه الذي يتناول مصر الأيوبية والملوكية مشتقة بكاملها من أعمال سابقة؛ لكنها مكتملة ويعتمد عليها وسهلة المنال^(٣٦). أما تاريخ العيني المكتوب قرب منتصف القرن الخامس عشر فهو بالمثل ليس سوى تجميع منقول فيما عدا الفصول الأخيرة^(٣٧).

(٤) المصادر الأرمنية

المؤرخون الأرمنيون الذين أروخوا للمملكة الكيليكية مذكورون في المرفق الأول للمجلد الثاني من هذا التاريخ. وأكثرهم فائدة هو المؤرخ Vartan وخاصة في الشؤون

(٣٠) النص الكامل ليس منشورا. وترد مقتطفات تتناول باكورة القرن الثالث عشر على هيئة ترجمة فرنسية قام بها Blochet في (Revue de l'Orient Latin, vol. xi).

(٣١) المقتطفات منشورة في. Recueil, Historiens Orientaux, vol. iii.

(٣٢) أنظر الجزء الثاني ص ٥٣٤.

(٣٣) نشر Sauvaget بعضا من تاريخ الجزري بدءا من سنة ٦٨٩ هجرية (١٢٩٠م) بترجمة فرنسية.

(٣٤) أنظر الجزء الثاني ص ٥٣٤.

(٣٥) لم تُنشر الفصول التي تغطي القرن الثالث عشر. أنظر. Cahen, op. cit. pp. 85-6.

(٣٦) أنظر الجزء الثاني ص ٥٣٤. ترد مقتبسات كاملة من "تاريخ مصر" للمقرئ في Maqrissi's History of Egypt أوردها Blochet في Revue de l'Orient Latin, Vols. viii, ix and x cited above. وكذلك "تاريخ سلاطين المماليك" الذي ترجمه Quatremère 2 vols. cited above as Maqrissi; Sultans i and ii.

(٣٧) ترد مقتبسات في. Recueil, Historiens Orientaux, vol. ii, p. 2.

المغولية التي تتوفر لديه بشأنها معلومات شخصية مألوفة^(٣٨) ولا بد من أن يُذكر ضمن المصادر الأرمنية *Flor des Estoires de la Terre d'Orient* الذي كتبه بالفرنسية الأمير الأرمني Hayton (Hethoum of Corycus) بعد تقاعده في فرنسا في وقت مبكر من القرن الرابع عشر ؛ وبعد تاريخاً قيماً لعصره . كما كتب حوليات بالأرمنية تعتمد على مصادر أرمنية وعلى^(٣٩) *Annales de Terre Sainte*.

وأهم مؤرخي القرن الثالث عشر هو (Bar-Hebraeus ابن العبري) الذي كتب بالسريانية ، وقد مات سنة ١٢٨٦م عن ستين سنة ، وعلى الرغم من وجود الكثير من الشائعات والأساطير فيما أورده عن الفترات المبكرة ، فإنه عندما يكتب عن الأحداث التي عاصرها في حياته ، يقدم قدراً كبيراً من المعلومات القيمة لا توجد في أي مكان آخر^(٤٠). أما تاريخ رابان ساوما عن حياة الكاثوليكوس النسطوري مار ياهبهاللاها the Nestorian Catholicus Mar Yahbhallah ، وعن سيرة حياته هو نفسه ، التي كتبت بالأويغورية Ouighur وترجمها مجهول إلى السريانية بعد ذلك بسنوات قليلة ، فهي ذات لما ورد فيها عن الحياة النسطورية في ظل المغول ، والأهم من ذلك لما تحويه من قصة سفارة رابان ساوما إلى أوروبا الغربية^(٤١).

(٥) المصادر الفارسية

يعتبر تاريخ سلاجقة الروم ، الذي كتبه ابن بيبى ، وبرغم إفراطه في التفاصيل ، تاريخاً قيماً للأناضول أثناء النصف الأول من القرن الثالث عشر^(٤٢) كما أن "تاريخ العالم" الذي كتبه رشيد الدين ذو أهمية بالغة لما يحويه من تاريخ المغول . ولقد كتب

(٣٨) أنظر الجزء الثاني ، ص ٥٣٧-٥٣٨ . والنص الأرمني الكامل لهذا المؤرخ Vartan الذي نشره Emin سبق نشره في موسكو سنة ١٨٦١م.

(٣٩) نشرت *Flor* في . *Recueil, Documents Arméniens* vol. ii . وقد نشر Aucher الحوليات الأرمنية في البندقيّة سنة ١٨٤٢م . وترد مقتبسات منها في . *Recueil, Documents Arméniens*, vol. i.

(٤٠) أنظر الجزء الثاني ص ٥٣٨.

(٤١) ترجم Budge ما قام به رابان ساوما Rabban Sauma وذلك في *The Monks of Kublâi Khaân* ، وأما النص السرياني فقد نشره Bedjian.

(٤٢) نشرت ترجمة تركية ومختصرات فارسية في *Houtsma, Textes Relatifs à l'histoire des Seldjoukides*, vol. iii and iv .

مدىحا لخانات فارس وعرض فيه وجهات نظرهم^(٤٣).

(٦) المصادر الأخرى

ولا يزال التاريخ الجورجى Georgian Chronicle ذا أهمية فى تناوله للشؤون القوقازية^(٤٤). وأما التواريخ الروسية القديمة ، وخاصة إصدارات Novgorod^(٤٥) Chronicles ، فتهم بالشؤون البيزنطية ، وهى أساسية لدراسة المغول . كما توجد مصادر مغولية مختلفة مفيدة ، أهمها Yuan Ch'ao Pi Shih ، تاريخ المغول الرسمى ، أو السرى^(٤٦).

(٤٣) نشر Berezin العمل كله بترجمة روسية . ونشر Quatremère الجزء الثانى من تاريخ الخانات مع ترجمة فرنسية.

(٤٤) أنظر الجزء الثانى ص ٥٣٨.

(٤٥) أفضل إصدارات Novgorod Chronicle هى التى نشرها. (Nasonov (Moscow, 1950)

(٤٦) أنظر أعلاه ، ص ٢٨٧ ، حاشية ١.

المرفق الثانى

الحياة الفكرية فى أوتريميه^(١)

كانت الحياة الفكرية فى أوتريميه محيية للآمال، بمقارنتها بالحياة الفكرية فى صقلية أو أسبانيا . وربما كان المتوقع - كشأن الحال فى باليرمو - أن يكون التلاقى بين الفرنج والشرقيين حافزا لإثارة النشاط الفكرى ؛ غير أن الحقيقة هى أن مجتمع أوتريميه، الذي يتألف فى مجمله تقريبا من الجنود والتجار ، لم يكن مناسبا لخلق حياة فكرية عالية المستوى أو المحافظة عليها . وكان هناك الكثير من المثقفين بين الأمراء والنبلاء ؛ وعلى سبيل المثال ، يقال لنا إن الملك بلدوين الثالث والملك أمالريك الأول كرسا نفسيهما للآداب ، واشتهر رينالد أمير صيدا باهتمامه بالعلم الإسلامى ، بينما كان همفري الرابع أمير طورون ذا معرفة فائقة باللغة العربية^(٢)، وقد أنجبت أوتريميه واحدا من أعظم مؤرخى العصور الوسطى فى شخص وليم الصورى^(٣) William of Tyre غير أننا لا نعرف سوى النذر اليسير حول التعليم فى أوتريميه . ولا شك أنه كانت هناك - كما هى الحال فى الغرب - مدارس ملحقة بأهم الكندرايات ؛ وإن كان من الأمور ذات المغزى أن وليم الصورى قد ذهب فى صباه إلى فرنسا ليتلقى العلم ، فضلا عن ذلك ،

(١) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، صفحتى ٤١٠ و ٤٢١ .

(٢) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحات ٤١٠ و ٤١٢ و ٤٢٢ ، والجزء الثالث ص ٩٧ .

(٣) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحتين ٥٢٧-٥٢٨ .

فإن جميع رجال الكنيسة الذين لعبوا دورا بارزا في تاريخ أوتريميه ولدوا ونشأوا في الغرب ؛ وكان الكثير من هؤلاء الأساقفة يهتمون بالآداب ، مثل بطريق أنطاكية إيمري^(٤) ، أو بالحياة العلمية السائدة ، مثل أسقف عكا في القرن الثالث عشر ، جيمس (أوف فيتري)^(٥) ؛ وكانت شتى مشاريع الحملات الصليبية المتأخرة تشجع تنشيط الاهتمام بجغرافية الشرق^(٦) . بيد أن الثقافة الفرنجية في أوتريميه ظلت في عمومها استيرادا من الغرب ، مع القليل جدا من الإتصال بالثقافة الوطنية ، عدا الفنون . وترك الطب برمته في أيدي الوطنيين ؛ وقد كان الأمراء يستخدمون الأطباء المسيحيين السوريين على ما يبدو ؛ وعندما رفض الملك أمالريك الأول نصيحة أطبائه السوريين وأخذ بنصيحة طبيب فرنجي ، مات بسببه ؛ وما أورده المؤرخ أسامة من أمثلة على الطب الفرنجي يُظهر أنه كان بدائيا على نحو واضح^(٧) ويبدو أن الفرنج لم يحاولوا التعلم من الطب الوطني ، كما كانت عليه الحال في جنوب إيطاليا ، رغم ما يبدو من أن شخصا يدعى ستيفن الأنطاكي قد ترجم بحثا طبيا من اللغة العربية سنة ١٢٢٧م^(٨) . ولا توجد سجلات تدل على أن الفرنج بذلوا أي جهد لدراسة الفلسفة المحلية أو المعرفة العلمية ، بخلاف قلة من النبلاء .

ويندرج ما أنتجته أوتريميه الفرنجية من إنتاج أدبي تحت ثلاثة عناوين . أولا ، هناك وهذه - باستثناء التاريخ العظيم الذي كتبه وليم الصوري ، وأعمال بعض من تابعوه من أمثال إرنول Ernoul - كتبها رجال ولدوا في الغرب ، وتنتمي إلى التراث التاريخي لكتابة التواريخ^(٩) . وثانيا ، هناك حصيلة كبيرة من الأعمال القانونية ؛ إذ كان المستعمرون وذرياتهم عميقى الاهتمام بالأمور القانونية والدستورية ، وكانوا حريصين على كتابة آرائهم وما انتهوا إليه إلى حد لا يبارى في الغرب ؛ غير أن ما أعادوا صياغته

(٤) كان إيمري (أوف ليموج Aimery of Limoges) أميا أو يكاد ، لكنه دأب على مراسلة الأدباء الأوروبيين مثل هوجو أثريانوس . وترد الرسائل في Martène and Durand, *Thesaurus Anecdotorum*, vol. i. .

(٥) يُظهر الوصف الذي أورده James of Vitry للأراضي المقدسة اهتماما بالنظريات المحلية المتصلة بالزلازل . (ed. P.P.T.S. pp. 91-2) غير أنه كان شديد الاستهجان للمسلمين وللمسيحيين المحليين بحيث لم يكن له أى اتصال مباشر بهم .

(٦) أنظر . Rey, *Les Colonies Franques*, pp. 177-8 .

(٧) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحتين ٣٦٣ و ٤٤٩ .

(٨) Leclerc, *La Médecine Arabe*, ii, p. 38 .

(٩) أنظر أعلاه ، الجزء الثانى ، الصفحات ٥٢٧-٥٢٩ ؛ والجزء الثالث ، الصفحتين ٥٥٠-٥٥١ .

من قوانين كان غربيا صرفا ، وإن أدخلوا عليه بعض التعديلات الضرورية^(١٠) . وأخيرا ، كانت هناك أشعار شعبية ورومانسية ؛ إذ كان المستعمرون فى أوتريميه يحبون القصائد الحماسية الرومانتيكية فى ذلك العصر . وقد رافق الحملات الصليبية أعداد من المنشدين المتحولين وشعراء الألمان الغنائيين ، مثل روديل أو ألبرت (أوف جوهانيدورف)^(١١) . وكان ريموند أمير أنطاكية ابن الشاعر الغنائى البارز وليم التاسع الأكتاني . وكانت أحداث الحملات الصليبية المثيرة مناسبة كل التناسب لإثراء المواضيع التى يتغنى بها الشعراء ؛ فسرعان ما أصبح جودفرى اللورينى بطلا أسطوريا أدخلت مغامراته فى قصائد فارس البجعة (cycle of the Chevalier au Cygne) ؛ وكانت القصائد التى تتناول صباه ونسبه متداولة قبل أن يكتب وليم الصورى تاريخه^(١٢) . على أن هذه القصائد نظمت فى الغرب . وبالمثل ، نظمت القصيدتين الشعريتين المتصلتين بالحملة الصليبية الأولى فى الغرب بصورة شبه يقينية وهما أنشودة أنطاكية وأنشودة القدس Chanson d'Antioche and the Chanson de Jerusalem ، من واقع المعلومات التى أدلى بها الصليبيون العائدون^(١٣) . والملحمة الوحيدة التى نظمت أصلا فى أوتريميه هى أنشودة البؤساء Chanson des Chétifs وهى قصة عجيبة عن صليبيين أسرهم كيربورجا (Corboran) تختلطت فيها أحداث الحملة الصليبية الأولى والحملات الصليبية سنة ١١٠١م على نحو ويتيح الفصل بينها . وهذه الملحمة نظمها شاعر مجهول استجابة لرغبة ريموند أمير أنطاكية الصريحة ، وإن لم تتم قبل وفاة ريموند سنة ١١٤٩م^(١٤) . ويوحى الأساس التاريخى المشوش غير الدقيق لهذه القصة أن المؤلف كان قد وصل حديثا إلى

(١٠) تقوم على أساس القانون الغربى مختلف القواعد Assises والأعمال التى كتبها جون الإيلينى وفيليب النوفارى . أنظر . La Monte, Feudal Monarchy, passim

(١١) من المؤكد أن روديل Rudel زار الشرق على ما يبدو ، إذ أهدها المنشد المتحول ماركابرون Marcabrun قصيدة كرمها له بالكلمات "إلى جودفرى روديل عبر البحار" . غير أن قصة حبه مع الأميرة لواتين ، ميليسند الطرابلسية La Princesse Lointaine, Melisende of Tripoli ، لا بد وأن تعتبر شبه تراثية على الأقل أنظر . Chaytor, The Troubadours, pp. 44-6 ويقال إن بطرس فيدال Peter Vidal رافق الحملة الصليبية الثالثة حتى قبرص حيث تزوج فتاة يونانية وقجع أنها وريثة القسطنطينية . (ibid. pp. 98-9, 102) ومن بين الشعراء الألمان الغنائيين ، رافق ألبرت (أوف جوهانسدورف) Albert of Johansdorf الحملة الصليبية الثالثة ، كما فعل فريدريك (أوف هوسين Frederick of Hausen) الذى مات على أبة حال قبل وصول الجيش الألمانى الى قونية .

(١٢) أنظر . Hatem, Les Poèmes Epiques des Croisades, pp. 395-400

(١٣) أنظر . Cahen, op. cit. pp. 12-16

(١٤) Ibid. pp. 569-76; Hatem, op. cit. pp. 375 ff.

الشرق . وكان لمصير الأسرى المسيحيين لدى المسلمين سحر خيالي على الفرنج، ومن ثم نال موضوع البوساء Chétifs شعبية كبيرة في أوتريميه وكذلك في أوروبا^(١٥).

وكان لأوتريميه أعمال شعرية أخرى ، وإن لم يكن من نعرف من شعرائها قد ولد في الشرق . وكان فيليب النوفاري (Philip of Novara) سياسيا ومؤرخا وفقهيا قانونيا، وكان إيطالي المولد ، لكنه كان يكتب بالفرنسية، وقد أورد في تاريخه شعرا ينبض بالحياة وإن لم يكن شعرا رائعا^(١٦). وكتب Philip of Nateuil ، عندما كان أسيرا في القاهرة قصائد تفيض حنيناً إلى وطنه الفرنسي^(١٧). وعلى الرغم من أنه يمكن اعتبار فيليب النوفاري واحداً ممن أوجدوا الثقافة الفرنجية الإقليمية في قبرص ، فليس أدب أوتريميه ببساطة سوى فرع من الأدب الفرنسي ؛ إذ لم يكن هناك أدب محلي بين رعايا الفرنج في سوريا لأبناء البلد الأصليين من رعايا للفرنج في سوريا، على الرغم من أنه في قبرص واليونان نفسها نشأ في ظل السيادة الفرنجية أدب يوناني شبه شعبي متأثر تأثيراً قوياً بالمؤثرات الفرنجية.

وفي واقع الأمر ، لم تجاوز الحياة الفكرية في أوتريميه حياة مستعمرة فرنجية . وكان لبلاط الملك أو بلاط الأمير سحراً شاملاً خلافاً، لكن عدد الدارسين المقيمين في أوتريميه كان ضئيلاً ، وقد حالت الحروب والصعاب المالية دون وجود مؤسسات كمراكز دراسة حقيقية يمكنها أن تستوعب المعارف الوطنية المجاورة. وكان غياب هذه المراكز سبباً في أن أمسى إسهام الحملات الصليبية في أوروبا الغربية ضئيلاً على نحو مخيب للآمال

(١٥) قارن تراث إطلاق سراح برهمند من الأسر (أعلاه ، الجزء الثاني ، ص ٦٥ ، حاشية ١١ والقصص التي مفادها أن إيذا (مارجرافين النمساوية) كانت أم زنكي (أعلاه ، الجزء الثاني ، ص ٥٣) وأن أخت برتراند التولوزي تزوجت نورالدين وكانت أم ورثه الصالح. (ibid. p. 288 n.1)

(١٦) أنظر أعلاه ، الصفحتين ٢٤٢ و ٥٥٥ و Hill, *History of Cyprus*, iii, pp. 1112-15 وعلى ما يبدو، فإن وليم (أوف ماشوت) William of Machaut مؤلف الشعر الحماسي لحملة بطرس القبرصي على مصر ، لم يقيم بزيارة الشرق مطلقاً. (ibid. 1115)

(١٧) أنظر أعلاه ، ص ٢٦٦.

BIBLIOGRAPHY

(NOTE. This bibliography is supplementary to the bibliographies in vol. I and vol. II of this *History*, and does not include works mentioned there, except when different editions have been used. The same abbreviations are employed; and a few additional abbreviations, used in the footnotes and bibliography of this volume, are given at the end of certain items.)

I. ORIGINAL SOURCES

I. COLLECTIONS OF SOURCES

- Acta Imperii Selecta* (ed. J. F. Bohmer). Innsbruck, 1870.
- Annales Monastici* (ed. H. R. Luard), Rolls Series, 5 vols. London, 1864-9.
- BALUZIUS, S. *Collectio Veterum Monumentorum*, 6 vols. Paris, 1678-1715.
- BALUZIUS, S. *Vitae Paparum Avenionensium* (ed. Mollat), 4 vols. Paris, 1914-27.
- BARTHOLOMAEIS, V. DE. *Poesie Provenziale Storiche relative all' Italia*. 2 vols. Istituto Storico Italiano, Rome, 1931.
- BONGARS, J. *Gesta Dei per Francos*, 2 vols. Hanover, 1611.
- Chronicles: Stephen, Henry II and Richard I* (ed. Howlett), Rolls Series, 4 vols. London, 1885-90.
- CHROUST, A. *Quellen zur Geschichte des Kreuzzuges Kaiser Friedrichs I, M.G.H.Ss.*, new series. Berlin, 1928.
- COBHAM, C. D. *Excerpta Cypria*. Cambridge, 1908.
- COTELERIUS, J. B. *Ecclesiae Graecae Monumenta*, 4 vols. Paris, 1677-92.
- DELAVILLE LE ROULX, G. *Cartulaire générale de l'Ordre des Hospitaliers de St Jean de Jérusalem*, 4 vols. Paris, 1894-1904.
- DU CHESNE, A. *Historiae Francorum Scriptores*, 5 vols. Paris, 1636-49.
- GOLUBOVICH, G. *Biblioteca Bio-bibliografica della Terra Santa e dell' Oriente Francese*, 5 vols. Florence, 1906-27.
- HEISENBERG, A. *Neue Quellen zur Geschichte des lateinischen Kaisertums*. Munich, 1923.
- Historia Diplomatica Friderici Secundi* (ed. J. L. A. Huillard-Bréholles), 6 vols. Paris, 1852-61.
- KOHLER, C. *Mélanges pour servir à l'Histoire de l'Orient Latin et des Croisades*. Paris, 1906.
- MARTÈNE, E. and DURAND, U. *Thesaurus Novus Anecdotorum*, 5 vols. Paris, 1717.
- MARTÈNE, E. and DURAND, U. *Veterum Scriptorum et Monumentorum Amplissima Collectio*, 9 vols. Paris, 1727-33.

- MAS LATRIE, L. DE. *Documents*, see Bibliography II.
- MAS LATRIE, L. DE. *Nouvelles Preuves de l'Histoire de Chypre*, in *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*, vols. XXXII, XXXIV and XXXV. Paris, 1871-4.
- POTTHAST, A. *Regesta Pontificum Romanorum*, 2 vols. Berlin, 1874-5.
- RAYNALDUS, O. *Annales Ecclesiastici*, 15 vols. Lucca, 1747-56.
- Regesta Honorii Papae III* (ed. P. Pressutti), 2 vols. Rome, 1888-95.
- Regestum Innocentii Papae super Negotio Romani Imperii* (ed. F. Kempf), *Miscellanea Historiae Pontificiae*, vol. XII. Rome, 1947.
- Registres des Papes*, Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Paris:
- Alexander IV (ed. Bourel de la Roncière), 2 vols. 1902, 1917.
- Gregory IX (ed. Auvray), 2 vols. 1896, 1907.
- Gregory X (ed. Guiraud), 2 vols. 1892, 1906.
- Innocent IV (ed. Berger), 4 vols. 1884-1921.
- Nicholas III (ed. Gay and Vitte), 2 vols. 1898, 1938.
- Nicholas IV (ed. Langlois), 2 vols. 1886, 1905.
- Urban IV (ed. Guiraud), 4 vols. 1892-1929.
- RIANT, P. *Exuviae Sacrae Constantinopolitanae*, 2 vols. Geneva, 1877-8.
- RÖHRICHT, R. *Scriptores Minores Quinti Belli Sacri*, Société de l'Orient Latin. Série Historique, II. Geneva, 1879. (Röhricht, S.M.Q.B.S.).
- RÖHRICHT, R. *Testimonia Minora de Quinto Bello Sacro*, *ibid.* III. Geneva, 1882.
- RYMER, T. *Foedera, Conventiones, Literae et Acta publica inter Reges Angliae*, 4 vols. in 7. London, 1816-69.
- SCHWANDTNER, J. G. *Scriptores Rerum Hungaricarum*, 3 vols. Vienna, 1746-8.
- STREHLKE, E. *Tabulae Ordinis Teutonici*. Berlin, 1869.
- TAFEL, G. L. and THOMAS, G. M. *Urkunden zur älteren Handels- und Staatsgeschichte der Republik Venedig*, 3 vols. Vienna, 1856-7.
- THEINER, A. *Vetera Monumenta Historica Hungariam Sacram Illustrantia*, 2 vols. Rome, 1859-60.
- WATTERICH, J. M. *Pontificum Romanorum qui fuerunt inde ab exeunte saeculo IX usque ad finem saeculi XII Vitae*, 2 vols. Leipsic, 1862.
- WINKELMANN, E. *Acta Imperii Inedita Saeculi XIII*, 2 vols. Innsbruck, 1880-5.

2. WESTERN SOURCES, LATIN, OLD FRENCH AND GERMAN

- Adam, William. *De Modo Saracenos Extirpandi* (ed. Kohler), *R.H.C. Arm.* vol. II.
- Alberic of Trois Fontaines. *Chronicon*, in *R.H.F.* vol. XVIII.
- Amadi, Francesco. *Chroniques d'Amadi et de Strambaldi*, ed. Mas Latrie. Paris, 1891.
- Annales Claustro-neoburgenses*, in *M.G.H.Ss.* vol. IX.
- Annales de Dunstaplia*, in *Annales Monastici*, vol. III.

- Annales Januenses*, in *M.G.H.Ss.* vol. xviii.
Annales Marbacenses, in *M.G.H.Ss.* vol. xvii.
Annales Romani, in Watterich, *Pontificum Romanorum Vitae*.
Annales Stadenses, in *M.G.H.Ss.* vol. xvi.
Anonymus Halberstadensis. *De Peregrinatione in Greciam*, in Riant, *Exuviae*, vol. I.
Ansbert. *Expositio Friderici Imperatoris*, in Chroust, *Quellen*.
Assises of Romania (ed. Recoura). Paris, 1930.
Auria, Jacobus. *Annales*, in *M.G.H.Ss.* vol. xviii.
Bacon, Roger. *Opus Majus* (ed. Bridges), 3 vols. Oxford, 1900.
Baldwin I, Emperor of Constantinople, letter, in *R.H.F.* vol. xviii.
Bartholomew of Neocastro. *Historia Sicula*, in Muratori, *Rerum Italicarum Scriptores*, new edition, vol. xiii, 3.
Bonomel, Ricaud. Poems, in Bartholomaeis, *Poesie Provenziale*.
Bruno, Bishop of Olmütz, *Bericht* (ed. Höfler), *Abhandlungen der historische Klasse der Bayerische Akademie der Wissenschaft*, series 3, iv, Munich, 1846.
Burcard (Brochard). *Directorium ad Philippum Regem*, in *R.H.C. Arm.* vol. II.
Bustron, Florio, *Chronique de l'Île de Chypre*, ed. Mas Latrie. Paris, 1886.
Chronica Regia Coloniensis (ed. Waitz), *M.G.H.Ss. in usum scholarum*, 1880.
Chronicle of Mailros (ed. Stevenson). London, 1856.
Collectio de Scandalis Ecclesiae (ed. Stroick), in *Archivum Franciscanum Historicum*, vol. xxiv, Rome, 1931.
Cotton, Bartholomew, *Historia Anglicana* (ed. Luard), *Rolls Series*. London, 1859.
Dardel, John. *Chronique d'Arménie*, in *R.H.C. Arm.* vol. II.
De Excidio Urbis Aconis, in Martène and Durand, *Amplissima Collectio*, vol. v.
De Itinere Frisonum, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Devastatio Constantinopolitana, in *Annales Herpipolenses*, *M.G.H.Ss.*, vol. xvi.
Dubois, Peter. *De Recuperatione Terre Sancte* (ed. Langlois). Paris, 1891.
Durand, William. *Informatio brevis de Passagio futuro* (ed. Viollet), *Histoire Littéraire de la France*, vol. xxxv. Paris, 1921.
Edward I, King of England. Letter to Joseph of Chauncy, in *P.P.T.S.* vol. v.
Epistola de Morte Friderici Imperatoris, in Chroust, *Quellen*.
Epistolae Cantuarenses (ed. Stubbs), *Rolls Series*. London, 1865.
Fabri, Felix. *Book of the Wanderings*, trans. Stewart, 3 vols. *P.P.T.S.* vols. vii-ix.
Fidenzio of Padua. *Liber Recuperationis Terrae Sanctae*, in Golubovich, *Biblioteca Bio-bibliografica*, vol. II.
Figuera, Guillem. 'Dun Servientes Far', in Bartholomaeis, *Poesie Provenziale*.
Fragmentum de Captione Damiate, *Provincialis textus*, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
Frederick II, Emperor. Letter to King Henry, in Bohmer, *Acta Imperii Selecta*.
Galvano. *Liber Sancti Passagii Christocolarum contra Saracenos*, extracts (ed. Kohler), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. vi. Paris, 1898.
Gesta Crucigerorum Rhenanorum, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*

- Gesta Innocentii III*, in *M.P.L.* vol. ccxiv.
- Gesta Obsidionis Damiete*, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
- Gestes des Chiprois* (ed. Raynaud). Geneva, 1887.
- Gregory IX, Pope. Letters, in *M.G.H. Epistolae Saeculi*, xiii, vol. I.
- Gunther of Pairis. *Historia Constantinopolitana*, in Riant, *Exuviae*, vol. I.
- Guyot of Provins, *Œuvres* (ed. Orr). Manchester, 1915.
- Haymar Monachus. *De Expugnata Accone* (ed. Riant). Lyons, 1876.
- Hayton (Hethoum). *Flos Historiarum Terre Orientis*, in *R.H.C. Arm.* vol. II.
- Hayton (Hethoum). *La Flor des Estoires de la Terre d'Orient*, *ibid.*
- Henry II, King of Cyprus. *Informatio ex parte Nunciorum Regis Cypri*, in Mas Latrie, *Documents*.
- Historia Peregrinorum*, in Chroust, *Quellen*.
- Humbert of Romans. *Opus Tripartitum*, in E. Brown, *Appendix ad fasciculum rerum expetendarum et fugiendarum*. London, 1690.
- Innocent III, Pope. *Epistolae*, in *M.P.L.* vols. ccxiv-ccxvii.
- John of Ypres. *Chronicon Sythiense Sancti Bertini*, in Martène and Durand, *Thesaurus Anecdotorum*, vol. III.
- John of Tulbia. *De Domino Johanne Rege Jerusalem*, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
- Joinville, John, Sieur of. *Histoire de Saint Louis* (ed. Wailly). Paris, 1874.
- Joseph of Chauncy. Letter to Edward I, in *P.P.T.S.* vol. V.
- La Broquière, Bertrandon of. *Voyage d'Outremer* (ed. Schefer). Paris, 1892.
- Lettre des Chrétiens de Terre Sainte à Charles d'Anjou (ed. Delaborde), in *Revue de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1894.
- Liber Duellii Christiani in Obsidione Damiate exacti*, in Röhricht, *S.M.Q.B.S.*
- Louis IX, King of France. Letter in Baluzius, *Collectio*, vol. IV.
- Ludolph of Suchem (Sudheim). *Description of the Holy Land* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XII.
- Lull, Ramon. *Liber de Fine*, in Gottron, *Ramon Lulls Kreuzzugsideen*, see Bibliography II.
- Machaut, William. *La Prise d'Alexandrie* (ed. Mas Latrie). Geneva, 1877.
- Manuscrit de Rothelin*, in *R.H.C. Occ.* vol. II.
- Matthew Paris. *Chronica Majora* (ed. Luard), Rolls Society, 7 vols. London, 1872-84.
- Matthew Paris. *Historia Minora* (ed. Madden), Rolls Society, 3 vols. London, 1866-9.
- Matthew of Westminster. *Flores Historiarum* (ed. Luard), Rolls Society, 3 vols. London, 1890.
- Memoria Terre Sancte*, in Kohler, *Mélanges*, vol. II.
- Molay, James of. Report to Clement V, in Baluzius, *Vitae Paparum*, vol. III.
- Muntaner, Ramon. *Cronica* (ed. Caroleu). Barcelona, 1886.
- Narratio Itineris Navalis ad Terram Sanctam* (ed. da Silva Lopez). Lisbon, 1844.

- Oliver Scholasticus. *Opera*, I. *Historia Damiatana*; II. *Epistolae* (ed. Hooewg), *Bibliothek des Litterarischen Vereins in Stuttgart*, vol. CCII. Tübingen, 1894.
- Otto of Saint Blaise. *Chronica* (ed. Hofmeister), *M.G.H.Ss. in usum Scholarum*, 1912.
- Philip of Novara. *Le Livre de Forme de Plait*, in *R.H.C. Lois*, vol. I.
- Philip of Novara. *Mémoires*, in *Gestes des Chiprois* (English translation by La Monte and Hubert, *The Wars of Frederick II against the Ibelins in Syria and Cyprus*. New York, 1936).
- Pian del Carpine, John. *Historia Mongolorum* (ed. Pulle). Florence, 1913.
- Richard of Devizes. *De Rebus Gestis Ricardi Primi*, in *Chronicles* (ed. Howlett), vol. III.
- Richard of San Germano, *Chronicon* (ed. Pertz), *M.G.H.Ss.* vol. XIX.
- Rigord. *Gesta Philippi Augusti* (ed. Delaborde). Paris, 1882.
- Robert de Monte (appendix), in *R.H.F.* vol. XVIII.
- Robert of Clary. *La Conquête de Constantinople* (ed. Lauer). Paris, 1924.
- Roger of Wendover. *Chronica* (ed. Hewlett), *Rolls Series*, 3 vols. London, 1886-9.
- Rutebeuf. *Onze Poèmes concernant la Croisade* (ed. Bastin and Faral). Paris, 1946.
- Salimbene de Adam. *Cronica* (ed. Holder-Egger), in *M.G.H.Ss.* vol. XXXII.
- Sanudo, Marino. *Chronique de Romanie*, in *Mas Latrie, Nouvelles Preuves*.
- Sanudo, Marino. *Liber Secretorum Fidelium Crucis*, in *Bongars, Gesta Dei per Francos*, vol. II.
- Sequentia Andegavensis*, in *Riant, Exuviae*, vol. II.
- Sicard of Cremona. *Cronica* (ed. Holder-Egger), *M.G.H.Ss.* vol. XXXI.
- 'Templar of Tyre.' *Chronique*, in *Gestes des Chiprois*.
- Thaddeus of Naples. *Hystoria de Desolacione et Conculcacione Civitatis Acconensis et tocius terre sancte* (ed. Riant). Geneva, 1873.
- Thomas of Spalato. *Historia Salonitana*, in *Schwandtner, Scriptores Rerum Hungaricarum*, vol. III.
- Thwroc, Joannes de. *Illustrissima Hungariae Regum Chronica*, in *Schwandtner, Scriptores Rerum Hungaricarum*, vol. I.
- Via ad Terram Sanctam*, in *Kohler, Mélanges*, vol. II.
- Villaret, Fulk. *Mémoire* (ed. Petit), *Bibliothèque de l'Ecole des Chartes*. Paris, 1889.
- Villehardouin, Geoffrey of. *La Conquête de Constantinople* (ed. Faral), 2 vols. Paris, 1938-9.
- Vincent of Beauvais. *Speculum Historiale*. Douai, 1624.
- Vitry, James of. *Epistolae* (ed. Röhricht), *Zeitschrift für Kirchengeschichte*, vols. XIV-XVI. Gotha, 1894-6.
- Vitry, James of. *History of Jerusalem* (trans. Stewart), *P.P.T.S.* vol. XI.
- Wilbrand of Oldenburg. *Reise* (ed. Laurent). Hamburg, 1859.
- William le Breton. *Gesta Philippi Regis and Philippis* (ed. Delaborde), 2 vols. Paris, 1882, 1885.

- William of Newburgh. *Historia Rerum Anglicarum*, in *Chronicles* (ed. Howlett), vol. II.
- William of Rubruck (Rubruquis). *Itinerarium* (trans. Rockhill), Hakluyt Society, series II, vol. IV. London, 1900.
- William of St Pathus. *Vie de Saint Louis* (ed. Delaborde). Paris, 1899.
- William of Tripoli. *Tractatus de Statu Saracenorum*, in Prutz, *Kulturgeschichte der Kreuzzüge* (see Bibliography II).
- Zaccaria, Benito. *Mémoire*, in Mas Latrie, *Documents*.

3. GREEK SOURCES

- Acropolita, George. *Opera* (ed. Heisenberg). Leipsic, 1903.
- Bustron, George. Χρονικὸν Κύπρου, in Sathas, *Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη*, vol. II.
- Germanus, Patriarch of Constantinople. Ἐπιστολαί, in Sathas, *Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη*, vol. II.
- Letter of Greek clergy to Innocent III, in Cotelierus, *Ecclesiae Graecae Monumenta*, vol. III.
- Makhaeras, Leontius. *Recital concerning the Sweet Land of Cyprus, entitled Chronicle* (ed. with translation Dawkins), 2 vols. Oxford, 1932.
- Mesarites, Nicholas. *Opera*, in Heisenberg, *Neue Quellen*.
- 'Narrative of the thirteen holy fathers burnt by the Latins', in Sathas, *Μεσαιωνικὴ Βιβλιοθήκη*, vol. II.
- Pachymer, George. *De Michaelē et Andronico Palaeologis*, 2 vols. C.S.H.B. Bonn, 1835.

4. ARABIC AND PERSIAN SOURCES

- Al-Aini. *Perles d'Histoire*, extracts in R.H.C.Or. vol. II, 2.
- Dimashki. *Geography* (ed. Mehren). St Petersburg, 1866.
- Histoire des Patriarches d'Alexandrie*, extracts (trans. Blochet), *Revue de l'Orient Latin*, vol. XI. Paris, 1908.
- Ibn al-Amid. *Chronicle* (ed. Cheikho), *Corpus Scriptorum Christianorum Orientalium*, vol. III, I.
- Ibn Batuta. *Voyages* (ed. with French translation Defremery and Sanguinetti), 4 vols. Paris, 1879.
- Ibn Bibi. *History of the Seldjuks*, Turkish translation (ed. Houtsma), *Textes relatifs à l'histoire des Seldjouqides*, vols. III, IV. Paris, 1902.
- Ibn al-Furad. *Chronicle* (part ed. Zouraiq). Beirut, 1935-7.
- Ibn Khattikan, Ibn Shedad. *Geography*, extracts (ed. by Cahen), in *Revue des Etudes Islamiques*. Paris, 1936.
- Ibn Wasil. *History of the Ayubites*, selections in Reinaud, *Extraits*, in Michaud, *Bibliothèque*.
- Idrisi. *Geography*, ed. Gildemeister, *Zeitschrift für Deutsche Palästina Verein*, vol. VIII. Leipsic, 1885.

- Al-Jazari. *Chronique de Damas* (trans. Sauvaget). Paris, 1949.
- Juwa'ini, Sa'd ad-Din Ibn Hamawiya, extracts (trans. Cahen), 'Une Source pour l'Histoire des Croisades', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 28e année, no. 7, 1950.
- Maqrisi. *Histoire des Sultans Mamelouks* (trans. Quatremère), 2 vols. Paris, 1837-45.
- Muhi ad-Din Ibn Abdazzahir. *Lives of Baibars and Qalawun*, selections in Reynaud, *Extraits*, in Michaud, *Bibliothèque*.
- Rashid ad-Din. *History of the Mongols* (Russian trans. by Berezin), 4 vols. St Petersburg, 1861-88; Part IV, *History of the Mongols of Persia* (ed. with French translation Quatremère). Paris, 1836.
- Yakut. *Alphabetical Dictionary of Geography* (ed. Wustenfeld), 6 vols. Leipsic, 1866-73.

5. ARMENIAN, SYRIAC, SLAVONIC AND MONGOL SOURCES

- Ballad on the captivity of Leo, son of King Hethoum I, in *R.H.C.Arm.* vol. I.
- Hayton (Hethoum of Corycus). *Chronological Tables*, in *R.H.C.Arm.* vol. I.
- Hethoum II, King of Armenia, *Poem*, in *R.H.C.Arm.* vol. I.
- Kirakos of Gantzag. *History* (trans. Brosset). St Petersburg, 1870.
- Orbelian, Stephen. *History of Siunia*, Armenian text. Moscow, 1861.
- Vartan. *History of the World*, Armenian text. Moscow, 1861.
- Rabban Sauma. *History of Rabban Sawma and Mar Yahbhallaha* (trans. Budge), in Budge, *The Monks of Khublai Khan*, see Bibliography II.
- Novgorod Chronicle* (*Novgorodskaya Pervaya Lietopis*, ed. Nasonov), Academy of Sciences of the U.S.S.R. Moscow/Leningrad, 1950.
- Histoire Secrète des Mongols* (*Yuan Ch'ao Pi Shih*), Mongol text transcribed in Latin letters, with partial French translation and ed. Pelliot. Paris, 1949.

II. MODERN WORKS

- ALPHANDERY, P. 'Les Croisades d'Enfants', in *Revue de l'Histoire des Religions*, vol. LXXIII. Paris, 1916.
- AMARI, M. *La Guerra del Vespro Siciliano*, 3 vols. Milan, 1886.
- ATTYA, A. S. *The Crusade in the Later Middle Ages*. London, 1938.
- ATTYA, A. S. *The Crusade of Nicopolis*. London, 1934.
- BALTRUŠAITIS, J. *Le Problème de l'Ogive et l'Arménie*. Paris, 1936.
- BARTHOLD, W. Articles, 'Cingis Khan' and 'Khwarezm', in *Encyclopaedia of Islam*.
- BOASE, T. S. R. 'The Arts in the Latin Kingdom of Jerusalem', in *Journal of the Warburg Institute*, vol. II. London, 1938-9.
- BOUVAT, L. *L'Empire Mongol, 2me Phase*, vol. VIII, 3, pt. II of Cavaignac, *Histoire du Monde*. Paris, 1927.

- BRATIANU, G. I. *Recherches sur le Commerce Génois dans la Mer Noire au XIIIe Siècle*. Paris, 1929.
- BRETSCHNEIDER, E. *Mediaeval Researches from Eastern Asiatic Sources*, 2 vols. London, 1888.
- BUCHTHAL, H. 'The Painting of Syrian Jacobites in its relation to Byzantine and Islamic Art', in *Syria*, vol. xx. Beyrouth, 1929.
- BUDGE, E. A. W. *The Monks of Kúblâi Khân, Emperor of China*. London, 1928.
- CAHEN, C. 'Notes sur l'Histoire des Croisades et de l'Orient Latin, III, Orient Latin et Commerce du Levant', in *Bulletin de la Faculté des Lettres de Strasbourg*, 9e année, no. 8, 1951.
- CAHEN, C. 'Turcomans de Roum', in *Byzantion*, vol. xiv. Brussels, 1939.
- CARTELLIERI, A. *Philipp II August und der Zusammenbruch des angevinischen Reiches*. Leipsic, 1913.
- CHABOT, J. B. 'Relations du Roi Argoun avec l'Occident', in *Revue de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1894.
- CHAYTOR, H. J. *The Troubadours*. Cambridge, 1912.
- CLAPHAM, A. W. *Romanesque Architecture in Western Europe*. Oxford, 1936.
- COGNASSO, F. *Un Imperatore Bizantino della Decadenza*, in *Bessarione*, vol. xxxi, Rome, 1915.
- DALTON, O. M. *Byzantine Art and Archaeology*. Oxford, 1911.
- DALTON, O. M. *East Christian Art*. Oxford, 1925.
- DELAVILLE LA ROULX, J. *La France en Orient au XIVe Siècle*, Bibliothèque des Ecoles Françaises d'Athènes et de Rome. Paris, 1886.
- DER NERSESSIAN, S. *Armenia and the Byzantine Empire*. Cambridge, Mass., 1945.
- DESCHAMPS, P. *La Défense du Royaume de Jérusalem*, 2 vols. Paris, 1939.
- DESCHAMPS, P. *Le Crac des Chevaliers*, 2 vols. Paris, 1934.
- DIEHL, C. *Une République Patricienne, Venise*. Paris, 1915.
- D'OHSSON, M. *Histoire des Mongols depuis Tchinguiz Khan jusqu'à Timur Béc*. 2 vols. Amsterdam, 1834-5.
- DONOVAN, J. P. *Pelagius and the Fifth Crusade*. Philadelphia, 1950.
- DUCKWORTH, H. T. F. *The Church of the Holy Sepulchre*. London, 1922.
- EBERSOLT, J. *Monuments d'Architecture Byzantine*. Paris, 1934.
- EDWARDS, J. G. 'The *Itinerarium Regis Ricardi* and the *Estoire de la Guerre Sainte*', in *Essays in honour of James Tait*. Manchester, 1933.
- ENLART, C. *Les Monuments des Croisés dans le Royaume de Jérusalem*, 4 vols. Paris, 1925.
- FEDDEN, R. *Crusader Castles*. London, 1950.
- FLICHE, A. *La Chrétienté Romaine*, vol. x of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1950.
- FOREVILLE, R. and ROUSSET DE PINA, J. *Du Premier Concile du Latran à l'Avènement d'Innocent III*, vol. ix, 2, of Fliche and Martin, *Histoire de l'Eglise*. Paris, 1952.

- GIBBONS, H. A. *The Foundation of the Ottoman Empire*. Oxford, 1916.
- GOTTRON, A. 'Ramon Lulls Kreuzzugsideen', in *Abhandlungen zur Mittleren und Neueren Geschichte*, vol. XXXIX. Berlin/Leipsic, 1912.
- GREGOIRE, H. 'The Question of the Diversion of the Fourth Crusade', in *Byzantion*, vol. XV. Boston, 1941.
- GREKOV, B. and IAKOUBOVSKI, A. *La Horde d'Or* (trans. into French by Thuret). Paris, 1939.
- GREVEN, J. 'Frankreich und der Fünfte Kreuzzug', in *Historisches Jahrbuch*, vol. XLII. Munich, 1923.
- GROUSSET, R. *L'Empire des Steppes*. Paris, 1941.
- GROUSSET, R. *L'Empire Mongol, Ière Phase*, vol. VIII, 3, of Cavaignac, *Histoire du Monde*. Paris, 1941.
- HAENISCH, E. 'Die letzten Feldzüge Cingis Hans und sein Tod', in *Asia Major*, vol. IX. Leipsic, 1932.
- HALECKI, O. *The Crusade of Varna*. New York, 1943.
- HAMMER-PURGSTALL, J. VON. *Histoire de l'Empire Ottoman* (trans. into French by Hellert), 18 vols. Paris, 1843.
- HILL, G. *History of Cyprus*, vols. II and III. Cambridge, 1948.
- HOPF, K. *Geschichte Griechenlands vom Beginne des Mittelalters bis auf die neuere Zeit*. Leipsic, 1867.
- HOWORTH, H. H. *History of the Mongols*, 5 vols. London, 1876-88.
- IORGA, N. *Philippe de Mézières et la Croisade au XIVe Siècle*. Paris, 1896.
- JORDAN, E. *Les Origines de la Domination Angevine en Italie*. Paris, 1909.
- KANTOROWICZ, E. *Frederick the Second*. London, 1931.
- KARAMZIN, N. M. *History of the Russian Empire* (in Russian), 3 vols. St Petersburg, 1851.
- KINGSFORD, C. L. 'Otho de Grandison', in *Transactions of the Royal Historical Society*, 3rd series, vol. III. London, 1909.
- PRÜLÜ, M. F. *Les Origines de l'Empire Ottoman*. Paris, 1935.
- LA MONTE, J. L. 'John d'Ibelin', in *Byzantion*, vol. XII. Brussels, 1937.
- LANGLOIS, C. V. *La Vie en France au Moyen Age*, 3 vols. Paris, 1927.
- LECLERC, L. *La Médecine Arabe*. Paris, 1876.
- LEVIS-MIREPOIX, DUC DE. *Philippe le Bel*. Paris, 1936.
- LEVY, R. *A Baghdad Chronicle*. Cambridge, 1929.
- LIZERAND, G. *Le Dossier de l'Affaire des Templiers*. Paris, 1928.
- LONGNON, J. *L'Empire Latin de Constantinople*. Paris, 1949.
- LONGNON, J. *Les Français d'Outre-mer au Moyen Age*. Paris, 1929.
- LUCHAIRE, A. *Innocent III: La Question d'Orient*. Paris, 1911.
- MAKHOULY, N. *Guide to Acre*. Jerusalem, 1941.
- MARTIN, E. J. *The Trial of the Templars*. London, 1928.
- MARTIN, H. D. *The Rise of Chingis Khan and his Conquest of North China*. Baltimore, 1950.

- MAS LATRIE, L. *Histoire de l'Île de Chypre sous le Règne de la Maison de Lusignan*, vol. I, *Histoire*; vols. II and III, *Documents*. Paris, 1852-61.
- MELVIN, M. *La Vie des Templiers*. Paris, 1951.
- MUNRO, D. C. 'The Children's Crusade', in *American Historical Review*, vol. XIX. New York, 1914.
- NORGATE, K. *Richard the Lion Heart*. London, 1924.
- NORGATE, K. 'The *Itinerarium Peregrinorum* and the Song of Ambrose', in *English Historical Review*, vol. XXV. London, 1910.
- OMONT, H. 'Peintures d'un Evangélaire Syriaque', in *Monuments et Mémoires publiés par l'Académie des Inscriptions et Belles-Lettres*, vol. XIX. Paris, 1911.
- PELLIOT, P. 'Chrétiens d'Asie Centrale et de l'Extrême Orient', in *T'oung Pao*, vol. XI. Leiden, 1914.
- PELLIOT, P. 'Les Mongols et la Papauté', in *Revue de l'Orient Chrétien*, vols. XXXII, XXXIV, XXXVIII. Paris, 1922-32.
- PIQUET, J. *Les Banquiers du Moyen Age: Les Templiers*. Paris, 1939.
- POWICKE, F. M. *King Henry III and the Lord Edward*, 2 vols. Oxford, 1947.
- PRAWER, J. 'Etude de Quelques Problèmes Agraires et Sociaux d'une Seigneurie Croisée au XIIIe Siècle', in *Byzantion*, vol. XXXII. Brussels, 1952.
- PRAWER, J. 'L'Etablissement des Coutumes du Marché à Saint-Jean d'Acre', in *Revue Historique de Droit Français et Etranger*. Paris, 1951.
- PRUTZ, H. G. *Kaiser Friedrich I*, 3 vols. Danzig, 1871-4.
- PRUTZ, H. G. *Kulturgeschichte der Kreuzzüge*. Berlin, 1883.
- REY, E. G. *Les Monuments de l'Architecture Militaire des Croisés en Syrie et dans l'Île de Chypre*. Paris, 1871.
- RÖHRICHT, R. 'Der Kinderkreuzzug 1212', in *Historische Zeitschrift*, vol. XXXVI. Munich, 1876.
- RÖHRICHT, R. *Etudes sur les Derniers Temps du Royaume de Jérusalem*, *Archives de l'Orient Latin*, vol. II. Paris, 1884.
- RÖHRICHT, R. *Studien zur Geschichte des Fünften Kreuzzuges*. Innsbruck, 1891.
- SACERDOTEANU, A. *Marea Invaziei Tatare și Sud-estul European*. Bucarest, 1933.
- SCHLUMBERGER, G. *Byzance et Croisades: Pages Médiévales*. Paris, 1927.
- SMALL, R. C. 'Crusaders' Castles in the Twelfth Century', in *Cambridge Historical Journal*, vol. X, 2. Cambridge, 1951.
- SOBERNHEIM, M. Article 'Baibars', in *Encyclopaedia of Islam*.
- STERNFELD, R. *Ludwigs des Heiligen Kreuzzug nach Tunis 1270*. Berlin, 1896.
- STRAKOSCH-GROSSMANN, G. *Der Einfall der Mongolen in Mitteleuropa in den Jahren 1241 und 1242*. Innsbruck, 1893.
- THEROP, P. A. 'Criticism of Papal Crusade Policy in Old French and Provençal', in *Speculum*, vol. XIII. Cambridge, Mass., 1938.
- THEROP, P. A. *Criticism of the Crusades*. Amsterdam, 1940.
- VAN ORTROY, F. 'Saint François et son Voyage en Orient', in *Analecta Bollandiana*, vol. XXXI. Brussels, 1912.

- VASILIEV, A. A. *History of the Byzantine Empire*, new edition. Madison, 1952.
- VASILIEV, A. A. 'The Foundation of the Empire of Trebizond', in *Speculum*, vol. XL. Cambridge, Mass., 1936.
- VERNADSKY, G. *Kievan Russia*, vol. II of Vernadsky and Karpovitch, *History of Russia*. Newhaven, 1948.
- WINKELMANN, E. *Kaiser Friedrich II*, 2 vols. Leipsic, 1889-97.
- WINKELMANN, E. *Philipp von Schwaben und Otto IV von Braunschweig*, 2 vols. Leipsic, 1873-8.
- WITTEK, P. *The Rise of the Ottoman Empire*. London, 1838.
- YULE, H. *Cathay and the Way Thither*, 2 vols. Hakluyt Society, no. 37. London, 1866-7.